معجم الإسلام التاريخي

تأليف

البحّاثَيْن ج. و د. سورديل

ترجمة

الدكتور أ. الحكيّم

بمشاركة نخبة من الأساتذة الجامعيين

مراجعة الدكاترة

ف. الكِك إ. بيضون هـ. الأيّوبي

معجم الإسلام التاريخيّ

معجم الإسلام التاريخيّ

تاليف

البحّاثَيْن ج. و د. سورديل

ترجمة

الدكتور أ. الحكيّم

بمشاركة نخبة من الأساتذة الجامعيّين

مراجعة

الدكاترة: هـ. الأيّوبي إ. بيضون ف. الكِك

الدار اللبنانيّة للنشر الجامعي

"Cet ouvrage, publié dans le cadre du *programme d'aide à la publication Georges SCHEHADE*, bénéficie du soutien du ministère des Affaires étrangères et européennes et du Service de coopération et d'action culturelle de l'ambassade de France au Liban".

يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجيّة والشؤون الأوروبيّة الفرنسيّة ومن السفارة الفرنسيّة في لبنان،
قسم التعاون والعمل الثقافي، وذلك في إطار برنامج جورج شحادة للمساعدة على النشر.

Dictonnaire Historique de l'Islam

Janine et Dominique SOURDEL

Presses Universitaires dc France, 1996

شارك في ترجمة هذا المعجم، بنسبٍ مختلفة، الأساتذة الدكاترة: ص. البستاني، د. بو ملهب عطاالله، أ. حطيط، ج. خليل، ج. شرف، أ. ضومط، ج. طراد، ج. عون، أ. قسيس، إ. القطار، س. قهوجي، ف. الكِك، أ. نجيم، ج. نعمان، هـ. نعمه.

الدار اللبنانيّة للنشر الجامعي
ص.ب. ٧٠١٥٥، انطلياس لبنان، ٢٠٠٩
ISBN: 978-9953-451-00-8

توزيع مكتبة لوبوان
جديدة المتن - بيروت - لبنان ص.ب. ٩٠٥٦٢
هاتف: ٠٠٩٦١ ١ ٨٩٨٠٨٥
E-mail: lepoint@cyberia.net.lb

مدخل الترجمة العربيّة

يمثّل هذا المعجم - الموسوعة عصارة الفكر الأوروبيّ في نظرته إلى الإسلام وحضارته المتعددّة الوجوه. صحيحٌ أنه اعتمد المصادر الإسلاميّة واستقى منها معلوماته، إلّا أنّه قاربها بذهنيّة المتمرسّ بالبحث المنهجيّ النقديّ العريق في تراث أوروبا.

ومؤلّفا هذا المعجم التاريخيّ للإسلام هما من أساتذة جامعة السوربون العريقة، ومن باحثيها المبرّزين الذين وقفوا حياتهم على دراسة الحضارة العربيّة الإسلاميّة وعلاقاتها بسائر الحضارات الفاعلة في التاريخ.

لذلك، قمنا بترجمة معجمهما بالعربيّة من دون أيّ تصرُّف أو تحريف أو شطط عن الأَصل، تقودنا الأمانة العلميّة والإخلاص لحضارتنا. وقد بذلنا قصارى جهدنا لتوحيد النهج والعناية بالصياغة بحيث تأتي عربيّة صافية. كما عملنا على اختيار المصطلحات العربيّة العلميّة التي تعبّر عن مضمون موضوعات المعجم المتعدّدة، هادفين إلى تقديم ترجمة دقيقة وموضوعية.

كما أنّنا لم نتدخّل في مضمون النصوص، فاحترمنا محتواها عامدين في القليل النادر إلى تعليقات جعلناها حواشي في آخر المعجم حين رأينا أنّ الحاجة تدعو إلى ذلك.

إلّا أنّنا أضفنا التواريخ الهجريّة بجانب التواريخ الميلاديّة، تسهيلًا لمهمّة القرّاء المعتادين ذلك، ورغبةً في القرب من روح الحضارة الإسلاميّة. كما نقلنا إلى العربيّة الملاحق على أنواعها (خرائط تاريخيّة، سلاسل الأنساب، رسوم ومخطّطات هندسيّة)، وأضفنا في آخر المعجم ثبتًا بالمداخل كما وردت في الترجمة، أي بحسب الترتيب الأبجدي العربي. لكنّنا تركنا البيبليوغرافيا المدرجة في الطبعة الفرنسيّة على حالها.

أمّا في ما يتعلّق بالآيات القرآنيّة الواردة في الترجمة العربيّة، فقد استقيناها من تفسير الجلالين، حرصًا على حرفيّة النصّ القرآني. إلّا أنّ مهمّتنا في شواهد الحديث النبوي الشريف كانت أصعب من ذلك بكثير، اذ إنّ المؤلّفيْن نقلا الأحاديث الى الفرنسيّة من دون الإشارة إلى مصدرها العربي. فجهدنا في جلاء ذلك إلى أبعد الحدود، آملين أن نبقى أقرب ما يكون إلى النصّ الأصليّ.

وقد واجهنا صعوبة مشابهة فيما يتعلّق بتعريب الأعلام العربيّة الواردة في الأصل الفرنسي أي بردّها إلى صيغة كتابتها العربيّة الأصليّة ، أو الفارسيّة والأُرديّة والتركيّة التي اعتمدت الحرف العربيّ مع اختلاف في بعض الحروف وفي التلفّظ ببعضها . لكنَّ تنوّع اختصاص من قاموا بالعمل ومعرفة بعضهم بهذه اللغات عصمنا من الشطط فحمدًا لله الكريم .

وبعد ، فإنَّ عملًا كهذا يُعتَبرُ ركيزةً لإطلاق دراسات لاحقة ، لأنَّ العمل المعجميّ لطالما شكّل بدايات لأيّة نهضة ، فهو يحفز الهمم للاطلاّع بتقديمه عصارة المعارف في مجلّد أو أكثر ، جامعًا إياها من مئات الكتب المطبوعة والمخطوطة ، وهو أمر لا يتيسّر لطالب العلم نيله إلّا خلال سنوات مديدة من الدراسة والتنقيب .

قصارى الكلام ، إنَّ هذا المعجم يَهدي القارئ إلى أهمّ معالم الحضارة العربيّة الإسلاميّة ومضامينها وأعلامها وتضاريس المجتمعات التي نشأت فيها وازدهرت ، فهو يصلح كي يكون «كتاب المِخدَّة» بامتياز – إضافةً إلى أنه مدخَل جدّيّ إلى تراث الإسلام – يتناوله أيُّ قارئ قبل إخلاده إلى النوم ليطلّع على مقاطع من حضارته ، فتتراكم معرفته ليلةً بعد ليلة ، واذا هوَ في نهاية المطاف أمام لوحة متكاملة .

نوجّه في الختام كلمة شكر إلى كلّ الذين ساهموا من قريب أو من بعيد في إتمام هذا العمل ، سواء على صعيد الترجمة وتقويم بيانها أو على صعيد الطبع والاخراج . كما نشكر دار النشر الفرنسية Les Presses Universitaires de France التي سمحت لنا بنقل هذا المعجم إلى العربيّة .

مقدّمة الطبعة الفرنسيّة

إنَّ الإسلام المعاصر الذي تمتدّ رقعة انتشاره على مساحة العالم - مع احتفاظه بدور مسيطر في بعض المناطق الأفريقية والآسيويّة التي سبق له أن ضمّها منذ قرون، وبفعل العوامل المتداخلة لهجرة أتباعه ومعتنقيه الجدُد التي ما برحت تُدخله في نسيج عدد من الدول غير الإسلاميّة - يتبدّى لنا حاصلَ تاريخ مديد وحافل بالخفايا. يبدأ هذا التاريخ مع نشأته في شبه الجزيرة العربيّة، قبل نيّف وأربعة عشر قرنًا، حيث دعا النبيّ محمَّد ﷺ إلى دين الإسلام، وجعل من حرم مكّة، مقرّ عبادة المشركين آنذاك، القطبَ المركزيّ لطقوس عبادته. ثمّ شهد تاريخُه هذا نُمُوَّه من مختلف النواحي المذهبيّة والإجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة التي هيّأتها له الظروف السياسيّة والتحوُّلات التي هي قدر البشريّة المشترك، في أمبراطوريّة مترامية الأطراف وغير متجانسة، يزداد سكّانها وتتبدّل حدودها باستمرار بفعل الفتوحات والغزوات، وتقوم فيها ممالك تنفصل وتتفكّك، ويعاد تركيبها بأيدي قوّاد عسكريّين أقوياء أو بتبشير دعاةٍ يستميلون قلوب الجماعة.

هذا التاريخ الذي عرفه الإسلام - على ما فيه من تعقيدات - هو، وحده، القادر على توجيهنا، في تدبُّرنا ردّات الفعل المختلفة، كما الأسباب الأخرى للنزاعات الخفيّة في المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة حيث العلاقات الداخليّة بين أفرادها، كما علاقة هؤلاء بغير المسلمين المجاورين لهم، تؤثّر، إلى حدٍّ بعيد، على مستقبل هذه المجتمعات، وأيضًا على مستقبل المحتمعات الأخرى.

بيد أَنّ مراحل تطوّره القديم كانت، في أكثر الأحيان، بعيدة عن إدراك وجدان أهل الغرب، ما أدّى إلى تصوُّر مبسَّط وأحاديّ المنحى عن الإسلام لم يُفْضِ إلى أجوبة عن المسائل التي تواجهنا والتي ما تزال قائمة في خضمّ الجدالات والغموض. وهذا ما يُهيب بنا، الى الأخذ في الاعتبار الفائدة الفوريّة التي استمالتنا، منذ مدّة، الى تنفيذ مشروع معجم للإسلام اقتُرح علينا واختمر مفهومه ببطء، وتحوّل إلى «معجم تاريخي». وقد تمّ تنفيذه ببطء أكبر، على مرّ السنين، إلى جانب أعمالنا الأخرى التي أتاح لنا هذا المنجد الفرصة لتطويرها.

وقد بدا لنا أنّ فكرة «المعجم التاريخيّ» هي من الأهميّة بحيث تُيَسِّر للقرّاء الراغبين في الحصول على معلومات محدَّدة بدقّة، مجزّأة عمدًا ليسهل عليهم الولوج إليها، وذلك

انطلاقًا من معارف مليئة باطّلاعات تقريبيّة ومتناقضة إذا ما نُظر اليها بشكل شمولي. وهل من حاجة إلى التذكير، على سبيل المثال، - بكيفيّة تدبُّر الإسلام التاريخيّ لروح «الطاعة لله» التي تجلّت في شرعويّة معياريّة لما هو دنيويّ، كما في اندفاعات مختلفة جدًّا شهدها التصوّف أو شهدتها طقوس التقوى الشعبيّة؛ - أو كيف أنّ الأقاليم التي حكمها الإسلام منذ أوائل ظهور أمبراطوريته لم تجد نصيبًا من جهد جدّي لتوحيدها، في حين تولّد عن تنوّع المنابع واللغات والثقافات خصوصيات مناطقيّة؟ - أو كيف أنّ الحضارات التي ازدهرت في ظلّ سلالاته الأكثر تألّقًا ذهبت بها ثورات إصلاحيّة رفعت لواء العودة إلى صرامة الأُصول الأوليّة؛ - وأخيرًا، كيف أنّ الأُمّة الإسلاميّة التي غلّبت ظاهرًا إرادتها في تحقيق تجانس وحدويّ بين أفرادها، عمرت، منذ بداية تاريخها، بالانشقاقات التي انبثقت عنها نِحَلٌ ازداد رسوخها وتفرّعها. إنطلاقًا من ذلك، نُلاحظ سيطرة تعدُّدية كان الاختصاصي الفرنسيّ في الدراسات الإسلامية، هنري لاوست صاحب النظرات النافذة، أوّل من بيَّن نتائجها التي أفضت إلى بروز شِيَع شكّكت في قدسيّة تشريع قُدّم للناس على أنّه عامل تجانس، ووصل بها الأمر إلى إنكار بساطة الإيمان الإسلامي الأساسيّ الذي يختصره نصّ الشهادة.

إنطلاقًا من هذه الرؤية، لم نرَ ما هو منهجيًّا أكثر ملاءمةً من التجزئة التحليليّة للمداخل، تبيانًا للأصالة التي اختصّ بها الإسلام، عنيتُ الغنى الذي تفرّدت من خلاله - بالمواجهة، وفي أكثر الأحيان، عبر صدامات حربيّة بكل معنى الكلمة - الجماعات السياسيّة - الدينيّة الكبرى التي برزت، في مجرى الزمن، سماتُها الفرديّة وميّزتها عن الجماعات الأخرى. لقد شكّل السنّة إحدى هذه الجماعات، حتى ولو أنّ طابعهم الأكثري أضفى عليهم، في أغلب الأحيان، سمة «أصحاب الرأي المستقيم».

وكذلك أمرُ الشيعة والخوارج. نكتفي بذكر هذه الجماعات، علمًا أنّ كلًّا منها عانت بدورها من إنشقاقات جديدة، تسبّبت بها، في أغلب الأحيان، ظروفٌ طارئة. إلّا أنّه يمكن عزوها إلى الظهور الدوري للنظريات الرمزيّة والإشراقيّة اتي ارتبطت بدقائق الفلسفة والتصوّف، مُفضيةً أحيانًا إلى مواقف الثيوصوفيّة المتطرّفة القائلة بوحدة الوجود، أو إلى رمزيّة باطنيّة، مفسحةً المجال، في الوقت نفسه، لنظريات كلامية هدّامة.

وهكذا غدا التشيّع شأنًا مغايرًا لما كان عليه في بداية نشأته، اذ كان يُنظر اليه على أنّه «الحزب» الذي تجمّع حول علي بن أبي طالب، ابن عم النبيّ محمد (ﷺ) وصهره، دفاعًا عن شرعيّة تَسلّمه السلطة وشرعيّة الحفاظ على هذه السلطة في أعقابه. هذا التشيّع الجديد أنتج معتقدات تضمّنت ابتكارات عقائديّة مغرقة في التخيّل. إنّه حافظ على المبدأ الأساسي للإمامة

التي حصرها في البدء في اعقاب علي، ولكنّه اعطاها لاحقًا منحًى غير تقليدي عبر عقيدة المهدي (أي انتظار المخلّص المتمثّل بالمهدي)، حتّى نجح أخيرًا في تمرير التوقير للإمام - وبخاصة في صورة الإمام المستور، ولكن الحيّ - قبل التوقير المفروض للنبيّ محمّد (ﷺ) نفسه.*

هذه الانشقاقات والمجادلات المؤدّية إلى ظهور مجموعات صغيرة ذات تفريعاتٍ غير منضبطة، نوعًا ما، نتبيّنها في أهل التشيّع، عملت عملها كذلك بين أهل السنّة، بدفاعها عن تخريجاتٍ كانت تستند، بحسب الحالات، على نمط تفكير طُبّق في مجال الفقه وعلم الكلام التنظيري، أو البحث عن الاتّحاد الصوفي. وهكذا تنامت بين أهل السنّة - إضافةً إلى المذاهب الفقهيّة المعروفة رسميًّا والمهيّأة للتعايش سلميًّا، مثل الشافعيّة والمالكيّة والحنفيّة والحنبليّة والظاهريّة، على سبيل المثال، - وإضافةً كذلك إلى المسالك (المدارس) الروحانيّة المتجلّية في كثير من الطرق الصوفيّة والمتفرّعة باستمرار فيما بينها، لتشكّل كلّ منها بؤرة تجمّع لأتباع انتظموا في جمعيّات أو طرائق مثل القادريّة والتيجانيّة والسنّوسيّة - مدارس فلسفيّة كلاميّة كذلك، مثل المعتزلة والأشعريّة أو الماتُريديّة، وأخيرًا تيّارات اجتماعيّة وُجّه تنظيمها للاستيلاء على السلطة، كالحركة التي كانت في أساس نجاح أمبراطورية الموحِّدين في المغرب في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، أو الحركة المهديّة التي ألهبت السودان الإنكليزيّ - المصريّ قبيل انقضاء القرن التاسع عشر.

جميع هذه الأُسَر السياسيّة - الدينيّة، سواء منها الشيعيّة أو السنيّة، المتكثِّرة بعضها إلى جانب بعض، والمتراشقة بسهام الاتّهام، قامت بذلك من دون ضابط، إذ لم يتوافر في ديار الإسلام، لا في الماضي ولا في الحاضر، «سلطة تفسير كفِيَّة، على الصعيدين الفرديّ أو الجماعيّ» قادرة على فرض نفسها مرجعيّة لا جدال حولها. فكما قال هنري لاووست الذي رأى في ذلك السبب العميق للإغراق في التعدديّة، «كلّ مسلم تجتمع لديه شروط العلم التي يراها ضروريّة وطافية يمكنه أن يقدّم نفسه على أنه مفسِّر للشريعة مأذون له». بناء على ذلك، استمرّت جميع تلك الأُسر في تقاسمها السكّان وتصارعها على احتلال الصفوف الأولى من المسرح السياسيّ، مع القدرة على تجديد نفسها والتكاثر إنطلاقًا من معطيات تتجدّد بحسب مقتضى الحال، وفي أكثر الأحيان تحت شعار مختلف وجوه التحديث والإصلاح الذي تحرّكه العودة إلى الأُصول. وإذا جاز لنا، في هذا المقام، أن نعتمد بقوّة على قول منشئ بالعربيّة قديم هو أبو بكر الخوارزمي: «ليس من نِحلةٍ لم تصادف يومًا ريحًا ملائمة ولم تفِد من دعم دولةٍ ما»، فينبغي، كذلك، القبول بالصيغة المعكوسة والعزوف عن التفتيش، عبر التاريخ

الإسلامي، عن نموذج دولة إسلاميّة تكوّنت بمنأىً عن الدعاوات والأيديولوجيّات التي تشهد، بوجودها ومضمونها، لتعدّدية منطلق فكريّ خارج على أيّ سلطة.

إنّ اعتمادنا المداخل التحليليّة المستقلّة بحسب المنهج المعجميّ الذي بدا لنا منسجمًا مع وضع الإسلام المعقّد، على الصعيدين الفكري والروحاني، ظهر لنا، كذلك، مناسبًا لسبر غور الوجوه المتكثّرة لحضارته التي ازدهرت عبْر تجليّات متعاقبة حتى شمولها خلفيّات الفسيفساء المعقّدة، المميّزة في الوقت نفسه، التي تدبّرتها أنامل الدول الإسلاميّة الحديثة. هذه الدول هي، في معظمها، دول - أمم، يفصل الواحدة عن الأُخرى منها، بحسب التوجّهات الاقتصاديّة أو التضامنات السياسيّة، اختلافات عارضة تعود أحيانًا إلى مقدار أخذها بالتحديث والنتائج الإجتماعيّة الناشئة عن هذا الوضع. إنّها تعبّر بطريقتها عمّا آلت إليه بسبب أمور متقادمة، كتنوّع الأراضي والمناخ والموارد والأعراق والموروثات، من دون إغفال سمات أُخرى ما فتئ تاريخها يحمل أثقالها. إلّا أنّ تُخومها لا تطابق، إلّا استثناءً، المناطق والإمارات القروسطيّة التي سبقتها، مع عدم حفاظها على استمرار المجموعات العرقيّة - اللغويّة التي كانت تعمرها في الماضي. يُشار، في الدرجة الأولى، إلى المجموعات الإيرانية والتركيّة، إذا ما أخذنا في الاعتبار الوسطين الثقافيين الأقدمين اللذين أسهما، مع المجموعة العربيّة اللغة، في نهضة العالم الإسلامي؛ وفي الدرجة الثانية مجموعات الأوساط النائية، الهنديّة والأندونيسيّة والصينية والأفريقيّة وغيرها التي انصهرت فيما بعد في بوتقة الإسلام.

هذه المناطق التي قامت فوق كيانات سياسيّة مختلفة عبر الأزمنة المتعاقبة، - وهذه المدن المتغيّرة تسمياتها التي شهدت في نطاقها نموًّا أو تراجعًا في سياق شبكات مواصلات أحيتها حركة التجارة والفنون اليدويّة إذ لم تكن حواضر ملكية أو منشآت مدينيّة ذات طابع إداري أو عسكريّ، - وهؤلاء الأُمراء والملوك الذين كانت قدرتهم منوطة بحظّهم في الحروب وأثره في التحوّل المستمرّ للسلطات، - وأخيرًا، إلى ممثّلي الطبقات الناشطة والمنتجة الذين أسهموا عبر القرون، في شهرة الأماكن التي استوطنوها بفضل نجاحهم في معترك الشؤون الفكريّة أو الماديّة التي قبستها عنهم فيما بعد حتّى المجتمعات غير الإسلاميّة، - جميع هذه العناصر المتنوّعة الطبيعة وَفَيْناها حقّها في إعتمادنا تعدديّة المداخل، وقد أخذنا في الاعتبار العالم المترامي الذي ران عليه الإسلام، من المحيط الأطلسي حتى المحيط الهنديّ، ومن السهوب الأورو-آسيويّة الباردة حتى الغابات الاستوائيّة لأفريقيا السوداء. في هذا المسار، كان علينا، تحديدًا لحقل مواذنا، أن نتّخذ احتياطات أوّلية تركت أثرها في بنية المشروع.

كان أول هذه الاحتياطات السّهر، في كل موضوع عالجناه، على تقديم المعطيات التي

تتناول الأحداث في تسلسل مراحلها الكبرى. وثانيه الذي يفوقه دقّةً، ألّا نخرج، في اختيارنا للعناوين المنتخبة، عن الإطار الذي رسمناه لأنفسنا، وهو الإسلام والعالم القائم به.

وهكذا قرّرنا ألّا نتناول، بحدّ ذاتها، الشعوب والديانات والدول والأحداث التاريخيّة التي كان لها أثر على تاريخ الإسلام، إلّا أنها لم تكن منخرطة في دار الإسلام. لم نُفرد لمحة خاصة بالبيزنطيين، مثلًا، ولا بالساسانيّين ولا باليهود ولا بالمسيحيين ولا بالبرتغاليّين ولا بالإسرائيليّين، ولا، من باب أولى، بالظواهر الطارئة على العالم الإسلامي في بداياتها كالحملات الصليبيّة والاستعمار والصهيونية، على سبيل المثال، كما أنّنا لم نخصّ بلمحة مستقلّة غير المسلمين الذين اشتهروا في المجتمع الإسلاميّ، ولو من الأعلام، مثل يوحنّا الدمشقي وإسحق بن حُنين أو إبن ميمون. في هذا التوجّه أيضًا، اخترنا أن نخرج من دائرة اهتمامنا الإبداعات الأدبيّة المرتبطة بلغات وخاصيّات عرقيّة وثقافات محليّة - في حال لم يتوافر لها بُعدٌ اجتماعي إسلامي أو منحى ديني - بينما أشرنا بطريقة سريعة إلى الإنجازات الفنيّة والمكتسبات ذات المنحى الفكريّ والعلميّ التي يدّعيها الإسلام عادة، على أنّها موضوع جدل، وإن كانت، في أغلب الأحيان، مطبوعة بشروط حياتيّة خضعت لتنظيم الشريعة الإسلامية أو حاصل لشروط رسوم اللياقة الإسلاميّة.

إلّا أنّ ثقل الطابع العربيّ - الذي لم يكن مطروحًا أن نغيّبه في المسار الإسلاميّ، فرض نفسه علينا، إذ إنّه لعب دوراً من الطراز الأول في تاريخ الإسلام، بعد أن كوّن محيطَهُ الحجازيّ الأوّل، وهو ما يرمز اليه الحفاظ، عبر الأزمنة، على اللغة والخط العربيين كناقلين مفضّلين للرسالة النبويّة. فالعربيّة غدت لغة طقسيّة ودعامة للأدب الإسلامي في تحقيقاته الدينيّة، بعد أن كانت لغة القرآن الكريم؛ - والخط العربيّ الذي دان بشهرته وحتى بقدره الغنّي لكونه شكّل مظهر التعبير المكتوب لهذا القرآن نفسه في بدايات قراءته مرتّلًا بلسان نبيّ الإسلام ﷺ. من هنا أتت كذلك الأهميّة النسبيّة التي حازت عليها، في هذا المعجم التاريخيّ، بعض المفاهيم التي عكست مصطلحات عربيّة اختصّت بالتعبير عمّا اقتضاه التشريع أو اقتضته المؤسّسات، أو الأشكال المتعدّدة للفكر الإسلامي. لكنّنا أردنا، نتيجة لذلك، الإلماح، من خلال استمراريّة هذه المفردات التقنيّة، إلى نتائج عادات جديدة واكبت النموّ المتدرّج للمجال المؤسلم، بينما كان العرب - حتى العرب بالمعنى الواسع للكلمة الذي يشمل شعوب الشرق الأوسط والمغرب الذين تعرّبوا منذ القرون الأولى - يتحوّلون، شيئًا فشيئًا، إلى مجرّد أقليّة. وفي الوقت نفسه، سعينا إلى التشديد على المسائل الحاليّة غير المنفصلة عن الوجه غير المستقرّ لبعض الدول الإسلامية المتحوّلة باستمرار على الصعيد الاجتماعي، خلال العصر

الحديث. من هنا، وجدنا لها مكانًا في المعجم، لكنّه مكان ضيّق لا يتجاوز الفَهرسَة، مع مراعاتنا لاحتوائه الأساسيّ من المعلومات، أي الإرشادات السريعة للأحداث التي أدّت إلى نشوء هذه الدول، انطلاقًا من الولايات القديمة للأمبراطوريّة والتي تتراءى من خلال تكوينها المعاصر.

وكان علينا، مع ذلك كلّه، تنفيذ هذا البرنامج بالسعي إلى حصر هذا الكمّ الهائل من المعلومات في إطار مجلّد سهل الاستعمال، وهو كمٌّ يشمل حقل العقيدة والجوانب الماديّة. وقد قضى قرارنا الأساسيّ بألّا نلجأ إلى أية مساعدة من جهة أخرى، بحيث نستبدل بالخيار الموسوعيّ عصارات تنمُّ عن مكتسبات خبرتنا الشخصيّة وتأمّلاتنا. وإذ تجافينا اللجوء إلى الأبحاث المتخصّصة المغرقة في الدقّة - ومنها البعض من أبحاثنا - لأنّها ما تزال غير مستقرّة وغير موثوق بها، وقد تجسّدت في دراسات غير كافية من حيث العدد، رغم الإنجازات المحقَّقة، سعينا إلى الجمع بين الإيجاز والموضوعية، مسهّلين الاستزادة بالإحالة إلى المداخل المضمومة بين دفّتَي عملنا. وقد رمينا، بوجه خاص، أن نرسم خطوة بخطوة، بفضل الاختيار، والتفصيل المعقول، وتنظيم الملخّصات، لوحة تلبي تساؤلاتنا التي لم تبارحنا خلال تلك السنوات المديدة التي قضيناها في اتصالنا بالإسلام، كما اخترنا تغليب توجّه ببليوغرافيّ عام، من دون تثقيل نصوصنا بإحالات تفصيليّة، وهي نصوص تتميّز عن المنابع التي عدنا إليها، وبينها الموسوعة الإسلامية التي نتبيَّن فيها، رغم تفاوت موضوعاتها، ميراث جميع المستشرقين الذين اشتركوا فيها والتي نعلن دَيْننا لها كما لسائر وسائل العمل التاريخيّ التي لا غنى عنها (الأطالس، لوائح السلالات...)، والتي أفدنا منها.

وقد عدنا، لإنجاز هذا المعجم، عبرْ مسارات غير متوقَّعة أحيانًا ولم تخطر ببالنا، إلى النتائج والإشكاليّات التي كنّا انتهينا إليها أو طرحناها من خلال أبحاثنا السابقة. كما أنّنا استعدنا، في كثير من الأحيان، ذكريات أماكن وأشخاص سبق لنا أن عرفناهم، وكذلك ذكريات مشاهد طبيعيّة ومبانٍ أثريّة كانت هدفًا لرحلاتنا في الماضي، وقد منحها مزيدًا من الجمال حنينُنا للعودة غير الممكنة إليها. أمّا بالنسبة إلى نتيجة أدائنا، فمن المبكّر الحكم عليه. إلّا أنَّ المؤكّد هو أنَّ ضرورات المنطق الداخلي الضاغطة باطراد والصعوبات الملازمة لطموح المشروع كانت تتنامى مع مرور الوقت، ومع تحوّل الهدف الذي كنّا نسعى إليه بلذّة ولامبالاة، في مرحلة بدء العمل، إلى عمل جدّي.

أ

آداب، مفهوم مهمّ في الإسلام يشمل التصرفات التي ينبغي الأخذ بها في الحياة اليومية، والمعلّلة عادةً بتعليمات الحديث الشريف. لكنّها تستند أحيانًا إلى عادات قديمة محلّية تطوّرت، بحسب الأمكنة والعصور، لتكيّف جوانب متعدّدة من الحياة الإجتماعية الإسلاميّة في القرون الوسطى، كما في العصر الحاضر.

هذه التوصيات التي دوّنت أحيانًا مع قواعد اللياقة الدنيويّة وآداب السلوك شكّلت، بخاصّةٍ، موضوع اهتمام الفقهاء الذين صاغوا بعضها باسم الحديث الشريف وأولوها اهتمامًا مميّزًا، خصوصًا عندما تمسّ العبادات.

إلى مفهوم الآداب هذا، تستند عادةً أجمعت عليها المذاهب وهي عادة الختان، وكذلك فرائض مختلفة مرتبطة بالطهارة مثل حفّ الشوارب أو تنظيف الأسنان أو إزالة شعر الإبط والعانة. ومن الأمور الموصى بها، كذلك، المواظبة على بعض الممارسات التّقويّة مثل «الرياضات الروحية» في المساجد، تلك الرياضات التي قد يرافقها الصيام وتلاوة القرآن الكريم. ومن آداب السلوك اختيار صِيَغ السّلام أو عادة البسملة أي القول: «باسم الله الرحمٰن الرحيم» في ظروف مختلفة، ولا سيّما قبل تناول الطعام وقبل التوضّؤ والقيام ببعض الأعمال. وإلى هذه القواعد أيضًا يستند إجبار النساء على الخروج متحجّبات، وكذلك الحثّ على عدم التمثيل بالرسوم الذي نشأ استنادًا إلى الاستنكار الموجّه لراسمي الأشخاص. وقد اختلفت هذه التوصيات والجدل الذي أثارته بحسب المؤلّفين، واهتمّ بها أحيانًا فقهاء قدامى مثل ابن بَطّة الحنبلي الذي عاش في بغداد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

ومن هذه العادات الموصى بها الختان الذي أوصت به المذاهب الفقهيّة ولكن لم يفرضه إلّا واحد هو المذهب الشافعي. تجري عمليّة الختان عادة للصبيّ بين الثالثة والسابعة من عمره (يختلف العمر بحسب البلدان)، ويقام لهذه المناسبة احتفال كان يترافق قديمًا مع أفراح عامّة إذا كان الصبيّ أميرًا. وتشهد النصوص التاريخيّة على احتفالات الختان لأطفال الأسرة العبّاسية، وكذلك نجد روايات حديثة ذات دلالات تعود مثلًا إلى عهد سلاطين بني عثمان.

إنّ خَتان الفتيات الذي لم يزل يمارس حتى اليوم، وبخاصة في مصر وفي بلدان أفريقيا السوداء، يُعتبر في بعض المجتمعات من الأمور الموصى بها، في حين أنّه لا يستند إلّا إلى أحاديث ضعيفة (يمكن الشكّ في صحّتها). وعلى أي حال، فإنّ ختان الإناث يجري سِرًّا، على العكس من ختان الذكور.

كان من نتائج شيوع عادة الختان في العالم الإسلامي في القرون الوسطى أنّ الغربيّين اعتبروه، منذ زمن بعيدٍ، ميزة خاصة بالمسلمين.

آدم، شخصيّة توراتيّة، جاء ذكره في القرآن الكريم على أنّه الأب الوحيد للبشر وأوّل الأنبياء.

تطابق قصة آدم – كما ترويها مجموعة من الآيات القرآنية في المرحلة المدنيّة وكما أوضحتها التفاسير اللّاحقة و«قصص الأنبياء» التي لاقت رواجًا في العصور الوسطى الإسلامية – في مجملها، المسلّمات اليهوديّة والمسيحيّة التي تتناول خلق الإنسان الأوّل ووقوعه في التجربة وسقوطه. إنّ السقوط الذي شمل، في إشارة عابرة، امرأته حوّاء التي عرفها كذلك التقليد الإسلامي في ما بعد، ورد في جملة واحدة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (سورة البقرة، الآية

٣٦). في المقابل، إنّ قصّة الخلق التي تذكّر بشأنها الآية القرآنية (سورة البقرة، الآية ٣٠) أنّ الله اختار آدم خليفة له في الأرض، تورد معلومات دقيقة عن المعارف الخاصة التي خُصّ بها آدم. من جهة أخرى، تشدّد تفاصيل وردت في تراث مشترك سابق، على سجود الملائكة له، ما أدّى، في ما بعد، إلى عصيان الشيطان[1]، وعلى الميثاق الوارد ذكره في القرآن (سورة الأعراف، الآية ١٦٩) والذي اعتمده المتصوّفون لتبرير نظريتهم في الاتّحاد[2].

ثمّة روايات أخرى تقيم صلة بين آدم وأرض مكّة المقدّسة حيث أدّى، لأوّل مرّة، مراسم الحجّ، وعاد فالتقى حوّاء، وحيث دُفن معها في غار بجبل أبي قُبيس. وقد كانت الأماكن المرتبطة بهذه الأحداث المختلفة، مرّة في الحجاز، وأخرى في سورية أو في مكان ناءٍ مثل جزيرة سيلان، مدعاة لزيارات تقويّة، في القرون الوسطى. إنّ ازدهارها في الوقت الذي نمت فيه «طقوس تكريم الأولياء» في بلاد الإسلام ظاهرٌ في ما ذكره دليل الهَرَوي، في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، عن الزيارات الخارجة عن الفرائض.

إلّا أنّ الفكر الشيعيّ كان، بوجه خاص، وراء ما أُعطي لآدم المثالي، الذي أراده الله على صورته، من أهمية مميّزة، إذ جعله أوّل الأنبياء، أي الكائن المستفيد من النور الإلهي - ولهذا سجدت الملائكة له - الذي تماهى و«الإنسان الكامل» في مفهوم الهلّينيّة، بل وتجسُّد العقل ومصدر الفيض الكونيّ. إنّ العقيدة الإسماعيليّة التي ماهت بينه وبين رأس الأئمّة «الناطقين» جعلت له فوق ذلك وصيًّا، هو ابنه شيت، انتسب إليه في ما بعد تيّار باطني وثيوصوفي في الفكر الإسلامي [يقول بالإشراق سعيًا إلى الاتّحاد بالله][3].

آزاد، مولانا أبو الكلام (١٨٨٨-١٩٥٦)، مفكّر ومصلح، لعب دور المنظّر في حركة الجامعة الإسلاميّة، أو حركة إحياء الخلافة، وهي حركة راجت في الهند في مطلع القرن العشرين، كما كان مفسّرًا ومتكلّمًا.

برز آزاد بين الحربين العالميّتين مدافعًا عن نظرة للإسلام قوامُها التأمّل الصوفي، وهي نظرة تختلف جذريًّا عن تلك التي كانت لمعاصره محمد إقبال. ولم يكفّ عن محاربة تقسيم بلاده. وبعد أن جرى هذا التقسيم ضد أمنياته، ونشأت، سنة ١٩٤٧، دولة باكستان، تنحّى أبو الكلام جانبًا وأنهى حياته وزيرًا للتربية في حكومة الاتّحاد الهندي.

كانت ولادته في مكّة المكرّمة التي كان والده قد هاجر إليها، ثم انتقل إلى كلكوتا فدرس فيها وحصّل ثقافة إنكليزيّة عميقة، كما كان يوصي بذلك سيّد أحمد خان. ولم يلبث أن بدأ يناضل ضدّ الاستعمار البريطاني وضد توجّهات جماعة «أليغار» الذين كانوا يساندون هذا الاستعمار، واهتمّ بنشر صحيفتَين معارضتين لم يُرخَّص لهما: «الهلال» (١٩١٢) و«البلاغ» (١٩١٥). وبعد إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ وإعلان ولادة الجمهوريّة التركيّة، تخلّى آزاد عن الآمال التي كان قد عقدها على الجامعة الإسلاميّة، تلك التي نادى بها جمال الدين الأفغاني. فكرّس جهده لمؤلّفاته الرئيسة في علم الكلام، وقد وضعها باللغة الأُرديّة، كما شرع في ترجمة القرآن الكريم وتفسيره، ولم يستطع إنجاز هذا العمل. وقد وضع في صلب تفسيره هذا مجاهرته بالعناية الإلهيّة وتمسّكه بها، ودعوته إلى تغليب مفهوم «المحبّة» الذي استقاه من التصوّف. هذا المثال الديني وهذا الميل التوفيقي - اللذان يتعارضان مع مواقف محمّد إقبال الانفصاليّة، ولكنّهما يندرجان ضمن خطّ روحيّ توفيقيّ عُرف به عدد من المتصوّفين في الهند - دفعا بآزاد إلى مساندة المحاولات السياسيّة التي اضطلع بها، لفترة، أعضاء الأقليّة الإسلاميّة الكبيرة في الاتّحاد الهندي والتي كان هو أحد قادتها.

آسفي (المملكة المغربيّة)، مدينة صناعيّة وتجاريّة نمت حديثًا على شاطئ المحيط الأطلسي. لم يذكرها جغرافيّو العرب إلّا في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وتميّزت بـ«رباط» في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. لم ينل هذا المرفأ ذو الحماية السيّئة أهميّة إلّا في القرن السادس عشر، عندما استقرّ فيه البرتغاليّون عام ١٥٠٧م، ولكنّهم أُجلوا عنه بعد وقت قصير عام ١٥٤١م. في ما بعد، اصبح هذا الموقع - الذي حصّنه البرتغاليّون - منفذًا بحريًّا للسعديّين

الذين استقرّوا في مراكش ؛ لكنّ ما شهده من ازدهار في القرن السابع عشر قُضي عليه بسبب منافسة مرفأ الصُّوَيْرة المتزايدة. ضعف هذا الموقع، بخاصة بعد أن اختار ملوك جدد من السلالة العلويّة أن يقيموا في الشمال. عاشت آسفي، منذ ذلك الوقت، في حالة خمولٍ حتى القرن العشرين حين جعلت منها التحوّلات الاقتصاديّة مركزًا يتنامى بسرعة.

آسيا الوسطى، منطقة جغرافيّة وتاريخيّة، تقوم على تخوم الأمبراطوريّة الإسلاميّة ويصعب تحديدها بدقّة، كان لها دور أساسيّ في تطوّر هذه الأمبراطوريّة على مرّ العصور.

كانت آسيا الوسطى تُعرف، في أواخر القرن التاسع عشر، باسم التركستان الروسي وخانية خِيْوَه. أمّا اليوم فهي مقسّمة بين أربع جمهوريّات مستقلّة خلفت، عام ١٩٩١، جمهوريات سوڤياتيّة إشتراكيّة تحمل الأسماء نفسها، وهي جمهوريّات أوزبكستان، قرغيزستان أو قرغيزيا، طاجكستان وتركمانستان. هذه الجمهوريّات تحدّها جمهوريّة كازاخستان من جهة، ومن جهة ثانية جمهوريتا إيران وأفغانستان، فضلًا عن الصين الشعبيّة. وقد رُسمت حدود هذه الجمهوريّات انطلاقًا من الواقع الإتني واللغوي الحالي، من دون أن تُؤخذ في الإعتبار التقسيمات الطبيعيّة والتاريخيّة التي عرفتها المناطق المأهولة والواقعة بين سلاسل الجبال العالية التي تمتدّ من سفوح جبال ألبُرْز وهندُوكوش حتى سفوح پامير وتيان شان، وأيضًا داخل مناطقها السُّهبيّة الممتدّة من سواحل بحر آرال الجافة وبحر قزوين، وصولًا إلى صحراء قره قوم وقِزِل قوم. إنّ التسميات القروسطيّة التي أُطلقت على هذه المناطق، ابتداءً من خوارزم وبلاد ما وراء النهر، وصولًا إلى بلاد السُّغْد وطشقند وفرغانة وبذخْشان، تعكس، على أفضل وجه، حقيقة الواقع الجغرافي لإقليم فيه الواحات الخصبة على مجاري أنهر دائمة التدفّق كآموداريا وسرداريا وزرافشان.

وعلى الرغم من ضآلة مساحة تلك الواحات المرويّة في بيئة قاحلة، فإنّ نتاجها الغذائي والصناعي، وكذلك نتاجها الحِرَفي المزدهر والمرتبط هو أيضًا بإنتاج المعادن، والذي تشجّعه الحركة التجاريّة الناشطة، كانا يؤمّنان لها الغنى الإقتصادي. وهكذا فإنّ آسيا الوسطى التي اشتهرت بمنسوجاتها وسجادها وبفنون المعادن، برزت بعد ضمّها إلى الدولة العربيّة الإسلاميّة إثر الفتوحات الكبرى، كإحدى المناطق الأكثر تحضّرًا في تلك الأمبراطوريّة. حتى إنّها شكّلت مع خراسان، في مطلع العصر العبّاسي، مجموعة قادرة على منافسة العراق وحواضره. وفي آسيا الوسطى تكوّنت قوّة المأمون، وكان نائب الخليفة في المناطق الشرقيّة، قبل أن ينتزع من أخيه الأمين الخلافة التي أورثه إياها هارون الرشيد. كما نهضت في هذه المناطق خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، دولة السامانيّين المستقلّة في بُخارى التي أشاد الجغرافيّون العرب بعظمتها، قبل قيام دولة الخوارزمشاهيّين. والمعروف أن كبار مفكّري ذلك العصر، ومنهم الفيلسوف الكبير ابن سينا، كانوا يلجأون إلى بلاطات أمراء هذه المناطق. وفيها، أخيرًا، نمت مدن رائعة انتصبت على المسالك البريّة للتجارة العابرة لآسيا، على طرق القوافل التي كانت تنقل الرقيق والجلود والحرير، والتي كانت تربط الدول الإسلاميّة على البحر المتوسّط بالمناطق الروسيّة السيبيريّة وبدول الشرق الأقصى.

هذه الوضعية المميّزة التي عرفتها آسيا الوسطى خلال العصور الأولى للإسلام، على الصعيدين الماديّ والفكري، على الرغم من بعدها عن المركزين السياسيّين الرئيسيّين، العراقي والمصري، والأدوار العسكريّة التي أدّتها كمناطق متقدّمة على حدود الأمبراطوريّة، لم تلبث أن اضمحلّت في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد بعد أن تغيّر مصيرها، إذ تحوّلت إلى معبر للغزوات التركيّة، ثمّ المغوليّة، فالتركيّة من جديد. وهذه الغزوات كانت كلّ مرّة تبدّل ظروف الحياة في قلب العالم الإسلامي الشرقي. ومفاعيل التتريك الأولى التي عاشتها آسيا الوسطى كانت مع قيام مملكة القراخانيّين ثم الغزنويّين الذين أزيلوا مع قدوم السلاجقة. واندفعت إلى آسيا الوسطى قبائل الكَرْلوك، ثم قبائل الغُزّ التي توسّعت نحو دولة السلاجقة الكبار في إيران، وتابعت زحفها نحو كرمان وسوريا وهضبة الأناضول التي عُرفت باسم

تركيا، إبتداءً من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد.

وهكذا أمست آسيا الوسطى منطقة خطرة تندفع عبرها القبائل الغازية، التي ظلّت، على مدى أكثر من خمسة قرون، تغزو أو تجتاح الدول الإسلاميّة الغربيّة. ومن الغزاة نذكر تيمورلنك وخلفاءه التيموريّين الذين جعلوا مقرّ إقامتهم في آسيا الوسطى، ما ساعد على تطوير هندسة البناء في مدينة كسمرقند. وفي الوقت نفسه تحمّلت البلاد تغييرًا قسريًّا في تركيبتها السكانيّة، إذ كانت، حتى ذلك التاريخ، ذات أكثرية إيرانية، ثمّ شهدت صراعًا، متجدّدًا باستمرار، بين الأتراك الذين كانوا قد استقرّوا فيها والغزاة المتلاحقين أمثال «القراختاي» ومغول جنكيزخان وأبنائه، وقبائل الأوزبك الشيبانيّين في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد. إلّا أنّ الخراب المتراكم لم يمنع المدن التجاريّة، بعد إعادة بنائها كلّ مرة على مقربة من المكان الأوّل، من أن تعود إلى الازدهار. لكنّ التطوّرات السياسيّة والاقتصاديّة التي فرضها، في العصور اللّاحقة، قيام أمبراطوريات كبيرة، كالعثمانيّة والصفويّة - وقد خلف هذه الأخيرة القاجار بعد مرحلة فوضى ساعدت على تدخّلات قدمت من المناطق الشماليّة الشرقية - وضعت حدًّا لكلّ دور بارز لآسيا الوسطى التي فُصلت بعد ذلك عن خراسان وأفغانستان.

أمّا ملوك الخانيات الذين تقبّلوا الاسلام واستقرّوا بعد ذلك في تلك المنطقة، بعدما جعلوا كُوكَنْد وبخارى وخيوه مراكز حكومات قبليّة، وأمّنوا، مع ذلك، مجال ازدهار بعض المراكز الثقافيّة، فغدوا هدفًا لغزوات الرّوس الذين وجهوا ضدّهم الحملات المتتالية. وقد قويت العلاقات بين آسيا الوسطى وسهوب كزاخستان وسيبيريا، نتيجةً لسيطرة إستعماريّة تدريجيّة قام بها الروس، وانتهت في أواخر القرن التاسع عشر. وتلت ذلك مرحلةُ تحديث وتطعيم بالطابع الروسي، ازدادت حدّتهما مع قيام الاتّحاد السوفياتي. وكانت النتيجة أن عُزلت آسيا الوسطى سياسيًّا عن العالم الإسلامي، إلى أن قامت جمهوريّات مستقلّة سنة ١٩٩١، فأعادت مع هذا العالم علاقات كانت منسيّة. والمستقبل وحده كفيل بإبراز نتائج هذه العلاقات في منطقة تنفتح اليوم على الجنوب، وتقع على ملتقى حضارات متنوّعة، مع بقائها مميَّزة بتركيبتها السكّانيّة غير المتجانسة، وبالتباينات الحاليّة في مستويات معيشة شعوبها.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ٢٣، ٢٤، ٣٠، ٣٥ و٧١.

آغا [آقا] لفظ من أصل تركيّ، هو في الأصل لقبٌ تشريفي، وقد شاع في إدارة العثمانيّين.

أُطلق هذا اللقب، الذي كان يعني «الرئيس» أو «السيّد»، على موظّفين شغلوا مناصب ذات سمة عسكريّة – في مقابل لقب «أفندي» –، وبوجه خاص على القادة المسؤولين عن الخصيان في القصر، من البيض والسود. وقد نشأ عن هذا المعنى إستعمال للفظ انتشر في ما بعد وأُطلق، بوجه عام، على كل خَصيّ. وفي العهود ذاتها، توافرت مفاهيم واستعمالات شبيهة بلفظ آغا، في الأوساط الفارسيّة حيث استعمل لقب آغا خان [آقا خان]، الذي يكتب في صورته الفرنسية هكذا: أغاخان (Agha Khân)، ليُطلق على رئيس الاسماعيليّين الجُدد، أو النّزاريّين الذي ما يزال أفراد سلالته يحملونه.

آغاخان، لقب يحمله في أيامنا الإمام أو الرئيس الروحي لطائفة الإسماعيليّين النّزاريّين القدامى التي أُعيد تنظيمها.

ظهرت التسمية عندما قرّر حفدة أواخر الأسياد الكبار [لقلعة] ألَموت أن يخرجوا، في القرن التاسع عشر، من الخفاء الذي امتنعوا به في إيران، بعد انهيار القصر المنيع وتلاشي دولتهم على أيدي مغول هولاكو عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م. بعد اغتيال خليل الله عام ١٨١٧، صِيغ لقبٌ مركّب من كلمة آغا (آقا) التي كانت سارية الإستعمال في بلاط القاجاريّين وأُعطي لابنه، حسن علي شاه، الذي لازم العاهل الإيراني حتى الثورة الفاشلة التي أجبرته، عام ١٨٣٨، على اللجوء إلى السند. من هناك انتقل الإمام، عام ١٨٤٥، إلى بومباي حيث كان للحركة الإسماعيليّة الجديدة موقع مهمّ، حافظت عليه تقاليد الخوجا الذين انقسموا حول شخصه، إلّا أنّ سلطته عليهم أمّنها له قرار قضائيّ بريطاني، عام ١٨٦٦. منذ ذلك الوقت، تأمّنت سلطة حسن علي شاه على جميع

النزاريّين الذين كان عددهم ما يزال كبيرًا في الهند وإيران وسورية وأفريقيا الشرقيّة، وانتقلت تلك السلطة، بعد وفاته عام ١٨٨١، إلى ابنه عليّ الذي توفي عام ١٨٨٥، ثم لابن هذا الأخير، محمد آغا خان الثالث الذي حاز شهرة عالميّة نسبيّة حتى وفاته عام ١٩٥٧. ثم انتقلت هذه السلطة، في تسلسل عائلي مستقيم، إلى آغا خان كريم، في الوقت الحاضر، حفيد محمّد الذي أسّس، عام ١٩٧٧، معهد الدراسات الإسماعيليّة في لندن.

الآق قيونلو «أصحاب الخروف الأبيض»، ٧٥٩-٩١٤هـ/١٣٧٨-١٥٠٨م، سلالة من العالم الإيراني-التركي حكمت، في المناطق الحدوديّة بين القوقاز وإيران، اتحادًا من القبائل التركمانيّة في الأناضول الشرقي، قبل أن تستولي على تبريز عام ١٤٦٧م وتُحلّ سلطتها محلّ سلطة القره قويونلو.

إنّ سلالة الآق قويونلو التي قامت نتيجة لضعف الإيلخانيّين وخلفائهم، مدعومةً من قبل الأباطرة البيزنطيّين في طرابزون، نشأت في منطقة بلاد ما بين النهرين العليا، في محيط آمد/دياربكر، حيث تنقّلت عشائرها لمدّة طويلة. لقد استطاع أفرادها أن يستحصلوا على هذه الأراضي من تيمورلنك، مكافأة على إذعانهم له، بعد استيلائه على أذربيجان وانتصاره في معركة أنقره. ومن هذه المناطق خرجت أسرة بايندر المالكة التي عُرف أفرادها بأمراء آمد، وقد تحدّر منهم قره يولوك عثمان وخلفاؤه، ومنهم الشهير أوزون حسن.

تزامنت بداية سلطة الآق قويونلو مع انطلاقة متوازية، وإن أكثر بريقًا في البدء، لمجموعة قبليّة أخرى هيَ القراقيونلو الذين كانوا في نزاع دائم معهم وحالوا دون توسعهم ناحية الشرق. وفي أعقاب دسائس ومعارك كثيرة في عهد أوزون حسن، بلغوا أخيرًا النصر على خصومهم. عندئذ غدوا، رغم الضغط المستمرّ عليهم من قبل العثمانيّين، أسياد الطريق التجاريّ الكبير الذي كان يخترق أذربيجان في اتجاه مرافئ البحر الأسود. وباحتلالهم المدينة - المفتاح لذلك الطريق التجاري، أي تبريز، قبضوا على مقدّرات أمبراطوريّة قصيرة الأمد ولكنّها متألّقة، ممتدّة من الأناضول حتى الخليج العربيّ-الفارسيّ، من ناحية، وحتى مدينة هراة من ناحية أخرى.

هكذا أفادوا، لفترة، ممّا فاء عليهم من ثروة ومكانة دبلوماسيّة سهّلتا لهم التفاهم مع تجّار البندقيّة ومراقبة مجمل الترانزيت لسلع الشرق الأقصى المنتقلة عبر البحرين والمسالك البحرية أو النهريّة في العراق. وقد شملت [منافع] هيمنتهم إيران، إذ إنّهم، وإن لم يقيموا بأنفسهم في أصفهان، لم يتوانوا عن القيام بأعمال ترميم في الجامع الكبير لهذه المدينة يمكن تبيّنها حتى يومنا هذا.

إلّا أنّ هذه السلسلة من النجاح عرّضتهم لحملات متزايدة من قبل إخوتهم الاعداء في المنطقة الغربيّة، أي العثمانيّين الذين خرجوا بعد فترة وجيزة منتصرين في معركة تركن عام ٨٧٨هـ/١٤٧٣م، في انتظار أن تغرق دولة الآق قيونلو نهائيًّا في النزاعات على الحكم التي زادت في حدّتها دعوة داخليّة موالية للشيعة، وضاعف شدّتها انتصار عسكريّ للصفويّين عام ١٥٠٢م على مقربة من نخجوان.

قره يولوك عثمان	١٣٧٨-١٤٣٥م
حمزة	١٤٣٥-١٤٤٤م
جهانكير	١٤٤٤-١٤٥٣م
أوزون حسن	١٤٥٣-١٤٧٨م
يعقوب	١٤٧٨-١٤٩٠م
بايْسُنْقُر	١٤٩١-١٤٩٢م
رستم	١٤٩٢-١٤٩٧م
أحمد كوده	١٤٩٧-١٤٩٨م
ألوَنْد / محمد ميرزا	١٤٩٨-١٥٠٤م
مُراد	١٥٠٢-١٥٠٨م

◀ راجع المستند ٢٤.

آل، لفظة عربيّة تعني «أسرة، سلالة» استُعملت في تركيب الأسماء الحاليّة لسلالات عربيّة أميريّة في الشرق الأوسط.

نجد في كلمات أخرى معنى «أسرة، عشيرة»، منها كلمة «أهل» المذكورة في القرآن حيث تحمل السورة الثالثة عنوان سورة آل عِمران، وقد انتشر استعمالها، في أحقاب متأخرة، في الوسط الإسلاميّ، لتعني مفهومًا

خاصًا هو «السلالة».

يُستعمل هذا اللفظ في أيامنا في أسماء مركّبة تدلّ على الأسر المالكة المسلمة من أصول بدويّة، وبخاصة تلك التي تمارس سلطتها على دول حديثة متعدّدة في شبه الجزيرة العربية، مثل آل بو سعيد في عُمان، وآل خليفة في البحرين، وآل ثاني في قطر، وآل الصباح في الكويت، ولا سيّما آل سعود الذين يسيطرون على أراضي المملكة العربيّة السعوديّة الواسعة. يجب التنبُّه لعدم الخلط بين لفظ آل، المكتوب غالبًا بالفرنسية (Al) [بحرف كبير لا يعلوه الرمز ـــ، [أي الـ accent circonflexe]، وأل التعريف التي نجدها في عدد وفير من أسماء الأعلام العربيّة التي تدلّ على الأشخاص، لا على المجموعات القبليّة.

آل أفراسياب ← **قره خانيُّون أو القراخانيّون.**

آل بو سعيد ← **مَسقط** (سلاطين).

آل ثاني ← **قطر.**

آل خليفه ← **البحرين.**

آل سُعود أو السُّعوديُّون، أفراد الأسرة المالكة حاليًا في المملكة العربيّة السعوديّة التي بسط سلطانها في بلاد العرب، في مطلع القرن [العشرين]، عبد العزيز بن سعود.

حكمت الأسرة نفسها، في ما سبق، المملكتين السعوديّتين في نجد اللتين جيلٌ، غير مرّة وبقساوة، دون انطلاقهما السياسيّ، وقد قامت أُولاهما على طموح محمد بن سعود متّخذةً من الدِّرعيّة، موطن آل سعود منذ القرن الخامس عشر، عاصمةً لها. كان محمد شديد الصلة بمصلح دينيّ هو الشيخ ابن عبد الوهّاب الذي ألهمت حركته المعروفة بالوهّابيّة، بصورة مستمرّة، جميع الأنظمة السعودية اللاّحقة. لقد استطاع محمد بن سعود وابنه عبدالعزيز وحفيده سعود وابن حفيده عبدالله، في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر، السيطرة على نجد، فاستولوا على الرّياض في العام ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م، وتوغّلوا حتى العراق عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م، ثم احتلّوا المدينة عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م ومكّة عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م. هذه الدولة السعوديّة التي تشكّلت في وسط شبه الجزيرة العربيّة لم تلبث أن أثارت قلق العثمانيّين الذين وجّهوا لمهاجمتها محمد علي، حاكم مصر شبه المستقلّ، فقامت جيوشه، بقيادة ابراهيم باشا، بالاستيلاء على الحجاز، عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م، ومحاصرة الدرعيّة بنجاح وتدميرها، وأسر الملك عبدالله في الوقت نفسه، فاقتيد إلى اسطنبول وحكم عليه بالموت وأُعدم.

ثم، حوالى العام ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م، تشكّلت من جديد دولة سعوديّة ثانية متّخذة من الرياض عاصمة لها برئاسة الأمير تركي، سليل محمد بن سعود، إلاّ أنّ المملكة الجديدة اصطدمت بمعارضة حاكم بغداد العثماني وعانت بوجه خاص خصومة قبيلة آل الرشيد. فقد استطاع هؤلاء احتلال الرياض عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م، فيما لجأ أمراء سعوديّون إلى كنف أمير الكويت.

إلّا أنّ عبد العزيز بن عبد الرحمٰن أو ابن سعود، سليل الأمير تركي، نجح في نهاية الأمر، على رأس حملة جريئة، في إعادة احتلال الرياض عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م والسيطرة على نجد من جديد. وهكذا أسّس المملكة السعوديّة الثالثة التي وسّع رقعتها وطوّرها شيئًا فشيئًا، بدعم عسكريّ ودينيّ معًا وفّرته له جماعة «الإخوان»: فاحتلّ، بخاصّة، المدن المقدّسة طاردًا منها، عام ١٩٢٤، الأشراف الهاشميّين، وبينهم الشريف حسين أكثرهم طموحًا والمطالب، في أعقاب الحرب العالميّة الأولى، بلقب ملك على إمارته وحتى بلقب خليفة المسلمين. وهكذا أُعلن ابن سعود نفسه، عام ١٩٢٧ «ملكَ نجد والحجاز»؛ وفي عام ١٩٣٤ سمّى مملكته بالاسم الذي تحمله حاليًا. وقد خلف عبد العزيز الذي ملك حتى العام ١٩٥٣ أولاده: سعود، فيصل، خالد، وفهد.

محمّد بن سعود	١١٥٩-١١٧٩هـ/ ١٧٤٦-١٧٦٥م
عبد العزيز الأول	١١٧٩-١٢١٨هـ/ ١٧٦٥-١٨٠٣م
سعود بن عبد العزيز	١٢١٨-١٢٢٩هـ/ ١٨٠٣-١٨١٤م
عبدالله الاول بن سعود	١٢٢٩-١٢٣٤هـ/ ١٨١٤-١٨١٨م
تركي	١٢٣٤-١٢٣٨هـ/ ١٨١٨-١٨٢٣م
فيصل الأول	١٢٣٨-١٢٥٠هـ/ ١٨٢٣-١٨٣٤م
• •	١٢٥٩-١٢٨٢هـ/ ١٨٤٣-١٨٦٥م

خالد بن سعود	١٢٥٣-١٢٥٧هـ/ ١٨٣٧-١٨٤١م
عبدالله الثاني بن ثُنيّان	١٢٥٧-١٢٥٩هـ/ ١٨٤١-١٨٤٣م
عبدالله الثالث بن فيصل	١٢٨٢-١٢٨٨هـ/ ١٨٦٥-١٨٧١م
• • • •	١٢٨٢-١٢٨٨هـ/ ١٨٧٤-١٨٨٧م
سعود بن فيصل	١٢٨٨-١٢٩١هـ/ ١٨٧١-١٨٧٤م
عبد العزيز الثاني بن سعود	١٣٢٠-١٣٧٣هـ/ ١٩٠٢-١٩٥٣م
سعود بن عبد العزيز	١٣٧٣-١٣٨٤هـ/ ١٩٥٣-١٩٦٤م
فيصل الثاني بن عبد العزيز	١٣٨٤-١٣٩٥هـ/ ١٩٦٤-١٩٧٥م
خالد بن عبد العزيز	١٣٩٥-١٤٠٢هـ/ ١٩٧٥-١٩٨٢م
فهد بن عبد العزيز	ولّي الملك سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

◄ راجع المستند ٧.

آل صباح ← الكويت.

آل محمّد أو «أهل البيت»، و«آل البيت»، مجموعة عائليّة ذات مضمون يتّسع ويضيق، أدّى تحديدها الدقيق، في العالم الإسلامي، إلى خلافات ذات منحى سياسيّ-دينيّ.

يُذكر، باستمرار، مع هذه التسمية، أشخاص موقّرون من أهل التقوى في الإسلام، كما جرت العادة السائدة التي تقوم على ذكر عبارة «وآله» عندما يُذكر محمّد، في معرض استمطار البركة عليه في ما يُعرف بالتصلية [= اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد].

إلّا أنّ الإحترام الذي أحاط بآل البيت لم يَحُلْ دون استعمال العبارة وتأويلها بطرق مختلفة، وتحوّلها إلى موضوع جدال خلال ظروف تاريخيّة محدّدة.

بحسب المضمون المحدّد الذي ساد الأوساط الشيعيّة، تشمل العبارة محمّدًا نفسه، وابنته فاطمة، وصهره عليًا، وسبْطَيْه ولديهما الحسن والحسين، أي الجماعة المحدَّدة بأهل الكساء. والواقع أنّ نبيّ الإسلام، بحسب الحديث المرويّ عنه، غطّى بكسائه هؤلاء الأربعة من آله فيما كان يتلو آية من القرآن. كان ذلك بين عامي ١٠-١١هـ/ ٦٣١-٦٣٢م، بينما كان يستقبل وفدًا من نصارى نجران عرض عليهم مُباهلة تتناول طبيعة المسيح، جرى التخلّي عنها في ما بعد. أمّا الآية فكانت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (سورة الأحزاب، الآية ٣٣). وقد بنى عليها الكلام الشيعيّ مفهوم العِصمة التي مثّلت دورًا عظيمًا في تحديدها للفضائل والسلطات المعترف بها للأئِمّة العلويّين. وهكذا، غدت عبارة أهل البيت تعني، بالنسبة إلى الشيعة، حصرًا، العلويّين الذين حصر النبي محمد ﷺ بهم، بحسب اعتقادهم، السلطة فكان لهم الحقّ في المطالبة بها، وقد جرى ذلك في أكثر الأحيان، عبر ثورات لم يُكتب لها النجاح إلّا نادرًا.

من جهة أخرى، شملت هذه العبارة، بمعنًى أوسع، ما وافق العقليّة السُنّيّة، من دون المسّ بالوقار الذي خُصّ به أقارب النبي محمّد ﷺ وذرّيتهم، إذ إنّها ضمّت، إضافةً إلى الأقربين منهم (بمن فيهم زوجاته) وسلالة العلويّين المتحدّرة منهم، الأسر والسُلالات المتحدّرة من عَمَّيْه العبّاس وأبي طالب، وهي سلالات ضمّت الهاشميّين جميعًا. وهكذا غدا آل محمّد، بهذا المعنى، يشملون العبّاسيّين والعلويّين معًا. إستنادًا إلى هذه التسمية التي تجلّى مضمونها في عبارة «وزير آل محمّد» التي استخدمها كتّاب الحوليّات الأقدمون للدلالة على أحد دُعاة «الثورة العبّاسيّة» وهو أبو سلمة، تيسّر للعبّاسيّين أن يُطلقوا حركتهم الثوريّة بدعوة العلويّين للانضمام إليها، ثم حوّلوها لمصلحتهم، بعد أن أفادوا من إخلاص العلويّين ودعمهم الحربي لقضيّتهم.

آمد ← ديار بكر.

الآمدي، سيف الدين علي بن أبي علي التغلبي (٥٥١-٦٣١هـ/ ١١٥٦-١٢٣٣م)، فقيه ومتكلّم من المدرستين الشافعيّة والأشعرية، كان وجهًا بارزًا بين العلماء في سوريا خلال القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد. ولد في آمد/ديار بكر، في بلاد ما بين النهرين العليا، ونشأ على المذهب الحنبلي، وانتقل إلى بغداد حيث انضمّ إلى الشافعيّة وانصرف إلى الفلسفة. ثمّ انحدر إلى القاهرة حيث حسده جماعة من الفقهاء ونسبوا إليه فساد العقيدة بسبب أخذه بمذهب الفلاسفة والحكماء. فترك الآمدي مصر وعاد إلى حماه في سوريا، ثم انتقل إلى دمشق سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م ودرّس فيها بالمدرسة العزيزيّة بناء على رغبة الملك المعظّم الأيوبي. إلّا أنّه عُزل من قبل الملك الأشرف سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م بسبب استعانته بالأوائل في علمه، أي بالفلاسفة الأوائل. فأقام

معتزلًا في بيته حتى وفاته بدمشق سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م. ترك تصانيف مهمّة لم تُدرس بعمق، وهي تعالج قضايا في الفقه، كما أنّ له كتابًا مهمًا في علم الكلام حاول فيه دحض آراء الفلاسفة القدماء، وآراء المعتزلة، والعقيدة المانويّة.

آية الله، لقب لدى الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة يُمنح لبعض المجتهدين في الشريعة - وفق التسمية العربيّة التقنيّة المشتقّة من كلمة «إجتهاد» - ممّن يمارسون مسؤوليّات سياسيّة في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة التي وُلدت سنة ١٩٧٩.

كان انطلاق هذا اللقب نتيجة مباشرة للنظريّات السياسيّة(٤) التي وُضعت، بعد تسلّم الصفويّين السلطة في إيران، في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد. وجاءت هذه النظريات منفصلة عن المواقف السابقة التي كان يدافع عنها الشيعة الإماميّون بعد غيبة آخر أئمة العلويّين المعترَف بهم. هذا التطوّر اتضحت معالمه خلال القرن التاسع عشر، ولكن من دون أن تجد مسألة إسناد هذا اللقب، لا سيّما لقب آية الله العظمى، حلًّا واضحًا، اللهمّ إلّا من خلال اللجوء إلى الإجماع، وهو أمرٌ صعب المنال. وقد طالب الخميني منذ العام ١٩٦٣ بهذا اللقب الأخير الذي كان في أساس نجاحه السياسي. لكنّ آية الله طباطبائي، الذي توفّي سنة ١٩٧٠ في النجف، ادّعى أيضًا بأحقيّته بهذا اللقب.

آيْدِين (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في غرب الأناضول تُذكّر بالإمارة التركمانيّة التي أعطتها اسمها، بعد سيطرة الاسلام الدائمة عليها في أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد.

على مقربة من آثار مدينة «ترالس» القديمة، ما تزال مدينة أيْدين الحاليّة النشيطة، الواقعة في وادي نهر مَنْدَرَس الخصب، تحافظ على القليل من المعالم الباقية من أيام السلالة الآيْدينيّة، وكان مؤسّس هذه السلالة قد اختارها مقرًّا له بعد أن احتلّها سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م. وقد عرفت المدينة من قبل أوّل احتلال تركي سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، ثمّ عادت إلى البيزنطيّين بعد مرور الفرنج بحملتهم الصليبيّة وانتصارهم في معركة دوريليه (Dorylée) سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، وعرفت احتلالًا إسلاميًا آخر مع سلاجقة الروم سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، واحتلالًا تركيًّا نهائيًّا على يدي أحد أُمراء بني منتشا سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م. وإلحاق المدينة بالأمبراطوريّة العثمانيّة الذي تمّ، في البدء، على زمن السلطان بايزيد الأوّل، ثمّ تثبّت سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، على الرغم من الانتصار العابر الذي حقّقه تيمورلنك على الجيوش العثمانيّة قبل سنة، حوّلها في ما بعد إلى مركز إداريّ ثانوي.

◄ راجع المستند ٢٢

الإباضيّة فرع معتدل من الخوارج، انتشر أنصاره في المغرب حيث قاموا بدور تاريخي، وما يزال وجودهم مستمرًّا هناك.

إن منشأ الإباضيّة غير معروف بشكل كافٍ، وكلّ ما نعرفه أنّ لهذه الحركة مؤسّساً مفترَضاً يُدعى إبن إباض، انشقّ عن الخوارج المتطرّفين سنة ٦٥هـ/٦٨٤م، معتمداً عقيدة معتدلة. لكن يبدو أنّ آخرين قد تبنّوا قبله هذا الموقف المعتدل الذي يرفض استثناء غير الخوارج من الجماعة الإسلاميّة، كما يرفض «القتل الديني». ومهما يكن الأمر، فإنّ ابن إباض كان على علاقات بالمراسلة، في العصر الأموي، بالخليفة عبد الملك بن مروان. كما تابع وريثُه في رئاسة الإباضيّة، المحدِّث والفقيه جابر بن زيد المقيم في البصرة، سياسةَ التفاهم مع الحجّاج الحاكم الأموي للأقاليم الشرقيّة، هذه السياسة التي انتهت مع نشوب ثورة ابن الأشعث. وقد عانى الإباضيّون آنئذ، في العراق الأسفل والجزيرة الفراتية، الاضطهاد: فبعضهم أُودع السجن، وبعضهم فرّ إلى عُمان. وفي ظلّ آخر الخلفاء الأمويّين، عادت جماعتهم فانتلفت، ووجّهت دعاة إلى مختلف الأقاليم محدِثةً ثورات أقلقت الخلافة، لكنّها ما لبثت أن تضاءلت تدريجيًّا إلى أن تلاشت.

في أثناء ذلك، كان الإباضيّون في المغرب قد ثبّتوا مكانتهم في مدينة طرابلس. وعندما طردتهم الجيوش العبّاسية سنة ١٤٤هـ/٧٦١م، اجتمعوا في مرحلة لاحقة حول الحاكم السابق للقيروان، إبن رستم، الذي أسّس في المغرب الأوسط سلالة بني رستم الإباضيّة التي اتّخذت من تاهَرْتْ عاصمة لها. وقد اعترفت القبائل البربريّة الإباضيّة بالأمير الرستمي إماماً، إبتداءً من سنة

١٦٠هـ/٧٧٦م. لكن نطاق سلطته انحصر، سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٩م، في المناطق الشرقيّة بسبب عمليّات الأغالبة الذين قطعوا الاتّصالات، عبر بلاد الجريد، بين الدولة الرستميّة وطرابلس. وبعد انهيار دولة بني رستم سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م، انتقلت مجموعات إباضيّة باتّجاه الجنوب الى منطقة ورقلة، ومن هناك إلى غردايا في المزاب، وصمدت في طرابلس، في جبل نَفوسة. وفي ورقلة نشأت جمعيّة من «المتوحّدين» عُرفوا بـ«العزّابة»، يرأسهم شيخ. وفي مكان قريب من ذلك الموضع تقوم البقايا الأثريّة الغنيّة للموقع الذي أنشأه في سدراتا المهاجرون من تاهَرْت، ثم هجروه.

داخل هذه الجماعات عاش فقهاء بارزون أوضحوا، خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، العقيدة الإباضيّة وأكسبوها شكلاً متطوّراً، فبدت قريبة من المعتزلة. ويعود ذلك، بدون شكّ، إلى العلاقات التاريخيّة القديمة بين الفريقين، التي لا نملك عنها معلومات كافية. وقد نشأت، عبر التطوّر الطويل الذي شهدته الإباضيّة، فِرَق اتّخذ كلٌّ منها إمامة مستقلّة، كالإمامة النكّرية في المغرب التي تبنّت، في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، أسوة بالأزارقة والصُّفرية، مواقف متطرّفة، «كالقتل الديني» تجاه الغرباء عن فرقتهم.

وعرفت الإباضيّة مراكز أخرى ناشطة بسطت فيها سيطرتها خلال القرون الوسطى. فثمّة مجموعات إباضيّة ظهرت، منذ زمن بعيد، في شبه الجزيرة العربيّة: في اليمن حيث استمرّ وجودهم حتى القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، ولا سيّما في عُمان في أواخر القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد، حيث تبنّى مذهب الخوارج - المتجذّر في هذه المنطقة - العقيدة الإباضيّة. وتأسّست في هذه المنطقة مجموعة مهمّة امتازت بجهودها في مجال الفكر العقائدي. وقد اعترف زعماؤها بسلطة الأئمّة الرستميّين، ثم استقلّوا عنهم لفترة يصعب تحديدها. وثمّة مراكز إباضيّة أخرى نشأت في أفريقيا الشرقيّة، وإيران والسند والصين في أوساط الجاليات الإسلاميّة التي وصلتها عبر البحر.

وفي عصرنا الحاضر، نجد إباضيّين في الجمهوريّة الجزائريّة، في ورقلة والمزاب، ولذا كثيراً ما تطلق عليهم تسمية المزابيّين؛ وكذلك يوجد إباضيّون في الجمهوريّة التونسيّة، ولا سيّما في جزيرة جربا الواقعة في أقصى الشرق من خليج قابس؛ وكذلك في الجماهيريّة الليبيّة، من دون أن نُغفل وجود مجموعات في سلطنة عُمان، وفي نقاط متفرّقة على الساحل الشرقي لأفريقيا.

أبخازيا (جمهوريّة)، مساحتها ٨ آلاف كلم². عاصمتها سوخومي (Soukhoumi). مقاطعة تابعة لجمهوريّة جيورجيا، لكنّها تتمتّع، منذ العام ١٩٣٧، بدستورها الخاص الذي سمح للأقليّة الإسلاميّة التي تقدر بـ١٧٪ من السكان بالإشراف فعليًّا على البلاد.

يقع هذا الإقليم في شمال غربي جيورجيا، بين القفقاس والبحر الأسود. كان يتبع سابقًا الأمبراطوريّة الروسيّة، وقد عانى لفترة طويلة الفقر وقلّ سكانُه بسبب هجرة مُسلمة إلى السلطنة العثمانيّة. أعادت له الحكومة الروسيّة حدوده في العام ١٩٢١، واعتُبِرَ، في العام ١٩٣٠، جزءًا من جمهوريّة ما وراء القفقاس (Transcaucasie) الإشتراكيّة السوفياتيّة الفدراليّة، ثمّ ضُمّ إلى جمهوريّة جيورجيا الاشتراكيّة السوفياتيّة التي أُنشئت في العام ١٩٣٦. إنّ الحكم الذاتي الذي يتمتّع به الاقليم ضمن هذه الجمهوريّة، التي حصلت على استقلالها في العام ١٩٩١، كان سببًا لتوتّرات سياسيّة يغذّيها، في أيامنا هذه، وجود أبخازيا في جوار جمهوريّة كراتشيفو-شركاسيا (Karatchaevo-Tcherkessie) التي تمارس إدارة ذاتيّة ضمن الفدراليّة الروسيّة.

لقد برزت بوضوح، في الحقبة المعاصرة، أصالة سكّان هذه المنطقة إذ استطاع الأبخاز، وهم كالشركس ينتمون الى مجموعة الشعوب الايبيريّة - القفقاسيّة، أن يدافعوا عن وجودهم طيلة القرون الوسطى وأن يصمدوا في وجه الغزوات الإسلاميّة منذ عهد الفتوحات الكبرى، لكنّهم في النهاية أذعنوا لنفوذ المسلمين. لم تؤثر الحملات العسكريّة الأولى التي وجّهها الأمويّون إلى هذه المنطقة على السكان الأصليّين الذين كانوا في معظمهم قد اعتنقوا المسيحيّة والذين ظلّوا خاضعين لسلطة أُمرائهم. أمّا الحملات المظفّرة التي قادها

تيمورلنك في مطلع القرن الخامس عشر، فلم تعط نتائج ثابتة. إنّ تحوّل المنطقة إلى الإسلام بدأ بجديّة منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي، بعد سيطرة العثمانيّين عليها، ما أدّى إلى اعتناق الحكّام العقيدة الإسلامية. وقد وقف الباب العالي إلى جانب هؤلاء الحكام ضدّ المدّ الروسي وحال دون السماح للروس، الذين كانوا قد سيطروا في سنة ١٨٠١ على جيورجيا، بضم أبخازيا قبل سنة ١٨٦٤.

أبراهام أو إبراهيم، المسمّى غالبًا الخليل أي «صديق» [الله]. شخصيّة من الكتاب المقدّس، يصفه القرآن الكريم بأنّه نبيٌّ ويخصّه بدور استثنائي، معتبرًا إيّاه أوّل المسلمين وأوّل المدافعين عن التوحيد الكامل.

هناك آيات عدّة وردت في أكثر من خمس وعشرين سورة تتعلّق بحقب مختلفة من حياة النبي محمّد ﷺ، ترسم بدقّة هذه الشخصيّة القرآنية المتمثّلة بابراهيم، كما ترسم بعض التفاصيل من سيرته. إنّه الحنيف بالذات الذي أسّس في حياته الديانة الإبراهيميّة أو «ملّة إبراهيم» التي دعا إليها في ما بعد رسول الإسلام ﷺ. شنّ إبراهيم حربًا شاملة على عبادة الأوثان لِيُحلّ محلّها الإيمان بالله وبوحدانيّته. وتذكر الروايات نفسها أنّه أبلغ إلى قوم لوط العقاب الذي ينتظرهم. أطاع الله إلى حدّ جعله يقبل بأن يُضحّي له بابنه. لكنّ القرآن لا يحدّد إذا كان هذا الإبن هو اسماعيل أو إسحاق. هو الذي بنى، بمساعدة إسماعيل، كعبة مكّة التي أصبحت في ما بعد وجهة (قِبلة) صلاة المسلمين ومكان التقاء جموع الحجيج لأداء فريضة الحجّ الإسلامي.

إرتبط تاريخ إبراهيم، خلال حياته الترحاليّة، بتاريخ مكّة وبسكانها، وكان هؤلاء يُعرفون آنذاك ببني جُرهُم، وقد تزوّج فيهم إبنه إسماعيل. يجري إحياء الذكرى السنويّة لأضحيته في عيد المسلمين الرئيسي [عيد الأضحى]، وتؤكّد التقاليد أنّ هذا الحدث جرى في وادي مِنى. ولقد اعتبر علماء الأنساب العرب في القرون الوسطى أبا إسماعيل سلفهم الأكثر شهرةً، حتى إنّ قبره الموجود في مدينة الخليل - وقد أطلق عليها هذا الإسم لأنّها مدينة «صديق الله» - ما زال يشكّل، منذ قرون عدّة، موضوع احترام لدى المسلمين.

يمكننا القول، من الناحية التاريخيّة، إنّ النبيّ محمدًا ﷺ ركّز، خلال الحقبة التي تلت الهجرة مباشرة وتأسيس الدولة في المدينة، على المثال الذي يشكّله [إبراهيم] أبو المؤمنين، وعلى الطابع التوراني للإيمان الذي كان يدافع عنه بنفسه. يظهر ذلك بوضوح، حتى ولو اعتبرنا أنّ موقف النبي ﷺ هذا هو تأكيد لمواقف كان قد اتّخذها من قبل، وأنّه لا يشكّل تحوّلًا جذريًّا في دعوته الدينيّة. أطاريح بعض العلماء الغربيّين في هذا الشأن تؤكّد عكس ذلك، لكنّ المسلمين يرفضونها. إنّ الإصرار على امتداح مثاليّة إبراهيم التي تميّزت بها الحقبة الأخيرة من الدعوة المحمّديّة تبقى مرتبطة، بعد التخلّي عن القدس قبلةً للصلاة، باعتماد فريضة الحجّ إلى مكّة. وقد نقّت الروابط بالإيمان الإبراهيمي هذا الحجّ من آثار الوثنيّة.

أدّت صورة إبراهيم بعد ذلك، وبالتحديد في خضمّ الحقبة القروسطيّة، دورًا أساسيًّا في تطوّر ما نسمّيه «تكريم الأولياء» في الإسلام. وُضع تحت شفاعته العديد من الحُرَم التي يزورها المؤمنون والتي يطلق عليها اسم «مقام» أو «مشهد» أو «مسجد». لم تكن هذه المزارات موجودة في مكّة وجوارها وحدها، بل في العراق أيضًا، وفي بلاد ما بين النهرين العليا، وفي سوريا وفلسطين، إذ كانت هذه البلدان هيَ الأمكنة التي ولد فيها إبراهيم والتي تنقّل فيها راعيًا خلال مراحل حياته والتي استقرّ فيها أخيرًا حتى مماته. إنّ هذه الأمكنة العديدة والمختلفة، التي يقصدها المؤمنون في زيارات تخرج عن إطار الفرائض الدينيّة الشرعية وتدلّ على حيويّة تلك العبادات المتأثّرة بالأصل اليهودي-المسيحي، كانت معروفة جيّدًا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وقد ورد ذكرها في دليل الهَرَوي وبقي معظمها موضوع تبجيل حتى عصرنا الحالي.

آثر الإسلام، بشكل عام، الدفاع بدون أيّ لبس عن كونه ديانة إبراهيميّة، وقد صُبغ بهذه الصبغة منذ انطلاقه. لكنّه لم يعتبر قط أنّ ذلك يشكّل مبرّرًا للبحث عن تقارب بين وحدانيّة الله التي ينادي بها هوَ والوحدانية التي تنادي بها الديانتان الأخريان، أي اليهوديّة

والمسيحية، اللتان تنتسبان، أيضًا، إلى ابراهيم. إضافةً إلى ذلك، إعتبر النبيّ ﷺ، في مجادلته مع اليهود والنصارى، أنّ هؤلاء انحرفوا عن الرسالة التي ائتُمنوا عليها، ما سمح للإسلام بامتلاك ميراث الإيمان الإبراهيمي الحقيقي منفردًا. إستمرّ المسلمون في ما بعد في التركيز على هذا التفوّق، وقد ساهم ذلك في تصلّب موقفهم من «أهل الكتاب».

إبراهيم باشا، ١٢٠٤-١٢٦٥هـ/ ١٧٨٩-١٨٤٨م، الابن البكر لوالي مصر، محمد علي. شارك والده في المهمات السياسيّة والعسكريّة، لكنّه لم يتبوّأ شخصيًّا كرسيّ الحكم. ومع ذلك فقد ترك ابناً، هو اسماعيل الذي تمكّن من الوصول إلى العرش.

مارس نشاطه قائدًا وحاكماً في صعيد مصر إبتداء من ١٨١١، ثمّ في الجزيرة العربيّة حيث حارب آل سعود؛ لكنّ أعماله لم تبلغ كلّ مداها إلا بعد إعادة تنظيم الجيش المصري على يدي كولونيل فرنسي عرف باسم سليمان باشا. شارك ابراهيم عندذاك، بأمر من السلطان العثماني محمود الثاني، في حرب اليونان، لكنّ استعادته لشبه جزيرة المورة فقدت نتائجها بعد الهزيمة البحرية التي مُني بها الأسطولان العثماني والمصري في نافارين. بعد ذلك، احتلّ، لمصلحة مصر، الأراضي السوريّة، حيث حقّق انتصارات متلاحقة على الجيوش العثمانيّة، ولا سيّما احتلال عكّا سنة ١٨٣٢م، والانتصار في شمال سوريا سنة ١٨٣٩م، وهي انتصارات حالت القوى الأوروبيّة دون قطف ثمارها. وإذ اضطرّ الى مغادرة دمشق، بعد مقرّرات معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، اكتفى منذ ذلك الحين بمساعدة أبيه، أو بالنيابة عنه، في حكومة لم يحصل من السلطان العثماني على مسؤولياتها الكاملة إلا بضعة أسابيع قبل وفاته.

إبراهيم بن أدهم، أبو اسحاق العجلي، المعروف أيضاً بـ **إبن أدهم**، ١١٢-١٦١هـ/ ٧٣٠-٧٧٧م، زاهد وصوفيّ شهير، عربيّ الأصل، انتهت حياته المنشرّدة، المثقَلة بالملامح الأسطوريّة، من دون شك، في سوريا.

هذه الشخصيّة السمحة، وسمت بطابعها المميّز، بالنسبة إلى تراث الحقبة اللّاحقة، المرحلة الأولى من التيارات الصوفيّة التي ظهرت في بداية العصور العبّاسيّة، إذ يُنسب إلى مثاله، لا إلى تعليمه - فهو لم يترك أيّ أثرٍ مكتوب - الدّورُ الأساسي الذي أدّاه حينذاك. وثمّة نوادر وأخبار متأخّرة حول سيرته، ما تزال إلى اليوم واسعة الانتشار بالفارسيّة والأُرديّة مثلاً، وكذلك بالعربيّة، ساهمت في نشر شهرة ابراهيم بن أدهم، وشكّلت صورتُهُ لتنشئة أعضاء الفرق الصوفيّة في أواخر القرون الوسطى.

من مواليد بلخ بخراسان في وسط أميري، تخلّى ابن أدهم عن امتيازاته، ليعيش حياة الفقر، كاسباً قوته بعمل يديه، ومشاركاً في حملات الجهاد، على الحدود العربيّة-البيزنطيّة، مطبّقاً عمليًّا كل أشكال نكران الذات والحسنى تجاه الآخرين. إنّ المدى الذي بلغه تكريم ابن أدهم، وأحاط بذكراه منذ وفاته، يظهر في تعدّد المدافن التي تنسب إليه، ولا سيّما في جبلة، في شمال الشاطئ السوري، وهو مقام ما زال مميّزاً بمزار. وقد حسّنه المماليك، وكان محجًّا لزيارات تَقَوِيَّة، عند انطلاق تقليد «تكريم الأولياء»، ورد ذكره منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي في دليل الهروي.

إبراهيم بن المهدي، ١٦٢-٢٢٤هـ/ ٧٧٩-٨٣٩م، ابن الخليفة المهدي، الثالث من السلالة العباسيّة، عُرف عنه انه قَبِلَ أن يبايعه بالخلافة سكّان بغداد، وذلك في محرّم ٢٠٢هـ/ تموز ٨١٧م. فقد رفض هؤلاء تعيين المأمون عليًّا بن موسى الرضا، خلفاً له، وهو إمام علويّ يدّعي حقّه بالخلافة. إن ابراهيم الذي انقاد إلى هذه المغامرة، من دون أن تكون له طموحات سياسيّة حقيقيّة، استقال من منصبه عندما أعاد الخليفة الحاكم سيطرته على الوضع السياسي، بعد أن ترك مكان إقامته في مَرْو، في آسيا الوسطى، وعاد إلى العراق في حزيران ٢٠٤هـ/ ٨١٩م. سُجن ابراهيم، ثمّ عفا عنه المأمون بعد انتصاره، فانصرف منذ ذلك الحين، حتى نهاية حياته، إلى ممارسة نشاطه شاعراً وموسيقيًّا، في بغداد ثمّ في سامرّاء.

الأُبُلَّة، ناحية مرفئيّة بائدة في العراق، نعمت بازدهار كبير حتى القرن السابع الهجري/الثالث عشر

الميلادي، وقد استوعبها ازدهار مدينة البصرة في الزمن المعاصر.

بحكم موقعها، في العصور الوسطى، بين دجلة وقناة مهمّة حملت اسمها، كانت الأبُلّة المرسى البحريّ الوحيد لمصبّ دجلة ومركزًا تجاريًا مقصودًا، قبل أن تُدخلها الفتوحات الكبرى، عام ١٧هـ/٦٣٨م، في الخلافة الإسلامية. إلّا أنّ الفاتحين لم يستقرّوا فيها لأنّهم آثروا أن يؤسّسوا، على مقربة منها، مدينةً - معسكرًا باسم البصرة بعيدًا من النهر وعلى أبواب الصحراء، في مكان أكثر ملاءمةً للحفاظ على الإتّصالات بشبه الجزيرة العربيّة. ومنذ ذلك الوقت، وفي جوار هذا المركز الإداري المُحدث، دخلت الأبُلّة عهد الإنحطاط، لكنّها ظلّت تسترعي الإنتباه كمدينة ناشطة مترامية الأطراف غنيّة بالمباني ومحاطة بالحدائق؛ ولم يدمّرها سوى الغزو المغولي وانحسار حركتها التجاريّة نتيجة تراجع مياه الخليج العربي الفارسي بعيدًا عن إنشاءاتها.

إبليس ← **الشيطان.**

إبن أبي زيد القيرواني، أبو محمّد عبدالله، ٣١٠-٣٨٦هـ/٩٢٢-٩٩٦م، فقيه شهير في القيروان، كان مرجعًا في المدينة حيث حقّق للمذهب المالكي ازدهاراً استمرّ زماناً طويلاً.

جهد في الدفاع عن مذهبه، زمنَ السيطرة الفاطميّة على إفريقية، التي أرادت أن تبسط على البلاد مبادئ التشيّع. وعاش أيضاً في ظلّ بني زيري الذين انفصلوا عن العقيدة المذكورة. ألّف عدداً من الكتب الشهيرة، لا سيّما «الرسالة» التي كتبت سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م. هذا الملخّص في الفقه الإسلامي التقليدي كان معتمداً بكثرة، وما يزال كذلك حتى اليوم، في تدريس المذهب المالكي.

إبن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي ٥٥٥-٦٣٠هـ/١١٦٠-١٢٣٣م، واضع حوليّات ومؤرّخ عربي اللغة، ينتمي إلى أسرة موظّفين لدى آل زنكي، عاش في منطقة الموصل في أعالي ما بين النهرين.

ترتبط شهرته بصفته عالماً موسوعيًّا - وكذلك شهرة اثنين من إخوته، انصرف أحدهما إلى العلوم الدينيّة والآخر إلى الآداب - لكنّها لا تطلعنا على ظروف حياته: فنحن لا نعرف إلّا رحلاته في منطقة الشرق الأدنى حينذاك، ومشاركته في بعض المعارك ضدّ الفرنج تحت راية صلاح الدين. أمّا حوليّاته التاريخيّة فقد لقيت عبر العصور حظوة مميّزة. ألّف ابن الأثير معجماً في سِيَر الصحابة هو «أُسْدُ الغابة»، كما وضع تاريخ «أتابكة الموصل»، ولا سيّما تاريخه الشامل وعنوانه «الكامل» الذي يزعم أنّه جمع فيه كل الحوادث التي حصلت منذ خلق العالم حتى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م.

لقد اعتمد المؤرّخون اللّاحقون على هذه المجموعة الواضحة والدقيقة، التي استندت إلى مصادر جيّدة ولكنّها، مع الأسف، غير مذكورة. ويتّضح في الكتاب بعض الانحياز الناتج عن ميول مؤلّفه إلى المنطقة التي ينتمي إليها.

إبن إسحق، أبو عبدالله محمد بن إسحق بن يسار، ٨٥-١٥٠هـ/٧٠٤-٧٦٧م، محدّث من العصر الأموي في الشرق، وضع أسس سيرة النبيّ محمد (ﷺ) في كتابه المعروف بـ«السيرة النبويّة».

هذا الكتاب الذي وصل إلينا من خلال تعديلات ابن هشام، أتاح الشهرة والمجد، في المجتمع الإسلامي، لابن إسحق، وهو حفيد أحد الموالي، وكان قد ولد في المدينة قبل أن يستقرّ في مصر، ثمّ في أماكن مختلفة من العراق، وأخيراً في بغداد حيث توفي في تاريخ غير محقّق. إنّ الانتقادات التي وجّهها إليه بعضُ معاصريه، كمالك بن أنس، تتناول مقدرته الفقهيّة وحدها، وربّما كانت ناتجة عمّا أخذ عليه من اتّجاه إلى التشيّع والقَدريّة.

إبن إياس، زين الدين أبو البركات محمّد بن أحمد الناصريّ الجركسي الحنفي، ٨٥٢-٩٣٠هـ/١٤٤٨-١٥٢٤م، مؤرّخ لمصر، ويشكّل كتابه المصدر الأهمّ لتاريخ هذه البلاد في نهاية عهد المماليك وبداية السيطرة العثمانيّة.

ينتمي المؤلف إلى أسرة من الأمراء المماليك شركسية الأصل؛ إنّه مرتبط إذاً بالأوساط العسكريّة الحاكمة في ذلك الوقت. وقد تتلمذ على علماء مسلمين

تقليديّين كالسيوطي المتنوّع المؤلّفات، والفقيه عبد البسيط بن الخليل. لكنّه كان يرغب في منافسة مؤرّخ أقدم منه هو ابن تَغري بِرْدي. فضمّ إلى تاريخه الكامل لمصر منذ العهد الفرعوني ملاحظات شاهد عيان، غالباً ما كانت بالغة الأهمية، وهي تتناول خاصة حكم قانصوه الغوري والنكبة العسكريّة التي سرّعت في إنهاء دولته بطريقة مأسويّة.

إبن بابَوَيْه أو بابُويَ ← الصَّدوق (الشيخ)

إبن باجّه، أبو بكر محمّد بن يحيى بن الصائغ التُجيبي الأندلسي (؟-٥٣٣هـ/ ؟-١١٣٩م)، عالم ومفكّر أندلسي، كان لآرائه تأثير في فكر ابن رشد، ولقيت رواجًا خارج حدود عالم الإسلام، فنجد استشهادات منه وردت عند ألبير الكبير.

ولد في سَرَقُسْطَة في أواخر القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، ودخل في خدمة المرابطين عندما استولى هؤلاء على المدينة سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م. وعندما وقعت بيد ألفونسو الأول ملك أراغون سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، انتقل ابن باجّة إلى جنوب شبه الجزيرة الإيبريّة، وذُكر وجوده في إشبيلية كما في غرناطة. ثمّ استُقبل بحفاوة في بلاط فاس بالمغرب حيث دفع الحسد بأطبّاء البلاط الآخرين إلى دسّ السمّ له، فمات في تلك المدينة، في ربيع سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م.

إلى جانب تعمّقه في الطبّ والرياضيات والفلك والفلسفة، عُرف ابن باجّة أيضًا شاعرًا وموسيقيًا. وقد ترك مجموعة شروحات حول أعمال أرسطو، ومؤلّفات فلسفيّة تناولت على الأخصّ النفس والعقل وعلم الأخلاق، كما وضع رسالة لم يكملها بعنوان «تدبير المتوحّد». وبحسب المذهب العقلي أو «الفكراني»، المرتبط بالفلسفة الأفلاطونيّة الجديدة الذي جاهر به، ولكن من دون أن يعطيه أي طابع صوفي؛ وحده التفكير النظري يسمح بادراك المعارف العقليّة والاتصال بالعقل الفعّال. ولكن هذه المعارف تبقى محصورة ببعض الأشخاص النوابغ الذين يُحكم عليهم أن يعيشوا، في أغلب الأحيان، متوحّدين في حواضر تعتريها العيوب.

إبن باديس، عبد الحميد بن المصطفى ١٨٨٩-١٩٤٠، مفكر دافع عن قضيّة الإصلاح الإسلامي في الجزائر وقام بدور سياسي وديني في هذه المنطقة. ولد في قُسَنْطينة وبدأ عمله صحافيًّا، وأسّس حوالى سنة ١٩٢٥ «الشهاب»، مجلة شهرية استمرّ صدورها حتى سنة ١٩٣٩، وكانت تنشر الأفكار التحديثيّة المستوحاة من مجلة «المنار» لرشيد رضا، وتدعو في الوقت نفسه إلى مبادئ قوميّة. أصبح ابن باديس في سنة ١٩٣١ رئيس تجمّع العلماء الجزائريّين، وأحد أبرز ممثّلي الجماعة الإسلاميّة في بلاده. ساهم في تشجيع التجدّد الثقافي العربي-الإسلامي، ووضع، عدا مقالاته الكثيرة، تفسيراً للقرآن الكريم أكسبه شهرة واسعة.

إبن بَطّة، أبو عبدالله عبيدالله بن محمد العكبري، ٣٠٤-٣٨٧هـ/ ٩١٧-٩٩٧م، متكلّم وفقيه حنبلي، ذاعت شهرته في العراق المنقسم مذهبيًّا تحت وصاية البويهيّين الشيعة، لتشدّده العقائدي ونضاله في سبيل المذهب السنّي.

بعد أن تلقّى ابن بطة ثقافة موسوعيّة في بغداد، قام برحلات دراسيّة إلى مكة ثم إلى سوريا، قبل أن يعود إلى بلاده، وفيها كانت نهاية حياته. تركّز نشاطه على رواية الحديث والمواعظ، وترك مؤلّفات عقائديّة وفقهيّة، لا سيّما مؤلّفه «الإبانة الصغيرة» الذي ساهم في ذيوع شهرته الواسعة. ناهض تعليمه الإيماني الواضح كل أنواع البدع، ودعا للعودة إلى الإسلام الأصيل بحسب ما كانت عليه صيغته وتطبيقه على عهد النبيّ محمد (ﷺ) والخلفاء الثلاثة الأوّلين.

إبن بَطُّوطة، شمس الدين أبو عبدالله محمد اللواتي الطنجي، ٧٠٣-٧٧٩هـ/ ١٣٠٤-١٣٧٧م، رحّالة وجغرافي، ولد في المغرب وبدأ حياته فقيهاً تقليديّ الثقافة، وتجوّل في العالم الإسلامي بين ٧٢٥ و٧٥٤هـ/ ١٣٢٥ و١٣٥٣م، قبل ان يؤلّف كتابه الذي روى فيه رحلاته.

إن تنقّلاته الكثيرة خارج بلاده جعلته يقيم تباعاً في مصر وسوريا، وجزيرة العرب والعراق، وشرقيّ أفريقيا والأناضول، وبلاد ما وراء النهر، والهند وسيلان وجزر

المالديف، والهند الصينيّة والصين، وكذلك في سردينيا، وإفريقية والجزائر والأندلس. ثم استقرّ في فاس حتى وفاته.

لم يدوّن ابن بطوطة أخبار رحلاته بنفسه، بل دوّنها مثقّف يُدعى ابن جُزَيّ بتكليف من السلطان المريني أبو عنان. إنّ المعلومات الواردة فيها لا تستند إلى ذكريات ما شاهده ابن بطوطة فحسب، بل تستعير من ابن جُبير معلومات عن بعض المناطق. ومع ذلك فإنّها لا تخلو من معلومات قيّمة، لا سيّما عن الهند وجزر اندونيسيا والأناضول وآسيا الوسطى وبعض المناطق الأفريقية. إنّ «رحلته» تصوّر بشكل حيّ عالم القرون الوسطى حيث نرى، حتّى في الأقاليم البعيدة التي اعتنقت الاسلام في فترة متأخرة، جماعة مسلمة تعيش متضامنة في تصرّفاتها، فتستقبل مسلماً من بلد آخر وتُسند إليه الوظائف الاجتماعيّة-الدينيّة، فتعيّنه، مثلاً، قاضياً، لأنّه أظهر جدارة فقهيّة.

إبن البوّاب، أبو الحسن علي بن هلال المعروف أيضاً بابن السِتْري، ؟-٤١٣هـ/ ؟-١٠٢٢م، خطّاط شهير، عاش في العراق في العصر العبّاسي على عهد البويهيّين، قد يكون جوّد نمطاً من الكتابة العربيّة اخترعه ابن مقلة.

تردّد ابن البوّاب على الأوساط الإسلاميّة الحاكمة، وعمل في خدمة بعض رعاة الآداب منهم، ومارس، سواء في بغداد أو في بلاد فارس، وظيفة نسّاخ مميّز. ثمّة نسخة من القرآن وقّعها سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م، محفوظة في مكتبة تْشِسْتربيتي في دبلن، يمكن أن تقدّم فكرة دقيقة عن هذه «الكتابة المتناسبة» التي أجادها حتى وفاته في بغداد، وكانت سبب شهرته.

إبن بيبي أو إبن البيبي المنجّمة «إبن الأميرة المنجّمة»، **الحسين بن محمد**، القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أديب إيراني الأصل ومؤرّخ عاش في بلاد الأناضول الإسلامية حيث شكّلت مؤلّفاته باللغة الفارسيّة شاهداً على تلك البلاد بالغ الأهمية.

يتحدّر ابن البيبي، من جهة والدته، من أسرة مثقّفة من نيسابور، وتابع، في بلاط سلاجقة الروم، تقليد الاستكتاب الذي ورثه عن أبيه، فعمل في الإدارة لدى سلاطين قونية بعد أن تخلّى عن وظيفته في بلاط آخر الخوارزمشاهيّين، وبعد أن كان في خدمة السلطان الأيوبي الحاكم في دمشق. هذه المسيرة العائلية جعلت ابن بيبي، وهو رئيس الكتّاب وواضع المذكّرات التاريخيّة، شخصيّة مميّزة تمثل تطوّر العالم الإسلامي التركي-الإيراني، في عهد استطاع أن يقوم فيه بدور رسمي مهمّ. إنّ الحوليّات التي ألّفها تتناول الحقبة الواقعة ما بين ٥٨٨ و٦٧٩هـ/ ١١٩٢ و١٢٨٠م.

إبن البيطار، أبو محمّد عبدالله ؟ - ٦٤٦هـ/ ؟-١٢٤٨م، صيدلاني عالم، خَلَّف قوائم بأسماء الأدوية البسيطة والمركبة المعتمدة في الطب، إستناداً إلى معطيات موثوق بها قديمة وإلى ملاحظاته الخاصة.

ولد في مالقة في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ودرس في إشبيلية قبل أن ينتقل، حوالى سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، إلى الشرق حيث نال حظوة لدى الأيوبيّين. عُيّن رئيس «العشّابين» في القاهرة حيث أقام، وكان في الوقت نفسه يقوم برحلات لمتابعة أبحاثه، ثم استقرّ في دمشق، وفيها توفي بعد أن وضع، على شكل مقالات متنوّعة ألّفها أو جمعها، عملاً علميًّا لقي حظوة خلال القرون الوسطى داخل العالم الإسلامي وخارجه.

إبن تَغري بِرْدِي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ٨١٢-٨٧٤هـ/ ١٤٠٩-١٤٧٠م، مؤرّخ عربي، عاش في القاهرة على عهد المماليك البرجيّين، وكان ينتمي إلى طبقتهم الحاكمة.

ابنُ مملوكٍ من أصل أناضولي لقي حظوة لدى السلطان برقوق، وأصبح القائد الأعلى للجيوش ونائب الملك في سوريا. تلقّى ابن تغري بردي، بعد وفاة والده المبكّرة، سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، تربية تقليديّة وتمرّس بأساليب القتال. اتّخذه السلطان برسْباي لخاصته، وكذلك فعل خلفاؤه، فأصبح من أهمّ المؤرّخين الممثّلين للعصر المملوكي. فضلاً عن سِيَر السلاطين والأمراء الذين حكموا من ٦٥٠ إلى ٨٥٥هـ/من ١٢٤٨ إلى ١٤٥١م، الواردة في كتاب **المنهل الصافي**، وعن مؤلّفه الضخم كتاب **النجوم الزاهرة** الذي يتناول مصر منذ سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م، أضاف حوليّات تناولت الحقبة

التابعة مباشرة لكتاب «السلوك» للمقريزي، أي أنّها تروي الأحداث التي استجدّت في مصر بين ٨٤٥ و٨٧٤هـ/ ١٤٤١ و١٤٦٩م.

إبن تومرت، المهدي، ٤٧٤-٥٢٤هـ/ ١٠٨٠-١١٣٠م، مؤسّس حركة دينيّة بُشّر بعقيدتها، وانتشرت بقوّة السلاح في المغرب، وأدّت إلى تأسيس سلالة من «أتباع الوحدة الإلهيّة»، الموحّدين، على يدي خليفته عبد المؤمن.

ينتمي ابن تومرت بأصله إلى البربر. ولد في جماعة قبلية من مصمودة، في منطقة الأطلس الداخليّة ورحل في طلب العلم حتى قرطبة والاسكندريّة ومكّة، ثمّ بغداد، وأقام في المشرق حيث درس على عددٍ من الأساتذة. رويت عنه نوادر، معظمها خرافي، جعلته يلتقي الغزالي، أهمّ مفكري الإسلام في ذلك العصر. وفي طريق عودته إلى بلاده حوالى سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦، ومنذ وصوله إلى إفريقية، بدأ بإعلان أفكاره الخاصة في العقيدة الدينيّة والسياسة، جاذباً إليه كثيراً من المستمعين الذين قدّروا علمه وطريقته في اتّباعه الدقيق للفرائض الدينيّة. في هذه المرحلة، التقى البيذق الذي دوّن مذكراتٍ يُشك في صحّتها، كما التقى عبد المؤمن الذي أصبح خليفته. أحاط به أتباعه المؤمنون بعقيدته، فأثار اضطرابات في أماكن مختلفة، ثم تحوّل إلى التمرّد العلني ضد المرابطين، في جنوب المغرب، معلناً وشوك مجيء المهدي. وبنتيجة دعوته، أقرّ به أتباعه بأنّه هو المهديّ، وذلك سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م.

عندذاك، طرد من جماعته كل الذين لم يلتزموا حركته، معتمدًا على المساعدة الناشطة التي قدّمها له «الصحابة العشرة»، واختار موقع تِنْمال الجبلي الذي كان يشرف منه على منطقة الأنتي-أطلس والسوس، واعتبر ذلك الموضع مكان «هجرته» سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م. ثم عمد إلى تقوية دولته الثوريّة القائمة على تراتبيّة طريفة، فهي تضمّ مجلساً من عشرة دعاة، وجمعيّة من خمسين مبشّراً اختارهم تبعاً لاندفاعهم. وأخيراً باشر بسلسلة من الحملات الحربيّة حقّقت له انتصارات كثيرة، لكنّه مُنِيَ في المقابل بهزيمة عندما حاول اجتياح مراكش، وعقب ذلك بعدّة أشهر، وافته المنيّة سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م.

لقد تحقّقت مشاريعه، لاحقاً، مع ازدهار سلطة الموحّدين السياسيّة، فهؤلاء ظلّوا أوفياء للعقيدة المنسوبة إلى ابن تومرت. هذه العقيدة المرتبطة بوضوح بتيار المهديّة، لكن يصعب إعطاؤها ميزة محدّدة. فهي معقّدة التركيب، تنتسب إلى بربريّ متشدّد جمع عناصر مختلفة أخذها من التيارات الفكريّة الشرقيّة. واقع الأمر أن ابن تومرت حارب المشبِّهة ليدافع عن وحدانيّة الله الذي اعتبره بدون صفات منفصلة، وهو في ذلك كان يستوحي الأشعريّة، وربّما المعتزلة. وفضلاً عن ذلك، كان يعارض وجود مذاهب فقهيّة مختلفة، معتبراً أنّه يجب العودة إلى النصوص الأساسيّة في القرآن والحديث. أما بالنسبة إلى فكرة «المهدي» فيبدو أنّه استعارها من التشيّع، وعدّل فيها لترضي الأوساط السنيّة التي وجّه دعوته إليها بشكل أساسي واستطاع أن يستميلها إليه.

إبن تيميّة، تقي الدين أحمد، ٦٦١-٧٢٨هـ/ ١٢٦٣-١٣٢٨م، متكلّم وفقيه طبع تاريخ المذهب الحنبلي على عهد المماليك البحريين، وقام بدور بارز في سوريا ومصر، في زمانه، قبل أن تؤثّر كتاباته في القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد، في المُنظِّر المقبل للعقيدة الوهّابية.

ولد ابن تيميّة في حرّان، وقد اضطرّت عائلته لتركها عند الاجتياح المغولي لتستقرّ في دمشق، سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م. علّم في مدرسة وكذلك في المسجد الجامع، قبل أن يصبح أستاذاً في المدرسة الحنبليّة. منذ سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م، عاش حياة مضطربة، سواء في القاهرة أو في دمشق حيث توفي سجينًا في قلعتها. ترك نتاجاً غزيراً يمكن أن يُعَدّ جديداً، مع أن المؤلّف يتّبع خطّ المذهب الحنبلي. فهو، وان كان تلميذاً للمؤلّفين الكبار في هذا المذهب، يعرف أيضًا المواقف الفقهيّة والكلاميّة لدى المذاهب الأخرى، فضلاً عن تضلّعه في التصوّف.

إن عقيدة ابن تيميّة، كما تظهر من خلال «إعلان إيمانه» في مواضيع مختلفة، عقيدة تعتمد على الايمان، لكنّها لا ترفض استبطان الدين، وتسعى إلى الحلول في

مرتبة وسطى بين التناقضات المتطرّفة. وعلى الصعيد الفقهي، أفسح في المجال للرأي باعتماد القياس رافضًا مبدأ «المصلحة العامّة» الذي يصعب جداً تطبيقه، وكان يرفض إقفال باب الاجتهاد.

لكنّ فكره، على الصعيد السياسي، أشدّ أصالةً. لقد أعلن شرعيّة الخلفاء الأربعة الراشدين، بدون أن ينحاز إلى عثمان أو علي، ولم يدافع، مثل بعض المؤلّفين السابقين، عن ضرورة وجود خلافة موحّدة. وعلى عكس ذلك، أقرّ بأن الجماعة الإسلاميّة أصبحت اتّحاد دول، وفي كل منها يتوجّب على صاحب السلطة أن يفرض الشريعة، ولكلّ فرد حقّ إسداء النصح له. إنّ دراسته المطوّلة للحق العام، تستند إلى الآية الآتية: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (القرآن، سورة النساء، الآية ٥٩)، ويشدّد على واجبات الحكام ومساعديهم الاخلاقيّة، أكثر ممّا يشدّد على طبيعة وظائفهم. فضلاً عن ذلك، اهتمّ ابن تيمية «بالأخلاق الاقتصاديّة»، داعياً إلى التعاون والتعاضد وإلى وضع حدود دقيقة للضرائب على الأسعار التي كانت تطبّق في زمانه.

كان ابن تيميّة معتدلاً في مواقفه، لكنّه متشدّد في بعض المجالات، فاصطدم، جرّاء ذلك، مرّات متعدّدة، بمعارضة معاصريه. فقد عانى السجن، للمرّة الأولى، في دمشق، سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م، بسبب التشدّد في موقفه من مسيحي اتُّهم بشتم الرسول. واتُّهم لاحقاً بالقول بعقيدة التجسيم، فرفض المثول أمام قاضٍ حنفي معلناً عدم صلاحيته في هذا المجال. وفي سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٦م، بناءً على شكوى القاضي الشافعي في دمشق، استدعي إلى القاهرة، ومثل أمام مجلس يضمّ الأربعة الذين يتولّون منصب «قاضي القضاة» في العاصمة. واتّهم مرّة أخرى بعقيدة التجسيم، فسجن لمدّة سنة ونصف السنة، ولوحق نتيجةً لحملاته المتواصلة على بعض النظريّات الصوفيّة التي وصفها بأنّها «بدع» تستحقّ التنديد بها، كنظريّات ابن العربي.

إبتداء من سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، قام ابن تيميّة في دمشق بدور رئيسي لمذهب مرموق، مع أنّه كان ما يزال عرضة لاتّهامات توجّه إليه من حاشية السلطان، ولكراهية أسرة دمشقيّة نافذة هي عائلة السُّبكي، التي كانت تساند المذهب الشافعي وتدافع عن الأشعريّة. سُجن ابن تيميّة في قلعة دمشق لبضعة أشهر، سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، ومرّة أخرى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، بسبب مؤلّفه الذي يحرّم فيه تكريم الأولياء، وتابع كتابة «الفتاوى» إلى أن مُنع عنه ورق الكتابة، والريشة والكتب، وذلك خمسة أشهر قبل وفاته. وكانت جنازته شاهداً على ما كسبه من الشعبيّة الكبرى في منطقته، التي جعلت قبره موضعَ تكريم ومزاراً.

على الرغم من الاضطهاد المستمرّ الذي تعرّض له، ساند ابن تيميّة السلطة الحاكمة مراراً متعدّدة، ولا سيّما بالحثّ على الجهاد بين ٦٩٨ و٧٠٢هـ/١٢٩٩ و١٣٠٣م. وكان مستشاراً للسلطان المملوكي محمد بن قلاوون في القاهرة بين ٧٠٩ و٧١٣هـ/١٣١٠ و١٣١٣م. إنّ أفكاره التي انتشرت في أوساط مختلفة، استمرّ تأثيرها الشديد في أواخر عهد المماليك وخلال العهد العثماني، إلى حدّ جعل محمّدًا بن عبد الوهاب، مؤسّس الحركة الوهّابيّة، يتبنّى معظمها.

إبن جُبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبير الكناني، ٥٤٠-٦١٤هـ/١١٤٥-١٢١٧م، رحّالة وأديب أندلسي اكتسب شهرة بالرواية التي دوّنها عن حجّه إلى الشرق، وهي تشكّل وثيقة مميّزة عن الحياة في المناطق التي اجتازها. ولد ابن جُبير في بَلَنْسِية حيث حصّل ثقافة تقليديّة جيّدة، دينيّة وأدبيّة، واستُكتب لدى حاكم غرناطة، وكان قد نال حظًّا من الشهرة بصفته شاعراً، عندما قرّر، سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، الذهاب إلى مكّة. قصد في بادئ الأمر سَبْتة، ومنها أبحر إلى الإسكندريّة على مركب جَنَوي توقّف في سردينيا وصقلّية وكريت. ومن مصر التي عبرها ليبلغ الحجاز عن طريق عيذاب والبحر الأحمر، وصل إلى المدينة المقدّسة وأقام فيها تسعة أشهر، ثمّ قصد العراق وما بين النهرين، مارًّا بالكوفة وبغداد والموصل، قبل أن يبلغ حلب ودمشق في سوريا، ثم عكّا في فلسطين، ومنها أبحر مجدّداً، سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، على مركب جَنَوي. وبعد غرق المركب، اضطرّ إلى عبور صقلّية النورمانيّة، ووصل إلى قرطاجنة في ذي الحجّة ٥٨٠هـ/آذار ١١٨٥م. قام برحلة ثانية إلى الشرق، بين سنتي ٥٨٥ و٥٨٧هـ/

١١٨٩-١١٩١م، ثم سافر إلى الإسكندريّة سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م حيث انصرف إلى التعليم. وهناك توفي بعد وصوله ببضعة أشهر.

ليست رحلة ابن جبير، التي كتبها عن حجّه وعن الطرق البعيدة التي سلكها للوصول إلى مكّة والرجوع منها، أوّل رحلة من هذا النوع كتبها مؤلّف عربي فحسب، بل هي نصّ ذو قيمة أدبيّة كبرى، أظهر فيه الكاتب، في آن معاً، وضوحاً في الملاحظة ودقّة في معرفة النفس الإنسانيّة. نجد في الرحلة أوصافاً معماريّة تفصيليّة كما نجد فيها أخبارًا عن الحياة اليوميّة، هذا من دون أن نُغفل تلميحه إلى الأحداث المميّزة التي طبعت مساره الطويل.

إبن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، ٥١٠-٥٩٧هـ/ ١١١٦-١٢٠٠م. مؤرّخ وعلاّمة حنبلي، وخاصة فقيه ومحدّث، عمل مدرّساً ناجحاً، وواعظاً وخطيباً في بغداد في أواخر العهد السلجوقي.

كُلّفَ ابن الجوزي، بنوع خاص، بين سنة ٥٦٦ و٥٧٤هـ/ ١١٧١ و١١٧٩م، الدفاعَ عن السنّة في مواجهة جميع الذين يسيئون إلى شرف الصحابة، أي في مواجهة معتنقي التشيّع. فقد اكتسب، خلال حياته، تربية تقليديّة صلبة، وأفاد من مساندة خلفاء عدّة من السلالة العبّاسيّة أرادوا أن يستعيدوا مجدهم السياسي-الديني. هؤلاء الخلفاء، من المكتفي إلى الناصر لدين الله، منحوه، في العاصمة، سلطةَ تفتيش حقيقيّة، وفي الوقت نفسه إدارةَ مدارس عدّة. وقد استخدم هذه السلطة لتمييز المذهب الحنبلي على حساب المذاهب الأخرى. هذا الموقف سبّب له، في أواخر حياته، التوقيف والنفي إلى واسط لمدّة خمس سنوات (٥٩٠-٥٩٥هـ/ ١١٩٤-١١٩٩م). توفي، بعد رجوعه إلى بغداد بوقت قصير، وقد استمرّ طوال حياته، سواء بمؤلّفاته أو بنشاطه، شديد التأثير في معتقدات المذهب الحنبلي، ويمكن اعتباره في ذلك العصر أحد أبرز ممثّليه.

إنّ نتاجه الوافر يتضمّن أكثر من مئتي كتاب، نذكر منها بنوع خاص حوليّة قيّمة في تاريخ الخلافة عنوانها «المنتظم»، ومعجماً للأولياء عنوانه «صفة الصفوة» - هدف من خلاله إلى الدفاع عن أصحاب التصوّف المستقيم الذين صنّفوا أنفسهم في خطّ صحابة النبي محمّد (ﷺ) - وتراجم مدحيّة عائدة الى بعض الشخصيّات الكبرى في تاريخ الإسلام، كما وضع نقداً لكلّ المذاهب التي يراها منحرفة أسماه «تلبيس إبليس»، أي حبك الشيطان.

إبن حَجَر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد، ٧٧٣-٨٥٢هـ/ ١٣٧٢-١٤٤٩م، محدّث من مصر خلال عهد المماليك. نال في زمانه شهرة واسعة ومتمادية، سواء في مجال العلوم الدينيّة أو في التاريخ.

كان أستاذ الحديث إبتداء من سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م في القاهرة حيث استقرّت أسرته، بعد انتقالها من عسقلان إلى الإسكندريّة. قام ابن حجر بمهمات المفتي والخطيب في المسجدين الجامعين الأساسيّين في العاصمة، وحافظ مكتبة وكبير القضاة. كان كل ذلك عملاً عاديًا لرجل يمثل البورجوازيّة التجاريّة الغنيّة، استطاع أن يحصّل ثقافة جيّدة في مذهبه الشافعي. وكان محطّ إعجاب بمؤلّفاته الموسوعيّة التي لقيت شهرة في زمانه، من آسيا الوسطى التيموريّة حتى تونس في عهد بني حفص. فقد ألّف عدداً وفيرًا من الكتب، والحوليّات ومعاجم التراجم. ومع أنّ طابع التجميع هو الغالب عليها، فإنّ قيمتها تكمن في دقّتها، وهي ما تزال إلى اليوم مصادر تاريخيّة بالغة الدقة، تتناول العصور الإسلاميّة، كما العصر الذي عاش فيه مؤلّفها.

إبن حَزْم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ٣٨٤-٤٥٦هـ/ ٩٩٤-١٠٦٤م، شاعر ومفكر وفقيه ومؤرخ أندلسي دافع عن تعاليم الظاهريّة، لكنّه تميّز كذلك بمواهبه الأدبيّة.

في حقبة هي الأشدّ ظلمة في تاريخ تلك المنطقة، استطاع ابن حزم أن ينجو من الصعاب المحيطة به بتكريس نفسه للتبحّر في العلوم وفي وضع المؤلّفات التي أكسبته شهرة واسعة، في مرحلة لاحقة. ولد بقرطبة في أسرة أرستقراطيّة، فهو ابن وزير أمير الجيش و«عمدة البلاط» المنصور بن أبي عامر المعروف بالأسبانيّة بـ «Almanzor»، وهذا ما حقّق له تربية تقليديّة

كاملة. شهد منذ فتوّته الاضطرابات التي رافقت انحطاط خلافة الأمويّين في الغرب. وبعد وفاة أبيه ونهب العاصمة سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، بحث عن ملجأ في أمكنة عدة، منها ألمريّة وشاطبة (Jativa)، مع ربط مصيره بمصير الأميرين عبد الرحمن الرابع والخامس اللذين اتّخذاه، الواحد بعد الآخر، وزيراً. لقد دفعه اغتيال عبد الرحمن الخامس سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م إلى خيار التخلّي النسبيّ عن السياسة، لكنّه اتّخذ مجدّداً مواقف سياسيّة، في مواجهة بني عبّاد، مثلاً، جرّت عليه تصرّفات عدائيّة مختلفة حتى وفاته، في نهاية غامضة لحياته.

عُرف ابن حزم خاصة بمؤلَّفٍ كَتَبَهُ في شبابه، عنوانه «طوق الحمامة»، وهو مجموعة نوادر تتناول مظاهر الحب وعلاماته. هذا الكتاب الفريد في الأدب العربي، سواء من حيث التحليل النفسي أو الإشارات الكثيرة إلى الحياة الاجتماعيّة في الأندلس، يستند إلى تحديد أفلاطونيّ للحبّ غالباً ما شُبِّه بمفهوم غليوم الأكيتاني. ومهما يكن الأمر، فإن الملفّ المتعلّق بتأثيرٍ محتمَل للتقاليد العربيّة في الشعر الغزلي الأوروبي، ما يزال معقّداً، ويصعب طرحه عمليًّا.

وابن حزم هو كذلك مؤلّف دراسة فقهية يَظهر من خلالها أشهرَ ممثل للمذهب الظاهري، منتقداً في هذه المناسبة كلّ المذاهب الأخرى، بما في ذلك المذهب الشافعي الذي يُعطي، بحسب رأيه، مكانةً مبالغًا فيها للمنطق، ويلجأ إلى مبدإ القياس الذي يراه حريًّا بالإدانة والرفض. كما ألّف أيضاً كتاباً مهمًّا في الديانات والعقائد، هو كتاب «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل»، وهو أول كتاب تناول، لا الحركات الفكريّة داخل الإسلام فحسب، أسوة بسواه من الكتب، بل كذلك الحركات التي نمت خارج الإسلام؛ وانتقد المذهب الأشعريّ باسم التيّار الظاهري وآرائه العقائدية، وأكّد، في هذا الكتاب، أفضلية الإسلام على سائر الديانات السماويّة التي يبدو أنّه كان على معرفةٍ جيّدة بها.

إبن حفصون، عمر بن حفص (أو حفصون مع «ون» الملحقة بالاسم في الاسبانية) بن عمر بن جعفر، ؟-٣٠٦هـ/ ؟-٩١٨م، ثائر في الأندلس، جسّد المقاومة المحليّة الإستقلاليّة واستطاع، على مدى عشرات السنين، أن يقاوم سلطة أمويّي الغرب.

يتحدّر ابن حفصون من سلالة أحد أسياد القوط الغربيّين الذي اعتنق الإسلام، والذي كان حفيده حفص قد عاش في منطقة رندة من جنوب إسبانيا، حوالي منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. اضطرّ ابن حفصون للهجرة إلى المغرب، وعاد سنة ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م ليستقر في أراضيه، وجمع حوله في قلعة بوباسترو، وهو معقل جبلي حصين نجهل حاليًا موقعه بالضَّبط، عدداً من أتباعه، وبسط سلطته باتّجاه غرناطة ومالقة والجزيرة، وانتصر على ممثلي الأمير الأمويّ الذي اضطرّ إلى توجيه حملة عسكريّة ضدّه. بعد أن أُرغم على الخضوع شخصيًّا للأمير في قرطبة سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م، إستعاد، في السنة اللاّحقة، مُلكية قلعته، ونظّم ثورة حقيقيّة تضمّ جميع الرافضين للحكم الأموي من المسيحيّين ومعتنقي الإسلام. وأفاد من عدم استقرار السلطة في العاصمة لتوسيع نفوذه. وعلى الرغم من الحملات التي شنّتها عليه الأمير الجديد عبدالله، فإنّ اندفاعه أدّى به إلى الارتداد عن الإسلام متّخذاً اسم صموئيل، وصار الوضع يحتاج إلى حزم عبد الرحمن الثالث، الخليفة في ما بعد، الذي تبوّأ العرش في قرطبة سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، ليعمد إلى أعمال تطويق أدّت إلى القضاء على حركة التمرّد التي امتدّت الى مناطق واسعة. توفي ابن حفصون، بعد أن تقدّم في السن، سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م؛ وأولاده الذين استمرّوا في المقاومة قضي على تمرّدهم تدريجيًّا، وانتهت حركتهم سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م بالاستيلاء نهائيًّا على بوبشتر (بو باسترو).

إبن حَمْديس، عبد الجبّار أبو محمد بن أبي بكر الأزدي، ٤٤٧-٥٢٧هـ/ ١٠٥٥-١١٣٣م، شاعر عربي من صقلّية الإسلاميّة، ترك نتاجاً وافراً من الشعر المنظوم للبلاط، ويعكس نتاجه تاريخ عصره المضطرب.

بأسلوبه المتكلّف، المتأثر ربّما بالبيئة الشعريّة في الأندلس، تغنّى ابن حمديس خاصة ببلاده، ورثى أحوالها مع استيلاء النورمان عليها. وقد اختار مغادرتها سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، فاستقبله بنو عبّاد في بلاطهم في إشبيلية حيث أقام حتى اجتاحها المرابطون سنة ٤٨٤هـ/

١٠٩١م، وهو التاريخ الذي انتقل فيه إلى المغرب، فأقام في أمكنة عدّة، منها المهديّة عند الزيريّين، وبجاية عند الحمّاديّين، قبل أن يؤم مايورقة في جزر الباليار حيث يرجّح أنّه توفّي.

إبن حنبل ← أحمد بن حنبل.

إبن الحنفية ← محمد بن الحنفيّة.

إبن حَوْقَل، أبو القاسم محمد بن علي النصّيبي، نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، رحّالة وجغرافي، وضع باللغة العربيّة وصفاً لبلاد الإسلام، مستنداً في معظمه إلى مشاهداته الخاصة، في كتاب بعنوان «صورة الأرض».

لا نعرف عن ابن حوقل إلّا أنّ أصله من نصيّبين في منطقة ما بين النهرين العليا، وأنّه بدأ، منذ سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م، سلسلة من الرحلات قادته إلى المغرب والأندلس ومصر، ثمّ إلى أرمينيا واذربيجان والعراق وإيران وما وراء النهر، وأخيراً إلى صقلّية حيث كان سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م. وعنيَ كتابه، الذي هو استعادة لمؤلّف سلفه الاصطخري، بعرض منهجيّ لمناطق متعدّدة تمّت أسلمتها، مركّزاً اهتمامه على طرق القوافل، وعلى الإنتاج المحلّي الذي يؤدّي إلى نشاط تجاري، وعلى المدن نفسها. فضلاً عن ذلك، يتضمّن ملاحظات متنوّعة عن الأتراك والخزر، والسودان وبلاد النوبة، وهي تقع خارج الإطار المحدّد لكتابه. كان ابن حوقل، بلا ريب، تاجراً يهتمّ بالمسائل الاقتصاديّة، وربّما داعياً مبشّراً ملتزماً الدعوة الإسماعيليّة. وقد أظهر في كتاباته ميوله المؤيّدة للنظام الفاطمي. لكتابه صيغ عدّة ربّما كان آخرها تلك التي وُضعت سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م.

إبن حَيَّان، أبو مروان حيّان بن خلف بن الحسين القرطبي، ٣٧٧-٤٦٩هـ/ ٩٨٧-١٠٧٦م، علّامة ومؤرّخ، صبّ كل جهوده في جمع المعلومات لإعادة كتابة تاريخ الأندلس حيث وُلد، وألّف عملاً أصيلاً للحقبة التي عاش فيها.

كان إبن حيّان ابن موظّف في الدولة الأمويّة في قرطبة، وعمل كاتباً في الديوان على عهد ملوك الطوائف. من مؤلّفاته كتابان مهمان يتناولان تاريخ الأندلس الإسلامية، «المقتبس» و«المتين». وهذا الأخير أعيد تكوينه، في عصرنا، انطلاقاً من الاستشهادات، وهو يُظهر فيه ولاءه المطلق للسلالة الأمويّة الحاكمة التي كانت، حتى ذلك الوقت، قد هيمنت على تاريخ البلاد.

إبن خُرداذْبَه أو إبن خرَّادَذْبِه، أبو القاسم عبيدالله (٢٠٥-٢٧٢ أو ٣٠٠هـ/ ٨٢٠ - ٨٨٥ أو ٩١٢م)، جغرافي من العصر العبّاسيّ الذهبيّ. وقد يكون مؤسس هذا العلم في المجتمع الإسلامي الوسيط.

ابن خرداذبه فارسيّ الأصل، اعتنق جدّه الإسلام على عهد الخليفة هارون الرشيد وفي أجواء أسرة الوزراء البرامكة. عُيّن والده واليًا على طبرستان، في خلافة المأمون. يُقال إنّه ولد في خراسان ونشأ في بغداد؛ عُيّن رئيسًا لديوان البريد في غربيّ إيران، ثمّ تولّى شؤون هذا الديوان في بغداد، ثمّ في سامرّاء على عهد المعتصم وصار نديمه. كتاباته المتنوّعة كانت مستوحاة من ذوقه الأدبي والفنيّ المرهف، حصيلة حياته اللّاهية في البلاط، وكذلك من نشاطاته المهنيّة ومعارفه التاريخيّة. وعلى أي حال، فإن «كتاب المسالك والممالك»، الذي أوحته إليه خبرته المرتبطة بطُرُق البريد، كما بالطرق التي كانت تسلكها القوافل في زمانه، هذا الكتاب حفظ مجد مؤلّفه للأجيال اللّاحقة، وما زال يُعدّ في طليعة المؤلّفات الجغرافيّة الإسلاميّة.

إبن الخَصيب، أبو بكر الحسن، أو باللاتينيّة ألبوباثر، Albubather، وفي استعمال أقلّ **ألقاسم فيليوس ألكاريت Alkasim filius Alkarit**. عاش ابن الخصيب في أواخر القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد وأوائل الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، في كنف البرامكة، وقد حاز إعجاب رعاته، لعلمه بالغيب وتكهّناته التي تناهت إليه من تقاليد قديمة تسرّبت إلى بعض الجوانب الباطنيّة في الحضارة الإسلاميّة القروسطيّة. خلّف وراءه مؤلّفات كثيرة، بينها رسالة في النجوم بعنوان **المُغني في المواليد** التي أصبحت، بعد ترجمتها [إلى اللاتينيّة] بعنوان دو نانيڤيتاليبوس De nativitalibus، كتابًا كلاسيكيًا متداولًا في الأدبيّات السّحريّة الأوروبيّة في

أواخر القرون الوسطى، طبع في البندقية في عامي ١٤٩٢ و١٥٠١، في مجلّد واحد، مع كتاب «سنتيلوكيوم» Centiloquium المنسوب إلى هِرْمِس تريميجيست (Hermès Trimégiste).

إبن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السَّلْماني، ٧١٣-٧٧٦هـ/ ١٣١٣-١٣٧٥م، حاجب ووزير ومؤرّخ بني نصر (النصريّون)، كان في الوقت نفسه متفقًا متمكّنًا من العلوم الدنيويّة، وترك مؤلّفات كثيرة متعدّدة الموضوعات.

ولد قرب مدينة غرناطة في عائلة عربيّة يمنيّة، ودخل كأبيه في خدمة النصريّين، وتبوّأ مناصب إدارية مهمّة خوّلته تسلُّم مسؤوليّة الديوان، ولُقّب بذي الوزارتين. في هذه المملكة الصغيرة، المملكة الأخيرة في الأندلس، ذات الحضارة المرهفة، كان ابن الخطيب عرضةً لدسائس متنوّعة، لا سيّما بعد ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م، سنة سقوط محمّد الخامس عن العرش. فنفى نفسه، لبضع سنوات، إلى المغرب، إلى مدينة سلا، ثم عاد إلى غرناطة التي اضطرّ لمغادرتها إلى سبتة وتلمسان حيث حظي برعاية المرينيّين. ووقع، من جديد، ضحيّة دسائس البلاط، واتّهمه أخصامه الغرناطيّون بالزندقة، فألقي القبض عليه وسُجن، ثمّ حُكم عليه بالموت أواخر سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م.

بفضل اهتماماته المتعدّدة وتمرّسه بأعمال الحجابة، اشتهر ابن الخطيب بثقافته الموسوعيّة وبكونه كاتبًا مميّزًا بأناقة أسلوبه المتكلّف. وفضلًا عن أشعاره، كتب رسائل رسميّة (ديوانيّة)، ودراسات في الطبّ، وتناول موضوعات التصوّف والفلسفة، ولكنّنا ندين له بشكل خاص بمؤلّفاته التاريخيّة الثمينة لمعرفة القرنين السابع والثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، أبرزها «الإحاطة في تاريخ غرناطة»، وهو دراسة تتناول غرناطة ووصفها وتراجم لأعلامها، وكذلك «أعمال الأعلام»، وهو دراسة في تاريخ الإسلام، غير مكتملة.

إبن خفيف، أبو عبدالله محمّد الشيرازي، المعروف أيضًا بالشيخ الكبير أو الشيخ الشيرازي (؟-٣٧١هـ/ ؟-٩٨٢م)، شيخ صوفيّ إيرانيّ من شيراز، قام بدور سياسيّ لدى أبرز ممثّل لسلالة البويهيّين، عضد الدولة الذي جعل شيراز عاصمته المفضّلة.

يُعدّ ابن خفيف، الذي عاش ومات في مدينة شيراز، مؤسس مذهب صوفيّ يصعب تحديد مبادئه بدقّة، لأنّ مؤلّفات ابن خفيف قد فقدت. لكنّنا نعرف، بوجه خاص، أنّه جعل الفقر شرطًا أساسيًا لحياة القداسة. أحدث تعليمه الذي نشَرَ بعض الأفكار التي سبق أن طرحها الحلّاج، تأثيرًا استمرّ في الحياة الصوفيّة في إقليم فارس، حتى الاجتياح المغولي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

إبن خلدون، وليّ الدّين عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٦م)، مؤرّخ وعالم اجتماع من أصل مغربي، أمضى أواخر حياته في بلاد الشرق، وترك مؤلّفات تناولتها لاحقًا تفسيرات متنوّعة، جعلته يُعدّ، اليوم، مفكّرًا مبتكرًا.

ولد ابن خلدون في تونس، من أسرة تنتسب إلى حضرموت، وكانت قد استقرّت في مدينة اشبيلية منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ثمّ في مرحلة متأخّرة، غادرت الأندلس للإقامة في سبتة، ثمّ انتقلت إلى تونس. خدم أجداده الأمراء الحفصيّين في إفريقية، أمّا والده فاختار أن ينصرف إلى دراسة الفقه والآداب. تلقّى ابن خلدون تربية تقليديّة متقنة في مسقط رأسه، وكان قد استقرّ في هذه المدينة علماء تربوا في محيط المرينيّين. وعندما قضى الطاعون الأسود على والديه، وكان حينذاك في السابعة عشرة من عمره، غادر تونس إلى مدينة فاس، أبرز المراكز الفكريّة في المغرب حينذاك. حصل على وظيفة في الإدارة، في نهاية سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م، وأصبح، بعد أحداث متقلّبة، أحد أفراد حاشية السلطان أبي عنان، إلى أن ألقي في السجن سنة ١٣٥٧م حيث بقي سنتين. وبعد أن أصبح كاتبًا في إدارة السلطان الجديد، وقع، مرّةً أخرى، ضحية دسائس مختلفة، فلجأ سنة ١٣٦٢م إلى أحد أمراء بني نصر في إمارة غرناطة.

بعد ثلاث سنوات، أقام لمدّة قصيرة في بلاط بجاية حيث تولّى منصب حاجب، وكان ذلك آخر عهده بالعمل الإداري الذي مارسه بكل جدارة.

منذ ذلك الوقت، «وقد شفي من غرور المناصب»، كما عبّر عن ذلك بنفسه، قرّر الانكباب

على الدراسة والتعليم، لكنّ ذلك لم يحُلْ دون استمراره في التورّط بمؤامرات سياسيّة أجبرته على التنقُّل والإقامة في أمكنة متعدّدة. ففي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م، نجده في تلمسان، وبعد مدّة يسيرة في قصر ابن سلامة قرب تلك المدينة، حيث أقام أربع سنوات أمضاها في تأليف «المقدمة». ومرّ بتونس، متّجهًا إلى مصر التي كانت خاضعة للمماليك، فتعاطى في القاهرة التدريس وعُيّن في منصب كبير القضاة للمذهب المالكي. عُزل من هذا المنصب مرّات عدّة، وأعيد مرّات، واضطرّ إلى اللّحاق بالسلطان الناصر في دمشق التي كان يهدّدها تيمورلنك بالاجتياح. استمرّ في العاصمة السوريّة بعد فرار السلطان الناصر، وقام بمفاوضات مع الغزاة، لكنّ ذلك لم يحُل دون أن يقوم هؤلاء بنهب المدينة عندما سقطت في أيديهم. بعد ذلك عاد ابن خلدون إلى القاهرة، وشغل من جديد، في أوقات متقطعة، منصب كبير القضاة، إلى أن توفي في شهر رمضان ٨٠٨هـ/ آذار ١٤٠٦م.

إنّ حياة ابن خلدون المضطربة تتيح لنا الإدراك أنّ هذا الرجل المثقّف والفقيه كان عميق المعرفة بالمشكلات السياسيّة. وشهرته على أنّه مفكّر مبتكر تعود إلى حصيلة تجاربه في ذلك المضمار، وقد بسطها في أحد مؤلفاته التأمليّة. وفي الواقع، فإنّ نتاجه المكتوب يتشكّل أساسًا من تاريخه العالمي الضخم، المفيد خاصة لمعرفة تاريخ المغرب، خلال القرنين اللذين سبقا عصر المؤلّف. هذا فضلًا عن سيرته الذاتيّة المسمّاة «التعريف»، وعن بعض آثاره الصغيرة التي لم يصلنا إلّا قسم منها. إنّ كتابه في التاريخ، الذي مهّد له بمقدّمة نظريّة يهدف من خلالها إلى تيسير فهم التاريخ، لا يزال يحظى باهتمام كبير. ففي مقدّمته يعرض ابن خلدون قواعد جديدة لما عُرف لاحقًا بعلم الحضارات أو «علم العمران» بشكليه الريفي والمدني.

هذا العلم يقدّم تفسيرًا لنشوء الدول وازدهارها وانحطاطها، بدراسة عدد من الظواهر، بعضُها اقتصاديّ أو اجتماعي، وبعضها الآخر نفسي. وقد لاقى هذا العلم لدى المؤرّخين الحديثين قبولًا متعدّد الوجوه، فرأى فيه بعضهم تأسيسًا لنظريّة الماديّة التاريخيّة، وهذا تأويل لا يُراعي المكانة التي يعطيها المؤلف للوقائع النفسيّة، لا سيّما للعصبيّة، أو «روح العشيرة أو الولاء»، وبدون هذا الشعور لا يمكن، في رأيه، أن تدوم الدولة. وفي الواقع، فإنّ ابن خلدون المتمرّس بالمذاهب الفقهيّة التقليديّة، والمتمكّن من الفلسفة التي رفض مزاعمها، طبّق بنفسه المناهج المنطقيّة التي تمثّلها جيدًا، على دراسة الأحداث الاجتماعية. ولكنّه، على ما يبدو، لم يشأ أن يذهب بعيدًا في نظريّاته، ولا يمكن إلّا أن يأسف القارئ الحديث لأنّ ابن خلدون لم يطبّق في تاريخه العام المبادئ الاجتماعيّة التي حدّدها بدقّة في «مقدّمته».

إبن خلّكان، أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي الإربلي الشافعي. ٦٠٨-٦٨١هـ/ ١٢١١-١٢٨١م، فقيه وعالم شافعي من عهد الأيوبيّين والمماليك، ألّف معجم تراجم أكسبه الشهرة، في مجال التاريخ، لمدّة طويلة.

فَقَدَ ابن خلّكان أباه وهو في الثانية من عمره، وكان الأب معلّمًا في المدرسة التي أسّسها في إربل، في أعالي بلاد ما بين النهرين، الأمير غوكبوري. ولد ابن خلّكان في هذه المدينة وتلقّى ثقافة تقليديّة، ثمّ انتقل إلى حلب فدمشق فمصر، حيث عمل مساعدًا لقاضي القضاة سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٩م، ثمّ عُيّن قاضيَ قضاة دمشق بين سنتي ٦٥٩ و٦٦٩هـ/ ١٢٦١ و١٢٧١م. عرف ابن خلكان صعوبات جمّة بسبب الدسائس التي شهدها عصره، ما أدّى إلى عزله مرّات متعدّدة حتّى وفاته في دمشق، في رجب ٦٨١هـ/ تشرين الأول ١٢٨٢م.

إنّ المؤلَّف الذي ثابر في سبيل إنجازه، على الرغم من كل الصعاب، بين ٦٥٤ و٦٧٢هـ/ ١٢٦١ و١٢٧٤م، والذي اتّخذ شكل معجم مشاهير الرجال، كتابٌ تسهل مراجعته وعنوانه «وفيات الأعيان»، ما يزال منجم معلومات في ما يتعلق بالشخصيّات المهمة في الإسلام، لا سيّما التي عاصرت المؤلّف.

إبن داود، محمد بن علي الإصفهاني، ؟-٢٩٤هـ/ ؟-٩٠٧م، فقيه بغدادي عاش في العصر الذهبي للعبّاسيّين، واعتُبر، لاهتمامه ببعض إشكاليات الحبّ، سواء البشري أو الصوفي، الممهّد لمفهوم الملاطفة في القرون الوسطى.

كان ابن داود ينتمي إلى المذهب الظاهري الذي أسّسه أبوه داود الإصفهاني. وقامت شهرته، بوجه خاص، على مؤلّفه «كتاب الزهراء»، وهو ديوان شعر غزلي. في هذه المجموعة، التي يرفض فيها عواقب العاطفة الجامحة، حاول الدفاع عن أخلاقيّة في الحب مؤدّية الى «أخلاق ملاطفة» عربيّة منفصلة عن الدين، وهي تتحدّر، من موضوع دافع عنه الشعراء القدامى من قبيلة بني عذرة وتُعرف بالحبّ العذري. إنّ مفهوم «شهيد الحب» لقي مقاومة صارمة، لا سيّما لدى فقهاء المذهب الحنبلي، لكنّ ذلك لم يمنع دخوله في تراث الثقافة الإسلاميّة بعد أن لقيَ رواجاً لدى نخبة من الفقهاء والعلماء واللغويّين الذين اجتمعوا حول ابن داود. إنّ تأثيره في المرحلة اللّاحقة، والذي استمرّ ربّما في بعض الكتابات اللاتينيّة-المسيحيّة في القرون الوسطى، برز بشكل واضح في الأندلس، خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، لا سيّما في مؤلّف وضعه ظاهريٌّ آخر هو إبن حَزم الفقيه والشاعر القرطبي المشهور.

إبن دُرَيْد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزْدي، ٢٢٣-٣٢١هـ/٨٣٧-٩٣٣م، لغوي ولد بالبصرة، في أسرة غنيّة من عرب الجنوب، ساهمت دراساته المعجميّة في ازدهار الثقافة العربيّة-الإسلاميّة في عصر العبّاسيّين الذهبي.

ينتمي ابن دريد إلى قبيلة الأزد القحطانيّة، وقد أقام في مناطق متفرّقة من البلاد الإسلاميّة، لا سيّما في عُمان، ثمّ في فارس وخراسان، مع أنّه مارس التعليم خصوصاً في بغداد. كوّن في عاصمة الخلافة عددًا كثيرًا من الأتباع، وتلقّى، حتى وفاته، مرتّباً خصّه به الخليفة العبّاسي المقتدر. مؤلّفه الأساسي هو معجمه الضخم المعروف بـ«الجمهرة».

إبن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي ٥٢٠هـ-٥٩٥هـ/١١٢٦-١١٩٨م، فقيه وفيلسوف وعالم وطبيب وفلكي أندلسي.

ذاعت شهرة ابن رشد بشكل خاص بين أتباع الفلسفة المدرسيّة أو السكولائيّة (scolastiques) الأوروبيّين الذين نهلوا من أعماله المترجمة وتأثّروا بفكره. ولم يكن له، في المقابل، التأثير نفسه في العالم الإسلاميّ. إلّا أنّ أبناء السلالة الموحّدية عرفوا قدره، فأنزلوه بينهم مكرّمًا فاستطاع، بفضل ذلك وعبر فكره الفضولي، أن ينصرف إلى علم الفلك، ودراسة الفلسفة الهلّينيّة. ومن حيث أنّه ينتمي الى وسط إسلامي تقليديّ فقد اختبر تعاليم هذا الوسط، قبل أن ينصرف إلى أبحاث أكثر ابتكارًا، بمساعدة مرشدين تمرّس على أيديهم بالعلوم الدنيويّة وبفلسفة العصور القديمة.

ولد ابن رشد في قرطبة لأسرة من القضاة المالكيّين. وتلقّى ثقافة كاملة في الفقه وفي دروس الحديث وعلم الكلام، قبل أن يتصدّى لعلوم الأوائل. ثم انتقل إلى المغرب ولقي ترحيبًا وحماية لدى الملك الموحّدي أبي يعقوب يوسف. عيّن بعد ذلك قاضيًا في إشبيلية، ثمّ في قرطبة. وفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، أصبح طبيبًا للملك في مراكش، مكان ابن طُفيل، وكان قد تتلمذ من قبل على يده قبل أن يصبح صديقًا له. عاد بعد ذلك الى قرطبة حيث مارس القضاء. وقد لقي الحماية نفسها لدى أبي يوسف يعقوب المنصور، إلّا أنّ المنصور نقم عليه بين سنتي ٥٩١ و٥٩٣هـ/١١٩٥-١١٩٧م لأسباب غير واضحة، كان لأعدائه في ذلك دور كبير. فأُحرقت كتبه وحُرّمت تعاليمه من قبل مجموعة من فقهاء قرطبة. الّا أنّ محنة ابن رشد لم تدم طويلًا، وسرعان ما رضي عنه أبو يوسف، وبعدما كان قد أُبعد لفترة إلى أليسانا، قرب قرطبة، عاد إلى مراكش حيث توفي سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م، وأعيد جثمانه بعد ذلك إلى مسقط رأسه.

تنوّعت مؤلّفات إبن رشد وكثرت ولم تُدرس بشكل واف. ولا نعرف بعض أعماله إلّا عن طريق الترجمات في اللغتين اللاتينيّة أو العبريّة، نظرًا إلى النجاح الكبير الذي لقيته في الغرب، في حين أنّ الأصول العربيّة ضاعت في البلدان الإسلاميّة التي لم يكن لابن رشد فيها إلّا القليل من التلاميذ، ولأنّه لقي في هذه البلدان عداوة طالت من قبل الأوساط الدينيّة المتشدّدة.

تناولت بعض مؤلّفاته أُسس القانون، ككتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» الذي يعرض فيه أسباب التباعد بين المدارس الفقهيّة؛ ومن مؤلّفاته ما يتناول

لفيزياء، والطبّ، وخصوصًا علم الكلام والفلسفة. وفي ىذا المجال الأخير له كتاب «فصل المقال فيما بين لحكمة والشريعة من الاتصال»، وكتاب حول مناهج لأدلّة المتعلّقة بعقائد الدين، وكتاب «تهافت التهافت» فيه نقد لفلسفة الغزالي، وأخيرًا شرح كتاب «علم ما راء الطبيعة» لأرسطو.

أراد ابن رشد، كما تدلّ عناوين مصنّفاته، أن يعرض كر الفيلسوف الأغريقي كما هو في حقيقته، ذلك أنّ ىذا الفكر كان مجهولًا حتى عصره من قبل مفكّرين ستوحوا الفلسفة الأفلاطونيّة الجديدة عن طريق رجمات مغلوطة ونسبوها إلى أرسطو، ولم يدركوا حقيقة الفكر الأرسطوطاليسي. ولهذا السبب دافع عن لفلسفة التي انتقدها الغزالي، لكنّها فلسفة كما فهمها هو، لا تعارض بينها وبين الوحي. لهذا يتساءل البحّاثة لأوروبيّون المعاصرون عن التوجّه الديني الحقيقي مذهب ابن رشد الفلسفي، إذ يعتبرون أن الكتّاب للاتين في القرون الوسطى لم يحسنوا فهمه بدقّة.

ترتكز مكانة ابن رشد، في نظر مترجميه لأوروبيّين، على كونه ناقلًا للأفكار الأرسطوطاليسيّة شارحًا لها، وقد استعان بها لتوضيح فلسفته التي قيت، في قلب الفكر الاسلامي، طرحًا أصيلًا، ولكنّه لم يُفهَم على حقيقته. ومن دون الدخول في تفاصيل راهينه حول وجود الله، وهي مختلفة عن مفاهيم ابن سينا، نشير إلى أنّه يرفض فكرة كائن واجب بنفسه، يرى أنّ الله تعالى هو صانع الكون، وهو موجود في عالم الحسّ يسيّره، كما أنّه يرفض المعرفة الصوفيّة. وإن لم يكن ينكر خلود النفس ولا بعث الأجساد، فإنّه يعتبر أنّ هذه الحقائق لا تُدرك إلّا عن طريق الوحي. أمّا مفهومه لمسألة التوفيق بين الفلسفة والدين فيلتقي فيه مع الفارابي، اذ يعتبر أنّ هناك طريقين يؤدّيان إلى الحقيقة، طريق الفلسفة وطريق النبوّة. وهذا الرأي يستبعد وجود حقيقتين، واحدة للعامّة وأخرى للعقول المستنيرة، ولكنّه يقول بوجود وجهين لحقيقة واحدة. أما ما سُمّي بالرُشْديّة اللاتينيّة، وهي الفلسفة القائمة على ازدواج الحقيقة، فلا تنطبق على فكر ابن رشد، بل على التفسير الغربي في القرون الوسطى الذي بدّل وشوّه بعض الشيء الفكر الرشدي، وفي الوقت عينه تأثّر به تأثّرًا شديدًا.

إبن رضوان، أبو الحسن علي بن رضوان المصري، ٣٨٨-٤٥٣هـ/ ٩٩٨-١٠٦١م، طبيب مشهور في مصر على عهد الفاطميّين، ترك عدداً من المؤلّفات العلميّة. هذا المتعمّق في الطب القديم، الذي نقل إلى العربيّة من خلال كتاباته، فكر أبقراط وجالينوس، ولد بالقرب من القاهرة. أظهر باستمرار تفضيله للمعرفة المستقاة من الكتب، ولعلم التنجيم، ما أكسبه حماية الخليفة الفاطمي المستنصر، فاختاره رئيساً للأطباء في مصر. تجادل مع بعض العلماء كابن بطلان النصرانيّ، لكنّه كان بنوع خاص مجمّعًا خاليًا من الأصالة، أكثر منه مبدعًا، ومع ذلك فانّه ساهم في تطوير الطب العربيّ القروسطي القائم على استعادة الميراث العلمي القديم.

إبن الرومي، أبو الحسن علي بن العبّاس بن جرجس، ٢٢١-٢٨٣هـ/ ٨٣٦-٨٩٦م، شاعر من العصر الذهبي للعبّاسيّين، كان، بنوع خاص، مدافعاً متحمّساً عن الشيعة ولا سيّما عن الزيديّة.

ابنُ مُعتَق روميّ اعتنق الإسلام (لذا عرف بابن الرومي)، وأمّ إيرانيّة، هذا الشاعر المجدّد، ذو القناعات الشيعيّة المعارضة للنظام السياسي القائم، لم يحظَ إلّا مدة قصيرة برضا الخلفاء في العراق، وذلك على عهد الموفّق، الوصي على العرش، الذي نهج سياسة متسامحة نحو العلويّين، ما وفّر له دعم سلطة الخلافة.

إنّ نتاج ابن الرومي نموذج للمناخ السياسي-الديني السائد حينذاك في بغداد، تلك المدينة التي تتضارب فيها التيّارات المختلفة والصراعات الحقيقيّة، وقد أمضى فيها تقريباً كل حياته، ووجد فيها حماةً ومشجّعين متتابعين، على الرغم من حدّة أهاجيه.

إبن الزُّبَير، عبدالله بن الزُّبَير بن العَوّام، ؟-٧٣هـ/ ؟-٦٩٢م، قرشيّ، منافس للخليفة على عهد الأمويّين. فبعد موت معاوية، شنّ حملات على السلالة الحاكمة رافضاً الاعتراف بسلطة يزيد الأول. كان عبدالله ابناً للزُّبير الذي شارك في معركة الجمل، وحفيداً لأبي بكر لجهة أمّه. وقد سلطته في مكّة حيث لم تبدأ الجيوش التي

أرسلها يزيد الأول ابن معاوية بالتدخل ضدّه إلا سنة ٦٤هـ/٦٨٣م، بعد أن استعادت سلطتها على المدينة المنوّرة. وقد استغل عبدالله بن الزبير موت الخليفة الأموي، والفتن التي حصلت إثْرَ ذاك، ليُحكم سيطرته، خلال ما يقرب من عشر سنوات، على المدينة المقدّسة.

إنّ سحق حلفائه في سوريا على يد مروان الأول، مؤسّس الفرع المرواني في السلالة الأمويّة الحاكمة، تبعته الحملة التي شنّها عليه الحجّاج، هذا القائد العسكري المحنّك الذي أرسله الخليفة المروانيّ الثاني، عبد الملك، فحاصر مكّة، وهاجمها منتصراً، بعد أن انتصر في العراق على مصعب بن الزبير، وهو أخو عبدالله. إن مقتل عبدالله، في أثناء أحد الاشتباكات، وضع حدًّا لثورة التابعين (تابعي صحابة النبيّ محمّد (ﷺ)) الذين، باعتراضهم على التوارث في العمل السياسي الذي حقّقه معاوية، أرادوا استمرار العادة العربيّة القائمة على التنافس والنضال في سبيل الوصول إلى السلطة، وهو الطابع الذي اتّسم به موقف المسلمين الأوّلين.

إبن زُهْر، أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر (؟-٥٥٧هـ/ ؟ - ١١٦١م)، طبيب اندلسي شهير، صديق لابن رشد. ولد في اشبيلية في أسرة عريقة من العلماء أصلُهم من الجزيرة العربيّة، وكان والده وجدّه طبيبين مشهورين، وعُرفا أيضًا بثقافتهما الفقهيّة والأدبيّة. مارس ابن زُهر بنجاح مهنة والده ونقلها إلى ابنه. دخل في البدء في خدمة المرابطين في المغرب الأقصى، ثمّ أصبح طبيب عبد المؤمن الموحّدي، قبل أن يعود إلى إشبيلية، مسقط رأسه، حيث توفي. وتجدر الإشارة إلى أنّ مؤلّفاته الطبّية لا تتميّز بفرادة ملفتة، لكنّه كان طبيبًا ماهرًا في ممارسته.

إبن سبعين، قطب الدين أبو محمد عبد الحقّ بن ابراهيم بن محمد العَكّيّ المُرسي، ٦١٤-٦٦٨هـ/ ١٢١٧-١٢٦٩م، من أنصار الفلسفة، متصوّف أندلسي الأصل، كان طوال حياته عرضة لهجمات عنيفة شنّتها عليه الأوساط الفقهيّة. ولد ابن سبعين في مُرسيه حيث تلقّى ثقافة معمّقة متّسمة بالباطنيّة، فاضطرّ إلى مغادرة المدينة بسبب مواقفه العقائديّة، والاتّهامات التي سبّبتها له، ولا سيّما عندما أعلن أنّ الله هو الحقيقة الوحيد للأشياء الموجودة (الموجودات). هاجر أوّلاً إلى المغرب مع تلاميذه وانتقل إلى سبتة. وقد سبقته إليه شهرة واسعة، إلى حدّ أنّ الحاكم الموحّدي دعا للإجابة عن الأسئلة الفلسفيّة التي طرحها الأمبراطو فريدريك الثاني على السلطان الحاكم من سلا عبد الواد الرشيد. لكن، نتيجة للصعاب التي سببّتها له تعاليمه، اضطُرّ إلى الهجرة من جديد، بعيداً، فاتّجه نحو الشرق عن طريق بجاية، فتونس، فالقاهرة. وفي كل موضع كانت تواجهه كراهيّة العلماء، إلى أن استق به المطاف في مكان آمنٍ هو الحرم المكّي، وعلى الرغ من ذلك، يبدو أنه مات منتحراً هناك.

كان شديد الإيمان بالفلسفة الأرسطيّة، ومتصوّ سامي التفكير، مع ذلك رفض التوفيق بين الفلسف الهلّينيّة التي يقول بها والعقيدة الإسلاميّة، وصنّفه ابن خلدون بين أنصار مذهب وحدة الوجود. ظلّ ابن سبعين طوال حياته عرضةً للشكوك وللأحكام الموجّهة إليه فعاش في عزلة عن معاصريه. ومع ذلك، كان له تلمي مباشر ومخلص هو الصوفيّ الشُشْتَري (٦١٠-٦٦٨هـ/ ١٢١٣-١٢٦٩م).

إبن السُّطري ← إبن البوّاب.

إبن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد البصري المعروف أيضاً بـ«كاتب الواقدي» ١٦٨-٢٣٠هـ/ ٧٨٤-٨٤٥م، محدّث عراقي مارس نشاطه في رواية الحديث على العهد الذهبي للعبّاسيّين، وخلّف مادة تاريخ قدّرتها حقّ قدرها الأجيال اللاّحقة.

ولد في البصرة، وهو مولى الهاشميّين الذين كا جدُّه الأعلى من مُعْتَقيهم. بعد رحلات استقصاه عدّة استقرّ ابن سعد في بغداد حيث عمل كاتباً للواقدي وكان في الوقت نفسه طالبَ علم مع ابن الكلبي. خض للمحنة التي أجراها الخليفة المأمون واضطرّ إلى اعتنا عقيدة المعتزلة. ترك ابن سعد مؤلّفات أبرزها «كتاب الطبقات» الذي حقّق له الشهرة، من خلال توفي المعلومات عن أكثر من أربعة آلاف شخص، هم نقل الحديث، منذ بداية الإسلام حتى عصر المؤلّف. يتضمّ هذا المؤلّف بنوع أساسي، فضلاً عن سيرة النبيّ محم

ﷺ)، نبذات مفصّلة عن الصحابة، ومعلومات أقلّ فصيلاً عن أشخاص من المراحل اللاّحقة.

بن سعود ← آل سعود.

بن سينا، أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا ٣٧٠-٤٢٨هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م، طبيب وفيلسوف نال شهرة واسعة إلى حدّ أنّه ما يزال اليوم يُعدّ من كبار مفكّري القرون الوسطى.

عمل مديرًا ومستشارًا لدى عدد من أمراء إيران وآسيا الوسطى، فكان له دور سياسيّ لا بأس به. لكنّه عُرف في العالم الإسلامي، وكذلك في الغرب المسيحي حيث تُرجمت بعض أعماله الى اللغة اللاتينيّة منذ القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، كعالم مميّز، غذّى بمعارف القدماء وشقّ بتعاليمه وأعماله طريقًا أمام تطوّر مهنة الطبّ، وأمام التفكير الماورائي المبني على جهد منطقي حقيقي.

ولد إبن سينا قرب بخارى في بلاد ما وراء النهر، من أبٍ كان يعمل موظّفًا في الدولة السامانيّة، وتلقّى باكرًا ثقافة موسوعيّة تناولت الطبّ والعلوم الطبيعيّة والفلسفة والفقه وعلم الكلام. والشهرة التي عرفها في السابعة عشرة من عمره، إذ أبرأ أحد أمراء المنطقة من علّته، دفعته الى السفر إلى خراسان وجوارها، ثمّ راح يتجوّل في مدن متعدّدة، وبخاصة في جرجان قرب بحر قزوين. وحظي هناك برعاية الحكّام المحلّيّين وبدأ بكتابة مصنّفه الطبي «القانون». وعاد بعد ذلك إلى التجوّل مجدّدًا، فانتقل إلى الرّيّ ثمّ إلى قزوين وأصفهان وهمذان حيث كُلّف لبعض الوقت بأعمال الوزارة. لكنّ ذلك لم يمنعه من وضع بحثه الفلسفي «الشفاء» بمساعدة تلاميذه. سُجن إبن سينا فوضع في سجنه رسالة «حيّ بن يقظان [وهي غير رسالة ابن طُفيل المسمّاة بهذا الإسم]، وهي عبارة عن رواية ذات طابع صوفيّ. وأخيرًا انتقل إلى أصفهان قبل أن يحتلّها، سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، السلطان الغزنوي مسعود الأوّل، وفيها توفّي باكرًا سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م.

يرتكز النتاج الكبير الذي تركه ابن سينا - وكان له تأثيره في أوروبا المسيحيّة على الأخصّ، ولا سيّما في إسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا، حتى القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد - على مصنّفه الطبيّ المذكور. فقد بقي كتاب «القانون» في الطبّ أساسًا لدى المؤلّفين العرب حتى وقت متأخر، كما دُرّس في جامعات كبيرة غير إسلامية في أواخر القرون الوسطى.

يحوي إنتاج ابن سينا الفكري - بغضّ النظر عن كتاباته المتعدّدة التي تشهد على فضوله العلمي الواسع والتي فُقدت جزئيًّا - خلاصات فلسفيّة تتناول المنطق والطبيعيّات والماورائيّات؛ كما تبرز نتائج التجارب العلميّة التي قام بها، والاستنتاجات ذات الطابع الشخصي التي توصّل إليها، لتنتهي إلى ما يسمّيه ابن سينا نفسه «الفلسفة الشرقيّة». كما أنّ كتاباته الصوفيّة، إضافةً إلى ذلك، تتوافق مع خياراته كإنسان أراد دائمًا أن يوفّق بين إيمانه الديني وشرحه لإرث فلسفيّ.

من أجل تأسيس نظريّاته ذات الطابع الشمولي، استعاد ابن سينا، في الواقع، فلسفة الفارابي الميتافيزيقيّة المتعلّقة بالجوهر، وكذلك التمييز بين الكائن الواجب والكائن الممكن، مع استيحائه مباشرة وبتصرّف أفكارًا أرسطوطاليسيّة ممزوجة بأخرى من الأفلاطونيّة الجديدة. والأفكار الأخيرة وصلته منسوبةً الى أرسطو، بسبب خطأ في النقل والنسبة، وهذا الخطأ ألقى بثقله على تطوّر الفلسفة كلّها. لقد تصوّر ابن سينا إذًا، انطلاقًا من هذا المنظور، نظامًا كونيًّا تسيّره حتميّة دقيقة. واعتبر أن الخلق الإلهي هو فعل الفكر الإلهي الذي يعقل نفسه، وبذلك وُلد العقل الأوّل الذي، كما عند الفارابي، تولّدت منه تسعة عقول متسلسلة آخرها العقل الفعّال الذي هو مصدر كلّ معرفة. ونظريّة العقل المتميّز عن الله والمنفصل عن العقل البشري هي خاصة بالمدافعين عن الفلسفة القروسطيّة؛ إنّها تُفسح في المجال أمام التوق الصوفيّ الذي عبّر عنه ابن سينا في قصصه الرمزيّة المشهورة. نحن أمام أوّل صياغة للدعوة الى الاستضاءة العقليّة أو «الإشراق» التي طبعت الفلسفة الشرقيّة، والتي وجدت كمالها في مفاهيم مدرسة أصفهان خلال القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد. إنّنا نفهم، في المقابل، الحدود التي توقّف عندها تأثير تعاليم ابن سينا في الغرب المسيحي. فقد ساهم بدون شك، في تطوير معرفة حقيقية لأرسطو، لكن اكتُشف لاحقًا ما

نسبه خطأً إلى الفيلسوف اليوناني. وهذا ما حمل العاملين في العلوم اللاهوتيّة، في أوروبا، خلال القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، على الإكتفاء بعدد من البراهين التي يُمكن اعتمادها والتي دخلت في بناء توما الأكويني الفكريّ.

إبن شدّاد، إسم عرف به مؤلّفان عربيّان، لم تكن بينهما أيّ صلة قربى، لكنّهما، مع فارق جيلين بينهما، أبرزا وجه سوريا في العصر الأيّوبي، وفيها عاش كلاهما.

أقدمُ الاثنين هو **بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رفيع بن تميم**، ٥٣٩-٦٣٢هـ/ ١١٤٥-١٢٣٥م. فقيه ومستشار سياسي لصلاح الدين ولابنه الملك الظاهر، ولد في الموصل، قبل أن يدخل في حاشية فاتح القدس، مشجّعًا إيّاه على سياسة الجهاد. ثمّ استقرّ، بعد وفاة مولاه الأول، لدى ابنه في حلب حيث عيّن قاضياً ومراقباً للأوقاف. كتب «سيرة صلاح الدين» التي أكسبته شهرة مستمرّة.

والأحدث بين المعروفَيْن باسم ابن شدّاد، هو **عزّ الدين أبو عبدالله محمد بن عليّ الحلبي**، ٦١٣-٦٨٤هـ/ ١٢١٧-١٢٨٥م. له مؤلّفات تاريخيّة وجغرافيّة، ولد وعاش في مدينة حلب، وكان من أعيانها المسموعي الرأي، وكاتباً في الديوان، أوفده حاكم الإمارة في مهمّات دبلوماسيّة عدّة. وكلّف، بنوع خاصّ، المفاوضة مع الغزاة المغول. لكنّه لم يستطع منعهم من احتلال بلاده بالقوّة، فاضطرّ إلى الهرب واللجوء إلى القاهرة، وفيها توفي بعد أن أفسحت له الحياة الوقت ليؤلّف كتاب «الأعلاق الخطيرة»، وهو أطلس تاريخيّ لسوريا ولأعالي بلاد ما بين النهرين، وكذلك سيرة السلطان بيبرس، مؤسّس سلطة المماليك، وهو الذي استقبله في مصر.

إبنُ طُفَيل أو أبو باصر، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد القيسي، ١١٠٠-١١٨٥م، عالم شهير وممثّل للفلسفة في الأندلس، كان مقرّباً لواحد من أقوى ملوك الموحّدين.

ولد في قادش ثمّ انتقل إلى غرناطة. إكتسب هذا العالم الناشئ على العلوم الدنيويّة شهرة الطبيب والكاتب المثقّف التي سهّلت له الإنتقال إلى سبتة، على الضفّة الأخرى من المضيق، ثمّ إلى بلاط أبي يعقوب يوسف نفسه الذي ألحقه بخدمته الخاصة، فنا حُظوة لديه. وفي محيط بلاط مرّاكش تابع اهتماما العلمية - إذ كان مهتمًا، إلى جانب الطب، بعلم الفلا - وألّف أهمّ كتبه. استقطب علماء ناشئين مثل إبن رش الذي خلفه في مسؤولياته الرسميّة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م وظلّ يتمتّع بمكانته المعهودة إلى أن وافاه الأجل و بلغ من الكبر عتيًا.

ترتبط شهرة ابن طفيل المستمرّة بروايته الفلسف **حيّ ابن يقظان** التي تُرجمت باللغتين العِبْريّة واللاتينيّة فطارت بذلك شهرته في الغرب المسيحي الوسيط عرض في تلك الرواية نظريّة المعرفة التي تُدر بالعقل، مبيّنًا كيف أنّ رجلًا متوحّدًا بلغ، في جزير خالية من السكّان، بمجاهداته المتفردة وتدريجيًّا، جمي درجات المعرفة. وقد استوحى فكرة الرواية من ا سينا، إلّا أنّ تصوُّره [لمعراج المعرفة] كان مبتكرًا.

إبن طولون ← الطولونيّون.

إبن عبّاد، أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد بن العبّاس الملقّب بالصاحب «السيّد» ٣٢٦-٣٨٥هـ/ ٩٣٨-٩٩٥م وزير شهير خدم عدداً من الأمراء البويهيّين، ونال أيض شهرة واسعة بصفته أديباً.

ولد في إصطخر بإيران، في أسرة من الموظّفين ونشأ في إصفهان قبل أن يدخل، بصفة كاتب، في خدم الأمراء الشيعة الإيرانيّين أسياد بلاد فارس. وكان ا عبّاد، طوال مدّة عمله، إداريًّا مميّزاً مهتمًّا بالمصلح العامة وبحسن تنظيم ماليّة الدولة، حتّى إنّه استطاع بصفته وزيراً، بعد وفاة عضد الدولة، القيام بدورٍ رئيس في الدولة إلى جانب سلاطين عاجزين. بموازاة عمله كتب ابن عبّاد مؤلّفات في التاريخ وقواعد اللغة والنق الأدبي والدواوين الشعريّة، وكان كلاميًّا مميّزاً، دافع ع عقيدة المعتزلة، وساند بعض المدافعين عن ها المذهب. وفي الوقت نفسه، كان يتحلّق حوله شعر ومدّاحون يبالغون في تقريظه. وارتبط اسمه بمنشآ مهمّة في أصفهان التي كانت في ما مضى عاصم البويهيّين، وقد خلّدتها في أيامنا الحفريات الأثريّة الت جرت في المسجد الجامع القديم، وكذلك في ضاحيت

المباشرة حيث اكتشفت بوّابة مسجد جرجير المزخرفة. توفي ابن عبّاد في مدينة الريّ، وهو في أوج مجده.

إبن عبّاد الرندي، أبو عبدالله محمد بن أبي اسحاق النَّفْزي الحميَري، ٧٣٤-٧٩٢هـ/ ١٣٣٣-١٣٩٠م. مؤلّف صوفي، نال شهرة واسعة في مراكش على عهد سلالة المَرينيّين.

وُلد في رندة في مملكة بني نصر، وانتقل في صباه إلى المغرب ليتلقى ثقافة دينيّة. فهذا المتحدّر من أسرة مسلمة أندلسيّة تابع، في بداية الأمر، تعليم مدرِّسي الفقه المالكي، لا سيّما في مدارس فاس الشهيرة حينذاك، لكنّه سرعان ما تخلّى عن العلوم الفقهيّة لينصرف إلى التقشّف والتصوّف بتوجيه من أحد معلمي سَلا. ارتبط بعدذاك بأتباع الطريقة الشاذليّة، وصار شيخاً مقدّراً، وعُيّن خطيبًا لجامع القرويّين في فاس حيث توفّي، بعد أن وضع بعض أهم المؤلّفات في التصوّف المعتدل في الغرب: شرح مقامات ابن عطاء الله الإسكندري، وبعض رسائل متفرّقة في التوجيه الروحي، مبتعداً في كل ذلك عن خطّ ابن سبعين كما عن ابن العربي، ليتّخذ مواقف تميل إلى التقليد.

إبن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن محمد، ٢٤٦-٣٢٨هـ/ ٨٦٠-٩٤٠م، شاعرٌ أندلسي، ساهم خلال عهد ازدهار الحكم الأموي في الغرب، في انطلاق محلّي لنوع الأدب الذي كان ذا حظوة في بلاط العباسيّين.
عاش في قرطبة مادحاً أسياد السلالة الحاكمة، وتوفّي في عهد الخليفة الشهير عبد الرحمن الثالث. تبرز موهبته الموسوعيّة في مصنّفه الأدبيّ المسمّى «العقد الفريد»، وهو كتاب لا يتّسم بالأصالة بقدر ما يمتاز بجودة التقسيم والتصنيف. هذه الموسوعة ساهمت في أقلمة ثقافة الشرق في الغرب الأندلسي، ولم يكن للمؤلّف فيها سوى دور الناقل، وما تزال تحظى حتى اليوم بشهرة قائمة على ما تُسديه من نفع، بصفتها عملاً تجميعيًا.

إبن عذاري، أبو العبّاس أحمد بن عِذاري المَرّاكشي، ت نحو ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م. مؤرّخ ألّف حوليّة مهمّة عن تاريخ المغرب حتّى سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م، عُرفت ببداية عنوانها «البيان».

هذا المؤلِّف الذي نكاد لا نعرف عنه شيئاً سوى أنّه عيّن قاضياً في فاس على عهد المَرينيّين، ترك عملاً تجميعيًّا إستناداً إلى مصادر نصّيّة قديمة ضاع بعضها. وأصبح بذلك أحد أبرز ممثلي المؤرّخين العرب في الغرب.

إبن العربيّ، محيي الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي الطائي، ٥٦٠-٦٣٨هـ/ ١١٦٥-١٢٤٠م، صوفيّ أندلسي مشهور، استقرّ لاحقاً في الشرق. وأصبحت عقيدته التوحيديّة التي تمثّلت عناصر متعدّدةً ذاتَ جذور معرفيّة، أحد العناصر الأساسيّة في التصوّف، في مرحلة متأخّرة.

حققت له مؤلّفاته شهرة واسعة في الأوساط المسيحيّة الأوروبيّة، في حين كان ذكره مكرّماً في البلاد الإسلاميّة؛ وضريحه في دمشق، الذي أعيد بناؤه على عهد السلطان العثماني سليم الأول، بقي موضع تكريم مستمرّ. وبالفعل، ففي سوريا الأيوبيّة قضى سنواته الأخيرة، بعد حياة متنقلّة وإقامة في أماكن بعيدة.

ولد في مرسية، ودرس في إشبيلية حيث أمضى عشرين سنة مطّلعاً على جميع الاتّجاهات الفكريّة الأصيلة في الإسلام، وتابع، منذ ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، تحصيل العلم في مراكز أخرى من بلاد الأندلس والمغرب. وفي سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م، هجر نهائيًّا تلك المناطق نحو بلاد أخرى كان يأمل أن يثير تصوّفه فيها حذراً أقلّ، فأقام على التوالي في مصر فسوريا فالعراق فالأناضول، ولا سيّما في قونية حيث غمره سلاطين سلاجقة الروم بمظاهر التكريم. وأخيراً، حوالى سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، عاد إلى سوريا حيث توفي سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، ودفن في حيّ الصالحيّة حيث استمرّ أولاده يقيمون.

كتب ابن العربي مؤلّفات كثيرة ما يزال بعضها غير منشور، لكنّ دراستها وشروحها شجّعت ازدهار مدرسة التصوّف التي انبثقت من تعاليمه، والتي استمرّت في النماء لاحقاً، على الرغم من معارضة المتكلّمين السنّة. أهمّ كتابين له، أو على الأقلّ أكثرهما شهرة، هما: بحث في أجزاء عدة هو «الفتوحات المكّية»، وكتيّب بعنوان

«فصوص الحكم».

يصعب تحديد عقيدة ابن العربي على وجه الدقّة. فهي في الوقت نفسه دينيّة وفلسفيّة وصوفيّة. إنّها تستند إلى نظريّة الكلمة التي هي الحقيقة المطلقة، الله والكون في آن، لأنّ العالم منبثق من الله، كما الخاص من العامّ. ليس، في هذه النظرية، إلّا وجود واحد، «وحدة الوجود»، وهي التي ستتبنّاها طبقة من المتصوّفين بعد ابن العربي. أما محمّد النبي (ﷺ) الذي لم يشكّ ابن العربي يوماً في تفوّقه على بقيّة الأنبياء - وابن العربي هو المفكّر الذي رأى في الإسلام ديانةً شموليّة، مهّدت لها كلّ الديانات الأخرى - فهو يعتبر تجلّياً للكلمة: إنّه مبدأ كوني خالد، وبوساطته يحقّق الإنسان كمال إنسانيّته. وفي الوقت نفسه، يعتبر ابن العربي أنّ الرسالة النبويّة هيَ مرتبطة بزمن معيّن، فيحلّ مكانها مفهوم الوَلاية المختصّة بالوليّ، أي «الصداقة التي يعلنها الله لبعض مختاريه بأن يكشف لهم معرفة الأشياء بالحدس، ما يجعلهم خيرَ هداةٍ للإنسانيّة». إنّ نظريّة كهذه، نشأت عنها نصوصٌ صوفيّة فائقة الجمال، كان محتّماً عليها أن تُعدّ بدعة بالنسبة إلى فقهاء السنّة، تماماً كالأفكار التي انتشرت في بعض الأوساط الشيعيّة المتطرّفة، وما تزال هذه النظريّة تثير مثل هذه الردّات في الأوساط الإسلاميّة التقليديّة.

إبن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي الشافعي، ٤٩٩-٥٧١هـ/ ١١٠٥-١١٧٦م، الملقّب بالحافظ، فقيه ومحدّث ينتمي إلى أسرة من الأعيان الشافعيّين في دمشق، نال شهرة واسعة مستمرّة بفضل مؤلّفاته الأدبيّة والتاريخيّة.

تثقّف ابن عساكر بالعلوم الفقهيّة والدينيّة بحسب التوجّهات السنيّة الصارمة في أسرته. وبين ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م و٥٣٨هـ/ ١١٤٣م، قام برحلات إلى العراق وإيران وما وراء النهر، وأدّى فريضة الحج إلى مكّة، ما أتاح له أن يجمع من معلّمين كبار عدداً وافراً من الأحاديث المرويّة عن النبيّ محمّد (ﷺ)، مبتعداً عن النزاعات الدينيّة والسياسيّة التي كانت تثير الأحداث في سوريا آنذاك. انصرف بعد ذلك إلى التعليم في دمشق، وأصبح في عداد مستشاري نور الدين الذي شيّد من أجله «دار الحديث» حيث استطاع نشر أفكاره، وتنشئة أفراد سلالته الذين سيخلفونه. وقد لقي كلّ مظاهر التكريم حتى وفاته سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، بُعيد وصول صلاح الدين إلى الحكم في سوريا ومصر. يعدُّ كتابه «تاريخ دمشق» أبرز مؤلّفاته الكثيرة، وهو معجمُ تراجم يتناول المحدّثين والمشاهير الذين عاشوا في المدينة، وقد مهّد له بمقدّمة قيّمة عن خطط المدينة.

إبن عطاء الله، أحمد بن محمد الإسكندري الشاذلي، ؟-٧٠٩هـ/ ؟-١٣٠٩م، صوفيّ عاش في مصر وترك عدداً من المؤلّفات المشهورة، وكان أحد خصوم الحنبلي ابن تيميّة.

ولد ابن عطاء الله في الإسكندريّة ولكنّه عاش في القاهرة، وفيها توفّي. وأصبح قبره في قَرَافة موضع تكريم ومزاراً. أبرز مؤلّفاته، التي ما يزال بعضها مخطوطاً، مجموعة حِكَم عنوانها «الحكم العطائيّة» التي شرحها وعلّق عليها، بنوع خاص، المتصوّف الأندلسي ابن عبّاد. ووضع أيضاً سيرة الشاذلي، وحمل على ابن تيميّة لسببين: أحدهما أنّه انتقد المتصوّف التوحيدي ابن العربي، وثانيهما أنّه يعتبر الذكر بدعة مُنْكَرة.

إبن عقيل، أبو الوفاء علي بن عقيل بن أحمد البغدادي الزفري، ٤٣١-٥١٣هـ/ ١٠٤٠-١١١٩م، فقيه وعالم كلام على عهد السلاجقة، قام بالدفاع عن السنّة والتقليد، في زمن الصراع الديني العنيف في العراق.

قبل أن يعتنق المذهب الحنبلي، ويصبح فيه تلميذ القاضي أبي يعلى المسمّى أيضاً ابن الفراء، كان هذا العالم الشابّ الذي أظهر توقاً شديداً إلى المعرفة، يتبع تعليم سيّد الشافعيّة أو الحنفيّة وكذلك الاعتزال، وفي الوقت نفسه كان مهتمًّا بكتابات بعض المتصوّفين كالحلّاج. هذه الميول سببت له، سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م، كراهيّة فئة من الحنابلة في بغداد التي ولد فيها، وفيها عُيّن مدرّساً في الجامع المنصوري، فاضطرّ إلى التخفّي في منزل بضاحية المدينة يملكه رجل ثريّ كان يحميه، إلى أن أنكر علناً، سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، مؤلّفاته المؤيّدة لاتّجاهات عقلانيّة أو صوفيّة كانت قد أثارت انتقادات شديدة. ومع ذلك، فإنّ فكره احتفظ بطابع مميّز، أتاح

له تأثيراً عميقاً في مرحلة لاحقة، لا سيّما في الوسط الحنبلي حيث ظهرت، بعد وفاته، بعض نسخ من مؤلّفاته التي زُعم أنّها أتلفت عندما أعلن إنكاره لها.

إبن العميد، أبو الفضل محمّد بن الحسين ؟ - ٣٦٠هـ/ ؟ - ٩٧٠م، وزير عدد من أمراء السلالة البويهيّة، عرفته الأجيال اللاّحقة خاصة بصفته أديباً مشجّعاً للعلم والأدب.

هو ابن أحد صغار التجّار الذي صار كاتباً في إحدى الإدارات المحليّة في خراسان، حتّى إنّه نال لقب «عميد» وهو لقب مختص بالموظّفين الكبار لدى السامانيّين. مارس ابن العميد، بدوره، نشاطاً إداريًّا فضلاً عن نشاطه العسكري: كان حينذاك في خدمة أسرة شيعيّة أمسكت بزمام السلطة في غرب إيران، ومارست وصايتها في العراق على الخلافة العبّاسيّة. استطاع، في أوساط أسياده، أن يُحْبِطَ مخططات المتآمرين، أو أن يهدّئ هياج بعض الفرق العسكريّة، وأن يتسلّم، عند الحاجة، قيادة العمليّات؛ وفي الوقت نفسه، كان يحظى بشهرة واسعة من خلال ممارسة عمله كاتباً بفضل أناقة عبارته. بعد أن تسلّم الوزارة، طوالَ ثلاثين سنة، ووسّع دائرة نفوذه بصفته وصيًّا على عضد الدولة، توفي في همذان تاركاً ابناً له، هو أبو الفتح عليّ بن محمّد الذي أصبح، هو أيضاً، وزيراً، قبل أن يُعزل ويُحكم عليه بالموت ويُعدم سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، أي بعد وفاة والده ببضع سنوات.

إبن الفارض، شرف الدين أبو القاسم عُمَر بن عليّ المصري السعدي، ٥٧٧-٦٣٢/ ١١٨١-١٢٣٥م، صوفي وشاعر تصوُّف، عاش في القاهرة، وكُرِّم بصفته شخصيّةً ورعة في السنوات الأخيرة من حياته.

يحتوي الديوان الذي خلّفه ابن الفارض قصائد كُتبت، بلا شكّ، لتُنشد مع مرافقة موسيقيّة، ويشكّل غموضُ معانيها العنصر الأساسي في طرافتها، ويمكن أن تفسّر على أنّها قصائد حبّ أو أناشيدَ صوفيّة معبّرة عن حالات متنوّعة من الخبرة الدينيّة. ما يزال مدفن ابن الفارض، الواقع عند جبل المقطّم، إلى اليوم، مزاراً.

إبن الفرّاء، أبو يَعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفرّاء، المعروف أيضاً بالقاضي أبي يعلى، ٣٨٠-٤٥٨/ ٩٩٠-١٠٦٦م.

فقيه ذائع الشهرة في زمانه، وأحد أعلام المذهب الحنبلي في بغداد عند بدء السلاجقة ببسط سيادتهم هناك.

إنتمى ابن الفرّاء إلى حاشية الوزير ابن مسلمة، كمعاصره الماوردي الشهير الذي ينتمي إلى المذهب الشافعي. وبصفته تلك قام بدور بارز في نهاية عهد القادر، الخليفة العبّاسي، كذلك نال تقدير الخليفة القائم الذي اتّبع سياسة دينيّة تقليديّة ذات اتجاه حنبلي، دافع عنها سلفه. تميّزت سيرة هذا العالم بمظاهر التكريم وبالمسؤوليات القضائيّة، وقد مارس القضاء في عاصمة الخلافة سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، زمنَ القائم، وفي الوقت نفسه درّس الحديث في المسجد الجامع في المدينة نفسها. من أهمّ مؤلّفاته بحث في الحق العام هو كتاب «الأحكام السلطانية»، المشابه لكتاب الماوردي، وكتاب «المعتمَد»، وهو بحث في علم الكلام يولي أهميّة للمناهج المنطقيّة المعتمدة في هذا العلم. كان ابن الفرّاء مناضلاً ملتزماً في الصراع السياسي- الديني في عصره، واستمرّت المكانة السامية التي نالها في هذا المجال حتى منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

إبن الفرات، أبو الحسن علي بن محمّد بن موسى ابن الحسن بن الفرات، ٢٤١-٣١٢هـ/ ٨٥٥-٩٢٤م، وزير الخليفة المقتدر، وهو ينتمي، في عهد العباسيّين الذهبي، إلى أسرة من كتّاب الدواوين عمل أفرادها، لاحقاً، في خدمة الإخشيديّين في مصر.

عمل ابن الفرات في ديوان الخراج حالًا محلّ أحد إخوته الذي كان كاتباً للخليفة المعتمد، ووَزَرَ للخليفة الشاب المقتدر سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م، بعد فشل محاولة ابن المعتز الانقلابيّة، واستمرّ حتى سنة ٢٩٩هـ/ ٩١٢م. خلفه في الوزارة كاتب آخر بارز هو عليّ بن عيسى الذي اتّبع أهدافاً سياسيّة مختلفة. ثم عاد إلى عمله الوزاري في عهد الخليفة المقتدر نفسه، خلال ٣٠٥-٣٠٦هـ/ ٩١٧-٩١٨م، ثم خلال العامين ٣١١-٣١٢هـ/ ٩٢٣-٩٢٤م، حين خضع الخليفة لغضب الشعب على وزيره وأعدمه.

كان ابن الفرات متشيعاً في عقيدته، معتنقاً الإماميّة الاثني عشريّة، وكان بارعاً في الأمور الماليّة ورجلَ حاشية لبقاً. لكنّه كان واسع الضمير، لا يتردّد في ارتكاب المخالفات في ما تطول يده. وهذا ما أدّى إلى عزله مرّات عدّة. لكنّ علاقاته الشخصيّة وعطف الخليفة عليه كان يتيح له الرجوع إلى وظيفته. وحده العنف الذي مارسه في المرحلة الثالثة من تولّيه الوزارة والذي أدى إلى ردّة فعل شعبية، وضع أخيراً حدًّا نهائيًّا له.

إبن فضلان، أحمد بن فضلان بن العبّاس، القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، مؤلّف مغمور لم يُعرف إلّا من خلال تقرير تناول أحداثَ بعثةٍ وجّهها الخليفة العبّاسي المقتدر إلى بلغار الفولغا خلال عامي ٣٠٩-٣١٠/ ٩٢١-٩٢٢م.

مرّت تلك البعثة ببخارى عاصمة السامانيّين حينذاك، وبخوارزم وببلاد الترك الغزّ. إنّ النصّ العربي الذي روى فيه ابن فضلان أخبار تلك البعثة شكّل مصدراً جغرافيًّا وتاريخيًّا بالغ الأهميّة عن العلاقات القائمة بين العالم الإسلامي والجماعات غير الإسلاميّة، في السهوب الآسيوية، في تلك المرحلة. هذا المؤلّف الذي يبدو جليًّا أنّه نتاج كاتب مثقّف ينتمي إلى الأوساط الرسميّة في بغداد، يتناول بطريقة مثيرة للاهتمام حدثاً لم يتنبّه إليه أيّ من كتّاب التاريخ والحوليّات في تلك الحقبة.

إبن الفقيه الهمذاني، جغرافي إيرانيّ الأصل، عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي في الدولة العبّاسيّة، في أوج ازدهار عصرها الذهبي.

ولد، بلا شك، في همذان، لكن ليس لدينا معلومات أكيدة عن حياته. ألّف ابن الفقيه «كتاب البلدان» باللغة العربيّة، ولكن لم يصلنا منه إلا ملخّص كُتب على الأرجح قبل سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م. هذا الكتاب الذي يتضمّن استطرادات أدبيّة، واهتماماً بالأمور «المدهشة» الهادفة إلى إثارة اهتمام القارئ، يتضمّن أيضاً معلومات مفيدة لا سيّما عن إيران في القرون الوسطى. وهو يوضح خاصة بعض المظاهر الحضاريّة في ذلك العصر، ويقدّم صورة عن تطوّر الفن الأدبي الذي ينتمي إليه.

إبن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدِّيْنَوَري، ٢١٣-٢٧٦هـ/٨٢٨-٨٨٩م، أديب ومتكلّم سنّي، عاش في العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة في العراق، وترك نتاجًا وافرًا متعدّد الموضوعات، واهتمّ باستقامة العقيدة الإسلاميّة وبالأبحاث اللغويّة.

ولد ابن قتيبة في الكوفة، في أسرة إيرانيّة متعرّبة، يعود أصلُها، بلا ريب، إلى خراسان، وتوفّي في بغداد، محاطًا بتلاميذه، بعد حياة لا نعرف عنها إلّا القليل على الصعيدين الشخصيّ والعملي. تنبّه له وحماه وزير الخليفة المتوكّل، فعيّن قاضيًا لمدينة دينور في إيران سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥١م، واستمرّ في هذه الوظيفة حتّى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م. يبدو أنّ مؤلّفاته، التي تنتمي في غالبيّتها العظمى إلى ما يعرف بالأدب، هدفت، في الوقت نفسه، إلى تأييد الاتّجاه الديني المتحفّظ الذين اعتمده المتوكّل. نلاحظ في مؤلّفاته اهتمامًا بالعلوم الفقهيّة والكلاميّة، ما يمنعنا من اعتبار المؤلّف مجرّد لغوي، ذي ثقافة دنيويّة إيرانيّة ومقدرة تعبيرية.

إذا كان ابن قتيبة يبدو، بحق، أحد كبار الناثرين العرب في العصر العبّاسي، فهو بنوع خاص ممثّل التيّار السنيّ الذي جسّدته الخلافة منذ أواسط القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، عندما تمّ التخلّي عن الاعتزال الذي لزمه المأمون وخلفاؤه الأوّلون. ترك بنوع خاصّ، عدا المؤلّفات في النقد الشعري والمنتقيات الأدبيّة، دراسات عدّة تتناول الجدل الديني وتتعلّق بتفسير القرآن والحديث: إبتعد عن التفكير الشخصي أو الرأي، الذي لاقى حظوةً لدى أتباع المذهبين الشافعي والحنفي، مفضّلًا السنّة التي شكّلت، مع القرآن، القاعدة الأساسيّة لعقيدته.

إبن القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني، ٥٦٨-٦٤٦هـ/ ١١٧٢-١٢٤٩م، كاتب ومؤرّخ يمثّل النشاطات الفكريّة في سوريا الإسلاميّة على عهد الأيوبيّين.

ولد في قفْط، في صعيد مصر، وتابع دراسة طويلة في القاهرة ثمّ في القدس على عهد صلاح الدين. دخل ابن القفطي بعد ذلك في خدمة حاكم حلب الملك الظاهر، قبل أن يعود إلى القاهرة في آخر حياته. عُرف

بنوع خاص بكتابه «تاريخ الحكماء»، وهو معجم يضمّ أكثر من أربعمئة نبذة عن المختصّين بالعلوم وبالحكمة الموروثة عن القدماء، وبالأطباء، وبأنصار الفلسفة وبعلماء الحساب والفلك. وقد حفظ هذا المؤلّف فِقرًا منقولة من اليونانيّة إلى العربيّة، وقد ضاع نصُّها الأصليّ.

إبن القلانسي، أبو يَعْلى حمزة بن أسد التميمي، ٤٦٥-٥٥٥هـ/ ١٠٧٣-١١٦٠م، مؤرّخ اهتمّ بمدينة دمشق وإمارتها على عهد السلاجقة في سوريا، وعهد الأتابكة البوريّين الذين خلفوهم.

هو من أعيان دمشق، وقد أرّخ للحياة السياسيّة والاجتماعيّة في زمانه، وتاريخه يتضمّن معلومات بالغة الأهميّة عن علاقات بلاد الإسلام بفرنج مملكة القدس، وبالدولة اللاتينيّة التي تنظّمت بعد سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م. ونجد في كتاباته صورة حيّة لسوريا الإسلاميّة المنقسمة سياسيًّا ودينيًّا، والتي جعلتها الاضطرابات الداخليّة تحت مراقبة القوى المسيحيّة المجاورة، في انتظار ردّات المقاومة واستعادة الأرض التي قام بها الزنكيّون وصلاح الدين.

إبن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، ٧٠٠-٧٧٤/ ١٣٠٠-١٣٧٣، فقيه ومحدّث من المذهب الحنبلي، عاش في سوريا على عهد المماليك، وترك مؤلّفات كثيرة، لكنّ شهرته قامت على نتاجه التاريخي.

ولد ابن كثير في بُصرى بحوران، وكان أحد العلماء الأكبر مكانةً في مدينة دمشق التي تلقّى فيها علومه، وتتلمذ بنوع خاص لابن تيميّة. وفي دمشق علّم الحديث وتولّى القضاء حتّى وفاته. كرّس نفسه لدراسة الحديث والفقه وتفسير القرآن، وكتب في هذه المجالات مؤلّفات مهمّة، لكنّها لم تبلغ من النجاح ما لقيَه «البداية»، وهو كتابه المهم عن تاريخ الإسلام، وقد أغناه بحوليّات لمدينة دمشق، التي اختارها ليعيش فيها ويلقي دروسه.

إبن كرّام ← الكرّاميّة.

إبن الكلبي، هشام بن محمّد، ١٢٠-٢٠٤هـ/ ٧٣٧-٨٢١م، مثقّف من العصر الذهبي للدولة العبّاسيّة، برز مؤرّخًا من خلال الكتاب الذي ألّفه عن تاريخ الجزيرة العربيّة قبل الإسلام.

كوفيّ الأصل، وفي مدينته درّس، وفيها توفّي. وأقام في بغداد، من دون شك، زمنَ الخليفة المهدي. لم يصلنا من مؤلّفاته المئة والخمسين إلا معجم «أنساب العرب»، الذي استند إليه المؤلّفون اللّاحقون، و«كتاب الأصنام» الذي يتضمّن معلومات قيّمة عن الوثنيّة العربيّة.

إبن كلّس، أبو الفرج يعقوب بن يوسف، ٣١٨-٣٨٠هـ/ ٩٣٠-٩٩١م، كاتب بيت المال والمستشار المحظي لدى خليفتين من السلالة الفاطميّة، نال شهرته في خدمتهما ودافع عن المذهب الإسماعيلي عند توطيد الحكم الفاطمي في مصر.

إبن كلّس يهوديّ، ولد في بغداد واختار، باديءَ الأمر، أن يقيم في الرملة بفلسطين، لتعاطي التجارة، ثمّ رحل إلى مصر حيث لقي حظوة، خاصة لدى الوصيّ كافور، واختصّ في الإدارة الضرائبيّة. خبير في هذا المجال، وُعد بمنصب الوزارة، فاعتنق الإسلام سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م، وانصرف إلى دراسة الفقه. وبعد موت كافور، انتقل إلى إفريقية حيث حظي بثقة الخليفة الفاطمي المعزّ. عاد معه إلى مصر عند احتلالها، وفي سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، عيّنه الخليفة الجديد وزيرًا، عند تسلّمه الحكم، فكان بذلك الرجل الأول الذي يحتلّ هذا المنصب على عهد الفاطميّين.

امتاز ابن كلّس بعطفه وسخائه على العلماء. تعمّق في العقيدة الإسماعيليّة فشجّع نشرها عن طريق الدعوة الفاطميّة، وبدأ بتشييد المسجد الذي عُرف لاحقًا بمسجد الحاكم. وبفضل ما امتاز به من صفات الحذر السياسي والفعاليّة، عمل كثيرًا على توطيد النظام الحاكم في مصر، مع أن كتّاب سيرته لم يكونوا دومًا موافقين على الطرق التي اعتمدها.

إبن ماجد، شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمّد... بن أبي الركائب النجديّ، بحّار عاش في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. إنّه يتحدّر من أسرةِ ملّاحين، لا نعرف تاريخ حياته بدقّة، وقد اشتهر

بنوع خاص بمعرفة المحيط الهندي.

ينتسب ابن ماجد إلى أسرة عربية من جُلْفار في الخليج العربي - الفارسي، وقد وضع، بين ٨٦١ و٩٠٦هـ/ ١٤٦٢ و١٥٠٠م، كتابات كثيرة ضمَّنها، إنطلاقًا من تجربته الخاصة ومن خبرات سابقيه، المعارفَ الرياضيّة والتقنيّة التي أتاحت للمسلمين السيطرة على الطرق البحريّة المؤدّية إلى بلاد الزنج وإلى الهند والصين، كما أنّه نقل كل التراث القديم والمعارف التي جمعها في مجال الملاحة والجغرافيا وعلم الفلك. كلّ ذلك جُمع في مؤلّفات متعدّدة، نثرًا وشعرًا، وقد تمّ اليوم نشرها، ودراستها، ويمكن اعتبارها إرشادات ملاحيّة تتناول شواطئ أفريقيا الشرقيّة، وآسيا الموسميّة، وكذلك الطرق المباشرة التي تربط هاتين المنطقتين بمرافئ الخليج العربي الفارسي أو جنوبي شبه الجزيرة العربيّة.

اعتمد ابن ماجد في حياته المهنيّة، كربّان، خرائط بحريّة وأدوات متنوّعة تمثّل العلوم البحريّة في عصره، وينسب إليه أيضًا اختراع البوصلة، وذلك أمرٌ يحتمل الشكّ. وكان على صلة بالبحّارة البرتغاليّين الذين كانوا يضاعفون جهودهم لبلوغ الهند بعد أن اجتازوا رأس الرجاء الصلاح، وربّما التقى ڤاسكو دي غامًا وزوّده بمعلومات مفيدة، سواء تمّ ذلك عبر لقاء مباشر أو بطريقة أخرى.

إبن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد الرَّبَعي القزويني، ٢٠٩-٢٧٣هـ/ ٨٢٥-٨٨٧م، محدّث، ومؤلّف أحد الكتب المعتمدة في الحديث، عاش في العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة. بعدما تجوّل في بلدان عدّة من الشرق الأدنى، بحثًا عن الأحاديث المنسوبة إلى النبيّ محمّد (ﷺ)، وضع ابن ماجه مؤلّفه الجامع الذي يحمل عنوان «كتاب السنن» الذي يشمل على أربعة آلاف حديث؛ إنّه يكمّل مجموعات الأحاديث الشرعيّة الخمس التي سبقته. على الرغم من النقد الذي وُجّه إلى هذا الكتاب، فانّ ذلك لم يَحُلْ دون الإقرار بأنّه أحد «الكتب الستّة» التي تشكّل أساس علم الحديث، مع أنّه لا يُعَدُّ كذلك في المغرب.

إبن مرزوق، شمس الدين أبو عبدالله محمّد بن أحمد الأجيسي التلمساني الملقّب بالجد الرئيس الخطيب أو بالرئيس الخطيب المبجَّل، ٧١٠-٧٨١هـ/ ١٣١٠-١٣٧٩م، مثقّف وقاضٍ ومحدّث وإداري، عاش حياةً مضطربة في بلاط عددٍ من الأمراء والسلاطين في المغرب والأندلس، وكذلك في مصر المملوكيّة. ينتمي ابن مرزوق إلى أسرة كبيرة من الأعيان، إفريقية الأصل. وعند وصول بني هلال، في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، هاجر بنو مرزوق إلى تلمسان. وفي هذه المدينة ولد ابن مرزوق، وكان أبرز ممثّل لسلالة حقيقيّة من العلماء المرتبطين، قرب هذه المدينة، بمسجد أبي مبدان الذي كان أحد أسلاف ابن مرزوق من أتباعه. بعد إقامته في بلاد الشرق للتعلّم عاد إلى المغرب، وكانت حياته مقسّمة بين تبوُّء المناصب العالية والعزل، حتّى إنّه تعرّض للسجن. وكان ينتقل من خدمة بني مرين في فاس، إلى بني زيّان أو بني عبد الواد في تلمسان، فإلى بني نصر في غرناطة وأخيرًا إلى القاهرة داخلًا في خدمة السلطان شعبان المملوكي. وفي هذه المدينة انتهت حياة ابن مرزوق، بعد أن أُوكِل إليه القضاء، والخطابة الرسميّة، والتعليم في المدرسة، ناعمًا بتقدير كبير. وقد ترك عددًا من المؤلّفات في التاريخ والفقه، والدفاع عن الدين، والأخلاق.

إبن مَسَرَّة، محمد بن عبدالله الجبلي، ٢٦٩-٣١٩هـ/ ٨٨٣-٩٣١م، أحد مشاهير ممثّلي الفلسفة في الأندلس، على عهد الخلافة الأمويّة في الغرب. تمتّع بشهرة في التصوّف واستطاع بتحفّظه أن ينجو من تهجّم الفقهاء المالكيّين عليه.

ولد بقرطبة في أسرة ذات أصل محلّي، ونَشّأهُ والده على تراث المعتزلة. زار بلاد الشرق ليتلقّى تعاليم التصوّف، ولا شكّ في أنّه أقام في مكّة، ثمّ عاد إلى الأندلس ليعتزل، قرب قرطبة، في مَنْسَكٍ جبليّ (فلقّب بذلك)، ومكث هناك حتّى وفاته، على الرغم من الأحكام القاسية التي تعرّضت لها مؤلّفاته، ولم يُعلن فلسفته الحقيقيّة التي ما تزال غير معروفة إلا لبعض الخاصة من تلاميذه. وممّا لا شكّ فيه أنّ فقهاء السنّة رمَوه بالزندقة، لكنّ ذلك لم يمنعه من التأثير في الفكر الإسلامي في مرحلة لاحقة، لا سيّما في ابن العربي

الذي حفظ في مؤلّفاته بعضَ قطعٍ قويّة الدلالة من كتابات ابن مسرّة، أضيفت إلى المعطيات التي تناهت إلينا عبر مؤلّفات ابن حزم.

إن عقيدته، المستوحاة من الأفلاطونيّة الجديدة، تخصّ مذهب الفيض القائم على تراتبيّة عناصر خمسة بمكانة بارزة. لكنّها كانت أيضًا ذات طابع صوفي بارز، وأسّست لنمط حياة روحيّة مستوحاة في الوقت نفسه من الممارسات التقشفيّة التي خضع لها ابن مسرّة. هذه العقيدة، قبل أن تصل إلى ابن العربي، مورسَت خاصّةً في الأوساط الصوفيّة التي كان أعضاؤها يُعرفون في الأندلس بالمريدين، وقد جابه هؤلاء، في بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، المرابطين، سواء في مدرسة ابن العريف في المريّة أو حول ابن قسي في شلب.

إبن مسعود، عبدالله بن غافل بن حبيب بن هُذَيل، صحابي، محدّث وقارئ، اكتسب في قراءة القرآن الكريم شهرة واسعة مستمرّة.

عربيّ الأصل، وضيع النسب، ولكنّه من أوائل معتنقي الإسلام، احتلّ ابن مسعود مكانة بارزة لدى الأنصار في المدينة. بعد مدّة، انتقل إلى الكوفة، حيث قام بدور فعّال في مرحلة الفتوح الكبرى، قبل أن يتعرّض للإساءات من قبل الخليفة الثالث عثمان بن عفّان. كان صوفيّ الميول، وشُهر خاصة بدفاعه عن نصّ للقرآن يختلف بوضوح، بحسب ما يُروى، عن الذي اعتمده عثمان، واقترح تفسيرًا لبعض الآيات كان، على ما يبدو، لمصلحة الشيعة. إنّ قراءات ابن مسعود للنص القرآني رُفضت رسميًّا في بغداد في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ما يدلّ على أنّها كانت ما تزال محفوظة ومستمرة علنًا، في بعض الأوساط.

إبن المعتزّ، أبو العبّاس عبدالله، ٢٤٧-٢٩٦هـ/٨٦١-٩٠٨م، أمير من الأسرة العبّاسيّة: ابن الخليفة المعتزّ، وحفيد المتوكّل. كان شاعرًا، وخليفةً ليوم واحد سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م. ولد ابن المعتزّ في سامراء، وتوفي مقتولًا في بغداد عن عمر يناهز الخمسين، نتيجة المحاولة الفاشلة التي قام بها الأعيان الذين أوصلوه إلى الخلافة، لمحاربة هيمنة الكتّاب الشيعة الذين كان هو أيضًا يكرههم. جرى بعد ذلك انقلاب في البلاط، سبّبته مؤامرة قضت عليها مؤامرة أخرى، وأرغمت، في ١٧ كانون الأول سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م، المقتدر الفتيّ على التخلّي عن الحكم، بعد مرور أشهر عدّة على موت الخليفة المكتفي.

إنّ النجاح الذي وفّرته لابن المعتز جماعة الكتبة والأمراء الذي ساندوه، كان غير كافٍ وقصير الأمَد. ففي اليوم التالي، سيطر على الوضع مؤيّدو المقتدر، واضطرّ ابن المعتزّ إلى الفرار، وسرعان ما قُتل في البيت الذي لجأ إليه، لذا عرف عبر التاريخ بلقب «خليفة اليوم الواحد».

حتّى ذلك التاريخ، قضى حياته بعيدًا عن السياسة، ولم يكن له من دور إلّا دور الشاعر المدّاح لابن عمه الخليفة المعتضد. وبصفته شاعرًا، تناول الموضوعات «الحديثة»، واصفًا، بلغة صافية وواضحة، ملاهي الطبقة الاجتماعيّة العليا. وبصفته ناقدًا أدبيًّا، ترك ابن المعتز دراسة في فن الشعر، ودراسة في اللغة الجميلة، جَهد فيها إلى تحديد أنواع الصور الأدبيّة والكنايات. ودراسته تنمّ عن تأثره بكتاب البلاغة لأرسطو الذي كان قد تُرجم حديثًا، مع أنّ هدفه الأساسي كان الدفاع عن الثقافة العربيّة. إنّ مجمل نتاجه المتّصف بالكلاسيكيّة، يتضمّن شعرًا وصفيًّا(٥) وإرشادات ترمي إلى ضمان الأسلوب الجميل(٦) الذي يُصِرُّ ابن المعتز على جعله يرقى إلى مستوى لغة أهل البادية.

إبن المعلّم ← المفيد.

إبن المقفّع، ١٠٢-١٣٩هـ/٧٢٠-٧٥٦م، كاتب بالعربيّة، ومثقّف فارسي الأصل، وأحد مؤسّسي الثقافة المرهفة التي ميّزت العصر الذهبي للعبّاسيّين، ولكنّه قُتل بأمر من المنصور، الخليفة الثاني في هذه السلالة.

كان ابن المقفع زردشتيّ المذهب، وعندما اعتنق الإسلام اتّخذ اسم عبدالله، وظلّ طويلًا في خدمة الأمراء العبّاسيّين أعمام السفّاح والمنصور، وهذا ما سبّب له غضب المنصور وقتله عندما حاول الدفاع عنهم تجاه ابن أخيهم. وكان، قبل ذلك، قد لقي كراهيّة الأوساط

العربيّة-الإسلاميّة المحافظة عندما أكبّ على إبراز تفوّق التراث الفكري الهندي والإيراني، من خلال ما نقله إلى العربيّة، إمّا مترجمًا، وإمّا عبر المؤلّفات التي وضعها.

عرف ابن المقفّع، بنوع خاص، بالمؤلّفات الأجنبيّة التي أدخلها إلى الأدب العربي، ولا سيّما «كتاب كليلة ودمنة»، وهو مجموعة قصص خرافيّة هنديّة لقيت إقبالًا مميّزًا في الأوساط الإسلاميّة في العصور الوسطى. إنّ قصص هذه المجموعة التي تجري في عالم الحيوانات، ومنها اثنتان من بنات آوى إحداهما كليلة والأخرى دمنة، أُلّفتْ في الهند حوالى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد، ثمّ تُرجمت إلى لغات عدّة، منها البهلويّة فالعربيّة. شكّلت ترجمة هذه القصص العمل الأول الكبير في النثر العربي، ونقلت حكمة مجرّدة من الصفة الدينيّة، تدعو إلى اتّخاذ الحيطة تجاه الحكّام، وتبرز قيمة الصداقة. إنّ خلاصة هذه الحكمة دخلت في الأخلاق الإسلاميّة، إلى جانب الحكمة القديمة الموروثة، والفضائل التي دعا إليها القرآن الكريم.

وضع ابن المقفع مؤلّفًا آخر في السلوك الاجتماعي، هو كتاب «الأدب الكبير»، نجد فيه حثًّا على تذوّق الثقافة والآداب من جهة، ومراعاة لباقة التصرّف في البلاط من جهة ثانية. والكتاب يقدّم إرشادات موجّهة إلى الحكام وإلى أتباعهم. وثمّة مؤلّف آخر، موجّه إلى الخليفة المنصور، عنوانه «رسالة في الصحابة»، أي صحابة الحاكم، يقدّم حلولًا عمليّة للمشكلات السياسيّة-الدينيّة المطروحة حينذاك، ولم ينل هذا الكتاب استحسان المُهدى إليه. لقد عبّر الكاتب عن نقمته، بخاصةٍ على تنوّع الأحكام التي يُصدرها القضاة في مدنٍ مختلفة، واقترح على الخليفة أن يصدر قانونًا يطبّق في كل أنحاء الدولة، لكنّ هذا المشروع الذي يجعل من الخليفة شارحًا للشريعة لم يؤخذ به.

وينسب إلى ابن المقفع كتاب في امتداح الديانة المانويّة، ألقى الشكّ حول صدق اعتناقه الإسلام، ولكن لم يُحفظ منه سوى بعض المقاطع. إنّ ابن المقفع يمثّل الصورة المميّزة للكتّاب الإيرانيّين الذين اعتنقوا الإسلام، فوَسَموا بميزاتهم الشخصيّة الدولة الإسلاميّة العبّاسيّة. ومع أنّهم ظلّوا مخلصين لثقافتهم الأصليّة، فقد شُغفوا بآداب اللغة العربيّة، وبذلوا الجهد لينقلوا إليها القيم التي كانوا مُشْبَعين بها، ما أدّى بعد زمن يسير إلى نشوء الحركة الشعوبيّة.

ابن مقلة، أبو علي محمّد بن علي، ٢٧٢-٣٢٨هـ/ ٨٨٥-٩٤٠م، وزير في العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة، وخطّاط شهير، يُنسب إليه ابتكار نمط من الخط العربي قدّر له أن يبلغ كماله على يد ابن البوّاب.

ولد في بغداد، وتسلّم في بادئ الأمر وظيفة إداريّة في مقاطعة فارس، ثمّ دخل في خدمة الوزير ابن الفرات الذي عهد إليه بإدارة مركزيّة مهمّة، سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م؛ واستعان به، مرّة أخرى، سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م. ثمّ تخلّى عنه، لكنّ الوزير علي بن عيسى لاحظ مقدرته سنة ٣١٥هـ/ ٩٢٧م. وبلغ هو نفسه منصب الوزارة سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م، واحتفظ به حتّى ٣١٨هـ/ ٩٣٠م، ولكنّه لم يستطع مجابهة الصعاب التي كانت تنهال على الخلافة في تلك المرحلة. عاد إلى الوزارة سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م، ثمّ سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م، لكنّه عجز من جديد عن فرض سلطته. واجه كراهيّة كبار الأمراء الذين كانت سلطتهم قد بدأت تتوطّد، بشخص ابن رائق، فسجن ومات مسجونًا نتيجة ما تعرّض له من سوء المعاملة.

ابن مكرّم ← ابن منظور.

ابن ممّاتي، الأسعد بن مهذّب بن زكريّا، ٥٤٢-٦٠٦هـ/ ١١٤٧-١٢٠٩م، كاتب في الإدارة المصريّة على عهد الأيوبيّين، خلال حكم صلاح الدين وابنه الملك العزيز، ترك مؤلّفًا وصفيًّا يتّسم بالطرافة يتعلّق بالتاريخ المحلّي.

ينحدّر ابن ممّاتي من أسرةٍ موظّفين أقباط اعتنقوا الإسلام، وشَهَرَهُمْ أبوه وجدّه الذي كان أديبًا مثقّفًا معروفًا، تسلّم مقاليد الإدارة في جميع الدواوين المركزيّة في مدينة القاهرة، إلى أن تعرّض لتهمة رماه بها أحد خصومه في آخر حياته، فاضطرّ للهرب إلى حلب، لائذًا بابنٍ آخر لصلاح الدين، هو الملك الظاهر، وبقي فيها حتّى وفاته. كان ابن ممّاتي قد ألّف لسلطان مصر «كتاب قوانين الدواوين»، وهو كتاب قيّم يهدف إلى وصف حالة الإدارة في البلاد. وعلى الرغم ممّا

نوبه من نقص، فانّه يحتوي على كميّة كبيرة من معلومات عن الحالة الزراعيّة والضرائبيّة والاقتصاديّة ي مصر خلال حكم الأيوبيّين.

بن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرَّم بن لمي الأنصاري الإفريقي المصري، المعروف أيضًا باسم بن مكرَّم، ٦٣٠-٧١١هـ/ ١٢٣٣-١٣١٢م. قاضٍ وكاتب على عهد المماليك الأوّلين في مصر، ومؤلّف «لسان لعرب».

هذا العلّامة المثقف، طرابلسي الأصل من ليبيا حيث عاش. أكبَّ بشغف على العمل المعجمي العربي. و«لسان العرب» هو المعجم الأضخم بين المعاجم لعربيّة القديمة. جمع مادّته من خمسة معاجم سابقة، واعتمده ابن مرتضى عندما ألّف معجمه «تاج العروس»، وأشار بشكل أوضح ممّا في «لسان العرب» إلى المصادر السابقة التي استند إليها.

إبن النديم، أبو الفرج محمّد بن أبي يعقوب اسحق الورّاق البغدادي، ؟-٣٨٥هـ/ ؟-٩٩٥م، ورّاق، مثقف، صاحب فكر فضولي، عاش في بغداد على عهد العبّاسيّين، وشُهر بنوع خاص بكتابه «الفهرست» الذي ذكر فيه الكتب المعروفة في زمانه. لا نعرف عن شخصيّته إلّا القليل. كان ينسخ الكتب، وكان على صلة بابن الوزير علي بن عيسى، وبفيلسوف نصراني. وأظهر إعجابًا كبيرًا بمفكّري اليونان وبأنصار الفلسفة. إنّ المفردات التي يستعملها تثبت أنّه كان شيعيًّا ينتمي إلى الإماميّة الاثني عشريّة. كتب سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م الفهرست، وهو ثَبْتٌ بجميع الكتب العربيّة، على اختلاف موضوعاتها. وأرفق تعريفه الكتب باشارات قيّمة إلى سيرة مؤلّفيها، وأحيانًا بآراء حول العقائد التي يعتنقونها. هذا الكتاب - الذي يساعد على معرفة الحياة الفكريّة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي يتضمّن عشرة أقسام، الستة الأولى تتناول الكتب ذات الموضوعات الإسلاميّة، والأربعة الأخرى مؤلّفات العقائد الفلسفيّة والديانات غير التوحيديّة.

إبن النفيس، علاء الدين أبو العلاء علي القرشي الدمشقي ؟-٦٨٧هـ/ ؟-١٢٨٨م، عالم وأديب مسلم من العصر الأيّوبي وعصر المماليك الأوّلين، شُهر بتظرياته الطبيّة.

ولد في دمشق، وتفقّه في علوم الدين، وحصّل ثقافة واسعة، وأصبح، في مصر، الطبيب الخاص للسلطان بيبرس، ما أتاح له أن ينعم بحياة مترفة في القاهرة حيث توفّي بعد عمر مديد.

ترك ابن النفيس عددًا من المؤلّفات، لكنّ شهرته قائمة اليوم على أنّه مكتشف الدورة الدمويّة في الرئتين، الأمر الذي كان يجهله جالينوس وابن سينا. هذا الاكتشاف الذي ظلّ مجهولًا لدى الأطباء العرب المتأخّرين، يبدو أنّه انتقل إلى الأطباء الغربيّين في عصر النهضة، عبر المترجم اندريه ألباغو (Andrea Alpago) المتوفى سنة ١٥٢٠م. وقد استعاد ميشال سيرفيه (Michel Servet) وريلدو كولومبو (Realdo Colombo) ما ذكره ابن النفيس، واستخلصا نتائج لم تكن معروفة لدى العلماء المسلمين.

إبن هانئ الأندلسي، محمّد بن هانئ بن سعدون، ٣٢٣-٣٦٢هـ/ ٩٣٥-٩٧٣م، مدّاح الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله في إفريقية. كان قد قام سابقاً بدور الداعي الناشط للمذهب الإسماعيلي في الأندلس، على عهد أمويّي الغرب.

ولد ابن هانئ في مدينة إشبيلية التي كانت مركز معارضة قويّة للسلطة المركزيّة. واكتسب عقائد تشيّع متأثّر بالفلسفة، في خطّ الطروحات الماورائيّة التي بثّها ابن مسرّة. اضطرّ، فراراً من الملاحقات، إلى أن يغادر الأندلس إلى المغرب حيث كانت القوات المكلّفة نشر السلطة الفاطميّة قد بلغت، منذ سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م، شمال المغرب الحالي. فاستقبل في بلاط صبرا - منصوريّة، قرب القيروان، حيث لم يتوقف عن خدمة قضية إمامه. ويبقى شعره، المستحسن لقيمته الأدبيّة، شاهداً قيّماً على الأفكار السياسيّة-الدينيّة التي كان مكلّفاً الدفاع عنها ونشرها باسم الدعوة الإسماعيليّة. وربّما لم يكن موته العنيف، الذي ما زال يلفّه الغموض، بعد ذلك بقليل، لينفصل عن التأثير العميق الذي تركته قصائده الزاخرة بالصور الشعريّة في ما وراء حدود دولة المعزّ.

إبن هُبيرة، تسمية تطلق على اثنين من ولاة العراق في العصر الأموي، هما عُمَر وابنه يوسف اللذان عملا من دون جدوى على نُصرة السلالة الحاكمة بوجه المشاريع الانقلابيّة التي كانت تنذر بانتصار قريب للثورة العبّاسيّة.

كان هذان الواليان يمثّلان الحزب القيسي الذي ينتمي إلى عرب الشمال، فقاما بمحاربة الحزب اليمني الشيعيّ الميول الذي كان قويًّا في الكوفة. ويوسف، وهو الثاني والأخير منهما، فشل في الدفاع عن الخليفة مروان الثاني، أمام الجيش الذي أرسله أبو مسلم الخراساني؛ وتراجع إلى واسط وانتهى به الأمر إلى الاستسلام، فحُكم عليه بالموت على الرغم من الوعد بالأمان على حياته الذي أعطي له.

إبن هُبيرة، عون الدين أبو المظفّر يحيى بن محمد الشيباني الدُّوري البغداديّ، ٤٩٩-٥٦٠هـ/١١٠٦-١١٦٥م، إداريّ ووزير في الحقبة الأخيرة من خلافة العبّاسيّين، كان أيضًا فقيهاً بارزاً في المذهب الحنبلي.

ما فتئ ابن هبيرة، الذي وجّه الحكم خلال ستة عشر عاماً على عهد الخليفة المقتفي ثمّ المستنجد، يشجّع انتشار المذهب الحنبلي، وألّف كتاباً في الفوارق بين المذاهب الفقهيّة، واستقدم إلى بغداد علماء مختلفي الاتّجاهات لمناقشة هذه الموضوعات. هذا الكتاب، المعروف بـ«الإفصاح»، ساعد على التقارب بين ممثلي المذاهب المختلفة، وقد طبع هذا التقارب نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي في المشرق.

إبن هشام، أبو محمد عبد الملك، ؟-٢١٥هـ/ ؟-٨٣٠م، نسّابة ونحوي عربي، نال شهرته من خلال تصنيفه سيرة النبيّ محمد (ﷺ).

ولد ابن هشام في البصرة، وتعمّق في دراسة الحديث، واطّلع على أحاديث أخرى كانت متداولة في العراق. ثمّ انتقل إلى مصر. اهتمّ، فضلاً عن مؤلّفات مختصّة بالتاريخ القديم لجنوبي الجزيرة العربيّة، بوضع «سيرة الرسول» إنطلاقاً من كتاب كان قد وضعه ابن إسحق، فأجرى فيه تعديلات متنوّعة، وأدخل عليه زيادات جمّة.

إبن الهَيْثم، أبو الحسن البصري المصري، ٣٥٤-٤٣٠هـ/ ٩٦٥-١٠٣٩م، رياضي وعالم عربي، جاء عمله الضخم مطعَّمًا بمعرفته العميقة للمفكّرين الإغريق وأعمالهم. ولد ابن الهيثم في البصرة بالعراق، ثم انتقل إلى القاهرة ليمضي قسمًا من حياته فيها، زمن الفاطميّين، وعمل للخليفة الحاكم بأمر الله. اشتهر بأعماله في علم البصريّات وفي علم الهندسة، ونُقلت مؤلفاتُه إلى اللاتينيّة. وقد عرض في أبحاثه حلولًا لعدد كثير من المسائل الرياضيّة والفلكيّة. فعلم البصريات بقي ملتصقًا باسمه، وكان قد عرضه في كتابه «المناظر» وأصبح يُعرف في أوروبا المسيحية باسم «كنز البصريات» (Thesaurus opticus).

إبن واصل، جمال الدين أبو عبدالله محمّد بن سالم.. بن واصل، ٦٠٤-٦٩٧هـ/ ١٢٠٨-١٢٩٨م، قاضٍ ومثقّف من مدينة حماة، وأحد أبرز ممثّلي الحياة الفكريّة في سوريا على عهد الأيوبيّين.

بعد أن تابع ابن واصل دراساته العلميّة والفقهيّة في تلك البلاد، وخدم عدداً من أمراء الأسرة المالكة حينذاك، لا سيّما الملك الصالح سلطان مصر، أُلحق بحاشية السلطان الذي أسّس قوّة المماليك ودولتهم الجديدة. أرسله بيبرس الذي كان يقدّره، سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، في مهمّة لدى ملك صقلّية، مانْفرِد. بعدئذ، عاد ليعيش في حماة حيث توفّي بعد أن عمّر طويلاً. ألّف «مفرّج الكروب»، وهو كتاب في التاريخ، كان سبب شهرته مؤرّخاً لتلك الحقبة؛ لكنّه أيضاً درّس الفقه وخلّف مؤلّفاتٍ في المنطق وفي علم الفلك، وكتباً أخرى علميّة.

إبن يونُس، أبو الحسن علي بن أبي سعيد عبدالرحمن الصَّدَفي، ؟-٣٩٩هـ/ ؟-١٠٠٩م، فلكي شهير لا نعرف عنه سوى أنّه عاش في القاهرة، وأنّه أحدث تقدّماً في علم المثلّثات المسطّحة والكرويّة.

مؤلّفه في علم الفلك، «الزّيج الكبير الحاكميّ»، الذي يحتوي كل المراقبات الفلكيّة التي ذكرها سابقون في القرنين الثالث والرابع للهجري/التاسع والعاشر للميلاد، وتلك التي قام بها هو نفسه، بقيت محفوظة في هذا الكتاب. ويُعزى الفضل إلى ما بقي من مقاطعه المختارة، ومن نصوصه المترجمة، في إثارة اهتمام

العلماء الغربيّين الذين خصّوه بعدد من الدراسات، ابتداء من القرن التاسع عشر.

أبو أيّوب الأنصاري، ؟ ٥٢هـ/ ؟-٦٧٢م، من أصحاب رسول الإسلام ﷺ، دفن تحت أسوار القسطنطينيّة. يُطلَق إسمه بصيغة «إيوب» على الضاحية التي نشأت حول ضريحه في العصر العثماني. شارك أبو أيّوب في كلّ الغزوات التي قام بها النبيّ محمّد ﷺ، ودافع بعد ذلك عن قضيّة علي، واشترك في العصر الأموي، وبالتحديد خلال حكم معاوية، في أكبر عمليّة جهاد أطلقت آنذاك ضدّ بيزنطية، ومات بسبب المرض خلال تلك الحملة. يبدو أنّ البيزنطيّين احترموا المكان الذي دُفن فيه وهو يقع في عمق القرن الذهبي، وقد عرفه الكتّاب العرب القدماء، وورد ذكره موضعًا للزيارات في الحقبة التي انتشر فيها تكريم الأولياء. نجده في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في دليل الهروي. بعد أن استولى السلطان محمّد الثاني الفاتح على العاصمة البيزنطية التي أصبحت تعرف، بعد هذا التاريخ، بإسم «إسطنبول». تمّ، في عام ١٤٥٨م، بناءُ مسجدٍ جديد في المكان المذكور ضمّ المقام. دُفنت بالقرب منه شخصيات كبيرة عدّة ونما أيضًا في الجوار حيٌّ سكنيّ. تمّ بعد ذلك غيرَ مرّة تكبير مسجد «إيوب» وتجميله، وما يزال حتى اليوم موضع تكريم خاص.

أبو بَكر، عبدالله بن أبي قُحافة التَّيمي القُرَشِي، الملقّب بـ«الصِّدِّيق»، ٥٢ق.هـ-١٣هـ/ ٥٧٠-٦٣٤م، أوّل خلفاء الإسلام، تولّى الحكم من سنة ١١ إلى سنة ١٣هـ/ ٦٣٢ إلى ٦٣٤م، وكان، قبل ذلك، والد إحدى زوجات [الرسول] محمّد ﷺ وصاحبه الأمين الذي رافقه في هجرته إلى يثرب.

وُلد حوالى العام ٥٧٠م في مكّة، في عشيرة من قبيلة قُريش؛ وكان قد تقدّم في السّن حين دُعي إلى الاضطلاع بدور قياديّ. هو الأوّل بين الخلفاء الأربعة المباشرين للنبي محمّد ﷺ المعروفين بالراشدين. مارس السلطة العليا على المؤمنين بعد وفاة المعلّم القائد والصديق، وكان قد خدمه بإخلاص وامتثل لأوامره حتى هذا التاريخ. ورغم قصر مدة حكمه الذي تابع خلاله السياسة التي اعتمدها النبي محمد (ﷺ) في حياته، فإنّ هذا الحكم اتّسم بأهميّة أساسيّة وتأثر به المسلمون في ما بعد وساروا على سنّته: لقد دمغ الجهد الأوّل لتثبيت الدولة الإسلامية الناشئة، بعد أن مُنيت بالاضطراب إثر وفاة مؤسّسها، وأطلق مرحلة التوسّع المدهشة التي حققتها لها الفتوحات الكبرى.

إنّ تنظيم البَيْعة الذي أُطلق بمبادرة من عمر بن الخطاب والذي أصبح في ما بعد تقليداً في الأوساط السنيّة، سمح لأبي بكر بممارسة حكم مطلق، فاتّخذ لنفسه لقب خليفة رسول الله، الذي غدا من بعده سنّةً. ومع هذا، كان على الخليفة الجديد أن يواجه، بقوة السلاح، حركة العصيان الواسعة التي عُرفت بالرِّدَّة، التي أعقبت غياب النبي محمّد ﷺ، في شبه جزيرة العرب.

وما إن أتمّ هذه المهمّة حتّى أُطلق حركة الفتوحات، نحو أراضي أمبراطوريّتي الشمال الغنيّتين والتي كان من المرتقب أن توحّد القبائل الرُّحَّل في ديار العرب، أملًا في الغزو والغنيمة[٧]. وقد تحقّقت الفتوحات الأولى، في بلاد ما بين النهرين وفي سورية، بمعركة أجنادين، قبيل وفاته في آب/ أغسطس ٦٣٤م.

درج التقليد السُّنّي، على التذكير بحضور أبي بكر المستمرّ إلى جانب النبيّ محمد ﷺ، ودعمه له خلال الصعوبات التي واجهته في أوّل عهد الدعوة، وتزويجه إبنته عائشة، بحيث اتّخذ في الذاكرة الإسلاميّة أبعادًا أكثر أهميةً ممّا تمخضّت عنه الأحداث التي تميّز بها حكمه.

ولمّا كان قد نافس عليًّا، إتّهمه الشيعة بأنّه حال دون وصوله المباشر إلى سدّة الخلافة بدفاعه عن مصالح المهاجرين على حساب قضيّة الأنصار. فقد حباه [التقليد السنّي] فضل اعتناق الاسلام قبل سواه، وقد ميّزه النبيّ بأن أنابه عنه في رئاسة الحجيج وإمامة الصلاة خلال مرضه الأخير. وبذلك غدا، في نظر أهل السّنّة العريقين في التقليد، النموذج الأمثل لرئيس الدولة المتمرّس باحترام الشريعة والحريص على قيادة المسلمين، دونما ضعف، نحو النصر في الجهاد.

أبو الحسن علي، ٦٩٧-٧٣٦هـ/ ١٢٩٧-١٣٣٥م،

العاهل العاشر في سلالة ملوك المغرب المرينيّين. شكّل عهده قمّة سلطتهم، من ١٣٣١ إلى ١٣٤٨م.

إنّ روح الجهاد التي كانت تحرّك هذا الأمير عندما اعتلى عرش والده آلت به، في أوّل الأمر، إلى مقاومة حروب الإسترداد المسيحيّة في الأندلس، فانتزع جبل طارق، عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م، من أيدي القشتاليّين الذين كانوا استولوا عليه عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م؛ إلّا أنّ جهوده في هذا الاتجاه تلاشت أمام كارثة ريو سالادو، قرب طريفة، عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م [حيث دحره الفونسو الحادي عشر]. كما أنّ سياسته التوسّعية اتّجهت نحو جيرانه في تلمسان، بني عبد الواد. فقد احتلّ موقّتًا عاصمتهم لمدّة عشر سنوات، بعد حصار دام ثلاث سنوات وانتهى عام ١٣٣٧م. وكان قد انطلق من مدينة المنصورة المحصّنة التي كان قد شيّدها أحد أسلافه الذي لم يحالفه الحظ مثله. وقد أدّت به مطامعه المتزايدة لتوسيع أراضي مملكته إلى الإخفاق عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، غير بعيد من القيروان حيث قصد مساندًا حليفًا له من سلالة الحفصيّين. إنّ هزيمة جيشه التي، على أثرها تسلّم السلطة ابنه أبو عنان، آذنت بأفول نفوذه قبيل وفاته، وقد دفن في المقابر الملكيّة في شالة، بضاحية الرّباط.

أبو حنيفة، النعمان بن ثابت، ٨٠-١٤٩هـ/ ٦٩٩-٧٦٧م، فقيه وعالم كلام، ومؤسّس المذهب الفقهيّ المنسوب إليه أي المذهب الحنفي. إنّه، لهذا السبب، يتمتّع بشهرة كبيرة.

توفّي في بغداد حيث كان الخليفة العبّاسي المنصور أمر بسجنه، وحيث غدا ضريحه مع قبّته موضع توقير، وكان أبو حنيفة قد ولد في الكوفة من عائلة من الموالي مرتبطة بقبيلة عربيّة.

لقد لازم هذه المدينة حيث كثُر أتباعه وتلامذته، وغدا حجّةً في مسائل الفقه يمارس التعليم من دون أن يتولّى مهمّة القاضي أو يتوقّف عن كسب عيشه من عمله. ويبدو أنّه وجّه همّه إلى تحسين التقنية الفقهيّة [في استخراج الأحكام]، بشكل أساسيّ، مع اهتمامه بمبادئ العقيدة وحرصه على تجانس نظريّاته.

إنّ الإتّهامات التي أطلقها ضدّه خصوم الحنفيّة، فيما بعد، لا تتلاءم، إطلاقًا، مع واقع المواقف الرصينة التي دافع عنها. إلّا أنّه أقام، من دون شكّ، علاقة بالشيعة الذين كان لهم في مدينته ومنطقته أتباع كثيرون، تجلّت خلال الحركات الفاشلة التي أشعل نارها علويّون من سلالة الحسن طامعون بالخلافة، ما بين عامي ١٤٥ و١٤٦هـ/ ٧٦٢-٧٦٣م. وأكثر الظنّ أنّ موقفه هذا أفقده عطف الخليفة وكان السبب في سجنه.

لم يخلّف أبو حنيفة مجموعة فقهية مدوّنة في كتاب، إلّا أنّ تلاميذه تولّوا جمع آرائه من بعده. ويبدو أنّه، فضلًا عن ذلك، أبدى ميلًا إلى عقيدة المرجئة، يتجلّى، بشكل خاص، في «إعلان للعقيدة الدينيّة» جهر به في مؤلّف منسوب إليه هو «الفقه الأكبر-الأول».

أبو داود السِّجِسْتاني، سليمان بن الأشْعَث، ٢٠٢-٢٧٥هـ/ ٨١٧-٨٨٩هـ، محدّث وصاحب أحد مجاميع الحديث الستة الصحيحة.

قضى ابو داود القسم الأعظم من حياته في البصرة، وإنّ نسبته إلى سجستان غير واضحة، فمن المحتمل أن تكون أسرته قد هاجرت من هذه المقاطعة الإيرانيّة.

في مجموع الأحاديث التي دوّنها «كتاب السُّنن» أو «كتاب أعمال [الرسول]»، يصرّح بأنّه بذل وسعه في الاقتصار على جمع الأحاديث التي بدت له «حسنة» أو «غاية في الحسنى»، بحسب التصنيف المعمول به أيامئذٍ. وقد كان حريصًا، في أحيان كثيرة، على إبداء رأيه حول قيمة الأحاديث (النصوص) التي كان ينقلها. فانماز بذلك عن سائر مصنّفي المجاميع المشابهة، ممهدًا الطريق أمام حركة النقد المفصّل للأحاديث التي نهض بأعبائها تلميذه التّرمذي.

أبو السُّعود، محمّد بن محيي الدين محمد، ٨٩٦-٩٨٢هـ/ ١٤٩٠-١٥٧٤م، عالم حنفيّ من العهد العثماني، غدا شيخ الإسلام من ١٥٤٥م حتى وفاته.

هو ابن عالم من منطقة أماسيا، عُرف كذلك باسم الخوجا چلبي، عمل مدرّسًا في عهد محمد الثاني، ثمّ قاضيًا في بورصة، وبعدئذ في اسطنبول. غدا عام ١٥٣٧ قاضي عسكر في الرّوملي (تراقية ومقدونية)، وفي ١٥٤٥ المفتي الأكبر وشيخ الإسلام في عهدي سليمان القانوني وسليم الثاني، وأنهى حياته المهنية في

سطنبول حيث دفن في حيّ أيوب.

برَّر أبو السعود، بصفته شيخ الإسلام، بعض القرارات التي اتخذها السلاطين. وقد اشترك بوجه خاص في العمل التشريعي الذي أطلقه العاهل الكبير سليمان القانوني، محاولاً التوفيق بين التنظيمات الإدارية للمملكة والشريعة الإسلامية. من جهة أخرى، أقام مبدأ يقضي بأن يتبع القضاة، في أحكامهم وطريقة تطبيقهم للقانون، توجيهات السلطان.

أبو سفيان بن حرب بن أُميّة، ؟-٣٣هـ/ ؟-٦٥٣م، نسيب من بعيد للنبيّ محمد (ﷺ) ورأس عشيرة عبد شمس من قريش، كان من رجالات مكّة الأكثر نفوذًا.

إنضوى إلى الإسلام متأخرًا بعد مناصبته العداء السافر له. كان من أشراف [مكة]، وهو والد معاوية مؤسّس الخلافة الوراثيّة الأولى في الإسلام، خلافة الأمويّين، المنسوبة إلى إسم جدّهم الأوّل، أُميّة بن عبد شمس. وقد دفعته مسؤولياته السياسيّة تجاه عشيرته، وهي الأكثر ثراءً بمكة، زمن قيام حكومة المدينة، إلى حمل السلاح حفاظًا على حريّة تنقّل القوافل التي هاجمها النبي محمد (ﷺ)، وخاض الحرب ضدّه في غزوات بدر وأُحد والخندق.

بيد أنَّ موقفه غير العنيف وحذقه يسّرا له مفاوضة النبي محمّد (ﷺ) الذي كان، في غضون ذلك، قد تزوّج إحدى بناته، أم حبيبة، وسمحا له بالمساهمة في استسلام مدينته سلميًّا، وكذلك المساهمة في غزوتي حُنين والطائف اللاحقتين. وبذلك تأمّنت له معاملة جيّدة، ولا سيّما في تولّيه توزيع الغنائم، وظلّ فعّالاً خلال خلافة أبي بكر والحملات العسكرية الأولى على سوريا في مستهلّ الفتوحات الكبرى.

◄ راجع المستند ٢.

أبو شجاع فَنّا خسرو ← عَضُد الدولة.

أبو طالب، إبن عبد المطّلب بن هاشم، ؟-٦١٩م، أخ غير شقيق لعبد الله والعبّاس، قرشيّ وعمّ نبيّ الإسلام، عرف، بشكل خاص، بصفته والدًا لأحد المسلمين الأوّلين والمقرّبين إلى النبي محمّد (ﷺ)، أي علي بن أبي طالب.

إنَّ هاتين السِّمتَيْن اللتين وفّرتا لأبي طالب شهرةً ما في ذاكرة المسلمين لم تجعلا منه، مع ذلك، شخصيّة نافذة. لقد حفظت التقاليد، بوجه خاص، موقفه العطوف تجاه ابن أخيه، ورعايته له في صباه، مشركًا إياه في أعماله التجارية في سوريا، وحاميًا له في الفترة الأولى لدعوته التي ألبّت ضدّه تجّار المدينة الأغنياء. إنّنا نعلم، من جهة أخرى، أنّ أبا طالب استمرّ على رأس عشيرة بني هاشم أو الهاشميّين، رغم المصاعب المالية التي أجبرته على تفويض بعض مسؤولياته إلى العبّاس. وقد كان موته الذي حرم النبي محمّدًا (ﷺ) سندًا فعّالاً، أحد أسباب الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية الأولى في المدينة.

◄ راجع المستند رقم ١.

أبو ظبي ← الإمارات العربية المتّحدة.

أبو عُبَيد البَكْري، عبدالله بن عبد العزيز، ٤٣٢-٤٨٧هـ/ ١٠٤٠-١٠٩٤م، جغرافيّ من الأندلس، كان أبرز علماء الأندلس في عهد ملوك الطوائف. كل ما نعرفه عنه أنّ والده تولّى إمارة ولْبة من ٤٠٣ حتى ٤٤٣هـ/ ١٠١٢ حتى ١٠٥١م. توفي في قرطبة عام ٤٤١هـ/ ١٠٩٤م، بعد أن شهد اجتياح المرابطين شبه جزيرة إيبريا والتغيير العنيف الذي أحدثه فيها.

خلّف البكري عددًا من الرسائل، إلّا أنّه اشتهر بوصفه جغرافيًّا. كتابه الموسوم «كتاب المسالك والممالك» لم يصلنا سوى قسم منه، وهذا القسم منشور ومترجم فقط جزئيًّا، وهو وصف لمسالك القوافل؛ تخالطه معلومات كثيرة عن التاريخ السياسي والإجتماعي نهل في بعضها من سابقيه. إنّها تجعل من كتابه مصدرًا أساسيًّا لمعرفة [أحوال] الأندلس والمغرب خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد.

أبو العتاهية، ابو إسحق إسماعيل بن القاسم، ١٣٠-٢١١هـ/ ٧٤٨-٨٢٦م، شاعر عربي من العصر الذهبي العبّاسيّ، أمّنت له «زُهديّاته» - وهي أشعار من وحي دينيّ تبجّل الزهد - في آخر حياته، شهرةً تعدّت الأوساط الأرستقراطيّة حيث لمع في البدء، واستمرّت

حتى أيّامنا هذه.

ولد في الكوفة من عائلة بسيطة، أعجميّة الأصل. اشتهر شاعر الزهد هذا، قبل أن يذهب إلى بغداد، بأشعاره الغزليّة التي كان يغنّيها، في بعض الأحيان، بحسب عادات العصر، موسيقيّ من أمثال إبراهيم المَوْصِلي، كما اشتهر بخمريّاته وبقصائد المديح. سمح له هذا النجاح الأوّل بأن يعيش حياةً تعاقبت فيها فترات من الحظوة وأخرى بدونها، وذلك في الأوساط المرهفة المقرّبة من بلاط الخليفة والمتأثّرة بالتيارات السياسيّة-الدينيّة المختلفة. لكنّ الشهرة الحقيقيّة والإقبال وافياه بعد ذلك، خلال حكم الخليفة هارون الرشيد، بسبب «اهتداء» جعله لا يؤلّف إلّا مواعظ شعريّة ذات صبغة أخلاقيّة. وقد دفعت الأفكار التي أخذ يدافع عنها ببعضهم إلى الشكّ في صحة معتقداته. لكنّ العبارات الطبيعيّة والبساطة العاطفيّة التي تميّز بها إنتاجه الشعري الغزير نجحت في تأمين حظوة له لدى جمهور شعبيّ واسع الإنتشار.

أبو العلاء المعرّي ← المعرّي.

أبو العلاء المودودي ← المودودي (سيّد).

أبو عنان فارس، ٧٢٩-٧٥٩هـ/ ١٣٢٩-١٣٥٨م، العاهل الحادي عشر للسلالة المراكشية المرينيّة، ملك من ٧٤٩ الى ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ إلى ١٣٥٨م محاولاً، من دون جدوى، الحفاظ على طموحات أسلافه في توسيع أراضي مملكته.

أفاد أبو عنان من هزيمة مُني بها جيش والده أبي الحسن عليّ لانتزاع السلطة منه، واستمرّ في منافسته في كلّ الإنجازات التي حاول أن يحقّقها. في نطاق مملكته، إستأنف البرنامج الدينيّ-السياسيّ لبناء المدارس، ومنها بالذات مدرسة بو عنانية التي ما تزال تحمل اسمه في فاس. في الخارج، تابع طموح أبي الحسن في اتّجاه إفريقية وفي اتجاه المنطقة التي ستعرف في ما بعد باسم الجزائر، حيث انتزع من جديد تلمسان عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م من بني عبد الواد الذين كانوا استرجعوها، كما استولى على بِجَايَه وقُسَنْطينة. ورغم جهوده وجرأته على منح نفسه لقب أمير المؤمنين، فقد أدّت المصاعب التي واجهته في حملاته البعيدة المدى إلى اغتياله وانحطاط السلالة التي حاول أن يمثّلها على أفضل وجه.

أبو الفِداء، إسماعيل بن علي بن أيّوب الملك المؤيّد ٦٧٢-٧٣٢هـ/ ١٢٧٣-١٣٣١م، أمير سوريّ سليل أسر الأيوبيّين؛ تولّى مسؤوليات رفيعة في دولة المماليك وحاز شهرة حيّة بصفته مؤرّخًا وباحثًا.

إلى جانب الشهرة التي حازها أبو الفداء حاك لمدينة حماة حيث رعى شؤون الثقافة والأدباء، مقتد بالسَّلف الصالح في التقليد العربيّ-الإسلاميّ، فة خلّف وراءه كتاب «المختصر في أخبار البشر» جار فيه على خطّة مؤرّخي الوقائع العرب في القرو الوسطى، وكذلك كتاب «تقويم البلدان» في الجغرافة الوصفيّة العامّة، وهو تقميش فطن للمعلومات الجغرافيّة. وقد تداولت الأيدي هذين المؤلَّفَيْن بكثر في ما بعد، بما في ذلك في الأوساط التركيّة خلا الحقبة العثمانيّة، وأيضًا في أوروبا إبتداءً من القرنير السابع عشر والثامن عشر، قبل أن يعمد علم الإستشرا في القرن التاسع عشر - وكان قد اهتمّ بطبع مؤلّفات أبي الفداء وترجمتها - إلى تركيز معرفته بالإسلام عل مصادر ونصوص أقدم منها.

أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمْدان التغلبي ٣٢٠-٣٥٨هـ/ ٩٣٢-٩٦٨م، أمير وشاعر عربي من سلا الحمْدانيّين، عاش في سورية بطلًا فارسًا ولفت الأنظ خلال حروب المسلمين مع بيزنطية.

إنّ هذا الشاعر الغنائيّ النَّبرة الذي آثر السير عل سنّة شعراء العرب قبل الإسلام في أخذهم بفنون الغز والهجاء والحماسة الحربيّة، ضمّن شعره، بوضوح معتقداته الدينية الملتزمة الخطّ الشيعيّ. وبحكم صا القرابة بينه وبين سيف الدولة، المؤسّس الشهير لمملا عربية صغيرة في حلب، أصبح حاكمًا لمَنبج وحاه لأحد تخوم أمبراطوريّة الخلافة العباسيّة في مرح انحطاطها. وقد أُسر في هذه المدينة خلال إحد الحملات البيزنطيّة، بعدما اشترك في غزوات موسم جهاديّة في الأناضول. وهو مَدينٌ لسنواته الأربع الـ قضاها في الأسر في القسطنطينيّة بمجموعة أشعار المعروفة بالروميّات. وقد تجلّت فيها نفحات حنيـ

شهيرة التي شبّهت أحيانًا في أوروبا بتراث شارل رولان الذي صادف الظروف نفسها أميرًا منفيًّا. كان أبو راس نموذجًا للفضائل العربيّة القبليّة وللشرف الشجاعة والكرم التي طالما تغنّى بها وهو يشيد مجاده وأمجاد أسرته. لم يعتّم أن فارق الحياة وهو ازع السلطة نسيبه إبن سيف الدولة ووريثه. إنّ موته مبكّر ساهم، من دون شك، في تحويله مثالًا، وقد نثرت آثاره المميّزة، عبر الأزمنة، تجلّيًا لها.

و الفرج الأصفهاني ← الأصفهاني.

و قير (معارك)، معارك جرت بين المسلمين الأوروبيّين وكذلك بين القوى الأوروبيّة المتنافسة، لقرب من مرفأ «أبو قير» المتوسطي الواقع في منطقة دلتا في مصر، إلى الشرق من الإسكندريّة.

إلى ذكرى المعركة البحريّة التي وقعت في الأوّل ن آب ١٧٩٨ والتي قضى خلالها الأميرال الإنكليزي سون على الأسطول الفرنسي، تُضاف معركة أخرى ضع خلالها الفرنسيّون حدًّا للمحاولات التي قام بها جيش العثماني لاسترجاع مصر. إن الهزيمة التي مُني ها العثمانيّون في هذا المكان بالذات، في ٢٥ تموز ١٧٩٠، قرّرت مستقبل الحملة التي قادها بونابرت إذ سمحت لها بالتمركز في مصر. لقد كان لتلك الحملة، لى الرغم من طابعها العابر، أثرٌ عميق في التطوّرات لتي عرفها الشرق الإسلامي في القرن التاسع عشر. ىرت في المكان عينه عمليّة إنزال قامت بها الفرقة لبريطانيّة التي أُرسلت لمحاربة قوات الإحتلال الفرنسيّة لأخيرة في آذار ١٨٠١، كما جرت عمليّات أخرى قام ها الإنكليز في العام ١٨٠٧.

بو المحاسن ← إبن تَغْري بردي.

بو مَدْيَن، شُعيب بن الحسين، ٥٢٠-٥٩٤هـ/١١٢٦-١١٩١م، صوفيّ شهير من الأندلس، قصد المغرب في بهد الموحّدين وحاز التوقير على أنّه وليّ تلمسان.

ولد في منطقة إشبيلية وتوفّي في قرية العُبّاد، لمجاورة لتلمسان، فيما كان متوجّهًا من بجّاية إلى بلاط رّاكش بأمر من الملك أبي يوسف يعقوب. حاز، خلال حياته، مكانةً مرموقة بفضل التعليم الصوفيّ المميّز الذي كان ينشّئ عليه مريديه، بعد أن أُنشئ عليه في فاس، وتابعه في بلاد المشرق، حيث يقال إنّه قد تعرّف إلى التقليد الصوفيّ الذي خلّفه الغزاليّ والتقى عبد القادر الجيلاني. ترك مؤلّفات قليلة، إلّا أنّه أصاب شهرة عظيمة بعد وفاته. ذاعت شهرة ضريحه بين الملأ، فأُضيفت إليه مبرّات وأبنية أقامها المرينيّون، ولا سيّما أبو الحسن علي. وما يزال هذا الحرَم الضخم المعروف بسيدي بو مدين من أهم المزارات الشعبيّة في المغرب الإسلامي، حيث يعتبر صاحبه مؤسّس الطريقة المَدْيَنيّة المعروفة أيضًا بالشاذليّة.

أبو مسلم، ١٣٢هـ/٧٥٥م، مغامر سياسيّ وداعيةٌ ومؤلِّب، من مؤيّدي الدعوة الشيعيّة، عمل على إنجاح «الثورة العبّاسيّة»، ومع ذلك لاقى حتفه بأمر من الخليفة العبّاسي الثاني، المؤسّس الحقيقي للخلافة العبّاسية أبي جعفر المنصور.

أصله غير معروف، إلّا أنّه من أُرومة إيرانية، عبدٌ معتَق لقبيلة عربيّة من الكوفة. ماضيه ينبئ بروح ثوريّة وبانتماءات متشيّعة دفعته إلى الانخراط في خدمة الداعية العبّاسي آنذاك إبراهيم بن محمّد. وكان قد اختاره إبراهيم على رأس أتباعه في خراسان، في حين عيَّن مولًى آخر، هو أبو سلمة، ممثّلًا له في الكوفة.

أفاد أبو مسلم من التذمّر الذي كان يسود الناس في المناطق الشرقيّة من الأمبراطوريّة، في صفوف الموالي[٨] من أهل تلك البلاد الذين غدوا ضحيّة الضرائب الباهظة، على الرغم من اعتناقهم الإسلام، كما في صفوف العرب من الفرق المقاتلة التي دخلت البلاد إبّان الفتوحات الكبرى، فنجح الداعية السرّيّ الجديد في كسب رضا الرؤساء المحلّيّين من ذوي الميول العلويّة. كما عرف كيف يستغلّ البلبلة التي سادت الشيعة بعد هزيمة يحيى بن زيد. إستطاع أبو مسلم أن يعدّ جيشًا ساده مبدأ المساواة الذي كان المعارضون للحكم الأمويّ يسعون إلى إقراره بين العرب وغير العرب، إذ إنّ أفراد هذا الجيش كانوا يسجّلون على لوائحه من دون أيّ ذكر لأصلهم. بعد ذلك انتقل إلى حيّز العمل جهارًا، فدفع إلى الميدان بفرقة ترفع الرايات السوداء في ١٥ حزيران/يونيو عام ١٣٠هـ/

٧٤٧م، رمزًا إلى آمال الخلاص التي تسعى اليها الثورة التي تولّى قيادتها. نجحت محاولاته الأولى، فاحتلّ على إثرها، في كانون الثاني/ يناير ٧٤٨م، مدينة مرو، قاعدة الحكم. ثمّ اشتركت قواته، وعلى رأسها قوّاد من العرب، في معارك متعدّدة في الأراضي الإيرانية، هزمت في أعقابها الحاميات الأموية.

إنّ النصر الذي تلا ذلك، في ما بعد، في العراق وإعلان السفّاح خليفة سمحت لأبي مسلم، وهو في أوج قدرته، بأن يصبح واليًا على خراسان من قِبل العبّاسيّين. وفي الوقت نفسه ظلّ يتدخّل في توجّهات السلطة المركزيّة، من ذلك استشارته في إعدام شريكه القديم في الثورة، أبي سلمة، الذي اتّهم بالخيانة وموافقته على ذلك. وقد ساند بعدئذ خليفة السفّاح، المنصور، في صراعه مع عمّه عبدالله بن عليّ الذي انتفض عليه. إلّا أنّ موقفه الحذر هذا لم يمنع الخليفة، في ما بعد، من التخلّص غدرًا من هذا القائد الذي تعاظمت سلطته فضاق به ذرعًا، وأوجس منه خيفة. وكان موته باعثًا لثورة ذات منحى شيعيّ في إيران، غير أنّ هذا الحدث لا يكفي لإثبات أنّ أبا مسلم كان ينوي ترجيح آراء الموالين لعلي، في انتظار الظرف المناسب لإطاحة الحكم العبّاسي الذي عرف من قبل كيف يثبّت دعائمه بشكل فعّال.

أبو مَعْشَر البَلخي، جعفر بن محمّد بن عُمر، المعروف باللّاتينيّة باسم **ألبومَصَر** (Ablumasar)، ١٧٢-٢٧٣هـ/ ٧٨٨-٨٨٦م، فلكيّ ومنجّم مسلم، ساهمت آثاره الذائعة الشهرة في هذين الحقلين في انتقال علوم العرب إلى أوروبا المسيحيّة في القرون الوسطى.

وُلد في بلخ، شرقيّ خراسان، حيث أتمّ دراسته الأولى، ثم انتقل إلى الدراسة في بغداد عاصمة الخلافة العبّاسيّة حيث كانت الحياة الفكريّة في أوج ازدهارها، ووضع فيها مؤلّفات كثيرة قبل أن توافيه المنيّة، في سنّ متقدّمة، في مدينة أخرى بالعراق ذات أهميّة في زمانه تدعى واسط. أنشأ جداول فلكيّة، وبخاصة رسالة في التنجيم، بعنوان **المدخل الكبير**، تُرجمت إلى اللاتينيّة منذ القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، واحتوت نتائج معاينات قابلة للاستعمال من الناحية العمليّة كتلك التي تؤسّس لقانون المدّ والجزر. وإذا كا أبو معشر قد زاول التنجيم بوجه خاص، فقد جمع، ف الوقت عينه، في كتاباته القوانين الفلكيّة الأساسيّة الت حدّدها معاصروه وجعلها أصلًا مفيدًا لاختبارا الشخصيّة.

أبو نُواس، الحسن بن هانئ الحكمي، ١٤١-٢٠٠هـ/ ٧٥٦-٨١٥م، شاعر عربيّ تمثّل موهبته الأدبيّة وشخصيّ الأوساط المرهفة عهد العبّاسيّين الذهبي، خلال حُك الخليفتين هارون الرشيد وابنه الأمين.

وُلد في مدينة الأهواز في خوزستان من أسرةٍ م الموالي ذات أصول محلّيّة. وممّا لا شكّ فيه أنّه كان صلة بالحركات الفكريّة المختلفة ذات الصبغة الإيران والنزعات الابتداعيّة التي كانت تشكّل آنذاك الثرو الفكريّة لمجتمع مركّب، في عزّ نهضته، تاركةً أثرها ف في بلاط الخلفاء وفي أوساط حاشيتهم. إلّا أنّ شعره قُدّ حقّ قدره في بغداد العاصمة، بعد أن كان قد تثقّف ف البصرة والكوفة. أفاد من رعاية البرامكة، أسرة الوزر المعروفة، قبل أن يغدو نديمًا للخلفاء. ورغم انصرا إلى التهتّك، بَرَز في دوره نديمًا ومدّاحًا وابتدع أشعا ساهمت، بمواضيعها المختارة وأناقتها، في تجدي الشعر العربيّ العباسيّ، في مقابل شعر بدوي تقليد كان وحده معتمدًا حتى ذلك العهد. هكذا توطّد شهرته الأسطورية التي استمرّت حتى أيامنا، ولا سيّ في مجال النوادر النامّة عن التحلّل الخلقيّ ومنزل الشعريّة الرفيعة في فنّي الغزل ووصف الخمرة.

أبو هاشم، عبدالله، ؟-٩٨هـ/ ؟-٧١٦م، إبن محمد ب الحنفيّة الذي غدا رأس فصيل من الفرقة الكَيْسان المتحدّرة من الشيعة. ساهم في بروز الحركة العبّاسيّة.

شجّع أبو هاشم، في أواخر القرن الأوّل الهجري مطلع الثامن الميلادي، إنطلاق حركة المعارضة الدينيّة السياسيّة ضد الحكم الأموي التي كان يقودها [دعاة] م سلالة العبّاس بن عبد المطلب، مساهمًا بذلك في إضف الشرعيّة عليها. وقد تنازل أبو هاشم إلى أحد ممثّلي هذ السلالة – وهو محمد بن علي، الذي كان يعمل ف الخفاء ضدّ سلطة الخلفاء الأمويين، أسياد الأمبراطور العربيّة-الإسلاميّة منذ عام ٤١هـ/ ٦٦١م – عن حقّه ف

قيادة الجماعة الإسلاميّة، بموجب وصيّة، وذلك قبل وفاته عام ٩٨هـ/٧١٦م، وهو حقّ كان أتباع والده قد ناضلوا من أجله بقوة السلاح[٩]. منذ هذا التاريخ بالذات - وإن تكن بعض المصادر التاريخيّة القديمة تشكّك بذلك - بدأت عودة النشاط للدعوة، إن لم يكن لمصلحة أبناء عليّ، فعلى الأقلّ لآل محمد ﷺ، وهو نشاط أدّى، بعد مرور بضع سنوات، إلى نجاح «الثورة العباسيّة».

أبو الوفاء البُوزْجاني، محمد بن محمد بن يحيى، ٣٣٩-٣٨٧هـ/٩٤٠-٩٩٧م، رياضيّ وفلكيّ ذاعت شهرته في أوساط بغداد العلميّة، خلال عهد السيطرة السياسية الدينية للبويهيّين.

ولد في إيران، في خوزستان، حيث تناهى إليه ميراث علمي محلّي على أيدي أساتذة نبهوا من أسرته. ساهم أبو الوفاء، بوجه خاص، في تطوير علم المثلثات الدائرية حيث تجلّى إبداعه، مفيدًا من بعض المعطيات المقتبسة من العلم الهندي. وقد أهّلته المكانة التي حازها في عاصمة الخلافة لمساعدة الأديب أبو حيّان التوحيدي. إنّ أغلب مؤلّفاته في الحساب والهندسة وعلم الفلك التي راجت في القرون الوسطى فُقدت أو هي غير معروفة كما ينبغي.

أبو يزيد البِسطامي ← البِسطامي.

أبو يزيد النُّكّاري، مَخلَد بن كِيداد، المعروف كذلك بصاحب الحمار، ٢٧٠-٣٣٦هـ/٨٨٣-٩٤٧م، مسلم متمرّد من أصل بربري زناتي، نجح، لسنواتٍ عدّة، في زعزعة سلطة الفاطميّين الشيعة الذين كانوا قد استقرّوا حديثًا في إفريقية. كان مشايعًا للإباضيّة، إحدى نِحَل الخوارج المتجذّرة بقوّة في المغرب، فوجد لدى بني قومه من البربر مناخًا ملائمًا لحملته ضدّ الحكم، منذ العام ٣١٦هـ/٩٢٨م. وقد أمّنت له انتصاراته الحربيّة بعدئذ، ولا سيّما إحتلاله القيروان منذ عام ٣٣١هـ/٩٤٣م، دعمًا نسبيًّا من قِبَل أهل البلاد من السنّة المتعطّشين إلى رفع نير أتباع الإسماعيلية الذين استولوا على البلاد عنوة. إلّا أنّه أخفق في هجومه على عاصمتهم، المهديّة. فقد استعاد عاهلها الفاطميّ الجديد الذي نُصّب في هذه الظروف، متلقّبًا بالمنصور، مبادرة القتال خلال معارك متلاحقة، فتعقّب أبا يزيد حتى هزيمته النهائيّة فقضى غير بعيد من قلعة بني حمّاد.

أبو يَعْلى (قاضٍ) ← **إبن الفرّاء.**

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي، ١٢٨-١٨٢هـ/٧٤٥-٧٩٨م، عالم بالفقه، عاش في العصر الذهبيّ لخلافة العبّاسيّين وغدا القاضي الأكبر الأوّل في تاريخ الإسلام وأحد المؤسّسين الأُوَل للمدرسة الفقهية الحنفيّة.

عُيِّن قاضيًا في بغداد، بعد أن درس في الكوفة وفي المدينة على أبي حنيفة وكان موضوع تقديره. ولقد حاز هذا المشترع، وهو من أصل عربيّ عريق، شهرة ذائعة في ممارساته الفطنة وخبرته في المسائل الفقهية. وربّما كانت هذه المرونة التي توافرت له من خبرته، وكان يؤثرها على الصرامة العقديّة، هي التي هيّأته للدور الذي اضطلع به لدى الخليفة هارون الرشيد، صديقًا ومستشارًا في مجالي السياسة الماليّة وإدارة شؤون القضاء. لذلك مُنح لقب القاضي الأكبر [قاضي القضاة] الذي خوّله مراقبة تعيين القضاة في جميع أنحاء الأمبراطوريّة.

خلّف أبو يوسف كتابات متعدّدة لم يصلنا منها سوى بعضها، تناول فيها النظريّة الفقهيّة، في خط الفكر الحنفيّ، ويتجلّى فيها ميله إلى الجدل. وما لا شكّ فيه أنّ مؤلّفه الأشهر هو رسالة في الضرائب وفي مسائل أخرى تتعلّق بالحكم، وضعها بطلب من هارون الرشيد، وسمّاها «كتاب الخراج».

أبو يوسف يعقوب بن يوسف، المنصور بالله، العاهل والخليفة الثالث في سلسلة الموحّدين. حكم من سنة ٥٨٠ إلى سنة ٥٩٦هـ/١١٨٤-١١٩٩م. يتطابق ملكه مع بلوغ أمبراطوريّتهم أوج قدرتها وامتيازها بانتصارات حربيّة وإنجازات معمارية خلّدت أمجادها.

هو ابن أبي يعقوب يوسف، أعاد جثمان والده إلى إشبيلية، وخلفه على الفور في مرّاكش من دون مصاعب، متابعًا بمزيد من الصرامة والعزم عمل والده في تثبيت أُسس الدولة بالقتال تبعًا للظروف التي ألجأته إلى ذلك. وقد حقّق في هذا الاتّجاه النجاح الباهر تلو الآخر، في إفريقية حيث قضى على ثورات

محليّة منذ العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، كما في الأندلس حيث ألحق بالإشبيليّين، عام ٥٩٢هـ/١١٩٥م، الهزيمة الدامغة المعروفة والتي لُقّب أبو يوسف على إثرها بالمنصور. وقد كرّست إنتصارات أبي يوسف في ساحات القتال هيبته الشخصيّة التي كانت توافرت لهذا الأمير الناهض بمسؤولياته خير نهوض، والحريص على إعظام رسالة الإسلام على جميع الصعد. وفي الوقت الذي كانت إدارته مستمرّة في احترام تعاليم العقيدة الصارمة التي أعلنها إبن تومَرْت، أدّت مبادراته كراعٍ للحضارة إلى أن يقترن اسمه بمبانٍ تجاوزت شهرتها مآثر سابقيه، ولا سيّما في مَرّاكش وإشبيلية والرّباط، حيث تنتصب المآذن الثلاث الضخمة التي تعتبر من أجمل المآثر التي خلّفها طموح الفنّ الموحّدي.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

أتابك، لقب تركي حمله عدد من أبناء الخاصّة في دولة السلاجقة، في القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد. كما استُعمل، أحيانًا، لقبًا ساميًا حمله عدد من أبناء السلالات الحاكمة آنذاك.

تتكوّن اللفظة من «بك» أي السيّد، و«أتا» أي الأب، وقد تعني «الوصيّ أو الوليّ». ويُمكن أن يُعطى اللقب لعبدٍ أو لمعتَقٍ يُعيّن وصيًّا على أمير فتى من الأسرة السلطانيّة. وقد أعطي أيضًا لبعض الوزراء، كنظام الملك مثلًا. وفي مناسبات عديدة، عمد القادة الأقوياء، ممّن كانوا أوصياء على ورثة العرش، إلى قتل أولياء العهد وتأسيس سلطة جديدة في الشرق السلجوقي تحت هذا اللقب.

من الأتابكة المشهورين نذكر الذين حكموا الموصل وأعالي بلاد ما بين النهرين، وعُرفوا كذلك باسم الزنكيّين، واشتهر منهم في العصر الصليبي عماد الدين زنكي وابنه نور الدين؛ وهناك أتابكة دمشق في سوريا الذين عُرفوا أيضًا باسم الأتابكة البوريّين؛ وهناك أتابكة آخرون سيطروا على عدد من المقاطعات الإيرانيّة، منها فارس، حيث حكم أسياد الحرب، وقد عُرفوا باسم السَلْغريّين. أمّا في الشمال الغربي، فقد سيطر أولاد إيلدكز على منطقتي «الجبال» وأذربيجان، واستطاعوا في حدود سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م، القضاء على أتابكة مَراغة الذين كانوا يُقيمون في هذه المنطقة، منذ مطلع القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، حكمًا مضطربًا.

استُعمل لقب أتابك كذلك لدى الخوارزمشاهيّين وسلاجقة الروم، بدون أن يستطيع حاملوه الحصول على الشهرة التي تضفيها الوظائف الملكيّة، وبقي بعد غزو المغول، لكنّه خرج من الاستعمال مع قيام الدولة العثمانيّة. وقد حمله عدد من الأشخاص في سوريا ومصر زمن الأيوبيّين، كما استُعمل أحيانًا زمن المماليك، ولكن من دون أن يكون لحامله، بالضرورة، مهمّة أو وظيفة معيّنة.

أتاتورك، مصطفى كمال، ١٨٨١-١٩٣٨، مؤسّس الجمهوريّة التركيّة وأوّل رئيس لها، بعدما جعلها، في مطلع القرن العشرين، مركزًا لقوميّة تركيّة جديدة، ولعلمانيّة على النمط الغربي، محوًا لذكرى الدولة العثمانيّة الإسلاميّة.

ولد مصطفى كمال في سالونيك، وفي سنة ١٨٩٥ دخل المدرسة الحربيّة في مونَسْتير، ثم المدرسة الحربيّة في اسطنبول سنة ١٨٩٩، فالأكاديميّة الحربيّة حيث تخرّج سنة ١٩٠٥ برتبة نقيب. وقد عيّن، في ما بعد، في أركان حرب جيش سالونيك، فانصرف مدّة عشر سنوات تقريبًا إلى المهمّات العسكريّة في وسط منهمك أكثر فأكثر بالقضايا السياسيّة. وبعد خلع السلطان عبد الحميد ومجيء الاتّحاديّين إلى السلطة، بقي بعيدًا عن الحكّام الجدد ومنهم أنور باشا. وقد بقي أكثر من عشر سنوات يقاتل على مختلف الجبهات: قاتل الإيطاليّين أوّلًا في طرابلس الغرب، في سنتي ١٩١١ و١٩١٢، ثم قاتل الفرق الفرنسيّة - البريطانيّة في شبه جزيرة غاليبولي سنة ١٩١٥؛ وفي المناطق الشرقيّة انتزع بتْليس من الروس سنة ١٩١٦. ثم عُيّن قائدًا للجيش السابع في فلسطين، فنظّم عمليّة انسحابه الى شمال حلب حيث علم بتوقيع هدنة «مُودروس» (٣٠ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩١٨)، وأعلن فورًا رفضه لشروطها. وكان هذا التاريخ بداية وقوفه ضدّ الحكومة

القائمة التي أدان تصرّفها واعتبرها عاجزة عن حماية مصالح الأتراك.

وبعد أن انتقل من أرضروم - حيث كان قد عيّن - إلى سمسون، ومنها إلى أمازيا، دعا الأمّة، في ٢٢ حزيران ١٩١٩، للنضال من أجل وحدة أراضي الوطن. وخلال مؤتمر عُقد برئاسته في أرضروم (تموز وآب/يوليو وأغسطس ١٩١٩)، وفي مؤتمر آخر عقد بمدينة سيواس في أيلول/سبتمبر ١٩١٩، أوضح مبادئه ووسائل الصراع ضد الاحتلال الأجنبي وضد حكّام اسطنبول، معتمدًا في نضاله على الجيش الذي ظلّ وفيًّا له. وكان ردُّه على احتلال جيوش الحلفاء العاصمة العثمانيّة، أن عقد في أنقرة (نيسان/أبريل ١٩٢٠) اجتماعًا للجمعيّة الوطنيّة الكبرى المؤلّفة من ممثّلين انتُخبوا حديثًا ومن بعض النواب الوطنيّين من المجلس النيابي القديم. وقد أعلن المجتمعون على الفور المقرّرات الآتية: أنّهم وحدهم يمثّلون الأمّة، وأنّ السلطة التشريعيّة والتنفيذيّة هي بيدهم إلى أن تعود الحريّة إلى السلطان في اتّخاذ قراراته؛ وفوّضت الجمعيّة هذه السلطات إلى مجلس وزراء رئيسه مصطفى كمال الذي اختير أيضًا رئيسًا للجمعيّة.

تشكّلت الحكومة الوطنيّة الأولى في ٣ أيار/مايو ١٩٢٠، وكان من مهماتها المباشرة استعادة كيليكية عسكريًّا، وهذا ما حصل فعلًا على أثر توقيع هدنة مع فرنسا. كما كان عليها أن ترفض، بشكل قاطع، معاهدة «سيفر» التي قبلت بها حكومة السلطان في آب/آغسطس ١٩٢٠، وأن تتصدّى لليونان الذين سيّروا حملة على هضبة الأناضول، بموافقة الحلفاء، من أجل تطبيق بنود المعاهدة المذكورة بالقوّة. وخلال ما سُمّي بحرب الاستقلال، حقّق الأتراك انتصارًا في معركة سكاريا (أيلول/سبتمبر ١٩٢١)، كان الفضل الأكبر فيه لمصطفى كمال، فنال رتبة مارشال ولُقّب بالغازي. وعقب ذلك قاد هجومًا سنة ١٩٢٢ وانتزع انتصارًا في دوملوبينار، ثمّ في إزمير، ونتج عن ذلك توقيع هدنة مُدانيا. ثم كانت محادثات لوزان (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٢ - وتموز/يوليو ١٩٢٣) التي سيحدّد فيها الحلفاء شروط الصلح. وخلال ذلك حمل مصطفى كمال الجمعية العموميّة الكبيرة في أنقرة، في تشرين الثاني ١٩٢٢، على أن تُلغي نظام السلطنة، على الرغم من المعارضة الشديدة من بعض الأوساط الدينيّة التي رأت أنّه لا معنى لوجود خليفة نُزعت منه السلطات الزمنيّة. ونتيجة ذلك، اضطرّ السلطان السابق محمد السادس إلى مغادرة اسطنبول على ظهر سفينة بريطانيّة، فحلّ محلّه في الخلافة ابن عمّه عبد المجيد الثاني.

في سنة ١٩٢٣، صدّقت الجمعيّة العمومية الكبرى على معاهدة لوزان، وقد حصل فيها الأتراك على شروط أفضل بكثير من شروط معاهدة سيفر. وقد اعتُبر مجرى نهر ماريتزا في تراقيا الحدّ الفاصل بين تركيا وأوروبا، وأعادت هذه المعاهدة إلى تركيا جزيرتي إمبروس وتينيدوس، وأعطتها الحقّ في إعادة تحصين المضائق وتسليحها في حالة الحرب، وألغت عهود الأمان المعروفة بـ«الإمتيازات» التي كان معمولًا بها في العهد العثماني، وتخلّت عن فكرة استقلال كلّ من أرمينيا وكردستان، بعد الإشارة إليها في معاهدة سيفر، واعترفت بسيادة ايطاليا على جزر الدوديكانيز، وأقرّت التبادل السكّاني بين تركيا واليونان. والمسألة الوحيدة التي بقيت عالقة كانت تتعلّق بولاية الموصل التي أُلحقت نهائيًّا بالعراق في تموز/يوليو ١٩٢٦، مقابل تعويض ماليّ دُفع لتركيا.

وبعد أن حرّر الأراضي التركيّة كما خطّط، ما أمّن له نفوذًا كبيرًا، انصبّ اهتمام مصطفى كمال على تنظيم المؤسّسات السياسيّة الجديدة وعلى تطوير المجتمع. فأنشأ حزب الشعب، ثمّ حزب الشعب الجمهوري، وكان هو رئيسه. انتُخب من جديد رئيسًا للجمعيّة الوطنية الكبرى الثانية، وكان أعضاء حزبه يمثّلون فيها الأكثرية. وفي ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٣ أعلنت الجمعيّة قيام الجمهوريّة وانتُخب مصطفى كمال رئيسًا لها. فعيّن عصمت إينونو رئيسًا للوزراء واختار أنقرة عاصمة للبلاد. أخيرًا في الثالث من آذار/مارس ١٩٢٤، أُلغيت الخلافة عن طريق الاقتراع، وطُرد أعضاء السلالة العثمانيّة من البلاد.

أمّا الدستور الذي أراده مصطفى كمال والذي أصبح نافذًا في ربيع سنة ١٩٢٤، فإنّه يمنح رئيس الجمهوريّة

السلطة التنفيذيّة، وينتخب الرئيسَ مجلسٌ وطنيّ وحيد لمدّة أربع سنوات. ويتمتّع المجلس الوطني بالسلطة التشريعيّة ويُنتخب أعضاؤه بالاقتراع العام، مع الاعتراف بحق المرأة في أن تشارك بهذا الاقتراع. وكان هذا النظام يعتمد على حزب واحد، هو الحزب الذي أسّسه مصطفى كمال حول مبادئ ستّة أساسيّة: النظام الجمهوري والقوميّة والشّعْبويّة وسيطرة الدولة أو الدولانيّة والعلمانيّة والثورة. وباستثناء بعض المحاولات التي لم تدم طويلاً والتي سمح بها مصطفى كمال في عامي ١٩٢٤ و١٩٢٥، ثمّ في عام ١٩٣٠، بقي هذا الحزب محور كل النشاطات السياسيّة الشعبيّة. وفي هذا الاطار أُقرّت إصلاحات لم يسبق لها مثيل في أي مجتمع إسلامي، هدفت إلى فصل الدين عن الدولة. وابتداءً من سنة ١٩٢٤، وُضعت قوانين لإلغاء الطرق الصوفيّة، كما أُلغيت المحاكم الشرعيّة لتحلّ محلّها قوانين مدنيّة وجزائيّة وتجاريّة مستوحاة من القوانين السويسريّة والإيطالية والألمانيّة. وفُرض الزواج المدني، وكذلك وضع نظام تعليميّ رسمي خضع، في كلّ مراحله، لرقابة مباشرة من الدولة. وفي سنة ١٩٢٥، مُنع تعدّد الزوجات، ولبس الطرابيش ووَضْعُ الحجاب عند النساء، وفُرض استعمال التقويم الغريغوري. وفي سنة ١٩٢٨ أُلغيت من الدستور المادة التي تجعل من الإسلام دين الدولة، واستُبدلت بالأحرف العربيّة الأحرف اللاتينيّة، كما تُليَ الأذان والدعوة إلى الصلاة، ابتداءً من عام ١٩٣١، باللغة التركيّة، ونُقل القرآن الكريم إلى اللغة التركيّة. هذه الإجراءات التجديديّة أدانها التقليديّون الذين عبّروا بشدّة عن معارضتهم، فنظموا التظاهرات مهدّدين بالثورة، كما حصل في سنتي ١٩٢٥ و١٩٣٠. وفي سنة ١٩٣٤ صدر قانون يفرض على المواطنين تبنّي إسم العائلة أو الشهرة، وفي المناسبة نفسها منحت الجمعيّة مصطفى كمال إسم «أتاتورك» أي أبو الأتراك.

إنّ إرادة تحرير تركيا من النفوذ الأوروبي تُرجمت بتتريك وبتأميم عدد وافر من الشركات التجاريّة الأجنبيّة، ومن المصارف والمصانع. وفي بضع سنوات، أعطى أتاتورك دفعًا جديدًا لحياة البلاد الاقتصاديّة لم تعرفه تركيا من قبل، واتّبع في الخارج سياسة حذرة، مع حرصه على إزالة آثار حرب الاستقلال؛ وهذه الآثار كانت تهدّد بنشوب عدد من الأزمات. فعقد سلسلة اتفاقات مع الإتّحاد السوفياتي (١٩٢٨-١٩٢٩) وبلغاريا واليونان (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٠)، وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى. كما وقّع ميثاق «التفاهم البلقانيّ» سنة ١٩٣٤، ثم ميثاق التفاهم الأسيوي في سَعدآباد سنة ١٩٣٧. عند وفاته، وحده الخلاف مع فرنسا على مصير لواء الاسكندرونة كان لا يزال عالقًا، فحُلّ سنة ١٩٣٩.

في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨ توفّي مصطفى كمال أتاتورك، بعد أن أنجز عملًا يُعتبر ثوريًا بكل معنى الكلمة، نتجت عنه ولادة دولةٍ تركيّة جديدة اعترفت بها الدول الغربيّة. فقد أوجد، بفضل مبادراته، الظروف الملائمة لتحديث مجتمع إسلامي لم يكن قد خرج بعد من القرون الوسطى. والنتائج المباشرة كانت لا شك على مستوى طموحات شخصه، وإليها ترمز في أنقرة الساحة التي يرتفع وسطها ضريح ضخم نُقل إليه رفاته سنة ١٩٥٣. وكان يرغب في حلّ عدد من المسائل الدينيّة والسياسيّة التي ما تزال عالقة، كمسألة الأقليّات غير التركيّة. وهذه المسائل تلقي بثقلها اليوم على كاهل الجمهوريّة التركيّة، وتؤثّر على علاقاتها بالبلدان المجاورة، وتجعلها تواجه في الداخل حركات المعارضة الإسلاميّة.

الأتراك، هم مجموعة عشائر بدويّة على وجه الخصوص، كانوا يشغلون، عند ظهور الإسلام، السهوب الأسيويّة الداخليّة فاقتحموا، بعد أربعة قرون، المشرق الإسلامي وأقاموا فيه محاولين التأقلم إجتماعيًا وثقافيًا، بعد اعتناقهم الاسلام، لكنّهم ظلّوا محافظين على لغتهم وطباعهم الخاصّة.

كانت العشائر المنتشرة، خلال القرن السابع الميلادي، ما بين نهر الفولغا وجبال ألْتاي من جهة، وما بين بحر قزوين وسيبيريا، من جهة ثانية، على اتّصال، إبّان الفتوحات الكبرى، بالجيوش العربيّة - الإسلاميّة، التي اجتاحت خراسان وبلاد ما وراء النهر، متوغلّة داخل بلاد الصغد حتى منطقة سيردريا/سيحون.

وكانت هذه العشائر متداخلة بالسكّان الإيرانيّين في تلك المناطق، وخضعت للسيطرة الصينيّة على عهد سلالة تانغ. وعلى أثر الهزيمة التي مُني بها الجيش الصيني في معركة طلس عام ١٣٣هـ/ ٧٥١م، استقرّت حدود تلك المناطق، وصار الاتراك يقيمون، تدريجيًّا، علاقات بالعالم الإسلامي.

وكان التجّار الذين يمارسون التجارة في المناطق الحدوديّة يبيعون الأرقّاء. وقد دخل هؤلاء إلى المجتمع الإسلامي كخَدَم، وعلى الأخص كجنود، وسيُعرفون فيما بعد باسم «مماليك»، وقد غدوا من ضرورات التنظيم العسكري في الدولة. وهكذا جنّد الخليفة العبّاسي المعتصم، في النصف الأوّل من القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، أفواجًا من الرجال لبناء حرسه وتجديد جيشه. وفي نهاية القرن عينه أنزل السامانيّون هزيمة بالأتراك ممّن كانوا يجاورون مناطق نفوذهم وجنّدوا منهم أيضًا، ونشأت عن أحد قادتهم، الذي أسلم وأُعتق، الدولة الغزنويّة، وهي أولى السلالات التركيّة المستقلّة داخليًّا في العالم الإسلامي. وبموازاة ذلك، كانت تنمو في الوسط البدوي لآسيا الوسطى، سلطة القراخانيّين، الذين استقرّوا في تلك المنطقة، محافظين على عاداتهم القبليّة.

وفي أواسط القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، بدأ غزو القبائل الغزيّة بقيادة السلاجقة الذين اقتطعوا لأنفسهم أمبراطوريّة محورها إيران. وعُرفت، في ما بعد، مجموعاتهم الأقلّ انضباطًا باسم التركمان، وقد احتلّت الأناضول وأذربيجان وتمركزت فيهما الى درجة جعلتهما، اليوم، مناطق ناطقة بالتركيّة، إلّا أنّهم لم يتخلّوا كليًّا عن موطنهم في آسيا الوسطى. واعتبارًا من هذه الحقبة، لم تتوقّف السلالات التي أسّسها قادتهم العسكريّون عن التعاقب في كل العالم الإسلامي. يتحدّر بعض هؤلاء القادة من السلالة السلجوقيّة في إيران أو من المقرّبين منها، مثل: سلاجقة الروم ودانشمنديّي الأناضول، وسلالات الأتابكة المختلفة في سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا. وخرج البعض الآخر من صفوف العشائر التركيّة المختلفة المستقرّة في الأناضول، أو في أذربيجان، ومنهم حكام مختلف الإمارات الذين انفردوا بهذه المناطق خلال القرنين الثامن والتاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، والذين أنشأوا، في ذلك الوقت أو بعده، أمبراطوريّات حقيقيّة، بعضها زال بسرعة كأمبراطوريّتي القراقيونلو والآق قيونلو، والبعض الآخر دام طويلًا كأمبراطوريّتي الصفويّين ولا سيّما العثمانيّين، وقد انبثقت منها سلالات تركيّة حكمت في الدكّن في الهند، كما في المغرب العربي حيث تمكّنت من إنشاء سلطات شبه مستقلّة.

واستمرّ، في الوقت عينه، وصول أتراك، في بعض المناطق، إلى السلطة العليا. وكان هؤلاء قد تربّوا، في البدء، أرقّاء؛ منهم مماليك بلاد الشام ومصر، وكان أفرادهم الأوائل قد خدموا في جيوش الأيّوبيّين؛ ومنهم أيضًا سلاطين دلهي الذين كانوا أساسًا من قدماء قادة الغوريّين، وقد عُرفت سلالتهم الأولى باسم «سلالة المماليك».

وأخيرًا، لم تتوقّف عن التدفّق من السهوب الآسيويّة قوى جديدة ارتبط انطلاقها بالعشائر التركيّة المختلطة أو غير المختلطة بالمغول، الذين استطاعوا كسب شهرة غير عادية مثل شهرة أمبراطوريّة تيمورلنك التي تقاسمها، في ما بعد، ورثته التيموريّون؛ أو الذين نجحوا في تأسيس ممالك في مناطق بعيدة، مثل أمبراطوريّة المغول المترفة في شبه القارة الهنديّة.

لقد تركت كل هذه السلطات التركيّة، في عصرها، آثارًا عميقة في الحضارة الإسلاميّة، طبعت بصورة خاصة الفنّ الذي تطوّر تبعًا لمتطلّباتهم وأذواقهم، في حين أنّ المجتمع كان يعكس أيضًا بعض تأثيرات قراراتهم. وأدّت جهودهم السياسيّة، في حالة الدولة العثمانيّة، إلى تماهي جميع السكان المسلمين، في هذه الأمبراطوريّة الشاسعة، مع الأتراك، وفاقًا لمعادلة تسمح، في اللغة المحكيّة في الدول الأجنبيّة، بالخلط بين صفتي «تركي» و«عثماني»، كلّما جرى الحديث عن الادارة او الجيش، أو عن أيّ مظهر من مظاهر الدولة العثمانيّة. وانحصر هذا الاستعمال اليوم، ولكن هناك واقع «تركي» لا يزال قائمًا في بعض المناطق، ناتج عن تحوّلات سكانيّة مرتبطة بتوافد كثيف ومتكرّر لعناصر

من أصل تركي استطاعت فرض لغتها. إنّ الوضع اللغوي في كلٍّ من تركستان والأناضول وأذربيجان معبّر بالنسبة الى هذا الموضوع. فضلاً عن ذلك فانّ توزيع هذه الجماعات التركيّة ما زال يوجّه، في عصرنا الحاضر، التنظيم السياسي في عدد من البلدان، إمّا عن طريق أقليّات عرقيّة - ثقافيّة ناشطة، وإمّا بواسطة عنصر أساسي مهيمن في دول حديثة ناطقة بالتركيّة، مثل الجمهوريّة التركيّة، أو الجمهوريات السوفياتيّة السابقة: أذربيجان، وتركمنستان، وأوزبكستان وكازاخستان.

الأتراك الجدد أو تركيا الفتاة، حركة سياسيّة مناهضة للسلطان عبد الحميد، ظهرت عام ١٨٨٩ وأدت إلى الثورة الكماليّة وقيام الجمهوريّة التركيّة. في عام ١٨٨٩، في مناسبة مئويّة الثورة الفرنسيّة، بدأ معارضون للنظام العثماني بالتجمّع مشكّلين جمعيّة الاتّحاد العثماني. وقد ضمّت هذه الجمعيّة في عدادها، ليس الأتراك وحدهم، بل العرب والأرمن والأكراد والألبان المحتجّين على استبداد السلطان والمطالبين باعادة دستور عام ١٨٧٦. كان جميع هؤلاء من المهاجرين الهاربين من ملاحقة النظام، وكانوا يجتمعون في بلدان مختلفة غير إسلاميّة، وأيضًا في مصر. وبالرغم من القمع الذي تعرّض له الطلاب الذين اجتذبتهم دعاوة هذه الجمعيّة، فإنّ الحركة تنامت، وعقدت مؤتمراً في باريس، في العام ١٩٠٢، أدّى إلى انقسامها إلى تيارين: الأوّل ليبرالي لامركزي، والثاني أكّد أهميّة دور العنصر التركي في وحدة السلطنة.

في عام ١٩٠٦، نشر أحد قياديّ الجمعيّة كتيّباً في مصر يدعو فيه الضباط للمشاركة في النضال؛ وتأسّست من ثمّ، في عام ١٩٠٦ في سالونيك، وهي مدينة في مقدونيا حيث كانت فرق من الجيش مكلّفة بقمع المحاولات القوميّة البلقانيّة، جمعيّة الحرية العثمانيّة، واعتمدت، بعد ذلك، إسم جمعيّة الاتّحاد والترقيّ. كانت هذه الجمعيّة المؤلّفة من عشرة أعضاء تختار المنتسبين اليها من بين الضبّاط والموظّفين، في الفترة نفسها التي أسّس فيها مصطفى كمال، الذي عُرف في ما بعد بأتاتورك، جمعيّة سريّة واتّصل ببعض الأوساط في سالونيك، وهوَ يعود بأصله الى هذه المدينة.

وفي عام ١٩٠٨ دفعت أزمة اقتصاديّة حادّة، إضافةً إلى وضع ديبلوماسيّ يدعو الى القلق، بقياديّي الجمعيّة إلى التحرّك. وانضمّت إلى المعارضين الفرق العسكريّة المرسلة من الاناضول، ما دفع بالسلطان عبد الحميد إلى إعادة العمل بالدستور في تموز ١٩٠٨، معلناً، في الوقت نفسه، إجراء انتخابات تشريعيّة. اجتمع البرلمان الجديد المنتخب في كانون الأول، وكان أحمد رضى رئيساً له، واستبدل رئيس الوزراء. لكن سياسة الأتراك الجدد واجهت معارضة رجال الدين، وتُرجمت هذه المعارضة بفتنة حصلت في تموز عام ١٩٠٩ أمام البرلمان، فعُزل السلطان وحلّ مكانه اخوه. ومنذ ذلك الحين، وعلى الرغم من بعض الحوادث المتنوّعة، تولّى أعضاء جمعيّة الاتّحاد والترقّي - التي كانت تضمّ اتّجاهات مختلفة - الحكم حتى عام ١٩٢٣. وكان هؤلاء قد استولوا على السلطة بالقوّة عام ١٩١٣، وكان عليهم أن يُواجهوا المشكلات التي أحاطت بالمجتمع العثماني والأخطار التي أثقلت كاهل الأمبراطوريّة.

في الداخل، اعتمدت جمعيّة الاتّحاد والترقي سياسة قوميّة تركيّة وعلمنة تدريجيّة. وفي الخارج، واجهت المشكلات الناجمة عن الحروب البلقانيّة (١٩١٢-١٩١٣)، وعن الأطماع الايطاليّة في طرابلس الغرب منذ عام ١٩١١، وعن المشكلات العربيّة - ومنها ثورة ١٩١٦ بمؤازرة بريطانيا - وعن طموحات روسيا التي كانت قد ضمّت مقاطعة من الأناضول الشرقي عام ١٨٧٨، والتي كانت تسعى إلى توسيع ممتلكاتها بهجوم قامت به عام ١٩١٥. ويضاف إلى ما تقدّم مشكلة الأرمن الذين، بعد أن ساعدوا بميليشياتهم الجيش الروسي، هُجّروا جميعًا في اتّجاه سوريا والعراق حيث تعرّضوا للعنف، ولم يسلم منهم سوى القليل. ووقعت جمعيّة الاتحاد والترقي أخيراً ضحيّة الاتفاقات المعقودة مع المانيا خلال الحرب العالميّة الأولى وضحيّة اعلان الحرب ضدّ الحلفاء في تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩١٤.

أفسحت قرارات الحلفاء ضدّ العثمانيّين المجال أمام مشاريع مصطفى كمال، الذي كان قد أصبح جنرالاً. وفي عام ١٩٢٠، شرع هذا الأخير في النضال من أجل تحرير البلاد ونجح في ذلك وألغى السلطنة عام ١٩٢٢

بقرار من الجمعية الوطنيّة الكبرى المنتخبة عام ١٩١٩.

الأثريّات الإسلاميّة (علم -) ← علم الأثريّات الإسلاميّة.

إثيوبيا، باللغة العربيّة الحَبَشة، منطقة جبليّة في شمال شرقي أفريقيا، يوافق موقعها موقع أبيسّيني (Abyssinie) القديمة. أدّت علاقتها المستمرّة بالإسلام، منذ أيام النبي محمد (ﷺ)، والصعبة في أكثر الأحيان، إلى تنامي الاسلام فيها بصورة بارزة.

١) بسط المسلمون سيطرتهم الكاملة على المناطق الحدوديّة الخارجيّة الشرقيّة والجنوبيّة من هذا البلد، رغم أنّه مسيحيّ تاريخيًّا ولم يزل كذلك في معظمه، كما أنّهم دخلوا بعض المقاطعات وأصبحوا يشكّلون نسبة مئويّة مهمّة من عدد سكان الجمهوريّة الأثيوبيّة، لكنّ هذه الجمهوريّة خسرت المناطق الإسلاميّة الشماليّة التي تتكوّن منها إريتريا الحاليّة. لم يحدث هذا الامتداد إلّا ببطء ومن خلال تقدّم معقّد بسبب التعدّد العرقي واللغوي للسكّان، وأيضاً بسبب الحواجز الطبيعيّة التي تعيق الوصول إلى الهضبة البركانيّة المنشأ، المرتفعة والوعرة، وسط البلاد والتي تخترقها الشقوق الجيولوجيّة والقمم، ما يجعل الوصول إليها مستحيلاً. وقد تكسّرت وتشرذمت على هذه الكتلة الصلبة، طوال قرون، الهجمات المباشرة والحصارات السياسيّة التي تعرّضت لها البلاد عن طريقين: أوّلهما شاطئ البحر الأحمر حيث استقرّ مسلمو شبه الجزيرة العربيّة منذ وقت طويل، وثانيهما الأرض المنخفضة التي تحيط بالقرن الافريقي، أي الساحل الصومالي الذي عرفت الازدهار بعض مدنه المرفئيّة التي تعاملت بتجارة الرقيق. وكانت أبواب هذا الساحل مشرّعة لتدفّق اللاجئين الذين هربوا من حكم العبّاسيّين، فكانت النتيجة اعتناق قبائل الداخل الإسلام وازدهار سلطنات محلّية في موازاة ذلك.

في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، تمكّن حاكم منطقة إيفات الإسلامي، الذي اعتمد على الازدهار الموقّت لمدينة هرر الإسلاميّة، من التمدّد لفترة قصيرة إلى المنبسط الحبشي. لكنّ ردّة فعل الأباطرة الأثيوبيّين حالت دون ذلك. وهكذا وجب انتظار القرن السادس عشر، الذي شهد حملات على الحبشة باسم الجهاد، قادها احمد غران الذي خلع على نفسه لقب إمام، وكاد يجتاح الأراضي المسيحيّة القديمة، لكنّ قوّته انهارت تحت ضربات البرتغاليّين الذين لبّوا نداء للنجدة سنة ١٥٤٣. لم تتبع هذه الهجمة التاريخيّة الإسلامية سوى محاولات تمزيق كان مصدرها الدائم مدينة هرر، حتى كانت حملات الخديوي إسماعيل التي شُنّت في القرن التاسع عشر من مصر، والتي كان مصيرها التحطم والهزيمة القاضية التي لحقت بالفرق العسكريّة المصريّة سنة ١٨٧٦. وقد لقيت الحملات التي شنت سنة ١٨٨٨، على حدود أخرى، من قبل عناصر من المهديّين الذين دبّت فيهم الحماسة، بعد نجاح حركتهم السياسية-الدينيّة في السودان، المصير العسكري نفسه، تاركة آثاراً لا تُذكر في هذا البلد الذي وحّده ضدّ الإسلام أباطرته الجدد.

نتج عن هذه الحوادث التوزيع الحالي غير المتوازي للسكان الإثيوبيّين المسلمين السنيّين الشافعيّين، والذي يختلف من منطقة إلى أخرى. وقد حافظ هذا التوزيع، في كل مكان تقريباً، على سمات تعود إلى حيويّة اللغات المحليّة التي شكّلت دعماً للأسلمة في أواخر القرن التاسع عشر، وهي سمات لا تميّز الطوائف الإسلاميّة من المجموعات المسيحيّة المجاورة. إنّ انتشار الطرق الصوفيّة الذي حدث منذ عهد قريب لم يحمل معه أيّ رواج للعلوم الفقهيّة التقليديّة، ولا أيّ إصلاح للممارسات المنحرفة المتعدّدة، إلّا في ما يخصّ تجذّر الطريقة القادريّة. لكنّه أدّى إلى سعي مستمرّ وراء المناحي الجذّابة المقبولة في الأوساط القادريّة والمتوافرة، في الوقت نفسه، في محيطات أُخرى. وسادت الحالة نفسها عندما برزت جهود الاحياء الديني بوضوح والتي نهض بها أتباع الإدريسيّة والصالحيّة/الرشيديّة، وبقدر أقلّ، أتباع التيجانيّة. لم يطرأ أيّ جديد ذي أهميّة على هذا الوضع، ومع ذلك فإنّ التوسّع الإسلامي تابع مسيرته محلّيًّا، في أراضي النيل المنخفضة المهيّأة لتسرّب التأثير الوافد إليها من جمهوريّة السودان، كما هو

الوضع بالنسبة إلى القبائل المجاورة للمناطق الساحليّة التي تستمدّ، من علاقاتها بالصومال، الدعم الضروريّ لثوراتها ضدّ السلطة المركزيّة.

٢) **جمهورية إثيوبيا**: المساحة ٠٠٠ ٢٢١ ١ كم[٢]، العاصمة: أديس أبابا، هي الدولة الحديثة المستقلّة التي وُلدت سنة ١٩٧٤ من الأمبراطوريّة المسيحيّة القديمة القروسطويّة. تضمّ هذه الدولة ٥٣ مليون نسمة منهم أقليّة مسلمة مهمّة توازي ثلث السكّان، لكنّها موزّعة على مناطق مختلفة بنسب غير متعادلة. إن هذا الوجود المسلم في بلد طبعته، خلال العقود الأخيرة، تحوّلات سياسيّة-إجتماعيّة عميقة، هو نتيجة الجهود القديمة لنشر الإسلام والتي تابعها مسلمو الأطراف لاحتلال الهضبة المركزيّة. إنّه متجذّر في المناطق المجاورة: في إريتريا المستقلّة في الشمال الشرقي قرب البحر الأحمر، وفي جمهوريّة السودان في الشمال الغربي، وفي جمهوريّة الصومال الديمقراطية في الجنوب الشرقي. وقد نتج عن هذا الوضع توتّرات دينيّة محليّة تضاف إليها الصعوبات الداخليّة الناشئة عن عدم التجانس العرقي واللغوي لشعب متعلّق بأثيوبيا بكل جوارحه. وقد اختلطت عنده، منذ القدم، المشاعر القوميّة بالمسيحيّة ذات الطبيعة الواحدة **(Monophysite)**.

أَجَاريا (جمهوريّة)، المساحة: ٣٠٠٠ كلم[٢]، العاصمة: بَتُوم؛ منطقة تابعة لجمهوريّة جيورجيا، عددُ سكّانها غير المتجانسين [دينيًّا] ٠٠٠ ٤٠٠ نسمة، بينهم أغلبية مسلمة نسبتها ستة وخمسون بالمائة.

إنّ بلاد هؤلاء الأجار الذين يعتبرون أحيانًا أُمّةً مميّزة عن الجيورجيّين، وأحيانًا مجموعة إثنيّة جيورجيّة، لم تكن دومًا سوى منطقة داخليّة بالنسبة إلى المدينة المرفئيّة المعروفة ببتومي أو بتوم، وهي، اليوم، مركز صناعيّ ومصبٌّ نفطيّ رئيسيّ على البحر الأسود. ويتناقض التنوّع السكّاني لهذه المدينة الكبيرة مع المذهب السنيّ الحنفيّ التقليدي لسكّان المنطقة الداخليّة الذين جرت أسلمتهم، بعد أن كانت المنطقة لمدة طويلة مسيحيّة، ومقاومةً لتقدّم الجيوش العربيّة-الإسلاميّة إبّان الفتوحات الكبرى، ثمّ أخضعت بحملات تركية جُرّدت ضدّها وأدّت إلى ضمّها عام ١٦٢٧ إلى أمبراطوريّة العثمانيّين.

وكان من أثر التخلي عن بتوم لروسيا بموجب معاهدة سان ستيفانو، ثمّ احتلالها من قبل الروس عام ١٨٧٨، أن أُنشئت في المنطقة وحدة إداريّة مستقلّة، وُضعت عام ١٩٠٣ تحت وصاية حكومة جيورجيا وخضعت، في ما بعد، لتقلُّبات مختلفة إبّان الحرب العالميّة الأولى. وفي عام ١٩٢١ أقام النظام السوفياتي فيها جمهوريّة أجاريا الاشتراكيّة السوفياتيّة المتمتّعة بالاستقلال الذاتي والمتاخمة، من جهة واحدة، لجمهوريّة تركيا، ومنحها دستورًا خاصًا في إطار ما كان يُعرف بجمهوريّة جيورجيا الاشتراكيّة السوفياتيّة والتي أصبحت، عام ١٩٩١، جمهوريّة فدراليّة مستقلّة، من دون أن يؤدّي هذا التحوّل الأخير إلى تغيير في نظام أجاريا.

إجتهاد، أو جهد في التفكير، مصطلح عربي يطلق على الجهد الذي كان يقوم به الفقهاء في العصور الوسطى عندما كانوا يعملون على إيجاد حل لمسألة عمليّة يطرحها تطبيق الشريعة.

وقد عمد الفقهاء، في سبيل بلورة الفقه، إلى وسائل استدلال متنوّعة تقرّها المذاهب، أبرزها القياس. فالرأي أو الظنّ الذي ينتج عنها يمكن أن يشكّل موضوع نقاش، لكنّه يكتسب سلطة الإلزام عندما يصدر عن شخص مميّز مشهودٍ له بالجدارة العلميّة. والمصطلح المقابل للاجتهاد هو التقليد، أو «القبول بالمذاهب الثابتة». وهذا التضاد ذو المنشأ الفقهي يمكن أن يحصل كذلك في مجال علم الكلام والإيمان: فبعض المؤلّفين كالغزالي يرون أن الإيمان الحق ينبغي أن يستند إلى الاجتهاد لا إلى التقليد.

إنّ من يمارس الاجتهاد يدعى مجتهداً. وفي الأوساط السنّية غالباً ما يُعَدُّ مؤسّسو المذاهب، الذين حدّدوا القواعد المعتمدة في هذا النوع من التفكير، مجتهدين في المطلق. أما أتباعهم الذين انصرفوا إلى تطبيق هذه القواعد فيُعتبرون مجتهدين من درجة أدنى من المؤسّسين. وتعتبر هذه الأوساط أنّه يجب «إقفال باب الاجتهاد»، طالما أن المسائل الأساسية وَجَدَتْ حلًّا لها في عصور الإسلام الأولى، أي منذ القرن الرابع

الهجري/العاشر الميلادي. إلّا أنّ بعض المفكّرين المسلمين في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، طالبوا بأن تكون لهم أيضاً القدرة على الإجتهاد. وفي أواخر القرن التاسع عشر خاصةً، اعترض الإصلاحيّون الذين أرادوا التوفيق بين الفقه وشروط الحياة العصريّة، على «إقفال باب الاجتهاد» وأعلنوا حقّهم في التشريع على أسس قانونيّة. ومع ذلك، فإنّ هذا الاتّجاه لم يؤدِّ إلّا إلى نوع من الاجتهاد المُحدَث، في مطلع القرن العشرين، له بعض النتائج العمليّة.

وفي الحقبة الزمنيّة المعاصرة، في الأوساط السنيّة، أدخل العلماء وقادة الدول تعديلات على موجبات الشريعة في مجال القانون المدني والجزائي، وكذلك في ما يخصّ القانون العائلي (الأحوال الشخصيّة). فالعقوبات الشرعيّة، مثلاً، تمّ التخلّي عنها في السلطنة العثمانيّة منذ ١٨٥٩؛ وترتيبات القانون المدني عدّلت سنة ١٨٦٩. وفي بلدان أخرى، وخارج إطار العلمنة الشاملة التي طُبقت في الجمهوريّة التركيّة بتأثير من الحركة الكماليّة، طرأ تعديل على قانون الأحوال الشخصيّة، منذ منتصف القرن العشرين، وأصاب بنوع خاص وضع المرأة وقواعد الزواج، ولا سيّما ما تعلّق بتعدّد الزوجات والطلاق، وكذلك أحكام الميراث. هذه التحوّلات الحاصلة بتأثير من العقليّة العصريّة، هدفت إلى تقوية التماسك العائلي، واستندت، بحسب المناطق، إلى مناهج مختلفة. فحينًا كان يتمّ اعتماد بعض الحلول التي أوجدتها مدرسة فقهيّة سابقة، تُفضّل على مدارس أخرى؛ وحيناً كان يجري اللجوء إلى مزيج من القواعد التي حدّدتها هذه المدارس؛ وحيناً كان يتمّ الإستناد إلى ما أوصى به القرآن، بحسب روح النص لا حرفيّته؛ وحيناً يتمّ اللجوء إلى ما يُعرف بالضرورات العمليّة. ثمّة قرارات جديدة، إذاً، جرى تطبيقها في كلّ دولة من الدول، لكن من دون أن يظهر عمل فكريّ شامل يعدّل في الأصول، أي الأسس القانونيّة.

أمّا في الأوساط الشيعيّة الاثني عشريّة فإنّ المجتهد، الذي يُعدّ الناطق الرسمي باسم الإمام الغائب، ما يزال يحظى حتّى اليوم بصلاحيّة تأويل الشريعة، مع العلم أنّ تبايناً في وجهات النظر قد يبرز بين فقيهين. وارتسمت تراتبية بين هؤلاء الأشخاص الذين تزايد عددهم في إيران، منذ القرن الثامن عشر، بحيث شكلوا طبقة فعليّة من رجال الدين يُعرفون بالملالي. وأبرز هؤلاء يحملون لقب «حجّة الإسلام»، قبل أن يظهر لقب «آية الله»، في عهد أسرة القاجار. إنّ «آيات الله»، الذين يرتبط كلّ منهم بمركز ديني كبير في البلاد، يشكلّون نوعاً من مدرسة يتمّ الانتساب إليها بالاختيار الداخلي. وعلى رأسهم «آية الله العظمى» الذي تكتسب مقرّراته قوّة الشريعة، كما حصل للخميني عندما أعلن نفسه بهذا اللقب.

الإجماع، تعبير تقني ذو طابع فقهي - كلاميّ يُستعمل للدلالة على أحد مصادر التشريع، بعد القرآن والسنّة.

يختلف تحديد مفهوم الإجماع باختلاف المدارس الفقهية وكانت أهميّته تتفاوت فيها. فبحسب الحالات، كان يعني الاتفاق الإجماعي للصحابة، أو إجماع العلماء في فترة زمنيّة معيّنة، أو حتّى إجماع مجموع المسلمين. وفي كل الحالات، لا يمكن أن يتعارض الإجماع مع تعاليم القرآن والسنّة، بل هو يكمّلها فقط ويتيح تطبيقًا أكثر دقّة للفقه.

يُنكر ممثلو بعض التيّارات السياسيّة - الدينيّة، وبخاصة الخوارج والمعتزلة والشيعة، أي قيمة للإجماع. في المقابل، يستند اللجوء الى الإجماع، بالنسبة الى المدارس السنيّة، إلى حديث شريف «لا تجتمع امتي على خطأ»، وترى أنّ العمل بالإجماع يتيح حلّ مشكلات عدّة. وهكذا، فإن بعض الممارسات الدينيّة كـ«تكريم الأولياء» أو بعض المعتقدات حول عصمة النبيّ محمّد (ﷺ)، تجد مبررها، بحسب هذه المدارس، في الإجماع الضمني حولها، على رغم المواقف المعارضة لها. أخيرًا، يجهد بعض المفكّرين في الحقبة المعاصرة لإعطاء الإجماع تحديدًا يسمح بشرعنة بعض التعديلات في القوانين التي فرضتها ظروف الحياة المعاصرة.

أَجْمر (الاتّحاد الهندي)، أو أُدْجْمِير، مدينة من أعمال

راجستهان، تسكنها أقليّة مسلمة ذات شأن، ما تزال عاصمة دويلة تتمتّع بحكم ذاتيّ نسبيّ، وتحتفظ من ماضيها بأبنية إسلاميّة شهيرة ما تزال مقصد السيّاح.

بعد استيلاء الغوريّين عليها عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وإلحاقها، بعيد ذلك، بأراضي قوّادهم - المماليك القدامى الذين أضحوا سلاطين دلهي، اختيرت أجمر مقرًّا من قبل الصوفيّ معين الدين تْشيشْتي (أو جِشْتي)[١٠] الذي توفّي فيها عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م، فغدا ضريحه مقصدًا للزيارات التَّقويّة ذا توقير خاصّ. إنطلاقًا من هذه الصفة، اكتسب هذا الموضع - الذي أهّله موقعه لدور إستراتيجي وتجاريّ، وأصبح بذلك موضوع نزاع بين الراجپوتانيّين وسلاطين ملوى، قبل أن يُضمّ إلى أمبراطوريّة المغول -، في الوقت نفسه، شهرة وتحوّل مقصدًا للزيارات التقويّة، تغشاه الجماهير الهنديّة وتُثريه هبات الكثيرين من ملوك المغول. من بين هؤلاء أكبر، جهانكير وشاه جهان الذين جمّلوا، واحدًا بعد الآخر، الضريح الأوّل المُقام في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، تكريمًا للخواجه جِشْتي، في الوقت الذين كانوا يقيمون في المدينة، لأنفسهم، قصورًا متعدّدة، ومقاصير للسكن. لكنّ الأثر الهندسي الأكثر قيمةً هو، بدون شك، المسجد الجامع الذي بناه الغوري معزّ الدين، بعد استيلائه على المدينة بقليل، والذي وسّعه في ما بعد قطب الدين أيبك. إنّه يشهد - كما الأبنية التي شُيّدت في دلهي، في الحقبة نفسها، حول قطب منار - على ولادة فنّ هندي - إسلامي محليّ، تطوّر في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، في كنف سلاطين الشمال المسلمين الأوائل.

◄ راجع المستند ٣٣.

أَجْنادِين (معركة)، جُمادى الأولى - جُمادى الآخرة ١٣هـ/ تمّوز-آب/ يوليو-أغسطس ٦٣٤م، واقعة مهمّة من الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة الأولى جرت خلال خلافة أبي بكر، بعد سنتين من وفاة النبي محمد ﷺ، ثم جاءت معركة اليرموك بعد ذلك بقليل لتكمل نتائجها.

إنّ فِرق فاتحي سوريا التي كانت، حتى ذلك التاريخ، متفرّقة تقوم بغزوات يقودها بصورة خاصة يزيد ابن ابي سفيان، شقيق معاوية الخليفة في ما بعد، انتصرت في هذه المعركة، بقيادة خالد بن الوليد[١١] على جيش بيزنطيّ بقيادة شقيق الامبراطور هرقل. وإ كان عدد هؤلاء المحاربين أقلّ بكثير مما ذكرته مدوّنات الوقائع العربيّة، فإنّ النصر كان حاسمًا بحيث أدّى إلى تراجع الفرق البيزنطيّة نحو دمشق تاركةً فلسطين م دون حماية. هذا، وإنّ موقع أجنادين الذي جعله التقلي بين بيت جبرين والرّملة لم يُحدَّد بعد بدقّة.

أُحُد، معركة أُحُد، جُمادى الآخرة ٣هـ/ تشرين الثاني/ نوفمبر ٦٢٤م.

إشتباك غير موفّق، واجه خلاله مسلمو المدينة جيشًا مشركًا أتى من مكّة ليثأر لضحاياه في معركة بدر.

هذه المعركة التي وقعت قرب جبل أُحُد، على بع كيلومترات شمالي المدينة، لم تكن في مصلح المسلمين الذين خسروا عددًا كثيرًا من المقاتلين. م بين الشهداء الذين سقطوا في هذه المعركة حمزة، أحد أعمام النبي محمد (ﷺ) الذي أصيب كذلك بجروح وثمّة آيات قرآنيّة نزلت بعد هذه الواقعة تلقي المسؤولي على ضعف إيمان المؤمنين، وتفيض في إسداء نصائ ذات طابع حياتي، بعضها كثير التفصيل، جاءت في السورة الرابعة المعروفة بـ«سورة النساء». وقد أصب موقع هذه المعركة في ما بعد، وبشكل خاص مدافن المقاتلين الذين قضوا فيها، وكذلك المسجد - المصلّى المكرّس لذكرى حمزة، مواقع لمزارات تقويّة، أشا اليها الهروي في دليله في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد.

الأَحديّة، عقيدة اعتمدها بعض ممثّلي الفلسف والصوفيّة تؤكّد وحدة الوجود وتنفي وجود كائنات متميّزة عن الله الموجود الأوْحد.

تخلص هذه العقيدة إلى أنّ الكائنات كافّة تشارك في وجود الله، ولا وجود لها إلّا من خلاله. اشتهرت هذه العقيدة من خلال مدرسة صوفيّة تميّز فيها ابن العربي، لكنّها اعتُبرت مخالفة للوحدانيّة والتعالي الإلهي. ومن بين العلماء المسلمين الذين انتقدوها بشد في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، نذكر الحنبلي ابن تيْميّة الذي أكّد عداءه لأطاريح ابن العربي

الإحرام ← الحجّ.

الأحساء ← الحسا.

أحسن آباد ← بَهمَن (آل -).

أَحْمِت، اسم تركيّ محرَّف عن الاسم العربي أحمد، حمله ثلاثة عواهل من سلالة العثمانيّين خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر، في حقبة كانت أمبراطوريّتهم، على الضعف الذي اعتراها، ما تزال تحتفظ بمكانتها.

أحمِت الأول، ١٥٩٠-١٦١٧، ثالث سلطان في السلالة، شغل العرش من ١٦٠٣ إلى ١٦١٧م. لم يتوقّف عند مجرّد توجيه جيوشه في اتّجاهات متعدّدة: للتصدّي أوّلًا لحملات الاستيلاء على أرمينيا التي قادها الشاه عبّاس الأوّل الصَفوي، ثمّ للاستمرار في الضغط على النمساويّين عبر هنغاريا، وأخيرًا لمحاربة الغارات الروسيّة في اتّجاه البحر الأسود ولقمع حركات العصيان التي ظهرت في عهده في الأناضول وسوريا، لكنّه صرف همّه إلى [تأمين] الازدهار الاقتصادي لأمبراطوريّته بوضع أنظمة تجارية [لها] وتجديده نظام الامتيازات [أي عهود الأمان] مع فرنسا وانكلترا والبندقيّة، في الوقت الذي كان فيه، كذلك، يمنح امتيازات مماثلة لتجّار هولندا. اهتمّ أيضًا بأوضاع البحريّة. وقد أظهر، بوجه خاص، غيرة مستمرّة في سبيل الإسلام، فضاعف عدد المبرّات، وقدّم هبات للكعبة في مكّة وخلّف في اسطنبول المجمّع المعماري السلطاني الذي يحمل إسمه والذي يضمّ، حول الجامع الكبير المعروف بالأحمديّة، والمسمّى أحيانًا الجامع الأزرق بسبب لون الكسوة الخزفيّة المستخدمة في الداخل، مجموعةً من المباني المعدّة للتعليم الدينيّ.

وإذا كان عهد **أحمد الثاني** قد انقضى، من عام ١٦٩١ حتى ١٦٩٥، من دون ما يجدر ذكره، فإنّ **أحمد الثالث**، ١٦٧٣-١٧٣٠، السلطان الثالث والعشرين من السلالة، عمل على إحداث تطوير ما في مسار الدولة العثمانيّة. فقد طبعها بالتنظيم الذي تناول محاولته لإجراء إصلاحات فيها وبميله المتزايد إلى متع الترفيه والفنون، رغم بخله. ويعود إليه الفضل في الفورة الثقافيّة المعروفة باسم لاله دِوْري أو عهد الزنبق الذي زرعت خلاله هذه الزهرة التي راجت أيامئذٍ، بشغف، واستُعملت موضوعًا زخرفيًّا مميّزًا، بعد أن أدّى توجيه بعثة إلى فرنسا، عام ١٧٢٠، إلى تعريف بعض الأوساط العثمانيّة برفعة الذوق المهذّب لأسلوب الحياة في عهد الريجانس (Régence)[١٢].

استُهِلّ عهده، بُعيد معاهدة كارلوفيتش المجحفة، بحذر سياسيّ كبير طاول العلاقات التي كانت السلطة العثمانيّة تقيمها مع كثير من البلدان الأوروبيّة. وقد ساد الاعتدال، رغم دسائس شارل الثاني عشر السويدي، العلاقات مع قيصر روسيا بطرس الأكبر الذي تمّ معه، في نهاية الأمر، توقيع معاهدة سلام في أدرنه، عام ١٧١٣. كما أدّت النزاعات اللّاحقة مع البنادقة والنمساويّين إلى معاهدة باساروفيتش عام ١٧١٨، وقد جرى بموجبها تبادل لبعض الأراضي، إذ أُعطي الأتراك المورة وبعض المناطق، في مقابل عودة بلغراد إلى النمسا مع بعض المقاطعات. في حين يسّرت الفوضى في إيران، بسبب انحدار سلطة الصفويّين، عقد اتفاق عام ١٧٢٤ روسيّ - عثمانيّ لاقتسام مناطق ما وراء القفقاس الحديثة العهد بالإسلام. إلّا أنّ الفتوحات المهمّة التي كانت من نصيب أحمد الثالث في أذربيجان وأرمينيا وجورجيا ما عتّمت أن محتها حملات القائد الإيراني نادر شاه عام ١٧٢٩م، فأدّى نصر هذا الأخير إلى ردّة فعل في اسطنبول حرّضت على ثورة شعبيّة أطاحت السلطان.

في موازاة هذه السياسة الخارجيّة بنتائجها المخيّبة للآمال، شهد عهد أحمد الثالث محاولة تغيير في المجتمع [العثماني] يجري في مسيرة الغرب الأوروبي الذي كان يتعاظم الفضول بالنسبة إليه، ولا سيّما بسبب جهود الوزير الداماد إبراهيم باشا من نوشهر. فقامت حركة تحديث للتنظيم العسكري والبحرية، فيما كانت تتناقص أهميّة الفرقة الانكشارية، كما أهمل اللجوء إلى الدِوْشرما لاختيار الموظّفين المؤهّلين لتولّي المراكز الأساسيّة في الإدارة والحكومة. وهكذا ظهرت طبقات جديدة تولّت شؤون البلاد، كانت منفتحة على التأثيرات الأجنبيّة، ممّا سهّل افتتانها بجوّ البذخ والأعياد الاحتفاليّة المستمرّة التي لاقت تقديرًا مرموقًا، بحيث

عُهد إلى رسّامي المنمنمات الرسميّين أمرُ تخليد رونقها. أدّى ذلك إلى انطلاقة في الحياة الفنيّة والثقافيّة انمازت بممارسة الموسيقى والشعر وتكاثر المكتبات والتفتيش عن المخطوطات، وتشجيع الترجمات للمؤلّفات العربيّة والفارسيّة، وتجميل اسطنبول بترميم حصونها البيزنطيّة وتحسين تغذيتها بالمياه، وحيويّة انتاج المنمنمات والسيراميك [الفاشاني] وإقامة أبنية أنيقة كمثل منهل أحمد الثالث المشيّد أمام رتاج قصر توبكابي، أو كمثل المسجد الذي بناه السلطان لأمّه على الضفّة الأخرى للبوسفور، في أسكودار/سْكوتاري. كلُّ هذا كان تعبيراً عن الفرح بالحياة اللاهية الدنيويّة التي شكّلت العلامة البارزة لعهد الزنبق الذي عرف رفاهية في العيش لم تدم طويلاً. وقد تجلّى هذا الفرح في الأناقة، المتصنّعة بمقدار، في أصغر إنجازات هذا العهد.

أَحمد آباد (الاتّحاد الهندي)، مدينة تابعة لغُجَرات، في شمال غربيّ الدكّن، غدت عاصمة لدولة إسلاميّة بالهند استقلّت في أواخر العصور الوسطى.

أسّس مدينة أحمد آباد، عام ٨١٤هـ/ ١٤١١م، سلطان غُجرات يومئذ، أحمد شاه الأول، حفيد الحاكم الذي كان أعلن استقلاله، بعد مضيّ أكثر من قرن على إلحاق المقاطعة [بأراضي] سلاطين دلهي. منذ ذلك الوقت، عرفت المدينة عهدًا من الازدهار تشهد عليه المباني الباقية التي تشكّل بيّنات دالّة للفنّ الهنديّ-الإسلامي في المنطقة. إلّا أنّ محمودًا الأول [محمود شاه الأول] بغْرا الذي ملك من ٨٦٢ إلى ٩١٧هـ/ ١٤٥٨ إلى ١٥١١م تخلّى عنها كمقام له، وأسّس مدينة محمود آباد/ تشامپانر[١٣]، لكنّها عاودت تألّقها في إطار أمبراطوريّة المغول، قبل أن يأفل نجمها من جديد ابتداءً من القرن الثامن عشر وتخضع للبريطانيّين عام ١٨١٨.

◄ راجع المستند ٣٢.

أَحمدُ بن حَنبل، ١٦٤-٢٤١هـ/ ٧٨٠-٨٥٥م، سلَفيّ، فقيه وعالم دين، يعتبر مؤسّسًا للمذهب الحنبليّ في الفقه، وهو الذي أخذ بإصرار بعقيدة «أهل الحديث» السنّية.

ينتسب إبن حنبل إلى أسرة عربيّة ناصرت سلالة العبّاس خلال «الثورة العبّاسيّة» واستقرّت في بغداد حيث انصرف أحمد إلى الدراسة. إلّا أنّه لم يغفل عن طلب العلم في سوريا والبصرة والحجاز واليمن. لكن، يبدو أنّ مدرسة أهل الحديث في الحجاز كان لها الأثر الأقوى في تكوين شخصيّته. ولقد دمغ مسيرة حياته ما أصابه خلال المحنة [أو محكمة التفتيش في المفهوم الغربي] في عهد الخليفة المأمون الذي سعى إلى فرض مذهب المعتزلة. فقد استدعاه الخليفة إلى طرسوس حيث كان يشنّ حملةً على البيزنطيّين، إلّا أنّ الذين اقتادوه كانوا بلغوا به الرَّقّة حين وصلهم نبأ وفاة المأمون. فأُعيد إلى بغداد حيث سُجن وخضع لاستجواب طويل قام به، باسم الخليفة المعتصم، صاحب الشرطة. وقد ذكرت بعض المصادر أنّ ابن حنبل سفّه بتفوّقٍ الآراء التي كانوا يريدونه أن يعتنقها، إلّا أنّ حكم عليه بعقوبة الجلد، وفي نهاية الأمر أطلق سراحه شرط ألّا يتعاطى التدريس على الإطلاق، فأخذ نفسه بذلك في ما بعد: رفض أن يتولّى أيّة وظيفة ولبث بعيدًا عن السلطة، حتى عندما لاقت آراؤه قبولًا، من جديد، عندما آلت الخلافة إلى المتوكّل عام ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م. وبعد وفاته غدا مثواه موضع توقير وزيارات تقويّة أسوة بالمزارات البارزة التي كان البغداديّون يقصدونها للصلاة، إلى أن جرفه دجلة في طوفٍ عاتٍ إبّان القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

خلّف ابن حنبل المُسنَد، وهو مجموعة من الأحاديث [النبويّة]، وأثره الأساسيّ. وكان، كذلك، صاغ أجوبة كثيرة عن أسئلة متنوعة أو مسائل تتعلّق بالعقيدة، والفقه والأخلاق، دوّنها أولاده. وكان يتنكّب عن تقنين فكره كتابةً، وحذّر أتباعه من هذا المنحى، لنزعته إلى التقيّد بحرفيّة النص، وهذا يفسّر البطء الذي استغرقته مدرسته لتلاقي قبولًا كما هي، سواء في ميدان الفقه أو في ميدان علم الكلام. إلّا أنّه، فيما أبدى حذرًا تجاه التعاليم التي كانت بدأت تشكّل مرجعيّة في زمانه والتي كان يُشيعها أتباع أبي حنيفة ومالك والشافعي، لم يتردّد أبدًا في إبداء رأيه الشخصيّ، مشدّدًا على أنّ ما جاء في القرآن والسُّنّة يكفي قاعدة لعقيدة راسخة.

أَحمد خان بَهادُر (السر (Sir)، والسيّد)، ١٨١٧-

١٨٩٨م، كان ينتمي إلى [حركة] الإصلاح الإسلاميّة التحديثيّة في الهند، ويحمل لقبي تشريف هما سر (Sir) منحه إياه الانكليز، وسيّد الذي يشير إلى تحدُّره من أصل علويّ.

نشأ في أسرة ارستقراطيّة من أصل إيرانيّ من بطانة بلاط المغول في القرن السابع عشر، مبصرًا النور في دلهي حيث شغل وظائف في القضاء المحلّي، وكان شرعَ حياته العمليّة في الشركة الانكليزيّة للهند الشرقيّة. وقد أهّلته أنشطته الأدبيّة والتاريخيّة كي ينتخب، في العام ١٨٦٤، عضو شرف في الجمعيّة الملكيّة الآسيويّة في لندن. في هذه المرحلة، تأثر بما أفضت إليه ثورة عام ١٨٥٧ المعروفة بثورة السيباي، فسخّر كتاباته لتهدئة الأهواء محاولًا مصالحة الانكليز والمسلمين. سعى، بوجه خاص، إلى رفع مستوى معاصريه الثقافيّ، غير متردّد في اعتماد طرق التعليم والتربية المعمول بها في بريطانيا. فأسّس، عام ١٨٧٨م في عليغره، حيث تكاثر أتباع الحركة [الإصلاحية] التي كان ينتمي إليها، كليّة اسلاميّة، بريطانيّة-شرقيّة، قام نظامها على نموذج الكليّات البريطانيّة. وفي السنة نفسها عُيّن عضوًا في المجلس التشريعي لنائب الملك مكافأة لوفائه. ويمكن القول إنّ أحمد خان كان يُعتبر رأس الطائفة الإسلامية في الهند، وإنّ دوره كان راجحًا في صحوة هذه الطائفة التي أدّت في ما بعد إلى تقسيم العام ١٩٤٧ وإنشاء الباكستان.

غير أنّ أفكاره لم تعتِّم أن أثارت تحفّظًا واسعًا لدى علماء البلاد. صحيح أنّ أحمد خان لم يكن لا مباليًا بالنسبة إلى المسائل الدينيّة، إلّا أنه ترك جانبًا التعليم التقليديّ للحديث [النبويّ]، آخذًا بروح القرآن لا بحرفيّة نصّه. كان، بوجه خاص، يصبو إلى نظريّة جديدة في علم الكلام تقول إمّا بنقض العلوم الحديثة، وإمّا بالأخذ بها مع تبيان ملاءمتها لمبادئ الإسلام، كما أعلن في خطبة له عام ١٨٨٠. وقد دعا إلى عقيدة تحصّلت لديه مفادها أنّ الطبيعة، بقوانينها، هي من عمل الله، كما أنّ الوحي هو كلامه. إلّا أنّ هذه العقيدة التي كانت تقدّم الدين في مظهر عقلانيّ صادفت هجومًا عنيفًا، ولا سيّما من قبل جمال الدين الأفغاني الذي كان ينعتها بالماديّة والذي لم يكن ليغفر لأحمد خان تواطؤه مع السلطات البريطانيّة ومعارضته لفكرة الجامعة الإسلامية[١٤].

أحمد سِرهندي (الشيخ)، ٩٧٢-١٠٣٣هـ/ ١٥٦٤-١٦٢٤م، المعروف، كذلك، بمجدِّد الألف الثاني أو «مجدّد الإسلام في الألفيّة الثانية»، شخصيّة صوفيّة ورعة كسبت شهرة عظيمة في الهند المغوليّة. وقف حياته للدفاع عن إسلام متشدّد.

ولد في مدينة سرهند في البنجاب، وانتقل، بعدئذ، إلى بلاط أغره حيث انصرف إلى دحض العقائد التي كان يراها مفسدة. وكانت قد توافرت له، في صباه، تنشئة سلفيّة راسخة، دمغتها معارضته لعقائد الشيعة، فأكملها على صعيد التصوّف بانضوائه، عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م، إلى فرقة النقشبنديّة، من دون القبول بالتوجّهات الوحدويّة في الصوفيّة التي أثّر فيها إبن العربي. إنّ المعارضة التي واجهته في بطانة العاهل جهانكير لم تحُلْ دون ممارسته عليه تأثيرًا واقعيًّا، في الوقت نفسه الذي كان يقوم فيه بإدانة سياسة التوفيق والمحاولات المرتبطة بالبِدَع التي سلكها العاهل السابق، أكبر.

بلغت شهرة أحمد سرهندي، مدافعًا عن الدين الإسلامي ومحيِيًا له، آسيا الوسطى، بفضل مقامه الشخصيّ وانتشار مؤلّفاته: لقد أثبت علوّ شأنه «مصلحًا» إسلاميًا، مركِّزًا على ضرورة عودة الجميع إلى التقيّد بالشريعة والسنّة، بمن في ذلك سالكو النهج الصوفيّ. هذه الأفكار التي دعا إلى الأخذ بها أوحت، بعيد ذلك، إلى حفيد جهانكير أُورنكزيب، سياسته المتشدّدة.

أحمد نَغَر (الاتّحاد الهندي)، مدينة من أعمال الدكّن تحوّلت إلى الإسلام واضطلعت، في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، بالدور التاريخي لعاصمة دولة النظامشاهيّين، الناشئة من تفكُّك أمبراطوريّة البُهمنيّين.

في عام ١٤٩٠م، أعلن مؤسّس هذه السلسلة - وهو هنديّ باسم أحمد نظام شاه، كان تابعًا لوزير آل بهمن[١٥] الإيرانيّ الأصل محمود غاوان[١٦] - استقلاله [عن البهمنيّين]. وقد جهد من عقبوه في الحفاظ على

سياسته، في محيط قاسٍ، إلى أن استولت جيوش أكبر على المدينة عام ١٦٣٣م وجرى ضمّها إلى أمبراطوريّة المغول. قبل ذلك، كانت دولة النظامشاهيّين التي اعتمدت، في الوقت نفسه، على قلعة دولت آباد/ديوجير، غير البعيدة عن أورنغ آباد، ونقلت في النهاية العاصمة إليها، قد اشتهرت بالنزاعات الدينيّة التي امتدّت إليها، بدءًا بعهد برهان الدين (١٥٠٩-١٥٣٣)، بسبب انتشار المعتقدات الشيعيّة التي دافع عنها أمراؤها.

وقد أدّى ضعف قدرة المغول إلى تنازع أراضي أحمدنغر وخرابها خلال الصراعات المسلّحة، بين المهراته والنظامشاهيّين، التي استمرّت حتى الاحتلال البريطاني في القرن التاسع عشر.

أحمدو ← شيخو أحمدو.

أحمدو سيكو ← الحاج عمر.

الأحمديّة، نحلة إسلاميّة حديثة قامت بنشاط كبير لنشر أفكارها، انطلاقًا من الباكستان، رغم انشعابها إلى منظّمتين مختلفتين أوّلت كلٌّ منهما، على طريقتها، الرسالة التي خلّفها مؤسّس الحركة في نهاية القرن التاسع عشر.

عاش هذا المؤسّس، وهو الميرزا غلام أحمد (١٨٣٩-١٩٠٨)، في البنجاب، في مسقط رأسه مدينة قاديان، صوفيًّا زعم أنّه المهدي، معلنًا عقيدته بين مجموعة من أتباعه الذين أسّسوا، بعد وفاته، طائفة بكل معنى الكلمة. فنشأ عنها، عام ١٩١٤، مؤسّستان مختلفتان. إحداهما، وهي الأهمّ، تدعى باللغة الأرديّة «جماعتِ أحمديّة» وبالانكليزية الحركة الأحمديّة في الإسلام (Ahmadiya Movement in Islam)، وهي تشكّل منظّمة قويّة وغنيّة ذات انتشار في الباكستان والاتّحاد الهندي وأفريقيا السوداء. وهي تدّعي تجسيد الإسلام الصحيح الأوحد، وتقضي بأنّ جميع المسلمين الذين لا يأخذون بعقيدتها هم كفّار. أمّا الثانية التي نشأت من انشقاق مجموعة أقلّ عددًا وأكثر توجّهًا إلى الغرب، جعلت مركزها في لاهور باسم «أحمديّة أنْجمَنْ إشاعت إسلام» [أي: مجلس الأحمديّة لنشر الإسلام]، ويقتصر نشاطها على ترويج نوع من الليبراليّة الفكريّة الحديثة متوسّلةً بها لتشجيع الناس على اعتناق الإسلام وذلك في بلدان إسلاميّة ناطقة بالانكليزية، مثا أندونيسيا.

الأحمديّة (بَرَق)← **بدوي (السّيد)**، **إدريسيّة**.

أحمر (بنو الـ-) ← آل نصر/النصريّون.

أخباري [الأخباريّون]، لفظة تُطلق على ممثّلي مدر كلاميّة تعود إلى القرون الوسطى في إطار الشيعة الإمام الاثني عشرية.

كان هؤلاء الإماميّون، في فهمهم للشريعة ومقاربته العقيدة، يقفون عند حدود روايات الحديث التي يطلقو عليها تسمية **الأخبار** ولا سيّما منها المسندة إلى الأئمّة رافضين، تاليًا، الاجتهاد، ومقيّدين بذلك كفاية العلم في مجال الفقه. وقد عارضوا عبر التاريخ، الإماميّ المعروفين بالأصوليّين الذين كانوا يأخذون بنهج العق لبناء علم الكلام والذين كانوا يمنحون المجتهد سله كبيرة.

تمتّع الأخباريّون[١٧] بموقع مميّز في عهد نادر شا بإيران، في مطلع القرن الثامن عشر. إلّا أنّهم، في آخ هذا القرن، طُردوا من مدينتي النجف وكربلاء في العرا وحلَّ محلّهم **الأصوليّون** في إيران. ومع ذلك فة استمرّوا في العراق الأسفل، كما في البحرين والهند

الإختلاف (علم -)، هو علم خاصّ بالاسلام، عُن بالاختلافات الشرعيّة - الفقهيّة والكلاميّة - على ، العصور.

وقد اعتُبرت الاختلافات بين الفقهاء والمشترعي أمرًا عاديًّا في قلب العالم السنّي. واعتبارًا من القر السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، أصبحد محصورة في أربعة مذاهب، بعد ما توصّل كلّ مذهـ الى نتائجه، مع إمكان تعايشها جميعها في منطقة إسلام واحدة. وعلى الصعيد العملي، كان التعرّف الى تلا الاختلافات أمرًا مهمًّا، فشكّلت مواد لأبحاث فقهـ متخصّصة. ولكن، في ميدان علم الكلام، مالت ك مدرسة، حتى ضمن السنّة نفسها، إلى إدانة المدر المنافسة ومنع تعاليمها، وهذا ما تشير اليه المصنّفا القديمة التي اهتمّت بالبدع والملل.

والاختلافات التي ظهرت بين الفقه السنّي والفقه لشيعي تناولت «الأصول» أوّلًا، ثم المجال المتاح لرأي. كما برزت الاختلافات في التطبيقات أو الفروع». قد تبدو الاختلافات بسيطة أحيانًا وثانويّة، كنّها تُفسَّر دائمًا بالتباين بين الطرق المنطقيّة الخاصة كل مدرسة، ويمكن أن تترك تأثيرها على الحياة اليوميّة حتّى السياسيّة. ففي الصلاة مثلًا يجب أن تُتلى البَسْملة» بصوت منخفض بحسب ثلاث مدارس، بصوت مرتفع بحسب المدرسة الشافعيّة، وكذلك حسب المدرسة الجعفريّة المرتبطة بالإماميّة الاثني شريّة. ومن جهة ثانية فإنّ رفع اليدين في بداية الصلاة جب أن يتكرّر مرّات عدّة بحسب ثلاث مدارس، وليس حسب المدرسة الحنفيّة. والمدرسة الجعفريّة توصي تلاوة «التكبير» خمس مرّات في الصلاة الجنائزيّة، في بين أنّه يكفي تكراره أربع مرّات بحسب المدارس لسنّية. وفي مجال التوضّؤ للطهارة الطقسيّة، هناك نقض الاختلاف بين المدرسة الجعفريّة والمدارس سنيّة. وأخيرًا فإن الأذان يختلف ما بين السنّة الشيعة، إلى حدّ أنّ تبنّي صيغة من الصيغ يمكن أن شير الى الانتماء السياسيّ.

ومن الاختلافات ما له علاقة بالحياة الاجتماعيّة، لا سيّما مسألة الزواج، ذلك أنّ حضور وصيّ على متزوّجة ليس مطلوبًا في المدرسة الحنفيّة. أمّا في سألة الإرث فإنّ الحنبليّين يرفضون أن يورثوا أقرباء نساء، وفي حال عدم وجود ورثة غير هؤلاء، يعتبرون تركة شاغرة ويأمرون بتحويلها الى الخزينة العامة. وفي ا يتعلّق بحقوق الإبنة الوحيدة بالإرث، فإنّ الأمر اتّخذ طابعًا خاصًا لدى الشيعة انطلاقًا من فكرة الدفاع عن حقوق فاطمة، إبنة النبيّ محمّد (ﷺ). ومن الاختلاف ما يتعلّق بكيفيّة معالجة أرزاق المرتدّ، وما يتعلّق بتقدير عقوبة الخفيفة، إذ جعلها بعضهم أربعين جلدة، في بين جعلها آخرون ثمانين.

الإخشيديّون، ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م - ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م. سلالة ن الحكّام المستقلّين ذاتيًا، حكمت مصر تحت سلطة لعبّاسيّين الاسميّة، وقاومت مطامع الحمْدانيّين في سوريا الشماليّة قبل أن تخضع للتوسّع الفاطمي الوافد من إفريقية.

كان مؤسّسُ هذه السلالة، محمدُ بن طُغْج، ضابطاً ولد في أسرة تركيّة تخدم الخليفة، وعيّن حاكماً سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م، واستطاع الحصول على لقب إخشيد، وهو لقب إيراني اتّخذه أمراء الصُّغْد وفرغانة قبل الفتوحات الإسلامية. وبعده انتقلت السلطة إلى عبدٍ خصيّ نوبيّ الأصل، يقال له كافور، كان قد أوكل إليه قيادة جيشه، وعيّنه وصيًّا على ولديه أونوجور وعليّ، فدافع عن حقوقهما، وأوصلهما إلى العرش الواحد تلو الآخر. وفي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م، أعلن كافور نفسه سيّداً على البلاد بأسرها، وحلّ اسمه رسميًّا، حتّى موته سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م، محلّ اسم رَبيبَيْه في الدعاء له خلال خطبة الجمعة. وهكذا حكم طوال اثنتين وعشرين سنة، على الرغم من الأزمات الداخليّة والصعوبات الاقتصاديّة، مملكةً تشتمل على مصر وسوريا الجنوبيّة التي عقد، من أجلها، إتفاقاً ناجحاً مع الحمدانيّين سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م. وشهر تاريخيًّا لأنّه استقبل المتنبي، الذي مدحه بقصائد عدّة، من دون أن يغفل أحياناً عن هجائه. وعند وفاة كافور سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م، تسلّم الحكم إخشيديّ آخر، هو أحمد الذي حكم أشهرًا عدّة، حتّى كان هجوم الفاطميّين الظافر على الفسطاط سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م.

محمد بن طغج الإخشيد	٣٢٣-٣٣٤هـ/ ٩٣٥-٩٤٦م
أنوجور بن محمد	٣٣٤-٣٥٠هـ/ ٩٤٦-٩٦١م
علي بن محمد	٣٥٠-٣٥٥هـ/ ٩٦١-٩٦٦م
كافور	٣٥٥-٣٥٧هـ/ ٩٦٦-٩٦٨م
أحمد	٣٥٧-٣٥٨هـ/ ٩٦٨-٩٦٩م

أخلاط أو خِلاط بالعربيّة (الجمهوريّة التركيّة)، ناحية تقع في الشمال الغربيّ لبحيرة وان، في الأناضول الشرقية، تشهد خرائبها العائدة إلى القرون الوسطى والمكوَّنة من أضرحة وشواهد قبور بشكل أساسيّ، على أهميّتها وغناها السالفين بين القرنين السابع والتاسع للهجرة/الثالث عشر والخامس عشر للميلاد.

بدأ تاريخها الإسلامي منذ القرن الأوّل للهجرة/ السابع للميلاد، خلال خلافة عمر بن الخطّاب الذي عقد معاهدة مع أهلها. تداولَ الحكم فيها، في ما بعد، كما

في سائر نواحي أرمينيا، أُمراء وحكّام عرب أو حكّام محلّيون. وقد تعرّضوا لبعض الهجمات البيزنطيّة وأُخضعوا، منذ ٣٧٣هـ/٩٨٣م، لسلالة المروانيّين الكرديّة الصغيرة المتمركزة في بلاد ما بين النهرين العليا.

إنّ دخول الأتراك إليها بقيادة السلجوقي ألب أرسلان الذي انتصر، عام ٤٦٤هـ/١٠٧١م، في معركة مانزيكرت/ملاذكرت، غيرَ بعيدٍ منها، جعل منها مركز حكم لأمراء محلّيين، هم سلالة شاه أرمن، الذين اضطرّوا، في ما بعد، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، إلى التخلّي عن الحكم لأُمراء جاؤوا من بعيد وأقوى منهم بكثير. تنازع المنطقة أيامئذٍ: الأيوبيّون من سوريا، أمراء جورجيا، الخوارزمشاهيّون في شخص جلال الدين منكوبرتي، وأخيرًا سلاجقة الروم الذين حالفهم الظفر بسيطرة كيقُباد الأول على تلك الديار في ٦٣٠هـ/١٢٣٣م.

لكنّ الأهميّة الإستراتيجيّة والاقتصاديّة للمنطقة، في الوقت الذي بدأت فيه أخلاط تحلّ محلّ نواحي مجاورة مثل عادل سيواز وأرسيس - كانت هذه الأخيرة من الأهميّة بحيث منحت إسمها للبحيرة - توطّدت في وقت متأخّر: عندما أدّت حماية الإيلخانيّين التي نتجت عن انتصار مغوليّ أوّل في كوزه داغ عام ٦٤١هـ/١٢٤٣م، إلى مرور الطريق الرئيس للتجارة بين آسيا الداخليّة وأوروبا في المنطقة الشرقيّة من الأناضول. إنّ آل جلايِر الذين ورثوا في المنطقة سلطة الإيلخانيّين، ولا سيّما سلالة آق قويونلو التركمانيّة الغنيّة والناشطة التي احتلّت أذربيجان بعد بقائها لفترة طويلة منحصرة في السهوب الأناضوليّة، أحسنوا استخدام قلعة ومدينة أخلاط التي تحتفظ مدافنها، منذ ذلك العهد، بآثارهم، في حين أنّ خرائب القسم الذي كان مسكونًا في السابق هيَ أقلّ تعبيرًا، وذلك ربّما بسبب التدمير الذي أحدثته غارة صَفويّي إيران عام ١٥٤٨م. وبعد إلحاق مقاطعة أخلاط، بصورة نهائيّة، بسلطنة العثمانيّين في القرن السادس عشر، إضافةً إلى الاهتمام الذي أبداه رؤساء محلّيون من الأكراد تجاهها، شُيّدت مدينة أخلاط جديدة، غير بعيدة عن موقع القديمة، وخُصّصت بمسجدين عظيمين ما يزالان حتى اليوم في أحسن حال.

◄ راجع المستندين ١٧ و٢١.

الأخلاق ← علم الأخلاق الإسلامي

الإخوان، إسم أطلق على أعضاء حركة سياسيّة ودين ساندت عمل ابن سعود في شبه الجزيرة العربيّة بي ١٣٣٠ و١٣٤٨هـ/١٩١٢ و١٩٣٠م. حوالى سـ ١٣٣٠هـ/١٩١٢م، وإلى جانب حضريّي نجد الذ كانوا يشكّلون العمود الفقري لجيشهم، عمل أعض العائلة السعوديّة، آل سعود، على تجنيد مجموعات م العرب البدو بعد تعليمهم العقيدة الوهّابية، وأسكنوه في جاليات دُعيَت الهجرة (أو أرض التهجير)، نسبة إل هجرة النبي (ﷺ) خارج مكّة. هؤلاء الإخوان الذين آمن بوهّابيّة متشدّدة تذهب إلى حدّ إدانة كل المخترعا التي حقّقها التطوّر التقني الحديث، قدّموا لآل سعو مساندة فعّالة في حملاتهم. وإليهم يعود بعض الفض في تمكين ابن سعود من أن يعلن نفسه، في الرياض «سلطان نجد» سنة ١٩٢١. لكنّهم أظهروا، في بعض الحالات، عدم انضباط، حتى إتّهم ادانوا، سـ ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م، ابن سعود الذي أصبح ملك الحجاز، لأنّه أرسل ابنه إلى مصر لتعلم بعض التقنيات الحديثة. وفي سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م، عا الإخوان إلى الاعتدال، وأصبحوا جنود الحرس الوطني وما يزالون كذلك إلى الآن.

إخوان الصفاء أو الإخوان الصادقون، مجموعة مؤلّفي مُغْفَلي الأسماء لموسوعة فلسفيّة-دينيّة يعيّن الباحثو تاريخها في أواخر القرن الرابع الهجري/العاش الميلادي، وقد نالت شهرة واسعة في الأوساط الإسلاميّة في القرون الوسطى.

ترك هؤلاء المناصرون للتشيّع، وربّما المناضلو الإسماعيليّون، تراثًا يهدف إلى توفير فكر روحي باطني للمريدين، وإلى الاحاطة بمجموعة المعارف في اثنتين وخمسين رسالة، تنتظم في أربعة اقسام كبرى: المعارف التمهيديّة، الرياضيات والمنطق، الفلسفة الطبيعيّة الماورائيّات والتصوّف. هذه الدراسات تعتمد التدرّج بحيث تُدخل المنتسبين شيئاً فشيئاً للوصول إلى حقائق

عميقة لا تتّفق مع حرفيّة الشريعة، لكن بدون التعبير عنها بشكل صريح. هذه الحقائق المستمدّة من علوم الأوائل، تمثّل بالنسبة إليهم إلهاماتٍ أوحاها الله خلال هذه العصور، كما كان يحصل في السعي إلى الحكمة لدى الشيعة. وكان يفترض بهذه الحقائق أن تتيح للإنسان الحصول على السعادة في هذا العالم، وعلى الخلاص في الآخر، وللنفس أن تتخلّص من دنس المادة، وأن تتحرّر من الجسد وتتّحد بالنفس الكلّية التي تدير العالم. ونجد في هذا الفكر، ليس مجرّد تأثير الأفلاطونية الجديدة التي يقول بها دعاة الفلسفة، والتي روّج لها صابئة حرّان، بل أيضًا تأثير الكتابات المعرفيّة الغنوصيّة والسحرية. كل هذه المؤثّرات لم تمنع، مع ذلك، مؤلّفي هذه الأبحاث من النجاح في بلورة حصيلة أصيلة تتّفق، ظاهريًّا، مع العقيدة الإسلاميّة، وبهذا حقّقت أساس شهرتها.

الإخوان المسلمون، حركة دينيّة وسياسيّة تنامت في العالم الإسلامي خلال القرن العشرين، بعد تأسيسها في مصر على يدي حَسن البنّا.

في العام ١٩٢٨، أُنشئت في الإسماعيلية جمعيّة الإخوان المسلمين، بإدارة المدرّس البنّا الذي وضع لنفسه هدفًا يقضي بنشر التعليم الديني وتأسيس ما من شأنه أن يحسّن الحالة الصحيّة ومستوى حياة السكّان المُعْسِرين.

في العام ١٩٣٦، عقب توقيع المعاهدة البريطانيّة – المصريّة، أعطى حسن البنّا دعوته مزيدًا من التوجُّه السياسيّ بمحاربته النفوذ البريطاني ودفاعه عن قضيّة عرب فلسطين. وكانت مواقفه خلال الحرب العالميّة الثانية من العنف بحيث أدّت إلى سجنه عام ١٩٤١. بعد العام ١٩٤٥، خصّص الإخوان المسلمون قسمًا من نشاطهم للنضال ضدّ الشيوعيّين المصريّين، بينما وجّهوا فرقة مسلّحة إلى فلسطين في العام ١٩٤٨. وقد أثار نفوذهم قلق الحكومة المصريّة، فأعلنت حلّ جمعيّتهم التي عمدت إلى مواصلة نشاطها سرًّا حتى العام ١٩٥١ حيث برزت علنًا من جديد، بعد موت البنّا الذي اغتيل عام ١٩٤٩.

وفي العام ١٩٥٢ الذي استولى خلاله الضبّاط الأحرار على السلطة في مصر إبّان ثورتهم، طلب هؤلاء مساندة الإخوان المسلمين الذي تشدّدوا في شروط تلبية طلبهم. فنتج عن ذلك صراع خفيّ انقلب عنيفًا بينهم وبين أسياد السلطة. وهكذا، بعد محاولة الاغتيال التي نجا منها عبد الناصر في العام ١٩٥٤، نُفِّذ حكم الإعدام في ستّة من الإخوان المسلمين، كما حكم على رئيسهم بالسجن مدى الحياة. وفي عقب مؤامرة كُشف أمرها عام ١٩٦٥، حكم على ثلاثة من الإخوان بالقتل ونُفّذ الحكم بهم، بينهم الكاتب سيّد قطب. ولم يحُل ذلك دون استمرار الحركة وتورّط فريق من الإخوان ينتمي إلى سيّد قطب في اغتيال أنور السادات في العام ١٩٨١. في موازاة ذلك، تألّفت جمعيّات الإخوان المسلمين في باقي البلدان العربيّة في الشرق الأدنى (مثل سوريا على وجه التخصيص، حيث جوبه نشاطهم بقمع قاسٍ)، كما في الأردن والعراق والسودان. كانت عقيدة الإخوان المسلمين بمثابة عودة إلى إيمان الأجداد أو السلف الذي حملتْ لواءه، في مستهل القرن [العشرين]، حركةُ الإصلاح المعروفة بالسلفيّة، وهي عودة إلى الإيمان بالمفهوم التقليديّ. وقد صرّح البنّا بذلك في قوله: «الإسلام عقيدة وعبادة، وطن وتابعيّة، دين ودولة، روحانيّة وعمل، قرآن وسيف». وهذا يعني أنّ الإخوان عملوا لإقامة نظام مستوحى من التنزيل وحسْب، ينظّم جميع وجوه الحياة الإنسانية والإجتماعيّة. وقد نشأت من ذلك حرب ضدّ السيطرة الأجنبيّة وضدّ أي تحوير أصاب المؤسّسات السياسيّة أو القواعد الإجتماعيّة المطابقة لتقليد الغرب. كما نشأت أيضًا إرادة في إقامة دولة إسلاميّة تجمع جميع الشعوب الإسلاميّة واستعادة شكل من أشكال الخلافة يلائم العصر الحاليّ.

الأُخَيضِر، هو الاسم الحالي لقصر مدمَّر في الصحراء العربيّة – العراقيّة، غربيّ كربلاء، تثير هندسته البدائيّة والغنيّة بالعناصر الدفاعية تساؤلات ما تزال بدون جواب.

يتألّف هذا القصر – ذو التسمية الحاليّة الغامضة المصدر، التي لا ترشدنا الى ما كان يمكن أن يُدعى في العصر الوسيط – من سور مزدوج محصَّن مستطيل ضخم القياسات، أُعدّ داخله لحاجات سكنيّة تشبه ما في قصور

الحكّام. إنّ تاريخ ونسبة هذا البناء المهيب - غير المصحوب بأي أرض مزروعة، والذي كانت أهميّته الإستراتيجيّة فعّالة في عصره كما يبدو - ما يزالان غير واضحين، رغم فرضيّات بعض علماء الآثار. ولئن اتّجه بعض الباحثين إلى تخمين بنائه في مطلع العصر العبّاسي، فما من برهان حاسم على ذلك، وثمّة اليوم ترجيح لتحديد تاريخ بنائه خلال القرن العاشر الميلادي.

الإدارة الإسلاميّة القروسطيّة، عبارة تعني النظام المعقّد والبيروقراطي جدًّا الذي اعتمدته، حتى الزمان المعاصر، حكومات أهمّ الدول الإسلاميّة، سائرة في هذا المجال وفاق تقليد تأسّس في الأمبراطوريّة الخلافيّة التي نشأت غبّ الفتوحات الكبرى.

هذا النظام الذي كان يقوم على دواوين كثيرة موزّعة على أجهزة مركزيّة تعمل حول الخليفة وإدارات تابعة لحكّام الأقاليم، أُنشئ لتكييف الموروث الإداريّ السالف مع ضرورات النظام الجديد، في مجال مسائل الضرائب، كما في أعمال الدواوين وتقاليد الدبلوماسيّة. وقد اضطلع بنقل هذه الإرث جهاز مؤلّف في أكثره من كتّاب محليّين توارثوا ثقافات قديمة جدًّا ونقلوا ما عرف بالأدب.

إحتفظت الإدارة التي قام عليها التنظيم الداخلي للأمبراطوريات الإسلاميّة في القرون الأولى، وكذلك تنظيمُ الإمارات التي نشأت من تفكّكها، بهيمنتها في داخل العالم الإسلامي حتى العصر الحاضر. في الوقت نفسه، تعرّضت هذه الإدارة التي استمرّت في أيدي طبقة متخصّصة في مسك السجّلات وتدبير المكاتب المختلفة، عبر العصور، إلى تحوّلات اقتضتها التغيّرات المحليّة والخصوصيّات المتعلّقة بكل دولة. وقد برزت، بوجه خاص، آثار أسلمة الكتّاب المعتمدين التي استمرّت في تصاعد مع مرور الزمان، إذ غالبًا ما كانوا يُختارون، بدءًا بالقرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، من بين رجال الدين الذين تلقّوا في المدارس تعليمًا إسلاميًّا تقليديًّا يتناقض مع التنشئة الدنيويّة لأسلافهم. إنّ النماذج التي كانت قائمة منذ إنشاء الإدارات الإسلاميّة الأولى لم تُصب تحوُّلًا، ولكنّها استمرّت تشكو من الجمود في أدائها ومن التخمة في عدد موظفيها حتى بروز التصدّع وإرهاصات التحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين.

الأدارسة، ١٧٢-٣٦٣هـ/ ٧٨٩-٩٧٤م، سلالة متحدّرة من ذريّة علويّة حسنيّة، سيطرت على غربي بلاد المغرب، حوالى قرنين من الزمن، في القرون الوسطى.

هذه السلالة الشيعيّة المنتسبة إلى مؤسّسها إدريس الأوّل، أقامت حكماً مستقلًّا عن الخلافة العبّاسية، لكن بدون أن تبدي أيّ حماسة للدعوة الشيعيّة. اكتفى أميراها الأوّلان بأن تُقِرَّ بهما إمامين جماعاتُ بربر زناتة الذين استقبلوهما وأنصارهما من العرب، مرافقي إدريس عند فراره. والأزمات المتتابعة التي نشأت لاحقاً لم تكن سوى نتيجة خلافات داخليّة على اقتسام المملكة بين أبناء إدريس الثاني. وقد استطاع ورثة ابنه البكر، محمد المنتصر، صاحب الأفضليّة والمقيم في فاس، أن يوفّروا للدولة وضعاً مستقرًّا، وحالة من الازدهار تجلّت بتشييد مسجدين جامعَين في العاصمة، سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م؛ لكنّ انقساماً جديداً حصل سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م أدّى إلى فقدان عائلته سطوتها. وتعرّض الأدارسة لاحقاً لمخاطر جديدة. فابتداءً من سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م، اضطرّوا إلى الاعتراف بسيادة الفاطميّين، وذلك قبل أن يجدوا أنفسهم، خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بين الفاطميّين وأمويّي قرطبة: فكانوا يطلبون حماية فئة ضدّ الأخرى، فيما كانوا هم أنفسهم منقسمين إلى فروع عدّة غامضة المنشأ، وقد أقام بعض أعضائها في مدينة سبتة. وكان الحسن بن القاسم آخر الأفراد المعروفين من هذه السلالة، وقد استسلم للأمويّين سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م، ثمّ لجأ إلى مصر، وقتل سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، بعد قيامه بمحاولة فاشلة لاستعادة السلطة. وبعد بضع عشرات من السنين، قام بعض المتحدّرين من هذه العائلة الذين مكثوا في الأندلس، في مدينة مالقة، بإنشاء إمارة بني حمّود، على عهد ملوك الطوائف.

إدريس الأول	١٧٢-١٧٧هـ/ ٧٨٩-٧٩٣م
إدريس الثاني	١٧٧-٢١٣هـ/ ٧٩٣-٨٢٨م
محمد المنتصر	٢١٣-٢٢١هـ/ ٨٢٨-٨٣٦م
علي الأوّل	٢٢١-٢٣٤هـ/ ٨٣٦-٨٤٩م

يحيى الأوّل بن محمد ٢٣٤-٢٤٩هـ/٨٤٩ ٨٦٣م.

◄ راجع المسند رقم ١١.

أدَب، لفظ يعني، حرفيًا، «التهذيب، علم الأدب»، وهو تعبير يحمل في الأصل مفهومًا غير ديني، ومع ذلك لاقى رواجًا كبيرًا في المجتمع الإسلاميّ الوسيط.

شملت هذه اللفظة، الأدب، في معناها الشامل الكتابات القمينة بتنشئة نموذج للإنسان المميّز من أهل الحواضر، الذي عرف بالأديب، والذي انماز بحسن تصرُّفه، وبيانه الأنيق، وصفاته الإجتماعية، مع اندراجه، في الوقت نفسه، في سياق مثل أعلى مبطَّن بالمفهوم الإسلامي. من هنا أُطلقت التسمية، بشكل عام، على الأدب العربيّ المنثور الذي يُقصد منه التسلية والاقتداء بمكارم الأخلاق وتثقيف الشخص الذي كان يُحمد، أيّامئذٍ، لمسلكه الاجتماعيّ ومراعاته آداب السلوك.

واقع الأمر أنّ هذه الكلمة، في مفهومها المتقادِم، كانت تنطبق على شكل من أشكال ما عُرف بالسُّنَّة، أي المعيار العملي للسلوك وللعادة الجامعةِ معنيَي الإطراء والتحذُّر من الأسلاف. إنطلاقًا من هذا المفهوم، ووفاق الرهافة المتزايدة للأخلاق والعادات البدويّة، والاحتكاك بالثقافات الأجنبيّة، تطوَّرت اللفظة، عبر التاريخ الإسلامي، لتحتضن مفاهيم متنوّعة أكثر خصوصيّةً، أُضيفت إلى المعنى الواسع المذكور.

ثُمّ إنّ الأدب، في تحرُّره من مفهومي الكياسة وحتى الألسنة الإجتماعية الآنَفي الذكر، غدا يعني، على سبيل المثال، المعرفة الموسوعيّة التي كان ينبغي للمتعلّم أن يحوزها، وهذا أمر مرادف للثقافة. كما كان يمكن أن ينطبق على المصنّفات التعليميّة التي كانت تصف المعلومات الضروريّة لتنشئة أصناف من الأفراد يُعَدُّون لتسلُّم وظائف إجتماعيّة مثل الكُتّاب والقضاة. كذلك كان يعني المؤلّفات ذات المنحى الأخلاقيّ والنفسيّ، أي النوع الأدبيّ الذي برَّز فيه الجاحظ. وأخيرًا، كان يَسِمُ باسمه المؤلّفات ذات الطابع التعليميّ والترفيهيّ التي كثيرًا ما تناثرت خلالها الطُّرَف، والتي شكّلت أحد الجوانب المميّزة للأدب العربيّ في العصور الوسطى في ديار الإسلام، مفسحةً في المجال، في الوقت نفسه، لإيراد أخبار تاريخيّة، أو روايات الرحلات، أو لحكايات يتفاوت نصيبها من الخوارق، كما للتمرُّس ببراعة الكتابة الأدبيّة.

أدْرنه (الجمهوريّة التركيّة)، وهي مدينة في تراقيا، تقع على الحدود البلغاريّة. إنّها فقدت أهميّتها القديمة، لكن صروحها تذكّر بالزمن الذي كانت فيه عاصمة العثمانيّين من ١٤٠٢ حتى ١٤٥٣، ولاحقاً حيث أصبحت محوراً إستراتيجيّاً للطرق المؤدّية إلى الرُّوملّيّ ومركزاً موقّتاً لبعض السلاطين.

استولى السلطان مراد الأول، في سنة ١٣٦٢، على المدينة البيزنطيّة التي استعارت اسمها من الإمبراطور أدريان (Hadrien)، فأصبحت نقطة انطلاق الحملات التركيّة ضد مدينة القسطنطينيّة والبلقان، بعد أن كانت حامية لهما. كما أقام فيها سلاطين القرن الخامس عشر بعد اجتياح تيمورلنك الذي نهب، في سنة ١٤٠٢، مدينة بورصة التي كانت في هذا الوقت مركزهم. لكنّها خسرت هذا الدور في سنة ١٤٥٣، باختيار محمّد الثاني الفاتح مدينة اسطنبول/ القسطنطينيّة مقرّاً له، ولم يعد السلاطين يمكثون فيها إلّا في المناسبات، رغم أنّ إقامتهم فيها ظلّت تتميّز بالبذخ. لكنّهم استمرّوا في استعمالها قاعدة انطلاق لجيوش الأمبراطوريّة المحاربة في أوروبا، وتابعوا بناء الصروح الفخمة فيها.

وهكذا نجد القصر الأوّل الذي بناه مراد الأول والذي سمّي في ما بعد بالقصر القديم، قد استُبدل به آخرُ أمبراطوري، بناه مراد الثاني عام ١٤٥٠ على جزيرة وسط النهر، أعيد تكبيره وتزيينه في القرن السادس عشر والسابع عشر، كما أعيد بناء المساجد الصغيرة وتكبيرها، وكانت قد بنيت بعد الفتح في مواضع الكنائس. وهكذا تحوّلت إلى عمارات واسعة، على سبيل المثال، المسجد الملقب «بالقديم» أو إسكي جامع (Eski Cami) المبنيّ بين ١٤٠٢ و١٤١٣، وأوتْشِرفلي جامع (Uçserefeli Cami) أو الجامع ذي المئذنة التي بها ثلاث شرفات، والذي شيّده مراد الثاني وانتهى العمل فيه عام ١٤٤٨. أمّا المجموعة المعماريّة المميّزة التي ما تزال قائمة على الضفة الأخرى من النهر، والتي تتضمّن مسجداً وحمامات ومستشفى ومدرسة ومطابخ وأبنية أخرى مخصّصة للخدمات،

فيعود تشييدها إلى بايزيد الثاني في نهاية القرن الخامس عشر. كما أنشأ المعماري سنان، للسلطان سليم الثاني، السُّليميّة حوالى عام ١٥٧٠، وهي محاطة بعدد لا بأس به من الأبنية المهمّة، وهي تعتبر تُحفة فنيّة لبراعة إنجاز قبّتها.

واستمرّت أدرنة مدينة مزدهرة ومركزاً ثقافيًّا ودينيًّا ناشطاً حتّى نهاية القرن السادس عشر، أي طوال استمرار الحملات العثمانيّة الناجحة على أراضي أوروبا الوسطى، ثمّ ضعفت قدرتها بسرعة إبتداء من القرن الثامن عشر، بسبب تدهور قدرات الأمبراطوريّة في الرّوملّي (Roumélie)، كما التهمت النيران أحياء عدّة منها في سنة ١٧٤٥. وقد ساهم الاحتلال الروسي لها بين ١٨٢٨-١٨٢٩ و١٩١٢-١٩١٣ في تدنّي نسبة سكّانها. وجاءت الحروب البلقانيّة بين ١٩١٢ و١٩١٣ لتقضي نهائيًّا على دورها الرائد، على الرغم من أنّ القوّات العثمانيّة دافعت عنها بشراسة. وهكذا بقيت المدينة تابعة للجمهوريّة التركيّة، لكنّها عانت، على الصعيد الإقتصادي، قدَرَها الجديد الذي حتّم عليها أن تتحوّل إلى مركز إداري ريفيّ يدور في فلك مركز آخر.

◄ راجع المستندات ٢٦، ٢٧ و٨٠.

إدريس، إسم دُعي به، في القرون الوسطى، الأميران الأوّلان العلويّان لإمارة شيعيّة مستقلّة، أسّساها في المغرب الأقصى، خارجَ سلطة الخلفاء العبّاسيّين، واستمرّت بعدهما في أيدي سلالتهما، أي الأدارسة.

إدريس الأوّل أو إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ، المدعوّ أيضاً إدريس الأكبر ؟-١٧٥هـ/ ؟-٧٩١م، هو ابن حفيد الحسن، وعُدَّ لاحقاً سيّد المغرب وحاميه. كان قد نجا من مذبحة الفخّ، قرب مكّة، سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م، التي قتل فيها الحسين بن علي بن الحسن بن علي، وهو ابن عم أبيه. هرب إدريس إلى مصر، مع عبدٍ معتَق اسمه رشيد، واجتاز تلك البلاد بفضل حيل متنوّعة، حتى بلغ المغرب واستقرّ في وليلة، المدينة المعروفة في التاريخ القديم باسم فولوبيليس.

بعد أن لقي، لدى بربر زناتة، أتباعاً اعترفوا به إماماً، سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٩م، أسّس إدريس مدينة فاس على الضفة اليمنى لوادي فاس، وخاض معارك أتاحت له إنشاء مملكة صغيرة. وبعد وفاته في وليلة، دفن خارج المدينة، في موقع الضريح الذي ما يزال مكرّماً إلى اليوم، ودعيَت المنطقة «مولاي إدريس» نسبةً إليه.

إدريس الثاني أو إدريس الأصغر، ١٧٥-٢١٣هـ/ ٧٩١-٨٢٨م، هو ابن السابق، ومولود بعد موته، كان المنظّم الحقيقي لمملكته، بعد أن قبل الزناتيون اعتباره وريثاً لأبيه. وكانت الوصاية عليه قد أمّنها المعتق رشيد الذي قُتل سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م، على أثر ثورة دبّرها وحرّض عليها ابراهيم بن الأغلب الذي كان حاكماً على إفريقية. أعلنه الوصي الجديد إماماً سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م، وكان هذا الأمير الصغير قد بلغ الحادية عشرة من عمره، فعقد صلحاً مع ابن الأغلب. وفي سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م، استقبل مجموعة من العرب الوافدين من إفريقية، ربّما من القيروان، وأنشأوا بذلك سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م «حيّ القيروانيّين»، الذي استمرّ اسمه مرتبطاً بجامع القرويّين الكبير. وكانت منطقة فاس قد استقبلت بدورها، سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٨م، لاجئين من الأندلس. وإدريس الثاني الذي شنّ حملات عدّة على قبائل البربر ليدعّم سلطته على المنطقة، توفّي في حادث سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، تاركاً اثني عشر ولداً.

◄ راجع المستند رقم ٥.

إدريس، نبيّ ورد ذكره في القرآن، لكنّ الشرّاح اختلفوا في تحديد شخصيّته.

غالباً ما اعتُبر إدريس أنّه أنوخ المذكور في التوراة، وأحياناً عُدَّ واحداً من الهرامسة، هؤلاء الحكماء الهلينستيّين الذين حملوا اسم إله يوناني، وكانوا حفظة كل أنواع المعرفة، بحسب الآراء الغنوصيّة التي لاقت حظوة لدى بعض الأوساط الإسلامية في القرون الوسطى. لقي إدريس أيضًا تكريماً من ممثّلي التصوّف الذين جعلوه «نبيّ» أتباع الفلسفة. وكانت تُنسب إليه حكم وابتكارات من كل نوع.

أمّا المؤلّفون السنّة فقد اكتفت غالبيّتهم بتحديده زمنيًّا بين آدم ونوح، ويؤكّدون أنّه، بعد أن تلقّى الوحي، دخل الجنّة حيًّا ولم يخرج منها. وثمّة أحاديث تؤكّد أنّ النبيّ محمّداً (ﷺ) التقاه في صعوده الليليّ، أي المعراج. وتجدر الإشارة إلى أنّ ثمّة معابد متّصلة بذكراه

شكّلت محجّات «الزيارات تقويّة» عند ازدهار حركة «تكريم الأولياء»، ذكرها الهروي في «دليله»، بين مزارات للأولياء الذين كانوا يكرّمون في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

إدريس (محمد المهدي السنوسي) ١٨٩٠-١٩٨٣م، رئيس الطريقة السنوسية الذي أصبح، من ١٩٥١ إلى ١٩٦٩، ملك ليبيا المؤلّفة حينذاك من الاتّحاد الليبي الفدرالي، قبل أن تحوّلها الثورة إلى جمهوريّة عرفت باسم الجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الإشتراكيّة.

محمد إدريس، حفيد محمد المهدي، أصبح بعد وفاة أحمد الشريف، المسؤول عن هذا التنظيم الصوفي، الذي انتظم في حركة سياسيّة-دينيّة حاربت الإيطاليّين، سنة ١٩١٢. أمسك بزمام السلطة في برقة كما في طرابلس الغرب، لكنّه اضطرّ للهرب إلى مصر سنة ١٩٢٢. مال إلى جانب الحلفاء سنة ١٩٤٠، وانضمّ إلى قوّاتهم التي احتلّت البلاد سنة ١٩٤٣م. وعندما أقرّت الأمم المتّحدة وحدة البلاد الليبيّة، سنة ١٩٥٠، وأعلنت استقلالها سنة ١٩٥١، انتخب ملكاً للاتّحاد الليبي، واختيرت مدينة بنغازي عاصمةً المملكة.

وبفضل الثراء الجديد العائد الى إنتاج البترول والغاز، أطلقت حكومته خطّة واسعة لتحديث البلاد، ولا سيّما في مجال الأشغال العامة والتعليم، فأنشئت مراكز جامعيّة في طرابلس وبنغازي. وجامعة للعلوم الدينيّة في البيضاء. لكنّ التدابير التي اتّخذها الملك، إبتداء من سنة ١٩٦٤، ضدّ التدخّلات الغربيّة، والقواعد العسكريّة، والامتيازات البترولية، لم تحُل دون حصول انقلاب سنة ١٩٦٩ على أيدي مجموعة قوميّة من الضبّاط الشبّان، منهم العقيد القذّافي، رئيس الجماهيريّة الشعبيّة الحاليّة.

الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد، ٤٩٣-٥٦٠هـ/ ١١٠٠-١١٦٥م، جغرافي عربي مسلم شهير، عاش وكتب في بلاط الملك النورماني روجار الصّقلّي.

لا نعرف إلا القليل عن حياة هذا المثقّف الذي دعاه بعض المؤلّفين الشريف أو الشريف الإدريسي، بسبب نُبل أصله العلويّ. ولد في سبتة، ويبدو أنّه تلقّى دراسته في قرطبة، وتجوّل في الأندلس والمغرب، قبل أن يستقرّ، لسبب غير معروف، لدى الأمير المسيحي الذي حماه وشجّعه. ولهذا الأمير ألّف كتابه في الجغرافيا الوصفية المعدّ لشرح خارطة للأرض من الفضّة، صنعها بنفسه. إنّ كتابه المعروف بـ«كتاب روجار»، يقسم العالم المأهول سبعة أقاليم، تتوافق مع مناطق محدّدة بخطوط الطول، وفقاً لمفهوم موروث عن القدماء. أنهى الإدريسي كتابه سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م. ومع أنّه ليس جديداً كل الجدّة، ففضله في أنّه يمتاز بأمرين: تدوين المعلومات المعروفة في عصره، والتوسّع لتناول مناطق خارجة عن نطاق البلاد الإسلاميّة، كان سابقوه من الجغرافيّين قد أغفلوها، عن عمد.

الإدريسيّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة، أو تنظيم نطلق عليه أحياناً تسمية **الأحمديّة**، أسّسه في القرن التاسع عشر أحمد بن إدريس. هذا الصوفيّ المغربيّ الأصل، ولد قرب مدينة فاس سنة ١١٧٤هـ/١٧٦٠م، وأقام في القاهرة سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، ثمّ في مكّة سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م، وتوفّي سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م، في عسير حيث تعاظمت سلطته. اتّجه تعليمه نحو إحياء الإسلام استناداً إلى ممارسات صوفيّة معتدلة ترفض التأويل الباطني، وتركّز على الإخلاص لشخص نبيّ الإسلام. إنّ الجماعة التي نظّمها الإدريسي، في منطقة كانت حتى ذلك الوقت عرضة لتنافس فوضوي بين القبائل العربيّة، كانت شبيهة بدولة حقيقيّة دينيّة وعسكريّة، اتّخذت من صَبْيا (عسير) مركزًا لها. وفي أواخر حياته مارس تأثيراً قويًّا ومستمرًّا على مؤسّس الطريقة السنوسيّة، لاحقاً، وكان قد جاء إلى الحجاز لتجويد ثقافته الدينيّة.

استمرّ المتحدّرون من سلالة أحمد بن إدريس في القيام بدور في عسير، إلى أن قُتِلَ أحدهم، سنة ١٩٢٣، إثر معاهدة تفاوض عليها السنوسي أحمد الشريف، الإذعان لسلطة آل سعود الذين كانوا، منذ مدّة، يحاولون ضمّ تلك المنطقة إليهم. كما أنّ تنظيم الإدريسيّة انتشر في الحبشة، وبشكل أوسع على الساحل الشرقي لأفريقيا السوداء حيث ما زال يحتفظ بأتباع: فقد نشأت عنه في الصومال الصالحية/الرشيديّة.

أدماوا، منطقة من آفريقيا السوداء الغربيّة دخلت في الإسلام، تقع في أطراف ما يعرف حاليًا بجمهوريّة نيجيريا الفدراليّة، ما يزال اسمها مستمرًّا في إحدى الولايات الشماليّة لهذه الدولة، إلّا أنّه كان يغطّي سابقًا أرضًا أكثر اتّساعًا.

وافقت شهرتُها اتّساع إمارة الفُلبة الإسلاميّة التي قام ازدهارها على تجارة الرقيق. أسّس هذه الدولة في القرن التاسع عشر المدعوّ مُوديبّو أداما، في إطار أمبراطوريّة سوكوتو التي أوجدها جهادُ عثمان دان فوديو. فما أن كلّفه هذا بمهمّةٍ حربيّة عام ١٨٠٦ حتى انصرف موديبّو بسرعة إلى توسيع فتوحاته باسم الإسلام. وكان يؤدّي الجزية لسوكوتو التي تعاقب على حكمها أعقاب عثمان، معترفًا بسيادتها. وقد أسّس أُسرةً مالكة لأحقابٍ طويلة في العاصمة، يُولا، التي أسّسها، عام ١٨٤١، على ضفّتي نهر بِنُوِي، وفيها توفّي عام ١٨٤٨.

إديسّا ← الرّها.

أديغ (منطقة) ← أديغيّون (جمهوريّة الأديغيّين الفدراليّة).

ألأديغيّون (جمهوريّة الأديغيّين الفدراليّة)، المساحة: ٧٦٠٠ كلم٢، العاصمة: مايكوب، إقليم قديم مستقلّ لم يزل جزءًا من الاتّحاد الروسي. عدد سكانه المتمايزين من حيث العرق واللغة قد يصل إلى ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة، بينهم أقليّة مسلمة تتجاوز العشرين بالمائة.

عام ١٩٢٢، أقام الحكم السوفياتي في هذه المنطقة الواقعة في الشمال الغربي من القفقاس، في حوض كوبان، منطقة مستقلّة للأديغيّين-الشركس، ضمّت فئة الشركس الغربيّين المسلمين الذين لم يهاجروا إلى الأمبراطوريّة العثمانيّة في ١٨٦٤-١٨٦٥، عقب احتلال الروس مجموعة الأراضي التي كانت تنتشر فيها هذه القبائل. ثم بُدّل الإسم في ما بعد، عام ١٩٢٨، إلى «منطقة الأديغيّين المستقلّة»، ولم تصبح الدولة الصغيرة جمهوريّة فدراليّة إلّا حديثًا، عام ١٩٩١.

أذان، تعبير عربيّ يعني النداء الذي يطلقه، قبيل ميقات كلٍّ من الصلوات [الخمس] الطقسيّة، الشخص الموكولة إليه هذه المهمّة والمعروف بالعربيّة بالمؤذّن، وهي كلمة مشتقة من الجذر نفسه الذي اشتقّت منه كلمة أذان والتي جُعلت في الفرنسية (muezzen).

يتضمّن هذا النداء جملًا طقسيّة مستوحاة من نصّ الشهادة في هذا الشكل:

«الله أكبر (أربع مرات). أشهد أن لا إله إلّا الله (مرتان). أشهد انّ محمدًا رسول الله (مرتان). حيّ على الصلاة (مرتان). حيّ على الفلاح (مرتان). الله أكبر (مرتان). لا إله إلّا الله (مرة واحدة)».

عند صلاة الصباح، تُضاف جملة مرتين في المرتبة السادسة، هي: «ألصلاة خيرٌ من النوم». ويضيف الشيعة على كل نداء «حيّ على خير العمل»، وهي جملة اعتُبرت تلاوتها باستمرار إشارة إلى سيطرتهم على بلدٍ ما وهيَ تشكّل ردّة فعلٍ على سياسة الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين، عمر بن الخطّاب، الذي قدّم الجهاد على جميع الفرائض الشرعيّة على أنه حربُ فتح. أخيرًا، يسبق إقامةَ صلاة الجمعة في المسجد الكبير نداءٌ ثانٍ يحتوي الجمل نفسها ويُسمّى إقامة، في حين يكون النداء إلى الصلوات الطقسيّة التي تقام خصّيصًا في مناسبة العيدين الشرعيّين أو في مناسبة كسوف أو في ظرف آخر هكذا: «حيّ على صلاة الجماعة».

يفيد التقليد أنّ نبيّ الإسلام (ﷺ) هو الذي طلب من الحبشيّ بلال أن يطلق النداء إلى الصلاة من مكان مرتفع. بعد ذلك، لكن في فترة متأخّرة، اعتُمدت لهذه الغاية أبراج سمّيت بالفرنسية منارات (minarets) [مآذن]، بينما استمرّ في بعض المناطق التقليد الذي عُمل به في عصر النبي محمّد (ﷺ).

وفي حين يتنوّع النداء إلى الصلاة، بشكل عام، فإنّ بعض العلماء المتشدّدين، وبخاصة الحنبليّين، عارضوا ذلك. لكلّ مؤذّن نغم خاص يعتمده في النداء، جريًا على عادة لا تخضع لقاعدة: غير أنّ المندوب إليه، في مدينة ما، هو أن تتوالى النداءات من دون أن تتداخل.

أذربيجان، مقاطعة داخل العالم الإسلامي، كان لها دورها البارز خلال القرون الوسطى، سكنها الأتراك ابتداءً من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، وهي تمتدّ باتجاه الشمال حتى قمم القفقاس. تنقسم أذربيجان اليوم بين جمهوريّة إيران الإسلاميّة وجمهوريّة

أذربيجان الحاليّة، ويشكّل نهر أراكس (أراس) الحدود الفاصلة بين البلدين.

١ - بمحاذاة الساحل الغربي لبحر قزوين، وعلى حدود أرمينيا القديمة، ضمّت أذربيجان في العصور الوسطى مجموعة من سلاسل جبال وأحواض عالية خصبة ذات اتجاهات مختلفة، منها ما ينحدر نحو بحيرة أرمية الداخليّة. عرفت هذه المنطقة تاريخًا مضطربًا في القرون الوسطى، تميّز أوّلًا بإلحاقها بالعالم الإسلامي خلال الفتوحات الكبرى. والواقع أنّه، بين سنتي ١٨ و٢٣هـ/ ٦٣٩ و٦٤٣م، خضع سكان تلك المقاطعة للعرب المسلمين الفاتحين، فاكتفى الفاتحون بفرض الجزية عليهم وأبقوهم على إيمانهم الزرادشتي، وخصوصًا على ايمانهم المسيحي العائد الى قربهم من أرمينيا، ومنحوهم وضعيّة أهل الذمّة. وقد امتازت منطقة أرّان التي كانت تُعرف في القرون الوسطى باسم ألبانيا، بكونها حافظت على استقلالها الداخلي، شأنها شأن امارتي موغان وشيروان الساحليّتين. وعلى الرغم من الصراع الداخليّ المعقّد، فقد اعترفت هذه الامارات بوصاية الخلافة العباسيّة في عهدها الذهبي، وسكّت نقدها باللغة العربيّة ودفعت به الجزية.

ولم تبدأ عملية الأسلمة الكاملة إلّا في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وذلك بعد تعرّض المقاطعة لغزو قبائل الغزّ التركيّة وظهور الإمارات التركمانيّة التي نتجت عن توسّع السلاجقة باتجاه الأناضول. وقد قوي هذا التوسّع لاحقًا مع هجمات المغول وتيمورلنك، وهذا ما أدّى إلى تتريك إثنيّ ولغويّ وصل إلى أقصى مداه مع ازدهار لغة وأدب بلهجة تركيّة محليّة هي اللهجة الأذريّة، وذلك في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. هذه اللهجة التي تتميّز بجملة خصائص صوتيّة وصرفيّة أصبحت هي اللغة المتداولة في مناطق تسكنها غالبيّة مسلمة والتي تمتدّ من داغستان أو جيورجيا، وصولًا إلى المناطق التي يتكلّم سكانها التركيّة في خراسان وآسيا الوسطى.

تاريخيًّا، إنّ البدو الذين يعودون بأصلهم الى السهب الأسيويّة جذبتهم، في القرون الوسطى، مراعي أذربيجان الطبيعيّة، كما جذبهم الازدهار المتنامي الذي عرفته هذه المقاطعة بفضل النشاط التجاري القائم على حركة القوافل التي كانت تعبرها، إنطلاقًا من إيران باتّجاه البحر الأسود والبحر المتوسّط. وهذا ما جعل الإيلخانيّين يستقرّون في أذربيجان ويحوّلون مدنها بالتتالي إلى عواصم لهم، مثل تبريز ومراغة وسلطانية، كما برزت فيها مملكتان قويتان هما مملكة القراقيونلو ومملكة الآق قويونلو. وفي أذربيجان أخيرًا وُلدت المملكة الصفوية في مطلع القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، وبسطت سيطرتها على مجمل الهضبة الإيرانيّة، وراحت بعد ذلك تعمل للدفاع عن أذربيجان، المهد الأوّل لسلطتها، في وجه المدّ العثماني، ولكنّها لم تنجح إلّا نسبيًّا. ولم تكف الحروب عن تسبّب الضعف والخراب لعدد من المدن التي كانت عامرة زمنًا طويلًا، ومنها مدن أُرمية ومراغة وتبريز وأَرْدبيل وخُوي.

هذه المقاطعة التي شهدت المواجهات الحربيّة المتواصلة بين الأتراك، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، شهدت أيضًا، في القرن التاسع عشر، تدخّل الروس الذين غزوا مناطق القوقاز الجنوبيّة ووصلوا الى نهر أراكس في العام ١٨٢٨، وراحوا بعد ذلك يستغلّون الفرص لتعميق توغّلهم نحو الجنوب. أمّا الحدود الحاليّة بين إيران وتركيا فلم تُرسم إلّا في سنة ١٩١٤. وتصدّيًا لأهداف الروس التوسّعيّة ولرغباتهم الاستعماريّة، احتفظت إيران بالقسم الأكبر من البلاد، ولم تؤخذ المشاعر الوطنية المتزايدة في الاعتبار. وقد اتُّخذ القرار الأوّل بهذا الشأن سنة ١٩٢١، عندما سيطر مؤسّس السلالة البهلويّة رضا شاه على الوضع. واتُّخذ القرار الثاني سنة ١٩٤٦، عندما احتلّت القوّات السوفياتيّة أذربيجان في الحرب العالميّة الثانية، ولكنّها اضطرّت إلى إخلائها بفعل الضغوط الدوليّة. وحدها نجت من الإحتلال الإيراني منطقة تركيّة اللغة، تقع خارج المقاطعة القديمة، تكوّنت تدريجيًّا من منطقتي أرّان وشروان، وتحوّلت بعد سنة ١٩٢٠، وعلى أثر احتلال باكو من قبل الأتراك، ثمّ من قبل الحلفاء، إلى جمهوريّة أذربيجان الاشتراكيّة السوفياتيّة، وشكّلت بذلك واحدة من الجمهوريات السوفياتيّة الثلاث في ما وراء القفقاس.

٢- **جمهوريّة أذربيجان الحاليّة**: مساحتها ٦٠٠ ٨٦ كلم² وعاصمتها باكو، وكانت قبل استقلالها التام سنة ١٩٩١ جمهوريّة اشتراكيّة سوڤياتيّة. وهي تعدّ حوالى سبعة ملايين نسمة، تبلغ نسبة المسلمين بينهم أكثر من ثمانين بالمئة.

والمساحة التي تحدّدت سنة ١٩٢٠ جنوبي شرق القفقاس لتشكّل دولة قُبلت، سنة ١٩٣٦، ضمن الجمهوريّات الفدراليّة للاتّحاد السوڤياتي، لا تزال اليوم على حالها، تحدّها جمهوريّة داغستان المستقلّة ذاتيًا في الشمال، وجمهورية جيورجيا المستقلة في الشمال الغربي، وأرمينيا في الغرب. وتأتي أرمينيا لتفصل أذربيجان عن طوق أذربيجاني كان يعرف في عهد الاتحاد السوڤياتي بجمهوريّة ناكينشيڤان الإشتراكيّة السوڤياتيّة شبه المستقلّة. وفي داخل أذربيجان يقع إقليم «ناغورنو كاراباخ» شبه المستقلّ، وفيه يشكّل المسلمون أقلية وتصل نسبتهم إلى نحو ثلاثين بالمئة. فجمهوريّة أذربيجان الحاليّة لا تشمل إذًا إلّا المناطق الشماليّة لأذربيجان القديمة التي تحوّلت في معظمها إلى مقاطعة داخل الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة.

لقد اتّخذ الأتراك اللغة ذريعة من أجل رسم الحدود لأوّل مرّة، على أثر تدخّلهم واحتلال باكو سنة ١٩١٨ من قبل نوري باشا. ثمّ جاء النظام السوڤياتي الذي ثبّت اسم أذربيجان للجمهوريّة القفقاسيّة الجديدة التي جُعلت باكو عاصمة لها. ثمّ إنّ عدم التجانس العرقي والديني الذي كان من أسباب عدم الاستقرار الداخلي، ما يزال اليوم قائمًا، وهو الذي يكمن وراء الصراع بين أرمينيا وأذربيجان حول إقليم «ناغُورنو كاراباخ».

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ٢٠ و٢٣.

أذْرُح، موقع في شبه جزيرة العرب، مهدّم في الوقت الحاضر، اعتبره الكتّاب العرب في القرون الوسطى عاصمة الشَّراة/أدوم أو بلاد مُؤاب القديمة.

اشتهرت أذرح - الواقعة بين معان والبتراء، على تخوم الحجاز وسوريا وعلى الطريق الذي يربط ساحل البحر المتوسّط بشبه جزيرة العرب - في مطلع تاريخ الإسلام، بالتحكيم الذي وُسم باسمها والذي جرى فيها بين مندوبي عليّ ومعاوية، في الفترة التي بلغ فيها الخلاف أشدّه بين الإثنين.

إنّ غموض المصادر الكتابيّة المتعلّقة بتطورات معركة صِفّين يتكرّر بالنسبة إلى التحكيم الذي كان ينبغي أن يجري في منتصف الطريق، ما بين العراق وسوريا، حين تقرّر إيقاف القتال، إلّا أنّه جرى من دون شك على مرحلتين، إحداهما في دومة الجَنْدَل، في العام ٣٧ هـ/٦٥٨م، والثانية، بعد مرور عام، في أذرح. وفي كلتا الحالتين، كان من أمر فطنة عمرو بن العاص، المدافع عن مصالح حاكم ولاية سوريا، أن ساعدت في إضعاف موقع علي، الخليفة المنتخب شرعيًّا، بإصراره على تواطؤ عليّ مع القتلة المسؤولين عن مصرع سلفه وابن عمّ معاوية، أي الخليفة عثمان بن عفّان.

لقد غدا موقع أذرح، الذي كان معسكرًا رومانيًّا على معين ماء مهمّ، منزلًا للقوافل استُخدم في حياة النبي محمّد (ﷺ) وخضع بموجب عهد أمان للإسلام منذ غزوة تبوك عام ١٠هـ/٦٣١م. ولم يعتّم أن فقد أهميّته التجاريّة والإستراتيجيّة. كما أنّه عاد إلى الذكر في مناسبة لقاء حصل بين معاوية والحسن، في مرحلة اعتزال هذا الأخير السياسة، حتى إذا انقضى عهد الأمويّين، توقّف عن الاضطلاع بأيّ دور في التوازن الاقتصاديّ الجديد للأمبراطوريّة.

الأراضي (تشريع أو نظام-)، هو عنصر مهمّ في النظام الإجتماعي - الإقتصادي الذي ساد في كل الدول الإسلاميّة خلال العصور الوسطى. كما كان، خلال تلك المرحلة، في أساس النظام الضريبي المعقّد الذي كانت تحدّده جزئيًّا أحكام الشرع. كانت تُقرّر وضع الأراضي بوجه عام عقودُ الصلح التي أُبرمت إبّان الفتوحات الكبرى، خلال القرن الأول الهجري، والتي كان ينتج عنها، تبعًا لكل حالة من الحالات، جباية ضرائب مختلفة. وقد ميّز فقهاء وذلك العصر وعلماؤه في البدء بين حالتين: من جهة أولى الأراضي الخاضعة لضريبة العشر المنبثقة من الضريبة الشرعيّة أي الزكاة، أكانت هذه الأراضي يملكها مسلمون في الجزيرة العربيّة، أو كانت أعطيت لهم موقّتًا، في مناطق أخرى، عن طريق الإقطاع؛ ومن جهة ثانية، الأراضي المفتتحة التي ظلّت في أيدي أصحابها غير المسلمين في الأساس، والذين

اعتنقوا الإسلام في ما بعد، وهي أراضٍ كانت خاضعة لضريبة الأرض أي الخراج، التي كانت تساوي تقريبًا الضريبة التي كانت تجبى قبل الإسلام.

لم يوزّع الخليفة الراشدي الثاني، عمر بن الخطاب، الأراضي المفتتحة على المجاهدين، بل قرّر جعلها مُلك الأمّة الإسلاميّة، بمعنى أنّه ترك استغلالها بيد أصحابها على أن يدفعوا عنها إيجارها الذي اتّخذ صفة الضريبة. لم يقبل جميع الفقهاء بقرار عمر، واعتبر بعضهم حتى في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، أنّ ضريبة الخراج غير شرعيّة، وكذلك الموارد الناتجة عنها. وكان الغزالي المشهور أبرز من قال بذلك. وبالمقابل اعتبر فقهاء المذهب الحنفي أنّ هذه الأراضي، بعد زوال شاغليها الأوائل، أصبحت قانونًا على ما هي عليه، أي أملاكًا خاصة تشرى وتباع وتورث.

كانت الأراضي الخراجيّة وأراضي العِشر المعروفة بأراضي الملك، في عهد الخلفاء العباسيّين، تدارُ بواسطة دواوين الخلافة. وأمّا الأملاك التي مُنحت موقّتًا لعدد من الأشخاص من حاشية الخلفاء أو قادة الجيوش، فقد أُضيفت إليها أملاك الدولة التي كانت تشكّل مورد دخل للخليفة. ويجب التمييز بين أراضي الوقف، من جهة، التي لا يجوز التصرّف بها، وتخصّص عائداتها لبعض المؤسّسات الخيريّة، ومن جهة ثانية، الأراضي الموات أي غير المزروعة (البور) التي كان يسمح لمن يريد استملاكها وتحسينها أن يدفع عنها ضريبة مخفّضة. وبوجه عام، لم يكن الوضع القانوني للأراضي، في تلك الفترة، مرتبطًا بديانة شاغلي الأرض. يعود ذلك إلى قرار قديم اتّخذه الخليفة عمر بن عبد العزيز في العهد الأموي كي لا تنخفض عائدات الدولة، فحافظ على الضريبة العقاريّة كما كانت عليه قبل تحوّل شاغل الأرض إلى الاسلام.

إنّ مختلف فئات الأراضي التي كان يتمّ تصنيفها على هذا النحو في الدواوين الماليّة المركزيّة، والتي تمّ تعدادها سابقًا، شكّلت خلفيّةً لجميع التشريعات الضرائبيّة التي شهدها العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى. لكنّ بعض التفاصيل كانت تختلف باختلاف المناطق والظروف. وهذا ما حصل في الدولة العباسيّة في نهاية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، حينما ضعفت وخضعت لسيطرة الأُمراء البويهيّين، إذ أصابت كل هذه التشريعات تعديلاتٌ، بحيث مُنحت الأراضي الخراجيّة، هذه المرّة، إقطاعًا لأمراء الجيش، شرط أن يجبوا الضريبة العقاريّة من شاغلي الأراضي ويؤدّوا إلى بيت المال ما يوازي العِشر. من وجهة النظر القانونيّة، لم تبدّل هذه الإجراءات نظم دفع الضريبة، لكن عمليًا اعتُبرت هذه الأراضي أراضي عِشر وأُخضع العاملون فيها لنظام المزارعة. وحدث الأمر عينه في عهد السلاطين السلاجقة، إذ ازدادت الأراضي المُقطعة، بسبب التحوّلات التي أصابت النظام الإقطاعي العسكري، مع قدوم قادة عسكريّين جدد طامحين إلى الحصول على امتيازات عقاريّة يدعمون بواسطتها ثرواتهم ونفوذهم الشخصي.

في هذه الفترة شهدت هضبة الأناضول، بعد اندماجها بالعالم الإسلامي واستسلامها لوصاية غزاتها الاتراك، وضعًا سياسيًّا واقتصاديًّا مرتبكًا بشكل خاص. وحده ازدياد قوّة العثمانيّين في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، سمح لهؤلاء بإعادة تنظيم حقيقي لملكيّة الأراضي، ظهرت نتائجه أولًا في الأناضول، ومن ثمّ في البلقان. في القرن السادس عشر كانت معظم الأراضي، وبالتحديد حوالى ٩٠٪ منها، مصنّفة من فئة أراضي الدولة أي أميريّة، ويشغلها الرعايا من فلاحين مسلمين أو مسيحيّين، ممّن كانوا يتمتّعون بحقّ استعمالها وبحقّ توريث هذا النوع من الانتفاع؛ وكان على المزارع دفع ضريبة عقاريّة تساوي العشر. لكن عمليًّا، منحت الدولة قسمًا كبيرًا من هذه الأراضي، عن طريق نظام التيمار، العسكريّين الذين عُرفوا بأصحاب التيمارات، وخوّلتهم حقّ جباية الضرائب على أن يفوا بالتزاماتهم العسكريّة تجاه الدولة. وإلى جانب املاك الدولة العقاريّة، كانت توجد بعض الأملاك الخاصّة المعروفة بأراضي الملك، وأخرى تعرف بالوقف. واتّجه هذان النوعان نحو الازدياد، لكنّ السلاطين العثمانيّين، بما لهم من سلطات قانونيّة، أوقفوا تكرارًا هذه الحركة، وأمّنوا مراقبة الدولة على كامل أراضيها تقريبًا.

ويميل المؤرّخون الحاليّون إلى مقارنة هذا النظام

بنظيره الذي وجده الاتراك في الأمبراطوريّة البيزنطيّة إثر الفتوحات. في حين جهد علماء المذهب الحنفي، في تلك الفترة، في ربط مختلف مظاهره، على رغم بعض الصعوبات، بالتشريع التقليدي الذي كان قد شرّعه خلفاء الفترة الإسلامية الكلاسيكيّة وفقهاؤها. ومن الثابت، في مطلق الأحوال، أنّ الأراضي في المشرق الإسلامي - سواء في تلك المرحلة أو في العصور التي سبقتها - والتي أعطيت عائدانها الضرائبيّة لشخص أو لآخر، لا نربطها أية علاقة باقطاعات الغرب المسيحي التي نقارنها أحيانًا بها بطريقة إعتباطية. فلم يكن لمتسلّميها المسلمين لا سلطة قضائيّة، ولا القدرة لتغيير الأساس الضريبي الذي كانت تحدّده الدواوين المركزيّة في الدولة. وكانت الأراضي التي ينعمون بها تُعْطى لهم دائمًا بشكل موقّت. ومن الثابت أنّه، في بعض الأقاليم وفي بعض الحقبات، ولا سيّما في سوريا خلال العصر الصليبي، حين سيطر أسياد الحرب والملوك الصغار المحليّون، على أثر ظهور العصابات التركيّة، حصل التباس بين امتياز بسيط وبين مهمات حاكم مدينة وملحقاتها، بحيث أُطلقت كلمة إقطاع على الحالتين معًا. لكنّ حالة الأمر الواقع هذه، القابلة للتبدّل، لم تظهر أبدًا في عهود كان فيها الحكم المركزي قويًّا، كما في عهدي المماليك والعثمانيّين، ولم تسفر، بسبب قلّة الحالات الفعليّة، إلّا عن نتائج ثانويّة.

أراغون، مقاطعة حاليّة في إسبانيا، لا تزال تحافظ على معالم تشير إلى الدور الذي أدّته، خلال ما يُقارب قرونًا خمسة، كثغر متقدّم في الأندلس. وقد تركّزت جهود مملكة أراغون الإسبانية، من أجل بسط سلطتها على وادي نهر إبْرو والسلاسل الجبليّة الساحليّة المجاورة، على دعم سلالات إسلاميّة حاكمة صغيرة وقفت، في مرحلة مبكرة، في وجه السلطة الأمويّة في قرطبة. وترافقت تلك الجهود مع سياسة التسامح تجاه السكان الذين أُخضعوا تدريجيًّا لمملكة أراغون، عن طريق معاهدات الاستسلام. وهذا ما يُفسّر الدور الذي أدّاه المدجَّنون والموريسكيّون الذين أسهموا في الازدهار الاقتصادي وفي الحفاظ على فنّ محلّي مستوحى من الفنون الإسلاميّة السابقة، ولا سيّما تلك التي شهدتها مدينة سرقسطة إبّان حُكم بني هود.

أرّان، اسم أُطلق في العصور الإسلاميّة الأولى على مقاطعة تقع في منطقة ما وراء القوقاز، شمالي نهر أراس وبجوار رافده نهر كورا، وقد اعتنقت الإسلام في وقت متأخّر.

واسم أرّان الذي اشتقّه العرب من اسم قديم للمقاطعة بقي مستعملًا خلال الخلافة العباسيّة. وكانت المقاطعة قد احتُلَّت في عهد الفتوحات الكبرى التي جرت في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، ووُضِع لها نظام شبه مستقلّ في ظلّ أمراء محلّيين ظلّوا على مسيحيّتهم مقابل دفع الجزية للمسلمين. وقد تعرّضت مجمل أراضي أرّان الحدوديّة والمتداخلة مع أرمينيا لغزوات متنوّعة، منها غزوات الخزر. والمعروف أنّ الجغرافيّين العرب كانوا يتردّدون، في العصور الإسلاميّة القديمة، في إدراج أرّان ضمن حدود الخلافة، مع إشارتهم إلى الغنى الزراعي حول عاصمتها، وهي قلعة بَرْذاعة المشهورة التي لا تزال خرائبها معروفة حتى اليوم قرب محلّة «بَرْدا».

في أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، وسّع السلاجقة سلطتهم باتّجاه الأناضول، فكان التتريك الأوّل لأرّان مع قدوم قبائل «الغُزّ» واستقرارهم فيها. وازدادت هذه الظاهرة بعد ذلك مع ازدهار مملكة الإيلخانيّين في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وعزّزتها غزوات تيمورلنك اللّاحقة. وقد بلغ الأمر حدًّا أصبحت فيه أرّان مقاطعة مسلمة يغلب عليها اللسان التركي، ولم يعد ممكنًا تمييزها عن أذربيجان، فاختلط تاريخها بها. وهذا ما يفسّر إتّحاد أرّان مع مقاطعة شيروان القديمة والمجاورة، ما أدّى إلى تكوين جمهوريّة أذربيجان الاشتراكيّة السوفياتيّة التي أصبحت جمهوريّة مستقلّة سنة ١٩٩١.

◄ راجع المستندين ١٣ و٢٣.

الأرتقيّون، ٤٩٥-٨١١هـ/١١٠٢-١٤٠٨م، سلالة تركيّة حاكمة، أقامها سلاجقة إيران الكبار في أعالي بلاد ما بين النهرين، فكانت لها فروع حاكمة في أماكن متعدّدة، وعرفت قدرًا متفاوتًا من النجاح.

وكان أرتوق، جدّ الأسرة، قائدًا عسكريًّا يعمل في خدمة السلطان ملكشاه؛ وشارك مع قادة آخرين من التركمان في غزو سوريا وأطراف الأناضول لحساب سيّده، ومات في فلسطين سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م. وقد حوّل أفراد أسرته الكثيرو العدد، وأوّلهم أبناؤه - ومن بين هؤلاء سقمان والغازي - طموحاتهم باتّجاه أعالي دجلة والفرات بعد سقوط القدس بأيدي الفاطميّين، ثمّ بأيدي الحملة الصليبيّة الأولى عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. وكانوا قد استولوا من قبل على محلّة ماردين، وبعدها على حصن كيفا. وبعد موت سُقمان، أكمل الغازي سياسة قامت على الحروب من جهة، وعلى المفاوضات من جهة ثانية، وأدّت إلى توسيع ممتلكات الأسرة لتشمل مدينة ميّافارقين (تُعرف اليوم باسم سِلفان) ولتشمل موقّتًا مدينة حلب، قبل وفاة الغازي سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م. وقد استطاع ابن أخيه «بَلَك» أن يحقّق مزيدًا من النجاح، فانطلق من خربوت وملطية باتّجاه شمال سوريا. لكن نجاحه زال سريعًا، إذ هلك سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م في أثناء حصار منبج.

ثم تشعّب من الأسرة فرعان، أحدهما من سلالة الغازي في ماردين وميّافارقين، والآخر من سلالة سُقمان في حصن كيفا، ثمّ في خربوت وآمد، ديار بكر اليوم. واستمرّ الفرعان قائمين، بشكلٍ موازن، حتّى بعد اصطدامهما بالقوّة الصاعدة لنور الدين زنكي، وخضوعهما من ثمّ لسلطة صلاح الدين الأيوبيّ سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م. واستطاع فرع ماردين وحده النجاة من الصراع الذي احتدم، بعد سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م، بين الأيوبيّين وسلاجقة الروم والخوارزمشاهيّين، والذي قضى على سلطة الفرع الآخر، ولم يستطع أن يستمرّ إلّا بقبوله حماية المغول سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ولكنّه زال في القرن التاسع للهجرة/مطلع القرن الخامس عشر للميلاد بفعل ضربات القره قويونلو.

ويبدو أنّ الأرتقيّين اتّبعوا سياسة تسامح نسبيّ، فأقاموا علاقة جيّدة مع أتباعهم المسيحيّين، وساندوا السُنّة فأقاموا لهم المدارس، وتحاشوا الصدام بالنزاريّين (الحشّاشين). وقد تركوا، في أماكن سلطتهم المختلفة، أبنية مميّزة ما يزال الكثير منها قائمًا حتّى اليوم، وهي تعبّر عن هندسة محلّية تتّصف بشيء من الطرافة. كما امتازوا بأشكال النقود التي حملت رسومهم والتي قلّدوا بها النقود البيزنطيّة القديمة.

١ - أرتقيّو حصن كيفا وآميدا

معين الدين سقمان الأول	٤٩١-٤٩٩هـ/١٠٩٨-١١٠٥م
ابراهيم	٤٩٩-٥٠٣هـ/١١٠٥-١١٠٩م
ركن الدولة داود	٥٠٣-٥٣٩هـ/١١٠٩-١١٤٤م
فخر الدين قره أرسلان	٥٣٩-٥٦٣هـ/١١٤٤-١١٦٧م
نور الدين محمد	٥٦٣-٥٨١هـ/١١٦٧-١١٨٥م
قطب الدين سقمان الثاني	٥٨١-٥٩٨هـ/١١٨٥-١٢٠١م
نصير الدين محمود	٥٩٨-٦١٩هـ/١٢٠١-١٢٢٢م
ركن الدين مودود	٦١٩-٦٣٠هـ/١٢٢٢-١٢٣٢م
الملك المسعود	٦٣٠-٦٣٢هـ/١٢٣٢-١٢٣٤م

٢ - أرتقيّو ماردين وميّافارقين

نجم الدين الغازي الأوّل	٤٩٧-٥١٦هـ/١١٠٤-١١٢٢م
حسام الدين تمرتاش	٥١٦-٥٤٧هـ/١١٢٢-١١٥٢م
نجم الدين ألبي	٥٤٧-٥٧٢هـ/١١٥٢-١١٧٦م
قطب الدين الغازي الثاني	٥٧٢-٥٨٠هـ/١١٧٦-١١٨٤م
حسام الدين يولوك أرسلان	٥٨٠-٥٩٧هـ/١١٨٤-١٢٠١م
نصير الدين أرتوك أرسلان	٥٩٧-٦٣٦هـ/١٢٠١-١٢٣٩م
نجم الدين غازي الأول	٦٣٦-٦٥٨هـ/١٢٣٩-١٢٦٠م
قره أرسلان المظفر	٦٥٨-٦٦١هـ/١٢٦٠-١٢٩٢م
شمس الدين داود	٦٩١-٦٩٣هـ/١٢٩٢-١٢٩٤م
نجم الدين غازي الثاني	٦٩٣-٧١٢هـ/١٢٩٤-١٣١٢م
عماد الدين علي ألبي	٧١٢هـ/١٣١٢م
شمس الدين صالح	٧١٢-٧٦٥هـ/١٣١٢-١٣٦٤م
أحمد المنصور	٧٦٥-٧٦٩هـ/١٣٦٤-١٣٦٨م
محمود الصالح	٧٦٩هـ/١٣٦٨م
داود المظفر	٧٦٩-٧٧٨هـ/١٣٦٨-١٣٧٦م
مجد الدين عيسى الظاهر	٧٧٨-٨٠٩هـ/١٣٧٦-١٤٠٦م
الصالح	٨٠٩-٨١١هـ/١٤٠٦-١٤٠٨م

◄ راجع المستندين ١٧ و٢.

الأرتَنيّون، ٧٢٧-٧٨٢هـ/١٣٢٦-١٣٨٠م، سلالة من أصل تركي أويغوري، ورثت السلطة على الأناضول الأوسط من سلاجقة الروم والإيلخانيّين لفترة قصيرة في عصر الإمارات. وقد نجح مؤسّسها الحاذق غياث الدين إرتْنا الذي كان ضابطاً في الدولة المغوليّة في إيران،

ومن ثمّ عُيّن حاكماً في الأناضول، في انتزاع استقلاله في القسم الصالح للسكن من هذه الهضبة والإستراتيجي في آن. فحكم من عاصمتيه سيواس وقيصريّة منطقة واسعة تمتدّ من نيجده إلى سَمْسون، ومن أنقرة إلى أرزنكان. بعد موت غياث الدين أرتنا في سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، لم يدعم سلطة العائلة المالكة إلّا القاضي بُرهان الدين الذي تصدّى للثورات الداخليّة والهجمات الخارجية قبل أن يُنصّب نفسه سلطاناً في٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م. وبين المباني التي خلّفها الأرتنيّون نجد الضرائح المهمّة، منها منارة جودوك (Güduk Minare) في سيواس وسيرجَلي كُمبد (Sircali Kümbed) في قيصريّة وعمارات أكثر أهميّة، مثلاً مدرسة الكُشْك في قيصريّة أو مسجد سُنْقُربك (Sunqur Beg) في نيجده. وتختلف هذه المباني عن مباني السلجوقيّين بخصائص وفّرتها الأساليب الجديدة في فن العمارة.

الإرث في الإسلام، قضيّة مرتبطة بالأحوال الشخصيّة عند المسلمين ومتعلّقة ثانيًا بالفقه.

نصّ القرآن على نظم للتركات بشكل دقيق، إلّا أنّ تطبيق معطياته أدّى إلى نشوء علم خاص يحتّم الرجوع إلى مفاهيم رياضية في غاية الدقة من حيث توزيع الحصص أو الفرائض، تختلف باختلاف المدارس الفقهيّة.

إن التدابير القرآنية التي غيّرت، إلى درجة يصعب تحديدها بدقّة، النظام الإرثي الذي كان قائمًا في جزيرة العرب قبل الاسلام، أورثت لا الأقرباء الذكور وحسب، أي الأقرباء ذوي الصلة بالمتوفّى من جهة القرابة الذكوريّة، بل أورثت أيضًا النساء وأقاربهن. في الوقت نفسه، هدفت التدابير إلى حفظ حقوق بعض الورثة، آخذة في الاعتبار أنّ المرأة لا يمكنها أن ترث أكثر من نصف ما يرثه الرجل. إن خيار اتّخاذ تدابير خاصة في الوصية لم تُلغَ، إلّا أنّه حصر في ثلث التركة.

يدعو الشرع إذًا إلى تسديد الديون المحتملة المترتّبة على المتوفّى قبل الانتقال إلى توزيع الإرث؛ وثمّ تُوزّع الحصص الموصى بها، والتي لا يمكنها أن تتجاوز ثلث ما تبقى من الثروة؛ ثمّ توزّع الفرائض المتبقيّة من التركة على بعض الأنسباء، الأزواج والزوجات، الوالدة، البنات والأخوات - شرط ألّا يتنافس هؤلاء الورثة مع الأبناء أو سائر الأقارب الذكور، إذ، في مثل هذه الحال، يُقصَوْن أو ينالون فرائض زهيدة؛ وأخيرًا إلى أن يخصّص ما تبقى إلى الأقرب من نسل الأب، أي بالترتيب التالي: إلى الابن، الى الأب، إلى الأخوة. في حال عدم توافر وريث من نسل الأب، في إمكان الأقارب من نسل الأم أن يرثوا، وفقًا لرأي المدرسة الحنبليّة، وإلّا عادت الثروة إلى الخزينة أي إلى الدولة. إنّ النظام الذي تكلّمنا عنه يجد قاعدته وأصوله في الآيات القرآنيّة التالية:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (سورة النساء، الآيات ١١ - ١٤).

إلّا أنّ التدابير القرآنية التي حدّدتها وشرحتها مقالات الفقهاء وقراراتهم بدا تنفيذها معقّدًا، بخاصة عندما يكون مجموع الحصص الفرضيّة من التركة يفوق مجملها. في مثل هذه الحال، كان يُلجأ إلى تخفيض كل حصّة بشكل مناسب لبلوغ حلول بنسب مختلفة. ويمكن ذكر بعض الأمثلة على ذلك: فعندما يكون الورثة هم الزوجة وابن، تكون حصة كل واحد ١/٨ و٧/٨ من

لميراث؛ وان كان الورثة الزوجة والابن والابنة، فتصبح حصصهم كالتالي: ١/٨، ٧/١٢، ٧/٢٤؛ وان كانوا لزوج وابنين وابنتين، فحصصهم كالتالي: ١/٤ للزوج لكل من الابنين، ١/٨ لكل من الابنتين.

إن تنظيم القرآن الكريم للإرث الذي اعتُمد منذ داية الاسلام، لم يكن بدون نتائج على الصعيد لاجتماعي، إذ إنّ تدابير هذا التنظيم التي تناسب أوساط مربّي الماشية والتجّار عندما يتعلّق الأمر بتوزيع دواب أو موال نقديّة، تبدو صعبة التطبيق عندما يتعلّق الإرث الأملاك والأراضي.

إنّ هذه التدابير تقود، إلّا في حالات استثنائيّة، إلى جزئة الإرث، وهذا يحول دون الحفاظ على الثروات لشخصيّة الضخمة، وبخاصة إن كانت ممتلكات، وقد عمل البعض على صونها عن طريق الوقف. من جهة خرى، يفرد النظام مكانًا لابن الابن الذي لم يكن في عداد الورثة سابقًا. إلّا أنّه يحرم من الميراث ابناء البنت، يرفض أن يخصّص البنت، إن كانت الوريثة الوحيدة، أكثر من نصف الثروة، كما هو منصوص عليه في الآية ١١ من سورة النساء. لكن الشيعة يرفضون تطبيق هذه لقاعدة ويدافعون عن المبدإ القائل إن فاطمة بنت النبي ﷺ) نقلت الى ابنيها الحقّ في السلطة السياسية التي مارسها والدها، وكذلك اليها وحدها يعود الحقّ في متلاك واحة فَدَك التي طالبت بها بدون جدوى.

في أيامنا، أجرت بعض الدول شيئًا من التعديلات على قواعد الإرث الإسلامي. فتركيا اعتمدت قانونًا وروبيًّا، في حين أنّ تونس والعراق اعتمدا أنّ البنت لوحيدة لها الحق في الارث بكامله ولا يقاسمها أياه أحد من الورثة الآخرين وإن كانوا ذكورًا. إلّا أنّ هذه لتعديلات تبقى محصورة وتتعلّق أحيانًا بتفاصيل دون لمسّ بالجوهر، في حين أنّ التشريع بكامله يبقى خاضعًا لتقليد الديني.

أردبيل (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة تقاسمت لتفوّق في المرتبة، في القرون الوسطى، مع مراغة تبريز داخل مقاطعة أذربيجان، وكانت مهد الأسرة لصفويّة. وكانت أردبيل، بموقعها في واحة جبليّة مرتفعة، قد دخلت عالم الإسلام مع الفتوحات الكبرى.

واستمرّت عاصمة إقليميّة مزدهرة في العصر العبّاسي، على الرغم ممّا عانته بسبب ثورة بابك في بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. ثمّ تنازعتها الأسر المحلّية، إلى أن ضمّها المغول سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، فلم تعد بعد ذلك قادرة على منافسة تبريز تجاريًّا، وقد وقعت هي أيضًا في أيدي التركمان، وأصبحت، في القرن السابع للهجرة/أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، مركز الطريقة الصوفيّة الصفويّة، التي أسّسها الشيخ صفيّ الدين (المتوفى سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م). والمعروف أنّ أحد أعقابه أصبح سيّد المقاطعة سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م، ثمّ بسط ملكه على إيران بكاملها.

أصبحت المدينة بعد ذلك، خارج طرق القوافل الكبيرة، وتحوّلت المناطق الزراعيّة المجاورة إلى مراع للبدو. تاليًا لم يتوقّف تراجعها، برغم الاعتبار الذي يحظى به ضريح صفيّ الدين، الذي هو عبارة عن بناء ضخم مزيّن بالخزف البرّاق، وهو ما يزال قائمًا حتّى اليوم، برغم الهبات السخيّة التي خصّ بها الصفويّون هذا الضريح، ولا سيّما على عهد الشاه عبّاس الأوّل. وقد احتلّ العثمانيون المدينة غير مرّة، كما استعادها نادر شاه في منتصف القرن الثامن عشر للميلاد، وبقيت من ثمّ في قلب المملكة الإيرانيّة. وأردبيل اليوم تدخل في نطاق الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة غير بعيدة من الحدود التي تفصلها عن جمهوريّة أذربيجان.

◄ راجع المستند ٢٤.

أردستان (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، محلّة في مقاطعة الجبال، على الأطراف الغربيّة للصحراء الوسطى، كانت من المواقع المحصّنة في العصور الإسلاميّة الأولى، وهي تُعتبر اليوم مجرّد قرية.

اشتُهرت أردستان بمسجدها الجامع ذي القيمة الرفيعة الذي تمّ بناء هيكليّته الرئيسة في أواخر عهد أسرة السلاجقة الكبار، وذلك في حدود سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م. وهو بناء نموذجي من أربع إيوانات مع صحن ذي قبّة في الوسط، ويُعدّ اذًا مسجدًا إيرانيًّا سلجوقيًّا. والى الشمال الشرقي من أردستان تقع بلدة «زوارة» التي تحتفظ هي أيضًا بمسجد جامع من العهد السلجوقي.

الأردن، منطقة قائمة على جهتيْ وادي نهر الأردن؛ وقد شكّلت بعد الفتوحات العربيّة الإسلاميّة الكبرى، في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، «مقاطعة عسكرية» أو جندًا من أجناد سوريا في العهد الأموي.

١ - هذه المنطقة المجاورة لبلاد مؤاب القديمة، والتي كانت تُعرف بفلسطين الثانية في عهد الامبراطوريّتين الرومانيّة والبيزنطيّة، أدّت دوراً كبيراً في بداية الإسلام.

احتلّتها باكراً، ومنذ عام ١٣هـ/ ٦٣٤م، الجيوش الإسلاميّة، وهيَ تقع شمالي المنطقة المسماة فلسطين، وكانت تضمّ في ذلك العصر الجليليْن ومنخفض النهر عند أسفل بحيرة طبريّة، وجزءًا من الهضبة المحيطة بها من جهة الصحراء. أمّا مدنها الأساسيّة فكانت طبريّة وعكا وصور وجرش وعمّان. لكنّ أراضيها التي تتكوّن من مزارع كبيرة تعود الى العصور القديمة، وقعت في أيدي العرب بعد الفتوحات الأولى. وما تزال هذه المنطقة تحتفظ إلى الآن بآثار عديدة في وادي نهر الأردن وهضبة البلقاء، تشهد على مدى الرعاية التي أولاها إياها الخلفاء الأمويّون وأفراد عائلاتهم وزعماء القبائل القادمة من الجزيرة العربيّة. لقد اهتمّ هؤلاء، في الواقع، بتشييد منازل لهم في وسط أملاكهم الجديدة، كما بنوا قصوراً فخمة، مثل خربة المفجر أو المُشتّى.

لكنّ أماكن السكن والاستيطان هذه، التي تعود أهميّتها الإستراتيجيّة إلى الطرقات التي تربطها بشبه الجزيرة، ما لبثت أن أُهملت لأنّ أبناء المقاتلين الذين كانوا قد أقاموا فيها استُبعدوا عن مهماتهم العسكريّة في ظلّ الدولة العبّاسيّة. ولم تعد تُعرف منطقة الأردن إلّا كمنطقة إداريّة يذكرها الجغرافيّون مجرّدة من أيّة أهميّة سياسيّة أو اقتصاديّة. بعد بضعة قرون، احتلّ فرنج مملكة القدس بعضاً من الأردن، ثم قسّمه المماليك إلى مناطق منفصلة. ومنذ ذلك الحين سقط اسم الأردن من التداول، حتى أُعيد استعماله مجدداً في العصر الحالي مع تأسيس المملكة الأردنيّة الهاشميّة عام ١٩٤٩. إنّ سهوبه التي تعرّضت للإفقار على أيدي البدو وسائر الجماعات الرُحَّل، شهدت، من جديد، نموّ بعض الأراضي المزروعة، وظهر غناها باكتشاف مواقع أثريّة تعود إلى العهد الأموي.

٢ - **المملكة الأردنيّة الهاشميّة الحاليّة**، مساحتـ ٩٧٧٤٠ كلم٢، عاصمتها عمّان. هي دولة مستقلّة أصبحت مملكة عام ١٩٤٩، ويبلغ عدد سكانها حوالـ أربعة ملايين نسمة، غالبيتهم الساحقة من المسلمـ (٩٠٪).

ليس للمملكة الأردنيّة الهاشميّة سوى منفذ واـ على البحر هو ميناء العقبة على الخليج الذي يحمـ الاسم نفسه، شمالي البحر الأحمر، ما جعلها مطوّ بدولة اسرائيل وأراضي الحكم الذاتي الفلسطينيّة فـ الغرب، والجمهوريّة العربيّة السوريّة من الشّما والمملكة العربيّة السعوديّة من الجنوب الشرقيّ، كـ أنّ لها حدوداً بريّة ضيّقة مشتركة مع الجمهوريّة العراقـ من جهة الصحراء. يعود هذا الوضع، جزئيًّا، إلى عـ ١٩٢١، وترسيم الحدود التي اعطيت لإمارة شرقـ الأردن على أثر تجزئة السلطنة العثمانيّة. بعد ذلك بقليـ (عام ١٩٢٥)، حصل الأمير عبدالله، أمير هذه الدو الجديدة الموضوعة تحت الانتداب البريطاني، علـ إمكان التصرّف بمنطقتي معان والعقبة، وهما المنطقتا الوحيدتان اللتان استطاعت أسرة الشريف حسـ الاحتفاظ بهما، وأن يكون له منفذ على البحر، لبث هذا المنفذ أن وُسّع إثر اتفاقيّة وُقّعت مع المملـ العربيّة السعودية عام ١٩٦٥. في أثناء ذلك، سمـ تقسيم فلسطين الّذي حصل بقرار الأمم المتّحدة عـ ١٩٤٧، ونشوب الحرب بين اسرائيل والدول العربيّة للأردن أن يضمّ اليه، في كانون الثاني ١٩٤٩، الضـ الغربيّة والجزء العربي الإسلامي من القدس. وأصبـ عبدالله، الذي سبق أن أعلن نفسه ملكًا بعد فوز بلاد بالاستقلال عام ١٩٤٦، ملكاً على الأردن. لكنّه اغتيل عام ١٩٥١، في المسجد الأقصى، فانتقلت السلطة إلـ حفيده الحسين الذي اختير، بعد فترة حكم قصيـ لوالده طلال، ملكاً في آب ١٩٥٢، وهو في السابـ عشرة من عمره.

كان على الملك حسين أن يواجه وضعاً صعباً ناجـ عن القضيّة الفلسطينيّة والمعارضة التقدميّة ونفوذ جما عبدالناصر. وفيما توصّل، بعد فشل الوحدة بين مصـ

سوريا، إلى اتفاق مع السعوديّة، جاءت حرب ١٩٦٧ بين العرب واسرائيل لتُفقده الضفّة الغربيّة التي احتلّتها اسرائيل منذ ذلك التاريخ. تقدّم الملك حسين بمشروع إقامة مملكة متّحدة تضمّ أراضي الضفّة الغربيّة، وهو مشروع لم تقبل به اسرائيل ولا الدول العربيّة (١٩٧٢). لا كاد يمضي وقت قصير على سقوط مشروع المملكة المتّحدة، حتّى وجد الملك حسين نفسه في مواجهة مقاومة فلسطينيّة داخل المملكة، نجح في القضاء عليها عام ١٩٧٠. استمرّت قضيّة الضفّة الغربيّة عالقة، بعد أن تخلّى عنها الملك حسين عام ١٩٨٨، لكنّ المفاوضات حول وضعها، وكانت قد لحظتها اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨، أدّت إلى اتفاق واشنطن في أيلول ١٩٩٣. في عام ١٩٩٤ عقدت المملكة الأردنيّة إتفاق سلام مع اسرائيل.

حكم الملك حسين استنادًا الى دستور يعود إلى عام ١٩٥١، منحه سلطات واسعة: سلطة تنفيذيّة وسلطة تشريعية، تقاسمها مع البرلمان، كما تمتّع بالهالة التي تمتّع بها شرفاء الأسرة الهاشميّة المتحدّرين من نبيّ المسلمين (ﷺ)، عن طريق أحد أحفاده، الحسن، الإبن البكر لعليّ وفاطمة.

◂ راجع المستندين ٦ و٩.

أرزنجان، (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة من مدن الأناضول الشرقيّة، ويُذكر دورها الحالي، كمركز ناحية، بأهميّتها السابقة كملتقى طرق القوافل بين سيواس وأرضروم. إنّ هذه العاصمة التي أُقيمت لدولة صغيرة، هي دولة المنكوجكيّين، بعد معركة ملازكرت/مانتزيكرت عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، لمصلحة قائد سلجوقي ظافر، كانت تشغل منطقة خصبة ذات مناخ لطيف في جوار منطقة أرضروم القاسية. بعدئذ، سقطت في أيدي سلاجقة الروم عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م، وتحمّلت، بشكل مباشر، صدمة الغزوات المغوليّة الأولى في العام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م التي سحقت في جوارها جيش كَيْخسرو الثاني، في معركة كُوسيداغ. ثمّ خضعت لسلطة الإيلخانيّين، قبل أن تتعاقب على ضمّها، باسم حكم الإمارات، سلالات مثل الأرتنيّين القراقويونلو والآق قويونلو. إلّا أن ضمّها إلى أمبراطوريّة العثمانيّين في عهد سليم الأوّل عام ١٥١٤، عقب المعركة الظافرة في جالديران ضد الصفويين، وضع حدًّا لتاريخها المتقلّب الذي لم يخلّف لنا أيّ أثر في مجال فن العمارة. إنّ زلازل عديدة، كان آخرها في عام ١٩٣٩، دمّرت مباني كانت، ربّما، تنافس تلك التي قامت في ديفريجي، إحدى ممتلكات المنكوجكيّين الأخرى. ولم تُبقِ إلاّ على شواهد قبور على شكل كبش تُنسب إلى تقاليد التركمان الذين استمرّوا يعيشون حياة البدو في هذه المنطقة.

◂ راجع المستندين ٢١ و٢٤.

أرضروم، (الجمهورية التركيّة)، وهي تشتقّ من العربيّة (أرض الروم)، احدى مدن الأناضول الشرقيّة الأساسيّة التي تحكّمت بعلاقاته مع إيران، وما تزال تشكّل حتّى يومنا هذا مركزاً تجاريًّا واستراتيجيًّا يقوى ويضعف بحسب الظروف. رغم قساوة الأحوال الطبيعيّة العائدة إلى ارتفاع هذه المنطقة الجبليّة الواقعة في بيئة سهبيّة ذات مناخ قاس، وعلى ملتقى طرق القوافل، فإنّ عدد سكّانها استمرّ في الازدياد منذ زمن بعيد، وقد أصبحت عرضة للمطامع وللغزوات عديدة. هكذا تحوّلت هذه المدينة من مدينة كارين الأرمنيّة إلى مدينة قاليقلا أو قالي في نصوص القرون الوسطى العربيّة التي لم تأتِ أبداً على ذكر اسمها اليوناني ثيودوسيوبوليس (Théodosiopolis)، رغم أنّ هذا الحصن البيزنطي كان قد أُلحق بالأراضي الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى، في القرن السابع الميلادي، وبالتحديد على عهد الخليفة عثمان بن عفّان. لكن أُعيد مراراً ضمّ أرضروم إلى دول مسيحيّة، فكان أن عادت إلى الأرمن، ومن ثمّ إلى البيزنطيّين سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م الذين أحكموا السيطرة عليها لأكثر من قرن.

ثمّ كان نجاح السلاجقة في ملازكرت/مانتزيكرت الذي أطلق شرارة الغزوات التركيّة سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م فاحتُلّت المدينة وتحوّلت إلى عاصمة لأمارة السلتوقيّين، ولكنّها وقعت، في العام ٥٩٧هـ/١٢٠١م، في قبضة سلاجقة الروم. وفي نهاية القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، فرض الإيلخانيّون عليها سلطة تداعت بعد مرور قرن على قيامها، لمصلحة

أمراء من منافسيهم ينتمون إلى الأصول المغوليّة نفسها، وبخاصة لمصلحة الدولتين التركمانيّتين الكبيرتين القراقويونلو، إبتداء من ١٣٨٥م؛ والآق قويونلو، ابتداء من ١٤٦٥. وخلال عصر الإمارات هذا، عرفت المدينة ازدهاراً يشهد عليه حتى الآن عدد من الصروح المبنيّة بالحجارة والمنمّقة بزخارف محفورة، وقد جمّلت هذه الزخارف، برهافة ذوق، مجموعة من الزوايا والمدارس المعروفة، منها «منارة تشيفتي» و«الياقوتيّة»؛ وهذه الزينة الغنيّة تناقض أسلوب القلعة الثقيل والضرائح السلجوقيّة والمسجد الجامع.

إنّ استيلاء العثمانيّين على ارضروم سنة ١٥١٤م، بعد معركة جالديران التي قادها السلطان سليم الأول، أدّى إلى انتزاعها آنذاك من الصّفويّين الذين كانوا استولوا عليها سنة ١٥٠٢م، وأعاد لها أهميّتها كحصن للأمبراطوريّة، ومحطّة لا بدّ منها للأنشطة التجاريّة تربط، عن طريق إيران والأناضول، آسيا الداخليّة بموانئ البحر الأسود أو البحر المتوسط. كان لها اذًا دورٌ مزدوج: محطّة تجاريّة وموقع دفاعي. واستمرّ هذا الدور الى أن بدأت الطرق التجاريّة العالميّة تحوّل مسارها، وذلك خلال القرن التاسع عشر. في الوقت عينه، أدّت الحروب الروسيّة - التركيّة، في القرن التاسع عشر، إلى احتلال الروس هذه المدينة مرّات عدّة، واستمرّ ذلك حتى تمكّن الجنرال مصطفى كمال (أتاتورك في ما بعد)، من إعادة الهدوء إلى هذه المنطقة. إنّ أرضروم التي عُقد فيها المؤتمر الوطني التركي الأول سنة ١٩١٩، أدّت دوراً مهمًا في ولادة الجمهوريّة التركيّة الحاليّة التي جعلت منها مركزاً لجهازها العسكري الشرقي. وهكذا أُوقف انحطاط هذه المدينة الإقتصادي وعُوّض عن بُعدها وعزلتها بتمركز المصالح الإداريّة والثكنات والجامعات فيها.

◄ راجع المستند ٢٤.

أركان الدين ← الشريعة الإسلاميّة.

أُرْمية (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، تُعرف أيضًا برضائية [تُلفَظ بالفارسيّة رِزائيّة]. وهي مدينة في أذربيجان، تقع على علو شاهق في واحة مزروعة قريبة من البحيرة التي تحمل الاسم نفسه.

لم يتوافر لأُرْمية، بسبب عزلتها النسبية، دور في بداية تاريخ الإسلام، سوى أنّه توافر لها موقع محصّن على حدود الأمبراطوريّة العبّاسيّة والإمارات الأرمنيّة التي كانت خاضعة لها بشكلٍ أو بآخر. احتفظت أُرْمية من الفترة السلجوقيّة بضريح، وكذلك بسرادق مقبّب في مسجدها الجامع، زاد عليه الإيلخانيون محرابًا ذا زخرفة مميّزة مكسوًّا بالمرمر. وفي سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م حُصّنت المدينة بقلعة. وفي ما بعد صارت أُرْمية مسرح صراعات بين العثمانيّين وأسياد إيران الصفويّين والقاجاريّين، ثمّ بين العثمانيّين والروس والمسيحيّين المحليّين، ولم تُلحق نهائيًا بأمبراطوريّة البهلويّين الإيرانيّة إلّا في نهاية الحرب العالميّة الأولى.

أرمينيا، منطقة تقع بين آسيا الصغرى وجبال القفقاس في جوار جيورجيا وأذربيجان وأعالي بلاد ما بين النهرين. شكّلت، إلى زمن، جزءًا من العالم الإسلامي مع بقاء سكّانها، في أكثريّتهم، على دينهم غير الإسلامي، وقد تميّزوا بحماسة وطنيّة بقيت حيّة حتى العصر الحديث.

وهي ذات سهول عالية تتصف بقساوة المناخ محاطة بسلاسل جبليّة، وتمتدّ لتشمل أطراف الأناضول الشرقيّة حيث تتوقّف الهضبة الصحراويّة الوسطى تاركةً المكان لمناطق أكثر تعرّجًا. كانت أرمينيا، في زمن الفتوحات العربيّة الإسلاميّة الكبرى، تمرّ في حال من الفوضى السياسيّة، بسبب احتدام الصراع بين الأُسر الكبيرة في البلاد، وبسبب تعرّض البلاد للأطماع الأجنبيّة عقب حروب القرن السادس بين البيزنطيّين والساسانيّين. وقد عانى سكّان البلاد المسيحيّون، بعد انفصالهم عقائديًّا عن بيزنطية سنة ٥٠٦م، تمزّقًا داخليًا ساعد، منذ سنة ٢٤هـ/ ٦٤٥م، وعلى مدى خمسة قرون، على أن يبسط المسلمون عليهم شبه حماية، تقوى وتخفّ تبعًا للثورات وللتحالفات مع بيزنطية، لكنّها تتضمّن الاعتراف الدائم بسلطة الخلافة. مثال على ذلك أنّ النفوذ الإسلامي تراجع عند وقوع الحرب بين معاوية وعلي، وعاد ليقوى مجدّدًا مع الحكم الأموي. وفي العصر العبّاسي اندلعت ثورة كبيرة، في منتصف القرن

الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، لم يلبث أن قضى عليها الخليفة المتوكّل.

بصورة عامة كان أمراء أرمينيا وملوكها التابعون للعبّاسيّين يسيّرون شؤون مناطقهم ضمن أجواء أمنيّة وحربيّة متأرجحة، مع إرغامهم باستمرار على دفع جزية عالية للخلافة الإسلامية. إن قسمًا من الضرائب كان يُسدَّد أقمشةً فاخرة وسجادًا، وقد شكّلت هذه المواد الصناعية الرئيسة في هذه المنطقة المزدهرة آنئذٍ. لم تتوقّف نواحٍ قديمة - ضمّت أحيانًا مستوطنين عربًا - عن النموّ، بدءًا من «دبيل» التي جُعلت مقرّ الحكّام المسلمين، والتي تحوّلت في ما بعد إلى بلدة صغيرة، ومنها «أني» و«كارس» اللتان تضاءلت أهميتهما وكذلك «أرضروم» و«أرزنكان» و«بتليس» و«أخلاط» و«نخجوان». ولم يترافق الوضع المزدهر مع أيّة ظاهرة تحوّل نحوَ الإسلام، في حين أنّ بعض الأرمن العاملين في البلدان البعيدة قدموا اليها كعبيد وتقبّلوا الإسلام، ولا سيّما في مصر زمن الطولونيّين والفاطميّين، ونجحوا في الوصول إلى المراتب العالية في الادارة أو في الجيش. وهذا كان حال القائد والوزير بدر الجمالي في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد.

في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد أيضًا، تبدّلت أوضاع أرمينيا بفعل الغزوات الأسيوية وقيام دولة السلاجقة الكبار في إيران، فضُمَّت إليها المنطقة بكاملها تحت سلطة أُسرٍ تركيّة الأصل. فارتحل عدد من سكان أرمينيا المسيحيّين نحو الغرب واستقرّوا في جبال طورس حول «خربوت» و«مَلطيّة»، ثم في سهل كيليكيا وأضنة، في المنطقة التي عُرفت باسم «أرمينيا الصغرى» التي دعمها الفرنج في إمارتَي أنطاكية والرُّها. وهناك، بين القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، حكمت أسرتان وطنيّتان أرمنيّتان هما أسرة «روبينيان» وأسرة «هاتوميان»، إلى أن خضعت المنطقة مجدّدًا لسلطة المسلمين وأصبحت تابعة لسلاجقة الروم أسياد الأناضول.

خلال ذلك، أدّى وصول موجات جديدة من الغزاة التركمان إلى إحداث تغيير تدريجي في التركيبة السكّانيّة لأرمينيا الكبرى التي ازدادت فيها موجة الأسلمة في زمن سيطرة الإيلخانيّين في القرن الرابع عشر للميلاد، وعلى الأخصّ في عهد آق قويونلو في القرن الخامس عشر. وجاء أخيرًا المدّ العثماني الذي اجتاح البلاد التي كانت تتحوّل مرحليًّا إلى ساحة صراع بين العثمانيّين والصفويّين. ولم يعد الأرمن يتمتّعون بشبه استقلال إلّا في إمارة «يريفان» في منطقة ما وراء القوقاز. ثم احتلّ الروس هذه الامارة التي تحوّلت بعد ذلك إلى جمهوريّة إشتراكيّة سوفياتيّة، قبل أن تصبح عام ١٩٩١ جمهوريّة أرمينيا المستقلّة. خارج هذا الإطار الجغرافي، كان الشعب الأرمني، ومن غير أن يدخل الإسلام، يشارك في حياة أمبراطوريّة عثمانيّة ذات سلطة مركزيّة منضبطة، تحاول أن تدمج رعاياها غير المسلمين من خلال نظام الأقليات الذي عرف رسميًّا باسم نظام «المِلَّة». وبعد مرحلة هدوء نسبي حقق فيها الأرمن الإثراء عن طريق التجارة، عادت الحروب الاقليميّة لتشتعل بين الروس والفرس، والروس والأتراك في القرن التاسع عشر، ولتغدو بعدها تلك المقاطعة القديمة مقسّمة، بطريقة غير متساوية، بين سلطات أجنبيّة. وما يسترعي الإنتباه، إضافةً إلى ذلك، هو أنّ أزمات كثيرة، واضطرابات متعدّدة، واجراءات قمعيّة دمويّة، وتهجيرًا سكّانيًّا باتّجاه سوريا، طبعت تاريخ الشعب الأرمني، بدءًا من القرن التاسع عشر حتى ١٩١٥، داخل الأمبراطورية العثمانيّة المحتضرة، وفي إطار الفوضى السائدة في المنطقة. ومع الحملات التركيّة الأخيرة التي قادها أتاتورك، سنة ١٩٢٠، والحكومة الكماليّة، وُضع حدّ لمطالبات الجمهوريّة الثوريّة الأرمنيّة التي كانت حديثة النشأة. وقد تثبّتت الحدود الحاليّة وأبقت لتركيا مناطق طرابزون، وأرزنجان، وكارز، ومُوش، وبتليس، ووان. أمّا مقاطعة «باطوم» التي احتلّها الاتراك مدّة وجيزة فقد عادت إلى جمهوريّة أدجارستان الاشتراكيّة السوفياتيّة المتمتّعة بحكم ذاتي داخل جمهوريّة جورجيا الإشتراكيّة السوفياتيّة. أمّا مقاطعة «نَخْجَوان» فأصبحت جمهوريّة تتاريّة مستقلّة ثم ضُمَّت إلى جمهوريّة أذربيجان الاشتراكيّة السوفياتيّة.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ١٧، ١٨ و٢٤.

إريتريا (جمهوريّة)، المساحة ٩٣ ٦٧٩ كلم² ؛ العاصمة: أسمرا. إريتريا دولة مستقلّة منذ حزيران ١٩٩٣، للإسلام فيها حضور مهمّ بين سكّانها الذين يبلغ عددهم حوالى ثلاثة ملايين نسمة. هذه الأرض المجاورة للبحر الأحمر والواقعة في الشمال الشرقيّ لجمهوريّة إثيوبيا الحاليّة، والمتاخمة بحدودها الأخرى لجمهورية السودان، تطابق القسم الشمالي لشريط ساحلي كان أكثر اتّساعاً أطلق عليه الايطاليّون، منذ سنة ١٨٩٠، إسمًا قديمًا هوَ إريتريا. وكان النفوذ الإيطالي قد ازداد في هذه البقعة لعقدين سابقين. ووفقاً للتقاليد الإسلاميّة، استقرّ على هذه الأرض الأتباع الأوّلون لنبي الإسلام محمد (ﷺ)، إبّان حياته، بعد أن اضطروا لمغادرة مكّة. لكنّ ضغط المسلمين لم يتوقّف لاحقاً، وكانوا قد نزحوا من بلاد العرب، وخاصة من اليمن، وتمركزوا في جزر دَهْلك وحول مرفأ مَضوّع، ممّا اضطرّ السكّان المسيحيّين الاصليّين للجوء إلى القسم الجبلي الداخلي.

وقد نجحت أسلمة الأراضي الساحليّة المنخفضة في الشمال، كما في الجنوب، وشملت قبائل البجا وعفار البدويّة. أمّا العثمانيّون فبسطوا سلطتهم، منذ القرن السادس عشر، على ساحلَيْ البحر الأحمر، العربي والأفريقي، حيث تصدّوا لمحاولات البرتغاليّين، ولكنّهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تركوا الساحة لجيوش خديويّي مصر. وفي وقت لاحق برزت جهود جديدة للدعوة إلى الإسلام في مواجهة محاولات التدخل الأوروبيّة، ولا سيّما الانكليزية والإيطاليّة منها، مصدر هذه الجهود السودان، بدفع من أتباع الطريقة الختميّة، المعروفين كذلك بالميرغنيّة؛ بينما ظلّت الطريقة القادريّة تسيطر على امتداد البحر الأحمر. وتفسّر لنا هذه المواريث الدينيّة تنوّع المذاهب الفقهيّة المتلوّنة بتقاليد محلّية متعدّدة والتي ينتمي إليها مسلمون، يأخذ بعضهم بالمذهب الحنفيّ الذي حمله إليهم الأتراك، وبعضهم بالمالكي السائد في السودان النيلي، وبعضهم بالمذهب الشافعي الوافد من شبه الجزيرة العربيّة.

وفي العام ١٩٥٢، وجد هذا البلد نفسه - وهو الذي وصله الإسلام بطرق غير متجانسة، كما أنه مقسوم بالتساوي تقريباً بين المسلمين والمسيحيّين - قد ضُمَّ، في صيغة فدراليّة مع احتفاظه بالحكم الذاتي، الى الأمبراطوريّة الأثيوبيّة التي كانت قائمة أيامئذٍ.

وما عتّم أن دُمج نهائيًّا فيها، فغدا بذلك مسرحاً لحركات عصيان محليّة قاومت، بما توافر لها من وسائل، أعمال القمع المسلّحة التي لم تتوقف السلطة المركزيّة الأثيوبية عن ممارستها، سواء في عهد هيلا سيلاسي أو بعد قيام حكومات ثوريّة المنشأ، طُردت الأخيرة منها عام ١٩٩١. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه العناصر المتمرّدة القديمة هي التي أقامت في إريتريا، في نهاية المطاف، النظام الذي أتاح لها الاعتراف بها دولة مستقلّة.

أريحا (جريكو) (الأراضي الفلسطينيّة ذات الحكم الذاتي)، مدينة تقع في وادي نهر الأردن، بالغرب من البحر الميت. حلّت أريحا الحاليّة، الواقعة في منطقة معروفة بخصب مزروعاتها، محلّ قرية صغيرة بسيطة من القرون الوسطى. هذه القرية التي كانت تشغل موقع مدينة بيزنطيّة وموقع أريحا التوراتيّة الوارد ذكرها في القرآن، عانت، في القرون الوسطى، من فقدان الأمن فيها، ما منعها من الإفادة من مواردها الطبيعية العائدة الى مزروعاتها شبه الإستوائيّة، ومن صناعة السكّر فيها. أمّا الفترة الأكثر ازدهارًا في تاريخ أريحا، والتي لا تتوافر عنها معلومات كافية، فقد تكون متزامنة مع ازدهار الخلافة الأمويّة. شُيّد في جوارها حصن يستحق بجدارة، نظراً إلى زُخرف بنائه، اسم القصر، وتُعرف بقاياه الأثرية اليوم باسم «خربة المفجر». أدّى احتلال الفرنج لأريحا إلى ازدهار انتاج السكر فيها. وبعد ذلك، عرفت أريحا إنحطاطاً مستمرًّا. على مقربة من المدينة يقوم مزار النبي موسى الذي يشير إلى مكان قبر موسى، وهو مقصد لزيارات تقويّة. إنّ المدينة الحديثة التي احتلّتها اسرائيل عام ١٩٦٧ هي الآن جزء من أراضي الحكم الذاتي المعلن عام ١٩٩٣.

أَزْد (بنو -)، إسم اتّحاد قبلي قديم في الجزيرة العربية قبل الاسلام، كان فرعاه الأساسيّان يقطنان منطقة عَسير في الغرب وعُمان في الشرق. والأزديّون يمنيّون ينتمون

إلى عرب الجنوب القحطانيّين.

اعتنق الأزد الإسلام في زمن النبي محمد (ﷺ) سنة ١٠هـ/ ٦٣١، ولم تحل الردّة القصيرة التي لجأ إليها بعضهم دون اشتراكهم، بدءًا من سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، في حركة الفتوحات الكبرى. وهذا ما ساعد على انتشارهم واستقرار بعضهم في البصرة بالعراق وفي خُراسان البعيدة. وتحالُف بنو أزد مع ربيعة في كلّ هذه المناطق جعلهم في موضع الخصومة مع بني تميم في أثناء الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب؛ وإلى هذه الخصومة أُضيف الخلاف الدينيّ لاحقًا، ما أدّى إلى حروب داخليّة دمويّة في العصر الإسلامي الأوّل. وكان الأزديّون أخصام الأمويّين، فشاركوا في الجهود التي أوصلت الثورة العباسيّة إلى غايتها سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. أمّا الأزديّون الذين لم يغادروا شبه الجزيرة فقُضي على سلطتهم التقليديّة في عُمان مع وصول الخوارج الإباضيّين الذين لجأوا الى العنف والى الدسائس لإحكام قبضتهم على هذه المقاطعة المعزولة. لكنّ الأزديين صمدوا على الأيام، ومنهم برزت في القرن الثامن عشر أسرة «آل بو سعيد» التي حكمت مسْقط وزنجبار، ومنها اليوم صاحب عرش سلطنة عُمان.

إزمير (الجمهوريّة التركيّة)، هي سْميرن القديمة، مدينة مرفئيّة على ساحل بحر إيجه تحتلّ اليوم المرتبة الثالثة بين المدن التركيّة الكبيرة، بعد أن عرفت منذ القرون الوسطى دوراً استراتيجيًّا وتجاريًّا.

احتلّها المسلمون بُعَيد سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، عندما ثارت بعض الجماعات التركيّة إثر انتصارات السلاجقة في ملازكرت/ مانتزيكرت. واستعادها البيزنطيّون سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م، واحتفظوا بها حتى ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م. وفي هذه السنة سقطت في يد الأمير أيدين، مؤسّس إمارة الأيدينيّين. ومنذ ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، احتلّها الغربيّون من جديد، وأوكلوا أمرها إلى فرسان رودس الذين احتفظوا بها حتّى اجتياح تيمورلنك سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م. ضُمّت لاحقاً، سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، إلى السلطنة العثمانيّة، وشكّلت هدفاً لهجمات البنادقة الذين نهبوها سنة ١٤٧٢م، لكنّ ذلك لم يمنع أن تقوم بدور بارز خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلاد، بصفتها مركزاً تجاريًّا فاعلاً في الحياة الاقتصاديّة، غربيّ بلاد الأناضول.

لم تكن إزمير، حينذاك، مرفأ لتصدير الانتاج الجزْفي المحلّي فحسب، بل أيضاً لتصدير البضائع التي تنقلها القوافل من إيران والعراق، بل من الشرق الأقصى عبر الخليج العربي-الفارسي. لقد أفادت المدينة من التوحّل التدريجي الذي أصاب المرافئ المجاورة التي كانت مزدهرة في العصور القديمة، كأفسس وميليه، كما أفادت من كونها منفذ قسم من الحركة التجاريّة الداخليّة في السلطنة العثمانيّة. استقرّ فيها عدد من التجّار الأوروبيّين، ومن الأرمن واليهود، زيادة على السكان المحلّيّين من المسيحيّين اليونانيّين ومن المسلمين.

وفي أثناء الحرب العالميّة الأولى احتلّت اليونان المنطقة سنة ١٩١٩، لكنّ القوات التركيّة طردتها، مسيطرة على المدينة التي دخلتها في أيلول سنة ١٩٢٢، واحتفظت بها بموجب معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣. وتقرّر حينذاك إجراء تبادل سكّاني، فغادر أهالي إزمير اليونانيّون المنطقة، وحلّ محلّهم مسلمو اليونان. عندها، بدأ ازدهار اقتصادي وسكاني ذو أهميّة بالغة؛ في الوقت نفسه نمت مدينة صناعيّة زاخرة بالحياة، وقد أُضيف اليها اليوم مرفأ اصطناعي حديث ينمو على شاطئ خليج يحميه من خطر تجمّع الطمي فيه.

◄ راجع المستند رقم ٢٧.

إزنك (الجمهوريّة التركيّة)، هي نيقيا القديمة. مقاطعة تابعة اليوم لجنوب غربي بلاد الأناضول. احتفظت، في بداية عهد السيطرة العثمانيّة، ببعض مجدها القديم الذي عرفته عهدَ الامبراطوريّة البيزنطيّة.

حاصرتها الجيوش العربيّة-الإسلاميّة، زمن الفتوحات الكبرى في أوائل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، لكن من دون جدوى. ولم تخضع نيقيا إلّا سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م للقائد السلجوقي سليمان بن قُتُلْمُش، عند أوّل اجتياح تركي إثر معركة ملازكرت/ مانتزيكرت. استعادها البيزنطيّون، حلفاء الصليبيّين، سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م. وكانت غنية ومحميّة بأسوار، فحلّت

محلّ القسطنطينيّة وقامت بدور العاصمة عندما احتلّها اللاتين في الحملة الصليبيّة الرابعة بين ٦٠١ و٦٥٩هـ/ ١٢٠٤ و١٢٦١م، وسقطت مجدّداً في أيدي المسلمين سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م، عندما قام أورخان، السلطان الثاني في سلالة العثمانيّين، بدخولها بعد حصار طويل، واتّخذها مقرّاً له. وبذلك استطاعت المدينة أن تنهض من عثارها، لكن من دون أن تتّسع لتشمل كل الأراضي التي كان يحيط بها السور البيزنطي القديم. وشيّدت فيها مبانٍ إسلاميّة متعدّدة قيّمة، منها نيلوفر خاتون إماراتي، ولا سيّما الجامع الأخضر، المميّز بقبّته المركزيّة، وواجهته الرخاميّة البيضاء ومئذنته المغطّاة بالخزف المزخرف. إنّ إزنك التي قاست اجتياح تيمورلنك سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م، وفقدت بعد ذلك كل أهميّتها السياسيّة والإستراتيجيّة، لم تعد معروفة بعدذاك إلا بصفتها مركزًا عثمانيًّا مزدهراً لصناعة الخزف. ويظهر أن نشاطها توقّف في القرن الثامن عشر، وذلك لمصلحة كوتاهية التي انتقل إليها حرفيّو إزنك.

◄ راجع المستندين ٢٧ و٢٩.

الأزهر، مسجد جامع شيّده الفاطميّون في القاهرة سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م، وهو ما يزال حتى اليوم أشهر مركز للدراسات الإسلاميّة التقليديّة في مصر والشرق الأدنى العربي.

غالبًا ما يحاول بعضهم ربط اسم الأزهر بصفة الزهراء التي أُطلقت على السيّدة فاطمة، لكن ليس لدينا ما يثبت وجود هذه العلاقة. والمعروف أن المسجد الثاني الذي بناه الفاطميّون في القاهرة أطلقوا عليه اسم «الأنوار». ويمكن أن تحمل هاتان الصفتان تلميحًا إلى بريق العقيدة الإسماعيليّة التي قامت عليها دعوتهم. وقد بدأ العمل في بناء مسجد الأزهر سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م، قرب القصر الملكي، واستمرّ سنتين، ليغدو المكان الذي يقصده الخليفة من أجل ترؤس الصلاة، وليتحوّل رمزًا زاهيًا للمدينة التي تضمّ مقرّ السلطة ومركز إرشاد منظّم للعقيدة الإسماعيليّة، بهدف دعم المواقف الدينيّة لأسياد مصر الجدد. والتعديلات الكثيرة التي عرفها البناء لاحقًا أبقت على ملامح تشير إلى ما كان عليه في عهده الأول وإلى ما كانت عليه زخرفته. والمعروف أنّه في سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م، كان ابن القاضي النُعمان يعطي في الأزهر دروسًا في الفقه الإسماعيلي مبنيّة على مؤلّفات والده. وجاء بعده فقهاء أقامهم الخليفة العزيز بالله في مسكن مجاور للمسجد، فضلًا عن علماء آخرين كانوا يعملون في «دار الحكمة» التي أقامها، بعد تأسيس الأزهر، الخليفة الحاكم بأمر الله.

وتوقّف انتشار الأفكار الإسماعيلية من الأزهر بعدما قضى صلاح الدين على الفاطميّين. وحلّ مكان الإسماعيليّة تعليم الفقه السنّي الذي توزّع على عدد من المدارس التي أُنشئت في المدينة. والنشاط الفكري الذي نهض في المساجد الجامعة، كمسجد الحاكم، ومسجد ابن طولون ومسجد عمرو بن العاص، وأخذ اتّجاهًا معاكسًا للشيعة، استمرّ في الأزهر الذي وفّر له المماليك لاحقًا ازدهاره الفكري عن طريق إقامة مؤسّسات للمعلّمين ولقرّاء القرآن الكريم. ولم يفتر وهج التعليم الأزهري إلّا بعد سيطرة العثمانيّين. فتحوّل الأزهر معهم إلى مكان كسائر الأمكنة المماثلة في العالم الإسلامي، تُلقى فيه الدروس التقليديّة القائمة على قراءة بعض المؤلّفات الموجزة وشرحها، من دون العودة الى النصوص الأصليّة الأساسيّة. والمعروف أنّه في سنة ١٨٧٥ كان الطلّاب - وبينهم عددٌ يسكنون الجامع ويعيشون حياة فقر معتمدين على مساعدات المحسنين ومساعدات ذويهم - يحافظون على عادات تعود الى القرون الوسطى، إذ كان كلّ معلّم يلقي دروسه أمام قاعدة عمود معيّن، وكانت الأعمدة موزّعة على المذاهب. وتركّز الاهتمام على دراسة الفقه وسائر العلوم الدينيّة المتعلّقة بالقرآن الكريم والحديث الشريف واللغة العربيّة. وكان الأزهر يحوي، سنة ١٨٧٦، ثلاثمئة وواحد وستين مدرّسًا وأكثر من عشرة آلاف طالب اختار نصفهم دراسة الفقه الشافعي.

في القرن التاسع عشر، عرف الأزهر عمليّة إصلاح للتعليم، يمكن إدراجها في إطار التحوّلات التي شهدتها مصر للانفتاح على المؤثّرات الحديثة. ولم يهدف التطوّر إلى جعل الأزهر جامعة على الطراز الأوروبيّ - لأن ذلك لم يكن مقبولًا في تلك المرحلة - بل ركّز على تعميق الدروس وتنظيم مراحل التعليم، وتتويج

سنوات التخصّص بشهادة رسميّة، وهو أمرٌ لم يكن موجودًا حتى ذلك التاريخ. إنّ الإجراءات الأولى اتّخذها المسؤولون الذين جمعهم الخديوي إسماعيل سنة ١٨٧٢ والذين أنشأوا شهادةً لتتويج نهاية الدروس تخوّل حاملها أن يصبح أستاذًا في الأزهر. ومن ثمّ تمّت عمليّة إعادة تنظيم إجمالية استوحت أفكار المصلح محمّد عبده: إنشاء مجلس إدارة، زيادة رواتب الأساتذة، وضع شروط واضحة لقبول الطلاب، إدخال موادّ جديدة كعلم الحساب والجغرافيا، تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل، وكلّ مرحلة من أربع سنوات. في سنة ١٩٠٧، أُلحقت بالأزهر مدرسة للقضاة، كما أُنشئت سنة ١٩٠٨ جامعة القاهرة الحرّة التي كانت نواة الجامعات الحديثة التي نافست الأزهر، ما دفع إلى إحداث تغييرات جديدة في نظامه. وهكذا حدّد قانون صادر سنة ١٩٣٦ مجدّدًا شروط قبول الطلاب ومواد التدريس. فجامعة الأزهر التي استقبلت وتستقبل طلابًا من مصر وسائر العالم الإسلامي، والتي ترفض أن ينحصر نشاطها في العلوم الدينيّة، تابعت إذًا تجدّدها البطيء، بشكل منهجيّ، ولكن لا تزال، بين الحين والآخر، توجّه اليها انتقادات وتُتّهم بأنّها لا تنفتح بما فيه الكفاية على مشاكل العالم الحديث.

الأساطيل البحرية الإسلاميّة، أساطيل نطوّرت بصورة غير متساوية طيلة القرون الوسطى، ولعبت دورًا على جانب من الأهميّة في الأعمال العسكريّة أو التجاريّة للبلدان الإسلاميّة، وأفسحت في المجال، بفضل المرافئ العديدة، أمام طرق الملاحة في البحر المتوسط أو في المحيط الهندي.

في المتوسط، وُلدت أوّل بحريّة إسلاميّة – وكانت ضروريّة لسياسة الأمويّين الهجوميّة – على أثر الفتوحات الكبرى التي جعلت من العرب أسياد سواحل بعيدة الأطراف، تتطلّب الحماية وتكوّن، في الوقت نفسه، نقاط انطلاق مفيدة للحملات ضد بيزنطية. وإذ لم يكن في جيوش الخلفاء ما يلزم من البحّارة، اضطرّ هؤلاء، منذ البداية، إلى استخدام السفن الموجودة في المرافئ التي احتلّوها والاحتفاظ ببحّارتها من غير المسلمين. ولكنّ ذلك لم يمنعهم من تشكيل قوة بحريّة لم تقاوم الهجمات البيزنطيّة فحسب، بل قامت بهجمات ضد قبرص في سنتي ٢٨ و٣٥هـ/ ٦٤٩ و٦٥٥م، وحقّقت انتصارًا في معركة الصواري في العام ٣٤هـ/ ٦٥٥م، وهاجمت صقليّة وردوس وكريت، وقامت بمحاصرة القسطنطينيّة مرّتين في ٤٩ - ٥٠هـ/ ٦٦٩-٦٧٠م وفي ٩٨-٩٩هـ/ ٧١٧-٧١٨م.

إنّ تنامي قوة الخلفاء العبّاسيّين المتمركزين في العراق أعطى، في ما بعد، دفعًا جديدًا لنشاطات أخرى، تجاريّة أكثر منها حربيّة، فازدادت هذه النشاطات بصورة خاصة في المحيط الهندي، مطلقةً سفن الخليج العربي - الفارسي باتّجاه الهند والصين، ناهيك عن الشاطئ الأفريقي التابع للزَّنج، في حين كان فنّ الملاحة يستفيد من كافة المكتسبات العلميّة التي انتقلت إلى الوسط الإسلامي منذ بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، عن طريق استيعاب الإرث السابق، أكان يونانيًّا أو فارسيًّا. لم يُنسِ كل ذلك جبهة البحر المتوسط حيث كان أسطول الدولة الإسلاميّة الذي تتمّ صيانته في دور الصناعة والمواقع المحصّنة في الإسكندرية ورشيد ودمياط وعكا وصور وصيدا وطرسوس، قد فرض نفسه من خلال غزوات قام بها الى قبرص وكريت. في الوقت عينه، كان أسطول الأغالبة في إفريقية يقود العرب إلى احتلال صقليّة سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٢م، ويؤمّن سيطرة بحريّة إسلاميّة موقّتة على البحريّة البيزنطية التي، بعد أن اضطرّت فترةً إلى الدفاع عن نفسها، ما لبثت أن استعادت المبادرة.

انقلب الوضع في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، عندما استعاد البيزنطيّون قبرص وكريت، وعندما واجهت أساطيل الفاطميّين في ما بعد – كانت هذه الأساطيل قويّةً في الحوض الغربي للمتوسط لدرجة أنّها قامت بهجمات على ايطاليا وانتصرت، كما قامت بحرب أخويّة ضد بحريّة الأمويّين في قرطبة – الهجمات البحريّة التي شنّتها الجمهوريّات التجاريّة الإيطاليّة التي أصبحت بدورها قادرة على غزو السواحل العدوّة في المغرب. أنشأ الفرنج مملكة الأراضي المقدسة مكمّلين بذلك عمل النورمان الذين استرجعوا صقليّة من المسلمين. وقد نجح الفرنج، في نهاية القرن

الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، في احتلال مرافئ المشرق تدريجيًا، بما فيها مرفأ عسقلان الذي سقط في العام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م. ولئن جهد صلاح الدين الأيّوبي، بعد ذلك، في إعادة بناء بحريّة إسلاميّة، فهو لم يتمكّن من مواجهة بحريّة الفرنج، ولم يفرض نفسه إلّا في البحر الأحمر حيث لم تكن السيطرة البحريّة الإسلاميّة قد مُسَّت بعد.

مع ازدهار دولة المماليك، بدأت مرحلة جديدة كان خلالها الأسطول المصري - السوري شبه غائب في البحر المتوسط، إذ إنّه ظلّ عاجزًا عن انتزاع السيطرة من المسيحيّين. فالسلاطين المتحدّرون من صفوف المماليك والمدرّبون على الفروسيّة، أصبحوا أسياد هذه المنطقة، فأهملوا البحريّة واعتمدوا استراتيجيّة حربيّة جديدة: على الجبهة البحريّة، اجتهدوا خاصّة في تطوير الدفاعات الساحليّة لمصر التي بقيت مفتوحة على علاقات بحريّة تجاريّة مع الخارج، كما عملوا على تفشيل هجمات محتملة على سوريا وفلسطين عن طريق سياسة الأرض المحروقة، إذ دمّروا المرافئ التي كان يمكن أن ينزل فيها العدوّ.

ولكنّ الوضع كان مختلفًا في مناطق خاضعة لأمراء آخرين من المشرق الإسلامي، نعني بهم خصوم المماليك في الأناضول. هنا ظهر اهتمام حقيقي بالملاحة في البحر المتوسط، عند سلاجقة الروم، منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وقد أثْرت دولتهم بفضل تجارة الترانزيت نحو أوروبا التي كانت تقوم بها سفن إيطالية في أغلب الأحيان محمّلة بالبضائع الأسيويّة التي سلكت قبل ذلك طرق القوافل. بعد امتداد تلك السلطنة إلى ساحل المتوسط جنوبًا وساحل البحر الأسود شمالًا، اتّخذ الأمراء موقفًا مشجّعًا لازدهار المرافئ التجاريّة مثل أنطاليا، والحربيّة مثل علانيا حيث ظهرت، إلى جانب السفن الأجنبيّة، أولى السفن التركيّة القادرة على أخذ حصّتها من الحركة التجاريّة وعلى ممارسة القرصنة لإضعاف العدو. هذه السياسة الجديدة التي اعتُمدت في عهد الإمارات، اتّسعت كثيرًا في العهد العثماني. منذ احتلال العثمانيّين للبلقان، أصبحت سلطنتهُم تضمّ بحر مرمره والبحر الأسود وبحر إيجه، وكانوا بحاجة إلى إنشاء أسطول ما لبث أن أصبح ناشطًا في الحوضين الغربي والشرقي للبحر المتوسط. أنيطت مسؤوليّة هذا الأسطول بأميرال يدعى «كابودان باشا» كان يدير الحملات ويشرف على الصيانة ويضطلع بمسؤوليّات جسام.

على الرغم من الحملات التي قامت بها البحريّة العثمانيّة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، فإنّ تاريخها، بنوع خاص، هو تاريخ صراعاتها في البحر المتوسط مع بحريّة البندقيّة المتحالفة أحيانًا مع غيرها من البحريّات الأوروبيّة. فمنذ العام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، قامت سفن عثمانيّة متمركزة في غاليبولي بمواجهة بحريّة البندقيّة فانهزمت. غير أنّ الوسائل التي امتلكتها البحريّة العثمانيّة تطوّرت بانتظام، ما سمح لها، قبل نهاية القرن، باحتلال الكثير من الجزر في بحر إيجه، منها جزيرة أوبيه (Eubée) والجزر الإيونيّة. بعد أن اشتهر الأميرال خير الدين بتركيز سلطته في الجزائر، طوّر نشاطه في إطار قيادته لبحريّة السلطنة، فمكّنها، خلال معركة نيكوبوليس في العام ١٥٣٨، من السيطرة على البحر المتوسط. ولكنّها فقدت هذه السيطرة في العام ١٥٧١، على أثر هزيمتها الشهيرة في ليبانت. ولكن سرعان ما أعيد بناء القوات البحريّة العثمانيّة فاستعادت، في نهاية القرن التالي، جزيرة خيو (Chio) من البندقيّة. كانت آنذاك تمتلك سفنًا شراعيّة حلّت محلّ السفن القديمة ذات المجاذيف. بقيت هذه القوّات موضوع اهتمام السلاطين، مع أنّها لم تعد تلعب دورًا رئيسيًّا منذ القرن الثامن عشر.

وحدها «القرصنة» التي تعتمد على السفن السريعة والمستقلّة حافظت على مكانة لا يستهان بها وأغنت مرافئ المغرب العربي، الجزائر وتونس. كان يُمارَس في سَلا، على شاطئ المحيط الأطلسي، نشاط مشابه، ولكن خارج مراقبة الباب العالي. أخيرًا، إنّ جهود السلطان سليم الثالث الذي شجّع الاصلاحات التي قام بها الأميرال الكبير، كجك حسين باشا (المتوفى عام ١٨٠٣)، وجهود محمود الثاني بعد فترة قصيرة، لم تمنع التفاوت التقني المتزايد بين الأسطول العثماني وأساطيل الدول الأوروبيّة، الامر الذي أدّى إلى هزيمة

نافارين سنة ١٨٢٧ وإلى إزالة وكر القراصنة في الجزائر بعد إنزال قام به الفرنسيّون. لم يعوّض العثمانيّون في ما بعد عن تأخّرهم، على الرغم من المحاولة التي جرت في نهاية القرن التاسع عشر لتحديث البحريّة والجيش، لا سيّما في عهد السلطان عبد العزيز.

في غضون ذلك، حفل تاريخ البحريّة الإسلاميّة بأحداث حصلت في المحيط الهندي حيث خسرت السفن العربيّة، منذ القرن الخامس عشر، الإمتياز الذي كان لها في القرون الوسطى أمام البرتغاليّين، ثمّ أمام سائر الأوروبيّين. إنّ المحاولات التي قام بها حكّام اسطنبول والبوسفور، لكي يعطوا الأسطول العثماني مجالًا إستراتيجيًّا واسعًا في جنوب البحر الأحمر، باءت بالفشل، وأدّت إحداها الى الحكم بالموت، حوالي السنة ١٥٥٤، على الأميرال بيري ريّس الذي لم يتمكّن من الإستيلاء على هرمز/بندر عبّاس. في البحار التي سيطر عليها الهولنديّون أو البريطانيّون، الذين خلفوا البرتغاليّين، استمرّ بحّارة الخليج العرب وبحّارة الشواطئ الجنوبيّة لشبه الجزيرة العربيّة بتسيير مراكبهم الشراعية بصورة منتظمة نحو الصومال والجنوب وصولًا إلى الموزانبيق. إلّا أنّ آخر حلقات الشبكة زالت بانحطاط السلطة المحليّة التي كانت، انطلاقًا من مسقط، قد بنت قوّتها خلال القرن التاسع عشر، على المبادلات التقليديّة بين منطقة عُمان الساحليّة وجزيرة زنجبار الأفريقيّة والأراضي الساحليّة المجاورة.

أسّام، مقاطعة تقع في الطرف الشرقي للاتّحاد الهنديّ، بين شرقيّ الهند وبنغلادش وبرمانيا، يشكّل فيها المسلمون ربع السكان تقريبًا.

لم يدخل الإسلام وادي برهمابوترا قبل القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، ولم يثبت وجوده الفعلي إلّا بعد خضوع البلاد تدريجيًّا لسلطة المغول إبتداءً من سنة ١٠٢١هـ/١٦١٢م. ومجاورة البنغال لهذه المقاطعة وممارستها بعض السلطة عليها أدّيا إلى هجرة متتالية لمُسلمي السهل إليها، وهذه الهجرة تزايدت في المرحلة المعاصرة. وقد ترافق تنامي الإسلام مع ازدياد الحركات الإصلاحيّة التي عملت على محاربة التقاليد الدينيّة غير الإسلامية التي كانت آخذةً بالاندماج في المعتقدات المحليّة، من دون أن تخضع لأيّة قيود.

◄ راجع المستندين ٣٣ و٣٤.

أُسامة بن منقذ، ٤٨٨ - ٥٨٤هـ/ ١٠٩٥ - ١١٨٨م، أمير مسلم، خلّف وراءه أيضًا صورة رجل مثقّف، بعدما أمضى حياة متقلّبة في غمرة معارك طبعت المصير السياسي للشرق في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد.

ولد أسامة في شَيْزَر بسوريا، من أسرة عربيّة هيمنت منذ أمد بعيد على المنطقة، فشهد المرحلة الأولى من احتلال الفرنج جزءًا من البلاد، وهي المرحلة التي عقبت الاستيلاء على القدس عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. توفي بعد سنة من استعادة صلاح الدين لشيزر، بعدما أمضى حياته محاربًا مسيحيّي مملكة القدس، وفي الوقت نفسه مسلمي الإمارات المعادية الذين كانوا يقتسمون البلاد التي اجتاحها الأتراك. على الرغم من ذلك تسنّى له، بحسب مذكّراته الشخصيّة، الانصراف إلى متعتي الصيد والكتابة المفضَّلتين لديه.

وبعدما قضى أسامة في خدمة زنكي تسع سنوات، من عام ٥٢٣ إلى ٥٢٣هـ/١١٢٩ إلى ١١٣٨م، اضطرّ لمغادرة قصره في شيزر وأمضى ستّ سنوات في خدمة البوريّين في دمشق، بين عامي ٥٣٣ و٥٣٩هـ/١١٣٨ - ١١٤٤م، فسنحت له الفرصة عندئذ للتوجّه إلى المملكة اللاتينيّة إثر الاتفاقات التي عُقدت بينها وبين ملوك دمشق، فتسنّى له بذلك أن يراقب عن كثب الفرنج وعاداتهم. ثمّ أُرغم على الذهاب إلى مصر، حيث مكث عشر سنوات، عاد بعدها إلى دمشق ووضع نفسه في خدمة نور الدين، ثمّ غادر إلى إمارة حصن كيفا في بلاد ما بين النهرين العليا، قبل أن يعود إلى دمشق حيث عاش حتى وفاته. تعود شهرته، بوجه خاص، إلى كتاب مذكّراته التي تنطوي على سردٍ عذب وقيّم لعلاقاته بالفرنج ولمغامراته، محاربًا وصيّادًا. نُقل كتابه هذا إلى لغات أوروبيّة عدّة، وترقى ترجمته الفرنسية الأولى إلى نهاية القرن التاسع عشر.

الإستحسان، مصطلح عربيّ متخصّص، يعني لغويًّا «إيجاد الأمر حسنًا»، وفقهيًّا «البحث عن أفضل

الحلول»، وهو المفهوم الذي استند إليه بعض الفقهاء، لا سيّما في المذهب الحنفي.

عمد الفقهاء إلى الاستحسان للتعويض عن النقص الحاصل في المعطيات القرآنية وفي السنّة النبويّة، لاستنباط الشريعة. والإستحسان يستند إلى حديث، ولا يشكّل إلا وجهاً من التفكير الشخصيّ أو الرأي. لكنّ المنهج المعتمد في الإدلاء بالحجج، والذي يتناقض في بعض الحالات مع القياس ويشوبه الكثير من الغموض، جعله هدفاً لرفض الإمام الشافعي الذي رأى في الإستحسان مجالاً لأحكام اعتباطية.

أَسْتراخان (الاتّحاد الروسي)، مدينة على نهر الفولغا، كانت تنتمي في أواخر القرون الوسطى إلى العالم الإسلامي تحت سيطرة الأمراء المغول.

وبحسب التقاليد، فإنّ نشأة المدينة كانت عن طريق مستعمرة أسّسها على الضفّة اليُسرى للنهر، على بعد حوالى مئة كيلومتر عن بحر قزوين، أحد الحجّاج بعد قدومه من مكّة المكرّمة ويُدعى حاجي ترْخان. هذه المدينة التي زارها الرحّالة ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، نهبها تيمورلنك سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م، لكنّها نهضت من الأنقاض وأصبحت مركزًا مهمًّا للنشاط التجاريّ في عهد خانات القبيلة الذهبيّة. ثمّ تحوّلت إلى عاصمة لخانية مستقلّة، فاجتاحها الروس سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م، على أثر سقوط قازان سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م. وفي سنة ١٧١٧م أنشأت دولة القياصرة حكومة أستراخان التي أُلحقت، سنة ١٩١٩، بجمهوريّة روسيا الفدراليّة الاشتراكيّة، مع الاحتفاظ باستقلالها الداخلي. وقد أصبحت بعد ذلك جمهوريّة كَلْموكيا الاشتراكيّة السوفياتية. ومنذ منتصف القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، أصبح المسلمون في أستراخان أقلّية.

الإستصلاح، مصطلح عربيّ متخصّص يعني «إيجاد الأمر مناسباً للمصلحة العامة»، ويشكّل، فقهيًّا، مفهوماً عمد إليه بعض الفقهاء، ولا سيّما في المذهب المالكي.

ساعد الاستصلاح على التعويض عن النقص الحاصل في المعطيات القرآنية وفي السنّة النبويّة لاستنباط الشريعة. ومع أنّ المالكيّين لجأوا إليه، لا يبدو أنّ اعتماده قديم بقدر ما يؤكّد بعض المؤلّفين. صحيح أنّ هذا المنهج في البرهان مقبول لدى الفقهاء الشافعيّين الذين يعتبرون المصلحة العامّة تقوم على ملاحظة ما تريد الشريعة أن يناله البشر، أي التمسّك بالدين، والحفاظ على الحياة، وعلى العقل، وعلى النسل وعلى الأموال؛ لكن الحنابلة، كابن تيميّة، متحفّظون بشأن هذه المسألة. ومع ذلك، فإن اللجوء إلى الاستصلاح يلقى بعض القبول في عصرنا، وباسمه سُوّغت الإصلاحات الفقهية التي جرت حديثاً.

إسحق، شخصيّة توراتيّة يرد ذكرها خمس عشرة مرّة في نصوص القرآن، حيث يشارك إسماعيل الذي تنامى اعتباره في الفكر الإسلامي اللّاحق، بصفته ابن ابراهيم ووريث إيمانه التوحيديّ.

قام بين مفسّري القرآن الكريم، في العصور الأولى، تباين في الرأي بالنسبة إلى تضحية إبراهيم الذي، بحسب تقليد موافق لما ورد في العهد القديم، قدّم ابنه اسحق وليس إسماعيل، في حين أنّ هذا الأخير هو الذي اعتُمد لاحقًا. وعُرف إسحق أيضًا في الروايات التي لها جذور يهوديّة-مسيحيّة، التي يدعوها التقليد الإسلامي الإسرائيليات، كذلك في «قصص الأنبياء» التي ازدهرت في الأوساط الإسلاميّة في القرون الوسطى، والتي اغتنت نصوصها لاحقًا باستعارات من التقاليد العبرية المتأخّرة.

أسد (بنو -)، قوم قدماء من سكّان شبه الجزيرة العربيّة، توازي شهرتهم شهرة بني تنّوخ، وتُطلق التسمية على إحدى قبائل عرب الشمال الكبيرة المتحدّرة مع كِنانة من أصل واحد، نزحت من نجد حيث كانت تترحّل أيام النبي محمد (ﷺ)، وانتقلت إلى العراق وأعالي بلاد ما بين النهرين حيث لا يزال «بني سِد» معروفين حتى اليوم.

عُرف بنو اسد في نجد، قبل الإسلام، من خلال ثورتهم على كندة. وكانت لهم علاقات متنوّعة بالقبائل المجاورة، وبخاصة ببني تميم وطيء وغطفان. كما حاربوا الدولة الإسلاميّة الأولى في المدينة، وذلك قبل اعتناقهم الإسلام سنة ٩هـ/ ٦٣٠م، ولكنّهم ارتدّوا عنه بعد موت النبيّ (ﷺ). ثمّ اعتنقوا الإسلام نهائيًّا بعدما

هزمهم أبو بكر سنة ١١هـ/٦٣٢. وشاركوا لاحقًا في الفتوحات الكبرى، واستقرّوا في منطقة الفرات في سوريا، وخصوصًا في الكوفة حيث تشيّعوا.

في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، أسّست إحدى عشائرهم المقرّبة من البويهيّين سلالة صغيرة ولكنّها متألّقة، هي سلالة بني مَزْيَد التي استقرّت في الحِلّة، ونافست بني عقيل في الموصل قبل أن تزدهر في زمن السلاجقة الكبار، رغم أنّ بني أسد كانوا قد عادوا السلاجقة، عند قدومهم إلى العراق، إذ وقفوا إلى جانب البساسيري الشيعي الموالي للفاطميّين. وفي القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، أُعطي صدقة بن منصور، أشهر المزيديّين، لقب «ملك العرب». وكان قد جمع القبائل العراقيّة تحت إمرته، وكان يتحلّى بمزايا الأشراف العرب، واعتُبر مثالًا وقدوة.

ويعود سقوط إمارة الحلّة سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م إلى ضعف سائر عشائر بني أسد التي كانت قد أفادت من شهرة تلك الإمارة، فتفرّقت تلك العشائر في العراق كلّه وصولًا إلى أعالي بلاد ما بين النهرين. وفي القرن التاسع عشر واجه أعقاب تلك العشائر صعوبات مع العثمانيّين، كما عارضوا الملك فيصل سنة ١٩٢٥ لدى ولادة دولة العراق الحديثة بنظامها الملكي.

إسرائيليّات، تسمية عربيّة تطلق على روايات من أصل يهودي - مسيحي (تاريخ الأنبياء التوراتيّين، عبر قصصيّة أو موضوعات فولكلوريّة)، كان لها شأن في التراث الإسلامي.

هذه المرويّات تُنسب إلى أشخاص غير معروفين جيّدًا في بدايات الإسلام، يصنّفون أحيانًا على أنّهم من التابعين لصحابة النبي محمّد (ﷺ)، كوهب بن منبه أو كعب الأحبار. وهذه الروايات المستعملة بشكل مبكر في التفاسير القرآنيّة وردت عند شارحي القرآن وعند شرّاح الأدب المتبحّرين، ولم تتوانَ عن إثارة بعض التحفّظات، أحيانًا، لدى الأوساط الإسلاميّة المتشدّدة.

الأُسرة، فئة اجتماعيّة عُرفت، في اللغة العربيّة بمصطلح أهل أو آل، وخضعت في ديار الإسلام، بحسب الأماكن والأعراق والعصور، والدول في عصرنا الحاضر، لمتغيّرات عميقة طاولت بنيتها، محتفظة باستمرار، إستنادًا إلى مقتضيات شريعة إجتماعيّة دينيّة استمرّت حتّى بعد بروز التشريعات الحديثة، بطابع وروح خاصّين بالعائلة الإسلاميّة.

لقد أوصى القرآن بالزواج وتأسيس أسرة؛ إلّا أنّ إتاحة تعدّد الزوجات والتسرّي طبعت هذه الأسرة، منذ بداية الإسلام، بطابع خاص، في حين استمرّت بعض العادات المتعلّقة بالنسب والقبيلة والعشيرة التي طبعت المجتمع العربي في الحقبة السابقة للإسلام في شبه الجزيرة العربيّة. واقع الأمر أنّ فكرة الأسرة غير متوافرة في البيئة الإسلاميّة، إلّا في ما ندر؛ إذ يبقى الفصل بين الجنسَيْن هو القاعدة، حتى إنّ الأمر يصل إلى تكييف هندسة المنزل بحسب ذلك؛ كما أنّ وضع المرأة ملازم للعزلة ولتهديد مستمرّ بالطلاق، وهي أمور تشكّل أسبابًا لعدم توازن الحياة الزوجيّة، رغم وجود عقد، في الأصل، يُفترض فيه أن يؤمّن نوعًا من الحماية للزوجة؛ كذلك، لا يجتمع الأولاد حول أمّهم إلّا في السنوات الأولى من طفولتهم حتّى سن تختلف بحسب كونهم بنين أو بنات. من جهة أخرى، من شأن نظام الميراث أن يقضي بسرعة على الإرث الذي لم يكن ليكوّن في يوم من الأيّام ملكًا عائليًّا موحّدًا، إذ إنّ أملاك الزوج والزوجة أو الزوجات تبقى منفصلة. إنّ الضعف الذي ينشأ عن ذلك، والذي يتجلّى، بشكل خاص، في وضع العائلات المالكة التي عليها أن تواجه، بحسب البيئة الإسلاميّة، صعوبات من نوع خاص، عندما يتعلّق الأمر باستمرار السلطة المالكة، كان يعالج باللجوء إلى تشريعات مصطنعة كالإمكانات التي يقدّمها نظام الوقف. إلّا أنّه جوبه، عبر العصور، بلعبة التأثيرات المحليّة التي تُيسّر لنماذج أُسَريّة متعدّدة أن تُحِلّ ميزانها في هذا الخصوص - بإدخال التقليد أو العُرف - محلّ ميزات العائلة المسلمة التقليديّة، مُفضيةً إلى توليفات جديدة يرتبط كلٌّ منها بمجموعة جغرافيّة معيّنة أو مرحلة تاريخيّة بعينها.

وأيًّا تكن النزعة المحلّيّة السائدة، سواء كانت تنتمي إلى النظام الأبوي أو، بصورة نادرة، إلى نظام

يعطي السلطة للأم، فإنّ وضع الولد كانت تحدّده الشريعة الإسلاميّة المستمرّة من دون تغيير، بصورة عامّة. والشريعة، في رأي الفقهاء، كانت تُجيز ممارسة انسحاب الرجل قبل القذف تجنّبًا للحبل، شرط موافقة الزوجة إذا كانت زوجة شرعيّة، إلّا أنّ ذلك يسقط إذا كانت جارية. بعد ذلك، يجري التمييز بين الأولاد الشرعيّين وغير الشرعيّين. فالشرعيّون هم المولودون من زواج شرعيّ بعد انقضاء ستة أشهر على عقده، والمولودون من زواج سيّد بجاريته في حال اعترافه بشرعيّتهم. أمّا غير الشرعيّين فهم الذين ولدوا من علاقة غير شرعيّة، أو الذين ولدوا خلال زواج شرعيّ، لكنّ الوالد لم يعترف بهم، وعلاقة هؤلاء الشرعيّة لا ترتبط إلّا بوالدتهم.

ثمّة تقاليد عامّة تقريبًا روعيت في بعض المناطق أو عبر بعض العصور واستمرّت حتى أيامنا هذه، فصارت عُرفًا، كأن يُتلى في أذن الولد اليمنى، عند ولادته، الأذان وأن يختار الأب اسم الإبن، والأم اسم البنت. وهناك تقاليد لم تتجاوز النطاق المحليّ، فسادت في بعض البلدان، مثل المغرب، حيث كان القوم يحلقون رأس المولود، ولا سيّما الذكر، خلال عامه الثاني، فلا يُبقون من شعره إلّا على خصلة يطلقون عليها اسم «خصلة الحساب»، إشارة إلى آية قرآنية تذكّر بالمذنبين الذين يُجَرّون بخصلة شعرهم (سورة العلق، الآية ١٦). إلّا أنّ شأنًا ساد في كل مكان وما يزال مرعيّ الإجراء حتى أيامنا، وهو أنّ كلّ ذكر ينبغي أن يخضع للختان، في سنّ غير محدّدة، وهو يشكّل قاعدة مجاملة إجتماعية ومناسبة لاحتفال عائليّ، في حين تخضع الفتيات لختان من نوع خاص لا يمارس إلّا في مناطق محدودة جدًا.

تقع مسؤوليّة الإنفاق على الأولاد على الأب. أمّا تربيتهم فتوكل، عمليًا، إلى الأم التي تحتضنهم بقربها حتى في حال الطلاق، وهي التي ترعى البنات حتى زواجهنّ. وفي ما بعد يتعهّد الأولاد بسدّ حاجات والديهم عند الحاجة، وقد قضى القرآن بواجبات الأولاد تجاه والديهم ودعا إلى الرأفة بهما والقول الكريم (سورة الإسراء، الآيتان، ٢٣-٢٤). أخيرًا، في ما يتعلّق بالأولاد اليتامى، يعود إلى القاضي أن يقرّر الوصاية عليهم وأن يعيّن لهم، عند الضرورة، وصيًّا، إذا لم يكن هذا الأخير قد عُيّن بموجب وصيّة. وتستمرّ الوصاية حتى سنّ البلوغ التي تقرّها المذاهب الفقهيّة المختلفة.

اسطنبول (الجمهوريّة التركيّة)، إسم تركي **لبيزنطية** القديمة ثمّ **للقسطنطينيّة**. إنّها مدينة منظّمة وذات ماضٍ مجيد. احتلّها السلطان محمّد الثاني في ربيع الآخر ٨٥٧هـ/أيار ١٤٥٣م، فأصبحت العاصمة الرائعة للأمبراطوريّة العثمانيّة حتّى ١٩٢٣.

كان اسم اسطنبول مستعملاً قبل الفتح وهو مأخوذ من اليونانيّة eis tên polin. وينطبق، بشكل طبيعي، على المنطقة الواسعة القائمة بين القرن الذهبي، وبحر مرمرة وسور ثيودوسيوس، في مركز مميّز يتحكّم بممرّ البوسفور البحري، كما بالطرق البريّة التي تجتاز تراقيا، ومنها تلك الآتية من البلقان مرورًا بسالونيك أو بلوفديف. في تلك الحقبة، لم تكن المدينة تشتمل على الأحياء الخارجيّة في غلطة وايوب واسكودار، التي تضمّها اليوم، ولا على الدساكر المجاورة المتعدّدة التي أصبحت أحياء حديثة. عندما احتلّ محمّد الثاني المدينة الأمبراطوريّة التي كانت هدفًا للهجمات الإسلاميّة منذ القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، عمل جهده لتحاشي النهب، وأعطى الأمان للهاربين، ودعا اليونانيّين إلى انتخاب بطريركهم الذي أصبح زعيم ملّتهم، وذلك لمنع فراغ العاصمة، وقرّر منذ وصوله تحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد جامع. وأمر، فضلًا عن ذلك، ببناء قصر في مكان الفوروم توري؛ وإصلاح الأسوار البيزنطيّة التي أكملها بإنشاء قلعة جديدة، هي قصر يدي كول أو الأبراج السبعة، الذي بُنيَ بين ١٤٥٧-١٤٥٨م، وحلّ مكان القلعتين العثمانيّتين السابقتين على ضفاف البوسفور: «الأناضولي حصار» على الضفّة الآسيويّة، و«الروملي حصار» على الضفّة الأوروبيّة. وكانت إحدى القلعتين قد بنيت على عهد بايزيد الأوّل منذ ٧٩٢-٧٩٥هـ/١٣٩٠-١٣٩٣م، والأخرى على عهد محمّد الثاني نفسه سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، وكانتا قد شُيّدتا من اجل تهديد القسطنطينيّة والوصول إلى فتحٍ تحقّق منذ ذلك الحين. وأخذ السلطان العثماني إجراءات تنظيميّة عدّة، منها تحديد

أحياء للمسيحيّين المستفيدين من الأمان، وإسكان عائلات مسلمة ومسيحيّة ويهوديّة، معظمها من أصول ريفيّة في المدينة، آتية من الأناضول ومن الروملّي وهذا ما بدّل وجه المدينة. وسمح للبنادقة أخيرًا بأن يأتوا إليها للتجارة، بعدما أقرّ نظام عهود الأمان أو «الامتيازات» الأجنبيّة في ٨٥٨هـ/١٤٥٤م، مضيفًا نشاطهم إلى نشاط الجالية الجنويّة في بيرا (Péra)، في الطرف الآخر من القرن الذهبي، وكانت هذه قد استسلمت بشروط في ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وتمكّنت، لاحقًا، من المحافظة على وجودها وتجارتها البحريّة.

في العاصمة العثمانيّة الجديدة التي حلّت محل بورصة وأدرنة، احتلّ القصر وَسَطَ العاصمة، على مسافة قريبة من المسجد الجامع، ونُظّمت سوقٌ في جواره، حول مبنى مغلق يدعى «بدستن»، وخانات تتيح الإقامة للتجّار العابرين. في ما بعد، كبرت أحياء أخرى في الأمكنة التي تعاقبت فيها الإنشاءات السلطانيّة، والمساجد الجامعة ومجمّعات هندسيّة من نمط «كلّيه» (Kulliye)، كانت تُرفَق، في غالب الأحيان، بأسواق تؤمّن مداخيلُها نفقات الصيانة. وأوّل هذه المجمّعات كان الذي بناه محمّد الثاني نفسه وحمل لقبه «الفاتح»، وقد بني لبضاهي آيا صوفيا، وأنجز في ١٤٧١م، ويحافظ حتى اليوم على عناصر تعود إلى هذه الحقبة، مع أنّه أخضع لعمليّة ترميم مهمّة في القرن الثامن عشر إثر الهزّة الأرضيّة في ١٧٦٦. كان المسجد الجامع المركزي محاطًا بثماني مدارس، ومستشفى، وخان، ومساكن للمدرّسين، وحمّام ضخم وسوق. ولصيانة هذه الأبنية المختلفة وترميمها، كان يفترض استعمال مداخيل الأوقاف التي تألّفت من مخازن وحمّامات.

وإلى منشآت من هذا النوع التي ظهرت على مفصل القرنين التاسع والعاشر للهجرة/الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، تنتمي مجموعة المباني التي شيّدها بايزيد الثاني بين ١٥٠١ و١٥٠٥م، ليس بعيدًا عن القصر القديم، وفيها يبرز الجامع الكبير الذي يشرف، حتى اليوم، على إحدى الساحات المهمّة من المدينة الحاليّة. وخلال القرن السادس عشر، ظهر في ما بعد، بأمر من سليمان القانوني، مجمّع جامع السليميّة (Selimye Cami) الذي أنشئ بين ١٥٢٠ و١٥٢٢م، تخليدًا لذكرى أبيه سليم الأوّل؛ وبين ١٥٤٤-١٥٤٨م المجموعة التي تحمل اسم جامع شاهزاده، وذلك إكرامًا لأحد أولاده؛ وبين ١٥٥٠ و١٥٥٧م، شُيّدت المنشآت التي تحمل اسمه، جامع السليمانيّة. كلّ هذه المباني تعود إلى المهندس الشهير سنان. والعنصر الثابت في سقف كلّ الجوامع هو أنّ القبّة الكبرى تحتلّ المركز الرئيسي بتقليد آيا صوفيا، وهيَ تستفيد من الدعائم التي تشكّلها القباب النصفيّة ذات الأحجام والأعداد المختلفة. وهناك أبنية أخرى كثيرة في اسطنبول، دينيّة أو مدنيّة، تبرز معالم هذه الحقبة المعروفة باسم «حقبة سنان»، بين ١٥٤٠ و١٥٨٨، حيث شُيّدت، على نفقة أشخاص بارزين، أبنية فاخرة من أمثال مساجد مِحْرِمه (Mihrima)، ومسجد رستم باشا، وكذلك مسجد كِلج علي باشا. في وقت لاحق، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بينما تجاوز التجمّع السكّاني أسوار القسطنطينيّة القديمة، رأت النور منشآت أخرى مردّها إلى الإرادة السلطانيّة، بخاصةٍ تلك العائدة لأحمد الأوّل وهي تحيط بجامع الأحمديّة (Ahmadiye Cami) المعروف أحيانًا بالجامع الأزرق، وقد بُني في سنتي ١٦٠٩ و١٦١٠م، وكان يجاور مركز الميدان البيزنطي الذي حُوّل إلى ساحة عثمانيّة؛ وكذلك جامع يني وليد (Yéni Valide Cami)، الكائن قرب المرفأ، وقد بدئ به على يد السلطانة صفيّة (Safaye)، أمّ محمّد الثالث، في ١٥٩٧م، ولم ينته إلاّ في ١٦٦٠م على يد أمّ محمّد الرابع. وكذلك، وفي أيوب (Eyüp)، سنة ١٨٠٠، أعاد سليم الثالث بناء ضريح أبي أيوب، من صحابة الرسول (ﷺ)، هذا الضريح الذي كان محمّد الثاني قد بناه في ١٤٥٧م.

في القرن السابع عشر، لم تتوقّف مدينة اسطنبول عن النمو. فقد عرفت مبكّرًا تصميمًا مدنيًّا جمع، في الوقت نفسه، تراث البلاد الإسلاميّة وطراز التراث البيزنطي. كانت المدينة تعدّ ثلاث عشرة منطقة، وفي كلٍّ منها، عدد من الأحياء تُدعى محلّة. وكان السكّان فيها متضامنين ومسؤولين عن ضبط الأمن، وإمام الجامع هو ممثّلهم لدى السلطات. وكان سكّان المحلّة من

الطائفة عينها. وكان هناك في العاصمة إذًا أحياء مسلمة (٢٥٣ في وسط القرن السابع عشر)، وأحياء غير مسلمة، تضمّ اليونانيّين والأرمن واليهود (٢٤ في الحقبة نفسها). ويقع في وسط الحي مكانُ العبادة وهو جامع أو كنيسة أو كنيس. وإذا كان العديد من الكنائس تحوّل إلى مساجد في زمن الفتح، تمشّيًا مع القاعدة المتّبعة بالنسبة إلى البلاد المفتوحة عنوة، إلّا أنّه تمّت المحافظة على بعضها لمصلحة السكّان المسيحيّين، كما أُنشئت أخرى لاحقًا. وفي الواقع، كان غير المسلمين يسكنون خاصة في شمال القرن الذهبي وعلى طول البوسفور، في ضواحي واقعة خارج الأسوار، كان عددها يوازي تقريبًا عدد الأحياء داخلها، ما يشير إلى نموّ التجمّع السكّاني. والفرنج الذين أقاموا في اسطنبول، بفضل عهود الأمان، سكنوا حصريًا في بيرا وغلطة، حيث الجالية الجنويّة القديمة، وقد تمّ الحفاظ عليها إبان الفتح التركي، فكان حيُّها يُستخدم، منذ ذلك الحين، لاستقبال الأجانب المسيحيّين، وفي وقت لاحق استُخدم مركزًا للسفارات الأوروبيّة. ساهم إزدهار تجارة هؤلاء الأجانب مع بلادهم الأمّ في الغنى الاقتصادي لعاصمة تحمي نشاطها التجاري والحرفي الخاص بها، وهو يضمّ صناعة الكماليات وتجارتها، وكذلك المشاغل الصناعية، وبناء السفن في الترسانة الجديدة في القرن الذهبي.

أمّا بالنسبة إلى القصر السلطاني الذي بني أوّلاً في الجزء الوسطي، فقد نُقل منذ عهد محمّد الثاني إلى موقع الأكروبول البيزنطي القديم المشرف، في الوقت نفسه، على البوسفور والقرن الذهبي وبحر مرمرة. وفي ١٤٦٥م، بدأت الأعمال في بناء هذا القصر الجديد الذي أصبح صالحًا للسكن حوالى ١٤٧٣م. إلّا أنّ محمدًا الثاني استمرّ بتمضية جزء من وقته في أدرنة؛ وبقي الحريم السلطاني، سنوات عدّة اضافيّة، في القصر القديم الذي لم يُهمل. والقصر الجديد الذي اتّخذ اسم توبكابي سراي أو «قصر باب المدفع»، تميّز ببوّابة ضخمة تُدعى بابِ هُمايون. ويحتوي أبنية عدّة مخصّصة للإدارة أو للخدمة والاستقبالات وسكن السلاطين، يحيط بهم حرسهم وحاشيتهم. وكان أفراد الحرس والحاشية موزّعين على أربعة قصور متعاقبة، تحيط بها الحدائق. والقصر الحقيقي يبدأ في الثالث حيث ينفتح المنفذ المؤدّي إلى المساكن الخاصة ودار الحريم. هناك أيضًا ارتفع الجناح الفخم لقاعة الاستقبال ومكتبة محمّد الثالث. والقصر الرابع أخيرًا يحتوي سطوحًا مزروعة بالأشجار حيث تتلاقى أجنحة وأكشاك من كلّ الأنماط معدّة للاستقبال، وأهمّها اثنان يحملان اسم بغداد وبريفان، وقد بنيا في القرن السابع عشر، والأحدث منهما واحدٌ شُيّد سنة ١٨٤٠، باسم عبد المجيد. وفي الواقع، فإنّ السلطان سليمان لم يتّخذ من القصر الجديد مقرّاً له إلّا ابتداء من سنة ١٥٤٠م؛ وانتقلت، في مرحلة لاحقة، دار الحريم إلى هذا المجمّع الفاخر، الذي ظلّ عرضة لإضافات مختلفة وفخمة حتى القرن التاسع عشر.

في هذه المرحلة شُيِّد القصران المتأخّران اللذان اتُّخذا مقرّين للسلاطين، وهما خير شاهدَيْن على التجديد الذي عرفته الهندسة المعماريّة التركيّة المتأثّرة بأوروبا. إنّهما قصر دُلمابهجت العائد إلى سنة ١٨٥٣ حيث استقرّ السلطان عبد المجيد، وقصر يلدز الذي سكنه عبد الحميد الثاني إبتداءً من سنة ١٨٧٧. هذا الخليط من الاستعارات المعماريّة الأجنبيّة والتقاليد المعماريّة المحليّة، الذي يميّز هذه المباني، يعكس، على مستوى المساكن الأميريّة، التحوّلات التي طبعت، في المرحلة الزمنيّة نفسها، مجمل المنشآت في مدينة اسطنبول. هنا أفسحت الأساليب الأوروبيّة، كالباروك (baroque) والروكوكو (rococo)، التي تأقلمت في القرن الثامن عشر، منذ إنشاء السُبل، كسبيلَي أحمد الثالث وطوفان، والمساجد، كمسجدَي نورعثمانية ولالِلي، أفسحت في المجال أمام البحث عن الحداثة. وهذا ما نشهد عليه، حتى اليوم، المباني المشيّدة في أواخر القرن التاسع عشر، والمحافظ عليها، في الشوارع الضاجّة بالحياة في غلطة وبيرا. وفي الوقت نفسه، تطوّرت بعض وجوه التنظيم المديني، الذي ما لبث أن اتّسع ليشمل مباني سكنيّة مشيّدة بأسلوب ريفيّ فاخر، وهي تُعرف بـ«يالي»، وتمتدّ بواجهاتها الخشبية على ضفّتي البوسفور حيث بُني بعضها على أعمدة.

بعد هذا التاريخ العثماني الطويل الذي تشهد عليه لبقايا الهندسيّة المتعدّدة، توقّفت اسطنبول، في ١٣ يلول ١٩٢٣، عن أن تكون عاصمة للجمهوريّة التركيّة لجديدة، وحلّت محلّها مدينة أنقره. ومع ذلك، ستمرّت المدينة مرفأً كبيراً، على خطّ العبور البحري ين البحر الأسود وبحر مرمرة، المنفتح بدوره على لبحر المتوسّط. كما استمرّت مركز نشاط تجاريّ، مركزاً ثقافيًّا وفنيًّا من الطراز الأوّل، يشتمل مثلاً على جامعات حديثة عدّة. ظلّت اسطنبول، التي يقارب عدد سكانها الثلاثة ملايين نسمة، تتوسّع، بخاصةٍ بعد بناء جسر على البوسفور، ما أتاح بناء أحياء سكنيّة جديدة على ضفّته الأسيوية.

◄ راجع المستندات ٢٦-٢٧، و٨٢-٨٦.

لأسطول ← الأساطيل البحريّة الإسلاميّة.

لاسفندياريّون، أو اسفنديارو أغوللري، أو لجنداريّون، ٦٩٠-٨٦٥هـ/١٢٩١-١٤٦١م، سلالة ن البكوات التركمان من زمن الإمارات، حكمت في لقسم الشمالي - الغربي من الأناضول. ظهر هؤلاء لأمراء على الساحة السياسيّة زمن الاستيلاء على سطموني (عاصمتهم المستقبليّة)، على يد يمان جاندار أو تشندر، وهذا اللقب الأخير يفسّر تسمية جنداريّين أو تشنداريّين التي أطلقت أحيانًا على هذه لسلالة. وكانت فضيلتهم الرئيسة هي الحفاظ على لسلطة، حتى بعد انقضاء القرن الثامن الهجري/الرابع شر الميلادي، في هذه المنطقة من البنطس، فلاغونيا لقديمة، الغنيّة بالموارد الزراعيّة، والمنجميّة خاصة، حيث إنّهم تفاهموا مع العثمانيّين، في سبيل الصمود طريقة أفضل أمام أطماع جيرانهم الأقوياء، هؤلاء لعثمانيّين الذين سيتغلّبون عليهم بعد مدّة قليلة.

بعد أن استعادت عائلتهم العرش في ٨٠٥هـ/ ١٤٠١م، على أثر انتصار تيمورلنك في معركة أنقره على بايزيد الأوّل يلدريم الذي كان قد أخضعهم في ٧٩٠هـ/١٣٩٣م، لم يتنازلوا كليًّا عن أراضيهم - التي كانت تمتدّ من بولو وقلعة تشانكيري حتّى شواطئ لبحر الأسود، حول سينوب وسمسون - إلّا لمحمّد الثاني الفاتح بعد دخوله القسطنطينيّة. إنّ أبرز منشآتهم العمرانيّة، كما تشهد على ذلك مباني الأمير اسماعيل بك في قسطموني، مع جامع وضريح ومدرسة و«عمارة» وخان وحمام كبير، تنتمي من حيث الأسلوب الهندسي إلى بدايات الفن العثماني. فضّل خلفاؤهم أن يُسمّوا «قزل أحمدلو».

◄ راجع المستندين ٢٢ و٢٧.

الإسكندر الكبير، شخصٌ ذُكر في القرآن الكريم على أنّه ذو القرنيْن.

وفاق رواية وردت في القرآن (سورة الكهف، الآية ٨٣ وما بعد)، بنى ذو القرنين، دفاعًا عن شعب مقهور، جدارًا معدًّا لإيقاف [زحف] يأجوج ومأجوج. كما أنّه قال بثواب الذين سيؤمنون، من دون أن تُطلق عليه في التقليد الإسلامي القديم صفة النبوّة.

في مستهلّ القرن السادس الهجريّ/الثاني عشر الميلادي، تحوّلت شخصيته الأسطوريّة - كما تفيد آثار نظامي الشعرية، المكتوبة بالفارسية والمستلهمة من أحداث «قصّة الإسكندر» - إلى بطل إسلاميّ، مقاتل شهم وأميرٍ نموذجيّ، خليق بزهده وحكمته لأن يرتقي إلى مكانة نبيّ. منذ ذلك العهد الذي شهد ازدهار «تكريم الأولياء»، نجد في دليل الهَرَوي مزارات باسمه أقيمت في مصر وسوريا والمنطقة العليا من بلاد ما بين النهرين.

إسكندرون (سَنْجق)، أو إيالة هَتاي الحاليّة في إطار الجمهورية التركيّة، لواءٌ أدّى إلحاقه النهائي بهذا البلد عام ١٩٣٩، بعد خمسة عشر عامًا من الانتداب الفرنسي تقريبًا، إلى تغييره في العمق من دون أن تسوّى فيه مسألة الأقليات.

إنّ هذه المنطقة التي رُسمت حدودها بعد الحرب العالميّة الأولى، في معاهدة لوزان عام ١٩٢٣، كانت تضايق مقاطعة فُصلت عن أمبراطوريّة العثمانيّين لتُضمّ إلى سوريا الواقعة تحت الانتداب، وهذا رغم السِّمة التركية الغالبة لسكانها ولغتهم التركيّة. وقد اعتُرف بهذه السمة يومئذٍ، اذ استمرّ استعمال اللغة التركيّة، وكذلك وجود موظفين من الأتراك [في المنطقة]. كان

السكّان الأصليّون هنالك الذين تعرّبوا وأسلموا منذ الفتوحات الكبرى، وهم في أكثريتهم سنيّون، قد لازموا تلك البلاد، إلى جانب مجموعات عربيّة وأرمنيّة بقيت على مسيحيّتها، وبخاصة مجموعات نصيريّة كانت تسمية «العلويّين» غالبة عليها.

إنّ التخلّي عن السنجق لتركيا، عقب مظاهرات أخذت تتّسع إبتداءً من العام ١٩٣٠ ومفاوضات فرنسيّة-تركيّة سبقها اتّفاق جنيف المعقود في عصبة الأمم عام ١٩٣٧، استتبع، على الفور، هجرة قسم من السكّان، بخاصة الأرمن والعرب المسيحيّين والعلويّين. مع ذلك، خلّف العلويّون وراءهم، بعد أن خسروا ثلثي عددهم، مجموعة مهمّة (عشر السكّان، تقريبًا) تكفي ليبقى الوضع الداخليّ متأثّرًا بها. على هؤلاء تُطلق تسمية علوي، ومعارضتهم للسلطة المركزيّة نزداد بسبب المصاعب الاقتصاديّة في منطقة محاطة بالحدود السوريّة وذات نشاط ضعيف، بحيث أنّ الازدهار النسبيّ لمرفإ الإسكندرونة لا يعوّض الركود الذي يضرب أنطاكية.

الإسكندرونة (الجمهوريّة التركيّة)، في الفرنسيّة Alexandrette، مدينة مرفئيّة في داخل الخليج الذي يحمل الاسم نفسه، تحميها جبال الأمانوس الساحليّة، أصبحت عاصمةً لمقاطعة هاتاي، سنجق الإسكندرون القديم.

إنّ التاريخ المعاصر لهذا التجمّع التجاري والصناعي فرضته جزئيًّا المشكلات العرقيّة والدينيّة، العائدة إلى الاختلاف اللغوي لسكّانها الذين هم مزيج من الأتراك والعرب، وكذلك إلى وجود النصيريّة، المعروفين باسم العلويّين الذين يرتبط ممثّلوهم بعلاقات مع العلويّين في سوريا.

إن هذه المنطقة، التي كانت في القرون الوسطى جزءًا من الأمبراطوريّة العربيّة-الإسلاميّة منذ الفتوحات الكبرى، والتي وجدت نفسها ملحقةً، منذ العهد الأموي، بأرض قنسرين، قبل أن تنتسب إلى «الأطراف الحدودية»، لم تتمكّن إطلاقًا من أن تتطور بنشاط. ففضلاً عن أنّها تفتقر إلى عمق يسمح لها بالإفادة من واقعها الشاطئيّ، كانت أيضًا تتأذّى بفعل التدمير المتتالي الذي أنزلته بها الحروب العربيّة البيزنطيّة حتّى العهد الصليبي. وفي مرحلة لاحقة، لم تتمكّن من أن تستفيد من دورها المرفئيّ كمنفذ تجاري لمدينة حلب في سوريا، وهي مرفأ في كامل نموّه، ولكن يصعب الوصول إليه بسبب التضاريس. أخيرًا تميّز مصيرها، بعد زوال الأمبراطوريّة العثمانيّة، بالتنازع عليها من قبل الدولتين المعاصرتين المجاورتين، سوريا وتركيا، فلم تحقّق الازدهار المرجوّ، حتى بعد ضمّها نهائيًّا إلى تركيا في ١٩٣٩، وتحسين بُناها المدنيّة والبحريّة.

الإسكندريّة (جمهوريّة مصر العربيّة)، مدينة مرفئيّة تقع شمال غربي دلتا النيل، وتشير حيويّتها الراهنة كحاضرة منفتحة على التجارة العالميّة وكمدينة تجذب الجاليات الأجنبيّة، إلى أنّها بقيت، منذ بدايات الإسلام، أمينة على ما كانت عليه، وأنّها ورثت نشاطها التجاري من العهود القديمة.

هذه المدينة القائمة على تخطيط منتظم أسّسها الاسكندر الكبير سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، وقد جُعلت في ثمانية شوارع واسعة تقطعها ثمانية طرق مستقيمة، وهذا ما بهر المحاربين العرب المسلمين خلال الفتوحات الكبرى، بعدما فتحوها سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م، واضطرّوا إلى فتحها مجدّدًا سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م في أعقاب هجوم بيزنطي معاكس. وكانت أحياؤها الفخمة ترتبط، عن طريق سدّ بجزيرة فاروس التي ارتفعت في آخرها المنارة الكبيرة وقد اعتُبرت المنارة إحدى عجائب الدنيا التي طالما أثنى عليها أدباء القرون الوسطى، إذ إنّ انهيارها الكامل لم يقع إلّا في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد وكانت الجزيرة تحمي مرفأً مزدوجًا، حافظ على نشاطه التجاري بعد الإحتلال الذي أبقى القسم الشرقي من المرفإ في أيدي المسيحيّين وجعل القسم الغربي مرفأً حربيًّا للمسلمين. وجاء هذا الوضع مختلفًا عمّا تحوّلت إليه المدن البحريّة الأخرى في الشرق، إذ ضُمّت إلى العالم الإسلامي وغدت أماكن محصّنة في الحرب مع بيزنطية.

لقد حافظت الإسكندريّة في العهد الأموي وأوائل العصر العبّاسي على دور مزدوج، فكانت قاعدة بحرية

حربيّة مجهَّزة بترسانة لصناعة السفن وترميمها، كما كانت ملتقى المراكب التجاريّة. وبدت المدينة في ذلك العهد بمظهر هندسي طالما تحدّث عنه المؤرِّخون بإعجاب، كما رُمِّمت فيها أبنية قديمة لاستعمالها مجدَّدًا. وقد بنى فيها عمرو بن العاص المسجد الجامع، وأحيطت بعد ذلك بسور يعود الفضل في إنجاز قسم كبير منه إلى الخليفة العباسيّ المتوكّل، وقد رُفع السور لحماية المدينة من الهجمات البحريّة على الأخصّ. أمّا الحكام الذين توالوا على حكمها واستقرّوا فيها فقد ظلّوا حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مستقلّين عن ولاة مصر.

مع الخلافة الفاطميّة عرف مرفأ الاسكندرية بمجمله نهضة جديدة، ساعد على قيامها تزايد النشاط التجاري والعلاقات المتواصلة مع الغرب الإسلامي وغير الإسلامي، خصوصًا مع المدن الإيطاليّة، كما تكثّفت الحركة التجاريّة في عهد الصليبيّين وفي ظلّ حكم المماليك. فبشهادة الرحّالة إبن بطوطة، كانت الإسكندريّة، في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، من أهم المرافئ في العالم، تقع على ملتقى طرق يسهّل نقل البضائع بين جنوب الجزيرة العربيّة والهند والشرق الأقصى من جهة، وأوروبا المسيحيّة والمغرب من جهة ثانية. وقد خُصِّصت الفنادق للتجّار الأجانب الذين لم يكن لهم الحقّ في الانتقال إلى البحر الأحمر حيث كان تجار التوابل من المسلمين يؤمِّنون نقل البضائع. وكلّ ما كان يمرّ عبر المدينة كان يخضع فور إنزاله للرسوم الجمركيّة التي تختلف نسبها باختلاف المصدر ودين صاحب السلع ومكان إقامته، إذ قد يكون من أبناء البلاد الإسلامية كما قد يكون غريبًا عابرًا، وهذا ما دوّنه الرحالة إبن جُبير وحفظه في رحلته خلال القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. وكان البهار والتوابل بعامّة من السلع الرائجة وكذلك المرجان. وكان جهاز خاص من الدولة مكلّفًا ببيع التجّار المسلمين السلَع المستوردة، في حين أن جهازًا آخر من قبل الدولة أيضًا كان يؤمِّن تصريف السلع التي يتّخذ تصديرها صفة الاحتكار. من تلك السلع نذكر حجر الشبّ الذي كان مطلوبًا بكثرة في الغرب، وكذلك النسيج على أنواعه ومنه المقصَّب أو البروكار، وكذلك المطرَّز وهي من الأنواع التي تجهّز في مشاغل الدولة.

والإسكندريّة التي حافظت قلعتها على هيبتها حتى العهد العثماني، كانت كذلك مركزًا فكريًّا ودينيًّا، وفيها ازدهرت مدرسة المذهب المالكي، بفعل العلاقات البحريّة مع أفريقيا الشماليّة. ومع انتهاء عصر الفاطميّين الذين نشروا العقيدة الشيعيّة بناءً على الدعوة الإسماعيليّة، تأسّست مدرستان سنيّتان جاءتا تكمِّلان الأبنية التي شيّدها صلاح الدين لاستقبال العلماء المغاربة، وتكاثرت المدارس في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، بفضل المؤسَّسات التي أقامها عدد من التجّار الأغنياء. ومقابل ذلك، لا نعرف بوضوح تواريخ مساجد المدينة التي حلّت بأكثريتها مكان كنائس قديمة. نذكر أخيرًا أنّ الإسكندريّة عرفت عددًا كبيرًا من الرباطات التي كانت، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، أمكنة اختلاء أو تعليم يقصدها العلماء والأتقياء.

والاسكندريّة التي لم تعد تشكّل المرفأ الذي يتحكّم بحركة التجارة في البحر الأحمر، بعد إنجاز قناة السويس في أواخر القرن التاسع عشر، بقيت مع ذلك محافظة على أهميّتها البحريّة والتجاريّة في العصر الحديث، كما أن عدد سكانها يتزايد باستمرار.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ٢٠ و٢٥.

أُسكودار (الجمهوريّة التركيّة)، تسمية تركيّة للضاحية البيزنطيّة «سكوتاري» قديمًا، كانت تقع في مواجهة القسطنطينية، على الضفة الأسيويّة من البوسفور، واستمرّت في التنامي، بعد الفتح العثماني وانطلاق اسطنبول.

يطابق ذاك الموضع كريزوپوليس القديمة التي اجتيحت غير مرّة، في حين أنّ القسطنطينيّة قاومت، في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، الحصار المتكرّر للجيوش العربيّة - الإسلاميّة. احتُلّت سكوتاري - التي لا يزال أصل تسميتها غامضًا - من قِبَل طلائع العثمانيّين بُعيد نيقيا/ازنيك، أي نحو عام ٧٣١هـ/١٣٣١م، واشتُهرت بصفتها مقرًّا للحياة

النسكيّة، فعُرفت بخوانقها الصوفيّة الكثيرة. بعد سقوط القسطنطينيّة عام ١٤٥٣م، تحوّلت إلى مركز مهم للأنشطة التجاريّة، على مخرج طرق القوافل في الأناضول، وشُيّدت فيها خانات. شيّدت فيها أيضًا مساجد أبرزها، من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، بمبادرة من نساء الحريم السلطاني اللواتي كنّ في أكثر الأحيان أمّهات ملوك غدون سلطانات وليدة وفاق وضعهنّ الشرعيّ الإسلامي المعروف بأُمّ الولد. كما أُقيمت فيها أبرز مدافن العاصمة.

حافظت أُسكودار في المرحلة الحديثة، لفترة أطول من اسطنبول، على السحر القديم لمشاهدها الطبيعيّة، رغم تحوّلها رصيفًا للمراكب الآتية من الساحل الأوروبيّ، ما أدّى إلى توجّهها، في القرن التاسع عشر، نحوّ التجارة. لكنّ الازدهار الناجم عن ذلك الوضع انحسر، مؤخّرًا، لمصلحة ضاحية أسيوية أخرى تقع على شاطئ البوسفور، أكثر قربًا إلى الشرق، على مقربة من الجسر الذي بات يتيح عبور المضيق.

◄ راجع المستند رقم ٨٣.

الإسلام، اسم تراد به، في نصّ القرآن، الديانة التي دعا إليها النبي محمّد (ﷺ) في القرن السابع الميلادي، وأخذ يدلّ في ما بعد، في البلاد الغربيّة، على العالم الذي انتشرت فيه هذه الديانة عبر العصور، وعلى الحضارة التي نشأت فيه.

نقرأ في إحدى الآيات ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٩)؛ وفي آية أخرى تبدو أوفى دلالةً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة، الآية ٣). إنّ المصطلح العربي الوارد في الآيتين، والذي يعني لغويًا «الخضوع لله»، يظهر دائمًا وكأنّه الفكرة-المفتاح للدعوة الجديدة، بينما لفظة مسلم (جمعها مسلمون)، وهو اسم الفاعل من المصطلح السابق، كانت تُطلق على الذين قبلوا الإسلام، ومنه تولّد مصطلح «Musulman» بالفرنسيّة.

هذا المفهوم البسيط للإسلام، الذي يقود إلى الإقرار الإيماني الصريح بالشهادة، وإلى التزام الواجبات التي يفرضها الشرع، يتناقض مع الإيمان، الذي هو قبول داخلي بالديانة. وبالتالي، يمكن وجود إسلام من دون إيمان. وهذه حال المنافقين الذين رفضهم الإسلام في أزمنة مختلفة، بدءًا بعهد النبي محمد (ﷺ). لكن بوجه عام، يتحدّد الإسلام كديانة بالانتماء إلى عقيدة حدّدتها شيئًا فشيئًا المدارسُ الفقهيّة المتعدّدة وبالمحافظة على شريعة تجمع قواعد اجتماعية وموجبات شعائرية. هذه الشريعة كانت موضوع التفكير المستمرّ لدى المتخصّصين بالفقه أو الفقهاء المنتظمين في مدارس فقهيّة مختلفة.

ويتميّز الإسلام أيضًا باستمراريّة أخلاقيّة تبدو صعبة التحديد، ومع ذلك، فإنّ تأثيرها ساهم في بلورة معنى توحيدي للكثير من المواقف الشخصيّة. هكذا ساهم الإسلام في توليد مفهوم للجماعة، تأسّس خلال الحقب الأولى من تطوره، ولم يتوقّف عن الهيمنة لاحقًا على تاريخه، رغم الشروح الكثيرة التي تناولته والانقسامات التي نشأت عن وجود الفرق المختلفة.

هذه الجماعة، التي يوحّدها شعور بالتضامن يؤمّن لها اللحمة الداخلية، كانت في الواقع وبموجب فرض الجهاد، الأداة الفُضلى لنشر الديانة الجديدة، وقد أدّت لاحقًا إلى نشوء دول جديدة، وأمبراطوريات فاتحة. وقد ساعد على ذلك واجب الجهاد أو الحرب المشروعة وهكذا إذًا ظهر البعد الشاسع، الجغرافي والسياسي، «لمدى» إسلاميّ؛ حدّد بدوره تطوّر الإسلام، في واقعه الاجتماعي-السياسي، كما في خصوصيّته الدينية التي أثّرت فيها بعمق الخلافات المتعلّقة بانتقال السلطة وتنظيمها. وسبق أن ذكرنا أنّ السلالات المتخاصمة دافع كلّ منها عن مطامحه الخاصة التاريخيّة وجسّد في دول متمايزة، الذهنيةَ المشايعة التي تستلهمها. ولكنّ العالم الإسلامي نفسه، الذي كان قد نشأ من توحيد بلدان متنوّعة السكان وذات تاريخ مختلف، لم يتوقّف عن معاناة نتائج اتجاهات هذه البلدان المستمرّة نحو الانفصال. لقد عرف الإسلام عبر العصور تحوّلات سياسيّة واجتماعيّة كثيرة، أثّرت في الشرق الأوسط العربي-الإسلامي، الذي بقي دائمًا قلب العالم الإسلامي، كما في المقاطعات البعيدة حيث تمّ تفاعل عبر الاحتكاك بتقاليد غريبة، أدّى إلى إنجازات مختلفة

جدًّا عمّا تحقّق سابقًا. وهكذا نشأت، على أنقاض الأمبراطوريات الأولى الموحّدة الناتجة عن الفتوحات العربيّة، ممالكُ أقلّ اتساعًا، إتّخذت، لأسباب إقتصاديّة وبالنظر إلى أطماع السلالات، أحجامًا مختلفة، بدءًا من الإمارة الصغيرة المستقلة الملتفّة حول أميرها المحلي، وصولًا إلى التجمّع الهش لمقاطعات جمعها بالقوة فاتح محظوظ.

«وفي الوقت نفسه، لم تتوقّف عن التداخل عناصر تمايُز جديدة، عائدة خاصة إلى دخول سلمي بطيء أو إلى غزوات عنيفة قامت بها شعوب غير عربيّة خارجة من السهوب الأسيويّة أو من الصحارى الأفريقيّة، كانت مستعدّة في غالب الأحيان للأسلمة بسرعة، ومع ذلك كانت تغيّر بظهورها أوضاع التوازن السابق. ونحن نعرف مدى تأثير دخول الأتراك البطيء في تحويل سيماء الدولة العبّاسيّة، سواء في مقاطعاتها البعيدة أو في حواضرها العراقيّة. إنّ وصول هؤلاء الأتراك إلى السلطة، آتين بقوّة من آسيا الوسطى إلى إيران، ولّد نتائج أكثر وضوحًا، إزدادت شدّتها كلّما ضُمّت إلى ديار الإسلام أراضٍ جديدة، كالأناضول في عهد السلاجقة، وأوروبا البلقانيّة في العهد العثماني، وكلّما ظهر تغيُّر عميق في المجتمع الإسلامي بفعل الاتصال بعادات جديدة وأنماط حياة مختلفة. والتدمير المتلاحق الذي أحدثته موجات الفتوحات مع جنكيزخان أوّلاً، ثمّ مع مغامرة تيمورلنك الوحشيّة، لم تكن له نتائج أقلّ تأثيرًا. وفي حين كانت إيران، المنفتحة بشكل واسع منذ ذلك الوقت على التأثيرات الأسيوية، وجدت من جهة الغرب حدودها قد اختفت منذ قرون؛ بينما أخذت تتحوّل من جديد الى سهوب، بفعل التخريب الذي تسبّب به التركمان، أراضٍ مزروعة عاشت عليها سابقًا أجيال من الحضر.

«إنّ إغفال النتائج المباشرة لمثل هذه الاضطرابات التي زادت في حدّتها الصراعات بين الدول الإسلاميّة، يعني نفيًا لأيّة قيمة للأحداث التاريخيّة. من دون أن ننسى التوتّر الدائم الناتج عن مجابهة العالم الإسلامي مع الغرب المسيحي ومشاريعه الطموحة أوّلاً، ثمّ مع أوروبا التجاريّة والصناعيّة لاحقًا. كان هناك مشاريع عسكريّة كالحروب الصليبيّة في الشرق أو استرجاع إسبانيا وحوض الدانوب في أوروبا، ومشاريع تجاريّة أيضًا، مرافقة لنموّ التجارة الإيطاليّة والفرنسيّة التي ثبّتت أقدامها شيئًا فشيئًا في «أساكل» [مرافئ] المشرق، وأخيرًا مشاريع استعماريّة لم تزل واضحة النتائج، وهي وراء ردّات الفعل الحاليّة في بعض البلدان الإسلاميّة.

«هذه الظروف المتنوّعة، التي أتاحت لأشكال معيّنة من المجتمعات التجذّر في هذه المنطقة أو تلك، والازدهارَ والتعبير عن ذاتها بآثار ممهورة بخاتمها، يقابلها عدد كثير من الثقافات المحليّة التي لم يَحُلْ طابعها الإسلامي دون تجذّرها بشكل عميق في الزمان والمكان. فالإسلام التركي في الحقبة العثمانيّة، والإيراني في ظلّ السلالة الصفويّة، والهندي على عهد المغول الكبار، وهي أمثلة يعرفها الجميع، أنتج أعمالاً إبداعيّة تحتلّ فيها الديانة الإسلاميّة موقع الصدارة، ولكنّها لا تمنع تأثير تيارات أخرى ذات طابع خاص، مميّز، إلى حدّ بعيد. وقريبًا منّا، جاءت مشاكل الدول الإسلاميّة الحديثة، لتبرهن على إمكانات تطوّر المبادئ وطرق الحياة التي نخطئ إن ظننّا أنها لا تُمَسّ» (د. وج سورديل، **حضارة الإسلام الكلاسيكي**).

الإسلام (صورته وتأثيره في أوروبا في القرون الوسطى)، صورة في تطوّر دائم عانت، في شكل مستمرّ، حتّى القرن السادس عشر، من ارتدادات العلاقات ولا سيّما العسكريّة منها، هذه العلاقات التي غالبًا ما كانت تتفاقم على الصعيد الديني، لكنّها مارست على الفكر الأوروبي تأثيرًا عميقًا في مجالين زمنيّين هما العلوم والفلسفة.

١- كان الغرب الأوروبي، في القرون الوسطى، في مواجهة مستديمة تقريبًا مع الإسلام. فالمواجهات العسكريّة لم تتوقّف في شبه الجزيرة الإيبريّة منذ مطلع القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، حتّى نهاية مملكة غرناطة في ٨٩٨هـ/١٤٩٢م. كانت المواجهات مرحليّة في صقليّة، التي احتلّها العرب من ٢١٦هـ/٨٣١م إلى ٤٦٤هـ/١٠٧٢م، وكذلك في إيطاليا الجنوبيّة. وتجدّدت المواجهات في الشرق على عهد الصليبيّين (٤٨٨-٦٩٠هـ/ ١٠٩٥-١٢٩١)، بينما الأمبراطوريّة

البيزنطيّة، التي هوجمت منذ نهاية القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، بدأت تتقلّص في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تحت ضربات الأتراك، وزالت في ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. ثمّ في القرن الخامس عشر، بدأت أمبراطوريّة العثمانيّين بالتوسّع في البلقان وفي سهول الدانوب، ولم تتمكّن هذه المناطق من التخلّص بشكل كامل من هذه السيطرة قبل نهاية القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين. هذا الوضع، الذي هو مزيج من الحروب المقتعة والصراعات العنيفة، دفع بمسيحيي أوروبا الغربيّة إلى التعرّف إلى الإسلام، لمحاربته كديانة في بداية الأمر، ولاحقًا لمحاولة جذب أتباعه إليهم؛ بينما قويت علاقاتهم بالبلدان الإسلاميّة، التي كانت محدودة في البدء، منذ أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، لتطال الميادين الثقافيّة في مجال الفكر والعلوم. وخارج المسألة الخاصة بالنشاط التجاري، مرّ موقف الغربيّين في مواجهة الإسلام، خلال الحقبات التي سبقت عصر النهضة الأوروبيّة، بمراحل متلاحقة.

حتّى حوالى ٤٩٣هـ/١١٠٠م، سيطرت أوّلاً، على مواقف الغربيّين، ردود فعل دفاعيّة ضدّ أعداء كانت عقيدتهم مجهولة، غير واضحة بالنسبة إلى مسيحيّين اعتبروا أنّ القرآن، عندما عرفوه، مليء بالغموض، ونسبوا نصّه إلى رجل غريب التصرّفات. الحملة الصليبيّة الأولى التي تزامنت مع تراجع موازٍ للمسلمين على الأرض الأوروبيّة، طبعت بداية حقبة جديدة سعى خلالها علماء المسيحيّة اللاتينيّة إلى استقصاء أفضل عن الإسلام. فكُتبت عن «حياة محمّد»، في مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، مؤلّفات عدّة، أشهرها ما كتبه «غيبار دو نوجان» (Guibert de Nogent) الذي استند إلى معلومات شفويّة استقاها من الرحّالة وإلى بعض معلومات من كُتّاب بيزنطيّين. فكانت تختلط الأخبار الأسطوريّة بمعطيات مصدرها التراث الإسلامي. وإنّنا نجد آراءً كيفيّة وغير واقعيّة مماثلة في مؤلّفات أدبيّة كملحمة «نشيد رولان»، التي صوّرت المسلمين وثنيّين يعبدون ثلاثة آلهة: ترفغان ومحمّد وأبولون.

هذه المحاولات الأولى تبعتها محاولات بنّاءة أكثر واقعيّة. فبطرس الفونسي (Petrus Alfonsi)، وهو يهوديّ إسبانيّ اعتنق المسيحيّة في ٥٩٩هـ/١١٠٦م وأصبح، لاحقًا، طبيب هنري الأوّل ملك انكلترا، عرّف أوروبا ببعض الأساطير الشرقيّة وبوجوه مختلفة للعلوم العربيّة، وترك مختصرًا عن العقيدة الإسلاميّة كان الأكثر دقّةً بين ما كُتب في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. بعد فترة قصيرة، أبصرت النور أوّل ترجمة لاتينيّة للقرآن، وضعها روبير دو كتّون (Robert de Ketton)، بناء على طلب من أباتي دير كلوني، بيار لوفينيرابل (le Vénérable)، ترجمة برّرها هذا الأخير بضرورة محاربة البدع التي يأتي الإسلام في طليعتها.

ولكن، في القرن اللاّحق، بدأت ذهنيّة الأوروبيّين بالتغيّر، في الوقت الذي كانت فيه الآثار العلميّة والفلسفيّة موضوع ترجمة في إسبانيا بخاصة. وتوسّع أفق المفكّرين اللاتين في الواقع عندما اكتشفوا، إبّان الغزوات الآتية من آسيا الوسطى، وجود مسيحيّين أصيلين في هذه المناطق، حاولوا عقد حلف معهم ضدّ الإسلام. في ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، أرسل البابا أنوشنتيوس (Innocent) الرابع إلى الشرق، الفرنسيسكاني الإيطالي جان دوبلان كاربان (Jean de Plan Carpin) في مهمّة للاستقصاء عن وضعية المغول. بعد فترة قصيرة، أرسل الملك لويس التاسع، بعد هزيمته في مصر، الفرنسيسكاني الفلمنكي غليوم دو روبروك (Guillaume de Rubrouk) في مهمّة إلى بلاد المغول وصل فيها إلى عاصمة منغوليا، كاراكوروم في ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، وشارك في نقاش شهير بين ممثّلي الديانات الكبرى: المسيحيّة اللاتينيّة التي كان يدافع عنها، والمسيحيّة النسطوريّة، والبوذيّة والإسلام. التقرير الذي وضعه غليوم دو روبروك عن هذه المجادلة في مذكّرات رحلته، ونُشر خاصةً في إنكلترا، أثار اهتمام الفرنسيسكاني روجيه باكون (Bacon) (٦١١-٦٩٣هـ/١٢١٤-١٢٩٤م) الذي أدخل إلى دراسة الإسلام نظرة فلسفيّة.

وكذلك ظهر منذ ذلك الوقت، عندما بدأت نصوص عربيّة تصبح في متناول الدارسين من خلال

ترجمات في طليطلة، أنّ منهجيّة تفكير مشترك يمكن استخدامها من قبل مسيحيّين ومسلمين. فروجيه بيكون، في المقالات التي كتبها، بين ٦٦٤هـ و٦٦٧هـ/١٢٦٦م و١٢٦٨م، إلى البابا كليمنتوس الرابع، انتقد تصرّف المسيحيّين تجاه معتنقي الإسلام، وأدان الحملات العسكريّة، وأوصى باللجوء إلى التبشير الذي يفترض معرفة اللغات الشرقيّة ليؤدّي النتيجة المرجوّة، كما أوصى بالاطّلاع العميق على عقائد غير المسيحيّين وبالتمتّع بالقدرة على النقاش الصارم. وكان بيكون يأمل أن يحقّق النقاش، بحسب الطرق المنطقيّة للفلسفة، هداية غير المؤمنين الذين لم يكن بيكون يعتبر دورهم سلبيًّا بشكل قاطع. فبواسطة الفلسفة التي هي الحكمة الإلهيّة، يرى بيكون أنّ الإسلام يشارك في البحث عن الحقيقة؛ وكان يعتقد أنّه من الممكن، بشكل منهجي، دحض الأوجه المختلفة للعقيدة الإسلاميّة، وقد كرّس بنفسه لهذا الغرض مؤلّفًا من مؤلّفاته.

على أيّ حال، فإنّ الحقبة التي تلت أسلمة المغول وسقوط عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، طغى فيها التشاؤم على العلاقات بين المسيحيّة والإسلام. وضاع كلّ أمل في النصر على المسلمين منذ دخول المغول في الإسلام: فالكُتّاب الذين شاركوا روجيه بيكون وجهات نظره في ما يتعلّق بالبرهان العقلي عن حقيقة المسيحيّة وامكان إقناع المسلمين، كـ«ريموند لول» (Raimond Lulle) (٦٣٣-٧١٥هـ/١٢٣٥-١٣١٥) مثلاً، أدركوا أنّ مشروعهم بلا جدوى. والفلورنسي ريكولدو دي مونتكروتشي (Ricoldo de Montecroce)، الذي كان في بغداد سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م لإقامة علاقات مع المسيحيّين المحليّين، كتب دحضًا للقرآن جعل فيه الأمل في التقارب ضئيلاً. وثمّة رحّالة أوروبيّون آخرون من الذين زاروا الشرق، في مطلع القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، كانوا لا يرون مجالاً للنقاش مع المسلمين؛ وفي الحقبة نفسها، بدأ الغرب المسيحي ينظر بعين الشكّ إلى الفلسفة العربيّة.

كان القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، حقبة توسّعت فيها الأمبراطوريّة العثمانيّة في البلقان واحتلّت القسطنطينيّة، فشكّلت تهديدًا جديًّا.

وكانت ردّة الفعل بين المفكّرين الإنسانيّين ورجال الدولة متنوّعة. بعضهم - كجان دو سكوفي (Jean de Ségovie) الذي شارك في مجمع بال في ١٤٣٣م ورعى ترجمة جديدة للقرآن أكثر دقّة، تسمح باستخلاص أفضل للأفكار الأساسيّة الواردة في النص - قدّر أنّه ينبغي التخلّي عن الحملات العسكريّة والسعي إلى طرق سلميّة؛ والكاردينال الألماني نقولا دو كوزا (Nicolas de Cusa) (١٤٠١-١٤٦٤م)، كرّس نفسه، من جهته، لدراسة نقدية لعقيدة الإسلام عبر كتاب عنوانه «Cribatio Alchoran»؛ في المقابل، وفي الحقبة نفسها، كان الفرنسي جان جرمان (Germain)، أسقف شالون، لا يؤمن بحظوظ السلام مع المسلمين ويبشّر بتجديد الروحيّة الصليبيّة؛ أمّا الإيطالي إينياس سلفيوس (Aeneas Silvius) (١٤٠٤-١٤٦٤)، من مدرسة الفكر الأنسانوي، الذي أصبح في ما بعد البابا بيوس الثاني، والذي أرسل إليه جان دو سكوفي، كما إلى شخصين آخرين، رسائل تشرح برنامجه، فهو معروف خاصة بالرسالة التي وجّهها إلى السلطان محمّد الثاني سنة ١٤٦٠، بعد الاستيلاء على القسطنطينيّة. بأسلوب منمّق، واضح وحازم دافع فيها البابا دفاعًا عقلانيًّا عن المسيحيّة، حاثًّا السلطان على اعتناق هذه الديانة، مبرهنًا وجود نقاط مشتركة عدّة بين الديانتين، ومؤكّدًا أنّ الخلاف الوحيد يقوم حول طبيعة الله. وغني عن القول إنّ هذه الرسالة لم تترك أيّ أثر، وإنّ المسيحيّين الغربيّين استمرّوا يتساءلون عن الموقف الواجب اتّخاذه حيال أتباع ديانة تمكّنوا من الوصول إلى معرفة أفضل لها ولوضعيتها، ومع ذلك ظلّوا يعتبرونها شديدة الانحراف وبالغة الضرر، من دون أن يجدوا وسيلة لإزالة الخطر الذي تمثّله. هذه الرؤية المتشائمة للوضع لم تمنع، خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، من نشر أولى المحاولات لدراسة «علميّة» للغات بلاد الإسلام، تلتها دراسات لحضاراتها ودياناتها، وتهدف إلى تغذية الحركة التي دُعيت «إستشراقًا» والتي يمكن تحديد بداياتها في نهاية القرن الثامن عشر.

٢- إنّ التطوّر الذي عرفته، في السابق، «صورة معيّنة للإسلام»، وإن لم يتقبّلها المسيحيّون، أدّى إلى

معرفة هذه الصورة، تدريجيًا، بشكل أدقّ، وتاليًا إلى تأثير حقيقي للإسلام في البلاد المسيحيّة. ولم تكن هذه الصورة وليدة التفكير الفقهي - الديني، ولا نتيجة التقاليد في الأوساط الإسلاميّة حصرًا، بل أتت حصيلة بعض الأوجه الزمنيّة للحضارة التي اعترفت أوروبا الغربيّة بتفوّقها، لامتلاكها إرث حضارات العصور القديمة: هكذا انتقلت إليها، عبر كتابات العلماء المعاصرين أو الذين عاشوا في البلاد التي جرت أسلمتها - من أطباء، وعلماء فلك، وعلماء رياضيات وبعض المشتغلين بالفلسفة - ما كان هؤلاء الأشخاص - الذين غالبًا ما كانوا يتعرّضون لملاحقة علماء الدين، على الرغم من أنّهم كانوا يتمتّعون بحماية الحكّام وأصحاب النفوذ ومشجّعي العلوم - قد تعلّموه وأحيانًا أغنوه انطلاقًا ممّا ورثوه عن القدامى.

عمليًا، بدأ الغربيّون، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، الاهتمام بالعلوم وبالفلسفة التي تسمّى عربيّة، لأنّه جرى التعبير عنها في نصوص باللغة العربيّة، ولكنها كانت، بوجه عام، تشكّل جزءًا من ثقافة البلاد الإسلاميّة في تلك الحقبة. صحيح أنّ بعض الترجمات من العربيّة تمت في حوالى السنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م، وأنّ الرياضيّات العربيّة، بخاصة علم الفلك، كانت قد دُرست على يد جربرت دوريللي (Gerbert d'Aurilly)، الذي سيصبح البابا سيلفستر الثاني، وأنّ الطب العربي دخل إلى سالرنو في إيطاليا بفضل الشخص المعروف باسم قسطنطين الأفريقي، إلاّ أنّ هذه المحاولات بقيت فرديّة.

على العكس من ذلك كانت الحال في إسبانيا. فبعد نصف قرن من استعادة طليطلة في ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، بدأت حركة ترجمات واسعة، يعود الفضل فيها بنوع خاص إلى دومينيك كونديسالفي (Gundisalvi) الذي عمل بالاشتراك مع آفنديث (Avendeath)، وهو يهودي اعتنق المسيحيّة. بعد ذلك بقليل، أي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، جاء أيضًا إلى طليطلة العالِم الإيطالي جيرار دو كريمونا (de Crémone)، فاهتمّ بالكتابات العلميّة العربيّة. كما تمّ نقل العديد من النصوص التي تصعب نسبة ترجمتها إلى شخص محدّد. وفي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، تحقّقت أعمال جديدة من هذا النوع، بخاصة من قِبَل مايكل سكوت (Scott) الذي توفي سنة ١٢٣٦م في اسكوتلندا، بعدما مكث في طليطلة، ثمّ في صقلية حيث عمل للأمبراطور فردريك الثاني، نزولاً عند طلب ألفونس العاشر القشتالي.

بفضل هذا العمل المهمّ الذي جرى في نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وخلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، عرفت أوروبا في القرون الوسطى أهمّ العلوم والقضايا الفلسفيّة التي ازدهرت في بعض مناطق الأمبراطوريّة العبّاسيّة والدويلات التي انفصلت عنها. وإذا كان اعتماد الأرقام المسمّاة عربيّة عائدًا لتاجر بيزاني كان، على ما يبدو، على علاقة بالمسلمين في بجاية في الجزائر الحاليّة، فإنّ علم الفلك ازدهر في فرنسا وإنكلترا إنطلاقًا من الترجمات المشار إليها آنفًا. وفي الطب خاصة، حصلت تطوّرات ملحوظة في الغرب بفضل نشر دراسات بُدئ تعليم مضمونها في سالرنو وفي مونبلييه، بينما كان يتمّ تدريس الطلاب علم التشريح، ثمّ الجراحة التي كانت ممنوعة حتّى ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م. واستمرّت كتب الملخّصات العربيّة الطبيّة معتَمَدة لمدّة طويلة، إذ إنّ تلك العائدة للرازي وابن سينا كانت ما تزال تُطبع في القرنين التاسع والعاشر للهجرة/ الخامس عشر والسادس عشر للميلاد.

في الميدان الفلسفي، احتلّ فكر ابن سينا مكانًا مميّزًا، وحثّ الغربيّين على البحث في ماهيّة الله أو خلود النفس، وغذّى فكر «الأفلاطونيّين» كروجر بيكون (Bacon) في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ولكنّ صاحب التأثير الأعمق هو ابن رشد. فكتبه حول ما وراء الطبيعة لأرسطو يسّرت للعلماء اللاّتين فهمًا أفضل لهذه الفلسفة التي كانوا سابقًا لا يعرفون منها إلاّ الجزء المنطقي. وفي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، عُرفت الأرسطوطاليسيّة بفضل ابن رشد، فتمكّن اللاهوتيّون المسيحيّون من تَمَثّلها، بخاصة مع توما الأكويني (Thomas d'Aquin). وكانت آثار ابن رشد، فضلاً

عن ذلك، في أساس الحركة الخاصة التي دعيت الرشدية اللاتينية.

إسلام آباد (جمهورية باكستان الإسلامية)، مدينة حديثة لها طابع إداري، وهي العاصمة الجديدة للدولة الإسلامية التي نشأت إثر تقسيم الهند في ١٩٤٧، وخلفت كراتشي في هذا الدور، وقد تأسست عام ١٩٦٠ في جوار راولبندي.

الطابع الأبرز لهذا التأسيس، الذي يخضع من بعض وجوهه لأسباب تقنية واستراتيجية، هو من دون شك الاختيار الرمزي لهذا الإسم، «مدينة الإسلام»، الذي ينبغي أن نرى فيه برنامجًا سياسيًا حقيقيًا معبّرًا عن توجّه دولة باكستان نفسها. في الواقع، إنّ اسم إسلام آباد كان قد بدأ إطلاقه في القرن السابع عشر، على مدن عدّة من شبه الهضبة الهندية من قبل الحاكم المغولي أونگزيب الذي تميّز بحماسته لفرض تطبيق صارم للإسلام على أتباعه.

الإسلامي (التوجّه ـ)، مصطلح كان يُستعمل في نهاية القرن التاسع عشر للدلالة على الإسلام من حيث هو ديانة وحضارة، ولكنه اتّخذ حديثًا مفهومًا جديدًا للإسلام المناضل الأصولي التقليديّ التبشيريّ المتحمّس.

إنّ التوجّه الإسلامي الذي تدافع عنه جماعات تُدعى «إسلاميّين»، يقوم حاليًا على فرض تطبيق صارم لتعليمات القانون الديني أو الشريعة. يرى الإسلاميّون أنّ مبادئ الإيمان قد أهملتها بعض الحكومات الحديثة في البلدان الإسلامية، بخاصة تحت تأثير البلاد الأوروبيّة، والإيديولوجيّات الغربيّة والحركات الإصلاحيّة. الإسلاميّون يعظّمون الجهاد، في بلادهم نفسها، ضدّ المسلمين «السيّئين» والحكومات الفاسدة، بطريقة تسعى لتأسيس دولة إسلاميّة بحتة، إذا لزمت الضرورة ذلك. ومن جهة أخرى، وبطريقة أكثر تعميمًا، انّهم يعظّمون الجهاد ضدّ القيم الزمنيّة التي تسيطر على العالم غير الإسلامي. ويصرّون أيضًا، في غالب الأحيان، على قيام حكومة تكون مؤلّفةً من رجال دين، أي فقهاء، مكلّفين السهر على تطبيق الأفكار التي يدافعون عنها.

هناك الكثير من الشبه بين الإسلاميّين وحركة الإخوان المسلمين، يُمكن اعتبار الإسلاميّين امتدادًا، على مجمل العالم الإسلامي الحالي، لهذه الحركة الخاصة التي نشأت في الشرق الأوسط. بعض مناصريهم، الذين يوصفون في اللغة المتداولة بالأصوليّين، لا يتورّعون عن استعمال العنف، عند الاقتضاء، لتصفية الحكّام الذين لا يتبنّون مطالبهم التي تختلف بحسب البلدان. وإذا وُجدت أحيانًا بعض الفروق، العائدة مثلاً إلى تطبيق الحدّ أو العقاب الشرعي، بين ممثّلي هذه الإتّجاهات المختلفة، فهناك إجماع بما يخصّ وضع المرأة ولبس الحجاب الذي يتّخذ، بالنسبة الى هذا الوضع، قيمة شبه رمزيّة.

الأسماء الإسلامية للأشخاص، أسماء متنوّعة في طبيعتها وأصلها اللغوي، خضعت، خلال قرون، لقواعد نظام تداعي المعاني مستقىً من العادات العربيّة القديمة ومفروض كما هو على المجتمعات الإسلاميّة.

إنّ تداخل التأثيرات الحديثة، وبخاصة التحوّلات المعاصرة، التي أسهم فيها الغرب، لم تؤدِّ إلى تطوير نظام التسمية المعقّد الذي اعتُمد عند بداية الإسلام، إلّا في مرحلة متأخّرة؛ وفي كل الأحوال، تأثّر هذا التحوّل بالمجتمعات الإتنيّة والكيانات الوطنيّة الجديدة. كان هذا النظام قائمًا على أربعة أقسام متميّزة، تتعاقب بحسب قانون مفروض بدقّة: أولًا، **الكُنية** المبنيّة على أساس عبارتي **أبو** و**أُم** للدلالة على «أبي فلان» أو «أم فلان»؛ ثمّ، «الإسم» في حد ذاته الذي في إمكانه العودة إلى فئات عدة مختلفة، لكنّه يأتي دومًا إسمَ عَلَم لإنسان مُثبت بإحكام، وهو يوافق حاليًا الاسم الأول للشخص، بعده يأتي النَسَب الذي يبدأ بكلمة **ابن** أو **بنت**، بحسب تعلّق الأمر برجل أو إمرأة، والذي بإمكانه أن يشمل سلسلة قد تطول أو تقصر من أسماء الأجداد، غالبًا بحسب شهرة هؤلاء؛ أخيرًا، تأتي مختلف «مواصفات» النسبة التي تتجاوز تيسير التعرف إلى أصل الإنسان وعائلته، أي قبيلته أو عشيرته ومكان ولادته أو إقامته، إلى تحديد المدرسة الفقهيّة والفرقة والمهنة التي ينتمي إليها مثلًا.

هذه الأقسام الأربعة المتميّزة حيث الاستعمال العادي كان يسمح باختيار، غالبًا ما يكون عشوائيًا،

كانت تُدرج كاملة في سيرة الأشخاص أو في الشاهد على قبر، أي في كل مرة يراد التعريف بالفرد المقصود من دون إيهام. لكنّها كانت، بصورة عامّة، تُختصر، في الممارسة اليوميّة، فتؤدّي إلى لُبْس يجعل، حتى اليوم، من الصعب، وأحيانًا من المشكوك فيه، وضع المعاجم الأبجديّة المتعلّقة بالأشخاص في ماضي الإسلام واستعمالها.

يضاف إلى هذه الأقسام الأربعة بالمناسبة النبْز وخاصّة اللّقب (أي صفة الشرف)، والاثنان يشكّلان علامات التعريف الأكثر وضوحًا. فاللّقب، بخاصة، وهو المرتبط بالمركز أو المرتبة عندما يكون الأمر متعلّقًا بأناس يتمتّعون بألقاب رسميّة أو شبه رسميّة، ولّد تسميات استعملت بغزارة. هنا أيضًا تطوّر الاستعمال بمرور الأيّام: في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، وحدهم الخلفاء حملوا، مثلًا، ألقابًا ملكيّة، بينما برزت، بدءًا من القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، الألقاب في محيطهم، أوّلًا مضافة إلى كلمة «دولة» ثم «دين»، وما فتئت أن تعدّدت. في هذا الموضوع، كانت مبادرات الإدارة الديوانيّة في الخلافة، في ما خصّ إعطاء الألقاب، تتطوّر زمنيًّا بدقة متناهية، آخذةً في الاعتبار المناسبات التاريخيّة والتراتبيّة السياسيّة، على الرغم من تضخّم مستمرّ للصيغ المستعملة وتراجع للاعتبار الموازي لها.

إنّ التبديلات المعتمدة في اختيار التسميات لم تتناول الأوساط الحاكمة وحسب. فثمّةَ قواعد مقرّرة، كانت تفرض نفسها، بحسب الأماكن والحقبات، للتسميات الأكثر شيوعًا. والكنى ذات القيمة الإعتباريّة أصبحت مثلًا تستعمل استثارةً لذكريات تاريخيّة تدلّ عليها، أو لأسباب أخرى ظرفيّة. كذلك، ظهرت أنساب اصطلاحيّة في ظروف أخرى، مثل ابن عبدالله الذي درج استعماله للعديد من معتنقي الإسلام الجدد. في الوقت عينه، تطوّرت الأسماء نفسها التي كانت تُستعمل قديمًا في المجال العربي-الإسلامي، أكانت عربيّة الأصل، أو توراتيّة أو أسماء تدخل في تركيبها كلمة الله - على غرار عبدالله - أو أيّ من الأسماء الإلهية الموقّرة. بطبيعة الحال، إنّ التقوى الإسلاميّة لم تنفك تفضّل الأسماء التي حملها النبيّ محمّد (ﷺ) وعائلته وأشهر صحابته، والأسماء التي اشتُقّت لمديح نبيّ الإسلام مثل أحمد أو مصطفى. لكنّهم ظلّوا أوفياء للأسماء التي تدلّ طوعًا على تبعيّة المؤمن تجاه الله، مثل الأسماء التي تدخل في تركيبها لفظة «الله» أو إحدى صفاته، كعبدالله أو عبد الرّحْمٰن. في غضون ذلك، ظهرت الأسماء الفارسيّة المقتبسة من الأساطير الإيرانيّة، والأسماء البربريّة والتركيّة، وبشكل أعمّ، الأسماء العائدة إلى المجموعات الإثنيّة واللغويّة المتسرّبة إلى أرض الإسلام، وقد أُضيفت كلّها إلى المجموعة الأولى العربيّة بسبكها في القالب المعقّد لنظام التسمية الإسلامي.

وترافقت الحركة مع تبنّي أشكال جديدة لأسماء السَلَف. فمراعاة للنسبة استُعملت كلمات مثل زاده بالفارسيّة أو أوغلو بالتركيّة، وفي المناطق النائية اعتُمد جمعُ أسماء عدّة معًا. في هذا الوقت، برزت، في خيارات تدلّ على مفاهيم معيّنة - مثل رواج بعض الأسماء العَلَويّة الشهيرة - آثار الانقسامات الكبرى السياسيّة-الدينيّة التي ميّزت التاريخ الإسلامي. حتى إنّ النسبة تطوّرت بحسب المجتمعات اللغويّة - كأن خسرت مثلًا «ألْ» التعريف في الفارسيّة أو هي تميّزت بخاتمة «لي» بالتركيّة - بينما كان للنحو التركي تأثير في تعديل كامل للنظام العربي الأصلي. أخيرًا، ساهمت ضرورات الحقبة المعاصرة المُشبعة بالتأثير الغربي في إدخال تعديل جذري على العادات القديمة ليحلّ محلّها إسم العائلة والإسم الشخصيّ، تجاوبًا مع قواعد الأحوال الشخصيّة المعتمدة حديثًا في البلدان الإسلاميّة. فاختيار أسماء عائليّة حصل بالاستعانة، غالبًا من دون تعمّد، بسلاسل التسميات المستعملة، مع بعض الإضافات التي تدلّ على خصائص كلّ لغة أو شعب معني. أمّا اختيار الأسماء الأولى، فتسيطر عليه صبغة إسلاميّة نمطيّة.

الأسماء الإلهية، صفات تنطبق على الله، يذكرها القرآن الكريم على أنها **«الأسماء الحسنى»**، وعددها، بحسب الحديث، تسعة وتسعون أسمًا.

اللائحة النموذجيّة الموضوعة انطلاقًا من النص القرآني والمشروحة في التفسيرات تحوي بعض

الاختلافات، وهي تشكل إحدى قواعد التقوى الإسلاميّة. تُستعمل للتلاوة الفرديّة وبواسطة السبحة؛ لكن، بالنسبة إلى المتشدّدين على غرار الوهّابيّين، يعتبر الأمر بدعة ويستحق اللوم. في الواقع، إن الصوفيّين هم الذين يعتمدون، في ممارساتهم الروحيّة المسمّاة الذِكْر، على الأسماء الإلهيّة دعمًا لتأمّلاتهم وبحثهم عن الاتحاد الإنتشائي.

لعدد من هذه الصفات ما يوازيها في لغات ساميّة أخرى. حاول المستشرقون، من دون نجاح كبير، تحديد «الأسماء» الأقدم التي كانت تُستعمل، قبل الإسلام، في بعض النُصب على غرار صفة «الرحيم» التي يعطيها دورها في الشهادة الأولى المسماة البَسْمَلة أهميّة خاصة. فضلًا عن ذلك، إنّ التنوّع في المفاهيم التي تستدعيها هذه الصفات كبير: إذا كان الله هو الرَحْمٰن الرحيم، فهو أيضًا الحيّ القيّوم (القرآن، سورة البقرة، الآية ٢٥٥) أي مبدأ الحياة في الكون؛ هو العزيز، الصَمَد، العليّ، العَليم، السَميع البَصير، الكريم، الحكيم، العادل، الحقّ... مثل هذه الأسماء تعطي فكرة عن الإله الواحد البعيد، لكنّه غير مجرّدٍ من الرحمة للناس، وهو الذي أملى على المسلمين شريعتهم. وقد أوضحت الشروح كيف أنّ هذه التسميات القرآنية استطاعت أن تطرح على الفكر الإسلامي إحدى المسائل الأساسيّة التي حاولت حلّها، عبر العصور، المدارس الكلاميّة في الإسلام، ألا وهي مسألة الصفات الإلهيّة.

إسماعيل، شخصيّة توراتيّة مذكورة في نصوص عدّة من القرآن. كان مكرّمًا، بخاصةٍ، في التقليد الإسلامي اللاّحق، على أنّه الوريث الديني الحقيقي لوالده إبراهيم، وعلى أنّه جدّ عرب الشمال.

وبفضل تسلسل يربط، بطرق مختلفة، إسماعيل بعدنان، البطل الأساسي الذي وهب اسمه لعرب الشمال، أحبّ النسّابة المسلمون في القرون الوسطى الإشارة، بشكل بارز خاص، إلى أهميّة ابن هاجر. فهذا الشخص قد يكون جاء ليعيش في منطقة مكّة حيث استقبلته قبيلة جرهم، وفيها تزوّج. هنا أيضًا، قد يكون ساعد والده، بحسب نص الآيات القرآنية نفسها، (سورة البقرة، ١٢٥، ١٢٧-١٢٩)، في بناء الكعبة، بعدما جعل الماء يندفع من بئر زمزم في طفولته الأولى، عندما كان مع والدته هاجر معرَّضَيْن للموت عطشًا في الصحراء. أخيرًا، إسماعيل، وليس إسحق المذكور أيضًا في القرآن، هو ابن ابراهيم الذي تعتبر غالبية المفسّرين - وبالرغم من الرأي المعاكس الذي كان سائدًا في البداية - أنّه كان موضوع التضحية الذي يتذكّره المسلمون، في العاشر من ذي الحجة، في شعائر الحجّ.

إسماعيل الأوّل (شاه) ١٤٨٧-١٥٢٤م، تركماني الأصل، أسّس سلالة الصفويين في إيران، وحكم من ١٥٠١ إلى ١٥٢٤م.

هذا المتحدّر من سلالة الشيخ صفي الدين مؤسّس طريقة الصفويّين الصوفيّة كان، لجهة أمه وجدّتِه، نسيبَ الأمراء من سلالة الآق قيونلو الأناضوليّين الذين، لشكّهم فيه، أسروه، وهو ما يزال حدثًا، في اصطخر مدّة أربع سنوات. وعندما نجح في ما بعد باللجوء إلى جيلان، حيث بقي على اتّصال بمناصريه التركمان في أذربيجان، الملتحقين بطريقته الصوفيّة والمدعوّين في التركية قزل باش أو «الرؤوس الحمر»، باشر بمساعدتهم، سنة ١٤٩٩م، في محاربة لآق قيونلو الذين هُزموا في شرور، في ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م، فاعتُرف به ملكًا في تبريز.

خلال بضع سنوات، من ١٥٠٣ إلى ١٥١٠م، عمل إسماعيل على بسط سلطته على كامل البلاد الإيرانيّة، على منطقة ديار بكر وعلى العراق، ومن ثمّ على خراسان وصولًا إلى هراة، في الوقت الذي كان فيه يثبّت الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة ديانةً رسميّةً للمملكة، وينظم الإدارة في دولته الجديدة. عمل بعناية خاصة لتوزيع إقطاعات على القزل باش كما على نبلاء إيرانيّين، ممّا أوجد حالة من الخصومة الدائمة بين هاتين الفئتين من مساعدي السلطة الذين كانوا يعملون على فرض ارادتهم عليها.

إنّ القوّة الشرقيّة التي تأسّست على هذا الشكل أقلقت العثمانيّين. وفي ١٥١٤، دخل السلطان سليم الأوّل في حرب ضدّ إسماعيل ملحقًا به هزيمةً خطيرة في

جالداران، بفضل أسلحته النارية. فأُجبر إسماعيل على التخلّي عن البلاد العربيّة التي كان يحتلّها؛ لكنّه لم يتوقّف عن مواجهة أعدائه في أذربيجان، وأيضًا في خراسان حيث ردّ غزوات الأوزبك. وباشر أيضًا، خلال السنوات الأخيرة من حكمه، بتطوير علاقاته الديبلوماسيّة بالدول الأوروبيّة التي كان يأمل أن يجد فيها حلفاء ضدّ العثمانيّين. ولئن لم يتمكّن من حلّ كلّ المشكلات الداخليّة التي فرضت نفسها عليه، فإنّه ترك على الأقلّ لخلفائه مملكة مستقلّة كانت هوّيتها منذ ذلك الحين ترتكز، في جزء منها، على الانتماء إلى التشيّع.

إسماعيل باشا (١٨٣٠-١٨٩٥)، حاكم مصر، من السلالة المدعوة خديويّة المتحدّرة من محمّد علي، وقد حكم مصر من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩، وكان المسؤول، الطموح والعديم التبصر، عن التطوّر الحديث في بلاده.

هذا الحفيد لمحمّد علي وابن إبراهيم باشا وصل بدوره إلى وظيفة نائب ملك مصر، بعد عضوين آخرين من العائلة. وبعدما تسلّمه، في ١٨٦٧ من الباب العالي، لقب الخديوي كتثبيت لنصف - استقلال بلاده، حاول أن ينافس جدّه الشهير بالأبهة وبالمجد وضخامة مشاريعه. وإذ تمكّن من الحصول على اعتراف العثمانيين بقوّته، وشقّ قناة السويس التي افتُتحت، سنة ١٨٦٩ في احتفال عظيم يشير رمزيًّا إلى نجاح التقنيّات الأوروبيّة التي حاول تكييفها، فإنّه لم يتمكّن من السيطرة على المصاعب الماليّة التي نتجت عن مساعيه المختلفة للإصلاح والتنظيم الداخلي السريع جدًّا. وازدادت هذه المصاعب بمحاولاته الهيمنة العسكريّة في أفريقيا التي أرسل إليها حملات، انطلاقًا من السودان النيلي، حتّى أثيوبيا وأوغندا. بعد ذلك بقليل، كان عليه مواجهة التدخّل الأوروبي في حياة مصر الاقتصاديّة منذ ١٨٧٥، بحيث أصبحت القوى الأوروبيّة دائنةً له. وقد أدّت الردّات المعادية التي تلت ذلك إلى سقوط نهائي لادّعاءاته. وفي ١٨٧٩، أنزله السلطان العثماني عن العرش لصالح ابنه توفيق؛ ثمّ احتلّ البريطانيّون بلاده فمارسوا الرقابة والحماية عليها منذ ١٨٨٢.

إسماعيل بن جعفر ؟-١٤٥هـ/ ؟-٧٦٢م، علويّ مكرّم بصفته الإمام السادس وما قبل الأخير عند الإسماعيليّين الذين ينتسبون إليه.

كان هذا الرجل ابن جعفر الصادق، الإمام العلويّ المعترف به أيضًا من قِبَل الإماميّة الإثني عشريّة، من حيث إنّه يظهر في المرتبة السادسة، ومن قبل الاسماعيليّة الذين يجعلونه الإمام الخامس في لائحتهم الخاصة التي تبدأ بالحسن لا بعليّ. توفّي إسماعيل قبل والده جعفر، فلم يعتدّ به إطلاقًا عند الإثني عشريّة. وبالمقابل، حمل مشايعوه ومناصروه من بعده تسمية الإسماعيليّة. واعتبروا أنّه، على حياة والده، كان يمتلك حقوق الإمامة التي تمكّن، بدوره، من أن يورّثها لابنه محمّد. هذا الأخير اعتُبر عند الإسماعيليّين، الذين دُعوا أيضًا سبعيّة، نسبةً إلى إمامهم السابع والأخير الذي استمرّوا في انتظار عودته، أو الذي نسبوا إليه ورثة مستورين، أحدهم سيظهر في المستقبل كمهدي. إنّ القرامطة ما زالوا ينتظرون أيضًا عودة محمّد بن اسماعيل.

الإسماعيليّة، حركة شيعيّة انتشر تعليمها الباطني بفضل نظام من الدعاية عرف باسم الدعوة، رافقته في غالب الأحيان، في القرون الوسطى، حركات ثوريّة وإرهابيّة اتّسمت بها تفرّعاته المتطرّفة.

انبثقت هذه الحركة في ١٤٨هـ/٧٦٥م من انشقاق عن الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة، إثر وفاة جعفر الصادق، وسرعان ما انتشرت ولاقت، منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، نجاحات سياسيّة لافتة. ثمّ أصبحت هدفًا لهجمات واضطهادات عنيفة من جانب الأوساط السنيّة، في القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، لكنّ ذلك لم يحل دون استمرارها بأوجه متنوّعة، ومتابعتها، حتّى العصر الحاضر، لعب دور ما زال يتّسم بالحيويّة في داخل العالم الإسلامي. كان أعضاؤها، كما يشير إلى ذلك اسمهم، مناصرين لإسماعيل، الابن البكر لجعفر الصادق، الذي كان قد عُين وريثًا لأبيه، لكنّه توفّي قبله. ومع ابنه، محمّد بن إسماعيل، تتوقّف سلسلة الأئمّة العلويّين التي يجعلها الإسماعيليّون تنطلق من الحسن، بحيث لا يعترفون إلاّ بسبعة أئمّة، ما أعطاهم تسميةً أخرى هي السبعيّة.

إمامهم السابع كان له خلفاء - بحسب معتقد لم يتحدّد، على كل حال، إلاّ في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد - وهم أئمّة غير منظورين، عُرفوا باسم «الأئمّة المستورين». كان أحدهم مقدّرًا له أن يعود للظهور في يوم من الأيام لإرساء زمن من العدالة بصفته المهدي. لكنّ الدراسات الحاليّة تُظهر أنّ المفهوم الذي ساد في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، كان إلى حدّ ما مختلفًا: في هذه الحقبة كان الإسماعيليّون أو «مناصرو الحقيقة» يكتفون بجعل محمّد بن إسماعيل آخر أئمّتهم، وهم ينتظرون عودته. دافع عن دعوتهم، في منطقة الأهواز في خوزستان، ثمّ في السلميّة في سوريا، أوّل رئيس للحركة، المدعو عبد عبدالله الذي كان يدّعي أنّه متحدّر من أحد إخوة علي. وبعض المؤرّخين يتساءلون اليوم عمّا إذا لم يكن عبد الله هذا هو السلف الحقيقي للمهدي الفاطمي الذي ظهر بعد قرن من الزمن، والذي كان يعيد نسبه إلى أحد أبناء جعفر الصادق، غير إسماعيل، يُدعى بالاسم نفسه أي عبدالله.

في أي حال، وفي الوقت الذي بدأت فيه الأفكار الإسماعيليّة تُصاغ بشكل واضح، كانت جماعة منظّمة من الدعاة تعمل في خدمة الأئمّة ممهِّدةً لظهورهم، وذلك ببثّ دعوة من نوع خاص، تميّزت بفعاليّتها وجمعت مناصرين في كلّ مكان. في ٢٨٦هـ/٨٩٩م، عمل هذا النظام للمرّة الأولى، لمصلحة الشخص الذي أعلن نفسه مهديًّا وإمامًا في السلميّة، قبل أن يذهب إلى المغرب حيث كان قد سبقه مرسَل تكلّلت محاولاته الأولى بالنجاح. فبعدما كانت الحركة قد مارست نشاطها، بخاصة في إيران، من دون الحصول على نتائج، نجح هذا المرسَل إلى إفريقية، وهو أبو عبدالله الشيعي، بضمّ عشائر بربريّة من قبيلة كتامه إلى دعوته، وتمكّن بمساعدتهم من قلب نظام الأغالبة في القيروان في ٢٩٦هـ/٩٠٨م، وأعلن خليفةً المهدي عبيد الله الذي وصل بعد ذلك بقليل إلى البلاد من السلميّة. هكذا تأسّست سلالة الفاطميّين التي سيطر خلفاؤها أوّلاً على منطقة البربر الغربيّة، ثمّ على مصر وسوريا حتّى ٥٦٧هـ/١١٧١م.

وبحسب العقيدة الشيعيّة الإسماعيليّة، كان هؤلاء الخلفاء الفاطميّون مكرّمين بصفتهم أئمّة وُهبوا الكمال والعصمة، ويعملون كمفسّرين مطلقين للشريعة. وكلّ واحد منهم كان يتمّ اختياره من قِبَل سلفه، إذ يعيّنه بوصيّة، وهي طريقة تتّبعها فِرَق شيعيّة أخرى؛ لكنّ الاختيار عند الفاطميّين كان سرّيًّا، تنحصر معرفته في أحد كبار المسؤولين في النظام، ويُكشف بعد موت الخليفة، تبعًا لترتيب كان يمكن أن يحول دون قيام أي صراع على الوراثة لو أنّه طبق بطريقة صارمة. فضلاً عن ذلك، عرفت الدولة نفسها طرق عمل للحكم متناسقة مع الحاجات العمليّة، وذلك يكاد لا يختلف عمّا يميّز الدول السنيّة المعاصرة.

إنّ الدعوة الفاطميّة، المتميّزة عن الدعوات الإسماعيليّة الأخرى، كانت تسعى إلى دعم الدولة التي تعمل في ظلّها وإلى ازدهار السلالة الحاكمة، كما كانت تهدف إلى الاعتماد على عقيدة خاصة. هذه العقيدة كانت ترتكز إلى كوسمولوجيا أسطوريّة تجعل من التاريخ تاريخًا حلقيًّا، كلّ حلقة منه تتألّف من سبعة أزمنة، يبدأ كلّ منها بنبي «ناطق» يتبعه إمام، وآخر إمام من كلّ زمن هو نبيّ الزمن اللاّحق. والأنبياء هم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد، حتّى الإمام السابع الذي هوَ المهدي الذي يُعتبر حاملًا لرسالة وحي جديدة، مقدّرًا لها الحلول محلّ الشريعة المحمّديّة. المهدي الذي كان معروفًا فقط لدى فئة، كان دوره موجّهًا لإطلاق عهدٍ جديد، عهد العدالة. لكنّ الخلفاء الفاطميّين لم يقرّروا الإعلان عن عهد كهذا، باستثناء محاولات واحد منهم، هو الحاكم. وبدلًا من استبدال العادات الفقهيّة السنيّة التي كانت لا تزال قيد الممارسة، اكتفوا بتعديلها في بعض النقاط بواسطة فقهائهم الخاصين، وتعرّضوا لخطر تخييب آمال مناصريهم بتأجيل تحقيق رجائهم الخلاصي - الذي فكّروا به عند إرساء السلطة الجديدة - إلى أمدٍ بعيد.

ربّما كان هذا هو السبب الذي من أجله استُبدلت بالفكر الإسماعيلي الأوّل، في مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، أفكارٌ من وحي الأفلاطونيّة الجديدة. فبالنسبة إليها إنّ اللّه - الذي لا تبلغه معرفة

انسان - يولّد العقل الذي تفيض عنه نفس تدير سبعة أفلاك، يكون الإمام بطريقة ما على اتصال بها. هذه العقيدة، التي تكوّنت كعقيدة للحكمة بكلّ معنى الكلمة، نشرت في إفريقية، ثمّ في مصر الفاطميّة، من دون أن نعرف بالضبط كيف كان يُعرض تعليمها الموجّه في الأساس إلى «المطّلعين»، الأصدقاء أو أولياء النظام كما كانوا يُدعون.

في زمن انطلاق الحركة الفاطميّة، لكن مع أسبقيّة بسيطة، انفصلت أيضًا عن الإسماعيليّة حركة القرامطة التي كان يحرّكها، على ما يبدو، منشقّون كانوا ينتظرون عودة محمّد بن إسماعيل، لا ظهور إمام مستور. في ٢٦٣هـ/٨٧٧م، بدأ المدعوّ حمدان قرمط بالتحرّك، يساعده أخو زوجته عبدان، إنطلاقًا من منطقة الكوفة. في ٢٨٦هـ/٨٩٩م، بينما كان أبو سعيد الجنّابي يؤسّس دولة القرامطة في البحرين، في شبه الجزيرة العربيّة، كان عبيدالله يعلن نفسه المهدي في السلميّة من دون أن يتبعه حمدان قرمط. وهنا يكمن من دون شكّ السبب الذي دفع خليفة المستقبل الفاطمي للذهاب إلى المغرب. في هذا الوقت، اغتيل عبدان على يد المدعوّ زكرويه الذي جرّب هو أيضًا، بين ٢٨٩ و٢٩٤هـ/٩٠٢ و٩٠٧م، إشعال ثورة في سوريا، واستند في ذلك، مع بعض النجاح، على القبائل البدويّة، لكنّه اغتيل بدوره. فانكفأت حركة القرامطة إذًا في تلك الحقبة إلى شبه الجزيرة العربيّة حيث قامت بدور تاريخي، خاصةً بانصرافها إلى شنّ هجمات على العراق العبّاسي وعلى قوافل الحجّ السنويّة إلى مكّة.

تمركزت الإسماعيليّة، فضلًا عن ذلك، في اليمن حيث استقرّ شخص يُدعى منصور اليمن منذ ٢٦٧هـ/ ٨٨١م. هذه الجماعة الموالية، في البدء، للمهدي عبيدالله قبل استقراره في إفريقية، قطعت علاقاتها به في ٢٩٩هـ/٩١٢م. وكذلك رفضت غالبيّة المجموعات الإسماعيليّة في إيران الغربيّة الاعتراف بادعاء الفاطميّين الإمامة. في المقابل، حلّت دولة إسماعيليّة خاضعة للفاطميّين في السند، في ملتان حوالى ٣٤٨هـ/٩٥٩م، محلّ جماعة قرمطيّة قديمة، واستمرّت حتّى ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، بينما كان مبشّرون من الاتّجاه نفسه ينشرون نشاطهم في سجستان وفي كرمان. وظهرت في اليمن في ٤٢٩هـ/١٠٣٨م، إمارة إسماعيليّة متّصلة بالفاطميّين مع سلالة الصُليحيّين التي أرست في كُجَرات في الهند، لربّما منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، جماعة مهيّأة لاستقبال مرسلي الإسماعيلية من المستعلين، كانوا في أساس مجموعة «البُهرة» الحاليّة.

ومن الانقسامات المتنوّعة التي نشأت في الإسماعيليّة الفاطميّة، كان لاثنتين منها، بنوع خاص أهميّة كبيرة، وكانتا في أساس ولادة حركات جديدة في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أوّلاً، أعلن بعض الإسماعيليّة ألوهة الخليفة الحاكم، ووجدوا، بعد موته، ملجأً في جبال سوريا حيث كوّنوا حركة انفصاليّة اتّجهت للتمايز أكثر فأكثر عن الإسماعيليّة الأولى، هي حركة الحاكميّة أو الدروز بعد ذلك بقليل، في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بعدما استعاد الاسماعيليّون نشاطهم في إيران، احتلّ واحد منهم يُدعى حسن الصبّاح قلعة ألموت في جبال الديلم، ومن هناك نجح، من جهة، في مناوشة قوّة السلاجقة بواسطة اغتيالات سياسيّة، ومن جهة أخرى في الاستيلاء على بعض حصون الجبل. ففي ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، إثر موت الخليفة الفاطمي المستنصر، أبعد الوزيرُ القائم وقتذاك، ابنه البكر نزارًا، الوريث المعيّن، الذي دخل في ثورة، ولكنّه انكسر وأسر. أيّد حسن الصبّاح نزارًا ضدّ الخليفة الفاطمي الجديد المستعلي الذي كان أتباعه يدافعون عن حقوقه، فأسّس حركة تُدعى النزاريّة أو الحركة الإسماعيليّة - الجديدة. عرفت هذه الحركة متغيّرات عدّة حتّى الزمان الحالي. ويخضع غالبية مناصريها، ومنهم جماعة الخوجا في الهند وأفريقيا الشرقيّة، في أيامنا، لسلطة الآغا خان.

الإسماعيليّة الحديثة ←النّزاريّون.

الإسناد (أو السلسلة)، نسق أساسي في بناء أيّة عقيدة أو علم إسلامي تقوم عناصره على النقل الدقيق للمعطيات عبر سلسلة من الشهود أو المؤتمنين عليها.

وقد أدّت «السلسلة» دورًا من الطراز الأوّل في التعليم التأهيلي للطرق التي نشأت في كنف الصوفيّة

بدءًا من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وكلّ سلسلة مستَنَد إليها تسمح بإرجاع الممارسات والأفكار التي يتقاسمها مختلف أفراد الطريقة - حتّى ولو كانت حديثة العهد - إلى مؤسّسها.

كذلك كانت «السلسلة» - تحت تسمية أخرى هي «الإسناد» التي تعني «السلطة التي يُستند إليها» - أساسيّة في نقل الحديث النبوي ونقده وهو أسُّ كل تفسير فقهي أو كلامي. في كل الأقوال والتصرّفات التي تشكّل السنّة، يجب الإستناد الى سلسلة من محدّثين أو نقَلة جديرين بالثقة ومعروف أنّهم التقوا ليتبادلوا مباشرة النصّ أو الرواية موضوع النقل. وقد شكّلت دراسة صحّة السلسلة وتراجم المحدّثين فرعًا مهمًّا في العلوم الدينيّة، لأنّها كانت تسمح بتصنيف الأحاديث، لا بالقياس إلى عدد الأشخاص الذين نقلوها في الأصل ومكانتهم وحسْب، بل بموجب سلسلة من المحدّثين الضامنين لصحتها والمتوالين من غير انقطاع.

ومفهوم «السلسلة» متوافر أيضًا في المذهب الشيعي في إطار الحدود التي تفترض أنّ كلّ إمام علوي كان يسمّيه سلفه بموجب وصيّة أو نص. لكن، في هذه الحال، لا يُنقل التعليم، إذ إنّ كل إمام كان ينشر تعليمه الخاص إستنادًا إلى صفات العصمة التي يتمتّع بها من حيث المبدأ.

الأسواق الإسلاميّة، أماكن مخصّصة للتجارة في المدن القروسطيّة في الدول الإسلاميّة، عُرفت باسم «سوق» باللغة العربيّة و«بازار» باللغة الفارسيّة، إضافةً الى مصطلحات أخرى أقلّ شموليّة مثل مصطلح «قيساريّة».

احتلّت هذه الأماكن، على مرّ العصور، مركزًا مهمًّا ضمن التجمّعات السكنيّة كافةً في العالم الإسلامي، إذ كانت تؤمّن حاجات التجارة المحليّة الصغيرة، وفي الوقت نفسه، تهتمّ بالأنشطة التجاريّة المتطوّرة التي تغطي هذا العالم بكامله. غير أنّ تنظيمها الذي كان يختلف بين المناطق والحقب التاريخيّة، لا يمكن فهمه إلّا بالعودة إلى التقاليد السابقة، على الرغم من أنّ المبادئ الإجتماعيّة والدينيّة المسيطرة كانت تشجّع، مع التقيّد ببعض الشروط، التجارة وتبادل السلع على أنواعها.

كانت الأسواق المتخصّصة منتشرة في المدن الرومانيّة - البيزنطيّة التي احتلّها العرب المسلمون خلال الفتوحات الكبرى. وغالبًا ما كانت منظّمة على طول جادة أو جادتين عَرْضانيّتين، أو أحيانًا على طول جادتين تتقاطعان في وسطهما. وكانت تتألّف من صفوف من الحوانيت المتّصلة بعضها ببعض، ومن ساحات ومن أبنية تجاريّة مغلقة عُرفت باسم «قيساريّة»، جُمعت، في كلّ الأحوال، في قطاع واحد من المدينة، وضُمت إليها مشاغل حرفيّة. وتمّ تجميع الحرفيّين على غرار التجّار وفقًا لفنانهم لتسهيل إشراف السلطات عليهم.

بقي هذا التنظيم على ما كان عليه تقريبًا في مدن الأمبراطوريّة البيزنطيّة السابقة، ويبدو أنّه اعتُمد أو قُلّد في المدن الجديدة التي ظهرت في سوريا وفي العراق، وعلى سبيل المثال في عنجر أو في واسط في العهد الأموي، كما في بغداد وسامرّاء في العهد العبّاسي. واعتُمد تنظيم مماثل في المدن الإيرانيّة حيث غالبًا ما أقيمت الأسواق في الأحياء التي شيّدتها القوّات العربيّة، خارج المدن القديمة المحصّنة.

لكن، وبالرغم من القواسم المشتركة، اختلف تنظيم الشوارع التجاريّة في مدن الخلافة، في القرون الوسطى، من مقاطعة إلى أخرى. كما تطوّرت، على مرّ الزمن، أهميّة الفسحة المخصّصة لها داخل النسيج المُدني والخاضعة أحيانًا لإجراءات إستبداديّة وقسريّة من الحكّام، خصوصًا في المدن الملكيّة حيث افتقد وجود هذه الفسحة لأيّ مبرّر باستثناء تزويد الملك وحاشيته بالكماليات. وهكذا فقد تمّ تعسفيًّا، خلال القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، في بغداد، نقل التجّار المستقرّين بين أسوار المدينة المستديرة التي بناها المنصور، إلى إحدى ضواحيها؛ وقد اتُّخذ إجراء مشابه في القاهرة، خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حيث أُبعد القصر الملكي عن حوانيت مدينة الفاطميّين الملكيّة القديمة لكي يستقرّ في القلعة. وقد نتج عن ذلك تطوّرٌ مختلف للحيّ التجاري الذي كان من قبل ملازمًا للقصر.

إنّما، وبشكل عام، بقي منظر المدينة، خلال القرون الوسطى الإسلامية، متميّزًا بأنشطة تجاريّة وحِرَفيّة مزدهرة. وكانت هذه الحيويّة المتدفّقة تعكس حياة العالم الإسلامي في هذه الحقبة، وكانت تنعشها طرق القوافل والمنشآت المرفئيّة المتعدّدة والممتدّة على مجموعة هائلة من الأراضي، إنطلاقًا من شبه الجزيرة الإيبريّة وشاطئها الأطلسي، وصولًا إلى آسيا الوسطى والهند، وإلى إندونيسيا في ما بعد. داخل هذه المساحة، وبالرغم من الخلافات السياسيّة والدينيّة التي أدّت إلى حروب متكرّرة، تمتّع جميع التجّار بحريّة حقيقيّة في التنقّل وكانوا في حاجة إلى ممارسة تجارتهم في المدن. إضافة إلى ذلك، كان هذا العالم - الذي شكّل رابطًا بين الشرق الأقصى من جهة، وأوروبا وأفريقيا السوداء من جهة أخرى - والذي أضاف بُعدًا عابرًا للقارات على تجارة داخليّة تمحورت حول بغداد، ثمّ حول القاهرة، قبل أن تتّجه بضائعه نحو الأناضول واسطنبول - في حاجة إلى امتلاك مستودعات ومراكز تجاريّة في المدن. ولذلك كانت الأسواق، على أنواعها، تجمع بين المنتجات البعيدة والثمينة وبين التجارة الصغيرة المحليّة وتلعب في المدن دورًا مهيمنًا، غالبًا ما تعجز البقايا المعماريّة المشتّتة أو الحديثة عن إعطاء صورة حيّة عنه.

ما زالت بعض المعلومات حول تنظيم هذه الأسواق خلال القرون الوسطى متوافرة، سواء في ما يتعلّق بسورية في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بفضل المعطيات الطوبغرافية الجزئيّة التي تؤمّنها المصادر التاريخيّة أو الجغرافيّة، أو في ما يتعلّق بمدينة القاهرة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، بفضل الرواية التي تركها المقريزي، الكاتب المتعدّد الموضوعات. ويتبيّن من خلال المعلومات المتوافرة عن هذه الحقبات المتقاربة، أنّ صفوف الحوانيت كانت تمتدّ على طول الشوارع التي غالبًا ما كانت متوازية وتتقاطع بزوايا تسعين درجة مع شوارع أخرى. أمّا الفسحة العامّة التي تحدّها هذه الشوارع، فكانت تتضمّن المسجد الجامع والمدارس والحمّامات، بينما كان توزيع الأسواق يعتمد على حاجات الزبائن المحليّة.

لذلك من الملاحظ أنّ ممثّلي بعض المهن، كتجّار الكتب مثلًا، كانوا يمارسون عملهم بالقرب من المسجد الجامع، تسهيلًا لأمور زبائنهم المكوَّنين بشكل خاص من رجال الدين الذين كانوا يتردّدون على هذا الصرح. كما أنّ المهن المتعلّقة بسراجة الخيل تجمّعت، في دمشق مثلًا، خلال عصر المماليك، بالقرب من القلعة ومن حاميتها العسكريّة. وأدّت أسباب أخرى إلى إقامة بعض المشاغل خارج المناطق السكنيّة بسبب الروائح الكريهة المنبعثة منها، كمصانع الدباغة مثلًا، أو بسبب حاجتها إلى كميّات وفيرة من المياه، كصناعة الورق أو الصابون. كما أنّ أسواق المواشي وبعض أسواق الفاكهة والخضار كانت تُقام خارج الأسوار حيث كان إنتاج المزارعين يصبّ مباشرة. أمّا في داخل المدينة فكانت تجارة المواد الغذائيّة والألبسة مجمّعةً وفقًا لأنواعها إنّما بدون أن تَحْتَلَّ مواقع محدّدة. كما قامت، فضلًا عن السوق المركزيّة الكبيرة، أسواق صغيرة أو «سويقات» مطابقة لها في تنظيمها، بهدف التقرّب من السكّان المقيمين في بعض الأحياء البعيدة.

إنّ تجمُّع ممثّلي كلّ فئة تجاريّة في مكان معيّن وبموازاته توزيع مماثل لمختلف المهن، يعود بالتأكيد إلى حقبة سابقة. وقد استمرّت هذه العادة بسبب الاهتمام الذي أولته كل سلطة إسلاميّة جديدة لحسن سير الأسواق ولنوعيّة السلع المعروضة، لكنّنا لا نستطيع أن نتكلّم بعد على تنظيم داخلي من خلال طوائف الحرفيّين. وقد تكون تأثيرات أخرى قد لعبت دورًا نتيجة لاستمراريّة اقتصاد من نوع واحد طغت عليه بعض الخصائص، منها الطابع البدائي الذي تميّز به التنظيم التجاري، وعدم التمييز بين تجارة الجملة وتجارة المفرّق، وبين الصانع والتاجر، واللجوء، في كثير من الأحيان، إلى البيع بالمزاد العلني من خلال وسطاء، إضافةً إلى مفاعيل بعض العادات الخاصة بالإسلام. فالدولة مثلًا كانت تراقب الأسواق من خلال الحسبة التي يمارسها موظّف يُعرف بالمحتسب؛ أمّا قاعدة العرض والطلب وفاقًا للأسس الأخلاقيّة في الإقتصاد الإسلامي فكانت تمارَس بحريّة تامّة. وفي الواقع كانت هذه القاعدة التي أطلق عليها العلماء أيضًا تسمية

«شروط السوق» تقضي بعرض كافة النماذج المتوافرة من السلعة المطلوبة في الموقع نفسه.

أمّا في المدن الكبرى فلم تقتصر الأسواق على الحوانيت والمشاغل بل تضمّنت، منذ العهود القديمة، أبنية ضخمة استُخدمت كمراكز تجاريّة وأسواق موقّتة شبيهة أحيانًا بالمعارض الحقيقيّة. وكانت هذه الأخيرة تنظّم في ساحات خارج الأسوار، بالقرب من محطات القوافل. أمّا الأبنية التجاريّة فظهرت في عهد مبكّر تحت اسم «قيساريّة» الذي يشير إلى أصلها القديم، واستُخدمت في بادئ الأمر، حصرًا، لحماية السلع الثمينة من مجوهرات أو أقمشة. كما ظهرت في ما بعد الفنادق ومستودعات وخانات مخصّصة لاستقبال التجّار الأجانب الآتين لعرض سلعهم على أهل المدينة.

وابتداءً من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أخذت الأبنية المعروفة بـ«الخانات» أو «الفنادق»، والشبيهة بتلك التي خُصّصت لتحسين أمن الطرق، تدخل إلى المدن وتتكاثر. شُيّدت هذه الأبنية عنابة واحيانًا بأحجام ضخمة، وأضفت مظهرًا مهمًّا على الأحياء التجاريّة التي شهدت، في الوقت نفسه، إنشاء قناطر من الحجر أو الآجرّ، تتقدّمها في إيران مثلًا، بوابات عريضة، بهدف حماية صفوف الحوانيت المتّصل بعضها ببعض، والتي باتت شبيهة بالأسواق المسقوفة. واستُعملت أجمل أنواع الحجارة في الأمبراطوريّة العثمانيّة لتشييد أهمّ النماذج لهذه الهندسة المعماريّة الإسلاميّة ذات الطابع المُدني. وقد ارتفعت الخانات الضخمة المزّودة بالواجهات المتقنة، وبالقبب أحيانًا، بالمجاورة لأروقة وممرّات مسقوفة ومتنوّعة التصاميم. وكانت متّصلة أحيانًا، كما هي الحال في سليميّة أدْرَنة، بالمسجد الجامع الذي كان يشكّل قلب المجمّع. وظهرت نماذج أخرى رائعة ضمن النطاق الإيراني شُيّدت بالآجّر المزخرف، وأحيانًا بالخزف؛ إنّما، وبسبب ضعف المواد المستخدمة، لم يبقَ منها سوى الإنشاءات الحديثة التي تعود إلى العهد الصفوي مثل سوق أصفهان، أو بشكل خاص إلى عهد القاجار. وإنّ أجمل بقاياها موجود في مدينتي قزوين وسمنان.

أمّا في المدن الحاليّة التي حافظت على حيّ تجاري تقليدي، إلى جانب مؤسّسات حديثة قائمة بشكل عام في الضواحي، فقد فقدت الأسواق القديمة ضخامتها وانحصرت على أروقة ضيّقة ومتعرّجة، كما هي الحال في مدينة فاس القديمة. غير أنّ هذا الغياب لأيّ تصميم هندسي لا يشكّل، كما استنتج البعض، عنصرًا مميّزًا لتنظيم الأسواق المُدنيّة في بلاد الاسلام، بل هو ناتج عن تدهور متواصل للتصاميم الأصليّة تحت تأثير الزمان وفي غياب الأنظمة البلديّة. كما أنّ المخطّطات السابقة التي ثبُتَ وجودها في المدن التي بقيت مأهولة في العصر الأموي وفي بعض المدن التي نشأت في الحقبات الأولى لظهور الإسلام، والتي استمرّت طيلة القرون الوسطى، فكانت تعتمد مخطّطات ذات زوايا قائمة وأضلاع مستقيمة. نجد آثارًا لذلك في مدينة حلب السورية، تحت منشآت المدينة الحديثة.

◄ راجع المستندات ٣٦، ٥٧ الى ٥٩، ٧٢ و٨٢.

أسوان (جمهوريّة مصر العربيّة)، مدينة في وادي النيل على مستوى شلالات النهر الأولى. يرتبط ازدهارها في الحقبة المعاصرة بالموقع الذي تحتلّه بالقرب من البحيرة الإصطناعية التي أُنشِئت لتنظيم منسوب نهر النيل.

ان الأهميّة الإستراتيجيّة والتجاريّة التي عرفتها المدينة طيلة القرون الوسطى نتجت عن الدور الذي لعبته كمنفذ لطريق القوافل التي تربط مصر ببلاد النوبة. لكنّ منطقة أسوان ظلّت، حتى آخر العهد المملوكي، منطقة حدوديّة لا تتمتّع بالإستقلاليّة الإداريّة، تابعة لاقليم قُوص. حافظت البلدة، حتى يومنا هذا، على بعض الضرائح المشيّدة في جوارها التي يعود تاريخها الى العصر الفاطمي، وعلى مدافن فيها نُصبٌ تحمل كتابات. لم تعرف التوسّع إلّا حديثًا، وقد اشتهرت في عصرنا الحاضر بالسدّ الكبير الذي انشئ على نهر النيل في عهد الرئيس عبد الناصر، والذي حلّ محلّ سدٍّ قديم يعود الى العام ١٩٠٢، وقد نتج عنه تطوّرٌ صناعي طال المنطقة ونموٌّ ديموغرافي للمدينة. تغطي المياه التي يختزنها السدّ مساحة شاسعة من الأراضي يصل طولها الى خمسماية كيلومتر وتمتد داخل السودان.

◄ راجع المستندات ١٢ و١٣ و٢٥.

أسيوط (جمهوريّة مصر العربيّة)، مدينة في مصر العليا تُعتبر اليوم من المدن المهمّة، وكان لها، بعد فتوحات القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد، دور إداري واقتصادي في قلب ولاية مصر الغنيّة.

تقع أسيوط في محيط خصب من الضفّة الغربيّة لنهر النيل، على طريق القوافل القادمة من السودان. كانت هذه المدينة القبطيّة القديمة تُعرف في اليونانيّة باسم «ليكوبوليس». وكانت في القرون الوسطى مدينة ناشطة اشتُهرت بمحاصيلها الزراعيّة ومنتجاتها الحرفيّة وتجارتها، إذ كانت قافلة «دارفور» تحمل إليها الرقيق والعاج كلّ سنة وتعود بالنسيج المصري. إلّا أنّها لم تكن يومًا مركزًا فكريًا مشهورًا، على الرغم من أنّها أنجبت بعض العلماء والمفكّرين، بينهم السيُوطي الذي عاش في العصر المملوكي وترك مصنّفات متنوّعة.

وأسيوط التي ما زالت تحتضن اعدادًا وفيرة من المسيحيّين، وتُعتبر عاصمة مصر العليا، عرفت ازدهارًا جديدًا مع نهاية القرن التاسع عشر، عندما اتصلت بالقاهرة عن طريق خطّ للسكّة الحديديّة سنة ١٨٧٥، وبعد أن بُني فيها سدّ، بين سنتي ١٨٩٢ و١٩٠٢، أعطى الزراعة دفعًا جديدًا.

إشبيليَة (إسبانيا)، مدينة مرفئيّة لعبت في غرب الأندلس، خلال أكثر من خمسة قرون، دور مركز إقتصاديّ وعاصمة إقليميّة.

تقع المدينة جنوبي شبه الجزيرة الإيبيريّة، على الضفّة اليسرى لنهر الوادي الكبير/غوادلكفير، وعلى بعد مئة كيلومتر من مصبّه، لكنّ السفن تستطيع الوصول اليها. عُرفت قديمًا باسم «هِسْپالِسْ» (Hispalis)، وخضعت للرومان ثمّ للقوط، قبل أن يدخلها المسلمون سنة ٩٤هـ/٧١٣م، خلال الفتوحات الكبرى. جعل منها الحاكم الأوّل للمقاطعة الجديدة، عبد العزيز بن موسى بن نصير، قائد الجيوش العربيّة - الإسلاميّة، عاصمةً له، ولكن بعد موته سنة ٩٧هـ/٧١٦م، نُقلت العاصمة إلى قُرطبة التي أصبحت الحاضرة الأولى وحافظت على تفوّقها في المناطق التي دخلت الإسلام، كما غدت لاحقًا مقرّ أمويّي الغرب. مع ذلك بقيت المنافسة قائمة بين المدينتين الجنوبيّتين، ذلك أنّ إشبيلية المنفتحة على الأطلسي كانت مركزًا ناشطًا ساعد على ازدهار الثغور الغرب للأندلس، وقد استقبلت منطقتها أعضاء جند حمص سـ ١٢٤هـ/٧٤٢م، عندما وُزّعت إقطاعاتٌ على المحاربين العرب القادمين من سوريا. ثمّ عرفت المدينة حركات ثوريّة، وكان عليها أن تواجه هجمات النورمان سـ ٢٢٩هـ/٨٤٤م، وسنة ٢٤١هـ/٨٥٥م، ولم تعرف الهدو إلّا في زمن الخليفة عبد الرحمن الثالث.

وفي المرحلة اللّاحقة، أي في عهد ملو الطوائف، نهضت في إشبيلية سلالة بني عبّاد العرب التي أسّسها القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بـ عبّاد سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م، واستمرّ حكم هذه السلا حتى سنة ٤٦١هـ/١٠٨٦م. وإشبيلية التي أفاد نشاط التجاري من هيمنتها على ولُبه، شهدت حركة أدب مميّزة، وتحوّلت قصبتُها إلى قصر ملكي اشتهر بروعته وأصبح مقرّ أمراء من رعاة الأدب. وفي سنة ٤٨٤هـ ١٠٩١م، دخل المرابطون البربر إشبيلية ونهبوها، بعد أ كانوا قد أتوا من المغرب لمساعدة ملوك الأندلس. وفي سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، احتلّ الموحّدون المدينة وجعلوه مقرّ سلطتهم في شبه الجزيرة، كما أقاموا مركز القياد العامّة لجيشهم فيها، وأدخلوا عليها تعديلات معمار تلبّي أذواقهم في فنّ البناء، فعرفت اشبيلية عندئذ عمل تجميلية وارتفعت فيها أبنية جديدة. تظهر حتى الآ الترميمات التي قام بها الموحّدون في قصر بني عبّا الذي يُعرف اليوم باسم «القصر»، كما في المسجد الجامع، والحمّامات وفنادق المسافرين. ومن المسجد الجامع، لم يبقَ اليوم إلّا الفناء والمئذنة المشهورة التي تُعرف باسم «جيرالدا» (Giralda) وقد بُنيت، كغيره من المآذن في مرّاكش والرباط، بهدف تخليد مجد الموحّدين. وفي سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، سقطت إشبيلية بيد فرديناندو الثالث، ولم يستطع المسلمون استعادتها برغم المحاولات المتكرّرة، وانتشرت فيها بعد ذلك أعمال عمرانيّة وفنيّة متنوّعة تُظهر خصائص الفن المدجّن.

◄ راجع المستندات ١١، ١٥، ١٦ و١٩.

الإشتراكيّات الإسلامية، هي أنواع خاصّة من

الاشتراكيّة ظهرت في البلدان الإسلاميّة التي جابهت مشكلات العصر الحديث، وهذه المشكلات ما تزال في غالبيتها قائمة حتّى اليوم.

كان لدى الإصلاحيّين المسلمين، في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، همّ التكيّف مع التوجّهات الحديثة للعالم الغربي، من دون التخلّي عن الهويّة الأساسيّة لعالمهم. من أجل ذلك حاولوا أن يُبيّنوا أنّ الإسلام يتلاءم مع متطلّبات الإشتراكيّة التي انتشرت في البلدان الأوروبيّة، وأنْ يشدّدوا على أنّ أهمّ ما شغل تفكير النبيّ محمد (ﷺ) كان الدفاع عن الفقراء والضعفاء. هذا ما كان ينادي به خصوصًا جمال الدين الأفغاني في حدود سنة ١٨٩٧، وهو لم يتردّد في التأكيد أنّ ممارسة المسلمين الأوائل هي صورة حقيقيّة للاشتراكيّة وتطبيق لها قبل نشوئها. ويذكّر الافغاني بالعواقب الوخيمة التي تنتظر الاشتراكيّة التي تُهمل الدين، إذ تؤدّي إلى زوال المراتب والدرجات الاجتماعيّة. وهو تاليًا يدعو إلى اتّباع منهج إسلاميّ يختلف عن ذاك الذي تتبعه الاشتراكيّة الغربيّة.

تواصلت تعاليم الأفغاني مع آراء مفكّرين لاحقين من العالم الإسلامي ذهبوا في الاتّجاه نفسه، ولم يتمّ التعرّف إلى آراء بعضهم إلّا في زمن متأخّر. مع العلم أنّ عددًا منهم لم يكن ينتمي إلى الإسلام، ما أدّى، في بداية القرن العشرين، إلى ظهور تيارين في البلدان العربيّة: تيّار الاشتراكيّة الإسلامية وتيار الاشتراكيّة العربية، مع تلاقي الأفكار بينهما أحيانًا. وفي سنة ١٩١٣ وضع كاتب مسيحي، هو سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨)، بحثًا بعنوان «إشتراكيّة» لم يكن له أيّ صدى آنذاك، ثم أُعيد نشره سنة ١٩٦٢، فلقي نجاحًا مميّزًا. والواقع أن الإشتراكيّة العربيّة أو الإسلاميّة أصبحت، بعد الحرب العالميّة الثانية، من القضايا التي وُضعت حولها أبحاث تحدّد طبيعتها.

في سنة ١٩٤٦ اقترح ميشال عفلق، وهو مفكّر سوري مسيحي اعتنق الإسلام في أواخر حياته، إشتراكيّة عربيّة الطابع[١٨]. وفي سنة ١٩٥٠ وضع الكاتب المصري خالد محمّد خالد كتابًا، نُقل لاحقًا إلى الانكليزية، بعنوان "From here we start"، «من هنا نبدأ»، وفيه يطالب بتغيير إجتماعي جذري في مصر. ثمّ نشر الكاتب السوري مصطفى السباعي سنة ١٩٦٠ كتابًا عنوانه «اشتراكيّة الإسلام»، أراد أن يُظهر من خلاله أنّ النظام الاشتراكي هو الحلّ للقضاء على البؤس والجوع، كما أراد أن يدعوَ إلى التكافل الاجتماعي الذي هو أحد أسس إيديولوجيّته. إنّ هذا النظام الذي اعتُبر الأكثر ملاءمةً لتوطيد وحدة الشعب العربي ولإخراجه من حالة الفقر يتبنّى حلّ الملكيّة الجماعيّة في الحقل الاقتصادي، ويرفض في المقابل مبدأ صراع الطبقات. إنّه يتميّز، في ما خصّ هذه النقطة الأخيرة، عن الاشتراكيّة الأوروبيّة، بالرغم من أنّ التدابير المعروضة لتأمين التنظيم الجماعي للمجتمع تؤدّي في الواقع إلى زوال الطبقة الوسطى.

في غضون ذلك، جاءت مبادرات جديدة لتحلّ سريعًا مكان المحاولات السابقة التي وُلدت نتيجة تسلّل الأفكار الأولى للاشتراكيّة، وهذه المبادرات أدّت، في الإسكندريّة، إلى قيام حزب العمّال سنة ١٩٢٠، والحزب الشيوعي سنة ١٩٢٢. وابتداء من سنة ١٩٣٠، أفسح في المجال، تحت تأثير النظامين الألماني والإيطالي، لبروز حركات قوميّة واشتراكيّة في مختلف دول الشرق الأدنى تدعو إلى اشتراكيّة الدولة. وفي السنوات العشر الأولى التي أعقبت الحرب العالميّة الثانية، رأينا الاشتراكيّة العربيّة الإسلاميّة التي نادى بها مفكّرون جدد تتوغّل بقوّة في الحياة السياسيّة العربيّة. فأدّت إلى قيام أنظمة جديدة مع جمال عبد الناصر في مصر سنة ١٩٥٢، ومع حزب البعث العربي في سوريا سنة ١٩٦٣، وفي العراق سنة ١٩٦٨، مع الفرع العراقي من الحزب عينه. وفي تونس، نهض حزب الدستور الجديد، فدعا الحبيب بورقيبة سنة ١٩٦٢ إلى تطبيق نظام سياسيّ يعزّز دور الدولة.

من جهة أخرى، كان للأفكار الجديدة الآتية من أوروبا تأثيرها في الولايات التركيّة من السلطنة العثمانيّة، ولا سيّما بعد انتفاضة ١٩٠٨. وفي سنة ١٩١٩ تأسّس حزب تركيّ إشتراكي لم يلبث أن حلّ مكانه حزب إشتراكيّ عمّالي وفلّاحي. وفي الحقبة عينها، تأسّس حزب شيوعي. وبعد قيام الجمهوريّة

التركيّة فرض أتاتورك، سيّد البلاد الجديد، مراقبة مشدّدة على الاشتراكيّين والشيوعيّين. إنّ الدستور الذي وُضع سنة ١٩٣٧ لم يأخذ إلّا بعدد قليل من الطروحات التي دافعت عنها الاشتراكيّة. وحتى ١٩٦٠، ظلّت النخبة التركيّة تعتبر الاشتراكيّة خطيرة وغير شرعيّة. ولكن بدءًا من ١٩٦١ أصبحت الأجواء أكثر ملاءمة لنموّها، إذ أُقرّ حقّ الاضراب للنقابات، كما أبصر النور حزبٌ عمالي حقّق بعض النجاح في انتخابات سنة ١٩٦٥. لكنّ هذا الحزب الذي تبنّى مبادئ ماركسيّة من دون اللجوء إلى أساليب ثوريّة، لم ينجح في تنمية حضوره في البلاد.

أشراف المغرب أو «الشرفا»، مجموعة شخصيّات تنتسب إلى العلويّين المتحدّرين من الحسن، مثّلت دورًا مهمًّا في تاريخ المغرب الأقصى حيث كانت في أساس نشوء سلالات الأدارسة والسعديّين والعلويّين الملكيّة.

ومن المرجّح أن يكون هؤلاء الأشراف قد استقرّوا في فترة مبكّرة في البلاد التي لجأوا إليها منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، هربًا من سلطة العبّاسيّين وقمعهم العنيف لثورات العلويّين الذين ادّعوا الحقّ في الخلافة. من هؤلاء الأدارسة الذين يتحدّرون من إدريس الأكبر، أحد أحفاد الحسن، الذي كان فرّ من الشرق بعد هزيمة ابن شقيقه الحسين بن علي في معركة فخ في العام ١٦٩هـ/٧٨٦م، والذي تمكّن، مباشرة بعد ذلك، من اقتطاع مملكة له في المغرب الإسلامي. أمّا الباقون الذين ينتسبون الى أشقاء إدريس أو هُم أحفاد آخرون للحسن - منهم محمد النفس الزكيّة الذي ثار ومات في العام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م خلال حكم المنصور - فلم يتمكنّوا من الوصول إلى السلطة إلّا بعد زمن طويل، بعد القرن السادس عشر. وإلى أسلافهم تنتمي أشهر سلالتين في المغرب الحديث، سلالة السعديّين وسلالة العلويّين الذين عرفوا حظوة متزايدة في مجتمع يميل، منذ زمن بعيد، إلى الزعماء الذين يستهوون الجماهير وإلى أهل التقى الذين يتمتّعون بإجلال شعبي.

◄ راجع المستند رقم ٥.

أشراف مكّة الهاشميّون: القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حتّى ١٩٢٤. هم سلالة العلويّين المتحدّرين من الحسن التي استمرّت كل فروعها، بدون إنقطاع تقريبًا، في مكّة منذ مطلع القرون الوسطى. من هذه السلالة نشأت في القرن العشرين عائلة تمكّنت من الاحتفاظ بعرش المملكة الأُردنية الهاشميّة بعد أن حاولت أن تملك على الحجاز والعراق.

هؤلاء الأشراف الذين يرجعون بنسبهم المباشر إلى النبيّ محمّد (ﷺ) من خلال أحد أحفاده، كما من خلال انتمائهم إلى الهاشميّين عشيرته الأصليّة، استقرّوا في مكّة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. كانت هذه المدينة تمر آنذاك بفترة مضطربة بعد أن سيطر عليها الإسماعيليّون الذين لبّوا نداء القرامطة الذين قادوا صراعًا عنيفًا من عرينهم في البحرين ضد سلطة الخلفاء العبّاسيّين. كما أفاد حكم الأشراف الناشئ أيضًا من تنامي الخلافة الفاطميّة التي هزّت سلطة خلفاء بغداد.

وأوّل الأمراء المستقلين من هذه السلالة كان من أُسرة الموسويّين المتحدّرة من أحد أحفاد الحسن، وكان شقيق محمد النفس الزّكية. إنّ الأسر الأخرى التي شكّلت في ما بعد الفروع المتعاقبة للسلالة (السليمانيّون والهواشم والقتاديّون الذين حكموا أكثر من سبعة قرون)، تتحدّر كلّها من الجدّ نفسه. على أنّ سلطة هذا الأمير - وكذلك سلطة الأشراف من ذوي الانتماء الشيعي، ومن ثمّ السني، الذين خلفوه والبالغ عددهم مئة تقريبًا - ظلّت دائمًا سلطة نسبية. كانت خاضعة، من جهة، لسيادة قوى بعيدة كالعبّاسيّين والفاطميّين، وأيضًا المماليك والعثمانيّين الذين مارسوا جميعًا نوعًا من الحماية الفعليّة نسبيًا على الأراضي المقدّسة الإسلاميّة؛ وكانت، من جهة ثانية، تتصدّى للطامعين المتنافسين الذين كانوا يتواجهون في صراعات داخليّة لا تنتهي. وينتمي الأشراف الأخيرون، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى عشيرة «آل عون». وأشهر هؤلاء الحسين بن علي المعروف بالشريف حسين الذي حاول، من دون جدوى، بعد الثورة العربيّة في عام ١٩١٦، أن ينصّب نفسه ملكًا على الحجاز، وحتّى خليفة على المسلمين، قبل تخلّيه عن العرش عام ١٩٢٤. في المقابل، كان مستقبل سياسي

واعد ينتظر ولديه فيصل وعبدالله.

◄ راجع المستندين ٥ و٦.

إشراق، مصطلح تقني عربي، لاقى حظوةً خاصة بعدما استعمله «معلّم الثيوصوفيّة الإشراقيّة»، شهاب الدين السهروردي المدعوّ المقتول، الذي عاش في سوريا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

الكتاب الذي خصّه هذا المؤلّف بـ«الحكمة الإشراقيّة»، جعل هذه الفكرة المستوحاة ظاهريًّا من كتاب لابن سينا، القاعدةَ الأساسيّة لكلّ مدخل إلى حقيقة لا تسمح المعرفة العقليّة إطلاقًا بالوصول إليها، ولكن يوحى بها إنطلاقًا من شرقٍ حقيقيّ ورمزيّ، جرى تتبّعه عبر الحكمة القديمة، كما بواسطة رؤيا صوفيّة. إنّ نظريّة كهذه سقطت تحت ضربات الاتّهام بالزندقة، التي أُعدِم السهروردي بها، بعدما تمّ اتّهامه رسميًّا. ومع ذلك، لم يضعف تأثيرها لاحقًا في أبحاث مفكّرين آخرين كُثُر من المتصوّفة، في طليعتهم نصير الدين الطوسي وابن العربي، واعتنقها خاصةً عدد من أتباع السهروردي الحقيقيّين، ومن تلامذته المباشرين كشمس الدين الشهرزوري (المتوفّى سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م)؛ واعتنقها أيضًا تلامذة نشيطون عاشوا في بلاد فارس في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وكانوا كثيري العدد، ومنهم الملاّ صدرا شيرازي. وعلى كلّ هذه الأجيال من تلامذة الإشراق تُطلَق عمومًا تسمية «الإشراقيّون» التي جرى توسيعها أحيانًا، فشملت طلائع ممثّلي الباطنيّة والتيارات المعرفيّة الابتداعيّة، أولئك الذين كانت اهتماماتهم الإشراقيّة قد سبقت في زمانهم التعبير عن عقيدة السهروردية من دون الوصول، على أيّ حال، إلى ما بلغته من وضوح.

أشروسَنا، إقليم في آسيا الوسطى القروسطيّة، سقط اسمه من التداول، وكان يقع بين وادَيي زَرافشان الأعلى ويكسَرْت/سيردَرْيا الأعلى. هذا الاقليم الموزَّع اليوم بين جمهوريّتي أوزبكستان وطاجكستان، كان يحتلّ هضبة عالية وخصبة، تحدّها، من جهة، أرض سمرقند في بلاد السُّغد القديمة، ومن جهة أخرى، منطقة فرغانة. شهد ازدهارًا في مرحلة ما قبل الإسلام، ما زال يعكسه موقع پنجيكَنْت الشهير - وكانت تُعرف ببونجيكات في القرون الوسطى -، تلته مكانة مشابهة لدى الجغرافيّين العرب الذين ذكروا فيه، في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، حواضر عديدة.

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل ٢٥٩-٣٢٤هـ/٨٧٣-٩٣٦م، مفكّر عراقي ذو نسب عربيّ قبليّ، أسّس أحد أشهر المذاهب الفقهيّة المعروف بالمذهب الأشعري الذي يحمل اسمه، حتى لو أنّ هذا المذهب يدين كثيرًا لأتباعه ومعتنقيه في ازدهاره وانتشاره.

ولد في البصرة التي ولّي عليها سلفه أبو موسى الأشعري الصحابي في القرون الأولى للهجرة، من سنة ١٨هـ/٦٣٨م إلى سنة ٢٩هـ/٦٥٠م. وقد درس فيها على الجبّائي أحد أئمّة المعتزلة المحليّين، قبل أن يتركه مجاهرًا بخلافه معه سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م. هذا التحوّل الذي شكّل المنطلق لدحضه آراء المعتزلة استنادًا إلى حجج من القرآن الكريم ومن السنّة، كان الحدث الأوحد الجدير بالتوقّف عنده في سيرته، قبل أن ينتقل في نهاية حياته إلى بغداد عاصمة العباسيّين حيث تُوفّي. من أشهر كتبه «الإبانة في أصول الديانة» الذي نجد فيه مجاهرته بعقيدته، مدعومة بحجج أوفى من حجج الحنابلة. وله كتاب «اللُّمَع في الردّ على أهل الزيْغ والبِدَع» وهو دراسة في علم الكلام، وكتاب «مقالات الإسلاميّين» الذي هو عرض للعقيدة الإسلاميّة. أمّا فكره الفلسفي فقد تبيّن أنه أكثر رصانة ورزانة ممّا كان يُعتقد حتى الأمس القريب، وقد قام بشرحه أحد أتباعه.

الأشعريّة، إصطلاح يدلّ على مدرسة أو مذهب في علم الكلام وعلى عقيدة هذا المذهب الذي أسّسه الأشعري ونافس فيه مذهب الماتُريديّ. وقد أضحت الأشعريّة في العصور الوسطى المتأخّرة أحد المذاهب الكلاميّة الأكثر انتشارًا في العالم الإسلامي.

واقع الأمر أنّ الأشعريّ الذي تحدّر إلينا منه «شهادة إيمان» [رسالة في الإيمان] مفصّلة ورسالة في علم الكلام، خالف المعتزلة الذين كان انضوى إلى مذهبهم، لكنّه احتفظ ببعض طرق تفكيرهم وحتى ببعض التحاليل التي عدّلها بحيث تتوافق والأطاريح

التقليديّة. قال بوجود الصفات الإلهيّة وبعدم خلق القرآن وبالتسيير في ما يختص بأعمال الإنسان، جريًا على مقولة التقليديّين من السَّلف، ولا سيّما الحنابلة؛ إلّا أنّه كان يشعر بالحاجة إلى إرساء مقولاته لا على القرآن والحديث وحسْب، بل على التفكير. وهكذا كان يثبت وجود الله بالبرهان المسمّى في الغرب «حدوث العالَم» (a contingentia mundi)؛ فيما كان السلفيّون لا يرون في ذلك فائدة ما دام وجود الله مقرَّرًا بالوحي. يصعب الاعتقاد، رغم ما تؤكّده بعض الدراسات المنشورة حديثًا، أنّ الأشعري استغلّ بنفسه الامكانات التي أتيحت بهذا الشكل للمدافعين عن آرائه، لكنّه أسّس بهذا النهج علم الكلام، وهو مصطلح يعني، في العربيّة، «القول» أو «الخطاب»، فأُطلق على النظر في مسائل العقيدة كما على الدفاع عن هذه العقيدة. إلّا أنّ الأشعري كان قد اعتمد بعض التحديدات التي تميّزه بوضوح عن السلفيّين: وهكذا، مع دفاعه عن فكرة التسيير في ما يخصّ أعمال الإنسان، قال إنّ الإنسان، بتبنّيه بنفسه هذه الأعمال ساعة تنفيذها، يصبح مسؤولًا عنها.

وفي ما اتّبع تلاميذه الطريقة التي انتهجها، جاؤوا بتأويلات أو صِيَغ جديدة قد تكون تأثّرت بانتقادات الماتريديّين. مهما يكن من أمر فإنّهم طوّروها باستخدامهم إيّاها في إطار علميّ متكامل وفي خطّة انتقاء فلسفية للأسس التي كان وضعها أستاذهم. ففي القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، مثلًا، عمدت جماعة مثل الجويني إلى الدفاع عن تأويلات مجازيّة لعبارات تجسيميّة وردت في القرآن ذكرت فيها «يد» الله و«وجهه»، وهي عبارات كان الأشعريّ نفسه اكتفى بقبولها كما وردت «بدون شرح»، من دون أن يعلن قبوله الكامل بمعناها الحرفيّ. بُعيد ذلك أيضًا، دأب الغزالي على إيضاح عقيدة القرآن غير المخلوق بقوله إنّ هذه الصيغة يمكن أن تُطلق على أفكار الوحي الإلهي وِفْقَ ما يسمّى في عرف البشر، «الكلام الداخليّ»، إلّا أنّها لا تناسب، في الوقت عينه، النصّ نفسه، كما نقرأه ونتلوه. بيد أنّ الأشاعرة، من منطلق تَبنّيهم المحتمل لموقف حدّده الأشعريّ نفسه، أبدوا اهتمامًا كبيرًا بصياغة نظرة إلى العالَم [ووجوده] أوحى إليهم بها بعض المفكّرين من المعتزلة، تقوم على مفهوم المادّة-الذرّة [أي الجوهر]. ولقد قال بهذه النظريّة «الذرّيّة» في [خلق] العالم كثيرون من علماء الكلام المسلمين، إذ إنّها تيسّر القول بالحريّة الإلهية، فالعالم المكوَّن من مجموعة من الذرّات لا يمكن أن يكون خاضعًا لأيّ حتميّة.

زد على ذلك أنّ الغزالي الأشعريّ المنحى أخذ ببعض الحجج ذات النمط الفلسفي، مثل التي تتناول البرهان على وجود الله بمنطق أرسطويّ، يفوق في دقّته المنطق الذي استخدمه من سبقه من المؤلّفين. وهذا ما مكّن ابن خلدون من القول إنّ الغزاليّ اختطّ في علم الكلام منهجًا جديدًا هو «منهج الآخذين بالحداثة».

إنّ الأشعريّة التي جَهدت في هذا الاتّجاه للمحافظة على مذاهب السَّلف وعرضها، في الوقت نفسه، في صيغة يقبلها العقل، أحرزت نجاحًا حقيقيًّا استمرّ حتى وقتنا الحاضر، بعد أن كانت قد انتشرت في المناطق الوسطى والشرقية من أمبراطوريّة العبّاسيّين حيث تجنّد لخدمتها علماء كلام مثل الباقلّاني، وفي مرحلة لاحقة الجُوَيْني. ولقد لاقت حظوة بعد وصول السلاجقة إلى الحكم وأفادت، بفضل الوزير الشهير نظام الملك، من دعم رسميّ يناقض العداء الذي ناصبتها إيّاه السلطات البويهيّة الشيعيّة. وإضافةً إلى الأشخاص الذين سبق ذكرهم ممّن وفّروا لها الإنطلاق، ينبغي ذكر الشهرستاني والإيجي، من دون أن يغيب عنّا أنّ المكانة المميّزة التي حظي بها ممثّلو هذه الحركة الفكريّة عبر العصور، في مؤسّسات التعليم في الشرق الأدنى العربيّ، أهّلتها لأن تُعتبر، أحيانًا، مرادفة لما يمكن تسميته السُّنّة. إلّا أنّ العصور الوسطى شهدت حربًا على الأشعريّة قادها الحنابلة من موقع المدافعين المتصلّبين عن الأفكار السَّلفيّة، فاتّهموا القائلين بها بممالأة خصومهم، وهكذا أمّنوا لأنفسهم، بدورهم، مكانةً من الدرجة الأولى، منذ أواخر القرن التاسع عشر، في تطوير الفكر الإسلاميّ المعاصر.

إصطخر، مدينة من القرون الوسطى، مهدّمة، في مقاطعة فارس، لا نعرف منها اليوم إلّا مكانها قرب آثار الأخمينيّين في المدائن.

دخلتها القوّات العربيّة – الإسلاميّة للمرّة الأولى زمن الفتوحات الكبرى في ٢٣هـ/٦٤٣م، ومرّةً ثانية نهائيّة في ٢٩هـ/٦٤٩م. كانت اصطخر مدينة ساسانيّة مهمّة في إيران، وسرعان ما توارت، منذ القرون الأولى للإسلام، أمام شيراز المدينة الجديدة التي أصبحت عاصمة المقاطعة. وإثر ثورة نشبت حوالى نهاية القرن العاشر، دُمّرت اصطخر كليًّا على يد جيش أرسله الأمير الكبير عضد الدولة من السلالة البويهيّة.

◄ راجع المستند رقم ١٢.

أصفهان (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة في ما كان يُعرف في القرون الوسطى بمقاطعة الجبال، وهي مجاورة لفارس وقائمة في وسط إيران الغربيّة. توسّعت في العهد الإسلامي، ولا سيّما على عهد السلاجقة وخلال حكم السلطان الصفوي شاه عبّاس الأوّل.

أتاح نهر زاينْدِه رود، الدائم التدفّق، إنتشارَ بساتين وزراعات غذائيّة في سهل عالٍ في جبال زغروس، أمّنت الازدهار في هذا المكان، حوالى ١٩هـ/٦٤٠م، خلال الفتوحات العربية – الإسلاميّة الكبرى، لمدينتين صغيرتين، يفصل بينهما حوالى ميلين بحسب الجغرافيّين العرب في القرون الوسطى: الأولى، أنشأها الساسانيّون، تُدعى جَيّ، والأخرى تدعى يهوديّة، نسبة إلى اليهود الذين استقرّوا فيها، في زمن يصعب تحديده. في هذه المنطقة المرويّة والخصبة، كانت المدينتان محاطتين بقرى تابعة لهما، جُهّزت إحداها بأوّل مسجد جامع بعدما عدل الفاتحون عن احتلال المجمّع الساساني.

بعد زمن قليل، في نهاية القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، بُني مسجد جامع آخر في مكان مسجد الجمعة الحالي، يعود تصميمه الأوّل وأقدم بقاياه الأثريّة إلى زمن العبّاسيّين الأوّلين. وارتفع حول الجامع سور، وسوّيت ساحة في وسط مدينة ذات شكل دائري، تنطلق منها شوارع على شكل شعاعي، وشُيّد قرب الساحة المركزيّة قصر الحاكم او بالأحرى ممثّله. كانت أصفهان في الواقع خاضعة لسلطة الحاكم العبّاسي في البصرة، باستثناء الفترة التي خضعت فيها للصفّاريّين. لم تكن سوى مركز إقليمي، لكنّها أصبحت، في ظلّ البويهيّين، مدينة أميريّة، يسكن فيها أمير من الأسرة الحاكمة، وعرف جامعُها الكبير تعديلات، يمكن التعرّف إليها اليوم، وهي تتّفق وضرورات الفخامة والعظمة المتزايدتين. وفي أصفهان استقرّ أيضًا الوزير ابن عبّاد، رجل الأدب المشهور. والمدينة التي كانت محصّنة بقلعة جرى تجميلها من قبله بمبانٍ مختلفة، منها جامع جرجير المتميّز بمدخله المزيّن بزخارف من الجصّ وبقطع من القرميد متنوّعة الأشكال. على أنّ أصفهان لم تلعب بالفعل دورًا مهمًّا إلّا مع قيام الأمبراطوريّة السلجوقيّة: فالسلطان ووزيره كانا يقيمان فيها عادةً؛ ومنها، مثلًا، كان نظام الملك يُصدر أوامره المتعلّقة بتنظيم التدريس في بغداد. تمّت في الجامع الكبير أعمال جديدة جعلته في مستوى العظمة التي عرفها البلاط الأمبراطوري، وقصور أخرى لم يعد لها اليوم وجود. وقد تحقّق ذلك أوّلًا بإنشاء أجنحة لها قباب، تنمّ عن قدرة تقنيّة وفنيّة بالغة، ثمّ بإضافة إيوانات على جهات الباحات الرئيسيّة الأربع، وهي ما تزال ظاهرة حتّى اليوم تحت غطاء من القاشاني المتأخّر، يشير إلى هيكل البناء. وبعد موت ملكشاه، فقدت المدينة مركزها المميّز شيئًا فشيئًا، وشهدت احتلالات متلاحقة، قام بها المغول، ثمّ تيمورلنك؛ ولم تعد موضوع اهتمام إلّا من قبل بعض الحكّام الايلخانيّين، ثمّ التركمان، من الآق قيونلو، الذين أغنوا زخارف المسجد الجامع. وأنشأ «أولجايتو» فيه قاعة داخليّة لها محراب أنيق من الجصّ المنحوت.

في سنة ١٥٠٢م، مع استيلاء الشاه إسماعيل الأوّل الصفوي على أصفهان، أتيح للمدينة أن تصبح المركز الاقتصادي والثقافي للأمبراطوريّة التي أسّسها، ذلك أنّ ازدهار هذه الأمبراطوريّة لم يكن من الممكن إرساؤه في المقاطعات الشماليّة-الغربيّة، المعرّضة لأطماع العثمانيّين. وفي ١٥٩٦م، اتّخذها الشاه عبّاس الأوّل الكبير عاصمة له، متخلّيًا بالتالي عن المقرّات التي كان أسلافه، متّبعين في ذلك الإيلخانيّين، قد اختاروها سابقًا في أذربيجان، فبنى أحياء جديدة، ومسجدًا جامعًا ملكيًّا مشهورًا باتّساعه وبنوعيّة تزيينه بالخزف. هذا المسجد الذي عُرف بمسجدِ شاه أنشئ في أحد أطراف الساحة الكبيرة المستطيلة الشكل، المدعوّة ميدانِ شاه، التي

تنفتح عليها من الجهات الثلاث الأخرى سوق ذات بوابة ضخمة، ومزار فخم على اسم الشيخ لطف الله، وواجهة قصر الأكابو. وأعاد التخطيط المدني في أصفهان بإنشائه جادة جهار باغ المؤدّية إلى جسر الله ورديخان الذي بني بأمر منه. وأقيمت في الحدائق الفسيحة للمقرّ الملكي الجديد أجنحة ضاهت شهرة جناح الأعمدة الأربعين أو «جهل سوتون».

وبحسب الرحّالة الفرنسي شاردان (Chardin)، كانت أصفهان في هذه الحقبة أجمل مدن الشرق. وكانت كثيفة السكّان، تضمّ، فضلًا عن المسلمين، ممثّلين لديانات عدّة. فالشاه عبّاس كان قد نقل إلى أحد أحيائها، الذي عُرف منذ ذلك الحين بحيّ جُلفا، عناصر أرمنيّة نزحت من المقاطعة التي تحمل هذا الاسم في ما وراء القوقاز، على الحدود الحاليّة التي تفصل جمهوريّة إيران عن أرض نخْجوان التي تشكّل جزءًا من جمهوريّة أذربيجان. هؤلاء الأرمن الماهرون والتجّار نعموا بالحرية، وشاركوا في تطوير اقتصاد المدينة، التي سكنها أيضًا تجّار وحرفيّون أوروبيّون. لكنّ هذه الأوضاع المؤاتية لم تدم طويلًا، وبدأت بالتراجع خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، على الرغم من ظهور منشآت فخمة كمدرسة مادر شاه والخان المميّز التابع لها.

في القرن التاسع عشر، تأكّد انحطاط أصفهان التي كانت تعاني الاضطرابات، أسوة بسائر المناطق الإيرانيّة، واستمرّت على هذه الحال إلى مطلع القرن العشرين، حين ساهم أهاليها في نهضة الحركات القوميّة. وهكذا تمكّنت هذه المدينة من استعادة حيوية إقتصاديّة وصناعيّة جديرة بأن تُنسي حالة الإهمال الماضية، وبأن تحافظ، في الوقت نفسه، على مجدها المميّز القائم على مبانيها الفاخرة. فهي لا تزخر بالتحف الصفويّة التي أعادت إليها أعمالُ الترميم رونقها وحسب، لكنّ مسجدها الجامع القديم، الذي أُعيدت كتابة تاريخه الأثري منذ مدّة، انطلاقًا من الأبحاث والدراسات المنهجيّة، قدّمَ معطياتٍ ثابتة، كان قد أسيء فهمها حتى ذلك الوقت، عن تطوّر ما عرف بـ«الجامع الإيراني».

◄ راجع المستندات ١٠، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٤، ٧٠ و٧٢.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، ٢٨٤-٣٥٦هـ/ ٨٩٧-٩٦٧م، أديب وشاعر عربي، متشيّع، اشتهر خاصة بمؤلّفه «كتاب الأغاني». ولد في أصفهان، من عائلة قرشيّة أمويّة. عاش أبو الفرج في ظل حُماة الأدب، وسلالات شيعيّة حاكمة، كالبويهيّين، وكالحمدانيّين في حلب، وعاش خاصة في بغداد حيث توفي. كتابه المذكور هو مجموعة من الأشعار ومن الأغاني نفّذها موسيقيّون مختلفون، وقد أرفقها المؤلّف بنُبَذ عن سير هؤلاء. يشكّل الكتاب مصدرًا أساسيًّا لمعلومات عن المجتمع البغدادي في زمانه، وعن الحظوة التي كان يلقاها نوع من الموسيقى واللهو. والفضول الخاص بالمؤلّف، والذي ينمّ عنه الكتاب، دفعه إلى تصوير مظاهر متنوّعة للمجتمع العربي وللثقافة العربيّة، عائدًا بذلك حتّى إلى مرحلة ما قبل الإسلام. وتظهر خياراته الدينيّة بشكل واضح في كتاب آخر يدل على تبحّره، هو «مقاتل الطالبيّين»، يروي فيه الطريقة التي لقيت بها حتفها سلالة علي بن أبي طالب خلال القرون الأولى للإسلام، وهي طريقة تتّسم بالعنف في أغلب الأحيان.

الإصلاح أو الحركة الاصلاحيّة، تيّار فكريّ ظهر، أولًا، في الشرق، بين نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في فترة تنامت فيها علاقات جديدة سياسيّة وفكريّة بأوروبا التي كانت تشهد تطوّرًا كبيرًا. ولم تكن غاية هذا التيّار «إصلاح» الإسلام بل العودة به إلى ما كان عليه في الأصل.

هنا تكمن بالفعل، على حدّ قول مختلف أعضاء هذا التيّار، الوسيلة الوحيدة التي سمحت بتقوية العالم الإسلامي وجعله قادرًا على الوقوف بوجه التأثيرات الغربيّة المضرّة؛ وهذا ما أضفى على هذا التيّار اسم «السلفيّة». ومع ذلك، لم يرفض التيّار الإصلاحي بعض وجوه المعرفة أو بعض مقوّمات الحياة المعاصرة؛ وجمع، مع ميله إلى الانكفاء على الذات، همّ التأقلم مع بعض التأثيرات الخارجيّة، السطحيّة في الغالب.

١ - ينطابق هذا التيار الفكري مع اتّجاه عميق في الإسلام لم يتوانَ عن الظهور في مراحل عدّة عبر العصور، واتّخذ أهميّة خاصّة في القرن التاسع عشر، بسبب وضع يمكن رسم خطوطه الكبرى كالآتي: وجدت البلدان الإسلاميّة بمجملها، خلال هذه الحقبة، أنّها في

حالة تبعيّة مباشرة او غير مباشرة للدول الأوروبيّة ، سواء كان الأمر يتعلّق بالسلطنة العثمانيّة التي ضعفت بفعل الخسائر العسكريّة والديون الخارجيّة ، أو بالدولة الإيرانيّة (القاجاريّة) التي أضعفتها ديونها الخارجيّة أيضًا ، أو بلدان المغرب التي وقعت على التوالي تحت السيطرة الأجنبيّة ، او الهند المحتلّة هي أيضًا ، وبدون ان ننسى مصر التي كانت تواجه ، رغم ظهور الشعور الوطني منذ حملة بونابرت في العام ١٧٩٨ ، المشكلات السياسيّة والثقافيّة والماليّة نفسها التي كانت تعاني منها المناطق الأخرى.

وللتعويض عن الحالة الدونيّة الإقتصاديّة والعسكريّة هذه ، بدأت تظهر بعض المواقف المؤيّدة لممارسات الغرب الحديث ، ومنها: إدخال التقنيات الأوروبيّة إلى مناطق مختلفة ؛ - تعايش التعليم التقليدي مع الجامعات ذات النمط الأوروبي التي تأسّست في أرجاء عدّة ؛ - الإزدهار ، غير المعهود حتى ذاك الحين ، الذي عرفته الإرساليّات المسيحيّة في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كانت كنائس الشرق تنفتح على التأثيرات الاوروبيّة ؛ - الانتشار الواسع للأفكار التي أصبح باستطاعة الصحافة نشرها على نطاق واسع ، بفضل المطابع العربيّة الجديدة ، كمطبعة بولاق في مصر التي افتُتحت عام ١٨٢٢ . وتبع ذلك نهضة في الحركات الفكريّة العربيّة عينها ، بالموازاة مع التغلغل الغربي ، أفرزت بدورها ذهنيّة عصريّة سببها التحوّل في الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة وفق النمط الأوروبي. لكنّ مثل هذه التحوّلات ترافق مع ضيق وحالة رفضيّة لدى العديد من الشعوب الإسلامية التي مُسَّت في عاداتها ، والتي وقفت بعنف في وجه كلّ محاولة للتأقلم مع الغرب ، إذ كانت تعتبرها إذلالًا للإسلام.

كان جمال الدين ، المعروف بالأفغاني ، أوّل المفكّرين الإصلاحيّين ، وقد شعر بضرورة محاربة الإمبرياليّة الأوروبيّة ، وبالأخص البريطانيّة ، في الهند كما في مصر . وقد أدرك ، بالتأكيد ، أنّه ، لمحاربة أخطار الماديّة الغربيّة ، يجب إعادة القوّة الى الدين وإحياء الإسلام ، ونبذ بعض الإنحرافات كالتصرّفات المنبثقة من مفهوم حتميّة الأمور ، وتشجيع المسلمين على الكدّ والجهد. وقد حارب أيضًا ، من دون هوادة ، بالقلم والعمل ، الحكومات الإسلاميّة الاستبداديّة التي وضع في طليعتها حكومة الشاه في إيران. لكنّ تفكيره تطوّر ، فانتقل من مفهوم الجامعة الإسلاميّة - غير ممكنة التحقيق بسبب سوء العلاقة بين السلطان العثماني وشاه إيران - الى الإعتراف بالحركات القوميّة المحليّة. في الحقيقة كان جمال الدين ناشطًا أكثر منه مفكرًا. وإذا كان بعض نتاجه الفكري قد عرف انتشارًا واسعًا ، فإن ذلك يأتي ، بالنسبة إليه ، في المرتبة الثانية ، فضلًا عن أنّ بعض نتاجه قد وضعه بالتعاون مع المصري محمد عبده.

كان محمد عبده ، على عكس الأفغاني ، استاذًا ذا ثقافة تقليديّة ، وقاضيًا عمل ، طوال حياته المهنيّة ، على تحديث التعليم في الأزهر ، وتحسين مؤسّسات القضاء بتفعيلها ودفعها الى المزيد من الإستقامة . وقد امتاز أيضًا بمبادراته الفقهية والفتاوى التي أصدرها والتي هدفت الى السماح ببعض الممارسات ذات الطابع الغربي التي كانت ممنوعة ، حتى ذلك التاريخ ، في العالم الإسلامي. وضع بخاصة مؤلّفًا فقهيًّا صغيرًا ، يمكن القول إنّه يعبّر عن الطريقة التي اتّبعها الاصلاحيّون في معالجة مسائل من هذا النوع: كانوا يستبعدون ما كان يبدو لهم كمسائل تخطاها الزمن ، ويشدّدون على القيمة الإجتماعيّة للدين. وقد ساهم مفكّر ثالث ، هو الكواكبي السوري الأصل ، في المرحلة الأولى من حركة الإصلاح ، وبشكل خاص عبر كتاباته المناهضة للاستبداد.

ولكن ، مع بداية القرن العشرين ، جهد الاصلاحيّون لتحديد موقفهم العقائدي. عمل على ذلك في الشرق ، بشكل أساسي ، رشيد رضا الذي ، إضافةً الى تأسيسه مجلة «المنار» التي تحلّق حولها أعضاء الحزب المعروف بالإسم ذاته ، تابع تفسير القرآن الذي كان قد بدأه محمد عبده. وقد لعب إبن باديس ، في المغرب ، دورًا مماثلًا وخلّف هو أيضًا مقالات في تفسير القرآن.

٢ - هدفت الحركة الإصلاحيّة ، بشكل عام ، الى تجديد الحياة الدينيّة وإلى إحياء العقيدة الإسلاميّة من منظور استمرّت تُحرّكه الأصوليّة. وهكذا ركّزت هذه

الحركة على ضرورة إبعاد الدين عن بعض الممارسات التي تُعتبر بدعًا، وبخاصّة بعض الشعائر المتّصلة بزيارة قبور الأولياء، والتي لا أساس لها لا في القرآن ولا في السنّة؛ وكذلك بعض المظاهر المتعلّقة بتكريم الأولياء. كما دعت الى التشدّد في مراقبة الأخلاق العامّة، وتصدّت للذين كانوا يتساهلون بشأن الممنوعات الغذائيّة وبشأن ألعاب الميسر؛ وبالمقابل، شجّعت الفضول الفكري وحبّ العمل. عمد أفراد هذه الحركة إلى الدعوة إلى الإسلام وإلى نشر مطبوعات دوريّة موجّهة الى جمهور مثقّف.

شكّلت العقيدة، بدون شك، المجال الذي أظهرت فيه الحركة الإصلاحيّة، بأوضح صورة، أمانتها للقواعد التقليديّة. تمسّك ممثّلوها - أي أساسًا رشيد رضا، وهو الوحيد الذي وضع مؤلّفات بنّاءة بهذا الخصوص - بسوابق تعتبر القرآن والسنّة مرتكزيْن، لا جدال فيهما، للدين. ولم يكونوا مجدّدين إلّا بالقدر الذي رفضوا فيه الانقسامات القائمة بين المدارس الفقهية، وكذلك تلك التي بين السنّة والشيعة؛ وأيضًا بقدر ما انتقدوا التقليد ودعوا الى الإجتهاد، معتبرين أنّ باب الاجتهاد لم يُقفل في يوم من الأيّام. ولجأوا إلى الإجتهاد، بخاصة في المسائل الاجتماعيّة، بمقتضى مبدأين قال بهما كلّ الاصلاحيّين: من جهة أولى، إنّ الفروض الطقسيّة هي واضحة بما فيه الكفاية في المصدرين الأساسيّين للإسلام؛ ومن جهة ثانية، إنّه يمكن ان تتّخذ السلطة، في المجال التشريعي، تدابير معيّنة، بالاتفاق مع الفقهاء، لجعل الحياة اليوميّة للجماعة تتلاءم مع متطلّبات الحياة المعاصرة. وبموجب هذا المبدأ، اقترح رشيد رضا تصوّرًا لإعادة الخلافة التي كانت الجمهوريّة التركية قد ألغتها عام ١٩٢٤.

حاول الإصلاحيّون إذًا، ومن خلال عمليّة تجدّد داخلي للإسلام، الحدّ من انتشار التيّار التحديثي الذي كان يمثّله آنذاك أولئك الذين قبلوا بمكتسبات الحضارة الغربيّة في مجال العلوم والتقنيّات - مع ما يفترضه ذلك، بطبيعة الحال، من التزام بروحيّة النقد والتجربة - بدون أن يعيروا أهميّة لمعرفة مدى توافق هذه المكتسبات مع الإسلام. لم يتوصّل الإصلاحيّون إلى تجديد حقيقي في علم الكلام الإسلامي، لكنّهم ساهموا، بشكل ما، بإعادة الثقة إلى المسلمين الذين كانوا يتساءلون عن مسبّبات الإنحطاط العُضال الذي أصاب قواهم السياسيّة. وبالفعل، إنتشرت الحركة الإصلاحيّة في كل البلدان العربيّة تقريبًا، وإن بنجاحات متفاوتة، لتملأ الفراغ الذي كان يفصل، في مطلع القرن العشرين، العالم الغربي عن عالم إسلامي كانت أنماط حياته وإنجازاته المباشرة لا تزال تضرب بجذورها في صميم القرون الوسطى.

إنّ الدعوة التي أطلقها رشيد رضا نفسه، باسم العالم الإسلامي، إلى كلّ شعوب الأرض لتعتنق الإسلام «دين الإنسانيّة والسلام»، إنّما ارتكزت تحديدًا على إعادة تأكيد القيمة الذاتيّة للإسلام كشريعة منزلة مهيّأة، بصفتها هذه وبشكل كامل، لتنظّم كلّ مظاهر حياة الفرد والجماعة. إنّ إرادة الدفاع عن الإسلام ونشره بقيت، من هذا المنظور، كاملةً، لا بل كانت حاضرة أكثر من أيّ وقت مضى. وبالفعل لم تواكب هذه الإرادة أيّة محاولة لمناقشة أو إعادة تفسير الأسس الدينيّة التقليديّة المكنونة التي لا تُمسّ. إنّ كلّ جهد تطويري كان يتخطّى المجال المادي للفنون والتقنيّات، بالمعنى الحصري، كان يُجابه بضرورة العودة الدائمة إلى الرسالة النبويّة وإلى الأوامر الدقيقة المنبثقة منها. وبالنسبة إلى الإصلاحيّين، كانت الرسالة المحمديّة هي الوحيدة التي أتاحت للإسلام تأسيس شرعيّة السلطتين الزمنيّة والروحيّة، اللتين كانتا في أساس الاعتداديّة التي تميّز بها المسلمون. وكل ذلك جرى مع تجاهل كامل للدعوات الأخرى، ويمكننا القول أيضًا: مع نظرة متعالية إلى الرسالات الأخرى وطموحاتها.

٣ - عانى هذا الأمل المسيطر على الفكر الإصلاحي في الإسلام من الحالة التاريخيّة الفوضويّة التي عرفتها البلدان العربيّة في العقود الأخيرة من القرن العشرين. فبرز تناقض واضح بين التحديث المتسارع لبعض الدول النفطيّة من جهة، والبؤس السائد في بقيّة البلدان الإسلاميّة التي، بسبب افتقارها إلى مثل هذه الموارد، ظلّت تعاني من سوء التنمية المزمن. إنّ الفشل الذي مُنيت به بعض الدول الإسلاميّة الغنيّة في الارتقاء الى

المرتبة الأولى بين الدول الصناعيّة ، أُضيف الى المرارة الدائمة لدى شعوب مضطربة ومنقسمة على ذاتها ، لم نجد في توازنها الداخلي ضمان تفوّق يعوّضها - بعد حصولها على الاستقلال - عن مرارة سنوات السيطرة الأجنبيّة التي أحسّت بها كسنوات ذلّ. إنّ النجاحات والصعوبات الاقتصاديّة لم تؤدّ سوى إلى تأجيج الصراعات الداخلية ذات الطابع الإجتماعي - الديني التي يعرفها الإسلام ، والتي يتمّ التعبير عنها بأشكال مختلفة في طبقات المجتمع عند كل شعب ، وفاقًا لدرجة ثقافته وطبيعة الإعلام الذي يحظى به.

برز ، بعد حركة الإصلاح التي كانت مسيطرة في مطلع القرن العشرين بمبادئها المتشدّدة ، ولكن بتعبيرها المعتدل ، اتّجاه نحو أصوليّة لا تقلّ عنها تشدّدًا ، ولكنّها مطبوعة ، إضافةً الى ذلك ، بعدوانيّة واضحة أو مستترة. تشكّل هذه العدوانيّة إحدى الخصائص المميّزة لما نسمّيه اليوم الإسلام الراديكالي ؛ وكانت تظهر ، في ما مضى ، في كل مرّة كان فيها الإسلام يستلهم جذوره ليستمدّ منها العزم الذي يدفعه الى البحث عن الانتصار عن طريق السلاح.

في غضون ذلك ، لم تبقَ المظاهر المشار إليها وفقًا على التطوّر الذي عرفته البلدان العربيّة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. ومع أنّ الحركة الإصلاحيّة لم تظهر في إيران بالوضوح الذي كانت عليه في الشرق الأدنى ، إلّا أنّ هذا البلد عرف أيضًا جهود التحديث والتغريب. وقد سهّلت هذه الجهود ، في بداياتها ، شخصياتٌ بعيدة عن الروحيّة الدينيّة ، كالأرمني - الإيراني ميرزا ملكوم خان (١٨٣٤-١٩٠٣) الذي أصدر في لندن ، بين عامي ١٨٩٠ و١٨٩٨ ، مجلة «قانون» التي كانت تدعم الفكرة القائلة إنّه في إمكان الإسلام أن يقبل بإصلاحات إجتماعيّة وأن يُدخل ، في بعض المجالات ، تشريعًا مستمدًّا من التجربة الغربيّة. والبرهنة التي اعتمد عليها كانت تركّز على ضرورة الانطلاق من القرآن عينه ، بدون التوقف عند الصياغات القانونيّة اللّاحقة. وبعد فترة قصيرة ، تأثرت إيران أيضًا ، بشكل إستطرادي ، بأفكار جمال الدين الافغاني الذي يمكن اعتباره ، كما رأينا ، من أركان التيار الإصلاحي ، ولكنّه ناضل خصوصًا من أجل اقامة جامعة إسلاميّة كان يعتبرها الوسيلة الفضلى لمواجهة التدخّل الخارجي.

ولم يتخذ علماء الدين الإيرانيّون او الملالي موقفًا مؤيّدًا للإصلاح السياسي ، إلّا في ما بعد ، في الفترة بين عامي ١٩٠٥ و١٩١١. وقد أدّى هذا الموقف الى ما عُرف بالثورة الدستوريّة ؛ وكانت مهمّة المجلس الذي نتج عنها ، الحؤول دون تجاوز الحكومة للسلطة ، في غياب الامام الغائب ، بحسب عقيدة الإماميّة الإثني عشريّة. إلّا أنّ علماء الدين الإيرانيّين ، باستثناء هذه المسألة الخاصة ، لم يسعوا الى صياغة جديدة للعقيدة ، لأنّ ذلك لم يكن له ما يبرّره في الوسط الشيعي. لا بل إنّ هؤلاء العلماء آثروا البقاء في الظلّ الى لحظة انفجار التوتّرات والخلافات - التي كانت مستترة تحت غطاء حداثة مجرّدة من أي رابط مع الإسلام - في ثورة ١٩٧٩ التي قادها الخميني. فالسلطة التي تقرّها الإماميّة الإثنا عشرية لآيات الله تعزّزت ، بدعم من الملالي أنفسهم ، إذ إنّ هؤلاء مكلّفون ، وفق هذه العقيدة ، عبر عملهم باسم الإمام الغائب وطيلة غيبته المستمرّة منذ احد عشر قرنًا ، بالعودة بالمؤمنين الى حياة مطابقة للشريعة ، والى إقامة عدالة سوف يُكملها الإمام عند عودته المنتظرة.

لعبت الحركة الإصلاحيّة ، التي كانت ذات فاعليّة ضعيفة في إيران ، دورًا ثانويًا في تركيا الحاليّة أيضًا. فقد انتشرت أفكار محمد عبده لفترة من الزمن في الأمبراطوريّة العثمانيّة ، بفضل مجلة «الإجتهاد» التي أصدرها جودت باشا (١٨٢٢ - ١٨٩٥) في المنفى ؛ واستمرّ انتشارها في ما بعد من خلال مجلة ذات منحى تحديثي أسّسها علماء دين شباب بعد ١٩٠٨ ؛ وقد برز اتّجاه للنهل من ينابيع الإسلام ، عبّر عنه بديع الزمان سعيد نرسي (١٨٧٣ - ١٩٦٠). إلّا أنّ كل هذه المحاولات لم تصمد أمام المفكّرين العلمانيّين الذين شقّوا الطريق أمام الكماليّة التي أقامت بالقوة الدولة الوحيدة التي يسكنها مسلمون ، والتي رفضت أيّة تسوية مع العقيدة السياسيّة للإسلام.

وبالمقابل ، احتلّت الحركة الإصلاحيّة موقعًا مميّزًا في تطوّر الهند ، حيث ظهرت ، في البدء ، كردّة فعل

على التحديث المبالغ فيه الذي دعا إليه أحمد خان في القرن التاسع عشر. وقد تمثّلت هذه الحركة، خاصّةً، بمحمّد إقبال المنتمي الى الصوفيّة والشاعر في آن معًا. وقد اجتهد إقبال لإعادة إحياء الفكر الديني للإسلام مع تشديده، في الشؤون الإجتماعيّة والسياسيّة، على ممارسة الاجتهاد والإجماع الذي كان يرى فيه مرتكزًا قديمًا للنظام البرلماني. ومن هنا برزت حركة إصلاحيّة معتدلة في ظاهرها، كان لها أيضًا ممثّل هو أبو الكلام آزاد، بينما تزعّم الإتّجاه الأصولي أبو العلاء مودودي.

أُصول، مفردها **أصل**، وهو مصطلح عربي يعني «أسسًا أو جذورًا»، كان له دور أساسي في مجمل مصطلحات العلوم الإسلامية، ويقابله فيها مصطلح فروع، مفردها: فَرع، الذي يُطلق على «الفروع، والامتدادات والتطبيقات».

تظهر كلمة أصول، على الخصوص، في تعبيرين استُعمَل أحدهما المهتمّون بالمسائل المتعلّقة بالشريعة واستعمل الآخر الذين عملوا على تحديد العقيدة. هناك، من جهة، تعبير «أصول الفقه» والمعنيّ به النصوص أو المناهج التي ترتكز عليها أحكام الفقه: أي القرآن الكريم والحديث الشريف والحكم الشخصي أو الرأي، والقياس، والإجماع؛ من جهة أخرى، تعبير «أصول الدين» الذي يُطلق على أهمّ بنود العقيدة كما تتجلّى في أبحاث علم الكلام أو في الجهر بالعقيدة الدينيّة. كان الإسناد إلى الأصول في شتّى المواضيع يتمّ بصورة مستمرّة، وهذا يتوافق مع عقليّة المسلمين الذين كانوا يسعونَ دائمًا للعودة إلى الأسس التي وُضعت خلال السنوات الأولى أو العقود الأولى للإسلام. واتّخذ الإسناد الى الأصول أهميّة خاصة عند الشيعة الإماميّة حيث ظهر، في القرون الوسطى، اتّجاهان متناقضان: اتّجاه أتباع التقليد وهم «الإخباريّون»، واتّجاه أتباع إعمال الرأي استنادًا الى الأصول وهم «الأصوليّون». وقد كانت الغلبة لهؤلاء الأخيرين فغدا علماء الشيعة الإماميّة حاليًا أصوليّين، بمعنى أنهم يدعون إلى الأخذ بالاجتهاد.

أصولي ← إخباري ← الامامية الإثنا عشريّة.

الأُصوليّة، موقف دينيّ يقول بالتزام النصوص المنزلة بصرامة، وقد كان قائمًا طوال تاريخ الإسلام.

تمثّل، بوجه خاص، خلال العصور الوسطى، بالتقليديّين الذين كانوا حنابلة، بصورة عامة، وكانوا ينادون، في ما يتعلّق بمسائل كثيرة، بضرورة الأخذ بحرفيّة نص القرآن من غير تأويل.

في الحقبة المعاصرة، تقوم الأُصوليّة على موقف دينيّ وسياسيّ في آن، ويمثّلها جميع الذين يطالبون بتطبيق الشريعة المستندة إلى نصّ القرآن. هذا هو موقف حكّام المملكة العربيّة السعوديّة، وموقف الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة، وكذلك الإخوان المسلمين، الناشطين في دول متعدّدة، وموقف مختلف المجموعات المعروفة بالإسلاميّين أو السّلفيّين، بحسب التسميات الغربيّة السائدة اليوم، وهي تسميات مرشّحة للتطوّر بسرعة.

أَضَنَه (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في جنوب الأناضول هي، اليوم، عاصمته الاقتصاديّة، بعد أن عرفت، منذ انضمامها إلى الإسلام في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، تاريخًا مضطربًا، مرتبطًا بمصير سهل كيليكيا الغنيّ وبموقعها الإستراتيجيّ الخاص.

وبحكم موقع أضنة بين منفذ سلسلة جبال طوروس والطرق التي تربط الهضبات المرتفعة لقونية وأنقرة بالساحل الجنوبي للبلاد وبسوريا المجاورة، كان لهذه الحاضرة القروسطيّة دور تجاريّ من الدرجة الأولى. فقد ورثت مدينةً قديمة، وساعدها، في نموّها، خصبُ محيطها والطابع المركّب لسُكّانها الذين توزّعوا، لحقبة طويلة، مناصفةً بين مسيحيّين ومسلمين. وإلى جانب منافستَيْها في ذلك الزمان، المَصّيصه، أي موبصِيضْتا العتيقة التي غدت، اليوم، ضيعة بسيطة باسم مِصّيص، ولا سيّما طَرَس/طرسوس الشهيرة التي حلّت محلّها تدريجًا، فقد اضطلعت بدورٍ حربيّ تشهد عليه خرائب قلعتها. إلّا أنّ المطامع المتعدّدة التي فرضت عليها السيطرة المتتالية لأسياد من أُصول عربية-سوريّة، ويونانيّة، وتركيّة أو أرمنيّة، في منطقة حدوديّة بقيت موزّعة الأداء اللغوي بين العرب والأتراك، عقب وصول هؤلاء في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أدّت إلى تقلّب الدهر بها ودورانه عليها

حتى الأزمنة الحديثة.

شهدت بعد احتلالها على أيدي الجُيوش العربيّة الإسلامية إبّان الفتوحات الكبرى هجمات بيزنطيّة، قبل أن يبادر الخليفة هارون الرشيد إلى إعادة إعمارها على أنّها أحد المواقع الحصينة الممتدة على التخوم السوريّة أو الثغور؛ غير أنّها لم تسلم من الحملات المسيحيّة المنتصرة في أكثر الأحيان[١٩]. ثم إنّ الحروب المختلفة الإسلاميّة-البيزنطيّة التي تناوبت عليها ودمغت عصور الأمويّين والعبّاسيّين، تلتها منازعات لم تكن أقلّ عنفًا، في العهد الصليبي، حيث انتقلت أضنه من سيطرة السلاجقة إلى سيطرة فرنج أنطاكية، ثمّ إلى سيطرة الأرمن، فسلاجقة الروم، فالأرمن من جديد، حتى سيطرة المماليك السوريّين-المصريّين عام ١٣٥٩م.

وخلال القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، نجح آل رمضان في أن يجعلوا من أضنه قاعدة لدولة تركمانيّة نصف مستقلّة، أفادت من مطامح المماليك والعثمانيّين المتناقضة. أدّى ذلك إلى ازدهار ثقافيّ مميّز زان المدينة بمبانٍ مثل المساجد والمدارس والعمائر المدنيّة والأضرحة المزدانة بزخارف حيث تجلّت من جديد التقاليد المعماريّة أو الزخرفيّة التي عُرف بها سلاجقة الروم، وكذلك تقليد النماذج السوريّة. وقد تلت ذلك السيطرة العثمانيّة النهائيّة التي أصبح آل رمضان في ظلّها من أصحاب المقاطعات، بعد معركة السلطان سليم الأول الظافرة عام ١٥١٦. وأصبحت أضنة مركزًا لولاية، أفادت في بادئ الأمر، على صعيد المبادلات، من أرباح السلام الأمبراطوري، قبل أن يؤدّي الأمر بها إلى انحطاط مستمرّ. وقد أدّى نموّ زراعة القطن في منتصف القرن التاسع عشر، وبوجه خاص التصنيع النامي الذي أعقب ذلك، إلى جعل أضنة أحد الأقطاب الاقتصاديّة للجمهوريّة التركيّة، متحمّلةً نتيجة لذلك عواقب توجّهات النموّ السكّاني التي لا تزال تؤثّر في وضعها المُدني.

◄ راجع المستندين ١٢ و١٨.

إعتماد الدولة، ميرزا غِياث الدين محمد، ؟-١٠٣١هـ/ ؟-١٦٢٢م، إداريّ إيرانيّ مثقّف، هاجر إلى بلاط المغول حيث أتاح له زواج إبنته، نورجهان، من السلطان جهانگير، أن ينهي حياته العمليّة في أعلى مراتب التكريم.

كان اعتماد الدولة ابناً لأحد وزراء السلطان الصفويّ طهماسب، غادر إلى الهند بعد وفاة أبيه سنة ١٥٧٦م، واتّصل بالسلطان أكبر، فاستقبله بالحسنى، واستعمله في خدمته. وفي سنة ١٦٠٥م، رفعه السلطان جهانگير إلى رتبة وزير، وشرّفه بمنحه لقب «اعتماد الدولة». وفي عام ١٦١١م جعله رئيس وزرائه، بعد أن تزوّج بابنته، وخصّه بأعلى الامتيازات. مثقّف لامع، تمتّع بمجد التقرّب من السلطان، حتى وفاته سنة ١٦٢٢م، وقد أفاد من مركزه ليساعد في تغلغل التشيّع في البلاط المغولي وفي أوساط الطبقة الحاكمة. وضريحه المشيّد بالرخام الأبيض، المميّز بمهارة البناء، والذي أكمل سنة ١٦٢٨م، ما يزال يعدّ بين المباني الشهيرة في مدينة أغرا.

إعتناق الإسلام، هو الطريقة للحصول على صفة مسلم التي أُخذ بها طوال التاريخ الإسلامي بالحسنى أو بالإكراه.

واعتناق الإسلام على هذه الشاكلة لم يكن ليفترض احتفالًا خاصًّا. فكان على طالب اعتناق الإسلام، بعد قيامه بوضوء كامل، أن يتلو الشهادتين فقط في حضور شاهدين. ولهذه التلاوة طابع نهائي، يتعرّض من يخرقها لأقصى العقوبات الشرعيّة. وقد ثبت مثلًا، عبر العصور، أنّ مسيحيًّا ما اعتنق الإسلام ثمّ ارتدّ إلى ديانته الأولى، كان يُتّهم بالارتداد ويتعرّض لعقوبة الموت. والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة في القرون الوسطى حصل مع مسيحيّي مصر الذين أرغمهم الخليفة الفاطمي الحاكم على اعتناق الإسلام، ثمّ سمح لهم بالعودة إلى ديانتهم الأولى.

وقد مثّلت عمليّة اعتناق الإسلام بالتأكيد دورًا من الدرجة الأولى في انتشار الدين. لكنّ وتيرة هذه الاعتناقات، في مختلف البلدان التي احتلّها المسلمون في فترة الفتوحات الكبرى وما تلاها، تبقى غير واضحة، رغم تبيُّن الأثر المهمّ لهذه الاعتناقات التي أدّت في بعض المناطق، في قرون قليلة، إلى اقتلاع

الديانات الأخرى بشكل كامل.

إنّ وضع غير المسلمين، أي «أهل الذمّة»، في المجتمع الإسلامي الذي استبعدهم من بعض الوظائف وعرّضهم أحيانًا لمضايقات مختلفة، وأرغمهم على دفع ضريبة إضافيّة، شكّل، في حدّ ذاته، حافزًا لاعتناقهم الإسلام. وهكذا تكاثرت عمليّات اعتناق الإسلام تدريجيًّا في الأراضي التي فتحها المسلمون. ويبدو أكيدًا أنّه، في نهاية القرن الأول للهجرة، كان عدد معتنقي الإسلام، الذين وُصفوا بالموالي، يناهز، على أقل تقدير، عدد المسلمين العرب الذين وصلوا إلى هذه المناطق فاتحين. وثبت، من خلال بعض الوثائق، أنّه حوالي سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م، كان نصف غير المسلمين في بلد كإيران مثلًا انصهروا في مجموع المسلمين. وهذا ما يفسّر توقّف الثورات المناوئة للإسلام في هذه المرحلة، لتحلّ محلّها ثورات ذات طابع فئوي كانت في أُسسها حركات إجتماعيّة - دينيّة داخل الإسلام ذاته.

وممّا لا شك فيه أن الاعتناقات تسارعت عبر العصور، لكن وفاق ونبرة تختلف بين منطقة وأخرى. فالمسيحيّة اضمحلّت في المغرب حوالي القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، بينما استمرّت الطوائف المسيحيّة ذات الطقوس الشرقيّة في الشرق الأدنى وإيران. وكان لبعض الأحداث التاريخيّة اللاّحقة - الحملات الصليبيّة وبخاصة غزو المغول الذين اعتقد المسيحيّون أنّهم سيجدون لديهم الدعم - نتائج مؤسفة على هذه الطوائف التي خسرت في ما بعد الكثير من أتباعها. لكن يستحيل وضع جردة دقيقة لهذه النتائج التي اختلفت من شعب الى آخر. وقد حصلت تقلّبات مشابهة في مناطق البلقان التي احتلّها العثمانيّون بعد فترة قصيرة، حيث تفاوتت ردّة الفعل ما بين مقاومة ضارية حينًا، كما حصل في صربيا، واستيعاب تدريجي في الإسلام لجزء من السكان، حينًا آخر، كما في البوسنة. وتجدر الإشارة الى خصوصيّات أخرى، كما في حالة الهند حيث فشلت جهود الموجات المتعدّدة من الغزوات التي قادها ملوك مسلمون - بدءًا من الغزنويّين والغوريّين وصولًا إلى المغول في حمل مجموع السكان على اعتناق الإسلام. في المقابل، في أفريقيا السوداء، لا يزال الحصول على وضعية مسلم يشكّل عنصر جذب للسكّان، وهذا ما يفسّر، بمعزل عن الجهاد والضغوط الخارجيّة، الانطلاقة التي عرفها الإسلام، خلال القرون الأخيرة حتى يومنا هذا، في جنوب السهوب الساحليّة للقارة.

الإعجاز، أو استحالة التقليد، مصطلح عربي خاص بالقرآن الكريم ويعبّر عن المكانة الأساس التي يحتلّها، في الإسلام، هذا النصّ المُنزل الذي يعتبر بكليّته تدخّلاً عجائبيًّا إلهيًّا.

توضّح هذا المصطلح قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في زمن ساعدت خلاله المناقشات التي دارت بين المدارس الكلاميّة، في صياغة العقيدة والشريعة في أشكال متباينة أحياناً؛ وقد تدخّل مفكّرو المعتزلة خاصة في هذه المسألة التي تتناول خلق القرآن أو أزليّته (غير مخلوق). ومع ذلك، لم تقم أبدًا معارضة حقيقيّة تواجه تأكيد صحّة النص القرآني الذي يحمل في ذاته دليلاً على صحّته. وقد لبثت الحجّة الجماليّة في مستوى الدرجة الثانية، على الرغم من أنّه، بصورة عامة، تمّ تأكيدُ التفوّق الأسلوبي للقرآن الكريم الذي تشكّل دراسته أساساً لكل الأبحاث المتعلّقة بقواعد اللغة العربيّة وبعلم البلاغة التي تجد فيه مثالها الكامل. وفي ما بعد، وخلال كل الحقبات، رأى المسلمون في الإعجاز إثباتًا لإيمانهم، ولم تجر أيّة محاولة، لا من قبل المصلحين ولا من قبل دعاة العصرنة، للمسّ بهذا الإثبات.

أغادير (المملكة المغربيّة)، مدينة ميناء جنوبيّة، على الساحل الأطلسي، يعود استمرار دورها كمركز إداريّ وتجاريّ إلى موقعها الإستراتيجيّ القديم الذي كان، لفترة، مركزًا لممتلكات برتغالية.

إنّ اختيار البحّارة المسيحيّين [لهذا الموقع] وإشغاله منذ ١٥٠٥م وإقامتهم فيه قصرًا محصّنًا لحمايته، أدّت إلى ردّات فعل عنيفة من قِبَل قبائل البربر التي واجهت هذا التمركز الأجنبي الجديد بحركة جهاد، على الرغم من أنّ هذا المكان كاد يكون خاليًا من السكّان. وهكذا أدّت هجمات رؤساء القبائل، وهم من الأشراف، من بني سعد، إلى فرض سلطتهم، في ما

بعد، على كل المغرب حيث أنشأوا سلالة السعديّين. فقد قضوا، في العام ٩٤٨هـ/١٥٤١م، على الموقع المحصّن الذي كان يُعرف باسم سانتا كروز دِل كابو دي أغوير (Santa Cruz del Cabo de Aguer). بذلك فتح الطريق أمام أغادير فعرفت ازدهارًا تجاريًّا استمرّ حتى إنشاء مرفأ ألصويرة في نهاية القرن الثامن عشر. نتج عن ذلك عهد طويل من الركود بسبب انشاء هذا المرفأ وبسبب تبدُّل وجهة الحركة التجارية التي تلته. إلّا أنّ الحقبة المعاصرة أعادت الحيويّة إلى هذا المرفأ الذي طرأ عليه تحسين مطرّد، والذي يشكّل، عند منفذ سهل سوس، مركزًا لمنطقة غنيّة بالزراعة والمعادن وهي في أوج انطلاقتها في المغرب الحديث، مستفيدةً من جهود التخطيط المدني بعد الزلزال الذي ضربها عام ١٩٦٠.

◄ راجع المسند ١٤.

الأغالبة، ١٨٤-٢٩٧هـ/ ٨٠٠-٩٠٩م، سُلالة قويّة لحكام مستقلّين، تمكّنوا في مقاطعتهم بإفريقية من توطيد استقلالهم عن الخلافة العبّاسيّة، معترفين، في الوقت نفسه، بسلطتها، ومحافظين على سياستها العقائدية الوفية للتسنُّن.

ولمّا كان الأغالبة أمراءً قديرين وأسيادًا لمنطقة من الأمبراطوريّة مزدهرة للغاية، فقد اكتسبوا شهرة بسنأهلونها على أنّهم بناة وفاتحون، ثبّتها إلحاقهم صقلّية بأراضيهم. كان مؤسّس السلالة، إبراهيم بن الأغلب، قائدًا عسكريًّا، ينتمي إلى فرقة الخراسانيّين الذين احتضنهم الخلفاء الجدد منذ العام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، تاريخ انتصار «الثورة العبّاسيّة». عُهد إليه، كما لأبيه من قبله، بإعادة النظام إلى المغرب الشرقيّ، وكان الاضطراب قد اعتراه بشدّة. فيسّر له نجاحه أن يفاوض هارون الرشيد حول إقراره في منصبه، في مقابل اتاوة سنويّة يؤدّيها لخزانة بغداد. ولم تُثنه المعارضات الكثيرة التي واجهها في تلك الديار، من قِبَل العرب النازلين في البلاد، وكذلك البربر سكان البلاد الأصليّين، وفقهاء المالكيّة، كما من قبل أتباع الحركات السياسيّة-الدينيّة المنشقّة، كالخوارج، عن فرض سلطته على الجميع من دون مراعاة. وخلال ملكه وملك ابنه زيادة الله الأوّل، وكذلك خلال العهود الناشطة لمعظم أفراد سلالته، في ما بعد، بلغت القيروان – التي ينبغي اعتبارها عاصمتهم، حتّى إن أقام الأغالبة خارجها، في عزلة قصورهم الخاصة وحواضر الحكم – درجة من الحيويّة الثقافيّة وفّرت لها مكانة دامت طويلًا.

وعلى النسق ذاته، كانت تتنامى ثروة إقتصاديّة بشّرت للأغالبة أن يوجّهوا جهودهم لتنفيذ مشروعات عدّة ذات منفعة عامّة: مبانٍ فخمة تضاهي ما كان يُشاد في الحقبة نفسها في قلب الأمبراطوريّة العبّاسيّة؛ وفي موازاة ذلك إنشاء أُسطول بحريّ أمّن لهم في البحر المتوسّط تفوُّقًا لم يستطع بلوغه، حتى ذلك الوقت، أيُّ أمير مسلم. وهناك شواهد على روعة فنّهم المعماريّ تتمثّل في المساجد الكبرى في القيروان وتونس ورباط سوسة، وكذلك المصلّى الصغير المعروف باسم بوفتاته المبني في المدينة نفسها، وأطلال القصور الملكيّة في رقّاده، والمباني العسكريّة المنتشرة على الشاطئ، وحتّى المُنشآت المائيّة من أحواضٍ وأقنية التي ما تزال ماثلةً حول القيروان.

أمّا إنجازاتهم البحريّة فهي شاهدٌ على سياسة الجهاد التي تبنّاها الأغالبة لاستقطاب رأي عام لم يكن مرتاحًا إلى أسلوبهم في ممارسة الحكم. فقد هيّأت لهم سبُلَ النجاح، بين ٢١٢ و٢٦٤هـ/ ٨٢٧ و٨٧٨م، للاستيلاء شبه الكامل على صقلّية وانتزاعها من أيدي البيزنطيّين ولشنّ غزوات على المناطق الساحليّة من إيطاليا الجنوبيّة، وعلى سردينيا وكورسيكا، وحتى على [مقاطعة] بروڤانس الفرنسيّة، كما للتحكّم بجزيرة مالطا.

إنّ تفاقم المصاعب الداخليّة الطارئة، في نهاية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، سببه الدعوة الشيعيّة الإسماعيليّة التي كانت تمهّد لمجيء المهدي عبيد الله والتي لاقت مشايعين بين البربر من كُتامة. وقد أدّت إلى انهيار قدرة الأغالبة تحت ضربات عصيان شامل. عندئذ أخلت تلك السلالة الحاكمة مكانها للفاطميّين، فيما عمد آخر ممثّل لها، زيادة الله الثالث، إلى حمل كنوزه فارًّا إلى الشرق.

إبراهيم الأول بن الأغلب	١٨٤-١٩٦هـ/ ٨٠٠-٨١٢م
عبدالله الأول	١٩٧-٢٠١هـ/ ٨١٢-٨١٧م
زيادة الله بن ابراهيم	٢٠١-٢٢٣هـ/ ٨١٧-٨٣٨م

أبو عقال الأغلب	٢٢٣-٢٢٦هـ/٨٣٨-٨٤١م
محمد الأول بن الأغلب	٢٢٦-٢٤٢هـ/٨٤١-٨٥٦م
أحمد	٢٤٢-٢٤٩هـ/٨٥٦-٨٦٣م
زيادة الله الثاني	٢٤٩-٢٥٠هـ/٨٦٣-٨٦٤م
أبو الغرانق محمد الثاني	٢٥٠-٢٦١هـ/٨٦٣-٨٧٥م
ابراهيم الثاني	٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٥-٩٠٢م
عبدالله الثاني	٢٨٩-٢٩٠هـ/٩٠٢-٩٠٣م
زيادة الله الثالث	٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٣-٩٠٩م

◄ راجع المستندات ١١، ٥٣ و٥٤.

الأغاني (كتاب -) ← الأصفهاني.

الأغذية (المحرَّمة)، هي أنظمة شرعيّة تشكّل إحدى خصائص الإسلام الذي فرض على أتباعه أغذية معيّنة، وساهم بذلك في تحديد جدول المنتجات والمحاصيل في البلدان الإسلاميّة.

والأغذية المحرَّمة التي يشير القرآن الكريم نفسه إلى بعضها، كانت موضوع توضيح وشرح من قبل رجال الفقه. وفي طليعة المآكل المحرَّمة، تأتي لحوم الحيوانات التي لم تُذبح بحسب قواعد محدَّدة ودقيقة قام حولها كثير من الجدل. وقد أُثيرت مشكلات حول ما إذا كانت البهيمة المخنوقة أو المجروحة، والتي لا يزال فيها رمق من الحياة، يمكن ذبحها بحسب شعائر الدين. كما دار الجدل لمعرفة جواز أو عدم جواز أكل الحيوان المقتول قنصًا؛ أمّا لحم الخنزير فقد حُرِّم أكله شرعًا، وقد ورد تحريم أكله غير مرّة في القرآن الكريم، كما في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ...﴾ (سورة البقرة، الآية ١٧٣). ونجد التحريم نفسه في الآية ٤ من سورة المائدة، وفي الآية ١٤٥ من سورة الأنعام، أو الآية ١١٥ من سورة النّحل. والمعروف أن تربية المواشي وذبحها والتجارة بها قد تأثّرت بهذا النظام.

كذلك حُرِّم شرب الخمر بموجب الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آية ٩٠، سورة المائدة). وهناك آيات أخرى تؤكّد هذا التحريم وإن كانت أقلّ قساوة. وتناولُ هذه المحرَّمات يُعاقَب عليها بموجب الشريعة. ويقوم النقاش أحيانًا حول مسألة تحريم كلّ المشروبات المخمَّرة، ذلك أنّ المذهب الحنفي مثلًا يسمح بتناول خمر التمر، وهو النبيذ، لضعف تأثير المُسْكر فيه.

ووضعت من حين إلى آخر أحكام وتنظيمات يمكن فهم بعضها على أنّها عادات وتقاليد ترجع إلى ما قبل الإسلام، كتلك التي تتعلّق بلحوم الكلاب. كما تنحصر تنظيمات أخرى بالمِلل والشيع المتنوّعة، كالإسماعيليّة التي تُحرّم أكل لحوم الكواسر والجوارح. ويعود إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله تحريم أكل بعض النباتات كالبَقْلة وقُرّة العين اللتين كانتا مفضّلتين لدى عائشة وبعض مشاهير السنّة.

هذه المحرَّمات هي اليوم موضوع تطبيق ومراقبة، تقوى وتخفّ بحسب البلدان، ذلك أنّ أكل لحم الخنزير مثلًا منتشر بين المسلمين في الصين. لكنّ العلماء يشدّدون، في غالبيّتهم، على أهميّتها لأنّها تعبير عن الإرادة الإلهيّة المطلقة التي وحدها تعرف خير الانسان. وحاول مفكّرون آخرون التركيز على الفوائد الاجتماعيّة والصحيّة لهذه المحرّمات، من دون أن يكون لوجهة نظرهم تأييد قويّ في الوسط الإسلامي.

أغرا (الاتّحاد الهندي)، عُرفت لفترة **بأكبر آباد**، ما تزال تسكنها، حتى اليوم أقلّية مسلمة، بعد أن اضطلعت في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدور العاصمة والمقرّ المفضَّل للمغول الذين أثروها بالمباني وجعلوا منها واحدًا من مراكز فنونهم الضخمة.

إنّ اختيار هذا الموقع في نهاية القرن الخامس عشر للميلاد، في عهد أسرة لودي، أحد فروع سلاطين دلهي، ثبّتته عَوْدة الاهتمام بالمدينة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد شُغف المغول بالإقامة فيها، ومنهم بابُر منذ انتصاره في العام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م في بانيبات، ولا سيّما خلفاؤه البارزون وعلى رأسهم أكبر، لوقوعها في وسط ممتلكاتهم، على المجرى النهريّ الكبير لشمال [البلاد] الذي رسمه نهرا الغانج والجُمنا، عند ملتقى الطرق الآتية من البنجاب وأفغانستان، كما من غُجرات والبنغال والدكْن. هذا الموقع المميّز، المهيّأ بامتياز لانطلاقة إقتصاديّة مرتكزة على أنشطة تجاريّة، يفسّر الثروة الوفيرة وحركة أغرا

لإنتاجية التي زادها غنًى وجود البلاطات الملكيّة فيها لتي استمرّت لعهود طويلة ، حتّى الإضطرابات السياسيّة لتي نشبت في نهاية القرن الثامن عشر والإحتلال لبريطاني عام ١٨٠٣ . إنّ الإنحطاط التدريجي الذي صاب صناعاتها اليدويّة المترفة ، بتأثير من الغرب ، في طاع النسيج كما في قطاع فنون المعادن الثمينة ، أدّى لى نسيان المكانة المميّزة التي توافرت للمدينة في زدهار فنون الأثاث خلال العهد المغوليّ الزاهر .

إلّا أنّ ما وفّر لأغرا ومنطقتها تفوقهما بصورة باهرة كانت الرعاية الأمبراطوريّة المغوليّة للفنّ المعماري . اقع الأمر أنّ معالم قليلة انتهت إلينا من المدينة التي زدهرت في عهود بابُر أو هُمايون ، كما في عهد شِيرشاه لسوري . غير أنّنا يمكن أن نتبيّن ما خلّفته إقامة السلطان كبر لمُدد طويلة فيها ، والتعديلات التي أدخلها على نلعة اللوديّين القديمة ببناء سورٍ عظيم حولها ، لغرض فاعيّ ، ومجموعة من المباني من الحجر الأحمر ، قبل ن ينصرف إلى إقامة القصر الملكيّ الجديد في فاتح ورسِكْري . بعدئذٍ ، أقام ابنه جهانگير بعض الأجنحة الضريح العظيم لأكبر نفسه ، في سِكَنْدَره ، بضاحية أغرا ، سط حديقة فخمة . أخيرًا ، ثبّت شاه جهان مجد لمدينة ، مستخدمًا الرّخام لإعادة تشكيل القلعة من لداخل بأُبّهة عظيمة . ويعود إليه ، بوجه خاص ، بناء لقباب الأنيقة في مسجد المعطي أو مصلّى اللؤلؤة ١٥٤٨ ١٦٥٤) وآيات الفنّ المتجلّية في القاعات لمكرّسة للمجلس الخاص أو للإستقبالات العامّة ، الديوان الخاصّ والديوان العامّ) . وهو الذي رفع ، فوق نبر زوجته المفضّلة تاج محلّ[٢٠] ، المتوفاة في العام ١٦٣١ ، الضريح المدهش من المرمر الأبيض الذي شكّل شهرة أغرا ، بما يتوافر فيه من صفاء النسق لمعماري ، وكذلك للضخامة والروعة اللتين تميّزان تصميمه وتنفيذه ، وقد أتى ذلك نتيجة عمل طويل النفس ستغرق سنوات كثيرة .

◄ راجع المستندات ٣٣ ، ٧٦ و٧٧ .

أغمات ، حاضرة بائدة في جنوب المملكة المغربيّة ، كانت مركز المقاطعة قبل تأسيس [مدينة] مرّاكش وكان نصيبها ، بعد ذلك ، أفولًا لا تدارك له .

هذه العاصمة لدولة بربريّة صغيرة كانت قائمة في المغرب الأقصى ، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد ، انمازت بترسخها كمدينة قديمة في واحة تُسند ظهرها إلى الجبل عند حضيض الأطلس ، وكانت مركزًا ناشطًا للدعوة الإسلاميّة ، أقام فيها فقهاء كثيرون هاجروا إليها من قرطبة وحتى من القيروان . وقد اتّسع نفوذها ، أيامئذٍ ، حتى بلغ الصحراء التي ربطتها بها ، عبْر سِجِلْماسة أو تارودانت ، طرق للقوافل متنوّعة .

وقد أفقدتها التحوّلات التي تسارعت في المغرب ، خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، هذا الدور السياسيّ والثقافي ، عندما فضّل الفاتحون البدو الذين أسّسوا أمبراطوريّة المرابطين ، وبخاصة منهم الملك الحقيقيّ الأوّل لهذه السلالة يوسف بن تاشفين ، أن يقيموا قاعدة سلطتهم العسكريّة والتجاريّة في موقع سهل ، أكثر اتساعًا وأيسر بلوغًا . ولم تعتّم الحياة الاقتصاديّة والإداريّة ، وحتى الدينيّة ، أن انتقلت من أغمات إلى مراكش ، العاصمة الجديدة المحصّنة التي لم يطل بها الأمر حتى ارتفعت إلى مكانة المدينة الأمبراطوريّة .

◄ راجع المستند رقم ١٤ .

أَفْراسياب ، شخصيّة أسطوريّة إيرانيّة ، تعاظمت سماتها كبطل رمزيّ نموذجيّ في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى ، إبّان الغزوات التركيّة .

إنّ الطُّورانيّين الذين ذكرت الشاهنامه أنّه ملكهم الأسطوريّ ، ماثَل المؤرّخون المسلمون بينهم وبين الأتراك إبّان الاحتكاكات الأولى للبدو الآسيويّين مع أمبراطوريّة العبّاسيّين حيث وطّدوا سلطنهم شيئًا فشيئًا . وقد شجّعت الروايات المتناقلة من التقاليد الإيرانيّة السابقة للإسلام والتي ضمّنتها محاولات كتابة التاريخ العام للخليقة قام بها مؤلّفون كالطبري ، السلالات الجديدة السلجوقيّة ، وبوجه خاص ، القراخانيّين ، على تبنّي تسمية «آل أفراسياب» أو «أسرة أفراسياب» .

أفراسياب (موقع) ← **سمرقند** .

أفريغيُّون ← **الخوارزمشاهيّون** .

أفريقيا السوداء الإسلامية ، مجموعة أقاليم أفريقيّة

سكّانها من السّود، حيث تعاظم انتشار الإسلام عبر القرون، متجاوزًا المنطقة الساحلية لما كان يُعرف بالسودان حيث استقرّ خلال القرون الوسطى ومغطيًا، اليوم، قسمًا مهمًا من القارّة، مع اختلاف في نسب المسلمين بين بلد وآخر.

إنّ النموّ العددي المستمرّ الذي توافر للمسلمين في أفريقيا الشرقيّة والوسطى والغربيّة، في العصرين الحديث والمعاصر، يسمح بالقول، بشكل عام، في هذا المجال، بانطلاقة «إسلام أسود» تميّزه، الآن، كما في السابق، سمات خاصّة مختلفة. لكنّ هذا التطوّر هو حديث نسبيًا. هذه الأقاليم التي كانت، في ما مضى، منفصلة عن أفريقيا الإسلاميّة المتوسّطية بحزام من الأراضي المقفرة التي يصعب اجتيازها، كانت تشملها، من المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر، تسمية «الصحراء» التي تُكملها صحراء النوبة، وكانت قد امتنعت على التوسّع الأوّل للأمبراطوريّة العربيّة الإسلامية خلال تقدّمها السريع إبّان الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي.

إلّا أنّ ما غيّر هذا الوضع كانت جهود التوسّع العسكريّ والنفوذ السياسيّ التي انمازت بها دول مصر والمغرب والتي أكملتها، في أواخر العصور الوسطى، مساعي الممالك الإسلاميّة المستجدّة التي تقاسمت السودان. وقد أدّى ذلك إلى نتائج منها الإقرار بتفوق الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة الحدوديّة وهجرة مستمرّة، نحو الجنوب، لشعوب بدويّة كانت تعرّف بنفسها تحت أسماء العرب والبربر والموروس والقُلبة، وقد أمسكت هذه الشعوب بتجارة القوافل العابرة للصحراء مقدّمةً نفسها على أنّها داعية مندفعة للإسلام.

شهدت المرحلة التالية تجذّرًا متناميًا للإسلام في مفازات منطقة الساحل حيث تعاقبت ممالك وأمبراطوريّات مسلمة، متعادية أحيانًا، لكنّها متمسّكة باستمرار بانتمائها الدينيّ. كما اخترقت الدعوة الإسلامية، وإن بصعوبة وبطء، الغابات الأفريقيّة التي كانت تشكّل حماية طبيعية للعادات البَلَدِيّة في القُرى السوداء، والتي كانت تنطوي على سلع لا يُستغنى عنها في تجارة خارجيّة ذات مردود كبير، منها تجارة الذهب والعاج، وبوجه خاص الرقيق. وقد تراجعت الحدود الموسومة بالمناخ الإستوائي الرّطب، بشكل متفاوت إثر غارات الحروب الشرعيّة أو الجهاد، والبعثات التجاريّة القادمة من الشمال والشرق، في حين تنامت في الوقت نفسه، تيّارات ثقافيّة مختلفة المطابع، إلّا أنّها مرتبطة، في أكثر الأحيان، بتعاليم المصلحين الدينيّين

هذه التيّارات المستمرّة كانت موجودة في أفريقيا الشرقيّة حيث شكّلت لها مرافئ المحيط الهندي، لمدّة طويلة، منطلقًا في مراكز تقاطع معابر الترانزيت البحري والبرّي، وفي أفريقيا الوسطى والغربيّة حيث أُعدّت تجهيزات لمحطّات تجاريّة، جنوبيّ الهضبات التي كانت تجتازها مجاري النيجر الأعلى، وكذلك جنوبي السنغال. في المقابل، رغم الاتّساع والعمق لجبهة التثاقف الحقيقيّة هذه التي أدّت، على الصعيد المحلّي إلى تكاثر سلطات محلّية ذات صبغة شرعيّة إسلاميّة ورغم موجات الأسلمة القهريّة التي كانت تعقب، من حين إلى آخر، تدخُّل الدُّعاة المزهوّين بانتصاراتهم مثل أولئك الذين أحيوا حركة المهديّة، ومثل الأمبراطوريّات الفاتحة الجهاديّة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي أفادت من مساعدة الطرق الصوفيّة والتي يُشار اليها باسم «امبراطوريات الجهاد» وهي التي تصدّت بعنف لمحاولات الاستعمار الأوروبي الأولى - فإنّ حاجز الدفاع الذي كانت توفّره الغابة الأفريقيّة للأعراق العتيقة ضدّ الغزاة الذين اعتنقوا الإسلام، لم يسقط إلّا مع التحوُّلات الاجتماعيّة السياسيّة للعصر الحاضر أو الذي سبقه مباشرةً.

إنّ الإحتلال الغربيّ، في مطلع القرن العشرين، هو الذي يسّر للإسلام سُبُل تقدُّم سلميّ غيز آبِهٍ بالعوائق القديمة ومتنامياً بنجاح، سواء في مدن واجهة الأطلسي البحريّة أو على طول شواطئ المحيط الهنديّ وجزره وبفضل الظروف المستجدّة في أوضاع الحياة والسُّكن أي بفضل تداخل عوامل الهجرة والتحديث، فإنّ ظواهر تنامي الإسلام، التي كانت حتى ذلك الوقت غير منتظمة ومتفرّقة، أفسحت في المجال، طوال تلك الفترة لاهتداءات رسميّة الى الإسلام. ثمّ تابع التيّار مسيرته في داخل الدول السوداء المستقلّة التي ورثت، في تشكّلها

كما في مؤسّساتها، جوانب صيغتْ تحت السيطرة لأوروبيّة، كما أنّه أفاد من التأثير المتنامي والمسلّم به لطُرق الصُّوفيّة، سواء التي كان لها نفوذ خلال القرن لتاسع عشر كالقادريّة والتّيجانيّة، أو التي نشأت في لقرن العشرين مثل الهمالية والمُريديّة، بدون أن نُغفل لمجهود الذي بذلته في سبيل الدعوة فرقة الأحمديّة.

في الوقت نفسه، طرأت علاقات جديدة سياسيّة-ينيّة بين أفريقيا السوداء والإسلام الشرقيّ، العربيّ الإيراني وحتى الهنديّ، طبعتها نتائج نزاعات قتصادية، وحربيّة أحيانًا. وقد تآزرت جميع هذه لعوامل لإكمال تطوّر استمرّ قرونًا وأتاح للشعوب لأصليّة أن تتفاعل، كل منها بحسب أصالتها الشخصيّة، مع العقيدة والأعراف الإسلاميّة التي اتّصلت بها. إنّ سلام الأمم الأفريقيّة المختلفة، إن شكّل دينًا للأكثريّة و للأقليّة، يعتبر نفسه معنيًّا بمصير البلد الذي يعيش فيه، ويستحقّ اليوم الإهتمام به في دول الساحل، مثل مالي وبوركينا فاسو، والنيجر والتشاد، والسودان، كما في الدول الساحليّة المتاخمة للمحيط الأطلسي أي جمهوريّات السنغال وغامبيا وغينيا، وغينيا-بيساو، وسيراليون، وليبيريا، وساحل العاج، وغانا، وتوغو والبنين، ونيجيريا والكامرون، من دون أن ننسى بلدان أفريقيا الشرقية، إبتداءً بجمهوريات إريتريا وجيبوتي والحبشة والصومال، وصولًا إلى جمهوريات كينيا وأوغندا وتنزانيا والموزامبيق وملاوي.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٢٩.

أفريقيا الشماليّة ←المغرب.

إفريقية، أطلقت هذه التسمية على المنطقة الشرقيّة من المغرب، في القرون الوسطى، وغالباً ما دُعيت بالفرنسية بلاد البربر الشرقيّة. إنّ القسم الواقع منها في الطرف الشرقي الذي حمل لاحقاً اسم تونس، بسبب الأهميّة التي اكتسبتها مدينة تونس، يشكّل اليوم الجمهوريّة التونسيّة.

إنّ لفظة إفريقية، وهي بالتأكيد مشتقّة من كلمة «أفريكا» (Africa) اللاتينيّة، أُطلقت، في زمن الفتوحات الكبرى، على المغرب بكامله، ثمّ اقتصرت على المنطقة الممتدّة من الساحل الشرقي حتى بجاية، أي الأراضي التي خضعت، في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، للأغالبة الذين كانوا يتمتّعون بالحكم الذاتي، ثمّ ما لبثوا أن صاروا حكّاماً مستقلّين.

وفي القرن التالي، كانت المنطقة مسرحاً للصراعات الدينيّة التي بلغت ذروتها مع تأسيس الفاطميّين لسلطة شيعيّة إسماعيليّة، في صميم مجتمع أغلبيته من السنّة، أتباع المذهب المالكي، على الرغم من تأثّرهم بالخوارج الإباضيّة في الجنوب. ثمّ هدأت هذه الصراعات لاحقاً مع العودة إلى السنّة، باستثناء فئة قليلة ما تزال تنتمي إلى الإباضيّة مستقرّة قرب قابس في جزيرة جربه.

عرفت «إفريقية» عهداً مزدهراً في العصور الوسطى الأولى، وكانت عواصمها المتلاحقة، قرب القيروان، كقصور الأغالبة والمدن الفاطميّة المستحدثة كالمهديّة أو صبرا - منصورية، قد شهدت إنجازات هندسيّة ما تزال ماثلة إلى اليوم. هذه الثروة الاقتصاديّة والثقافيّة التي استمرّت في عهد بني زيري الذين كانوا، في بداية الأمر، حكّاماً من قبل الفاطميّين الذين عادوا إلى الشرق، ثمّ حكّاماً مستقلّين، هدّدها بشكل فادح اجتياح الهلاليّين في القرن الخامس الهجري/منتصف الحادي عشر الميلادي. بعد ذلك التاريخ، وبعد أن أُلحقت تلك البلاد جزئيًّا بسلطة الموحّدين، عادت فأصبحت مركزاً لدولة قويّة، هي دولة الحفصيّين الذين استمرّوا، من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي إلى العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، متّخذين مدينة تونس عاصمة لهم، حتّى الاحتلال العثماني سنة ١٥٧٤م. وقد نظّم هؤلاء تلك المنطقة وأوكلوا أمرها إلى باشا، وسرعان ما انتقلت السلطة إلى داي منبثق عن الإنكشاريّة، ثمّ إلى البكوات المراديّين والحسينيّين الذين شكّلوا سلالات حاكمة.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر، أصبح البكوات مستقلّين في مناطقهم التي اغتنت من أعمال القرصنة، مع استمرار خضوعهم الإسمي لسلطة العثمانيّين. وقد استندوا في حكمهم إلى أعيان تمّ اختيارهم من مماليكهم الذين اشتروهم من الشرق وأعدّوهم

للوظائف الإداريّة والعسكريّة، بينما كان نفوذ الانكشاريّة يتضاءل تدريجيًّا، حتّى تمّ إلغاؤهم بين ١٨١١ و١٨١٦.

في القرن التاسع عشر، قام أحمد بك ومحمد بك، اللذان حكما بين ١٨٣٧ و١٨٥٩، بإصلاحات في الجيش والنظام الإداري. وصدر سنة ١٨٥٧ «ميثاق تأسيسي»، أكمله دستور ١٨٦١ الذي أنشأ نظام حكم دستوري. لكنّ الصعوبات الماليّة أدّت إلى اندلاع ثورة القبائل، إبتداء من سنة ١٨٦٤، وأرغمت الباي على القبول بالوصاية على تونس، سنة ١٨٦٩. إنّ الجهود التي بذلت، خلال السنوات اللّاحقة، لاصلاح الوضع، لم تحل دون أن تفرض فرنسا حمايتها التي تمّ تحديدها، سنة ١٨٨٣، باتفاقية المرسى التي شكّلت ملحقاً لمعاهدة باردو المعقودة سنة ١٨٨١. وأتاحت المرحلة اللّاحقة، من ١٨٨١ إلى ١٩٥٦، لتونس التي اقتصرت مساحتها على قسم فقط من إفريقية السابقة، أن تنمو اقتصاديًّا، سواء في الحقل الزراعي أو المنجمي، وأن تُنشئ مؤسّسات سياسيّة وإداريّة تميّزت بالفعاليّة والاستمرار. كما أنّ الحركة الوطنيّة التي اتّسعت منذ ١٩٣٣، بتأثير من الحبيب بورقيبة، توصّلت أخيراً إلى الاستقلال فأعلنت، سنة ١٩٥٦، الجمهوريّة التونسيّة الحاليّة.

◄ راجع المستندات ٨، ٥٣، ٥٤، ٨٧ و٨٨.

الأفشاريُون، ١٧٣٥-١٧٩٥، سلالة يتماهى أوجُها القصير الأمد مع مُلك نادر شاه في إيران والانتصارات العسكريّة التي بفضلها استطاع هذا الفاتح أن يستبدل سلطانه بسلطان آخر الملوك الصفويّين.

تحدّر نادر شاه وخلفاؤه من عشيرة أفشار التركيّة (ومنها اسم سلالته)؛ وهو سليل قبيلة الغُزّ التي اشتهرت، إبّان غزوات القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بإعطائها فروع السلاجقة المتعدّدة. لم يميّز شيءُ هؤلاء البدو عن سائر الجماعات التركمانيّة المستقرّة في الأراضي الإسلاميّة التي شاركت في الصراعات التي عرفتها هذه العهود المضطربة. لم يرد ذكر الأفشاريّين إلّا بعد قيام دولة إيران الصَّفويّة التي دُعوا إلى خدمتها. إنّ الأمبراطوريّة المتّسعة التي أخضعها لهم، في ما بعد، نادر شاه تفكّكت بالسرعة نفسها التي قامت بها، بينما برز الدُّرّانيوّن في أفغانستان والقاجاريّون في مازندران والزنديُّون في أذربيجان وكان الزنديون السبّاقين إلى توطيد سلطانهم على إيران

نادر شاه، طهماسب قُلي خان	١٧٣٦-١٧٤٧
عادل شاه، علي قُلي خان	١٧٤٧ ١٧٤٨
ابراهيم	١٧٤٨
شاهرُخ	١٧٤٨-١٧٩٥

الأفضل، لقبٌ شرف حمله بالتتابع وزيران في الخلا[فة] الفاطميّة في مرحلة انحطاطها، كان لهما دور خلا[ل] المرحلة الصعبة التي علا فيها شأن الأمبراطور[يّة] السلجوقيّة وتمركزت الإمارات الفرنجيّة الناجمة عن الحملة الصليبيّة الأولى.

كان أوّل هٰذين الشخصين، **أبو القاسم شاهنشاه** ٤٥٨-٥١٥هـ/١٠٦٦-١١٢١م، إبنًا للوزير المقتدر بد[ر] الجمالي الذي أشركه، في حياته، في مسؤوليّات منصبه. مارس سلطة شبه مطلقة في السنوات الأخير[ة] لحكم المستنصر، وكذلك خلال خلافتي المستعلي والآمر اللذين أوصلهما إلى العرش، إلّا أنّه اغتيل بأمر من الثاني. كان انحيازه للمستعلي عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤ سببًا في الانشقاق الذي ولّد مذهبًا إسماعيليًّا جديدًا، هو النزاريّة، أي أتباع نزار، الإبن البكر الذي جُرّد من حقوقه بعد موت والده والذي قُتل من دون شك. إ[نّ] الجهود اللّاحقة التي بذلها الأفضل للتصدّي عسكر[يًّا] للعصابات التركيّة في سوريا سهّلت، على الفرنج عمل[يّة] الإستيلاء على القدس، عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وتبع[ها] تقدّمهم المسلّح على طول الساحل حتى الدلتا المصر[يّة] عام ٥١٢هـ/١١١٨م. كان الأفضل راعيًا للثقافة مهووسًا بالأُبّهة والمقتنيات الثمينة، كما كان يحب الثروة، فضاعف من إقامة مؤسّساته ومساكنه حو[ل] القاهرة، تاركًا شاهدًا على عظمته في محراب من المرمر، أمر بتشييده، مزيَّنا بلقبه، في مسجد ابن طولو[ن] الذي كان قائمًا منذ مدة طويلة.

أمّا الأفضل الثاني، إبن السابق والمدعوّ **أبو علي أحمد** (كُتَيفات)، فقد استغلّ اغتيال الخليفة الآمر، عا[م] ٥٢٤هـ/١١٣٠م، على أيدي النزاريّين ليضطلع بمنصب وزير، وبخاصة ليحاول إقامة سلطة الإماميّة الاثني عشر[يّة]

في القاهرة، مقدِّمًا نفسه على أنّه الناطق باسم المهدي المنتظر. إلّا أنّ انقلابه، رغم جهوده التوفيقية بين معتقداته المذهبيّة الجديدة وتقاليد الإسماعيليّة، كان محكومًا بالفشل، سياسيًا ودينيًا، وأدّى إلى اغتياله الفوريّ.

الأفْطَس (بَنو -)، ٤١٣-٤٨٧هـ/١٠٢٢-١٠٩٥م، أُسرة أندلسيّة حكمت في عهد ملوك الطوائف وبسطت سلطانها في الناحية الغربيّة من البلاد التي كانت معروفة يومئذ باسم الغرب وعاصمتها بطليوس.

أسّس هذه الأسرة رجل بربريٌّ يُعرف بابن الأفطس ثم تلقّب بالمنصور، وخلفه ابنه وحفيده اللذان اتّخذا أيضًا لهما لقبي شرفٍ معتبرين. إلّا أنّ نصيب هذه الأسرة من الحكم عكّرته طموحات الدول الإسلاميّة المجاورة وخصومانها، بخاصة آل عبّاد في إشبيلية، وهجمات الملوك المسيحيّين. وكان هؤلاء مهتمّين بدفع حرب الاسترداد في مناطق تندرج اليوم، في أكثرها، في أراضي البرتغال. لكنّ احتلال المرابطين، الآتين من المغرب، للأندلس أنهى بصورة مفاجئة، بالنسبة إلى بني الأفطس كما لجيرانهم، عهدًا من الازدهار عرفته المراكز الإقتصاديّة والثقافيّة التي تألّقت، رغم الحروب والمصاعب السياسيّة المتعدّدة التي واجهتها.

عبدالله المنصور (ابن الأفطس)	١٠٢٢-١٠٤٥م
محمّد المظفّر	١٠٤٥-١٠٦٨م
عمر المتوكّل	١٠٦٨ ١٠٩٤م

◄ راجع المستندين ١١ و١٥.

أفغانستان، اسم يُطلق، بحسب مفهومين مختلفين، حينًا على منطقة آسيوية غير واضحة الحدود حيث استقرّت قبائل في أكثرها أفغانيّة بدويّة ابتداء من نهاية العصور الوسطى، وحينًا على دولة إسلاميّة معاصرة غير معروفة المصير.

١ - لا يمكن تناول منطقة **أفغانستان** أو «**بلاد الأفغان**» من حيث التحوُّل الذي أصابها، بدون النظر في [أحوال] المقاطعات الوسيطة التي كانت تتقاسم من قبل رقعة أراضيها، والتي كان لكلّ منها تاريخها الخاص، في إطار الخلافة العبّاسيّة التي نشأت من الفتوحات الكبرى العربيّة-الإسلاميّة خلال القرنين الأوّل والثاني للهجرة/السابع والثامن للميلاد.

أشهر هذه المقاطعات اثنتان، خُراسان في الشمال وسجِسْتان في الجنوب، من دون أن ننسى أودية العبور المرتفعة التي تشكّل، اليوم، منطقة كابُل بعد أن شكّلت، قديمًا، ما كان يُعرف بكابلستان أو زابُلستان. هذه المجموعة من المناطق الجبليّة المقفرة والأودية الخصبة التي تجري مياهها في اتجاه صَحارى إيران الداخليّة والسهل الهندي - الغانجي، كانت تتحكّم بالمدخل الرئيس إلى البنجاب الذي عرف بممرّ خيبر، في اتّجاه بيشاوُر. لذلك احتلّت تلك المواقع مكانًا من الدرجة الأولى في توازن العالم الإسلامي الشرقي، منذ أن قضت الحملات الحربيّة الموجّهة من بغداد، خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، على الحكّام المحليّين الذين كانوا، حتى ذلك الوقت، قد اكتفوا بتأدية جزية غير محدّدة للأمويّين.

هنا نمت، في البداية، مدينة غَزنة الشهيرة عاصمة أمبراطوريّات الغَزنويّين والغُوريّين التي امتدّت مناصفةً على إيران والهند ودامت حتى القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. وهنا، أيضًا، في مستهلّ القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، في عهد التيموريّين، انطلقت عاصمة أُخرى، هي كابل، التي صارت محلّ الإقامة المفضَّل لبابر، مؤسّس دولة المغول، قبل أن تغدو، في ما بعد، المقرّ المختار لأُسرة دُرّاني وأُسرة باركزائي حيث وطّدتا سلطتهما وإدارتهما. إنطلاقًا من هذا الموقع الإستراتيجي، تسنّى لهؤلاء الملوك الأفغان الذين حكموا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، أن يراقبوا الهند الشماليّة الغربيّة حيث بسطوا سيطرتهم في بعض الحقب، كما أنّهم ضمّوا، في الشمال، بَدَخْشان، وبخاصة في اتّجاه آسيا الوسطى، سهل بلخ الخصب، وكانت الطريق اليه تمرّ بمسلك للقوافل قاسٍ وتعبر بُل خُمْري وطاش كورغان.

واقع الأمر أنّ في محيط هراة وبلخ استمرّت في الانتعاش، بعد الإحتلال الأفغاني، منطقة من خُراسان ضُمَّت إلى أمبراطوريّة الإسلام في مرحلة مبكرة، وأفادت، على الصعيد الاقتصادي، من جوارها المباشر لما وراء النهر، قبل أن يعروها الانهيار شيئًا فشيئًا بسبب

الغزوات المتلاحقة على أيدي الأتراك والمغول القادمين من سهوب الشمال. إنّ هذه الرقعة من الأرض التي قامت عليها دولتا الغزنويّين والتيموريّين في القرون الوسطى، قبل أن ينازعهم إيّاها السلاجقة والخوارزمشاهيّون، عرفت، في ظلّ سلطة الإيلخانيّين والتيموريّين النسبيّة، نزعات إقليميّة جعلت من هراة مركزًا سياسيًّا وثقافيًّا نشيطًا، وغدت هذه المدينة في ما بعد عاصمة أمبراطوريّة، تحت حكم التيموري شاهرُخ وأعقابه. بعدئذٍ، بُسطت سلطة الصفويّين لفترة طويلة على واحات لطالما نالها الخراب، ولم يستطع بابر ولا أحفاده من المغول، ولا الأوزبك الشيبانيّون أن ينتزعوها منهم، قبل الانتصارات التي أحرزتها في المنطقة القبائل الأفغانيّة وقيام أمبراطوريّة أحمد شاه الدُّرانيّة. إبتداءً من هذه المرحلة وحسب، بدأت ترتسم الحدود في الشمال حيث سارت بمحاذاة مجرى جَيحون/ آمودَرْيا لتفصل، اليوم، بين أفغانستان وجمهوريّتي طاجكستان وأوزبكستان. إنّها تمتدّ لجهة الغرب من ناحية جمهوريّة تركمنستان وجمهوريّة إيران (شهدت هذه الناحية إضطرابًا في القرن التاسع عشر بسبب الحملات الإيرانيّة، ولم تحصل أعمال التحكيم في شأنها إلّا في عامي ١٩٣٤-١٩٣٥).

إلى جوار هذه الأراضي التي تشكّل، اليوم، مقاطعتي هراة وتركستان ممتدّةً إلى غرب البلاد وشمالها الغربيّ، كانت تقع، في قلب السلسلة المركزيّة المرتفعة، منطقة غُور القديمة التي غدت اليوم هزارستان والتي لعبت في الماضي دورًا تاريخيًّا: كانت أرض الغوريّين الأصليّة حيث أراد هؤلاء الملوك الأشدّاء أن يحافظوا على عاصمتهم جَمّ/ فيروزكوه.

وغيرَ بعيدٍ من هنا، كانت تمتدُّ، في اتّجاه الجنوب، وعلى أقدام السلاسل المركزيّة، السهول المرتفعة الحارّة ونصف الصحراويّة أحيانًا، التابعة لزمين داوَر وسجِسْتان التي ازدهرت واحاتها زراعيًّا وتجاريًّا على طريق السِّند، في وقتٍ مبكر عقب الفتوحات الكبرى، والتي احتضنت، حول بُست/ لشكري بازار، المساكن الشتويّة والقصور الملكيّة للغزنويّين والغوريّين. وهنا، أيضًا، تراكمت خرائب أحدثتها الغزوات والهجمات الغريبة المنطلقة من الهند كما من إيران. إلّا أنّ القبائل الأفغانيّة التي سيطرت عليها في ما بعد، متّخذةً من قندهار مركزًا لحكمها المحلّي، لم تتوقّف عن محاربة الطامعين الغرباء بضراوة، ووُفّقت إلى إقامة سجستان أفغانيّة كبيرة، تقع بين المقاطعة الإيرانية الحديثة المعروفة بسجستان ومقاطعة بلوجستان التي أُلحقت، في نهاية الأمر، بباكستان (شُرِّعت كلّها من خلال التحكيم البريطاني عام ١٨٧٢، لوضع حدّ للنزاعات المخرّبة المستمرّة للمنطقة كلّها).

هكذا أُفرِز، بتضافر جهود القوميّة القبليّة البشتوية وبفعل المنافسة البريطانيّة-الروسيّة في القرن التاسع عشر، واقع كيانٍ أفغانيّ جديد أمّن، تحت سلطة دولة جديدة، ترابُط مقاطعاتٍ عرفت لمدّة طويلة مصائر تاريخيّة مختلفة.

٢ - **دولة أفغانستان الإسلامية الجديدة:** ٤٩٧ ٦٤٧ كلم٢، العاصمة: كابُل، هي دولة معاصرة مسلمة بأسرها، ذات أكثرية سُنّية كبيرة، يعكس نظامها الحاليّ غير المستقرّ الاضطرابات المختلفة والحروب الخارجيّة أو الداخليّة التي تتوالى عليها منذ عقود.

يحدُّ هذا البلد من الشرق باكستان، ومن الغرب جمهورية إيران، ومن الشمال جمهوريات تركمنستان، أوزبكستان وطاجكستان. وقد استقرّت هذه الحدود، بفضل تعاظم سلطة ملوك الأفغان من الدُّرّانيّين في المنطقة، وحلول أسرة حاكمة ثانية محلّهم، في القرنين التاسع عشر والعشرين، هي أُسرة البَرَكزانيّين التي استمرّت في الحكم حتى ثورة ١٩٧٣ التي أعقبها، في العام ١٩٧٩، إعلان الجمهوريّة واحتلال الجيش السوڤياتي البلاد حتى انسحابه عام ١٩٩٢.

إنّ هذا الموقع الجغرافيّ الذي يشكّل إقليمًا مكوّنًا من السُّهوب والجبال، والقائم في الداخل حول سلسلة جبال تطبع قممُها القسمَ الأوسط منها بطابعها، يحتفظ بموقعه المميَّز كملتقى طرق، في الأطراف القصوى الشرقيّة لإيران وآسيا الوسطى والهند التي كانت مقاطعاته المختلفة القديمة ملحقة بها. يشهد على هذا الماضي، حتى اليوم، واقع عدم التجانس العرقيّ-

اللغويّ الذي يجمع، في إطار الدولة الواحدة، عناصر من الأفغان، وعناصر إيرانية يقال لها الطاجك، وعناصر تركيّة أكثرها من الأوزبك، وعناصر من الهزار ذوي الأصول التركيّة المغوليّة، وهم من الشيعة، وشعوبًا هنديّة-آريّة، لبثت طويلًا مستعصية على الإسلام لاجئةً إلى الجبال الشماليّة الشرقيّة المنيعة.

ثمّة تنوّع أساسيّ يتجلّى في التناقض القائم، من جهة، بين المقاطعات الوسطى والمقاطعات الشماليّة الشرقيّة التي لا تزال تشكّل القسم الحيويّ والإستراتيجيّ من أفغانستان، حول كابل، ومن جهة ثانية، مقاطعات الجنوب التي تجمع القربى بين سكّانها وسكّان بلوچستان، ومقاطعة هراة التي تشبه طبيعتها طبيعة إيران، ومقاطعة بلخ[٢١] المطابقة لبكتيريان القديمة، بدون أن ننسى، إلى الجهة الشرقيّة، فوق خاصرة پامير، مقاطعة بدَخْشان ومقاطعة نورستان ذات السكّان البدائيّين الذين ظلّوا، لفترة طويلة، على وثنيّتهم. وقد أُعطيت هذه التسمية، بعد الاستيلاء عليها عام ١٨٩٧، وكانت من قبل يقال لها كافرستان، أي بلاد الكفّار، كما لا ننسى مقاطعة وخّان في عمق الداخل.

إنّ تعقيد العلاقات الداخليّة الناجمة عن هذا التنوّع السكاني، إضافةً إلى عوامل التفرقة ذات المنشأ القبلي تُيسّر لنا إدراك الحدود التي تقف عندها القوميّة الأفغانيّة، كما اتّضحت في حروب القرن التاسع عشر وكذلك في الكفاح الأخير ضدّ السوفيات. كما أنّها تبيّن الصعوبات التي تواجهها المركزيّة القائمة حاليًّا حول مدينة كابل المهدّمة. كانت هذه المدينة سابقًا منطلقًا لجهود التحديث التي حرص عليها الملوك الأفغان خلال القرن العشرين. هذا المركز الرمزيّ، الأفغاني والسُّنّي، الذي حاولت من خلاله الدولة السابقة بناء وحدتها، لم يستعد، حتى الآن، وضعه السياسيّ الحقيقيّ.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢ و٣٥.

الأفغاني ← جمال الدين.

أفندي، كلمة تركيّة ذات أصل يوناني، تعني السيّد في العالم العثماني. استعمل هذا التعبير لقباً، إبتداءً من القرن الخامس عشر، ولقّب به أصحاب الرتب العالية ورجال الدين باستثناء القادة العسكريّين. وقد حاولت الدولة أن تنظّم استعماله في القرن التاسع عشر، فأضيف إلى إسم أشخاصٍ من ذوي المكانة، في أغلب الأحيان من رجال الدين، لكنّهم لا يحقّ لهم أن يحملوا لقب «بك» أو لقب «باشا». وتحوّل مع الأيّام الى كلمة موازية لـ«موسيو» (monsieur) في اللغة الفرنسيّة. في عام ١٩٣٤، مُنع هذا اللّقب، لكنّ استعماله استمرّ في اللغة المتداولة عند التوجه إلى شخص ما.

أَفيون (الجمهوريّة التركيّة) أو **أفيون قَرَه حصار**، «قصر الأفيون الأسود»، ناحية تقع غربي الهضبة المركزيّة للأناضول، احتلّها الأتراك في مطلع القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، فحافظت في ما بعد، وحتى يومنا، على دورها كمركز مقاطعة.

إنّ اسمها الحديث المشتقّ، في شطرٍ منه، من تسمية شعبية كانت تبرز الأهميّة التي حازتها زراعة الخشخاش في المنطقة، يذكّر كذلك بتسمية عائدة إلى القرون الوسطى هي «قره حصارِ صاحب» قُرنت باسم «القصر الأسود» إسم سيّده الأكثر شهرةً، المقتدر صاحب عطا. وقد جعل وزير سلاجقة الرّوم هذا، من موقع سهل التحصين قرب القلعة البيزنطيّة العتيقة أكرويْنُس (Akroinos)، مركز المنطقة نصف المستقلّة التي صانها لنفسه، عند انقضاء القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، وحيث استقرّ أولاده في القرن التالي، أسوة بالسلالات الأخرى في عهد الإمارات. إلى ذلك العهد، تعود مجموعة من المباني المثيرة للاهتمام، بينها مسجد كبير غطاؤه وأعمدته من خشب، بُني وعدّل بين عامي ٦٧٠ و٧٤٢هـ/١٢٧١ و١٣٤١م في سياق التقليد المعماري لآسيا الوسطى.

إلّا أنّ وقوع أفيون في أيدي العثمانيّين في القرن الخامس عشر للميلاد، لم يلبث أن أفقد هذا الموقع أهميّته الإستراتيجيّة والعسكريّة وهو الموقع الذي، غير بعيدٍ منه، وقعت معارك شهيرة عديدة، بينها معركة هُزم فيها جيش عربي إسلامي، عام ١٢٣هـ/٧٤٠م، ولاقى حتفه فيها البطل الأسطوري البطّال[٢٢]. وحدها أهميّتها الإقتصاديّة صمدت، بفضل الأنشطة الزراعيّة للمنطقة المحيطة بها وحركة التجارة اذ إنّها شكّلت ملتقى للطرق

القادمة من إزمير وأنطاليا وقونية في اتّجاه الشمال.

إقبال (محمّد)، ١٨٧٧-١٩٣٨، مفكّر وداعية سياسي وشاعر صوفي بالفارسيّة كما بالأرديّة، حاز في الهند شهرة عالميّة بوصفه مصلحًا إسلاميًا؛ كما كان الملهم للتقسيم السياسي والديني الذي حصل عام ١٩٤٧.

ولد في البنجاب، وقصد في ١٩٠٥ بريطانيا العظمى حيث تابع دراسته في كمبردج، ثمّ توجّه إلى ألمانيا حيث حصل على دكتوراه بالفلسفة من ميونيخ في العام ١٩٠٧. وعندما عاد إلى لاهور في ١٩٠٨، درّس الفلسفة في الوقت الذي عانى أزمةً روحيّة تمنّى من خلالها بعث نهضة في الإسلام وفي سلطته الزمنيّة. كرّس نفسه لهذا الهدف من خلال قصائده التي سعى بها إلى إقناع المسلمين بأنّهم تخلّفوا بسبب أخطائهم، وفقدوا حظوتهم عند الله، وأنّ الذلّ الذي أنزله بهم الأجنبي يعود إلى توانيهم وقلّة إيمانهم. كما أنّه، بالوسيلة نفسها، أعرب عن أفكاره الخاصة التي تسمو بواجبات الفرد، سالكًا نهجًا معاكسًا لفلسفة إسلاميّة متأخّرة نشأت من بعض التوجّهات الصوفيّة القائلة بوحدة الوجود والساعية إلى الفناء عبر الانخطاف.

في ١٩٢٨، بعدما حصّل شهرة بفضل آثاره الشعريّة، ألقى، في جامعات هنديّة متعدّدة، محاضرات هادفة إلى تفصيل المواضيع الرئيسة لعقيدته، جُمعت نصوصها لاحقًا تحت عنوان: **ست محاضرات في إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام**. وقد سعى، من خلال ذلك، إلى التوفيق بين عقيدة تقليديّة، يتجلّى فيها أثر فكر أحمد سرهندي ومكتسبات فلسفة أوروبيّة أثّرت فيه، بخاصةٍ عن طريق نيتشه وبرغسون. وفي الوقت عينه كانت تترسّخ ثقته في التفوّق السياسي للإسلام، بحيث إنّه في ١٩٣٠، خلال جلسة للرابطة الإسلاميّة الهنديّة، أعلن ضرورة إنشاء دولة إسلاميّة مستقلّة في شمال - غرب الهند. ثمّ إنّه، بعد نشْر مجموعات شعريّة أخرى له، بينها «جاويد نامه»، وحصوله، منذ العام ١٩٢٢ من التاج الملكي البريطاني، على لقب «سير»، وارتفاع منزلته، بوجه خاص، في بلد مولده، توفّي إقبال في ١٩٣٨ في لاهور حيث دفن وحيث يكرّم قبره حتى اليوم على أنّه «الأب الروحي» لباكستان.

إنّ شعره ذا النهج الكلاسيكي، لا يسعى إلى الجمال الفنّي في حدّ ذاته، بل إلى نقل «إرث النبوّة»، إذ إنّه يُعتبر «شاعرًا-فيلسوفًا» يستوحي مصادر إلهامه الأساسيّة من القرآن، مشيدًا بديناميّة الشرع الإسلامي. وهو، بالمقابل، كان ينتقد بشدّة الصوفيّة الأفلاطونيّة، المسؤولة في نظره عن انحطاط وانكفاء في الحياة الإسلاميّة، معتقدًا أنّ رسالته تقوم على محاربتهما.

إقطاع، تعبير عربي يفضّل لفظ قطيعة للدلالة، عند انحطاط سلطة الخلفاء العبّاسيّين، على تنازل، غير قابل للتوريث، عن عقارات تخصّ الدولة الإسلاميّة، بعدما كان قد هجرها أصحابها قديمًا، زمن الفتوحات الكبرى.

اتّسع العمل بالإقطاع، الذي اتّخذ دورًا متزايدًا في إدارة الأراضي المصنّفة ضرائبيًّا بالنسبة الى وضعيتها، لمواجهة الصعوبات السياسيّة والماليّة التي طرأت على السلطة المركزيّة، خلال التفتّت التدرّجي للأمبراطوريّة، وكان يقتضي قرارًا يُتّخذ أوّلاً باسم الخليفة. وقد استفاد الزعماء العسكريّون وأشراف البلاط غالبًا من هذه التنازلات ومن المردود المقطوع منه العشر، إذ كان يشكل بالنسبة إليهم معاشًا أو إضافة إلى المعاش أو الأجر. مهما يكن من أمر، أصبحت الأراضي المتوافرة لهذا النوع من الإسناد، في عهد الوصاية البويهيّة على الخلافة البغداديّة، غير كافية، فاضطرّت الحكومة إلى تحويل أراضي الخراج إلى إقطاعات لا يؤخذ منها سوى العشر. وقد شكّل ذلك صيغة جديدة من الإقطاع أدّت تدريجيًّا إلى تقليص خطير في موارد الدولة مشفوعًا، أحيانًا، باستغلال يهدف إلى إطالة أمد ما كان، تحديدًا، حقًّا بالإفادة الموقّتة، وإلى جعله وراثيًّا.

في ما بعد، سرى هذا النظام - الذي أقيم في العراق - على سائر مناطق الأمبراطوريّة العبّاسيّة، وغدا، في الوقت نفسه، شيئًا فشيئًا، أكثر خطورة بالنسبة إلى التنظيم الداخلي للدول التي أخذت به. وفي سوريا، في العهد الصليبي مثلاً، حصل أنّ مدينة وجوارها كان يُسند أمر استغلالها لشخص كان يمارس دور الحاكم، أو بالأحرى أمير ناحية، ما أدّى إلى تداخل بين الإقطاع القديم والمنطقة أو الإمارة التي كان حكمُها مسندًا إلى

من يفيد منها، ممّا حمل بعض المراقبين المتأخّرين على الخلط بين هذا الوضع وصيغة من الحكم «الفيودالي». في مقابل ذلك، كما هو معلوم، عاد الحكم المركزيّ إلى سابق عهده، بوصول المماليك السوريّين-المصريّين إلى الحكم، فلم يحصل القادة العسكريّون إلاّ على إقطاعات متوسطة المساحة حيث لم يكن في مقدورهم أن يحكموا كأسياد.

أكبر آباد ← أغرا.

أكبر الأوّل، أبو الفتح جلال الدين محمّد، ١٥٤٢-١٦٠٥م، سلطان الهند، ملك منذ ١٥٥٦، وكان المؤسّس الحقيقيّ لأمبراطوريّة المغول، مكملاً في هذا المنحى، كما في توجّهاته الدينيّة التوفيقيّة، عمل جدّه بابَر.

إذا كان أكبر استهلّ بانتصاراته العسكريّة وحسّه التنظيمي الحقبة الأكثر تألّقًا في تاريخ الإسلام في البلاد، منصرفًا إلى العمل بتسامحه [الدينيّ] المشبع بالتصوّف، فإنّه نهض بذلك في ظروف صعبة. كان العرش الذي اعتلاهُ وهو حدَث، بعد وفاة والده هُمايون الطارئة[٢٣]، قائمًا على قواعد غير مضمونة زعزعتها عودة سلاطين دلهي الموقّتة من سلالة سوري، ولكنّه استطاع أن ينتصر، بفضل حزم وصيّه، في معركة پَنِيپّات الثانية. إنّ سطوته الشخصيّة والحملات الحربيّة الظافرة التي أخضع بها، ما بين ١٥٦١ و١٥٧٦، الدولتين الراجپوتيّتين المستقلّتين، غُجرات وبنغال، أهّلته لتقديم نفسه، في شمال الهند، خلفًا [لائقًا] للسلاطين الأوائل، ولبسط سيادته، بعيد ذلك، على أراضٍ متزايدة، إنطلاقًا من دلهي. وقد تابع، حتى وفاته، توسيع رقعة مملكته في اتّجاه السّند وبلوشستان كما في اتّجاه الدكّن، من دون التوقّف عن وضع الشؤون الهنديّة في المقام الأوّل لاهتماماته. قارن اتّساعَ الأراضي التي غنمها بالسلاح، فعاليّة نظام حكم ابتكره مليك ذو فرادةٍ فكريّة بارزة، عرف كيف يقيم نظامًا هرميًّا لإدارته المركزيّة والإقليمية، مع احتفاظه بالسلطة الأساسيّة على المسؤولين المحلّيّين واهتمامه الشديد بإقامة نظام ضريبيّ سليم. وقد قام التوازن الذي نتج عن ذلك في دولة احتفظت بالسِمَة الإسلاميّة، أكثر ما قام، على سعة رؤية عاهلها التي رسمت سلوكه بالنسبة إلى رعاياه، بإقدامه على إلغاء الجزية، مثلاً، وإشراكه، بوجه خاص، في مهمّات الإدارة والحكم، الفئات العرقيّة والدينيّة المختلفة من السكّان الذين كان غير المسلمين منهم، ممّن حرص على تأمين ولائهم له، يحتلّون موقعًا راجحًا.

وفي هذا السّياق ابتكر تصوّرًا، في ميدان الفكر الفلسفيّ، يقوم على جهد لإيجاد تلفيق انتقائي [أسماه] «الدّين الإلهي»[٢٤]، باعد بينه وبين صورة العاهل المسلم التقليديّ، بينما كان في الوقت نفسه ملائمًا لمثاله الأعلى السياسيّ الرامي إلى السماحة والمصالحة. وكان، في ذلك، يتّبع ميوله الشخصيّة الفلسفيّة-الصوفيّة التي ترسخّت عبْر السنين: بمخالطته جماعات الصوفيّة والأشخاص الورعين الذين كان يشاركهم في معتقداتهم الباطنيّة. وقد تناهى إلينا أنّه في بداية أمره أبدى احترامًا خاصًا تجاه المتصوّفين والأولياء من الطريقة الجشتيّة، قائمًا بزيارة نافلة سنويّةٍ إلى ضريح مُعين الدين الجِشتِي في أجْمِر، وذلك حتى العام ١٥٧٩، وموقّرًا، كذلك، خلال حياته، الصوفيّ سليم الجِشتي الذي يُقال إنّه مهّد بصلواته لولادة ابنه الذي عرف في ما بعد بجهانكير، فبنى لهذا الصوفي، من بعد، ضريحًا فخمًا من الرخام الأبيض جعل منه مركزًا لعاصمته الملكيّة الأخيرة، مدينة الصلصال الرمليّ الأحمر، فَتحپور سِكري. وكان يُكمل هذا المنحى بمطارحات مع ممثّلي المسلمين والهنود والمسيحيّين والزرادشتيّين من مختلف الديانات التي كان يهتمّ بها، مع ثباته على إيلاء كل ما يتعلّق بالإسلام احترامًا خاصًا. إلّا أنّه، مع ذلك، لم يُفلح في الفوز بقبول (أُسُس) عقيدته الجديدة في ما بين معاصريه كما في توريثها مَن خلفوه: فخلافًا للمبادئ التي وضعها، أكمل تاريخ المجتمع الهنديّ-الإسلاميّ، خلال العهد المغوليّ، مسيرته [المعهودة].

أكبر الأوّل شخصية مختلَفٌ عليها، يتبدّى صاحبُها لبعضهم واحدًا من أعظم ملوك الهند المسلمين، بينما اعتبره آخرون المسؤول عن المتاعب العرقيّة والدينيّة

المتزايدة في البلاد التي حاول توحيدها؛ كما كان، أيضًا أميرًا كثير الاهتمام بالنهوض بأراضي مملكته في مجالَي التجارة والصناعة، فشجّع المبادلات بتيسيره، مثلًا، استقرار البرتغاليّين فيها. كما شجّع الصناعة الحرفيّة في داخل المحترفات الأمبراطوريّة المتعدّدة، أي الكارخانات التي كانت إدارته تراقبها مباشرة، وساهم، بوجه خاص، في ازدهار مدرسة من الرسّامين والمُنَمْنِمين الذين تأثّروا بعض الشيء بالغرب. وعلى عظمة [ملكه]، الذي بلغت شهرته أوروبا، ما تزال تشهد الآثار الباقية في دلهي حيث يُذكر، بوجه خاص، الضريح الذي بناه على مثوى والده هُمايون، وصولًا إلى حصن أغرا، ولا سيّما أبنية فتحبور سيكري التي لم تصمد طويلًا؛ بينما لم يُقِم الضريح الذي دُفن فيه أكبر إلّا في زمان متأخّر، في سِكَنْدَره، غير بعيد من أغره، حيث وافته المنيّة.

◄ راجع المستندين ٢٣ و٧٨.

ألآركوس أو الأرك، (معركة)، شعبان ٥٩١هـ/١٨ تموز/يوليو ١١٩٥، إشتباك ظافر كان يرمي إلى إيقاف حرب الإسترداد المسيحيّة في الأندلس، تصدّى خلاله للقوات القشتاليّة، بقيادة ألفونس الثامن، [الملك] الموحّدي أبو يوسف يعقوب المنصور.

وقعت المعركة بالقرب من قصر محصّن يعرف بالأَرَك، يسمّى اليوم سانتا ماريّا دو ألاركوس، في منطقة كالاترافا لا فييخا. إلّا أنّ هذا التوقّف للحملات الآتية من الشمال لم يدم إلّا فترة قصيرة ولم يحُل دون استمرار التحضير لتحالف القوّات المسيحية التي حقّقت نصرًا، بعد ذلك بخمس عشرة سنة، في لاس ناڤاس دو تولوزا

◄ راجع المستند ١٦.

ألايا ← عَلانيا.

ألب أرسلان، أو عضد الدولة أبو شجاع محمّد بن داود (٤٢١-٤٦٥هـ/ ١٠٣٠-١٠٧٣م)، ثاني سلاطين أسرة السلاجقة الكبار الإيرانيّين. وقد شهد عهده امتدادًا واسعًا للدولة السلجوقيّة، ولا سيّما في الأناضول.

وهو إبن أخي طغرلبك الذي كان الخليفة العبّاسي القائم قد منحه لقب سلطان. تسلّم قيادة جيوش والده وهو بعد فتيّ، وبعد موت هذا الأخير وموت طغرلبك، جمع كلّ ما عند الأتراك من طموح، بعد أن غزا هؤلاء إيران والعراق. فكان قائدًا عسكريًّا حازمًا متنبّهًا، لم ينخرط في الدسائس التي كانت تُحاك في عاصمة الخلافة بغداد، ولم يهتمّ لها، بل وضع أمام جيشه وأمام قوّاته القبليّة هدفين أساسيّين دفاعًا عن السنة، وهما: مهاجمة الفاطميّين في سوريا، والجهاد ضدّ البيزنطيّين الذين كانوا يسيطرون على الأناضول.

وبعد أن ثبّت سلطته في الشرق حيث الغزنويّون والقراخانيّون ودولة السلاجقة في كرمان التي أسّسها أحد إخوته، انطلق في غزواته نحو أذربيجان، كما أخضع المرداسيّين الشيعة في حلب، وشجّع غزوات البدو التركمان ضد البيزنطيّين في آسيا الصغرى. وجاءت ردّة فعل البيزنطيّين لتقدّم له فرصة انتزاع نصر عسكري حاسم في معركة ملازكرت/مانتزيكرت، في آب من سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، ما ساعده على احتلال بلاد الأناضول وأسلمتها. إلّا أنّه لم يلبث أن هلك بعد ذلك بقليل، تاركًا لولده ووريثه ملكشاه مجال الإفادة من الانتصارات التي حقّقها، وجهازًا إداريًّا منضبطًا يديره، منذ تسلمه السلطة، الوزير نظام الملك بمهارة وحزم.

ألبانيا، اسمٌ أُطلق، خلال عصور مختلفة، على مقاطعتين من العالم الإسلامي، كانت إحداهما تابعة لمناطق القوقاز، والأُخرى لأراضي البلقان حيث قامت، جمهورية ألبانيا الشعبيّة الإشتراكيّة.

١ - **إنّ ألبانيا ما وراء القوقاز التي حملت**، في ما بعد في العصر الوسيط، اسم أرّان الذي سقط، بدوره، من الاستعمال، ضُمّت إلى الأمبراطوريّة العربيّة-الإسلاميّة، منذ فتوحات القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد. وقد اتّحد مصيرها بمصير مقاطعة أذربيجان، بخاصة مع وصول القبائل التركيّة بقيادة السلاجقة في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وقد ثبّتت هذا الوضع الغزوات المغوليّة وحملات الإيلخانيّين في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وما تزال النتائج التي ترتّبت على ظاهِرَتَيْ الأسلمة والتتريك اللتين برزتا آنذاك تتحكّم، إلى حدّ

ما، بالتطوّر السياسيّ الحاليّ لجمهوريّة أذربيجان المستقلّة التي تضمّ منطقتي أرّان وشروان القديمتين.

٢- أمّا ألبانيا البلقان التي لم يظهر اسمها إلّا ابتداءً من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي - رغم أنّ سكّانها ينتمون إلى الأرومة الإيليريّة من دون شكّ، كما أنّهم ظلّوا متمسّكين بفرادنهم في مناطق جبليّة واقعة إلى الجنوب الشرقيّ للبحر الأدرياتيكي - فإنّها لم تعتنق الإسلام إلّا في وقت متأخّر، في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد. حلّ العثمانيّون محلّ البيزنطيّين والصرب والنورمان في السيطرة على هذه البلاد، ولا سيّما بعد العام ١٤٧٨م، بفضل ما أحرزوه من نجاح ضدّ البندقيّة. نتج عن ذلك عهد طويل من الاشتراك في الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والدينيّة للامبراطوريّة، استتبع ذلك تحوُّل الألبانيّين إلى الإسلام في أكثريتهم وبقاؤهم أوفياء لهذا الخيار.

تميّزت المراحل الأولى للأسلمة بمخاطر نتجت عن فتح عسكريّ صعب، تحقّق بموازاة الاستيلاء على البوسنة، بعد أن انتصرت جيوش السلطان مراد الأوّل على الصرب في سهل كوسوفو في العام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م. استندت حملات العثمانيّين على مناعة مراكزهم الحدوديّة التي كانوا قد أقاموها في مقدونيا، في أسكوب/سكوبيا، وقد استمرّت في التقدّم رغم المقاومات المحليّة والنزاعات المسلّحة مع البندقيّة. الذين اتُّخذت تدابير قهرٍ متنوّعة في حق السكّان الشجعان، وقد اصطبغت مقاومتهم التي قادها اسكندر بك (٨٠٨-٨٧٣هـ/ ١٤٠٥-١٤٦٨م) بصبغة قوميّة، وأدّت في النهاية إلى تحويل ألبانيا إلى قاعدة إداريّة لما كان يُعرف يومئذ باسم الرومَلّي، وهي واحدة من أكبر مقاطعتين خضعتا للعثمانيّين. إنّ أربعة أقضية، على الأقلّ، هي: شُكودر/ اسكندرية/شكوتاري وأَفْلونا، والباسان وأَهري كانت تشكّل في القرن السادس عشر الأرناؤوتلوك، وهي الولاية العثمانيّة التي خلفت الإمارات المحليّة والتي لا تشغل جمهوريّة ألبانيا الحاليّة سوى قسم صغير منها.

إنّ النظام الضريبيّ المستند إلى امتيازات التّيمار الأرضية، ومن ضمنها جباية الضرائب المحلّية السابقة، هو، من دون شك، ما دفع بالكثيرين الى اعتناق الدين الجديد، وفي مقدّمهم الإقطاعيّون القدامى، ثم في القرنين السابع عشر والثامن عشر، تمّت أسلمة الفلّاحين. قبل ذلك، كان الأخذ المكثّف بالدوشرمة قد أدّى إلى تعويم الدوائر الحاكمة للدولة العثمانيّة بالموظّفين والعسكريّين من الألبان، وهم في معظمهم ذوو نشاط مميّز. أخيرًا، يذكر أنّه، في وقت متأخّر، تنامى في القرن التاسع عشر التأثير الدينيّ للطريقة الصوفيّة البكتاشيّة، فتكاثرت في الولاية مراكز الدعاوة، ما ساهم في زيادة عدد المسلمين.

٣- **جمهورية ألبانيا الشعبيّة الاشتراكيّة** الحاليّة، المساحة: ٢٨ ٧٤٨ كم٢، العاصمة: تيرانا، دولة حديثة [العهد] مستقلّة في شبه جزيرة البلقان، ما تزال تضمّ أكثريّة نشيطة من المسلمين، تقدَّر بين ستين وسبعين بالمائة من السكّان.

إنّ هذا الوضع الذي يصعب تقويمه في بلدٍ مغلَق على نفسه، منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية، هو وليد ميراث السيطرة التركيّة التي تنامت داخل أراضي ألبانيا في العصر الوسيط، منذ أواسط القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، ثمّ امتدّت إلى المنطقة بأكملها، ولا سيّما الجبليّة، بحيث أشرفت على ساحل البحر الأدرياتيكي. وهكذا تجاوزت حدود الأرناؤوتلوك في زمن العثمانيّين الحدود التي، من الشمال إلى الجنوب، تفصل، اليوم، جمهوريّة ألبانيا عن مونتنغرو وكوسوفو ومقدونيا واليونان.

استمرّ هذا الوضع حتى القرن التاسع عشر، إذ حاول السكّان الألبانيّون - الذين كانوا قد أصبحوا في أكثريتهم مسلمين - أن يستغلّوا المصاعب التي واجهتها الامبراطوريّة ليستعيدوا استقلالهم. قامت في البدء محاولات أصابت نصف نجاح، قادها حكّام عثمانيّون مثل علي باشا تِيلِنْلي الذي كان على مقدار كبير من الحذق السياسي، بحيث حاز بعض الشهرة في أوروبا، قبل أن يُصاب بجرح قاتل في العام ١٨٢٢. شكّلت هذه المحاولات إرهاصات لأعمال الحركات الاستقلاليّة التي أيقظت الرابطة الألبانيّة عام ١٨٧٨ والتي قاومت مشاريع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. وفي نهاية الأمر، بشّرت نتائج الحرب البلقانيّة، في العام ١٩١٢،

والحرب العالميّة الأولى التي عصفت بُعَيْدها، الولادة العسيرة لأوّل دولة ألبانية حديثة. حازت هذه الدولة الاعتراف بها في العام ١٩٢٠، ومرّت بتجربة علاقات مضطربة مع إيطاليا، وانتقلت من مَلَكيّة قصيرة الأمد، في عهد الملك زوغ الأول، إلى جمهوريّة شعبيّة عام ١٩٤٤. في نهاية الحرب العالميّة الثانية، أدار شؤونها أنور خوجا باستبداد شبه مطلق حتى وفاته التي عقبها، عام ١٩٩٢، فقدان الحزب الاشتراكي سلطته [على البلاد].

◄ راجع المستند ٢٧.

أُلجايتو، غياث الدنيا والدين محمد خُدابَنْده ٦٧٩ ـ ٧١٧هـ/ ١٢٨٠ ـ ١٣١٧م، هو الملك المغولي الثامن في سلالة الإيلخانيّين في إيران، حكم بين ٧٠٤ و٧١٧هـ/ ١٣٠٤ و ١٣١٧م، تاركًا وراءه سمعة البنّاء الباذخ وراعي الآداب والعلوم. هو ابن أحد أحفاد هولاكو، وُلد من أم مسيحيّة ربّته على هذه الديانة. وفي ما بعد، اعتنق الدين الاسلامي، لكنّه كان متذبذبًا في قناعاته الدينيّة: ففي البدء، كان مؤيّدًا للإسلام الشيعي، لكنّه اقترب فيما بعد من الإسلام السنيّ ليعود أخيرًا إلى التشيّع.

اعتلى العرش بدون صعوبة وهو صغير السن، وريثًا لأبيه غازان. واتّبع، مثل أبيه وأسلافه، سياسة عدائيّة تجاه المماليك تميّزت بحملات عدّة على سوريا وبحصار فاشل لقلعة الرحبة. وفي المقابل، أقام علاقات سلميّة مع ملوك الغرب المسيحي حيث أرسل موفدًا مسيحيًّا ليوهم هذا الغرب بأنّه ما يزال على الديانة المسيحيّة. إضافة إلى ذلك، عيّن في خدمته وزيرًا ذا كفاية عالية هو المؤرّخ رشيد الدين. لكنّ شهرته الذائعة قامت، بدون شك، على نقل مقرّه الملكي من تبريز، عاصمته الأولى، الى مدينة سلطانيّة الجديدة التي أسّسها في مقاطعة الجبال القديمة، غير بعيد من قزوين، والتي كان يطمح الى تحويلها مركزًا إقتصاديًّا فعّالًا على الطريق الأساسيّة للقوافل، بحيث تكون صلة الوصل بين الأمبراطوريّة المغوليّة والأناضول وأوروبا، عبر أذربيجان. وما تزال آثار قليلة لهذه المدينة قائمة في موقع مقفر من السهب، من بينها الضريح الذي بناه بنفسه من القرميد المزيّن والمرصّع بالخزف حيث دُفن تحت قبّة ذات حجم مهيب.

ألجزيرة (إسبانيا)، عُرفت في زمن العرب باسم الجزيرة الخضراء: مدينة مرفئيّة تقع جنوبي شبه الجزيرة الإيبيريّة، أمّن لها المسلمون في القرون الوسطى الازدهار الإقتصادي والعسكري، بعدما جُعلت نقطة عبور للمضيق باتجاه سَبْتة.

أقامت الدولة الأمويّة الأندلسيّة، في مرحلة قوّتها وازدهارها، دارًا للصناعة في الجزيرة وقاعدة بحريّة، وتحوّلت المدينة إلى مركز إداري للمقاطعة. وهذا ما أدّى إلى نموّها على الجهة الثانية من الخليج الذي تحميه قلعة جبل طارق. وأدّت الجزيرة بعد ذلك، بفضل تحصين الأماكن الإسلامية التي كانت تهدّدها حرب الاسترداد، دورًا مهمًّا يوازي الدور الذي كانت تؤدّيه القلعة المقابلة. كما كان مصير هذين المركزين كمصير مدينة طريف المجاورة. وفي أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، أقام المرابطون تحصينات قويّة لمدينة الجزيرة التي منها انطلقوا لدعم ملوك الطوائف وردّ هجمات ألفونسو السادس القشتالي. وفي مرحلة لاحقة جعلها المرينيّون مقرًّا لهم ومركز انطلاق لعمليّاتهم، حتى هزيمة أبي الحسن علي المريني سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م على نهر الريو سَلادو، ما أدّى الى وقوع المدينة في قبضة ملوك قشتالة. على أثر ذلك تغيّرت أوضاع الجزيرة التي عرفت تبدّلًا كبيرًا، بسبب الحملة الإسلاميّة التي انطلقت من غرناطة سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م، وقوّضت كلّ معالم أبنية العصور الوسطى السابقة.

◄ راجع المستندات ٨ و١٥ و١٦ و١٩.

ألغَرب Algarve، اسم مقاطعة حاليّة تقع جنوبي البرتغال، وفيها يبدو أثر الوجود الإسلامي المتلاحق حتى منتصف القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد أكثر بروزًا من سائر أنحاء البلاد. والاسم الذي تحمله المقاطعة حُرِّف عن العربيّة، إذ أطلق العرب على تلك الناحية اسم «غرب الأندلس»، وهذه التسمية التي كانت تشمل قسمًا كبيرًا من البلاد لا تُطلق اليوم إلّا على

قسم ساحلي صغير. وقد انتزع الإسبان المقاطعة من المسلمين تدريجيًا خلال حروب الاسترداد، وكان سقوط مدينة شِلْب (Silves) البحرية سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩ م.

ألقصر دو سال (في البرتغال)، بالعربيّة قصر أبي دانس، موقع مرفئيّ يحتفظ ببعض الذكريات من ماضيه الإسلاميّ الوسيط، على الساحل الأطلسيّ للأندلس. نشأت هذه الحاضرة البحريّة خلال الإحتلال الإسلاميّ للمنطقة. زامَنَ ازدهارُها، في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ازدهار ترسانتها التي غدت بسرعة في أهميّة ترسانة شِلبْ. وقد اضطلعت بدور الحصن، فحملت اسم **القصر**، وصمدت في وجه الزحف المسيحيّ، ثمّ سقطت بعدئذٍ في العام ٥٥٣هـ/١١٥٨م، واستُعيدت عام ٥٨٧هـ/١١٩١م، لتسقط بصورة نهائية بأيدي المسيحيّين في العام ٦١٤هـ/١٢١٧م.

◄ راجع المستند ١٩.

الأكراد، شعب إيراني يبدو أنه سكن منذ القديم منطقة جبليّة تتقاسمها اليوم كلّ من تركيا وإيران والعراق وسوريا.

وقد قُدّمت آراء كثيرة تفسيرًا لأصل كلمة «كرد» التي كانت معروفة في عهد الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة الكبرى، وقد استعملها الجغرافيّون المسلمون في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وذكروا مختلف القبائل الكرديّة بأسمائها، كما ذكر المؤرّخون باكرًا الثورات التي اندلعت ضدّ الخلافة والتي شارك فيها الأكراد. وعُرفت في القرن عينه سلالات كرديّة حاكمة، كبني شدّاد، وبني حسنويْه الذين كانوا حلفاء كلّ من البويهيّين لكن الدولة وعضُد الدولة، في حين أنّ سلالات أخرى كرديّة كانت معادية لبني بويه، وأنّ إحداها، المروانيّين، سيطرت على منطقة ديار بكر من سنة ٣٨٠ إلى ٤٨٩هـ/٩٩٠-١٠٩٦م.

مع قدوم السلاجقة، حاول الأكراد التصدّي للتقدّم التركي، واستمرّوا بعد ذلك في إثارة الاضطرابات. إلّا أنّ كثيرين منهم دخلوا كمرتزقة في جيش الزنكيّين الذين كانوا من أسرة حكَم بعض أعضائها منطقة كردستان في عهد السلطان السلجوقي سَنْجر. هكذا نرى أنّ أحد القادة الأكراد في جيش نور الدين [محمود] زنكي، وهو صلاح الدين المشهور، أسّس سلالة الأيوبيّين التي حكمت سوريا ومصر، فكثر عدد الأكراد في الجيش وفي الجهاز الإداري. وعُرف من بين الأكراد عدد من رجال الدين الذين أدّوا دورًا في التعليم الذي كانت تؤمّنه المدارس التي استُحدِثت في ذلك العصر. وبعد مرور مرحلة قصيرة، خلال غزوات المغول، احتُلّت المناطق الكرديّة ونُهبت، وهلك عدد كبير من الأكراد، وهذا ما حمل الناجين على التحالف مع المماليك. وبعد انتصار العثمانيّين على المماليك وسيطرتهم على الشرق الأدنى، تحوّلت بلاد الأكراد الى مسرح لصراع جديد بين الصفويّين والعثمانيّين، ثمّ بين العثمانيّين والروس. وقد حاول الأكراد، غير مرّة، الحصول على استقلالهم، لكنّهم لم يتمكّنوا. وهذا الاستقلال الذي كان متوقّعًا في مطلع القرن العشرين، بموجب معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠، ألغته معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣، وقد نتج عن ذلك عصيانٌ مسلّح.

بعد الحرب العالميّة الثانية، ضُمَّ قسم من الأراضي الكرديّة الى تركيا، وجُعلت المنطقة القريبة من الموصل، والتي تضمّ حقول البترول في كركوك، من نصيب العراق. أمّا المنطقة التي كانت من قبل تحت سيطرة إيران فقد احتلّتها القوّات السوفياتية سنة ١٩٤١. هذا الوضع جعل بعض الأكراد يعتقد أنّ الوقت أصبح مناسبًا لإعلان الدولة الكرديّة المستقلّة (كانون الثاني - يناير ١٩٤٦). لكنّ ذلك لم يمنع إيران من أن تستعيد تلك المنطقة بعد انسحاب القوّات السوفياتية منها في آذار - مارس ١٩٤٧، وأن تُعدم زعيم الأكراد. إلّا أنّ أكراد العراق لم يتوقّفوا عن التحرّك، وأحيانًا بعنف، بدءًا من سنة ١٩٤٥. ومرحلة الهدوء الوحيدة تناسبت مع قيام الجمهوريّة في العراق سنة ١٩٥٨، حيث ضَمِن الدستور الجديد حقوق الأكراد. إنّ وصول حزب البعث إلى السلطة أدّى إلى عودة التوتّر، رغم نظام الحكم الذاتي الذي مُنح للأكراد سنة ١٩٧٤. كما أنّ الصعوبات الداخليّة والخارجيّة التي صادفها نظام صدّام حسين غالبًا ما كانت تنتج عنها حملات عسكريّة قمعيّة في بلاد الأكراد.

الله، لفظة عربيّة تشير إلى الخالق، يرد ذكرها في القرآن الكريم لدى المجاهرة بالاسلام عن طريق الشهادة، وفي ما بعد، في الفكر الديني الذي ثابر على تحديد الايمان في الإسلام والعقيدة التي تعبّر عنه. فاللفظة التي يبدو أنّ معناها يشير إلى الألوهيّة المطلقة أو إلى الإله قد أعطت، عن طريق الدغم، لفظة «الله»، وهذا ما لم يتفق حوله علماء اللغة بشكل تام.

وبشهادة عدد من الآيات الكريمة كانت اللفظة معروفة عند العرب قبل الإسلام وتشير بمعناها إلى الألوهيّة الكلّية، فجاء النبيّ محمّد (ﷺ) وأعطاها برسالته معنى توحيديًا. وفي القرآن الكريم يبدو الله سيّد النبيّ محمد (ﷺ)، يأمره بتلاوة الآيات التي يوحي بها إليه بواسطة ملاك؛ وبعد ذلك دُوِّنت هذه الآيات. والله لا نظير له ولا شبيه ولا شريك: «ليسَ كمِثْلِه شيءٌ» (سورة الشورى، الآية ١١)، وهو لم يلد ولم يولد بحسب ما يحدّده النص الوارد في سورة الإخلاص والذي يتردّد ذكره في الأوساط الإسلاميّة. وهذه الحقيقة الثابتة في وحدانيّة الله فيها إدانة للشِّرْك، أي لتعدّد الآلهة، وللمسيحيّين أيضًا:

«بسْمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص، الآيات ١-٤).

هذا الإله الوحيد هو ربّ السموات والأرض، وهذا ما تعنيه العبارة المعروفة «ربّ العالمين». وهو سيّد الملائكة والجنّ، وسيّد البشر الذين خلقهم والذين يوجّههم بحسب ما يشاء، كما أنّه يدبّر كلّ شيء بإرادته الإلهيّة. وهذا العالم ينتهي وجوده بقراره. وفي يوم القيامة، بعد بعث الأموات، يحكم على أعمال البشر فيرسلهم إمّا إلى النعيم وإمّا إلى الجحيم. وإذا كان خلقه قد تمّ عن طريق القول أو الأمر أو عن طريق الروح، فإنّه تعالى يرسل كذلك نوره للأنبياء وينشره على الرسالة التي ينقلونها ويذيعونها.

إلّا أنّ الآية القرآنية التي تشير إلى قدرة الله الكلّية وقوّته الفريدة هي التي تُعرف باسم آية العرش. وقد غدت على مدى العصور إحدى الوسائل المفضّلة في التعبير عن تقوى الإسلام:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (البقرة، ٢٥٥).

في هذه الآية من القرآن الكريم، كما في آيات كثيرة أخرى، نلاحظ استعمال تعابير هي من الخصائص الإنسانيّة: فالله يستوي على العرش، وله يد ووجه ويتحلّى بصفات تصلح لأن تعبّر عن التقوى الصوفيّة والشعبيّة، ويبلغ عدد هذه الصفات، بحسب التقليد، تسعًا وتسعين هي «أسماء الله الحسنى» التي يردّدها المؤمنون في إطار المديح والثناء. وهكذا فإنّ الله هو الخالق، والسامي، والحيّ، والثابت، والكلّي العلم والعاقل، والعادل، وهو على الأخصّ الرحمٰن الرحيم وكلّ سورة من القرآن تبدأ بالقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم»، وهذا ما يُعرف بالبسملة، وقد أُخذ القول من سورة الفاتحة التي هي أولى السور، والتي يردّدها المسلمون في مناسبات كثيرة - وهذا واجب عليهم - وذلك قبل المباشرة بأيّ عمل مهمّ وشرعي، كما قُبيل بعض الأعمال كالوضوء أو تناول الطعام. أمّا النصوص المكتوبة فيجب أن تُستهلّ كذلك بالبسملة، من أجل نيل رضى الله وبركته. ويُختصر القول أحيانًا إلى كلمتين هما: «بسم الله». وغالبًا ما ترد عبارة «الحمد لله» في الأحاديث اليوميّة. كما أنّ تعابير كثيرة كعبارة «الملك لله» كانت، منذ العهود الأولى للإسلام، تُستعمل كمواضيع مفضّلة في الكتابات التي تسهم في تزيين الأبنية، والأثاث، وسائر الأعمال الفنّية. وينبغي أن نشير إلى أن لفظة «اللّهمّ» كانت متداولة في عصر ما قبل الإسلام، ولم يجد فيها النبيّ محمّد ﷺ ما يستوجب التغيير، فاستمرّ استعمالها في الصلوات والابتهالات لدى المؤمنين أتباع الديانة الجديدة.

هذا الإله الخالق والكلّي القدرة هو في حالة دائمة من السموّ والترفّع، ولا يستطيع العالم المخلوق أن يقيم معه صلة أو أن يدركه، بالرغم من أن ممثّلي حركة التصوّف جاهروا بإمكان إقامة علاقة حبّ بينه وبين الإنسان، وبأنّ هذه العلاقة تؤدّي إلى الوجد ونشوة

الاتّحاد. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ هذا الاتّحاد ليس في الواقع إلّا نوعًا من التقرّب. أمّا مناصرو الفلسفة الذين لا ينكرون القدرة الإلهية على الخلق، فغالبًا ما كانت تستهويهم فكرة اعتبار العالم المخلوق فيضًا إلهيًا، وبذلك تنتفي فكرة خلق العالم من العدم.

ثمّ إنّ إدراك ماهيّة الله في الوسط الإسلامي كانت منذ عصور، وما تزال، محور أسئلة كثيرة، أهمّها تلك التي أُثيرت في مناقشات العلماء وولّدت جدلًا وخلافًا كانا في أساس التحديدات التي وضعتها مدارس علم الكلام اللّاحقة. من ذلك: أينبغي الأخذ بحرفيّة التعابير التي تضفي على الله صفات بشرية؟ إنّ البحث عن جواب لهذا السؤال يؤدّي إلى مشكلة التجسيم والتشبيه التي انتقدتها المعتزلة والتي انتقدها أيضًا، الى حدٍّ ما، الأشعريّون. ومنها: ما قولنا بالصفات الإلهيّة التي تتوافق مع أسماء الله الحسنى التي أشرنا اليها سابقًا، وهل هي صفات أزليّة؟ ان سؤالًا كهذا هو في النهاية سؤالٌ حول التوحيد. ثمّ هل كلام الله أزلي أم مخلوق؟ حول هذه المسألة تضاربت الآراء وتباعدت المواقف بين المعتزلة والتقليديّين. والتساؤل الأخير: هل الله عادل؟ هل هو مسؤولٌ عن الشرّ؟ أيمكن القول إنّ الأعمال التي يقوم بها الإنسان هي من صنعه أم إنّها مفروضة من الله؟ هذه الأسئلة التي قادت إلى مناقشة قضيّة حرّية الإنسان وعدم حرّيته جعلت المسافة تزداد بعدًا بين المعتزلة والتقليديّين، بعدما كان أتباع القدريّة والجبريّة قد بدأوا يُبرزون هذه المسألة الدينيّة التي كان لها تأثيرها السياسي، وأصبحت واقعًا حيويًّا ينطلق منه المؤمنون لتحديد مواقفهم من الحكام وقادة الجماعة.

الله آباد أو إلَهاباد (الاتّحاد الهندي)، مدينة تقع اليوم في ولاية «أوتر پرادِش». يعود الفضل في تسميتها ونموّها إلى سلطان المغول أكبر الذي جعلها عاصمة إحدى مقاطعات أمبراطوريته. فبين عامي ١٥٧٤ و١٥٨٠ للميلاد بدأ السلطان يبدي اهتمامًا بمدينة «پراياغ» الصغيرة التي كان يقدّسها الهندوس، بعدما رأى فيها مركزًا إستراتيجيًّا مهمًّا لعبور نهر «الغانج»، وأطلق عليها اسم «إلَهْباس» الذي أصبح في ما بعد «الله آباد». وقد شيّد فيها قلعة ما تزال اليوم قائمة، ومجموعة من الأبنية الأخرى. وقد حضنت المدينة، بعد ذلك، الصوفي الشهير المعروف باسم محبّ الله ١٥٨٩-١٦٨٤، الذي انتمى إلى الطريقة الجشتيّة، وكان متمسّكًا بالأفكار المنادية بوحدة الوجود التي روّجها إبن العربي، فعمل على نشرها في أوساط أمير المغول «دارا شِكُوه». ولم يتوقّف دور «الله آباد» الاقتصادي والإداري عن النموّ، حتى خلال الاحتلال البريطاني الذي كان ناجزًا سنة ١٨٠٠. ولا يزال هذا الدور ثابتًا في عصرنا الحالي، وان المدينة تحتفظ بأقلّية قويّة من المسلمين.

ألمريّة أو مريّة بجّانة (إسبانيا)، مرفأ أندلسي تأسّس في القرن الرابع الهجري/العاشر للميلاد، وحاز أهميّة جعلته يحلّ مكان مدينة بجّانة. إلّا أنّه لم يحافظ من العهود الإسلاميّة إلّا على بقايا أثريّة قليلة.

هذه المدينة المزدهرة التي تأسّست سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م على يد الخليفة الأموي الاندلسي عبد الرحمن الثالث، واحتلّت موقعًا إستراتيجيًّا في الدفاع عن المنطقة الساحليّة كان يشير إلى أهميّته وجود برج للمراقبة ورباط، عرفت نموًا سريعًا بفضل المرفأ الذي شمل نشاطه الأغراض الحربيّة والتجاريّة. ولم يكن المرفأ يُستخدَم حصرًا قاعدةً بحريّة ومركزًا لبناء سفن أمويّة كانت، في ذلك الوقت، تنافس الأسطول الفاطمي في المتوسّط، بل كان النشاط التجاري - الذي حرّكته المراكب الوافدة من كلّ جهة - أساسًا لازدهار اقتصادي مميَّز. ثم إنّ الأسوار أمّنت الحماية للأحياء الجديدة، مع القلعة التي تُعرف باسم «القصبة» والتي بُنيت فوق مرتفع صخري. وقد بقيت المدينة مع دفاعاتها، حتى القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، معقلًا دالًا على قوّة المسلمين في شبه الجزيرة الإيبريّة.

عرفت مدينة ألمريّة حركة ثقافية وصلت إلى ذروتها في عهد ملوك الطوائف، عندما انتقلت من أيدي العامريّين إلى التُجيبيّين الذين جعلوا بلاطهم مركزًا فكريًّا وأدبيًّا مميَّزًا، وقد استمرّت هذه الحركة في ما بعد. وأدى قدوم المرابطين سنة ٤٨٥هـ/١٠٩١م إلى تزايد النشاط التجاري والازدهار الحرفي، وإلى انتشار صناعة النسيج الفاخر، فضلًا عن استثمار المناجم الواقعة داخل البلاد. وبين سنتي ٥٤٢ و٥٥٢هـ/١١٤٧

و١١٥٧م، وقعت ألمريّة في أيدي المسيحيّين، بصورة موقّتة، خلال حروب الاسترداد. فكانت تلك المرحلة بداية انحطاط، ولا سيّما عندما شهدت المدينة، بعد ذلك، صراعًا بين ذوي النفوذ في ظلّ الموحِّدين. واستمرّ الاضطراب مع ضمّ ألمريّة إلى المملكة النصريّة في غرناطة سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، إلى أن سقطت سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٩م في أيدي الملوك الكاثوليك.

◄ راجع المستندات ١٥ و١٦ و١٩.

أَلَمُوت، قلعة خَرِبة تقع في قلب جبال ألبُرز في إيران، ظلّت، لثلاثة قرون، مركزًا لأشهر دولة وسيطة من فرقة النِّزاريّين.

إنّ موقع هذه القلعة المشهورة بمناعتها الفريدة والتي احتلّها، رغم ذلك، هولاكو في العام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، يقع إلى الشمال الشرقيّ لمدينة قزوين الحاليّة، وهو من أعمال مقاطعة الدَّيلم التي كانت، منذ أوائل عهد الإسلام، منطقة جغرافية يصعب الوصول إليها، بحيث غدت معقلًا للدعوة الشيعيّة وللاضطرابات التي كانت ترافقها. يفسّر لنا هذا الأمر اختيار حسن الصبّاح هذا الموقع، عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م، ليحتضن مركز حركة النِّزاريّة القائمة على مذهب الإسماعيليّة الفاطمي، والتي أدّت إلى نشوء إمارة مستقلّة أدارها رؤساء الفرقة. إنّ تاريخ المعلّمين الكبار لألموت وقدرتهم الحربيّة القائمة في معظمها على استخدام مبرمج للإرهاب، يصوّر لنا مختلف مراحل تطوّر عقيدتهم، ويتماهى مع عقيدة فرقتهم التي عرف أفرادها من خلال التسمية الفرنجيّة القروسطيّة لهم، أي الحشّاشين (Assassins) المرادفة للفظة «قتلة».

◄ راجع المستند ١٧.

أَلَموت (المعلّمون الكبار) ← **النِّزاريُّون**.

إليشاع، أو أَلْيَساع، ذُكرت هذه الشخصيّة التوراتيّة مرتين في القرآن الكريم باعتباره نبيًّا. وقد أغنى كتّاب القرون الوسطى في رواياتهم هذه الإشارات، باستيحائهم من العهد القديم ليؤكّدوا أنّ إليشاع كان أحد أتباع إيليا وخلفه. وقد خصّصت له، في مرحلة انتشار «تكريم الأولياء»، بعض المزارات التي كانت محجّة للزيارات التقويّة، وقد حدّد موضع قبره في أماكن مختلفة. فنجد في دليل الهروي على الأقل أربعة أماكن مختلفة، وذلك في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي: في حوران في سوريا، في مصر، في بلاد ما بين النهرين العليا، كما في فلسطين، وعلى وجه التحديد في البلدة المسيحيّة المعروفة بسبسطية. وقد اعتُمد التقليد اليهوديّ - المسيحيّ أساسًا لتحديد أمكنة هذه المزارات.

أُم القَيْوين (مدينة) ← **الإمارات العربيّة المتّحدة**.

أُمّ الولد، تعبير عربي ذو مدلول قانوني، يعني، في المجتمع المسلم القروسطي، أمَة وضعت ولدًا لسيّدها.

كانت أمَة كهذه، خليلة، تتمتّع بامتياز يحول دون بيع مالكها لها، كما لها الحق، بوفاة هذا الأخير، بالإعتاق، فيما ولدها يتمتّع بجميع حقوق الإنسان الحرّ. وتعود هذه الوضعية المعمول بها إلى قرار أصدره الخليفة الثاني، عمر بن الخطّاب، يستند الى حديث نبوي. ويبدو أنّه لقي اعتراضًا في العهود الأولى للإسلام، إلّا أنّ المدارس الفقهية الأربع في السُّنّة أخذت به، في ما بعد، من دون أيّ التباس.

الواقع أنّ تطبيق هذا الوضع تأكّد خلال القرون الوسطى وفي مرحلة متأخّرة أيضًا، في الأُسَر الأميريّة والملكيّة، بما فيها الخلافيّة، حيث تيسّر لأولاد خليلات تولّي السلطة قانونيًّا في ظروف قريبة من تلك التي توافرت لأولاد الزوجات الشرعيّات، حتى لو جاء ذلك غالبًا نتيجة مكائد وحنكة سياسيّة لأمهاتهم من أجلهم. وثمّة حالة قصوى - مثبتة كذلك في تقاليد سلالة الصفويّين - هي حالة عرفتها دولة العثمانيّين حيث جرت العادة، منذ القرن السادس عشر تقريبًا، بأن يفسح السلطان، الذي لم يعقد زواجًا معترفًا به رسميًّا، في المجال لدى وفاته، للمنافسة بين أولاد مختلف الخليلات اللواتي أنجبنَ له البنين وحَصَلنَ على لقبَي «خَدين» أو «خاصّكي» الشرفيّين؛ وعندما كان أحد الأمراء المتخاصمين يعتلي العرش، كان يقضي على إخوته من أبيه، وهو أمر كان له صفة قانونيّة، وظلّ معمولًا به حتى نهاية القرن السابع عشر. وكانت تفيد أمّه عندئذ من وضع النفوذ المميَّز لها كونها السلطانة

لوالدة، أو الأم، أي الأمّة القديمة التي باتت تُعامَل الاحترام الواجب لأمّ السلطان.

كانت تلك السلطانة - الوالدة تنعم بامتيازات خاصة ونُفيم، بعد تنصيب ابنها، في قصر كان يحمل سم «السراي الجديدة». كما كانت تفيد من إيرادات ماليّة مهمّة ومن لقب تشريفي يتناسب والاحترام الواجب لها. ومع ذلك، ووفق التقاليد السائدة، كانت تظلّ منزوية في قصرها الخاص وسط الحريم. غير أنّها كانت تمارس سلطتها على مستخدَمي ذاك الحريم، كما كان لها تأثير بالغ، بمختلف الوسائل، على تسيير الأمور. لم يتوانَ المؤرّخون القدامى في سرد النشاطات لسياسيّة التي قامت بها السلطانات الوالدات اللواتي حظين ببلوغ تلك المرتبة، واللواتي كنّ، إلّا في حالات نادرة، خليلات سابقات أفدنَ من الوضع الإسلامي لشرعي - وضع «أمّ ولد»، فور إنجابهنّ أول ولد. عُرفت بعض تلك السلطانات، إلى ذلك، برغبتهنّ في تشييد أبنية ضخمة خلّدت ذكراهنّ حتى اليوم، أهمّها مساجد جامعة في إسطنبول او ضواحيها، المحاطة غالبًا بمبانٍ ملحقة بها وتملك أوقافًا.

الإمارات (عصر -) في الأناضول، هو عصر تجزئة البلاد إلى سلطات محليّة متعادية، إثر سقوط مملكة سلاجقة الروم في نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تحت ضربات المغول. انتهى هذا العصر في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مع الانتصار النهائي للعثمانيّين.

وُلدت هذه الدول في معظمها من طموحات أسياد الحرب ورؤساء القبائل التركمانيّة الذين ربطوا مصيرهم، على الرغم من جذورهم البدويّة، بدويلات الحضر التي كان قد أنشأها كلٌّ منهم حول الحاضرة الإقليميّة حيث أقام بلاطه، عازمًا على أن يجعل منه مركزًا لحياة فكريّة ناشطة. وقد سهّل لهم الاستقرار فيها الشكل الطبيعيّ لتضاريس الأناضول المجزّأة، وأفادت - على الرغم من الجهود التي بذلها ملوك قونية، عندما بلغت سلالتهم أوج قدرتها، لتثبيت مركزيّة الإدارة والاقتصاد - من إرث مرحلة الفوضى السابقة. خلال هذه الفترة، كانت الزُّمَر التركيّة تجوب البلاد بعد أن دخلتها إثر معركة ملازكرت/مانتزيكرت سنة ١٠٧١ واقتطعت كلٌّ منها، بحسب حظوظها المتبدّلة وفقًا لانتماءاتها القبليّة، بعض الأراضي، عاكسةً عدم الاستقرار الذي أدخله إلى قلب الأمبراطوريّة البيزنطيّة ظهورهم المنيف في رقعتها. في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كان الوضع يَعْكس التحوّلات الإجتماعيّة والسياسيّة التي أصابت، خلال قرنين، سكّان الأناضول حيث كان الأتراك المسلمون، المتأثّرون بالثقافات المحليّة، ينهضون بدورٍ إلى جانب السكان الأصليّين الذين اعتنقوا الإسلام تدريجيًّا. وهذا يفسّر حيويّة عصرٍ حاولت فيه المقاطعات الرئيسة إثبات خصوصيّاتها عبر سعيها إلى ابراز تفوّقها. ويعود الفضل أيضًا في الإنجازات الفنيّة الرائعة التي خلّفتها إلى الأمراء، رعاة الفنون، الذين تحلّوا بالإقدام، رغم قصر فترة حكمهم. وقد احتفظ الأناضول، في جميع أنحائه، بروائع فنيّة كثيرة ترقى إلى تلك الحقبة، تضاف إليها منجزات الفن العثماني الأوّل. تعود هذه الروائع إلى دويلات الهضبة الوسطى وأطرافها الجنوبيّة، أي دويلات الحميديّين في بيسيديا وبمفيليا، وبني أَرْتنا في سيواس وقيصرية، وبني ذولقادر في إلبستان وملطية، والكرميانيّين في كوتاهية، والعثمانيّين في بيثينيا ثمّ في بورصة، والقرامانيّين في قرمان وقونية، إضافة إلى أشراف أُوغولُري وهم أسياد بِيْشَهْر الأقدمون. ثمّ ازدهرت الروائع على الساحل الغربي، أي ساحل بحر إيجه حيث انتشرت المناطق التجاريّة الغنيّة في ظلّ حُكم المنتشيّين في منطقة ميلاس، وحُكم الآيدينيّين والصاروخانيّين في مانيسا. وهناك بكوات آخرون خلّفوا آثارًا من أبنيتهم في جنوب كيليكيا، مثل الرّمضانيّين في أضنة، أو في الشمال في مناطق البُنْطُس، مثل الإسفنديارِيّين في سينوب وقَسْطموني. أخيرًا كثُرت في المقاطعات الشرقيّة العائدة للقبائل التركمانيّة الاكثر شراسةً، في حقبة متأخرة، المباني الفخمة. فقد نشأ في أذربيجان اتّحاد إمارات القراقيونلو المتّسعة، وفي أخلاط، إمارات الآق قيونلو، قبل أن يستقرّ هؤلاء في تبريز في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، مفيدين من ازدهار هذه العاصمة التي تتحكّم بالمحور الرئيس لأنشطة القوافل عبر آسيا.

جميع مباني تلك الحقبة تندرج مباشرة في سياق المنجزات السابقة وتذوب فيها أحيانًا، وهي منجزات سلاجقة الروم، وقد اعتبر مؤسّسو الإمارات أنفسهم ورثة لهؤلاء. وإذا كانت آثارهم، بهذا المعنى، حاضرةً في المراحل المختلفة لتطوّر معماريّ خلّاق، فهي تشهد أيضًا على أهميّة حقبة تاريخيّة أصابها الإهمال كثيرًا وعلى فرادتها، وقد كانت غنيّة وخصبة رغم الحروب الداخليّة، رغم أنّ المصادر المكتوبة لم تتناولها إلّا بشكل مقتضب، ورغم أنّه لم يُنظر اليها إلّا وكأنّها تشكّل المرحلة الأوليّة من الازدهار العثماني المدهش.

◄ راجع المستندين ٢٢ و٢٤.

الإمارات العربيّة المتّحدة، مساحتها ٧٠٠ ٧٧ كلم[٢]، عاصمتها أبو ظبي، وهي عبارة عن مجموعة دول معاصرة مستقلّة، لكنّها متّحدة في ما بينها وتقع شرقيّ شبه الجزيرة العربيّة، على شاطئ الخليج العربي الفارسي وخليج عُمان.

عقدت بريطانيا العظمى اتفاقات مع المشايخ المحليّين في القرن التاسع عشر، للقضاء على القرصنة التي كانت تعيش في مياه الخليج. وقد أدّت هذه الاتفاقات بأمراء الساحل، الذي أصبح «الساحل المتصالح»، إلى القبول بتعيين حاكم بريطاني، وبناء قوة مسلّحة بقيادة ضبّاط بريطانيّين. في سنة ١٩٧١، بعد أن نالت هذه الإمارات استقلالها، اختارت طريق الاتّحاد في ما بينها بسبب صغر مساحتها، فألّفت بلداً موحّداً تحدّه إمارة قطر وسلطنة عُمان والمملكة العربيّة السعوديّة المتّسعة. تتألّف الإمارات العربيّة المتحدة من سبع إمارات حيث يتمتّع كل من الشيوخ السبعة بالحكم المطلق في إمارته، وعليها جميعاً رئيس دولة، ورئيس حكومة يُختاران مداورةً من بين الشيوخ الحكّام. تتصرّف الإمارات بعائدات نفطيّة مهمّة، أمّا عدد سكّانها فهو حوالى المليون ونصف المليون. إنّها تحرص على أن تتميّز على الصعيدين الدينى والسياسيّ عن جارتها القويّة، المملكة العربيّة السعوديّة، وهي تضم:

الفُجَيْرة	(مساحتها ١١٥٠ كلم[٢])، تقع على خليج عُمان ويحكمها آل الشرقي.
رأس الخيمة	(مساحتها ١٧٠٠ كلم[٢])، تقع بجوار مضيق هرمُز ويحكمها آل القاسمي.
أم القيوين	(مساحتها ٧٥٠ كلم[٢])، يحكمها آل المُعلّى.
عجمان	(مساحتها ٢٥٠ كلم[٢])، يحكمها آل النعيمي.
الشارقة	(مساحتها ٢٦٠٠ كلم[٢])، يحكمها آل القاسمي
دُبي	(مساحتها ٣٩٠٠ كلم[٢])، ومطارها من أحدث المطارات في الإمارات ويحكمها آل مكتوم.
أبو ظبي	(مساحتها ٣٥٠ ٦٧ كلم[٢])، ويحكمها آل نهيان وقد اختيرت عاصمتها الحديثة كي تكون عاصمة الاتّحاد

أمازيا (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في شمال الأناضو عرفت ازدهارًا حديثًا كعاصمة لمقاطعة. إلّا أنّ قدره الإسلامي حتّم أن يجعلها، في أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، مركزًا فكريًّا وفن مشهورًا.

والموقع الإستراتيجي المميّز لهذ العاصمة الهلّينستيّة لمملكة «البنطس»، والتي كانت تُعرف باسم أماسيا (Amaseia)، يوضح سبب الشهرة الت تمتّعت بها بعد ذلك. وقد تنازعها أسياد الحرب الذي تقاسموا الولايات التركيّة الإسلاميّة في القرو الوسطى، كما جعلها السلاطين العثمانيّون من أمكن الإقامة المفضّلة لأولياء العهد. وكانت قد وقعت بأيد الدانشمنديّين في القرن السادس للهجرة/الثاني عش للميلاد، ثمّ انتقلت إلى سلاجقة الروم، وتلقّفتها أ كثيرة خلال المرحلة التي عُرفت بعهد الإمارات، إلى أ ضمّها إليه السلطان بايزيد الأول في القرن الثام للهجرة/أواخر القرن الرابع عشر للميلاد. وكانت ف ذلك العهد قد اغتنت بالأبنية المميّزة بهندسة وزخرفتها، ومنها منارة بورمالي، ومدرسة غوغ والبيمارستان الذي بني سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وعد كبير من الأضرحة، نذكر منها ضريح خليفة غازي وضريح تورُنتاي. وقد ترك عدد كثير من الباشوا الأتراك عمارات ضخمة كتلك التي بناها بايزيد با ويورجوغ باشا سنة ٨٣٣هـ/١٤٣٠م، والسلطان بايز الثاني نفسه سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م. وقد تضاعف ع الأبنية، خلال القرن التاسع للهجرة/الخامس عش للميلاد، في ذلك الخانق الجبلي الذي يجري فيه ن «ياسيل إيرماك»، وهذا خير دليل على دور أمازيا الثقا

لمجيد. وفي الوقت نفسه، ازدهر دورها التجاري بحكم موقعها على طريق القوافل الذي يجتاز الأناضول باتّجاه البحر الأسود ومرفأ سمسون. وقد كان لكل ذلك أثره في استمرار ازدهارها الاقتصادي لاحقًا.

◄ راجع المستندين ٢١ و٢٧.

الأماكن المقدّسة الإسلاميّة، عبارة استعملت للدلالة على «الحرمَيْن الشريفَيْن»، مكّة والمدينة، وهما يتمتّعان بمكانة فريدة في الأوساط الإسلاميّة. تضمّ الأماكن المقدّسة في مكّة الكعبة والمسجد المحيط بها، أي المسجد الحرام، والمباني المختلفة التي تلعب في طقوس الحجّ. وفي المدينة، هناك المسجد الذي أسّسه النبي محمد ﷺ في منزله الخاص وفيه ضريحه وضريحا خليفتيه الأوّلين وهما من صحابته، أي أبي بكر وعمر بن الخطّاب.

يحرّم القرآن على غير المسلمين الدخول إلى الأماكن المقدّسة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ (سورة التوبة، الآية ٢٨). أُنيط أمر حراسة الأماكن المقدّسة وصيانتها، حسب التقليد، بالخليفة رأس الجماعة الذي كان أيضًا مسؤولًا عن تأمين أداء الحجّ. في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فقد خليفة بغداد العبّاسي مهمّة حراسة الأماكن المقدّسة، إذ سلبه إياها أشراف مكّة من نسل الإمام الحسن. غير أنّ هؤلاء الرؤساء المحليّين الذين اضطرّوا في ما بعد إلى إعلان ولائهم للفاطميّين، انضمّوا، في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إلى السلاجقة السّنة واعترفوا من جديد بخليفة بغداد. بعد ذلك اضطلع المماليك بهذه المهمّة باسم الخليفة العبّاسي الذي التجأ إلى القاهرة بعد سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٨م، ثمّ تسلّمها العثمانيّون الذين هزموا المماليك سنة ١٥١٧، إلى أن أعلن الشريف حسين استقلاله في العام ١٩١٦، وقد طرده آل سعود سنة ١٩٢٤، فتسلّموا عندئذ مسؤوليّة تنظيم الحجّ الذي يستقطب جماهير متزايدة من المؤمنين، والذي أصبح يتطلّب، لإسكانهم وإعاشتهم ووقايتهم من الأمراض، تحسينات عمرانيّة دائمة في مكّة، وكذلك إجراءات صحيّة وأمنيّة.

بصفته سيّد الحجاز وحارس الأماكن المقدّسة، اتّخذ ملك المملكة العربيّة السعوديّة لقب خادم الحرمَيْن الشريفَيْن الذي كان تلقّب به، للمرّة الأولى، صلاح الدين الذي انتزع الزعامة على هذه الأماكن من الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله، والذي انتقل في ما بعد، بصورة متقطعة، إلى السلاطين المماليك، ثمّ بشكل منتظم إلى السلاطين العثمانيّين إبتداءً من عهد سليم الأوّل.

إمام، تعني هذه اللفظة، في اللغة العربيّة، «الموجّه» الذي يقف في المقدمة (في الطليعة)، وهو مصطلح يختلف مفهومه بحسب السياق الذي يَردُ فيه؛ لكنّ معناه الأصيل يتيح لنا أن ندرك كلًّا من هذه المفاهيم، وأن نربطه بالمؤسّسة الأساسيّة للإمامة.

الإمام هو، أوّلاً، موجّه الصلاة. إنّه يرأس اجتماع العبادة الذي تؤدّيه جماعة المؤمنين، المجتمعين صفوفاً متراصّة مواجهةً لجدار القِبلة. وهؤلاء يؤدّون الحركات نفسها التي يقوم بها الإمام جهاراً، وهو في مقدمتهم ووجهُه إلى حنيّة المحراب. وكلّ مسلم بالغ، ومطّلع كفاية على القواعد التي يجب اتّباعها، يحقّ له، من الناحية المبدئيّة، أن يكون إماماً، مع أنّ معظم المساجد تعهد بهذه المهمّة إلى شخص معيّن. وهو لا يتقاضى حكماً أجراً مقابل عمله، مع أن ذلك أمرٌ مقبول، وأحياناً ملحوظ في مداخيل الوقف. وهو يمتاز عادةً بجدارته في مجال العلوم الدينيّة. وفي المساجد الجامعة، يؤدّي في معظم الأحيان دور الخطيب، ويلقي خطبة الجمعة. وفي الغالب، خاصة في القرون الوسطى، وفي المدن الكبرى، كان للإمام مركزٌ معروف، إذ يمكن أن يكون، إبتداءً من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، قاضياً؛ وكان يتوجّب، منذ بدايات الإسلام، أن يكون أصحاب السلطة موافقين عليه: ففي بغداد، على عهد العبّاسيّين مثلاً، كانت هذه المهمّة توكل إلى أفراد الأسرة الهاشميّة من دون سواهم.

إنّ إمامة الصلاة لم تكن إلّا واحدة من المهمّات العمليّة والرمزيّة العائدة، في الوسط السنّي، الى الشخص الذي هوَ إمام بامتياز، أي إلى موجّه الجماعة، على الصعيدين الزمني والروحي. هذا الموجّه، الذي

دُعي خليفة، لأنّه خلف النبيّ محمّدًا (ﷺ) في مسؤوليّاته، سواءً بصفته رئيساً للدولة، أو في أداء وظائفه الدينيّة، يرأس جماعة المصلّين يوم الجمعة، ويسير بالمؤمنين لأداء فريضة الحجّ، ويقود الجيوش الإسلاميّة في الحرب الشرعيّة أو الجهاد. ولفظة إمام، بهذا المعنى، كانت مرادفةً للفظة خليفة، على الأقل في المؤلفات العقائديّة، وصارت أيضًا لقباً اتّخذه بصورة دائمة الخلفاء العبّاسيّون إبتداءً من أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، والظاهر أنّهم اعتمدوا ذلك لإفشال الدعوة العلويّة وأتباعها.

إنّ لقب «إمام» كان يطلقه دائماً الشيعة، منذ هذه المرحلة، على المتحدّرين من سلالة علي الذين كانوا يعتبرونهم أصحاب الحق الشرعيّين الوحيدين في السلطة، وهم مميّزون بصفتهم «أئمّة علويّين»، بصفات استثنائيّة خاصة بهم. هكذا اكتسب هذا المصطلح مفهوم الاجلال والتكريم المؤدّي إلى نوع من التقديس، اتّسمت به أضرحة الأئمّة التي تحوّلت أماكن مقدّسة بالنسبة إلى الشيعة، ومقصداً للزيارات التقويّة، ومحجّات خارج إطار الموجبات الشرعيّة. والقيمة نفسها اكتسبتها مصطلحات مشتقّة منها كـ«إمام زاده».

هذه المفاهيم الخاصّة لم تَحُلْ دون استعمال كلمة «إمام»، في اللغة العربيّة الكلاسيكيّة بمعنى عام يدل على «شخص مشهود له» داخل المجتمع الإسلامي، في أيّ اختصاص أو ايّ مجال، كالفقه والحديث والتقوى وأصول اللغة، حتّى في مجال الأدب. هذه الصفة التقريظيّة أطلقت على مؤسّسي المذاهب الفقهيّة الكبرى، كما على الفقهاء الآخرين أصحاب الآراء التي اشتهرت في زمانهم. وظهرت هذه الصفة كذلك في الألقاب كإمام الحرمين (مكّة والمدينة)، الذي كني به رجلُ دينٍ كالجويني.

إمام الحرمين ← **الجويني**.

إمام زاده. مصطلح فارسي يعني «المتحدّر من سلالة إمام»، ويطلق في إيران تسمية «شَرَفيّة» على كل علويّ حصّل، باستحقاقه الشخصي أو بنسبه المباشر، شهرة كافية لجعل ضريحه موضع تكريم وزيارات تَقَويّة.

لذا شاع إطلاق هذه التسمية، بوجه عام، على معظم الأضرحة والمعابد المنتشرة في إيران، والتي تذكّر بمواقف تقويّة شيعيّة متفاوتة الدقّة. هذه المواضع لا تنافس كليًّا الأضرحة الفخمة للأئمّة العلويّين التاريخيّين، فهي تراوح بين المزار الصغير ذي الأهميّة المحليّة، والمزارات التقويّة الكبرى التي تموّلها الأوقاف بسخاء، وتشكّل مَحجّاتٍ، خارج إطار الموجبات الشرعيّة.

إمام علويّ، هو الإمام الذي يتقلّد، في نظر الشيعة سلطة مميّزة، ويُختار من أفراد سلالة علي، وهم وحدهم المستحقّون أن يتبوّأوا الخلافة، بحسب رأي مؤيّدين ينتمون إلى حركات متنوّعة، لم يعترفوا دائماً بشرعيّة المطالبين الآخرين بالخلافة.

بالنسبة إلى أتباع الزيديّة الذين لا يشترطون، في تعيين الإمام، أن يكون هناك وصيّة، ويقبلون بتعدّد الأئمّة، فإنّ الأئمّة العلويّين يمكن أن ينتموا إلى سلالة الحسن أو الحسين، والمهمّ أن يمتازوا بجدارتهم الشخصيّة. أمّا بالنسبة إلى الحركات الأخرى، فعلى نقيض ذلك، يجب أن ينتسب الأئمّة العلويّون إلى سلالة الحسين فحسب، وقد تتابعوا بالتعيين من الأب إلى الابن، في سلالة من الأئمّة المنظورين، قد تطول لدى بعض الفئات: فهذه السلالة تتوقّف، كما في الإماميّة الاثني عشريّة، عند أحد هؤلاء الأئمّة الذي اختفى بطريقة غامضة، ويُنتظر رجوعه؛ أمّا عند الإسماعيليّة، فيُترك المجال لانتقال الإمامة في سلالة من الأئمّة المحتجبين الذين يُنتظر ظهور واحد منهم في أحد الأيام.

إنّ الأئمّة التاريخيّين، في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الذين لم تتميّز حياتهم بأي حدث بارز، ولكن فضائلهم ثابتة في كتب التراجم التي تناولتهم، كانوا بحسب أتباعهم، يتّصفون بالعصمة، وكانوا يتمتّعون لهذا، بالولاية، وهي فضيلة الوليّ أو «صديق الله»، التي جعلت أتباعهم يخلصون لهم بصدق تام. لقد ماتوا شهداء بامتياز، ضحايا الاضطهادات غير المرئيّة دائماً التي سببت وفاتهم، إذ إنّهم قضوا، في معظم الأحيان مسمّمين. ويبدو أنّهم نعموا بقدرة اجتراح العجائب فظهرت في حياتهم، وأتاحت لهم، بعد الموت، متابعة

شفاعتهم بفعاليّة. وكانت الزيارات التقويّة لأضرحتهم، خارجَ إطار الموجبات الشرعيّة، وكذلك علامات التكريم الأخرى، المظاهر الأولى للتمسك الشعبي بالتشيّع، وفي الوقت نفسه السبب الأساس لنماء ما سمّي في الإسلام «تكريم الأولياء». وما تزال حرارة الإيمان لدى الشيعة، حتّى اليوم، متّجهة نحو الأبنية الفاخرة التي تخلّد ذكرى الأئمّة الشهداء، في النجف وكربلاء والمدينة وبغداد ومشهد وسامرّاء.

إن الأئمّة الذين يُقرّ بهم الشيعة الإماميّة الاثنا عشريّة هم:

عليّ	المتوفّى سنة ٤٠هـ/ ٦٦١م في الكوفة
الحسن	المتوفّى سنة ٤٩هـ/ ٦٧٠م في المدينة
الحسين	المتوفّى سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م في كربلاء
علي زين العابدين	المتوفّى سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م في المدينة
محمد الباقر	المتوفّى سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م في المدينة
جعفر الصادق	المتوفّى سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م في المدينة
موسى الكاظم	المتوفّى سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م في بغداد
عليّ الرضا	المتوفّى سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٨م في طوس
محمد الجواد	المتوفّى سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م في بغداد
علي الهادي	المتوفّى سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م في سامرّاء
الحسن العسكري	المتوفّى سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م في سامرّاء
محمد المهدي	المنتظر، الغائب منذ سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م

هذا الثبت مشترك، في الأئمّة الخمسة الأوّلين، بعد عليّ، مع الاسماعيليّين الذين يكرّمون، بعد هؤلاء، الأخ الأكبر لموسى الكاظم وهو اسماعيل الذي يدعونه الإمام السادس. والإمام السابع عند الإسماعيليّة هو محمّد بن اسماعيل. ونعرف، من جهة أخرى، أنّ أحد أئمّتهم المحتجبين ظهر سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م ليؤسّس الخلافة الفاطميّة التي انتهت سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، والتي حمل خلفاؤها جميعاً لقب إمام بالمعنى الشيعي لهذه الكلمة. وهذا اللقب ما يزال يحمله اليوم الآغا خان، المتحدّر من سلالة الأئمّة الإسماعيليّين النزاريين الذين انشقّوا عن الحركة الفاطميّة، ولجأوا خفية إلى إيران، ثم نشطت سلالتهم فيها في القرن التاسع عشر، وانتقلت بعد ذلك إلى الهند حيث شهدت الدعوةُ لها قوّة انتشارها الحاليّ.

◄ راجع المستندين رقم ٤ و٥.

الإمامة، صفة أو وظيفة الإمام، كونه رئيس الجماعة الإسلاميّة، وقد تماثلت ومفهومَ الخلافة، مع غلبة الطابع الديني عليها.

إنّ مسألة الإمامة وانتقالها مسألة ذات طابع عقائدي وديني بقدر ما هو سياسيّ، تناولها علماء الكلام في مؤلّفاتهم وعرضوا النظريّتين السنيّة والشيعيّة: مبدأ الاختيار (الذي تقول به الأولى) ومبدأ النص أو التعيين بالوصيّة (الذي تقول به الثانية). في حين أنّ مسألة الخلافة هي قضية فقهيّة، أوّلاً، بحثها مؤلّفو الحقّ العام كالماوردي، وهي تتعلّق، على الخصوص، بطريقة التعيين، من جهة، وبصلاحيات الخليفة وعلاقته بمختلف مساعديه، من جهة أخرى.

الإمامشاهيّون ← خوجا.

الإماميّة الاثنا عشريّة، حركة اتّخذت طابعاً خاصاً داخل التشيّع، حوالى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حين توقّفت سلالة الإئمّة العلويّين عند الإمام الثاني عشر، ما أدّى إلى أن يحمل أتباعها الإماميّون تسمية الاثني عشريّة.

كان محمّد، المهدي المنتظر، ابن الحسن العسكري، آخر الأئمّة المتتابعين الذين يعترف هؤلاء الشيعة بأنّهم توارثوا الإمامة بالوصيّة في سلالة الحسين؛ وهو يبقى، بالنسبة إليهم، منذ غيبته سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م في سامرّاء، المهدي الذي ينتظرون رجوعه. وهكذا، فإنّ إماميّي العصر الحاضر، المتجمّعين بخاصة في إيران، والمكوّنين أقليّات مهمّة في العراق، وفي بعض الدول في شبه الجزيرة العربيّة ولبنان، من دون أن نُغفل بعض مجموعات في أفغانستان، هؤلاء الإماميّون يحيون حتى الآن مرحلة غيبة الإمام الثاني عشر الذي يتبلّغون مشيئته، منذ قرون، بإيعاز من ممثّليه. إنّ التشكّل العقائدي لهذا النظام، رَفَدَتْهُ تدريجيّاً أفكار فلسفيّة وصوفيّة معقّدة، متّسمة، في الوقت نفسه، بالباطنيّة وبملامح عاطفيّة قادرة على إثارة الورع، بل التعصب، لدى العناصر الشعبيّة.

خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بدأت العقيدة الإماميّة تتضح. وقد شهدت محاولة تكوين نظريّة عامّة في مؤلّفات أحد المحدّثين وعلماء

الكلام، وهو الكُلَيني، وذلك قبل وصول البويهيّين إلى الحكم، هؤلاء الذين فرضوا إرادتهم على الخليفة العبّاسيّ، الخاضع للوصاية، مسجّلين بذلك أوّل نجاح سياسيّ للحركة الإماميّة.

هذا النجاح واكبه ازدهار حقيقي لمؤلّفات وضعها بعض الأشخاص البارزين، ومنهم من اهتمّ بالأدب والتاريخ اهتمامه بالفقه وبقضايا الإيمان. ومن مشاهير هؤلاء الأشخاص في الإماميّة، لا يمكن أن نُغفل الشيخ الصدوق إبن بابُويهْ، ولا الشيخ المفيد، ولا الأخوين المعروفين بالشريف الرضيّ والشريف المرتضى، ولا أبا جعفر الطوسي.

إنّ أحد أهم أركان العقيدة الذي تشكّل في هذه المرحلة هو، بدون شك، التفوّق المطلق المعترف به للأئمّة، كونهم يتمتّعون بالعصمة. إن الهيكليّة الدينيّة والفكريّة للحركة تستند إلى تعاليم الأئمّة الاثني عشر، ولا سيّما السادس منهم، جعفر الصادق، بقدر ما تستند إلى القرآن والسنّة. وفي مجال الفقه، فإنّ المذهب الجعفري، نسبةً الى الإمام المشار إليه آنفًا، يمتاز ببعض الأحكام الخاصة، ولا سيّما في موضوع الزواج (السماح بالزواج الموقّت)، والإرث (الابنة الوحيدة تحصل على الميراث كاملاً، لا على نصفه كما في الفقه السنّيّ)، والعبادة (طريقة خاصة للأذان). وبشكل خاص، فإنّ الطاعة غير المشروطة للإمام، والإخلاص له - لشخصه في حال وجوده، وللناطقين باسمه مدّةَ غيبته - تشكّلان جزءًا من واجبات المؤمن، تمامًا كالموجبات التي تفرضها عليه الشريعة. أمّا بالنسبة إلى العقيدة الكلاميّة التي كانت تميل إلى التشبيه، في المرحلة الأولى، فإنّها تدرّجت في الاقتراب من عقيدة المعتزلة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، كما يظهر، بنوع خاص، في مؤلّفات الشيخ المفيد.

في الوقت نفسه، كان الإماميّون، بدافع من رغبتهم المستمرة في إضفاء مزيد من الصفات الخارقة على أئمّتهم، يعتبرون، بدون تردّد، أنّهم مؤتمنون على حقائق عميقة لا تناقض، بحسب رأيهم، القرآن، بل تتوافق مع معنى مستتر يُكتفى بمعرفة حلّ رموزه: ثمّة آيات، إذا ما شُرحت بطريقة صحيحة، تسوّغ، في نظرهم، طموحات الأئمّة، ومطالبة أهل البيت بحقّهم في الخلافة. وللسبب نفسه أيضًا، كان هؤلاء الأئمّة الذين مات معظمهم، سواء بالقتل أو في السجن بحسب المؤرّخين الشيعة، يُعَدّون شهداء يتمتّعون بقدرة خارقة في الشفاعة. ونمت، نتيجةً لذلك، طقوس خاصة داخل التشيّع، ولا سيّما «الزيارة» التي لا تنصّ عليها الشريعة، إلى أضرحة الأئمة، وذلك منذ عهد بعيد. وفي الوقت نفسه، ترافق نموّ مشاعر الاحترام والتضرّع، بتشييد مبانٍ فخمة لهذه الأضرحة. وكذلك ظهرت في العراق، منذ أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، على عهد البويهيّين، مجالس العزاء التي ترافق الذكرى السنويّة لمقتل الحسين، في العاشر من شهر محرّم، أي ذكرى عاشوراء. وفي المقابل، كان يُحتفل بعيد غدير خُمّ الذي يجدّد، في الثامن عشر من ذي الحجّة، ذكرى تولية النبيّ محمّدٍ (ﷺ) عليًّا خليفةً له. وفي هذه المناسبات، غالبًا ما كانت تقع في بغداد أحداثٌ بين العامّة من الشيعة والسنّة، تعمّق الشرخ وتضع أكثريّة السكّان في موقف معارض لقرارات البويهيّين الدينيّة.

شهد تاريخ الإماميّة مرحلة أخرى مهمّة أتاحت للحركة أن تتجذّر بعمق في إيران، على الرغم من الصعاب التي واجهها بها، في غضون ذلك، التجدُّد السنّيّ، بدعم من السلاجقة في القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد. إنّ العطف الذي لَقِيَتْه هذه الحركة، منذ أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، من قبل بعض السلاطين المغول من سلالة الإيلخانيّين، الذين اعتنقوا الإسلام على مذهب الإماميّة، كان في أساس انطلاقتها الجديدة. وفي بداية القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، تحقّق تألّق الحركة، بوصول السلالة الصفويّة إلى الحكم، وادّعاء مؤسّسها، الشاه اسماعيل الأول، أنّه متحدّر من الإمام السابع موسى الكاظم. إنّ ترابط السياسة الإيرانيّة، منذ تلك الفترة، والدفاع عن التشيّع، سوّغ المواجهات التي وقعت بين دولة الصفويّين الإماميّة ودولة العثمانيّين السنيّة، وواكبها ازدهار عقائدي اتّخذ منحًى جديدًا.

في الواقع، وجّهت حملة نقد منظّمة إلى السنّة،

مباشرة بعد الغزو المغولي، قام بها عالم بارز هو الفلكي الشهير نصير الدين الطوسي، بتشجيع من هولاكو، ثمّ تابع هذا الجهد تلميذه جمال الدين الحلّي المستشار النافذ لدى السلطان أولجايتو خُدابَنْده. ثمّ ازدهرت، منذ القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، مقالات عقائديّة كتبت، هذه المرة، بالفارسيّة، تشفّ عن أفكار مختلفة بعض الشيء، وهي مستوحاة من التصوّف الإشراقي، وقد كتبها كلاميّون أصبحوا فلاسفة، أكثر منهم فقهاء، وكان همّهم حماية أنفسهم عن طريق التقيّة. وقد ساهم، على أفضل وجه، في بناء الفكر الإمامي بشكل جديد، مير داماد وملّا صدرا، وهما فارسيّا الأصل، وقد حظيا بتقدير خاص من الشاه عبّاس الأول. غير أنّ هذا الاتّجاه لم يخلُ من إثارة التحفّظات بل العداء في بعض الأوساط المحافظة. إنّ مسيرة النظريّات المتّسمة بالنزعة الروحيّة المتصوّفة، والحيويّة التقليديّة في التشيّع، المؤاتية لنشوء فِرَق جديدة، لم تتوقّفا، ممهّدتَين لتفرّعات جديدة منبثقة من الإماميّة، كالشيخيّة والبابيّة والبهائيّة، نشأت في إيران منذ القرن التاسع عشر.

في موازاة ذلك، هذه الإماميّة التي أصبحت المذهب الرسمي في الدولة الصفويّة، غيّرت جذريًّا الذهنيّة الشعبيّة في بلاد الفرس. وانتشرت، عندئذٍ، في البلاد احتفالات التعزية التي كانت تستعيد نهاية الحسين المأسويّة، وربّما يعود ظهورها إلى زمن سابق. وفي هذا الوقت أيضًا، طرح انتصار الإماميّة، أكثر من ايّ وقت مضى، مشكلة العلاقة بين السلطة وممثّلي الدين. فبأيّ طريقة، مثلاً، يُقبل، في غيبة الإمام المنتظر، وجود رسمي لأشخاص مكلّفين ممارسةَ السلطة الشرعيّة، أو على الأقلّ تطبيق الشريعة وتفسيرها عند الإقتضاء؟ وبتأثير من الاتّجاه الأصولي الذي تفوّق على الأخباري، ثمّ اللجوء إلى مفهوم الاجتهاد الذي قدّم، في التنظيم السياسي والاجتماعي، المجتهدين أو الفقهاء الذين يشكّلون في إيران هيئة الملالي، ومنهم من يُعتبر مجتهداً مطلقاً، أي ناطقاً رسميًّا باسم الإمام. من هنا ندرك كيف حاربت مجموعةُ الملالي النظام الملكي البهلوي في العصر الحاضر، ثم تسلّمت السلطة، سنة ١٩٧٩، التي مارسها المتقدّم بين أفرادها، آية الله الخميني، مؤسّس الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران.

هذا التطوّر الذي شهده التشيّع الإمامي، بميزاته الإيرانيّة، لا يعني أنّ جماعات أخرى، تنتمي إلى المذهب نفسه، لم تعرف، هي أيضًا، أحداثاً تاريخيّة معاصرة مثيرة للإهتمام في بلدان عربيّة عدّة. وأوّل هذه البلدان هو العراق حيث الشيعة الذين يقارب عددهم أحد عشر مليوناً، يزيدون قليلاً عن عدد السنّة، ويمثّلون الأكثريّة الشعبيّة في البلاد، ويسيطرون بوضوح على نصفها الجنوبي. وكان هذا الواقع حصيلة السياسة المتّبعة منذ القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، في منطقة تواجهت فيها مجموعتان دُعمتا تباعًا، الأولى من قبل الصفويّين الشيعة، والثانية من قبل العثمانيّين السنّة. وثمّة حركة صاعدة حديثة ومستمرّة للإماميّة توطّدت بتأثير من اعتناق هذا المذهب، إبتداء من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وتنامت في مرحلة ما بين الحربين العالميّتين، طالت في هذه الحقبة، جماعات الفقراء من قبائل متعدّدة عربيّة مترحّلة، بدأت تميل إلى الاستقرار الحضري، كما طالت بعض ممثلي الطبقات المحرومة الأخرى.

كذلك تقيم في المملكة العربيّة السعوديّة، لا سيّما في مقاطعة الحسا، أقليّة إماميّة تقدّر بأكثر من نصف مليون نسمة، وقد عانت في القرن التاسع عشر ضغوط الإدارة العثمانيّة، وفي الوقت نفسه سيطرةَ الوهّابيّين الذين كانوا مناهضين لها. ينتمي هؤلاء الأماميّون إلى شعب فقير، شكّل طبقة عاملة، بسبب الإمكانات التي أوجدها استثمار البترول، وهم يشكّلون قاعدة معارضة ناشطة، إلى حد ما، للنظام السعودي. إنّهم يشكّلون الأكثريّة الدينيّة في دولة مجاورة هي مملكة البحرين، حيث تزيد نسبتهم عن ٥٠٪ من عدد السكّان، وحيث يحملون لواء المطالب الاجتماعيّة والسياسيّة. كذلك يشكّل الشيعة الإماميّة نواة مهمّة في الكويت، ولهم أنصارٌ في الإمارات العربيّة المتحدة.

وأخيراً في لبنان، فإن الإماميّة الاثني عشريّة تعود إلى استقرار شيعي قديم فيه، نتج عن نزوح قبائل عربيّة قحطانيّة، وعن قدوم لاجئين إيرانيّين. وحركة السكن

هذه اشتدّت لأسباب متعددة على عهد الخلفاء الأمويّين والعباسيّين والفاطميّين، قبل أن تنحسر لاحقاً بفعل تمدّد الوجود السنّي والدرزي والنصيري والمسيحي الماروني. واستعادت أهميّتها على عهد الانتداب الفرنسي، عندما نُظّم لبنان، إبتداء من سنة ١٩٢٦، مع التركيز على استقلاليّة الجماعات المحلية، كما أرادت عصبة الأمم. وخلال العقود اللاّحقة، بعد الحرب العالميّة الثانية، وإعلان الاستقلال الكامل للدولة اللبنانيّة، نشأ عن المتاولة - وهي التسمية التي شاعت، في ما بين الحربين، للدلالة على جماعة ريفيّة فقيرة تقيم في جنوب لبنان، وشمال البقاع تجمّع شيعي إمامي ناشط، طالب بمعادلة جديدة إجتماعيّة-إقتصاديّة، مدّعيًا أنه يشكّل الأقليّة الأقوى في لبنان. هذا الموقف الذي دافع عنه زعيمهم موسى الصدر، المختفي منذ ١٩٧٨، ما يزال إحدى القواعد التي يستندون إليها في مطالبهم.

أمان، لفظ يحمل معنى الضمان وكان يعني، في القرون الوسطى، الحماية التي يمنحها القائد أو السيّد لمتمرّد يُظهر الخضوع والطاعة، فينال بذلك العفو الذي ينقذ حياته.

ويقوم الأمان عادةً على قَسَم يقضي بمنع كلّ انتهاك. غير أنّه قد يُنقض إذا لم تتوافر الشروط التي طُلبت عند منحه، ومنها أن يعمد طالب الأمان مثلاً إلى حوك المؤامرات ضدّ من وفّر له الحماية. وحالات النقض غير المبرَّرة كثيرة ومتنوّعة، وبعض الحكّام في التاريخ الإسلامي اشتُهروا بعدم الوفاء بالتزاماتهم.

قد يُمنح الأمان لغريب يرجو دخول «دار الإسلام» قادمًا من «دار الحرب» أي من الدار التي يسيطر عليها الكافرون والتي، بحكم طبيعتها، تكون في حالة عداء مع المسلمين، اذا ما التزم هؤلاء بالجهاد الذي تفرضه عليهم الشريعة. وإنّ هذه تقضي بألّا يُسمح لغير المسلم، ممن لا يؤدّون الجزية، بدخول دار الإسلام إلّا بشكل استثنائي وضمن شروط محدَّدة.

من هذا المنطلق، كان منح الأمان الضمانَ الضروري الوحيد للموفدين الدبلوماسيّين إلى عواصم الدول الإسلاميّة، وللتجّار القادمين من الخارج والراغبين في التنقّل داخل هذه البلاد الإسلاميّة أو تلك، بهدف القيام بأعمال تجاريّة. وممارسة هذه العادة في المرحلة الأخيرة من القرون الوسطى، وتطبيقها على التجار الأوروبيّين، ولا سيّما القادمين من جنوى والبندقيّة بغية الإقامة في المرافئ المتوسطيّة أو مرافقة القوافل التجاريّة، كانت في أساس اتفاقات الامتيازات أو عهود الأمان التي تطوّر مفهومها في عهد العثمانيّين.

الأمّة الإسلاميّة أو جماعة المؤمنين، هي مجموع المسلمين الذين تضمّهم الشريعة نفسها والعاملين في سبيل أهداف واحدة هي التضامن الداخلي للجماعة وانتصار العقيدة على المدى الطويل، وهو انتصار ينتظرون حصوله بشعور عام من التفوّق.

وجماعة المؤمنين أرادها النبي محمد (ﷺ) بعد الهجرة أداةً لانتصاره القريب. وقد تمّ تحديدها في المدينة في النص الذي يُعرف عادة بـ«الصحيفة» وهو بمثابة دستور حدّدت فيه بدقّة العلاقات بين فئتين من الأهالي كان النبي يطمح إلى توحيدهما تحت سلطته: «المهاجرون» الذين رافقوه من مكّة، و«الأنصار» الذين استقبلوا المهاجرين في يثرب حيث تمت المدينة مذّاك ذاك. وهذا النص ذو الأهمية الكبرى والمحتوي على الأرجح فقرات عدّة، كان يهدف إلى أن يستبدل بالعصبية القبليّة القديمة التضامن بين أعضاء الجماعة الدينيّة الواحدة. فأسّس، والحالة هذه، لمجتمع منظّم على قاعدة دينيّة، وهذا في جوهر الإسلام. ويحدّد هذا النص أنّ الحرب، وكذلك السلام، تقرّرهما جماعة المؤمنين. وقد أُشركت القبائل اليهوديّة القاطنة في يثرب في الأمّة الإسلاميّة، لكنّها لم تشكّل جزءًا منها بالمعنى الدقيق للكلمة.

وعاد أمر انتخاب خليفة للنبي محمد (ﷺ) ومبايعة الخليفة الأوّل المعترف به إلى جماعة المؤمنين هذه التي توسّعت لتضمّ أهل مكّة الذين اعتنقوا الإسلام بعد الانتصارات العسكريّة عليهم. وفي ما بعد، كان أمر اختيار خليفة جديد في العالم السنّي، أو على الأقل الموافقة على الخليفة المقترح - أي الاقتراح من جماعة صغيرة أو من السلف - امتيازًا تختصّ به الأمّة وتعبّر عنه من خلال مبايعتها الخليفة الجديد، في مقابل التزامه

قيادة هذه الجماعة وإرشادها وهي التي أوْلته ثقتها.

تفاوتت أهميّة دور الأمّة في التنظيم السياسي ووضع الأسس القانونيّة والعقائديّة باختلاف الشيع والمذاهب الفقهية. فالخوارج بخاصة، أولوا الأمة أهمية كبيرة، إذ إنّ أتباع هذه الحركة السياسيّة - الدينيّة كانوا يقولون بمبدإ الخليفة المنتخب، من دون شروط في نسبه؛ كما كانوا يعتبرون الأمّة مؤتمنة على الحقيقة. في المقابل، كان دور الأمّة في اختيار الخليفة معدومًا عند الشيعة إذ على المؤمنين الخضوع، من دون أي اعتراض ممكن، للإمام المعيّن بموجب وصيّة سلفه.

يضاف إلى هذا الدور السياسي المحتمل للأمّة عند السنّة - الذي كان في غالب الأحيان صوريًا - دور فقهي كان أكثر فاعليّة بمقدار ما كانت مهمّة استمرار سنّة النبي ترتبط بتقاليد الجماعة. وبهذا المعنى، فإنّ تعبير «الجماعة» هو المستعمل للإشارة إلى مجموعة المؤمنين بمفهومها الفقهيّ المرجّح على الديني. وكذلك فإن تعبير «الجماعة» له دور خاص عند السنّة المعروفين بـ«أهل السنّة والجماعة»، ولا سيّما أنّهم يولون، فضلًا عن ذلك، مكانة خاصة لمفهوم الوحدة بين المسلمين. وأهميّة الجماعة على أنّها جسم حي توضح الدور الذي تنيطه بعض المدارس الفقهيّة بمبدإ الإجماع، كما توضح الموقف السياسي للحنابلة الذي تعبّر عنه صيغة «وجوب الصلاة حتى وراء إمام غير تقيّ»، إذ إنّ الهدف الأساسي لفقهاء هذه المدرسة هو عدم شقّ وحدة المؤمنين.

وفي الحقبة المعاصرة، يتداخل مفهوم الأمّة الإسلاميّة الذي ما يزال حيًّا في النفوس، مع الواقع السياسي للدول الإسلاميّة المستقلة ومع اتّجاهات مختلف القوميات؛ كما أنّه يبقى في أساس شعور توحّدي للمسلمين تظهر آثاره سواء في الحياة الدوليّة أو داخل الجماعات الإسلاميّة المهاجرة القاطنة في دول غير إسلاميّة. وفي المغرب، يدلّ تعبير «الجماعة» أيضًا على الجمعيّات المحليّة للإدارة التي تمثّل تجمّعات محدّدة داخل الأمّة الاسلاميّة وتتمتّع بشكل خاص بصلاحيّات في الشؤون العقاريّة. وتعكس هذه الجمعيّات عادات كانت منتشرة في ما سبق في بلاد البربر.

الإمتيازات (والأصح: **عهود الأمان**)، تعبير مستعمل في أوروبا منذ حقبة قديمة للدلالة على الامتيازات التجاريّة التي كانت تمنحها الدول الإسلاميّة رسميًّا - بخاصة في العهد العثماني - لتجّار أجانب تسمح لهم بالإقامة في «دار الاسلام» التي كانت محرّمة عليهم عادةً.

وبموجب «حق الأمان» المنصوص عنه في الشرع والذي يمنحه، لزمان ومكان محدّدين، رئيس الجماعة أو ممثّله، كان يحقّ لكلّ غير مسلم أجنبي أن يتجوّل ويتاجر في أيّ بلد إسلامي في القرون الوسطى. وفي الأمبراطوريّة العثمانيّة سُمّيت المعاهدات المعقودة «عهد نامه»، وكان المستفيدون منها يتمتّعون بالأمان على أشخاصهم وممتلكاتهم، إضافة الى إمكان تمثيلهم بـ«قنصل» يدافع عنهم. وفي العادة، كان على الأجنبي الراغب في الإفادة من هذه الشروط أن يتقدّم بـ«طلب أمان» يلتزم فيه الصداقة والسلام اللذين يشكّلان أساس العقد. لكنّ العاهل المسلم كان يحتفظ بحق إلغاء «الأمان» بحسب ارادته إذا ما ارتأى أنّ السلام قد خُرِق، ممّا يعطي العقد طابعًا أحاديّ الجانب.

إنّ هذا النوع من الامتيازات قد مُنح، ولا شك، منذ فترة قديمة، لضرورات تجاريّة، رغم أنّنا لا نملك قرائن واضحة على ذلك. لكنّنا نعرف، في الواقع، أنّ التجّار اليهود المسمّين الرَّهدانيّين كانوا يعبرون البلدان الإسلاميّة، حوالي القرن التاسع، عبر مسارات متعدّدة، كما ورد ذُكر تجّار روس وبيزنطيّين، في حين أنّ تجّارًا إيطاليّين تردّدوا على الإسكندريّة وحتّى القاهرة خلال العهد الفاطمي.

ومنذ بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، منح سلاجقة الروم في الأناضول إمتيازات لتجّار البندقية وللتجّار القبارصة تسمح لهم بالإقامة في أراضي مملكتهم؛ بينما منح الملك الظاهر الغازي الأيوبي، حاكم حلب، تجّار البندقيّة أنفسهم حقّ التصرف بخان مديني يسمّى فُنداقو أو فندق. كذلك منح المماليك امتيازات لتجّار البندقيّة ولتجّار غربيّين آخرين، وهو تدبير أخذ به العثمانيّون. وكانت مختلف «المواثيق» التي منحها الباب العالي أحادية الجانب. ويبدو أن مشروع المعاهدة بين ملك فرنسا والسلطان

العثماني سنة ١٥٣٦ لم يتحقق أبدًا. لكنّ الامتيازات أدّت الى نشوء أحياء محميّة مخصّصة للأجانب في مختلف المدن العثمانيّة، لاسيّما في اسطنبول، حيث كان يتمّ الفصل في نزاعات التجّار من قبل سلطاتهم الخاصة بهم. أدّى هذا الواقع، منذ القرن الثامن عشر، إلى نتائج إقتصاديّة مؤسفة للبلدان الإسلاميّة التي أصبحت، في الواقع، في حالة تبعيّة لدول الغرب. وكان هذا الأمر صحيحًا بالنسبة الى المناطق التي تتكوّن منها الأمبراطوريّة العثمانيّة، وصحيحًا أيضًا بالنسبة الى إيران التي عمد ملوكها الصّفويّون بدورهم، بدءًا من القرن السادس عشر، إلى منح تسهيلات إقامة لغير المسلمين الوافدين إلى البلاد للتجارة.

وقد ألغت الحكومة العثمانيّة نظام الامتيازات مع بداية الحرب العالمية الأولى، وأكّدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ هذا الإلغاء، على أن هذه الامتيازات بقيت سارية في مصر حتى سنة ١٩٣٧.

أمر، لفظ عربي يتردّد بكثرة في القرآن الكريم للإشارة إلى حكم الله الذي كان في أساس الخلق، وهو يفسح في المجال أمام تفسيرات كلاميّة متنوّعة. إلّا أنّ استعمال هذا اللفظ بقي ضمن المفاهيم المتعلّقة بتنظيم الجماعة الإسلاميّة. والجذر «أمر» الذي منه تشتق لفظة «أمير» التي عرفت رواجًا كبيرًا، كان استعماله ضروريًا ليرمز إلى مهمّة «القائد» الذي تقرّه العقيدة الإسلاميّة شرعًا. والمبدأ الأساسي يرد في الآية ٥٩ من سورة النساء، كما نقع على اللفظة في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وهذا ما يشكّل أساس الأخلاق الاجتماعيّة في الإسلام، وقد تجسّد فعلًا بعد تطوير مؤسّسة الحسبة.

أُمَويّو قُرطبة، يسمّون أيضًا أمويّ إسبانيا أو الغرب، ويُعرفون كذلك باسمهم الآخر «المروانيّون». هم سلالة أمراء، ومن ثمّ خلفاء متحدّرون من سلالة أمويّي الشرق، السلالة الخليفيّة الأولى في الإسلام. حكم أمويّو قُرطبة في الأندلس ما بين سنتي ١٣٨ و٤٢٢هـ/ ٧٥٦ و١٠٣١م.

سنة ١٣٨هـ/ ٧٦٥م، أفلت أحد الأمراء الأمويّين من المذبحة التي ذهب أهله ضحيتها بعد انتصار الثورة العبّاسيّة، وهرب الى إفريقية ثمّ الى شبه جزيرة إيبريا التي كان قد تمّ فتحها سنة ٩٢هـ/ ٧١١م، حيث نجح في أن يُعترف به حاكمًا مستقلًّا عن الخليفة الحاكم في العراق. وهكذا أسّس عبدالرحمٰن هذا، الملقّب بـ «الداخل» أو المهاجر، مملكة استمرّت مدّة ثلاثة قرون وامتدّ تاريخها على ثلاث مراحل رئيسة:

١ - من سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م حتّى سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م: جهد أمراء عدّة متعاقبون، في البدء، لتنظيم المملكة الجديدة التي، بعد قطعها كل ارتباط قانوني بالخلافة العبّاسيّة - مع بقائها جزءًا لا يتجزّأ من العالم الإسلامي - لم تكن تنتمي إلى الامبراطوريّة التي تدار من بغداد. بل، بالعكس، كان عليها إيجاد الحلول للمشكلات الخاصة بها كمشكلة السكّان ومشكلة الدفاع الناتجتين جزئيًّا عن الوضع الجغرافي لهذه المملكة. والأمراء الاوائل للسلالة - عبد الرحمٰن الأول، هشام الأول، الحَكم الأول وعبد الرحمٰن الثاني - أقاموا في قُرطبة التي كان الحكّام السابقون للمقاطعة اختاروها عاصمة لهم، فحكموا حتّى سنة ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م، واصطدموا بصعوبات عدّة داخليّة وخارجيّة.

في الداخل، كان عليهم مواجهة عدم انضباط قوّاد العسكر - الذين كان جلّهم من المسلمين الجدد أو «المولّدين» والذين يسيطرون على تخوم الأندلس، ولا سيّما المناطق الحدوديّة الشمالية. كما اضطرّوا لقمع الاضطرابات الخطيرة في العاصمة والصراعات التي نشأت أحيانًا مع المستعربين المعاهدين الذين كانوا يشتكون من إخضاعهم لضرائب قاسية، ويطالبون باحترام خصوصيّتهم الدينيّة. ففي أحدى المناقشات، عمد كاهن مسيحي إلى شتم نبيّ الإسلام ﷺ، فحُكم عليه بالموت وأُعدم في قُرطبة يوم عيد الفطر سنة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م، الأمر الذي دفع مسيحيّين آخرين الى شتم النبي ﷺ جهارًا، فلاقوا المصير نفسه. واستدعى الأمر تدخّل الأساقفة لوقف هذه الاندفاعة نحو الاستشهاد التي تدلّ على هيجان في النفوس كان نذيرًا بحركات التمرّد اللّاحقة.

في الخارج، واجه هؤلاء الأمراء حالة حرب دائمة مع الملوك المسيحيّين في شمال شبه الجزيرة والبلاد الواقعة وراء جبال البيرينيه. ففي سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م مثلًا، قاد الملك شارلمان حملة على إسبانيا المسلمة، وهي

حملة ظلّت مجهولة عند المؤرّخين العرب، لكن خلّدتها في الغرب «أنشودة رولان». في القرن الثامن الميلادي، سُجّلت خسارة بعض المدن كَبَمْبِلونا وبرشلونة، وهو أمر لم يمنع أبدًا القراصنة المنطلقين من المغرب - الذين لم تُحدَّد هويتهم ولم يُعرَف إذا ما كانوا عربًا أو بربرًا أو من «المولّدين» - من التوغّل في وادي الرون، في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، وصولًا الى «أرل» سنة ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م. في المقابل كانت علاقات أمراء الأندلس جيّدة بالبيزنطيّين الذين حاولوا، لكن من دون جدوى، إقامة تحالف مع سادة الأندلس المسلمين لمواجهة العبّاسيّين والأغالبة.

في خضمّ هذه التحوّلات، كانت تتركّز شيئًا فشيئًا دولة قامت على هيكليّة صلبة نسبيًّا. فالجيش الأميري المكوّن خصوصًا من البربر والصقالبة، كان جيشًا محترفًا فعّالًا، وإن حدث أن دخل في بعض الأحيان في صراعات مع السكان. ويعود الفضل إلى عبد الرحمن الثاني في إرساء أُسس إدارة على النمط القائم في بغداد. كانت هذه الإدارة بيد عرب يشرفون على الدوائر الأكثر أهميّة، وبخاصة الدوائر الماليّة. وكان على رأس هذه الإدارة شخص يقوم بدور الوزير الأوّل ويحمل لقب «حاجب» الذي كان يطلقه أُمويّو الشرق في ما مضى على مساعديهم، وليس لقب وزير، المستعمل عند العبّاسيّين. في المقابل، كان يُطلق على بعض الكتّاب لقب وزير وهو لقب تشريفي لا ترتبط به أيّة مسؤولية فعليّة. إضافةً إلى وسائل الحكم الصلبة التي كانت في تصرّفهم، اعتمد هؤلاء الأمراء أيضًا على قضاة وفقهاء ينتمون جميعًا الى المذهب الفقهي المالكي. كان هذا المذهب يمثّل في الأندلس تيّار التسنُّن الذي أدّى الأخذ به إلى بناء وحدة قويّة في المجتمع الإسلامي.

لكنّ الإنجازات التي تحقّقت لم تَحل دون قيام اضطرابات شتّى طبعت السنوات الواقعة ما بين ٢٣٨ و٣٠٠هـ/ ٨٥٢ و٩١٢م: حركة بعض أفراد الأسرة الأمويّة الذين ناصبوا الأمراء الحاكمين العداء؛ كذلك حركة معتنقي الإسلام الجُدد بقيادة ابن حفصون الذين ثاروا جهارًا في فترة حكم عبدالله، بدءًا من سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م. وابن حفصون هذا، بعد أن نجح في السيطرة على مناطق واسعة في جنوب إسبانيا، ارتدّ الى المسيحيّة مجدّدًا سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٩م. ووجب انتظار حكم عبدالرحمٰن الثالث لوضع حدّ لهذا التمرّد.

٢ - المرحلة الثانية تمتد بين ٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢ و٩٦١م تولّى الحكم في أثنائها الأمير الشاب عبدالرحمٰن الثالث الشهير الذي اتّخذ لقب خليفة سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م.

وعبد الرحمٰن هو حفيد الأمير السابق عبدالله وابن خليلة إفرنجيّة، عيّنه جدّه للحكم مفضّلًا إيّاه على أبيه وعمّه نظرًا إلى صفاته الشخصيّة الحميدة. في الواقع، كان عبد الرحمٰن ذكيًّا وصلب العود، حوّل بلاده مملكةً مزدهرة، آمنة وقويّة. في الوقت نفسه، جعل من عاصمته أشهر المدن في بلاد الإسلام. حتى سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م، اجتهد عبدالرحمن بشكل أساسي لإخماد الفتن في الداخل، كما في الخارج ضد الملوك المسيحيّين في الشمال، إضافة الى نجاحه في سياسته الأفريقيّة. ولمّا لم يكن في إمكانه مواجهة الفاطميّين - الذين استقرّوا حديثًا في إفريقية - بشكل مباشر، ولا تدمير مملكة الادارسة التي هي الأقرب جغرافيًّا إلى مملكته، فقد نجح في إقامة تحالفات في المغرب الأقصى، في الوقت نفسه الذي كان سيطر فيه على مناطق تشكّل رأس جِسْر في مَليلة وسَبْتة، قبل أن يحتلّ طنجة لاحقًا.

هذه النجاحات المتعدّدة رفعت من مكانة عبد الرحمٰن الثالث لدى الأمراء والملوك المسيحيّين الذين أقاموا معه علاقات وديّة. كما يسّرت له بوجه خاص - بعد أن عزّز سلطته - اتّخاذ لقب خليفة سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، فسمّي نفسه «أمير المؤمنين» وحمل اللقب التشريفي «الناصر لدين الله». أحاط نفسه بأعمامه الذين كانوا يساندونه، وبأرستقراطيّة بلاط عربيّة جزئيًّا، وكذلك بحاشية خدم كثيرة العدد. ولما ضاق قصر قُرطبة، أسّس عبد الرحمن مقرًا جديدًا له سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م، مجاورًا لقصره الأوّل، أطلق عليه اسم «مدينة الزهراء»، وأصبح بدوره مقرّ الإدارة، وفي الوقت عينه، مكانًا فخمًا للّهو والاستقبالات الرسميّة.

٣ - ٣٥٠-٤٢٢هـ/ ٩٦١ - ١٠٣١م، بدءًا من سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، تاريخ وفاة عبد الرحمٰن الثالث، بدأت

سلطة الخليفة بالأفول حتى تمكّن «أركان البلاط» من السيطرة على السلطة بين ٣٧١ و٣٩٩هـ/ ٩٨١ و١٠٠٨م.

كان الحَكَم الثاني خليفةً مجرّبًا لكنه أقل عزمًا من والده [الناصر]؛ حكم بين ٣٥٠ و٣٦٦هـ/ ٩٦١ و٩٧٦م. إضافة الى بعض الحملات على المغرب، تجلّت أمجاد الخليفة الجديد، بوجه خاص، في تجميل المسجد الجامع في قرطبة، وكذلك في تأسيس مكتبة احتوت سريعًا مؤلّفات قديمة مترجمة. لكنّ الفتى هشام الثاني الذي خلف الحَكَم، ترك مساعديه يستولون على السلطة شيئًا فشيئًا. فوالدته، وهي خليلة طموحة كانت، قبل سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، شجّعت ترقية شخصيّة من أصل عربي، هي ابن أبي عامر الذي عُرِف في ما بعد في الغرب بلقب «المنصور». فابن أبي عامر هذا، بعد فترة وجيزة من تولّي الخليفة الجديد السلطة، سانده وقمع المؤامرة التي حاكها ضدّه الصّقالبة، وأصبح حاجبه والوصي عليه. وقد مارس وصاية امر واقع بمعاونة الوزراء ووالدة الخليفة المعروفة بـ«السيدة»، ممهّدًا بذلك لمستقبل أسرته ولبروز سلالة هي سلالة العامريّين. وفي سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م، استأثر حاجب البلاط هذا بالحكم، وعزل الخليفة في قصره، وسمّى نفسه «المنصور»، وقام بحملات عسكريّة مظفّرة ضدّ الملوك المسيحيّين، وعيّن خلفًا له ابنه عبد الملك الذي تسلّم السلطة سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م، وحمل ايضًا لقب المظفّر. لكنّ موت عبد الملك سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م شكّلَ الإشارة لقيام اضطرابات، بعد أن اختار الخليفة شقيقه المدعو شنجول [عبدالرحمن]، - وهو حفيد ملك بمبلونا من ناحية والدته - وريثًا. وهذا ما أثار النقمة ضده فاضطرّ للتنازل عن الحكم[٢٥] سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م. وتوالى على الحكم، منذئذٍ، خلال عشرين سنة، خلفاء عدّة، بمن فيهم هشام الثاني الذي رقي العرش من جديد بين ٤٠٠ و٤٠٣هـ/ ١٠١٠ و١٠١٣م وتعرّض لحصار البربر، وشهد نهب قُرطبة عام ١٠١٣م. وقد اضمحلّت الخلافة الأمويّة أخيرًا سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، بسبب عجز المتولّين السلطة فيها عن وقف الصراعات بين الفئات المتنافسة، ووقعت الأندلس مذّاك في أيدي ملوك الطوائف.

عبدالرحمن الأول (الداخل)	١٣٨-١٧٢هـ/ ٧٥٦ ٧٨٨م
هشام الأول	١٧٢-١٨٠هـ/ ٧٨٨ - ٧٩٦م
الحَكَم الأول	١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦ - ٨٢٢م
عبد الرحمن الثاني (المتوسّط)	٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢ - ٨٥٢م
محمّد الأوّل	٢٣٨-٢٧٣هـ/ ٨٥٢ - ٨٨٦م
المنذر	٢٧٣ ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ ٨٨٨م
عبدالله	٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢م
عبد الرحمن الثالث الناصر	٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢ - ٩٦١م
الحَكَم الثاني المستنصر	٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦م
هشام الثاني المؤيّد	٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦ - ١٠٠٩م
	٤٠٠-٤٠٣/ ١٠١٠ - ١٠١٣م
محمّد الثاني المهدي	٣٩٩-٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ - ١٠١٠م
سليمان المستعين	٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ - ١١١٠
	٤٠٣-٤٠٧/ ١٠١٣-١٠١٦م
عبدالرحمن الرابع المرتضى	٤٠٨هـ/ ١٠١٨م
عبدالرحمن الخامس المستظهر	٤١٤هـ/ ١٠٢٣-١٠٥٤م
	١٠٢٣ - ١٠٢٤
محمّد الثالث المستكفي	٤١٤-٤١٦هـ/ ١٠٢٤ - ١٠٢٥م
هشام الثالث المعتدّ	٤١٨-٤٢٢هـ/ ١٠٢٧ - ١٠٣١م

◄ راجع المستندات ٨، ١١ و٥٠-٥٢.

الأمويّون، هم أولى سلالات الخلفاء في التاريخ الإسلامي الذين تولّوا السلطة بعد الخلفاء الراشدين الأربعة. وقد استمرّت سلطتهم حتى سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وأرست، في أقلّ من قرن، نشأة حضارة عربيّة - إسلاميّة وازدهارها، بلغت ذروتها مع السلالة الخليفيّة الثانية، أي السلالة العبّاسيّة.

تمكّنت الأسرة الأمويّة - التي تنتمي إلى قريش، قبيلة نبيّ المسلمين (ﷺ) - بعد وفاة الخليفة الراشدي الرابع علي، من الإفادة من انتصار معاوية، لتأسيس نمط من الخلافة الوراثيّة. اعتمد الأمويّون على قبائل عربيّة مستقرّة في سوريا، إلّا أنّ الصراعات الداخليّة لهذه القبائل - ولا سيّما بين كلب وقيس - ساهمت في إضعاف الأمويّين الذين عانوا، في الوقت نفسه، عدائيّة العلويّين المنتمين الى عائلة النبي محمد (ﷺ) والمرتبطين بالحركة الشيعيّة. تابعت هذه السلالة الفتوحات الكبرى، لكنّها لم تتمكّن من أن تقدّم للموالي - المعتنقين الجدد للإسلام - المكانة التي

كانوا يطالبون بها. هذه المشكلات الاجتماعيّة والسياسيّة - الدينيّة تفسّر أفولها السريع بعد أن اضطلعت بدور انتقالي أدّى إلى قيام أمبراطوريّة حقيقيّة متحضّرة ومنظّمة على الأراضي التي كانت، في السابق، مجرّد أراض مُخضَعة ومحتلّة من قبل الفاتحين العرب والبدو.

١ - حوّل مؤسّس السلالة معاوية - الذي حكم ما بين سنة ٤١ و٦٠هـ/ ٦٦٠ و٦٨٠م - سلطته الشخصيّة الى سلطة وراثيّة بتسميته ابنه يزيد وريثًا له، ومن ثمّ تأمين أداء يمين الولاء له، أي البيعة التي تشكّل قبولًا من قبل الأعيان بالخليفة الجديد عند اعتلائه سدّة الحكم. ثمّ نقل يزيد السلطة بدوره الى ابنه معاوية الثاني بالأسلوب نفسه. لكنّ وفاة هذا الأخير من دون وريث أعاد طرح مسألة انتقال الخلافة من جديد. وقد اتّفق الزعماء العرب المجتمعون في الجابية، قرب دمشق، على تسمية مروان، أحد أقارب الخليفة المتوفّى، مكانه. ومروان الأول، كما معاوية، يتحدّر من «أُميّة»؛ التي اعطت اسمها لِ «بني أميّة أو الأمويّين»، وقد عُرفت به السلالة التي اعتلى فرعان من فروعها العرش بالتتابع: فرع السُّفيانيّين أو فرع معاوية بن أبي سفيان، وفرع المروانيّين. وبدورهم استعمل المروانيّون أسلوب الوصيّة المصحوب بيمين الولاء المسبق، كما اكتفوا بتسمية الوريث سرًّا. وهكذا تمّ التسليم بعرف وراثي، رغم شوائبه، أهمّها عدم احتوائه قاعدة أو تراتبيّة في الوراثة. وظلّ هذا العرف ساريًا تقريبًا كما هو على مرّ العصور الإسلاميّة، وصولًا إلى السلالة العثمانيّة التي حاولت تعديله.

على الصعيد الخارجي، كانت مهمّة الخلفاء الأمويّين الأوائل متابعة الفتوحات وإكمالها، مع مراقبة التطوّر الذي طرأ على «الأمبراطوريّة العربيّة» والذي حوّلها إلى أمبراطوريّة صار لغير العرب مكانهم فيها. وكان على عاتقهم كذلك متابعة الأعمال العسكريّة لجهة الشرق، في اتّجاه ما وراء النهر والسند والمناطق المجاورة؛ ومن جهة الغرب، في اتّجاه المغرب وشبه الجزيرة الإيبيريّة التي جعلوها الأندلس، وانطلقوا منها بحملات نحو جنوب فرنسا أوقفتها معركة «بواتييه» المعروفة. وفي بداية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، كانت سيطرتهم تمتدّ الى مناطق بعيدة جدًّا ومختلفة جدًّا في ما بينها. وقد بلغ اتّساع هذه السيطرة مدى كبيرًا كان في أساس بروز الصعوبات بوجههم.

وفي الداخل، قام الأمويّون بتثبيت التفوّق الذي استأثر به العرب؛ وفي الوقت عينه، جهدوا لطبع البلاد التي أخضعوها - ولا سيّما المدن - بطابع الإسلام. وقد جرى كل ذلك في أمبراطوريّة غير متجانسة الى حدٍّ بعيد من حيث تنوّع سكّانها ولغاتها. ولمّا كان من الصعب علينا تكوين فكرة دقيقة عن تعدّدية اللهجات السائدة في كل منطقة، فإنّه من المعروف، في المقابل، أنّ الوثائق الرسميّة في البداية كانت تحرّر باللغة الفهلويّة في المقاطعات الشرقيّة، وباللغة اليونانيّة في سوريا ومصر، وباللغة اللاتينيّة في المقاطعات الغربيّة. لذلك، في نهاية القرن السابع للميلاد، قرّر الخلفاء الذين كانوا يحكمون هذا التجمّع الواسع توحيد دوائر الإدارة بفرض إستعمال اللغة العربيّة فيها، حصرًا.

واضطرّ الكتّاب المحلّيّون الذين أبقاهم الخلفاء في مراكزهم - ولم يكونوا في أكثر الأحيان مسلمين - إلى استعمال اللغة العربيّة. لا شك في أنّ عمليّة الإصلاح التي يعود الفضل فيها إلى الخليفة عبد الملك، كانت بطيئة وتدريجيّة. لكنّها أفضت الى تكوين بيّن لدولة مركزيّة ولأعراف موحّدة. وبموازاة ذلك، قام الخليفة عبد الملك بإصلاح النظام المالي، من خلال فرضه سكّ النقود الذهبيّة والفضيّة والنقش عليها بالعربيّة. هذه الرسوم المنقوشة، إضافة إلى الصيغ المستعملة في وثائق أخرى، كانت تتضمّن عبارات إسلامية - آيات قرآنية في أكثر الأحيان - تثبت أنّ الأمويّين كانوا يجهدون لتنظيم أمبراطوريّة إسلاميّة وعربيّة الطابع في آن. وللسبب عينه عمد خليفة كعبد الملك إلى بناء قبّة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس[٢٦]؛ بينما سعى ابنه الوليد إلى بناء مسجد جامع في دمشق في محلّ الكاتدرائيّة البيزنطيّة؛ وكذلك ابنه الآخر سليمان الذي شيّد المسجد الجامع في حلب، بعد أن كان أسّس مدينة الرملة الحكوميّة في فلسطين.

٢ - أدّت هذه السياسة إلى تشجيع قسمٍ من السكان الأصليّين، في المناطق المختلفة من الأمبراطوريّة، على

اعتناق الإسلام. وإذا كان من المستحيل تقدير عدد الذين اعتنقوا الإسلام في هذه الفترة - سواء للتخلّص من وضعهم الدونيّ كأهل ذمّة أو لكسب المزيد من الاعتبار، أو للحصول على بعض الفوائد - فإنّ عددهم غدا مهمًّا بما فيه الكفاية ليشكّل وضع هؤلاء موضوع نقاشات تناولت أهمّ المشكلات المطروحة، ولاسيّما الماليّة منها ومخصّصات العسكر.

فمن الناحية الماليّة، رغم جهود الخليفة عمر بن عبد العزيز، لم يحصل الموالي على تحويل الضريبة العقاريّة المفروضة عليهم، اي الخراج، الى ضريبة العشر أو الزكاة. وكان الهروب الى المدينة، في حال تيسُّره، هو المخرج الوحيد لهم لعدم تحميلهم أكثر من العرب المسلمين. وفي الجيش، كان هؤلاء الموالي أنفسهم يُقبلون بالتأكيد للقتال إلى جانب العرب، كما يشهد على ذلك فتح شبه الجزيرة الإيبيريّة الذي شارك فيه عدد من البربر من معتنقي الإسلام. لكنّ رواتبهم العسكريّة لم تكن هي نفسها التي يتقاضاها الفاتحون القدامى. وفي الوقت الذي كانوا يطالبون فيه بأن يُعاملوا بالطريقة نفسها التي يعامَل بها إخوانهم في الدين المنحدرون من أصل عربيّ، طُرحت قضيّة دمجهم الاجتماعي بشكل حاد في النصف الأول من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، مؤدّية إلى تماسك هذه الفئة الإجتماعيّة الميّالة الى التمرّد والى إثارة المطالب، وقد غدا عددها مساويًا، من دون شك، عدد الفاتحين الأوائل.

وإلى استياء الموالي، أضيف كذلك، في الوقت نفسه، استياء العرب المقيمين في سوريا الذين لم يكونوا أكثر رضى عن وضعهم، بعد أن خدموا بإخلاص السلالة الحاكمة. وكانوا يشكّلون طليعة عسكر النظام، إذ كانوا يرسَلون، في أكثر الأحيان، بعيدًا عن ديارهم لفرض السلطة الخليفيّة: فقد تمركزوا مثلًا في الموقع الجديد في منطقة واسط في العراق الذي أُنشئ سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م لفرض النظام في البلاد؛ وأُرسلوا، مثلًا، حوالى سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م، إلى منطقة خراسان البعيدة لمتابعة تقدّم الفتح في آسيا الوسطى. وبالفعل اصطدم الأمويّون بمقاومة جديّة في هذه المناطق البعيدة، إذ إنّ المقاتلين العرب المقيمين في وسط السكان المحليّين كانو[ا] ينفرون من متابعة الأعمال العسكريّة. وقد تواجهت آنئذ سياستان: واحدة تدعو إلى وقف حركة التوسّع واتّخاذ الإجراءات المناسبة لتهدئة الموالي؛ والثانية تصرّ على المضي قدمًا في الخيار العسكري الذي كانت القوات العربيّة - الإسلاميّة التزمته منذ فترة طويلة. وفي الواقع تبنّى معظم الخلفاء، ولا سيّما الخليفة هشام، الاتّجا[ه] الثاني. فأُضيفت الصعوبات التي أثارتها هذه السياس[ة] الى التقلّبات التي كانت تتآكل الدولة الأمويّة خلال الربع الثاني من القرن الثامن الميلادي.

وقد برزت هذه التقلّبات ذات الطابع السياسي أو السياسي - الديني مع وفاة معاوية، وأدّت مآلك إلى حركات معارضة جديّة. فالحسين بن علي لم يعترف بسلطة يزيد الخليفة السفياني الثاني، وتمرّد عليه في العراق حيث قُتل في نهاية الأمر سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م في كربلاء، خلال صدام بين مناصريه ومجموعة مسلّح[ة] أرسلها ضده والي المقاطعة. ويرقى الرفض المنتظ[م] للشيعة لمختلف الخلفاء الأمويّين الذين توالوا على السلطة إلى تاريخ مأساة كربلاء. وقد اندلعت حركات عصيان عدّة بتحريض منهم، أوّلها الحركة التي أثاره[ا] في العراق المدعو المختار، باسم أحد أبناء علي هو محمّد بن الحنفيّة، وقد تمّ قمع هذه الحركة من قِبل الخليفة عبد الملك وقائده الذائع الصيت الحجّاج الذي عمل، فضلًا عن ذلك، على إنهاء تمرّد ابن الزبير [في الحجاز] وهو ابن أحد الصحابة القدماء الذي تنامت حركته الانفصاليّة في الأماكن المقدّسة في الجزير[ة] العربيّة، بين عامي ٦٤-٧٣هـ/ ٦٨٤-٦٩٢م[٢٧]، في حين كان أحد أشقّائه يتحرّك في العراق. مع أنّ حملات الحجّاج العسكريّة سمحت لسيّده بإعادة وحد[ة] الأمبراطوريّة التي كانت في وقت ما مهدّدة بشكل خطير، وباتّخاذ الاجراءات الإداريّة التي أعادت الوحد[ة] النسبيّة لهذه الأمبراطوريّة، فإنّ حركات المعارض[ة] الداخليّة التي غدت اقلّ حدّة لم تتوقّف، رغم ذلك فحركة الخوارج، مثلًا، أعقبت قيام شيع عدّة، بعضه[ا] أكثر تشدّدًا من بعضها الآخر، والى نشأة بعض الفِرق التي استقرّت في المناطق النائية من الجزيرة العربيّ[ة]

والتي اضمحلّت سريعًا. وكان بعض مناصري الخوارج قد سيطروا، لوقت قصير، على الكوفة قبل نهاية السلالة الأمويّة بفترة وجيزة(٢٨). في موازاة ذلك، واجهت الخلافة الأمويّة معارضة أكثر خطورة تمثّلت في القدريّة، وهي حركة سياسيّة - دينيّة دعمها بعض الفقهاء، تطالب بإلحاح - في آن معًا - بالحدّ من السلطة الكيفيّة للخليفة واتّباع سياسة «سلمية». وقد أغرى برنامج هذه الحركة بعض الخلفاء الذين حاولوا تطبيقه، منهم عمر بن عبد العزيز، وفي ما بعد يزيد الثالث الذي وصل الى السلطة عام ١٢٧هـ/ ٧٤٤م والذي ألقى خطبةً شهيرة بدَت ملبّيةً مطالب القدريّة، إلّا أنّ حكمه لم يدم سوى بضعة اشهر.

أمّا الإضطرابات التي انتشرت في نهاية النصف الأول من القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، فقد أفضت الى الحركة المعروفة بـ«الثورة العبّاسيّة»، وكانت الأكثر خطرًا على الأمويّين، إذ تمكّنت، في نهاية الأمر، من الانتصار على العائلة الحاكمة وسعت للقضاء عليها. وقد أفلت واحد فقط من أفراد العائلة الأمويّة وفرّ إلى الأندلس حيث بعث من جديد السلطة الانفصاليّة لفرع جديد من المروانيّين، هو فرع «أمويّي الغرب» أو «أمويّي قرطبة». وفي انتظار انطلاقة هذه المملكة ذات الطابع الإقليمي التي ستصبح بدورها مقرًّا لخلافة منافسة للعبّاسيّين، صارت ذكرى السلالة الخليفيّة الأولى في الإسلام موضوع انتقادات حادّة نشرها الأخصام المنتصرون، وضعت في موضع الشك - بشكل استرجاعي - الشرعيّة الدينيّة للنظام الأموي. وبالفعل فإن العائلة الأمويّة، رغم الخصال التي لا جدال بشأنها التي تمتّع بها معظم أفرادها، رزحت تحت وطأة الصعوبات التي رافقت اتّساع الفتوحات.

٣ - لكنّ هذه الصعوبات لم تمنع هذه العائلة، طيلة فترة سيطرتها على السلطة، من إطلاق ثقافة عربيّة - إسلاميّة ذات نوعيّة مميّزة. وقد عبّرت عن هذه الثقافة، في آن معًا، الآراء الأولى لرجال الدين ونتاج طبقة من المثقّفين، من غير العرب في أكثر الأحيان، وبوجه خاص إنجازات الفنّ الإسلاميّ الأوّل الذي تعوّض الآثار الباقية منه حتى اليوم النقص في مصادر النصوص العربيّة المتعلّقة بالمرحلة الأمويّة. واكب هذا الفن تفتّح حضارة غدت ذا طابع أمبراطوري، نستدلّ عليها من خلال آثار الصروح الرائعة التي لم تشكّل، حتى اليوم، موضوع دراسة وافية. ويمكن النظر إلى هذا الفنّ بصورة عامّة، على أنّه كان، في آن معًا، مصدر كل الأنماط الفنيّة التي تفتّحت لاحقًا في أرض الإسلام، والتعبير الأوّل عن حيويّة خلّاقة كان في إمكانها الاستجابة - عبر روائع الفنّ المعماري وعبر زخرفة تستعمل أُسلوبًا جديدًا في الأشكال - لحاجات المجتمع الإسلامي الناشئ.

ومن بين هذه البقايا العظيمة، فإنّ الأكثر إثارة للعجب تلك التي ظهرت لمكتشفيها في أواخر القرن التاسع عشر، والتي لها، بالتأكيد، القيمة الوثائقيّة الأكثر أصالة - كونها لم تتعرّض إلّا في النادر للترميم - هي أماكن إقامة الطبقة الارستقراطيّة المرفّهة، وقد اكتُشفت في مناطق مقفرة. وكان وجود مثل هذه الصروح في مثل هذه المناطق يفاجئ زائريها: في قُصَيْر عَمْرة والمُشتى، في خربة المِنيا بطبرية وخربة المَفْجَر قرب أريحا، كما في جبل سايس وفي قصر الحَيْر الغربي وقصر الحير الشرقي حول تدمر. وهذه الدهشة ناتجة عن المفارقة ما بين نوعيّة بناء هذه الصروح وزخرفتها من جهة، وعزلة الأماكن التي تقوم فيها ووحشتها من جهة أخرى. «قصور الصحراء» هذه - بحسب تسمية تطلَق عليها في أكثر الأحيان في المؤلّفات الحديثة التي تتطرّق إلى المرحلة الأمويّة - ما يزال يحيط بها السحر الذي حظيت به في مرحلة اكتشافها الأولى.

وهكذا كانت هذه الصروح معبّرة عن نموذج للأبنية الأميريّة، وهو نموذج أعيد تركيبه اصطناعيًا من خلال جمع السِّمات المستقاة من كل من هذه المواقع، وصولًا الى تصوُّر مقولب، الى حدّ ما، اليوم: شكل بناء ضخم، مع فناء مركزي وسور، ذو هيكليّة مربّعة الزوايا، جداره الخارجي مزروع بنصف أبراج وبأبراج على الزوايا؛ فناء داخلي محاط برواق تنفتح عليه قاعات متنوّعة وشقق؛ بينما بوّابة المدخل مصمّمة للتدليل على ضخامة المجمّع، وغرفة الاجتماع والاستقبال معدّة في الطبقة العليا، وأحيانًا تكون بوجه المدخل وتتكوّن من قاعة

ضخمة على شكل «بازيليك». هذه الرؤية المبسّطة هي الى حدّ ما مرتبطة بالنظريّة القديمة المعروفة بـ«نظريّة البادية»، التي تفسّر إقامة «قصور الصحراء» من خلال التوق الحنيني لأصحابها إلى اسباب اللهو البدويّة الموروثة عن أجدادهم. غير أنّ هذه النظريّة لا تأخذ في الإعتبار، كون هذه الصروح قد أُقيمت وسط أراضٍ خصبة لا تتطلب إلّا الري، ولا وجود قصور وفنادق مدنيّة أبرزتها التنقيبات الأثريّة داخل تجمّعات مدنية أو بجوارها، كعَنْجَر وعمّان وقصر الحَيْر الشرقي أو حتّى القدس.

كل هذه المؤسّسات ذات الهيكليّات المتعدّدة والمتنوّعة مهّدت في الواقع لقيام القصور و«المدن الملكيّة» العبّاسيّة؛ وفي الوقت نفسه تجلّى فيها الطابع الانتقائي للأعمال التي أمر بانجازها زعماء قدامى من البدو، تأقلموا ثقافيًا وأخذوا بأسباب الحضارة. وهذه الأعمال تكشف أيضًا نتائج الاهتمام الواضح باستيطان الأراضي السوريّة، سواء عن طريق التملّك أو إعادة التأهيل، أو بفضل التحكّم بالمياه وتقنيّات استعمالها، واستصلاح مساحات شاسعة كانت توفّر لمالكيها مردودًا، كما كانت، في الوقت نفسه، تؤمّن لهم السيطرة على نقاط إستراتيجيّة، كان في إمكانهم الحصول عن طريقها على الدّعم من جندهم. لكنّ مواقع حديثة الإنشاء، أو موروثة من حقب سابقة، أفادت من الأزدهار المتألّق الناتج عن توازن إجتماعي إقتصادي وإن هشًا، وعرفت هي أيضًا أن تُدخل الى مبانيها الأرستقراطيّة تقاليد ساسانيّة وبيزنطيّة عُدّلت بروح إنتقائيّة ومبتكرة.

كما انمازت المباني الدينيّة التي سعى الخلفاء الأمويّون من خلالها للتعبير عن مجد الإسلام باستعمال هذا المخزون الثّريّ من العناصر المتعدّدة، في سياق عمليّ جديد. في هذا المجال، يجب استرعاء النظر، باديءَ ذي بدء، الى روعة الحرم المثمّن الزوايا في القدس، الذي أمر بتشييده عبد الملك، والذي يُعرف بقبّة الصخرة. غير أنّ مهارة مماثلة في التخطيط والتنفيذ تميّز النموذج المعماري الذي اقتُرِح على المسلمين لإقامة صلاة الجمعة، وقد جمع بين ذكرى بيت النبي محمد (ﷺ) في المدينة والشكل «البازيليكي» الموروث عن العصور القديمة. إنّ نمط المسجد الجامع هذا الذي كرّره الخلفاء الأمويّون أو حكّا[م] ولاياتهم في المدن الرئيسة للأمبراطوريّة، طُمس في أغلب الأحيان، بترميمات واصلاحات وتوسيعات لاحقة ومع ذلك، أمكن استرجاع السّمات الأساسيّة لما كا[ن] عليه شكله آنذاك. إضافة إلى ذلك، فإنّ الأجزاء العائد[ة] للفترة الأمويّة والماثلة في المسجد الأقصى في القدس أو في الجامع الكبير في دمشق - الذي ما يزال يحتوي بعض الفسيفساء التي كانت تزخرف أروقة فنائه - م[ا] تزال قائمة لتشهد على درجة الكمال الفنّي التي ت[مّ] التوصّل اليها: مبانٍ ضخمة تشهد، عبر فخامة أعمدتها ومحاريبها وتداخل عقودها وكُواها الصمّاء، على مستوى الخبرة التقنيّة للمعماريّين المحلّيين الذين دخلوا في خدمة الخلفاء؛ كما تدلّ على إنجازات مصمّمي زخارف هذه الصروح وحرفيّي الأعمال الفخمة الذين جرى إشراكهم في العمل. جميع هذه التقاليد التي جرى تبنّيها أمّنت، منذ ذلك الحين، الأُسس التي استقام عليها فيما بعد هذا الفن التوليفيّ الذي يوصف اليوم بالفن الإسلامي.

معاوية الأوّل بن ابي سفيان	٤١ - ٦٠هـ/ ٦٦١ - ٦٨٠م
يزيد الأول	٦٠ - ٦٤هـ/ ٦٨٠ - ٦٨٣م
معاوية الثاني	٦٤ - ٦٥هـ/ ٦٨٣ - ٦٨٤م
مروان الأوّل ابن الحكم	٦٥ - ٦٦هـ/ ٦٨٤ - ٦٨٥م
عبد الملك	٦٦ - ٨٦هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥م
الوليد الأول	٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥ - ٧١٥م
سليمان	٩٦ - ٩٩هـ/ ٧١٥ - ٧١٧م
عمر بن عبد العزيز	٩٩ - ١٠١هـ/ ٧١٧ - ٧٢٠م
يزيد الثاني	١٠١ - ١٠٥هـ/ ٧٢٠ - ٧٢٤م
هشام	١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٤ - ٧٤٣م
الوليد الثاني	١٢٥ ١٢٦هـ/ ٧٤٣ - ٧٤٤م
يزيد الثالث	١٢٦هـ/ ٧٤٤م
إبراهيم	١٢٦هـ/ ٧٤٤م
مروان الثاني (الحمار)	١٢٧-١٣٢هـ/ ٧٤٤ - ٧٥٠م

◄ راجع المستندات ١، ٢، ٨، ٩، ٣٦-٣٨، ٤٠-٤٣.

أُمّي، صفة، في العربيّة، ارتبطت باسم النبيّ محمد (ﷺ) في القرآن، لكنّ معناها بقي غامضًا رغم الجهود

لواضحة التي بذلها المفسّرون التقليديون للكتاب.

يُعنى بأمّي غالبًا «الجاهل»، من غير أن يُثبت لتدقيق في فقرات القرآن التي ورد فيها المصطلح هذا لتفسير. بالمقابل، فإنّ صيغة الجمع «أُمّيون» تعني بلا يب، مثلًا في الآية ٧٨ من سورة البقرة، «الوثنيين» ي مقابل «أهل الكتاب»، بحيث أنّ تعبير «النبيّ لأمّي» ينبغي بالأحرى، أن يُفهم، بحسب بعضهم، «على أنّه النبيّ الوثنيّ» أو، «النبيّ المرسَل إلى لوثنيّين».

ميّة بن عبد شمس، الجدّ الأعلى الذي أُطلق اسمه لى أسرة الأمويّين المنتمين إلى عشيرة عبد شمس التي كانت، في عهد النبيّ محمد ﷺ، من عشائر قريش لأوفر غنًى في مكّة. هذا السليل المباشر لعبد مَناف ـقُصَيّ كان ابن عمّ هاشم الذي مهّدت عداوته معه[29] لصراعات التي وضعت وجهًا لوجه، في ما بعد، في سبيل بلوغ الخلافة، الأمويّين والهاشميّين. ويقال إنّه كان الجدّ الأول لأبي سفيان، رئيس الأرستقراطيّة المكيّة ي مرحلة انطلاق الدعوة الإسلاميّة، ووالد معاوية، أوّل خليفة من فرع السفيانيّين في سلالة الخلافة الأمويّة.

◄ راجع المستند رقم ١.

مير، لفظة تحمل معنى السلطة والتوجيه والقيادة، ستُعملت بكثرة في الأوساط الإسلاميّة منذ الفتوحات لأولى، ولا تزال حتى اليوم تحافظ على مدلولها لكبير.

١ - **الأمير**: هو الذي يتمتّع بالسلطة والذي بيده لأمر، ويكون القائد وصاحب الكلمة الفصل. في لعهود الأولى للإسلام، أُطلقت اللفظة على قادة لجيوش الذين انتزعوا الانتصارات، فكانوا أصحاب لفتوحات الكبرى. وإلى جانب أدوارهم كرجال حرب كانت لهم أدوار حكّام البلدان التي افتتحوها. فالأمراء لذين يعيّنهم الخلفاء ويخوّلونهم مهمّات متنوّعة ويمنحونهم سلطات تمثيليّة، كانوا أوّل الأمر قادة الجيوش العربيّة الإسلاميّة. وقد كانت صفة تمثيل الخليفة ضروريّة ومهمّة لهم. إلّا أنّ تطوّر الإدارة في العصر العبّاسي حرمهم عددًا من امتيازاتهم الأميريّة في الولايات، ولا سيّما في حقل الضرائب، إذ أصبح أمر جباية الأموال من صلاحيات العامل. كما حُرِم الأمراء حق تعيين القضاة في المدن والأقاليم، ولكنّهم ظلوا يُعتبرون أصحاب الرتب العالية في الأقاليم المناط بهم الحفاظ على الأمن وترؤس الصلاة أيام الجُمَع باسم الخليفة. كانوا يميلون الى ممارسة نوع من الاستقلاليّة معترف لهم بها بشكل عام.

داخل التنظيمات العسكريّة في الأمبراطوريّة الإسلاميّة في القرون الوسطى، كان لقب الأمير يوازي رتبة لواء أو رتبة مقدّم. وقد أصبح يُمنح بعد ذلك لكلّ أصحاب الرتب العالية من ضبّاط جيش وحَرَس خلافيّ، بغضّ النظر عن الوحدة العسكريّة ومن دون أن يُؤخَذ العرق في الاعتبار. وسرى هذا العرف في معظم الدول الإسلاميّة، كما يظهر ذلك، في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد في ألقاب ضبّاط الجيش المملوكي في مصر وسوريا. هؤلاء القادة العسكريّون كانوا بمعظمهم، منذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد: من أصل غير عربي وجلّهم من العبيد المعتَقين. وبغية تأمين أجورهم، جرت العادة على منحهم إقطاعات تؤمّن لهم رزقهم ورزق جنودهم. وهذا الأمر سهّل مجال الاستقلاليّة، وساعد أولئك القادة على الاستئثار بالسلطة وتأسيس ممالك، بين القرنين الرابع والخامس للهجرة/العاشر والحادي عشر للميلاد، على تقاسم عالم إسلامي ممزّق.

وتجدر الإشارة إلى أن تسمية أمير مُنحت، منذ القرون الأولى للإسلام، للذين يقومون ببعض المهمّات الدينية المميّزة كإمارة الحج، أو يتسلّمون مسؤوليات عليا كأمير الأسطول أو أمير البحر، وذلك في مختلف الأساطيل البحريّة العربيّة في القرون الوسطى (نُقل الاسم إلى الفرنسية وحُرِّف إلى أميرال)، كما استُعملت عبارة أمير الأمراء في القرن الرابع الهجري/العاشر للميلاد. وجاء اسم الأمير أيضًا في شكلين هما أمير المؤمنين للإشارة إلى الخليفة، وأمير المسلمين. وقد عرفت العبارتان شهرةً لا مثيل لها. ونذكر أخيرًا أن لفظة أمير دخلت في معظم الألقاب التشريفيّة ولم يُستغنَ عنها إلّا بألفاظ موازية ولكنّها من لغات أجنبيّة،

كلفظة «بك» التي هي من أصل تركي والتي تستعمل اليوم للإشارة إلى أبناء أسر تنتمي إلى الأرستقراطية العربيّة.

٢ - **أمير المؤمنين**: لقب تشريفي في الإسلام خاص بالخليفة، يعود في أصله إلى التسمية التي تبنّاها الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب في المدينة المنوّرة. وقد أتى اللقب صدى للآية ٥٩ من سورة النساء التي تدعو إلى طاعة المسلمين لأولياء أمرهم، وهذا يشير إلى أن الخليفة هو رئيس الجماعة المؤمنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾. وقد بقي هذا اللقب قائمًا برافق الخلافة ويُنظر إليه بكلّ جلال، وطالب به عبر العصور عند كثير من العواهل الذين وجدوا أن لهم الحقّ بالخلافة. ومن الذين تلقّبوا بأمراء المؤمنين، نذكر الخلفاء الراشدين الثلاثة الأخيرين، والخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين المتعاقبين. كما حمله أسياد ممالك أخرى منافسة ظهرت في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، كالفاطميّين، والأمويّين في الأندلس، وقادة برزوا مؤخّرًا في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد كالموحّدين، أو حتّى في القرن الثالث عشر للهجرة/التاسع عشر للميلاد كخلفاء «سوكوتو» في أفريقيا السوداء.

إنّ عبارة أمير المؤمنين التي أشارت، في كلّ الأحوال، إلى السلطة الإسلاميّة العليا والمستقلّة، توضح سبب ظهور لقب أمير المسلمين بعد ذلك. وقد عرف هذا اللقب قبولًا في المغرب مع المرابطين، فجاء تعبيرًا عن موقف سلطة سنيّة تقبل، على الرغم من عظمتها، أن تحدّ من استقلاليّتها، ولو في الشكل، وأن تعترف بسيادة الخلافة العبّاسيّة.

٣ - **أمير الأمراء**: هو اللقب الذي منحه الخليفة العبّاسي الراضي سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م إلى ابن رائق، عندما سلّمه السلطات العسكريّة والاقتصاديّة. وهذا ما أفسح في المجال أمام ابن رائق ليمارس على الخلافة وصاية تامّة. وبين سنتي ٣٣٣ و٤٤٧هـ/٩٤٥ و١٠٥٥م، بقي اللقب قائمًا يحمله أفراد الأسرة البويهيّة الإيرانيّة، ويمارسون صلاحياته. والمرحلة التي مورس فيها هذا النوع من السلطة تشكّل ظاهرة بارزة في التاريخ العبّاسي، وتشير إلى توزّع السلطات العليا الذي ساد م[...] ظهور نظام السلطنة.

الأمير. تعبير غدا استعماله رائجاً في أيّامنا للدلالة عل[ى] حاكم مسلم صاحب إمارة يمارس فيها حكمه. [...] المركز السامي الذي ارتقى إليه، في العصر الوسي[ط] الإسلامي، عدد من «أسياد الحرب» الذين أهّلته[م] مهمّاتهم لأن تطلق عليهم بالعربيّة تسمية «أمير» وبالتركية تسمية «بك»، يفسّر المفهوم التشريفي الذ[ي] ما تزال الكلمة الفرنسيّة تحمله حتى يومنا هذا. بناءً عل[ى] ذلك، يمكن استعمال كلمة أمير، سواء لنعت أيّ شخص نبيل، أو للتعبير عن المعاني التقنيّة المختلفة الت[ي] تحملها اللفظة، والتي تشير أحياناً إلى قادة عسكريّين تتدرّج رتبهم من «مقدّم» إلى «لواء»، وأحياناً إلى حكّ[ام] ولايات، وأحياناً أخرى إلى حكّام إمارات، أو أشخاص من أصل نبيل لا يؤدّون مهمّة محدّدة. كما أنّنا نقع عل[ى] كلمة أمير في تسمية «الأمير الكبير» التي كانت تعن[ي] «أمير الأمراء» خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة [/] العاشر والحادي عشر للميلاد، في الشرق، وكذلك [في] التعبير الفرنسي «émir des croyants» الذي يؤدّي معن[ى] العبارة نفسها المستعملة في العربية قديماً، أي «أمير المؤمنين» التي كانت تطلق على الخليفة والتي كثيراً استخدمت في نصوص أدبيّة.

أمير خُسْرو دِهلَوي، ٦٥١-٧٢٥هـ/١٢٥٣-١٣٢٥م شاعر هندي فارسي اشتُهر شعرُه بالطابع الديني، عاش في بلاط سلاطين دلهي، وأظهر تعلّقًا قويًا بالشي[خ] الجشْتي نظام الدين أوليا، ودُفن إلى جانبه. وكان [قد] ولد في الهند داخل أسرة من أصل تركي.

إن تفتّق شاعرية دهلوي المرهفة جعله ينال حظو[ة] لدى أبناء الأسر المختلفة المالكة التي تعاقبت عل[ى] عرش دلهي. وعمله الضخم المضمَّخ بالطابع الصوفي إلى جانب قصائد تاريخيّة ومقطوعات غنائيّة وجدانيّة اعتبر مدّة طويلة نموذجًا للنجاح الذي حقّقه الحضار[ة] الإسلاميّة في العصور الوسيطة بالهند.

أمير سلطان أو **أمير سيّد**، شمس الدين محمّد بن عل[ي] **الحسيني البُخاري**، ٧٧٠-٨٣٢هـ/١٣٦٨-١٤٢٩م

صوفيّ علويُّ النّسب وشخص ورع، اكتسب احترام السلاطين العثمانيّين قبل أن يصبح شفيعاً لمدينة بورصة. جاء من بخارى إلى الأناضول، بعد أن كان قد التحق بالطريقة الكبروية وأقام في المدينة المنوّرة بعد أداء فريضة الحجّ، ثم استقرّ في بورصة، عاصمة الدولة العثمانيّة الأولى آنئذٍ، حيث اكتسب تقدير علمائها وشيوخها. وقد زوّجه السلطان المحارب بايزيد الأول يلدريم من ابنته، في زمن كان السلاطين العثمانيّون يبنون خوانق من داخل المجمّعات الملكيّة التي كانوا يشيّدونها والتي كانت تضمّ مساجد وزوايا، كما كانوا يعتمدون على أهل الطرق الصوفيّة من الدراويش. وكان هؤلاء يشجّعون الحملات الحربيّة في البلقان، باسم الجهاد، ويشاركون فيها عند الحاجة. مكث أمير سلطان، بعد هزيمة بايزيد في معركة أنقرة ضد تيمورلنك، في بورصة حيث ساند مراد الثاني حين تسلّمه العرش عام ١٤٢١م، وخلال محاولته الفاشلة لمحاصرة القسطنطينيّة. وقد أُقيم فوق قبره الذي غدا مقصداً للزيارات التقويّة ضريح رائع، ما لبث سليم الثالث أن بادر إلى توسيعه عام ١٨٠٤، وهو ما يزال قائمًا حتّى اليوم.

أمير علي (سيّد)، عُرف في الغرب باسم سيّد أمير علي (١٨٤٩-١٩٢٨): مفكّر هندي مجدّد كان له في بلاده دور سياسيّ بارز، وقد وضع مؤلّفات باللغة الإنكليزيّة فيها تمجيد للإسلام. ويرجع أمير علي في الأصل إلى أسرة شيعيّة وفدت من خراسان إلى البنغال. وبالقرب من كلكوتا بدأ دروسه ثمّ أكملها في بريطانيا بين سنتي ١٨٦٩ و١٨٧٣، وأصبح بعد ذلك محاميًا وأستاذًا في الشّرع الإسلامي. وفي سنة ١٨٨٣ اختير مع ثلاثة هنود ليكونوا مستشارين لنائب الملك، وكان المسلم الوحيد في المجلس الاستشاري. إلّا أنّه انتقل إلى لندن سنة ١٩٠٩ وبقي فيها حتى وفاته.

في سنة ١٨٧٧، أسّس الجمعيّة الوطنيّة المحمديّة (The National Muhammadan Association) التي جعلت هدفها الدفاع عن مصالح المسلمين والعمل على تقوية أواصر الأخوّة والمودّة بين أبناء الهند.

دافع عن إسلام عصري ومُحضّر، وقد سلك في ذلك طريقًا يختلف عن ذلك الذي كان قد سلكه قبله مجدّد آخر، سيّد أحمد خان، الذي كان يميل إلى جعل الإسلام غربيّ الطابع، في حين أن أمير علي كان يرى في الإسلام نفسه نبع كلّ تطوّر. وفي هذا المجال وضع مؤلّفين كان لهما صداهما في الغرب. جاء الأوّل بعنوان «روح الإسلام» (The Spirit of Islam) كتبه سنة ١٨٩١ وطُبع أكثر من مرّة، والثاني عنوانه «مختصر تاريخ العرب» (A short History of the Saracens)، طبع سنة ١٨٩٩.

أميركا، قارة بقيت زمنًا طويلًا يجهلها المسلمون، وإليها أدخلت الهجرة حديثًا مجموعات إسلاميّة توزّعت أقليّات لا تمثّل إلّا نسبة ضئيلة من السكان. والواقع أنّه، باستثناء حالتين تتمثّلان في جمهوريتي سورينام وغويانا وبنسبة أقلّ في جزيرتي ترينيداد وتوباغو من أرخبيل الأنتيل، لا يجمع المسلمون إلّا عددًا قليلًا جدًا. وحتى الذين استوطنوا أميركا الشماليّة والجنوبيّة وشكّلوا مجموعات تتكلّم العربيّة، بعدما بدأوا يفدون من لبنان وسوريا وفلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر، فإنّهم كانوا بغالبيّتهم من المسيحيّين، ولم يكن بينهم إلّا عدد قليل من المسلمين.

إلى اولئك المسلمين الذين هاجروا من الشرق، يجب أن نضيف السود في الولايات المتحدة الذين اعتنق بعضهم الإسلام وانضمّوا الى حركة المسلمين السود.

الأمين، محمد، سُمّي في ما بعد بالمخلوع (١٧٠-١٩٨هـ/٧٨٧-٨١٣م)، هو سادس الخلفاء العبّاسيّين، تسلّم الحكم سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م ووقع نزاع بينه وبين أخيه المأمون انتهى بخلعه وانتصار المأمون. والده هارون الرشيد وأمّه أميرة عربيّة من الأسرة الهاشميّة، وصلته الخلافة بخيار من والده وبموجب قسم البيعة المسبق، مع التزامات علنيّة وخطيّة تعهّد بها هو وأخوه المأمون وأودعت الوثائق في مكّة.

وما ان قدم بغداد، مباشرة بعد وفاة الرشيد في طوس، حتى بدأ الخليفة الجديد سياسة اتّسمت بالخفّة، محاولًا بالقوّة نزع حق أخيه المأمون في ولاية العهد.

وكان هذا الأخير قد عُيّن حاكمًا مستقلًا على خراسان وسائر الولايات الشرقيّة.

وقد أثقل صراع الأخوين كاهل الخلافة، وأدّى إلى كوارث حربيّة، وانتهى بمقتل الأمين. والحدث الأبرز في ذلك الصراع كان حصار بغداد سنة ١٩٦هـ/ ٨١٢م من قبل جيش المأمون، والذي انتهى بخراب المدينة المستديرة بعد أن استمات أتباع الأمين، ولا سيّما العرب منهم، في الدفاع عنها. ويبدو أن الخلاف بين الأخوين لا علاقة مباشرة له بالمسألة العربيّة الفارسيّة.

والواقع أن الصورة التي انطبعت في أذهان الأجيال اللّاحقة عن الأمين، هي أنّه كان حاكمًا فاسدًا، يرتاح إلى معاشرة عدد من الشعراء الماجنين، في طليعتهم أبو نواس، وكان شغوفًا بالثقافة العربيّة ولا يكترث لقضايا الدين والعقيدة. وهو لم يكن قادرًا على فرض سلطته في مرحلة اتّسمت بالصعوبة. حتى إنّ أخاه المأمون، على ما تحلّى به من ذكاء ومهارة وحسن تدبير، وجد صعوبة كبيرة في فرض سلطته وتفكيره الشخصي على معاصريه.

الأناضول (في التركيّة أنادولو)، من اليونانيّة «أناتولي Anatoli» وتعني المشرق، منطقة واسعة تُنهي القارة الأسيويّة عند أوروبا من جهة البلقان، دخلت الإسلام تدريجيًا على أيدي الأتراك، ابتداء من القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وهي تمثّل اليوم كامل مساحة الجمهوريّة التركيّة تقريبًا.

وطبيعة الأناضول تغلب عليها الهضاب العالية المجدبة التي تعزلها حواجز طبيعيّة عن البحار المختلفة المحيطة بها، من البحر الأسود حتى البحر المتوسّط الشرقي، ولا يفصلها عن مقاطعة تراقيا التركية في أوروبا إلّا مضيق البوسفور ومضيق الدردنيل، وهما يحيطان ببحر مرمره. ومن القسم الذي يبدأ ببحر إيجه حيث تتراكم الذكريات القديمة لآسيا الصغرى الغنيّة، إلى الأحواض العليا لنهري دجلة والفرات، في مناطق يصعب بلوغها على حدود بلاد ما بين النهرين العليا وأوائل القوقاز، تشكّل الطبيعة مظهرًا متقطّعًا متغايرًا في المناظر والمناخات. وهذا الواقع قد يفسّر النزاعات الداخليّة وفوضى تطوّر البلاد في القرون الوسطى، في الوقت الذي كان فيه نظام الأمبراطوريّة البيزنطيّة ينحلر ويضعف تدريجيًّا.

مع ظهور الإسلام، تحوّلت بلاد الأناضول إلى أرض تحاصرها الحروب، وتتنقّل، عبر حدودٍ متحرّكة، السلطة التي يمارسها عليها الخلفاء، من الأمويّين إلى العبّاسيّين، وكذلك سلطة الممالك التابعة لأولئك الخلفاء. ثمّ بدأت موجات الغزوات الكبيرة المندفعة من آسيا الوسطى تتدفّق على المقاطعات الشرقيّة والوسطى عبر إيران.

لقد مرّت الأناضول في ثلاث مراحل حدّدت مصيرها. كانت أوّلًا منطقة في حالة حرب مستمرّة جعلت بعض أطرافها خاضعًا لاحتلال الجيوش الإسلاميّة، وعرضة لغزوات القبائل العربيّة الإسلاميّة من سوريا والعراق. ثم تحوّلت إلى معقل قويّ للإسلام تتقاسمه إمارات متخاصمة. وفي هذا الوقت بدأت القبائل التركيّة، في ظلّ السلاجقة والإيلخانيّين، تجتاح ما كان يُعرف عند الجغرافيّين العرب باسم بلاد الروم. أمّا في المرحلة الثالثة فأصبح الأناضول مركزًا لدولة عسكريّة وتوسعيّة ذات طموحات كبيرة، هي السلطنة العثمانيّة، عملت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين على توسيع مداها في آسيا وأفريقيا وأوروبا، إلى أن بلغت حالة الضعف والتفتّت. ولكنّها لم تستطع أن تُحسّن قاعدة حكمها الأساسيّة، أي الأناضول. خلال هذه المراحل كان تطوّر الأسلمة والتتريك كافيًا للسماح بولادة قوميّة تركيّة راسخة خدمت مخطّطات أتاتورك الذي جعل من أرضروم ثم من العاصمة أنقرة مقرّين لولادة تركيا المعاصرة.

قبل ذلك بكثير، ومنذ القرن الأوّل للهجرة/ السابع للميلاد، فُتح باب المرحلة الأولى التي ذكرناها والتي حقّقت نجاحًا موقّتًا، خلال الفتوحات الكبرى، للجيوش العربيّة - الإسلاميّة التي توغّلت حتى القسطنطينيّة وحاصرتها من دون جدوى، ولكنّها استطاعت أن تحتلّ منطقة أرضروم بصورة دائمة. ومن هنا امتدّ نفوذ خلفاء بغداد، في عهد قوّتهم، نحو أرمينيا وجيورجيا والممالك المحيطة بأعالي وادي دجلة، وأرغم أصحابها على دفع الجزية. ثمّ إنّ مناطق حدوديّة

أخرى تنظّمت في الوقت نفسه عسكريًّا، في سوريا وأعالي ما بين النهرين انطلاقًا من تقسيمات الأجناد، وشكّلت حواجز وافية معتمدة عددًا من المدن المحصّنة مثل أنطاكية ومنبج. وهذا ما جعل الثغور في كيليكيا وأعالي دجلة والفرات منيعة تقف في وجه الهجمات البيزنطيّة وتدعم الحملات الجهاديّة على كبادوكيا وما حولها. لكنّ الهجمات البيزنطيّة، في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وأوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أفقدت المسلمين أراضي الأناضول تقريبًا بكاملها.

وقد اتّخذت المرحلة الثانية منحى مختلفًا، وبدأت مع وصول الغُزّ التركمان الذين كانوا قد بنوا في إيران والعراق أمبراطوريّة شرقيّة قويّة خضعت، بدون انضباط، لسيطرة السلاجقة الكبار. وقد هزم السلاجقة جيش أمبراطور بيزنطية في معركة ملازكرت/مانتزيكرت، وراحوا يتوغّلون عشوائيًّا داخل البلاد. فأسلمت المناطق المحتلّة من الأناضول، في مُدد غامضة؛ ثمّ تحوّلت إلى ساحة صراع بين أسياد الحرب، إلى أن استطاع سلاجقة الروم القضاء عليهم، وهؤلاء السلاجقة هم السلاطين الذين كانوا يحكمون مقاطعة قونية في الجنوب.

لا شكّ في أن قوّة بيزنطية تعرّضت فقط للاهتزاز، لكنّها أفادت من مرور الحملة الصليبيّة الأولى وانتصارها في معركة «دوريليه» (٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، فاستطاعت تحرير غربي الأناضول من سلطة الأتراك، فحوصر هؤلاء لمدّة داخل الهضاب الداخليّة المرتفعة. وقد تمكّنت مملكتان يونانيّتان، واحدة في نيقيا وأخرى في طرابزون، من أن تثبتا في الوقت الذي أصبحت فيه القسطنطينيّة بيد الصليبيّين، وذلك في سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م. كما أنّ مملكة مسيحيّة جديدة، هي مملكة أرمينيا الصغرى، قامت على سفوح طوروس وفي سهل كيليكيا، مستفيدةً من الصراع ضدّ المسلمين الذي كانت تقوم به الإمارات اللاتينيّة في سوريا الشمالية منذ العام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، على أثر الحملة الصليبيّة الأولى. إلّا أن جُزر المقاومة تلك لم تحل إجمالًا دون استمرار المدّ الإسلامي وسيطرته.

استطاعت الدولة السلجوقيّة في قونية أن تفتح الطريق إلى البحرين الأسود والمتوسّط، وأن تزداد غنى بسيطرتها على طرق القوافل عبر الأناضول، كما وضعت يدها على أراضي الأرتقيّين في بلاد ما بين النهرين العليا، وأحرزت انتصارات على الأيوبيّين وعلى الخوارزمشاهيّين. هذا التطوّر جعل الإسلام يشمل القسم الأكبر من الأناضول في منتصف القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. وتبع ذلك تدفّق عناصر التركمان من جديد، بعد انتصار المغول في معركة «كوزي داغ» (٦٤١هـ/١٢٤٣م). وفي المرحلة اللّاحقة جاء التقسيم السياسي للبلاد ليسمح لكل إمارة من الامارات التركيّة المحليّة بأن تقيم بؤرة ثقافية فنيّة تنافس بها الدول التركمانيّة في الشرق، في الأناضول وأذربيجان، كدولة القراقيونلو ودولة الآق قيونلو. وكان التطوّر الذي عرفه الأناضول على الصعيد السكّاني قد اكتمل عند زوال تلك الإمارات بانتصار العثمانيّين، على الرغم من أنّ مجيء تيمورلنك يسّر لعدد منها بعض الاستمرار.

إن التنوّع البشري في شبه جزيرة الأناضول، بعد الأسلمة والتتريك، بقي قائمًا خلال المرحلة الثالثة التي انتهت معها الفتوحات العثمانيّة وامتدّت إلى المناطق المجاورة في مطلع القرن السادس عشر. ومنذ ذلك التاريخ بدأت خصائص نظام مركزي، سياسي وإداري، تبرز في الأناضول، من دون أن يمنع ذلك التمييز بين المقاطعات المتعدّدة والمنفصلة التي أُطلق عليها اسم إيالات ثم ولايات، والتي انقسمت كل منها إلى سناجق أو ألوية، وذلك وسط مساحة واسعة بقيت فيها المناطق الغربيّة والوسطى والشرقيّة تتضارب جغرافيًّا وإتنيًّا. واستمرّ التباين الإقتصادي والإجتماعي والثقافي في تزايد، إلى أن تمّ التحوّل الجذري العميق، في القرن العشرين، بانتقال الدولة العثمانيّة إلى واقعها الجديد والمتمثّل في الجمهوريّة التركيّة.

◄ راجع المستندات ٨ و١٠ و١٢ و٢٠ إلى ٢٤ و٢٦ و٢٧ و٦٥ و٧٩ و٨١.

الأندلس. في العربيّة جزيرة الأندلس التي كانت تعني شبه الجزيرة الإيبيريّة. وينطبق اللفظ على إسبانيا والبرتغال وهما الدولتان اللتان كانتا تشكّلان قسمًا

من العالم الإسلامي في القرون الوسطى.

والنزول الأوّل للفرق العربيّة البربريّة، في عهد الفتوحات الكبرى، كان بداية لتاريخ طويل ومضطرب في تلك المناطق. وبعد عصر ازدهار عرفه القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، خلال حكم الإمارة ثمّ الخلافة الأمويّة في الغرب، أو في قُرطبة المعروفة أيضًا بخلافة المروانيّين، تقسّمت الأندلس إلى دويلات إسلاميّة مستقلة متناحرة، فعُرفت المرحلة باسم عصر ملوك الطوائف، ورافقت ذلك الوضع حروب الاسترداد التي شنّتها الممالك الإسبانيّة. وقد زالت تلك الدويلات بعد أن ضمّها المرابطون إليهم، ثمّ الموحّدون؛ ولم يبقَ واقفًا في وجه القوى الإسبانيّة إلّا آخر ممالك الجنوب، وأهمّها المملكة النصريّة في غرناطة.

ولفظة الأندلس، التي يكتنف معناها الغموض، لا علاقة لها باسم الفندال كما يفكّر بعضهم، بل يشير المعنى إلى «الأرض المفروزة» أي التي كانت مقسّمة قبل الفتح. وتأتي الكلمة في أساس تسمية أندلوسيا الحديثة التي تُطلق على المقاطعة القريبة من المغرب والتي حضنت مراكز إسلاميّة كبيرة، كقرطبة وإشبيلية، قبل أن ينحسر الوجود الإسلامي إلى غرناطة وما حولها حتى أواخر القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، أو حتّى رحيل الموريسكيّين النهائي سنة ١٦١٠. وكانت الأندلس، في العصور الأولى للإسلام، تشمل مقاطعات أخرى عدّة، بينها الثغر الأوسط الذي كان ساحة صراع باكرًا وأصبح يُعرف باسم قشتالة الجديدة بعد سقوط طُلَيْطِلة سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م؛ ومنها الثغر الغربي الممتدّ من قُلُمرية إلى اشبيلية مرورًا بماردة وبَطَلْيوس، وهو ما يُعرف باسم غرب الأندلس الذي بقي منه في البرتغاليّة اسم «الغرب» Algarve؛ كما نذكر أخيرًا الثغر الشرقي الذي يضمّ مناطق واسعة تمتدّ من سَرَقُسطة إلى بَلَنْسية ومُرسية، وقد عُرف باسم شرق الأندلس، وبهذا الثغر ارتبطت جزر البليار.

مالت الأبحاث التي وُضعت في الغرب حول تاريخ بلاد الأندلس وحضارتها إلى إبراز النواحي المهمّة وإلى تفصيل مختلف الظواهر. وكان من الطبيعي أن توضع دراسات خاصة حول البلاد التي بواسطتها دخلت أوروبا مع العالم الإسلامي في حالة اتصال واحتكاك، عن طريق المواجهات الحربيّة وعبر التفاعل الفكري والتبادل الثقافي. وقد بقي التفاعل الفكري قائمًا حتى في المرحلة التي كان فيها الإسلام ينكفئ أمام الهجمات الشماليّة. والممالك المسيحيّة التي احتلّت البلاد بعد ذلك عمدت إلى حفظ معارف يعود بعضها إلى العهود القديمة وكانت قد نُقلت من اليونانيّة أو السريانيّة إلى العربيّة، وهيَ تُصنَّف عادةً ضمن إرث الإسلام الإيبري. ومقابل ذلك لا تزال أرض الأندلس تحفظ آثارًا ومعالم هندسيّة إسلاميّة، وأبنية قائمة في قرطبة واشبيلية وغرناطة، فضلًا عمّا تركه الفنّ المدجّن بعد ذلك. وهذا ما ساعد الباحثين الغربيّين، منذ القرن التاسع عشر، على التعرّف إلى الفن الإسلامي.

ولم تكن فرادة هذا الوضع إلّا لتُبقي على فرادة أخرى جعلت الأندلس في القرون الوسطى يتماز عن المناطق الإسلاميّة القريبة أو البعيدة. وهذه الفرادة هيَ فرادة مقاطعة ترتبط ثقافيًا بالعالم اللاتيني، وقد حافظت جزئيًا على لغتها وروحها وعاداتها، مع تعريب وأسلمة واجهتهما صعوبات ناتجة عن المقاومة الشعبيّة. ولا شك في أنّ التعايش بين عناصر دخيلة وأخرى أصيلة لا يختلف في المبدأ عمّا اختبرته، في المرحلة عينها، أو بعد ذلك، في العالم الإسلامي، مقاطعات أخرى بعيدة عن المركز، وكذلك مناطق حدوديّة. وقد عرف الإسلام الفاتح كيف يتغذّى من المنابع المتنوّعة. لكنّ ضخامة المؤثّرات المتبادلة والمتزايدة على المداخل الأسبوية تجاوزت، بفضل الاجتياحات المتتالية، تلك التي نعثر على بيّناتها في المناطق البرتغالية والإسبانيّة.

برزت المشكلات السكّانيّة في الأندلس منذ البداية أكثر حدّة من سواها في أماكن أخرى. والسبب هو أن جيوش الفتح لم تكن عربيّة خالصة، بل كانت بربريّة أيضًا، وقد قامت المنافسة والخصومة بين الفريقين حول الاستئثار بالأماكن والأراضي التي احتلّت. ثم إنّ المهزومين المسيحيّين ظلّوا على مقربة من الممالك الإسبانيّة المسيحيّة التي كانت تمدّهم بالمساعدة عند الاقتضاء، وقد عُرفوا باسم المستعربين لأنهم تعرّبوا سريعًا مع حفاظهم على لغتهم الرومانيّة. حتى الذين

تقبّلوا الاسلام وعُرفوا باسم المولّدين لا الموالي، استمرّوا يتكلّمون لغتهم الرومانية ويكتبونها بالأحرف اللاتينيّة، وأحيانًا بأحرف عربية ولفظ روماني. وهذا ما جعل الإرث الثقافي الاسباني يترك بصماته على الثقافة العربيّة الأندلسيّة الجديدة. يضاف إلى ذلك أن الأمراء الأمويّين كوّنوا لهم حرسًا من الأرقّاء المحاربين، من أصل أوروبي، وهم الصقالبة الذين بقي على رأسهم قائد مسيحي، على الأقلّ حتى حدود سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢م.

ومهما تكن المشكلات التي نتجت عن عدم التجانس السكاني، فإنّ إقامة المسلمين في إسبانيا ساهمت في تطوّر مدني له طابعه الخاص. فقد أُنشئ عدد قليل من المدن الجديدة، منها ألمريّة وبَطَلْيوس ومرسية ومدينة سالم وقلعة أيوب، التي تشير أسماؤها الحاليّة إلى أصل عربي. والواقع أن تلك البلاد كانت، منذ العصور القديمة، عامرة بالمدن، والقسم الأكبر من المراكز السكنيّة التي كبرت بعد الفتح كان عبارة عن مدن قائمة، حافظت على وجودها وأسمائها. وهناك مدن أبقت على أسمائها اللاتينيّة مثل بلنسية وماردة وسرقسطة، ومدن أخرى حملت أسماء إيبريّة وظلّت فيها معالم أثريّة سابقة للإسلام، كمدن إشبيلية وطليطلة وقرطبة. وهذه الأخيرة اختارها الأمويّون عاصمة لهم، وأقاموا فيها قصرًا قرب كنيسة القديس منصور (Vincent) التي تقاسمها، في البدء، المسلمون والمسيحيّون، ثم انتزع المسلمون القسم المسيحي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وحوّلوا الكنيسة إلى مسجد جامع.

فالإنجازات المدنيّة كانت إذًا ثمرة تطوّر تاريخي متكامل دمجت تقاليد متنوّعة، وتلازمت مع الغنى الاقتصادي الذي تحقّق بفضل استخراج المعادن، والمحاصيل الزراعية، والنشاط الحرفيّ والتجاري، وذلك داخل بقعة جغرافيّة كثيفة ضخمة تتقاطعها سلاسل جبليّة وعرة ومجموعة أنهر وأودية. والتقسيمات الطبيعية للبلاد ساعدت على التمييز بين المقاطعات الكبيرة وعلى تفرّدها، في حين كانت التقسيمات الادارية قائمة على تنظيم عسكري دقيق، شبيه بالتقسيم السوري للدوائر أو الجند، لكنّ هذا التقسيم لم يقضِ على حيوية المحاور المحليّة.

جهد حكّام الأندلس الأقوياء، ابتداءً من الأوائل الذين ارتبطوا بسلطة الخلافة المركزيّة في الشرق، مرورًا بالامارة في قرطبة إبتداءً من العام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، ثمّ بالخلافة بين ٣١٦ و٣٩٩هـ/ ٩٢٨ و١٠٠٩م، في توفير البناء السياسي والإستراتيجي لدولتهم المركزيّة، وكان عليهم أن يواجهوا دائمًا مصاعب داخليّة قويّة أبرزها الثورات ومظاهر التمرّد والتفكّك.

وقفت الخصوصيات المتنوّعة حاجزًا في وجه الازدهار الذي تجلّى في أحلى صوره في الانجازات التي حققها عبدالرحمٰن الثالث خلال ملكه الطويل، وذلك في الأبنية التي أقامها داخل عاصمته، وفي مدينة الزهراء التي شيّدها لنفسه وجعلها مقرًّا له، كما في ازدهار الحياة الفكريّة والأدبيّة. فقد انفتح الأندلسيّون على الثقافة العبّاسيّة البغداديّة بعدما وفد من المشرق الموسيقي والمغنّي المشهور زرياب؛ وعرف الأندلس عددًا من الشعراء والكتّاب منهم إبن عبد ربّه. وكان التعمّق في التأمّل الديني، الصوفي والفلسفي، يتّسم بالتقليديّة والشرعويّة ويمثّل مواقف المدرسة المالكيّة المنتشرة هناك، وهذا ما نقع عليه في أبحاث عدد من المفكّرين كابن مسرّة.

إستمرّ الازدهار في الذروة على عهد الحَكَم الثاني، وبعد ذلك في ظلّ الحاجب المنصور، ثم حلّت الفوضى والصعوبات من كل نوع. وكانت النتيجة قيام عدد من الدويلات شبه المستقلّة، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد، تتصارع في ما بينها سعيًا للتوسّع والتفوّق، وتعتمد كلّ منها على مدينة كبيرة أو على منطقة، وتربط مصيرها بمصير أمير طموح من الأمراء العرب أو البربر الذين عرفوا باسم ملوك الطوائف. نذكر من بينهم الحمّوديّين في مالقة، والعبّاديّين في إشبيلية، وبني زيري في غرناطة، والجَهْوريّين في قرطبة، وبني الأفطس في بَطَلْيوس، وبني ذي النون في طليطلة، والعامريّين في بلنسية، والتُجيبيّين وبني هود في سرقسطة. وفي هذا الوقت راحت المساحة الإسلاميّة تنحسر، في حين أنّه لم يكن خارج سلطة الإسلام من قبل سوى المناطق الواقعة على أقدام جبال البيرينيه وبلاد الباسك وسواحل كَنْتَبْريا. وهذه المناطق نفسها

تعرّضت، غير مرّة، لحملات وغزوات وصل بعضها إلى فرنسا، لم تخفّ حدّتها إلّا بعد معركة بواتييه سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م. وقد أدّى سقوط مدينة طليطلة بيد الملك القشتالي ألفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م إلى تدخّل المرابطين الناجح ومفجع معًا. فقد نزلوا من المغرب لينتصروا على ملك قشتالة في معركة الزلّاقة، ولكنّهم قضوا بعد ذلك على ملوك الطوائف من أجل ضمّ ممالكهم.

على الرغم من الوحدة التي استعيدت ظاهرًا، فقد بدأت بلاد الأندلس عهدًا يُعدّ الأكثر اضطرابًا. فحروب الاسترداد ازدادت ضغطًا من كلّ جهة، والموحّدون الذين بسطوا سلطتهم على الأندلس مكان المرابطين بعد القضاء عليهم في المغرب، لم يتوصّلوا إلى إيقاف الانحسار برغم انتصارهم في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م. والهزيمة التي مني بها الموحّدون في معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م أنذرت بقرب سقوط مدن الأندلس: قرطبة سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، وبلنسية سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، وإشبيلية سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م. والطريف أنّ هذه الكوارث المتكرّرة التي كرّست نهاية عهد شهد قتالًا متواصلًا بين الأمراء المحلّيين، إلى جانب ثقل الضغط على الإسلام الأندلسي، كانت حافزًا على قيام نشاط فنّي وأدبيّ وفلسفيّ من نوعيّة ممتازة.

فإلى جانب الفقهاء الذين كثر عددهم، برزت شخصيّات ركّزت على العلوم الفلسفيّة وعلى الصوفيّة، كابن باجه، وابن طفيل، وابن زُهر، وابن رشد، وأبي مَدْين وابن العربي، وابن سبعين المُرْسي. وإلى جانب أعمالهم الفكريّة المتنوّعة، اشتُهر هؤلاء بثقافة شعريّة شعبيّة وخاصّة. ولا بدّ كذلك من ذكر أسماء الأمراء الشعراء كالمعتمد بن عبّاد وندمائه، ومن ذكر الأدباء أصحاب الموضوعات المتعدّدة كابن حزم، والشعراء المتجوّلين المجّان كابن قُزمان. ثمّ إنّ العاطفة المتأجّجة التي قلّما نقع على مثيلها في القصائد العربيّة الأخرى، ودقّة وصف الطبيعة بتفاصيلها، والتعبير عن الحب بتقلّباته وأنواعه، كلّها جاءت تتردّد في نظم غنائي قائم على الموشّحات والأزجال، مع تزيين العربيّة بألفاظ أجنبيّة من اللغة الرومانيّة. إلّا أن هذا الإفراط في اللباقة وهذا التفنّن من كل نوع ترافقا مع حضارة راحت تضعف وتنكمش، برغم محاولات مدّ الوجود الإسلامي قرنين إضافيين.

أمّا مملكة غرناطة الإسلامية التي احتمت وراء الجبال الضخمة وأحاطها المتوسّط من جبل طارق إلى ألمرية، فإنّها في الواقع كانت في حالة حصار، ولم يستطع العالم الإسلامي حمايتها إلّا بصعوبة، وسط المواجهات الحربيّة والمؤامرات السياسيّة. ومع ذلك بدا الملوك النصريّون مميّزين في نظر العالم الغربي المعاصر، وأصحاب شهرة وإشراق، كما استطاعوا أن يكونوا حُماة العلوم والآداب. وفي المرحلة الأخيرة من ذلك التطوّر السائر في اتّجاه لا يمكن تغييره، دوّن المؤرّخ والعالم الاجتماعي ابن خلدون مشاهداته وملاحظاته، كما دوّن ابن الخطيب للحقبة نفسها. أمّا الرمز الباقي، وهو قصر الحمراء على مرتفع غرناطة، فلا يكفّ عن إثارة الحنين، وبعث الذكريات التي لا تخلو من الألم.

◄ راجع المستندات ٨ و١٠ و١١ و١٥ و١٦ و٥٠ و٥١ و٦٩.

أندلوسيا، اسم مقاطعة حاليّة في جنوب إسبانيا، تنطبع بعمق بالآثار والذكريات التي تركتها السيطرة الإسلاميّة التي دامت أكثر من سبعة قرون. والاسم الذي تحمله اليوم مقاطعة «بُتيكا» الرومانيّة مشتقّ من اسم الأندلس العربي الذي أُطلق في النهاية على المملكة النّصْريّة الإسلاميّة وحدها، وهي المملكة التي استمرّت قائمة حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. وهذه المقاطعة القريبة من المغرب عرفت الفتح العربي قبل سواها، بعد أن اجتاحها المسلمون منذ سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م، عن طريق [جزيرة] طريف كما عن طريق جبل طارق. وضمّت بعد ذلك أكثر المراكز الإسلاميّة أهميّة، ولا سيّما قرطبة وإشبيلية، إلى جانب مراكز أخرى شكّلت قلاعًا منيعة مثل جيّان، أو مرافئ محصّنة مثل ولبة والجزيرة [الخضراء] ومالقة وألمرية، والتي كان لها، على مرّ العصور، دورها في الدفاع عن الأندلس.

أندونيسيا أو **الهند الشرقيّة**، مجموعة واسعة من الأراضي في جنوب شرقي آسيا، تصل بين أرخبيلات

عدّة والجزر الكبرى: سومطره وجافا وبورنيو. يتوزّع سكّانها ذوو الغالبية الإسلامية في جمهوريّة اندونيسيا، والاتّحاد الماليزي، وسلطنة بروناي.

١- إنّ الاتّصالات الأولى بين هذه المناطق والمسلمين، تُلْتُ تطوّر المواصلات البحرية التي حصلت في القرون الوسطى بين العراق، على عهد العباسيّين، والصين؛ ويبدو أنّها تعود، على أقلّ تقدير، إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، اذا استندنا إلى النقوش الكتابيّة. إنّ الدول الإسلاميّة الأولى في سومطره تعود إلى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بحسب المصادر المكتوبة. وفي ما بعد، ظهرت في جزيرة جاوه، في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، دول أخرى إسلاميّة يعود تأسيسها إلى تسعة رؤساء دينيّين اعتُبروا مرسَلين إلهيّين. ونشوء هذه الجماعات الإسلاميّة مرتبط، من جهة أخرى، بنشاطات تجاريّة إسلاميّة كانت قائمة بين الهند والشرق الأقصى، ترافقت مع أهداف سياسيّة.

عرف التوسّع الإسلامي تقدّماً جديداً في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، في جاوه حيث ازدهرت أربعة مراكز مهمّة. وفي الوقت نفسه، سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م، استولى عدد من السلاطين على بروناي، وعلى أراضٍ أخرى في بورنيو. وفي القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد، توسّعت ممالك سومطره، لا سيّما حول مرفأ أتجهْ حيث تجمّع المسلمون قبل ذلك بقرن لمواجهة مشاريع البرتغاليّين. وفرض السلطان «اسكندر مودا» (١٦٠٧-١٦٣٦م)، أو الاسكندر الجديد، سلطته على مراكز تجاريّة عدّة في شمال أو غرب الجزيرة، كما فرض احتكار البهار، لكن من دون أن يتمكّن من الاستيلاء على مَلَقا، التي يملكها البرتغاليّون. وفي جاوه، بَسط أيضًا حكّام الداخل المسلمون، في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، سلطتَهم على كامل البلاد تقريباً، باستثناء القلعة الهولنديّة باتافيا/جاكرتا ومرفأ بانتين. ورغم ذلك، وفي نهاية القرن، تراجع الازدهار التجاري الإسلامي وتقسّمت السلطنات، في حين كانت السيطرة على التبادل التجاري تنتقل إلى الشركة الهولنديّة للهند الشرقيّة.

خلال المرحلة الممتدّة بين القرنين التاسع والحادي عشر للهجرة/الخامس عشر والسابع عشر للميلاد، كان الإسلام يترسّخ اذًا في اندونيسيا، سواء في الدول التي يسيطر عليها اقتصاد زراعي أو في المدن المرفئيّة المختلطة التي تستقبل الحركة التجاريّة. وقد اعتُمد الحرف العربي لكتابة اللغة الجاوانيّة، واتّبع المسلمون مبادئ المذهب الشافعي في حياتهم، مع التزام جزئيّ بعادات البلاد: فالإسلام الأندونيسي يحتفظ، حتّى اليوم، بطابع خاص يتميّز بأهميّة التصوّف، وباستمرار تقاليد محليّة كثيرة.

في القرن التاسع عشر وبداية العشرين، نظّم الهولنديّون ما كانوا يدعونه الهند الهولنديّة، لكنّ ذلك الإجراء لم يمرّ بسلام، بل حصلت ثورات محليّة متتابعة، كان في أساس بعضها مسلمون أصوليّون يستلهمون الحركة الوهّابية التي كانت تنتشر في الجزيرة العربيّة. وشيئاً فشيئاً، تعاظمت كذلك الحركات الوطنيّة التي نشأت قبل الحرب العالميّة الأولى وشارك فيها المسلمون.

هذه الحركات استمرّت في التنامي حتى الحرب العالميّة الثانية، وأدّت بعد الاحتلال الياباني (بين ١٩٤٢ و١٩٤٥)، إلى إعلان الإستقلال، في ١٧ آب ١٩٤٥، ثمّ إلى تأسيس الجمهوريّة الاندونيسيّة الموحّدة، في آب ١٩٥٠، وبذلك وُضع حدّ للنظام الفيدرالي الذي كان الهولنديّون قد حاولوا إرساءه. ومع ذلك، فإنّ ثلاث دول واقعة في جزيرة بورنيو ولم تكن جزءًا من الهند الهولنديّة القديمة، اختارت إمّا الانضمام إلى الاتّحاد الماليزي، وإمّا البقاء مستقلة، وعلى الحياد بالنسبة إلى القوى المجاورة، كما هي حال سلطنة بروناي.

٢- **الجمهوريّة الأندونيسيّة الحاليّة**، مساحتها ١٩١٣٠٠٠ كلم^2، وعاصمتها جاكرتا، تضمّ في دولتها المستقلّة، مجموعة الجزر التي تحمل الاسم عينه، والتي يسيطر فيها المسلمون سيطرة شبه كاملة، إذ يشكّلون، من دون شك، ثمانين بالمئة من السكان الذين يزيد عددهم عن ١٨٠ مليون نسمة.

وهي تجاور، من جهة، اتّحاد ماليزيا ذا الأقليّة الإسلامية، وتتقاسم معه جزيرة بورنيو الواسعة؛ ومن

جهة أخرى تمتدّ أرخبيلاتها بين المحيط الهندي وغينيا الجديدة التي تتقاسمها مع بابوازيا. إنّ نظامها الرئاسي المتسلّط تبعَ مرحلةً تميّزت بالتجربة البرلمانيّة، بين ١٩٥٠ و١٩٥٧، بعد أن نشأت تلك البلاد، في آب ١٩٥٠، من الممتلكات الهولنديّة السابقة في المنطقة. وتميّزت في هذه المرحلة برئيسها المسلم سوكارنو الذي ألغى كلّ وجود هولندي، واتّبع خطًّا معادياً للإمبرياليّة، يتناسب مع التوجّهات التي تأكّدت في مؤتمر باندونغ سنة ١٩٥٥، ودشّن، على أثر ثورة، مرحلة «الديموقراطيّة الموجّهة»، مُلغياً البرلمان، ومؤمّماً في الوقت عينه شركات النفط، ومحقّقاً الإصلاح الزراعي. إلّا أنّ ثورة جديدة حملت الجنرال سوهارتو إلى الحكم، سنة ١٩٦٥، وقد استند في حكمه إلى الجيش وإلى الأوساط الإسلاميّة المحافظة.

إنّ الإسلام الذي يحتلّ في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في أندونيسيا مركز الصدارة، يتّسم بملامح خاصة، بحيث إنّ كثيرين من المسلمين حافظوا على ممارسات خاصة بهم، تمثّل إحياءً حقيقيًّا لمرحلة ما قبل الإسلام. فالفرق الصوفيّة المرتبطة بتصوّف ذي ميول توفيقيّة، ما تزال زاخرة بالحياة، في حين أن الفقهاء أتباع المذهب الشافعي يبدون أيضًا نشيطين. هذه الحالة تفسّر السبب الذي من أجله لم تعلن أندونيسيا أنّها دولة «إسلاميّة»، بل دولة تعترف بجميع المذاهب الدينيّة المتواجدة على أراضيها.

◄ راجع المستند رقم ٣٠.

الإنسان الكامل، تعبير عربي واضح المعنى تراد به، في الاستعمال العام، الدلالة على «الإنسان المثال» أو «المؤمن الحقّ». وهذا التعبير ترفده مفاهيم أكثر دقّة، طوّرتها أفكار إسلاميّة تستند إلى أساس معرفيّ، وتجد نواتها في النصّ القرآني.

أقدم هذه المواقف دافع عنها، في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، متصوّفون أمثال ابن العربي والجيلي، قبل أن تلقى تأييداً أوسع في مرحلة لاحقة. وأكثرها وضوحاً نظريّة ابن العربي الذي يرى أنّ الإنسان، وهو ممثّل الله على الأرض بحسب القرآن، مكلّف بالحماية الإلهيّة للعالم. وفي الواقع، فإنّ الله خلق الإنسان على صورته، وجعل الإنسان الكامل روح العالم الذي تجسّد في النبي محمد (ﷺ). فمثال الإنسانيّة ليس آدم، بل النبي محمّد (ﷺ) الذي أنعم الله عليه «بالكلمات الكونيّة التي هي محتوى الأسماء التي علّمها اللهُ آدم». أمّا الجيلي، فقد جعل الإنسان الكامل «القطب الذي تدور حوله أفلاك الوجود»، وهو واحد لكنّه يتراءى بأشكال وأسماء مختلفة، وواحد من هذه الأشكال تمثّل في النبي محمد (ﷺ).

الأنسجة الإسلاميّة، أنسجة غالبًا ما طُبعت عليها رسوم كما أنّها مقصّبة ومطرّزة. وهي صناعة حرفيّة كانت منتشرة في العصور الوسطى اشتهرت بمنتجاتها الفخمة وبجودتها، واستخدمت في المبادلات التجاريّة البعيدة.

اعتُمدت هذه الأنسجة في التبادل التجاري، وغالبًا ما صُدّرت إلى ممالك وأمبراطوريّات غير إسلاميّة. فكانت، كما السجاد النفيس المنسوج في المناطق عينها، رمز أُبّهة وترف؛ كما مثّلت أيضًا، في أوروبا المسيحيّة، الحضارة التي أنتجتها وكرّستها لاستعمال الملوك. إنّ البروكار الحريري الذي احتُفظ ببعض نماذج منه في كاتدرائيّات الغرب الأوروبي، أو نُقلت رسوم بعضه إلى لوحات في العصور الوسطى وعصر النهضة، غالبًا ما كان يُصنَع لتزيين صالات القصور بالطنافس؛ حيث كانت تنافس، من حيث الفخامة، السجاد والأرائك.

وكانت تخاط من هذه الأنسجة أيضًا ثياب الملوك الفخمة، وبزّات حرّاسهم، وبزّات كبار الموظّفين وأصحاب الرتب العالية، وكذلك ثياب سائر الشخصيّات التي تشارك في الاستقبالات الرسميّة. إنّ الدور الذي كانت تلعبه هذه الملابس في المراسم تنامى مع التقليد الخليفي الذي برز مع الخلفاء العبّاسيّين الأوائل، والذي كان يقوم على الإنعام على الأشخاص المراد مكافأتهم أو تكريمهم بمنحهم خِلَع شرف تُعرف بالـ«طراز»، وهي مزيّنة بكتابات. هذه القواعد والتقاليد في اللباس أخذت طريقها إلى أوساط الطبقات الميسورة، ولكن على مستوى أدنى، بحيث كان الشخص يشتري، لإبراز مكانته وثروته، ثيابًا فاخرة

أو أثاثًا مصنوعًا من أنسجة باهظة الثمن حافلة بالزينة، تناسب الذوق السائد وأساليب الزخرف السائدة في كل عصر.

وكانت بعض المحترفات (دور الطراز) التي تلبّي هذه الحاجات محترفات رسميّة تخضع لإشراف بطانة الحاكم مباشرة. لكنّها غالبًا ما كانت منتشرة في أحياء صناعيّة أو تجاريّة في المدن بحيث تؤمّن العمل لأيدٍ عاملة كثيرة، متخصّصة إلى أقصى حدّ، تلبية للمهمّات المتعاقبة التي يقتضيها تحويل المواد الخام إلى إنجازات فنيّة. من هذه المهام الغزل والصباغة، فضلًا عن صناعة الأقمشة التي كانت تتفاوت في الرفاهة بحسب توجّهها، إمّا نحو تلبية حاجات عامّة الناس، وإمّا نحوَ تلبية رغبات الشخصيّات النافذة أو الغنيّة من حيث جودة القماش، والعمرات والبزّات الفاخرة. وفي حين كانت فنون القماش تقتضي حميّة عمّال مهرة، عندما يكون المطلوب إنتاج قطع قيّمة، فإنّ تقنيّات بدائيّة استمرّت في كل النواحي، كما كانت الحال بالنسبة إلى صناعة السجاد، في المناطق النائية، كما في داخل البيوت الفقيرة في أصغر القرى، وكذلك في خيم البدو، لتأمين الأغطية والثياب للعائلات. كان الصوف، في أغلب الأحيان، هو المستعمل في الحياكة وكان يشكل مادّةً أوّليّة يؤمّنها إقتصاد عائلي يعتمد على ما توفره قطعان الغنم والماعز والإبل. وكانت الأقمشة، وأحيانًا اللّبد، تسعى وراء المتانة التي تتطلّبها صناعة بعض الأصناف، كصناعة أكياس البضائع مثلًا أو صناعة السجّاد. وقد شكّلت الأقمشة مادّةً لتجارة حقيقيّة نشرت نسيج المغرب في أماكن بعيدة، وفي ما بعد، النسيج التركي المعروف بالكليم. أما نتاج المحترفات الفخمة - التي شكّلت شالات كشمير نموذجًا متأخّرًا لنسيجها وأفادت من ازدهار التجارة الذي عمّ الامبراطوريّة المغوليّة، واشتهرت حتّى في الغرب الأوروبي خلال القرن التاسع عشر - فكانت في أساس مبادلات تجاريّة أكثر اتساعًا وشمولًا.

كان القطن أبرز المواد الطبيعية التي حيكت منها الأنسجة بعناية ومهارة، وقد ازداد انتشار زراعته خلال العصور، وتلاه الكتّان والحرير اللذين تزايد إنتاجهما.

وقد ساهم القطن والقطنيات بألوانها الجذّابة في ازدهار مقاطعات بلاد الصُغد وما وراء النهر وخراسان التي كانت تغذّي، عبر إيران - وإيران هذه كانت مشهورة بأساليب الطباعة على القماش التي كانت تكرّر زخارف أنيقة - تجارة تتّجه نحو البلاد الإسلاميّة المتوسّطية ومرافئها المنفتحة على أوروبا. واتّجهت هذه التجارة، في ما بعد، إلى تبريز وطرابزون ومرافئ البحر الأسود. بينما أصبحت، في نهاية العصور الوسطى، كل من بلاد ما بين النهرين العليا، والأناضول وسوريا ومصر مناطق لزراعة القطن. وكان سكّان تلك المناطق يصنعونه بأنفسهم، ولا سيّما في سوريا، وتحديدًا في حلب، بحيث أنّ تصدير القطن المصنّع ساهم بشكل ملحوظ في ثراء الدولة العثمانيّة حتى نهاية القرن الثامن عشر.

وقد شهد مطلع القرن العشرين بقايا لتلك الحِرَف مع استمرار رواج محلّي لبعض الأقمشة الصلبة واللمّاعة ذات الخطوط المتعدّدة الألوان، وكانت تدخل في حبكتها القطنيّة خيوط حريريّة، وقد استمرّت هذه الصناعة النسيجية التقليديّة زمنًا طويلًا في سوريا الشماليّة.

أمّا الأقمشة الكتّانيّة التي صنعت شهرة المناطق التي كانت تهتمّ بزراعة الكتّان وحياكته، فكانت، في القرون الوسطى، قليلة الوجود. من هذه المناطق، منطقة البصرة في العراق، وبعض المناطق المصريّة مثل تِنّيس في دلتا النيل.

وكان الحرير أثمن إنتاج البلاد الإسلاميّة، وقد إتُّجر به أحيانًا خامًا قبل أن يتمّ نسجه بطريقة مبدعة. وكانت الصين، في ما مضى، منذ القدم حتى العهد الساساني، تغذّي التبادل التجاري بالحرير شرقًا وغربًا على امتداد طريق القوافل الشهيرة التي تعبر آسيا الوسطى وإيران. وقد حافظ هذا المحور الإقتصادي على دور داخل الأمبراطوريّة العربيّة-الإسلاميّة عندما فقدت الصين احتكارها تربية دودة الحرير، وعندما تطوّرت أعمال الغزل والنسيج في المقاطعات الشرقيّة للأمبراطوريّة، ما ساهم أوّلًا في إثراء بُخارى في العهد السّاماني، ومن ثمّ في شهرة الأنسجة الحريريّة البُويهيّة التي شهدت على كمال زخرفتها في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، بعضُ القطع التي عُثر عليها في

مدينة الرّيّ الأثرية. وكانت آنذاك بغداد والقاهرة الفاطميّة تشكّلان أحدى الأسواق المركزيّة لهذه الصناعة الحرفيّة التي استمرّت مزاولتها في المناطق الإيرانيّة، وكانت قد انتقلت أيضًا إلى مصر وسوريا، بل إنّها وصلت إلى أبعد منهما، فشهدناها تزدهر في قصور حكّام الأندلس المترفة؛ وأيضًا في صقلّية حيث عمل الملوك النورمان على المحافظة على التقاليد الفنّيّة والحرفيّة السابقة.

وتركّزت تربية دود الحرير في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد في الأناضول، خلال حكم سلاجقة الروم وفي عهد خلفائهم. وهناك احتوت قونية ثمّ بورسّه وأخيرًا اسطنبول على محترفات نسيج مميّزة. وهكذا نشبت معارك حقيقيّة بين السلاطين الأتراك والصّفويين من أجل ازدهار الإنتاج المدهش ومراقبته: الأنسجة الحريريّة الفارسيّة من جهة، والبروكار والمخمل العثمانيّين من جهة ثانية. وقد غدت تلك الحقبة مجالًا لتألّق أنسجة وملابس في بلاطات ممثّلي حكّام السلاطين، نجد العديد منها اليوم في مجموعات المتاحف. ومن أسباب ازدهار مرفأ إزمير إعتماده على تصدير السلع إلى الغرب الذي كان يتهيّأ آنذاك لتطوير الأساليب المقتبسة والاعتماد عليها في صناعته. وبتأثير هذه المنافسة، لم يعد الإنتاج النسيجي الإسلامي الفخم مربحًا، وكان قد احتلّ في ما مضى مكانًا بالغ الأهميّة في ازدهار فنون العالم الإسلامي التي وفّرت للتجّار الأوروبيّين في العصور الوسطى، ولأمدٍ بعيد، سلعًا قيّمة قابلة للنقل، زادت في ثروائهم.

الأنصار، هم الذين ناصروا النبي محمّد ﷺ من أبناء يثرب التي أصبحت تعرف باسم المدينة المنوّرة.

وينتمي الأنصار أساسًا إلى قبيلتَي الأوس والخزرج اللتين تعودان إلى القحطانيّة اليمنيّة، فهم من عرب الجنوب الذين سكنوا واحة يثرب منذ زمن طويل. وقد بايعوا نبيّ الإسلام (ﷺ) قبل الهجرة، في العقبة، في «بيعة النساء» و«بيعة الحرب»، ثم ارتبطوا بالمهاجرين الذين ارتحلوا عن مكة مع النبيّ (ﷺ). بذلك تأسّست في المدينة قواعد دولة جديدة لم يُعرَف فيها الأنصار إلّا بصفتهم الإسلاميّة.

والمنافسة بين الأنصار والمهاجرين، في حياة الرسول (ﷺ)، كانت قائمة على الرغم من سهره على تهدئتها، وهي التي طبعت، بعد وفاته، بداية الخلافة. وقد كان للأنصار دورهم في الصعوبات التي برزت خلال عملية انتقال السلطة العليا وتنظيم الخلافة.

الأنصاري الهروي، أبو اسماعيل عبدالله بن محمود بن علي ٣٩٦-٤٨١هـ/١٠٠٦-١٠٨٩م، متكلّم ومتصوّف ايراني، ومن الأولياء المكرّمين في هراة حيث قبره.

ولد في هذه المدينة الخراسانية وتلقّى علومه على أيدي علماء شافعيّين، ثمّ التحق بالمذهب الحنبلي. وقد أصبح عبدالله الأنصاري من أهمّ المدافعين عن المبادئ التقليديّة، إلى جانب انصرافه إلى التصوّف. وفي سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، حجّ إلى مكّة المكرّمة، وعرّج على بغداد حيث التقى علماءها المختلفين، ثمّ عاد إلى هراة حيث انصرف إلى تعليم تلامذه وإلى المشاركة في المناقشات الفقهيّة والكلاميّة متصدّيًا للتعقّليّين. وقد سُمّي في حياته باسم شيخ الإسلام، وترك من المؤلّفات، إلى جانب كُتبٍ في الصوفيّة وضعها بالنثر الشعري وبالشعر الفارسي، دليلًا روحيًّا أسماه «منازل السائرين»، كما ترك مجموعة مناظرات ضد أصحاب علم الكلام. وفي سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م، بعد مضي زمن طويل على وفاته، وبأمر من الملك التّيموريّ شاهرُخ، شيّد له ضريح تحوّل إلى مقصد للزيارات التقويّة قرب هراة، وأمّن شهرة قرية «غازُرغاه» حيث أقام الأنصاري خانقاه.

الإنصاف، العدالة، مفهوم تردّد تكراراً في الحضارة الإسلاميّة والعالم الإسلامي. وقد صبغ هذا المفهوم تطوّر الفقه والفكر، بشكلٍ عام.

باسم الإنصاف، كان القضاة يحسمون الخصومات بين الأفراد؛ كما اعتمد، على أساسه، فقهاء المدرسة الحنفيّة بعض الحلول لمسائل قضائيّة. فالطريقة الخاصة بهذه المدرسة المسماة «إستحسان»، أو البحث عن الحلّ الأفضل، غالباً ما كانت ترتكز على هذا المفهوم الذي تبنّاه اتباع الفلسفة في التفكير والتطبيق؛ وبالنسبة إليهم يتحدّر الإنصاف من العدالة ويحدّدونه على أنّه الحياد الواجب على رجل العلم.

أنطاكية (الجمهوريّة التركيّة)، هي مدينة «أنْتيوش» (Antioche) في زمن السلوقيّين والرومان، وهي اليوم من المدن المهمّة في مقاطعة «هتاي»، سنجق الاسكندرون سابقًا. ولا يُذكَر بطء نشاطها الحالي، إلّا من بُعدٍ، بالشهرة التي تمتّعت بها في العهود القديمة وفي العصور الإسلاميّة الأولى.

هذه الحاضرة الكبيرة في العهدين الهلّينستي والروماني جمعت الازدهار الفكريّ والتجاري، واغتنت من محاصيل المناطق السوريّة والأسيويّة، ومن نشاط مرفئها: سلوقية، الذي نافس، بحركته وضخامة أبنيته، وأيضًا بغنى سكّانه ولباقتهم، مرفأ الإسكندريّة. إلّا أنّها تعرّضت بعد ذلك للغزوات الفارسيّة ثمّ للزلازل الأرضيّة. ولم يستطع الترميم الموقّت الذي أجراه يوستنيانوس أن يعيد إليها وهجها السابق. وقد كانت مدينة مهدّمة فقيرة عندما انتزعها العرب من البيزنطيّين سنة ١٦هـ/٦٣٧م، خلال الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى وألحقوها بالخلافة. وشيئًا فشيئًا خسرت، بانحطاط متواصل، دورها كمنفذ تجاري لسوريا، لتتحوّل إلى مكان محصّن تتنازعه بيزنطية مع الدولة الإسلاميّة.

تحوّلت أنطاكية في العصر العبّاسي إلى واحدة من المدن الحامية، أي العواصم، المواجهة للأناضول حتى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م. ثمّ انقلبت قلعة بيزنطيّة انتزعها السلاجقة سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م. ووقعت بعد ذلك في أيدي الفرنج مع الحملة الصليبيّة الأولى سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، وبقيت نحوًا من قرنين مركز إمارة لاتينيّة. ولم يتسنّ لها بعد ذلك أن تصبح من جديد مستودعًا للبضائع القادمة من الداخل الشرقيّ، ولا للمحاصيل الزراعيّة للبلدان المجاورة. وعودتها إلى الهدوء في ظلّ حكم المماليك ثمّ العثمانيّين لم تترافق مع استعادة الازدهار، بعد أن نهبها السلطان بيبرس وأعادها إلى الإسلام سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م. وبقيت أنطاكية تابعة لحلب وفي مرتبة ثانية من حيث الأهميّة، واستمرّت في حالة خمول بعيدًا من التيّارات الاقتصاديّة الجديدة. كما أنها لم تفد شيئًا من اختيارها مركزًا إداريًّا لسنجق الاسكندرون سنة ١٩٣٨، في نهاية الانتداب الفرنسي الذي عقب الحرب العالميّة الأولى. ثمّ إنّ إلحاق هذه المنطقة بتركيا سنة ١٩٣٩ زاد من معوقات تطوّرها، إذ باتت محصورة ضمن مساحة ضيقة، بين البحر والجمهوريّة العربيّة السوريّة، في منطقة مداخيلها محدودة.

◄ راجع المستندات ٨، ٩، ١٢، ١٨.

أنطاليا (الجمهوريّة التركيّة)، «أداليا» في التركيّة العثمانية، و«ستاليا» في المصادر الأوروبيّة: مدينة بحريّة في القسم الجنوبي من الأناضول، يلقى تطوّرها الاقتصادي والديمغرافي صداه القويّ في عصرنا الحالي، ويعكس ما كانت عليه من ازدهار زراعي وتجاري في القرون الوسطى.

هذه المدينة التي تأسّست في العهود القديمة تحت اسم «أتاليا»، دخلت الإسلام سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م بعدما دخلها السلجوقي الرومي «كَيْخُسرو الأوّل». ولكنّها لم تخسر شيئًا من أهميّتها بعد أن كانت مرفأً مهمًّا للبحريّة البيزنطيّة، ثمّ مركزًا تجاريًّا في عهد الصليبيّين. وهي كمعبر حتميّ للحركة التجاريّة التي كانت تجمع بين قونية ومصر أو سوريا المملوكيّة، وكذلك بين الشرق والبلدان المسيحيّة الغربيّة بواسطة جنوى أو البندقيّة، لم تملك الخصائص العسكريّة التي توافرت لمدينة «ألايا» المجاورة والمحصّنة. ولكنّها كانت تملك أفضل وسائل التواصل مع المناطق الداخليّة بواسطة عددٍ من طرق القوافل السالكة. وكانت أنطاليا كذلك مركزًا لمنطقة سهليّة خصبة وغنيّة بالمياه، وهي المنطقة التي كانت تُعرف قديمًا باسم «بَمْفيليا»، وقد أمّن لها موقعها، على أقدام سلسلة جبال طوروس، إزدهارًا على عهد إمارة أسرة تركمانيّة تتفرّع من الحميديّين وتُعرف باسم «تيكيوغولاري». ويرجع الفضل إلى هؤلاء الأمراء المحليّين الذين حكموا في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، والذين عاش في كنفهم مؤيّدون من الشيعة، في وجود عدد من الأبنية لا يزال قائمًا. منها مجموعة من الأضرحة والمدارس، ومسجد جامع تعلوه قباب متعدّدة بُني قرب المئذنة السلجوقيّة التي تُعرف باسم «المئذنة المخدّدة».

إنّ موقع أنطاليا الجغرافي ساعدها، على أثر سقوطها النهائي في أيدي العثمانيّين سنة ٨٢٦هـ/

١٤٢٣م، على أن تأخذ مركزها الهادئ في قلب الأمبراطورية. والتقدم الزراعي الحديث الذي أدّى إلى نموّ موازٍ للمدينة، لم يشوّه جمال مناظرها ولا أساء إلى معالمها الأثرية الباقية.

◄ راجع المستندات ٢٠، ٢١، ٢٦.

أنقرة (الجمهوريّة التركيّة)، **أنقيره أو أنقوريه عند** العرب، حاضرة حديثة ذات ازدهار ديمغرافي وصناعي كبير، قامت مكان محلّة كانت مهملة ولا أهمية لها في الأناضول خلال العصور الوسطى.

١ - تقع مدينة أنقره على ملتقى طرق تجاريّة، وقد حلّت مكان مدينة «أنسيرا» القديمة بعد نهبها سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م من قبل الجيوش العربيّة - الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى. وبقيت منذ ذلك التاريخ عرضة للحروب والغزوات التي كانت تجتاح منطقة «غلاطية» المتنازع عليها. وبقيت منطقة نزاع بين البيزنطيّين والعبّاسيّين، إلى أن احتلّتها القبائل التركية بعد معركة ملازكرت/ مانتزيكرت سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م. ثم تحوّلت قلعتها إلى ساحة صراع بين الدانِشْمنديّين وسلاجقة الروم، ثمّ بين الإيلخانيّين والكرميانيّين والإرتنيّين والعثمانيّين. ولم يبقَ من تلك المرحلة المضطربة إلا معالم أثرية قليلة، منها منبر من الخشب المحفور في مسجد علاء الدين يعود تاريخه إلى سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م، وخصوصًا المسجد ذو الهيكل الخشبي المعروف باسم مسجد أرسلان هان (خان)، وقد شُيد في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد. أمّا الأبنية العثمانيّة التي قامت بعد ذلك فقليلة، على الرغم من أنّ اقتصاد تلك المنطقة الجدبة تحسّن بموارد طبيعية أهمّها تطوير حياكة نوع من الصوف يُعرف باسم «أنقريّة».

هذا الماضي الذي كانت خلاله أنقره مدينة صغيرة محصّنة على ملتقى طرق القوافل، حيث المشاركة في الحياة السياسيّة انحصرت بروابط التجّار وبالفرق الصوفيّة، لم يكن ليُنبئ بما ستتحوّل إليه في القرن العشرين، عندما جعلها مؤسّس تركيا الحديثة عاصمة للبلاد. وقد أصبح النموّ الديمغرافي والاقتصادي لتلك المدينة متعلّقًا بنشاطاتها كمركز إداري، وبما تمثّله من رمز وطني. وتطوّرُ أنقرة، عن طريق إضافة أحياء ممتدّة، جعلها تكبر وتنمو على نسق المدن الأوروبيّة المعاصرة، إلى أن تدفّق إليها أبناء الريف الذين غادروا قراهم وبسطوا أحياءهم حول المدينة دونما تخطيط. لم يكن شيءٌ فيها يُشير إلى هيمنة الإسلام التقليدي، لأنّ هذا الاسلام لم تسمح له الظروف للتأثير على تخطيط المدينة أو على نمط عيش السكان، لا سيّما إنّ هؤلاء ينتمون بمعظمهم الى الطبقة الحاكمة.

٢ - معركة أنقرة، في التاسع عشر من ذي الحجة ٨٠٤هـ/ ٢٠ تموز ١٤٠٢م، أسفرت عن هزيمة الجيوش العثمانيّة وانتصار جيش الغازي تيمورلنك، على مقربة من المدينة الفروسطيّة التي كانت تحمل هذا الاسم. كما أُسر السلطان بايزيد الأوّل يِلْدرِم ومات بعد بضعة أشهر. مع ذلك فإنّ انتصار تيمورلنك الذي كانت قد سبقته توغّلات مغوليّة عديدة، والذي بدا وكأنّه وضع حدًّا لكل مقاومة في الأناضول، زالت آثاره بسرعة، في الوقت الذي كان فيه هذا الغازي قد أصبح سيّد آسيا الوسطى وإيران، ووصل إلى أقصى مدى في غزواته. لذلك فإنّ السلطنة العثمانيّة التي كانت قد قويت في امتدادها داخل أوروبا، استجمعت قواها سريعًا، بعد اضطرابات داخليّة قليلة، واستأنفت سيرها التصاعدي.

◄ راجع المستندات ١٢، ٢١، ٢٦ و٢٧.

الإنكشاريّة، باللغة التركية «الفرقة الجديدة» (yeniçeri)، اسم لفرقة من عتقاء الجيش، أنشأها السلطان مراد الأول (٧٦٣-٧٩١هـ/ ١٣٦٢-١٣٨٩م). وقد أدّت دوراً كبير الأهمّية في النظام العسكري والسياسي للدولة العثمانيّة.

في منتصف القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، بلغ عديد فرقة النخبة هذه ستة آلاف رجل من شبان مسيحيّين ينتمون إلى جماعات فُرض عليها تأدية الجزية، وكانوا يجنّدون وفق نظام «الدَّوْشِيْرما» أو ضريبة الغلمان. كان هؤلاء يعتنقون الإسلام، ورغم أصولهم المختلفة، كانوا يتلقّون التربية نفسها. وبعد إعدادهم العسكري، كانوا يُستخدمون في المعارك المهمّة. وكان في إمكان من تميّز منهم أن يحصل على تيمار ويصل إلى مراكز مهمّة. كان من بينهم المهندسون والمعماريّون، كسنان الشهير الذي شيد، في القرن السادس عشر

للميلاد، العديد من المساجد الأمبراطوريّة الضخمة، بالإضافة إلى أعمال فنيّة كثيرة. يرأس الانكشاريّة آغا يحيط به عدد من الضبّاط، وكانوا يخضعون لنظام قاسٍ جداً، ولم يكن لهم الحق، في البدء، في الزواج، ثمّ ما لبث أن منحهم هذا الحق السلطان سليم الأول. تأثّر الانكشاريّة بالمتصوّفة، وكانوا على صلة بنظام للدراويش يدعى البكتاشيّة، وقد التحقوا بشكل رسمي بهذه الطريقة منذ نهاية القرن السادس عشر.

كانوا، كجنود، يستخدمون السلاح التقليدي، ثمّ حملوا البنادق في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد. أقام الانكشاريّة بالقرب من القصر لحراسة السلطان، كما أمّنوا له الحماية أثناء المعارك. وكُلّف بعضهم حمايةَ الحصون على الحدود. كانوا يمارسون، عن طريق حركات التمرّد التي يقومون بها انطلاقاً من ثكناتهم في اسطنبول، نوعًا من الرقابة على قرارات السلطان المتعلّقة بالأعمال الحربيّة، وبنوع خاص على تلك المتعلّقة بالاصلاحات وبمحاولات تحديث النظام العسكريّ. كانوا يتصدّون لهذا التحديث، بدافع المحافظة الدينيّة، وذلك خلال فترة ضعف السلطنة ابتداءً من القرن السابع عشر.

اعتُبر الانكشاريّة مسؤولين عن الإخفاقات التي أصابت السلطنة في مطلع القرن التاسع عشر، ووُجّهت إليهم انتقادات شديدة، ما حمل السلطان محمود الثاني على إجراء تغييرات في نظامهم، فتمرّدوا من جديد. فقرّر السلطان آنذاك القضاء عليهم: ففي ١٥ حزيران ١٨٢٦ قُصفت ثكناتهم، وأُلقي القبض على قادة الطريقة البكتاشيّة وتمّت تصفيتُهم.

أنور باشا ١٨٨١-١٩٢٢، كان ضابطاً ورجل دولة في آخر عهد الأمبراطوريّة العثمانيّة. انخرط في حركة تركيا الفتاة، لكنّه كان مناوئاً لمصطفى كمال، أي أتاتورك في ما بعد. ولد في اسطنبول وهو ابن موظّف مدنيّ. التحق أنور بالكليّة الحربيّة وتخرّج ضابطاً سنة ١٩٠٦، وعُيّن في منستير في مقدونيا حيث انتمى إلى حركة تركيا الفتاة التي برزت في ثورة ١٩٠٨. عُيّن ملحقاً عسكريًا في برلين، وهناك تكوّن عنده إعجاب خاص بالجيش الألماني. عاد إلى اسطنبول سنة ١٩١٢ وشارك في انقلاب سنة ١٩١٣ الذي حوّل نظام الحكم الدستوريّ إلى دكتاتوريّة حزبيّة وعسكريّة. أصبح في سنة ١٩١٤ قائداً عامًا مساعداً للسلطان، قاد طيلة الحرب السياسة العسكريّة للدولة العثمانيّة. تابع سياسة التحالف مع ألمانيا التي كان قد نصح بها وتعاون بصدق مع الضبّاط الألمان. لكنّه اضطرّ إلى الهرب سنة ١٩١٨ واللجوء إلى برلين حين بدأت جيوش الحلفاء بحملاتها الهجوميّة في البلدان العربيّة. من برلين انتقل بصعوبة إلى موسكو حيث أسّس «اتّحاد الجمعيّات الإسلاميّة الثوريّة». كان أنور يعمل على تحريض أتراك آسيا الوسطى على الثورة في الوقت الذي كان فيه مصطفى كمال يعزّز سيطرته على أنقرة. اغتيل في آب سنة ١٩٢٢.

الأهرام، إسم جريدة باللغة العربيّة شرعت بالصدور في القاهرة حوالى نهاية القرن التاسع عشر، مساهمةً في جهود التحديث التي شهدتها مصر أيامئذ.

إنّ هذه المنشورة التي طبعت بداية نموّ الصحافة والتي عكس تاريخها المراحل المختلفة للتطوّر السياسيّ في البلاد أبصرت النور بفضل مبادرة، عام ١٨٧٥، قام بها لبنانيّان مسيحيّان هما سليم وبشارة تقلا. وقد غدت هذه الجريدة، في ما بعد، ولا سيّما بعد عام ١٩٣٢، أهمّ وسيلة إعلامية مصريّة. بعد الثورة الناصريّة عام ١٩٥٢ وتأميم الصحف عام ١٩٦٠، اعتبرت الأهرام لسان حال الأفكار الحكوميّة، مع أنّ رئيس تحريرها، محمد حسنين هيكل الذي كان المستشار الحميم لعبد الناصر، أظهر استقلاليّة في الرأي، ولم يتوانَ عن انتقاد بعض وجوه السياسة السائدة في البلاد إلى أن عزله الرئيس الجديد السادات عام ١٩٧٤. وما تزال الأهرام حتى اليوم الصحيفة اليوميّة الأهمّ في مصر المعاصرة.

أهل، كلمة عربيّة ذات معنى أصلي متّسع نسبيًّا تعني «الذين يسكنون» مع شخص أو في مكانٍ ما وتفيد، في آن، مفهوم «الأسرة»، الممثّلة بشكل أفضل في كلمة آل، ومفهومًا آخر يعني «سُكّانًا، أناسًا، ساكنين»، وكلا المفهومين ورد في تطوّرها التاريخي.

استعملت الكلمة في عدد من العبارات المركّبة التي راجت، بوجه خاص، في المجتمع الإسلامي بالقرون

الوسطى، وهي تمثّل ذهنيّته الدينيّة، كمثل قولهم أهل البيت وأهل الكساء، دلالةً على أُسرة النبي [محمّد] (ﷺ)، مع مفهوم محدَّد ومقصور عليها، نسبيًّا. كذلك ثمّة ما هو معروف عن أهل الكهف الوارد ذكرهم في القرآن، وأهل الصُّفّة وهم مجموعة من صحابة النبيّ محمّد (ﷺ) معروفون بزهدهم.

في صورة أشمل، أُطلقت تسمية أهل الكتاب، منذ أوائل [عهد] الإسلام، على ممثّلي الديانات السابقة، وتحديدًا اليهود والمسيحيّين، الذين سمّوا أهل الذمّة، أو «الخاضعين للحماية»، بسبب وضعهم الذي يؤدّون بموجبه الجزية في مقابل حمايتهم، في حين كان المسلمون، في مجملهم، يحبّون أن يُعرفوا بأهل القبلة أو المتوجّهين إلى قبلة واحدة للصلاة. بعد ذلك جرى التمييز داخل الأمّة الإسلاميّة بين فئات متعدّدة، مثل أهل السُّنّة المعنيّ بهم السّنيون، أو أهل الحديث الذين كانوا إمّا «جماعة السُّنّة [النبوية]» وإمّا «محدِّثين» يزاولون تتبُّع الحديث ونقده.

أهل البيت ← آل محمّد.

أهل الحقّ، «رجال الحقّ» أو «رجال الله»، إسم نِحلة سرّيّة، وليدة حركات استلهمت التشيُّع الباطنيّ، وهي منتشرة، في أيامنا، في إيران الغربيّة. بين أيدينا عنها شهادات تعود إلى أوائل القرن العشرين؛ على أنّ أصولها ما تزال غامضة.

تنطوي عقيدتها التوفيقية على عناصر غُنوصيّة [القائلة بالمعرفة الروحيّة] ومانويّة وإسلامية؛ مع دفاعها عن عقيدة تجلّيات الألوهة المتواترة، وعددها سبعة، كما عن التقمُّص. تقوم الطقوس الدينيّة على مجالس ذكر، وقرابين حيوانيّة وصيام صارم لثلاثة أيّام. إنّ هذه النحلة التي يعتبرها المسلمون بدعة استهوت عامّة الشعب، وعلى وجه الخصوص البدو والفلاحين الذين لهم صلةٌ باليزيديّين في العراق، وقد انتشرت بين الأكراد. حاربها أتباع البَهائيّة.

أهواز أو أهفاز (جمهوريّة إيران الإسلاميّة)، بالعربيّة **سوق الأحواز**، والإسم القديم هو هُرْمُز-أَردشير أو هرمز-شهر؛ مدينة في خوزستان احتفظت، حتى اليوم، بدور العاصمة الإداريّة لهذه المقاطعة الذي كان لها في خلافة العهد العبّاسي، رغم ما عانته خلال النزاع العراقي-الإيراني الأخير. وكانت هذه المدينة الحديثة قد شهدت سابقًا، منذ أوائل القرن العشرين، نهضة، بحكم موقعها المركزي في منطقة اغتنت بفضل استخراج مواردها النفطيّة. غيرَ بعيد من بقايا جسر عتيق على دُجَيل/كارون، كان قد جرى ترميمه غابرًا باهتمام عضد الدولة البُوَيْهي، في أعقاب الخراب الذي أحدثته ثورة الزَّنج في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، أنهت هذه المدينة، في العصور الحديثة، عهدًا طويلًا من الانحطاط. إنّ الازدهار الذي كان من نصيبها، في المرحلة الأولى من القرون الوسطى، والذي كان يعتمد على خصب منطقتها الحارّة والمرويّة بسخاء والموجّهة، في معظمها، إلى الزراعة وتصنيع قصب السُّكّر، يرتبط الآن بإمكاناتها الجديدة في مجالات التصنيع.

◄ راجع المستندين ١٣ و١٧.

أَود، أو **عَوَد**، اسم مقاطعة قديمة شمالي الهند، ملحقة اليوم بولاية «أُوتَّر پرادِش» في الاتّحاد الهندي، قامت فيها بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دولة إسلاميّة مستقلّة، ولا تزال تحتفظ بأقلّية مسلمة شيعيّة.

هذه المنطقة الغنيّة من السهل الغريني الذي يرويه نهر الغانج الهندي، دخلت عالم الإسلام في القرن السادس للهجرة/أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، وخضعت لسيطرة سلاطين دلهي الذين حلّ مكانهم سلاطين جاونپور بعد مدّة وجيزة. ثمّ أصبحت تابعة لأمبراطوريّة المغول في زمن مُلك أكبر الذي نجح سنة ١٥٦٧م في توسيع ممتلكاته باتّجاه شرقي شبه القارة.

وشاء قدر «أود» الإسلامي أن ينثبّت مع حلول «سَعادت خان برهان المُلك» في لَكْناو Lucknow بعد ذلك بمئة وخمسين سنة، أي في سنة ١٥٧٦م، وهو سيّد نيسابوري الأصل كان مؤسّس سلالة حاكمة - هي سلالة آل نوّاب - لم تلبث أن استقلّت. وقد عمل هؤلاء الأسياد على منافسة أصحاب دولة أُخرى، شيعيّة أيضًا، كانت قد وُلدت في حيدر آباد، نتيجة ضعف المغول، ففرضوا على أتباعهم خيارهم الديني، واهتمّوا برعاية الآداب. إلّا

ن صراعهم مع أمراء المَهْراته، وتطاول البريطانيّين لمتلاحق على سلطتهم، إبتداء من سنة ١٧٦٥م، في جوّ من الأزمات والصعوبات الدائمة، أدّى إلى نهايتهم سنة ١٨٥٦م. فألحق الإنكليز الولاية بمستعمراتهم، وأحكموا قبضتهم عليها بعد التمرّد الكبير الذي وقع سنة ١٨٥٧م.

◄ راجع المستندين ٣٢ و٣٥.

أوداغُوست، اسم محلّة إسلاميّة قديمة كانت تقع على طريق القوافل في أفريقيا الغربيّة السوداء. وقد اختفت اليوم على الرغم من الشهرة التي عرفتها في القرون لوسطى، إذ كانت على إحدى الطرق التي تربط آنذاك المغرب بالسودان النيجيري، وتحديدًا بمملكة غانا السوداء.

ويبدو أنّ حفريّات حديثة في موقع «تِغْداوست»، على التخوم الجنوبيّة - الشرقية لجمهوريّة موريتانيا الإسلاميّة، ساعدت على تحديد ذلك الملتقى القديم للنشاط التجاري الذي ارتبط نموّه أيضًا بمحاولات السكّان البربر بسط سيطرتهم على المناطق الجنوبيّة التي تهيمن عليها إتنيّات سوداء. لا يزال الغموض يلفّ تاريخ هذه المدينة الواقعة في نهاية الطريق التي تربط سجلماسا بالعاصمة القديمة لغانا التي زالت هي أيضًا من الوجود. وقد كان وجود هذه المدينة مرتبطًا، إلى حدٍّ بعيد، بتطوّر طرق القوافل التي كانت تنقل الملح والذهب داخل الصحراء في العصور الأولى للإسلام. وجلّ ما نعرفه عنها هو تقريبي ومستمدّ من معطيات الجغرافيّين العرب التي هيَ، بدورها، غامضة وتستوجب الحذر في تفسيرها. لكن ما يبدو الأقرب الى الواقع التاريخي هو وجود احتكارات تجاريّة مارستها مجموعات قبليّة كانت تقيم آنذاك في المغرب، وكانت مرتبطة بسلالات مختلفة، نشأت بدورها عن فرق دينية مختلفة، كالشيعة مثلًا أو كالإباضيّة.

◄ راجع المستند ٢٩.

أورخان، ٦٨٧ - ٧٦٣هـ/ ١٢٨٨ - ١٣٦٢م، هو ثاني سلاطين السلالة العثمانيّة، ذو شخصيّة أُسطوريّة الى حدّ ما، كان المؤسّس الفعلي للسلطة الجديدة، وامتدّ حكمه من سنة ٧٢٦ الى سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٢٦ إلى ١٣٦٢م.

ثابر أُورخان الذي هو ابن الأمير عثمان، خلال الفترة الأولى من حكمه، على ترسيخ مواقعه في الأناضول، عن طريق تقوية جيشه. وقد استولى على بُوْرسَه قبيل وفاة والده، ووسّع لاحقًا ممتلكاته على حساب البيزنطيّين باحتلاله نيقية التي صارت تُعرف بـ إزنيق، ونيقوميديا/ إزميت. وبعد فترة قصيرة، شرع ابنه سليمان بمهاجمة أمراء الأناضول المسلمين وتمكّن من انتزاع حصون عدّة تابعة لهم وبخاصة برغامة. وفي الوقت نفسه، اتّخذ الأمير في عاصمته بورصة إجراءات إداريّة متنوّعة، فقرّر سكّ النقود واعتماد أنظمة لباس خاصة في ما يتعلّق بالعسكر، وأعاد تنظيم الخيّالة المؤلّفة من أصحاب التيمارات. وفضلًا عن ذلك، قدّم الحماية للطرق الصوفيّة وبخاصة البكتاشيّة، وأغدق على جمعيّات خيريّة كثيرة من سخائه.

إبتداءً من سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، اضطرّ اورخان - الذي كان أقام تحالفًا مع البيزنطيّين وتزوّج ابنة الامبراطور يوحنا السادس - الى التدخّل في أُوروبا بناء على طلب حميه.

على أنّ نجاح بعض الغزوات التي كانت غير ذات أهميّة دفعه إلى تصوّر مخطط سياسي أسّس لقيام الدولة العثمانيّة على المدى المتوسط. وتخطيطًا منه لتمركز لاحق وطويل الأمد في هذه المناطق، كلّف ابنه سليمان، سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، عبور الدردنيل، فاستولى هذا الأخير، سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م، على غاليبولي، التي صارت منذ ذلك التاريخ المعبر لنقل القوات الى البلقان. لكنّ سليمان توفي بعد فترة وجيزة، بينما غاب اورخان بدوره عن المسرح.

أورشليم ← القدس.

أُورْغنش، (جمهوريّة أوزبكستان)، ناحية حديثة في جمهوريّة قَرَه قالْپاكيا ذات الحكم الذاتي، بجوار خيوه، احتفظت بتسمية مدينة قروسطيّة اندثرت، على بُعد مئة كلم من الشمال الغربي، ما تزال آثارها حتّى اليوم ماثلة في منطقة كونيا - أُورْگنتش في تركمانستان.

أقدم مدينة في أورغنتش، المسمّاة أيضًا گُرگانْج أو

الجُرجانيّة في العربيّة، شهدت تاريخًا مضطربًا، وكانت في القرون الوسطى إحدى المدينتين الرئيسَتَيْن لخوارزم، وقامت بدور عاصمة في بعض المراحل. وقد ذكرت مدوّنات الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة الدور المهمّ الذي اضطلعت به، على تخوم السهوب المنفتحة على نهر الفولغا والمناطق التي يرويها نهر آموذريا قرب مصبّه في بحر آرال، ولا سيّما بعد احتلالها نهائيًّا سنة ٩٤هـ/ ٧١٢م. فقد نافست هذه المدينة، منذ ذلك الحين، العاصمة الأخرى للمنطقة، أي كاث، حيث استقرّ الحكم المحلّي للخوارزمشاهيّين الأُوَل. كما اتّخذ منها الأمير المسلم القيّم على خوارزم مقرًّا، حتّى أفول كاث التي سيطرت عليها سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م السلالة الإسلاميّة الثانية للخوارزمشاهيّين، وهي سلالة المأمونيّين المنحدرة بالتحديد من سلالة حكّام كُركانج، التي جعلت من المدينة مركزًا للعلوم وللثقافة الإسلاميّة، وفي الوقت نفسه، ملتقى للأنشطة التجاريّة في اتّجاه سيبيريا وأقاصي الأورال.

بعد الاضطرابات التي أعقبت احتلال الغزنويّين للبلاد، ومن ثمّ السلاجقة سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م، استعادت كُركانج موقعها مدينةً كبيرة من المدن الأكثر ازدهارًا في العالم الإسلامي، ومخزنًا تجاريًّا مشهورًا، وقد واكب ازدهارها ازدهار السلالة الأخيرة للخوارزمشاهيّين في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، وكان هؤلاء أسياد أمبراطوريّة تشمل إيران بكاملها، وذلك قبل أن يدمّر المغول عاصمتهم سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، بعد حصار عنيف، غير مخلّفين وراءهم سوى بعض البقايا الأثريّة النادرة.

على أنّ هذه النكبة لم تحُلْ أبدًا دون استعادة هذه المدينة - التي أعيد بناؤها بدءًا من سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م ليس بعيدًا من المدينة الأولى - شهرتها من جديد، عاصمةً وحيدة لخوارزم ومحطّةً على طريق القوافل التي تصل منطقة ما وراء النهر وخراسان بأراضٍ في الشمال، دخلت في ذلك الحين في ممتلكات خانات المغول (القبيلة الذهبيّة). وكُركانج الثانية هذه التي نهبتها جيوش تيمورلنك في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، بقي منها آثار تُعرف اليوم باسم كونيا - أُورگَنتش حيث ما تزال أضرحة عديدة قائمة. من هذه الأضرحة واحد يعود تاريخه إلى ما بعد القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، هو ضريح نجم الدين كُبرى، مؤسّس الطريقة الكُبرويّة التي تستمدّ اسمها منه وهذا الضريح مجاور لضريحين من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أحدهما مدفن الملك القدير تكش، من ملوك السلالة الخوارزمشاهيّة الأخيرة والآخر مدفن يُنسب خطأً الى العلاّمة فخرالدين الرازي. وقد فقدت هذه المدينة حيويّتها سريعًا حتّى الفترة التي تمّ فيها نقل ما تبقّى من سكّانها في بداية القرن السابع عشر، بناءً على إرادة أحد الخانات من الأُوزبك في خيوه، إلى موقع جديد هو الموقع الحالي لمدينة أورگنتش.

أُورَنْغ زِيْب، أبو المظفّر محمد محيي الدين أورنغ زيب عَلَم جير، ١٦١٨-١٧٠٧م: آخر سلطان كبير من السلالة المغوليّة في الهند، حكم من سنة ١٦٥٨م حتّى وفاته ورغم جهوده الحربيّة المتواصلة وتصلّبه، لم يترك لورثته إلّا حكمًا في حالة الاحتضار.

هذا الابن الثالث لِشاهِ جَهان تلقّى تربية إسلاميّة تقليديّة؛ وكان يتّخذ مواقف معارضة لتلك التي لأخيه «دارا شِكوُه»، الوريث المعيَّن، الذي كان نصيرًا للمتصوّفة وطرقها. فاستطاع أن ينتصر عليه وأن يحكم عليه بالموت سنة ١٦٥٩ بعد اتهامه بالكفر، كما استطاع أن يتخلّص من أخويه الآخرين خلال الحرب الشرسة التي خاضها الأبناء الأربعة من أجل الاستئثار بالعرش وكان الوالد ما يزال على قيد الحياة، ولكنّه كان قد أصيب بمرض سنة ١٦٥٧.

وكان اورنغ زيب، من قبل، قد أدّى دورًا ناشطًا كقائد وحاكم في الدكَن، كما في مناطق بَلْخ وقَنْدَهار إلّا أنّه تخلّى عنها وتركها عرضةً للهجمات الخارجيّة لكنّه اتّبع سياسةً حربيّة الطابع طوال ملكه. إنّ نصيب حملاته العسكريّة في المناطق الشماليّة، بين سنتي ١٦٦٠ و١٦٨٠، حيث اصطدم بالپاتان والسيخ والراجپوت، لم يكن أفضل من نصيبها، في ما بعد، في منطقة الدكَن، مع أنّه أقام فيها مدّة طويلة وبذل من أجلها ما عنده من جهد وقوة بعد انتقاله إلى مدينة برهانپور سنة

١٦٨١. والواقع أنّ الانتصارات التي حقّقها، بدءًا من سنتي ١٦٨٦ و١٦٨٧، على السلالات الشيعيّة في بيجابور وغُولكوند، التي كان قد حاربها قبل تسلّمه الملك في سنتي ١٦٥٥ و١٦٥٦، لم تحُل دون معارضة المهراته العنيفة. فلم تحاول دولة المغول بعد ذلك حملهم على الطاعة أو بسط سيطرتها عليهم مجدّدًا.

لم تحقّق توجّهات هذا السلطان أهدافها، وقد استهلك قواه في توسيع ممتلكاته وفي محاربة المكائد والثورات الداخليّة التي حركها أفراد أسرته. ولكنها كانت، على كلّ حال، تتوافق مع قَسْوَة طباعه، إذ كان يجنح إلى قمع الهندوسيّين وفرض الضرائب عليهم، ومواجهة امتداد الدعوة الإماميّة الوافدة من الدولة الصفويّة في إيران والمتمركزة في الدكّن. وقد أراد أن يفرض حوله تطبيقًا صارمًا للشرع الذي ازداد تقيّده به مع مرور السنين، ما جعل منه حاميًا للمذهب الحنفي الذي سهّل انتشاره، وأمر أن يوضع مؤلّف في فقه هذا المذهب، فظهر تحت عنوان «فتاوى العالمَغيريّة». وتطبيقًا لقناعاته أزال من قصره الفخم بعض المظاهر الفنيّة التي اعتبرها مُنكَرة، بعدما كانت قد تألّقت بشكل رائع في عهد أسلافه.

◄ راجع المستند ٣٣.

أوروبا الغربيّة، أراضٍ تضمّ دولًا تحتضن جماعات إسلامية غالبًا مهاجرة، تختلف أهميّة هذه الجماعات وأصلها، وغالبًا ما يتعذّر حصرها في إحصاءات.

ينتمي هؤلاء المسلمون في أكثريّتهم الى المناطق التي كانت مستعمَرة في السابق، أو كانت على علاقة مميّزة بالدولة التي اختاروها في ما بعد للهجرة. هكذا نرى أن عدد المغاربة كبير في فرنسا، كما أنّ الباكستانيّين المسلمين الذين جاءوا من الهند هم كثر في بريطانيا، أمّا الأتراك فهم متواجدون خاصة في ألمانيا.

لقد بدأت حركات الهجرة في أواخر القرن التاسع عشر وزادت بعد ١٩٤٥، وبنوع خاص بعد سنة ١٩٦٠، بسبب حاجة الدول الأوروبيّة الى اليد العاملة وأيضًا بسبب الجاذبيّة التي مارسها مستوى الحياة المرتفع في أوروبا على الشعوب الفقيرة التي غالبًا ما حاول أبناؤها الدخول إلى هذه البلدان خلسة. وما لبث المهاجرون أن تخلّوا عن فكرة العودة إلى وطنهم الأم الذي كان، في أغلب الأحيان، يتخبّط في مشكلات إقتصاديّة متزايدة، وقرّروا البقاء في أوروبا التي استقبلتهم.

يقدّر عدد المسلمين المستقرين في فرنسا بأكثر من خمسة ملايين من متجنّسين وغير متجنّسين. ولهؤلاء المسلمين جامع تأسّس سنة ١٩٢٦ في باريس. وانطلاقًا من سنة ١٩٧٦ - تاريخ صدور قانون جديد يسمح للمسلمين بانشاء مؤسّسات جديدة - ازداد عدد الجوامع من ٨٧ سنة ١٩٧٨، إلى حوالي الألف سنة ١٩٨٥. أمّا في بريطانيا، فيناهز عدد المسلمين المليون، وكان لديهم سنة ١٩٨٥ أكثر من ٤٠٠ جامع. وفي ألمانيا الاتحادية هناك حوالي المليوني مسلم، أغلبيّتهم من الأتراك، ويملكون حوالي ألف جامع. كما أنّ هناك جماعات إسلاميّة مختلفة في بلجيكا وسويسرا والنمسا والدول الإسكندنافيّة وهولندا وإيطاليا والبرتغال. أمّا في إسبانيا فالمهاجرون المسلمون قليلون جدًا.

الأُوزبك، يتحدّرون من جنكيزخان عبر ذريّة ابنه البكر جوتشي. كانت عشائرهم التركيّة - المغوليّة المستقرّة أوّلًا في سيبيريا حيث كانت جزءًا من الخانية التي أدّت الى نشوء خانية القبيلة الذهبيّة، قد عادت، في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، لتستوطن في مناطق ما وراء النهر وخوارزم حيث حكم رؤساؤها تحت تسمية الشيبانيّين. والأوزبك - وهذه التسمية هي متأخّرة - الذين يدّعون الانتساب إلى الجنگيزخاني غياث الدين محمّد الأوزبكي الذي حكم بين ٦٨٩ و٧١٢هـ/ ١٢٩٠ و١٣١٢م، استوطنوا خصوصًا مناطق آسيا الوسطى التي عُرفت في ما بعد بأوزبكستان. وكانوا انتقلوا اليها بعد التحاقهم بزعمائهم الشيبانيّين المتحدّرين من شيبان، الإبن الأصغر لجوتشي، وكان هؤلاء قد استردّوا من التيموريّين منطقة خوارزم سنة ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م، ومنطقة ما وراء النهر سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م. واستتبع ذلك انسحاب الزعيم التيموري المدعو بابُر نحو القارة الهنديّة حيث أسّس سلالة المغول.

إبتداءً من هذه الفترة، اختار الشيبانيّون الأقوياء، في القرن السادس عشر، سمرقند ثمّ بخارى عاصمةً

لهم، وقاتلوا الصفويّين لاختلافهم عنهم بانتمائهم إلى الإسلام السنيّ الصارم. لكنّ سلطتهم لم تتعدّ أبدًا الحدود الطبيعيّة التي يشكّلها مجرى جيحون/آموداريا، وكانت سلطة محليّة. ولقد خلفتهم بعض الأسر الأخرى، في بخارى بدءًا من سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م، وفي طشقند وفرغانة حيث نشأت سلطة محلية كوكَنْد، وخصوصًا في خوارزم التي شهدت توسّع خانية خيوه وهي من أهم الخانيات. وفي إطار هذه السلطات المتنوّعة، حافظ الأوزبك على عادات البدو، المهيّئين، طبعًا، لأعمال الغزو، حتى الوقت الذي حجّم فيه التقدم الإستعماري الروسي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ممتلكاتهم شيئًا فشيئًا.

بعد هذا التحجيم، اضمحلّت خاناتهم خلال بضعة عقود، وقام على أراضيهم القديمة إقتصاد حديث استند إلى مساهمة جديدة نهض بها شعب سلافي الانتماء انتقل الى المنطقة.

أوزبكستان (جمهوريّة)، تبلغ مساحتها ٤٠٠ ٤٤٧ كلم[٢] وعاصمتها طشقند. دولة معاصرة مستقلّة منذ ١٩٩١، وهي إحدى جمهوريّات آسيا الوسطى الخمس السوفياتيّة سابقًا. سكّانها البالغ عددهم ٢٠ مليون نسمة هم مسلمون بنسبة تفوق ٨٥٪.

إنّ التخوم الاصطناعيّة التي تفصل أوزبكستان عن سهوب جمهوريّة قزاخستان في الشمال، وتركمانستان في الجنوب الغربي، تنساب في الشرق على خط معقّد، وسط مناطق جبليّة تابعة لجمهوريّتي قرغيزستان وطاجكستان، لتلتقي في الجنوب حدود جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة. وقد رُسمت هذه الحدود في إطار الاتّحاد السوفياتي آخذةً في الاعتبار، بشكل خاص، الواقع الإتني واللغوي الناشئ عن تغلغل عشائر بدويّة، تركيّة ومغوليّة، في هذه الأراضي، وكانت هذه العشائر في أساس نشأة خانات الأوزبك، من بينهم الشيبانيّون الذين سيطروا عليها بدءًا من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ليخلوا الساحة لاحقًا لأسر أخرى. لكنّ سيطرتهم لم تمحُ أبدًا التمايز التاريخي العريق الذي أرسى المواجهة بين مقاطعتي خوارزم وما وراء النهر القروسطيّتين.

ولم تستطع أُوزبكستان اليوم التغلّب على عدم تجانسها الداخلي القديم. فالمناطق القريبة من بحر أرال التي تضمّ مصبّ نهر آموداريا ومدن أورگنتش وخيوه تشكّل مجموعة أولى قائمة بذاتها في جمهوريّة قَرَه قالپاكيا المستقلّة ذاتيًا. من جهة أخرى، فإنّ واحات وادي زرافشان، مع مواقع بخارى أو سمرقند الذائعة الصيت، مضافًا إليها الأراضي الخصبة للسُّغد القديمة وفرغانة، تشكّل كلّها، على الضفة اليمنى لنهر سيْرداريا، حول طشقند وكوكَنْد، القسم الأكثر نموًا من الناحية الاقتصاديّة في البلاد. وفي كل مكان، يبقى السكّان غير متجانسين، والتوتّرات القائمة بين مختلف مكوّنات البلاد تفسّر أيضًا محاولات أوزبكستان إقامة علاقات مميّزة، من جهة مع الجمهوريّة التركيّة، بدفع من الأكثريّة ذات الأصول التركيّة، ومن جهة أخرى مع الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. ويتحكّم المسلمون السنّة بالتطور السياسي وتساندهم ماليًا في دعم توجّههم الديني المملكة العربيّة السعوديّة ويُنمّي قسمٌ منهم حركة معارضة أُصوليّة.

◄ راجع المستند رقم ٣٥.

أوزكَنْد، (جمهوريّة قرغيزستان)، محلّة في منطقة فرغانة، تقع على تخوم جمهوريّة أوزبكستان، ما تزال تحتفظ حتى اليوم ببعض الصروح التي يعود تاريخها الى القرون الوسطى الإسلاميّة.

وهناك مدن قروسطيّة أخرى في المنطقة درست فيها كل الآثار التي تدل على عظمتها الغابرة، وتؤكّد تاريخيّتها فقط المصادر المكتوبة. من هذه المدن أنسيكاث التي كانت العاصمة الأولى للمقاطعة، والتي حلّت محلّها أنديگان التي تقع بجوار انديجان الحاليّة. هناك مدن أخرى، مثل قُباء لم تكشفها الحفريّات الأثريّة إلّا مؤخّرًا. في المقابل يتماز موقع أوزگان، الذي كان مأهولًا باستمرار رغم أفوله التدريجي، بآثار صروح من القرنين الخامس والسادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، تثير الاهتمام من ناحية بنيتها المكوّنة من القرميد، وزخرفتها. من هذه الصروح مئذنة-برج وأضرحة نُقشت عليها تواريخ ٤٠٣ و٥٤٧ و٥٨٢هـ/١٠١٢ و١١٥٢ و١١٨٦م. وبذلك تتبيّن شواهد

على الأهمية الإستراتيجيّة والإقتصاديّة لهذه المدينة، خلال حكم سلالة القراخانيّين التركيّة التي أقامت فيها مركز حكمها. كانت المدينة، من جهة ثانية، تقع على آخر محطّة، في آسيا الوسطى المتأسلمة، لطريق القوافل الآتية من ايران، وقبل أن تلج هذه الطريق سهوب حوض تاريم ومناطق أخرى خاضعة لنفوذ الصين.

◄ راجع المستند رقم ٢٣.

أوزون حسن، حسن بيگ بن علي بيگ، ٨٢٨-٨٨٢هـ/ ١٤٢٤-١٤٧٨م، أهم ملوك سلالة التركمان المتحدّرين من آق قويونلو، وافق حكمه أوجًا بارزاً، وإنْ هشًّا، للسلطة التي هيمنت على تبريز قبل أن تسقط المدينة بين أيدي الصفويّين. كان أوزون حسن سيّد ديار بكر في بلاد ما بين النهرين العليا، منذ عام ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، قبل أن يعمل على توسيع مملكته من الأناضول إلى العراق وإيران، بدءًا من العام ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م حتى وفاته. وتاريخه، الذي لم يُعرف كما ينبغي في دقائقه، هو في الواقع تاريخ نزاعاته مع جيرانه المغامرين. فلم يتمكّن من أن يمنع العثمانيّين - الذين احتلّوا اسطنبول وطمحوا إلى السيطرة على الأناضول بعد البلقان - من احتلال مرفأ طرابزون عام ٨٦٤هـ/ ١٤٦١م، وهو منفذ على البحر الأسود لطريق القوافل التي تمرّ بأذربيجان وإحدى الإمارات التي بقيت مسيحيّة والتي كان يقيم معها، حتى ذلك التاريخ، علاقات اقتصاديّة حسنة، كما كان يقيم علاقات شخصية وعائليّة مثمرة بآخر الأباطرة البيزنطيّين. لكنّه تمكّن، عام ١٤٦٧، من إلحاق هزيمة بملك القراقيونلو، جهانشاه، الذي توفّي خلالها؛ ثمّ أسَرَ التيموريّ أبا سعيد فأعدمه عام ١٤٦٩.

في غضون ذلك، سيطر أوزون حسن على تبريز وجعل منها بدوره عاصمته عام ١٤٦٨، وتمكّن عندئذ من بسط سلطته على إيران كلّها، رغم أنّه أُربك دومًا بتصاعد القدرة العثمانيّة. تحالف مع قرامانيّي الأناضول ومع البنادقة فسهّل لهؤلاء تجارتهم الدولية وتبادل معهم السفارات. وقد مُحقت جهوده عندما هزمه العثمانيّون، بفضل تفوّق سلاحهم الناري، هزيمة قاسية في وادي ترجان عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م. توفّي أوزون حسن الذي حافظ، رغم ذلك، على سيطرته على الأقاليم الشرقيّة، في تبريز عام ١٤٧٨. ولم يفلح خلفاؤه في المحافظة على وحدة أراضي مملكته التي تعرّضت، في الوقت نفسه، لهجمات العثمانيّين والصفويّين الذين ظهروا عام ١٥٠١م، على المسرح السياسي.

◄ راجع المستند رقم ٢٤.

أوس (بنو -)، قبيلة عربيّة تعود في أصلها إلى عرب الجنوب اليمنيّين المتحدّرين من قحطان. اشتُهرت للدور الذي نهض به أبناؤها إلى جانب النبيّ محمّد (ﷺ) في المرحلة المدنيّة من حياته، وهو شبيه بالدور الذي كان للخزرج، وقد شكّل كلاهما الأنصار.

والواقع أن الأوس، في عصر ما قبل الإسلام، انفصلوا عن الغساسنة خلال نزوحهم الطويل عبر الجزيرة العربيّة نحو الشمال، واستقرّوا في واحات وادي يثرب التي أصبحت المدينة لاحقًا، وذلك مع قبيلة الخزرج. وكانت القبيلتان في حالة نزاع عندما اضطرّ النبيّ (ﷺ) إلى ترك مكّة، ففاوضهما من أجل الإقامة بينهم كرئيس لأوّل جماعة إسلاميّة. وكانت «بيعة العقبة» التي نتج عنها فضّ الخلافات بين القبيلتين ومناصرة النبي بعد الهجرة والانضمام إليه ضدّ أعداء الإسلام. وقد تثبّت كل ذلك في النص الذي يُطلق عليه المؤرّخون تسمية دستور المدينة. وقد شارك الأوس في تلك الحقبة في المعارك ضدّ المكيّين، كما شاركوا في الفتوحات الكبرى التي أدّت إلى ولادة الأمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد.

أوسيتيا الشماليّة الفدراليّة (جمهوريّة)، تبلغ مساحتها ٩٢٠٠ كلم²، عاصمتها ڤلاديقفقاز؛ جمهوريّة اشتراكيّة سوفياتيّة سابقًا، تتمتّع باستقلال ذاتي، ما تزال حاليًا جزءًا من الإتّحاد الروسي. سكّانها البالغ عددهم حوالى ٦٠٠ ألف نسمة مسيحيّون في أكثريتهم، يضمّون، مع ذلك، نسبة مرتفعة من المسلمين تُراوح بين ٢٠ و٣٠ بالمئة.

يدلّ هذا الوضع على المقاومة التي أبداها الأوسيتيّون، في ما مضى، في وجه تقدّم الاسلام، كما يدلّ في الوقت نفسه على النفوذ الذي مارسه عليهم

سكان المناطق المجاورة المسلمون، وبخاصة الجمهوريّات الفدراليّة ذات الطابع الإسلامي الغالب، كاتشيشان وكاباردينو - بلكاريا اللتين تحيطان بأوسيتيا الشماليّة من الشرق والغرب.

ويتميّز الاسلام الأوسيتي، ذي الطابع الفريد المثير للفضول، باتّجاهات توفيقيّة، تعود جذورها إلى الماضي البعيد لأجدادهم البدو الألانيّين ولإتنيّات قوقازيّة أخرى.

أوغندا، (جمهورية)، تبلغ مساحتها ٢٣٦ ٠٤٠ كلم٢، عاصمتها كمبالا. دولة معاصرة مستقلّة في أفريقيا السوداء الشرقيّة؛ عدد سكّانها حوالى عشرين مليون نسمة، بينهم أقلية مسلمة تبلغ حوالى ١٠٪.

هذا الوضع نتج عن أسلمة قريبة العهد نسبيًا، واكبت، خلال القرن التاسع عشر، تنامي العلاقات التجاريّة التي توطّدت، شيئًا فشيئًا آنذاك، بين ساحل المحيط الهندي والأراضي الخصبة المحيطة ببحيرة فيكتوريا. قُبيل التغلغل الأوروبي، برزت بعض الصعوبات بين ملوك مملكة باغندا السوداء - ومن بينهم الملك مِتسا الشهير، مُضيف المستكشف ستانلي (Stanley) عام ١٨٧٥ - ورعاياهم الذين أغرتهم الدعوة إلى الإسلام التي كان يطلقها التجّار العرب السواحليّون. أجّجت هذه التوتّرات الطموحات السياسيّة لخديويّي مصر المتحدّرين من محمّد علي الذين كانوا يوجّهون حملات عسكريّة نحو أراضي جمهوريّة السودان الحاليّة. لكنّ هذه التوتّرات لم تحُل دون تجذّر إسلامي صمد أمام الاضطرابات الداخليّة التي وقعت في الفترة الأخيرة.

أولوغ بيگ، محمّد تورغان، ٧٩٥ - ٨٥٣هـ/ ١٣٩٣ - ١٤٤٩م، هو إبن شاهُرُخ والملك الثالث الكبير لسلالة التيموريّين، لم يضفّ حكمه غير الناجح، بدءًا بالعام ١٤٤٧ حتى إعدامه بعد سنتين؛ إلّا القليل على شهرته كرجل علم وراعٍ للثقافة؛ وقد ذاع صيتُه بفضل الأبنية التي شيّدها. ولد في السلطانيّة وأصبح عام ١٤٠٧، وكان لا يزال حديث السّن، حاكمًا على خراسان، فأخذ يكتسب، بهذه الصفة، شهرة شخصيّة شكّلت على الدوام عماد مجده. أولع بالرياضيّات وعلم الفلك، فأحاط نفسه بالعلماء وحثّ نحو عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م، على وضع زيجٍ جديد عرفه الغرب الأوروبي واستخدمه. كان، إلى ذلك، أديبًا، عالم كلام ومؤرّخًا وضع كتابًا حول خلفاء جَنكيز خان، فُقد، لسوء الطالع؛ ورعى الشعراء، وعلى الخصوص شاعرًا يدعى عصمت البخاري الذي كان شاعره الرسمي. بكلمة، أفاد من وقته، فيما كان مقيمًا في سمرقند، بصفته نائب ملك على حياة أبيه، لتحقيق إنجازات ما تزال باقية في مختلف هذه الميادين وإبراز ميله، في الوقت نفسه، الى فن العمارة. وبالفعل، عمل على تشييد الخوانق والمساجد والمدارس والضرائح والخانات في عاصمته، فكان له الفضل الكبير في متابعة مشاريع تنظيم مدني حقيقي، وتصميم ساحة راجستان حيث رفع أربعة أبنية فخمة، وهي الساحة التي ما زالت تقوم فيها أضخم مدرسة له انتهى العمل فيها عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م. ويعود إليه أيضًا في سمرقند، إلى جانب قصر دَرْس، بناء البوابة الكبرى ومجموعة ملحقات لمجمّع الأضرحة المعروف بشاه زِنْده، ومرصد مهمّ أُنجز بناؤه عام ٨٣١هـ/ ١٤٢٨م.

في نهاية تلك المرحلة من الإنجازات الرائعة، لم يتمكّن أولوغ بيك، وقد أمسى، في فترة متأخّرة من حياته، سيّد الأمبراطوريّة التيموريّة، من مقاومة هجمات الأوزبك الشيبانيّين والخصومات العائليّة التي تأكّلت جماعته. أُعدم بأمر من أحد أولاده، فلم يخلّف سوى عرش انهكته الانشقاقات الداخليّة وبداية تقطيع أوصاله.

◄ راجع المستند رقم ٧١.

الأولياء (تكريم الأولياء)، ممارسة انتشرت تدريجيًا في الأوساط المسلمة لتكريم أشخاص صالحين (أولياء جمع وليّ) اعتُبروا وسطاء بين العالم الروحاني والعالم الدنيوي.

توافقَ الحرص على التقرب من مثل هؤلاء الوسطاء مع التكريم الذي يوليه الشيعة أئمّتهم الذين يتمتّعون، في نظر أتباعهم، بمقدرة الشفاعة. وأدّى ذلك إلى شيوع معتقدات في أوساط الشعب لم يسمح بها القرآن، راحت تنتشر تدريجيًّا إبتداءً من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تقريبًا. والأولياء الذين سرعان ما تمّ الاحتفاء

بذكراهم كانوا في الواقع على أنواع، كما يدلّ على ذلك «دليل» الهروي الذي وُضع في نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، في عصر شهد فيه تكريمهم تطوّرًا مهمًا، وقد ساعد على ذلك ازدهار الصوفيّة. كان اعتماد الزيارات التقويّة والحجّ غير المنسكي قد ولّد، في الواقع، عبادات تأصّلت في عمق العادات الشعبيّة والممارسات الدينيّة واتّخذت، وفق كل منطقة: أنواعًا خاصّة اغتنت بتفاصيل أدبيّات السِّيَر التي غالبًا ما كان محتواها أسطوريًا. كانت القبور والأضرحة موضوع احتفالات تكريميّة، وكذلك بعض الأمكنة كالمقام والمشهد حيث تُخلّد ذكرى نبي أو شهيد أو بعض الأتقياء.

ناقش الفقهاء في وقت مبكّر، على ما يبدو، شرعيّة هذه الاحتفالات التي حظيت بإجماع مرحّب به، مشابه للإجماع الذي كان يسمح بتجميل بعض الأضرحة وارتياد المقابر، لكن كان هناك بعض التحفّظات. وفي القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، اتّخذ إبن تيميّة موقفًا متشدّدًا، إذ ميّز ما بين «الحجّ» إلى مسافة بعيدة بمعض الشيء و«الزيارة التقويّة». وفي ما كان «الحجّ غير المنسكيّ» محرّمًا بالنسبة إليه، كانت الزيارة في مكان الإقامة مسموحة وحتّى محبّذة اذا ما تقيّدت ببعض الشروط. استند ابن تيميّة إلى الحديث الذي لا يسمح للمؤمن إلا بزيارة مساجد مكّة والمدينة والقدس. لكنّ تمييزه ما بين «الحجّ غير المنسكي» و«الزيارة التقويّة» لم يدركه دومًا معاصروه، ممّا يفسّر سجن العلّامة الحنبلي على أيدي سلطات دمشق سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م. من جهة أخرى لم يكن إبن تيمية يسمح بصلاة الالتماس الموجّهة إلى «الأولياء»، والتي شجبها، كما حرّم الصلاة الطقسيّة على الأضرحة.

تدلّ انتقادات ابن تيميّة على الأهميّة التي أولاها عصره لتكريم الأولياء الذين كان من العادة اللجوء إليهم في الشدائد، وطلب شفاعتهم للحصول على غفران الله. كان دورهم، كشفعاء خبّرين يتمّ التضرّع إليهم في مقامهم المقدّس، يتأكّد عبر الاعتراف بهم شفعاء محليّين: تارة كأولياء صغار في اطار محدّد لإحدى القرى، وتارة كأولياء كبار حُماة لمدن أو للعواصم. في بغداد، على سبيل المثال، كان يُكرّم عبد القادر الجيلاني، وفي لاهور الهجويري، وفي دمشق إبن العربي، وفي اسطنبول أبو أيوب - وهو صحابي سقط «شهيدًا» تحت أسوار القسطنطينيّة في مكان يدعى اليوم «أيوب» - وفي مصر أحمد البدوي المدفون في طنطا، والست نفيسة، وعلويّون آخرون مدفونون في القاهرة، وفي القيروان سيدي عقبة أي عقبة بن نافع الذي سمّي باسمه المسجد الجامع، وفي الجزائر سيدي بومدين أو أبو مدين التلمساني، وفي المغرب مولاي ادريس أي إدريس الأوّل المدفون في مدينة مولاي إدريس. ان كلًّا من هؤلاء يتمتّع بشهرة خاصّة قد تكون مبنيّة على وقائع تاريخيّة، ضخّمتها الحاجة إلى أدبيّات متخصّصة، لها صلة بفضائل مكان ما أو شخص ما. لكنّ ما وصلنا من أخبار يبرّر تمجيد شخصيّات من صانعي العجائب، اعتُمد فيه على كلّ ما يثير الدهشة للإشادة بالعجائب أو بالأحرى بالمعجزات التي حقّقها أولياء، غالبًا بفضل الإفراط في الزهد، ولإسباغ قدرات مختلفة عليهم.

اهتمّ الصوفيّون من جهتهم بالمشكلات التي يطرحها وضع الشفعاء الخارجين غالبًا من صفوفهم. وكان منظّرون تقليديّون من الصوفيّة، كالحكيم التّرمذي أو الهجويري، يحدّدون الوليّ كمن «يعرف الله بالله»، ويملك جرّاء ذلك مميّزات مختلفة: فهو قد تحرّر من نير الشهوات ويمكنه «الحلّ والربط»، وله موهبة في صنع المعجزات، وينسب إليه بعض المؤلّفين «حكم الكون». وبالنسبة إلى بعض الكتّاب الصوفيّين، فإنّ الأولياء موزّعون إلى فئات وعددهم محدّد، فيحلّ ولي جديد مكان آخر قد غاب، ويدعى الجُدد «الأبدال»، وعلى رأسهم «القطب».

تبدو فكرة العدد الثابت قديمة، إذ هناك أحاديث تذكر «الأولياء الأربعين» الموجودين في سوريا وحدها أو في سوريا والعراق. وفي كتابات من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وصل عددهم إلى أكثر من ثلاثماية بصفة «مختارين»، وإلى أربعين «بديلًا»، و«أطهار» بعدد سبعة، و«أركان» بعدد أربعة، و«أمراء» بعدد ثلاثة، و«قطب» واحد. ويطرح ابن العربي، في القرن السابع الهجري/الثالث عشر

الميلادي، سلّمًا مشابهًا مصرًّا على دور القطب الذي يمثل النبي محمد (ﷺ) في كل جيل، وهو محور الكون والضامن للنظام الكوني. ويستعيد كذلك فكرة الحكيم الترمذي بأنّ هناك «خاتم قداسة» يختم سلسلة الأولياء. لكنّه كان يتجاوز هذا المفهوم مميّزًا خاتم القداسة الشمولية الذي يتمثّل بعيسى (المسيح) وخاتم القداسة المحمّدية، ويبدو أنّه طالب لنفسه بهذا اللقب.

وهكذا أُضيف إلى الفكر الإسلامي تفكير حقيقي حول مفهوم القداسة، يصعب تحديده في الاسلام حيث أنّه لا يرتكز على قاعدة عقائدية محدّدة. إنّ المعطيات الخاصّة بمسيرة الصوفيّين الروحيّة السائرين بالتدرّج نحو «صداقة الله» هي الوحيدة التي أتت تغني التعاليم القليلة التي يمكن استخراجها من الجذر السامي «قدس» المستعمل بنُدرة في القرآن.

إوْليا جَلَبي، إوليا بن درويش محمد ظليّ ١٦١١-١٦٨٤، عالم جغرافيا تركيّ، كان رحّالة مميّزًا وصاحب رحلة وصف فيها الأمبراطوريّة العثمانيّة في القرن السابع عشر.

ولد في اسطنبول، واجتاز هذا الرجل الذي لم يعرف إلّا باسمه المستعار ولايات الأمبراطوريّة، حيناً بمفرده وحيناً آخر برفقة مسؤولين عثمانيّين رفيعي المقام. معلوماتنا عن حياته وعائلته قليلة، ما عدا أنّ والده كان رئيس الصّاغة في البلاط، في عهد سليمان القانوني وخلفه. أمّا هو فقد استرعى الانتباه بصفته حافظاً للقرآن، وقد رحّب به السلطان مراد الرابع في بلاطه وغدا «سباهي» الباب العالي. تناول كتابه الضخم «سياحت نامه» أو «كتاب الرّحلات»، الواقع في عشرة أجزاء، توصيف مدن ومناطق كثيرة ولا سيّما اسطنبول، والأناضول وسوريا وفلسطين وإيران والبلقان والموره ومصر. يحوي مؤلّفه، الذي يجمع بين البحث الدقيق والطرافة، فضلًا عن تجارب واقعيّة، معلومات قيّمة، إلّا أنّ ميل صاحبه إلى الخارق من الوقائع يجبر المؤرّخ الحديث على قراءة رواياته بروح نقديّة.

إيبريا (شبه الجزيرة الإيبريّة) ← الأندلس.

الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن عبد الغفّار البكري الشّبانكاري، ٦٨٠-٧٥٦هـ/ ١٢٨١-١٣٥٥م. فقيه ومتكلّم سنّي، أكبّ على مؤلّفات يغلب عليها طابع الجمع بطريقة منهجيّة موجّهة للتعليم.

ولد في إيج، مدينة في إقليم فارس. من أتباع البيضاوي، ينتمي إلى المذهب الشافعي وإلى المدرسة الأشعريّة. خدم آخر الإيلخانيّين، أبا سعيد، الذي عيّنه قاضياً، ثمّ التحق بالمظفّريّين. قامت شهرته على دراسةٍ فقهيّة عرض فيها الأفكار الفقهيّة الأساسيّة بإيجاز، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، مستندًا بشكل أساسي إلى مؤلّفات أبرزها كتابات فخر الدين الرازي والآمدي. ومؤلّفه هذا ما يزال يُدرّس في جامعة الأزهر.

الأَيْدينيّون (٧٠٨-٨٢٩هـ/ ١٣٠٨-١٤٢٥م)، إسم سلالة تركمانيّة من عصر الإمارات في الأناضول بسطت سلطتها على رقعة ضيّقة وخصبة من ساحل بحر إيجه.

وتجدر الإشارة إلى أن الواديَيْن السُفْلَيين لنهرَيْ مَنْدرس الكبير ومَنْدرس الصغير كانا قد شهدا قديمًا قيام أشهر المدن الأيونيّة. وقد احتُلّت هذه المنطقة أوّلًا من قِبَل مؤسّس السلالة، أَيْدينُوغْلو محمّد بك (توفّي سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٣٤م). وكان قائدًا دخل في خدمة الكرميانيّين، فاستقلّ بتلك المنطقة حيث أَيْدين، وَبِرْجي وآياسولوك، وكيلس، وهي قريبة من سلجوق الحاليّة. وما تزال برجي تحافظ على بقايا كثيرة من أبنيتها القديمة. أمّا ولده عُمر بك الذي حكم حتّى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م، فقد احتلّ مدينة ازمير وقلعتها، قبل أن ينطلق في غزوات بحريّة مرتبطة، ولو جزئيًّا، بتدخّله في الصراعات البيزنطيّة القائمة آنذاك، ما أثار ضدّه الهجمات الصليبيّة التي كان قد دعا إليها البابا كليمانتس السادس. وحكم بعده أخوه عيسى بين سنتي ٧٦١ و٧٩٢هـ/ ١٣٦٠هـ و١٣٩٠م، قبل ضمّ الإمارة إلى الدولة العثمانيّة للمرّة الأولى. وإليه يعود الفضل في بناء المسجد الجامع في سلجوق قريبًا من مدينة «أفَسُس» القديمة. ويُعتبر هذا البناء الضخم تجسيدًا لما كانت عليه دولته الصغيرة من غنى، بفضل نشاطها التجاري وعلاقتها بالغرب اللاتيني، وبخاصة بالمدن الإيطاليّة.

أمّا آخر أمير من الآيدينيّين فقد ولي الحكم بعد عدد من أقربائه جعلهم تيمورلنك يتعاقبون على الإمارة، إثر انتصاره في معركة أنقرة. لكنّ السلطان العثماني، مراد الثاني، الذي تغلّب عليه، قتله وضمّ المنطقة إليه نهائيًا.

◀ راجع المستند ٢٢

إيران، مقاطعة من دار الإسلام في القرون الوسطى تشمل تقريبًا أرض فارس القديمة، وقد احتلّت مركزًا مميّزًا في تاريخ الإسلام، ونقوم على قسم منها اليوم دولة حديثة مستقلّة، لها سمة خاصة قويّة على ثلاثة صُعد: اللغة والدين والشعور الوطني.

١ - يتميّز الكيان الجغرافي الإيرانيّ بتنوّع كبير في المناظر الطبيعيّة، وتسكنه على اطرافه مجموعات سكانيّة غير متجانسة هي أيضًا. يتطابق هذا الكيان مع الهضبة الواسعة ذات المناخ شبه الجاف التي تمتدّ في الشرق إلى أفغانستان وباكستان الحاليّتين اللتين تحتلاّن أطرافها الشرقيّة، بجوار آسيا الوسطى وشبه القارة الهنديّة. هذه الهضبة التي تعلوها قمم ألبُرز وتُجاور بحر قزوين وسلاسل زغروس المنتصبة فوق العراق والخليج العربي-الفارسي، تنتشر فيها واحات مرتفعة حول الصحراوين المالحتين اللتين تحتلاّن منخفضًا في الوسط، يمتدّ بعد ذلك عبر سهل سجستان. بفضل تقنيّات للريّ مطبّقة منذ زمن بعيد، بخاصة تقنيّات القنوات، فإنّ هذه الواحات كانت تعيش من استثمار المياه الجوفيّة التي تتغذّى من مياه سيول الأطراف الجبليّة، فتؤمّن زراعات غذائيّة ضروريّة لمناطق قومس، والجبال، وفارس وكرمان التي تتمتّع أيضًا بغنى إنتاجها الحرفي ونشاطها التجاري، من دون إغفال بعض الموارد المنجميّة.

إنّ التقاليد الحياتيّة نفسها كانت متّبعة في الجبال المحيطة، بدءًا بالمنحدرات الجافة في بلوشستان ومكران، حتّى الخاصرة الغربيّة للهندوكُش وأوّل الالتواءات القوقازيّة. وفضلاً عن ذلك، كانت تمرّ عبر أذربيجان، بالأمس كما اليوم، طرق المواصلات التي تصل الهضبة الإيرانيّة بالهضبة الأناضوليّة وأراضي أرمينيا وروسيا. وهيَ إمّا مسالك عاديّة للقوافل أو ممرّات صعبة، ولكنّها أقلّ قساوة، على كلّ حال، من الطرقات المتعرّجة التي تصل الهضبة بسهول دجلة والفرات العراقيّة.

من جهتها، فإنّ السواحل الخصبة والرطبة لبحر قزوين التي انتشرت فيها، منذ القرون الوسطى، عند أقدام الغابات العذراء، زراعات الأرزّ في جيلان وطبرستان، وكذلك وادي كارون الوسيع، أي سوزيان القديمة التي عرفت لاحقًا باسم خوزستان والتي ينضمّ منفذها في عمق الخليج الفارسي - العربي إلى دلتا بلاد ما بين النهرين، هذه السواحل وذلك الوادي حافظت في كلّ العهود على فرادتها. وفي الجزء الشمالي - الشرقيّ أخيرًا تمتدّ، في ما وراء جرجان، خراسان الواسعة التي انهار ازدهارها مع الغزوات التركيّة - المغوليّة، وتقسّمت أراضيها شيئًا فشيئًا، وفق الحدود التي تفصل اليوم الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة عن جمهوريّتي تركمانستان وأفغانستان. في كلّ هذه المجموعة تضافرت الغزوات التي عاشت في أواخر القرون الوسطى الإسلاميّة، مع تغيّرات الأحوال السياسيّة، على تشكيل بلد ذي أكثريّة شيعيّة إيرانيّة اللغة، مساحته أضيَق إلى حدّ ما، قياسًا إلى العالم الإيراني في القرون الإسلاميّة الأولى، ذلك البلد يعرف اليوم بـ«الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة».

قديمًا، كانت المناطق الإيرانيّة المختلفة التي ضُمّت إلى العالم الإسلامي، منذ الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، تشكّل جزءًا من الأراضي المفتوحة عنوة، بخلاف الأراضي البيزنطيّة التي خضعت في غالب الأحيان سلمًا ومن خلال معاهدة. هذه المناطق شهدت، منذ معركة نهاوند في ٢١هـ/٦٤٢م، اندفاع الجيوش المنتصرة التي أنهت الاحتلال بطريقة تقريبيّة بعد ٣١هـ/٦٥١م، عندما قُتل العاهل الساساني الذي كان هاربًا إلى منطقة ما وراء النهر. وبرغم ذلك استغرقت التهدئة مدّة من الزمن، توالت فيها، وفي ظلّ الخلافة الأمويّة السوريّة، فترات من المقاومة والثورات من جهة، والقمع من جهة أخرى. في تلك الحقبة، كانت إيران بكاملها خاضعة لحاكم يقوم بالحروب الضروريّة ويمسك بالجزء الشرقي من الأمبراطوريّة. ولم تتشكّل المقاطعات المتميّزة إلاّ على عهد الخلفاء العبّاسيّين. في غضون

ذلك، قام العرب وموالي خراسان - المتحدّرون من منطقة غنيّة وتجاريّة عرفت ظروفًا خاصّة، جعلت سكّانها يعتنقون الإسلام بأعداد وفيرة، مع بقاء الأمراء المحلّيّين في مراكزهم وفرض الجزية عليهم - بدور حاسم في «الثورة العبّاسيّة»: فقد عُهدت إليهم في دولة الخلافة الجديدة مسؤوليّات متزايدة، ومع ذلك لم يتمّ إخماد التوتّر والاضطرابات المتنوّعة في إيران نفسها.

بعض هذا التوتّر مردّه إلى الحيويّة التي احتفظت بها في البلاد، لبعض الوقت، الديانات الإيرانيّة السابقة، لا سيّما الزرادشتيّة والمانويّة، على الرغم من تنامي حركة اعتناق الإسلام. ويبدو أن بعض المسلمين الجدد، خاصة من المانويّين، ظلّوا مخلصين لقناعاتهم الأولى واتُّهموا، على عهد الخليفة المهدي، بأنّهم زنادقة أو كافرون. وثمّة عادات دينيّة هنديّة-إيرانيّة كانت هي أيضًا في أساس الاضطرابات التي اندلعت في بداية العصر العبّاسي. والدور الحقيقي الذي قام به هذا الإرث في ميدان الأفكار التي طبعت التطوّر الديني والزمني للثقافة الإسلاميّة، كما التعبير عنها أدبيًّا باللغة العربيّة، كانا في أساس الحركة المطلبية المعروفة بالشعوبيّة.

فضلًا عن ذلك، يفسّر التوتّر الاجتماعي الناتج، من بعض وجوهه، عن الضرائب التي فرضها المسلمون في البلاد المفتوحة، نشوء بعض الثورات التي ظلّت تقع في هذه المناطق. ومن أجل قمع إحداها، قام هارون الرشيد نفسه، على رأس جيش مهم، بحملة إلى خراسان حيث توفي في طوس في ١٩٣هـ / ٨٠٩م. هذه الحادثة كانت، في جزء منها، سببًا للأطماع السياسيّة التي راودت الخليفة الشابّ المأمون، الذي كان في حينه حاكمًا لهذه المقاطعة وكان يقيم فيها، وبلاطه في مرو يتوهّج بلمعان مميّز. وإذ رفض المأمون، وهو الوريث الثاني للعرش، الاعتراف بأوّليّة أخيه الذي أعلن خليفة بحسب تعليمات أبيهما، فانّه قام بحرب أهليّة ربحها جزئيًّا بفضل القوات التي تمّ حشدها في خراسان. هذا الصراع، الذي يعطي أيضًا دليلًا إضافيًّا على ثقل المقاطعات الشرقيّة في توازن الدولة العبّاسيّة، لا يجوز أن يفسّر، مع ذلك، على أنّه نتيجة التضادّ بين العرب والإيرانيّين، بل بالحري كنتيجة للمنافسة بين جماعات إجتماعيّة، تزكّيها صراعات شخصيّة.

أضحى حكم المأمون، في ما بعد، تحوّلًا تاريخيًّا تولّدت، انطلاقًا منه، حركات انفصاليّة في الشرق، صحيح أنّها أقلّ خطورة من تلك التي ظهرت في الغرب الإسلامي، لكنّها أدّت إلى تكوين سلطات وراثيّة حاكمة ومستمرّة إلى حدّ ما. فالطاهريّون حكموا حتّى ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م مقاطعة خراسان التي كان المأمون قد عهد بها إلى طاهر، وهو قائد ينتمي إلى أسرة من الموالي. في تلك السنة، أطاحهم عن سدّة الحكم الصفّاريّون الذين استقرّوا بدايةً في سجستان منذ ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، ومنها بسطوا سيطرتهم على كل إيران تقريبًا. ثمّ هُزموا بدورهم وحلّ محلّهم السامانيّون، وهم إيرانيّون من سكّان ما وراء النهر، حصلوا على حكم خراسان منذ سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م. وشهد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إذًا، تحت السلطة الإسميّة للعبّاسيّين الذين تراجع نفوذهم، إنفصالًا بين شرق إيران وغربها: فالجزء الشرقيّ حكمه السامانيّون، ثم ضباطهم الأتراك القدامى، الغزنويّون المدافعون عن السنّة، الذين استقرّوا في شرق سجستان، ومن هناك حاربوا حتى الهند من جهة، وحتى الرّيّ من جهة أخرى، وفي الجهة الغربيّة حكمَ أعضاء من أسرة البويهيّين حماة التشيّع، وتبوّأ بعضهم منصب أمير الأمراء في بغداد، وفرضوا وصايتهم على الخليفة. في تلك الحقبة ازدهرت أيضًا نماذج من فنّ إسلامي إيراني طريف، بدأ يثبت نفسه في هندسة معماريّة تعتمد القرميد، في أسلوب زخرفي، وكلاهما يستوحي تقاليده من ماضٍ بعيد؛ وكذلك عرفت اللغة الإيرانيّة رواجًا جديدًا كأداة أدبيّة استُعملت، منذ ذلك الحين، في أنواع أدبيّة زمنيّة، نثريّة وشعريّة، أعادت إحياء مواضيع قديمة.

بعد ذلك، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، تبدّلت الحالة كليًّا مع غزو الأتراك السلاجقة وعشائرهم التي اجتاحت خراسان واستقرّت في نيسابور، منذ ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م، قبل أن تسيطر على السلطة في بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م. هؤلاء الأسياد الجدد الذين فرضوا سيطرتهم على مجمل إيران أعادوا تثبيت السنّة من دون أن يتمكّنوا، مع ذلك، من القضاء على الإسماعيليّة النزاريّة التي استقرّت في ألموت منذ ٤٨٣هـ/١٠٩٠م. بالتأكيد تمّ

يوقفوا إطلاقًا نهضة أدبيّة وفنيّة أتاحت في كنفهم ولادة حضارة أمبراطوريّة جديدة. ولكنهم عدّلوا، بشكل عميق، التكوين العرقي والتنظيم الداخلي لمختلف المقاطعات: فهذه كانت تحت رحمة شهوات حكام محليين من البدو الأتراك، في كل مرّة عنّ لهم إحتلال البعض منها كأذربيجان مثلًا؛ وفي أماكن أخرى، عمد أسياد حرب جدد، وهم من الأتراك العصاة التابعين لدولة كانت على شفير التفتّت، على إدخال بذور انقسامات وصراعات داخليّة دائمة. وعند وفاة السلطان سنجر الذي كان قد جعل من خراسان مركز سلطنه، خلافًا لسابقيه الذين كانوا مقيمين خاصة في عاصمتهم أصفهان، تقاسم البلاد أمراء أتراك عدّة، بعضهم ينتسب إلى العائلة المالكة، كسلاجقة كرمان، وآخرون من الذين كبروا في خدمتها كأتابكة، منهم السّلغوريّون في فارس، والإيلدُغزيّون في أذربيجان. وبعيدًا منهم، فقد سعى الغوريّون، خلفاء الغزنويين، ثمّ الخوارزمشاهيّون، حكّام آسيا الوسطى القدماء من قبل السلاجقة، إلى ضمّ المناطق الحدوديّة إلى أمبراطوريانهم قبل أن يغيّر قدومُ المغول الأوضاعَ.

هذه الموجة الثانية من البدو الغزاة - الذين نهبوا أوّلاً المدن الرئيسة في ما وراء النهر، وحتى نيسابور، منذ ٦١٨هـ/١٢٢١م، وأعادوا الكرّة في ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، تحت قيادة هولاكو، وقاموا بهجمات منظّمة في إيران - كانت أيضًا في أساس قيام الأمبراطوريّة العائدة للإيلخانيّين. فهؤلاء اختاروا أن يمكثوا في مراغة أو تبريز وشاهدوا، بدورهم، سلطتهم تتفتّت في أقلّ من قرن. وكانوا تمكّنوا قبل ذلك، ليس فقط من إعادة ترميم ثقافة البلاد التي غيّروا أيضًا طبيعة سكّانها بالسعي إلى تتريكها، بل أيضًا من تطوير مناخها الديني إذ إنّهم، عندما اعتنقوا الإسلام، شجّع بعضهم التشيّع الإمامي الاثني عشري مع استئصالهم الإسماعيليّة. استمرّت العادات نفسها في ظلّ ورثتهم الذين كان أهمّهم المظفّرون في الجنوب والجلائريّون في الشمال الغربي، حتى الوقت الذي قامت فيه حملات تيمورلنك مجدّدًا باجتياح إيران بدءًا من ٧٨٢هـ/١٣٨٠م. عند ذلك، ضُمّت البلاد، ككلّ آسيا الغربيّة، إلى الممتلكات الشاسعة، ولكن المعرّضة للزوال، التي استولى عليها تيمورلنك بالقوة، والتي لم يتمكّن التيموريّون المتحدّرون منه من المحافظة، بعد موته في ٨٠٧هـ/١٤٠٥م، إلّا على الأراضي الشرقيّة. واستمرّت الاضطرابات طوال القرن الخامس عشر، بينما كانت سلالات التركمان من القراقيونلو والآق قويونلو تتصارع في ما بينها وضدّ التيموريّين. كلّ ذلك، لم يَحُل دون أن تستمرّ في التطوّر تلك الحضارة التي انطلقت في ظل الإيلخانيين: تشهد على ذلك تحف تمّ تنفيذها في مجال المنمنمات أو الكسوة بالقاشاني الذي يزيّن بلمعانه المباني القليلة المعروفة اليوم، لأنّها تمكّنت من الصمود أمام الكوارث الحربيّة المختلفة والزلازل.

الصفويّون، وهم أيضًا من أصل تركماني، استفادت سلالتهم في بداياتها من مساندة حركة دينيّة منظّمة، فبنوا آنذاك في إيران، بدءًا من العام ١٥٠١م، دولة تيوقراطيّة محاربة فرضت بالقوّة عقيدة التشيّع الإمامي الاثني عشري في كلّ البلاد؛ وفي الوقت عينه، حقّقوا نهضة سياسيّة واقتصاديّة مدعّمة بظهور شكل من الشعور القومي. ويعود لهم الفضل في تشييد الأبنية ذات الأبّهة التي زيّن بها الشاه عبّاس الأوّل عاصمته أصفهان، التي أصبحت مجدّدًا مدينة كبيرة، وما تزال شهرتها قائمة على إنجازاتها المعماريّة. بعد انحطاطهم واستيلاء نادرشاه على السلطة، بين ١٧٣٦ و١٧٦٧، بفضل انتصارات عسكريّة وضعت نهاية للفوضى والتدخّلات الغريبة، كانت ردّة الفعل السنيّة على حكم الأفشريّين في هذه المرحلة قصيرة الأمد. وإذا بالتشيّع، منذ نهاية القرن الثامن عشر، يسيطر من جديد على البلاد في ظلّ سلالة الزَّنْد، ثمّ القاجار الذين احتفظوا بالعرش على الرغم من المصاعب الداخليّة التي تخلّلتها محاولات تحديث، سبقت مرحلة الحرب العالميّة الأولى. إيران الحديثة، المملكة، ثمّ الجمهوريّة الإسلاميّة، ولدت آنذاك، في ظلّ سلطة البهلويّين الذين تسلّموا الحكم في ١٩٢٧، وأزاحتهم عنه، في ١٩٧٩، الثورة الإسلاميّة التي فرضت النظام الحالي. وفي الوقت نفسه امّحت، لمصلحة إسلام منتصر، صورة الدولة القوميّة والمتغرّبة في آن، التي سعت الى تشكيلها سلطة زمنيّة مناهضة لرجال الدين الشيعة من الملالي، معتمدةً في ذلك على عائدات النفط.

٢- الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، تبلغ مساحتها

١ ٦٤٨ ٠٠٠ كلم[٢]، عاصمتها: طهران، هي اليوم دولة حديثة مستقلّة، عدد سكّانها حوالى ٦٥ مليونًا، وهم مسلمون شيعة بنسبة ٩٨٪.

وجمهوريّة إيران الحاليّة، التي لا تغطي كامل المقاطعات الإسلاميّة القديمة التي حملت اسم إيران أو فارس، تحدّها شواطئ بحر قزوين في الشمال والخليج العربي - الفارسي أو خليج عُمان في الجنوب، ولها حدود مشتركة مع مناطق مختلفة إلى حدّ كبير، وتتقاطع في وسطها طرق مواصلات أرضيّة، فالبلاد تنفتح في الغرب على الجمهوريّات السوفياتيّة السابقة في أذربيجان وأرمينيا، وعلى الجمهوريّة التركيّة التي تتحكّم بالطريق التي تمرّ عبرها علاقاتها الإقتصادية مع أوروبا، وأخيرًا مع العراق الذي سيطرت حالة الحرب على علاقات الجمهوريّة الإسلاميّة معه في الثمانينات من القرن العشرين. ونحو الشرق تتابع الحدود التي تفصل الأرض الإيرانيّة عن الجمهوريّة السوفياتيّة السابقة تركمانستان ودولة أفغانستان الإسلاميّة ودولة باكستان الإسلاميّة، ولكن من دون ان تقطع هذه الحدود - التي رُسمت بطريقة إصطناعية - التواصل في المشاهد الجبليّة السهوبيّة أو الصحراويّة.

منذ ١٩٧٩، أصبحت هذه الدولة ذات الوضعيّة الجغرافيّة الفريدة، جمهوريةً إسلاميّة، بعدما أسقطت مملكة البهلويّين. دستورها يحدّد بدقّة أن كلّ التنظيم السياسي والاقتصادي والثقافي ينبغي أن يكون متجانسًا مع المبادئ الإسلاميّة التي يحدّدها مجلس مختصّ مكوّن من ١٢ (فقيهًا) يختارهم مجلس النوّاب. هذا الدستور ينصّ أيضًا على أنّ إدارة الجماعة تعود إلى فقيه، قاضٍ يخاف الله، وتحدّد بدقّة أنّ هذا الفقيه هو آية الله الخميني. ومع أنّ النظام برلمانيّ يعمل مع مجلس وزراء ورئيس للجمهوريّة، فالحياة السياسيّة يسيطر عليها حزب الجمهوريّة الإسلاميّة. موت الخميني في ١٩٨٩، عدّل إلى حدّ ما الوضع القائم، مع أنّه حوفظ على المبدإ القاضي بوضع زعيم ديني قوي في مركز القيادة. خامنئي، الوريث الأوّل، تمّ تعيينه من قبل مجلس الاختصاصيّين، لكنّه لم يحصل على لقب آية الله، واكتفى بلقب حجّة الإسلام. كما أنّه لا يملك السلطة الحقيقيّة التي أعطيتْ، بفعل تعديل الدستور، إلى رئيس الجمهوريّة.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٤، ٤٧-٤٩، ٧٠ و٧٢.

إيطاليا، بلاد احتلّ المسلمون موقّتاً المناطق الجنوبيّة منها، في القرون الوسطى، لا سيّما في القرنين الثالث والرابع الهجريين/القرن التاسع وأوائل العاشر الميلاديّين. لقد شكّلت صقليّة، أوّلاً، ثمّ شبه الجزيرة الايطاليّة نفسها، هدفاً للهجمات العربيّة الإسلاميّة التي تمكّن بعضها، في مرحلة مبكرة، من تكوين إمارات صغيرة. ومنذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، بعد انهزام اسطول البندقيّة في تارانت، سنة ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م، استقرّ المسلمون في باري سنة ٢٢٣هـ/ ٨٤٧م، وأسّسوا دولة استمرّت حتى سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م. وقد احتلّت تارانتا بين عامي ٢٣٢ و٢٦٧هـ/ ٨٤٦م و٨٨٠ تقريباً. وفي ذلك الحين، كانت فرق مسلّحة قادمة من البلاد الإسلاميّة تشنّ غزوات، أو تضع نفسها في خدمة الأمراء اللومبارديّين. والحملة التي هزّت أكثر ما يكون العالم المسيحي كانت، بوجه خاص، تلك التي أتاحت للمسلمين أن يبلغوا سنة ٢٦٦هـ/ ٨٤٦م، أسوار روما وأن يخرّبوا كاتدرائيّة القديس بطرس. وحملة أخرى قادتهم إلى إنشاء معسكر منعزل في وادي غارغليانو حيث استقرّوا بين عامي ٢٦٩هـ/ ٨٨٣م و٣٠٢هـ/ ٩١٥م. وفي سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠٢م، وجّه الأغلبي إبراهيم الثاني حملة بحريّة من افريقيا إلى كالابريا.

وبدءًا من مرحلة سيطرة الفاطميّين على صقليّة، استمرّت الحملات على شبه الجزيرة الإيطاليّة، لكن من دون أن تحقّق أهدافاً تذكر، باستثناء الحملة التي قادها صابر ضد الإمارات اللومبارديّة في السواحل التيرانيّة سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م، وتلك التي حقّقت سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م الاستيلاء الموقّت على مدينة جنوى. كل هذا النشاط العسكري والبحري، الذي تميّز أيضًا بالحملة على سردينيا سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م، توقّف على كل حال عندما استعاد المسيحيّون النورمان سلطتهم على صقليّة في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

إنّ المؤثّرات الفنيّة الآتية من البلاد الإسلاميّة، في هذه المرحلة، والتي استمرّت ظاهرة في الهندسة المعماريّة الصقليّة، تركت كذلك آثاراً واضحة في

جنوب ايطاليا. تشهد على ذلك مبانٍ متعدّدة، سواء في كالابريا أو حتى في كامبانيا، ولا سيّما شكل الأقواس والعناصر الزخرفيّة من هندسيّة ونباتيّة. ومن جهة أخرى، فإن التيّارات العلميّة العربيّة الإسلامية ساعدت في ازدهار الأوساط العلميّة في هذه المناطق، ولا سيّما في مجال الطب، وهي شاهد على التأثير الفكري الذي ساعد على أن يكوّن العالم المسيحي فكرة معيّنة عن الإسلام.

الإيلخانيّون، ٦٥٨-٧٥٤هـ/ ١٢٦٠-١٣٥٣م، سلالة مغوليّة متحدّرة من جنكيزخان، حكمت إيران، متوسعةً إلى العراق والأناضول. اعتنق أفرادها الإسلام في آخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وجعلوا مملكتهم مركزاً مَجيداً للحضارة الإسلاميّة.

بعد توقّف التقدّم المغولي الذي سبّبته وفاة جنكيزخان، سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، قام حفيده هولاكو بحملات ظافرة، انطلقت من منغوليا باتّجاه الشرق الأوسط، سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، فطالب أخاه قبلاي، الذي أصبح الخان الكبير إثر موت أخيه الآخر مونكه، بحكم الأراضي الممتدّة من وادي الفرات إلى ما وراء النهر (أوكسيس/ آموداريا). كانت هذه الأراضي مكوّنة من مناطق يحكمها أسيادها الجدد، وأخرى خاضعة لنظام حماية، وتدفع الضرائب، كالأناضول على عهد سلاجقة الروم، وكبعض المقاطعات في إيران. وفي بلاد ما وراء النهر، تمتدّ مملكة الجغاتيّين أو سلالة جغتاي، أحد أبناء جنكيزخان. هؤلاء كانوا في منافسة دائمة مع أسياد المملكة الجدد، التابعين لقبلاي منذ أن حصل هولاكو، مؤسّس السلالة الجديدة، عند تتويجه، على لقب الخان، الذي يشير إلى خضوعه للخان الكبير في الصين.

هذه الحالة الناشئة، المحكومة بهاجس الحفاظ على نوع من التوازن في «أمبراطوريّة السهوب»، لم تستمرّ إلّا حتّى سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م، تاريخ وفاة قبلاي. ذلك أنّ أحفاد هولاكو الذين حافظوا، في بداية الأمر، على تقاليد أسلافهم الدينيّة، وكانوا من أتباع الديانة الشمانيّة، متأثّرين، في الوقت نفسه، بالبوذيّة أو بالمسيحيّة، اعتنقوا الإسلام وقطعوا تالبًا علاقاتهم بأسيادهم البعيدين، وحملوا لقب خان، وليس «إيلخان». لكنّ التسمية «الإيلخانيّين» استمرّت لدى المؤرّخين لتمييز امراء المغول في بلاد الفرس، حتّى زوالهم سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م، عن مغول وسط آسيا، أو سيبيريا أو روسيا.

إنّ الحكّام الأوّلين من هذه السلالة الذين اعتمدوا تنظيماً مستوحى من التقاليد الايرانيّة، لكن لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام، أي دين شعوبهم. كان موقفهم معادياً للإسلام السنّي الممثّل بمصر وبسوريا على عهد المماليك، فكانوا يحاربون هؤلاء المماليك ويهاجمونهم باستمرار بعد الهزيمة التي مُنوا بها في عين جالوت. وأظهروا، في المقابل، ميلاً إلى الشيعة، وقد تسلّم بعض هؤلاء وظائف إداريّة؛ وكذلك إلى المسيحيّين الذين تنتمي إليهم إحدى زوجات هولاكو. وأقاموا علاقات ديبلوماسيّة مع الغرب، ولا سيّما مع فرنسا على عهد لويس التاسع. وظنّ الأوربيّون أنّهم وجدوا فيهم حلفاء ضد الدول الإسلاميّة، كالدولة السوريّة-المصريّة المعادية، في الوقت نفسه، للفريقين معاً... هذه السياسة، في الواقع، لم تؤدِّ إلى أي مبادرة فعليّة؛ لقد قام بها هولاكو، لكنّها لم تتابع إلا على عهد ابنه أباقا الذي شجّع البوذيّين والمسيحيّين النساطرة، حتّى وفاته، سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨٢م، التي تبعتها مرحلة قصيرة من الارتباك والفوضى الماليّة.

انتعشت قوّة الإيلخانيّين على عهد غازان، حفيد أباقا، الذي تبوّأ العرش سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م، بعد أن اعتنق الإسلام، وكذلك فعل كبار شخصيّات الدولة. أبقى غازان محلّ إقامته في تبريز التي كان أباقا اختارها، وهي ذات الموقع المناسب لمراقبة الأنشطة التجاريّة وطرق القوافل المتّجهة إلى البحر الأسود، وأعاد إلى مملكته النظام والازدهار. ومع كونه سنّيًّا كان متسامحاً مع الشيعة. وخلفه، سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م، أخوه أُولجايتو الذي اعتنق المذهب الشيعي. ومنذ ذلك الحين، لقي السنّة والمسيحيّون معاملة سيّئة على يد السلطة. وعلى الرغم من أن خليفة أولجايتو، ابنه أبو سعيد، عاد إلى السنّة، يسانده الوزير والمؤرّخ رشيد الدين الذي تسلّم بجدارة القيادة والإدارة، وشجّع التوجّه الإيرانيّ في المجتمع في عهد الحاكمين الأخيرين، فإنّ التشيّع وجد

في الدولة الإيلخانيّة أكثر فأكثر أرضاً خصبة. وأبو سعيد الذي شهد عهده ارتفاع أبنية مميّزة تقريباً في كل مكان من إيران، لا سيّما المساجد الجامعة، كجامع ورامين، وهي تشهد على حيويّة التقاليد المعماريّة التي تعود الى عهد السلاجقة، لم ينجح في المحافظة على وحدة الأمبراطوريّة، حتى لو أنّ بعض خانات المغول حكموا إلى ما بعد عهده، بين ٧٣٦ و٧٥٤هـ/ ١٣٣٥ و١٣٥٣م. كانت الدولة آنذاك في حال تفكك، والممثّلون الحاضرون على الساحة، لا سيّما آل جَلاير وآل مظفّر، يتنافسون للحفاظ على سلالتهم الخاصة. وعلى الرغم من ذلك نجح المغول، لعشرات السنين، في تأسيس أوّل مملكة إيرانيّة مستقلّة، وكان لهذا الحدث أهميّة بالغة: في مرحلة لاحقة، لتاريخ المناطق التي قامت فيها سلطتهم.

هولاكو	٦٥٤-٦٦٣هـ/ ١٢٥٦-١٢٦٥م
آباقا	٦٦٣-٦٨٠هـ/ ١٢٦٥-١٢٨٢م
أحمد تكودار	٦٨٠-٦٨٣هـ/ ١٢٨٢-١٢٨٤م
أرغون	٦٨٣-٦٩٠هـ/ ١٢٨٤-١٢٩١م
كَيخاتو	٦٩٠-٦٩٤هـ/ ١٢٩١-١٢٩٥م
بايدو	٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م
محمود غازان	٦٩٤-٧٠٣هـ/ ١٢٩٥-١٣٠٤م
محمد خُودابنده أولجايتو	٧٠٣-٧١٦هـ/ ١٣٠٤-١٣١٧م
أبو سعيد	٧١٦-٧٣٦هـ/ ١٣١٧-١٣٣٥م
أرپا	٧٣٦-٧٣٧هـ/ ١٣٣٥-١٣٣٦م
موسى	٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م

◄ راجع المستند رقم ٢٣.

الإيلدكُزيّون، هم إحدى السلالات الأتابكيّة من أصل تركي. ملكت لفترة قصيرة، وتنامى طموحها للدفاع عن الإسلام، في الوقت الذي غرقت فيه في الفوضى أمبراطوريّة آخر السلاجقة الكبار في إيران. مؤسّس هذه الأسرة المالكة هو عبد محارب اسمه إيلدكُز أو إيلدنز، تسلّم من السلجوقي مسعود مهمات حاكم أرّان وأذربيجان، قبل أن يبسط نفوذه على مناطق أكثر اتّساعاً، وذلك باسم سلطان سلجوقيّ آخر كان هو قد نصّبه على العرش. تابع خلفاؤه السياسة نفسها حتى ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، وتمتّعوا بحريّة حقيقيّة في إماراتهم التي شملت مقاطعة الجبال وكل شمال شرقيّ إيران.

وقد ذاعت شهرتهم وتألّقت بفضل الأنشطة الفنيّة والثقافيّة التي راجت في دور أمرائهم، وسط النزاعات والخلافات الداخليّة التي كانت آنذاك تجتاح المنطقة. وبعد أن تصدّوا بنجاح لهجمات الجيورجيّين ولهجمات أحمديليّي مراغة، انهارت قوّتهم العسكريّة تحت ضربات الخوارزمشاهيّين الذين تمكّنوا من احتلال تبريز سنة٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م.

شمس الدين إيلدكُز	٥٣١-٥٧١هـ/ ١١٣٧-١١٧٥م
نُصرة الدين بهْلوان محمد	٥٧١-٥٨٢هـ/ ١١٧٥-١١٨٧م
مظفّر الدين قِزِل ارسلان عثمان	٥٨٢-٥٨٧هـ/ ١١٨٧-١١٩١م
قُتْلُغ إينانْج	٥٨٧-٥٩١هـ/ ١١٩١-١١٩٥م
نصرة الدين أبو بكر	٥٩١-٦٠٧هـ/ ١١٩٥-١٢١٠م
أُوزبك	٦٠٧-٦٢٢هـ/ ١٢١٠-١٢٢٥م

◄ راجع المستند رقم ١٧.

إيلغازي بن أرتق، نجم الدين، ؟-٥١٦هـ/ ؟-١١٢٢م، أمير من سلالة الأرتقيّين، ومؤسّس الفرع الذي أقام في ماردين. حارب الفرنج في شمال سوريا في مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

بانتسابه إلى الحاشية التركيّة للسلاجقة الكبار الذين وسّعوا فتوحهم حتّى الأناضول، بعد غزو إيران، صاهر ايلغازي أبرزَ ممثّلي السلاجقة في سوريا، وهو تتش. وبعد وفاة هذا الأخير، فقد سلطته على القدس، وأصبح حاكماً لبغداد لحساب السلطان في ذلك الوقت. وبعزله عنها سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م، استولى على حصن ماردين، ولزم الحياد في الحملات العسكريّة التي وجّهها الأمراء المسلمون على الدولة الفرنجيّة التي نشأت عن الحملة الصليبيّة الأولى.

سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، وبعد تقلّبات متنوّعة، فرض سلطته على مدينة حلب التي كانت تعمّها الفوضى، بناء على مطالبة سكّانها بقدومه إليها. هاجم حينذاك الفرنج وألحق بهم، سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م أُولى هزائمهم وتوفي، بعد سنوات قليلة، في ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، بعدما نجح في الاستيلاء، فضلاً عن حلب، على ميّافارقين/ سيلفان، ونصيبين، وخاصة على ماردين حيث استمرّ أحفاده في السلطة طوال ثلاثة قرون، خلافاً لما كانت عليه حال الأرتُقيّين في حصن كيفا وآمد في ديار بكر.

إيلكخان ← **القراخانيّون.**

الإيلك خانات ← **القراخانيّون.**

إيليا أو إلياس، شخصيّة توراتيّة جاء ذكرها في القرآن بين الأنبياء الذين لم يُصْغِ معاصروهم لإنذاراتهم. يرد اسم إيليا في سُورتين، إحداهما السورة ٣٧ التي تشير، بوجه خاص، إلى توبيخه غير المثمر لشعبه عابد الأصنام. وفي وقت لاحق، أخذت روايات الكتّاب المسلمين حول إيليا بما ورد في العهد القديم، إلّا أنّها أضافت إليها عناصر من الأسطورة اليهوديّة، وكثيراً ما خلط هؤلاء الكتّاب بينه وبين الخضر. وقد أدّى انتشار عادة «تكريم الأولياء» في تلك الفترة إلى إجلال بعض المزارات المسماة على اسم هذا النبي، فأصبحت مقصدًا لزيارات تقويّة. إنّ ما حفظه لنا دليل الهَرَويّ يسمح بتحديد مواضع بعض هذه المزارات، في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، حول بعلبك في القسم الأعلى من سهل البقاع حيث يقال إنّ إلياس لجأ إلى العزلة. وما تزال حتّى اليوم مجموعة من المواقع تذكّر باسمه. من جهة أخرى، نعلم أنّ دير الكرمل المسيحيّ، أو دير مار الياس في حيفا، بقي لمدّة طويلة مقصداً لزيارة المسلمين والدروز الذين كانوا يشاركون سنويًّا في الاحتفالات الشعبيّة البهيجة التي تقام تكريماً لهذا القديس شفيع الدير.

الإيمان، مفهوم أساسيّ في الإسلام يَرِدُ في الحديث المتداول، كما في القرآن حيث تتكرّر كلمة «مؤمنون» أكثر من كلمة «مسلمون» التي تعني المذعنين لله، للدلالة على أتباع رسالة النبيّ محمد ﷺ وتمييزهم من أتباع سائر الديانات.

تشتقّ كلمة إيمان، مثل مؤمنين، من جذرٍ يلائم فيه الشعور بالولاء والوفاء - ومن ذلك معنى «المحافظة» على أمر ما - مفهوم الإنخراط في عقيدة. كما أنّه يعني الفعل والمضمون معًا، وفي كثير من الأحيان الاثنين معًا، وينطبق بذلك، بصورة عامة، على الاعتقاد الذي يختصره الجهْرُ بالإيمان أو الشهادة.

ويمكن تفصيل ذلك بالقول إنّه الاعتقاد بإله واحد، ورسوله، والكتاب الموحى إلى هذا الرسول، واليوم الآخر، والحياة الآخرة، أو الآخرة. وذلك يفترض القيام بالأعمال المنصوص عنها في الشريعة، إستنادًا إلى [أحكام] القرآن والسنّة، رغم الأخذ، في الوقت نفسه، بمقولة تمييز الإيمان الذي يوافق الإنخراط الداخليّ، من الإسلام الذي يُطلق على موقف خارجيّ هو التسليم لله. وهذان المعطيان يثمّرهما العمل بالفضائل الأساسيّة التي تُطلق عليها كلمة إحسان، في حين تعرف الطهارة المستبطنة بالإخلاص.

ولمّا كان الإيمان لا يُفهم حدُّه بدون التوجّه المستمرّ إلى العقيدة، فقد عُمد، عبر التاريخ، إلى التعمّق في مسائل الإيمان، ولكنّ ذلك كان يتمّ، في أكثر الأحيان، في مناخ من التوتُّر ومن الصراعات السياسيّة - الدينيّة. هكذا برزت التعدّدية في الإسلام التي تشكّل أحد جوانبه الأكثر تشويشًا والتي كانت، منذ النزاعات الأولى بين الشيعة والسنّة، في أصل انشعابه الدينيّ إلى نِحَل، متناحرة في أحيان كثيرة.

إنّ تداول هذا التعبير في مفهوم متشعّب، غبّ بساطته الأولى ووحدة مفهومه، بالاستخدام المستمرّ لمعانٍ مستمدّة من النزعة الباطنيّة والدعاوات الحزبيّة لكلّ «دعوة»، أدّى إلى الرواج الذي أصابته من جهة أخرى، «مفاهيم الجهر بالإيمان» التي فصّلت، في كثير من الأحيان بوضوح فقط، الأسس التبريريّة لكلّ تيّار [ديني]. بينما أدّت مناقشات أُخرى إلى نشوء علم الكلام، في حين أنّ بعض قيَم الإيمان لم تهتدِ إلى تعبير عنها إلّا بانطلاق التصوّف والنزعة الزهديّة المتّجهة إلى إشراقيّة بعيدة عن المعطيات المحصورة في الشهادة والشريعة. في هذا السياق الصعب، الذي خضع بدوره لتحوّلات متعلّقة بالمراحل التاريخيّة لتنامي الإسلام، نشأت، إضافة إلى ذلك، شيئًا فشيئًا، الآراء المختلفة الرامية إلى إيضاح العلاقات بين الايمان والأعمال البشريّة، محاولة أن تحدّد موقع الإيمان، وفي الوقت نفسه درجاته المحتملة وتحوّلاته، بالنسبة إلى التقليد المتوارث.

في صورة أدقّ، يمكننا القول إنّ الإيمان، في معناه الإسلاميّ التقليديّ، ينطوي على ثلاثة عناصر هي: الانضواء الباطنيّ، فالتعبير الكلاميّ عن الشهادة،

والاحترام المفروض لأوامر الشريعة ؛ فيما تشدّد كلٌّ من المدارس الكلاميّة على الواحد أو الآخر من هذه العناصر، علمًا أنّ النقطة التي نوقشت بامتياز تناولت المكانة التي خصّصت للأعمال.

طُرحت هذه المسألة الأخيرة في وقت مبكر لأنّ وضع «المؤمن» كان يتوقّف على تحديد الإيمان، وشكّلت المنطلق لكثير من المجادلات والتكفيرات التي أعقبت انقسامات سياسيّة طويلة الأمد وأحيانًا عنيفة. ففي حين حكم الخوارج على جميع مرتكبي الكبائر بالطرد من الجماعة الإسلاميّة، لأنّهم غدوا، في نظرهم، عارين عن الإيمان، لم يتّخذ المرجئة من الأعمال معيارًا للحكم على الإيمان، ذاهبين إلى أنّ الحكم يُرجأ إلى يوم الحساب ليصدره الله. في فترة لاحقة، شدّد معظم الفقهاء على دور الأعمال المتماهية جوهريًّا مع تنفيذ الأوامر الأساسيّة أو «أركان» الدين، إذ إنّ الإيمان بمعناه الدقيق يقوم، كما حدّده الحنبليّ ابن بَطّة، على الإيمان بما قاله الله وأمر به، مقرونًا بوضع الأوامر الإلهيّة موضع التنفيذ. مهما يكن من أمر، يبقى أنّ رأيًا انتشر في دار الإسلام مفاده أنّ الاعتقاد يكفي للفوز بالخلاص، وأنّ صاحب الكبيرة يفيد من غفران الله. فبحسب أحد الأحاديث «لا يدخل النار من كان في قلبه ذرّة إيمان».

قالت المدارس السنيّة بأنّ الإيمان، من جهة أخرى، قابل للزيادة أو النقصان، فهو يزيد بالقيام بالأعمال المأمور بها، وينقص بسبب عصيانها. هذا المفهوم الذي يكرّس، بشكلٍ ما، نتائج الخروج على الشريعة، يبرّر، من ناحية أخرى، الرأي السائد القائل بحقّ كلّ مؤمن بدخول الجنّة، لأنّه يأخذ في الاعتبار استمرار الإيمان، ولو ضعيفًا. زد على ذلك أنّ بعض الكتّاب المتأثرين بالتصوّف جعلوا الإيمان على مراتب: فالغزالي يميّز بين إيمان العاميّ القائم على مفهوم سلبيّ، وإيمان المفكّر القائم على المعرفة، وإيمان الصالح الذي هو إيمان اليقين الصوفيّ.

في النهاية، ثمّة مسألة أخيرة ما ونت تُطرح على جماعة المسلمين وهي الأشكال المختلفة التي اتّخذها إخفاء الإيمان أو التَّقيّة التي قال أصحابها بالإعفاء من الأوامر الشرعيّة في حال الخطر. هذه المواقف التي اعتبرت جائزة شرعًا من قبل المسلمين، تفاوتت درجات جوازها بحسب المجموعات المذهبيّة.

إيوان ← **الهندسة المعماريّة الإسلاميّة**.

أيّوب، شخصيّة توراتيّة، يرد اسمه كنبيّ في القرآن الكريم مرارًا. فبعض آيات سورة صٓ (الآيات ٤١ ـ ٤٤) تروي بايجاز حكاية أيّوب والآلام التي كبّده إيّاها الشيطان، وتضرّعاته وشفائه. هذه الرواية، المقتصرة على ذكر الموضوع الرئيسي لِسِفْر أيّوب في العهد القديم، أفاض فيها في ما بعد المفسّرون والمؤرّخون المسلمون لِسِيَر الأنبياء. والنبيّ أيّوب، في المنظار الإسلامي، قد يكون بشّر برسالته في حوران، جنوبي دمشق، وهذا ما يفسّر إشارة المسعودي إلى وجود قبر أيّوب في تلك المنطقة، في نوى. وهناك العديد من الأضرحة منسوبة إلى أيّوب في حوران، أضحت مقصد لزيارات تقويّة، وذلك في الفترة التي ازدهر فيها تكريم الأولياء في الإسلام. ورد تعداد هذه الأضرحة في دليل الهروي في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، واعتُمدت بعد خطإ والتباس في تحديد المواقع يعودان إلى التراث اليهودي-المسيحي القديم، أو الاسرائيليّات؛ وما يزال تكريمها سائدًا إلى أيامنا هذه.

أيّوب الأنصاري ← **أبو أيّوب**.

الأيوبيّون (٥٦٤-٦٥٩هـ/١١٦٩-١٢٦٠م)، اسم سلالة كرديّة الأصل حكمت بفروعها المختلفة الشرق الأدنى العربي الإسلامي في عهد الصليبيّين، واستطاعت، رغم النزاع المستمرّ بين أبنائها، أن تبسط سيطرتها على مصر وسوريا وأعالي بلاد ما بين النهرين، وحتى على اليمن.

إنّ الشهرة والنفوذ اللذين تمتّعت بهما هذه السلالة في الغرب المسيحي كانا يفوقان أهميّتها الفعليّة، يعود ذلك إلى الدور الذي نهض به بعض أمرائها في صراع الاسلام مع فرنج الأراضي المقدّسة، والنجاح الذي حقّقوه. فشخصيّة المؤسّس، صلاح الدين المشهور الذي انتزع القدس من الفرنج بعد معركة حطّين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، طبعت حكمه وحكم ورثته في المنطقة التي سيطروا عليها لعقود عدّة. وتحت سيادة العبّاسيّين البعيدة، احتلّ صلاح الدين القسم الأكبر من الأراضي

لتي كانت تشكّل من قبل أمبراطوريّة الفاطميّين، ومنها ليمن الذي ضمّه أخوه طوران شاه سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م. نكذا تكوّنت دولة سنّية جديدة وثبّتت كيانها بالإعتماد على الجهاد الذي أتاح لها عددًا من الانتصارات الباهرة، رنهضت قويّة مهيبة، لكنّها راحت تضعف بعد موت صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م وتقسيم المملكة بين ولاده الثلاثة: الملك الظاهر والملك الأفضل والملك لعزيز. وقد استطاعت دولته مع ذلك أن تحافظ على ثبيتها حتى سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، بفضل الجهود التي بذلها الملك العادل، أخو صلاح الدين.

خلال هذه المرحلة، عرفت المقاطعات الأيوبيّة لمختلفة ازدهارًا اقتصاديًّا حقيقيًّا، بفضل سياسة السلم لتي اتُّبعت مع الفرنج، وتكثيف العلاقات التجاريّة مع لغرب المسيحي، وكان التجّار الإيطاليّون يحتكرون هذه العلاقات. وقد أفضى ذلك إلى نهضة فكريّة وفنيّة مميّزة. ففي مدن القاهرة، ودمشق، وحلب، والقدس لتي استُعيدت، تجدّدت الحياة الدينيّة بفضل نهضة لدراسات الفقهيّة على مذهب السنّة، وبفضل انتشار مظاهر التقوى، وبروز الميول الصوفيّة، وقد شجّعها زدهار الطرق الصوفيّة الأولى، فنتج عن ذلك تكاثر لمدارس الدينيّة والزوايا المبنيّة بأناقة. ومقابل ذلك تطوّرت وسائل الدفاع وشُيّدت حصون وقلاع وأسوار جديدة تنافس تلك التي رفعها في المنطقة مسيحيّو لدول اللاتينيّة.

إلّا أنّ ما أنجزه الأمراء الأيوبيّون في مطلع القرن لسابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد بدأ الضعف يدبّ إليه بسبب صراع الإخوة، وذلك بعد موت الملك لكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، الوحيد بين أبناء العادل لذي حاول أن يضع خطّة سياسية شبيهة بتلك التي وضعها والده. فبعد موته سيطرت معالم الضعف ولم تبرز إلّا بعض المبادرات المحليّة الخجولة. والفروع لأيوبيّة - ومنها سلالة أيوب التي ملكت حماه واليمن، وسلالة صلاح الدين التي استأثرت بحلب، وسلالة العادل التي تنازع أفرادها مصر وسوريا وأعالي بلاد ما بين النهرين - خسرت تباعًا مناطق سيطرتها. وعدا إمارات صغيرة منعزلة عاجزة عن القيام بأيّ دور بارز،

جاءت نهاية الأيوبيّين مع ظهور المماليك في مصر، وهم من العبيد العسكر الذين كانوا يشكّلون حرس الأيوبيّين، فاستأثروا بالسلطة وحلّوا مكان أسيادهم.

١- الأيوبيّون في مصر

الملك الناصر الأول صلاح الدين	٥٦٤-٥٨٩هـ (١١٦٩-١١٩٣م)
الملك العزيز عماد الدين	٥٨٩-٥٩٥هـ (١١٩٣-١١٩٨م)
الملك المنصور نصير الدين	٥٩٥-٥٩٦هـ (١١٩٨-١٢٠٠م)
الملك العادل الأول سيف الدين	٥٩٦-٦١٥هـ (١٢٠٠-١٢١٨م)
الملك الكامل الأوّل نصير الدين	٦١٥-٦٣٥هـ (١٢١٨-١٢٣٨م)
الملك العادل الثاني سيف الدين	٦٣٥-٦٣٧هـ (١٢٣٨-١٢٤٠م)
الملك الصالح نجم الدين أيوب	٦٣٧-٦٤٦هـ (١٢٤٠-١٢٤٩م)
الملك المعظّم طوران شاه	٦٤٦-٦٤٧هـ (١٢٤٩-١٢٥٠م)
الملك الأشرف الثاني مظفّر الدين	٦٤٧-٦٥٠هـ (١٢٥٠-١٢٥٢م)

٢- الأيوبيّون في دمشق

الملك الأفضل نور الدين علي	٥٨٢-٥٩٣هـ (١١٨٦-١١٩٦م)
الملك العادل الأول سيف الدين	٥٩٢-٦١٥هـ (١١٩٦-١٢١٨م)
الملك المعظّم شرف الدين	٦١٥-٦٢٥هـ (١٢١٨-١٢٢٧م)
الملك الناصر صلاح الدين داود	٦٢٤-٦٢٦هـ (١٢٢٧-١٢٢٩م)
الملك الأشرف الأوّل مظفّر الدين	٦٢٦-٦٣٥هـ (١٢٢٩-١٢٣٧م)
الملك الصالح عماد الدين	٦٣٥-٦٣٦هـ (١٢٣٧-١٢٣٨م)
	٦٣٧-٦٤٣هـ (١٢٣٩-١٢٤٥م)
الملك الكامل الأول نصير الدين	٦٣٦هـ (١٢٣٨م)
الملك العادل الثاني سيف الدين	٦٣٦-٦٣٧هـ

	(١٢٣٨-١٢٣٩م)
الملك الصالح نجم الدين أيوب	٦٣٧ (١٢٣٩م)،
	٦٤٤-٦٤٧هـ
	(١٢٤٥-١٢٤٩م)
الملك المعظّم طوران شاه	٦٤٦-٦٤٧هـ
	(١٢٤٩-١٢٥٠م)
الملك الناصر الثاني صلاح الدين يوسف	٦٤٧-٦٥٨هـ
	(١٢٥٠-١٢٦٠م)

٣- الأيوبيّون في حلب

الملك العادل الأول سيف الدين	٥٧٣-٦١٣هـ
	(١١٨٣-١١٨٦م)
الملك الظاهر غياث الدين غازي	٥٨٢-٦١٣هـ
	(١١٨٦-١٢١٦م)
الملك العزيز غياث الدين	٦١٣-٦٣٤هـ
	(١٢١٦-١٢٣٧م)
الملك الناصر الثاني صلاح الدين يوسف	٦٣٤-٦٥٩هـ
	(١٢٣٧-١٢٦٠م)

٤- الأيوبيّون في أعالي ما بين النهرين (ميافارقين وسِنْجر)

الملك الناصر الأول صلاح الدين	٥٨١-٥٩٠هـ
	(١١٨٥-١١٩٥م)
الملك العادل الأول سيف الدين	٥٩٠-٥٩٦هـ
	(١١٩٥-١٢٠٠م)
الملك الأوحد نجم الدين أيّوب	٥٩٦-٦٠٧هـ
	(١٢٠٠-١٢١٠م)
الملك الأشرف الأول مظفّر الدين	٦٠٧-٦١٧هـ
	(١٢١٠-١٢٢٠)
الملك المظفّر شهاب الدين	٦١٧-٦٤٢هـ
	(١٢٢٠-١٢٤٤م)
الملك الكامل الثاني نصير الدين	٦٤٢-٦٥٩هـ
	(١٢٤٤-١٢٦٠)

٥- الأيوبيّون في أعالي ما بين النهرين (حصن كيفا)

الملك الصالح نجم الدين أيوب	٦٢٩-٦٣٧هـ
	(١٢٣٢-١٢٣٩م)
الملك المعظّم طوران شاه	٦٣٧-٦٤٧هـ
	(١٢٣٩-١٢٤٩م)
الملك الموحِّد تقيّ الدين	٦٤٧-٦٨٢هـ
	(١٢٤٩-١٢٨٣م)

٦- الأيوبيّون في اليمن

الملك المعظّم شمس الدين طوران شاه	٥٧٠-٥٧٧هـ
	(١١٧٤-١١٨١م)
الملك العزيز ظهير الدين طغتكين	٥٧٧-٥٩٣هـ
	(١١٨١-١١٩٧م)
معزّ الدين اسماعيل	٥٩٣-٥٩٨هـ
	(١١٩٧-١٢٠٢م)
الملك الناصر أيّوب	٥٩٨-٦١١هـ
	(١٢٠٢-١٢١٤م)
الملك المظفّر سليمان	٦١١-٦١٢هـ
	(١٢١٤-١٢١٥م)
الملك المسعود صلاح الدين	٦١٢-٦٢٦هـ
	(١٢١٥-١٢٢٩)

◄ راجع المستندات ١٨، ٢٠، ٥٦، ٥٧ و٦٠.

ب

باب، لفظ عربي تُفسَّر معانيه المختلفة، المجازيّة والاصطلاحيّة، غزارة استعماله تلبيةً لمقتضيات توالت داخل الحضارة الإسلاميّة.

١ - هناك أوّلًا الأشكال المختلفة التي تدلّ على لفظة باب في مدلولها الحسيّ مثل «باب المدينة» أو باب البناء (مدخل). في مثل هذه الحالات، تظهر الأهميّة التي منحتها الهندسة المعماريّة الاسلاميّة في القرون الوسطى للإنجازات التي كانت تسهم في تحصين الأسوار أو في إضفاء نوع من الأبّهة عليها. تؤكّد هذه الانجازات مدى الغنى في هندستها الدفاعيّة والتزيينيّة، كما تؤكد، في الوقت نفسه، الاستعمال المكثّف للفظة «باب» في طوبوغرافيا المدن.

قد يكون للقواعد الخاصة بالمجتمع الإسلامي ولقوانينه الشرعيّة دورٌ في تنمية ميزات خاصة في البناء، كذلك النوع من المداخل التي تُركِّز على طريقة حربة البندقيّة أو بشكل متعرّج، مؤمّنة بذلك درجة عاليةً من الحماية لقاطني هذه المساكن. كما أنّها تسهم من ناحية ثانية، كما هي الحال في قلعة حلب، في تمتين القدرة الدفاعيّة للبناء. أما أبواب القصور فكانت تبنى وفق هندسة تثير إعجاب الزائرين.

لا شيء يسمح في المقابل بالربط بين الممارسة الإسلاميّة للسلطة في القرون الوسطى والعادة التي ظهرت مؤخّرًا في بعض الدول، كدولة الصفويّين أو دولة العثمانيّين، والتي تشير، من خلال عبارات منسوجة حول لفظة باب أو حول ألفاظ تواريخها في اللغتين الفارسيّة والتركيّة، إلى صرح مهيب أو إلى حكومة أو إلى مركز إداري. جناح الشاه عبّاس الملكي المؤدّي إلى الساحة التي انشأها في عاصمته أصفهان كان يحمل اسم «عالي كابي». الباب العالي العثماني كان يجمع مكاتب كبير الوزراء، وأصبح يدل، في القرن التاسع عشر، على وزارة الداخليّة. وفي الحقبة نفسها كان باب المشيخة في اسطنبول يعمل بأمرة المفتي الأكبر، وكان «باب السر عسكر» يمثل وزارة الدفاع. أمّا أصول هذه الاستعمالات التي كانت مجهولة في عصر الخلفاء العباسيّين فظلّت غير واضحة.

٢ - اكتسبت لفظة «باب»، من جهة ثانية، معنى دينيًّا صرفًا، تجسّد خصوصًا لدى الشيعة الذين أطلقوها على التابع الأوّل للإمام. فهو الذي يفسّر إرادة الإمام، كما يحجب الناس عنه أو يسمح بالدخول إليه. فكان لكلّ من أئمّة الاثني عشريّة، المدافعين عن حق أتباع علي، باب. واستمرّ ذلك حتّى اختفاء الإمام الثاني عشر فانتقلت إرادته إلى أشخاص مُنحوا، منذ ذلك الحين، ألقابًا أخرى: السفراء (المفرد سفير)، في عصر «الغيبة الصغرى» (٢٦٠-٣٥٠هـ/ ٨٧٤ - ٩٦١م)، المجتهدون (المفرد مجتهد) خلال «الغيبة الكبرى»، وقد اتّخذ هؤلاء في العصر الحديث لقب مُلّا وآية الله. كما ظهرت تسمية «باب» أيضًا داخل هرميّة الحركة الإسماعيليّة الشيعيّة، فكانت تُطلق في مصر، إبّان الحكم الفاطمي، على «الداعي» الذي كان يحتلّ المركز الثاني مباشرة بعد الإمام والذي كان يأخذ على عاتقه أمر ادارة تعاليم «الدعوة» التي كان يحتلّ فيها المقام الأوّل. أمّا النصيريّون فقد أفردوا في ثالوثهم مكانًا لباب يتجسّد في كل دورة، مماثل لشخصيّة سلمان الفارسي في عصر النبيّ محمّد (ﷺ).

و«باب» أخيرًا، أي المدخل المؤدي الى الحقيقة، هو الاسم الذي اختاره «نبيّ» البابيّة ومؤسّسها في القرن

التاسع عشر السيد علي محمد الشيرازي.

الباب العالي أو بالتركيّة القديمة «باب عالي» أو «باب آصفي»، تسمية أُطلقت، إبتداءً من القرن الثامن عشر، على الأجهزة التي خضعت، داخل الدولة العثمانيّة، لإشراف الصدر الأعظم والتي كانت تشكّل الحكومة الحقيقيّة للأمبراطوريّة.

كان درج، منذ القرن السابع عشر، استعمال أشمل لمثل هذه التسمية في نطاق الحكم الصّفوي، حيث استُخدمت عبارة «عالي قاپو» التي كانت تعني مجمل القصر الأمبراطوري، بما في ذلك البلاط والإدارة المركزيّة التي انتظمها الشاه حوله. ولم يتعدَّ الأمر توسيع مدلول التعبير المعماري «باب» الذي كان يستعمل في صيغته العربيّة أي «باب» أو في صيغته التركيّة «كابي».

بابا، لفظ تركي وفارسي يعني «أب»، ويستعمل أحيانًا بعد الاسم العلم كلقب فخري مثل حاجي بابا أو علي بابا.

لاقى هذا اللفظ رواجًا كبيرًا في حلقات الدراويش في القرون الوسطى، خصوصًا في إيران وتركيا، بحيث أصبح أحيانًا مرادفًا للفظة «صوفيّ» عند العامة في هذين البلدين.

بابا طاهر، صوفي ذو وجه أسطوري، عاش على الأرجح في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، في مدينة همذان حيث ما يزال ضريحه مكرّمًا حتى اليوم.

اشتهر هذا الممثّل القديم للتصوّف الإيراني بأشعاره المنظومة بلهجة فارسيّة عاميّة، نسبتها إليه أنطولوجيّات متأخّرة، كما اشتهر أيضًا برسائله وحكمه المكتوبة بالعربية، والمنتشرة خصوصًا في أوساط الصوفيّين المتأخّرين، وهي ما تزال محفوظة في مخطوطات متعدّدة. ترتبط شخصيّته بشكل غامض بمنطقة لورستان التي ربّما كان ينتمي إليها، وبشكل أدقّ بفرقة «أهل الحقّ» الباطنيّة التي تخصّه اليوم بمركز مميّز في سلسلة أئمّتها الروحيّين.

بابائي (بابائيّون)، هم أعضاء حركة إجتماعيّة - دينيّة نشأت في الأناضول في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. دعت هذه الحركة التي كان يترأسّها الواعظ الشعبي ومدّعي النبوة بابا اسحق، عناصرَ قبائل التركمان في طوروس وفي منطقة اماسيا الى الثورة سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م. كانت هذه القبائل مُبعدة عن السلطة في عهد سلاجقة الروم الذين كانوا يعتمدون على سكان المدن من أهل السنّة.

لا نعرف بشكل واضح تاريخ البابائيّة التي تقترب من بعض أشكال التشيّع. وما نعرفه هو أنّها انتشرت في عصر المغول في الأناضول، وكان لها، على ما يبدو، أثر على جماعة البكتاشيّين.

بابُر، ظهير الدين محمّد، ٨٨٨-٩٣٧هـ/١٤٨٣-١٥٣٠م، هو الحاكم الأوّل والمؤسّس لسلالة المغول في الهند. اشتهر، خلال حياة حافلة بالمغامرات العسكريّة، بأنّه كاتب وشاعر صوفي.

ينتسب بابر من ناحية أبيه إلى تيمورلنك، ومن ناحية أمّه إلى جنكيز خان. ناضل منذ صغره ليحتفظ بإرثه أميرًا لفَرْغانة، واشترك في مختلف النزاعات المسلحة بين السلالات الحاكمة في المنطقة، إذ كان قسمٌ من هذه السلالات ينتمي الى عائلته. لم يتمكّن بابُر من تثبيت سلطته على المدن المهمّة في آسيا الوسطى، إذ كانت تُنتزع منه بعد كل انتصار. اعتنق لفترة عابرة المذهب الشيعي وناضل الى جانب الشاه إسماعيل الصفويّ، لكنّ كل ذلك لم يحُل دون فقدانه سمرقند للمرّة الثالثة. استقرّ بعد ذلك في كابُل ثمّ في قندهار، ومنها دخل الهند. في سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م، بعد انتصاره في پانيپات، تمكّن من أن يحتلّ دلهي وآگرًا حيث توفي بعد أربع سنوات من ذلك. ونقلت رفاته في ما بعد إلى ضريح خاص في كابُل.

لم يكن لبابُر مُتّسع من الوقت لتنظيم ملكه الذي أورثه إبنه هُمايون. لكنّه أثبت خلال حياته، الملأى بالمعارك وبالتجوال المستمرّ، جدارته في الأمور السياسيّة والعسكريّة. وهو، إضافة إلى ذلك، كاتبُ سيرة ذاتيّة عنوانها بابُرنامَه. تشهد هذه السيرة التي كتبها باللغة التركيّة على موهبته الأدبيّة وعلى حسّه ودقّة ملاحظته. وقد دفعه اهتمامه بالمسائل الدينيّة إلى أن

يترجم شعرًا باللغة التركيّة تاجَ الصوفيّ خواجه عبيدالله أحرار، من جماعة النقشبندي. مَثّلَ هذا الأخير، الذي كان يكنّ له بابُر تقديرًا خاصًا، دورًا مهمًا في آسيا الوسطى. وغالبًا ما اعتبر الدارسون أنّ الميول الصوفيّة التي نمت في نفس بابُر ظهرت في ما بعد في شخصيّة حفيده أكبر، الأمبراطور التوفيقيّ المشهُور.

◄ راجع المستند ٣٣.

بابَك (؟ - ٢٢٣هـ؟ - ٨٣٨م)، مُتمرّد من أصل إيرانيّ، ظهر في بداية حكم العبّاسيّين في المناطق الجبليّة لأذربيجان الشماليّة، وتمكّن من إلحاق الهزيمة بحملات الخلافة العسكريّة حتى سنة ٢٢٢هـ/ ٨٣٧.

كان بابك رئيس بدعة دينيّة تبعه فيها سكّان منطقة أرّان إبتداء من سنة ٢٠١هـ/ ٨١٦م، وقاد حركة دينيّة إجتماعيّة، غالبًا ما كان يُربط بينها وبين الدعوة الخُرّميّة في إيران. من الصعب تحديد المنحى الديني لدعوته، لأنّها أُوّلت بطرق مختلفة عند المؤرّخين المسلمين القدامى. فقد رأى بعضهم فيها ما يذكّر بتعاليم غلاة الشيعة. استعمل بابك وسائل مُثقلة بالعنف. ولم تتمكّن الحملات العسكريّة المتتالية التي أرسلها الخليفة العبّاسي المأمون من إخماد ثورته التي امتدّت إلى منطقة الجبال. وعندما تولى المعتصم الخلافة، أرسل ضدّه القائد التركي أفْشين الذي تمكّن من الاستيلاء على قلعة البَذّ في شهر رمضان ٢٢٢هـ/ آب ٨٣٧م. قُبض على بابك واقتيد إلى سامرّاء في صفر ٢٢٣هـ/ كانون الثاني ٨٣٨م حيث أُعْدِم بعد أن ذاق مختلف فنون التعذيب. واستمرّ أتباع بابك الذين عرفوا بالبابكيّة يمارسون نشاطهم طيلة القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

البابيّة، حركة دينيّة متحدّرة من الفرق الشيعيّة الأكثر تطرّفًا، انتشرت في إيران في القرن التاسع عشر، وما تزال فاعلة في هذا البلد حتّى الحقبة الحديثة.

ولد مؤسّس هذه الحركة سيّد علي محمد في شيراز سنة ١٨١٩، وأُعدِم في تبريز سنة ١٨٥٠. استرعى سيّد علي محمد نظر رئيس حركة الشيخيّة في كربلاء، المدينة الشيعيّة المقدّسة، وقد رأى فيه أحد اتباع هذا الأخير في ما بعد «الباب» الذي يفضي إلى الحقيقة، أي رأى فيه البادئ لدورة نبويّة جديدة. ومن ذلك الحين راح «الباب» يناضل ضدّ رجال الدين الشيعة الذين كان يعتبرهم فاسدين، وقد تمكّن من أن يضمّ الى حركته عددًا من الأتباع من بينهم الملّا حسين الذي كان أوّل من آمن برسالته، فمنحه لقب «باب الباب». وبعد أن أعلن في مرحلة لاحقة أنّه المهديُّ، تمكن سيّد علي محمد من نشر مؤلّفاته في مدن مختلفة، وخصوصًا في شيراز وأصفهان. لكنّ الاضطرابات التي أحدثتها دعوته والتي هدّدت الإماميّة الاثني عشريّة، المذهب الرسمي للبلاد، إضافة إلى ما حملته من تمرّد سياسي، عجّلت في القبض عليه وفي سجنه في أذربيجان سنة ١٨٤٧ حيث أُعدم، بعد إعدام سبعةٍ من اتباعه في طهران. نقلت جثّته في ما بعد إلى عكا حيث كان عدد من أتباعه قد نفي إليها، ودفن في ضريح بُني خصّيصًا على منحدر جبل الكرمل.

خلّف «الباب» مؤلّفات عدّة أشهرها «البيان» الذي حُرّر باللغتين العربيّة والفارسيّة. إنّ العقيدة المُعبّر عنها في هذا المؤلّف تبتعد بشكل مَحسوس عن الاسلام، بالرغم من بعض النقاط المشتركة مع العقيدة الشيعيّة والصوفيّة. على معتنق هذه العقيدة أن ينتظر مجيء «من يظهره الله»، «نبيًّا منتظرًا»، وأن يقبل باعتماد قبلة جديدة هي مَقرّ «الباب». ألغت هذه العقيدة أهمّ مبادئ الشريعة الإسلاميّة، خصوصًا تلك التي تتعلّق بالصلاة، لأنّ الحلقة النبويّة لمحمد قد انتهت، بحسب رأيهم، سنة ١٨٤٤. كما أنّ الآيات القرآنيّة قد أخضعت لتأويلات روحانيّة.

يكشف هذا الكتاب، من ناحية أخرى، عن رؤية ميتافيزيقيّة خاصّة تضع عالمًا لامَرئيًّا بين العالم الطبيعي وعالم الذات الإلهيّة المستحيل بلوغه، وهو لا يترك مكانًا لخلود النفس الفرديّة. كذلك، تعلن العقيدة المثبّتة في كتاب «البيان» بعض المبادئ الأخلاقيّة والقانونيّة المختلفة التي لا تخلو من الغرابة، كمنع العلاقات الجنسيّة بين الزوجين، وإجبار الأرامل ذكورًا وإناثًا على الزواج في أقصر فترة من ترمّلهم وإلغاء الشعائر الدينيّة العامّة. يضاف إلى كل ذلك التساهل في أمر الحدود حيث كان يُترك أمرُ تنفيذها الى المذنب نفسه.

تميّز تاريخ أتباع البابيّة بسلسلة من الاضطهادات التي تعرّضوا لها. بين سنة ١٨٤٤ وسنة ١٨٥٢، تاريخ محاولة إغتيال الشاه القاجاري ناصر الدين شاه الفاشلة، قام اتباع البابيّة بأعمال عنف عدّة ضد السلطات الحاكمة. وكانوا قد أعلنوا، سنة ١٨٤٨، في بَدَشْت انفصالهم عن الإسلام ورفضهم للشريعة الإسلاميّة. وكان في عدادهم الشاعرة المشهورة قُرّة العين التي نزعت حجابها في تلك المناسبة لتؤكّد أنّ حركتهم ترفض الشريعة. تعرّض أعضاء هذه الحركة للإضطهاد وللموت خلال تلك الفترة في مناطق مختلفة، ما يُفسّر محاولة الاغتيال الفاشلة التي قاموا بها سنة ١٨٥٢. وقد تعرّضوا بعد هذه المحاولة للاضطهاد وللتعذيب من جديد. أُلقي القبض على الشاعرة قرة العين، فأودعت السجن قبل أن تُعدم خنقًا. نُفي قسم كبير منهم إلى العراق، إذ راح نشاطهم بعد ذلك التاريخ يتّسم باللّاعنف. وقد انشقّت حركتهم الى قسمين: البهائيّون الذي تبعوا بهاء الله، والأزليّون الذين تبعوا ميرزا يحيى أو صُبح الأزل شقيق بهاء الله، وبقوا متمسّكين بحرفيّة العقيدة المثبتة في «البيان» وبتعاليم «الباب». عملت السلطنة العثمانيّة سنة ١٨٥٨ على تثبيت الانشقاق بينهم إذ قسمت البابيّين المنفيّين الى العراق والى أَدْرَنة فئتين منفصلتين، فأرسلت الأزليّين الى جزيرة قبرص وأتباع بهاء الله إلى فلسطين.

الباتُويُّون ← القبيلة الذهبيّة.

باجِرْمي (مملكة)، دولة إسلاميّة ازدهرت بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، في المناطق الواقعة في جنوب شرقي بحيرة تشاد في إفريقيا، وهي اليوم جزء من جمهورية تشاد.

كان ازدهار هذه الدولة المضمحلّة الذي قام، في الأصل، على تجارة القوافل، تابعًا لحركة أسلمة في منطقة متنوّعة الإتنيّات، تقع على حدود المناطق الساحليّة لما كان يُعرف بالسودان. فمنذ القرن السادس عشر ظهر في تلك المنطقة الأثر الإسلامي الذي عَزّزه الدُعاة من البول أو الفُلْبَة (Peuls) والتُجّار من الهَوْسا (Haoussas). اتّخذت العلاقة، التصادميّة في الغالب، بين باجرمي من جهة، ووداي والبورنو ودارفور من جهة ثانية، منحى أكثر تعقيدًا في القرن التاسع عشر، وذلك نتيجة للصراع وللتنافس اللّذين سبّبهما توسّع أمبراطوريّة البول التي قامت على الجهاد، وتَدَخّل قوى إسلاميّة أخرى مرتبطة بالحركة المهديّة في السودان الشرقي، وتطوّر الطريقة السنوسيّة في السّيرينايك، أي بَرقة. إنّ التحوّلات التي عرفها في ما بعد الوضع الاقتصادي في هذه المنطقة خلال القرن العشرين، بعد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٠٠، ثمّ خلال الاستقلال سنة ١٩٥٦، تؤكّد الانحطاط الذي أحدثته سابقًا فيها الحروب المتتالية وتدمير ماسْنيا عاصمتها القديمة.

باجه، إسم مُشتقّ من تسميتين قديمتين مختلفتين تدلّان على مدينتين في العالم الإسلامي القروسطي، ما تزالان تحملان هذا الاسم حتّى اليوم.

باجه البرتغاليّة، مدينة صغيرة من أعمال الألنتيخو لم تعرف، خلال السيطرة الإسلاميّة، سوى مراحل من الانحطاط البطيء، بالرغم من ثروة منطقتها الزراعيّة. كانت باجه مدينة رومانيّة قديمة مشهورة تُعرف باسم باكس جوليا أو جوليا السلام، احتلّها العرب المسلمون مع مدينة مريدا (مارده، بحسب التسمية الأندلسيّة) إبّان الفتوحات الكبرى على الأرجح، وأصبحت سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م عاصمةً لأحد القطاعات العسكريّة في الأندلس في عهد الأمويّين. حافظت على سكّانها الأصليّين الذين اشتركوا في ثورات عدّة. لم يحُلْ دورها كعاصمة لمقاطعة دون مسيرتها الى الانحطاط. فقد حلّت محلّها مدن مثل يابُرة ومرتلة، إلى أن استعادها المسيحيّون سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م. فلم يجدوا فيها سوى خرائب شبه مهجورة، فأعادوا بناءها بدون الحفاظ على أي أثر من ماضيها الاسلامي.

باجه التونسيّة، مدينة ناشطة الحركة في شمال البلاد، وفّر لها موقعها الجغرافي المحافظة على ازدهارها حتّى اليوم. إضافةً إلى كونها مركزًا لمنطقة زراعيّة في إفريقية القديمة، فإنّها أدّت دورًا إستراتيجيًّا نتيجة لموقعها على أحد طرق القوافل التجاريّة في المغرب، وارثةً بذلك مدينة فاغة القديمة. واستمرّت عاصمةً للمقاطعة منذ احتلّتها الجيوش العربيّة الإسلاميّة إبّان الفتوحات الكبرى سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م. من هنا كانت

أهميّتها السياسيّة بالنسبة الى الحكام المستقرّين في القيروان، ولا سيّما الأغالبة منهم والحفصيّين.

باديشاه، من الفارسية «پادشاه» أي «السيد الملكي»، لقب رفيع حمله بخاصة السلاطين العثمانيّون، وغالبًا ما يترجم بالسيد الكبير.

ربّما شُرع باستعمال هذه التسمية التي تضمّ لقب شاه حوالى نهاية القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، لأسياد الأمبراطوريّة التركيّة الكبرى التي كانت قد تكوّنت في ذلك الحين. لا تسمح المستندات المحفوظة بتحديد تاريخ استخدام هذا العرف الذي استمرّ حتى نهاية السلالة. كانت الإدارة العثمانيّة تستخدمه كذلك، إبتداء من القرن السابع عشر، لبعض الملوك المسيحيّين في أوروبا الذين كانت على علاقة بهم.

البارَكْزايي أو المحمّدزايي، ١٨١٩ - ١٩٧٣، ثاني أسرة «ملوك» أفغانستان، متحدّرة من القبيلة نفسها التي يتحدّر منها آل دُرّاني. سلبت السلطة من الأسرة الأخيرة وركّزت جهودها على المحافظة على الدولة الأفغانيّة إلى أن أُعلنت الجمهوريّة سنة ١٩٧٣.

ترسّخت النزعة القوميّة الأفغانيّة طيلة تلك الحقبة وتميّزت بمقاومة البلاد لكلّ الهجمات والضغوطات الغربية المصدر، أكان ذلك في العلاقات بالهند البريطانيّة التي بلغت ذروة حدّتها خلال فترة حربي الإنكليز والأفغان من ١٨١٩ الى ١٨٤٢ ومن ١٨٧٥ إلى ١٨٧٩، أم في المحاولات التي قام بها الروس والإيرانيّون، مستغلّين هذا الوضع لتوسيع حدودهم على حساب حدود أفغانستان غير الثابتة آنذاك. في الوقت نفسه حدث عدد من الاضطرابات الداخليّة الناتجة عن نزاعات بين القبائل وعن مشكلات الخلافة داخل العائلة المالكة. وممّا زاد هذه الاضطرابات حدّة في بعض الفترات، الآثار التي تركتها عمليّة التحديث بالرغم من كونها نسبيّة. وقد أعقبَ الصعوبات والثورة التي أدّت إلى نهاية سلطة أُسرة البارَكزايي سنة ١٩٧٣ دخولُ الجيوش السوڤياتيّة واحتلال افغانستان سنة ١٩٧٩؛ فكانت حربٌ دامت عشر سنوات وانتهت بانسحاب نهائيّ للجيوش السوڤياتيّة ونجمت عنها فترة من الاضطرابات والفوضى.

دُوسْت محمد	١٨١٩ - ١٨٦٣
شير علي	١٨٦٣ - ١٨٦٦؛ ١٨٦٧ - ١٨٧٩
أفضل	١٨٦٦ - ١٨٦٧
محمد يعقوب خان	١٨٧٩ - ١٨٨٠
عبدالرحمن خان	١٨٨٠ - ١٩٠١
حبيب الله	١٩٠١ - ١٩١٩
أمان الله	١٩١٩ - ١٩٢٩
نادر شاه	١٩٢٩ - ١٩٣٣
محمد ظاهر شاه	١٩٣٣ - ١٩٧٣

باريس (معاهدة)، مارس ١٨٥٦، معاهدة أُبرمت بين الدولة العثمانيّة، من جهة، وروسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة ثانية، على أثر مؤتمر انعقد في ٢٥ شباط/ فبراير من السنة عينها.

جرى عقد هذا المؤتمر بُعيد تبليغ الباب العالي الدول الاوروبيّة صدور براءة جديدة تكمّل براءة ١٨٣٩ وتعطي الطوائف غير الإسلاميّة الضمانات التي كانت تطالب بها. نتج عن المؤتمر اتّفاق يضمن استقلال الأمبراطوريّة العثمانيّة وسلامة أراضيها، ما يعني، في الظاهر، أنّه كان لمصلحتها. غير أنّه تضمّن سلسلة من القيود ربطت الأمبراطوريّة بالتبعيّة لدول أجنبيّة مصمّمة على التدخل أكثر فأكثر في شؤون شرق المتوسط والبلقان، في حين أنّ الاعتراف بتوحيد المقاطعتين المستقلّتين مولداڤيا وڤالاشيا عام ١٨٥٩ كان يبشّر بالقيام القريب لدولة رومانيا المستقلّة.

باساروفيتز (معاهدة سلام)، ١٧١٨، معاهدة قضت بالموافقة على تراجع جغرافي ملموس للأمبراطوريّة العثمانيّة في البلقان، وأنهت الحرب النمساويّة - التركيّة التي كانت قائمة منذ ١٧١٦. وهي تحمل اسم مدينة صغيرة على نهر الدانوب في صربيا تدعى اليوم پوپارڤاتز.

أُجريت في ذلك المكان محادثات شارك فيها دبلوماسيّون غربيّون من البندقية وانكلترا وهولندا، أضافوا آراءهم إلى آراء الدبلوماسيّين الأتراك والنمساويّين ذوي الصلاحية المطلقة. كان الباب العالي قد بدأ الحرب بعد أن اتّهم البندقيّة بعدم احترام معاهدة كارلوڤيتش جرّاء تصرفاتها في المورة،

وتميّز الصراع بانتصارات النمسا في بتروفارادين وتيميشوارا وبلغراد. وانتهى، تاليًا، على حساب الأمبراطوريّة العثمانيّة التي بات عليها أن تمنح النمسا مكاسب تجاريّة، وأن تتخلّى لها عن منطقة تيميشوارا وشمال شرقي صربيا، بما فيها بلغراد، كما عن جزء صغير من فالاشيا. في المقابل تخلّت البندقيّة عن مكتسباتها في الموره واحتفظت ببعض الأماكن على الساحل الدلماشي.

باشا، لقب فخري، مُنح لأعيان من الأتراك رفيعي المرتبة، كان يعني «السيّد». درج استعماله، بنوع خاص، في الأمبراطوريّة العثمانيّة.

كان هذا اللقب الرسميّ غير الوراثي يُضاف بعد الاسم، كما كان يجري بالنسبة لِلَقبيْ بك وأفندي، وهما دونه أهميّة. أصبح في العهد العثماني وقفًا على حكام المقاطعات أو بيلربيك وعلى وزراء العاصمة. وكان دخل في الاستعمال من قبل، منذ القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، في الأوساط التركيّة في الأناضول، عند سلاجقة الروم، كما عند حكّام سلالات عصر الإمارات. ويرجّح اشتقاقه من كلمة پادیشاه، وليس من باشا التركيّة التي كانت تُستخدم حصرًا للدلالة على الأعيان والعسكريّين ذوي الرتب الصغيرة.

اختفى لقب باشا من القاموس التركي الحديث، واستمرّ طويلًا في أعراف المغرب خلال العصر الشريفي إذ أدخله السعديون للدلالة على بعض رؤساء القبائل الكبار، وللحلول في بعض الحالات مكان لفظة «قائد» العربيّة.

باشْكُرتُسْتان، (جمهوريّة باشكُرتُستان الفدراليّة): ٦٠٠ ١٤٣ كلم²، عاصمتها: أوفا؛ وهي جمهوريّة بشكيريا الإشتراكيّة السوفياتيّة سابقًا، ما تزال تنتمي إلى روسيا الفدراليّة، عدد سكانها أربعة ملايين نسمة، أكثر من نصفهم من المسلمين.

تقع هذه المقاطعة المجاورة لجمهوريّة تتارستان المستقلّة في مناطق الأورال الزراعيّة الشاسعة، قرب الحدود الشماليّة لجمهوريّة كزاخستان. بعد غزوات المغول في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ضُمت هذه المقاطعة إلى المناطق التي يحكمها أعقاب جنكيزخان والذين أسلموا في ما بعد، وأصبحوا خانات «القبيلة الذهبيّة». وكان قد سكنها، في مطلع القرون الوسطى، قبائل تركيّة أو قبائل تترّكت أطلق عليها اسم باشكورت/ باشْجِرْت، من هنا تسميتهم بالبشكير الذين ذكرهم الجغرافيّون العرب القدامى والذين اعتنقوا الإسلام منضوين إلى المذهب الحنفي. كان للميزات القتاليّة التي تمتّع بها المتحدّرون من هذه القبائل، التقدير الكبير عند المغول وعند الإيلخانيّين، وحتّى عند المماليك في سوريا ومصر حيث أُلحق عدد كثير منهم بخدمة هؤلاء الحكام.

منذ مطلع القرن الخامس عشر، بدأ عدد من الأمراء المحلّيين في بشكيريا، والمرتبطين إلى حد ما ببعض الخانات منها خانة قازان، بتثبيت سلطتهم نتيجة لتفتّت «القبيلة الذهبيّة». لكنّهم ما لبثوا أن اضطرّوا لمواجهة تقدّم الاحتلال الروسي ولمقاومته خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. فأقاموا اتصالات بالعثمانيين وشاركوا في المجابهات المسلّحة التي كانت تهزّ منطقة شمال القوقاز ومنطقة سيبيريا الغربيّة.

ولم تمنع العمليّات المشتركة التي قاموا بها مع خانات القرم من ضَمّ مقاطعتهم تدريجيًّا إلى الأمبراطوريّة الروسيّة. وقد انضمّت هذه المقاطعة في سنة ١٩١٧ إلى الحركة التي قامت في المناطق التركيّة والإسلاميّة مطالبة باستقلالها.

قَبِلت باشكُرْتُستان في ما بعد، سنة ١٩١٩، النظام السوفياتي لتصبح منطقة متمتّعة بحكمها الذاتي، ومن ثمّ جمهوريّة بشكيريا الإشتراكيّة السوفياتيّة المستقلّة. وقد اتّسعت مساحتها الجغرافيّة سنة ١٩٢٢ لتضمّ عددًا من المناطق التي تقطنها أكثريّة روسيّة. من هنا كان حاليًّا التنوّع في انتماء سكان هذه البلاد. وهو تنوّع يجعل الوضع السياسي والديني غير مستقرّ.

باطن، لفظ عربي معناه العام: «داخليّ، شخصيّ، خفيّ»، يُطبّق بشكل خاص على المعنى الخفي لنصوص القرآن الكريم في مقابل لفظة «ظاهر».

الوجود لمعنى خَفيّ يطابق الحقائق العميقة التي لا يبلغها إلا المطلعون على أسرارها، يؤكده عدد من الشيعة

وغالبيّة الصوفيّين. من هنا تسمية الباطني التي كانت تُنسب في القرون الوسطى لممثّلي فرقة الإسماعيليّة الشيعيّة.

الباطنيّة، مذهب (Esotérisme)، تيّار فكري سرّي، طبع تطوّر الفكر الإسلامي القروسطي وأفسح في المجال لتسرُّب بعض التيارات الخفيّة المتأثّرة بالفكر الغنوصي القديم. وقد تطوّر هذا التيّار في أوساط التصوّف والتشيُّع، وأخذ يبحث عن حقيقة مؤكّدًا أن بلوغها يمرّ بالنفاذ من ظاهر النصوص المنزلة إلى معناها الباطن. اعتبر الصوفيّون أنّ الأخذ بنوع من الزهد والقيام بتمارين خاصة، مثلاً الذّكر المصحوب أحياناً بالموسيقى والرقص، يمكن أن يؤدّيا إلى الاتّصال بالله وتجلّي الحقيقة الكبرى، بفيض الإلهام المؤدّي إلى التوحُّد. إنّ تحقيق هذا الهدف الأقصى للحياة الدينيّة يمكن بلوغه بالسعي إلى التوفيق بين الأخذ بأحكام الشريعة، وبالسَّير في مسلك الطريقة الصوفيّة الموصل إلى الحقيقة بوسيلة المعرفة. إلّا أنّ العلاقة بين هاتين الضرورتين تباينت تبعاً للمرشدين والطرق الصوفيّة، إذ إنّ الوصول إلى الحقيقة هذه يبقى سرًّا لا يمكن إفشاؤه ولا يمكن أن يبلغه إلّا بعض المختارين. وكما قال ابن العربي، ليس باستطاعة من يلغ هذا الهدف نقل تجربته وأحاسيسه إلى سواه، بل هو يعبّر بواسطة الرموز والإشارات التي يبقى فهمها محصوراً بالمريدين الذين تلقّنوا، شيئاً فشيئاً، فكّ الرموز بقواهم الداخليّة وإرشادات أستاذ روحي. هذا ما يفسر ازدهار أدب صوفيّ ذي طابع شعري، يعبّر عن أحوال روحانيّة تنتاب الصوفيّ وفاق اجتيازه مراحل تدرّجه خلال عمليّة تنشئته. يبقى الفكر العقديّ أو علم الكلام، بالنسبة الى الشيعة، مضماراً لإعداد المريدين، لأنّ عليًّا والأئمة العلويّين، بحسب رأيهم، استودعوا معرفة حدْسيّة بحقائق غير بيّنة في القرآن. وهي حقائق تتعلّق، بحسب عقيدة الإماميّة الاثني عشريّة، بحقوق آل البيت وولايتهم. أمّا في المذهب الإسماعيلي وفي معظم فرق الغلاة من الشيعة، فإنّ هذه الحقائق تشكّل مجموعة عقديّة لا يعرف ماهيّتها سوى كبار الدُّعاة المولجين بالأمر.

إنّ الأخذ بالمنحى الباطنيّ هو، من ناحية أخرى، نتيجة لموقف الفقهاء، بصورة عامة، من تحريم الفلسفة لمناقضتها بعض العقائد الأساسيّة للإسلام، ومن مزاولة بعض العلوم السرّية مثل العرافة والسحر. هذا المنحى الباطنيّ الذي استُخدم، في الوقت عينه، لتطوير العلوم الدنيويّة مثل علم الفلك والرياضيّات والخيمياء، ولنشر العقائد والأفكار الدينيّة غير السنّية، خلّف طابعه في نظام نقل المعارف والتعليم في الأوساط الإسلاميّة القروسطيّة، وذلك بالانقياد الى تعاليم المرشد وبالميل الى الأخذ بمصطلحات مذهب الباطنيّة.

الباطنيّة ← الإسماعيليّة.

الباقريّة (فرقة) ← محمد الباقر.

الباقلّاني، أبو بكر محمّد بن الطيّب، (توفي سنة ٤٠٣هـ/١٠١٣م)، متكلّم أشعري وفقيه مالكي، اضطلع بدور ناشط، مُنظِّرًا للسنّة في العراق أيّام البويهيّين.

وُلِد في البصرة وأمضى قسمًا كبيرًا من حياته في بغداد حيث توفي. شغل وظيفة قاض خارج العاصمة وقام بأسفار عدّة إلى إيران، وحتّى إلى القسطنطينية كما يقال. تردّد على بلاط عضُد الدولة البويهي في شيراز حيث كان صاحب البلاط يكنّ له تقديرًا خاصًّا بحيث جعله مربّيًا لابنه. فكان له أينما حل أنشطة تعليمية مثمرة.

غالبًا ما كان الباقلاني يعتبر من أوائل علماء الكلام الأشعريّين. عُرِضت عقيدته في مؤلّف عنوانه «تمهيد». كان يهتمّ بشكل خاص بمسألة المعجزة المثبتة للإيمان ويدافع عن نظريّة مذهب الذرّة، لكن من الصعب تحديد مدى الأصالة في أفكاره.

باكستان (جمهوريّة - الإسلاميّة)، مساحتها ٨٠٣ ٩٤٣ كيلومترًا مربّعًا وعاصمتها إسلام آباد. دولة معاصرة مستقلّة تقع غربي شبه القارة الهنديّة. يبلغ عدد سكّانها حوالى مائة وعشرين مليون نسمة، غالبيتهم الساحقة من المسلمين.

تشكّل باكستان الحاليّة القسم الغربي للدولة التي كانت تحمل الاسم نفسه، والتي أُنشئت سنة ١٩٤٧ تلبية لمطالب الرابطة الإسلاميّة، وبدفع من محمد علي جّناح. رأت تلك الدولة النور بعد تقسيم الهند على أساس

ديني، وكانت تضمّ قسمين مختلفين، أحدهما غربيّ الاتّحاد الهندي والثاني شرقيّه، يفصلهما حوالى الألفي كيلومتر. شهدت، حتى سنة ١٩٧١، حياة سياسيّة مضطربة سبّبها بخاصة تعايش إتنيّات مختلفة، كما أنّ اختلالًا اقتصاديًّا كان قائمًا بين القسم الشرقي الشديد الفقر والقسم الغربي حيث للبنجاب دور أساسيّ. على إثر هذه الفترة من عدم الاستقرار، حلّ الجنرال يحيى خان، سنة ١٩٦٥، مكان الجنرال أيوب خان الذي كان قد تسلّم الحكم في العام ١٩٥٨، واندلع صراع داخليّ دام أدّى إلى انفصال القسم الشرقي الذي نال استقلاله في العام ١٩٧١ تحت اسم بنغلادش.

تضمّ دولة باكستان - التي أصبحت تقتصر على القسم الغربي - مقاطعات أهمّها البنجاب وفيها المدينة التاريخيّة الكبرى لاهور، والسّند مع كراتشي العاصمة الصناعيّة والمرفئيّة، وبلوتشستان الصحراويّة. إنّها تلتقي بمنطقة سين كيانغ الصينيّة من جهة، ومن الجهة الأخرى بمنطقة مكران التابعة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، وهي دولة شيعيّة علاقاتها بباكستان غير جليّة. لكنّ حدود باكستان الأطول تمتدّ شرقًا مع الاتّحاد الهندي الذي ما تزال علاقاتها به تتّسم بعداء ديني، وتشتدّ دوريًّا بسبب قضية كشمير. وتلتقي في الشمال الغربي مع دولة أفغانستان الإسلاميّة التي استقبلت باكستان، باسم التضامن الإسلامي السني، اللاجئين منها ودعمت مقاومتها خلال الحرب السوفياتيّة - الأفغانيّة التي انتهت عام ١٩٨٩، لتفسح في المجال لصراعات مسلّحة داخليّة.

إن الدور الذي قاد باكستان إلى تكييف علاقاتها الدوليّة وفقًا للإسلام، يتجذّر كذلك في حياتها السياسيّة الداخليّة. فقد أدّى إلى خصام بين حزب إسلامي أصولي يطالب بالتطبيق الكامل للشريعة الإسلاميّة، هو حزب أنصار الرئيس السابق ضياء الحق الذي توفي سنة ١٩٨٨، وحزب «الشعب الباكستاني» الأكثر ليبراليّة بقيادة السيدة بنازير بوتو التي تولّت رئاسة الحكومة مرّتين. يعتمد هذان الحزبان على مقاطعتين مختلفتين، الأوّل على البنجاب والثاني على السّند.

باكوه أو باكُويَه، بحسب تسمية محلّية (جمهوريّة أذربيجان)، مدينة مرفئيّة حديثة، سكّانها من المسلمين بأكثريتهم، يعود ازدهارها الحالي على بحر قزوين إلى موقعها كعاصمة إداريّة، وخصوصًا إلى نموّ صناعاتها الناتجة عن إنتاج البترول فيها.

عرف الجغرافيّون العرب القدامى «منابع النفط» التي كانت تجري وتحترق بجوارها، في قلب مقاطعة شِرْوان التي كانت حينئذٍ من ثغور دار الإسلام والتي كانت تحمي مناطقها الحدوديّة. على مَرّ العصور، ومع دخول الأتراك، تبدّل وضع المدينة وتغيّر سكّانها. فضمّها الأتراك إلى مقاطعة أذربيجان التي أسلمت وتتركت؛ في القرن السادس عشر انتقلت من سيطرة أسرة شروانشاه إلى سيطرة الصفويّين ثمّ إلى العثمانيّين. وبسط الروس في ما بعد سيطرتهم عليها إبتداء من سنة ١٨٠٦، لكن كان ينبغي انتظار نهاية القرن التاسع عشر لكي تنمو المدينة وتتّسع بفضل تحسين وسائل اتّصالها بالبحر الأسود ووسط روسيا. فتسنّى لها عندئذٍ أن تؤدّي دورًا سياسيًّا إبّان المراحل المختلفة التي ميّزت نهاية الحرب العالميّة الأولى في المنطقة. بعد احتلالها من قبل الأتراك ثمّ الحلفاء، غزاها الجيش الأحمر سنة ١٩٢٠ وتمّ اعلان جمهوريّة أذربيجان السوفياتيّة الاشتراكيّة التي أصبحت باكوه مركزها الناشط.

بالرمو (إيطاليا)، بَلَرْم، بالعربية: مدينة ومرفأ في جزيرة صِقِلّية، ظلّت تحت السيطرة العربيّة الإسلاميّة من سنة ٢١٦ إلى سنة ٤٦٤هـ/ ٨٣١ إلى ١٠٧٢م، واحتفظت بتقاليد فنيّة طغت على منجزات القرن التالي في عصر سلالة الملوك النورمان المسيحيّين.

أصبحت بَلَرْم، بعد أن كانت محطّة ثانويّة في أيام البيزنطيّين، مع احتلال أغالبة إفريقية للجزيرة، المدينة الأولى في صقلّية ومقرًّا لحكّامها. فالأماكن التي كانت ذات أهميّة سابقًا في القسم الشرقي، مثل سيراكوزا، باتت عرضة لهجمات الأسطول البيزنطي، فيما كان خليج بَلَرْم أكثر أمانًا وقاعدة انطلاق ممكنة لحملات بحريّة كان المسلمون يحاولون القيام بها ضد الجنوب الإيطالي.

حافظ المحتلّون في البدء على الخطّة التنظيميّة السابقة للمدينة القديمة المحاطة بالأسوار، واكتفوا بتحويل الكاتدرائيّة إلى مسجد جامع. إلى جانبها، بني

ممثّل الخليفة الفاطمي، في بداية القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، مقرًا محصّنًا سمّاه «الخالصة». أمّا حولها فقد أنشئت أحياء دُعيَ أحدها حيّ الصقالبة وكانوا في خدمة الفاطميّين. خلال فترة الاحتلال هذه، أصبحت بَلَرْم، الواقعة داخل سهل ساحلي متقن الزراعة، مركزًا إداريًا ذا ثقافة إسلاميّة ومدينة ناشطة ومأهولة. بعدئذ احتفظ أسياد البلاد المسيحيّون بها عاصمةً وشيّدوا فيها المباني بحسب التقليد الهندسي والزخرفي لمحتلّيها السابقين. لم يبقَ من ذلك سوى بعض الآثار المعزولة مثل كنيسة البلاط الشهيرة التي زيّنها بإتقان خاص حرفيّون مسلمون لم يغادروا المدينة، ومثل الأجنحة الأميريّة في زيزا وكوبا وكوبولا.

◄ راجع المستندين ١١ و١٩.

بالس، موقع أثري على نهر الفرات تغمره اليوم مياه سدّ الرَّقّة. كانت آثاره تشهد على وجود مدينة كان لها أهميّة كبرى في سوريا القروسطيّة.

كانت هذه المدينة التي انتشرت آثارها في ما مضى على هضبة تشرف على الوادي مرفأً تجاريًا ناشطًا في الأمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة ومركزًا تجاريًا لنقل البضائع، لموقعها على مَنْفَذ طريق القوافل التي تربط هذا الوادي بالبحر المتوسط عبر مدينة حلب. وكانت البضائع المتّجهة إلى بغداد والعراق والخليج العربي - الفارسي أو القادمة منها تسلك نهر الفرات الصالح للملاحة حتّى موقع المدينة.

كانت بالس ايضًا، في بداية الخلافة العبّاسية، مدينة حدوديّة متاخمة للأمبراطوريّة البيزنطيّة. وسقطت في ما بعد في أيدي الحكام المسلمين الذين حكموا في شمال سوريا. وكانت تنتمي إلى دولة الأيوبيّين عندما خُرِّبت بالغزو المغولي لها. تدلّ بعض آثارها على أنّها في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، في العهد السلجوقي، كان يغلب عليها المذهب الشيعي.

◄ راجع المستند ٩.

بامبالونا (إسبانيا)، ناحية في نبارة (Navarre)، احتلّها المسلمون لفترة وجيزة، شكّلت جزءًا من حدود منطقة الأندلس.

وقعت بامبالونا تحت الاحتلال الإسلامي في العام ١١٩هـ/٧٣٨م لفترة قصيرة، ثمّ ما لبثت أن أصبحت مركز إمارة مسيحيّة صغيرة مستقلّة على الرغم من الحملات التي استهدفتها والتي باءت بالفشل. غير أنّ واحدة من تلك الحملات التي قادها عبد الرحمن الثالث - الخليفة الأموي في ما بعد - تمكّنت، في العام ٣١٢هـ/٩٢٤م، من استعادتها لبعض الوقت. وكان الفشل من نصيب المحاولات اللّاحقة.

◄ راجع المستند رقم ١٥.

بامبهور ← الدَّيْبُل.

بانياس، إسم عربي أُطلق على ناحيتين قروسطيّتين مختلفتين تقعان في سوريا. وكانتا تؤدّيان دورًا مميّزًا في عصر الصليبيّين بعد أن كانتا قد أسلمتا في القرن السابع الميلادي إبّان الفتوحات الكبرى.

بانياس الشماليّة، وهي أهمّ المدينتين، تنتمي إلى «بلاد العلويّين» وتقع على بُعد خمسين كيلومترًا جنوبي اللاذقيّة، وهي تطابق مدينة بالانيا لوكاس القديمة التي كانت تعرف باسم فالينيا في القرن الثاني عشر الميلادي. احتلّ الفرنج منذ سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م مرفأها الصغير الذي تجاوره قلعة، ويشرف عليهما حصن المرقب الجبّار والذي أصبح مركزًا قويًّا لإمارة أنطاكية على حدود كونتية طرابلس. صمدت المدينة في وجه الهجمات التي شنّها المسلمون لاستعادتها من أيدي الصليبيّين، وصمدت بشكل خاص في وجه غزوات صلاح الدين والأيوبيّين الآخرين إلى أن تمّ الاستيلاء عليها من قِبَل قلاوون، سلطان دولة المماليك، سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م فهدّمها. ففقدت لفترة طويلة دورها الإداري.

بانياس الجنوبية، تقع عند أقدام جبل حرمون القديم، في منطقة الجولان، وكانت مركز هذه المنطقة في الماضي. وهي تطابق مدينة قيساريّة التي كانت تمتدّ على ضفاف أحد ينابيع نهر الأردن المكرّس للإله پان (Pan). كانت، بشكل خاص، مركزًا حدوديًا يتنازعه المسلمون وفرنج مملكة القدس اللاتينيّة، بسبب موقعها الإستراتيجي ووجود قلعة الصُّبيبة فيها. احتلّها، بين

سنتي ٥٢٠ و٥٢٤هـ/ ١١٢٦ و ١١٣٠م، الإسماعيليّون النّزاريّون الذين أنزلهم فيها طغتكين، أتابك دمشق، ثمّ انتقلت من حكم لآخر، إلى أن أعادها نهائيًّا إلى الإسلام نور الدين الزنكي سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م. بقيت محافظة على أهمّيتها في عصر المماليك لكنّها انحطّت وتخلّت عن دورها الإداري لمصلحة مدينة القنيطرة الحديثة.

بانيبات (معارك)، اشتباكات حربيّة متلاحقة في ذلك المكان من شمال الهند المفضي إلى دلهي، حفل بها تاريخ المغول.

أعقب النصر الذي حقّقته، في العام ١٥٢٦، جيوش بابُر، ظَفَرُ جيوش أكبر في العام ١٥٥٦. وبعد قرنين، أي في العام ١٧٦١، كان انتصار أحمد شاه مؤسّس السلالة الدُّرّانية على المهْراته، وقد ثبّت هذا الانتصار توسّع مملكة أفغانستان على حساب الدولة المغولية التي ضعفت بشكل نهائي.

وواقع الأمر أنّ ناحية البنجاب التي أعطت اسمها لتلك المعارك المختلفة، والقائمة حاليًّا في أراضي الاتّحاد الهندي، كانت تتحكّم بأحد المواقع الإستراتيجيّة في وادي الجُمْنة حيث تمرّ الطريق التي كان على الغزاة الآتين من الغرب والمتّجهين إلى سهل الغانج أن يسلكوها بمحاذاة جبال هِمَلايا.

الباونديّون، آل باوَنْد ← مازندران.

بايبورت (الجمهورية التركيّة)، مدينة في الأناضول الشرقي، كانت في الماضي مُحَصّنة. في القرون الوسطى كانت مركزًا حدوديًّا يتنازعه البيزنطيّون والعالم الإسلامي التركي والإيراني.

ما تزال آثار القلعة الضخمة وسورها بحجارته الجميلة يشهدان بدور المدينة هذا. ذلك أنّ الأتراك عملوا بالمدينة تهديمًا منذ سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، ثمّ ضمّوها إلى الأراضي التي احتلّوها سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م بعد معركة ملازكرت/ مانتزيكرت، وصمدت بعد ذلك امام محاولات بيزنطيّي طرابزون لاستعادتها. عرفت بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر للميلاد ازدهارًا اقتصاديًّا بارزًا، في ظلّ سيطرة سلاجقة الروم ثمّ الإيلخانيّين والجلايريّين والآق قيونلو، إذ عملوا جميعهم على تشجيع الأنشطة التجاريّة. فقد كانت في الواقع مَحَطة ضروريّة على خط القوافل الذي يصل أرضروم بشط البحر الأسود، أي بآسيا الوسطى وبمرافئها التي يرتادها التجّار الأوروبيّون.

بقيت بايبورت محافظة على أهميّتها التجاريّة حتّى بعد بلوغ سلطة العثمانيّين المنطقة سنة ١٥١٤م، نتيجة للحملة التي قام بها السلطان سليم الأول ضد الصفويّين والتي انتهت بانتصاره في معركة جالدران. ولم تنحطّ فعليًّا إلّا في القرن التاسع عشر، بعد أن أُهملت تدريجيًّا إذ اصبحت محورًا ثانويًّا للتبادل التجاري العالمي. وكان التدمير الذي لحقها، إثر احتلال الجيوش الروسيّة لها سنة ١٨٢٩، قد ثبّت هذا الانحطاط. تعرّضت بايبورت في ما بعد لهجمات روسيّة عدّة، أعنفها هجوم ١٩١٦. وبقيت بعد ذلك بعيدة عن النشاط التجاري الذي عرفته البلاد في ظل الجمهوريّة التركيّة الحديثة.

بايزيت، هو الشكل التركي الحديث لاسم تركي قديم هو بايزيد المأخوذ عن العربية: أبو يزيد، وقد نقل في الماضي إلى الفرنسيّة في شكل باجازه (Bajazet). حمل هذا الاسم، بشكل خاص، سلطانان يفصل قرن بين فترتي حكمهما، وقد اشتهر كلاهما في تاريخ أسرة العثمانيّين الطويل وعملا على ازدهار أمبراطوريّة لم تكن قد بلغت أوج قوتها بعد.

بايزيت أو بايزيد الأول المعروف بـ يِلدِرِم أي «البرق»، ٧٥٥-٨٠٥هـ/ ١٣٥٤ ١٤٠٣م، حكم من سنة ١٣٨٩ حتّى سنة ١٤٠٣م، وهو ابن مراد الأوّل خداوندگار. يعود لقبه هذا إلى اندفاعه في المعارك، خصوصًا تلك التي خاضها في الأناضول ضد القرمانيّين، عندما كان وليّ عهد يدافع عن الممتلكات الشرقيّة للدولة العثمانيّة. أمضى كلّ حياته في الحرب والقتال في المناطق البعيدة، فكان ينتصر حينًا ويفشل حينًا آخر.

تولّى الحكم بعد موت أبيه في معركة كوسوفو، وتابع اهتمامه بمنطقة الأناضول، خصوصًا في جزئها الغربي، فَكَثّف ضغط العثمانيّين على الإمارات التركيّة التالية: الآيدينيّة، الصاروخانيّة، المنتشيّة، الحميديّة والجرميانية فضمّ أراضيها إلى دولته. بعد سنوات من ذلك،

ركّز جهوده على منطقة البلقان، فتقدّم في الموره ثمّ في ألبانيا وهنغاريا وفلاشيا. هدّد بشكل جدّي بيزنطية وأحكَمَ الرقابة عليها، ما دَفع إلى تجهيز حملة صليبيّة عُرفت بحملة نيكوبوليس، ردًّا على تهديده، لكنّه انتصر عليها سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م، قبل أن يهاجم القرامانيّين من جديد وينتصر عليهم. وللحدّ من سطوته، كان ينبغي انتظار تدخّلات تيمورلنك المتكرّرة في شؤون الأناضول. وأدّى الصراع الذي كان قد بدأ سنة ١٣٩٤م بينهما إلى انهزام بايزيد في معركة أنقره سنة ١٤٠٢م. فأُلقي القبض عليه واقتيد أسيرًا إلى آق شهر حيث توفي في السنة التالية.

هذا الفشل الأخير لبايزيد الذي خلّص في الوقت نفسه مدينة القسطنطينيّة من فتح شبه مُحتّم، لم يَنَلْ إلّا سطحيًّا من زخم الدولة العثمانيّة التي كانت في عزّ انطلاقها، علمًا أنّ بايزيد كان قد حَسّن المركزيّة الإداريّة والتنظيم العسكري المتين، وأظهر، خصوصًا في عاصمته بورصة، اندفاعًا للإعمار، تشهد على ذلك آثار خالصة الأناقة.

إضافة إلى مسجد المدينة الجامع، يعود لبايزيد الفضل أيضًا في بناء المجمَّع الهندسي لمسجد يلدرم الذي أنشأه على تلة في ضاحية المدينة، بناءً ملكيًّا خاصًّا، وهو حتّى اليوم يخلّد ذكراه.

بايزيت أو بايزيد الثاني، ٨٥١-٩١٨هـ/١٤٤٨-١٥١٢م، السلطان السابع من الأسرة العثمانيّة، حكم من سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٥١٢م. كان حاكمًا نشيطًا على رأس دولة أصبحت قادرة، لكنّه كان مضطرًّا لمعالجة وضع أصبح صعبًا على الصعيدين الداخلي والخارجي. وقد نجح في مهمّته بفضل جهده المستمرّ في تنظيمه العسكري وفي هجوماته الفعّالة، واستمرّ في جهوده حتّى تنازله النهائي عن الحكم لمصلحة ابنه سليم الأول. وقد سبق ذلك موته بقليل.

إنّ الأمبراطوريّة العثمانيّة التي ورثها بايزيد الثاني عن ابيه مراد الثاني الفاتح كانت عاصمتها قد أصبحت إسطنبول، القسطنطينية سابقًا، لكنّ مستقبل هذه الأمبراطوريّة لم يكن مضمونًا بعد. عزم الحاكم الجديد إذًا على متابعة سياسة أسلافه المقدامة، في الوقت الذي وجد نفسه فيه يواجه صراعًا طويلًا حول السلطة. فمنافسُه المهزوم، شقيقه الأصغر جم، الذي كان حاكمًا على قرمان عندما كان هوحاكمًا على مقاطعة أماسيا، لجأ إلى أوروبا وبقي فيها حتّى وفاته سنة ١٤٩٥. كان في إمكان شقيقه أن يثير ضدّه تكتّلات خطيرة للدول المسيحيّة. لكنّ هذا القلق من جهة أخيه لم يمنعه من أن يشنّ مباشرة هجمات على جبهتين مهمّتين: جبهة مولدافيا وجبهة كيليكيا، لكنّ نتائج الجبهة الأولى كانت أفضل بكثير من نتائج الثانية، إذ اضطر الى مجابهة قوة إسلاميّة كانت ما تزال رهيبة، هي سلطة مماليك سوريا ومصر. أمّا الحملات الأخرى التي قادها على طول نهر الدانوب والتي اتّبع فيها طريقة الغزوات الخاطفة، فلم تحقّق سوى نجاح نسبي تَمثَّلَ بالهدنة التي وقّعها مع بولونيا سنة ١٤٩٩. في الوقت نفسه، راح بايزيد الثاني يعدّ لهجوم على البندقيّة عن طريق سواحل الموره، وألبانيا ودلماتيا، ما أدّى إلى احتلال مدينة ليبانتي في السنة نفسها. وهكذا تكون قد تكرّست سيطرة القوة العثمانيّة البحريّة على قوّة البندقية التي طلبت الصلح سنة ١٥٠٢.

لكنّ ضعف الدولة العثمانيّة ما برح يتأكّد في منطقة الأناضول التي عمّتها، منذ عشرات السنين، الانقسامات والصراعات بين الإمارات التركيّة التي زادتها اضطرابًا التيارات الدينيّة الشيعيّة الميول، والتي غذتها العلاقات السياسيّة بكردستان وإيران. أدّت هذه الصراعات إلى حرب أهليّة حقيقيّة زادها تعقيدًا خِلاف وَلَدَي السلطان، أحمد وسليم على خلافته، إذ كان الأوّل حاكمًا على أماسيا والثاني على طرابزون. ولم يمنع انتصارُ السلطان على المتمرّدين سنة ١٥١١ من أن تؤدّي الضغوط والمؤامرات التي كانت تحاك داخل القصر، والتي اشترك فيها بشكل فعّال جنود الإنكشاريّة الذين بدأوا يؤدّون دورًا سياسيًّا، إلى إنهاك قوى السلطان الذي أضعفته الشيخوخة. فاضطرّ إلى أن يتنازل عن الحكم لمصلحة الابن الذي يضمن استمرار الصراع ضد الشيعة وضد نمو الطريقة الصفويّة في الشرق التي أدت إلى نشوء الصفويّين في إيران.

وهكذا شكّل حكم بايزيد الثاني مُنعطفًا في تاريخ

الدولة العثمانيّة التي دُعِّمت بنيتها الداخليّة بشكل بيِّن، وذلك بفضل الجهود التي بذلها السلطان لتطبيع إدارته في الخط الذي رسمه والده، ولاستغلال موارد الدولة الهائلة بشكل منهجي ومنظّم. فقد استفاد منها أوّلًا في تنظيم المؤسّسة العسكريّة، والقوى البحريّة منها بشكل خاص، إذ تمكّنت، لفترة من الزمن، من السيطرة على البحر المتوسط برمّته. وقد استفاد أيضًا من هذه الموارد لوضع أسس الهندسة العثمانيّة الأمبراطوريّة التي ظهرت ملامحها في المنشآت الحديثة. ومن هذه المنشآت التي تظهر ميزات هذه الهندسة تلك الصروح الدينيّة الخاصة والهائلة في أماسيا، أو مسجد بايزيد الثاني على ضفة تونكا في أيرنه الذي بني بين سنتي ١٤٨٤ و١٤٨٨، وأخيرًا في اسطنبول حيث ما يزال مسجد بايزيد الذي بُني بين سنتي ١٥٠١ و١٥٠٦ يشرف على إحدى أجمل ساحات المدينة قرب البازار الكبير.

◄ راجع المسند ٨١.

بايزيد ← **بايزيت**.

بايزيد الأنصاري، ٩٣١-٩٨٠هـ/ ١٥٢٥ - ١٥٧٢م، مؤسّس حركة دينيّة وقوميّة أفغانيّة في عصر النفوذ المغولي في الهند.

وُلد بايزيد في جالندار قبل تأسيس بابُر لدولة المغول في الهند بسنة. وكان يعلن أنّه متحدّر من أبي أيوب الأنصاري، أحد الصحابة. عرف بايزيد نشأة مضطربة، درس العلوم الدينيّة الإسلاميّة وتابع أيضًا تعاليم عالم من مذهب الإسماعيليّة وألمّ بالعقائد القائلة بالتقمّص وبالتجسّد. كان مُشايعًا لمذهب الغنوصيّة أو المعرفة الروحيّة[٣٠] التي لا يمكن بلوغها إلا بواسطة مُرشد روحي، لكنّه كان يعلن أنّ الله يوحي اليه مباشرة بهذه المعرفة. أحاط نفسه بأتباع متعصّبين كانوا يعتبرون كافرًا كل من لا يعتنق عقيدتهم، ونشر دعوته في أراضي أفغانستان الحاليّة، لكنّه اصطدم بسلطة المغول. انتصر حاكم بيشاور على كل أتباعه، أما هو ففرّ إلى الجبال حيث مات ضنًى.

ألبتّاني، المعروف باللاتينية باسم **ألباتيغنوس** (Albategnus) أو **ألباتينيوس**، أبو عبدالله محمّد بن جابر بن سنان، ويقال له كذلك الصّابي، ٢٤٤ - ٣١٧هـ/ ٨٥٨-٩٢٩م، بلغت شهرته، منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أوروبا المسيحيّة حيث تحقّقت الإفادة من أعماله.

وُلد، من دون شك، في حَرّان[٣١] في بيئة صابئيّة نقلت إليه تقاليد هِلّينستيّة قديمة، إلّا أنّه، لكونه مسلمًا، خلافًا لأصول عائلته، عاش بوجه خاص في الرَّقّة حيث انصرف بشغف إلى القيام بأرصاد فلكيّة قيّمة جدًا. فقد قام بتصحيح نظريّات علميّة عدّة تتعلّق بالاعتدالين أو بحركات القمر والكواكب السيّارة، وكان بطليموس قال بخلافها، وفي الوقت نفسه ساهم في تقدّم حسابات المثلّثات الدائريّة وتقديم حلول جيّدة لمسائل متعدّدة. ولم يصلنا من الرسائل التي ألّفها سوى التقويم الفلكي الذي أسماه ببساطة كتاب **الزِّيج** الذي وصلنا بعد أن تُرجم، مرّات عدّة، إلى اللاتينيّة والأسبانيّة خلال القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. أُعيد طبع بعض هذه الترجمات تكرارًا.

بتروفارادين (معركة)، ١٧١٦، هزيمة مُنيَ بها العثمانيّون بالقرب من المكان المحصّن الذي يحمل هذا الاسم والذي عاد نهائيًا إلى الأمبراطوريّة العثمانيّة بعد معاهدة سلام بوبارڤانس أو باساروفيتش.

خلال هذه المعركة، انتصر جيش الأمير أوجين دو سافوا (Eugène de Savoie) على جيش عثماني يفوقه عددًا. وقد هاجمه ليمنع الصدر الأعظم علي باشا من محاصرة بتروفارادين التي اضطرّ الباب العالي إلى التخلّي عنها في العام ١٦٨٧ بُعَيد سقوط بودا، أي بودابست لاحقًا، مكرّسًا ملكيّتها للنمساويّين بموجب معاهدة سلام كارلوڤيتش سنة ١٦٩٩. كانت هذه المحلّة ذات القيمة الإستراتيجيّة الكبيرة تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب في مقابل نوڤي ساد، على الطريق الذي يصل بلغراد بالمجر. كانت في ما مضى، لأكثر من قرن، جزءًا من الأمبراطوريّة العثمانيّة، وقد ضُمّت إليها سنة ١٥٤٣ خلال حملة السلطان سليمان القانوني الثانية على أوروبا الوسطى، بعد أن استولى عليها عنوةً الصدر الأعظم إبراهيم باشا.

بتليس (الجمهوريّة التركيّة)، تعرف في العربيّة

بِدْليس. هي حاليًّا مركز مقاطعة في شرق الأناضول. قامت بدور دفاعيّ بصفتها موقعًا حصينًا على مقربة من بحيرة وان.

دخلت هذه المدينة في الدولة الإسلامية خلال الفتوحات الكبرى، منذ سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، لكنّ موقعها على حدود الدولة الشماليّة أخضعها لسلطات متعدّدة، حتّى عهد الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان. ثمّ تعاقبت عليها سلالات حاكمة إسلاميّة. وقد زاد في أهميّتها الإستراتيجيّة غزو السلاجقة للأناضول منذ سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م، بينما أدخل إليها الأيوبيّون الذين نجحوا في الاستيلاء عليها، عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م، عناصر كرديّة كثيرة.

لاحقًا، أصبحت بتليس تحت سيادة الإيلخانيّين. وبعد تفكّك سلطتهم، عرفت ازدهارًا على يد الأمراء الأكراد المحليّين الذين احتفظوا باستقلالهم الداخلي حتى القرن التاسع عشر. إبتداءً من هذا الوقت فرض العثمانيّون عليها سلطتهم المطلقة. وبعد الحرب الروسيّة-التركيّة عام ١٨٧٧-١٨٧٨، أصبحت المنطقة ولاية تركيّة ملحقة بشكل وثيق بالسلطة المركزيّة، لكنّها ضعفت وافتقرت نتيجة الأحداث التي عرفتها خلال الحرب العالميّة الأولى، ولا سيّما ثورة الأرمن، والاحتلال الروسي.

بجّانة (إسبانيا)، مرفأ يقع إلى الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الإيبيرية، كان مدينة اندلسيّة مهمّة سرعان ما حلّت محلّها المريّة.

في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أُسّست في بجّانة، وعلى بُعد عشرة كيلومترات تقريبًا من الشاطئ، شبه جمهوريّة بحريّة إسلاميّة أرست سفنها علاقات تجاريّة بالوكالات التي كانت قد تأسّست في المغرب مثل تنيس. إنّ مرفأ المريّة الجديد أو مريّة بجّانة الذي اختاره الأموي عبد الرحمن الثالث، في سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م، مركز قضاء للمنطقة، حلّ سريعًا مكان بجّانة التي هُجرت وأصبحت خرابًا، وورث دورها الاقتصادي والإستراتيجي.

بجاية (الجمهوريّة الجزائريّة)، مدينة مرفئيّة في المغرب الأوسط، تقع بالقرب من مدينة الجزائر، إلى الشرق من المدينة، على ساحل منطقة القبائل.

إنّ هذه البلدة المزدهرة التي خلفت في القرون الوسطى بلده القديمة، لم تشهد تألّقًا في العهد الإسلامي إلّا بين القرنين الخامس والعاشر للهجرة/ الحادي عشر والسادس عشر للميلاد، في الفترة التي بدأت مع سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، عندما اتّخذها ملوك بني حمّاد المتأخّرون مقرًّا لهم. قبل ذلك الحين كانت هذه المدينة - التي ربطتها دائمًا المواصلات البحريّة بالأندلس والتي تشرف على خليج محمي وسط منطقة وافرة النبات - قد وقعت سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م، تحت سيطرة الحمّادي الناصر، فعُرفت بالناصريّة، وأصبحت قاعدته المُفَضّلة. ثمّ اتّخذها في ما بعد ابنُه وخَلَفُه عاصمةً له، بعد أن أُجْبِر على التخلّي عن قلعة بني حمّاد. فعاشت في تلك الحقبة القصيرة ذروة مجدها، إذ كانت تحوي قصورًا ومنشآت فخمة تغنّى بها الشاعر الصِّقِلّي ابن حمْديس، إضافةً إلى بلاط اشتهر بأناقته. ولا نقع اليوم إلّا على بعض هذه الآثار التي تشهد بازدهار تلك الحقبة، كبقايا السور أو الباب الذي كان يُفْتَح أمام البواخر للدخول إلى المرفأ. لكنّنا نعرف مدى أثر هذا الفن المزدهر على الفن في صقليّة أيام ملوك النورمان، إذ ما زالت بعض عناصره تشهد على ذلك.

إنّ احتلال الموحّدين للمدينة سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٢م الذي أنهى حكم الحمّاديّين وأدّى إلى ردة فعل موقّتة إثر نزول بني غانية اليها، أبقى لها دورها مدينةً تجاريّةً غنيّة، وقد حافظت عليه في عهد الحفصيّين. كما أغوتها أيضًا غنائم القرصنة حتّى احتلال الإسبان الموقّت لها بين سنتي ١٥١٠ و١٥٥٥، ولا سيّما حتّى استقرار القراصنة الأتراك أتباع الدولة العثمانيّة في الجزائر، فغرقت في انحطاط طويل، وتحوّلت إلى قرية صغيرة بسيطة كما ذكرها مثلاً الفارس دارفيو (le chevalier d'Arvieux) الذي تسنّى له زيارتها سنة ١٦٧٤.

◀ راجع المستندين ١١ و١٩.

البحرين، أُطلق هذا الاسم، في العصور الأولى للإسلام، على قسم من الشاطئ الشرقي لشبه الجزيرة العربيّة، وعلى مجموعة الجزر الواقعة في عُرْض البحر

والتي كانت جزيرة أُوال أهمّها.

١ - في القرون الوسطى وفي تاريخ يصعب تحديده بالضبط، اقتصر اسم «بحرين» على تلك الجزيرة الرئيسة التي انفصل مصيرها عن مصير اليابسة حين اضمحلّت دولة القرامطة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي. في السابق، كانت مقاطعة البحرين التي تضمّ منطقة الحسا ملجأً تحتمي فيه المجموعات المتمرّدة. فقد لجأ اليها الخوارج في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد ثمّ الإسماعيليّون القرامطة في القرنين الرابع والخامس للهجرة/العاشر والحادي عشر للميلاد، وجعل منها هؤلاء الأخيرون حصنًا يلجأون إليه بعد عمليات الاعتداء والسلب التي كانوا يقومون بها، في جنوب العراق وفي مكّة. ولم تتمكّن الخلافة العبّاسيّة من بسط سلطتها على هذه المقاطعة إلا في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، عندما تولّت أسرة محليّة هي أسرة العُيونيّين زمام الحكم فيها

من جهة ثانية، أصبحت جزر البحرين هدفًا لمصالح تجاريّة واستراتيجيّة تتمثّل في الصراعات المختلفة التي مسّت بشكل خاص ميدان الملاحة فيها. فالقوى البحريّة التي برزت في نهاية القرون الوسطى، وفي ما بعد في الخليج العربي - الفارسي. عملت على وضع يدها على أنشطة هذه الجزر التجاريّة. وفي الوقت نفسه سعى الأتراك، أسياد الطرق التجاريّة البريّة، إبتداءً من السّلغوريّين في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حتّى الآق قيونلو في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، إلى فرض سيطرتهم عليها. واستولى عليها البرتغاليّون بدورهم في بداية القرن السادس عشر الميلادي وتحكّموا بها مدّة ثمانين سنة. بعد ذلك احتلّها صفويّو إيران في القرن السابع عشر وسيطروا عليها حتّى مجيء آل خليفة، وهم قادة عرب من نجد، الذين استقرّوا فيها وأسّسوا إمارة البحرين الحاليّة والمستقلة.

٢ - إمارة البحرين الحالية[٣٢]، مساحتها: ٦٧٨ كلم^2، عاصمتها: المنامة. هي دولة معاصرة ومستقلّة يبلغ عدد سكّانها حوالى الخمسمائة ألف نسمة، كلّهم تقريبًا مسلمون، ونصفهم من الشيعة. تضمّ هذه الإمارة المجاورة للمملكة العربيّة السعوديّة ولدولة قطر جزيرة البحرين ومجموعة الجزر المجاورة؛ تحكمها حتّى اليوم أسرة آل خليفة التي أحكمت سيطرتها عليها في أواخر القرن الثامن عشر. أبرمت البحرين معاهدة أولى، سنة ١٨٢٠، مع بريطانيا العظمى تبعتها اتّفاقات أُخرى أدّت إلى تحوّلها محميّةً بريطانيّة سنة ١٨٩٢ بحكم الأمر الواقع. بعد أن نالت استقلالها الفعلي سنة ١٩٧١ وتنازل الانكليز عن امتيازاتهم في الخليج، أعلن الأمير الذي كان يحكمها آنذاك الدستور الجديد للإمارة سنة ١٩٧٣.

كانت إمارة البحرين غنيّة بزراعتها وبتجارة اللؤلؤ وازداد اقتصادها ازدهارًا بفضل عائدات البترول، ما أدى إلى نموّها العمراني. يتوزّع سكّانها العرب مع بعض الجاليات الإيرانيّة والهنديّة بين السنّة والشيعة؛ ينتمي السنّة فيها إلى المذهبين الحنبلي والمالكي وهم يقطنون في المدن، وإليهم تنتمي الأسرة الحاكمة. أما الشيعة فهم غالبًا مزارعون، يتحدّرون من سكّان المنطقة الأوائل وأكثرهم من الإماميّة الاثني عشريّة، إضافة الى بعض الشيخيّة.

◄ راجع المستندين ١٢ و١٣.

البحريّون ← المماليك السوريّون والمصريّون.

بُخاري (جمهوريّة أوزبكستان)، مدينة في آسيا الوسطى استمرّت، حتى أيامنا هذه، أحد مراكز الحياة الإسلاميّة في تلك المنطقة، بعد أن كانت، بالتناوب مع سمرقند، إحدى العواصم التي اتّخذتها السلطات الإسلاميّة في ما وراء النهر مركزًا لها في القرون الوسطى.

تقع بخارى على المجرى الأسفل لنهر «زرافشان»، في وسط واحة، وعلى الحدود الشرقيّة لصحراء «قِزِل قوم» التي كانت تفصلها عن خيوه، وتتّصل عبر طريق القوافل بمدينة مرو، وكذلك بأودية جَيْحون/آموداريا وسَيْحون/سيرداريا. كانت بخارى تقع على ملتقى طرق حركة تجاريّة، ما شكّل مصدر غنًى لاقتصادها، لكنّها كانت معرّضة لغزوات مصدرها وسط آسيا، أمثال غزوات الترك والمغول، فكان ازدهارها رهن بضخامة غزواتهم، إلى درجة أن الأنقاض التي يخلّفها الغزاة بعد رحيلهم كانت تعيق باستمرار أعمال الزراعة والريّ.

إنّ البلدة التي كانت قائمة منذ العصور القديمة في الموقع نفسه والتي كانت تُعَدّ بين مدن أُشروسنة، استولت عليها، عام ٩١هـ/ ٧١٠م، جيوش الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، على عهد الخلفاء الأمويّين، بقيادة قُتَيْبة بن مسلم الذي فرض سلطته على أمير محلّي استمرّت أسرته في الحكم، في بادئ الأمر. كانت المدينة تابعةً آنئذٍ لمقاطعة خراسان التي كانت «مرو» عاصمتها، كما كانت مركزًا ثقافيًّا مزدهرًا، ظهرت فيه سريعًا قدرة السامانيّين الإيرانيّي الأصل، وفيه شُيِّد، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، الضريح الملكيّ العائلي المنسوب إلى أحدهم وهو إسماعيل. هذا الأثر المعماريّ قد يكون أقدم ضريح محفوظ في الأرض الإسلاميّة، وقد تميّز دائمًا بجودة هندسته وبآجرّه الزخرفي.

كانت المدينة البائدة تمثّل، بحسب رأي الجغرافيّين العرب، التناسق الثلاثيّ المألوف في تنظيم مدن إيران ومحيطها في القرون الوسطى، أي التجاور بين القلعة والمدينة نفسها (أو شَهْرستان)، وضواحٍ (أو أرباض) كانت معدّة لتحضن حياةً تجاريّة متنامية النشاط، وأسواقًا ومستودعاتٍ وخاناتٍ مُدُنيّة كانت تنهض بحاجاتها. كذلك أشادت المصادر بطرقاتها الواسعة المرصوفة بالحجارة، وبمتانة سورها ذي الأبواب الأحد عشر، المحيط بموقع استمرّ دائمًا مأهولًا حول المركز التجاريّ الكبير والحصن الذي أعيد بناؤه لمرّات عدّة، على عكس ما كان يحصل في مدن أخرى.

تراجعت أهميّة بخارى بعد سقوط السامانيّين عام ٢٣٥هـ/ ٨٥٩م، لكنّها استمرّت مركزًا ثقافيًّا يُؤوي علماء بارزين. وسرعان ما جعلت منها دولة الأتراك القراخانيّين التي بسطت سلطتها على كل المنطقة حتى الحدود الشرقيّة لتركستان، أحدَ مراكز قوّتها، قبل أن تقسم إلى أمبراطوريّتين: الخانية الغربيّة، مركزها بخارى، التي أقامت لاحقًا علاقات تبعيّة مع السلاجقة المنضمّين إلى الإسلام، والخانية الشرقيّة التي أقرّت بسيادة «القراخِتاي» الوثنيّين. إلى هذا العهد، وبالتحديد إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، تعود الآثار المهمّة بقيمتها الزخرفيّة، وأبرزها واجهة مسجد مغاك أطاري المبنيّة بالآجر، وكذلك مئذنة كاليان المشادة سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م بالأسلوب نفسه. هذا، فضلًا عن بقايا مصلّى، خارج المدينة، يعود إلى الحقبة نفسها، وعن مئذنة بتيت خلال الأعوام ١١٩٦-١١٩٨م في منطقة بيكَنْد المجاورة.

في عام ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م، نُهبت المدينة بعد احتلال جنكيزخان وجيشه المغولي لها، لكنّها ما لبثت أن نهضت بسرعة لتشهد ازدهارًا جديدًا في ظلّ السلطة المتنازع عليها بين الجَغْتائيّين والتيموريّين، بعد أن كانت حملات تيمورلنك، في نهاية القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، قد ساهمت في إعادة تنظيم العلاقات التجاريّة باتّجاه الغرب. في هذا الوقت كان النفوذ المتعاظم للأوزبك الشيبانيّين في آسيا الوسطى قد أدّى إلى احتلال بخارى، فجعلوا منها ومن سمرقند عاصمتين لمناطقهم الشرقيّة، بين ٩٠٥هـ و١٠٠٨هـ/ ١٥٠٠ و١٥٩٩م. وقد استمرّت سلطتهم حتّى عام ١٧٨٥. تمركزت فيها سلالة أوزبكيّة أخرى هي سلالة الجَنْديّين أو الأستراخانيّين، على الرغم من اجتياح المدينة الموقّت على يد نادر شاه سنة ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م. ثمّ استولى خانات جُدد على العرش وأصبحوا موالين للروس، منذ سنة ١٨٦٨ حتّى الثورة الروسيّة التي قامت بطردهم عام ١٩١٧. وأخيرًا ضُمّت هذه المقاطعة، سنة ١٩٢٣، إلى جمهوريّة أوزبكستان الاشتراكيّة السوفياتيّة التي أصبحت الآن دولة مستقلّة.

إنّ هذه المدينة التي لم ينتقل قطّ مركزها المأهول تحتفظ، فضلًا عن آثارها القروسطيّة، بأبنية كثيرة تعود إلى ما بعد القرن الخامس عشر، تضاف إلى معالمها الأثريّة السابقة، لتجعل منها متحفًا حقيقيًّا للحياة الفنيّة التي عرفتها المنطقة في المرحلة الإسلاميّة من تاريخها. لقد شيّد الأوزبكيّون فيها بازارات أو أسواقًا مغلقة وعددًا من المدارس، وكل ذلك يشهد على نشاط في فنّ العمارة استمرّ بارزًا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٤ و٣٥.

البخاري، أبو عبدالله محمّد بن اسماعيل الجُعْفي،

١٩٤-٢٥٦هـ/ ٨١٠-٨٧٠م، من رواة الحديث المشهورين، ما تزال مؤلّفاته تعتبر حجّةً في مجال الحديث الشريف.

إيرانيّ الأصل، من عائلة تنتمي إلى منطقة بُخارى. هذا العالم الآتي من بلاد ما وراء النهر ركّز اهتمامه، منذ صغره، على دراسة الحديث. جمع منه الكثير في أثناء حجّه إلى الحجاز، وخلال رحلاته الكثيرة التي بلغت به مصر، قبل أن تدركه الوفاة قرب سمرقند.

تعود شهرة البخاري، بشكل خاص، إلى المصنّف الضخم الذي جمع فيه الأحاديث وعُرف بـ«صحيح البخاري»، وقد أمضى ستة عشر عامًا في جمع موادّه، وفي تصنيف الأحاديث بحسب موضوعاتها، وقد صحّ لديه ٢٧٦٢ حديثًا. اعتبر هذا العمل، لاحقًا، مع «صحيح مسلم»، واحدًا من أفضل مُصنّفات السُّنّة في هذا المجال.

بداخوس، (إسبانيا)، بطليوس في العربيّة، وهي مدينة في إسترامادورا (L'Estrémadure)، أُسّست إبّان العصر الإسلامي، وازدهرت بصفة عاصمة محلّية في الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف.

في نهاية القرن التاسع، بنى فيها رئيس عصابة عُرف بابن الجلِّيقي (le Galicien) قلعة محصّنة كي يضمن بذلك استقلال سلطته. ازدهرت المدينة إثر ذلك على حساب مدينة ماردة القديمة. لكن كان لا بد من انتظار نهاية الخلافة الأمويّة في قرطبة وتشرذمها، في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، كي تصبح هذه المدينة بموقعها المميّز وبنموها الإقتصادي وباتّساعها، المركز الرئيس لدولة بني الأفطس الصغيرة. لكنّ هذه الدويلة ما لبثت أن وقعت في أيدي المرابطين قبل أن يحتلّها الموحّدون. ولقد حاول هؤلاء جاهدين حمايتها، ولم يتخلّوا عنها إلّا في سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م، تحت وطأة الاحتلال المسيحي. يعود الانتهاء من تشييد قلعتها المعروفة بـ«القصبة» الى المرحلة الأخيرة من الحكم الإسلامي. وتشهد آثار هذه القلعة على الدور الإستراتيجي والعسكري الذي أدّته، علمًا بأنّها اشتهرت في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بإشعاعها الثقافي والفكري الذي جسّدته نخبة من الشعراء والعلماء.

◄ راجع المستندات ١١، ١٥ و١٦.

بِدار (الاتّحاد الهنديّ)، مدينة صغيرة في منطقة الدَّكَن الإسلاميّة، ومركز المقاطعة التي تحمل الاسم نفسه. قامت بدور تاريخيّ بصفتها عاصمةً محلّيّة، بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر للميلاد، واحتفظت من ماضيها الإسلامي بعدد من الأبنية.

لأسباب إستراتيجيّة نُقل إلى بدار، هذه القلعةِ المركزيّة التي يسهل الدفاع عنها، مركزُ سلطة البَهْمَنيّين (سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م) الذين اهتمّوا بتحصينها وتجميل قصورهم فيها. في الوقت نفسه، بنيت في مكان قريب أضرحتهم، كما شيّدت في المدينة مبانٍ ذات طابع دينيّ تعود إلى القرن الخامس عشر، الى عهد الوزير محمود قوام الذي شيّد فيها مدرسة فاخرة. هذه المباني تُظهر التأثير الإيراني، المزامن لتدفّق العناصر «الأجنبيّة» حاملةً معها تيّارات دينية شيعيّة، وسمت بطابعها أمبراطوريّة الهند-الإسلاميّة في المناطق الجنوبيّة.

بعد فترة وجيزة، جرت محاولة لتدعيم السلطة المركزيّة على أيدي أسرة البريدشاهيين السنيّة المحليّة. إنّ زعيم هذه الأسرة، قاسم بريد، كان عبدًا تركيًّا، وقد استطاع ابنه أن يستولي على السلطة سنة ١٥٢٧. إنّ المدافن الملكيّة الجديدة، المجاورة هي أيضًا لبدار، تمثّل الأنشطة الهندسيّة التي قام بها هؤلاء الأمراء الذين اقتصرت أعمالهم على تجميل الأبنية البهمنيّة وترميمها. لقد حافظوا على ازدهار المدينة والمنطقة بأسرها إلى الوقت الذي ضمّت فيه ممتلكاتهم إلى أبرز منافسيهم العادلشاهيّين في بيجابور، وذلك سنة ١٦١٩.

◄ راجع المستند ٢٢.

بَدَخْشان، في العصر الوسيط، منطقة جبليّة شاسعة في آسيا الوسطى، تقع على الحدود الشرقيّة للعالم الإسلامي. وهي اليوم مقاطعة في دولة أفغانستان الإسلاميّة ومساحتها أصغر بكثير مما كانت عليه.

اشتهرت هذه المنطقة - التي كانت تعرف سابقًا بالحوض الأعلى لجَيْحون أو آموذَريا على أطراف پامير وشرقي طُخارستان - بمناجم الحجارة الكريمة، وخصوصًا

اللازورد والياقوت. بقيت لفترة طويلة تحت سيطرة القادة المحليّين خارج سلطة الإسلام حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي على الأرجح، عندما دخلها دعاة الإسماعيليّة. وقد استمرّت عقيدتهم سائدة فيها حتى القرن الخامس عشر. بعد أن نجت من الغزو المغولي ومن سيطرة التيموريّين، وكذلك من سيطرة المغول، دخلت في نهاية القرن السادس عشر أمبراطورية الأوزبك الشيبانيين، قبل أن تتحكّم بها بعض الأسر شبه المستقلّة. كانت هدفًا للأطماع الروسيّة في نهاية القرن التاسع عشر، فتمّ تقسيمها، بناءً على مبادرة بريطانيّة، وأعطي القسم الأكبر من أراضيها للملوك الأفغان، بينما أصبح القسم الشمالي - الشرقي منها الذي كان ملحقًا بإمارة بخارى وتابعًا للوصاية الروسيّة، منطقةً مستقلّةً سنة ١٩٢٥ إسمها غورنو بَدخشان، وكانت تابعة للجمهوريّة الإشتراكيّة السوفياتيّة التي تعرف اليوم باسم جمهوريّة طاجيكستان المستقلّة.

بَدْر (معركة بدر)، رمضان سنة ٢هـ/ آذار/(مارس) ٦٢٤م، كانت أوّل انتصار يحقّقه المسلمون من مهاجرين وأنصار بقيادة النبيّ محمد (ﷺ)، منذ السنة الثانية للهجرة.

جرت المعركة قرب محلّة بدر الواقعة قرب ريف الحجاز، جنوب - غربي المدينة المنوّرة، على الطريق الذي تسلكه القوافل التجاريّة بين مكّة وسوريا. في هذا السهل الصغير المحاط بالتلال والهضاب، بدأ نبيّ الإسلام حياته القتاليّة عندما اعترض قافلة عدوّة، غنيّة الحمولة يقودها أبو سفيان، زعيم عشيرة أُميّة التي انبثقت منها سلالة الحكام الأمويّين. أُرسلت فرقة من مكّة لملاقاة القافلة بغية حمايتها والحفاظ على حمولتها، لكنّ المعركة التي دارت حول بعض الآبار انتهت بانهزام المكّيّين، فقُتل وأُسِر عدد كثير منهم. كان انتصار المسلمين غير المنتظر، نظرًا الى قلة عددهم بالنسبة إلى المكّيّين، قد أمّن لهم غنيمة مهمّة. يعود هذا الانتصار، بحسب الآيات القرآنية التي نزلت بعيد هذه المعركة، إلى مساعدة الله الذي أرسل ملائكته للقتال إلى جنب المسلمين. وقد اعتُبر هذا التفوّق مبرّراً للدين الجديد وإشارة واضحة لتفوّق المؤمنين على الكافرين في أوّل لقاء جدّي بينهم.

بدر الجمالي المعروف أيضًا بأمير الجيوش، ؟ - ٤٨٧هـ/ ؟ - ١٠٩٤م، رجل دولة وقائد عسكري، عَمِلَ وزيرًا للخليفة المستنصر في أواخر الحكم الفاطمي. وقد تمكّن، في مصر على الأقلّ، من تثبيت الوضع السياسي بعد أن كان مهدّدًا بشكل خطير. يدلّ اسم هذا المملوك الذي أعتق في ما بعد على وضعه الاجتماعي. فهو يحمل اسمًا يعطى للعبيد: «بدر»، وقد اقترن هذا الاسم بلقب الأمير الذي كان مولاه سابقًا. توالت أحداث حياته العسكريّة في مقاطعة سوريا الفاطمية حيث تمكّن من بلوغ أعلى المناصب، وأصبح لمرّتين حاكمًا على دمشق، وبعد أن تمكّن من صَدّ تقدّم السلاجقة. خوّلته تجربته الشخصيّة وقوّة جيشه القائمة على المرتزقة من الأرمن أن يلبي نداء الخليفة، سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، لتخليصه من الضباط الأتراك من حراسه الذين تجرّأوا على سلطته. وقد عمل بعد ذلك على تهدئة الوضع الداخلي وتدعيم الحدود ضدّ أيّ اعتداء خارجي.

ساعد تنظيم الإدارة على عودة الإزدهار الاقتصادي الضروري لتمويل تحصين أسوار القاهرة. فقد أمر بدر الجمالي، بين سنتي ٤٧١ و ٤٨٥هـ/١٠٧٨ و١٠٩٢م، ببناء الأبواب الشهيرة التالية وبتحصينها: باب النصر، باب الفتوح وباب الزويلة. ما تزال هذه الأبواب المستقيمة والمبنية من الحجر الصلب تثير، حتى اليوم، الاستحسان لبساطتها الفنيّة ولميزتها العمليّة. ويظهر فيها أثر هندسة حضارة ما بين النهرين أكثر مما يظهر فيها أثر الهندسة المصريّة. تعكس هذه الإنجازات إرادة بانيها في التجديد، وهي لا تقلّ أهميّة عن ضريحه، «مَشهَد جُيوشي»، الذي أمر ببنائه على تلة المُقطّم. وما زال هذا الضريح، حتّى اليوم، يحيي ذكرى صاحبه في الذاكرة الشعبيّة. بالرغم من قوة جيوش بدر ومن الانتصارات التي حقّقها في الدلتا كما في صعيد مصر، لم يتمكّن من منع سقوط سوريا في أيدي السلاجقة، بعد أن احتلّوا مدينة دمشق سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٦م، وقد حاول الفاطميّون عبثًا بعد ذلك استرجاعها. إنّ صلابة موقع الوزير بدر في مصر خوّلته توريث منصبه لابنه الأفضل.

◄ راجع المستند ٦٣.

البِدَع (أهل-)، مفهوم استُخدم عبْر التاريخ الإسلامي، في الأحكام وأحيانًا في الإدانات، التي كانت تطلقها الجماعة على عدد من الفرق، وفي وقت متأخّر، على الحركات الصوفيّة.

يصعب تحديد الأصول العقائديّة التي عُمل بها في ديانة طغت فيها التعدديّة على إرادة واضحة للتوحيد وتبسيط الامور. إلّا أنّ عقيدة توحُّد الجماعة المعروفة باللغة العربيّة بأهل السنّة والجماعة، التي يدعمها مبدأ الإجماع، شكّلت النقطة المحوريّة التي انطلقت منها ظواهر الرفض المعروفة.

لقد سمحت هذه الظواهر للمذهب السنّي، على تنوّعه، وعلى وعيه للواقع السياسي، أن يثبّت ويرسّخ عقيدته في وجه المتطرفين الذين كان يصدّهم، وفي وجه الانقسامات التي كان يعترض مبدئيًا على شرعيتها، بعبارة أخرى في وجه التوجّهات التي أدّت إلى بعض وجوه التطرّف الصوفي، منها مثلًا القول بوحدة الوجود، وسواها من الحركات الدينيّة التي أحدثت فرقًا ونُعتت بالكفر.

بِدْعَة، مصطلح ذو دلالة فقهيّة وكلاميّة، في آنٍ معاً، وهو يعني، مع مضمون تحقيريّ، كلَّ ممارسةٍ أو فكرة غير متّفقة مع مبادئ الإسلام في عهده الأوّل.

إن الاتّهام بالابتداع (بإحداث البدعة) كان من أعظم ما يمكن أن يُرمى به مُسلم. ومنذ العهود الأولى، صُنِّفتْ بدعًا بعض النظريات التي اعتُبرت انحرافًا عن السنّة التقليديّة. وكان رئيس الجماعة، أي الخليفة أو ممثّله، صاحب الصلاحيّة لمحاربة البدع؛ لكنّ مفهومها كان يتحدّد أحياناً بطريقة شخصيّة، بحيث نرى الخليفة المأمون، مثلاً، يؤيّد المعتزلة، واصفاً الآراء المخالفة التي يقول بها الحنابلة بأنّها «بدع»، مع أنّها لا تتعارض ومبادئ الإسلام وسنّة الرسول. هكذا خاض العلماء التقليديّون صراعًا ضدّ البدع، ولكنّهم اتُّهموا أحيانًا بدورهم بالابتداع.

لقد اتّسمت البدع، عبر العصور، بخصائص متباينة جدًّا، وذلك ناشئ عن صعوبة التعريف الملازمة لهذا المصطلح. حتّى إنّ بعض المتكلّمين ميّزوا بين البدع «الحسنة» والبدع «المذمومة»، كما فعل الفقيه الشافعي في أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي؛ بينما اضطرّ منظّرون آخرون في الفقه إلى قبول ممارسات لا تسوّغها النواهي القديمة، والتي كانت تُعَدُّ بدعاً، لكنّ الوجدان الإسلامي كان يشعر بالحاجة إليها، مع اهتمامه باحترام الرسالة الإسلاميّة الاساسيّة. وهكذا خُصِّصَتْ مؤلّفات كثيرة لمسألة «البدع» في المجالين الفقهي والكلامي. ومن أهمّ البدع في ما يخصّ العبادة - تلك التي لقيت انتشاراً واسعاً، لا سيّما إبتداء من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، والتي حاربها في الوقت نفسه بعض الفقهاء - هي «تكريم الأولياء»، وقد نشأت من تقليد «الزيارة» المرتبط بإجلال بعض الأضرحة. لقد كان موقف الحركة الوهّابية، في القرنين التاسع عشر والعشرين، صارماً في رفض هذه البدعة، بينما كان يؤيّدها المتصوّفون وفرقُهم.

البَدو قبائل مترحّلة في السهوب الصحراويّة، احتلّت موقعًا كبيرًا في القرون الوسطى، في العالم الإسلامي، ما فتئ نمط عيشها المميّز، وصولًا إلى المتغيّرات الحديثة، يؤثّر في تاريخ هذا العالم.

على الرغم من أنّ البدو لم يقوموا بأي دور في بناء الحضارة الإسلاميّة، فإنّهم وُجدوا قبل الإسلام وشهدوا بزوغ الدعوة الجديدة. كان بدو شبه الجزيرة العربيّة يربّون الجمال التي تساعدهم على العيش وتسمح لهم بممارسة ميولهم القتاليّة وبالتجوّل على طول طرق القوافل، فكانوا يسيطرون على كلّ البلاد قبل قيام الجماعة الإسلاميّة على يدي النبي محمّد (ﷺ)، وما لبثوا أن قبلوا الإسلام ونشروه منذ البداية. لم يكن هذا النمط البدوي وقفًا على القبائل التي اعتنقت الإسلام وقدّمت الولاء للنبي الجديد الذي استقرّ في المدينة بعد الهجرة، لكنّ العرب الذين كانوا يقطنون الحاضرة التجاريّة في الحجاز، أي مكّة حيث وُلد النبي محمّد (ﷺ)، وعلى الرغم من سكناهم في الحضر، حافظوا هم أيضًا على البنى القبليّة والمعتقدات الدينيّة البدائيّة وبعض عادات حياة البداوة. وهم الذين شكّلوا المجتمع

الذي انتقد القرآن مرّات عدّة ذهنيّته وحيث تجذّرت سُنّة النبيّ محمّد (ﷺ)، إذ إنّ الشريعة اعتمدت غالبًا، مع بعض التعديل وفاق الحاجة، بعض القواعد المتّبعة بين أهل البادية القدامى. بعدئذٍ كيّف البدو تقاليد الغزو التي كانوا قد اعتادوها مع الجهاد، وشكّلت قبائلهم قوّات محاربة انطلقت في اتّجاه الشمال، في زمن الفتوحات الكبرى، لتستقرّ في ما بعد في مختلف مناطق الأمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة.

يتجلّى هذا التأثير البدوي في المجتمع الإسلامي في المواضيع غير الإسلاميّة للشعر القديم، وفي روائع أدب الأنساب وقصص المعارك، وفي هذه المثاليّة لحياة تميّزت بالقساوة والكرم، ونجدها مثبتة في دقائق مفردات اللغة، ويتجلّى أيضًا في هذا الميل إلى الأنشطة التجاريّة والنقاشات الدقيقة؛ وفي الوقت عينه، تأصّلت بعض عوامل الفرقة المتأتّية عن الخصومات القديمة بين القبائل. وإذا كانت هذه الدمغة العربيّة التقليديّة قد خفّت، أو على الأقلّ جُمّدت داخل مجتمعات المدن التي جمعت القوى الحيّة في الدولة الجديدة، مع الخلفاء الأمويّين ثم العبّاسيّين، والتي استقطبت البدو القدامى الذين دجّنهم التثاقف، فإنّ نتائج العلاقات بين البدو والحضر حلّت عندئذ مكان التأثيرات الفاعلة منذ القِدم، واتّخذت شكل التصادم المحتوم، والدموي أحيانًا.

كان هنالك دومًا على حدود الأراضي المزروعة، سواء كانت واحات هزيلة أو سهولًا زراعيّة غنيّة، مخزون من المغيرين النهّابين الذين يمكن استخدامهم في الفتوحات، والآخذين بعادات الترحال، يتحيّنون الفرصة للإنقاض على الأراضي المطموع فيها، فإن نجحوا عمدوا إلى التسلّل اليها، أو إلى احتلالها واستملاك ثرواتها. إنّ هذه الظاهرة الغريبة عن الإسلام هيمنت على تاريخه، فقد استمرّت الاعتبارات الجغرافيّة الواضحة التي تفسّر استمرارها وكانت، حتى نهاية القرن التاسع عشر، وراء هجمات البدو التي أبقت حالة عدم الأمن قائمة في الهضبة الوسطى السوريّة - الأردنيّة، مثلًا، وفي مناطق أخرى. أثارت نتائج هذا التصرّف، في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، جهود تفكير المؤرّخ ابن خلدون، المراقب للنكسات المتتالية التي عانتها دول المغرب بسبب عصابات كانت آخرها جماعات بني هلال.

لم يكن هؤلاء العرب الذين طبعوا بأعمالهم قلب بلاد الإسلام، البدو الوحيدين الرّحّل والغزاة الذين عرفهم تاريخ المسلمين. فثمّة شعوب أخرى من إتنيات مختلفة ربيبة الأراضي الأفريقيّة أو سهوب آسيا الوسطى ظهرت، في حقبات مختلفة، لتؤسّس غالبًا سلالات حاكمة، سيطرت على أمبراطوريّات واسعة، بعد أن تسبّبت باندمار إبّان اجتياحها. هذه كانت حال المرابطين من البربر الذين انتقلوا إلى الشمال مع جماعاتهم المسلّحة، غزاة ومتمرّدين على النظام القائم. كذلك كانت حال الأتراك الغزّ الذين استطاعوا، بقيادة السلاجقة، السيطرة على إيران والعراق وسوريا، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، ثمّ ضمّوا الى ممتلكاتهم آسيا الصغرى البيزنطيّة، ما أدّى إلى استيطان قبائل تركمانيّة بدويّة جديدة في الشرق الأدنى والأناضول، فأعادوا بذلك إلى جوّ الصحراء مساحات كانت في السابق مخصّصة للزراعة. عقب ذلك هجمات المغول، وأتراك تيمورلنك، والأوزبك، إضافة إلى مبادرات عصابات من البدو الأضعف شوكةً التي ساعدت، مثلًا، في إقامة الإمارات في الأناضول بعد العهد السلجوقي. ولئن اختلفت الظروف التاريخيّة، فقد كان دومًا وراء قيام السلالات التي نظّمت حياة العالم الإسلامي أو انحلالها، منذ القرون الوسطى حتى الفترة الحديثة، سمات ثابتة من الصراع بين البدو والحضر، وهو من الصراعات التي عرفها الإسلام منذ نشأته.

البدوي (السيّد)، أبو الفتيان أحمد البدوي، ١١٩٩-١٢٧٦م، وليّ مصري ذو شعبية كبيرة، قبره في طنطا من منطقة الدلتا.

ولد في فاس سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م من عائلة شيعية. قصد، وهو حدث، مع ذويه الحجّ الى مكّة حيث تُوفي أبوه. استقرّ البدوي الذي أصبح صوفيًا في الشرق وتفرّغ إبتداءً من سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م للعبادة. انتقل إلى العراق حيث زار ضريحي كل من الرفاعي والجيلاني، ثمّ الى طنطا في مصر حيث عاش ابتداءً من سنة ٦٣٣هـ/

١٢٣٦م عيشة النسّاك. يُروى أنّه شفى بعض المرضى واعتبر وليًّا. كان السلطان المملوكي بيبرس يكنّ له تقديرًا خاصًا. وقد عرفت جمعيّة الدراويش التابعة له والمعروفة بالأحمديّة انتشارًا كبيرًا في مصر، إلى جانب الرفاعيّة والقادريّة والبُرْهانيّة.

تحوّل قبره الذي بني عليه مسجد إلى مركز عبادة يؤمّه الزوّار بكثافة، خصوصًا في الأعياد السنويّة الثلاثة التي تقام احتفاء بذكراه. وقد رأى بعض الفقهاء في هذه التظاهرات الدينيّة خروجًا على السنّة، ما دفع السلطات السياسيّة إلى منعها خلال فترات متعدّدة. لكنّ هذا الموقف لم يمنع تكاثر أعداد الوفود التي تزور قبره ابتداءً من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حتى العصر الحالي.

برار، مقاطعة من الدُكن الإسلاميّة سابقًا، دُمجت حاليًّا في دولة أندره پْرادِش في الاتّحاد الهندي، وقد بقيت تحت سلطة الأُسَر الإسلاميّة حتّى الاحتلال البريطاني في القرن التاسع عشر.

أصبح هذا القسم الشمالي من أمبراطوريّة البهمنيّين الغنيّة مقرًّا لدولة العمادشاهيّين المستقلّة (١٤٩٠–١٥٧٤) التي أسّسها ضابط من أصل هندي اعتنق الإسلام واتّخذ لقب عماد الملك، وتولّى مهمات الحاكم فيها. خلال ما يقارب القرن، استمرّ هذا القائد العسكري وأسلافه في تأكيد أصالتهم السنّية، وذلك وسط صراعات هزّت الأخلاف الآخرين للبهمنيّين والتي اشترك فيها سلاطين كُجرات او سلاطين كَنْديش المجاورة.

كان أفولهم، سنة ١٥٧٤ بعد انتصارات النظامشاهيّين في دولتآباد الشيعية، قد سبق بقليل إحتلال برار من قِبَل المغولي أكبر الذي ضمّها إلى أمبراطوريّته، لكن لفترة كانت بدورها قصيرة هي أيضًا. وقد عمل الآصفجاهيّون أو نظاميّو حيدرآباد، وهم الاسرة الجديدة الحاكمة التي أسّسها سنة ١٧٢٣ أحد النافذين الكبار في بلاط دلهي، على حماية هذه المنطقة التي كانت تتعرّض بشكل مستمرّ لغزوات المهراته. لكنّ هذه الاسرة لم تتمكّن من الاحتفاظ بحقوقها في مواجهة الارادة البريطانيّة التي تولّت مباشرة ادارة برار ابتداءً من سنة ١٨٥٢ وحتّى التقسيم سنة ١٩٤٧.

◄ راجع المستند ٣٥.

البرامكة، أو آل برمك، أُسرة من الإداريّين والكتّاب الذين اعتنقوا الاسلام، أصلهم من خراسان، نهضوا بدور في نهاية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، في ظلّ أسرة العبّاسيّين وخصوصًا خلال حكم هارون الرشيد. اكتسبوا شهرة أصبحت أسطوريّة.

إنّ لفظة «برمك» التي أطلقت على سلف هذه الأسرة ليست اسم علَم بل هي تدلّ على منصب الكاهن الأكبر لمعبد بوذيّ، هو معبد نُوبهار، قرب بلخ، الذي ذكره كتّاب الحوليّات في العصر الأموي، وقد يكون مركزًا ثقافيًّا ممعنًا في القِدَم. أوّل من جاء من هذا الوسط واستقرّ في العراق واضطلع بدور في تاريخ الخلافة هو خالد بن برمك المتوفّى سنة ١٦٥هـ/٧٨١م. شارك في «ثورة العبّاسيين» وشغل منصب كاتب الجند وصاحب الخراج في عهد الخليفة السفّاح، قبل أن يتولّى مسؤوليّات مختلفة في عهد خَلَفه المنصور.

أشهر أعضاء العائلة هم يحيى بن خالد وولداه الفضل وجعفر الذين مارسوا، خلال السنوات السبع عشرة الأولى من خلافة هارون الرشيد، الحكم مكان الخليفة، الأوّل وزيرًا والآخران حاكمين لمقاطعات أو مستشارَين للخليفة. كان يحيى قد كُلّف في عهد الخليفة المهدي الوصاية على هارون الصغير الولي الثاني للعهد. وعندما تولّى الهادي، وليّ العهد الأوّل، الخلافة، حاول أن يبعد منافسه هارون عن خلافته، فدافع يحيى عنه. فكان وقوف يحيى إلى جانبه، إضافة إلى موت الهادي المفاجئ، ضروريَّين ليتمكّن هارون من أن يبلغ سدّة الخلافة. فألقى خلال سنوات عديدة أعباء الحكم على عاتق يحيى الذي كان يقوم بها على أكمل وجه، بعد أن أصبح وزيرًا؛ وكان جعفر مؤتمنًا على أسراره؛ أمّا الفضل فقد تولّى مهمّاتٍ قياديّة في الجيش.

إنّ رفعة هؤلاء الوزراء النافذين التي نَعَتها بعضهم بـ«المُلك» انتهت بشكل مفاجئ ومأسوي: خُلع بعضهم وأُعدِم جعفر. وقد فُسّرت هذه الأحداث بما لا يرتكز إلا على مخيلة أصحابها، وقد ساهمت هذه التفسيرات في جزء كبير من الشهرة التي عرفها البرامكة في العصور

اللاحقة. إنّ تدهور العلاقة بين الخليفة ومساعديه البرامكة جاء بشكل تدريجي، فقد بدأ منذ وقت بعيد بسبب موقف هؤلاء من الشيعة المطالبين بالخلافة ومن ثوراتهم: كان الخليفة يميل إلى اتّخاذ اجراءات صارمة بحق هؤلاء، بينما كان يسعى البرامكة إلى إخماد هذه الثورات بسياسة اللين والتوافق. من جهة ثانية، يبدو أنّ البرامكة كانوا يظهرون انفتاحًا على العقائد غير الإسلامية ويشجّعون في مجالسهم المناقشات بين أصحاب التيّارات العقائديّة المتنوّعة، بينما كان الخليفة متشدّدًا في هذا الميدان ولا يرتاح لمثل ذلك النقاش. أدّت حقول النزاع هذه إلى خلاف عميق بين الخليفة والبرامكة على الصعيدين السياسي والديني. وإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الخليفة ضاق ذرعًا بالوصاية التي يمارسها عليه وزيره وأسرته فإنّنا ندرك الأسباب الكامنة وراء القرار الذي اتّخذه إثر عودته من الحج إلى مكّة، والقاضي بإعدام جعفر سنة ٨٠٣ وسجن يحيى والفضل بعد إبعادهما عن مسؤوليّات السلطة، وذلك حتّى موتهما سنة ٨٠٥ بالنسبة الى الأوّل، وسنة ٨٠٨ بالنسبة الى الثاني. لكن، كان ليحيى ولدان آخران أقلّ شهرة من السابقَين اضطلعا بدور في ظلّ حكم المأمون.

كان للبرامكة خلَفٌ عديدون ذكرهم المؤلّفون. أمّا تسمية «برمكي» فقد أُطلقت أيضًا على أشخاص من خارج العائلة كالموالي أو كبعض سكّان الحيّ البغدادي الذي التصق اسم البرامكة به.

برباروسّا ← **خير الدين**.

البربر، إسم عام يطلق حاليًا على مجموعات إسلاميّة متنوّعة من سكان المغرب، تمتاز بانتمائها إلى مجموعة لغويّة واحدة تجمع بينها عناصر حضاريّة مشتركة.

وَضَع احتلال العرب الأول لأفريقيا الشماليّة، إبّان الفتوحات الكبرى في القرنين الأوّل والثاني للهجرة/ السابع والثامن للميلاد، البربر أمام إسلام لم يعتنقوه إلّا بصعوبة. ثاروا مرّات عدّة على السيطرة الأجنبيّة الجديدة التي خلفت سلطة البيزنطيّين، وأفسحوا في المجال لنشر دعوات الحركات الانفصاليّة المختلفة المناهضة للخلافة السنيّة كالخوارج والشيعة. وقد نقلوا معهم إلى الأندلس بعض نزاعاتهم الداخليّة، إضافةً إلى الحقد الذي اعتمل في نفوسهم ضدّ العناصر العربيّة، من خلال اشتراكهم التدريجيّ في المعارك التي أسفرت عن ضمّ شبه جزيرة إيبريا إلى أحضان الأمبراطوريّة العربيّة- الإسلاميّة وعن الاحتفاظ بجزءٍ منها طيلة ثمانية قرون.

انتهت أسلمة البربر في كل المغرب في حدود القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. ورافقت حركة الأسلمة هذه حركة تعريب نسبي، لم تترك مجالًا لهويّة لغوية إلّا لبعض الجماعات القبليّة المتمركزة في المناطق الصعبة البلوغ. من هنا كان الانتشار الحالي لحوالي ستة ملايين بربريّ من الناطقين باللغة البربريّة، من مصر إلى الشاطئ الأطلسي وإلى بلاد أفريقيا السوداء في منطقة الساحل الصحراوي. وتشير التسميات التي تُطلق عليهم الى مناطق لغويّة يميّزها أيضًا التنظيم الاجتماعي - الديني والعادات اليوميّة.

ان استمراريّة بعض الاستعمالات التقليديّة في إطار محلّي ضيق يعكس حيويّة لغة غير مدوّنة، أبدعت آدابها الخاصة من حكايات وأشعار وأغان، أُلّفت لتواكب إيقاع الرقصات والاحتفالات في الأعياد، وأحيانًا ممارسة الشعائر التي تقوم بها جماعات البربر، سواء منهم البدو أو الحضر. فإذا كان في الإمكان التحدّث عن تراث للبربر مُشترك فإن الاختلاف في التعبير، حتى في تأويل الإسلام، يفصل اليوم مثلًا، داخل جمهوريّة الجزائر، بين سكّان الأوراس وسكان منطقة القبائل وسكان المزاب، ويفصل داخل المملكة المغربيّة بين سكّان منطقة الريف والشلوح الموزّعين في سلسلة جبال الأطلس الغربيّة أو في وادي سوس، وبين الطوارق الذين يحافظون على أصالتهم في المناطق المتاخمة لكلّ من دُوَل الجزائر ومالي والنيجر. وهناك آثار لتوطّن للبربر في القرون الوسطى موزّعة، حتّى اليوم، بين ليبيا وتونس وموريتانيا، كما تنتشر جاليات من البربر في المدن الحديثة الكبرى وفي البلدان الأوروبيّة.

هذا الوضع هو في أساس التوتّر الحالي المرتبط بمسألة البربر داخل الدول الحديثة المعنيّة. وهو ينضوي أيضًا إلى خطّ استمرّ منذ أمد بعيد، طُبع بالتحالفات العائليّة والاتّحادات القبليّة التي رسمت تاريخ الممالك

الصغيرة المأهولة بالبربر أو الخاضعة لهم، التي تعاقبت في تلك المناطق منذ أوائل القرون الوسطى، والتي أفسحت في المجال، من حين إلى آخر، لنشوء أمبراطوريّات إسلاميّة شاسعة كانت بدورها بربريّة كأمبراطوريّة المرابطين وأمبراطوريّة الموحّدين. فلا ازدهار الحركات الإصلاحية الفاتحة - التي أدّت إلى نشوء مجموعات شاسعة من المقاطعات التي كانت في بعض الأحيان ميدانًا لطموحات دينيّة ابتداعيّة - ولا تكاثر الدول المختلفة - بدءًا بدولة الرستميين في تاهرت أو دولة الأدارسة في فاس، في القرنين الثاني والثالث للهجرة/الثامن والتاسع للميلاد، وانتهاء بدولة المرينيين في المغرب في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، مرورًا بأوّل تمركز للفاطميّين في إفريقية في بداية القرن العاشر للميلاد - يمكن أن تُفهم بدون الرجوع إلى العلاقات المعقّدة التي كانت تربط فصائل البربر، ذوي الخيارات الدينيّة المتنوّعة، بعضهم ببعض: فكلّهم كانوا يتنافسون على سلطة سريعة الزوال، اذ لم يتمكّنوا من أن يبنوا دولًا متينة وثابتة.

هناك أسماء شهيرة مثل زناتة، من جهة، ومصمودة وكُتامة وصَنْهاجة من جهة ثانية، لا بد من العودة إليها إذا أردنا التفكير في التنافس والتقسيمات التي أدّت إلى تقسيم المغرب إلى منطقتي نفوذ: نفوذ أُمويّي قرطبة في الغرب ونفوذ الفاطميّين في الشرق. إنّ الصراعات الحادّة التي لم تعرف المهادنة بين أعضاء هذه التجمّعات الرئيسة أدّت، منذ ذلك الحين، إلى عدم استقرار سياسي في كل أفريقيا الشماليّة. وقد زاد من حدّة هذا التزعزع وجود تفرّعات مميّزة، داخل تجمّع صنهاجة مثلًا، بين جماعات لها طموحات وأنماط عيش متنوّعة: فمن جهة هناك سكان المناطق الشرقيّة أو الوسطى من المغرب، وهم من الشيعة، ومن جهة ثانية هناك لمتونه في الرُّبُط الصحراوية. أصحاب الجماعة الأولى هم من الحَضر سكّان الجبال، وأصحاب الثانية هم من البدو الذين تجذبهم مساحات الجنوب الواسعة. والأمر نفسه صحيح بالنسبة إلى فروع مصمودة حيث نمت بين جماعاتها بِدَعٌ متنوّعة، عند بَرْغَواطة كما عند غُمارة من الخوارج، أو عند مصمودة الجنوب المدافعين عن وَحدوية الموحّدين. فقد كان لكلّ هذا التشرذم أثر واضح في تطوّر المغرب في السنوات الأخيرة من العصر الوسيط وفي مطلع العصر الحديث. ومن الممكن أن نعزو الانحلال التدريجي لهذه التجمّعات القبليّة إلى التحوّلات الاجتماعيّة والدينيّة اللّاحقة حيث تزامن الاعتناق الشامل للمالكيّة كمذهب فقهي سنّي مع التأثير المتنامي للجماعات الصوفيّة التي بقيت، في قسم كبير منها، وفيّةً لخصائص جوهريّة أخرى عند البربر.

البرتغال بالعربيّة **البرتقال**، تسمية أُطلقت خلال القرون الوسطى، على موقع على مصبّ نهر دورو، يدعى اليوم بورتو، وفي الوقت عينه على منطقة دخلها الإسلام جزئيًا، كانت تشكّل، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، مملكة مسيحيّة تطابق حدودُها حدود البرتغال الحالي.

امتدّ الماضي الإسلامي لهذه المنطقة على أكثر من خمسة قرون وتخلّلته تقلّبات متعدّدة، وارتبط، من الوجهة التاريخيّة والثقافيّة، بمصير شبه الجزيرة الإيبريّة بكاملها التي احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة خلال فترة الفتوحات الكبرى وعُرفت مذّاك بالأندلس. انمازت هذه المنطقة بخصائص تفرّدت بها المقاطعات الغربيّة لشبه جزيرة إيبريا، وهي الغرب والْتْنيجو وإستريمادور التي تضمّ مدنًا شهيرة مثل شِلْب (Silves) وباجه (Beja) ولشبونة وباداجوز (بَطَلْيوس) الأسبانيّة الانتماء في أيامنا. ثمّ كانت الهزيمة البحرية للموحّدي أبي يعقوب يوسف أمام لشبونة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، وعجزه عن الاستيلاء برًّا على حصن شنترين (Santarem)، ما آذن بإعلان نهاية الحكم الإسلامي في غرب شبه الجزيرة، وقد زال هذا الحكم نهائيًا بعد معركة لاس نافاس دي تولوزا (Las Navas de Tolosa) في العام ٦٠٩هـ/١٢١٢م، وسقوط شِلْب سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.

◄ راجع المستند رقم ١٦.

البرجيّون ← **مماليك سوريا ومصر.**

البَرْزاني، اسم قَبَلي صيغ نسبةً إلى قرية برزان في شمال شرقيّ الجمهوريّة العراقيّة، وهو يُطلق على زعماء

الحركة القومية الكردية وعلى اتباعهم في المنطقة.

كان للبرزانيين، الذي ظهروا في القرن التاسع عشر كمجموعة من [الطريقة] النقشبندية حول شيوخهم، نزاعات مع العثمانيين أدّت أخيرًا إلى إعدام الشيخ عبد السلام الثاني سنة ١٩١٥. لكنّ أنشطتهم السياسيّة التي اتّخذت بعد ذلك من داخل الدولة العراقيّة مسرحًا لها استعادت زخمها خلال الحرب العالميّة الثانية، إذ أدّت ثورة الملاّ مصطفى والشيخ أحمد إلى اعلان جمهوريّة الشعب الكرْدي على أراضي الدولة الإيرانيّة، لكنّ هذه الجمهوريّة انهارت بسرعة.

برسباي، الملك الأشرفُ (توفي سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٨م). سلطان من مماليك سوريا ومصر البُرجيّين، حكم من سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م الى سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٨م، وحاول عبثًا حلّ المشكلات الاقتصاديّة في المملكة باتّخاذه تدابير عنيفة ومتنوّعة.

كان برسباي مملوكًا للسلطان برقوق، ثمّ عُيّن حاكمًا على طرابلس في سوريا قبل أن يصبح سلطانًا. منذ بلوغه السلطة منع مُجدّدًا المسيحيّين واليهود من تولّي المناصب الإداريّة. ثمّ، نتيجة لنشاط القراصنة الأوروبيّين، أمر بوضع اليد على ممتلكات الغربيّين في مصر وسوريا ومنع التداول بعُملات بلادهم. وتشدّد أيضًا مع التجّار القادمين من الهند إذ أجبرهم على تفريغ بضاعتهم ليس في عدن، بل في جدّة حيث فُرضت عليهم ضرائب باهظة.

على الصعيد العسكري، وجّه برسباي حملة ضد جزيرة قبرص، ونتيجة لانتصاره فرض على ملكها دفع جزية سنويّة. اختصم أيضًا مع أمير تركماني من آق قويونلو وأدى النزاع بينهما إلى حصاره ديار بكر وبسط سيادته عليها سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م، بالرغم من فقدان قسم كبير من جنوده.

رغم إشادة المؤرّخين العرب بصفات برسباي الإداريّة، ورغم أنّ التدابير التي اتّخذها في الحقل الاقتصادي قد أثبتت بعض فعاليّتها، فإنّ سياسته العسكريّة كانت مغامرة ولم تؤدّ خلال حكمه القصير إلى نتائج مثمرة.

بَرْغَواطة، قبائل بربريّة استقرّت في القرون الوسطى على الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى، وقد تميّز أفرادها بين القرنين الثامن والثاني عشر للميلاد باعتناقهم عقيدة متطرّفة بقيت غامضة.

إنّ الاتّجاه الديني لهذه القبائل مستوحى على الأرجح من عقيدة الخوارج، وقد تسرّبت اليه بعض المبادئ الشيعيّة، إضافة الى ميل واضح للتقشّف. وقد رافق هذا الاتّجاه ممارسات خاصّة بالوسط البربريّ. كما أنّه ميّز برغواطة بحيث جعل جيرانهم ينعتونهم بالإلحاد. لذا كانت دولتهم المستقلّة الصغيرة التي ازدهرت في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، هدفًا لغزوات متلاحقة شنّها عليهم، باسم الجهاد، حلفاء أُمويّي قرطبة، ومن ثمّ المرابطون. وقد تمكّن الموحّدون من القضاء عليهم عندما احتلّوا المنطقة.

برقة ← سيرينايك.

بَرْقُوق، الملك الظاهر سيف الدين (توفي سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م)، أوّل سلاطين المماليك البرجيّين في سوريا ومصر، تمكّن بمهارة من الاستيلاء على الحكم اذ تولاّه من سنة ٧٨٤ إلى ٨٠١ هـ/ ١٣٨٢ إلى ١٣٩٩م، مع انقطاع دام سنة نتيجة لثورة داخليّة.

يعود برقوق في أصله إلى القرم، وقد تولّى القيادة العليا للجيش في ظلّ حكم مملوك بحري نجح، سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، في أن يُعَيّن سلطانًا من قبل مجلسٍ يترأسه الخليفة. فحلّ بذلك محلّ الشقيق الصغير للسلطان المتوفى الذي كان قد ساعده على الوصول إلى الحكم، كي يمهّد بذلك الطريق لارتقائه إلى السلطتين العسكريّة والسياسيّة. بعد سبعة أعوام من توليه الحكم اضطرّ لمواجهة حركة عصيان شاملة أثارها اعداؤه بدءًا من سوريا، لكنّه استعاد سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م السلطة وراح يهتمّ بشكل خاص بتحصين حدوده السوريّة خوفًا من المدّ العثماني في الأناضول من جهة، ومن أخبار فتوحات تيمورلنك الأولى من جهة ثانية. توفي قُبَيْل غزو بلاده فلم تسنح له الفرصة لإصلاح وضع دولة المماليك التي كانت تواجه مشكلات إقتصاديّة وماليّة

خطيرة، إضافة إلى الصراع على السلطة الذي ظهر بشكل حادّ في ظلّ حكم ابنه وخليفته.

بَرَكة، لفظ عربي إسلامي، انتقل كما هو إلى اللغة الفرنسيّة وحافظ على معناه «قوة خيّرة، مصدرها إلهي، تثير الوفرة في الميدان المادي والازدهار والسعادة في الميدان النفسي».

دخلت هذه اللفظة القرآنية لغة كلّ المسلمين سواء منهم الذين يتكلّمون العربيّة أو الذين لا يتكلّمونها. تدلّ، في استعمالها مفردةً، على ما يُعتَبر هبة من الله كـ«الرحمة» أو «السلام». وتُدخل، مع ألفاظ سواها مشتقة من الجذر نفسه، عددًا من تعابير التقوى والمجاملة والشكر مما تفرضه اللياقة الإسلاميّة. اسم المفعول «مُبارك» يستعمل بشكل مكثّف أيضًا.

شاع مفهوم «البركة» مع نموّ حركة تكريم الأولياء. فهي وفيرة عندهم وعند الأنبياء يشملون بها مَن يشاؤون. تشهد على ذلك ليس الاخبار المتقولة عن كلّ منهم وحسب، بل الأماكن المقدّسة كمزاراتهم وحوائجهم الخاصة التي تحمل هي أيضًا البركة. من هنا كانت بعض مظاهر العبادات التي تمارس خلال زيارة هذه الأماكن.

بركه خان (ت سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، ملك مغولي من فرع الباتُويين. إتّبع سياسة توسعيّة ناشطة في السهوب الواقعة غربيّ منغوليا، وثبّتَ فيها حكم أحفاده خانات القبيلة الذهبيّة.

بركه خان هو حفيد جنكيزخان من ابنه البكر جوجي/جونشي. لم يُعرف بالضبط تاريخ اعتناقه الاسلام، لكنّه حدثَ على الأرجح قبل مجيء الخان الكبير منكو سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م، وقبل وصوله إلى الحكم سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. فرض سلطته، في بداية عهده، على ما وراء النهر وعلى سيبيريا الغربيّة المجاورة للأورال حتّى الڤولغا والقوقاز. وحظي بتقدير خاص لدى الأدباء وفقهاء الإسلام في بخارى. دخل، في ما بعد، في حرب مع ابن عمه هولاكو فاتح إيران والعراق وسوريا ومؤسّس أمبراطوريّة منافسة لم تكن آنئذٍ إسلاميّة، هي أمبراطوريّة الإيلخانيّين.

اتّصل لذلك بالسلطان بيبرس، مؤسّس دولة المماليك في مصر وسوريا، راغبًا في التحالف معه، لكنّ المساعي المتبادلة بينهما لم تسفر عن أيّة نتيجة. خرجت جيوشه منتصرة في معركتها مع جيوش هولاكو على ضفاف التيرك (Terek) سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م. استمرّت حملاته في ما بعد ضد البيزنطيّين في تراقيا، وتُوفي في تفليس خلال مجابهة مع أباقا، خلف هولاكو.

◄ راجع المستند ٢٣

بَرْكيارِق أو ركن الدين بَرْكْيارُوق، (٤٧٢-٤٩٨هـ/١٠٧٩-١١٠٥م)، رابع سلطان من أسرة سلاجقة إيران أو السلاجقة الكبار، ملك من سنة ١٠٩٤ حتى سنة ١١٠٥م على أمبراطوريّة تحوّلت اتّحادًا فدراليًّا لمقاطعات مستقلّة ذاتيًّا.

ركن الدين، هذا الابن البكر للسلطان مَلِكْشاه، وصل إلى الحكم شابًا صغيرًا بعد صعوبات حرب أهليّة اضطرّته لمواجهة طموحات منافسيه. فأُجبر على تقاسم السلطة العليا - عندما حصل عليها - مع ممثّلين آخرين للأسرة السلجوقيّة وعلى رأسهم شقيقاه محمّد وسَنْجَر اللذان حكما من بعده، فيما كان يخضع، في الوقت نفسه، لنفوذ رؤساء القبائل من أتباعه، إضافةً الى أنّ صغر سنه وعدم تجربته في الحكم لم يمكّناه من السيطرة على عوامل التفكّك داخل النظام السلجوقي. إنّ عدم حماسته في الدفاع عن مذهب السنة أبعده عن السياسة التي كان قد اتّبعها الوزير نظام الملك في عهد أبيه. وبالرغم من اتّخاذه أبناء هذا الوزير وزراء له، فإنّه لم ينجح في استمالتهم. إنّ حدّة الصراع الديني الذي تقاسم إيران، جعلت الإسماعيليّين يستفيدون من هذه الفوضى العامّة في البلاد ليستولوا على بعض القلاع الحصينة كقلعة ألَموت، في شمال غرب إيران، ويصبحون أسياد المنطقة. وكان لموت بركياروق، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، أن يكرّس حالة الارتباك التي ميّزت السنوات العشر من حكمه.

برلين (معاهدة برلين)، تموز/يوليو ١٨٧٨، هي معاهدة أُبرِمَت بين دولة العثمانيّين والدول الكبرى الأوروبيّة، إثر مؤتمر دعا اليه بْسِمارك، لحلّ مسألة البلقان. عُدِّلت بموجبها بنود معاهدة سان ستيفانو التي فرضتها روسيا على الباب العالي بعد انتصاراتها في

الحرب الروسيّة-التركيّة (١٨٧٧-١٨٧٨).

أكدّت هذه المعاهدة استقلال كل من رومانيا وصربيا ومونتنيغرو (الجبال الأسود) وقسم من بلغاريا يضمّ مدينة صوفيا في جوار الرومِلّي الشرقية التي بقيت تركيّة. أمّا البوسنة والهرسك، فمع بقائهما مبدئيًا عثمانيّتين، خضعتا للأمبراطوريّة النمساويّة-الهنغاريّة، في حين أُلحقت تساليا وإپيروس باليونان، بينما استقرّت إنكلترا في قبرص. احتفظت أخيرًا روسيا بمقاطعات الأناضول الشرقيّة التي كانت احتلّتها حديثًا، وهي أردلان وقَرْص وباطوم.

برهان الدين، القاضي أحمد (٧٤٥-٨٠٠هـ/ ١٣٤٥-١٣٩٨م)، شاعر وعالم عاش في عصر الإمارات في الأناضول. قائد حرب ورجل سياسة، أنهى حياته سلطانًا على مقاطعته في الهضبة الوسطى. كان ما يزال في سن الفتوّة حين ولّاه غياث الدين إرِتنا، مؤسّس سلالة الأرتنيّين الحاكمة، منصب القضاء. وفي عهود خلفاء إرتنا القصيرة شغل منصب وزير وأتابك. إنّ هذا الرجل التركيّ الأصل، المتحدّر من سلالة قضاة متنفّذين في قيصرية، ترك باللغة العربيّة مؤلّفات فقهيّة مُستَحْسَنة، وبالتركيّة مجموعة من القصائد.

في سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، انتزع السلطة من آخر السلاطين أسياده، واتّخذ سيواس عاصمة لدولته. شُغل، طوال مدة حكمه، بمحاربة جيرانه ومنافسيه من القرامانيّين والعثمانيّين والآق قويونلو والمماليك، وفي الوقت نفسه كان يقمع الثورات الداخليّة، وقد هلك خلال إحدى معاركه في ظروف غامضة.

برهانپور، (الاتّحاد الهندي)، مدينة في مقاطعة مدهيه پرادش الحاليّة. إنّ موقعها الإستراتيجي شمالي الدَّكن يفسّر الدور الذي قامت به خلال توسّع الإسلام الديني والعسكري في مرحلة متأخّرة من العصور الوُسطى.

منذ تأسيسها في أواخر القرن الرابع عشر عاصمةً للفاروقيّين أو سلاطين خندش (Khandesh) الذين أطلقوا عليها اسم الصوفي برهان الدين غريب، وخلّفوا آثارًا متعدّدة، احتضنت برهانپور عددًا وفيرًا من المتصوّفين المسلمين الآخرين. منذ سنة ١٥٥٥م، انتقلت إلى دائرة النفوذ المغولي، وأُلحقت بسلطتهم، خلال حكم «أكبر» الذي احتلّها عسكريًا في وقت لاحق، وبالتحديد سنة ١٦٠١. منذ ذلك الوقت، شكّلت قاعدة للعمليّات الحربيّة ضدّ ولايات الدكَن، هذه العمليّات قادها حينًا شاه جهان، وأحيانًا كثيرة أُورَنْغزيب الذي أقام فيها بصفته نائبًا للملك ثمّ بصفته أمبراطورًا. في مرحلة لاحقة، عانت برهانپور هجمات المهراته، إلى أن أصبحت، في القرن التاسع عشر، مستعمرة بريطانيّة، غالبًا ما تواجه فيها الهندوس والمسلمون.

بروتوكول البلاط، هو إحدى السِّمات المميّزة للحضارة الإسلاميّة الوسيطة التي واكب فيها الاحترام للممسكين بزمام السلطة، وهم ملوك مطلقو الصلاحيّات وحماة الديانة المنزلة، والاهتمام المستمرّ برفع شأن جلالهم وكذلك شأن ولاتهم.

وقد توافق الغرض من هذه التشريفات مع المبادئ المعمول بها في تنظيم مجتمع التزم متطلبات الشرع وتطبّع بقرارات الخليفة الذي هو مصدر كل سلطة. وهكذا اتّخذت التشريفات شكلها منذ القرون الأولى للأمبراطوريّة، خلال الحقبة الأمويّة، وبخاصة في العصر الذهبي للسلالة العبّاسيّة التي ما فتئت إنجازاتها في هذا المجال تشكّل، حتى الحقبة المعاصرة، نموذجًا قياسيًا للسلطات التي نشأت نتيجةً لتفكّك الخلافة.

١ - كانت التشريفات الأميريّة (Cérémonial princier) تنظّم العادات المعمول بها في أوساط المقامات العليا وجلساء الأمير وندمانه المقرّبين وكبار موظفي الإدارة والقادة العسكريّين الذين يشكّلون حاشية الخليفة وحرسه. وقد كان لهذه الأُصول الاحتفالية دورها، منذ البداية، في المسجد الجامع. فالبساطة المطلوبة في إقامة الصلاة لم تتناف أبدًا، حتّى خلال حياة النبيّ محمّد (ﷺ)، مع المظاهر الاحتفاليّة الهادفة إلى إبراز الموقع الفريد لنبي الله ورسوله الذي يقود الجماعة الإسلاميّة. وبرز لاحقًا، على الأرجح في نهاية القرن السابع، الاهتمام بتنظيم الحضور في المسجد، في صفوف متوازية، تتّجه أنظارها إلى القبلة وتكرّر الحركات التي يقوم بها الإمام. كذلك درج التقليد منذ تلك الفترة على تخلية الممرّ الرئيس، وهو ممر يتّخذ

أهميّة خاصة لوقوعه في المجال النظري للمحراب؛ ويحدد نطاق هذا الممرّ صفّان من الرجال المسلحين على جانبيه. وفي الوقت نفسه، كان استعمال الإمام للمنبر، حيث يقف على أعلى درجاته لإلقاء الخطبة، يسمح له بالإشراف على جمهور المؤمنين.

كانت هذه العادات في معظمها مستندة إلى السنّة النبويّة. لكن دخلت في الطقوس الاحتفاليّة الخاصة بالبلاط أعراف تستمدّ أصولها من تقاليد خارجيّة سابقة لها، وبخاصة تلك التي ازدهرت في الدول الشرقيّة الكبرى في العصور القديمة. وقواعد المراسم التي اعتُمدت في بلدان العالم العربي - والتي انتشرت في مرحلة متأخرة في العالم الإيراني التركي - حملت في سوريا الأمويّة ومصر الفاطميّة سمات الإرث البيزنطي، بينما طغت في البلاط العبّاسي وعند الملوك الأسيويّين السمات الساسانيّة. مع ذلك، رغم تطابق القواعد في أكثر الأحيان مع مظاهر الجلالة المعروفة في حضارات شرقيّة أو حتى أوروبيّة أخرى، إلّا إنّها طُبعت بخاصيّة إسلاميّة تدلّ عليها مثلًا المراسم المتعلّقة بارتداء الخليفة العبّاسي «عباءة النبي» ووضع قرآن عثمان بجانبه.

وإذا كنا نفتقد، في ما يتعلّق بالحقبة الأمويّة، روايات جليّة بما فيه الكفاية تلقي الضوء على المكتشفات الأثريّة، فإنّ الأعراف التي سادت أيام العبّاسيّين كانت مستمدّة بوضوح من أعراف قديمة يوردها الجاحظ في «كتاب التاج»، مستندًا في ذلك إلى أمثلة قديمة. وفحوى هذه الأعراف مجموعة قواعد لياقة بسيطة تتناسب ومناخ الترف والبذخ الذي يفرضه على الملوك الشرقيّين، منذ عصور طويلة، اهتمامهم بمظاهر هيبتهم: فلم يكن مسموحًا لأحد بالتجوّل على صهوة حصانه داخل حرم القصر الملكي، وكان يُفرض على الجميع، مهما كانت مكانتهم، الترجّل عند باب المدخل؛ ولم يكن يُسمح لأحد بالجلوس في حضرة الملك أو المبادرة بالكلام من دون إذنٍ منه. إلّا أنّ هذه التدابير لم يكن معمولًا بها إلّا خلال الاستقبالات العامة؛ وكان يمكن التغاضي عنها في اللقاءات الخاصة، وبشكل أوْلى خلال جلسات الترفيه والمرح.

٢ - في عهد العبّاسيّين، كانت المراسم الاحتفاليّة المتّبعة تتمّ بشكل أساسي في القصر، وليس في المسجد الجامع حيث لم تعد تتاح الفرصة إلّا نادرًا للخليفة للوقوف على منبره لمخاطبة رعاياه والشخصيّات البارزة المجتمعين في صدره. فكل شيء كان يجري آنئذٍ في قاعات الاستقبال الفخمة والسريّة التي لا يلجها إلّا رسميّو البلاط والشخصيّات المراد تكريمها، أي الشخصيّات التي يراد مثلًا تسليمها براءات تعيين أو أيّة شارات تشريف أخرى. وكانت الأصول المتّبعة في مثل تلك الاحتفالات صارمة، تتكرّر بدقّة من احتفال إلى آخر، والمراسم المتّبعة في القاعات الاحتفاليّة كانت هي نفسها تتكرّر في العديد من الاحتفالات الأخرى، كاحتفال يمين الولاء التي يقسمها أمير جديد وتُؤدّى عند تسلّم السلطة. وفي بعض الحالات، كانت الأمور على عكس ذلك، إذ كان الوجهاء وعِلْية القوم يَمْثُلون بين يدي الخليفة بشكل غير منظّم، كما هو معروف مثلًا بالنسبة الى الثورة الفاشلة التي قام بها ابن المعتز.

ومن مظاهر الاحترام الإضافيّة لشخص الخليفة جلوسه وراء حجاب يُرفع في اللحظة التي ينحني فيها الزائر لتقبيل الأرض مكررًا الحركة ذاتها إلى أن يبلغ المكان المخصّص له. ومثل هذا التكريم لشخص الخليفة كان على الأرجح جزءًا من المراسم عند الأمويّين، لأنّ كلمة «الحاجب»، وهو شخص يحتلّ مكانة مهمّة في هذه المراسم، تشتقّ من الكلمة العربيّة «الحجاب»؛ وهذه الظاهرة وُصفت بدقّة في القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد، في فترة سيطرة البويهيّين. ففي هذه الحقبة كان الخليفة يريد التعويض عن تضاؤل دوره السياسي بمظاهر تشريف إضافيّة. وفي سبيل هذا الغرض، كانت تخصّص في قصره في بغداد قاعة تسمى «دار السلام»، كان يجلس فيها على الطريقة الشرقيّة في عمق الإيوان، على أريكة مرتفعة تسمّى «السرير»، أي العرش، وتشبه سرير استراحة، وأحيانًا كان يجلس تحت قبة منسّجة تسمى «البيدلّة». وفي موقعه هذا، كان يحيط نفسه بكل رموز السيادة العائدة للنبي محمد (ﷺ) - والتي تُعتبر رموزًا دالّة على موقعه - وهي «القضيب» «والبردة»

والسيف، وإلى جانبه نسخة من مصحف عثمان. وكان يرتدي لباسًا رسميًّا أسود، مكوّنًا عادة من «القلنسوة الرُّصافية الطويلة»، ومحاطًا بحرسه الذين كان بعضهم يحرّك مذبّة، وكان يحيط به أركان معاونيه في الحكم: الوزير الذي يدخل مباشرة بعد أبناء الخليفة، ثمّ وليّ العهد الذي يجلس عن يمينه على مقعد عادي، وقائد الجيوش الذي يجلس عن يساره.

وبعد أن يعطي أمرًا للحاجب، كان الخليفة يبدأ باستقبال الشخصيّات وأفراد الحاشية الذين يتقدّمون الواحد تلو الآخر للسلام عليه منحنين أمامه، كلٌّ بحسب مرتبته. وهذه «المراتب» التي يعبّر عنها عمليًّا عدد الوسائد المقدّمة خلال مجالس ذات طابع خاص، كانت بيّنة في المقاعد المخصّصة للشخصيّات في قاعة الاحتفالات التي يرتبط بها تسلسل مثول أصحابها في حضرة الخليفة. وفي فترة سابقة، كان أفراد حاشية الخليفة المنصور يمثُلون أمامه للسلام عليه كلَّ صباح، وفاق ترتيب تحدّده وظيفة كلّ منهم، وتاريخ ميلاده أو حتّى انتماؤه العرقي، اذ كان ثمّة حرص على التمييز بوضوح بين العرب والموالي.

وكانت أنواع الشارات التي تُمنح خلال هذه المجالس الرسميّة احتفاء بشخص ما، منظّمة وفاق قواعد تراتبيّة صارمة، وتتنوّع بتنوّع فئات الأشخاص الذين تتمّ مكافأتهم. فيجري تقديم براءات تعيين مخطوطة صادرة عن ديوان الكتابة، وكذلك بيارق قيادة، تعطى للحكام والقادة العسكريّين الذين يُعهد إليهم بمهمّات. وكان هؤلاء يُمنحون، عند عودتهم منتصرين من حملاتهم، تيجانًا وعقودًا وأساور أو زنانير وسروجًا لخيلهم، جميعها من معادن ثمينة أو مزدانة بها ومرصّعة بحجارة كريمة. وكانت هدايا متنوّعة توزّع على رجال الإدارة والأدباء ورجال الدين المكلّفين مهماتٍ محددة أو لمكافأتهم في مناسبة ما. وتراوح هذه الهدايا ما بين الثياب الفاخرة والأطباق المرهفة الذوق المعدّة في مطابخ القصر والبُدور الملأى بالذهب والفضة. لكن الهبات الخليفيّة السخيّة الأكثر شيوعًا كانت «عباءات التشريف» التي تجهّزها المشاغل الرسميّة أي دُور الطّراز، المزدانة أحيانًا بالفرو والموشّاة بأسماء الخليفة وألقابه، والتي يخلعها على المستحقّين ويصار الى إلباسهم إيّاها على الفور.

وخلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، كانت الشخصيات التي تُشرَّف بحضور المجالس التي يعقدها الخليفة تتألف من كتّاب الدواوين الذين يشكّلون بطانة الوزير، وأمراء العسكر الذين يرافقون قائد الجيش، والقضاة والفقهاء الملحقين بالعاصمة والوافدين في ركاب قاضي القضاة. كان الجميع يقفون بصمت على جانبي الممرّ الذي تعبره الشخصيّة التي يستقبلها الخليفة، وكان كل منهم يرتدي اللباس الخاص بصفته: فالأمراء والقادة العسكريّون يرتدون السترة القصيرة أو القباء؛ بينما يلبس أمناء السر الدُّرّاعة، ويتميّز القضاة باعتماد الطيلسان. وكان الأسود هو لون اللباس المعتمد في البلاط العبّاسي، بينما كان اللون الأبيض هو الطاغي في محيط الأمويّين في ما مضى، في حين أنّ التزيُّن بالأقمشة المزركشة والزاهرة ذات الألوان المتنوّعة كان مرغوبًا في أماكن أخرى. أخيرًا كانت أفضليّات الدخول إلى حضرة الخليفة تبدأ بولي العهد - في حال وجوده - يليه أولاد الخليفة ثمّ الوزير ومرافقوه، ثمّ قائد الجيش وكبار الكتّاب والموظّفون والأمراء والضبّاط وممثّلو العائلة الهاشميّة والقضاة. وكان يجاز للجنود أن يحضروا على أن يتّخذوا أماكن لهم في البهو القائم قبل قاعة الاستقبال وراء حبال مشدودة إبقاء للممرّ الوسطي حرًّا.

كانت المراسم تختلف قليلًا عندما يستقبل الخليفة سفيرًا أجنبيًّا، فالسفير نفسه كان موضوع تشريفات متنوّعة منذ ولوجه القصر حيث يصطفّ الحرس على جانبي مسيره؛ ومن ثمّ كان يعبر أفنية متتابعة تزيّنها روائع فنيّة متنوّعة إستثارةً لإعجابه؛ ومن ثمّ كان يستقبله الوزير قبل أن يرافقه إلى حضرة الخليفة. وثمّة رواية معاصرة لذلك العهد، أوردها ابن الخطيب في كتابه «تاريخ بغداد»، مخصّصة لوصف استقبال الخليفة للموفد البيزنطي سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م، تقدّم لنا تفاصيل وافية حول مراسم الاستقبال الطويلة:

«ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر بالله ففرشت الدار بالفروش الجميلة وزينت بالآلات الجليلة ورتب الحجاب

وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة وقد أظهروا العدد المكثبة والأسلحة المختلفة فكانوا من أعلى باب الشماسية والى قريب من دار الخلافة وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم الخواص الدارية والبرانية الى حضرة الخليفة بالبزة الربعة والسيوف والمناطق المحلاة وأسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة وقد اكتري كل دكان وغرفة مشرفة بدراهم كثيرة وفي دجلة الشذاآت والطيارات والزبازب والذلالات والسميريات بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبية وسار بالرسول ومن معه من المواكب إلى أن وصلوا إلى الدار ودخل الرسول فمرّ به على دار نصر القشوري الحاجب ورأى صففا كثيرا ومنظرا عظيما فظن أنه الخليفة وقد احلته له هيبة وروعة حتى قيل له إنه الحاجب وحمل من بعد ذلك إلى الدار التي كانت برسم الوزير وفيها مجلس أبي الحسن علي بن محمد الفرات يومئذ فرأى أكثر مما رآه لنصر الحاجب ولم يشك في أنه الخليفة حتى قيل له هذا الوزير وأجلس بين دجلة والبساتين في مجلس قد علقت ستوره واختيرت فروشه ونصبت فيه الدسوت وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف ثم استدعي بعد أن طيف به في الدار الى حضرة المقتدر بالله وقد جلس وأولاده من جانبيه فشاهد من الأمر ما هاله ثم انصرف الى دار قد اعدت له. حدثني الوزير أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن المسلمة قال حدثني أمير المؤمنين القائم بأمر الله قال حدثني أمير المؤمنين القادر بالله قال حدثتني جدتي أم أبي إسحاق بن المقتدر بالله أن رسول ملك الروم لما وصل الى تكريت أمر أمير المؤمنين المقتدر بالله باحتباسه هناك شهرين ولما وصل الى بغداد أنزل دار صاعد ومكث شهرين لا يؤذن له في الوصول حتى فرغ المقتدر بالله من تزيين قصره وترتيب آلته فيه ثم صف العسكر من دار صاعد الى دار الخلافة وكان عدد الجيش مائة وستين ألف فارس وراجل فسار الرسول بينهم الى أن بلغ الدار ثم أدخل في أزج تحت الأرض فسار فيه حتى مثل بين يدي المقتدر بالله وأدى رسالة صاحبه ثم رسم أن يطاف به في الدار وليس فيها من العسكر أحد البتة وانما فيها الخدم والحجاب والغلمان السودان وكان عدد الخدم إذ ذاك سبعة آلاف خادم منهم أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود وعدد الحجاب سبعمائة حاجب وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف غلام قد جعلوا على سطوح الدار والعلالي. وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يعمل لخزائن العرائس وقد علقت الستور ونظم جوهر الخلافة في قلايات على درج غشيت بالديباج الأسود ولمّا دخل الرسول الى دار الشجرة ورأها كثر تعجبه منها وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده. قال لي هلال بن المحسن ووجدت من شرح ذلك ما ذكر كاتبه انه نقله من خط القاضي أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي وذكر أبو الحسين أنه نقله من خط الأمير وأحسبه الأمير أبا محمد الحسن بن عيسى بن المقتدر بالله قال كان عدد ما علق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد والستور الكبار البصنائية والأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والدبيقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر منها الستور الديباج المذهبة المقدم وصفها اثنا عشر ألفا وخمسمائة ستر وعدد البسط والنخاخ الجهرمية والدارابجردية والدورقية في الممرات والصحون التي وطئ عليها القواد ورسل صاحب الروم من حد باب العامة الجديد الى حضرة المقتدر بالله سوى ما في المقاصير والمجالس من الأنماط الطبري والدبيقي التي لحقها للنظر دون الدوس اثنان وعشرون ألف قطعة...»

(الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد: المكتبة العلمية بيروت - بدون تاريخ، ص ١٠٠ ١٠٣).

ومن ثمّ، في اليوم المخصّص لاستقبالهم، انتقل المبعوثون البيزنطيّون الذين أقاموا في بغداد على نفقة الخليفة في فندق ملكي يسمّى «فندق سعيد» - إلى قصر الخليفة، عبر طريق محاطة عن جانبيها بحرس من الخيّالة. ومن ثمّ بدأوا يخطون بتمهّل داخل القصر لإلقاء الذهل في قلوبهم أكثر فأكثر مع كل خطوة، وبعد عبورهم الباب العام، الذي منه دخلوا إلى الإصطبل الكبير ذي الممرّات المركزة على أعمدة من المرمر، حيث ساروا بين حاجزين [من الحرّاس]:

«وأدخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامّة الأعظم الى الدار المعروفة بخان الخيل وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبا وفضة بغير أغشية ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال وكل فرس في يدي شاكري بالبزة الجميلة ثم أدخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم ثم أخرجوا الى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرافين بالنار فهال الرسول أمرها ثم أخرجوا الى دار فيها مائة سبع خمسون يمنة وخمسون يسرة كل سبع منها في يد سباع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد ثم أخرجوا الى الجوسق المحدث وهي دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة طول البركة ثلاثون ذراعا في عشرين ذراعا فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالدبيقي المطرز وأغشيتها دبيقي مذهب وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخل وأن عدده أربعمائة نخلة وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبس جميعها ساجا منقوشا من أصلها الى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة وجميع النخل حامل بغرائب البسر الذي أكثره خلال لم يتطير [...] ثم أخرجوا من هذه الدار الى دار الشجرة وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف وللشجرة ثمانية عشر غصنا لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر

فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد في الداورد خببا وتقريبا فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد وفي الجانب الأيسر مثل ذلك ثم أدخلوا الى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصى ولا يحصر كثرة وفي دهاليز الفردوس عشرة آلاف جوشن مذهبة معلقة ثم أخرجوا منه إلى ممر طوله ثلاثمائة ذراع قد عُلّق من جانبيه نحو من عشرة آلاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وزردية وجعبة محلاة وقسيّ وقد أقيم نحو ألفي خادم بيضا وسودا صفّين يمنة ويسرة ثم أخرجوا بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرا إلى الصحن التسعيني وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل والبزة الحسنة والهيئة الرائعة وفي أيديهم الشروح والطبرزينات والأعمدة ثم مروا بمصاف من علية السواد من خلفاء الحجاب الجند والرجالة وأصاغر القواد ودخلوا دار السلام وكانت عدد كثير من الخدم والصقالبة في سائر القصور يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والأشربة والفقاع ومنهم من كان يطوف مع الرسل فلطول المشي بهم جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع واستسقوا الماء فسقوا».
(المصدر نفسه، ص ١٠٤).

وكانت ذروة هذه الزيارة هي المراسم الخاصة باستقبال الخليفة لهم في موضع هو أكثر أُبّهةً من الأماكن السابقة، حيث وصلوا إلى حضرة الخليفة المقتدر بعد أن عبروا سلسلة أخيرة من الأروقة والممرّات في قصر التاج المطل على نهر دجلة حيث كان يقيم. وفي هذا القصر كان سيد المكان:

«ووصلوا الى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما يلي دجلة بعد ان لبس بالثياب الديقية المطرزة بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالديبقي المطرز بالذهب وعلى رأسه الطويلة ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان ميسرة ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر بالله فكفر له وقال الرسول لمؤنس الخادم ونصر القشوري وكانا يترجمان عن المقتدر لولا أني لا آمن أن يطالب صاحبكم بتقبيل البساط لقبلته ولكنني فعلت ما لا يطالب رسولكم بمثله لأن التكفير من رسم شريعتنا ووقفا ساعة وكانا شابا وشيخا فالشاب الرسول المتقدم والشيخ الترجمان وقد كان ملك الروم عقد الأمر في الرسالة للشيخ متى حدث بالشاب حدث الموت وناوله المقتدر بالله من يده جوابًا وكان ضخمًا كبيرًا فتناوله وقبّله إعظاما له وأخرجا من باب الخاصة الى دجلة وأقعدا وسائر أصحابهما في شذا من الشذوات الخاصة وصعدا الى حيث أنزلا فيه من الدار المعروفة بصاعد وحمل إليهما خمسون بدرة ورقا في كل بدرة خمسة آلاف درهم وخلع على أبي عمر عدي الخلع السلطانية وحمل على فرس وركب على الظهر وكان ذلك في سنة خمس وثلاثمائة...».

٣ - إنّ التفاصيل المتعلّقة بالمراسم المعمول بها في البلاط العبّاسي - والتي توردها نصوص موثوق بها وواضحة التاريخ، كالنصوص أعلاه - تنطبق في الواقع على كل البلاطات الملكيّة في تلك الفترة وفي العصور اللّاحقة، مع فارق وحيد هو التفاوت في ثروة الأمراء المعنيّين والعادات الخاصة بمحيط كل منهم الأصلي. ونقاط التشابه بيّنة مثلًا بينها وبين اللقاءات والاستقبالات التي كانت تقام في القصور العظيمة التي شادها الخلفاء الشيعة الإسماعيليّون، من سلالة الفاطميّين، في نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الملادي، في عاصمتهم الجديدة القاهرة. فقد كانت هناك قاعتان مخصّصتان للاحتفالات نصف الاسبوعيّة: إحدى هاتين القاعتين، تسمّى «قاعة الذهب» وهي جزء من المجمّع المسمّى «القصرالكبير»؛ والثانية، المسمّاة «الإيوان الكبير»، جرى إعدادها برعاية الخليفة العزيز. وفي كلتا القاعتين، كان الخليفة يجلس، كما في بغداد، على عرش فوق منصّة، داخل مقصورة مشبّكة ووراء حجاب. وكان يرتدي ملابس ويضع شارات كتلك التي للخليفة العبّاسي، ويضيف إليها «التاج» الذي هو في الواقع عمرة عربيّة. كان أصحاب الرتب العالية من الكتبة والقادة العسكريّين، والخدم الخاصين بالخليفة يأتون للسلام عليه، وفاق تسلسل مراتبهم منحنين أمامه. على أن القضاة والأشراف كانوا معفيّين من هذا الالتزام الأخير. وفي كل مكان، كان الخدم الخاص بالخليفة - الذين يتمّ اختيارهم في أكثر الأحيان من الخصيان - ينتظمون وفاق تراتبية صارمة ويشاركون عن قرب في تنظيم الاحتفالات التي كانوا يحتلّون فيها مكانًا بارزًا.

وقد حرص الفاطميّون، بدورهم، بعناية شديدة، على الأخذ بطقوس مواكب التطواف العامّة والرسميّة التي كان الخليفة العبّاسيّ يقوم بها في مناسبات نادرة ذكرها المؤرّخون، عندما كان يتوجّه مثلًا إلى المسجد الجامع بسامرّاء ليؤمّ الصلاة، يتقدّمه صاحب الشرطة حاملًا الحربة العائدة للنبيّ. كان الخليفة [الفاطميّ] يقوم بذلك في مناسبة جميع الأعياد، سواء منها الدينيّة أو الشعبيّة المحلّيّة، محتفيًا مع الشعب بفتح قنال النيل أو «تخليق المقياس»؛ فكان يركب تحت قبّة تحفُّ به الرايات، ومحاطًا بأركان الدولة وحرسه، وفاق مراسم كان معمولًا بها، ربّما، في العراق، من غير أن يبادر أحد إلى تدوينها بدقّة. بيد أنّ بعض الدارسين عمد إلى تشبيهها بمراسم

الأباطرة البيزنطيّين في القسطنطينيّة. كذلك، كان يحدث، خلال عهد الفاطميّين في مصر، على الأقلّ في القاهرة، أن يطلّ الخليفة من منظرة تعلو ردهة الاستقبال في القصر ليتقبّل تحيّات الشعب. إنّ هذه العادة التي شهدتها بغداد في ظروف إستثنائيّة كإشاعات التخلّي عن السلطة - إذ كان الخليفة يُشرف من السطح القائم فوق مدخل القصر على المتجمّعين فيه، أخذ بها أمراء مثل آل زنكي في سوريا، مستخدمين لهذا الغرض رُواقًا أو «طارمة» من القلعة، سواء في حلب أو في دمشق.

وفي الحقبة ذاتها، أيضًا، كانت سلالات حاكمة أخرى في مناطق نائية من الأمبراطوريّة تنفرد بتفاصيل المراسم التي اعتمدتها. ففي المقاطعات الواقعة في أطراف إيران، استعاد الغزنويّون، بشكل خاص، تقاليد تعود إلى الساسانيّين - وهي تقاليد كانت ترفع من شأنهم بين الناس - وأضافوا إليها عادات أخرى اقتبسوها من المقاطعات الهنديّة التي احتلّوها. وكذلك الأمر في الغرب الإسلامي، وبخاصة في الأندلس خلال خلافة أمويي قرطبة أو في فترة حُكم ملوك الطوائف، إذ حوفظ على عادات قديمة تطابق التراتب الاجتماعي الخاص بالبلاد. وكانت مراسم مختلفة بعض الشيء تعكس أيضًا سمات تتوافق مع التركيبة الخاصة ببطانة الملك.

وبالطريقة نفسها، تغلغلت في الشرق، منذ نهاية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، عادات تركيّة حملها السلاجقة واختلطت بالعادات العبّاسيّة وأبرزت بعض مظاهر اللباس والأسلحة والأنشطة العسكريّة لزعماء البدو في آسيا الوسطى. ويرتبط بهذه المظاهر مثلًا الرمز الملكي للقوس والنشاب. لم يوضح كتّاب الحوليّات دائمًا تأثير هذه الإضافات على المراسم المعمول بها عند ملوك المسلمين آنذاك. لكن من المعروف، بعد فترة قصيرة، أنّ قواعد المراسم المعتمدة في دولة المماليك في سوريا ومصر أخذت تركّز على نمط العيش وطريقة الحكم لقادة عسكريّين أخذوا يمنحون الأولويّة لكلّ ما يتعلّق بمهنة السلاح وممارسة السلطة المباشرة. هكذا مثلًا كان العرض العسكري في القاهرة يتمّ بشكل منتظم مرّة في الأسبوع أمام السلطان الذي يخرج من قصره في موكب يرافقه كبار رسميّي البلاط، ويتبع خط سير ثابتًا بوصله إلى مسرح المناورات العسكريّة. كذلك كان السلطان يعقد جلسة في الأسبوع لينظر شخصيًا في التماسات رعاياه. وكانت هذه الجلسات تُعقد في مبنى مجاور لباب القلعة يُسمّى «دار العدل»، يعاونه فيها قضاة المذاهب الأربعة الكبار وصاحب الديوان الرئيسي والمحتسب، إضافةً إلى كبار الأمراء الذين يشكّلون «مجلس الخليفة»، كما أنّه كان يستمع إلى آراء أفراد عائلته وبعض حكّام الولايات. وكان الواصلون - سواء كانوا مدّعين أو لا - يسجدون أمام الخليفة قبل أخذ أماكنهم؛ على أن السلطان برسباي ألغى هذه العادة ليعيدها لاحقًا ملطّفة في شكل انحناء بسيط.

وهكذا، لم تكفّ السمات المميّزة للمراسم الملكيّة عن التطوّر، متجاوبة في ذلك مع المتغيرات التاريخيّة، لكنها ظلّت في ميادينها الأساسيّة أمينة للأسس التي وُضعت في الحقبة الذهبيّة للخلافة. وفتح هذا التطور الباب في ما بعد أمام تغييرات عدّة ذات طابع محلي، متوسطيّة وآسيويّة وأفريقيّة، لا مجال هنا لتعدادها. لكنّ بعضها على الأقل عرف شهرة تشهد عليها النوعيّة الممتازة للروايات التي وصلت إلينا، لا سيّما تلك التي كتبها رحّالة غربيّون من خلال شهود عيان، وهي تصف بإعجاب الأبّهة والفخامة الظاهرتين مثلًا في بلاط العثمانيّين والصفويّين والمغول، من دون إغفال الإشارة إلى بلاطات أخرى لها تقاليد مختلفة أيضًا، نمت على أطراف عالم إسلامي في ذروة توسّعه. والمعطيات التي تزوّدنا بها هذه الروايات توضحها الرسوم الملكيّة التي ساهمت المنمنمات العائدة لتلك المرحلة - من تركيّة وإيرانيّة وهنديّة مثلًا - في إيضاح تفاصيلها بشكل بارز. وإذا كانت أوصاف تلك المشاهد قد تفاوتت دقّة، فإنّ تشديد الرسوم باستمرار على أبّهة الإطار العام واحتفالية المراسم المتّبعة، ساهم في إثارة الاهتمام بالمزيد من الأبحاث حول موضوع البلاط الملكي في أرض الإسلام والأعراف السائدة فيه.

◄ راجع المستندات ٣٩، ٤٠ إلى ٤٢، ٤٥ إلى ٤٩، ٦٩، ٧٥، ٧٧ و٧٨.

بْروناي (سلطنة -)، مساحتها ٥٧٠٠ كلم²، عاصمتها بندر سري بغاوان. دولة صغيرة مستقلّة تقع على الساحل الشمالي لبورنيو. يقارب عدد سكّانها ١٥٠ ألف نسمة،

سنون بالمئة منهم مسلمون.

تعود السلطنة الحاليّة التي بقي نظامها ملكيًّا مطلقًا إلى القرن الخامس عشر، وعرفت أوج عزّها في القرن السادس عشر عندما توسّعت لتشمل كلّ الجزيرة، قبل أن يحصرها الأسبان في حدودها الحاليّة. أصبحت بروناي محميّة بريطانيّة سنة ١٨٨٨. ومنذ سنة ١٩٢٩ بدأت شركة شِل تستثمر حقولها النفطية التي تشكّل مصدر ثروتها. حصلت على استقلالها عام ١٩٨٤، غير أنّ السلطان الذي رفض الدخول في اتّحاد ماليزيا الفدرالي الذي يطوّق أراضيه، يصطدم اليوم، على الصعيد الداخلي، بمعارضة تنادي بنظام أكثر ديمقراطيّة.

◄ راجع المستند ٣٠.

البريد، من اليونانيّة «بيريدوس»؛ تنظيم حكومي، نشأ خلال القرون الوسطى الإسلاميّة، لنقل توجيهات السلطة المركزيّة إلى المقاطعات، وموافاة صاحب السلطة بالمعلومات التي توافرت لعملائه المستقرّين فيها.

في بداية العصر العبّاسي، في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، تنامت خدمات البريد بزخم، وقد كانت متوافرة في السابق، في الأمبراطوريّتين البيزنطيّة والساسانيّة، وما من شك في أنّ بعض جوانبها يعود إلى مبادرات الخليفة الأموي عبد الملك. كان في كلّ مدينة عميل مكلّف تسلّم الرسائل والوثائق، ثمّ إبلاغها إلى السلطات المحليّة، وفي المقابل، إعلام دواوين الخليفة بالوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمنطقة التي يُساهم في إدارتها. وكانت خدمات بريديّة خاصّة تصل العاصمة بسائر المدن، سالكة مسارات محدّدة مغايرةً أحيانًا لطرقات القوافل، وعليها منازل استراحة مختلفة عن الخانات، وهي مبانٍ أصغر منها، لكنّها محميّة ومزوّدة بالمياه، تتعاقب بمسافة فرسخين أو أربعة فراسخ أي ١٢ كلم أو ٢٤ كلم بحسب المناطق.

كان البريد جهازًا حكوميًّا مهمًّا. فبناءً على قول الخليفة العبّاسي الثاني المنصور، كان كاتب البريد الذي يدير مكتب المراسلات الرسميّة ويرأس، كذلك، جهاز الاستخبارات، شخصًا لا يُستغنى عنه مثل كاتب الخراج. إنّ أقدم المؤلّفات في الجغرافيا وُضعت بهدف إحصاء مسالك البريد ووصفها. غير أنّ هذه المؤسّسة المعقّدة التجهيز المتطلّبة مناخًا من السلطة والأمن، تفكّكت شيئًا فشيئًا مع تفكّك الأمبراطوريّة العبّاسية. ونتيجة لذلك لم تتوافر للبويهيّين، ولا للسلاجقة على ما يبدو، سوى خدمات بريديّة غير قائمة على شبكة صلبة من المحطّات. لكن البريد استعاد أهميّته خلال دولة المماليك السورية - المصرية التي كانت أقل اتّساعًا، لكن على قدر كبير من المركزيّة، عاملًا بشكل فعّال بواسطة الحمام إضافة إلى الجياد.

البَساسيري، أبو الحارث أرسلان المُظَفَّر، (ت ٤٥١هـ/١٠٦٠م)، أمير تركي شيعي، عمل في خدمة البويهيّين وحاول، في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فرض سلطته على بغداد، مقاومًا في الوقت نفسه نفوذ السلاجقة المتصاعد.

كان همّه الأوّل العمل على استتباب الأمن في مختلف المناطق العراقيّة عندما كانت الفوضى مسيطرة والصراع بين السنة والشيعة في أوج عُنفه. أقام بعد ذلك علاقات مع فاطميّي مصر، عندما دخل طغرلبك على رأس جيوش الأتراك الغُزّ بغداد بعد أن كانوا قد احتلّوا مجمل الأراضي الإيرانيّة. استغلّ البساسيري فرصة غياب السلطان الجديد ودخل بغداد على رأس أربعمائة فارس سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م، وأمر بأن تلقى الخُطَب باسم الخليفة الفاطمي في المساجد الجامعة. لكن، بعد أن تخلّى عنه أسياد القاهرة وبعد أن فشلت كل محاولاته لدعم قضيّتهم، اصطدم بطغرلبك الذي سار اليه بجيوشه. فقُتِل في ذي الحجّة من عام ٤٥١هـ/ كانون الثاني ١٠٦٠م. إنّ الأشهر القليلة التي جعل خلالها سلطة الفاطميّين تسود في قلب الأمبراطوريّة العباسية، لم تكن سوى مرحلة وجيزة لم تترك أي أثر سياسي أو ديني في المراحل اللّاحقة.

بسطام (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة صغيرة احتفظت، لمدّة طويلة، بأهميّة موقعها محطّةً للقوافل على الطريق الذي يصل، في شمال الصحراء المالحة، غربيّ إيران الإسلاميّة بمنطقتها الشرقيّة وبآسيا الوسطى. تقع بلدة بسطام في مقاطعة خُراسان، بالمعنى الواسع

للكلمة، لكنّها بالتحديد كانت تابعة لمقاطعة قومس التي احتلّت المرتبة الثانية بعد دامْغان في عهد العبّاسيّين. وقد عرفت هذه البلدة، في ظلّ السيطرة السلجوقيّة، أوج ازدهارها الذي استمرّ حتّى ما بعد الغزو المغوليّ في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. كذلك شهدت، على عهد الإيلخانيّين، في بداية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، توسيع المزار ودار التعليم المشيّدَيْن حول ضريح البسطامي وتحسينهما، وهما يشكّلان، حتّى يومنا هذا، أشهر المباني الأثريّة في تلك المنطقة. تحيط بالضريح أبنية تابعة له؛ تفوق بأهميّة آثارها سائر العمارات السلجوقيّة المشيّدة في البلدة، كالقلعة والمسجد الجامع، ولم يكن لاحترام الناس لها أيّ دور في حماية المدينة. إنّ الدراسة المعماريّة لهذا المجمّع المدفنيّ الكبير، حيث تتداخل أبنية تعود إلى مراحل تاريخيّة مختلفة، أتاحت تقدير القِدَم والجودة الزخرفيّة لعناصر فنّية ما تزال حتّى اليوم مهملة.

إنّ تغيّرات العصرين الحديث والمعاصر أفادت قليلًا مدينة بسطام، مع أنّها تقع على طريق مهمّ في البلاد، يربط طهران بمشهد، مرورًا بجنوب ألبُرْز، في موازاة طريق ساحل بحر قزوين؛ لكنّ نشاط بسطام التجاري آخذ باستمرار في الانحسار لمصلحة مجموعة عمرانيّة مجاورة في شاهْرُود/إمامرود.

البسطامي، أبو يزيد طيفور بن عيسى (؟-٢٦٤هـ/ ٨٧٧م)، صوفيّ إيرانيّ من العصر العبّاسيّ الأوّل. عاش في بسطام حيث ما يزال قبره مكرّمًا، وتجلّت في بعض أقواله نزعة صوفيّة اعتُبرت الأخطر في نظر الفقهاء المسلمين.

نسب إلى هذا الوليّ الخراسانيّ - الذي أهابت تقوى الإيلخانيّين بهم إلى تكريمه لقرون عدّة بعد وفاته، بتشييد مبانٍ ملحقة بضريحه - حِكَمٌ تتناول الاتّحاد الصوفيّ، جمعها أتباعه ونشروها، وترجمها صوفيّ شهير آخر، عاش في بغداد، هو الجُنَيْد، من الفارسيّة إلى العربيّة.

هذه الآراء الجريئة التي ربّما أخذها البسطامي عن أستاذه الايرانيّ، أبي علي السنديّ، تثبت عظمة الخليفة المماثلة لله كلّيًا، من خلال التجرّد عن الذات الفرديّة، بالِغةً بذلك مرحلة الاتّحاد مع الوحدانيّة والذات الإلهيّة، وهذا ما يمكن مقارنته بالتأويل الصوفيّ لانتقال النبيّ (ﷺ) إلى العالم اللامحسوس عند صعوده الليلي أو المعراج. إن الشهرة التي نالها أبو يزيد البسطامي في حياته تنامت، بعد مماته، بحيث غدا قبره مزارًا يوفّر لمنطقة بسطام تدفّق الزوّار الذي استمرّ حتى بعد زوال ازدهارها الاقتصادي.

البسملة ← **الله، الفاتحة**.

البصرة (الجمهوريّة العراقيّة)، مدينة مرفئيّة على الخليج العربي - الفارسي، تقع اليوم على شط العرب، على بعد خمسة عشر كيلومترًا عن البحر. بقيت محافظة على شهرتها وعلى ازدهارها الاقتصادي منذ بداية الإسلام، برغم ما عايشته من أحداث.

البصرة من المُنشآت الإسلاميّة التي تعود إلى عصر الفتوحات الكبرى في القرن السابع الميلادي. وهي، بحسب الرُّواة، أولى المُدن - المُعَسكرات التي أُنشِئت بأمرٍ من الخليفة عمر بن الخطاب، وكان الهدف من إنشائها إسكان الفاتحين الجدد واتّخاذها قاعدة لانطلاق الجيوش منها نحو فتوحات جديدة. كانت مساكنها، في بادئ الأمر، أكواخًا من القصَب استُبدلت بها في ما بعد بيوتٌ من الطين ثمّ من الآجر، وذلك في عهد الحاكم الأموي زياد بن أبيه حوالى سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م. وما لبث هذا التجمع السكاني أن اتّخذ شكل مدينة، بعد أن بُني في وسطه المسجد الجامع ومقرّ الحاكم. كانت مقسمة إداريًّا خمسة أقسام، خُصِّص كل قسم لقبيلة، وكانت تُمثِّل هذه القبائل «العائلات الكبرى» أو «أهل العالية»، على الأرجح: قُريش وتميم وبكر من عرب الشمال؛ عبد القيس والأزد من عرب الجنوب. وإلى هؤلاء الفاتحين انضمّ عدد من مواطني المنطقة الأصليّين، من الذين اعتنقوا الإسلام واعتُبروا من الموالي.

على مقربة من البصرة حصلت في ما بعد، سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، معركة الجمل الشهيرة بين علي وخصميه طَلْحة والزُّبير. وعاش في هذه المدينة، منذ بداية الإسلام، عدد كثير من المفكرين الذين كان لهم أثرهم في تاريخ الفكر الإسلامي، من هؤلاء الحسن البصري

وواصل بن عطاء في عصر الأمويّين، وسواهما من مفكّري المعتزلة والنحويّين واللغويّين والشعراء. كانت الحياة الفكريّة فيها ناشطة، وتشير المصادر إلى وجود مكتبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يموّلها مؤسّسها بشكل منتظم، ما يسمح بشراء الكتب أو بنسخها ويدفع رواتب للدارسين فيها.

أمّنت الأنشطة التجاريّة، إضافة إلى محصول التمر في الحقول المجاورة، نموّ هذه الحاضرة التي عرفت، في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، ثروةً حقيقيّة بالرغم من إنشاء مدينة بغداد. تمرّ فيها قناتان، الأولى باسم نهر مَعْقِل تصلها ببغداد والثانية، باسم نهر الأُبلّة، تلتقي دجلة قرب مدينة الأُبلّة القديمة، وعلى طول هذا النهر الأخير تمتدّ مدينة البصرة. داخل سورها الذي يعود إلى سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م، أحصى الجغرافيّ المقدسي ثلاثة مساجد جامعة، أقدمها ذلك الذي يقع قرب باب البادية، والثاني في وسط الأسواق التجاريّة والثالث داخل الأحياء السكنيّة. اتّسعت المدينة بشكل ملحوظ إذ بلغ عرضها، بحسب المقدسي، ثلاثة أميال أي ما يقارب الخمسة كيلومترات. قبالة باب البادية تقع ساحة كبيرة تُعرف باسم المِربَد، كانت محطّة تتوقّف فيها القوافل، كما كانت مركزًا للاجتماعات وللتبادل التجاري. كانت أسواقها تضاهي شهرة أسواق بغداد إذ كانت تتوافر فيها، بفضل تقدّم الملاحة البحرية، مُنتَجات تصلها من الشرق الأقصى. أمّا من الناحية البريّة فكانت تجتازها طريق تصل الجزيرة العربيّة بإيران الجنوبيّة.

تعرّض هذا المركز التجاري، الذي كانت تُفضي إليه طرق التجارة من المحيط الهندي، لغزوات عديدة شُنّت عليه من الخارج، في ظلّ الحكم العبّاسي. ونذكر، بشكل خاص، حركةَ الزّنج سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م إذ أمعنوا في المدينة حرقًا وتدميرًا مدّة ثلاثة أيام، وبعد ذلك غزوةَ القرامطة الذين نهبوها. غير أنّ المدينة كانت مأهولة بشكل كثيف عندما مرّ بها الداعي الفاطمي، الرحّالة الإيراني ناصر خُسْرُو سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م. لكنّ تراجع التجارة العالميّة التي كانت تسلك خليج الفرات أدّى، في ما بعد، إلى انحطاط البصرة بعد أن كانت قد تعرّضت للتهديم من قِبَل المغول، شأنها بذلك شأن سائر المدن العراقيّة. وجدها رحّالة القرن الرابع عشر مُهَدَّمة بشكل جزئي. ثمّ انتقل التجمع السكّاني إلى الموضع الذي كانت تقوم عليه مدينة الأُبلّة القديمة، وهناك نشأت في ما بعد مدينة البصرة الحديثة.

أصبحت البصرة اذًا مدينة إقليميّة ثانويّة ولم يُبدِّل وَضْعَها الاحتلال العثماني لها سنة ١٥١٧. في مطلع القرن السابع عشر، أُسِّست على هذا الموقع المتميّز إمارة محليّة راحت تستقبل ممثّلين للتجّار الأوروبيّين الذين انشأوا فيها، خلال العقود اللّاحقة، وكالات تجاريّة بالرغم من الفوضى السائدة. في الحرب العالميّة الأولى وخلال الاحتلال البريطاني للعراق من سنة ١٩١٤ حتى سنة ١٩٣٢، تحوّلت البصرة مدينةً حديثة وأصبح مرفأُها الحديث المنفذ الأهمّ للتجارة العراقيّة. في سنة ١٩٤٨ اكتُشف حقل الزُّبَير النفطي، وفي سنة ١٩٥١ بدأ تصدير النفط نحو الفاو، فكان ذلك سببًا لازدهار جديد أوقفه موقّتًا الصراع المسلح بين إيران والعراق.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ١٣ و٣٠.

بُصرى (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، بلدة في سوريا، استمرّت مزدهرة في القرون الوسطى، واضطلعت بدور إستراتيجي في مقاطعة حوران خلال عهد الصليبيّين.

كانت الحاضرة القديمة المعروفة باسم بوسترا (Bostra)، أحد أهمّ المراكز الرئيسة لمملكة العرب الأنباط قبيل ظهور المسيحيّة، قبل أن تُضمّ إلى الأمبراطوريّة الرومانيّة عام ١٠٥م. ضعفت بصرى بعد الفتوح العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، رغم موقعها على طريق القوافل التي تصل بين الحجاز والبحر المتوسط، ورغم الذكريات الإسلاميّة التي بقيت مرتبطة باسمها. ففي بصرى، بحسب الأخبار المأثورة، التقى محمد الشاب، خلال إحدى رحلاته التجاريّة، الراهب بُحيرا الذي تنبّأ له بمستقبله. وفيها، لاحقًا، بركت الناقة التي كانت تحمل نسخة القرآن إلى مدينة دمشق، بناء على طلب الخليفة الثالث عثمان بن عفّان. لكنّ ارتباط المدينة بهذه الذكريات وخصب ضواحيها الزراعيّة، وكذلك سلوك الطريق القديم الذي يمرّ به الحجّاج إلى مكّة، كل ذلك لم يكن كافيًا للحفاظ على أهميّتها، مع

أن الأمويّين كانوا قد شيّدوا فيها مسجدًا جامعًا، أعاد الأيوبيّون ترميمه في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

في ذلك العصر، حقّق لبصرى غزوُ الفرنج للشّرق الأدنى بدايةَ نوع من الازدهار ناتج عن وقوعها على مقربة من المملكة المسيحية في القدس، والضرورة الإستراتيجيّة لجعلها مدينة منيعة، وفي الوقت نفسه، مليئة بالآثار الدينيّة التي تؤكّد طابعها الإسلامي. ففضلًا عن المسجد الجامع الذي جُدّد، أُضيفت مصلّيات جديدة، أصبح اثنان منها، مع رواج تكريم الأولياء، مزارين دينيّين جذبا، بشكل خاص، اهتمام ولاة المنطقة وهما: مُصَلّى الخضر الذي رمّم سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م، ومصلّى المَبْرَك (موضع بروك الناقة) الذي أُضيفت اليه مدرسة على المذهب الحنفي، عام ٥٣٠هـ/١١٣٦م. وبلغت في بُصرى المباني العسكريّة التابعة للبوريّين والزنكيّين والأيوبيّين درجة عالية من الجودة والكمال. إنّ المسرح الروماني القديم اكتسب أهميّة دفاعيّة، وما لبث أن تحوّل تدريجيًّا إلى قلعة بزيادة الأبراج ذات المقاييس الضخمة، والجدران الفاصلة بينها، والمحال التجاريّة في داخلها. هذه القلعة التي تضرّرت لاحقًا عند الاجتياح المغولي سنة ١٢٦١م، أعاد تدعيمها السلطان بيبرس المملوكي؛ لكنّها عانت نتائج الأعمال الحديثة الهادفة إلى هدم بعض أقسامها لكشف المسرح الروماني القديم.

في أثناء ذلك، كان من نتيجة استيلاء العثمانيّين على سوريا ومصر، في بداية القرن السابع عشر، تحويل هذا الموقع القروسطي الحصين إلى مركز إقليميّ صغير. وفضلًا عن ذلك، فإن غزوات البدو، إبتداءً من القرن السابع عشر، جعلت طريق الحجّاج تتحوّل عن بصرى بعد أن كانت محطة في طريقهم، إلى الغرب عبر طريق صَنَمَيْن.

البطّال، «الشجاع»، لقب أحد المحاربين العرب الأسطوريّين في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، قام بالجهاد ضد البيزنطيّين في عصر الأمويّين. أصبح في ما بعد يُعرف باسم سيّد بَطّال الغازي، وهو بطل الروايات الملحميّة التركيّة وأخبار الأولياء في العصور المتأخّرة.

إنَّ منجزات هذا المحارب المقدام الذي اشترك في حملات تاريخيّة ضد القسطنطينيّة في بداية الإسلام وقُتل في الأناضول حوالى سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م أضفت هالةً من المجد، إبتداءً من القرن العاشر للميلاد، على شخصيّته التي كانت مجهولة إلى حد كبير. لكن كان لهذا الوجه تقديره في الروايات الشعبيّة، إذ اعتُبر مثالًا للصراع ضد الكفّار، كما أنّ الأوساط الدينيّة في سوريا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي التي عايشت مناخات إحياء قوى الجهاد وانتشار عادة «تكريم الأولياء»، نتيجة للصراع ضدّ الصليبيّين، خلقت له سيرة تزامنت مع تحوّل قبره مَزارًا يُتبرّك به. وقد ذُكر هذا القبر في دليل الهروي.

تظهر أيضًا الصبغة الشيعيّة لهذا التكريم في نصوص الروايات التركيّة حيث مُجّد البطل وعُظّم فنُسب إلى سلالة علي. وفي الوقت نفسه، نقلته هذه الروايات إلى قلب عصر العبّاسيّين وربطت اسمه بانتصار الخليفة على المبتدع بابك، كما جعلت من انتصاراته العسكريّة تمهيدًا لفتح الأتراك ملطية الذي روته ملحمة الملك دانشمند. وقد اختلطت بالتقاليد الملحميّة المحلية المستقاة من الفولكلورين التركي والإيراني، عناصر زوّجها أتباع النصيريّة وممثّلو الطريقة البكتاشيّة. فقد كان لذكرى البطّال عند هؤلاء إجلال كبير.

بَطْلَيُوسْ ← **بَدَاخوس**.

البَعث، إسمٌ لحزب عربي قوميّ وإشتراكي في الشرق الأدنى الإسلامي. بدأ يسيطر على مجريات الأحداث في دولتي سوريا والعراق بين سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٦، تاريخ انشقاق داخلي أصابه وما يزال مستمرًّا حتى الآن.

أسّس الحزبَ ثلاثةُ أشخاص: ميشال عفلق، الدمشقي المسيحي الأرثوذكسي، الذي اعتنق في أواخر حياته الإسلام، وتوفي سنة ١٩٨٨، وصلاح الدّين البيطار، وهو مسلم سنّي، ثم زكي الأرسوزي، وهو علويّ من لواء الإسكندرونة. المؤسّسون الثلاثة هم من خريجي جامعة السوربون في فرنسا.

برز الأرسوزي، وهو اكبرهم سنًّا، منذ سنة ١٩٣٢، من خلال نضاله ضد الانتداب الفرنسي في سبيل استقلال سوريا. فأسّس، سنة ١٩٣٩، الحزب القومي

العربي الذي انتمى إليه كلّ من عفلق وبيطار، قبل أن يتغيّر اسمه سنة ١٩٤٦ ليصبح حركة البعث العربي. وقد ظهر سنة ١٩٤٦ كل من ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار زعيمين لحزب سياسي هو حزب البعث العربي، راح بعد سنة ١٩٥٠ ينشر أفكاره ومبادئه بمختلف الوسائل. كان مناصرو الأرسوزي قد انضمّوا إليهما في تلك الفترة. وفي سنة ١٩٤٧ عُقِد في دمشق أوّل مؤتمر للحزب فتولّى ميشال عفلق أمانته العامة. انضمّ إلى الحزب بعد بضع سنوات الحزب الاشتراكي الذي كان يقوده أكرم الحوراني. وقد منحت المؤتمرات المتتالية، حتى سنة ١٩٦٣، الحزبَ تنظيمًا صارمًا أفرد في بنيته مكانًا لممثلي مختلف البلدان العربيّة.

تؤكّد عقيدة الحزب، كما حدّدها ميشال عفلق، وحدة الأمّة العربيّة وإحياء المجتمع العربي. وقد تضمّن برنامج الحزب البند الأساسي التالي:

«يؤلّف العرب أمّة. لهذه الأمة الحق الطبيعي في العيش داخل دولة واحدة وفي حرية اختيار مصيرها.»

دعا الحزب إذًا الى بناء دولة عربيّة واحدة معتبرًا أنّ الإسلام اضطلع وما يزال بدور جوهريّ في هذا البناء. أعلن عفلق «انّ سلطة الإسلام تتّخذ في عصرنا الحالي شكلًا مختلفًا عن السابق هو شكل القوميّة العربيّة.» انطلاقًا من هذه النظريّة، على العرب المسيحيّين أن يعتبروا الإسلام العنصرَ الأقوى في قوميّتهم. إبتداءً من عام ١٩٥٠، جاء مبدأ الاشتراكيّة ليضاف إلى مبدإ القوميّة. تبدو الاشتراكيّة وكأنّها خير وسيلة لإحياء المجتمع العربي، إذ إنّها تحدث انقلابًا في داخله. أما الماركسيّة فقد أبدى عفلق تحفّظًا حيالها إذ اعتبر أنّها تعطي الصراع الطبقي أهميّة مبالغًا فيها في حين أنّها لا تعطي القوميّة أهميّتها كاملةً. لكنّ ذلك لم يمنع حزب البعث من التحالف مع الحزب الشيوعي في مناسبات متنوّعة.

أدّى حزب البعث دورًا رئيسًا في الجمهوريّة العربيّة السوريّة. صحيح أنّه أُلغي سنة ١٩٥٢، شأنه شأن الأحزاب الأخرى، وقد نفي قادته إلى لبنان، لكنّه عاد ليظهر سنة ١٩٥٤ في البرلمان الجديد، علمًا أنّه بقي على هامش الحياة السياسيّة طيلة فترة الوحدة السوريّة - المصريّة (١٩٥٨ - ١٩٦١). وكان من أثر الانقلاب الذي وضع حدًّا لهذه الوحدة أن دفعه إلى السلطة. وبتأثير منه، وُضعت إبتداء من سنة ١٩٦٣ سياسة سوريّة للتأميم. سنة ١٩٦٦ وصل الى السلطة تيّار حزبي راديكالي متشدّد ما برح أن أُبْعِده، سنة ١٩٦٨، تيّار برغماتي معتدل.

مَثّل هذا التيّار الجنرال حافظ الأسد الذي أصبح سنة ١٩٧٠ رئيسًا للوزراء وأمينًا عامًا للحزب، قبل أن يصبح، سنة ١٩٧١، رئيسًا للجمهوريّة.

كان البعث نشطًا في العراق منذ ١٩٤٩، تاريخ تأصّله فيه. لكنّه بقي ضمن اطار السريّة نتيجة لملاحقة أتباعه من قبل نوري السعيد، رئيس الوزراء. ولم يظهر الحزب بصورة رسميّة إلا بعد ثورة ١٩٥٨، إذ دخل في صراع مع نظام الجنرال قاسم، وكان في صفوف المناضلين الحزبيّين الطالب صدام حسين التكريتي. في سنة ١٩٦٣ تمكّن تنظيم البعث من قلب الجنرال قاسم والاستيلاء على السلطة لشهور عدّة، لكنّه لم يتمكّن من الاستمرار فيها نظرًا إلى مواقف حكمه العدائيّة من عبد الناصر ومن الشيوعيّين. وفي سنة ١٩٦٨ برز كل من الجنرال بكر رئيسًا للجمهوريّة ورئيسًا لمجلس قيادة الثورة وحليفه صدام حسين نائب رئيس لمجلس قيادة الثورة، قبل أن يصبح هذا الأخير سيّد البلاد غير المنازع[٣٣]. ومنذ ذلك الحين سيطر حزب البعث، المُحكم التنظيم، على الحياة السياسيّة في العراق.

البعث أو قيامة الأموات، موضوع يتكرّر في سوَر القرآن الأولى ومنه تُستلهم، في المجتمع الإسلامي معظم الطقوس المتعلّقة بالموت.

يعلن القرآن قرب نهاية العالم التي ستتميّز ببعث الأموات والدينونة الأخيرة. إنّ إعلان البعث هو ظاهريًا الموضوع الذي صدم أكثر ما يكون سكان مكّة عندما توجّه إليهم النبي محمد (ﷺ) في مستهلّ دعوته. لقي أصحاب الفلسفة، في القرون الوسطى، صعوبات في استيعاب هذا المفهوم. فأنكر بعضهم ذلك قائلًا ببعث الروح لا الجسد، على الرغم من أنّ القرآن الكريم ذكر

بعث الجسد بوضوح (مثلاً سورة القيامة، الآيات ١ - ٥)، وقد نوقش الموضوع، بشكل مفصّل في كتب التفسير وفي مختلف الكتابات الدينيّة.

بعلبك (الجمهوريّة اللبنانيّة)، مدينة في الناحية الشماليّة لسهل البقاع، استمرّت آثارها القديمة الضخمة في التأثير على أحداث العصر الوسيط قبل أن تؤدّي إلى تطورها الحديث.

ترتفع بعلبك أكثر من ألف متر عن سطح البحر وتقع بين سلسلتي جبال لبنان: الغربيّة والشرقيّة، فاصلةً بين حوضي نهر العاصي ونهر الليطاني. عُرفت باسم هليوبوليس قبل أن تدخل، سنة ٦٣٧م، في نطاق الأمبراطوريّة الإسلامية إثر الفتوحات الكبرى. ازدهرت كسائر المدن السوريّة في عهد الأمويّين قبل أن تتضاءل أهميّتها في عهد العبّاسيّين. شجّعت ضخامة آثارها على الاستفادة منها في الحروب الدفاعيّة وعلى تحويل منشآتها الى قلعة حصينة. أضيفت إليها تحصينات جديدة إبّان حكم الزنكيّين والأيوبيين والمماليك. وقد شُيّد مسجد كبير قرب هذه القلعة. أتاحت الطاقة العسكريّة الدفاعيّة لهذه الآثار لبعلبك - التي هي أصلاً قرية بسيطة - أن تضطلع بدور إستراتيجيّ مهمّ في تاريخ المنطقة. واستمرّ هذا الدور حتى سيطرة العثمانيّين في القرن السادس عشر الذين حجّموا دورها وجعلوا منها مركزًا إداريًّا.

بغداد (الجمهوريّة العراقيّة)، العاصمة الحاليّة للبلاد. كانت عاصمة العبّاسيّين بين القرنين الثاني والسابع للهجرة/الثامن والثالث عشر للميلاد. لكنّها، بعد احتلالها وهدمها على أيدي المغول، عادت لتكتفي بدورها مركزًا للمنطقة.

اختار المنصور، ثاني الخلفاء العبّاسيّين، هذا الموقع وسط ما بين النهرين ليبني مقرًا له ولحاشيته ولموظّفيه. كان همّه ان يبتعد عن مدينة الكوفة حيث كان عدد كثير من سكّانها يناصبه العداء، وأن يؤسّس، بعد نجاح الثورة العبّاسيّة، عاصمة تكون رمزًا للسلطة الجديدة وتتمتّع بميزات إستراتيجيّة واقتصاديّة. أُنشئت المدينة بعيدًا عن كل موضع مهمّ باستثناء تلك القرية التي كانت تحمل، من دون شك، إسم بغداد في عصر ما قبل الاسلام [حيث كانت تقام فيها الأسواق]. وُضِعَت تصاميم هذه المدينة سنة ١٤١هـ/٧٥٨م، ولم يفرغ من بنائها إلا في سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م. تقوم المدينة في الموقع الذي يتقارب فيه نهرا دجلة والفرات أكثر ما يكون، وحيث تصل القنوات بينهما. إنّ تلاقي الطرق البريّة والقنوات المائيّة في هذا الموقع كان من شأنه أن يساعد على تنمية الحركة التجاريّة وعلى التنظيم العسكري، لأنّ وفرة المسالك المائيّة هي وسيلة دفاعيّة لا يُستهان بها.

بنى المنصور، في بادئ الأمر، على الضفة الغربيّة للنهر، بين دجلة والقناة المعروفة بصراة، «المدينة المدوّرة» المُحَصّنة التي اتّخذت رسميًّا اسم «مدينة السلام» وهي تسمية مستوحاة من القرآن (سورة يونس، الآية ٢٥) حيث استُعملت عبارة «دار السلام» لوصف الجنّة. يحيط بالمدينة سوران تخترقهما أبواب أربعة ويفصل بينهما خندق عريض. وداخل هذين السورين سور ثالث يحيط بالفناء الداخليّ للمدينة حيث شُيّدَ، في وسطه، قصر الخليفة مجاورًا للمسجد الكبير. وإلى جوارهما مساكن أبناء الخليفة وقائد الشرطة ورئيس الحرس. بين السور الداخليّ والسور الخارجيّ الذي يليه، أُقيمت الأحياء السكنيّة ومباني الإدارة حيث تتجمّع كلّها بشكل حلقة. أمّا المحلّات التجاريّة فقد خصّص لها، في بادئ الأمر، الممرّات ذات القناطر التي تصل بين الأبواب الخارجيّة والأبواب المقابلة لها في السور الداخلي المحيط بالفناء الكبير. لقد خضع بناء هذه المدينة التي يبلغ قطرها الكيلومترين ونصف الكيلومتر لتصميم هندسي دقيق، يعتمد الشكل الدائري على غرار مدن العصر الساساني. يُرى في هذه الهندسة الاثر الأسيوي المختلف عن التقليد المتّبع في حوض المتوسط الذي ميّز بناء المدن الأمويّة. لكن، بالرغم من هذا الاختلاف، حُوفظ على العلاقة التي أصبحت تقليدًا بين القصر الملكي ومرافق المدينة.

تحوّلت المدينة بشكل سريع إلى مركز تجاري. فنمت الأحياء التجاريّة خصوصًا في القسم الجنوبي منها خارج السور الخارجي، وذلك لأنّ القسم الشمالي منها المعروف بالحربيّة كان مخصّصًا لسكن الجنود. كان لأصحاب كلّ مهنة مكانهم الخاص، يُشرف فيه على سير

العمل مُراقب نعيّنه الدولة رسميًا. لذلك ما لبث أن استقرّ في هذه الأحياء تجّار قدموا من ايران الشرقيّة ومن بلاد ما وراء النهر، ما يدلّ على سرعة التبادل التجاري وعلى نمو المصادر الحرفيّة.

في سنة ١٥٦هـ/ ٧٧٣م، أبْعَد الخليفة كل المحلات التجاريّة التي كانت قد استقرّت داخل المدينة المدوّرة ونقلها الى حي الكرخ جنوبي المدينة. وفي السنة نفسها بنى له قصرًا عُرف بقصر الخُلْد، خارج سور المدينة، على ضفاف دجلة. وفي سنة ٧٧٣ أيضًا أُنشئ في الناحية الشرقيّة، على الضفّة المقابلة لنهر دجلة، مسكن وليّ العهد المهدي. عرف هذا المقرّ أصلًا بـ«العسكر» وتجمّعت حوله بشكل سريع الأسواق التجاريّة، وأصبح يُعرف في ما بعد بـ«الرُّصافة». ولما تُوفي المنصور سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م، كانت بغداد قد أصبحت مدينة مزدوجة، كثيرة الازدهار، منتشرة على ضفّتي دجلة.

بعد ذلك راحت بغداد تنمو وتزداد جمالًا. وشهد القسم الشرقيّ منها نشوء قصور فخمة يمتلكها أصحاب الشأن في الدولة، إذ إنّ القسم الغربيّ منها لم يبقَ فيه أيّة مساحة فارغة. كان الخليفة يقطن تارة في قصر الخلد وطورًا في قصر الرّصافة، وبالرغم من ذلك فإنّ المسجد الجامع القائم وسط المدينة المدوّرة لم يُهجر، بل على العكس، جرى تكبيره. وقد استمرّ ازدهار بغداد ناميًا حتّى نهاية حكم هارون الرشيد. فجاءت الحرب الأهليّة بين إبنيه الأمين والمأمون لتوقف هذا الازدهار. خلال حصار سنتي ٨١٢ - ٨١٣م، دُمّرت المدينة المدوّرة بأكملها ولم ينجُ سوى المسجد الجامع الذي بقي لوقت طويل المسجد الرئيس ومركز التعليم الأوّل في العاصمة.

إنّ المرحلة الزمنيّة التي استقرّ فيها الخلفاء في سامراء بين سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م وسنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م لم تمنع بغداد من استعادة مجدها وأُبّهتها. فقد اتّخذ الخلفاء الذين اختاروا العودة الى بغداد المقرّ الرمزي للأسرة العبّاسيّة من قصر المأمون المعروف بقصر حَسَني، القائم في القسم الجنوبي من الرّصافة، مقرًّا لهم؛ وقاموا بتوسيعه وتجميله.

ثمّ شيّدوا بالقرب منه قصر التاج وقصر الثريّا وقصر الفردوس، وبنوا المسجد الجامع المعروف بمسجد القصر الكبير الذي كان الخليفة يرتاده ليَؤمّ فيه الصلاة. شكّلت مجموعة الأبنية الجديدة هذه ما عُرف بدار الخلافة، وبقيت كذلك حتّى أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

أمّا التجمّعات السكّانية الشعبيّة المجاورة فقد بقيت، خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، محافظة على تفوّقها الاقتصادي بالرغم من الحقبة التي أصبحت فيها سامراء عاصمة الخلافة. لكنّها، خلال القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد، عانت الفتن والإضطرابات العسكريّة والفَيَضانات. وقد وجدها القائد البويهي عضد الدولة سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م في حالة يرثى لها، فعمل على ترميم مبانيها المهدّمة وشُيّد له فيها قصرًا عُرف بدار الإمارة. وعندما بلغها بعد ذلك السلطان السلجوقي طُغرلبك، عزم على أن يبني مدينة جديدة في الأحياء الوسطى بين الرّصافة ودار الخلافة، لكنّ الوقت لم يسمح له بذلك، فاكتفى بإعادة بناء مقرّ البويهيّين الذي اتّخذ، إبتداء من ذلك الحين، اسم دار المملكة. وعندما جاء السلطان السلجوقي الثالث مَلِكشاه، اهتمّ بالمسجد المجاور الذي أصبح مسجد السلطان الكبير وثالث مسجد جامع على الضفة الشرقيّة لدجلة. وفي السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أحاط الخليفة المستظهر الأحياء السكنية بسور، بينما راحت الرّصافة تفرغ تدريجيًّا من سكّانها، نتيجة للفيضانات المتكرّرة. وأصبحت المساكن على الضفّة الغربيّة أكثر تَشتُّتًا.

فقدت بغداد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد مركزها كحاضرة عبّاسيّة مترامية الأطراف. لكنّها، وهي تحمل ذكرى مجدها الغابر، بقيت محافظة على دورها الريادي، نظرًا إلى وجود دار الخلافة فيها والى موقعها الفكري، إذ كانت تضمّ أكثر من ثلاثين مدرسة. راحت هذه المؤسّسات التعليميّة تزدهر منذ ظهور المدرسة النظاميّة الأولى سنة ١٠٦٧م، وقد قام ببنائها، في بداية حكم السلاجقة، الوزير نظام المُلك وأصحاب المراكز العليا في الدولة، ثمّ الخلفاء أنفسهم. فقد أمر الخليفة المستنصر بتشييد بناء ضخم

مخصّص لتعليم الفقه وفق مذاهبه الأربعة المعترف بها رسميًا في الدولة. ما يزال هذا البناء المعروف بالمستنصرية قائمًا حتى الآن وهو يشكل، مع بقايا مدرسة أخرى كانت قائمة في وسط القلعة، نموذجًا للفن الهندسي المعتمد آنذاك. فقد كانت الهندسة العراقيّة تتخذ من الآجر والفخّار مادة للبناء وللزخرفة.

لكنّ عاصمة آخر الخلفاء العبّاسيّين - الذين بقوا محترمين كخلفاء بالرغم من ضيق الرقعة التي كانوا يستقلّون بحكمها - سقطت في أيدي المغول الذين دخلوها سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وعبثوا بها سلبًا وتخريبًا. فقتلوا عددًا كبيرًا من سكّانها ولم ينجُ أعضاء العائلة العبّاسيّة من هذا المصير أيضًا. بعد ذلك لم تتمكّن بغداد من أن تتعافى من الكارثة التي حلّت بها، خصوصًا أنّها فقدت دورها كمركز للخلافة، اذ أصبح الخليفة السنيّ لاجئًا في مصر. تقلّصت المساحة المأهولة فيها لتختصر في أحياء الضفة الشرقيّة المحمية بالسور الذي بُني في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، إذ تعرّضت لموجة جديدة من التهديم سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م، إثر اجتياحها من قبل تيمورلنك. إنّ المدينة التي كانت محور العالم الإسلامي أصبحت، منذ ذلك الحين، محطّ صراع بين التيموريّين، أخلاف تيمورلنك، وسلالة آق قيونلو التركمان، ثمّ أصبحت بعد ذلك مركز نزاع بين الصفويّين والعثمانيّين. وقد دخلها سليمان القانوني سنة ١٥٣٤، ثمّ استولى عليها الفرس سنة ١٦٢٣، لكنّهم اضطرّوا للتراجع عنها أمام السلطان العثماني مراد الرابع.

وقد أدّى الأمر ببغداد، نتيجة للهجمات المتتالية التي تعرّضت لها وللتدمير المتزايد الذي لحق بها في القرن التاسع عشر، إلى تحويلها مدينة متوسّطة الأهميّة، لا تجمع سوى بعض الأنشطة الحرفيّة والتجاريّة، بالرغم من بقائها مركزًا رئيسًا لمقاطعة العراق. لكنّها شهدت، في مطلع القرن العشرين، توسّعًا مفاجئًا في ظلّ الانتداب الإنكليزي لمملكة العراق. وازدادت تمدّدًا، خصوصًا بعد سنة ١٩٣٠ عندما تمّ بناء أحياء متعدّدة، سواء في شمال المدينة القديمة أو في جنوبها. فكان ذلك بداية ازدهار لم تعرقله لا الاضطرابات السياسيّة ولا آثار الحروب الأخيرة. وقد واكب هذا الازدهار العمراني ازدهار ديموغرافي وتجاري أسهما في إزالة الآثار النادرة المتبقية التي تشهد لماضٍ مجيد.

البغدادي (الخطيب) ← الخطيب.

بك أو بيْ، (المؤنث الجاري الاستعمال هو بيغُم، بيكُم)، لفظ فخريّ تركي يعني «السيّد»، كان يُطلق بشكل مُبهَم على النبلاء، كما كان يَدخل في تركيب أسماء العلم، كذلك استُخدم في ظروف أخرى على أنّه لقب مختص بوظائف محدّدة.

بعد أن دخل الضباط الأتراك وأعضاء الأُسَر الحاكمة المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى، أصبحت لفظة بك تستعمل، بشكل عام، مرادفًا للفظة «أمير» العربيّة، ولفظة بكيلربكي أو بيكلربكي مرادفة لأمير الأمراء في العربيّة. وما لبثت معانٍ أخرى أن برزت، تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولا سيّما بعد سيطرة السلاجقة الكبار الذين تسمّى الأوّلون منهم باسم چغري بك وطغرل بك، وبعد أن اتّسعت سلطتهم لتشمل القسم الأكبر من الشرق الإسلامي. ولاقت الألقاب التي أخذت تُرْدَف بلفظ بك، مثل أتابك، إستحسانًا كبيرًا، علمًا بأنّ لفظ بك نفسه كان يُطلق على «الأمراء» الأتراك من مختلف الأسر الحاكمة في إيران والأناضول. وهكذا كان يُطلق بشكل خاص، خلال القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، على رؤساء الدُّويلات المستقلّة، بعد تفكّك سلطة سلاجقة الروم، فحملت هذه الدول اسم بيلك أو «إمارة».

ثمّ استُعمل في ما بعد لفظ بيلك أو سنجق-بيلك، للدلالة على أهمّ «الوحدات الإداريّة والعسكريّة» في الأمبراطوريّة العثمانيّة. في العصر نفسه أصبحت الألقاب المردفة بلفظ بك تتبع هرميّة محدّدة، لكنّ سُلّم هذه الهرميّة أخذ يفقد شيئًا فشيئًا من قيمته - فانخفض لقب بيلربك مثلًا من «قائد الجيوش» إلى «حاكم مقاطعة» بسيط - كما غدا يطلق أحيانًا على بعض الرُّتب، بدون أن يكون لحاملها أيّة مسؤوليّة خاصّة.

أما اللقب المؤنث بيغم/بيكُم الذي كان مقصورًا في عهد الإيلخانيّين وعند المغول على الملكات أو

الأميرات، فأصبح شانعًا في ما بعد؛ إلى درجة أنّه يدلّ اليوم في الباكستان على كل امرأة متزوجة من الطبقة الوسطى.

البكتاشيّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة، منافسة للمولويّة، كان لها رَواج كبير في أمبراطوريّة العثمانيّين، عُرفت بهذا الاسم نسبةً إلى صوفيّ تركي، شبه أسطوري، إسمه حاجّي بكتاش.

كان حاجّي بكتاش خراسانيّ الأصل، قدِم إلى الأناضول في نهاية القرن الثالث عشر للميلاد، وكان على الأرجح من أتباع بابا إسْحق رئيس حركة البابائيّة الدينيّة السياسيّة. ترك بعض الكتابات العقائديّة لكنّه بالرغم من ذلك لم ينهض أبدًا بالدور الكبير الذي نسبته إليه بعض الترجمات. أعاد البكتاشيّون - الذين استمرّوا ناشطين من دون شك في القرن الرابع عشر - تنظيمهم في بداية القرن السادس عشر على يدي كبير من مرشديهم وعرفوا، نتيجة لذلك، إنتشارًا واسعًا عَزّزته علاقتهم بالإنكشاريّة. فكانوا ينتقون أعضاء تجمّعهم من بين كبار المسؤولين في العاصمة وفي المقاطعات التي يرأسها حكّام من أصل عسكري.

كانت جماعة البكتاشيّة تعلن انتماءها إلى السُنّة، لكنّها كانت تضمّ بين اعضائها أفرادًا يمكن نسبتهم إلى الشيعة نظرًا إلى معتقداتهم وإلى ما يكنّون لعليّ ولسلالته من عميق الإجلال. ولقد كان لهذه الجماعة علاقة، في الأصل، بجماعات الدراويش التركمان، كجماعة قِزِل باش التي أدّت من جهتها إلى نشوء دولة الصّفويّين. وقد تمكّنت البكتاشيّة من تجاوز وضعها الدقيق هذا في دولة تتّخذ من السنّة الحنفية مذهبها الرسمي، بفضل سرّية عقيدتها والتستُّر في ممارسة شعائرها. وكان في جملة معتقداتها عناصر غريبة عن الإسلام، تنشرها تحت ستار التقاليد المحليّة أو العبادات الشعبيّة. وكانت مراكز التكايا الدينيّة تقام غالبًا قرب مزارات تكريم الأولياء.

تعود أهميّة هذه الطريقة بشكل خاص إلى قدرتها السياسية التي مكّنتها من صدّ الهجمات التي تعرّضت لها من حين إلى آخر، بسبب معتقداتها التوفيقيّة. لكنّ هذه السلطة تداعت بشكل بيّن بعد أن قضى السلطان محمود الثاني على الإنكشاريّة سنة ١٨٢٦. عند ذلك تعرّض البكتاشيّون والجماعات المتحدّرة منهم للاضطهاد ودُكّت كل خوانقهم. وقد تمكّنت البكتاشيّة، بفضل تأصّل جذورها، من الاستمرار بعد ذلك في الأناضول وفي البلقان وفي بعض البلدان العربيّة. وتوصّلت إلى البروز في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في حلّة أدبيّة جديدة، إلى أن حُلّت رسميًّا سنة ١٩٢٥، بعد تطبيق أحكام القوانين العلمانيّة في جمهوريّة تركيا الجديدة.

البكتاشيّة ← بكتاشي.

البكري ← أبو عبيد البكري.

پكْس (الجمهورية الهنغاريّة)، مدينة ما تزال تحتفظ ببعض الآثار المعماريّة العائدة إلى المرحلة التي خضعت فيها للحكم الإسلامي، بعد أن ضُمّت إلى الأمبراطوريّة العثمانيّة زهاء قرن ونصف القرن.

إن فترة الاحتلال التركي لهنغاريا من قِبل سليمان القانوني، بعد انتصاره العسكري في موهاكس سنة ١٥٢٦، واستيلائه سنة ١٥٤١ على قلعة بودا التي أصبحت لاحقًا بودابست في شمال البلاد، وفّرت الازدهار لمدينة پكس إلى أن استعادها الهبسبورغ في العام ١٦٨٦. هذا المركز القديم لمنطقة ما وراء الدانوب الذي كان موضوع اهتمام من قِبل الحكّام المجريّين بعد احتلالهم موقع سوپينا، العاصمة الرومانية لمقاطعة پانونيا، استمرّ في الاضطلاع بدور إداري مهمّ لموقعه المحصّن، فضمّنه السلطات العثمانيّة إلى منظومة مراقبة هذه المنطقة الحدوديّة الجديدة. ثمّ عرف هذا المركز إزدهارًا اقتصاديًا بفضل أنشطته التجاريّة وموقعه على طريق القوافل التي تصل أوروبا الوسطى باسطنبول مرورًا بالبلقان. وعلى الرغم من الخراب الذي تسبّبت به في ما بعد الحملات العسكريّة، ما تزال المدينة الحاليّة، الواقعة على مقربة من الحدود الجنوبيّة لجمهوريّة هنغاريا، تحتفظ بآثار عثمانيّة الطابع متنوّعة، منها المساجد والأضرحة.

بَلاَت، ميناء قروسطي في منطقة الأناضول المتّصلة ببحر إيجه، بني على موقع ميليه (Milet) القديمة ولم

يبق منه سوى بعض الأنقاض البعيدة عن البحر.

إنّ الأهميّة التجاريّة والإستراتيجيّة لهذا الموقع الذي أُقيم على مصب المياندر، والذي دخله الإسلام مع الأتراك في بداية القرن الثالث عشر للميلاد، لم تتثبت إلا بعد أن ضُمّ في ما بعد إلى إمارة المنتشا أغللري، حين جعل منه أمراؤها مُنطلقًا لحملاتهم البحرية. وقد حصل البندقيّون في هذا المرفأ على تسهيلات تجاريّة ثبّتها لهم العثمانيّون في القرن الخامس عشر. لكنّ التقهقر الاقتصادي لهذا الموقع جاء نتيجة توحُّل المرفأ التدريجي. وما يميّز موقع بلات اليوم هي تلك الانقاض الأثريّة ومنها المسجد الأنيق ذو القبة الوحيدة الذي بناه سنة ١٤٠٤م إلياس بك من أسرة المنتشا.

بلاد ما بين النهرين العليا، عُرفت منذ العصور الوسطى بالجزيرة. أرض واسعة تقع بين مجريي دجلة والفرات العاليين، على الحدود الجنوبيّة الشرقيّة للأناضول، وهي مقسّمة اليوم بين الجمهوريّة العربيّة السورية والجمهوريّتين العراقيّة والتركيّة.

إنّ هذه الهضبة السُّهبيّة الغنيّة بالمراعي الموسميّة، القابلة للاستغلال زراعيًّا بواسطة الريّ، بخاصةٍ في أجزائها الخصبة، تحتوي مناطق مرتفعة في جزئها الشمالي، حيث تنحدر أودية كواديي البَليخ والخابور، وهما رافدان للفرات، أو كواديَيْ الزّاب الصغير والزّاب الكبير، رافدي دجلة.

تتحكّم هذه الهضبة بطرق القوافل، الممتدّة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، التي كانت تجتاز الهلال الخصيب لتصل إيران والخليج العربي - الفارسي بساحل المتوسط والأناضول، وتشكّل تقاطعًا للمواصلات البريّة والنهرية، التجارية والإستراتيجيّة، التي وفّرت لها بين الحين والآخر الازدهار التجاري، ولكنّها كانت، في الوقت نفسه، ممرًّا للغزوات. لقد شجّعت هذه الطرق تدفّق الغزاة المتواصل، من البدو غالبًا، وكتبت للجزيرة في تاريخها الاسلامي قدرًا مضطربا حصلت فيه معارك شهيرة وغارات قام بها جيران هذه المنطقة الأقوياء.

منذ سنة ٢٠هـ/٦٤١م، دخلت الجيوش العربيّة - الإسلاميّة إبّان الفتوحات الكبرى، قادمةً من سوريا والعراق بعد فتحهما، منطقة الجزيرة واحتلّتها حتى جبال أرمينيا، وألحقت بها قلعة أُرزن الروم، وهي ارضروم الحاليّة.

لم ينته الاحتلال بتراجع الحدود البيزنطية وحسْب، بل باستقرار منظّم في المنطقة لعدد من القبائل العربيّة، كانت قد بدأت قديمًا بالتسلّل إليها. أدّى ذلك، خلال خلافة عثمان بن عفان وحُكم معاوية لولاية سوريا، إلى تكوين ثلاث مقاطعات تحمل أسماء القبائل الأكثر سيطرة والأقوى: ديار بكر، ديار مضر وديار ربيعة. المقاطعة الأولى تقع الى الشمال وهي الأصغر، وهي تُنسب إلى بكر بن وائل، إحدى مجموعات القبائل البدويّة التي قدمت من جزيرة العرب والتي انتشرت شمالاً عبر بلاد ما بين النهرين. تمتدّ هذه المنطقة على حوض دجلة الأعلى، وهي تضمّ نواحي أمثال ميّافارقين، حصن كيفا وديار بكر عاصمتها. أمّا المنطقة الثانية المنسوبة إلى عرب آخرين قادمين من الشمال ومتحدّرين من مُضر، فكانت تمتدّ غربًا على ضفتي الفرات والبليخ وأسفل الخابور، يحدّها سُميساط شمالاً وعانة جنوبًا وعاصمتها الرقّة، كما كانت تضمّ عددًا من المواقع المهمّة القديمة، شأن حرّان والرُّها، دون أن نُغفل منبج ولا المواقع التي أضحت اليوم خرابًا كبالس وقرقيسيّا والرحبة.

والمقاطعة الثالثة والأوسع هي ديار ربيعة التي كانت تضمّ التضاريس التي تفصل أحواض دجلة والفرات، بين مناطق رأس العين وماردين ونصيبين وسنجار، وتضمّ أيضًا وادي دجلة نفسه حول جزيرة ابن عمر المعروفة اليوم باسم سيزره، وبخاصةٍ حول الموصل عاصمتها، والتي أصبحت عاصمة بلاد ما بين النهرين العليا بكاملها.

وبسبب الطبيعة الخاصة بهؤلاء السكان من أهل القبائل والعشائر، نشبت صراعات متواصلة عاثت خرابًا في الاقليم، بخاصةٍ في زمن الحكم الأموي. فلم تكفّ هذه الصراعات عن تدمير حضارة مدنيّة محليّة عانت ما عانته في الماضي من آثار الحروب بين الأمبراطوريّتين الفارسيّة والبيزنطيّة. لم تشهد عصور الاسلام الأولى في الجزيرة مواصلة الصراعات بين قبيلتي قيس وكلب المنقسمتين إلى عشائر تتّبع كل منها نهجها في سبيل

تحقيق طموحاتها السياسية وحسب، لكنّها شهدت أيضًا صراعات دينيّة، منذ معركة صفّين حتى معركة الزاب الكبير. يضاف إلى كل ذلك إخماد حركات التمرّد على يد السلطة المركزيّة السنيّة في سوريا. كانت السلطة تحاول ضرب حركات التمرّد المحليّة التي يحرّض عليها الشيعة النافذون الداعون إلى خلافة العلويّين، أو الخوارج الذين بقوا في الموصل وضواحيها.

إن هذه العقبات الداخليّة التي تعود، من جهة، إلى التنوّع الكبير على الصعيد السكّاني، ومن جهة ثانية إلى أنشطة التيّارات الدينيّة المتباينة في قطاع جغرافي مفكّك - كان يُشكّل، في الوقت نفسه، منطقة حدوديّة خاضعة للهجمات البيزنطيّة لأنّه كان يضمّ معظم الثُّغور - ظلّت قائمة إبّان الخلافة العبّاسيّة. تسبّب هذا الوضع وأسهم بخلق حركات عصيان دائمة، منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، بترسيخ سلطات محليّة، غالبًا ما كانت من أصل غريب وذات توجّه إنفصالي. هكذا كانت سلطة حمدانيّي الموصل، ومروانيّي آمد (ديار بكر) الأكراد وعُقيليّي نصيبين والموصل، بدون أن يفوتنا ذكر نُميريّي ديار مضر على سبيل المثال لا الحصر.

إلّا أن تطوّرًا استجدّ في المنطقة إثر اصطدامها بالغزوات البدويّة القادمة هذه المرّة من آسيا الوسطى، وذلك منذ أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. إن قدوم الأتراك وإقامة أمبراطوريّة سلاجقة إيران الواسعة الأطراف، غيّرا في التوزيع السياسي لأراضي بلاد ما بين النهرين العليا، وكذلك في ما يتعلّق بالأناضول التي أصبحت المنطقة المفضّلة لتوسّع سلطة السلالات التركيّة وهي في عزّ يقظتها. تصدّى أتابكة الموصل (أو الزنكيّون) الأقوياء لفروع الأرتُقيين المختلفة التي تقاسمت ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر، والتي لم تكفّ عن النضال لتبقى أخيرًا في ماردين حتى القرن الخامس عشر للميلاد. وقد برزت أيضًا طموحات الأيوبيّين في سوريا، وكذلك طموحات سلاجقة الروم والخوارزمشاهيّين. وبسط المغول بدورهم، في أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، نفوذهم على منطقة الموصل التي خضعت طويلًا لسلطة الإيلخانيّين، في حين أنّ المماليك السوريّين - المصريّين ضمّوا ديار مضر إلى ممتلكاتهم، بينما أقام التركمان، الذين انضمّوا الى صفوف الآق قويونلو، لفترة طويلة في ديار بكر.

إنّ التغيير التدريجي الذي طرأ على السكّان كان من شأنه أن يفضي إلى تقسيم أراضي ما بين النهرين العليا التي ضمّها العثمانيّون الى ممتلكاتهم منذ ١٥١٧، على الرغم من الخصومات التي كانت قائمة بينهم وبين الصفويّين والتي دامت حتى عام ١٦٣٧. أنشئت آنذاك مقاطعة كبيرة تحت اسم ديار بكر ضمّت الجزيرة القديمة بكاملها، ومركزها الإداري والعسكري آمد حيث منها كانت تنطلق الحملات العسكريّة ضدّ فارس، وبدأت آمد تُعرف بديار بكير او ديار بَكير، وكانت مدينة الموصل خاضعة لها.

غير أنّ همّ التوحيد هذا، الذي تبعه تحسّن ملموس وجدّي من الناحية الاقتصاديّة، لم يحل، خلال القرن التاسع عشر، دون تكاثُر النزاعات والاصطدامات المحليّة التي اختفت نهائيًا على أثر رسم الحدود الجديدة. إن هذه الحدود التي قامت إثر الحرب العالميّة الأولى، في ضوء نتائج معاهدة لوزان في العام ١٩٢٣، قسّمت أراضي دجلة العليا والفرات الأعلى إلى ثلاث مناطق منفصلة: منطقة تركيّة تضمّ الأقسام الشماليّة من ديار مضر وديار بكر وديار ربيعة القديمة، بما فيها نواح مثل أُورفا (الرُّها) وحرّان وديار بكر وسيلفان وماردين وسيزره؛ ثمّ منطقة الجزيرة السوريّة التي تضمّ السهول المجاورة لبليخ والخابور وحوض الفرات الأوسط حول الرقّة ومدينة دير الزور الحديثة؛ وأخيرًا منطقة عراقيّة حول الموصل تضمّ أعالي سنجار والامتداد الجنوبي للسهوب السوريّة.

◄ راجع المستندات ٨، ٩، ١٢، ١٣، ٢١، ٢٤ و٢٦.

بلاد ما وراء النهر، منطقة في آسيا الوسطى تقع ما وراء نهر جيحون/آموداريا، وتضمّ حوض نهري جيحون وسيحون/سرداريا.

إنّ قسمًا من بلاد ما وراء النهر صحراوي؛ ومع ذلك كانت أوديتها مزروعة خلال العصور الوسطى، إذ كانت تعبرها الجداول المنحدرة من بامير، ويجري فيها النهران الكبيران اللذان يصبّان في بحر آرال. كانت

تحوي عددًا وافرًا من الواحات، يشغل بعضها مركزًا مميّزًا على طريق القوافل التجارية التي تصل خراسان بالشرق الأقصى، وهي معروفة بطريق الحرير الشهيرة. ولكنّها كانت تقع، في الوقت نفسه، على الممرّ الذي تسلكه الغزوات البدويّة القادمة من السهوب الآسيويّة الداخليّة. وكانت تضمّ أقاليم عدّة خلال العصور الإسلاميّة، من بينها: بلاد الصُّغد مع مدينتي بُخارى وسمرقند المهمّتين، وخوارزم وهي بلاد خيوه الحاليّة التي تضمّ دلتا نهر جيحون وحوضه الأعلى وتحديدًا مقاطعتي بذخشان وَوَخّان، كما نميّز فيها أيضًا، في حوض نهر سيحون، منطقتي فرغانة والشاش/طشقند.

في العهد الأموي، وإبّان الفتوحات الكبرى، بدأت الجيوش العربيّة - الإسلاميّة غاراتها على بلاد ما وراء النهر. وكانت تِرْمِذ أولى مدن بلاد ما وراء النهر التي سقطت بأيديها عام ٦٩هـ/ ٦٨٩م. وتتابعت حركة الفتوح بنجاح. ففي أواخر القرن الأوّل للهجرة/مطلع الثامن للميلاد، ضُمّت مناطق واسعة منها إلى الدولة العربيّة وأُخضعت لسلطة والي خراسان. ففي عام ٨٥هـ/ ٧٠٥م، عندما عيّن الخليفة الأموي الوليد الأوّل قُتَيْبة بن مسلم واليًا على خراسان، تابع الوالي الجديد التقدّم باتّجاه فرغانة، وراح يشيّد المساجد في المدن الرئيسة التي حلّت فيها جماعات عربيّة. وقد دافع هؤلاء العرب عن أنفسهم بنجاح على أثر اغتيال قتيبة عام ٩٦هـ/ ٧١٥م والجلاء عن فرغانة بعد أن كانوا قد اجتاحوها. إلاّ أنّهم واجهوا ثورات محليّة عديدة تتابعت حتّى بعد وصول العبّاسيّين إلى الحكم، إلى أن تمكّنت الجيوش الإسلاميّة من الانتصار في معركة تالس عام ١٣٣هـ/ ٧٥١م، وأبعدت نهائيًّا فرغانة عن مطامع الصينيّين والاتراك.

وظهرت في ما بعد السلطة السامانيّة في بلاد ما وراء النهر، وكان السامانيّون في البدء حكّام سمرقند وفرغانة والشاش وهراة. وفي عام ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م، عيّن الخليفة العبّاسي المعتمد أحد السامانيّين واليًا على كل تلك المنطقة، فاتحًا الطريق أمام قيام دولة شبه مستقلّة تتميّز بالغنى والقوة. وبعد سقوط السامانيّين سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م، اقتسمت دولتهم سلالتان تركيّتان هما: القراخانيّون الغربيّون الذين احتلّوا الوسط، والغزنويّون الذين استولوا على الجنوب والغرب. واعتبارًا من منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، خضعت السلالتان للسلاطين السلاجقة الكبار الذين ثبّتوا سلطتهم في إيران والعراق وأعالي بلاد ما بين النهرين وفي بلاد الشام، كما أنّهم فرضوا سلالة جديدة حاكمة هي الخوارزمشاهيّة. وبعد فترة وجيزة، سمح سقوط آخر السلاطين السلاجقة الكبار للقبائل الرحل القراختاي غير المسلمة باحتلال البلاد في أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، قبل أن تتدفّق عليها الغزوات المغوليّة التي ألحقت تدميرًا مريعًا بمدن بلاد ما وراء النهر. لكنّها نهضت ثانية خلال القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، ليعود فيحتلّها تيمورلنك من جديد عام ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م، لكنّ أمبراطوريّته تجزأت بسرعة بعد موته عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م. غير أنّ سمرقند عرفت إزدهارًا جديدًا في ظل التيموريّين، ولا سيّما في عهدي شاهرُخ وأُولوغ بك.

وشهد القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد سيطرة سلالة الأوزبكيّين الشيبانيّين الصغيرة، التي، بعد أن أحكمت سيطرتها على كامل بلاد ما وراء النهر، تمكّنت من الاحتفاظ بخيوة، بعد أن تخلّت عن باقي البلاد لخانات محليّين، ممن سيطروا بصورة خاصّة على بخارى وكوكَنْد. وأخيرًا، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، احتلّ الروس المنطقة بدءًا بطشقند، الشاش القديمة، عام ١٨٦٥، ونظّموا حول هذا المدينة منطقة التركستان الروسي، وتقدّموا في ما بعد إلى بخارى وخيوه وكوكنْد، حتى إنّهم سيطروا، في عام ١٨٨١، على بلاد ما وراء النهر قاطبةً. وقد أُلحقت هذه المناطق ما بين ١٩٢٣ و١٩٢٤ بالاتّحاد السوفياتي ونشأت منها، إلى الجنوب من كازاخستان، جمهوريّات مستقلّة هي: أوزبكستان، قرغيزستان، وطاجكستان التي تجاور، إلى الجهة الثانية لنهر آموداريا، جمهوريّة تركمانستان.

◄ راجع المستندات ١٣، ١٧ و٣٥.

البَلاذُري، أحمد بن يحيى: ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، مؤرّخ عربي من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، كان في العصر الذهبي لحكم العبّاسيّين

أهم مؤرّخ دوّن أخبار توسّع الاسلام وفتوحاته الأولى التي شكّلت انطلاقته.

يعود البلاذري في جذوره البعيدة الى أصل إيرانيّ لكنه عاش في بغداد ونادم الخليفة المتوكّل. بقي يتردّد على بلاط الخلافة بعد مقتل المتوكّل، بالرغم من أنّه لم يحظ مع الخلفاء اللّاحقين بالثقة نفسها التي كان يحظى بها لدى هذا الأخير.

جمع عددًا من المواد التاريخيّة إن في بغداد أو إبان تجواله في سوريا، وعالجها بكثير من التجرد والأمانة العلمية اعتُرف له بهما منذ ذلك العصر. له مؤلّفان مهمّان ما يزالان محفوظين حتى اليوم، الأول: «فتوح البلدان»، يروي فيه باختصار ظروف احتلال الجيوش العربيّة - الإسلاميّة مختلفَ المناطق. وبضمّن رواياته تلك آراء مختلفة حول المسائل الاجتماعيّة والماليّة؛ والثاني «أنساب الأشراف»، وهو مُؤلّف ضخم لم يفرغ من تأليفه كما أنّه لم يُنشر برُمّته[٣٤]. صنّف المؤلّف فيه مجموعة السِّيَر التي تتناول العصور الأولى للإسلام بحسب سلسلة الأنساب لكل أسرة، فابتدأ بأسرة عَليّ وتابع بالعبّاسيّين، وانتقل بعد ذلك إلى الأمويّين، فأفرد لهم قسمًا كبيرًا من مؤلّفه. وهو في منهجه التأليفي هذا متأثر بطريقة اتّبعها مؤلّفون سابقون، منهم ابن سعد الذي اعتمد «الأجيال» أو «الطبقات» تصنيفًا لسرد أخباره. إنّ الروحيّة التي ساق بها أبحاثه تبدو مع كل ذلك جديدة، إذ إنّه كان يهدف إلى دعم السياسة العربيّة والسنّية التي اعتمدها المتوكّل. فقد دفعه هذا الهدف إلى التذكير بفضائل الأمويّين، تلك الفضائل التي حاول طمسها مؤرّخو الحقبة الأولى من العصر العبّاسي. وما تزال مؤلّفاته مصدرًا كبير الأهميّة لكلّ مؤرّخ حديث يهتمّ بتطوّر المجتمع الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة، وهي فترة ما تزال غامضة حتى الآن.

بلال بن رباح، (؟ - ٦٤١م)، من صحابة الرسول ومن خاصّته المقرّبين إليه. جُلب عبدًا من الحبشة واعتنق الإسلام في مرحلة مبكّرة. اشتراه أبو بكر وأعتقه، فدخل في خدمة الرسول. كان في عداد المهاجرين، وأصبح المؤذّن الرسميّ عندما اعتُمد الآذان (الدعوة إلى الصلاة) في المدينة المنوّرة، واستمرّ في الوقت نفسه الخادم الشخصيّ للرسول وخازن الأموال.

بعد وفاة النبي (ﷺ)، صار بلال مؤذّن أبي بكر أوّل الخلفاء الراشدين، لكنّه تخلّى عن ممارسة هذا العمل على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، والتحق بجيش الفتوح الإسلاميّة في بلاد الشام حيث أمضى بقية حياته. مات بلا شك في دمشق، حيث غدا قبره مزارًا إبّان انتشار حركة تكريم الأولياء، وقد ذكره الهرويّ في «دليله».

بَلحارث، أو بنو الحارث بن كعب، قبيلة من عرب الجنوب كانت تسكن في عصر محمّد (الرسول) (ﷺ) منطقة نجران وكانت تجاور بني همدان الذين كانوا يقطنون منطقة اليمن.

يروى أنّ وفدًا من هذه القبيلة التي كان نصفها من المسيحيّين والنصف الآخر من المشركين توجّه سنة ٨ للهجرة، أي سنة ٦٣٠م، إلى نبي الإسلام وكان عليه أن يخضع، قرب المدينة المنورة، لمباهلة لكنّه تخلّى عن ذلك. وقد حصل بعد ذلك أن اعتنق قسم منهم الإسلام، ووقّع المسلمون معاهدة مع المسيحيّين. وقد أُكّد هذا الوضع الخاص في خلافة أبي بكر عندما تمكّن من إعادة فرض سلطة الإسلام في شبه الجزيرة العربيّة إثر الرِّدة التي تلت موت النبي محمد (ﷺ).

بَلْخ، (جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة). مدينة قروسطيّة مشهورة في إيران الشرقيّة. كانت في السابق على تخوم الأمبراطوريّة الإسلاميّة وأصبحت قرية صغيرة في شمال غرب أفغانستان. وقد تزامن انحطاطها مع ازدهار مدينة مَزارِ شريف الجديدة في القرن التاسع عشر.

عرفت مدينة بلخ كعاصمة للسهل الزراعي الغني، الممتدّ على جنوب نهر آموداريا أو جَيحون، إزدهارًا عرفته من قبلها باكْتريا القديمة. لكنّ هذا الدور بدأ يتضاءل تدريجيًا منذ القرن السابع الميلادي، عندما حاولت الجيوش العربيّة - الإسلاميّة فرض سيطرتها على تلك الحاضرة إبّان الفتوحات الإسلاميّة. وما برحت المدينة، منذ ذلك الحين، مركزًا لمقاومة ناشطة. فقد حاول أُمراء محليّون في فترات متعدّدة إحياء مجد هذه المدينة الغابر، وحافظ المعبد البوذي نَوْبهار - الذي

كان يتخذ الكاهن الأكبر فيه اسم برمكو، ومنه جاء اسم أسرة البرامكة - على شهرته في بداية الاسلام. وكانت المدينة التي وصفها أحد الجغرافيّين العرب، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بأنها «أمّ المدائن» لا تزال تُعتبر إحدى المدن الأربع الكبرى في مقاطعة خراسان الغنيّة.

توالت عليها الثورات، كما توالى القمع والتهديم، منذ الإضطرابات الأولى التي بدأت في ظل حكم الأمويين، لوقوعها في منطقة زراعيّة زادتها الحركة التجاريّة غنى، إضافةً الى انفتاحها التجاري على آسيا الوسطى وتعرّضها تاليًا للاجتياحات القادمة من الشمال، عبر طرق ما وراء النهر القديمة. تعرّضت المدينة لهجمات متلاحقة أدّت الى تدميرها، بالرغم من بعض المحاولات التي قام بها حكّامها لإعادة بنائها من وقت الى آخر. ففي هذا الموقع الذي تنازعته، حتى القرن الرابع عشر، أُسر حاكمة مختلفة كالصفّاريّين والسامانيّين والغزنويّين والسلاجقة والغوريّين والخوارزمشاهيّين، لم يبقَ من تلك الحقبة سوى آثار مصلّى اكتُشفت حديثًا، تزيّنه زخرفة داخليّة رائعة من المرمر المنحوت، وهو معروف اليوم بمسجد حاجي پياده.

بعد تلك الحقبة، بذل التيموريّون جهودًا ملموسة لترميم المدينة، فتركوا آثارًا هندسيّة تشهد على ذلك، كضريح الخواجه ابو نصر پارسا. لكنّ هذه الجهود أُتبعت بصدام مسلّح بين الأوزبك الشيبانيين من جهة والصفويّين من جهة ثانية الى أن دخلت بلخ، سنة ١٧٥٢، أمبراطوريّة آل دُرّاني الأفغان، وضُمّت نهائيًا إلى افغانستان إبتداءً من سنة ١٨٤١. في تلك الحقبة انتقلت الحياة الناشطة في مدينة بلخ القديمة إلى مدينة جديدة تقع على بعد عشرين كيلومترًا منها، تعرف باسمها العربي - الفارسي مزار شريف أو «القبر الشريف» حيث يقوم مسجد شيعي على اسم الإمام عليّ منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، كما يذكر ذلك دليل الهَرَوي. وأصبح هذا المزار مقصدًا لزيارات متكاثرة ولاحتفالات شعبيّة أخرى تجذب السكّان. ففي هذا المركز التجاري الناشط استمرّت المدينة الجديدة بالنمو، الى أن حلّت محلّ بلخ عاصمةً للمقاطعة.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ١٧، ٢٣.

البَلَديّة، نمط من التنظيم الإداري المَدنيّ، لم يعرفه الإسلام في القرون الوسطى، لكنّه اعتُمد في معظم الدول الإسلاميّة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

ظهرت أُولى الدوائر والتنظيمات البلديّة في الأمبراطوريّة العثمانيّة وقد أُطلق عليها، في القرن العشرين، اسم «بلديّة»، وهو تعبير مستحدَث منسوب إلى كلمة «بلد». في العام ١٨٥٧ جرى، مثلًا، في حيّ غالاتا في اسطنبول تشكيل مجلس بلدي عُيّن أعضاؤه من قبل الحكومة، وأُعطي صلاحيات في ما يتعلّق بمصلحة الطرق وتنظيم الأسواق ومراقبة الأماكن العامّة. وفي العام ١٨٦٨ تمّ توسيع هذا التنظيم لكي يشمل المدينة كلّها، بينما شُكِّلت، في العام ١٩١١، مجالس بلديّة منتخبة لمعاونة المحافظين. وفي العام ١٩٣٠ تمّ في تركيا إنشاء بلديات منظّمة على النمط الأوروبي.

امتدّ التنظيم المعتمد في قلب الأمبراطوريّة إلى المدن الرئيسة في الشرق الأدنى العربي الخاضع لسيطرة العثمانيّين. لكنّ جودة الخدمات البلديّة كانت مرتبطة بإرادة الحكّام. ولم يتمّ تنظيم البلديات على النمط الأوروبي، في مختلف الدول، إلّا بعد الحرب العالميّة الأولى. وشكّلت مصر حالة استثنائيّة، إذ إنّ مدينة الإسكندريّة التي كانت تضمّ عددًا من القناصل الأوروبيّين، كانت قد زُوّدت، منذ العام ١٨٣٥، بتنظيم بلدي، ومن ثمّ، في العام ١٨٦٩، بمجلس منتخب برئاسة رئيس معيّن. أمّا القاهرة فلم تحصل على مجلس بلدي حقيقي إلّا في العام ١٩٤٩. وفي المغرب العربي زُوّدت مدينة تونس، في العام ١٨٥٨، بمجلس بلدي وفقًا للنموذج العثماني، وعُدّل هذا النظام عدّة مرات في ظلّ الحماية وبعد الاستقلال. وفي دولة المغرب تمّ إنشاء هيئات بلديّة في فاس، ومن ثمّ في المدن الأخرى في العام ١٩١٢. أمّا إيران فقد شهدت، بدءًا من العام ١٩٣٠ في عهد رضا شاه، مجالس بلديّة منتخبة يرتبط رئيسها مباشرةً بوزارة الداخليّة.

البلغار، قوم انتشروا، منذ ما يقارب القرنين قبل الإسلام، في سهوب جنوبي روسيا لمدّة طويلة نسبيًّا.

اعتنق ممثلوهم الإسلام في تواريخ مختلفة وحافظوا عليه لمدّة من الزمن.

منذ القرن السابع للميلاد، كانت مجموعات من البلغار قد تابعت مسيرها غربًا حتّى ضفاف الدانوب، وبها دعيت تلك المنطقة من البلقان فسمّيت بلغاريا، وقد انضمّت إلى العالم الإسلامي بعد أن اجتاحها العثمانيّون في مرحلة لاحقة. وثمّة جماعات أخرى اتّجهت صعدًا نحو أعلى مجرى الفولغا، وأسّست، في مطلع القرون الوسطى، دولة تركيّة إسلامية مشهورة، قضى عليها الاجتياح المغولي في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، وبالتحديد منذ سنة ١٢٣٦ أو ١٢٣٧م.

هذه الدولة التي أطلق عليها قدامى الجغرافيّين والمؤرّخين العرب اسم «بُلغار» (وأطلقت هذه التسمية أيضًا على عاصمتها)، تكوّنت من اتّحاد قبائل بدويّة عدّة، واغتنت لاحقًا بفضل نشاطها التجاري مع أقطار بعيدة: لوقوعها على ملتقى طرق شماليّة/جنوبيّة وشرقيّة/غربيّة كانت تمرّ عبرها تجارة الفراء والرقيق إلى الشرق الأدنى. لكنّ ظروف اعتناقها الإسلام بقيت غامضة، بيد أنّه من الممكن أن يكون الإسلام دخلها انطلاقًا من آسيا الوسطى، لأنّ تقاليد المذهب الحنفي هي التي كانت سائدة فيها. على أيّ حال فإنّ سكّانها كانوا مسلمين عندما أوفد الخليفةُ المقتدر ابنَ فضلان سفيرًا إليهم، عام ٩٢١-٩٢٢م، ليوطّد العلاقات الدينيّة بين تلك البلاد والدولة العبّاسيّة. وقد ترك ابن فضلان مؤلّفًا هو الأدقّ والأشمل في وصف أحوال تلك البلاد. وإذا كانت جهوده ضاعت سدًى من حيث دعوته إيّاهم إلى اعتماد الأذان وسائر الفرائض والممارسات السائدة في بغداد، مكيّفة بحسب المذهب الشافعي، فإنّ كتابات ابن فضلان تُظهر إعجابه بالحيويّة الدينيّة في تلك المملكة التي كانت تعلن الجهاد، وتبذل الجهد لاعتناق جيرانها الوثنيّين الإسلام، سواء كانوا من الأتراك أو من الروس.

في بداية الأمر، كانت العلاقات بين حاكم البلغار في الفولغا وخاقان الخزر علاقات تبعيّة استمرّت حتّى انهيار دولة الخزر تحت ضربات أمراء كييف في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. إن زمن الإستقلال الذي تبع تلك المرحلة وتميّز في آن بالاتفاق والتنازع مع الروس، حافظ على ازدهار الوضع الاقتصادي في دولة البلغار، إلى أن غزاها المغول فجأة ودمّروا عاصمتها، وألحقوا أراضيها بدولة جنكيزخان حيث ستَنْشأ أمبراطوريّة القبيلة الذهبيّة، فارتبط مصير البلغار، منذ ذلك التاريخ، بمصير تلك الأمبراطوريّة.

◄ راجع المستندات ١٠، ٢٠ و٢٣.

بلغراد (صربيا)، مدينة حديثة في البلقان وعاصمة مقاطعة قديمة أصبحت جمهوريّة صربيا الشعبيّة، عاشت، لأكثر من ثلاثة قرون من تاريخها، تحت حكم الإسلام، في ظل الأمبراطوريّة العثمانيّة. ولم تخلُ هذه الفترة من صدامات متعدّدة.

خضع مصير هذه المدينة للدور الإستراتيجي الممتاز الذي اضطلعت به قلعتها القائمة على ملتقى نهري الساف والدانوب، على طريق القوافل التي تصل أوروبا الوسطى بالشرق الأدنى والتي شكّلت، في الوقت نفسه، طريق الغزوات. إنّ المعارك التي كانت تدور في الماضي بين البيزنطيّين والصرب والبلغار والهنغاريّين للاستيلاء على هذا الموقع القريب من قلعة سنغيدونوم الرومانيّة البائدة، تجدّدت بشكل عنيف في القرن الرابع عشر، عندما أراد العثمانيّون توسيع رقعة احتلالهم نحو الشمال، بعد أن انتصروا على الصرب في كوسوفو سنة ١٣٨٩ وسيطروا على مقدونية والبوسنة وألبانيا. لقد واجهت الجيوش التركيّة، بالطبع، مقاومة مستميتة من قبل جيوش صربيا وهنغاريا، وقد تمكّنت هذه الأخيرة من صدّ هجوم قام به محمد الثاني الفاتح شخصيًّا سنة ١٤٥٦. لكنّ هذه المدينة التي كان يُطلق عليها اسم «حصن المسيحيّة» من جهة، و«دار الجهاد» من الجهة المقابلة، سقطت سنة ١٥٢١، بعد حصار طويل، في يدي سليمان القانوني، فأعاد تنظيم موقعها الدفاعي وجعلها منطلقًا لغزواته ضدّ هنغاريا، وقاعدة ارتكز عليها لتنظيم سهل الدانوب الذي احتلّه إثر معركة موهاكس سنة ١٥٢٦.

إبتداءً من ذلك الحين، بالرغم من تقدُّم الأتراك إلى بودابست سنة ١٥٤١، بقيت بلغراد مركزًا مهمًّا بالنسبة

إليهم، ولم يتوانوا عن تحصينه وتعزيز حاميته العسكرية وأسطوله النهري الحربي. لم يتوقّف سكّانها المسلمون من إداريّين وجنود وإنكشاريّة وتجّار وحرفيّين انتقلوا إليها وسكّان أصليّين اعتنقوا الاسلام، عن النمو والتكاثر، بفضل ازدهارها ونتيجةً لموقعها كمركز لتخزين البضائع وإعادة تصديرها. وقد أدّى ذلك إلى نموّ هندسيّ أشارت إليه النصوص بشكل واضح.

منذ نهاية القرن السابع عشر، توالت على المدينة الحصارات والقصف المدمّر. وقد ترافق ذلك مع انتصار الأمبراطوريّة النمساويّة التي استعادت المدينة من أيدي العثمانيّين وجعلتها عاصمة صربيا الشماليّة بين سنة ١٦٨٨ و١٦٩٠. أُعيدت إلى الأتراك من سنة ١٧١٧ حتى سنة ١٧٣٩، إثر معاهدة بلغراد التي جعلت من مَجْرَيَي الساف والدانوب حدودًا لها، وأعيدت مرّة ثانية إلى الأتراك أيضًا بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩١. وفي القرن التاسع عشر أدّت حركات العصيان التي قام بها الصرب إلى جعل بلغراد عاصمتهم من سنة ١٨٠٦ إلى سنة ١٨١٣، لكنّها أدّت، في الوقت نفسه، إلى القضاء عليها كمركز محصّن قديم وإلى إزالة منشآتها.

وحدها اليوم آثار القلعة التي أُعيد ترميمها باستمرار تُذكّر بالاحتلال العثماني لهذه المدينة الذي انتهى سنة ١٨٦٧. بعد محادثات ديبلوماسيّة، تُركت بلغراد مدينة رئيسيّة في صربيا من دون أن تحافظ على أيّ أثر اسلامي، لا في تنظيمها الخارجي ولا في تنظيمها الإجتماعي. أمّا المسلمون الذين كانوا يشكّلون أقليّة لا بأس بها عندما كانت المدينة عاصمة ليوغوسلافيا الفدراليّة، فإنّهم ليسوا متحدّرين من العائلات الإسلاميّة القديمة العائدة إلى العهد التركي بل هم من المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة من مقاطعات البوسنة ومقدونية ومونتينغرو وكوسوفو-ميتوهيا.

البلقان (شبه جزيرة البلقان)، في التركية بلكان. كيان جغرافيّ وتاريخيّ اتّخذ هذه التسمية التي تعني «سلسلة الجبال»، عندما خضع لسيطرة دولة العثمانيّين بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر.

أطلق الجغرافيّون العرب المسلمون، في القرون الوسطى، على هذه المنطقة المتميّزة بتضاريسها الوعرة اسم بلاد البُلغار. وهي لم تتعرّض لاجتياح طويل الأمد على أيدي أتراك الأناضول إلّا ابتداءً من سنة ١٣٥٧م. أُنشئ في غاليبولي، على الضفّة الأوروبيّة لمضيق الدردنيل، قاعدة عسكريّة انطلق منها الغزاة والمجاهدون الذين شكّلوا الوحدات الحربيّة للعثمانيّين الأوائل. فكانت الفتوحات الإسلامية سريعة، تميّزت في مرحلة أولى بالانتصار في كوسوفو سنة ١٣٨٩، تلاها مباشرة احتلال بلغاريا ومقدونية وألبانيا. وبعد مرور خمسين سنة على ذلك، أي بعد اضمحلال سلطة البيزنطيّين على القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣، أصبحت الأمبراطوريّة العثمانيّة تضمّ كل أراضي صربيا والموره وبوسنيا. أخيرًا، في عهد سليمان القانوني، تمّ اجتياز خطّ الدانوب الذي يُعتبر حدًّا لبلاد البلقان واحتُلّت بلغراد سنة ١٥٢١، وتمّ انتصار موهاكس (Mohacs) سنة ١٥٢٦. بلغ بعد ذلك تقدّم الجيوش التركيّة هنغاريا وفلاشيا، وغدت هذه المقاطعات الجديدة جزءًا من تجمّع عُرف بالرُّوملّي العثمانيّة. شكّل هذا التجمّع، إبّان ذروة التوسّع العثماني في القرن السابع عشر، القسم الأكثر غنى في الأمبراطوريّة. وبفضل نشاط وزراء أُسرة كوپرولو، نظّمت هذه المنطقة وضُبطت بشكل دقيق حتى قلب أوروبا الوسطى.

وسط تجمّع الرُّوملّي الشاسع، شكّل البلقان حصنًا منيعًا خاضعًا للحكم العثماني المباشر. حاولت السلطة العثمانيّة أن تحدّ من سلطة الإقطاعيّين المحليّين في الأرياف، وذلك بتطبيق نظامها الزراعي والمالي الخاص. لكنّها لم تتوانَ، في بعض الحالات، عن إدخال ممثّلي هذه الأرستقراطية في نظام الإقطاعات وإدخال بعض أعضاء البورجوازيّة الصغرى في السلك العسكري. حتّى إنّ مؤسّسة الدّوشرما عملت بطريقتها الخاصّة على ربط القرى المسيحيّة بالسلطة المركزيّة، فتوصّل أبناء هذه القرى، بفضل تلك الطريقة، إلى بلوغ مراتب عليا في الجيش وفي البلاط السلطاني. فعاشت شبه الجزيرة ازدهارًا حقيقيًّا قائمًا على الإنتاج الزراعي وعلى الموارد الطبيعية والحِرْفية من جهة، وعلى النشاط التجاري بينها وبين اسطنبول من جهة ثانية. وقد برز، في هذا السياق، اختلاف مهمّ بين شعب وآخر، وذلك تبعًا للظروف السياسيّة السائدة، ولنسبة اعتناق الإسلام من

قَبَل هذه الشعوب.

في القرن الثامن عشر بدأت مرحلة جديدة في تاريخ البلقان. كان ذلك على أثر تقهقر موجة الحملات العثمانيّة التي كانت قد بلغت منتهى توسّعها في غرب هنغاريا، مع حصاري فيينا سنة ١٥٢٩ وسنة ١٦٨٣. وأدّت الهجمات المعاكسة التي شنّتها، بشكل خاص، أسرة هابسبورغ وحلفاؤها، إلى استعادة تدريجيّة للأراضي النمساويّة، قابلها تراجع العثمانيّين على الأطراف، ثمّ داخل شبه الجزيرة. وثبّتت هذا الواقع معاهدات صُلح، منها معاهدة كارلوفيتش (Karlovitz) سنة ١٦٩٩ وپاساروفيتش سنة ١٧١٨، ومن ثمّ معاهدة بلغراد سنة ١٧٣٩ التي جاءت أكثر اعتدالًا من السابقتين. في القرن التاسع عشر، قامت في هذه المناطق ثورات محليّة حلّت محلّ الحملات العسكريّة وتزامنت معها أحيانًا. بالرغم من عمليّات الإصلاح والتحديث الواسعة التي قام بها سلاطين الأتراك، بدءًا بمحمود الثاني، لتثبيت هيبة الباب العالي أمام القوى الغربيّة، فقد تلاحقت حركات التمرّد التي أدّت إلى تشرذم الممتلكات العثمانيّة، ومنها مقاطعة الموره حيث أُعلنت فيها الثورة سنة ١٨٢١. فكانت الثورة الأولى التي أدّت، خلال مؤتمر لندن سنة ١٨٣٠، إلى نشوء دولة يونانيّة مستقلّة، لها ملكها إبتداءً من سنة ١٨٣٢. وفي الوقت نفسه حصلت صربيا، إثر حركة عصيان قامت بها، على الحكم الذاتي، لكن في ظلّ السيادة التركيّة. أما إمارتا مولدافيا وڤالاشيا فقد كُرّس اتّحادهما في معاهدة باريس سنة ١٨٥٦، ومهّدا بذلك لنشوء دولة رومانيا. وهكذا اتّجهت البلقان نحو التقسيم إلى دول تتمتّع بحكم ذاتي، وتقلّد في اقتصادها ومجتمعها اقتصاد ومجتمع الغرب، إلى أن تثبّت استقلالها في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ حيث عُدّلت مواد معاهدة سان ستيفانو التي أبرمت في نهاية الحرب الروسيّة - التركيّة (١٨٧٧-١٨٧٨).

بقي الجيش التركي، مع ذلك، يحتلّ ويحكم ما تبقّى من الرّوملّي التي اقتصرت بعد ذلك التاريخ على ألبانيا ومقدونيا وتراقيا. جرت بعد ذلك صراعات أخرى مع الدول الأجنبيّة، وعرفت المنطقة حركات قوميّة جديدة تبلورت في مطلع القرن العشرين، مع اندلاع الحروب التي عرفت بالحروب البلقانيّة، إضافة إلى الهزات الناتجة عن الحرب العالميّة الأولى. نتيجةً لكلّ ذلك، تبلورت فسيفساء الأمم المتحرّرة من النير العثماني. وأخذت معالم هذه الفسيفساء تتحدّد بدقة إبتداءً من مؤتمر لندن سنة ١٩١٣ ولا تزال العمليّة مستمرّة حتى يومنا هذا.

إنّ مصير هذه البلدان التي شهدت حدودها تعديلات مختلفة أو اتّحدت فيما بينها بعض الأحيان، لم يَعد مُتعلّقًا بالعالم الإسلامي بعد أن ابتعد معظم السكّان عن هذا العالم وتخلّصوا من وضعهم كرعايا عثمانيّين، وتنكّروا للأتراك الذين كانوا قد استقرّوا بينهم بصفتهم جنودًا وموظّفين أو تجّارًا.

في بعض هذه البلدان، كالبوسنة والهرسك وألبانيا مثلًا، ما يزال هناك مجموعات سكّانية إسلاميّة تتحدّر بأكثرها من السكان الأصليّين الذين غيّروا دينهم. ما يزال انتماؤهم الديني يولّد توترات سياسيّة وصراعات مختلفة.

◄ راجع المستندين ٢٦ و٢٧.

بَلَنْسية (إسپانيا)، مدينة مرفئيّة ومركز لمقاطعة ليڤانتِه، ما يزال اسمها مرتبطًا بذكرى أربعة قرون من الإحتلال الإسلامي، وبذكرى استعادتها للمرّة الأُولى على يدي السيّد كَمْپيادور.

تقع بلنسية على ضفة نهر، غيرَ بعيد من البحر، في المنطقة الشرقيّة من الأندلس التي كانت تسمّى شرق الأندلس، وغدت فيها معقلًا مهمًّا للأسلمة، قبل أن تصبح مدينة محصّنة متنازعًا عليها، خصوصًا إبّان القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد الذي شهد استيلاء المسيحيّين المؤقّت عليها، سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

إنّ الخصب المتوافر في عمق بلادها، في سهل ريّان على شاطئ المتوسط، وسهولة دخولها عبر منافذها البحريّة، دفعت بجماعات من قبائل قَيْس العربيّة، قدمت من الشرق حوالى سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م، إلى أن تستقرّ فيها، إبّان الغزوات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى.

استمّر ازدهارها خلال حكم الإمارة، ثمّ خلال خلافة الأمويّين الغربيّين الذين كانوا يولّون عليها حكّامًا بارزين، إلى أن اندلعت فيها اضطرابات داخليّة رافقت

تقسيم دولة قرطبة في عصر ملوك الطوائف.

عندئذ قامت فيها مملكة إسلاميّة محليّة، جريًا على ما آلت إليه الحال في جميع مدن البلاد الرئيسة، فأدارها منذ سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، اثنان من الصقالبة، ثمّ سلالة العامريّين التي لم يدم حكمها طويلاً.

إنّ الجهود التي بذلها في ما بعد بعض ملوك طُلَيْطِلة المتحدّرون من سلالة ذي النون لضمّ المدينة الى مملكتهم الخاصة باءت بالفشل، تحت ضربات حروب الاسترداد. وبعد فترة وجيزة على ضمّ طليطلة، سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، إلى أراضي ملك قشتالة ألفونسو السادس، استولى على بلنسية البطل الأسطوري الأسباني الذي أطلق عليه اسم الـ«سيِّد» كمپادور مأخوذًا من لفظة «السيّد» العربيّة. وعندما تخلّت عنها عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م أرملة الـ«سيّد» التي لم تستطع حماية أراضيها من غزوات المرابطين المتكرّرة، قاومت عاصمة الحدود الشرقيّة التي حصّنها مجدّدًا المسلمون، حتى فتحها سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، بعد سنتين من فتح مدينة قرطبة على يدي ملك أراغون جاك الأول.

أمّا اليوم فلا يشهد أيُّ طلل منها على ماضٍ إسلامي حافظت على بقاياه أسماء المواقع المدرجة في سجلات المساحة في الأرياف والمناطق الجبليّة المحيطة.

◄ راجع المستندات ١١، ١٥، ١٦ و١٩.

بلوشستان (بلوچِسْتان)، «بلد البلوتْش»، وهو بلد شاسع، تبلغ مساحته حوالى ٣٠٠ ٠٠٠ كلم²، يقع غربي باكستان، كثافته السكانيّة ضئيلة جدًا. يشكّل البلوتْش الرُّحّل الذين يتكلّمون لغة إيرانيّة غالبيّة سكّانه.

إنّها منطقة جبليّة جرداء غير واضحة الحدود، تطابق مُكران القديمة، وتمتدّ على طول المحيط الهندي حتّى أطراف السند والبنجاب، وتقع على الأطراف الشرقيّة لإيران القديمة. بلغتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة في عصر الفتوحات الكبرى، وأسلمت بأكملها بعد قرنين أو ثلاثة قرون.

بعد غزوات السلاجقة انتقلت اليها قبائل البلوتْش قادمة من كِرمان حوالى القرن الثاني عشر الميلادي. وبعد أن خضعت لسلطة رؤسائها التقليديّين أي السَّرْدار، اضطرّت قبائل البلوتْش هذه إلى القبول، في القرن الثامن عشر، بوصاية ملوك آل دُرّاني من الأفغان. في أواسط القرن التاسع عشر بدأ تدخّل السلطات البريطانيّة عبر معاهدتي ١٨٥٤ و١٨٧٦، اذ أُلحقت، إبتداء من ذلك التاريخ، دولة كالات بأمبراطوريّتهم في الهند. وبسطت في الوقت نفسه إيران القاجاريّين سلطتها حتى بلوشستان الغربيّة. وما تزال هذه المنطقة تسعى حتى اليوم لتحافظ على خصائصها الاثنيّة واللغويّة والدينيّة مُنبئةً ميولها الانفصاليّة.

قسّمت الحدود التي ثبّتت سنة ١٨٧٢، ثمّ سنة ١٨٩٥-١٨٩٦، البلاد بين باكستان من جهة، وجمهوريّة إيران الإسلاميّة من جهة ثانية. وفي الشمال تمتدّ جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة حيث تعيش أيضًا مجموعات من البلوتْش.

السكّان الحاليّون للبلاد هم من المسلمين السنّة، لكنّهم لم يحافظوا إلا جزئيًّا على تنظيمهم القبلي التقليدي، وقد استقر عدد منهم إمّا في الزراعة وإمّا في المدن.

◄ راجع الوثيقة رقم ٣٥.

بلوفْديف (بلغاريا)، بالتركيّة فيليبي، مدينة ظلّت تحت السيطرة الإسلاميّة داخل الأمبراطوريّة التركيّة العثمانيّة لأكثر من خمسة قرون.

حاضرة قديمة وغنيّة في سهل تراقيا، ذات موقع إستراتيجي ومحصّن على ضفّة نهر ماريتزا، سمّاها اليونانيّون فيليپوپوليس (Philippopolis) والرومان تريمونتيوم (Trimontium). انتزعها المسلمون من البلغار في العام ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م، مباشرة بعد أن بدأت جيوش الجهاد العثمانيّة باحتلال البلقان. عندما أصبحت بلوفديف مركز إدارة لمقاطعة الرومَلّي، وفي الوقت نفسه مركزًا تجاريًّا وصناعيًّا مهمًّا يقع على تقاطع طريق القوافل الكبيرة التي تصل الأدرياتيك باسطنبول. سرعان ما ظهرت فيها آثار الاحتلال التركي الذي بدأ منذ عهد السلطانين مراد الأول وبايزيد الأول يِلْدِرِم. فيها العديد من الأبنية العثمانيّة التي كانت تشهد على ازدهارها وتضفي طابعًا خاصًا على أحيائها، وقد صمدت حتى اليوم في وجه التغيّرات التي طرأت في القرن العشرين على هذه المدينة التي أصبحت مجرّد مركز لمقاطعة في

دولة بلغاريا الجديدة التي أُعلنت في العام ١٩٠٨ جمهورية مستقلّة.

◄ راجع المستند رقم ٢٧.

الباليار (جزر)، وتعرف بالعربيّة بجزر الأندلس الشرقيّة. أهمّ هذه الجزر كانت مَيُورْقة ومينورقة ويابسة، حكمها المسلمون بين بداية القرن العاشر والقسم الأول من القرن الثالث عشر للميلاد.

إبّان الفتوحات الكبرى قام ابن موسى بن نصير فاتح الأندلس بغزو هذه الجزر فدخل مَيورقة والجزر المجاورة سنة ٨٩هـ/٧٠٧م وفرض على الملك الذي كان يحكمها جزية. لكنّ السيطرة الفعليّة للإسلام على هذه الجزر لم تتمّ إلّا في سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م على أيدي أمويّي قرطبة الذين واجهتهم في ذلك صعوبات كثيرة. ثمّ جاء عصر ملوك الطوائف فعرفت الجزر شبه استقلال، فتوالى على حكمها عدد من المسلمين من بينهم عامريّو دانيه (بنو عامر) إبتداءً من سنة ١٠١٤م، ثمّ بنو هود أصحاب سرقسطة الذين تغلّبوا عليهم سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م، في حين كان سكّان جزر الباليار يمارسون القرصنة البحريّة. ثمّ أتى المرابطون فأرسوا، سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، سلطة بني غانيه من [قبائل] صَنْهاجه الذين حملوا معهم الطابع البربري، ومنها انطلقوا لاحتلال بجايه سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م. احتُلّت الجزر على أيدي الموحّدين سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م، الى أن طردهم جاك الأول ملك أراغون سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م من مَيُورقة، بينما سقطت يابسة سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م ومينورقة سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م.

عرفت مَيُورقة التي تعرّبت وأسلمت، بخاصة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، نشاطًا فكريًّا مميّزًا توزّع في الأوساط اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة. تُفَسّر لنا هذا الواقع، ولو جزئيًا، المحاولة التي قام بها ريموند لولّه (Lulle) لوضع عقيدة فلسفيّة تكون مقبولة لدى الجميع.

بَم (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، المركز الرئيس للمنطقة التي تحمل الاسم نفسه في مقاطعة كرمان. ما تزال بَم حتى اليوم تحوي مجموعة آثار قديمة تتجمّع حول بقايا قلعتها.

كانت قلعة بَم - التي اشتهرت لزمن طويل بمناعتها - تحمي مدينة قروسطيّة ساسانيّة الأصل، ازدهرت بفضل صناعة النسيج ونشاطها التجاري. وقد استفادت من موقعها الإستراتيجي على طريق القوافل الذي يصل العراق بالسِّند، وكان لهذا الطريق أهميّة كبرى. وتفسّر الحركة التجاريّة هذه ازدهار مدن عدّة مجاورة اضمَحَلّت مثل نُرمُسير أو جيرُفْت التي هي أبعد من الأولى بقليل. ومع ذلك لا يعود تاريخ مدينة بم القديمة، المحاطة بسور مُسنّن، والتي شهدت هجمات الغزاة السلاجقة وسواهم، إلّا الى عهد الصفويّين. وقد عُزّزت تحصيناتها في عهد نادر شاه بين سنة ١٧٢٩ وسنة ١٧٣٠، قبل أن تسقط في أيدي القاجار الذين اضطرّوا إلى قمع عدّة ثورات اندلعت فيها. يقوم فيها حتى اليوم قبر الإمام زيد ابن الإمام علي زين العابدين.

البَنّا، حسن بن أحمد، ١٩٠٦ - ١٩٤٩، مصري مؤسّس لحركة سياسيّة ودينيّة هي حركة «الإخوان المسلمين» التي كانت أهدافها تتجاوز حدود مصر.

بعد أن تلقّى تربية دينيّة تقليديّة تابع حسن دروسه في القاهرة، وأعلن منذ ذلك الحين أنّ المشكلات التي يعانيها العالم الإسلامي يمكن حلّها بالعودة إلى الأصول، أي القرآن والسّنة.

بعد سنة على تعيينه مدرّسًا في الإسماعيليّة سنة ١٩٢٧، أسّس حسن حركة الإخوان المسلمين وراح يلقي المحاضرات وينظّم «الخلايا» متجوّلًا في كلّ منطقة قناة السويس. وبعد مجيئه إلى القاهرة سنة ١٩٣٣، وسّع حسن نشاط حركته مُتبنّيًا قضيّة عرب فلسطين ومناضلًا ضدّ النفوذ الإنكليزي. دخل خلال الحرب العالميّة الثانية في صراع مع الحكم المصري وأوقف مرّات عدّة. استمرّ الوضع المتوتّر بعد الحرب العالمية وحُلّت الحركة سنة ١٩٤٨ إثر عمليّة اغتيال قام بها أحد أعضائها. دخلت الحركة بعد ذلك مرحلة النشاط السرّي، فاغتيل حسن نفسه في شباط ١٩٤٩، لكنّ موته لم يضع حدًّا لانتشار أفكاره.

البنجاب، مقاطعة هنديّة غنيّة، تعود إلى القرون

الوسطى، يشكّل، اليوم، قسمُها الغربي وهو الأوسع - إحدى مقاطعات باكستان، فيما بقي قسمها الشرقي داخل الاتّحاد الهندي.

يعني إسم هذه المنطقة «أرض الأنهار الخمسة» وهي ترتوي من نهر الهندوس وروافده. احتلّها في العام ٩٤هـ/٧١٣م، حوالى نهاية الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، محمد بن القاسم [الثقفي]، بعد أن استولى على السِّند وعلى مدينة مُلتان. بعد ثلاثة قرون، إثر حملات ناجحة جرّدها السلطان محمود [الغزنوي]، وقع البنجاب في أيدي الغزنويّين، وأصبحت لاهور التي كانت مركز قضاء مقرًّا لسلطتهم، بعدما اضطرّ آخر حكامهم إلى مغادرة غزنة. عندما احتلّ الغوري معزّ الدين محمد لاهور في العام ٥٨١هـ/١١٨٥م، استقرّ بدوره في البنجاب قبل أن يوجّه حملاته المتعدّدة نحو دلهي وسهل الغانج. عند وفاته في العام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، انتقلت سلطته إلى ضابطه التركي القديم قطب الدين أَيْبَك الذي تُوِّج في لاهور وأصبح مؤسّس فرع سلاطين دلهي المعروف باسم «الملوك العبيد».

في ما بعد، إثر هجمات المغول وتفكّك مملكة دلهي الذي تلا احتلال تيمورلنك، استولت أمبراطوريّة المغول، في عهد بابُر في العام ٦٣٢هـ/١٢٢٦م، على البنجاب حيث كانت قوّة السيخ آخذةً في الازدياد. وقامت مملكة للسيخ سنة ١٨٠٣ بعد أحداث متعدّدة، لكنّها لم تستمرّ، إذ قامت الهند البريطانية بضمّ أراضيها سنة ١٨٤٩، فأصبحت، في العام ١٩٠١، جزءًا من مقاطعة الحدود الشماليّة الغربيّة التي ضُمّت بدورها، مع ما تبقّى من البنجاب، إلى الباكستان الذي أُنشئ سنة ١٩٤٧. لكنّ البنجاب، حيث الإسلام دين الاكثريّة، عانى باستمرار العداء القائم بين المسلمين والسيخ. وقد شهد، سنة ١٩٤٧، ظهور الحدود الجديدة التي تفصل بينه وبين الاتّحاد الهندي قريبًا من لاهور، المدينة الكبرى التي خسرت بعضًا من ميزاتها لمصلحة كراتشي. غير أنّ البنجاب ضمّ من جديد، منذ العام ١٩٦٠، عاصمة باكستان بعد إنشاء إسلام آباد.

بَنجالوكا (البوسنة)، مدينة تأكّدت أهميّتها في ظلّ سيطرة العثمانيّين خلال أكثر من أربعة قرون. في عداد سكّانها الذين يتكلمون الصربيّة - الكرواتيّة أقليّة مسلمة.

تقع بنجالوكا في شمال غرب المنطقة الجبليّة من البلقان، بناها الهنغاريّون مدينةً محصّنة في نهاية القرن الخامس عشر، لكنّها كَبُرت بعد أن احتلّها الأتراك سنة ١٥٢٧ أو ١٥٢٨، وخصوصًا بعد أن جعلها الحاكم العثماني للمنطقة مقرّه وعاصمة المنطقة حتّى سنة ١٦٣٨. إلى هذا العصر الذي كانت فيه المدينة مركزًا سياسيًّا لنشر الإسلام ومركزًا اقتصاديًّا مزدهرًا، تعود الصروح العسكريّة والدينيّة الجميلة التي بُنيت في جزءيها، العالي والسفلي. وقد صَمَد ازدهارها بعد فقدان دورها الإداري، عندما انتقل ممثّل السلطة العثمانيّة إلى سارايفو، واستمرّ هذا الازدهار بالرغم من الصراعات اللاّحقة. أُلحِقت بالأمبراطوريّة النمساويّة - الهنغاريّة سنة ١٨٧٨ بعد استسلامها للجيوش النمساوية المُكلّفة احتلال البوسنة. وانضمّت في ما بعد إلى المملكة ثمّ إلى الجمهوريّة التي ستحمل اسم يوغوسلافيا.

بندر عبّاس (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة مرفئيّة حديثة في الخليج العربي - الفارسي على ساحل كرمان. وهي مجاورة لمدينتين قروسطيّتين عرفتا باسم هُرمز القديمة والحديثة.

جاء نمو بندر عبّاس الحالي ليُعيد الازدهار الى المرفإ الذي أنشأه الشاه عبّاس الأول سنة ١٦٢٢، والذي راح ينحطّ بعد سقوط الأسرة الصفويّة. بُني المرفأ في موضع كان سابقًا مركزًا لمحطات بحريّة منذ عهد الساسانيّين وكان منفذًا لمقاطعات كرمان وسجستان وحتى خراسان. أما مدينة هرمز القديمة الناشطة والتجاريّة، الواقعة على الساحل الإيراني والتي زارها ماركوبولو مرّتين: سنة ١٢٧٢ و١٢٩٣، فقد هُجرت في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، بسبب موقعها غير الآمن. وقد أُهملت لمصلحة مدينة مرفئيّة جديدة، أكثر تحصينًا، أُنشئت على الجزيرة واتّخذت اسم المدينة السابقة.

هذه المدينة الجديدة التي ازدهرت بشكل مميّز خلال ثلاثة قرون نظرًا إلى أنشطتها التجاريّة، وَصَفها الرحالة المسلم ابن بطّوطة في القرن الثامن للهجرة/

الرابع عشر للميلاد. في سنة ١٥٠٧، انتقلت المدينة إلى أيدي البرتغاليّين الذين جعلوا منها قلعة حصينة ومركزَ تموين ومحطة استراحة في طريقهم إلى الشرق الأقصى، إلى أن تمكّنت جيوش الشاه عبّاس الفارسيّة، بمساعدة سفن شركة الهند الشرقيّة (البريطانيّة)، من الاستيلاء على هذه القاعدة الأجنبيّة سنة ١٦٢١ ومن هدمها نهائيًّا. وعلى انقاضها بنى عبّاس الأول مرفأً ملكيًّا هو بندر عبّاس.

بنزرت (الجمهوريّة التونسيّة)، مدينة مرفئيّة كبرت في العصر الحديث. تقع على ساحل البلاد الشمالي.

احتلّتها جيوش الفتوح العربيّة - الإسلاميّة الكبرى منذ سنة ٤١هـ/٦٦١م، ففقدت هذه المدينة القديمة التي تعود إلى العهد الفينيقي أهميّتها، ولم تلعب أي دور بارز في القرون الوسطى. نجد فقط إشارات إلى وجود القلاع الصغيرة أو الرُبط حيث كان يقيم المجاهدون المسلمون، الحريصون على مقاومة أيّ نزول محتمل للمسيحيّين على الشاطئ. لكن، منذ القرن الخامس عشر، عرفت بنزرت التي كانت قد استقبلت جماعات من المسلمين المهاجرين من الأندلس بعد طرد الموريسكيّين، نهضة جديدة تميّزت بالثراء الناتج عن غزوات القراصنة المقيمين فيها، الذين شاركوا في أعمال القرصنة التي كانت تحصل في البحر المتوسط.

في سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٤، خضعت لسلطة خير الدين حاكم مدينة الجزائر، في ظلّ السيادة العثمانيّة، ومع ذلك، احتلّها الاسبان من ١٥٣٥ حتى ١٥٧٢. على الرغم من تمتّعها بحماية العثمانيّين، فانّها لم تنجُ من حملات الدول المسيحيّة. فقد دمّرها البنادقة تدميرًا شبه كامل عام ١١٩٩هـ/١٧٨٥م. وكان لا بدّ من الانتظار حتى عام ١٨٨١ لتصبح، بعد أن كانت مجرّد قرية صغيرة، تجمّعًا عمرانيًّا ناشطًا، قرب مرفأ جُدّد وحُدّث في عهد الحماية الفرنسيّة، واستفادت، منذ ذلك الوقت، من موقعها الإستراتيجي على شاطئ المتوسط.

بنغازي (الجماهيريّة العربيّة الليبيّة)، مرفأ في منطقة برقة، شرقيّ خليج سِرت، وهو، اليوم، إحدى المدن الرئيسة في الجماهيريّة الليبيّة.

تقع بنغازي على لِسان رملي تفصله عن الأرض الجامدة بحيرات شاطئيّة. وقد ازدهرت هذه المدينة، إبتداءً من القرن الخامس عشر، في موقع مدينة قديمة. تعود تسميتها إلى صوفي مَحَلّي مغمور، إسمه سيدي بن غازي. تزايد عدد سكّانها غير المتجانسين في القرن التاسع عشر، بعد أن توافدوا إليها من مختلف بلدان الأمبراطوريّة العثمانيّة. كانت مركزًا لإحدى ولايات الأتراك، وأصبحت في ما بعد المركز الإداري الشرقي للمستعمرة الإيطاليّة الليبيّة، بعد أن عاد السلام إليها إبتداءً من سنة ١٩٣١، فبُني فيها مرفأ جديد وأحياء حديثة عدّة.

بنغازي مدينة مسلمة برمّتها تقريبًا، إختارها ملك ليبيا المستقلّة عاصمة له سنة ١٩٥١، ثمّ فقدت في ما بعد أنشطتها المرفئيّة والصناعيّة الرئيسة، لكنّها تشهد حاليًّا نهضة ملموسة. وقد حلّت طرابلس محلها عاصمةً للجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الإشتراكيّة التي نشأت سنة ١٩٦٩.

البنغال، منطقة في الهند الشماليّة الشرقيّة، انتشر فيها الإسلام في نهاية القرون الوسطى حيث أصبحت غالبية سكّانها من المسلمين. شهدت، في سنة ١٩٤٧، نشوء دولة الباكستان الشرقيّة التي أصبحت في ما بعد، سنة ١٩٧١، دولة بنغلادش.

تُطابق هذه المنطقة المتميّزة بشعبها وبطبيعتها، من الناحية الجغرافية، دلتا الغانج وبراهمابوترا حيث بلغتها الفتوحات الإسلاميّة، بعد الاستيلاء على مدينة كَخْنَوتي سنة ٥٩٣هـ/١١٩٨م من قبل أحد قادة قطب الدين أَيْبَك، مؤسّس سلالة سلاطين دلهي المعروفة بـ«الملوك العبيد». إعتنق عدد كثير من سكّانها الإسلام الذي انتشر بشكل خاص بين طبقة الفلاّحين البوذيّين الذين كانوا يعملون عند الإقطاعيّين الهندوسيّين الكبار. وقد تواكب تأثير الصوفيّين، التابعين بشكل خاص للسهرورديّة، مع جهود الحكّام الأتراك المسيطرين على الهند الشمالية، في سبيل إنماء ثقافة إسلاميّة راحت تنتشر بشكل مطّرد، في حين كان يحكم شرق البلاد وغربها فرعان مختلفان وشبه مستقلّين أحدهما عن الآخر.

تميّزت الحقبة اللاّحقة بازدهار فكري وديني أكثر

بروزًا حيث ترسّخت، خلال أكثر من قرنين، مملكة مستقلّة لسلاطين البنغال. تأسّست هذه المملكة سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م على يد إلياس شاه، وعلى حساب سلطة فرع سلاطين دِلهي المعروفين بالتُّغلقيّين. توطّدت أُسس هذه الدولة مع مختلف الأُسَر التي توالت على الحكم والتي تمكّنت من فرض تأثيرها على مقاطعة بهار. أدّت الملاحة نحو الشرق الأقصى والتجارة البحريّة إلى ازدهار مرفأ شيتاكونغ الذي احتُلّ سنة ١٣٣٨م. وكان لثراء الحكّام الذين رعوا الأدباء والعلماء أن جعل من عاصمتهم لَكْهنوتي ومن المدن المجاورة مثل غور حيث أقاموا في مراكز لحياة فنيّة وأدبيّة إسلاميّة النزعة. إلى الآثار الهندسيّة التي ما زالت تشهد لذلك، تُضاف الكتابات التي أعطت لغة البنغال الشعبيّة أنبل آدابها، مسهمةً في نشر العلوم الإسلاميّة التي كانت قبلذاك مقتصرة على اللغتين العربيّة والفارسيّة.

لم تؤثّر سيطرة المغول الذين جعلوا من البنغال، إبتداءً من سنة ١٥٧٦، إحدى مقاطعات أمبراطوريّتهم، على أصالة هذا البلد. كما لم يؤثّر عليها الاحتلال البريطاني في ما بعد، بين سنة ١٧٥٧ وسنة ١٩٤٧. على الصعيد الديني، استمرّ نفوذ الحركات الصوفيّة في الوقت الذي بدأت تُرتسم فيه ملامح التيّارات الشيعيّة التي غذّاها تدفّق التجّار الفرس، نظرًا الى النشاط التجاري المزدهر. وقد شهدت البلاد أيضًا، في القرن التاسع عشر، نموّ فرقة ناشطة إجتماعيًّا هي الفرائضية. ومن الممكن أن تكون هذه الفرقة قد خضعت لتأثير أفكار الوهّابيّة الإصلاحيّة، إذ سعت، تحت شعار العودة إلى الشريعة، إلى التخفيف من حدّة البؤس لدى الفلاحين البنغال، لكنّها تلاشت نهائيًّا سنة ١٨٦٠، بعد موت ابن مؤسسها. أمّا على الصعيد الاقتصادي، فقد شهدت البلاد ازدهار مراكز جديدة كمدينة دَكّا التي اختارها الحكّام المغول عاصمة لهم، بعد تدمير لَكْهنوتي في نهاية القرن السادس عشر، ومدينة كلكوتا، محطّ التجّار الأجانب، التي أصبحت في ما بعد أوّل عاصمة رسميّة للهند الانكليزية.

شكّل هذا الوضع أساس تطوّر ديموغرافي حدّد الاتّجاه الزراعي لسهول الدلتا، وراح ينمو إذّاك وضعان مختلفان في البلاد: البنغال الشرقيّة التي يشكّل المسلمون فيها الاكثريّة الساحقة، وجلُّهم من الفلاحين؛ والبنغال الغربيّة، حيث المسلمون أقليّة، والتي اتّجهت نحو الصناعة. وكان الفصل النهائي بين المنطقتين قد تمّ في تقسيم سنة ١٩٤٧، عندما انضمّت كلكوتا والمنطقة المحيطة بها إلى الاتّحاد الهندي، بينما أصبحت دكّا عاصمة دولة الباكستان الشرقيّة المسلمة التي هي اليوم بنغلادش.

سلاطين البنغال: ١٣٣١-١٥٧٦

شمس الدين إلياس شاه[٣٥]	١٣٥١-١٣٥٨م
سِكَنْدر شاه الأول	١٣٥٨-١٣٩٠
غياث الدين أعظم شاه	١٣٩٠-١٤١٠
سيف الدين حمزة شاه	١٤١٠-١٤١٢
شهاب الدين بايزيد شاه	١٤١٢-١٤١٤
علاء الدين فيروز شاه	١٤١٤
جلال الدين محمد شاه	١٤١٤-١٤٣٢
شمس الدين أحمد شاه	١٤٣٢-١٤٣٦
ناصر الدين محمود شاه	١٤٣٧-١٤٦٠
ركن الدين باربك شاه	١٤٦٠-١٤٧٤
شمس الدين يوسف شاه	١٤٧٤-١٤٨١
سِكَنْدر شاه الثاني	١٤٨١
جلال الدين فتح شاه	١٤٨١-١٤٨٧
سلطان شاهزاده باربك شاه	١٤٨٧
سيف الدين فيروز شاه	١٤٨٧-١٤٩٠
ناصر الدين محمود شاه	١٤٩٠-١٤٩١
شمس الدين مظفّر شاه	١٤٩١-١٤٩٤
سيّد علاء الدين حُسين شاه	١٤٩٤-١٥١٩
ناصر الدين نُصرت شاه	١٥١٩-١٥٣٢
علاء الدين فيروز شاه	١٥٣٢-١٥٣٣
غياث الدين محمود شاه	١٥٣٣-١٥٣٩
شير شاه سوري	١٥٣٩-١٥٤٠
خِضر خان	١٥٤٠-١٥٤٥
محمد خان سوري	١٥٤٥-١٥٥٥
خِضر خان بهادُر شاه	١٥٥٥-١٥٦١
غياث الدين جلال شاه	١٥٦١-١٥٦٤
سليمان كَراراني	١٥٦٤-١٥٧٢
بايزيد شاه كراراني	١٥٧٢
داود شاه كراراني	١٥٧٢-١٥٧٦

◄ راجع المستندين ٣٠ و٣٥.

بنغلادش (جمهوريّة بنغلادش الشعبيّة)، مساحتها ١٤٣ ٩٩٨كلم[٢]، عاصمتها: دكّا. هي جمهوريّة مستقلّة، نظامها رئاسي، والإسلام فيها هو دين الدولة حاليًّا. يُقدَّر عدد سكانها بـ ١١٥ مليون نسمة، خمس وتسعون بالمئة منهم من المسلمين، وأكثرهم من السنة.

هذه الدولة التي تطابق القسم الشرقي من مقاطعة البنغال القديمة، في شرق شبه القارة الهنديّة، كانت جزءًا من الباكستان حيث كانت تشكّل القسم الشرقيّ منه عند التقسيم سنة ١٩٤٧. انفصلت عن الباكستان إبتداءً من سنة ١٩٧١، وحافظت على استقلالها حيال الاتّحاد الهندي الذي يحيط بها من كل الجهات. تتميّز بماضيها الإسلامي الذي ساعد على نشوء ثقافة بنغاليّة أصيلة، كما تواجه مشكلات اقتصاديّة بسبب بيئتها الطبيعيّة الصعبة.

بنين (جمهوريّة بنين الشعبيّة)، مساحتها: ١١٢٦٢٢ كلم[٢]، عاصمتها: پورتو نوفو، وهي دولة أفريقيّة مستقلّة تقع على شاطئ خليج غينيا، يبلغ عدد سكّانها خمسة ملايين، من بينهم أقليّة مسلمة ناشطة تشكل ١٥٪ من عدد السكّان تقريبًا.

ولدت جمهوريّة بنين سنة ١٩٥٨، من مستعمرة داهومي القديمة التي كانت جزءًا من أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة منذ ١٨٩١. وهي تمتدّ بين جمهوريّة نيجيريا الفدراليّة في الشرق وجمهوريّة توغو في الغرب، ولها حدود مشتركة من الجهة الشماليّة مع جمهوريّة النيجر، وجمهوريّة بوركينا فاسو الديمقراطيّة الشعبيّة. وهكذا تكون بنين مجاورة لأفريقيا الساحليّة ذات الأكثريّة المسلمة.

تعود الاتّصالات الأولى للمنطقة مع الإسلام إلى القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، إذ تمّت عبر الجاليات التجاريّة القادمة من أمبراطوريّة مالي، وقد استمرّت هذه الاتّصالات على طول طرق القوافل التي كانت تجتاز منطقة السباسب. وقد وُطّدت في ما بعد، في القرن السابع عشر، هجرة الجماعات القادمة من أمبراطوريّة السُّنغاي القديمة، وهجرة جماعات الفُلْبة أو البول (Peuls)[٣٦] بعدها بقليل، أثر الإسلام في شمال البلاد. وكان التأثير الإسلامي يتسلّل إلى البلاد أيضًا من نيجيريا من الجهة الجنوبيّة-الشرقيّة. أدّت هذه الحركة، كما في بلدان أخرى من خليج غينيا، إلى ازدهارٍ للإسلام زاد من حيويّته الدينيّة نشاط الطرق الصوفيّة كالتيجانيّة والقادريّة.

بهاء الدين زكريا مُلتاني سُهْرَوَرْدي، المعروف أيضًا ببهاء الحقّ، ٥٧٨-٦٦١هـ/ ١١٨٢ - ١٢٦٢م، صوفي وَرِع، كان له تقدير خاص في الهند في القرون الوسطى. أدخل الى شبه الجزيرة الطريقة السُهروردية التي كُتِبَ لها الازدهار بشكل سريع.

وُلد بالقرب من مُلتان في بلاد السِّنْد وما لبث أن غادرها طلبًا للعلوم الدينيّة، فجال في الشرق الأدنى من إيران حتى فلسطين حيث تمكّن من لقاء الشيخ أبي حفص عمر السهروردي في بغداد، فاختاره هذا الأخير ليكون خليفة له. عاد إلى مسقط رأسه حيث تابع، خلال أكثر من خمسين سنة، نشاطه داعيةً وصوفيًّا. أعَدّ عددًا وافرًا من الأتباع، خصوصًا في إطار المؤسّسة التي أنشأها في ملتان والتي كانت منظّمة خير تنظيم. وتمكّن، إضافةً إلى ذلك، من أن يمارس نفوذًا سياسيًّا في أنحاء الپنجاب إثر منحه وظيفة رسميّة من قبل شمس الدين إيلتتمش، أحد سلاطين دلهي الأوائل. تسلّم بعد موته أحفاده إدارة هذه المؤسّسة، منهم حفيده ركن الدين الذي دُفن بالقرب منه. وقد بُني على قبريهما ضريحان ضخمان هما اليوم من أشهر آثار ملتان وأفخمها.

بهاء الله ← **البهائيّة**.

البَهائيّة، بدعة مُتحدّرة من الشيعة، طرحت نفسها على أنّها دين جديد، أسَّسها في إيران، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بهاء الله أحد أتباع الباب. وهي متنزّعة، في جزء منها، من البابيّة مع محافظتها على سمة أُصولها الإسلاميّة.

بهاء الله هو اللقب الذي أطلقه على نفسه ميرزا حُسَين المولود في طهران سنة ١٨١٧، والمتوفّى قرب عكّا سنة ١٨٩٢. كان من أتباع الباب من دون أن يكون قد تعرّف إليه شخصيًّا على الأرجح. سُجن في طهران سنة ١٨٥٢ إثر محاولة الاغتيال التي دبّرت ضد الشاه القاجاري ناصر الدين شاه. وقد تحصّلت له، خلال

إقامته في السجن، تجربة صوفيّة وصفها في أحد مؤلّفاته. استقرّ في بغداد بعد نفيه حيث مارس تأثيرًا متناميًا على المهاجرين البابيّين الموجودين في بغداد بحيث أنّ قنصل إيران في العراق طلب إبعاده إلى اسطنبول. حيث انتقل هذا الناشط الدينيّ مع البابيّين سنة ١٨٦٣، قبل إبعادهم بعد ذلك إلى أدرنة.

وقد تسنّى لبهاء الله، قبل مغادرته بغداد، أن يُعلن في حديقة رضوان القريبة من بغداد أنّه، بحسب ما ورد على لسان «الباب»، «هو الذي سيُظهره الله»، أي أنّه النبيّ المؤسّس لدورة نبوية جديدة تعقُبُ دورة النبيّ محمد (ﷺ). ولما وَصَل أدرنة أعلن من جديد رسالته النبويّة، وعلى غرار نبيّ الإسلام (ﷺ)، بعث برسائل إلى حكّام عدّة: انضمّ اليه غالبية البابيّين بينما تبعت أقلية منهم صُبح أزَل. أدّت هذه الانقسامات بينهم إلى نشوء حوادث أحيانًا، ما دفع بالسلطات إلى نفي البهائيين إلى عكّا حيث وصلوها سنة ١٨٦٨. في فلسطين كتب بهاء الله بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٧٤ «كتاب أقدس» (الكتاب الأقدس) وهو الكتاب الأساسي للدين الجديد، وذلك قبل موته سنة ١٨٩٢.

يحتفظ الدين البهائي كالبابيّة بموروث انتهى إليه من غلاة الشيعة، إذ إنّه يعترف بأنبياء اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام وإليهم يضمّ زرادشت. ويعتبر أنّ بهاء الله هو آخر هؤلاء الأنبياء، لأنّه فاتحة دورة ستدوم مئات الملايين من السنين. إلّا أنّ هذا الدين جاء بعدد وافر من السمات التي تجعله مختلفًا، بشكل محسوس، عن الإسلام التقليدي. فهو لا يفرض الطقوس الجماعية بالرغم من حثّه على تشييد هياكل دائريّة تُفتح في وجه المؤمنين الراغبين في الصلاة، بقطع النظر عن معتقداتهم الدينيّة. أمّا الفرائض الدينيّة فهي مُخَفَّفة. إنّه دين عالميّ، جامع، يقول بوحدة الأديان المختلفة، ويدعو إلى السلام العالمي وإلى استعمال لغة عالميّة واحدة. وهو أيضًا دين المساواة إذ يوصي باتّخاذ تدابير من شأنها القضاء على الغنى الفاحش والفقر البائس.

تولّى إدارة البهائيّة، بعد موت مؤسّسها، ابنه عبّاس أفندي الملقّب عبد البهاء الذي ولد في طهران سنة ١٨٤٤. وقد قام بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٣ بأسفار إلى مصر وأوروبا وأميركا، ما سمح له بأن ينظّم في عدد من البلدان مجموعات بهائيّة. توفي سنة ١٩٢١ في حيفا حيث دُفن قرب قبر الباب، على منحدرات جبل الكرمل. فانتقلت إدارة الحركة إلى شوقي أفندي، أحد أحفاده، الذي درس في اكسفورد وتزوّج من أميركيّة واستقرّ في المركز الإداري العالمي للإيمان في حيفا حيث توفي سنة ١٩٥٧.

تنتشر في العالم، اليوم، مجموعات بهائية عدّة، كان أهمّها في إيران حيث بلغ عدد أعضائها نصف المليون، ثمّ في الهند. وثمّة مجموعات كذلك في الولايات المتّحدة وفي ألمانيا وأفريقيا السوداء وفي أندونيسيا، لكنّها لا تتوافر في البلدان العربيّة[٣٧]. لم تشكّل البهائيّة في إيران أقليّة دينيّة مُعترفًا بها، فكان أتباعها هدفًا لبعض العنف ولسوء المعاملة في ظل الحكم الملكي. وقد ساء وضعهم بعد الثورة الإسلاميّة إذ اتُّهموا، إضافةً إلى الهرطقة والبدعة، بأنّهم يقيمون علاقات بالولايات المتّحدة واسرائيل، حيث كان مركزهم الروحي قد استقر حتى قبل قيام دولة إسرائيل. كما اتّهموا أيضًا بأنّهم تعاونوا مع النظام [الملكيّ] السابق. فسُجن عدد كثير من البهائيّين وهاجر منهم قسم آخر.

البُهَرة، هي جماعات مسلمة في الهند الغربيّة تتألّف من أكثريّة شيعيّة، شكّلت في غُجرات طائفة لها تفرّعات كثيرة ذات ميول انعزاليّة واضحة. وقد أدّى نشاطها التجاري إلى انتشارها على سواحل المحيط الهندي الأفريقيّة، لا سيّما في كينيا وتنزانيا.

إنّ هذه الجماعات المتحدّرة من أفراد ينتمون إلى طبقة من الطبقات الهنديّة التي اعتنقت، ربّما في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، المذهب الإسماعيلي على أيدي دُعاة قادمين من اليمن، استمرّت على علاقة بهذا البلد حتى القرن السادس عشر على الأقلّ. إنّ أفراد هذه الجماعة ينتمون إلى الفرع الإسماعيلي المسمّى «المستعلية»، نسبة إلى المستعلي ابن الخليفة المستنصر الذي كانوا يدافعون عن حقّه في الإمامة والخلافة. لذلك كانوا يُعارضون النّزاريّة أو الإسماعيليّة الجديدة، المتمثّلة في الهند بالخوجا، وكانوا يُظهرون دائمًا

إخلاصهم الشديد لحاكمهم المحلّي، ويعتبرونه ممثّلا للإمام الغائب، ويراعون القواعد الفقهيّة التي سادت قديمًا في دولة الفاطميّين، وكانوا لا يتزوّجون إلا في ما بينهم.

نشأت انشقاقات متعدّدة داخل الطائفة، نذكر منها الانشقاق الذي حصل في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، حين عادت الى السنّة جماعة من البُهْرة يمارس أفرادها الزراعة. وكذلك الانشقاق الذي حصل في القرن السادس عشر، والذي سبّبه داعٍ أتى من اليمن وأقام في الهند، فنتج عنه فرعان عُرفا بالداوديّة والسليمانيّة. يسكن الزعيم الحالي للبهرة الداوديين في بومباي، أما مركزهم الثقافي ففي سراة، بينما مركز السليمانيّة في بارودا.

بِهْزاد، الأستاذ كمال الدين بهزاد، (ت سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م)، هو أحد أشهر ممثّلي رسم المنمنمات الفارسيّة في أواخر العصر الوسيط. كان يتمتّع بحماية الحكام الذين كانوا يستقبلونه في بلاطاتهم غير متردّدين في انتهاك قواعد حظر الرسم التجسيمي. حظي بهزاد بتقدير [السلطان] حسين بايقرا من سلالة التيموريّين، إبتداء من سنة ١٤٨٨م، ثمّ انتقل بعدئذٍ إلى تبريز ليدخل في خدمة الشاه الصفوي إسماعيل الأوّل فعيّنه رئيسًا للمكتبة الملكيّة سنة ١٥٢٢م؛ واستمرّ في العمل خلال حكم الشاه طهْماسْب الأوّل خليفة الحاكم السابق. إنّ مظاهر التكريم التي نالها توافق التقريظ الذي خُصّ به في نصوص المصادر القديمة. وقد تسنّى له أن ينقل تعليمه إلى تلاميذه العديدين الذين كانوا يحيطون به ويعملون بإدارته في مشغل رسمي. ومن هذا المشغل خرجت روائع فنون تزيين الكتب.

إضافة إلى المعطيات التاريخيّة الدالّة على وضع الفنانين في إيران ورعاية الأمراء أصحاب الذوق الفني الرفيع لهم، هناك شهادات محسوسة تسمح بالتعرف مباشرةً إلى موهبة بهزاد. إنّ الكتب التي نمّقها بمنمنماته والتي أثبتت الأبحاث الحديثة نسبتها إليه، تكشف عن أسلوب في الرسم غنيّ بزخرفته، يجمع بين واقعيّة تستلهم الحياة اليوميّة وفنّ رسم ملكيّ اعتمده الفنّانون المسلمون منذ زمن بعيد.

بَهْلَوي، ١٩٢٦ - ١٩٧٩، سلالة حكمت مملكة فارس التي أصبحت، في العام ١٩٣٤، مملكة إيران والتي لم تعرف منها إلا ملكين اثنين، قبل إعلان الجمهوريّة الإسلاميّة.

في شهر شباط - فبراير ١٩٢١، استولى على الحكم العقيد رضا خان الذي أصبح وزيرًا للحربيّة ثمّ رئيسًا للوزراء سنة ١٩٢٣، فكانت بذلك بداية تاريخ إيران المعاصر بُعَيْد انتهاء الحرب العالميّة الأولى. طمح القائد السابق للواء «القوزاق» إلى تأسيس جمهوريّة، ثمّ خلع آخر شاه من سلالة القاجار ونصّب نفسه ملكًا في كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٦. بذلك أسّس سلالته الخاصة وبدأ بتحديث البلاد والجيش محقّقًا نتائج متفاوتة، ومتجاهلًا البرلمان. كان يستوحي سياسة أتاتورك، فدخل في صراع مع رجال الدين إذ قام بإصلاح مؤسّسات التعليم وأنشأ جامعة حديثة في العام ١٩٣٥، ومنع النساء من استعمال الحجاب. كما حاول اتّباع سياسة خارجيّة جريئة مقلّصًا دائرة استثمار الشركة الإنكليزيّة-الإيرانيّة للزيوت؛ كما حظّر الحزب الشيوعي الإيراني سنة ١٩٣١ واستقدم تقنيّين من ألمانيا. لكنّ تحالف البريطانيّين والسوفيات، خلال الحرب العالميّة الثانية، أرغمه سنة ١٩٤١ على التنحّي لمصلحة ابنه محمّد رضا المولود سنة ١٩١٩.

اضطرّ محمّد رضا إلى مغادرة بلاده إلى المنفى الموقّت سنة ١٩٥٣ خلال النظام السلطويّ الذي أقامه الوزير مصدّق، لكنّه جهد، بعد عودته، في إكمال تحديث البلاد بتنمية صناعتها والقيام باصلاحات - منها الإصلاح الزراعي عام ١٩٦٣ - نالت من موقع رجال الدين وأحدثت في ما بينهم استياءً كبيرًا. اضطره ذلك إلى نفي آية الله الخميني الذي استقرّ في العراق، في حين كان التوتّر الاجتماعي يأخذ في الازدياد. وقد أدّت مظاهرات عنيفة إلى الثورة التي أرغمت الشاه على مغادرة إيران في شهر كانون الثاني - يناير ١٩٧٩ وإخلاء الساحة للجمهوريّة الإسلاميّة الحاليّة.

رضا شاه	١٩٢٦ - ١٩٤١
محمد رضا	١٩٤١ - ١٩٧٩

بَهْمَن (آل -)، ٧٤٨-٩٣٣هـ/ ١٣٤٧ - ١٥٢٧م، أُسرة

مالكة مسلمة هنديّة من الدكّن الشمالي ، اتّخذت غلبرغه أو كُلْبَرْكَه ثمّ بيدار عاصمة لها . اكتسبت في العالم الإسلامي ، في نهاية القرون الوسطى ، شهرة واسعة .

مؤسّس هذه الأسرة حسن أوغنغو كَنْكو (GANGU) ، وهو غامضُ النّسب ، أعلن نفسه ملكًا سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م ، باسم علاء الدين حسن بهمن شاه ، على مقاطعة تابعة لنفوذ سلاطين دلهي منذ بداية القرن الرابع عشر . عمل خلفاؤه ، ومن بينهم تاج الدين فيروز شاه ، على إغناء مقرهم في أحسن آباد/ غلبرغه ، بإنشاء المباني المختلفة . فجذبوا الى هذه المدينة الصوفيّين ، وكسبوا ودّهم بمعاملتهم الحسنة ، فشجّعوا بذلك ازدهار ثقافة عربيّة إسلاميّة متّنتها العلاقات البحريّة المباشرة التي كانت قائمة ، منذ أمد بعيد ، بين شبه الجزيرة العربيّة والساحل الغربي للهند . وقد جعل الشيخ الصوفي جيچي محمّد گِيسودِراز من عاصمة البهمنيّين مقرًا له ، فكان يتمتّع بقدر كبير من الإجلال والتقدير . وبُني فيها في القرن الرابع عشر مسجد كبير ، وفقًا للفن الفارسي ، ما يزال قائمًا حتى اليوم وسط التحصينات التي تعود إلى العصر نفسه . وهي تضمّ إضافة إلى ذلك ضرائح ملكيّة أنيقة البناء .

منذ تولّي أحمد شاه الملك في القرن الخامس عشر ، انتقل مقرّ البهمنيّين إلى بيدار حيث كان يبدو موقعها الإستراتيجي والوضع السائد فيها أكثر ملاءمة لممارسة الحكم من العاصمة الأولى . أدّى التدفّق المستمرّ للإيرانيّين ولأغراب آخرين متّقفين على هذه المدينة إلى إدخال المذهب الشيعي على وسط دينيّ متنوّع أصلًا . فاتّسعت الهوّة بين المسلمين المحلّيّين الذين ينتمون منذ القديم الى المذهب السني ، والمسلمين الأسياد الجدد الذين يمثّلون تيّارات دينيّة حديثة الدخول إلى المدينة . يمكننا أن نجد في ذلك سببًا من أسباب إضعاف سلطة البهمنيّين عقب الصراع المستمرّ للشرائم المتنافسة . وقد أدّى هذا الوضع ، بالرغم من جهود الوزير محمود قوام الذي اغتيل سنة ١٤٨١ ، إلى تقسيم الدولة إمارات مستقلّة تبعًا لعدد مقاطعاتها الاداريّة ، بكلام آخر ، تبعًا للتقسيم الجغرافي لهضبة الدّكَن . ففي بيدر نفسها ، حكم البريدشاهيُون ثم حلّ محلهم العادلشاهيّون في بيجاپور الذين كانوا مع القُطْبشاهيّين في كُلْكنده من أبرز ورثة البهمنيّين ، بينما بقي كل من العمادشاهيّين في برار والنظامشاهيّين في أحمدنَغَر ودونت‌آباد أقلّ شهرةً بالنسبة الى الأوّلين .

بهمنيّو كَلبرگه او غُلَبَرْغَه/ أحسن آباد

علاء الدين حسن بهمن شاه ٧٤٨-٧٥٩هـ/ ١٣٤٧ - ١٣٥٨م
محمّد الأول ٧٥٩-٧٧٦هـ/ ١٣٥٨-١٣٧٥م
علاء الدين مُجاهِد ٧٧٦-٧٧٩هـ/ ١٣٧٥-١٣٧٨م
داود ٧٧٩-٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م
محمّد الثاني ٧٨٠-٧٩٩هـ/ ١٣٧٨-١٣٩٧م
غياث الدين تَهْمتَن ٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م
شمس الدين داود الثاني ٧٩٩-٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م
تاج الدين فيروز شاه ٨٠٠-٨٢٥هـ/ ١٣٩٧-١٤٢٢م

بهمنيّو بيدر/ محمد آباد

شهاب الدين أحمد شاه ٨٢٥-٨٣٩هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٦م
علاء الدين أحمد الثاني ٨٣٩-٨٦٢هـ/ ١٤٣٦-١٤٥٨م
علاء الدين همايون ظالم ٨٦٢-٨٦٥هـ/ ١٤٥٨-١٤٦١م
نظام الدين أحمد الثالث ٨٦٥-٨٦٧هـ/ ١٤٦١-١٤٦٣م
شمس الدين محمد الثالث ٨٦٧-٨٨٧هـ/ ١٤٦٣-١٤٨٢م
شهاب الدين محمود ٨٨٧-٩٢٤هـ/ ١٤٨٢-١٥١٨م

◄ راجع المستند ٣٢.

بْهوپال ، من أقاليم الاتّحاد الهندي الحاليّة ، نطابق دولة إسلاميّة كانت قائمة منذ القرن الثامن عشر وكانت تُعتبر الثانية من حيث الأهميّة بعد حيدر آباد .

أنشأ هذه الدولة زعيم حربي پاثاني دخل في خدمة الأباطرة المغول ، فأسّس ، في العام ١٧٢٨ ، مدينة بهوپال التي حوّلها أحد خلفائه إلى عاصمة . بُنيت المدينة التي عرفت تطوّرًا سريعًا ، قرب بحيرَتَيْن مشهورتين بجمالهما ، وزُوّدت بقلعة اسمها «فتح غارت» (Fathgarth) . ضُمّت في ما بعد الى النواة الأصليّة المعروفة باسم «شهر خان» ، أي المدينة الملكيّة ، ضواح عديدة .

الميزة الأساسيّة لهذه الدولة أنّها خضعت ، إبتداءً من العام ١٨٢٠ حتى ١٩٢٦ ، لأميرات متزوّجات من أمراء ، لكنّ الحكم كان في أيديهنّ . قبلت الأميرات ، إبتداءً من العام ١٨٣٧ ، الوصاية البريطانيّة . وقد أدّى تقسيم شبه القارة الهنديّة مع الاستقلال إلى ذوبان دولة

بهوبال في الاتّحاد الهندي الذي دخلته عام ١٩٤٩، كما أدّى إلى هجرة آخر وريث للسلالة إلى باكستان.

بواتييه (معركة)، ١١٤هـ/ ٧٣٢م، اشتباك في أقاصي العالم الإسلامي حسم، بشكل قاطع وقف توسّع فتوحاته في أوروبا القرون الوسطى، وقد تناولته الروايات التاريخيّة العربيّة والإفرنجيّة من منطلقين مختلفين تمامًا.

اكتفت المصادر العربية القديمة بالتلميح إلى تلك المعركة التي اشتبكت فيها فِرَق يقودها أحد حكّام الأندلس المسلمين مع جيوش شارل مارتل (Charles Martel) المسيحيّة. ولا نقع على ذكر لها واضح، وإن مقتضبًا، إلّا في كتابات مؤرّخي القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد التي تحدّد موقعها في مكان وُسم بـ «بلاط الشهداء». وقد تعرّف البحّاثة الحديثون بدقّة إلى هذا المكان بالقرب من بقايا طريق رومانيّة، فربّما استمرّت ذكراها في التسمية الحالية لموقع موسّيه لا باتاي (Moussais-la-Bataille).

بودابست (هنغاريا)، تسمية ناتجة من اندماج مدينتين طالما كانتا منفصلتين على ضفتي نهر الدانوب، هما: بودا (في التركية بودين) وبست. وقد استعمل العثمانيّون الأولى منهما قاعدة لاحتلالهم العسكري لهنغاريا التي ضمّوها عنوةً إلى أمبراطوريّتهم.

بعد سقوط قلعة بودا في يد السلطان سليمان القانوني، أعيد النظر في التنظيم الإداري لهذه المنطقة الحدوديّة، بحيث أُخضِعَت لسلطة الباشا الذي أقام فيها منذ ذلك الوقت بصفة بيْلِرْبي (beylerbey)، وهي منطقة أساسيّة بالنسبة الى سياسة المواجهة العسكريّة المعتمدة في سبيل توسّع الإسلام نحو الغرب، وكذلك بالنسبة الى حماية المناطق التي تمّ الاستيلاء عليها. إنّ الاستحكامات الدفاعيّة للقلعة والقصر القديم، المدعّمة بوجود حامية وافرة العدد، قامت، منذ ذلك الوقت، بدور مهمّ. نتج عن ذلك تحوّل كبير في المدينة نفسها، وفي سكّانها الذين ينتمي أكثرهم إلى المهاجرين القادمين خصوصًا من مناطق البلقان التي اعتنقت الإسلام، كما في نشاطها التجاري والحرفي الذي كان مخصّصًا لتأمين حاجات الجيش والترسانة العسكريّة. إلّا أنّ هذا الواقع لم يُؤدِّ إلى ازدهار فن العمارة والحياة الثقافيّة.

لم يستمرّ وجود القلعة الإسلاميّة في بودا مدّة طويلة، فقد طُمس ذكرها بعد أن عَرَّضَتها الحصاراتُ المتلاحقة للخطر منذ بداية القرن السابع عشر، لا سيّما معارك ١٦٨٤ و١٦٨٦ التي أدّت إلى تدمير مبانيها وتهجير سكّانها المسلمين. إنّنا نكاد لا نجد اليوم إلّا بعض الشواهد، وذلك في بقايا آثار الحمّامات الضخمة، وفي بناء الضريح الذي كان، لمدّة طويلة، موضع إكرام، وهو القبر المسمّى غُل بابا.

◄ راجع المستند ٢٦.

بور سعيد (جمهوريّة مصر العربيّة)، مدينة مرفئيّة على البحر المتوسط تقع على مدخل قناة السويس. أُسّست سنة ١٨٥٩ واستمرّت في النمو حتّى أيامنا الحاضرة.

عندما اتُّخذ قرار بشقّ القناة في عهد والي مصر سعيد باشا، جرى حفر المنشآت البحريّة التي حملت اسمه وسمحت بنشوء تجمّع سكّاني جديد. وسرعان ما أصبحت المدينة - التي كانت قد بُنيت جزئيًّا على أعمدة وضمّت حيًّا أوروبيًّا استقرّت فيه مكاتب شركة قناة السويس - مركزًا تجاريًّا. لكن، على الرغم من احتضانها، في الأصل، مجموعات سكّانيّة من أجناس مختلفة، فقد تنامى الطابع الإسلامي لسكّانها على مرّ السنين، في حين كانت القناة التي أُنجزت في العام ١٨٦٩، في عهد الوالي إسماعيل الذي أصبح الخديوي والذي احتفى بتدشينها الشهير - تُفتح أمام الملاحة الدوليّة وتجني أرباحًا لا تخضع في غالبيتها للرقابة المصريّة. بعد قرن من الزمان، عانت بور سعيد المطامع، والصراعات المسلّحة الناتجة عنها وعن قرار الرئيس جمال عبد الناصر، سنة ١٩٥٦، بجعل القناة رهانًا رئيسًا لسياسته القوميّة.

بورسَه أو بروسّا (الجمهوريّة التركيّة): مدينة في غرب الأناضول، أُطلق عليها، في الغرب، اسم بُروسْ لمدة طويلة. أصبحت عاصمة الأمبراطوريّة العثمانيّة بين عامَي ٧٢٦ و٨٠٥هـ/ ١٣٢٦ و١٤٠٢م، وما تزال، حتّى اليوم،

تضمّ أعمالًا عمرانيّة تشهد على عظمة تلك المرحلة. إنّ بروسيا الأولمبيّة القديمة، التي أصبحت إحدى مدن بيزنطية الأساسيّة، كانت ما تزال تحت سيطرة هذه الأمبراطوريّة حوالى سنة ١٣٠٠، بعد أن كابدت الغزوات العربيّة - الإسلاميّة في القرنين السابع والثامن للميلاد، وبعد أن فتحها السلاجقة عام ١٠٧٥. وقد تبع هذه المرحلة صراعات مستمرّة حتى بداية القرن الثالث عشر. في هذه المرحلة، كانت بورسه قاعدة البيزنطيّين الصّلبة. ولاحقًا، طمع بها حكام الولايات العثمانيّة الصغيرة في بيتينيا، فافتحموها عام ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، وطردوا اليونانيين من قلعتها وأقاموا مكانهم، وحوّلوا الكنيسة البيزنطيّة مسجدًا.

في ما بعد، اتّخذ الأمير أورخان مدينة بورسه عاصمة له، وشيّد خلفاؤه مباني مختلفة حول القلعة، في الحي الذي أصبح مركز المدينة التجاري، وكذلك في ضاحية شكرجي، حيث شيّد مراد الأول خداوندكار، بين ١٣٦٦ و١٣٨٥، المجموعة المعماريّة المؤلّفة من طبقتين، وهي تضمّ المسجد-المدرسة، وتنتظم بشكل بارز، خلف واجهتها المبنيّة بحجارة جميلة على طراز قصور البندقيّة. ثمّ عرفت المدينة نهضة مميّزة على عهد بايزيد الأول يلديريم. وبُني المسجد الجامع ذو القباب المتعدّدة المعروف بـ«أولوجامع» بين ٧٦٧ و٨٠٣هـ/ ١٣٩٥ و١٤٠٠م، وكان يحمل اسم السلطان الذي توّج بعماراته إحدى أجمل تلال الموقع، وذلك بتشييده المجموعة التي تضمّ مسجدًا ومدرسة وضريحًا.

في سنة ١٤٠٢م، تعرّضت مدينة بورسه للنهب على يدي تيمورلنك بعد معركة أنقرة، فنقل العثمانيّون عاصمتهم إلى أدرنة. لكنّ المدينة نهضت سريعًا بعد أعمال السلب والنهب، وبقيت في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، مثلما كانت قبل غزو القسطنطينيّة وبعده، إحدى الحواضر الكبرى الثلاث في الأمبراطوريّة، مع اسطنبول وأدرنة. وكانت تستخدم مركز قيادة للحملات نحو الشرق، كما احتفظت، حتى القرن السابع عشر، بالقصر الذي كان السلطان يقيم فيه أحيانًا.

إنّ اهتمام السلاطين الذين ثمّروا إرث بايزيد الأول ببورسه، رغم الإجراءات السيّئة التي فرضها تيمورلنك على الدولة العثمانيّة التي تغلّب عليها، يظهر بوضوح في الصروح التي شيّدوها بذوْقهم، وأبرزها تلك التي بناها محمد الأوّل شلبي، منها الجامع الأخضر، والضريح الأخضر. وتعود التسمية إلى الخزف الذي زُخرف به المسجد من الداخل، والضريح من الداخل والخارج. وقد بلغ هذا الخزف في زخرفة الرواق الملكي والمحراب جودة عكست مهارة الحرفيّين الذين أتقنوا فنّهم في سمرقند، حيث اقتادهم تيمورلنك أسرى، قبل عودتهم إلى الأناضول. لكنّ هندسة المسجد وواجهته المبنيّة بالرخام الأبيض لم تكن أقل أهمية، في حين أنّ نماذج أخرى من الزخرفة بالخزف، مستعملة في التزيين الداخلي لمجموعة من الأضرحة الأميريّة، كانت تشكّل العنصر الأهم الذي يُغني أبنية مسجد المُراديّة الذي شيّده مراد الثاني، عام ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م، وهو آخر أثر عمراني تركه السلاطين العثمانيّون في بورصة.

في الواقع، منذ أن فقدت بورسه دورها عاصمة للعثمانيّين، أصبحت مركزًا اقتصاديًّا تلتقي فيه القوافل المحمّلة بضائع من أماكن مختلفة، ولا سيّما من تبريز، والتي تنقل بضائع عبر الأناضول نحو المتوسط في ما عُرف بـ«طريق الحرير». اليها تصل أيضًا بضائع الهند التي كانت تنقل عبر الطريق البحري الى الخليج العربي الفارسي. واليها أيضًا كان يأتي التجّار الإيطاليّون ليحصلوا على منتجات الشرق.

غير أنّ ازدهار بورسه بدأ يميل إلى الانحدار في القرن الثامن عشر، بسبب منافسة أسواق أخرى، وانخفاض مستوى إنتاجها من النسيج، في مقابل تدفّق القطنيات الآتية من أوروبا. وكان لا بدّ من انتظار العصر الحاضر، بعد جلاء الجيوش اليونانيّة عام ١٩٢٢ - وكانت قد احتلّتها عام ١٩٢٠ - لتعود بورسه مركزًا تجاريًّا، وبخاصة صناعيًّا مزدهرًا، ويبرز في الوقت نفسه تراثها المعماري الذي يعود إلى العهد العثماني الأوّل، لا سيّما نماذج المساجد المسمّاة المساجد-الزوايا التي لا تشبهها أيّ مجموعة في أيّ مكان آخر.

◄ راجع المستندين ٢٧ و٨١.

بوركو ← تشاد (جمهورية-).

بوركينا فاسو (جمهورية بوركينا فاسو الديمقراطيّة الشعبيّة)، مساحتها ٢٧٤ ألف كلم². عاصمتها أواغادوغو. دولة مستقلّة في أفريقيا السوداء الساحليّة. يبلغ عدد سكّانها حوالى التسعة ملايين نسمة، يشكّل المسلمون فيها أقليّة تناهز ربع هذا العدد.

إنّ هذه المستعمرة الفرنسيّة القديمة في الفولتا العليا تُحيط بها، لجهة الشمال، دول أكثر سكّانها من المسلمين، مثل جمهوريّة مالي والنيجر، وتجاورها جنوبًا دول أخرى ذات أقليّات مسلمة كبيرة، مثل جمهوريّات بنين وتوغو وغانا، ولا سيّما ساحل العاج. إنّها تعكس، من الناحية الدينيّة، حصيلة التطور الفريد الذي مرّت به البلاد حتّى عهد قريب.

في نهاية القرن الثامن عشر، بدأ الإسلام يلعب دورًا سياسيًّا في المملكة، بعد أن انتشر في الأوساط التي تتعاطى الأعمال التجاريّة، وكان ينتمي إليه، منذ عهد بعيد، البول أو الفُلبة، سكّان المنطقة الشماليّة، الذين ارتبطوا لاحقًا بأمبراطوريّة سوكوتو. وقد مارس الاسلام تأثيرًا قويًّا غربيّ البلاد في القرن التاسع عشر، وذلك بسبب الممالك السوداء التي تديّنت به. إنّ المكانة التي شغلها المسلمون استمرّت في النموّ والازدياد بعد الاحتلال الفرنسي عام ١٨٩٧، كما بعد إعلان الجمهوريّة المستقلّة عام ١٩٦٠.

بورنو (مملكة أو أمبراطوريّة -)، إمارة إسلاميّة قديمة في أفريقيا الغربيّة السوداء. كان مركزها في المنطقة الواسعة التي تحمل الاسم نفسه شمالي جمهوريّة نيجيريا الفدراليّة الحاليّة. بقيت، حتّى العصر الحاضر، خاضعة لسلالات حاكمة متتابعة.

بلغت أمبراطوريّة بورنو أوج مجدها في القرن الخامس عشر، بعد أن استقرّ فيها حكام كانِم الذين طُردوا من مقاطعاتهم. ومع أفول أمبراطوريّة الصُنْغاي، امتدّت سيطرتهم غربًا حتى منطقة كانو، وشمالًا حتى أيير في قلب الصحراء، وشرقًا إلى ما وراء بحيرة تشاد، إذ كانت مملكة كانم خاضعة لسيطرتهم.

ترافقت نهضة بورنو، القائمة في الدرجة الأولى على الغزوات الحربيّة، مع نموّ الأنشطة التجاريّة المعهودة في الأمبراطوريّات السودانيّة في منطقة السباسب، ومع الزيادة في عدد معتنقي الإسلام. وفضلًا عن تأثير المذهب المالكي السائد حتّى ذلك الوقت، هناك تأثير الطُرق الصوفيّة مثل القادريّة والتيجانيّة، وفي الوقت نفسه ازداد الإقبال على أداء فريضة الحجّ. إنّ الانحطاط الذي أصابها، بخاصّة في القرن التاسع عشر، كان موازيًا لنموّ أمبراطوريّات البول (Peuls) أو الفُلبة المنبثقة من الجهاد، ولضراوة حملاتهم. لكنّ جهود رجل دين مثقف محلّي، برز زعيم حربٍ نشيطًا، هو الكانمي، ضمنت المقاومة ضد سوكوتو، كما ضمنت تأسيس سلالة حاكمة جديدة تصدّعت بدورها حوالى نهاية القرن التاسع عشر، مع هجمات أخرى كان مصدرها منطقة الأوداي هذه المرّة، أنهاها الانتصار الفرنسي في العام ١٩٠٠. إنّ فرعًا من أسرة كانمي، وهي الأسرة الحاكمة الأخيرة، أعيد إلى الحكم بفضل سلطة الإحتلال البريطاني، ليقيم قرب عاصمة مايدوغاري القديمة التي أصبحت المركز الإداري الحالي لمنطقة بورنو في نيجيريا.

البُوريّون، (٤٩٧هـ-٥٤٩هـ/ ١١٠٤-١١٥٤م)، سلالة حاكمة من الأتراك الأتابكة، نشأت من تجزئة أمبراطوريّة السلاجقة الكبار. كانت عاصمتها دمشق لكنّها لم تعمّر طويلًا.

أسّسها طُغْتكين، أتابك (أي الوصيّ على) دُقاق، إبن الأمير السلجوقي تُتُش، وهو الملك الأخير من سلالة السلاجقة السوريّين التي لم تحكم مدةً طويلة. أخذت سلالة البوريّين اسمها من ابن طغتكين المسمّى «بوري»، الذي حكم بين عامي ٥٢٢هـ-٥٢٦هـ/ ١١٢٨-١١٣٢م. خلف بوري أبناؤه الثلاثة، ثمّ أحدُ أحفاده الذي ترك السلطة بيد «أونور» أتابكه الخاص، غير أنّ المرحلة الأهمّ كانت بين ٤٩٧-٥٢٢هـ/ ١١٠٤-١١٢٨م، أي عهد طغتكين نفسه، وهو المملوك القديم الذي تزوج من صفوة المُلك، والدة ولي العهد القاصر، بعد أن كان مستشاره، ثمّ حصل بعد ذلك على الميراث. وقد نجح لسنوات في اتّباع سياسة استقلال حقيقي لسوريا الجنوبيّة، إزاء الدولة المنافسة القائمة في حلب، وإزاء المملكة المسيحيّة في القدس التي استطاع أن يعقد معها تحالفات موقّتة، وإزاء سلطة الخليفة في بغداد الذي

منحه براءة التعيين رسميًا عام ١١١٦م. لكنّه، مع ذلك، أخفق في إنقاذ مدينة صور الساحليّة المهمّة من حصار الفرنج، فأرغمت على الاستسلام عام ١١٢٤م.

بعد وفاة طغتكين، أصبح استمرار إمارة دمشق أمرًا صعبًا، فهو الذي أسّسها ولكنّه ترك لخلفائه مهمّة الدفاع عنها بوجه المطامع الجديدة من جانب الزنكيّين. منذ ذلك التاريخ، أصبحت سلطة البوريّين مهدّدة، في الوقت نفسه، من قِبل فرنج الدولة اللاتينية الذين ضربوا الحصار حول دمشق عام٥٤٣هـ/١١٤٨م، ومن قبل أميري سوريا الشماليّة المسلمين اللذين حلّا محل السّلاجقة، أي زنكي وابنه نور الدين.

لم يتردّد أسياد دمشق، في بعض المناسبات، من التحالف مجدّدًا مع الفرنج لإبعاد هجمات خصومهم، لكنّهم انتهوا إلى الاستسلام أمام حملات نور الدين الذي دخل إلى مدينة تتآكلها صراعاتها الداخليّة. فطوال هذه المرحلة الأخيرة اصطدم البوريّون، الذين لم يحظوا بإقرار البورجوازيّة المحلّية بسلطتهم، بميليشيات نشأت في المدن، من جهة، وبجماعات إسماعيليّة، من جهة أخرى، ما ساهم بشكل فعّال في إضعافهم.

البوصيري، شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد **الصّنهاجي** (٦٠٩هـ-٦٩٤هـ/١٢١٢-١٢٩٤م)، شاعر مصري بربريّ الأصل، ألّف بخاصة أشعارًا دينيّة.

ولد في صعيد مصر حيث درس على مرشد صوفيّ، ثمّ أقام تباعًا في القدس فالمدينة المنوّرة، فمكّة، قبل أن يستقرّ في بلبيس. مات في الاسكندريّة.

خطّاط ومحدّث، قامت شهرته بوجه خاص على قصيدته في مدح النبي (ﷺ) وعنوانها البُرْدَة (الرداء الذي كان يلبسه الرسول) (ﷺ). وقد حظيت شهرة واسعة. إن أبيات هذه القصيدة التي تناولتها شروح متعدّدة، كثيرًا ما تُلقى في المآتم، أو تُدرَج في التعاويذ.

بومباي (الاتّحاد الهندي)، حاضرة ومرفأ عصري كبير، يقع على الساحل الغربي للهند، حيث بقيت أقليّة مسلمة ناشطة، بعد التقسيم الذي حصل عام ١٩٤٧ ونشوء دولة باكستان.

كان هذا الموضع انعكاسًا لتاريخ المنطقة منذ أوائل القرون الوسطى، عندما كانت منطقة غجرات، التي تشكّل القسم الرئيسي من البلاد، تستقبل أولى الجماعات العربيّة - الإسلاميّة الآتية بحرًا. واستمرّت بعد ذلك، أي منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، تحت حكم الأمراء المسلمين، خاضعة، في الوقت نفسه، لتأثيرات متتابعة لتيّارات دينيّة متعدّدة. من هنا تعدّدية المظاهر الاجتماعيّة والقوميّة المتّشحة برداء الإسلام المتلوّن بتأثيرات مختلفة.

إنّ أغلبيّة المسلمين، ولا سيّما السنّة، كانوا خاضعين لضغوط الجماعات الصغيرة الشيعيّة الإسماعيليّة، البُهرة والخوجا، الذين يحتلّون في المجتمع الحالي مركزًا مرموقًا، بعد أن قاموا بدور في تحديث الهند الإسلاميّة. وليس من باب الصدفة أن تكون بومباي المدينة التي اعتُرف فيها بحقوق آغا خان عام ١٨٦٦ بقرار من محكمة انكليزية، والمدينة التي استطاعت أسرة تيابجي فيزي، وهي عائلة من البُهرة السليمانيّين، أن تسخّر لأغراضها الشخصيّة السياسيّة-الدينيّة، تكيُّفًا إجتماعيًّا وثقافيًّا غربيًّا مستمرًّا، في الوسط البريطاني، طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر

◄ راجع المستندين ٣٣ و٣٥.

البوسعيديون ← مسقط (سلاطين-).

البوسنة، أو البوسنه - الهَرْسَك (بالتركية بوسنه وهِرْسِك إيلي)، منطقة جبلية شمالي البلقان، تقع غربي صربيا، عرفت أربعة قرون من السيادة الإسلاميّة في ظلّ الأمبراطوريّة العثمانيّة، وتميّزت بأهميّة المجموعة الإسلاميّة فيها.

تغطي مساحتها التي تبلغ ١٢٨ ٥١ كلم٢ أراضي مقاطعة البوسنة والهرسك التي كانت الأمبراطوريّة النمساويّة - الهنغاريّة قد أنشأتها في عام ١٨٧٨، بعد أن ضمّت إليها السنجقين العثمانيّين اللذين كانا يحملان الإسمين نفسيهما، وقد أصبحت لاحقًا، عام ١٩١٨، جزءًا من مملكة صربيا وكرواتيا وسلوفانيا التي تأسّست في هذا التاريخ. بين الحربين العالميّتين أصبحت البوسنة وحدةً إداريّة تابعة ليوغوسلافيا، وتحوّلت، منذ

١٩٤٦، إلى جمهوريّة إشتراكيّة، في إطار جمهوريّة يوغوسلافيا الفدراليّة التي ضمّت ست جمهوريّات. تعود ميزتها الأساسيّة إلى عدد سكّانها الذين حافظوا على انتمائهم إلى الإسلام والذين تفوق نسبتهم أربعين بالمئة، في جماعة ذات طابع قومي، مستعدّة لتحمّل مسؤوليّات سياسيّة، والتميّز عن أقلّيّتين أخريَيْن هما الصرب من جهة، والكرواتيّين من جهة أخرى.

إنّ «الأمّة» الإسلاميّة بالمعنى المألوف لـ«الملل» أو لـ«القوميّات الطائفيّة» في السلطنة العثمانيّة، كانت تتألف بخاصّة من الصقالبة الذين اعتنقوا الإسلام زمن الاحتلال التركي، بمقتضى ظروف تاريخيّة خاصّة بالبلاد. كانت ظروف الغزو العثماني لهذه المنطقة مختلفة عن ظروف غزو مقاطعة صربيا المجاورة التي وقعت في تبعيّة كاملة، بعد هزيمة جيشها في كوسوفو منذ سنة ١٣٨٩. وقد استطاعت مملكة البوسنة التي بدأت السيادة التركيّة تُمارس عليها في النصف الأول من القرن الخامس عشر، أن تصمد حتى ١٤٦٣، في حين أن هجمات السلاطين كانت تتوالى عليها بشكل منظّم، رغم تدخّلات هنغاريا. وكانت تخضع لتنظيم إداري مركزي يسهّل على الإقطاعيّين البوسنيّين الانضمام إلى النظام الجديد. نتج عن ذلك تحوّل جذري في النظام الاجتماعي قوامه اعتناق الإسلام ونهضة اقتصاديّة فعليّة. إنّ المراحل المتعدّدة لهذا التحوّل المدعّم بمبادرات الولاة الأتراك، وبالتأثير الثقافي للفرق الصوفيّة، ما تزال غامضة، وهي موضوع جدل بين المؤرّخين. لكنّ نتائجها ظهرت في القرن السادس عشر، مع ازدهار شبكة من المدن وتنظيم عسكري وإداري فعّال.

إنّ تحجّر المؤسّسات العثمانيّة لاحقًا، والأزمات الماليّة، وتراجع السلطنة، وانهزامات جيوشها المتتابعة، كل ذلك لم يمنع من أن تصمد في البوسنة، أكثر من أيّ مكان آخر، طبقة محليّة إسلاميّة حاكمة، لم يكن لها ضلع في الثورات الشعبيّة خلال القرن التاسع عشر. وقد نجحت في الحصول من الحكومة النمساويّة - الهنغاريّة على وضع مميّز يضمن لها، بشكل خاص، إدارة داخليّة مستقلّة لشؤونها الدينيّة، ولأموال الأوقاف التي يرتكز عليها عملُ منظّماتها المستقلّة، في ما يتناول التعليم وتطبيق الشريعة. في الوقت نفسه، استمرّ فيها، أكثر من أيّ مكان، طابع الحضارة الإسلاميّة التي مهرت النتاج الأدبي، وبرزت في الأساليب المعماريّة وفي تنظيم المدن، في الأحياء القديمة من سارايفو وبانجا لوكا أو مستار. من هذا الوضع الموروث تتجت الصعوبات المأسويّة أحيانًا، والمواجهات الحربيّة التي طبعت أرض البوسنه - الهرسك بعد انحلال الاتّحاد الفدرالي اليوغوسلافي سنة ١٩٩٠.

البول أو **الفُلبَة**، من سكان أفريقيا السوداء الغربيّة المسلمين، وقد أدّوا دورًا تاريخيًّا متزايد الأهميّة منذ القرون الوسطى حتى الفترة المعاصرة. استقرّت هذه القبائل المكوّنة من رُعاةٍ رُحّل من العرق الأبيض ومن أصل نوبي، منذ ما قبل التاريخ، في الصحراء الكبرى قبل أن تتسلّل إلى سهوب المنطقة التي كانت تُعرف بالسودان الساحلي. استقرَّ الفُلبة للمرّة الأولى، منذ القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، في فوتاتورو في منطقة السنغال الحالي، ثمّ انتشروا ببطء نحو الشرق حيث أسّسوا أمبراطوريّات متعاقبة، في حين كان يتوطّد، في كل مرّة، التفوّق العسكري والتصلّب الديني لهؤلاء الفاتحين الجدد المتأثّرين بتعاليم الطرق الصوفيّة المتخاصمة مثل القادريّة والتيجانيّة.

من أمبراطوريّة «البول» في ماسّينا التي أُسّست في نهاية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، تفرّعت الدول التي نشأت اعتبارًا من القرن الثامن عشر في فوتا دُجالون وفي فوتاتورو وفي المقاطعات الشماليّة لنيجيريا الحاليّة، أي في غاندو وسوكوتو كما في أدماوا، وصولًا إلى الذروة الموقّتة مع أمبراطوريّة الحاج عمر. خلال كلّ فترة، كان جهاد «البول» يؤدّي إلى مرحلة جديدة من الأسلمة مبنيّة على جهود الإصلاحيّين ذوي الطموحات السياسيّة والعقائديّة في آن، وعلى تنظيم شبه إقطاعي لسلطة خاصة بـ«البول». من جهتها، أصبحت لغة «البول» عنصر ثقافة إسلاميّة شكّلت باستمرار وسيلة التعليم التقليدي، إلى جانب اللغة العربيّة التي غالبًا ما احتفظت بالتعليم المكتوب.

بون ← **عنّابة**.

البُوَيْهيّون (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م)، سلالة من الأمراء الإيرانيّين يعود أصلهم إلى بلاد الديلم، حكموا، مع بقائهم منقسمين كلّيًا إلى فروع عائليّة عدّة، باسم الخليفة، الأمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة معترفين بسلطة العباسيّين الشرعيّة.

اعتنقوا المذهب الشيعي، وعلى الرغم من الصراعات الداخليّة بين أفراد جماعتهم، استطاعوا أن يؤسّسوا نظامًا ذا جوانب مشتركة، وذلك ناتج عن خياراتهم الدينيّة التي أدّت إلى نزاعات اجتماعيّة، وعن ميلهم إلى رعاية الآداب وما نتج عنها من تطوّر فنّي وثقافيّ.

منذ العام ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م، أُرغم الخليفة العباسيّ الراضي، الذي وقع فريسة صعوبات ماديّة مستعصية، على أن يعهد بسلطاته العسكريّة والماليّة إلى الأمير ابن رائق الذي حصل على لقب «أمير الأمراء». وفي سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، آل هذا اللقب إلى أحمد بن بويه، وهو أحد أفراد أسرة البويهيّين، المتمثّلة آنذاك بثلاثة زعماء عسكريّين متحدّرين من أب واحد (بويه)، واحتفظت سلالته، من بعده، باللّقب طوال قرن من الزمن؛ فضلًا عن السلطة التي كان يمارسها أفراد هذه الأسرة في إماراتهم الخاصّة، الواقعة بين فارس وكرمان والجبال وخوزستان، بدون أن ننسى سلطتهم على العراق نفسه. إنّ القطاع الخاضع مباشرة لسلطة الخليفة - وهو الذي يمتدّ على أودية دجلة والفرات الأسفل وقارون حتّى التحصينات الجبليّة غربيّ إيران - شكّل مملكة حقيقيّة للبويهيّين، لكنّها لم تتوحّد فعليًّا إلّا في عهد الأمير عضد الدولة الذي سيطر عليها منذ العام ٣٦٦هـ/ ٩٧٧ حتّى ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م. ولم يكفّ الأمراء البويهيّون عن تنازع مناطقها في ما بينهم، مع إقرارهم المبدئي بسلطة من يحمل منهم لقب أمير الأمراء ويقيم في بغداد. لم تكن سلطة البويهيين الرسميّة على هذه القطاعات الواسعة موضوع نزاع مع الخليفة، ولم تتأثّر إلّا في حالات نادرة بالتوتّر المفرط الذي طبع العلاقات بين الخليفة وأمير الأمراء، كما لم تتأثّر بالعلاقات بين هؤلاء الأمراء الإيرانيّين ومختلف عناصر الشعب.

هذا التوتّر المستمرّ مردّه أوّلًا إلى أنّ أمير الأمراء البويهي، بعد موافقته على المحافظة على الخلافة العبّاسيّة السنيّة والدفاع عنها، من دون أن ينكر إيمانه بالشيعة الإماميّة الاثني عشريّة، لم يعد له من هدف إلّا أن يكون طليق اليد ليحكم على هواه. لكنّه لم يكن ليحقق ذلك بدون أن يفرض إرادته على الخليفة الذي كان يُجهد نفسه في مقاومته. لذا كان يعمد إلى خلعه وتعيين خليفة آخر أكثر طواعية. أمّا الخليفة الذي كان يجد نفسه مرغمًا على الخضوع لأمير الأمراء، فلم يكن يفقد الأمل في استعادة استقلاله. هذا ما قام به الخليفة القادر، عندما نال دعم سلالة الغزنويّين الحاكمة المستقرّة حديثًا في خراسان، ليدين علنًا العقائد التي يعتنقها حُماتُه (البويهيّون).

من جهة أخرى، لم تلق محاولات البويهيّين الجاهدة في تأبيد العقيدة الإماميّة موافقة الشعب العراقي. إنّ الاحتفاء بالأعياد المختصّة بالشيعة كذكرى عاشوراء (استشهاد الحسين)، وذكرى تولية الرسول (ﷺ) للإمام عليّ في غدير خُمّ، أثار ردّات فعل عنيفة في العاصمة بغداد، ما دعا إلى تعليقها مرّات كثيرة، ثمّ إلى إلغائها نهائيًّا في مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. فضلًا عن ذلك، فإنّ التوازن السياسي الهشّ القائم بين الخليفة وأوصيائه كان كذلك حصيلة التدهور المستمرّ في الوضع الإداري والمالي في ذلك العصر. كان البويهيّون يعتمدون على جيشهم الخاصّ المؤلّف من ديْلميّين، وكانت وحداتهم كثيرًا ما تصطدم بالقوّات العسكريّة المؤلّفة من العبيد الأتراك التي كانت تعتمد عليها آنفًا قوّة الخليفة. وكان هذا الجيش الديلمي يتطلّب عطاءات ماليّة ضخمة، ما دفع المسؤولين، المضطرين لتأمينها له، إلى تطبيق نظام ما لبث أن ظهرت سيّئاته، وهو التنازل لقادة الجيش، عوضًا عن أجرهم المستمرّ، عن أراضٍ تشكّل إقطاعًا لهم.

لقد سهّل هذا النظام الإجراءات الإداريّة، لكنّه أفسح في المجال لتجاوزات كثيرة، فكانت نتائجه وبالًا على الوضع الإقتصادي؛ إذ لم يكن الإقطاعيّون يستغلّون المزارعين وحسب، بل كانوا يمتنعون حتّى عن دفع الحدّ الأدنى من الضرائب المتوجّبة عليهم إلى خزينة الدولة، ما أدّى إلى إفقار الدولة وسوء استعمال الأراضي.

وعلى خطّ مُوازٍ، لم يكن الوضع التجاريّ مزدهرًا، فالحروب المتكرّرة بين أفراد الأسرة البويهيّة جعلت طرقات العراق قليلة الأمان بالنسبة إلى القوافل، فبدأ التجّار يتخلّون عنها مفضّلين طرقات مصر الفاطميّة التي كانت تسعى إلى أن تجعل من مرافئها المحطات النهائيّة للتجارة مع الشرق الأقصى. إنّ ازدهار العراق انحطّ بشدّة، في حين كانت مدينة بغداد تتكبّد، هي أيضًا، نتائج اختلال الأمن: إنّ كثيرًا من أحيائها التي تهدّمت في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أعيد بناؤها، لكن من دون أن تستعيد مطلقًا بهاءها القديم.

إنّ هذا التغيّر الذي لم يُصب محيط البويهيّين المباشر، لم يؤثّر في الحياة الثقافيّة والفنيّة التي أنعشتها رعايتهم للآداب والفنون. ففي المراكز الفكريّة التي نشأت في إيران، لا سيّما في الرَّيّ وشيراز وأصفهان حيث يقيم الأمراء البويهيّون، كان الجوّ الجديد الذي أراده النّظام قد أتاح لعلماء الشيعة، كما لمفكري المعتزلة، حرّية التعبير. في الوقت نفسه، استطاع عدد من المثقّفين غير المنتمين إلى مذهب ديني معيّن أن يتأثروا بروح الفلسفة التي كانت تزدهر في بلاط بعض الأمراء. وقد نتج عن ذلك مصنّفات قيّمة وضعها علماء وفلاسفة مثل ابن سينا والتوحيدي ومسكويه، أو أُدباء ومفهرسون كالأصفهاني وابن النديم وسواهما. وثمّة جغرافيّون ورحّالة مثل المَقْدِسي وابن حوقل، ومؤرّخون مثل هلال الصابئ، من دون أن ننسى أعمال المؤلّفين التقليديّين، مثل ابن بطّة، التي جعلت من هذا العصر أكثر العصور تألّقًا بالنسبة إلى الفكر العربيّ الإسلامي.

هذا الازدهار الأدبي البارز كان نتيجة تشجيع البويهيّين أنفسهم، أو تشجيع وزرائهم المشهورين أمثال ابن العميد وابن عبّاد. وقد تزامن مع انجازات في مجال العمارة والحرف اليدويّة، كانت شاهدة على ذوق مرهف، وكانت في رقيّها على نقيض من الضعف البيّن للنظام السياسيّ. إنّ معظم الآثار العمرانيّة قد اندثرت باستثناء بقايا المساجد المذكورة، منذ زمن بعيد، في مدينة نائين الريفيّة الصغيرة، أو التي كشفتها حديثًا حفريّات مدينة أصفهان. لكن، كما سبق أن أكّدنا، هذه الآثار تدلّ على جودة الزخرفة المبتكرة التي تشهد عليها الزخارف المُؤَسْلَبة (stylisés) الإيرانيّة الأصل، سواء النباتيّة أو الكتابيّة وأحيانًا الحيوانيّة التي كانت تزيّن بعض المنسوجات أو القطع العائدة إلى ذلك العصر، والتي تكوّن المرجعيّة الأساسيّة التي سيُطبع بها الفن السلجوقي في مرحلة ازدهاره.

إنّ التوزّع الجغرافي والزمني لهذه الإنجازات المتنوّعة، ذات الطابع الثقافي، يشهد على وفرة المراكز التي نشأت حول أفراد ينتمون إلى هذه السلالة الحاكمة والمتشعّبة إلى أقصى حدّ. إذًا، على الرغم من وجود التداخل بين إمارة وأخرى، من السهل، على وجه التقريب، التمييز بين أربعة فروع أساسيّة حكمت فارس وخوزستان وكرمان والجبال حيث ظهر منذ سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م حتّى ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، فرعان مميَّزان، كانت مدينة الريّ مركز أحدهما، أمّا مركز الآخر فكان مدينتا همذان وأصفهان، وبعدئذٍ العراق.

بويهيّو فارس وخوزستان

عماد الدولة عليّ	٩٣٤-٩٤٩م
عضد الدولة فنّاخُسْرو	٩٤٩-٩٨٣م
شرف الدولة شيرزيل	٩٨٣-٩٩٠م
صمصام الدولة مَرْزُبان	٩٩٠-٩٩٨م
بهاء الدولة فيروز	٩٩٨-١٠١٢م
سلطان الدولة	١٠١٢-١٠٢١م
مشرّف الدولة حسن	١٠٢١-١٠٢٤م
عماد الدين مرزبان	١٠٢٤-١٠٤٨م
الملك الرحيم خسرو فيروز	١٠٤٨-١٠٥٥م
فولاد سُتون	١٠٥٥-١٠٦٢م

بويهيّو كِرْمان

معزّ الدولة أحمد	٩٣٦-٩٤٩م
عضُد الدولة فنّاخسرو	٩٤٩-٩٨٣م
صمصام الدولة مرزبان	٩٨٣-٩٩٨م
بهاء الدولة فيروز	٩٩٨-١٠١٢م
قوام الدولة	١٠١٢-١٠٢٨م
عماد الدين مرزبان	١٠٢٨-١٠٤٨م

بويهيّو الجبال

عماد الدولة علي	٩٣٢-٩٤٦م
ركن الدولة حسن	٩٤٦-٩٧٧م

بويهيّو العراق[٣٨]

معز الدولة أحمد	٩٤٥-٩٦٧م
عزّ الدولة بَختيار	٩٦٧-٩٧٨م
عضد الدولة فناخسرو	٩٧٨-٩٨٣م
صمصام الدولة مرزبان	٩٨٣-٩٨٧م
شرف الدولة شيرزيل	٩٨٧-٩٨٩م
بهاء الدولة فيروز	٩٨٩-١٠١٢م
سلطان الدولة	١٠١٢-١٠٢١م
مشرِّف الدولة حسن	١٠٢١-١٠٢٥م
جلال الدولة شيرزيل	١٠٢٥-١٠٤٤م
عماد الدين المرزبان	١٠٤٤-١٠٤٨م
الملك الرحيم خسرو فيروز	١٠٤٨-١٠٥٥م

بيالِ باشا، ت ٩٨٦هـ/١٥٧٨م، أميرال البحرية العثمانيّة، بدأ مهنته في عهد سليمان القانوني وأحرز انتصارات عدّة في القرن السادس عشر.

بيال باشا من أصل كرواتي عُيِّن في البدء في خدمة القصر في اسطنبول حيث اضطلع بمهام متعدّدة، ثمّ أصبح أميرالًا في العام ١٥٥٤، ولمع اسمه منذ ١٥٥٥، عندما استولى على وَهران ثمّ على بنزرت. في العام ١٥٦٠، انتصر على الأسبان واحتلّ جزيرة جزْبَة في خليج قابس جنوبيّ تونس حاليًّا، فعاد عودة الفاتحين إلى اسطنبول حيث تزوّج، سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م، بإحدى حفيدات السلطان سليمان القانوني. في العام ١٥٦٤، قام بمهاجمة مالطا، لكنّه لم يُفلح هذه المرّة، ثمّ استولى سنة ١٥٦٦ على جزيرة كِيُّو. غير أنّه فقد حظوة السلطان سليم الثاني. على الرغم من ذلك، شارك في فتح قبرص. عند وفاته في العام ١٥٧٨، دُفن في اسطنبول بالقرب من المسجد الذي انتهى العمل فيه سنة ١٥٧٤ والذي كان هو قد عهد ببنائه إلى المهندس الشهير سنان. ما يزال هذا المسجد إلى اليوم مثار إعجاب لطرازه المعماري ولزينته الخزفيّة الداخليّة.

بيانيّة (فرقة) ← **الكَيْسانيَّة**.

بَيْبَرْس، الملك الظاهر ركن الدين البُنْدُقداري الصالحي، ٦٢٠-٦٧٦هـ/١٢٢٣-١٢٧٧م، رابع سلاطين مماليك سوريا ومصر، حكم من سنة ١٢٦٠ حتى سنة ١٢٧٧م، مَتَّن خلال هذه السنوات الحاسمة السلطة السياسيّة الجديدة التي ظهرت سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. دخل وهو ما زال حيًّا عالم الأسطورة من خلال سرد ملحمي لمآثره.

ينتمي بيبرس إلى مماليك قِبجاق[٣٩] الذين اشتراهم سلطان مصر الأيوبي الملك الصالح، من هنا كان لقبه الصالحي. تميّز بيبرس خلال معركة المنصورة ضد الصليبيّين التي انتهت بالقبض على الملك لويس التاسع. واعتبر بعد ذلك، سنة ١٢٥٠م، مسؤولًا عن اغتيال الشاب توران شاه، آخر ممثل لأسرة الأيوبيّين.

تميّز من جديد في معركة عين جالوت التي أدت الى إيقاف غزو المغول بقيادة هولاكو، وشارك في المؤامرة التي انتهت بقتل السلطان قُطُز فكان خليفته.

عندما أصبح بدوره سلطانًا سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، بدأ النضال ضدّ المغول الذين بقي خطرهم قائمًا وضدّ الفرنج الموجودين في الشرق (الأدنى)، من دون أن يهمل، بالطبع، إعادة تنظيم المملكة التي آلت اليه. بذل نشاطًا عسكريًّا بقي مشهورًا، إذ توالت الحملات العسكريّة تلو الحملات، واهتمّ بتحصين قلاع المدن داخل سوريا، وبتحسين ظروف القتال، إذ أنشأ شبكة بريد مدهشة الفعاليّة. وسعى أيضًا، بشكل تدريجي، إلى نزع إقطاعات الأمراء الأيوبيّين التي كانوا يملكونها في سوريا واعطائها في بادئ الأمر إلى المماليك المعروفين بالصالحيّين مثله، ومَنح هؤلاء الوظائف الحكوميّة الأساسيّة. ثمّ أوكل بهذه الوظائف عبيده العسكريّين الذين جنّدهم بنفسه وربّاهم على خدمته وأصبحوا يُعرفون بالظاهريّين. ونجح بيبرس أخيرًا في إعطاء المُلك الجديد شرعيّة مُسلّمًا بها، وذلك باستقباله في القاهرة أحد أعضاء الأسرة العبّاسيّة الذي نجا من المذبحة التي تعرّض لها العبّاسيّون إثر سقوط بغداد. نوديَ بهذا الأمير العبّاسي خليفة، وإن كان خليفة من دون أيّة سلطة. لكنّ هذا التعيين ضَمنَ للدولة المصريّة وضعها كدولة إسلاميّة بامتياز، وجعلها تفرض سيطرتها على الأماكن المقدّسة: المدينة المنوّرة ومكة المكرّمة.

كذلك ساهمت نتائج ايجابيّة أخرى في دعم سياسة بيبرس. فكلّ الحملات التي شنّها تقريبًا ضد الإيلخانيّين الذين حاولوا مرارًا شنّ هجمات معاكسة، وضد أرمن

كيليكيا حلفائهم، تكلّلت بالنجاح. فقد تمكّن خلالها من الاستيلاء على مرفإ أياس سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، ومن نزع قلعة الحشّاشين الحصينة حول مصياف في شمال سوريا من الإسماعيليّين. أما بالنسبة إلى الفرنج، فقد نجح بيبرس شيئًا فشيئًا، بين سنتي ٦٦٣-٦٦٩هـ/١٢٦٥-١٢٧١م، في أن يستعيد منهم مدنًا وقلاعًا عديدة مثل أرسوف، صفد، يافا، الشقيف وأنطاكية التي كان لسقوطها أثر كبير، وأخيرًا قلعة الحصن أو حصن الأكراد.

وقُبيل موته في دمشق، شنّ بيبرس حملة ضد سلاجقة الروم في الأناضول أدّت الى احتلال قيصرية كَبَدوقية التي تُعرف اليوم، بـ«قيصري». ولم تُشنّ بعد ذلك أيّة حملة في هذا الاتّجاه، لكنّ السلطان النشيط بيبرس ترك بعد موته مملكةً سوريّة - مصريّة في وضع مزدهر، بالقرب من ممتلكات الفرنج التي اقتصرت على حزام ساحلي ضَيّق.

البيت (أهل -) ← آل محمّد.

بيت الله ← الكعبة.

بيت المقدس ← القدس.

بيتولا (مقدونيا)، مدينة كانت تعرف قديمًا باسم «مونستير»، وهي تقع اليوم على حدود جمهوريّتي اليونان وألبانيا. قامت بدور بارز في ظلّ السيطرة العثمانيّة، وما تزال تحتفظ ببعض آثار تلك الحقبة.

انضمّت إلى العالم الإسلامي منذ سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، قبل الانتصار التركيّ الحاسم في كوسوفو بفترة وجيزة، حين أسماها أسيادها الجدد مونستير.

لم تتوقّف بيتولا الفروسطيّة التي كانت موضع صراع بين بلغاريا وصربيا، والتي كانت آنذاك في أوج ازدهارها بالقرب من موقع هرقليا لنسيستيس القديمة، عن الاستفادة من المنافع التي أكسبها إيّاها موقعها الجغرافي، في ظلّ السلطنة العثمانيّة. لقد كانت تشرف على طريق مواصلات إستراتيجيّة وتجاريّة، تخترق من ناحية إلى أخرى شبه جزيرة البلقان في اتّجاه القسطنطينيّة، وهي تطابق الطريق الرومانيّة القديمة التي كانت تعرف باسم «طريق اغناسيا» (Via Egnatia). وقد استطاعت أن تصبح، اعتبارًا من القرن الثامن عشر، مقرّ حكام الروملّي العثمانيّة، ومركز إدارتهم الإقليميّة، فضلًا عن احتضانها الكلّية الحربيّة التي سبخلّد ذكرَها، في أواخر القرن التاسع عشر، وجود الطالب الذي سيصبح في المستقبل أتاتورك.

وعلى الرغم من إعادة فتحها على يد الصربيّين خلال حرب البلقان الأولى، ومن المعارك التي وقعت فيها خلال الحرب العالميّة الثانية، بقيت فيها شواهد مختلفة للأنشطة العمرانيّة ذات الطابع الإسلامي التي عرفتها منذ القرن السادس عشر، ويضمّ سكّانها الحاليّون عددًا لا بأس به من المسلمين.

بيجابور (الاتّحاد الهندي)، مدينة صغيرة في دولة مهارشْترا الحاليّة، كانت عاصمةً لسلالة العادلشاهيّين الشيعيّة منذ نهاية القرن الخامس عشر حتّى نهاية القرن السابع عشر. وقد احتفظت، من تلك الفترة، بمجموعة مميّزة من الآثار ذات الطابع الهنديّ-الفارسيّ.

إنّ المدرسة المعماريّة التي نشأت في أوج تاريخ المدينة الإسلامي هي التي وفّرت لبيجابور، وما تزال، شهرتها الواسعة، على الرغم من الفنون الأخرى التي تنامَتْ فيها، وعلى الرغم من الرعاية النيّرة للآداب والفنون التي تولّتها سلالة العادلشاهيّين والتي ساهمت في ازدهار فنون المنمنمات والموسيقى والشعر، سواء باللغة الفارسيّة أو الأرديّة.

إنّ المباني التي شُيّدت فيها، في عهد حاكمَيْها الأساسيّين: عليّ الأول (٩٦٥-٩٨٧هـ/١٥٥٧-١٥٧٩م) وإبراهيم الثاني (٩٨٧-١٠٣٦هـ/١٥٧٩-١٦٢٦م)، شملت مساجد جامعة ومدارس وخوانق أو دويرات للصوفيّة، وأضرحة، بعضها مدافن ملكيّة. تتميّز هذه العمارات بتوفيقيّة جماليّة مرهفة، وكذلك بذوق في بناء القباب بلغ أوجَهُ في قبة غُل غُنْبَد (Gol Gumbad)، الضريح الذي بني عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م مُميّزًا بقبّة يبلغ نظرها ٤٣ مترًا، بحيث ينافس الرائعة المعماريّة المعاصرة له وهي ضريح تاج محلّ في أغرا.

هذه المدينة الأنيقة التي طبعتها سلالة عادل شاه بسمات مميّزة، اتّسمت، كذلك، ثقافيًّا، بانتشار الصوفيّة بمذاهبها المختلفة فيها، لا سيّما القادريّة

والشطّارية والجشتيّة، التي حاولت كبح منحى الساحل الذي اعتمده الحكّام. واجهت المدينة، في ما بعد، صعوبات بسبب الهجمات التي تعرّضت لها، في الوقت نفسه، من المغول في الشمال، ومن المهرانه في الجنوب، بحيث أنّ الغزو المغولي لبيجابور الذي تأخّر حتى نهاية حكم أورنغزيب سنة ١٠٩٧هـ/١٦٨٦م، تبعته أحداث مختلفة. إنّ عودة بيجابور إلى الاستقلال ثمّ احتلالها من قِبَل حكّام في حيدر آباد، ثمّ من قِبَل المهرات، وأخيرًا من قِبَل الانكليز في القرن التاسع عشر، أنذرت ببداية انحطاط، عجّل فيه ما أصاب المدينة من الأوبئة والمجاعة.

پير، كلمة فارسية تعني «المُسِنّ»، وتدلّ في إيران عند المتصوّفين على «المرشد» المكلّف إرشاد «المُريد».

في الوسط الإيراني - التركي، كان مؤسّسو الطرق الصوفيّة يحملون هذا اللقب الذي يوازي، إلى حدٍّ ما، لقب شيخ المستخدم لدى المتصوّفين في البلدان العربيّة والذي يتمتّع بالقيمة الفخريّة عينها. من هنا كان استعماله دلالةً على أهل التقوى الذين أدّت عادةُ تكريم الأولياء إلى تكريم قبورهم ومدافنهم.

البيرة ← غرناطة.

البيرة ← بيرجيك.

بِيرجيك (الجمهوريّة التركيّة)، تعرف في العربيّة بالبيرة. مدينة في بلاد ما بين النهرين العليا، قامت في القرون الوسطى بدور إستراتيجي، باعتبارها قلعة على مجرى نهر الفرات.

تقع على الضفة الشماليّة للفرات، في موضع صالح للملاحة، تعبره الطريق التي تصل اليوم أورفا/الرُّها بغازيانتيب/عينتاب. وما تزال هذه المدينة الصغيرة تحتفظ بذكرى عصرها الذهبيّ في قلعتها التي تحتوي كتابات عربيّة، تتدرّج من نهاية القرن الثالث عشر حتّى القرن الخامس عشر للميلاد.

والواقع أن هذه المدينة أصبحت، إثر انضمامها إلى المقاطعات الإسلاميّة، وبعد زوال كونتية الرُّها (التي كانت تسيطر على الطريق الموصلة إلى أنطاكية)، موقعًا مهمًّا للمماليك في دفاعهم عن أراضيهم السوريّة.

وعندما قام سليم الأوّل بحملاته، بين ٩٢٠ و٩٢٣هـ/١٥١٤ و١٥١٧م، ضُمّت بيرجيك إلى السلطنة العثمانيّة، وهي ما تزال تابعة للجمهوريّة التركيّة، في موقع غير بعيد من الحدود السوريّة.

بيروت (الجمهوريّة اللبنانيّة)، مرفأ وحاضرة على الساحل اللبناني-السوري. قامت فرادة هذه المدينة العاصمة لدولة متعدّدة الطوائف، على أن نصف سكّانها من المسيحيّين ونصفهم الآخر من المسلمين، والعربيّة لغتهم جميعًا، وهي تعكس في تعدديتها الوضع السياسي والديني للبلد بأسره.

كانت بيروت مركزًا مهمًّا قبل تعرّضها لهزة أرضيّة سنة ٥٥١م؛ استعمرها الرومان فعُرفت باسم بريتوس، ثمّ احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة في بداية الفتوحات سنة ١٤هـ/٦٣٥م. وقد حافظت طيلة قرون عدّة على دورها البحري، مدينةً صغيرة مُحَصَّنة ذات أنشطة تجاريّة مزدهرة. كانت تابعة لجند دمشق وتضمّ رباطًا. أصبحت في القرون الوسطى هدفًا لغزوات أجنبيّة تكلّلت بالنجاح: البيزنطيّون سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م، وبعدهم الفاطميون، ثمّ الفرنج سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م، وصلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ثمّ آل لوزينيان سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م الذين ألحقوها بمملكة قبرص المسيحيّة، وأخيرًا غزاها مماليك مصر، فضمّوها بعد محاولات متكرّرة إلى مقاطعة دمشق سنة ١٢٩١، وأصبحت في ما بعد مركزًا إداريًّا فيها. كل هذه الغزوات تؤكّد موقع المدينة الإستراتيجي والإقتصادي ونقطة للتبادل يؤمّها تجّار الغرْب باستمرار ليصدّروا منها النسيج الغني وصناعات الحرير والديباج.

إذا كان امتداد الأمبراطورية العثمانيّة إلى المناطق السوريّة-المصريّة لم يغيّر إلّا قليلًا من مصير هذه المدينة، اذ اقتصرت حياتها الاقتصاديّة على الإفادة من نظام الامتيازات الاجنبيّة، فإنّ الاضطرابات السياسيّة والحروب التي هزّت منطقة لبنان، إبتداءً من القرن التاسع عشر، ساهمت بشكل ملحوظ في ازدهار هذه المدينة بشكل ممتاز. ففيها اتخذ الحاكم التركي، إبتداءً من ذلك الوقت، مقرًّا له، وفيها ظهر بشكل سريع أثر التغريب الاقتصادي، فوُسّع مرفأُها، وأُنشِئت الطرقات

وخطوط السكك الحديدية لتربطها بالمناطق الداخلية في البلاد، ومنها انطلقت النهضة الأدبية العربية مستفيدةً من نموّها السكّاني ومن الازدهار المميّز للحياة الجامعيّة التي شجّعها النفوذ الاوروبي.

منذ ذلك الحين شهدت بيروت التي توثّقت العلاقات بينها وبين مقاطعة جبل لبنان المجاورة وشبه المستقلّة إبتداءً من ١٨٦١ - تدفّق المسيحيّين إليها. فأمّها هؤلاء إمّا هربًا من الاضطهاد واما سعيًا وراء الإمكانات والأنشطة الصناعية التي تؤمّنها بيروت. وأصبح المسيحيّون في فترة وجيزة الأكثريّة فيها إلى جانب المسلمين السنّة والدروز والشيعة. فتطابقت صورة المدينة مع التكوين التدريجي لدولة جديدة راغبة في أن تجمع في أحضانها القوى الفاعلة في المنطقة، بقطع النظر عن الانتماءات الطائفيّة. وقد ترسّخت هذه الصورة بعد الحرب العالميّة الأولى وإعلان الانتداب الفرنسي على دولة لبنان الكبير، عندما أصبحت بيروت مقرًّا للمفوض السامي الفرنسي المشرف على كلّ دول المشرق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. وكان لاختيارها، سنة ١٩٤٣، عاصمةً للجمهوريّة اللبنانية المستقلّة أن أعطى زخمًا جديدًا لقدرتها الاقتصادية على جميع الصُعد، بما في ذلك الصعيدان المصرفي والدولي. وقد ترافق ذلك مع نموٍّ ديمغرافي وتوسّع عمراني فريدين، إلى أن حلّت أزمة ١٩٧٥ ففرضت على المدينة حربًا طويلة الأمد، أهليّة وأجنبيّة في آن، دمّرت وسطها التجاري تدميرًا شبه تام، وإن كان هناك اليوم بصيص أمل في إخراج المدينة من محنتها.

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (٣٦٢-٤٤٢هـ/ ٩٧٣-١٠٥٠م)، أحد أبرز علماء العالم الإسلامي في القرون الوسطى. اهتمّ بدراسة التاريخ والجغرافيا والرياضيّات وعلم الفلك وكذلك بالفيزياء والطبيعيات.

ولد في خوارزم حيث أمضى السنوات الأولى من حياته، وتابع دراسات مختلفة. وابتداء من سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م أقام في جرجان حيث ألّف أوّل أعماله الكبيرة (الآثار الباقية عن القرون الخالية)، وهو يعالج فيه الأزمنة والتقاويم ومسائل رياضيّة وفلكيّة مختلفة. وقد أهداه إلى أمير جرجان الشهير قابوس بن وَشْمكير الذي يرتبط باسمه اسمُ مدينة «غُنْبَد قابوس».

بعد ذلك، عاد الخوارزمي إلى بلاده ملازمًا حاكمها. وبعد أن قام محمود الغزنوي، سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، بغزو خوارزم، اقتيد البيروني مع علماء آخرين إلى بلاط الغازي المنتصر في غزنة، فسنحت له الفرصة لمرافقة سيّده الجديد في غزواته الظافرة في بلاد الهند، ما أتاح له كتابة وصفٍ لهذه البلاد في «كتاب الهند» الذي انتهى من تأليفه سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م. بعيد ذلك، في عهد الحاكم الغزنوي الثاني، مسعود الأوّل، ألّف «القانون المسعودي»، وهو دراسة في علم الفلك أهداها إليه. ثمّ، في عهد خليفته مودود، أنهى «كتاب الجواهر»، وهو يتناول علم المعادن، وذلك قبل أن يضع، في آخر حياته، كتابًا في الأدوية، لم ينشر بعد. مات بلا شكّ في غزنة، بعد عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م.

إنّ عدد المؤلّفات التي تركها البيروني كبير، قد يفوق المئة، وهو يتناول فيها موضوعات مختلفة. إنّه رجل علم ومراقب دقيق للعادات الاجتماعيّة، وفي الوقت نفسه طبيب، ويمكن اعتباره كذلك من علماء الفلك. لقد أضاف البيروني النكهة الفلسفيّة والتفكير الديني إلى الاختصاصات المختلفة التي قامت عليها شهرته حتى أيامنا هذه.

بيري رئيس محيي الدين، ؟ ت حوالى ٩٦١هـ/ حوالى ١٥٥٤م، قرصان معروف وبحّار عثماني اشتهر في ما بعد بأعماله في مجال الخرائط الجغرافيّة وتدوين الإرشادات البحريّة المتعلّقة بالمتوسّط.

من المحتمل أن يعود بيري رئيس إلى أصول مسيحيّة، وقد قام بأسفار عدّة بإمرة عمّه كمال رَئيس وخير الدين برْبروس في المحيط الهندي والخليج العربي - الفارسي، انتهت إحدى هذه الرحلات بالاستيلاء على مسقط وبحصارٍ غير ناجح لهُرمز/بندر عبّاس. لكنّه تمكّن، بعد هذه النكسة، من العودة إلى السويس ثمّ إلى القاهرة حيث قُطع رأسه بناء على أوامر السلطات العثمانيّة في تاريخ غير محدّد، لكن في نحو العام ٩٥٢هـ/ ١٥٥٤م.

مؤلّفه الرئيس كتاب في الملاحة بعنوان «البحريّة»، يشكّل وثيقة جغرافيّة في منتهى الأهميّة،

وهو مهدىً إلى السلطان سليم الأول في العام ١٥٢١، ثمّ إلى السلطان سليمان في العام ١٥٢٥. وبحسب العادات الخاصة بالإرشادات البحرية، يصف الكتاب كل سواحل البحر المتوسط. إنّ ما يحتويه من نصوص وخرائط لم يلقَ بعد تفاسير كافية، لكن ثمّة شكوك تتعلّق بخارطة العالم التي أنجزها پيري رئيس ربّما منذ العام ١٥١٣، والتي وُجد القسم الغربي منها تحت اسم «خارطة كولمبس»، وهي تضيف إلى المعطيات الإسلاميّة التقليديّة عناصر توثيق مستمدّة من خرائط بحريّة أجنبيّة.

پيشاوَر (جمهوريّة باكستان الإسلاميّة)، مدينة إسلاميّة حديثة نمت بفضل موقعها الإستراتيجي على ملتقى الجبال التي تصل أفغانستان بشبه القارة الهنديّة، والتي كانت تدخل عبرها قديمًا الجيوش الغازية الآتية من آسيا الوسطى.

إن منطقة المرور التي شكّلتها لقرون عديدة المنطقة التي أصبحت پيشاور مركزًا لها، انتقلت إلى الإسلام بعد سائر مقاطعات السِّند والپنجاب التي احتلّتها، منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، الجيوش العربيّة الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى، عبر طرقات الجنوب البريّة والبحريّة.

في ما بعد، اجتاز پيشاور واحتلّها جزئيًّا ملوك الغزنويّين والغوريّين خلال حملاتهم داخل الأراضي الهنديّة، ابتداء من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. ثمّ غدت پيشاور تدريجيًّا تابعة لقبائل الپاتان التي ما تزال تسكنها حتى اليوم. وقد اندمجت المدينة بصعوبة في أمبراطوريّة المغول التي شكّلت، إسميًّا، جزءًا منها. أمّا اعتناقها الإسلام فقد تبع التطوّر نفسه الذي عرفه الپنجاب. تكرّس دورها الإستراتيجي والعسكري بوضوح عندما أصبحت في عهدة الوصاية البريطانيّة التي أدّت إلى إلحاقها بالپنجاب في العام ١٨٤٩، وجعلها، في سنة ١٩٠١، مقاطعة الحدود الشماليّة الغربيّة. في الوقت نفسه، تنامى دورها الإداري والاقتصادي وازداد بفعل استقلال الباكستان في العام ١٩٤٧، وانعكاسات الأحداث السياسيّة التي شهدتها أفغانستان منذ العام ١٩٧٩ والتي دفعت بالعديد من السكّان للّجوء إلى پيشاور وتحويلها مركزًا للحركات المسلّحة.

◄ راجع المستند رقم ٣٥.

بِيْشِهير (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة صغيرة في الأناضول الأوسط، إلى الغرب من قونيه، تحتفظ ببعض الآثار الإسلاميّة من مرحلة الازدهار التي عرفتها في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد.

تقع المدينة داخل دولة سلاجقة الروم، قرب بحيرة تحمل اسمها، في مقاطعة پامفيليا (Pamphylie) القديمة. أُنشِئَت في عهد السلطان علاء الدين كيقُباذ، ثمّ سيطرت عليها، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للميلاد، أسرة من القادة العسكريّين من أصل تركماني هي أسرة إشرف أُغْلري التي كانت مكلّفة بحماية الحدود الغربيّة للأمبراطوريّة. قبل عهد الإمارات التي تقاسمت في ما بعد أراضي الأناضول، كانت بيْشهير عاصمة لسلالة نصف مستقلّة، زوّدتها بأبنية قيّمة، منها مسجد يتميّز بسقفه الذي يقوم على أعمدة خشبيّة وبخزفه النفيس الزخرف، وفاق التراث المعماري التركي لآسيا الوسطى. إنّ الروائع الفنيّة التي تميّزت بها هذه المرحلة القصيرة من الازدهار الفنّي التي عقبت دخول الإسلام إلى المنطقة، والتي توقّفت في سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م مع زوال حكم أسرة أُغلري، استطاعت أن تصمد في وجه الضربات التي تلقّتها المدينة عندما تنازعها الحميديّون وخصومهم القرامانيّون. لكنّ سيطرة العثمانيّين التي بدأت في العام ٧٨٣هـ/١٣٨١م وتوطّدت في العام ١٤٢٣، حوّلت بيْشهير إلى عاصمة مقاطعة في منطقة شهدت تراجعًا ثقافيًّا واقتصاديًّا.

◄ راجع المستند رقم ٢١.

البَيْضاوي، عبدالله بن عمر، (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٦م)، فقيه وعالم من أصل إيراني، اشتهر خصوصًا بتفسيره للقرآن. أهمّ تصانيفه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل».

كلُّ ما نعرف عن البيضاوي أنّه ينتمي إلى المذهب الشافعي وأنّه كان قاضيًا في مدينة شيراز. أمّا مؤلّفه الرئيس - الذي تأثّر فيه بتفسير الزمخشري مع تصحيح بعض آراء هذا الأخير المعتزليّة أو الابتعاد عنها - فيُشكل

جملةٌ من المعارف المتنوّعة التي ما برحت تلاقي اهتمامًا لدى الدارسين، والطبعات المتعدّدة لهذا الكتاب تشهد على ذلك.

البيع (عقود -)، عقود مُعترف بها في الفقه، كانت تشمل جميع الاتفاقات المعقودة بين طرفين، ما جعل استخدامها سائدًا في المجتمعات الإسلاميّة القروسطيّة. إنّ جواز عقود البيع هذه، المتعارض مع أحكام الدين بشأن الدَّيْن بالفائدة، يستند إلى آية قرآنيّة غالبا ما تذكر «أحلّ الله البيع وحرّم الرّبا» (القرآن، سورة البقرة، الآية ٢٧٥)، كما يستند أيضًا إلى أحاديث نبويّة، منها: «عن رسول الله (ﷺ) الذهب بالذهب وزنًا بوزن والفضّة بالفضّة وزنًا بوزن والملح بالملح مثلًا بمثل والبُرّ بالبُرّ مثلًا بمثل والتمر بالتمر مثلًا بمثل. فمن زاد أو استزاد فقد أربى. فبيعوا الذهب بالفضّة يدًا بيد كيف شئتم والتمر بالملح يدًا بيد والشعير بالبُرّ يدًا بيد كيف شئتم» (البيهقي، **السنَن الكبرى**، الجزء الخامس، باب الأجناس.)

في الواقع كانت العقود تشمل أنواع البيع المذكورة حصرًا: بيع عينة (بيع يُدفع ثمنه في وقت محدّد)، مبادلة المعادن الثمينة، المعاملات التجاريّة، التأجير، قرض الاستهلاك، وأخيرًا الزواج الذي يُعتبر بمثابة عقد بيع. تفترض أنواع البيع هذه أن يمتلك البائع والشاري حريّة التصرّف بموضوع العقد، بصفتهما مالكين أو منتدبين، لأنّ كل خداع مرفوض: لا يمكننا مثلا بيع حيوان نحاول اصطياده ولم نقبض عليه بعد. تفترض أنواع البيع أيضًا الموافقة المتبادلة التي تظهر جليًا بعرض واضح، يتبعه قبول ليس أقل وضوحًا. كذلك، يجب أن يتسلّم الشاري فعليًا ما اشتراه، في الوقت عينه الذي يجب أن يُدفع فيه المبلغ المناسب نقدًا. إضافة إلى ذلك، ثمّة بعض الاحتمالات لإلغاء العقد، كتلك الاختيارات المُتّفق عليها التي تسمح لكلّ فريق بالرجوع عن كلامه خلال فترة محدّدة، أو في الحالة المعروفة بحقّ الخيار بسبب عيبٍ مبطلٍ.

إنّ بيع العينة أو «السَلَم» هو نوع خاص من البيع، يُلجأُ إليه بكثرة، لأنّه يسمح بتأجيل تسليم الشيء المُباع كما تبيّنه مثلًا حالة المزارع الذي يبيع محصوله قبل نضجه. هذا النوع من البيع الذي يبدو غير مطابق للمبادئ المعلنة سابقًا برّره الفقهاء انطلاقًا من نصوص مستقاة من القرآن الكريم والحديث الشريف:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ...﴾ (القرآن، سورة البقرة، الآية ٢٨٢). وجاء في الحديث ما معناه: وعندما تقيمون عقدًا بصيغة سَلَم، فيجب تحديد وزن البضاعة أو حجمها ووقت تسليمها.

كان التأجير مشابهًا لعمليّة البيع بمقدار ما يشتمل على عمليّة انتقال حق الإنتفاع. وكان هناك أنواع عدّة منه: تأجير عمل في مقابل سعر محدد، تأجير بستان في مقابل الحصول على نسبة من الفواكه المقطوفة ويُدعى المساقاة أو عقد السقاية، تأجير أرض قابلة للزراعة ويُدعى مُزارعة (عقد استئجار أرض يقتسم الزارع بموجبه مع المالك غلّتها). أمّا بالنسبة إلى قرض الاستهلاك أو «القرض» فيجب أن يُتبع به استرداد موضوع البيع ذاته أو تسليم شيء يساويه حصرًا، وإلّا كان ربًا يخضع للعقاب.

لقد حُفظت حتّى أيامنا هذه نماذج مختلفة من هذه التدابير ترقى إلى العصور الوسطى، وهي شاهدة، بحسب العصر والمنطقة، على استخدام ورق البردي أو الرّق، وبخاصة الورق المستعمل منذ زمن بعيد لهذا النوع من النصوص. هذه النماذج المدوّنة بطريقة جيدة والمرفقة بتواقيع إلزاميّة للشهود، تحترم في كتابتها مختلف الشروط التي وضعها الفقهاء لضمان صحّة العقد وشرعيّته. وهي توضح التطبيق اليومي وتشغل مكانًا مهمًّا بين المستندات الاجتماعيّة - الاقتصاديّة التي خلفتها المستندات القديمة تلبيةً لفضول المؤرّخين الحديثين.

بَيْعة، لفظ عربي يعني تعهُّد شخص ما الإقرار بسلطة شخص آخر.

يُترجم هذا الإقرار أو الاعتراف بإعلان شهادة (عبارة) مصحوبة بالمصافحة. وهذا اللفظ مرتبط بالفعل العربي «باع»، إذ إنّ الالتزام الحاصل يشبه الالتزام حيال عقد بيع أُبرم. طُبّق تقليد «البيعة» في اليمين التي كان أتباع محمّد النبيّ ﷺ يؤدّونها له. ثمّ عُمل به في ما بعد في قَسَم الولاء الذي كان يرافق وصول الخلفاء إلى

الحكم، تعبيرًا عن شرعيّة تعيينهم. وبشكل عام، بقي تقليد «البيعة» معمولًا به خلال كل القرون الوسطى الإسلاميّة.

البَيعة، هي الداعم الأوّل والمحرّك الأساسي للنظام السياسي في العالم الإسلامي في القرون الوسطى. فالاعتراف بالسلطة المنتقلة إلى قائد الجماعة المؤمنة كان يتمّ عن طريق قَسَم تؤدّيه الجماعة أو من يمثّلها أمام الخليفة. وهذا القسم يعرف بالبيعة.

وهناك أنواع مختلفة من الأعمال والمواقف الدالّة على البيعة وإظهار الولاء، كان لها الدور في قيام أسر حاكمة كثيرة سيطرت على السلطة لمدّة وجيزة، وذلك على أيدي عسكريّين نجحوا في الاستيلاء على رقعة من البلاد، أو توصّلوا إلى الاستئثار بالسلطة بقوّة السلاح. وقد استطاع أبناء هذه الأسر بسهولة - إلّا عندما كانت تحدث حركات تمرّد ذات طابع ديني أن يقيموا علاقات تبعيّة بالسلطة الإسلاميّة الشرعيّة، نعني بها سلطة الخلافة.

هذا النوع من الولاء الإرادي الذي تفرضه التزامات البيعة يعود في الأساس إلى ما اتّبعه النبي محمّد ﷺ من عادات فرضها على أتباعه، واستمرّت بعده قائمة في عمليّة اختيار خلفائه الأوّلين. كانت العمليّة تتمّ بعد أن تكون الجماعة قد قامت باختيارها، فتُعتَبَر تثبيتًا لهذا الاختيار وفي الوقت نفسه موافقةً من قِبل الشخص الذي اختير. كما كان للبيعة دورها في عملية اختيار وليّ العهد التي كانت تأتي، من حيث أهميّتها، في المرتبة الثانية، في الانتقال الشرعي للسلطة داخل العالم الإسلامي. وقد تمّ اللجوء إلى البيعة لتأمين انتقال السلطة العليا بين أبناء الأسر الأولى للخلفاء، فكانت وسيلة لتثبيت إرادة الخليفة الحاكم رسميًّا ومسبقًا، بعد أن يكون قد اختار لخلافته أحد أبناء أسرته. ومعاوية بن أبي سفيان هو أوّل من لجأ إلى هذه الوسيلة، بعد تأسيس الخلافة الأمويّة، إذ فرض تأمين البيعة مسبقًا لابنه يزيد.

إنّ يمين الولاء، الذي كان له دوره البالغ في شيوع الأمن واستتباب النظام، أُحيط باكرًا بعدد من الأنظمة والشعائر. فمنذ عهد الخليفة عثمان بن عفان جَرَت العادة أن يُميَّز بين القسم الذي يقوم به رؤساء القبائل، والقسم الذي يقوم به ابناء العاصمة، وأخيرًا القسم الذي يقوم به أبناء المدن الكبرى الأخرى.

أمّا في العصر العبّاسي، فأداء يمين الولاء الذي كان يشارك فيه أبناء البلاط وكبار القوم كان يجري في قصر الخلافة، فتتمّ خلاله البيعة، ويلي ذلك قَسَم آخر في المسجد الجامع حيث كان ممثّل الخليفة يعتلي المنبر ليستقبل المؤيّدين والمبايعين. والمعروف أنّ حكّام الأقاليم كانوا يقومون باحتفال مماثل في الأمصار التي كانوا يحكمون.

والبيعة التي هي عبارة عن إجراءات بسيطة كانت بأشكالها المتنوّعة تُعطى أهميّة كبرى، خصوصًا عندما لا تكون سلطة الخليفة الجديد ثابتة وقويّة، إمّا بسبب الصراع على الخلافة داخل الأسرة الحاكمة، وإمّا بسبب انقلاب داخل البلاط. فمثلًا عندما أُعلن ابن المعتزّ خليفة مكان المقتدر، على أيدي مجموعة من المتآمرين، سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م، عمد إلى الاحتفال مباشرة بمراسم البيعة، رافضًا اتّخاذ أيّ تدبير في حقّ الخليفة المخلوع قبل إنهاء الاحتفال، وقد دفع ابن المعتز حياته ثمنًا لذلك.

وكان تقديم يمين الولاء، أو البيعة، متّبعًا في النظام الشيعي أيضًا، ولا سيّما عند الفاطميّين. ولكنّه كان يرتدي طابعًا مختلفًا، إذ اعتُبر واجبًا مفروضًا على المؤمنين، في حين أن الجماعة المؤمنة، في النظام السنّي، كان لها الحرية في أن تحتفظ بحقّها ولا تؤدّي يمين الولاء إلّا للخليفة الذي ينال عندها قبولًا ورضى.

إنّ أشكال الولاء الأخرى التي كانت تنظّم العلاقة بين الخليفة والأسر الحاكمة التابعة له والخاضعة مبدئيًا لسلطته، كانت تعكس تقاليد الاحتفالات المتّبعة في البلاط، وما كان الخليفة يطلبه من الحكام الذين توكل إليهم سلطات تسمح لهم بأن يحكموا باسمه في الولايات. وفي هذا المجال فإن وثيقة الولاية التي كانت تُكتب في ديوان الخلافة وفق أصول رسميّة، وتُعطى لبعض الأمراء المستقلّين نسبيًا، كانت تترافق بأداء يمين الولاء من قبل متسلّم الوثيقة، في احتفال تحضره الخاصّة، فيُعفّر جبينه بين يدي أمير المؤمنين ويظهر له خضوعه. وهذا ما كان يحتّم على الحاكم الجديد أن

يحترم، في نطاق حكمه، القواعد الأساسيّة التي تُفرض على كل حاكم: منها أن يدعو في خطبة صلاة الجمعة لأمير المؤمنين، وألّا يضرب النقود إلّا وفق ما تمليه دار السكّة عند الخليفة، أي أن يدوّن اسم الخليفة على كلّ القطع النقديّة التي يصدرها، وأن يؤدّي له ضريبة، ولو رمزيّة، تُذكّر بالزمن الذي كانت فيه كل الضرائب الشرعيّة تصبّ في خزينة دار الخلافة، ويهتمّ بجبايتها وبإرسالها الحكام أنفسهم.

ونشير إلى أن النقوش على النُصب التذكاريّة الدالة على الأعمال الصالحة التي تركها بعض الأمراء التابعين، كانت هيَ أيضًا تشيد بأمجاد الخليفة قبل أن تشرع بتعداد ألقاب صاحب الأثر وأعماله، مما يدلّ على احترام قواعد الولاء الأساسيّة.

بيعة الشجرة ← الحديبيّة.

بِيْلرْبِي أو بكِلِرْبِكي، تسمية تركيّة مبنيّة على لفظة بك، أُستُعملت في العصر الإسلامي الوسيط بمعنى «الأمير الكبير»، وقد أُطلقت في ما بعد على حكّام المقاطعات في الأمبراطوريّة العثمانيّة.

كانت الدوائر العثمانيّة التي يديرها بكلربكيّون لا تتجاوز الاثنتين في الأصل: الأناضول والرُّوملي. ازداد عددها في ما بعد، فبلغت الثماني في عهد سليمان القانوني ثمّ اثنتين وثلاثين في القرن السابع عشر.

كان لكل بيلربي لواء أو سَنْجق، وكان يحمل لقب باشا، يعاونه في الأمور المالية عمال مرتبطون بالإدارة المركزيّة. لم تكن ولايته تتجاوز الثلاث سنوات بشكل عام، وكان السلطان يختاره إمّا من «مماليكه» وإما من بين أُمراء الأسرة الحاكمة.

بيمارستان ← مستشفى.

ت

التابعون، تسمية تحمل معنى المجد والفخر، أُطلقت على الجيل الأوّل من المسلمين الذين جاءوا مباشرة بعد الصحابة وكانوا من ذريّتهم المباشرة، واعتُبروا مثلهم أصحاب تأثير ونفوذ وثقة في نقل الحديث.

هؤلاء الأشخاص الذين كانوا في غالبيّتهم من أصل عربيّ، جمعوا مباشرةً من أفواه سابقيهم بعض العناصر المكوّنة للسنّة النبويّة. فهم إذًا يحتلّون مركزًا مهمًّا في السلسلة المعتمدة لإثبات صحة الأحاديث التي ترتكز عليها جزئيًّا الشريعة الاسلاميّة. من هنا التقدير الذي كان لهم دائمًا في نظر المحدّثين كما في نظر علماء الدين، والحرص الذي بدا في مختلف المصنّفات ومعاجم التراجم القديمة على توخّي الدقّة في تدوين أسمائهم وتفاصيل حياتهم. وكان لهم في ما بعد، في عصر ازدهار تكريم الأولياء، إحترامٌ يشهد عليه الإجلال الذي خُصّت به، خلال القرون الوسطى، بعض القبور والأضرحة العائدة لهم.

تارودانت (المملكة المغربيّة)، محلّة في جنوب المغرب، غنيّة بماضيها البعيد، استمرّت أجيالًا عدّة تشغل دور العاصمة والمدينة الرئيسة لسهل سوس.

كانت مركزًا لهذه المقاطعة المنعزلة بين سلسلتي جبال الأطلس الأعلى وجبال الأطلس الصحراوي، ومحطة مهمّة على طريق القوافل التي تربط المغرب الأقصى بالسودان. وقد دافعت تارودانت، في البدء وخلال العصور الوسطى، عن استقلالها النسبي الذي حافظت عليه في ظلّ حكم المرابطين وفي عهد الموحّدين. ثمّ أخضعها بنو مرين وشهدت إزدهارًا جديدًا لنشاطها التجاري أمّنته لها رعاية السعديّين الأوائل الذين اتّخذوها أحيانًا مركزًا لإقامتهم. وتابعت السلالة الشريفيّة الثانية، أي السلالة العلويّة، الاهتمام بها، وشيّدت فيها، خلال حكم مولاي اسماعيل، سنة ١٧٢٧م، السور الحصين الذي ما يزال، حتّى اليوم، يطبع المشهد المدني. وقد تأثّرت سلبًا، في ما بعد، بانحطاط مرفأ أغادير لمصلحة الجديدة/مازاغان التي استعيدت من البرتغاليّين عام ١٧٦٩م، ثمّ نشُط اقتصادها من جديد وحافظ على انطلاقته حتّى تطوُّر سوس وأغادير في عصرنا الحاضر.

◄ راجع المستند رقم ١٤.

التاريخ، هو علم نشأ وتنامى في نطاق الحضارة الإسلاميّة القروسطيّة، ما لبث أن أثمر مؤلّفات مبتكرة.

مثّل التاريخ دورًا بارزًا في الإسلام نظرًا إلى موقع النبي محمد (ﷺ) الذي أتى بعد سلسلة الأنبياء الذين تعاقبوا منذ أوّل الخلق، ونظرًا إلى أنّ الجماعة الإسلاميّة مؤتمنة على سنّة تشكّل، في نظر المسلمين، أحد أركان الدين. إنّ الكتابات التاريخيّة الأولى اهتمّت بسيرة النبي (ﷺ)، أو بحملاته العسكريّة المعروفة بالمغازي. وهكذا شكّلت المعطيات المدوّنة في هذه الكتابات، إضافةً إلى الأحاديث [النبويّة]، السُّنّة، وهي أحد أُسس الشريعة.

إنّ الأحداث التي امتازت بها حياة الجماعة الإسلاميّة شكّلت باكرًا مادّة لروايات مكتوبة، شأن وقعة الجمل أو معركة صفّين. وفي القرنين الثاني والثالث للهجرة/الثامن والتاسع للميلاد، ظهرت المدوّنات الأولى أو «الحوليّات» المعروفة مصطلحًا بـ«التأريخ»، وكانت تروي الأحداث وفقًا للتسلسل الزمني، وغالبًا سنةً بعد سنة. أشهر هذه المؤلّفات وأكثرها تمثيلًا مؤلَّف الطبري، وصاحبه متخصّص،

كذلك، في تفسير القرآن. وقد عالج في مؤلّفه تاريخ العالم مبتدئًا بالخلق، راويًا تاريخ الأنبياء القدامى، وتاريخ الأمبراطوريّة الساسانيّة، وحياة النبي محمّد (ﷺ) وتاريخ الجماعة الإسلاميّة في عهود الخلفاء المتعاقبين حتّى مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. استخدم منهجيّة في التحرير الإخباري شبيهة بتلك المعتمدة من قبل جامعي الأحاديث، جاعلًا لكلّ خبر أو حدث أورده سلسلة من الأسانيد توخيًّا للدقّة.

وقبل الطبري ببضعة عقود، وضع اليعقوبي مؤلّفًا إخباريًا أكثر إيجازًا وأفضل بناءً، أهمل فيه أسماء الرواة الذين أمدّوه بالمعلومات والأخبار الواردة في مؤلّفه، واعتمد منهجيّة شخصيّة في التصنيف. واليعقوبي مؤرّخ وعالم جغرافيا شيعي، لذا افرد موقعًا خاصًا في مؤلّفه لتاريخ الأئمّة العلويّين، مع العودة، كما فعل الطبري، الى بدء الخليقة.

هذان النوعان من الحوليّات اعتُمدا طوال العصور الوسطى. وربّما كان أبرز تاريخ جامع تناول الشرق والغرب المسلمين، هو «الكامل في التاريخ» لابن الأثير. وفي الوقت نفسه ظهرت أنواع أخرى من المؤلّفات، وهي معاجم السِّيَر او التراجم التي استمرّ التأليف فيها في القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، وسبب ذلك الإهتمام بصحابة النبي (ﷺ) وبالتابعين لهم الذين شكّلوا مرجعيّة في ما يتعلّق بصحّة الأحاديث النبويّة. يضاف إلى المعاجم المذكورة سابقًا، إبتداءً من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، «تاريخ المدن»، وأقدم ما كُتب في هذا الحقل هو «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي الذي هو بمثابة معجم سِيَر الرجال المشاهير الذين أقاموا أو عاشوا في المدينة، وفي طليعتهم المحدّثون. عرف هذه النوع من الكتابة رواجًا بين القرنين الخامس والسابع للهجرة/الحادي عشر والثالث عشر للميلاد، ما يفسّر السبب الذي دفع ببعض أصحاب الحوليّات لأن يضيفوا، إلى أخبار هذه السنة أو تلك، لائحة بالوفيّات تعدّد أبرز الشخصيّات التي توفيت خلال السنة المذكورة، مع اعطاء نبذة عن حياتها.

اتّسمت هذه الكتابات المتنوّعة، في البدء، بطابع ديني واضح، حتى وإن تناولت معاجم السير، إضافة إلى المحدّثين وقرّاء القرآن والفقهاء، طبقات إجتماعيّة لا علاقة لها بالدين إلّا من بعيد، من أمثال علماء النحو والصرف ومؤلّفي المعاجم، والشعراء، والأمراء والفلاسفة. وقد حدث تطوّر موازٍ في تدوين الأخبار والأحداث، في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، إذ تناول هذا التدوين طرائف دنيويّة تتعلّق بالسلالات المحليّة أو بسلالات الملوك، مع الإشارة إلى أنّ السلالات والملوك المعنيّين ترتبط سيرتهم بتوسّع الإسلام الذي تسلّموا زمام الدفاع عنه أو مسؤولية انتشاره.

أخيرًا، تجدر الإشارة الى مؤلّفيْن لا مثيل لهما: الأوّل هو الموسوعة التاريخيّة والجغرافيّة للمقريزي، التي تناولت مصر وعاصمتها؛ والثاني هو كتاب ابن خلدون في التاريخ الذي لم يقتصر على تاريخ السلالات والعهود، بل تناول تاريخ المجتمعات بأشكالها المختلفة.

تازة (المملكة المغربيّة)، ناحية تحوّلت إلى مركز إداري عاديّ لولاية، بعد أن كانت قد لعبت دورًا إستراتيجيًّا كمكان محصّن يتحكّم بالعلاقات بين المغرب الأوسط والمغرب الغربي.

تقع على بعد حوالى مئة كيلومتر إلى الغرب من فاس، على مدخل ممرّ ضيّق كان يتيح الدخول إليها بين منطقتين جبليّتين هما: جبال الريف وجبال الاطلس الأوسط. كانت هذه المدينة القروسطيّة - التي ما زالت آثارها، المحاطة بسورها، تشرف على التجمّع السكني الحديث - في وقت مبكر لنشأتها، مدينة مزدهرة بفضل أهميّة منفذها الاقتصادي ولكونها المعبر للنشاط التجاري لمرفأ مليلة. سكّانها البربر من قبيلة زناته، كانوا قد ساعدوا الأدارسة الأوائل، قبل أن يعترفوا، في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، بسيادة فاطميّي إفريقية الذين بسطوا سلطتهم على كامل المنطقة. لكنّ المدينة لم تشهد تحصينًا حقيقيًّا إلاّ في عهد الموحّدين، إعتبارًا من ٥٢٨هـ/١١٣٣م، وقبل أن يجعل منها المرينيّون، الذين زخرفوا مسجدها الجامع، نقطة ارتكاز أساسيّة لتدعيم سلطتهم. ومن ثمّ سقطت تازه

في أيدي السَّعديين فالعلويّين. وكان عليها آنذاك حماية المغرب من العثمانيّين، الذين كانوا قد استقرّوا في الجزائر. وقد استُخدمت أيضًا قاعدةً عسكريّة من قِبَل ثوّار ناهضوا الحكم المركزي، واستمرّوا يعيثون فسادًا حتى في بداية الحماية الفرنسيّة.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

تافيلالِتْ أو تافيلالْتْ، منطقة واحات مرويّة، تقع جنوب شرقيّ المغرب الحالي، على الجانب الصحراوي لجبال الأطلس. وقد قامت بدور إقتصادي وتاريخي مشهود في المغرب الأقصى خلال كل العهود الإسلامية.

كانت هذه المنطقة مزدهرة الزراعة بفضل بساتين النخيل التي كان يتمّ ريّها على الطريقة الشرقيّة، أي بواسطة «القناة» والمعروفة في اللغة المحلية بـ«القطّارة». وقد اغتنت أيضًا بفعل نشاطها التجاري لوقوعها على مفترق الطرق المؤدّية إلى فاس أو مكناس، فضلًا عن مختلف الطرق الأخرى المنظّمة عبر الصحراء، والتي أمّنت، خلال العصور الوسطى، ثروة محلّتها الرئيسة، أي سجلماسة ذات الشهرة الأسطوريّة، وقد اندثرت اليوم.

سكّانها من البربر، وقد شكّلت تافيلالت، في القرنين الثاني والثالث للهجرة/الثامن والتاسع للميلاد، مركزًا للخوارج الذين نموا حينذاك وانتشروا في المغرب. وقد لقيت، في ما بعد، المصير عينه الذي أصاب الأمبراطوريّات الكبرى التي استولت عليها، بدءًا بفاطميّي إفريقية، مرورًا بالمرينيّين والمرابطين، وصولًا إلى الموحّدين. وقد استقرّ فيها أيضًا الأشراف القادمون من الشرق، المنحدرون من سلالة الحسن بن علي، الذين أسّسوا فيها، في ما بعد، سنة ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م، السلالة العلويّة أو الفلاليّة - من أصل تافيلالي - لتمييزهم عن السلالة الشريفيّة السعديّة.

◄ راجع المستند رقم ١٤.

تاهرت، إسم يعود إلى العصور الوسطى يُطلق على آثار في المغرب الأوسط تشغل موقعًا مرتفعًا يُعرف اليوم بـ«تَغْدَمْت»، يبعد ١٠ كلم عن مدينة تيارت الحاليّة. أسّسها في سنة١٤٤هـ/٧٦١م أمراء السلالة الرستميّة الخوارج، الذين استقرّوا في منطقة المغرب الأوسط بعد وصول العبّاسيّين إلى الخلافة. إن هذا الموضع الحصين القريب من مدينة رومانيّة قديمة يحمي منطقة خصبة تشكّل خط تماس بين مناطق البدو ومناطق الحضر. لذا أصبح مركزًا إقتصاديًّا ناشطًا يسكنه البربر ونازحون شرقيّون أتوا مع مؤسّسيه. وقد استولى على هذا الموقع سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م، ابو عبدالله الداعي الإسماعيلي، الذي دفع عُبيد الله المهدي[٤٠] إلى عرش إفريقية. فهرب السكّان الخوارج خوفًا من السيطرة الفاطميّة وأقاموا في موقع سدراتا الصحراوي القريب من وَرْقَلَة. لم يبقَ من تاهرت القديمة سوى آثار لا شكل لها، من بينها بقايا القلعة التي كانت تدافع عن موقعها الإستراتيجي.

◄ راجع المستندين ٨ و١١.

تَبْريز (الجمهوريّة الإسلاميّة الايرانية)، عُرفت طويلًا في الغرب باسم توريس (Tauris)، وهي مدينة في أذربيجان الشرقيّة، يتكلّم سكّانها التركيّة. وهي اليوم مركز لمحافظة إيرانيّة تحمل اسمها. وقد نهضت، في القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، بدور عاصمة أمبراطوريّة، وازدهرت بفضل موقعها الإستراتيجي ونشاطها التجاري.

تقع تبريز في منطقة جبليّة على الطريق الرئيسة للقوافل التي كانت تربط الهضبة الايرانيّة بالآناضول، وبخاصة بمرفإ طرابزون، بحيث شكّلت عقدة مواصلات محلّية بين مدينة مراغة ومنطقة بحيرة أورمية من جهة، وبين مدينة أردبيل وشواطئ بحر قزوين من جهة ثانية. من هنا كانت أهميّتها كمدينة حصينة ومستودع تجاري حيوي في قلب وادٍ مرتفع خصيب ومروي بسخاء. لكنّها، مع الأسف، عانت تكرارًا دمارًا سببته الزلازل المتلاحقة.

تأكّد نموّها، بشكل خاص، مع استقرار الاتراك في المنطقة، في ظلّ حكم السلاجقة أوّلًا، ومن ثمّ خلال الفترة التي أعقبت الاجتياح المغولي، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، والتي شهدت تأسيس طرق مواصلات جديدة بين آسيا الوسطى أو القصوى

والبحر المتوسّط.

لم تكن تبريز في الماضي سوى قرية صغيرة ضُمّت إلى العالم الإسلامي سنة ٢١هـ/٦٤٢م، إبّان الفتوحات الكبرى. وأُعيد تشييدها خلال خلافة هارون الرشيد بإيعاز من زوجته زبيدة، بحسب ما ذكرته بعض المصادر. وظلّت مركزًا ريفيًّا وإداريًّا بسيطًا، ووُصفت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بالمحلّة المزدهرة.

بقيت تبريز على حالها حتى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، حيث اكتسبت، في ظلّ سيطرة الإيلخانيّين وبمبادرة من أباقا بن هولاكو، مكانتها كعاصمة ملكيّة. وزاد قازان في مساحتها المبنيّة بما أضاف إليها من ضواحٍ واسعة. واعتبارًا من سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، بنى فيها، بالقرب من القصر الواقع غربي المدينة، ضريحًا ومسجدًا، ومدرستين ومستشفى (بيمارستان)، ومرصدًا فلكيًّا ومكتبة. وشيّد الوزير رشيد الدين الطبيب[٤١]، داخل سور تبريز، أبنية عدّة فعُرف الحي باسمه. وظلّ اسمه مرتبطًا بالمدينة، على الرغم من مشاركته ببناء المقرّ الملكي الجديد في العاصمة الجديدة «سلطانية»، بأمر من العاهل الإيلخاني[٤٢]. لكنّ اتّخاذ اولجايتو سلطانيّة مركزًا لحكمه لم يمنع وزيرًا آخر، هو تاج الدين علي شاه، في أعقاب سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، من تشييد أبنية رائعة في تبريز، ما تزال تشهد على أهميّتها الآثار الضخمة لمسجد أرْك. ولم يؤثّر انتقال العاصمة إلى سلطانية على وضع تبريز، إذ استمرّت مركزًا تجاريًّا وحرفيًّا، بدليل أنّ أمراء المقاطعات التي نشأت من تفكّك الأمبراطوريّة الإيلخانيّة كالجوبانيّين، والجلائريّين، والمظفّريّين، استمرّوا يتنازعونها. وما لبث تيمورلنك أن طرد المظفّريّين منها، وسيطر عليها من سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م حتى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م. ومن ثمّ انتقلت إلى سيطرة حكّام «الشاة السوداء» (القراقيونلو) الذين ركّزوا سلطتهم فيها، بعد أن استولى عليها قره يوسف مؤسّس دولتهم.

إنّ تبريز، مدينة القوافل، أغنت مملكة القراقوينلو بفضل سيطرة هؤلاء على طرق التجارة الدوليّة فيها. وقد اختاروها لتشييد الأبنية الباذخة التي صرفوا عليها أموالًا طائلة. نذكر منهم جهان شاه الذي نجح في السيطرة على أراضٍ تمتدّ من الأناضول إلى الخليج العربي-الفارسي وإلى خراسان، والذي بنى فيها المسجد الأزرق الشهير الذي ما تزال آثاره تشعّ حتّى اليوم نظرًا إلى فسيفسائه المزخرفة والفريدة من نوعها.

بعد فترة وجيزة على إنجاز هذه التحفة الفنيّة، أدّى الإنتصار الصاعق لأوزون حسن التركماني، أمير الآق قوينلو (الشاة البيضاء) سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، إلى القضاء على السلالة المالكة السابقة وإعطاء تبريز حاكمًا جديدًا. وقد اتّخذ هذا الحاكم بدوره المدينة عاصمة له حتّى وفاته سنة ١٤٧٨م، ومارس سياسة مماثلة لسياسة السلالة السابقة. ونتج عن ذلك مزيد من توافد التجّار البنادقة عليها، في حين ازدادت مصاعب تلك المنطقة نتيجةً للانتصارات العثمانيّة التي أضعفت سلطة آخر أمراء الشاة البيضاء وأدت في النهاية إلى سقوط الإمارة سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، على يد مؤسّس سلطان الصفويّين في إيران.

في بداية الأمر، استمرّت تبريز محافظة على مكانتها كعاصمة، ولكنّها خضعت لعمليّات قَمْع ناتجة عن المعتقدات الشيعيّة للشاه إسماعيل الصفوي الأوّل ومناصريه التركمانيّين وظلّت، فوق ذلك، عرضة لطموحات وهجمات العثمانيّين الذين نجحوا في السيطرة عليها موقّتًا سنة ١٥١٤م، وتاليًا لم تعد مقرًّا للحاكم إعتبارًا من سنة ١٥٢٤، وهو تاريخ تولّي الشاه طهماسب الأوّل، إذ غدت عرضة للتجاذبات العسكريّة العنيفة بين الصفويّين والعثمانيّين، بحيث هوجمت مرات عدّة، واحتلّها العثمانيّون في السنوات ٩٤١هـ/١٥٣٤م، ٩٥٥هـ/١٥٤٨م و٩٩٤هـ/١٥٨٥م. تخلّى عنها الشاه عبّاس الأوّل سنة ٩٩٩هـ/١٥٩٠م، ثمّ استعادها سنة ١٦٠٣م، كما نُهبت أيضًا سنة ١٦٣٥م. وكانت معاناتها نتيجة لوضعيّتها كمدينة حدوديّة متنازع عليها. وبقيت تابعة لإيران طيلة الفترة المضطربة التي شهدتها بلاد فارس في ما بعد. وفي موازاة ذلك، حافظت على ثروتها ومركزها التجاري المرموق. فكانت في كلّ مرّة تستعيد نشاطها، على الرغم ممّا كان يصيبها من دمار. وقد ازدهرت بشكل خاص في أواخر القرن التاسع

عشر، على الرغم من أنّ التدخلات العسكريّة الروسيّة والمعارك المتنوّعة التي أعقبتها، بدأت، هي أيضًا، بتعقيد تاريخ تلك المنطقة. وحدها التغيّرات السياسيّة في القرن العشرين، وتقسيم مقاطعة أذربيجان القديمة، ساهمت في الأفول النسبي لهذه المدينة الإيرانيّة التي تسكنها أغلبيّة من الأذريّين، إذ تراجعت إلى مستوى محافظة لمنطقة بسيطة منفصلة عن الأراضي القوقازية، ولم تعد لها أيّة سيطرة على التبادل التجاري الذي تقلّص نسبيًّا بين دولتي إيران وتركيا المعاصرتين.

◄ راجع المستندات ١٢، ١٣، ١٧، ٣٢ و٢٤.

تَبوك (المملكة العربيّة السعوديّة)، محلّة تقع على طريق الحجّ الشامي القديمة إلى مكّة المكرّمة. تعود شهرتها إلى غزوة تبوك التي قادها نبيّ الإسلام ﷺ في أواخر حياته، إذ في سنة ٩هـ/ ٦٣١م، توجّه النبي محمّد ﷺ على رأس حملة عسكريّة إلى الأطراف الشماليّة للجزيرة العربيّة، ووصل إلى غدير في تبوك على الحدود مع الأمبراطوريّة البيزنطيّة. وقبل عودته السريعة تمكّن، عن طريق المفاوضات، من إخضاع عدد كبير من سكان الواحات المجاورة. ومع أنّ الحادثة انتهت من دون أن تترتّب عليها نتائج عسكريّة مهمّة، إلّا أنّها ساعدت، في ما بعد، في دفع الفتوحات الكبرى، ودعم الرأي القائل بأن النبيّ محمدًا ﷺ نفسه كان يتطلّع إلى نشر الدعوة الإسلاميّة خارج الجزيرة العربيّة بقوّة السلاح.

تبيليسي (جمهوريّة جورجيا)، كانت تُعرف قديمًا بتفْليس، في اللغة العربيّة، وهي عاصمة جورجيا حاليًّا، كما كانت أيضًا أهم مدن جورجيا في العصور الوسطى.

مدينة قديمة، احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة عام ٢٥هـ/ ٦٤٥م، إبّان الفتوحات الكبرى، وعقدت عهود صلح مع سكّانها ألزمتهم فيها بدفع الجزية. وتحمّلت تفليس في ما بعد المصير عينه الذي اصاب منطقتها كلّها، إذ قاست بشكل خاص من غزوات الخزَر. وقد نجح في ما بعد أحد الأشخاص، ويدعى اسحق، في السيطرة عليها وفي تحويلها إلى إمارة شبه مستقلّة، ما لبثت، بعد فترة وجيزة، أن أُعيدت إلى حظيرة الخلافة العباسيّة، إثر حملة عسكريّة وجّهها إليها الخليفة المتوكّل سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م. شهدت تفليس التي كان يعرفها جيدًا جغرافيّو العرب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، خلال الفترة اللّاحقة، تاريخًا مضطربًا بسبب طمع أمراء أرمينيا المسيحيّين فيها، فضلًا عن طمع أمراء آخرين لا نعرف أصلهم بالتحديد. ولقيت تفليس المصير عينه الذي أصاب جورجيا كلّها بدفاعها عن نفسها ضد أطماع مؤسّسي السلالات الحاكمة الإسلاميّة المجاورة لها، فضلًا عن الغزوات الإسلاميّة المتأخّرة.

◄ راجع المستندات ١٢ و١٧ و٢٠.

تتارستان أو تتاريا (جمهوريّة تتارستان الفدراليّة)، مساحتها ٦٨٠٠٠ كلم²، عاصمتها قازان كانت، في السابق، جمهوريّة إشتراكيّة سوفياتيّة مستقلّة ذاتيًّا، وما تزال عضوًا في الإتّحاد الفدرالي الروسي، يبلغ عدد سكانها حوالى ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة، نصفهم من المسلمين.

تجاور هذه المنطقة اليوم الجمهوريّات الفدراليّة التالية: تشوفاشيا، وماريس وأودمورتيا وباخورتوستان. كانت في الماضي تابعة لخانية قازان. وقد نشأت على أثر تفكّك دولة القبيلة الذهبيّة التي كانت قد نعمت بالاستقلال ما بين ١٤٤٦ و١٥٥٢م. تطابقت تتارستان في ما بعد، في ظل الادارة الروسية، مع منطقة سهوب الفولغا، إمتدادًا حتّى بحر قزوين جنوبًا. وكان يسكنها عدد كثير من التُتر. هذه التسمية غدت تدلّ، منذ عهد القبيلة الذهبيّة، على السكّان الذين اعتنقوا الإسلام، والذين تميّزوا، في ظلّ هذه القبيلة، بانصهار العناصر المغوليّة مع عناصر تركيّة تعود إلى هجرات قديمة وحديثة، وقد حلّت لغة هؤلاء بسرعة محلّ اللغة المغوليّة.

تطوّر هؤلاء التُتر تبعًا للسياسة الروسيّة التي بذلت بعض الجهد لتحويلهم إلى المسيحيّة، وسهّلت أيضًا الإستعمار الروسي لمنطقتهم. إنّ كلّ ذلك لم يمنع الشعور القومي من أن يستمرّ، أو بالأحرى من أن يستيقظ في نهاية القرن التاسع عشر وأن يدفع بالتتر إلى المطالبة باستقلالهم الثقافي. وكان لهذه النزعة القوميّة انعكاسات على الوضع الاجتماعي الديني الحالي بحيث أصبح للإسلام مكانته؛ لكنّنا لا نملك معلومات

دقيقة حول هذا الموضوع. نُشير، فضلًا عن ذلك، إلى أنّ تارسنان منطقة غنيّة بثروتها الزراعيّة والنفطيّة.

تجارة القوافل، وسيلة لنقل الأشخاص والبضائع توافق العادات البدويّة في المناطق الصحراويّة. وهذا النمط ظلّ سائدًا لفترة طويلة في العالم الإسلامي مسترعيًا الانتباه إليه بشكل خاص.

١ - يشتقّ التعبير الفرنسي «caravane» من كلمة إيرانيّة الأصل، هي «كاروان»، دخلت، منذ أواخر القرون الوسطى، في اللغة التركيّة وفي مختلف اللغات الأوروبيّة التي أهملت استعمال التعبير العربي المألوف «قافلة». ويفيد استعمال كلمة «كاروان» إلى أيّ مدى كانت تشكّل طريقة السفر هذه السمة المميّزة لمناطق الأمبراطوريّة العثمانيّة الأسيويّة القاحلة التي اختبرها الأجانب بأنفسهم. وإذا لم نكن نملك إثباتًا - باستثناء بعض المعطيات البديهيّة - يسمح لنا باعتبار هذه الظاهرة خاصيّة إسلاميّة، لكنّنا نعرف أنّ الأنشطة التجاريّة في الأمبراطوريّة الإسلاميّة القروسطيّة نشأت من شبكات قوافل، يدلّ على أهميّتها الدور التاريخي الذي مثّله منذ بداية الدعوة الإسلاميّة.

إنّ النبي محمد (ﷺ) نفسه، الذي كان تاجرًا في مكّة قبل أن يظهر دعوته نبيًّا، وجد من الطبيعي، لتأمين ازدهار الجماعة الإسلاميّة الأولى في المدينة، مهاجمة قوافل أعدائه. من ناحية أخرى، كانت الدولة الإسلاميّة التي أسّسها النبي محمد (ﷺ) في واحة جبليّة تقع ضمن سلسلة الحجاز الغربيّة حيث القوافل كانت وسيلة السفر الوحيدة، تضمّ بين أبنائها «مهاجرين» يتحدّرون مثله من مدينة مكّة التجاريّة، وقد حملوا معهم، داخل المجتمع الإسلامي الجديد الناشئ عن الهجرة، خبرتهم التجاريّة. وهذا ما يفسر احتفاظ مسلمي هذه الفترة بحسّ خاص لتجارة القوافل، القريبة منها والبعيدة، ما سمح لعدد منهم بالإثراء. وتنامى هذا الحسّ مع انتشار الفتوحات في القرن السابع الميلادي، ما وسّع إمكانات التبادل والتجارة إلى أطراف أمبراطوريّة شاسعة لا حدود داخليّة فيها. من هنا ايضًا يمكن فهم الاهتمام بإيجاد أماكن معدّة لاستقبال قوافل البدو المتدفّقة من الجزيرة العربيّة والتي تعود اليها محمّلة بالغنائم، وذلك خارج أسوار المدن التي احتلّتها أو أسّستها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة المنتصرة. وفي فترة لاحقة، ساهمت هذه القوافل في تأمين المواصلات المنتظمة التي تطوّرت بسرعة بين المقاطعات، ضمن شبكات اتّخذت في آن معًا طابعًا إستراتيجيًّا وإداريًّا وتجاريًّا.

إرتبط الازدهار الإقتصادي للعالم الإسلامي القديم، وصولًا إلى فترة الثورات التكنولوجيّة الحديثة، دائمًا بحركة وبأمن القوافل التي كانت تجوب مختلف أرجائه. ولأسباب ظرفيّة - لكنّها من دون شك جوهريّة - كان لهذه القوافل أثرها على مستقبل هذا العالم كأمبراطوريّة. والأثر الذي تركته الحيويّة الفاعلة، إلى حدّ ما، لهذه المواصلات واتّجاهات محاورها الكبرى على الحياة اليوميّة وعلى رخاء المدن الرئيسة، كان له تأثير في المجتمعات الإسلاميّة. وليس هذا وحسب، فقد حدث أيضًا اختراق سلمي لبعض المناطق المحاذية للبلدان التي أسلمت، سهّله إرسال قوافل إلى هذه المناطق تبغي الربح هدفًا، وفي أكثر الأحيان من خلال مبادلة الرقيق والمواد الأوليّة الغنيّة بالمنتجات الصناعيّة. وفي الوقت عينه، كانت هذه القوافل، إلى جانب نشاطها التجاري، تقوم بنشر الدعوة، وقد تركّز هذا العمل خصوصًا في المحطات القائمة على طرق القوافل، وفي النواحي الإسلاميّة التي تأسّست على امتداد هذه الطرق لتأمين حماية فعّالة للأسواق والمخازن. وبهذه الطريقة انتشر الإسلام بواسطة هؤلاء التجّار الذين كان بعضهم يجوب السهوب الأسيويّة أو يتبع مجاري الأنهار الروسيّة؛ وبعضهم الآخر كان يتغلغل داخل القارة الأفريقيّة حيث أدّى تأثير نظام المبادلات العابر للصحارى الذي كان يمتدّ إلى سهول المنطقة التي كانت تُعرف آنذاك بالسودان، وحتّى الى داخل الغابات، إلى تراجع مستمرّ للوثنيّة أمام تنامي حركة اعتناق السكّان المحليّين الإسلام.

والمكانة التي احتلّتها القوافل في أرض الإسلام كوسيلة اتّصال مفضّلة، والتي ظلّت مستمرّة طيلة القرون الوسطى وإلى ما بعدها، كانت تتطلّب الخبرة والمهارة عند هؤلاء الذين كانوا ينظّمون هذه التجمّعات الواسعة من البشر وحيوانات النقل، حيث كانت تختلط، لفترات

تمتدّ إلى أسابيع عدّة، الخيل والبغال وبشكل أساسي الجمال المناسبة لعبور الصحارى والتي في إمكانها نقل حمولة توازي أربع الى خمس مرات حمولة الحيوانات الأخرى. وكان انتظام التجارة يتحكّم، بحسب الحالات، بحجم القوافل ووتيرتها السنويّة، وفق إيقاع موسمي يفرضه المناخ؛ ويرتدّ تاليًا تغيّرًا في سرعة حركة التنقل. وعلى سبيل المثال، كانت الرحلة من تونس إلى القاهرة تستغرق شهرين إلى ثلاثة أشهر، وكذلك الأمر للانتقال من أصفهان إلى حلب أو إلى إزمير. وكانت ظروف السفر تختلف كثيرًا تبعًا للصعوبات الطبيعية، وترتبط بالظروف السياسيّة السائدة في المناطق التي تعبرها القوافل. وكانت المواكبة المسلحة الجيّدة للقوافل ونوعيّة الرُّوَّاد تساعد في مواجهة شتّى مفاجآت الطريق. كانت المسؤوليّة الأساسيّة تقع بخاصةٍ على رئيس القافلة المسمّى، في الأوساط العثمانيّة، «كاژوان باشي»، وقد ورد ذكره في روايات الرحّالة الأوروبيّين في القرن التاسع عشر.

وكانت سلطة التقرير في كل الأمور تعود إلى هذا الرجل المميّز الذي كان التجّار يدفعون أجرَه. فهو يحدّد خط السير الواجب اتّباعه، وطول فترة الإستراحة، وتنظيم مجموعات القافلة، ويعود إليه البتّ في كل شأن قانوني أو جزائي، وهو الذي كان يفاوض في شأن الرسوم التي كانت تُدفع للسماح للقافلة بالمرور، وكذلك في شأن تموينها بالعلف والغذاء. وقد ورد عن هذه الشخصيّة في كتاب «أخبارٌ أسيويّة» (Nouvelles asiatiques) للرحّالة الفرنسي غوبينو (Gobineau) ما يلي: «لم يكن لرئيس القافلة هذا أي موقع في تراتبيّة الوظائف العامّة في أيّة دولة إسلاميّة. ومع ذلك فهو شخصيّة كبيرة بمعنى من المعاني، وهو يتمتّع بامتيازين نادرين في العالم: إنّه، من جهة أولى، يأمر كل من حوله، وليست سلطته موضوع جدل على الإطلاق؛ وإنّ نزاهته، من جهة ثانية، أمرٌ مسلّم به دائمًا، ومن النادر أن تغدو موضوع نزاع.» ويشبه دور رئيس القافلة هذا الدور الذي يقوم به، في الوسط البدوي، رئيس حملة عسكريّة، إضافة إلى أنّه كانت تتوافر فيه وفي محيطه صفات مستقاة من نمط الحياة البدويّة، منها قدرته على اهتداء سبيله في متاهات موحشة غير مطمئنة، إلى الخبرة الضروريّة لرسم خط السير وتنظيم المخيّم اليومي والاعتناء بالحيوانات، والعمل كل يوم على نصب الخيم ووسائل الاستراحة الأخرى، ومن ثمّ العمل على طيّها عند الانطلاق من جديد. بحسب وصف شامل وجميل قام به غوبينو لكل هذه الأمور وللمخيّمات «مع أرتال البغال والخيل المربوطة إلى الأوتاد» ومع نيرانها المشتعلة، قال إنّها تشبه تجمعات متحرّكة حيث، عند الصباح، تتراكم طرود البضائع كأنّها أسوار، وحيث تشكّل، في أماكن عدّة، خلايا يجهد أفرادها في إعادة ترتيب عدّة النوم من فرش وأغطية، وحيث «تبدو هذه العمارات المتحرّكة وكأنّها طرقات بدأ الناس يتجوّلون فيها منهمكين بأشغالهم».

وأوصاف القوافل هذه بحمّاليها وتجّارها الدائمي التنقّل، والتي نقلها الرحّالة إلى الغرب الأوروبي، تنطبق على مرحلة متأخّرة، سبقت بقليل، وبخاصة في البلدان الشرقيّة، تداعي العادات المتوارثة الذي حصل بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩؛ وتطوّر خطوط سكك الحديد الأولى. وتسمح هذه الأوصاف بفهم المزايا والعيوب للنظام الذي ساهم في الحفاظ على مستوى معين من الازدهار في المبادلات داخل الأمبراطوريّة العثمانيّة، حتّى التحديث الجذري لوسائل النقل. كما أنّها تلقي أضواء على جوانب أكثر قدمًا، عندما كان الأدلّاء أنفسهم، المدربّون على طريقة الحياة البدويّة، يقودون في القرون الوسطى، في سيرها ومحطات استراحتها اليومية، أنواع القوافل نفسها التي لم يكن من الممكن الاستغناء عنها في الحياة الاقتصاديّة المدينيّة والمناطقيّة القائمة جنبًا إلى جنب في العالم الإسلامي آنذاك.

٢ - في كل عهد، كان كلّ شيء يرتبط بما يبديه الحكّام من اهتمام بشبكة طرق القوافل التي تقوم عليها التجارة، والتي كانت تستدعي تشييد خانات في محطات الإستراحة كما في المدن، ما يتطلّب موارد ماليّة كبيرة. هؤلاء الحكّام، كان في مقدورهم وحدهم تأمين الحماية أو التحسين التقني لبعض أجزاء خطوط السير كلّما دعت الحاجة؛ ووحدهم شجّعوا أيضًا تدوين

المعلومات وتنظيم الجردات المنهجيّة للطرق التي ترتادها القوافل، ما أثار بداية فضول علمي في هذا الاتّجاه، ودفع الى وضع مؤلّفات جغرافيّة صيغت في صورة «دليل للطرق والمحطات». وفي الواقع، شكّلت هذه الطرق أساس كل المبادلات وكل المواصلات، بين رجال الدين كما بين التجّار، بين دول متنافسة أو متحالفة، كما بين قادة الحرب الذين كان لهذه الطرق، بالنسبة اليهم، دور إستراتيجي لا غنى عنه. وعند الحاجة، كانت تسلكها جيوش الخلافة، وكذلك كانت تستعملها الجماعات الأجنبيّة المتسلّلة داخل الأراضي الإسلاميّة والتي كانت تتّبع هذه المعابر التي لا مجال لأحد أن يحيد عنها في هذا الوسط الطبيعي العدائي في أكثر الأحيان. وأخيرًا، كانت كلّ الحكومات تستعمل هذه الطرق لتأمين نقل المراسلات البريديّة وتقارير عملاء الاستخبارات، وجمع أموال الضرائب المحليّة وتوزيعها داخل ممالك أو أمبراطوريّات كان وضعها هشًّا إجمالًا وتفتقر، حتى في أوج ازدهارها، إلى تنظيم مركزي.

كما ساهم الاستعمال المنتظم لطرق القوافل هذه داخل العالم الإسلامي في توحيد بلدان تتنوّع طبيعتها وثرواتها بشكل خاص؛ ومع ذلك لم تكن هذه الطرق إلا خطوط سير بسيطة أُعدّت بعض الشيء وحُدّدت معالمها. وأيًّا كانت أهميّة استعمال هذه الطرق، فانّ ارتيادها اقتصر، حتى حقبة التغييرات الأولى الممهّدة للعصور الحديثة، على المشاة والأشخاص الذين يمتطون دوابًّا وحيوانات نقل، لأنّه تمّ التخلّي بشكل سريع عن وسائل النقل الأكثر إتقانًا والتي عرفتها العصور القديمة. ولم تطرح أبدًا مسألة بناء وصيانة طرق حقيقيّة شبيهة بالجادّات الرومانيّة. وقد تناولت جهود التحسين، بشكل خاص، إشارات الإرشاد على الطرق: نقاط اهتداء بصريّة مثل هُرَيْم الاهتداء والتدليل، أو تلال من الأحجار الصغيرة غير المتقنة، أو العلامات الدالة على المسافات، وأيضًا المآذن والأبراج المزروعة على مساحات في الأمكنة التي يُخشى فيها أن يضلّ الانسان مسيره. وبعض الأعمال المتجزئة التي خلّدتها بعض النقوش والتي شملت حصرًا تسهيل المنحدرات الأكثر وعورة وإقامة الجسور وبناء أحواض وبرك، كانت أحيانًا تتخذ شكل أبنية وأحيانًا أخرى شكل خزانات مكشوفة، وتقوم إلى جانب محطات تبديل البريد الذي كانت تنقله الخيّالة، أو الى جانب الخانات والتحصينات التي هي، إلى حدّ ما، واسعة وصلبة. وبطبيعة الحال، تطوّرت هذه المبادرات بشكل مستمرّ مع الوقت واختلاف الأمكنة، بينما كانت تتغيّر قدرات وعادات السلالات المحليّة الكثيرة العدد. والطرق الأفضل تجهيزًا يعود تاريخها إلى المراحل المتأخّرة، كالطرق الأمبراطوريّة التي وظّفت الدولة العثمانيّة لإنشائها مهندسين اختصاصيّين من الجيش الإنكشاري، ومنهم سنان المهندس المعماري الشهير. وقد جُهّزت هذه الطرق بجسور ضخمة ذات نوعية مميّزة. وإلى جانب البقايا الأثريّة، فإن المصادر التاريخيّة المتعلّقة بهذه الفترة متوافرة بكثرة؛ وكذلك سجلات المستندات المدوّنة والمتعلّقة بالمبادلات والالتزامات، وكذلك الوثائق المتعلّقة برقابة الدولة على التجارة. ويمكن، من خلال وفرة هذه التفاصيل، إعادة رسم دقيق لخريطة خطوط السير، حتى طرابزون وبورصة وبخاصة إسطنبول، التي كان يسلكها التجّار والمسافرون. كانت الإدارة تُخضع هؤلاء السالكين للمراقبة ولدفع رسوم مرور، وكانت هذه الإدارات تسهر بالطبع على تسهيل تجوالهم، لكنّها في المقابل كانت تحرص أيضًا على استمراريّة التنظيم والرقابة وفاعليتهما.

وحدث، على مرّ العصور، أن تغيّرت نقاط انطلاق ونقاط وصول المسارات الكبرى التي تحرّك الأنشطة التجاريّة التي كانت تتأثّر بالأحداث التاريخيّة والتحوّلات الاقتصاديّة - الاجتماعيّة. وفي موازاة ذلك، كانت حاجات المدن ووسائل التبادل والتوزيع تتغيّر كذلك. وفي كل الأحوال، حافظت بعض خطوط المواصلات على ثباتها، ومنها الخط الذي يربط الشرق الأقصى بالبحر المتوسط والذي ظلّت القوافل تسلكه على الدوام في بعض أجزائه، رغم بعض التوازنات المتقلّبة التي كانت تعطي الأفضليّة أحيانًا للمسارات الأسيويّة الطويلة، كطريق الحرير القديمة التي تعبر آسيا الوسطى وتتفرّع نحو السهول الهنديّة، وأحيانًا أخرى

لخط بريّ محدود يؤمّن المواصلات مع بعض المرافئ على الخليج العربي - الفارسي وعلى البحر الأحمر، حيث كانت ترسو المراكب بعد عبورها المحيط الهندي. وكان الأمر كذلك، لفترة طويلة، بالنسبة الى خطوط اصطُلح على تسميتها «طرق الرقيق»، والتي كانت تنطلق من مناطق كان يتمّ فيها شراء رقيق أو أسرهم، فيُستخدمون لاحقًا خدمًا أو جنودًا، كالسهوب التركيّة أو شمال القوقاز أو أفريقيا السوداء. وكان الأمر كذلك أيضًا في ما يتعلق بطرق تجارة البهارات والبخور والذهب. وفي هذا الوقت كانت المفاصل الكبرى لخطوط القوافل تنتقل من بغداد إلى القاهرة وإلى تبريز؛ وكان لتغيّرات أخرى مرتبطة بالمنافسة المتزايدة للتجارة البحريّة الأوروبيّة، بدءًا من القرن السادس عشر، انعكاسات لا مفرّ منها على نسبة استعمال الخطوط القاريّة.

علاوة على ذلك، حافظت بعض الخطوط على أهميّتها حتى يومنا هذا، لأنها تؤمن المواصلات إلى الأماكن المقدّسة الإسلاميّة، أو إلى مزارات يؤمّها مؤمنون أحيانًا من مناطق بعيدة. تلك مثلًا كانت حال الطرق المؤدّية من إيران الصفويّين والقاجاريّين إلى المراكز الدينيّة الكبيرة للشيعة في النجف وكربلاء في العراق. ومنذ بدايات الأمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة، كانت تلك بشكل خاص وضعيّة الطرق المستعملة لتوجيه جماعات المؤمنين المتّجهين سنويًّا إلى مكّة لإتمام فريضة الحجّ. ويشير كتّاب الحوليّات إلى تواريخ الإنطلاق الرسميّة لهذه القوافل في المدن الرئيسة، كما أنّ منمنمات من القرن الثالث عشر الميلادي حفظت عنها لوحات مثيرة للاهتمام. وكانت هذه القوافل تشكّل جزءًا من حركة العبور الدائمة في صحارى الجزيرة العربيّة، حيث وحده الاستغلال العقلاني للجمال وميزاتها سمح بالتغلّب على مصاعب الطريق. واقع الأمر أنّ هذه القوافل كانت تحاط برعاية خاصّة من قبل السلطات الرسميّة التي كانت تُلحق رجالًا مسلّحين بمواكبها تأمينًا لحمايتها، أو تنظّم الطرق التي تسلكها، كما شهد على ذلك «الطريق العراقي» في عهد الخليفة هارون الرشيد. وكانت هذه القوافل تستفيد من اندفاع أفراد الشعب الذين كانوا يقدّمون المساعدات تلقائيًّا للحجّاج عند انطلاقهم ويحتفون بهم لدى عودتهم. لكنّ هذه القوافل - شأنها شأن قوافل أقلّ أهميّة - كانت تعاني، على طرق الحجّ التقليديّة المؤدّية إلى مكّة، بطء الحركة ومخاطر الطريق وصعوبات التنظيم والتموين. فهذه القوافل كانت تنقل، عبر طرق غير آمنة في أكثر الأحيان، جماعات ذات أعداد متزايدة، كتلك القافلة المصرية التي كان تنظّم كل سنة، خلال الحقبة العثمانيّة، والتي كان يمكن أن يصل عدد أفرادها عند انطلاقها من القاهرة إلى أكثر من أربعين ألف حاج، منهم عشرة آلاف تقريبًا آتين من المغرب.

◄ راجع المستندات ١٠ و٢٥ و٣٠.

التجاريّة (النشاطات -)، نشاطات طالما ازدهرت في العالم الإسلامي وقامت على تجارة القوافل والمرافئ المنفتحة على الخارج، وقد ساهمت في ازدهار الحضارة الإسلاميّة وفي تنظيم هندسة المدن حول أسواقها، وعملت على نموّها أو زوالها وفقًا لشبكات المواصلات.

كانت التجارة ناشطة في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، وبشكل خاص في مدينة مكّة التي وصفها بعض المؤرّخين المحدثين بـ«الجمهوريّة التجاريّة». وساهمت الدعوة للإسلام وانتشاره، خلال الفتوحات الكبرى، في تشجيع تجارة القوافل التي كانت سائدة في المجتمع المكّي، علمًا أنّ الدين الجديد لم يُقدم على إدانة التجارة، بل اكتفى النص القرآني بمنع بعض الممارسات المؤدّية إلى تجاوزات مثل الدَّيْن بالفائدة.

وقام الفقهاء الذين سنّوا في ما بعد القوانين ووضعوا قواعد أخلاقيّة حقيقيّة تتعلّق بالإقتصاد، بتأكيد هذا الحظر، غير أنّهم أقرّوا بمشروعيّة بعض الممارسات الهادفة إلى تعزيز عمل التجّار، مثل الشراكة والتوصية. وفي هذه الظروف أدّى إنشاء دولة شاسعة، ممتدّة من المحيط الأطلسي إلى آسيا الوسطى فالهند، إلى تفعيل المبادلات، إذ إنّ نقل البضائع كان يحظى في الداخل بحريّة تامّة، حتى خلال الانقسامات السياسيّة والدينيّة كالتي شهدها مثلًا العالم الإسلامي مع ظهور سلالة الفاطميّين. ومن جهة أخرى، فإنّ القصور الملكيّة

الفخمة التي أُقيمت في المدن الكبرى والعواصم، مثل بغداد ومرو وقُرطبة والقاهرة، وفي ما بعد في أصفهان ودلهي وسمرقند واسطنبول، لم تُكفّ عن تشجيع صناعة الكماليات وبيعها - وكان يتمّ استيراد بعضها من أمكنة بعيدة - والإتّجار بها كثيفًا بصورة واسعة.

وكانت التجارة تمتدّ أيضًا الى الخارج وقد طالت، منذ عهد الخلافة العبّاسية، أوروبا الشمالية وأقاصي آسيا الوسطى التي كانت مَصدَر الفرو والعبيد، وأفريقيا السوداء الساحليّة الممتدّة إلى ما وراء الصحراء لتشمل بلاد السودان التي كانت مصدر الذهب، والشواطئ الأفريقية الممتدّة على المحيط الهندي، وأندونيسيا والشرق الأقصى الغني بالحرير والخزف حيث كانت المراكز التجاريّة التي يسكنها تجّار مسلمون، والتي تنتشر حتّى في الأماكن البعيدة كالصين مثلًا، تستقبل سفنًا تؤمّن التجارة مع مرافئ البحر الأحمر والخليج العربي - الفارسي.

وفي المقابل، شهدت التبادلات التجاريّة في حوض البحر الأبيض المتوسط، خلال هذه الحقبة، تراجعًا كبيرًا. واقتصرت على نشاط قامت به جماعة غامضة من التجّار اليهود أُطلق عليهم اسم «راذانيّة»، وهو اسم مجهول المعنى. كان هؤلاء يتنقّلون، كما ورد عند الجغرافي ابن خُرْداذْبَهْ، برًّا أو بحرًا بين أوروبا والمشرق الأدنى، ومنه إلى مناطق أخرى. ولم تُستأنف العلاقات المنتظمة في حوض البحر الأبيض المتوسط إلّا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، عندما توجّه تجّار مسيحيّون وإيطاليّون بشكل خاص إلى مدن ومرافئ مثل الاسكندرية والقاهرة. وفي ما بعد، استقرّ هؤلاء التجّار على الشواطئ السوريّة - الفلسطينيّة الخاضعة للفرنج، ومنها تاجروا مع مسلمي الداخل، خصوصًا خلال الفترات التي غابت عنها العمليّات العسكريّة. غير أنّه لم يكن يُسمح لهم في مصر، في العهد الأيّوبي، بتجاوز منطقة الدلتا، إذ حظّر صلاح الدين على غير المسلمين الوصول إلى البحر الأحمر حيث اعتُبرت العمليّات التجاريّة حكرًا على تجّار التوابل المسلمين.

عُقدت بعض الاتفاقات التجاريّة ابتداءً من العهد الصليبي بين الأوروبيّين والدول الإسلاميّة. وتضمّنت أحيانًا، كما حدث في مصر، تعهّدًا من قبل الأجانب بشراء كميّة محدّدة من المنتجات المحتكرة من قبل الدولة، كحجر الشبّ مثلًا؛ وبالمقابل أجازت للتجّار المعنيّين تملّك مؤسّسات خاصّة بهم في الأراضي الإسلامية، مثل الفنادق والخانات. تُعتبر هذه الاتفاقات أساسًا لعهود الأمان أو «الامتيازات» التي أقرّت بها السلطنة العثمانيّة في ما بعد، والتي تُعرف باللغات الأجنبيّة باسم capitulations، وقد ألغتها الجمهوريّة التركيّة في العام ١٩٢٣. كانت هذه الاتفاقات تؤمّن للأجانب، بشكل عام، شروطًا أفضل من الشروط التي كان يفرضها علماء الفقه، وكانت هذه تتضمّن ضريبة نسبتها عشرة بالمائة من قيمة البضائع.

وكانت النشاطات التجاريّة التي أخذت تتطوّر بهذا الشكل، إبتداءً من أواخر القرون الوسطى، تسلك مسارات تختلف عن تلك التي كانت سائدة سابقًا بين الشمال والجنوب، أو بين إيران العباسيّة وسوريا مرورًا ببغداد. لقد عزّزت الهيمنة التي مارسها المغول على آسيا بكاملها أهميّة المحور البرّي التجاري العابر للقارة الأسيويّة، من خلال إعادة إحياء «طريق الحرير» القديمة، ولكنّها قلّصت من أهميّة مسالك البحر الاحمر ومصر. في حين أدّى توسّع الفتح التركي الإسلامي في الأناضول وفي أذربيجان إلى توجيه المنتجات الشرقيّة الثمينة، المخصّصة للمستوردين الأوروبيّين القادمين من جنوى ومن البندقيّة، نحو مرافئ بحر إيجه المتوسطي، وبشكل خاص نحو مرافئ البحر الأسود، ولا سيّما نحو طرابزون أو فيوديوسيا في شبه جزيرة القرم. وتأكّدت في ما بعد، إبتداءً من القرن الخامس عشر الميلادي، أهميّة اسطنبول الناشطة عند ملتقى الطرق التجارية القادمة من أوروبا ومن آسيا. وقد حافظت هذه المدينة على ازدهارها إلى أن اختلّ التوازن في هذه المبادلات، في القرن الثامن عشر، عندما اجتاحت المنتجات الأوروبية، بسبب اتفاقات «الامتيازات الأجنبية»، منطقة الشرق الأدنى، التي كانت عاجزة عن تقديم أي شيء بالمقابل، والتي شهدت عندئذ تفاقمًا لتراجعها على الصعيدين الاقتصادي والتقني.

ويبدأ في الحقبة نفسها تطوّر مماثل في مكان آخر: لقد تكرّس ضعف التجارة الإسلامية وتخلّت هذه، لفترة، لمصلحة البرتغاليّين، عن سيطرتها على التجارة في المحيط الهندي، قبل أن تعاود الملاحة الإسلاميّة تطوّرها انطلاقًا من سواحل عُمان، لتؤمّن ثروة سلاطين مسقط وزنجبار، إلى أن هيمن البريطانيّون بدورهم على كل الطرق التجاريّة وعلى دول المنطقة.

هكذا بدأ تراجع تدريجي وعام للسيطرة التجاريّة التي مارسها المسلمون في القرون الوسطى على الدول المجاورة كافةً حيث كانوا قد استقرّوا فيها بصورة شبه سلميّة. ولم يستمرّ الوضع السابق إلّا في بعض مناطق أفريقيا، الشرقيّة منها والغربيّة، حيث واصل الإسلام انتشاره حتى أواخر القرن التاسع عشر، وفقًا للطرق التي اتّبعتها تجارة الرقيق وقوافلها، بينما تمّ التخلّي عن المسارات الأسيوية التي سلكها الأسرى من الترك والشركس. أمّا في أفريقيا السوداء فقد تواصل إنشاء المدن على النمط الإسلامي حول المستودعات التجاريّة المحصّنة التي بُنيت لجمع السلع الثمينة ولتوزيعها. وقد حافظت هذه المواقع المأهولة لعقود عدّة على دورها كمراكز متقدّمة لانتشار الإسلام على الصعيد المحلّي، ولكنّها توارت مع تغيّرات الحقبة المعاصرة. لقد تبدّدت، خلال القرن العشرين، آخر الآثار للنشاطات التجاريّة الإسلاميّة العائدة إلى القرون الوسطى، وحلّت محلّها علاقات اقتصاديّة قائمة على أسس جديدة كليًّا، أقامتها دول إسلاميّة تختلف عن بعضها في تنظيمها وفي تعاطيها مع الموضوع.

◄ راجع المستندات ١٠، ٢٥، ٢٨ و٣٠.

التجسيم، لفظ تداوله المسلمون عند بذلهم الجهود الأولى لتفسير العقيدة فكان، في القرون الوسطى، سببًا لمناقشات دينيّة كثيرة ولخصام عنُف أحيانًا. وتفسير حدّة ذلك النقاش القديم هو أنّ بعض الآيات القرآنيّة، إذا ما أُخذ بحرفيّته، يُبرز الله بمظهر بشري: فالله ذو وجه ويدين يستوي على العرش؛ كما أنّه، تعالى، يتلقّى، في النصوص عينها، صفات يمكن إضفاؤها على البشر، إذ إنّه «القادر» و«العالم»...

إلّا أنّ مفكّري المعتزلة الذين تبنّوا مفهومًا فكريًّا قريبًا ممّا كان عند الأوائل، عارضوا استعمال هذه التعابير لأنّها لا تليق بالله الذي «لا شيء يشبهه» في الخليقة، وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم أيضًا. واتّهموا بالتجسيم أولئك الذين لا يتجاوزون المعنى الواضح للآيات القرآنيّة من أجل المعنى المجازي. وهم يعتبرون أنّ الصفات المعطاة لله ليست سوى مظاهر من الجوهر الإلهي، وأنّه لا وجود لها خارج هذا الاطار.

من جهتهم، كان أتباع التجسيم يتباهون بتمسّكهم بحرفيّة النص، وهم الذين يُعرفون باسم السَّلَفيّين، ويتّهمون المعتزلة بتعطيل فكرة الله وإفراغها من محتواها.

التجيبيّون أو بنو تُجيب، أُسرة عربيّة في شبه الجزيرة الايبريّة المتأسلمة. لعب أفرادها دورًا سياسيًّا في مختلف حقبات التاريخ الأندلسي.

فرض بنو هاشم، وهم فرع من بني تُجيب، سلطانهم على سرقسطة، من العام ٤١٠هـ/١٠١٩م إلى ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، وكانوا، في البداية، من أتباع أمويّي الأندلس الذين آزروهم في صراعهم ضد بني قَسيّ ذوي الأصل القوطي. ومن ثمّ، في عهد ملوك الطوائف، حصل بنو هاشم على استقلالهم في سرقسطة، ولم يلبثوا أن خسروه لمصلحة بني هود.

وتمكّن بنو صمادح، الفرع الثاني لبني تُجيب، في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، من الاستيلاء على إمارة المريّة المستحدثة، واستمرّوا في حكمها حتّى مجيء المرابطين في ٤٨٤هـ/١٠٩١م. ويُعتبر المعتصم الذي ينتمي إلى هذا الفرع أشهرَ من حَكَمَها، إلى أن أرغمه المرابطون على الانسحاب إلى بجّاية حيث توفيّ.

أسرة بني تُجيب في سرقسطة:

المنذر المنصور	٤١٠-٤١٤هـ/١٠١٩-١٠٢٣م
يحيى المظفّر	٤١٤-٤٢٠هـ/١٠٢٣-١٠٢٩م
معزّ الدولة المنذر الثاني	٤٢٠-٤٣١هـ/١٠٢٩-١٠٣٩م

تدمر (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، واحة تقع في الصحراء السوريّة شمال شرقيّ دمشق، خضعت للإسلام منذ بداية الفتوحات الكبرى.

على الرغم من أهميّتها الإقتصاديّة والسياسيّة في العصور القديمة التي تشهد عليها الآثار المتبقّية، تحوّلت تدمر، في ظلّ الحكم الإسلامي، إلى قرية كبيرة ليس إلّا، أشار إليها الجغرافيّون العرب في القرون الوسطى نظرًا إلى آثارها القديمة وقلعتها.

لكنّ منطقة تدمر استمرّت بإثارة اهتمام الحكام الجدد، إذ إنّ الاستيطان العربي في العصر الأموي أدّى، لجهة الغرب كما لجهة الشرق، إلى بناء مقرّات إقامة محميّة، من أهمّها قصر الحَيْر الغربي وقصر الحَيْر الشرقي، في حين استمرّ استخدام طرق القوافل التي تعبر الصحراء وفاق خط مباشر يصل مرافئ سوريا بإيران والهند وآسيا الوسطى. في ما بعد ازدهرت الأنشطة التجاريّة في القرون الوسطى، وأدّى ذلك إلى إقامة خانات ونُزُل استراحة في مواقع أمويّة نال منها الدمار، كقصر الحير الشرقي.

◄ راجع المستند رقم ٩

ترانسلفانيا، هي إردل أو إرْدِلستان في اللّغة التركيّة. تقع هذه المنطقة إلى غرب الكربات، وقد كابدت، في أواخر العصور الوسطى، وعلى مدى ثلاثة قرون، الهجمات والسيطرة العثمانيّة.

وهي تتاخم مولداڤيا من الشرق وڤالاشيا من الجنوب، وكانت هاتان المقاطعتان قد خضعتا لسيطرة عثمانيّة طويلة. تتّصل ترانسلفانيا غربًا بسهل هنغاريا الأوسط، الذي، عبره، حصلت على مساعدات عسكريّة مكّنتها من الدفاع عن نفسها، طيلة القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، ضدّ الهجمات العثمانيّة. وفي عام ١٥٤١م، بينما كان السلطان سليمان القانوني يجتاح حوض الدانوب الأوسط، وقّعت معه ترانسلفانيا معاهدة اعتُرف فيها بالسيادة العثمانيّة، وتعهّد بموجبها السلطان، لقاء ضريبة تدفعها المقاطعة، بحماية حكّامها الذين اعتُرِف له بحق تسميتهم وعزلهم. أمّا في المرحلة الصعبة التي تلت، فقد توالت الإضطرابات الداخليّة والنزاعات المسلّحة تبعًا للتدخّلات النمساويّة ولردّات الفعل العثمانيّة، ولكنّها لم تهدّد بعمق السيادة العثمانيّة على ترانسلفانيا، إلى أن وُقّعت معاهدة كارلوڤيتش عام ١٦٩٩م التي تمّ تأكيدها بمعاهدة پساروڤيتش في العام ١٧١٨م وبصلح بلغراد في ١٧٣٩م، بحيث تمّ الاعتراف رسميًّا بسيادة آل هابسبورغ على ترانسلفانيا، المنطقة الجديدة لنفوذهم.

ترجمان، هو الذي يقوم بعمليّة الترجمة ويكون دليلًا للمسافرين الأجانب في العصور الحديثة، خلال تنقّلهم داخل الوسط الإسلامي.

وقد أدّى المترجمون دورًا خاصًا وفاعلًا في بلدان المتوسّط، انطلاقًا من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، اي مع نهضة النشاط التجاريّ وتكثيف العلاقات الدبلوماسيّة بين البلدان الإسلامية وأوروبا المسيحيّة. فقد كثر عددهم في المرافئ التي يقصدها التجّار الغربيّون، وكانوا موظّفين في دوائر الجمرك. كما كان بعضهم من المسلمين، ولكنّ غالبيتهم من المسيحيّين أو اليهود.

واتّخذت هيئة المترجمين، التي تعيّنها السلطات، أهميّة متزايدة في العهد العثماني. وكان هناك، فضلًا عن المترجمين المعيَّنين في المرافئ، ترجمان السلطان الرسمي، المكلّف على الأخصّ كتابة الاتفاقات المُعَدّة لأن تو قّع مع الدول الأجنبيّة. وقد ظهرت وظيفة ترجمان الباب العالي في القرن السادس عشر، وربّما قبل هذا التاريخ. وقد شغل هذا المنصب عدد من المترجمين الكبار، جميعهم من المسيحيّين.

وكان المترجمون الرسميّون، وكذلك الذين كانوا في خدمة السفارات أو القنصليات الأجنبيّة، يتدخّلون في تطبيق شروط عهود الأمان المعروفة بالامتيازات. وفي القرن التاسع عشر، بدأت الدولة العثمانيّة تقف منهم موقف الحذر. وفي سنة ١٨٦٣، حظّرت على الدول الأجنبيّة اللجوء إلى مترجمين عثمانيّين. لكنّ المشكلات التي كان يسبّبها المترجمون لم تزُل إلّا بعد إلغاء نظام الامتيازات سنة ١٩١٤.

الترك ← الأتراك.

تركستان (بلاد الأتراك)، لفظة تغيّر مدلولها الجغرافي، عبر العصور، تبعًا لتبدّل مواطن العشائر التركيّة المختلفة التي استمرّت طويلًا على البداوة.

إنّ الأتراك، الذين جاءوا في القرن السادس

الميلادي من السهوب الداخلية الأسيوية، تقدموا حتّى نهر جيحون/آموداريا بطريقة جعلت بلاد ما وراء النهر جزءًا من أراضيهم. على أثر تقهقرهم إلى ما بعد نهر سيحون/سيرداريا بفعل تقدّم الجيوش العربية - الإسلامية خلال الفتوحات الكبرى، أصبحت بلاد الأتراك تقع، وفق ما ذكره الجغرافيّون العرب في القرنين الرابع والخامس للهجرة/العاشر والحادي عشر للميلاد، إلى شمال وشرق بلاد ما وراء النهر في منطقة فرغانة. لم يحصل أيّ تبدّل جذريّ في الوضع مع الغزوات السلجوقيّة والمغوليّة، ولكنّه تبدّل في القرن السادس عشر عندما احتلّ الاوزبكيّون بلاد ما وراء النهر ومناطق أخرى تقع إلى جنوبها.

ظهر تعبير «تركستان» رسميًا في سنة ١٨٦٧ عندما أوجد الروس حكومة تركستان العامة التي ضمّت تقريبًا، المساحة الجغرافيّة الواسعة المعروفة اليوم بـ «آسيا الوسطى». وانتهت هذه الحكومة في العام ١٩٢٤، على أثر قيام جمهوريّات أوزبكستان، وتركمنستان، وطاجكستان الإشتراكيّة السوفياتيّة. واستعملت عبارة «التركستان الصيني» للدلالة على مناطق الصين كيانغ، التي تأسلمت وتتركت، ولا سيّما في حوض نهر تاريم.

وتُطلق أخيرًا لفظة «تركستان» على مدينة صغيرة في جمهوريّة كازاخستان كانت تُسمّى في ما مضى «يازي». إنّها تعيش من نشاطها التجاري لوقوعها على طريق القوافل الذي يصل طشقند بالسهوب الشماليّة. وهناك عاش مؤسّس الفرقة الصوفية اليَسَويّة الشيخ احمد اليَسَوي المتوفّى في العام ٥٦١هـ/١١٦٦م، وأصبح قبره هدفًا لزيارات تقويّة، تقصده أعدادٌ وفيرة من البدو الأتراك. ودفعت هذه الشهرة تيمورلنك إلى أن يأمر، في أواخر القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، ببناء ضريح ضخم فوق قبره، زُيّن بفسيفساء من الآجر والخزف، وهو يشكل أحد أجمل نماذج الفن التيموري التي وصلت إلينا.

◄ راجع المستند رقم ٣٥.

التركمان، إسم أُطلق على عشائر تركيّة في آسيا الوسطى، ولكنّنا لا نستطيع أن نُميّز بين الأتراك والتركمان. وقد أُطلق لاحقًا على أتراك رحّل، داخل العالم الاسلامي، ينتسبون بشكل خاص إلى القبائل الغزّية.

قبل القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، اعتبر أحد الكتّاب (محمود قشغري) التركمان مجموعتين: الغزّ وإليهم ينتسب السلاجقة الذين ظهروا في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، والقرّلُك. وبعد الغزوات السلجوقيّة، استقرّت قبائل الغُزّ في إيران وفي الأناضول بشكل رئيس، في حين تقاسم قادتهم من الأتابكة وسلالات أخرى أراضي أمبراطوريّة دخلت طور التجزئة. ولكن استمرّت تعيش بينهم، كما في آسيا الوسطى، قبائل رحّل. منذ ذلك التاريخ، أعطي لقب «تركمان» لهذه القبائل الرحّل التي أفرزت قادة معظم دويلات الأناضول في عصر الإمارات، وقد تميّزت من بينها المجموعتان الكبيرتان، القراقيونلو والآق قيونلو. وقد التحق بعضهم، في أذربيجان، بالفرقة الصوفيّة الصَفَويّة، التي كانت في أساس الدولة الصفويّة. وفي القرن التاسع عشر، توزّع تركمان آخرون بين إيران، وأفغانستان، وروسيا، على أطراف آسيا الوسطى حيث شكّلوا، في عام ١٩٢٤، جمهوريّة التركمنستان الإشتراكيّة السوفياتيّة المستقلّة اليوم.

◄ راجع المستند رقم ٣٥

تركمانستان (جمهوريّة): مساحتها ٤٨٨ ١٠٠ كلم²، عاصمتها أشخباد، وهي دولة معاصرة استقلّت عام ١٩٩١، وهي واحدة من الجمهوريّات الخمس السوفياتيّة السابقة في آسيا الوسطى، ويقرب عدد سكّانها من أربعة ملايين نسمة، أكثر من ٨٣٪ منهم مسلمون.

وتحتلّ صحراء كاراكوم معظم أراضيها التي تمتدّ من بحر قزوين إلى مجرى نهر جيحون/آموداريا، بين جمهوريّتي إيران وأفغانستان من جهة، وجمهوريّتي كزاخستان وأوزبكستان السوفياتيّين السابقتين من جهة ثانية. كانت تعبرها قديمًا، في قسمها الشرقي التابع لولاية خراسان الغنيّة، طريق القوافل القروسطيّة التي كانت تربط نيسابور ببخارى، مرورًا بسَرَخْسْ ومرو. ويعبر تركمنستان اليوم خط بُني في عهد الاحتلال الروسي، يصل مرفأ كرانسنوفودكس بأوزبكستان

وطاجكستان، عابرًا نهر آموديا في تشاردجاوو -- آمل سابقًا - الواقعة على الطريق التجارية المذكورة أعلاه.

يسكن البلاد، بصورة خاصة، بدو قدامى من أصل تركماني ويدينون بالإسلام؛ وقد حافظوا جزئيًّا على ذهنيّتهم القبليّة وعاداتهم التقليديّة. تحضّر قسم منهم واستقرّ في بعض المدن التي نشأت بفضل استغلال المعادن والغاز الطبيعي، والبعض الآخر في وادي النهر، وعلى لحف الجبل المتّكئ إلى الحدود الإيرانيّة الحاليّة حيث توجد أخشباد، المدينة الحديثة الأكثر أهميّة. ونفتقد للمعلومات حول تأثير هذه التحوّلات الإقتصاديّة والإجتماعيّة على الوضع الديني.

◄ راجع المستند رقم ٣٥.

تركيا (الجمهوريّة التركيّة)، مساحتها ٥٧٦ ٧٨٠ كلم²، عاصمتها أنقرة، وهي دولة مستقلّة معاصرة تقع على الأطراف البعيدة لأوروبا ولآسيا الغربيّة، ويحترم دستورها علمانيّة النظام الديموقراطي البرلماني الذي أوجده أتاتورك، على الرغم من أنّ سكّانها كلّهم تقريبًا مسلمون سنّة.

وتُحيط حدودها الحاليّة، التي تمّ الاعتراف بها بموجب معاهدة لوزان ١٩٢٣، بمشاهد غاية في التنوّع بدءًا من شواطئ المتوسط، مرورًا بشواطئ البحر الأسود وحتّى مناطق ما قبل القوقاز. ويحدّها غربًا اليونان وبلغاريا، وشرقًا الجمهوريّتان السوفياتيّتان السابقتان، جورجيا وأرمينيا، فضلًا عن إيران، وجنوبًا الجمهوريّة العراقيّة، والجمهوريّة العربيّة السوريّة. وتماثل حدودها إذًا تقريبًا الحدود القديمة للأناضول، ولكنّها تضمّ، من الجهة الشرقيّة، مناطق مأهولة بالأرمن أو حتى بالايرانيين، كما تضمّ تراقيا الواقعة إلى ما وراء بحر مرمرة، وهي جزء من الرومَلّي الذي نجا من تفكّك الممتلكات العثمانيّة في نهاية الحرب العالميّة الأولى. وعلى الرغم من عدم التجانس الداخلي الذي لا يقبل الجدل، على المستويين الجغرافي والديمغرافي، تحافظ تركيا على تماسك سياسي مبنيّ، قبل كل شيء، على الشعور القومي لسكّانها. ويستند هؤلاء إلى الإنتماء العرقي التركي مع المحافظة على ذكرى جذورهم الأسيوية البعيدة التي تعود إلى مرحلة ما قبل احتلالهم آسيا الوسطى وإيران، والأقاليم البيزنطيّة، ويتمسّكون باستعمال لغة تركيّة، استمرّت تنقيتها، خلال العقود الاخيرة، ممّا داخلَها تاريخيًّا من ألفاظ عربيّة وفارسيّة لتستوي فيها مفرداتها الأصيلة.

نشأت الجمهوريّة التركيّة الحديثة عام ١٩٢٠، نتيجة القطيعة بين الجمعيّة العموميّة في أنقرة والحكومة العثمانيّة، على يد الجنرال مصطفى كمال، الذي سيُعرف لاحقًا بـ«أتاتورك» أي أب الأتراك، وقد أطلق الدولة الجديدة بدعوته إلى المقاومة من أجل الوطن بدءًا من ١٩١٩، وبانتصاراته العسكريّة اللّاحقة، وقد استمرّ رئيسًا لتلك الدولة حتّى وفاته في العام ١٩٣٨. خاض، أوّلًا، بنجاح حرب الإستقلال، التي أدّت إلى إقامة الحدود الحاليّة، في حين كانت معاهدة سيفر عام ١٩٢٠ قد لحظت وَضْعَ الدولة العثمانيّة، من جديد، تحت نظام الامتيازات الأجنبيّة، وسَلْخَ البلاد العربيّة في الشرق الادنى عنها، وكذلك أراضٍ أناضوليّة تقع في الشرق (مناطق ارمينيا القديمة، والمناطق المأهولة بالأكراد)، وفي الغرب (تراقيا ومنطقة إزمير). ثمّ اتّخذ المبادرات المختلفة الضروريّة لإنشاء الدولة الجديدة وتفعيلها: ألغى السلطنة عام ١٩٢٢، والخلافة في العام ١٩٢٤، وأعلن قيام الجمهوريّة سنة ١٩٢٣ وتولّى رئاستها عن طريق الانتخاب. وتلا ذلك، ما بين ١٩٢٥ و١٩٢٨، إعتماد إجراءات أساسيّة أدّت إلى فصل الدين عن الدولة، وسمحت للأمّة التركيّة بالانفتاح كلّيًّا على الثقافة الغربيّة وبالاستمرار في تأكيد انتمائها إلى أوروبا من خلال سيادتها على تراقيا.

ولتركيا وضع إجتماعي وسياسي كدولة علمانيّة هو، إلى حد بعيد، فريد من نوعه في دولة كانت تشكّل، على مدى عصور، جزءًا من العالم الإسلامي، ولعبت فيه دورًا رئيسيًّا كمركز لأمبراطوريّة عثمانيّة نشأت عن طريق الجهاد الديني. هذا الوضع يشكّل فرادة تركيا الحاليّة، التي ما تزال تخضع لدستور ١٩٢٤ الذي أُكمل في ١٩٢٨. لم يحدث أيّ تغيير بعد وفاة اتاتورك، الذي خلفه في رئاسة الجمهوريّة عصمت إينونو، ساعِدُه الأيمن الأمين، ورئيس الوزارة لمدّة طويلة. وصمدت مبادئ العلمانيّة على رغم الإعتبارات المتساهلة تجاه

الإسلام التي اتخذها رئيس جديد، هو الاقتصادي جلال بيار الذي تولى مقاليد الحكم في العام ١٩٥٠، على أثر انتصار الحزب الديمقراطي الحديث الولادة، كمنافس لحزب أتاتورك الجمهوري.

وبموازاة ذلك استمرت أسس السياسة الخارجية «الكمالية»، وساهمت خلال مواقف أتاتورك المعادية للسوفيات - التي ورثها عن المعارك العديدة التي خاضها الجيش التركي ضد الروس على جبهة القوقاز - في حصول تركيا على موقع في حلف شمالي الأطلسي بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت تركيا قد استعادت السيطرة على المضائق سنة ١٩٣٦، وعلى هتاي/ لواء الاسكندرون منذ ١٩٣٩. واستمرّ أيضًا، بتأثير الإجراءات الموجّهة المدعومة من الحزب الجمهوري ومن العسكريين الذين كانوا يساندونه، التطوّر الاقتصادي والازدهار المُدني المطابق لأهداف التحديث التي كان قد اتبعها مؤسّس الجمهورية، والتي لم تمسّها المحاولات الأولى لتحرير الإقتصاد.

إنّ التوجّه الذي اتُّبع منذ ولادة الجمهورية لم يلق الإجماع الذي كان يُفترض أن يحصل عليه لو أُخذت في الإعتبار النجاحات الأولى التي حقّقها هذا التوجّه في الداخل كما في الخارج. إنّ التفاوت بين المناطق، الذي يعود سببه جزئيًا إلى تضاريس البلاد، أدّى إلى تفاوت مماثل في مستوى المعيشة لشعب أفاد من مشاريع التصنيع والتأميم والإرشاد الزراعي، ولكنّ فئاته الأكثر فقرًا أخذت تنتقل من المناطق الريفية والسهوب إلى المدن في ظروف هشّة. وظهر الخلل، مثلاً، بين المناطق الجبلية في الشرق المتخلّفة عن العصرنة، ومناطق تركيا المتوسطية أو الحواضر الكبرى في الغرب. ويضاف إلى كلّ ذلك مشكلات الأقليّات العرقيّة واللغويّة. وأخيرًا، أدّت الاضطرابات إلى تدخّل الجيش في العام ١٩٦٠، وإلى العودة، في ما بعد، إلى نوع من عدم الإستقرار السياسي تميّز بتناوب الحزبين الأساسيين المتنافسين على الحكم.

ومن جهة ثانية، عادت إلى الظهور الصعوبات التي أثارها الإسلام بعد مبادرات أتاتورك، وقد اعتُقد في البدء أنّ تلك المبادرات ستسمح بإقامة توازن مستمرّ. إنطلاقًا من التلطيف الذي طال، في العام ١٩٥٠، بعض الاجراءات التي اتّخذت في بداية العهد الجمهوري - مثل السماح مجدّدًا بالتعليم الديني - فإنّ الميول المؤيّدة للإسلام التي ظهرت آنذاك استمرّت بالتطوّر. ذلك أنّ الإنتعاش الذي يشهده الإسلام اليوم في بلدان عديدة يطال أيضًا تركيا، بصورة ملفّقة، ولكنّها مثيرة للدهشة بعد التحوّلات التي أصابت المجتمع جرّاء سياسة مصطفى كمال. يُمكن أن يُفسَّر ذلك بأنّه نتيجة لإعادة تركيا علاقاتها مع بعض دول الشرق الأدنى العربي، ما يسمح لها بجني بعض الفوائد الإقتصاديّة، كما يُمكن أن يُنظر اليه، وكأنّه تأثُّر بالوضع السياسي - الديني القائم في إيران الشيعيّة. وقد تكون أصول ذلك محليّة وظرفيّة محضة: تمايز إقتصادي وقد أشرنا اليه، وتزايد سكاني حديث العهد، طال بصورة خاصة الطبقات الأقل تقدّمًا بين المسلمين.

ترمذ (جمهوريّة اوزبكستان)، مدينة في آسيا الوسطى، تقع على الضفة الشماليّة لأعالي نهر جيحون (آموذريا)، تمكّنت من المحافظة، عبر العصور، على دور إستراتيجي وتجاري من الطراز الأوّل.

ألحقها بديار الاسلام قائد عربي مستقلّ، إبّان متابعة الفتوحات الكبرى في العهد الأموي عام ٧٠هـ/ ٦٨٩م. ولم تخضع لسلطة والي بلاد ما وراء النهر إلّا بدءًا من العام ٨٥هـ/ ٧٠٤م. وخضعت في ما بعد، على التوالي، لسيطرة الغزنويّين والسلاجقة والخوارزمشاهيّين، إلى أن دمّرها المغول في العام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، بعد أن كانت قد شهدت ازدهارًا ملحوظًا، في وجه بلغ غير البعيدة، على خط مسار القوافل الكبير على طريق الحرير القديمة. وتعود لهذه الحقبة آثار قصور القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد والأبنية التي شُيّدت بعدها بزمن قصير، وهي تحيط بضريح الحكيم الترمذي، وتحافظ حتى اليوم على نماذج الزخرفة التي كانت معتمدة آنذاك في الفنّ المعماري. من جهة أخرى، كان ضريح «السلطان» فيها يُعتبر، في نظر شيعة تلك الديار، وهم كثر، واحدًا من المزارات المقدّسة.

أمّا مدينة ترمذ الثانية فقد أُعيد بناؤها في ما بعد على مسافة قريبة من النهر ومن الموقع الذي دمره

جنكيزخان، وتحديدًا عند منفذ جسر السفن الذي كان يستخدم لاجتياز النهر، والذي وصفه كلافيخو (Clavijo) الموفد الأسباني في روايته، في عهد تيمورلنك. استعادت منطقة ترمذ بعض استقلالها في القرن الخامس عشر؛ ثمّ اضطرّت للدخول تحت سلطة خانية الأوزبك الشيبانيّين. لكنّها هُدّمت من جديد في القرن الثامن عشر. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، توافرت لها ظروف لازدهارها، بحيث شُيّدت فيها قلعة، وتأمّنت لها المواصلات بواسطة الخط الحديدي الذي وصل بلاد الصُغد بدوشنبه عاصمة طاجكستان.

التِّرمِذي، ابو عيسى محمد بن عيسى ٢٠٩-٢٧٨هـ/ ٨٢٤-٨٩٢م، هو محدّث سُنّي، وأحد مصنّفي الأحاديث النبويّة الشريفة. لا نملك معلومات مفصّلة عن حياة هذا العالِم الذي توفي في ترمذ بعد أن قام برحلات إلى العراق وبلاد فارس والجزيرة العربيّة لجمع السنّة النبويّة الشريفة. كان تلميذًا لأبي داود السِّجستاني وهو يقاسمه حسّه النقدي. إنّ مؤلَّفه «صحيح الترمذي»، على غرار صحيح مسلم النيسابوري، يتميّز باعطائه مكانًا مهمًّا للمسائل الكلاميّة وللإختلاف بين المذاهب الفقهيّة. وهو، كما مؤلَّف أبي داود، كتاب الممارسات التي تشكّل السنّة النبويّة الشريفة.

تسَالونيكي ← **سَالونيك**.

تُستَر ← **شُشتَر**.

التشابيك الهندسيّة والشبكات المقوّسة الخطوط، عنصر تزييني ومكوّن لزخرفة المباني والتحف التي قام عليها الفن في دار الإسلام، والتي يمكن أن يُقرن رواجها بتحريم التجسيم في الإسلام وبمبادئ الهندسة الإسلاميّة نفسها.

وعلى نسَق التجريد القائم على الزخرف بالنبات أو الأزهار المعروف بالعربية بالعَرْبسة (أرابسك)، فإن هذه التوليفات التي استُعملت فيها موادّ كثيرة التنوّع وأخذت بأشكال متفاوتة في بروزها ونفورها، سلكت في تطوّرها التاريخي مسالك متناغمة مع المراحل الكبرى التي طوتها الحضارة الإسلاميّة. إنّ النماذج البسيطة نسبيًّا التي استُعملت في التلبيسات الأولى وفي ألواح التغليف بالجصّ لعمارات الأمويّين في سوريا، وكذلك اللجوء الى مداميك الآجرّ في إيران أيام البويهيّين والسلاجقة، حيث كانت تسود التقاليد التزيينيّة التي شاعت في العراق أيام العبّاسيّين، تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى تشابيك متعدّدة الزوايا ومتزايدة التعقيد. وقد قارن تطوّر هذه الصيغ، التقدّم الذي أُحرز في الرياضيات والهندسة التي كانت تؤمّن لها الرسم البيانيّ الموجَّه. إلّا أن تطبيقاتها العمليّة التي حقّقتها إنجازات علميّة واقعيّة أدّت إلى نوع من الجمود في الفن الزخرفيّ، بسبب تصغير الأشكال الكوكبيّة وتكاثرها، وقد استعملت، لإبراز هذه الأشكال، مواد متعدّدة، من فسيفساء إلى مربّعات قيشانيّة إلى التطعيم بالخشب أو بالعاج أو بالمعدن، ما تسبّب بطمس خطوطها الأساسيّة في زحمة فوضويّة من مضارب الألوان أو من الانطباعات الباهتة.

تشاد (جمهوريّة)، تبلغ مساحتها ٠٠٠ ٢٨٤ ١ كلم²، وعاصمتها نجامينا، وهي دولة مستقلّة معاصرة في أفريقيا السوداء. نشأت عام ١٩٥٨، بعد أن كانت مستعمرة فرنسيّة قديمة تحمل الاسم عينه، وتشكّل جزءًا من أفريقيا الاستوائيّة الفرنسيّة. يبلغ عدد سكّانها حوالى ستة ملايين نسمة نصفهم من المسلمين.

إنّ حالة التوزّع الديني واضحة على الأرض بتجاور مناطق تمتدّ من شمال تشاد إلى جنوبها، تعتنق كلٌّ منها معتقدًا مغايرًا كليًّا للآخر. ويوضح هذا التوزّع، إلى حدّ ما، إنقسامات البلاد الحاليّة التي، على الرغم ممّا تتمتّع به من أهمية إستراتيجيّة، تبقى ضعيفة بسبب عدم تجانس سكّانها، المكوّنين من البربر والعرب والزنوج؛ أضف إلى ذلك أنّهم محاطون بجيران لهم مصالح متباينة: الجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الاشتراكيّة في الشمال، وجمهوريّة السودان في الشرق، وجمهوريّات النيجر ونيجيريا والكاميرون وأفريقيا الوسطى في الغرب والجنوب. وقد أثّرت هذه الأوضاع على الحياة السياسيّة في التشاد وطبعتها، بشكل خاص، بعدم الاستقرار. وقد نتجت عنها معارك داخليّة وهجمات خارجيّة تغذّت من الطموح والتباعد المنتشرَيْن داخل الأوساط الإسلاميّة.

كما يمكننا أن نشاهد فيها مجموعة جغرافيّة مكوّنة

أساسًا من صحارى وسهول مفتوحة على الغابة الاستوائيّة، داخل المناطق الأفريقيّة التي كانت تُعرف في القرون الوسطى باسم «السودان»، وهذه المجموعة عانت، نتيجةً لتطوّر طويل، من تأثير حركات إثنيّة وتيارات سياسيّة دينيّة تترجّح بين المناطق النيليّة وحوض النيجر. وتطوّرت بداية في التشاد أشباه دول مؤسلمة، كمملكة كانم الأسطوريّة التي اعتنق حكامها، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، المذهب المالكي؛ ثمّ مملكة بورنو الشافعيّة التي بسطت سلطتها، في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، على كانم؛ في حين ظهرت في الشرق، في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، مملكتا واداي وباجرْمي اللتان اعتمدتا المذهب المالكي. وأصبحت واداي تحديدًا المنطقة الأكثر أسلمة مع مركز «أبيشيه» الثقافي الذي يحتفظ، حتّى اليوم، كما كانم، بتعليم إسلامي عالٍ. ولم تبسط الممالك الإسلاميّة القديمة سلطتها على قطاعات البلاد الجنوبيّة الأكثر غنى اقتصاديًا، والأكثر سكّانًا، على عكس ما كان الأمر عليه في الشمال الذي تعرّض لتدخّلات مصدرها فزّان ودارفور، مدعومة إلى حد ما بالحيويّة السنوسيّة.

ونتجت من تداخل هذه العناصر المختلفة مشكلات ذات طابع قبلي وآخر ديني. ولم تنجح، اعتبارًا من سنة ١٩١٠، الجهود التوحيديّة للإدارة الفرنسيّة بحلّها، على رغم الأهميّة التي أُعطيت للعاصمة فورت - لامي التي هي اليوم نجامينا في عمليّة مركزيّة السلطة. وقد برزت المصاعب مجدّدًا وبقوّة في الجمهوريّة المستقلّة.

تطوان (المملكة المغربيّة)، بلدة مرفئيّة في المغرب الغربي، تقع على شاطئ البحر المتوسط إلى الجنوب من سبتة، ما تزال حتّى اليوم تحتفظ ببعض السمات الرائعة لماضيها في العصور الوسطى.

وإذا كان اسم تطوان ورد في الحوليّات التاريخيّة العربيّة للقرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، وفي مؤلّفات الجغرافيّين في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، فإن البلدة المذكورة التي خلفت مدينة قديمة لم تصبح مهمّة إلاّ في وقت متأخّر، حين بنى فيها، عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، الحاكم المريني يوسف بن يعقوب، قلعة للدفاع عن أراضيه ضد التعدّيات التي كان يتعرّض لها من الأندلس، ولا سيّما من غرناطة. بدأت المدينة آنذاك بتطوير ملاحتها. لكنّها عانت باستمرار هجمات أسبانيّة، إلى أن استقبلت، وبعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، مهاجرين من الأندلس، فأعادوا إعمارها وأعطوا انطلاقة حقيقيّة للقرصنة البحريّة. وبعد ذلك أفادت مدينة تطوان من الأسوار التي شيّدها الحاكم العلوي مولاي إسماعيل، بحيث شهدت إزدهارًا متناميًا قبل أن يحتلّها الإسبان موقّتًا، من سنة ١٨٦٠م إلى ١٨٦٢م، وقبل أن تصبح في العام ١٩١٣ عاصمة المنطقة الواقعة تحت حمايتهم. وبعد استقلال المغرب في العام ١٩٥٥ تحوّلت إلى مركز قضاء محلّي.

تَعِزْ (الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة)، مدينة في جنوب شبه الجزيرة العربيّة، تقع على الطريق الممتدّ من عدن إلى صنعاء، وقد حافظت، حتّى اليوم، على نشاطها التجاري والسياسي.

أسّسها أحد الايوبيّين من فرع اليمن، وهو الملك العزيز ظاهر الدين طُغْتُكين. ثمّ اصبحت لاحقًا المقرّ المفضّل لحكام دولة الرسوليّين الذين، منذ أواسط القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، حتّى نهاية القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، خلفوا حكّامها السنّة الشوافع، واحتفظوا بالخيارات العقائديّة عينها. استمرّت تعز، منذ ذلك الوقت، مركز مقاومة للمعتقدات الشيعيّة، وناهضت بصورة خاصة أنصار المذهب الزيدي الذين لم ينجحوا، طيلة العصور الوسطى، في بسط نفوذهم الّا موقّتًا عليها.

ما تزال حتّى اليوم أوساطها الثقافيّة، التي استندت إلى التعليم الذي أمّنته لها المدارس العديدة التي شيّدها وجهّزها الحكّام الرسوليّون، تتمتّع بمنزلة مهمّة، وهي تزيد في قوة وأهميّة الدور الاستراتيجي المعروف للمدينة ولقلعتها الواقعة على حدود المناطق الجبليّة، حيث كان زيديّو اليمن الشيعة يمارسون دعاوتهم وسلطتهم.

يعود تفوّقها الإقتصادي إلى الإزدهار الطبيعي لضواحيها المرويّة بشكل جيّد، والمزروعة على ارتفاع حوالى ١٤٠٠م عن سطح البحر. وقد زادته قوة وثباتًا

حيوية التبادل التجاري، ولا سيّما مع عدن: وقد استمرت هذه الحيويّة رغم تأثيرات الصراعات المسلحة والحروب الطويلة التي غذّتها أيضًا، في القرن التاسع عشر، طموحات العثمانيّين. ورغم تراكم الخرائب، حافظت المدينة على أصالتها الهندسيّة وآثارها الدينيّة وأسوارها، إلى أن أُدخلت عليها تغييرات مدنيّة بفضل الجهود التي بُذلت مؤخّرًا من أجل تحديثها.

التعزية، كلمة عربيّة تعني «مؤاساة»، وتدلّ في الأوساط الشيعيّة على العويل العلني والندب إحياءً لذكرى الأئمّة الشهداء، بدءًا بذكرى الإمام الحسين.

وتنطبق كلمة تعزية، بالتحديد، على تمثيل الألم الذي يجري إبّان احتفالات الحداد في ١٠ محرم، ذكرى عاشوراء الشيعيّة، التي تشتمل على مواكب واجتماعات متنوّعة. وتنطبق بصورة خاصّة على العروض التي تقام في أماكن عامة عدّة أو في خانات القوافل مثلًا. وخلال الحفل، يدعو أحد الشعراء إلى الحداد، وهو محاط بجوقة من الشباب والناديات، في حين يظهر ممثّلون يجسّدون الشخصيّات المهمّة بمن فيها الحسين نفسه، مذكّرين ببعض الحوادث المختارة من كارثة كربلاء مثلًا. إنّ لهذه الطقوس التي يُحتفل بها أهدافًا بعيدة بحيث يُروى فيها، في غالب الأحيان ووفق نظرة خاصة، تاريخ الاسلام ورؤيته لتاريخ العالم منذ بداية الخلق.

وإذا كان يصعب تحديد تاريخ الفترة التي بدأت فيها، في إيران، هذه العروض التي لم تلقَ دائمًا موافقة الملالي، فإنّنا نعلم أنّها كانت تقام بطريقة غنائيّة شعريّة وشعبيّة في بدايات القرن التاسع عشر، بحيث أنّنا نملك روايات عدّة للرحّالة عنها. وازدهر هذا التقليد أيضًا في الدول الشيعيّة في شبه القارة الهنديّة حيث كان الحكام يؤمّنون بكرم تكاليف الإحتفالات، ويعمدون أيضًا إلى تشييد الأبنية المخصّصة لإقامة هذه الإحتفالات المعروفة بـ«إمامباره». وكان يتنافس، في السخاء على تشييدها، في القرن الثامن عشر، آل نظام في حيدر آباد في الدّكن، وآل نوّاب في أوذه، ولا سيّما في مدينة لُكناو.

التعليم، التعليم في الإسلام وسيلة لنقل المعلومات الدينيّة والدنيويّة في نطاق المجتمع الإسلامي، وهي ضروريّة بدرجات مختلفة لكل أفراد المجتمع. ولمّا كان للنصّ المنزل وللحديث اللذين قام عليهما الإسلام وكوّنا حضارته في ما بعد، صفةٌ سلطويّة، فقد اضطلع التعليم بدور أساسي في العالم الإسلامي، وذلك على مستويين. المستوى الأول يقوم على تنشئة أوليّة كتعلّم القراءة والكتابة وقواعد اللغة والحساب. كان يقوم بهذا التعليم الذي يمكن أن نسمّيه ابتدائيًّا معلّمون يجمعون طلابهم في مدارس تدعى «كُتّابًا» أو أحياناً مدارس قرآنية، لأنّ التعليم فيها ينطلق من النص القرآني. كان في إمكان المعلّمين الذين يمارسونه أن يستقرّوا في أبنية موقّرة وعامّة كالمساجد، على أن تتمّ مراقبتهم من خلال الحسبة للتأكّد من حسن معاملة الأولاد.

أمّا المستوى الثاني فيتضمّن العلوم العالية التي كانت تبدأ لاحقاً، في سنّ يصعب تحديدها، ويتعلّق بالعلوم الدينيّة التي كانت تعتبر علوماً أساسيّة: دراسة القرآن بالتفاسير، ودراسة الفقه، وأحياناً المسائل التي كانت تشكّل موضوع اختلاف داخل المذاهب الكلاميّة. إلّا أنّ التعليم لم يرتبط بالسلطات الحكوميّة في مراحل الإسلام الأولى، بل كان في استطاعة كل معلّم أن يجمع تلامذته أينما شاء، غالباً في المسجد الجامع أو في مصلّى، حيث تنعقد الحلقة الخاصة به. فكان يُقرئهم المؤلّفات التي يختارها لهم ويعرض عليهم آراءه فيها. لم يكن في استطاعته أن يشرح مؤلّفًا لعالِم ما، إلّا إذا حصل مسبقًا على إذن أو إجازة من هذا العالِم. لكن يبدو أنّ هناك مراقبة داخليّة كانت تجري ضمن كل مدرسة فقهيّة، وكان الفقه يشكّل مادّة التعليم الأساسيّة ويهدف الى تنشئة فقهاء يتقيّدون بالآراء الغالبة في المذهب الذي ينتمون إليه، فيأخذون بها إذا ما تسلّموا مهمات القضاء وعُهد اليهم تطبيق أحكام الشريعة الإسلاميّة، أو يعتمدون عليها في تذليل المصاعب الناجمة عن أوضاع مستجدّة أو تناقضات تواجههم.

إبتداءً من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ومع الانتشار التدريجي للمعاهد التي سُمّيت مدارس، والتي نُظّمت في مؤسّسات أكثر اتساعًا أو ما

سمي بكلبّات في عهد العثمانيّين ، التزم تلقينُ العلوم الدينيّة قواعد صارمة ، لكنّه لم يقضِ على الطرق التي كانت متّبعة في السابق . أمّا التعليم في الاختصاصات الأخرى ، فقد بقي خاضعاً لمبادرات الأساتذة بحريّة غير مقيّدة . وإذا كان التدرّج في مراقي الصوفيّة قد شكّل حالة خاصة ، إذ إنّ التهيُّوء للنشوة كان يقضي اتّباع تمارين التقوى تحت إشراف معلّم ، أو في صفوف جماعة من شيوخ الطريقة ، يقومون بهذه التمارين في خوانقهم ، فإنّ العلوم الدنيويّة الموجّهة لجمهور محدود كانت تُدرّس ، في أغلب الأحيان ، في بيوت المعلّمين . وغالباً ما أفادت العلوم الطبيّة من إمكان تجربة العلاجات والتشاخيص التي كانت تتيحها لها المستشفيات . أمّا العلوم الإداريّة فكانت تجري في الإدارة أو الدواوين حيث يترقى الكاتب الشاب شيئاً فشيئاً في تعلّم مهنته ، مجتازاً المراحل المتعاقبة المؤدّية الى المسؤوليّة .

أمّا ما يمكن أن يسمّى المجامع العلميّة والمكتبات التي ظهرت في حقبات معيّنة ، وضمن أطر تاريخيّة محدّدة ، فقد كان لها تأثير خاص على تطوّر العلوم واستخلاص النظريّات المرتبطة بها . وعلى سبيل المثال نذكر بيت الحكمة الذي أسّسه في بغداد ، في بداية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد ، الخليفة العبّاسي المأمون ، ودار الحكمة التي أسّسها في القاهرة الخليفة الفاطمي الحاكم سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م . كانت لهذه المؤسّسة الأخيرة صلة بمراكز التأهيل ، حيث كان يعدّ المرسلون للدعوة إلى الإسماعيليّة . وتكاثرت في الوقت عينه دور العلم التي أُنشئت في مدن عديدة ، وخاصة في بغداد ، في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي . كانت هذه المراكز كلّها مراكز نشطة ، تعكف على ترجمة النصوص القديمة أو الأجنبيّة وعلى نشر بعض العقائد السياسيّة-الدينيّة والتي ارتكز نجاحها على فعاليّة مبعوثيها الذين كانوا يتلقّون تدريبًا خاصًا ، بشكل سرّي أحياناً . وكان الشيعة أوّل من استعان بمؤسّسات من هذا النوع ، أُنشئت من قبل الحكومات ، كالفاطميّين مثلاً ، ما سمح لهم بتوسيع نفوذهم نحو أقاليم جديدة ، حيث قاموا بحركات عصيان مسلّحة .

تغلب أو بنو تغلب : قبيلة من عرب الجاهليّة ، كانت قد استقرّت ، قبل ظهور الإسلام ، في سهوب بلاد ما بين النهرين العليا ، وكانت تتنقّل في المقاطعات ، التي ستعرف في ما بعد بالعراق وسوريا (بلاد الشام) .

اشتهر بنو تغلب في ذلك الزمن بشهامتهم وغناهم الناجم عن تربيتهم الخيل . كانوا مسيحيّين ، حافظ معظمهم على انتمائهم الدينيّ ، ومع ذلك شاركوا في الفتوحات الكبرى التي قامت بها الأمبراطوريّة الإسلاميّة الناشئة .

قام التغلبيّون بدور مهم في العهد الأموي ، بعد أن حاربوا إلى جانب معاوية في موقعة صفّين . كما زوّدوا البلاط الأموي بشاعرهم المشهور ، الأخطل ، الذي اصبح نديم الخليفة الأموي الثاني يزيد الأول ، وأحد أوفى مناصريه .

تفسير القرآن ، مجال علميّ مهمّ وفرع لعلوم الدين التقليديّة كان له دور في تطوّر الفكر الإسلامي عبر العصور ، وُضعت فيه شروح للقرآن عُرفت ، في العربيّة ، بالتفسير .

أُلفت تفاسير قرآنية متنوّعة ، وكانت في أُسّ نظريّات الفقه ومناقشات المذاهب الكلاميّة ، وكذلك في أسّ البناء العقديّ لمختلف الحركات السياسيّة-الدينيّة المرتبطة بالمذهب الشيعيّ . وقد بدأ ، في احدى المراحل ، التمييز بين التفسير الذي يتناول شرح المعنى «الظاهر» للنص القرآني ، والتأويل ، وهو في معظم الأحوال «رمزيّ وصوفيّ» ، يستخرج المعنى الباطن . وكان التفسير يستند باستمرار إلى مضامين الحديث النبوي ، وأحياناً ، أيضاً ، إلى إيضاحات ذات مصادر منوّعة بينها نصوص الإسرائيليّات المستخدمة لشرح روايات القرآن الكريم المتعلّقة بالأنبياء التوراتيّين . أمّا التأويل فقد أخذ به ، بشكل خاص ، بعض فرق الشيعة . إستناذا إلى تأويل من هذا الاتّجاه يعتبر الشيعة ، على سبيل المثال ، أنّ عبارة «أهل البيت» لا تعني نساء النبي محمّد (ﷺ) ، كما ينجم عن شرح يعتمد حرفيّة النص ، بل هي تعني أعضاء أُسرته الذين أُنيطت بهم امتيازات خاصة . في حين يرى الصوفيّون ، مثلاً ، في النور الشبيه بمشكاة فيها مصباح (القرآن ، سورة النور ، الآية ٣٥) ، صورة الإيمان .

يُنسب أقدم تفسير للقرآن إلى ابن عبّاس، ابن عمّ نبيّ الإسلام (ﷺ)، والمشهور بمعرفته للحديث النبويّ. وقد أُلفت نماذج كثيرة على شاكلته خلال القرون الوسطى، وكذلك في العهدين الحديث والمعاصر. يُذكر بين التفاسير الأكثر شهرة تفسير المؤرّخ الطبري، وهو مؤلّف ضخم كتب في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وهو يعتمد في رواياته على سلسلة من الأسانيد، وتفسير الزمخشري المدوّن في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وهو ذو نزعة معتزليّة، وتفسير فخر الدين الرازي من الحقبة نفسها، ولكن بنزعة أشعريّة، وتفسير البيضاوي الذي يعود إلى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، والمعتمد بكثرة في الأوساط التقليديّة، وتفسيرا السيوطي وأستاذه في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. أمّا المتصوّفة فألّفوا، من ناحيتهم، تفاسير قرآنيّة نفع فيها على زبدة عقيدتهم.

في العصر الحديث توسّل الإصلاحيّون، لنشر أفكارهم، تفاسير للقرآن. كان هذا ما قام به محمد عبده ورشيد رضا في التفسير المعروف بـ«تفسير المنار» لأنه نُشر في مجلة المنار في مستهلّ القرن العشرين.

التقليد، تعبير عربي يستعمل في المصطلحات التقنيّة الإسلاميّة[١٣] للإشارة إلى موقف الخضوع للنصوص المرجعيّة ولرأي مفسّريها. وقد طبع هذا الموقف مناهج التعليم الإسلاميّة كلّها خلال القرون الوسطى. وحدهم، بعض المثقّفين العقلانيّين كالمعتزلة، هاجموا هذا المبدأ وخرجوا عليه. كما أنّه في ما بعد، أي في نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين، عارض المصلحون المسلمون بدورهم المبدأ المذكور الذي ساهم، في رأيهم، بتقوقع خادع للفكر الإسلامي، وطالبوا بإعادة فتح باب الإجتهاد في الحقل التشريعي.

فالشيعة الإماميّة الاثنا عشريّة لم يهملوا أبدًا، من جهتهم، الأخذ بالاجتهاد. من هنا تسمية «مجتهد» التي تُطلق على بعض علمائهم وملاليهم. لكنّهم كانوا، مع ذلك، يفسحون في المجال للتقليد، ويفرضون على الإجتهاد حدودًا، محافظين بذلك على الإحترام الواجب للسلطة المرجعيّة. لذلك وضعوا، اعتبارًا من القرن التاسع عشر، تراتبيّة لمجتهديهم أوجدوا بموجبها رتبة علاّمة (نموذج للمرجعيّة) يجب الخضوع لسلطته وهو يُعرف بـ«مرجع التقليد».

التقويم ← الروزنامة.

التَّقِيَّة، تعبير عربيّ يعني، بصورة عامّة، «الإحتراز والخشية»، كما يعني في المفهوم التقني الخاص «كتمان المعتقدات الدينيّة». وهو أمر مجاز، شرعًا، للمسلم إذا تعرّض للضغط أو للخطر الشديد.

إنّ إمكان كتمان المعتقدات أكّدته آية قرآنية أوضح معانيها المفسّرون: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (القرآن، سورة النحل، الآية ١٠٦). وقد فسّرها الطبري بقوله: «إذا تعرّض أحد إلى الضغط واعترف بديانة الجاحدين بلسانه، في حين كان يعتقد العكس في قلبه، إنقاذًا لنفسه من أعدائه، لا يتعرّض لأيّة ملامة لأنّ الله يحاسب عبيده وفق ما يضمرون بقلوبهم».

لم تطرح أبدًا عند السنّة قضيّة التقيّة بطريقة حادّة، واكتفى الفقهاء بطرح السؤال الآتي: هل يحقّ للمسلم، إذا ما مُنع عن الجهر بإيمانه، أن ينكر دينه ظاهريًّا، أم يتوجّب عليه اللجوء إلى الهجرة اي التغرّب، كما فعل النبيّ محمد (ﷺ) عندما هجر مكة إلى يثرب، «المدينة المنورة» لاحقًا؟. ولم يعطِ الفقهاء أجوبة محدّدة عن هذه المسائل. فاعتبر بعضهم التقيّة الزاميّة في الحالات القصوى، واكتفى بعضهم باعتبارها مشروعة.

في المقابل، مارس الشيعة التقيّة بكثرة لا بل باستمرار، لأنّهم غالبًا ما تعرّضوا عبر تاريخهم للاضطهاد والإذلال، فوجدوا فيها، في بعض الحالات، السبيل الوحيد للخلاص من العنف. لم يكن ذلك يعني، بالنسبة إليهم، تنكّرًا ظاهريًا للإسلام، بل إخفاءهم لمعتقداتهم الخاصّة في وسط إسلامي. فمذهبهم يسمح بالتقيّة، ولم يكن مع ذلك أكثر حزمًا من المذهب السني: حتّى إن كان يستند إلى موقف الإمام علي خلال حكم الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول حيث يُرى فيه تقيّة بالاكراه، ولكنّه في الوقت عينه يقدّر

شجاعة الأئمة شهداء الايمان كالإمام الحسين.

تكرور، منطقة تقع في جمهوريّة السنغال الحاليّة على امتداد نهر التكرور، اقترن ذكرها بقيام مملكة سوداء إسلاميّة فيها خلال القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. وقد أطلق الكتّاب العرب المتأخّرون في الشرق الأدنى تسمية «تكرور» على كل المسلمين السود الذين ينحدّرون من أفريقيا الغربيّة. اما التعبير الفرنسي توكولور (Toucouleur) الذي اشتُق من كلمة تكرور فإنّه اتّخذ معاني مختلفة للدلالة بصورة خاصة على شعب فوتا تورو من الفُلبة. واستعمل المؤرّخون العرب، ولا سيّما كتّاب الوقائع من المصريّين في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، تعبير تكرور للدلالة، في تلك الفترة، على مملكة مالي التي لم يكن التكرور يشكّل سوى جزء منها.

◀ راجع المستند رقم ٢٩.

تكريت (الجمهوريّة العراقيّة)، محلّة تقع على الضفّة اليمنى لنهر دجلة، كانت خلال العصور الوسطى تشكّل حدًا فاصلًا شمال سامرّاء، بين ولاية العراق وبلاد ما بين النهرين العليا. داخل هذا الحدّ الذي كانت تقف عنده، من الناحية المناخيّة، مناطق زراعة النخيل، بُنيت مدينة تكريت التي أسّسها الساسانيّون، وفاق ما تؤكّده التقاليد العربيّة. كان سكّانها يتشكّلون أساسًا، قبل الإسلام، من المسيحيّين الذين أخذ عددهم في التناقص تدريجيًا، عبر القرون. وقد أشاد الجغرافيّون العرب في العصور الوسطى بقلعتها المشرفة على نهر دجلة، وبسورها الذي تعلوه الأبراج، وبنسيجها وأسواقها. كما اشتهرت تكريت، إضافة إلى ذلك، بأنّها مسقط رأس صلاح الدين الأيوبي.

تكش ؟-٥٩٧هـ/ ؟-١٢٠٠م، أمير وسلطان خوارزم، شهد حكمه (٥٦٧-٥٩٧هـ/ ١١٧٢-١٢٠٠م) ذروة عهد السلالة الرابعة الخوارزمشاهيّة.

نجح تكش، بمساعدة أخيه، ومن ثمّ بمساعدة أولاده، في السيطرة على أمبراطوريّة كانت تضمّ، إضافة إلى خوارزم، بلاد ما وراء النهر وخراسان. إنتصر عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م على السلطان السلجوقي طغرل الثاني، فشُرّعت له أبواب إيران الغربيّة، وقد رفض الجلاء عنها على رغم تدخل الخليفة العبّاسي الناصر. عندئذ منحه الخليفة لقب سلطان العراق العجمي وخراسان وتركستان. واحتلّ تكش أيضًا بخارى سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، فبرز بصورة السيّد القوي، على رغم بقائه تابعًا إسميًّا للقراختاي. إنّ قوّته هذه التي قامت على الفعاليّة الحربيّة وقساوة جيوشه، انتقلت إلى ابنه علاء الدين محمّد فنمّاها بدوره، لكنّها زالت بعد سنوات عدّة أمام الغزوات المغوليّة.

تكيّة ← **خانقاه**.

تَلَسْ (معركة)، معركة جرت في ذي الحجّة عام ١٣٣هـ/ تموز ٧٥١م. انتصر فيها الجيش الإسلامي الذي أرسله العبّاسيّون لمحاربة قوات صينيّة شنّت هجومًا لاستعادة ما وراء النهر.

جرت المعركة في آسيا الوسطى، خلف منطقة «ما وراء النهر» المعروفة، على مجرى نهر تَلَسْ وقرب المحلّة التي تحمل الإسم نفسه والواقعة حاليًّا شمال جمهوريّة قيرغيزستان، ومباشرة بالقرب من حدودها مع جمهوريّة قزاخستان. وقد هلك الجيش الصيني كلّه بحسب روايات الإخباريّين العرب. وكان من بين الأسرى الصينيّين الذين وقعوا في أيدي العرب حرفيّون يعرفون طريقة صناعة الورق، تمّ إسكانهم في سمرقند، فعلّموا الحرفيّين المحليّين هذه التقنيّة، التي كانت ما تزال مجهولة حتى ذلك الوقت في الخلافة العربيّة الإسلاميّة.

◀ راجع المستند رقم ٨.

تلمسان (الجمهوريّة الجزائريّة)، مدينة يعود أصل اسمها إلى لغة البربر. تقع غربي المغرب الأوسط، وما تزال تحافظ على الكثير من آثارها التي تعود إلى القرون الوسطى.

في سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م، بنى إدريس الأوّل، مؤسّس السلالة الإدريسيّة، بجانب مدينة رومانيّة صغيرة، مسجدًا جامعًا. وأنشأ المرابطون، في نهاية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، في المكان نفسه، ناحيةً سمّيت تاغرارْت، واللفظة تعني مخيّمًا بلغة البربر. ذلك

أنّ فرقهم العسكريّة كانت قد تمركزت هناك بغية محاصرة أغادير القديمة.

وفي القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، جمع الموحّدون المحلّتين معًا وأحاطوهما بسور؛ واستخدمهما، في ما بعد، بنو عبد الوادّ، أصحاب السلطة المحليّة، مركزًا لحكمهم وساهموا، إعتبارًا من ٦٣٤هـ/١٢٣٦م، في تجميل معالمهما. وأعقب ذلك، ما بين ٦٩٧-٧٠٦هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٦م، إعتداءات المَرينيّين وحصارهم لتلمسان. وقد بنى هؤلاء موقعًا مجاورًا لها هو «المنصورة» وأحاطوها بسور، وبنوا في داخلها مسجدًا جامعًا وقصرًا، ومن ثمّ ضمّوا المدينة القديمة إليها.

عمليًّا، دامت سيطرة المرينيّين عليها فترة قصيرة امتدّت من سنة ٧٣٨ الى ٧٤٩هـ/١٣٣٧ الى ١٣٤٨م، ومن ٧٥٣ إلى ٧٦٠هـ/١٣٥٢ الى ١٣٥٩م، إذ استرجع بنو عبد الوادّ مدينتهم وأضافوا إليها أبنية جديدة، وعلى رأسها المدارس، واستطاعوا تأمين ازدهارها مستفيدين من مركزها المناسب للتجارة ومن ارتباطها بمرفإ حُنَيْن في غرب الجزائر. أما الضغوط الخارجيّة التي تعرّضت لها، في القرن السادس عشر للميلاد، من قبل إسبان وَهْران وأتراك الجزائر، فأدّت بالنهاية، في عام ١٥٥٥م، إلى إخضاعها لسيطرة باشا الجزائر أي لسلطة العثمانيّين. وعرفت في ما بعد، أي ما بين ١٨٣٦ و١٨٤٢م، نزاعات متعدّدة الجوانب أدّت في النهاية إلى سيطرة الفرنسيّين عليها. وتحوّلت إلى منطقة ريفيّة متوسطة ذات تطوّر متواضع، واستمرّت على هذه الحال بعد استقلال الجزائر، وهي تعيش من تراثها الثقافي والريفي التقليدي، وتبقى بعيدة نسبيًّا عن التحوّلات الاقتصاديّة الحديثة.

وفي إطار المساحة المأهولة حول تلمسان، سُرعان ما هُجرت مدينة المنصورة المرينيّة التي لم يبقَ منها اليوم سوى آثار مدهشة. ويتطابق التجمّع الحالي فيها مع المدينة المرابطيّة بعد توسّعها. وقد حافظت هذه المدينة على مسجدها الجامع الذي ما يزال قائمًا حتى اليوم، وعلى آثار أخرى مختلفة. وبالقرب منها، في اتّجاه الجنوب الشرقي، تقوم قرية «العبّاد» التي شيّدها أحد الحكّام المرينيّين بالقرب من مدفن مكرّم يعود إلى وليّها الصالح أبي مدين الصوفي المتوفّى سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م. ويُعرف الضريح والمجموعة الهندسيّة، بما فيها المدرسة، باسم سيدي بومِدْيَنْ.

◄ راجع المستندات ٨، ١١، ١٤، ١٦ و١٧.

تميم أو بنو تميم، قبيلة من عرب الجاهليّة، أبرزَ الشعراء دورها الحربي، كانت تقيم خلال القرن السادس الميلادي في القسم الشرقي لشبه الجزيرة العربيّة، قبل أن تقوم بدور مهمّ في بدايات الإسلام. ويبدو أنّ أفراد هذه القبيلة كانوا قد أقاموا علاقات مع النبيّ محمّد (ﷺ) في السنة الثامنة الهجريّة، من دون أن يعتنقوا الاسلام فورًا، وهم أوّل من رفض سلطة الخليفة أبي بكر في زمن الردّة. وبعد فترة انخرطوا بسرعة في الإسلام وشكّلوا عنصرًا مهمًّا في الجيوش العربيّة - الإسلاميّة التي قادت بنجاح الفتوحات الكبرى في القرن السابع الميلادي.

كانوا كثيري العدد في البصرة والكوفة، وكذلك في خراسان. ونبغ منهم شاعرا العصر الأموي الشهيران: جرير والفرزدق.

كما شاركوا، في ما بعد، في الثورة العبّاسية بعد أن كانوا قد ساندوا حركات سياسيّة دينيّة عدّة مثل الخوارج. وينتمي أيضًا إلى بني تميم الذين استقرّوا في خراسان مؤسّسُ سلالة الأغالبة في إفريقية. وبعد زمن طويل شهد التميميّون الذين استمرّوا في حياة البداوة في نجد - ولادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسّس الحركة الوهّابيّة، في القرن الثاني عشر للهجرة/الثامن عشر للميلاد، التي ترسّخت في تلك المنطقة بمساعدة آل سعود.

التنجيم (علم -)، هو علم تخمينيّ كالعرافة، تعرّض لكثير من النقد، ومع ذلك فإنّ الذين كانوا يمارسونه لاقوا الإحترام والتكريم، وكان موقف الإسلام منه على شيء من الابهام والغموض.

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ (سورة الصافّات، الآيتان ٦ و٧). وتاليًا، فإنّ دراسة النجوم لا تساعد على

معرفة مصير الإنسان ولا على تغييره، وهذا ما حمل فيلسوفًا شهيرًا كابن سينا على وضع بحث يدين فيه علم التنجيم. مع ذلك، فإنّ هذا العلم الذي يستجيب للفضول الشعبي قد مارسه عدد من العلماء الحقيقيّين، وكان له تقديره وأهميته في الأوساط الإجتماعيّة، مع الإشارة إلى أنّ من أهداف علم الفلك، أو علم الهيئة، كان في الواقع خدمة علم التنجيم. وبحسب ما وصلنا من أخبار قديمة، كان الأمراء المسلمون في القرون الوسطى يؤمنون بفضائل التنجيم وقراءة الأبراج، كما كانوا يستشيرون المنجّمين من أجل أن يختاروا الوقت المناسب للشروع في بناء مدينة مثلًا، وهذا ما حصل قُبيل تأسيس القاهرة وفاس.

التنجيم (ممارسة -)، ممارسةٌ متنوّعة، ما تزال اليوم منتشرة في العالم الإسلامي، لقيت قبولاً في العصور الوسطى بفضل وجود أحاديث وتلميحات قرآنية تجيز البحث في الأمور التي تتّسم بطابع الخفاء.

وقد انتشرت ممارسات التنجيم بفضل الموجة التي لقيتها النظريّات الباطنيّة والترميزيّة الموروثة عن القدماء، لدى علماء ذوي ميول نحو البدع. كما ارتبطت في قسم منها بازدهار العلوم الرياضيّة وعلوم الفلك. فالمراهنات الحسابيّة والهندسيّة المرتكزة على الأرقام وعلى الرسوم التخطيطيّة، وكذلك علوم الجفر وعلوم التنجيم وكل المحاولات لكشف خفايا المستقبل، أُضيفت كلّها إلى الطرق الشعبيّة المتّبعة من ضرب بالرمل وتفسير للأحلام، لتشكّل فيضًا من الممارسات التقنيّة ومجموعة عادات ساعدها احترام العلم في المجتمع الإسلامي، خلال القرون الوسطى، على أن تستمرّ وتنتشر.

ثمّ إنّ تدوين تلك الممارسات وحفظها في مصنّفات ضخمة أو ملخّصات، كانت من العوامل التي ساعدت على إغنائها وانتشارها، ما ساعد الذين يتعاطون التنجيم والسحر، وكانوا أحيانًا من الدجّالين. إلّا أنّ متصوّفين وشيوخًا معروفين أظهروا اهتمامهم بتلك الممارسات، وكان لهم تأثيرهم عبر اللجوء إلى البروج لكشف الطالع وتحضير التعاويذ التي يطلبها حماتُهم المتنفّذون. ومن الممارسات التي اتُّبعت لمعرفة الغيب، فتحُ القرآن الكريم وتفسير الآية التي تبدأ بها الصفحة المفتوحة. كما أنّ الخوف من سوء الطالع، والتشاؤم من بعض المظاهر، من الأمور التي بقيت قائمة، وهذا ما يفسّر اللجوء الى استعمال التَوْرية في اللغة.

تنزانيا (جمهوريّة تنزانيا المتّحدة). مساحتها ٩٤٥٠٩٠ كلم²، عاصمتها دودوما، وهي دولة مستقلّة معاصرة تقع على الشاطئ الشرقي لأفريقيا السوداء. سكّانها حوالى ٢٧ مليون نسمة، ثلثهم تقريبًا من المسلمين، وهم يتحدّرون من أعراق مختلفة.

نشأت هذه الدولة من اتّحاد مستعمرة ألمانية قديمة هي أوستافريقا - التي أصبحت في ما بعد تنجنيكا، ودخلت تحت الحماية ثمّ الوصاية البريطانيّة، قبل أن تنال استقلالها سنة ١٩٦١ - مع دولة زنجبار التي نشأت سنة ١٩٦٣ في الجزيرة التي تحمل الإسم نفسه. تتوزّع أقليّتها الإسلاميّة، بصورة خاصة، على شاطئ المحيط الهندي الذي كان، في ما مضى، مركز نشاط تجاري وهجرات عربيّة أوّلًا، ثمّ هنديّة على أثر تطوّر العلاقات البحريّة مع شبه الجزيرة العربيّة في القرون الوسطى. وكان لهذه العلاقات تأثيرات مماثلة في كل من الصومال، وكينيا، وحتى الموزامبيق. كما نجد أيضًا مشايعين للإسلام في بعض المناطق الداخليّة التي طبعتها، أكثر ممّا في كينيا، القوافل التي توامت، في القرن التاسع عشر، مع انشاء مؤسّسات تجاريّة دائمة، شكّلت هي أيضًا مراكز للانتشار الإسلامي. وقد انتشرت هذه المخازن على طريق العاج والرقيق القديمة بين باغامويو وأوجيجي، التي يقابلها اليوم - ولتبادل تجاري من نوع آخر - المحور الذي يصل دار السلام بطابورة. تصل نسبة المسلمين في بعض المقاطعات القريبة من حدود البلاد مع ملاوي والموزنبيق إلى ٦٥٪ وفي بعضها الآخر الى ٩٠٪.

يتمركز التجمّع الإسلامي الأكبر على الشاطئ والجزر الكبيرة المجاورة مثل بمْبا، وخصوصًا زنجبار التي أصبحت، في القرن التاسع عشر - بعد انهيار دولة كِلْوة المؤسلَمة، فضلًا عن دول مومباسا ومليندي الواقعتين في الشمال الأقصى - مركزًا لسلطنة يأتي حكّامها مباشرة من عُمان. هنا، وكما في دار السلام

المدينة المرفئيّة الكبيرة، إستقرّت التجمّعات الأكثر نشاطًا من العرب السواحليّين السنّة الشوافع المتحدّر بعضهم من حضرموْت أو من القُمُر؛ ومن الشيعة الذين قدموا بصورة خاصة من الهند وهم: أغنياء الخوجا، النزاريّون المنضوون تحت لواء الآغاخان الذين يشكّلون الأكثريّة، إلى جانبهم ممثّلو الإماميّة الاثني عشريّة، والإسماعيليّون الذين يشكّلون طائفة البُهرة. أمّا الإباضيّون العمانيّون، وهم الجماعات السلطانيّة القديمة؛ فلم يكن لهم دور مهم داخل هذه المجموعات. وفي المقابل إنّ انطلاق الإسلام، الذي ظهر على الشاطئ كما في أماكن أخرى من البلاد خلال القرن العشرين، لم يكفّ عن الاعتماد على الجهد التجديدي الحيوي الذي بذلته باستمرار الطُّرق الصوفيّة بفاعليّة كبيرة، نذكر منها: الشاذليّة، والقادريّة القويّة الحضور، والادريسيّة/ الاحمديّة.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٣٠.

التنزيل ← الوحي الإلهي.

تِنِس (الجمهوريّة الجزائريّة)، بلدة مرفئيّة في المغرب الأوسط، تقع غربي الجزائر العاصمة، وتحتفظ بمعالم لا تزال مأهولة، تعود لمدينة تِنِس الفروسطيّة، التي استمرّت مزدهرة حتّى القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد.

وعلى مسافة قريبة من المدينة القديمة التي خرّبها الفندالبّون (أو الونداليّون)، شيّد بحارة قدموا من الاندلس، حوالى سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م، قلعة تمركزت فيها جماعة من مرسية ومن البيرة القديمة قرب غرناطة، وانضمّت إليهم جماعة من بربر المغرب الداخليّ. كانت تِنِس خاضعة لأمويّي قرطبة، لكنّها خضعت، في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، لسيادة السلالات المختلفة التي سيطرت على المغرب الأوسط، ولا سيّما سلالة بني عبد الواد في تلمسان، إعتبارًا من سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م. وخضعت المدينة، في بداية القرن السادس عشر، لسلطة القرصان العثماني خير الدين[٤٤]، وفقدت ازدهارها بسبب الانهيار التدريجي لنشاطها التجاري، ولا سيّما تجارتها مع البلدان الأوروبيّة. وفي النهاية ظلّت لفترة في قبضة الأمير عبدالقادر، بعد احتلال الفرنسيّين للجزائر، ولم تخضع للسيطرة الفرنسيّة إلاّ في عام ١٨٤٣م. عند ذلك نشأت فيها الأبنية الحديثة، على مسافة لا بأس بها من البلدة العتيقة التي لا تزال تحتفظ بأسوارها حتى اليوم.

التنظيمات أو «تدابير تنظيميّة»: «التنظيمات» كلمة تركيّة من أصل عربي، وأُطلقت على مجموعة الإصلاحات التي اعتمدتها الدولة العثمانيّة خلال القرن التاسع عشر، سعيًا إلى إقرار هيكليّات حديثة وفعّالة استوحت معظمها من الغرب. وبما أنّ بعض هذه التنظيمات تمّ إعداده بضغط من القوى العظمى الأوروبيّة التي رغبت، بشكل خاص، في أن نجري معاملة غير المسلمين بالمساواة مع المسلمين، فقد اصطدمت هذه الحركة التحديثيّة، التي شجعّها بعض الحكّام وبعض رجال السياسة، بمعارضة التقليديين والعناصر القوميّة. شمل عهد التنظيمات، بالفعل، ثلاث مراحل: الأولى سنة ١٨٣٩م، وأُطلق عليها اسم خط شريف كُلْخانة، والثانية سنة ١٨٥٦م وعُرفت بالخط الهمايوني، أمّا الثالثة فقد عبّر عنها دستور سنة ١٨٧٦م.

١ - خطّ شريف كُلخانه سنة ١٨٣٩م: وهو ليس إلّا استكمالًا لخطة إصلاحيّة أوليّة بدأت في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٨٠٨م، وقد تقرّرت بموجب اتفاق تمّ يومئذٍ بين السلطان والأعيان، من أبرز بنوده: يعترف الجميع بأن الصدر الأعظم هو ممثّل للسلطان، وأنّ فرض الضريبة المشترعة بإنصاف سيطبَّق في كل أرجاء الدولة العثمانيّة، وأنّ أعيان المقاطعات سيساعدون في عمليّة التجنيد وفي إنشاء مؤسّسة عسكريّة جديدة. وقد ظهر جليًّا أنّ أبرز اهتمامات السلطة، من خلال خط كلخانه، تركّز على تأمين حكم مركزي أفضل، وتحسين النظامين الضريبي والدفاعي. وفي الميدان الأخير، أي الدفاع، طُبّقت التدابير الأكثر جذريّة. ففي تموز سنة ١٨٢٦م، عندما ثار الإنكشاريّة احتجاجًا على استحداث وحدة عسكريّة مدرّبة على الطريقة الأوروبيّة، تمّ استئصالهم جميعهم، وهُدمت ثكناتهم.

سمح هذا الحدث للسلطان بالقيام بتغيير جذري في مؤسّسة الجيش. وفي الوقت الذي كان إداريّون شباب

يشغلون وظائف عدّة مهمّة، تمّ إنشاء جيش جديد قوامه مئة وعشرون ألف جندي راوحت أعمارهم بين خمس عشرة وثلاثين سنة، يخدم كل واحد منهم فترة لا تقل عن خمس عشرة سنة، ويتوزّعون على ثمانية فيالق، تتمركز جميعها في اسطنبول. كما نُظّمت أفواج أخرى في الولايات، فضلًا عن فوج للمدفعية. ومن الواضح أنّ هذا الإصلاح اعتُمد بعد فوات الأوان، إذ إنّه لم يستطع أن يمنع الانحطاط العسكري الذي أصاب الأمبراطوريّة العثمانيّة، والذي نجمت عنه أحداث خطيرة: خسارة شبه جزيرة الموره بعد معركة نافارين سنة ١٨٢٨م، وتوقيع معاهدة أدرنة مع روسيا سنة ١٨٢٩م، إضافة إلى فشل العثمانيّين في صراعهم مع مصر التي كان يسيطر عليها محمّد علي باشا، وخسارة الجزائر سنة ١٨٣٠م. ومع ذلك فإنّ التغيير الذي حصل في الإدارة أدّى إلى ظهور نظام إداري بيروقراطي جديد متحرّر من النفوذ العسكري والديني الذي كان في السابق يراقب الحكومة.

وفي ظلّ الحكم الذي أعقب عهد محمود الثاني، أي في عهد عبد المجيد الأوّل المعزّز بالصدر الأعظم مصطفى باشا، أمكن اعتماد إصلاحات أكثر شموليّة مع إصدار خط كلخانة، حتّى لو أنّ هذا الخط الذي يتوافق في صياغته مع التقاليد الإسلاميّة، لم يتعدّ الاعلان عن العودة إلى نظام سابق كان مهملًا. وقد عبّر الخطّ عن هذا الاتجاه في عباراته الأولى، قبل أن يحدّد إطار المؤسّسات الجديدة، وقد جاء فيه:

«منذ مئة وخمسين عامًا أدى توالي أحداث وأسباب مختلفة إلى منع التقيّد بالقانون المقدس والنظم النابعة منه، كما أنّ القوة والازدهار الداخليين قد تحوّلا إلى ضعف وفقر. وهذا يعني بالفعل أنّ الأمبراطوريّة تفقد كل استقرارها عندما تتوقّف عن مراعاة قوانينها (...) من هنا تستدعي الحاجة مؤسّسات جديدة تحوي الضمانات التي تؤمّن لنا جميعنا حماية كاملة على صعد الحياة والشرف والثروة كما تؤمّن:

- طريقة منظمة ودقيقة لفرض الضرائب وجبايتها.
- طريقة منظمة أيضًا لتجنيد العسكريين وتحديد مدّة خدمتهم.»

ومنذ ذلك التاريخ، أنشئ مجلس تنظيم قضائي ليحلّ محلّ الديوان الكبير، وليصبح أوّل مجلس تشريعي يحدّ نوعًا ما من تعسّف حكومة السلطنة واستبدادها. كما واكبت خط كلخانه إصلاحات إداريّة أدّت إلى التخلّي عن نظام الدواوين الموروث من التقليد الحكومي الإسلامي منذ قيام أمبراطوريّة الفتوحات الكبرى في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وإلى إنشاء وزارات بالمعنى الأوروبي للكلمة، ولا سيّما وزارات الخارجيّة، والداخليّة، والتجارة. إنّ أهمّ الإصلاحات المتعلّقة بالقانون التجاري، الذي كان مصدر نزاعات بين الرعايا العثمانيّين والأجانب، جاء تتويجًا لتطوّر بدأ قبل سنوات عدّة، واستمرّ بعد ذلك. وبالفعل درج القضاة، إعتبارًا من القرن الثامن عشر، على استشارة مجالس رؤساء النقابات، وهي مجالس اشترك فيها الأجانب تدريجيًّا. وفي سنة ١٨٤٠م، وفي أعقاب خط كلخانه، استُحدثت محاكم للتجارة، مستقلّة عن المحاكم العاديّة، تمثّل فيها الأجانب. وفي سنة ١٨٥٠م صدر قانون التجارة، وهو أول قانون أوروبي أُدخل في التشريع العثماني. من جهة أخرى، استُحدثت سنة ١٨٥٤ محاكم جنائيّة مختلطة مناصفةً بين العثمانيّين والأجانب، وظيفتها النظر في الجنح والجرائم التي تحصل بين الأجانب والعثمانيّين. وقد أخذت هذه المحاكم، للمرّة الأولى في تاريخ الدولة العثمانيّة، بمبادئ قانونيّة تخالف الشريعة الإسلاميّة: اعتماد الشهادة المكتوبة دليلًا في المحكمة، وقبول شهادة غير المسلمين. وفي المقابل، كان على الأجنبي الخضوع لقوانين الدولة العثمانيّة. وأنشئ أيضًا، في التاريخ عينه، مجلس التنظيمات الأعلى، وهو مؤسّسة تشريعيّة جديدة مهمّتها توسيع الإصلاحات. بينما كان يُخطّط لتحسين الإدارة في الولايات، وكذلك نظام جمع الضرائب الذي كان، حتّى ذلك الوقت، يتوافق مع نظام الضرائب الإسلامي التقليدي. وكان هذا التوجّه يهدف أساسًا إلى إنهاء التزام الضرائب، وإلى أن يستبدل بالملتزمين موظفون يتقاضون رواتبهم من الدولة، وإلى إعادة هيكلة التقسيمات الإدارية. لكنّ هذا المشروع لم يطبّق إلّا جزئيًّا.

٢ - الخطّ الهمايوني سنة ١٨٥٦م، وهو معروف أيضًا بمرسوم الإصلاح الذي صدر عشية عقد معاهدة باريس، وقد أكّد هذا الخطّ التنظيم الجديد للولايات وللنظام الضريبي وطوّره، كما باشر تعديل العلاقات بين

المسلمين وغير المسلمين، على المستوى القضائي، وتعديل التنظيم الداخلي لمختلف الطوائف.

وعلى الصعيد القضائي أنشئت سنة ١٨٦٩م محاكم نظاميّة هدفها النظر في الأمور المدنيّة والجنائيّة التي تنشأ بين المسلمين وغير المسلمين، أو بين مسيحيّين من مذاهب مختلفة. وفي الوقت عينه استُحدثت قوانين عدّة: القانون الجزائي سنة ١٨٥٧م، قانون أصول المحاكمات الجزائية سنة ١٨٦١م، قانون التجارة البحريّة سنة ١٨٦٣م. وكانت المحاكم النظاميّة التي تعمل وفق النمط الأوروبي تابعة لوزارة العدل، وتنزع للحلول مكان محاكم التجارة القائمة آنذاك. أدى ظهور هذه المحاكم إلى قانون مدني، تمت صياغته بين عامي ١٨٦٩ و١٨٧٦، مستوحى من المذهب الحنفي، وقد وضع موضع التنفيذ، وبشكل منهجيّ، الاحكام الإجتماعيّة للفقه. كان هذا القانون يهدف إلى توجيه قضاة الشرع والقضاة المدنيّين، إنّما لم يكن له قوّة ملزمة. ومنذ ذلك التاريخ وُجد نوعان من المحاكم: النظاميّة للبتّ بالقضايا المدنيّة والعقوبات، والشرعيّة للأحوال الشخصيّة، ويخضع لها المسلمون وحدهم. وكانت تتمّ معاملة غير المسلمين، من عثمانيّين وأجانب، على قدم المساواة مع المسلمين، وفق ما كانت تطالب به الدول الأجنبيّة. لكن، كان على الأجانب التخلّي تدريجيًّا عن الإمتيازات التي كانوا يتمتّعون بها.

هدف أيضًا الخط الهمايوني الصادر في العام ١٨٥٦ إلى إعادة تنظيم الطوائف المعروفة بـ«الملل» التي دُعيت - عن طريق لجان عُيِّنت من أبنائها - إلى إعادة النظر بالإمتيازات التي كانت تتمتّع بها. ولكنّ هذه الطوائف ظلّت متعلّقة بشدّة بنظامها القديم الذي ثُبّت، أو حتّى وُسّع، عام ١٨٥٦م، بحيث أعطاها حق تشييد كنائس جديدة. وقد عارضت أيّة إعادة نظر في امتيازاتها. وبالتأكيد تمّ إعداد تنظيم جديد لكل طائفة اعتبارًا من عام ١٨٦٠م، نجمت عنه تعديلات بسيطة.

ومن جهة أخرى، نجم عن حركة الإصلاح تطوير تعليم علماني خرج عن سيطرة شيخ الاسلام، فتمّ إنشاء مدارس، لكلّ مستويات التعليم، وفق النمط الأوروبي. وأُكملت المدارس الإبتدائيّة والثانويّة بجامعة «دار الفنون» التي اشتملت، عام ١٨٧٥م، على كليّة للآداب، وأخرى للعلوم، وثالثة للحقوق، فضلًا عن مدرسة للطب كان قد تمّ تنظيمها منذ عام ١٨٢٦م.

٣ - وتُوّجت المرحلة الأخيرة من هذا التّطور المبرمج بدستور ١٨٧٦م الذي لم يُطبَّق في الحال، لكنّه أُعدّ لمواجهة ظروف جديدة قد تطرأ. لقد اعتقد بعض رجال السياسة، في عهد السلطان عبد العزيز الذي حكم من سنة ١٨٦١م إلى سنة ١٨٧٦م، أنّه، لمواجهة القوى الأجنبيّة، يتوجّب على الدولة العثمانيّة أن تعتمد نظامًا برلمانيًّا، وأن تمنح الحقوق المدنيّة ذاتها لجميع الرعايا العثمانيّين بدون تمييز. وقد اعتمد هؤلاء، للمطالبة بإقرار هذا الإصلاح، على المبدإ الذي كان يقبله العثمانيّون، وهو أنّ للعلماء والوزراء الحقّ بتوجيه تنبيه الى الحاكم إذا ارتأوا أنّ الضرورة توجب ذلك. وعشية اتفاقيّة برلين، كان للأفكار الدستوريّة مؤيّدوها بين شخصيّات وطنيّة عثمانيّة كانت قد لجأت إلى الخارج؛ وكانت هذه الأفكار، في الوقت عينه، ترضي حاشية السلطان التي وجدت فيها الوسيلة الفعّالة لدعم سلطة الدولة.

وفي أيلول سنة ١٨٧٦م، صدر أمرٌ شريف عن السلطان الجديد عبد الحميد الثاني يدعو فيه الصدر الأعظم إلى إعداد دستور برلماني. ونصّ هذا الدستور على أن إنشاء برلمان مؤلّف من مجلسين، يُجاز لغير المسلمين أنّ يتمثّلوا فيهما، وينص أيضًا على وجود رئيس وزراء غير مسؤول امام المجلس، وعلى إقرار المساواة المدنيّة والسياسيّة بين جميع الرعايا العثمانيّين، وعلى إنشاء مجالس منتخبة في الولايات كافة. إلّا أنّ هذا الدستور لم يطبّق لأنّ عبد الحميد مارس نظام حكم مطلق استمرّ حتى سنة ١٩٠٩. وفي ذلك التاريخ برزت من جديد فكرة اعداد دستور للدولة العثمانيّة، ولكنّ هذه الفكرة لم تتحقّق، وتأمّن الحكمُ بواسطة لجان يفرض عليها القرارات أشخاصٌ من خارجها. واستمرّ الأمر على هذا النحو حتى سنة ١٩٢٤، يوم إعلان الجمهوريّة التي أعطت السلطة التشريعيّة للجمعيّة الوطنيّة الكبرى، التي كانت قد نشأت منذ ١٩٢٠، لتقوم بدور الجمعيّة التأسيسيّة.

وهكذا كانت فترة التنظيمات قد مهّدت لقيام نظام جمهوري علماني في تركيا، استُوحيت معظم مؤسّساته من

الأنظمة الاوروبيّة. لكنّ التمييز بين المسلمين وغير المسلمين، الملغى قانونًا، استمرّ عمليًا.

تنغانيكا ← **تنزانيا**.

تنمال، مدينة مندثرة في جبال الأطلس الأعلى المغربيّة، فيها نشأ الموحّدون، وما تزال آثار مسجد مشهور تدلّ على موقعها. وفي العام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وبعد ان أعلن ابن تومرت نفسه مهديًّا، قرّر الالتجاء مع مناصريه، بهدف تركيز سلطته، إلى هذا المكان الوعر، المرتفع ١٤٠٠م عن سطح البحر، والقريب من ممرّ جبلي يسمح بعبور السلسلة الجبليّة في اتّجاه سهل سوسة. وفيه عاش ودفن، كما خلفاؤه الأوائل.

بعد أن أصبح عبد المؤمن سيّد مراكش التي جعل منها عاصمته، أنشأ في تنمال، في العام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، أحد أشهر المساجد الموحديّة من حيث توازن بنيته، ودقّة زينة عقوده ومحرابه. وكان قسم كبير من آثاره ما يزال ماثلًا إلى جانب أسوار هدّمها جزئيًّا مناصرو المرينيّين الذين نهبوا، عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، المنطقة، وحوّلوا تنمال إلى قرية بسيطة. لقد رُمّمت هذه الآثار، ما يسمح بفهم أفضل لهندستها المعماريّة.

◄ راجع المستند رقم ١٤.

التنوخيّ، ابو علي المُحسّن ٣٢٨-٣٨٤هـ/ ٩٤٠-٩٩٤م، قاضٍ واديب عاش في العهد البويهي، وألّف كتبًا عدّة تعتبر كنز معلومات عن المجتمع في عصره.

ولد في البصرة وكان هو أيضًا ابن قاضٍ. وبعد أن تردّد إلى الأوساط الأدبيّة، مارس التنوخيّ مهمّاته في بغداد، ثمّ في الأهواز في ظلّ الخلافة العبّاسيّة الخاضعة حينئذٍ لوصاية البويهيّين. عُزل من القضاء سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، واستعاد وظيفته بعد ثلاث سنوات. لكنّ عضد الدولة البويهي غضب عليه مجدّدًا سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م لأنّه تضايق من بعض آرائه التي نجهل مفادها بالتحديد، ومات في بغداد بعد عشر سنوات.

أهمّ مؤلّفاته هي «نِشْوار المحاضرة» وهي مجموعة نوادر في أجزاء عدة، تتعلّق موضوعاتها بالأدب كما بالتاريخ، وتتناول شخصيات ينتمي كثير منها إلى بطانة الخليفة وأمير الأمراء. من مؤلفاته أيضًا «الفرج بعد الشدّة» الذي يطغى عليه الطابع الأدبيّ، وهو يعالج مسألة الشدّة التي كان قد عالجها قبله كتّاب آخرون. ومجموعة الطرائف التي يحتوي عليها هذا المؤلّف تشكّل أيضًا معين معلومات عن الأوساط الاجتماعيّة، حتّى إن كانت نهاية رواياته أحيانًا خياليّة.

التَّنُوخيّون او بنو تَنُوخ، قبيلة من بلاد العرب القديمة غادرت جنوب شبه الجزيرة العربيّة في القرن الثاني الميلادي، لتقيم في وادي الفرات، ويعتنق قسم منها المسيحيّة، ثمّ لتقوم بدور ناشط منذ نجاح الدعوة الإسلاميّة.

اعتنق بعض أفرادها الإسلام أبّان الفتوحات الكبرى في القرن السابع الميلادي وشاركوا في احتلال مصر، وأقاموا بخاصّة في معسكر الفسطاط الذي أصبح في ما بعد مصر القديمة. كما بقي بعضهم في أعالي بلاد ما بين النهرين وسوريا وتحوّلوا، رغمًا عنهم، إلى الإسلام في مطلع العهد العبّاسي، بعد أن كابدوا ضغوطًا من قبل السلطة. ويبدو أن الفرصة سنحت لبعض التنوخيّين للإستقرار في لبنان، كما اعتنق بعض هؤلاء الاسماعيلية أو الدرزيّة.

التوحيد، قاعدة عقيدة الإسلام وإيمانه بوحدة الألوهيّة، الذي يعبّر عنه بوضوح القسم الأوّل من الشهادة: «لا إله إلّا الله».

إنّ مفهوم التوحيد الإلهي، المحدّد انطلاقًا ممّا نصّ عليه القرآن حول الله، ولا سيّما في سورة الإخلاص، لا نقاش فيه في نظر المسلمين، وإلّا أفضى ذلك إلى الشِّرْك الذي لا تجوز مغفرته. وقد دارت حول نقاط محدّدة، كمسألة الصفات الإلهيّة - التي اعتبرها بعضهم منافية لوحدانيّة الله - جدالات بين المدارس الفقهيّة. وساهمت مثل هذه الإختلافات في إبراز فرادة الفكر المعتزلي، وكذلك فكر عدد من الحركات السياسيّة الدينيّة ذات الاتّجاه الإصلاحي، كحركة الموحّدين. لكنّها لم تنل في العمق من واقع الإجماع الإسلامي على أوليّة التوحيد غير المنفصل، في عرفه، عن مفهوم التّنزيه.

إلى ذلك، إنّ وجود الله واحد تكرّر تأكيده غير مرة في القرآن، وبخاصة في مجموعة آيات يقول التقليد إنّ الشيطان تدخّل فيها موحيًا إلى النبيّ محمّد ﷺ بآيتين

تناقضان جوهر التوحيد. على أنّ النبيّ ﷺ، الذي لم ينتبه إلى ذلك على الفور، عاد وألغى هاتين الآيتين. وقد عُرفتا بتسمية «الآيات الشيطانية» بحسب رواية المفسّر الطبري.

التوحيد، مبدأ ديني في الإسلام، يشكّل أساس عقيدته.

يحرص الإسلام كثيرًا على أن يعرّف بنفسه بأنّه ديانة إبراهيم، النبيّ المتفوّق في التوحيد والوارد ذكره مرّات عديدة في القرآن الكريم. لكنّ ديانة إبراهيم، بحسب القرآن الكريم، تعرّضت في ما بعد للتحوير على أيدي اليهود والمسيحيّين. لهذا السبب يرى الإسلام أنّه من الضروري أن يؤكّد أنّه ديانة التوحيد الحقيقيّ، المتميّز بمفهومه المتشدّد لوحدانية الله وتساميه اللذين يرفضان وجود أيّ وسيط بينه وبين الإنسان.

التوحيدي، أبو حيّان علي بن محمّد، ٣١٥-٤١٤هـ/ ٩٢٧-١٠٢٣م، كاتب عربيّ ومفكّر موسوعيّ تعبّر كتاباته عن اهتمامات الأوساط الفكريّة في العراق وإيران في العهد البريهي.

من المؤكّد أنّه ولد في بغداد لعائلة فقيرة، ومع ذلك تمكّن من تحصيل العلم على أيدي أساتذة مبرّزين، فقهاء ونحويّين، وكذلك على علماء منصرفين إلى معالجة المسائل الفلسفيّة، كما أقام علاقات بأهل التصوّف. أفاد لبعض الوقت من رعاية الوزير المهلّبي الذي نفاه بعد مدّة قصيرة لاسباب غير واضحة، وإن يكن على الأرجح أنّ آراء التوحيدي اعتُبرت مفسدة. فأصابه الفقر لبضع سنوات مارس خلالها مهنة الوراقة. ثمّ نجح في استرعاء انتباه الوزير ابن العميد، الذي كان يقيم في الرّيّ، من دون أن ينشأ بينهما توافق في الرأي. وبعد سنوات عدّة، استرعى أيضًا إنتباه وزير آخر من وزراء البويهيّين، هو ابن عبّاد، الذي كان يقيم أيضًا في الرّيّ، لكنّه اضطرّ إلى الابتعاد عنه سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م. بعدئذٍ، توافرت له في بغداد رعاية وزير أخير هو ابن سعدان الذي قدّر ثقافته وموهبته الأدبيّة، ولا سيّما من ناحية أسلوبه التعبيري. لكنّنا لا نعرف شيئًا عن نهاية حياته المتقلّبة، المتميّزة بالصعوبات التي تعرّض لها رجال الفكر في ذلك الزمان.

اشتهر من كتابات التوحيدي الكثيرة كتابه «المقابسات» أي المحاورات، وتصنيفه «الإمتاع والمؤانسة» الذي دوّن فيه الأحاديث التي تبادلها، على الارجح، مع ابن سعدان وندمائه الأدباء الذوّاقة. تناولت تلك المحاورات مواضيع متعدّدة: بدءًا بمزيّة فنّين من الكتّاب عرفتهما دواوين الإدارة الحكوميّة، وصولًا إلى مسألة العلاقة بين الدين والعقل. فالتوحيدي والمفكّرون الذين كان يجالسهم كانوا مشبعين بعادات التفكير الفلسفي الذي كان سائدًا في بغداد آنذاك، من دون أن يمنع ذلك وجود ميول دينيّة سياسيّة متباينة في ما بينها أحيانًا. فالتوحيدي مثلًا لم يخفِ معتقداته السنيّة تجاه وزراء كانوا، على غرار سادتهم البريهيّين، أكثر ميلًا إلى التشيّع، وهذا يفسّر بعض المضايقة التي عاناها من قبل رعاته.

توغو، جمهوريّة مستقلّة في أفريقيا الغربيّة، تبلغ مساحتها ٥٦٠٠٠ كلم²، عاصمتها لومي، ويبلغ عدد سكانها ٣,٥ مليون نسمة بينهم أقليّة مسلمة تبلغ نسبتها حوالى ١٢٪.

تحدّها من الغرب جمهوريّة غانا، ومن الشرق جمهوريّة بينين التي تضمّ أقليّات مسلمة كبيرة، وتنفتح في جنوبها على خليج غينيا، كما لها حدود ضيّقة مع جمهوريّة بوركينا فاسو. إنّ موقعها الجغرافي في منطقة الغابات المداريّة لم يعرّضها إلّا بشكل ضعيف للضغوط الإسلاميّة المنطلقة من الساحل الأفريقي.

توقات (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة صغيرة تقع شمالي الأناضول الأوسط. حافظت حتى اليوم على نشاطها الإقتصادي الذي كان في أساس ازدهارها منذ عهد سلاجقة الروم.

تحتلّ توقات موقعًا إستراتيجيًا على مجرى نهر يشيل إرماك. كانت في البداية قلعة حربيّة تمكّن المسلمون من الاستيلاء عليها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، عندما احتلّ الاتراك تلك البلاد، عقب موقعة ملازكرت/ مانتزيكرت. اعتُمد عليها في ما بعد لمقاومة الهجمات المغوليّة عمومًا، والتيموريّة خصوصًا. فضلًا عن أن العثمانيّين الأوائل كانوا دائمًا يطمحون إلى الاستيلاء عليها.

لم يمنع تدميرها على يد أوزون حسن، أمير الآق قويونلو، اندماجها نهائيًا بالسلطنة العثمانيّة حيث حافظت على أهميّتها الإقتصاديّة، إذ شكلّت ملتقى طرق بفضل وقوعها على الطريق الذي يربط اسطنبول بالمقاطعات الشرقيّة العثمانيّة، على منتصف الطريق بين أماسيا وسيواس. وهكذا عرفت غنىً ذا مصدرين، تجاري وحرفي، ما نزال نشهد عليه حتى اليوم نوعيّة معالمها القروسطيّة، في منطقة مملكة البُنْطُس القديمة التي تميّزت، في عهد الإمارات، بازدهار معماري كبير.

◄ راجع المستند رقم ٢٦.

التوكُّل، لفظة عربيّة تعني الاتّكال على الله، أو الثقة بالله، وهي تنتمي إلى المعجم الخاص بالمصطلحات الصوفيّة الإسلاميّة.

إنّ الثقة بالله هي في الواقع، بالنسبة إلى الصوفيّة، إحدى المراحل التمهيديّة الضروريّة لكلّ من يسعى إلى بلوغ مرحلة الوجد. ويوصى به كلّ مسلم، بصورة عامّة، حتّى إنّ المصلحين المسلمين في القرن العشرين جعلوا من تلك الحالة النفسيّة سببًا لقلّة النشاط والفعاليّة الشخصيّة، وذلك أمر شكّل مأخذًا للغربيّين على المسلمين.

إنّ التوكّل الذي يرتبط، بحسب بعض الكتّاب، مباشرة بالعقيدة المركزيّة في الإسلام، أي وحدانيّة الله أو التوحيد، يمكن فهمه بأساليب متعدّدة. فهو يعني مثلًا:

– الخضوع لله أي إطاعة أوامره (وهذا التعبير لا يختلف عن معنى كلمة «إسلام»).

– الثقة بالله، أي التسليم كليًّا بقدرته الإلهيّة، والتقرّب منه لملاقاته عن طريق الاتّحاد الصوفي.

– والمعنى الاخير، الذي يعتقد به معظم المسلمين، وهو الإستسلام إلى الله إبّان المصائب، وهذا موقف يفضي إلى الاعتقاد بالقَدَر.

التولية، تدبير رسمي، في إطار الجماعة الإسلاميّة، كان صاحب السلطة الشرعيّة، في القرون الوسطى، أي الخليفة، ولاحقًا السلطان، يفوّض، بموجبه، بعض سلطته إلى ممثّليه المختارين أو إلى الذين كان يرى من المناسب أن يجعل سلطتهم شرعيّة، فارضًا عليهم في الوقت نفسه الاعتراف بسيادته.

منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، في أمبراطوريّة العبّاسيّين، كان الخليفة يعطي التولية للسلاطين وللأمراء في صورة رسائل. قبل ذلك كانت التولية تُمنح إحتفاليًّا في قصر العاصمة، خلال حفلة استقبال تراعي عادات احتفالات القصور التي كان معمولاً بها، ولا سيّما التي تتلاءم مع مراسم تنفَّذ بدقّة. هذا ما كان الوضع عليه، بوجه خاص، في تولية الوزراء والأمراء الكبار من سلالة البويهيّين، أو تلك المتعلّقة بالسلاطين الأوائل من سلالة السلاجقة. خلال هذه الاستقبالات، كانت تتمّ قراءة منشور التسمية ويُعطى المستفيدون من ذلك شارات تشريفيّة، تختلف تبعًا للوظيفة، المدنيّة أو العسكريّة، أو بحسب الرتبة المعطاة التي تشتمل على ألبسة شرف، أو تيجان، أو سيوف، فضلًا عن هدايا أخرى متنوّعة.

وقد سجّل خبر تولية السلطان التركي طغرلبك في بغداد في العام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، كاتبٌ تتجلّى في معلوماته العامّة الدقّة والوصف الحيّ، موضحًا في الوقت نفسه وقائع إجراءات المراسم المعمول بها وفاق تقاليد تنطوي على أُبّهة ودقّة في التفاصيل كان الخليفة، الحريص على الاحتفاظ بسلطته، يسعى من خلالها إلى فرض هيبته على قادة عسكريّين حديثي العهد بثقافة السلطة.

«لقي السلطان طغرلبك الخليفة القائم بالله. وكان السلطان يسأل في ذلك إلى أن تقرر كون هذا في ذي القعدة، فجلس رئيس الرؤساء في صدر رواق صحن السلام، وبين يديه الحُجّاب، ثم استدعى نقيبي العباسيين، والعلويين، وقاضي القضاة، والشهود، فلما تضاحى النهار كتب إلى السلطان طغرلبك بما مضمونه الإذن عن أمير المؤمنين في الحضور، فأنفذ ذلك مع ابني المأمون الهاشميين، ومن خدم الخواص خادمين، ومن الحُجّاب حاجبين، ولما وقف السلطان على ذلك نزل في الطيار، وكان قد زُيِّنَ وأنفذ إليه فانحدر ومعه [عدة] زبازب سميريات، وعلى الظهر فيلان يسيران بإزاء الطيار، فدخل الدار والأولاد والأمراء والملوك يمشون بين يديه، ونحو خمسمائة غلام تُرك، فلما وصل إلى باب دهليز صحن السلام وقف طويلاً على فرسه حتى فتح له، ونزل فدخل إلى الصحن، ومشى وخرج رئيس الرؤساء إلى وسطه فتلقاه، فدخل على أمير المؤمنين وهو على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع، عليه قميص وعمامة مصمتان، وعلى منكبه بُردة النبي ﷺ، وبيده

المقضيب، فحين شاهد السلطان/أمير المؤمنين قبّل الأرض دفعات، فلما دنا من مجلس الخليفة صعد رئيس الرؤساء إلى سرير لطيف دون ذلك السرير بنحو قامة، وقال له أمير المؤمنين: أصعد ركن الدين إليك، وليكن معه محمد بن منصور الكندري. فأصعدهما إليه وتقدم وطرح كرسي جلس عليه السلطان، وقال [أمير المؤمنين] لرئيس الرؤساء: قل له يا علي: أمير المؤمنين حامد لسعيك، شاكر لفضلك، آنس بقربك، زائد الشغف بك، وقد ولّاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده، ورد إليك فهي مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولّاك، واعرف نعمته عليك، وعبدك في ذلك. واجتهد في عمارة البلاد، ومصالح العباد، ونشر العدل، وكفّ الظلم.

«فسر له عميد الملك القول، فقام وقبّل الأرض وقال: أنا خادم أمير المؤمنين وعبده، ومتصرف على أمره ونهيه، ومتشرف بما أهلني له واستخدمني فيه، ومن الله تعالى استهداء المعونة والتوفيق.

«واستأذن أمير المؤمنين في أن ينهض ويحمل إلى حيث تفاض الخلع عليه، فنزل إلى بيت في جانب البهو، ودخل معه عميد الملك، فألبس الخلع وهي سبع خلع في زي واحد، وترك التاج على رأسه، وعاد فجلس بين يدي أمير المؤمنين، ورام تقبيل الأرض فلم يتمكن لأجل التاج، وأخرج أمير المؤمنين سيفاً من بين يديه فقلّده إياه، وخاطبه بملك المشرق والمغرب، واستدعى ألوية وكانت ثلاثة: اثنان خمرية بكتائب صفر، وآخر بكتائب مذهبة سمي لواء الحمد فعقد منهم أمير المؤمنين لواء الحمد بيده، وأحضر العهد فقال. يسلم إليه ويقال له: يقرأ عليك عهدنا إليك، ويفسر لك لتعمل بموجبه، وبمقتضى ما أمرنا به، خار الله لنا ولك وللمسلمين فيما فعلنا وأبرمناه، آمرك بما أمرك الله به، وأنهاك عما نهاك الله عنه...»

(ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم، ج١٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٩-٢٠).

تومبوكتو (جمهوريّة مالي)، مدينة في ما كان يُعرف بالسودان الغربي، قريبة من مجرى نهر النيجر، شغلت، خلال العصور الوسطى، المركز الثقافي والتجاري الأكثر أهميّة في تلك المنطقة من أفريقيا المسماة ساحليّة.

أسّستها، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، قبائل من الطوارق شبه حضريّة، كمستودع للسلع التجاريّة، وتحوّلت بسرعة إلى مركز تجاري يمكن الوصول اليه عن طريق وادي نهر النيجر، أو عبر طرق القوافل التجاريّة القادمة من المغرب، أو من منطقة طرابلس الغرب.

حكمت المدينة سلالات عدّة، بدءًا بالماندنغ حكّام مالي، إذ ضمّوها إلى ممتلكاتهم من سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م إلى ٨٣٦هـ/ ١٤٣٣م. وقد وصفها ابن بطوطة في تلك الحقبة بأنّ معظم سكّانها من الزنوج المسلمين، وقد أدهشت عاداتهم هذا الرحّالة القادم من الأندلس. ثمّ خضعت للطوارق، فإلى الصُنغاي الذين امتدّت أمبراطوريّتهم، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، من كاوْكاوْ حتى تمبوكتو. وفي هذه الحقبة ارتبطت تومبوكتو بعلاقات تجاريّة مع إيطاليا، ومنها انطلقت القوافل التجاريّة في اتّجاه مصر وتونس والمغرب، وصولًا إلى منطقة جنّي في مالي، وحتّى إلى جنوبها. لكنّ هذه العلاقات التجاريّة توقّفت في القرن السادس عشر للميلاد، إثر هزيمة الصنغاي على يدي أحمد المنصور السعدي الذي قاد ضدّهم حملة من المغرب. ومنذ ذلك الحين جعل المغاربة من تومبوكتو مركز مقاطعة، لكنّ الباشا الذي حكمها حوّلها تدريجيًّا إلى منطقة مستقلّة.

إنّ الإنحطاط الذي أصاب هذه الإمارة، في أواخر القرن السابع عشر، أدّى بالمدينة إلى الخضوع لسلطة رجال دين من البربر، ينتمون إلى الفرقة القادريّة التي كانت قد بسطت سلطتها على منطقة قريبة من تومبوكتو. وفي عام ١٨١٨م، أسّس شيخو أحمدو دولة القُلبة الثيوقراطيّة الجهاديّة في ماسينا، واستولى بدوره على تمبوكتو من دون أن يسلبها استقلالها التقليدي. وفي العام ١٨٢٨ تمكّن الفرنسي رينه كاييه (René Caillé) من اكتشاف مركز القوافل القديم هذا، وكان مهجورًا جزئيًّا، فتمّ إلحاقه بأفريقيا الغربيّة الفرنسيّة إعتبارًا من عام ١٨٩٣م.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٢٩.

تونس (الجمهوريّة التونسيّة)، مدينة مرفئيّة وعاصمة البلاد الحاليّة. سبق ازدهارها الإقتصادي ونموّها الديمغرافي، خلال العقود الأخيرة، تطوّر متزايد في أواخر العصور الوسطى.

تقع تونس الحاليّة مع ضواحيها خلف بحيرة شاطئيّة تتصل اصطناعيًّا بمينائها خلق الوادي الذي كان في الماضي قلعة رومانيّة. لم تحظ تونس بالأهميّة، قياسًا بقرطاجة القديمة، إلاّ بعد أن احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة في العام ٧٣هـ/ ٦٩٢م، إبّان الفتوحات الكبرى. كان لموقعها، على ملتقى الطرق الداخليّة،

في منطقة زراعيّة خصبة قريبة من البحر، فوائد دفاعيّة واقتصاديّة بشكل خاص. خلفت تونس إذًا قرطاجة وأصبحت ثغرًا بحريًّا يتمتّع بترسانة لصناعة السفن الحربيّة، وهي محميّة بشكل جيّد. وشيّد أحد حكّامها الأمويّين، سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م، مسجدها الجامع الذي يحمل، منذ ذلك التاريخ، اسم جامع الزيتونة، وقد تمّ توسيعه وتجميله سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، حينما بُنيت قبّته التي يليها المحراب. في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، الذي تميّز بسيطرة الأغالبة الذين كانوا متمسّكين بعاصمتهم القيروان، قامت تونس التي كانت مركزًا فكريًّا وتجاريًّا بثورات عدّة ضدّ السلطة. واذا كان الامير زيادة الله الأغلبي قد دكّ حصونها عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م، فإنّ الامير ابراهيم الأغلبي نقل إلى قصبتها، التي شيّدها هو نفسه، بلاطه وحكومته سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م، لكنّه لم يستقرّ فيها طويلًا، اذ عاد في العام ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م إلى مقرّه الاصلي في رقّادة بالقرب من القيروان.

إنّ الفاطميّين الذين بنوا المهديّة حيث تحصّنوا إبّان ثورة الخوارج، والذين بنوا بعد ذلك صبرا - المنصوريّة قرب القيروان، لم يهتمّوا بتونس، مركز المذهب المالكي المعارض لسلطتهم. وفي تونس عاش، في مطلع القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، محرز بن خلف أحد المدافعين عن هذا المذهب، وقد عُرف باسم «سيدي محرز»، وأصبح وليًّا لهذه المدينة التي شهدت حينها ازدهارًا حقيقيًّا. وفي منتصف القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، تلت غزوةَ الهلاليّين بدايةُ حكم بني خراسان (الخراسانيين) الذين بنوا سورًا جديدًا وقصرًا وضاحيتين للمدينة. وتحوّلت تونس إذًا إلى مدينة مهمّة، وغدت، بعد سيطرة الموحّدين عليها في العام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، عاصمة إقليم إفريقية، في حين أكمل الحفصيّون تشييد أبنية ملازمة لمركزها السياسي الجديد: فشيّدوا قصر القصبة مكان القلعة؛ كما شيّدوا مساجد، منها مسجد القصبة الذي بُني ما بين ٦٢٨ و٦٣٣هـ/ ١٢٣١ و١٢٣٥م، ومدارس وقنوات للمياه. إنّ الإتّساع الذي عرفته في أواخر القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد يتطابق مع اتّساع المدينة القديمة الحاليّة، مع امتداد من الشمال إلى الجنوب، بين القصبة وباب البحر الذي يُفضي إلى المرفإ وترسانة صناعة السفن، ومع المحافظة، في وسطه، على المسجد الجامع المحاط بأسواق متنوّعة. وتطوّر نشاطها التجاري كثيرًا، كونها مرفأً بدأ تجّار أوروبيّون، منذ ذلك التاريخ، يتمركزون فيه: فمنذ مطلع القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وُجدت فيه جالية جنويّة ممثّلة بقنصل وتملك فندقًا.

وفي القرن السادس عشر أصبح الوضع أكثر صعوبة، اذ كانت المرحلة مضطربة بالنسبة الى مدينة أصبحت محط أطماع للبحّارة والقراصنة الأتراك والأسبان المتنافسين. ولم تشهد بعض الهدوء الاّ بعد السيطرة العثمانيّة عليها في ١٥٧٤. جذبت هذه السيطرة عناصر جديدة من السكان، سرعان ما انضمّ اليهم الموريسكيّون الذين أبعدهم فيليب الثالث من الأندلس في العام ١٦٠٩م، وقد ساهم سكّانها جميعهم في إدخال تحوّلات على المجتمع التونسي، في حين نشأت في المدينة، في ظلّ البايات المراديّين والحسينيّين، مبان وفق الهندسة العثمانيّة، كتلك التي خلّفها يوسف داي في مطلع القرن السابع عشر.

استُعمل مجمّع «دار الباي» في غرب المدينة - الذي يعود الفضل في إقامته الى حمّودة باشا ما بين ١٧٨٢ و١٨١٤ - مكانًا لإقامة الحكّام الذين اهتمّوا أيضًا بزخرفة مساكنهم في باردو، وشُيّدت، إضافة إلى ذلك، أبنية أخرى لسكن الأمراء والأثرياء، داخل الأسوار وخارجها، باستخدام وسائل هندسيّة جديدة بُدئ مؤخّرًا بالتنقيب عن غناها.

من جهة ثانية، نتيجةً لوجود عدد من الارقّاء الأوروبيّين الذين أُسروا إبّان القرصنة في المنوسط، دخلت تونس الإرساليات التبشيريّة المسيحيّة، كما استقرّت فيها قنصليّة فرنسيّة، وتمّ تشييد كنيسة لويس التاسع تخليدًا لاستشهاده إبّان حصاره للمدينة عام ٦٨٨هـ/ ١٢٧٠م. وفي القرن التاسع عشر استرعت الإمكانات الإقتصاديّة إنتباه الجالية الأوروبيّة التي راحت تنمو وتؤسّس المدارس إعتبارًا من ١٨٣١م. في حين بدأت ترتسم مدينة عصريّة خارج الأسوار باتّجاه

البحيرة. وقد شهدت هذه المدينة إتساعًا جديدًا بعد الاحتلال الفرنسي لتونس في العام ١٨٨١م، في حين حوفظ على المدينة القديمة وعلى مسجدها الجامع الذي استمرّ مركزًا للدراسات الدينيّة، على الرغم من إنشاء مدرسة صادقي الثانويّة على الطراز الأوروبي، وذلك في العام ١٨٩٧.

وبعد أن نالت تونس استقلالها في العام ١٩٥٦، عمد النظام الجديد إلى تدعيم أهميّتها الثقافيّة والسياسيّة من دون أن يقضي على مميّزاتها. فأعيد تنظيم التعليم الثانوي وتوحيده، وتطورت جامعات عدّة، ولم تعد جامعة «الزيتونة» تدرّس، اعتبارًا من العام ١٩٥٨، الاّ تعليمًا عاليًا مشابهًا جزئيًّا للتعليم في الجامعات الجديدة.

◄ راجع المستندات: ١١، ١٩، ٨٧ و٨٨.

تونس (الجمهوريّة التونسيّة)، هي دولة مستقلّة حديثًا، مساحتها ١٦٣ ٦١٠ كلم²، عاصمتها تونس. دولة معاصرة مستقلّة، نظامها رئاسي، جميع سكّانها تقريبًا من المسلمين، وتشغل في الطرف الشماليّ الشرقيّ للمغرب مساحة جغرافيّة أصغر من تلك التي كانت تشغلها (ولاية) إفريقية في العصور الوسطى.

أصبحت تونس الحديثة جمهوريّة بعد إلغاء نظام البايات الحسينيّين، وحكمها من ١٩٥٦ إلى ١٩٨٧ الرئيس الحبيب بورقيبة، الذي استند إلى حزب الدستور الجديد ليقيم، وفقًا لدستور ١٩٥٩، حكمًا مركزيًّا سلطويًّا، ساعيًا إلى التوفيق بين مصالح متعارضة، ودافعًا قدُمًا بالتحديث الإقتصادي والثقافي والإجتماعي.

وُلد الحبيب بورقيبة في العام ١٩٠٣ في مناستير من عائلة بورجوازيّة. وبعد أن أنهى مرحلة التعليم الثانوي في تونس، درس الحقوق في جامعة باريس، وعاد محاميًا إلى تونس في العام ١٩٢٧ حيث انخرط في العمل السياسي. أسّس صحيفة أسماها «العمل التونسي» (L'Action tunisienne)، وغدا لسان حال مجموعة من المثقفين المتأثّرين بأفكار اليسار الفرنسي، وقد عمل هؤلاء على السيطرة على حزب الدستور، قبل أن يؤسّسوا حزب الدستور الجديد الذي ضمّ عناصر بورجوازيّة، وأخرى شعبيّة، بهدف الدفاع عن الفكرة القوميّة.

وبورقيبة نفسه كان قد ذهب إلى باريس في آب ١٩٣٦ للدفاع عن برنامج كان يجب أن يؤدّي، في النهاية، إلى استقلال تونس، لكنّه لم يحصل على أيّ وعد دقيق بهذا الخصوص، فتصلّب في مواقفه، ما أدّى الى اعتقاله إثر تظاهرات قامت في تونس في العام ١٩٣٨، وأُطلق سراحه في العام ١٩٤٣. وبعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية التي لم تؤدّ إلى أيّ تغيير في السياسة الفرنسيّة، قدّم بورقيبة إلى الحكومة الفرنسيّة برنامجًا، في نيسان من العام ١٩٥٠، لقي مبدئيًّا استحسانًا، لكنّه لم ينتج عنه أيّ إصلاح. في كانون الثاني من العام ١٩٥٢ أدّت التظاهرات على أنواعها التي كانت تتوالى حينها في تونس إلى توقيفه ونقله إلى فرنسا سنة ١٩٥٤، ما جعل منه محاور الحكومة الفرنسيّة حين اعترفت باستقلال تونس سنة ١٩٥٦.

أُلقيت على عاتق بورقيبة مسؤوليّة تنظيم الدولة الجديدة التي أصبح رئيسًا لها من دون منازع، ممارسًا حكمًا فرديًّا موجّهًا، ولكن بحذر شديد. وشهدت سياسته مرحلتين أساسيّتين: الأولى، مرحلة التنظيم، امتدّت من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٩ حيث اتُّخذت اجراءات عدّة ذات طابع علماني، منها: منع تعدّد الزوجات، وإصلاح التعليم الرسمي، وعدم التشدّد في صوم رمضان؛ بينما كانت كلّ الروابط مع فرنسا قد قُطعت ووُضع موضع التنفيذ نظام يسمح للدولة بالتدخّل بفاعليّة في النظام الاقتصادي. خلال المرحلة الثانية التي امتدّت من ١٩٦٩ إلى ١٩٨٧، تخلّى بورقيبة عن السياسة الموجّهة لمصلحة نظام ليبيرالي سمح بدخول رؤوس الأموال الاجنبيّة إلى البلاد، كما سمح أيضًا بإقامة علاقات جيّدة بالدول الغربيّة. وأخيرًا أدّت، أخيرًا، الصعوبات المتصاعدة إلى عزل الرئيس المسنّ وتسلُّم الرئيس زين العابدين بن علي السلطة. وكان على العهد الجديد مواجهة تأثير الإسلاميّين من دون التخلّي عن السير نحو الحداثة.

التيجانيّة (الطريقة -)، جمعيّة إسلاميّة صوفيّة، أو طريقة صوفيّة استمدّت اسمها من أحمد التيجاني، الذي أسّسها بداية في الجزائر، ثمّ في المغرب حيث تابع نشاطه حتى وفاته في العام ١٨١٥م.

ولد التيجاني في جنوب الجزائر في العام ١٧٣٧م حيث عاش فترة طويلة منتسبًا إلى الطريقة الخلوانية. أسّس طريقة جديدة في تلمسان في العام ١٧٨٢. وبعد مكوثه وقتًا في الصحراء، استقرّ في فاس حيث حظي بحماية مولاي سليمان، من السلالة العلوية التي كانت تحكم المغرب آنذاك.

حدّد التيجاني طريقته انطلاقًا من رسالة أكد أنّه تلقّاها مباشرة من النبيّ محمّد (ﷺ)، وكان نظام طريقته بسيطًا لا يوجب عزلة أو تقشّفًا، ولا طقوسًا معقّدة، ولا يوجب على الأخص اعتماد سلاسل الإسناد أسوة بما كانت تقوم به سائر الطرق الصوفيّة تثبيتًا لسلطة رؤسائها.

إنّ الفريضة الأساسيّة المتوجبة على كل تيجاني هي بناء اعتقاده الخاص عن طريق تأمّلاته الشخصيّة، والاستعانة بشفاعة شيخه مؤسّس الطريقة وحده، واستبعاد كلّ ما عدا ذلك، بما فيه زيارة أضرحة الأولياء الآخرين، رغم أنّها كانت عادة شعبيّة رائجة آنذاك في المغرب. نتج عن هذا الموقف المتمايز الإستقلال النسبي لممثّلي التيجانيّة تجاه الطرق الصوفيّة الأخرى، بحيث تمايزوا عنها، في حين أنّهم شاطروا بعض الآراء حركاتٍ عُرفت بالسلفية، كالوهّابية التي أقاموا معها بعض الصلات. هكذا انتشرت التيجانيّة بسهولة في المغرب وفي أفريقيا السوداء المجاورة، متبنّيةً، تبعًا للمناطق، مبادئ سياسيّة متنوّعة، وأعطت عن نفسها صورةً تعكس الواقع الاجتماعي المحلّي.

تيمار، هو اصطلاح كان يعني في الأمبراطوريّة العثمانيّة تلزيم ضريبة عقاريّة لفارس يُعرف بـ«سباهي» [لفظ فارسي تركي يعني العسكري]، ويُفرض عليه إلزاميّة القتال عند الإقتضاء وتجهيز فرقة عسكريّة يكون مسؤولًا عن إعالتها.

التيمار ليس «إقطاعة» بالمعنى الصحيح، لأنّ المستفيد منه لم يكن يملك سلطة على شاغلي الأرض أو على الرعايا، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، بل كان يتمتّع بحق جباية الضرائب الأساسيّة المتوجّبة عليهم، وهو حقّ قابل للإلغاء. ويمكن أن نميّز ثلاث فئات من التيمارات تبعًا لأهميّتها: التيمار العادي وهو الذي يبلغ مردوده أقل من عشرين ألف أقجة؛ والذي يزيد ربعه عن ذلك يسمّى «زعامة»؛ وأخيرًا الفئة العليا المتمثّلة بتيمار الحكّام «الخاص».

وكان للتيمارات نظام خاص تمّ تحديده من قِبَل سليمان القانوني. وهي تتماثل، من جهة مع البرونويا (pronoia) البيزنطيّة، ومن جهة ثانية مع الاقطاع او الالتزام الضريبي، الذي طبّق في العالم الإسلامي القديم، على قاعدة نظام الأراضي المعتمَد منذ العهود الإسلامية الأولى. ومن الصعوبة بمكان تحديد أصول التيمار بدقّة، ولا سيّما أن معرفتنا بالنظامين الضريبي والعسكري اللذين كانا سائدين في الاناضول في ظلّ سلاجقة الروم محدودة. وكان يتوجب، في العهد العثماني، على أصحاب التيمارات السكن في تيماراتهم، إلّا إبّان الحملات العسكريّة، وكانوا يشكّلون فرقة الخيالة في الأمبراطوريّة التي كانت تضاف إلى القوى العسكريّة الأخرى. وقد جرت محاولات عدّة لإصلاح هذا النظام الذي أساء المستفيدون منه استعمال سلطانهم، لكن من دون جدوى. وفي العام ١٨٣١ ألغاه السلطان محمود الثاني، الذي أعاد تنظيم الجيش العثماني.

تيمور أو تيمورلنك، (٧٣٧-٨٠٧هـ/ ١٣٣٦-١٤٠٥م.)، قائد تركي - مغولي من بلاد ما وراء النهر، تمكّن، اعتبارًا من سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، بعد حملات مدمّرة، من بسط سلطانه على أمبراطوريّة شرقيّة واسعة أورثها لعائلته، «التيموريّين»، غير أنّه لم يجنّبها التفكّك المباشر.

ولد في جنوب سمرقند في عشيرة كانت تابعة إقطاعيًّا للجغتائيين، رفعت نسبها إلى جنكيزخان. بدأ هذا الفاتح الطموح مسيرته، في سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، بالسيطرة على بلخ ومنطقتها؛ ثمّ سيطر، سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، على خوارزم حيث تتركّز الثروة الإقتصاديّة لآسيا الوسطى حول كوركانج/أورغنتش[٤٥]، وقد تطلّب إخضاعها، بطريقة عنيفة، حوالي عشرة أعوام. وكان يعتمد حينها على أفراد الطريقة النقشبنديّة الصوفيّة التي كان يحمي شيوخها. ثمّ باشر غزو إيران بدءًا بخراسان، وصولًا إلى فارس واذربيجان، ثمّ احتلّ

العراق، ولم يتردد في أن يُعاقب، بقساوة، أهل المدن التي حاولت التمرّد. وفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م، بدأ الحرب التي عُرفت بحرب الخمس سنوات، التي مكّنته من اجتياح الأناضول وبلاد ما بين النهرين العليا، وسهوب الفولغا وصولاً إلى موسكو. ثمّ، في سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٨م، استرعت الهند انتباهه، فاستولى على دلهي بعد أن قتل قسمًا من سكّانها. لكنه اضطرّ في سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، للعودة إلى جورجيا والأناضول، فاحتلّ سيواس وملطية حيث خلّف الدمار. وأغار على سوريا، وانتصر على المماليك الذين كانوا يحكمون مصر وبلاد الشام، مستوليًا على أهم المدن فيها، ومن هناك قصد بغداد وسيطر عليها سيطرة تامة سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م.

ثمّ اندلعت الحرب بين تيمورلنك والسلطان العثماني بايزيد، الذي كان سلطانه يمتدّ إلى البلقان، فهُزم بايزيد في معركة أنقرة سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، وسقطت بورصة وإزمير بيد تيمور، فيما كانت حينها الدولة العثمانية مفكّكة جزئيًا. واستقبل تيمورلنك عندئذٍ سفراء السلطان المملوكي[٤٦] والأمبراطور البيزنطي حنا السابع باليولوغ. وعند عودته إلى سمرقند التي ظلّت عاصمته - مع انّه كان يفضل الإقامة في كش/شَهْرسَبْز حيث بنى قصرًا - استقبل كلافيخو (Clavijo) مبعوث ملك قشتالة، الذي ندين له بكتاب رحلة قيّم. بعد ذلك قرّر مهاجمة الصين، ونفّذ حملته عليها في كانون الأوّل سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م، لكنّه مرض ثمّ توفي في الشهر التالي، بعد ان كان قد قسّم امبراطوريّته المترامية الأطراف بين أولاده وأحفاده. ودفن في سمرقند، في ضريح ما يزال قائمًا ويُعرف بـ غُوريمير (Gour-i-Mir).

قامت شهرته، للأسف، على أسلوبه في إباحة سلب المدن وتدميرها. لكنّه لم يتوانَ عن تشجيع أنشطة المفكّرين والفنّانين، كما كان يشجّع، في آن، الحياة الإقتصاديّة مشيّدًا في سمرقند أبنية رائعة، ومنفّذًا أيضًا أعمالاً ذات فائدة عامة في أماكن مختلفة.

التيموريُّون ٧٧١-٩١٢هـ/١٣٧٠-١٥٠٦م، سلالة تتحدّر من تيمورلنك الفاتح الشهير. وقد تقاسم أعضاؤها، بعد وفاته، بقايا أمبراطوريّته الشاسعة، متنافسين على الحكم والسيادة؛ ولا سيّما في المقاطعات الشرقيّة، متباهين بعظمة إنجازاتهم.

وظلّت سمرقند، عاصمة تيمور السابقة، مركز السلطة العليا التي تراقب طموحات مختلف أفراد العائلة التيموريّة في إيران. وقد سيطرت، في البدء، سلالة شاهْرُخ على عرش آسيا الوسطى على حساب مملكة ميرانشاه الغربيّة، على الرغم من أن شاهْرُخ الذي شرع بتركيز سلطته إنطلاقًا من خراسان قد اختار الإقامة في هراة، وجعل، خلال حياته، إبنه أُولوغ بك يشارك في الحكم في سمرقند، بصفته نائبًا للسلطان. وعقب الفشل الذريع الذي مني به أولوغ بك بعد أن خلف والده، تمكّن أبو سعيد حفيد ميرانشاه من السلالة التيموريّة، على أثر مواجهات عديدة مع أولوغ بك، من السيطرة على المملكة بكاملها، وفرض سلطته الشخصيّة من حدود الهند وصولاً إلى العراق. لكنّه عجز عن مقاومة إعتداءات الأوزبكيّين الشيبانيّين، اذ هُزم أخيرًا وحكم عليه بالموت في العام ٨٧٣هـ/١٤٦٩م، إثر الحملة التي قرّر القيام بها على الغرب، لمجابهة اوزون حسن الشهير وهو من سلالة الآق قيونلو.

منذ ذلك التاريخ، انحصر التيموريّون في بلاد ما وراء النهر وخراسان حيث نعم بعضهم بحياة بذخ وترف. ويجدر بنا التنويه، بشكل خاص، بحسين بايْقَرا، على سبيل المثال، الذي حكم هراة طيلة ٣٧ عامًا، وتمكّن، خلال سنوات حكمه الأولى، من فرض احترامه على خصومه وإيقافهم عند حدودهم؛ كما اشتهر، في الوقت نفسه، بقصوره التي كانت موئل الشعراء والمؤرّخين والفنّانين. وفي ما بعد قبض السلطان سليم الأوّل على ابنه وسجنه حتّى وفاته في اسطنبول عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، وهو آخر حاكم من سلالة التيموريّين. وفي هذا الوقت استولى الخانات الشيبانيّون على سمرقند في العام ٩٠٥هـ/١٥٠٠م وعلى هراة في العام ٩١٢هـ/١٥٠٦م.

وهكذا اضمحلّت نهائيًا آثار أمبراطوريّة تيمورلنك التي لم تعمّر طويلاً، لكنّ احد أبناء العائلة التيموريّة، بابُر، تمكّن من الخروج من آسيا الوسطى، فاحتلّ كابول

وسيطر في ما بعد على الهند، حيث أسّس الأمبراطوريّة المغوليّة.

كبار تيموريّي سمرقند:

تيمورلنك	٧٧١-٨٠٧هـ/ ١٣٧٠-١٤٠٥م
شاهرُخ	٨٠٧-٨٥١هـ/ ١٤٠٥-١٤٤٧م
أُولوغ بك	٨٥١-٨٥٣هـ/ ١٤٤٧-١٤٤٩م
عبد اللطيف	٨٥٣-٨٥٤هـ/ ١٤٤٩-١٤٥٠م
عبدالله ميرزا	٨٥٤-٨٥٥هـ/ ١٤٥٠-١٤٥١م
ابو سعيد	٨٥٥-٨٧٤هـ/ ١٤٥١-١٤٦٩م
احمد	٨٧٤-٨٩٩هـ/ ١٤٦٩-١٤٩٩م
محمود بن ابي سعيد	٨٩٩-٩٠٦هـ/ ١٤٩٤-١٥٠٠م

تيموريّو هراة:

ياكار محمد	٨٧٣-٨٧٤هـ/ ١٤٦٩-١٤٧٠م
حسين بايْقرا	٨٧٤-٩١٢هـ/ ١٤٧٠-١٥٠٦م
بديع الزمان	٩١٢هـ/ ١٥٠٦م

◄ راجع المستندات ٢٤، ٢٦ و٧١.



ثقيف (بنو -) : قبيلة من عرب الجاهليّة ، كان أفرادها قد تحضّروا جزئيًّا ، وكانوا يقيمون ، عند ظهور الإسلام ، في منطقة الطائف بالقرب من مكّة .

تحالف بنو ثقيف مع الأمويّين وساندوهم ، ما جرّ عليهم عداوة العباسيّين . وعلى الرغم من أنّ قسمًا منهم تمركز ، في العصر الحديث ، في اليمن ، فإنّهم ما يزالون يقيمون في المملكة العربيّة السعوديّة في المنطقة التي كانت لهم في عهد الرسول محمد ﷺ .

ثمود ، قبيلة أو شعب عربيّ منقرض ، يعود عهده إلى العصور الخالية والأسطوريّة ، ويُعتبر في عداد الأمم الطاغية الوارد ذكرها في القرآن الكريم لأنّه نبذ الرسول الذي أُرسل إليه ، وهو النبي صالح . إنّ الحادثة المشار إليها والمعروفة جيّدًا في الأوساط الإسلاميّة ، هيّ قصّة صالح والناقة التي أخرجها له الله من صخر بناءً على طلبه ، ورغم ذلك لم يتمكّن من حمل شعبه على الإيمان . تُظهر هذه الواقعة ، كما في حالة قبيلة عاد ، رفض الرسالة الإلهيّة من قِبَل شعوب ارتكبت خيانة عظمى ، ندّدت بها سور وآيات قرآنية عدّة ، وذلك في زمن سبق الرفض الذي أظهره المكيّون تجاه النبيّ محمّد ﷺ .

وهناك تقاليد محليّة عدّة في جزيرة العرب تعود بذكرها إلى شعب ثمود الذي يُقال إنّه تميّز ، بشكل خاص ، بمساكنه المحفورة في الصخر . كما نُسبت إليه ، منذ أمدٍ بعيد ، آثار كتابات منقوشة على الصخور ، وأضرحة محفورة على الشاطئ الصخري . هكذا هي الحال في شمال غربي شبه الجزيرة بجانب آثار الحِجْر ، وهو موقع في وادي القُرى عرفه الجغرافيّون العرب في العصور الوسطى ؛ وهكذا هي الحال أيضًا في المكان المسمّى مدائن صالح ، وهو يقع اليوم بقرب مدينة تحمل الإسم نفسه . وقد حدّدت أيضًا مساكنهم القديمة في اليمن في ضواحي مدينة شبوة حيث تميّز المنطقة ثروةً أثريّة . وبوجه عام ، فإنّ شعب ثمود الذين كان يُعرف سابقًا باسم ثموداي (Tamudaei) ، ذكره الكتّاب اللاتين القدماء على أنّه من بين الشعوب القديمة التي سكنت شبه الجزيرة العربيّة .

ج

جابر بن حيّان، خيمياني عربي ذو ميول ابتداعيّة، وشخصيّة غامضة من شخصيّات القرون الوسطى الإسلاميّة، يُعتقد، من غير جزم، أنّه عاش في زمن الخلفاء العبّاسيّين الأول، وكان متأثراً بأفكار الإمام جعفر الصادق.

ترك العديد من المؤلّفين الأقدمين لائحة واسعة من المؤلّفات المنسوبة الى جابر بن حيّان، ليس فيما يتعلّق بالخيمياء فحسب، بل أيضًا في مجالات عدّة في العلوم الموروثة من العصور القديمة. وما تزال بعض المقاطع من هذه المؤلّفات محفوظة إلى ايّامنا الحاضرة. هذه الكتابات، التي يعود جزء منها الى المرحلة اللّاحقة للفترة التي يُفترض أنّ جابر عاش فيها، تبقى مع ذلك مهمّة لاحتوائها على مستوى رفيع من المعرفة العلميّة والفلسفيّة تشهد لها في البلاد الإسلاميّة، وقد عزاها جابر إلى تعاليم الإمام جعفر الصادق.

تأثرت كتابات جابر بخاصة بالمذهب التلفيقي الغنوصي (التوفيق بين المذاهب المتعارضة) المماثل لما كان يحصل في الأوساط الشيعيّة المتطرّفة التي كانت هي أيضًا تُبشّر بظهور إمام جديد يلغي الشريعة ويستعيض عنها بدراسة العلوم القديمة.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحْر الكناني البصري ١٦٠-٢٥٥هـ/ ٧٧٦-٨٦٩م، كاتب ناثر باللغة العربيّة؛ لعب دورًا مهمًّا في العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة، جاعلاً من نفسه صدى لطروحات المعتزلة الفلسفيّة - الدينيّة.

ولد الجاحظ في البصرة، متحدّراً من أسرة من الموالي غير معروفة. تلقّى العلم منذ طفولته على كبار علماء العصر، من فقهاء اللغة ومفكّرين؛ وكان على علاقة وثيقة بأهمّ خلفاء العراق، من المأمون إلى المتوكّل، ووزراء عديدين، لكنّه لم يتولّ وظيفة رسميّة. أفاد لبعض الوقت من نفقة، وحصل، بفضل بعض كتاباته، على مساعدات قيّمة إبّان إقامته في بغداد، ومن ثمّ في سامرّاء، قبل أن يعود أدراجه، في أواخر حياته، إلى مسقط رأسه حيث توفي.

ضمّت كتابات الجاحظ المتنوّعة، والقليلة الترتيب في الظاهر، كما هي الحال بالنسبة الى جميع مصنّفات الأدب، دائرة معارف واسعة - كتاب الحيوان - ومؤلّفات جدليّة وهجائيّة، ومقالات سياسيّة-دينيّة. ويغلب عليها جميعًا طابع الفضوليّة الدينيّة الذي تميّز بها كاتبها.

ينطوي كتاب «الحيوان» على كميّة من الإستطرادات ذات طابع فلسفي أو ديني، وهي مخصّصة للدفاع عن طروحات المعتزلة حول العناية الإلهيّة. وقد اهتمّت مقالاته بمظاهر أخرى لهذه العقيدة. ومن الواضح أن ما كتبه الجاحظ كان لدعم سياسة الخليفة المأمون الذي كان على علاقة به. ففي كتاب «البخلاء» انتقادات للبخلاء ترمي إلى مدح كرم العرب، وثمّة انتقادات أخرى موجّهة للكتّاب وادّعاءاتهم، وهي تشكّل مادة لبعض كتاباته. بينما نراه، في مجال آخر، يمتدح فضائل الترك الذين أتى بهم الخليفة المعتصم، أو نجده يدافع عن شرعيّة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل ضد ادعاءات الشيعة، كما نجده ينتقد المسيحيّين لِمَا كان لهم من مكانة إجتماعيّة. تضيف هذه الإهتمامات المختلفة قيمتها الوثائقيّة إلى النوعيّة الأدبيّة لمجمل كتابات الجاحظ، ما يجعل منها مصدراً للمعلومات حول الحياة الإجتماعيّة والثقافيّة

والدينيّة لعصر الجاحظ، إنّها تبدو حيّة بفضل الإبداعات الأسلوبيّة المفعمة بالحماسة.

جاكارتا (جمهوريّة أندونيسيا) هي مدينة بتافيا القديمة والعاصمة الحاليّة للبلاد. وهي مدينة كبيرة حديثة، تمتاز بنوع خاص من الإسلام المحلّي. كانت بتافيا قاعدة لشركة الهند الشرقيّة الهولنديّة التي استقرّت في جاوه منذ العام ١٦١٩، واستمرّت مقرًّا للحاكم العام الهولندي حتى العام ١٩٤٢، مع بعض الانقطاع ما بين عامي ١٨١١-١٨١٦. ازدهرت المدينة، ليس كمركز تجاري وحسب، بل أيضًا كمركز إداري وفكري. وبالرغم من أنّ غالبية سكّانها من المسلمين، فقد تميّزت، وفي وقت مبكر، بطابعها العالمي وطوّرت، الى جانب ذلك، العديد من المراكز المكرّسة للدراسات الإسلاميّة: فمنذ العام ١٩٢٤، أنشئت فيها كليّة للحقوق تهتم بصورة خاصة بالفقه الإسلامي.

في عام ١٩٤٢، بعد أن استولى عليها اليابانيّون، اتّخذت بتافيا اسم جاكارتا، لتحتفظ به، في العام ١٩٤٥، عند اعلان استقلال جمهوريّة أندونيسيا.

جالدران (معركة في ٩٢٠هـ/١٥١٤م)، انتصار حاسم حققه العثمانيّون على الصفويّين، يسّر لهم تثبيت سيطرتهم، لمدّة قرن تقريبًا، على التخوم الشرقيّة للأناضول والقوقاز.

وقع التحام الجيشين في سهل في أذربيجان الايرانيّة بجوار الحدود الحاليّة التي تفصل بين الجمهوريّتين الإيرانيّة والتركيّة. وقد أثبتت المعركة التفوّق العسكري للجيش العثماني ألذي قاده السلطان سليم الأوّل، في بداية عهده، في حملة عسكريّة شهيرة جسّدت مبادرته الأولى الكبرى. وعلى الرغم من أنّ الجيش العثماني تابع تقدّمه لبعض الوقت، حتّى مدينة تبريز، فإنّ الأراضي التي اجتازها لم تُضمّ إلى الفتوحات العثمانيّة التي كان اتّجاهها المفضّل نحو مناطق ديار بكر وكردستان. وكان الهدف من ذلك إرغام الشاه إسماعيل، أوّل حاكم صفوي، على التخلّي عن سياسة التحريض التي كان يمارسها على القبائل التركيّة الأناضوليّة الموالية للشيعة.

جامعات، مفردها **جامعة**، مؤسّسات تعليم عالٍ قائمة اليوم في العالم الإسلامي، مضافة أحيانًا إلى مساجد جامعة قديمة، ومدارس وكلّيات، لا تزال شهرتها قائمة لتأمينها مراحل من الدروس الحديثة المخصّصة للعلوم الدنيويّة، ونادرًا للعلوم الدينيّة.

هذه الجامعات ذات الطابع الغربي التي تشتمل على مجموعة اختصاصات تدرّس في كلّيات أو مدارس متخصّصة. ظهرت في بلاد الإسلام في فترة قريبة العهد، منذ نهاية القرن الثامن عشر وصولًا إلى القرن العشرين. في أكثر الأحيان، أسّست مدارس ذات طابع مهني أو تقني أوّلًا، ثم ضُمّت في جامعات ضخمة، فعكست بازدهارها وتكاثرها مراحلَ التطور الديمغرافي والسياسي للمناطق التي قامت فيها.

إنّ أوّل مثال في البيئة العربيّة هو، بلا ريب، مثال مصر حيث أُقيمت، منذ العام ١٨٢٧ في القاهرة، مدارس تقنيّة ومدارس عسكريّة عدة أو مدارس طب وصيدلة. وتمّ في العام ١٨٧١ تأسيس معهد لتعليم اللغة العربيّة، وفي العام ١٨٨٦، مدرسة حقوق. وفي العام ١٩٠٨، تأسّست الجامعة الوطنيّة التي تحوّلت، بعد الحرب العالميّة الأولى، إلى جامعة دولة. وتأسّست جامعتان أُخريان في العامين ١٩٤٢ و١٩٥٠، إحداهما في الإسكندريّة، والأخرى في القاهرة. والمؤسّسات الثلاث تسمّى حاليًّا جامعات القاهرة، والإسكندرية وعين شمس. وظهرت حديثًا جامعات أخرى في مدن المقاطعات، في حين أنّ الجامع الأزهر استمرّ بصفته جامعة إسلاميّة متخصّصة في تعليم العقيدة والفقه. إلّا أنّ هذه المؤسّسة التقليديّة أُعيد تنظيمها بحسب المعايير الغربيّة التي أفسحت في المجال للعلوم الدنيويّة وجدّدت هيكليّات استخدمت حصرًا، في ما مضى، لتطوير الدراسات المعطاة أصلًا في المساجد الجامعة، كما كان يحصل في الكليّات العثمانيّة.

في موازاة ذلك، شهدت عاصمة الأمبراطوريّة العثمانيّة، منذ نهاية القرن الثامن عشر، ولادة مدارس متخصّصة، ومدارس عسكريّة ثمّ مدارس طبّ، وبعد قرن نشأت مجموعة من المدارس العليا أُلحقت، في العام ١٩٠٠، بجامعة أسطنبول التي دُعيت دار الفنون.

وقد ازدادت ونبرة هذه الحركة في جمهورية تركيا العلمانية الحريصة على تعزيز التطوّر التقني والفكري لشعوبها. وهكذا، أُسّست في العام ١٩٤٦، جامعة أنقره، وفي العام ١٩٥٥ جامعة إزمير، وفي العام ١٩٥٦ جامعة أرضروم، في إطار توجّه لامركزيّ متزايد رافقه تكاثُر الجامعات في المدن الكبرى: فإسطنبول أو انقره، مثلاً، تملك اليوم مراكز تعليم عالٍ عديدة وناشطة.

في سوريا أُنشئت جامعة في دمشق في العام ١٩٤٦، بُعيد الاستقلال، شملت أولًا مدرستي الطبّ والقانون، وسرعان ما احتضنت كليّات مختلفة في العلوم الدنيويّة، إضافةً إلى كليّة الشريعة. في العام ١٩٦٠ أُنشئت جامعة في حلب. وشهد لبنان المتعدّد الطوائف، من جهته، في مرحلة مبكرة، قيام مؤسّسات تعليم عالٍ على يد الإرساليّات المسيحيّة: الجامعة الأميركيّة في بيروت، التي دُعيت على هذا النحو في العام ١٩٢٠، لكنّها انبثقت من الكليّة البروتستانتيّة [الإنجيليّة] السوريّة التي أُسّست في العام ١٨٦٤، وجامعة القديس يوسف التي أسّسها اليسوعيون في بيروت في العام ١٨٧٥، واختصّت، في البدء، بميدان اللاهوت والفلسفة، وسرعان ما وسّعت أنشطتها لتشمل حقولًا أخرى. ونشأت جامعة حكوميّة في ما بعد في العام ١٩٥١، هي الجامعة اللبنانيّة تطوّرت، بخاصة إبتداءً من العام ١٩٥٩، وثمّة جامعة مارونيّة هي جامعة الكسليك، تبلورت هيكليّتها بُعيد ذلك. أُنشئت في العراق مدارس عليا مختلفة بين العامين ١٩٢٠ و١٩٤٩، أمّا جامعة بغداد فأبصرت النور في العام ١٩٥٦. في الفترة نفسها، ظهرت في السودان جامعة الخرطوم، وفي ليبيا جامعة لها فرع في طرابلس، وأخرى في بنغازي؛ وفي المملكة العربيّة السعوديّة، أُنشئت جامعة الرياض، وتبعتها لاحقًا جامعات أخرى غنيّة التجهيز، سعت لتطوير تدريس حديث رفيع المستوى، في إطار إسلامي مؤكّد.

في المغرب العربي الذي كان، في القرن التاسع عشر، على اتّصال مباشر بالثقافة الفرنسيّة، تأسّست جامعة أوّلاً في مدينة الجزائر منذ ١٩٠٩، وضمّت كليّات أو مدارس كانت قائمة سابقًا. ومنذ الاستقلال استُحدثت جامعات أخرى في المراكز الريفيّة. بينما توافر لتونس، البلد الأقل مساحة بكثير من الجزائر، منذ العام ١٩٤٥، في مدينة تونس، معهد دراسات عليا، دُرّس فيه القانون والعلوم الاجتماعيّة واللغة العربيّة، في حين أنّ جامع الزيتونة، في المدينة نفسها، استمرّ في تعليم العلوم الإسلاميّة. ثم أُسّست في العام ١٩٦٠ جامعة تونس وتبعتها، في ما بعد، بعض جامعات في المناطق. وشهد المغرب أخيرًا تأسيس معهد دراسات عليا مغربيّة في العاصمة في عهد الحماية، وذلك منذ العام ١٩٢٠، إضافةً إلى مركز دراسات قانونيّة ومركز دراسات علميّة، وقد تحوّلت هذه المراكز، في العام ١٩٦٠، إلى جامعة الرباط، في حين حافظ جامع القرويّين، في مدينة فاس، على شهرته في توفير تعليم تقليدي للعلوم الإسلاميّة. منذ ذلك الحين أُسّست جامعات أخرى في مدن مختلفة من الدولة الشّريفيّة.

في الهند أُسّست مدارس أو معاهد ذات نمط إنكليزي خلال القرن التاسع عشر، ثمّ ظهرت، في ما بعد، جامعتان: جامعة لاهور عام ١٨٨٢، وجامعة الله آباد عام ١٨٨٧. بيد أنّ معهدًا إسلاميًّا منفتحًا على العلوم الحديثة كان قد أُسّس في عَليغَرْه في العام ١٨٧٥، على يد السيّد أحمد خان وتحوّل، في العام ١٩٢٠، إلى جامعة. وقد حورب تعليمه ذو الاتّجاه العصريّ محاربة عنيفة من قِبل دار العلوم في دِيوبنْد التي كانت تدرّس منذ العام ١٨٦٥، والتي كانت تهدف، منذ نشأتها، إلى التفوّق نوعيًّا على المؤسّسات ذات الطابع الديني التي سبق أن بدأت عملها في دلهي ولكْهنو وحيدر آباد، في مختلف توجّهاتها الإسلاميّة التقليديّة. وثمّة جامعة جديدة وشهيرة في حيدر آباد، أُسّست في العام ١٩١٨، وأفسحت مجالًا مهمًّا للدراسات الإسلاميّة، استمرّت في عملها، بعد التقسيم، في منطقة تقع اليوم في الاتّحاد الهندي. وفي الجهة الأخرى من الحدود، كانت للسند كما للبنغال - وهما إقليمان معظم سكانهما من المسلمين اجتمعا مع أقاليم أخرى تحت اسم باكستان وانفصلا لاحقًا مع ولادة بنغلادش - جامعتان: جامعة لاهور التي أُسّست في العام ١٨٨٢؛ وجامعة دكّا التي أُسّست في العام ١٩٢١. ثمّ أُنشئت أربع مؤسّسات

جديدة وفّرت تعليمًا عصريًّا بمناهجها ومضامينها، لكنّها بقيت مشبّعة بالتقاليد الإسلاميّة. أخيرًا، ظهرت جامعات أيضًا في جنوب شرقي آسيا، كما في آسيا الوسطى حيث خُطط لمؤسّسات التعليم العالي طبقًا للنموذج السوفياتي.

الجامعة الإسلاميّة، نظريّة سياسيّة رُوّج لها خصوصًا في نهاية القرن التاسع عشر، كانت تهدف إلى جمع البلدان الإسلاميّة في دولة واحدة برئاسة السلطان العثماني آنذاك.

كان السياسي والمصلح جمال الدين الأفغاني، لبضع سنوات، من أبرز المدافعين عن هذه النظريّة التي أدّت إلى معارضة شاه إيران المنتمي إلى الشيعة الإماميّة. ظهرت هذه النزعة الإسلاميّة الجامعة مجدّدًا بعد أن ألغى نظام كمال أتاتورك في تركيا الخلافة والسلطنة، في العام ١٩٢٤. وقد خُصّص اجتماعان في مكّة والقدس، في ١٩٢٦ و١٩٣١، لاستعادة الخلافة. انضمّ إلى هذه القضية المصلح اللبناني-المصري رشيد رضا الذي يقترح في كتابه «الخلافة أو الإمامة العظمى» حلولًا جديدة، لكنّها لم تُفضِ إلى نتيجة ملموسة. وراء تلك المحاولات، طغت فكرة إعادة الخلافة بصلاحيات تقتصر على المجالين الديني والشرعي، الأمر الذي كان يمكن أن يوحّد العالم الإسلامي ويُبقي على تعدّد الأنظمة الزمنيّة. لكنّ الهيئات التي التأمت بهذا الخصوص لم تتّفق على مرشّح واحد.

الجامعة الإسلاميّة العالميّة، منظّمة غير حكوميّة، عاملة حاليًّا، طوّرت دورها الدولي على أساس ديني إلى جانب الجامعة العربيّة ذات الأهداف المختلفة.

اتّخذت الجامعة الإسلاميّة العالمية التي أُسّست سنة ١٩٦١-١٩٦٢ مهمات المساعدة على إنماء الدراسات الدينيّة الإسلاميّة ونشر الإسلام بالطرق السلميّة، والمساعدة الإنسانيّة. مقرّها في مكّة، وتقوم ميزانيتها على هبات خاصة، توفّر قسمًا منها المملكة العربيّة السعوديّة، وتكمّلها منظمة المؤتمر الإسلامي التي تأسّست سنة ١٩٧٢ بوحي سعودي. تضمّ هذه الأخيرة أكثر من أربعين دولة إسلاميّة، أضيفت إليها مؤخرًا الجمهوريّات التي كانت تابعة للاتّحاد السوفياتي والتي تسكنها أكثرية مسلمة. كانت تهدف إلى تعزيز الروابط بين الدول الإسلاميّة، وقد قامت بإنشاء البنك الإسلامي للتنمية، ومنظّمة التربية الإسلاميّة للعلوم والثقافة والاكاديمية الإسلاميّة للقضاء.

جامعة الدول العربيّة، منظّمة أُنشئت في نهاية الحرب العالميّة الثانية لتضمّ، باسم العروبة، ومن دون الإشارة الى الإسلام، دولًا إسلاميّة ناطقة باللغة العربيّة كانت ترغب في توثيق العلاقات في ما بينها وتنسيق عملها السياسي.

هدفت الجامعة العربيّة إلى إبراز روابط التضامن بين الدول الأعضاء المنتمية إلى «الأمّة العربيّة»، بغض النظر عن وجود دول قوميّة مختلفة حديثة النشوء، وكانت تضمّ، سنة ١٩٤٥، الدول الآتية: المملكة العربيّة السعوديّة، مصر، العراق، لبنان، سوريا، شرق الأردن واليمن. ثمّ انضمّ إليها لاحقًا: ليبيا (١٩٥٣)، السودان (١٩٥٦)، تونس والمغرب (١٩٥٨)، الكويت (١٩٦١)، الجزائر (١٩٦٢)، الإمارات العربيّة المتّحدة، قطر، البحرين، عُمان (١٩٧١)، موريتانيا والصومال (١٩٧٤)، جيبوتي (١٩٧٧) ومنظمة التحرير الفلسطينيّة (١٩٧٦). تضمّ الجامعة العربيّة هيئات سياسيّة عدّة، منها مجلس الجامعة المؤلّف من رؤساء الدول، وأمانة سر عامة. دعمت نشاطها، إعتبارًا من العام ١٩٦١، بفضل الجامعة الإسلامية العالميّة.

الجاهليّة، يشير هذا التعبير إلى المرحلة الزمنيّة التي سبقت ظهور الإسلام، في شبه الجزيرة العربيّة.

وهذه المرحلة، في مفهوم مسلمي القرون الأولى، هي العصر الذي لم يتعرّف الناس فيه الى الدين الصحيح، بل كانوا يتعبّدون الوثنيّة. إلّا أنّ ذلك لم يمنع من إعلاء شأن بعض الفضائل، كالشجاعة والإباء والكرم أو الضيافة. وهذه الفضائل التي تجمعها كلمة المروءة استمرّت مقبولة في علم الأخلاق بعد ذلك.

وقد أمكن التعرّف إلى قسم كبير من الحياة الجاهليّة عن طريق القصائد التي نُظمت في ذلك العصر. وهذه القصائد يمكن أن تكون موضوع شكّ من

حيث الشكل، لأنّها حُفظت ونقلها رواة لاحقون، لكنّ المضمون لا يزال اليوم يعتبر شاهدًا على المجتمع العربي في عصر ما قبل الإسلام، حيث كان بدو شبه الجزيرة يتعايشون مع الحضر المستقرّين في الواحات، أو في سهب أطراف سوريا وما بين النهرين.

وقد وسّع عدد من المؤلّفين من العرب المسلمين مفهوم الجاهليّة لتشمل مجمل تاريخ الإنسانيّة في عهود ما قبل الإسلام. فجعلوا العصر الأوّل يمتدّ من آدم إلى نوح، وأطلقوا اسم «المرحلة الفاصلة» على العصر الممتدّ من السيّد المسيح إلى النبيّ محمد (ﷺ).

جاوَه ← أندونيسيا.

الجُبّائيّ، أبو علي محمّد بن عبد الوهّاب (؟-٣٠٣هـ/ ؟-٩١٥م)، مفكّر مشهور من المعتزلة زمن الخلفاء العبّاسيّين. ولد في خوزستان وهو ينتمي إلى مدرسة المعتزلة في البصرة، لكن كانت لديه أفكار خاصّة تميّزه عن غيره من المفكّرين، أمثال النظّام والجاحظ. وقد عمل في التدريس، بعد الرّدة المعادية للمعتزلة التي قام بها الخليفة المتوكّل في العام ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م، أي عندما لم تعد أفكاره في خط المذهب الرسميّ. تبنّى نظريّة الصفات الإلهيّة المماثلة للجوهر الإلهي؛ لكنّه سعى، في المقابل، إلى أن يُدخل في نظامه فعل الإرادة الإلهيّة. وبما أنّه كان أستاذاً للأشعري، فكان المفكّر المعتزلي الذي عمل هذا الأخير على دحض تعاليمه الكلاميّة أكثر ممّا فعل مع سواه.

جبال أو الجبال، منطقة من إيران الإسلاميّة في أوائل القرون الوسطى، تنطبق اليوم على الجزء الغربي من الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة الواقع بين الصحراء الوسطى والعراق. هذه المنطقة الجبليّة الإستراتيجيّة التي كانت تحيط بها أذربيجان من الشمال، وخوزستان وفارس من الجنوب، ولم يكن لها أيّة حدود واضحة سوى حدود ميديا القديمة التي، وفق ما ذكره اليونان، كانت تُطلّ على سهول بلاد ما بين النهرين. تمرّ بمنطقة الجبال الطريق الوحيدة المؤدّية من بغداد إلى الهضبة الإيرانيّة، أي تلك التي كانت القوافل تسلكها في أثناء توجّهها إلى خُراسان، والتي سلكتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، مفتتحةً الطريق عنوة خلال انتصارها في نهاوند في العام ٢١هـ/ ٦٤٢م.

عرفت هذه المنطقة أربع حواضر مهمّة خلال حكم الخلفاء العبّاسيّين، وهي: كرمنشاه وهمذان والرّي - التي كانت تشغل مكاناً قريباً من طهران، عاصمة إيران الحالية - وأصفهان التي كانت لفترة طويلة أهمّ حاضرة في تلك المنطقة.

مع قيام حكم السلاجقة الكبار، أُهملت تسمية الجبال التي كانت مستعملة في العصور الأولى، واستُبدلت بها تسمية العراق العجمي، ثمّ اختفت هذه التسمية كليًّا إبّان الاجتياح المغولي. وفي الوقت نفسه زالت الوحدة الإداريّة لمنطقة مقسّمة جغرافيًّا، بينما برزت بعد ذلك منطقتان امتازتا بفرادتهما، هما كردستان ولورستان اللّتان لا يزال كلٌّ منهما يحمل التسمية نفسها إلى الآن.

وبتأثير من تطوّرات تاريخيّة جرت ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، حصلت تحوّلات أخرى جعلت كرمنشاه وجوارها موضع تجاذب بين الأمبراطوريّتين العثمانيّة والصفويّة. وبالفعل تمّ التنازل عن المدينة للعثمانيّين ما بين ٩٩٨-١٠١١هـ/ ١٥٩٠-١٦٠٢م، ثمّ من جديد ما بين ١١٣٥-١١٤٢هـ/ ١٧٢٣-١٧٢٩م. وفي القرن التاسع عشر، وبالرغم من معاناته ابتزازات عديدة، أصبحت المنطقة، بعد فتح قناة السويس، محطة ضروريّة للتجارة ما بين البلدين، حيث كانت تمرّ بضائع الترانزيت الآتية من الهند وانكلترا. كما كان يسلكها الحجّاج الإيرانيّون المتوجّهون إلى العتبات المقدّسة الشيعيّة في كربلاء والنجف في العراق.

◄ راجع المسندين ١٢ و١٣.

الجَبَرْتي، عبد الرحمٰن بن الحسن (١٧٥٣-١٨٢٥)، مؤرّخ عربي مصري، اهتمّ بالفترة ما بين نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن التاسع عشر، وخصّها بمصادر وثائقيّة هامّة.

شارك الجبرتي، المتحدّر من أسرة حنفيّة المذهب، كلاً من المرادي الدمشقي والمرتضى الزبيدي المصري

في تصنيف معجم لتراجم كبار رجالات القرن الثامن عشر. بيد أنّ وفاة المرادي، في العام ١٧٩١، جعلت الجبرتي يقرّر، مدفوعاً برغبة شخصيّة، جمع معلومات خاصة بأعماله، تتعلّق بتراجم وأحداث.

شكّل كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» حوليّة ذات قيمة لا تقدر، أرّخ فيها للأحداث ما بين ١٦٨٨ - ١٨٢١م. تمتاز بفرادتها، لأنّها الحوليّة الوحيدة التي اشتملت على تراجم، وكذلك على معلومات دقيقة تتصل بحملة بونابرت على مصر، وبداية حكم محمّد علي الذي كان الجبرتي شديد القسوة حياله. لذا مُنع كتابه «عجائب الآثار» في بلده لفترة طويلة، ولم يُطبع بكامله قبل عامي ١٨٧٩ - ١٨٨٠م.

الجَبْريّة، تيّار فكري، عرف رواجاً في بداية الإسلام، يؤكّد أنّ إكراهاً إلهيًا أو جبراً يؤثّر على الأعمال البشرية التي يعتبر أنّها من صنع الله، بدون أن يكون الانسان مسؤولاً عنها.

في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العبّاسي، حاربت القدريّة والمعتزلة أتباع الجبريّة، بدون أن يُعرف من هم مؤيّدو هذا الاتّجاه، فيما لوحظ، فيما بعد، أنّ التقليديّين وبخاصة الحنابلة، كانوا منْ أتباع الجبريّة.

جِبْلة ← جبيل.

جبل طارق (جبرلتار)، أرض ومدينة في أسبانيا الجنوبيّة لم تكن أهميّتها الإستراتيجيّة بالنسبة إلى المسلمين في القرون الوسطى تقلّ عمّا هي عليه بالنسبة إلى البريطانيّين في العصر الحديث.

لم يكن هذا المرتفع الصخري في العام ٩٢هـ/ ٧١١م، في نهاية الفتوحات الكبرى العربيّة - الإسلاميّة، نقطة إبحار القائد العسكري من أصل بربري، طارق بن زياد، الذي منحه اسمه، والذي أدخل شبه الجزيرة الايبريّة في الأمبراطوريّة الأمويّة تحت اسم الأندلس فحسب، بل إنّ قلعة شيّدت في هذا الموقع وكانت تؤمّن الدفاع عن مرفئه وخليجه قبالة منطقة الجزيرة البحريّة التي كانت تُستخدم بدورها محطّةً للسفن. لكن، بعد ذلك، اختار الموحّدون هذا الموقع، بأمر من عبد المؤمن، لاقامة مدينة محصّنة في العام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، تشكّل منطلقًا ضدّ الممالك المسيحيّة المنخرطة في حرب الاسترداد، ولهذا السبب أطلق عليها اسم «مدينة الفتح» أو «مدينة النصر». هذا الموقع المحصّن الذي تعاقبت الأيدي عليه في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد حتّى سقوطه النهائي في أيدي القشتاليّين الإسبان في العام ١٤٦٢م، والذي نهبه، في العام ١٥٤٠م، القرصان العثماني خير الدين، وقد أحاطه بأسوار جديدة شارل الخامس/شارلكان، ما زالت آثار دفاعاته القديمة ظاهرة للعيان حتّى يومنا.

◄ راجع الوثيقة ١٩.

جُبيل، الجمهوريّة اللبنانيّة، أُطلق عليها قديماً اسم جِبْلة. وهي ميناء بحري منذ القرون القديمة، يقع ما بين بيروت وطرابلس، في موقع بيبلوس القديمة. احتلّتها الجيوش العربيّة-الإسلاميّة إبّان الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي. استوطنت فيها جماعة من الفرس زمن الخليفة معاوية، وعرفت أهميّة إستراتيجيّة في العهد الأموي حيث كانت تابعة لجند دمشق. رابطت فيها حامية حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكانت تابعة آنذاك لإمارة بني عمّار الشيعيّة في طرابلس.

احتلّها الفرنج في العام ٤٩٦هـ/١١٠٣م، وعملوا على تحصينها. وقد استعادها المسلمون في عهد صلاح الدين في العام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ثمّ تنازلوا عنها مجدداً، إلى أن استعادها السلطان بيبرس في العام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م، لتصبح جزءًا من دولة المماليك المصريّة-السوريّة، ثمّ جزءًا من الدولة العثمانيّة في مطلع القرن السادس عشر. واستمرّ دورها في الانحسار، وأصبحت، رغم ما تختزنه من آثار فرنجيّة مهمّة، قرية قليلة الأهميّة، وانتقل نشاطها كميناء إلى مدينة جونية.

الجدّ الرئيس الخطيب ← إبن مرزوق.

جدّة (المملكة العربيّة السعوديّة)، مدينة مرفئيّة على البحر الأحمر، على مسافة قريبة من مكّة المكرّمة. وقد عرفت، منذ عقود قليلة، ازدهارًا اقتصاديًّا وديموغرافيًّا ملحوظًا.

في سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، إختار الخليفة الثالث عثمان

ابن عفّان جدّة كنقطة انطلاق القوافل باتّجاه مكّة، مفضّلًا إيّاها على نقطة أخرى تقع الى الجنوب. وقد تطوّرت تلك المحلّة، في القرون الوسطى، وأصبحت محطّة للتبادل التجاري ومركز استيراد البضائع الوافدة الى الحجاز من مصر، والهند، وأندونيسيا، والصين. وإليها كان الحجّاج يفدون بحرًا من المناطق الشرقيّة، وكذلك من المناطق الغربيّة الإسلاميّة عبر مصر، عن طريق بعض مرافئها كمرفإ عيْذاب. وكان على أولئك الحجّاج، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، أن يدفعوا ضريبة أقرّها شريف مكّة، وقد أمر صلاح الدين لاحقًا بإلغائها. وكما هي الحال في المرافئ كلّها، وُضعت رُسوم جمركيّة على السلع المستوردة. وفي عصر المماليك المصريّين، الذين كانوا يسيطرون على المدن المقدّسة الإسلاميّة، كان السلطان يتقاسم الرسوم مع الشريف.

وكان على جدّة، بعد ذلك، أن تؤمّن لنفسها الحماية من هجمات الأسطول البرتغالي، فبُني حولها سنة ١٥١١م، سور منيع. ثمّ إنّ الحركة التجاريّة في البحر الأحمر التي أمّنت لها الغنى، واستمرّت قائمة في القرن السادس عشر بفضل حماية العثمانيين، بدأت تضعف في القرن التالي. وفي القرنين التاسع عشر والعشرين تحوّلت المدينة مسرحًا للصراع بين الملوك المسلمين الذين تنازعوا الحجاز. وبعد أن احتلّها الشريف حسين سنة ١٩١٦، وبقيت في يده بضع سنوات، تحوّلت الى عاصمة للمملكة العربيّة السعوديّة قبل أن تتخلّى عن مكانتها للرياض سنة ١٩٢٥. وقد عرفت على الأخصّ، بعد الحرب العالميّة الثانية، تطوّرًا مهمًّا، فأصبحت تشهد حركة بحريّة وجويّة نشيطة، مرتبطة بعمليّة نقل الحجّاج الى مكّة المكرمة بعدما تكاثرت أعدادهم. وامتدّت جدّة مسافة بعيدة وراء سورها القديم الذي هُدم سنة ١٩٤٦، وتحوّلت الى مدينة عصريّة غنيّة بالأماكن الخاصة لاستقبال الحجّاج.

◄ راجع المستند رقم ٢٥.

الجدل أو المناظرة، ممارسة كانت منتشرة في الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، تقوم على عرض حجج نظريّتين متعارضتين، إجمالًا بشكل علني وأمام حضور محدّد.

كانت المناظرات تتناول، بشكل عام، موضوعات تتعلّق بالعلوم الدينيّة الأساسيّة، بما فيها الفقه. لكنّ نهج المناظرة، الذي أُدمج بأساليب التعليم، كان يمتدّ أيضًا إلى ميدان المعارف غير الدينيّة.

وكانت المناظرات الكلاميّة - الفقهيّة تدور في أكثر الأحيان في حضور الحاكم أو ممثّله، ووفاق قواعد دقيقة: فكان أحد المتناظرين يطرح أسئلة يتوجّب على المتناظر الثاني الإجابة عنها؛ وإذا اعتُبرت إجابات هذا الأخير غير كافية، اعتُبر خاسرًا. حدّدت قواعد المناظرة، وهي قواعد تعود في أصولها على ما يبدو إلى المدارس الهلّينستيّة. وبدءًا من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تقريبًا، كان التحكيم في المناظرات يتمّ وفاق عادات وخلاصات تستلهم المنطق. وهكذا شملت المناظرات كلّ الميادين التي تطغى فيها النقاشات ذات الطابع الفكري كميدان الفلسفة مثلًا، وكذلك مبادين العلوم كالرياضيّات وعلم الفلك والطب. وهناك أيضًا نماذج لمناظرات بين مدافعين عن الإسلام وممثلي ديانات أخرى، كما كانت الحال في عهد العبّاسيّين وفي بلاط بعض الإيلخانيّين في ما بعد.

الجَديدة، (المملكة المغربيّة) المعروفة قديماً باسم مزيقان (Mazagan)، مدينة مرفئيّة حديثة على الساحل الأطلسي نمت على موقع تجاري برتغالي محصّن من القرن السادس عشر.

نجد اسم مزيقان عند بعض المؤلّفين في القرون الوسطى وكأنّها اسم قرية صغيرة يقطنها الصيّادون. بعد أن استولى البرتغاليّون في القرن السادس عشر على موقع قريب منها يدعى أزمور، قرّروا التمركز في مزيقان وشيّدوا فيها، في سنة ١٥١٤، قصراً مربّعاً محصّناً على الزوايا الأربع بأبراج، أحدها برج البريّة الذي كان موجوداً سابقاً. ولقد قاومت هذه القلعة، سنة ١٥٦٢، الهجمات التي قام بها ابن السلطان السعدي عبدالله؛ لكنّها عادت وسقطت في يدي محمد بن عبدالله سنة ١٧٦٩، في حين أنّ جدّه القويّ مولاي إسماعيل من سلالة العلويّين لم يحاول من قبل استعادتها. ولم نعرف

المدينة الحديثة، التي شيدت في بداية القرن التاسع عشر تحت اسم «الجديدة»، الازدهار إلا في العصر الحاضر.

جُذام (بنو –)، قبيلة عربيّة قديمة، تسلّلت إلى الأراضي البيزنطيّة قبل الفتوحات الكبرى، ونهضت بدور كبير أيام الخلافة الأمويّة. هؤلاء البدو الذين كانوا يشغلون، عند ظهور الإسلام، المناطق الحدوديّة بين سوريا والجزيرة العربية، من عمّان إلى تبوك، يتحدّرون من أصل يمني، مع أنّ بعض علماء الأنساب ينسبونهم إلى عرب الشمال. وبعد أن تحالف بنو جُذام مع الأمبراطور هرقل في معركة اليرموك، فإنّهم غيّروا مواقفهم وساهموا في استيلاء المسلمين على سوريا، وسكنوا جند فلسطين. وقد شُهروا بمساهمتهم في الصراعات القبليّة بين قيس وكلب، وبدعمهم لكلب، وكذلك بمواقفهم الموالية للفرع المرواني من الأمويّين.

جرجان أو كُركان، منطقة في إيران في القرون الوسطى، عرفها الجغرافيّون العرب، تقع في الجهة الجنوبيّة الشرقيّة لبحر قزوين. كانت مدينتها الرئيسة، المندثرة اليوم، تحمل الاسم نفسه. اشتهرت هذه الأرض، التي كانت لا تزال خصبةً في جوار السهوب، بموقعها الإستراتيجي والتجاري، ما بين صحراء دهستان، الواقعة اليوم في جمهوريّة تركمانستان، وطبرستان أو مازندران، وكان يسكنها الحضر.

ضُمّت جرجان أحيانًا، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، الى دولة الديلم البويهيّة، على الرغم من أنّها كانت، آنذاك، مقرًّا لسلالة حاكمة محليّة هي سلالة الزياريّين. خضعت لسلطة الإسلام منذ العام ٩٨هـ/٧١٦م، خلال الفتوحات الكبرى، وفي زمن الخلافة الأمويّة، وتأثّرت في وقت مبكّر، كسائر المناطق الواقعة على السفح الشمالي لجبل ألبُرْز، بالدعوة الشيعيّة.

أسفر اجتياح المغول لجرجان، ومن قبلهم اجتياح السلاجقة، إلى تقويض ازدهارها لفترة طويلة، وزوال عاصمتها الأولى كركان أو جرجان، وقد تباهت النصوص التي تعود الى تلك الحقبة بغناها في وسط حدائقها. وَحْده موقعها، الذي لم يخضع لأيّة حفريّات، يمكن تحديده، وهوَ غير بعيد عن مدينة غُنباد قابوس الحديثة. كما دُمّر في هذه الفترة أيضاً، ميناء آبسكون العائد إلى القرون الوسطى، والذي كان يتمركز فيه نشاط المنطقة التجاري بكامله في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وكان من الشهرة بحيث عُرف بحر قزوين ببحر آبسكون. لكنّ شهرة جرجان في القرون الوسطى لم تغب، وإنّ مدينة أستراباذ الأكثر حداثةً، والواقعة على مسافة مئة كلم غربي جرجان القديمة، يشار إليها اليوم باسم كركان أو جُرجان.

جرجس أو مار جرجس، إسم عربي للقديس جاورجيوس، شهيد مسيحي يكرّمه المسلمون ويصفونه أحيانًا بالنبي.

وفق روايات المصنّفين المسلمين الذين يأتون على ذكره، فإنّ القديس جرجس استشهد في الموصل زمن الأمبراطور الروماني ديوقلسيانوس، ثمّ بُعث حيّاً، بعد إعدامه، مرّات ثلاث. بعد ذلك بقليل، وفي زمن انتشر فيه «تكريم الأولياء» في الإسلام، امتزجت شخصيّته بشخصيّة الخضر، وكذلك بشخصيّة الياس، وكان شفيع مزار مهمّ أضحى مقصد زيارات تقويّة. وقد أظهر دليل الهروي أنّه كان في الموصل، في القرن السادس الهجري/الثاني عشر للميلاد، «مشهد» مخصّص لـ«النبي» جرجس، وكان يُعتبر من بين أماكن الزيارات التقويّة، واستمرّ حتّى الوقت الحاضر أثراً في موضع كنيسة قديمة، وهو يحظى بتقدير الأتقياء من العامّة. ونعلم أيضًا أنّ هناك ضريحًا لمار جرجس مكرّمًا منذ زمن بعيد في موقع كنيسة القديس جاورجيوس البيزنطية في اللُّد.

جِرز (اسبانيا)، باللغة العربية شَرِيش، مدينة صغيرة من مدن الأندلس الحاليّة في اقليم قادس، نهضت بدور الموقع الحدودي طوال تاريخ الأندلس: فيها قلعة استُعملت مقراً أميريًّا، وهي تُعرف اليوم بـ«ألكازار» (القصر). استُخدمت هذه الناحية أوّلًا لحماية أراضي أمويّي الغرب من غزوات النورمان الذين نزلوا على شواطئ الأطلسي المجاورة. ومنذ سقوط خلافة قرطبة، ونظراً إلى قربها من إشبيلية، أصبحت شَريش جزءًا من

إمارة بني عبّاد، لتتبع بعد ذلك مملكة النصريّين في غرناطة. تنازعها المسلمون والمسيحيّون في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، إلى أن سقطت نهائياً في أيدي المسيحيّين في العام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، وقاومت منذ ذلك الوقت هجمات المسلمين الذين حاولوا، من دون جدوى، استعادة هذا الموقع الإستراتيجي.

الجركس ← **الشركس**.

جُرهُم (بنو)، قبيلة قديمة في الجزيرة العربيّة، عرف اسمها شهرة عند علماء الأنساب والمؤرّخين العرب في الفترة الإسلاميّة. ما نعرفه عن هذه القبيلة أنّها نزحت قديماً من اليمن إلى مكّة حيث أدّت دوراً مهمّاً، قبل الإسلام وبعده، ولكن يصعب تحديده.

الجريد (أو بلاد الجريد، أو بلاد النخيل)، منطقة من القسم الصحراوي في شمالي أفريقيا، عُرفت في القرون الوسطى باسم «قسْطيليا»، تقع في الجهة الجنوبيّة الغربيّة من جمهوريّة تونس الحاليّة، وكان لها في إفريقية الإسلاميّة مصير فريد، فعرفت اضطرابًا دام طويلا.

تضمّ تلك المنطقة واحات نَفْطة وتوزر والحَمَّة، وتمتدّ أحيانًا لتشمل قَفْصه وقابس. وهي منطقة منتجة للتمور، تحدّ سهلًا صلصاليًا ملِحًا وقاحلًا يُعرف اليوم باسم شط الجريد. وقد دخلتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة مرّة أولى سنة ٢٦هـ/٦٤٧م، ومرّة ثانية سنة ٤٩هـ/٦٦٩م، بقيادة عقبة بن نافع. وشكّلت بعد ذلك، في العصور التالية، مركز الحركات الانفصاليّة التي كانت تُقمع نباعًا. إنّ الخوارج الاباضيّين الذين أقاموا فيها، على الطريق الوافدة من طرابلس الغرب التي تؤدّي الى مملكة الرُّسْتميين في تاهرت، والى أماكن تجمّع الاباضيّين في سَدْراتا (أُوَرْغلا) ومزاب، خضعوا، منذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، لسلطة الأغالبة.

وفي القرن الخامس للهجرة (أواسط القرن الحادي عشر للميلاد)، شهدت تلك الواحات ازدهارًا بيّنًا، برغم ما عانته من غزوة الهلاليّين، وبلغت مستواها الأعلى مع نهضة إمارة قَفْصة المستقلّة التي استمرّت حتى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م. وقد سيطر الموحّدون على بلاد الجريد، وأمست بعد ذلك فريسة تتنازعها السلالات المختلفة، مع بقائها في أيدي الأُسر الكبيرة التي جهدت كي تحفظ لها بعض الاستقلال، ولا سيّما في ظلّ المملكة الحفصيّة. وانطلاقًا من القرن السادس عشر عمل العثمانيّون ثم الحُسينيّون على بسط سلطتهم عليها وتأمين جباية الضرائب، وهذا ما اقتضى إرسال الحملات الحربيّة المكلّفة حماية الجباة.

وكان اقتصاد المنطقة يرتكز على توازن العيش بين البدو الرُّحّل وأهل الحضر، ولكنّه بدأ يضعف في العصر الحديث، في ظلّ الحماية الفرنسيّة وبعد الاستقلال، بسبب تراجع حركة القوافل. ولم يعط العمل الزراعيّ مداخيل جديدة، على الرغم من المساحات الشاسعة، بسبب سوء توزيع الملكيّات. وإذا كانت بلدات معدودة لا تزال تحافظ على بعض الشهرة، ومنها توزر ونَفْطة، فإن ذلك يرجع الى ماضيها العريق. فتوزر التي كانت في القرون الوسطى مدينة حقيقيّة تحيط بها الأسوار، تحافظ اليوم على منازل قديمة مزيَّنة بالقرميد، وعلى معالم مسجد جامع بني بين سنتي ٤١٨ و٤٢١ هـ/١٠٢٧ و١٠٣٠م، أضيف اليه بعد قرن محراب مزخرف، وهو يعود إلى عهد بني غانية الذين قدموا من جزر الباليار ومن بجّاية، واستطاعوا، إلى حين، أن يستقرّوا في الجريد وأن يجعلوا توزر عاصمة لهم.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

الجزائر، اسم أخذه الأوروبّيون من مدينة الجزائر وأطلقوه على القسم الأوسط من المغرب الذي يشكّل اليوم دولة إسلاميّة مستقلّة، هي الجمهوريّة الجزائريّة الديموقراطيّة الشعبيّة.

١ - الجزائر، التي كانت تشمل في الأساس مجمل الأراضي التي احتلّتها فرنسا سنة ١٨٣٠، أي الولاية التركية القديمة، تبلغ مساحتها تقريبًا ٣٠٠٠٠٠ كلم^2. وهي عبارة عن شريط ساحليّ متوسّطي، ووراءه قسم جبليّ صعب البلوغ، تتقطّع فيه سلاسل جبال الأطلس التلّي والصحراوي، وهذه الجبال تحصر سهولًا عالية مجدبة. وليس هناك حدود طبيعية تميّز «المغرب

الأوسط»، كما سمّاه العرب، عن سائر أفريقيا الشمالية. كما أنّ سُهُبه الداخليّة التي يجوبها البدو منذ زمن طويل تتناقض مع أطرافه البحريّة التي تشكّل منطقة زراعيّة خصبة. ثمّ إنّ سكّان تلك المنطقة هم خليط من الشعوب، ولا يختلفون في ذلك عن سكّان المناطق المجاورة حيث عرفت المجموعات البربريّة نفسها تدفّق مختلف أنواع الغزاة، ومنهم العرب الذين أدخلوا البلاد ضمن الأمبراطوريّة الإسلاميّة الناشئة، خلال الفتوحات الكبرى في القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد.

هذا الانتماء إلى الإسلام - الذي كان سريعًا وفعّالًا برغم مقاومة السكان المحليّين - كيّف، منذ البداية، أوضاع بلاد لم تكفّ الشهوات المتلاحقة للحكّام المجاورين عن تنازعها خلال القرون الوسطى. فالأغالبة والفاطميّون، وبنو زيري، وبنو حفص في إفريقية من جهة، وبنو أميّة في قرطبة، والأدارسة، والمرابطون، والموحّدون والمرينيّون في المغرب من جهة ثانية، بسطوا بالتعاقب نفوذهم على المغرب الأوسط أو ضمّوه إليهم. كما نشب الخلاف والاقتتال بين القبائل البربريّة المتنافسة، كقبائل صنهاجة وكُتامة. أمّا السلطات المحلّية، التي نادرًا ما برزت، فقلّما تجاوز نفوذها حدود هذه المقاطعة أو تلك، ومنها الدولة الرستميّة الصغيرة التي قامت في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد في تاهرت، بدعم من الخوارج المتمركزين في المنطقة، ودولة عبد الواد في تلمسان التي حكمت بين القرنين السابع والعاشر للهجرة/الثالث عشر والسادس عشر للميلاد.

إلّا أنّ الوضع تبدّل مع التوسّع الذي شهدته تلك البلاد منذ القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد. فولاية الجزائر لم تشكّل مقاطعة غنيّة ضمن الأمبراطوريّة العثمانيّة فحسب، بل تحوّلت، بعد سنة ١٦٧١م، إلى دولة حقيقيّة يُسيّر أمورها الدايات الذين جعلوا مدينة الجزائر عاصمتهم، وتمتّعوا باستقلال شبه كامل. والمعروف أنّ بايات آخرين كانوا مسؤولين عن ثلاث مقاطعات أخرى، هي المقاطعة الشرقيّة ومركزها قسنطينة، ومقاطعة تيتري ومركزها ميديا، والمقاطعة الغربيّة التي شملت مازونا ومسكرة ووهران. والوحدة الإداريّة الظاهريّة لهذه البلاد العثمانيّة الواسعة - التي كانت دائمة التعرّض للفوضى والانتفاضات والنزاعات -، تذكّرنا بأنّ تنظيمها على هذا الشكل كان يهدف إلى حماية المنطقة الساحليّة ومرافئها فحسب. وهذه المنطقة كانت وحدها المهمّة في نظر حكم تسيطر عليه أقلّية إنكشارية من ضبّاط الجيش أو قادة السفن الحربيّة. فأولئك الأشخاص الذين كانوا يعيشون على هامش القبائل ويحقّقون الثروات من القرصنة البحريّة، كانت لهم اليد الطولى في اختيار الدايات، إذ كان هذا الاختيار يتمّ، في القرن التاسع عشر، بقرار من القوات التركيّة الموجودة هناك، قبل أن تتم موافقة السلطان العثماني عليه.

فالجزائر البربريّة ذات التوجّه نحو الأنشطة البحريّة أصبحت، إبتداءً من هذه المرحلة، واقعًا قائمًا وحقيقة تاريخيّة. والإحتلال الفرنسي الذي بدأ بسيطرة محدودة وموقّتة لمكان بسيط يعشّش فيه القراصنة، امتدّ بعد ذلك إلى الداخل تأمينًا للهدوء وتحقيقًا لاستعماره. وهذا الاحتلال اتّخذ لاحقًا حجمًا إقليميًّا كاملًا، وتبعته ولادة قوميّة جديدة.

في كانون الثاني (يناير) من العام ١٨٣٠، في عهد الملك شارل العاشر، تمّ الإستيلاء على مدينة الجزائر بحجّة تافهة. وفي عهد الملك لويس فيليب شمل الاحتلال مجمل أنحاء البلاد، وانتهى باستسلام الأمير عبد القادر سنة ١٨٤٧. على أثر ذلك قُسِّمت البلاد إلى منطقة مَدَنيّة، تشمل مدن الساحل الكبرى ومناطقها المجاورة حيث أقام المستعمرون الأوائل، ومنطقة عسكريّة حُظّرت على المستعمرين. وفي سنة ١٨٤٤ أُنشئت مكاتب القضايا العربيّة في المحافظات، لتكون صلة وصل بين الزعماء المحليّين الذين حافظوا على مكانتهم والقادة العسكريّين الذين يُشرفون على هذه المكاتب. والواقع أنّ الفرنسيّين، خلال القرن التاسع عشر، تردّدوا بين سياسة الاستيعاب التي سعى إلى تحقيقها الأوروبيّون، وسياسة المملكة العربيّة التي نادى بها نابليون الثالث، والسياسة البرغماتيّة التي اتّبعتها مكاتب القضايا العربيّة والتي لم تحظَ برضى المستوطنين الأوروبيّين. إلّا أنّ الجزائر أصبحت

إداريًّا، بموجب دستور ١٨٤٨، جزءًا لا يتجزّأ من الأرض الفرنسيّة، فقُسّمت إلى ثلاث مقاطعات. وحدها المناطق العسكرية بقيت في عهدة الجيش ومكاتب القضايا العربيّة. لكنّ المسلمين استطاعوا، مع ذلك، أن يحافظوا على نظام أحوالهم الشخصيّة من دون أن يتحوّلوا إلى مواطنين فرنسيّين.

وقد أدّى سقوط نابليون الثالث إلى إهمال السياسة الأمبرياليّة التي كان أعضاء البرلمان قد تصدّوا لها، في آذار (مارس) ١٨٧٠، عندما ردّوا مشروعًا لدستور يحاول التوفيق بين طموحات المستوطنين ومصالح أبناء البلاد. وبعد تمرّد قام به المستوطنون، تبعته ثورة إسلاميّة بدعم من الطريقة الرحمانيّة سنة ١٨٧١، تكثّفت محاولات الاستيعاب والدمج. فاتّسعت حدود المناطق المدنيّة وأبعد زعماء البلاد (١٨٨١)، وشُجّع الاستعمار الرسمي. شهدت الحقبة الممتدّة بين سنتي ١٩٠٠ و١٩٣٠ قيام حركة قوميّة بين المسلمين المثقّفين، عُرفت باسم حركة الشباب الجزائريين، ولقيت ترحيبًا في بعض الأوساط الفرنسيّة الليبراليّة، لكنّها سرعان ما انقسمت إلى اتّجاهين. حاربت الإدارة المحلّيّة هذه الحركة التي اختارت لقيادتها زعماء أمثال فرحات عبّاس وبن جلّول. وابتداءً من سنة ١٩٣٠ تكاثرت التظاهرات. ففي سنة ١٩٣١، شكّل العلماء، بقيادة ابن باديس وتوفيق المدني، جمعيّة تدعو إلى الإصلاح المستوحى من المفكّرين المشارقة، وتحارب المرابطيّة متّهمةً أتباعها بالموالاة للاستعمار. وقد جعلت هذه الجمعيّة شعارها: «الإسلام ديننا، والجزائر وطننا، والعربيّة لغتنا». هؤلاء العلماء الذين فتحوا مدارس خاصّة، أظهروا العداء لأنصار التغريب من حركة الشباب الجزائريّين. وتأسّس في المرحلة نفسها حزب الشعب الجزائري، بقيادة مصالي الحاج، فأُلقي القبض على زعمائه الأساسيّين. أمّا حكومة الجبهة الشعبيّة في فرنسا فلم تقم بما يحسّن الوضع، لأنّ مشروع سنة ١٩٣٧ المعروف باسم «بلوم-فيوليت» لم يُبحث في مجلس النوّاب.

خلال الحرب العالميّة الثانية حاول فرحات عبّاس القيام بمبادرة: فأصدر، سنة ١٩٤٣، «بيان الشعب الجزائري» Le Manifeste du peuple algérien، وطالب فيه بنظام سياسيّ جديد للجزائر قائم على الفدراليّة؛ وشكّل سنة ١٩٤٤، مع العلماء وحزب الشعب الجزائري السرّي، تجمّع أصدقاء «البيان» والحرّيّة، سعيًا إلى إنشاء «جمهوريّة جزائريّة مستقلّة متّحدة فدراليًّا مع جمهوريّة فرنسيّة مجدّدة». إلّا أنّ التظاهرات التي اندلعت في أوّل أيار سنة ١٩٤٥ تحوّلت إلى فتنة في منطقة قسنطينة. وفي سنة ١٩٤٧ وضع مجلس النوّاب الفرنسي نظامًا سياسيًّا جديدًا للجزائر ينصّ على قيام مجلس نيابيّ فيها. فانتُخب أعضاء المجلس واستمرّ وجوده حتى سنة ١٩٥٦، من دون أن يستطيع القيام بمهمّاته، لأنّ تركيبه لم يكن يرضي المسلمين ولا الأوروبيّين المستوطنين في الجزائر.

في سنة ١٩٥٤ اندلعت الثورة المسلّحة التي كان يُحضّر لها منذ فترة. وأظهرت جبهة التحرير الوطنيّة، بعدما أُعلن عن ولادتها في القاهرة، رغبتها في الحصول على «الاستقلال عن طريق اعادة بناء الدولة الجزائريّة». واستمرّت حالة الحرب ثماني سنوات، إلى أن وُقّع اتفاق إڤيان في ١٩ آذار (مارس) ١٩٦٢، وبموجبه اعترفت فرنسا بسيادة الدولة الجزائريّة على المقاطعات الجزائريّة والصحراويّة الخمس عشرة. وعن طريق استفتاء جرى في الأوّل من تموز (يوليو) اختار الجزائريّون الاستقلال.

٢ - **تبلغ مساحة الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشعبيّة الحاليّة ٢ ٣٨١ ٧٤١ كلم²**، وعاصمتها الجزائر. وهي دولة ذات نظام رئاسي، سكّانها كلّهم تقريبًا مسلمون. إنّها تضمّ المقاطعات الجزائريّة عينها والمناطق الصحراويّة الواسعة التي كانت تحت السيطرة الفرنسيّة.

إنّ امتلاك هذه المساحات الصحراويّة الشاسعة التي كانت تديرها - بعد أن تمّ فرض الأمن فيها - حكومة الجزائر الفرنسيّة، يسمح للجمهوريّة الجزائريّة اليوم بأن تكون لها حدود مشتركة، ليس مع تونس في الشرق ومع المغرب في الغرب وحسب، بل أيضًا مع ليبيا جنوبًا والنيجر ومالي وموريتانيا، أي مع مناطق يشكّل بعضها جزءًا من الحدود لما كان يُعرف بالسودان القديم والتي تعتبر من أفريقيا المسلمة السوداء. كذلك فإنّ مساحتها

الداخليّة تتميّز بتباين جغرافي واضح، وباختلاف بين السكّان؛ ويبدو التناقض بارزًا خصوصًا بين الصحراء الحقيقيّة في الجنوب، ومنطقة شبه جافة تتخلّلها أقسام خصبة وزراعية. أمّا المناطق الشماليّة فهي مقسّمة بدورها بين أقسام ذات مناخ متوسّطي، وسُهُب الهضبات العالية التي يسكنها البربر، وهؤلاء يشكّلون اليوم نحو ثلث السكّان، وكذلك العرب أو المعرّبون وهم أكثر عددًا. تعرف هذه المناطق أيضًا تقسيمات داخلية وصعوبات في المواصلات بسبب التقطّع الناتج عن التضاريس.

والعامل الأساسي للوحدة كان يكمن، من قبل، في توجيه إسلامي دقيق لشعب متشبّث في أكثريته بالمذهب المالكي، وإن وُجدت في «مزاب» بعض الجيوب لأتباع الإباضيّة، أو انتشرت في البلاد طرق وُلدت من الصوفيّة، أهمّها القادريّة وفروع متنوّعة من الشاذليّة. إنّ العوامل التي ساعدت على خلق التلاحم السياسي في منتصف القرن التاسع عشر، عندما كانت القوّات الفرنسيّة تتقدّم في سيطرتها على الجزائر، أو في المرحلة الحديثة التي سبقت الإستقلال، تُنتج اليوم مفاعيل أكثر تعقيدًا، في بلد يعتبر الاسلام بالتأكيد دين الدولة، ولكنّ هذا الدين يتعايش، منذ سنين، مع حكم يستوحي بعض مبادئه من الماركسية.

والواقع أنّه انطلاقًا من سنة ١٩٦٢ حكم الجزائر حزب واحد هو جبهة التحرير الوطنيّة، وهو حزب انبثق من الحركة الوطنيّة والإشتراكيّة، ولم يخلُ من المنازعات الداخليّة. وبعد بن بلّا الذي تسلّم الرئاسة من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٥، تعاقب على رئاسة الجمهوريّة كلّ من بومدين (١٩٦٥-١٩٨٣) والشاذلي (١٩٨٣-١٩٩١) الذي استقال سنة ١٩٩١ بعد اضطراره إلى القبول بتعدّد الأحزاب سنة ١٩٨٩ وإلى اجراء انتخابات سيطرت عليها الجبهة الإسلاميّة للخلاص التي ضمّت الناشطين من المسلمين، فتسلّمت السلطة عند ذاك اللجنة العليا المكلّفة بإجراء انتخابات جديدة. والوضع المضطرب الذي سيطر، أتى نتيجةً لحدّة المشكلات المطروحة والعائدة، من جهة، الى حيويّة الدين الإسلامي في الطبقات الشعبيّة، ومن جهة ثانية الى تراكم الصعوبات السياسيّة والإقتصاديّة وتداخلها.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٩٥، تمّ انتخاب رئيس جديد للبلاد.

الجزائر (الجمهوريّة الجزائريّة)، مدينة مرفئيّة في المغرب على المتوسّط، بدأت نهضتها وازدهارها في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد كمركز لولاية عثمانيّة، ثم تطوّرت كعاصمة للجزائر الفرنسيّة قبل أن تصبح، سنة ١٩٦٢، عاصمة دولة جديدة مستقلّة.

فوق أرض دخلت الإسلام وتعرّبت جزئيًا في عهد الفتوحات الكبرى، أخذت المدينة اسمها من محلّة ساحليّة تابعة لقبائل صنهاجة البربريّة. وقد تأسّست، في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، على انقاض محطة تجارية فينيقيّة أصبحت بعد ذلك مركزًا رومانيًا، وسط الخليج الذي يحمل اليوم اسمها، وقبالة الجزر الصغيرة التي تحيط بها. ولم تكن الجزائر في البداية سوى مرسى متواضع الأهميّة، ذلك أنّ السلع المتنوّعة كانت تمرّ عبر الطرق الداخليّة للقوافل. إلّا أنّ المرابطين بنوا فيها مسجدًا جامعًا في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد.

تطابق تاريخ الجزائر، بعد ذلك، مع تاريخ القراصنة الذين جعلوها مركز نشاطهم، بعدما أقام فيها بحّارة أندلسيّون فرّوا من حرب الاسترداد الإسبانيّة. في سنة ١٥٢٩م، وقعت مدينة الجزائر في يد خير الدين باشا بربروس الذي حوّلها، بعد مواجهة عدد من الصعوبات، إلى مَرسى أمين للمراكب الحربيّة التركيّة وأصبح، بعد ذلك، قائدها العام، فوضع بين يدي السلطان الإمارة التي أنشأها حول القاعدة البحريّة الجديدة. وكانت الأحداث التي أدّت إلى هذا الإحتلال العثماني قد تلاحقت من قبل بشكل معقّد، إذ بذل الإسبان جهدهم للنزول في الجزر المحيطة بالمدينة سنة ١٥١٠م وحقّقوا بعض النجاح. كما حاولوا في سنتي ١٥١٦ و١٥١٩م أن يسيطروا عليها. وفي سنة ١٥٤١م كانت لهم محاولة جديدة بقيادة شارلكان، بعد أن كان خير الدين قد طردهم من قلعة پينيون التي كانوا قد بنوها.

منذ ذلك التاريخ أصبح لمرفإ الجزائر رصيف

حقيقي يجمع بين الجزر الصغيرة، وتحميه تحصينات قويّة تمتدّ من القصبة إلى جهة البحر، ولم يتوقّف عن النموّ والازدهار بفعل أعمال القرصنة المثمرة. فوفدت إليه شعوب متوسطيّة متنوّعة، وتجاور أتراك الفرق العثمانيّة مع البربر النازحين من الداخل وبعض المرتدّين عن دينهم الساعين للمغامرة والغنى. فتجمّلت المدينة بالأبنية الفخمة التي سكنها أبناء الخاصّة والتجّار، أصحاب السفن، الذين جمعوا ثرواتهم من بيع حمولات المراكب، بعد الاستيلاء عليها، ومن تجارة الرقيق. وفي سنة ١٦٦٠ شهدت المدينة قيام مسجد جامع جديد بهندسة عثمانيّة.

في مقابل ذلك تتالت ردّات الفعل الأوروبيّة على أعمال إمارة الجزائر وعلى مهاجمتها المتواصلة للسفن التجاريّة. وتعرّضت المدينة للقصف من الإسبان والدانماركيّين والفرنسيّين والإنكليز، بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، من دون أن يؤدّي ذلك إلى نتائج مهمّة. أمّا الحملة الفرنسيّة التي أدّت إلى احتلال البلاد، بعد ذلك بسنوات قليلة، فبدأت سنة ١٨٣٠ بإنزال بحريّ في ضواحي الجزائر، وانتهت باستسلام المدينة. وفي ظلّ الاحتلال الفرنسي اتّجهت المدينة نحو الحداثة السريعة، وعرف المرفأ اتّساعًا ونموًّا أدّيا إلى تحوّل الجزائر من مجموعة محصورة داخل سور ثلاثيّ الشكل إلى حاضرة كبيرة ومزدهرة. وقد غدت المدينة مركزًا إداريًّا للمنطقة كلّها، بل جُعلت مركزًا لفرنسا الحرّة بين تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ وآب (أغسطس) ١٩٤٤، خلال الحرب العالميّة الثانية. وفي سنة ١٩٦٢ أصبحت عاصمة الجمهوريّة الجزائريّة.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

الجزولي، أبو عبدالله محمّد بن سليمان ؟-٨٧٥هـ/ ؟-١٤٧٠م، متصوّف من المغرب، أصله من مناطق الجنوب حيث اكتسب شهرة واسعة كشخصيّة ورعة، ثمّ شُهر باسم سيدي بن سليمان، وكان أحد أولياء مدينة مراكش. وهو من قبيلة جزولة البربريّة من منطقة سوس. تابع دراسته في مدينة فاس ومن ثمّ في الشرق، قبل أن يتدرّج في الطريقة الشاذليّة، ويكرّس نفسه للتصوّف ويعود لنشر دعوته في منطقة صافي حيث توفي. نُقل جثمانه الى ضريح في مدينة مراكش حيث ما يزال يُعتبر مزاراً. كتب الجزولي، الفقيه التقليدي، العديد من المؤلّفات في التقوى، من بينها ديوان في الدعاء وبحث في «دلائل الخيرات الإلهية» كان موضع تأمّلات لأتباعه. لم يؤسّس مذهباً خاصاً به، لكنّ مريديه شكّلوا تجمّعات عديدة، من بينها تجمّع الجزوليّة، وقد ساهمت جميعها بالتجدّد الإسلامي في المغرب، في القرنين التاسع والعاشر للهجرة/الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. ومن هذه التجمّعات تتحدّر العيساويّة.

الجزية، لفظة عربيّة مستخدمة في القرآن الكريم للدلالة على ضريبة إجماليّة مفروضة كـ«تعويض»، على غير المسلمين المقيمين في بلاد الإسلام، كونهم أهل ذمّة.

استُخدمت هذه اللفظة، في ما بعد، للدلالة على ضريبة الأعناق التي فُرضت على غير المسلمين، خلافاً للضريبة على الأراضي المعروفة في نظام الضرائب الإسلامي في العصور الأولى، وكانت تحمل اسم الخراج، وكانت تطال بشكل مباشر أراضي البلاد المفتوحة.

ويبدو أنّ مفهوم الجزية لم يُحدَّد إلّا في أواخر العصر الأموي، بشكل ظلّ نظريًّا وفي ظروف غامضة. فقد كانت تُجبى من الرجال الأحرار والأصحاء، وكانت نسبتها تحدَّد وفق ثروة الشخص المعنيّ. في بداية الأمر، كان الرهبان بمصر يُعفون منها، ثمّ ألغي هذا الإعفاء بسرعة. اقتُطعت الجزية بطرق مختلفة خلال العصور: ففي بلاد الأناضول مثلًا، وقبل السيطرة العثمانيّة، كانت الضريبة المفروضة على غير المسلمين تسمّى أحياناً الجزية وأحياناً أخرى الخراج، من دون تمييز واضح بين هذين المفهومين؛ وفي زمن العثمانيّين فُرضت ضريبة الأعناق على كل مسيحي، واذا كان مزارعاً فعليه أن يدفع ضريبة إضافية تدعى «الإسبنجة»، يدفعها لصاحب التيمار وليس للدولة؛ أمّا في بلاد الهند الإسلاميّة، في القرون الوسطى، فإنّ غير المسلمين كانوا من الكثرة بحيث لم تُفرض عليهم الجزية، ولم تظهر إلّا في وقت متأخّر أيّام دولة المغول، وبمبادرة من الأمبراطور المتشدّد أورنج زب، ثمّ ألغيت هذه الضريبة

إثر انتهاء حكمه. في العصر الحديث تمّ التخلّي عن الجزية في معظم الدول الإسلاميّة، حيث اقتضت عمليّة التحديث إجراء تغييرات في النظام الإداري والضريبيّ التقليديّ.

جزيرة، جمعها جزائر، أو شبه جزيرة، مصطلح عربي واسع الاستعمال للدلالة على أسماء المناطق، وقد أُطلقَ أيضاً على أقاليم مهمّة.

تشكّلت، انطلاقاً من هذا الإسم، أسماء أماكن عديدة عُرفت بشبه الجزيرة، مثل: شبه الجزيرة العربيّة أو جزيرة العرب، وشبه الجزيرة الإيبريّة أو جزيرة الأندلس؛ وكذلك أسماء سهول ونجود عديدة، وهي مساحات موجودة إمّا بين نهرٍ وروافده، مثل: «الجزيرة» في جمهورية السودان الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق، أو بين نهرين، كالجزيرة في بلاد ما بين النهرين العليا التي يحيط بها الفرات ودجلة، والمعروفة اليوم باسم «الجزيرة». ونجد العبارة نفسها في بعض الأسماء التي تحتفظ بمفهوم شبه الجزيرة مثل: مدينة «الجزيرة الخضراء» التي تُعرف بالإسبانية باسم «ألجزيرة» (Algésiras)، أو بمعنى جزيرة صغيرة في نهر، مثل «جزيرة ابن عمر» التي أصبحت تُعرف بـ«الجزيرة»، أو أيضاً بمعنى جزيرة محاطة بالبحر مثل «الجزر الصغيرة» أو الجزائر، باسم المرفإ الذي يحمل هذا الاسم ويعرف بالفرنسيّة باسم Alger.

جزيرة ابن عمر بالعربية، **سيزر** بالتركية، بلدة من القرون الوسطى، تقع في شمال العراق، لكنّ موقعها الحالي قرب الحدود التركيّة - السوريّة أسقطها إلى مرتبة قرية.

كانت سيزر تقوم على جزيرة على نهر دجلة، تمّ وصلها لاحقًا بضفة النهر بتجفيف إحدى شُعَبه. وبحسب التقليد، فإن مؤسّس سيزر هو المدعو الحسن بن عمر الذي أعطاها تسميتها العربية «جزيرة ابن عمر». في البدء كان موقعها مرفأً نهريًّا في أساس ازدهارها البيّن. وفي القرن الثاني عشر كانت سيزر تضمّ جميع المباني التي تتميّز بها مدينة إسلامية مزدهرة في تجارتها. ونحو سافلة النهر كان يقوم جسر حجري لم يبقَ منه اليوم إلّا عَقد واحد؛ وهو يشكّل أثرًا مثيرًا للفضول، إذ إنّ أعمدته تحمل رسومًا لبروج السماء.

خضعت المدينة لمختلف السلالات الكبيرة التي تنازعت المنطقة خلال القرون الوسطى الإسلاميّة. لكنّها تمتّعت بشبه استقلاليّة عندما سيطرت عليها، في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، عائلتان محليّتان إحداهما عائلة المؤرّخ ابن الأثير. كما حافظت سيزر أيضًا على نوع من الاستقلالية تحت حكم أمراء أكراد بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. ولم يحتلّها العثمانيّون إلّا في عام ١٨٣٦، فأفل نجمها بعد دمجها بالأمبراطوريّة، وظلّ هذا الوضع يتفاقم حتى يومنا هذا.

جزيرة العرب ← شبه الجزيرة العربيّة.

جشتي، هو الخواجه معين الدين حسن السجزي (٥٣٦-٦٣٣هـ/ ١١٤١-١٢٣٦م)، صوفيّ ورجل تقوى، استقرّ في أواسط عمره في أجمر في الهند حيث نشر الطريقة الصوفيّة الجشتيّة وحيث أضحى ضريحه، في ما بعد، موضع توقير على غرار أضرحة الأولياء.

ولد معين الدين في سِجِسْتان وغادرها طلبًا لعلوم الدين، وقد جاب، لسنوات طويلة، مناطق الأمبراطوريّة السلجوقيّة في بلاد فارس، التي كانت تعاني تفكّكًا شاملًا، وقد أخذ هناك التعاليم الصوفيّة عن عدد من الشيوخ المرشدين، ملازمًا إيّاهم قبل أن ينتقل إلى السند. وهناك، بعد أن قام بزيارة لضريح الهُجْويري في لاهور، استقرّ في أجمر حيث نشر فكره الديني، في حين كانت سلطة سلاطين دلهي الجدد تترسّخ. ويبدو أنّ عقيدته حول وحدة الوجود، فضلًا عن سلوكه الخلوق جعلا السكان المحليّين، بمن فيهم الهندوس غير المسلمين، يتلقّون تعليمه. وقد ورث أفكارَه أتباعُه من الطريقة الجشتيّة التي كان ينتمي إليها. إنّ ضريحه في أجمر، الذي أحاطه أحد سلاطين ملوى بحرمٍ في أواخر القرن الخامس عشر، وكرّمه بشكل خاص حكّام السلالة المغوليّة، ومن بينهم أكبر العظيم، تحوّل جرّاء ذلك إلى أحد مراكز الزيارات الأكثر ارتيادًا في شبه القارة الهنديّة قاطبة.

الجشتيّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة، استمدّت اسمها من بلدة جشتا في ولاية هراة حيث أقام مؤسّسها أبو إسحق المتحدّر من أصل سوري. إلاّ أنّها عرفت ازدهارها المميّز بعد تجذّرها في الهند.

يعود الفضل في تنامي هذه الطريقة في الهند إلى جهد الخواجه معين الدين الجشتي، إنطلاقًا من مدينة أجمر الهندية حيث كان قد استقرّ في اواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. ومنها انتشرت أنوار المتصوّفة الذين بلغت أنشطتهم المناطق المجاورة بتأسيسهم خوانق جديدة، فذاع صيت تقواهم الفريد، أمثال حميد الدين الصوفي، وقطب الدين بختيار كاكي، وفريد الدين مسعود المعروف بـ«كَنْج شَكَرْ»، ونظام الدين أوْلياء. إنّ بحثهم عن النشوة الروحية من خلال ممارسات انجذاب ذي نزعة حلوليّة، ومن خلال الموسيقى أو الشعر؛ ترافق مع ممارسة تقشّفية متأثّرة ببعض أساليب اليوغا.

بعد انقضاء عهد الشيوخ العظماء الأول الذين أخذوا بنهج الإستقلال عن السلطة الزمنية، قامت علاقات جديدة بين المتصوّفة الجشتيّين والعواهل المحلّيّين المسلمين فأمّن الجشتيّون لهؤلاء الغطاء الديني، وأفادوا في الوقت نفسه من هباتهم ونعمهم. وأبرز مثل على ذلك، خلال العهد المغولي، موقف الأمبراطور الشهير أكبر من سليم الجشتي.

واكب الانتشار المتزايد للطريقة نشوء فروع محليّة، برز من بينها، بصورة خاصة، الصابريّة والنظاميّة. واستمر نشاط الجشتيّة وتأثيرها حتّى القرن العشرين، إذ ظلّت شعبيّة وفاعلة من خلال حركات مثل التي عرفتها مدينة ديوبَنْد.

جعفر بن أبي طالب، إبن عمّ النبي محمّد (ﷺ) والأخ الأكبر لعلي. يُعتبر من صحابة الرسول الذين استشهدوا في سبيل الإسلام، يُحيي الشيعة ذكراه. كان جعفر من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام. هاجر إلى الحبشة، وحظي هو وصحبه بحماية النجاشي، بعد أن قرأوا عليه بعضاً من آيات القرآن. وعند عودته من الحبشة إلى الحجاز، شارك جعفر في غزوة مؤتة سنة ٨هـ/٦٢٩م حيث قُتل. في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، أضحى قبره في مؤتة مزاراً للمؤمنين، كذلك ورد ذكره في دليل الهروي.

جعفر الصادق، أو «الجدير بالثقة»، ٨١-١٤٨هـ/٧٠٠-٧٦٥م، إبن محمّد الباقر، وسادس الأئمّة العلويّين المعترف بهم من قبل أتباع الإماميّة الاثني عشريّة، بينما يُعتبر الامام السادس عند الاسماعيليّين، وهو مشهود له بعلوم الدين، وله دور مركزيّ في تطوّر المذهب الشيعي.

بعد وفاته، انفجرت إحدى أكبر الأزمات التي أدّت إلى حصول تشعّبات في الحركة الشيعيّة، وبخاصة حين تميّز فرعاها الأساسيّان وانفصلا عن بعضهما، وهما الاسماعيليّة والإماميّة.

عاش جعفر الصادق حياة هادئة في المدينة، حيث بقي في منأى عن الاضطرابات السياسيّة، ولم يكن يجاهر أبداً بدوره كقائد للعلويّين، وهو دور شغله إبّان «الثورة العبّاسيّة» واستيلاء العبّاسيّين على السلطة. لم يطالب جعفر الصادق بالخلافة التي أضاعها العلويّون مرّة أخرى، ولم يلجأ إلى العنف؛ كما لم يشارك في الثورات السابقة، قبل أن يرفض مقترحات أبي سَلَمة (الخلّال)؛ كما بقي أيضاً بعيداً عن ثورة محمد النفس الزكيّة. لذا لم يتعرّض مضايقة الخليفة المنصور. بعد وفاته في المدينة، اتّخذ أتباعه المباشرون اتجاهات عدّة قُدّر لها الاستمرار داخل المذهب الشيعي: اعتبره بعض منهم الإمام المهدي، بينما أعلن بعضهم الآخر ولاءه لإبنه البكر إسماعيل الذي كان قد أعلنه وريثاً له، لكنّه توفي قبل والده.

وأخيرًا التحق معظم أتباع جعفر الصادق بابن آخر له من أم جارية، يدعى موسى الكاظم. أصبح هذا الأخير الإمام السابع عند الإثني عشريّة، لكنّ الاسماعيليّين بايعوا ابن اسماعيل المدعو محمّد.

كان الإمام جعفر الصادق مرجعاً في الحديث والفقه، فتعدّت أهميّته المجال الشيعي الخاص إلى مجالات أكثر اتّساعاً، ونُسب إليه العديد من المصنّفات الخاصة بعلم الغَيْب المرتبط بمَلَكة النبوءة التي كان يفتخر بها الأئمّة. وشهر، بفعل تعاليمه التي كان ينشرها من حوله، بالحكمة، ما جعل تأثيره الفكري يطاول

أناساً من ميول مختلفة، ومنهم عدد من مؤسّسي المذاهب الفقهيّة، كأبي حنيفة، ومالك بن أنس؛ وبعض الفلاسفة والعلماء، كواصل بن عطاء، أحد روّاد الاعتزال، والخيميائي الشهير جابر بن حيّان.

ومع ذلك، يبقى من الصعوبة بمكان التعرّف بدقّة إلى عقيدة جعفر الصادق، سواء في علم الكلام حيث نراه يميل إلى التفسيرات التجسيميّة (اطلاق الصفات البشريّة على الله)، أو في مادة الفقه حيث يُعتبر مؤسّساً لمذهب الإماميّة الشيعيّة المعروفة بـ«الجعفريّة».

الجعفري (المذهب -) ← جعفر الصادق.

الجَغْتائيُّون ٦٢٤-٧٧٢هـ/١٢٢٧-١٣٧٠م، إسم سلالة مغوليّة، تعود بأصلها الى جنكيزخان، حكمت بلاد ما وراء النهر وتركستان ولم تتأثّر بالإسلام إلّا بمقدار يسير. وترجع تسميتها إلى «جَغتاي» أو «چغتاي» الذي ورث عن والده جنكيزخان خانية منطقة السهوب التي تمتدّ من حوض نهر «طارم» إلى بُخارى وإلى نهر «أكسُس/آمودريا». إلّا أنّ تلك الأسرة لم تحكم إلّا بالإسم، ذلك أنّ الصراع كان قائمًا حولها داخل الأوساط المغوليّة التي ظلّت متأثّرة بحياة البداوة، كما لعبت ضدّها قوّة الخانات الكبار، وقوّة الإيلخانيّين أسياد إيران. وإذا كانت مناطق إسلاميّة قد خضعت مدّة لسيطرتها، ومنها خوارزم، فإنّ أسياد تلك الأسرة رفضوا الإسلام الذي، رغم ذلك، انتشر خلال القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، في تلك المنطقة حيث برزت فيها بعد ذلك قوّة تيمورلنك المتنامية.

الجغرافيا أو صورة الأرض، علم ونوع أدبي محبّب إلى الكتّاب المسلمين في القرون الوسطى، منذ العصر الذهبي للأمبراطوريّة العبّاسيّة حتّى آخر المؤلّفات العثمانيّة ذات الطابع التقليدي. إنّ الجغرافيا القروسطيّة - التي تدين لها بمعطيات ثمينة حول وضع العالم الاسلامي القديم - كانت جزءًا من إرث العصور القديمة، كما أنّها تعكس أوضاعًا خاصة بالأوساط الإسلاميّة التي عرفها الغرب المسيحي لاحقًا.

يمكن تمييز ثلاثة اتّجاهات كبيرة، في إطار هذا العلم، ولكنّها قد تختلط أحيانًا: الاتّجاه الأول رسائل أُعدّت لكتّاب إدارة الخلافة المركزيّة، تدور حول وصف الطرقات والمناطق، والمدن في الأمبراطوريّة، تصحبها لوائح بمحطات مسار القوافل. وأهمّ مثال على هذه الأعمال مصنّف الإيراني ابن خُرَداذبة أو خوردذبه في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. لكن بمكننا ذكر مؤلّفات اليعقوبي، ومؤلّفات قدامة الذي يشكّل كتابه حول الخراج واحدًا من مجموعة في هذا الموضوع، وكذلك ابن رسته الذي ركّز اهتمامه على مناطق أكثر اتّساعًا.

في هذا التوجّه، تندرج مؤلفات البلْخي (المتوفّى في العام ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م). انصرفت مؤلّفات متأخّرة إلى تقديم مشاهدات مفصّلة عن مختلف مقاطعات الأمبراطوريّة، مع التركيز على ذكر العقائد التي اعتنقتها الشعوب المختلفة، وكذلك الموارد الاقتصاديّة لكلّ ناحية. ونَدين بهذا لابن حوقل البغدادي الذي جمع ذكرياته عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م بعدما جاب العالم، وكذلك المقدسي المتوفى عام ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م. يضاف إلى هذه المؤلّفات حول الجغرافيا البشريّة لتلك الفترة، في ما خصّ الغرب الاسلامي، أعمال البكري الأندلسي وكتاب الإدريسي الشهير الذي جاء تلبيةً لرغبات مجتمع مختلف في صقليّة التي استعادها النورمان، مع حرص على تجاوز حدود العالم الإسلامي يومئذٍ.

الاتّجاه الثاني للأدب الجغرافي [أدب الرحلات] يتجلّى في مجموعات من الروايات مشوبة بالخوارق، رواها ودوّنها كتّاب يهدفون إلى تسلية قرّائهم. ومجالها مؤلّفات إبن الفقيه الذي كتب في العام ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، ومؤلّفات المسعودي الكاتب الذي كان يعتبر الجغرافيا، في خضمّ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، جزءًا من التاريخ. لكن ظهرت آنذاك أيضًا روايات سرديّة عن رحلات إلى البلدان النائية، مثل رواية التاجر سليمان (حوالى العام ٢١٥هـ/ ٨٣٠م)، الذي أورد معلومات عن الهند والشرق الأقصى، أو رواية بُزُرك (المتوفى حوالى العام ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) بعنوان «عجائب الهند». وفي الاتّجاه نفسه تجري أخبار الرحلات التي تروي أخبار الحجّ، موردة أوصافًا مفصّلة وحيّة للبلدان التي اجتازها

المؤلّفون. وأشهرها رحلة ابن جبير، الحاجّ الأندلسي الأصل، الذي خلّف لوحة حقيقيّة عن الشرق الأسلامي حوالى نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي؛ في حين أنّ الشرق الإسلامي في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، إمتدادًا إلى المناطق النائية جدًّا، في أفريقيا السوداء وفي أندونيسيا، يتراءى لنا من خلال رحلات المغربي ابن بطوطة.

أخيرًا، الاتّجاه الثالث يتجلّى في الجهود العلميّة ذات التوجّه الكونيّ التي بدأت مع أعمال الجغرافي اليوناني بطليموس، والتي أغناها وحقّق فيها وأكملها، على مرّ العصور، علماء الفلك العرب. وتتضمّن أعمال البيروني أكمل المعلومات في هذا الموضوع، إلى جانب معلومات وصفيّة عن الهند حيث أقام الكاتب.

إبتداءً من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، اتّخذت الكتابات الجغرافيّة في الأوساط الإسلاميّة طابعًا موسوعيًّا مع بقائها وفيّة للاتّجاهات المذكورة. وجهدت المعاجم في توفير معلومات عامة، وأكملها معجم ياقوت. في حين توجّهت مسارات أخرى إلى تأمين معلومات أكثر اختصاصًا، مثل دليل الهروي، السوري الأصل، الذي خصّه بمراكز العبادة وأمكنة الزيارات التقويّة. وتكاثرت روايات الرحلات، لكنّها كانت مفعمة بالبلاغة الكلاميّة. أمّا الأعمال المتعلّقة بالكوسمولوجيا أو عِلم الكوْنيات فكانت أشدّ دقّة، في حين جرت محاولات طبوغرافيّة إقليميّة اهتمّت بتاريخ البلدان، والمثل الأوضح عليها أعمال ابن شدّاد. أمّا الملاحة فقد اغتنت بدراسات تناولتها، منها دراسة ابن ماجد التي تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر ميلادي، وقد عرفت هذه الدراسات شهرة خاصة. وإلى جانب المعطيات العلميّة، نجد فيها ملاحظات ذات منفعة كبرى، وبخاصة في ما يتعلّق بالشواطئ. وينتمي إلى هذه الفئة، في عهد العثمانيّين، مؤلّف مرموق عن الملاحة بقلم الأميرال پيري رئيس (Piri Reïs)، يصف فيه شواطئ البحر المتوسط. إلّا أنّ المعلومات المخصّصة للملّاحين لم تكن الشاهد الوحيد، في الوسط العثماني، على الفضول الذي ولّد، في القرن السابع عشر، موسوعة بعنوان «لمحة عن العالم» أو «جهان نامه» التي تركها المؤلّف كاتب شلبي، وكذلك «كتاب الرحلات» أو «سيا حتنامه» الذي حرّره إوْليا شلبي الذي لم ينفك عن زيارة مقاطعات الأمبراطوريّة ما بين ١٦٣١ و١٦٧٠.

من جهة أخرى، بفضل تقدّم التقنيّات الضروريّة لرسم خرائط عن العالم والمقاطعات، كان العلماء المسلمون يمارسون هذا الفن في نطاق علم الفلك، وقد طوّروها بتأثير التقاليد اليونانيّة والهنديّة المُتجذّرة في الأوساط الإسلاميّة، وبوجه خاص بفضل تشجيع الخليفة العبّاسي المأمون وعمل المترجمين الذين تجمّعوا في بيت الحكمة الذي انشأه هذا الخليفة. وهكذا يتبيّن، مثلًا، في إنجازات قروسطيّة من هذا النوع، استخدام معطيات مستقاة من أقدم الرسوم للعالم كان بطليموس قد قام بها، ولكنّ الجغرافيّين المسلمين حدّثوها بالرجوع إلى مشاهداتهم وإلى حسابات فلكية متطوّرة. كما نجد في المؤلّفات التي تركها الجغرافيّون في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي خرائط سياسيّة لمختلف المقاطعات، تفوّقت بدقّة معلوماتها، وُضعت في سياق تمجيد الأمبراطوريّة الإسلاميّة. أخيرًا، إنطلاقًا من جهود البيروني فقد حسّنت نظريّات جديدة المعطيات المدوّنة ووفّرت أسسًا متينة في تقديم رسوم للعالم، على سبيل المثال، كما عرّفته «الكوسموغرافيا» الإيرانيّة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، وفي رسم الخرائط البحريّة المستخدمة آنذاك في الملاحة داخل المحيط الهندي، وهي خرائط عمليّة ومفصّلة. يقال إنّ ابن ماجد قد وفّر واحدة من هذه الخرائط للبرتغالي الشهير ڤاسكو دو غاما. وقد استخدم الاساليب الرياضيّة عينها البحّارة العثمانيّون الذين كانوا على علاقة بالبحّارة الغربيّين، وقد واجه هؤلاء العقبات وعرفوا النجاح في اكتشافاتهم الجغرافيّة الكبرى، وقد أغنوا بفضلها خارطة العالم الشهيرة التي قُدّمت إلى السلطان سليم الأول بعد أن أنجزها پيري رئيس، في العام ١٥١٣.

الجَفْر، لفظ تقني عربي يُقصد به أشكال متعددة من العلوم والممارسات التي لها علاقة بعلم الغيب وقد عرفت ازدهاراً مطرداً في العالم الإسلامي القروسطي، حيث كانت تسيطر، جزئيًّا، النزعة الباطنيّة.

في البداية كان الجفر عبارة عن مجموعة من النبوءات والأدب الرؤيوي الذي ظهر في القرنين الثاني والثالث للهجرة/الثامن والتاسع للميلاد في الأوساط الشيعيّة في العراق، في زمن العبّاسيّين، ما أفسح المجال أمام ظهور تفسيرات للقرآن تختلف عن تفسيرات أهل السنّة التقليديّة. واعتُمدت لفظة الجفر في ما بعد في مختلف الدراسات المتّصلة بالتنبوء للمستقبل، المرتكزة بخاصة على «علم أحرف الأبجدية» وعلى قيمنها العدديّة المحتسبة وفق أنظمة عديدة، ارتبط رواجها بتطوّر علم التصوّف والفكر الصوفيّ المتأثّر بميول إبتداعيّة ومولعة برموز ذات معانٍ خفيّة.

الجلائريّون ٧٣٦-٨٣٥هـ/١٣٣٦-١٤٣٢، هم سلالة من أصل مغولي قامت دولتهم على أنقاض دولة الإيلخانيّين وقد حاولوا، لفترة من الزمن، السيطرة على العراق وعلى طرق القوافل فيه باتّخاذهم بغداد عاصمةً لهم. أسّس هذه الدولة حسن بُزُرك، وكان حاكمًا برزت طموحاته في ظل حكم الإيلخانيّين. استقلّ الجلائريّون تماماً عن الايلخانيّين في عهد أُويْس الاوّل بن حسن بزرك، وسيطروا على بغداد وأذربيجان، وكانوا دائماً على عداء مع الأمراء المجاورين لهم، وبخاصة مع القراقيونلو. وقد تأثّروا بالاجتياح الذي قام به تيمورلنك، عندما تمكّن هذا الأخير من الانتصار على آل مظفّر حكام فارس. إنّ عجْز الجلائريّين عن السيطرة على تبريز، المركز التجاريّ الحيويّ في الشرق، أدّى الى تراجعهم وانكفائهم نهائيًّا عن بغداد سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م. لقد خلّفت هذه السلالة - التي بدأت شهرتها تتألّق كحامية للآداب والفنون في بلاط قصده الرسّامون والشعراء، وتطوّرت فيه فنون الكتاب والمنمنمات، والتي شيّدت في بغداد مسجد المرجان وخانًا - بعض الأمراء الضعفاء في العراق الأسفل، الذين استمرّوا كأتباع للتيموريّين قبل مقتل آخرهم في الحلّة، عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م، على أيدي القراقيونلو.

الأمراء الجلائريّون حكام بغداد:

تاج الدين حسن بُزُرك	٧٣٧-٧٥٧هـ/١٣٣٦-١٣٥٦م
أُوَيْس الأوّل	٧٥٧-٧٧٦هـ/١٣٥٦-١٣٧٤م
جلال الدين حسين الأوّل	٧٧٦-٧٨٤هـ/١٣٧٤-١٣٨٢م

جلال الدين الرومي ابن بهاء الدين سلطان العلماء ولد بن الحسين بن أحمد المعروف بمولانا، ٦٠٤-٦٧٢هـ/١٢٠٧-١٢٧٣م، متصوّف مؤسّس المذهب الصوفي الشهير المعروف بالمولويّة، ومؤلّف أشعار صوفيّة بالفارسية. أصبح جلال الدين الرومي وليًّا لمدينة قونية حيث يوجد قبره.

وُلد في بلخ، في خراسان، في عائلة من الدعاة. غادر إيران في صغره، على أثر خلاف وقع بين والده وأحد الأمراء الخوارزمشاهيّين الذي كان يحتضن فخر الدين الرازي. التحق بأهله في بلاد سلاجقة الروم في آق شَهْر أولاً، ثم في أرزنكان ولارندة (قرمان)، ليستقرّ في قونية، ملتحقاً بوالده الذي قدم إلى المدينة تلبية لطلب السلطان (السلجوقي) كَيْقُباذ الأول، وتوفي فيها سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م.

أقام جلال الدين في قونية، ولم يغادرها الّا لطلب العلم في سوريا. بعد أن أتمّ دراسته على عدد من الصوفيّين، عرف، بعد لقائه بشمس الدين التبريزي سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، حالات من الانتشاء، عبّر عنها شعراً بمقطوعات عشقيّة، وبخاصة في غزليّات ديوانه وفي مؤلّفاته التعليميّة المعروفة باسم «المثنوي»، وقد عبّر بها عمّا يعتبره المعنى الحقيقي والخفي للقرآن الكريم، وانكبّ على التعبير بواسطة الرقص عن تقواه وعن انفعالاته العشقيّة. خلفه أحد تلامذته، ومن ثمّ ابنه سلطان وَلَدَ الذي وضع التنظيم النهائي لمذهب والده الصوفيّ، لاحظاً فرادته، عبر تأكيد المظاهر الجماليّة والانفعاليّة التي يحصل عليها من يسعى إلى النشوة، وذلك بسماع الموسيقى، وخاصة بالرقص الاحتفالي المنتظم الذي لا يزال يمارسه أتباع هذا المذهب الصوفيّ إلى الآن.

لم تُدرس مؤلّفات جلال الدين بدقّة وتعمّق، لكن يُستنتج منها أنّ جلال الدين لا يؤمن بوحدة الوجود التي قال بها العديد من متصوّفة زمانه. من وجهة نظره، تتأكّد كينونة الله المتعالية بالنسبة إلى الواقع الذي ينتظم في أربعة أمور: «العدم» و«الانخطاف» و«الوجود» و«الحواس». إنّ العالم، في نظره، قد تكوّن تدريجيًّا، وإنّ الانسان لا يتكوّن من جسد ونفس وحسب، بل من روح أيضاً، وحتّى من روح «خالدة»

يمرّ بواسطتها الوحي ويتميّز بها الوليّ والنبيّ.

جمّ (٨٦٣-٩٠٠هـ/ ١٤٥٩-١٤٩٥م)، أمير من الأسرة العثمانيّة، أصبح مشهورًا في الوسط الأوروبي بفعل السنوات الطويلة التي أمضاها مسجونًا في الغرب المسيحي.

وجم هو الإبن الثاني للسلطان محمّد الثاني، وقد رفض، سنة ١٤٨١م، الاعتراف بأخيه بايزيد الثاني سلطانًا، وعبثًا حاول محاربته، فاضطرّ إلى اللجوء الى مصر حيث المماليك. مع ذلك لم يتخلَّ عن فكرة الحصول على قسم من الأمبراطوريّة؛ ومن أجل الانتقال إلى «الروملّي» بحرًا، عقد اتفاقًا مع المعلّم الأكبر لفرسان القديس يوحنا في رودس. وما إن وصل إلى رودس سنة ١٤٨٢م، حتى احتفظ به المعلّم سجينًا، ثمّ أرسله الى فرنسا. فبقي فيها من سنة ١٤٨٢ حتى سنة ١٤٨٩ رهينة ثمينة. والفرسان الذين نالوا مكافأة من الباب العالي مقابل احتجازه فوروا، سنة ١٤٨٩، بالاتفاق مع البابا إينوشنتيوس الثامن، نقله إلى روما. غير أنّ ملك فرنسا قام بحملة على إيطاليا سنة ١٤٩٤، ونقل جم معه الى نابولي حيث توفّي في ظروف غامضة في شباط (فبراير) سنة ١٤٩٥.

جَمْ أو فيروزكوه، موقع أثري مدمّر في وادي هَري رُوْد، عند ملتقى إستراتيجيّ لطرقات جبليّة حيث أدّى اكتشاف مئذنة من القرميد، من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، شُيّدت باسم أقوى حكام الدولة الغوريّة، إلى تحديد موقع الحاضرة فيروزكوه الذي لم يكن يُعرف إلى ذلك الحين. فقرية جم - التي كان يتعذر بلوغها حتى استدعت أهميّة هذا الاكتشاف شق طريق سالكة توصل اليها - مبنيّة بجوار موقع محصّن من القرون الوسطى، هو اليوم مهجور، كان أسياد منطقة الغور يلجأون اليه عندما يشعرون بالخطر. حمى هذا الحصن، المشيَّد بخشونة، السلطة السياسيّة والعسكريّة لأبناء السلالة الغوريّة الذين عُرفوا بطموحاتهم، وبخاصة بعد انتصارهم على الغزنويّين.

بلغت سلطة الغوريّين أوجها خلال حكم غياث الدين محمد بن سام، ٥٥٨-٥٩٩هـ/ ١١٦٣-١٢٠٣م، الذي اعتمد على أخيه معزّ الدين محمد، فاتح مدينة لاهور. أما غياث الدين فتحرّك في الاتّجاه المعاكس قاصداً السيطرة على إيران، وأراد أن يجعل من موقعه المحصّن الذي تشبّث به كمقرّ للحكم مدينةً جديرة بعظمة الأمبراطوريّة المستحدثة ورخائها العابر. هكذا نفهم صلابة بناء هذه المئذنة وروعة زخرفتها، وهي ما تزال قائمة منعزلة في مكان هو اليوم غير آهل حيث تشهد بقايا الخزف وحدها على آثار الأبنية الأخرى التي شُيّدت فيه، منها، بصورة خاصة، القصر والمسجد الجامع المواجه له، حيث تُمكّننا التفاصيل الواردة في المصادر المكتوبة من تحديد موقع الواحد منها بالنسبة الى الآخر. يعتمد التزيين على تناغم مزاييك القرميد ذي الزخرفة المعقّدة التي يزيد من جمالها استخدام الخزف الأزرق في بعض الأماكن، حيث تمجّد العبارات الدينيّة والتاريخيّة المنقوشة عليها عظمة غياث الدين. تشكّل هذه المئذنة عملًا نادرًا تزداد أهميته لكونه بقي منسيًّا لعصور عديدة، ولوقوعه ضمن سلسلة من المآذن - الأبراج ذات الطبقات المتعدّدة، التي تعود الى القرون الوسطى في المناطق الشرقيّة من العالم الإسلامي في أيام العبّاسيّين، والتي ما تزال ثلاث منها قائمة إلى الآن في دلهي وغزنة.

◄ راجع المستند رقم ١٧.

جمال الدين المعروف بالأفغاني، ١٨٣٩-١٨٩٧، مفكّر مسلم وناشط سياسي من نهاية القرن التاسع عشر، غالبًا ما يُعتبر في أساس الحركة المعروفة في الإسلام بالاصلاح.

عُرف جمال الدين بثقافته، وكان كثير التجوال والأسفار. تدخّل في المشكلات التي عرفها عدد من البلدان الإسلاميّة الشرقيّة في عصره. وبالرغم من أنّه اختار أن يدعى «الأفغاني»، نسبة إلى أفغانستان، فإنّه وُلد في إيران في منطقة همدان. وادّعى أنّه أفغاني ليتخلّص من ملاحقة الشرطة الإيرانيّة. تتحدّر أسرته من سلالة الحسين، ما سمح له بأن يحمل لقب السيّد. ومن المحتمل أن يكون تعاطفه مع الشيعة هو ما يُفسّر جزئيًّا اهتمامه بالفلسفة. درس في كابول، ودخل لفترة في خدمة ملك أفغانستان. وعند وفاة هذا الأخير قصد جمال الدين بلاد الهند، لكنّ السلطات البريطانيّة منعته من

لإقامة فيها، ما يدلّ على أنّه كانت له، منذ ذلك الحين، نشطة سياسيّة غير معروفة.

انتقل جمال الدين من القاهرة إلى اسطنبول، حيث لقي، عام ١٨٧٠، في مناسبة افتتاح جامعة من طراز وروبي، عُرفت بدار الفنون، محاضرات سبّبت له لكثير من الانتقاد من قبل رجال الدين. لقد أراد لأفغاني في محاضراته أن يؤكّد استحالة قيام المجتمع دون مهن مختلفة ومميّزة تنتظم وفق تراتبية هرميّة معيّنة يتوّج منصب النبي قمّتها، فاتُّهم بالإلحاد والعقلانيّة بينما كان، في الواقع، يستلهم بعض الفلاسفة المسلمين لتقليديّين. فرأى أنّ من الحكمة - وهوَ الذي كانت نراوده أفكار لتوحيد العالم الاسلاميّ، كان عرضها على لسلطات العثمانيّة - أن يغادر اسطنبول عام ١٨٧١ ويعود ن جديد إلى القاهرة حيث استقرّ لبعض الوقت محاطاً بتلامذته، ومنهم أحد المصلحين اللّاحقين، محمد عَبْدُه، وأحد السياسيّين اللّاحقين، سعد زغلول. حثّ جمال الدين أتباعه على تأسيس صحف والانطلاق بنضال يهدف بخاصةٍ الى محاربة التدخُّل البريطاني وإقامة حكم رلماني، مشجّعاً إنشاء العديد من المجلّات والصحف ليومية، منها، على سبيل المثال، مجلة «مصر» لأديب سحق.

في هذه الفترة اعتنق الأفغاني الماسونيّة، الناشطة نذاك في مدن الشرق الكبرى، ثمّ ما لبث أن ترك لماسونيّة الاسكتلنديّة ليؤسّس محفلاً مرتبطاً بمحفل لشرق الكبير الفرنسي، داعياً إلى القوميّة المصريّة، فأثار تصرّفه هذا حفيظة الانكليز الذين طردوه من مصر في أيلول عام ١٨٧٩، فانتقل إلى حيدر آباد في الهند، رفيها كتب، بالفارسية، نقده الشهير للماديّة، تعني به رسالته «ابطال مذهب الدهريّين»، معتبراً أنّ الماديّة الملحدة، بمختلف أشكالها، هي السبب في انحطاط المجتمعات، وأنّ الدين، وبخاصة الدين الإسلامي - وهو عنده أفضل الأديان - قادر على توفير القوة للدول. عرف هذا النقد الذي نُقل إلى العربيّة شهرة واسعة في الشرق الأدنى، وكان موجّهاً ضدّ الحداثة العقلانيّة التي دعا إليها أحمد خان. في الوقت نفسه، انتقد الأفغاني، في العديد من مقالاته، علماء الهند الذين أخذ عليهم تصلّبهم المنتظم للعلوم الحديثة، مشيراً إلى أهميّة التربية، مادحاً الفلسفة التي يرى ضرورة فهمها، داعياً إلى وحدة اللغة لكونها وسيلة الشعب الوحيدة للدفاع عن هويّته.

في بداية العام ١٨٨٣ سافر جمال الدين إلى لندن، ومنها إلى باريس حيث أسّس، مع محمد عبده، المجلّة العربية «العروة الوثقى»، وهي عبارة مأخوذة من القرآن الكريم، وتشير إلى إيمان المؤمن. ظهرت هذه المجلّة ما بين شهري آذار وتشرين الأول من العام ١٨٨٤ لكي توزّع في بلاد الشرق، لكنّها ما لبثت ان توقّفت بسبب منع السلطات البريطانيّة توزيعها في مصر والهند. وكان لأعدادها القليلة التي نُشرت صدى كبير، كونها تضمّنت البرنامج الإصلاحي لتلك الفترة والمتمثّل بما يلي: رفض القضاء والقدَر، الدعوة للعمل والثقافة، انتقاد التدخّل الأوروبي، انتقاد الاستبداد، الدفاع عن النظام البرلماني. وخلال إقامة جمال الدين الأفغاني في باريس سنحت له أيضًا الفرصة للردّ، في «جريدة المناقشات» (Journal des débats)، على محاضرة ألقاها أرنست رينان (Ernest Renan) حول «الإسلام والعلم»، محاولاً إثبات أنّ الاسلام لا يتعارض والعلم، وأنّه، على العكس من ذلك، شجّع العلم والعلماء في القرون الوسطى، مستخدماً حججاً عقلانيّة يمكن أن تصنّفه في مصاف العقلانيين. إلّا أنّ النصّ العربي الاصلي لردّه لم يُعثر عليه أبدًا ولم يُنشر. بدءًا من العام ١٨٨٥، تابع جمال الدين نشاطه السياسي، بينما عاد محمّد عبده إلى بيروت. كانت حياة جمال الدين غير المستقرّة محكومة بعلاقاته مع الشاه في إيران التي كانت لا تزال تحت حكم سلالة القاجار. فخلال أسفاره العديدة، وبخاصّة إلى روسيا، تلقّى دعوة من شاه إيران، فكانت مناسبة إقامته الأولى في إيران، ثمّ تلتها اقامة ثانية بعد فترة تمكّن خلالها من تقديم برنامج للإصلاح القضائي لم يلقَ استحساناً لدى أوساط الشاه، فرأى أن يتّخذ جانب الحذر باللجوء إلى مزار قريب من طهران، حيث أقام مدّة سبعة أشهر مع بعض مريديه، ثم اختُطف، بأمر من الشاه، واقتيد إلى الحدود الإيرانية-التركية في مطلع العام ١٨٩١.

حارب الأفغاني، بعد ذلك، سياسة القاجار بعنف، وتوصّل الى إقناع المجتهد حسن الشيرازي بأن يحرّم على المسلمين كافةً شراء التبغ الذي ينتجه البريطانيّون بموجب امتياز منحهم اياه الشاه، فتمكّن بذلك، وبشكل غير مباشر، من الغاء هذا الامتياز.

بعد ذلك، أقام الأفغاني في العراق ولندن حيث كتب، على امتداد سنتين، مقالات عنيفة ضد الشاه في جريدة تصدر بلغتين، ما أسهم في ولادة حركة اصلاح إيرانية. أنهى جمال الدين حياته في اسطنبول، وقد دعاه اليها السلطان العثماني عبد الحميد في العام ١٨٩٢، وربّما بادر السلطان إلى دعوة الأفغاني تشجيعاً لمشاريعه الخاصة في العالم الاسلامي، الّا أنّ جمال الدين مُنع عن السفر بعد أن ساءت علاقته بالسلطان. ولكنّ هذا الأخير لم يستجب للطلب الذي وجّهته اليه السلطات الإيرانيّة بتسليمها المصلح، وذلك على أثر مقتل الشاه عام ١٨٩٦ على يد شخص كان على صلة وطيدة بجمال الدين. توفي الأفغاني في ظروف اعتبرها بعض المؤرّخين مشبوهة، ودُفن جثمانه في اسطنبول. ثمّ نُقلت رفاته، في العام ١٩٤٤، إلى أفغانستان حيث يرقد في ضريح شُيّد له في إحدى ضواحي كابول.

برز جمال الدين، خلال حياته غير المستقرّة، كواحد من أوائل روّاد النهضة في البلاد الإسلاميّة ومن أبرز المدافعين عن الحريّات الدستورية. ناضل من أجل القوميّة في كل من مصر والهند، وعرض، في الوقت نفسه، على السلطان العثماني مشاريع كبرى تتعلّق بوحدة العالم الإسلامي، ولكنّ تحقيقها كان صعبًا. وكان دوره أساسياً في تطوّر الشرق الأدنى في القرن التاسع عشر، على الرغم من أنّ عمله لم يتّصف دائمًا بالتماسك، وعلى الرغم من أنّ فكره لم يكن فريدًا أو سهل المنال، ولكنّه تمتّع بصفات مميّزة كمثقف عميق وجدليّ مخيف. دافع عن الاسلام ضدّ الماديّة، وعن التربية وعن فلسفة معيّنة، وحارب القدريّة التي اعتبرها مؤذية، لكنّه لم يقدّم صيغاً دينيّة وفقهيّة جديدة. تُبرز بعض كتاباته عقلانيّة تتساءل إن كانت حقيقيّة أو أنّه يسخّرها لإحكام دحضه حجج خصومه. فضلاً عن ذلك، لقد شكّك بعض المؤرّخين في صحة إسلام الأفغاني عبر إشارتهم إلى علاقاته بالأوساط المتغرّبة المعادية للدين. يبقى أنّ الأفغاني يُعتبر من قبل الكثيرين شخصيّ غامضة، كان عملها سياسيّاً في الدرجة الأولى، من الصعب التكهّن بحقيقة قناعاتها.

الجَمل (وقعة -)، هي وقعة جرت في جمادى الثاني ٣٦هـ/ تشرين الثاني ٦٥٦م، مأثورة في تاريخ الحروب الأهليّة التي رافقت بدايات الإسلام وطبعت تاريخه لفتر طويلة.

جرت هذه المعركة قرب البصرة في العراق، م بين أنصار علي من جهة، وأنصار طلْحة والزُّبَيْر - تدعمهما عائشة أرملة النبي محمد (ﷺ) - من جه ثانية. واستمدّت تسميتها من الجمل الذي كان يحمل الهودج الذي كانت عائشة داخله. وتعود أسبابها إلى المؤامرة المناهضة لعلي التي حيكت خيوطها في مكّ بين الصحابة القدماء والقرشيّين، بعد اغتيال الخليف الثالث عثمان بن عفّان ومبايعة علي بالخلافة، وهو أم كان الفريقان المذكوران يعارضانه. وقد قُتل طلح والزبير في المعركة واضطرت عائشة للعودة إلى المدين والتخلّي عن كل عمل سياسي.

كان لهذا الصراع الداخلي انعكاسات مهمّة على الجماعة الإسلامية التي كانت أكدت انطلاقتها للتوّ من خلال سلسلة فتوحات، والتي كانت تعمل لتركيز أسس تنظيمها المستقبلي. وكانت هذه الموقعة هي المرّ الأولى التي تتواجه فيها جماعتان من المؤمنين بهذ الشراسة. وطُرح آنذاك السؤال حول صاحب الحقّ من الفريقين، أو بالأحرى طُرح التساؤل عن كيفية تحديد أيّ من الفريقين كان على حق. والسؤال، كما طُرح، أثار جدالات عقائديّة جديدة. وبالفعل، غذّت هذه المسألة طوال قرون، تفكير علماء الكلام، وشكّلت إحدى القضايا التي تواجهت حولها معظم الحركات السياسيّة - الدينيّة التي كانت في أساس نشأة شيع عدّة في الإسلام

الجنائن (فنّ -)، فنّ زاوله المعنيّون به في العالم الاسلامي في القرون الوسطى، وراج لقرون عدّة بسبب ارتباطه بتطور تقنيّات الرّي والتطور النظري والعملي لطرق الزراعة. انعكس ذلك في القصائد الوصفيّة الخاصّة بأدب ترفيهي ذي طابع رمزي، وحتّى ديني.

مرتبط إلى حد ما بوصف الجنّة الذي نجده في القرآن الكريم. لكنّ أهميّة الجنائن اليوميّة - سواء كانت حدائق داخليّة (في صحن الدار) مظلّلة ومقسّمة بممرّات كبيرة متقاطعة، أو مساحات كبيرة مسوّرة ومغروسة بالأشجار - لا مجال للشك فيها، رغم أنّنا لا نملك شواهد على ذلك، بالنسبة الى العصور القديمة، سوى بعض النصوص وبقايا أثرية لأسوار وأجنحة خربة كانت تلازم أماكن الاستراحة هذه. إنّ النماذج التي يقدّمها قصر لَشْكَري بازار الغزنوي والغوري في سِجِسْتان، أي في أفغانستان اليوم، ذات دلالة مهمّة في هذا المجال إذ نقع فيه، وسط مساحات مُسَوَّرة كبيرة أضحت اليوم خرابًا، على مساحة مُسَوَّرة أخرى مهجورة أيضاً، لكنّها شديدة الاتساع، كان لها أبواب ضخمة وجناح مركزي اكتُشفت مبانيه اليوم، ومنها بناء ضخم ذو رواق خارجي وشرفة تحيط بأحد جوانبه. كما ندرك، من جهة ثانية، المكانة التي كانت لهذا النوع من الحدائق، بفعل مباهج مياه الجداول والأقنية والأحواض ذات الأحجام الكبيرة التي تدل على ما وصلت اليه التقنيات الخاصة بأعمال المياه في ذلك الزمان.

إنّ فنّ القرون الوسطى هذا لم يعرف الكثير من التغيير في أساليبه عبر العصور: فأصناف الأشجار المثمرة والنباتات العطرة المغروسة والملائمة للظروف المناخيّة بقيت هي نفسها في كل منطقة من المناطق المعنيّة. ففي كل مكان كانت تهيمن عادة تصاميم جيّدة الإعداد وحياض ذات أشكال هندسيّة نجدها مجسّدةً في السجّاد الفارسي المعروف باسم «السجاد-الحديقة». ويمكن تخيّل النماذج القديمة من خلال الأمثلة التي لدينا من عصور متأخرة، كجنائن الأندلس في القرن الخامس عشر الموجودة في قصر الحمراء في غرناطة، وحدائق الحكّام المغوليّين الشهيرة، أمثال أكبر وجهانكير وشاه جهان، التي ما تزال تزيّن كشمير ولاهور ودلهي، إلى أيامنا هذه، ببريق سطوحها المصنوعة من الرخام ومسطحاتها المائيّة المنسّقة مع نباتات وفيرة، وفق مخطّط هندسي متطوّر وتصاميم متعامدة.

جناح، محمّد علي، الملقّب بالقائد الأعظم (١٨٧٦-١٩٤٨)، سياسيّ من الهند الإسلاميّة، قاد الرابطة الإسلاميّة الهنديّة إلى تأسيس دولة باكستان، وأصبح أوّل رؤسائها. عاصر رجلين آخرين لعبا دوراً من الطراز الأوّل في الإسلام الهندي، هما محمد إقبال وآغا خان. وُلد محمّد جناح في كراتشي، وهو ينتمي إلى مجموعة الخوجا في بلاد السند. درس الحقوق في بريطانيا.

تخلّى جناح تدريجيّاً عن دفاعه عن برنامج تفاهم بين الهندوس والمسلمين، ليتبنّى فكرة القوميّة الإسلاميّة التي طرحها إقبال، وعمل على قيام دولة إسلاميّة منفصلة عن الهند، واستمال الى مشروعه هذا الرابطة الاسلاميّة الهنديّة، وبخاصة ما بين ١٩٣٧-١٩٤٠، إثر وفاة إقبال. وروّج في ما بعد أفكار هذا الأخير في الانتخابات العامّة في سنة ١٩٤٦ التي أدت، على أثر الاضطرابات التي حصلت خلال تلك السنة، إلى التقسيم، وذلك في ١٤ آب من العام ١٩٤٧. توفي محمّد عليّ جناح بعد عام واحد من تولّيه سدّة رئاسة دولة باكستان المستحدثة، ولم تكن بعد قد توضّحت مقوّمات مستقبل هذه الدولة من المنظور الحديث والإسلامي كما كان يتمنّاه.

جنّة أو فردوس المشتقّ من باراديسوس اليونانية، مفهوم قائم في العقيدة الإسلاميّة، عرف عبر العصور رواجًا شعبيًّا واسعًا وشكّل مادةً لمناقشات علميّة.

تناولت مجموعة من الآيات القرآنيّة بالوصف الوجداني مقام الأخيار بعد يوم الدين - على أنّه «دار السلام» و«دار الخُلْد» - وهو مكان ممتع حافل بالأنهار الجارية والحوريّات اللواتي وُعدوا بهنّ. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الطّور، ١٧-٢٨).

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ

عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة، ١٠-٤٠).

تقول آية أخرى إنّ المختارين يتعمون بمشاهدة الله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة، ٢٢ و٢٣). وقد عمدت الأحاديث النبويّة إلى التركيز على الأوصاف الأولى للجنة التي تقابلها الإشارات القاسية إلى عذابات الجحيم، مع إضافة بعض التفاصيل التي تفيد مثلًا أنّ الجنة - وهي أبديّة كالجحيم - موجودة تحت عرش الله. ويُستنتج من قصّة معراج النبيّ محمد ﷺ، أنّ في الجنة طبقات أو درجات عدّة يشغل أعلاها المختارون الذين يصفهم القرآن بـ«المقرّبين» (سورة الواقعة، ١١) والذين ينعمون بأماكن مميّزة. كذلك تشدّد جميع التقاليد على حقيقة الملذّات الحسّية في الجنة وعلى تنوّعها.

تلك المسائل التي علقت طوعًا في أذهان الناس شكلّت موضوع نقاش بين علماء الكلام، وأتباع الفلاسفة والمتصوّفين. فإذا كان السلفيّون تقبّلوها بحرفيّة النصّ - كما وردت - فالمعتزلة أنكروا منها ما لا يتّفق والعقل، وحملوها على معنى مجازي. كما أنكروا إمكان مشاهدة الله والوجود الراهن للجنة التي، بحسب رأيهم، لا تبرز إلى الوجود إلّا مع القيامة. أمّا الأشعريّة فقد أقرّوا بوجود الملذّات الموعودة، لكنّهم اعتبروها مختلفة عن الملذّات الأرضيّة.

أمّا جماعة الفلسفة فقد اعتبروا، بشكل عام، أنّ الأوصاف التقليديّة الموجّهة إلى «عامة الناس» ليست بالنسبة الى العاقل سوى رموزٍ واستعارات. والحياة في الجنة هي، في نظرهم، حياة مواد جوهريّة عاقلة متّحدة بالعقل الفعّال. أمّا بالنسبة الى المتصوّفين الذين كانوا يحملون رؤية الله على محمل روحاني، فلم يرفضوا فكرة الملذّات الحسّية لكنهم مالوا إلى تأويلها رمزيًّا بالتمثيل، كما في آثار ابن عربي.

أخيرًا، حاول بعض الكتّاب الذين يلتقون مع تيّارات عدّة، كالغزالي، أن يوفّقوا بين المواقف المتناقضة قائلين إنّ الملذّات في الجنّة تختلف طبيعتها باختلاف المختارين. بعضهم يستمتع بها على أنّها جسديّة، إذ لا يمكنه تصوّر ملذّات أخرى، وبعضهم الآخر يعتبرها خياليّة، بينما يرى فيها «العارفون» ملذّات سامية ذات طبيعة روحيّة. أمّا المصلحون الحديثون فقد اكتفوا، في معظم الأحيان، برفض استعارات الوصف التقليدي وتشابيه المبالغ بها، من غير أن يقبلوا لا بالتفسيرات العقلانيّة ولا بالرمزيّة.

جند، إسم يطلق على دوائر عسكريّة أنشئت في سوريا أيّام الفتوحات الكبرى، خلال خلافة عمر بن الخطّاب. أقامت في هذه الدوائر قبائل عربيّة كان عليها أن تؤمّن جيوشاً قابلة للحركة في أيّ وقت. ولهذه الجيوش رواتب تتقاضاها، إضافةً إلى حصّتها من عائدات الغنائم بعد كل حملة، وكان قادتها يحصلون عموماً على امتيازات عقاريّة على شكل قطايع (مفردها قطيعة)، وهي أراضٍ مقتطعة من الأملاك البيزنطيّة المهجورة.

كان عدد جند سوريا أربعة: جند حمص وجند دمشق وجند نهر الأردن أو الأردن وجند فلسطين. وفي عهد الأمويّين فصل يزيد الأول قنّسرين عن جند حمص وأضحت جنداً شماليّ حمص. ومن ثمّ، في أيام العبّاسيّين، فصل هارون الرشيد عن هذا الجند الأخير مناطق الثغور الحدوديّة ومناطق المدن «الدفاعيّة» الثغور والعواصم في اللغة العربيّة، ووضع حاميات أُنيط بها، بشكل خاص، التصدّي لغزوات الجيوش البيزنطيّة كما أُنشئت في الأندلس أجناد على غرار أجناد سوريا ولم تُعرف بشكل دقيق حقيقة تنظيمها.

وفي عصور متأخّرة، استُخدمت لفظة جند متلازمة في التداول مع لفظة جيش، وذلك للدلالة على أيّة قوّة مسلّحة داخل التنظيم العسكري، ولبس على دائرة عسكريّة أو على الوحدات التي أقيمت فيها.

جنديسابور، منطقة من خوزستان في القرون الوسطى. وهي اليوم مندثرة. قامت مدرسة الطب فيها بدور مهمّ

في زمن الخلفاء العبّاسيّين الأوائل.

هذه المدينة الساسانيّة القديمة التي استولى عليها المسلمون عام ١٧هـ/٦٣٨م، إبّان الفتوحات الكبرى، كان معظم سكّانها من المسيحيّين النساطرة وكان فيها، منذ القرن السادس الميلاديّ، مستشفى، واستمرّت مركزًا للدراسات الطبيّة والدراسات الأخرى المعروفة في العصور القديمة. وقد قصد العديد من أطباء جنديسابور المسيحيّين بغداد، أيام الخليفة هارون الرشيد الذي كان يقدّر بشكل خاص خدمات أحدهم، ويدعى بختيشوع. اختار يعقوب بن اللّيث الصفّار جنديسابور مركزًا لحكمه، ومات ودفن فيها عام ٢٦٤هـ/٨٧٨م. يشرف الضريح الذي يشير إلى قبره على موقع أثري جرت فيه تنقيبات أوّليّة منذ فترة قصيرة.

جنّي (جمهوريّة مالي)، مدينة كانت لها أهميّتها خلال القرون الوسطى في وادي النيجر الأعلى. شكّلت مع «تومبوكتو» أحد مراكز القوافل الإسلاميّة في السودان الغربي الساحليّ.

ولم تعد جنّي اليوم تؤدّي إلّا دورًا تجاريًا إقليميًا، ويتوزّع فيها عدد من الأبنية، شُيّدت وفقًا لقواعد الهندسة المسمّاة «سودانيّة». كانت هذه المدينة القديمة المحصّنة التي تحميها المستنقعات تقوم على الضفّة الشماليّة لنهر «باني»، في منطقة الفيضان التي تفصل هذا النهر عن نهر النيجر. ولا شكّ في أنّها تأسّست، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، فكانت مستودعًا وممرًّا تجاريًا عبر الصحراء، ولا سيّما للملح الذي كان يُنقل باتّجاه الجنوب، والذهب باتّجاه الشمال. وجعلها ذلك النشاط التجاريّ تنمو وتتطوّر، خصوصًا بعد أن ضُمّت الى مملكة الصُنغاي. وعندما وقعت بيد المغرب في القرن السابع عشر، شهدت ازدهارًا فكريًا واقتصاديًا جعلها تتفوّق على «تومبوكتو». وفي سنة ١٨١٨، سيطرت عليها دولة البول إنطلاقًا من مَسّينا، ثمّ اجتاحتها، سنة ١٨٦١، جيوش الحاج عمر. ومع الاستعمار الفرنسي لمالي التي كانت تُعرف بالسودان الفرنسي، بدأت مرحلة الانحطاط منذ سنة ١٨٩٣، وظلّت مستمرّة حتى العصر الحديث.

◄ راجع المستند رقم ٢٩.

الجُنيد، أبو القاسم بن محمّد النهاوندي (؟-٢٩٦هـ/؟-٩٠٩م)، متصوّف مسلم من أصل إيراني، عاش في بغداد إبّان العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة، وكان يُعتبر ممثلاً للصوفيّة المعتدلة. تتلمذ على خاله السَريّ السَّقَطيّ، وعلى المحاسبي الشهير، وتلقّى إعداداً تقليديّاً كفقيه وكمتكلّم على يد شيوخ من المذهب الحنبلي. تناول الجُنيد في أبحاثه العديدة، وبعضها رسائل تبادلها مع مفكّري عصره، موضوعات أساسيّة من تجربته الروحيّة: الحقيقة، الصدق، وحدانية الله، إفناء الذات، الطب الروحي. بذلك يبدو الجنيد، وكان حريصًا على ألّا تكون الصوفيّة موضوع نزاع، مصرًّا على إيضاح استقامة فكره، وبصورة خاصة مفهوم النشوة الصوفيّة، بقوله بخاصة إنّ لكل شيء أساسه في الله، بدون أن يُسقط، مع ذلك، مفهوم وحدة حياة المؤمن الداخليّة. كان الجُنيد يُسلّم بالتمييز بين الشريعة والحقيقة، «الحقيقة العميقة الدائمة»، لكنّه كان يرفض أن يعلن عن عدم جدوى الشريعة، حتّى لو كان التوصل إلى الحقيقة يسمح بتجاوزها. ولم يعتمد، إذن، أبداً المبالغات اللغويّة التي من أجلها أُدين تلميذه الحلّاج. وإذا كان الجُنيد يؤكّد أنّ في الصوفيّة «يميت الله الإنسان بالنسبة الى ذاته، ليبعثه حيّاً فيه»، فإنّه يبرّر هذا الأمر بالعودة إلى المفهوم القرآني للميثاق المعقود بين الله والبشر قبل بداية التاريخ، شارحاً: «قال الله نفسه إنّه تحدّث إلى سلالة آدم حينما لم يكن لهؤلاء وجود حقيقي. وهذا ممكن لأنّ الله يدركهم في وجودهم الروحيّ. ويقضي هذا الوجود الروحيّ أن يعرفوا الله روحيًا دون أن يفترضوا بأنهم يدركون ذواتهم الخاصّة». (لويس ماسينيون، **شغف الحلاج**).

الجهاد، أو بالتحديد «الحرب الشرعيّة»، إذ إنّ الأمر يتعلّق بالحرب أو بـ«المجهود الحربي»، بحسب أصل الكلمة، الذي تأمر به الشريعة ضدّ الكافرين.

أبصر هذا المفهوم النور في المدينة، إبّان غزوات النبي محمد (ﷺ) الأولى ضد المكيّين، وهو يستند إلى آيات عديدة من القرآن، أهمّها الآية التالية:

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ

ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية ٢٩).

استنتج الفقهاء، انطلاقاً من هذا النص وغيره، أنّ الحرب الشرعيّة هي واجب على الجماعة الإسلامية ولكنّها تتوقّف، بالنسبة الى أهل الكتاب (أي اليهود والنصارى)، فورَ اعترافهم بسلطة الإسلام ودفعهم ضريبة خاصة تسمح لهم بأن يكونوا مقبولين ضمن الجماعة الإسلاميّة. هم في عهدة المسلمين لكنّهم أقل شأناً منهم، ويشكّلون جماعة دافعي الجزية أو أهل الذمّة. وفي ما عنى عبدة الأوثان، فإن الجهاد ضدّهم واجب إلى أن يعتنقوا الإسلام، فإذا ما رفضوا اعتناقه، يمكن قتلهم أو استعبادهم.

إنّ العمل المسلّح لتحقيق نصرة الإسلام يصبح أقلّ حدّةً في المرحلة التي تلي الانتصار، بفضل إعطاء أهل الكتاب وضعًا خاصًا؛ ولكنّه يبقى واجباً لمواجهة كل الدول غير الإسلاميّة. لذلك لا يُمكن أن يعقد المسلمون مع هذه الدول سوى اتفاقيات هدنة موقّتة وليس معاهدات سلام دائم. ومن جهة أخرى لا يُعتبر الجهاد، الذي هو واجب جماعيّ، من ضمن الواجبات الفرديّة للمسلم. لذلك فإن قائد الجماعة هو الذي يحدّد متى يبدأ الجهاد ومتى ينتهي؛ ومن هم الذين يتوجّب عليهم القيام به

وهكذا فإن الخليفة، في القرون الوسطى، وفي الفترة التي عرفت فيها مؤسّسة الخلافة أوج مجدها، كان يعلن الجهاد بنفسه بطريقة منتظمة، وذلك بتوجيهه غزوات موسميّة إلى بلاد غير المؤمنين، وبخاصة بلاد البيزنطيّين.

وما خلا الجهاد، ليس ثمّة حروب مسموح بها في الإسلام الذي عليه أن يشكّل أُمّة واحدة. لكنّ ظهور الانقسامات المبكرة والخصومات ما بين المذاهب الإسلاميّة أدّى إلى صراعات داخليّة قاتلة، بما فيها المعارك الأولى بين صحابة النبيّ محمد (ﷺ)، كوقعة الجمل ومعركة صفّين مثلاً، التي أثقلت ضمير بعض المسلمين. ثمّة حلّ بسيط لهذه القضية، وهو يقضي باعتبار أيّ عدوّ، حتى ذلك الذي يجب مواجهته في الصراعات الداخليّة، كافراً يمكن محاربته، وهذا ما ينطبق في الاسلام على وضع المتمرّدين. وهناك أمر يميّز الشيعة، وهو أنّه لا يمكن مبدئيًّا اعلان الجهاد إلا بوجود الإمام، بيد أن هذا الأمر لم يُحترم على مر العصور.

تاريخيًّا، حصل انتشار الإسلام تارةً بواسطة الجهاد، وتارةً أخرى باعتناق شعوبٍ للإسلام بعد الاجتياحات المسلحة التي كانت في أساس الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، والتي لم تتوقّف في ما بعد. فهناك جماعات، تحمل خصّيصًا إسم المجاهدين أي «جند الجهاد» تقوم إلى اليوم، تحت هذا الشعار، بأعمال حربيّة ضد الشعوب والدول المتّهمة بسوء النيّة تجاه المسلمين، أو حتّى بالتدخّل في قضاياهم. ولكن إلى جانب هذه الحالات القصوى عرفت الحرب الشرعيّة، خلال العصور، مراحل متنوّعة ومتتالية، فعرفت المرونة واللين حيناً، والتشدّد أحياناً. وكان التشدّد صدى لنشاط الدعاة والوعّاظ الدينيّين وحتى الفقهاء، حيث كانت نداءات هؤلاء تتزايد عندما يشعر المسلمون بأنهم مهدّدون أو أنّ سلامة أراضيهم مهدّدة، كما حصل بشكل خاص في شبه الجزيرة الإيبرية إبّان انتصار المسيحيّين واستعادتهم الأندلس، أو في الشرق السوري المصري بعد نجاح الحملات العسكرية الصليبيّة الأولى. في كل من هذه الحالات، وبتأثير من إحياء الشعور الإسلامي، وبسبب أبطال غزاة قادمين من أراضٍ بعيدة، كان الوضع الهادئ يتفاقم شيئاً فشيئاً. وفي كل من هذه الحالات أيضًا نجد أن التأزّم يطال أماكن يحكمها أمراء محليّون، في حال من اللامبالاة السياسيّة والدينيّة، ولديهم علاقات سلميّة، وحتّى تحالفات موقّتة مع المسيحيّين الذين خدموا طموحاتهم أو أحياناً ساهموا في استمرارهم في السلطة. وفي عصور أخرى أدّت الحماسة المتزايدة لروح الجهاد إلى فتوحات جديدة، لا إلى مقاومة هجمات العدو وحسب. وهكذا فإنّ الروح النضاليّة لدى الغزاة، الذين كانوا بحماستهم يبرزون الاندفاعة القتاليّة التي تميّز بها قوّادهم، ساعدت على إنشاء أمبراطوريّات واسعة وعلى تثبيتها. هذا ما حصل مثلًا عندما توسّع المرابطون في الغرب. وقد ميّزت الظاهرة نفسها ازدهار أشهر الأمبراطوريّات التركيّة، فتمكّنت جيوشها إمّا من

اجتياح أجزاء من شبه القارة الهندية، وإمّا من سلخ ممتلكات بيزنطية في الأناضول، كما فعل الغزنويّون ومن بعدهم المغول، أو على غرار ما فعله السلاجقة، أو أخيراً من الاستيلاء على أوروبا الشرقيّة على غرار ما قام به العثمانيّون الذين فرضوا سلطانهم على هذه الأجزاء من أوروبا، بفضل حماسة المجاهدين الذين انضووا تحت راياتهم عندما أصبحوا، باجتيازهم الدردنيل، أبطال القضيّة الإسلاميّة.

وبعد ذلك بأمد بعيد، وخلال القرن التاسع عشر، وتحت راية الجهاد، نجح مقاتلو القُلبة في سوكوتو، ومن بعدهم الحاج عمر، في تأسيس ممالك في أفريقيا السوداء، ولكنّها لم تعمّر طويلاً. كما تمكّن المهدي من إثارة حماسة الجماهير في السودان. وباسم الجهاد أيضًا، نشأت حركات المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وضدّ الاحتلال الروسي في داغستان، والبريطاني في شمال غرب الهند، والإيطالي في ليبيا. وقد أعلن العثمانيّون في آخر عهدهم، في العام ١٩١٤، الجهاد ضدّ الحلفاء، ولكن بدون نتيجة. أمّا في القرن العشرين فقد أُهمل مفهوم الجهاد، وحاول المفكّرون إعطاءه تعريفاً سلمياً بحصره في مفهوم الدعوة الى اعتناق الإسلام والحدّ من فعله العسكري، باستثناء حالة الدفاع وحدها. وما عتّم أن عاد التفكير بضرورة الجهاد مجدّداً في كل مرّة كانت الجماعات المتطرّفة تجد ذريعة لمواجهة الغربيّين الكفّار، والحكّام المسلمين المتواطئين معهم، وفي كل مرّة تقوم فيها حروب تحرير، كما في أفغانستان ضد الجيوش الروسيّة، أو حركات تحرّر كما في فلسطين.

ومن المؤكّد، من ناحية ثانية، أنّه جرت، في كل العصور، محاولات لتوسيع مفهوم الجهاد عقائديًّا وتحويله عن مساره، ولكنّ هذه المحاولات لم تحظَ إلا بنصيب ضئيل من القبول، هذا إن لم تُرفض كليًّا. وهذا ما حصل عندما حاول ابن تيميّه الحنبلي، في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، استعمال مفهوم الجهاد ضد «البدع»، وليس ضد الكفرة (غير المؤمنين) وحدهم، ولكن من دون أن يتمكّن من تأمين انطلاقة جيّدة لهذا المفهوم. وهذا ما حصل أيضاً، في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، عندما حاول المتصوّفة تعريف الجهاد على أنّه صراع داخليّ ضدّ الأهواء، ومرحلة ضروريّة للوصول إلى الاتّحاد الصوفيّ، مقابلين بذلك بين الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر المتعلّق بالقتال المسلّح ضدّ غير المؤمنين، لكنّ هؤلاء لم يتمكّنوا من فرض رأيهم بشكل واسع.

جَهانْكير، نور الدين سليم ٩٧٧-١٠٣٧هـ/ ١٥٦٩-١٦٢٧م، رابع ملوك سلالة المغول في الهند، عُرف باهتمامه بالعلوم والحياة الفكريّة، وميله نحو الملذّات، إبّان حكمه الممتدّ من العام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م إلى حين وفاته. اتّصف عهده بازدهار الأمبراطوريّة المغوليّة.

ولد جهانكير في مكان اختير ليكون موقعاً لمدينة فتحپور سكري الملكيّة، غير بعيد عن أغرا، على أثر صلوات متصوّف من أتباع الجِشْتيّة يدعى سليم جِشْتي، وقد حمل نور الدين اسمه. ثار هذا الابن البكر على والده السلطان أكبَر، ثمّ كان بدوره عرضة لثورات عائليّة، منها ثورة أبنائه، وثورة وريثه في الحكم شاه جهان. نتج مناخ العنف هذا ودسائس البلاط عن عداوات شخصيّة، إضافة إلى صراعات خفيّة، ذات منشأ إتني أو ديني، ما انفكّت تتوالى في العصر المغولي محدثة تحوّلاً في سياسة السلالة الحاكمة.

في الواقع إن جهود جهانكير، الذي حرص على أن يُظهر نفسه في صورة الأمير المسلم الأكثر استقامة ممّا كان عليه والده، اصطدمت بعقبات ناتجة عن تنامي المذهب الشيعي من حوله في البلاد الخاضعة له. كانت زوجته، نور جهان، تنتمي إلى هذا الاتّجاه السياسي-الديني، وقد اضطلعت بدور في مواجهة الأمور المستجدّة وحلّت سياسيًّا، تحت نظر والدها عماد الدولة ونظر أخيها، محلّ جهانكير الذي أولى اهتمامه، بصورة خاصة، للآداب والعلوم والفنون.

فشل جهانكير في محاولاته للسيطرة على طريق الغرب، وخسر بشكل خاص قندهار التي استولى عليها الصفويّون في العام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م، لكنّه أفاد - كي يدعم أسطوله، ويعزّز علاقاته بالتجّار الأجانب - من امتيازات مُنحت لتجّار شركة الهند الشرقيّة الانكليزيّة، وتحلّق حوله حرفيّون مهرة نتيجةً لحالة الرخاء السائدة

في بلاده. وثمّة روائع مميّزة تُبرز فنون تزيين الكتب، مكرّسة مكانة خاصة لفن رسم الملامح الشخصيّة، إلى جانب الاهتمام بالدراسات المتصلة بطبيعة الحيوانات والنباتات. والاهتمام نفسه ميّز الهندسة المعماريّة حيث استُعمل الرخام الأبيض، أحيانًا محفوراً أو مرصّعاً بحجارة نصف كريمة، كما يظهر في ضريح جهانكير نفسه، قرب لاهور، وأيضًا في الضريح الذي بنته، لاحقاً، في أغرا، نور جهان لوالدها، وقد أُنجز عام ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م.

جَهْبَذ، ج **جهابذة**، إسم يُطلق على أشخاص كانوا يعملون في الميدان المالي، قبل نشوء المصارف الإسلامية في القرن العشرين، على غرار المصارف في الغرب. كان لهؤلاء الأشخاص، في القرون الوسطى للإسلام، علاقة بالسلطة وبالجهاز الحاكم.

تشبه وظيفة الجَهْبَذ الأساسيّة وظيفة الصرّاف. والجهبذ كالصرّاف كان غالبًا من غير المسلمين، من اليهود بشكل خاص، وذلك بسبب تحريم الإسلام الربا. كان الحكم يستخدم الجهابذة للاشتراك في العمليّات الماليّة، كجباية الضرائب في العاصمة وفي المقاطعات، أو في العمل على إرسال الضرائب المجباة إلى خزينة الدولة. كانوا في المقاطعات مساعدين للعامل في الشؤون الماليّة، أمّا في بلاط الخلافة فكانوا يقومون بأدوار يمكن وصفها بمصرفيّة، إذ كانوا يدينون الدولة من أموالهم الخاصة. وقد اتّخذ بعضهم، في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، إسم «جهبذ البلاط»، وهناك أسماء عديدة لجهابذة يهود ساعدوا الوزير علي بن عيسى، عندما كان في حاجة إلى أموال ليسدّ عجز الموازنة في مطلع القرن العاشر الميلادي.

فقدت وظيفة الجهبذ أهميّتها مع تجزئة الأمبراطوريّة العبّاسية، لكنّها استعادت دورها مع العثمانيّين الذين نظّموها بشكل دقيق. كان العثمانيّون يشركون الجهابذة في عمليّات تلزيم الضرائب المعقّدة والموكلة إلى مسؤولين مسلمين.

أدّت التحوّلات التي عرفها العالم الإسلامي الحديث إلى زوال الجهابذة. ونشأ نظام مصرفي حديث فرضته الظروف المستجدّة التي حاولت، بمختلف الطرق، تذليل العقبات الناتجة عن تحريم الربا.

الجَهْمِيَّة، فرقة إسلاميّة قديمة ذات طبيعة غامضة، ظهرت في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، استمدّت اسمها من الجهم بن صفوان.

كان ابن صفوان فقيهاً اشترك في ثورة خراسان ضدّ الأمويّين، ووقع في الأسر وقُتل في العام ١٢٨هـ/٧٤٦م. نُسب إليه مذهب ديني تعرّض للنقد الشديد من الحنابلة، وانضمّ إليه عدد من الأتباع لا نعرف عنهم سوى القليل.

كانت للجهميّة، على ما يبدو، أفكار غير بعيدة عن أفكار المعتزلة، منها نفي صفة عدم خلق القرآن، والصفات الإلهيّة بصورة خاصة.

جهنّم، أو «النار» أو الجحيم، وهو مفهوم حاضر في العقيدة الإسلاميّة خصّته التقاليد الدينيّة الشعبيّة بمكانة خاصة، كما جاء القرآن على ذكره إلى جانب مظاهر أُخرى من العقوبات الإلهية، لكنّه أثار عبر التاريخ آراء متضاربة. ذكر النص القرآني مرّات عدّة هذا المكان المُعدّ للهالكين يوم الدين على أنّه «أتون» و«حميم» و«هوّة»، بأسماء يصعب تحديد أُصولها، كما في هذا المقطع: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ (سورة الهُمزة، الآيات ٥-٩).

كما تبرز من السور القرآنية أوصاف، غالباً ما تناقض أوصاف الجنّة، تكملها تفاصيل حول نقاط معيّنة جمعها الحديث، كما في هذه الآيات: باسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَٱلطُّورِ﴾ ﴿وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الطور، ١-١٦)؛ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى

ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. (سورة الواقعة، الآيات ٤٠-٥٦).

إنّ نار جهنّم، من حيث المبدأ، أبديّة، كما الجنة أبديّة، إلاّ أن (علماء الدين) والمفسّرين انقسموا حول إذا ما كانت شفاعة النبي محمّد ﷺ في إمكانها أن تنتزع أحد المؤمنين المذنبين من النار. كما أنّهم تساءلوا عن إمكان ان يضع الله حدًّا لعذاب الهالكين. وقد ذهب بعضهم إلى القول بأنّه لا بدّ من أن تفرغ جهنّم من نزلائها وتختفي، لكنّ الجنّة باقية.

الجَهْوريّون، ٤٢٢-٤٦١هـ/ ١٠٣١-١٠٦٩م، سلالة حاكمة في الأندلس، تنتمي إلى عصر ملوك الطوائف. حاولت هذه السلالة جاهدة المحافظة، لكن من دون جدوى، على ازدهار قرطبة حاضرة الأمويّين في الغرب. أسفر الجهد الدؤوب الذي قام به أبو الحزم جهور بن محمّد، الوزير السابق لدولة الخلافة، عن توفير الاستقرار في المدينة وفرض الاحترام على بني عبّاد، وهم ملوك صغار يقيمون في مدينة إشبيلية. لكنّ ضعف أبنائه وأحفاده الذين توالوا على الحكم من بعده وتسبّبوا، في آخر الأمر، بثورة رعاياهم عليهم، خدم مؤامرات بني الأفطس، حكام بَطَلْيوس، وبني عبّاد أنفسهم. كما أدّى عجز الجهوريّين إلى انتصار الدويلات الأخرى المعادية التي نشأت من تفكّك سلطة الأمويّين في الأندلس، في شمال وجنوب شبه الجزيرة.

- جهور: ٤٢٢-٤٣٥هـ/ ١٠٣١-١٠٤٣م
- محمد الرشيد: ٤٣٥-٤٥٠هـ/ ١٠٤٣-١٠٥٨م
- عبدالملك: ٤٥٠-٤٥١هـ/ ١٠٥٨-١٠٥٩م

جَوْذَر ؟-٣٦٢هـ/ ؟-٩٧٣م، خصيّ من أصل سلافي، قام بدور مهمّ خلال حكم الخلفاء الفاطميّين الأوائل. استرعى جَوْذَر انتباه المهدي عبيد الله عند قدوم هذا الأخير إلى القيروان واستيلائه على السلطة فيها؛ ثمّ انخرط، بعد ذلك، في خدمة الخلفاء، القائم والمنصور والمعزّ. كان، إبّان حكم القائم، ناظراً للخزانة. هذا الخصي المُعتَق حظي بثقة كل هؤلاء الخلفاء، وكان على رأس أصحاب المقامات العليا لديهم، وكان يتصرّف كمؤتمَن على أسرار ورائة العرش: كان الوحيد الذي يطلعه الخليفة على اسم الوريث الذي اختاره في وصيّته، وكان عليه كشف الاسم في الوقت المناسب. توفي جوذر في أثناء مرافقته الخليفة المعزّ من إفريقية إلى مصر لتولّي مهام منصبه الجديد فيها.

جورجيا، الكُرْج بالعربيّة والفارسيّة، والغرج وغرجستان، وهي مقاطعة في ما وراء القوقاز ذات طابع شبه جبلي، قاوم سكّانها الذين كانوا قد تنصّروا منذ زمن بعيد الزحف الإسلامي طوال القرون الوسطى، إلّا أن ذلك لم يحل دون احتلال جزء من البلاد وتحوّله إلى الإسلام.

١ - سواء تعلّق الأمر بمناطق جورجيا الغربيّة المعروفة، قرب أبخازيا، باسمَيْ منغراليا وأميريتي، أي كوسيدا القديمة، أو بمناطقها الشرقيّة التي كانت تؤلّف قديما إيبريا القوقازية، فإن الفتوحات العربيّة - الإسلامية الكبرى، في القرن السابع الميلادي، لم تتوصّل إلّا إلى إقامة شبه محميّات أُعيد النظر فيها بعد غزوات الخزر، وعلى أثر الثورات المحليّة. وعلى الرغم من القمع الذي جرى في عهد العبّاسيّين الذين صكّوا عملة باسمهم في تفليس - تبليسي الحاليّة - فإن أُمراء مسيحيّين صمدوا في البلاد حتّى بعد تسلّل الترك إليها، وبعد هجمات الخوارزمشاهيين ووصول المغول، إلى أن أدّت حملات تيمورلنك إلى حكم إسلامي أكثر تشدّدًا على جورجيا. ثمّ كان بعد ذلك صراع على النفوذ بين الصفويّين والعثمانيّين، تبعته مراحل سيطرة موقّتة لم تنجح في أسلمة البلاد إلّا في بعض المناطق. وقد حاول السكان، لاحقًا، الحفاظ على هويتهم ضدّ الاستعمار الروسي عندما ضمّ الروس البلاد، في العام ١٨٠٠، إثر حروب روسيّة - إيرانيّة. أصبحت جورجيا اليوم جمهوريّة مستقلّة.

٢ - جمهوريّة جورجيا الحاليّة: دولة مستقلّة، مساحتها ٧٠٠ ٦٩ كلم²، عاصمتها تبليسي وهي تشمل، بعد استقلالها في العام ١٩٩١، الدولتين المستقلّتين ذاتيًا، أبخازيا وغجاريا، حيث هناك أقليّة مسلمة تشكل على الأقلّ ١٠٪ من مجموع السكان.

نشأت هذه الدولة في العام ١٩٣٦، اثر الوضع السياسي المعقد الذي كان سائدًا في البلاد بعد التدخّلات الغربيّة عقب الحرب العالميّة الأولى وضغوط جيوش مصطفى كمال التركية. نتج عن هذا الوضع، في العام ١٩٢٤، إقامة نظام سوفياتي متشدّد، فأصبحت جورجيا جزءًا من الجمهوريّة الفدراليّة الإشتراكيّة السوفياتيّة لما وراء القوقاز التي كانت تضمّ أيضًا أرمينيا وأذربيجان. ثمّة عناصر إسلاميّة، إمّا وافدة من أذربيجان، أو متمركزة في جمهوريّتي أبخازيا وغجاريا المتمتّعتين بالحكم الذاتي، شكّلت جزءًا من سكّان جمهوريّة جورجيا السوفياتيّة الإشتراكيّة، وما تزال فيها إلى اليوم في بلاد تشهد توتّرات عدّة وصراعات داخليّة.

تمتدّ أراضي الجمهوريّة الجديدة على منحدرات القوقاز وفي أحواضه الجنوبيّة، إلى الجنوب من الاتّحاد الروسي والجمهوريّات المستقلّة ذات الشعوب الخليطة، المسلمة في أغلبيتها، كجمهوريّة كراشفو - شركاسيا وكباردينو -بلكاريا وأوسيتيا الشماليّة والشيشان وأنغوشيا وداغستان. وتقع البلاد أيضًا على حدود بلد مسلم هو تركيا، وكذلك على حدود أرمينيا وأذربيجان اللتين تضمّان مناطق كان المسلمون قد استولوا عليها في ما مضى.

◄ راجع المستندين ١٧ و٢٠.

الجوزجانيّ، أبو عمرو عثمان (٥٨٩-٦٨٤هـ/١١٩٣-١٢٨٥م)، فقيه وعالم دين، كان مؤرّخاً لسلاطين دلهي الأوائل. ولد في فيروزكوه/جام، حاضرة الغوريّين، وهو ابن فقيه بارز ذي منزلة عالية في بلاط هؤلاء الحكّام. ذهب الجوزجانيّ إلى الهند حيث درّس في احدى المدارس التي كانت قد أنشئت حديثاً في هذه البلاد. وفي العام ٦٢٧هـ/١٢٢٨م، وضع نفسه في خدمة شمس الدين إيلتمش، المؤسّس الحقيقي لسلطة السلالة الأولى لسلاطين دلهي، المعروفين بـ«الملوك-العبيد»، وتبعه إلى حاضرته حيث أصبح قاضي القضاة. وقد مارس هذه المهمّة، مع بعض الانقطاع، في ظلّ ابن إيلتمش، واستمر فيها إلى حين وفاته في دلهي، إبّان حكم بلبان. كتب حوليّة عن فترة حكم ناصر الدين محمود شاه الأوّل ابن إيلتمش وعنوانها «طبقات ناصري»، ونظم أشعارًا صوفيّة، لكنّها لم تصل إلى شهرة حوليّته التي ما تزال تشكّل مصدرًا للمؤرّخين المعاصرين المهتمّين بهذه الحقبة.

الجَوْلان، منطقة في سوريا الجنوبيّة، يحدّها نهر الأردن من الغرب، ومن الجنوب رافده نهر اليرموك، ومن الشمال جبل حرمون. ألحقت هذه الهضبة الصخريّة والخصبة في آن بإقليم الشام، في العصور الوسطى؛ وكانت بانياس الجنوبيّة المركز الإداري لها. في العصر الحديث نُقل مركزها الإداري إلى القنيطرة. وقد احتلّت إسرائيل في العام ١٩٦٧ الجولان الذي كان جزءًا من أراضي الجمهوريّة العربيّة السوريّة.

جونبور (الاتّحاد الهندي)، مدينة في اقليم أوتّر پرادش الحالي شماليّ الهند. قامت فيها، في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، دولة اسلاميّة مستقلّة، وقد اشتهرت كمركز فكري وعلميّ وفنيّ.

أسّس هذه المدينة سلطان دلهي فيروز شاه، من السلالة التُغلقيّة في العام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م، ولم يتمكّن خلفاؤه من المحافظة عليها. أصبحت جونبور، إبّان الفوضى التي تلت اجتياح تيمورلنك للهند، مقرًّا لدولة السلاطين المعروفين باسم الشرقيّين، أي ملوك الشرق، نسبة الى لقب حمله العبد الخصي ملك سرفار، وكان أوّل من تولّى عرشهم. وفي أوج حكمهم القصير، الذي امتدّ لفترة ما شرقاً إلى البنغال، كانت جونبور التي كانت تُعرف بـ«شيراز الشرق»، مركزاً إسلاميًّا حيث انتشر تأثير الصوفيّين المنتمين إلى الفرقة الجشتيّة أو إلى الفروع المتحدّرة منها. كما عُرفت جونبور بأنشطتها العلميّة التي استمرّت بعد سقوط سلاطينها على أيدي سلاطين دلهي في العام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م، قبل أن يستولي عليها هُمايون المغولي بفترة قصيرة، أي في العام ٩٣٣هـ/١٥٢٦م؛ لقد ضمّها إلى أمبراطوريّته وأضحت مقراً للسلطان أكبر، ثمّ فقدت أهميّتها بعد أن أضحت الله آباد عاصمة للإقليم.

احتلّ البريطانيّون جونبور عام ١٧٧٥م، وما يزال فيها إلى الآن مبانٍ تاريخيّة عديدة، وبخاصة المساجد التي تشهد على ازدهار الفن الاسلامي-الهندي، وعلى

المتقدّم الذي عرفته المدينة ابّان حكم سلاطين دلهي وسلاطين المغول.

سلاطين جونبور الشرقيّين:

- ملك سرفار	٧٩٦-٨٠١هـ/ ١٣٩٤-١٣٩٩م
- مبارك شاه	٨٠١-٨٠٥هـ/ ١٣٩٩-١٤٠٢م
- شمس الدين ابراهيم	٨٠٥-٨٤٤هـ/ ١٤٠٢-١٤٤٠م
- محمود شاه	٨٤٤-٨٦١هـ/ ١٤٤٠-١٤٥٧م
- محمّد شاه	٨٦١-٨٦٢هـ/ ١٤٥٧-١٤٥٨م
- حسين شاه	٨٦٢-٨٨٤هـ/ ١٤٥٨-١٤٧٩م

◄ راجع المستند رقم ٣٢.

جوهر بن عبد الله الصقلبي أو الصقلّي ؟-٣٨٢هـ/ ؟-٩٩٢م، رجل ثقة، شُهر في أيام حكم الخلفاء الفاطميّين الأوائل. استولى على مصر وأسّس مدينة القاهرة.

كان جوهر، وهو عبد من أصل سلافي بدون شك، (لقبه الصقلبيّ، حرّف إلى الصقليّ نسبة إلى جزيرة صقلية)، كاتباً في بداية حكم الخليفة المنصور، الذي عهد إليه قيادة حملة على المغربَيْن الأقصى والأوسط. مكّنت هذه الحملة الفاطميّين من السيطرة بسرعة، ما بين ٣٤٧-٣٤٩هـ/ ٩٥٨-٩٦٠م، على الجزء الأكبر من هذه البلاد ما عدا الموانئ، مثل طنجة وسبتة، والقضاء على مملكة الأدارسة الصغيرة. بعد ذلك بقليل قاد جوهر بنجاح حملة إلى مصر، لحساب الخليفة المعزّ، وتمكّن من الاستيلاء على البلاد وأسّس في مصر، قبل وصول سيده اليها، حاضرة جديدة أُطلق عليها اسم القاهرة. وهكذا حكم جوهر، لفترة أربع سنوات - حتّى وصول المعزّ في العام ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م - هذه الولاية التي ستصبح مقرّاً للسلطة الفاطميّة في الشرق. ويبدو أنّه منذ ذلك الحين توقّفت كل أنشطة جوهر.

الجُوينيّ، أبو المعالي، عبدالملك بن عبدالله (٤١٩-٤٧٨هـ/ ١٠٢٨-١٠٨٥م)، عالم دين وفقيه. أُطلق عليه، بسبب شهرته في المحيط الإسلامي القروسطي، اللقب الفخري «إمام الحرمين»، أي إمام مكة والمدينة، بالرغم من أنّه لم يمكث فيهما سوى الفترة ما بين ٤٥٠-٤٥٤هـ/ ١٠٥٨-١٠٦٢م.

ولد الجُوينيّ في نيسابور في خراسان وهو، كوالده، من أتباع مذهب الأشعريّة. درّس في مسقط رأسه؛ ثمّ اضطر إلى مغادرة إيران عندما أدان وزير السلطان السلجوقي طغرلبك الأشعريّة، بوصفها «بدعة مستنكرة»، فانتقل، على الأثر، إلى بغداد، ومن ثمّ إلى الحجاز حيث اكتسب لقبه. ولم يرجع إلى بغداد، إلّا بعد أن أوقف الوزير الجديد، نظام الملك، الملاحقات التي كان سلفه قد بدأها، داعياً المهاجرين للعودة إلى بلادهم. ولأجله أُسّست في نيسابور المدرسة النظاميّة حيث درّس، وخلفه، بعد ذلك، تلميذه الغزالي.

تشتمل مؤلّفات الجويني على دراسات فقهيّة، اقترح فيها طريقة جديدة في ما عنى «الأصول» أي «أصول الشريعة»؛ لكن اقتراحاته لم تلقَ نجاحاً كبيراً، وبخاصة دراساته في علم الكلام التي سعى فيها إلى تجديد المذهب الأشعريّ، بإعطائه مكانة واسعة للمنطق من النمط الأرسطوطاليسيّ. ولديه أيضاً بحث مهمّ في القانون العام، لكنّه يبقى دون بحث الماوردي من الناحية التأليفيّة.

جيّان (إسبانيا)، من مدن الأندلس، عُرفت على مدى أكثر من خمسة قرون من السيطرة الإسلامية، كموقع إستراتيجي ساهم في الدفاع عن الأندلس.

تقع جيّان على منحدرات تلّة سانتا كاتلينا الصخريّة، إلى الشرق من قرطبة. امتلكت هذه المدينة الفروسطيّة حصناً منيعاً، وكانت في البداية قاعدة لجند قنّسرين. بعد فترة وجيزة، تجاذب المدينة أمير قرطبة الأموي والمتمرّد عليه ابن حفصون، إلى أن استولى عليها أمير غرناطة، ومن ثمّ المرابطون. فالموحّدون الذين انطلقوا منها في فترة الهجوم الذي قادهم إلى النصر في معركة لاس نفاس دي تولوزا (معركة العقاب). وعندما أُلحقت جيّان بمملكة قشتالة في العام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، أضحت الحصن المدافع عن هذه المملكة ضد هجمات بني مَرين وبني نصر أمراء غرناطة.

جيبوتي (جمهوريّة)، مساحتها ٢٠٠ ٢٣ كلم²، وعاصمتها جيبوتي، دولة صغيرة معاصرة ومستقلّة، تتكوّن أساسًا من مدينة جيبوتي المرفئيّة الحديثة التي لا يتعدّى عدد سكانها النصف مليون نسمة، جميعهم تقريبًا من المسلمين.

تلك الأرض التي تحيط بها اليوم الحبشة

والصومال، انبثقت من القسم الفرنسي القديم لساحل الصومال، وأصبحت في العام ١٩٤٦ من الأراضي الفرنسيّة ما راء البحار، حتى استقلالها عام ١٩٧٧. إنّها تعود جغرافيًا إلى بلاد «ألعفار»، وليس الى بلاد الصومال. ومقوّمات الحياة لدى السكّان الذين دخلوا الاسلام منذ زمن بعيد كانت في الواقع شبيهة بتلك التي للبدو في أريتريا المجاورة.

في أواخر القرن التاسع عشر أنشأت فرنسا مرفأ جيبوتي، فأدّى ذلك الى ازدهار اقتصاديّ في المنطقة، والى استقرار سياسيّ فرضته أهميّة موقع جيبوتي الإستراتيجي والإقتصادي مقابل اليمن، وعلى منفذ البحر الأحمر وخليج عدن المؤدّي الى المحيط الهندي. والسكان الذين هم من قدماء البدو ومن قبائل عربيّة مهاجرة، يتوزّعون في الأحياء المحيطة بالمرفأ، لعدم وجود أماكن أخرى صالحة للسكن، ويفيدون من المساعدات الفرنسيّة والغربية، وكذلك من مساعدات دول شبه الجزيرة العربيّة الغنيّة التي يقيمون معها علاقات طيّبة. وهم من السنّة التابعين للمذهب الشافعي، يتأثرون بالطّريقة القادريّة، مع الاحتفاظ ببعض العادات والأعراف الدينيّة المحليّة. وتلاحظ في جيبوتي وجود عدد من الشيعة الزيديّة قدموا من اليمن.

جيلان، أحيانًا «غيلان»، إقليم في جمهوريّة إيران الإسلاميّة يقع جنوب غربي بحر قزوين وجنوبي جمهوريّة أذربيجان المتاخمة له.

عُرف بهذا الاسم في القرون الوسطى، واعتُبر نوعًا ما جزءًا من الديلم، فيما كانت علاقاته التاريخيّة قائمة مع اذربيجان من جهة ومازندران أو طبرستان من جهة أخرى. كان يمتدّ على مقاطعتين حول دلتا نهر سفيدرُود، في منطقة خصبة ورطبة حيث كانت زراعة الأرزّ مزدهرة؛ وقد أثّرت على مناخه سلسلة جبال البرز المكسوّة بالأشجار التي تفصله عن الهضبة المجاورة. كما أمّن له هذا الموقع حماية فعّالة ضدّ الغزاة الأجانب عبر العصور، ما خلا أولئك الذين كانوا يهاجمونه بحرًا وهم الڤايكنغ المعروفون بالروس، في أوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، والقوزاق في القرن السابع عشر.

في هذه البلاد المنيعة، عاش السكّان المحليّون طويلًا على دين أسلافهم، أي الزرادشتيّة، فلم تشملهم الفتوحات العربيّة الإسلاميّة في القرن السابع الميلادي، ولم يعتنقوا الإسلام إلّا في فترة متأخّرة، في صورته القائمة على مذهب الشيعة الزيديّة الذي ساد، أيامئذٍ، إقليم طبرستان. ومع أنّ مذهب السنّة تسرّب إلى بعض نواحيها، فإنّ هذه المنطقة التي كانت تشملها بلاد الدّيلم الكبرى، خلال بلوغ النفوذ البويهيّ أوجه، اكتفت بالاعتراف الإسميّ بسيادة السلالات الأمبراطوريّة التي حكمت إيران والتي شملتها بسلطتها، سواء منها السلاجقة أو الإيلخانيّون بوجه خاص، ولم تخضع لسلطة مركزيّة إلّا ابتداءً من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، بفضل جهود الصفويّين الّذين حرصوا على نشر المذهب الشيعي الاثني عشري فيها، وعندئذ صارت جزءًا لا يتجزّأ من بلاد فارس، رغم محاولات احتلال غير ناجحة قام بها الروس في القرن الثامن عشر، ثمّ الحكومة السوڤياتية ما بين ١٩١٧ و١٩٢١. وقد تنامت حديثًا في هذا الإقليم مدينة رَشت، وهي القاعدة الإداريّة الجديدة له ومركز إقتصادي حديث حلّت محل العاصمة القروسطيّة القديمة، لا هيجان، منذ القرن الرابع عشر للميلاد.

◄ راجع المستندين ٢٣ و٢٤.

الجيلانيّ، عبد القادر محيي الدين أبو محمد بن أبي صالح (٤٧٠-٥٦١هـ/١٠٧٧-١١٦٦م)، أحد أشهر الأولياء الذين تنتسب إليهم فرقة القادريّة الصوفيّة. شُهر الجيلاني كصوفيّ، وعالم وفقيه، وواعظ في بغداد حيث لا يزال مدفنه مزارًا. وفي إطار مذهب الفقه الحنبلي الصارم تمرّس هذا الإيراني الشاب، القادم من جيلان الى بغداد لمتابعة الدراسات الدينيّة، بالفقه والتفسير والحديث على ابن عقيل الحنبلي، وتلقّى في الوقت نفسه مبادئ الصوفيّة على أبي الخير حمّاد الدبّاس، ثمّ قام بنفسه بالتدريس في مدرسته الخاصّة، حيث حافظ أعقابُه من بعده على بقائها وحيويّتها. دافع الجيلاني عن موقف محافظ ومحترم للشريعة، مشجّعاً محاربة الأهواء بشكل جهاد داخلي (ضد الذات).

اشتهر كواعظ، وقد امتدّت هذه الشهرة بفضل

مصنّفاته الوعظيّة التي انتشرت بعد وفاته، وكانت في أساس الإعجاب الذي خصّه به تلامذته الكثر، وفي أساس الصورة المثاليّة التي رسمتها له المصنّفات التعليميّة المتأخّرة.

وإذا كان الجيلانيّ، في كتابه «الغُنْيَة» حيث يعرض للواجبات الدينيّة والاجتماعيّة المفروضة على المسلم، يقوم بدور الفقيه، فإنّه يحرص في المواعظ المنسوبة إليه على أن يبيّن أنّ ما يقوم به الصوفيّ لا يستوجب اللّوم. وبحسب مذهبه، فانّ الإنصياع لتعاليم النبيّ محمّد (ﷺ) يجب أن يكون مطلقاً من دون أن تحول الأعمال غير المفروضة شرعًا، في أي حال من الأحوال، من تطبيق مقتضيات الشريعة؛ لكنّ التنسّك وكلّ الممارسات المؤدّية إلى النشوة محكومة ببعض القيود. فمن واجب المسلم، كما يقول الجيلانيّ لمستمعيه، حتّى من غير المتصوّفة، التغلّب على أهوائه والترفّع عن تقديس نفسه، والخضوع لمشيئة الله. ويقترح الجيلانيّ منهجاً شديد الصرامة الأخلاقيّة قبل كل شيء. إنّ هذا المعلّم الذي يعتبره تلامذته صانع معجزات هو، على الأصح، إذا ما حكمنا على كتاباته، تقليديّ لا يمكن للحنابلة إدانته.

جيليبولو (الجمهوريّة التركيّة)، أو غاليبوليس باليونانيّة، مدينة مرفئيّة على ساحل تراقيا في طرف مضيق الدردنيل. كان لها دور مهم في أثناء التوسع العثماني في اوروبا.

كانت حصنًا قاريًّا وبحريًّا قديمًا للبيزنطيّين، وقد هُدم جزء من المدينة جرّاء هزة أرضية، واحتلّها العثمانيّون في العام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، فأصبحت قاعدة انطلاق عمليّات عسكريّة في اتّجاه الشمال. هاجمها الصليبيّون واستولوا عليها عام ٧٦٧هـ/١٣٦٦م، ثمّ أُعيدت إلى البيزنطيّين الذين هجروها في العام ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م. أصبحت القاعدة البحريّة الرئيسة للعثمانيّين في عهد مراد الأول حوالى العام ٧٩١هـ/١٣٨٩م، إذ كانت تملك دارًا للصناعة، فوجب عليها، خلال عقود، أن تدافع عن نفسها ضد هجمات الجَنويّين. لهذا عزّز السلطان بايزيد الأوّل يلديرم قلعتها، آملًا السيطرة على المضيق الذي كان الجنويّون ينازعونه عليه. لاحقًا، بعد احتلال القسطنطينيّة في العام ١٤٥٣، أُنشئت ترسانة جديدة في اسطنبول على القرن الذهبي في العام ١٥١٥، وفقدت بعدها جيليبولو بعض أهميّتها.

كان لهذه المدينة المرفئيّة دور تجاري على الطريق المؤدّية من بورصة إلى أوروبا، وهي طريق سلكها تجار أوروبيّون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. لكنّ المدينة كانت تشرف، بصورة خاصة، على الطريق البحرية التي تمرّ بالمضيق، وهناك كان يتمّ تفتيش المراكب الآتية من اسطنبول متّجهة إلى المتوسط.

◄ راجع المستند ٢٧.

ح

الحاجّ عمر بن سعيد بن عثمان تال، ١٧٩٧-١٨٦٤، زعيم ديني ورجل حرب، استطاع باسم الجهاد أن يصبح سيّدًا على أمبراطوريّة واسعة وموقّتة في ما كان يُعرف بالسودان الغربي.

وِلد الحاج عمر في فوتا تورو في جمهوريّة السنغال الحاليّة. انضوى الى الطريقة التيجانيّة بعد أن تابع دراسات تقليديّة. ان هذا المتصوّف المثقّف، الذي توجّه الى مكّة والقاهرة في رحلة طويلة الأمد ساعيًا إلى المزيد من المعرفة في المشرق، عاد إلى فوتا جالون ليجمع حوله أتباعًا ويقوم بدور مؤسّس زاوية ومحرّك سياسي.

انصرف للدعوة الى الجهاد بنجاح متعاظم، ثمّ عمد، بعد عشر سنين تقريبًا، إلى شنّ حملات عسكريّة وضاعف الانتصارات، وضمّ تحت سيطرته أراضي تمتد من وادي السنغال إلى وادي النيجر.

إن عددًا لا يستهان به من الوقائع الدمويّة سمحت له بأن يفرض بالقوة الشرع الإسلامي، متصدّيًا للسلطات السابقة المرتبطة بأمبراطوريّة اليول أو الفُلبة التي كانت تذكّيها الطريقة القادريّة. وبعد محاولات لمنع الفرنسيّين من أن يتقدّموا عن طريق الساحل الغربي، ساقته انتصاراته إلى الشرق، أوّلًا حتى سيجو (Ségou) التي استولى عليها في العام ١٨٦١، ثمّ الى مَسّينا حيث أعلن نفسه سلطانًا في العام ١٨٦٢، بعد أن سيطر على حمدالّلهي ودمّر دولة شيخو أحمد وخلفائه التيوقراطيّة، ونهب تومبوكتو.

إلّا أنّ المغامرة انتهت بموت الحاج عمر بحادث عنيف قرب حمدالّلهي، على أثر عدد من المعارك عقبت سلسلة من الثورات المتجدّدة وعلى أثر الضعف السريع الذي أصاب هذه السلطنة التي قامت على الجاذبيّة الشخصيّة التي تمتّع بها الحاج عمر. على الرغم من ذلك، ورث الحكم ابنه أحمدو سيكو الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين عام ١٨٤٧، واستطاع أن يحافظ إلى حدّ ما على استقلال البلاد حتّى الاحتلال الفرنسي الذي تمّ نهائيًّا بين ١٨٩٠ و١٨٩٣.

الحاجب، مسؤول مرموق في حاشية الخليفة، كان يضطلع، خلال القرون الوسطى، بدور كبير في المراسم الاحتفاليّة الملكيّة.

والحاجب المكلَّف، منذ الحقبة الأمويّة، مهمّة تقديم الزوّار للخليفة الذي كان - بحسب تقليد يعود إلى الأمبراطوريّة الساسانيّة - مستورًا وراء حجاب، كان، أوّلًا بوّابًا. على أنّ وظيفته، من خلال مقابلات الخليفة، جعلته على صلة مباشرة بحياة سيّده. والحاجب، بوصفه رئيسًا لتابعي الخليفة، وأحيانًا رئيسًا لمقرّ إقامة الخليفة بكامله، تتداخل مهماته في بعض الظروف مع طموحات الإداريّين: فكان يتولّى أحيانًا مسؤوليات حكوميّة يزاحم فيها وظائف الكتّاب الأكثر نفوذًا، وبخاصة الوزراء الذين قد يحدث له أن يقوم مقامهم.

كما كان يمكن أن يكون لمقام الحاجب، إذا كان خارجًا من صفوف الجيش، وبشكل خاص من صفوف حرس الخليفة، طابعًا عسكريًّا. وكان من أثر ضعف السلالة العبّاسيّة، في منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، أن يُمنح الأمير - الحاجب - الذي كان يتصرف كحاكم مطلق الصلاحية في العاصمة - السلطة التي آلت في نهاية الأمر إلى حاكم ولاية أُسبغ عليه لقب «أمير الأمراء». وكان الطابع العسكري ذاته طاغيًا في الولايات الشرقيّة، عند السامانيّين، وفي ما بعد عند الغزنويّين، حيث كانت مرتبة الحاجب - سواء

كان صاحبها أو لم يكن، في الوقت نفسه، مديرًا للقصر - تمنح امتيازًا للضابط الذي يحظى بثقة الحاكم. وانتقل هذا التقليد، في ما بعد، إلى سلاجقة سوريا وأتباعهم من البوريّين والزنكيّين أو الأيوبيّين. لكنّ هذا الامتياز كان أكثر بروزًا في الأندلس حيث آل مركز الوزير الأوّل، منذ البدء، إلى حجّاب كان لهم، في إدارة شبه الجزيرة الإيبريّة، الصدارة بالنسبة إلى الوزراء الذين أعتُبروا مجرّد مستشارين. وفي السنوات الأخيرة من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بلغت وظيفة الحاجب الذروة مع الانتصارات العسكريّة والمسار السياسي لابن أبي عامر، «حاجب القصر» الشهير والمعروف بلقبه التكريمي «المنصور بالله»، وهوّ من الالقاب التي كانت تُعطى للملوك، وقد أطلق عليه المسيحيّون اسم «المنظور» (Almanzor).

وفي ما بعد استمرّت وظيفة الحاجب مع مختلف الملوك في العالم الإسلامي الذين كان يقاس جبروتهم بمدى اتساع قصورهم، وأبّهة بلاطهم الأميري وتفوّق حرسهم. اعتُبر الحجّاب أشخاصًا لا غنى عنهم في ميداني الانضباط العسكري والمراسم الملكيّة، ما أتاح لهم الوصول إلى مراتب تشريفيّة توصّلت الأمبراطوريّات الكبرى الى تنظيمها بشكل تراتبي وفي مسار أكثر رتابةً. وقد وصل الأمر بالحجّاب، في الدولة المملوكيّة السوريّة - المصريّة مثلًا، إلى أن أصبحوا المسؤولين عن نوع من القضاء السياسي الفريد من نوعه، حلّ، في الطبقات العسكريّة القياديّة، محلّ السلطة القضائيّة الاسلاميّة التقليديّة.

حاجّي بكتاش ← البكتاشيّة.

حاجّي خليفة ← كاتب چلبي.

الحافِظ لفظة تعني، في أصلها، «من يحفظ القرآن غيبًا»، ثمّ اتّخذت معنى خاصًا ينطبق على بعض العلماء.

وعلى مرّ الزمن، اتّخذت اللفظة منحى شرفيًا وصارت تعني عالمًا كبيرًا ذائع الصيت، مع المحافظة على المعنى التقني المتعلّق بعالم حفَظ المعارف الدينيّة ومنها نصوص الحديث، أي باختصاصيّ بعلم الحديث. وهكذا أُطلق الأسم على ابن عساكر المحدّث الشهير.

حاكم إقليم، بالعربيّة، أمير أو والي، وفي التركيّة باي أو بيلربي أو باشا. مهمّة استمرّت في جميع بلدان العالم الإسلامي حتّى العصر الحاضر، كانت ذات أهميّة كبرى في القرون الوسطى حيث أدّت إلى قيام سلطة سلالات مستقلّة، بلغت أحيانًا حدّ الاستقلال، كما كان يحصل مع عدد من أسياد الحرب.

مارس الحكّام مسؤوليّات أساسيّة، خلال عهد الأمويّين الذين أوكلوا إليهم إدارة مناطق كبيرة من الأمبراطوريّة، شرقًا وغربًا، إلّا أنّ هذه المسؤوليّات تقلّصت خلال العهد العبّاسي. فمن جهة، برز اتّجاه إلى تقسيم المناطق إلى وحدات إداريّة قائمة بذاتها وشبه مستقلّة، بحيث غدت أصغر بكثير ممّا كانت عليه سابقًا؛ ومن جهة أخرى، حرص الخلفاء على فصل المهمّات الموكولة إلى الحكّام وتحديدها في كلٍّ من الاقاليم.

فقد أُلحق بالحاكم - الذي استمرّت مهمّته في الحفاظ على النظام، والدفاع عن الحدود عند الاقتضاء، وفي الوقت نفسه إمامة الصلاة - جابٍ للضرائب، يُقال له عامل، يجمع الضرائب وفاق المبلغ الذي تحدّده الإدارة المركزيّة للشؤون الماليّة؛ وكذلك قاضٍ يعيّنه الخليفة، مهمّته تأمين ممارسة العدالة. إلّا أنّ هذا النظام الذي يسّر رقابةً عمليّة على حكّام الأقاليم أصابه الوهن شيئًا فشيئًا. فمنذ بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، على سبيل المثال، حصل الأغالبة في إفريقية، من بغداد، على وضع إداريّ يمنحهم شبه استقلال سعى إلى توفير مثله لأنفسهم حكّام الأقاليم الشرقيّة (الطاهريّون) وكذلك حكّام مصر (الطولونيون)، لكن من دون جدوى. ثمّ إنّ بعض الأمراء تمكّنوا، خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، من وضع يدهم على الموارد الماليّة العائدة الى أقاليمهم، ومن فرض إرادتهم على الخليفة. هكذا نشأ منصب الأمير الكبير أو أمير الأمراء الذي تبوّأه، بشكل خاص، في ما بعد، البويهيّون.

وعقب التفكّك الذي أصاب الأراضي المترامية الأطراف التي تشكّلت منها الخلافة العبّاسية، برزت التوتّرات والصعوبات نفسها بين أسياد الأمبراطوريّات الكبيرة التي تعاقبت خلال التاريخ الإسلامي القروسطي

أو الحديث، وحكّام ولاياتهم. وإذا كانت هذه المواجهات قد اتّخذت أشكالاً مختلفة عمّا كانت عليه أيّام العبّاسيّين، فإنّ مسألة استقلال الحكّام في أراضي الأطراف طُرحت من جديد أيّام العثمانيّين، في بلدان المشرق العربي وفي المغرب، على سبيل المثال. في حين أنّ المغول، في أوج سلطتهم في شبه القارة الهنديّة، تجنّبوا ذلك عن طريق اقامة نظام إداري مركّب في الولايات الأساسيّة.

الحاكم بأمر الله، أبو علي المنصور، ٣٧٥-٤١١هـ/ ٩٨٥-١٠٢١م، شخصيّة غريبة الأطوار، وهو سادس خليفة فاطمي يتّخذ من القاهرة مركزًا لحكمه. لقد بسط نفوذه على الامبراطورية الشرقيّة التي أسّستها عائلته بعد تحوّل نشاطها إلى مصر، وذلك من سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م حتّى وفاته.

أقرّ له أُولو الأمر من الاسماعيليّين بالإمامة، رغم تصرّفاته الاستفزازيّة والأزمات الدينيّة التي نتجت عن ذلك. وقد اعتبره أهل السنّة مختلًّا، نظرًا الى مبادراته الخطيرة التي وصمت حياته السياسيّة والدينيّة.

لقد خلف الحاكم بأمر الله والده العزيز وهو في الحادية عشرة والنصف من عمره. وما أن اعتلى سدّة الخلافة حتى توسعت دائرة الخلافات بين زعيم البربر من قبيلة كُتامة، من جهة، والوصي السابق على الحاكم، واسمه بَرجوان، من جهة ثانية.

وتجدر الاشارة الى أنّ برجوان تمكّن من ممارسة السلطة حتى تاريخ اغتياله بأمر من الخليفة الشاب. ومنذ ذلك الحين تولّى الحاكم السلطة مستبدًّا غير آبه، الى حدّ جعل المؤرخين يجدون صعوبة في تفسير تصرّفاته ودراسة شخصيّته.

لم تكن القرارات الصادرة عن الحاكم مطلقة ومجحفة على صعيد الرأي العام وحسب، بل أسوأ ما فيها أنّه كان أحيانًا يتراجع عنها، ممّا حمل البعض على الشك في سلامة عقله.

تميّز الحاكم بادئ ذي بدء بالهجوم العنيف الذي شنّه على المسيحيّين واليهود، ولا يخفى ما في هذا العمل العداني من مخالفة لسياسة أسلافه الذين أرسوا أسس المصالحة والمسالمة. فقد أصدر الأمر مثلًا، بين العامَيْن ٣٩٣هـ/١٠٠٣م و٤٠٤هـ/١٠١٣م، بتدمير الكنائس من أجل بناء المساجد، وبمنع بيع الخمر حتى إلى من ليسوا بمسلمين، كما فرض على المسيحيّين واليهود التمنطق بنطاق أسود واعتمار العمامة السوداء، وصادر أملاك الكنائس والأديار في مصر. وفي العام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م، أمر بتدمير كنيسة القيامة في القدس، وفي العام ٤٠٤هـ/١٠١٣م، استبدل مسلمين بالموظفين المسيحيّين العاملين في السلك الاداري، كما هدم عددًا من الأديار. وتعرّض المسيحيون في عهده إلى شتّى أنواع الاضطهاد، فتحوّل عدد كثير منهم الى الإسلام.

لم يكن الهدف من هذه الاجراءات إرضاء المسلمين الذين كانوا مستائين من سياسة الفاطميّين المتسامحة تجاه أهل الذمّة. إنّ ما فعله الحاكم لم يتخطّ مبدأ تطبيق الشريعة فحسب، بل يبدو أنّه أتى، بحسب ما يؤكّده البعض، مجاراة للنبوءات التي ظهرت حوالى سنة ١٠٠٩-٤٠٠هـ، والزاعمة أنّ الاسلام سينتشر على الأرض كلّها.

لم يتردّد الحاكم، نظرًا الى التكهّنات السائدة، في أن يدمّر الكنائس والأديار لأنّ المسيحية في نظره، في مثل هذا المناخ، مدعوة الى الزوال سريعًا. ولمّا لم تتحقّق التنبؤات، عاد الحاكم الى رشده ووعى خطورة ما فعل، الى حد أنّه سمح للمسيحيّين الذين اعتنقوا الإسلام، أن يعودوا من جديد إلى ديانتهم الأولى بدون أن يُعاقبوا على ارتدادهم. وعقد مع البيزنطيّين اتّفاقًا لإعادة بناء قبر السّيد المسيح في القدس الشريف.

فسّر البعض تصرّفات الحاكم بشكل غير مقنع، ناسبين موقفه المعادي للمسيحيّة الى حاجات ماديّة او ضرورة ملحة لايجاد أراضٍ ينشئ عليها جوامع جديدة. إلّا أنّ هذه النظريّات لا تفسّر تراجعه المفاجئ في ما بعد، ما يبقي مسألة التفسير معلّقة.

يبدو أنّ الحاكم اهتمّ أيضًا بالانحلال الأخلاقي الذي لحق بالمسلمين، فوجد نفسه مضطرًّا الى تبنّي سلسلة من القرارات العنيفة والقاسية ومنها: منع الظهور في الحمامات بدون ثوب حمام، منع بيع القيان، منع الغناء والرقص؛ منع النساء من التوجّه الى الحمّامات أو

إلى المقابر، منع الاسكافيين من صنع أحذية النساء، منع اللهو على ضفاف النيل، منع التجوّل ليلًا. أضيف الى كل هذه الممنوعات أمرٌ غريب وهو الدعوة إلى قتل كل الكلاب لأنّ نباحها يزعج الخليفة. عاقب الخليفة الذين خالفوا أوامره بقسوة، في حين أمرَ بتعذيب أشخاص عديدين وإعدامهم، بنوع خاص من بين الموظّفين. أضف إلى هذه القائمة أوامر بتطبيق بعض الفرائض الخاصة بالمذهب الشيعي، والدعوة الى قتال أهل السنّة، ولعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوّلين وصحابة نبي الإسلام (ﷺ). كلّ هذه الاجراءات التي كان الحاكم يتراجع عنها ثمّ يفرضها من جديد، أدّت إلى تزايد استياء الشعب منه.

عُرف عن الحاكم أنّه تأثّر ببعض المتشيّعين من أتباع المذهب الاسماعيلي الفاطمي الذين خيّب الخلفاء الفاطميّون الأوائل آمالهم، لعدم اتّخاذهم صفة المهدي ولعدم اصدارهم شريعة جديدة. انجذب هؤلاء المتطرّفون الى شخصيّة هذا الخليفة الذي أظهر عصبية خاصة ومفرطة تجاه الدين بصورة عامة، وتجاه الاسماعيليّة بشكل خاص، فدعوا الى تأليهه، وهذا لم يزعج الحاكم مطلقًا، بل جعله يميل الى تصديق تنبّؤات الدرزي وحمزة اللذين يعود اليهما في ما بعد، تأسيس مذهب الدروز الذين عرفوا أيضًا بالحاكميّة.

أمّا الشعب المصري، على الرغم من اعتناقه المذهب الإسماعيلي، فصُدم بهذا التطرّف واعتبر أنّ الخليفة يريد أن يقضي على تعاليم الإسلام، فهاج في وجهه وقام بالثورات والفتن. عبّر ردّ الخليفة عن غضب مجنون وأدّى في العام ٤١٠هـ/ ١٠٢٠م إلى حرق مدينة الفسطاط ونهبها وإذكاء الصراعات بين الجنود السود، من جهة، والبربر والأتراك من جهة ثانية. وظلّت الحالة مأسويّة حتّى اختفاء الحاكم في احدى ليالي شوّال/ شباط في العام ٤١١هـ/ ١٠٢١م، بينما كان يتمشّى في مدينة القاهرة. يُقال إنّه اغتيل على يد أحد المعارضين، إلّا أنّه أصبح، بالنسبة الى الدروز، المهدي المنتظر الذي ما زالوا ينتظرون عودته.

الحاكم الترمذي، محمّد بن عبدالله بن الحسين ؟ - ٣٢١هـ/ ؟ - ٩٣٢م، من أوائل رجال التصوّف الذين ذاع صيتهم في الأقاليم الشرقيّة من إيران.

وولد الحاكم في ترمذ، في ما وراء النّهر، شمالي خراسان، ودرس في نيسابور. نجهل الكثير عن سيرته الذاتيّة، وتاريخ وفاته ليس دقيقًا. ترك مؤلّفًا عنوانه «ختم الأولياء»، يشدّد فيه على صفة القداسة أو الولاية الخاصة بأحبّاء الله. اعتبر الولاية أعلى شأنًا من النبوّة، لأنّها مستمرّة ومتواصلة غير مرتبطة بظروف معيّنة. كلّفته عقيدته الملاحقة والمطاردة من قبل السلطات المحليّة فاضطرّ الى الهرب والانزواء، غير أنّ أفكاره عادت الى النور لاحقًا بفضل أحد المتصوّفين، هو ابن العربي.

نجد بين أنقاض مدينة ترمذ، التي تعود إلى ما قبل العهد المغولي، معبدًا يحمل اسم الحاكم، يبدو انه شيّد بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، في زمن انتشر فيه تكريم الأولياء. ما زال المعبد محافظًا، منذ تلك الفترة، على زينة من الرخام المنحوت تكسو جوانب الجدران القرميديّة.

الحاكمية ← **الدروز**.

الحبشة ← **إثيوبيا**.

الحبوس ← **الوقف**.

الحجّ أو الحجّ الكبير، هو إحدى الفرائض الأساسيّة الموصوفة بـ «أركان الإسلام»، تجري في مكّة عبر مجموعة طقوس حدّدتها الشريعة في فترة معيّنة من التقويم الهجري. يُفرد الحجّ الكبير مكانًا للحجّ الصغير أو العُمرة، وهو بدفع، حتّى أيامنا هذه، بحشد سنوي من الزوّار الورعين إلى الحجاز ويؤثّر على تنظيم الحياة العامّة في العالم الإسلامي. ينظّم القرآن الكريم، بشكل دقيق، الحجّ الكبير والحجّ الصغير الذي يمكن القيام به في أي وقت وخارج موسم الحجّ، توقيرًا لقدسية بيت الله الفريدة، أي الكعبة. يتميّز الحجّان بوضوح عن «الزيارات» غير المفروضة التي يقوم بها المسلمون والتي تُعتبر، على الأقل عند أهل السنّة، طقوسًا نافلة.

١ - كان الحجّ إلى مكّة قبل الإسلام يتمّ في شهر رجب، وكان مناسبة هدنة تحترمها قبائل البدو المختلفة المتنقّلة في وسط شبه الجزيرة العربيّة. كان ينماز بخاصة بزيارة حرم الكعبة المحليّ ويمنح مكانة دينيّة مرموقة

لذلك الموقع المقفر حيث كانت تتوالى التجمّعات والعروض، سواء حول الكعبة وبئر زمزم أو في الأرباض القريبة من حاضرة القوافل الصغيرة. كما كان يشهد أنشطة غير دينيّة، كالأسواق، تُتخذ في سبيلها تدابير متعدّدة تسهيلاً لإقامة الحجاج في المنطقة بتأمين الماء والغذاء لهم. كانت مهمّة السقاية هذه من امتيازات الهاشميّين، وهم يشكّلون في مكّة إحدى العشائر التي يتحدّر منها النبي محمد (ﷺ). إلّا أنّنا نجهل تفاصيل الطقوس التي كانت معتمدة خلال الاحتفالات، لأنّ تلك التي احتفظ بها النبيّ محمّد (ﷺ) وأعطاها معنى جديدًا لا تكفي للدلالة على مجموع الطقوس التي كانت تمارَس فعلاً، وقد سقط بعضها أو جرى طمسه، في حين أنّ ما تبقّى منها أُفرغ من تفاصيل عدّة.

إنّ المعلومات التاريخيّة التي يمكن الاستناد إليها لا تتجاوز ما يتعلّق بتكريم الكعبة العريق الذي لا يظهر في السياق القرآني إلّا في بداية المرحلة المدينيّة. حينها تحدّدت للصلاة وجهة القبلة الجديدة، بعد أن كانت وجهة القدس/أورشليم معتمدة في السابق. يعني ذلك أنّ الدعوة المحمّدية إلى الحجّ واكبت مقاطعة التقاليد اليهوديّة والعودة إلى التقاليد المكيّة التي نُقّيت من الرواسب الوثنيّة من منظور إبراهيمي. لذا يشير القرآن الكريم إلى إبراهيم على أنّه مؤسّس الكعبة التي بناها أو أعاد بناءها بمساعدة ابنه إسماعيل:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة، الآية ١٢٧).

طبعت ذكرى نبيّ الإسلام (ﷺ) أرض مكّة، ووُضع برعايته الحجّ الإسلامي الذي أُسّس خلال حياته والذي ورد ذكره في آيات عديدة ساهمت في تحديد أصوله. أهم هذه الآيات:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (سورة البقرة، الآيات ١٩٦-١٩٨).

وهناك آيات أخرى تستدعي الذكر:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (سورة الحجّ، الآيات ٢٧-٢٩).

أمّا القيام بشعائر الحجّ، فمن المعلوم لدينا أنّ مسلمي المدينة كانوا قد صمّموا، في السنة السادسة للهجرة، أي ٦٢٨ للميلاد، على المشاركة في احتفالات مكّة، ولكنّهم مُنعوا من ذلك. فتمكّنوا في السنة التالية، بموجب اتفاقية الحُدَيْبِيَة، من تأدية طقوس الحجّ الصغير (العُمرة) بحريّة تامّة. ولمّا قام النبيّ محمد (ﷺ) في ما بعد بفتح مكّة سنة ٦٣٠، حجّ المسلمون في تلك السنة وفي السنة التي تلتها برفقة المشركين[٤٧]. أخيرًا، لم يبادر النبيّ محمد (ﷺ)، إلّا في العام ٦٣٢، إلى أداء هذه الفريضة، وذلك قبيل وفاته، فسُمّيت لذلك حجّة الوداع التي ألقى خلالها عظة شهيرة. ومُنع المشركون من المشاركة في ذلك الحجّ بموجب الآيات المُنزلة التي روجِعَت أحكامها للمرّة الأولى بحسب السنّة والتي نظّمت كيفيّة أداء الحجّ في ما بعد.

إن الحجّ الكبير المبنيّة شعائره على هذا النحو يشكّل، وفق الشريعة الإسلاميّة التي تحظى بالإجماع، إحدى الفرائض بالنسبة إلى كلّ مسلم حرّ يتمتّع بالقدرة الجسديّة على أدائه وبالإمكانيات الماديّة اللازمة، وعليه أن يقوم به مرّة في حياته. عندئذ يحقّ له بأنّ يُلقّب حاجًّا. وبحسب الآراء السائدة في معظم المذاهب الفقهيّة، يمكن أن ينتدب المؤمن من يحجّ مكانه، وذلك يسمح بأن يؤدّي أحدهم الحجّ لحساب شخص متوفّى لم يتمكّن من تأديته.

٢ - على المسلم الذي يودّ فريضة الحجّ أن يشرع بتطهير نفسه لدى وصوله إلى منطقة مكّة واجتيازه، بصفته حاجًا، حدود الأرض المقدّسة أو الحرم، معربًا عن نيّته في فعل ذلك، أي واضعًا نفسه في حال الإحرام. لذلك عليه أن يخلع عنه كل ثوب مخيّط وأن يرتدي زيًا خاصًا مؤلّفًا من قطعتَي قماش أبيض، تدعى إحداها إزارًا تُشدّ حول الوسط لتبلغ الركبتين كثوب فضفاض، والثانية رداءً تغطي الكتفين وتلفّ النّصف الأعلى من الجسم. عليه أيضًا أن ينتعل خفّين وأن يبقى مكشوف الرأس مع إمكان استعمال مظلّة اتقاءً للشمس. ومن بين الموجبات الدقيقة التي تختلف بعض الشيء باختلاف المذاهب الفقهيّة، ضرورة تقصير شعر الرأس، قبل البدء بالحجّ، والقيام بالوضوء الشامل، ومن ثمّ عدم تقليم الأظافر وقصّ الشعر واللحية والامتناع عن العلاقات الجنسيّة.

بالنسبة الى النساء، لا يقضي الإحرام بأي لباس طقسي خاص، لكن عليهنّ مثل الرجال أن يعربنَ عن نيتهنّ في أدائه. ويتمّ الإحرام عادة على مسافة معيّنة من مكّة عند حدود الحرم حيث بدخلته من منازل يُدعى كلٌّ منها ميقات، ويتلون صلاة من ركعتين ويكرّرنَ مرّات عدّة كلمة «لبّيكَ» التي تعني ها أنذا، وهي صيغة التلبية. كانت المحطّات تقع على خطوط القوافل القديمة التي تُفضي إلى المركز الديني للعالم الإسلامي والتي يسلكها في كل عام الحجّاج الآتون من مختلف الأقطار. وكانت كل محطّة تشكّل أحد تخوم الأرض المقدّسة، مثلًا: ذات العِرْق على مسافة ٨٠ كيلومترًا شمال شرقي المدينة، على الطريق الآتية من العراق؛ ذات الحُلَيْفَه على مسافة ٢٥٠ كلم إلى الشمال الشرقي؛ الجُحفة على مسافة ١٨٠ كلم إلى الشمال الغربي على الطريق من سوريا، قَرْن المنازل على مسافة ٥٠ كلم إلى الشرق على الطريق من نجد؛ يَلَمْلَم على مسافة ٦٠ كلم إلى الجنوب الشرقي على الطريق من اليمن؛ وأخيرًا مرفأ جُدَّة الذي هو اليوم المحطة الأكثر استخدامًا.

من ثمّ يمكن أن يختار المؤمن، لتأدية حجّه، واحدًا من ثلاثة نماذج تُعرض عليه قبل الإفصاح عن نيّته التي تشرعن وحدها دينيًا ما سيقوم به من أعمال: الإفراد هو أحد هذه النماذج، ويقضي بفصل مناسك الحجّ والعمرة؛ وهناك القران الذي يُدخل العمرة في الحجّ؛ والتمتّع الذي يمكّن من إتباع الحجّ بالعمرة شرط أن يفكّ قيد طهارته في مكّة، بين الأداءين. تختلف المذاهب الفقهيّة حول تحديد الأفضل من تلك التدابير، لكنّها لا تشدّد على الأخذ بالثالث منها.

إن الذي يؤدي الحجّ بحسب القرآن الكريم، وهي الحالة الأكثر شيوعًا، يبدأ بالعمرة التي تجري طقوسها كالآتي: - تلاوة التلبية على طول الطريق المؤدي إلى الكعبة - الوصول إلى الكعبة وتقبيل الحجر الأسود - الطواف حول الكعبة في اتّجاه معاكس لعقارب الساعة سبع مرات، ثلاث منها بسرعة - تأدية صلاة من ركعتين - السعي بين الصّفا والمَرْوة سبع مرات، أربع منها في اتّجاه وثلاث في اتّجاه آخر، وهو يهدف، بحسب التقليد، إلى استعادة ذكرى هاجَر، جارية إبراهيم، عندما بحثت عن الماء في الصحراء لتنقذ ولدها إسماعيل.

في ما يتعلّق بمراسم الحجّ التي يفرضها القرآن الكريم على الحاج بعد العمرة فهي تجري، حكمًا، إعتبارًا من الثامن من ذي الحجّة، على طول مسارٍ محدّد بدقّة في الجبال المنعزلة المجاورة لمكّة، وهي تشمل المراحل والأعمال التالية: - الوصول إلى وادي مِنى وإمضاء الليل فيه - الوصول في الصباح التالي إلى موقع عرفات الذي يشرف عليه جبل الرحمة حيث الوقوف، في حين يتلو الحاج صلوات شخصيّة، أو يردّد التلبية على وقع الخطب الرسميّة التي يلقيها قاضي مكّة - إفاضة المؤمنين إلى منزل المُزدلفة بين مِنى وعرفات حيث يتسارع المؤمنون، بعد غياب الشمس، للقيام بصلوات المساء والليل ولقضاء الليل - العودة إلى مِنى في اليوم العاشر حيث يقام طقسان خاصان: رجم، بسبع حُصيّ، إحدى كومات الحجارة الثلاث (الجمرات)، والتضحية عادة بخروف يأكل الحاج جزءًا منه ويوزّع الباقي.

هذه الذبيحة التي تذكّر بتضحية إبراهيم في هذا المكان، بحسب التقليد الإسلامي - وهي عمل تكفيري ذو طابع فردي - تتمّ في الوقت نفسه الذي تجري فيه تضحية عيد الأضحى الذي يمكّن المسلمين كافة من المشاركة مع الحجّاج في مكّة. يضاف الطابع التوحيدي لهذا الطقس

إلى الأثر التطهيري الذي يكسبه الحاج وافراد عائلته.

يخضع الحاج، بعد ذلك، لحلاقة شعر رأسه جزئيًّا ويعود إلى الكعبة ليقوم بطواف أخير. ثمّ يعود إلى منى لقضاء ثلاثة أيام من ١١ إلى ١٣ ذي الحجة، وهي أيام استراحة تتخلّلها أيضًا أعمال رجم بالحجارة. بين كل هذه الأعمال الطقسيّة، هناك اثنان أساسيّان: الطواف حول الكعبة الذي هو عمل عبادة، والوقوف بسهل عرفات حيث يرجو الحاج غفران زلّاته. من ناحية أخرى، أظهرت مناقشات رجال الفقه اختلافات في تحديد مواصفات كلّ من الطقوس الأخرى، فميّزوا بين الأعمال الإلزاميّة والأعمال الموصى بها وحسب، ولحظوا كفّارات متنوّعة للمخالفات، تقضي إمّا بتوزيع الطعام على الفقراء، وإمّا بذبح الأضحيات.

٣ - واجهت تأدية الحجّ على مرّ التاريخ الإسلامي صعوبات أفضت إلى تطوير بعض سماته وإلى نتائج متنوّعة. فمدينة مكّة التي هي اليوم، بما تشهده من احتفالات، مكان يلتقي فيه المؤمنون الآتون من بلدان متباعدة، كانت، منذ القرون الوسطى، مكان التقاء المسلمين الآتين من المغرب أو من أفريقيا السوداء، ومن الأناضول وما وراء النهر والهند وأندونيسيا، وكلّهم ينتمون إلى لغات وإتنيّات مختلفة. لكنّ لقاءهم يدلّ، في آن، على الوحدة العميقة للعالم الإسلامي الذي ينتمون إليه، وعلى التنوّع الكبير للشعوب التي يتكوّن منها. وكانت هناك مشكلات عدّة تتعلّق بتنظيم مثل تلك التجمّعات وبأمن المشاركين فيها، وهي مشكلات عمليّة وسياسيّة اجتهد القادة المسلمون على مرّ العصور في حلّها.

في الماضي كان الخليفة عادة يتولّى إدارة الحجّ ويضطلع بمسؤوليّة قيادة أكبر القوافل التي تؤمّ مكة في المناسبة. وكان مندوب الخليفة، أي أمير الحجّ، يقود في معظم الأحيان الفرق التي يفصلها الخليفة رسميًّا لهذا الغرض، ويقوم بمهمّة رئيس القافلة. ورغم هذا التفويض لسلطته الخاصة، يبقى الخليفة، تحديدًا، حارس الأماكن الإسلاميّة المقدّسة، مكّة والمدينة، وهي مهمّة اجتهد الخلفاء العبّاسيّون في الاضطلاع بها بنجاح، إلى أن فقدوا السلطة في العراق عندما غزا مغول هلاكو بغداد في العام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

انتقلت هذه المهمّة، لفترة وجيزة، إلى خصومهم الإسماعيليّين، الخلفاء الفاطميّين في القاهرة، في نهاية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. لكن، بفضل مساندة الزعماء السّنة الأقوياء، أي السلاجقة وخلفائهم، استعاد العبّاسيّون وصايتهم على الحجاز ومارسوها بأبّهة متميّزة في عهد الخليفة الناصر لدين الله. بعد العام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، تولّى الإشراف على الحجّ مماليكُ مصر الذين كانوا حكّامًا عاديين يتمتّعون بنفوذ عسكري على المنطقة، مارسوه باسم الخلفاء العبّاسيّين الذين فقدوا سلطانهم واستمرّت سلالتهم في القاهرة التي نقلوا اليها رمز مكانتهم السابقة. في كلّ عام، كان المماليك يرسلون بانتظام، مع قافلة الحجّ الرسميّة، محملًا مزيّنًا وفارغًا مثبتًا على ظهر جمل ليوضع في مقابل مكّة ثمّ في عرفات، إلى جانب البيارق التي كان الخليفة يرسلها منذ مدّة طويلة - يصعب تحديدها بدقّة - للدلالة على مشاركته الرمزيّة في مناسك الحجّ.

إنّ الاتّساع المتزايد لرقعة العالم الإسلامي وتجزئته في القرون الوسطى الأخيرة دفع ببلدان أخرى إلى إرسال المحامل. غير أنّ المحمل المصري احتفظ بالأولويّة، إلى أن ضمّ العثمانيّون الشرق الأوسط إلى أمبراطوريّتهم في القرن السادس عشر. عندئذ أرسل السلطان العثماني المحمل الرئيس من اسطنبول، لكنّ ذلك لم يُبطل تقليد إرسال المحامل الأخرى حتى الفترة المعاصرة. كان المحمل المصري آخر المحامل الموضوعة في الخدمة حتى بعد زوال الدولة العثمانيّة وصلاحياتها. تمّ إلغاؤه نهائيًّا في العام ١٩٥٢، وكان قد تعذّر إرساله مرّات عدّة بسبب شروط آل سعود المتشدّدة، وعلى الأخصّ ابن سعود، سيّد المدن المقدّسة في العام ١٩٢٤ وملك الحجاز سنة ١٩٣٠.

إضافة إلى مفاعيل الصراعات السياسيّة، كانت مسألة إدارة احتفالات الحجّ تزداد تعقيدًا على مرّ العصور. في القرون الوسطى، كان الحجّاج يسافرون في قوافل تنطلق من بعض المدن الكبرى مثل بغداد والشام والقاهرة. كانت الطريق محفوفة بالمخاطر نظرًا الى الأوضاع المناخيّة القاسية في المناطق الصحراويّة، ومخاطر هجمات البدو الرحّل. كانت قافلة الشام تصل إلى المدينة المنوّرة بعد

ثلاثين يومًا ، متوقّفة في حصون صغيرة أُقيمت على مسار الطريق بالقرب من نقاط الماء . أمّا القافلة المصريّة التي كانت تنطلق من القاهرة وكان ينضمّ إليها ، إضافةً إلى قافلة مغربيّة ، حجّاج مغاربة يأتون إلى الاسكندريّة بحرًا ، وحجّاج آخرون آتون من أفريقيا الغربيّة عبر الصحراء الكبرى ، فكانت تبلغ المدينة خلال ثلاثين يومًا تقريبًا مرورًا بالعقبة . كان هذا المسار هو الأكثر سلوكًا في القرن التاسع عشر ، في حين كان الحجّاج الذين يمرّون بمصر يختارون ، في عهد الصليبيّين ، عبور البحر الأحمر عند مرفأ عيذاب ، بعد أن يصلوا إليه عبر نهر النيل . أمّا السفر في طريق البرّ فقد توقّف موقّتًا بسبب تعدّيات الفرنج ، ليعود مجدّدًا في نهاية القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد ، لكن من دون أن يلغي السفر المباشر في طريق البحر .

في المناطق المقفرة من الجزيرة العربيّة تتدنّى معرفتنا بالطرق التي كانت تسلكها القافلة العراقيّة وينضمّ إليها حجّاج من إيران ، وأيضًا بالطريق الذي كانت تتبعه القافلة اليمنيّة . لكنّنا نعرف أنّه كان هناك طريق جيّد مجهّز بمعالم يربط بغداد بمكّة ويدعى «درب الحجّ» . وقد خضع لأعمال فنيّة شملت تسوية الأماكن الوعرة وبناء خزانات ماء في المحطّات الرئيسة منذ عهد هارون الرشيد ، كشفت التنقيبات المعاصرة بعض آثارها .

ظهرت في فترة لاحقة صعوبات من نوع آخر بسبب تغيّر عادات السفر في القرن العشرين وظهور وسائل نقل جديدة ، مثل سكّة الحديد بين الشام والحجاز التي أُنجزت سنة ١٩٠٨ والتي قصّرت مدّة الرحلة إلى حوالى ستّين ساعة ؛ إلّا أنّ هذا الخطّ الجديد الذي كلّف جهودًا جبّارة لم يؤمّن الخدمات التي توقّعها المسؤولون العثمانيّون بسبب مشكلات الصيانة واعتداءات البدو وتدمير جزء منه خلال الحرب العالميّة الأولى . لكن سرعان ما تبدّلت ظروف السفر والمأوى ، بفضل الانتقال جوًّا والتحسينات الصحيّة التي يسّرها الازدهار النفطي في شبه الجزيرة العربيّة والإثراء الذي نتج عنه ؛ فقد اتّخذت سلطات المملكة العربيّة السعوديّة تدابير مراقبة صارمة تجنّبًا للأوبئة .

لكلّ هذه الأسباب يزداد عدد الحجّاج اليوم باستمرار ، مع العلم أنّ تقديره ، ولو بصورة تقريبيّة ، غير ممكن قبل القرن التاسع عشر . فبين ١٨٠٧ و١٨٧٣ ، مثلًا ، نعلم أنّه راوح بين خمسين ألفًا ومئتين ألفًا سنويًا . منذ بداية القرن العشرين ، ارتفع بشكل ملحوظ بفضل التسهيلات الحديثة للتنقّل ، لكنّه بقي متقلّبًا بحسب السنين : ٢٥٠ ألف حاج في العام ١٩٢٦ ، لكن بمعدل وسطي راوح بين ١٤٠ و١٨٠ ألفًا بين ١٩٥٧ و١٩٦٢ . كانت البلدان المشاركة كثيرة وما تزال ، وهي جمهوريّات مصر والسودان ونيجيريا وسوريا والعراق وإيران والاتّحاد الهندي وباكستان وأندونيسيا . هذه الدولة الأخيرة توفد سنويًّا عددًا مرتفعًا جدًا من الحجّاج . وما يزال عدد الوافدين إلى الحجّ في ازدياد ، بحيث بات يُقلق باستمرار السلطات المحليّة في الحجاز ، بعد أن كان سابقًا مصدر رزق لسكان مكّة ومنطقتها وللمملكة العربيّة السعوديّة في بداياتها . ففي العام ١٩٥٢ كان كل حاج يؤدّي رسمًا بقيمة ٢٨ ليرة ، ولكن جرى الغاؤه منذ زمان طويل . هكذا لم يعد للحجّ اليوم أي مردود مالي بل هو ، على العكس ، مصدر إنفاق للحكومة السعوديّة التي تكتفي بتحمّل تبعاته بدقّة ، معزّزةً ، من خلال تأدية هذا الواجب ، السلطة السياسيّة والدينيّة للملك الذي أصبح بدوره «خادم الحرَمَيْن الشريفَيْن» .

الحجّاج بن يوسف الثقفي ٤١-٩٥هـ/ ٦٦١-٧١٤م ، قائد حرب وحاكم من أصل عربي ، وطّد أُسس الخلافة الأمويّة وخدم بإخلاص خليفتين من هذه السلالة . أصله من الطائف في جزيرة العرب ، كان رجل دولة بكل ما للكلمة من معنى ، ومقاتلًا قويّ الشكيمة . ساند الخليفة المرواني الأموي الثاني عبد الملك بن مروان في بسط سلطة الخلافة من جديد ، بعد فترة من الاضطرابات والفوضى . لقد انتصر أوّلًا سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م على ابن الزبير ، الذي ادّعى الخلافة لنفسه ، وذلك بعد أن حاصر مكّة مدّة طويلة ، ثمّ أعاد السلم الى الحجاز . تولّى حاكميّة العراق وضُمّت إلى ولايته الأقاليم الشرقيّة في خراسان وسجستان ، فعهد بهما الى قتيبة ابن مسلم الذي قام بادارتهما بنجاح تحت اشراف الحجّاج الذي أقام في مدينة واسط التي أسّسها بعد أن سحق المتمرّدين ، وظلّ ، حتّى وافته المنية ، ساهرًا على ازدهار البلاد التي عهدت إليه وتولى شأنها . نهض

الحجّاج بدور نائب الخليفة عبد الملك أوّلاً، ثمّ بدور نائب الوليد الأوّل بن عبد الملك الذي يدين له بوصوله الى سدّة الخلافة. وقد أمدّه الحجّاج بكل الوسائل ليوسّع دائرة فتوحاته نحو الشرق، بصورة خاصة في اتّجاه ما وراء النّهر.

إنّ قساوته المتصلّبة والفعّالة، وفي بعض الأحيان شراسته، يسّرتا له القضاء على أعمال الشغب السياسيّة الدينيّة، والثورات المسلّحة، ومكّنتاه من الحدّ من الخلافات القائمة بين القبائل العربيّة الكبرى، التي كادت ان تقوّض مستقبل الأمويّين وتهدّد وحدة الامبراطوريّة، بحيث أصبح شخصه مضرب الأمثال. فاستمرّ الناس في تمجيد مزاياه العقليّة وذكائه وبلاغته وسلامة ذوقه الأدبيّ، ولا سيّما وفائه تجاه الخلفاء الذين اختار ان يدعمهم، الواحد تلو الآخر، فاكتسب شهرة الظهير المخلص الذي لم يحظ أي خليفة، في ما بعد، بمثيل له.

الحِجاز، نعني لفظة الحجاز «الحاجز»، وهي منطقة جبليّة في الجزيرة العربيّة، تشكّل الجزء الغربي منها حيث تقوم الأماكن المقدّسة الإسلاميّة، وهي اليوم تشكّل جزءًا من المملكة العربيّة السعوديّة.

يتألّف الحجاز من منطقتي عسير ونجران المجاورتين لليمن، ومن سلسلة من المرتفعات الشديدة الإنحدار التي تفصل السهل الساحلي المتاخم للبحر الأحمر والمسمى تهامة، عن الهضبة الصحراويّة الوسطى والمسماة نجد. ويبدو أنّ هذه السلسلة هي التي أعطت الحجاز اسمه الحالي.

وهذه المنطقة تضمّ، في معناها الواسع، الشاطئ الذي يقوم عليه مرفأ جُدَّة؛ وفي الداخل، إضافة إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، تمتدّ واحة الطائف، وقد تطوّرت مدينة الطائف كثيراً في الفترة المعاصرة. لم يشكّل الحجاز، عبر التاريخ، وحدة سياسيّة مستقلّة إلّا في عهد الشريف حسين؛ أي من ١٩١٦ إلى ١٩٢٤. أمّا منذ العام ١٩٢٥، فالحجاز جزء من أراضي المملكة العربيّة السعوديّة ويضمّ منطقتي مكّة والمدينة ومقاطعة تبوك في الشمال.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣ و٢٥.

الحُجَّة (اللجوء إلى -)، في الإسلام يتمّ اللجوء غالبًا إلى الحجّة وفقًا لمتطلبات العدالة التي تسمح بذلك عن طريق ثلاث وسائل: الإقرار أو الإعتراف والشهادة وأداء اليمين.

الإقرار يجب أن يصدر عن شخص راشد سالم العقل، يعمل بملء رضاه، بحيث يعلن هذا الشخص أمام القاضي أنّه يقرّ بأنّ شخصًا له حقّ عليه. ويلي الإقرار أعمال مدوّنة تحمل الاسم نفسه.

الشهادة هي الحجّة بامتياز، بموجب الآية القرآنية: ﴿... وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ [...] وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٨٢).

اليمين هي التصريح بشيء ما، مع ذكر اسم الله. تؤدّى أمام القاضي ولا يمكن اللجوء إليها إلا في حال عدم وجود حجّة أخرى. كما يمكن تأديتها مرّات عدّة لمزيد من القوّة. تُقبَل يمين غير المسلمين وفق صيغة معيّنة خاصة بأبناء كل طائفة.

إلى جانب ذلك، من وجهة نظر كلاميّة، تُطلق تسمية «حُجّة» عند الشيعة على الشخص الذي يُسهّل على البشر التقرّب من الله. عند الإماميّين الاثني عشريّين الأقدمين، الحجّة هو الإمام الثاني عشر. أمّا عند الفاطميّين فالحجّة كان ذا مقام كبير، هو داعي الدُّعاة، وعند النزاريّين كان ممثّل الإمام نزار. في أيامنا الحاضرة ظهر مصطلح الحجّة في عبارة حجّة الإسلام، وهو لقب منح للمجتهدين المبرّزين في إيران خلال عهد القاجار.

الحجر الأسود ← الكعبة.

حدّ - حدود ← العقوبات الشرعيّة.

الحدود أو العقوبات الشرعيّة والعقوبات الإستنسابيّة، في المجتمع الإسلامي، هي مجموعة العقوبات التي تُنْزَل بمرتكبي الأخطاء والجنح ذات الطابع الاجتماعي والديني، وفاق ما تنصّ عليها الشريعة بوضوح؛ أو يقدّرها رئيس الجماعة وممثّلوه.

في ما يتعلق بالجنح التي تستدعي العقوبات، ينبغي التمييز بين الجنح الصغيرة التي لم يرد أيّ تدبير بشأنها في القرآن الكريم وفي السنّة، والجنح الكبيرة التي

تستدعي عقوبات محدّدة عرفيّة أو شرعيّة، كالقتل والأعمال التي تتسبّب بالجروح، أو الجنايات. في القرآن الكريم آيات كثيرة تمنع القتل بغير وجه حقّ، وتعطي ممثّل الضحيّة الحق في الانتقام الذي يجب ألّا يصل إلى حدّ القتل:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ (الإسراء، ٣٣]. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء، ٩٢ و٩٣].

ينتج عن ذلك أنّ حياة المسلم محميّة شرعًا، وأنّ مصير قاتله من دون سبب مشروع هو إلى الجحيم، فيما يعرّض نفسه لانتقام أقرب أقرباء الضحية. فلا يُبرَّر القتل إلّا عند قتال «الطاغية الظالم» الذي ربّما يكون رئيس الجماعة. غير أنّه يجب الاتّفاق على تحديد معنى الطاغية، وهي مشكلة طرحت نفسها منذ الأيام الأولى للإسلام عندما اغتيل الخليفة الثالث للنبي، عثمان بن عفّان، ثمّ خلال الحروب التي اندلعت بعد ذلك بين عليّ وخصومه.

كما أنّ ثمّة آية أخرى تنظّم حقّ الانتقام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، الآية ١٧٨).

في هذه الحال، تُعتمد عقوبة القصاص المستمدّة من الثأر الذي كانت تمارسه قبائل الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، لكنّ تطبيقها محدود إذ كان في إمكان المعتدى عليه - في حال كان جريحًا - أو أحد أقربائه - في حال موته - عوضًا عن أن يطالب بحقّه، أن يغفر للمعتدي، في مقابل أداء ثمن الدم أو الدّية، وهي مبلغ مفروض للتعويض عن الضرر الحاصل. من يرتكب القتل غير المتعمّد، عليه أن يؤدّي الدّية وحسْب. كما أنّ عقوبة القصاص لا تطال النساء الحوامل ولا أسلاف الضحيّة. وإذا أُخذ بالقصاص - وهو أمرٌ يستدعي إذنًا ناتجًا عن دعوى تُقام أمام القاضي، بعد تبيان البرهان الواضح على الذنب - يجري الإعدام، بحسب رأي أبي حنيفة، بقطع الرأس بالسيف. في واقع الأمر، لم تصلنا أيّة رواية عن مدى تطبيق مبدإ الثأر في القرون الوسطى.

بالنسبة الى الجنح الأخرى التي تستحقّ عقوبات قانونيّة، لا يمكن ان تتسامح الجهة المتضررة بشأنها؛ هناك أوّلًا الزنى أي العلاقات الجنسيّة بين رجل وامرأة محرّمة عليه، أي إنّها ليست بزوجته الشرعيّة ولا بجاريته. في هذه الحال، يعاقَب المسلم الحرّ بالرجم إذا كان متزوّجًا، وإلّا فبمئة جلدة، وللمرأة العقاب نفسه. في الواقع لا يذكر القرآن إلّا الجلد:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾، (سورة النّور، ٢).

إنّ عقوبة الرجم تستند إلى السّنة وإلى حديث واحد، لكن لا يمكن تطبيقها إلّا إذا أقرّ المذنبون بذنبهم أو بناء على شهادة جازمة من أربعة شهود من الذكور، وذلك شرط ورد في القرآن الكريم (سورة النّساء، الآية ١٥)، لكن نادرًا ما أمكن تطبيقه. وشهادة الزور في هذا الموضوع هي أيضًا محرّمة. فالذي يتّهم بالزنى رجلًا أو امرأة شريفة، من دون تقديم بيّنة، يعاقَب بثمانين جلدة، والذين يمارسون اللواط يتعرّضون للجلد مهما يكن وضعهم، وذلك بموجب آيات قرآنية تذكر العقاب الذي نزل بشعب لوط. أمّا أبو حنيفة فيعتبر التأنيب كافيًا في المرّة الأولى، وإذا تكرّر ذلك يصدر عندئذ الحكم بالموت.

في مرتبة ثالثة تتدرج السرقة، فتُبتر يد السارق اليمنى بموجب الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة المائدة، الآية ٣٨).

لا تطبّق العقوبة إلّا إذا كان المسروق ذا قيمة وباعتراف مرتكب السرقة أو إثباتها من قبل شاهدين

محترفين. إذا كرّر السارق فعلته تُبتر رجله اليسرى، وإذا استمرّ في تكرارها فآراء الفقهاء تختلف: بحسب الحنفيّين والحنبليّين، يُسجن السارق في المرة الثانية، وبحسب الشافعيّين والمالكيّين تُبتر يده اليسرى في المرة الثانية ورجله اليمنى في المرة الثالثة.

كما يُنزل العقاب الشرعي بأربعين جلدة بموجب الحديث والسنّة في من يعاقر الخمرة أو أي شراب مسكر بحسب الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة المائدة، الآية ٩٠).

ولقطّاعي الطرق والكافرين والمتمرّدين عقوبات قانونية أيضًا، وقطع الطرق هو جريمة توقيف المسافرين على الطرقات أو في الصحراء لسلبهم ممتلكاتهم، وهي جريمة يعاقب عليها: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٣٣ و٣٤].

بصورة أوضح، وضع الفقهاء عقوبات لخّصها ابن قدامة كما يلي:

جزاء قاطع الطرق الذي يقتل ويسرق، القتل وتعلّق جثّته على مشنقة لإعلام الملأ بعقابه. أمّا الذي يقتل ولا يسرق فيُقتل ولا تُعرض جثته. والذي يسرق ولا يقتل تُبتر يده اليمنى ورجله اليسرى في آن. والذي يزرع الرعب على الطرقات من غير أن يقتل ويسرق، يجب نفيه من البلاد.

أما المتمرّد الذي يرفض الاعتراف بالسلطة الشرعيّة فيجب محاربته بشتّى الوسائل. في إمكان رئيس الجماعة أو من يمثّله أن يأمر بقتله من غير محاكمة، وفقًا للآية القرآنية التي استند إليها قديمًا الخوارج لرفض تحكيم أذرح: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الحجرات، الآية ٩).

أخيرًا يواجه المرتدّ عقوبة الإعدام إن لم يتُب، وفقًا للآية القرآنية: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل، الآية ١٠٦).

في هذا السياق أوردوا أحاديث من مثل هذا: «جزاء المرتدّ القتل». يختلف الفقهاء حول المدّة الواجب منحها للمرتدّ قبل إعدامه، وحول ما إذا كان على الدولة أن تصادر ممتلكاته كافة أو تلك التي حصل عليها بعد ارتداده تحديدًا. وفاقًا بعض الفتاوى: لا يجري حكم القتل على النساء المرتدّات، بل يُعاقَبن بالسجن وحسب. أمّا العبيد فنصيبهم في هذا الموضوع نصيب الأحرار.

كذلك المبتدع المعروف بالزّنديق، وهو مسلم في الظاهر وكافر باطنًا، بحسب تحديد المالكي ابن أبي زيد القيرواني، يواجه هو أيضًا عقوبة الإعدام. كما يواجهها كذلك الذمّي الذي يشتم نبيّ الإسلام (ﷺ) ولا تقبل توبته، وذاك الذي يرفض التزام أنظمة الإسلام وأداء الجزية. أخيرًا، إنّ المسلم الذي يمتنع عن أداء فرائض دينه يجد نفسه في حالات مختلفة. فالذي لا يدفع الصدقة الشرعيّة يتمّ حسمها منه تلقائيًّا من دون عقوبة أخرى. أمّا الذي يمتنع عن إقامة الصلاة فيعتبَر مرتدًّا إذا تعمّد ذلك واستمرّ في امتناعه، وإذا كان ذلك مجرّد إهمال يوجَّه إليه التأنيب حصرًا. والمسلم الذي لا يؤدّي فريضة الحجّ إلى مكّة لا تطاله أيّة عقوبة إذ إنّ أمامه العمر كله لتأدية تلك الفريضة. أمّا إذا أنكَر وجوب تلك الفريضة فيمكن اعتباره مرتدًّا ومعاملته على هذا الأساس. ذلك ما أصاب الصوفيّ الحلّاج الذي حُكم عليه وقُتِل في بغداد سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.

لقد جرت بين رجال الفقه نقاشات حول إمكان/ إنزال عقوبات متراكمة بالمجرم، فأجمعوا على نفي ذلك، إذ إنّ عقوبة الإعدام تلغي بشكل خاص كل عمليّة بتر سابقة، في حال كان المتمرّد يقوم أيضًا بقطع الطرق. لكنّ إخباريّي القرون الوسطى يذكرون في أخبارهم أنّ متمرّدين أعدِموا وعُلِّقوا على المشنقة بعد أن كانوا قد خضعوا لعمليّات بتر. في أيامنا هذه، تخلّت مختلف البلدان الإسلاميّة، على وجه العموم، عن هذه الأحكام

الجزائيّة بعد أن استُبدلت بها، في العام ١٨٥٨، في الأمبراطوريّة العثمانيّة، أحكام قانون جزائي مستوحًى من القوانين الأوروبيّة. لكن يستحيل تنظيم جدول محدّد بالتعديلات التي أُدخلت، منذ بداية القرن التاسع عشر أو في نهايته، في مختلف البلدان. بل تجدر الإشارة إلى أنّ عقوبة البتر بسبب السرقة ما تزال قائمة في المملكة العربيّة السعوديّة، كما أُعيد اعتمادها مؤخرًا في إيران، بعد الثورة الإسلاميّة سنة ١٩٧٩، وفي موريتانيا.

أخيرًا، وردت في القرآن الكريم جنحٌ ليس لها عقوبات قانونيّة محدّدة، منها انتهاك حرمة البيت، والهروب من القتال والنميمة وشهادة الزور في غير حالة الزنى، وجميع أعمال التزوير والإخلال بالشريعة. ينتج عن هذه الجنح عقوبات اعتباطيّة أو «تعزير» يُنزلها بالمذنبين، عادة، المحتسب وليس القاضي، ويجب ألا تتخطى أضعف العقوبات القانونيّة (أي ٤٠ أو ٨٠ جلدة، بحسب المذاهب الفقهيّة)، وتكون مختلفة في طبيعتها. هناك عقوبات اعتباطيّة أخرى يتمّ فرضها باسم المحافظة على النظام، وهي، منذ القرون الوسطى، مناطة بصاحب الشرطة الذي كان مسؤولًا عن تطبيق أحكام القاضي بالقوّة العامّة. من بين تلك العقوبات الاعتباطيّة يُذكر، بنوع خاص، السجن الذي لم يرد في القرآن، مع أنّه كان معتمدًا باستمرار وعلى نطاق واسع من قِبَل المسؤولين عن السلطة، بخاصة تجاه سكّان المدن وقادة التمرّد المحتملين أو المحرّضين عليه.

حدود الإسلام، مفهوم كان له أهميّة خاصّة في العصور الوسطى، كانت هذه الحدود تفصل بين دار الإسلام وبلدان غير المسلمين المسمّاة دار الحرب.

فبموجب قواعد الجهاد، كانت تقوم حالة حرب مستمرّة مع تلك البلدان، لم توقفها سوى بعض الهدن القصيرة الأمد. أمّا بعض الحدود، كتلك المجاورة للسهوب التركيّة والأراضي الواقعة في القوقاز أو البلدان السوداء، في النوبة بخاصة، فكانت تشكّل الدفاعات المقامة ضدّ الغزاة من البدو، أكثرها شهرة كانت إرثًا من الماضي الإيراني عند باب الأبواب/ دَرْبَنْد. مع ذلك، كانت تخترقها أنشطة تجاريّة، من شأنها أن تُدخل إلى دار الإسلام المسترقّين المستقدمين خصّيصًا للخدمة في جيش دولة الخلافة، فيجتازون تلك الحدود، ولا سيّما في آسيا الوسطى.

وهناك تخوم أُخرى ثانية كانت تشكّل مناطق تجري فيها هجمات وهجمات مضادّة بين جيوش متحاربة، تنصرف في ما بينها إلى تجريد حملات موسميّة. هكذا كان الوضع في الأناضول وفي الأندلس حيث، عند حدود الأراضي المقسّمة أجنادًا أو «دوائر حربيّة»، كانت تتواجه، من جهة، الجيوش الإسلاميّة، ومن جهة أُخرى عساكر بيزنطيّة، أو الدول المسيحيّة في شبه الجزيرة الإيبريّة، المعروفون لدى المؤرّخين العرب باسم الفرنج أو الفرنكيّين. كانت هذه الحدود - التي تتجاوزها باستمرار تلك الغزوات - غير واضحة المعالم، بحيث كانت تتبدّل باستمرار عبر الأزمنة. وقد تميّزت بتنظيم خاص للولايات الحدوديّة يجعل منها منطقةً واقية، كما تميّزت بوجود تحصينات، كتلك التي كانت تحمي سوريا الشماليّة ضد غزوات البيزنطيّين، أو بوجود حصون صغيرة معروفة بالرِّباطات، يستخدمها مقاتلو الحرب الشرعيّة، أي المجاهدون المعروفون بالغزاة. هكذا نشأ تنظيم خاص بالمناطق الواقعة في جوار سوريا ومنطقة ما بين النهرين العليا في مستهلّ العصر العبّاسي، عندما أُنشئت فيه مقاطعات الثغور والعواصم أو المدن «الحامية».

هذه الحال، التي كانت ما تزال سائدة في العهد الحديث، على امتداد الحدود الأوروبيّة للأمبراطوريّة العثمانيّة، زالت خلال الحقبة المعاصرة، منذ تكوّنت في البلدان الإسلاميّة دول قوميّة تحتمي وراء حدود مرسومة بوضوح.

الحُدَيْبيَة (صلح الحُدَيبية)، ٦هـ/٦٢٨م، صلح معقود في وادٍ، على مقربة من مكّة، بين النبيّ محمد (ﷺ) وممثلين عن زعيم أعدائه، المشركين يومئذٍ، القرشي أبي سفيان.

سبق هذا الصلح حدثٌ أعرب خلاله ١٤٠٠ مسلم من المدينة عن رغبتهم في إقامة العمرة في مكّة، فبايعوا النبيّ محمّد (ﷺ) في ظلّ شجرة، وهذا ما عرف بـ«بيعة

الشجرة» أو بـ«بيعة الرضوان».

ثمّ رافق الذين أدّوا البيعة نبيّ الإسلام (ﷺ) في طريقه إلى العمرة حيث اعترضهم المكيّون وأوقفوهم. اتّخذت المفاوضات منحى صعبًا وانتهت بالاتفاق أن النبي محمدًا ﷺ وأتباعه من المؤمنين يقفلون عائدين إلى المدينة، على أن يعودوا في السنة التالية لإتمام العمرة بحرية غير منقوصة، لمدة ثلاثة أيام. وهكذا تمكّن النبي محمد (ﷺ) من أن يحصل من خصومه القدامى على الاعتراف بصفته رسولًا لله، في حين عقد الطرفان، أتباع الديانة الجديدة وجماعة المكيّين المتمرّدين على الرسالة، هدنة لمدّة عشر سنوات، ما أفسح في المجال أمام جماعات أخرى للانضمام الى الفئتين الموقّعتين.

في الواقع حقّق المسلمون رغبتهم، فقاموا في السنة التالية بإتمام العمرة كما كان مقرّرًا في المفاوضات السابقة. لكن بعد مضي شهرين، في كانون الثاني من عام ٨هـ/ ٦٣٠م، وعلى أثر خلاف وقع بين حلفاء الطرفين، عقد النبي محمد (ﷺ) النيّة على اقتحام مكّة واحتلالها بدون تردّد أو تأجيل.

الحديث، مجموعة النصوص التي تروي أقوال أو أفعال النبي محمّد (ﷺ)، وهي تشكّل كذلك سنّة النبي، وتُعتبر أحد المصادر الأساسيّة للقانون الإسلامي او الفقه.

تناقل النصوص المذكورة صحابة النبي (ﷺ)، ونقلوها بدورهم الى أشخاص آخرين. وظلّ التواتر قائمًا حتى جاء زمن وضع فيه أهل الاختصاص مجلّدات تتضمّن كلّ المعلومات التي استطاعوا جمعها.

لقد عرف العالم الإسلامي، في مطلع الإسلام ولفترات طويلة تلتْ نشأته وامتداده، علماء سُمّوا بالمحدّثين، اقتصر جهدهم على جمع نصوص الحديث ونقلها. وكان من واجب كل طالب في العلوم الدينيّة أن يلتحق بهؤلاء المحدّثين ويتتلمذ عليهم أينما وجدوا، بصورة خاصة في إيران والعراق وسوريا ومصر.

تعود أقدم مجموعات الحديث الى العصر الأموي، لا سيّما تلك التي أعدّها الأوزاعي، وكان مؤسّسًا لمدرسة فقهيّة زالت في ما بعد، والزهري (المتوفى في العام ١٢٤هـ/٧٤١م) وكان مقيمًا في سوريا.

لم يكن في ذلك الحين من فصل بين مجموعة أحاديث ومصنّف فقهي، لذلك يُعتبر «الموطّأ»، لمالك ابن أنس، مؤسّس المدرسة المالكية، مرجعًا في الحديث والفقه في آن.

أمّا في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فقد ظهرت أعمال حصرت توجّهها في تصنيف الأحاديث وفقًا لمادة موضوعها. استند الفقهاء، في عملهم لدعم توجّههم، الى أحاديث لا نزاع فيها، تواترتها سلسلة من النقلة أُسندت إليهم عن ثقة. كان على هؤلاء الفقهاء، الذين عرفوا بـ«أهل الحديث»، أن يواجهوا الذين يولون الرأي الشخصي أهميّةً كبرى. وهكذا رأت النور ستّ مجموعات تفوّقت على سواها ونالت إجماع الأمّة الإسلاميّة، ومنها «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم»، ثمّ المجموعات الأربع المعروفة بالـ«سنن» والعائدة لأبي داود، وللترمذي وللنّسائي ولابن ماجه، يضاف اليها «مسند» ابن حنبل، إذ إنّ الأحاديث فيه صنّفت استنادًا الى نقلة الحديث وفاق الترتيب الزمني، لا وفاق المواضيع.

أمّا في ما يتعلّق بالشيعة، فقد ألّفوا مجموعاتهم الخاصة بهم، لأنّهم لم يرضوا إلّا بالأحاديث التي نقلها علي بن أبي طالب وأهل بيته. وأشهر مؤلّفاتهم في هذا المجال «الكافي» الذي وضعه الكُلَيْني.

إنّ تداول هذه المصنّفات التي غدت مصادر معترفًا بها رسميًا، لم يَحُل دون مواصلة تعليم «سنّة النبيّ أو التقليد» بطريقة مميّزة. لقد خصّصت، في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، مدارس في سوريا عُرفت بدار الحديث، حصرت عنايتها بتعليم هذه المادة. وساهمت هذه الظاهرة في تأليف مجموعات جديدة، بعضها اجتهد في تجميع أصحّ الأحاديث المتعلّقة في موضوع معيّن ومحدّد. كما أنّ العلماء واصلوا نقد النصوص المحفوظة عبر التحرّي عن شخصيّة الناقل ونوعيّة نقله (هل جرى النقل على لسان شخص أو أشخاص عدّة اتفقوا في ما بينهم، أم لم يلتقوا) وألّفوا في هذا الصّدد معاجم سِيَر خاصة بدراسة الأحاديث، فخلصوا إلى تصنيفها ضمن ثلاث فئات كبرى تتوزّع كما يلي: الأحاديث الصحيحة، الأحاديث

السليمة والأحاديث الضعيفة.

الحُدَيْدة (الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة)، مرفأ حديث، يقع على شاطئ البحر الأحمر، استخدم، رغم مراسيه العسيرة، نقطة إنزال لسفن الغزاة الغرباء عن اليمن.

لم تعرف هذه الناحية – التي ترسّخ اليوم دورها الإستراتيجي والتجاري – النموّ والتطوّر إلّا في القرن التاسع عشر، وذلك وسط الجزء الحار والمقفر من تهامة حيث لم يرد لها ذكرٌ قبل القرن الخامس عشر. كانت هدفًا لهجوم شنّته قوّات السلطان المملوكي قانصوه الغوري في العام ١٥١٦، ثمّ تراجعت الى المرتبة الثانية عندما ازدهر مرفأ مخا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، واكتسبت أهميّة سياسيّة في القرن التاسع عشر خلال الحملات التي قامت بها الجيوش التركيّة – المصريّة إلى الجزيرة العربيّة لمقاتلة آل سعود. أدخلت، حوالى ١٩٦٠، تحسيناتٌ على تجهيزات مرفئها؛ وبعد الصراع بين اليمنين الشمالي والجنوبي، وعلى الرغم من قربها من مرفإ عدن، فرضت نفسها بابَ عبور بحريّ إلى مدينة صنعاء.

حرام، لفظة إصطلاحيّة عربيّة مستعملة في معجم «الفقه» وتعني «غير مشروع أو غير مباح»، في مقابل لفظة «حلال» التي تعني ما هو «مشروع ومباح».

إنّ لفظة «حرام» المشتقّة من الجذر العربي «ح ر م» شأنها شأن حَرَم وحريم اللتين تحوّلتا في الفرنسية إلى «هَرَم» و«هارِم» (haram, harem)، تعني «الممنوع باسم الشريعة». بهذا المعنى تتميّز لفظة «حرام» عن لفظة «منكر»، أو المنهي عنه، التي تأتي في درجة أدنى من حرام في سلّم الصفات المتعلّقة بالأعمال الإنسانية الذي وضعه الفقهاء.

إن «حرام» قد تتضمّن معنى «المقدس» كما تفيد عبارة «المسجد الحرام» التي تدل على مسجد مكّة المكرّمة. وهي عبارة واردة في الآية الأولى من سورة الإسْراء التي تأتي أيضًا على ذكر «المسجد الأقصى».

حرّان (الجمهوريّة التركيّة)، ناحية في المنطقة العليا من بلاد ما بين النهرين، تحتفظ بذكرى حصن مهمّ ومدينة قروسطيّة ما تزال آثارهما بارزة حتّى اليوم.

تقع حرّان عند تقاطع طرق إستراتيجيّة وتجاريّة في وادي بليخ، أحد سواعد الفرات، في منتصف الطريق بين الرُّها/أورفا والرقّة. وهي المدينة التي أطلق عليها الرومان اسم كارْهي (Carrhae). وقد ضمّت الى الأمبراطوريّة الإسلاميّة منذ سنة ١٩هـ/٦٤٠م، في عهد الفتوحات الكبرى، ثمّ أصبحت مركز إقامة مروان الثاني، آخر خلفاء بني أميّة، وقد هُدم قصره بعد الهزيمة العسكريّة التي قوّضت حكمه بعد قيام «الثورة العبّاسيّة».

في حين كانت حرّان تشكل نقطة الارتكاز للغزوات العبّاسيّة الموسميّة ضد الأراضي البيزنطيّة، كاد سكّانها المشهورون بوثنيّتهم وبالإرث العلمي القديم الذي توارثوه وقاموا بنقله، أن يتكبّدوا اضطهاد الخليفة المأمون لهم، لكنّهم نجوا من ذلك لأنّهم اعتُبروا من الصابئة، وهيَ نِحْلة ورد ذكرها في النص القرآني، فعوملوا معاملة أهل الذمّة. من هنا كانت تسمية الصّابئ التي عرف بها علماء المدينة الأصليّون.

نبغ من حرّان عدد من العلماء ذوي الشهرة والشأن، استخدمهم المأمون في تأسيس مراكز علميّة كـ«بيت الحكمة» في بغداد، وفي تنشيط حركة النقل الى العربيّة، فنقلوا كتبًا في الرياضيات، والطب، وعلم الفلك. إنّ أشهر علماء حرّان المسيحي ثابت بن قرّة. إلّا أن بعض الذين اعتنقوا الاسلام، مع المحافظة على صفة الصابئ، برزوا بأعمالهم الإبداعيّة، أمثال عالم الفلك البتّاني المعروف بـ Albategnus، في حين أن آخرين، سواء أسلموا أو لا، انخرطوا في سلك الخدمة الاداريّة الخليفيّة ككتبة، ومنهم من اختار أن يكون مؤرخًا ذا شأن مثل هلال الصابئ. في الواقع إنّ عددًا مفيدًا من مثقفي حرّان المعروفين بالصابئة شاركوا، الى حدّ بعيد، في ازدهار الثقافة التي عرفها العصر الذهبي العبّاسي.

إنّ هذه المدينة، التي ساهمت في نهضة مدرستها العلميّة، تعرّضت في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، لتدمير معبدها الرئيسي، قبل أن تصبح عرضة للهجمات المتعدّدة ويستولي عليها الأتابك زنكي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م. ثمّ سقطت في أيدي سيّدَي سوريا نور الدين محمود وصلاح الدين اللذين أعادا لها وهجها.

وظلّت بين أيدي الأيوبيّين الى حين نقل سكّانها، سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، الى الموصل وماردين على أيدي المغول الذين هدّموا ابرز معالمها ومراكزها الأثرية.

ومع أنّ القلعة قامت بدور مميّز في زمن المماليك الذين احتلّوها سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، إلّا أنّ البيوت المهدّمة لم يُجدّد بناؤها. وفي عصرنا أفسحت أعمال البحث والتنقيب في إظهار بقايا السور الذي كانت تخترقه ثمانية أبواب مستطيلة الشكل، وكذلك بقايا المسجد الجامع الأموي الذي وسّعه نور الدين، وهوَ يقع على مقربة من القلعة، وأخيرًا بقايا ضريح مبنيّ خارج الأسوار ويعود بناؤه إلى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

أضف إلى ذلك أن حرّان كانت في زمن الأيوبيّين والمماليك مركزًا حنبليًّا ناشطا وقد وُلد فيها، سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م، الفقيه العلامة ابن تيميّة.

◄ راجع المستندات ٨، ٩ و٢١.

الحربيّة ← الكيسانيّة.

حرس الملوك المسلّح، مؤسسة أساسيّة في التنظيم العسكري في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، كانت تعبّر عن الأبّهة والسلطة اللتين كان يتمتّع بهما القابضون على السلطة، كما كان لها، في أكثر الأحيان، دورها في التطوّر السياسي.

كان لكلّ الملوك تقريبًا خدم أو حرس خاص، يجنّدونهم بفضل نظام الرقّ، وكانوا أحيانًا من الخصيان، وفي أغلب الأحيان من الأجانب الذين لا علاقة لهم بالسكّان المحليّين. وكانوا يُعرفون، بالعربيّة، بالغلمان، والغلام هو الفتى الصغير، ثمّ عُرفوا بالمماليك، وفي الأندلس بالفتيان والصقالبة.

تزامنت بدايات هذه المؤسّسة مع التحوّلات التي أصابت الجيش والبلاط في عهد الخلفاء العبّاسيّين الأوّلين. في عهد المعتصم في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، جيء بعدد كثير من الأتراك الذين تمّ شراؤهم من سمرقند لتكوين نواة أوّل فرق مخلصة تمام الاخلاص لسيّدها. بدأ العدد بثلاثة آلاف وارتفع إلى سبعة لا بل أكثر. كان هؤلاء الحراس يؤمّنون خدمة القصر ويسكنون فيه، وكانت أحياء بكاملها من عاصمة الخلافة تحت إمرة ضباط من جماعتهم جرى إعتاقهم. توزّعوا على ألوية مختلفة وتدخّلوا في الحياة العامة مرّات عدّة، وغذّوا إضطرابات انتهت باغتيالات خلفاء أو إزاحتهم، وبخاصة في الفترة المعروفة بمرحلة سامرّاء.

في نهاية تلك المرحلة أصبح الغلمان من جنسيّات مختلفة. فإلى جانب الأتراك كان هناك عبيد قدامى من الدّيلم وبربر وسود البشرة من النوبة. وكان لبعضهم وظائف محدّدة في مراسم البلاطات، وبخاصة حماية العاهل وتكوين سياج حوله ابّان مقابلاته، وكانت زينة ثيابهم ومظهرهم وسلاحهم تفرض الهيبة على الزوّار. وكانوا يخضعون للحاجب أو لوكيل بيت المال، إلّا أنّهم كانوا يتلقّون الأوامر من أمرائهم الذين كانوا يعرفون بالقوّاد، وكان هؤلاء تابعين بدورهم للقائد الأعلى للجيش. لذلك كان لهم دور في ثورتي القصر، أيّام المقتدر، اللتين باءتا بالفشل في بداية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد. وقد تمّ التخلّص من المحرّضين الأساسيّين منهم بطريقة عنيفة أو بمذابح.

وكان هناك ميليشيات من العبيد تحمي الحكام التابعين رسميًّا للخليفة العبّاسي، وكذلك أسياد الحرب الذين لا يعترفون إلّا إسميّا بسلطته. وكان منهم عند الطولونيّين والإخشيديّين في مصر، والسّامانيّين في ما وراء النهر، والغزنويّين والغوريّين في أطراف إيران. وقد رسموا على الجدران رسومًا لهم ببزّاتهم العسكريّة وبخاصة على جدران قصر لشكّري بازار. وكان النظام نفسه متبعًا عند منافسي العبّاسيّين، كالفاطميّين وأمويّي الغرب. وفي عهود لاحقة جند السلاجقة والخوارزمشاهيّون حرسًا من العبيد، وقد لجأ إلى النظام عينه الأيوبيّون الأكراد في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. وقد استولى الغلمان الأتراك لدى آخر الحكّام الأيوبيّين على الحكم، وأقاموا نظام الحكم المملوكي السوري - المصري الذي كيّفوه برمّته وفاق تقدّمهم بانتظام نحو مراتب الشرف. وفي ذلك العصر كان الضباط من الحرس الشخصي يضيفون إلى اسمائهم صفة مشتقة من اسم سيّدهم، أو بكلام أدقّ من لقبه. وهكذا كانوا

يتّخذون ألقابًا معقّدة، غالبًا ما تلخّص مسيرتهم منذ دخولهم في السلك العسكري.

وفي المرحلة عينها كان هناك جيش من العبيد في الهند من أصل تركي بصورة خاصة، فكانوا مكلّفين بحماية السلطان، وكانوا كثيري العدد عند سلاطين دلهي الذين كانوا مثلهم عبيدًا في الأصل. والضبّاط الذين شكّلوا أوّل سلالة من «الملوك العبيد» احتلّوا لاحقًا مكانة رفيعة في بلاط الخَلْجيّين والتُغلقيّين، كما ساهموا في انشاء دول إسلاميّة في مقاطعة الدّكن. في إيران، توقّفت هذه العادة لفترة خلال حكم الإيلخانيّين الذين استوطنوا البلاد بعد الغزو المغولي، لكنّها عادت بقوّة مع وصول السلالتين الصفويّة والقاجاريّة إلى الحكم. تطوّر نظام الغلمان في بلدان البحر المتوسط، إلّا أنّه عرف ازدهاره بشكل منظّم في البلاد التي خضعت للعثمانيّين. وقد جيء بهم من مقاطعات بعيدة وكانوا، بصورة عامة، فتيانًا مسيحيّين أُلحقوا بالجيش بحسب نظام الدَوْشرما. وقد توصّل قسم منهم إلى التحكّم عن كثب بحياة السلاطين، ما أدّى إلى استياء المسلمين الاحرار من أهل البلاد. غير أنّ نفوذهم، الذي بلغ أوجه في القرن السادس عشر في دوائر الدولة، بدأ بالانحسار في القرن السابع عشر، حتّى ان بقي عدد منهم – وكانوا يُعرفون بالانكشاريّة – في الجيش ووظائف البلاط، وقد أدّت المشكلات التي طرحها موقعهم إلى نهاية مأسويّة، في العام ١٨٢٦، لمن تبقّى منهم.

الحِرَف أو النشاط الحرفيّ هي الأنشطة التي تأثّرت بالقواعد الدينيّة الإسلاميّة – ولكن بأقلّ ممّا يظنّه البعض – والتي كانت لها الأولويّة في ازدهار العالم الإسلامي القروسطي، وقد زوّدته ببعض العناصر الضروريّة لتفتّح فنونه.

فالإلتباس الذي يحيط بمفاهيم واسعة الإستعمال كمفهومي «الزخرفة الإسلاميّة» أو «فن العمارة الإسلامية»، نجده كامنًا في الأصالة التي نعترف بها اليوم للأعمال الحِرَفيّة العائدة إلى البلدان الإسلاميّة في القرون الوسطى، وهي أعمال كثيرة ومتنوّعة، ولكن تجمع بينها سمات مشتركة. والإنجازات الحرفيّة، التي غالبًا ما أتت مميّزة، ساهمت في إضفاء طابع الشهرة على الأمبراطوريّات الإسلاميّة الخليفيّة والسلطانيّة، إن من حيث القيمة الذاتية للأشياء المُنْجزة، وإن للخصائص المميّزة للتقنيّات المستعملة التي طبّقها، في ما بعد، عدد كثير من البلدان المجاورة. وقد نُسبت هذه الانجازات أحيانًا إلى منفّذين غير مسلمين، ولا سيّما في العصور الأولى للهجرة، إذ ترك أهل الذمّة بصمات تقاليدهم الأسلوبيّة الخاصّة في تلك الأعمال، وداخل المشاغل التي كانت تحرّكها خبرتهم. لكنّ هويّة تلك الأعمال يجب ربطها بالانتماء الديني لطالبيها، سواء أكانوا من الأفراد الأغنياء أم من أبناء الأسر المالكة. وهؤلاء الأسياد كانوا يفرضون، محليًّا، أذواقهم على الحرفيّين من أفراد حاشيتهم المكوّنة من الخدم الأتباع أو من العبيد.

وكانت هنالك قواعد خاصّة بالمجتمع الإسلامي، يسهر على احترامها وتطبيقها المحتسب المكلّف من قبل الحسبة بمراقبة الأسواق حيث كان يختلط صغار التجّار والصناعيين الكبار، وحيث يتمّ البيع بالجملة أو بالمفرّق. ولا شكّ في أن التقيّد بتلك القواعد تحت مراقبة شخص ورث بعض مهامه من العصور القديمة لا يعني أن منطلقها الأوّل كان دينيًّا حصريًّا. وإذا كانت تلك القواعد قد أدخلت بعض أُسس الأخلاق الإسلاميّة الإجتماعيّة، وعلى الأخصّ الإقتصاديّة، بتركيزها على أنّ الإستقامة في الأعمال التجاريّة بين المسلمين هي مطلوبة لإبعاد الغشّ، وعلى أنّ الأعمال الحرفيّة يجب أن تكون خالية من العيوب، فإنّها لا تكفي وحدها لإعطاء فكرة عن مجمل الخصائص التي تميّز العمل الحرفي وعن تنظيمه الخاص في القرون الوسطى الإسلاميّة. لا نجد فيها ما يبرّر تقسيم العمل وفقًا لاختصاصات دقيقة جدًا، وهذا التقسيم هو في أساس التكرار الآلي الذي نشهده في كل الأشكال التزيينيّة، على الرغم من أنّ كلّ جزْفي بلغ درجةً عالية من المهارة في حقل اختصاصه. أيّ أصل إسلامي يمكن إيجاده مثلًا في الإنتاج الثابت لأشكال مقولبة، ولرسوم مثقّبة يلجأ إليها الملوّنون ورسّامو الصور المنمنمة؟ والأمر نفسه يكون مع العاملين في الجزف الأخرى. لا يمكن أن ننسب الى عادات دينية واضحة، لا التجزئة التي عرفتها مراحل الانتاج، ولا

ولادة طوائف الحرف التي يبقى أصلها غامضًا، ولا تنظيم الأسواق المألوف حيث كانت الحوانيت ذات النشاطات المتشابهة مجمّعة في مكان واحد. كان هذا التجمّع يشجّع على المنافسة، ولكنّه، في الوقت نفسه، كان يوزّع على شكلٍ معيّن النسيج السكّاني للمدينة. وإذا كان من الصعب التحدّث عن نشاط حرفي إسلامي يعكس نتائج حالة كان وراءها الإسلام وحده، فإنّه يمكن القول إنّ نظامًا شائعًا معتمدًا في العصر العبّاسي، وربما أيضًا في العصر الأموي، هوَ الذي فرض عادات تتعلّق بالانجازات «الصناعية» أو التزيينيّة، فأخضعها لمراقبة السلطات المحليّة ودفعها إلى إتقان أعمالها، ثمّ إلى نسخها وتقليدها في نماذج عديدة. وفي كلّ مرّة كانت شخصيّة الفنّان تختفي وراء الحرفي الذي يتمتّع وحده بوضع اجتماعي شرعي، وهو وضع يأتي حتمًا أدنى من وضع عناصر أخرى في المجتمع، لكنّه كافٍ، مع ذلك، ليؤمّن له قوته اليومي.

بين ممثّلي هذه الحرف، أي القسم الأكبر من سكّان المدن العاديّين، عدد من العمّال اليدويّين الذين كانوا يلبّون طلبات السكّان اليوميّة. فمنهم من كان يقدّم المواد الغذائيّة الأساسيّة، كالمحاصيل الزراعيّة التي كانت تُحوّل إلى دقيق أو سكّر أو زيت في مطاحن الحبوب، وتُرسل من ثمّ إلى الطهاة أو الى صانعي الحلوى، فيقدّمون للمشترين مأكولات متنوّعة. واهتمّ حرفيّون آخرون بأعمال ذات طابع كيميائي بدائيّة ولكنّها ضروريّة لتسيير أعمال الدبّاغين، والصبّاغين، وأصحاب معامل الصابون والعطور. كما انصرف أصحاب بعض الحرف إلى الأعمال القاسية، كالبناء والحدادة والنجارة والخزافة، والندافة والحياكة، فقدّموا لأبناء المدن والقرى موادّ ينتفعون بها. إلّا أنّ أصحاب الحرف المهمّة كانوا يعكفون على أعمال تتّسم بالدقّة، فتُعتبر من الكماليّات وتلبّي متطلّبات التجارة الكبيرة ورغبات أبناء الخاصّة.

هكذا ازدهرت الفنون الخشبية والمعدنيّة التي تتميّز تحفها بترصيع منظّم بدقّة من جهة، وبتغشية تُغنيها النحاسيات وتزيّنها الجواهر الثمينة من جهة ثانية. وعرفت مشاغل الخزافة من جهتها حظوةً متزايدة مع تطوّر تقنياتها التي بلغت قمّتها مع الطلاء البرّاق المتعدّد اللون. وتوصّلت الأنسجة الثمينة المقصّبة أو الموشّاة، وكذلك السجّاد المحبوك بدقّة متناهية، بفضل قيمتها التجاريّة العالية وغنى مكوّناتها الزخرفيّة، إلى مضاهاة الإنجازات الدقيقة التي حقّقها فن تزيين الكتب وتجليدها. والمعروف أنّ المخطوطات كانت تستمدّ قيمتها من التجليد الفنّي وكذلك من معارف العلماء المثقّفين الذين كانوا يقومون بأنفسهم بعمليّة النسخ. لم يتوانَ علماء الفلك أنفسهم عن إعداد آلات الرصد وعن كتابة أسمائهم على الإسطرلابات التي يساهمون في صنعها. وكانت بعض الممارسات، الناشئة في أغلب الأحيان عن التجربة الملموسة، تتطوّر بفضل النظريّات الرياضية وعادات التفكير الخاصة بالأوساط المثقّفة، كما كانت تواكب نمط الحياة في المجتمع الإسلامي القروسطي بكامله، ما يُفسّر الإنسجام الفني الذي طبع الإنتاج الحرفي التقليدي بمجمله.

حَرَمْ، هي مشتقة من الجذر «ح ر م» بمعنى المنع أو الممنوع والمحرّم، لفظة تعني «أرض مقدسة، حرم ممنوع الدخول إليه». وقد يعود المعنى المذكور الى ما قبل الاسلام، هذا إن صحّ حديث منسوب إلى النبي محمد (ﷺ) يذكر أنّ «لكل نبيّ حرمه».

أُطلقت هذه التسمية، مع ظهور الإسلام، على مكانين مقدّسين، هما مكّة والمدينة، ثمّ أضيف اليهما لاحقًا حرم القدس وأحيانًا حرم الخليل. إلّا أنّ حَرَمي الجزيرة العربيّة تميّزا بفرادة جعلت منهما رمزًا للتسمية التي خُصّا بها، وهي «الحَرَمان»، وهي تسمية وردت في عبارات شاعت ولا تزال مستعملة حتّى اليوم، مثل «خادم الحرَمَيْن الشريفين».

يتألف حَرَم مكّة من المجال الذي يضمّ الكعبة، حيث يحرّم على الحجّاج وغيرهم أن يقوموا ببعض الأعمال، ولا سيّما حمل السلاح، والصيد أو قتل الحيوانات (باستثناء الضارّ منها)، وقطع النبات. كما أنّه يمنع على غير المسلمين الدخول الى هذا الحرم. وعلى الحاجّ، مذ يطأ ذلك المكان، عند مدخل احدى المحطات المسماة «ميقات»، ان يدخل في حال من التقديس بارتدائه لباس الإحْرام.

أمّا أرض المدينة حيث غدا جامع نبي الاسلام (ﷺ) وقبره مزارين، فهي أيضًا منطقة مقدّسة يحرّم دخولها على غير المسلمين، وإن تكن حدود الاقتصار والحظر غير محدّدة بدقة، كما بالنسبة إلى مكّة.

إنّ المكان الثالث الذي اكتسب صفة الحَرَم الشريف يقع في القدس ويتألّف من الساحة التي كانت تُعرف باسم المسجد الأقصى، حيث يقوم حتّى اليوم المسجد الذي يحمل الإسم نفسه وقبّة الصخرة. ولفظة حَرَم هذه أُطلقت أيضًا، في عهد العثمانيّين، على المقام الذي يضمّ في [مدينة] الخليل قبر ابراهيم، وهو النبي الذي كرّمه القرآن إذ نعته بالخليل. وصفة الخليل صارت ترمز، في ما بعد، إلى حرم الخليل وبها سمّيت الناحية بكاملها.

ومن الجذر العربي نفسه «حرم» تشتق لفظتان أخريان هما «حرام» و«حريم»، كثر استعمالهما في تاريخ الإسلام.

الحرم الشريف ← المسجد الأقصى.

الحروفيّة، عقيدة ذات توجُّه صوفيّ، غنوصي وسرّي نشأت في إيران، في أواخر القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، على يدي فضل الله الأستراباذي.

كان فضل الله سيّدًا متحدّرًا من الإمام علي، ولد في استراباد، سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. جذبته الصوفيّة، ومنذ حداثة سنه أظهر موهبة في تفسير الأحلام. بعد أن أتمّ مرتين فريضة الحجّ إلى مكّة، انتقل إلى خراسان، ومن ثمّ إلى أصفهان حيث غلبت إقامته وجمع حوله عددًا من المريدين، وعزم، حوالى سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م، على السعي إلى تحقيق «تجلّي المجد الإلهي»، فأسّس حركة دينيّة مستقلّة عرض عقيدتها في كتابات باللغة الفارسيّة.

حاول الاستراباذي جذب الحكّام إلى قضيّته، فتوجّه إلى تيمورلنك في سمرقند، لكن بدون جدوى، فلجأ إلى ابنه مران شاه، في شروان، غير أنّه أوقف وأعدم سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م. تميّزت الحروفيّة ظاهرًا بإعطائها معنى سريًّا لحروف الأبجديّة، لكنّ عقيدتها هي أكثر تعقيدًا من ذلك. إنّها أعلنت نهاية زمن النبوّة وبداية مرحلة المجد الإلهي الذي يتجلّى في شخص فضل الله. يتحقّق هذا التجلّي بواسطة الحروف التي تتطابق مع الخلق عند الله. وقد توافر لفضل الله مريدون سعوا إلى تنظيم ديانة مستقلّة في ما بعد، لكنّهم أخفقوا كليًا. إلّا أنّ الحروفيّة خلّفت أثرًا في الصوفيّة الفارسيّة.

الحريم، لفظة تدلّ على الخدر أو الموضع المحظور على الرجال. يحمل هذا الموضع، في المناطق الإسلاميّة غير العربيّة، أسماءً محليّة متعدّدة الأصول.

إنّ توصيات القرآن الكريم - التي بالغ في تضخيمها الفقهاء - أرست العادة التي تفرض على البيوت، بما فيها خيم البدو، أن يُقتطع جزء منها ويخصّص للنساء: زوجات شرعيات، جوارٍ محظيّات، خادمات، قريبات بدرجات مختلفة. إنّ دخول هذه الخدور - التي توازي في بيوت الأثرياء وبلاطات الحكام جناحًا مستقلًا - لم يكن مجازًا إلّا لسيّد الدار والأقرباء من الأسرة والأهل، وللخدّام الذين كانوا في أغلب الأحيان من الخصيان. لقد أثّر تنظيم هذا الحريم في جوانب مختلفة من الحضارة الإسلاميّة، بصورة خاصة في ما يتعلّق بالهندسة المنزليّة الداخليّة التي وضعت نموذجًا يتفرّد به السكن الإسلامي، بحيث يفصل قاعات الاستقبال المشرّعة أمام الغرباء عن أقسام المسكن الخاصة بالحياة اليوميّة. كانت هذه الأقسام تمتدّ على مساحات واسعة، ولكنّها تلاصق دائمًا أماكن لا تطلّ على الخارج. إلّا أنّ هذه الأجزاء من المنزل كانت منظّمة حول فناء واسع. حُفظت نماذج من هذه الأبنية الضخمة المزينة بترف وفخامة، أهمّها تلك التي تعود إلى العهد العثماني، شأن أجنحة «حريم» قصر توبكابي سراي في اسطنبول.

حَزْقِيَّال أو حزقيل، شخصيّة توراتيّة تُعرف أيضًا باللغة العربيّة باسم «ذو الكِفْل»، وردت في القرآن حيث ارتبطت ببعض الأنبياء. وقد بقيت شخصيّة ذي الكفل غامضة في التقاليد الإسلاميّة، حتّى إنّ بعض المفسّرين جعل منه نسيب النبيّ الياس. في المقابل، إنّ شهرة الأماكن التي اقترنت بمواضع قبره المختلفة وغدت مزارات خلال تنامي حركة تكريم الأولياء، تشهد لها

حيويّة الزيارات التي استمرّت في العراق الى مكانٍ يقع في جوار الحِلَّة. وقد أشار إلى هذا الموضع، الذي يُعرف اليوم باسم الكِفل أو الكِفل، دليلُ الهروي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، مشيراً الى الأصل العبري للتسمية.

الحَسا أو الأَحْساء، اسم منطقة في جزيرة العرب تقع على الساحل الشرقي، على امتداد الخليج العربي - الفارسي، وهي اليوم جزء من المملكة العربيّة السعوديّة.

إن هذه المنطقة الصحراويّة التي تضمّ بعض الواحات، عُرفت كذلك باسم البحرين، لشدّة ارتباط قدرها بقدر الجزر المجاورة والتي تشكل اليوم مملكة البحرين، وذلك حتى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي تقريبًا. اعتنق سكّانها الإسلام باكرًا واستخدمت أرضهم ملجأً للحركات الثوريّة المتمرّدة على الخلافة، من الخوارج والإسماعيليّين. وضمّت الأحساء، في القرنين الرابع والخامس للهجرة/العاشر والحادي عشر للميلاد، قلعة شيّدها زعيم القرامطة، أبو طاهر، سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م، وظلت صامدة حتّى انتهاء حكم القرامطة في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي على يد سلالة تتحدّر من الأحساء، هي سلالة العُيونيّين.

توالى على مجمّع الواحات عدد كثير من الأسياد الذين وضعوا يدهم عليه. ما إن استولى الوهابيّون عليه في العام ١٧٩٤، حتّى شهد دخول جيش محمّد علي في العام ١٨١٩، واستُرجع المجمع ثمّ استولي عليه في مدّ وجزر، حتّى اتّخذ العثمانيّون المقيمون في الحسا، في العام ١٨٧٢، القرار بضمّ المنطقة إداريًّا الى العراق. وفي العام ١٩١٣ احتلّها أخيرًا عبد العزيز بن سعود، المعروف في الغرب باسم ابن سعود، وضمّها الى مملكة آل سعود الجديدة.

حسّان بن ثابت، ؟-٤٠هـ/؟-٦٦٠م، شاعر صدر الإسلام الشهير. ينتسب الى قبيلة الخزرج التي كانت تقيم في واحات يثرب التي عُرفت بالمدينة لاحقًا. أسلم حسّان منذ وصول النبي محمّد (ﷺ)، ويبدو أنّه استقبل، كأخٍ له، عثمان بن عفان الخليفة في ما بعد، الذي كان آنذاك في عداد المهاجرين. شرع بمدح الرسول منذ العام ٩هـ/٦٣٠م، غير أنّه يصعب تكوين فكرة دقيقة وصحيحة عن طبيعة أشعاره، لأنّ الديوان المنسوب إليه يبدو، الى حدٍّ كبير، منحولاً.

الحِسْبة، لفظة عربيّة تقنيّة تعني الواجب الذي تفرضه الشريعة على كل مسلم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ كما تعني، منذ القرون الوسطى، الوظيفة المتعلّقة بهذا الواجب. يستند هذا الواجب إلى الآية القرآنية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٠٤).

غير انّ لفظة حسبة ليست قرآنية، والمعنى المشتقّ من جذر الكلمة أي «حساب» لا يُمكن أن يُنسب بصورة مقبولة إلى الواجب المذكور سابقًا.

في الواقع إنّ المحتسب، أو الشخص الذي اضطلع بالحسبة، بشكل فرديّ أو رسميّ، قد يكون الشخص الذي يكافأ في الآخرة على حسبته، إلّا أنّ أصل الكلمة ما يزال موضوع شكّ.

إن الحسبة، بالعودة إلى الرسائل الفقهيّة أو إلى الفصول التي كُتبت حول هذا الموضوع، في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، في مؤلفات كتّاب كالماوردي والغزالي، تتعلّق بصورة خاصة بالأفعال المنظورة الموصى بها أو الجديرة بالعقاب.

لا يتوجّب على الشخص المسؤول عن الحسبة أن يهتمّ بما يجري داخل البيوت، ولا أن يُصدر الأحكام في المخالفات التي رصد لها القرآن والسّنة عقوبات شرعيةً هي من صلاحيّة القاضي أي، بمعنى آخر، من صلاحيّة المؤسّسات القضائيّة.

والمحتسب لا يطبّق القانون الجزائي، بل يسهر على تنفيذ احترام آداب السلوك واللياقة الإسلاميّة، استنادًا إلى المبدإ القائل: إنّ ممارسة الإسلام لا تقتصر على تجنّب الأعمال الموصوفة بالاحرام» أو المنهيّ عنها، وعلى القيام بالأعمال الواجبة المأمور بها، بل إنّ الممارسة تقتضي القيام بالمعروف وتجنّب المنكر.

هذا التحديد للحسبة المرتبطة بواجب ديني لم يتجسّد في الواقع قبل عهد أوّل الخلفاء العبّاسيّين، حيث حلّ المأمور الذي عُيّن في هذا المنصب محلّ «صاحب

السوق» السابق. فشملت وظيفته إذًا مهمات الشخص الذي كان يكلّف سابقًا مراقبة الإنتاج الصناعي والمبيعات في المدن. وقد مارس هذه المهمات، إلى جانب أنشطة القاضي ورئيس الشرطة. أضف إلى ذلك أنّ كلّ مسلم كان يعتبر نفسه، باسم الواجب الذي تفرضه عليه الحسبة، معنيًّا بكل ما يجري في جواره، ومن واجبه أن يحول دون ارتكاب الأعمال المنكرة، بخاصة في مجال الأخلاق.

إنّ وظيفة المسؤول عن الحسبة بصفته مأمورًا مدنيًّا معترفًا به، اتّضحت أكثر في مؤلّفات علمية متخصّصة وُضعت لاحقًا، في أواخر القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، سواء في الشرق أو في الأندلس. جاء في هذه المؤلّفات أنّ المحتسب يسهر على المحافظة على الأخلاق، ويحول دون التعبير عن آراء هدّامة – كالترويج للشيعة في سوريا الأيوبيّة مثلًا – ويراقب كيفيّة ممارسة العبادة، بصورة خاصة أحكام الصلاة؛ وعليه أيضًا أن يتحقّق من أنّ العبيد لا يتعرّضون لسوء المعاملة، وأنّ معلّمي المدارس لا يمارسون أساليب العنف على تلاميذهم. كما أنّ العمل على احترام شروط السير والتنقّل في الشوارع هو من وظيفة المحتسب الذي يمنع حدوث أيّ تعدّ، وإن كان موقّتًا، على الطريق العام. أمّا المهمّة الأبرز التي توكل الى المحتسب فهي مراقبة أصحاب الحِرف المختلفة، كما كان يفعل صاحب السوق سابقًا. ومثل هذه المهمّة يتطلّب الاعتماد على معاونين، إذ إنّه من صلب وظيفته أن يتحقّق من أدوات القياس والوزن والمعايير التي يستخدمها التجّار تأمينًا لاحترام الوصايا التي تأمر بها الآيات القرآنيّة، ومنها الآيات ١٨١ إلى ١٨٣ من سورة الشعراء ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. ومن واجبات المحتسب، أخيرًا، أن يرعى تنفيذ البيع بحسب الشروط التي وضعها الفقهاء لمختلف أنواع العقود، وأن يسعى إلى أن يحترم الناس قانون العرض والطلب. وهذا ما كان يجري باسم الأخلاق الاقتصاديّة ويفسّر غياب أيّ تحديد سلطوي للأسعار، أقلّه قبل القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد. كما على المحتسب أن يعمل على منع الغشّ والتحايل على القانون، ما يمارسه أحيانًا الصنّاع والتجّار في مهنتهم، وهذه الممارسات وصفتها باسهاب مصنّفات الحسبة.

ومن ضمن مهمات المحتسب أن يوبّخ أهل الجنوح ويوجّه إليهم الإنذارات. إنّ العقوبات الاعتباطيّة التي كان يفرضها عليهم كانت، على كلّ حال، أقلّ قساوة من أدنى عقوبة شرعيّة ينصّ عليها القرآن. ومن ممارسات المحتسب، في ما يتعلّق بمعاقبته الإجرام، أنّه كان يسير بالمخالف معتمرًا قبّعة الخزي والعار في شوارع المدينة. إلّا أنّ مثل هذه الرواية لم تأتِ على ذكرها المصادر التاريخيّة إلّا نادرًا.

واقع الأمر أنّ الحدود بين وظيفة كلٍ من القاضي والمحتسب ورئيس الشرطة لم تكن واضحة تمامًا، وغالبًا ما فُرض على الثلاثة تعاون وثيق، وغالبًا ما حصل أن راقب القاضي وظيفة الحسبة. ولمّا كان الحكم السياسي يتّخذ طابعًا عسكريًا، فكان يكلّف رئيس الشرطة بمهمات الحسبة.

إنّ تلك الوظيفة المنظّمة استمرّت في مجمل العالم الإسلامي من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، مع إد.."، بعض التعديلات عليها عبر العصور. فُرضت مثلًا ضرائب على التجّار وكان على المحتسب أن يستوفيها، ومنذئذ تحوّلت المهمّة المدعوة احتساب في البلاد الإيرانيّة التركيّة الى وظيفة تشترى وتباع، قائمة على الرشوة.

ولمّا تمّ تحديد الأسعار في بعض البلدان الإسلاميّة، أُوكل الى المحتسب أن يراقب احترام هذا التحديد وأن يحدّد نسبة الربح. ويمكن الاستنتاج، من الأنظمة المنشورة في عهد العثمانيّين، أنّ الحكومات كانت تولي مسألة استيفاء الضرائب، وتحديد الأسعار والربح اهتمامًا أكبر من مراقبة الأسواق.

الحسن البصري، أبو سعيد بن الحسن بن يَسار، ٢١-١١٠هـ/٦٤٢-٧٢٨م، خطيب وزاهد من منطقة البصرة في عهد الأمويّين، تميّز بأخلاقه وإرشاداته وتقواه التي كان لها أبلغ الأثر في النشأة الأولى للتصوّف.

هو من أصل عراقي من جهة والده الذي كان أسير

حرب فأعتق. وُلد في المدينة وشبّ في جزيرة العرب، قبل أن يشارك في فتح إيران الشرقية ويقيم في البصرة التي نُسب إليها. كان الحسن من تابعي صحابة النبي محمد (ﷺ)، ونقل أحاديث عديدة قوبلت بتحفّظ من حيث دقّتها وصحّتها. وبفضل بلاغة نداءاته الداعية الى التخلّي عن الجاه والسلطة، تبنّت أقواله بصورة خاصة الطرق الصوفيّة اللّاحقة واستشهدت بها. إنّها تعترف بدوره الريادي في الحقل الديني، من خلال التزامه وتحذيراته الموجّهة إلى كبار عصره، ومن بينهم الخلفاء الأمويّون أنفسهم.

نُسب إليه بعض الآراء القدرية والتأثير في نشأة المعتزلة، إلّا أنّ انتماءه الاساسي للسنّة لم يكن أبدًا موضوع شك. ومع أنّه لم يترك سوى رسالتين أو ثلاث، إلّا أنّ بعض حكمه وخطاباته، المحفوظة في مجموعات مختارة كنماذج في الإنشاء والبلاغة، كانت كافية لتخليد شهرته حتّى أيامنا، عبر بعض الجوانب من فكره الصوفيّ وشخصيته.

الحسن بن الصبّاح، ؟ - ٥١٨هـ/؟ - ١١٢٤م، أحد دعاة «الدعوة الفاطميّة»، أسّس فرقته الخاصة، النّزارية، وأصبح السيد الأكبر لدولة يقال لها دولة الحشّاشين، مركزها قلعة ألموت في الشمال الغربي من إيران.

لا نعرف الكثير عن هذه الشخصيّة البارزة والفاعلة الآتية من الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة التي كان ينتسب إليها والده الذي يعود بأصله إلى الكوفة. وُلد الحسن في قُم في إيران، وتحوّل الى الاسماعيليّة في الرّيّ، في فترة تحصيل دراسته الدينيّة. إنّه يمثّل غليان الأفكار الفلسفيّة الصوفيّة ذات النزعة الباطنيّة التي كانت تفعل فعلها في أوساط النِّحَل. كانت هذه الأخيرة تحمي نفسها عبر انتقاء المنتسبين إليها وعبر ممارسة التقيّة التي كانت تبدو ضروريّة.

إنّ اتّخاذ الحسن قلعة ألموت سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م مقرًّا له، وتحالفه مع أحد أبناء الخليفة الفاطمي المستنصر، ويدعى نزار - وقد دافع عنه كإمام ومهدي معتبرًا نفسه حجّته والناطق باسمه - كل هذه الأمور جعلت من الحسن زعيم المقاومة الإسماعيليّة التي نشُطت في إيران في مواجهة السلاجقة، حماة السنّة. يعزى الى الحسن تأسيس المنظّمة الارهابيّة الفدائيّة التي حافظت على الدولة النزاريّة، إلّا أنّه يصعب تحديد دوره في وضع العقيدة الإسماعيليّة الجديدة، وقد شارك فيها خلفاؤه على رأس المنظمة، وقادة ألموت وأسيادها من بعده.

الحسن بن علي، ٣-٤٩هـ/٦٢٤-٦٧٠م، الإبن البكر لعلي وفاطمة، وهو جزء من آل بيت محمد ﷺ بمعناه الضيق أي «أهل الكساء». عاش الحسن، كزعيم للعلويّين في زمانه، وثاني إمام إثني عشري، حياة هادئة في المدينة، بعد أن تخلّى عن كل مطالبة بالسلطة.

عاش هذا الحفيد للنبي محمد (ﷺ) قرب جدّه سبع سنوات، ولم يقم بأيّ دور في عهد الخلفاء الراشدين فلم يظهر على الساحة السياسيّة إلّا بعد مقتل والده سنة ٤٠هـ/٦٦١م. بايعهُ حينئذ الشيعة خليفة، مشترطين عليه شروطًا غير واضحة، ما لبث أن وجد نفسه مجابهًا مناورات معاوية، مؤسّس الأسرة الأمويّة، التي كانت تارة هادئة وطورًا عنيفة مهدِّدة، بحيث نجح معاوية في النهاية بضمّ عدد وفير من أنصار الحسن الى معسكره وبإقناعه بأن يتنازل عن السلطة. لقد صرّح الحسن رسميًّا وعلنًا عن ذلك في المسجد الجامع في الكوفة مبايعًا معاوية بالخلافة. لم يكن مثل هذا الموقف ليمرّ من دون نتائج، إذ إنّه أذكى في صفوف الشيعة كثيرًا من الاعتراض. انزوى الحسن في المدينة حيث مات بعد عشر سنوات مخلّفًا سلالته أي الحسنيّين، الذين برز من بينهم، في ما بعد، مطالبون بالخلافة، معتمدين العنف أحيانًا، ومنهم مؤسّسو سلالات لاحقة كالأدارسة وأشراف المغرب وأشراف مكّة.

◄ راجع المستند رقم ٥.

الحسن بن محمّد الوزّان ← لاون الأفريقي.

الحسن العسكري ٢٣٠-٢٦٠هـ/٨٤٤-٨٧٤م، أو رجل المعسكر، وقد أُعطي نعوتًا أخرى عديدة، بينها النقي، الزّكي أو الطاهر. إنّه ابن علي الهادي العسكري وهو الإمام العلوي الحادي عشر للإماميّة الاثني عشريّة.

وُلد الحسن العسكري في المدينة، وانتقل الى سامرّاء عندما نقل الخليفة المتوكّل والده سجينًا اليها

حمل ثانيًا اللقب ذاته المستمد من المدينة الملكيّة التي كانت تعرف بالمعسكر، وتأوي مرتزقة الحرب الأتراك.

إن السنين الست من إمامته القصيرة، بعد أن اختاره والده خليفةً له سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م، تميّزت بمعاملة سيّئة تجاهه من قبل العبّاسيّين الحاكمين في حينه. كما يروى أنّ المعتمد أمر بدسّ السمّ له.

تكثر حول شخصيّة الحسن العسكري الروايات، منها ما يشدّد على قداسته وعلى المعجزات التي حقّقها، وبعضها يتعلّق بالظروف التي جمعته بجارية بيزنطيّة من أصل ملكي كان مقدّرًا أن تلد له إبنًا.

أثار موته لغطًا شديدًا بين أنصاره، فاعتبره بعضهم المهدي، في حين انضمّ آخرون إلى أخيه أو إلى ابنه محمد القائم الذي اختفى صغيرًا في السنة نفسها ٢٦٠هـ/٨٧٤م، وهو الامام الثاني عشر الذي به تنتهي سلسلة الأئمّة الطاهرين الذين يعترف بهم أتباع «الاثني عشرية».

إن ضريح الحسن العسكري، الواقع الى جانب ضريح والده، يشكّل أحد قُطبي المقام الشيعي المقدّس الذي نشأت حوله سامرّاء الحديثة.

◄ راجع المستندين ٤ و٤٦.

الحسين بن علي، ٣-٦١هـ/ ٦٢٥-٦٨٠م، هو الابن الثاني لعليّ وفاطمة، والإمام العلوي الثالث للإمامية الاثني عشريّة. يعتبر الحسين منذ وفاته المأسوية في كربلاء شهيدًا، وما تزال التقاليد الشيعيّة تحيي ذكراها كلّ سنة.

كان الحسين صغيرًا عندما توفي جدّه النبي محمّد (ﷺ) ولم يعرفه أبدًا. إلّا أنّ انتسابه إلى عائلة النبي (أهل البيت) أو «أهل الكساء»، جعل منه زعيم العلويّين بعد وفاة شقيقه الأكبر الحسن الذي قام بدور متواضع على الساحة السياسيّة إبتداء من سنة ٤١هـ/ ٦٦١م. وإن بدا الحسين مستاء من أخيه بسبب تنازله عن السلطة، إلّا أنّه قَبِل، هوَ أيضًا، هبات معاوية السخيّة، ولكنّه رفض الاعتراف بالسلالة الأمويّة وامتنع عن أداء قسم المبايعة ليزيد، ولي العهد آنذاك. وجدّد رفضه بعد وفاة معاوية سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م وانسحب إلى مكّة برفقة إبن الزُبَيْر. حرَّض الشيعة، الذين كانوا يشكّلون قسمًا كبيرًا من سكّان الكوفة في العراق، الحسين على أن ينضمّ إليهم لمقاتلة النظام الأموي. ويروي المؤرّخون أنّه لم يكن على علم بنيّات الوالي الأموي، إبن زياد، الذي أمر بقتل المبعوث الذي أرسله الحسين إلى الكوفة، فقرّر الحسين أن يستجيب لدعوة أنصاره، وأن يلتحق بهم مع عائلته وحوالى اثنين وستين نفرًا من أصحابه.

واجهت الفصيلة الصغيرة، في ١٠ تشرين الأول سنة ٦٨٠م (الموافق ١٠ محرّم ٦١هـ)، على ضفاف الفرات، على مقربة من الكوفة، قوّة تفوقها عددًا أُرسلت لملاقاتها. أصرّ ابن زياد على أن يؤدي الحسين البيعة للخليفة الأموي الثاني، يزيد الأول، وأن يسلّم نفسه أسيرًا.

وبعد وقائع غامضة وتعاقب مبارزات فرديّة - هذا ما تقوله الأخبار التي وصلت إلينا - فإنّ العطش اشتدّ على الذين بقوا أحياء من جماعة الحسين، فقتلوا جميعًا مع الحسين؛ إلّا أنّ أحد أبناء هذا الأخير، عليّ الأصغر، الذي عرف لاحقًا بلقبه زين العابدين لم يُصب بأذًى، وانتقل إلى المدينة بإذن من يزيد.

قُطع رأس الحسين وحُمِل إلى دمشق. يُقال إنّ الخليفة أسِف للعنف الذي مارسه واليه. أمّا جثمان الحسين فووري الثرى في كربلاء حيث شيّد لاحقًا الضريح المزار للشيعة الذي ما يزال حتى اليوم موضوع إجلال مميّز.

وقد أُحيطت الأماكن التي، بحسب الروايات، دُفن فيها رأس الحسين، بقدر مشابه من الاحترام. إنّ الرواية الأكثر شيوعًا تذكر أن رأس الحسين دُفن في عسقلان، ومنها نقل الفاطميّون ذخائره إلى القاهرة، في زمن الصليبيّين، إلى مشهد الحسين؛ ولكن هناك أبنية عديدة أقيمت في سوريا في الأمكنة التي تُعتبر محطات أُنزلت فيها الذخيرة في مراحل انتقالها، وأصبحت هذه الأمكنة مراكز لزيارات تقويّة يقصدها المؤمنون بكثافة.

إنّ الإجلال الخاص الذي أُحيطت به ذكرى استشهاد الحسين من قبل الشيعة الذين اعتبروا وفاته موتًا طوعيًّا لخلاص العالم، دفع بالإماميّة الاثني عشريّة إلى طلب شفاعته عبر تظاهرات من التقوى والحداد تتّخذ طابعًا مشهديًّا عنيفًا خلال فترة عاشوراء.

ويذكر من جهة ثانية أنّه ظهر، في صفوف الشيعة المتحدّرين من الحسين، أو الحسينيّين، المطالبون بالسلطة بعناد، متسلّحين بلقب «إمام». ولكنّ تعيين إمام جديد كان يتسبّب، كل مرّة، بصراعات بين السلالات المعنيّة.

◄ راجع المستند رقم ٤.

الحسين بن علي (الشريف)، ١٨٥٣-١٩٣١، هو آخر ممثلي الأشراف الهاشميّين في مكّة والحجاز، وقد حمل هذا اللقب بين ١٩٠٨ و١٩١٦، ثمّ أصبح ملكًا على الحجاز بين ١٩١٦ و١٩٢٤، بعد أن نهض بدور مهمّ في الثورة العربيّة في العام ١٩١٦.

وهذا الشريف المتحدّر من الهاشميّين والمنتمي إلى فرع «آل عون» والذي سبق له أن انصرف إلى الأدب في اسطنبول حيث كان موضوعًا في الإقامة الجبريّة منذ ١٨٩٤، ارتقى إلى سدّة السلطة لأوّل مرّة بعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨. وقد سنحت له الفرصة، حين آثره السلطان العثماني على أفراد آخرين من عائلته، كي ينمّي، بمهارة، طموحاته الشخصيّة، إلى جانب طموحات السلطة الحاكمة في الشرق العربي، إن لم يكن على حسابها. وقد حاصرته الصعوبات بعد إعلانه الاستقلال في العام ١٩١٦ بصفته ملكًا للحجاز، في الفترة التي تلت المواجهات العسكريّة الأولى التي خاضها ضدّ العثمانيّين بدفع من الحلفاء، وبخاصة البريطانيّين الذين تولّوا سريعًا قيادة العمليّات العسكريّة. وقد خيّبت معاهدة فرساي[48] كل آماله لاقامة مملكة عربيّة كبرى، مع أنّ آفاقًا جديدة انفتحت أمام نجليه فيصل وعبدالله. ورغم إصراره على اتّباع سياسة كان محكومًا عليها بالفشل المحتّم، إلّا أنّه اضطرّ، بعد فترة وجيزة، للتنازل عن العرش، في الوقت الذي كان أنصار ابن سعود الوهابيّون يبسطون سيطرتهم على الحجاز بالقوّة العسكريّة، ممهّدين بذلك لتتويج عبد العزيز الثاني ابن سعود، المعروف في أوروبا باسم ابن سعود، ملكًا على الحجاز ونجد في العام ١٩٣٠.

الحسين بن علي بن الحسن بن علي، المعروف باسم صاحب فخ أو «رجل فخ» (؟-١٦٩هـ/ ؟-٧٨٦م)، علوي من ذريّة الحسنيّين مطالب بالحكم، ثار على السلطة العبّاسيّة، في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد على عهد الخليفة الهادي.

اشتهر هذا الرجل بنفواه الشديدة، عاش في المدينة في أوساط المعارضين حيث سبق أن نشأت، لعشرين سنة مضت، حركة محمّد النفس الزكيّة وأخيه إبراهيم. قاد الحسين ثورة محليّة سمحت له بأن يحتلّ مسجد المدينة لمدّة عشرة أيام فقط. أراد التقدّم إلى مكّة، ولكن اعترضته بعض القوى، فقُتل في اشتباكه معها في مكان يقال له فخّ، على مقربة من مكّة، في ٨ ذي الحجّة ١٦٩م/ ١١ حزيران ٧٨٦م.

تمكّن بعض أنصاره من الهرب، أبرزهم إدريس بن عبدالله أو إدريس الأكبر مؤسّس سلالة الأدارسة في المغرب.

◄ راجع المستند رقم ٥.

الحسيني، أمين ١٨٩٣-١٩٧٤، مفتي القدس، لعب دورًا كبيرًا في الصراع ضدّ الصهيونيّة.

ولد في القدس وبدأ فيها دروسه التي أكملها في القاهرة، بدون أن يحصل على الشهادات التي تخوّله أن يصبح مفتيًا. عمل، بعد الحرب العالميّة الأولى، في الصحافة ودافع، منذ ذلك الوقت، عن قضيّة فلسطين العربيّة - الإسلاميّة. عيّنته سلطات الانتداب البريطانيّة، في العام ١٩٢١، مفتيًا، وكان يُعرف بالحاج أمين لأنّه كان قد حجّ الى مكة. جعلت منه وظيفته الجديدة قائدًا لمسلمي فلسطين ورئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى للشريعة. نظّم، في العام ١٩٣١، مؤتمرًا إسلاميًا في القدس وحاول الإفادة منه في دعم سياسته. ثمّ انشأ، في العام ١٩٣٥، حزب فلسطين العربي الذي كان يهدف الى منع بيع الأراضي الى المستوطنين اليهود. خُلع من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى على أثر حركة عصيان اتُهم بتدبيرها، فاضطرّ الى مغادرة فلسطين فأقام في ألمانيا بين ١٩٤١ و١٩٤٥.

استقرّ، بعد الحرب العالميّة الثانية، في مصر وحاول أن ينظّم من هناك الحركة المناوئة للصهيونيّة. انتقل في ايلول/ سبتمبر ١٩٤٨ الى غزّة حيث اعلن قيام حكومة فلسطينيّة. بعد أن ضُمّت الضفّة الغربيّة إلى

المملكة الاردنيّة الهاشمية، عام ١٩٥٠، فقد نفوذه على الرغم من أنّه عُيّن مفتي الملك عبدالله الخاص. غادر الى بيروت حيث توفي في العام ١٩٧٤ من دون ان يستطيع استعادة النفوذ الذي كان له من قبل.

الحسينيّون، ١٧٠٥-١٩٥٧، سلالة البايات الذين حكموا تونس من عام ١٧٠٥ إلى ١٨٨١، تحت وصاية عثمانيّة إسمية، وما لبثوا ان تحرّروا منها في مطلع القرن التاسع عشر، وواصلوا حكمهم تحت الحماية الفرنسيّة حتّى إعلان استقلال البلاد.

على اثر هجوم شنّه الجزائريّون على تونس، عام ١٧٠٥، استنجد التونسيون بآغا السباهيّة الحسين بن علي، وهو ابن انكشاري تركي وامرأة تونسيّة. تمكّن الحسين، طيلة فترة حكمه (١٧٠٥ - ١٧٤٠)، من أن يفرض سلطته، فاعترف به العثمانيّون منذ العام ١٧٠٧. على الرغم من اعترافهم بسيادة الباب العالي، حكم البايات التونسيّون البلد بحريّة، حتّى إنّهم عقدوا معاهدات مع الدول الكبرى بصورة مستقلّة. قاوم حمودة بك أو حمودة باشا الذي حكم من ١٧٨٢ إلى ١٨١٤ البندقيّة وإسبانيا وقطع رابط السيادة الذي كان قائمًا بين السلطة العثمانيّة وتونس.

وتلا هذا الوضع الحماية الفرنسية، عام ١٨٨١. ثمّ رأت النور، في العام ١٩٥٧، جمهوريّة تونس المستقلّة التي وضعت حدًّا نهائيًّا لسلالة البايات القدامى.

الحشّاشون، إسم أطلقه الفرنج، في عصر الصليبيّين، على أتباع الشيعة الإسماعيلية النّزاريّة ممَّن عُرفوا باللجوء إلى الأعمال الإرهابيّة وإلى الاغتيالات السياسيّة، وهذا يفسّر المعنى الذي اتّخذته اللفظة لاحقًا في اللغة الفرنسيّة.

وقد جاء أنّ لفظة «حشّاشين» التي ترادفت قديمًا مع لفظتي «امتديّنين» و«غلاة»، ثمّ مع لفظة «قتلة» في النصوص التاريخيّة الغربيّة التي دُوّنت خلال القرون الوسطى في مختلف اللغات، تشتقّ من لفظة «حشّاشين» العربيّة التي تعني «مدخّني الحشيشة». والواقع أنّ لا شيء يثبت أنّ الإسماعيليّين الذين استقرّوا في سوريا حول مصّياف بزعامة رشيد الدين سنان، أو الذين تحصّنوا في قلعة ألموت بإيران، قد أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية، أو لجأوا إلى الحشيشة بغية ارتكاب جرائمهم السياسيّة. فيبدو إذًا أنّ هذا النعت قد استُعمل من قبل أعدائهم. بينما يُطلق مؤرّخو الأحداث العرب على الذين يقومون بمثل هذه الأعمال لفظة «فدائيّين»، وهذه اللفظة تُستعمل اليوم باللغة الفرنسية بصيغة «fedayin».

◀ راجع المستند ١٨.

الحشيشيّة ← الحشّاشون.

حصن الأكراد ← كرك.

حصن كيفا (الجمهوريّة التركيّة)، ناحية تقوم على أنقاض مدينة قروسطيّة في بلاد ما بين النهرين العليا. إنّ هذا الحصن القديم المبني على حدود الأمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة، والذي أصبح في ما بعد بيزنطيًّا، أُلحق بالعالم العربي - الإسلامي في زمن الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد. غير أنّه لم يستعد دوره الإستراتيجي كمدينة تبسط سلطتها على الوادي الأعلى لنهر دجلة إلّا عندما أصبح عاصمة أحد فروع سلالة الأرتُقيّين، إبتداءً من سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م، ومركز بلاط ملكي. بعد هذه الفترة من النهضة والازدهار، انتزع الأيوبيّون الآتون من سوريا المدينة وسيطروا على أملاك أمرائها، فعرفت هذه تراجعًا سريعًا تحت وطأة الزحف المغولي سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. إنّ سيطرة الآق قويونلو والصفويّين، ثمّ احتلال العثمانيّين للمنطقة عام ١٥١٦م، وَجَدا حصن كيفا قريةً لا أهميّة لها، منعزلة عن مسالك القوافل الجديدة. لا يزال فيها، حتّى أيامنا، آثار تعود إلى الأرتُقيّين، بينها أنقاض القلعة القائمة على صخرة مطلّة على دجلة، وهي تضمّ بقايا القصور، وكذلك بقايا مسجدين وبقايا جسر حجري بُني قديمًا فوق النهر.

◀ راجع المستند ٢١.

حَضْرَموت، منطقة جبليّة قاحلة في جنوب الجزيرة العربيّة. هي اليوم جزء من الجمهوريّة اليمنيّة قوامها، بشكل أساسي، وادٍ موازٍ لشاطئ المحيط الهندي القاحل.

إنّ زعماء البلد القدامى اتّصلوا، بحسب الروايات،

مباشرة بالنبيّ محمد (ﷺ) ليعلنوا له إسلامهم. وبعد أن أصبحت حَضْرَموت جزءًا من اليمن، تسرّبت اليها العقائد الإباضيّة التي تعرّض لها، حوالى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، الصليحيّون، وهم شيعة إسماعيليّون موالون للفاطميّين، تمكنّوا من بسط نفوذهم على صنعاء وعدن. ومع وصول الأيوبيّين السنّة، في العام ٥٦٦هـ/١١٧١م، وضع حدّ لهذه الحالة. ترك الأيوبيّون الحكم لبني رسول الذين اهتمّوا بتنظيم البلاد وبإحلال الاستقرار والسلام فيها. إلّا أنّه مع مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، تناحرت مجموعات قبلية عديدة للسيطرة على المنطقة وتسلّم زمام أمورها، لا سيّما أنّها كانت محطّ أطماع البرتغاليّين والعثمانيّين.

أما في القرن العشرين، فيلحظ تنظيم سلطنتين قامتا في ظلّ الحماية البريطانيّة ودامتا الى حين ضُمّت حَضْرَموتُ عام ١٩٦٧، ومعظم سكّانها من السنّة الشافعية، الى اليمن الجنوبيّة. ثمّ عادت، في العام ١٩٩١، الى الجمهورية اليمنيّة التي وحّدت البلاد من جديد.

◄ راجع المستند ٨.

حَطّين أو حِطّين (معركة -)، ربيع الآخر ٥٨٣هـ/تموز ١١٨٧م، مكان التحام كبير وقع قرب البلدة التي تحمل هذا الاسم، على مقربة من بحيرة طبريا، أفسحت في المجال لقوات صلاح الدين أن تقضي، في هذه المعركة الوحيدة، على القوّة العسكريّة لمملكة الفرنج في القدس.

يعزى هذا الانتصار، إلى حدٍّ بعيد، إلى التفوّق في الخطة التكتيكيّة التي اعتمدها سيّد سوريا ومصر في هذه المناسبة. لقد سجّل الانتصار النهائي لسياسة الجهاد الطويلة التي وضع صلاح الدين كل قواه في خدمتها، موحّدًا الفصائل العسكريّة المتعدّدة التي تكوّن منها جيشه المهيب الذي بلغ عدده الاثني عشر ألف رجل؛ أمّا الهدف المشترك فكان: الحرب المقدسة أو الجهاد.

في الواقع إن القوّات الإسلاميّة لم تكن تتفوّق على القوّات المسيحية إلّا بنسبة ضئيلة. إلّا أنّه قُضي على المقاتلين المسيحيّين بعد أن وضعهم الحرّ والعطش في حالة يائسة. وفيما نجح ريمون، أمير طرابلس، في الفرار وحيدًا، وقع ملك القدس غي دولوزينيان في عداد الأسرى الذين تعرّض الكثيرون منهم للقتل، وبصورة خاصة فرسان الهيكل و«الاسبتارية» (Hospitaliers)، إضافة إلى رينو دو شاتيّون (Renaud de Châtillon).

إنّ استعادة القدس على أيدي المسلمين، التي تمت في شعبان سنة ٥٨٣هـ/ تشرين الأول ١١٨٧م، بعد سقوط مجمل مدن الساحل الفلسطيني، كان لها دويّ رمزي كبير. يبدو أنّ قرار مهاجمة القدس بهذه السرعة قد فرضه على صلاح الدين محيطه من رجال الدين، ما أفسح في المجال أمام المدافعين عن حصن صور القوية كي ينظموا دفاعًا أذكت حميّته شراسةُ المنتصر في حطين، فقاوموا ببسالة هجماته طوال حصاره الذي دام شهرين.

حفصة، (؟ ٤٥هـ/ ؟-٦٦٥م)، ابنة عمر بن الخطّاب، أحد صحابة النبي محمّد (ﷺ) وثاني خلفائه. حفصة هي واحدة من زوجات النبي اللواتي ورد ذكرهنّ مرّات عديدة في الأحاديث النبويّة.

كانت حفصة متزوّجة من قرشي مسلم وافته المنيّة في المدينة بعد موقعة بدر. تزوّجها النبي (ﷺ) في العام ٦٢٥م، بعد فترة وجيزة من اقترانه بعائشة، إبنة أبي بكر، وقبل موقعة أُحُد. وهكذا أصبحت زوجته الرابعة. بعد وفاة النبي (ﷺ)، حصلت حفصة، المعزّزة بين زوجات محمد، على هبة، لكنّها لم تقم بأي دور سياسي. يقال إنّه كان في حوزتها نصّ القرآن الذي كتبه زيد بن ثابت، واعتمده في ما بعد الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

الحفصيّون، (٦٢٧ - ٩٨٢هـ/١٢٢٩ - ١٥٧٤م)، سلالة ملكيّة حكمت إفريقية في أواخرالعصور الوسطى، ووفّرت لهذا الإقليم فترة نفوذ وازدهار لا مثيل لها، متّخذةً من تونس مركزًا لحكمها.

أوّل حاكم حفصيّ كان يدعى أبو زكريا يحيى الأوّل، وهو من نسل أحد قادة «الموحّدين» وصاحب ابن تومرت. كان قد أصبح، بعد جدّه وأخيه، حاكم المغرب الشرقيّ في العام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م، واستقلّ بإمارته في العام ٦٣٤هـ/١٢٣٧م، ثمّ وسّع نفوذه الى

المغرب، فوضع يده على قسنطينة وبجاية والجزائر؛ واستولى أيضًا على تلمسان في العام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، ما حدا بقبيلة عبد الواد إلى تقديم الإكرام له؛ كما أخضع عددًا من القبائل المتمرّدة وأقام مملكة امتدّ نفوذها الى المغرب الأقصى. الى جانب إخلاصه لأسياده «الموحّدين»، ولأفكارهم وتقاليدهم السياسيّة والتنظيميّة التي ميّزت سلطانهم، سمح أبو زكريا يحيى الأوّل للمذهب المالكي وللطرق الصوفيّة أن يوسّع نطاق عملهما.

لقد تميّز عهده وعهد ابنه، أبو عبدالله محمد الأوّل، الذي اتّخذ لنفسه لقب الخليفة المستنصر، بنهضة اقتصاديّة يعود الفضل في تحقيقها الى العلاقات الناشطة القائمة بين المملكة الحفصيّة واوروبا الغربيّة.

إضافة الى المعاهدة المعقودة مع صقلّية لاستيراد القمح، أقام التجّار الأوروبيّون في تونس حيث أفادوا من استخدام الخانات المخصّصة في المدن للتجار الأجانب والمعروفة بالفنادق، بينما استقرّ المسلمون، الذين غادروا الأندلس بسبب حروب الاسترداد المسيحيّة، في أفريقيا الشماليّة ومنها قاتلوا انصار «الموحّدين» القدامى. لكنّ العلاقات بالمسيحيّين تدهورت لفترة قصيرة، في أثناء الحملة الصليبيّة التي قادها لويس التاسع في العام ١٢٧٠م.

لقد تلت وفاة المستنصر ٦٧٥هـ/١٢٧٧م، فترة اضطرابات سببها الصراعات العائليّة والخصومات بين القبائل، وقد انتهزت بعضها الفرص للاستقلال. لقد حاول أبو يحيى أبو بكر الثاني، في مطلع القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، أن يفرض سلطته. وللتمكّن من مقاومة سلطان تلمسان، إضطرّ الى التحالف مع الأسرة المرينيّة في فاس، ما أتاح لهذه الأسرة، بين ٧٤٨ و٧٥١هـ/١٣٤٧ و١٣٥٠م، أن تضع يدها على أملاك الحفصيّين. كما استطاع المرينيّون أن يفرضوا سلطتهم مرّة ثانية، بين عامي ٧٥٣ و٧٥٩هـ/ ١٣٥٢ و١٣٥٨م، إلّا أنّهم اصطدموا بثورة البدو التي حالت دون تجاحهم.

على الرغم من أنّ الانقسامات العائليّة لم تتوقّف، فإنّ المملكة الحفصيّة عاشت، في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ومطلع القرن التالي، فترة أنشطة شهدت استعادة الحيويّة الاقتصاديّة، وإقامة علاقات بالدول المسيحيّة راوحت بين الودّ تارة والتوتّر طورًا، كما أنّها لم تكفّ عن تهدئة الأوضاع والعمل على إقرار السلام في الداخل، عن طريق ردع البدو والحؤول دون تحقيق أيّة عمليّة انفصال في الجنوب.

إن أحد أسياد الحفصيّين، أبو فارس عبد العزيز، ساعد، بنوع خاص، العلماء والاشراف والمتصوّفين، واهتمّ بالأبنية الدينيّة والمدنيّة، وأحيا عيد المولد النبوي، فاكتسب جرّاء ذلك شهرة وموقعًا كبيريْن في العالم الإسلامي. وتابع حفيده، أبو عمر عثمان، عمله بين ١٤٢٥ و١٤٨٨م، إلا أنّ خلفاءه اصطدموا بالقراصنة الأتراك المستقرّين في الجزائر، ولم ينعموا إلا بنفوذ مهدّد الى أن تحوّلت تونس، في العام ٩٨٢هـ/١٥٧٤، الى مركز اقليم متواضع داخل أمبراطوريّة العثمانيّين.

أبو زكريا يحيى الأول	٦٢٥-٦٤٧هـ/ ١٢٢٨-١٢٤٩م
أبو عبدالله محمد الأول المستنصر	٦٤٧-٦٧٥هـ/ ١٢٤٩-١٢٧٧م
أبو زكريا يحيى الثاني الواثق	٦٧٥-٦٧٨هـ/ ١٢٧٧-١٢٧٩م
أبو اسحق ابراهيم الأول	٦٧٨-٦٨٢هـ/ ١٢٧٩-١٢٨٣م
أبو حفص عمر الأول	٦٨٣-٦٩٤هـ/ ١٢٨٤-١٢٩٥م
أبو عبدالله محمد الثاني المستنصر	٦٩٤-٧٠٨هـ/ ١٢٩٥-١٣٠٨م
ابو بكر الأول الشهيد	٧٠٩هـ/١٣٠٩م
ابو البقاء خالد الأول الناصر	٧٠٩-٧١١هـ/ ١٣٠٩-١٣١١م
أبو يحيى زكريا الأوّل اللحياني	٧١١-٧١٧هـ/ ١٣١١-١٣١٧م
أبو ضربة محمّد الثالث المستنصر اللحياني	٧١٧-٧١٨هـ/ ١٣١٧-١٣١٨م
أبو يحيى أبو بكر الثاني المتوكّل	٧١٨-٧٤٧هـ/ ١٣١٨-١٣٤٦م
أبو العبّاس أحمد الأوّل الفضل المتوكّل	٧٤٩-٧٥٠هـ/ ١٣٤٩-١٣٥٠م

أبو اسحق ابراهيم الثاني المستنصر	٧٥٠-٧٧٠هـ/ ١٣٥٠-١٣٦٩م
أبو البقاء خالد الثاني	٧٧٠-٧٧٢هـ/ ١٣٦٩-١٣٧٠م
أبو العبّاس أحمد الثاني المستنصر	٧٧٢-٧٩٦هـ/ ١٣٧٠-١٣٩٤م
أبو فارس عبد العزيز المتوكّل	٧٩٦-٨٣٧هـ/ ١٣٩٤-١٤٣٤م
أبو عبدالله محمّد الرابع المنتصر بالله	٨٣٧-٨٣٩هـ/ ١٤٣٤-١٤٣٥م
أبو عمر عثمان	٨٣٩-٨٩٣هـ/ ١٤٣٥-١٤٨٨م
أبو زكريا يحيى الثالث	٨٩٣-٨٩٤هـ/ ١٤٨٨-١٤٨٩م
عبد المؤمن	٨٩٤-٨٩٥هـ/ ١٤٨٩-١٤٩٠م
أبو يحيى زكريا الثاني	٨٩٥-٨٩٩هـ/ ١٤٩٠-١٤٩٤م
أبو عبدالله محمّد الخامس المتوكّل	٨٩٩-٩٣٢هـ/ ١٤٩٤-١٥٢٦م
أبو عبدالله محمّد الحسن	٩٣٢-٩٥٠هـ/ ١٥٢٦-١٥٤٣م
أحمد الثالث	٩٥٠-٩٧٦هـ/ ١٥٤٣-١٥٦٩م
أبو عبدالله محمّد السادس	٩٨١-٩٨٢هـ/ ١٥٧٣-١٥٧٤م

الحَكَم، إسم حمله عاهلان ينتميان الى السلالة الأمويّة في قرطبة، وقد حكما الأندلس بفارق قرنين في العصور الوسطى.

الحكَم الأول، ١٥٣-٢٠٦هـ/ ٧٧٠-٨٢٢م، ثالث أمير ينحدّر من السلالة الأمويّة، حكم من العام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م الى العام ٢٠٦هـ/ ٨٢٢م، وعمل على تدعيم الدولة المستقلّة التي كان أسّسها، قبل خمسين عامًا، عبد الرحمن الأوّل.

لقد شكّل الدفاع عن الحدود في وجه الممالك المسيحيّة الشماليّة وقمع الثورات المتتالية أبرز جهوده، فكان الحاكم القاسي الشرس الذي لا يرحم؛ لقد ترك لخلفه، ابنه عبد الرحمن الثاني، مهمّة رعاية الحياة الثقافيّة. وكان دأبُ الحكَم الأوّل ضرب المولّدين المتمرّدين على السلطة في نواحي طليطلة وسرقسطة وماردة. إلّا أنّ اضطرابات عنيفة وقعت في ضواحي قرطبة، في العام ٢٠٢هـ/ ٨١٨م، سبّبتها شراسة الحرس الأميري. وقد عوقب المذنبون بقساوة وضراوة، فأُحرقت بيوتهم، وتمّ إعدام بعض النبلاء، ونفي جزء من السكان الذين لجأوا الى فاس أو هربوا عن طريق البحر الى جزيرة كريت حيث اتّخذوا لهم هناك إقامة ومسكنًا.

الحكَم الثاني، ٣٠٣-٣٦٦هـ/ ٩١٥-٩٧٦م، العاهل التاسع الذي خلف والده عبد الرحمن الثالث في الخلافة، في العام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، وهو الخليفة الثاني من السلالة الأمويّة الحاكمة في الأندلس. تسلّم الحكم متأخّرًا ولم يدم حكمه طويلًا. إلّا أنّه انصرف، خلال فترة خلافته، إلى مواصلة ما بدأه والده من أعمال وإلى المحافظة، في جوّ سلمي، على ذروة القوة التي بلغتها الخلافة الأمويّة في الأندلس آنذاك.

لقد كان الحكَم الثاني مدرّبًا ومؤهّلًا للحكم، إلّا أنّ صحته كانت ضعيفة. فمارس سلطته بمعاونة وزير من أصل بربري وبمساعدة العبد المحرّر غالب، المكلّف حمايةَ الثغور، وقد أحرز غالب بعض الانتصارات على الأدارسة في المغرب.

تميّز عهد الحكَم الثاني بالسلم، وامتزج تذوّقه للعلوم الدينيّة الإسلاميّة بحسّه المرهف في الفنّ والأدب، وهو نصيرهما الى حدّ بعيد.

ويعود إليه الفضل في توسيع جامع قرطبة الكبير وتجميله، وجعله ذا مكانة قلّ نظيرها.

عزم الخليفة على تزويد البناء القديم بقاعة للصلاة تلبّي عادات حبّ الفخامة الرائجة في ذلك الزمان في الشرق. لذلك انشأ، أمام حائط القبلة الجديد، مجموعة من ثلاث قباب مزيّنة بالفسيفساء تضفي، مع محراب من الفسيفساء الزجاجي المذهّب، الروعة على المقصورة الملكيّة، وهي مكان خاص يقع في صدر صحن محوري بصاهيه زينة. وكانت هذه المقصورة، كما عند العبّاسيين الذين حكموا الشرق، المكان المخصص للخليفة عندما كان يقصد جامع عاصمته للصلاة.

الحكمة، مفهوم مستعمل في القرآن للدلالة على معرفة الحقائق الروحيّة؛ اعتمده الفلاسفة في معنى قريب لـ«الحكمة» (sophia) اليونانيّة حيث يعني المعارف النظريّة والعمليّة.

ويحسب ابن سينا، الحكمة هي «تحوّل نفس الانسان إلى الكمال الممكن له، ضمن حدّي العلم والعمل». وقد شملت بذلك علوم الطبيعة، وكذلك الرياضيات والعلوم الإلهيّة؛ أمّا الأخلاق والسياسة، فكانا أيضًا جزءًا منها في الميدان العملي. من جهة أخرى، كانت الحكمة تعني، بشكل خاص في تلك الحقبة، الفلسفة والعلوم الدنيويّة من أصل يوناني، كما كانت تُدرّس في بغداد، وفق إرادة الخليفة المأمون، في الأكاديميّة المسمّاة «بيت الحكمة» التي أنشأها هذا الخليفة في بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وكانت تضمّ أوّل مكتبة مختصّة بمخطوطات التراث القديم وترجماتها.

كما أنّ المصطلح نفسه كان يعني الحقائق العميقة التي ادّعى الإرتكاز عليها تيّار فكريّ باطنيّ ذو توجّه شيعي، هو تيّار إخوان الصّفاء. كذلك عنى، بوجه أخصّ، العقيدة الإسماعيليّة التي كانت تُنشر في القاهرة في عهد الفاطميّين، في المؤسّسة المسمّاة «دار الحكمة» التي أُنشِئت سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م، للدفاع عن هذا التيّار السياسيّ - الدينيّ، ولتوسيع رقعة دعوته. إلّا أنّ هذا المعنى الضيّق لم يكن ليستبعد الرأي السائد المنتشر، بوجه خاص، في نطاق التشيّع، المتمثّل كذلك في المجهود الفكري الذي بذله مفكّر كمسكويه، ومفاده أنّ الإسلام هو الحكمة بعينها: الحكمة التي حوت جميع حِكَم الحضارات السابقة وأنشأت، إنطلاقًا من حِكَمها القديمة، مسارًا خاصًا يمثّلها جميعًا بشكل كامل، وقد اعتُبر هذا المسار، بحسب تعاليم هذا الرأي، ثمرة مسيرة معرفيّة باطنيّة.

الحلّاج، **أبو المغيث الحسين بن منصور بن محمّد البيضاوي**، ٢٤٤-٣٠٩هـ/٨٥٨-٩٢٢، المتصوّف الشهير الذي كُرّم مثواه كونه وليًّا بعد إعدامه في بغداد بسبب عقيدته التي اعتُبرت مسيئة ومناهضة للسنّة، وقد تزامن الاعدام مع مرحلة تحوّل سياسي وثقافي في تاريخ الخلافة العبّاسيّة.

لا يخفى أنّ علاقة الحلّاج بأوساط الخلافة كانت أمرًا معروفًا، وكان ينتمي إلى جماعة المتصوّفين الذين، في أواخر القرن التاسع ومطلع القرن العاشر للميلاد، مارسوا، فرديًّا، البحث عن النشوة واصطدموا بالتقليد السائد. ولد الحلّاج في قرية صغيرة من جنوب إيران، من عائلة زرادشتيّة اعتنقت الإسلام. قضى طفولته في واسط في العراق حيث تلقّى دروسه ولازم، منذ حداثته، المتصوّف سهل التُّستري، وقد ابتعد عنه في ما بعد لينتقل إلى البصرة حيث تابع تلقّن الصوفيّة على يد عمرو بن عثمان المكّي وحيث تزوّج. قَدم الحلاج الى بغداد، في العام ٢٦١هـ/٨٧٥م، حيث تردّد على تلاميذ المتصوّف الشهير، الجنيد، ثم قام بالحجّ إلى مكّة في العام ٢٨٢هـ/٨٩٥م، وعاد إلى بغداد ودخل في صراع مع المتصوّفين المقيمين في العاصمة.

اعتبر الحلّاج أنّ الطقوس يجب أن تكون وسيلة لبلوغ الطهارة الذاتيّة، وأراد أن يوجّه رسالته الروحيّة الى مختلف فئات المجتمع مذكّرًا ايّاها بضرورة التوبة والصلاة، مدّعيًا معرفته سرائر كل فرد؛ من هنا كان لقبه «حلّاج القلب» الذي لازمه كنية حتّى وفاته. تميّز الحلّاج بتقواه، الى جانب كونه خطيبًا شعبيًّا يمارس الوعظ في الأسواق، ويخالط كل الأوساط معمّمًا فيها عقيدة الحب الإلهي، التي كانت سابقًا خاصة بجمهور محدود وضيق.

جال الحلّاج مدّة خمس سنوات في المقاطعات الإيرانيّة، بصورة خاصة في خراسان وفارس، وتخلّى عن ثوب الصوف الأبيض الذي يرتديه المتصوّفون، وتدثّر بثوب النساك المرقّع، ما سمح له بالتوغّل بين الناس والتداخّل بهم. وبعد عودته إلى بغداد، سافر إلى الهند، في العام ٢٩٢هـ/٩٠٥م، ووصل إلى حدود الصين. بعد سفره الثاني، استقبله تلامذه في بغداد ونسبوا إليه تحقيق العجائب دلالة على رسالته. إلا أنّ نظريّة الحلّاج في الاتّحاد الصوفيّ القائلة بأنّ الله يحسّن الشخصيّة البشريّة ويؤلّهها - الى حدّ جعل الحلّاج يصرخ في لحظات نشوة «أنا الحق»، أي الله - كلّفته انتقادات قاسية. فقد وجد الفقهاء في مثل هذه المقولة

نفسًا مانويًا، ذلك الذي يعتبر النفس، الشرارة الإلهية، سجينة الجسد والمادة، فرَمَوْه بالتالي بالزندقة.

إنّ الحب الإلهي، ضالة الحلّاج، لا يمكن، بحسب هؤلاء العلماء، أن يحدث إلّا من خلال اتّحاد الألوهة بالنفس البشرية، وهو اتّحاد يتنافى، تحديدًا، مع وحدة الله، أو عقيدة التعالي الإلهي. إنّ الحلّاج في أسفاره وتنقلاته كان يعلّم في الأوساط الشيعيّة، ولكنّه لم يتوانَ، في العام ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م، عن دعم مؤامرة ابن المعتزّ باسم حركة اصلاح أخلاقيّة سنيّة حنبليّة التوجه. كان من نتائج هذا الموقف الأخير إثارة نفور الحكّام الموالين للحركة الشيعيّة. ولا يخفى أنّ هؤلاء تمكنّوا، في عهد الخليفة المتردّد والمتقلّب «المقتدر»، أن يمارسوا مرارًا الحكم ويقاوموا سياسة الوزير علي بن عيسى المقرّب من الخليفة المذكور. وتحت تأثير نفوذ هؤلاء الإداريّين الشيعة نمّت مراحل سجن الحلّاج ومحاكمته التي انتهت بإعدامه.

يمكن القول إنّ إلقاء القبض، للمرّة الأولى، على الحلّاج في بغداد، في العام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م، تمّ لأسباب دينيّة وسياسيّة. ولمّا نجح في الهرب، أقام ثلاث سنوات في خوزستان، ولكن ألقي القبض عليه مجددًا وتمّ استجوابه. بقي في السجن في بغداد مدّة ثماني سنوات، استطاع خلالها أن يستميل عطف بعض كبار الشخصيات في بلاط الخليفة، الى أن أُقيمت الدعوى عليه بتحريض من الوزير المسؤول في ذلك الحين، رغم المحاولات التي قام بها الوزير السابق، علي بن عيسى، لتأجيل الدعوى.

دام التحقيق في الدعوى سبعة أشهر، صبّت خلالها الجهود على إيجاد سبب كاف لتبرير القضاء عليه. وأخيرًا نصّ المجلس الأعلى القرار الإتهامي بناء على الآتي: يعلن الحلّاج، في إحدى كتاباته، عدم جدوى الحجّ الى مكّة متى استطاع الانسان أن يلاقي الله في قلبه، واعتُبر ذلك جحودًا للشريعة يستأهل الموت.

صدر حكمُ الإعدام عن أحد قاضيي بغداد، وأمر الخليفة بتنفيذ الحكم، وعلّق المحكوم على المشنقة ثمّ ضرب عنقه، وذلك في العام ٣٠٩هـ/ ٩٢٢م.

كان الحلّاج، بدون شكّ، ضحيّة الدسائس السياسيّة، وأخطأ في البوح علنًا بعقيدة كان من المفترض أن تبقى محصورة في بيئة محدودة، فخالف بذلك قواعد التعليم الباطني السرّي التي حافظ عليها المجدّدون من المثقّفين والروحانيّين في العصور الإسلاميّة الوسيطة. كما اعتبر الحلّاج شهيد الحب الإلهي متمّمًا نبوءةً قال فيها: «سأموت في دين المشنقة، لم نعد مكّة والمدينة تعنيان لي شيئًا». حاول البعض ترجمة «دين المشنقة» بـ«دين الصليب» ورأوا في مثل هذه الإشارة تلميحًا صريحًا الى الديانة المسيحيّة. إلّا أنّ هذا التفسير الذي اقترحه الاختصاصي الكبير بالحلّاج، المستشرق لويس ماسينيون، يبقى في حاجة الى إثبات.

حَلَب (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، أهمّ مدن سوريا الشماليّة. احتلّت مكانة مهمّة طوال العصر الإسلاميّ الوسيط، وهي اليوم، بعد دمشق، المركز الإقتصادي والثقافي الثاني في أنحاء سوريا.

يعود تاريخ حلب التي قامت فوق هضبة داخليّة إلى أعرق العصور القديمة، إذ إنّها ذُكِرت في القرن العشرين قبل الميلاد تحت اسم حَلَب (بالباء المثلّثة). وقد حازت هذه الأهميّة ليس بسبب موارد محيطها الزراعيّة الشحيحة، بل بفضل دورها كملتقى طرق عريقة جدًّا، تربط البحر المتوسّط بالفرات، وبمنطقة ما بين النهرين العليا والعراق والأناضول وسوريا الوسطى. اختار موقعها سَلوقس نيكاتور ليُسكن فيها جاليةً من المقدونيّين حوالى السنة ٣٠٠ قبل الميلاد، أُطلق عليها اسم بيرويا. وقد أدّى ترسيم شوارعها مستقيمة متقاطعة، وفاق تصميم أُخذت به المدن الهلّينستيّة، إلى منحها هيكليّة كانت ما تزال تحتفظ بها في العهد الإسلامي.

عندما ضُمَّت حلب إلى الأمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة في العام ١٦هـ/ ٦٣٧م، إبّان الفتوحات الكبرى، أفادت من معاهدة صلح احتفظ سكانها بموجبها بأماكن عبادتهم، بينها دور عبادة لليهود وكاتدرائيّة مسيحيّة تقع على طرف الأغورا (Agora) أو الساحة العامة. وبطبيعة الحال شُيّد مسجد موقّت على مدخلها، إلّا أنّ المدينة بقيت، في العهود الأولى، مأهولة بالسكّان الأصليّين الذين كانوا يؤدّون الجزية،

فيما تجمّع المقاتلون العرب بناحية الشمال في معسكر مرج دابق. وكان ينبغي انتظار بداية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، كي تُخصّ المدينة - التي لم تكن بعد قد غدت مركزًا إداريًّا - بمسجد جامع ضخم من الطراز الأمويّ، شبيه بمسجد دمشق، شغل موقع الأغورا، على حافّة الجادة العتيقة المعمَّدة التي كانت تربط بالقلعة الباب المعروف بباب أنطاكية، والتي كانت حوانيت الحرفيّين والتجّار تتوزّع على مداها، كما في الزمان الغابر.

لبثت حلب مدينة ثانوية في عهد الأمويّين والعبّاسيّين الأوائل، ثمّ غدت، في العام ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م، عاصمة إمارة صغيرة مستقلّة هي إمارة الحمدانيّين. فاستقرّ فيها سيف الدولة الشهير: بطل الجهاد والقضيّة العربيّة، وأطلق فيها نهضة أدبيّة مرموقة زانها المتنبّي وأبو فراس من الشعراء وعلماء لغة مثل ابن جنّي وفيلسوف مثل الفارابي. وأمر ببناء قصر عظيم له خارج سورها، على غرار قصور الخلفاء. إلّا أنّ مجدها كان قصير الأمد؛ إذ إنّ القائد البيزنطيّ نقفور فوكاس فاجأ المدينة، في العام ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، بهجوم مدمّرًا المنشآت الحمدانيّة ومحتلًّا المدينة إلى حين، ما خلا قلعتها حيث استقرّ، في ما بعد، خلفاء سيف الدولة.

استمرّ مركز المدينة في التحوّل أيّام السلاجقة وأخلافهم. وقد تلا سيطرة تُتُش، أخي مَلِكشاه ومؤسّس سلالة سلاجقة سوريا العابرة، على المدينة في العام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، عهدٌ من عدم الإستقرار، سببُه محاولات الفرنج الإستيلاء عليها، وتخلّل ذلك فتراتٌ من النهضات المحلّية واكبت النجاح السياسيّ الذي أحرزه قوّاد الحروب والملوك: منهم زنكي الذي أفلح في فكّ حصار الفرنج عنها، وابنه نور الدين الذي عرف كيف ينهض بالمدينة بعد اختلال نظامها، وأخيرًا صلاح الدين، ولا سيّما ابنه الملك الظاهر غازي، اللذين جعلا منها عاصمة مزدهرة، في إطار إمارة قويّة ومرهوبة الجانب. وقد عمد غازي إلى توطيد أسوارها وتأهيل القلعة تأهيلًا كاملًا بحيث غدت مدينة ملكيّة صغيرة، وإلى إعادة بناء قسم من المسجد الجامع، وترميم قنوات المياه، وتأهيل الأسواق وتوسيعها.

وفضلًا عن ذلك، أُسّست فيها مدارس كثيرة، على أيدي الملوك أو الأمراء أو أفراد ميسورين. وهكذا غدت المدينة، في عهود الزنكيّين والأيوّبيّين، أحد المراكز المهمّة لنشر التسنُّن، رغم أنّ سكّانها كانوا، قبل ذلك، أيّام الحمدانيّين، متشيّعين في أكثريتهم. من جهة أخرى، كان ازدهارها الإقتصاديّ محطّ الأنظار، وهذا عائد جزئيًّا إلى الاتفاقيات المعقودة بين السلطات وتجّار البندقيّة في مطلع القرن الثالث عشر للميلاد. وهكذا قامت ضواحٍ عديدة خارج أسوارها، كان يشغل بعضها ضبّاط من الأتراك كانوا يشجّعون التجارة فيها. وقد ضمّت هذه الأحياء خانات، مفيدةً من حركة طرق القوافل، بينها الخان الذي أُعطي إلى جماعة البندقيّة والذي عُرف باسم «فونداكو»، وهو يتطابق مع كلمة فُندق العربيّة.

قضى على هذا الازدهار بقساوة غزو مغول هولاكو الذين خرّبوا المدينة في محرّم ٦٥٨هـ/ كانون الثاني/ يناير ١٢٦٠م. بعد انسحاب الغزاة منها، وقعت حلب تحت سيطرة المماليك الذين اكتفوا بجعلها مركزًا لإحدى المقاطعات المهمّة التي كانوا يطلقون عليها تسمية نيابة، يديرها نائب. ولم تستعد أهميّتها إلّا في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، عندما توقّف الطريق التجاري الذي كان يربط أوروبا بإيران عن المرور بتبريز وبالمراكز التجاريّة التي كان يملكها البنادقة على البحر الأسود، لتتّجه مباشرة إلى البحر المتوسّط عبْر أنطاكية: بذلك كانت المنسوجات الفخمة الشرقيّة تُقايض في حلب بالأقمشة الإيطالية التي كان يَعرضها البنادقة. فبُنيت مستودعات ضخمة في وسط الأسواق لتأوي هذه التجارة، في حين كانت الضواحي حيث قامت المساجد تُؤوي مختلف أنواع الحِرَف، ممتدّةً بشكل خاص نحو الشرق.

خلال العهد العثماني، عانت المدينة لمدّة طويلة بسبب الخصومات بين الفصائل العسكريّة المحليّة، إلّا أنّ هذا لم يوقف نموّها كمدينة تجاريّة، إذ إنّ عهود الأمان أو الإمتيازات يسّرت قيام وكالات تجاريّة فيها للفرنسيّين والبريطانيّين والهولنديّين في أواسط القرن السادس عشر وبداية السابع عشر. كانت حلب آنئذٍ تستورد سلعًا مصنّعة وترسلها إلى المناطق الداخليّة،

وتصدّر أنواع الحرير والقطنيّات. وهكذا أعاد الحكّام العثمانيّون بناء الأسواق، فأُقيمت خانات جديدة فيها، بعضها على مقربة من المساجد الجامعة، وشيّدت مدارس رائعة ساهمت في تشكيل المشهد المعماري للمدينة الذي يتميّز بأبنيته الحجريّة الرائعة.

لكنّ هذه الأنشطة خمدت في القرن التاسع عشر، بينما أخذت الحياة الاجتماعيّة في التبدّل بتأثير أوروبي، فظهرت أحياء جديدة أكثر حداثةً. بعد الحرب العالميّة الأولى، نجمت ظروف صعبة، عندما عزلت حدود دولة سوريا الجديدة حلب عن بلاد ما بين النهرين التي كانت تتاجر معها من قبل. لكنّ ذلك حفز أهلها على إيجاد أنشطة وأسواق جديدة، لمدينة صناعية لم تعد تستطيع، لا على الصعيد الإداري ولا على الصعيد السياسي، منافسة دمشق التي أصبحت عاصمة البلاد، إلّا أنّها استمرّت في الدفاع عن حيويّتها الاقتصاديّة. هكذا توافرت الظروف لانطلاقة مدنيّة ثابتة ومميّزة، لم تتوقّف عن المساهمة في اتّساع المدينة السوريّة الثانية وتجميلها، فيما بقيت آثار المباني الأساسيّة للمدينة القروسطيّة المتينة البناء صامدةً حتى اليوم، تطغى عليها منجزات الأيوبيّين والمماليك الماثلة في قلعتها. إنّ الأسوار والأبواب المحصّنة التي استخدمت فيها جميع وسائل الهندسة المعماريّة القروسطيّة تُساهم في إبراز الأصالة القويّة المتجلّية في سلسلة من المباني التي تجعل من المدينة القديمة المجمّع الأكثر تمثيلًا للفنّ السوريّ بين القرنين السابع والعاشر للهجرة/الثالث عشر والسادس عشر للميلاد.

◄ راجع المستندات ٩، ١٢، ١٣، ١٧، ١٨ و٥٦ إلى ٦١

الحِلّة (مدرسة) ← **الحلّي**.

الحلول، مفهوم خاص ببعض المتصوّفين الذين يؤكّدون أن الألوهيّة، في أثناء الإنخطاف، تكون حاضرة فيهم أو حالّةً في روحهم.

هذا المفهوم كان مناقضاً لفكرة التنزيه الإسلاميّة المعروفة بالتوحيد أو بالوحدانيّة الإلهيّة. وقد امتنع بعض المتصوّفين عن اعتناقها، وأعلنوا مبدأً تُقرّه العقيدة الإسلاميّة، يقوم على تفسير الإنخطاف، لا بكوْنه «حلول» الروح الإلهي في الإنسان، بل بأنّه «تقارب» بين الله والمخلوق. وفي الواقع فإنّ مفهوم الحلول أدّى إلى وحدة الوجود عند ابن العربي. وبموجبها يشارك المخلوق في الذات الإلهيّة. ومع أنّها شكّلت أساساً لبعض النزعات الإسلاميّة في موضوع الحلول، فإنّها أثارت رفض الفقهاء ولا سيّما الذين تناولوا موضوع الفرق.

الحلّي، جمال الدين الحسن بن يوسف، ٦٤٨ - ٧٢٥هـ/١٢٥٠-١٣٢٥م، الملّقب بالعلّامة، عالم كلام شيعيّ لامع، تُمثّل آثاره مدرسة الحلّة خير تمثيل.

ولد الحلّي من أسرة دينيّة في العراق، انتقل الى إيران سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م حيث عقد مناظرات مع الفقهاء السنيّين، وبصورة خاصة في بلاط السلطان الإيلخاني أولجيتو الذي تحوّل بفضله إلى الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة. وكان من شأن تأثير الحلّي أن أُعلن هذا المذهب الشيعي، لفترة، مذهبًا رسميًّا في إيران.

ألّف الحلّي ما لا يقلّ عن ثلاثمائة كتاب، يعتبر الإثنا عشريون ثمانية منها مؤلّفات أساسيّة لما تضمّنته من شروح للعقيدة الإماميّة. وقد مثّل بذلك مدرسة فكريّة، كان قد انتمى اليها قبله عالمٌ أقدم منه، هو المحقّق الحلّي (٦٠١-٦٧٦هـ/١٢٠٥-١٢٧٧م)، صاحب أهمّ موجز في الفقه الإمامي: «شرائع الإسلام». إنّ ازدهار العلوم الدينيّة في الحلّة رافق التراجع الذي أصاب المركز الفكري الشيعي في مدينة قُم المقدّسة، منذ تاريخ تدميرها على أيدي المغول. ولم تستعد قُمْ مقامها إلّا بعد فترةٍ من الزمن.

حماة (الجمهوريّة العربيّة السوريّة): مدينة تقع شمالي سوريا، على الطريق التي تصل حمص بحلب. كانت تعتبر محطةً مهمّة للقوافل في العصور الوسطى.

ضُمّت هذه المدينة القديمة العهد، القائمة على ضفّتي نهر العاصي، الى الأمبراطوريّة الإسلاميّة مع مطلع الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة، أي منذ سنة ١٥هـ/٦٣٦م. شُيّد فيها، إبّان العصر الأموي، مسجد كبير على انقاض كنيسة بيزنطيّة. خضعت للحمدانيّين ثمّ لبني مرداس، قبل أن تقع تحت سيطرة السلاجقة. اختلف عليها أُمراء حلب ودمشق، الى أن احتلّها عماد الدين

زنكي. ومنذ ذلك الحين أصبحت في عهدة نور الدين زنكي، ثمّ في عهدة صلاح الدين، مؤسّس السلالة الأيوبيّة. وقد أوكل هذا الأخير الى ابن أخيه الملك المظفّر، في العام ٥٧٤هـ/١١٧٨م، مسؤوليّة الاهتمام بالمدينة. وحافظ أحفاد المظفّر على المدينة حتّى العام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، جاعلين منها مركز إمارة شبه مستقلّة. استطاع ابو الفداء، وهو ابن أخ آخر أمير أيوبيّ، أن يحكُم المدينة باسم المماليك إبتداءً من العام ١٣١٠م، لكنّ ابنه عُزِل، ممّا سبّب تراجع حماه التي تحوّلت إلى مركز قضاء عاديّ، وازداد تراجعها في زمن الأمبراطوريّة العثمانيّة.

عرفت حماه في العهد الأيوبي، وخلال حكم أبي الفداء، ذروة شهرتها ومجدها، وتميّزت، إستنادًا الى المصادر القديمة، بظاهرة حضاريّة خاصة. كانت نواعيرها تمتدّ على طول نهر العاصي وتغذّي السكّان والحدائق بالماء. ويقوم على الضفة اليمنى للنهر حيّ وصفه أهل الأدب بأنه «ضاحية» تتميّز بخاناتها وبجامع نور الدين.

أمّا القسم الباقي فيتضمّن مدينة سفلى ترجع إلى عهد نور الدين، ومدينة عليا أقدم عهدًا، يقوم فيها مسجدٌ جامع وحصن أجهز عليه في ما بعد تيمورلنك.

◄ راجع المستندات ٩، ١٢، و١٨.

الحمّاديون أو بنو حمّاد، (٤٠٥-٥٤٧هـ/ ١٠١٥-١١٥٢م)، سلالة من بربر صنهاجه أنسباء زيريّي إفريقية، حكموا المغرب الأوسط حيث أنشأوا، لفترة، أمبراطوريّة مترامية الأطراف. بلغوا أوج عزّهم بفضل مناعة عواصمهم، منها مقرّ محصّن عُرف باسم قلعة بني حمّاد، وقد اضطرّوا الى النزوح عنه في ما بعد؛ ومنها أيضًا مدينة بجاية الميناتيّة. لم يتمكّن بنو حمّاد من فصل مصيرهم عن مصير السلالة الزيريّة التي استمدّوا منها سلطانهم ولم يصمدوا كثيرًا بعدها. إنّ الازدهار الموقّت والمصاعب التي واجهت هذه السلالة في إفريقية التي كان قد تخلّى عنها الفاطميّون منذ العام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م، وسلّموها إلى نوابهم القدامى وأتباعهم من البربر، كلّها عوامل اذكت طموح حمّاد بن بلكين، العمّ الأكبر للحاكم الزيري الثالث، باديس بن المنصور.

قام حمّاد بتفصيل مملكة على قياس طموحه، في مناطق بعيدة غربي القيروان، لطالما حاولت الإفلات من السلطة الزيريّة، وكان هو قد ساهم في انتزاعها من قبيلة زنانة. ثمّ إنّ هذا الزعيم العسكري الطموح، بهدف الدفاع عن أراضيه، استبدل بمركز اقامته الأوّل، «عشير»، القلعة التي حملت اسمه. إنّ الأمير الجديد وسلالته، حفاظًا على استقلاليتهم، كانوا يقفون حينًا موقفًا مواليًا، وطورًا موقفًا معاديًا للفاطميّين الشيعة المقيمين في مصر. لكنّ الزيري المعزّ بن باديس نبذ، في العام ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م، طاعة الفاطميّين وأعلن ولاءه للعبّاسيّين السنّة، فاتحًا الطريق بذلك أمام الغزاة البدو القادمين من الشرق (بنو هلال).

بذل الحمّاديّون جهدًا كبيرًا لمقاومة الخطر الجديد المداهم، كما لصدّ الحملات العسكريّة الموجّهة ضدّهم من قِبَل أولاد عمّهم وسادتهم السابقين، في حين كانت تتنامى في رعايتهم حياة فنيّة وفكريّة امتدحها عدد كثير من المؤرّخين. غير أنّ ذلك لم يحُل دون اضطرارهم الى التخلّي عن ممتلكاتهم في الداخل، تحت وطأة الهجمات المشتركة لبني هلال وللمرابطين أسياد غرب المغرب، فلجأوا، في نهاية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، إلى بجاية مملكتهم الجديدة. ومن هناك استطاع الحماديّون أن يفرضوا سيطرتهم على من تبقّى من الزيريّين، وكان الوهن قد أصاب هؤلاء، كما تمكّنوا من مقاتلة المرابطين ومواصلة الحرب من أجل الاستيلاء على إفريقية. وكان تألّق حضارتهم الفني والثقافي قد بلغ صقليّة في عهد الملوك النورمان. ثمّ جاء استيلاء الموحّدين على بجاية في العام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م ليضع حدًّا لسلطة الحمّاديّين وطموحاتهم، وكان الموحّدون قد قضوا من قبل على سلطة الزيريّين.

حمّاد بن بلكين الأول بن زيري	٤٠٥-٤١٩هـ/ ١٠١٥-١٠٢٨م
القائد بن حماد	٤١٩-٤٤٦هـ/ ١٠٢٨-١٠٥٤م
المحسن بن القائد	٤٤٦-٤٤٧هـ/ ١٠٥٤-١٠٥٥م
بلكين الثاني	٤٤٧-٤٥٤هـ/ ١٠٥٥-١٠٦٢م
الناصر	٤٥٤-٤٨١هـ/ ١٠٦٢-١٠٨٨م
المنصور بن الناصر	٤٨١-٤٩٨هـ/ ١٠٨٨-١١٠٥م
باديس بن المنصور	٤٩٨هـ/ ١١٠٥م
العزيز بن المنصور	٤٩٨-٥١٥هـ/ ١١٠٥-١١٢١م

يحيى بن العزيز ٥١٥-٥٤٧هـ/ ١١٢١-١١٥٢م

◄ راجع المستند رقم ١١.

الحماليّة، حركة سياسيّة دينيّة أفريقية اتّخذت اسمها من الشريف حمى الله، ظهرت في مطلع القرن العشرين كمحاولة لإصلاح التعليم الذي كانت تؤمّنه الطريقة التيجانيّة.

أسس الحركة الشيخ سيدي محمد الذي استقرّ في نيورو في العام ١٩٠٤، وتوفّي في العام ١٩٠٩، وتطوّرت على يد تلميذ المؤسس الشريف أمادو حمى الله المتحدّر من عائلة تجّار تقيم في نيورو، وتدّعي أنّها من سلالة علي بن أبي طالب.

أرسل الشريف دعاة إلى أماكن متعدّدة لينشروا الدعوة في أوساط الشعوب السوداء المستقرّة في أحواض السنغال والنيجر الأوسط، ولكنّه اصطدم بعداوة أشراف نيورو.

تميّزت الحركة الحماليّة عن التيجانيّة بتفاصيل تتعلّق بالشعائر، منها مثلاً تلاوة صلاة الطريقة إحدى عشرة مرّة بدل الاثنتي عشرة مرّة. إلّا أنّ الدعوة اتّخذت طابعًا إجتماعيًا بارزًا نتيجة الصعوبات التي واجهتها الحركة على الصعيد السياسي. تضمّنت رسالتها المناداة بالمساواة، بما فيها المساواة بين الرجل والمرأة، وتمجيد شخصية معلّمها الى حدّ أثار اضطرابات خطيرة دفعت بالسلطات الفرنسية الى ردع أتباعها.

نفي حمى الله في العام ١٩٤٠ الى الجزائر، ومن ثمّ الى فرنسا حيث وافته المنيّة في العام ١٩٤٢. أما الحماليّون فما زالوا حتّى أيامنا منتشرين في أفريقيا السوداء الغربيّة.

حَمَّام، نموذج من البناء القروسطي غدا ضروريًّا لحياة المسلم اليوميّة لكي يؤدّي فريضة الإغتسال للصلاة، أي التوضّؤ، وكانت الحمامات ميزة أغلبية المدن والقصور الملكيّة.

تحمل الحمامات التي ورثت هندستها عن حمامات العصور القديمة السمة الفنيّة للعصور التي بنيت فيها. وبقيت محافظة على تصميم ثابت فرضته مختلف الأعمال التي يقوم بها المستحمّ. فبعد أن تخلّت عن الـ «frigidarium» القديم، أي عن القسم المخصّص للحمّام البارد بِبُرَكه وملاعبه الرياضية لعدم الحاجة إليه، أصبحت تحوي العناصر التالية: غرفة أولى لنزع الثياب، تختلف أسماؤها باختلاف المناطق، غرفة إنتقالية فاترة الحرارة لمجاورتها القسم المُحمّى، ثمّ غرفة أولى ساخنة وثانية عرّاقة، شديدة الحرارة، في داخلها أحواض من رخام تتوسطها نافورات ماء، وبعض الخلوات والمقاعد التي يُدلك عليها المستحمّ.

حيطان مجمل هذه الغرف سميكة كي تحافظ على الحرارة الداخليّة، وفي قببها فتحات صغيرة سُدَّت بالزجاج لتسمح بدخول الضوء، وهي مبنيّة بشكل متين وبمواد قادرة على تحمُّل الرطوبة الدائمة. يلحق بهذا البناء بناء تابع يحوي المستلزمات الصحيّة، إضافة إلى خزّان المياه والموقد مع كل ما يتطلّبه هذا الأخير من خشب أو مواد حارقة أخرى. وفي مِرْجَل المياه المغلي فوهة يخرج منها البخار مباشرة إلى الغرفة العرّاقة الشديدة الحرارة. ومن الموقد يخرج أيضًا الهواء الساخن الذي يسري في الحيطان أو تحت أرض الغرف ليحافظ على حرارة ثابتة. وكان ذلك يتمّ وفق طريقتين مختلفتين: الأولى طريقة قديمة بقيت سارية في العصور الأولى للإسلام، تقضي ببناء أفران أرضيّة، والثانية أصبحت متّبعة إبتداءً من القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد، تمّ بموجبها تدفئة الغرف بواسطة القنوات المستعملة لتصريف الدخان المتصاعد من الموقد، وهي موازية لقناة المياه الساخنة. إنّ مثل هذه الإنجازات الهندسيّة تتطلّب من البنّائين مهارة تقنيّة. وكانت قاعات الاستقبال والاستراحة في الحمّامات غالبًا ما تُنمّق وتزخرف. إلى جنب الحمّامات الشعبيّة التي كانت مصدر رزق لأصحابها، وإلى جنب الحمّامات الخاصة المتواضعة البناء، هناك حمّامات ملكيّة أنيقة تحمل كل مظاهر البذخ والترف، بناها الخلفاء والحكّام داخل قصورهم أو في المدن، لا يرتادها إلّا المحظوظون.

هناك نماذج مختلفة لحمّامات قديمة منتشرة في البلدان الإسلاميّة. منها ما هو بقايا أثريّة، ومنها ما يزال قائمًا وكان صالحًا للاستعمال من زمن قريب، كما في دمشق. مثل هذه الحمامات التي بقيت محافظة على بنائها سَمحت بمراقبة هندستها وتصاميمها عن كثب.

هذه المعلومات العينيّة أُضيفت إلى المعلومات المستقاة من نصوص كتّاب الحوليّات والجغرافيّين الذين وصفوا بإسهاب في رواياتهم حمامات مدن المشرق والمغرب القروسطيّة، مثل بغداد وحلب ودمشق والقاهرة واسطنبول وفاس وقرطبة. وكانوا يبالغون أحيانًا في عدد الحمّامات، لأنّ عظمة مدينة ما ناتجة، في جزء منها، عن أهميّة حمّاماتها. فإنّنا نعرف، على كل حال، بقايا حمّامات بناها أعضاء الأسرة الأمويّة إبتداءً من القرن الأوّل الهجري/ السابع الميلادي، كذلك الحمّام الصغير في قُصَير عَمْرة على هضبة مُؤاب الأردنيّة والمشهور بالرسوم التي تزيّن جدرانه، أو حمامات مجموعة قصور خِرْبة المَفْجر في فلسطين حيث تبلغ قاعة الاستقبال فيها، بمساحتها وبتنميقها الفسيفسائي وبنحوتها، مستوى من العظمة ضعُفت منافسته في ما بعد. تميّز الهندسةُ الداخليّة الجميلة عددًا من الحمامات التي أُنشئت في مدن سوريا ومصر في عهد الأيوبيّين والمماليك، لكنّها لا توازي، بالرغم من كل ذلك، الإتقان الهندسي للحمامات التي بناها العثمانيّون في عاصمتهم اسطنبول على الأخص.

إنّ الحمّامات التي كانت تبنى في مختلف الأزمنة كشاهد على عظمة السلطة، كانت تؤدّي أيضًا دورًا مهمًّا في الحياة الاجتماعيّة، لأنّها كانت تمنح فرص اللقاء والترفيه لكلّ من الرجال والنساء على حدٍ سواء. لكن، كان بالطبع لكلّ من الرجال والنساء ساعات خاصة لارتيادها. وكانت الحمّامات سببًا للتخلّي عن بعض المواقف الصارمة، خصوصًا في ما يتعلق بتزيينها، إذ باتت بعض الحمامات، وخصوصًا الباذخ منها، تزدان بالرسوم التي تمثّل أشخاصًا، أو بالتماثيل النافرة، وهذا ما لم يكن مسموحًا به في أماكن أخرى وكان مخالفًا لمبدإ تحريم التجسيم.

الحَمْدانيُّون، (٢٩٢-٣٩٢هـ/ ٩٠٥-١٠٠٤م)، سلالة من الأمراء، حكمت أعالي بلاد ما بين النهرين وسوريا، بصورة شبه مستقلّة، وقد أسّسها ضباط قدامى خدموا لدى العبّاسيّين، كانوا ينتمون الى قبيلة تغلب العربيّة، مالوا في البدء الى الخوارج ثمّ الى الإماميّة الاثني عشريّة.

يُنسب نجاحها إلى زعيم عسكري يدعى حمدان بن حمدون قاد حركة تمرّد في أعالي بلاد ما بين النهرين، في أواخر القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، ما سهّل للحمدانيّين أن يثبّتوا سلطتهم في فرعين أساسيّين كانا يتحالفان تارة ويتخاصمان طورًا، وقد اختارا قواعد حكمهما في الموصل وحلب وميّافارقين (سيلفان اليوم).

إنّ الشهرة التي نالها هؤلاء العواهل الصغار طيلة قرون في الوسط العربي - الإسلامي قامت على زعمهم التحدّر من سلالة بدويّة نبيلة قديمة العهد، وعلى دعمهم العلويّين، ودورهم كقادة جهاد ضدّ البيزنطيّين على المواقع الحدوديّة. لقد تبنّى هؤلاء الأمراء أعمال الغزو الموسميّ للأراضي البيزنطيّة، في حقبة لم تعد الخلافة خلالها قادرة على شنّ مثل هذه الغارات، وكانوا يصدّون بيأس الهجومات التي جرّدها على سوريا الأباطرة البيزنطيّون من الأسرة المقدونيّة. إلّا أنّ خلود مجدهم ربما قام بوجه خاص على رعايتهم للآداب والتي شملت جميع بلاطات الحمدانيّين، وبصورة خاصة بلاط سيف الدولة، فغدت مراكز زاخرة بالشعر العربي، تألّق فيها مدّاحون أمثال المتنبي وأبي فراس. وكان هذا الأخير ينتمي إلى البيت الحمداني، وقد رفعت من شأنه المعارك التي خاضها والقصائد التي وضعها.

إنّ انبعاث الميول والصّفات التي تعود بجذورها إلى عرب ما قبل الإسلام والتي كانت تمجّد حياة الفروسيّة والأشعار التي كانت تلازمها، ساعد على تعظيم ذكرى هؤلاء العواهل الذين لم يميّزهم عن سواهم، لا نجاحهم السياسي ولا الازدهار الاقتصادي لدولهم. إنّ الدسائس والصراعات التي حفلت بها بغداد سمحت لهؤلاء الأمراء بتعظيم طموحاتهم الشخصيّة ورفع شأنهم عن طريق الألقاب الطنّانة التي أغدقتها عليهم دواوين الخلفاء مثل: ناصر الدولة، أو سيف الدولة، أميري الموصل وحلب المميّزين. إلّا أنّ أيًّا منهما لم يمارس في بغداد سلطة أمير الأمراء، وإن تلقّب ناصر الدولة بهذا اللقب مدّة شهور، بين ٣٣٠ و٣٣١هـ/ ٩٤٢ و٩٤٣م. أضف إلى ذلك أنّ عدائيّة البويهيّين الإيرانيّين قضت على إمارة الموصل منذ العام ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م، في حين أنّ الامارة السوريّة - العراقيّة، أي إمارة حلب الشيعيّة، التي أسّسها سيف

الدولة في العام ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م على حساب إخشيد مصر لتمتدّ من حمص إلى أرمينيا، انهارت نهائيًا، في العام ٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م، تحت ضربات البيزنطيّين والخلافة الفاطميّة في مصر معًا.

حمدانيُّو الموصل:

ابو الهيجاء عبدالله	٢٩٢-٣١٧هـ/ ٩٠٥-٩٢٩
ناصر الدولة الحسن	٣١٧-٣٥٨هـ/ ٩٢٩-٩٦٩
فضل الله أبو تغلب	٣٥٨-٣٦٨هـ/ ٩٦٩-٩٧٩
ابراهيم الحسين	٣٧١-٣٨١هـ/ ٩٨١-٩٩١

حمدانيّو حلب:

سيف الدولة علي الأوّل	٣٣٤-٣٥٦هـ/ ٩٤٥-٩٦٧
سعد الدولة شريف الأول	٣٥٦-٣٨١هـ/ ٩٦٧-٩٩١
سعيد الدولة سعيد	٣٨١-٣٩٢هـ/ ٩٩١-١٠٠٢
علي الثاني	٣٩٢-٣٩٤هـ/ ١٠٠٢-١٠٠٤

حمزة بن عبد المطّلب، (؟ - ٣هـ/ ٦٢٥م)، عمّ النبي محمّد (ﷺ) وأحد صحابته.

كان حمزة من أنشط المدافعين عن نبيّ الاسلام (ﷺ) بعد اعتناقه الدين الجديد. قاتل ببسالة في موقعة بدر، لكنّه قتل في موقعة أحُد على يد عبد حبشيّ ومثّل بجسده القرشيّون. ولمّا كان قد اعتبر واحدًا من أشهر شهداء تلك المعركة، فقد أصبح بطل إحدى الروايات الشعبيّة.

حمزة بن علي ← **الدروز**.

حمص (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، مدينة من مدن سوريا الوسطى. تقع على المسافة نفسها (تقريبًا) من حلب ودمشق، وتدين حاليًا لموقعها بانطلاقتها الاقتصاديّة.

في مطلع الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة الكبرى، سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م، وبعد أن وقّعت صلحًا، انضمّت مدينة إميز (Emèse) القديمة المعروفة بأهميّة سكانها العرب، الى أمبراطوريّة الخلفاء الأوّلين، وتحوّلت كاتدرائيتها إلى جامع، فاختارها عمر بن الخطّاب، الخليفة الثاني للنبي (ﷺ)، عاصمة أحد أجناد سوريا.

سنة ٤١هـ/ ٦٦١م، في ظلّ السلالة الأمويّة، فُصل هذا الجند عن منطقته الشماليّة التي شكلت مقاطعة قِنّسرين.

أمّا حمص، نظرًا الى موقعها الإستراتيجي، فظلّت، طوال العصور الوسطى، عرضةً للخصومات المحليّة وأحد أهداف الغزوات البيزنطيّة في نهاية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد. ثمّ استقطبت الفرنج لاحقًا، وقد احتلّوا ثغر طرابلس المقابلة لحمص، وأقاموا بالقرب منها الحصن المنيع أو ما يعرف بحصن الفرسان (الأكراد)، من دون أن يتمكّنوا من الاستيلاء عليها.

ضمّت حمص:

- سورًا منيعًا لحمايتها. هذا السور دُمّر كليًا ولا نستطيع اليوم تحديد موقعه إلّا بصعوبة.
- قلعة تعلو الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة للسور، تعرّضت للهدم في القرن التاسع عشر ولا يبقى منها إلّا بعض الآثار.
- عددًا من المساجد أهمّها المسجد الجامع المعروف بالنوري، لأنّ نور الدين أعاد ترميمه في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر الميلاد.
- أسواقًا مهمّة وخانات مدنيّة عرفت الإزدهار في الحقبة العثمانيّة.

يقع خارج المدينة ضريح الفاتح والصحابي خالد بن الوليد الذي ما يزال مقصد زيارات تقويّة. وقد أعاد العثمانيّون بناءه، إضافة إلى الجامع المجاور.

◄ راجع المستندات ٩، ١٢ و١٨.

الحَمُّوديّون، ٤٠٧-٤٥٠هـ/ ١٠١٦-١٠٥٨م، سلالة أندلسيّة، تنتمي الى عهد ملوك الطوائف، حاولت أن تستولي على سلطة الخلافة في قرطبة في عهد خلفاء بني أميّة الأخيرين، قبل أن تتّخذ من مالقة مركزًا لسلطتها المتنافس عليها.

واجه علي وأخوه القاسم - وهما من أدارسة المغرب الأقصى، كان أحدهما يحكم سبتة والآخر الجزيرة باسم ملوك قرطبة - هزائم عندما تواليا على عرش الخلافة. وكان الفشل نفسه من نصيب يحيى بن علي، بسبب معارضة البربر، فارتدّ إلى عرينه في مالقة.

وظلّت سلالته محافظة على موقعها وسط الخصومات والصراعات التي شهدتها تلك الحقبة المضطربة، إلى أن تمّ خلع محمد المستعلي على يدي أمير غرناطة البربري باديس، وهو من السلالة الزيريّة، فاستولى على الناحية في

العام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م. من جهة أخرى، استولى بنو عبّاد الاشبيليّون، في العام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، على الجزيرة، وقضوا على الفرع الحمودي الأصغر.

علي الناصر	٤٠٠-٤٠٧هـ/١٠١٠-١٠١٦م
القاسم الأول المأمون	٤٠٧-٤١٢هـ/١٠١٦-١٠٢١م
يحيى الأوّل المعتلي	٤١٢-٤٢٦هـ/١٠٢١-١٠٣٥م
ادريس الأول المتأيّد	٤٢٧-٤٣٠هـ/١٠٣٦-١٠٣٩م
الحسن المستنصر	٤٣٠-٤٣٤هـ/١٠٣٩-١٠٤٣م
ادريس الثاني العالي	٤٣٤-٤٣٨
	و٤٤٦-٧٤٧هـ/١٠٤٣-١٠٤٦
	و١٠٥٤-١٠٥٥م
محمد الأول المهدي	٤٣٨-٤٤٠هـ/١٠٤٦-١٠٤٨م
القاسم الثاني الواثق	٤٤٠-٤٤٦هـ/١٠٤٨-١٠٥٤م
محمد الثاني المستعلي	٤٤٧-٤٤٩هـ/١٠٥٥-١٠٥٧م

◄ راجع المستندين ١١ و١٥.

لحميديّون او **حميد أوغُلّري**، القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، سلالة تركمانيّة من لبكوات، تعود إلى عهد الإمارات في الأناضول، سطت نفوذها من وسط الهضبة الى ساحل المتوسط.

حصّلت هذه السلالة الصّغيرة ثروتها من السيطرة على طرق القوافل في المنطقة وعلى معابرها، وانقسمت لى فرعين، استمرّ فرع واحد منهما في الاقامة في ضواحي ناحية إغريدير التي حصّنها سلاجقة الرّوم، قريبًا من الممرّ الأرضي الذي يشرف عليه هذا الموقع جنوبي لبحيرة التي تحمل الاسم نفسه.

أمّا المملكة الأخرى المعروفة أيضًا باسم تكه وغلّري، فقد تنظّمت في سهل پامفيليا في ضواحي مدينة نطاليا الميناثيّة. استعادت إحدى هاتين الأسرتين - للتين ما لبثتا أن انهارتا ما بين عامي ٧٩٣-٧٩٤هـ/١٣٩١-١٣٩٢م، أمام القوّة العثمانيّة المتنامية - شيئًا من حقوقها على يدي تيمورلنك على أثر هزيمة بايزيد يُلدرم لأوّل في موقعة أنقرة، في حين أنّ أراضي الأسرة الثانية لمقيمة في اغريدير استولى عليها القرامانيّون قبل أن سيطر العثمانيّون بشكل كامل على المنطقة، وقبل أن زول الأسرة الحميديّة نهائيًّا في العام ١٤٢٣م.

◄ راجع رقم ٢٢.

الحنبليّة، مدرسة فكريّة ساهمت عقيدتها في نشأة مذهب فقهي معروف، يستمدّ اسمه من مؤسّسه أحمد بن حنبل، وقد نما وتطوّر في قلب العراق العبّاسي منذ النصف الثاني للقرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد.

إنّ هذه المدرسة الدينيّة التي كانت تجمع بين الفقه وعلم الكلام، والتي انمازت بنزعتها للأخذ بحرفيّة النص والتقليد، اعتُبرت ممثّلة لأحد الملامح السنيّة الأساسيّة. لكنّ طابعها المتشدّد حدّ من نموّها وحال دون انتشارها العميق في بعض الأوساط حتّى أيامنا. وإذا كانت صادفت رواجًا في بغداد استمرّ حتى نهاية الخلافة العبّاسية في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، فإنّها ازدهرت كذلك في سوريا، إلى أن تراجَع مدّها إثر الفتح العثماني في القرن السادس عشر. إلّا أنّها، بفضْل ازدهار الحركة الوهّابية وتجذّرها، شهدت حيوية متجدّدة في شبه الجزيرة العربيّة.

إنّ السمات البارزة لهذه المدرسة تعكس تلك التي طبعت شخصيّة أحمد بن حنبل، وهو عالم ديني شهير ذاع صيته بسبب معارضته المعتزلة في أواخر عهد الخليفة المأمون.

إنّ الآراء التي كان يدافع عنها هذا العلّامة، والتي أدّت الى اضطهاده في زمن المحنة الكبرى، تضمّنت إصراره على أنّ كلمة الله، بمعنى آخر القرآن الكريم، لا يمكن أن تكون مخلوقة لأنّها هي خالقة. حارب المأمون وخلفاؤه الأوائل أفكار ابن حنبل، ولم يُكتب لآرائه النجاح إلّا بعد وصول المتوكّل إلى سدّة الحكم، في العام ٢٣٢هـ/٨٤٧م، فتطوّرت هذه الآراء وبادر إلى تفصيل مضامينها أبناء ابن حنبل الذين وفّروا لها مناخ الانتشار محدّدين بُعدها القانوني والكلامي.

لقد اكتفى ابن حنبل بجمع مجموعة من الأحاديث عرفت باسم المسند، لأنّ الأحاديث النبويّة جاءت فيها مصنّفة، لا من حيث الموضوع بل وفاق السَّنَد. وإذا كانت الشهرة التي نالها جرّاء هذا العمل جعلت معاصريه يعتبرونه محدّثًا لا فقيهًا، إلّا أنّه استخرج منهجًا في استخلاص أحكام الشريعة يقوم على النص القرآني والأحاديث التي يرجع إسنادها إلى نبيّ الاسلام (ﷺ) دون سواها. وقد اعتمد تلاميذ أحمد ابن حنبل هذا

المنهج الذي أصبح ركن أعمال المدرسة الحنبليّة. لقد هدف ابن حنبل الى تقليص دور الرأي الشخصي إلى أقصى حدّ، وكان أسلافه قد أسرفوا، بحسب رأيه، في الأخذ به، داعيًا إلى التقيّد، بعكس ذلك، بتعاليم النصوص الأساسيّة.

يُنسَب الى ابن حنبل وأتباعه مجموعة من «إشهارات الإيمان» التي تُعدّد، من دون بيِّنة، عقائد الإسلام الأساسيّة: قدرة الله اللامتناهية في الخير وفي الشرّ، بمعنى آخر، جبريّة الأعمال البشريّة ونفي مبدأ حريّة الاختيار؛ إثبات وجود صفات الله؛ تأكيد أزليّة القرآن؛ الطاعة المطلقة لرأس الأمّة، حتّى لو كان غير تقيّ. وقد لاقت «إشهارات الإيمان» الحنبليّة رواجًا من دون أن تقوم على براهين تعتمد اساليب التفكير المنطقي. وخير مثال على ذلك الإشهار الذي صاغه الحنبلي البغدادي ابن بطّة في نهاية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وهو نموذج للإيمانيّة الحنبليّة.

عُرفت الحنبليّة، تاريخيًّا، بصراعها مع الشيعة من جهة، ومع أنصار علم الكلام من جهة أخرى، أيًّا كانت المواقف الكلاميّة التي دافع عنها هؤلاء. أضف إلى ذلك أنّ اتباع المدرسة الحنبلية مارسوا، في الحياة اليوميّة، أسلوبًا صارمًا، وسعوا، مرارًا، إلى أن يفرضوا نهجهم على أنه النظام الاخلاقي الإسلاميّ، ممتثلين لواجب «الحسبة»، آخذين به بحزم. وقد شوهدوا يتدخّلون في عاصمة الخلافة لمنع بيع الخمرة بتحطيم جرارها، كما اعترضوا بعنف على بعض الممارسات الطقسيّة التي كانوا ينكرونها، كمنع زيارة قبور الأئمّة العلويّين، مستثيرين في المناسبة تظاهرات مناهضة ومعارك في الشوارع.

ما من شك في أنّ هذه التجاوزات المتعدّدة وخرق النظام العام أدت، في مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، إلى شجبها بقرار صادر عن الخليفة القاهر. إلّا أنّه، بعد انقضاء قرن، نعمَت الحنبليّة كعقيدة دينيّة سياسيّة بتشجيع الخليفة القادر، وأصبحت في العام ٤٠٨هـ/١٠١٧م، العقيدة الرسميّة الوحيدة، بمعنى آخر العقيدة الوحيدة التي يُجاز تعليمها رسميًا. مع وصول السلاجقة في العام ٧٤٧هـ/١٠٥٥م، تحرك أنصار الأشعريّة بعنف في بغداد ضد هذه الأحادية في التعليم الديني السياسي وأثاروا بدورهم فتنًا متعدّدة.

إنّ الحنبليّة، التي تمثّلت بأسماء شهيرة في العراق في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد من أمثال ابن عقيل، وعبد القادر الجيلاني، وابن الجوزي وجدت أرضيّة خصبة لها في سوريا وفي المنطقة العليا من بلاد ما بين النهرين.

في زمن انتشار المدارس، تطوّر تعليم المذهب الحنبلي في دمشق حيث كان ابن تيميّة أبرز ممثليه خلال عهد المماليك، يليه ابن قيّم الجوزيّة، وتلميذ هذا الأخير، الفقيه والمحدّث والمؤرخ في الوقت نفسه ابن رجب. إنّ صراعات النفوذ في هذه الأوساط، التي وضعت في المواجهة الحنبليّين وأهل التصوّف من أصحاب النزعة الى وحدة الوجود، ممثّلين بمدرسة ابن عربي، لم تحل دون استمرار تقليد قام عليه، في القرن الثاني عشر للهجرة/الثامن عشر للميلاد، إنتاج منظّر جديد هو الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. لقد استمال هذا الأخير إلى أفكاره الأمير ابن سعود، مؤسّس دولة آل سعود في جزيرة العرب، وساهم في تنمية حركة فريدة استهدفت ترسيخ الحنبليّة في حركة الإصلاح الإسلاميّ في مطلع القرن الرابع عشر للهجرة/العشرين للميلاد كما في سائر المسائل الدينيّة-السياسيّة في العالم الاسلامي المعاصر، وبنوع أخص في التشريع المعتمد حتى اليوم في المملكة العربيّة السعوديّة.

الحنفي (المذهب -)، مذهب فقهيّ نشأ في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، يعود اسمه إلى «أبي حنيفة» الذي عُرف عنه أنّه قليل التشدّد في مسائل الفقه، حيث كان للرأي الشخصي عنده مجال واسع فأضحى هدفًا لانتقاد أنصار الحديث.

إنّ الانتشار الواسع للمذهب الحنفي في الشرق حتى أيامنا هذه يعود إلى أنّ الأتراك، منذ دخولهم العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وقع اختيارهم عليه ليصبح المذهب الفقهي الرسمي للدولة وللأمبراطورية العثمانيّة. وهذا الاختيار هو في الواقع نتيجة للدور الذي قامت به هذه المدرسة في عراق العبّاسيّين والذي كان يتناغم مع النجاح الذي عرفته في أوساط السلطة بسبب بعض مواقفها.

واقع الأمر أنّه، في ما يتعلّق بطرق تطبيق الشريعة، لم يتميّز الأحناف عن سواهم من أصحاب المدارس الأخرى إلّا في أمور تفصيليّة، وإن تكن هذه التفاصيل قد أدّت، بصورة عامة، الى اعتبار الأحناف أقلّ صرامة في بعض المسائل من سواهم.

لم يكن الأحناف ليعتبروا مثلًا من الضروري توافر وصي لعقد الزواج، وكانوا يسمحون بشرب خمرة البلح أو «النبيذ» في غياب السكْر والنشوة. وكانوا، بفضل اللجوء إلى الرأي الشخصي، يرضون ببعض المخارج التي تفسح في المجال أمام العودة عن بعض المنكرات المنهي عنها، شأن الديْن بالفائدة مثلًا.

إن المبدأ الذي أعطوه الأولويّة وانمازت به فرادة أساليبهم الفقهيّة هو «الاستحسان» أو «البحث عن أفضل حلّ».

ثمّ ما لبثت أساليبهم أن تناولها التدقيق والإيضاح، عبْر مرور الزمان، على أيدي علماء مشهورين، تتلمذ أقدمهم على أبي حنيفة، مباشرة، أبرزهم أبو يوسف والشيباني. اشتهر الأوّل بأنّه قاضي قضاة بغداد، وقد حظي في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد على تقدير رفيع لدى الخليفة هارون الرشيد، وقد تضمّن مؤلّفه، «كتاب الخراج»، نصائح في شؤون ممارسة الحكم موجّهة إلى الخليفة. أمّا الثاني، أي الشيباني، واضع المؤلّفات العديدة في أُصول الفقه، والفقيه المرجع الذي كان مسموع الكلمة لدى هارون الرشيد، فكان قاضيًا على الرقّة وقد عُيّن في ما بعد في منصب في خراسان. ولكنّ المنيّة التي وافته في العام ١٨٩هـ/ ٨٠٥م حالت دون النهوض به.

وفي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ترك القُدوري ملخّصًا مشهورًا في الفقه الإسلامي، وهوَ بعنوان «المختصر في الفقه»، يقوم على الأُسس التي أرساها أسلافه.

إنّ المذهب الحنفي الذي نشأ في العراق، وما يزال قائمًا في مستوى رفيع في هذه المنطقة، أفاد من رعاية الخلفاء العبّاسيّين الذين اختاروا قضاتهم من بين علمائه.

انتشر هذا المذهب كذلك في سوريا، وخراسان والهند، وما وراء النهر. كما تبنّاه السلاجقة، ما أدّى إلى شيوعه في الأناضول حيث تعهّده جميع الحكام الأتراك اللّاحقين، بمن فيهم السلاطين العثمانيّون الذين عُرف نظامهم الفقهي في اوروبا، عبر الكتاب الذي وضعه إ. موراجا دهسون (I. Mouradgea d'Ohsson)، «الجدول العام للأمبراطوريّة العثمانيّة»، المنشور بين عامي ١٧٨٧ و١٨٢٤. إنّ جزءًا من الفقه الحنفي، وهو المتعلّق بالقانون المدني، كان في أساس القانون العثماني الرسمي الذي وُضع في العام ١٨٧٧، والمعروف بـ«المجلّة». هذا القانون، على حفاظه على أصول الشريعة الإسلاميّة، لم يسلم من التأثير الغربي. وما الدراسة الحديثة المفصّلة التي اصدرها مفتي اسطنبول، عمر نصوحي بيلمن، ونشرها في الأعوام ١٩٥٠-١٩٥٢، سوى صدى لأحكام المذهب الحنفي التقليدي.

من جهة أخرى حثّ الأمبراطور المغولي أوْرَنْگزيب في الهند على إعداد مصنّف ضخم في القانون الحنفي، تحت اسم «الفتوى العالمكّيريّة»، [أي ذات الشموليّة العالميّة].

بعد ذلك، في عهد السيطرة البريطانيّة، أُدمجت عناصر من الفقه الحنفي بقانون تطبيقي داخلته أيضًا عناصر من الفقه الشيعي، وهذا ما عرف بـ«القانون الانكليزي المحمّدي» الذي أدّى دورًا لا يستهان به حتّى فترة قريبة.

إنّ جهود التحديث المبذولة في العصر الحديث استطاعت أن تستقطب بسهولة أتباع المدرسة الحنفيّة، فقوّى ذلك نموّ مذهبهم وتطوره، وقد أظهروا، منذ زمن بعيد، ميلًا واضحًا للمدارس الكلاميّة العقلانيّة المنحى. وغالبًا ما اعتُبروا قريبين من المعتزلة. نذكر أيضًا أنّ الماتُريديّة نشأت وتعاظمت في أوساط ما وراء النهر حيث سادت خيارات أتباع الحنفيّة.

وتجدر الإشارة الى أن الحنفيّين، بسبب التوقير الذي كانوا يخصّون به شخص [الإمام] علي، وربّما أيضًا بسبب توجّهات مؤسّسهم، يُعتبرون قريبين من الشيعة أكثر من سائر المذاهب السنية.

وهذا يفسّر وقوف فئات منهم إلى جانب الفاطميّين في إفريقية ثمّ في مصر، واتّخاذ دروز لبنان المذهب

الحنفي فقهًا لهم، مكتفين بإضافة بعض التعديلات عليه كي يستطيعوا تطبيقه رسميًا.

حنيف، لفظة من أصل غير واضح، هي من دون شك آرامية وتفسيرها قابل للجدل. وردت في النص القرآني حيث عنت أشخاصًا كانوا يمارسون، قبل ظهور الإسلام، الديانة التوحيدية التي غدا النبي محمّد (ﷺ) في ما بعد نبيّها الحقيقي.

إنّ تسمية حنيف التي أُطلقت بصورة خاصة على ابراهيم لاقت، في ما بعد، بعض الرواج في الأوساط الإسلامية، في الاستعمالات المتعلّقة بالدفاع عن العقيدة، كما في المصطلحات الصوفيّة. وقد استعملها بعض المؤلّفين بالمعنى العام لكلمة مسلم، إذ إنّ الإسلام كان يُسمّى أحيانًا الدين «الحنيف».

حُنَيْن، موقع في ناحية ميناتيّة مدمّرة في الجزائر الغربيّة، مثّلت دورًا بارزًا في المغرب خلال العصور الوسطى. تقع حنين على مسافة لا تقلّ عن خمسين كيلومترًا شمال غربي تلمسان، كانت مرسى وسّعه وطوّره «الموحّدون» تيسيرًا لأنشطة تلمسان التجاريّة.

أصبحت حنين عاصمة لبني عبد الواد في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، وعرفت ازدهارًا تجاريًّا باهرًا لوقوعها عند نهاية خط القوافل الآتية من الصحراء، وقد وسّعت علاقاتها مع مرافئ الأندلس وإسبانيا المسيحيّة. واصلت ازدهارها على عهد المرينيّين الذين انتزعوها من بني عبد الواد، وفي القرن السادس عشر تحوّلت إلى وكر للقراصنة.

وقعت حنين في قبضة الإسبان في العام ١٥٣١. إنّ بقايا الأسوار الواقعة حول خرائب قلعتها تشير اليوم إلى موقعها القديم.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

حُنين (معركة حُنين) او الحُنين، وقعة بطوليّة تشكّل جزءًا من المعارك التي خاضها نبيّ الإسلام (ﷺ)، جرت عام ٨هـ/ ٦٣٠م بعد فتح مكّة.

كانت الجيوش الإسلاميّة بقيادة النبي (ﷺ) شخصيًّا تقاوم أحد تكتلات العرب البدو بقيادة قبيلة هوازن، عندما وقعت ضحية كمين نُصب لها في الأودية المتعرّجة التي تؤدي إلى مدينة الطائف. وبعد أن تضعضعت الجيوش الإسلاميّة تمكّنت من إعادة تنظيم قواها وهزمت أتباع هوازن الذين اضطرّوا الى الخضوع والإستسلام.

إن النصّ القرآني (سورة التوبة، الآيتان ٢٥ و٢٦) يذكر هذه الوقعة ويعزو النصر إلى تدخّل الله.

حوران، إقليم من سوريا القروسطيّة، يقع جنوبي دمشق، هو اليوم جزء من الجمهوريّة العربيّة السوريّة ويضمّ أعالي جبل الدروز في جوار الجولان.

يضمّ القسم الأكبر من المقاطعات القديمة باتانيه وتراكونيتيديا وأورانيتيدا (Batanée وTrachonitide وAuranitide). دخل اقليم حوران العالمَ الإسلامي سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، في زمن الفتوحات الكبرى، بعد معركة اليرموك بقليل. عانى الإقليم في العصور الوسطى غارات عديدة شنّت عليه، بسبب موارد أرضه البازلتيّة ذات المنخفضات الخصبة. إنّ قلعة بصرى، وكذلك قلعة صلخد، وهي الموقع المحصّن المتقدّم من ناحية الصحراء، استُخدمتا كمركز لعدد من الأمراء والحكّام الأتراك بعد زحف السلاجقة، في حين كانت تتواصل على هذا الموقع هجمات الفرنج، والخوارزميّين والمغول، وقبائل البدو الآتية من جزيرة العرب. بين هذه العشائر البدويّة، وصل بنو ربيعة منذ القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وما لبثوا أن تحضّروا بسرعة. ولحق بهم بنو عنزة في عهد العثمانيّين، فعاثوا فسادًا واضطرابًا، فأرهقوا حركة قوافل الحجّ إلى مكّة التي كانت تنطلق من مدينة بُصرى. أمّا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فاصطدم الرُّوالة ببني عنزة.

من جهة أخرى، أقام الدروز القادمون من لبنان الجنوبي في السلسلة الجبليّة التي حملت اسمهم. إذ إنّ قسمًا من المتورّطين منهم في أحداث ١٨٦٠ أتوا الى حوران فازداد عدد الدروز فيه. تجدر الإشارة الى أن انشاء سكّة حديد الحجاز في العام ١٩٠٤ وضع حدًّا لتجمّع الحجّاج في بصرى. بعد الحرب العالميّة الأولى، وبعد تفكّك الأمبراطوريّة العثمانيّة، ثار دروز حوران، في العام ١٩٢٠ ثم في العام ١٩٢٥، ضد الانتداب الفرنسي. على الرغم من تلك الثورات التي

سرعان ما أخمدت، وعلى الرغم من قُرب الجولان الذي احتلّه إسرائيل في العام ١٩٦٧، ظلّت منطقة حوران تُعتبر «خزان القمح» لسوريا، وظلّت تحافظ على ازدهارها، وهي الإقليم الذي تسلكه شبكة المواصلات بين الجمهوريّة العربيّة السوريّة والمملكة الأردنيّة الهاشميّة، ومنها إلى الجمهوريّة العراقيّة وإلى المملكة العربيّة السعوديّة.

حيدر آباد، إسم يعود لمدينتين تقعان في الهند الإسلاميّة، تنتمي إحداهما اليوم الى السِّند في الباكستان، والثانية إلى الدَّكن في الاتّحاد الهندي.

حيدر آباد (جمهوريّة باكستان الإسلاميّة)، تقع في شمال دلتا نهر الهندوس، وهي حديثة العهد، أُنشئت في العام ١٧٦٨ على يد حاكم محلّي من السند جعل منها عاصمته.

أُهملت حيدر آباد لمصلحة كاراتشي بعد الاحتلال البريطاني للإقليم في العام ١٨٣٤، ولكنّها تمكنّت من المحافظة على مركزها كثالث مدينة من حيث الأهميّة بعد كاراتشي ولاهور، وكمركز رئيسي للنشاطات الثقافيّة الإسلاميّة، تتميّز بجامعة حديثة وبمعهد مخصص لدراسة فكر شاه وليّ الله.

حيدر آباد، (الاتّحاد الهندي)، أعطت هذه المدينة اسمها لدولة حيدر آباد التي كانت عاصمةً لها بعد أن قامت بدور تاريخي بالغ الأهميّة منذ القرن السادس عشر، هي اليوم عاصمة اقليم أندرا پرادش وتعدّ بين أبرز المدن الحديثة في البلاد.

تتّسم حيدر آباد بانتماء سكّانها منذ القدم إلى الشيعة، وما تزال تشكّل، حتى اليوم، مركزًا شهيرًا للثقافة الإسلاميّة إذ أُسّست فيها في العام ١٩١٨، الجامعة العثمانيّة الشهيرة المعروفة منذ ١٩٢٨ بمجلّتها Islamic Culture (الثقافة الإسلاميّة). لكنّها فقدت، منذ التقسيم الذي حدث في العام ١٩٤٧، عددًا من سكّانها المسلمين.

إنّ تأسيس المدينة على موقع قريب من حصن كُلْكُنْدَه يعود إلى عام ١٥٩٠، على عهد سلالة القطب شاهيّين الذين حلموا بأن يجعلوا منها أصفهان جديدة. إنّهم أصحاب الأبنية الأكثر أهميّة، بما فيها عاشور خانه، المبنى المخصّص للاحتفال بعاشوراء ولإحياء مجالس التعزية.

لقد بسط المغول نفوذهم على المدينة إبّان عهد أورنغ زيب، ثمّ أخذت سلطتهم بالتراجع، ما أدّى الى إعلاء شأن سلالة جديدة، هي سلالة الأصفجاهيّين أو «نظاميّو» حيدر آباد. تتحدّر هذه السلالة من زعيم عسكري مغولي نال من سيّده لقبَيْ نظام الملك وآصف جاه. استقلّ هذا الزعيم في العام ١٧٢٣، وكان منافسًا لمؤسس سلالة النوّاب في لَكْهنو، وقد مارست هذه السلالة السياسة نفسها. إن الخلافات التي عرفتها الدّكن في ما بعد، والتي أذكت نارها المواجهات بين الفرنسيّين والبريطانيّين، لم تحل دون إبقاء حيدر آباد بين أيدي أسيادها المحليّين الذين وفّروا لها الازدهار، وإن تحت وصاية غربيّة تراوح حدّة وطأتها بين الحين والآخر، وذلك ابتداءً من مطلع القرن التاسع عشر.

لم ينجح هؤلاء الأسياد في ما بعد بالحاق هذه الدولة المسلمة بباكستان. إلّا أنّ مدينة حيدر آباد، بحدائقها وروائع هندستها، بقيت أبرز شاهد على التفاعل الثقافي الهندي-الإسلامي الذي ما زال قائمًا حتّى اليوم في بعض مناطق الاتّحاد الهندي.

◄ راجع المستندين ٣٤ و٣٥.

الحِيرة، موقع مدمَّر، جنوب شرقيّ النجف الحاليّة. كانت الحيرة بلدة لا تزال حيّةً في مطلع العهد الإسلامي، ولكنّها كانت تُعتبر، في القرون الثلاثة السابقة، أبرز مدينة في المنطقة.

كانت هذه العاصمة لسلالة اللخميّين العربيّة، حلفاء الساسانيّين، المركز الفكريّ للمسيحيّة النسطوريّة. استسلمت للقوات العربيّة-الإسلاميّة منذ بداية الفتوحات الكبرى في العام ١٢هـ/٦٣٣م، إلّا أنّ المسلمين أهملوها، فتراجعت خلال العهود الأولى للخلفاء العبّاسيّين، قبل أن تطمس الكوفةُ إشعاعَها.

غير أنّ الحفريّات الأثريّة سمحت بالعثور على زخارف من معجون المرمر تعود الى القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، كشفت دراستها بعض ملامح الفنّ الإسلامي في العراق في ذلك العهد وأبرز وسائله التعبيريّة الزخرفيّة.

حيفا (إسرائيل أو فلسطين المحتلّة)، يقال لها قديمًا قيفا، وفي العربيّة حيفا. مدينة كبيرة مينائيّة حديثة، يعود نموّها الاقتصادي الى الإنتداب البريطاني على فلسطين بعد الحرب العالميّة الأولى. وقد هجرها معظم سكّانها من العرب والمسلمين بعد الحرب العربيّة-الإسرائيليّة التي وقعت في العام ١٩٤٨.

إنّ المركز السكني القائم عند أسفل جبل الكرمل وجنوبيّ الخليج الذي كان ينفذ إليه مرفأ عكا القروسطيّ، لم يضمّ سوى قرية إبّان القرون الإسلاميّة الأولى، حيث تركّزت الأنشطة التجاريّة والبحريّة في المدينة الساحليّة المجاورة، أي عكّا. لقد عرف المركز السكني، في ما بعد، على عهد الصليبيّين، نموًّا مينائيًّا أوليًّا، شجّعه الفرنج الذين بسطوا نفوذهم على المنطقة حتّى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، باستثناء الفترة الواقعة بين ٥٨٣ و٥٨٧هـ/ ١١٨٧ و١١٩١ حينما سقطت في يدي صلاح الدين بشكل موقّت. تلا فترة الازدهار هذه ركود وجمود عرفتهما المرافئ الفلسطينيّة كلّها بعد ان وقعت تحت سيطرة المماليك والعثمانيّين. إلّا أنّ الخراب الذي ألحقته الحروب بعكّا، والتوحّل التدريجي الذي أصاب حوضها، سمحا لمرفإ حيفا في القرن التاسع عشر بالتفوّق، وقد أصبح هذا المرفأ، على أثر نفي بهاء الله الى المنطقة ومواراته التراب عند سفح جبل الكرمل، مركزًا دينيًّا للبهائيّين.

◄ راجع المستند ١٨.

الحيوان (عالم -)، هو في الإسلام ما يذكره القرآن الكريم من حيوانات أليفة وبرّية، مع مسألة تحريم أكل بعضها بموجب الشريعة.

وبحسب القرآن الكريم، فإنّ الحيوانات التي خلقها الله لخدمة الإنسان، ولا سيّما الأليفة منها، يجب ألّا تُساء معاملتها. لكن ما يهمّ الفقه هو جواز أو عدم جواز أكل لحومها. وقد فُصّلت الآراء المتقاربة والمتباعدة حول هذه المسألة، وتناقشها علماء المدارس الفقهيّة المختلفة. وقد وصلت آراؤهم إلى نتائج دقيقة، تركّز على الحالات الخاصة، ما يجعل تصنيفها أمرًا صعبًا، كما أدّت إلى اتّخاذ تدابير معقّدة للغاية بشأنها. اعتُمدت مثلًا عادات وممارسات متناقضة بشأن بعض الطرائد من دون أن تكون الآراء حولها مبنيّة على ملاحظات تتعلق بعالم الحيوانات. كما أنّ هناك معطيات قرآنية بسيطة وواضحة هي من المسلّمات المقبولة من الجميع، منها تحريم أكل لحم الخنزير بشكل قطعيّ. وهذا التحريم كانت له نتائجه على الصعيد الإقتصادي، لأنّه شمل تربية هذا النوع من الحيوانات والإتّجار به.

على صعيد آخر، وبعيدًا من الفقه، يبرز في الأدب ما يشير إلى أن المجتمع الاسلامي القديم ركّز اهتمامه الدائم على نوعين من الحيوانات الأليفة، وكانت له معارفه ودروسه عنهما. فالأوّل هو المطيّة الأساسيّة التي لا غنى عنها في الحياة البدوية داخل مناخ مداري، وهو الجمل الذي يذكره القرآن الكريم غير مرّة، والذي أدّى دورًا في الأخبار المتعلّقة بالرسول (ﷺ) وصحابته، بعد أن كان، قبل الاسلام، الموضوع المفضّل في المجالين المعجمي والشعري. والثاني هو الجواد الذي اعتُبر مثاليًّا في الحروب خلال الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الأولى، وفي عمليّات التوغّل اللّاحقة داخل القارة الأسيوية. وقد وُضعت في القرون الوسطى مؤلّفات عديدة حول طبّ الخيل، بعضها موروث عن القدماء وبعضها جديد، كما أظهر المروّضون مهاراتهم في تدريب الجياد على الفروسيّة والمعارك الحربيّة، بحسب العادات والقواعد المتّبعة في العالم الإسلامي. كذلك كان الاهتمام مماثلًا بالصقور وسائر الطيور التي يستعان بها في الصيد. ولا يزال هذا الاهتمام قائمًا من قبل أبناء الخاصة التقليديّة. وقد وُضعت حول هذه الطيور، في الماضي، مقالات تميّزت بالغزارة والأصالة، بعضها علمي والبعض الآخر عملي.

وقلّما تمثّلت الحيوانات في حقل الرسم - حتّى تلك التي أثارت اهتمام العلماء المسلمين في القرون الوسطى - وذلك بسبب مبدإ تحريم الرسوم المطبّق في الفنّ الإسلامي بصورة عامة. إلّا أن هذا المبدأ لم يُحترَم بشكل قطعي، ولم يمنع انتشار الرسوم الحيوانيّة في بعض المناطق، فكانت تزيينيّة ورمزيّة، ولكنّها أتت أحيانًا واقعيّة، تنمّ عن دقّة في الملاحظة.

خ

خاتون، في التركيّة هاتون، لقب سُغْديّ الاصل كانت تحمله الأميرات التركيّات في القرون الإسلاميّة الوسطى ويُدْرج بعد الاسم.

استُعمل هذا اللقب على الأخصّ عند السلاجقة وأتباعهم، في آسيا الوسطى وإيران وسوريا والأناضول، فلقي إقبالًا بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة/ الحادي عشر والخامس عشر للميلاد، من الخوارزمشاهيّين والأيوبيّين وسلاجقة الروم، ومن سلالات أخرى حاكمة أقلّ أهميّة. واستمرّ اللقب منتشرًا، فتبنّاه الإيلخانيّون، وكذلك العثمانيّون الأوائل، ثمّ حلّ مكانه لقب «بيكم» (بيغم). وزال من ثمّ عندما أصبح السلطان محاطًا بالجواري، ولم يعد يهتم باتّخاذ زوجة شرعيّة من الأسر النبيلة التي كان الأسلاف يحرصون على التحالف معها.

خاف أو خْواف، منطقة قديمة في مقاطعة كوهستان أو قوهستان الإيرانيّة، تتميّز اليوم بمعالمها الأثريّة التي تعود إلى العصور السلجوقيّة وما بعدها. في هذه المنطقة المعزولة التي اشتُهرت واحاتها بالإزدهار الزراعي في القرون الوسطى وكانت ممرًا للقوافل التجاريّة، تقع خوارجرد وزَوْزن وفيهما معالم من الهندسة الإسلاميّة تعود إلى القرون الوسطى لم تُدرس كفاية، ولا سيّما المدارس العائدة الى العهد التيموري. كما تُرى، في أماكن أخرى، بقايا قلاع كان يحتلّها النزاريّون قديمًا، وخرائب مآذن كالتي في كِرات وكِشمر، وبقايا مساجد جامعة في گُناباد وفردوس تعود إلى القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، تُضاف اليها أبنية محلّة تَبَس (گُلْشَن)، على الطريق التي تصل بين كوهستان ويزد عبر الصحراء الوسطى الكبرى.

خاقان ← **خان**.

خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي (؟ - ٢١هـ/ ؟ - ٦٤٢م)، من الصحابة وأحد أبطال مرحلة الفتوحات العربيّة-الإسلامية الكبرى، إذ كان له دور ناشط كقائد عسكري جعله يستحقّ لقب «سيف الله».

وتُفصِّل الرواية الموقف الذي اتّخذه خالد إلى جانب المكّيّين في موقعة أُحد، وكذلك العنف الذي أظهره تجاه نبيّ المسلمين. إلّا أنّه بعد اهتدائه سنة ٦ أو ٨هـ/ ٦٢٧ أو ٦٢٩م، أصبح قائد الحملات ضدّ عدد من القبائل العربيّة في حرب الردّة، وخصوصًا ضدّ البيزنطيّين. وكانت هذه الحملات الأخيرة قد بدأت في زمن النبي محمّد (ﷺ) الذي حرّك المسلمين في اتّجاه مؤتة وتبوك ودومة الجندل، ثم توسّعت في زمن حكم الخليفة الأوّل أبي بكر الصدّيق.

إنّ تسلسل الأحداث العسكريّة التي نُسبت إلى خالد، منذ اشتراكه في المعارك الأولى التي جرت في العراق عند الإستيلاء على الحِيرة سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م، حتّى الانتصارات الحاسمة في سوريا ضدّ البيزنطيّين الذين هُزموا في أجنادين سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، ثمّ في اليرموك سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، تحمل الكثير من الألغاز ويكتنفها الغموض. والمعروف أنّ الخليفة الراشدي الثاني، عمر بن الخطّاب، أعفاه من مهمّة قيادة الجيوش. إلّا أنّ الشهرة التي تمتّع بها في سوريا حيث برز ولده [عبد الرحمن] قائدًا في الحملات ضد البيزنطيّين بقيت ماثلة في الأذهان. ويشهد على ذلك الإحترام الذي كان يكنّه المسلمون، في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، لضريح مشيَّد في حمص، يقال إنّه يحتضن رفاته. كان يوجد في المدينة المنوّرة

ضريحٌ آخر يحمل اسمه. وقد تحوّل منزله في دمشق إلى مكان زيارات تقويّة، وكذلك المسجد حيث كان يصلّي.

خان، لقب تركيّ يحمل معنى الأمير أو القائد، تحوّل إلى لقب ملكي لسلاطين مسلمين من أصل تركي، وأكثر من لُقّب به هم من السلالات الجديدة التي خلفت الغزاة المغول.

استُعمل اللّقب أوّلًا لدى القبائل التي لم تكن بعد قد اهتدت إلى الإسلام، والتي كانت تضرب في السهوب الآسيوية. ثمّ انتقل إلى الأوساط الإسلاميّة في القرون الوسطى، فحمّلته السلالات التركيّة، كالقراخانيّين وكالسلجوقيّين الذين نشروه في الأمبراطوريّة كلّها، انطلاقًا من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، حتّى لدى سلاطين دلهي وسلاطين المغول. ثمّ تدنّت قيمة هذا اللّقب في تلك المناطق مع مرور الزمن، وبات يحمله الحكام المحليّون والقادة العسكريّون الثانويّون. إلّا أنّه حافظ على قيمته الأساسيّة في الدول التركيّة المغوليّة التي سادت وسط آسيا وجنوب روسيا، فحمله خانات القبيلة الذهبية حتّى القرن التاسع عشر، وتلقّب به الخانات المسلمون الذين تعاقبوا على حكم شبه جزيرة القرم وحكم استراخان وقازان وخيوه وبخارى وغيرها.

وهناك لقب آخر شاع بين قبائل سهوب آسيا، لا سيّما بين كبار خانات المغول، وهو لقب خاقان الذي كان استعماله محدودًا في الأوساط الإسلاميّة. وهو في الواقع لم يُستعمل إلّا في بعض الألقاب العثمانيّة انطلاقًا من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد.

الخانات، أبنية نموذجيّة للفن المعماري الإسلامي في القرون الوسطى، كانت تُستعمل نُزُلًا مرحليّة على طرق تجارة القوافل، ومركز استقبال وتخزين للبضائع في المدن. وقد مثّلت دورًا مهمًّا في عالم كانت تسهّل، داخله، الأنشطة التجاريّة.

في القرون الوسطى، حملت هذه الأبنية تسمية «خان» (هان في التركية)، و«رباط» في إيران بتوع خاص، وعُرفت في ما بعد بتسمية «كِرْوانْسراي» التركيّة - الإيرانيّة التي عرفت رواجًا خاصًّا في أوروبا بمعناها الواسع الذي كان يعني مكانًا معدًّا لاستراحة القوافل في أثناء الليل. أما تعبير «فُنْدُق» - المشتق من الكلمة اليونانيّة Pandocheion، والذي دخل في ما بعد اللغة الإيطاليّة كما الفرنسية في صورة fondaco وfondouk - فقد كان له معنى أدقّ ينطبق على خانات المدن المخصّصة لاستقبال التجّار الأجانب، كمثل الخانات التي كان يملكها تجّار البندقيّة في سوريا، وبخاصةٍ في حلب، في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وكائنًا ما كان التعبير المستعمل، فإنّ المقصود به أبنية تقوم بوظائف مماثلة، لكن مع فروق في تفاصيل الترتيب وحسب. فكلّ هذه الأبنية تتكوّن دائمًا من حائط مرتفع يحمي من السرقة، يكون في أكثر الأحيان محصّنًا في الأراضي المكشوفة. وكان هذا الحائط يسوّر مجموعة أماكن موزعة حول فناء داخلي معَدّ لإيواء حيوانات النقل ولاستقبال الناس، إضافةً إلى أمكنة لتكديس البضائع. وبصورة عامّة، كانت مساكن رجال القوافل تقع في الطابق الأعلى، وكان، في وسط الفناء، مصلّى يكمل هذه المجموعة المعماريّة.

أمّا النماذج الأكثر قدمًا - التي ما تزال محفوظة حتّى اليوم - من هذه الأبنية المزروعة على طول طرق القوافل أو المجمّعة في المدن التجاريّة، فتعود إلى الحقبة ما بعد السلجوقيّة. وبالفعل، عرفت هذه الفترة مبادرات في هذا الاتّجاه - سلطانيّة في أكثرها - أدّت الى تكاثر هذه الأبنية الضخمة المشيّدة على طرق المرور الأكثر استعمالًا، كالطريق الكبير في خراسان وآسيا الوسطى، وتلك الدروب التي تعبر الهضبات الصحراوية في الأناضول. والمثال الأبرز على الحالة الأولى هو خان رباط الشرف الذي ما يزال قائمًا قرب خانات مهدّمة كرباط المهي أو رباط المَلِك، ويعزى بناء هذا الخان، حوالى منتصف القرن الثاني عشر للميلاد، إلى الملك سَنْجَر، آخر كبار الملوك السلاجقة الإيرانيّين. يشهد هذا الخان، من خلال واجهاته الأنيقة المصنوعة من القرميد، ومن خلال فنائه ذي الإيوانات الأربعة، على الاهتمام الفنيّ الذي يجعله، في زخرفته الغنيّة، أقرب إلى قصر منه إلى بناء للإستعمال النفعي. وفي الحالة الثانية، فالبناء الضخم أيضًا - الذي قد يكون أكثر عظمة - هو خان السلطان هاني الذي شيّده

كَيخسرو الثاني من سلالة سلاجقة الروم، بين سيواس وقيصريّة، سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م. ويتفوّق هذا الخان على سابقه بمزاياه الوظيفيّة والجمال البسيط لسوقه المعقودة من حجارة والمؤدّية إلى فناء محاط أيضًا بملحقات. وهذا البناء المُحكَم هو واحد من نماذج عديدة أخرى من الطراز نفسه، شكّلت عبر الأناضول شبكة حقيقيّة من طرق عبور آمنة. هذه النماذج كافية وحدها للدلالة على الاهتمام الذي أولاه سلاطين قونية للمبادلات التجاريّة التي جعلت من أملاكهم آنئذٍ مركز تجارة العبور (الترانزيت) بين أوروبا وآسيا.

في المقابل، تبدو الخانات القائمة على طرق القوافل في سوريا الأيّوبيّة أكثر تواضعًا، إذ بُنيت وفاق اتّجاه شمالي - جنوبي تسلكه مسارات التجارة، ويلائم في الوقت نفسه إحدى طرق الحجّ في اتّجاه الجزيرة العربيّة. وقد أكملت هذه الخانات ووُسّعت وجُمّلت في الحقبة المملوكيّة، في فترة سبقت ظهور نموذج البناء الجديد للخانات الذي نشره العثمانيّون في أمبراطوريّتهم، بما فيها الولايات العربيّة. وهو نموذج استعاد - مع بعض التعديلات - تقليد الأبنية ذات الحجارة الجميلة التي كان يشيّدها سلاجقة الروم. وفي موازاة ذلك، استمرّ في إيران استعمال الآجرّ المطبوخ في أبنية تشهد على الذوق الرفيع في التصميم، بلغت أوجها في عهد سلالة الصفويّين. وهنا أيضًا تدلّ هذه الأبنية على الأفضليّة التي كانت للتجارة ذات الطابع الدولي التي عمل أسياد البلاد على تأمين الحماية لها بشكل دوري. وآخر الملوك الإيرانيّين الذين أولوا هذا الأمر اهتمامهم هم سلالة القاجار، وهم الذين رمّموا أيضًا، في القرن التاسع عشر، آخر محطّات القوافل، وهيَ محطّات أُهملت نهائيًا في الحقبة المعاصرة.

هذا التطوّر في أسلوب البناء، الذي يمكن تمييز سماته البارزة من خلال إجراء مقارنة بين مختلف أنواع الخانات المشيّدة في السهوب، نلاحظه أيضًا في المظهر الخارجي وفي تنظيم الأبنية التي أُقيمت داخل المدن، والتي نمت في أكثر الأحيان متكاملةً مع أسواق مسقوفة تضاهيها ضخامة. وحوالى القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، عرفت الأبنية المشيّدة على هذا الطراز انطلاقة ملموسة في المجمّعات السكنيّة الرئيسة. إنّ ظاهرة، كمثل ظاهرة تكاثر نزل الاستراحة المرحليّة البعيدة، يعود سببها، من دون شكّ، إلى تقوية الروابط الاقتصاديّة، في هذه الفترة، ما بين الدول الإسلاميّة والعالم غير الإسلامي. يمكننا، تاليًا، أن نميّز بين فئتين من الخانات المدينيّة: تلك التي تضمّ مساكن يمكن ان يقيم فيها التجار الغرباء عن المدينة موقّتًا، وتلك التي تُستعمل بشكل خاص مخازن للبضائع. وكان بعضها - الذي كانت تقتطع فيه رسوم على السلع الغذائية المستوردة - يُسمّى وكالة، وهو تعبير دخل اللغة الفرنسيّة في صورة كلمة okelle. لكنّ هذه الكلمة الأخيرة لم تعد تشير إلى أيّ واقع محدّد في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد؛ إذ إنّ جميع الأبنية المدينيّة التي كانت تستقبل القوافل ومختلف البضائع التي تنقلها كانت تسمّى على السواء خان، فندق أو وكالة. وهكذا كانت هذه الأبنية تختزن بضائع ثمينة وتقوم بالدور الذي قامت به «القيصريات» في العصور الأولى للإسلام.

إنّ نماذج هذه الأبنية التي ما تزال في حالة جيّدة، ليست نادرة في المدن التجاريّة الشرقيّة القديمة، بدءًا من أصفهان وإسطنبول حتّى القاهرة، مرورًا بحلب ودمشق. أمّا سبب تواضع أحجامها أحيانًا فكان يفرضه تداخلها في النسيج المديني لأحياء تجاريّة سابقة الوجود. والرتابة الظاهريّة في بنيانها لم تحل دون استعمالها الأساليب الخاصّة بالمدارس المعماريّة الأكثر شهرة في كل منطقة في أواخر القرون الوسطى. من هنا يُفهم التشابه البنيوي والزخرفي الذي يمكن ملاحظته ما بين واجهاتها ذات المداخل الضخمة، وسقوفها ذات القباب، وأروقتها الداخليّة من جهة، وأبنية ذات أهداف أكثر نبلًا، كالمدارس الدينيّة والمساجد والأضرحة المجاورة لها، من دون تشويه محيطها، من جهة أخرى.

◄ راجع المستندين ٥٩ و٦٥.

خانْدِش، مقاطعة هنديّة إسلاميّة قديمة، كانت بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر دولة مستقلّة، هي دولة الخانات المسلمين من الأسرة الفاروقيّة. تقع هذه الدولة شمال غربيّ الدَّكن، وكانت تعزلها عن المناطق

المجاورة سلسلة من الجبال. إلّا أنّ الإزدهار الذي شهدته في أواخر القرون الوسطى حول عاصمتها بُرهانْبور لم يدم طويلًا بسبب غزوات المغول، كما أنّ هجمات المَهراته وصراعاتهم الداخليّة كانت قد بدأت بإضعاف الأمبراطوريّة الهنديّة الإسلاميّة الكبرى في القرن السابع عشر.

◄ راجع المسند رقم ٣٢

خانقاه (جمعها خوانق)، لفظ إيراني الأصل، كان يعني في الشرق الإسلامي، خلال القرون الوسطى، بناء يتجمّع فيه الزهّاد والمتصوّفون الذين تربط بينهم طريقة صوفيّة.

أمّا ظروف ظهور هذه الأبنية التي وُجدت، أوّلًا، في خراسان وفي بلاد ما وراء النهر، والتي استعملها - ربّما منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد - عدد من الجماعات الدينيّة، بينها الكرّاميّون، فتبقى غامضة. إنّها تتداخل مع مراحل غير واضحة انتشرت فيها تجمّعات صوفيّة إسلاميّة، وإنّ المُعطى الوحيد الأكيد بشأنها هو أنّها ازدهرت خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. ففي ذلك الوقت، كانت الخوانق عبارة عن أبنية مجهّزة بحجر صغيرة وموزّعة في كافّة المناطق الشرقيّة من العالم الإسلامي، يلتقي فيها أتباع شيخ روحي أو «پير»، أي أتباع طريقة صوفيّة معيّنة، ويعيشون معًا ضمن قواعد محدّدة تختلف بين طريقة وأُخرى. وهذه الأبنية كان يحميها الحكّام الذين ساعدوا بسخائهم على انتشارها في إيران وسوريا ومصر والهند. كما اعتُبرت مؤسّسات لها طابع القداسة، يمكن أن تكون لها أوقاف، وبواسطتها يستدرّ أصحاب عمل الخير النعم الإلهيّة. ولكن غالبًا ما كان هؤلاء من أبناء الأسر الحاكمة.

وفي المرحلة الزمنيّة عينها ظهرت أشكال هندسيّة أخرى شبيهة بالمدارس المعاصرة، ما يزال بعضها قائمًا في عدد من المدن كالقاهرة ودمشق. فكانت أوّلًا على نمط هندسيّ بسيط، ثمّ انخرطت في المجمّعات الواسعة التي أُقيمت في المدن الإسلاميّة، إبتداءً من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وكانت تؤمّن أنشطة متنوّعة وتُعتبر، بصورة خاصة، مراكز عبادة ونسّك. ثمّ حلّت مكان تلك التسميات في الشرق، عدا الهند، ما عرف في التركيّة باسم «التكّة» أو التكيّة (جمعُها تكايا)، لكنّ لفظ خانقاه لم يدخل المغرب العربي قط، بل قامت هناك مؤسّسات مماثلة حملت اسم الرّباط والزاوية؛ وأُضيف، في مرحلة متأخّرة، اسم التكيّة التركي الذي شاع ضمن نطاق الأمبراطوريّة العثمانيّة في المغرب.

الختم، هو خاتم للطبع والدمغ، يحمل عادة كتابات محوّرة، كان يُستعمل في القرون الوسطى الإسلاميّة لتوقيع الرسائل وتصديق الوثائق المتنوّعة الصادرة عن الدواوين المتخصّصة، كديوان الرسائل وديوان الخاتم، وكان كلّ منها، في أغلب الأحيان، مستقلًا عن الآخر. وكان الختم، وهو رمز السلطة، يُعهد به أحيانًا إلى شخصيّة تحوز ثقة صاحب السلطة، كالوزير في ظلّ الخلافة العبّاسيّة، والصدر الأعظم في العهد العثماني.

وكان في استطاعة كلّ مسلم غني أن يمتلك ختمًا يحفر فيه إمّا عبارة دينيّة وإمّا اسمه عاريًا من كلّ لقب، كدليل على تواضعه. وكان يُضاف الى طابع الختم توقيع صاحبه، ويطلق على هذا التوقيع اسم «العلامة». والمعروف أنّ أفراد طبقة الخاصّة درجوا على ألّا يضعوا هذا الخاتم في الإصبع بل في الجيب، كما كان بعضهم يعهد به إلى خادم. والحجارة المنقوشة كانت إجمالًا من النوع الصلب وبعضها من الحجارة الكريمة، وما يزال عدد كثير منها محفوظًا في المتاحف، ويهتمّ العاملون بالختامة بفكّ رموزها وكتاباتها الصعبة، ويُعتبر علم الختامة من العلوم المساعدة لعلم التاريخ الإسلامي القروسطي.

خُتَن، جمهوريّة الصين الشعبيّة، تقع هذه المدينة اليوم في منطقة كُسينْجيانغ التي تتمتّع بالحكم الذاتي، والتي كانت جزءًا من الأمبراطوريّة الصينيّة في عهد أُسرة تانغ، والتي استولى عليها، في فترات متقطعة، أتراك اعتنقوا الإسلام.

استولى أمراء كاشغر الأتراك، مؤسّسو سلالة القراخانيّين، على ختن وجوارها منذ القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، ثمّ سقطت المدينة في أيدي القراختاي واضطُهد المسلمون فيها لفترة وجيزة.

في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، ونتيجةً لتقلّبات الزمن، سقطت ختن من جديد في أيدي الصينيّين. وشاركت سائر المدن الواقعة في حوض طارم مصيرها، وهي مدن مُتنافَسٌ عليها بين الصينيّين والمغول، ولكنّها حضنت جماعات من المسلمين الذين حافظوا على إسلامهم حتّى اليوم.

خديجة بنت خويلد (؟ - ٦١٩م)، أولى أزواج النبيّ محمّد (ﷺ). إنّها تحتلّ في حياته مكانة مهمّة، وقد وقفت إلى جانبه عندما أطلق دعوته.

كانت خديجة - التي تنتمي إلى إحدى عشائر قريش - أرملةً في الأربعين من عمرها عندما اقترن بها محمّد الشاب. كانت قد تزوّجت قبل ذلك مرّتين. طلّقت زوجها الأوّل - وكان الطلاق من العادات المألوفة في قريش - وترمّلت من الثاني. يقال إنّها طلبت من محمّد، حوالي العام ٦٠٥، أن يقود إحدى قوافلها إلى سوريا، وعرضت عليه، إثر ذلك، أن يتزوّجها. رُزق منها أولاداً عدّة، منهم فاطمة. دافعت عنه عندما تعرّض لانتقادات المكّيّين بعد أن نزلت عليه الآيات الأولى من القرآن الكريم. توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولم يتزوّج محمّد بامرأة ثانية قبل وفاتها.

الخديوي، لقب عثماني فارسيّ الأصل، طالب به حكّام مصر منذ أن سعى محمّد علي للإستقلال في مطلع القرن التاسع عشر، وقد مُنح رسميًا سنة ١٨٦٧ من قبل الباب العالي إلى إسماعيل باشا.

وقد رأى الباشا في هذا اللقب رمز ارتقائه إلى مستوى عال بين أتباع السلطان العثماني، كما اعتبره تثبيتًا لاستقلال بلاده الداخلي. وقد أُلغي هذا اللقب سنة ١٩١٤، بعد أن فرض البريطانيّون حمايتهم على مصر، وحلّ مكانه لقب سلطان، ثم لقب ملك.

الخديويّون، هم خلفاء محمد علي (١٨٠٥-١٩٥٣)، وسلالة مسلمة من أصل ألباني، حكموا مصر دولةً شبه مستقلّة، وتوارث بعضهم الملك كخديويّين تابعين للعثمانيّين، قبل أن يتسلّموا مسؤوليّة مُلك مستقلّ نُزع منهم على أثر انقلاب عسكري.

إنّ الإنجازات التي حققها محمّد علي في سعيه لتحديث مصر - حيث كان قد أُرسل لمقاتلة الفرنسيّين، وحيث تعرّف إلى التحوّلات التي نتجت عن حملة بونابرت - كانت كافية للحصول على دعم السلطانَين سليم الثالث ومحمود الثاني. بالرغم من ذلك، اقتضى الأمر انتظار وصول حفيده الخديوي إسماعيل الذي أرسى دعائم مملكة قويّة طالما حلم بتحقيقها محمد علي وولده ابراهيم باشا.

ثم إنّ الصعوبات الإقتصاديّة التي واجهها الخديوي إسماعيل بعد ذلك، بسبب مشاريعه الواسعة خارجيًّا وداخليًّا، كانت سببًا للتدخّل البريطاني، ولا سيّما بعد ثورة عرابي باشا. وقد أدّى التدخّل البريطاني إلى فرض رقابة واسعة على مصر دامت عشرات السنين، وكذلك على السودان الذي كان خاضعًا لإدارة مصريّة-انكليزيّة مشتركة. ولم تتمتّع مصر بالإستقلال الرسمي إلّا مع الملك فؤاد الأوّل وولده فاروق الذي أُعلن في آخر عهده «ملك مصر والسودان». إنّ الإستقلال الذي أُعلن سنة ١٩٢٣ ترافق مع صراع الأحزاب السياسيّة والمؤامرات الخارجيّة، ما جعله هشًّا. إنّ النجاحات الأولى التي حقّقتها الأسرة المالكة لم تسمح لها بالتفاعل مع الوسط المصري الذي حمّلها مسؤولية فشل العرب أمام اسرائيل سنة ١٩٤٨. وبعد تنازل فاروق عن العرش سنة ١٩٥٢، أُلغيت الملكيّة في مصر بعد مرور سنة.

محمد علي باشا	١٨٠٥ ١٨٤٨
ابراهيم باشا	١٨٤٨
عبّاس الأول باشا	١٨٤٨ - ١٨٥٤
سعيد باشا	١٨٥٤ - ١٨٦٣
الخديوي اسماعيل	١٨٦٣ - ١٨٧٩
توفيق	١٨٧٩ - ١٨٩٢
عباس الثاني حلمي	١٨٩٢ ١٩١٤
حسين كامل	١٩١٤ - ١٩١٧
فؤاد الأوّل	١٩١٧ - ١٩٣٦
فاروق	١٩٣٦ - ١٩٥٢
فؤاد الثاني (الطفل)	١٩٥٢ - ١٩٥٣

الخراج ← الأراضي (تشريع أو نظام-).

خُراسان، اسم مقاطعة شملت، في القرون الوسطى، منطقة واسعة وغنيّة. تقع شرقي الهضبة الإيرانيّة وجنوبي آسيا الوسطى. وبحكم موقعها الإستراتيجي على دروب الغزوات البدويّة، فقد كان لها تاريخ مضطرب في قلب العالم الإسلامي.

ويُطلق اسم خراسان اليوم على المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقي من الجمهوريّة الإيرانية، حول مدينة مشهد التي هي عاصمتها الإداريّة. لكنّ المقاطعة في العصر العبّاسي - وكانت باتساع «المَرْزُبة» الساسانيّة القديمة التي تحمل الاسم عينه - كانت أكبر بكثير من المنطقة الحاليّة، وتضمّ مناطق تعود اليوم إلى جمهوريّة تركمانستان وإلى جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة. والواقع أنّها شملت قديمًا مناطق المرتفعات والسهوب التي تتوزّع فيها واحات خصبة اشتهرت بزراعاتها وتقع وراء آخر خاصرة لجبال «البُرز»، ويمرّ فيها نهرا «مُرغاب» و«هري رُود» اللذان، بعد انحدارهما من جبال أفغانستان الوسطى، يضيعان في صحراء قره قوم. وهذه المقاطعة التي ضمّت أربع مدن مهمّة، هي: نيسابور وهراة ومرو وبلخ، كانت تمتدّ من شرق مقاطعة «الجبال» في غرب إيران لتصل إلى طخارستان وبَدَخْشَان وزابُلِسْتان. أمّا حدودها التقريبيّة فكانت تبدأ شمالاً من نهر آمودريا الذي كان يفصلها عن بلاد ما وراء النهر، وتنتهي جنوبًا بجبال قوهستان حيث تلامس حدود سِجِسْتان.

إلى هذا الملتقى الواسع حيث استقرّت عبر العصور شعوب بلغات مختلفة وأجناس متنوّعة، وحيث كان يسيطر سابقًا العنصر الإيراني، اندفعت الفرق العربيّة-الإسلاميّة الأولى في عصر الفتوحات الكبرى، منذ خلافة عثمان بن عفّان، سالكة طريق الجنوب، وأخضعت لسلطتها، بين سنتي ٣٠ و٣١هـ/ ٦٥١ و٦٥٢م، نيسابور ومرو. ولم يسد الهدوء المنطقة إلّا في العصر الاموي. لكنّ اندفاع الجيوش الأموية باتّجاه بلاد ما وراء النهر وحتّى فرغانة، وسيطرتها على بلخ وغزوها طخارستان، واستقرار وحدات عربيّة عديدة في تلك البلاد، لم تساعد على محو أسباب الاضطرابات المحلّيّة المستمرّة. وفي النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، التقت القوى السياسيّة والدينيّة المعارضة هناك لتطلق الثورة العبّاسيّة وذلك بفضل الدعاوة التي قام بها أبو مسلم، لا سيّما في المناطق الشرقيّة، ما أدّى الى قيام الخلافة العبّاسيّة.

كان لخراسان دور حاسم في تطوّر الأمبراطوريّة الإسلاميّة الناشئة. وانتقل عدد كثير من رجال الحرب فيها إلى بغداد حيث شكّلوا بطانة الخلافة، في حين تحوّلت خراسان بدورها إلى محور مهمّ من محاور تطوّر الحضارة العبّاسيّة في عصرها الذهبي. وقد كانت، لفترة زمنيّة، مقرّ الخلافة، وذلك بعدما انتصر المأمون على أخيه ومنافسه الأمين سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م، فتردّد لسنوات عديدة في الإنتقال إلى العراق وفي مغادرة مرو حيث كان قد أقام كوالٍ وكمطالب بالعرش. وانتقال المأمون إلى العراق لم يمنع من أن تستمرّ في خراسان مرحلة الازدهار الإقتصادي والثقافي، مع جهود محليّة للحصول على استقلال جزئي. وقد بدأت تلك الجهود مع الطاهريّين منذ سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م، ووصلت إلى ذروتها في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، مع بلوغ الأسرة السامانيّة أوج مجدها، وذلك على أثر الإضطرابات التي سبّبتها في المنطقة، بين سنتي ٢٥٩ و٢٨٧هـ/ ٨٧٣ و٩٠٠م، غزوات الصَّفّاريّين. وقد جعل السامانيّون - الذين هم في الأصل من منطقة بلخ - مدينة بخارى، في بلاد ما وراء النهر، مقرّهم، وهي قريبة من الحدود حيث كانوا يواجهون الأتراك. لكنّ خراسان كانت المنطقة الحيويّة بالنسبة إلى مملكتهم، ومركز الدفاع عن السنّة، كما كانت محور النشاط التجاري الذي كان قائمًا على طول طريق القوافل بين بغداد وآسيا الوسطى. وقد اشتهرت خراسان أيضًا بمحدّثيها وعلمائها وفقهائها، وأيضًا بازدهار زراعتها، وانتشار الحِرَف المتنوّعة فيها، وغنى مدنها التي كانت ممرًّا لتجارة الرقيق في اتّجاهها نحو بغداد.

وقد تبدّلت الأوضاع منذ بدايات السيطرة التركيّة في بلاد الإسلام، وذلك مع قيام السلطة الغزنويّة التي ألحقت خراسان بالقسم الشرقي من أمبراطوريّتها سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م. بذلك تحوّلت من مقاطعة يسكنها الحضر وترعى شؤونها بنفسها، إلى منطقة نزاع، بل إلى ضحيّة يتنازعها الخصوم من كلّ نوع. وقد رافق

ذلك انتشارُ الفوضى والخراب اللذين سبّبتهما غزوات البدو القادمين من السهوب الآسيويّة، بعدما اندفعوا موجات متلاحقة محاولين أحيانًا الاستقرار فيها مع قطعانهم. وعلى أثر موقعة دَنْدَنقان سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م، أوصلت قبائل «الغزّ» قادتُها السلاجقة إلى رأس دولة إيرانيّة تركيّة قويّة، تمركزت في العراق ومنطقة «الجبال». ونجحت بعد ذلك مجموعات أخرى من التركمان، بقيت محافظة على عاداتها الرعويّة، في أن تسيطر على الأطراف الشماليّة من المنطقة. فكانت مصدر خطر على السلاجقة. وقد أسَر هؤلاء التركمان، سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، السلطان السلجوقي سنْجر. وبعد تعرّضها لهجمات الخوارزمشاهيّين، أصابت خراسان الكوارث مع غزوات المغول التي قادها جنكيزخان منذ مطلع القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. واستمرّت هذه الكوارث مع قيام مملكة «هولاكو» والإيلخانيين، ووصلت إلى أقصى مداها مع اجتياحات تيمورلنك. وفي القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، سلكت هجمات الأوزبك الطريق عينه، فغزت خراسان التي كانت، قبل ذلك بقليل، قد وقعت تحت سيطرة الجيوش الصفويّة الفارسيّة.

إنّ الإفقار الذي أدّت اليه تلك الأحداث، ومعه تراجع نسبة الأرض المزروعة، لم يمنع من أن تعرف خراسان أوقاتًا قصيرة عادت خلالها إلى حالة الغنى والازدهار الفنّي. من تلك الأوقات ما كان في زمن التيموريّين، لا سيّما في النصف الأوّل من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، وتحديدًا في عهد شاهرُخ في هراة. لكنّ عوامل التمزّق، بسبب تكاثر الأسر الصغيرة المحليّة الحاكمة منذ أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، ترسّخت في بلاد تفتقر إلى التجانس السكاني. وقد تزايد عدم التجانس هذا مع وصول مجموعات بشريّة جديدة رافقتها انشقاقات دينيّة نتجت عن تصاعد موجة التشيّع في إيران. ثمّ إنّ الصراع الدائم الذي عرفه القرن الثامن عشر جعل خراسان تنتقل من يد نادر شاه إلى الدُّرّانيّين الأفغان، فإلى القاجار، مع بقاء ادّعاءات الأوزبك وطموحاتهم. وهذا الصراع بدأ يرسم ملامح الحدود الحاليّة. بدأت هذه الحدود تتثبّت مع سيطرة السوفيات على منطقة مرو التي كان الروس قد احتلّوها منذ العام ١٨٨٤. كما دخلت منطقتا بلخ وهراة ضمن مملكة أفغانستان (ولم تنجح المحاولات التي بذلها الفرس لاستعادة هراة بالقوّة سنة ١٨٣٨، وخلال سنتي ١٨٥٦ و١٨٥٧، لكنّ الترسيم النهائي للحدود في هذه المنطقة تمّ في سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٥). على أثر ذلك، انحصرت مقاطعة خراسان الايرانيّة، بعد اقتطاع تلك الأجزاء منها، بمنطقة نيسابور التي انتظمت حول مدينة مشهد التي هي مركز للزيارات التقويّة والتي تنامت تدريجيًّا بالقرب من خرائب طوس، وذلك بفضل وجود ضريح الإمام علي الرضا فيها.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢ و١٣.

خراسان (بنو -)، ٤٥٤-٥٢٢هـ/١٠٦٢-١١٢٨م و٥٤٣-٥٥٤هـ/١١٤٨-١١٥٩م، إسم لسلالة محليّة حكمت تونس بين عهد بني زيري وعهد الموحّدين. فخلال الفوضى التي سبّبتها غزوة الهلاليّين، أعلن شيوخ تونس، مجتمعين في مجلس أُطلق عليه اسم «الجماعة»، المدعو عبد الحق بن العزيز بن خراسان، وهو بربري من صنهاجة، شيخًا عليهم. نجح عبد الحق في القضاء على غزوات بني هلال، وبقي إسميًّا خاضعًا للحمّاديّين. وقد خلفه أولاده، ثمّ حفيده أحمد الذي ألغى مجلس الشيوخ وبنى قصر الخراسانيّين وأحاط مدينة تونس بسور منيع. إلّا أنّه اضطرّ للإستسلام إلى الحمّاديّين سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م. وفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، نهض أحد أفراد هذه الأسرة وتسلّم زمام الأمر نحوًا من عشر سنوات، ثم خضع لعبد المؤمن قائد الموحّدين سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م. وما يزال أحد المساجد قائمًا في تونس منذ عهد بني خراسان، ويُعتقد أنّه كان تابعًا لقصرهم الذي زالت معالمه؛ كما يعود أحد الأضرحة الى عهدهم، وكذلك عدد من الكتابات التي تتّصف بخصائصها التزيينيّة.

خربة المَفْجَر، خرائب لقصر ملكي من العصر الأموي، تقع في وادي الأردن قرب أريحا، وتحوي مجموعة من الأبنية غير المُسْتَكملة التي تتّسم بطابع هندسي فخم. إنّ اسمها الحالي يعني «خرائب المياه المتفجّرة».

هذه الخرائب التي تُعرف شعبيًا باسم قصر هشام تخبّئ واحدًا من أهمّ القصور التي بُنيت في سوريا خلال القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، والتي مهّدت، كما في المُشتّى، لقصور العصر العبّاسي. فخصائص هذا القصر التزيينيّة النادرة وأهميّة الرسوم الزخرفيّة ورموزها، تُرجّح أنّه مُلْكًا لأحد أفراد الأسرة الحاكمة. وقد قُدّمت براهين للدلالة على أنّه كان للوليد بن يزيد قبل تسلّمه الخلافة، وقد بناه زمن خلافة عمّه هشام التي امتدّت بين سنتي ١٠٥ و١٢٥هـ/ ٧٢٤ و٧٤٣م. ولم نستطع العثور على معلومات حول هذا البناء الملكي في المصادر العربيّة القديمة التي لم تفدنا كثيرًا عن الأبنية الأمويّة والحياة فيها.

وقد أبدى المؤرّخون، في العصر الحديث، إهتمامًا بما وجدوه بين معالم خربة المفجر من موادّ تساعدهم لمعرفة خصائص من فنّ العصر الأموي وثقافته كانت لاتزال مجهولة. في الواقع، لم تهتمّ أبحاثهم بقضايا الزراعة، على الرغم من كونها من نشاط سكّان ذلك العصر الذين كانت لهم حدائق وزراعات خاصّة مسوَّرة ووسائل للري، لكنّها ركّزت على الأشكال الهندسيّة ذات الفرادة المميّزة: - بناء سكني بمدخل كبير، مع مستودعات وفناء مركزي، قسمه الأعلى مخصّص للسكن، - بناء على شكل مظلّة يعلو حوضًا في الفناء الأمامي، - مسجد وقاعة كبيرة ذات أعمدة، وقببٌ ومجالس ترى منها اليوم قاعة فخمة للإجتماعات، وبقربها حمّام وغرفة للإستقبالات الخاصّة.

أشارت الشروح المتعلّقة بهذا الفنّ إلى مفاهيم تعود إلى مراسم البلاط البيزنطي التي روعيت وطعّمت بتقاليد محليّة، هذا إضافةً إلى اقتباسات من الفنّ الساساني الفارسيّ المتمثّل بزخرفة اللوحات المعربسة وتلبيسات الجصّ التي تزيّن الواجهات والمساحات الداخليّة لمختلف الأبنية. ثمّ إنّ التقنيات التزيينيّة السريعة التي تعتمد على القولبة، والتي استُعملت في تحضير أشكال الكسوة نصف النافئة، وكذلك العناصر المستديرة والمحدَّبة التي استُعين بها لتجسيد أشكال بشريّة وحيوانية، ساعدت على تلبية متطلّبات تزيينيّة هي، في الوقت نفسه، غنيّة ومتحرّرة من التقليد. إنّ التزيينات التي تغطّي القباب والجدران بزخارف حيّة، تتضارب مع أرض البناء المرصوفة بفسيفساء بسيطة مكوَّنة من حجارة طبيعيّة تحمل تشبيكات هندسيّة ذات طابع بيزنطي. إنّ هذه الزينة الجصيّة الغزيرة تعبّر عن التردّد في الأساليب المعتمدة، إذ نجد تعارضًا بين أعمال روعي فيها تحريم الرسوم البشريّة، وأخرى اعتمدت اشكالًا رمزيّة ستتكرّر في الإسلام، وهي كناية عن رسوم تتعلّق بمراحل حياة الملوك. لذلك كثرت التعليقات على رموز العظمة المُدْرجة بين تزيينات قاعة الاستقبال الكبرى، منها التمثال الذي يرمز إلى الخليفة في مدخلها والعَمْرة الملكيّة التي تتصدّر القاعة: إنّها تهدف إلى تمجيد قوّة الملك المعبَّر عنها أيضًا برمز الأسد المفترس، وبالشجرة ذات الثمار الذهبيّة التي تزيّن مكان الصدارة في قاعة الإستقبال الخاصة.

◄ راجع المستند رقم ٩.

خربة المنية ← طبريّة.

خربوت ← هربوت.

الخرطوم (الجمهوريّة السودانيّة)، عاصمة الدولة حاليًا وهي، كمركز إداري متطوّر وكمدينة عامرة، لم تعرف الإزدهار الفعلي إلّا في مرحلة متأخّرة.

تقع الخرطوم على ملتقى النيلين، الأزرق والأبيض، عند أطراف أرض خصبة يرويها النهران ويحاصرانها على شكل جزيرة. ولم تكن، في مطلع القرن التاسع عشر، إلّا قرية بدأ سكانها يتكاثرون مع الإحتلال المصري والنشاط الذي عقبه. وفي كانون الثاني (يناير) من سنة ١٨٨٥، وقعت المدينة بيدي المهدي، وكان المدافع عنها في ذلك الوقت ضابط انكليزي من قبل الخديوي يدعى «غوردون» (Gordon). فانتقل النشاط السياسي إلى أمّ درمان على سافلة ملتقى النهرين. ثمّ عادت الخرطوم إلى سابق ازدهارها بعد الإندحار النهائي لأتباع المهدي، لكن من دون أن يكسف ازدهارها دور أمّ درمان التي باتت مرتبطة بها. وتشكّل الخرطوم اليوم، مع أم درمان التابعة لها ومع مدينة الخرطوم الشمالية الجديدة، مجموعة يُطلق عليها اسم «المدن الثلاث».

الخَرَقاني، أبو الحسن علي بن أحمد (٣٤٩-٤٢٥هـ/

٩٦٠-١٠٣٣م)، صوفيّ إيرانيّ، برز بطلاً في الشعر الصوفيّ الملحمي.

يعود الخرقاني بأصله إلى محلّة خرقان الصغيرة الواقعة شمالي بسطام في إيران. وقد عاش حياة زهد في منسك قريب من الوادي الذي كانت فيه ولادته. فقصده عدد كثير من الناس، بينهم عبدالله الأنصاري الذي اعتبره معلّمه، وكذلك القشيري وابن سينا؛ كما زاره سيّد الشرق في ذلك العصر، محمود الغزنوي. والخرقاني، الذي لم يترك مؤلّفات مكتوبة، له مجموعة أقوال دوّنها أحد تلامذته في جمل مختصرة، وهي تشير إلى خبرة صوفيّة كانت تقوده إلى الفناء، أي إلى الحلوليّة الكليّة في الذات الالهيّة.

الخُرَّميَّة، بدعة دينيّة غير واضحة المعالم، من أصل إيراني وذات ميول معادية للعرب. ظهرت في بداية الإسلام في الأجواء التي برزت فيها مختلف فرق الشيعة المتطرّفة، ويبدو أنّها تتحدّر من الحركة الدينيّة القديمة التي أسّسها مزدك في القرن الخامس للميلاد.

وهذه الطائفة التي تُعرف في الفارسيّة بإسم «خُرَّمدينيّة» المشتقّة من خُرَّمدين، أي «الديانة السعيدة»، خرج منها أحد الدعاة المنتمين إلى الدعوة العبّاسيّة، عُرف باسم «خِداش»، وقد أُعدم لخروجه عن الدين. ويرى بعضهم أنّ هذه الطائفة وقفت إلى جانب أبي مسلم عندما راح يحضّر للثورة العبّاسية في خراسان. وقد أعلن عدد من أتباع الخرّمية أنّ أبا مسلم لم يمت، وسيظهر مجدّدًا، وعندها سيزول ملك العرب. ثمّ انضمّ الخرّميّون إلى «بابك» عندما أعلن ثورته في أذربيجان، خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، مؤكّدًا أنّه تجسيد لأحد الأنبياء القدماء.

حافظ أتباع الخرّمية، بعد ذلك، على وجودهم في القسم الغربي من إيران خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، وربّما في القسم الشرقي منها، وذلك على شكل مجموعات تميّزت بمعتقداتها الخاصة على صعيد الثّنويّة، وتجلّي الأرواح، واستمرار النبوّة وانتظار المهدي.

خريس ← **جِرِز**.

خُزاعة (بنو -)، قبيلة عربيّة قديمة مغمورة الأصل، ينسبها بعضهم إلى مضر وعرب الشمال، ويجعل بعضهم الآخر أبناءها من عرب الجنوب الذين هاجروا من اليمن، كما هاجرت الأزد.

وكانت خزاعة، في العهود الأولى للإسلام، تقيم بين مكّة والمدينة، وكان لها مع قريش علاقات قربى، وقد ساعدتها على بسط سيطرتها على مكّة. إلّا أنّ معظم فروعها ساندت بقوّة، بعد ذلك، النبيّ محمّد (ﷺ) الذي أطلق عليها لقب «مهاجرين». وقد شارك بنو خزاعة في الفتوحات العربيّة، وتوزّع بعضهم في مقاطعات الأمبراطوريّة الإسلاميّة الجديدة.

الخزرج (بنو -)، إسم قبيلة عربيّة سكنت المدينة وأظهرت دعمها للنبي محمد (ﷺ)، وإليها ينتسب عدد من الأشخاص من الأنصار والصحابة. وكانت قبيلتا الخزرج والأوس قد انتقلتا من اليمن لتستقرّا في واحة يثرب قبل ظهور الإسلام. تكرّرت الخصومات بينهما، لذا لم تتردّدا في استقبال النبيّ محمّد (ﷺ) في يثرب لتحتكما إليه. وقد خرج منهما شعراء كثيرون في العصور الأولى للإسلام. وفي أواخر الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة الكبرى، انتقل بعض أبناء الخزرج إلى الأندلس ليستقرّوا فيها، بعدما ضمّها الأمويّون إلى خلافتهم. كما زعم سلاطين الدولة النصريّة في غرناطة لاحقًا أنهم يرجعون في نسبهم إلى الخزرج.

الخزفيّات الإسلاميّة، عبارة تُستعمل للدلالة على مجمل الإنتاج الحرفيّ من الفخّاريّات والخزفيّات الذي تنامى، عبر الزمن، في العالم الإسلامي القروسطي، والذي عرف إنجازات فنيّة مميّزة.

ورغم عدم وجود علاقة مباشرة بين هذه الأعمال، من جهة، والعقيدة والشريعة الإسلامية، من جهة أُخرى - كما هي الحال بالنسبة الى الفنّ المعماري مثلاً - فإنّ الخزفيّات، ولا سيّما بشكل أشمل كل الانتاج الفني الذي تُستخدم النار في تصنيعه، بما في ذلك صناعة الزجاج، تشكّل جميعها جزءًا لا يتجزّأ من الشواهد المادية على فرادة الحضارة والصناعة الحرفيّة الإسلاميّتين. فمن جهة، تعكس هذه الإنجازات، في

مراحل تطورها، بروز نجم السلالات الحاكمة التي توالت على السلطة منذ تأسيس الأمبراطورية الخليفية المنبثقة من الفتوحات الكبرى في القرن الأول للهجرة/ السابع الميلادي. فهذه الأعمال كانت تُنجز إستجابة لطلبات البلاطات الأميرية، كما أنّ زخرفتها كانت تستوحي عادات هذه البلاطات في الترف والبذخ، وكذلك أذواق رعاة الفنون فيها. ومن جهة أخرى، فهي تُبرز - في الدول الإسلاميّة في القرون الوسطى - التأثير العميق للواقع الجغرافي والتاريخي في هذه الانجازات، سواء من ناحية إقامة أفران الفخّار في أماكن اختيرت بسبب مواردها الطبيعية؛ أو من ناحية استمرار هذه المحترفات وازدهارها بفضل طلبات واردة من أماكن بعيدة، تبعًا لتنامي الأنشطة التجاريّة؛ أو من ناحية توافر إمكانات التبادل التقني والأسلوبي بين مناطق تنتمي إلى بلاد واحدة، شهدت تنقلات فنانين وعمّال مرتبطة بتقلّبات العلاقات السياسيّة، واتّجاهات الهجرة الناتجة عن عوامل داخليّة، كما عن غزوات خارجيّة. وبهذا المعنى، تنتمي التحف الزخرفيّة المسمّاة إسلاميّة، ليس إلى المدارس المحلية التي تتميّز ببعض الخصائص وحسب، بل إنّها ترتبط أيضًا بتأثيرات وتفاعلات خاصة بالعالم الإسلامي وصلت اصداؤها أحيانًا إلى أطرافه.

كانت المراحل الكبرى لنموّ هذا الفن الزخرفي على صلة بالانتشار شبه الشامل للتحسينات التي تمّت محليًّا، سواء في ما يتعلّق بالتغييرات التقنيّة في الطينة والأشكال المستعملة، أو في تحوّلات المصطلحات الزخرفيّة وطريقة توزيع الأشكال. وهكذا انتشرت، في العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة، أشكال مستوحاة، في آن، من نماذج خزفيّات العصور القديمة التي عرفها المشرق في سالف الزمن، ومن محاكاة الخزفيّات الصينيّة التي كانت تُستورد بكثافة من الشرق الأقصى عبر الخليج العربي-الفارسي. وقد شهدت عهود أُخرى، بين أطراف متباعدة لأمبراطوريّة كانت تتفكّك شيئًا فشيئًا، إنتشار أنماط وطُرُز قُدّر لها رواج مشابه في أمكنة متنوّعة، نتج عنها إبراز ما يلي: الخزف ذو الزخرف المطبوع أو المحفور، والخزف الملمّع، والخزف المدهون والمحفور على طريقة السّغرافياتو (sgraffiato)، والخزف المطليّ والمزيّن بالرسوم ومجموعة كبيرة من الخزف المزيّن بالرسوم والمطلي بطلاء شفّاف، ولا سيّما بالرّصاص الذي يمنحه تموُّجًا في الألوان أخّاذًا، بسبب تركيب الأُكسيدات المعدنيّة المتداخلة فيه.

وقد راجت، في أواخر القرون الوسطى، بشكل شبه شامل، تغليفات جداريّة مُلوّنة من فخار وعناصر أخرى من الطين، مكسوّة بطلاء خزفي؛ أو اعتُمد فيها استعمال فسيفساء الخزف الصيني ومربّعات موضوعة جنبًا إلى جنب. وقد تكون الحظوة المتزايدة التي عرفتها هذه التركيبات الفنيّة الخزفيّة - التي كانت ترتبط بالفن المعماري رغم بقائها تابعة له، والتي كانت تمنحه ألقًا متعدّد اللون لا مثيل له - أحد الأسباب الرئيسة للنجاح الباهر الذي حقّقه حرفيّو الخزفيّات من المسلمين. كما أنّه لا يجب إغفال الدور الذي نهض به هؤلاء الحرفيّون أنفسهم في نقل بعض الأساليب التي ملكوا ناصيتها إلى الغرب المسيحي، والتي كانت في أساس نشأة بعض الصناعات في أوروبا.

مهما يكن من أمر، لا بدّ لهذه النظريّات المقدّمة من أن تستند إلى دراسات أثريّة تمهيديّة. إلّا أنّ هذه الدراسات ما تزال غير كافية نظرًا إلى اتّساع المجال الذي ينبغي من خلاله المباشرة بتحاليل منهجيّة للمكتشفات، والقيام بحفريات تسمح وحدها بتصنيف صحيح لبقايا كسرات الخزف، على قاعدة الانتماء الجغرافي والزمني لهذه البقايا، واستنادًا إلى التقنيّات والأشكال والأنواع التزينيّة، وهي أنواع وفيّة بمجملها لتقاليد الزخرفة الإسلاميّة.

الخصيان، شكّل الخصيان طبقة إجتماعية قائمة بذاتها، في العالم الإسلامي القروسطي، لصلتها بما أحرزته ظاهرة الرّق، واضطلعت بدور بارز، في أحيان كثيرة، في أوساط السلطة.

حاز الخصيان، في نطاق الملاك الوظيفي في القصور وفي التنظيم العسكري في كلّ الدول الاسلامية، أيًّا كانت أهميّتها، مكانة بارزة لم تتناقص أبداً قبل تحوّلات القرن التاسع عشر. لكن من الصعب

تقدير أعدادهم ؛ إذ لا تتوافر لدينا إحصاءات لهم في العهود القديمة ، كما أنّ المصطلحات المتعلّقة بهم لا تيسّر دائماً التمييز بين الرقيق ، بشكل عام ، ورقيق الخصيان . فقلّما استُعمل المصطلح العربيّ ذو الدلالة الدقيقة ، وهو خَصيّ ، في حين كان يشار إليه بمصطلح غير مميّز هو خادم ، كما استُعمل في الفارسيّة والتركيّة المصطلح التشريفيّ «آغا» . إنّ النصوص المكتوبة لا تساعد على التمييز بين فئتين من الخصيان شهدت بوجودهما بعض المؤلّفات ، أي الخصيان الذين استؤصلت فقط خصيتاهم ، والخصيان الذين أستؤصلت كل أعضائهم التناسليّة .

مهما يكن من أمر ، كان كثيرون من الخصيان يُنقلون مع الرقيق المجلوب أو المشترى من مناطق مختلفة : بعضهم كان يُستقدم من أوروبا الوسطى ، وهؤلاء هم الصقالبة أو «الإسكلافون» الذين تجدهم في الأندلس ، وكذلك في إفريقية وصقلّية وصولاً إلى العراق ؛ وبعضهم الآخر كان يُؤتى به من أفريقيا السوداء والحبشة ، وآخرون كذلك من بخارى وسمرقند . وقد استفاض المؤلّفون المعروفون قديماً في ذكر صفات كل فئة منهم . لكنّ المؤكّد أنّهم جميعاً كانوا يغذّون تجارة ناشطة جدًّا لعهود مديدة ، يسيطر عليها تجّار متخصّصون ، من البداية إلى النهاية ، فكانوا يقومون بخصاء بعضهم ، أو يبتاعونهم وهم في هذه الحال من العائلات الفقيرة من سكّان البلدان غير الإسلاميّة المجاورة لحدودهم .

كان الطلب على الخصيان يعود بوجه خاص إلى تأمين خدمة المقتدرين الذين كانوا يتوخّون منهم الوفاء ، بسبب انعدام أية رابطة عائليّة لديهم ، لا من جهة الأهل ولا من ناحيّة الذرّيّة . كما أنّهم ، بحسب تقليد شرقيّ قديم ساد كذلك في بيزنطية ، كانوا يُستخدمون ، بوجه خاص ، في الجيش ، في جميع العصور ، لكنّنا نجهل نسبتهم العدديّة في كل القطاعات . وكثيراً ما ارتقوا إلى رتبة ضابط وأحياناً إلى رتبة قائد . وقد حاز بعضهم شهرة بصفتهم قوّاداً للخلفاء العبّاسيين ، فكانوا يتدخّلون أيضًا في مؤامرات البلاط ومؤامرات عاصمة الخلافة ، على غرار مؤنس في عهد المقتدر . إلّا أنّ آخرين عرفوا كيف ينتقلون من وضع الحكّام وقادة الحروب إلى اقتطاع إمارات لهم متفاوتة من حيث الاستقلال ، كمثل ما قام به سيّد مصر كافور ، إذ إنّه ، بعد خدمته في دولة الإخشيديّين ، استأثر بالسلطة القصوى في آخر حياته .

إلى جانب المسؤوليّات السياسيّة ، كان الخصيان يُستخدمون كذلك في المساكن الخاصة بالوجهاء وفي المنازل الأميريّة لمراقبة نساء الحريم . إلّا أنّ هذه المهمّة كانت ثانويّة ، لأنّ مهمّتهم الأساسيّة كانت تشمل إدارة المنزل بوجه عام وتنظيم عمل الخدم . ففي قصور اسطنبول مثلاً ، خلال عهود العثمانيّين ، نجد خصياناً بيض الأجسام بقيادة «آغا الباب العالي» ، منافسين للخصيان السود بقيادة «آغا البنات» ، وذلك لمراقبة الخدم . كانوا يُعتَبرون من أصحاب الرتب العالية في الدولة ، وهؤلاء جميعاً ساهموا ، بقدر بارز ، في حياة السلطنة بالنفوذ الذي كانوا يمارسونه على بطانة السلطان ، في جميع وجوه رسوم البلاط ، وعلى السلطان نفسه في حياته اليوميّة الخاصة .

الخضر أو الخَضِير ، إسم لشخص شعبيّ مكرّم في الوسط الإسلامي ، تطابق شخصيته عادة شخصيّة «خادم الله» المرافق للنبي موسى في إحدى الروايات التي يوردها القرآن الكريم . والخضر يُعتبر نبيًّا حينًا ، وحينًا آخر وليًّا ممثّلًا لله في البرّ والبحر ، ولا يدركه الموت بحسب بعضهم . ويحيط باسمه الذي يعني «الأخضر» الكثير من الغموض . ويكتنف الغموض أيضًا مصادر الأخبار التي حيكت حول شخصيّته التي تحيط بها الألغاز . يرى بعض المفسّرين أنّه هو «الفتى» الوارد ذكره في الآيات ٦١ - ٨٣ من سورة الكهف . بينما يرى آخرون أنّ الخضر هو النبيّ إيليا كما تجسّده الرواية التلموديّة ، وكما كان يتمثّله اليهود في القرون الوسطى . كما أنّ آراء حديثة تحاول أن تُقرّب بينه وبين صورة الإسكندر الأسطوريّة ، وحتّى بينه وبين ملحمة جلجامش .

في زمن ازدهار تكريم الأولياء في الوسط الإسلامي ، انتشرت مزارات صغيرة على اسم الخضر وقصدها الناس في زيارات تقويّة . ولا تزال اليوم في الشرق مشاهد وقُبب قائمة على اسمه ، بخاصة قرب الينابيع والآبار . هناك خلط ، في بعض الحالات ، بين

الخضر ومار جرجس. والواقع أنّ المزارات المكرّسة له هي أماكن نُفى محدودة الشهرة. وفي القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، لم ينسب دليل الهروي إلى الخضير أماكن زيارات مشهورة، بل اكتفى بذكر بعضها بإيجاز في مصر وبلاد ما بين النهرين العليا. وتجدر الملاحظة إلى أنّ المتصوّفين غالبًا ما أظهروا اهتمامًا بشخصيّة الخضر، واعتبره بعضهم مرشدًا لهم على دروب الزهد.

الخطّ الإسلامي، وسيلة اتّصال استُخدمت منذ تدوين القرآن حتّى عصرنا الحاضر، وقد أدّت وظائف ثلاثاً: دينيّة ونفعيّة وزخرفيّة.

١) كانت رموز الخطّ السامي، وهو نموذج يعتمد على الصوامت من الحروف الهجائيّة وعلى الأصوات الكلاميّة، تدوَّن منذ البدء من اليمين إلى اليسار؛ وقد كان هذا الخطّ، وهو ما استعمله العرب في زمن النبي محمّد (ﷺ) استعمالاً شحيحاً، ينطوي على إمكان الوصل بين الكلمات، مع التشديد على أهميّة خطّ أساسي، توضع عليه الأحرف. إضافةً إلى الأحرف الصامتة، دُونت أحرف العلّة الثلاثة الطويلة الموجودة في اللّغة العربيّة الكلاسيكيّة، ثمّ استُكملت في ما بعد بتحديد الحركات القصيرة وهي حركات ظهرت أولاً على شكل نقاط ملوّنة في النسخات القديمة للقرآن. وقد فرض الإلتباس الحاصل جراء تصوير أحرف مختلفة بالرسم نفسه، إستعمال علامات مختلفة إضافيّة، فكانت النقاط التي توضع فوق بعض الحروف أو تحتها والتي أصبحت لا غنى عنها في الكتابة اليوميّة، لكنّها لم تُعتمد في الكتابة الزخرفيّة.

وقد خضعت حروف الخطّ العربي مع العصور لتحوّلات عدّة، زاوجت زمنياً بين الإتقان في التخطيط والاستمرار في تلبية حاجات مجتمع ينطق باللغة العربيّة وتستعمل خطّها طبقات واسعة من رجال الدين والعلم والعلماء والتجّار. وقد ازداد استعمال الخطّ العربي بموازاة ازدياد التعريب الثقافي والإداري الذي ازدهر بعد فتوحات القرنين الأوّلين للهجرة/السابع والثامن للميلاد. فقد استُخدمت الأحرف العربيّة لاحقاً لتسجيل اللغات غير العربيّة التي بقيت مستعملة، أو التي أعيد إحياؤها أو التي أدخلت عبْر مجموعات عرقيّة جديدة في الولايات المختلفة لهذه الأمبراطوريّة الدائمة التحوّل، أو في الولايات المتاخمة التي بلغها الإسلام شيئاً فشيئاً. هكذا توجّب على الخطّ العربي، بحكم كونه الخطّ الرسمي للأمبراطوريّة والخطّ الذي يرمز إلى الإسلام، أن يدوّن كل الأصوات للّهجات غير العربيّة على الرغم من النواقص في الأشكال الخطيّة التي لا تلبّي حاجات اللغات غير الساميّة ولا تعبّر عن أصواتها منها: اللغات الإيرانيّة، كالفارسيّة واليشْتويّة، واللّغات التركيّة كالعثمانيّة والجغتائيّة، واللّغات الهنديّة كالأورديّة، واللّغات الرومانيّة والسلافيّة والماليزيّة وأخيراً اللّغات الأفريقيّة مثل السواحيليّة والهاوسيّة والفُلبيّة. كما دخلت، عبر هذه النجاحات المحليّة تأثيرات ساعدت على خلق أساليب خاصة وفريدة يمكن أن نجدها في نقوش المعابد والنصب أو على المصنوعات الحرفيّة أو المخطوطات الخاصة بمنطقة ما. نعرف مثلاً فرادة الأساليب الخطيّة المنفّذة على ألواح اللّبن والمزيّنة بجدائل وحواشي زهريّة وهندسيّة التي تميّزت بها الولايات الإيرانيّة الشرقيّة في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، أو الأناقة النادرة التي تتحلّى بها نماذج الخطّ الفارسي والتي عرفت ازدهاراً خاصًا في عهد الصَّفويّين. وهكذا توجّب انتظار القرن العشرين حيث قامت حركات تغيير عديدة بالتخفيف نوعاً ما من سعة انتشار الخطّ العربي الذي تطابق نفوذه، حتى هذا التاريخ، تطابقاً تامّاً مع حركة توسّع الحضارة الإسلاميّة. فكانت مثلاً إصلاحات كمال أتاتورك الذي فرض على الجمهوريّة التركيّة استعمال الأحرف الهجائيّة اللاتينيّة؛ وكانت أيضاً الإصلاحات التي فرضت على جمهوريّات آسيا الداخليّة، والتي كانت في ذلك الوقت سوفياتيّة، استعمال الأحرف السيريليّة؛ كما كانت الطرق التي اعتمدت التدوين الصوتي للّهجات الماليزيّة، المَدَغشْقريّة أو الأفريقيّة مثلاً.

لكنّ هذه الجهود ذات الطابع العلماني لم تمنع استمرار بعض العادات التقليديّة في البلدان المعنيّة، كما أنّها لم تلغِ الميل العام الذي تجسّد في استعمال النماذج

الخطيّة الدينيّة والزخرفيّة على أرضيّات متنوّعة. هكذا استمرّت هذه النماذج النسخيّة في تأدية دور من أطرف الأدوار التي لعبتها الكتابة عند مسلمي القرون الوسطى.

٢) لقد التقت في القرون الوسطى عوامل عديدة ومتوازية فأفردت مكانة إستثنائيّة للخط العربي، فكانت من جهة الحاجة العلمية، ومن جهة أخرى احترام «النصوص المخطوطة» التي أعيد نسخها بلا كلل، وأحياناً بتنميق وتزيين. بالنسبة الى النقطة الأولى، نحن نعرف أهمية الكتابة في الأعمال التجاريّة والمؤسّسات القضائيّة والإدارات. والدليل على ذلك أنّ هذه المؤسسات خلّفت وراءها أعدادًا ضخمة من الوثائق والمخطوطات، حيث نجد العقود الخاصة إلى جانب القرارات المهمّة والملفّات الرسميّة التي هي حاليًا في عهدة علماء المستندات القديمة للإسلاميّة. كما أنّ استعمالها كان مهمًّا بالنسبة الى انتقال العلوم الدينيّة والدنيويّة، وفق طرق تعليم تعتمد على الكتابة كما الوسائل الشفويّة، تأميناً لتخرّج علماء من كل الفئات. كان لهؤلاء مكانة خاصة في إسلام القرون الوسطى، سواء على صعيد الحياة الدينيّة أو القضائيّة أو الفكريّة. وقد تولّى العلماء أنفسهم الاستملاء والتأليف والشرح والنسخ لإخراج نسخ من المخطوطات التي شكّلت ميراثاً ضخماً، وحُفظت في مكاتب المدن والقصور، بخاصة بعد أن أمنت صناعة الورق، إبتداءً من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، كميّات كبيرة منه، ذات نوعية متينة وأسعار مقبولة.

أدّت كل هذه المعطيات التاريخيّة إلى تحسين مستمرّ في سرعة التنفيذ وسهولة القراءة، كما أثمرت طرازاً من الكتابة المكوّرة والسريعة والسهلة عُرفت بـ«خط النسّاخ». وقد طبع هذا الخط «فنون الكتّاب» بعد أن كان قد ازدهر في كل العالم الإسلامي. لكنّ هذه التجارب الجديدة لإتقان الخطوط - التي قام بها بعض الأساتذة المعروفين - ظلّت متأثرة بالتقنيّات التي تدرّج عليها هؤلاء سابقاً، وبالمهارة اليدوية الخاصة بكل منهم في الإمساك بالقلم، أي بريشة من قصب ذات أسنان غير متساوية، وقد شكّلت براعة إعدادها شرطًا أساسيًّا لإنجاح عمليّة الكتابة. لقد خضعت هذه العمليّة أيضًا إلى صرامة وسطٍ مغلق يسيطر عليه اختصاصيّون ينفرون من كلّ تجديد في هذا المجال، ويعتبرون أن التلاعب بالقراءة النحويّة لبعض الجمل، إنطلاقًا من الغموض في شكلها الخطيّ، هو علامة تفوّق، وكذلك التلاعب بأسلوب اختزال الأرقام الخاص بادارات الدوائر الماليّة.

غير أنّه، من منظور آخر، ظهر الميل إلى اعتبار الخطّ العربي وسيلة للتعبير الفني استعملها الحرفيّون والمزخرفون، ولا سيّما الرّسامون والنحاتون، وذلك منذ زمن قديم. فعرفت أعمالهم نجاحاً مدهشاً وشكّلت إبداعاتهم الأمثلة النموذجية لتحريم التجسيم ولإرادة التجرّد الحاضرة في صلب الفن الإسلامي، كما شكّلت متمّمات للتشابكات الهندسيّة وللعربسة التي هي في أساس فنّ الزخرف الإسلامي. وقد عكست هذه التراكيب كذلك مواهب المعلّمين الخطّاطين الذين توجّب عليهم تسليم نماذج إلى النقّاشين والفسيفسائيّين واختصاصيّي الحفر في الخشب والمعدن ومبدعي التحف الزجاجيّة وأعمال السيراميك، حيث كان كل منهم ينقلها مراعياً بذلك قواعد مهنته وإمكانيّاتها. من هنا نشأ التشابه، وفقاً للعصور والأمكنة، بين عناوين الصفحات وفاتحاتها المكتوبة وبعض النقوش الدقيقة على المباني. لم تعُد نوعيّة القاعدة المعدّة للكتابة هي المهمّة، بل غدا حرف الكتابة الثمين هو المحور، يُثير الاعجاب لقدرته على جعل مساحة معيّنة، أيًا كانت، تستوعب المضمون المخطوط، وكذلك لقدرته على أن يخفي، طيَّ تعقيدات رسومه وتزييناته المرتجلة، المعنى الظاهر والباطن الذي كان يشكّل وسيلة التعبير عنه.

٣) هكذا عرف الخطّ العربي تطوّراً فريداً، وَسَمَتْه بطابعها الظروف الخاصة التي خضع لها المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى. ومن الأسف أنّه لم يُخصّ بدراسات وتحليلات تفيه حقّه. على أنّنا نستطيع أن نذكر هنا بعض خصائص تطوّر الخطّ القديم، الذي كان متجانساً، إنّما بقي ناقصاً وغير منتظم رغم اصلاحات الخليفة عبد الملك في بداية العصر الأموي التي أسفرت فقط عن جعل رسومه هندسيّة الشكل؛ كما أنّنا نستطيع التركيز على الاتّجاهين اللذين تطوّر وفقهما هذا الخطّ منذ العصر العبّاسي. فقد أسفر الاتّجاه الأوّل

الذي كان يقضي برسم الأشكال بدقة وبطريقة صارمة ومُزوّاة، عن خط بطيء التنفيذ، صعب القراءة، خُصّص للنسخ الثمينة من القرآن، كما دُوّنت به نصوص دينيّة متفرّقة، وكذلك استعمل لتزيين المباني وأطلق عليه اسم «الكوفي». ويكون أحياناً بسيطاً وأحياناً مزخرفاً بشتّى الوسائل، ومن سماته: اتّساع جسم الحروف، استعمال الأوراق والأزهار في نهاية الكلمات بحيث تؤلّف أحياناً عريشةً حقيقيّة، إنفتال الأحرف في ضفائر ترسم تشابيك هندسيّة بوسعها أن تمتدّ إلى خارج حدود مساحة الكتابة، تزيين خلفيّة الصفحة أو اللوحة بزينة صغيرة، قوامها نقاط ملوّنة بالريشة أو ثقوب في الحجر أو في الجص، وسط شبكة من الأشرطة المتداخلة وبخاصة التمنمات الزهرية بأغصانها الملتفّة التي تعمل على تغطية أصغر المساحات. أمّا الاتّجاه الثاني الذي اتّبعه بشكل مكثّف الكتّاب، فهو يتميّز بخطوط مَرِنة ومكوَّرة، تمتّعَ بعد بضعة قرون بشهرة كافية سمحت له بتأدية دور تزييني ضاهى به دور الخط الكوفي، وأنجب الخط الأكثر استعمالاً الذي استمرّ حتّى أيّامنا. وقد ظهر هذا الخط السريع منذ المحاولات الأولى في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد على ورق البرديّ، رغم أنّ المخطوطات بقيت، حتّى القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، تحمل عناوين بالخط الكوفي، كما راج هذا الخط وازدهر مع تألّق بعض الكتبة الأدباء الذين لمعوا في تاريخ العرب، كابن البوّاب، وابن مُقلة، وياقوت المستعصمي الذين استعملوه للتدوين بنجاح كبير، واحتلّ مكانة الشرف بحلوله مكان الخط الكوفي المستعمل على الأبنية والمعابد، وباستعارته للزخرفات والمنمنمات التجميليّة. وهكذا ولدت التشكيلات الخطيّة الأكثر انتشاراً في العالم الإسلامي، في أواخر القرون الوسطى والعصر الحديث، متفوّقةً على إنجازات الخط الكوفي الذي أصبح يُعتبر، في البلدان الإسلاميّة المعاصرة، خطًّا قديمًا وصعبًا على القراءة.

الخط الشريف ← عبد المجيد الأوّل، التنظيمات.

الخط الهمايوني ← عبد المجيد الأوّل، التنظيمات.

الخُطبة، عظة ذات طابع سياسي وديني، عُرفت منذ عهد النبي محمد (ﷺ)، وهي تسبق صلاة الجمعة التي تقام ظهرًا أو تلي صلاة العيدين الكبيرين. وعلى المكلّف بإلقاء الخطبة - وغالبًا ما يكون الإمام الذي يترأس الصلاة - أن يلقي في المناسبة خطبتين متتاليتين، فيتسلّق درجات المنبر الأولى ويضربها بعصاه أو بسيفه، دلالةً على وظيفته وعلى سلطته، ويبقى واقفًا. ومنذ بدايات الإسلام، كانت الخطبة تتضمّن عناصر متنوّعة، منها الأوامر والتحذير وحتّى اللّعنات. تندرج هذه العناصر بشكل تقليديّ في الخطبة، وقد اتّخذ بعضها طابع الأهميّة التاريخيّة عبر العصور، كالدعاء للمسلمين، وفي الماضي استمطار النعم على الخليفة. وكان الدعاء للخليفة يعني إظهار التبعيّة والخضوع له من قبل كلّ مَن يمثّله ويحكم باسمه. واغفال الدعاء أو إسقاطه من الخطبة يعني التمرّد الذي يستتبع إنزال العقوبة التي يحدّدها الشرع.

وقد شكّلت الخطبة إحدى الصلاحيّات الأساسيّة للّذين تعاقبوا على رأس الدولة الإسلاميّة في مراحلها الأولى، باعتبارهم خلفاء النبيّ (ﷺ). وكان الخليفة نفسه يلقي الخطبة في المسجد الجامع، في عاصمته. كما كُلّف بها الولاة لاحقًا في المقاطعات، وكذلك الأُسر الحاكمة باسم الخليفة في «دار الإسلام». وبمقتضى العادة المتوارثة، فإنّ الخطبة التي تُلقى في أثناء الصلاة ما تزال اليوم، كما في القرون الأولى للإسلام، تعمد إلى اطلاق نداءات وتوجيهات إلى المسلمين لا علاقة لها بالعظات الدينيّة، ولكنّها تبقى أمينة للتعاليم الإجتماعيّة والسياسيّة التي ركّز عليها النبيّ محمّد (ﷺ) منذ بدايات حياته في المدينة، كما كانت ترسّخ فكرة الجهاد لدى المسلمين وتقوّي وحدتهم.

وفي العهود الأولى للإسلام كانت الخطب تُلقى في المساجد الجوامع، خارج أوقات الصلاة، وتتناول قضايا تفرضها الأحوال والأحداث القائمة، ومنها الدعوة إلى قمع ثورة، كخطبة الولاية التي ألقاها الحجّاج في الكوفة، وكخطبة البيعة التي ألقاها يزيد بن الوليد، أو تلك التي ألقاها السفّاح الخليفة العبّاسي الأوّل. ثم أخذ هذا النوع من الخطب يتناقص إلى أن زال كليًّا. ومع

تكاثر أماكن الصلاة في المدن، وعدم اكتراث بعض الحكّام بواجباتهم الدينيّة، أصبحت الخطبة في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، في أكثر المساجد، من مهمات رجال الدين، وبنوع خاص من مهمات الفقهاء الذين كانوا يُعيّنون في هذا المنصب معتبرين إيّاه منصبًا تشريفيًّا. وفي هذه الأحوال كانت مهمّة الخطيب تختلف عن مهمّة الواعظ التي تركّز على التوجيه الديني والخلقي والتي هي قريبة من تأنيبات المتصوّفة. وكانت المواعظ تلقى في المسجد الجامع، لكنّها لم تكن كالخطبة منتظمة وضروريّة.

خطيئة، مفهوم يكتنفه بعض الغموض في الإسلام، يمكن تحديده فقط بمعصية الأحكام الإلهيّة، وقد شكّل، ثانيًا، موضوع نقاشات عقائديّة بين مختلف المذاهب الكلاميّة. إنّ الكبيرة (الخطيئة الكبرى) التي لا تُغتفر، بحسب القرآن الكريم، هي عدم الاعتراف بالله وبوحدانيّته أي الشِّرْك. أمّا الخطايا الأخرى فيمكن غفرانها، حتى لو أنزلت بمرتكبها غضب الله وعقابه. كذلك يجب التمييز، بحسب القرآن، بين الأخطاء الصغيرة التي لا تضرّ بالإيمان، والأخطاء الجسيمة التي يغفرها الله أو يعاقب عليها، بحسب إرادته.

أثارت قضية العلاقات بين الخطيئة والإيمان تأويلات عديدة عند علماء الكلام الذين جهدوا في تحديد طبيعة الخطايا الجسيمة أو الكبائر التي يتكلّم عنها القرآن نفسه. وقد تنوّعت أعداد هذه الخطايا بحيث أنّ بعض المؤلّفين أورد قولًا لابن عبّاس جاء فيه أنّ ما من خطيئة جسيمة إذا التمس صاحبها الغفران، وما من خطيئة عرضيّة إذا استمرّ مرتكبها فيها. ينتج عن ذلك أنّ الاستمرار في الخطيئة هو الذي يجعلها جسيمة وليس طبيعتها. ومهما يكن، فإن «الخطايا الجسيمة» أو «الكبائر» هي: الكفر والشِّرْك والتجديف على نبي الإسلام (ﷺ) والقتل والربا والسحر وشرب الخمرة والسرقة والهرب في المعركة وعدم احترام القَسَم المعلن وشهادة الزور. لكنّ عدد الكبائر يزداد بحسب المؤلّفين من سبع إلى سبعين، ما يدلّ على تردّد الفكر الفقهي في هذا المجال.

الموصى به أن يتوب الإنسان ويطلب الغفران فيؤمّن بذلك مغفرة خطيئته، وفي إمكان صلوات المسلمين لموتاهم أن تُفضي أيضًا إلى هذه النتيجة، وقد جاء في الحديث بهذا الخصوص أنّه عندما تقوم جماعة من المسلمين، من ثلاثة صفوف، بتأدية الصلاة من أجل مسلم ويصلّون جميعهم من أجل مغفرة خطاياه، فإنّ صلاتهم لا شك مقبولة. أخيرًا إنّ شفاعة النبيّ محمد (ﷺ) بعد القيامة يمكن أن تشمل خطايا لم تُغفر بعد.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الشافعي (٣٩٢-٤٦٣هـ/١٠٠٢-١٠٧١م)، محدّث وفقيه وخطيب، عُرف في أواخر العصر العبّاسي، وصاحب معجم عرض فيه سير مشاهير الرجال الذين سكنوا بغداد.

ولد الخطيب في بغداد بالعراق، وانصرف إلى تحصيل العلوم الدينيّة التي من أجلها كرّس نشاطه باكرًا، فسافر إلى إيران بحثًا عن الأحاديث الشريفة. ورجع إلى بغداد، سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م، حيث ألقى الخطب التي نالت الإستحسان، وغدا عالمًا مرجعًا في السنّة وفي التقليد. وقد كانت قناعاته الشافعيّة الأشعريّة سبب نقمة الحنابلة عليه، لكنّ الخليفة القائم أمّن له الحماية وسمح له بالتدريس في مسجد المنصور الجامع في بغداد. وفي سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م، حملته ثورة البساسيري على ترك بغداد واللجوء إلى دمشق حيث أمضى ثماني سنوات، ثمّ قبض عليه حاكم المدينة من قبل الفاطميّين، لكنّه استطاع الفرار والعودة إلى بغداد حيث بقي حتّى وفاته.

أمّا معجمه الذي يحمل عنوان «تاريخ بغداد»، فيهمّ المتخصّصين في علم الحديث أكثر من سواهم، وفيه يلقي الضوء على النقلة المحدّثين القدماء ويقدّم المعطيات المساعدة على التحقّق من صحّة الأحاديث الشريفة وتسلسلها، كما يحوي الكتاب جملة معلومات ذات طابع تاريخي. وللخطيب البغدادي أعمال أخرى تعالج قضايا متنوّعة لها علاقة بعلم التقليد، فضلًا عن الكتابات الأدبيّة.

الخلافة، مؤسّسة يختص بها الإسلام، نشأت في صلب

الجماعة الإسلاميّة الأولى لتنظيم ممارسة السلطة العليا بعد وفاة النبي محمد (ﷺ). وصارت الخلافة بعد ذلك - وصولًا الى تغيّرات الفترة المعاصرة - إحدى الركائز الأساسيّة في ممارسة السلطة ونظريّة الحكم في العالم الإسلامي.

استُعمل تعبير «الخليفة» في الأصل للدلالة على أبي بكر بعد انتخابه «أول خليفة لرسول الله». ومع عمر ابن الخطاب، ثاني الخلفاء، صار اللقب الرسمي للخليفة هو «أمير المؤمنين»، وهو لقب يظهر بشكل خاص في النقوش مع بداية الحقبة الأمويّة. والخليفة، بصفته رئيسًا للجماعة، كان يُنعت أيضًا بـ«المرشد أو الإمام»، وهي تسمية لاقت استحسانًا خاصًا عند الشيعة بسبب مضمونها الديني وأطلقت، في الوقت نفسه، على الخلفاء الشيعة، وكذلك على القائلين بحقّهم في الخلافة من العلويّين، وإن لم تتحقّق لهم.

١ - جرى، في وقت مبكر، تحديد الشروط المطلوبة لتقلّد مركز الخليفة وكيفية انتقاله، وكذلك طبيعة السلطات التي يمارسها صاحب هذا المركز. وكانت هذه الموضوعات مثار جدال بين أعضاء الجماعة الإسلاميّة في المدينة، كما أنها أثارت، في ما بعد، اهتمام علماء الكلام والفقهاء الذين احتلّت آراؤهم مكانها في الجدل منذ الحقبة الأولى للإسلام، وظلّ تأثيرها يطبع القرون اللاّحقة.

وقد جعل غياب النبيّ محمّد (ﷺ) - الذي لم يترك ولدًا ذكرًا ولم يتحسّب لكيفية قيادة المؤمنين بعد وفاته - هؤلاء في حيرة. فالخلفاء الأوائل - أبو بكر وعمر اللذان مرّ ذكرهما، وكذلك عثمان بن عفّان - الذين توالوا على قيادة المسلمين، اختيروا وفق أصول مختلفة، بالنظر إلى الخدمات التي قدّموها لقضية الإسلام، وبشكل خاص لكونهم من قبيلة قريش التي ينتمي إليها النبي محمّد (ﷺ). والقاعدة الوحيدة التي استُخلصت في ذلك الوقت من الجدالات المشحونة حول الموضوع هي أن يكون الإمام قُرشيًا.

ثمّ أخرج اغتيال عثمان، في سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م، إلى العلن الخصومات بين جماعتين من قريش تدّعيان الحقّ في الخلافة: العلويّون المتحدّرون من علي وفاطمة ابنة النبي محمد (ﷺ)؛ والامويّون الذين ينتمي اليهم عثمان تحديدًا. وبعد الولاية القصيرة للخليفة علي، انتقلت الخلافة إلى العائلة الأمويّة سنة ٤١هـ/ ٦٦١م. وهكذا بات معاوية مؤسّس أوّل سلالة خلفاء في الإسلام، وكان مجال تباهي أعضائها الوحيد هو كونهم «المتقدّمين في قبيلة قريش». وبعد نحو قرن على ذلك، في سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، اضطرّ الأمويّون للتخلّي عن السلطة لمصلحة العبّاسيّين المتحدّرين من أحد أعمام النبي محمد (ﷺ) والمنتمين إلى الهاشميّين الذين هم من عشيرة النبي نفسها، لكنّهم يتميّزون عن العلويّين. ويُرجّح، منذ ذلك الحين، الارتباط بآل النبي محمّد (ﷺ) على أنه عنصر أهليّة للخلافة. لكنّ العلويّين، وهم الوحيدون الذين يتوافر فيهم، بالمعنى الضيق للكلمة، عنصر الأهليّة هذا، لم يتمكّنوا، مع ذلك، من الحصول على السلطة إلّا في مرحلة متأخّرة مع السلالة الفاطميّة.

نتج عن هذا الواقع تثبيت نظريّتين أساسيّتين حول الإمامة، تحدّدان الحقّ الشرعي في السلطة العليا: إحداهما وضعها ودافع عنها السنّة، والأخرى وضعها ودافع عنها الشيعة. وبموازاة هاتين النظريّتين، تميّز موقف الخوارج المؤيّدين لمبدإ «الخليفة المنتخب» الذي عُمل به في مناطق محدودة وفي فترات محدودة.

بالنسبة الى السنّة، الذين طغت مفاهيمهم بشكل واسع على العالم الإسلامي في القرون الوسطى، كان ينبغي للخليفة أن ينال رضى الجماعة الإسلاميّة، أو على الأقل موافقة الأفراد الأكثر تمثيلًا فيها. فلا يمكن لخليفة أن يمارس سلطته ما لم يحصل على يمين البيْعة التي تؤدّيها الشخصيّات المحيطة به، كما يؤدّيها سكّان العاصمة وسكّان المدن الريفية. ويعتبر الفقهاء هذا الرضى قاعدة لسيادته. وبحسب هؤلاء الفقهاء أنفسهم، ينبغي أن يكون الخليفة أيضًا من قبيلة قريش، وهي خاصة تميّز بها كل الخلفاء الذين حكموا حتى القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وهي الفترة التي يعود إليها تدوين أقدم المؤلّفات المعروفة في الفقه. فالخلفاء الأربعة الراشدون الأوائل، والخلفاء الأمويون في الشرق، وكذلك أمويّو قرطبة الذين ادّعوا

أيضًا الخلافة، والخلفاء العبّاسيّون، كانوا جميعًا من أصول قرشيّة، وهو شرط ظلّ مطلوبًا حتّى نهاية الخلافة العبّاسيّة في العام ١٥١٦م. في المقابل، لم تكن الأعراف المعمول بها في الخلافة العبّاسيّة ولا أسس الشرعيّة فيها تستند إلى أيّ مسوّغ نظري؛ لأنّها كانت تتناقض إلى حد ما مع مبدأ «الاختيار» الذي يتطلّب اعتراف الجماعة بالإمام والذي يعبّر عنه في قسم الولاء. وهذا الاختيار من صلب قبيلة قريش وهو واحد من أحكام الخلافة التي كان يطالب بها، في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فقيه كالماوردي، رغم أنّ احتفال البيعة منذ ذلك الحين كان يجري تحديدًا لتثبيت اختيار يقوم به، في أكثر الأحيان، السلف بعد أن يحصل على موافقة الشخصيّات النافذة في البلاط، ومثل هذا الاختيار كان السبيل الوحيد، في المحيط السنيّ، لضمان استمراريّة السلطة داخل عائلة محدّدة.

وعلى العكس من ذلك كان الأمر عند الشيعة. فجوهر السيادة عندهم يرتكز إلى اختيار النبيّ صهره عليًا لممارسة السلطة من بعده، وهذا الحدث جرى، بحسب التقاليد الشيعية، قرب غدير خُمّ. أمّا استمرار الشرعيّة فتمّ بعد ذلك عبر نقل السلطة الذي كان يقوم به كل من الأئمّة المتوالين إلى خلف يجري اختياره ويتمّ تنصيبه بموجب الوصيّة أو «النص». وكان انتماء الخلف إلى نسب علي شرطًا ضروريًا للاختيار، إضافة إلى تمتّعه بالصفات التنظيميّة المطلوبة من الأئمّة الشيعة. ويمين الولاء التي تقسمها الجماعة في هذه الحالة ليست إلّا يمين خضوع لا تواكب أي مشاركة في اختيار الشخص المعيّن، وهذا ما يدلّ عليه مثلًا نظام الاختيار الذي كان معمولًا به في السلالة الفاطميّة.

وهكذا يظهر أنّ قضيّة انتقال السلطة الخليفيّة كانت المشكلة الأساس في المجتمع الإسلامي في عصوره الأولى. وهذه المشكلة أحدثت انشقاقات داخل الاسلام - قُدّر لها ان تستمرّ حتّى يومنا - كمثل التناقضات بين السنّة والشيعة؛ وتولّدت منها أيضًا تناقضات على المستوى القانوني والعملي، في كلّ مرّة كان يتمّ فيها انتقال السلطة في ظروف مثيرة للجدل. ولا جرم، ومهما يكن النظام المتّبع، وسواء وافقت الجماعة لاحقًا أو لم توافق على الخليفة المعيّن، فإن السلف كان يختار، إلّا في حالات إستثنائيّة، خلفه. وهذه الأصول كانت جارية في السلالات السنّية الأمويّة والعبّاسيّة، كما في السلالة الفاطميّة التي هي السلالة الشيعيّة الأقدم. لكن، بالنسبة الى كلّ من هذه السلالات التي تبوّأ أفراد منها سدّة الخلافة - سواء بالتعاقب أو، في الوقت نفسه، في أماكن مختلفة - فإنّ المشكلة الحقيقيّة التي ظلّت قائمة تتعلّق بتبرير الحقّ في السلطة. وقد ترتّب على ذلك انشقاقات أو تشعّبات داخليّة كانت أكثر حدّة في المناخ السياسي الشيعي الذي يتّسم بالتدين والاحترام الشديد لشخص الإمام.

وبالفعل، لم يكن مفهوم السيادة التي يتصرّف بموجبها الخليفة هو نفسه في المحيط السنّي وفي المحيط الشيعي. فالخليفة السني كان يتمتّع بسلطة عقائديّة، لكن في حدود جهوده لمحاربة البدع حصرًا، وكان يحيط نفسه عادة بفقهاء يساعدونه في اتّخاذ القرارات، وكان يمتلك السلطة القضائيّة التي يفوّض ممارستها إلى القضاة؛ ولم يكن يسمح لنفسه بإصدار أحكام في قضايا التجاوزات من دون العودة إلى رأي الفقهاء. وعلى العكس من ذلك كان الخليفة الشيعي، وتحديدًا الخليفة الفاطمي: فهو الذي يفسّر الشريعة، وهو يمسك خصوصًا السلطة القضائيّة كاملةً، حتّى لو كان في بعض الأحيان يَكِلُ إلى علماء الكلام والفقهاء القيام ببعض المهمات القضائيّة، ما أوجد بعض التشابهات في سير عمل السلطة بين بغداد والقاهرة. والنسق الشيعي ذاته كان يحتوي أنماطًا عدّة، فالطوائف الزيديّة مثلًا لم تكن تشترط أن يتقلّد أئمّتها - المنحدرون من ذريّة الحسن والحسين - السلطة من أسلافهم؛ كما أنّها لم تكن تسبغ عليهم صفات ما فوق الإنسانية، بل مجرّد صفات العلم والشجاعة. ونجد مثل هذا النمط أيضًا في تقاليد سلالات مثل الموحّدين الذين اتّخذ خلفاؤهم لقب «أمير المؤمنين» عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٢م، مستندين في ذلك إلى عقيدة مستوحاة جزئيًا من النظريّة الشيعيّة؛ وكذلك الأمر في سلالتي الحَفْصيّين والمَرينيّين اللتين حافظتا على لقب خليفة بعد أن سيطرتا على السلطة محلّ الموحّدين.

٢ - في ما يتعلّق بطريقة ممارسة الخليفة لسلطته، فإنّ

الخلفاء العبّاسيّين ، كما الخلفاء الأمويّين في الغرب الذين اتّخذوا لقب خليفة في سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م ، وكذلك الخلفاء الفاطميّين الذين سبقوهم في هذا المجال ، كلّ هؤلاء سعوا إلى أن يتقيّدوا بمراسم بروتوكوليّة خاصة تجري داخل القصور الواسعة التي يقيمون فيها وسط حرّاسهم والمقرّبين منهم ، لإظهار نبالة المهمّة التي آلت اليهم . والخلفاء المشرقيّون تخصيصًا الذين امتدّ حكمهم ، في البدء ، على كلّ العالم الإسلامي تقريبًا - إذ إنّ شبه الجزيرة الإيبريّة وحدها ظلّت خارج قبضتهم - كانوا يهدفون ، من هذه المراسم ، إلى إظهار ارتباط السلطة التي ورثوها بنبيّ المسلمين ، فكانوا يضعون في الواجهة بعض الذخائر التي يعتبرونها شارات حقيقيّة دالّة على سلطتهم . ومع ذلك ، ظلّوا يواجهون ، من خلال هذه الأُبهة وهذا الجبروت الظاهري ، صعوبات جمّة ملازمة لظروف ممارستهم السلطة .

لقد فوّضوا كلّ الوظائف القضائيّة الى القضاة واحتفظوا بقضاء ردّ المظالم (الاستئناف) ؛ لكنّهم كانوا يصرّون على الاحتفاظ بكامل مسؤوليّاتهم الحكوميّة التي لم يكن في مقدورهم القيام وحدهم بأعبائها ، ما اضطرّهم الى الاعتماد على رؤساء التنظيمات العسكريّة وكتّاب الدواوين الذين كانوا ، في الشرق ، يعملون ، منذ نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ، تحت إمرة وزير تحوّل شيئًا فشيئًا رئيس حكومة حقيقيًّا . فضعفت ، والحالة هذه ، سلطة الخلفاء العبّاسيّين بشكل مستمرّ خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، نتيجة طموحات هذه الشخصيّات التي تضاف إليها ، عندما كانت الظروف تسنح ، طموحات الشخصيّات العليا المدنيّة والعسكريّة في العاصمة ، ومساعي حكام الولايات الذين لم يكونوا أقلّ طموحًا . نتج عن ذلك أوّلًا انفصال مناطق مهمّة ، بشكل موقّت أو طويل الأمد ، عن السلطة المركزيّة ؛ ومن جهة ثانية ، حاول وزراء وقادة جيوش - وهم موظفون قابلون للعزل من حيث المبدأ - في مناسبات عدّة الاستئثار بالسلطة الفعليّة .

وهكذا تمكّن وزراء توالوا على السلطة في بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي من تأكيد سلطتهم . لكنّهم اصطدموا بطموحات قائد الجيوش ، ولم يجدوا سبيلًا لإيجاد حلول للمشكلات الماليّة الناتجة عن تضاؤل المداخيل . ولم يعد أمام الخليفة - الذي وجد نفسه مضطرًّا لطلب سلفات من جباة الضرائب الذين تحوّلوا ملتزمين - سوى مخرج وحيد ، هو تحويل السلطة الفعليّة إلى أيدي الممسكين بالقوّة الماليّة والقوّة العسكريّة ، أي إلى قائد له ما يكفي من القوّة ، بمنحه لقب «أمير الأمراء» .

حكم هؤلاء «الأمراء الكبار» من ٣٢٦هـ/ ٩٣٦م حتّى ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م ، إلى أن حلّ محلّهم السلاطين ، وذلك حين أرغم القائد التركي السلجوقي ، طُغرل بك ، الخليفة على أن يوكل إليه المسؤوليات التي كانت حتّى ذلك الحين بيد «أمير الأمراء» ، وأن يسبغ عليه ، إضافة الى ذلك ، لقبًا جديدًا هو لقب «السلطان» . تبع ذلك قيام نظام فريد استمرّ لأكثر من قرنين ، وقد عمل منظّرو القانون العام الإسلامي فورًا على منحه إطارًا قانونيًّا . وبموجب هذا النظام كانت سلطة الخليفة تقتصر على تنصيب السلطان الذي تعود إليه مراقبة الجزء المركزي من الأمبراطوريّة ، وكذلك تولية الشخصيّات الأخرى ، من سلاطين أو أمراء ، إدارة ولايات الأطراف .

والخطوة الإضافية في تدهور موقع الخليفة تمثّلت بإبادة الخليفة العبّاسي المتربّع على العرش في بغداد ، مع أكثر أفراد عائلته ، سنة ٦٥٦هـ/ سنة ١٢٥٨م ، عقب احتلال المغول للمدينة ونهبهم لها . وقد تمكّن أحد أبناء عمّ الخليفة من الإفلات من المذبحة واللجوء إلى مصر حيث استقبله السلاطين المماليك الحاكمون في القاهرة ، واعترفوا به خليفة ، لكن من دون أن تكون له أيّة حريّة تصرّف . وهكذا توالت ما بين سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م و٩٢٢هـ/ ١٥١٦م - تاريخ فتح العثمانيّين لمصر - مجموعة خلفاء اقتصرت مهمّتهم ، في بداية عهد كلّ منهم ، على تنصيب الأمراء المماليك سلاطين ؛ ولم يتمتّعوا ، حتّى في ذروة عظمة الدولة السلجوقيّة ، لا بالاستقلاليّة الشخصيّة ، ولا بالاحترام اللذين كانوا يحظون بهما في بغداد من قبل ، واللذين سمحا للخلفاء العبّاسيّين القدماء بالحفاظ على سلطتهم حكّامًا على العراق ، وفي الوقت نفسه بالحفاظ على سلطة معنويّة لم تشبها شائبة .

٣ - طَرح الطابع الصوري للخلافة العبّاسيّة التي انتقلت الى القاهرة التساؤل حول التفاوت الحاصل ما بين

السلطة الفعلية للسلاطين والسلطة الإسميّة للخليفة. وذهب بعض الفقهاء إلى حد القول إنّ كل عاهل يطبّق الشريعة يمكن اعتباره خليفة الله أي «ممثّله على الأرض»، ورئيسًا شرعيًّا - إن لم يكن على الجماعة الإسلاميّة كلّها - فعلى الأقل على جزء من هذه الجماعة. وأعلن سلاطين عدّة - كانوا يدينون بسلطتهم للقوّة العسكريّة ولرضى السكّان المرغم إلى حدّ ما - أنفسهم «خلفاء»، لكن من دون أن يتّخذوا لقب «أمير المؤمنين». ذلك كان الوضع بالنسبة الى سلاطين دلهي، وبشكل خاص الى السلاطين العثمانيّين؛ حتّى إنّنا، في القرن التاسع عشر، شهدنا في أفريقيا، وفي دولة سوكوتو، انبعاثًا ظرفيًّا لخلافة أرادت التباهي بكلّ الألقاب والصفات المتّصلة بالخلافة الأصليّة.

وطُرحت، بشكل خاص، إبتداء من سنة ١٥١٦م، مشكلة «الخلافة العثمانية». هناك رواية بدأت في الواقع تنتشر في القرن الثامن عشر، على ما يبدو، وفحواها أنّ السلطان سليم الأوّل عند فتحه مصر، استحصل من الخليفة العبّاسي على كل الشارات الخاصة به، كما ورث عنه الخلافة. ليس هناك أيّ تأكيد لصحة هذه الرواية التي ظهرت في فترة متأخّرة، كما أنّ السلاطين العثمانيّين لم يتّخذوا أبدًا لقب «أمير المؤمنين» وهو اللقب الرسمي للخليفة، ومع ذلك فقد قدّموا أنفسهم في أكثر الأحيان - وبخاصة لممثّلي الدول الغربيّة في القرن التاسع عشر - خلفاء شرعيّين. ويمكن الافتراض أنهم، بهذه الصفة، أرادوا الحصول على اعتراف الدول الأوروبيّة بهم حماة للشعوب الإسلاميّة التي كانت ما تزال تعيش في الأراضي البلقانيّة التي تنازلت عنها الدولة العثمانيّة نتيجة معاهدات شتّى. يبقى أنّ دستور ١٨٧٦ - الذي لم يطبّق أبدًا - أكّد ان السلطان، بصفته خليفةً، هو حامي الديانة الإسلاميّة. وهذا يعني أنّ العاهل العثماني جمع في شخصه وظيفتي الخليفة والسلطان، علمًا أنّ الأولى تتخذ بشكل خاص طابعًا دينيًّا. إنطلاقًا من ذلك، تمكّن مصطفى كمال - الذي سيصبح في ما بعد أتاتورك - بعد الحرب العالميّة الأولى من إلغاء السلطنة بقرار من المجمعيّة الوطنيّة، مع الحفاظ على الخلافة وتعيين خليفة جديد في شخص عبد المجيد الثاني الذي اعتُبر، مذّاك، سلطة عليا تربط بين المسلمين. ولم يتمّ إلغاء الخلافة - التي صارت مؤسّسة وهميّة منفصلة عن الواقع - إلّا في شباط سنة ١٩٢٤.

إنّ إلغاء الخلافة قوبل بالامتعاض على الصعيد الدولي، وبخاصة في أوساط المسلمين الهنود، إذ عمد بعضهم - متأثرين بالدعوة إلى الجامعة الإسلاميّة التي أطلقها من قبل جمال الدين الأفغاني - إلى التجمّع في «حركة الخلافة» دفاعًا عن هذه المؤسّسة على المستويين الزمني والروحي، فطالبوا، بدءًا من ١٩٢٠، كلّ المسلمين بالتعبير عن شكل من الولاء السياسي والديني للخليفة العثماني. وفي العام ١٩٢٣ تدخّل هؤلاء لدى مصطفى كمال ليعبّروا له عن قلقهم لغياب السلطنة، وذلك قبل وقت قليل من قراره النهائي بإلغاء هذه المؤسسة؛ وشكّل هذا القرار مؤشّرًا للتفكّك السريع لحركتهم. ولم يخلُ العالم العربي السنّي من ردّات فعل، إذ جرت محاولات شتّى لإعادة الخلافة، لكنّها ظلّت بلا نتيجة. ولم يتمكّن أيّ من الطامحين إلى مركز الخليفة - سواء الحسين شريف مكّة الهاشمي، أو فاروق ملك مصر المتحدّر من محمّد علي - من استقطاب تأييد الجماهير، نظرًا إلى حدّة الخصومات الإقليميّة التي كانت سائدة في تلك الفترة. وفي سنة ١٩٢٦ انعقد مؤتمران، أحدهما في القاهرة والآخر في مكّة، لكن من دون أيّة نتيجة؛ وأخيرًا انعقد مؤتمر في القدس سنة ١٩٣١ حيث برزت فكرة التضامن بين الدول العربيّة والإسلاميّة بديلًا من الخلافة التي كانت العودة إليها غير ممكنة. وشكّل هذا المؤتمر المنطلق لمؤتمر الوحدة العربيّة الذي انعقد سنة ١٩٣٧ والذي مهّد لفكرة الجامعة العربيّة التي تأسّست سنة ١٩٤٤، وكما كان في أساس فكرة المؤتمر الإسلامي الذي أُنشئ سنة ١٩٧٢.

واقع الأمر أنّ الرأي العام الإسلامي السنّي أذعن لفكرة زوال الخلافة واستبدال ملوك زمنيّين بها، يكتفون بتطبيق الشريعة كما يحددها الفقهاء، لكن مع إدخالهم أحيانًا بعض التعديلات في ما يتعلّق، على الأقل، بكيفية تطبيقها. في هذا المجال، صيغت نظريات عدّة. فبدءًا من سنة ١٩٢٢ مثلًا، اقترح رشيد رضا تنظيم ندوة دراسيّة لإعداد اختصاصيّين يصار في ما بعد إلى اختيار خليفة من بينهم، تكون مهمّته تكييف الشرع الإسلامي مع متطلبات

الحياة المعاصرة. وبعد ذلك، في سنة ١٩٢٥، أصدر علي عبد الرازق، وهو من مشايخ الأزهر، كتاب «الإسلام وأصول الحكم» الذي وضع فيه الأسس العقديّة للفصل بين السلطة الزمنيّة والسلطة الدينيّة. ورغم إدانة الكتاب، فإنّ الفكرة التي أطلقها عبد الرازق استمرّت في شقّ طريقها.

الخلافة (حركة –)، حركة انتشرت مدّة قصيرة بين مسلمي شبه القارة الهنديّة، بين ١٩٢٠ و١٩٢٥، وكان لها دورها في تطوّر فكرهم السياسي.

وُلدت هذه الحركة من أفكار الجامعة الإسلاميّة التي نشرها جمال الدين الأفغاني، والتي لم تجد الدعم من المصلح الهندي الكبير السيّد أحمد خان في أواخر القرن التاسع عشر. وقد دعت إلى الإلتفاف حول خليفة للمسلمين يكون القطب الروحي للإسلام كلّه، واعتبرت أنّ السلطان العثماني يمكن أن يلعب هذا الدور. لكنّ السلطان لم يكن يملك في اسطنبول سوى سلطة هزيلة أمست موضوع شكّ وجدل على أثر الهزيمة التي مُنيت بها دولته في الحرب العالميّة الأولى. وفي كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٢٠، نُشر في الهند بيانٌ حوى الأسس النظريّة التي قامت عليها الحركة التي قادها، بنوع خاص، أبو الكلام آزاد، وذلك في جوّ من التسامح بين القوميّين المسلمين والهندوسيّين. ثمّ كان تطوّر الأوضاع في تركيا، وقد نتج عنه إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ بعد إلغاء السلطنة سنة ١٩٢٣. فكانت النتيجة زوال هذه المحاولة السياسيّة التي لقيت، منذ قيامها، صعوبات محليّة، ولم تستطع أن تحقّق أيّ هدف تاريخي مباشر.

الخَلْق، مفهوم أساسي في العقيدة الإسلاميّة يرتكز إلى نصوص قرآنية، لكنّه، مع ذلك، أثار جدالًا داخل تيّارات الفكر الإسلامي المتأثّرة بالفلسفة، كما في مدارس علم الكلام.

يعرض القرآن عمليّة خلق الكون في روايات شبيهة بما ورد في التوراة، إنطلاقًا من الأمر الإلهي «كُنْ».

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السّجدة، ٤].

نجد الرواية عينها في آيات أخرى عدّة، وفي الآية المذكورة شجب للراحة يوم السبت بالنسبة إلى اليهود، ومثل ذلك ليوم الأحد بالنسبة إلى المسيحيّين. لكنّ عمليّة الخلق في حدّ ذاتها تُحدّد حينًا بأنّها فعل خلق من عدم، وهذا مطابق لما ورد في التوراة، وحينًا بأنّها فعل مورس على المادة الموجودة من قبل أو على الخلاء، وحينًا آخر بأنّها فصل بين المياه واليابسة. لكنّ التفسير الأوّل هوَ الذي طغى، فإن الله، تاليًا، هوَ «الخالق» و«المصوّر» أي الذي يمنح الأشكال.

إنّ رواية خلق آدم، الرجل الأوّل، تذكّر برواية سِفْر التكوين. ففي التوراة خلق الله الإنسان من الطين، ثمّ ركّبه في صورة ونفخ فيه من روحه. وعاش آدم في جنّة، وأمر الله الملائكة بالسجود له؛ أمّا إبليس الذي أبى الانصياع فطُرد من الجنّة وكان ضحيّة كبريائه. ثمّ خُلقت المرأة حوّاء. وآدم، رغم النهي الإلهي، أكل من ثمر الشجرة المحرّمة بعدما أغواه إبليس، فطُرد وحواء من الجنّة. ثمّ عفا الله عنه في ما بعد، وصار الجد الأوّل للبشريّة. وهذه البشريّة لم تحمل وِزْر «الخطيئة الأصليّة»، لكنّها مضطرّة باستمرار إلى مقاومة إغراءات إبليس.

وقد هدى الله آدم إلى السبيل القويم، وأرسل أنبياءه حاملين بشارته إلى أحفاده بتفاصيلها. والله يستمرّ في رعاية الكون الذي يُمجّد جبروته وعظمته، كما تنصّ بعض الآيات:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السّجدة، ٥].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء، ٤٤].

وهكذا اعتُبر الخلق، بحسب العقيدة السائدة، عمليّة مستمرّة. بينما أطلق بعض المتكلّمين استنادًا إلى هذه المعطيات، مفهومًا «ذريًّا» للكون ينفي وجود أيّة حتميّة، لأنّ كل ما يحدث هوَ من خلق الله، بينما رأى آخرون، ومنهم المعتزلة، في عمليّة الخلق، ترابط عللٍ.

وكان لعمليّة الخلق أيضًا تفسير مختلف عند الفلاسفة الذين لم يجدوا في مؤلّفات القدماء الذين استوحوهم أيّ أثر لمفهوم الخلق من العدم. فشرحوا،

تاليًا، عمليّة الخلق، بشكل عام، من خلال «الفَيْض» أي الانبثاق من اللّه الذي تمّ، بحسب بعضهم، بواسطة عقل علوي. ولم يقل هؤلاء بمفهوم الخلق المستمرّ ودافعوا عن مبدإ الحتميّة.

أخيرًا، فإنّ اللّه، في الفكر الإسلامي، الذي يهب الحياة للبشر ينتزعها منهم ويميتهم بحسب إرادته، كما يُفهم من الآية ١٤٥ من سورة آل عمران:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمران، ١٤٥].

كذلك فإن اللّه يقرّر، متى شاء، العقاب الإلٰهي الذي تشير إليه كوارث وردت أخبارها في روايات أُخرويّة عدّة. إنّ سورًا قرآنيّة مختلفة تنبئ، بعبارات مخيفة، بنهاية العالم التي سيليها البعث ويوم الدين.

خلواتيّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة تشجّع الجهد الشخصي لحياة الزهد والنسك عن طريق الخلوة، وقد تبنّت تيوصوفيّة ابن العربي. هذه الطريقة ليست مرتبطة، كسائر الطرق، بشخص أظهر تفوّقه، إنّها ظهرت كتجمّع لصوفيّين من أصل تركي، كردي أو إيراني، يعتبرون أنّهم يعملون ضمن الخطّ الذي رسمه «الملامتيّين». إنّ الشخص الذي يُنسب اليه تحديد قواعد هذه الطريقة هو المدعو عمر الخلواتي، يُقال إنّه توفّي في سوريا في حدود سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م. وقد كان لهذه الطريقة خوانق (جمع خانقاه) متعدّدة في الأناضول وسائر البلدان العربيّة في الشرق الأوسط.

الخليل، (الأراضي الفلسطينيّة المتمتّعة بالحكم الذاتي)، مدينة غالبيّة سكّانها من المسلمين، تقع على بعد ثلاثين كيلومترًا جنوبي القدس. ما يزال أهلها يكرّمون ضريح إبراهيم المعروف بالخليل.

لا نعرف الكثير عن وضع مدينة الخليل في زمن الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، ولا عن احتلالها الذي تركه الرواة طيّ الكتمان، لكن يُعرف أنّه في عهد البيزنطيّين كان يقوم في مدينة الخليل ضريح لابراهيم يكرّمه اليهود. وتحوّل هذا الضريح، في زمن الحكم الاسلامي، الى مسجد ابراهيم وانّ عددًا من المدافن العائدة لأنبياء وأشخاص توراتيّين وُجد في المغارة التي يُقال لها مغارة البطاركة. اعتُبر ضريح ابراهيم في الخليل حرمًا كما اعتُبر، مع حرم القدس، حرمين شريفين.

في سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، احتلّ الفرنج مدينة الخليل فحوّلوا المسجد إلى كنيسة ورمّموا أكثر من موضع فيه. استعاد صلاح الدين المدينة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، بعد معركة حطين، ثمّ احتلّها المماليك سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م ومنعوا المسيحيّين واليهود من الدخول الى المعبد. أمّا في القرن السادس عشر فتبعت مدينة الخليل مصير فلسطين داخل السلطنة العثمانيّة لتُنتقل، بعد الحرب العالميّة الأولى إلى الانتداب البريطاني، ثمّ الى سلطة المملكة الأردنيّة الهاشميّة عام ١٩٤٨، فإلى الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧، وانتهى بها الأمر جزءًا من الأراضي الفلسطينيّة الخاضعة للحكم الذاتي.

كان حرم الخليل يستقبل، في العصور الوسطى، عددًا من الزائرين الذين كانوا يأملون أن يستجيب إبراهيم لصلواتهم ودعائهم. ولحرم الخليل موقع في دليل الهروي الخاص بأماكن الزيارات الخارجة عن الفرائض الشرعيّة. كان الحرم يستفيد من أموال الوقف، فيقدّم الى كلّ زائر وجبة طعام تمثّل «ضيافة النبيّ». تعرّضت هذه الزيارات في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد الى النقد على لسان بعض الفقهاء المتشدّدين وأبرزهم ابن تيميّة، إلا أنّ السلاطين المماليك والعثمانيّين أظهروا اهتمامًا كبيرًا بالمدينة حيث كان يقيم عدد من المتصوّفين، فزوّدوها بأبنية دينيّة عديدة.

الخليل ← **إبراهيم**.

الخُميني، روح اللّه موسوي (١٩٠٢ - ١٩٨٩)، رجل دين من أتباع الإماميّة الأثني عشريّة، وصل إلى مرتبة آية الله. وهو مؤسّس جمهوريّة إيران الإسلاميّة ومنظّمها، بعدما حرّك الثورة ضد الأسرة البهلويّة.

وولد الخميني في أسرة رجعت إلى إيران بعد أن أمضت زمنًا طويلًا في كشمير، وقد تلقّى دروسه العليا في الفقه وعلم الكلام على أيدي كبار المجتهدين في عصره، لا سيّما في قُم، إبتداءً من سنة ١٩٢١، حيث علّم لاحقًا في المدرسة الفَيْضيّة التي أسّسها ثاني ملوك

أسرة القاجار. وفي سنة ١٩٣٦ حصل على حقّ الإجتهاد، ثمّ أصبح هذا المُلّا آية الله. وقد شارك في حركات المعارضة المتنوّعة التي أثارتها، في أوائل الستّينات، تدابير اتّخذتها الدولة: منها إعطاء أعضاء المجالس المحليّة حقّ القسم على «الكتاب المقدّس» (من دون أي توضيح)، وقرار الإصلاح الزراعي الذي شمل المؤسّسات ذات الطابع الديني؛ ومنها أيضًا إعطاء المرأة حقّ الاقتراع. وعندما احتُلّت المدرسة الفيضيّة بالقوّة، راح الخميني يُلقي خطبًا عنيفة يهاجم فيها أعداء الإسلام، فأُدخل السجن في حزيران من سنة ١٩٦٣، ثمّ وُضع في الإقامة الجبريّة. وعندما أُطلق سراحه، عمد إلى مهاجمة قانون جديد يمنح العسكريّين الأميركيّين المتواجدين في إيران وضعًا مميّزًا، فنُفي إلى تركيا، ودُعي منها إلى النجف في العراق حيث انصرف الى التدريس حتى ١٩٧٨.

وعندما بدأت التظاهرات التي أدّت إلى ثورة ١٩٧٩، اضطرّ الخميني إلى مغادرة العراق واللجوء إلى فرنسا. وعاد إلى إيران في أوّل شباط (فبراير) سنة ١٩٧٩، بعد أيام من رحيل الشاه محمد رضا بهلوي. وكان قد وضع كتابًا بعنوان «ولاية الفقيه» يعرض فيه أنّه، في غياب الإمام المستور، ينبغي أن يتأمّن الحكم على أيدي فقهاء أصحاب كفاية. ويدعو الخميني في كتابه إلى قيام حكم إسلامي يكون الضمانة الوحيدة لوحدة الجماعة المؤمنة، مع ارتكاز هذا الحكم على الشريعة الإسلاميّة من دون سواها. وفي سنة ١٩٧٩ أوجد مجلسًا للثورة ترأّسه بنفسه، وقد ضمّ في البداية عددًا من «التجديديّين» الذين أُبعدوا بعد ذلك بقليل. وقد أُقرّ دستورٌ أسّس لنظام سياسي قوامه مجلس للنواب ورئيس للجمهوريّة ينتخبه الشعب مباشرة. أمّا الحياة السياسيّة فهيْمن عليها الحزب الجمهوري الإسلامي. هذا يعني أنّ النظام المعتمد هو نظام توتاليتاري يخضع لإشراف المرشد الأعلى، أي للخميني نفسه الذي اعتُبر ممثّلًا للإمام الغائب، كما لُقّب هو نفسه بـ«الإمام». وبعد وفاته سنة ١٩٨٩، اختار مجلس الخبراء خليفة له هو علي خامنئي الذي لم يكن صاحب السلطة الدينيّة العليا. وهذا ما حتّم تقاسم المهمات بين رئيس الجمهوريّة، علي أكبر هاشمي رفسنجاني، والمرشد الأعلى للثورة علي خامنئي. أمّا آية الله عراكي والملالي الباقون، فنحّوا جانبًا.

الخندق (معركة)، هي وقعة تواجه فيها مسلمو المدينة الأوّلون ومقاتلون جاؤوا من مكّة لاحتلالها.

أُصيب هجوم المكيّين بالفشل، في السنة الخامسة للهجرة، وكان جرى التحضير له منذ موقعة أُحُد وحُشدت له فرقة ضمّت قبائل مختلفة متحالفة، عُرفت بالأحزاب. فقد كان من شأن خندق حُفر بسرعة حول المساكن أن أوقف الهجوم، فتحوّل إلى حصار تخلّى عنه أصحابه بعد أسبوعين. حقّق انسحاب المكيّين نجاحًا للمسلمين، ففكّروا عندئذ، بدورهم، في احتلال مكّة. أمّا فكرة حفر خندق دفاعيّ أمام المدينة فقد اقترحها على النبيّ محمّد ﷺ الصحابيّ سلمان الفارسيّ، وهو مسيحيّ إيرانيّ الأصل اعتنق الإسلام.

خواجه، لقب فارسيّ الأصل استُعمل بكثرة في البلدان الإسلاميّة، وأصبح، مع مرور الزمن، شائعًا بين الناس.

وكان هذا اللقب الدالّ على الاحترام يُعطى أوّلًا للأشخاص المميّزين في المجتمع الإسلامي، كالعلماء والتجّار الذين كانوا في غالبيّتهم من الأجانب. وفي بعض الحالات، أصبح اللقب ملتصقًا بصاحبه ويشكّل جزءًا ملازمًا لاسمه. وفي أماكن أخرى، استُعمل كوسيلة للنداء، ولم يكن يُمنح إلّا لفئات إجتماعيّة معيّنة. وهكذا، عند العثمانيّين، كان يُعطى للفقهاء والعلماء، ولفظة «خوجه» المشتقّة من خواجه، والمستعملة اليوم في اللغة التركيّة، تُطلق صفةً على رجال الدين والأساتذة الكبار. أمّا في مصر فإنّ لفظة خواجه تشير، على الأخصّ، إلى التجّار غير المسلمين، كما تحوّل معناها فأصبح يشير إلى أتباع الديانات غير الإسلامية.

الخوارج، إسم أُطلق على فرقة إسلاميّة، تشكّلت من أتباع للإمام علي، انفصلوا عنه سنة ٣٧هـ/٦٥٧م بعد معركة صفّين، وذلك بعد قبوله التحكيم وعدم متابعته الدفاع عن حقّه في الخلافة بقوّة السلاح.

إنّ لفظة خوارج تعني «الذين خرجوا»، وهي تُطلق

على المقاتلين الذين خرجوا على طاعة علي. واللفظة يمكن أن تعني أيضًا «المتمرّدين». والمسلمون الذين انتموا إلى الخوارج كانوا، أساسًا، من أخصام الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفّان، وقد اتّصفوا بتشدّدهم البالغ وبتطبيق أحكام الشرع بحرفيّته[٤٩]. وقد وقفوا إلى جانب الإمام علي في خلافه مع معاوية، ورفضوا أن يقبل قائدهم مبدأ التحكيم الذي طلبه معاوية؛ كما رفضوا اللجوء إلى حكم إنساني، مطالبين بمبدإ «لا حكم إلّا بالله». ومن أجل ذلك أُطلق عليهم اسم «المحكّمة»، أي الذين حملوا هذا الشعار. وقد اعتمدوا، دفاعًا عن مبادئهم، على الآية الكريمة: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجرات، ٩].

وهكذا صنّفوا أتباع معاوية من «البغاة» الذين ذكرهم القرآن الكريم؛ كما اعتمدوا نوعًا من البرهان عرضه أحد مؤرّخي القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، مستندًا إلى نصوص قديمة جاء فيها: «عندما هرقنا دم عثمان كنّا على الطريق القويم لأنّه جاء بالبدع. وكنّا على صواب أيضًا عندما هرقنا دم طلحة والزبير وأتباعهما في معركة الجمل، لأنّهم كانوا «بغاة»، وأيضًا عندما هرقنا دم أتباع معاوية وعمرو لأنّهم كانوا «بغاة»، فخالفوا كتاب الله وسنّة النبيّ. تُرى هل نزل من السماء أمر حمل عليًّا على تغيير موقفه؟ كلّا بالطبع، وكان عليه بالتالي أن يستمرّ على النهج الذي سلكه في البداية فيكمل الحرب ويرفض مبدأ التحكيم».

بعدما رفضوا الحلّ الذي رضي به معظم المحاربين، انفصل الخوارج عن جيش علي في الكوفة، وانتقلوا إلى حَرُوراء حيث استطاع الخليفة (علي)، على ما يبدو، أن يقنعهم بالعودة عن موقفهم وبالإنضمام إليه مجدّدًا. لكنّ المتطرّفين منهم ما لبثوا أن اتّهموه بعدم الوفاء للوعد الذي قطعه لهم ليقنعهم بالعدول عن موقفهم، فتركوه مجدّدًا وانتقلوا الى النَّهْروان في العراق حيث اختاروا قادة لهم، بينهم المدعو ابن وهب. وراحوا بعد ذلك يوجّهون الإنتقادات لعلي ولعثمان معًا، معلنين أنّ المؤمنين كلّهم سواء، وأنّ لا فرق بين مؤمن وآخر. كما عمدوا إلى تنظيم صفوفهم فزاد عددهم، ورفضوا كلّ سلطة خارجيّة، فرماهم خصومهم بالتعصّب واتّباع طرق الإرهاب. وهذا الأمر حمل الإمام علي على محاربتهم في النهروان، سنة ٣٨هـ/٦٥٨م، حيث قضى على قسم كبير منهم، فضعفت شوكتهم إلى حين، لكنّهم ازدادوا، مع ذلك، تمسّكًا بموقفهم وقناعتهم ومالوا إلى التوسّع في نشر دعوتهم وإلى اتّباع طريق العنف. والإمام علي نفسه سقط على أيديهم سنة ٤٠هـ/٦٦١م، إذ قتله أحد الخوارج على مدخل مسجد الكوفة.

بذلك دخل الخوارج تاريخ الاسلام، ووضعوا عقيدة سياسيّة دينيّة واضحة. فهم يرون أنّ المسلم لا يكون فعلًا مؤمنًا إلّا إذا راعى أحكام القرآن الكريم بدقّة ووضوح. وإذا رفض الانصياع لها فإنّه يُعَدّ كافرًا، وهذا ما يحتّم طرده من جماعة المؤمنين، وحتّى تصفيته جسديًّا. وقد أُطلق على هذا النوع من الحكم اسم «الاستعراض». ونتيجة ذلك، فإنّ رئيس الجماعة المؤمنة ينبغي أن يكون الأفضل، بغضّ النظر عن لونه وأصله، حتى إن كان عبدًا أسود. وهذا الموقف كان يتعارض مع الممارسات السابقة، أي مع القاعدة المتّبعة والقائلة إنّ كلّ المرشحين لاستلام السلطة العليا يجب أن يكونوا من قريش. وانطلاقًا من الثوابت عينها، فإنّ رئيس الجماعة المؤمنة يمكن أن يتعرّض للخلع والإسقاط لدى ارتكابه أقلّ هفوة.

على صعيد آخر، تقبّل الخوارج عددًا من الآراء ذات الطابع الفقهي، وهي آراء مخالفة لمبدإ التشبيه والتجسيم وشبيهة بآراء المعتزلة. إلّا أنّ هذا الموقف العَقَديّ لم يظهر إلّا في مرحلة متأخّرة عند إحدى الفرق المتفرّعة من الخوارج، وهي الفرقة الإباضيّة.

نشير، من ناحية أخرى، إلى أنّ الخوارج استمرّوا في اتّباع منهجيّة سياسيّة دينيّة معارضة، اتّسمت بالعنف في عهد الخلافة الأمويّة. وقد انقسموا فروعًا متعدّدة تختلف قليلًا في ما بينها في المواقف والآراء. والتنوّع في مواقف فروع الخوارج جاء نتيجة للأوضاع المختلفة التي عرفتها كلّ مجموعة. وتطوّرت المواقف بعد ذلك تبعًا لمصلحة كلّ مجموعة، ولما تمليه عليها ظروفها وما يفرضه مصيرها. فبعض منها انسحب إلى «دار الهجرة»، تقليدًا لما كان قد فعله النبي محمّد (ﷺ)

عند هجرته إلى المدينة من أجل تكوين جماعته. واستطاع هؤلاء أن يُنشئوا عددًا من الدول المستقلّة بنظامها ومبادئها، وعلى رأس كلّ منها «أمير للمؤمنين» (اللقب المختص بخليفة المسلمين).

إلى جانب ذلك، بقيت فرق ومجموعات أخرى داخل الأوساط المعادية للخوارج، ما اضطرّها إلى التخفيف من تشدّدها، وإهمال سياسة العنف، ولا سيّما «القتل باسم الدين». وقد لجأت هذه المجموعات إلى المعارضة والتمرّد في غير مناسبة، ومنذ سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م، تجمّع في خوزستان، ثمّ في فارس، متطرّفون من الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق فسُمّوا بالأزارقة. وكانوا قد انفصلوا عن الإباضيّين المعتدلين الذين كانوا قد استقرّوا في منطقة البصرة. وفي سنة ٦٨هـ/٦٨٧م، تسلّم قَطريُّ بن الفُجاءة قيادة المجموعة التي لجأت إلى المناطق الشرقية البعيدة وتوغّلت في جبال كرمان بعد تعرّضها لعدد من الهجمات. واستطاع إبن الفجاءة أن يحتلّ بعض مناطق فارس والأهواز، ولكنّه تراجع مجدّدًا أمام الحملات الأمويّة - إبّان ولاية الحجّاج للعراق - التي أدّت إلى قتله سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م والقضاء على الأزارقة.

ولم تكن تلك المجموعات المنبثقة من الخوارج هي الوحيدة التي شغلت الأوساط الإسلاميّة. فإلى جانب الإباضيّين الذين تعاظم شأنهم، عمدت فرقة النجديّة [سُمّيت كذلك نسبة الى رئيسها نجدة بن عامر] إلى بسط سلطتها على مناطق واسعة من شبه الجزيرة العربيّة حوالى سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م، فامتدّت إلى البحرين وعُمان وحضرموت واليمن، ولم يعد وجودهم بذلك محصورًا في مناطق ضيّقة أو داخل مواقع منعزلة. وقد أهملوا لاحقًا مبدأ التطرّف الذي اعتمده الأزارقة، وقالوا إنّ الخطأ لا يُفقد المسلم صفة «المؤمن» إلّا إذا تكرّر، كما نبذوا فكرة «القتل باسم الدين». أمّا الصفريّون من الخوارج، فيبدو أنّهم لم يبسطوا سلطتهم على رقعة جغرافية معيّنة - ونعلم القليل عن نشاطهم الفعلي - لكنّهم لقلقوا، هم أيضًا، مسألة إخراج مرتكب الخطأ من جماعة المؤمنين، إذ ميّزوا في الأخطاء بين كبائرها وصغائرها.

إنّ محاولات التوسّع المتواصلة من قبل هذه الفرق المختلفة في العصر الأموي، والإضطرابات التي نتجت عنها، لم تشكّل يومًا خطرًا على الخلافة. إلّا أنّ أتباع هذه الفرق ساهموا لاحقًا في الحركات الثوريّة التي قضت على الخلافة الأمويّة في القرن الثاني للهجرة/ أواسط القرن الثامن للميلاد. وحدهم الإباضيّون توصّلوا إلى إنشاء الدولة الرستميّة التي استقلّت في مطلع العصر العبّاسي، واستطاعوا الإستمرار في المغرب والحفاظ على فرادتهم حتى عصرنا الحالي. ويمكن القول، بصورة عامّة، إنّ فرق الخوارج التي حوربت بقوّة استطاعت، رغم فشلها السياسي، وبفضل الأسئلة والأطاريح المتواصلة التي عرضتها، أن تُفسح في المجال أمام قيام مدارس علم الكلام الأولى التي نمت وازدهرت في قلب العالم الإسلامي، لا سيّما في مدينة البصرة.

خوارزم، اسم مقاطعة إسلاميّة غنيّة في أواسط آسيا اشتهرت في القرون الوسطى، وهي اليوم مقسّمة بين جمهوريّتي أوزبكستان - التي ضمّت اليها جمهوريّة «قره كَلْپاكستان» وتركمانستان.

وتضمّ منطقة خوارزم مجموعة واحات مرويّة، يهدّدها تبدُّل المجرى السفلي لنهر «آموداريا»، بين مصبّه في بحر أرال ومجراه القديم باتّجاه بحر قزوين. وقد نالت شهرتها بفضل محاصيلها الزراعيّة، وبفضل الأرباح التي كانت تجنيها من طرق القوافل التجاريّة باتّجاه السهوب الداخليّة لسيبيريا وروسيا؛ وكان الرقيق والجلود المستوردة من الشمال من أهمّ السِلَع العابرة. وعرفت خوارزم حضارة محليّة كانت قد ازدهرت قبل الإسلام وساهمت في نهضة عدد من المدن التي اشتهرت خلال القرون الوسطى، ومنها «كاث»، و«كُرگانج» أو الجرجانيّة (أورغنتش القديمة) التي أصبحت، في أواخر القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، عاصمة الأسرة الخوارزمشاهيّة الثانية.

وفي سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م، دخلت الجيوش العربيّة-الإسلاميّة بلاد خوارزم بقيادة قُتيبة بن مسلم وضمّتها إلى الأمبراطوريّة الإسلاميّة، وحملت أبناءها مدّة من الزمن على دفع الجزية. وخلال القرن الثالث للهجرة/التاسع

للميلاد، إعتنق أسياد خوارزم الإسلام، واعترفوا بسيادة السامانيّين المسلمين حكّام بلاد ما وراء النهر، قبل أن يدحرهم الغزنويّون الذين تركوا، بعد ذلك، مكانهم للسلاجقة. على أثر ذلك زالت الثقافة الإيرانيّة أمام تدفّق الأتراك وانتشار لغتهم. وقد أسّس الحكّام الأتراك الذين عيّنهم السلاجقة على خوارزم دولة مستقلّة، سرعان ما أصبحت سيّدة أمبراطوريّة واسعة امتدّت على الشرق كلّه، وقد اشتهر من حكّامها الملك «تكاش».

بعد غزوات المغول سنة ٦١٨هـ/١٢١٢م، وعلى الرغم من الخراب الذي تسبّبت به، عادت خوارزم إلى غناها السابق بفضل النشاط التجاري عبر طرقها التي تربط المناطق الخاضعة للإيلخانيّين بالمناطق الخاضعة لخانات القبيلة الذهبية. وقد بقيت مركزًا ثقافيًا يلتقي فيه رجال الفكر والأدب وتتكاثر فيه الأبنية.

وقد ثبت تفوّق خوارزم الإقتصادي على بلاد ما وراء النهر والسغد بفضل كثافة الحركة التجاريّة. كما غيّرت القوافل طرقها بعد غزوات تيمورلنك، فاختارت طرقًا أخرى جاءت لصالح سمرقند.

وبدأت خوارزم مرحلة ضعف لم يحاول لا تيموريّو ما وراء النهر ولا تيموريّو خراسان إيقافها. واستمرّ الوضع على حاله بعد القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، عندما سيطر الأوزبك الشيبانيّون على آسيا الوسطى. وإذا كان أحد فروع هذه السلالة الحاكمة قد جعل من مدينة خيوه عاصمة له في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد، وأعطى بعض الإعتبار إلى المنطقة التي حملت اسم خانية خيوه، فإنّ هذا الإعتبار كان لإمارة بدويّة بقيت بعيدة عن طرق المواصلات التي كانت تُنعش العالم الإسلامي. فالخرائب الموزّعة في هذه المنطقة التي تحوّلت إلى صحراء تنتشر في أرض كانت من قبل مرويّة وخصبة، مزدحمة بالمدن والبلدات. وليس من المصادفات أن تكثر فيها حاليًا الأماكن الأثريّة التي بفضلها نستطيع التعرّف إلى أمجاد خوارزم الغابرة. والواقع أنّ الإحتلال الروسي في أواخر القرن التاسع عشر أبقى على عدم التوازن الذي كان قائمًا بين النصف الشرقي والنصف الغربي لمنطقة تواجُد الأوزبك التابعة جزئيًا لجمهوريّة أوزبكستان الحاليّة، إذ إنّ تطوّر المقاطعات الشرقيّة يناقض الركود الإقتصادي الذي تتّصف به المساحات المجفّفة في قره كلباكي، كما في خيوه.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ١٧ و٢٣.

الخوارزمشاهيّون (ملوك خوارزم)، إسم لسلالات حكمت في العصور الوسطى خوارزم، وتسلّم أشهر أفرادها السلطة في أواخر القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وأصبحوا، عشيّة الغزو المغولي، أسياد أقوى أمبراطوريّة في الشرق.

فالسلالة الأولى عُرفت باسم «الأفريغيّين» واستقرّت في كات، وكان أفرادها حكام المنطقة في زمن الفنوحات العربيّة-الإسلاميّة. وبعد اعترافهم بسلطة الخليفة، خضعوا لحكم السامانيّين في مطلع القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد. وهذه السلالة لم تعتنق الاسلام إلّا في أوائل القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد.

والسلالة الثانية عُرفت باسم «المأمونيّين»، (آل مأمون)، وكان أفرادها في البداية أمراء «گُرگانْج» أو «الجرجانيّة»، وقد حكموا بين سنتي ٣٨٥ و٤٠٨هـ/ ٩٩٥ و١٠١٧م. تحقّقت لهم شهرة واسعة تمتّعت بها العاصمة على الأخصّ، وغدا بلاطهم ملتقى رجال الفكر من أمثال ابن سينا والبيروني.

والسلالة الثالثة حكمت أيضًا مدّة قصيرة (٤٠٨ - ٤٣٢هـ/١٠١٧-١٠٤١م)، بعد حملات محمود الغزنوي الناجحة على خوارزم. فقد عيّن محمود أسرة من الحكّام عملوا من أجل الإستقلال، وتشمل هذه السلالة المملوك الغزنوي «ألتون تاش» وولديه.

أمّا السلالة الرابعة والأخيرة فقد امتدّ حكمها بين سنتي ٤٧٠ و٦٣٠هـ/١٠٧٧ و١٢٣١م، وقامت بعدما ضمّ سلاجقة إيران البلاد الى مُلْكهم، في حدود سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م. ففي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، عيّن السلطان «ملكشاه» أحد مماليكه المدعو «أنوشتكين» حاكمًا على تلك المقاطعة. وفي سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، أُعلن ولده قطب الدين محمد ملكًا على خوارزم (خوارزمشاه). فكان تابعًا أمينًا لِسَنْجر. وتبنّى ولده أتْسز السياسة عينها، كما نجح في بسط سلطته على

التركمان المجاورين. وبعد موت سنجر سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، أصبح ملوك خوارزم أكثر حريّةً، وكانوا قبل ذلك قد حسّنوا علاقتهم مع «القراختاي» حكّام الشمال، لا سيّما في عهد الملك «تكاش» وولده محمود. وقد توصّل هذان الملكان إلى احتلال خُراسان والقسم الأكبر من إيران بعد انتصارهما على الغوريّين وعلى آخر السلاجقة، وحصلا بدورهما من الخليفة على لقب سلطان. بعد ذلك، كانت نهاية تلك السلالة مع مآثر جلال الدين منكوبِرْتي الملحميّة، وذلك بظهور المغول على المسرح السياسي في إيران.

المأمونيّون

أبو علي مأمون الأول	٣٨٢-٣٨٧هـ/ ٩٩٢-٩٩٧م
أبو الحسن علي	٣٨٧-٤٠٠هـ/ ٩٩٧-١٠٠٩م
أبو العبّاس مأمون الثاني	٤٠٠-٤٠٨هـ/ ١٠٠٩-١٠١٧م
أبو الحارث محمّد	٤٠٨هـ/ ١٠١٧م

الحكّام الغزنويّون

ألتون تاش	٤٠٨-٤٢٣هـ/ ١٠١٧-١٠٣٢م
هارون بن ألتون تاش	٤٢٣-٤٢٥هـ/ ١٠٣٢-١٠٣٤م
إسماعيل خنداز بن ألتونتاش	٤٢٥-٤٣٢هـ/ ١٠٣٤-١٠٤١م

ملوك خوارزم (الخوارزمشاهيّون) الكبار

أنوشتكين غرشائي	٤٧٠-٤٩٠هـ/ ١٠٧٧-١٠٩٧م
قطب الدين محمّد	٤٩٠-٥٢١هـ/ ١٠٩٧-١١٢٧م
علاء الدين أتسِز	٥٢١-٥٥١هـ/ ١١٢٧-١١٥٦م
إيل أرسلان	٥٥١-٥٦٧هـ/ ١١٥٦-١١٧٢م
علاء الدين تكاش	٥٦٧-٥٩٦هـ/ ١١٧٢-١٢٠٠م
علاء الدين محمّد	٥٩٦-٦١٧هـ/ ١٢٠٠-١٢٢٠م
جلال الدين منكوبِرْتي أو منْغْبورنو	٦١٧-٦٢٨هـ/ ١٢٢٠-١٢٣١م

◄ راجع المستند رقم ١٧.

الخوارزمي، رياضي وفلكي ساهم، خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، في شهرة بيت الحكمة الذي أسّسه الخليفة العبّاسي المأمون.

ذُكر اسمه في الترجمات اللاتينيّة الشهيرة لمؤلّفاته، لكنّه حُرّف غير مرّة، إلى أن أعطى لفظًا فرنسيًّا Algorithme يشير إلى طرق الحسابات الهنديّة الأصل، ثمّ غدا تعبيرًا واصفًا عن نهج معيّن في علم الرياضيّات.

الخوارزمي، أبو جعفر محمّد بن موسى (١٦٤-٢٣٦هـ/ ٧٨٠-٨٥٠م)، يُعرف في اللاتينيّة باسم «ألغوريسموس» (Algorismus)، رياضي وفلكي أدخل إلى العالم الإسلامي طرق الحساب الخاصّة بالهندسة اللامقداريّة الهنديّة، ووضع أبحاثًا مهمّة ساعدت على تقدّم العلوم في أوروبا خلال القرون الوسطى.

لم تصلنا التفاصيل الواضحة المتعلّقة بحياة هذا الرجل، وما نعرفه عنه أنّه عمل في بغداد، في بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة العبّاسي المأمون. ويجب ألّا نخلط بينه وبين خوارزمي آخر، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد الذي عاش بعد مرور قرن في بلاط السامانيّين ووضع للكتّاب ملخّصًا بعنوان «مفاتيح العلوم».

والخوارزمي هو أوّل من وضع نظريّة الجبر في بحث عنوانه «الجبر والمقابلة». وانتشر البحث بعد ذلك في أوروبا خلال القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، بفضل عدد من المترجمين منهم جيرار دي كريمونا؛ كما ألّف أبو جعفر الخوارزمي كتابًا مهمًّا في الحساب هو «كتاب حساب العدد الهندي». وقد فُقد النص العربي الأصلي، لكنّ يوحنا الاشبيلي (Jean de Séville) كان قد نقله، في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أيضًا، إلى اللاتينيّة بعنوان «كتاب الخوارزمي» (Liber alchoarismi). والبحث التطبيقي في العمليّات التي تجري بحسب طريقة العدّ اللفظي، بفضل استعمال العدد «صفر»، تترافق مع الأبحاث حول الأعداد الكسريّة، ولا سيّما الكسور الستينيّة التي يُستعان بها في علم الفلك. والمعطيات التي تجمّعت وتابع الرياضيّون المسلمون تطويرها، كانت في أساس قواعد الحساب التي انطلق فيها الأوروبيّون.

واستعان الغرب الأوروبي بالجداول الفلكية بعد أن نقلها «أديلارد دي باث» (Adélard de Bath) إلى اللاتينيّة، وتُعرف بالعربيّة تحت إسم «زيج السند هند» والعناصر المكوّنة لهذه الزيج أخذها الخوارزمي عن غيره من الرياضيّين. والشهرة التي يشهد عليها المترجمون اللاتين لم تمتدّ إلى الكتاب الذي وضعه الخوارزمي في الجغرافيا بعنوان «كتاب صورة الأرض». ثم إنّنا لا نملك النصوص التي وضعها ذلك

الفلكي حول التقويم اليهودي وحول بعض الآلات كالإسطرلاب والساعة الشمسيّة.

خَواندمير، غياث الدين (٨٨٠-٩٤٢هـ/ ١٤٧٥-١٥٣٦م)، مؤرّخ فارسي، شهد غزو الصفويّين لخراسان، وفي أواخر حياته دخل في خدمة بابُر مؤسّس سلالة المغول.

ولد خواندمير في هراة في أسرة من العلماء، فَرَعاه مير علي شير نوائي، لذا قدّم له أعماله الأولى. ثمّ دخل في خدمة أحد الأمراء التيموريّين، وعاصر غزو الأوزبكيّين للمملكة التي تركها تيمورلنك، وذلك في حدود سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م؛ كما عاصر سقوط هراة بأيدي الصفويّين سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م. وبعد أن اعتزل الناس مدّة من الزمن، انتقل الى الهند سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م ودخل في خدمة بابُر، ثمّ في خدمة ولده همايون، إلى أن توفّي في دلهي ودُفن فيها.

إن أهمّ ما يميّز أعمال هذا الكاتب الكثير الإنتاج هو أنّها ذات طابع تاريخي، إذ سجّل أحداثًا كان شاهدًا عليها: غزو الأوزبك، توسّع الصفويّين شرقي إيران، حياة بابر وإنجازاته. كما ترك مصنّفًا في الحِكَم السياسيّة، وآخر حول حياة مشاهير الوزراء، وأيضًا ملخّصًا في التاريخ العام فيه وصف لمدينة هراة، ومؤلّفًا في التاريخ العام أيضًا ينتهي مع أواخر مُلْك الشاه إسماعيل الأوّل، وهو بعنوان «حبيب السِيَر»، وفيه العديد من التراجم ومجموعة أخبار عن حياة بابر.

خُوجا، اسم يُطلق على مجموعة من المسلمين الشيعة غربيّ الهند، تشمل، على الأخصّ، الإسماعيليّين الذين ينتمون إلى النزاريّة، وقد انتشروا على شواطئ المحيط الهندي الأفريقيّة، وبخاصة في كينيا وتنزانيا.

وكان الخوجا في البداية يشكّلون طبقة هندوسيّة مغلقة، ولا نعرف الظروف التي حملتهم على اعتناق الإسلام، لغياب الدلائل التاريخيّة على ذلك. ومنذ القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وبالتحديد بعد سقوط حصن أَلَموت، عرفت منطقتا السند وغُجرات مجموعات من الدعاة الإسماعيليّين الجدد الذين عملوا في أوساط كان المستعليون قد بلغوها. ويبدو أنّ نشاط الخوجا الأوائل قد ارتبط بنشاط بعض المتصوّفين المنتمين إلى الفرقة السُهرورديّة، وأنّ القسم الأكبر منهم أظهر طاعته للآغا خان. وابتداءً من القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، تفرّع من الخُوجا عدد من الشيع الخاصة يقدّس بعضها مؤسّسها، منها فرقة «الشمسيّة»، وفرقة «الإماماشاهيّة» المتأثّرة بالهندوسيّة والمعروفة أيضًا باسم الـ «سَتْپَنْتيس». وقد تجمّع الخوجا في مؤسّسة قويّة هي «جماعة خان»، مع الإشارة إلى أنّ عاداتهم وتقاليدهم ابتعدت عن الفقه الفاطمي القديم الذي حافظت عليه جماعة «البُهرة».

في القرن التاسع عشر، ارتبط الخوجا بالآغا خان حسن علي شاه، وجعلوا من مدينة بومباي مقرّ نشاطهم الديني، على الرغم من أنّ قسمًا كبيرًا منهم، نتيجةً للنشاط التجاري القائم بين الهند وأفريقيا الشرقيّة السوداء، انتقل إلى جزيرة زنجبار، وإلى المناطق الأفريقيّة المجاورة حيث يزيد عددهم باطراد.

خوجندا ← طاجكستان.

خوزستان، مقاطعة تقع الى الجنوب الغربي من إيران، وقد حافظت على اسمها حتّى اليوم، بالرغم من كونها حملت مدّة إسم عربستان.

هذه المقاطعة التي تنحصر اليوم بين جبال زاغْرُس والخليج العربي - الفارسي وتمتدّ على طول الحدود مع الجمهوريّة العراقيّة، تتكوّن من سهل غنيّ بالطُمْي الذي تركه نهر «دُجيل»، وهو سهل ذو مناخ خانق عُرف قديمًا باسم «سُوشيانا». وفي سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، دخلتها الجيوش العربيّة-الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى. وقد عانت المنطقة مع عاصمتها من ثورة الزنج التي اندلعت في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. ومن مدنها المعروفة: تُستَر، دِزْفول، سوش وعَسْكر مكرم، وهاتان الأخيرتان هما اليوم خرائب تحوي آثارًا مهمّة.

في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، وقعت خوزستان في أيدي أسرة من الأمراء العرب الشيعة، وهي أسرة «مُشَعْشَع» التي استقلّت مدّة سبعين سنة. ثمّ خضعت، سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، للشاه إسماعيل الأوّل الصفوي، واستمرّ أبناؤها في الحكم على الرغم

من التقلّبات المتنوّعة. وبعد أن احتلّ العثمانيّون المقاطعة مدّة قصيرة، انتقلت المنطقة إلى سلطة نادر شاه سنة ١٧٢٩م، فخضع له الحكّام، ولكنّهم تخلّوا تدريجيًا عن الحكم لمصلحة أسر عربيّة أخرى، منها بنو كعب وبنو لام، ويبقي سكان المقاطعة خليطًا من العرب والإيرانيّين.

واشتُهرت خوزستان بكونها منطقة غنيّة بالتُمور، وقصب السكر والنسيج. وتشهد اليوم، على الرغم من النزاعات المسلّحة، إزدهارًا تحقّق بفضل حقولها النفطيّة. وقد تميّزت، قبل وقوع الخراب فيها، بمصفاة عبادان، ومرفأ جزيرة خرج (خارك) المعدّ لاستقبال ناقلات البترول، وبسدّ «ديز» الذي أنشئ سنة ١٩٦٢، وبالتطوّر الصناعي الذي عرفه مرفأ خُرَّمشهر.

◄ راجع المستندين ١٢ و١٧.

خَيْبَر (المملكة العربيّة السعوديّة)، واحة في الحجاز، تقع على بعد نحو مئة وخمسين كيلومترًا شمالي المدينة المنوَّرة، وقد أدّت دورًا مهمًّا في بدايات الإسلام.

كانت قبائل من اليهود ومن العرب المتهوّدين تسكن تلك الواحة. فأراد النبيّ محمّد (ﷺ) إخضاعها لسلطته لأنّه كان يحذر سكّانها. وبعد أسابيع عدّة من المناوشات، استسلم اليهود وطلبوا عقد صلح، فأُعطوا ما طلبوه. وقرّر نبيّ المسلمين (ﷺ) أن يُبقي لهم أراضيهم الزراعيّة شرط أن يؤدّوا، في المقابل، نصف محاصيلهم. هذا القرار فسّره الفقهاء، بعد ذلك، على أنّه اعطاء اليهود عقد مزارعة والإعتراف بوضعهم كشركاء، كما اعتُبر من الأسس التي بُنيت عليها نظريّة الجزية.

في سنة ٢١هـ/٦٤٢م، وضع الخليفة الراشدي الثاني، عمر بن الخطّاب، نهاية لهذا الوضع، فقرّر طرد اليهود من الجزيرة العربيّة. لذلك انتزع منهم ممتلكاتهم في الواحة، وقسّم الأرض بين المسلمين. ويبدو، من خلال بعض الشهادات، أنّ بعض اليهود رجعوا بعد ذلك إلى خيبر. في مطلع القرن العشرين، كانت الواحة تابعة للشريف حسين ملك الحجاز وشريف مكّة. إلّا أنّ الأمير عبد العزيز بن سعود احتلّها سنة ١٩٢٢، ووضع المنطقة تحت سلطة آل سعود.

خير الدين خضر باشا الملقب بـ «بَرْبَروسّا» (٨٧١-٩٥٣هـ/١٤٦٦-١٥٤٦م)، الأميرال الكبير، أو «كابودان» باشا، في البحريّة العثمانيّة، توصّل بأعمال القرصنة التي اتّبعها إلى أن يصبح أحد أبطال معارك المتوسّط. وقد احتلّ مقاطعة الجزائر وقدّمها للسلاطين سليم الأوّل وسليمان القانوني.

بدأ مغامراته البحريّة الطويلة في ظلّ أخيه «عَرُّوج» الذي استولى على مدينة الجزائر سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م تلبية لرغبة أبنائها، والذي توفّي سنة ١٥١٨. وتجدر الإشارة إلى أنّ أعمال خير الدين لاقت نجاحًا متواصلًا على الصعيدين الحربي والدبلوماسي. ومن أهمّ ما قام به تخلّيه عن الجزائر وجعلها تابعة رسميًّا للسلطنة العثمانيّة سنة ١٥٢٠. والمعارك الكثيرة التي خاضها، بحرًا وبرًّا، غازيًا شواطئ الأعداء ومدافعًا عن الجزائر، أدّت إلى توسيع المناطق العثمانيّة في تونس وجزر اليونان. أمّا مواجهته لشارلكان فأرغمته على التخلّي لهذا الأخير عن تونس سنة ١٥٣٥، لكنّ ذلك لم يمنعه من خدمة التحالف الذي قام بين السلطان سليمان وفرنسوا الأول ومن أجل ذلك كان عليه أن ينفّذ عددًا من المهمّات آخرها سنة ١٥٤٣، أدّت الى التعاون مع الأسطول الفرنسي في الحوض الغربي للمتوسط.

وانطلاقًا من سنة ١٥٣٤، غدا خير الدين مسؤولًا عن البحريّة العثمانيّة، فكُلِّف بالاشراف على بناء السفن وتجهيزها كي تستطيع تلبية طموحات السلطنة. وقد تحقّقت بفضله سيطرة بحريّة تركيّة استمرّت حوالي ثلاثين سنة. هذا النجاح الشخصي للأميرال الكبير إضافةً إلى شهرته المتزايدة التي حقّقتها انتصاراته البحريّة المتلاحقة، أمّن له الغنى وجعله محطّ احتفاء وتكريم في عاصمة السلطنة. يشهد على ذلك، حتّى يومنا، في اسطنبول، ضريحه الذي أقامه المهندس المشهور سِنان، وكذلك المؤسّسات الخيريّة التي تحمل اسمه في حيّ «بَشِكْتاس»، منها مسجد ومدرسة. وظلّت السلطات العثمانيّة مدّة من الزمن تحيي ذكرى الأميرال الكبير في كلّ مرّة يُعيَّن فيها أميرال جديد للأسطول وعند كل انطلاق رسمي واحتفالي لهذا الأسطول.

الخيزُران بنت عطاء (؟-١٧٣هـ/ ؟-٧٨٩م)، زوجة

الخليفة العبّاسي المهدي، اشتُهرت في كونها أم الخليفة هارون الرشيد.

هي في الأساس جارية يمنية أُعتقت، ثمّ تزوّجها المهدي فأنجبت له ولدين: موسى الذي أصبح الخليفة الهادي، وهارون الذي أصبح الخليفة الرشيد. يُقال إنّها أرضعت الفضل البرمكي، في حين أنّ أمّ هذا الأخير أرضعت هارون، ما أوجد قرابة الرضاعة أو «قرابة اللبن» بينها وبين الفضل الذي أصبح وزير الرشيد. وخلال خلافة المهدي نجحت الخيزران بجعل ولاية العهد في ولديها، موسى ثمّ هارون، وذلك على حساب أبناء زوجة المهدي الهاشمية. وكانت تفضّل أن تكون الولاية في هارون، أولًا، لكنّ مساعيها لم تكلّل بالنجاح. وعندما استخلف موسى واتّخذ اسم الهادي، منع أمّه من الإهتمام بشؤون الدولة، وعمد إلى سجن أخيه الذي كان يَحْذره، وإلى سجن مربّيه يحيى البرمكي. ولم ينجُ السجينان من الموت إلّا بعد تدخّل الخيزران وموت موسى الهادي الفجائي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م. وقد أثار هذا الموت الكثير من الشكوك لدى عدد كثير من المؤرّخين قديمًا وحديثًا.

في السنوات الثلاث الأولى من خلافة ولدها الثاني، إهتمّت الخيزران بإدارة شؤون الدولة، بمساندة يحيى البرمكي. فكانت بذلك من النساء القلائل اللواتي أدّين دورًا سياسيًّا مهمًّا خلال العصر العبّاسي الذهبي.

خِيوَه (جمهوريّة أوزبكستان)، مدينة مهمّة من مدن «الخانية» التي تحمل الإسم عينه، كانت بين القرنين السابع عشر والعشرين آخر عاصمة لمقاطعة خوارزم القروسطيّة.

تقع المدينة على الضفة الغربيّة لنهر «آموذريا»، ولا نعرف الكثير عن تاريخها القديم. لكن الجغرافيّين العرب عرفوها في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وكانت داخل المنطقة الخاضعة لإشراف الحكّام المسلمين في كُركانْج أو الجرجانيّة (أورڭنتش) الذين كانوا يتقاسمون السلطة مع الخوارزمشاهيّين حُكّام كات. ومن حيث أنّها لم تكن مدينة ذات شأن، ومن حيث أنّها تأثّرت بالإضطرابات التي تعرّضت لها البلاد في ما بعد، فلم تعرف الازدهار إلّا مع مطلع القرن السابع عشر، بعد أن اختارها أمراء أحد فروع الأوزبك الشيبانيّين عاصمة لهم، وكان هؤلاء قد أصبحوا أسياد خوارزم منذ القرن الخامس عشر. فعظم شأن خانية خيوه، وامتدّت ممتلكاتها من شمال بحر آرال حتّى خراسان.

هذه الحاضرة التي ارتبط مصيرُها بمصير تلك الامارة المستقلّة، والتي تحميها صحارى قَره قوم وقِزل قوم، عرفت كيف تحافظ، في باحتها، على فرادة ثقافيّة وفنّية أكثر وضوحًا منها في المناطق الأخرى من بلاد ما وراء النهر، خصوصًا في فنّ الحفر على الخشب. وعلى هذه الفرادة، تشهد مجموعة أبنية شُيِّد أكثرها في القرن التاسع عشر، كالمساجد والقصور والدور الغنيّة ذات الإيوانات والأروقة المكسوّة بالزخارف الخزفيّة التي ما تزال اليوم تحافظ على رونقها. لكنّ العزلة التي سمحت لخانية خيوه بالاحتفاظ بأمرائها المحليّين، على الرغم من الإضطرابات التي سبّبتها في المنطقة طموحات الإيرانيّين والتركمان ثمّ الروس، لم تمنع هؤلاء من أن يُخضعوا خيوه لحكمهم سنة ١٨٧٣ وأن يجعلوا من آخر خان نائبًا لقيصر روسيا، قبل أن يحملوه على الإستقالة سنة ١٩٢٠. وفي سنة ١٩٢٤ توزّعت أراضي جمهوريّة خوارزم الشعبية كلّ من الجمهوريّتين الاشتراكيّتين السوفياتيّتين، أوزبكستان وتركمانستان، اللّتين أصبحتا اليوم مستقلّتين. أمّا خيوه فلم تعد تؤدّي سوى دور ثانوي كمركز إداريّ للمقاطعة، وظلّت بعيدة عن الإزدهار الذي سجّلته مناطق أخرى في آسيا الوسطى.

◄ راجع المستند رقم ٣٥.

د

دابق (معركة مرج دابق)، رجب ٩٢٢هـ/آب-أغسطس ١٥١٦م، إنتصار حقّقه العثمانيّون على المماليك، وأفسح أمامهم في المجال لدخول سوريا ومصر.

هذه الهزيمة الدموية أنزلها السلطان سليم الأوّل بالمماليك، بفضل تفوّق مدفعيّته على الفرق الخيّالة الخبيرة بفنّ الفروسيّة التي كان يقودها السلطان قانصوه الغوري بنفسه. وكانت نتيجة المعركة سقوط السلطنة المملوكيّة واحتلال العثمانيّين سوريا ومصر. وكان موقع المعركة في مركز إستراتيجي، في مرج يقع شمال سوريا، غير بعيد عن حلب، قرب محلّة دابق التي اشتُهرت من قبل، بكونها جُعلت مركز تجمّع الجيوش الإسلاميّة في عهد الفتوحات الكبرى، وقد توجّهت هذه الفتوحات نحو المناطق البيزنطيّة في زمن الأمويّين والعبّاسيّين الأوائل. وفي دابق مات الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك سنة ٩٩هـ/٧١٧م، حيث كان يقيم معسكره، وفي تلك المحلّة دُفن. كما نُصّب فيها ابن عمّه الخليفة عمر بن عبدالعزيز.

◄ راجع المستند رقم ٩

الدار البيضاء أو كازابلانكا (Casablanca) (المملكة المغربيّة)، تُسمى الدار البيضاء بالعربيّة، وهي ترجمة للإسم البرتغالي الذي أُطلق في البدء على مدينة أنفا القديمة. وهي مدينة مرفئيّة على ساحل المحيط الأطلسي، جعل منها ازدهارها التجاري والصناعي حاليًّا المدينة الأكثر حركة والأكثر كثافة سكانيّة في البلاد.

في أوائل عهدها، كانت هذه المدينة - التي أسّسها في القرن الثامن عشر سلطان من السلالة العلويّة - موقعًا محصّنًا: فقد بُنيت لحماية الحدود البحريّة بين الرباط والجديدة (مزغان) من هجمات البرتغاليّين. إذ لم يتمكّن أيّ موقع إسلامي من النمو، بعد أن دمّر هؤلاء البرتغاليّون أنفسهم، في القرن الخامس عشر، هذه المنطقة التي كانت وكرًا للقراصنة ومركزًا لبني مرين حيث كان يقوم في السابق مرفأ أنفا.

مع حلول منتصف القرن التاسع عشر، قامت في هذا المركز الدفاعي، بترخيص سلطاني، أوّل نواة تجاريّة كان أكثر المقيمين فيها أجانب غير مسلمين. وكان وجود هؤلاء أحد أسباب الأحداث التي أدّت إلى بسط الحماية الفرنسيّة على المغرب عام ١٩١٢. وابتداء من هذا التاريخ، لم يتوقّف ازدهار هذه المدينة التي كانت في أوج انطلاقتها، إذ كانت تسكنها جالية أوروبيّة مهمّة، والتي تمّ اختيارها باكرًا لإقامة مرفإ كبير وحديث سمح بتكاثر المصانع، وجعل من الدار البيضاء مركز الإستقطاب الإقتصادي الأساسي في المغرب حاليًّا. والدار البيضاء هي أيضًا المدينة التي شيد فيها مؤخرًا، بمبادرة ملكية، مسجد جامع وفخم.

دار الإسلام، تعبير يشير إلى مجموعة البلدان الخاضعة للشريعة، مقابل «دار الحرب» المعرّضة للجهاد، ومقابل «دار الصلح» أيضًا وهي التي، في رأي بعض الفقهاء، قادرة على أن تشتري الصلح والسلام عن طريق المعاهدة أو دفع الجزية.

ومفهوم «دار الإسلام» لم يقم، داخل حدود خارجيّة متغيّرة، إلّا على وحدة العقيدة وعلى التقيّد بالشريعة على الصعيدين الدينيّ والاجتماعي. وجاء تطبيقه مضطربًا داخل عدد من البلدان الإسلاميّة التي تنازعتها تيّارات مختلفة، ولم يترافق مع فكرة الصلح والسلام بين الدول الإسلاميّة نفسها. وجاء تطبيقه، من جهة أخرى، ملازمًا للتغيّرات التي عرفها، عبر العصور

وبحسب الأمكنة، مفهوم الجهاد الذي تكيّف مع ظروف سياسيّة مختلفة للغاية. إنّ المعنى الضيّق لدار الاسلام، في نظر أفراد بعض الجماعات المسلّحة، كما في نظر المنتسبين إلى بعض البدع، يجعلها تتطابق مع مساحة المنطقة التي استولوا عليها بقوّة السلاح واستقرّوا فيها. إنّها «دار الهجرة» التي أقاموا فيها دولتهم وجمعوا مقاتليهم مستوحين الخطط التي اعتمدها النبي محمّد (ﷺ) لدى إقامته في المدينة بعد الهجرة. هذه هي في نظرهم «دار الإسلام» الحقيقيّة.

دار الصناعة، إسم أُطلق في العصور الإسلاميّة الأولى على المؤسّسة التي تهتمّ ببناء السفن الحربيّة وترميمها وإعدادها تلبيةً لحاجات الأساطيل الحربيّة في تلك الحقبة.

فبعد التوسّع البرّي الذي تمّ مع فتوحات القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، بدأ المسلمون يهتمّون بالملاحة البحريّة وبالسفن الحربيّة، فأنشأوا مراكز لإعداد هذه السفن وتجهيزها، بخاصة داخل مرافئ المتوسّط الشرقي، من أجل مواجهة البيزنطيّين. ويعود الفضل في إنشاء أولى هذه الدور إلى الخليفة الأمويّ الأوّل معاوية الذي جهّز في عكّا حوضًا لبناء المراكب سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩م، ثمّ نقل الدار إلى صور لوجود حوض محصّن فيها. وفُتح حوض عكّا مجدّدًا في عهد الخليفة العبّاسي المتوكّل، وحسّنه ابن طولون بعد ذلك، كما تأسّس على ساحل طرسوس حوض مهمّ بقي، حتّى سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، مركز انطلاق الحملات البريّة والبحريّة ضدّ بيزنطية. وقد أُزيلت دور الصناعة تلك في عهد الصليبيّين، ولم يهتمّ المماليك بترميمها لاحقًا، لأنّهم ركّزوا اهتمامهم على التحصينات البرّية وأهملوا المرافئ البحريّة. إلّا أنّ السلاجقة أنشأوا، بعد ذلك، دارًا للصناعة في «العلائية»، «علانيا» الحاليّة.

وفي مصر وُجدت قديمًا دار للصناعة في القُلزم تُشرف على البحرين الأحمر والمتوسّط في آنٍ معًا، وأُنشئت أحواض محصّنة مجهّزة لصيانة السفن عند مصبّات نهر النيل، في الإسكندريّة والرشيد ودمياط، بنوع خاص على عهد الخليفة العبّاسي المتوكّل. وفي القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، كانت قد تأسّست دار لصناعة السفن على مجرى النيل، في جزيرة «الروضة» قرب الفسطاط، ثم أُنشئت دور أخرى زمن الفاطميّين. وقد خسرت تلك الدور أهميّتها مع المماليك لأن هؤلاء قلّما حاولوا القيام بحملات بحريّة في حروبهم؛ على كل حال لم يُكتب لمحاولاتهم النجاح.

وقامت أيضًا مؤسّسات مماثلة، في أواخر القرون الوسطى، في الغرب الأفريقي الإسلامي، في تونس في إفريقية، وفي سبتة وطنجة في المغرب الأقصى. وعرفت بلاد الأندلس، على الأخص في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، دورًا للصناعة مشهورة، أقدمها دار إشبيلية، وأهمّها دار ألمريّة، وهي مدينة مرفئيّة تأسّست في عهد أمويّي قرطبة، من غير أن ننسى دور دانية والجزيرة. وإذا كان المسلمون قد خسروا دور الصناعة في شبه الجزيرة الإيبيريّة، مع حروب الاسترداد، فإنّ دُور أفريقيا تجدّد نشاطها مع انتشار حركة القرصنة. التي أصبحت النشاط الأساسي لمرافئ إفريقية والمغرب المتوسطيّة. لكنّها لم تستطع منافسة مراكز البناء والصيانة التي أقامها العثمانيّون في الشرق، خصوصًا في «غَلّيبولي» واسطنبول. وقد بلغت قمّة نشاطها وازدهارها في عهد سليمان القانوني، قبل أن يمسي مصيرها بعد ذلك كمصير سائر المؤسّسات العسكريّة في أمبراطوريّة سائرة الى الزوال.

دار العلم ← **المكتبات**.

دار الهجرة ← **دار الإسلام**.

دارفُور، مقاطعة حاليّة في جمهوريّة السودان المعاصرة، في أفريقيا الشرقيّة السوداء، تمتدّ على طول الحدود الفاصلة بين السودان من جهة، وجمهوريّة تشاد والجماهيريّة العربيّة الليبيّة من جهة ثانية.

هذه المنطقة البركانيّة كانت تشكّل من قبل قسمًا من السودان المعروف في القرون الوسطى، وهي تعلو هضبات «كُردُفان» إنطلاقًا من سلسلة جبالها الوسطى المرتفعة. وقد كان لها دورها الإستراتيجي، بحكم وجودها على طرق القوافل القديمة التي كانت تربط أفريقيا الساحليّة الغربيّة بمصر وليبيا في الشمال، وبلاد النيل العليا التي تنفتح على البحر الأحمر لتصل إلى شبه

الجزيرة العربيّة ومرافئ الحج.

وقبائل «فور» التي أعطت اسمها لتلك المنطقة مارست سلطة مستقلّة قويّة فيها، من دون أن تمنع الهجرات العربيّة المتأخّرة التي حملت معها الإسلام. وانطلاقًا من القرن السابع عشر، تركّزت فيها سلالة من السلاطين المسلمين، زعموا أنّهم من أصل عربي عريق، ونشروا ثقافة إسلاميّة نقلها دعاة صوفيّون وفدوا من الشرق وعُرفوا باسم «الفقهاء». وقد قام الغنى الذي حقّقه سلاطين دارفور على التجارة. واستمرّ قائمًا إلى الوقت الذي أُلحقت فيه السودان بمصر سنة ١٨٧٤، على أيدي الخديويّين من ذريّة محمد علي. وتبع ذلك تدخّل الدولة المهديّة في الخرطوم. فلم يمض إلحاق دار فور بالخرطوم من دون سلسلة اضطرابات. إلّا أنّ السلطة المحلّية تثبّتت في دارفور سنة ١٨٩٨، بعد الانتصار العسكري الإنكليزي على الدولة المهديّة، والتي كانت تميل إلى ربط السودان بمصر بغية إبعاد الخطر الفرنسي الزاحف من التشاد. وقد زالت في سنة ١٩١٦، حين أصبحت دارفور تابعة، بشكل مباشر، لنظام الخرطوم. رُسمت حدود هذه المقاطعة مع التشاد في سنة ١٩٢٤، وأصبحت في ما بعد جزءًا من البلاد التي قامت فيها جمهوريّة السودان عام ١٩٥٦. ولم تُثر مسألة دارفور بعد هذا التاريخ.

داغستان (جمهوريّة)، مساحتها ٥٠ ٣٠٠ كلم[٢]، وعاصمتها مخَشْكالا، إحدى الجمهوريّات المستقلّة ذاتيًا في الاتّحاد السوفياتي السابق، وهي اليوم تشكّل جزءاً من الاتّحاد الروسي الفدرالي. أمّا سكّانها فمن جنسيّات متنوّعة، ويبلغ عددهم حوالى مليوني نسمة، كما يشكّل المسلمون منهم نحو ٨٥ بالمئة.

داغستان هي بلاد جبليّة دخلها الإسلام في وقت متأخّر، مع أنّها كانت محاطة به زمناً طويلاً. وهي لم تعرف استقلالاً ذاتيًا قبل القرن السادس عشر، كما أنّها لم تشكّل دولة إلّا بعد استعمار روسيّ صعب استمرّ طوال القرن التاسع عشر.

تقع داغستان شمال شرقيّ القوقاز، وهي تضمّ منحدراته وصولاً إلى بحر قزوين، ولها حدود مشتركة مع جمهوريّتين مستقلّتين ذاتيًا من الاتّحاد الروسي الفدرالي، هما «كَلْموكيا وتشتشينيا»، ومع جمهوريّتين أخريين مستقلّتين من منطقة ما وراء القوقاز، هما جورجيا وأذربيجان. وعدم التجانس الحاليّ في اللغة والأجناس يعكس التعقيد الذي شاب تاريخ داغستان في القرون الوسطى. وهذا التاريخ يبدأ مع استيلاء الأمويّين، في مطلع القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، على مقاطعة شيروان الساحليّة المجاورة لداغستان، وعلى منطقة باب الأبواب حيث تقع اليوم مدينة دربند، ثاني أكبر مدينة في البلاد.

هذه المنطقة الأخيرة بقيت، مدّة طويلة، تُعتبر الحدّ الأقصى للسيطرة العبّاسيّة الإسلاميّة على بلاد ذات طابع مسيحيّ، وتابعة في القسم الأكبر منها لأمبراطوريّة الخزر، وقد أدّى انهيار تلك الأمبراطوريّة في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد إلى حالة من الفوضى عمّت البلاد. وفي ما بعد، لم تساعد السيطرة السلجوقيّة، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، ولا توسّع أمبراطوريّة الإيلخانيّين في مناطق ما وراء القوقاز على تقدّم الإسلام وراء «دربند» التي كانت تابعة آنذاك لخانات القبيلة الذهبيّة. ولم تتبدّل الأوضاع إلّا بعد وصول قبائل تركيّة دخلت مع حملات تيمورلنك، بين سنتي ١٣٩٥ و١٣٩٦م.

تقدّم الإسلام بشكل محسوس في داغستان بين سنتي ١٤٦١ و١٦٠٦م، إثر الاحتلال العسكري العثماني. وقد قامت إثر ذلك إمارات تركيّة اندلعت بينها خلافات دامية. قامت الثقافة العربيّة - الإسلاميّة التي أرسيت بفضل الجهاد على قواعد حنفيّة قويّة، استُقيت من المدرسة الفقهيّة المسيطرة لدى العثمانيّين، وازدادت قوّة مع توغّل النقشبنديّة في البلاد خلال القرن الثامن عشر. ثمّ إنّ الحروب التي اشتعلت لاحقاً بين الفرس الصفويّين والأمبراطوريّة العثمانيّة، ثم مع روسيا، ساعدت هذه الدول على تثبيت سيطرتها على عدد من القبائل المتنازعة التي تقاسمت مناطق النفوذ. ثمّ كانت معاهدة غُلِسْتان سنة ١٨١٣ التي تركت الساحة حرّة للأطماع الروسيّة.

ولم تكن الهيمنة الروسيّة وممارساتها لتمرّ من دون أن تثير مقاومة إسلاميّة محلّية ذات طابع ديني شعبيّ. وقد

استمرّت حركة المقاومة طوال القرن التاسع عشر، ووصل العنف إلى ذروته مع الثورة الجبليّة الشهيرة التي قادها شامل، وامتدّت من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٩. وقد شهدت المنطقة، بعد ذلك، عدداً من الثورات والفتن، ولا سيما خلال الحروب الأهليّة التي تلت الحرب العالميّة الأولى. ثمّ تثبّت بعد ذلك النظام السوفياتي بشكل نهائيّ في تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٩٢٠. وإثر ذلك أُعلن، في قلب الجمهوريّة الإشتراكيّة الفدراليّة لروسيا السوفياتيّة، الحكم الذاتي لجمهوريّة داغستان. وقد استمرّت الجمهوريّة قائمة حتى زوال النظام السوفياتي سنة ١٩٩١. إلّا أنّها، لِما تتمتّع به من غنى زراعي وثروة بتروليّة، لا تجد نفسها اليوم بمنأى عن النزاعات الداخليّة بين شعوب القوقاز، والأتراك والروس.

داماد (مير)، أو مير محمّد باقر بن شمس الدين محمّد الحسيني (؟-١٠٤٠هـ/ ؟-١٦٣٠م): فقيه شيعيّ فارسيّ عاش في عصر الصفويّين.

ولد في أستراباد، وهي اليوم جرجان، وتلقّى علومه في مشهد على أيدي كبار العلماء. كان من المفترض أن يُعرَف باسم ابن الداماد، لأنّ لفظة «داماد» (صِهْر) كانت لقبًا تشريفيًّا مُنح لوالده الذي كان صهر الفقيه الشيعيّ عليّ بن الحسين، كما كان هو أيضًا فقيهًا ينتمي إلى الإماميّة الاثني عشريّة. غاص في العلوم الدينيّة المتنوّعة، وشارك، بين سنتي ١٥٦٧ و١٦١٦م، في مناقشات نال على أثرها شهرة ومكانة مميّزتين. وقد تمتّع بحظوة لدى الشاه عبّاس الأوّل، وتتلمذ له صدر الدين الشيرازي. ترك مؤلّفات متعدّدة قبل وفاته في العراق قرب النجف حيث دُفن. وخصّص قسمًا من أعماله للتبصّر في الحديث وفي أخبار الأئمّة العلويّين، كما تأثّر بعدد من المفكّرين كابن سينا والسُّهْرَوَردي، واطّلع على الفلسفة الإشراقيّة وعلى فكر ابن العربيّ.

دامْغان (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، إسم محلّة غنيّة بالمعالم الأثريّة التي تذكّر بوجود مدينة إسلاميّة تجاريّة كانت عاصمة مقاطعة قُومِس في العصور الوسطى.

إنّ هذا المركز الإداري القديم لمقاطعة دامغان - وهي إحدى مقاطعات قومس الثلاث - خسرت أهميّتها لمصلحة مدينة سِمْنان، ولم يعد لها اليوم إلّا دور ثانوي، إذ تقع على الطريق التي تصل بين مشهد وطهران، وهذه الطريق نفسها أمست مهملة. وتجدر الإشارة إلى أنّها كانت تشكّل من قبل قسمًا من طريق القوافل التي تربط العراق بسوريا وخراسان وآسيا الوسطى، كما كانت تتركّز فيها، بين الريّ ونيسابور، الحركة التجاريّة في شمال إيران.

والجغرافيّون العرب يتحدّثون عن الازدهار الذي عرفته دامْغان، وعن التحصينات التي قامت فيها خلال العصور الأولى للإسلام، وكانوا يطلقون عليها إسم قومس أو مدينة قومس. وقد حافظت المدينة على المسجد الجامع الذي يعود تاريخه إلى العصر العبّاسي، وهو واحد من أقدم المساجد في إيران. ذلك أنّ بناءه يعود إلى القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. كما حافظت على مآذن قرميديّة ذات زخارف هندسيّة، وعدد من الأضرحة تشير تواريخها إلى عهد يسبق وصول السلجوقيّين في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. وهناك أبنية أخرى سلجوقيّة، منها برج تابع لضريح يرتفع غير بعيد في محلّة مِهْماندوسْت.

◄ راجع المستند رقم ١٠.

الدانِشْمَنْدِيّون، (٤٦٤-٥٧٣هـ/ ١٠٧١-١١٧٨م)، أسرة حاكمة انبثقت من الاجتياح التركي الأوّل للأناضول، في عهد سلاجقة إيران الكبار، واضطرّت بعد ذلك إلى ترك السلطة تتوحّد على أيدي سلاجقة الروم.

كان مؤسّس الأسرة، الأمير دانشمَنْد، أحد المقرّبين من سليمان بن قُتُلْمُش الذي كان من أسلاف سلاجقة الروم. وبحسب مصادر متأخّرة، اشتهر غازيًا خلال المرحلة التي تلت معركة مانزكرت سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٧١م، والتي تركّزت فيها جماعات تركيّة في المناطق البيزنطيّة التي انتقلت إلى الاسلام. وكان فارسًا محاربًا يكتنف تاريخه الغموض، فأقام في الشمال الشرقي من الهضبة الوسطى، حول سيواس وتُوقات وأماسيا، دولة قويّة ساعدت خلفاءه المباشرين على أن يكون لهم دورهم التاريخيّ. وقد نجحوا في بسط

سلطتهم على كَبدوقية كلّها وأصبح لهم إمارة واسعة، بعدما ضمّوا إليها أنقرة وقيصريّة وملطية. والانتصارات التي حقّقوها في أعمال الجهاد حملت الخليفة العبّاسي، المسترشد، على منح قائدهم لقب «ملك»، وهو لقب حمله الأيوبيّون لاحقًا في سوريا.

تلت تلك الذروة نزاعات داخليّة تقاسم على أثرها المتخاصمون مناطق النفوذ (تقاسم أخوة ثلاثة مدّة وجيزة مدن المملكة: سيواس، ملطية وقيصريّة). فغُلبوا على أمرهم وأُخضعوا بالتتالي لقوّة سلاجقة الروم الصاعدة، وقد عمد هؤلاء إلى توسيع مناطق سيطرتهم وإرساء قواعد قويّة لدولتهم.

الدانشمنديّون في سيواس:

الملك دانشمند غازي	٤٦٣-٤٧٧هـ/ ١٠٧١-١٠٨٤م
الأمير غازي غوموتكين	٤٧٧ - ٥٢٨هـ/ ١٠٨٤-١١٣٤م
الملك محمّد	١١٣٤-١١٤٢م
الملك نظام الدين ياغي بازان	٥٣٧-٥٥٩هـ/ ١١٤٢-١١٦٤م
الملك مجاهد جمال الدين غازي	٥٥٩-٥٦١هـ/ ١١٦٤ ١١٦٦م
الملك شمس الدين ابراهيم	٥٦١هـ/١١٦٦م
الملك شمس الدين اسماعيل	٥٦١-٥٦٩هـ/ ١١٦٦-١١٧٤م

الدانشمَنديّون في ملطية وألْبستان:

عين الدين غوموتكين	٥٣٥-٥٤٧هـ/ ١١٤٢-١١٥٢م
ذو القرنين	٥٤٧-٥٥٧هـ/ ١١٥٢-١١٦٢م
ناصر الدين محمّد	٥٥٧-٥٦٥هـ/ ١١٦٢-١١٧٠م
	٥٧١-٥٧٤هـ/ ١١٧٥-١١٧٨م
فخر الدين قاسم	٥٦٥-٥٦٧هـ/ ١١٧٠-١١٧٢م
أفريدون	٥٦٧-٥٧١هـ/ ١١٧٢-١١٧٥م

دانية (إسبانيا)، مدينة في خليج بلنسية لا تحتفظ إلّا بذكرى بعيدة للازدهار الذي عرفته في القرون الوسطى، عندما كانت من أهمّ المرافئ الأندلسيّة، وتحتضن ترسانة.

انّها مدينة أرتيمبسيوم الإغريقيّة، ثم ديانيوم الرومانية، دخلها المسلمون سنة ٩٤هـ/ ٧١٣م، خلال الفتوحات الكبرى. وقد برزت أهميّتها بعد أن ضعفت الإمارة ثمّ الخلافة بقرطبة. وفي سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م، في عهد ملوك الطوائف، وفي كنف أبي الجيش مجاهد، وهوَ عامريّ أعتقه إبن المنصور، أصبحت امارة إسلاميّة مزدهرة شملت جزر الباليار والمنطقة من الأندلس الواقعة على حدودها الشرقيّة. وقد اغتنت مملكة دانية بفضل نشاطها التجاري وأعمال القرصنة. ثمّ وقعت في أيدي بني هود حكّام سَرَقُسْطة، ثمّ في أيدي المرابطين. وحين جاء الموحّدون جعلوا منها قاعدة انطلقوا منها لمهاجمة بني غانية في جزر الباليار سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م. ثمّ كانت حرب الاسترداد التي انتزعت دانية نهائيًّا من الموحّدين سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م.

◄ راجع المستندين ١٥ و١٦.

داود، شخصيّة توراتيّة يرد ذكرها غير مرّة في القرآن الكريم. ويعتبر داود في نظر الإسلام من الأنبياء.

وعلى غرار العهد القديم، يشير القرآن إلى أنّ داود قتل جالوت، وهوَ يتكلّم عنه بثناء: فهو ملك قادر على تحقيق العدالة، اختاره الله «خليفة» ليرث أسياد الأرض، وحباه المعرفة والحكمة والهبات المتنوّعة، وسلّمه كتاب الزبور.

وقد أعطى المؤرّخون وشارحو القرآن لاحقًا تفاصيل إضافيّة حول تاريخ داود، استُقي بعضه من التقاليد اليهوديّة كقصّة امرأة أوريّا. أمّا عبارة «خليفة في الأرض» (صورة ص، الآية ٢٦) فقد استُعملت بعد ذلك للذين خلفوا النبيّ محمد (ﷺ)، وغالبًا ما أخذت معنى «ممثّل الله على الأرض»، وهي بذلك تجعل داود نبيًّا. وقليلة هي الأضرحة وأماكن الزيارة المرتبطة بذكرى داود بين تلك التي انتشرت بين المسلمين في عصر تكريم الأولياء. وعدا قبره في فلسطين ومحراب داود في القدس الذي ورد ذكره في القرآن، يكتفي الهروي في دليله بالإشارة إلى زيارات تقويّة كانت تقام، في

القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، الى أمكنة في سوريا الشمالية تذكر بأفراد من أسرة داود، منهم أوريّا الحثي الذي كان يكرّم في مقرّ النبي أوري في جوار قورش.

داي أو دايي، لقب تركي يحمل في الأساس معنى «العمّ» من جهة الأم [الخال]، كان يُطلق على ممثلي السلطان في المقاطعات المغربيّة التابعة للسلطنة العثمانيّة.

ولا نعرف متى بدأ إطلاق هذا اللقب، لكن حمله في البداية، في مقاطعة تونس، قادة ثانويّون من الإنكشاريّة. ونعرف أنّه، في سنة ١٥٩١، انتُخب «داي» من قبل أنداده فمارس سلطة مطلقة، ولم يعد للبيرلباي إلّا صفة تمثيليّة إسميّة. إلّا أنّه سرعان ما اصطدم بمنافسة أحد البايات الذي كان قد عُيّن رسميًّا قائدًا أعلى، فاستطاع هذا الأخير، في حدود سنة ١٦١٥، أن ينال لقب باشا ويستأثر بالحكم ويؤسّس سلالة وراثيّة.

وفي سنة ١٦٧١، عيّن قادة القراصنة أحد الدايات حاكمًا على الجزائر، فألغى دور «الآغوات». ودرج قادة الجيش بعد ذلك على اختيار «داي» من صفوف الضبّاط. وقد مارس هؤلاء «الدايات» سلطات متنوّعة ومطلقة أحيانًا، وذلك حتى سنة ١٨٣٠.

دُبي ← **الامارات العربيّة المتّحدة**.

الدجّال، إسم لشخصيّة تنتمي إلى معتقدات أُخرويّة في الإسلام، يرد ذكرها في الأدب الإسلامي.

يظهر الدجّال في أواخر الأزمنة، قبيل يوم الدين، فينشر الشرّ والعار مدّة وجيزة، إلى أن يقهره المهديّ، أو عيسى، الذي ينشر العدالة فيعمّ الإسلام الأقطار إلى الأبد. وتجعل التقاليد مكان ظهوره عادةً في «أرض الأنبياء» التي تمثّلت بسوريا في القرون الوسطى. لكن هناك أماكن أخرى تشير إليها الأخبار الرؤيويّة التي راجت في الوسط الإسلامي، منذ القرون الوسطى، وذلك في مجال الحديث عن الدلائل والإشارات التي تكون إعلاناً للاضطراب الكبير.

الدُرّانيّون، (١٧٤٧ - ١٨٤٢م)، إسم للفرع الأوّل من سلالة ملوك أفغانستان الذين ساهموا بنشاط في إقامة هذه الدولة على أساس عرقيّ، واستطاعوا، برغم المساحة الشاسعة التي شملها ملكهم، أن يتصرّفوا كشيوخ قبيلة، إلى أن أزاحتهم سلالة «بَرَكْزاي» عن الحكم.

وصلت قبيلتهم الى السلطة - وكانت تسكن من قبل منطقة قندهار ثمّ هرات - بفضل انخراط أبنائها في الجيوش الفارسيّة، في أواخر عهد الصفويّين وفي أيّام نادر شاه الذي سمح لهم بالاقامة مجدّدًا في منطقة قندهار. وبعد موت هذا الأخير سنة ١٧٤٧م، نهض مؤسّس السلالة، معتمدًا على قوّته الحربيّة، وتوّج نفسه في قندهار باسم أحمد شاه دُرّي درّاني، أو «اللؤلؤة اللآلئ» (ومن هنا تسمية القبيلة لاحقًا). ثمّ اجتاح مناطق المغول في الهند، وكان الضعف قد تسرّب إليهم، ونهب دلهي وأغرا سنة ١٧٥٧، وانتصر في معركة پانيپات سنة ١٧٦١. لكنّ المملكة الشاسعة التي سيطر عليها، من السند وبلوشستان وصولًا الى الپنجاب وكشمير، فضلًا عن خراسان، سرعان ما تفكّكت. أمّا ورثته الذين أقاموا في «كابل» أوّلًا، فحاولوا تجنّب المنافسات العائليّة، ولكنّهم خسروا قوّتهم تدريجيًّا في مغامرات حربيّة طائشة، حتّى انّه لم يبقَ بيدهم إلّا مدينة هراة.

أحمد شاه دُرّاني	١٧٤٧ - ١٧٧٣م
تيمور شاه	١٧٧٣ - ١٧٩٣
زمان شاه	١٧٩٣ ١٨٠١
محمود شاه	١٨٠١ - ١٨٠٣، ١٨٠٩ - ١٨١٨
شاه شجاع	١٨٠٣ - ١٨٠٩، ١٨٣٩ - ١٨٤٢
علي شاه	١٨١٨ - ١٨٣٩

دَرِبَنْد، (الاتّحاد الروسي الفدرالي)، مرفأ في داغستان على ساحل بحر قزوين؛ كان يُعتبر في القرون الوسطى من أهم ثغور العالم الإسلامي، يعرف بالعربية بـ«باب الأبواب».

تقع مدينة دربند على الطرف الشرقيّ من جبال القوقاز، ومنه كانت تشرف على الممرّ الرئيسيّ الذي يعبر هذه الجبال، وهي ما تزال تحتفظ اليوم ببقايا تحصينات قديمة. دخلت في حكم المسلمين سنة ٢٣هـ/ ٦٤٣م في مرحلة الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة

الكبرى، وحافظت بعد ذلك على الدور الإستراتيجي الذي كانت تؤدّيه في ظلّ الملوك الساسانيّين، وقد وقفت حاجزًا أمام تدفّق الخزر من السهوب الشماليّة، وتحوّل الخزر بدورهم هدفًا لغزوات المسلمين بعد ذلك. وقد سقطت وأُعيد احتلالها سنة ١١٢هـ/ ٧٣٠م على يدي القائد الأمويّ مَسْلمة الذي قام بغزوات ناجحة في تلك المنطقة.

يأتي الجغرافيّون العرب في وقتٍ لاحق على ذكر القلعة والسور الأسطوري، وهو سور يأجوج وماجوج الذي شُيّد لصدّ هجمات البرابرة. كما يتحدّثون عن النشاط التجاري الذي شهدته المدينة في العصر العبّاسي، وقد كانت آنذاك مركز إمارة صغيرة شبه مستقلّة، وذلك قبل أن يضمّها السلاجقة ثمّ المغول. وقد جاء مصيرها في قلب العالم الإسلامي شبيهًا بمصير سائر بلدان القوقاز، إذ خضعت لأسياد إيران، ثمّ طمع بها الروس إلى أن احتلّوها موقّتًا في القرن الثامن عشر، ونهائيًا سنة ١٨٠٦. فخسرت إذّاك دورها الحربيّ لكنّها بقيت مركزًا إداريًا واقتصاديًا مزدهرًا، وجلّ سكّانها من المسلمين. وهي اليوم تأتي في المرتبة الثانية بين مدن المقاطعة التي أصبحت، في أواخر القرن العشرين، جمهوريّة داغستان في قلب الاتّحاد الروسي الفدرالي.

◄ راجع المستند رقم ٢٤.

الدُّرعيّة، إسم بلدة في نجد تعرّضت للخراب مرّتين، وذلك سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢١، وكانت العاصمة للمملكة الأولى التي أقامها آل سعود في شبه الجزيرة العربيّة.

البلدة التي استرعى ازدهارها الإقتصادي، في مطلع القرن التاسع عشر، إنتباه الزائرين الأجانب، تحتلّ واحة تنبسط في واد على بعد عشرين كيلومترًا عن الموقع الذي احتضَنَ لاحقًا مدينة الرياض. ومنذ القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، أقام في تلك البلدة أجداد الملوك السعوديّين الحاليّين. وفيها وُلد المصلح الديني الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. وعلى مرتفع الطُّريف أقيمت قصور أمراء المملكة العربيّة السعوديّة التي أسّسها، في سنة ١٧٢٦، محمّد بن سعود، حليف محمّد بن عبد الوهّاب وحاميه. ولم يبق من تلك الأبنية إلّا الخرائب، بسبب قسوة الاقتحامات المتكرّرة التي نفّذتها الفرق المصريّة بقيادة ابراهيم باشا وحسين بك، بعدما أرسلها العثمانيّون لإبادة القوّة العربيّة الجديدة الناشئة في نجد. وفي المحلّة المجاورة، أقيمت مدينة الرياض التي أصبحت سنة ١٨٢٤ عاصمة المملكة العربيّة السعوديّة الثانية.

دَرْقاويّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة عرفت نجاحًا كبيرًا في المغرب، أسّسها الشريف الإدريسي مولاي العربيّ الدرقاوي (١٧٦٠-١٨٢٣م).

تلقّى الشيخ الدرقاوي، في فاس، ثقافته داخل الفرقة الشاذليّة. ثمّ أنشأ تجمّعًا خاصًّا به، وأقام، في العام ١٨٦٣، زاويته الرئيسيّة في أمْجوت، وهي لا تزال تجذب الزائرين الذين يقصدونها في مناسبة عيده السنوي. وقد كان له دور سياسي ساعده على أدائه نجاحه في أوساط البربر. والاضطرابات التي أثارها أودت به إلى السجن في المغرب في أواخر حياته، بأمر من السلطان مولاي سليمان (١٧٩٣-١٨٢٢م). والمعروف أنّ أتباع طريقته المعتدلة انتشروا في شمال المغرب وشرقه وفي غرب الجزائر.

الدروز، هم أتباع عقيدة شيعيّة انبثقت من الإسماعيليّة وابتعدت بعد ذلك عن الإسلام. وقد ظهرت هذه العقيدة خلال العصر الفاطمي، في بداية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، وبقيت قائمة لدى عدد من سكّان سوريا الجنوبيّة.

هذا المذهب الذي يتّصف بالباطنيّة انتظم حول الشخصيّة الغريبة للخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله، ومن هنا تسمية الحاكميّين التي أعطيت لأتباعه. وفي أواخر ملك الحاكم بأمر الله عمد بعض الأتباع، بدافع من حميّتهم، إلى جعله مماثلًا للعقل الكلّي، حتّى إنّ الغلاة منهم ألّهوه. ومن الأشخاص الذين تميّزوا في هذا الاتّجاه نشتكين الدرزي (من هنا تسمية الدروز) وهو تركي، ومبشّر آخر بالدعوة الاسماعيليّة هو حمزة بن علي الذي كان من أصل إيراني، وهو الذي حدّد قواعد العقيدة. وفي رأي حمزة أنّ الخليفة هو تجسيد للواحد، أي لله، والإمام، أي حمزة نفسه، يمثّل العقل الكلّي. وقد وضع تنظيمًا متسلسلًا يتلاءم مع المبادئ الكونيّة

المستوحاة من الفلسفة القديمة، وأعلن أتباعه إلغاء الشريعة الإسلاميّة، ما تسبب بحوادث بين الناس. وحالة الحيرة التي عاشها الحاكم، سنة ٤٠٨ هـ/١٠١٧م وفي السنوات التالية، زادت الوضع اضطرابًا، وفي الوقت نفسه اختفى الدرزي، وتبنّى حمزة موقفًا حذرًا.

أدّى موت الخليفة سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م، وقد تكون تلك الأحداث السبب، الى اختفاء الحركة من مصر لتنتشر بالمقابل في سوريا، وخصوصًا بين أبناء الريف من منطقة جبل حرمون. وشكّل الدروز إذاك طائفة مغلقة، مكوّنة من مجموعات ذات أصل عربي لها عاداتها وتقاليدها الخاصّة. وظهرت في أوساط هذه الطائفة ممارسات دينيّة جديدة، ولا شكّ في أنّها تعود الى القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد. وقد انقسمت الطائفة الى «عقلاء» والى «جهّال» غير مطّلعين على الدين. وعلى العقلاء أن يراعوا سبع وصايا تحلّ مكان أركان الدين في الإسلام: منها الإخلاص تجاه المؤمنين (وليس تجاه غير المؤمنين)، التعاون والاعتراف بأحديّة سيدنا الحاكم. وقد أضيفت الى هذه الأركان قوانين جديدة تتعلّق بالأحوال الشخصيّة. وقد احتفظ الدروز ببعض الشعائر الإسلاميّة، لكن علماءهم يعقدون اجتماعات سرّية في أماكن للعبادة خاصّة، ويسهرون على الكتب التي تتضمن طقوسهم الدينيّة. انّهم ينتظرون عودة الحاكم وحمزة لنشر العدالة بين الناس. وبانتظار ذلك عليهم، عند الضرورة، أن يمارسوا التقيّة وأن يتظاهروا بتأييد دين السلطة القائمة.

في العهد العثماني كان الدروز يخضعون لسلطة بعض العائلات الكبيرة، كالتنوخيّين والمعنيّين والشهابيّين، وأفسح لهم المجال للسيطرة على قسم من لبنان. لكنّ الخلاف وقع بين تلك الأسر، ما أدّى إلى قيام حزبين: القيسيّة واليمنيّة. كما وقع الدروز ضحيّة حملات تأديبيّة قام بها العثمانيّون، ومنها حملة ١٥٢٣م التي انطلقت بدافع شرعيّ وبحجّة الدفاع عن الاسلام في وجه الكفّار. وكان الدروز يهيمنون على جبل لبنان ودير القمر ومرفأ بيروت. وفي القرن الثامن عشر تحوّلت بعض أسرهم الى الكثلكة.

ونتج عن احتلال إبراهيم باشا لسوريا ولبنان، في بداية القرن التاسع عشر، قلاقل وثورات عند الدروز والموارنة. وما لبث العداء أن تأجّج بين هاتين الطائفتين واتّخذ هذا طابع العنف، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانيّة تمرّ بأزمة حادّة تذكّيها تأثيرات عالم غربيّ أوروبي في أوج تطوّره. ونتيجة الأحداث الدامية، قرّرت الدولة العثمانيّة سنة ١٨٤٢ أن تعيد تنظيم جبل لبنان بتعيين حاكمين، واحد درزيّ وآخر مارونيّ، وتوزيع الضرائب على الطائفتين؛ وأُدخلت تعديلات على هذا النظام عام ١٨٤٥. وفي عهد التنظيمات، تسبّب «الخط الهمايوني» سنة ١٨٥٦؛ الذي قدّم تنازلات لغير المسلمين، باضطرابات جديدة أوقعت مجابهات دامية بين الدروز والموارنة. وفي أيار من سنة ١٨٦٠ وقعت مجازر راح ضحيّتها موارنة، وذلك على أيدي الدروز الذين انضمّ اليهم دروز حوران. فأدّت هذه الحوادث إلى تدخّل فرنسا سنة ١٨٦٠، واتّخذت السلطات العثمانيّة إجراءات بحقّ عدد من الزعماء الدروز.

ثم عُقد اتفاق وُقّع في حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١، سُلخ بموجبه جبل لبنان عن ولايتي بيروت ودمشق، وعُيّن عليه متصرّف مسيحي يساعده مجلس من اثني عشر عضوًا يمثّلون الطوائف كافةً. ومن جهة ثانية ترك عدد من دروز لبنان المنطقة ولجأوا إلى حوران حيث انتشروا في كامل تلك الأراضي التي أطلقوا عليها اسم جبل الدروز.

في بداية القرن العشرين، بقي الدروز في لبنان وحوران في نزاع مع السلطات التي كان من المفروض أن يخضعوا لها. وفي سنة ١٩١٨، دخلوا دمشق مع الحلفاء، لكنّهم قاموا بثورة، في ظلّ الانتداب الفرنسي، قُمعت بقسوة سنة ١٩٢٧. ويتوزّع الدروز اليوم بين إسرائيل (حيث يخدمون في الجيش) وحوران ومنطقة الشوف في لبنان.

درويش، لفظة فارسيّة الأصل تعني «متسوّل، فقير»، بحسب الأصل اللغويّ الشائع، وهي في كلّ حال موضوع نقاش من قبل اللغويّين.

هذه اللفظة المستعملة في اللغة العربيّة بمعنى «فقير»، أُطلقت في إيران والأناضول، ولا سيّما في القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع

عشر للميلاد، على الصوفيّين الذين كانوا كثرة. وقد استُعملت على الأخصّ للإشارة الى الصوفيّين أعضاء الفرق المعروفة.

الدُّستور، كلمة عربية دخيلة من الفارسيّة، معناها في اللغة العربيّة «القاعدة». والدستور شكل جديد أخذت به معظم البلدان الإسلامية منذ القرن التاسع عشر، معتمدة أنظمة حكم كانت تقتصر، في إسلام القرون الوسطى، على مفهومين ظلّا محوريين لفترة طويلة هما: مفهوم الخلافة في البدء، ومفهوم السلطنة في ما بعد.

والدساتير الحاليّة التي اعتُمدت على أساس تطابق تماثلي مع دساتير البلدان الغربيّة رأت النور في الحقبة المعاصرة، في معظم الدول الإسلاميّة، العربيّة وغير العربيّة، المتمتّعة باستقلال سياسي راسخ منذ زمن، أو أُعيد تثبيته حديثًا، أو تلك التي حصلت عليه منذ فترة وجيزة.

هدفت الدساتير، بشكل عام، إمّا إلى الحدّ من السلطة الملكيّة القائمة، وإمّا إلى تنظيم جمهوريّة وطنيّة سيّدة، إضافة إلى تحديد حقوق المواطنين، مع مراعاة مبدإ الشورى المعمول به تقليديًّا. وبهذه الطريقة تمّ الحفاظ، بشكل متفاوت في صرامته، على مبادئ الشريعة الإسلاميّة التي كان مطلوبًا تأكيد استمراريّتها، وفي المقابل التخفيف من بعض مفاعيلها في أحيان كثيرة.

١ - ظهرت في الأمبراطوريّة العثمانيّة في القرن التاسع عشر الإجراءات الإصلاحيّة الأولى، المعروفة «بالتنظيمات»، في الحكم والإدارة والتي فرضت، بتأثير الأفكار السائدة آنذاك في أوروبا، المساواة في الحقوق بين المسلمين وغير المسلمين. إلّا أنّ أوّل دستور بكل معنى الكلمة في الأمبراطوريّة العثمانيّة، كان ذلك الذي أعلنه السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٦، تحت ضغط الأوساط الليبراليّة. استوحى هذا الدستور الدستور البلجيكي لعام ١٨٣١، لكنّه قُدّم على أنه منحة سلطانيّة، كما كانت الحال بالنسبة الى الدستور البروسي لعام ١٨٥٠، ونصّ على إنشاء مجلس للوزراء يعيّنه السلطان ويتمتع بالسلطة التنفيذيّة، وعلى إنشاء مجلس للشيوخ يعيّنه السلطان أيضًا، إلى جانب مجلس نوّاب منتخب.

كما أرسى الدستور من جهة أخرى مبدأ الفصل النسبي بين السلطات. وما كاد هذا الدستور يُنشر حتى علّق السلطان العمل به سنة ١٨٧٨. لكنّ جمعيّة «تركيا الفتاة» أصرّت، في العام ١٩٠٨، على إعادة العمل به.

بعد فترة وجيزة، عقب الحرب العالميّة الأولى، أبصرت الدولة التركيّة الجديدة النور. ونصّ «قانون التنظيمات الأساسيّة» الذي وضعته الجمعيّة الوطنيّة الكبرى في العام ١٩٢١ على «أنّ السلطتين التنفيذيّة والتشريعيّة منوطتان بالجمعية الوطنيّة الكبرى التي هي الممثل الفعلي الوحيد للأمّة». وأُتبع هذا القانون بالإلغاء الصريح للسلطنة عام ١٩٢٢ وإعلان الجمهوريّة في العام ١٩٢٣، وإلغاء الخلافة في العام ١٩٢٤. وأُدخلت تعديلات أخرى على القانون منها: في العام ١٩٢٨، أُلغي من الدستور النصّ الوحيد الذي يشير إلى الإسلام دينًا للدولة، ممّا كرّس قيام الجمهوريّة التركيّة العلمانية حيث التشريع الذي تضعه الجمعيّة الوطنيّة هو تشريع مدني. وفي سنة ١٩٦١، أُعلن دستور جديد عقب الانقلاب العسكري الذي أطاح الحكومة في العام ١٩٥٦.

في موازاة ذلك شهدت مصر، خلال القرن التاسع عشر، قيام مؤسّسات أدّت شيئًا فشيئًا إلى إنشاء نظام برلماني، لكن من دون وضع تشريع علماني كما حصل في تركيا. وكان قد أنشأ بونابرت، خلال حملته على مصر، مجالس إستشاريّة عُلّق العمل بها بعد رحيل الفرنسيين، إلّا أنّ محمد علي أعاد العمل بها في العام ١٨٢٩. ويعود للخديوي إسماعيل، بعد ذلك، فضل تأسيس جمعيات جديدة، أهمّها مجلس للنواب الذي أُنشئ سنة ١٨٦٦. وعمد، سنة ١٨٨٢، إلى وضع أوّل دستور بالمعنى الحقيقي نصّ على نظام برلماني. لكنّ هذا الدستور أُلغي سنة ١٨٨٣، بعد وقت قليل من ثورة عرابي باشا.

وخلال الاحتلال البريطاني جرى العمل بدستور آخر نصّ على نظام برلماني، لكن مع جمعية انحصر دورها في الإطار الإستشاري. وأخيرًا حصلت مصر، سنة ١٩٢٣، على دستور خصّ الملك بصلاحيات واسعة. ورغم التقلّبات والصعوبات ظلّ يُعمل به حتّى انقلاب

١٩٥٢. وفي هذا التاريخ تمّ تعيين لجنة دستوريّة أصدرت شرعةً منحت مجلس قيادة الثورة سلطات مطلقة. وبعد فترة وجيزة، في العام ١٩٥٣، أُلغيت الملكية وأعلنت الجمهوريّة؛ وجاء دستور ١٩٥٦ ليرسي أُسس نظام رئاسي.

في الحقبة نفسها، تقريبًا، سلكت تونس - وهي دولة عربيّة تابعة إسميًا للأمبراطوريّة العثمانيّة تشكّل جزءًا من المغرب العربي - طريق الإصلاحات الحكوميّة. ففي سنة ١٨٥٧ أصدر باي تونس، تحت ضغط الدول الأوروبيّة القلقة على وضع غير المسلمين، ميثاقًا تأسيسيًا يضمن لكلّ السكّان، من دون تمييز، الأمن وحرية التجارة والمساواة أمام القانون والضريبة. وفي سنة ١٨٦١ أعلن دستور جعل من الباي الرئيس الأعلى للدولة، يساعده مجلس أعيان معيّن يشارك في وضع القوانين. وقد عُلّق العمل بهذا الدستور عند بسط الحماية الفرنسيّة على البلاد. بعد الحرب العالميّة الأولى، تأسس حزب أخذ يطالب بإعادة العمل بهذا الدستور، فعُرف بـ«حزب الدستور»، وكان هذا الحزب في أساس نشأة «حزب الدستور الجديد» عام ١٩٣٤ برئاسة الحبيب بورقيبة الذي كان يطالب باستقلال البلاد. واجتازت تونس مرحلة جديدة مع استقلالها سنة ١٩٥٦ وانتخاب جمعيّة تأسيسيّة، بدعوة من الباي، ووضع دستور للبلاد في العام ١٩٥٩. وقد نصّ هذا الدستور على قيام «جمهوريّة دينها الإسلام»، لكنّه في المقابل أكّد المساواة بين جميع المواطنين أمام القانون والضريبة، كما نص على إنشاء نظام برلماني قائم على جمعيّة تشريعيّة منتخبة، وعلى رئيس للجمهوريّة يمارس السلطة التنفيذيّة.

وقد ظهرت أيضًا، في القرن التاسع عشر، محاولات إصلاح إداري مستوحاة من أوروبا في المملكة الإيرانيّة، وهي دولة إسلاميّة قويّة. فقد دفعت الأزمة الماليّة في نهاية هذا القرن والاضطرابات التي أشعلتها قضية إدارة التبغ بالشاه الضعيف مظفّر الدين، من سلالة القاجار، إلى إنشاء جمعيّة إستشاريّة في العام ١٩٠٦ لمساعدة مجلس الوزراء في تنفيذ مشاريع مختلفة. وبعد فترة قصيرة، نشر الشاه القانون التأسيسي للدستور الذي كان الوطنيّون من دعاته، للحدّ من الطابع الكيفي لقرارات الشاه المتّهم بالخضوع للمؤسّسات الغربيّة. بقي معمولًا بهذا الدستور، وكذلك ظلّت الجمعيّة الوطنيّة تنعقد حتى ١٩٦١، تاريخ حلّها من قبل الشاه محمّد رضا، ثاني ملوك السلالة البهلويّة. وحتّى هذا التاريخ، كانت الاجراءات المتّخذة تلتزم ما يفرضه الإسلام، وكان القانون مطابقًا للإسلام المعترف به دينًا للدولة، وهو الإسلام الشيعي الإمامي الاثنا عشري الذي يجب أن ينتمي اليه الشاه. علاوة على ذلك، كان الدستور ينص على إخضاع كل القرارات الحكوميّة لموافقة لجنة من خمسة فقهاء بدرجة «مجتهد»، على أن تظلّ هذه اللجنة قائمة حتى عودة حجّة الزمان، أي «المهدي المنتظر» الذي يوقف عملها. وقد كرّس هذا الدستور دور السلطات الدينيّة، لكنّه حمل في طياته نفحة عصريّة، إذ أكّد أنّ السيادة هي «أمانة، بمثابة عطيّة إلهيّة، عهد بها الشعب إلى الشاه». وعمد رضا شاه، مؤسّس السلالة البهلويّة الذي استولى على السلطة في العام ١٩٢٧، إلى تعديل الدستور كي يُدخل في صلبه مادة تنصّ على أنّ السيادة تعود إليه وإلى خلفائه من بعده. وبالفعل، لم تقم الجمعية الوطنيّة بأي دور طيلة عهده. وسنة ١٩٤١ اكتفى ابنه وخليفته بإضافة نص دستوري يمنحه حقّ حل الجمعيّة الوطنيّة، وهو أمر أقدم عليه سنة ١٩٦١. وبعد فترة قصيرة، أرست ثورة ١٩٧٩ أُسس الجمهوريّة الإسلامية الإيرانيّة التي يرتكز نظامها، ذو المنحى الكلياني، على الإسلام الذي يجب أن يرعى كل العلاقات الاجتماعيّة، والذي يستبعد تاليًا كل تأثير غربي. ويشتمل تنظيم الدولة بالتأكيد على بنى ذات طابع غربي: مجلس للنواب؛ مجلس للوزراء ورئيس للجمهوريّة. لكنّ السلطة في الدولة هي بيد الحزب الجمهوري الإسلامي الذي يسيطر عليه رجال الدين. ويتمتّع في هذه الدولة ممثّل الإمام آية الله العظمى، الذي لا يعيّنه الحزب بل تختاره هيئة مجتهدين، بسلطة عليا.

٢- إلى هذه النماذج من الدساتير التي نُشرت لأوّل مرّة في أواخر القرن التاسع عشر والتي كان يجري تحسينها بلمسات متتابعة، تضاف نماذج أُخرى ظهرت في بلدان شرقيّة عدّة في فترة ما بين الحربين

العالميّتين. تلك حال أفغانستان التي اعتُرف باستقلالها سنة ١٩١٩ والتي حصلت، في العام ١٩٢١، على دستور كرّس نظام ملكيّة وراثيّة مع مجلس للوزراء ومجلس إستشاري. وجعل هذا الدستور من الإسلام دينًا للبلاد؛ لكنّه، في المقابل، ضمن الحماية للرعايا غير المسلمين وأفسح في المجال أمام محاولات قام بها الملك أمان الله لإدخال سمات غربيّة الطابع، لكنّها ظلّت من دون نتيجة. وبعد سقوط هذا الملك وحلول أفراد آخرين من عائلته مكانه، تمّ تعديل الدستور سنة ١٩٣٠ وإنشاء جمعيّة وطنيّة إستشاريّة. وقد عُلّق العمل بهذا الدستور عمليًّا بعد سقوط الملكيّة سنة ١٩٧٣ والاحتلال السوفياتي للبلاد سنة ١٩٧٩.

وفي الفترة نفسها وضعت دول أخرى، منها المملكة العربيّة السعوديّة وسلطنة عُمان، دساتيرها مُثبتةً النظام الملكي الوراثي. لكن سواها اعتمد نظامًا برلمانيًا، كما فعل العراق تحت الانتداب البريطاني؛ إذ حصل في العام ١٩١٩ على دستور نصّ على إنشاء مجلس للنواب مكوّن من هيئتين يتقاسم السلطة التشريعيّة مع الملك. وبعد نيل العراق استقلاله، بعد الحرب العالميّة الثانية، أدّت ثورة ١٩٥٨ إلى إعلان الجمهوريّة وإقامة نظام عسكري. وفي ١٩٦٤ وُضع دستور جديد جعل من العراق جمهوريّة ديمقراطيّة شعبيّة سيطر عليها حزب البعث، بدءًا من سنة ١٩٦٨.

أمّا لبنان الذي كان تحت الانتداب الفرنسي، فقد نصّ دستوره الصادر عام ١٩٢٦ على مجلس للنواب مؤلّف من هيئتين؛ كما امتاز بخاصيّة حصر رئاسة الجمهورية بمسيحي ورئاسة الوزراء بمسلم وبتوزيع مقاعد البرلمان بين مختلف الطوائف الدينيّة التي كانت تتقاسم أرضًا كان المسلمون أقلّ عددًا فيها. ومنذ العام ١٩٧٦ لم يعد العمل ممكنًا بشكل طبيعي بهذه التدابير.

في موازاة ذلك حصلت الدولة السوريّة، في العام ١٩٣٠، بدورها على دستور وُضع بمساعدة السلطات الفرنسيّة، وتمّ انتخاب رئيس للجمهوريّة سنة ١٩٣٣. وفي العام ١٩٥٠ عُدّل الدستور وأُدخلت في صلبه مواد تتعلق بـ«نظام الأراضي»، ومن ثم عُلّق العمل به لفترة قصيرة خلال الوحدة السوريّة - المصريّة (١٩٥٨ - ١٩٦١)، ليعاد العمل به لفترة وجيزة حتّى انقلاب ١٩٦٣ الذي ألغى النظام البرلماني وأتاح، كما في العراق، لحزب البعث السيطرة على البلاد. وفي سنة ١٩٧٣ أُرسيت أسس نظام رئاسي ما يزال قائمًا حتّى اليوم.

أما الأردن فقد حصل، سنة ١٩٢٨ - وكان يسمّى آنذاك إمارة شرقي الأردن وكان تحت الانتداب البريطاني -، على دستور نصّ على تأسيس جمعيّة تشريعيّة. وعُدّل هذا الدستور سنة ١٩٤٧ عندما نالت المملكة استقلالها تحت اسم المملكة الأردنيّة الهاشميّة. منذ ذلك الحين طرأت على الدستور تعديلات في مناسبات عدّة، لكنّها أبقت على سلطات واسعة للملك.

٣ - وهناك أخيرًا فئة الدول الإسلامية التي لم يقم فيها تنظيم حكومي واضح إلّا بعد الحرب العالميّة الثانية. ويدخل السودان في عداد هذه الفئة، حيث نص القانون الأساسي لعام ١٩٤٨ على إقامة مجلس تنفيذي وجمعيّة تشريعيّة. وبعد الاستقلال، سنة ١٩٥٦، وُضع دستور جديد لم تسنح فرصة لتطبيقه بسبب تسلّم العسكريّين الحكم في انقلاب ١٩٥٨.

كذلك هو الأمر في ليبيا التي استقلّت في العام ١٩٤٩ والتي صدر دستورها في ١٩٥١ وتشكّلت فيها دولة فدراليّة من ثلاثة كيانات: بَرْقة، طرابلس وفزّان، يرأسها ملك يساعده برلمان مكوّن من مجلسين. وبعد الانقلاب العسكري الذي قامت به مجموعة من الضبّاط في العام ١٩٦٩، تحوّلت ليبيا إلى الجمهوريّة العربيّة الليبيّة، يرأسها العقيد القذافي. وفي العام ١٩٧٧ استُبدلت بها «الجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الإشتراكيّة»، وهي نوع من تنظيم لا مؤسّسات فيه، يُدار بحسب مبدإ الإدارة الذاتيّة برعاية «المرشد».

وحصلت المملكة المغربيّة من جهتها، بعد استقلالها سنة ١٩٥٦، على دستور وضعه الملك الحسن الثاني في كانون الثاني سنة ١٩٦٢، بعد أن خلف والده محمّد الخامس، وعُدّل في العامين ١٩٧٠ و١٩٧٢. ونصّ هذا الدستور على إنشاء مجلس للنوّاب، لكنّه أبقى للملك صلاحيّة اللجوء إلى السلطات الاستثنائيّة. وكان الملك يحرص بشكل خاص على

صفته «أميرًا للمؤمنين» التي يستمدّها من نسبه الشريفي الحسنيّ، والتي تتطلّب منه السهر على احترام الإسلام والدستور.

وفي الفترة نفسها تقريبًا، حصلت موريتانيا - التي كانت قد أصبحت، في العام ١٩٥٨، ضمن «المجموعة الفرنسية»، جمهوريّة موريتانيا الإسلاميّة - على استقلالها وأقرّت في العام ١٩٦١ الدستور الذي وضعته جمعية وطنيّة. ويتمتّع الرئيس، الذي يُشترط فيه أن يكون مسلمًا، بسلطة واسعة في مقابل جمعيّة حُصرت صلاحيتها في النطاق التشريعي. وفي العام ١٩٩١ وضع الدستور الجديد لموريتانيا حدًّا للنظام العسكري الذي فرض نفسه منذ ١٩٨٤.

أخيرًا أصبحت الجزائر، بعد استقلالها في العام ١٩٦٢، جمهوريّة ديموقراطيّة شعبيّة تتركّز كل السلطات فيها بين يدي رئيس مجلس قيادة الثورة، الذي صار يسمّى، منذ ١٩٧٦، رئيسًا للجمهوريّة. لكنّ إرادته ظلّت تتحكّم بإدارة الدولة التي لم تعرف نظام التعدّدية الحزبيّة إلّا منذ فترة وجيزة، وحيث لم تزل الحكومة تواجه معارضة تضعها أمام صعوبات متزايدة.

إنّ تنوّع الأحكام التي تنظّم السلطة والتي تختلف من بلد إلى آخر، ومن نظام إلى آخر - وبخاصة في أفريقيا الشماليّة الإسلاميّة التي شهدت تطورًا سريعًا بعد الحرب العالميّة الثانية - يتّسع أكثر فأكثر عندما ننتقل إلى المناطق التي اعتنقت الإسلام في آسيا الموسميّة. فإندونيسيا التي استقلّت عام ١٩٤٩ كانت قد حصلت، منذ ١٩٤٥، على دستور أسّس لجمهوريّة بدون أي إشارة إلى الإسلام، وكانت تمارس السيادة فيها جمعيّة الشعب الاستشاريّة، ولرئيس الجمهوريّة حقّ اللجوء إلى سلطات طوارئ. إنّ التعديلات البسيطة التي أُدخلت على الدستور في العامين ١٩٥٠ و١٩٥٩ لم تبدّل من جوهر ما هو في الواقع نظام رئاسي متسلّط، وإنّ الدستور، مع أنّه لا يشير إلى الإسلام، ينصّ على أنّ الجمهوريّة «تقوم على الإيمان بالله العلي القدير».

من جهتها حصلت باكستان - التي تأسّست عام ١٩٤٧ لتضمّ كلّ مسلمي شبه القارة الهنديّة - على دستور في العام ١٩٥٦، وقد نصّ على إنشاء جمهوريّة باكستان الإسلاميّة، وهي ذات نظام فدرالي يديرها رئيس تنتخبه البرلمانات المركزيّة والمناطقيّة، ويُشترط فيه أن يكون مسلمًا. في العام ١٩٥٨ عُلّق العمل بهذا الدستور، واستُبدل به سنة ١٩٦٢ دستور جديد حدّ من صلاحيات المقاطعات، وأنشأ نظامًا رئاسيًّا وأكّد، في الوقت نفسه، مساواة الجميع أمام القانون، لكنّه أكّد في المقابل أنّ القوانين لا يمكن أن تخالف الفرائض التي ينصّ عليها الإسلام.

هكذا، لم يبقَ في العالم الإسلامي اليوم سوى دول قليلة تفتقر إلى دساتير تحدّد العلاقة بين السلطات التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة، وكذلك حقوق الرعايا. ورغم ذلك تتفاوت أشكال الأنظمة، من جمهوريّة برلمانيّة إلى ملكيّة دستوريّة على النمط الغربي، وصولًا إلى أنظمة رئاسيّة ذات طابع عسكري أو قريب من الديموقراطيات الشعبيّة. ويتغيّر موقع الإسلام - الذي هو من حيث المبدأ أساس التشريع - بين نظام وآخر. فهو في أكثر الأحيان - لكن ليس دائمًا - دين الدولة، حتّى لو أنّ أنظمة الأحوال الشخصيّة تدين له بخصائصها الأساسيّة.

دستور (حزب ال) ← **تونس**.

الدعوة، تعبير ينطبق على «التبشير» السياسي - الديني الذي يقوم به «الداعي» أو ذاك الذي يدعو إلى العقيدة الصحيحة.

وقد تنظّمت حركات سريّة أحيانًا، في العصور الأولى للاسلام، من أجل نشر الدعوة لفرق جعلت همّها الوصول إلى السلطة، فكانت تقيم شبكات من المناصرين بهدف إطلاق ثورات مسلّحة. على هذا النمط انتشرت الدعوة الشيعيّة، من زيديّة وإماميّة، في المناطق المؤيّدة للعلويّة والتي تتّسم بإخلاصها لشخصيّة الإمام. وإنّ دعوة نشرت بهذه الطريقة أدّت إلى نجاح الثورة العبّاسيّة في مطلع القرن الثاني للهجرة/القرن الثامن للميلاد. أمّا الدعوة الفاطميّة في القرن الثالث للهجرة/أواخر القرن التاسع للميلاد، فقد انتشرت باسم الإسماعيليّة، واستمرّت زمنًا نظامًا قائمًا متسلسلًا، حتّى

بعد وصول السلالة إلى الحكم. وهناك دعوات أخرى قامت عبر العصور تساند تيّارات سياسيّة ذات طابع دينيّ، ونجح بعضها في بلوغ السلطة داخل مناطق محدّدة.

الدفاع عن الدين، هو قيام خطاب، في العصور الأولى للإسلام، يتّسم بطابع الحدّة، ويهدف إلى ضرورة الدفاع عن الدين الجديد؛ ثمّ، بعد استفحال الخصام الداخلي، إلى الدفاع عن المذاهب المختلفة.

وقد أوحى الدفاع عن الدين في العالم الإسلامي أعمالًا فكريّة كثيرة، بدءًا بالأبحاث في علم الكلام؛ كما أوحى، منذ العهود الأولى، مؤلّفات عديدة صغيرة تثبت الإسلام في وجه المسيحيّة والمانويّة. وكان أتباع هاتين الديانتين منتشرين في المناطق التي خضعت للدين الجديد خلال الفتوحات الكبرى. كما ساعد على إيجاد الأسس التي اعتمدها الدعاة الذين دافعوا عن مختلف الحركات السياسيّة - الدينيّة، وعن مختلف الفرق التي تشعّبت في العالم الإسلامي مع تعاقب العصور، وشاركت في المناظرات وفي الصراع المسلّح، بغية أن تثبت كلّ واحدة تفوّقها.

دَكّا (بنغلادش)، مدينة إسلاميّة كبرى في مقاطعة البنغال الهنديّة القديمة، أصبحت عاصمة الدولة الجديدة المستقلّة، بعدما كانت عاصمة لباكستان الشرقيّة، إثر انسلاخها عن الهند سنة ١٩٤٧.

والمدينة الحاليّة، بأحيائها الصناعيّة وسكّانها الذين يتزايدون باستمرار، لم تمحُ ذكرى مدينة القرون الوسطى المحصّنة التي، بموقعها الإستراتيجي بعيدًا من الدلتا - وهي اليوم تبعد ٢٠٠ كلم عن البحر - كان لها دور مهمّ في تاريخ المنطقة السياسي، ما ساعد على دخولها الإسلام في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، على أثر الانتصار الذي حقّقته الجيوش المغوليّة سنة ١٦٠٨. خلفَ الأسر الحاكمة - التي كانت قد جعلت من هذه المدينة مركزاً لها - أسيادٌ أقوياء حكموا حتّى سنة ١٧٠٦، فغيّروا معالم المدينة وتركوا أبنية إسلاميّة ما تزال اليوم تشير إلى عظمتهم.

إلّا أنّ دكّا التي شهدت ازدهاراً حقيقيًّا، في حقلي التجارة والحرف المتنوّعة؛ وكانت مركزاً مهمًّا للنسيج، خسرت من أهميّتها خلال مرحلة الاحتلال البريطاني، وذلك لمصلحة مدينة كلكوتا. وفي مقابل ذلك تركّزت فيها الجهود الدينيّة التي دافعت عن حقوق المسلمين في البنغال، وتأسّست في المدينة الرابطة الإسلاميّة الهنديّة، سنة ١٩٠٦، التي كان لها دورها البارز في ولادة باكستان. وقد عرفت ازدهاراً فكريًّا أسهم فيه تأسيس جامعتها سنة ١٩٢١. وبعد سنة ١٩٤٧ كان قدرها أن تتبع القسم الشرقيّ من الدولة الإسلاميّة الجديدة التي أُنشئت في شبه القارّة الهنديّة.

الدَّكَّن، إسم يُطلق على القسم الجنوبيّ من شبه الجزيرة الهنديّة حيث بدأ الإسلام ينتشر إبتداءً من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد. ولكنّه، بعد انقلابات عدّة وتغييرات اتسمت بالاضطراب، لم يستمرّ في القرن العشرين "دينًا للأمير الحاكم" إلّا في ولاية حيدر آباد.

ومنطقة الدكن حصرًا تتميّز هضبتها الكبرى جغرافيًّا عمّا يُعرف تحديدًا باسم جنوب الهند؛ وهي تضمّ مقاطعات تختلف في ما بينها، على الصعيدين التاريخيّ والجغرافيّ، ومنها مقاطعات أحمد نغرّ وبيجابور، وبيرار القديمة، وأورنْغ آباد وحيدر آباد. هذه المساحة الواسعة التي تفتقر الى التجانس إثنيًّا ولغويًّا، احتلّها سلاطين دلهي من سلالة تُغْلُق، في مطلع القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وأسّسوا فيها عاصمتهم الثانية تحت اسم دولة آباد، ولكنّ تلك المساحة سرعان ما خرجت عن سيطرتهم.

على أثر ذلك، قامت في الجنوب أمبراطوريّة إسلاميّة هي أمبراطورية البَهْمنيّين في كُلبَرْكه وبيدار، وتفرّعت منها، في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، ممالك متعدّدة، بعضُها مال إلى الشيعة. ووقع النزاع بينها قبل أن تتمكّن سلالة المغول القويّة من ضمّها بالتالي إليها. وهكذا رأينا العمادشاهيّين (١٤٩٠ - ١٥٧٤م) يتخلّون عن الحكم لمصلحة النظامشاهيّين (١٤٩١ - ١٦٣٣م)، حكّام أحمد ناغار ودولة آباد، ثمّ يخضعون بدورهم لسلطاني المغول أكبر وشاه جهان. ومن جهة ثانية عمد البريدشاهيون (١٥٢٧ - ١٦١٩م) في بيدار الى انتزاع السلطة من آخر البهمنيّين، وما عتموا أن خضعوا لسلطة العادلشاهيّين (١٥٢٧ -

١٦١٠م)، حكّام بيجابور المتسامحين. وهؤلاء بدورهم بزمهم أورنكزيب سنة ١٦٨٦م، قبل أن يضطرّ الى لخضوع لحكم القُطبشاهيّين، حكّام كولكندة وحيدر باد.

هذه الدول التي لم تعمّر طويلاً شهدت كلّها ازدهارًا ثقافيًا تميّز، في فنّه وأفكاره الدينيّة، بقوّة أسسه الهنديّة تأثره بالتيارات الوافدة من إيران، وقد حملها مهاجرون قدموا عن طريق البحر. هذا التفاعل تشير إليه اليوم أبنية أدوات ثمينة ومنمنمات ذات طابع هندي إيراني مميّز.

لم يحمل انتصار المغول، بعد ذلك، إلّا على توقيف الاضطرابات السياسيّة مدّة وجيزة في الدّكن حيث انتفض المهراته بقوّة؛ كما تصارعت ممالك سلاميّة كان المسلمون لا يزالون فيها أقليّات. وحدها سلالة الأسَفْجهيد المحليّة، المعروفة باسم نظام، ستطاعت أن تشكّل حول أورَنْغ آباد، ثمّ حيدر آباد، دولة إسلاميّة بقيت قائمة حتى ضمّها إلى الاتّحاد الهندي سنة ١٩٤٨، ما أدّى الى تفكّكها وانتهائها سنة ١٩٥٦.

◄ راجع المستندات ٣١ الى ٣٥.

دلْهي (الاتحاد الهندي)، أو دهلي، حاضرة تقع شمال الهند أصبحت عاصمة إداريّة لأمبراطوريّة الهند البريطانيّة، ثمّ للاتّحاد الهندي. عرفت ماضيًا إسلاميًّا مميّزًا كعاصمة لسلاطين دلهي حتّى سنة ١٥٥٥، وللمغول الكبار حتى سنة ١٨٥٨.

١ – تقع مدينة دلهي على ضفّتي نهر جمنا في سهل الغانج العالي. وقد تميّزت بوجود منشآت ملكيّة، ومبان حكوميّة، وتجمّعات تجاريّة، لحق الخراب بعضها وما يزال بعضها الآخر قائمًا. وهي تشهد على تراكم الأدوار السياسيّة التي لعبتها المدينة، وعلى التدفّق السكّاني الذي عرفته حتّى إنشاء مدينة نيودلهي الحديثة.

من أقدم المنشآت قلعة لا لكُوت التي بُنيت سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م، احتلّها قطب الدين أيبك، مؤسّس السلالة الأولى لسلاطين دلهي، وهي سلالة الملوك العبيد. وقد بنى فيها سنة ٥٨٦هـ/١١٩٢م، مسجد قوّة الإسلام بعدما انتزع حجارته من معابد هندوسيّة، وباشر برفع المئذنة المخروطيّة الشهيرة بحجارة نجميّة الشكل، مع زخارف قوامها أفاريز كتابيّة، وهي المعروفة باسم قطب منار. الهدف من إقامتها تخليد انتصاراته واستعمالها للآذان. وقد أكمل خلفاؤه بناءها واضافوا أبنية أخرى وأنشأوا المدينة الملكيّة المعروفة باسم قلعة رَاي بيثورا. وعند وصول تلك السلالة إلى أواخر حكمها، بعد مرور نحو قرن، بنى أحد أفرادها، السلطان كَيْقباذ، قصرًا جديدًا في كيلوخري سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. لكنّ الخَلْجيّين، الذين استولوا آنذاك على السلطة، أهملوا هذا البناء ليعودوا الى المدينة الأولى التي حموها في وجه هجمات المغول، عن طريق إنشاء معسكر محصّن في الشمال، في سهل سيري.

في سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، اختار السلطان تُغلُق، مؤسّس السلالة التي تحمل اسمه، مكانًا مختلفًا لعاصمته شرقي المكان السابق، وأطلق عليه اسم تُغلُق آباد، فيه تقوم حتّى الآن منشآت متينة وفخمة ما تزال معالمها تستقبل الزائرين حتّى اليوم، وبينها حصن وقصر ومسجد. وأضيفت الى هذا البناء قلعة عُرفت باسم عادل آباد، بناها ابن تُغلق ووريثه محمّد شاه الذي نقل مقرّه، سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٩م، إلى دولة آباد. وبعد عودته الى دلهي قرّر تكبير المدينة القديمة عن طريق إقامة سور يصلها بسهل سيري، وبناء مدينة في تلك المساحة التي أطلق عليها اسم جهان پَنَاه. ثمّ جاء السلطان فيروز شاه الثالث، ابن عم محمد ووريثه، فبنى له مقرًّا عُرف باسم فيروز آباد، إلى الشمال من دلهي، لم يبقَ منه إلّا قلعة تحوي قصرًا ومسجدًا. كما بنى مدرسة تحمل اسمه وتجاور ضريحه في عاصمة تكاثرت فيها، بحسب المصادر المكتوبة، المدارس والمستشفيات وعدد من المؤسّسات الدينيّة، ممّا يشير الى الدور الذي أدّته في عمليّة نشر الإسلام.

بعد غزوات تيمورلنك، أُهملت مدينة دلهي وتحوّلت مدينة أموات واسعة، لم يحاول ترميمها سلاطين أسرتي سَيِّد ولُودي اللتين حكمتا مدّة وجيزة. ولم يُستأنف الترميم والبناء إلّا بعد الانتصار الذي حقّقه بابرُ في پانيپات سنة ١٥٢٦م، ومعه بدأت قوّة المغول تتعاظم في شمال الهند. فأصبحت دلهي آنذاك عاصمة أمبراطوريّة أوْلاها همايون، ابن بابر ووريثه، عناية خاصّة، وبنى فيها قلعة دِيْنْپَناه سنة ١٥٣٣م. وقد هُزم

ونُفي تاركًا مكانه لسلاطين من أصل أفغاني أهمّهم شيرشاه الذي هزمه في معركة قِنّوج. فبقي خارج الحكم من سنة ١٥٤٠ حتى سنة ١٥٥٥م، وعاد بعدها إلى تولّي السلطة في دلهي. وابتداءً من سنة ١٥٥٦ تحوّلت المدينة، خلال مُلك السلطان أكبر، مركزًا إداريًا منظّمًا ومتطوّرًا، وفيها أُقيم ضريح همايون الذي باشرت ببنائه أرملته سنة ١٥٦٨م. وفي وقت لاحق اختار شاه جهان (١٦٢٨ - ١٦٥٧م) أغرا مقرًّا له لبضع سنوات، ثمّ تخلّى عنها وبنى، في سنة ١٦٣٩م، مدينة جديدة أسماها شاه جهان آباد، وفيها قلعة باسم القلعة الحمراء، وكانت في الوقت عينه قصرًا يحوي، حتّى اليوم، قاعات استقبال فخمة، ومسجدًا من المرمر الأبيض. وتميّزت المدينة المغوليّة كذلك بوجود مسجد ضخم يتّسم بالفخامة، وعدد من المباني الرسميّة؛ وقد استمرّت حركة العمران حتى سنة ١٩١١، حين نقلت السلطات البريطانيّة العاصمة الإداريّة من كلكوتا إلى نيودلهي. وهذه المدينة الأخيرة استمرّت أهميّتها في ازدياد كعاصمة للإتّحاد الهندي بعد الانشقاق سنة ١٩٤٧. وهي اليوم حاضرة كبيرة، وتعتبر المدينة الثالثة في البلاد.

٢ - سلاطين دلهي (١٢٠٦ - ١٥٥٥م): هم الأسياد الأوائل الذين حكموا، إنطلاقًا من دلهي، شمال الهند وبسطوا سلطتهم على المناطق المجاورة لمدينة دلهي وعرفوا كيف يزرعون الإسلام بعمقٍ في هذه البلاد. وقد كانوا سلالات متعدّدة تقاسمت السلطة تباعًا: الملوك العبيد أو المُعِزّون، الخَلْجيّون والتغلقيّون وآل السيّد، وآل لودي، وآل سُوري.

في أواخر القرن السادس للهجرة/أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، استطاع مُعزّ الدين محمّد بن سام الغوري، بمساعدة معاونيه الأتراك، وبينهم قطب الدين أيبك، أن ينتزع المناطق التي كان قد احتلّها الغزنويّون في البنجاب ولجأوا إليها، سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، حيث لاذوا بعاصمتهم لاهور. وقد كانت الحملات العسكريّة طويلة وصعبة، تكلّلت مع ذلك باحتلال لاهور سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م. وتبعتها غارات متواصلة في سهل الغانج وصولًا الى البنغال من جهة، والى غجرات من جهة ثانية. وعندما توفي معزّ الدين سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م، كان الغوريّون قد أسّسوا لأنفسهم قاعدة محدودة لكنّها صلبة، أقام عليها أَيْبَك سلطته بعد أن حكم لاهور كملك تابع للدولة الغوريّة المحتضرة التي سيقضي عليها نهائيًا الخوارزمشاهيّون والمغول. وقد استقرّ أيبك بعد ذلك في دلهي وتوفّي سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م. فخلفه صهر التركي شمس الدين أَلْطَميش الذي هو أيضًا عبد معتق وهذا ما يفسّر تسمية السلالة الأولى التي حكمت دلهي باسم الملوك العبيد. وقد اعتلوا العرش بفعل علاقة الموالي بالأسياد وبفعل علاقة القربى، وسُمّوا لذلك باسم المُعِزّين نسبة إلى معزّ الدين الغوريّ سيّد أَيْبَك وأَلْطَميش.

دام حكم أَلْطَميش خمسًا وعشرين سنة، واستطاع أن يثبّت استقلال مملكته وأن يستولي على السِنْد التي كانت ما تزال بيد قائد تركي آخر من قادة معزّ الدين. وفي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، اعترف به الخليفة العبّاسي المستنصر سلطانًا ومنحه لقب «ناصر أمير المؤمنين». وقد خسر ورثته سلطتهم لمصلحة مُعتَق تركي آخر وعبد سابق لألطميش، هو غياث الدين بَلْبان الذي حكم بحزم، لكنه ترك هو أيضًا ورثةً عاجزين.

في سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، استطاع قائد أفغاني من الخلجيّين، وهو جلال الدين فيروز شاه الثاني، أن يؤسّس بالقوّة سلالة ثانية، وأن يوسّع الملك باتّجاه مَلْوى والدَّكن وصولًا إلى ديوجير. كما استطاع صدّ هجمات المغول، والقيام باصلاحات إداريّة حكيمة والحفاظ على علاقات طيّبة بأمراء الهندوس الذين خضعوا له. إلّا أنّ هذه السلالة، بعد ملك علاء الدين محمّد شاه الأوّل، لم تصمد أكثر من سابقتها في وجه المنافسات الداخليّة.

واستطاع قائد تركي مجدّدًا أن يستأثر بالسلطة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، وهو غياث الدين تغلق، وقد خلفه ولده غياث الدين محمّد شاه الثاني وحكمَ خمسًا وعشرين سنة. إلّا أنّ هذا السلطان الجريء والحازم كان عليه مواجهة عدد متكاثر من الانتفاضات، كما أفشل مخطّطات الجَغتائيّين لغزو بلاده، لكنّه لم ينجح في إعادة التوازن الجغرافيّ لمملكته. نقل عاصمته الى ديوجير (دولة آباد)، فخسر البنغال والدكّن، في الوقت

لذي كان يتصدّى فيه لانتفاضة الأوساط الصوفيّة. وقد ال هؤلاء إلى ابن عمّه ووريثه فيروز شاه الثالث الذي تّبع سياسة مهادنة، وأعاد الحكم السلطاني إلى السند البنغال من دون الاكتراث بالدكّن. وبعد وفاته سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م، اجتاح تيمورلنك، سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، دلهي، فبدأ عهد الضعف بالنسبة إلى سلاطين دلهي، ممّا سيؤدّي الى تفكّك دولتهم.

أمّا آل السيّد الذين سُمّوا كذلك لزعمهم أنّهم رجعون بنسبهم الى سلالة نبيّ المسلمين، فقد حكموا لهي نفسها والمناطق المجاورة ممثّلين للتيموريّين، كنّ الشعب كان يكرههم، فحلّ مكانهم سنة ١٤٥١م آل ودي، وهم قادة قبائل أفغانيّة قدموا من منطقة مُلتان. قد حقّقوا عددًا من الانتصارات، ولا سيّما على أمراء سلالة الشرقيّين في جينپور. كما بذلوا الجهود للإمساك الهند الوسطى، ما حملهم على نقل عاصمتهم موقّتًا إلى غرا. إلّا أنّ ذلك كلّه لم يحل دون انهيار السلالة أمام نتصار بابُر في پانيپات سنة ١٥٢٦م، وهو من سلالة لجغتائيّين ومؤسّس أمبراطوريّة المغول في الهند.

وفي سنة ١٥٤٠م عادت الى عرش سلطنة الهند سلالة من الأسياد الأفغان، بعد انتصار هؤلاء على لأمبراطور المغولي همايون في معركة قنّوج سنة ١٥٤٠، بقيادة شير شاه السوري. لكنّ حكمها لم يدم كثر من خمس عشرة سنة، ولم يقف حائلًا دون انتصار لمغول الكبار الذين سيعملون، بأسلوب جديد، على سلمة شبه القارة الهنديّة، بعد ما راود هذا المشروع سياد الحرب الأوائل، وهم مماليك من أصل تركي كانوا قد استقرّوا في دلهي في القرن السابع للهجرة/ لثالث عشر للميلاد.

لملوك العبيد أو المُعِزّون

قطب الدين أيبك	٦٠٢-٦٠٧هـ/١٢٠٦ - ١٢١٠م
رام شاه	٦٠٧-٦٠٨هـ/١٢١٠ - ١٢١١م
شمس الدين ألتُطميش	٦٠٨-٦٣٣هـ/١٢١١ - ١٢٣٦م
كن الدين فيروز شاه الأول	٦٣٣هـ/١٢٣٦م
جلال الدين رضيّه بيغوم	٦٣٣-٦٣٧هـ/١٢٣٦ - ١٢٤٠م
عزّ الدين بهرام شاه	٦٣٧-٦٣٩هـ/١٢٤٠ - ١٢٤٢م
علاء الدين مسعود شاه	٦٣٩-٦٤٤هـ/١٢٤٢ - ١٢٤٦م
ناصر الدين محمود شاه	٦٤٤-٦٦٤هـ/١٢٤٦ - ١٢٦٦م
غياث الدين بلبان	٦٦٤-٦٨٦هـ/١٢٦٦ - ١٢٨٧م
معز الدين كيقُباد	٦٨٦-٦٨٩هـ/١٢٨٧ - ١٢٩٠م
شمس الدين كيومَرْث	٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م

الخلجيّون

جلال الدين فيروز شاه الثاني	٦٨٩-٦٩٥هـ/ ١٢٩٠ - ١٢٩٦م
ركن الدين ابراهيم شاه الأول	٦٩٥هـ/١٢٩٦م
علاء الدين شاه الأول	٦٩٥-٧١٦هـ/١٢٩٦ - ١٣١٦م
شهاب الدين عمر شاه	٧١٦هـ/١٣١٦م
قطب الدين مبارك شاه	٧١٦-٧٢٠هـ/١٣١٦ - ١٣٢٠م
ناصر الدين خسرو شاه	٧٢٠هـ/١٣٢٠م

التُغلُقيّون

غياث الدين تغلق شاه الأوّل	٧٢٠-٧٢٥هـ/١٣٢٠ - ١٣٢٥م
محمّد الثاني بن تغلق	٧٢٥-٧٥٢هـ/١٣٢٥-١٣٥١م
فيروز شاه الثالث	٧٥٢-٧٩٠هـ/١٣٥١ - ١٣٨٨م
غياث الدين تغلق شاه الثاني	٧٩٠-٧٩١هـ/١٣٨٨ - ١٣٨٩م
أبو بكر شاه	٧٩١-٧٩٢هـ/١٣٨٩ - ١٣٩٠م
محمد شاه الثالث	٧٩٢-٧٩٦هـ/١٣٩٠ - ١٣٩٤م
سكندر شاه الأوّل	٧٩٦هـ/١٣٩٤م
محمود شاه الثاني	٧٩٦-٧٩٧هـ/١٣٩٤ - ١٣٩٥م
نصرت شاه	٧٩٧-٨٠١هـ/١٣٩٥ - ١٣٩٩م
محمود شاه الثاني	٨٠١-٨١٦هـ/١٣٩٩-١٤١٣م
دولة خان لودي	٨١٦-٨١٧هـ/١٤١٣ - ١٤١٤م

آل السيّد

خضر خان سيد	٨١٧-٨٢٤هـ/١٤١٤ - ١٤٢١م
معزّ الدين مبارك شاه الثاني	٨٢٤-٨٣٧هـ/١٤٢١ - ١٤٣٤م
محمّد شاه الرابع	٨٣٧-٨٤٧هـ/١٤٣٤ - ١٤٤٣م
علاء الدين عالم شاه	٨٤٧-٨٥٥هـ/١٤٤٣ - ١٤٥١م

آل لودي

بهلول لودي	٨٥٥-٨٩٣هـ/١٤٥١ - ١٤٨٨م
نظام خان سكندر الثاني	٨٩٣-٩٢٣هـ/١٤٨٨ - ١٥١٧م
إبراهيم الثاني	٩٢٣-٩٣٢هـ/١٥١٧ - ١٥٢٦م

آل سوري (الأفغان)

شير شاه السوري	٩٤٧ ٩٥٢هـ/١٥٤٠ - ١٥٤٥م
إسلام شاه	٩٥٢-٩٥٩هـ/١٥٤٥ - ١٥٥٢م
محمّد الخامس عادل شاه	٩٥٩-٩٦٠هـ/١٥٥٢م - ١٥٥٣م
إبراهيم الثالث	٩٦٠-٩٦٢هـ/١٥٥٣م - ١٥٥٥م
أحمد خان اسكندر شاه الثالث	٩٦٢ هـ/١٥٥٥م

◄ راجع المستندات ٢٣، ٣٠ إلى ٣٥، ٧٣ الى ٧٥.

دمشق (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، هي دمشق الشام،

مدينة مزدهرة وعاصمة سوريا منذ القرون الوسطى ؛ عرفت مسارًا تاريخيًا متكاملًا ، دونما تغيير ، وتطوّرت عبر العصور بشكل مستمرّ .

هذه الخصائص لا تقاسمها دمشق إلّا مع عدد قليل من كبريات المدن الإسلاميّة ، وهي مرتبطة بموقعها الجغرافي المميّز في واحة سكّانها من الحضر ، ترتفع عن سطح البحر ؛ وهي الغوطة المشرفة على قسم من سلسلة جبال لبنان الشرقيّة والمطلّة على البادية السوريّة العربيّة . ومنذ العهود القديمة كانت محطّ أنظار البدو من الداخل ، وهيّ منفتحة على مناطقهم ، في الوقت الذي شكّلت فيه المرتفعات حاجزًا يحول دون اتّصالها السهل بالمناطق الساحليّة ، وقد ساعد على استمرارها توافر المياه لسقاية أرضها الخصبة ، بفضل قنوات تنطلق من مجرى نهر بردى الصغير . وشهرة المدينة جعلتها من الموضوعات المفضّلة لدى الشعراء العرب ، كما أنّ غنى أسواقها المحلّية حملّ البدو على ارتيادها ، فجُعلت محطّة على طرق القوافل المتنقّلة من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، مجتازة بذلك الأراضي السوريّة . ودمشق التي كانت على طريق الحجّ باتجاه مكّة المكرّمة تمتّعت بأهمّية خاصة في العهد العثماني ، كما شكّلت من قبل مركزًا لأوّل أمبراطوريّة عربيّة - إسلاميّة ، هي الخلافة الأمويّة ، مع قوّاتها العسكريّة الوافدة من شبه الجزيرة العربيّة . وفي العهد الصليبيّ تحوّلت قاعدة متينة للإسلام ، وإليها كان يصل الدعم من الصحراء لمساندة المقاومة في وجه الفرنج .

هذه المدينة التي كانت سابقًا بيزنطيّة ، ثمّ وقعت في أيدي المسلمين دونما مقاومة تذكر خلال الفتوحات الكبرى - كان الاحتلال النهائي لها سنة ١٥هـ/٦٣٦م ، إثر معركة اليرموك - تُعتبر وريثة تاريخ طويل يبدأ مع العهد البرونزي ، تحوّلت بعده الى عاصمة دولة آرامية . وفي العهد الهلّيني أُنشئت فيها أبنية متنوّعة ونُظّمت أحياؤها على شكل مربّعات . وظهرت في العهد الروماني أسواق تجاريّة تتوّج شوارعها الأبواب العالية ، كان أحدها يؤدّي إلى هيكل للإله السامي «هدد أو أدد» الذي تحوّل إلى هيكل للإله «زوس» الدمشقي . وكان هذا الهيكل يجاور ساحة عامة وتحوّل ، في العهد البيزنطيّ ، إلى كاتدرائيّة على اسم القديس يوحنا المعمدان . وبعد احتلال المسلمين دمشق ، يُقال إنّهم تقاسموا الكنيسة مع المسيحيّين . وفي سنة ٨٦هـ/٧٠٥م عمد الوليد ، الخليفة الأمويّ السادس والثالث من البيت المرواني ، إلى هدم الكنيسة ليرفع مكانها المسجد الجامع ، بعد تزايد أعداد الداخلين في الإسلام من أبناء المدينة . وقد راعى هذا المسجد الجامع نوعًا جديدًا من الهندسة ، مبرزًا الفسحة التي يدير منها الخليفة الصلاة ويلقي خطبته أمام المؤمنين . وهو ما يزال اليوم ، بزخارف فنّانه ، واحدًا من النماذج المميّزة في الهندسة المعماريّة الإسلاميّة . وكان قصر الحاكم ، ثمّ الخليفة يلاصق هذا البناء ، ثمّ أزيل بعد ذلك ، وكان يُعرف باسم «الخضراء» .

كانت دمشق في ذلك الوقت عاصمة إداريّة للخلافة ، كما كانت ، في الوقت نفسه ، مركزًا للجند الذي يحيط بها . وفي العصر العبّاسي هبطت منزلة دمشق ، وتهدّمت حصونها وبقيت ، حتّى وصول السلاجقة في أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد ، مدينة من الدرجة الثانية . ولم تعرف الازدهار مجدّدًا إلّا في عهدهم وفي عهد الحكّام الذين عيّنوهم ، نعني بهم الأتابكة البوريّين الذين تركوا الحكم لاحقًا لنور الدين زنكي ولأمراء الأسرة الأيوبيّة . فتغيّرت آنذاك مرتبة المدينة وشهدت تطوّرًا ملحوظًا ، فتقوّت تحصيناتها في الوقت الذي ازداد فيه تهديد الفرنج ورُمّمت أبوابها بحسب آخر التقنيّات العسكريّة ، ورُفعت فيها قلعة في موقع حيّ رومانيّ قديم محصّن . كما امتدّت أحياء جديدة شمالًا وجنوبًا وغربًا ، وجُدّدت فيها أقنية جرّ المياه ، وأُدخل تعديل على المسجد الجامع فأُضيف إليه جناح بقبّة تناسب الفن المعماري للعهد السلجوقي . وشُيّدت أبنية جديدة في المدينة كالمستشفيات والمدارس التي كان أوّلها سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م ، وزوايا عُرفت بـ«الخوانق» ، ومعاهد تدريس الحديث ، وعدد من الحمّامات العامّة . وقد أدّى تطوّر الحياة الإقتصاديّة إلى تعديل الأسواق الواقعة على جهتي المسجد الجامع ، وإلى تطويل السوق المعترضة أو «الطريق القديمة» التي تعود إلى العهد الروماني وأسواقها التي توزّعت فيها مختلف أنواع الحرف ، على

غرار سائر المدن الإسلاميّة في القرون الوسطى، ضمّت، إضافةً الى صفوف الحوانيت، القيساريّات المخصّصة للسلع الثمينة، كما ضمّت الفنادق والمخازن وخانات القوافل التي ينزل فيها التجّار العابرون ويدفعون الرسوم المتوجّبة عليهم. أمّا الأحياء السكنيّة فتكوّنت من مجموعة منازل متجاورة في طرق غير نافذة تُقفل ليلًا، تأمينًا للسلامة العامّة. وفي أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، أقيم في دمشق حيّ جديد على منحدر جبل قاسيون عُرف باسم حيّ الصالحيّة، وأقام فيه عدد من رجال الدين، بينهم أسر من الحنابلة الذين غادروا فلسطين بعد قيام دولة الفرنج فيها.

كانت دمشق، في زمن الأيّوبيّين، عاصمة عامرة ومزدهرة، فاختيرت لتأوي مدفني صلاح الدين وأخيه الملك العادل. إلّا أنّها تعرّضت للخراب على أيدي المغول سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وتحوّلت، في العصر المملوكي، إلى عاصمة مقاطعة بسيطة. مع ذلك فإنّ السلطان بيبرس أقام فيها غير مرّة، ورمّم قلعتها، وبنى خارج الأسوار قصرًا جعله مقرًّا له. ولم تعرف المدينة في ظلّ مماليك المرحلة اللّاحقة تحسينات تُذكر. وقد افتتحها تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، قبل أن تشهد في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، نشاطًا تجاريًّا ملحوظًا، إذ نهضت من خرابها وأفسحت في المجال أمام قيام عدد من المدافن والأضرحة لكبار الأمراء في ضواحيها القريبة. كما خُصّصت أسواق لتجهيز الفرسان قرب القلعة. أمّا الأسواق القديمة فنقلت لتقترب من المسجد الجامع.

لم يجرِ في العهد العثماني أيّ تطوير لنمط الحياة في دمشق، بل حوفظ على النشاط التجاريّ، وفُتح الباب أمام التجّار الأوروبيّين. وقد كثر عدد الخانات المخصّصة للقوافل، ونال بعضها شهرة خاصّة كفندق البندقيّة الذي شُيّد سنة ١٥٣٣م، كما أُقيمت فنادق لقوافل الحجّ القادمة من الأناضول واسطنبول والمناطق الشماليّة. وكانت دمشق المحطّة الأخيرة للحجّاج في بلاد الحضر: انطلاقًا منها كان أمير الحج يتسلّم قيادة القافلة ويرافق المحمل. وامتدّت أحياء جديدة على الطريق الجنوبيّة التي أقام فيها الحجّاج، كما شُيّدت مجمّعات سكنيّة بحسب هندسة اسطنبول حول مساجد ذات قباب ضخمة ومآذن مستطيلة بدّلت بعض الشيء معالم المدينة. وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت تغييرات جديدة على صعيد التنظيم الداخلي، وذلك عندما عمد الوالي مدحت باشا، الذي عُيّن سنة ١٨٧٨، إلى تحسين وضع السير بتوسيع السوق المؤدّية إلى المسجد الجامع، وأُطلق عليها اسم سوق الحميديّة، نسبة إلى السلطان العثمانيّ عبد الحميد.

برز دور دمشق التاريخي مجدّدًا بعد تفكّك السلطنة العثمانية، وخلال الأحداث التي شهدها القرن العشرون بعد الحرب العالميّة الأولى. والمدينة التي ضمّت المؤسّسات الإداريّة في عهد الانتداب الفرنسي، أصبحت عاصمة الدولة السوريّة المستقلّة. فتوسّعت أحياؤها وشملت الصالحيّة وغمرت أبنيتها الحديثة تدريجيًّا قرى الغوطة. وقد ترافق الازدهار التجاري والصناعي مع تطوّر ثقافيّ بارز، إذ أصبحت دمشق مقرّ مجمع اللغة العربيّة الذي تأسّس سنة ١٩١٩، وقامت فيها المكتبة الظاهريّة، كما تأسّست جامعتها سنة ١٩٢٣ وضمّت ستّ كلّيات.

◄ راجع المستندات ٨ و١٠ و١٢ و١٣ و١٧ و١٨ و٢٠ و٤٣ و٥٥ و٦٢.

دمياط (جمهوريّة مصر العربيّة)، مدينة على دلتا النيل، وهي لا تحتفظ من نشاطها البحري، ومن الدور الذي أدّته خلال النزاع بين البيزنطيّين، والفرنج، والمسلمين في القرون الوسطى الأولى، إلّا بالذكرى.

ودمياط الواقعة على الساعد الأيمن لنهر النيل احتلّها عمرو بن العاص في عهد الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى خلال القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد. وغدت بعد ذلك هدفًا لهجمات بحريّة متكرّرة. وعلى أثر هجوم قام به الأسطول البيزنطي سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م، عمد الخليفة العبّاسيّ المتوكّل إلى تحصين المدينة. وقد حوصرت بعد ذلك ثلاث مرات في العهد الصليبي: كانت المرّة الأولى سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م، من قبل فرنج القدس، في الوقت الذي عُيّن فيه صلاح الدين وزيرًا على مصر من قبل الفاطميّين. وكانت المرّة

الثانية سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، وقد نجح الفرنج في افتحامها ثمّ اضطرّوا إلى التخلّي عنها سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م. وفي المرّة الثالثة نجح لويس التاسع، سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، في السيطرة عليها وقتًا وجيزًا. والواقع أنّ الفرنج كانوا يأملون في أن تستطيع جيوشهم دخول مصر عن طريق دمياط. وهذا ما جعل المماليك يقرّرون هدم تحصينات المدينة ومنع استعمال الساعد الأيمن للنيل، ما سمح لهم بصدّ كل هجوم؛ لكنّهم بالمقابل جعلوا تلك المدينة تخسر أهميّتها على أثر انهيار صناعة النسيج القطني فيها. إلّا أنّ تجمّعًا سكنيًّا آخر بدأ ينهض جنوبيّ المدينة القديمة، واستمرّ في تطوّره حتّى العصر الحديث.

◄ راجع المستندين ١٢ و١٨.

دندانقان (دَنْدَناكان)، معركة حاسمة وقعت في العام ٤٣١هـ/١٠٤٠م، هُزم فيها الجيش الغزنويّ بقيادة السلطان مسعود الأوّل، على أيدي أتراك بدو قدموا من آسيا الوسطى، وعلى رأسهم السلجوقيّ طغرلبك.

دارت المعركة في سهوب خراسان بين مرو وسَرَخْس، قرب محلّة هي اليوم خربة تُعرف باسم دَنْدَناكان، في جمهوريّة تركمانستان. لقد كان انتصارًا للفرسان البدو بأسلحتهم الخفيفة على الفرق المجهّزة بأسلحة ثقيلة والمدعومة بالفيلة. فتحت هذه المعركة نهائيًا طريق إيران امام قبائل من الغزّ، بعد محاولات تسلّل سابقة وفاشلة داخل الدولة الغزنويّة. ثمّ اندفع الفرسان البدو باتّجاه بغداد وأمّنوا لأسيادهم السيطرة على الأمبراطوريّة الإسلاميّة في الشرق عقودًا عدّة.

الدَواني، جلال الدين محمّد بن أسعد ٨٣٠-٩٠٨هـ/١٤٢٧-١٥٠٢م، مفسّر وصاحب مصنّفات فقهيّة وصوفيّة، عُرف على الأخصّ بنظريّته حول الخلافة.

ولد في مقاطعة كازرون في إيران، وكان والده قاضيًا. درس في شيراز وعُيّن قاضيًا على فارس زمن سيطرة الآق قيونلو. ترك مؤلّفات كثيرة، أشهرها بحث في الأخلاق مستوحى من «أخلاق ناصري» لنصير الدين الطوسي. إلّا أنّ القسم الأخير من الكتاب يعالج مسائل سياسيّة، فيعرض نظريّة جديدة تتعلّق بالشريعة والحاكم. فعلى الحاكم، في رأيه، أن يقيد من رضى الله وعونه ليقود الناس في سبيل الكمال، وكلّ حاكم عادل ومنصف يستحقّ تاليًا أن يكون على رأس الأمّة الإسلاميّة، مهما كان أصله. وكلّ سلطان عادل له الحقّ في أن يكون «خليفة الله». ويبدو أنّ هذه النظريّة قد وُضعت خصّيصًا لإرضاء طموح السلطان أُوزون حسن، من سلالة الآق قيونلو، كما أنها تعبّر عن تطوّر الآراء المتعلّقة بالخلافة في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد.

الدواوين الإسلاميّة، هي دوائر إداريّة قامت مهمّتها، في الدول الإسلاميّة، على أن تضع باسم الملك رسائل ووثائق تنصيب وإجراء شتّى المعاملات الرسميّة. وكانت هذه الدوائر تلتزم، في صياغة ذلك، قواعد معقّدة تراعي المراسم والألقاب تشبه تلك المعتمدة في مراسم البلاط.

خلال حكم السلالتين الأمويّة والعبّاسيّة كانت الدائرة التي لعبت الدور الأساسي في إدارة الأمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة، تُسمّى بالعربيّة «ديوان الرسائل» أو «ديوان الإنشاء». وكانت الوثائق الصادرة عنها ترفع من شهرة الخليفة نظرًا إلى جودتها الأدبيّة وجمال خطوطها. وكانت صياغة هذه الرسائل تستلهم التراث اللغوي والإنشائي الذي خلّفه قدامى العرب، فتخرج في لبوس روائع أدبيّة تضاهي الإنتاج الذي كان معمولًا به سابقًا في أمبراطوريات الشرق الكبيرة التي كانت موضوع مباهاة بأسلوبها المميّز والمصنوع. وكان يُشترط في كتّاب الإنشاء المكلّفين هذه الشؤون كفاية خاصة، كتلك التي اشتهر بها بعضهم مثل عبد الحميد وابن المقفّع اللذين برزا بإتقانهما فن الأدب وما وفّره لهما من شهرة جعلتهما في مقام المستشار والنديم لدى الأمراء، ومقام صاحب الكتابات المعتبرة الوقورة. وفي فترة متأخّرة ظهر في صفوفهم خطّاطون، كابن مُقلة، وناثرون شهيرون كابن عبّاد الذي غدا كاتبًا ثمّ وزيرًا في عهد البويهيّين، وعماد الدين الأصفهاني الذي كان الكاتب الخاص لصلاح الدين.

كانت الوثائق التي تضعها الدوائر الخليفيّة تقتصر على تفصيل التوجيهات التي يعطيها الخليفة لوزيره في صورة مذكّرة موجزة أو «توقيع»، وكانت تبلّغ عند

الاقتضاء إلى المعنيّين في الولايات بواسطة البريد. استمرّت هذه الأعراف في ما بعد في معظم الدول الإسلاميّة حيث اضطلع «ديوان الرسائل»، من بين الدواوين الأخرى، وإلى جانب أجهزة الماليّة بشكل خاص، بدور تشهد عليه في مرحلة متأخّرة الأهميّة التي كان يوليها العثمانيّون للدواوين. ثم تنحصر مهمّة موظّفي ديوان الرسائل بكتابة الصكوك ووضع الطُغْرة عليها (وهي التأشيرة الخاصة بكل سلطان) لتصديقها، ومراقبة مطابقة النص للتشريع السائد، بل كان عليهم، إضافة إلى ذلك، تجميع مختلف القوانين التي تصدر لإكمال التشريع ولتحديد دقائق تطبيقية، ممّا كان يشكّل تشريعًا مدنيًّا حقيقيًّا. وكان النيشانجي، الذي يشرف على جميع أعمال الديوان والذي يحتفظ بالختم السلطاني، ينتمي إلى سلك أساتذة الفقه، وكان غالبًا ما يتمتّع بالشهرة كما كانت، على عهد السلطان سليمان القانوني، حال كوجا النيشانجي، على الرغم من أنّه لم يشغل هذا المنصب الا بين ١٥٣٤ و١٥٣٦، ومن ١٥٦٦ إلى ١٥٦٧.

دوريليوم (معركة - ٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، معركة تغلّب فيها الفرنج من الحملة الصليبيّة الأولى على سلاجقة الروم، وشقّوا طريقهم داخل أراضيهم.

كان ذلك في عهد قِلج أرسلان الأوّل، الذي كان منهمكًا بتثبيت سلطته غربي الأناضول حيث كان عليه أن يحارب البيزنطيّين وبردّ أطماع الدانشمنديّين. وقد أظهر جيش الفرنج تفوّقه في معركة منظّمة بعدما احتلّ مقرّ الأمراء السلاجقة الأول في نيقية (إزْنيك). هذا الانتصار، الذي أفسح في المجال أمام الأمبراطور ألكسيس كومنينُس لاستعادة بعض الأراضي ولبلوغ المقاطعات الإيجيّة، لم يكن له إلّا تأثير قليل على القوّات التركيّة المسلمة، إذ إنّها أعادت تجميع صفوفها حول قونية بعد مرور المنتصرين متوجّهين نحو الجنوب.

وعُرفت تلك المعركة باسم المدينة الإغريقيّة التي قامت مكانها مدينة أسْكي شهر الحاليّة، على ملتقى طرق القوافل التي كانت تعبر هضبة الأناضول بين بورصة وإزنيك وأنقرة. وهذا السهل جرت فيه مواجهات متعدّدة بين الجيوش العربيّة - الإسلاميّة والبيزنطيّين في العصور الأولى للإسلام، كما وقعت فيه معارك أخرى في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، مع توسّع دولة سلاجقة الروم، وقد استطاع هؤلاء التصدّي بنجاح، سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، لمحاولة أخرى قام بها الصليبيّون الذين استطاعوا، بعد هجمات متكرّرة، الإستيلاء على دوريليوم. وقد وقعت المدينة في قبضة البيزنطيّين الذين حصّنوها سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م. لكنّ المسلمين توصّلوا بعد ذلك الى احتلالها نهائيًّا.

دوشيرْما، لفظة تركيّة تشير إلى مؤسّسة خاصّة بالأمبراطوريّة العثمانيّة، تهتمّ بتنشئة الأطفال المسيحيّين، بعد انتزاعهم من أُسرهم وبعد إدخالهم الإسلام، ليصبحوا عبيدًا تابعين للدولة.

بهذه الممارسة كان الإنكشاريّون وسائر خدّام القصر يُجنَّدون، وكان في إمكان عدد منهم أن يتسلّموا مسؤوليّات عالية. وكان يُؤتى بالأطفال من بلدان البلقان على الأخصّ، مع أنّ كلّ المسيحيّين في السلطنة كانوا معنيّين بهذا الأمر، مع تفضيل أبناء الفلّاحين في الريف، على أساس أنّ أبناء المدن كانوا أقلّ صلابة.

لا ندري تحديدًا في أي عصر أُنشئ هذا النظام، والمعلومات المتوافرة تعود أساسًا الى مسيحيّين كانوا يعترضون على هذا الإجراء. وقد عُرف بوجوده حوالى سنة ١٤٠٠م، إلّا أنّه لم يُعمَّم في الأناضول إلّا في حدود سنة ١٤٥٠م. وهو في الأساس منافٍ لأحكام الإسلام المتعلّقة بأهل الذمّة الخاضعين لأداء الجزية. اجتهد بعض الفقهاء، مع ذلك، لتبرير هذه الممارسة فقالوا إنّ المسيحيّين الذين يخضعون لهذا الإجراء ينتمون إلى جماعات وثنيّة دخلت المسيحيّة بعد نزول القرآن الكريم، وهم تاليًا لا يملكون الوضع القانوني الذي يوفّره القرآن الكريم لأهل الكتاب، وقد أقرّ هؤلاء عليه عندما كان النبي محمّد (ﷺ) على قيد الحياة.

ومن نتائج تطبيق نظام «الدوشرما» أن الوظائف العسكريّة والإداريّة للسلطنة العثمانيّة عُهد بها مدّة طويلة إلى أشخاص غير أتراك من أصل مسيحيّ، قدموا من الروملي أو من الأناضول. وتوصّل بعضهم الى رئاسة الوزراء وقدّموا أُسرًا كبيرة كان لها دورها المهمّ في السلطنة. إلّا أنّ ممارسة «الدوشرما» بطلت في مطلع القرن الثامن عشر مع تسلّم السلطان أحمد الثالث

الحكم، ذلك أنّ تقبّل العادات الغربيّة كان قد بدأ يطبع بطابعه البلاط والمجتمع العثمانيّين.

الدّولة، مصطلح عربيّ يعني «السّلطة، السّلالة (الحاكمة)»، نظام الحكم، لاقى رواجًا خاصًّا في الأوساط الحكوميّة للإسلام في القرون الوسطى، منذ قيام إمارات ذات أنظمة متنوّعة على هامش الخلافة الضعيفة.

وكلمة **دولة**، تشمل، بالمعنى الواسع لها، كل سيطرة تمارسها سلالة حاكمة على بلد معيّن وفاق نظام محدّد، كما تنطبق على أيّة سيطرة يمكن أن يمارسها أشخاص، مثل الوزراء من أسرة البرامكة في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، في [إطار] أمبراطوريّة الخلافة العبّاسيّة.

إنّ هذا التعبير الذي أضيف، خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، إلى بعض الألقاب الرسميّة، أخذ يعني، بشكلٍ أدقّ، سلطة زمنيّة في مقابل لفظة «**الدين**» التي استُخدمت كذلك، في صياغة بعض الألقاب المركّبة. وقد وضح الفرق بينهما، بوجه خاص، زمن البويهيّين، هؤلاء الأمراء الكبار الذين خلع عليهم الخليفة ألقابًا مركّبة من كلمة «**دولة**»، لا من كلمة «**دين**»، إذ كان يُفترض لهم أن يمارسوا سلطة زمنيّة الطّابع. وفي ما بعد، بسبب اتّساع استعمال المفردات، حصل خلط بين المصطلحين، فحمل بعض الأمراء ألقابًا مركبة من كلمة **دين**، كما من كلمة **دولة**، شأنهم في ذلك شأن رجال الدين الذين كانوا قد خُصّوا، لفترة معيّنة، بألقاب مركّبة من كلمة **دين**، بدون غيرهم.

دولت آباد (الاتّحاد الهندي)، هي ديوجير القديمة، مدينة تقع في الشمال الغربيّ من الدّكن، حملت كذلك اسم **فتح آباد**، وقد شكّلت، لمدّة طويلة، القاعدة الإستراتيجيّة للمسلمين السّاعين إلى بسط سلطتهم على المناطق الهندوسيّة الجنوبيّة.

إنّ الاستيلاء على ديوجير، في أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، الذي حقّقه سلاطين دلهي من سلالة خلجي، عقبته فترة مضطربة وضع نهايةً لها احتلال تلك المدينة، عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، بصفتها عاصمة ثانية، باسم دولت آباد، من قبل أمير من الأسرة التّغلقيّة، هو غياث الدين محمّد شاه. وقد أمر بإعادة بناء الأسوار لحمايتها ونقل اليها مجموعات إسلاميّة، بمن فيهم رجال إدارة أو رجال أدب وصوفيّون، أنيطت بهم أمور الدعوة. وكان بين هؤلاء عدد من أتباع الطريقة الجشتيّة، وقد برز منهم برهان الدين غريب (المتوفّى في العام ١٣٤٠م)، المدفون في المدينة والذي أعطى اسمه لبرهانبور.

توالى على حكمها البهمنيّون ونظام شاهيّو أحمد نغر (١٤٩١-١٦٣٣)، ثمّ المغول خلال فترة توطيد حكم امبراطوريّتهم في الدّكن في عهد شاه جهان، وقد تركوا دمغاتهم خلال تلك المراحل التي سيطروا فيها على المدينة، ونهضوا بحماية موقع استرجعه المهراته في أواخر القرن الثامن عشر. وإذا كانت قصورها القديمة قد بادت، فإن المدينة ما تزال تحتفظ، من تاريخها الإسلامي، بأطلال تحصيناتها ومسجد جامع من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، ولا سيّما مئذنة جندمنار التي قد تنافس قطب منار دلهي، وكان قد أمر بإقامتها، في العام ١٤٤٥، علاء الدين أحمد الثاني من الأسرة البهمنيّة.

◄ راجع المستندين ٣٠ و٣٢.

دُومة الجَنْدل (المملكة العربيّة السعوديّة)، إسم قديم لمنطقة الجوف الحاليّة، شمال غربيّ هضبة نجد، وتعود شهرة تلك المنطقة الى علاقتها التاريخيّة بالاسلام في عهوده الأولى والى توسّعه.

هذه المنطقة التي يعني إسمها «جوف» أو «سهل منخفض»، وهذا المعنى يتطابق مع طبيعتها الجغرافية إنطلاقًا من منخفض وادي سرحان الواسع. وقد شكّلت دائمًا ممرًّا مفضّلًا بين شبه الجزيرة العربيّة وسوريا الجنوبية، مع وجود منفذ باتّجاه العراق. إنّ غناها بالنخيل أمّن الغذاء لسكان مستقرّين، وجعلها محطّة تجاريّة مميّزة منذ العصور القديمة، كما تأكّدت أهميّتها الإستراتيجيّة لدى قيام المملكة الأولى لآل سعود في آخر القرن الثامن عشر. وقد تحوّلت مسرحًا للصراع القبليّ، وتعرّضت لاحتلالات مختلفة، إلى أن ضُمّت نهائيًّا الى الدولة السعوديّة التي أقامها ابن سعود بين سنتي ١٩٢١ و١٩٢٥.

وقد بقي اسم دومة الجندل، في المصادر العربيّة،

موضوع التباس مع محلّتين أخريين تحملان اسم دومة ، واحدة قرب دمشق وأخرى قرب الجبرة . ولا شكّ في أنّها كانت أحد أهداف الحملات الحربيّة التي قادها النبيّ محمّد بنفسه (ﷺ) ، على دفعات ثلاث ، بين سنتي ٦٢٥ و٦٣٠م . وقد احتلّها خالد بن الوليد سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م ، واختيرت مكانًا أوّل للتحكيم بين علي ومعاوية إثر موقعة صفّين ، بينما الاجتماع الثاني عُقد في أذرح .

دِهستان ، إسم أُطلق في القرون الوسطى على مقاطعتين من إيران الإسلاميّة ، ولا سيّما على مقاطعة ذات أهميّة إستراتيجيّة وتجاريّة كبيرة تقع شرقيّ بحر قزوين .

هذه المقاطعة تشكّل اليوم جزءًا من جمهوريّة تركمنستان ، وقد شكّلت ، على تخوم صحراء الغزّ ، منطقة حدوديّة تعترض غزوات الأتراك البدو ، وتشرف على طريق القوافل التي تصل خوارزم بجرجان المتاخمة لها من الجهة الثانية لنهر «أترك» ، كما توزّع فيها عدد من الواحات المرويّة . أمّا عاصمة المقاطعة فهي مدينة «دهستان» ، أو رباط دهستان ، وهذه التسمية تدلّ على أنّها لعبت دورًا في حماية المنطقة ، اذ إنّها بنيت حول رباط . وقد اشتهرت بأبنيتها التي ما تزال خرائبها الضخمة قائمة ، وهي تعود الى القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد . وهذه الخرائب يطلق عليها اسم «مشهد مِسْرِيان» .

دَهْلَك ، أرخبيل في البحر الأحمر ، يقع في عرض ساحل أريتريا ، ويضمّ أكثر من مئة جزيرة صغيرة وعدداً من الصخور ، اشتُهر في القرون الوسطى وعرف ، لمرحلة ، ازدهارًا اقتصاديًا .

كانت جزر دهلك قديماً منفى ومعتقلاً في عهد الخلفاء الأمويّين والعبّاسيين . وفي القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد نالت استقلالها ، فكانت محطّة بحرية تشكّلت فيها إمارة اغتنت بالتجارة وأعمال القرصنة ، كما كانت على علاقة بدولة المماليك في مصر . ومع ظهور البرتغاليّين سنة ١٥١٣ ، تعرّضت الجزر للتخريب على دفعتين ، ثمّ وقعت في أواخر القرن في أيدي العثمانيّين . وفي سنة ١٨٨٥ أُلحقت بأريتريا التي كان قد احتلّها الإيطاليّون .

◄ راجع المستند رقم ٢٥ .

ديار بكر (الجمهوريّة التركيّة) ، مدينة في أعلى بلاد ما بين النهرين ، كانت تُعرف في القرون الوسطى باسم آمد ، بقيت مركزًا إداريًّا ناشطًا بعد أن أدّت دورًا تاريخيًّا منذ دخولها في الإسلام خلال القرن الأوّل للهجرة/ السابع للميلاد .

تقع ديار بكر في الوادي الأعلى لنهر دجلة ، على هضبة بازلتيّة قاحلة ، غير بعيدة من الضفة اليسرى للنهر الذي تشرف عليه . وقد شكّلت مدّة طويلة موقعًا إستراتيجيًّا منيعًا في أطراف الأناضول الجبليّة . وبحكم صعوبة الوصول إليها بالطرق المختلفة التي تصلها بماردين وأُورفا وهارپوت، وبالمقاطعات الواقعة شرق بحيرة وان وببلاد القوقاز، فقد شكّلت للخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين حصنًا منيعًا في وجه الأمبراطوريّة البيزنطيّة .

في عصر الفتوحات الكبرى ، سقطت القلعة المنيعة من دون مقاومة في أيدي الفرق العربية - الاسلاميّة سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م ، وتحوّلت بعد ذلك مدينة حدوديّة تحمي المقاطعات الإسلاميّة شرق الأناضول . وتعرّضت غير مرّة لتهديد البيزنطيّين ، فدافع عنها البويهيّون ثمّ الحمدانيّون ، كما دافع عنها الحكّام المحليّون شبه المستقلّين كالمروانيّين والإينالبيّين ، والنيساليّين ؛ وذلك قبل التدفّق التركي الى الأناضول مع السلاجقة الكبار وبعده . ثمّ وقعت المدينة في أيدي «الأرتقيّين» أسياد ماردين وحصن كيفا وميافارقين . وبعد أن اتّخذوها عاصمةً لهم عرفت نوعًا من الإزدهار الماثل في الأبنية التي شُيِّدت فيها . وطمع بها أسياد سوريا والأناضول المسلمون ، فاحتلّها سلاجقة الروم سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م ، قبل أن يغزوها المغول ، وتتنازعها بعد ذلك سلطنتان تركمانيّتان متنافستان هما القرّاقيونلو والآق قيونلو ، وبدوره انتزعها منهم الشاه إسماعيل الأوّل من السلالة الصفويّة ، ووقعت أخيرًا في أيدي العثمانيّين سنة ١٥١٦م .

عاشت مدينة آمد ، كما كانت تُسمّى آنذاك ، حالة ضعف وانحطاط بعد ذلك ؛ وأصبحت عاصمة إقليميّة بسيطة . وفي القرن السادس عشر تغيّر اسمها من «آمد» الى «ديار بكر» ، وكان هذا الاسم يُطلق على المنطقة التي تقع فيها المدينة في بلاد ما بين النهرين العليا حيث

نزلت في الماضي قبائل عربيّة، فأُطلق اسمها على هذه الأراضي، أي ديار بكر.

والمدينة المبنيّة بالحجارة السوداء غنيّة بالمعالم الأثريّة. إنّ أسوارها التي تعود إلى العهد البيزنطي أُدخلت عليها تعديلات في العصور الإسلاميّة، وزُيّنت بكتابات عربيّة منقوشة ذات قيمة تاريخيّة وفنّيّة. ومسجدها الجامع الذي يحوي موادّ قديمة مهمّة أعيد استعمالها، خضع لتعديلات متعدّدة منذ أن بني بحسب هندسة المساجد الأمويّة التقليديّة، وهو جدير بدراسة متأنّية ومعمّقة. والمدينة التي حافظت على مخطّطها القديم لا تزال تحتضن أبنية من العهود الإسلاميّة السابقة، منها مدارس أرتقيّة وأبنية من عهدي الآق قيونلو والعثمانيّين، فضلًا عن قصر أرتقيّ كُشف عنه داخل القلعة.

◄ راجع المستندات ١٢، ١٧ و٢١.

الدَّيْبُل، مرفأ قديم على دلتا نهر الهندوس، لم يَستطع المنقّبون حتّى الآن تحديد موقعه بدقّة، كان له شهرة في القرون الوسطى الإسلاميّة، تفوق شهرة المدن التي ظهرت في ما بعد، ولا سيّما مدينة كراتشي الحديثة.

وقعت مدينة ديبل في أيدي المسلمين سنة ٩٤هـ/٧١٢م، في أواخر مرحلة الفتوحات الكبرى، وشكّلت محطّة أساسيّة في فتح منطقة السِنْد التي لا تزال، منذ العصر الأموي، تشكل جزءًا من العالم الإسلاميّ. وقد استمرّت مزدهرة، قبل أن تغمرها الوحول، حتى القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، عندما شُيِّد فيها مسجد جامع على يدي أحد ملوك الخوارزمشاهيّين وهو جلال الدين الذي احتلّ المدينة سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م. أمّا مرحلة انحطاطها فلا نعرف شيئًا عنها، ويبدو أنّ تاريخها يرتبط بكتابات تعود إلى العصر العبّاسي، عُثر عليها خلال عمليّات التنقيب عن الآثار في منطقة «بنبور».

◄ راجع المستند رقم ٣٠.

الدَّير، تعبير يشمل معناه مجموعات متنوّعة من المؤسّسات لها تسميات مختلفة في اللغة العربيّة، منها ما ظلّ قائمًا في المجتمع الإسلامي القروسطي، مع دور محدد، كالأديرة المسيحيّة، ومنها ما نما في هذا المجتمع عنه بشكل «أديرة إسلاميّة».

١ - إنتشرت «الأديرة» الإسلاميّة، التي عرفت ازدهارًا رافق انطلاقة الصوفيّة، بشكل خاص بدءًا من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، في مختلف مناطق العالم الإسلامي. لكنّ وجود هذه الأديرة يعود إلى فترة سابقة لا تتوافر لدينا حولها معلومات واضحة تتعلّق بتنظيمها. وفي ما بعد حملت هذه الأديرة، بشكل مبهم، تسميات مختلفة - سواء عربيّة كرباط وزاوية، أو إيرانيّة مثل خانقاه، أو كذلك تركية مثل تكّه أو تكيّة - تفاوت تفضيل استعمال إحداها على الأخريات بحسب المناطق. وهكذا فالخانقاه عرف، في الشرق، النموّ الأكثر إثارة للإهتمام، إذ كمؤسسة وإن كفنّ معماري؛ وفي المقابل، تكاثرت الرباطات والزوايا في المغرب حيث استرعت انتباه الرّحالة الفرنسيّين في القرن التاسع عشر؛ وأخيرًا فإن كلمة تكّه أو تكيّة هي المرادف، في اللغة التركية، لخانقاه ولزاوية، مع أنّ تسمية «زاوية» هذه، التي كثر استعمالها في الأوساط العثمانيّة، انتهى بها الأمر بدخولها اللغة التركيّة بصيغة «زافيه».

وبمعزل عن هذه التسميات، يمكننا أن نميّز، من الناحية الوظيفيّة، ثلاثة أشكال من «الأديرة» الإسلامية: الدير - النُّزل الذي هو الأقدم وجودًا من دون شك، وكان معدًّا لاستقبال رجال التقوى من عابري السبيل في مدينة ما؛ ثم «الدير» المبني حول محل الإقامة الشخصي لشيخ أو پير حيث كان هذا الأخير يسدي نصائحه الروحيّة لمريديه وزوّاره من مختلف المراتب؛ وأخيرًا «الدير» التابع لطريقة صوفيّة، الذي عُرف في فترة متأخرة من القرون الوسطى، وكان مقرًّا للحياة المشتركة ولأنشطة الأعضاء المنتمين إلى طريقة ما، المتزوّجين منهم والعازبين. وفي كلّ مكان، كان هؤلاء الصوفيّون يؤدّون الصلوات الخمس ويبيتون فيه منصرفين إلى «الذِّكر»، وكان بعضهم يتفرّغ، جزئيًّا أو كليًّا، لتلاوة القرآن وكذلك لممارسة الفروض الدينيّة الأخرى التي قد تتضمّن جلسات موسيقيّة أو حتّى حلقات رقص.

في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، كانت في مصر زوايا كبيرة مهيّأة لاستقبال ٤٠٠ صوفي

على ما يقال. لكن، في أكثر الأحيان، كان حجم الزوايا متواضعًا، حتّى لو كان يتمّ دمجها عند الحاجة بأبنية أخرى قائمة داخل مجمّع معماري واحد، ومعدّة أصلًا للاحتفالات الجنائزيّة أو لوظائف تعليميّة. أمّا إذا كانت هذه الأديرة مدمجة بضريح أو بقبر بسيط لشيخ عُرف بالتقوى وحلّت عليه البركة الإلهيّة، فإنّها تتحوّل، بهذه الحجّة، موضع زيارات تقوية تُسهم في تكريم وليّ المكان الطاهر. وكانت تُلقى في هذه الزوايا دروس في مواد دينيّة وتقنيّة كالفقه وعلم الكلام وتفسير القرآن. لكنّ هذا الأمر كان ذا طابع إستثنائي، إذ إنّه ينشر التنافس بين الزوايا والمدارس الدينيّة؛ بينما كانت كلتا المؤسّستين تتناميان بشكل متواز.

في هذه الحقبة أيضًا، تكاثرت الإنشاءات الضخمة التي حلت محل الخوانق المتواضعة التي كانت قائمة في الحقبة الأولى؛ ومنذ القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، كانت هذه الأبنية تجمع، حول مقر إقامة هذا الصوفي الشهير أو ذاك، أو حول الأشياء التي تذكّر به، مختلف الإنشاءات الضروريّة لانتظام العمل في مراكز الصلاة والارشاد الروحاني هذه التي كانت تنمو في آن كمزارات. وكانت هذه المراكز تقوم بتوزيع الإحسانات التي تسمح بها مداخيل الأوقاف التابعة لها. وهناك أمثلة بارزة عن هذه المؤسّسات في الهضبة الإيرانيّة، كمزار البسطامي قرب بسطام، ومزار الأنصاري المعروف بغزرغاه في ضاحية هراة. ويمكن أن نصنّف في هذه الفئة أيضًا «المجمّعات المعماريّة» ذات الطابع المدينى التي خلّفها المماليك في مصر، كمجمّعات السلطانين قلاوون وقانصوه الغوري في القاهرة؛ كذلك المؤسّسات الخيريّة المشهورة في المغرب التي تحمل اسم أبو مَدْين أو سيدي بومدْين في تلمسان، أو مؤسّسات إدريس في مولاي إدريس. وتندرج في هذه الفئة أيضًا المؤسّسات الخيريّة التي اختارها المَرينيُّون مدافن لهم، وقد بنوا زاوية سَلا قرب الرباط. ولأسباب مشابهة، ارتفعت في المدن العثمانيّة، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مثل بورصه وأدرنة وخصوصًا إسطنبول، مساجد – زوايا محاطة بأبنية عدّة مخصّصة لاستضافة الدراويش. وكانت هذه الأبنية التي ضمّت إجمالًا أضرحة هؤلاء السلاطين، تُعدّ من الإنشاءات الأعظم روعةً التي أقامها السلاطين الأوائل من السلالة العثمانيّة.

وابتداءً من القرن الخامس عشر، رغم تنوّع الأنظمة الخاصة بكل طريقة، كانت الزوايا الضخمة التي اتّخذت أهميّة متزايدة في تاريخ فن العمارة الإسلامي، تضمّ في أرجائها حياة ديريّة صوفيّة تتوافر لنا حولها معطيات أفضل من تلك المتعلّقة بالمراحل السابقة، كما أنّها تُبرز وجود بعض صفات مشتركة بين منطقة وأخرى. وكلّما توسّع انتشار طريقة ما بعد نشأتها، ازداد عدد الأديرة التابعة لها والخاضعة لمرشدها. لكنّ خلافة هذا المرشد لم تكن دائمًا وراثية: «فالبنوّة الروحية» كانت في بعض الأحيان تلعب دورًا في اختيار الخلف؛ وفي أحيان أخرى كان يصار إلى انتخاب الخلف من بين الأعضاء. وكانت العلاقات المؤسسيّة بين مختلف المؤسّسات أيضًا متحرّكة، رغم وجود ممثّلين لكلّ شيخ في مختلف المناطق، يُطلق عليهم اسم خليفة أو مقدَّم في البلدان العربية، وپير أو دده في العالم الإيراني-التركي. أما الصوفيّون الذين كانوا ينتمون إلى مؤسّسة فكانوا يُقسمون فئتين: الدراويش، بالمعنى الحصري للكلمة، الذين يدلّ عليهم التعبير العربي «فقير» و«فقراء»؛ و«المنتسبون» الذين تُقبل النساء في صفوفهم.

وكان الوافدون الجدد الآتون للإقامة الدائمة في هذه الأديرة يخضعون لفترة تأهيل يمنحون في نهايتها «الخرقة»، وهي الرمز الظاهر الذي يدلّ على طريقة الحياة التي اختاروها، إضافة إلى قطع ثياب أخرى في بعض الأحيان. ويشتمل احتفال التأهيل إجمالًا على قَسَم خضوع للشيخ وتلاوة صلوات متنوّعة يختلف محتواها بحسب كلّ طريقة[٥٠]. هناك قَسَم كان يقوم به أتباع الشاذليّة، وقد وصل إلينا نصّه على الشكل الآتي:

«يا إلهي، أنا أتوب اليك وأقبل معلّمًا لي الشيخ... أقبل به شيخًا في هذا العالم وفي العالم الآخر، أقبل به معلّمًا وسيّدًا في حضرتك الإلهية، ومرشدًا على طريقك. لن أخالف تعاليمه لا قولًا ولا فعلًا، لا سرًّا ولا علنًا. ثبّتني يا إلهي في طاعته وعلى طريقته في هذا العالم وفي الآخر، ثبّتني يا إلهي على طريقة الشيخ الأكبر وإمام الأئمة، قطب الجماعة سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه.»

ومن الممكن ان تكون عناصر مشابهة لمثل هذه

الطقوس قد ظهرت، منذ العصور الأولى للإسلام، وانتشرت في اتّجاهات عدّة، ومنها استعمال «الخرقة الصوفيّة» في الأوساط الصوفيّة خلال هذه الحقبة، قبل أن يُصبح استعمالها معمّمًا في العصور اللاّحقة، بعد أن حصلت هذه الطرائق على الاعتراف الواسع بوجودها في عالم الإسلام. ومن الممكن أيضًا أن تكون أماكن الاجتماع والخلوة – المعاصرة لوجود الرُبُط العسكرية التي عُرفت على حدود الدول غير المسلمة وعلى طول السواحل – قد توافرت في مدن الشرق منذ العصر الذهبي للامبراطورية العبّاسية، ربّما على شكل خانات – نزل شُيّدت بجوار المساجد الكبرى التي كانت آنذاك تستقطب الجزء الأهم من أنشطة التأمّل الديني والتعليم. على أنّ هناك شحًّا في ما تورده المصادر الأدبيّة العربيّة حول هذا الموضوع من معلومات يمكن الاعتماد عليها للخروج باستنتاجات أكيدة، والاستناد اليها للتحقّق من الآثار المعمارية التي هي، فضلاً عن ذلك، قليلة الوجود. إن الزوايا الإسلاميّة التي بُنيت لتأوي أوائل المنضوين الى الصوفيّة لم تخضع، في أيّ حال، لبرامج هندسية أكثر دقّة من تلك التي كانت رائجة في أواخر القرون الوسطى، والتي استُخدمت لتشييد المدارس الدينية والخوانق على السواء، إذ استعملت فيها تصاميم متماثلة لأنّ أهدافها متشابهة: حياة جماعيّة، احترام التقاليد المشتركة، الفقهيّة والصوفيّة، التي كانت تنتقل عبر التعليم.

٢ – إلى جانب هذه الأشكال الجديدة للمؤسسات «الديرية» في الإسلام في القرون الوسطى، استمرّت قائمة في الشرق الأدنى بعض الأديرة المسيحيّة التي يعبّر عنها بكلمة «دير» السريانيّة الأصل وقد تكيّفت هذه الأديرة على طريقتها، بشكل عميق، مع عادات الحياة اليومية للجماعة الإسلاميّة. وكانت هذه الأديار – التي شكّلت للحياة الرهبانيّة محاور استقطاب سابقة للإسلام – متجذّرة منذ فترة طويلة في بعض المناطق كالعراق وبلاد ما بين النهرين العليا وسوريا ومصر؛ وقد أفادت هذه المؤسّسات، سواء لاستمرارها أو نموّها، من الشروط القانونيّة الممنوحة لمؤدّي الجزية الذين ظلّوا يعيشون على الأراضي الإسلاميّة وفاق نظام أهل الذمّة.

ويقدّم لنا دير القديسة كاترينا الشهير في سيناء – الذي حافظ حتّى يومنا هذا على سماته القديمة وعلى وثائق تشهد على تقلّبات تاريخه الطويل – نموذجًا يتيح فهم طبيعة النزاعات القانونيّة التي كانت تضع هذه المؤسّسات، في بعض الأحيان، في مواجهة حكومات لم تكن تتردّد في استنزافها ماليًّا، رغم أنّ هذه الأديرة كانت، من حيث المبدأ، معفاة من دفع الجزية. ومع ذلك كانت هذه الحكومات، من حيث المبدأ أيضًا، تنظر بعين الاعتبار إلى المطالب والشكاوى التي ترفعها هذه الأديار؛ كما أنّ أيّ إجراء من قبلها لتدمير هذه الأديرة كان يشكّل مسًّا خطيرًا بحقوق الأقليّات المحميّة في الإسلام.

وبطبيعة الحال، كان وضع كل من هذه الأديرة يختلف بحسب المكان والزمان، وكذلك تتنوّع الضمانات الممنوحة لها، أو بالعكس طبيعة المضايقات التي يتعرّض لها أهل الكتاب الذين عانوا أحيانًا اضطهادات محصورة في إطار محلي. وتبقى فترة حكم «الحاكم بأمر الله»، خلال الخلافة الفاطميّة، مشهورة في هذا المجال. وعلى مرّ العصور، تناقص عدد أهل الكتاب بشكل عام، بمقدار ما كانت الإجراءات التي تفرض عليهم وضعيّة دونيّة دائمة، تفعل فعلها: فقد ترافق الاضمحلال التدريجي للشعوب المسيحيّة في المغرب وبعض مناطق الشرق الأدنى مع تناقص موازٍ في عدد الأديرة المسيحيّة، حتّى قديمة العهد منها، التي عانت على ما يبدو صعوبات متزايدة بدءًا من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. ولم يستمرّ منها إلّا القليل حتى يومنا هذا، وذلك في بعض المناطق الجبليّة في بلاد ما بين النهرين العليا ومصر وسوريا ولبنان.

وكانت هذه الأديرة قد عرفت في مرحلة سابقة، وبخاصة في العصر الذهبي للعبّاسيّين، شهرة مطابقة للدور الذي نهضت به آنذاك، في أراضيها الزراعية المزدهرة، بصفتها مراكز حياة فكريّة وفنيّة مرهفة.

فقد أمّنت هذه الأديرة، في ظلّ الحكم الإسلامي، استمراريّة المعارف القديمة والتقاليد الأسلوبيّة، وكذلك بعض ممارسات الترفيه المحرّم. وقد ساهمت الى حد

كبير في نشر الإنتاج الفكري الهلّينستي الذي كانت تحفظه في مكتباتها الغنيّة، والذي كان غالبًا مترجمًا بالسريانيّة قبل نقله إلى العربيّة. لذا كانت هذه الأديرة منبعًا لكتّاب عملوا في إدارة الأمبراطوريّة، حتّى إنّ بعضهم رقي، بعد اعتناقه الإسلام، إلى سدّة الوزارة. وكانت أبواب هذه الأديرة مفتوحة لعابري السبيل، كما شكّلت محطات استراحة للمسافرين، أو ملجأ لشخصيّات كبيرة كانت تحسّ نفسها، في بعض الظروف، في مأمن في هذه الأديرة أكثر منها في أي مكان آخر. ويتحدّث المؤرّخون العرب عن زيارات الملوك والأمراء في أثناء رحلات الصيد، للرهبان في الأديرة المجاورة، حيث كان هؤلاء يقدّمون لهم المآكل والمشرب. وكذلك كانت هذه الأديرة تستقبل الكثيرين من الزوّار المسلمين الذين تجذبهم الحانات المنتشرة في جوارها وحيث كان في إمكانهم ابتياع الخمرة ومعاقرتها بكل حريّة. وعلى مقربة من المدن الكبرى، وفي أثناء الأخذ بأسباب الترفيه التي كانت تطبع الاحتفال ببعض الأعياد، كان محيطها يتحوّل في أكثر الأحيان مكانًا للّهو، وحتى للفسق. وقد تردّد صدى ذلك في قصائد الخمريّات والشعر الغزلي آنذاك، وكذلك في الروايات التي نقلت في ثناياها السلوك الملتبس لأهل الأديرة؛ وهذا ما يفسّر أيضًا أنّ بعض الكتّاب المسلمين في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، ولا سيّما في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، كرّسوا لهذه الاحتفالات مؤلّفات كاملة جمعت في طياتها الأشعار العربيّة التي تحدّثت عنها، والنوادر المتعلّقة بالشخصيّات التي كانت تؤمّها.

وهكذا، رغم التغيّرات ذات الطابع التاريخي التي أدّت، منذ القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، إلى خراب هذه الأديرة وهجرها، بعد أن عرفت لفترة طويلة نشاطًا ملحوظًا، فإنّه من الممكن اعتبار بقاياها الأثريّة في عداد البيّنات التي تلقي أضواء على الحضارة الإسلاميّة في تلك الحقبة، سواء في ما يتعلق بزخرفة الجصّ في الأديرة المصريّة في وادي النّطرون، أو منحوتات دير مار بهنام في جوار الموصل، أو المخطوطات المزخرفة، التي تعود أصولها بخاصة إلى مصر وبلاد ما بين النهرين العليا، والتي تتماهى سماتها المميّزة مع سمات النتاج الإسلامي المعاصر للفترة نفسها والمحفوظ في المناطق عينها.

ديفريجي (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة تقع شرق الأناضول، فيها معالم أثرية تعود إلى عصر سلاجقة الروم.

إثر افتتاحها من قبل مجموعات تركيّة، بعد معركة ملازكرت/مانتزيكرت، خضعت مدينة «تفريكي» البيزنطيّة القديمة والمناطق المجاورة لسلطة سلالة صغيرة من التركمان هيَ سلالة المنگوجيكيّين. فقد استقرّ في المدينة فرع منها وأقام حتّى سنة ٦٥٠/ ١٢٥٢م، وما عتم أن اعترف، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، بسيادة سلاجقة الروم. ثمّ نُهبت المدينة على أيدي المغول وانتقلت إلى سيطرة أمراء منهم، وهم الأرتنيّون الذين حكموا في سيواس وقيصريّة. وخلفهم في الحكم القاضي برهان الدين، ثم ضُمَّت المدينة الى الدولة العثمانيّة سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م. وقد انتزع المماليك، أسياد سوريا ومصر، مدينة ديفريجي مدّة وجيزة، ثمّ استعادها العثمانيّون سنة ١٥١٦م، خلال الحملة التي قادها السلطان سليم الأوّل.

تحوّلت المدينة بعد ذلك بلدة صغيرة معزولة، لكنّها حافظت حتى اليوم على بقايا قلعة ذات جدران منيعة، وعلى عدد من الأبنية، بينها مجمّع معماريّ فيه مسجد كبير ومستشفى ملاصق له. وهذا المجمّع بُني سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م، وأُدخلت عليه تعديلات سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م، وهو يشكّل واحدًا من أجمل النماذج المعبّرة عن فنّ محلّي اعتمد على الحجر، وعن فن البناء والزخرفة الذي تميّز به عهد السلاجقة الكبار في إيران.

الدَّيْلَم، تسمية لاقت رواجًا لدى الجغرافيّين المسلمين في القرون الوسطى، فكانوا يشيرون بها إلى مجموعة المناطق الواقعة جنوب بحر قزوين، وتمتدّ أحيانًا باتّجاه جبال ألبُرْز، انطلاقًا من جيلان حتّى مناطق مازَنْدَران وجرجان وقومس.

كان بروز أسرة ديلميّة، هي الأسرة البويهيّة، في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، في أساس التوسّع في استعمال هذه التسمية التي

أُطلقت، في البدء، على المناطق المرتفعة من جيلان حيث كانت تقيم قبائل شرسة، وتقابلها أراض منخفضة خصبة وكثيرة المستنقعات في المناطق الساحليّة. ومنذ عصر الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة اكتسبت لفظة الديلم هذه، في استعمالها الضيّق، معنى خاصًا يشير إلى منطقة عاصية صعبة الترويض، تحوّلت لاحقًا إلى ملجإ للثائرين على سلطة الخلافة المركزيّة، وبينهم عدد كثير من العلويّين الطامحين إلى الحكم. ولكنّ التسمية في استعمالها الواسع حافظت، بفضل نجاح البويهيّين السياسي والعسكري، على المفهوم الحربي في معناها، وازداد هذا المفهوم رسوخًا مع بروز الاسماعيليّة الجديدة أو النّزارية في قلعة أَلَموت. ثمّ جاء المغول مع هولاكو فقضوا على النزاريّة سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، وأهمل بعد ذلك استعمال لفظة الديلم.

◄ راجع المستند رقم ١٣.

دين، فضلًا عن معنى الديانة والمعتقد، ترتبط كلمة دين بمفهوم «المحاكمة والحساب»، وبمفهوم «الدَّين» ومفهوم «الخضوع».

ولا تعني هذه اللفظة العلاقات التي تربط الإنسان بالله كما يحدّده معناها اللغوي في اللغات الغربيّة (religio)، بل تعني مجمل الواجبات التي يفرضها الله على مخلوقه الذي يتوجّب عليه الخضوع، بحسب ما تفرضه كلمة «إسلام». فلفظة «دين» تشمل مجموع الأنظمة التي حرص الله على ايصالها بلسان نبيّه محمّد (ﷺ)، عن طريق وحي أدّى إلى إقامة تشريع ذي قيمة مطلقة.

في الاستعمال الشائع، غالبًا ما ترتبط لفظة «دين» بلفظة «حق»، كما يظهر في عبارة «دين الحق»، وهي تتعارض مع لفظة «دنيا» التي تعني العالم الدنيوي، ومع لفظة «دولة» التي تعني السلطة السياسيّة، وكانت تتميّز عنهما بوضوح كما يظهر في الألقاب المركّبة التي كان يعطيها ديوان الخليفة في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد. ومع ذلك فقد جرت العادة عند المسلمين بإعطاء ألقاب تدخل في تركيبها لفظة «دين»، الى شخصيات تمارس سلطة سياسيّة وليس فقط للفقهاء ورجال الدين. أمّا معنى «المحاكمة أو الحساب» الذي تحمله كلمة «دين» فتجده في كلمة «مدينة»، مركز القضاء ومركز السلطة، وقد استُعملت هذه الكلمة في عهد النبي للدلالة على المكان الذي أقام فيه لإدارة شؤون الجماعة التي أسّسها، وهي واحة يثرب التي عُرفت في ما بعد باسم المدينة.

الدّين (تشديد -)، إجراء مراعى في الإسلام، يرتكز على آراء فقهاء القرون الوسطى الذين شرحوا في هذا المجال آية قرآنيّة فيها التباس.

إنّ القرآن الكريم يوصي بالأمانة للإلتزام، ولكنه يُبدي تسامحاً تجاه المدينين، بشهادة الآية:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٨٠).

وينبغي على المستدين المفلس أن يتقدّم أمام القاضي، الذي يقيم جردة لممتلكاته ويبيع عند الاقتضاء قسمًا منها لتسديد حساب الدائنين. فيخسر بذلك الحق والقدرة على إدارة رزقه، لكنّ هذا الوضع لا يمسّ الحقوق المتعلّقة به شخصيًّا.

ديوان، لفظة إيرانيّة الأصل، أصبحت «ديفان» في التركيّة، وانتقلت بصيغتها هذه الى الفرنسيّة، وهي تعني مقعدًا واطئًا لأشخاص عدة، ممّا كان يستعمله أصحاب الرتب العالية من الموظّفين العثمانيّين. أمّا معناها التاريخي فهو «سجلّ» أو «مصنّف»، وهو كذلك «قسم إداري».

استُعمل هذا التعبير منذ العصور الأولى للإسلام، للدلالة على مجموعة شعريّة من جهة، ومن جهة ثانية على السجلّات الإداريّة، وتاليًا على المكاتب التي كانت تستعمل هذه السجلّات بإشراف موظّفين وأمناء سرّ فاعلين، متعدّدين وطموحين. وفي مرحلة متأخّرة أصبحت الكلمة تعني كذلك رئيس تلك المكاتب، كما كانت الحال عند المغول في الهند؛ وتعني مجلس الوزراء كالمجلس السلطاني الذي كان يتكوّن من اجتماع رئيس الوزراء والوزراء عند العثمانيّين.

وقد أُنشِئ الديوان الأوّل، بحسب التقليد، في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وهو ديوان الجند، فأوجده لتسجيل أسماء المحاربين العرب الذين كانوا

يتقاضون نفقات غذائية من الغنائم التي تجمع بعد الانتصار في الحروب ومن الضرائب الجديدة. وفي العصر الأموي جرى الفصل بين ديوان الجند هذا وديوان الخراج الذي كان يهتمّ بقضايا الضرائب وأُضيف اليهما ديوان الرسائل، وديوان الخاتم.

وفي العصر العبّاسي، الذي قدّم نماذج لكلّ الأنظمة الإسلاميّة اللاّحقة، تكاثرت الدواوين لتشمل مجموعة مكاتب متخصِّصة نعرف أسماءها ولا نعرف دائمًا مهمات بعضها، وكان الوزير يؤمّن التنسيق بينها. فمنها ديوان الخراج الذي بقي قائمًا، وكذلك ديوان الأملاك الخاضعة للعُشر، وديوان الغنائم، وديوان النفقات، فضلًا عن ديوان الجند الذي حافظ على دوره واهتمّ بتسجيل أسماء المحاربين وسلاحهم وأجورهم. ويبدو أنّ الدواوين الضرائبيّة كانت خاضعة لديوان مراقبة، وإلى ديوان بيت المال الذي كانت مهمّته إعداد الميزانيّة دوريًّا للمداخيل والنفقات، أُضيف ديوان الخزينة الخاصّة بالخليفة، أي المتعلّقة بأملاكه وعرف لاحقًا باسم «ديوان الضياع». وإلى ديوان الجيش أضيف ديوان الموالي والغلمان الذي اهتمّ تحديدًا بحرس الخليفة. وكان قد ظهر من قبل ديوان البريد المكلّف بنقل الرسائل إلى الولايات وتأمين الأخبار المتنوّعة للسلطة المركزيّة. وكان لهذا الديوان دور أساسيّ منذ العهود الأولى للخلفاء العبّاسيين. أمّا ديوان الرسائل حيث كانت تُحرّر الرسائلُ والقرارات المتعلّقة بالتعيينات، وبالتعليمات المتنوّعة، وديوان الخاتم الذي كان يدقّق في هذه الوثائق ويُنزل عليها خاتم الخليفة، فقد استمرّا قائمين دونما تغيير يذكر، وكانا على علاقة بديوان السرّ، وربّما كان هذا الأخير شبيهًا بديوان الخاتم.

وقد ظهرت لدى إدارة الولايات دواوين محلّية لم نقف على ماهيّتها بوضوح. ثمّ إنّ السلالات المختلفة التي نشأت جرّاء تفكّك الخلافة، بعد القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد وجرّاء التطوّرات المتلاحقة التي تلت غزوات الأتراك والمغول، أنشأت دواوين شبيهة بتلك التي عرفتها بغداد، وإن حملت أسماء مختلفة. من تلك الدواوين نذكر «الدواوين العليا» التي نشأت في المشرق خلال القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وكانت بمثابة أجهزة حكم.

وفي عهد الحكم الأموي بقرطبة في الأندلس، كان التنظيم الإداريّ شبيهًا بالعبّاسي الشرقيّ، ثمّ أصبح مبسّطًا مع التفكّك وسيطرة ملوك الطوائف. كذلك الأمر بالنسبة الى دواوين مصر في زمن الفاطميّين، إذ جاءت على غرار ما كان عند العبّاسيّين وحملت أحيانًا أسماء مختلفة، ونذكر منها ديوان الأسطول الذي لم يكن له مثيل خارج مصر. واستمرّ التنظيم الفاطميّ نفسه قائمًا مع الأيوبيّين، وقد عُرف أن رئيس «ديوان الإنشاء» كان له دور رئيسيّ. وفي مرحلة لاحقة شهدت إدارة دولة المماليك تغييرات تعود الى الطابع العسكريّ للنظام: هيمنة المسؤول العسكري على رئيس ديوان الانشاء، تجزئة الوزارات وتوزيعها على أربعة أشخاص.

وفي إيران حيث الديوان، وتحديدًا «الديوان الأعلى»، يشير إلى الحكم المركزي والإدارة المدنيّة، فإنّ الدوائر الأساسيّة كانت تتعلّق بالرسائل والبراءات والقرارات، وبالإدارة الماليّة، وبالقضاء الذي تغيّر تنظيمه خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، فأُنيطت إدارته بجهاز جديد وأصبح أداة بيد السلطة المطلقة. وقبل ذلك فإنّ التنظيم الذي اعتمده السلاجقة الكبار استمرّ نفسه مع الإيلخانيّين والسلالات التي أعقبتهم، وذلك بفعل استمرار الحكم الفردي من نظام الى آخر. كذلك الامر بالنسبة إلى المغول في الهند حيث تكرّرت أساليب الغزنويّين مع من جاء بعدهم.

أمّا السلطنة العثمانيّة فقد عرفت هي أيضًا دوائر إداريّة كثيرة وأُطلق على كلّ منها اسم ديوان. وكان اهمّها ديوان المال، وديوان الرسائل الذي أُلحقت به الدوائر المختصّة بتعيينات أصحاب الرتب العالية والوظائف الكبرى. والادارات بمجموعها كانت تحت إشراف مجلس سلطاني أعلى يُعرف باسم «ديوان همايون» وكان في عهوده الأولى يعمل برئاسة السلطان، كما كان يضمّ رئيس الوزراء وعددًا من القضاة وأمناء السرّ.

ديوبند، (الاتّحاد الهنديّ). مدينة تقع في مقاطعة أوتارپراديش الحاليّة شمالي دلهي، حضنت في أواخر القرن التاسع عشر مركزًا علميًّا دينيًّا إسلاميًّا مناهضًا للغرب.

إنّ المدرسة الفكريّة الإسلامية المعروفة باسم مدرسة ديوبند أمّنت شهرة هذه المدينة التي تحتفظ من ماضيها بأبنية مهمّة، منها مساجد يعود تاريخها الى سلاطين دلهي من أسرة لودي، وأخرى من عهد المغول. لكنّ شهرتها الأساسيّة تأتّت من المؤسّسة الدينيّة التي أقامها محمّد عابد حسين سنة ١٨٦٥ باسم دار العلوم، التي كانت تعطي دروسًا ذات طابع تقليديّ بإشراف روحيّ من قبل شاه وليّ الله. وكانت حركة العلماء هذه تعارض بقوّة محاولات التحديث التي يقوم بها سيّد أحمد خان في أليغارت، وتأمل عودة الإسلام في تعاليمه المتعلّقة بالعقيدة الى الأصول. كما هدفت إلى إصلاح مجتمع إسلاميّ قادر على إحياء مؤهّلاته القديمة؛ ليمارس حكمًا سياسيًّا دينيًّا حقيقيًّا وينتصر على أعدائه.

ذ

ذِكر، تعبير يشير إلى نوع من الصلاة الفرديّة أو الجماعيّة الخاصّة بممارسات الصوفيّين، وقد درج هذا النوع من الصلاة في المجتمع الإسلامي على شكل تسبيح.

ويعني الذكرُ تذكّر الله تعالى بحسب ما يرد في القرآن الكريم: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ (سورة الكهف، ٢٤)، أو ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ (سورة آل عمران، ٤١). يناقض الذكر «الفكر» أي التأمّل، وهو يقضي بتكرار جملة «لا إله إلا الله» المأخوذة من «الشهادة»، أو بترداد أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن الكريم. وهو غالبًا ما يترافق مع الرقص والموسيقى. فهذه العناصر التي تضاف إلى الصلاة تسهّل الوصول الى حالة النشوة والاتّحاد بالله تعالى، وهذه هي الغاية من انعقاد جلساتٍ كهذه.

نميّز بين هذه الاحتفالات الجماعيّة التي تطوّرت مع تطوّر التصوّف في الاسلام، وبين الذكر الفرديّ الذي يقوم على عبارات النداء والدعاء تُتلى بعد الصلاة وفي مناسبات متنوّعة. وهناك تمارين شبيهة تقوم على تكرار آيات قرآنية بحسب ترتيب معيّن، وهي تشكّل ما يُعرف باسم «الوِرْد»، إشارةً الى طريقه صوفيّة لدى فرقة من الفرق.

الذمّة (أهل -)، هم مجموع غير المسلمين ممّن يعيشون بشكل دائم في بلاد المسلمين، ويتمتّعون بنظام خاص هو نظام «الحماية»، ويدفعون الجزية لقاء عهد الذمّة الذي عُقد لهم، شرط أن يرتضوا، في مقابل ذلك، وضعًا دونيًّا معترفًا به شرعًا.

ويرتكز العهد الذي أُبرم، والذي يمكن تجديده إلى ما لا نهاية، على الآية ٢٩ من سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

إن تفسير الفقرة الاخيرة من هذه الآية يحتمل تأويلات مختلفة، وقد تأكّد مضمونها بطريقة ما بالموقف الذي اتّخذه النبيّ نفسه (ﷺ). ففي أواخر حياته وافق على عهود خضوع عدّة مع مجموعات متعدّدة من اليهود والنصارى بصفتهم من أهل الكتاب، في حين أنّه كان، قبل ذلك، قد عامل بقساوة يهود واحات المدينة وقرّر مقاتلتهم، ومن ثمّ طرْدهم والقضاء عليهم. ويبدو أنّ هذا الموقف المتساهل نسبيًّا تكوّنَ نهائيًّا إبّان الفتوحات الكبرى، بحيث فرض اتّساع هذه الظاهرة وارتباطها بضآلة عدد الفاتحين الموزّعين في مناطق واسعة جدًّا، سياسة ليّنة تجاه المواطنين الأصليّين المخضعين حديثًا، ولا سيّما في حال آثر هؤلاء الاستسلام، بموجب معاهدة صلح، على المقاومة العسكريّة.

من المؤكد أنّ المحاولات الضرائبيّة الأولى الخاصّة بأهل الذمة طُبّقت في هذه المرحلة، فأُلزم هؤلاء بدفع الجزية والخراج اللذين يسّرا إرساء نظام لم يلبث أن بدا معقدًا، وتبعًا له، شكّل الخراج والجزية على حساب أهل الذمّة ركيزة النظام المالي في كل الدول الإسلاميّة. وفي هذا الوقت توضّح، تبعًا لمفهوم عهد الذمّة، توازن اجتماعي كافٍ للسماح لعناصر إتنيّة ودينيّة غير متجانسة بالتعايش داخل المجتمع الإسلامي الذي كان، فضلًا عن ذلك، متشدّدًا تجاه احترام شريعته الخاصّة.

وتسمح لنا بعض الممارسات، التي ظلّت سارية في العصور العبّاسيّة، بإلقاء الضوء بوضوح على وضع أهل الذمة وفقًا للشريعة الإسلاميّة التقليديّة: فكان أهل الذمة يخضعون لعدد من الالتزامات والمحرّمات والحدّ من الحقوق، كإلزامهم بألبسة تميّزهم عن المسلمين، منها الزنانير الملوّنة، ومنعهم من حمل السلاح، وركوب الخيل، واستحداث كنائس، كما أُلزموا بدفع الجزية وضريبة على التجارة تفوق تلك التي كان يدفعها المسلمون، كما اعتُبرت شهادتهم محدودة القيمة أمام القضاء، وحُرِّم عليهم الزواج بمسلمات، كما حُرِم على من اعتنق الإسلام منهم الإرتداد عنه.

وفي المقابل، تمكّن أهل الذمة من إشغال مناصب عالية في المجتمع. فتولّى بعضهم وظيفة الكاتب وآخرون رئاسة الدواوين، على الرغم من أنّهم كانوا ممنوعين من إشغال المنصب الأعلى في هذا الحقل، نعني به الوزارة. ومارس بعضهم مهنة الطب، ولا سيّما المسيحيّون، وأسّس فريق آخر مصارف ومحال للصيرفة، وبخاصة اليهود. وكان حضورهم جليًا في معظم المهن، على الرغم من أنّهم استمرّوا، في بعض المناطق، يمارسون الزراعة بنشاط. كما مثّلوا دورًا بارزًا في الأعمال الحرفيّة حيث احتكروا بعض الإختصاصات. فكانت الصياغة، بوجه عام، حكرًا على اليهود. إنّ المناصب التي تولّاها أهل الذمّة في تلك الفترة، في مختلف القطاعات، جعلتهم هدفًا للنقد العنيف من قبل بعض الكتّاب المسلمين الذين تسبّبوا بخلق مناخ معادٍ لهم. ونتيجةً لذلك، حاول بعض الحكّام، في أوقات مختلفة - خصوصًا عندما كانوا يرغبون في إظهار غيرتهم على الإسلام -، تطبيق البنود الأشد قساوة في حقّهم من أحكام أهل الذمّة التقليديّة التي أرساها، بحسب ما يُروى، الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب.

وفي العهد الأموي طبّق الخليفة عمر بن عبد العزيز أحكامًا من هذا النوع، وهو الذي اشتهر بتقواه وصرامته الأخلاقيّة؛ كما طبّقها، في العصر العبّاسي، هارون الرشيد، وفي ما بعد المتوكّل. وصل الأمر بهذا الأخير إلى حدّ أنّه منع أولاد أهل الذمّة من دخول المدارس العربيّة راغبًا بذلك، على ما يبدو، في التشديد على فرز المسلمين عن غير المسلمين. وفي المقابل، نجح النصارى، في بعض العصور، في تليين شروط الذمّة التقليديّة. إذ بنهاية القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد مثلًا، وعقب مقرّرات المتوكّل - التي لا نعرف حقًّا إذا ما كانت وُضعت فعليًا موضع التنفيذ - نجح بعض كتّاب الدواوين النساطرة، بتوسّط بعض النساطرة الذين اعتنقوا الاسلام وتولوا مناصب عالية، بالحصول على تراخيص تجيز لهم بناء كنائس جديدة.

ولم يكن وضع غير المسلمين، في القرون الوسطى الأولى، متماثلًا بين بلد وآخر، إذ كان يتبدّل تبعًا للأنظمة ولوتيرة اعتناق الإسلام في صفوفهم. ففي مصر الفاطمية، على سبيل المثال، يبدو أنّ عدد المسيحيّين ظلّ مرتفعًا، وكان بعض الحكّام يجاملونهم، وقد أسندوا منصب الوزارة إلى مسيحيّين، مخالفين بذلك التحريمات التي أوردناها سابقًا. إلّا أنّه في مصر الفاطميّة نفسها، وفي عهد الحاكم بأمر الله، تعرّض المسيحيّون لاضطهاد قاس. فالحاكم بأمر الله نفسه أمر بهدم كنيسة القيامة في القدس، ثمّ تراجع عن قراراته وأجاز إعادة بنائها، كما سمح للمسيحيّين الذين تحوّلوا قسرًا إلى الإسلام بالعودة إلى المسيحيّة.

لكن عمليًّا، وبوجه عام، إنّ فكرة الحفاظ، بصورة مستمرّة، على مجتمع ذي طبقتين - من جهة طبقة السادة الذين يتميّزون بانتمائهم إلى الإسلام، ومن جهة ثانية طبقة غير المسلمين الذين لا يتمتّعون بالحقوق نفسها - كانت تحمل في طيّاتها بذور عدم التسامح الديني الذي طبع، في كلّ العصور والمناطق، الدول الإسلاميّة المتشدّدة في مواجهتها لمشكلة الأقليّات الدينيّة. حتّى إنّ النظام الطائفي الذي كان يُعتبر، في القرون الوسطى، أكثر الأنظمة تسامحًا، والذي كان يسمح لأهل الذمّة بتولّي مناصب إداريّة، وحتّى أيضًا مناصب حكوميّة، كان يشدّد، على الأقل، على الفروق الأساسيّة بين أهل الذمّة والمسلمين والتي تحول دون المساواة بين المجموعتين، إن في السلوك في الحياة اليوميّة، وإن تجاه الضرائب. وفي مناطق أخرى، ولا سيّما في المشرق الأدنى، سيصبح الوضع أشدّ قساوةً إبتداءً من القرن

لثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد.

أمّا الأمبراطوريّات الكبرى الفاتحة، التي بسطت سيطرتها، في مرحلة لاحقة، على مناطق تسكنها غالبيّة بن غير المسلمين، أكانت شعوبًا أوروبيّة أخضعها لعثمانيّون، أو هنديّة أخضعها البهمنيّون والمغول، فقد اجهت مشكلات من نوع آخر. فعند العثمانيّين، خضعت شعوب الأناضول والرُّوملّي المسيحيّة، لفترة منيّة، خلافًا لأحكام الشريعة الإسلاميّة، لضريبة لغلمان (الدوشرما) التي أمّنت عناصر جيش لإنكشاريّة. أمّا عند المغول فقد غلبت فترات التصلّب على الفترات النادرة والظرفيّة التي تميّزت بالتوفيق بين لمذاهب المتعارضة، كما جرى في عهد «أكبر». واستمرّ، في كل مكان، التمايز الاجتماعي - السياسي قائمًا على الانتماء الديني. حتّى إنّ اليقظة القوميّة، في بداية الحقبة المعاصرة، زادت مسألة الوضع القانوني لغير المسلمين تعقيدًا، من دون أن تلغيه، ذلك أنّ لدساتير الحاليّة للدول غالبًا ما تجهد لاحترام متطلبات لشريعة ونُظم الفقه، ولكنّ تطبيقها باعتدال لا يكفي لارضاء مطالب الإسلاميّين الأصوليّين.

ذِمّي، تعبير يشير، بموجب معاهدة الحماية، إلى غير لمسلمين الذين يعيشون في دار الإسلام من دون أن يتمتّعوا بالمساواة مع المسلمين في حقلي الحقوق لقانونيّة والإقتصاد.

ويتعلّق الأمر في الواقع بمؤدّي الجزية الخاضعين لوضع قانوني، طُبّق أحيانًا بصرامة في بعض الأماكن والعصور، كان من نتيجته دخولٌ مستمرّ لأعداد كثيرة في الإسلام.

الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمّد بن عثمان (٦٧٣ - ٧٤٨هـ/ ١٢٧٤ - ١٣٤٨م)، مؤرّخ وعالم سنّي، اشتهر في سوريا في بداية العصر المملوكي.

وُلد الذهبي في ميّافارقين، ودرس الحديث في دمشق والقاهرة ومدن أخرى من الشرق الأدنى، ثمّ انصرف الى دراسة الفقه على المذهب الشافعي، وأصبح بعد ذلك مدرّسًا في دمشق حيث عاش ومات ودُفن. وترجع شهرته في زمانه الى ضلوعه في علم الحديث، ويظهر ذلك في أعماله المتعلّقة بالسير والتراجم. وهو صاحب كتاب «تاريخ الإسلام» الذي يعرض الأحداث البارزة منذ ظهوره حتّى سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، ومجموعة ملاحظات وتعليقات مهمّة.

ذو القَدَر (٧٣٨ - ٩٢٨هـ/ ١٣٣٧ - ١٥٢٢م)، سلالة من البكوات التركمان من عهد الإمارات حكمت ألبِسْتان، وكانت تابعة للمماليك السوريّين المصريّين، ثمّ للعثمانيّين.

عندما تسرّب الضعف إلى الإيلخانيّين عمد أحد القادة من الأتراك الرحّل، واسمه زين الدين قره جا بن ذو القدر (من هنا اسم السلالة)، إلى الاستئثار بناحية أبِستان أو أبْلُستان سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، الواقعة في سهل مرويّ داخل هضبة جنوب شرق الأناضول. وقد كانت هذه الناحية تشكّل، بعد الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة، واحدًا من الثغور، وذلك قبل أن تتحوّل ساحة يتنازعها فرنج أنطاكية والدانشمنديّون في سيواس، وسلاجقة الروم الذين جعلوها، سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م، مركزًا إستراتيجيًّا، والمماليك الذين احرزوا فيها سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، انتصارًا على الإيلخانيّين.

أفاد قره جا، وخلفاؤه من بعده، من مميّزات عاصمتهم التي كانت مدينة ناشطة، لشنّ حروب متواصلة ضد جيرانهم الأرتقيّين والقرمانيّين، ولبسط سلطتهم من كبادوقيا حتّى كربوت وقيصريّة، ولكنّ حكمهم كان مركّزًا بنوع خاص بين مَرْعَش وملطية. وقد تعرّض أولئك الأمراء لتهديدات تيمورلنك الذي غزا منطقتهم سنة ١٤٠٢م، ولهجمات القراقيونلو والآق قيونلو في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، وأخيرًا لاجتياح الصفويّين الذين ضمّوا إليهم أبلستان ومرعش سنة ١٥٠٧م. ثمّ عمد أولئك الأمراء، الذين عرفوا تاريخًا مضطربًا، الى التخلّص من ضغط المماليك فتحالفوا مع السلاطين العثمانيّين. وآخر ممثّل لهم أعدمه السلطان سليمان القانوني، وأصبحت مَرْعَش عاصمة إقليميّة. مع ذلك بقي عدد من أبناء تلك السلالة يتمتّعون بشيء من الامتيازات حتى أواخر القرن السابع عشر.

◄ راجع المستند رقم ٢٤.

ذو القرنين ← الاسكندر الكبير.

ذي النون (بنو –)، (٤٢٧ – ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ – ١٠٨٥م)، سلالة أندلسيّة صغيرة، نهضت في عصر ملوك الطوائف وشكّلت لنفسها مملكة في وسط البلاد.

ففي القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، تكوّنت في طُلَيطلة وجوارها مملكة مستقلّة تضمّ المقاطعات التي كانت تملكها، منذ القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، أي منذ عهد الخلافة الأمويّة في قرطبة، في قلب شبه الجزيرة الإيبيريّة، أسرة أصلها من البربر عرفت باسم جدّها ذي النون. والجهود التي بذلها إسماعيل، الأمير الأوّل، تكلّلت بالنجاح في عهد ولده يحيى المأمون. فقد أقام هذا الأخير علاقات طيّبة بجيرانه المسيحيّين واستطاع الانتصار على منافسيه المباشَرين من المسلمين، كبني هُود في سرقسطة والعامريّين في بَلَنْسية. كما انتصر على بني عَبّاد ملوك إشبيلية وانتزع منهم مدينة قُرطبة سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م وهي رمز السلطة العليا التي كانت من قبل في أيدي الخلافة الأمويّة. إلّا أنّ موته، في السنة نفسها، وضع حدًّا للمجد القصير الأمد الذي عرفته طليطلة، إذ سقطت بعد عشر سنوات في أيدي المسيحيّين في حروب الاسترداد. وقد جعل بنو ذي النون بلاطهم ملتقى العلماء والشعراء، واغتنت المدينة في عهدهم بالتحصينات والأبنية المشهورة.

اسماعيل الظافر	٤٢٧ – ٤٢٩هـ/ ١٠٣٦ – ١٠٣٨
يحيى المأمون	٤٢٩ – ٤٦٧هـ/ ١٠٣٨ – ١٠٧٥
يحيى القادر	٤٦٧ – ٤٧٨هـ/ ١٠٧٥ – ١٠٨٥

◀ راجع المستندين ١١ و١٥.

ر

رأس الخيمة ← الإمارات العربيّة المتّحدة.

الرأي، كلمة تقنيّة عربيّة تعني «الرأي الشخصي»، استُعملت بهذا المعنى الخاص في باب الفقه، وبشكل عام في مجال الفكر التشريعي الإسلامي.

لجأ الفقهاء، الى حدٍّ ما، إلى الاجتهاد الشخصي لمعالجة النقص في مصدرين أساسيّين للشريعة هما: القرآن الكريم والسنّة. وكان الحنفيّون أكثر من غيرهم أخذًا بالاجتهاد، بينما لازم الحنبليّون، وكذلك الظاهريّون، حرفيّة النص. أمّا الشافعيّون فوقفوا بين الاثنين. وفي العهود الأولى، غالبًا ما كانت تتمّ المقارنة بين أهل الرأي وأهل الحديث.

رئيس، كلمة عربيّة حملت في بلاد الإسلام، من العصور الوسطى حتّى يومنا، معاني متغيّرة عدّة.

تنطبق كلمة رئيس، في العصور الوسطى، على كبير طائفة إجتماعيّة - مهنيّة مثل طائفة الأطباء في مدينة مهمّة؛ وكذلك بالنسبة الى الفقهاء المنتمين إلى مدرسة فقهيّة معيّنة، فإنّهم يعترفون بوجود رئيس عليهم، ولكن من دون أن يُعرف دوره بالضبط. ربّما استعملت هذه الكلمة بشكل مماثل، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، في مدن سورية للدلالة على رئيس الشرطة المحليّة الذي كان يقوم بتأمين مسؤوليّة الحكم وإحقاق النظام، عندما كانت تضعف السلطة المركزيّة. اختفى هؤلاء الرؤساء عندما قام حكم مركزي قوي في عهد الزنكي نور الدين في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

استُعملت كلمة رئيس، لاحقًا، في التركيّة للدلالة على مهمّات رسميّة عدّة. كان «الرؤساء»، في بحريّة السلطنة العثمانيّة، قوّاد سفن وقراصنة، وقد تجمّعوا في إطار نوع من الطوائف. نجد أيضًا لقب «رئيس الكتّاب»، وهو لقب حمله رئيس الديوان العثماني، وقد أنشئت هذه الوظيفة، في القرن السادس عشر على ما يبدو، إبّان حكم سليمان القانوني. كان هذا الشخص، الذي لُقّب أيضًا بـ «رئيس أفندي»، موظّفًا كبيرًا في السلطنة مارس مهماته كأنّه أشبه بوزير خارجيّة، إلى أن أُلغي هذا المنصب أيّام التنظيمات المعروفة بخط همايون، في العام ١٨٥٦.

غدت كلمة رئيس، في العصر الحديث، مرادفة لرئيس الدولة، وتعني رؤساء الجمهوريّة في مختلف الدول العربيّة في الشرق الأوسط. وقد اكتسبت هالة شعبيّة ساعدت على إضفاء شرعيّة على سلطة تنامت في إطار «جمهوريّات» حديثة خاضعة لنظام حزبٍ مسيطر. هكذا، مثلًا، حمل هذا اللقب جمال عبد الناصر في مصر، ولاحقًا صدام حسين في العراق.

الرابطة الإسلامية الهندية أو **رابطة جميع مسلمي الهند**، منظمة أسّسها مسلمو الهند سنة ١٩٠٦ للدفاع عن مصالحهم. لم تنجح قط في استقطاب دعم الجميع، لكنّها حثّت على إنشاء الباكستان سنة ١٩٤٧.

بعد تقسيم البنغال في العام ١٩٠٥، والحرب الأهليّة التي نتجت عنه، قرّر بعض المسلمين من ذوي نزعة الحداثة والموالين للسلطات البريطانيّة إنشاء جمعيتهم الخاصة برئاسة الآغا خان، وكان هدفها فرض احترام الحقوق المدنيّة للمسلمين. في العام ١٩١٣، عدّلت الرابطة الإسلامية قوانينها، لكنّها بقيت منظمة ثانوية الى جانب سائر الرابطات الإسلاميّة الموجودة في مختلف الأقاليم، وعانت انقسامات في الأراء وكانت هذه الانقسامات تُحدث اضطرابًا داخل

الطائفة الإسلاميّة الهنديّة، وكذلك داخل حركاتها السياسيّة والدينية.

لم تضطلع الرابطة بدور مهمّ إلّا في العام ١٩٣٧ بتأثير من محمّد علي جناح الذي أراد أن يجعل منها الأداة الوحيدة لمشاريعه الجديدة، بعد أن منع الانتساب المزدوج إلى المؤتمر الهندي وإلى الرابطة. عندئذ بدأ التفكير بفصل الطائفتين الإسلامية والهندوسيّة، ما سيؤدّي إلى إنشاء دولة إسلاميّة مستقلّة. وقد أعلن هذا البرنامج سنة ١٩٤٠ على أنّه الوحيد الذي يستحقّ أن يكون موضوع اهتمام. إلّا أنّه بعد النجاح السياسي الذي أدّى إليه ذلك القرار، وبعد حصول باكستان على الاستقلال سنة ١٩٤٧، انحلّت الرابطة وهي التي كانت تستمدّ الدعم من المناطق الهندية ذات الأقلّيّات المسلمة، ونشأ عنها ثلاث مجموعات سياسيّة جديدة.

رابعة العَدَوِيّة، (٩٤-١٨٥هـ/ ٧١٣-٨٠١م)، متصوّفة لمع اسمها خلال بدايات التصوّف في الإسلام. عاشت في البصرة حيث تُعتبر من أولياء هذه المدينة.

اختارت رابعة منذ صباها، وهي المتحدّرة من أسرة فقيرة، ربّما كانت من الرقيق، أن تحيا حياة انزواء وزهد. تحلّق حولها أتباع أخذوا بتعليمها الذي كانت تصوغه غالبًا في قالب شعري. وقد توخّت، على ما يبدو، كما يظهر من ترجمة حياتها التي أوردها كتّاب متأخّرون مثل الغزالي أو الكلاباذي اللذين نقلا بعضًا من أقوالها، محبّة الله والأنس به: «لم يَعُد لي وجودٌ مستقلّ، لقد خرجت من ذاتي وأصبحت واحدًا مع الله وأنا له كليًّا»، هذا ما أعلنته في تعاليمها، ساعية للفوز بالاتّحاد الصوفيّ، وهي تعاليم مهّدت الطريق لتعاليم من تلوها من أركان التصوّف مثل الحلّاج.

الرازي، أبو بكر محمّد بن زكريا (٢٥١-٣١٣هـ/ ٨٦٥-٩٢٥م)، طبيب وعالم وفيلسوف مدافع عن الفلسفة. أصله من الرّي كما تشير نسبته. كان ذائع الشهرة في القرون الوسطى في أوروبا المسيحيّة.

شغل الرازي، على التوالي، منصب مدير مستشفى الرّي، ثم مدير مستشفى بغداد حيث، بصفته هذه وبوجوده في خدمة أمراء عديدين، جمع ملاحظات طبيّة عملانيّة كثيفة. والرازي، الذي يحيط الغموض بسيرته، وضع مصنّفات طبيّة عدّة، نالت في ما بعد حظوة كبيرة: رسائل في شتّى الأمراض؛ وبالأخص موسوعات طبية أغناها بنتائج اختباراته الخاصة. أبرز كتبه، كتاب «الحاوي» الضخم المعروف باللاتينية بعنوان «Liber continens»؛ وله أيضًا «كتاب المنصوري»، «Liber Almansoris» باللاتينيّة، وكتاب «الملوكي»، «Liber Regius»، اللذان كان لهما في الغرب تأثير استثنائي.

عمل الرازي، على ما يبدو، في مجالات علمية عدّة مثل الرياضيات والفلك والفيزياء والخيمياء، وكان له فيها كتابات عديدة ضاع بعضها. كما ذاعت شهرته، كمفكّر مبدع و«مفكّر حرّ»، من خلال كتاباته في الأخلاق والماورائيّات. ولم يتوان عن توجيه تفكيره نحو البحث عن السعادة الإنسانيّة التي عمل على تحديد شروطها من منظور المتعة الفكرية المتأثّرة بالأفلاطونيّة والتوجّهات الغنوصيّة. وتعرّضت كتاباته، في مواضيع كالزمن والطبيعة، والنفس، والنبوّة، لانتقادات عنيفة من معاصريه، ومن بينهم مفكّرون إسماعيليّون، مع أنّ معتقداته تغلغلت في ما بعد في الأوساط الشيعيّة. جعل من الزمن أحد المبادئ الخمسة الأبديّة، وأنكر تأثير النفس في الطبيعة، وأعطى الدور الأوّل للفيلسوف الذي يقع على عاتقه تحرير النفوس من المادة، وفق مفهوم يذكّر بالمانويّة.

الرازي ← **فخر الدين الرازي**.

الراشدون، (١١-٤١هـ/ ٦٣٢-٦٦١م)، إسم يطلق على الخلفاء الأربعة الأوّلين في الإسلام بعد النبيّ محمّد ﷺ وهم: أبو بكر الصدّيق، عمر بن الخطّاب، عثمان بن عفّان وعلي بن أبي طالب.

حصلت، في ظلّ هؤلاء الخلفاء، الفتوحات الأولى الكبرى بسرعة مدهشة، وهي الفتوحات التي أوصلت جيوش المسلمين إلى ما بعد مصر لجهة الغرب، وإلى آموداريا في الشرق، مؤسّسين بذلك الأمبراطوريّة الإسلاميّة. وُضعت، في عهدهم، أسس دولة الخلافة الإسلاميّة، كما نوقشت مسألة انتقال السلطة ومفهوم الإمامة، فيما برز، مثلًا، تقليد قسم البيعة للخليفة الجديد من أجل تثبيت شرعيّته. جُمع، على عهدهم، النص الرسمي للقرآن، ووضعوا أوّل الأسس التشريعيّة

لسدّ الفراغ القانوني في المواضيع التي لم يشر إليها القرآن ولا السنّة. توالت، في هذه الفترة ايضًا، الصراعات الداخليّة بين صحابة نبي الإسلام (ﷺ)، ومنها الحرب الأهليّة التي فجّرها اغتيال عثمان في العام ٣٦هـ/٦٥٦م. لذا تصحّ تسميتها بالفتنة الكبرى أو الفوضى، لأنّها قسّمت الأمّة إلى حركات سياسيّة - دينيّة لها الأهميّة عينها التي ارتدتها لاحقًا حركات أخرى، كالشيعة والخوارج.

ما يثير العجب أنّ صفة «الراشدين» أُطلقت في التقليد الإسلامي على خلفاء كانوا أبعد ما يكون عن الاتفاق الكامل في ما بينهم. ولكن، أبعد من الاختلافات التي انفجرت بين هؤلاء الخلفاء وحولهم، كانت اندفاعة الاسلام قد سلكت الطريق التي ستتبعها فيّ ما بعد، حتّى لو أنّ الخلفاء اللاّحقين ابتعدوا عن بعض الأعراف السابقة. بقي عند المسلمين من هذه الفترة فكرة العهد الذهبي الضائع وبعض الأحاديث المنسوبة إلى النبيّ (ﷺ)، يقول فيها إنّ أمّته ستبقى على الصراط المستقيم مدّة ثلاثين سنة، وإنّها ستقع بعدها تحت نظام «المُلك». يُبرز هذا التأكيد أهميّة المهمّة التي نفّذها الخلفاء الأربعة المنتخبون الذين حكموا في المدينة، وذلك قبل أن يرسي معاوية، بذكائه السياسي، في دمشق، أسس أوّل سلطة سلاليّة في الإسلام هي سلطة الأمويّين.

الراضي بالله، أبو العبّاس أحمد بن المقتدر (٢٩٦ ٣٢٨هـ/٩٠٩-٩٤٠م)، خليفة من السلالة العبّاسيّة، خلف القاهر إثر سقوطه، حكم فقط من العام ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م حتّى موته المبكر في العام ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م.

اشتهر حكمه القصير بتعيين ابن رائق أوّل أمير أمراء. كان هذا الأخير، قبل ذلك، واليًا على واسط والبصرة، وباتت في يده السلطات العسكريّة والماليّة، قبل أن يخلفه في هذا المنصب بجْكَم في العام ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م. كان ذلك بداية لمرحلة من التراجع أصابت سلطة الخليفة في بغداد، في وقت كان فيه الأخشيديون قد وطّدوا حكمهم في مصر، وأظهر الحمدانيّون استقلالًا متزايدًا، وبدأ البويهيّون، بعد سلسلة انتصارات عسكريّة على الراضي، يمارسون وصايتهم على خلفاء أخذت سلطتهم تنهار.

رامبور (الاتّحاد الهندي)، إحدى الإمارات الإسلاميّة التي استمرّ وجودها في ظلّ الحكم البريطاني للهند بعد ١٨٥٧، والتي أصبحت مركزًا للثقافة الإسلاميّة، أسوةً بدولتي بهوپال وحيدر آباد في الدَّكن.

استقرّ في هذه الإمارة القائمة في سهل الغانج، بعد رسوخ الحكم المغولي في الهند الشماليّة، أقوام من الأفغان والپاثان. أنشأ فيها الأفغاني علي محمّد خان وابنه، بعد وفاة السلطان المغولي أورنغ زيب في العام ١٧٠٧، إمارة صغيرة مستقلّة دخلت في ممتلكات البريطانيّين في العام ١٨٠١، لكنّها ظلّت في أيدي ورثة علي محمّد. أصبحت بعدئذ مدينة رامپور - ونصف سكّانها هم اليوم من المسلمين - مركزًا لتعليم اللغة العربيّة والعلوم الدينيّة التقليديّة.

الرِّباط، كلمة يغلب عليها الطابع التقني، استُعملت في مجال الهندسة المعماريّة العسكريّة في بلاد الإسلام للدلالة على أبنية شيّدت خلال القرون الوسطى في ثغور معرّضة للخطر، من أجل إيواء الدفاعات وحاميات الجند. تشتقّ هذه الكلمة من جذر «ربط»، بمعنى «أوثق»، «شدّ»؛ وكانت تعني في الأصل، إمّا قُليعة حدوديّة يشغلها مقاتلو الجهاد ويستعملونها كمركز دعم للحماية من الهجمات الآتية من البرّ أو من البحر؛ وإمّا خانقاه يسكنه أتباع الصوفيّة، وفق نماذج معماريّة تكاثرت بدءًا من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد؛ وإمّا خانًا محصّنًا، يقع غالبًا خارج المدن. دخل التعبير في اللغة الفارسيّة تحت اسم «رُباط»، ويُطلَق أساسًا على أبنية شُيّدت في فترة متأخّرة، وما تزال قائمة على الطرق الايرانيّة.

هذه المعاني الثلاثة التي استُعملت معًا او بشكل متتابع، بحسب الإقتضاء، ظهرت في فترات وأماكن مختلفة، على قدر الرواج الذي لاقته هذه التسمية التي كانت، بالموازاة، تُستبدل بتسميات أخرى، ما عدا في ما يتعلّق منها بمعنى القُليعة الحدوديّة. ويبدو أنّ الإختلاف بين معاني الكلمة مردّه الى كيفية تفسير جذرها العربي الآنف الذكر، الذي اختير للدلالة على

مكان استراحة - او حتّى إقامة موقّتة - لأشخاص أتقياء تُحرّكهم، بالقدر نفسه، إهتمامات ذات طابع حربيّ وتأمّلي صوفيّ.

اشتهر شاغلو القليعات الحدوديّة البريّة أو البحريّة - التي عرفت رواجًا خاصًا في فترات تفاقم روحيّة الجهاد - بتفرّغهم للممارسات التقويّة في الفترات الفاصلة بين الحملات العسكريّة. حتّى إنّهم كانوا يُعدّون في صفوفهم، بدءًا من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، صوفيّين أصيلين يكرّسون أنفسهم آنئذٍ، على غرار رجال الدين الأخرين في هذه الفترة، للحياة القاسية التي يعيشها المجاهد ضدّ الكفّار. وجميعهم مارسوا نوعًا خاصًا من «المثابرة على المحن»، وهذا يتطابق مع فضيلة الصبر في الإسلام؛ كما حافظوا، وفق اعتبارات أخرى، على نمط حياة لا يختلف، بدون شك، عن النمط الذي كان المتصوّفون يختبرونه في أماكن أكثر هدوءًا. وكذلك فإنّ هندسة الخانات المنعزلة كانت، ولأسباب أمنيّة، شبيهة بهندسة القليعات الحدوديّة، من أجل حماية منازل المسافرين واصطبلات الحيوانات. والى جانب التجّار الذين يتجوّلون على طرق القوافل، كانت هذه الخانات تأوي، في أكثر الأحيان، متصوّفين متنقّلين ودراويش و«فقراء» آخرين كانوا يستفيدون، في تنقلاتهم، من أماكن الإستراحة الموقّتة هذه. ومنحت الفرصة لهؤلاء الصوفيّين أيضًا، بدءًا من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، للإستئثار - من أجل ممارساتهم الصوفيّة - ببعض هذه الخانات التي تحوّلت الى أماكن صوفيّة منتشرة هنا وهناك، وتابعة لهذه الطريقة أو تلك لتأمين انطلاقتها وانتشارها.

لم تمنع هذه المعاني المختلفة من أن يكون الرباط العسكري، الذي عرفته العصور الأولى للإسلام، هو الذي حاز الشهرة الأكثر اتّساعًا، وذلك بسبب أهميّته الوظيفيّة في مجال الدفاع. والإهتمام الذي يعيره المجتمع الإسلامي لهذا الرباط نجم أكثر عن المعطيات الأثريّة، المتعلّقة خاصّة بالغرب الإسلامي، منه عن الشهادات النصيّة للمؤرّخين العرب التي تذكر بخاصّة القليعات التي كانت قائمة على الحدود العبّاسيّة مع بيزنطية، والتي اندثرت اليوم. وهكذا نعرف البقايا المهمّة للرباطات الضخمة في سوسة ومنستير، على شاطئ إفريقية القديمة، إذ كانت هذه الرباطات تشكّل جزءًا من سلسلة تحصينات أقيمت في النقاط الحسّاسة على هذا الشاطئ، بغية حماية البلاد خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. وهذه الرباطات، بالنظر إلى نمط بنائها الاستثنائي في ضخامته، تعدّ، حتّى اليوم، من بين الإنجازات الشهيرة والأفضل ترميمًا في التراث المعماري التونسي. يُمكننا ذكر نموذج آخر عن هذه الرباطات، وهوَ المعسكر الضخم الذي أقيم في المغرب في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، على مصبّ نهر بو رقراق وقبالة مدينة سلا، كمركز تجمّع للجيوش المبحرة الى الأندلس للدفاع عنها باسم الجهاد. ومن هذا الرباط أخذت مدينة الرباط إسمها.

سُمي شاغلو الرباط، بالعربيّة، «مرابطين» (جمع مرابط). وقد استُعملت هذه الصفة، الإطرائية في فحواها، من ضمن ألقاب القادة العسكريّين والملوك في الشرق الإسلامي منذ أن درجت، إبتداءً من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، عادةُ الإكثار من النعوت التي تشير الى الكفاح ضد الكفّار. كانت لفظة «مرابط» تعني آنذاك «المقاتل في الثغور»، وغالبًا ما كانت تُقرَن بلفظة مجاهد. وخلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أصبح تعبير «الغازي» هو الأكثر استعمالاً. وفي فترة سابقة، وفي الغرب الإسلامي، أُطلقت تسمية «مرابط» بشكل أخص بصيغة الجمع، أي «المرابطون»، على ملوك بربر يُشار إليهم، باللغة «الفرنسية بكلمة «Almoravides» المشتقة من اللغة الإسبانيّة، بدون أن نعرف ما إذا كان أفراد هذه السلالة قد شغلوا فعلًا رباطًا حدوديًا يُقال إنّه كان يقع في جزيرة على نهر السنغال، أو إنّهم اكتسبوا هذا اللّقب لمجرّد الحماسة التي أبدوها في نشر الإسلام في أفريقيا السوداء. وهذه الحماسة كانت الضمان لنجاحاتهم المستقبليّة كفاتحين للمغرب والأندلس. أخيرًا، وفي فترة غير بعيدة، أعطت كلمة «مرابط» اللفظة الفرنسيّة «marabout» المشتقّة من لهجة عاميّة، وهي تدلّ على

شخص نقي حامل بركات، وعلى ضريحه أيضًا، وذلك وفق مفهوم جغرافي، إذ إنّها أُطلقت، بنوع خاص، على الأفريقيّين. وهناك علاقة بين كلمة «مرابط» وكلمة «رابطة» التي استُعملت في المناطق عينها، على غرار لفظه زاوية، للدلالة على مكان تصوّف.

◄ راجع المستند رقم ٥٤.

الرِّباط، (المملكة المغربيّة)، تُعرف بالعربيّة بـ«رِباط الفتح». وهي مدينة مرفئيّة على الأطلسي، قبالة سلا تقع على مصب نهر بو رقراق. عرفت ازدهارًا حديثًا كمدينة إداريّة وعاصمة للمغرب.

اختار عبد المؤمن، أوّل ملوك الموحّدين، حوالى العام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، الجهة المواجهة لِسَلا، لتجميع الجيوش المعدّة للقتال في شبه الجزيرة الإيبيريّة دفاعًا عن الاندلس. وهكذا أقيم مخيم دائم للجهاد في موقع رباط قديم أدّى إلى إنشاء بلدة حملت، لِفترة، اسم المهديّة، وزُوّدت بمسجد جامع وبقصر سلطانيّ مات فيه عبد المؤمن في العام ٥٥٨هـ/١١٦٣م. أَوْلى أحد خلفائه، وهو أبو يوسف يعقوب المنصور، هذه «المدينة الملكيّة» الجديدة اهتمامًا خاصًا، وما لبث أن حصّنها بسورٍ وبأبواب عظيمة. وبعد الانتصار في معركة ألأرك، في العام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م، أعطاها اسمها الحالي رباط الفتح. عقب ذلك تشييد مسجد جامع فيها ذي قياساتٍ ضخمة لم يكتمل بناؤه، وكذلك «مئذنة» مربّعة الشكل، بلغ ضلعها ١٦ مترًا، وعُرفت باسم برج حسّان، لم يكتمل بناؤها أيضًا. ما زالت هذه المجموعة تفوق، من حيث أهميّتها المعماريّة، الأبواب الضخمة القائمة في المدينة والتي تؤدّي إلى قلعتها المسمّاة قصبة الأوداية.

لم تتمكّن الرباط، في نهاية حكم الموحّدين وخلال حكم السلالة المرينيّة، من التفوّق على منافستها سلا التي كانت في أوج نشاطها المرفئي. لكنّ الحكّام الجدد، الذين أصبحوا بدورهم أبطال الجهاد، باتوا متحمّسين لمكانتها، فاختاروا أن يجعلوا قربها، في الشّالة، مقبرتهم الملكيّة. وهكذا أُقيمت بين القرنين السابع والثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، إلى جانب قبورهم، داخل أسوار ضخمة، أضرحة ومساحات جنائزيّة مسوّرة، وعدد من المصلّيات والزوايا وفق مخطّطات متشابكة هي، حاليًا، موقع أثري مهدّم.

إن طرد جماعة الموريسكيّين من إسبانيا، في بداية القرن السابع عشر، أثّر بالطريقة نفسها في مصير المدينتين التوأمين، الرباط وسلا. لقد استقرّ شعب بحريّ، من أصل إيبريّ، على ضفّتي النهر، وتابعت سفنه رحلاتها البحريّة سعيًا للتجارة، وبخاصة للقيام بأعمال القرصنة. وقد جمع هؤلاء القراصنة ثروات ضخمة ونجحوا في إقامة إمارة شبه مستقلّة، وتابعوا نشاطهم حتّى العام ١٧٥٧، أي بعد عودتهم إلى طاعة الحكم المركزي وخضوعهم لمولاي الرشيد - أوّل ملك من الأسرة العلويّة - الذي احتلّ الرباط في العام ١٦٦٦. عندئذٍ، تمّ بناء مساجد عدّة وقصر ملكي في الرباط. وقد رافق التخلّي عن القرصنة، في نهاية القرن الثامن عشر، تراجع نسبيّ لازدهار المدينة استمرّ حتّى الاحتلال الفرنسيّ في العام ١٩١١.

إنّ تنظيمًا مُدُنيًّا وتخطيطات هندسيّة حديثة طبعت، مذّاك، تطوّر المدينة، وإنّ اهميّتها الإداريّة في ازدياد مستمرّ تجاوبًا مع دورها كعاصمة للمغرب.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

الرَّحبة (قلعة -)، بلدة قروسطيّة مهدّمة، تقع في منطقة الجزيرة السوريّة. كان لها دور مهمّ في ازدهار منطقة بلاد ما بين النهرين العليا.

تقع على مقربة من بلدة الميادين الحاليّة، جنوبيّ ملتقى نهر الفرات ورافده الخابور. تأسّست، على الأرجح، في العصر القديم. إلّا أنّ التقليد التاريخي العربي يُرجع بناءها الى المرحلة الإسلاميّة، إلى عهد الخليفة العبّاسي المأمون، وذلك على يد أحد أتباعه، مالك بن طوق، الذي خدم سابقًا الخليفة هارون الرشيد. احتلّت هذه البلدة الفسيحة موقعًا إستراتيجيًّا وتجاريًّا من الدرجة الأولى بين ولايتي العراق وسوريا. تنازعها أمراء المناطق المجاورة، خصوصًا بين القرنين الرابع والسابع للهجرة/ العاشر والثالث عشر للميلاد، قبل أن تتوقّف طرق القوافل التي تتقاطع فيها بسبب غزوات المغول. وهبها نور الدين، في العام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، إقطاعًا

للضابط الكردي شيركوه، عمّ صلاح الدين، الذي بنى على بعد بضعة كيلومترات من النهر مدينة جديدة حصّنها بقلعة وأسماها «الرَّحبة الجديدة»، لتحلّ محلّ المدينة القديمة التي كان دمّرها زلزال.

عرفت المدينة الرخاء، حتّى قيام مملكة الإيلخانيّين، وذلك بفضل تحوّلها إلى مركز لتخزين البضائع وإلى سوق للأنشطة التجاريّة؛ كما أصبحت، في ما بعد، موقعًا حصينًا على تخوم دولة المماليك، ومن ثمّ تقهقرت كليًّا بعد ضمّ المنطقة إلى ممتلكات الأمبراطوريّة العثمانيّة في القرن السادس عشر، لتحلّ مكانها مدينة دير الزور التي غدت مركزًا إداريًّا واقتصاديًّا لتلك المنطقة. وحتّى الآن لم تجر أيّة حفريّات أثريّة منهجيّة في موقع الرحبة القديم المهجور.

الرحلة ← **الجغرافيا**.

الرحمانيّة، طريقة صوفيّة تفرّعت من الطريقة الخلواتيّة، أسّسها، في القرن الثامن عشر، البربري محمّد بن عبد الرحمن الجُرجُري.

كان مؤسّسها قد قصد القاهرة طلبًا للعلم. وهناك انخرط في سلك الطريقة الخلواتيّة وأُعطي التوجيهات لنشر تعاليمها. بدأ مهمّته في الجزائر بعد سنوات عدّة، حيث أطلق رسائله وأسّس زاويتين: الأولى في جُرجُرة، في منطقة قبائل البربر، والثانية قرب مدينة الجزائر. تفرّعت الطريقة، بعد موته وموت خلفه في العام ١٨٣٧، عدّة فروع، دعا واحدٌ منها، في العام ١٨٧١، باسم الجهاد، إلى ثورة داخليّة لم يكتب لها النجاح.

رَدُّ المظالم، أحد الامتيازات المسلَّم بها للعاهل المسلم في القرون الوسطى. وقد أدّت ممارستها، خلال بعض الفترات، إلى نشوء ما يمكن تسميته عدالة الدولة.

كان هذا العمل واجبًا على رئيس الجماعة، بدءًا بالخليفة أو من يقوم مقامه، ينظر بموجبه في الشكاوى والإلتماسات المرفوعة إليه ويعالجها وفاق قواعد العدالة، وعند الاقتضاء يضع حدًّا للمظالم أو يقوّم الأخطاء التي يتبيّنها. من هنا نشأت في القرون الوسطى، في كل دولة إسلاميّة، سلطة قضائيّة خاصة، منفصلة عن سلطة القضاة، كانت تشكّل، ليس إمكان استئناف الحكم لكلّ مسلم لا يرضى بمحاكمة ما، أو يحتجّ على عدم تنفيذ حكم ما فحسب، بل كذلك مرجعًا ضدّ كل تجاوز للسلطة يرتكبه أحد عمّال الحكم، أو تحكُّم يرتكبه أميرٌ ما، أو في حالة جباية ضرائب غير شرعيّة، مثلًا.

كان الخلفاء، ولا سيّما العبّاسيّون منهم، يجلسون للناس بانتظام للقيام بهذه المهمّة القضائيّة التي كانت تيسّر لرعاياهم الشكوى من تصرّفات صاحب الشرطة أو أحكام القضاة، كما كانت توفّر لهم فرصة القيام بمبادرة بأنفسهم وطلب محاكمة قادة العسكر والكتّاب المختلسين والدّعاة، وحتّى المتصوّفين المتّهمين بالبدَع. إلّا أنّ الخلفاء كانوا يعمدون، كي لا ينهضوا بهذه المهمّة باستمرار، إلى تفويض سلطتهم الى قضاة ينتدبونهم خاصة لهذه المسائل، وربّما تشكّلت لهذه الغاية، أحيانًا، محاكم عليا كان تشكيلها يختلف باختلاف المسائل المطروحة.

إنّ تنظيم هذه المحاكم الذي كان مجهولًا، حتّى في العهود الذهبيّة للخلافة، قد خضع لمتغيّرات كثيرة بحسب الدول والعصور. فبعض الملوك جعلوا من أداء هذه المهمّة برصانة مسألة شرف، بينما كان سواهم لا يولونها الاهتمام الكافي. بصورة عامة، كان هذا النوع من المحاكم التي شهدت محاكمات شهيرة ذات طابع ديني، مثل محاكمة الحلّاج، والتي لوحقت أمامها بالخيانة شخصيّات كبيرة فقدت الحظوة، يوفّر السبيل الوحيد لحلّ النزاعات في المسائل الإداريّة وللاحتجاج على التعسّف في جباية الضرائب. وهكذا ساهمت في دمج عدالة الدولة في المؤسّسات القضائيّة الإسلاميّة.

الرُّستميّون، (١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٧-٩٠٩م)، سلالة تنتمي إلى الخوارج، استقلّت عن الخلافة العبّاسيّة وسيطرت على قسم من المغرب الأوسط.

قام المدعوّ عبد الرحمن بن رستم، وهو من أسرة فارسيّة، منذ العام ١٤٤هـ/٧٦١م، بتجميع بربر نفوسة الذين كانوا قد تحوّلوا إلى الإباضيّة واستقرّوا في منطقة طرابلس الغرب، وبغزو إفريقية. توجّه بعدئذٍ إلى المنطقة الوسطى من المغرب حيث أسّس مدينة تاهرت وأقام إمارة مستقلّة. تمّ الاعتراف به في العام ١٦٠هـ/

٧٧٧م. إمامًا للخوارج المتحلّقين حوله، وحصل على ولاء سائر الجماعات الإباضيّة في الأوراس وإفريقية الجنوبيّة وفزّان. ولكنّه اصطدم بمقاومة الأدارسة في فاس، والأغالبة السنّة في إفريقية، ولم يحظَ سوى بدعم أُمويّي قرطبة البعيدين، الذين تحالف معهم.

إن الدور الجديد الذي نهضت به، في البلاد، قبائل كُتامة المنتمية إلى الإسماعيليّة والمدافعة عن قضية صاحبها، كان مشؤومًا بالنسبة إلى الإمارة الصغيرة التي سقطت عاصمتها تاهرت، في العام ٢٩٦هـ/٩٠٩م، على يَدَي الداعية أبو عبدالله، فكان ذلك مؤشّرًا لولادة القوّة الناشئة للدولة الفاطميّة في إفريقية. انتقل الرستميّون الذين نجوا بعد خراب عاصمتهم إلى وَرْقَلَة حيث أسّسوا، حول سدراتا، حكمًا إباضيًا جديدًا.

عبد الرحمٰن بن رستم	١٦٠-١٦٨هـ/٧٧٧-٧٨٤م
عبد الوهاب بن عبد الرحمن	١٦٨-٢٠٨هـ/٧٨٤-٨٢٣م
أبو سعيد أفلح	٢٠٨-٢٥٨هـ/٢٢٣-٨٧٢م
أبو بكر بن أفلح	٢٥٨-٢٦٠هـ/٨٢٣-٨٧٤م
أبو اليقظان محمد	٢٦٠-٢٨١هـ/٨٧٤-٨٩٤م
ابو حاتم يوسف	٢٨١-٢٨٢هـ/٨٩٤-٨٩٥م
يعقوب بن أفلح	٢٨٢-٢٨٦هـ/٨٩٥ ٨٩٩م
أبو حاتم يوسف (للمرّة الثانية)	٢٨٦-٢٩٤هـ/٨٩٩-٩٠٧م
يقظان بن محمّد	٢٩٤-٢٩٦هـ/٩٠٧-٩٠٩م

◄ راجع المستند ١١.

الرسم الإيقوني (تحريم -)، هو من أهمّ سمات الفنّ الإسلامي وثقافته، بقي قائمًا ثابتًا دونما تطوير حتى المرحلة المعاصرة. إلّا أنّ ذلك لم يَحُلْ دون بروز رسوم زهريّة محليّة تتراءى فيها وجوه معبِّرة.

وكثيرًا ما كان موضوع هذا التحريم ذي الطابع الديني الإسلامي، بمعانيه وأبعاده، مدار مناقشات متنوّعة من قِبل مؤرّخي الفن الذين قيّموا، بطرق مختلفة، علاقة هذا التحريم بمجتمع متنوّع، لا يشكّل إلّا ظاهرًا كتلةً متراصة. وقد تمّ التركيز، في دراسة فنّ القرون الوسطى، على وجود رسوم تعود إلى سلالة من الأمراء، أو إلى حضارة البلاط في بعض البلدان، وهي غنيّة بالمعطيات، ممّا يؤكّد أنّه كان هناك اهتمام خاص بفن الرسم. وقد تبيّن أنّ هذه الرسوم قد نُقلت من مادة بناء إلى أخرى، مع تنويع وتبديل في الأسلوب، بحسب ما يتفق مع أذواق أصحاب القصور.

وهذا المزيج الفنيّ المركّب يعبّر أحيانًا عن الحفلات داخل البلاط أو عن مجالس اللهو، استُعين به لتزيين الجدران أو الأواني الثمينة أو الأثاث، وهو ذو طابع رمزي. إلّا أنّه من الصعب تثمين أهميّته، كونه بعيدًا بمواضيعه عن حياة المسلمين اليوميّة. اذ كان هؤلاء بعيدين كلّ البعد عمّا كان يجري في البلاط، وبعيدين عن نمط عيش الذين يتردّدون اليه من قادة عسكريّين وأصحاب رتب عالية وجلساء. إنّ الرسوم التي تزيّن المجلس الملكي الغزنوي والغوري في لشكاري بازار، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، والتي تمثّل صفًّا من الحرس باللباس الرسمي، وكذلك قبلها اللوحات المستوحاة من الرسوم الجداريّة القديمة، الإغريقيّة أو الساسانيّة، والمنقولة إلى الحمّامات الأمويّة في قُصير عَمْرة، كان تأثيرها ضعيفًا في الأوساط الشعبيّة، لأنّ العامّة كانت تجهل ما يجري داخل القصور التي لم يكن يسكنها إلّا الخليفة وأسرته. ونصل إلى النتيجة نفسها مع دراسة الرسوم المخصّصة للكتب حيث تكثر الزخارف التي تُمجّد الشخصيّة حامية الأدب التي أوصت بإعداد الكتاب، وتكون هذه، في أغلب الأحيان، الأمير الحاكم. كذلك الحال مع قطع الأثاث المتنوّعة داخل القصور، والتي خضعت للتقنيّات الخزفيّة أو الفنون المعدنيّة وتجسّد أفرادًا في وضع يعبّر عن عظمة وجلال، ومشاهد مستوحاة من عادات البلاط.

خارج هذه الحالات الخاصّة والمحدَّدة بمدلولاتها، يبقى التجريد هو القاعدة التي يقوم عليها الرسم، كالتشبيك الهندسي، والعربسة القائمة على الزخرفة والتوريق، والتركيبات المكوّنة من التداخلات الكتابيّة والتدوينات المتنوّعة التي تهتمّ بجمال الشكل أكثر من المضمون. ونتساءل إذا ما كان التحريم المطبّق بهذه الشموليّة لم يتأثّر بعوامل أخرى مختلفة لم يجرِ درسُها حتى الآن، وهذه العوامل هي التي عزّزت ما كان الدين قد حرّمه في الأساس. لا شكّ في أنّ الريبة والحذر كانا دائمًا قائمين في الإسلام تجاه عمل أيّ فنّان يحاول

منافية الخلق الإلهي. ولا شك كذلك في أنّ تحريم الصور طُبّق بدقّة داخل المساجد وحولها، وفي الأماكن التي ترعاها التيّارات الفقهيّة والقانونيّة الصارمة، كتلك التي عند المذهب المالكي. إلّا أنّه لم تُذكر قط أيّة أحكام واضحة بحقّ الذين يخرقون التحريم. واحترام أشكال الرسم الخالية من الوجوه بات نوعًا من العرف المتّبع.

الرّسوليّون، (٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م) [أو بنو رسول]: سلالة سنيّة حكمت اليمن بعد أن خلفت الأيوبيّين وأقامت علاقات جيّدة بالمماليك في مصر.

عرفت البلاد على عهدهم إنطلاقة سياسيّة واقتصاديّة، وذلك بفضل ازدهار أنشطتها التجاريّة، لا سيّما تجارة القوافل البريّة والتجارة البحريّة التي تطوّرت، بفضل مرفإ عدن الذي أصبح أحد المراكز الأساسيّة للملاحة في المحيط الهندي. هذا الانفتاح على العالم الخارجيّ الإسلامي، وصولًا إلى الشرق الأقصى، يفسّر لنا الثروة التي تيسّرت لحكّام تلقّبوا بألقاب رفيعة ومُدحوا رعاةً للآداب والفنون، في بلد خلّف فيه فنّ العمارة والحرف اليدويّة التي كانوا يرعونها شواهد قيّمة.

كانوا ينتمون بلا شكّ، وبغضّ النظر عن ادّعائهم أنّهم منحدّرون من قحطان، الى الأتراك الغزّ، ويعودون بنسبهم إلى «رسول للخليفة في المنطقة» (من هنا تسميتهم). واصلوا في حكمهم السياسة التي اتّبعها الأيوبيّون، وأجبروا، لفترة، أتباع الشيعة الزيديّة وأئمتهم على الانكفاء في الجبال الشماليّة الوعرة المسالك. وسّعوا إذًا نطاق نفوذهم حتّى تعز وزبيد وصولًا إلى صنعاء، من دون أن ننسى مكّة. بالموازاة، نمت، في المناطق السفلى من اليمن، مجموعة سكانيّة سنيّة على المذهب الشافعي، لم يتوقف طابعها المدني ومهارتها عن البروز في القرون اللّاحقة.

خلف الطاهريّون، وهم أسرة سنيّة قليلة الأهميّة، الرسوليّين في العام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م، إثر فترة اضطراب عامّة كانت بدأت في العام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م. ونجحوا في السيطرة على منطقة عدن حتّى الفتح العثماني في العام ١٥١٧.

الملك	التاريخ
الملك المنصور نور الدين عمر الأوّل	٦٢٧-٦٤٧هـ/ ١٢٢٩-١٢٤٩م
الملك المظفّر شمس الدين يوسف الأوّل	٦٤٧-٦٩٤هـ/ ١٢٥٠-١٢٩٥
الملك الأشرف عمر الثاني	٦٩٤-٦٩٦هـ/ ١٢٩٥-١٢٩٧م
الملك المؤيد هزبر الدين داود	٦٩٦-٧٢١هـ/ ١٢٩٧-١٣٢٢م
الملك المجاهد سيف الدين علي	٧٢١-٧٦٤هـ/ ١٣٢٢-١٣٦٣م
الملك الأفضل ضرغام الدين، العبّاس	٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٣-١٣٧٦م
الملك الأشرف ممهد الدين اسماعيل الأوّل	٧٧٨-٨٠٣هـ/ ١٣٧٦-١٤٠٠م
الملك الناصر صلاح الدين أحمد	٨٠٣-٨٢٧هـ/ ١٤٠٠-١٤٢٤م
الملك المنصور عبدالله	٨٢٧-٨٣٠هـ/ ١٤٢٤-١٤٢٧م
الملك الأشرف اسماعيل الثاني	٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م
الملك الظاهر يحي	٨٣١-٨٤٢هـ/ ١٤٢٧-١٤٣٨م
الملك الأشرف اسماعيل الثالث	٨٤٢-٨٤٦هـ/ ١٤٣٨-١٤٤٢م
الملك المظفّر يوسف الثاني	٨٤٦-٨٤٧هـ/ ١٤٤٢-١٤٤٣م
الملك المسعود أبو القاسم	٨٤٧-٨٥٨هـ/ ١٤٤٣-١٤٥٤م

◄ راجع المسند رقم ٢٥.

الرشيد ← هارون الرشيد.

رشيد الدين سِنان، أبو الحسن سنان بن سلیمان (؟ - ٥٨٩هـ/ ؟ - ١١٩٣م)، زعيم مذهب الإسماعيليّين الجدد أو النّزاريّة في سوريا، خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وقد اشتهر هؤلاء بلقب الحشّاشين.

عُرف باسم شيخ الجبل، وقد حاك حوله مؤرّخو الفرنج الأساطير، لكنّ الغموض لا يزال يلفّ سيرته. ولد قرب البصرة وذهب، من ثمّ، إلى إيران حيث نشأ وتمّ اختياره، في العام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م، من قبل سيّد

ألَمُوت الأكبر ، حسن الصبّاح ، ليتود الطائفة الإسماعيليّة الجديدة في سوريا ، حيث عاش حتّى وفاته . اتّخذ قلعة مصياف مسكنًا ، وكان له سلطان مطلق على اتباعه ، وهابه أيضًا الامراء المسيحيّون والمسلمون على حد سواء ، وقد قامت بينهم دولته الصغيرة المستقلّة . تميّزت هذه الدولة بفرادتها الدينيّة ، واستمدّت قوّتها من موقعها في منطقة صعبة الولوج ، يعلوها عدد من القلاع المحصّنة التي احتلّها أتباع هذه الفرقة .

كثرت الأخبار البطوليّة حول القدرات الخفيّة لرشيد الدين سنان التي أثبتتها الاغتيالات العنيفة التي تعرّض لها أعداؤه . وانّه لمن الصعب التأكّد من أنّ الاغتيالات السياسيّة التي ارتكبها فدائيّون ، سواء بحقّ مسلمين أو بحق فرنج ، كانت تتمّ بناءً على أوامره . وعلى أيّ حال ، وقّع سنان ، في ظروف غير واضحة ، مع صلاح الدين اتفاقًا ، ما سمح لهذا الأخير بمواجهة منافسيه في حلب أو في الموصل ، وبإعداد الأسس لانتصاراته المستقبليّة على مملكة القدس اللاتينيّة .

رشيد الدين الطبيب ، أبو الخير فضل الله بن عماد الدولة ، عرف غالبًا بلقبه رشيد الدين (٦٤٥-٧١٨هـ/ ١٢٤٧-١٣١٨م) ، وهو مؤرّخ وطبيب وكاتب ورجل سياسة خدم كبار ملوك أسرة الإيلخانيّين في إيران .

ولد رشيد الدين في همدان ، وخدم أوّلًا الملك المغولي أباقا ، ومن ثمّ خَلَفَه غازان الذي جعله وزيرًا برتبة «صدر» ، وأخيرًا ألجايتو الشهير ، قبل أن يفتقد الحظوة ويُحكم عليه بالموت في عهد أبي سعيد . نهض بدور المستشار صاحب الرأي في عهد غازان ، ولمع نجمه في عهد ألجايتو ، من سنة ٧٠٣ إلى ٧١٦هـ/ ١٣٠٤ إلى ١٣١٦م . ساهم آنذاك في بناء العاصمة الجديدة ، أي السلطانيّة ، حيث قام بتنظيم حيٍّ كاملٍ ، بعدما كان قد ضاعف عدد مؤسّساته وممتلكاته في تبريز واستمرّ في الاهتمام بها . جَدَّ ، في هذه الأثناء ، في كتابة «جامع التواريخ» وأهدى لسيده جزءه الأوّل ، في العام ٧٠٥هـ/ ١٣٠٦م . لكنّ حظوته جلبت له العداء الذي ظهر بعد موت العاهل ، الأمر الذي أدّى إلى خلعه ومن ثمّ إلى إعدامه ، في تبريز ، مع أحد أبنائه .

تحقّقت شهرته كمؤرّخ ، بفضل كتابه عن تاريخ المغول ، أهمبّة إنجازاته الإداريّة والعمرانيّة . وقد بدأ كتابه هذا بأمر من غازان ووسّعه بطلب من ألجايتو ليصبح «جامع التواريخ» الذي لم ينهه ، على ما يبدو . تضمّن الكتاب معلومات ثمينة جدًا عن تاريخ قبائل الترك في آسيا الوسطى ، وعن التنظيم الداخلي لمجتمع المغول الذي كان يعرف أجهزته حقّ المعرفة . كتب رشيد الدين أيضًا رسائل علميّة عديدة حول الفنون العمليّة أو حول علم الكلام الصوفيّ ، لم يُعثر عليها كلّها . ولم تحظ مؤلّفاته الكاملة ، حتّى اليوم ، بدراسات معمّقة تعطيها الأهميّة التي تستحقّ .

الرُّصافة ، إسم عربي من أصل ساميّ أُطلق على مدينة قديمة اشتهرت في سوريا في القرن الأوّل للهجرة ، وأُطلق في ما بعد على عدد من النواحي القروسطيّة .

عُرفت الرصافة الأولى أو رصافة هشام في العصر البيزنطي بسرجيوبوليس (Sergiopolis) . احتلّها الأمويّون ، ولم يبقَ منها اليوم سوى بعض الآثار القائمة على مسافة حوالى خمسين كيلومترًا إلى جنوب الفرات في صحراء تدمر . تضمّ هذه المدينة المهمّة والغنيّة بالآثار القديمة قصرًا بناه الخليفة هشام حوالى العام ١١٤هـ/ ٧٣٢م . قد يكون هذا القصر هو المكان الذي مات ودُفن فيه الخليفة هشام . يكون هذا الاحتمال صحيحًا إذا كانت الرصافة التي تتحدّث عنها النصوص التاريخيّة هي نفسها مدينة سرجيوبوليس البيزنطيّة . أمّا الرصافة التي يرتبط تاريخها بتاريخ موقع آخر خربٍ يسمّى اليوم قصر الحير الشرقي ، فهي تقع على طريق قوافل كانت تربط الرقة ، في بلاد ما بين النهرين العليا ، بالسلميّة وحمص في سوريا .

أُطلق إسم الرصافة في ما بعد ، في العصور العبّاسيّة الأولى ، على مدينة مبنيّة على الضفة اليسرى لدجلة قبالة المدينة المستديرة أي بغداد . وقد بناها المهديّ يوم كان وليًّا للعهد . أُطلق هذا الاسم أيضًا على ضاحية سكنيّة بُنيت خارج مدينة قرطبة ، عاصمة الأمويّين في الأندلس . وحكّام الأندلس هؤلاء ، المتحدّرون من السلالة الأولى للخلافة في الاسلام ، دفع بهم حنينهم الى الشرق الى أن ينقلوا الى الأندلس أسماء مواقع قائمة في سوريا .

◄ راجع المستند رقم ٩ .

رضا (الإمام) ← علي الرضا.

رضا (رشيد)، ١٨٦٥ - ١٩٣٥، مؤلّف ومفكّر مسلم، يمثّل في العصر الحديث حركة الإصلاح في الشرق. إنّه من أصل لبناني، لكنّه عاش في مصر حيث مارس نفوذًا كبيرًا في الحياة السياسيّة يوازي شهرته الشخصيّة.

ولد في ضواحي طرابلس في عائلة ترفع نسبها إلى سلالة النبي محمّد ﷺ. تابع رشيد رضا دروسًا تقليديّة في طرابلس حيث تتلمذ على حسين الجسر المعروف بمؤلّفٍ خصّصه للدفاع عن الإسلام ضد نقد الغربيّين، وحيث التقى محمد عبده وسعى، في ما بعد، إلى اللّحاق به. قرّر، في العام ١٨٩٧، الاستقرار في مصر هربًا من بلده حيث كان السلطان العثماني عبد الحميد يمارس سياسته الاستبداديّة، وأسّس هناك مجلة «المنار» الشهريّة في العام ١٨٩٩، التي استمرّت في الصدور حتّى العام ١٩٤٠، والتي حلّت محل مجلّة «العروة الوثقى» المتوقّفة عن الصدور التي كان قد أسّسها جمال الدين الأفغاني. لكنّها لم تتبع الخط السياسي نفسه، على الأقل في المسائل الدينيّة والاجتماعيّة. إنضمّ إلى المجلّة الجديدة عدد كثير من الإصلاحيّين وكوّنوا ما يمكن تسميته حزب المنار.

كرّس رشيد رضا أنشطته، بعد ثورة ١٩٠٨، لإحياء روح الإسلام. فأسّس «جمعية الدعوة والإرشاد» التي قامت بتنظيم الحلقات الدراسيّة في بلدان مختلفة. ثمّ توجّه إلى اسطنبول، لكنّه لم يستطع الاتّفاق مع جمعيّة الاتّحاد والترقّي. المعهد الديني الوحيد الذي استطاع تأسيسه كان في القاهرة، في جزيرة الروضة، وقد استقبل، منذ العام ١٩١٢، الطلّاب من مختلف الجنسيّات. كان هؤلاء يحصلون، بعد إنهاء دراستهم، على شهادة تخوّلهم الدعوة الى الاسلام لدى غير المسلمين. نجح رشيد رضا، خلال الحرب العالميّة الأولى، في العودة إلى سوريا حيث تصدّى للأهداف الفرنسيّة واصبح، في العام ١٩١٨، رئيس المؤتمر السوري. لكنّ إلغاء الخلافة في تركيا الكماليّة منحه فرصة لنشاط جديد هو الدفاع عن الخلافة التي كرّس لها رسالة طويلة قبل أن يشارك في مؤتمرات - لم تكن مثمرة - عُقدت في مكّة والقدس، وكانت غايتها إعادة الإعتبار إلى هذه المؤسّسة. مات في العام ١٩٣٥، بعد أن أدّى دورًا فاعلًا في تطوّر حركة الإصلاح في أبعادها المختلفة.

لم يحاول رشيد رضا نبذ المراكز الرسمية الإسلاميّة على غرار محمّد عبده. وإذا كان شارك هذا الأخير في بعض أفكاره المتعلّقة بالتجديد الديني، إلّا أنّ اهتماماته كانت، بشكل خاص، ذات طابع سياسي. لقد عبّرت مجلّة المنار عن أهداف يمكن اختصارها بما يلي: - تبيان قيمة الإسلام كنظام ديني وإظهار إمكان استعمال الشريعة الإلهيّة كوسيلة للحكم؛ - إبعاد الخرافات والتفسيرات الخاطئة للإسلام، وبخاصة في ما يتعلّق بالاعتقاد بحتميّة الأمور؛ - تشجيع التسامح بين الفرق الإسلاميّة؛ - تنمية التربية؛ - دفع المسلمين إلى منافسة بقية الشعوب في مجال التطوّر العلمي. استُعملت المجلة أيضًا لنشر تفسير للقرآن، ساهم فيه محمّد عبده في مراحله الأولى، وكان ذلك مجالًا لرشيد رضا لعرض أفكاره الشخصيّة.

كان رشيد رضا، في مجال ممارسة الطقوس والفرائض الإسلاميّة، أكثر تشدّدًا من محمّد عبده، إذ دافع عن تعدّد الزوجات، وتناول مسألة تعليم البنات بتحفّظ، ودان بحزم القرض بالفائدة. لكنّه، بالمقابل، أخذ هامشًا واسعًا من حريّة الحركة تجاه المدارس الفقهيّة التقليديّة، متمنّيًا إعادة تنظيم الجهاز القضائي، وإن لم يستطع الانصراف إلى تخصيص وقته لذلك. أخيرًا، اتّخذ مواقف جريئة في ما يتعلّق بالتنظيم السياسي، اذ اعتبر أنّ العلماء وحدهم جديرون بالائتمان على السلطة، في مختلف البلدان، مؤكّدًا أنّ في وسعهم إعداد نظام حكم يتلاءم مع العصور الحديثة، مع الالتزام، في الوقت نفسه، بأسس الإسلام. دافع، من هذا المنطلق، عن اعتماد نظام ديمقراطي برّره بالشورى التي كان النبيّ محمد (ﷺ) يلجأ إليها في مناسبات مختلفة من حياته.

توسّع رشيد رضا في عرض أفكاره وتصوّراته هذه في مؤلّفه عن الخلافة. كما اعتبر أنّ الشريعة الإسلاميّة، تقدّم، بحسب الزمان والمكان، تنوّعًا في مجالات التنظيمات السياسيّة والإداريّة والماليّة. لكنّ مسؤوليّة المطابقة بين النظم الإسلاميّة وحاجات العصر الحاضر،

وإعادة إطلاق الاجتهاد للوصول إلى تفسير جديد للشريعة، هما من حقّ أصحاب السلطة وحدهم. وهؤلاء هم، بالنسبة اليه، أعضاء البرلمان في أنقرة وعلماء الأزهر في القاهرة، وعلماء الفاتح والسليمانية في اسطنبول، وعلماء الزيتونة في تونس وعلماء ديوبند في الهند. على عاتق هؤلاء الأشخاص تقع مسؤولية إعادة الخلافة، وسيكون للخليفة المختار، بالأخص، مهمّات فقهيّة ودينيّة.

إنّ البرنامج الذي رسمه رشيد رضا، والذي كان مرتبكًا في ما خصّ اختيار الخليفة المحتمل، لم يُفضِ إلى أي تطبيق. لكنّه كان صدًى للاضطراب الذي أحدثته في العالم الإسلامي العلمنة في تركيا الكماليّة، وإشارة إلى الأهميّة التي اتّخذتها مسألة إعادة بناء الهيكليّة السياسيّة التي عمل لها المفكّرون الاصلاحيّون، لتفادي اللجوء مستقبلًا الى اجراءات شبيهة بتلك التي اعتمدتها تركيا.

رضا شاه ← **بهلوي**.

الرضوان (قَسَم -) ← **الحديبيّة**.

الرضي ← **الشريف الرضي**.

الرِّفاعيّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة، نشأت في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد في العراق الأسفل، وتنسب نفسها إلى الشيخ أحمد بن علي الرفاعي. عرفت في ما بعد انتشارًا واسعًا في الشرق.

عاش ابن الرفاعي (٤٩٩-٥٧٨هـ/ ١١٠٦-١١٨٢م)، وهو من أصل عربي، في منطقة البِطاح في العراق الأسفل الذي غادره، في العام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، حاجًّا إلى مكة. كان فقيهًا ينتمي إلى المدرسة الشافعيّة، ولم يترك أيّ أثر مكتوب، لكنّه جمع حوله العديد من الأتباع الذين قام من بينهم مَن أسّس طرائق جديدة، وبخاصة البدويّة والدسوقيّة والشاذليّة والأهوانيّة. انتشر الرفاعيّون في سوريا بفضل الحريري المتوفى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، وفي مصر بفضل الواسطي (المتوفى سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)، ولاقت طريقتهم مناهضة قويّة من قبل الفقهاء، كابن تيميّة. كما انتشروا كذلك في الأناضول حيث تراجعت شهرتهم، بدءًا من القرن الخامس عشر، لمصلحة القادريّة. ولم تقم بين الطريقتين أيّة علاقة إيجابيّة.

الرِّق، عُرفٌ أقرّه وشرّعه الاسلام في القرون الوسطى؛ وقد حفظت الجماعة التي أسّسها النبيّ محمد (ﷺ) في المدينة مكانة خاصة للمستعبَد. سُمّي في اللغة العربيّة عبداً ولاحقاً مملوكاً. كما وُصف بتعابير خاصة أخرى عديدة تبعاً لمفاهيم مختلفة وَرَدَ بعضها في القرآن، واستُحدث بعضها بحسب الأمكنة والعهود، لوصف أنواع مختلفة من المستعبَدين من عسكريّين وموظّفين حكوميّين.

١) أمّن الاعتراف الواضح بالاستعباد، الذي ثُبّت لاحقاً بالممارسة وبالفتاوى الفقهيّة، إستمرار عادات سابقة للدعوة الإسلاميّة، خصوصاً في شبه الجزيرة العربيّة، وقد خضعت هذه العادات لتلطيف في الممارسة والتعديل وفقاً لتوصيات وتدابير جديدة. راجت هذه العادات لاحقاً في أنحاء الأمبراطوريّة العربيّة-الإسلاميّة التابعة للخلفاء. وقد عرفت في بعض المناطق حيويّة جعلتها تستمرّ حتّى عصرنا الحاضر. لقد حسّن القرآن الشروط التي كان يخضع لها الرقيق في عصره بمطالبته بمعاملتهم بالحسنى، وخصوصًا بإعتاقهم. فمورست إجراءات العتق على نطاق واسع، ولم تكن لتشمل الأطفال المولودين لجوارٍ، إذ كانوا يولدون أحراراً إذا كان التسرّي بهنّ شرعيًّا، أي يسمح به الفقه. كان من المفترض أن يتناقص، في البلاد الإسلاميّة، عدد العبيد على مدى القرون بسبب هذه الإجراءات، لولا حلول قادمين جدد مكانَ المعتَقين بسرعة، فبعضهم كانوا أسرى حرب، وآخرون تمّ شراؤهم من تجّار الرقيق الذين أتوا بهم من خارج الحدود.

تشكّلت الفئة الأولى من شعوب مغلوبة رفضت الدخول في الإسلام في زمن الفتوحات الكبرى، وهي لا تنتمي إلى أهل الكتاب، فاستحقّت بهذا صفة الكفّار. وجمعت في صفوفها في ما بعد أشخاصاً من مختلف الجنسيّات، اختلفت انتماءاتهم الدينيّة، مسيحيّين كانوا أو وثنيّين، كما اختلفت ظروف أَسرهم، فمنهم من أُسر

خلال معارك نظاميّة أو في غزوات شُنّت باسم الجهاد واستمرّت في شكل غزوات موسميّة أو قرصنات بحريّة، أو حتّى في حملات جدبّة كانت تُشنّ على البلاد البعيدة سعياً إلى نشر الدين الإسلامي. أمّا تأمين العبيد عن طريق التجارة فقد راج في كل العصور، وكان له في أرجاء الأمبراطوريّة أسواقه الخاصة ومسالك قوافله. أمّا في ما يتعلّق بوضع العبيد القانوني، فالعبد في الإسلام هو في الوقت عينه شيء ما وشخص. فبكونه شيئاً يخضع لحقّ الملكيّة ولصفقات عديدة، لكن على سيّده أن يعيله، ولا يمكنه تملّك إلا ما ادّخره. وبكونه شخصاً لا يختلف وضعه الدينيّ عن وضع المسلم الحرّ، ففي إمكانه، الممكن له، مثلاً، أن يؤمّ صلاة الجماعة؛ كما يحق له أن يتزوّج بعد أن يسمح له سيّده، لكنّه لا يستطيع أن يمتلك خليلة لأنّه لا يحقّ له أن يملك شيئاً. أما السيّد فيحق له أن يجعل من امرأة من الرقيق خليلته، لكنّها بدورها إذا أصبحت أمّاً فهي تتمتّع عندئذ بصفة «أم الولد»، ما يجعل التصرّف بها غير مسموح ويفتح لها باب الحريّة عند وفاة سيّدها. أمّا من النواحي الجزائيّة، فللعبد وضع خاص، يعامَل بموجبه على أنّه شخص من مستوى أدنى: فالمسلم لا يُحكم عليه بالإعدام إذا قتل عبداً؛ من ناحية أخرى يكون عقاب العبد الزاني، بحسب الشريعة، أخفّ عبئاً من عقاب الحرّ.

٢) اضطلع العبيد بأدوار عديدة في المجتمع الإسلامي القروسطي، اذ منحتهم هذه الأدوار أهميّة تفوق التي يوحي بها وضعهم. من الأكيد أنّهم نادراً ما عملوا كمجموعات ضخمة شبيهة بالتي عرفتها المزارع الكبرى في العصور القديمة. كما أنّ حالة العبيد التعِسين – الذين كانوا يعملون في العراق الأسفل والتي جسّدتها ثورة الزّنج في القرن الثالث الهجري/التاسع والميلادي تبقى حالةً نادرة لا يقاس عليها. كما أنّه لا ينبغي تضخيم أهميّة دور اليد العاملة للأسرى الأوروبيّين الذين ساهموا، وبخاصة في المغرب، في تشييد المباني الملكيّة أو مبانٍ أخرى احتاجت إلى يد عاملة خبيرة. لكنّ الاقتصاد الحرفيّ للمدن كان يقوم على نشاط الرقيق في معظمه، وكذلك حياة أهل المدن العائليّة التي أفادت من خدمتهم. زد على ذلك أنّ الرقيق، ومن بينهم عدد وفير من الخصيان، شكّلوا، على جميع المستويات، هيئة الخدم وحتّى هيئة الموظّفين الكبار في قصور الخلفاء وسواهم من الحكّام، مساهمين في تألّق جهاز التشريفات ورسوم دار الخلافة. أخيراً شكّل هؤلاء، وقد عُرفوا بالغلمان، نواة الفرق المستخدمة للقتال في الحرس الملكيّ، وبلغوا، بفضل مهنة السلاح هذه، أعلى مناصب المسؤوليّة من حكّام إلى قوّاد كبار، وقد بلغ بهم الأمر إلى الاستيلاء على السلطة وتسلم رئاسة الدول. ودونك مثالاً على ذلك دولة المماليك في مصر التي غدت فريدة من نوعها من القرن الثالث عشر الميلادي حتّى السادس عشر. وثمّة أمثلة أخرى كثيرة على ذلك، بينها الدولة التي حكمها عبيد سابقون من الأتراك، في شمال الهند، في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وقد أُطلق عليهم اسم «الملوك العبيد» أو سلاطين دلهي الأوّلين. وهكذا شكل الدور الذي أدّاه العبيد من العسكر أو الإدارات الحكوميّة علامة فارقة في المجتمع الإسلامي، فتحكّم هذا النظام، إلى حدّ معيّن، بالتطوّر التاريخي لهذا المجتمع متحمّلاً، في الوقت عينه، النتائج الناجمة عنه.

وقد استُورد العبيد الذين شاركوا في حياة المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى من مناطق عدّة، وهذا ما يظهر واضحاً في التنوّع العرقي للخليلات أو الجواري اللواتي كُنّ سوداوات أو بيضاوات، أثيوبيّات أو سودانيّات، أو تركيّات، أو يونانيّات، أو قوقازيّات. وقد تغيّرت إتنيّات العبيد وأصولهم من مقاطعة إلى أخرى، وفقاً لتغيّر التيّارات التجاريّة الرئيسة والاستخدامات التي وُظّف فيها هذا الرقيق المباع. وليس من باب المصادفة، مثلاً، أن يعهد في زراعة المستنقعات في العراق الأسفل إلى زنوج من أفريقيا الشرقيّة، كان في استطاعتهم أن يتحمّلوا الطقس الحار وغير الصحي في هذه المقاطعة، وكانوا يصلون من بلادهم إلى مرفإ البصرة مباشرةً عبر طريق بحرية مسلوكة بانتظام.

وقد ظهرت الفروقات العرقيّة بين العبيد بنوع خاص في المؤسّسة العسكريّة، حيث تكوّنت داخلها بعض التحالفات نتيجة لهذا التنوّع. من المعلوم أنّ

الفرق العسكريّة التي شكّلها الخلفاء، في بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، تكوّنت، بنوع خاص، من الأتراك الذين نُشروا في سامرّاء ثم تمّ شراء نساء تركيّات فُرض على هؤلاء العساكر الزواج منهنّ. من جهة أخرى، ظهرت في الأندلس وفي أفريقيا فرق تشكّلت من «السلافيّين» أصلهم من أوروبا الوسطى، أطلق عليهم في الغرب لقب "Esclavons" أي الصقالبة. أمّا في مصر، في عهد الفاطميّين، فقد جُنّدت مجموعات من النوبيّين في الفرق العسكرية، كما وصل لاحقاً، إلى المنطقة نفسها، الأتراك، إبتداء من القرن الرابع عشر للميلاد، والشركس ومجموعات أخرى من القوقازيّين كانوا من المشاركين الفعّالين في نظام المماليك.

يشكّل كل ذلك دلالات على الدور الذي شغلته تجارة العبيد في التوازن الاقتصادي للعالم الإسلامي في القرون الوسطى، واستمرّ هذا الوضع حتّى العصر الحديث حيثما سيطر الإسلام. على سبيل المثال، شاع في المغرب، لمدّة طويلة، استيراد السود عبر الصحراء، في الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه تجارة البيض الرابحة في أسواق الجزائر وتونس، وكانت تغذّيها القرصنة في البحر الأبيض المتوسط. وقد امتدت هذه التجارة لتصل إلى اسطنبول، كما خضعت أسواق العبيد في ما كان يُعرف بالسودان الساحلي لسيطرة التجّار المسلمين الذين شحنوا عبيدهم نحو أميركا بواسطة أوروبيّي السواحل، ابتداءً من القرن السادس عشر. وقد جالت القوافل في أفريقيا الشرقيّة متّجهة نحو مصر أو نحو شواطئ المحيط الهندي الذي بدوره غذّت مرافئه وأسواقه (مثلاً أسواق زنجبار) شبه الجزيرة العربيّة بحاجاتها من العبيد. أمّا إيران فقد اتّجه نحوها العبيد القادمون من الهند ومن القوقاز، أو من أفريقيا.

هذا، وقد قام الأرقّاء بالمهمّات نفسها التي قاموا بها في القرون الوسطى في كل هذه البلدان، وحتّى داخل الدولة العثمانيّة، فغدوا ضرورة في الحياة اليوميّة لمساكن الأثرياء خلال القرن التاسع عشر، وكذلك في الخدمات العامة المدنيّة والعسكريّة حيث تكاثرت أعدادهم. زد على ذلك بروز ظاهرة جديدة في الدولة التركية حيث توقّف تجنيد أسرى الحروب من أوروبا الشرقيّة مع انتهاء الحملات على البلقان، ما دفع العثمانيين إلى الأخذ بوسيلة مخالفة للشرع تقضي باستخدام أحداث مسيحيّين من الأمبراطوريّة على أنّهم رقيق حكوميّ في اطار نظام الـ«دوشرْمَا» أو ضريبة الغلمان.

٣) في وقت متأخّر، وبتأثير من الدول الأوروبيّة الحديثة، سلكت الدول الإسلاميّة، بعد تردّدٍ، طريق التخلّي عن الرقّ، فكان أن أُلغي أولاً في الدول الخاضعة لسلطة أوروبية، كما في الهند بين سنة ١٨٣٤ وسنة ١٨٦٢، في المستعمرات الفرنسية سنة ١٨٤٨، في مستعمرات هولندا في الهند سنة ١٨٦٠، في آسيا الوسطى الروسية سنة ١٨٧٣، في جزيرة زنجبار سنة ١٨٩٧، في أفريقيا الشرقيّة الإنكليزية سنة ١٩٠٧. أمّا الدول الإسلاميّة المستقلّة فقد اتبعت الطريقة عينها، لكن ببطء وتدريجيًّا: إنّ تونس، ابتداءً من سنة ١٨٤٦، حرّرت كل عبد طالب بالحرية، وقد شرّعت هذه الإجراءات باسم «المصلحة العامة» أو الاستصلاح كما سُمي من قبل المذهب المالكي. كذلك في الأمبراطوريّة العثمانيّة حيث منعت السلطات تجارة العبيد البيض إبتداءً من سنة ١٨٥٤، ثمّ تجارة العبيد السود، وكان عدد العبيد فيها قد تضاءل لدرجة أنّه عندما ضمن الدستور الجديد، سنة ١٩٠٨، لكل فرد حريته، لم يكن قد بقي أحد منهم تقريباً. كما حظرت مصر تجارة العبيد السود سنة ١٨٧٧، التي توقفت نهائياً سنة ١٨٩٨، بعد قمع الحركة المهديّة في السودان. في المقابل، تمكّنت بريطانيا من وقف تجارة العبيد السود في أفريقيا الشرقيّة باتّجاه الجزيرة العربيّة وخاصة عُمان. كما حرّمت إيران، بموجب اتفاق وقّعته مع الانكليز سنة ١٨٨٢، تجارة الرق، في الوقت الذي توقفت فيه هذه التجارة كليًّا في الأراضي الأفريقيّة التي حكمتها فرنسا، كما توقفت رسميًّا في كل القارة الأفريقيّة، لكن بقيت أثيوبيا أحد المواقع الأخيرة للاسترقاق، رغم قرارات المنع التي أصدرها النجاشي.

وبعيد انتهاء الحرب العالميّة الأولى كان قد قضي تقريباً في كل مكان على الاسترقاق. بيد أنّ بعض الدول

الإسلاميّة استمرّت بتبريره، إذ إنّ إلغاءه كان يثير مشكلات إجتماعيّة، رغم أنّه ظهرت في مصر وفي الهند حركات إصلاح حاولت أن تبرهن أنّ الإسلام قبل على مضض بالاسترقاق، لذلك وجب التخلّص منه. لكن بقيت حركات، كالوهابيّين في الدول العربيّة، تعارض إلغاءه، ما أرغم حكومات آل سعود على التغاضي عن بعض الممارسات القديمة التي وُجدت أيضاً في اليمن.

في سنة ١٩٢٦، وُقّع اتفاق جنيف الذي رعته عصبة الأمم مطالبًا بإلغاء الرقّ، وقد انضوت تحت لوائه، تقريباً، كل الدول الإسلاميّة. كما صدرت، بعد الحرب العالميّة الثانية، إدانة أخرى تتعلّق بهذا الموضوع باسم منظمة الأمم المتّحدة عند الإعلان العالمي لشرعة حقوق الإنسان سنة ١٩٤٨. وهكذا قطعت هذه الحركة مراحل حاسمة لم يعد ممكنا الرجوع عنها، إلى أن كانت سنة ١٩٦٢، فألغت المملكة العربيّة السعوديّة رسمياً الاسترقاق وتبعتها جمهوريّة موريتانيا الإسلاميّة سنة ١٩٨١.

الرقّادة، موقع خرب للقصر القديم أو «المدينة الملكيّة» التي بناها، في العام ٢٦٢هـ/٨٧٦م، الأغلبي إبراهيم الثاني قرب القيروان.

وفيها أقام الأغلبي الأخير زيادةُ الله الثالث، حين اضطرّ إلى الهرب أمام أتباع عبيد الله المهدي مؤسّس الأسرة الفاطميّة. وفيها أقام أيضًا هذا الأخير حتّى العام ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م، حين انتقل إلى مدينته الجديدة المهديّة. وفي ما بعد، هدّم الخليفة الفاطمي المعزّ الرقّادة، ومع ذلك، بقي منها حتّى اليوم، على بعد كيلومترات عدّة من القيروان، آثار معماريّة كشفت عنها حفريّات حديثة.

الرّقة (الجمهوريّة العربيّة السورية)، تحتلّ هذه البلدة، في بلاد ما بين النهرين العليا، موقع عاصمة قديمة للعبّاسيّين، اشتهرت بأطلالها الضخمة وبنوعيّة خزفها العائد إلى القرون الوسطى.

قامت المدينة القروسطيّة على الضفّة الشماليّة للفرات، في جنوب ما يعرف اليوم بمقاطعة الجزيرة السوريّة، وشكّلت ملتقى لطرق القوافل البريّة وللملاحة النهريّة. تعود، على الأرجح، إلى الفترة الهلينستيّة، وقد ضُمّت، في بداية الفتوحات الكبرى، إلى الأمبراطوريّة الإسلاميّة منذ العام ١٨هـ/٦٣٩م، بموجب معاهدة سلام. في الضاحية المقابلة، على الضفة الثانية للنهر التي كانت تتّصل بها بواسطة جسر عبور قائم على الفوارب، شيّد الخليفة الأموي هشام قصرين. إنّ موقع الرقّة الإستراتيجي، على نصف المسافة بين حواضر الخلفاء في العراق وبين حدود الدولة البيزنطيّة في الأناضول، واختيارها مركز إقامة موقّتة لعدد من الخلفاء، منهم هارون الرشيد والمأمون، زاد في تعزيز موقعها خلال الحكم العبّاسي.

بنى الخليفة المنصور، قريبًا منها، مدينة جديدة أسماها الرافقة وأسكن فيها جنودًا من الخراسانيّين. كان لهذه المدينة، المحصّنة بسور من الطوب غير المطبوخ شكل نصف دائريّ كحدوة الحصان، واستوحى تصميمها من الشكل الدائري لمدينة بغداد. وقد تمّ وصل المدينتين بواسطة أسواق شكّلت حيًّا كبيرًا وعُرف الكل باسم الرقّة. انطلقت، من هذه المدينة المزدهرة تجاريًّا والمحصّنة، الحملات العسكريّة لضمّ المناطق الواقعة على الحدود الشماليّة، أو لجهة الغرب، من أجل إحلال الأمن والنظام في داخل سوريا. وخلال إقامة لهارون الرشيد فيها، جرى سجن اثنين من أسرة البرامكة، هما الوزير السابق وأحد أبنائه إثر نكبتهما ومقتل جعفر البرمكي.

إنّ البقايا الأثريّة التي تعود إلى عصور مختلفة والتي لا تزال في مكانها على الرغم من ازدهار الرقّة الحالي سمحت بالتعرّف إلى بقايا السور القديم والمسجد الجامع الذي رمّمه نور الدين في العام ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م وإلى قصور عدّة، من بينها واحد يعزى إلى الحقبة نفسها، وأخيرًا إلى بوابات كبيرة، من بينها تلك المسماة بوابة بغداد التي ظُنّ خطأً أنّها تعود إلى القرن الثاني أو الثالث للهجرة/الثامن أو التاسع للميلاد. تؤكّد هذه الشواهد المعماريّة، إضافة إلى المصادر التاريخيّة، على أهميّة المدينة التي أُعيد بناؤها وترميمها بعد التحوّلات السياسيّة التي جرت في القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين مستفيدة من الازدهار الإقتصادي للدول التي تأسّست في ظلّ سلطة السلاجقة أو سلطة مَن خلفهم. لقد عمل آل

زنكي، وبخاصة نور الدين، للسيطرة عليها، لكونها تقع على إحدى الطرق التي تربط ما بين ممتلكاتهم في حلب من جهة، وفي الموصل من جهة ثانية. هذا الازدهار الإقتصادي، الناتج عن النشاطات التجاريّة، يتطابق أيضًا مع الفترة الذهبيّة لصناعة الخزف في الرقّة ولنجاحها فنيًّا.

◄راجع المستند ٩.

رقص ذهوليّ، هو في الإسلام ممارسة مرتبطة ببعض الطقوس الصوفيّة، وهي معروفة منذ عصور قديمة.

هذا الرقص يُعتبر في عداد أنواع اللهو الدنيوي أيضًا، وهو يرافق الأفراح الشعبيّة أو يقدّم مشهدًا أمام الضيوف، وقد مارسته بعض الفرق الصوفيّة أمام المدعوين كوسيلة لبلوغ حالة النشوة والذهول. كما كان يُقدَّم خلال اجتماعات «الدراويش الدوّارين» أو «المولويّين» في قُونية. وقد عُرف هؤلاء، منذ أن تأسّست فرقتهم في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وحتّى الحقبة المعاصرة، بلجوئهم الى هذا الفن. لكنّ اللجوء إلى الرقص لأهداف دينيّة ظهر قبل تلك المرحلة، إذا أردنا أن نأخذ برأي الفقيه الحنبلي إبن بطّة الذي أشار إلى هذا النوع من الممارسة في أوساط القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وأدانه.

الرُّقُم الإسلامية، نصوص منقوشة على المباني وعلى أثاث المنازل، ذات مسحة دينيّة دائماً، وطابع زخرفي إجمالاً. كثُرت في البلدان الإسلاميّة في العصر الوسيط، وكان الدور الأهمّ، في بداية الأمر، للنقوش العربيّة.

تعكس هذه الكتابات الدور المعترف به، منذ العصور الأولى، لكتابة عربيّة، وجودها طاغ في كل مكان، بسبب دورها النفعيّ والرمزيّ. فساهمت في إظهار الطابع الفريد للحضارة التي رافقت النقوشُ تطوّرَها التاريخي، وشكّلت ملامحها المميّزة. وهكذا فإن علم الرُّقم أو إيبغرافيا، الذي أثبت ضرورته لفهم موثوق به للمعطيات الأثريّة، يجب أن يُنظر إليه اليوم على أنّه أفضل وسيلة لفهمٍ خارجيّ ومنهجيّ لماضي الإسلام، حتّى لو كان وجوده، بصفته علماً مستقلًّا، لم يُعترف به إلّا في أواخر القرن التاسع عشر. في هذه المرحلة حصرًا بدأت دراسة الرُّقُم المعرّضة لعوامل التلف وتجميعها، كما لتقلّبات العالم المعاصر. لقد جُمعت هذه النصوص ونُشرت بمبادرة من المختصّين الغربيّين الذين اتّبعوا القواعد المعتمدة في مجال دراسة الرُّقم اليونانيّة أو اللاتينيّة، والتي شَكَّلَتْ أدواتِ العمل الأولى. يبقي الكثير للقيام به اليوم - بالرغم من جهود هؤلاء المختصّين - لناحية الجمع المنهجي وتصنيف واستعمال هذه الوثائق الوافرة العدد، والموزّعة في أصقاع مترامية. فثمّة معطيات أساسيّة يمكن استخلاصها مما نعرفه عن طبيعتها ومحتواها.

بعضها نقوش على المباني تحفظ نصوصاً تذكاريّة وإداريّة من مختلف الأنواع، تحتلّ المكانة الأولى فيها شواهد المدافن وأحياناً الأضرحة؛ وبعضها نقوش على الأثاث، حيث تغلب الإشارات الدالّة على الملكيّة والتمنّيات للمالك؛ والبعض الآخر نقوش دينيّة محض ترفع من قيمة أيّ مبنى أو أيّ قطعة. وهذه النقوش جميعاً تبدو كأنها وُجدت لغاية واحدة، هي تعظيم الإسلام. وهذه، من دون شك، الميْزة الأشدّ ثباتاً وإدهاشاً لنتاج كتابيّ أخّاذ، حيث الإعلان عن الإيمان الإسلامي، من البسملة إلى الشهادة، وكذلك الشواهد المضمّنة آيات قرآنية، أو تضرّعات تستدعي البركة والرحمة والتأييد الإلهي لممثّلي الإسلام. إنّ هذا الإعلان يشكّل وحده النصّ المنقوش، أو يجاور نصوصاً تاريخيّة أخرى، يبدو فيها المؤسّس الثريّ، في بداية الأمر، «خادماً متواضعاً لله»، يهديه أعماله الصالحة؛ ويبدو المتوفّى مؤمناً يفخر بأنّه حمل شهادة الإيمان الإسلامي في كلّ ظروف حياته. هنا نجد القاسم المشترك الذي يسوّغ اعتماد النقوش عملاً متكاملاً مع كلّ تركيبة معماريّة أو تزيينيّة، وهذا ينطبق أيضًا على النصوص ذات الطابع الرسميّ المدوّنة، في أواخر العصر الوسيط، بلغات غير العربيّة، مع الاحتفاظ باللغة العربيّة للتعابير التقويّة التي تجسّد تقيّد النصوص بالأعراف الإسلاميّة.

وفي هذه الكتابات المتعدّدة، تبدو ميزة ثانية أساسيّة ثابتة، هي الصلة الوثيقة بينها وبين السلطة

السياسية التي أرادت دائمًا أن تتّخذ من هذه الكتابات وسائل فضلى للتعبير، لأنها الأوضح انكشافاً لأنظار الشعب، والأطول استمراراً من الوثائق المحفوظة، ومن روايات المؤرّخين والكتابات الأخرى المودَعة في موادّ أقلّ صلابة. إنّ عظمة الأمراء والحكام المهتمّين بإعلان أعمالهم المجيدة، وبتخليد ذكراهم على أبنية وقطع تبقى بعدهم، كانت الدافع الأساس لهذه المعلومات المحفورة في الحجر، أو المصنوعة بأشكال مختلفة من قطع الآجرّ. ليس من بناءٍ شُيِّد في العالم الاسلامي القديم، لم يُتّبع فيه هذا التقليد، وهو أن يحمل اسمَ بانيه بطريقة واضحة. اضافة الى ذلك، فإنّ هذا الرابط الوثيق بين النقوش والسلطة، لم يُسئ في شيء إلى الطابع الإسلامي لهذا العمل بل قوّاه، لأنّ هذه السلطة هي إسلاميّة، وهي تُعلن هذا الطابع وتُظهره بوضوح في صلوات التعظيم وفي الصِّيَغ التشفّعيّة المختارة. وثمّة بُعدٌ تاريخيّ وأُسريّ يُضاف إلى الرسالة التي تحملها هذه النقوش، وذلك في إبراز إسم الشخص الذي نظّم هذه الأعمال، في موضع واضح، إلى جانب ذكر التاريخ والتفاصيل الأخرى المتّصلة بتشييده، بحسب الطريقة المعتمدة في الدواوين، والتي تتضمّن عناصر التثبيت وفق عادات المرحلة الزمنيّة والمنطقة.

وأخيراً، خاصّةٌ ثالثة مُميِّزة، نفسّر بأنّها نتيجة سابقتيها، وهي ليست دونهما مكانة، تكتسب أهميّتها من قيمتها الأساسيّة الجماليّة والفنّية، والتي أقرّتها الحضارة الإسلاميّة للنقوش التي قامت بإضفاء هالة من القداسة على الأمكنة؛ في الوقت الذي أبرزت فيه مجد الأمير الحاكم أو كبار موظّفيه. هذه الأهميّة التي أُعطيتْ لمظهر النصوص أدّت إلى إتقانٍ واضحٍ في معظمها؛ سواء لكونها عناصر ضروريّة للتوازن في زخارف المبنى أو القطعة الفنّية التي تزيّنها، أو للبراعة التقنيّة والفنّية الفريدة التي تميّزها.

وفي الواقع، فإنّ النصوص المنقوشة كانت تحتلّ، على كلّ مبنًى أو قطعة ثمينة، موضعاً مختاراً لتُهيْمن على شكله الخارجي. فهي تبرز، مثلاً، الخطوط الهندسيّة الكبرى في المبنى، بفضل وجودها على العتبات العليا في الفتحات المختلفة، أو على جوانب الأقواس التي تتوّج فجوات مغلّقة؛ وهي ترسم الأطر المستطيلة المتتالية التي تنفتح في وسطها البوّابات الضّخمة أو فجوات المحاريب. وكانت تشكّل أفاريز تملأ بزخارفها الأقسام العليا من الجدران، أو قواعد القِباب؛ وكانت تزنّر منتصف المساحات الخالية في الأسوار والأبراج، كما كانت تقسّم بعض الجدران الخارجيّة أو الداخليّة، المكسوّة بالجصّ المقْوَلب أو المحزوز، أو بأشكال قطع من الآجرّ البارز، أو بمنحوتات على الحجارة، أو بفسيفساء من زجاج، ولا سيّما من القاشاني، وأحيانًا تعتمد مربّعات خزفيّة. من جهة أخرى، وفي القطع المصنوعة من المعدن أو من الفخّار المطليّ أو غير المطليّ، كانت الأشكال الكتابيّة تحتلّ مكانة بارزة إذ إنها تدور على بطن الإناء أو عنقه، كما على حافة الصحون وأُطُر العلب والصِّحاف، وتتكاثر وفق الأشرطة أو الدوائر التي تساهم في حركة تكوين الزخارف. وهذه الأساليب نفسها كانت تُغني بزخارفها المصنوعات الجلديّة والألواح الخشبيّة المخرّمة، وكذلك الأقمشة حيث الكتابة معتمدة في التطريز أو متداخلة مع النسيج.

لكنّ هذه العصائب واللوحات المنقوشة المعتمدة لمرافقة الأعمال الفنّية ولبعث الحياة فيها، كانت مميَّزةً كذلك من حيث نوعيّة الخطوط الزخرفيّة، والعناصر الطارئة التي تكمّل قيمتها التزيينيّة. وباعتمادها معطيات أنماطٍ متنوّعة من الخطوط العربيّة، تلك المحدّدة الزوايا أو المدوّرة، التي عرفت تطوّراً مختلفاً تبعاً للزمان والمكان، شهدت بطريقتها على نماء الفن الإسلامي عبر ميزاتٍ مختصّة بكلٍّ من مدارسه الفنّية.

الركعة ← الصلاة.

الرمضانيّون أو بنو رمضان، (٧٨١-٩١٦هـ/١٣٧٩-١٥١٠م)، أُسرة تركمانيّة من عهد الإمارات في الأناضول، امتدّ حكمها الى كيليكيا القديمة، حول أضنة وطرسوس.

إنّ هؤلاء الأمراء المسلمين - ذوي التاريخ غير الواضح والذين يُعيدون أصلهم إلى الغزاة الأتراك الذين أتوا من آسيا الوسطى في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي - لم يتمتعوا إلّا باستقلال هش. استغلّوا الخصومات القائمة بين مماليك مصر - الذين

كانوا آنذاك يحكمون سوريا المجاورة - وبين العثمانيّين الذين كانوا يجهدون لإحكام قبضتهم على كامل الأناضول، ليبسطوا سيطرتهم على منطقة ذات أهميّة إستراتيجيّة، هي تلك التي كانت تشكّل، لفترة طويلة، حدودًا بين الأمبراطوريتّين العربيّة - الإسلاميّة والبيزنطيّة، قبل أن تصبح مطمعًا للفرنج والأرمن. وقد أدّى الخصب الزراعي والتقدّم الحرفي لهذه السهول الحارّة والمرويّة إلى نهضة إقتصاديّة وثقافيّة تشهد لها أبنية أثريّة باقية في أضنة. كما أنّ الإنتصار النهائي للعثمانيّين على المماليك في معركة مرج دابق، في العام ١٥١٦م، لم يمنع إطلاقًا الرمضانيّين من متابعة سيطرتهم على المنطقة. إن لم يكن كحكّام محليّين مستقلّين، فعلى الأقل كموظّفين يمارسون مهمّاتهم تحت سلطة الإدارة في اسطنبول.

الرَّملة، تقع هذه المدينة الأثريّة القروسطيّة المدمّرة، على مسافة أربعين كلم شمال - غربي القدس. بناها الامويّون في أواخر القرن الأوّل الهجريّ/بدايات القرن الثامن الميلادي، لتصبح القاعدة الجديدة للمقاطعة العسكريّة المعروفة بجند فلسطين، ولم تحظ، حتّى اليوم، بالدراسات الأثريّة التي تستحقّها.

قرّر سليمان، الخليفة الأموي لاحقًا، شقيق الخليفة الوليد الأوّل، بصفته واليًا على هذا الجند، نقل المركز الإداري إلى مدينة جديدة، فاختار منطقة رمليّة (وهي التي أعطت الاسم الجديد للمدينة) لا تصلح لإقامة مدينة بسبب افتقارها الى المياه، ولا نعرف، فعلاً، سبب هذا الاختيار. لكن من المرجّح أن يكون سليمان قد أراد ترك مدينة اللّد المسيحيّة، التي كانت حتى ذلك الحين مركز المقاطعة، وكانت مشهورة بكنيستها، للإقامة في مدينة إسلاميّة حقًّا، يمكن أن ينافس مسجدها الجامع المسجد الذي بناه أخوه في دمشق.

كانت المدينة مربّعة الشّكل، يحيط بها سور له أبواب عدّة. بُني المسجد الجامع والقصر في الوسط، وجُعلت الأسواق على طول الطرقات المؤدّية إلى المداخل الرئيسة. يبدو، من خلال الأوصاف التي تركها المؤلّفون القدماء، أنّ مخطّط المدينة - التي خرّبها زلزال عنيف في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي - مستوحى من التنظيم المدني الروماني-البيزنطي. وهو يشبه، إلى حدّ كبير، تنظيم مدينة عنجر التي أسّسها الأمويّون، وكشفت عنها حفريات أثريّة حديثة في السهل الواقع قرب منحدرات سلسلة جبال لبنان الشرقيّة.

أُعيد بناؤها، بعد زلزال ٤٢٤هـ/١٠٣٣م، وغدت مدينة زاهرة في مملكة القدس اللاتينيّة. بنى الفرنج، خارج أسوار المدينة، كنيسة تحوّلت في ما بعد إلى مسجد جامع. احتلّها صلاح الدين من جديد، في العام ٥٨٧هـ/١١٩١م، كما رُمّمت مئذنتها المربّعة في العام ٧١٨ هـ/١٣١٨م في عهد المماليك. إنّ تقهقر المدينة في هذه الفترة، والذي لم يتوقّف مع العثمانيّين، لم يمنعها من الاستمرار حتى نهاية القرن الثامن عشر، وقد اتّخذها بونابرت مركزًا لقيادته في العام ١٧٩٩.

◄ راجع المستندين ٩ و١٢.

الرُّها، حاليًّا أورفا (Urfa)، إدِسّا (Edesse) في المصادر القروسطيّة الغربيّة التي استعادت التسمية الإغريقيّة. هي مدينة في بلاد ما بين النهرين العليا، تقع على أطراف جبل طوروس والسهوب السوريّة، بقيت تضطلع، بعد إلحاقها بالإسلام في القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي، بدور إستراتيجي مثبت بخاصة في عهد مملكة القدس اللاتينيّة.

وهي حاضرة قديمة، أُعيد تشييدها في العهد الهلّينستي، وأمست، في ما بعد، في ظلّ الحكم البيزنطي، عاصمة محلّية ومركزًا كنسيًّا. تنامت على مفترق طرق في وادٍ ريّان. احتلّها المسلمون سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، في زمن الفتوحات الكبرى ودعيت منطقتها - وهي منطقة وادي البليخ الأعلى، أحد روافد الفرات - ديار مُضر، باسم القبيلة العربيّة التي أُسكنت فيها. وهكذا أمست ثغرًا ظلّ يضمّ عدداً كثيرًا من المسيحيّين ومجموعة من الكنائس، فهاجمها البيزنطيّون في نهاية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، ونهبوها عام ٣٦١هـ/٩٧١م. غير أنّ ذلك لم يَحُل دون استمرارها موقعًا ذا شأن في أمبراطورية الخلافة العبّاسيّة، إلى أن سقطت، بُعيد مجيء السلاجقة إلى المنطقة، في أيدي الفرنج الذين أنشأوا كونتيّة إدِسّا في العام ٤٩١هـ/

١٠٩٨م، وبقوا فيها حتّى في العام ٥٣٩هـ/١١٤٤م، حين استعادها الأتابك زنكي بعدما حاصرها.

بقيت، بحكم موقعها، عرضة للاضطرابات، وتنازعتها الدول الإسلاميّة المتعادية، فأُلحقت في أكثر الأحيان بالأراضي السوريّة، إلّا أنّها عانت على الخصوص الخلافات بين الأيوبيّين وسلاجقة الروم، ثمّ اجتياح المغول وحملات تيمورلنك. على أنّها نفضت غبار الخراب، وكانت لا تزال على ازدهارها عند استيلاء العثمانيّين عليها نهائيًّا في العام ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م، خلال نزاعاتهم مع الصفويّين، وأطلقوا عليها إسم أورفا الذي ما زالت تحمله. كما حافظت حتّى اليوم على نشاطاتها مركزًا إداريًّا ومحطّة إقتصاديّة محليّة مرتبطة بعينتاب (Gaziantep الحاليّة) من جهة، وبديار بكر وماردين من جهة ثانية، رغم أنّ ولادة الجمهوريّة التركيّة قطعت إتصالاتها المباشرة بالرقّة، من الجهة الأخرى للحدود الجديدة.

◄ راجع المستندات ٩ و١٨ و٢١.

رؤساء الطوائف ← **الطوائف**.

الروح، استعمل المؤلّفون العرب هذه الكلمة مرادفةً لكلمة نفس، ولكنّها حملت أيضًا معاني تقنيّة ذات دلالة دينيّة.

تعني كلمة روح في القرآن «نفحة الحياة» الصادرة من الله أو «روحه» التي تمنح المعرفة والنور. هكذا أُنزلت روح الله على النبي محمد (ﷺ) وأعطته الوحي آي القرآن. كذلك النبي عيسى هو روح الله، ويقول القرآن إنّ الله قد أرسل لعيسى روح القداسة أو روح القدُس.

يرتكز المؤلّفون الشيعة على هذه النصوص للقول إنّ روح الله يمكن أن تتجسّد في الأنبياء او في رجال مختارين، مثل الأئمّة. من جهة ثانية، يقول بعض المتصوّفين، ولا سيّما التيوصوفيّون، بأحادية الوجود التي تعطي الروح غير الماديّة مركزًا خاصًّا في العالم، وقد مثّل هذه النظريّة إبن العربي.

رودس (اليونان)، جزيرة في الأرخبيل اليوناني، تبعد حوالي ١٢ ميلًا عن الشاطئ الجنوبي للأناضول، كانت جزءًا من السلطنة العثمانيّة من العام ١٥٢٢ إلى العام ١٩١٢.

حاول المسلمون مرارًا، خلال الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، احتلال جزيرة رودس من دون نتيجة. وإذا كان الأمويّون قد تمكّنوا، لفترة قصيرة، بين عامي ٦٧٢ و٦٧٩، من الاستيلاء عليها، فإنّ المماليك، بعد احتلالهم قبرص في العام ١٤٢٦، عمدوا إلى توجيه حملات عسكريّة غير ناجحة، بخاصةً في الأعوام ١٤٤٠ و١٤٤٣ و١٤٤٤، ضدّ رودس التي كانت أوّلًا خاضعة للبيزنطيّين ثمّ للمدن البحريّة الإيطاليّة، قبل أن يدافع عنها الفرنج، وبالتحديد فرسان القديس يوحنا.

وأخيرًا نجحت الجيوش العثمانيّة، في عهد سليمان القانوني، في احتلال الجزيرة في العام ١٥٢٢، وطردت الفرسان الذين انتقلوا إلى مالطة واستقرّوا فيها حتّى القرن العشرين. احتلّها الإيطاليّون في العام ١٩١٢، وتمّ الاعتراف بانضمامها إلى إيطاليا في العام ١٩٢٣، بعد الحرب العالميّة الأولى، بموجب معاهدة لوزان. تضمّ رودس حاليًّا أقليّة صغيرة من المسلمين، وقد حافظت على بعض مساجد العهد العثماني، لكنّها ضُمّت إلى اليونان في العام ١٩٤٧.

الروزنامة/التقويم. أحد ابتكارات الإسلام الذي لم يكتفِ باستنباط نظام جديدٍ لتأريخ الأحداث، هوَ التاريخ الهجري، بل وضع أيضًا تقويمًا قمريًّا خالصًا ما يزال المسلمون يعملون به حتّى اليوم، على الأقل في حياتهم اليوميّة الاجتماعيّة والدينيّة التي تنظّمها تواريخ الحجّ والصوم والأعياد الدينيّة.

مع ظهور الإسلام، تمّ وضع تقويم أدخل تعديلًا على التقويمين القمريّ والشمسيّ المعمول بهما حتّى ذلك الحين في الجزيرة العربيّة والبلدان المجاورة. هذا التقويم حدّد بدء التاريخ الهجري في السادس عشر من تموز ٦٢٢م، وهو التاريخ المفترض لهجرة النبي محمّد ﷺ. وقبل ذلك كان العرب يستعملون تقويمًا قمريًّا حفظ بعض الكتّاب المسلمين المتأخرين ذكراه. وتميّز هذا التقويم بعادة إدراج شهر إضافي عندما يصبح التفاوت مع السنة الشمسية كبيرًا جدًا. وفي خطبة الوداع التي ألقاها النبي قبيل وفاته، حرّم عادة إضافة هذا الشهر. وتاليًا صارت السنة الإسلاميّة سنة قمرية من

٣٥٤ يومًا موزّعة على ١٢ شهرًا، بعضها من تسعة وعشرين يومًا وبعضها الآخر من ثلاثين يومًا، علمًا أنّ اليوم يبدأ مع مغيب الشمس.

وفي سنة ١٦هـ/٦٣٧م، حدّد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب بداية التقويم الإسلامي - الذي يُعرف بالتقويم الهجري - ليس في يوم الهجرة بالذات، بل مع بداية السنة القمرية التي حصلت فيها الهجرة، ومنذ ذلك الحين، اعتُمد هذا التقويم رسميًا في كلّ المناطق التي فتحها الإسلام. وكان هذا القرار أساسًا لتأريخ الأحداث إلّا أنّه تطلّب حسابات معقّدة للحصول على معادلة ما بين التواريخ الهجرية والتواريخ الميلادية؛ وأخذت هذه الحسابات في الاعتبار، في آن معًا، الفارق الأساسي بين التاريخين، أي ٦٢٢ سنة، والتفاوت السنوي العكسي القائم بين السنة الغريغورية والسنة القمرية الإسلامية. وقد وضعت جداول تُطابق بين التقويمين، ما يُسهّل عمل المؤرّخين الحديثين.

الأسبوع الهجري مؤلّف من سبعة أيام أوّلها يوم الأحد، ويوم الجمعة مخصّص لإقامة الصلاة الجماعيّة، لكنّه ليس بالضرورة يوم تعطيل عن العمل، مع أنّه أصبح كذلك في معظم الدول الإسلاميّة في عصرنا الحاضر

وأشهُر التقويم الهجري هي الأشهر العربيّة القديمة نفسها التي أُبقي على أسمائها: شهر محرّم الذي كان في ما مضى أحد شهور الهدنة المقدّسة التي يحترمها العرب، علمًا أنّ أوّل محرّم هو بداية السنة الهجريّة، وهو يوم تسلية وابتهاج للناس؛ صفر الموصوف بـ«الحسن»؛ ربيع الأول المعروف أحيانًا بـ«شهر الولادة المكرّم» أي ولادة النبي محمّد (ﷺ)؛ ربيع الثاني؛ جُمادى الأولى؛ جمادى الثانية؛ رجب الموصوف عادة بـ«المعزول»؛ شعبان الموصوف بـ«المكرّم» أو «المبارك»؛ رمضان وهو شهر الوحي وشهر الصوم الموصوف بـ«الكريم»؛ شوّال؛ ذو القعدة وذو الحجّة، وهما من الأشهر الحرم، لأن ذا الحجة هو شهر الحجّ الذي تتمّ التهيئة له في شهر ذي القعدة.

وقد سبّب التفاوت بين السنة الهجرية والسنة الشمسيّة صعوبات في القرون الوسطى في ما يتعلّق بجباية الضريبة على المحاصيل. فقد اضطرّ الخلفاء، في غير مناسبة، إلى أخذ هذا الأمر في الاعتبار وتأخير الجباية. محليًّا، وفي بعض المقاطعات، بقي معمولًا في أكثر الأحيان بالتقويم الشمسيّ بسبب الارتباط التقليدي به، ولأنّه أفضل تطابقًا مع الدورات السنويّة للحياة الزراعيّة. تلك، مثلًا، كانت حال «تقويم قرطبة للعام ٣٥٠هـ/٩٦١م»، وكذلك تقويم إبن البنّاء، وهو عالم رياضيات من مرّاكُش توفي في سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م. وكانت هذه التقاويم تبيّن تحديدًا فترة النهار وفترة الليل، والأعمال الزراعية، وأحيانًا الأعياد المسيحيّة.

وفي عهد الأمبراطورية العثمانيّة تمّ، منذ العام ١٦٦٧م، اعتماد التقويم البوليوسي في الشؤون المالية؛ وفي العام ١٩١٧ اعتمدت تركيا التقويم الأوروبي الذي كان استعماله رائجًا أيضًا في القرن التاسع عشر في بعض الاستعمالات الرسميّة، في مناطق من العالم الإسلامي أصابتها موجة التحديث.

روسيا (الإتّحاد الروسي)، بلاد مترامية الأطراف، كانت لا تزال تضمّ، في العام ١٩٩١، مجموعة جمهوريّات سابقة مستقلّة ذاتيًّا ومناطق، مستقلّة هي أيضًا ذاتيًا، تحوّلت الى جمهوريّات إتحاديّة تقطن بعضها شعوب إسلاميّة.

تقع هذه الجمهوريّات المتّحدة بنوع خاص في سهوب الأورال والفولغا، وعلى الأطراف الشماليّة للقوقاز، وأيضًا في سيبيريا. لا نملك معلومات دقيقة عن وضعها السياسي والديني الحالي، وبشكل عام عن وضع مسلمي روسيا الذين تؤكّد بعض الإحصائيّات أنّ نسبتهم تبلغ خمسة عشر بالمئة من مجموع السكّان الذين يقدّر عددهم بحوالى مئة وثلاثين مليونًا. لكن يمكننا أن نميّز، بين هذه الجمهوريّات التي تضمّ أغلبيّات مسلمة ذات أهميّة أحيانًا، تلك التي تستحقّ أن تُطلق عليها صفة «إسلاميّة»، نظرًا إلى تاريخها الوسيط أو الحديث الذي له انعكاسات أحيانًا على الأوضاع الحاليّة. هذه الجمهوريّات هي: تتارستان، بشكورتورستان، داغستان، تشيشان، أنغوشي، كاباردينو - بالكاري، أوسيتيا الشماليّة، كراتشيفو - تشيركيسيا وجمهوريّة الأديغيّين.

الروم ← **السلاجقة**.

الرُّومَلّي، اسم يدلّ على مناطق في البلقان وفي أوروبا الشرقيّة، احتلّها العثمانيّون وأصبحت جزءًا من أمبراطوريّتهم المترامية، من الأناضول حيث أسّسوا حكمهم، إلى بلدان شرقيّة أو آفريقيّة احتلّوها في أوقات لاحقة.

في القرن السادس عشر، ضمّت منطقة الرُّومَلّي - ذات الأهميّة الكبرى بالنسبة الى الدولة العثمانيّة - سلسلة من المقاطعات يحميها نظام دفاعي محكم. وكانت هذه المقاطعات إمّا خاضعة مباشرة لإسطنبول ومقسّمة الى سناجق، وإمّا منظّمة على شكل دولٍ تتمتّع باستقلال داخلي، ولكنّها تخضع للسلطنة العثمانيّة. كان منها منطقة ساحليّة متوسطيّة، ضمّت إليها جزر بحر إيجه، وكانت خاضعة لقائد البحريّة الأميرال الأكبر الـ «كبودان باشا».

إن الدول الواقعة شمال الدانوب تمتّعت بنوع من الاستقلال الذاتي. فمولدافيا وفالاشيا كان لهما ملكان يعترفان بسلطة السلطان، إلّا أنّ وضع هذه الأراضي لم يكن محدّدًا بشكل دقيق. كما تمتّعت ترانسلفانيا بتنظيم خاص، بينما ضُمّت هنغاريا مبدئيًّا إلى السلطنة.

أمّا في البلقان، فالمجموعة المكوّنة من البوسنة - الهرسك والجبل الأسود وصربيا، وألبانيا، والموره، خضعت لنظام إدارة المقاطعات العثمانيّة، مع استثناءات مختلفة. وفي المناطق القريبة من العاصمة، كبلغاريا وتراقيا ومقدونيا، مارست السلطة المركزيّة حكمًا مباشرًا.

شكّل المسلمون أقليّة صغيرة بين سكّان مناطق الرومّلي. أمّا اعتناق الإسلام فكان نادرًا جدًا، هذا إذا استثنينا ظاهرة الإنكشارية التي كانت تقضي دخول الإسلام بالقوّة، الأمر الذي أدّى إلى وصول أشخاص، يعودون بأصلهم الى مسيحيّي البلقان، الى المراكز العليا في الدولة. لذا يُظنّ أنّ المسلمين لم يتجاوزوا، بشكل عام، العشرين بالمئة من مجموع السكان، لكنّ هذه النسبة كانت تتغيّر تبعًا للمناطق. فغالبيّة السكان كانوا من المسيحيّين الأرثوذكس التابعين لبطريرك يقبل السلطان بصلاحيته في مسائل الأحوال الشخصيّة، بموجب نظام الملل.

هذا الوضع الجديد الذي اشتدّت وطأته مع المبالغة في زيادة الضرائب، أدّى إلى ثورات عديدة تحوّلت، غالبًا، إلى حروب خارجيّة تغذّيها أطماع كلّ من النمسا، الخاضعة لعائلة هابسبورغ، وروسيا، الأمر الذي أرغم العثمانيّين، منذ القرن الثامن عشر، على الانسحاب التدريجي من بعض مناطق الرومّلي. جاء الانسحاب النهائي بعد قرنين من الزمن، عند نهاية الحرب العالميّة الأولى وحروب البلقان التي سبقتها. لم تحتفظ الجمهوريّة التركيّة الحديثة من كل هذه الأراضي سوى بمقاطعة ترافيا، ما سمح لها بأن تكون في عداد الدول أوروبية.

◄ راجع المستندين ٢٢ و٢٧

الرومي ← **جلال الدين الرومي**.

الرَّيّ أو المحمَّدية، مدينة خَربة من القرون الوسطى في إيران، حافظت على ازدهارها حتّى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وما يزال موقعها معروفًا إلى الجنوب الشرقي لطهران.

كانت الرّي مدينة قديمة في ميديا معروفة باسم راجِسْ (Ragès)، احتلّتها باكرًا، في العام ١٩هـ/٦٤٠م، الجيوش العربيّة - الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى، لكنّها تعرّضت للتخريب بعد ذلك بفترة قصيرة. أعاد بناءها، في زمن العبّاسيّين، المهدي، الخليفة لاحقًا، عندما عُيِّن، في العام ١٤١هـ/٧٥٨م، حاكمًا على جند إيران، وأعطاها إسمًا جديدًا، وفيها ولد، في ما بعد، إبنه هارون الرشيد.

ومذّاك، صارت الريّ جزءًا من الأمبراطوريّة الإسلاميّة وضاهت في غناها وشهرتها العاصمة بغداد، لكنّها أصبحت محطّ خلافات أمراء الديلم القريبة، لتسقط لاحقًا بين أيدي السامانيّين ثمّ البويهيّين الذين جعلوا منها، لأكثر من قرن، مركزًا لبلاط مميّز.

احتلّها السلاجقة، في العام ٤٣٤هـ/١٠٤٢م، في زمن الاجتياحات التركيّة. عندها بدأت تضعف تدريجيًّا بسبب الخلافات الكبيرة بين مجموعات سكّانها، وبخاصة بين السنّة والشيعة، وأيضًا بين الشافعيّة

والحنفيّة. أدّت غزوة المغول لها، في العام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، إلى مذابح عانت آثارها لمدّة طويلة. وفي العام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م، كانت الرّي، على حدّ قول أحد الرحّالة الاوروبيّين، أرضًا غير مأهولة. أخذت مكانها بالتعاقب مدن عدّة قريبة كَوَرامين ومن ثمّ طهران، بينما ظلّت فيها بعض الشواهد المادّيّة: برج، ضريح سلجوقي، ومقام شيعي لأحد أبناء الأئمّة، وبقيت ذكراها بفضل من لمع من أبنائها وحملوا لقب الرازي، أي «المولود في الرّي».

◄ راجع المستندات ٣١، ١٧ و٢٣.

الرياض (المملكة العربيّة السعوديّة)، مدينة في شبه الجزيرة العربيّة، تقع في منطقة نجد، غدت، منذ العام ١٩٣٢، عاصمة دولة آل سعود.

أصبحت بلدة الرياض، في العام ١٨٢٤، مكان إقامة أحد الأمراء السعوديّين، حماة ابن عبد الوهّاب والوهّابية، بعدما دمّرت الجيوش العثمانيّة عاصمتهم الأولى الدّرعيّة. هُجرت بعد سقوط المملكة السعوديّة الثانية، في العام ١٨٨٤، تحت ضربات آل الرشيد، ثمّ استعادها، في العام ١٩٠٢، عبد العزيز المعروف بابن سعود، وأصبحت عاصمة المملكة الجديدة في العام ١٩٣٢. شهدت هذه الواحة، الواقعة قرب قلعة المَرْمك القديمة، تطوّرًا سريعًا، بخاصة منذ العام ١٩٤٥. اتّسعت أحياؤها وغدت مركزًا تجاريًّا وإداريًّا متزايد النشاط، وهي تضمّ مختلف وزارات المملكة المستقرّة فيها منذ العام ١٩٥٥، وكذلك حيًّا مهمًّا لمختلف البعثات الديبلوماسيّة. استفاد سكانّها من تنظيمها الجديد ومن تجهيزاتها الحديثة ومن شوارعها العريضة. قُدّر عددهم، في العام ١٩٨٢، بحوالى مليون ونصف مليون نسمة.

الرياضيّات، علوم موروثة في الإسلام عن تقاليد قديمة، يونانيّة وهنديّة في شكل أساسي. عرفت، في القرون الوسطى، رغم الشكوك التي رافقت نظرة المجتمع الإسلامي إليها، إنطلاقة وفّرت لها، في الوقت نفسه، تطوير أساليبها والوسائل التي سمحت بنقلها لاحقًا إلى أوروبا المسيحيّة.

اهتمّ بهذه العلوم علماء ذوو قيمة جاؤوا من مناطق مختلفة، ونشطوا في مراكز مرموقة لا تقلّ تنوّعًا، بصفتهم أبناء البلاد، أو غرباء غير مسلمين، أو أنّهم كانوا من المهتدين حديثًا إلى الإسلام، ولكنّهم كانوا ينطقون جميعًا باللغة العربيّة. وأفادت هذه العلوم من الاهتمام الذي أثاره بعض فروعها، سواء كان من أجل ممارسة علم الفلك وعلم الأبراج، أو من أجل تطوير تقنيّات إداريّة أو علميّة متخصّصة تستدعي عمليّات قياس أو توجيه، مثل تقنيّات مسح الأراضي أو تحسين أدائها بفضل أنظمة ري معقّدة، ومثل احتساب الضرائب وغيرها من الشؤون الماليّة، ورسم الخرائط وغيرها من التقنيّات المتعلّقة بالجغرافيا والإبحار، والهندسة المعماريّة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أشغال حرفيّة فاخرة تتطلّب تزيينات قائمة على تقنيّات التداخلات الهندسيّة. من هنا الإهتمام والحماية اللذان أولتهما السلالات الحاكمة لعلماء كانوا، في الإجمال، يبرزون ايضًا في مجالات الطب أو الفلسفة، وكذلك في مجال الأرقام، والذين أكملوا تنشئتهم بفضل المكتبات الغنيّة التي جُمعت في بلاطات حُماتهم.

هكذا تأمّن تطوير العلوم الرياضيّة الأساسيّة في بلاد الإسلام إنطلاقًا من معطيات مستعارة، في الغالب، على أيدي أشخاص انصرفوا إلى أنشطة متعدّدة، وإنّ كتاباتهم لا تزال تشهد على ذلك. لكنّ تعدّد المواهب الذي ميّز معظم هؤلاء العلماء لا يتناقض مع وجود فرعين منفصلين داخل الرياضيّات الإسلاميّة منذ البداية، هما «علم الحساب» من جهة، ومن جهة أخرى «علم الهندسة»، أي الهندسة مع تطبيقها على العلوم الفيزيائيّة. الفرع الأوّل الذي كان مرتبطًا أيضًا بـ«علم الأعداد» بوجوهه النظريّة والتطبيقيّة كان يستند، في الأساس، إلى نصوص يونانيّة ترجمها المسيحيّون النساطرة في عراق العبّاسيّين، مثل «مقدّمة» نيكوماك التي ترجمها ثابت بن قرّة. وقد تمّ تحويلها لاحقًا، بشكل كبير، من خلال تبنّي وسائل الحساب وكتابة الأرقام الهنديّة - بما فيها استخدام «الصفر» والترقيم العشري - التي دُمجت بعادات حسابيّة من أصول بابليّة. أمّا في ما خصّ الهندسة، فقد تمّ تأسيسها في البداية، منذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، على ترجمة

مؤلّفات يونانيّة واستيعابها، بينها «مبادئ» إقليدس التي احتلّت مكانة مهمّة. بعدها لم تتأخّر في الإنفتاح على علم المثلّثات لتتبّع تطوّر علم الفلك الناتج عن استخدام جداول فلكيّة.

وقد أفاد «علم الحساب» و«علم الهندسة» بسرعة من التبادل القائم بين وسائلهما، وذلك بمقدار ما كان «الحساب» قد انفتح بسرعة على نماذج ما سيُعرف بعلم «الجبْر». وقد اتّضح أنّ هذه النماذج مفيدة أيضًا لحلّ مسائل هندسيّة. كما كانت الهندسة مفيدة أيضًا لتجسيد بعض المعادلات. وبفضل ذلك تمّ نقل هذين العلمين، بشكل واسع، إلى ما وراء البلدان الإسلاميّة. إنّ لفظة «algèbre» باللغّات الأجنبيّة مأخوذة من الكلمة العربية «الجبر» التي اعتمدها، بالتدريج، المترجمون اللاتينيّون الذين جعلوا، بين القرنين السادس والثامن للهجرة/الثاني عشر والرابع عشر للميلاد، الوسائل المعتمدة في الحياة اليوميّة في العالم الإسلامي بمتناول الغرب المسيحي. وهذا ما يذكّر إلى اليوم بالدور الذي لعبه، إبتداء من القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، كتاب عالم الرياضيات والفلك محمّد بن موسى الخوارزمي، الذي يُلفظ إسمه باللاتينية «ألخواريزموس» أو «ألغوريسموس» (Algorismus). ويعود الفضل لانتشار كتابه «في استخدام الجبر والمقابلة» ولدراسته في أوروبا، في جعل لفظة «الجبر» - التي لم تكن سوى إحدى طريقتين لتحويل المعادلات المطروحة - تصبح لاحقًا مستخدمة للدلالة على مجمل هذا النظام.

هذه الأساليب «الجبريّة» التي لا ينبغي، في أي حال، إعتبارها اختراعًا للخوارزمي ولكنّها مأخوذة عن مصادر قديمة، بما فيها البابليّة، من خلال مؤلّفات يونانيّة، عبريّة وهنديّة، تمّ تطويرها على يد علماء مسلمين آخرين، مثل شجاع أبي كامل (حوالى ٢٣٦-٣٤٤هـ/ ٨٥٠-٩٥٦م)، تمكّنوا لاحقًا من حلّ معادلات قائمة على أعداد مجهولة عدّة. وتمّت أيضًا إستعارة تحسينات أخرى بفضل ترجمات جديدة لمؤلّفات يونانيّة. وأدّت تطبيقات نظريّة القطاعات المخروطية، من جهتها، إلى تطويرات جديدة، إلى أن بلغ علم الجبر ذروته في الوسط الإسلامي بفضل الأعمال التي حُقّقت في إيران، بين نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر للميلاد، على يد عمر الخيام الذائع الصيت.

إنّ الإزدهار الذي عرفته الرياضيات في تلك الحقبة ختم المرحلة الخصبة الأولى من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، في عزّ العصر الذهبي لحضارة الخلافة العباسيّة. وقتها كان تحت تصرّف العلماء العاملين في العراق في ظلّ حماية الحكّام، موروث قديم أو أجنبي يصلح لأن يكون قاعدة انطلاق لمكتسباتهم العلميّة الخاصة، وذلك بفضل مبادرات مهمّة مثل «بيت الحكمة» الذي أسّسه المأمون. وقد ظهرت النتائج الفوريّة، منذ بداية القرن، في كتابات محمّد الخوارزمي الآنف الذكر، وكان الأوّل في توظيف امكانيّات النظام الهندي الذي اجتهد للتعريف به في أبحاثه عن الحساب والجبر؛ وقد عمل، في الوقت نفسه، على مناقشة أعمال «إقليدس» في الهندسة. وقد أُتبِعَتْ اعماله سريعًا بأعمال بني موسى بن شاكر، وخصوصًا بأعمال «البتّاني» الذي وضع كلّ هذه المعارف الجديدة في خدمة علم المثلّثات الدائريّة.

في المنحى نفسه تندرج، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ولاحقًا أيضًا حول البويهيّين، التطوّرات المحقّقة، سواء كان في عمليّات الحساب إنطلاقًا من الأرقام الهنديّة على يد أحمد بن ابراهيم الإقليديسي (يعود مصنّفه الى العام ٣٤١هـ/ ٩٥٢م، وقد وُضع في دمشق)، وكُوشيار بن لبان الجيلي، أو في حلّ المسائل الهندسيّة مع أحمد السيجزي، من دون أن ننسى جهود تطبيق هذه العلوم على حاجات حجّاب الدولة، وهي جهود قام بها أبو الوفاء البُوزْجاني.

هذا الإزدهار لأعمال تستخدم وتنظّم معطيات اتّخذت شكلها انطلاقًا من موروثات متنوّعة، ووضعت للمستقبل أُسسًا انتقلت إلى أوروبا المسيحيّة بفضل ترجمات عبرية او لاتينيّة تمّت في مراكز الغرب الإسلامي، شكّل نهاية حقبة مميّزة من تاريخ الرياضيّات في بلاد الإسلام. إنّ علم الحساب القائم على مكتسبات أصبحت، بعد ذلك التاريخ، تقليديّة، لم يُحرز أيّ تقدّم

لاحقًا إلّا في علم الجبر وفي توظيف علم المثلّثات الذي ترامن مع تحسين مستمرّ في الأرصاد الفلكيّة والتقنيّات المعماريّة. وقد ظهرت فعاليّة هذه التقنيّات في كتب الفن التي وُضعت أيام المغول أو العثمانيّين. بالتأكيد برزت بعض الأسماء الكبيرة في هذه الحقبات الأخيرة، مثل ابن الهيثم في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وعمر الخيّام المذكور آنفًا، ونصير الدين الطوسي الذي كان دوره أساسيًّا في الشرق خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وقد سمح بانطلاقة الرياضيّات، برعاية الأيلخانيّين. انتقلت هذه الانطلاقة، بعد ذلك، إلى آسيا الوسطى، زمن التيموريّين، حيث تميّز، في القرن الخامس عشر للميلاد، عالم الفلك الكاشي. لكنّ هذه الإنطلاقة كانت آخر مرحلة من تطوّر تاريخي طويل، قبل التخدير الثقافي الذي عرفته الحقبات اللّاحقة.

ز

الزّاب، (معركة الزاب الكبرى، جُمادى الأخرة سنة ١٣٢هـ/ كانون الثاني ٧٥٠م)، معركة مصيريّة انتصر فيها الثوّار على الجيوش الأمويّة التابعة للخليفة مروان الثاني، ورسّخت نجاح «الثورة العباسية» في الاستيلاء على السلطة.

إنّ الثوّار من ذوي الأصول الخراسانيّة الذين قاموا للدفاع عن قضيّة آل بيت محمد (ﷺ)، والذين زحفوا نحو العراق المؤيّد للشيعة، عمدوا أخيرًا، في الكوفة، إلى تنصيب عضو من العائلة العبّاسية سيصبح في ما بعد مؤسس السلالة الخليفيّة الثانية الكبرى في الإسلام. بعدئذٍ، نشدوا السيطرة على بلاد ما بين النهرين العليا حيث مقرّ العاهل الأموي في حرّان. وقعت المعركة على ضفاف النهر الذي يصب في دجلة، قريبًا من أسفل مدينة المُوصل. وبذلك تيسّر لأتباع (الخليفة) السفّاح متابعة طريقهم نحو الأراضي السوريّة التي اقتحموا تحصيناتها، بينما هرب خليفة السلالة المهزومة إلى مصر حيث لقي في النهاية حتفه.

زابُلِسْتان، إسم يعود إلى العصر الوسيط، كان يُطلق على المنطقة الواقعة حول غزنة في أفغانستان الحاليّة.

تضمّ هذه المقاطعة، بحدودها غير الواضحة المعالم، التي كانت تجاور الغور وطخارستان، الأحواض العليا لروافد نهر هلمند الشرقيّة، شمال قندهار، وتشكّل قسمًا من مقاطعة سجستان الواسعة والخصبة جزئيًّا. بعد ضمّها إلى ديار الإسلام حوالى القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، أصبحت مركزًا لسلطة الغزنويّين قبل أن تتخلّى، في أواخر القرون الوسطى، عن دورها لمقاطعة كابُل التي تسمّى أحيانًا كابُلستان، وهي مجاورة لها شمالًا.

زارَنْج، مدينة قروسطيّة مندثرة، عُرفت كذلك بمدينة سجستان بالعربيّة، وشهرستان بالفارسيّة، كانت تشكّل المركز الإقتصادي والإداري لمقاطعة سجستان الغنيّة.

إنّ هذه المدينة التي تألّقت في العهد الساساني واستمرّت في ازدهارها بعد احتلالها على الأرجح في العام ٢٠ هـ/٦٤١م، في عصر الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، كانت تقوم في موقع ليس ببعيد عن موضع زابل الحالي، وكان معروفًا بـ «ده زاهدان»، ومن الصعب تبيُّنه بين أطلال المنطقة الكثيرة. وكان ريفه، في عهود ازدهاره، يُروى بمياه نهر هلمند، غير بعيد عن المكان الذي كان يصبّ فيه، في منخفض بحيرة زارا، في الجنوب الشرقي لصحراء الملح الكبرى التي تقع في وسط الهضبة الإيرانيّة.

أصبحت زارنج، بفضل غناها الزراعي، في منطقة هي اليوم منطقة مستنقعات. وبفضل أنشطتها التجاريّة على خط القوافل المؤدّي من العراق إلى السند، مركزًا مهمًّا للصفاريّين في القرن الثالث للهجرة/التاسع الميلاد.

حافظت المدينة على هذا التفوّق الذي تشهد عليه صروح أثريّة أطنب في وصفها الجغرافيّون القدماء، إلى أن تعرّضت للنهب والدمار على أيدي جيوش تيمورلنك سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م. منذ ذلك الوقت، عادت المدينة إلى الصحراء التي هدّدتها آنفًا رمالها، وبقيت مقاطعتها التي تتقاسمها اليوم الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة ودولة أفغانستان الإسلاميّة غير بعيدة عن أراضي باكستان، خارج خطوط المواصلات الكبرى. لم تجرِ حتّى اليوم حفريات منتظمة في المدينة التي تبعد عن زاهدان، الحاضرة الرئيسة لمقاطعة سجستان الإيرانيّة.

زَمينداوَر، مقاطعة في أفغانستان الحاليّة، كانت تُعرف بهذا الإسم في العصور الوسطى وتطابق الحوض العالي لنهر الهلمند.

إنّها منطقة جبليّة في بعض أجزائها كما يشير إلى ذلك اسمها، لكنّها أيضًا منطقة غنيّة بمصادرها الزراعيّة في مقاطعاتها المرويّة. كانت تابعة لإقليم سجستان. مدينتها الرئيسة - وقد زالت اليوم - كانت مركزًا إقتصاديًا وتجاريًا حيويًا، نعني بها حاضرة بُست أو قلعة بست التي ازدهرت بفضل جوارها لقصور الغزنويّين والغوريّين في لشكري بازار التي أعطت اطلالُها اسمَها لمحلّة جديدة.

زاوية، بالتركيّة «زاويه» (مع اختلاف في كسر الياء)، نوع من البناء يقيم فيه المتصوّفون المسلمون. حظي بشهرة خاصة في المغرب إبتداء من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد. تُعتبر بعض نماذجه، بالشكل الذي اتّخذته في تركيا، من أجمل الأبنية التي عرفها الأناضول في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

كانت اللفظة العربيّة المستعملة خلال القرون الأولى للإسلام تشير إلى أحد المعنيَيْن الآتيين: إمّا موضع محدّد داخل صرح كبير، وإمّا حجرة صغيرة معزولة يختلي فيها المتزهّد للتأمل، مع إمكان استقبال بعض مريديه. كان هذا المفهوم يتلاءم والمعنى الأصلي للجذر المتعارف عليه، منذ القديم، في شرق العالم الإسلامي وغربه، والذي يشير إلى الزاهد الذي ينزوي عن معاشرة الناس.

لاحقًا، أصبحت بعض الزوايا - مثلًا تلك التي شُيّدت في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد في المغرب في عهد المرينيّين، ومنها زاوية شالة بالقرب من الرباط، وزاوية النسّاك بالقرب من سلا - صروحًا واسعة تضمّ مجموعات من المتصوّفين المنتمين، في أغلب الأحيان، إلى طريقة صوفيّة معيّنة. وصفها الكتّاب المعاصرون، مثل ابن بطوطة، بأبنية شبيهة بالأديرة في بلاد اليونان، ونعرفها أيضًا من خلال الأوصاف التي انتهت إلينا، من القرن التاسع عشر، من العلماء الفرنسيّين الذين عرفوا الواقع الجزائري، مثل دوماس (Daumas) الذي كتب سنة ١٨٤٧ يقول:

«تتألف كل زاوية من مسجد، ومن قبّة تعلو قبر المرابط الذي تحمل اسمه، من حجرة لا يُتلى فيها إلّا القرآن الكريم، ومن أخرى لتلقين العلوم، ومن حجرة ثالثة تُستعمل كمدرسة إبتدائيّة للأولاد، ومن مسكن معدّ للتلاميذ أو الطلبة الذين يتوافدون طلبًا للعلم أو للتبحّر فيه، وأخيرًا من مسكن آخر لاستقبال المسافرين والمتسوّلين. يضاف إلى ذلك أحيانًا جبّانة مخصّصة للأتقياء الذين التمسوا حظوة الرقود بجانب الوليّ. هكذا تكون الزاوية، في الوقت نفسه، جامعة دينيّة ونزلًا مجّانيًا. وبهاتين الصفتين تكشف الزاوية الكثير من أوجه التشابه مع الدير في العصور الوسطى».

ظهر هذا النوع من المنشآت في الشرق منذ وقت طويل، بحيث سهّلت الزوايا المرتبطة بشخص صوفيّ مكرّم، منذ بداية القرون الوسطى، وكما تؤكّده بعض النصوص، نقل الروحانيّة الصوفيّة التي لا يمكن أن تُعلّم في المساجد. على كلّ حال، مع بداية القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، بُنيت أيضًا، في سوريا كما في مصر، منشآت بسيطة مؤلّفة، في أغلب الأحيان، من صالة اجتماعات مسقوفة أو غير مسقوفة بقبّة، ومزوّدة عادةً بمحراب، توضع في تصرّف شيوخ اشتهروا بتقواهم، كانوا، في الأغلب، رؤساء طرائق صوفيّة ناشئة، يقيمون فيها طيلة حياتهم، ويستمرّ ذكرهم في ما بعد، عن طريق أضرحتهم التي تغدو مقصدًا للزيارات التقويّة.

مع نهاية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، أدّى ازدهار الطرائق الصوفيّة التراتبيّة وحصولها على أوقاف، مصدرها الطبقات الموسرة أو السياسيّة، إلى قيام مجمّعات معماريّة ممتازة حول أبنية المتصوّفين، بحيث لم تعد تُطلق عليها تسمية «خانقاه» لانتفاء دلالتها. وهكذا عرفت الزاوية، في صيغتها التركية «زاويه»، شهرة عارمة بفضل العناية التي أولاها المجتمع العثماني، الخاضع لحكم مركزي وبيروقراطي، لمبانٍ من هذا النوع.

لم يكن وجود هذه المباني محصورًا في المدن التي تملك منشآتٍ ملكيّة كمدينة بورصة، وذلك منذ القرنين

الثامن والتاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، بل أخذت منذ ذلك الوقت بالإنتشار على طول الطرقات، وحتّى في الأمكنة الريفيّة المتواضعة. كانت تستعمل نُزلًا بالمقدار الذي كانت تتزايد فيه وتترسّخ، داخل الأراضي العثمانيّة، طرائق الدراويش الذين تعاظم أمرهم.

وكثيرًا ما كانت تتكامل هذه المباني مع مساجد، مشكّلةً ملاحق لها ومعدّلة هيكليّتها المعماريّة. كان يضاف إلى قاعة الصلاة المجهّزة بمنبر والمعدّة لأن تكون مسجدًا جامعًا، وذلك وفق تصميم شبيه بحرف التاء (T) باللاتينيّة مقلوبًا: قاعات للإجتماعات، وأخرى للتعليم، وأخرى لتأمل الأتقياء الذين كانوا أهمّ شاغلي هذه المباني، فيما كانوا يُقيمون في مبانٍ مجاورة لها. وأفضل نماذج لهذا المسجد - الزاوية تلك التي شُيِّدت في عهود السلاطين العثمانيّين الأوّلين، مثل مسجد بايزيد الأوّل بلدرم في بورصة أو مسجد محمّد الأوّل المعروف بـ «يشيل جامع» أو الجامع الأخضر.

ضمت أيضًا هذه الخصائص أقدم المساجد في اسطنبول في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، مثل مسْجدي بايزيد الثاني وسليم الأوّل، حيث نلاحظ الأبنية الجانبيّة المعروفة، بالتركيّة، بـ «تابخانه» والتي تحاذي قاعات صلاة ضخمة مجهّزة بقبّة وحيدة. واستمرّت هذه المعالم المعماريّة حتّى قيام ما عُرف بالكليّات في العهد التالي الذي شهد أفول الطرائق الصوفيّة في الأوساط العثمانيّة.

◄ راجع المستندين ٨٠ و٨١.

زَبيد (الجمهوريّة اليمنيّة)، ناحية ترقى إلى القرون الوسطى، كانت لها أهميّتها في المنطقة الساحليّة من شبه الجزيرة العربيّة الجنوبيّة، أو ما يُسمى تِهامة، وهي الآن مجرّد مركز قضاء بقي بعيدًا عن شبكات الطرق التجاريّة.

تقع زبيد عند أقدام سلسلة جبليّة، وسط أراضٍ زراعيّة لا تبعد كثيرًا عن شاطئ البحر الأحمر، على طريق القوافل القديم المؤدّي من مكّة إلى عدن. إنّ هذه العاصمة السابقة لليمن دخلت في دار الإسلام سنة ١٠هـ/ ٦٣١م، قبل موت النبيّ محمّد ﷺ. خضعت، بعد ذلك، لسلطة ذريّة زياد بن أبي سُفيان، أي لبني زياد الذين أعطوا المدينة، حوالى العام ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠م، شكلها الدائري. وقد تعاقبت على حكم زبيد سلالات عدّة من السنّة، المستقلّين نوعًا ما، بالرغم من علاقات التبعيّة التي كانت تربطهم بالعبّاسيّين. وقد خضعت المدينة، فضلًا عن ذلك، في فترات قصيرة، لسلطة أمراء من الشيعة منهم القرامطة، وبخاصة الصليحيّون الذين أوقفوا لفترة سيطرة بني نجاح واعترفوا بسيادة الفاطميّين في مصر.

منذ سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، سيطر على المدينة الرسوليّون (بنو رسول) المتحدّرون من أتابك أيوبيّ، وقد خلفهم طاهريّو اليمن حوالى منتصف القرن الخامس عشر للميلاد، قبل أن يخلوا الساحة، بعد قرنٍ من الزمن، للحكّام الذين عيّنهم العثمانيّون والذين تخاهم لاحقًا الأئمّةُ الزيديّون. إن نقْل عاصمة اليمن إلى صنعاء على أيدي العثمانيّين أفقد زَبيد أهميّتها الإقتصاديّة والسياسيّة، فبقيت مركزًا دينيًّا سنيًّا وحسب، في منطقة يسيطر عليها الزيديّون الشيعة، وهي تحتفظ بعدد من الصروح التي تشهد على ماضيها.

◄ راجع المستند رقم ٢٥.

زُبيدة بنت جعفر، المدعوة أيضًا أُمّ جعفر (١٤٥-٢١٦هـ/ ٧٦٢-٨٣١م)، هي ابنة عمّ الخليفة هارون الرشيد وزوجته العربيّة الكريمة النسب التي تنتمي، بدورها، إلى سلالة العبّاسيّين، وهي والدة الخليفة الأمين.

هي حفيدة الخليفة المنصور الذي لقّبها بـ «زبيدة»، وهو الإسم الذي عُرفت به. اشتهرت بالكرم بفضل سخائها تجاه الشعراء والعلماء بشكل خاص، وأيضًا لأنّها كرّست ثروتها لأعمال البرّ والخير، مخلّفةً، في أماكن مختلفة، مؤسّسات وإنشاءات شتّى، إذ يمكن حتّى اليوم مشاهدة بقايا الأعمال التي أمرت بإجرائها في مكّة وأماكن أخرى من الجزيرة العربيّة لاصلاح طريق الحجّ. كما كان لها دور سياسي إذ تدخّلت لدى زوجها لتعيين ابنها وليًّا للعهد، مسبّبة بذلك صراعًا بين الأخوة، ما أدّى إلى مقتل الأمين المأسوي ودمار «المدينة المستديرة». إنّ الشهرة التي اكتسبتها في حياتها، والتي ارتبطت

بذكراها، هيَ في أساس التقليد الشعبيّ الذي يعتبر أنّ قبرها ما زال قائمًا في بغداد، وهوَ كناية عن ضريح تعلوه قبّة ذات تجاويف. لكنّ هندسة هذا الضريح وزينته تشيران إلى أنّه ينتمي إلى الفنّ العبّاسي للقرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد.

الزبير بن العوّام بن خويلد، أبو عبدالله، ؟-٣٦هـ/ ؟-٦٥٦م، من صحابة النبيّ (ﷺ) وابن عمّته، وذو مكانة خاصة لديه، اشترك في معركة الجمل حيث قُتل. كان من أوائل معتنقي الإسلام. تزوّج من إحدى بنات أبي بكر، كما كان في عداد المجموعة الصغيرة التي هاجرت إلى الحبشة. عاد إلى المدينة المنوّرة وحارب بشجاعة في كل معارك بدايات الإسلام ضد المكيّين. بعد مقتل عثمان بن عفّان، الخليفة الثالث، انحاز ضدّ علي إلى جانب طلحة وعائشة، وهلك في أثناء الاشتباك الذي واجه خلاله المتمرّدون جيوش علي، على الطريق المؤدّية من شبه الجزيرة العربيّة إلى البصرة، وكان يبلغ آنذاك الستين من العمر تقريبًا.

ثار ابنه عبدالله، المعروف غالبًا باسم إبن الزُّبَيْر، على الأمويّين في مكّة، وهكذا فعل أيضًا ابنه الآخر مُصعب في العراق.

الزجاج (فنون -)، صناعة فاخرة نَمَت في القرون الوسطى، بفضل الظروف الاقتصاديّة المشجّعة، واستعداد المجتمع الإسلاميّ الميسور لتوفير أساليب صناعتها الموروثة مباشرة من العصور القديمة، وقد بُذلت الجهود حصرًا لتحسين هذه الأساليب.

إنّ تقنيات صناعة الزجاج المتجذّرة في الشرق القروسطي، بعد ظهورها لأوّل مرّة في بلاد ما بين النهرين، مصحوبةً بالازدهار الذي عرفته في العصر الروماني، استمرّ العمل بها من دون تغيير يُلحظ بعد الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، كما تشهد على ذلك وحدة الأسلوب المتجليّة في الأواني المحفوظة من ذلك العهد، وهي تُنسب، من دون تميّز كبير، إلى مشاغل ذات تراث بيزنطي أو ساساني، وكانت ناشطة ما بين القرنين السادس والثامن للميلاد.

انمازت هذه القطع القديمة بأشكال بسيطة وطراز حجويّ من التزيين والزخرفة باستعمالها أشكالًا مُقولبة حراريًا وأحيانًا محفورة أو مقدودة في المادة نفسها. كذلك أُضيفت عليها تحسينات فنيّة باستعمال أدوات جديدة ساعدت، بفضل المهارة المتنامية، على مَطّ الزجاج وعلى منح القوارير والكؤوس والأقداح رونق المينا والطلاء المعدنيّ المستعملين في فنون السيراميك.

ان النتائج السريعة التي تجلّت في العراق وفي سوريا تلبيةً لحاجات بلاطات الخلفاء العبّاسيّين في بغداد أو سامرّاء، وكذلك في ما بعد، بلاطات الفاطميّين في مكان إقامتهم الجديد في القاهرة، أدّت إلى تفوّق غير منازَع، في القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، لأوانٍ زجاجيّة سوريّة مزخرفة ذات ألوان برّاقة زادها التذهيب ألَقًا. هذه الروائع أخذت أحيانًا طريقها إلى الغرب المسيحي، بعنوان هدايا ملكيّة، حيث حُفظت في المتاحف وفي مجموعات خاصة. عرفت آنذاك مصابيح المساجد المزيّنة بالكتابات المنقوشة وبالشعارات المملوكيّة، وكذلك الزجاجيّات، رواجًا حقيقيًّا. وقد برهنَ صانعوها - الذين هاجر بعضهم من إيران بعد كوارث الغزو المغولي - عن مهارة كبيرة اقتبست منها مباشرة البندقيّة أسرار المهنة.

بعد مرحلة الذروة هذه، بدأت هذه الصناعة تضعف، وكانت قد اقتصرت على إنتاج قطع قليلة ذات قيمة كبيرة تحمّلت عواقب المصاعب التجاريّة التي واجهتها مصر في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. لم تعد الإنجازات الشرقيّة بعد ذلك التاريخ قادرة على منافسة الإنتاج الأوروبي لا كمًّا ولا نوعًا، رغم السعي إلى تقليده. وعلى نهج هذه المدرسة نمت المراكز الجديدة لإنتاج الزجاج الإسلامي في بلاد فارس، إبّان العهد الصّفوي، وفي الهند إبّان العهد المغولي، وبخاصة في أمبراطوريّة العثمانيّين المستهلكين للزجاجيّات في مبانيهم وفي صناعة الأثاث. لكنّ المصانع الكبرى المتمركزة في اسطنبول تحت مراقبة السلاطين، أفسحت في المجال تدريجيًّا، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، لمراكز

أكثر حداثة . وفي المقابل ، إنّ جهود التطوّر الصناعي في بعض الدول الإسلاميّة لم تسمح لبعض الطرائق القديمة بالاستمرار حتى أيامنا هذه ، إلّا من خلال بعض المشاغل النادرة التي تنتج أوانيَ بسيطة يعتمد أكثرها على اعادة تصنيع مواد زجاجيّة سابقة .

الزراعة الإسلاميّة ، أي مجموعة الطرائق والتقنيات المعتمدة لاستثمار الأرض ، في الظروف المناخية غير الملائمة للمنطقة شبه المجدبة التي نما فيها الإسلام في أوّل أمره ، وذلك في زمان كانت الموارد الناتجة عنها تشكّل إحدى الدعائم الأساسيّة للإقتصاد .

على ذلك ، استقرّت ، نظريًّا وعمليًّا ، التقاليد الزراعيّة التي لم تكن ترتبط مباشرة ، إلّا في ما يخصّ الوضع القانوني للأراضي ، بالتشريع الديني ، بل كانت تشكّل جزءًا من الموروثات التي استوعبها المجتمع الإسلاميّ الناشئ . هكذا استمرّ استثمار الأرض المعروف بالفلاحة ، والذي يعرف ، في أيامنا ، بالزراعة ، في منطقة الشرق الأوسط حيث ما يزال الفلّاحون ، من الناحية العدديّة ، يشكّلون قسمًا كبيرًا من السكّان .

على المستوى النظريّ ، نشأ أدب زراعيّ قروسطي باللغة العربيّة ، ارتبط بأسماء كتّاب مسلمين ، منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد ، في الأوساط العلميّة التي كانت قد تركّزت في العراق ، في قلب الأمبراطوريّة ، وفي كنف السلالة الثانية لخلفاء الإسلام ، أي سلالة العبّاسيّين . وتبيّن عناوين المؤلّفات الأولى [في هذا المضمار] نقل معطيات أعرق في القدم ، تعود إلى تقاليد شرقيّة أو بيزنطيّة . ويبدو أنّ كتاب «الفلاحة النبطيّة» أو «فلاحة ما بين النهرين» ، المنسوب إلى ابن وَحشيّة ، أُلِّف في العام ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م ، استنادًا إلى ترجمات من اللغة «النَّبَطيّة» ، أي الآرامية ، أخذت بتقليد سريانيّ يرقى ، في واقع الأمر ، إلى الفترة الهلّينستيّة السوريّة والإسكندرانيّة التي أُشبعت بها عائلات الكتّاب والعلماء ، ذوي الأصول غير الإسلاميّة والذين عملوا في دواوين الإدارة . ثمّة نماذج أخرى قدّمها لنا كتاب «الفلاحة الرُّوميّة» أو «الفلاحة البيزنطيّة» لرجل يُعرف بقُسطوس الرومي ما تزال شخصيّته غامضة ، أو نوادر قسطا بن لوقا البعلبكي الذي يبدو أنّه وجّه اهتمامه إلى هذه المسائل كما إلى معطيات العلم القديم التي انصرف إلى ترجمتها ونقلها إلى بغداد ، قبل أن يفارق الحياة حوالى ٣٠٠هـ/ ٩١٢م في بلاط أميريّ في أرمينيا .

في هذا الحقل ، إذن ، كما في حقول أخرى كثيرة ، تسرّبت المعارف التي كانت قد أثْرت الشرق القديم ، إلى الحضارة الإسلاميّة ، بفضل جهود بعض العقول الفضوليّة ، بالملاءمة بينها وبين حاجات عصرهم ، مضيفة إليها ثمار تحقيقاتها الخاصّة . وقد شكّلت أرضيّة صالحة لجميع المصنّفات اللّاحقة باللغة العربيّة ، تلك التي ظهرت في مصر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بقلم ابن مَمّاتي[٥١] وجمال الدين الوطواط[٥٢] ، والتي حرّرها في سوريا ، في القرن الثامن عشر ، الكاتب الموسوعي عبد الغني النابلسي ، من دون أن ننسى المصنّفات التي ازدهرت في الأندلس ، في القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، على أيدي من كرّسوا حياتهم لهذه الأعمال . واقع الأمر أنّ مصنّفاتٍ كثيرة حول الزراعة ظهرت هنالك ، جمعت بين الرجوع المباشر إلى الكتابات اليونانيّة والمقولات المبتكرة ، وقد حازت شهرة عظيمة بحيث تُرجمت إلى لغة قَشْتالة ، وهذا ما أصاب ، في قرطبة ، تراثَ أبي القاسم الزهراوي ، المعروف في الغرب اللاتيني باسم ألبوكاسيس (Albucasis) ، وفي طليطلة تراث ابن الوافد المعروف باسم أبِنْغيريث (Abenguerith) ومعاصره ابن البصّال . بعدئذٍ ظهر ، في مطلع القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد ، مؤلَّف ضخم لابن العوّام ، في إشبيلية ، نال من الشهرة في الشرق بحيث نُقل إلى التركيّة ، منذ القرن السادس عشر ، وكان شاهدًا على المؤلّفات الموسوعيّة المرتبطة بالأنشطة الريفيّة التي حرّرها كتّاب العصر العثماني في أوجه ، إستنادًا إلى تعاليم سابقيهم ، قبل أن يوحي الميل إلى زراعة الزهور ولا سيّما الزنبق ، في القرن الثامن عشر ، بتأليف بعض المصنّفات المبدعة .

أدّت بعض التجارب الزراعيّة والنباتيّة ، على امتداد العالم الإسلامي ، إلى اختبارات وإنجازات تزامنت واستمرار الممارسات التي أثبتت جدواها منذ القدم

وتنقلّت من منطقة إلى أخرى. هذه المستجدّات حفزت، بوجه خاص، فنّ الحدائق الذي منحته أنماط الحياة [الجديدة] انطلاقًا فريدًا في نوعه، من إسبانيا حتّى الهند. ولكنّها كانت تتعلّق أيضًا بدراسة مختلف أنواع النباتات الغذائيّة والصناعيّة وبتأقلمها. جُمعت هذه النباتات، في بعض الأحيان، في «رياض نباتية» كتلك التي أنجزها علماء زراعيّون، عُرفوا بمؤلّفاتهم النظريّة، لأمراء من الأندلس. كما شهدت زراعة هذه النباتات انتشارًا بحسب المبادلات التجاريّة وسائر ظروف الإحتكاك والامتزاج العرقيّ بين الشعوب، وقد شكّلت إحدى خصائص العالم الإسلامي على امتداد القرون الوسطى. وهذا ما أصاب زراعة الأرزّ وقصب السكّر والنخيل وبعض الحمضيّات، والأشجار المثمرة كالمشمش والدراق والإجّاص والفستق وسواها، والخضار كالبطيخ الأحمر والباذنجان، والتوت الضروريّ لدودة الحرير، والقطن، والكتّان والزعفران، والنّيلة والفُوّة [للصباغ] المستعملة في صناعة النسيج وتزيينه. كما انتشرت تقنيّات [هذه الأعمال] ولا سيّما «تقنيّات الماء»، كجمع الماء ونقله بواسطة أقنية. وقد يسّر اتّساع الأمبراطوريّة الإسلاميّة في القرون الاولى انتشار هذه التقنيّات، بدءًا بإيران وانتهاءً بأقصى الأراضي الغربيّة أو الجنوبيّة. إلّا أنّ هذه التحسينات لم تؤثّر إلّا قليلًا في المساحات الزراعيّة التي بقيت، في أوائل عهد الإسلام، محافظةً على التوازنات الكبرى المتوارثة منذ العهود القديمة، سواء منها السهول الغربيّة الغنيّة بالغذاء التي استثمرها سكّانها بدرجة عالية منذ أقدم العصور، أو سلسلة الواحات ذات النباتات المتوسّطيّة أو الإستوائيّة، بحسب المناخ، التي استوطنها أهل الحضر وكيّفوها منذ زمان بعيد، على حساب السُّهب والصحراء. وقد ارتبط ازدهار هذه وتلك، في البدء، على امتداد المناخات التي شغلها العالم الإسلامي، بأنظمة الرّيّ التي توارثها المسلمون من الحضارات السالفة. كما ارتبطت، في ما بعد، بتحوّل سياسيّ-إجتماعيّ أحدثته الفتوحات الكبرى، إذ أثّر الوضع القانوني الجديد للأراضي ونظام خراجها تأثيرًا كبيرًا على عائداتها. إنّ الفتوحات التي تركت للسكّان الأصليّين، من حيث المبدأ، أن يستمرّوا في أعمالهم الموسميّة وفاق النهج الذي تعوّدوه، أخضعتهم لضرائب كانت جبايتها تقوم، أيًّا كان الوضع القانوني للأراضي المعنيّة، على تدابير قهريّة تُرك العمل بها لتقدير جباةٍ عديمي الذِّمّة. لقد طرح ذلك مشكلة قانونيّة حاولت قوانين عقاريّة واقعيّة، مستندة إلى الشريعة الإسلاميّة، طوال القرون الوسطى، أن تحلّها بالدخول في تفاصيل دقيقة تتعلّق بأنماط المزارعة أو الملكيّة الخالصة، كما تناولت مسؤوليات الدولة في تعهُّد الأراضي الزراعيّة المتروكة أو إحيائها.

واقع الأمر أنّ كلّ حكومة إسلاميّة كانت تجد نفسها مجبرة على إرساء ماليّتها وتأمين رواتب جندها - وبخاصّة الرقيق المحاربين والمرتزقة الذين حلّوا محلّ العرب الذين شكّلوا الجيوش المحتلّة الأولى - على دخلٍ وحيد ثابت: المحاصيل التي كانت تخضع لاقتطاع منتظم عينيّ يغذّي المخازن الحكوميّة، أو المبالغ المسدَّدة سلفًا بالنقود العينيّة المعادلة لمبلغ الاستئجار الزراعيّ. أفضى هذا النظام الى استعباد المزارع الذي - بسبب كونه غير مسلم ومجبر على تأدية الجزية - لم يكن في استطاعته الدفاع عن حقوقه. كان هذا الوضع قائمًا في الأمبراطوريّة العبّاسيّة وقد أُخذ به في وقت متأخّر جدًّا، في أمبراطوريّة العثمانيّين. وقد أدّى إلى ذبول شامل للزراعة وإفقار للموارد. لم يكن الإداريّون المسؤولون غافلين عن هذا الواقع؛ يثبت ذلك ما أعلنه، منذ مستهل القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وزراء مثل ابن الفرات، ومحاولاتهم لتنقية الوضع المالي من الشوائب، إمّا بعدم إغفالهم انتقاد الطريقة المعتمدة في تلزيم الضرائب، وإمّا بتجاوز ذلك الى النصح بالرّفق بالمزارعين عند تأدية الضرائب، على أنّ ذلك هو السبيل الوحيد لتحسين عائدات الأراضي. وإذا استثنينا فترات من السلام قليلة عرفتها بعض النواحي، فإنّ تلك المقترحات لم تكن لتقدّم حلولًا بديلة عندما كان يقتضي الظرف العصيب تلبية الحاجة [المتعاظمة] للمال التي كانت، طوال القرون الوسطى، مشكلة الملوك المزمنة وبطانتهم.

ثمّة مزارع ضخمة ذات إنتاج غنيّ وحيويّة زراعيّة

زاخرة كان يُفترض أن تستمرّ في دعم حاجات الحياة المدنية، مشكّلةً بالنسبة اليها سندًا لا بدّ منه، لكنّ مساحتها [المزروعة] لم تتوقّف عن التقلّص، عبر القرون، لتقوم مقامها السهوب الجافّة التي بدت، في غرّة القرن العشرين، جزءًا معهودًا من المشهد الطبيعي التقليدي للعالم الإسلامي.

يعود أيضًا هذا الانحسار المتدرّج للمساحات الريفيّة إلى توسّع أراضي المراعي إثر الغزوات البدويّة المتواترة والخراب الذي أحدثته الحروب، وهذه هي أسباب خارجيّة أُضيفت إلى نتائج الإهمال والإستغلال غير المحدود للفرويّين. ولم تتوقّف الهجمات المسلّحة ولا الغزوات عن تدمير أمبراطوريّة مسلمة تآكلتها الانقسامات الداخليّة وأصبحت معرّضة أكثر فأكثر للاضطراب السياسي، من خلال المطامع المتتالية لأسياد الحرب والقادة الدينيّين. ولم يكن من شأن الكوارث المتجدّدة التي أعقبت هذه الصراعات إلّا أن تزيد في هشاشة البنية التحتيّة التقنيّة، أي شبكة منشآت ضبط المياه وجزها التي كان يقوم عليها، في تلك المناطق، ازدهار الزراعة.

والباعث على الذهول أكثر من ذلك، كان التدفّق الكبير للقبائل الأسيويّة التي غمرت، بفيض الخيّالة من التّرك والمغول، أراضي كان الإسلام قد أخضعها، فكانت سببًا في تصحّر مساحات أُضيفت شيئًا فشيئًا إلى السابقة. هكذا [نشأت] حالات خاصّة كثيرة من هذه العلاقات النزاعيّة التي برع ابن خلدون في وصفها، ذاكرًا، خلال حديثه عن البدو، «السهول التي يحوّلونها غنيمة لهم وفريسة يلتهمونها». إلّا أنّ النتائج القصوى لم تظهر إلّا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، حيث تندرج مشاهدات ابن خلدون. ولكن لا يجوز المبالغة في نسبة الإنحطاط الزراعيّ الشامل في العالم الإسلامي في أواخر العصور الوسيطة إلى الإسلام، بينما يجب ربط وجوه التقدّم التي حقّقها العلماء المسلمون سابقًا بالتراث العلمي للعالم القديم.

غير أنّ تحوّلًا أخيرًا طرأ على الزراعة، منذ القرن التاسع عشر، حين قامت محاولات لتغيير التقاليد [السالفة]، بتأثير أوروبي، ولتحسين وضع الفلاحة في الدولة العثمانيّة، في عهد التنظيمات، أو في إيران خلال حكم القاجار، كما في البلدان الإسلاميّة التي شملتها السيطرة الإستعماريّة الأجنبيّة. فأُسّست مدارس زراعيّة ومزارع نموذجيّة، شيئًا فشيئًا؛ فيما اتُّخذت تدابير إداريّة اتّسمت بالجدّة. لكنّ المشكلة الأساسيّة، أي مشكلة توزيع الأراضي وقانون الملكيّة التي تتوقّف عليها، في الواقع، أيّة تنمية زراعيّة حديثة، بدأت معالمها تتوضّح ببطء، من دون اقتراح حلول لها، سوى الحلول الموقّتة. هكذا أصبحت مسألة الأراضي، في القرن العشرين، مشكلة مطروحة على الدول الإسلاميّة كافةً، ولا سيّما تلك التي تشهد نموًّا سكّانيًّا متسارعًا، وكلّ منها يعمد إلى حلّها في إطار تطوّره الإقتصادي الخاص، كما في إطار خياراته السياسيّة، الغريبة في أكثر الأحيان عن خيارات الإسلام.

زرياب، أبو الحسن علي بن نافع، ١٧٣-٢٤٣هـ/ ٧٨٩-٨٥٧م. مُغَنٍّ كان له مكانة في البلاط الأموي في قرطبة ينسب إليه مؤرّخو الوقائع العرب في العصور الوسطى نقل كل مظاهر الترف التي عرفها الشرق في العهد العبّاسي إلى الأندلس.

كان زرياب موسيقيًّا من أصل عراقي، أعتقه الخليفة المهدي، وقد تتلمذ على المغنّي الشهير في البلاط البغدادي اسحاق المُوصلي. أثار حسد معلّمه بسبب حظوته لدى الخليفة هارون الرشيد، ففضّل المنفى. أقام باديءَ ذي بدء في القيروان، ومنها انتقل إلى شبه جزيرة إيبريا، حيث استقبله الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني، فاستقرّ في عاصمته سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م، وأقام فيها حتّى وفاته سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م.

طيلة هذه الفترة، عُرف زرياب فنّانًا ذا مواهب مختلفة ومتفاوتة، وأيضًا مروّجًا لتقاليد الأناقة والآداب الإجتماعية. ويعود إليه الفضل في إنشاء معهد فني يُمارس فيه تعليم الموسيقى المستمدّة من التقاليد الشرقيّة ومن الإرث الأندلسي، وكذلك في اختراع عود جديد بخمسة أوتار، وفي إدخال تحديدات مختلفة، خصوصًا في ميدانَي الطبخ واللباس. ما جعل الأناقة في السلوك والعادات تسيطر في بلاطات تلك الحقبة ومدنها.

الزعيم، لفظ عربي معناه «مسؤول، ناطق باسم جماعة، رئيس». استُعمل أوّلاً في الألقاب القروسطيّة، ثمّ تحوّل معناه في الاستعمال الحالي، فيُطلق على كل رئيس حزب وأحيانًا على رئيس دولة بحسب المفهوم الأنكلوسكسوني لكلمة «ليدر» (leader) أو الزعيم السياسي.

إنّ هذا اللقب الذي ساد قديمًا في عهد مماليك مصر، وخصوصًا في الإدارة العثمانيّة، كان يُعطى أساسًا لضباط الشرطة أو للعسكريين، وهذا ما يُفسّر تداوله حاليًا في جيوش البلدان العربيّة، بمنحه للذين بلغوا رتبة كولونيل.

لكنّ مكانة هذا اللقب ارتبطت، من دون شك، بأهميّة الإمتيازات العسكريّة التي كان يحصل عليها، في الأوساط العثمانيّة، الزعماء («زعاميت» بالتركيّة)، والتي كانت، في أغلب الأحيان، عبارة عن تيمارات لها وضع إستراتيجي خاص.

زغلول باشا أو سعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧)، قومي مصري مؤسّس حزب «الوفد»، اضطلع بدور مهمّ في جهود بلاده للتحرّر تدريجيًّا من السيطرة البريطانيّة.

تلقّى زغلول دروسه في «الأزهر»، وكان يتمتّع بموهبة حقيقيّة في فنّ الخطابة. وسنحت له الظروف للتدخّل في مختلف إصلاحات التنظيم القضائي والتعليمي حيث شجّع استعمال اللغة العربيّة. حقّق لنفسه، بذلك، مكانة سياسيّة ورأس، سنة ١٩١٨، الوفد الذي أُرسل إلى لندن لمناقشة شروط حصول مصر على الإستقلال. أوقف آنذاك ونُفي، ما أثار موجة من الفتن والإضطرابات المحليّة التي أدّت، سنة ١٩٢٣، إلى قيام المملكة التي نصّب عليها السلطان السابق، الذي أصبح الملك فؤاد الأوّل، وهو ينتمي إلى سلالة الخديويين المنحدّرين من محمّد علي. لم يستطع سعد زغلول، الذي عُيّن رئيسًا للوزراء بفضل شعبيته الواسعة، ترويج أفكاره وتطبيقها بشكل كامل، في أجواء نزاع على السلطة بينه وبين الملك فؤاد. فاكتفى، منذ ذاك الوقت، بالعمل كزعيم لحزب الوفد، باذلاً كل جهوده للحدّ من سلطة الملك الذي جعله الدستور الجديد سيّد السلطة التنفيذيّة ومسؤولاً عن القوى المسلّحة التي كانت لا تزال تحت الرقابة العسكريّة البريطانيّة. وقد نهض بهذه المهمّة حتّى وفاته سنة ١٩٢٧، فخلفه في رئاسة حزب الوفد النحّاس باشا.

الزَّكاة، أو الصدقة الشرعيّة، وهي نوع من الصدقة تعادل ضريبة تدلّ عليها هذه اللفظة العربيّة ذات الأصل الآرامي، التي تعني التطهير. كانت خامسة الفرائض الدينيّة المعتمدة من قبل الشريعة أركانًا للدين، وهي تشكّل الأساس النظري لكلّ الضرائب الإسلاميّة.

هدفُ الزكاة هو تطهير الأموال من نجاسة المعصية كما تقول الآية القرآنيّة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة، ١٠٣]. ذُكرت الزكاة مرارًا في مناسبات عدّة في النص القرآني إلى جانب الصلاة، مشكّلةً حاجة أساسيّة للمؤمن، ومضطلعة بدور الضريبة الوحيدة في الدولة الإسلاميّة الأولى التي ساسها النبيّ محمد ﷺ ونهضت بها جماعة المدينة المنوّرة ويمكن اعتبارها ضريبة تضامن.

إنّ سُنّة نبيّ الإسلام التي حدّدها الفقهاء، منذ العهود الأولى للإسلام، عرّفت الزكاة على أنّها اقتطاع سنويّ من الممتلكات يسمح باستعادة شرعيّة التمتّع بها، كما أقرّها القرآن الكريم، شريطة تسديد هذا الإقتطاع.

وقد عُني بها الممتلكات التي لا تمييز فيها بين رأس المال والدخل، وهي: ١- المواشي، ٢- الحبوب، ٣- الثمار، ٤- الفضة والذهب، ٥- السلع التجاريّة. وهي ممتلكات كانت تتوافر للبدو والتجّار، وربّما أيضًا للمزارعين. وكان من شأن اقتطاع الزكاة تيسير إعادة توزيع بعض الثروة على المعوزين بحسب الآية: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة، ٦٠].

لم تُعتبر الزكاة فريضةً على هذه الممتلكات إلّا اذا بلغت قيمة هذه الأخيرة حدًّا أدنى خاضعًا للضريبة يُسمّى النّصاب الذي يختلف بحسب الممتلكات، وكانت نِسَبُها تختلف باختلاف فئاتها. فكان نصاب الإبل محدّدًا بخمسة منها، وللأبقار بثلاثين، وللأغنام بأربعين. وقد اعتُبرت الضريبة المؤدّاة عينًا نعجة عن كلّ خمسة جمال، وناقة عن كلّ خمس وعشرين. أمّا بالنسبة إلى

المحاصيل الزراعيّة، أي الفواكه والحبوب، فإنّ الحدّ الأدنى هو ما يمكن أن يحمله خمسة جمال. واختلف الإقتطاع بين عُشر منتوجات الأراضي المرويّة طبيعيًّا وجزء من عشرين في حال كان الريّ اصطناعيًّا. أمّا الحدّ الأدنى بالنسبة إلى المعادن الثمينة من الذهب والفضّة فكان عشرين دينارًا ومئتي درهم. أمّا المساهمة فتبلغ اثنين ونصف في المئة. وأمّا في ما خصّ السلع التجاريّة فوضعُها مشابه لوضع الذهب والفضّة.

في الواقع، إنّ عمليّة جمع الزكاة كانت صعبة التنظيم، وقد طرأت عليها شيئًا فشيئًا تغيّرات مهمّة، حتّى إنّه لم يرد ذكرها، في العصور الكلاسيكيّة، بين الضرائب المفروضة، إلّا في ما خصّ الأراضي. هنا ظلّ الإقتطاع الجاري على بعض المحاصيل ثابتًا على العشر، وهذا ما يفسّر استعمال لفظة «العشر» للدلالة على هذه الضريبة.

زكريّا، شخصيّة ورد ذكرها في العهد الجديد ومعروفة في التقليد الإسلامي: وقد جعلها القرآن الكريم بين الأنبياء (سورة الأنعام، ٨٥).

إنّ الآيات التي تُذكّر بهذا الصدّيق الوصيّ على مريم ووالد يوحنا المعمدان / يحيى تتوافق مع النصّ الإنجيلي مع بعض التعديل، وتروي قصّة بشارة الملائكة لزكريا بأنّه سيُرْزَق صبيًّا. إلّا أنّ الرواية المتأخّرة أضافت بعض المعطيات المستقاة من التقاليد اليهوديّة، التي حوّلت زكريا إلى شهيد. وفي زمان رواج تكريم الأولياء، ارتبط ذكر هذه الشخصيّة بمدينة القدس، حيث كان قبره يُكرّم على أنّه مقصد لزيارات تقويّة في مغارة قبّة الصخرة. على كلّ حال، نجد ذكرًا لهذه الزيارات منذ القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد في دليل الهروي.

الزَّلّاقة (معركة)، ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، هزيمة أنزلتها بجيش ألفونس السادس، ملك قشتالة، الوحدات العسكريّة التي جلبها من أفريقيا يوسف بن تاشفين المرابطي.

وقع الإشتباك بالقرب من محلة صغيرة كانت تحمل آنذاك اسم الزلّاقة، ليست بعيدة عن بداخُس أو بطليوس في غرب الأندلس، وقد شكّلت عقبة أمام حرب الاسترداد المسيحيّة التي كانت قد أحرزت انتصارات عدّة في نهاية عهد ملوك الطوائف. كما كرّست إنهيار الإمارات الإسلاميّة التي كانت تقتسم البلاد آنذاك، وإقامة سلطة جديدة في شبه الجزيرة الإيبريّة، آتيةً من المغرب، هي سلطة المرابطين. وهكذا، فإنّ ملوك هذه الأمبراطوريّة المقتدرة - الذين استُدعوا للنجدة من الجهة الأخرى للمضيق بعد سقوط طليطلة في العام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م - انتهزوا الفرصة لضمّ الأندلس عنوةً إلى أراضيهم.

الزمخشري، أبو القاسم محمد بن عمر (٤٦٨-٥٣٩هـ/ ١٠٧٥-١١٤٤م)، معجمي عاش في المقاطعات الشرقيّة لأمبراطوريّة السلاجقة الكبار، واشتهر بتفسيره للقرآن الكريم بالمنهج الفلسفيّ والعقائدي الذي اعتمده.

وُلد الزمخشري في زمخشر بمقاطعة خوارزم، وعاش في المنطقة نفسها ومات فيها. في علم الكلام، أخذ بأطاريح المعتزلة، وفي مجال اللغة، دافع عن تفوّق اللغة العربيّة بالرغم من أصوله الإيرانيّة. اشهر أعماله تفسيره للقرآن الكريم المعروف بـ«الكشّاف»، المرتكز على معارف لغويّة وأدبيّة ذات قيمة عالية. حتّى إنّ الأوساط التقليديّة قدّرت جودة تفسيراته، إلى أن قام البيضاوي بوضع تفسير مماثل ولكنّه أقرب إلى التوجّه السنيّ. وقد خلّف الزمخشري أيضًا بحثًا مصنّفًا في البلاغة ومجموعة أمثال، لكنّه، في المقابل، لم يهتمّ إلّا قليلًا بعلوم الحديث.

زمزم (بئر) ← **الحجّ**.

ألزّنا ← **العقوبات الشرعيّة**.

زناتة، أهمّ المجموعات البربريّة التي أسلمت، وقد تصارعت في القرون الوسطى مع صَنْهاجة للسيطرة على المغرب الأوسط والغربي حيث كانت تتنقّل كمجموعات بدويّة كبرى، قبل أن يعروها الضعف، إبتداءً من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد.

في مستهلّ الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة، قاوم الزّناتيّون بنجاح في جبال الأوراس بقيادة الكاهنة. وقد تجلّت قوتهم في ما بعد في مناسبات متعدّدة. كان ينتمي إلى جماعتهم بنو إفران الذين أسّسوا، في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، مملكة الخوارج في تلمسان،

وبنو مِدرار الذين حكموا سجلماسة، وإليهم انتمى أيضًا أبو يزيد الذي ثار على الفاطميّين في إفريقية في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، والمدعوّ زيري الذي استمرّ في حكم فاس في الفترة التي فصلت ما بين سقوط الأدارسة وسيطرة المرابطين.

واقع الأمر أنّ قبائل زناتة، وبينها قبائل مكناسة التي كانت قد ناهضت إتّساع سلطة الأدارسة، وبخاصةٍ مجموعة مغراوة القويّة التي كانت مستقرّة في بادئ الأمر في المغرب الأوسط، لاذت بمنطقة السيطرة الأمويّة في قرطبة كرهًا بالفاطميّين. وقد حافظت على سلطة أسياد الأندلس، وأحيانًا ساعدت على توسّعها في المغرب الأقصى، بالرغم من الأخطار المختلفة التي صادفتها في حروبها ضدّ الفاطميّين والزيريّين.

إلّا أنّ فتوحات المرابطين أدّت إلى تهميش المجموعات الزناتيّة، ولا سيّما مغراوة، وانتزعت منهم سيطرتهم على المغرب الأقصى. لكنّ بعض قبائلهم برزت إلى الساحة من جديد في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، عندما انتزع بنو واسين السيطرة على المغرب الأوسط من أيدي الموحّدين، إلّا أنّهم تراجعوا أمام قوة المرينيّين المتعاظمة وقوّة بني عبد الواد، غير محتفظين بكيان خاص بهم إلّا في بعض المناطق الجبليّة في المملكة المغربيّة الحاليّة.

الزَّنج، إسم أطلقه المؤرّخون العرب، في القرون الوسطى، على سود البشرة الذين كانوا يسكنون المناطق الشرقيّة في أفريقيا، ومن ثمّ على العبيد المنتمين إلى هذه المناطق الذين عملوا في أملاك العراق السفلي وثاروا على مدار سنوات عدّة في وجه السلطة العبّاسيّة.

إن الشاطئ المُسمّى «شاطئ الزنوج»، والذي يكوّن اليوم جزءًا من جمهوريّات الصومال وكينيا وتانزانيا، كان، منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، هدفًا للغزوات البحريّة الإسلاميّة، المنطلقة من الخليج العربي - الفارسي وعُمان حتى جنوب القرن الأفريقي. وكان أحد أهداف هذه الحملات البحريّة إستيراد العبيد؛ وقد نتج عن هذه التجارة إزدهار وكالات تجاريّة محليّة، ومن ثمّ سلطنات أفريقيّة تسكنها شعوب تحوّلت بأكثريتها إلى الإسلام. كانت هذه التجارة لا تزال مستمرّة في القرن التاسع عشر، متّخذةً جزيرة زنجبار مركزًا لها. وكما نلاحظ، فإن لفظة «الزنج» تدخل في تركيب كلمة «زنجبار».

إنّ بعض العبيد الذين جُلبوا في البداية إلى بلاد ما بين النهرين عن طريق هذه الشبكة التجاريّة شكّلوا، لفترة قصيرة، خطرًا على الخلافة العبّاسيّة. كان العبيد يعملون عند كبار ملّاكي البصرة في رفع النطرون الذي كان يغطي الأراضي الطَمْيِيَّة في شط العرب، وهيَ ناتجة عن تراجع البحر، جاعلين منها بهذه الطريقة أراضي زراعيّة. كان هؤلاء العبيد مجمّعين في ورش عمل تضّم بين خمسمائة وخمسة آلاف عامل، يؤدّون مهمّتهم في ظروف صعبة للغاية، وقابلة لإثارة جوّ من التوتّر.

في سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م، أفاد أحد الطامعين بالخلافة من هذا الوضع وادّعى الإنتساب إلى الأسرة العلويّة، وهذا أمر مشكوك فيه، وقاد حركة سياسيّة ودينيّة، فتبعه خلق كثير واجه به الجيوش المرسلة من قبل الخليفة المعتمد للقضاء عليه. وفي سنة ٢٦٩هـ/٨٨٢م، نجحت جيوش الخلافة، بقيادة «الموفّق»، ولي العهد وشقيق الخليفة، في محاصرة عاصمة الزنج جنوبي البصرة واسمها «المختارة».

استطاع الثوّار، الذين نظّموا حكمًا ذا طابع جماعي، أن يبسطوا سلطتهم حتى عبادان وقد بلغوا الأهواز من جهة، ومن جهة أخرى منطقة واسط، معتمدين على أسطول من السفن الصغيرة. حصل الهجوم الأخير على المدينة في العام ٢٧٠هـ/٨٨٣م، وأدّى إلى هزيمة الثوّار بشكل كامل، بعد مقتل الزعيم العلويّ المعروف باسم البُرقعي.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٣٠.

زنجبار، إسم واحد لجزيرة ومرفإ قريبين من الساحل الشرقي لأفريقيا السوداء، ويكوّنان اليوم جزءًا من جمهوريّة تنزانيا ذات الأغلبية المسلمة.

دخل الإسلام (إلى الجزيرة) بواسطة البحّارة العرب الذين كانوا يرتادون، في القرون الوسطى، موانئ المحيط الهندي، وخصوصًا شاطئ الزنوج في جنوب القرن الأفريقي، وأصبح مسيطرًا عليها في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. عرف الإسلام

إنطلاقة جديدة في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، عندما فرض أسياد عُمان وصايتهم على الجزيرة للتصدّي لسيطرة البرتغاليّين الذين وصلوا إلى المنطقة سنة ١٤٩٩م، بعد رحلة فاسكو دي غاما البحريّة. أصبحت الجزيرة منذ ذلك الوقت، خصوصًا في القرن التاسع عشر، بفضل مناخها المداري وزراعتها المزدهرة، مركزًا حيويًّا لمعاملات تجاريّة بحريّة، تُغذيها بالسلع تجارة القوافل التي كانت تجري على القارة، مضافة إليها تجارة العبيد.

إنّ أحد كبار سلاطين مسقط، سعيد بن سلطان، من سلالة آل بو سعيد، حكم من سنة ١٨٠٦ حتّى سنة ١٨٥٦م، واستطاع، بفضل مساعدة البريطانيّين، بسط نفوذه السياسي والإقتصادي على كل المناطق السّاحليّة لأفريقيا الشرقيّة، وقد اختار الجزيرة سنة ١٨٣٢ لتكونَ عاصمة له ومكان إقامته، وقد نمّى ازدهارها بإدخاله عليها زراعة الأشجار المنتجة لكَبْش القرنفل. وقد يسّرت له إقامتُه في زنجبار مراقبة تجارة العاج والعبيد مراقبةً مُحكمة، وكذلك تقوية الإباضيّة، التي ظلّت، رغم ذلك، محصورة بحاشية السلطان، فيما استمرّ المذهب السنيّ، المطبّق بحسب القواعد الفقهيّة الشافعيّة، طاغيًا بشكل واسع إلى جانب بعض الأقليّات الشيعيّة.

بعد موت سعيد بن سلطان، تقاسم أمبراطوريّة البوسعيديّين الواسعة ولداه اللذان أسّسا بدورهما سلالتين منفصلتين، سلالة سلاطين زنجبار وسلالة سلاطين عُمان الذين ظلّوا أمناء لمنطقتهم الأصليّة. خضع سلاطين زنجبار، باستمرار، للتأثير البريطاني، وتحوّل هذا التأثير إلى وصاية بدءًا من سنة ١٨٩٠، وقد فُرضت عليهم إصلاحات، منها إلغاء العبوديّة سنة ١٨٩٧، ما أدّى إلى عصرنة متدرّجة للبلاد.

لقد حصل سلاطين زنجبار في العام ١٩٦٣ على استقلالهم واعتمدوا نظامًا ملكيًّا دستوريًّا. إلّا أنّهم، بعد شهرين، واجهوا انقلابًا وعُزلوا عن الحكم. أُعلنت آنذاك الجمهوريّة، ما غيّر أوضاع البلاد كليًّا.

في العام ١٩٦٤ توحّدت دولة زنجبار التي تبلغ مساحتها ١٦٦٠ كلم²، إضافةً الى جزيرة پمبا (٩٩٠ كلم²) مع تنجانيكا القديمة في إطار دولة فدراليّة تحمل إسم تنزانيا.

سلاطين زنجبار

محمد بن سعيد	١٨٥٦ - ١٨٧٠
برغش بن سعيد	١٨٧٠ - ١٨٨٠
خليفة بن برغش	١٨٨٨ - ١٨٩٠
علي بن سعيد	١٨٩٠ - ١٨٩٣
حامد	١٨٩٣ - ١٨٩٦
حمّود	١٨٩٦ - ١٩٠٢
علي بن حمّود	١٩٠٢ - ١٩١١
خليفة	١٩١١ - ١٩٦٠
عبدالله بن خليفة	١٩٦٠ - ١٩٦٤

زِنديق، لفظ عربي من أصل إيراني، ظهر في القرون الأولى للإسلام، يعني الكافر الملحد، وبالتحديد معتنق الإسلام الذي ما زال يحتفظ خفية بمعتقداته السابقة، غير مخلص لإسلامه، وقد يلجأ إلى معاداته.

من هذا المنطلق، كان الزنادقة في العصور الوسطى يُعتبرون خطرًا على أمن الدولة الإسلاميّة، ما كان يدفع أحيانًا بحكّام تلك الدولة إلى ملاحقتهم بتهمة الزندقة وإعدامهم، على غرار المرتدّين عن الإسلام. بدأ اضطهادهم بصورة رسميّة في بداية الخلافة العبّاسيّة، بأمر الخليفة المهدي بوجه خاص. وكان الأشخاص الملاحَقون - الذين أُعدم بعضهم بسبب رفضهم العودة عن خطإهم - مانويّين أخذوا بالتقيّة على الأرجح، لكن يبدو أن تجريمهم كان لأسباب سياسيّة أكثر ممّا هي دينيّة.

في فترات لاحقة، أخذ لفظ الزنديق مفهوما عامًا وأشار إلى المفكّرين والكتّاب الذين كانت أفكارهم خارجة على العقائد السائدة. وقد أصاب ذلك المتصوّفين بسبب نظريتّهم في الحبّ الإلهي. من جهة أخرى، فإنّ مثقّفين مشهورين، كالكاتب التوحيدي والشاعر المعرّي، اتُّهموا بالزندقة من دون أن يتعرّضوا لملاحقات حقيقيّة.

الزنديّون، ١١٦٣-١٢٠٩هـ/١٧٥٠-١٧٩٤م، سلالة حكمت إيران في الفترة القصيرة المضطربة التي عقبت موت الفاتح نادر الشاه وتفكّك أمبراطوريته.

على الرغم من بقاء آخر الأفشاريّين المتحدّرين من سلالة نادر شاه في خراسان، وبروز نجم القاجار في مازندران، نجح محمّد كريم خان، وهو زعيم حرب من أصل لارستاني، في بسط سلطته على مقاطعات جنوبي إيران، ومن ثمّ على البلاد قاطبة. مع ذلك، أبقى محمّد كريم خان على سلطة وهميّة لعاهل صفويّ يحتفظ بلقب شاه، وقدّم نفسه على أنّه مجرّد وكيله. إنّ ولاية هذا الوكيل الذي كان سيّد فارس، والذي اختار شيراز عاصمة له، وحَكَم من خلالها كل البلاد الفارسيّة، كانت فترة ازدهار إقتصادي كبير لم تنتهِ إلّا بوفاته. كان على خلفائه، بسلطاتهم المزعزعة والمنقسمة، أن يواجهوا طموح القاجار الذين احتلّوا تباعًا أراضيهم وانتهوا بالانتصار على آخر زعمائهم، وهو لُطف علي خان الذي قُتل سنة ١٧٩٤.

محمد كريم خان	١٧٥٠ - ١٧٧٩
أبو الفتح محمد علي	١٧٧٩م
صادق	١٧٧٩ - ١٧٨١م
علي مراد	١٧٧٩ - ١٧٨٥م
جعفر	١٧٨٥ - ١٧٨٩م
لطف علي خان	١٧٨٩ - ١٧٩٤م

زنكي، عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سُنْقُر، ٤٧٧-٥٤١هـ/ ١٠٨٤-١١٤٦م، أتابك وأمير شهير من عهد السلاجقة الكبار، حكم ولايتي الموصل وحلب إبتداءً من سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، مؤسّسًا هناك فرعي سلالة الزنكيّين، أحدهما في بلاد ما بين النهرين العليا والآخر في سوريا.

تمكّن زنكي، وهو ابن ضابط تركي من ضباط السلطان السلجوقي ملكشاه، بالرغم من موت أبيه المبكر سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، من أن يصبح حاكم واسط في العراق سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م، ثم حاكمًا على الموصل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، وكان، في الوقت نفسه، وصيًا على ولدي السلطان وحاملًا لقب أتابك. تابع، آنذاك، توسيع رقعة حكمه بالسلاح إلى أن غدا، سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م، سيّد مدينة حلب التي ألحق بها مدينة حماه في العام التالي؛ إلّا أنّه لم يستطع الإستيلاء على حمص ولا على دمشق. كما بقيت الأراضي التي غزاها معرّضة لخطر تعدّيات الفرنج المستقرّين حديثًا في كونتيّة الرها شمالًا، وفي إمارة أنطاكية غربًا. وجد زنكي نفسه مكلّفًا بالجهاد في سوريا الشماليّة، وهذا ما قام به في البدء بنجاح إذ استطاع أن يستعيد قلعة الأثارب من الفرنج. لكن شغلته في ما بعد، خلال عدّة سنوات، الصراعات حول الخلافة في بغداد وحول السلطنة السلجوقيّة في العراق في آن. تدخّل زنكي لفرض رأيه، لكنّه فشل في محاولاته، فانتهى إلى القبول بسلطة الخليفة الجديد المعلَن، وعاد إلى إمارته ليتابع الجهاد ضد الفرنج، محاولًا، في الوقت نفسه، بسط سلطته على سوريا الجنوبيّة.

وإذا كان قد نجح في الاستيلاء على قلعة بأرين، ومن ثمّ احتلال حمص وبعلبك، فأنّه فشل أمام مدينة دمشق إذ طلب حاكمها أُثُر نجدة الفرنج سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م لمقاومة أطماع زنكي. قرّر زنكي آنذاك محاربة الفرنج في الشمال حيث انتزع منهم مدينة الرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، منهيًا بذلك سيطرتهم على المنطقة. اغتيل زنكي بعد فترة قصيرة، سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، تاركًا ولدين خلفه، أحدهما في حلب واسمه نور الدين، والآخر في الموصل وهو سيف الدين غازي الأوّل، فيما تعاظمت شهرته كزعيم حرب بعد موته. لم يكتفِ زنكي بترويع جنوده وبإثارة الحميّة فيهم، بل إنّه تجاوز ذلك إلى ذبح أعدائه، ولو كانوا من المسلمين، كما فعل بسكّان بعلبك، وقد تصرّف بوصفه بطل الحروب الجهاديّة أو الشرعيّة التي أخذت شيئًا فشيئًا تركّز طاقات السوريّين. وكان أوّل من حقّ له أن يتباهى بإحراز نصر مشجّع وذي مغزى، ألا وهو استرداد الرها من الفرنج.

الزنكيّون أو بنو زنكي، ٥٢١-٦١٩هـ/١١٢٧هـ/ ١٢٢٢م، سلالة تركيّة من الشرق الإسلامي، حكمت بفروعها المختلفة بلاد ما بين النهرين العليا وسوريا، وذاعت شهرتها بفضل شخصيّة حاكم دمشق نور الدين.

نشأت مملكة زنكي، أتابك الموصل، الفاتح المقدام الذي أسّس السلالة التي حملت في ما بعد إسمه، من تفكّك الأمبراطوريّة السلجوقيّة، واقتسم تلك المملكة بعد موته إثنان من أبنائه: محمود الملقّب نور الدين الذي حمل مشعل الجهاد ضدّ الفرنج وورث

الكثير من طموحات والده، وسيف الدين غازي الأوّل الذي اكتفى بتركيز سلطته في الموصل. وكان من نصيب زنكيّي الموصل أن يحكموا لفترة طويلة. أمّا مملكة نور الدين الجبّار، فسرعان ما وقعت، بعد موته، في يدي صلاح الدين الذي اجتاحها بعد أن وضع حدًّا لخلافة الفاطميّين الشيعة في مصر، معقبًا وراءه سلالة الأيّوبيّين.

تصدّى زنكيّو الموصل بدورهم لطموحات صلاح الدين الذي حاول عبثًا، سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، أن يطرد زنكيّي الموصل وسنجار، بعد أن ضمّ ممتلكات زنكيّي حلب ودمشق. ما من شكّ في أنّ صلاح الدين نجح، سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، في حمل عزّ الدين مسعود على إعلان ولائه له، إلّا أن الأمراء الزنكيّين استمرّوا في حكم بلاد ما بين النهرين العليا، إلى أن استولى على عرش الموصل، على أثر وفاة ناصر الدين محمود، عبد معتق، إسمه بدر الدين لؤلؤ، ولم يتخلّ عنها إلّا حين تُوفي سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، بُعيد وصول المغول إلى المنطقة.

زنكيّو حلب ودمشق

نور الدين محمود بن زنكي	٥٤١-٥٧٠هـ/١١٤٦-١١٧٤م
الملك الصالح اسماعيل	٥٧٠-٥٧٧هـ/١١٧٤-١١٨١م

زنكيّو الموصل

عماد الدين زنكي بن آق سُنْقُر	٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م
سيف الدين غازي الأوّل	٥٤١-٥٤٤هـ/١١٤٦-١١٤٩م
قطب الدين مَودود	٥٤٤-٥٦٤هـ/١١٤٩-١١٦٩م
سيف الدين غازي الثاني	٥٦٤-٥٧٢هـ/١١٦٩-١١٧٦م
عز الدين مسعود الأوّل	٥٧٢-٥٨٩هـ/١١٧٦-١١٩٣م
نور الدين ارسلان شاه الأوّل	٥٨٩-٦٠٨هـ/١١٩٣-١٢١١م
عزّ الدين مسعود الثاني	٦٠٨-٦١٥هـ/١٢١١-١٢١٨م
نور الدين ارسلان شاه الثاني	٦١٥-٦١٦هـ/١٢١٨-١٢١٩م
ناصر الدين محمود	٦١٦-٦٢٩هـ/١٢١٩-١٢٣٢م

◄ راجع المستندين ١٧ و٢٠.

الزهد، مفهوم لا يقبل به الاسلام إلّا بتحفّظ، مع الحرص على التخفيف من مظاهره، وذلك بسبب نظرته إلى الخطيئة وموقفه من الطبيعة البشريّة وغرائزها.

إنّ نموّ الميول إلى الحياة الزهديّة يرجع إلى زمن قديم، ونجد جذوره في بعض الدعوات الواردة في القرآن الكريم، وفي بعض أخبار السنّة النبويّة، لكنّه لم يكن له قطّ أثرٌ عميق في الممارسات الرسميّة للعبادة، إذ ركّزت هذه الممارسات على القواعد الدينيّة - الإجتماعيّة، وعلى ما تقتضيه الشعائر من متطلّبات، وفق منهج وسطي يبغي المؤمن ضمن إطار النظام العام والاعتدال في الانفعالات. فالزهد يجب ألّا يتداخل والواجبات التي تفرضها الشريعة تجاه الأسرة والمجتمع؛ ولا يجب أن يؤدّي إلى العزوف عن العلاقات الجنسيّة. وحدها بعض الحركات المتّصفة بالصوفيّة ركّزت على الدعوات إلى التنسّك، وجعلت منها أحيانًا طريقًا إلى القداسة، واستطاعت بذلك إثارة إعجاب الناس، ما أدّى إلى ظهور مراكز يقصدها الكثيرون في زيارات تقويّة للتبرّك.

وكانت مظاهر التنسّك والعزوف عن بعض ملذّات الدنيا تتّخذ، على العموم، طابعًا يختلف باختلاف الحقبة الزمنيّة، وبخاصة باختلاف المنطقة التي ينتمي إليها المتنسّك الذي كان مظهره الخارجي يختلف إلى حدٍّ بعيد، بين الهند والمغرب مثلًا. لكنّ هذه المظاهر غالبًا ما كانت تتطابق مع الفقر الطوعي والزهد والتشرّد. وقد بلغت أحيانًا، بتأثير من الهندوسيّة خاصةً، أشكالًا متطرّفة من المغالاة وغرابة المشهد، ما ساهم إلى حدّ بعيد في تغذية حذر الفقهاء وعلماء الدين تجاه الزهّاد وتعلّق الناس بهم. أمّا الزهد كوسيلة للوصول إلى النشوة والإشراق - والذي كانت تقول به بعض العقائد المنحرفة وبعض المفاهيم الفلسفيّة التي تؤمن بوحدة الوجود - فقد شكّل أحد الأسباب التي من أجلها أدانته الشريعة وفرضت على أتباعه عقوبات صارمة.

إلّا أنّ بعض الممارسات الزهديّة المعتدلة اعتُبرت من مظاهر التقوى في الاسلام التي يمكن معها زيادة الصلوات وفترات الصوم، بدون أن يكون ذلك مفروضًا شرعًا. كما اعتُبر تكرار تلاوة القرآن والذكر والتأمّل والإختلاء بالذات، مع الصوم أو بدونه، من مظاهر التقوى بحسب تعاليم مختلف المذاهب الفقهيّة. فالإختلاء لبضعة أيام في مكانٍ ما، ومن الأفضل في مسجدٍ، عمل غير إلزامي للمؤمن، إنما يُنصح به.

الزهد ← **الصوفيّة**.

الزهراء (مدينة)، تسمية أُطلقت في القرون الوسطى على مدينة لم يبقَ منها إلّا الخرائب، وكان قد بناها

أعظم الخلفاء الأمويّين في الغرب، على مقربة من قرطبة، وفي المكان الذي عُرف، بعد استعادة الأندلس، بـ«قرطبة القديمة».

اختار الخليفة الشهير عبد الرحمن الثالث، سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م، هذا المكان ليشيّد فيه قصرًا أطلق عليه اسم «الزهراء»، على اسم إحدى محظيّاته، كما يُروى. أقيمت الأبنية ضمن سور مستطيل طوله ١٥٠٠م وعرضه ٧٥٠م، وقد امتدّ العمل فيها سنوات طويلة، وبعضها بإشراف من أصبح لاحقًا الخليفة الحكم الثاني؛ اجتمعت فيها كلّ العناصر الضروريّة لتجعل منها قصرًا ملكيًّا فاخرًا: قاعات استقبال قائمة على مصاطب قرب مسجد جامع، وبيوت مشرفة على برك، ومنازل للأعيان، وحمّامات ضخمة، وثكنات للعسكر وأسواق. كل هذه المجموعة تقع على منحدر جبلي وتمتاز بنوعيّة هندستها ذات الحجارة والزخارف المنحوتة، وقد أعيد ترميمها اليوم، جزئيًّا. ولم يجرِ التنقيب عن بقايا هذه المدينة إلّا ابتداء من سنة ١٩٢٦، ولكنّها كانت معروفة سابقًا من خلال النصوص، وكانت قد تعرّضت للخراب في سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م. أمّا اليوم فقد تمّ الكشف عن بعض الأبنية وإظهار تصاميمها، ولكنّ الأقسام المنقّب عنها لا تبلغ نصف المساحة التي كانت مبنيّة قديمًا، ما يجعلها غير كافية لتُقدّم شهادة أثريّة بالمستوى الذي نصبو إليه.

ومن أجل منافسة هذه المدينة الرائعة، بنى المنصور، الحاجب، بعد ذلك بحوالى خمسين سنة، في ٣٦٨-٣٦٩هـ/٩٧٨-٩٧٩م، مجمّعه الملكيّ الخاص باسم المدينة الزاهرة، قرب قرطبة، ولكنّ هذا المجمّع هُدّم في سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، ويستحيل علينا اليوم معرفة المكان الّذي بُني فيه.

◄ راجع المستندين ٥٠ و٥١.

زواج أو نكاح، عقد ينظّمه نص القرآن، وربّما أُضيفت أحكامه إلى تقاليد سابقة مع تحسين شروط الدفاع عن المرأة ضد التجاوزات التي قد تتعرّض لها، ولكنّه لم يكرّس مساواتها مع الرجل.

يتمّ عقد الزواج أمام شاهدين إثنين، وغالبًا أمام قاضٍ. إذا كانت المرأة التي تعقده راشدةً، عليها، بحسب ثلاث مدارس فقهيّة يعترف بها السنّة، أن تصطحب وصيًّا شاهدًا يؤكّد موافقتها؛ أمّا إذا كانت قاصرًا فموافقتها غير إلزاميّة، إذ يمكن أن يزوّجها والدها بموجب «حقّ الإكراه» الذي يعود إلى تقليد قديم، والذي تقبل به الشريعة. عند إبرام العقد، يعطي الزوج لزوجته مهرًا يبقى ملكًا لها، ولكن يمكن تقسيطه على دفعات. على المرأة المتزوّجة أن تعيش في منزل زوجها، وأحيانًا معزولة في الحريم، وغالبًا إلى جانب حماتها - وذلك وفقًا لعادات غير مدوّنة - وهي تخضع شرعًا لسلطة زوجها الذي يعود له أن يعاملها المعاملة الحسنة وأن يؤمّن لها سبل العيش بحسب وضعه. ولكنّها مع ذلك تحتفظ باسمها وتتمتّع بالاستقلاليّة الماليّة.

إنّ إبرام الاتفاقيّات بين مختلف الفرقاء لا يُلزم بالضرورة إعداد نصٍ مكتوبٍ، على الرغم من وجود عقود زواج قديمة تشكّل إحدى فئات علم المستندات، وتوفّر دراستها للمؤرّخ ولمؤلّف المعاجم كمًّا من التفاصيل المفيدة عن الحياة اليوميّة في القرون الوسطى الإسلاميّة. إنّ وجود القاضي غير ضروري لتوقيع عقد لا يتضمّن شعائر دينيّة، مع العلم أنّه يوصى للمناسبة بتلاوة بعض التضرّعات والآيات القرآنية. تلي عقد الزواج عادةً احتفالاتٌ تختلف تفاصيلها باختلاف الفولكلور المحلي، ولكنّها تتضمّن دائمًا إبتهاجات وولائم للإحتفال باستقرار العروس في منزل العريس. إنّ إتمام الزواج يعني، من الناحية القانونية، الإمتلاك الذي يرافق بالضرورة العقد.

شكّل تعدّد الزوجات أحد الوجوه الأكثر تعبيرًا في تنظيم الأسرة المسلمة وامتزج ببعض العادات التي لا تزال قائمة إلى اليوم في بعض المناطق، وقد بدا كنتيجة طبيعيّة ملازمة للزواج، وهو لا يزال يطبّق الى اليوم. من الشائع أنّه سُمح بتعدّد الزوجات ربّما لتجنيب بعض النساء البقاء من دون حماية. وتوضح الشريعة أنّه لا حقّ للرجل بأكثر من أربع نساء وأنّ عليه أن يعاملهنّ بالتساوي مع امكان لجوئه إلى التسرّي مع العدد الذي يناسبه من الجواري.

من ناحية أخرى، يفضّل أن ينتمي الزوجان إلى الوسط الإجتماعي نفسه. ولكن هناك محرّمات تتعلّق

بالقربى لجهة الأب، ربّما تمّ التقيّد بها في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، ثمّ استمرّت واتّسعت لتشمل القربى لجهة الأم، وذلك بسبب النزعة إلى الزواج اللحميّ الذي كان سائدًا لدى القبائل العربيّة والذي لا يزال قائمًا إلى اليوم في بعض المجتمعات الإسلاميّة. وهناك محرّمات أخرى تتعلّق إمّا بقربى الرضاع وإما بديانة الأشخاص المعنيّين. إذا كان باستطاعة المسلم أن يتزوّج امرأة من أهل الذمة، فالعكس غير صحيح، لأنّه لا يجوز للمسلمة أن تكون تحت سلطة غير مسلم، حتّى ولو كان ذميًّا. من جتّه، يستطيع المسلم الحرّ أن يتزوّج من أمة، إنّما في ظروف محدّدة، خصوصًا إذا كان معدومًا ولا يمكنه دفع مهر امرأة حرّة. أمّا العبيد فيُسمح لهم بالزواج في ما بينهم، إنّما بإذن من أسيادهم.

يمكن فسخ الزواج بالطلاق الأحادي عندما يلفظ الزوج ثلاث مرّات متتالية كلمة «طالقة»، وذلك من دون إبداء السبب. تحتفظ الزوجة بمهرها وبإمكان الزواج ثانية من الذي يناسبها. لا يحقّ لزوجها الأوّل [بعد طلاقها بالمرّات الثلاث]، أن يستردّها إلّا إذا كانت قد تزوّجت في غضون ذلك ثمّ طلّقت، وإذا كان زواجُها الجديد قد تمّ حقًا. يهدف هذا التدبير إلى ردع الزوج عن إعلان الطلاق بلا تروٍّ. ويمكن أيضًا فسخ الزواج بقرار من القاضي بناءً على شكوى مبرّرة من الزوجة، وكذلك حال وجود تُهم متبادلة، أي إذا صرّح الزوج واقسم علنًا ان زوجته ليست حاملًا منه من دون أن يكون باستطاعته إثبات ذلك، وإذا صرّحت الزوجة من جهتها وأقسمت أنّها بريئة. بعد فسخ الزواج أو بعد وفاة الزوج، لا يُسمح للمرأة بالزواج ثانية إلّا بعد قضائها العدّة وهي على العموم ثلاثة أشهر مخصّصة لكي تثبت أنّها ليست حاملًا. وقد اختلفت المدارس الفقهيّة حول ضرورة قضائها هذه العدّة في منزل زوجها.

هناك أخيرًا شكل من الزواج الموقّت يدعى زواج المتعة، كان موجودًا في بداية الإسلام وألغاه الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب. غير أنّ الفقه الشيعي أبقى عليه استنادًا إلى تفسير الآية ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (القرآن، سورة النساء، الآية ٢٤). كانت ممارسة زواج المتعة لا تزال قائمة في إيران في بداية هذا القرن، كما في الهند قبل ضمّها إلى الأمبراطوريّة البريطانيّة وبعده. لم يكن لهذا الزواج أي نبعة قانونيّة لجهة الإرث.

في عصرنا هذا: خضع تنظيم الزواج في عدد من البلدان الإسلاميّة لبعض التعديلات؛ وبسبب إلغاء العبوديّة لم يعد للتسرّي من وجود رسمي. وقد تمّ التخلّي عن بعض الأحكام، ومنها «حق الإكراه» على القاصرات، لا بل أُلغيَ هذا الحقّ رسميًّا في بلد مثل المملكة العربيّة السعوديّة، في حين أثار المَهر الإلزامي اعتراضات بعض الأوساط النسائيّة. ومن اللافت أنّ بعض الدول حاولت الحدّ من ممارسة تعدّد الزوجات إستنادًا إلى آراء المحدثين والمصلحين وإلى تعذّر تطبيق الأحكام القرآنية في هذا الموضوع، عندما تطلب هذه الأحكام من الزوج الإنصاف التام تجاه نسائه. غير أنّ تعدّد الزوجات لم يُمنع إلّا في بلدين من العالم الإسلامي هما تركيا، منذ اعتماد قانون جديد للأحوال الشخصيّة من الطراز الأوروبي في أثناء الاصلاحات التي قام بها كمال اتاتورك، وتونس منذ ١٩٥٧. أمّا في البلدان الأخرى فغالبًا ما يخضع تعدّد الزوجات لقرار محكمة من شأنها التأكّد من إمكان إتمام الشروط التي يفرضها القرآن.

هذه القرارات الرسميّة والمحدودة المفعول تندرج في مجموعة ردّات الفعل المعقّدة التي أثارتها أحكام الزواج عند المسلمين. وقد توالت ردّات الفعل هذه خلال العقود الأخيرة: بعضها شكّك في صوابيّة أحكام الشريعة، بينما البعض الآخر طالب، بالعكس، بتطبيقها بشكل أشدّ صرامةً. في الدول أو المجتمعات ذات الأقليّة الإسلاميّة، لا تزال توجد صراعات كامنة تظهر أحيانًا بشكل عنيف بسبب ظاهرة الرفض، أو على العكس ظاهرة الدفاع المستميت الذي تثيره نواحٍ عدة من الشريعة في هذا الخصوص، أو في أي مسألة تتعلّق بوضع المرأة الإجتماعي وبالأسرة.

زوغ الأوّل، ١٨٩٥-١٩٦١؛ ملك حكم، في البدء لمدّة قصيرة، دولة صغيرة بأغلبيّة مسلمة في البلقان، تأسّست سنة ١٩٢٠ في مقاطعة ألبانيا وأصبحت في ما بعد جمهوريّة ألبانيا الإشتراكيّة الشعبيّة.

تلقى هذا الإقطاعي الألباني المسلم - وهو من رعايا السلطنة العثمانيّة واسمه الحقيقي هو أحمد زوغو (Zogou) - تربيةً عسكريّة في الأكاديميّة الحربيّة في منستير (بيتولا حاليًا)، ثمّ في اسطنبول، وتخرّج ضابطًا. أصبح بعد الإستقلال وزيرًا للداخليّة ثمّ، سنة ١٩٢٢، رئيسًا للوزراء، ولكنّه استقال من هذا المنصب في العام ١٩٢٤ والتجأ إلى يوغوسلافيا. انتُخب في العام ١٩٢٥ رئيسًا للجمهورية الألبانية، ثمّ أعلن نفسه ملكًا عليها سنة ١٩٢٨ باسم زوغ الأوّل. أجبره غزو إيطاليا لألبانيا سنة ١٩٣٩ على الهرب إلى الخارج. مات في فرنسا سنة ١٩٦١، من دون أن يستطيع العودة إلى بلده الذي قام فيه، بعد الحرب العالميّة الثانية، حكم الشيوعي أنور خوجا الذي عارض عودته باستمرار.

زياد بن أبيه أو زياد بن أبي سفيان، ؟-٥٣هـ/ ؟-٦٧٣م. رجل دولة عربي اشتهر في بدايات الإسلام، في عهد الأمويّين، تولّى حكم المقاطعات الشرقيّة باسم الخليفة معاوية المقيم في سوريا.

كان من أصل وضيع، وكما هو معلوم، إبن أمة من الطائف، التحق بالإدارة العراقيّة خلال عهد الخلفاء الراشدين. استرعى انتباه معاوية الذي أراد الاحتفاظ به معاونًا أمينًا، فاعترف به رسميًّا على أنّه أخوه غير الشقيق، فعُرف بزياد بن أبي سفيان، مع العلم أنّ بعض المؤرّخين اللّاحقين لم يكفّوا عن تسميته زيادًا بن أبيه، إشارة إلى أصوله الغامضة. عرف زياد كيف يثبّت النظام في منطقة البصرة التي عُيّن في البدء واليًا عليها، كذلك في منطقة الكوفة التي عُهدت إليه أيضًا ادارتها: أخضع بالقوة، في كل مكان، المتعاطفين مع علي، ثمّ تسلّم لاحقًا مسؤوليّة مجمل المقاطعات الشرقيّة. مارس صلاحيات الحاكم بحزم ومهارة، ضامنًا للسلطة الأمويّة الاحترام. صنّفه الكتّاب العرب واحدًا من سياسيّي عصره الأربعة الكبار، بالرغم من أنّ المؤرّخين المقرّبين من العبّاسيّين كانوا صارمين بحقّه. أُخذ عليه بخاصةٍ صرامته ضدّ الثائر الشيعي حُجر بن عَديّ، ونَقْلُ عشرات الآلاف من البدو العرب إلى خراسان. توفي زياد بمرض الطاعون في الكوفة وكان قد بلغ سن الستين، قبل وفاة الخليفة الذي وطّد سلطته على أفضل وجه.

الزيارات غير المفروضة شرعًا، مظاهر تقوية شعبيّة، عرفت انتشارًا واسعًا في البلدان الإسلاميّة وحظيت، بحسب المناطق والحِقَب، برواج متفاوت. وتمكّنت، رغم اندراجها في صُلب التقاليد الشيعيّة، اعتبارًا من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، من أن تُدخل في الذهنيّة السنيّة سمات التقاليد الراسخة لـ «تكريم الأولياء».

خلال القرون الوسطى الإسلاميّة، لم يُسمح دائمًا بممارسة تلك الطقوس التي تقوم جميعها على الزيارات التقويّة، بسبب بروز مناقشات واستشارات فقهيّة وإدانات من قِبل بعض مفسّري الشريعة. لكنّها، على الرغم من التحذيرات والتحريمات الطارئة أو الموقّتة، ازدهرت بعد القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وبلغت الذروة في الشرق خلال القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. إلّا أنّ طقوسها التي كانت تستوحي أحيانًا الفولكلور المحلي لم تكن لتؤدّي إلى استيعابها في طقوس الحجّ الإسلامي الأساسيّ. بل إنّ أهدافها شكّلت موضوع إدانة، خصوصًا بالنسبة إلى الذين يقصدون هذه الأماكن من بعيد، بموجب حديث منسوب إلى النبي محمد (ﷺ) يطلب فيه من المؤمن ألّا يسرج خيله إلّا للذهاب إلى مساجد ثلاثة، هي المسجد المقدس في مكة والمسجد الأقصى في القدس ومسجد النبيّ (ﷺ) في المدينة. إلى جانب الحجّ الإلزامي إلى مكّة، لم يكن هناك مكان إلّا للزيارات الموصى بها إلى المدينة المنوّرة وإلى القدس. أمّا توقير المزارات الذي قَبِل به الحنبلي ابن تيميّة، شرط أن يقتصر على «زيارة» من غير تنقّل بعيد، فيُعتبر خارجًا على تعاليم القرآن الكريم والسنّة وجوهر العقيدة الإسلاميّة الذي هو التوحيد أو الإقرار بالإله الواحد الذي لا يقبل الشِّرْك.

لكنّ هذه التحفّظات، التي تكاثرت خارج الأوساط الشيعيّة، لم تحُل دون ازدياد تكريم الأماكن المقدّسة من قبل الفئات الشعبيّة. فمنذ أواخر القرون الوسطى إلى أيامنا هذه، استثارت هذه الأماكن ورعًا متزايدًا برّره البعض بإدراجه في سياق التجديد. يستند هذا التبرير إمّا إلى مقام الوليّ من حيث ارتباطه بذكريات عريقة في

إسلامها، أي الذكريات التي تعود إلى النبي محمد (ﷺ) مثلاً، وإمّا إلى نوع الشعائر المعتمدة وهي، نجنّبًا لأي نقد ممكن، لا تتضمّن أيّة صلاة طقسيّة بل تكتفي بصلاة الدعاء وهي من النوافل الإضافيّة. مع مراعاة هذه الاحتياطات، يمكن إدراج العادات التقويّة المتّبعة خلال زيارات التعبّد الثانويّة في خطّ الإيمان السابق للإسلام الذي استمرّ أو عاد إلى الظهور، ولا سيّما في تشكّل طقوس التعبّد الرمزيّة التي طبعت بطابعها المكان المقدّس. وقد اختلفت التفاصيل باختلاف المناطق وفاق العادات الخاصّة بالإسلام الهندي أو الإسلام المغربي أو الإسلام الزنجي مثلًا. إلّا أنّنا نجد في كلّ البلدان تطابقًا في سلوك الزائرين تجاه العادات الموروثة من الماضي، اذ إنّ هؤلاء يتقيّدون بتلك العادات كلّما شعروا أنّها تحمل في ثناياها قدرًا من المعطيات الغيبيّة والتوقّعات النفعيّة.

هكذا انتشرت، في المقاطعات النائية جدًّا عن العالم الإسلامي، كما في المقاطعات المركزيّة، مواقع حُرُم تجسّدت في مبانٍ متفاوتة من حيث الفخامة حملت، بحسب طرازها المعماري ومحيطها اللغوي، أسماء مختلفة، من مثل ضريح وقبّة ومشهد ومقام، تختصّ بهذا الإمام العلوي أو هذا الوليّ أو هذا النبيّ أو هذا المرابط كذلك. هذه المواقع المقدّسة أسّست لأسماء أمكنة كثيرة، وأدّى إقبال الزوّار إلى توسّع بعضها، كتلك التي اشتهرت ونمت تحت اسم كُنْبَدْ قابوس ومشهد وتُرْبَت حيدريّة في إيران، والنبي موسى بالقرب من مدفن شهير لموسى في فلسطين، ومولاي إدريس في المغرب، أو مزار شريف بالقرب من بلخ في أفغانستان، على سبيل المثال. وغالبًا ما ازداد غنى تلك الأبنية بفضل هبات أوقاف من أشخاص أثرياء، وتمّ توسيعها وترميمها من قبل الأمراء، كما جرى بناؤها وتزيينها بأساليب متنوّعة وبفائض مدهش من الوسائل، وقد أُحيطت بمساكن كان يقيم فيها إمّا المتعبّدون القاطنون بجوار المزار استدرارًا للبركات، وإمّا عائلة المتصوّف المكرَّم ومديروه، فيغدو هذا موضوع ابتهال، غبّ تأسيس إحدى الطرائق.

بهذا المفهوم، تحوّلت بعض أمكنة الزيارة أو الحجّ النافل، حتّى العصر الحالي، إلى مراكز للحياة الإسلامية أو الدعوة، مستفيدةً روحيًّا وماديًّا من رعاية شفيعها الذي شُيِّدت على اسمه، سواء كان مزار سيدي بومدين أو تحديدًا أبو مدين بالقرب من تلمسان في المغرب العربي، أو مزار الشيخ البسطامي على طريق خراسان في إيران، أو معبد أبي أيوب في حيّ أيوب في اسطنبول، وجميعها أمكنة متباعدة جغرافيًّا، غير مغفلين الأضرحة الشهيرة للمتصوّفين المكرَّمين في الهند الإسلامية أو مراكز التقوى الشيعيّة في العراق، مثل النجف وسامرّاء والكاظمَيْن وكربلاء، وكذلك قُمّ في إيران.

ثمّة قبور محليّة للأولياء ذات مظهر متواضع تُقصدُ كذلك للزيارة التقويّة من قبل سكان القرى المتعطّشين إلى مَدَدٍ نورانيّ بممارسة طقوسٍ ثابتة، منها ممارسات فرديّة بسيطة (ملامسة، تقدمة، مسح بالزيت، رمي بالحجارة، عقد طرف خرقة، نَذْر، نوم قرب المزار...) ومنها احتفالات جماعيّة بأعياد المواسم التي تشهد حشودًا سنويّة كبيرة أحيانًا. يجري التوجّه خلالها إلى أيّ أثرٍ تذكري، بدءًا بالقبر وصولًا إلى النُّصُب التذكاري، إلى النقش المحفوظ في الحجر، إلى الصخرة، إلى التل، إلى الأثر القديم، إلى المغارة، إلى الشجرة أو إلى النبع، وقد شكّلت كلّها موضوع توقير مستمرّ عبر عهودٍ متعاقبة.

بفضل هذه الزيارات النافلة، تجذّرت في الإسلام اختيارات تقديس قديمة استمرّت عبْر هذه الأمكنة والطقوس. لكنّ أدبًا إسلاميًّا حقيقيًّا نشأ من خلال هذه المعابد متجليًا في مؤلّفات متنوّعة، بدءًا بكتب التاريخ وأخبار الرحلات وصولًا إلى المؤلّفات المتخصّصة كدليل الهروي، الذي بقي النموذج الأكثر تمثيلًا لهذا الواقع.

تُبرز هذه المؤلفات، بنوعٍ خاص، العلاقات القائمة بين أماكن الزيارة وحوافز التقوى الإسلاميّة التقليديّة باستعادة ذكرى تعود لثلاث فئات من الشخصيات مسلّمة تقريبًا على المستوى نفسه. أوّلًا: ذكرى «أبطال الإسلام» الأقدمين، أي النبيّ محمد (ﷺ) ورفاقه، وقد حرص الحديث كما حرصت سِيَرُ النبيّ

(ﷺ) وكتب أنساب المسلمين الأوائل على ذكر أعمالهم وعلى تحديد أمكنة أضرحتهم؛ ثانيًا: ذكرى «الأشخاص الأتقياء» والورعين في كل العصور الذين استحقّوا رضى الله بفعل مزاياهم الروحيّة، سواء كانوا رجال فقه، أو متصوّفين مشهورين أو أئمّة بالمعنى السنّيّ أو الشيعيّ للكلمة، بحيث شملت الخلفاء وسائر الأمراء الذين دافعوا عن الإسلام السنّيّ، والعلويّين الذين يعتبرهم مناصروهم مؤتمنين على إرث النبيّ محمد (ﷺ) الزمني والديني؛ ثالثًا: ذكرى الأنبياء الذين يعتبرهم التقليد الإسلامي أسلافًا للنبي محمّد (ﷺ) ويذكر أخبارهم المستقاة من القرآن الكريم أو من روايات شخصيّات الكتاب المقدس أو «حكماء» الأزمنة القديمة. وقد ساهمت في استعادة هذه الذكريات أخبار المناقب أي «الخصال والأعمال الحميدة» التي استُخدمت في الأدب الديني الإسلامي للدلالة على أدب محدَّد هو أدب سِيَر الأولياء الذي يُبرز صفات الشخص الذي يستحقّ الإطراء والتوقير.

وهكذا جمعت صلات متعدّدة بين تلك المشاهد المقدّسة والتيارات الفكريّة التي سادت إسلام القرون الوسطى، مفضيةً إلى تكاثر البدع ورواج موجة متزايدة من أفكار الأوائل أو الأجانب التي تسرّبت من خلال تعاليم المتصوّفين وأفكار الفلاسفة أو الشيعة، في حين تصدّى لهذا التكريم المدافعون عن التقاليد الأصوليّة، ولا سيّما الوهّابيّون.

الزيارة أو الزيارة التقويّة، لفظ عربي يشير إلى توقير القبور والأضرحة، كما سائر الأماكن المكرمّة وأماكن الدعاء التي حملت هي أيضًا، بصورة عامة، إسم مزار.

لقد نتج عن هذه الممارسة تطوّر تدريجيّ في المجتمع الإسلامي للزيارات غير الطقسيّة التي اختلفت أعدادها وأهميّتها باختلاف المناطق والحِقب التاريخيّة، والتي كانت تُحرّم بصورة متوالية. لقد شكّلت هذه الممارسة الوجه الأكثر بروزًا لعادة تكريم الأولياء التي ظهرت في الوسط الإسلامي، بدءًا من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، متزامنة مع نموّ حركة زهديّة عُرفت بالصوفيّة.

الزِيارِيون أو بنو زِيار، ٣١٥-٤٨٣هـ/ ٩٢٧-١٠٩٠م، سلالة صغيرة في إيران القروسطيّة حكمت، مع بعض الصعوبات، الأراضي الواقعة جنوبي بحر قزوين، أي طبرستان وجرجان. وُلدت سلطة هؤلاء الأمراء الهشّة نتيجةً للأعمال الحربيّة التي قام بها المدعو مرداويج بن زيار الذي أعطى إسمه للسلالة، وهو رئيس عصابة تعود بأصلها إلى الدَّيلم. تمتّع خلفاؤه، في بادئ الأمر، باستقلال محدود بين دولتي السامانيّين والبويهيّين المتخاصمين، قبل أن يضطرّوا إلى الاعتراف بسلطة الغزنويّين. وعندما بسط السلاجقة، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، سلطتهم على المنطقة أُرغم الزياريّون على ترك أراضيهم الغنيّة والنزوح إلى الجبال المجاورة. ويبدو أنّ ممثّلي السلالة الأخيرين سقطوا تحت ضربات الإسماعيليّين. ويُنسب إلى أحدهم، وهو عنصر المعالي كيكاوس، مؤلّف بعنوان «نصائح الى الأمير» (قابوسنامه بالفارسيّه). لكنّنا نعرف اليوم، بخاصّة، الضريح الضخم لأحد الزياريّين السابقين، وهو شمس المعالي قابوس بن وُشمگير الذي سُمّيت باسمه مدينة گُنْبَدقابوس (أي قُبّة قابوس)، في موقع جرجان القديمة.

مَرْداويج بن زيار	٣١٥-٣٢٣هـ/ ٩٢٧-٩٣٥م
وشمكير	٣٢٣-٣٥٦هـ/ ٩٣٥-٩٦٧م
ظهير الدين بيستون	٣٥٦-٣٦٧هـ/ ٩٦٧-٩٧٨م
شمس المعالي قابوس	٣٦٧-٤٠٢هـ/ ٩٧٨-١٠١٢م
فلك المعالي منوچهر	٤٠٢-٤٢٠هـ/ ١٠١٢-١٠٢٩م
أنوشيروان شرف المعالي	٤٢٠-٤٤١هـ/ ١٠٢٩-١٠٤٩م
عنصر المعالي كيكاوس	٤٤١-٤٦١هـ/ ١٠٤٩-١٠٦٩م
گيلان شاه	٤٦١-٤٧٠هـ/ ١٠٦٩-١٠٧٧م

زيد بن ثابت الأنصاري، ١١ق هـ-٤٥هـ/ ٦١١-٦٦٥م، من صحابة الرسول ﷺ، عرف بأنّه من الأوائل الذين جمعوا القرآن الكريم وكتبوه. وقد خدم بصدق الخلفاء الأوائل المعروفين بالراشدين.

إنّه يتحدّر من قبيلة بني نجّار، وهو أحد الأنصار الذين رحّبوا بمحمد ﷺ وصحابته الأوّلين. تميّز بمعرفته الكتابة، لذلك اختاره نبيّ الإسلام كاتبًا له، وأوكل إليه، بشكل خاص، تقسيم الغنيمة وتوزيعها؛ إضافةً إلى

تدوين أجزاء من النّص المنزل. وقد احتفظ بمهمّاته المالية في عهد الخليفتين أبي بكر، ولا سيّما عمر بن الخطّاب الذي أسند إليه إدارة الديوان الذي أوجده في المدينة المنوّرة؛ كما كلّفه أيضًا القيام بتنقيح القرآن الكريم، فنظر في صحّة النص خلال عهد عثمان بن عفّان. حافظت هذه النسخة التي أعدّها زيد على طابعها الرسمي رغم انتقاد بعض المعارضين للنظام، ويُقال إنّه رفض مبايعة الخليفة الرابع أي علي، لذا ثُبّت في مهمّاته في المدينة المنوّرة بعد وصول سلالة الأمويّين إلى السلطة في شخص معاوية.

زيد بن علي، ٧٩-١٢٢هـ/ ٦٩٨-٧٤٠م، علويّ من ذرّيّة الحسين وابن عليّ زين العابدين. إنتسب إليه، بعد الثورة التي لاقى حتفه خلالها، في آخر العهد الأموي، فرعٌ من الشيعة عُرفوا بالزيديّة.

في الكوفة، في عهد الخليفة هشام، قاد زيد بن علي – الذي هو ابن الإمام الرابع المعترف به من قبل أتباع الإماميّة الاثني عشريّة والأخ غير الشقيق للإمام الخامس محمد الباقر – أوّل انتفاضة شيعيّة كبيرة. تابع ثورته، بعد مماته، إبنه يحيى بن زيد، في خراسان، فقُتل بدوره مع أتباعه سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م.

سار على هذا النهج، في محاولات كثيرة مشابهة، قادة من الذريّتين العلويّتين الحسنيّة والحسينيّة، وهم علويّون ادّعوا الحقّ في الخلافة. جسّد هذا النهج نوعًا جديدًا من الكفاح في سبيل السلطة، يقوم على مطالبة الإمام بحقّه واستخدام السلاح لتثبيت شرعيّته. تُنسب إلى زيد بن علي، فضلًا عن عنفه الثوريّ، مجموعة من المؤلّفات الفقهيّة والكلاميّة قامت عليها العقيدة الزيديّة التي حملت إسمه. ولكن، في الواقع، تجلّت هذه العقيدة في صيغتها الدقيقة في مؤلّفات حُرّرت في مطلع خلافة العبّاسيّين، وفي القرن الذي تلا.

◄ راجع المسند رقم ٤

الزيديّة، حركة ظهرت في إطار التشيُّع، حوالى منتصف القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. أعلنت مسؤوليّتها عن ثورات العلويّين التي تزعّمها، منذ منتصف القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، أشخاص ساروا على مثال زيد بن عليّ (زين العابدين). كان زيد وابنه من السبّاقين إلى المطالبة بالسلطة عن طريق السلاح خلال الخلافة الأمويّة. تلاهما، في ما بعد، سليلا الحسن وابنا عبدالله، محمد النفس الزكيّة وابراهيم اللذان قاما بثورتهما في عهد الخليفة المنصور، وغيرهما من الذريّة نفسها. نجمت عن الحركة، في ما بعد، سلالتان من الأئمّة استطاعتا تأسيس دولتين شبه مستقلّتين: الأولى هي سلالة الزيديّين في طبرستان الذين استقرّوا في منطقة جبليّة قريبة من بحر قزوين، سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، حيث استمرّوا قرابة قرنين تقريبًا. والسلالة الثانية هي سلالة زيديّي اليمن، وقد انتقل أفرادها، نحو سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م، إلى هذه المنطقة الجبليّة من شبه الجزيرة العربيّة واحتفظوا بالسلطة عليها حتى سنة ١٩٦٢، بالرغم من فترات انقطاع ومن تقلّبات الدهر.

تعتبر الحركة الزيديّة، التي تقول بتعدديّة الأئمّة في إطار التشيّع، كلّ علويّ إمامًا، إذا أثبت شرعيّة حقّه بالقتال، إلى جانب بروزه في مجالي العلم والتقوى. فالإمامة إذًا، بحسب هذه العقيدة، لا تقوم على تعيين مبني على الوصيّة، بل على الكفاية الشخصية ونجاح عمل جهاديّ قوامه ثورة وقتال.

إلّا أنّ الزيديّة التي جاهرت باللجوء إلى الكفاح المسلّح تبنّت، من ناحية أخرى، نظريّات معتدلة، إذ إنّها لا تنسب إلى أئمّتها أيّة صفة تفوق الطاقة البشريّة، معترفة، بخلاف سائر الفرق الشيعيّة، بشرعية الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، فيما تعتبر أنّ عليًّا فاقهم جدارةً. من جهة أخرى، تميّزت هذه الحركة بمواقف عقديّة شاركت فيها المعتزلة في ما يتعلّق بصفات الله [الأسماء الحُسنى] وخلق القرآن الكريم أو حريّة الاختيار. وقد نبغ بعض أئمّتها في الفقه والكلام نبوغًا عظيمًا، من بينهم محمد النفس الزكيّة الذي امتاز بفقهه ومعرفته بالحديث النبويّ، إضافة إلى اشتهاره بالتقوى.

كما الفرق الشيعيّة الأخرى، انشعبت الزيديّة إلى فروع عدّة، يتميّز الواحد منها عن الآخر ببعض الاختلافات في العقيدة. وكان اتباعها يكِلون نشر آرائهم إلى دعاتهم الذين كانوا يؤمّنون الصلة بين مختلف

المراكز الرئيسة للفرقة في اليمن وطبرستان/مازندران. إرتبط تجذّرهم اللاحق، بخاصة، بالنجاح السياسي الذي بفضله بقيت إحدى سلالات أئمّتهم مستقرّةً في الهضاب المرتفعة، جنوب شبه الجزيرة العربيّة. أمّا اليوم فانّ الزيديّين الذين ما زالوا يشكّلون أكثريّة مطلقة في المنطقة التي التجأوا اليها، يشكّلون أيضًا أغلبيّة في البلد بكامله حيث قدّر عددهم بخمسة وخمسين بالمئة من مجمل السكان. يضاف إلى جماعتهم الزيديّون المهاجرون إلى المملكة العربيّة السعوديّة ودولة الكويت والإمارات العربيّة المتّحدة.

زيديّو طبرستان، ٢٥٠-٣١٦هـ/ ٨٦٤-٩٢٨م، سلالة محليّة يسّر لها ازدهار التشيّع في حضن الأمبراطورية العبّاسيّة أن تتجذّر إلى حين في شمال إيران، رغمًا عن بعض الصعوبات.

شجعت الأفكار الخاصة بالزيديّة ثورة أحد العلويّين المتحدّر من الحسن والمدعوّ الحسن بن زيد، وهو رجل حرب وفقيه مثقّف في آن معًا. إنّه تصدّى في طبرستان أو مازندران للطاهريّين منذ سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، إلّا أنّه اضطرّ مرتين للإلتجاء إلى غرب بلاد الدّيلم، قبل أن يُنشئ في المنطقة سلطة غير مستقرّة.

انّ هذه الدولة التي أسّسها هذا الإمام الزيدي والتي آلت، بعد وفاته سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م، إلى أخيه، استفادت، للمحافظة على وجودها، من الحماية الطبيعيّة التي تقدّمها المقاطعات الجبليّة التي لم يكن سكّانها قد اعتنقوا الإسلام بعد، ما جعلهم يتقبّلون بسهولة عقائد الزيديّة. بعدئذٍ، عقب الضمّ الموقّت لهذه الرقعة إلى أمبراطوريّة السامانيّين السُّنّة، ظهر ثائر جديد، في العام ٣٠١هـ/ ٩١٤م، ينتمي هذه المرة إلى سلالة الحسين، فثبّت سلطته بجانب سلطة ذريّة الحسنيّين. بعد ذلك، يكتنف الغموض تاريخ الزيديّة في المنطقة. لكن من المؤكّد انّ التشيّع طبع نهائيًّا التوجّه الديني لسكّانها، حتّى الآونة التي استولى فيها الحشّاشون، المتحدّرون من النزاريّة، على الإمارة الزيديّة، وذلك ابتداءً من الفترة التي استقرّ فيها حسن الصبّاح في قلعة ألموت في العام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م.

زيديّو اليمن، ٢٨٤-١٣٨٨هـ/ ٨٩٧-١٩٦٨م، سلالة مؤلّفة من سلسلة طويلة من الأئمّة الزيديّين، المتفرّعين من عشائر متعدّدة، نجحوا في التجذّر في هذه المنطقة خلال فترة الضعف التي مرّت بها الخلافة العبّاسيّة واستقرّوا تارة في صنعاء، وطورًا في معتكفهم الآمن في صعدة، مع فترات غابوا فيها عن مسرح الأحداث. وقد تثبّتت إستمراريّة هؤلاء الأئمّة، إلى جانب سلطات محليّة أخرى، وخلال احتلالين سنيّين للبلاد، احتلال الأيوبيّين والرسوليّين من سنة ٥٦٩هـ/ ١١٤٧م تقريبًا، حتّى سنة ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، ثمّ خلال احتلال العثمانيّين من سنة ١٥١٧ حتى سنة ١٦٣٦م، ثمّ من سنة ١٨٥٠ تقريبًا حتّى ١٨٩٠. غير أنّ هذه الاستمراريّة لم تتركّز إلّا وسَط مصاعب متجدّدة، ما يسمح لنا بأن نميّز إنطلاقة أولى قامت بها سلالة بني رَسيّ، تلاها ازدهار أكثر حداثة، يعود الفضل فيه إلى جهود القاسميّين. وقد استعاد هؤلاء عرش اليمن عام ١٨٩٠م على يدي حميد الدين يحيى، واستمرّت سلطتهم على البلاد حتى العام ١٩٦٢ بقبضة حديديّة.

ما تزال ظروف انتشار «الدعوة» الزيديّة في اليمن، كما كانت في طبرستان، غامضة. وربّما يعود ذلك إلى سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م، إذا سلّمنا بما يقال عن النشاط الذي قام به في هذه المنطقة أحد العلويّين من ذريّة الحسن، المدعو ترجمان الدين القاسم الرَّسيّ الذي تعود نسبته هذه إلى مُلْك له في الحجاز.

وفي ما بعد، سمحت الظروف الإستراتيجيّة الخاصة بهذه المنطقة الجبليّة البعيدة عن المركز لحسنيّ آخر، من الأسرة نفسها، وهو الإمام يحيى الهادي إلى الحقّ، بأن يؤسّس دولةً حقيقيّة. وكان هذا الإمام عالم كلام، لعب دورًا في تطوير الفكر الزيدي، أقام في صعدة وبسط سلطته على صنعاء مجاهدًا، في الوقت نفسه، ضدّ الإسماعيليّين الذين حاولوا، في الفترة نفسها، توطيد وجودهم في المنطقة.

في الواقع، تمثّلت المصاعب الرئيسة التي واجهها خلفاؤه بالجهود التي حرّكتها ضدّهم السلطة المصريّة الفاطميّة، وهي في أوج ازدهارها، هادفةً إلى بسط سيطرتها على اليمن وبثّ دعاتها فيه. وابتداءً من سنة

٤٥٣هـ/١٠٦٢م، سيطرت على صنعاء، وغالبًا في جوّ فوضوي، سلالاتٌ متحدّرة من قبيلة همْدان المحليّة التي اعتنقت الإسماعيليّة والتي بقيت في السلطة حتى الغزو الأيوبي، حاملة اسم الصُلَيْحيّين، على الرغم من ممارسات عابرة للسلطة من قِبَل أئمّة صعدة الزيديّين.

حاصر الرسوليّون السلالات الزيديّة في عمق معاقلها، وكانت هذه تتخبّط في خلافات داخليّة. والرسوليّون خلفوا الأيوبيّين في الحكم وهم سنّة مثلهم. وحذا حذوهم من بعدهم الطاهريّون، وهم سُنّة أيضًا، وقد استقرّوا في الجنوب، حول عدن.

لم تنته عزلة الأئمّة الزيديّين إلّا عندما واجه العثمانيّون مطامع البرتغاليّين للسيطرة على طريق الهند وتجارة الأفاويه، وذلك بعد أن ضمّ العثمانيّون اليمن إلى أمبراطوريّتهم في بدء القرن السادس عشر للميلاد، وحاربوا الدعوة الزيديّة باسم المذهب السنّي. أعلن آنذاك الزيديّون الجهاد لمواجهة الغزاة البرتغاليّين.

وبعد قرنٍ من الزمن، قرّرت حكومة اسطنبول سحب الجيوش العثمانيّة سنة ١٦٣٦م، ولكنّها لم تتخلّ أبدًا عن سيادتها الإسميّة على اليمن، وقد أرسلت إلى هناك فِرقًا عسكريّة لمواجهة الأطماع البريطانيّة في منتصف القرن التاسع عشر. لقد فشلت كل المحاولات للقضاء على إرادة الأئمّة العنيدة في الصمود، فتحصّنوا، أكثر من أي وقت مضى، في هضابهم العالية، وساعدهم في ما بعد تغيّر الوضع الدولي العالمي إثر الحرب العالميّة الأولى.

في الواقع، أدّت معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ إلى قيام مملكة زيديّة شمال المحميّة البريطانيّة في عدن، أُطلقت عليها أحيانًا صفة «المتوكليّة»، تيمّنًا بالإمام يحيى محمود المتوكّل الذي أخذ حكمه الذي بدأ عام ١٩٠٤ حجمًا جديدًا. دامت ولايته حتّى سنة ١٩٤٨ وتميّزت برفضها الدائم لكل تأثير أجنبي ولكلّ محاولات العصرنة. شكّلت هذه السياسة انتصارًا لأفكار الزيديّة الدينية وممارسةً لسلطة مطلقة من قِبَل إمام أراد القضاء على كلّ قوى المعارضة، القبليّة منها والدينيّة. وقد تابع نهجه إثنان من خلفائه، فبقيا أمينَين للسياسة نفسها. لكنّ هذه السياسة لم تستطع مقاومة التمرّد الجماعي الذي ساندته مصر الناصريّة وأدّى، سنة ١٩٦٢، إلى إعلان جمهوريّة اليمن الشماليّة العربيّة. إنّ العاهل الحاكم آنذاك، الإمام محمد بدر، الذي وجد نفسه منزوع السلطة، ارتدّ إلى معتكفه، ولم يقدّم نفسه بعدئذ على أنّه إمام الزيديّين، رغم أنّ هؤلاء كانوا يشكّلون الأكثريّة في البلاد. لكنّ مجلسه الخاص أعفاه من منصبه سنة ١٩٦٨. وهكذا حدث فراغ ما يزال قائمًا حتّى اليوم، وزاده تعقيدًا الوضع الديني المضطرب منذ ذلك التاريخ.

الزيريّون أو بنو زيري، إسم لسلالتين من أصل بربري حكمتا المغرب الإسلامي في العصور الوسطى، متحدّرتين من القبيلة نفسها التي تفرّع منها بنو حمّاد.

١ - زيريّو إفريقية، ٣٦٢-٥٤٣هـ/ ٩٧٣-١١٤٨م.

خلف زيريّو إفريقية الفاطميّين في عاصمتهم القيروان[٥٣]، وسيطروا على قسم كبير من المغرب عندما نقل هؤلاء الخلفاء الشيعيّون مركز حكمهم إلى مصر بعيد استيلائهم عليها.

حتّى سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، ظلّ هؤلاء البربر الذين ينتسبون إلى قبيلة صنهاجة يحكمون البلاد لمصلحة أسيادهم القدماء الذين خدمهم بصدق بُلُكين بن زيري في أثناء ثورة أبي يزيد. وقد وسّعوا سلطتهم، في ما بعد، في اتّجاه الغرب على حساب منافسيهم الزناتيّين، ثمّ انقسموا، إبتداءً من سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م، إلى فرعين، فظهرت بذلك سلالة بني حمّاد التي وقعت على عاتقها حماية النصف الغربي من تلك الأراضي الواسعة. بعد هذا الإنشقاق، شكّل حكم المُعِزّ ذروة السلالة، وقد أمّن للمناطق التي سيطر عليها ازدهارًا ملحوظًا، فيما أكملت العناصر السنيّة في البلاد التي تحرّرت من نير الدولة الفاطميّة، مطاردةَ الشيعة الباقين في إفريقية. دفعت هذه الحركة الشعبيّة المُعِزّ، سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، إلى قطع علاقته بخلفاء القاهرة الذين انتقموا منه بتحريضهم عليه قبائلَ بني سُلَيم العربيّة وقبائل بني هلال أو الهلاليّين الذين كانوا مستقرّين في مصر العليا.

كان لاجتياح الهلاليّين، بحسب المؤرّخين العرب، نتائج مفجعة للإقتصاد الإفريقي، اذ تراجعت على أثره مساحة الأراضي الزراعيّة، لكنّ نتائج الأبحاث الحديثة لا تتّفق حول مسؤوليّة هؤلاء البدو في الإنحطاط الذي

اعترى تلك الفترة. على كل حال، إثر هجمات هذه القبائل، نقل الزيريّون مركز حكمهم إلى المهديّة، حيث باشروا استعادة السيادة على البحر من نورمان صقليّة، من دون أن يستطيعوا إيقاف عمليّات غزو المدن الساحلية ونهبها، والحؤول دون الوقوف في وجه الإستيلاء على عاصمتهم، سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، من قبل أسطول روجيه الثاني. لقد مات آخر الزيريّين بعد أن التجأ إلى الموحّدين سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، بعيدًا من إفريقية.

يوسف بلكين الأوّل بن زيري	٣٦١-٣٧٤هـ/ ٩٧٢-٩٨٤م
المنصور بن بلكين	٣٧٤-٣٨٦هـ/ ٩٨٤-٩٩٦م
باديس بن المنصور	٣٨٦-٤٠٧هـ/ ٩٩٦-١٠١٦م
المعزّ بن باديس	٤٠٧-٤٥٤هـ/ ١٠١٦-١٠٦٢م
تميم بن المعزّ	٤٥٤-٥٠١هـ/ ١٠٦٢-١١٠٨م
يحيى بن تميم	٥٠١-٥١٠هـ/ ١١٠٨-١١١٦م
علي بن يحيى	٥١٠-٥١٥هـ/ ١١١٦-١١٢١م
الحسن بن علي	٥١٥-٥٤٣هـ/ ١١٢١-١١٤٨م

٢ - زيريّو البيرة ثمّ غرناطة، ٤٠٢-٤٨٣هـ/ ١٠١٢-١٠٩٠م، حكموا بدورهم هذه المقاطعة الصغيرة من الأندلس في عهد ملوك الطوائف.

إنّ بلوغهم حكمًا مستقلًّا بفضل العامريّين الذين استدعوهم جنودًا مرتزقة، يُبرز الدور المهمّ الذي نهض به آنذاك الضباط البربر في شبه الجزيرة الإيبيريّة. إنّ النجاح الذي حقّقته السلالات البربريّة في مواجهة الأمراء المحليّين، مثل الحمّوديين في مالقة، أدّى إلى ازدياد طموحاتهم بالرغم من المقاومة التي واجهتهم من قبل ملوك ذوي أصول عربيّة، كبني عبّاد في إشبيلية. إنّ ازدهار مدينة غرناطة المؤسّسة حديثًا والتي اختاروها في ما بعد مركزًا لهم، والمكانة التي كان يحتلّها فيها السكان اليهود الكُثر، قد أثّرتا في التوجّه السياسي الذي قاده وزراء من اليهود، إلى أن كانت المجزرة الشهيرة سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م. وقد أنهى الإحتلال المرابطي، سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، أمر السلالة. فنفي الأميران الاخيران منها إلى المغرب حيث توفّيا لاحقًا، وهما أمير غرناطة وأخوه أمير مالقة.

◄ راجع المستندين ١١ و١٥.

زينب، إسم عربي حملته، مع بداية الإسلام، اثنتان من زوجات النبي محمد ﷺ وواحدة من بناته.

أشهرهنّ هي أمّ الحكَم زينب الأسديّة (٣٣ق.هـ-٢٠هـ/ ٥٩٠-٦٤١م) التي كانت إبنة جحش بن رئاب ومن فريق المهاجرين. زوّجها النبي محمّد ﷺ في المدينة المنورة لابنه بالتبنّي زيد بن حارثة. ولكنّ هذا الأخير طلّقها فتزوّجها النبي ﷺ في العام الرابع للهجرة. هناك آيات قرآنية (سورة الأحزاب، الآيات ٣٦ إلى ٣٩) أُنزلت على النبيّ (ﷺ) لتقضي على الشك الذي أصابه جرّاء هذا الزواج. كانت زينب مثار حسدٍ من قبل سائر زوجاته بسبب ظروف زواجها، باستثناء عائشة التي كانت صديقتها.

زينب بنت خُزَيمة الهلالية، احتُفل بزواجها أيضًا في العام الرابع للهجرة، فلم تحظ في المقابل بأيّة شهرة. تزوّجها النبي محمّد ﷺ بعد أن قضى زوجها في معركة بدر، وقد ماتت بعد أشهر من ذلك.

أما بالنسبة إلى زينب الإبنة البكر للنبيّ محمّد ﷺ، فقد زُوِّجت من مشرك قبل انطلاق الدعوة بالإسلام، إلى أن كان العام السابع الهجري فتزوّجها شرعيًّا مرّة ثانية. ماتت زينب بعد سنة، وبحسب بعض التقاليد فقد نُقل جثمانها، في ما بعد، إلى القاهرة[٥٤] حيث يُكرّم ضريح يحمل إسمها منذ عهد الفاطميّين، كما تُكرَّم أضرحة السيّدة نفيسة والسيدة سكينة والسيدة رقيّة.

س

الساجيّون أو بنو ساج، عائلة حكّام أتراك من أذربيجان، لعبت دورًا مهمًّا عندما ضعفت سلطة العبّاسيّين في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد. تعود تسميتهم إلى جدّهم أبو الساج ديْوداد، وهو قائد جيش تقلّد وظائف مختلفة في عهد المتوكّل وخلفائه المباشرين في سامرّاء، لكنّه فقد حظوته بعدما انحاز إلى يعقوب بن ليث الصفّار، وتوفي سنة ٣١٠هـ/٨٧٩م. تسلّم إبنه محمّد أفشين حكم أذربيجان سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وذلك قبل سنين من وفاته. أمّا ابنه الثاني يوسف فقد جعل من هذه المقاطعة مركز سلطة توسّعت جرّاء فتوحاته إلى أن قتله، حوالى ٣٦٠هـ/ ٩٢٢م، القرامطة، وكان الخليفة المقتدر قد أرسله لمحاربتهم.

ساحل العاج (جمهوريّة)، دولة حديثة مستقلّة في أفريقيا السوداء، تبلغ مساحتها ٣٢٢ ٤٦٢ كلم² وعاصمتها ياموسّوكرو، تقع على خليج غينيا، وتضمّ أقليّة إسلاميّة كبيرة تبلغ نسبتها أكثر من ٣٣٪ من مجموع السكّان البالغ ثلاثة عشر مليونًا.

كانت هذه المستعمرة القديمة جزءًا من أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة؛ وهي اليوم تجاور، على طول الساحل الأطلسي، دولًا تضمّ أقليّات إسلامية أقلّ كثافة، لكن لها التأثير نفسه، كجمهوريّات غانا وليبيريا، من دون أن ننسى في الشمال جمهوريّة بوركينا فاسو. وكانت أراضيها دائمًا على اتّصال بالمناطق السواحليّة التي تحيط بها من الشمال الغربي والتي دخلها الإسلام منذ زمن بعيد، وهي، اليوم، جمهوريّتا مالي وغينيا. من هذه الجهة، كانت المنطقة الشماليّة لساحل العاج مسرحًا لدعوة إسلاميّة تعود جذورها إلى الدور الذي قامت به، بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر للميلاد، أمبراطوريّة مالي الممتدّة حتّى منطقة السهوب السودانيّة. وفي القرن التاسع عشر، في المناطق نفسها، أدّى ظهور أمبراطوريّات ذات طابع عسكري – عرفت بجهاد قُلْبة أو بول، وبنتْها جهود رؤساء متعاقبين بدءًا من عثمان دان فوديو وصولًا إلى الحاج عمر تَل – إلى توسيع رقعة نفوذ الإسلام. وقد ساهمت، إضافةً الى ذلك، في تنمية هذا التأثير وتركيزه طرائق صوفيّة كالقادريّة وخاصة التّيجانيّة. زِد على ذلك ما ترتّب من آثار على حروب الفتح، وعلى المقاومة بوجه تقدّم القوات الفرنسيّة التي قادها، حتى ١٨٩٨، بطل مسلم من الماندنج، أصله من كَنْكَن في غينيا ويدعى ساموري توره، فاقتطع لنفسه، لسنواتٍ عدّة، أمبراطوريّة حول منطقة كونغ.

وترسّخ الواقع الناشئ أكثر فأكثر بفعل مبادرات خارجيّة لحركة إصلاحية سلفيّة، متمثّلة بالوهّابيّة، أو بفعل خلايا من البِدَع تركّزت حديثًا هناك كالأحمديّة؛ بينما كانت تنشط في الداخل شبكات التجّار المسلمين المنتمين الى إتنيّة الهاوسا. نتج عن ذلك اندفاعة سلميّة للإسلام ما تزال مستمرّة منذ بداية القرن العشرين، وبخاصة في المدن. وتمكّنت هذه الاندفاعة تدريجيًّا من زعزعة المقاومة التي أبدتها تجاهها، منذ زمن طويل، شعوب السواحل والغابات.

سارايفو (البوسنة والهرسك)، هي العاصمة الحاليّة لدولة البوسنة – الهرسك، وقد لعبت الدور عينه خلال أكثر من أربعة قرون في منطقة البلقان التي كانت تحت سيطرة العثمانيّين.

وكانت سارايفو عرضة لغزوات مختلفة من قبل الأتراك في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر

للميلاد، قبل وقوعها في أيديهم سنة ١٤٦٣م، وإلحاقها كليًّا بالسلطنة العثمانيّة، وكانت تملك آنذاك قلعة حصينة مهمّة. وقد حافظت المدينة على أهميّتها الإستراتيجيّة في هذه المنطقة الجبليّة، واختيرت، مع مدينة «بنْيالوكا»، مقرًّا للحكّام المرسلين من قبل السلطة المركزيّة. وقد وقعت سارايفو، لفترة قصيرة، بيد الأمير «أوجين» سنة ١٦٩٧، ولم تستطع الجيوش النمساويّة استعادتها وضمُّها إلى أمبراطوريّة آل هابسبورغ إلّا في سنة ١٨٧٨. ثمّ شكّلت المدينة جزءًا من دولة يوغوسلافيا الجديدة التي تأسّست بعد الحرب العالميّة الأولى، وقد شهدت اضطرابات متنوّعة على أثر تفكّك هذه الدولة ابتداءً من سنة ١٩٩٢. فالأبنية المتنوّعة التي ورثتها المدينة من ماضيها الإسلامي، خصوصًا تلك التي شُيّدت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، قد زالت بمعظمها. إنّ مصير المدينة مرتبط بمصير البوسنة وتتحكّم به جزئيًّا مشكلات الإنتماء الديني، ولا تزال نسبة عالية من سكّانها تنتمي الى الإسلام.

سالار مسعود، غازي ميان، (؟ - ٤٢٤هـ/ ؟ - ١٠٣٣م)، أحد أولياء الهند المعروفين، وقبره في «بهْرايش» بولاية «أُتّر پرادش»، يكرّمه الهندوس والمسلمون على السواء.

تعتبره الأخبار التقويّة التي جُمعت في عصر المغول إبن أخ لمحمود الغزنوي، وقد يكون استشهد خلال الحملة الإسلاميّة التي قادها محمود إلى تلك المنطقة.

السالميّة، اسم مدرسة فقهيّة ذات ميول صوفيّة، انتشرت، في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، بمدينة البصرة بين السنّة من أتباع المذهب المالكي. وقد أسّسها ابن سالم (توفّي سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م) تلميذ سهل التُّستري.

لا يمكن التعرّف إلى الطروحات الخاصّة بهذه المدرسة إلّا من خلال شهادات خصومها الحنبليّين. فبحسب هؤلاء، تقول السالميّة بأنّ الله لا يكفّ في كلّ لحظة عن «الخلق»، وهذا ما يجعله حاضرًا في كلّ مكان؛ وبأنّ إرادة الله غير مخلوقة، في حين أنّ قراراته مخلوقة؛ وأخيرًا بأنّ المؤمن الذي يمارس الشريعة عبر تكيّفه معها واستيعابها وهذا يذكّرنا بالعقيدة الأشعريّة – يمكنه بلوغ الاتّحاد الصوفي. وهذه الآراء التي يُتلمّس فيها مفاهيم معتزليّة وأفكارًا مستوحاة من عقيدة وحدة الوجود، كان لها تأثيرها لفترة طويلة في الأوساط السنية، حتّى إنّ بعضها برز في عدد من أبحاث الغزالي. كما امتدّت إلى أفكار ممثّلي المدرسة الصوفيّة التي ازدهرت في الأندلس خلال القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وصولًا إلى الصوفي ابن العربي. كذلك انتقل عدد من مقولاتها المتواترة إلى الطريقة الشاذليّة.

سالونيك (اليونان)، مدينة مرفئيّة في مقدونيا، على ساحل بحر إيجه، كانت جزءًا من عالم الإسلام لمدّة خمسة قرون تقريبًا، بعد ضمّها إلى الدولة العثمانيّة.

عُرفت هذه المدينة الغنيّة منذ القدم بنشاطها التجاري. وقد احتلّتها الجيوش العثمانيّة سنة ١٤٣٠م، وكانت قد دخلتها غير مرّة خلال الحملات السابقة في البلقان، ولكنّها اضطرّت إلى اعادتها إلى البيزنطيّين. وقد أقامت في المدينة جاليات إسلاميّة، ثمّ أخرى يهوديّة بعد إخراج اليهود من إسبانيا، وقد حافظ هؤلاء على لغتهم وتقاليدهم الدينيّة. وهذه المدينة التي تحوّلت كنائسها إلى مساجد استمرّت على ازدهارها التجاري واستفادت من عهود الأمان، أي «الامتيازات» التي مُنحت للغربيّين. وفي مطلع القرن العشرين كانت سالونيك منفتحة على المؤثّرات الخارجيّة أكثر من اسطنبول، وهذا ما جعلها مركزًا للحركات المناهضة للسلطان عبد الحميد. ففيها كانت تُعقد اجتماعات جمعيّة الاتّحاد والترقّي، وربيئة الجهود التي قامت بها حركة تركيا الفتاة، ومنها انطلقت ثورة ١٩٠٨ التي أدّت إلى سقوط السلطان. وقد خسرت تركيا سالونيك في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٢، خلال حرب البلقان، وأُلحقت المدينة باليونان في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٣ بموجب إتفاقيّة أثينا.

◀ راجع المستندين ٢٠ و٢٧.

سام بن نوح، شخصيّة توراتيّة لا يرد ذكرها في القرآن الكريم، بل يتحدّثُ عنها الكتّاب المسلمون في قصص الأنبياء.

سام هو الإبن البكر لنوح، أوكل إليه والده مهمات مختلفة، وإليه ينتهي العرب بنسبهم. وقد كان بين الأنبياء المكرّمين في القرون الوسطى، فأقيمت له مزارات في أماكن مختلفة يقصدها عدد من المؤمنين، ويذكرها الهروي في دليله خلال القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، منها مزار في قرية نوى السوريّة في منطقة حوران، وآخر في اليمن. ويرد اسمه في لائحة الأنبياء المدفونين في كهف مدينة الخليل بفلسطين، كما يُنسب إليه بناء مدينة حرّان في بلاد ما بين النهرين العليا.

السامانيّون (٢٠٤ - ٣٩٠هـ/ ٨١٩ - ٩٩٩م)، إسم سلالة شبه مستقلّة، من أصل محلّي، بسطت سيطرتها على خراسان وبلاد ما وراء النهر وشرق إيران، واستطاعت أن تقيم حضارة مميّزة في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد.

يرجع السامانيّون بنسبهم إلى أحد كبار الملاّكين في منطقة بلخ، يُعرف باسم «سامان خُدا». وقد دخل أحفاده الأربعة في خدمة الخليفة العبّاسي المأمون بخراسان، فكافأهم بتعيينهم حكّامًا على مدن عدّة في المنطقة. وفي سنة ٢٦١هـ / ٨٧٥م، عيّن الخليفة المعتمد إبن أحدهم، وهو نصر بن أحمد، حاكمًا على مقاطعة ما وراء النهر، فاستطاع الدفاع عنها ضدّ الهجمات التركيّة. وقد خلفه أخوه إسماعيل سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، فكان أوّل أمير جعل حكمه شبه مستقلّ، إذ أفاد من استقلاليّة ماليّة، وذلك في الوقت الذي كان ازدهار الدولة الصفّاريّة في سجستان يتزامن مع انحطاط الدولة الطاهريّة. وقد هاجم إسماعيل الأتراك ونهب عاصمتهم تلاس، كما أمّن الغنى والازدهار الإقتصادي لدولته بإقامة الرقابة على طرق القوافل في آسيا الوسطى. وهذه القوافل كانت تهتمّ، على الأخصّ، بنقل العبيد الأتراك لتجنيدهم في جيش الخليفة، وذلك في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة/أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر للميلاد. وفي عهده أصبحت العاصمة بخارى مركزًا للنشاط التجاريّ والحرفيّ، كما تحوّلت مركزًا فكريًا تُدرَّس فيه الآداب العربيّة والآداب الفارسيّة التي كانت في مرحلة تجدّد. وفي سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، استطاع إسماعيل تقوية موقعه بعدما أنزل بعمرو بن اللّيث الصفاريّ هزيمة قويّة، وتسلّم حكم خراسان مكان الطاهريّين.

في منتصف القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد وبعد حكم نصر الثاني بن أحمد الذي بلغ معه السامانيّون أوج ازدهارهم، بدأت علامات الضعف تظهر في أرجاء الأمبراطوريّة الواسعة التي كانت قد وصلت إلى كرمان من جهة، وإلى مازندران أو طبرستان من جهة أخرى فشهدت البلاد ثورات عديدة، قامت ببعضها الأوساط الحاكمة احتجاجًا على المركزيّة المتشدّدة؛ كما شهدت انتفاضات مختلفة وغزوات البدو الأتراك. وقد توصّل القراخانيّون والغزنويّون أخيرًا إلى القضاء على السامانيّين سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، فاحتلّ الأوّلون مدينة بخارى، وفرّ آخر أعضاء الأسرة من المدينة ومات سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م.

أحمد الأوّل بن أسد بن سامان	٢٠٤ - ٢٥٠هـ / ٨١٩ - ٨٦٤م
نصر الأوّل بن أحمد	٢٥٠ - ٢٧٩هـ / ٨٦٤ - ٨٩٢م
إسماعيل الأوّل بن أحمد	٢٧٩ - ٢٩٥هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٧م
أحمد الثاني بن اسماعيل	٢٩٥ - ٣٠١هـ/ ٩٠٧ - ٩١٤م
الامير السعيد نصر الثاني	٣٠١ - ٣٣٣هـ/ ٩١٤ - ٩٤٣م
الأمير الحميد نوح الأوّل	٣٣٣ - ٣٤٣هـ/ ٩٤٣ - ٩٥٤م
الأمير المؤيّد عبد الملك الأوّل	٣٤٣ - ٣٥٠هـ/ ٩٥٤ - ٩٦١م
الأمير السديد منصور الأوّل	٣٥٠ - ٣٦٥هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦م
الأمير الرضى نوح الثاني	٣٦٥ - ٣٨٧هـ/ ٩٧٦ - ٩٩٧م
منصور الثاني	٣٨٧ - ٣٨٩هـ/ ٩٩٧ - ٩٩٩م
عبد الملك الثاني	٣٨٩ - ٣٩٠هـ/ ٩٩٩ - ١٠٠٠م
اسماعيل الثاني المنتصر	٣٩٠ - ٣٩٥هـ/ ١٠٠٠ - ١٠٠٥م

سامرّاء (الجمهوريّة العراقيّة)، مدينة حديثة تُعتبر من الأماكن المقدّسة عند الشيعة، تقع إلى جانب خرائب مدينة كانت تُعدّ في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، من أكبر عواصم الخلافة العبّاسيّة.

في سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، أراد الخليفة العبّاسي المعتصم إبعاد حرسه من الأتراك عن مدينة بغداد المكتظّة بالسكّان، فقرّر أن يختار لنفسه مقرًّا جديدًا شمال المدينة، وسط الطريق الذي يصل تكريت ببغداد في محلّة يتوزّع فيها عدد من الأديرة المسيحيّة. فشُيّدت الأبنية الأولى الضروريّة بالآجرّ غير المطبوخ على الضفّة

الشرقيّة لنهر دجلة، بمحاذاة قناة تجري فيها المياه من الأعالي، ما ساعد على تأمين الخصب لتلك المنطقة بفضل عمليّات الريّ. وقد عزلت هذه القناة المدينة الجديدة وجعلت تحصينها غير ضروريّ. وسامرّاء، التي فُسّرَ اسمُها بأنه تحريف لعبارة «سُرَّ مَن رأى»، ضمّت أبنيتها الفنادق والقصور من أجل سكن الخليفة وحاشيته، وأبنية للأعمال الإداريّة، ومسجدًا جامعًا، وأراضي وُزّعت فيها ثكنات الجيش التركي، وأحياء سكنيّة وأسواقًا تجاريّة. وقد امتدّت كل هذه الأبنية على مسافة عشرات الكيلومترات على طول ضفّة دجلة، وتكاثرت في عهدَي الخليفتين المعتصم والواثق، حتّى وصلت إلى أقصى مداها في عهد المتوكّل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م). وتوزّعت المنشآت الجديدة في الجنوب كما في الشمال، حيث أقام المتوكّل قصر الجعفريّة وسكنه مدّة ستة أشهر، وأمسى مهجورًا بعد مقتله. وبقيت سامراء، رغم ذلك، عاصمة الخلافة العبّاسية حتى سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، وهو التاريخ الذي قرّر فيه المعتمد الانتقال الى بغداد قُبيل موته.

بعد هذا التاريخ ظلّت سامرّاء مسكونة، ولكنّ الانحطاط دبّ فيها، وأخذ يزداد بسبب إهمال الزراعة في المناطق المجاورة. إن المجمّع الأرستقراطي الذي كان يجاور تجمّعات سكنيّة عدّة، كلٌّ منها على مقربة من قصر مع ثكناته العسكريّة، تحوّل بسرعة إلى نواة لمدينة واحدة تضمّ أمكنة محمّلة بالذكريات، يكرّمها الشيعة الإثنا عشريّة، وقد تحوّلت إلى مقامات يجلّونها. وقد شُيّدت الأبنية الأولى في منتصف القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، وضمّت قبرَي الإمام العاشر علي الهادي، والإمام الحادي عشر الحسن العسكري، ومكان غيبة المهدي، الإمام الثاني عشر محمّد المهدي. وبقي حول تلك الأبنية عدد من المنازل شكّلت مدينة صغيرة استمرّت ناهضة بفضل تدفّق الزوّار.

والخرائب التي ما تزال قائمة والتي لا تظهر معالمها جليّة إلّا بواسطة التصوير الجوّي، تنتشر على مسافة تصل إلى خمسين كيلومترًا طولًا وحوالى ثمانية كيلومترات عرضًا. إنّ الحفريّات التي عالجت أكوام الخرائب هذه كانت محدودة وقد بدأت في مطلع القرن العشرين وما تزال مستمرّة إلى اليوم، واستطاعت لفْتَ الانتباه إلى عدد من الأبنية التاريخيّة المشهورة. وهي لم تتوصّل إلى إعطاء فكرة واضحة سوى عن بعض أشكال التنظيم الهندسي، ولكنّها استطاعت أن تكشف، عبر أساليب الزخرف الخاصّة بسامرّاء، خصائص الفنّ العبّاسي الكلاسيكي الذي اختفت معالمه في أمكنة أخرى. يضاف إلى ذلك أنّ التنقيب في هذا الموقع لم يُجرَ بشكل منهجي، ولم تُنشر نتائج الأعمال الأولى التي كانت في أغلب الأحيان سطحيّة، بينما كان من المفروض أن تُظهر لنا أهمّ البقايا الأثريّة.

نحن ما نزال مثلًا نجهل كيف كان تنظيم القصر الرئيسيّ، وهو «الجوسق الخاقاني» الذي بوشر به على عهد المعتصم وكان يغطّي مساحة كبيرة. فلم نتعرف فيه إلّا إلى عدد من الأفنية المتتابعة وإلى بناء سكني رئيسي مزوّد بإيوانات تنفتح على ضفاف دجلة. وقد كان هذا القصر متّصلًا بالمسجد الجامع عبر جادّة عريضة تسمح للخليفة بأن ينتقل بموكب إلى المسجد لكي يترأس الصلاة. أمّا المسجد الجامع نفسه، فما يزال قسم منه قائمًا وقد تمّ ترميمه، والمعروف أن بناءه، بشكله الحالي، يعود إلى عهد الخليفة المتوكّل. وكانت جدرانه ترتفع وسط ساحة كبيرة، ورُفعت فيه مئذنة زُوّدت بمطلع لولبي الشكل من الخارج، وأُطلق عليها اسم الملْويّة.

من أهم القصور التي تمّ التحقّق منها جزئيًّا، قصر «بلْكُوارا»، وكان قد بناه المتوكّل لأحد أبنائه، وهوَ يطلّ أيضًا على دجلة. إلّا أنّ القصر الذي ما يزال محفوظًا أكثر من سواه هو الذي يُعرف باسم قصر العشيق ويقع على الضفّة اليمنى لنهر دجلة. كما أمكن التعرّف، وإن بشكل تقريبي، إلى الأماكن التي جُعلت مساكن للمحاربين من المماليك الأتراك. والمعروف أنّه حُظّر على هؤلاء الاختلاط بالعرب، وقد زُوّجوا جميعًا من جوارٍ تركيّات جيء بهنّ خصّيصًا لهذه الغاية. أمّا مدينة الجعفريّة التي أسّسها المتوكّل وفيها أراد إظهار سلطته، فقد نُظّمت بشكل مشابه حول قصر لم يخضع قطّ، حتّى يومنا، لأعمال الحفريّات. وقد شيّد في الجعفريّة مسجد جامع متّصل بالقصر عبر جادّة عريضة. وهذا المسجد

الذي عُرف باسم «أبو دلف» كان سقفه قائمًا من قبل على أعمدة داخليّة من الآجرّ المشوي، وهي لا تزال محفوظة. وكمسجد المعتصم، كان ينتصب فوق ساحة واسعة محاطة بجدران، وكان مجهّزًا هو أيضًا بمئذنة لولبيّة الشكل.

إنّ بقايا هذه الهندسة الضخمة - ذات الأبنية المشيّدة على عجل بمكعّبات من الآجرّ غير المطبوخ في أغلب الأحيان، وذات الجدران المكسوّة بزخرف غنيّ من الجصّ وفيها قباب وأقواس مُحكمة البناء - تعود إلى حقبة لا نملك عنها إلّا شهادات أدبيّة. لذا تشكّل هذه البقايا شهادات تاريخيّة ذات أهميّة استثنائيّة، حتّى إن كانت مسألة الإفادة منها لا تزال تتطلّب جهدًا كبيرًا.

◄ راجع المستندين ٤٥ و٤٦.

سانتاريم بالبرتغالية، وشنترين بالعربيّة (البرتغال)، بلدة تقع في الوادي السفلي لنهر التاج، حافظت خلال القرون الأربعة من تاريخها الإسلامي على دور إستراتيجي كمركز حصين يؤمّن حماية المنطقة الوسطى من غرب الأندلس.

إنّ القيمة الدفاعيّة العائدة إلى موقعها الطبيعي وغنى أراضيها الزراعيّة ساعدا المدينة، منذ دخول الجيوش العربيّة - الإسلاميّة إليها خلال الفتوحات الكبرى بين سنتي ٩٥ و٩٦هـ/ ٧١٤ و٧١٥م، وحتّى استعادتها من قِبَل المسيحيّين سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، على المحافظة على نفوذها كمركز عسكري وإداري. حتّى إنّ الهجمات المتكرّرة التي تعرّضت لها من قِبَل أمراء البرتغال، والتي كانت ناجحة أحيانًا، لم يكن لها تأثيرها على تنظيم المدينة التي تميّزت بأحيائها الأرستقراطيّة وبقلعتها وبضواحيها المزدهرة. إنّ بقايا هذه العناصر لا تزال ظاهرة حتّى اليوم.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

ساوه (الجمهوريّة الاسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة تقع اليوم على الطريق التي تصل طهران بمدينتي قمّ وأصفهان، كانت في القرون الوسطى مدينة مهمّة في مقاطعة الجبال في إيران الوسطى.

توافر الغنى لهذه المدينة بفضل نشاطها التجاري، وكونها محطّة على ملتقى إستراتيجي لطرق القوافل التي تصل العراق وشرق المتوسّط بخراسان وآسيا الوسطى، مرورًا بهمذان والرّيّ. وساوه التي كانت متّصلة بهاتين المدينتين، وكذلك بقزوين في الشمال وأصفهان في الجنوب، كانت تتميّز بتحصيناتها وبمسجدها الجامع وأسواقها، التي ذكرها الجغرافيّون العرب إبتداءً من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. وفي سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، اجتاح المغول المدينة، وخرّبوا مكتبتها العامرة وهدموا المرصد الذي كانت تملكه، ولم تستعد ساوه بعد ذلك عزّها الماضي. ما يزال في المدينة مسجدان جامعان يعود تاريخهما إلى القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، إلى جانب مئذنتين تعودان إلى القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، وهما تمثّلان الفنّ المعماري زمن السلاجقة الكبار في إيران.

السباهي، كلمة تركيّة تشير إلى الخيّالة في الجيش العثماني الذين كانت أجورهم تؤمّن عن طريق نظام التيمار.

في بداية الأمر، كان في إمكان السباهيّة أن يكونوا من أبناء الأرستقراطيّة المسيحيّة المحلّية. لكنّ هذه العادة توقّفت في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، وأصبحوا في عهد السلطان سليمان القانوني كلّهم من المسلمين. وكان عليهم أن يؤمّنوا بأنفسهم أمتعتهم وجيادهم. أمّا سلاحهم فكان تقليديًّا: قوس، ترس، سيف، رمح ومِقْمَعة. وكانوا يُعبَّأون خلال الفترة الزمنيّة التي تستغرقها الحملة العسكريّة التي كانت تمتدّ عادة من الربيع إلى الخريف، وقد تدوم أكثر من ذلك عند الاقتضاء. وقد أُلغي نظام السباهيّة، كما الإنكشاريّة، سنة ١٨٢٦.

سَبْتَة (إسبانيا)، مدينة مرفئيّة تقع على الضفة المغربيّة لمضيق جبل طارق، كانت في القرون الوسطى جزءًا من المغرب المسلم.

هذه المدينة الواقعة بين طنجة وتطوان، تحتلّ اليوم موقعًا في شبه جزيرة تتّجه من الشرق إلى الغرب وتشرف على وسطها هضبة تسمّى مونته دِل هاتشو (Monte del Hacho). وهي تنتظم حاليًّا على شكل

مدرّج قائم على جوانب هذه الهضبة، وما تزال تتضمّن أجزاء قديمة تقع على قاعدة البرزخ الذي يربط شبه الجزيرة باليابسة. وفي هذا المكان كانت تقوم في السابق المدينة البيزنطيّة التي كان يملكها الكونت يوليان، في فترة الفتوحات الكبرى العربيّة - الإسلاميّة، والذي استسلم لعُقْبة بن نافع عندما حاصره، وكان من شأن ذلك أن سهّل لاحقًا مرور طارق وجيشه نحو الأرخبيل الإيبيري.

طرأت على سبتة التي دخلت في الإسلام منذ ذلك الوقت، متغيّرات عدّة، قبل أن تصبح جزءًا من مملكة الأدارسة. فقد احتلّها، عام ٣١٩هـ/ ٩٣١م، الخليفة عبد الرحمٰن الثالث أشهر «ملوك سلالة أمويّ قرطبة»؛ ثمّ إنّ المصاعب التي أدّت إلى إسدال الظلام على مصير الأندلس أوقعتها في أيدي المرابطين عام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م، والموحّدين عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، مع ما رافق هذه الفترات من ثورات متفرّقة. إلّا أنّها، خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، بفضل أنشطتها التجارية، شكّلت مركزًا فكريًّا مهمًّا احتضن علماء مسلمين عدّة اضطروا إلى مغادرة مقرّات إقامتهم الإسبانيّة.

بعد ذلك تكيّفت سبتة بصعوبة مع حكم بني مَرين، وتمكّنت، في مناسبات عدّة، من التحرر من وصايتهم. وجعلت النجاحات البحريّة التي حقّقها المسيحيّون بعد فترة وجيزة على الجهة الأخرى من المضيق، من سبتة، مُلكيّة برتغاليّة عام ١٤١٥م، ومن ثمّ إسبانيّة عام ١٥٨٠. وقد واجه الإسبان صعوبات في الدفاع عنها بوجه هجمات العلويّين أسياد المغرب الجدد، ثمّ بوجه هجمات القبائل المجاورة. ووقعت سبتة تحت الحماية الإسبانية الممتدّة على المنطقة في بداية القرن العشرين. وبعد تخلّي إسبانيا عن مبدإ الحماية في العام ١٩٥٥ عند اعترافها بالمملكة المغربيّة المستقلّة، بقيت سبتة، كما مليلة، أرضًا ملحقة بإسبانيا وما تزال تسيطر عليها بسبب موقعها الإستراتيجي.

◄ راجع المستندات ١٤، ١٦ و١٩.

السَّبعيّة ← الإسماعيليّة.

السُّبكيّ، إسم حمله عدد من الفقهاء والعلماء المنتمين إلى المذهب الشافعي، الذين عاشوا في القاهرة وفي دمشق في عهد المماليك. ويجدر التوقّف في الحديث عن اثنين منهم على الأقلّ.

- تقيّ الدين أبو الحسن علي السُّبكيّ (٦٨٣-٧٥٦هـ/ ١٢٨٤-١٣٥٥م)، ولد في مصر السفلى ودرس في المركزين الفكريّين الأساسيّين، أي مصر وسوريا حيث انصرف في ما بعد إلى التدريس؛ فدرّس أوّلًا في القاهرة، في المدرسة الملاصقة لجامع ابن طولون. ثمّ وُلّي القضاء في دمشق، واهتمّ بالتدريس وبالخُطب، قبل أن يعود الى القاهرة حيث توفّي. وقد ترك حوالى مئة وخمسين مؤلَّفًا في الفقه، منها «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» و«الابتهاج في شرح المنهاج».

- تاج الدين أبو نصر عبد الوهّاب السُّبكيّ (٧٢٧-٧٧١هـ/ ١٣٢٧-١٣٧٠م)، اشتُهر، على الأخصّ، بمعجمه الكبير «طبقات الشافعيّة الكبرى» الذي يُعتبر مصدرًا تاريخيًّا مهمًّا غنيًّا بالمعلومات. ولد في القاهرة، وانصرف إلى التدريس والخطبة والقضاء في دمشق. سُجن بضعة أيام بتهمة الابتزاز، ثمّ أُخلي سبيله ورُدّ إليه اعتباره. وللهذا الفقيه عدد وفير من المؤلّفات الأخرى.

السجّاد (صناعة السجّاد)، هي صناعة حرفيّة نمت في معظم البلاد الإسلاميّة، من آسيا الوسطى إلى الهند والمغرب، وتوافرت لها في المجتمع الإسلامي شروط مناسبة لازدهار تقنيّاتها. وكانت تلك الصناعة، في بادئ الأمر، ميزة الشعوب البدوية.

ويبدو أنّ تقنيّة السجّاد المحبوك التي كانت شائعة في منطقة ألتاي (Altaï)، في أواسط آسيا، قبل مجيء المسيح، عرفتها الدولة العبّاسيّة في عصرها الأوّل، ودليلنا على ذلك قطع السجاد التي ترجع إلى القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين؛ كما عُرفت تلك الصناعة أيضًا في ما بعد في الوسط الفاطمي. لكنّ التحف التي صُنعت في محترفات العالم الإيراني - التركي إعتبارًا من القرن الخامس عشر الميلادي، هي القطع الأولى المحفوظة والتي تدلّ على مسار تطوّر هذه الصناعة التي صار يثمّنها الغرب المسيحي منذ ذلك الزمن، وعُرفت باسم «السجاد الشرقي»، الذي استوحى منه، في ما بعد إنتاج مقلّد،

كان من النوعيّة الرديئة بوجه عام، ثمّ إنتاج صُنْعيّ ازدهر في أوروبا. وفي الفترة عينها ازدهر في المغرب نوع من الإنتاج المحليّ: طابعه ريفي ومديني في آن معًا، ظهرت فيه بعض التأثيرات الشرقيّة.

إنّ أصالة صناعة السجّاد، إذا ما استثنينا الصنف الخاص المعروف بالـ«كِليم»، لا تقوم على الحياكة بل على تقنية مؤداها أن تُعقد باليد قطعٌ صغيرة من الصوف وأخرى من الحرير على خيوط مشدودة. ويتمّ عقدها بمراعاة طرائق ثلاث مختلفة، تميّز بينها أنواع العقد المعروفة بـ«التركيّة» و«العجميّة» و«الإسبانيّة». كانت هذه الطرائق المختلفة تعطي، في أحد وجهي السجادة، بنية حبكة متينة، وفي الوجه الآخر صفحة من الصوف أو الحرير تتفاوت سماكتها بين قطعة وأخرى، وكانت النماذج ذات الوبر المسبود تستأهل نعتها بالمخمليّة. وتعود دقّة الرسم إلى عدد العقَد الظاهرة في السنتيمتر المربع. أمّا الزخارف المعتمدة فتتآلف ألوانها بانسجام بفضل طبيعة المواد المستعملة. وفي جميع الحالات، كان يقتضي تنفيذ هذا العمل الطويل والدقيق نولًا عموديًا بسيطًا قابلًا للنقل عند الاقتضاء، من دون أن يلحق به ضرر، على يد جماعات اعتادت الترحال منذ القدم. فالقبائل العربيّة أو قبائل البربر، كما القبائل التركيّة او الإيرانيّة، ساهمت من دون شك بالطريقة عينها - في الماضي كما في الحاضر حيث ظلّت وفيّة لطريقة عيشها التقليديّة - في ازدهار هذه الصناعة اليدويّة التي تلائم العمل تحت الخيمة، وتؤمّن مستلزمات ضروريّة للحماية وللراحة اليوميّة.

لكنّ هذه الظروف الأولى، المناسبة والمرتبطة بنمط حياة قديم في البلاد شبه الصحراويّة حيث نما الاسلام، لم تكن وحدها المؤثّرة في تطوّر صناعة السجّاد. ففي محترفات الحواضر في العصور الوسطى التي كانت تؤمّن حاجات التجارة المحليّة والخارجيّة، وكذلك في تلك التي كانت قائمة في القصور والتي أنشئت لتلبّي مباشرة أذواق الحكّام رعاة الفنون: عرفت صناعة السجّاد أكبر نجاحاتها وحسّنت تقنياتها الزّخرفيّة، وفقًا لأساليب متوارثة خاصة بكل عصر أو بمنطقةٍ ما. كان السجّاد يؤمّن للأرض غطاءً ناعمًا وملوّنًا كي يُستخدم، إمّا في المساجد حيث طوّرت طقوس الصلاة استعماله، وإمّا في منازل الأغنياء لأنه شكّل الأثاث الوحيد الملائم لنمط الحياة اليوميّة في وجهيها الخاص والعام. كان الناس ينامون على السجّاد، يأكلون عليه ويستقبلون زائريهم في المجالس الحميمة وفي الاحتفالات. وكان السجّاد يوضع على الأرض مباشرةً أو يُستعمل غطاءً لأفرشةٍ ومخدات متنوّعة.

ترتبط قيمة السجّاد بالوقت المستهلك في حياكته، وهو يقاوم البِلى بقوة. ولا نعرف عن الإنتاج القديم منه إلّا ما يظهر في المنمنمات الشرقيّة المصغّرة، أو حتى في اللوحات الغربيّة، التي تذكّرنا بالرواج الذي كانت تلقاه مثل هذه القطع في المنازل الفخمة الشرقيّة والغربيّة على حدّ سواء. من المؤكّد أنّ هناك بعض القطع أكثر حداثةً قد سلمت من الدمار، وهي محفوظة اليوم ضمن مجموعات خاصّة أو عامّة، وتعتبر من المجموعات النماذج التي يبحث عنها الهواة. كما أنّها تمثّل انتاج البلد أو المنطقة التي حاكتها (الأناضول، القوقاز، فارس، خوزستان، كرمان، الخ.)، كما المدن (بورصة، هراة، بخارى، اسطنبول، القيروان، قونية، تُسْتار، تبريز...). وقد ظلّت هذه الأسماء مرتبطة بمدارس شهيرة عدّة، لا نعرف إلا القليل عن تاريخها وخصائصها. وهذه القطع، التي هي عادة من نوعيّة فريدة، أفسحت في المجال للقيام بدراسات إيقونيّة تعالج تطوّر الزخارف التركيّة أو الزخارف الإيرانيّة من نوع «السجّادة - الحديقة» مثلًا.

بَيْدَ أنّ فنّ السجاد الإسلامي الذي نمتدحه كثيرًا لم يشكّل، حتّى الآن، موضوع أبحاث علميّة تسمح بتجاوز مرحلة تدوين مصطلحاته وتصنيفاته، وهي تقريبيّة ومتغيّرة. وحده الإنتاج الأناضولي كان، مؤخّرًا، موضوع دراسات تناولت أساليب زخرفته ومكّنت من تقديم نظرة شاملة عن تطوّر أبرز اتّجاهاته منذ عهد سلاجقة الروم.

سِجِسْتان، مقاطعة في إيران الإسلاميّة خلال القرون الوسطى، جنوبي خراسان، امتدّت نحو المنخفَض الذي تحتلّه اليوم بحيرة هامون داخل جمهوريّة إيران الإسلامية من جهة، ونحو المناطق المجاورة لوادي «هِلْمَنْد» في

دولة أفغانستان من جهة أخرى.

هذه المنطقة ذات الواحات الخصبة والمروية بغزارة في الماضي، امتدّ إليها التصحّر تدريجيًا، إلى أن أُنجزت فيها حديثًا مشاريع للريّ، ويعود غناها إلى ما يقدّمه نهر «هِلْمَند» من طمي لتربتها. وقد حافظت على ازدهارها القديم لفترة طويلة بعد وصول الجيوش العربية - الإسلاميّة سنة ٢٤هـ/ ٦٤٤م خلال الفتوحات الكبرى، في عهد الخليفة عثمان بن عفّان. وقد توغّلت تلك الجيوش داخل المقاطعة في بداية الحكم الأموي، ولكنّها لم تستطع مواجهة ممالك زابلستان الوثنيّة. ثمّ تابعت الجيوش الفاتحة تقدّمها نحو مكران، وسلكت طريق القوافل التي تمرّ عبر الهضبة الإيرانيّة جنوبي الصحراء المالحة، لتصل إلى السند مرورًا بالمسالك الضيّقة المجاورة لمدينة كويتا في باكستان الحاليّة. وكانت الفرق المحاربة تنزل قرب المجاري المائية المهمّة خلال مسيرتها. وقد ساعدت وفرة المحاصيل الزراعية والموارد التجاريّة - على الرغم من وجود مناطق مقفرة في الجوار - على تطوّر عدد من المدن الناشطة، منها بُسْت / لَشْكري بازار في مقاطعة زمين دوار، وبعيدًا منها قَنْدهار.

كانت سجستان من المناطق التي صعب إخضاعها. فكثيرًا ما كان الولاة المسلمون يصطدمون بثورات محليّة ويتعرّضون لهجمات جيش ملك كابُل. إلّا أنّ العبّاسيّين، في زمن الخليفة المأمون، استطاعوا، في مطلع القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، أن يُخضعوا سجستان نهائيًّا للخلافة. وتبع ذلك ظهور مملكة الصفّاريين التي ضمّت مناطق واسعة كانت سجستان مركزها. وبعد فترة قصيرة وسّع الغزنويّون والغوريّون مجال سيطرتهم، خصوصًا باتّجاه الحوض الأعلى لنهر «هِلْمَند» بين قندهار وبُست، فجاوروا المقرّ الملكي في لَشْكري بازار. أمّا مدينة زَرَنْج المضمحلّة اليوم والبعيدة من مدينة زاهدان الحاليّة، فقد بقيت، حتّى تدميرها الكامل على يدي تيمورلنك سنة ١٣٨٣م، عاصمة المنطقة كلّها.

مع قدوم القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، دارت معارك قاسية لامتلاك سجستان، فتنازعت منطقتها أمبراطوريّتا الهند وإيران الإسلاميّتان، وكذلك أمبراطوريّتا المغول والصفويّين. وقبل ذلك كانت أهميّتها قد تأكّدت بالنسبة إلى الدول التي أُنشئت حول غزنة أو كابُل، وكانت تؤثّر على خيارات الغزنويّين والغوريّين السياسيّة، وحتّى على خيارات حكّام مقاطعات بعيدة كالإيلخانيّين والتيموريّين. وانطلاقًا من منتصف القرن الثامن عشر، اشتدّ التنافس على المنطقة مع اتّساع سلطة السلالة الجديدة التي سيطرت على شمال أفغانستان والتي تعود بأصلها إلى منطقة قندهار: فالدرّانيّون، كما الباركزئيّون، ناضلوا من أجل الحفاظ على سلطتهم في منطقة كانت محطّ أنظار طموحات دول خارجيّة: الهند وبلوشستان وإيران. وبقي الوضع غير مستقرّ مدّة طويلة، إلى أن قام البريطانيّون سنة ١٨٧٢ بتثبيت الحدود، فانفصلت سجستان عن باكستان في الشرق والجنوب، وعن إيران في الغرب، على المنحدر الآخر لمنخفض هامون.

◄ راجع المستندات ١٢، ١٣، ٣٥ و٤٧ إلى ٤٩.

السِّجستاني ← أبو داود.

سِجِلْماسة، مدينة في تافيلالت هي اليوم مهدّمة، كانت على حدود الصحراء، وتمتّعت بشهرة كبيرة في المغرب القروسطي.

تأسّست هذه المدينة في القرن الثاني للهجرة، سنة ١٠٤هـ/ ٧٥٧م، قبل مدينة فاس، وأصبحت مركزًا للخوارج، وكان سكّانها من البربر الذين يكتنف الغموض تاريخهم. والمعروف أنّ مؤسّس الدولة الفاطميّة، عُبيد الله المهدي، اضطرّ إلى أن يلجأ إليها في ما بعد، وفيها سُجن إلى أن حرّره الداعية أبو عبدالله.

يرجع الازدهار الذي عرفته سجلماسة إلى نشاطها التجاري الذي قوي بفعل موقعها على ملتقى طرق القوافل. وقد أفادت من موارد الواحات المجاورة، وكانت على علاقة بمدن المغرب الشرقيّة والغربيّة من جهة، وبما كان يُعرف بالسودان الساحلي من جهة أخرى. وهذا ما جعل الجغرافيّين العرب يتكلّمون عنها بإسهاب، ومنهم أبو عُبيد البكري والإدريسي. وقد جاء انحطاطها بعد الدور الذي لعبته في بداية الدولة

المَرينيّة. ثمّ كان الاهمال الكلّي في محيط أمسى معادبًا. يشهد على ذلك الوصف الذي تركه لنا المؤرّخ ليون الأفريقي في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، وذلك قبل زيارة «رينيه كايّه» (René Caillé) سنة ١٨٢٨ بمدّة طويلة. ولم يخلّف هذا الاهمال إلّا معالم أثرية لم تُدرس بعد؛ في منطقة من مملكة المغرب قريبة من الحدود الجزائرية.

◄ راجع المستندات ١١، ١٤ و١٩.

السحر (اعمال -)، ما تزال أعمال السحر مستمرة حتى اليوم في بعض الأوساط الشعبيّة الإسلاميّة، وقد نشأت في العالم الإسلامي القروسطي، مترافقة مع انتشار فنون الكهانة والتنجيم وعلوم أخرى خفيّة كالخيمياء.

هذه الممارسات، ذات الأصول السابقة لمجيء الإسلام، تعود إمّا إلى تقاليد قديمة محليّة، وإمّا إلى معتقدات شعوب العالم القديم. وكانت تنتقل، غالبًا؛ بطرائق باطنيّة، لكنّ بعضها كان يحظى بتسامح رجال الدين الذين كانوا يحرّمون بعض أشكالها، لكنّهم يغضّون الطرف عن بعض السحرة الذي يقدّمون للإنسان مساعدة وحماية، إستنادًا إلى قوًى خفيّة. وفي الواقع، فإنّ الإسلام يُقرّ بوجود وسطاء بين عالم الأرواح والعالم المادّيّ، كالجنّ والملائكة وبعض الأولياء والمتصوّفين، بحسب بعض المفاهيم. والرسول نفسه (ﷺ)، بحسب التقليد، عانى هذه الممارسات، وللمساعدة على محاربتها أنزلت عليه سورتان في القرآن الكريم (السورة ١١٣ والسورة ١١٤).

ثمّة وسائل مختلفة كانت مقترحة على المؤمنين الذين يخشون شر الأرواح، أوسعها انتشارًا اللجوء إلى بعض الرُقى أو استعمال الأحجبة التي تتضمّن نصوصًا مخطوطة، تشتمل بعض الآيات القرآنية - كالنص الذي يُذكر فيه «أهل الكهف» - وذكر الأسماء الحسنى؛ فضلًا عن بعض العبارات الغامضة. بعض الحليّ والمواد، كالخواتم والحلق، والكؤوس المعدنية التي تحمل كتابات، وبخاصة بعض الحجارة المقدّسة، كانت معتمدة كطلاسم شافية. كانت ممارسة السحر محرّمة بحسب الفقهاء وعلماء الدين المتشدّدين كابن تيمية الحنبلي الذي اعتبرها نوعًا من الشّرك.

سحنون أو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخيّ ١٥٩-٢٤٠هـ/٧٧٦ - ٨٥٤م، فقيه سنيّ شهير من القيروان، قام في هذه المدينة بدور ناشط في الدفاع عن المذهب المالكي.

بعدما رحل سحنون إلى المشرق للأخذ عن تلامذة مالك، إذ لا يمكننا التأكيد أنّه التقى مالكًا نفسه، عاد إلى القيروان سنة ١٩١هـ/٨٠٧م وكتب، في ما كتب، مؤلّفًا كبيرًا بعنوان «المدوّنة»، وفيه يشرح بوضوح محتوى مقالة أساسيّة لمالك هي «الموطّأ». في حين أنّ أنشطته في التدريس ساهمت كثيرًا في نشر المالكيّة في إفريقية؛ ولهذا كانت له مشاحنات مع ملوك ذلك العصر وهم الأغالبة الذين كانوا يدعمون المعتزلة. لوحق، حتّى إنّه سُجن، لكنّه سرعان ما أُفرج عنه بفضل تبدّل في سياسة أسياد البلاد، فأصبح قاضيًا في سنّ متقدّمة. وبصفته هذه، لم يكتف بإقامة العدل بإنصاف، بل جهد أيضًا في محاربة العقائد التي كان يراها فاسدة، وبقي موضع تقدير وتكريم عاميّن.

سدود ← **الماء.**

سرّازين (Sarrasins)، هو اللفظ الفرنسي لعبارة سراسين المستعملة في الغرب المسيحي في القرون الوسطى للدلالة، في المبدأ، على المسلمين عامةً، ولكنّ اللفظة كانت تنطبق بنوع خاص على المسلمين الذين استقرّوا في جنوب فرنسا في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد.

بين سنتي ٢٧٢ و٢٧٣هـ/ ٨٨٥ و٨٨٦م، دخلت إلى فرنسا، عن طريق البحر، مجموعات من المسلمين وأقامت في منطقة جبليّة أطلق عليها الجغرافيّون العرب اسم جبل القِلال، وهي التي تنطبق على ما يبدو، على جزء من المنطقة التي مازالت تعرف حتى اليوم باسم «جبال المور» (Les Maures). استقرّ هؤلاء الغزاة - الذين نجهل البلد الذي ينتمون اليه - على الأخصّ في منطقة «فراكسينيه» (Fraxinet)، وهي المنطقة التي تعلو خليج «سان تروبي» (Saint-Tropez). وفي مطلع القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وانطلاقًا من هذا

الموقع، راحوا يقومون بغزوات داخل البلاد كانت نتيجتها النهب لا الاحتلال الدائم. وهكذا غزوا سيسْترون Sisteron سنة ٣٠٠هـ/٩١١م، وإمبرون Embrun سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م، ومرسيليا سنة ٣٢٠هـ/٩٢٣م، وآرل وإيكس سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م.

في سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م، قرّر الأمبراطور أوتون الكبير وضع حدّ لأعمالهم، إلّا أنّه مات قبل البدء بتنفيذ هذا المشروع. في آخر الأمر، وفي تاريخ لا يمكن تحديده بدقّة، استطاع كونت مقاطعة البروفانس (Provence) القضاء على هؤلاء السراسين أو المور الذين تركوا بعض الأثر في أسماء الأماكن التي استقرّوا فيها.

سراسين (Sarakènoi أو Saraceni)، إسم شاع في القرون الوسطى واستعمله المسيحيّون، ولا سيّما البيزنطيّون، للإشارة إلى العرب بعامّة والمسلمين بخاصة.

إنّ أصل هذا التعبير الذي ظهر في النصوص اللاتينيّة واليونانيّة القديمة، وأعطى لفظة «سرّازين» (Sarrasins) في الفرنسيّة، ما يزال غامضًا. والمعروف أنّ المؤرّخ المسعودي أفاد، في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، بأنّ أحد أباطرة بيزنطية منع رعاياه من نعت المسلمين باسم «سراسين»، على أساس أنّه مهين لأنّه يعني «عبيد ساره». لكنّ هذا التفسير لا يبدو صحيحًا على أساس لغوي يوناني. واللغويّون البيزنطيّون، وعلى الأخص «سوزومين» (Sozomène) من القرن الخامس الميلادي، يعرضون تفسيرًا مختلفًا، ويرون أنّ لفظة «سَراكينوي» أو «ذريّة ساره» قد تبنّاها الهاجريّون ليخفوا أصلهم الحقيقي كأحفاد هاجر.

والواقع أنّ لفظة «سراسين» أُطلقت أوّلًا على عرب شبه الجزيرة، ثمّ على العرب المسلمين، وبعد ذلك على المسلمين عامّةً، مهما كان عرقهم. إنّ النقاش المتعلّق بأصل هذه اللفظة - الذي انكبّ عليه المؤلّفون القروسطيّون والذي استأنفه مجدّدًا علماء معاصرون - يبدو باطلًا. فمن الأفضل إذًا أن نتعرّف إلى حقيقة ما كانت تشير إليه اللفظة، بالعودة إلى النصوص اللاتينيّة واليونانيّة المتنوّعة. فالمؤرّخ بلين الأوّل (Pline l'Ancien)، من القرن الأوّل للميلاد، يشير إلى أنّ التعبير «سراسين» يُطلق على قوم في شبه الجزيرة العربيّة يشبهون الثموديّين، أي أبناء قبيلة ثمود القديمة. ومن جهته يذكر الجغرافيّ اليونانيّ بطليموس، في القرن الثاني للميلاد، أنّ «السراكينيّين» يعيشون في شمال شبه الجزيرة العربيّة بجوار الثموديّين. كما يتحدّث اسطفان البيزنطي عن «السراكينيّين» الذين يقطنون المناطق الواقعة ما وراء موطن الأنباط. وهكذا أُطلقت لفظة «سراسين» في القرن الثالث للميلاد على أقوام كانوا يشكّلون مجموعة من القبائل العربيّة. وفي القرن الخامس للميلاد، يُذكر أنّ أسقفًا من السراسينيّين شارك في مجمع خلقيدونيا. لا يمكننا أن نحدّد بدقّة العرب المسيحيّين الذين كان يمثّلهم هذا الأسقف، لكنّ الاستعمال المتداول للفظة «سراسين» في القرون الأولى يكفي ليوضح لنا المعنى العام الذي اتّخذته هذه اللفظة لاحقًا.

سَرَخْس (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة تقع اليوم على الحدود الإيرانيّة - التركمانستيّة، كانت في القرون الوسطى حاضرة نشطة في خراسان.

وكانت سرخس محطة على طريق القوافل التي كانت تصل طوس، وفي ما بعد مشهد، بمرو وآسيا الوسطى، وممرًّا طبيعيًّا للمسافرين المتّجهين من نيسابور إلى سمرقند عبر رمال قره قوم. والمعروف أنّ الخليفة المأمون مرّ بها عندما قرّر مغادرة مرو للانتقال إلى بغداد. وفيها اغتيل الوزير الفضل بن سهل - الذي كان قد وُلد فيها - بأمر من الخليفة سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م. عدا تلك الذكريات التاريخيّة، فإنّ المدينة الحاليّة القابعة في منطقة قاحلة على حدود الصحراء والخالية من النشاط التجاريّ الذي أمّن لها بالأمس الغنى، لا تتميّز اليوم إلّا ببعض المعالم المعماريّة، ولا سيّما عدد من الأضرحة التي تعود إلى القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

سردينيا أو سَرْدانيا، جزيرة تقع في الحوض الغربي للمتوسط، بقيت حتّى القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، هدفًا لحملات عربيّة إسلاميّة تكلّل

معظمها بالنجاح.

هذه الحملات المختلفة التي كان أوّلها في حدود سنة ٩٢هـ/ ٧١١م، في الوقت الذي بدأ فيه فتح الأندلس، لم تصل قط إلى احتلال دائم للجزيرة التي لم تكن لتغري بالسيطرة عليها. بالمقابل شكّلت الحملات مناسبات للحصول على غنائم. وغالبًا ما كانت الحملات تترافق مع غزوات على الساحل الايطالي تجرّدها الأساطيل الآتية من إفريقية الأغالبة ثمّ الفاطميّين. والأعمال الحربيّة الأخيرة التي قام بها بحّارة أندلسيّون أدّت إلى خضوع الجزيرة مدّة وجيزة لقراصنة مملكة دانية في شبه الجزيرة الإيبريّة. وهذه المملكة الصغيرة التي قامت في عصر ملوك الطوائف امتدّت سلطتها إلى جزر الباليار.

سَرَقُسْطة (إسبانيا). حاضرة تقع شمالي بلاد الأندلس كان لها، خلال أربعة قرون من تاريخها الإسلامي، دور ناشط، إذ أصبحت عاصمة لقوى محليّة متتالية.

تقع المدينة على الضفة اليمنى لنهر «إيبرو». وهي ما زالت تحمل اسمها القديم المحرّف عن اسمها اللاتيني Caesarea Augusta. وفي سنة ٩٥هـ/ ٧١٢م، دخلتها جيوش الفتوحات الكبرى وضمّتها الى الخلافة الأمويّة في الشرق. وقد أفادت من موقعها في منطقة خصبة ومرويّة. فعرفت ازدهارًا دائمًا وأصبحت ثغرًا مهمًّا في الدفاع عن حدود الأندلس الشماليّة. وأهميّة المدينة الإقتصاديّة والإستراتيجيّة هذه جعلت منها منطلقًا لعدد وافر من حركات الإنفصال عن السلطة المركزيّة التي كان عليها، في كلّ مرّة، أن تعيد احتلال المدينة لتثبيت سيطرتها عليها.

وقد كانت سرقسطة بيدَي أحد المتمرّدين سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٨م عندما حاصرها شارلمان؛ ولم تخضع من جديد لسلطة أمويّي قرطبة إلّا في سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م، وذلك قبل أن تتمركز فيها أسرة «بني قاسي» المحليّة التي كانت شبه مستقلّة، ثمّ أسرة التُجيبيّين العرب. وخلال الاضطرابات التي شهدها القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، استطاع حاكم تلك المنطقة أن يعلن نفسه ملكًا على سرقسطة، وأن يتحالف مع حكّام برشلونة وقشتالة ليحمي دولته الجديدة. فعرفت المدينة عندئذ ازدهارًا تزايد بعد ذلك عندما أصبحت، سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، عاصمة إمارة بني هُود أو الهوديّين. تمّ إحتلالها سنة ٥٠٣هـ/ ١١١٠م من قبل المرابطين، وبعد فترة قصيرة استعادها الإسبان سنة ٥١٢هـ/١١١٨م.

قليلة هي الآثار التي ما تزال قائمة تشهد على الماضي الغنيّ للمدينة الإسلامية. فالمسجد الجامع فيها هُدم لترتفع مكانه الكاتدرائيّة الحاليّة. وحدها المصادر المكتوبة تُحدّثنا عن التصميم المتعامد الذي قامت عليه المدينة وهو موروث عن العصور القديمة، كما تُحدّثنا عن القصور الكثيرة التي كانت موزّعة فيها. أحد هذه القصور، وهو قصر الجعفريّة الذي خضع لترميمات متتالية عبر العصور، ما يزال يحتفظ بعناصر معماريّة تُنسب إلى الهوديّين، بينها المصلّى الأميري الذي تزيّنه كتابات في غاية الدقّة والجمال.

◄ راجع المستندات ٨، ١١، ١٥، ١٦ و١٩.

سَرَنْديب، أو سيلان، هي اليوم دولة سري لنكا حيث تعيش أقليّة مسلمة صغيرة مكوّنة من عناصر إتنيّة كثيرة التنوّع، بخصوصيات محليّة على الصعيد القانوني، وكانت حصلت على الاعتراف السياسي بها منذ نهاية القرن التاسع عشر.

يبلغ عدد هذه الأقليّة - التي لا تشكّل أكثر من ٧٪ من مجموع السكان - أكثر من مليون نسمة. وتعود أصولها إلى العصور الأولى للإسلام مع استقرار عائلات عربيّة فيها جاءت إلى المنطقة بحرًا، حتّى قبل البدء بفتح السِّند عبر الطريق البريّة على أيدي القوات العربيّة - الإسلاميّة، في فترة الخلافة الأُمويّة. وقد ازدهرت هذه المستعمرة، التي تنامى فيها عدد المعتنقين المحليّين للإسلام في أوائل القرون الوسطى لأنّها كانت مرسى ومركزًا تجاريًا للروّاد المسلمين في الملاحة البعيدة؛ وقد تكون شاركت في الأنشطة التجاريّة التي ازدهرت على الخطوط البحريّة للمحيط الهندي، بين الصين والخليج العربي - الفارسي، لتغذية التجارة المارّة عبر بغداد في اتّجاه الغرب ومرافئ المتوسط بالمنتجات الكماليّة.

ومع الغياب النهائي للأمبراطوريّة وللسلطة العبّاسيّة

في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، حلّت العلاقات بين سيلان [سرنديب] والهند في المقام الأوّل، ما شجّع مسلمين من شبه القارة الهندية على الاستقرار في المنطقة والانصراف بدورهم إلى التجارة. ومنذ نهاية القرن السادس عشر، واجه هؤلاء منافسة من أسياد البحار الشرقيّة الجدد، أي البرتغاليّين ثمّ الهولنديّين وأخيرًا البريطانيّين.

وقد شكّل الفقر - الذي عاناه مسلمو سيلان منذ ذلك الحين، وكان قد اختلط بهم مسلمون آتون من ماليزيا، إضافة إلى الهنود - من دون شك السبب في انغلاق جماعتهم على ذاتها وعلى تقاليدها الثقافيّة التي تعبّر عنها بلغة التاميل، لكنّها تستعمل، في سبيل ذلك، الحرف العربي. وكان ينبغي انتظار نهاية القرن التاسع عشر ومجيء عرابي باشا الذي نُفي إلى الجزيرة، كي ينفتح السكان على العصرنة مع تأسيس معهد الزاهرة في كولومبو في العام ١٨٩٢، وهؤلاء السكان هم في أكثرهم سنيّون على المذهب الشافعي، وقد بدأوا يتمتّعون، منذ تلك الفترة، بنوع من التمثيل الانتخابي.

◄ راجع المستندات ٣٠ الى ٣٥.

سري لنكا ← **سَرَنديب**.

سعد (بنو -) ← **السعديّون**.

سعد بن أبي وقّاص بنُ وهيب... بن مرّة، ٢٧ قبل الهجرة - ٥٥هـ/٥٩٥م - ٦٧٤م، من صحابة النبيّ محمّد (ﷺ)، شارك في حروب بدايات الإسلام، وأصبح في ما بعد أحد أركان الفتوحات الكبرى الأساسيّين.

اعتنق الإسلام في بداياته، وقدّر النبي محمّد (ﷺ) موهبته القتاليّة. وقد أُسند إليه الخليفة عمر بن الخطّاب، بعد تنحية خالد بن الوليد، القيادة العليا للجيوش العربيّة - الإسلاميّة التي اجتاحت بلاد ما بين النهرين، فانتصر على الساسانيّين في معركة القادسيّة في العام ١٦هـ/٦٣٧م. وبعدما اختار البصرة لإقامة معسكر فيها، فأصبحت بذلك أوّل مدينة عسكريّة[٥٥]، استولى على طيسفون/ المدائن وخرّبها، ثمّ أسّس مدينة عسكريّة مهمّة أخرى هي الكوفة. أقاله عمر في العام ٢٠هـ/ ٦٤١م ثمّ أعاد إليه اعتباره وعيّنه أحد الأعضاء الستة في المجلس المولج باختيار خليفة له. وفي خلافة عثمان، أُعيد موقّتًا حاكمًا للكوفة؛ وبعد مقتل الخليفة ومبايعة علي [خليفة]، انسحب سعد إلى ديار قومه بعيدًا من أيّ نشاط سياسيّ حتّى وفاته.

سعدي، الشيخ مصلح الدين السعدي ٦١٠-٦٩١هـ/ ١٢١٣ - ١٢٩٢م.

شاعر فارسي شهير من شيراز، نشأ على «علوم» الصوفيّة.

مؤلّف أعمال شعريّة حظيت بالتقدير، تختلط فيها أحيانًا مقاطع نثر، منها، إلى جانب «ديوانه»، مجموعة بعنوان «البستان» وأخرى بعنوان «غُلستان» أو حديقة الورد. شاعر الصوفيّة هذا تسمّى بالسعدي لأنّه كان في منتصف حياته في خدمة سعد زنكي، أحد أمراء السلالة السلغوريّة في شيراز. يقال إنّه بدا في مؤلّفاته كاتبًا أخلاقيًّا أكثر منه صوفيًّا. لكنّه، مع ذلك، أخذ عن عبد القادر الجيلاني الشهير، وكذلك عن شهاب الدين السُهروردي. وكان، إلى ذلك، رحّالة كبيرًا جاب العالم الإسلامي المعروف في عصره، من الهند إلى المغرب، لكنّه عاد ليموت في مسقط رأسه حيث غدا ضريحه مزارًا لا يزال قائمًا حتّى اليوم.

السعديّون، (بنو سعد)، سلالة أشراف، وفدوا من جنوب المغرب وحكموا بأبّهة مجمل البلاد من ١٥٥٤ إلى ١٦٠٣م.

نجح بنو سعد، في بداية القرن السادس عشر، في السيطرة على منطقة سوس، مدفوعين بردّة فعل سياسيّة - دينيّة وبعداء تجاه المشروعات البرتغاليّة. ولقد قاد أتباع الطريقة الشاذليّة، في تلك الحقبة، الجهاد ضد الأوروبيّين الذين استقرّوا في نقاط مختلفة من الساحل الأطلسي. وقد ساعد هؤلاء محمّد المهدي - المتحدّر من عائلة عربية حَسَنيّة، متحدّرة بدورها من أخ لمحمّد النفس الزكيّة - للاستيلاء على الحكم واعلان نفسه ملكًا في العام ١٥٠٠، في مقاطعته الواقعة في جنوب البلاد. وكانت الغلبة لأحد إبنيْ محمّد اللذين ملكا في ما بعد، ويدعى أيضًا محمّدًا، فكان المؤسّس الحقيقي للدولة

السعديّة. لقد صمد وانتصر على بني وطاس الفاسيّين، واستولى للمرّة الأولى على مدينتهم فاس ونودي به سلطانًا في العام ١٥٥٤، لكنّه اغتيل في العام ١٥٥٧ لأنّه طلب مساعدة الإسبان ضد العثمانيّين وحلفائهم. إلّا أنّ خلفاءه تابعوا السياسة المناهضة للأتراك، فأعادوا تنظيم جيوشهم على النمط العثماني ليضاعفوا فعاليّتها.

وكان أشهرهم في نهاية القرن السادس عشر أحمد المنصور الذي جعل همّه الأوّل الحفاظ على النظام في المغرب، وكانت عاصمته حينئذ مراكش، وأراد أن يضمن، ضدّ كل التدخّلات الأجنبيّة، استقلال البلاد الذي وفّره له انتصاره في العام ١٥٧٨، ذلك الانتصار الذي سمح له باعتلاء العرش. وكان يحرص على الدفاع عن نفسه ضد الأتراك والأوروبيّين معًا؛ ونجح أيضًا بإرسال جيوشه حتّى تومبوكتو التي احتلّها، واضعًا حدًّا لمملكة غاو، ووسّع هكذا سلطته من السنغال حتى النِّيجر لمدّة قصيرة. فضلًا عن ذلك، كان المنصور من كبار البناة فجمّل مدينة مراكش حيث كان مقرّه وحيث جذب بلاطه اللّامع رجال الأدب والعلم.

غير أنّ المنافسات التي اندلعت بين أبنائه بعد وفاته في العام ١٦٠٣، حالت دون مواجهتهم المصاعب التي نشأت في بداية القرن السابع عشر: محاولات إسبانيّة جديدة على الساحل أسفرت عن التنازل عن العرائش في العام ١٦١٠، وبخاصة معارضة أصحاب الطرائق الصوفيّة للسلالة الحاكمة. وتاليًا لم يعد يسيطر الملوك السعديّون الأخيرون إلّا على مراكش. واختفى آخر ممثل لسلالتهم في العام ١٦٥٩، في حين استقرّت، في شمال البلاد، عائلة أشراف جديدة من العلويّين الذين عُرفوا أحيانًا بالفلاليّين نسبة إلى موطنهم الأصلي الفلاليّة في واحة تافيلالت.

محمّد المهدي القائم بأمر الله	١٥٠٩ - ١٥١٧
أحمد الأعرج	١٥١٧
محمّد الشيخ المهدي ابن محمد المهدي	١٥١٧ - ١٥٥٧
عبدالله الغالب	١٥٥٧ - ١٥٧٤
محمّد المتوكل على الله	١٥٧٤ - ١٥٧٦
عبد الملك بن محمد الشيخ المهدي	١٥٧٦ - ١٥٧٨
أحمد المنصور	١٥٧٨ - ١٦٠٢
محمّد الشيخ المأمون	١٦٠٢ - ١٦١٣
عبدالله الواثق	١٦١٣ - ١٦٢٤
زيدان الناصر	١٦٢٤
عبدالملك بن زيدان	١٦٢٤ - ١٦٢٧
محمّد الأصغر	١٦٢٧ - ١٦٥٤
أحمد العبّاس	١٦٥٤ - ١٦٥٩

◄ راجع المستند رقم ٦٨.

سعود ← آل سعود.

السعودية (المملكة العربيّة)، مساحتها ٦٩٠ ١٤٩ ٢ كلم[٢]، عاصمتها الرياض. دولة إسلاميّة مستقلّة تأسّست في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة/القرن الثامن عشر للميلاد في شبه الجزيرة العربية وتحكمها أسرة آل سعود التي أعطتها إسمها.

تشمل المملكة منطقة نجد التي بسط عليها الأمراء السعوديّون الأوائل نفوذهم، ومنطقة الحجاز التي تحتضن أماكن الإسلام المقدّسة، كما تشمل مساحات واسعة تمتدّ من شواطئ البحر الأحمر إلى الخليج العربي. لكنّها لا تضمّ جنوب الجزيرة ولا شرقها، اذ تنتهي حدودها عند اليمن وعُمان والإمارات العربيّة المتّحدة وقطر والبحرين، كما تنتهي حدودها شمالًا عند الكويت والعراق والأردن. وهي تُطلّ بحرًا على إيران من جهة، وعلى مصر والسودان من جهة أخرى.

أمّا سكانها فقليلو العدد، وهم يتكوّنون في الأساس من البدو الرّحل في غالبيّتهم، ويقدّر عددهم اليوم بثمانية عشر مليون نسمة، وقد تخلّوا عن حياة البداوة في العقود الأخيرة واستقرّوا في المدن. وعدد السكّان القليل لم يقف حائلًا دون اكتساب المملكة، خارج العالم الاسلامي وداخله، نفوذًا سياسيًّا بفعل غنى مواردها النفطيّة. وهذا الوضع يُفسّر، بالمقابل، أسباب الأطماع من قبل الدول العربيّة المجاورة والأقلّ غنى كالعراق، أو من قبل الدول القويّة المنافسة كالدولة الايرانيّة التي تسيطر على السواحل المقابلة للخليج. ومن الصعوبات السياسية الأخرى تعاظُم موجات الهجرة إلى المملكة، وهذا يساهم في تعويض النقص السكّاني، لكنّه لا يؤثّر على الخيار الديني الإسلامي. وتجدر الإشارة إلى أنّ المملكة السعودية اتّصفت وتتّصف دائمًا بتطبيق نظام ديني يخضع لقواعد الشريعة الإسلاميّة

بحسب مذهب الحركة الاصلاحيّة الوهّابية السنيّة الذي تبنّاه المؤسّسون.

والمملكة الحاليّة، التي عُرفت بهذا الاسم منذ سنة ١٩٣٢، بدأت تنتظم في سنة ١٩٠٢ على يد الأمير عبد العزيز بن سعود، المعروف في الغرب باسم ابن سعود. وقد قامت على أعقاب إمارتين سابقتين سعوديّتين لم تعمّرا طويلاً، كانتا قد تبنّتا تنظيمًا يمتاز بفرادته ويقوم على القواعد المستوحاة من المذهب السنّي الحنبلي. ويعود الفضل في ذلك إلى فقيه حرص على تطبيق موجبات الإسلام الأوّل ومحاربة بعض الممارسات التقويّة، وهو الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب (١١١٥ - ١٢٠٧هـ/ ١٧٠٣-١٧٩٢م). وقد ولد في الدّرْعِيَّة التي أصبحت عاصمة الأمير محمّد بن سعود، زعيم قبائل منطقة نجد وقّع إبن عبد الوهّاب مع إبن سعود، منذ العام ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م، اتفاقًا يقضي باعلاء «كلمة الله» في الجزيرة، أي بتطبيق أحكام الشريعة كاملةً.

ظلّ أعضاء الأسرة السعوديّة الحاكمة الذين ناضلوا لتثبيت سلطتهم أوفياء، في ما بعد، لمبادئ الحركة الإصلاحيّة التي حملت إسم مؤسّسها الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب. من هذه المبادئ تحريم تكريم الأولياء، ما دفع إلى هدم الأضرحة الموقّرة، حتّى تلك التي لها طابع التعظيم. إلّا أنّه أُجيزت زيارة ضريح النبيّ (ﷺ) في المدينة، إستنادًا إلى فتوى قديمة لإبن تيميّة الذي استوحى منه إبن عبد الوهّاب مبادئه. أمّا على الصعيد السياسي، ويوحي من المبادئ الوهّابية عينها، فإنّ المملكة دولة يقوم دستورها على الشريعة الإسلاميّة، ويحكمها ملك يتمتّع بسلطات تنفيذيّة وتشريعيّة، ولكنّه مُلزَم باحترام الشريعة؛ ويعاونه، منذ سنة ١٩٥٣، مجلس وزاري. فالشريعة الإسلاميّة تُطبّق بكلّ صرامتها، ليس على المواطنين السعوديّين وحدهم، بل أيضًا على الأجانب غير المسلمين المقيمين في المملكة.

والمملكة العربيّة السعوديّة المؤتمنة على تقاليد دينيّة عريقة تحتلّ موقعًا مميّزًا ومركزيًّا يخوّلها رعاية الحجّ إلى مكّة المكرّمة والأماكن المقدّسة التي يعتبر الملك نفسه حارسها وخادمها. وبفضل مداخيل النفط الذي اكتُشف مباشرة قبل الحرب العالميّة الثانية، تحوّلت إلى دولة حديثة دخلتها التقنيّات الغربيّة بمختلف أشكالها. وقد شيّدت مدن حديثة تصل بينها طرق واسعة، عرفت نموًّا ديموغرافيًّا سريعًا، في حين أنّ البداوة التقليديّة لم تعد عمليًّا قائمة إلّا بالنسبة إلى عدد محدود من البدو.

◄ راجع المستند رقم ٧.

السعوديّون ← آل سعود.

سعيد أو سعيد باشا، ١٨٢٢ - ١٨٦٣، الإبن الرابع لمحمّد علي، حكم في مصر من العام ١٨٥٤ حتّى وفاته كخديوي شبه مستقلّ.

خلف أباه بعد وفاة أخيه ابراهيم باشا وبعد الفترة القصيرة لحكم ابن أخيه عبّاس الأوّل. كان حريصًا على إدارة البلاد ومصالحها، فسهر على الوضع الداخلي: إحترم، بدبلوماسيّة، الوصاية العثمانيّة من دون أن يتراجع عن سياسة التحديث التي سبق اعتمادها، ولكنّه تخلّى عن كل أطماع التوسّع في اتّجاه الجنوب. أهمّ إنجاز له كان بلا شكّ المباشرة بمشروع قناة السويس الذي بدأ تنفيذه في العام ١٨٥٩، بعيد حصول الفرنسي فرديناند دو لسبس (Ferdinand de Lesseps) على الامتياز. ويعود إليه الفضل في إنشاء مدينة بور سعيد في العام ١٨٥٩.

السَّفاح، أبو العبّاس، ؟ - ١٣٦هـ/ ؟ - ٧٥٤م، أوّل خليفة في سلالة العبّاسيّين، حكم من العام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م الى ١٣٦هـ/ ٧٥٤م، ونجح في تثبيت سيطرته إثر نجاح ما عُرف بـ «الثورة العبّاسيّة».

كان أبو العبّاس، الذي سيُعرف بالسفّاح في ما بعد، أخًا غير شقيق لابراهيم [الإمام]. وقد قاد هذا الأخير، بعد موت والده محمّد بن علي، حركة معارضة ناجحة ضدّ الأمويّين، ثمّ قبض عليه الخليفة الأموي مروان الثاني في العام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م، ومات في السجن في العام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م. ومن بعده اتّجهت آمال العائلة الى السفّاح الذي اختار الكوفة للإقامة فيها مع عشيرته ومحازبيه، عند اقتراب الجيش الذي أرسله أبو مسلم إلى من العراق.

إلّا أنّ تسلّمه مقاليد الحكم الذي جرى على حساب العلويّين لم يلِ مباشرةً الاستيلاء على الكوفة، لأنّ

الداعية أبا سلَمة أخّر موعد الإعلان عن خليفة جديد، فأخذ المبادرة رسول آخر اكتشف مخبأ العبّاسي المطالب بالعرش. وقام أبو العبّاس، بغية توطيد سلطته، باستئصال السلالة الأمويّة من الشرق بقتل جميع أفرادها، بعد أن دعاهم [عمُّه عبدالله بن علي] الى اجتماع في أبي فُطرس في فلسطين. لكنّ شابًا يافعًا من السلالة، هو عبدالرحمن، تمكّن من الهرب والانتقال إلى الأندلس، بعد مغامرات عديدة، حيث نشأت من جديد سلالة أميريّة تحوّلت إلى خلافة أمويّة عاصمتها قُرطبة. لذلك أطلق المؤرّخون العرب على العبّاس لقب السفّاح بعد قيامه بعمليّة الاغتيال الجماعيّة، وهذا اللقب يعني الدمويّ القاتل. من المحتمل أن يكون أبو العبّاس قد عُرف بهذا اللقب قبل اعتلائه العرش، وهو يعني، كذلك، «الكريم». مهما يكن من أمر، فإنّه، قبل وفاته في العام ١٣٦هـ/ ٧٥٤م، أعدم الداعية أبا سَلَمة، رجل ثقته السابق، لأنّه استشعر منه محاولة لخيانة القضيّة العبّاسيّة خلال أحداث الكوفة.

السفيانيّون ← الأمويّون.

السكّة ← المسكوكات الإسلاميّة.

سكوتاري ← أُسكودار.

سلا، (المملكة المغربيّة)، بلدة مرفئيّة تقع في مقابل الرباط على الضفّة الشمالية من نهر بو رقراق، وتحتفظ بمعالم من ماضيها القروسطي الغني. ويبدو أنّ المدينة تأسّست في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، على أيدي الأدارسة، وأُعطيت إسم مدينة رومانيّة ما تزال خرائبها قائمة الى اليوم قرب موقع شلّا (Chella) الحالي. وفي القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، كانت عاصمة مملكة صغيرة تتصارع مع جيرانها (قبيلة بُرغواطة) الذين كانوا في الجهة الجنوبيّة. وسريعًا ما تحوّلت إلى مرفإ ناشط يقصده التّجار من الأندلس. وفي زمن المرينيّين أُحيطت المدينة بسور منيع، وأُنشئت فيها ترسانة لبناء السفن، وذلك في الوقت الذي كانت فيه السواحل المغربيّة مهدّدة من قبل الإسبان. في القرنين التاسع والعاشر للهجرة/الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، بقيت سلا بمنأى عن أطماع الملوك المسيحيّين. وفي القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد، استقبلت الموريسكيّين بعد طردهم من إسبانيا، وقد توصّل هؤلاء إلى إقامة إمارة مستقلّة في الرباط وسلا، فاشتهرت سلا ببحريّتها وبنشاط القراصنة، ولكنّ ذلك لم يُعق الحركة التجاريّة فيها.

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد، شكّلت سلا جزءًا من المملكة الشريفيّة العلويّة، وحافظت على فرادتها كمدينة تتميّز بمجتمعها الأرستقراطي المثقّف. وما تزال الى اليوم تتميّز بوجود الأسر الكبيرة التي تحافظ على تقاليدها المتوارثة. وهي تعكس صورة مدينة قديمة بدون أسوار، يحمي مرفأها «باب البحر» الذي ما يزال قائمًا، وقد بناه السلطان المريني أبو يوسف يعقوب. أمّا منازلها القديمة فتجاور أبنية دينيّة مهمّة، منها مدرسة شُيّدت في زمن المرينيّين، ومسجد جامع يعود إلى عهد الموحّدين. وهذه المعالم المعماريّة تعاني التطوّر الديموغرافي المتزايد، الذي جعل المدينة الصغيرة ضاحية مكتظّة بالسكان وتابعة لمدينة الرباط.

◄ راجع المستند رقم ١٤.

السلاجقة، سلالة من القادة الأتراك، قدّمت سلاطين أسّسوا أمبراطوريّة السلاجقة الكبار، وقادةً تقاسموا السلطة في العراق وإيران وسوريا خلال القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. ثمّ قام منهم فرع عُرف أصحابه باسم سلاجقة الروم وأدّوا دورًا أوصلهم، في فترة متأخّرة، إلى الذروة.

١ - **السلاجقة الكبار** (٤٢٩ - ٥٩٠هـ/١٠٣٨ - ١١٩٤م)، وصل السلاجقة الكبار إلى الحكم إثر انتصارات حقّقها غزو قبائل رحّل قدمت من داخل آسيا، وأوجدت في المناطق المحتلّة تغييرًا إجتماعيًا ترافق مع تطوّرات عميقة أثّرت في مجرى التاريخ. وقد فرض قادة السلاجقة وصابتهم على الخلافة العبّاسيّة وعلى بطانتها وأفراد أسرتها الذين كانوا قد تسلّموا مقاليد الحكم في مختلف الأقاليم.

كان للازدهار الفنّي والفكري الذي طبع حكم عظماء سلاطينهم تأثير كبير على مجمل المناطق التي

توحّدت لوقت قصير، أي على القسم الشرقيّ من العالم الإسلامي الذي كان تحت حُكم العبّاسيّين المباشر، وقد أضافوا إليه سوريا التي انتُزعت من الفاطميّين، والأناضول الذي انتُزع من البيزنطيّين. والسلاطين السلاجقة أنفسهم بدأوا صعودهم كقادة عشائر فرضوا سلطتهم على قبيلة الغزّ التركيّة التي كانت تترحّل في السهوب القريبة من بلاد ما وراء النهر، ثمّ تغلغلوا في هذا الاقليم الواسع حيث دخلوا في خدمة دولة القراخانيّين التركية، قبل أن يباشروا العمل لمصلحتهم الخاصة. وقد تفاهموا لمدّة مع الغزنويّين، ثمّ اجتاحوا المناطق الغنيّة في خراسان والمناطق المتبقّية من إيران. وكان على رأس هؤلاء السلاجقة طُغرل بك الذي أعانه أخوه جغري بك، فأعلن قيام حكمه سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م في نيسابور، وذلك قبل أن يوطّده في أصفهان وبغداد.

والسلاجقة الأوائل الكبار، طغرل بك، ألب أرسلان وملكشاه، حصلوا على لقب سلطان من الخليفة العبّاسي نفسه، مع صلاحيّات واسعة في السلطة. وقد قدّموا دائمًا أنفسهم كمدافعين عن الخلافة العبّاسيّة وعن عقيدة السنّة، كما كانوا في الوقت نفسه أصحاب سلطة فعليّة امتدّت، لـ ـة نصف قرن تقريبًا، على مناطق واسعة تنطلق من البحر المتوسّط لتصل إلى سهوب آسيا الوسطى. إنّ الدولة التي أنشأها السلاجقة عانت، منذ البداية، الصراع بين الطامحين إلى العرش، وقد قوي هذا الصراع بعد موت ملكشاه. والواقع أنّ السلطة عند الأتراك كانت تُعتبر مُلكًا للأسرة، وهذا المُلك يبقى بيد من يكون الأكبر سنًّا، لكن كانت تبرز دائمًا حجج وذرائع تحمل على الاعتراض. وهذا ما اضطرّ السلاطين إلى أن يصرفوا قسمًا كبيرًا من جهودهم في الصراع مع منافسيهم. وهكذا اضطرّ طغرل بك إلى تصفية أحد أقربائه، كما أنّ ألب أرسلان، وهو ابن أخي طغرل بك - وكان هذا الأخير قد اختاره خلفًا له - اصطدم بسلجوقي آخر هو قُتُلْمُش. أمّا ملكشاه الذي خلف أباه من دون متاعب تُذكر، فقد خاصمه أحد أعمامه وكان يقيم في كرمان.

ومرّت الدولة، بعد ذلك، في مرحلة من النزاع الداخلي المتفاقم لم تستطع مجابهته إلّا بصعوبة. فقد وقع الخصام، وكان دامِيًا أحيانًا، بين أبناء ملكشاه وأحد إخونه. وهذا الأخير، وهو تُتُش مؤسّس السلالة السلجوقيّة التي حكمت سوريا مدّة قصيرة، هلك سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، خلال المعارك التي قادها مطالبًا بالحكم. كما أنّ السلطة التي مارسها إبنا ملكشاه، بركياروق ومحمّد، كانت موضوع نزاع. أمّا سنجر، آخر من أُعلن سلطانًا على الأمبراطوريّة بكاملها، فقد آلت إليه خراسان منذ العام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، ولكنّه تصرّف منذ هذا التاريخ كسلطان فعليّ، على قدم المساواة مع إخوته المتوّجين في بغداد. وفي سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، أصبح بدوره سيّدًا على الأمبراطوريّة، لكن شاركه في السلطة سلجوقيّ آخر اختير من بين سلاجقة العراق. وجاء موت سنجر سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م لتنتهي معه دولة السلاجقة الكبار التي كانت قد تفكّكت منذ سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م. إنّ آخر ممثّلي الأسرة التي استمرّت في العراق حتّى أزالها الخوارزمشاهيّون سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م كانوا أشبه بدمى ومن دون سلطة حقيقيّة.

عندما كانت دولة السلاجقة الكبار في أوج عظمتها، فرض ملوكها على خلفاء بغداد مطالب غالبًا ما كانت تتعلّق بالزواج [من بنات الخلفاء]، وقد تسبّبت هذه المطالب بمتاعب جدّية. إنّ ملكشاه مثلًا أمر الخليفة بأن يترك بغداد، لكن وفاة السلطان أنقذت الخليفة. مع ذلك فإنّ هؤلاء السلاطين كانوا يعتبرون أنفسهم سندًا لسلطة الخليفة وشرعيّته. وعلى هذا الأساس اتّخذ ألب أرسلان وملكشاه نظام الملك، وهو إيراني مشهور، وزيرًا، فأنشأ في بغداد أوّل مدرسة سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م، وأتبعها بعدد من المدارس في مختلف أرجاء الأمبراطوريّة، وكانت الغاية تقوية السنّة ونشر تعاليمها. وقبل ذلك كانت المناطق التي اعترفت بسلطة الخليفة قد أصبحت واسعة، إذ امتدّت نحو الأناضول التي توغّل فيها ألب أرسلان إثر انتصاره على البيزنطيّين في معركة مانتزيكرت/ملازكرت، سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، كما امتدّت نحو سوريا حيث قبل ملكشاه بأن يعتلي أخوه تُتُش عرش دمشق سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م، في حين عيّن أحد قوّاده واسمه آقْسُنْقر حاكمًا على حلب.

والتفكّك النهائي لأمبراطوريّة السلاجقة الكبار كرّس، في آن، إستمرار عدد من فروع السلالة السلجوقيّة في مناطق أسّسوا فيها إمارات محلّيّة، ونشوء سلطات سلاليّة في مناطق أخرى كان أصحابها إمّا رؤساء قبائل من أصل تركي، كالدانِشْمَنْديّين في الأناضول والأرتقيّين في بلاد ما بين النهرين العليا، وإمّا أشرافًا من الدولة السلجوقيّة يحملون في أغلب الأحيان لقب «أتابك»، كالبوريّين في دمشق، والزنكيّين في بلاد ما بين النهرين العليا وسوريا، والأيلْدكُزيّون في أذربيجان والسلغوريّين في فارس. وبين الفروع السلجوقيّة المتّصلة مباشرة بالسلاجقة الكبار، فإنّ الفرع الذي حكم سوريا زال سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، وذلك الذي حكم حلب زال سنة ٥١١هـ/١١١٧م، في حين أنّ الذي حكم كرمان بقي حتّى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، والذي حكم العراق استمرّ حتّى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م.

السلاجقة الكبار:

ركن الدين والدنيا طغرل الأول	٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٨-١٠٦٣م
عضد الدولة ألب أرسلان	٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٣م
جلال الدولة ملكشاه الأوّل	٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٣-١٠٩٢م
ناصر الدين محمّد الأوّل	٤٨٥-٤٨٨هـ/١٠٩٢-١٠٩٥م
ركن الدين بركياروق	٤٨٨-٤٩٨هـ/١٠٩٥-١١٠٥م
معزّ الدين ملكشاه الثاني	٤٩٨هـ/١١٠٥م
غياث الدين محمّد الثاني	٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٥-١١١٨م
معزّ الدين سنجر	٥١١-٥٥٢هـ/١١١٨-١١٥٧م

سلاجقة العراق:

مغيث الدين محمود الثاني	٥١١-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣١م
غياث الدين داود	٥٢٥-٥٢٦هـ/١١٣١-١١٣٢م
ركن الدين طغرل الثاني	٥٢٦-٥٢٩هـ/١١٣٢-١١٣٤م
غياث الدين مسعود	٥٢٩-٥٤٧هـ/١١٣٤-١١٥٢م
معين الدين ملكشاه الثالث	٥٤٧-٥٤٨هـ/١١٥٢-١١٥٣م
ركن الدين محمد الثاني	٥٤٧ ٥٥٥هـ/١١٥٣ ١١٦٠م
غياث الدين سليمان شاه	٥٥٥-٥٥٦هـ/١١٦٠-١١٦١م
معزّ الدين أرسلان	٥٥٦-٥٧١هـ/١١٦١-١١٧٦م
ركن الدين طغرل الثالث	٥٧١-٥٩٠هـ/١١٧٦-١١٩٤م

٢ - سلاجقة كرمان (٤٣٣-٥٨٣هـ/١٠٤١-١١٨٧م)، طوّر سلاجقة كرمان سلطتهم الخاصة بموازاة سلطة السلاجقة الكبار، وبسطوا مُلكهم على مقاطعة إيرانيّة تمتّعوا فيها باستقلال شبه كامل.

مؤسّس السلالة هو قاوُرْد المعروف أيضًا باسم قرا أرسلان، وهو ابن «چغري بك» وابن أخي السلطان الأوّل طغرل بك. عرف منذ سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م كيف يستفيد من الغزو التركي ليثبّت نفسه أميرًا على «بَرْدَسير» عاصمة منطقة كرمان، وقد اتّخذت هذه العاصمة لاحقًا اسم المقاطعة. وعلى الرغم من نجاحاته السياسيّة المحلّيّة وحرصه على جعل اسمه مميّزًا، فإنّه لم يتوصل إلى أن يحلّ على رأس الأمبراطوريّة التي أسّسها طغرل بك، لا محلّ أخيه ألب أرسلان ولا محل ابن أخيه ملكشاه اللذين تعاقبا على السلطة العليا بعد طغرل بك. وقد أُعدم سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م إثر محاولة مسلّحة لانتزاع السلطة. أمّا ولده فقد ثبّته ملكشاه على مقاطعة كرمان حيث عمل مع خلفائه على مقاومة تدفّق جماعات غير منضبطة من قبيلة الغزّ، وقد عمدت هذه الجماعات، بعد أقلّ من نصف قرن، إلى وضع حد لسلطة السلاجقة باستيلائها على «بردسير» سنة ٥٨٤هـ/١١٨٧م.

عماد الدين قاوُرد	٤٣٣-٤٦٦هـ/١٠٤١-١٠٧٣م
كرمان شاه	٤٦٦-٤٦٧هـ/١٠٧٣-١٠٧٤م
حُسين	٤٦٧هـ/١٠٧٤م
ركن الدولة سلطان شاه	٤٦٧-٤٧٨هـ/١٠٧٤-١٠٨٥م
محيي الدين طوران شاه الأوّل	٤٧٨-٤٩٠هـ/١٠٨٥-١٠٩٧م
بهاء الدين إيران شاه	٤٩٠-٤٩٤هـ/١٠٩٧-١١٠١م
محيي الدين أرسلان شاه الأوّل	٤٩٤-٥٣٧هـ/١١٠١-١١٤٢م
مغيث الدين محمّد الأوّل	٥٣٧-٥٥١هـ/١١٤٢-١١٥٦م
محيي الدين طغرل شاه	٥٥١-٥٦٦هـ/١١٥٦-١١٧٠م
بهرام شاه	٥٦٦-٥٧١هـ/١١٧٠-١١٧٥م
أرسلان شاه الثاني	٥٧١-٥٧٢هـ/١١٧٥-١١٧٦م
طوران شاه الثاني	٥٧٢-٥٧٩هـ/١١٧٦-١١٨٣م
محمّد الثاني	٥٧٩-٥٨٢هـ/١١٨٣-١١٨٦م

٣ - سلاجقة سوريا (٤٧١-٥١١هـ/١٠٧٨-١١١٧م)، حكم سلاجقة سوريا، لفترة قصيرة، دمشق وحلب بعد انتزاعهما من الفاطميّين، ولم ينجح ممثّلهم الرئيسي في الوصول إلى عرش السلاجقة الكبار.

هذا القائد السلجوقي، إبن السلطان ألب أرسلان، هو تاج الدولة تُتُش (٤٥٧-٤٨٨هـ/١٠٦٥-١٠٩٥م)

وقد لقي صعوبات كثيرة في تثبيت سلطته على بلاد تقاسمها عدد كثير من رؤساء العصابات الأتراك، بعد نتزاعها من أسيادها الشيعة. وعلى الرغم من تقديمه لولاء لأخيه السلطان ملكشاه، فقد منعه هذا الأخير من دخول منطقتي حلب والرها اللّتين أقطعهما لقادة أتراك كان قد رأى فيهم الولاء الكامل. وحده موت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ساعد تُتُش على أن يقهر منافسيه لمحليّين، وذلك قبل فترة قصيرة من هلاكه ضحيّة طموحاته، خلال صراعه على السلطة مع إبن أخيه بركيارُوق.

بعد موت تُتش، اقتسم ولداه المملكة، ولكنّ دُقاق سيّد دمشق أُرغم على التخلّي عن الحكم لأتابكه الخاص طغتكين، مؤسّس السلالة البوريّة. أمّا أسياد حلب، لمتحدّرون من سلالة رضوان، فقد استمرّوا في الحكم عشر سنوات أخرى.

تاج الدولة تُتُش	٤٧١-٤٨٨هـ/ ١٠٧٨-١٠٩٥م
دُقاق (في دمشق)	٤٨٨-٤٩٧هـ/ ١٠٩٥-١١٠٤م
في حلب:	
رضوان	٤٨٨-٥٠٧هـ/ ١٠٩٥-١١١٣م
ألب أرسلان الأخرس	٥٠٧-٥٠٨هـ/ ١١١٣-١١١٤م
سلطان شاه	٥٠٨-٥١١هـ/ ١١١٤-١١١٧م

٤ - سلاجقة الروم أو سلاجقة الأناضول (٤٧٠-٧٠٧هـ/ ١٠٧٧-١٣٠٧م)، يرجع هؤلاء بنسبهم البعيد إلى السلاجقة الكبار، وقد بنوا شيئًا فشيئًا أمبراطوريّة في الأراضي التي كان قد احتلّها السلطان ألب أرسلان، وأُطلق على أصحابها اسم سلاجقة الروم، كون دولتهم قامت في بلاد الروم.

وقبل أن تصل قوّتهم إلى ذروتها في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، بفضل إنجازاتهم الحربيّة والدبلوماسيّة، وأيضًا بفضل ازدهار النشاط التجاري في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم، فإنّ سلاجقة الروم مرّوا بصعوبات متعدّدة خلال تأسيس دولتهم في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. فقد قامت تلك الدولة وسط الاضطرابات التي تلت معركة مانتزيكرت/ ملازكرت، وتدفّق الجماعات التركيّة إلى داخل الممتلكات البيزنطيّة السابقة، للإشتراك في عمليات الجهاد ولاقتطاع مناطق نفوذ خاصة بها.

وخلال الصراع المرير الذي خاضه سليمان بن قُتُلْمُش ضدّ منافسيه - وكان والده قد ثار من قبل ضدّ ألب أرسلان - توصّل إلى أن يصبح، سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، سيّدًا على مقاطعة صغيرة حول نيقية (إزنيق)، غير بعيدة عن القسطنطينية؛ لكنّه قُتل لاحقًا سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م عندما أراد التوسّع باتّجاه سوريا. أمّا ولده عزّالدين قلج أرسلان الأوّل، فلم يكن بعد ذلك سوى قائد تركي بين سائر الغزاة الذين تقاسموا الأرض التي تمّ ضمُّها إلى الإسلام. إنّ وضعه الهش، على حدود مملكة الدانِشْمَنْديّين الواسعة، ازداد سوءًا بسبب مرور الحملة الصليبيّة الأولى التي اضطرته إلى الانكفاء نحو قونية.

من هذه المدينة التي أصبحت العاصمة الثابتة للسلالة، انطلقت لاحقًا حملات خلفائه السياسيّة والعسكريّة. وكان هؤلاء يعتمدون محالفة البيزنطيّين حينًا ومحاربتهم أحيانًا، كما أنّهم هاجموا الأمراء الأرمن في كيليكيا، والفرنج في الرُّها. وقد ساعدتهم انتصاراتهم الحربيّة على توسيع مساحة مملكتهم بضمّ أراضي السلالات المسلمة المنافسة والقريبة، كالدانِشْمَنْديّين والأُرْتُقيّين، وكذلك البعيدة كالأيوبيّين في سوريا والخوارزمشاهيّين. ولكنّهم اضطرّوا بعد ذلك إلى دفع الجزية للمغول الذين هزموهم سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م. بعد ذلك، انتزع الإيلخانيّون منهم المُلك سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، فتركوا الساحة عندئذ للأمراء التركمان الذين اقتسموا الأناضول الممزّق في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. ومن صفوفهم خرج مؤسّسو أمبراطوريّة جديدة هي الامبراطوريّة العثمانيّة.

خلال هذه المدّة استطاع كبار أسياد السلالة، كعزّ الدين قلج أرسلان الثاني، وغياث الدين كيخسرو الأوّل، وعزّالدين كيكاوس الأوّل، وخصوصًا علاء الدين كيقباذ الأوّل، أن يجعلوا من ممتلكاتهم في الأناضول - التي انفتحت تدريجيًّا على البحر المتوسط عبر أنطاليا وعلانيا في الجنوب، وعلى البحر الأسود عبر مرفأ سينوب في الشمال - محورًا لحركة تجاريّة أعطوا امتيازها البحري للبنادقة. وكانوا بأنفسهم يراقبون نقل

السلع ويسهّلون مرورها برًّا، بفضل شبكة الخانات التي بنوها على طرق القوافل المهمّة التي تجتاز بلادهم، وهذا ما كان في أساس غنى دولتهم. والرفاهية التي أحاطوا بها أنفسهم كانت تعكس الازدهار الاقتصادي الذي نعمت به مملكتهم. والغزّ الذي تطوّر في كنفهم يمكن أن نتعرّف اليه من خلال الأبنية الحجريّة المتقنة والزخارف الدقيقة، ومن خلال بريق الخزفيّات والشواهد الأخرى الدالّة على الازدهار الحرفيّ المحلّي. وقد حُفظت معالم أثريّة مميّزة في عاصمتهم قونية، كما بقيت لهم آثار في مناطق الأناضول الأخرى التي كان لسلاجقة الروم فيها وجود أو تأثير. حتى إنّ مرحلة الانحطاط شهدت ازدهارًا عمرانيًّا بفضل الوزير صاحب عطا، والأبنية التي تركوها خليقة بأن تكون عنوانًا لعظمتهم.

سليمان بن قتلمش[٥٦]	٤٧٠-٤٧٩هـ/١٠٧٧-١٠٨٦م
عزّ الدين قلج أرسلان الأوّل	٤٧٩-٤٨٥هـ/١٠٨٦-١٠٩٢م
ملكشاه	٤٨٥-٥٠٠هـ/١٠٩٢-١١٠٦م
ركن الدين مسعود الأوّل	٥٠٠-٥١٠هـ/١١٠٦-١١١٦م
عزّ الدين قلج أرسلان الثاني	٥١٠-٥٥١هـ/١١١٦-١١٥٦م
قطب الدين ملكشاه الثاني	٥٥١-٥٨٤هـ/١١٥٦-١١٨٨م
غياث الدين كيخسرو الأوّل	٥٨٤-٥٨٨هـ/١١٨٨ ١١٩٢م
ركن الدين سليمان الثاني	٥٨٨-٥٩٧هـ/١١٩٢-١٢٠٠م
عزّ الدين قلج أرسلان الثالث	٥٩٧-٦٠٠هـ/١٢٠٠-١٢٠٣م
عزّ الدين كيكاوس الأوّل	٦٠٠-٦٠١هـ/١٢٠٣-١٢٠٤م
علاء الدين كيقباذ الأوّل	٦٠١ ٦١٦هـ/١٢٠٤-١٢١٩م
غياث الدين كيخسرو الثاني	٦١٦-٦٣٤هـ/١٢١٩-١٢٣٧م
عزّ الدين كيكاوس الثاني	٦٣٤-٦٤٤هـ/١٢٣٧-١٢٤٦م
ركن الدين قلج ارسلان الرابع	٦٤٤-٦٥٥هـ/١٢٤٦-١٢٥٧م
غياث الدين كيخسرو الثالث	٦٥٥-٦٨١هـ/١٢٥٧-١٢٨٢م
غياث الدين مسعود الثاني	٦٨١-٦٩٢هـ/١٢٨٢-١٢٩٣م
علاء الدين كيقباذ الثالث	٦٩٢-٧٠٢هـ/١٢٩٣-١٣٠٣م
غياث الدين مسعود الثالث	٧٠٢-٧٠٧هـ/١٣٠٣-١٣٠٧م

◄ راجع المستندات ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٦٤ و٧٠.

السلاح الإسلامي، هو مجموعة التجهيزات الحربيّة التي استُعملت في البلدان الإسلاميّة خلال العصور القديمة. وقد تأثّرت، كما الأبنية العسكريّة، بالأوضاع المحلّيّة وبالتطوّر التقني، أكثر ممّا تأثّرت بسمات خاصة بالمجتمع الإسلامي.

وإذا ما ظهر بعض التأثير للإسلام في التنظيم العسكري الذي استجاب لمخطّطات التوسّع الأولى، ونتج عنه النجاح الذي أحرزته الفتوحات الكبرى، فإنّ خصوصيّات السلاح الذي استعملته الفرق العربيّة الإسلاميّة تعود إلى الأساليب القتاليّة المتّبعة سابقًا في الأوساط البدويّة في الجزيرة العربيّة. ولم يعرف السلاح تطوّره التدريجي إلّا مع الاحتكاك بالشعوب الحضريّة المتنوّعة التي دخلت عالم الإسلام. والإرث القديم الذي تركته بيزنطية، فضلًا عن التقاليد الإيرانيّة الساسانيّة، كان له أيضًا أهمّيته. فمنه استوحيَت النماذج الأولى للتحصينات الدفاعيّة التي رافقت تأسيس المدن، كما كان في أساس تجهيز الجيوش الأمويّة، وخصوصًا العبّاسيّة، بالأسلحة الثقيلة. إلّا أنّ معرفة ذلك السلاح تبقى غامضة، لكن يمكن القول إنّه سلاح يختلف عن التجهيزات الخفيفة التي استُعملت في القرن الأوّل الهجري من قبل العناصر القبليّة القادمة من الجزيرة العربيّة.

وفي حصار المدن، استُعملت بعد ذلك آليات لم تكن موجودة، كما ظهر في حصار الأمويّين للقسطنطينيّة. لكنّها أُعدّت بمهارة في ما بعد بحسب ما تفيد المصنّفات التي وضعت في عهد الصليبيّين وكانت القصور الخليفيّة والأميريّة تملك مخازن مليئة بالأسلحة الفرديّة من كلّ نوع، كما يفيد مدوّنو الأخبار. ومنها الشكّة، والتروس، والدروع، والسيوف على أنواعها، والرماح، والأقواس، ورامیات السهام. وتضاف إليها آليّات الرماية الثقيلة كالمجانيق والعرّادات، إلى جانب القاذفات والأسهم التي تقذف النار اليونانيّة وهي تعتمد على مادة حارقة مستخرجة من النفط وكانت تقنيّة هذا السلاح الأخير قد وضعها البيزنطيّون قبل أن تصل إلى أيدي العلماء المسلمين الذين طوّروا وسائل القذف. كما نشير إلى أن هؤلاء العلماء عرفوا أيضًا المرايا الحارقة، وعرفوا كيف تجري عمليّات التفجير. وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ إتقان وسائل قتال معقّدة أحيانًا ومأخوذة عن تقاليد مناطقيّة، كاستعمال الغزنويّين الفيلة الهنديّة المدرّبة على القتال، أو تطوير

هذه الوسائل طبقًا للتقدّم العلمي، لم يحولا دون الحفاظ على طرائق ووسائل حربيّة خاصّة بالبدو. كانت هذه الطرائق تعطي الأولويّة في القتال للخيّالة والنبّالة، وتعتمد على تدريب مكثّف لفرق مؤلّفة من عناصر غير عربيّة، استُقدمت الى العراق كرقيق ونقلت معها عادات قتاليّة ألفها الفرسان الأتراك في السهوب الأسيويّة.

بينما كان الفرسان يتدرّبون في ميادين سامراء أو القاهرة على قواعد الفروسيّة الشرقيّة، ضمن قواعد دقيقة حُدّدت في مصر زمن المماليك، كان تجهيزهم العسكري يرتكز، بشكل أساسي، على نوعيّة الأقواس التي يستعملونها، وكانت على أشكالٍ مختلفة. ظلّت الأمور على هذه الحال إلى أن ظهرت الأسلحة النارية في القرن السادس عشر، فتحوّلت الأقواس إلى أدوات غير نافعة. وفي العصور الأولى للإسلام وُجد نوعان من الأقواس: القوس العربيّة البسيطة والطويلة التي لا يُحسن استعمالها إلّا المشاة، والقوس المركَّبة الإيرانيّة التي كانت تستعملها الجيوش الساسانيّة وعرفها العرب في العهد الأموي. ويبدو أن القوس المعروفة باسم قوس واسط هي شبيهة بالقوس المركَّبة، وقد استبدلت بها، بعد ذلك، القوس الخراسانيّة من قبل أنصار الثورة العباسيّة، ثمّ القوس التركيّة في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد. وهذه القوس التركيّة هي التي أصبحت لاحقًا أساس قوّة جيوش السلاجقة والمماليك، كما اعتمد عليها المغول، واستمرّ استعمالها لدى الأُسَر المالكة التي ورثتهم على المسرح التركيّ - الإيراني.

وهناك مراحل من التطوّر كانت تنتظر التسلّح في البلدان الإسلاميّة التي عرفت، منذ القرون الوسطى المتأخّرة، إستعانة متزايدة بالمدفعيّة، وقد تطوّر هذا السلاح عن طريق تقليد الجيوش الأوروبيّة وبناء على نصيحة خبراء استُقدموا من الغرب المسيحي. وقد أفاد هذا السلاح العثمانيّين بنوع خاص عندما ساعدت المدافع السلطانين محمد الثاني الفاتح وسليم الأوّل: ساعدت الأوّل على القضاء على بيزنطية وضمّها إلى ملكه، والثاني على بسط سيطرته على الشرق الأدنى العربي. اعتُمد سلاح المدفعيّة بصورة تدريجيّة، ولاقى مقاومةً في مصر التي كانت تحت سيطرة المماليك في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد. كان هؤلاء مزهوّين بتنشئتهم كفرسان ويستخفّون بالمشاة، ولكنّ المشاة كانوا الوحيدين القادرين على استعمال المدفعيّة.

سلالي (حكم)، نوع من الحكم لا يقوم انتقاله على أساس ديني في الإسلام، إلّا عند الشيعة، كان له مع ذلك مكانة بارزة في تاريخ العالم الإسلامي حتّى العصر الحديث.

والمعروف أنّ الخلفاء كانوا في البدء يُعيَّنون انطلاقًا من مبدإ الشورى، وأنّ الشرط الوحيد المطلوب والمتعلّق بنسب رئيس الجماعة هو أن ينتمي الى قبيلة قريش. وإذا كان معاوية، وهو أوّل مؤسّس لسلالة إسلاميّة، قد نجح بنقل الحكم إلى ذريّته، فقد كان ذلك عن طريق الاختيار المسبق وعن طريق إرغام أصحاب الشأن على أداء يمين الولاء لوليّ العهد الذي عيّنه بنفسه. وبعد موت حفيده معاوية الثاني، انتقلت صلاحيّة تعيين الخلفاء الى اسياد القبائل العربيّة الكبيرة المقيمة في سوريا، فتمّ بذلك اختيار واحد من الأسرة الأمويّة هو مروان الأوّل. ثمّ استمرّت تلك الأسرة في الحكم على أساس أنّها الأفضل بين أسر قريش.

وفي وقت لاحق، دُحِضت الادّعاءات الأمويّة، منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، على أيدي أبناء ذريّة علي الذين اعتبروا أنفسهم من أسرة النبي محمّد (ﷺ) التي يشير اليها القرآن الكريم باسم «آل البيت». ان الدفاع عن سلالة علي وعن حقّها في الخلافة كان يرتكز، في الأوساط الشيعيّة، على تفسير معيّن للمعطيات القرآنية؛ أمّا في الأوساط السنيّة فإنّ الدفاع عن المبدإ السلاليّ كان أكثر صعوبة. فالعبّاسيون الذين شكّلوا السلالة الثانية دافعوا مع ذلك عن حقّهم على أساس أنّهم يرجعون في الأصل الى أحد أعمام النبيّ ﷺ، أي الى أحد ورثته.

إنّ الدول التي قامت على انقاض الخلافة العبّاسيّة، أو خارجها أو بعدها، كانت دولًا سلاليّة، ولكنّ قواعد الخلافة في السلطة لم تكن ثابتة، بل غالبًا ما قامت فيها المنافسات والحروب الداخلية التي كانت تندلع بعد وفاة حاكم لم يعيّن وريثًا له، أو أنّ الذي عيّنه لم يكن مقبولًا. وتجنّبًا للصراع، لم يتردّد السلاطين العثمانيّون

في بعض العصور، بعد تسلّمهم السلطة، في قتل اخوتهم. وأخيرًا برز نوع من وراثة السلطة أُهمل فيه المبدأ الوراثي أو انحصر بمرحلة زمنيّة معيّنة، وهذا ما نلاحظه مع «الملوك العبيد» الذين شكّلوا الفرع الأوّل من سلاطين دلهي، وكذلك الأمر مع المماليك السوريّين - المصريّين.

السلام، لفظة ترد بكثرة في القرآن الكريم بمعنى «الخلاص» و«التحيّة»، وهو معنى سمح لاحقًا بإدخالها إلى الصيغ الإسلاميّة ذات الطابع الطقسي أو الديني وإلى التعابير السائدة التي تعكس روح التهذيب في الإسلام.

استُعملت اللفظة في بعض السُوَر بمعنى «السلام الزمني» و«الخلاص الأبدي»، كما في عبارة «دار السلام» التي تشير إلى الجنّة. كما تُستعمل، في آيات أخرى، بمعنى التحيّة، إذ إنّ الملائكة تستقبل الداخلين الى الجنّة بالقول: «سلامٌ عليكم» (سورة النّحل، آية ٣٢). وبالطريقة عينها كان على نبيّ الاسلام (ﷺ) أن يستقبل المؤمنين الجدد (سورة الأنعام، آية ٥٤). أمّا عبارة «عليه السلام» المعروفة جدًّا، فيجب أن ترد بعد اسم كلّ من الأنبياء المذكورين في التقليد الإسلامي. أمّا النبي محمّد، فإنّ ذكر اسمه يستتبع القول: «صلّى الله عليه وسلّم». والقيمة التي حملتها لفظة «سلام»، منذ العهود الأولى للإسلام، جعلتها متداولة بشكل طبيعي حتّى اليوم، إذ كلّما التقى مسلمان يتبادلان التحيّة بالقول: «السلام عليكم». والطابع الإسلاميّ الذي تحمله اللّفظة ينبغي ألّا ينسينا عبارات مماثلة كانت متداولة قديمًا في الشرق بين الشاميّين.

سلجوق (الجمهوريّة التركيّة)، هي، قديمًا، آيا سلوق (Aya Solūk)، وألتولوجو (Altoluogo) في المصادر الغربيّة. مدينة تشغل، في قسم منها، موقع أفسُس الشهيرة.

في سنة ١٨٣هـ/٧٩٨م، كانت المدينة مهدَّدة من قبل الجيوش العبّاسيّة، ثمّ احتلّها الأتراك لمدّة وجيزة بعد انتصارهم في معركة ملازكرت/مانتزيكرت سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م. هذه المدينة البيزنطيّة القديمة والمحصّنة حول بازيليك القدّيس يوحنا ضُمّت، في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، إلى إمارة الأيدينيّين التركمانيّة. وقد شجّع هؤلاء العلاقات التجاريّة التي كانت قائمة مع الجنويّين والبنادقة. واستمرّ ازدهار المدينة بعد أسلمتها بفضل نشاطها التجاري، إذ إنّها كانت تحتلّ منفذ وادي «كوچُك مَندرُس» (مياندر الصغيرة أو كايستر القديمة). وإلى هذا العهد يعود تاريخ بناء مسجد عيسى بك الضخم، وقد شيّده أحد الأيدينيّين سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م بحسب الفن المعماري لسلاجقة الروم، مع تأثيرات سوريّة.

ثمّ إنّ سقوط المنطقة بكاملها في أيدي العثمانيّين، موقّتًا سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م، ونهائيًّا سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م، حوّل المدينة إلى مركز إداري وعسكري مع الحفاظ على دورها كمركز إقتصادي. إلّا أنّ تراجع البحر التدريجي جعلها مدينة عاديّة صغيرة. وفي سنة ١٩١٤ اتّخذت اسم سلجوق، ثم عرفت نموًّا متجدّدًا في العصر الحديث بعد جعلها عاصمة إداريّة إقليميّة.

السلطان، لقب حمله عدد من الحكّام في البلدان الإسلاميّة، منذ القرون الوسطى حتّى العصر الحديث، وكانت سلطتهم تُعتبر تفويضًا من قِبَل الخليفة، ولكنّ هذه السلطة لم تتّخذ قط طابعًا مؤسّساتيًّا شرعيًّا.

صدر هذا اللقب أوّل مرّة عن ديوان الخلافة في بغداد في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، عندما قَبِل الخليفة العبّاسي القائم، سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، ولاء السلجوقيّ طُغرل بك، قائد قبائل الغزّ التركيّة. وكان طغرل بك قد اجتاح العالم الإسلاميّ الشرقيّ، فعهد إليه الخليفة سلطاته الإداريّة والعسكريّة. بذلك أصبح حامل هذا اللقب، وهو صاحب السلطة الفعليّة على الأرض، يتمتّع بسلطات شبيهة بتلك التي تمتّع بها أمير الأمراء الذي سبقه، إضافة إلى حقّه في تعيين عمّال الدولة. إنّ صفة «ملك الشرق والغرب» التي أُعطيت له تشير إلى أن نفوذه الفاعل لم يكن له حدود معيّنة.

هكذا وُجدت سلطنة وحيدة في عهد السلجوقيّين الكبيرَيْن اللذين وضعا الخلافة تحت وصايتهما، نعني بهما طغرل بك وألب أرسلان. وبعد موت ألب أرسلان في حدود سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، حمل الامير الغزنوي إبراهيم لقب سلطان الذي ظهر على النقود التي ضُربت

باسمه. وعلى أثر موت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، تقسّمت الأمبراطوريّة دولاً، وبدأت مرحلة أفاد فيها ملوك عدّة رسميًّا من لقب سلطان. ويأتي في طليعة أولئك السلاطين السلطانان اللذان حكما ابتداء من سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، الأوّل العراق وإيران الغربيّة، والثاني إيران الشرقيّة. وفي مرحلة لاحقة حمل أحد أمراء سلاجقة الروم، قلج أرسلان (٥٥١-٥٨٨هـ/١١٥٦-١١٩٢م)، لقب سلطان الذي نُقش على النقود التي ضربها باسمه. ولم يحذُ حذوه إلّا عدد قليل من الأمراء المستقلّين الذين حكموا البلدان التي وُلدت من تمزّق أمبراطوريّة السلاجقة الكبار، والقسم الأكبر اكتفى بحمل لقب «أتابك». أمّا الأيوبيّون فقد حملوا لقب ملك؛ وحده الممثّل الأخير لهذه السلالة، وهو الملك الصالح، مُنح لقب سلطان، في حين أنّ صلاح الدين نفسه، الذي تطلق عليه مصادر كثيرة لقب سلطان، لم يُمنح قطّ هذا اللقب بشكل رسمي.

إبتداء من سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، حمل المماليك، الأسياد الجدد لسوريا ومصر، لقب سلطان وقد منحهم إيّاه الخليفة العبّاسي الضعيف بعد إقامته في القاهرة على أثر اجتياح بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. وفي المرحلة نفسها حكم الهند «الملوك العبيد» المُعِزيّون (٦٠٣-٦٨٩هـ/١٢٠٦-١٢٩٠م) الذين حملوا لقب سلاطين دلهي. وكانوا قد خلفوا السلاطين الغوريّين بعدما كانوا في البدء دخلوا في خدمتهم كقادة عسكريّين. ثمّ أورثوا هذا اللقب لخلفائهم الذين ظلّوا على عرش دلهي حتّى سنة ١٥٥٥م، كما لأمراء السلالات التي استقلّت في سهل الغانج وفي الدّكن.

في غرب هذه البلدان، اتّخذ بايزيد الأوّل العثماني لقب سلطان، وذلك في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد. يقال إنّ الخليفة العبّاسي في القاهرة أقرّ هذا اللقب رسميًّا لمحمّد الثاني الذي تولّى السلطة بعد بايزيد، وذلك إثر احتلال القسطنطينيّة. وبعد إزالة دولة المماليك إثر معركة مرج دابق (١٥١٦م)، أصبح الحكّام العثمانيّون أكبر سلاطين العالم الإسلامي. ولكنّهم لم يحملوا وحدهم هذا اللقب، إذ إنّه أُعطي أيضًا في أماكن أخرى، في أقصى غرب العالم السنّي، حيث حمله مثلًا السلالة العلويّة في المغرب. أمّا الصفويّون في إيران فكانوا من الشيعة واتّخذ ملوكهم لقب شاه، مع أنّ لفظة سلطان كانت تُدرج في ألقابهم الكاملة.

في كلّ مكان وزمان، كان السلاطين يتمتّعون بالصلاحيّات التي كانت للخلفاء، على الصعيدين السياسي والقضائي، ويمارسون السلطات عينها. وفي بداية الأمر كان الخليفة يحتفظ لنفسه بسلطة العقيدة، دفاعًا عن مقامه وتعويضًا عمّا تخلّى عنه من سلطات. لكنّه لم يكن يمارس هذه السلطة منفردًا، إذ كان لا بدّ من أخذ دور علماء الدين في الاعتبار. مع ذلك، نجح بعض الخلفاء في ممارستها فعليًّا، وهذا ما قام به الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله. وكانت تسمية السلاطين تأتي أساسًا نتيجة إنجازات حربيّة أو اختيار عائلي، وفي كلا الحالين يُثبّت الاختيار من قبل الخليفة. وهو مع ذلك يبقى في حاجة إلى مبايعة الجماعة التي يُفترض بها أن تقدّم يمين الولاء لحامل اللّقب.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المرحلة التاريخيّة الأخيرة التي تلت زوال الخلافة العبّاسيّة في القاهرة ساعدت حاملي لقب سلطان على فرض أنفسهم أكثر فأكثر. وبعد سنة ١٥١٦م، سمح هذا الوضع لسلاطين بني عثمان بإظهار أنفسهم كالورثة الشرعيّين للخلفاء العبّاسيّين.

السلطانيّة (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة تقوم على أنقاض مدينة أخرى قروسطيّة في أذربيجان، جُعلت عاصمة لمدّة وجيزة في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد.

وحدها قرية قائمة على ارتفاع عالٍ ما تزال تشير إلى المكان الذي كانت تحتلّه عاصمة «ألجايتو» المغولي. وهي تقع بين المراعي في السهب التي كانت تجتازها طريق القوافل المؤدّية من قزوين إلى تبريز. وكانت قد تأسّست من قبل على يد «أرغون»، وأصبحت سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م مقرّ السلطة ومستودع السلع التجاريّة ومركز نشاط أمبراطوريّة الايلخانيّين بدلًا من مدينة تبريز. إنتهى بناؤها سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م.

من المدينة الضخمة التي كانت تسيطر على النشاط التجاري بين إيران والبحر الأسود، والتي بُنيت أحياؤها وتنظّمت شوارعها بعناية السلطان ووزرائه، ولا سيّما

رشيد الدين طبيب، لم يبقَ اليوم إلّا الضريح الكبير الذي بُني للسلطان «ألجايتو» نفسه، ولا شكّ في أنّه أكثر الأبنية شهرة وفخامة في ذلك العصر. فمعالم الزخرفة بفسيفساء من الخزف لا تقلّ أهميّة عن الأناقة المعماريّة لِقبّته المركزيّة الضخمة التي يتناغم التوازن فيها في الداخل والخارج. وبعد تلك المرحلة الوجيزة من الازدهار، تخلّى خلفاء «ألجايتو» عن السلطانيّة كعاصمة لهم، ولكنّها بقيت لبضعة عقود مجمّعًا سكنيًّا كبيرًا، إلى أن جاء الصفويّون واختاروا أصفهان عاصمة لهم، فكان ذلك بداية ضعف السلطانيّة وانحطاطها.

◄ راجع المستندين ٢٣ و٢٤.

السّلْغُريّون، (٥٤٣ - ٦٦٩هـ/ ١١٤٨ - ١٢٧٠م)، من أشهر أسر الأتابكة الأتراك الذين حملهم طموح الدفاع عن الإسلام على التوسّع في الشرق، في الوقت الذي كانت فيه الفوضى تعمّ أرجاء دولة السلاجقة الكبار.

وكانت مقاطعة فارس المهمّة، جنوب غربيّ إيران، قد وقعت في يد مؤسّس الأسرة، المدعو سنقر الذي ينتسب إلى إحدى القبائل التركمانيّة. وكان سنقر قد بدأ يحارب في الأناضول تحت راية سلاجقة الروم. وعلى الرغم من منافسة خصومهم المجاورين وصراعهم معهم، استطاع خلفاؤه وأحفاده الاستمرار مدّة من الزمن أسيادًا للمنطقة التي كان احتلّها سنقر. وقد أمّنوا لها الازدهار والغنى، ولا سيّما زمن مُلك عزّ الدين سعد في مطلع القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وذلك قبل زوال مُلكهم أمام تقدّم أسرة خوارزم شاه، وخصوصًا بعد وصول المغول الذين أخضعوهم لسلطتهم، ثمّ ضمّوا مقاطعتهم إلى مملكة الإيلخانيّين القويّة.

مظفّر الدين سنقر	٥٤٣ - ٥٥٦هـ/ ١١٤٨ - ١١٦١م
مظفّر الدين زنكي	٥٥٦ - ٥٧٠هـ/ ١١٦١ - ١١٧٥م
تكلة	٥٧٠ - ٥٩٠هـ/ ١١٧٥ - ١١٩٤م
طغرل	٥٩٠ - ٦٠٠هـ/ ١١٩٤ - ١٢٠٣م
عزّ الدين سعد الأوّل	٦٠٠ - ٦٢٨هـ/ ١٢٠٣ - ١٢٣١م
أبو بكر قتلغ خان	٦٢٨ - ٦٥٨هـ/ ١٢٣١ - ١٢٦٠م
سعد الثاني	٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م
محمّد	٦٥٨ - ٦٦٠هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٦٢م
محمّد شاه	٦٦٠ - ٦٦١هـ/ ١٢٦٢ - ١٢٦٣م
سلجوق شاه	٦٦١ - ٦٦٣هـ/ ١٢٦٣ - ١٢٦٥م
آبش خاتون	٦٦٣ - ٦٦٩هـ/ ١٢٦٥ - ١٢٧٠م

◄ راجع المستند رقم ١٧

سَلَفيّ، مشايع لتيار فكري يتمثّل، بشكل رئيسي، بالمذهب الحنبلي الفقهي والكلامي، الذي يركز على توكيدات الأُسس الإيمانيّة التي يعتبرها مطابقةً جذريًّا للسنّة النبويّة.

إنّ أُسس الإيمان هذه تخصّ مفاهيم عقائديّة تخلّى عنها أحيانًا بعض علماء المسلمين. وهي تتعلّق، بشكل خاص، بالقول بالصفات الإلهيّة، وبعدم خلق القرآن الكريم، وبإنكار حريّة الاختيار، وبالخضوع التام لرئيس الجماعة من وجهة نظر سنّية للإمامة. ويعلّق السلفيّون (التقليديّون) أهميّة قصوى على التقاليد النبويّة المبنيّة على الأحاديث الشريفة (أي السنة النبوية الشريفة)، ولكنهم ليسوا بالضرورة متخصّصين في علم الحديث أي محدّثين.

سلفيّة ← **الإخوان المسلمون**.

سلمان الفارسي، (؟ - ٣٦هـ/ ؟ - ٦٥٦م)، أحد صحابة النبيّ محمّد (ﷺ)، كان لشخصيته التي يكتنفها بعض الغموض شهرتها المتنامية عبر العصور.

لا تُعرف الظروف التي حملت هذا العبد المُسَمّى «الفارسي» على الانتقال إلى شبه الجزيرة العربيّة لملاقاة النبيّ محمّد (ﷺ) في المدينة وتقبّل الإسلام. يبدو، بحسب الرواية التقليديّة، أنّه هو الذي اقترح على النبيّ (ﷺ) حفر الخندق عندما حاصر المكّيون المدينة، ما حال دون تقدّمهم وساعد المسلمين على الدفاع عن أنفسهم. وعُرفت المعركة بمعركة الخندق. إنّ قبره المفترض الموجود في العراق قرب المدائن، في مكان يُعرف باسم سلمان پاك بالفارسيّة، أي الطاهر، قد تحوّل منذ وقت مبكّر مزارًا يقصده المؤمنون. وقد رُفع فوق المكان بناء قديم رمّمه العثمانيّون في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد.

وفضلًا عن كونه من أوائل الذين دخلوا الإسلام من غير العرب، فإنه يُعتبر كذلك أحد مؤسّسي حركة التصوّف، كما ارتبط اسمه بمنظّمة «الفتوّة». كذلك حظي بتكريم خاص لدى غلاة الشيعة، كالنصيريّين

الذين أحاطوا شخصيّته بهالة ذات طابع إلهيّ.

السَّلَمِيَّة (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، بلدة تقع في السهوب الداخليّة، جنوب شرقي حماة وشمال شرقي حمص، اشتُهرت في القرون الوسطى كمركز للإسماعيليّة.

كانت السلميّة بعيدة عن الطريق الذي يصل دمشق بحلب، لكنّها كانت متّصلة بطريق القوافل التي كانت تعبر السهوب السوريّة - الأردنيّة، وقد اشتهرت في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، لأنّ عددًا كثيرًا من الهاشميّين سكنوها، ومن بينهم أحفاد صالح بن علي، أحد أعمام الخلفاء العباسيّين الأوائل الذي بنى دارة فخمة وسط حقول مزروعة ومرويّة. وفي النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، تحوّلت السلميّة إلى مركز مهمّ لنشر الدعوة الإسماعيليّة في سوريا. وفيها وُلد عُبيد الله المهدي مؤسّس السلالة الفاطميّة، وقد اختلفت الآراء قديمًا وحديثًا حول أصله. وما نعرفه هو أنّه ترك السلميّة في حدود سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، متوجّهًا إلى إفريقية، وذلك قبيل هجوم قام به القرامطة.

وفي الصراعات المسلّحة التي طبعت مصير سوريا في العصور الوسطى، لم تقم السلميّة بدور المدينة الحصينة، واكتفت باتّباع مصير مدينة حمص. واستمرّت، زمن العثمانيّين، مدينة صغيرة معرّضة لهجمات البدو، ثمّ استعادت بعض الازدهار في أواخر القرن التاسع عشر، وذلك بفضل استقرار عدد من الاسماعيليّين فيها بعد عودتهم إليها سنة ١٨٩٢.

◄ راجع المستند رقم ٩.

سليم، اسم حمله ثلاثة سلاطين من السلالة العثمانيّة، بينهم سليم الأوّل ياوُز الذي عمل، في مطلع القرن السادس عشر، على توسيع الأمبراطوريّة في المشرق العربي.

سليم الأوّل (٨٧٢-٩٢٦هـ/١٤٦٧ - ١٥٢٠م)، هو ثامن سلاطين بني عثمان، تسلّم الحكم سنة ١٥١٢، واستأنف السياسة الحربيّة التي كان قد بدأها جدّه محمّد الثاني الفاتح ووالده بايزيد الثاني، وأرفقها بتدابير قاسية، في أغلب الأحيان، فلُقّب «ياوز» أي الطاغية.

واجه حكمه في البداية صعوبات متنوّعة. وكان قد عُيّن أوّلًا حاكمًا على مقاطعة طرابزون، فاصطدم بمنافسة أخيه أحمد الذي كان وليّ العهد. وبفضل انقلاب دبّره الإنكشاريّون، نجح في خلع والده وإعلان نفسه سلطانًا سنة ١٥١٢. وبعد تسلّمه السلطة لم يتردّد في تصفية إخوته وأولادهم، كما حمل على الشيعة في المناطق الشرقيّة لأنّهم كانوا يدعمون الصفويّين الذي بسطوا سلطتهم على إيران. إنّ الوجود المقلق للصفويّين على حدود دولته دفعه إلى القيام بحملة عسكريّة هزم فيها الصفويّين في جالداران سنة ١٥١٤. وبذلك أصبح في استطاعته أن يهيمن على المناطق الشرقيّة للأناضول وعلى بلاد ما بين النهرين العليا. إلّا أنّه اصطدم في هذه المنطقة بطموح المماليك السوريّين-المصريّين. في معركة مرج دابق قرب حلب، في شهر آب سنة ١٥١٦، هُزم جيش قانصوه الغوري على يد الجيش العثماني المجهّز بالمدفعيّة التي ساعدت على قهر المماليك. بذلك فُتحت الطريق أمام العثمانيّين لاحتلال سوريا، ثمّ مصر التي توقّف فيها السلطان الجديد طومان باي عن المقاومة في كانون الثاني (يناير) من سنة ١٥١٧.

لقد استطاع السلطان سليم، في سنوات معدودة، أن يجتاح مناطق واسعة، وكان لانتصاراته صداها في العالم الغربي من دون أن تسيء إلى العلاقات السلميّة التي أقامها السلطان مع الدول الأوروبيّة. وكان ينوي، بعد ذلك، تجهيز حملة لاحتلال جزيرة رودس، لكنّه توفي في أيلول (سبتمبر) سنة ١٥٢٠ قبل أن يحقّق مشروعه. وقبل ذلك أعلن شريف مكّة خضوعه للسلطان سليم، وكذلك سيّد الجزائر القرصان السابق خير الدين، وبذلك تمّت له السيطرة على المغرب الأوسط. وإثر احتلاله مصر، استقدم سليم إلى اسطنبول آخر ممثّل للخلافة العباسيّة والقاه في السجن، وكان يعيش في حماية المماليك في القاهرة. وهذا العمل كان في أساس الاعتقاد القائل بأنّ آخر الخلفاء العبّاسيّين تخلّى عن الخلافة للسلطان العثماني. لكنّ هذه الرواية لم تظهر إلّا بعد مرور قرنين ونصف على تلك الحادثة، وهيَ تاليًا موضوع شك وتعكس رأيًا شاع في الأوساط

العثمانيّة أكثر ممّا تعبّر عن واقع فعليّ.

سليم الثاني (١٥٢٤ - ١٥٧٤م)، هو عاشر سلاطين بني عثمان، تسلّم السلطة سنة ١٥٦٦ في مرحلة قليلة الاضطراب، وترك الحكم بين يدي الصدر الأعظم محمّد سوكوللو.

وسليم الثاني هو الابن البكر للسلطان سليمان القانوني من محظيّته روكسلان. ويعود الفضل في اعتلائه العرش إلى مقتل أخيه بايزيد الذي هُزم سنة ١٥٥٩، ثمّ قُتل سنة ١٥٦١. وقد حاول الصدر الأعظم سوكوللو - الذي أبقاه سليم في منصبه - أن يتابع سياسة السلطان السابق، سليمان، فعقد في أدرنة، سنة ١٥٦٨، معاهدة صلح مع النمساويّين، وجدّد للفرنسيّين وللبنادقة عهود الأمان (capitulations).

في وقت لاحق، نجحت جيوش السلطان الجديد في انتزاع اليمن من الأئمّة الزيديّين. ثمّ قرّر سليم الثاني احتلال جزيرة قبرص، فدخلت جيوشه نيقوسيا سنة ١٥٧٠ وفماغوستا سنة ١٥٧١. هذه الحملة التي كرّست سيطرة العثمانيّين البحريّة على المتوسّط أدّت الى قيام تحالف بين البندقية وإسبانيا والبابوية، واستطاعت قوى هذه الدول مجتمعة أن تدمّر الأسطول التركي في معركة ليبانت (Lépante) البحريّة في تشرين الأوّل (أكتوبر) من سنة ١٥٧١. وقد شكّل هذا الحدث تحوّلًا مهمًّا بالنسبة إلى مستقبل العلاقات العثمانيّة - الأوروبيّة، على الرغم من عقد اتفاقيّة صلح بشروط ملائمة مع البندقيّة، في آذار (مارس) سنة ١٥٧٣، تخلّت بموجبها البندقيّة عن قبرص. لكنّ الدولة العثمانيّة عملت على إعادة بناء أسطولها، واستطاعت، سنة ١٥٧٤، أن تحتلّ تونس حيث كان الإسبان قد نجحوا في أن يكون لهم فيها موطئ قدم.

لم يكن سليم الثاني ليهتمّ بنفسه بالوضع السياسي، إذ أمضى حياته ساعيًا وراء الملذّات وسط فساد متزايد طال الطبقات العليا من المجتمع، وقد مات جرّاء حادث في قصره سنة ١٥٧٤. وفضلًا عن الحملات الحربيّة التي طبعت ملكه، والتي لم تكن دائمًا موفّقة، فقد ضبط القوانين التي وضعها والده (قانون نامه) ودقّق في بنودها بمساعدة المفتي أبو السعود. كما اهتمّ شخصيًّا ببناء عددٍ من المساجد الجامعة التي تشكّل جزءًا من الأعمال الفنيّة الرائعة لذلك العصر، ومنها مسجد السّليميّة في أدرنة الذي يُعتبر أجمل المنجزات المعماريّة، وقد أشرف على بنائه المهندس سِنان.

سليم الثالث (١٧٦١ - ١٨٠٧م)، هو السلطان العثماني الثامن والعشرون، حكم ما بين سنتي ١٧٨٩ و١٨٠٧، وحاول تجديد نظام كان ضعفه قد بدأ يظهر في الانهزامات الحربيّة المتكرّرة.

ما إن اعتلى سليم الثالث العرش حتّى اضطرّ إلى متابعة الحرب ضدّ روسيا والنمسا، ولم يستطع الحؤول دون إحرازهما انتصارين، في آب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) من سنة ١٧٨٩، ولا منع النمساويين من احتلال بلغراد وبوخارست في خريف تلك السنة. وقد ترك ذلك صورة عن ضعف الجيش العثماني، على الرغم من الصلح الذي عُقد في آخر الأمر مع النمساويّين في آب (أغسطس) سنة ١٧٩١، ومع الروس في كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٩٢. وهذه الهزائم حثّت السلطان سليم الثالث على أن يُدخل إصلاحات متنوّعة على التنظيم العسكري. فأقام ترتيبًا جديدًا وتدريبًا منظّمًا للإنكشاريّة، وأوجد، سنة ١٧٩٤، فيلقًا جديدًا من المشاة عُرف باسم «نظام جديد» قام بتدريبه ضبّاط أوروبيّون، كما أنشأ في الأناضول نظامًا جديدًا للتجنيد.

اندرجت هذه الإصلاحات في إطار سياسة خارجيّة هدفت إلى الانفتاح على الغرب، ما دفع بالسلطان إلى إرسال السفراء إلى عدد من البلدان. لكنّ هذه السياسة اصطدمت بمصاعب داخليّة متنوّعة: حرب مع فرنسا سنة ١٧٩٨ بسبب حملتها على مصر، ثمّ عقد صلح معها سنة ١٨٠٢، ثورة بلغاريا، وثورة الوهابيّين في شبه الجزيرة العربيّة. وفي سنة ١٨٠٧ وقع السلطان ضحيّة ثورة الإنكشاريّة الذين أجبروه على إلغاء الإصلاحات والتنازل عن العرش، تاركًا لمصطفى الرابع الضعيف حكمًا سيعمل لاحقًا على الإمساك به بحزم السلطان المصلح محمود الثاني.

سليم الجشتي، (؟ - ٩٧٩هـ/ ؟ - ١٥٧١م)، متصوّف تقي وأحد أتباع الطريقة الجشتيّة. كان له تأثيره الديني والسياسي على السلطان أكبر من سلالة المغول.

يعود سليم بنسبه إلى أحد الموقّرين المنتمين إلى الطريقة نفسها، ويُعرف باسم فريد الدين مسعود، أو «كنجي شكر». وبفضل بركة هذا الصوفيّ وصلواته، رُزق أكبر ولدًا ذكرًا هو جهانكير الذي سيصبح ملكًا، وأُطلق عليه اسم السلطان سليم، تكريمًا للصوفيّ الجشتي. بعد وفاته سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، عمد السلطان أكبر إلى تكريمه، فبنى على اسمه ضريحًا فخمًا مَبْنيًا من الرخام الأبيض وشيّد حوله مدينة ملكيّة أُطلق عليها، سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، إسم «فتحپور سيكري».

◄ راجع المستند رقم ٧٨.

سُلَيم (بنو -)، قبيلة من جزيرة العرب تنتمي إلى عرب الشمال، كانت في بداية الإسلام تقيم على الحدود بين نجد والحجاز.

أدّى بنو سُلَيم - الذين كانوا مرتبطين بالمكيّين - يمين الولاء للنبيّ محمّد (ﷺ) في حدود السنة الثامنة للهجرة/ ٦٢٩م، وشاركوا في فتح مكّة. وقد ساندوا الخلفاء الأمويّين الأوائل، لكنّهم انضمّوا بعد ذلك إلى ابن الزُّبير. وفي القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، انتقل قسم منهم إلى مصر حيث أثاروا الاضطراب. وهذا ما جعل الفاطميّين يرسلونهم، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، مع بني هلال أو الهلاليّين، لاجتياح إفريقية.

سليمان، اسم حمله ثلاثة سلاطين من السلالة العثمانيّة، أهمّهم سليمان الثاني القانوني الذي حكم من سنة ١٥٢٠ الى سنة ١٥٦٦، عندما كانت السلطنة في أوج عظمتها، وتمتّع بتقدير جعله يُعرف في فرنسا باسم سليمان العظيم.

سليمان بن داود، شخصيّة توراتيّة يرد ذكرها في القرآن الكريم، وأحد الأنبياء المرسلين الذين سبقوا ظهور النبيّ محمد (ﷺ).

تحتلّ أخبار النبي سليمان آيات كثيرة من القرآن الكريم، ولا سيّما في سورة النمل (١٥ - ٤٥)، حيث يبدو قاضيًا منصفًا وملكًا ذا قدرة فائقة ومعرفة بالأمور الخفيّة تبرز في أخبار ملكة سبأ. كما يبدو قادرًا على فهم لغة الحيوانات، وعلى التحكّم بالعواصف، وحمل الجنّ على العمل في خدمته.

ولم يكفّ الكتّاب اللّاحقون عن تجميل أخبار النبيّ سليمان، بإضافة عناصر من منابع مختلفة إبرازًا لقدرته الفائقة. وتركّز الأخبار، بخاصة، على العمائر المدهشة التي أنجزها، بدءًا بالهيكل في أورشليم القدس. وكثيرة هي الأبنية الفائقة التي نُسبت لاحقًا إليه، كخرائب برسيبولس المدهشة أو تخت سليمان في إيران، إلى خرائب مأرب في اليمن.

إلّا أنّ تلك الأماكن قلّما ترافقت مع إقامة مزارات على اسم النبيّ سليمان عندما انتشرت عادة تكريم الأولياء في الإسلام. وقليلة هي المزارات التي حملت إسمه، إذ لم يذكر منها الهروي في دليله سوى تلك التي وُجدت في فلسطين وفي اليمن، وذلك في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. ورغم تمتّع شخصيّة النبي سليمان باعتبار مميّز عبر العصور، إلّا أنّها لم توقظ مظاهر التقوى الشعبيّة بشكل بارز.

سليمان بن عبد الملك، (٦١-٩٩هـ/ ٦٨٠-٧١٧م)، خليفة ينتمي الى الفرع المروانيّ من السلالة الأمويّة، تسلّم الخلافة بين سنتي ٩٦-٩٩هـ/ ٧١٤-٧١٧م.

خلف سليمان أخاه الوليد بناءً على وصيّة والدهما الخليفة عبد الملك. كانت له من قبل نشاطات عسكريّة؛ وبعد تسلّمه الحكم انطلق بحزم في القتال ضدّ البيزنطيّين، وأدار برفقة أحد إخوته، مسلمة، عمليّات في الأناضول أوصلته إلى القسطنطينية التي حاصرها برًّا وبحرًا مدّة سنة. إنّ وفاته سنة ٩٩هـ/ ٧١٧م في دابق، في شمال سوريا، وضعت حدًّا لحملته المشهورة وأوصلت الى الخلافة إبن عمه عمر بن عبد العزيز الذي كان سليمان قد جعله وليًّا للعهد. واشتُهر سليمان، قبل تسلّمه الحكم، بتأسيسه مدينة الرّملة في فلسطين وقد جعلها لاحقًا مقرًّا خليفيًّا.

سليمان العظيم أو القانوني (١٤٩٤-١٥٦٦م)، هو السلطان العاشر في السلالة العثمانيّة، استمرّ حكمه من سنة ١٥٢٠ إلى سنة ١٥٦٦. تميّز هذا الحكم بطول مدّته، وأيضًا باتّساع فتوحاته وبإشراقه الثقافي.

كان سليمان الابن الوحيد الذي بقي على قيد الحياة

من أولاد السلطان سليم الأوّل. ولد في طرابزون واعتلى عرش السلطنة في الخامسة والعشرين من عمره، بعد أن كان واليًا على مانيسا، ففرض سلطته بسرعة على كلّ القوى السياسيّة، بمساعدة الصدر الأعظم پيري محمّد باشا، الذي خلفه ابراهيم باشا بين سنتي ١٥٢٣ و١٥٣٦. تميّزت سنواته الأولى في الحكم بسلسلة حملات عسكريّة تكلّلت في غالبيّتها بالنجاح: احتلال بلغراد سنة ١٥٢١، وجزيرة رودس سنة ١٥٢٢، وبودا سنة ١٥٢٦، تهديد ڤيينا سنة ١٥٢٩، احتلال العراق ومناطق أرضروم ووان بين ١٥٣٣ و١٥٣٦. بذلك وصلت السلطنة إلى أقصى مدى التوسّع في أوروبا والشرق، إذ بلغت المناطق المجاورة لعاصمة آل هابسبورغ، من جهة، وأذربيجان من جهة أخرى. وبعد أن أُعدم ابراهيم باشا لأسباب ما تزال غامضة، تابع سليمان سياسته التوسعيّة، ولكن مع التركيز على تثبيت سلطته في المناطق التي احتلّها.

في سنة ١٥٤٠ وقّع السلطان مع البندقيّة اتفاقيّة سلام منح بموجبها التجّار البنادقة عهد أمان (capitulation) مميّز. وفي سنة ١٥٤١، وضع هنغاريا تحت الوصاية العثمانيّة في انتظار أن يبلغ ملكُها سنّ الرشد بعد وفاة والده، كما وقّع هدنة، سنة ١٥٤٧، مع الأمبراطور شارلكان وأخيه فرديناند. وفي سنة ١٥٥٩ وافق شاه إيران على معاهدة صلح وقّعها مع سليمان. وفي سنة ١٥٦٦ وقعت حوادث حملت السلطان على أن يجهّز حملة ضدّ الأمبراطور الجرماني الجديد، مكسيمليان الثاني، وهي الحملة الأخيرة التي توفّي خلالها. بعد ذلك بسنتين، أي سنة ١٥٦٨، عُقدت معاهدة صلح مجدّدًا مع النمسا، ما أتاح للدولة العثمانية الاحتفاظ بالأراضي التي كانت قد احتلّتها. ثمّ سنحت الفرصة للجيش العثماني لاحتلال اليمن ومرفأ عدن؛ وفي المغرب استطاع القرصان والأميرال الكبير خير الدين أن ينطلق من الجزائر ويحتلّ تونس سنة ١٥٣٤. وهذا الاحتلال الذي كان موقّتًا سهّل الطريق أمام العثمانيّين ليستولوا لاحقًا على طرابلس الغرب وتونس والجزائر. بدا السلطان سليمان - الذي نظّم حملاته العسكريّة بحنكة ومهارة بمساعدة رؤساء وزرائه - حازمًا في تسيير الشؤون الخارجيّة، وهذا الحزم بلغ حدّ القساوة والظلم أحيانًا. ويرى بعضهم أنّ هذه القسوة كانت بتأثير محظيّته خُرّام سلطان، المعروفة بروكسلان (Roxelane)، التي أصبحت زوجته. فقد قمع بعنف انتفاضات ثوريّة وقعت في سوريا ومصر، في بداية عهده، وأعدم الصدر الأعظم ابراهيم باشا بدون تردّد. وبناءً على إلحاح محظيّته، أمر بإعدام إبنه مصطفى، المولود من امرأة أخرى، في حين أنّ ابنه بايزيد فرّ إلى إيران حيث أمر الشاه بقتله. وكان عليه أن يَدْمُج بالامبراطوريّة، الأراضي الواسعة التي استولى عليها بنفسه أو التي استولى عليها والده، ما اضطرّه إلى وضع عدد من الأنظمة والقوانين الهادفة لإدارتها، لذا لُقّب بالقانونيّ. واذا لم يكن النظام البيروقراطي العثماني قد وصل في عهده إلى مرحلة متقدّمة من الكمال، فإنّه، على الأقلّ، عرف تطوّرًا كبيرًا وواكب ازدهار الحياة الفكريّة والفنّية. وقد أمر السلطان، بدافع من ميله إلى التقوى، ببناء عدد من المنشآت الدينيّة، ولا سيّما الكلّيات، بإشراف كبير المهندسين سنان. وغير بعيد عن المجمّع الأوّل الذي شيّده، تدين له اسطنبول، بنوع خاص، بمجمّع السليمانيّة الضخم، وفيه مسجد جامع بقبّة مركزيّة، وحوله مجموعة أبنية حسنة الهندسة تضمّ مدرسة ومكتبة ومطاعم، فضلًا عن أضرحة للسلطان وأفراد أسرته.

لا شكّ في أنّ سليمان يُعتبر أشهر السلاطين العثمانيّين. وقد عمل على إقامة علاقة جيّدة بالملك الفرنسي فرنسوا الأوّل، فأعطى الفرنسيّين عهد أمان (capitulation)، واستقبل في اسطنبول ممثّلًا دائمًا لفرنسا. والنجاح الدبلوماسي الذي حقّقه كرّس وضعه على رأس أمبراطوريّة اعتُبرت قوّة عالميّة حقيقيّة في وجه الغرب من جهة، وفي وجه الإيرانيّين من جهة أخرى. وقد شكّل هؤلاء للعثمانيّين سدًّا في وجه عالم أسيوي دائم الاضطراب.

◄ راجع المستندين ٢٦ و٨٥.

سليمان المهري، بحّار عربي من حضرموت على المحيط الهندي، عاش في النصف الأوّل من القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، بعد إبن ماجد بوقت قليل.

عُرف سليمان باسم المهري لأنّه ينتسب الى قبيلة عربيّة من منطقة مَهْرَة. وقد وضع، قبل سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م، مصنّفات عدّة حول الملاحة البحريّة وعلم النجوم البحري، منها «المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر» حيث يصف الطرق البحريّة التي سلكها. تتخطّى فائدة أبحاثه فائدة أبحاث ابن ماجد الذي اشتهر خاصة بكثرة كتاباته وبعلاقته الشخصيّة مع فاسكو دي غاما.

السماع، لفظ عربي يعني الاستماع أو الإصغاء، وهو يحمل مفهومين مهمّين: فهو في نظر بعضهم يعني حلقات الموسيقى الروحيّة التي كان يقيمها الصوفيّون لبلوغ النشوة، وتختلف أهميّته من فرقة إلى أخرى. والسماع في نظر بعضهم الآخر هو الإصغاء إلى درس يعطيه معلّم لدى تحليله بحثًا، غالبًا ما يكون فقهيًّا. وكثيرًا ما نجد في أواخر المخطوطات إشارات إلى السماع تُعرف باسم «إفادة سماع»، وتدلّ على أنّ هذا الكتاب قد أُلقي حوله درس في مكانٍ وزمان محدّدين ومن قبل شخص محدّد. وهذه الإفادات تسمح بإعادة رسم العلاقات التي كانت قائمة بين المعلّم وتلاميذه، وتساعد على تحديد شروط انتقال بعض التيّارات الفكريّة داخل الإسلام.

سمرقند (جمهوريّة أوزبكستان)، مدينة معاصرة بدأت تنمو منذ القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد قرب إحدى أهمّ مدن القرون الوسطى المهدّمة في بلاد ما وراء النهر، وقد عرفت في ذلك الوقت تاريخًا مضطربًا.

في العصر الأموي، دخلت الجيوش العربيّة - الإسلاميّة سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م مدينة «ماراكندا» القديمة التي كان يُطلق عليها أيضًا إسم «أفراسياب»، وهو اسم ملك طوران الأسطوريّ. وقد حافظت على خصائصها كعاصمة في منطقة من الواحات الغنيّة تسقيها مياه «زرَفْشان» وتعبرها طرق القوافل. وقد استمرّت المدينة بعد ذلك مركزًا إقتصاديًّا وفكريًّا ناشطًا، حتّى بعدما ضمّها السامانيّون إلى ملكهم سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، واختاروا مدينة بخارى عاصمةً لهم. إلى جانب شهرتها كمدينة تجاريّة، اشتهرت أيضًا بالنشاطات الحرفيّة، ولا سيّما بصناعة الورق. واستمرّ هذا النشاط قائمًا في عهد الغزنويّين والسلاجقة، إلى أن محت غزوات المغول، سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، كلّ أثر لأبنيتها القديمة. وحدها بعض المعالم الأثريّة التي اكتُشفت حديثًا جاءت تطابق ما كانت المصادر العربيّة القديمة قد وصفته عنها بإعجاب.

وبدأ بعد ذلك عهد جديد من الازدهار مع المدينة التي أعيد بناؤها في مكان غير بعيد عن المدينة القديمة، وأصبحت سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م، عاصمة أمبراطوريّة تيمورلنك. وقد جاءت مدينة مدهشة، وكان الفاتح التركي يوجّه إليها غنائم فتوحاته البعيدة، وقد شيّد فيها أبنية مميّزة ما يزال بعضها قائمًا حتّى اليوم، كمسجد «بيبي خانم» الجامع، وضريح «غوري مير». إنّ مخطّط الأحياء - التي كانت مأهولة آنذاك والتي وصفها الرحّالة الاسباني كلافيخو (Clavijo) في سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م، والتي جمّلها التيموريّون إلى الجنوب من المساحات المهجورة حيث كانت تقوم المدينة قبل الغزو المغولي - لا تزال معالمه ظاهرة وسط الأبنية الحديثة. إنّ البقايا المهيبة للمجمّع الذي أقيم حول ضريح «شاه زنده» وبقايا المرصد الذي أقامه «أولغ بك» تشكّل الحدود لهذه الأحياء حول المدرسة التي شيّدها «أولغ بك» نفسه، في أحد جوانب ساحة رغستان المستطيلة، وجعلها أربعة أبنية متواجهة. وقد هُدم قسمٌ منها وأعيد بناؤه في القرن السابع عشر مع تشييد مدرستين حلّتا مكان القسم المتهدّم.

ومع ذلك، فقد دخلت المدينة في مرحلة انحطاط بعد خضوعها لسلطة خانات الأوزبك من سلالة الشيبانيّين وغيرهم الذين عجزوا عن إحياء وهج الحضارة التيموريّة. وكان عليها أن تنتظر تغيّرات المرحلة الحديثة التي بدأت مع احتلال الروس للمدينة سنة ١٨٦٨، وما استتبع ذلك من تدفّق سكّانيّ إلى المنطقة بدافع الازدهار الصناعي فيها، ما سمح للمدينة بالاستمرار، رغم نموّ عاصمة إداريّة جديدة للمنطقة هي مدينة طشقند.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٤، ٣٠ و١٧.

سمسون (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة مرفئيّة تقع شمالي الأناضول على ساحل البحر الأسود، تطوّرت بشكل بارز بعد إلحاقها بالعالم الاسلامي.

وسمسون مدينة قديمة أصبحت بيزنطيّة، وكانت تُعرف باسم «أميزوس» (Amisos) أو «أمينسو» (Aminso) ومنه اشتقّ اسم «سيميسّو» (Simisso) الذي استعمله الغربيّون في العصور الوسطى. ومنذ سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م، تعرّضت المدينة للتخريب بسبب الحملات العبّاسيّة، لكنّها لم تخضع لسلطة المسلمين إلّا بعد وصول الأتراك إلى آسيا الصغرى بوقت طويل. ذلك أنّ سيّد قونية قلج أرسلان الثاني، من سلالة سلاجقة الروم، استولى عليها في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. وبفضل العلاقات التي أقامتها هذه المدينة مع المناطق الداخليّة، فإنّ مملكة الهضبة الوسطى استطاعت الانفتاح على البحر الأسود. وتحت حكم السلاطين، ثمّ حكم الأمراء التركمان كالأسفندياريّين، تحوّلت المدينة إلى منفذ للبضائع الآتية من الشرق عبر طرق القوافل التي كان يسيطر عليها السلاجقة والإيلخانيّون وعدد من السلالات المحليّة في عهد الإمارات. والمدينة المسيحيّة الواقعة إلى جوار المدينة المسلمة استولى عليها الجنويّون الذين حوّلوها إلى مركز تجاري، إلى أن احتلّها العثمانيّون سنة ١٤٢٥م، وكانوا قد احتلّوا من قبل القسم المسلم من المدينة.

في القرن السابع عشر كانت مدينة سمسون، المتخصّصة بتصدير حبال القنّب، على صلة بشبه جزيرة القرم، على غرار طرابزون وسينوب. لكنّها شهدت مرحلة انحطاط في القرن الثامن عشر، على أثر ضمّ شبه جزيرة القرم إلى روسيا. ولم تعد إلى الازدهار مجدّدًا إلّا في أواخر القرن التاسع عشر، وذلك بفضل انتشار زراعة التبغ في المنطقة. وهي تُعتبر اليوم المرفأ الشمالي الأكثر أهميّة في الجمهوريّة التركيّة.

سِمْنان (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة تقع في واحة خصبة، ازدهرت في القرون الوسطى بفضل دورها كمحطة على إحدى أهمّ طرق القوافل في إيران.

وبحكم كونها عاصمة إداريّة لمقاطعة قومس في القرون الوسطى، فإنّ سمنان كانت تؤمّن حياة أبنائها من النشاط التجاري على طول المحور الكبير الذي كان يربط الريّ، وفي ما بعد طهران، بنيسابور أو مشهد، والذي عرف حركة نقل قويّة داخل آسيا، كانت في بعض الأوقات جدّ مزدهرة. إلّا أنّ تاريخها تخلّلته كوارث متتالية حلّت بها في أثناء غزوات المغول، كما في المراحل المضطربة اللّاحقة. والتجديد الذي عرفته في عهد القاجار، والذي ما يزال بارزًا في تنظيمها المدني، لم يتوصّل الى أن يعيد إليها الحيويّة التي عرفتها في العهود الأولى للإسلام، قبل وصول السلاجقة. فإلى جانب ما تذكره المصادر التاريخيّة وأخبار الجغرافيّين العرب، كالمقدسي، عن هذه الحيويّة، تأتي الدلائل المعماريّة شاهدًا إضافيًّا، ومنها المسجد الجامع الذي يعود في قسم منه الى العصر العبّاسي، ومئذنة من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، مزيّنة بزخارف قرميديّة ناتئة.

سِنان (١٤٨٩ - ١٥٨٨م)، مهندس معماري مشهور، عاصر السلطان العثماني سليمان القانوني الذي قدّم له الحماية والرعاية، وإليه يعود الفضل في هندسة عدد كبير من الأبنية التي أصبحت نماذج للفن المعماري العثماني الكلاسيكي.

وسنان في الأصل من قرية صغيرة تقع على مقربة من قيصريّة، وسط الأناضول، استُدعي في عهد السلطان سليم الأوّل ياوُز بموجب نظام الدوشرما (ضريبة الغلمان) ليخدم الدولة، فانخرط في صفوف الجيش الإنكشاري، وشارك في حملات حربيّة متعدّدة في عهد السلطان سليمان القانوني، وأظهر براعته في بناء الجسور وأعمال فنّيّة أخرى. ومن أجل زيادة ثقافته، كان يستغلّ كل الفُرص التي أُتيحت له والتي سمحت له بالتجوّل في مناطق البلقان، وهنغاريا، ومنطقة فيينا، وجزيرة أرواد، ثمّ في العراق بين سنتي ١٥٣٤ و١٤٣٥م، وفي كورفو سنة ١٥٣٧، ومولدافيا سنة ١٥٣٨م. فساعدته الأسفار على فهم مختلف الفنون المعماريّة وعلى الإفادة منها في أعماله. وباشر بتنفيذ أعماله المعماريّة في المقاطعات تلبية لرغبات بعض حكام الأقاليم. وظهرت أولى مجمّعاته السكنيّة في جبْزي سنة ١٥٢٣م، ولا سيّما

في حلب سنة ١٥٣٧م.

في سنة ١٥٣٨م، عُيِّن سنان مهندسًا أوّل في البلاط، فباشر تنفيذ سلسلة طويلة من الأبنية المتنوّعة، بلغ عددها حوالى أربعمائة وسبعين بناء، فذاعت شهرته بما أنجزه في العاصمة اسطنبول، وكذلك في الولايات، من البلقان إلى المشرق العربي. ويمكن إحصاء أكثر من مئة مسجد جامع ينتمي بعضها إلى كلّيات، وحوالى خمسين مصلّى، وستين مدرسة؛ وأربعين ضريحًا، وبعض المستشفيات، ونحو أربعين قصرًا أميريًّا، وبعض الدور الخاصّة، وخمسين حمّامًا عامًّا، وثلاثين فندقًا للقوافل، وعدد من الجسور والقناطر لجرّ المياه وبعض المطاعم الجماعيّة. وقد برز إبداعه المميّز بالتدرّج الهندسي والتقسيم المدروس في الكلّيات التي أنجزها، والتي كانت عبارة عن مؤسّسات سلطانيّة قائمة حول المساجد الكبرى. وكان الهمّ الدائم لدى هذا المهندس الرائع هو السيطرة على الفسحات الداخليّة للأبنية التي أراد بها منافسة آيا صوفيا، وقد تُرجم ذلك بابتكارات متواصلة وتغييرات دائمة في موضوع القبّة المركزيّة المدعّمة بأنصاف قباب وبأقواس. إن التقدّم الذي أراد سنان أن يظهره في النتائج التي توصّل إليها يعبّر خير تعبير عن التحدّي الذي استطاع أن يواجهه بنجاح.

بين الأعمال المميّزة التي حقّقها سنان، نذكر المنشآت التالية بحسب الترتيب الزمني لها: كلّية حرم السلطان أو كلّية روكسلان، زوجة السلطان سليمان القانوني، في اسطنبول، ١٥٣٨؛ - كلّية شهْزاده في اسطنبول، ١٥٤٣-١٥٤٨؛ - كلّية مِحْرِمَه سلطان، إبنة سليمان، في أُسكودار، ١٥٤٧-١٥٤٨؛ - مدرسة رستم باشا في اسطنبول، ١٥٥٠؛ - كلّية السليمانية التي بنيت لسليمان في اسطنبول، ١٥٥٠-١٥٥٧؛ - مسجد رستم باشا في اسطنبول، ١٥٦١؛ - كلية مِهْريماه سلطان في اسطنبول، ١٥٦٢-١٥٦٥؛ - كلّية سليم الثاني في قونية، ١٥٦٣-١٥٦٤؛ - الكلّية السليميّة لسليم الثاني في أدرنة، ١٥٦٩-١٥٧٥؛ - مسجد سوكوللو محمّد باشا في اسطنبول، ١٥٧٧-١٥٧٨؛ - جناح مراد الثالث في اسطنبول، ١٥٧٨-١٥٧٩؛ - كلّية قلج علي باشا في اسطنبول، ١٥٨٠-١٥٨١؛ - إلى جانب الأضرحة التي تحتلّ مركزًا مميّزًا في المجمعات المعماريّة ضمن المؤسّسات السلطانيّة الكبيرة؛ وبعض القناطر لجرّ المياه التي بنيت حول اسطنبول بين ١٥٥٤ و١٥٦٤م.

◄ راجع المستند رقم ٨٥.

السُّنَّة، لفظ يشير إلى معنى «العادة» و«السلوك»، واشتقت منه كلمة «سنيّة» وأصبح يشير، في معناه التقني الإسلامي، إلى مجمل النماذج المعياريّة المقتبسة من حياة النبي محمّد (ﷺ).

وعلى هذا «التقليد النبوي» المكوّن من أقوال النبي (ﷺ) وأفعاله - وأيضًا ممّا سكت عنه - يستند المتشرّعون والفقهاء ليحدّدوا بشكل أكثر دقّةً مضمون الشرع الإسلامي الذي يتغذّى، في آنٍ معًا، من القرآن الكريم ومن هذه السنّة المثبتة في أدب الحديث. وقد دارت جدالاتٌ لمعرفة ما إذا كان في امكان السنّةُ، في حال وجود تعارض بينها وبين نصٍّ قرآني، أن تُلغي قاعدةً فرضها القرآن. إنّ مثل هذه الحالات عالجها المتخصّصون بعلم الناسخ والمنسوخ.

سِنْجار (الجمهوريّة العراقيّة)، مدينة في أعالي بلاد ما بين النهرين، على الحدود السوريّة الحاليّة، ما تزال تحتفظ بذكرى الدور المهمّ الذي كان لها خلال القرون الوسطى.

تنتمي سنجار إلى ديار ربيعة، أي إلى المنطقة التي استقرّت فيها قبيلة ربيعة العربيّة بعد الفتوحات الإسلاميّة الكبرى في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد. وهذه المدينة المحصّنة المتّكئة على منحدر جبلي قامت مكان مدينة أخرى قديمة اسمها سِنْغارة، وذلك على طريق القوافل بين الموصل ووادي الخابور، أحد روافد نهر الفرات. ووسط منطقة خصبة، بقيت سنجار مركزًا زراعيًّا كانت له شهرته التجاريّة أيضًا. وقد حافظت على ازدهارها بعد الغزو التركيّ السلجوقي، على الرغم من تحوّلها لاحقًا إلى مسرح للصراع الداخلي بين الزنكيّين. وكانت في الوقت نفسه مركزًا إسلاميًّا توافرت فيه المدارس والخوانق والمشاهد، وكان يسكنها، كما اليوم، عدد من اليزيديّين. في أواخر القرن السادس

للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وقعت سنجار، التي كانت دفاعاتها سيّئة، في يدي صلاح الدين، لتتمّ مقايضتها بمدينة حلب التي كان سيّد سوريا يطمع في الاستيلاء عليها، بدون أن يتمكّن من ذلك. وبدأت بعد ذلك تخسر تدريجيًّا من غناها ومن فرادة سكّانها، مع تعاقب الاحتلالات التي استمرّت تتقاسم تلك المنطقة حتّى العصر الحديث.

سَنْجر، معزّ الدين أبو الحارث سنجر بن ملكشاه، ٤٧٩-٥٥٢هـ/١٠٨٦-١١٥٧م، هو آخر سلطان من السلاجقة الكبار، حكم إيران من سنة ٥١١هـ/ ١١١٩م حتّى وفاته.

وكان سنجر قد عُيّن، سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، حاكمًا على خراسان من قبل أحد إخوته، السلطان بركياروق، وذلك في الوقت الذي كان يساند فيه أخاه الآخر محمّدًا في ثورته. فاحتفظ سنجر بمنصبه خلال الحرب التي اندلعت بين الأخوين المتنافسين. وقد تسلّم السلطنة بعد وفاة محمّد وبعد انتصاره في «ساوه» سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م على ابن أخيه مغيث الدين محمود الثاني. وكان قبل ذلك قد قهر الغزنويّين، ووضع على عرش غزنة الأمير بهرام شاه وحمله على الاعتراف بسيادته. ثمّ حارب الخوارزمشاهيّين والقراختاي، والغوريّين، كما حارب قبائل الأتراك الغزّ الذين كانوا يتدفّقون من آسيا الوسطى على خراسان، وقد أسروه بين سنتي ٥٤٨ و٥٥١هـ/١١٥٣ و١١٥٦م.

وخلال النصف قرن الذي سيطر فيه على المناطق الشرقيّة الغنيّة التي كان يطيب له أن يقيم فيها، نجح في جعل الأمن مستتبًّا والسلام النسبيّ قائمًا، كما استمرّ في الدفاع عن سلطته في العراق ضدّ المؤامرات الداخليّة المختلفة. والواقع أنّه كان آخر سلطان قويّ في أسرته، وما يزال ذكره قائمًا في مرو حيث أقام لنفسه ضريحًا كبيرًا مع قبّة، وهو يعدّ من الأعمال المميّزة في الفن الإيرانيّ التركيّ للسلاجقة الكبار.

سَنْجَق، لفظة من أصل تركي تعني «راية»، «علم»؛ ثمّ، في الدولة العثمانية، أصبحت تعني «إقطاعًا عسكريًّا» و«قسمًا إداريًّا».

في ظلّ السلاجقة الكبار في إيران، كانت كلمة سنجق تشير إلى الراية الملكيّة التي كانت من شارات المملكة؛ وفي عهد ملوك سلاجقة الروم الأخيرين، كانت تعني إشارة تولية تُمنح لبعض الأمراء. وفي زمن العثمانيّين كان السنجق يُعطى لأصحاب الإقطاعات العسكريّة؛ وقد سُمّي كلّ من هذه الاقطاعات سنجقًا.

في بداية القرن التاسع عشر، ومع حركة الاصلاح داخل الجيش العثماني، فقدت كلمة سنجق كلّ معنى عسكري لتعني، بعد ذلك، وحدةً إداريّة. ولكنّ التسمية ألغيت سنة ١٩٢١ من قبل الجمعيّة العموميّة التركيّة، لتحلّ محلّها لفظة «ولاية». مع ذلك استمرّ الكلام على سنجق الإسكندرون حتّى العام ١٩٣٨، عندما ضُمّ الى تركيا وعُرف بالتركية باسم هاتاي (Hatay).

السِّند، مقاطعة في الهند القروسطيّة تضمّ الوادي السفلي ودلتا نهر الهندوس، تجذّر فيها الإسلام باكرًا في العصور الوسطى، واستمرّ دين أكثريّة السكّان. وهذا ما جعل من السّند، عند التقسيم الذي حصل سنة ١٩٤٧، إحدى المقاطعات الست التي شكّلت دولة باكستان.

في سنة ٩٣هـ/ ٧١١م، احتلّت الجيوش العربيّة - الإسلاميّة مقاطعة السّند في أواخر مرحلة الفتوحات الكبرى، بقيادة محمّد بن القاسم الذي بلغها عبر طريق مكْران، بأمر من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. وبعد أن تمتّعت باستقلال نسبيّ، في ظلّ حكّام شبه مستقلّين يعترفون بالسلطة العبّاسيّة ويقيمون في المنصورة التي كانت مركزًا عسكريًّا ومحورًا لنشر الدين الإسلامي، وقعت السّند في أيدي الغزنويّين في مطلع القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، إثر الحملات الناجحة التي قام بها محمود الغزنوي الذي نال شهرة كفاتح الهند للإسلام. في ما بعد استطاع الغوري معزّ الدين محمود أن يضع حدًّا لسلطة الغزنويّين وأن يستولي على عاصمتهم لاهور سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م، وأن يحتلّ بدوره السّند وأن يعيّن عليها أحد قادته الأتراك واسمه ناصر الدين قبانشا المعزّي. وعند نهاية حكم معزّ الدين شبْه المستقلّ عادت المقاطعة، في بداية القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، إلى سلاطين

دلهي. ففرضوا عليها سلطتهم، إلى أن تجزّأت مملكتهم في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد وتقسّمت إلى دويلات محلّية.

في سنة ١٥٩٢م أُلحقت السند بأمبراطورية المغول التي كان على رأسها الأمبراطور أكبر، وكانت قد نمت، في غضون ذلك، عاصمة جديدة في منطقة «ثاتا». إلّا أنّ السلالات المحلّية استمرّت قائمة بنجاح متفاوت. ومع بداية سنة ١٧٧٢ اصطدمت هذه السلالات بالشركة البريطانية للهند الشرقية التي استولت على السّند في سنة ١٨٤٣، وألحقتها إداريًا، إبتداءً من سنة ١٨٤٩، بمدينة بومباي. وهذا الامر لم يمنع المقاطعة من أن تستعيد بعض الإستقلالية التي تميّزت بازدهار إقتصادي متجدّد بدأ مع تطوّر مدينة كراتشي.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ٣٢، ٣٣ و٣٥.

سنغافورة (جمهوريّة)، مساحتها ٦١٨كلم² وعاصمتها سنغافورة، وهي دولة معاصرة مستقلّة تحتلّ الطرف الجنوبيّ من شبه جزيرة ماليزيا. يبلغ عدد سكانها حوالى ثلاثة ملايين نسمة، ويشكّل المسلمون فيها أقلّية تصل نسبتهم إلى نحو عشرين بالمئة.

هذه الدولة المحصورة، الواقعة على الطرف الغربي القاريّ من الاتّحاد الماليزي الحالي، هي أيضًا قريبة من جزيرة سومطره التابعة لجمهوريّة اندونيسيا. ويرتبط وجودها بالأهميّة الإقتصادية والسياسيّة التي تتمتّع بها مدينة سنغافورة المرفئيّة، التي تشكّل النواة الأساسيّة للدولة، وتجعلها في منأى عن هيمنة الدول المجاورة التي هي دول إسلاميّة، أو تسكنها أكثريّة إسلاميّة.

خلال العصور الوسطى، كانت سنغافورة تشكّل محطة للسفن المتنقّلة بين الهند والصين، كما للسفن التي كانت تقوم برحلات طويلة بين العراق والشرق الأقصى في العصر العبّاسي. وقد عرفت، بفضل ذلك، النشاط التجاري الإسلامي باكرًا. وبعد خراب مؤسّساتها سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م، انتقل الدور الإقتصادي والإستراتيجي إلى ملقا التي قامت فيها سلطنة حوالى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وبقيت مزدهرة حتّى سنة ١٥١١م، تاريخ وصول البرتغاليّين. ويعود الفضل في الانطلاقة الحاليّة لسنغافورة الى الأوروبيّين وليس الى المسلمين؛ علمًا أنّ مسلمين سنّة من أتباع المذهب الشافعي يحتلّون اليوم موقعًا محترمًا في الدولة.

◄ راجع المستند رقم ٣٠.

السنغال (جمهوريّة)، مساحتها ١٩٦ ٠٠٠ كلم²، وعاصمتها دكار، وهي دولة مستقلّة حديثة، تقع على الساحل الغربيّ الأطلسي لأفريقيا السوداء. يبلغ عدد سكّانها نحوًا من سبعة ملايين ونصف المليون نسمة، منهم حوالى خمسة وثمانين بالمئة من المسلمين.

وهذه الدولة التي تحيط بجمهوريّة غامبيا تُجاور في الشمال الامتدادات الصحراوية لجمهوريّة موريتانيا الإسلاميّة، وتشترك حدودها في الجنوب مع حدود جمهوريّة ساحليّة هي مالي، ومع دولتين أخريين على الأطراف البحريّة هما جمهورية غينيا وجمهوريّة غينيا - بيساو. ومن أقسامها المهمّة منطقة تقع جنوبي نهر السنغال الذي أعطاها اسمه في القرن السابع عشر، وهو نفسه لا يُعرف أصل تسميته. وفي سنة ١٨٨٩ ظهرت مستعمرة السنغال ونُظّمت حول أربعة مراكز هي سان لويس، ودكار، وغوري، وروفيسك، ثمّ شكّلت سنة ١٨٩٥ جزءًا من أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة، ونالت استقلالها الذاتي سنة ١٩٥٨. وقد تشكّل عندذاك اتّحاد فدرالي ضمّ السنغال وما كان يُعرف آنذاك بالسودان (الفرنسي)، وقد حصل هذا الاتّحاد على استقلاله في حزيران ١٩٦٠ قبل أن يتفكّك وتنشأ عنه دولتان: السنغال ومالي.

وتضمّ كلٌّ من دولتي السنغال ومالي مقاطعات دخلها الإسلام قديمًا. ومع تطوّر حركة طُرُق القوافل عبر الصحراء وولادة الممالك الأولى في غانا وتكْرور خلال القرون الوسطى، عرفت هذه المقاطعات أشكالًا مختلفة من المجتمعات الإسلاميّة، وشهدت ولادة تيّارات ساعدت على نشر الإسلام. وبعض هذه التيارات نبعت، مع بداية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، توسّع «الفُلبة» ما وراء «فوتا تُورو»، أي انطلاقًا من وسط وادي السنغال وصولًا إلى منطقة مَسّينا في وادي النّيجر وإلى «فوتاجالون» في جمهوريّة غينيا الحاليّة. إلّا أنّ المرحلة الأكثر اضطرابًا كانت في

القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وذلك عند قيام دول عُرفت باسم أمبراطوريات الفُلبة الجهاديّة، تزامنت في أفريقيا الغربيّة كلّها مع فترة حروب داخليّة يُغذّيها مدّ أمبريالي ديني حقيقي نتج عنه، في سهول السنغال، تعاقُب سلطات إسلاميّة غير مستقرّة، بقيادة زعماء من الفُلبة أو من التكرور (Toucouleurs)، كان آخرهم الحاج عمر. وفي الوقت عينه استمرّت المواجهة بين طريقتي القادريّة والتيجانيّة الصوفيّتين، وقد انضمّ إليهما، في أواخر القرن التاسع عشر، ممثّلون للطريقة المريديّة التي ما تزال في حالة اندفاع حتّى يومنا هذا.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٢٩.

السّنوسيّة، نظام صوفيّ إسلامي أو طريقة صوفيّة ارتبطت باسم محمّد بن علي السنوسي (١٢٠١-١٢٧٦هـ/١٧٨٧-١٨٥٩م) الذي كان يمثّل أحد فروع الإدريسيّة، كما كان في أساس قيام الدولة الليبيّة.

وقد حقّقت هذه الفرقة نجاحًا سياسيًّا ودينيًّا، وامتدّ تأثيرها جنوبًا باتّجاه قلب ما كان يُعرف بالسودان الغربيّ الساحليّ، ولكنّ مركزها الأساسي ظلّ في خليج «سرت». وأدّى هذا النجاح إلى قيام سلالة جديدة في المغرب، هي سلالة المعلّمين الكبار المتحدّرين من المؤسّس. وقد تميّز السنوسيّون بتحريم الموسيقى والرقص والتمارين المختلفة التي تؤدّي إلى الوجد الصوفي، واكتفوا بتنظيم تيوقراطي للجماعة الإسلاميّة. كما رفضوا، في آنٍ معًا، الأساليب الإستدلاليّة التي يعتمدها الفقهاء وجهود الإصلاحيّين الهادفة إلى وحدة العالم الإسلامي وإلى صياغة جديدة للشريعة ووضعوا، في المرتبة الأولى، الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيله، ضمن منظور العودة إلى القرآن الكريم والسنّة النبويّة.

وكان المؤسّس السنوسي جزائريًّا تلقّى ثقافته الأولى في فاس على المذهب المالكي، ثمّ التحق بالطريقة القادريّة والطريقة التيجانيّة. انتقل بعد ذلك إلى الشرق لمتابعة دروسه، وأقام في الحجاز إبتداءً من سنة ١٨٣٠ والتقى هناك بمؤسّس الإدريسيّة السيّد أحمد بن الإدريس، فتأثّر كثيرًا بآرائه ومواقفه. وفي حدود سنة ١٨٤٣، انتقل إلى منطقة برقة في ليبيا بعدما أُجبر على ترك منطقة مكّة المكرّمة حيث كان قد أسّس سنة ١٨٣٧ زاوية أولى. وفي ليبيا، أقام علاقات بمختلف القبائل الرحّل التي كانت تجوب تلك المنطقة. وفي سنة ١٨٥٩، قبل وفاته بقليل، استقرّ في منطقة «جَغْبوب»، الواقعة على ملتقى طرق في الصحراء الليبيّة، حيث أسّس زاوية جديدة، وبقي ذلك المكان مركز الحركة، إلى أن اختيرت واحات كُفرة، وهي تقع أكثر جنوبًا، مقرًّا جديدًا، سنة ١٨٩٥. ومن هناك وُزّعت في اتّجاهات مختلفة، وصولًا إلى بحيرة تشاد وإلى «وَدّاي»، خوانق بُنيت كلّها بشكل واحد، مع مسجد ومدرسة وفندق للمسافرين. فكانت مؤسّسة محكمة التنظيم تُشرف على منطقة شاسعة من الصحراء، وتهتمّ بنشر الدعوة. وقد حرص إبن المؤسّس، محمّد المهدي، على أن يوجّهها نحو الصحراء وأفريقيا السوداء.

ومنذ ذلك الحين بدت طاقات السنوسيّة ملفتة، لجهة قدرتها على متابعة صراع سياسيّ قاده معلّم آخر، هو أحمد شريف المتوفّى في العام ١٩٣٣، ضدّ التقدّم الأوروبي: أوّلًا ضدّ تقدّم الفرنسيّين في الصحراء، وبدءًا من عام ١٩١١، ضدّ تقدّم الإيطاليّين الذين هاجموا منطقتي طرابلس وفزّان. إلّا أنّ هزائم كثيرة لحقت بالسنوسيّين الذين دفعوا غاليًا ثمن وقوفهم إلى جانب الأتراك ضدّ الحلفاء خلال الحرب العالميّة الأولى، فاضطرّ قائدهم أحمد الشريف إلى الفرار إلى اسطنبول. كما انتقل ممثّلون آخرون للحركة إلى مصر وسوريا والحجاز. وكان على السنوسيّة أن تنتظر الحرب العالميّة الثانية لكي يستطيع قائدها السيّد محمّد إدريس، خليفة أحمد الشريف منذ عام ١٩١٨ وحفيد السيّد المهدي، أن يعتلي عرش ليبيا. ونسبّب التطوّر الاقتصادي لاحقًا، وكذلك اكتشاف منابع النفط، بالقضاء على السنوسيّة وزوالها.

السيّد محمّد بن علي السنوسي الكبير	١٨٣٧ - ١٨٥٩م
السيّد المهدي	١٨٥٩ - ١٩٠٢م
السيّد أحمد الشريف	١٩٠٢ - ١٩١٨م
السيّد محمّد إدريس	١٩١٨ - ١٩٦٩م

السُّنّيّة، هي عقيدة الذين يعتبرون أنفسهم «أهل السنّة والجماعة»، أي «أتباع السنّة» ووحدة الجماعة، ويبدو

أنّ القسم الثاني من العبارة، أي «وحدة الجماعة»، وهو الأهمّ، غالبًا ما كان يُهمل لمصلحة القسم الأوّل، أي «أتباع السنّة».

يشكّل «أهل السنّة» أكثريّة في العالم الإسلامي، ويعتبرون أنفسهم المدافعين عن المعتقد الصحيح – وهو تعبير حوله نقاش – في وجه الشيعة كما في وجه الفرق الإسلاميّة المختلفة، عن طريق الدور الذي يعطونه للجماعة وتقاليدها التي يعودون إليها لإتمام تعاليم القرآن الكريم والحديث اللذين يُعتبران رُكني الشريعة.

يصعب تحديد الزمن الذي تشكّلت فيه الحركة السنيّة، ذلك أنّها تميّزت على الأخصّ برفضها بعض المواقف المتطرّفة وبعض البدع. وكان قد سبق، في منتصف القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، أن برزت في الحركة السنيّة الخصائص التي ظلّت تميّزها والتي تسمح بالتعريف بها. ففي مجال الفقه والتشريعات القضائيّة أوّلًا، يرى أهل السنّة أنّ المعطيات التي يقدّمها القرآن الكريم والنماذج في سنّة النبي محمّد (ﷺ) يمكن أن تتوضّح وتغتني بإجماع أعضاء الأمّة، أو بالأحرى بإجماع علمائها المهمّين الذين ينتمون، بحسب الحالات، إمّا إلى مدينة يتمّ اختيارها، كالمدينة المنوّرة مثلًا، وإمّا إلى عصر محدَّد من العصور؛ وهذا يعني أنّ تحديد الشروط المطلوبة قابل للتغيّر. كما يرى السنّة أنّ النتائج التي يمكن التوصل اليها عن طريق هذا الإجماع يمكن إكمالها بالإستدلال المنطقي الذي يأخذ أشكالًا عدّة أهمّها القياس. هكذا نشأت المذاهب الفقهيّة المتنوّعة، ومنها أربعة مهمّة ما يزال لها أتباعها: المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي، مع الإشارة إلى أنّ المذهب الظاهريّ لم يعد قائمًا. وعلى الرغم من التباعد في الأساليب المتّبعة لتوضيح الشريعة، ومن الاختلاف في التفسير الناجم عن ذلك، تبقى هذه المذاهب الأربعة منتمية إلى السنّة وتتمتّع كلّها بالاحترام نفسه.

أمّا على الصعيد العقائدي، فيتعلّق السنّة بالمسائل التقليديّة التي دافعت عنها الجماعة بشكل دائم، وهم يتمسّكون قدر الإمكان بحرفيّة النصّ الموحى. لذلك فإنّهم، في البدء، لم تكن لديهم ميول للأخذ بعلم الكلام الذي لم يكن يشكّل إستدلالًا على العقيدة وحسب، بل أيضًا تبريرًا لها. لذلك كان الأدب الديني السنيّ يفضّل التركيز على النصوص المتعلّقة بالعقيدة والتي تكتفي بتعداد مبادئها الأساسيّة: القدرة الكلّية لله تعالى، وجود الصفات الإلهيّة، التركيز على أنّ القرآن الكريم غير مخلوق، التحديد المسبّق لأعمال الإنسان، واجب الطاعة لرئيس الجماعة، حتّى لو لم يكن سلوكه مثاليًّا، إدانة كلّ فتنة داخل الجماعة. وقد استمرّ موقف السنّة من شرعيّة علم الكلام يتطوّر، فظهر اتجاهان: واحد يأخذ بحرفيّة النص ويمثّله المذهب الحنبلي، وآخر يقبل باللجوء إلى الإستدلال في المسائل العقائديّة. وهذا الاتّجاه الثاني نادت به بنوع خاص الأشعريّة التي ظهرت في مطلع القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، واستمرّ يتطوّر حتّى العصر الحديث، مع اعتباره أحيانًا يمثّل الرأي المستقيم.

على الصعيد السياسي، يتمسّك السنّة بالمبدإ القائل إنّ كلّ إمام يصل بصورة شرعيّة على رأس الجماعة، من الأفضل أن يكون قد تمّ اختياره من قبل الجماعة، وفي كل الأحوال، عليه أن يحصل على مبايعتها. فهم إذًا يقولون بمبدإ انتخاب الخليفة، كما هي الحال مع الخوارج، ويؤكّدون الاختيار الحرّ خلافًا لمبدإ التعيين بالوصيّة أو النصّ الذي تأخذ به الشيعة. والواقع أنّهم، خلال القرون الوسطى، لم يكفّوا عن مساندة الخلفاء العبّاسيّين، رافضين عمليًّا أيّة آليّة لعزل الخليفة، كما اقترحها مثلًا بعض أتباع المعتزلة؛ لا بل إنّهم تصرّفوا وفق مبدأ الخضوع غير المشروط للحاكم الذي حصل منهم على البيعة.

بالإجمال، فإنّ مبادئ السنّة أخذت طابعها الكامل في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، عندما تمّ توضيح المبادئ الفقهيّة الحنبليّة في وجه تيّارات المعتزلة والشيعة. وهذه التيّارات أدّت إلى نشوء الفرق المهمّة التي عرفت – أو بدأت تعرف – بفعل ازدهار بعض الدعوات، نجاحًا سياسيًّا، ما أثار رفضًا عنيفًا. عندئذ تكاثرت آراء المفكّرين المعتدلين، كردّة فعل على الفرق، وتشكّلت الأنظمة الفقهيّة الرافضة لما توصّل إليه علماء الشيعة من نتائج. كما تمّ جمع الأحاديث الشريفة التي اعتُبرت صحيحة وفقًا للمعايير

السائدة، واعتمدت أساسًا في تفكير السنّة.

ومع ذلك يبقى من الصعب الإحاطة بنطاق السنيّة، لأنّ موقفها السياسي كان أكثر حزمًا من موقفها العقائدي. من المقبول مثلًا القول بوجود معتزلة سنيّين يقولون بمبدإ الاختيار وبشرعيّة الخلافة العبّاسيّة، حتّى لو كانوا يجاهرون، على الصعيد الفقهي، بأفكار متنازع عليها. أمّا الصوفيّون فكانوا يُعتبرون سنيّين عندما كانوا يجاهرون بأفكار معتدلة، حتّى لو كان القسم الأكبر منهم، كثيرًا ما تبنّى أفكارًا قريبة من الشيعة جعلتهم يعتقدون أنّ بعض الصوفيّين يتمتّعون بإلهام إلهي شبيه بالذي يعتقد الشيعة أنّ أئمّتهم العلويّين يتمتّعون به.

السُّهْرَوَرْديّ، شهاب الدين يحيى المُكَنّى بـ«المقتول» (٥٤٧-٥٨٨هـ/ ١١٥١-١١٩١م)، متصوّف من أصل إيرانيّ، تساعد كنيته على تمييزه عمّن يحمل الاسم نفسه، وتقوم شهرته على كونه عُرف باسم معلّم الحكمة الإشراقيّة.

ولد السُّهروورديّ في سهرورد، في مقاطعة الجبال القديمة في إيران، ودرس الفقه والفلسفة في مراغة، ثمّ في أصفهان حيث خالط جماعات صوفيّة ووجد نفسه على اتّصال بأفكار غريبة لفرق شيعيّة متطرّفة. ثمّ أقام مدّة في بلاد ما بين النهرين العليا، ومنها انتقل إلى حلب حيث كانت تقيم بعض الجماعات الشيعيّة، فلقي الحماية من إبن صلاح الدين الملك الظاهر. لكنّ صلاح الدين رأى في أفكاره ما يشكّل خطرًا سياسيًّا، فحكم عليه بالموت وأُعدم السُّهروورديّ سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، وذلك على أثر نقاش علني مع علماء من حلب انتهى بإدانته واتّهامه بالزندقة.

ترك السُّهروورديّ، إلى جانب أبحاثه المتنوّعة، كتابًا مهمًّا بعنوان «حكمة الإشراق»، يدافع فيه عن وجود حكمة واحدة تشكّل تقليدًا صوفيًّا عبّر عنه مختلف المفكرين عبر العصور، وهي التي تتوافق مع النور الإلهي الذي تشير إليه آية قرآنيّة مشهورة. وبموجب هذه العقيدة يستطيع المتصوّف أن يبلغ مرحلة إشراق النفس في الله، مع إفناء الأنا في حبّ الله والعبور إلى الخلود، وهذا ما قال به الحلّاج. وهذه الآراء التي يدافع عنها صاحب الكتاب تقع عليها بين المفاهيم الصوفيّة التي تُعتبر بدعًا، وتتلاقى مع عدد من آراء الشيعة عن الإمامة. وقد انتقلت هذه الآراء، عن طريق مؤلّفات السُّهروردي، إلى مفكّري الإماميّة الإثني عشريّة في إيران خلال القرن السابع عشر.

السُّهروورديّة، تنظيم صوفيّ إسلامي أو طريقة، كان له دوره في تطوّر حركة التصوّف، وضع أُسسه شيخان نسيبان يحملان اسم السُّهروورديّ، درّسا في بغداد خلال القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

أشهر الإثنين هو أبو حفص عمر السُّهروورديّ (٥٣٩-٦٣١هـ/ ١١٤٥-١٢٣٤م)، درس على عمّه ضياء الدين أبو النجيب (٤٩٠-٥٦٣هـ/ ١٠٩٧-١١٦٨م) الذي كان يجمع تلاميذه في رباط ببغداد على ضفّة دجلة. وكان أبو حفص على علاقة حسنة بالخليفة العباسيّ الناصر الذي كان يسعى إلى الحصول على دعم المتصوّفين؛ فأرسل أبو حفص سفيرًا إلى قونية لدى كيقُباد الأوّل سلطان سلاجقة الروم، ولدى أمراء آخرين مجاورين. ثمّ درّس في رباط آخر ببغداد جهّزه له الخليفة، وكان تعليمه مطابقًا للتقاليد، فتبعه معجبون ونشروا مذهبه في بلدان مختلفة.

ازدهرت السُّهروورديّة في العراق والهند بشكل متوازن، واحتلّت المركز الثاني بعد الجشتيّة. كما انتشرت في السِّند والبنجاب بفضل جهود بهاء الدين زكريا المُلتاني الذي كان في العراق أحد تلامذة أبي حفص عمر. وكانت عادات أتباعها وتقاليدهم شبيهة بتلك التي اتّبعها شيوخهم البغداديّون، لذا عمدوا إلى التعاون سياسيًّا مع الأمراء الحاكمين، وإلى تقديم الآراء والنصائح لهم وقبول نعمهم، مع تركيز اهتمامهم على أُسَرهم وعلى أعقابهم الذين عاشوا في كنف مؤسّسات غنيّة، خصوصًا في مُلْتان وأوش. وقد فضّلوا اتّباع صوفيّة معتدلة تشدّد على الانتماء إلى الإسلام بدل السعي إلى الوَجْد وتقنيّاته المتنوّعة.

عن السُّهروورديّة انشقّت الشطّاريّة التي نشأت وانتشرت، في القرنين التاسع والعاشر للهجرة/ الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، في الهند قبل أن تمتدّ نحو إيران والسلطنة العثمانيّة.

سهْل التُسْتَري، ابو محمّد سهل بن عبدالله بن يونس ٢٠٢-٢٨٢هـ/٨١٨ - ٨٩٦م، متكلّم وصوفيّ من أصل إيراني، أدّى فكره ومسلكه إلى نشوء مدرسة كلاميّة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ذات توجّه صوفيّ هي المدرسة السالميّة.

ولد في تُسْتَر قرب الأهواز، ونشأ على التقليد السنيّ الذي كان عليه أساتذته الأوّلون. كان سهل معروفًا، بوجه خاص، بزهده. لكنّه، مع ذلك، نفي إلى البصرة سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م، في أثناء ثورة الزّنج، لأنّه دافع عن عقيدة اعتُبرت مضرّة، ومات فيها بعد عشرين عامًا على نفيه. اشتغل بجدليّة شبيهة بجدليّة علم الكلام، لكنّه لم يخلّف كتابات. إلّا أنّ «أحكامه» جُمعت بهمّة تلميذه إبن سالم، مؤسّس الحركة السالميّة، إنطلاقًا ممّا ترك له سهل في حياته من سمات أساسيّة لتفكيره، وقد تمّ تحديدها كالآتي: «إستبطان قائم على التجربة اليقظة لحياة العبادة الطقسيّة ومصطلحات تقنيّة غنوصيّة التوجّه ذات منحى يُفضي الى أحديّة الوجود.»

السَواد، كلمة عربيّة تعني الأسود، اتّخذت معاني متنوّعة، خصوصًا في الحقل الجغرافي. وسواد، كإسم نكرة، كانت تشير إلى الثوب الطويل الذي درج على ارتدائه كتّاب الدواوين، خلال احتفالات البلاط، في العصر العبّاسي.

وكإسم علم، أُطلقت اللّفظة على العراق، وبالتحديد على سهل دجلة والفرات الغربيّ. وكان هذا السهل من المناطق الغنيّة في الأمبراطوريّة الإسلاميّة، وقد أُخذ عنوة خلال الفتوحات الكبرى وأُخضعت أراضيه لضريبة الخراج. وتحصيل الخراج من «السواد» أصبح، في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، من أهمّ المهمات الإداريّة في الخلافة. واختيار الوزراء كان يتمّ في هذه المرحلة من بين الكتّاب الذين كانوا يستوفونه. وقد أُطلقت لفظة «السَواد» على مناطق أخرى أقلّ مساحة في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى، وغالبًا ما كانت تُطلق على الأراضي المزروعة حول المدن.

السودان، تعبير جغرافي وتاريخي يعود بأصله إلى التعبير العربي «السودان» أو «بلاد السود»، ويشير - في معناه الواسع - إلى المنطقة الأفريقيّة القابلة للسكن والمكوّنة من أراضٍ مجدبة أو من مفازات تحيط، لجهة الجنوب، بأراضي الصحراء القاحلة وبمنطقة النوبة. ويدلّ التعبير حاليًا على جمهورية السودان في أفريقيا السوداء الشرقيّة.

١ - في أواخر القرون الوسطى، انتشر الإسلام في منطقة الساحل التي أصبحت نقطة الإنطلاق باتّجاه أفريقيا السوداء الإسلاميّة التي من ميزاتها البارزة أنّ سكّانها اليوم هم كلّهم مسلمون تقريبًا وأنّهم يعتبرون أنفسهم كذلك منذ ماضٍ بعيد. وما ساعد على انتشار الإسلام هو وحدة المناخ ووحدة المشهد الطبيعي اللذين يميّزان مجموعة الأراضي الممتدّة من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر فالمحيط الهندي، وهي مناطق تقع بين صحارى وغابات عذراء. وهذا ما جعلها تخضع، بالطريقة عينها - من ضفاف النيل الأعلى حتّى ضفاف نهر النيجر أو نهر السنغال، مرورًا بالمناطق الموحشة في التشاد - لمؤثّرات وسياقات تاريخيّة متماثلة. فالأراضي المؤاتية للرعاة الرحّل وللقوافل، والمؤاتية أيضًا لتوغّل القبائل العربيّة أو البربريّة أو تلك التي تنتمي إلى الفُلبة - وكل هذه القبائل تهجّنت بسرعة - كانت في كل مرّة تشهد قيام، ثمّ زوال عددٍ من الممالك والأمبراطوريات الإسلاميّة المحليّة المتتالية. إنّ الأمبراطوريّات الأخيرة التي نمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - قبل اتّساع الاستعمار الأوروبي - كانت تتبنّى، في إعلانها قيام إسلام متجدّد، مواقف متصلّبة فرضنها بالعنف والقتال، وفْق مفهوم للجهاد ساعد كثيرًا على قولبة ذهنيّة سكّان هذه المناطق.

ومن الأكيد أنّ دمج الإصالة السودانيّة بالواقع الإجتماعي للدول السوداء المعاصرة التي تتقاسم أفريقيا السوداء الشرقيّة والوسطى والغربيّة، لا يكفي وحده ليُفسّر وضع هذه الدول التي تسكنها اليوم أغلبيّة مسلمة، أو التي تحتضن، على الأقلّ، أقليّات إسلاميّة ناشطة وفي طور النمو. لقد دخلت عوامل أخرى إلى هذه المناطق التي تمتدّ في أغلبيتها إلى ما وراء حدود السودان القديم والتي عرفت، في إطار حدودها الحاليّة،

أحداثًا سياسيّة وإداريّة خاصّة بالفترة الحديثة. فالخصوصيّات والمشكلات التي ميّزت الاسلام الاسود في هذه الدول تتخطّى المعطيات الموروثة عن الإسلام السوداني القديم؛ كما تتخطّى العلاقات التي قامت في هذه المناطق، في ما مضى، بين الحضريّين والبدو، الذين خضعوا جميعهم لقواعد اقتصاد قروسطي، له، في آن معًا، طابع رعوي وتجاري. ومع ذلك فإنّ الواقع الحالي ما زال، في بعض مظاهره، يعكس صورة ماضٍ له طابع سوداني بالمعنى الحصري للكلمة.

في أفريقيا الشرقيّة أولًا: إنّ تأثير المواجهات المتواترة والقديمة العهد بين مصر الإسلاميّة ومنطقة النوبة - التي ظلّت مسيحيّة لفترة طويلة - سمحت للمهاجمين القادمين من الشمال، والذين شجّعتهم الغزوات التي قام بها الفاطميّون والأيوبيّون والمماليك، على تحويل منطقة حوض النيل الأعلى تدريجيًّا إلى الإسلام. وفي ما بعد، شهد القرن السادس عشر هذه الفسيفساء من الإمارات الصغيرة المعرّبة والمؤسلمة تفسح في المجال أمام قيام سلطنة الفونج الإسلاميّة، وهي أمبراطوريّة توسّعيّة تركّزت في منخفض الجزيرة السودانيّة الخصب الذي خضع لتأثير العرب المسلمين المهاجرين ولسلالاتهم القياديّة. وقد شجّع التوسّع الظرفي لهذه الأمبراطوريّة باتّجاه الغرب الهجمات العربيّة - الاسلاميّة إلى ما وراء دارفور ووداي. وبدورها انبثقت السلالات الإسلاميّة المحليّة من نجاح هذه المحاولات، واستقرّت في السودان الأوسط بدءًا من القرن السابع عشر. وبهدف تأكيد شرعيّتها، إدّعت كلّ منها الإنتساب إلى أصول عربيّة عريقة.

في مطلع القرن التاسع عشر، تدخّلت مصر أيضًا في الحوض الأعلى للنيل، في محاولة لتوحيد البلاد على أثر حملة محمّد علي بقوّاته التركيّة - المصريّة، وأيضًا من أجل مراقبة تنامي النشاط التجاري الإسلامي داخل الغابة الإستوائيّة، ولا سيّما تجارة الرقيق والعاج. وأخيرًا شهدت المرحلة اللّاحقة اضطرابات سياسيّة - دينيّة اتّسمت بسمات الحركة المهديّة الفريدة وبممارستها الجهاديّة. وهذه الاضطرابات كانت في أساس قيام الدولة الحديثة ذات الإنتماء الإسلامي، التي تكوّنت في البدء تحت اسم السودان الإنكليزي - المصري، والتي صارت تُعرف اليوم باسم جمهوريّة السودان.

وبالطريقة نفسها، وبتأثير موجات الهجرة الآتية من الشمال، نمت في الجهة الغربيّة من القارة، وفي الجزء الشمالي من المنطقة الساحليّة، مملكة غانا السوداء. وقد قامت هذه المملكة على تخوم الجمهوريّات الحاليّة لموريتانيا والسنغال ومالي. وبحسب المؤلّفين العرب، كانت هذه المملكة تضمّ، في القرنين الرابع والخامس للهجرة/العاشر والحادي عشر للميلاد، عددًا كثيرًا من الذين اعتنقوا الإسلام. ويعود سطوعها الأسطوري إلى تطوّر تجارة القوافل عبر الصحراء، المرتكزة على مبادلة الملح بالذهب، وكان يسيطر عليها بالكامل تجّار مسلمون. لقد عرفت هذه التجارة عبر التاريخ تقلّبات يصعب تتبّعها، ولم تُدرس بعد كفاية، وقامت على امتداد طرق ذات مسارات متغيّرة. فالطرق الشرقيّة كانت تؤدّي إلى مناطق يسكنها الإباضيّون؛ أمّا الغربيّة فتصل إلى سجلماسة، وهي التي أمّنت الإزدهار الظرفي لأوداغوست في موريتانيا، لكنّها عانت من نتائج المغامرات التوسّعيّة للمرابطين الأوائل. وهذا الوضع أدّى، في السودان ذاته، إلى تمدّد طرق القوافل الواقعة على منافذ الطرق العابرة للصحراء، وإلى قيام أبنية سكنيّة مستقرّة شغلت بعض المواقع في السهوب، اختيرت كمستودعات وكمحطّات للراحة. وفي هذه الأماكن استقلّ المسلمون الأجانب بأحياء سكنيّة وحتّى بمدن بأكملها، ليعيشوا فيها وفق شريعتهم، بعد أن نجحوا، في غالب الأحيان، في إقناع ملوك البلاد السود باعتناق الإسلام. وفي هذا الإطار عمل تجّار مسلمون، كانوا متأكّدين من الحفاظ على استقلاليّتهم، على نشر معتقداتهم عن طريق الدعوة والتعليم الديني، وقد ساعدهم ذلك على توسيع مناطق تنقّلهم.

وعلى هذه القواعد نمت كذلك، وبعد فترة وجيزة، في حوض نهر النيجر، أمبراطوريّة صُنغاي المسلمة في غاو، في أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. وتشهد المعالم الأثريّة والنقوش، التي ما زالت

محفوظة حتّى اليوم، على هذه النشأة. أمّا مرحلة الازدهار الثانية لهذه الدولة فكانت في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، ووصلت إلى ذروتها في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، ما حوّل تومبوكتو إلى مركز كبير للتجارة وللإسلام في الساحل. لكنّ احتلال السعديّين المغاربة للبلاد وضع حدًّا لفترة الازدهار هذه بشكل عنيف. وقبل ذلك، وخلال القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، كانت قد نمت، في المناطق الغربيّة، دولة مالي السوداء التي اعتنقت الاسلام، ولكنّها حافظت على روابط سياسيّة عديدة مع السكّان التيميّين في الجنوب، وفي الوقت نفسه تبادلت السفراء بصورة منتظمة مع المغرب في الشمال. وأخيرًا تكوّنت أيضًا، إلى الشرق وإلى الجنوب الشرقي من أمبراطوريّة صنغاي، دويلات إسلاميّة اخرى متنافسة، تشبه صنغاي من حيث تكوّنها وتنظيمها، ولكنّنا لا نعرف عنها إلّا القليل، على الرغم من أهميّتها المتزايدة آنذاك: من بينها مملكة كانم التي كان مركزها، حتى القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، قائمًا على أراضي جمهوريّة التشاد الحاليّة؛ ومملكة البُرنو التي خلفت مملكة كانم وأفادت من تداعي أمبراطوريّة صنغاي لمدّ نفوذها نحو الصحراء؛ ومملكة الهاوسا في كانو، شمال جمهوريّة نيجيريا الفيدراليّة الحاليّة، التي أُخضعت أحيانًا لمملكة البورنو.

كل هذه الدول، التي اختلط تاريخها بتاريخ عددٍ من الملوك الصغار - سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين - الذين كانوا يدافعون عن طموحاتهم في إطار سياسي شديد التعقيد، ساهمت في تحويل السودان الغربي والأوسط إلى الإسلام بتطبيقها الشريعة الإسلاميّة على طريقتها. فهؤلاء الملوك أنفسهم، الذين استمدّوا من الإسلام شرعيّة سلطتهم، أدخلوا عليه أعرافًا مستقاة من مخزون تقاليد قديمة، ودفعوا باتّجاه اعتماد ممارسات شعبيّة بعيدة عن التقاليد والعادات المعروفة. ونتج عن ذلك وضع يمكن من خلاله تفسير مرحلة التطور السياسي-الديني الجديدة التي بدأت مع ولادة دول إسلاميّة تيوقراطيّة. فهذه الدول ركّزت على تعاليم الطرق الصوفيّة كالقادريّة والتيجانيّة، وعلى رفض التسامح مع الكفّار، وعلى التمثّل بتجربة هجرة النبي محمد (ﷺ)، وعلى ممارسة الجهاد بلا هوادة.

هذا الميل الى التشدّد الديني، الذي هيمن في ما بعد في السودان الشرقي تحت تأثير الإيديولوجيّة المهديّة، فتح الباب، في السودان الغربي، أمام قيام أمبراطوريّات الفلبة التي اعتمدت على محاربين ينتمون إلى قبائل رعاة. وقد وجّه هؤلاء حركة فتوحاتهم باتّجاه الشرق، وشنّوا حروبًا لا رحمة فيها ضد ممالك يسكنها مسلمون سود، وعاملوا ملوكها كأعداء حقيقيّين. وقد نجح أسياد تلك الأمبراطوريّات المحاربة الذين كانوا، في الوقت نفسه، رؤساء روحيّين في الطريقة القادريّة وقادة محاربين - في بسط سلطتهم على: فوتا جالون، فوتا تورو، وبخاصة على مسّينا التي كانت في بداية القرن التاسع عشر تحت سلطة شيخُو أحمدو، وأيضًا على شمال نيجيريا حيث كان عثمان دان فوديو وشقيقه قد أسّسا دولتي غواندو وسوكوتو الشهيرتين. بعد فترة وجيزة، في نهاية القرن التاسع عشر، تأسّست أمبراطوريّة الحاج عُمر تال الواسعة، بالطريقة نفسها ولكن تحت تأثير فرقة صوفيّة منافسة، هي التيجانيّة.

وقد ظهر أيضًا مناضلون آخرون في سبيل الإسلام في هذه الأراضي. واستنادًا إلى الوعظ والارشاد، انصبّ جهد هؤلاء على محاربة تغلغل الأوروبيّين داخل السودان الغربي، وحتّى الاوسط بعد تقدّمهم إنطلاقًا من الساحل الاطلسي - أكثر ممّا انصبّ على تطهير دار الإسلام من آثار الوثنيّة. واشهر هؤلاء المناضلين الذين قاوموا الإحتلال الاستعماري هو بدون شكّ ساموري، وهو من أصل مانْدِنْجي، اهتدى إلى الاسلام واسّس أمبراطوريّة مهيبة إبتداءً من العام ١٨٧٩. توصّل، حوالى العام ١٨٨٦، إلى التفاهم مع الفرنسيّين، لكنّ هؤلاء هزموه عسكريًّا حوالى سنة ١٨٩١، فاضطرّ إلى التخلّي عن كانكان؛ وبعد أربع سنوات مُني بهزيمة كبرى في أراضي ساحل العاج، حيث حاول، بدون جدوى، إعادة تجميع قواته. وتطابق زوال حكمه نهائيًّا سنة ١٨٩٨ - وبعد فترة وجيزة من أفول سلطة آخر ورثة الحاج عمر تال - مع تمركز القوات الفرنسيّة في باجويرمي وفي

بورنو، ثمّ في واداي سنة ١٩٠٩. بينما تمكّن البريطانيّون من سلطان سوكوتو سنة ١٩٠٤، في الوقت عينه الذي نجح فيه الألمان في احتلال القسم الأكبر من أذماوا.

ومنذ ذلك الحين، وبخاصّةٍ بعد الحرب العالميّة الأولى، ارتبط مصير الإسلام في المنطقة التي كانت تُعرف بالسودان الغربي بواقع متحوّل فرضته الادارة الفرنسيّة من جهة، والإدارة البريطانيّة من جهة ثانية، إن في أفريقيا الغربيّة والاستوائيّة الفرنسيّة، أو في شمال البلدان الساحليّة كنيجيريا البريطانيّة. ونتيجةً لذلك، فإنّ الكثير من الخصائص القديمة للإسلام السوداني، التي نشأت عن ظروف الحياة الخاصّة بمنطقة السهوب طوال القرون الوسطى بدأت، منذ ذلك الوقت، بالإندثار تحت ضغط عوامل التطوّر المختلفة - منها الإتصال المباشر بالعالم الحديث - وأيضًا بسبب التحوّلات السياسيّة المختلفة التي عرفتها هذه الشعوب التي تخلّصت من الحواجز الجغرافيّة القديمة. هكذا، في المناطق الغربيّة كما في المناطق الشرقيّة للقارة السوداء، عرف الإسلام أطرًا جديدة تبلورت سريعًا حول مسائل داخليّة خاصّة بكلٍ من الدول المستقلّة التي نشأت بعد الحرب العالميّة الثانية. وبعض هذه الدول تخطّى حدود السودان القديم وتوسّع جنوبًا، وصولًا إلى خليج غينيا. وحدها جمهوريّات السنغال ومالي وبوركينا فاسو والنيجر، كما جمهوريّة التشاد المجاورة لجمهوريّة السودان في أفريقيا الشرقية، حافظت على سماتها الأساسيّة كدول ساحلية، على رغم التحوّلات المعاصرة التي عرفتها.

٢ - **جمهوريّة السودان الحاليّة**، مساحتها: ٨١٠ ٥٠٥ ٢ كلم[٢]، عاصمتها الخرطوم. دولة مستقلّة حلّت، في العام ١٩٥٦، محلّ السودان الإنكليزي - المصري القديم. تمتدّ على الوادي الأعلى لنهر النيل. يبلغ عدد سكّانها حوالي ستة وعشرين مليون نسمة، نسبة المسلمين بينهم هيَ ثلاثة وسبعون في المئة.

هذه الأكثريّة الإسلاميّة في منطقة تضمّ شعوبًا غير متجانسة تبدو ثمرة ميراث مزدوج: ميراث المهديّة وميراث الأسلمة الطويلة الأمد التي تطوّرت في ظلّ النفوذ المصري. بدأت هذه الأسلمة مع الغزوات الأولى التي قام بها العرب على بلاد النوبة وتثبّتت لاحقًا مع محاولات الخديويّين وجهود التوحيد الثقافي التي اتّسم بها تاريخ الكوندومينيوم (condominium) الانكليزي - المصري في السودان. من هنا الدور المسيطر الذي يعترف به الدستور للشريعة الإسلامية المطبّقة بحسب المذهب المالكي. أمّا المناطق الجنوبيّة فقد بقي سكّانها على دياناتهم الأصليّة، فهم إمّا تيميّون وإمّا مسيحيّون، ولكنّهم أُجبروا بالقوّة، على الرغم من الثورات التي قاموا بها، على الخضوع لسلطة الخرطوم. تعود المظاهر الدينيّة الأخرى للإسلام المحلّي إلى الدور الذي يؤدّيه المتصوّفون الذين يُعرفون محليًّا باسم «فاكي» والذين يعملون باستمرار على نشر التعاليم الصوفيّة في مختلف اتّجاهاتها.

على صعيد آخر، فإنّ التباينات الكبيرة بين المقاطعات تسبّبت بأزمات داخليّة. لقد ضُمّت هذه المقاطعات إلى بعضها البعض بشكل إصطناعي، في إطار بلدٍ يطبعُه تنوّع كبير في مظاهره الطبيعيّة، ما بين الصحراء والسهب، من جهة، والمناطق المرويّة في أعالي النيل والغابة الإستوائيّة في الجنوب، من جهة ثانية. ومقابل فرادة المنطقة الجنوبيّة غير الإسلاميّة من البلاد - التي تبقيها معارضتها للنظام في مستوى حياة بدائية - هناك المقاطعات الإسلاميّة الواقعة على نهر النيل، وأغناها تلك التي تشكّل، حول مدينة الخرطوم، مثلّث الجزيرة المروي الذي ترتبط به المناطق البعيدة إرتباطًا هشًّا. من هذه المناطق ما يشكّل، من الجهة الغربيّة، هضبتي كوردوفان ودارفور، ومنها، في الشمال الشرقي، ما يشمل المنطقة الساحليّة للبحر الأحمر التي خضعت، إبتداءً من القرن السادس عشر، في سنجق سواكين، لاحتلال عثمانيّ هدف إلى مواجهة مشاريع البرتغاليّين. تشكّل هذه المنطقة اليوم المقاطعة التي يمرّ فيها، عبر مرفإ بورسودان، معظم تجارة البلاد.

إلى هذا التفاوت في مستويات النموّ بين المناطق، تُضاف آثار علاقاتها بالدول المجاورة التي تختلف أنظمتها السياسيّة وأوضاعها الدينيّة: من مصر إلى إيريتريا فالحبشة، ومن جمهوريّتي ليبيا والتشاد إلى جمهوريّات

أفريقيا الوسطى وزائير وأوغندا وكينيا. على كل هذه المناطق السودانيّة، فرض النُّميري نظامه العسكري الدكتاتوري، ولكنّه أفسح في المجال في ما بعد أمام قيام حكم مدني وديموقراطي تسيطر عليه الأحزاب الإسلاميّة النافذة. ولكن، في العام ١٩٨٩، حلّ محلّه من جديد نظام عسكري يميل إلى تعزيز الحركة الدينيّة المتشدّدة.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ٢٨ و٢٩.

سُورات (الاتّحاد الهندي)، مرفأ بقي ناشطًا مدّة طويلة في مقاطعة غُجَرات الإسلاميّة على الساحل الغربي للهند، وترافق ازدهاره مع انحطاط مدينة كمباية القديمة.

بدأ ازدهار هذه المدينة في بداية القرن السادس عشر، بعدما عانت هجمات البرتغاليّين المتكرّرة. ووصلت، الى قمّة ازدهارها عندما استولى عليها الأمبراطور أكبر سنة ١٥٧٢ وضمّها إلى أمبراطوريّة المغول الواسعة والغنية. ومنذ سنة ١٦١٨ أقام فيها الانكليز عددًا من المؤسّسات، ثمّ ضعفت أمام بومباي مع قدوم سنة ١٦٨٧، ووقعت سنة١٨٠٠ في أيدي البريطانيّين.

السورة، جمعها السُوَر ← القرآن.

سوريا، وتُعرف باسم بلاد الشام: إسم أُطلق في القرون الوسطى على منطقة من العالم الإسلامي، قُدّر لها أن تكون دائمة الاضطراب في قلب الشرق الأدنى المتوسطي، وتشير اليوم، بمعنى جغرافي أكثر حصريّة، إلى الجمهوريّة العربيّة السوريّة.

١ - كانت سوريا، بحسب وصف الجغرافيّين العرب في القرون الوسطى، تتميّز بتضاريسها ومناخاتها المتنوّعة، وبموقعها بين البحر والصحراء. كما عُرفت في كونها مقاطعة قديمة غير متجانسة عرقيًّا ولغويًّا. وكانت تتكوّن من مناطق ومقاطعات تتميّز بخصوصيّات بارزة، غالبًا ما قامت على التنوّع الديني. تتوزّع هذه المناطق اليوم على الجمهوريّة العربيّة السوريّة، وأيضًا على الجمهوريّة اللبنانية وإسرائيل فلسطين المحتلّة، والأراضي الفلسطينيّة المتمتّعة بالحكم الذاتي، والمملكة الأردنيّة الهاشميّة والجمهوريّة التركيّة.

لا شكّ في أنّ اللغة العربيّة والإسلام سيطرا، بعد الفتوحات الكبرى، في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، التي تبعت التوغّل المتواصل لقبائل عربيّة قدمت من المنافذ الجنوبيّة الصحراويّة. إلّا أنّ عوامل الوحدة هذه طُمِست بعض الشيء في فترة لاحقة بفعل الغزوات والاجتياحات والتفتيت التاريخي المتتابع، بينما بقيت الفوارق العميقة بين المناطق المأهولة حيث يظهر التناقض، مثلًا، بين الساحل اللبناني الغنيّ والرطب وبين الروابي الفلسطينيّة المرويّة والسلاسل الجبليّة المحيطة بمنخفضي البقاع ووادي الأردن، من جهة، والمساحات الموحشة، المزروعة بالواحات في بعض الأمكنة، للهضبة السوريّة الأردنيّة من جهة ثانية. وسوريا التي كانت جزءًا من الهلال الخصيب كانت تتّصل بالعراق عن طريق بلاد ما بين النهرين العليا، كما كانت منفتحة على الشرق والجنوب عبر سهوب تدمر وتخوم شبه الجزيرة العربيّة وضواحي مصر عبر سيناء. وكانت، فضلًا عن ذلك، منفتحةً على الخارج: فهي محاطة بمرافئ وتجتازها خطوط تنقّل بدويّة وطرق للقوافل تصلها، عبر إيران، بالهند وآسيا الوسطى وسهوبها الشماليّة، وأيضًا بهضبة الأناضول وبمنطقة القوقاز، وأيضًا بأوروبا المتوسطية وبدول المغرب الإفريقيّة.

كل هذه الميّزات الطبيعيّة التي كانت المنطقة الممتدّة من انطاكية الى القدس قد استفادت منها في ظلّ الحكم البيزنطي ساهمت، بادئ ذي بدء، في جعل سوريا الفروسطيّة التي فتحها المسلمون واختارها الأمويّون، منذ سنة ٤١هـ/ ٦٦١م، مقرًّا للخلافة، مركزًا غير منازَع للعالم الإسلامي الجديد. قُسّمت سوريا إلى مناطق عسكريّة أو أجناد، ما سهّل على العرب عمليّة الاستيطان في أراضيها الواسعة، واحتضنت عواصم إداريّة وسكنيّة كدمشق والرملة وحرّان، إضافةً إلى قصور الأرستقراطيّين وأملاكهم المنتشرة في كلّ أقسامها المزروعة. كلّ ذلك أدّى إلى ازدهار حضارة مميّزة تشهد عليها اليوم الأبنية والمعالم الأثريّة الباقية من العصر الأمويّ.

أدّى انتصار العبّاسيّين بعد ذلك إلى التخلّي، بصورة

مفاجئة، عن جزء من هذه الإمتيازات السياسيّة والإقتصاديّة، ولم تستعد سوريا قط بريق تفوّقها المعماري. عرفت آنذاك، وهيَ الواقعة بين العراق ومصر، مرحلةً من التراجع استمرّت حتّى القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، وعانت لاحقًا من ارتدادات الحملات المتعاقبة التي قام بها سلاجقة الشرق والمغول وتيمورلنك، ولكنّها قاومت تغلغل الفرنج الذين استولوا على منطقتها الساحليّة. دفع هذا الوضع بالدول الاسلاميّة الواقعة في الداخل السوري إلى محاربة الغزاة. وقد استمدّت هذه الدول، في مختلف مراحل هذه المواجهات، سمعةً جهاديّة طيّبة وصلت إلى أوجها مع مآثر نور الدين وصلاح الدين. ولكنّ كل ذلك لم يساعد سوريا، المقسّمة داخليًّا والمحرومة من أيّ وزن اقتصادي، على أن تلعب دورًا متقدّمًا.

إنّ مصر، لا سوريا، هيَ التي شكّلت الإقليم الأساسيّ في المملكة الأيوبيّة التي توزّعت بين مختلف الإمارات التي حكمها أفراد من أعقاب صلاح الدين أو من عائلته. لكنّ هؤلاء ظلّوا جميعًا خاضعين لسلطة سيّد القاهرة. لقد عاشت سوريا حالةً مشابهة مع دولة المماليك إبتداءً من العام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، فخضعت لحاكم كان يعيّنه سلطان مصر. وأخيرًا ضُمّت الأراضي السوريّة إلى الدولة العثمانيّة، إثر الانتصارات التي أحرزها السلطان سليم الأوّل على المماليك، وقُسّمت إلى ثلاث ولايات، دمشق وحلب وطرابلس (في ما بعد دمشق وحلب وصيدا، وفي المرحلة الاخيرة دمشق وحلب وبيروت)، في حين أنّ جبل لبنان تمتّع بوضع خاص. إلّا أنّ هذا الضعف السياسي لم يمنع الأراضي السوريّة، طيلة فترة الحكم العثماني، من أن تعرف حركة ازدهار في الحقل المعماري. فقامت فيها أبنية حجريّة جميلة تتميّز بأسلوب هندسي بسيط وطريف. وفي الوقت عينه تطوّرت فيها حياة فكريّة ذات طابع تقليدي، مرتبطة بما كان يجري في مصر، ومرتكزة على ثقافة عربيّة إسلاميّة قديمة.

وبعد نحو ثلاثة قرون، إجتاح بونابرت سوريا، كما اجتاحها من بعده إبراهيم باشا، إبن محمّد علي. فعمد الباب العالي إلى إدخال تعديلات على نظام الجبل اللبناني، ما أدّى إلى مواجهات بين الدروز والموارنة المسيحيّين، وكذلك إلى تدخّل فرنسي في المنطقة في عامي ١٨٦٠-١٨٦١. وتعكس هذه النزاعات الدينيّة الحدّة التي أظهرتها عبر التاريخ، داخل الاسلام السوري، الفرق والحركات الاجتماعيّة - السياسيّة التي تنتمي بأصولها إلى الشيعة. وقد أدّى ذلك إلى قيام فسيفساء حقيقيّة من طوائف متنوّعة ومتصارعة، أظهرت في الفترة المعاصرة عدوانيّة متزايدة نتيجةً لتنامي الميول القوميّة والنزعة الاشتراكيّة.

في مطلع القرن العشرين، تكثّف الجوّ المعادي للسيطرة العثمانيّة، برغم جهود التحديث التي سعت إليها اسطنبول، وإنهاء بناء الخط الحديدي بين دمشق والمدينة سنة ١٩٠٨. فالتوازن الداخلي ازداد اضطرابًا مع سلسلة أحداث رافقت في الشرق مسرى الحرب العالميّة الأولى. وفي نهاية الأمر، غادرت القوّات التركيّة سوريا في تشرين الأول سنة ١٩١٨، إثر الثورة العربيّة التي قادها الشريف حسين وابنه الأمير فيصل. وجاء إقرار الانتداب الفرنسي في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠ ليكون تحضيرًا لولادة دولة نالت استقلالها التام سنة ١٩٤٦، وهي اليوم تحمل اسم الجمهوريّة العربيّة السوريّة. كما تميّزت دولة لبنان التي كانت خاضعة أيضًا للانتداب الفرنسي، وكذلك فلسطين التي كانت خاضعة للإنتداب البريطاني مع إمارة شرق الأردن التي تحوّلت الى مملكة.

٢ - تبلغ مساحة **الجمهورية العربية السورية** الحاليّة ١٨٠ ١٨٥ كلم[٢]، عاصمتها دمشق؛ وهي دولة مستقلّة معاصرة، تقتصر على المناطق الشماليّة من سوريا القروسطيّة، ولكنّها تضمّ، إضافةً إلى ذلك، جزءًا من بلاد ما بين النهرين العليا. يبلغ عدد سكّانها اليوم حوالى ١٨ مليون نسمة أكثريتهم من المسلمين، وبينهم أقلّية مسيحية قديمة تصل نسبتها الى ١١ بالمئة.

لا تكفي هذه الأرقام لإعطاء فكرة واضحة عن الوضع الديني الحقيقي في بلد يشكّل فيه، بدون شكّ، المسلمون السنّة الأكثرية، فيما يشكّل النصيريّون المعروفون بالعلويّين ١٣ بالمئة، كما أنّ هناك الدروز

والشيعة الإماميّة الاثني عشرية والاسماعيليّة المرتبطة إلى حدّ ما بالنزاريّة القديمة. هذه المجموعات الصغيرة، التي يبدو كلٌ منها متماسكًا بقوّة على الصعيدين السياسي والاجتماعي، تساهم في انقسامات داخليّة لدولة تفصلها حدودٌ، رُسمت منذ فترة قريبة، عن الجمهوريّة التركية في الشمال، والعراق في الشرق، والمملكة الأردنيّة الهاشمية واسرائيل (فلسطين المحتلّة) في الجنوب، والجمهوريّة اللبنانيّة في الغرب. وقد وُضعت حدود الدولة بعد الحرب العالميّة الأولى، ثمّ ثُبّتت باتفاقية سيڤر في تشرين الأوّل سنة ١٩٢٠، واتفاقيّة لوزان سنة ١٩٢٣ اللتين وضعتا سوريا تحت الانتداب الفرنسي. وهذا الانتداب وضع نهاية لطموحات الأمير فيصل في سوريا بعدما كان قد دخل دمشق منتصرًا في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨، ثمّ أرغم على الانسحاب منها في تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠.

والانتداب الفرنسي الذي شمل أيضًا دولة لبنان، جعل سوريا ثلاثة أقسام إدارية: سوريا نفسها التي كانت تضمّ ولايتي حلب ودمشق وسنجق الإسكندرون، ثمّ بلاد العلويّين، فجبل الدروز. وبعد قمع ثورة الدروز في سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٦، حاولت الدولة الفرنسيّة، من دون جدوى، إجراء انتخابات من أجل إقامة مجلس نيابي تستطيع التفاوض معه حول موضوع الاستقلال. وفي سنة ١٩٣٦، عُقدت معاهدة لم يوافق عليها البرلمان الفرنسي. وفي سنة ١٩٤١ أُعلن استقلال دولة سوريا الموسّعة التي شملت بلاد العلويّين وجبل الدروز. لكنّها خسرت سنجق الإسكندرون الذي أُلحق مجدّدًا بتركيا، بموجب اتفاقية جنيف التي تمّت باشراف عصبة الأمم سنة ١٩٣٧.

والدولة الجديدة التي رفضت عقد أي اتفاق تعاون مع فرنسا أخلتها الجيوش الأجنبيّة إثر أحداث سنة ١٩٤٥. وقد تميّز تاريخها بعد ذلك بسلسلة انقلابات عسكريّة وقعت بين سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٤، وبمحاولة إقامة وحدة مع مصر (١٩٥٨ – ١٩٦١)، وبتقدّم حزب البعث الذي تسلّم السلطة في سنة ١٩٦٣، وما يزال محتفظًا بها. وفي سنة ١٩٧٠ اختير حافظ الأسد، وهو ضابط من أصل علوي، أمينًا عامًا لحزب البعث، وفي سنة ١٩٧١ انتُخب رئيسًا للجمهوريّة. وقد واجه مشكلات داخليّة ودوليّة متنوّعة استطاع بحنكته التخلّص منها، وكان في سياسته سيّدًا لا ينازع. [وبعد وفاته، انتُخب ولده بشّار الأسد رئيسًا للجمهورية].

◄ راجع المستندات ٨، ٩، ١٣، ١٨، ٣٦-٣٨، ٤٠-٤٣، ٥٥، ٦٢، ٨٩ و٩٠.

سُورينام (جمهوريّة)، مساحتها ٢٧٠ ١٦٣ كلم² وعاصمتها پاراماريبو، وهي دولة صغيرة معاصرة ومستقلّة في أميركا الجنوبيّة، تضمّ، كما غويانا المجاورة، نسبة معيّنة من المسلمين. وهذه الأقليّة نشأت في البلاد عن طريق الهجرة واعتناق الدين الإسلامي. وهي تصل إلى اثنين وعشرين بالمئة من مجمل السكان الذين البالغ عددهم حوالى نصف مليون نسمة.

سُوس، مقاطعة في المغرب الأقصى تتميّز بميلها إلى الإستقلال عن السلطة المركزيّة، كانت في القرون الوسطى تمتدّ إلى ما وراء وادي سُوس في المملكة المغربيّة الحاليّة، وجلّ سكّانها من البربر المنتمين إلى مجموعة قبائل «الشلوح».

هذه المقاطعة، التي ميّزها الجغرافيّون العرب عن السوس الأدنى وحدّدوا موقعها بين ساحل المحيط الأطلسي وهضبة الأطلسين، غالبًا ما كانت تُعرف باسم السوس الأقصى. وقد ارتبطت بشكل وثيق بتاريخ السلالات المهمّة التي حكمت المغرب، فكانت هدفًا للمرابطين، وفيها بدأ ظهور الموحّدين. وبعد أن تحرّرت في أواخر حكم الموحّدين، شكّلت مملكةً منفصلة في ظلّ حكم المرينيّين الأوائل.

في سنة ١٥٠٤م نزل البرتغاليّون في أغادير على ساحل سوس، فتنظّمت حركة مقاومة بقيادة أشراف المغرب. ونشأت بعد ذلك سلالة السّعديّين الذين نجحوا في استعادة أغادير سنة ١٥٤١. وخلال العقود التي تلت، شهدت المقاطعة ثورات متعدّدة أدّت إلى إفقارها، إلى أن ضُمّت إلى دولة المغرب ذات الحكم المركزي.

◄ راجع المستندين ١٤ و١٩

سوس، موقع أثري إيراني يشير إلى موقع مدينة في خوزستان كانت مشهورة في القرون الوسطى، وهي اليوم مهدّمة.

تعود هذه المدينة إلى العصور القديمة، وهي غنيّة بذكريات الأخمينيّين. دخلتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة سنة ١٧هـ/٦٣٨م خلال الفتوحات الكبرى، واستمرّت وقتًا مدينة مزدهرة، على الرغم من أنّ المسلمين جعلوا الأهواز عاصمة للمقاطعة. ويبدو أنّها بدأت تضعف في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وراح ضعفها يتزايد في العصور التالية. وبعد العثور على خزفيّات إسلاميّة في أواخر القرن التاسع عشر، ساعدت التنقيبات الحديثة على اكتشاف مسجد وأبنية متنوّعة يعود تاريخها إلى القرون الوسطى ونقع قرب المدينة القديمة، ما يثبت صحّة ما ورد عند الجغرافيّين العرب حول ازدهارها قديمًا. وفي سوس كان يُكرَّم قبر النبيّ دانيال، ويشير إليه اليومَ ضريحٌ هو موضع زيارات تكريم.

سُوسة (الجمهوريّة التونسية)، مدينة مرفئيّة حديثة ما تزال تُعتبر منفذًا إقتصاديًا لمنطقة الساحل، وتحتفظ بمعالم معماريّة تشهد على الدور الذي كان لها والازدهار الذي عرفته في ما مضى في إفريقية خلال حكم الأغالبة.

كانت سوسة محطّة تجاريّة فينيقيّة، تحوّلت إلى رومانيّة واتّخذت اسم حضرومیت (Hadrumète)، ثمّ إلى بيزنطيّة وأُطلق عليها اسم جوستينيانوبوليس (Justinianopolis) في القرن السادس للميلاد. ويُقال إنّ عُقبة بن نافع حاصر المدينة وهدمها خلال الفتوحات الكبرى. وقد استعادت أهميّةً كافية، لذا خصّها الوالي يزيد بن حاتم المهلّبي برباط، وذلك قبل سنة ٢٧٤هـ/٨٨٧م، أي قبل تأسيس رباط المُنستير سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م. إنّ قرار إنشاء هذا الرباط فيها يعبّر عن سياسة الدفاع عن شواطئ إفريقية التي انتهجها الخليفة هارون الرشيد، وهذه السياسة هي شاهدٌ على الإهتمام الذي أولاه العبّاسيّون لهذه المقاطعة الغنيّة زراعيًّا والحيويّة إستراتيجيًّا بالنسبة إلى الأمبراطوريّة.

إنّ موقع سوسة كمرفإ لمدينة القيروان عاصمة الأغالبة الذين جعلوا مقرّهم في ضاحية الرَقّادة، على غرار الحكّام العبّاسيّين الذين سكنوا القصر القديم، يوضح الازدهار المميّز الذي عرفته في ما بعد، خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد. وفي سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م، أنشأ زيادة اللّه الأوّل، وهو ثالث أمير من سلالة الأغالبة، ترسانة في سوسة ومنشآت بحريّة وجعلها قاعدة انطلاق لحملة بحريّة قام بها لغزو صقلّية. وقد ازدادت المدينة نموًّا في السنوات اللّاحقة، فكثرت المباني التي ما يزال قسم منها قائمًا، كمسجد «بُو فتاته» الذي بُني بين سنتي ٢٢٣ و٢٢٦هـ/٨٣٨ و٨٤١م، والقصبة الأولى أو القلعة التي شُيِّدت سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م، والمسجد الجامع الذي تمّ توسيعه والذي يعود تاريخه إلى سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م. وبعد ذلك بقليل أُحيط المجمّع بسور يحوي حوضًا بحريًّا داخليًّا.

أثْرت سوسة منذ ذلك الحين، بفضل أنشطتها التجاريّة. وقد انضمّت إلى الفاطميّين منذ بداية عهدهم، ولكنّها عانت من ارتدادات الأحداث السياسيّة والعسكريّة المختلفة التي توالت على المنطقة، بما فيها الدفع الذي أُعطي لمرفإ المهديّة الجديد والمحصّن الذي تحوّل، إضافة إلى ذلك، إلى عاصمة. وفي القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، احتلّ النورمان القادمون من صقلّية مدينة سوسة لبضع سنوات، كما عانت بعد ذلك هجمات الإسبان. وفي سنة ١٥٧٤ احتلّ العثمانيّون البلاد وجعلوا الحكم في أيدي الحُسينيّين. وقد جعل الإسبان والحسينيّون مدينة تونس - التي تقع إلى الشمال من سوسة - مقرًّا لحكمهم. وبالرغم من محاولة سوسة الاحتفاظ بدورها البحري عن طريق أعمال القرصنة، فإنّها لم تستطع إيقاف تراجعها الذي كان قد بدأ قبل عقود، والذي لم يتوقّف إلّا مع التغيّرات التي شهدها العصر الحديث.

◄ راجع المستندات ١١، ٥٣ و٥٤.

السوق ← الأسواق.

سوكوتو (جمهوريّة نيجيريا الفدراليّة)، مدينة تقع شمال البلاد، كانت مركز دولة إقطاعيّة تيوقراطيّة تحمل الإسمَ نفسه. نشأت هذه الدولة في بداية القرن التاسع

عشر عن طريق الجهاد الذي دعا إليه عثمان دان فوديو، أو عثمان ابن فودي، ثمّ ضعفت بعد موت مؤسّسها سنة ١٨١٧ وانهارت نهائيًّا سنة ١٩٠٤.

في بلاد الهَوْسا التي تطوّرت بعض الشيء مع سلطة الفُلْبة، اكتسبت مدينة سوكوتو الصغيرة أهميّة عاصمة أمبراطوريّة، ما ساعدها على أن تبقى حتّى اليوم عاصمة إداريّة. وقد استقبلت، إبتداءً من سنة ١٨٠٤، عثمان دان فوديو الذي هاجر إليها، فأقام فيها دولة توسّعت على يدي ولده محمّد بلُّو، بعد فترة قصيرة على نموّ غواندو في الشمال الشرقي، وجعلها مقرّ أهمّ إمارة في أمبراطوريّة عثمان دان فوديو. وقد بقي عثمان صاحب السلطة العليا على «دار الإسلام» الجديد هذا.

وجاء البناء السياسي لهذه الدولة فريدًا من نوعه، إذ أقيم على غرار النظام الذي عرفته المدينة المنوَّرة في زمن النبيّ محمد (ﷺ). وهو النظام الذي يستوحي منه كلّ المصلحين المسلمين. وهذا ما أمّن النفوذ والهيبة لدولة سوكوتو الإسلاميّة التي غالبًا ما أُطلق عليها إسم «الخلافة»، ذلك أنّ سيّدها اتّخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين. وعلى الرغم من الضعف الذي أصاب هذه الدولة، بقي مقرّ حاكمها مركزًا للثقافة الإسلاميّة قصده عدد من المستكشفين الأوروبيّين في القرن التاسع عشر، إلى أن جاء الإحتلال البريطاني سنة ١٩٠٤ وقضى على تلك الأمبراطوريّة.

سوكوللو، محمّد باشا، ؟-١٥٧٩، صدر أعظم عثماني، تسلّم منصبه في سنة ١٥٦٥ واستمرّ يشغله على التوالي في ظلّ ثلاثة سلاطين، وكان على الأخصّ معاونًا فعّالًا للسلطان سليم الثاني.

يرجع محمّد باشا في أصله إلى البوسنة، طُوّع في خدمة الدولة بموجب نظام الدِوْشرما (ضريبة الغلمان)، في بداية حكم السلطان سليمان القانوني. وتميّز، منذ سنة ١٥٤٦، بنشاطه في البحريّة حيث رُقّي إلى رتبة «قابودان باشا» أي أميرال الأسطول السلطاني. ثمّ تدرّج بسرعة فعيِّن، بعد ثلاث سنوات، حاكمًا للرومللي، ثمّ وزيرًا، إلى أن رُقّي إلى الصدارة العظمى في سنة ١٥٦٥، في ظلّ السلطان سليمان القانوني، وبقي في منصبه في عهد السلطان سليم الثاني الذي اعتلى سدّة السلطنة سنة ١٥٦٥ والذي زوّجه من ابنته. أصبح محمد باشا بعدئذ الحاكم الفعلي للسلطنة في عهد سلطان يفتقر إلى الكفاية والمقدرة. وعلى الرغم من مسؤوليّته النسبية عن فشل السياسة الخارجيّة، ولا سيّما عن هزيمة ليبانت (Lépante) سنة ١٥٧١، فإنّه استطاع الحفاظ على عظمة أمبراطوريّة ضمّت إليها جزيرة قبرص سنة ١٥٧٠، وبسطت سلطتها على تونس سنة ١٥٧٤. وأسهم محمّد باشا في وصول مراد الثالث إلى عرش السلطنة في سنة ١٥٧٤، وبقي في عهده يلعب دورًا أساسيًّا في الدولة. وبعد وفاته، سنة ١٥٧٩، مرّت مرحلة من عدم الإستقرار الوزاري. وإلى محمد باشا يعود الفضل في بناء مسجد يحمل اليوم اسمه، وقد أُنجز بتاؤه سنة ١٥٧١ على يد المهندس الكبير سنان.

سومطره ← **إندونيسيا**.

السيّد، تعبير تبنّته الأوساط الإسلاميّة، واتّخذ عبر العصور معاني مختلفة تتّصف كلّها بطابع الاحترام للرئيس أو السلطان.

وكلمة «سيّد» التي ذُكرت مرّتين في القرآن الكريم، ووردت مرّةً للإشارة إلى يوحنا المعمدان، حملت في الجزيرة العربيّة قديمًا معنى «الشيخ» أو «الرئيس»، واللفظة كانت تُطلق على رئيس العشيرة أو القبيلة الذي كان يُختار لصفاته الشخصيّة المميّزة. واستُعمل التعبير بعد ذلك لقبًا تشريفيًّا مُلْحَقًا بالألقاب التي كانت تعطى للأمراء والوزراء وأبناء السلالات شبه المستقلّة. وقد مُنحت صفة «السيد» أيضًا في الأندلس لأحد المسيحيّين من قادة حرب الاسترداد، وهو «رودريغو دياز» (Rodrigo Diaz)، كونت منطقة بيفار (Bivar)، في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وعُرف لاحقًا باسم «السِّيْد» (Cid).

وفي مرحلة زمنيّة يصعب تحديدها، أُعطي لقب سيّد لأعقاب النبيّ محمّد (ﷺ)، تمامًا كلقب «شريف». إلّا أنّ هذين التعبيرين حملا معنى مختلفًا في الهند: فلفظة أشراف أُطلقت هناك على كل الذين ينتمون إلى نسب عالٍ، بدون أن يكونوا من السكّان الأصليّين، ومن بينهم الأسياد من سلالة نبيّ المسلمين (ﷺ).

وفي البلدان الناطقة باللغة العربيّة، درجت العادة اليوم على وضع لفظة سيّد أمام اسم العلم، كما تُستعمل لفظة «سيدي» في اللهجات الشعبيّة.

السيّد الحِمْيَري (١٠٥-١٧٣هـ/ ٧٢٣-٧٨٩م)، شاعر عربيّ عاش في بداية العصر العبّاسيّ، وأظهر في شعره انتماءه إلى الشيعة. التحق السيّد الحميري باكرًا بالشيعة الكيسانيّة، ونادى برجعة المهديّ، وكان قد ولد في البصرة، واضطرّ بفعل آرائه إلى أن ينتقل الى الكوفة، وتوفّي في واسط. وكانت للسيّد الحميري علاقات طيّبة بالخليفة العبّاسي المنصور.

سيّد قطب ← **قطب (سيّد).**

السِّيَر والتراجم (علم)، نشأ هذا العلم في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى، بمعزل عن علم الأنساب الأثير لدى الأوساط العربيّة، وبسبب الطابع السلطوي الذي اتّسم به التعليم في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت.

منذ العهود الأُولى للإسلام، وضعت معاجم كثيرة لتراجم فئات مختلفة من الفقهاء أو غيرهم من المعلّمين الذين حظوا بشهرة واسعة: الصحابة والتابعون، وأصحاب المذاهب الفقهية، ورواة الحديث والأطبّاء والعلماء والصوفيّون واللغويّون والشعراء. وهذه المعاجم تحتوي معلومات قيّمة لا تتعلّق بآراء هؤلاء الأشخاص فحسب، بل كذلك بنمط حياتهم.

بعض هذه المعاجم اعتمد الطبقات في تصنيفه للتراجم (تصنيف معياري بحسب الفئة أو الجيل)، وبعضها الآخر اتّبع الترتيب الألفبائي. إن كتب الطبقات التي مثّلت، منذ القديم، مرحلة مهمّة من التأليف العربي-الإسلامي الموسوعي، أدّت بخاصّة إلى الحفاظ على أسماء الأشخاص الذين انتموا إلى أجيال إسلاميّة قديمة، كطبقات ابن سعد. بعض المعاجم الأخرى اقتصر على سِيَر أشخاص عاشوا أو أقاموا في مدينة معيّنة، وهي مؤلّفات تحمل عنوانًا مضلّلًا هو تاريخ هذه المدينة أو تلك، لأنّها تحتوي في الواقع نبذات فرديّة، تسبقها مقدّمة: لخطط المدينة موضوع البحث؛ ووصف موقعها الطبيعي، قد تكون ذات أهميّة كبرى، كما نجد في مقدمة تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. وعلى النهج نفسه وضع ابن عساكر تاريخ دمشق وابن العديم تاريخ حلب.

سيراف، مدينة أمست اليوم مهدّمة كانت بجوار مرفإ في إقليم فارس، على الساحل الإيراني من الخليج العربيّ الفارسيّ، وقد احتلّت مركزًا مهمًّا في التجارة الإسلاميّة خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد.

هذه المدينة التي كانت تحتلّ في ما مضى مساحة واسعة - كانت تعادل مدينة شيراز، بحسب الجغرافيّين العرب - أظهرت الحفريّات الأخيرة أقسامها، وبيّنت موقعها القريب من مدينة «طاهري» الصغيرة في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. لقد تأسّست في العهد الإسلامي في ظروف غير معروفة. وكان مرفأها محطة رسوّ للسفن المتنقّلة بين المناطق الإيرانيّة من جهة، والشرق الأقصى وشواطئ أفريقيا الشرقيّة السوداء من جهة ثانية. وكانت هذه السفن المتّجهة نحو الهند وماليزيا وكانتون تحمل النسيج لترجع بالتوابل المختلفة. أمّا الأبنية التي تمّ العثور على معالمها، على الرغم من التآكل الذي أصاب الموقع من الجهة البحرية، فإنّها تساعدنا على أن نتصوّر بشكل دقيق أحياء المدينة السكنيّة وأبنيتها المهمّة.

وكانت سيراف مزدهرة في العهد البويهي، إلّا أنّ زلزالًا دمّرها سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، فأُعيد بناؤها ولكنّها لم تستعد رونقها السابق. فحركة الملاحة والنشاط التجاري ضعفا فيها، واتّجها نحو جزيرة قَيْس، قبل أن ينتقلا الى مرفإ هرمز المواجه لمرفإ بندر عبّاس الحديث الذي أنشأه الصفويّون.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢ و١٣.

سيراليون (جمهوريّة)، مساحتها ٧١ ٧٤٠ كلم[٢] وعاصمتها فريتاون، وهي دولة معاصرة مستقلّة في أفريقيا السوداء يبلغ عدد سكانها أكثر من أربعة ملايين نسمة، ويشكّل المسلمون سبعين بالمئة منهم.

هذه المستعمرة البريطانيّة القديمة التي استقلّت سنة ١٩٦١ يحدّها المحيط الأطلسي من الغرب، ولها حدود مشتركة مع جمهوريّة غينيا في الشمال وجمهوريّة ليبيريا

في الجنوب الشرقي. وكما كانت الحال في البلدان المجاورة، فإنّ الإسلام انتشر فيها، خصوصًا في الفترة الأخيرة، مستفيدًا من حسن نيّة السلطات تجاهه. ونمت معه ميول نحو الطرائق الصوفيّة التي كان لها تأثيرها الكبير؛ وبين الحربين العالميّتين ظهرت الأحمديّة في سيراليون.

سيرينايبك أو برقة، هي إحدى المقاطعات الثلاث في الجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الاشتراكيّة التي حلّت تسميتها القديمة التي استعملها الأوروبيّون من جديد في بداية القرن التاسع عشر، محلّ التسمية التي كانت متداولة في القرون الوسطى، أي برقة.

كان تعبير بُرقة يدلّ على شبه الجزيرة الصخريّة الواسعة والمرويّة نسبيًّا، المحاطة من كل الجهات بداخل صحراوي، كما كان يدلّ على البلدة التي أسّسها الإغريق والتي بقيت المركز المدني الأهمّ بعد تقهقر الحواجز الآخرى لمجمّع المدن الخمس. احتلّ عمرو بن العاص هذه المنطقة في فترة الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، بدءًا من سنة ٢٢ - ٢٣هـ/ ٦٤٢ و٦٤٣م. لكنّ هذا الاحتلال لم يمس ازدهار المنطقة القائم على الزراعة وعلى حيويّة طريق القوافل الكبرى التي كانت تربط مصر بالمغرب، في عهد الأمبراطوريّة الإسلاميّة الأمويّة، كما في أيام الأمبراطوريّة العبّاسيّة في ما بعد. وقد خسر العبّاسيّون لاحقًا سلطتهم على هذه المنطقة لمصلحة الفاطميّين، إبّان توسّعهم نحو الشرق.

وبعد فترة وجيزة، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، قضى غزو بني هلال على الحياة الحضريّة في برقة، وتابع الغزاة طريقهم نحو إفريقية. ومنذ ذلك الحين صارت عصابات البدو تجوب هذه الأراضي المقفرة التي لم يخضعها العثمانيّون إلّا لرقابة بعيدة. وكان هؤلاء قد استقرّوا في مصر منذ العام ١٥١٧. أمّا ولاتهم في ليبيا فقد أقاموا في طرابلس، وقد خلفتهم، بين ١٧١١ و١٨٣٥، سلالة قرَمَنْلي المحليّة. انتزعت آنئذٍ مدينة بنغازي المنشأة حديثًا دور برقة كمركز ولاية ووقعت في قبضة أسياد الطريقة الصوفيّة السنوسيّة.

لم ينفصل، في ما بعد، مصير بُرقة، سواء في فترة الاستعمار الإيطالي أو داخل الدولة المستقلّة، عن مصير المملكة ثمّ الجماهيريّة الليبيّة.

◄ راجع المستندين ٨ و١٢.

سيستان ← سجستان.

سيغو (جمهوريّة مالي)، مدينة تقع على المجرى الأعلى لنهر النيجر، خضعت لموجة عنيفة من الأسلمة بعد ضمّها سنة ١٨٦٠ إلى أمبراطوريّة البول (الفُلبة) الجهاديّة الأخيرة، أمبراطوريّة الحاج عمر.

هذه المدينة التي كان غناها الاقتصادي مرتكزًا على نشاطها التجاري والمحاصيل الزراعيّة لواديها كانت، من قبل، عاصمة لمملكة شعب البَمْبَرا (Bambaras) الأسود. وقد وُلدت هذه المملكة في القرن الثامن عشر، بعد زوال أمبراطوريّة الصنغاي، فحلّت مكانها في أداء دور مهمّ في تجارة القوافل عبر الصحراء ومع مناطق الجنوب. ومملكة سيغو التي خضعت لأسياد وثنيّين كانت تضمّ، مع ذلك، أقليّة مسلمة مهمّة. كانت هذه الأقليّة تشارك في حياة البلاد في جوّ من التسامح الديني، ما جعل المملكة هدفًا مهمًّا لحملات عسكريّة هدفت إلى فرض إسلام متشدّدٍ بالقوّة. وفي سنة ١٨٦١ اقتحم القائد الديني المشهور الحاج عمر مدينة سيغو، قبل أن يكمل حملته على حمد الله ومنطقة مَسِينا وتومبوكتو. أصبحت المدينة، وعلى مدى عشرين عامًا، واحدة من عواصم دولة إسلاميّة مجاهدة لم تحسن إعادة الازدهار للمنطقة، إلى أن أزالها تقدّم الفرق الفرنسيّة التي احتلّت سيغو والمناطق المحيطة بها سنة ١٨٩٠.

سيف الدولة، أبو الحسن علي بن حمدان (٣٠٣-٣٥٦هـ/ ٩١٥-٩٦٧م)، هو أشهر أمراء السلالة الحمدانيّة في سوريا، وبطل الجهاد ضد البيزنطيّين.

كان سيف الدولة ينتمي إلى أسرة عربيّة شيعيّة قدّمت عددًا من الحكّام لمنطقة ما بين النهرين العليا خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وذلك في زمن كان فيه الخلفاء العباسيّون يتخبّطون في مشكلات اقتصاديّة صعبة، ما اضطرّهم الى تفويض سلطاتهم إلى أمير الأمراء. وقد لُقّب بسيف الدولة، في الوقت الذي حصل فيه أخوه - وكان من قبل حاكمًا على منطقة

الموصل - على لقب أمير الأمراء، وذلك في سنة ٣٣٠هـ/٩٤٢م. وفي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، أصبح سيف الدولة سيّد حلب بعد أن انتزعها من الإخشيديّين أسياد مصر، ولكنّه اضطر بالمقابل إلى أن يترك لهم مدينة دمشق التي كان قد نجح سابقًا في احتلالها.

وبدءًا من سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م وحتّى وفاته، قام سيف الدولة، إنطلاقًا من إمارته الجديدة، بحملات عدّة على البيزنطيّين، ألبسته حُلّةً من المجد، لكنّها لم تتوصّل قط إلى نتائج نهائيّة. وإذا كان قد نجح في التوغّل بغزواته داخل الأناضول، فإنّ أعداءه دخلوا بالمقابل أراضي المسلمين وحقّقوا النجاح، حتّى إنّهم دخلوا مدينة حلب نفسها سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م واحتلّوها باستثناء قلعتها. وقد خرّب البيزنطيّون في المناسبة القصر الذي كان يعيش فيه الأمير الحمداني محاطًا بحاشية من العلماء والأدباء، بينهم الفيلسوف الفارابي، والشاعر المتنبّي الذي وضع عددًا وافرًا من القصائد المدحيّة التي تعظّم انتصاراته.

سيف الدين أبو بكر ← العادل (الملك).

سيلان (جزيرة) ← سَرَنديب.

سيلوان (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في شرق الأناضول، تقع إلى الشمال الشرقي من ديار بكر، كان لها في القرون الوسطى، تحت إسم ميّافارقين، دور إقتصاديّ واستراتيجي بحكم كونها مركزًا إقليميًّا.

هذه المدينة التي عُرفت عند الإغريق بإسم «مَرْتيروبوليس» (Martyropolis)، وميّافارقين في العصر البيزنطي، دخلتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة سنة ٢٠هـ/٦٤٠م، خلال الفتوحات الكبرى. وقد تحكّمت بطريق الشمال على مقربة من أحد روافد نهر دجلة، بتمان سو، وكانت تنتمي، بحسب الجغرافيّين العرب، إلى أرمينيا أحيانًا وإلى أعالي بلاد ما بين النهرين أحيانًا أخرى، إلّا أنّ مصيرها كان تاريخيًّا مرتبطًا بمصير بلاد ما بين النهرين. وهكذا بقيت في قلب العالم الإسلامي ووقعت في أيدي الحمدانيّين، ثم البويهيّين، قبل أن تصبح مركز إمارة كرديّة هي إمارة المروانيّين الذين سيطروا عليها من سنة ٣٧٩ الى سنة ٤٧٩هـ/٩٨٩ - ١٠٨٦م. ووقعت هذه المدينة الصغيرة المحصّنة بعد ذلك في أيدي الأرتقيّين من فرع ماردين الذين جعلوا منها إحدى حواضرهم، ثمّ انتقلت إلى الأيوبيّين حكّام سوريا، لكنّ المغول نهبوها سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م. ولا نعرف الكثير عمّا كان عليه وضع المدينة في العصور اللّاحقة التي حكم المنطقة خلالها قادة أكراد استمرّوا في السلطة في ظل سيطرة الصفويّين، وابتداءً من سنة ١٥١٥، حافظوا على مواقعهم على الرغم من خضوع تلك المنطقة للسلطنة العثمانيّة.

وما تزال مدينة سيلوان تحافظ، حتّى اليوم، على قسم من الأسوار البيزنطيّة التي رمّمها المسلمون وأضافوا كتابات عربيّة غنيّة بالزخارف، وما يزال فيها مسجد جامع بُني بالحجر، كان قد شيّده الأرتقيّون في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة/القرن الثاني عشر للميلاد، يظهر فيه بوضوح تأثير الفنّ المعماري الذي عرفته إيران في عهد السلاجقة الكبار، هذا فضلًا عن معالم أثريّة أخرى تُنسب إلى النشاط المعماري زمن الأيوبيّين.

سينوب (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة مرفئيّة شمال الأناضول على البحر الأسود، أفادت في القرون الوسطى من مميّزات موقعها المحميّ. ساعد هذا الموقع في العصور القديمة على توفير شروط الملاحة البحريّة الجيّدة. وقد بقيت في أيدي البيزنطيّين إلى أن احتلّها السلطان عزّ الدين كيكاوُس الأوّل سنة ٦١١هـ/١٢١٤م، الذي أمّن لدولة السلاجقة، في الشمال كما في الجنوب، المنافذ البحريّة الضروريّة لازدهار تجارة القوافل. وكانت المدينة مركزًا إقتصاديًّا ناشطًا تحميها قلعة منيعة وتتوزّع فيها صروح، بينها مساجد عديدة لا تزال تشهد حتّى اليوم على ما كانت عليه بالأمس من ازدهار. ولا شكّ في أنّها نالت نصيبها من نتائج الصراع الذي هزّ الأناضول في القرون الوسطى، إلى أن وقعت في أيدي الإسفنديارّيين وأُلحقت بعد ذلك، سنة ١٤٥٨م، بالسلطنة العثمانيّة. إلّا أنّ نشاطها التجاريّ مع الداخل لم يتوقّف عن تغذية الحركة التجاريّة باتّجاه أوروبا، وهذا النشاط كان يؤمّنه، لفترة طويلة، الجنويّون الذين أقاموا لهم قنصليّة في سينوب. إلّا أنّ أهميّة التبادل التجاري أخذت تتراجع في ظلّ الحكم العثماني الذي

ترك سينوب خارج خطوط المواصلات المهمّة. وهذه المدينة الصغيرة التي قصفها الروس سنة ١٨٥٣، وضايقتها صعوبة العلاقات مع داخل البلاد، لم تنهض إلّا بصعوبة من خرابها، من دون أن تتوصّل اليوم إلى تجديد ملموس لوضعها العام.

◄ راجع المستندات ١٢، ٢٠، ٢١ و٢٧.

سيواس (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في وسط الأناضول، على حدود المناطق البنطيّة، شرقيّ أنقرة، على الطريق المؤدّية إلى أرضروم وإيران، تحتفظ بالعديد من الشواهد على دورها الإستراتيجي ونشاطها التجاري خلال القرون الوسطى.

لا ندري تحديدًا متى وقعت مدينة سبستوس البيزنطيّة القديمة - التي احتفظت باسمها كما كان في القرون الوسطى - في أيدي العصابات التركيّة التي قدمت من أمبراطوريّة السلاجقة الكبار. وقد شكّلت في البداية جزءًا من إمارة الدانِشْمَنْديّين، فكانت عاصمتهم وأنشأوا فيها مسجدًا جامعًا. وفي القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، ضُمَّت سيواس إلى مملكة سلاجقة الروم. وقد حافظت على قلعتها الضخمة التي أُعيد بناؤها جزئيًّا، وجُهِّزت بإحدى كبريات المستشفيات السلجوقيّة التي ما تزال قائمة في الأناضول. وقد بنيت في السنتين ٦١٤ و٦١٥هـ/١٢١٧ و١٢١٨م، بأمر السلطان عزّ الدين كيكاوس الأوّل. وهي ما تزال تحافظ، داخل البناء القائم على أربعة إيوانات، على ضريح السلطان المزيّن بفسيفساء من القرميد والخزف، وهو يحمل توقيع فنّان إيراني من مَرَنْد في أذربيجان.

إلّا أنّ الأبنية المميّزة شُيِّدت في أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. ففي سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، أنشئت مجموعة مدارس، بينها «چِفْتِ مناره»، و«بُروجرديّة» التي أسّسها إيراني من بُروجرد في إيران، و«غوق مدرسه» أو المدرسة الزرقاء التي أقامها صاحب عطا، أحد وزراء سلاجقة الروم.

في سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، أصبحت سيواس مركز سلالة الأرتنيّين التي لم تحكم طويلًا، فخلفها القاضي - السلطان في ما بعد - برهان الدين. إنّها تحتفظ، حتّى اليوم، بعدد من الأضرحة العائدة إلى ذلك العهد. وأخيرًا ضُمَّت سيواس، سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٨م، إلى السلطنة العثمانيّة الناهضة، في زمن السلطان بايزيد الأوّل «يلدرم»، وذلك قبل أن يقع فيها الخراب بين سنتي ٨٠٣ و٨٠٥هـ/١٤٠٠ و١٤٠٢م، مع غزو تيمورلنك. ثمّ نهضت المدينة ببطء من بين الأنقاض وأكملت حياة خاملة داخل الأمبراطوريّة العثمانيّة، بعدما أهملتها القوافل. وكان على المدينة أن تنتظر الجهود الحديثة لترتبط بشرق البلاد وبمرفإ سمسون على البحر الأسود، ولكي تستعيد الحيويّة التجاريّة والصناعيّة التي عرفتها في القرون الوسطى.

◄ راجع المستندات ٢٠، ٢١ و٢٤.

السُّيوطي، أبو الفضل عبد الرحمٰن (٨٤٩ - ٩١١هـ/١٤٤٥ - ١٥٠٥م)، عالم ذو ثقافة تقليديّة، من كبار رجال الأدب في العصر المملوكيّ بمصر.

ولد في القاهرة من أسرة إيرانيّة الأصل أقامت في أسيوط، وكان فقيهًا أمضى حياته يدرّس في القاهرة وفيها مات. والسّيوطي أديب غزير الانتاج، خاض حقولًا متنوّعة. له مؤلّفات في التفسير والحديث والفقه والشعر واللغة والتاريخ العام، منها: «الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور»، «المزهر في فلسفة اللغة»، و«بغية الدعاة في طبقات اللغويّين والنحاة». عالج في مصنّفاته اللغويّة كل المسائل المتعلّقة بتاريخ اللغة العربيّة وقواعدها وبعلم المعاجم، وهذا ما أمّن له الشهرة.

ش

الشاذليّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة، يرجع اسمها إلى أبي الحسن عليّ الشاذلي، تلميذ أبي مَدْيَن. انتشرت هذه الطريقة خلال القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد في المغرب، ووصلت إلى مصر وسوريا وبعض مناطق شبه الجزيرة العربيّة.

وُلد المؤسّس سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٦م، في غرب المغرب، واستقرّ في أواخر حياته في قرية تقع حاليًّا في تونس اسمها شاذلة، ومنها أخذ إسمه. اصطدم هناك بالعلماء واضطرّ إلى أن يلجأ إلى مصر التي كان يغادرها مرّة في السنة لتأدية فريضة الحجّ. وقد توفّي خلال أحد أسفاره على ساحل البحر الأحمر سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. يصعب تكوين صورة واضحة عن شخصيّته من خلال بضع رسائل تركها، وهي تظهره شيخًا ذا نزعة إنسانيّة، ومعرفة عميقة بأفكار الصوفيّين المشارقة وممارساتهم.

وقد انتشرت عقيدته بفضل تلامذه، ولا سيّما بفضل أحمد المرسي المتوفّى سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٧م، وهو أندلسيّ من مرسية استقرّ في الإسكندريّة.

انتشرت «الطريقة» الشاذليّة في المغرب بفضل أعمال تلميذ آخر، هو ابن عطاء الله المتوفّى في القاهرة سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. وبقيت تقليدًا فرديًّا يركّز بصورة خاصّة على التعمّق في الحياة الداخليّة. ولم يكن أتباعها يرتدون ملابس مميّزة، ولا هم مارسوا الاستجداء. وفي ما بعد، أوضح الجُزوليّ عقيدة الشاذليّة وآراءها، وقد أسّس تلاميذه في جنوب المغرب مدرسة التقوى الجزوليّة التي منها انبثقت الطريقة العيسويّة.

الشارقة ← **الإمارات العربيّة المتحدة**.

شاطبة (إسبانيا)، ناحية في شبه الجزيرة الإيبيريّة في منطقة بلنسية، حافظت على بعض من ملامح ماضيها الإسلامي. كانت شاطبة، الواقعة على سفوح جبل بيرنيزا، عبارة عن حصن مهمّ من حصون الأندلس، ظهرت أهميّته الإستراتيجيّة بصورة خاصة في عصر ملوك الطوائف بعد تأسيس إمارة بلنسية المستقلّة في بداية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. فضلًا عن ذلك، اشتهرت شاطبة بصناعة الورق، المعروف بالشاطبي، الذي كان يصدّر إلى المغرب، وحتّى إلى مصر. سقطت شاطبة نهائيًّا عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٠م وطُرد من تبقّى فيها من المسلمين عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م.

الشافعي، محمد بن إدريس (١٥٠-٢٠٤هـ/ ٧٦٧-٨٢٠م)، عالم وفقيه ولد في فلسطين من أسرة حجازيّة الأصل، واعتُبر مؤسّسًا للمذهب الفقهي الشافعيّ. انخرط في المنافسات السياسيّة والدينيّة في العصر العبّاسي الذهبي، في العراق والجزيرة العربيّة، قبل أن ينتقل إلى مصر حيث انصرف إلى التعليم وحيث توفي، وما يزال قبره موضع تكريم. والشافعي من أصل عربيّ، تلقّى دروسه الأولى في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة حيث كان تلميذ مالك بن أنس. ثمّ انتقل إلى بغداد حيث التقى مجموعة من المدافعين عن علم الكلام، وغدا هدفًا لهجمات قادته إلى السجن، وقد أخرجه منه هارون الرشيد. فاختار بعد ذلك مدينة الفسطاط مقرًّا له، وانصرف إلى الدرس والتعليم، فكان يجمع تلامذته كلّ صباح في مسجد عمْرو الذي ما يزال قائمًا في أحد أحياء مدينة القاهرة. فاشتهر بعلمه وتقواه وكُرِّم في حياته ومماته. وفي العصر الأيوبّي، أصبح قبره الواقع في جنوب المدينة منطلقًا لأبنية ضخمة - منها مدرسة أمَرَ صلاح الدين ببنائها بعد تسلّمه السلطة - وأُدخلت عليه، بهدف الزينة، بعض الإضافات، منها

مدفن خشبي يعود تاريخه إلى سنة ٥٧٣هـ/١١٧٨م، وضريح بقبّة يعود بناؤه الى سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م. وقد ساهم كل ذلك في رفع منزلة هذا القبر الذي كان يكنّ له الجميع احترامًا دينيًّا حقيقيًّا.

والشافعي هو صاحب مصنّف ضخم يتّسم بطابع فقهيّ تقليديّ، عنوانه كتاب «الأمّ»، يقع في أجزاء عدّة، كما أنّ له رسالة يعالج فيها كيفيّة فهم الحديث النبويّ الشريف. وكان يهدف إلى اتّخاذ موقف مخالف للمذهبين الفقهيّين الأوّلين، المالكي والحنفي، اللذين كانا يدعوان إلى الأخذ بالرأي لحلّ المسائل الفقهيّة التي ليس لها جواب في القرآن والسنّة. ويدعو الشافعي، من جهة، إلى القراءة النقديّة للحديث لاستخراج الأحاديث المقبولة شرعًا، ومن جهة ثانية، إلى القياس الذي حدّده بشكل دقيق.

يمكن القول إنّ الشافعي اهتمّ بوضع أصول لعلم الفقه، اهتمّ تلامذته لاحقًا بتطويرها. وبالمقابل إنّه يدين بقوّة اللجوء الى علم الكلام الذي ظهر في أيّامه، إذا ما قاد إلى تأويلات خاطئة. كما أعطى تحديدًا للسنّة أضيق من الذي أعطاه مَن سبقه من الفقهاء، رافضًا «التقاليد الحيّة» التي كانت تعيشها الجماعة، مُبقيًا على السنّة النبويّة كما أوردها الصحابة وحسب. ولم يقبل باللجوء إلى الإجماع إلّا في الحالات التي يتطابق فيها مع السنّة. ولم يكن الشافعي يقبل بالتبصّر (التفكّر الشخصيّ) إلّا عند الضرورة، واجتهد في تنظيم طريقة اللجوء إليه.

الشافعيّة، مذهب فقهي ينتسب إلى الشافعي ويستمدّ منه اسمه، وهو فقيه عاش في بداية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد. احتلّ المذهب الشافعي، مستندًا إلى نظريّة محدّدة بدقّة حول أُصول الفقه، موقعه المبكّر الى جانب المذهبين المالكي والحنفي.

وقد ابتكر أتباع هذا المذهب - وعلى رأسهم المُزني المتوفى سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨م - منهج استدلال تنامت دقّته شيئًا فشيئًا. ويُعتبر كتاب «المُستَصْفى» للغزالي الشهير، الذي ظهر بعد كتاب «التنبيه» للشيرازي، واحدًا من أفضل النماذج لهذا المنهج في نهاية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. وبعد فترة، ظهر في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد «منهاج الطالبين» للنووي؛ وأخيرًا، في القرن التاسع عشر، تناولت المؤلّفات القديمة تعليقات كمثل تلك التي قام بها الباجوري المتوفّى في سنة ١٨٦٠.

تميّزت الشافعيّة، على مرّ تاريخها، بحرصها على الأخذ بالمنطق، واجتهدت عقائدها، بشكل خاص، في التحديد الدقيق لقواعد «القياس» الذي يؤدّي إلى استنتاجات، إنطلاقًا من النصوص الأساسيّة؛ كما قدّمت أيضًا تحديدًا دقيقًا لمفهوم «الإجماع»، وهو الإجماع الذي ينعقد بين فقهاء الجماعة، كما أرست قواعد العلم الذي عُرف بـ«مصادر الشرع»، الذي يقوم على تحديد الأهميّة المتدرّجة، بالنسبة الى هذه المصادر، لكلّ من القرآن والسنّة والإجماع والقياس.

وقد انتشرت الشافعيّة في البدء في الشرق العربي، بما فيه مصر، وفي إيران، وبخاصة في إيران الشرقيّة حيث احتلّت، في نهاية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، موقعًا مهيمنًا. وقد سهّل انتشارها في العراق ومناطق أُخرى من الأمبراطوريّة الوزير نظام الملك، وزير السلطان السلجوقي الكبير مَلِكْشاه، الذي أسّس، دعمًا للشافعيّة، المدارس الدينيّة التي تحمل اسمه كنظاميّة بغداد في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م، ونظاميّات عدّة في مدن أُخرى. والأساتذة الشافعيّون الذين وفدوا للتعليم في مدارس بغداد في هذه الفترة كانوا، على صعيد علم الكلام، من معتنقي المذهب الأشعري الذي جهدوا في نشره في هذا الوسط حيث كان الأخذ بالتقليد سائدًا حتّى ذلك الحين. وقد أثارت محاولتهم هذه بعض ردّات الفعل العنيفة في أوساط سكّان العاصمة.

وفي ما بعد عرفت الشافعيّة - التي ارتبطت في أكثر الأحيان بالمذهب الأشعريّ، وكذلك بالصوفيّة المعتدلة - نموًّا لافتًا للنظر. وانتقلت الشافعيّة من بلاد الرافدين العليا حيث كانت متجذّرة بعمق، مثلًا، إلى سوريا بفضل الملك نور الدين الذي عيّن شافعيًّا قاضيًا أكبر في مملكته، كما عيّن قضاة شافعيّين في مراكز قضائيّة أُخرى. بعد ذلك مباشرة، عرفت الشافعيّة انطلاقة أُخرى مع صلاح الدين، مؤسّس السلالة الأيوبيّة، الذي كان ينتمي إلى هذه المدرسة والذي انشأ في القاهرة ومدن أُخرى مدارس شافعيّة، وأسند

أيضًا إلى الشافعيّين، وكانوا في أكثر الأحيان من أصل كردي مثله، مراكز قضائيّة.

لكنَّ الشافعيّة ما عتّمت أن خسرت أرجحيّتها الرسميّة في مصر المملوكيّة حيث عمد السلاطين الجدد، ذوو الأصول التركيّة والمنتمون الى المدرسة الحنفيّة، إلى إنشاء أربعة مراكز لقاضٍ أكبر؛ يتبع كل واحد منها أحد المذاهب الأربعة التي اعتُرف بها رسميًّا في ذلك الحين. ونبع ذلك قيام نوع من التوازن بين تلك المدارس. على أنّ الشعوب التركيّة ظلّت تتميّز بانتمائها إلى المدرسة الحنفيّة، بينما حافظت الشافعيّة على عدد من المريدين في المنطقة وعرفت انتشارًا في مناطق بعيدة كإندونيسيا وجنوب شرق آسيا بكاملها وأفريقيا السوداء الشرقيّة.

الشام ← دمشق.

شامبانير (الإتحاد الهندي)، بلدة في غُجرات تشهد مبانيها الرائعة على المستوى الذي بلغه الفنّ الإسلامي في تلك المنطقة خلال القرن السادس عشر. احتلّها محمود الأوّل بايقرا سنة ١٤٨٤م. وهو أعظم سلاطين سلالة غُجرات الذي ملك من ١٤٥٨ الى ١٥٠١م. أطلق عليها هذا السلطان إسم محمود آباد وصارت مكان إقامته المفضّل، واستمرّت عاصمةً إداريّة حتّى عام ١٥٣٦م. استولى عليها المغول سنة ١٥٧٢م وحوّلوها إلى مركز إداريّ. وقد عراها الانحطاط لاحقًا خلال القرن الثامن عشر وحتّى الاحتلال البريطاني عام ١٨٥٣م الذي ثبّت إهمالها جزئيًّا.

وهكذا تمكّنت البلدة الحاليّة من المحافظة على مجموعة من المباني تعود إلى العصر عينه، وإنّ آثار قصر محمود وسور المدينة الذي شيّده هذا الملك ينافسان، من حيث الأهميّة، العديد من الأضرحة والمساجد التي ازدانت جدرانها بزخارف نموذجيّة منحوتة. إنّ أضخم أبنيتها وأشهرها هو، من دون أدنى شك، المسجد الجامع الذي شُيّد حوالى عام ١٥٢٣م. وهو مستوحى من تصميم مسجد العاصمة أحمد آباد المشيّد قبله بنحو قرن من الزمان.

شامل (أواخر القرن الثامن عشر - ١٨٧١م)، قائد شعبي مسلم من داغستان، قاد مقاومة طويلة ضدّ الاحتلال الروسيّ لبلاده.

ولد شامل في داغستان وانتسب إلى الطريقة النقشبنديّة التي استند إلى دعمها عند مناداته بالجهاد. وبعد أن تظاهر بالخضوع للروس سنة ١٨٣٧، نجح في إقامة دولة إسلاميّة في البلاد، تطبّق الشريعة، كما نجح في إعداد قوّة مسلّحة ضخمة. وقد جعل مقرّه في قلعة «ويدينو» (Wedeno) الصعبة البلوغ والواقعة في منطقة الشيشان. ولم يستطع التقدّم الروسيّ البطيء انتزاع القلعة إلّا سنة ١٨٥٩، وذلك قبل استسلام شامل ببضعة اشهر. وبعدما وُضع هذا الأخير في الإقامة الجبريّة، أقسم يمين الولاء للقيصر سنة ١٨٦٦؛ وسُمح له سنة ١٨٦٩ بالانتقال إلى المدينة المنوَّرة ومكّة المكرَّمة حيث بقي حتى وفاته سنة ١٨٧١.

الشاه، كلمة من أصل إيراني تعني «المَلِك»، اعتُمدت في اللغة العربيّة إلى جانب كلمة الملك. وقد ساهم الدور الذي كان لهذه اللفظة، في ما بعد، في بعض الألقاب الإسلاميّة في مرحلة متأخّرة، في انتقاله مباشرة إلى اللغة الفرنسيّة.

استُعملت كلمة «شاه» بدءًا من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي في أدبيّات القرون الوسطى الإسلاميّة إشارة الى ملوك وأمراء، لكن بدون أن تتطابق آنذاك مع لقب محدّد. وفي الفترة نفسها كان بعض أمراء الأسرة البويهيّة يلقّبون انفسهم بـ«شاهنشاه»، أي «ملك الملوك»، وينقشون هذه العبارة على نقودهم، إذ إنّ هذا اللقب حافظ على سحره عند الشعوب الإيرانيّة، ممّا سمح لحامليه بالظهور بمظهر الورثة لملوك الساسانيّين القدماء. وفي ما بعد، في القرن الحادي عشر للميلاد، منح الخليفة هذا اللقب الى طغرل بك، أوّل سلاطين السلالة السلجوقيّة التي حلت محلّ السلالة البويهيّة.

في هذه الفترة، ظهر هذا اللقب أيضًا في الأسماء المركّبة التي كان يحملها أمراء أتراك عديدون، كارسلان شاه أو مَلِكشاه، وفي هذه الحالة الأخيرة، اي في الإسم الذي حمله السلطان السلجوقي الثاني، أضيف تعبير شاه رمزيًّا الى الكلمة العربيّة التي تحمل المعنى نفسه، وتجدر الاشارة الى أسماء مماثلة ظهرت في ما بعد

وحملها التيموريّون، مثل شاهْ رُخ، كما حملها آل مظفّر، مثل شاه شُجاع، وآل القراقيونلو، مثل جهان شاه أو أيضًا المغول مثل شاه جهان.

وبدءًا من العام ١٥٠٢م، تاريخ تولّي سلالة الصفويّين السلطة، صار كلّ الملوك الايرانيّين يحملون لقب شاه، واستمرّ هذا التقليد مع ملوك الأسرتين التاليتين، القاجار والبهلوي. وبدءًا من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، استعمل هذا اللقب أمراء دول عدّة في الدكّن وأجزاء أخرى من الهند. وتجدر الاشارة أيضًا إلى أنّ تسمية «بادشاه» التي حملها سلاطين السلالة العثمانيّة منذ القرن الخامس عشر قد تكون، بحسب قواعد علم الاشتقاق، مشتقّة من كلمة «شاه».

شاه جَهان، شهاب الدين (١٥٩٢ - ١٦٦٦م)، أحد سلاطين المغول البابُرِيين الذين حكموا الهند في مرحلة أوج سلطة السلالة المغوليّة القويّة، من سنة ١٦٢٨ الى سنة ١٦٥٨م. وقد قامت شهرته على رعايته الفنون أكثر مما قامت على أعماله الحربيّة.

هو ابن السلطان جهانكير، ثار على والده وتوصّل إلى انتزاع الحكم بدعم من أسرة زوجته الشهيرة ممتاز محلّ التي ترك موتها، سنة ١٦٣١، في نفسه أثرًا لا يمحى، وقد اتّبع سياسة تقليديّة مستقيمة على الصعيد الديني، سلك فيها طريق سلفه، وكانت مغايرة للمبادئ التي كان قد دافع عنها جدّه السلطان أكبر. وبذلك ساعد عمله بمجمله في فرض إسلام متشدّد في المجتمع وفي تقوية دولة المغول. وعلى الصعيد الحربي، لم يلقَ الجهد الذي بذله للحفاظ على آسيا الوسطى، مهد سلالته، النجاح عينه، على الرغم من الحملات الجريئة التي قادها ولده أورنكزيب. والانتصارات التي حقّقها باتّجاه البنغال والدكّن لم تساعد إلّا على توسيع ضئيل لمملكته.

مع ذلك، فإنّ عهده بلغ درجة عالية من العظمة والإشعاع تشهد عليها رعايته للفنون: ففي مجال فنّ صياغة المجوهرات، يبقى عرش الطاووس نموذجًا مثيرًا للدهشة؛ كذلك الأبنية بالرخام الأبيض التي تزيّنها من الداخل نقوش مرصّعة بالحجارة الكريمة، والتي أكثر منها محقّقًا برنامجًا معماريًّا فريدًا من نوعه. تضاف إلى ذلك منجزاته في أغرا حيث نجد، داخل القلعة التي بناها، قصورًا عدّة. كما تبرز الروعة في فنّ البناء مع ضريح تاج محلّ الذي أقامه تخليدًا لذكرى زوجته المفضّلة، وقد انتهى العمل فيه سنة ١٦٤٣م. من منجزاته أيضًا أبنية أخرى في عاصمته الجديدة «شاهْجَهانْآباد» في سلطنة دلهي، حيث شيّد مجموعته السكنية المعروفة باسم القلعة الحمراء، ورفع قربها مسجدًا جامعًا ضخمًا بين سنتي ١٦٤٨ و١٦٥٩م. إلّا أنّ هذه الأبّهة وهذا المجد أفلا بشكل مأسوي بسبب الصراع الذي وقع بين أولاده الأربعة والذي أدّى، بعد انتصار أورنكزيب، إلى سجن شاه جهان في أغرا، من سنة ١٦٥٨ حتى وفاته سنة ١٦٦٦م.

◄ راجع المستندات ٣٣، ٧٣، ٧٥ و٧٦

شاه رُخ (١٣٧٧ - ١٤٤٧م)، هو الابن الرابع لتيمورلنك ووريثه الفعلي، تسلّم الملك بعد أبيه سنة ١٤٠٥م، فأوصل الأمبراطوريّة التيموريّة إلى ذروة مجدها. عمل جهده من أجل إصلاح ما سبّبته غزوات والده العنيفة من خراب في المدن، ولا سيّما في مرو وهراة. وقد رعى هذا الملك المثقّف والمرهف الأدباء والفنّانين وحماهم، واشتُهر بالعدل والرحمة. عُرف أيضًا بكرمه وتسامحه، ما أمّن أكثر من خمسين سنة من الازدهار لأمبراطوريّته الواسعة. وقد شملت هذه الأمبراطوريّة، إذا ما استثنينا سوريا والعراق، القسم الأكبر من المناطق التي كان قد احتلّها تيمورلنك وأدارها انطلاقًا من آسيا الوسطى حيث كان يفضّل الإقامة، ولا سيّما في سمرقند. أمّا شاه رُخ فقد اختار مدينة هراة، فجعلها عاصمته المفضّلة وجمّلها بأحسن المؤسّسات. وقد استقرّ فيها، ومنها حكم خراسان وبلاد ما وراء النهر، ثمّ بسط سلطته على مجمل إيران، وخصوصًا على المناطق التي كانت ملحقة بالتيموريّين الغربيّين. وبعد أن عزل هؤلاء، عيّن ولده أولوغ بك نائبًا عنه في سمرقند.

شاه وليّ الله الدّهْلوي، قطب الدين أحمد أبو الفيّاض (١٧٠٣ - ١٧٦٢م)، أحد القادة الروحيّين للهند، في زمن انحطاط المغول، أطلق حركة إصلاحيّة

كان لها لاحقًا تأثير واسع.

هذا المفكّر الذي ولد في دلهي حيث تلقّى العلوم التقليديّة، أصبح، في سنة ١٧١٩م، أستاذًا في المعهد المرتبط بالمدرسة التي كان قد أسّسها والده الشاه عبد الرحيم. وبعد أن انتقل إلى مكّة المكرّمة لأداء فريضة الحجّ سنة ١٧٣٠م، بقي في المدينة المنوّرة مدّة سنتين يدرس الحديث على أيدي كبار المحدّثين في ذلك الوقت، هؤلاء الذين تابع أيضًا مؤسّس الوهّابيّة دروسهم. وعندما رجع إلى مسقط رأسه، انصرف الى الدرس وإلى وضع مؤلّفاته في العربيّة والفارسيّة، بروح من التوفيق والمصالحة، تمثّلت بانخراطه على التوالي في الطرائق النقشبنديّة والقادريّة والجشتيّة. وقد عكس تفكيره الشخصيّ بؤس مرحلة تميّزت باضطرابات شتّى، وشهدت خصوصًا نهب مدينة دلهي على يد نادر شاه سنة ١٧٣٩، والحملات العسكريّة التي قادها أحمد شاه، مؤسّس سلالة الدرّانيّين في أفغانستان.

حرص على أن يكون مجدّدًا، على غرار ما كان عليه من قبل أحمد سرهندي، فوجّه انتقاده إلى الصوفيّين الآخرين المعاصرين له، ونادى بالعودة إلى جذور الإسلام. وحاول شاه وليّ الله أن يقدّم حلًّا لبعض المسائل الأساسيّة، كمسألة الخلافة، ومسألة العلاقات بين الفقه والتصوّف، وذلك من خلال تبنّيه مبدأ «التطبيق»، أي البحث عن تسوية. كما حاول وضع نظام إجتماعيّ يصبّ في أهداف سياسيّة. وبما أنّ آراءه ونصائحه لم تجد آذانًا صاغية لدى الحكّام، فإنّ ولده حاول فرضها عن طريق القوّة، من دون أن يحقّق أيّ نجاح. مع ذلك انتقلت بعض أفكاره إلى عدد من رجال القرن العشرين الذين استندوا اليها في فترة متأخّرة، ومنهم أحمد خان ومحمّد إقبال.

الشِبْلي، أبو القاسم دُلَف (٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١-٩٤٥م)، متصوّف سنّيّ من أوائل عهد التصوّف، اشتُهر بعلاقته بالحلّاج. ولد الشبلي في بغداد من أسرة قدمت من بلاد ما وراء النهر، وفي حدود الأربعين من عمره مال إلى حياة الزهد والتقشّف. كان صديق الحلّاج، ثم تنكّر له في المحاكمة التي أدّت إلى إعدام المتصوّف المشهور. وقد انصرف على أثر ذلك، على ما يبدو، إلى حياة غريبة ومنحرفة أدخلته بعض الوقت مصحًّا عقليًّا في بغداد. وهو لم يترك أبحاثًا مكتوبة، لكنّ أقواله انتشرت وتناقلها الناس. كما أنّ آراءه تلتقي، من ناحية العقيدة، مع آراء الجُنيد.

شبه الجزيرة العربيّة، أو جزيرة العرب: مساحة شاسعة جلّ سكانها اليوم من المسلمين، وهي مقسّمة إلى مجموعة دول حديثة متنافسة. وقد اعتُبرت على الدوام، ووفق ما يوحي به التعبير اللغوي «جزيرة»، مهد العرب وموئل الإسلام الناشئ، وهي ما تزال قطبه الديني وتحضن أماكنه المقدّسة.

في الجزيرة العربيّة بدأت رسالة النبيّ محمد ﷺ، نبيّ العرب، في قلب الحجاز، في مكّة المكرّمة التي شهدت الدعوات الأولى إلى الدين الجديد، ثمّ في المدينة التي غدت مقرّ الجماعة الإسلاميّة. ومن هناك، في عصر الفتوحات الكبرى، انطلق مؤسّسو العالم العربيّ - الإسلامي في تلك الفترة، ومؤسّسو الحضارة التي نمت داخله. إلى جانب ذلك، فإنّ الأحكام التي يحتويها القرآن الكريم والتي وضّحتها الشريعة لم تكفّ عن التركيز على طابع القداسة الذي للكعبة في مكّة ولحرمها، وهي تُعتبر مركز العالم الإسلامي بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأنّها القِبلة التي نحوها يتوجّه كل المسلمين خلال صلاتهم الطقسيّة، وإليها يتوجّهون لأداء فريضة الحجّ.

بفضل هذا الاعتبار الخاص الذي ازداد أهميّة بوجود قبر النبي محمد ﷺ في المسجد الجامع بالمدينة المنوّرة، تطوّر تاريخ الجزيرة العربيّة عبر العصور. ويمكن القول إنّها شبه قارة بقيت معزولة عن العالم، إلى أن كتب لها الإسلام بانطلاقته أن تؤدّي دورًا كبيرًا بدءًا من القرن الأوّل للهجرة/ السابع للميلاد. وإذا كانت الجزيرة قد نالت آنذاك شهرة ساهمت في تطوّرها اللّاحق، فإنّها من قبل لم تكن سوى منطقة شبه صحراويّة تؤمّن بصعوبة مقوّمات العيش لسكّانها. والواقع إن شظف العيش الناتج عن طبيعتها الجغرافيّة ومناخها جعل من شبه الجزيرة العربيّة خزّانًا بشريًّا ينطلق منه السكّان للتوغّل في البلدان المجاورة أو لغزوها.

والجزيرة العربيّة، بحكم موقعها في منطقة ذات

مناخ شبه مداري قليل الأمطار، سكنتها منذ القدم قبائل ساعد ترحُّلها على الإستمرار في العيش، كما استقرّ حضريّون قليلو العدد في الواحات أو في بعض المناطق الجبليّة. والنبي محمّد (ﷺ)، ابن هذه البقعة القاسية، ترعرع في بلدة تجارية تُنشّطها تجارة القوافل، وهذه البلدة هي معزولة داخل السلسلة الغربية للجزيرة، حيث تمرّ، على الرغم من وعورة المسالك، طريق تجاريّة تعبر شبه الجزيرة بكاملها، انطلاقًا من الساحل اليمني الجغرافي المنفتح على المحيط الهندي، وصولًا إلى أطراف المناطق السوريّة المنفتحة بدورها على البحر المتوسّط. وفي مكان غير بعيد تقوم مدينة يثرب التي تحتلّ، في الشمال من هذه السلسلة الغربيّة، منخفضًا يمتاز بالخصب الذي تؤمّنه الواحات، فتجعله صالحًا للزراعة. وقد قُدّر ليثرب أن تصبح مدينة نبيّ المسلمين (ﷺ) المميّزة، لذا عرفت بالمدينة المنوّرة. هناك إذًا عناصر كثيرة تربط ما بين بيئة شبه الجزيرة العربيّة والدولة الأولى للإسلام، إلى جانب خصائص أخرى معبّرة تتعلّق بالتركيب الجغرافي لشبه الجزيرة.

هذه الهضبة المربّعة، التي يبلغ طولها نحو ٢٢٠٠ كلم وعرضها نحو ١٢٠٠ كلم، تبدو مميّزة بموقعها الجغرافي. فهي تقع بين آسيا التي يفصلها عنها الخليج العربي - الفارسي، وأفريقيا التي يفصلها عنها البحر الأحمر، ولكنّها تتّصل بها من خلال برزخ السويس وهضبة سيناء. كما أنّها ليست معزولة عن البلدان التي تجاورها في الشمال، وليس هناك ما يفصلها اليوم عن بلاد مؤاب القديمة، ولا عن السهوب السوريّة أو العراقيّة. لذلك لم ينقطع التواصل بين البدو الرحل القادمين من الجنوب ومجموعات سبق أن تحضّرت، وهي من أصل ساميّ أيضًا، فاستقرّت في مناطق متقدّمة حيث أثبتت التوغّل العربي قبل أن يعطي الإسلام، في الإتّجاه عينه، اشارة الفتوحات الكبرى المسلّحة.

بعد الخلفاء الراشدين الذين جعلوا المدينة المنوّرة عاصمتهم، لم تقم في الشرق دولة إسلامية لها أهميّتها إلّا وَسَعَتْ إلى بسط سيطرتها على شبه الجزيرة العربيّة، إثباتًا لشرعيّة حكمها. ولم يقتصر الأمر على جيوش الخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين الذين قدموا الجزيرة من الشمال ليفرضوا سلطتهم على الأماكن المقدّسة، بل تعدّى ذلك إلى الحركات والفرق السياسيّة الدينيّة التي ظهرت في العصور الأولى للإسلام، والتي وجّهت جهدها صوب الجزيرة، وسعت إلى التمركز فيها والهيمنة عليها. هذا ما فعله الخوارج، ولا سيّما الإباضيّون منهم، وهذا ما فعلته الفرق الشيعيّة المختلفة، الاسماعيليّة منها، ومن بينها القرامطة كما الزيديّة والإماميّة الاثني عشريّة. وهناك دول إسلاميّة أُخرى - كالدولة الأيوبيّة ثمّ المملوكيّة في مصر وسوريا، ودول هضبة إيران كالسلجوقيّة والصفويّة، وأمبراطوريّات هيمنت على آسيا وعلى المتوسط، كالأمبراطوريّة العثمانيّة - لم تكتفِ كلّها عن إرسال الحملات إلى شبه الجزيرة، إمّا مباشرة وإمّا بواسطة دول تابعة، كالدولة المصريّة بزعامة محمّد علي التي أمّنت، في القرن التاسع عشر، فِرَقًا عملت في نجد على تحقيق الخطط السياسيّة للدولة العثمانيّة. وفي المرحلة عينها، تزامنت تلك الحملات مع المحاولات الغربيّة التي بدأت مع الغزوات البحريّة البرتغاليّة في مطلع القرن السادس عشر، واستمرّت حتى النشاطات الهولنديّة والبريطانيّة في وقت متأخّر. وقد أبدى البريطانيّون اهتمامًا خاصًا بالسواحل العربيّة منذ أن أسّسوا شركة الملاحة المعروفة بـ «الشركة الانكليزيّة للهند الشرقيّة»، وراحوا يقومون هنا وهناك بأعمال لها طابع العنف، ما أدّى، في بعض المناطق، إلى نوع من الحماية غير المعلنة.

إنّ التباين الطبيعي بين المناطق في شبه الجزيرة العربيّة الشاسعة، وصعوبة التواصل بين أجزائها المختلفة، هما من العوامل الثابتة التي كانت تزداد تعقيدًا حول الصحارى التي يصعب اجتيازها، كصحراء النفود في الشمال، وعلى الأخصّ الربع الخالي في الجنوب. وفي غرب شبه الجزيرة حيث المناطق الصخرية التي أطلق عليها اسم «الدرع العربيّة»، ترتفع جبال فوق شواطئ البحر الأحمر حيث منطقة تهامة. وقد شهدت هذه المنطقة، في القرون الوسطى، منافسة وصراعًا بين أسياد الحجاز وعسير واليمن. وفي الشرق تمتدّ أرض رسوبيّة غالبًا ما تغطّيها الرمال، وهي تارة تنحدر بهدوء نحو الخليج العربي، وتارة أخرى

تتقطّع وتهبط فوق بحر عُمان والمحيط الهندي. وقد وقعت فيها أحداث تاريخيّة كان لها دورها في تقرير مصير كلّ من الاحساء والبحرين وقطر وعُمان. وتقوم بمحاذاتها، على أطراف الشاطئ الجنوبي الشديد الانحدار، مقاطعات كانت، على الدوام تقريبًا، في حالة تبعيّة سياسيّة: ظفار الخاضعة لعُمان، وحضرموت الخاضعة لليمن. أمّا في وسط الجزيرة فترتفع هضبة نجد واليمامة، ويسكنها البدو فيؤلّفون كيانًا خاصًا بهم. وقساوة هذا القسم الداخلي جعلت طرق القوافل الكبرى معرّضة للخطر، بما فيها طرق الحجّ التي تتمتّع بحماية رسميّة. فهذه الأخيرة التي تتّجه صوب مكّة المكرّمة من أماكن مختلفة أفادت باكرًا من عناية المسؤولين، ومنهم العبّاسيّون في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد. إلّا أنّ أمنها لم يتوافر يومًا ضد الغارات المسلّحة والناتجة غالبًا عن الصراع الذي كان قائمًا بين العشائر والقبائل، ما كان يجعل الفوضى واقعًا قائمًا.

إن التحوّل الذي خضعت له هذه القبائل كان قد بدأ قبل الإسلام بكثير، وذلك عن طريق هجرات كبيرة من الجنوب إلى الشمال. وقد تطوّر هذا التحوّل لاحقًا، وفق أُسس جديدة، منذ الفترة التي انتشر فيها أبناء هذه القبائل على مساحة دولة الخلافة، حاملين معهم تحالفاتهم ونزاعاتهم وأنسابهم. مع ذلك لم تمنع هجرة عدد كثير من الأسر من الجزيرة، من استمرار الانقسامات الداخليّة السياسيّة أو الدينيّة. والمرحلة الوحيدة التي تلاشت فيها الانقسامات كانت في مطلع الإسلام، على عهد أبي بكر الصدّيق. فالحملة التي شُنَّت ضدّ المرتدّين من البدو الذين اعتنقوا الإسلام في حياة النبي (ﷺ) وارتدّوا عن الإسلام بعد وفاته، كان من نتيجتها توحيد الجزيرة العربيّة بكاملها، لتتوجّه نحو الفتوحات، فاغتنى شعبها بفضل تدفّق الغنائم. الّا أنّه، بعد ذلك، بدأت عوامل الانقسام تظهر من جديد، وعادت المناطقيّة ترسم إطار الأحداث السياسيّة البارزة.

وحدها مرحلة ما قبل العصر الحديث شهدت الجزيرة العربيّة كلّها تستجيب لحركة واسعة النطاق: هي الحركة الإصلاحيّة التي نادى بها محمّد بن عبد الوهّاب في مطلع القرن الثامن عشر. فكان ذلك دافعًا لتحقيق وحدة جديدة قائمة على الدين والوطنيّة، وهي ترمي إلى شلّ الشعور بالانتماء القبلي الذي كان قد تعرّض لتحوّلات عميقة. قابل هذا الجهد ردّ فعل عنيف من الدولة العثمانيّة التي شاءت القضاء على سلطة أسرة حاكمة جديدة، هي أسرة آل سعود، ومنافستها السيطرة على منطقة نجد. من أجل هذه الغاية دخلت الجيوش المصريّة بقيادة ابراهيم باشا ونجحت في القرن التاسع عشر في تحقيق أهدافها والقضاء على السلطة السعوديّة القائمة. إلّا أنّ نجاح المصريّين، في القرن التاسع عشر، في القضاء على الدولة السعوديّة التي كانت قائمة آنذاك، لم يحل دون الإنطلاقة المظفّرة، إبتداءً من العام ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٢م، للأمير عبد العزيز بن سعود المعروف بالغرب باسم ابن سعود مؤسّس المملكة العربيّة السعوديّة الحاليّة. وقد قُضيَ في العام ١٩٢٤ على سلطة آخر ممثّل للأشراف الهاشميّين، هو الشريف حسين ملك الحجاز.

وبدءًا من هذه الفترة، يمكن تأريخ انطلاقة شبه الجزيرة العربيّة، وهي انطلاقة كشفت، عبر التنظيم السياسي الحالي، صورتها كأرض إسلاميّة مدعوّة، في القسم السعودي منها، إلى احترام القيم التقليديّة للإسلام. كما عرفت هذه الدولة كيف تستغلّ ثرواتها الكبيرة في سبيل تحديث مرافقها. وهذه الثروات تتدفّق من آبار النفط المنتشرة على الأطراف الشرقيّة وتحت مياه الخليج العربي الضحلة. وليست المملكة العربيّة السعوديّة الدولة الوحيدة التي عرفت كيف تستثمر أحواض البترول، ذلك أن هذه الأحواض ساعدت عددًا من الدول المجاورة على أن تنهض وتستقلّ، وتتطوّر، مستعينةً بتقنيّات مصدرها الغرب. وهي الدول الساحليّة المنتشرة من الشمال إلى الجنوب، أي الكويت، والبحرين، وقطر، ودولة الإمارات العربيّة المتّحدة التي تضمّ الامارات المحليّة في ما كان يُعرف قديمًا باسم شاطئ القراصنة أو «الساحل المهادن»، وقد أُطلقت التسمية الأخيرة إثر الهدنة التي وقّعها الانكليز مع سكّانه في القرن التاسع عشر. ويعيش في هذه المنطقة الشرقيّة عددٌ من أتباع الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة، ما

يطرح إشكالات ذات طابع خاص.

لكنّ صلابة المملكة العربيّة السعوديّة يشكّل باعث اطمئنان للمنطقة، فضلًا عن قيامها بمبادرات عديدة أهمّها إنشاء مجلس التعاون الخليجي. ويعمل المجلس على أن يكون التنسيق قائمًا بين الدول المعنيّة، وأن تكون سياسات الدول الإسلاميّة، في شبه الجزيرة العربيّة، التي تستفيد من موارد متشابهة واحدة؛ فتجابه معًا الصعوبات المشتركة. وبفضل منظومة مرنة تهدف إلى ضبط الأمن على طول الساحل الشرقيّ للجزيرة العربيّة، وإلى مواجهة محاولات أمبرياليّة محتملة من الخارج، فإنّ حكومات الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربيّة المتّحدة تُنسّق وتتعاون مع المملكة العربيّة السعوديّة، وكذلك مع سلطنة عُمان التي لها قطاع كبير يقع خارج حدود الخليج العربي ولكنّه يُشرف على مدخله. وقد حُلّت بالطرق الدبلوماسيّة مشكلات كثيرة كانت تهدّد المنطقة. إلّا أنّنا رأينا المملكة العربيّة السعوديّة تشارك بشكل فاعل، في سنتي ١٩٩٠ و١٩٩١، في الحلف الدولي وفي الحرب التي أجبرت العراق على الانسحاب من الكويت بعدما اجتاحها وضمّها إلى أراضيه.

التفاهم القائم بين الدول النفطيّة المختلفة يتوقّف عند أبواب الدولة اليمنيّة التي تحتلّ الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة. وهي تمتدّ من شاطئ المحيط الهندي ومرفإ عدن إلى مدخل البحر الأحمر، وتضمّ اليوم قسمَي البلاد. وكانت اليمن قد انقسمت من قبل إلى يمنين لأسباب سياسيّة أدّت إلى حالة حرب بينهما.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ٢٥ و٣٠.

شَبْوَة (الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة)، مدينة قديمة تقع جنوبي شبه الجزيرة العربيّة، وكانت الحاضرة الرئيسة في حضرموت خلال القرون الوسطى، وقد تحدّث عنها الجغرافيّون العرب.

تقع شبوة في منطقة جبليّة على ارتفاع يفوق الألف متر، وكانت قبل الإسلام مركز تجارة البخور. وبقيت ملتقى القوافل التي كانت تنقل منتجات الهند إلى مصر. ومع تعاقب العصور فقدت المدينة تدريجيًّا أهميّتها، وحلّ مكان حركة القوافل تصدير الملح بعد استخراجه من المناجم المجاورة.

شجر الدُرّ (؟-٦٥٥هـ/ ؟-١٢٥٧م)، أميرة لعبت دورًا سياسيًّا مميّزًا في مصر خلال القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، في أثناء المرحلة المضطربة التي شهدت ولادة الحكم المملوكي.

هذه الجارية التي كانت محظيّة السلطان الملك الصالح أيّوب، من السلالة الأيوبيّة، كانت أمّ طوران شاه الذي اعتلى العرش سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م. وبعد مقتل ابنها تسلّمت هي الحكم، فاعترف المماليك من الحرس السلطاني بسلطتها، وجعلوا واحدًا منهم، وهو أَيْبك، مستشارًا لها. وأمام معارضة الخليفة العبّاسيّ في بغداد، ورفض القادة العسكريّين في سوريا، اضطرت شجر الدرّ، وكانت تطلق على نفسها اسم «ملكة المسلمين»، إلى أن تتزوّج من أيبك الذي اعتُرف به عند ذاك سلطانًا. هكذا لم يدم حكمها الشخصي أكثر من ثمانين يومًا. لكنّ شجر الدرّ استمرّت في إدارة شؤون الدولة بينما كان زوجها يقود الحملات العسكريّة. ثمّ أرادت أن تتحرّر من سلطته، فدبّرت اغتياله في القاهرة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. لكنّها لم تلبث أن وقعت هي نفسها تحت ضربات أتباع أيبك.

شِخو أحمدو (١٧٧٥-١٨٤٤م)، متصوّف وعالم ينتمي إلى الفُلبة، أسّس واحدة من أمبراطوريّات الجهاد في السودان النيجيري، وهي دولة ماسينا التيوقراطية.

كان أحمدو بدويًّا يرعى الماشية، ثمّ انتسب إلى الطريقة القادريّة، وانتصر سنة ١٨١٨ بقوّة السلاح على قادة قبائل الفُلبة وعلماء جنّي، وأقام نظامًا ذا طابع ديني في عاصمته الجديدة «حمد الله». ففرض الأحكام الماليّة التي ينصّ عليها القرآن، كما أوجب احترام رجال الدين الذين يقومون بمهمّة تعليم الشريعة، واختار منهم أربعين عضوًا شكّلوا مجلسًا يمارس في كلّ البلاد سلطةً تشريعيّة وتنفيذيّة وقضائيّة.

خلف شِخو أحمدو ابنه أحمدو الثاني من سنة ١٨٤٤ إلى سنة ١٨٥٢، وجاء بعده أحمدو الثالث الذي هلك سنة ١٨٦٢ عندما قام الحاج عمر تل باجتياح حمد الله

وتخريبها. وكان الحاج عمر من أتباع الطريقة التيجانيّة وسلطانًا على أمبراطوريّة جهاديّة جديدة لم تعمّر طويلًا.

الشرطة ← صاحب الشرطة.

الشِرْك، مفهومٌ لعب دورًا كبيرًا في تاريخ المجتمع الإسلامي وشكّل عنصر الإتّهام الأوّل ضدّ الذين يرفضون وحدانيّة الله.

إنّ هذا الموقف يجعل لله شركاء، وقد أدانه الإسلام الذي يعتبر أنّه ينطبق على المسيحيّين[٥٧]. إنّ المشركين هم، بحسب الفقهاء، كفّار وإنّ خطيئتهم لا تُغتفر كما ورد في الآية ١١٦ من سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

الشركس، في العربيّة الجركس أو الجراكسة. وفي التركية تشِركس، وتسميتهم الأصليّة الأديغ أو الأديغيّون: شعوب من شمال غربيّ القوقاز أقاموا، في فترة متأخّرة، علاقات مع الإسلام، إثر الوصاية التي فرضها العثمانيّون على تلك المنطقة، وقد أصبحوا ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر مسلمين سنّة مقتنعين بإسلامهم ومنتمين إلى المذهب الفقهي الحنفي.

في أوّل الأمر، بيعت فئات من هذه المجموعات القبليّة ذات الأصول الإيبريّة-القوقازيّة - ويمكننا أن نضمّ إليها أبخاز ما وراء القوقاز - أرقّاء عسكريّين أو «مماليك» في العالم الإسلامي في العصور الوسطى. وكان يتمّ تحويلهم إلى الإسلام منذ إعدادهم لتولّي مهماتهم كجنود. وقد اضطلعوا بدورٍ سياسي من الطراز الأوّل في البلاد التي تبنّتهم، ولا سيّما في عهد المماليك، وعلى الأخصّ في عصر المماليك الجراكسة الذين سيطروا تحت اسم «المماليك البرجيّين» على مصر وبلاد الشام، ما بين القرنين الثامن والعاشر للهجرة/الرابع عشر والسادس عشر للميلاد.

إنّ الطريقة عينها، مع اختلاف بسيط في بعض وجوهها، أعطت في ما بعد لجراكسة آخرين، إمكان تولّي مناصب عالية في الجيش والإدارة العثمانيّين. وازدادت هذه الحركة كثيرًا في فترة متأخّرة، ما بين ١٨٥٦ و١٨٦٤م، عندما تطوّرت هجرة جركسيّة حقيقيّة في اتّجاه الأراضي العثمانيّة، سواء باتّجاه الاناضول أو الروملّي، إثر ضمّ روسيا للقوقاز بموجب اتفاقيّة أدرنة في العام ١٨٢٩م التي تمّت بعد حرب عصيبة. إنّ المناطق القوقازيّة المأهولة أصلًا بالجركس، بدءًا من شواطئ البحر الأسود حتّى المنحدرات الشماليّة لسلسلة الجبال، كانت قد أصابتها تحوّلات ناتجة عن الأسلمة، وطالت مجموعات قبليّة عدّة كانت موزّعة أساسًا، تبعًا للاختلاف العرقي واللغوي، قبائل شرقيّة وقبائل غربيّة، وقد استقرّ فيها ايضًا غزاة من التّتر.

إنّ القبائل الأديغيّة الغربيّة التي كانت خاضعة في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد لخانات القبيلة الذهبيّة، خضعت في ما بعد لسيطرة خانات كراي، أي خانات بلاد القرم، وقد استقرّ فيها ايضًا غزاة من التّتر. أمّا القبائل الشرقيّة او الكابرّد التي كانت نُظمهم إقطاعيّة، وكان امراؤهم يبسطون منذ أمد بعيد سلطانهم على شمالي القوقاز، اصطدموا، في القرن السابع عشر، بالكُلْموكيّين الذين نزحوا آنذاك الى المنطقة، وهم يتحدّرون أيضًا من المغول، ولكنّهم غير مسلمين. وقد تأثّرت جميع هذه القبائل دينيًّا وثقافيًّا بالعثمانيّين الذين فرضوا عليها سيادتهم المباشرة، وساندوها في ما بعد باسم الجهاد والدفاع عن الاسلام في نضالها ضد التوسع الروسي الذي بدأت معالمه بوضوح منذ مطلع القرن الثامن عشر. إنّ هذا الدعم العثماني الذي انطبع بالدعوة إلى الإسلام وبجهود لتطوير الإدارة، لم يستطع أبدًا محو الخصائص المحليّة التي ازدادت بفعل الهجمات الروسيّة وتراجع الجراكسة إلى مواقع جبليّة يصعب الوصول إليها.

بعد الاستعمار الروسي في نهاية القرن التاسع عشر، ومرحلة الحرب الأهليّة التي سبقت تثبيت النظام السوفياتي، شكّل الجراكسة، في كل مرّة، بسبب انقسامهم القبلي وتعدّد لهجاتهم المحليّة، حالة سياسيّة مغايرة وسط شعوب غير متجانسة إتنيًّا ولغويًّا. وقد تشكّلت حاليًّا ثلاث وحدات ضمن الفدراليّة الروسيّة على أنّها جمهوريّات فدراليّة هي: جمهوريّة الأديغيّين، وجمهوريّة كراتشيفو - شَرْكَسْيا وجمهوريّة كابَرْدينو بَلْكاريا.

شَريش ← جِرز

الشريعة الإسلاميّة، مجموعة التعاليم والقوانين التي ينبغي أن يخضع لها المسلم، وهي تتناول، في آن، الحياة الطقسيّة والعلاقات الاجتماعيّة.

إن معرفة الشريعة تسمّى الفقه، وهي كلمة تُرجمت خطأً بكلمة «قانون» (droit)، إذ إنّ المقصود هو «القانون الشامل» بالمعنى الاشتقاقي، وهو يرعى التنظيم الداخلي لجماعة المؤمنين ويطبّق في المجالين السياسي والاجتماعي، كما في المجال الديني. إنّ الشريعة التي تستند، تحديدًا، إلى القرآن وإلى سنّة النبيّ محمّد ﷺ، نتجت عن تفسير مختلف القواعد التي جاءت على أيدي الفقهاء المكلّفين تطبيقها. في بدايات الإسلام تمّ هذا العمل التحضيري داخل المدارس الفقهية أو المذاهب التي وضعت طرائق للتفكير تساعد على توضيح ما ورد في النص المنزل وفي الحديث. حدّدت تلك المدارس أصول الفقه كما حدّدت التطبيقات الناتجة عنها بحسب مختلف فروع الفقه.

في القرون الأولى للإسلام، أناطت السلطة السنّية أمر تطبيق الشريعة برجال الفقه، في حين احتفظ الإمام لنفسه بحقّ تفسيرها في الأوساط الشيعيّة. أمّا الممارسة اليوميّة للعدالة فكانت تناط، في جميع الأوساط، بمؤسّسات قضائيّة مختلفة، يحتلّ فيها القضاة المنتمون إلى مدارس الفقه المنزلة الأولى. لكنّ الخليفة كان يتدخّل بواسطة الذين ينفّذون إرادته أو إرادة مندوبيه، كالمحتسب أو صاحب الشرطة أو أي شخص مكلّف بالقضاء في المظالم. من جهة أخرى، فإنّ أحكام الفقه التي ارتكز عليها تقنين مختلف وجوه الشريعة بموجب «مجهود فكري» عُرف بالاجتهاد، وكان محصورًا في القرون الوسطى ببعض الفقهاء أو المجتهدين، لم تعرف مبدئيًا أيّة إضافات، بعد أن تمّ «إقفال» الاجتهاد في الأوساط السنّية. لا يمكن تحديد زمن ذلك «الإقفال» بدقّة، لكنّه، على أيّ حال، لم يتمّ قبل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. في ما بعد، أعيد استخدام إمكانات التطوّر التي يُتيحها الاجتهاد في الحقبة المعاصرة، عندما قام عدد وافر من رؤساء البلدان الإسلاميّة بإدخال تعديلات على القوانين التقليديّة، مستخدمين طرائق يشار إليها أحيانًا بعبارة الاجتهاد الجديد.

في ما يتعلّق بالخطوط العريضة للشريعة نفسها، هناك اتفاق شبه عام يشمل الأحكام المتعلّقة بالعبادات والأحكام المتعلّقة بالحياة الاجتماعيّة أو المعاملات. أحكام الفئة الأولى التي تعنى مباشرة بوضع المؤمن تجاه الله تشكّل «أركان» الدين، وهي خمسة، بحسب مجاميع الحديث: الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحجّ. أما الجهاد الذي تجعله بعض التقاليد في المقام الأوّل، والذي لا يشكّل إلّا واجبًا ذا طابع جماعي، فلا مكان له بين الواجبات الفرديّة الأساسيّة. ويضيف الشيعة واجبًا آخر وأساسيًّا بالنسبة إليهم هو الولاية التي عليهم أن يظهروها تجاه إمامهم المنظور أو المستور. إنّ تلك الواجبات التي هي بشكل أساسي واجبات عباديّة، لا تختص بعلاقة المؤمن بقوّة إلهيّة كليّة الوجود فحسب، بل بأحكام تؤثّر في التنظيم الإجتماعي للجماعة؛ كما أنّ الزكاة تمكّن رئيس الجماعة من أن يقوم، قدر المستطاع، داخل الجماعة، بمعالجة التباينات عبر مساعدة المحتاجين.

غير أنّ المعاملات أو الأحكام التي لا تهدف في الظاهر إلّا إلى تنظيم العلاقات بين الناس داخل العائلة وفي المجتمع، من دون إهمال الجوانب الإقتصاديّة، فهي التي تؤكّد التوجّه السياسي والعملي للشريعة. في هذا الإطار يتوضّح أوّلًا قانون الأحوال الشخصيّة الذي يميّز بين المسلمين وغير المسلمين، وبين الأحرار والعبيد. فغير المسلمين من يهود ومسيحيّين وأتباع زرادشت يخضعون لنظام أهل الذمّة. وهناك بين المسلمين عبيد يوصى بتحريرهم. في ما يتعلّق بالنساء، تسمح الشريعة بالزواج وبتعدّد الزوجات وبالتسرّي بالإماء، كما بطلاق المرأة من قِبَل الزوج، حتّى لو كانت هناك بعض الأحكام الرادعة. أما بالنسبة الى الإرث، فهو خاضع لقواعد إلزاميّة في ما يتعلّق بتوزيع الميراث على الأولاد وعلى مختلف أصحاب الحق. تلك القواعد تضاعف حصّة الرجل، إذ تعتبره، قانونًا، متفوّقًا على المرأة. أخيرًا، في مجال الحياة اليوميّة هناك محرّمات تتعلّق بالغذاء، وتحديد لجنح

مختلفة تؤدّي إلى عقوبات محدّدة. وتتناول تلك الأحكام وجوهًا متعدّدة من الحياة الإجتماعيّة والإقتصاديّة وما تزال تفرض شروطها على إبرام العقود، ومنع القروض بالفائدة، والحدّ من حقّ الملكيّة، وتحديد المبادئ الأساسيّة لنظام الضرائب الإسلامي التقليدي.

لكنّ الشريعة لا تتضمّن موجبات ومحرّمات وحسْب. فوفاق الفقه، هناك أعمال على المؤمن أن يقوم بها، وأخرى يُنصح بالابتعاد عنها، بدون أن تكون محرّمة بشكل صريح. يصعب التمييز أحيانًا، على الصعيد العملي، بين هذه الأعمال وتلك. فبعض طقوس الصلاة وبعض طقوس الحجّ مثلًا تتضمّن أعمالًا تُمارس من قِبَل الجميع من غير أن يكون لها صفة إلزاميّة؛ وكذلك أعمالًا يجب تجنّبها، لكن ثمة من يمارسها لأنّها تندرج في عاداته المحليّة. تسمّى الأعمال الموصى بها صراحةً السنّة، أو هي مطابقة لتقليد السنّة، أمّا الأخرى فهي أعمال ينصح القيام بها فحسب. غير أنّ المسلم، في واقعه اليومي وفي ضميره، نادرًا ما يتقيّد بتلك التراتبية، إذ نجد أنّ بعض الأعمال التي لم يوص بها قطّ بشكل صريح قد طبعت الوسط الإسلامي أكثر من غيرها. فإذا كان الختان مثلًا من الأعمال الموصى بها منذ القديم، فقد أوصى كذلك ابن بطّة، وهو مشترع حنبلي من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بإزالة شعر العانة والإبط أو بحتّ الشاربين، وتقليم الأظافر. بحسب الرأي العام، سرعان ما أصبح الختان عملًا إلزاميًّا حقيقيًّا، في حين بقيت التوصيات الأخرى ثانوية، وكذلك الدخول إلى المسجد بدءًا بالرِّجل اليمنى، أو ما يتعلّق بمجموعة القواعد الاجتماعيّة العائدة إلى أيام نبيّ الاسلام ﷺ والتي تتعلّق بالمأكل واللباس وإلقاء التحيّة، وكلّها توصيات تقابلها مجموعة أعمال يحرّم القيام بها.

ونرى الاختلافات إيّاها في الأعمال التي يصفها الحديث بالذميمة. فإنّ ما أظهره النبي ﷺ من رفض لارتداء الملابس الحريريّة واستخدام الأواني الفضيّة أو الذهبيّة التي هي «أشياء تخص الكافرين في هذا العالم وتخصنا في العالم الآخر»، لم يُتبع قطّ بصورة جازمة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللوم الموجّه، دونما تحديد أي عقاب له، إلى الذين «يقومون برسوم مجسّمة»، وهم يستمرّون في القيام بذلك في بعض المجتمعات الإسلاميّة، حتّى لو كان تحريم الرسم التجسيدي يُعتبر قاعدةً صارمة. إنّ النصائح التي تتعلّق بالسلوك واللياقة، والمشار إليها عمومًا بشكل مقتضب في مصنّفات الفقه الإسلامي، تجد توسيعًا لها في بعض الكتابات المتعلّقة بالعقيدة، وبخاصة في مجاميع الحديث. فهي تضاف إلى الأحكام الخلقيّة المذكورة في الآيات القرآنية التي يشكّل التقيّد بها جزءًا لا يتجزأ من التقوى. في الأطر الإقليميّة المختلفة حيث ترسّخت على مرّ العصور عادات خاصة، يمتزج التقيّد بتلك النصائح أيضًا بمشاعر الوفاء الديني للإسلام ولجماعته، وهذا الوفاء يضفي عليها قيمة رمزيّة تفوق تلك التي تُعطيها إياها الشريعة.

الشريف، جمعها الأشراف أو الشرفاء، لفظ يُطلق عادة على «النبلاء بالولادة». وقد اتّخذ في ما بعد في الإسلام معنى خاصًا، إذ أُطلقت اللفظة على المتحدّرين من النبيّ محمد (ﷺ). في العصور الأولى للإسلام، كانت لفظة «أشراف» تُطلق على رؤساء العائلات العربيّة الكبيرة، وهذا المعنى ظهر أيضًا عند المؤرّخ البلاذري في مصنّفه «أنساب الأشراف» الذي وضعه في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، والذي يعالج فيه أنساب الأسر العلويّة والعبّاسيّة والأمويّة.

في حدود القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وبتأثير أفكار الشيعة، أصبحت لفظة «شريف»، وكذلك لفظة «سيّد»، تُطلق حصرًا على المتحدّرين من الإمام عليّ وفاطمة، بواسطة الحسن والحسين. ولكن، في ظلّ الخلافة العبّاسيّة، استمرّ اطلاق هذا اللقب على العبّاسيّين الذين يرجعون بنسبهم إلى العبّاس عمّ النبيّ محمد (ﷺ)، وكذلك على العلويّين أو الطالبيّين الذين يتحدّرون، عن طريق الإمام علي، من عمّ آخر لنبيّ المسلمين هو أبو طالب. ونعلم أنّ كلًّا من هذين الفرعين تمثّل، في العصر البويهي، بنقيب خاص يدافع عن مصالحه.

واتّسع مفهوم لفظة شريف في أقطار مختلفة، كالهند حيث كانت لفظة أشراف تعني الطبقة العليا من

غير أبناء البلاد، وفي الطليعة يأتي المتحدّرون عموديًّا من نبيّ المسلمين (ﷺ) الذين اختُصوا بلقب أسياد. وفي زمن المماليك بمصر، كانت لفظة شريف محصورة بالمتحدّرين من الحسن والحسين، الذين أُعطوا، في زمن السلطان شعبان (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م)، حقّ التعمّم بعمامة عليها قطعة من القماش الأخضر. ويبقى من الصعب أن نعرف ما إذا كان ارتداء الثياب أو الأقمشة الخضراء يعود إلى هذا التاريخ أو الى تاريخ سابق؛ لكنّ الثابت أنّ ارتداء مثل هذه الثياب، خلافًا لما يقال أحيانًا، لا يعود إلى عهد الخليفة العبّاسي المأمون الذي جعل الأخضر لونًا رسميًّا لبعض الوقت، ذلك أنّ العلويّين كانوا يتميّزون، في تلك الفترة، باللّباس الأبيض.

إلى جانب العلويّين الذين تسلّموا السلطة في مناطق مختلفة بفضل نشاط الحركات الشيعيّة، حمل آخرون لقب «شريف» كونهم يرجعون بنسبهم إلى النبيّ (ﷺ)، لكنّهم غالبًا ما كانوا ينتمون إلى السنّة. وقد أدّى هؤلاء دورًا سياسيًّا مهمًّا، كأشراف مكّة المكرّمة الذين سادوا هذه المدينة منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد حتى سنة ١٩٢٤، ومنهم أيضًا أشراف المغرب الذين يُعرفون كذلك باسم الشرفاء، وقد خرجت منهم سلالتا السعديّين والعلويّين.

الشريف الرضيّ، أبو الحسن محمّد الموسوي (٣٥٩-٤٠٦هـ/٩٧٠-١٠١٦م)، مفكّر أديب من العصر البويهي، يرجع بنسبه المباشر إلى الإمام عليّ، وهو أخو الشريف المرتضي ومن الصعب التمييز بين إنتاجه وشهرته وإنتاج أخيه وشهرته.

تسلّم نقابة العلويّين في بغداد سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، وكانت له كلمته النافذة بين الإماميّين الإثني عشريّين، كما ربطته صداقة قويّة بعدد كثير من أمراء الأسرة البويهيّة.

الشريف المرتضى، أبو القاسم عليّ الموسوي (٣٥٥-٤٣٦هـ/٩٦٧-١٠٤٤م)، مفكّر أديب من العصر البويهيّ، ذو نسب يرجع إلى الإمام عليّ. خلف أخاه الشريف الرضيّ في تسلّم نقابة العلويين ببغداد.

وكان الشريف المرتضى فقيهًا ولغويًّا وشاعرًا، ترك مؤلّفات كثيرة حول المذهب الشيعي، وفنّد على الأخصّ آراء القاضي المعتزليّ عبد الجبّار. ويُعتبر أنّه عمل مع أخيه - ويصعب الفصل بين انتاجهما - في جمع خطب الإمام عليّ وأقواله ضمن كتاب «نهج البلاغة» الذي يُعتبر من أسس العقيدة لدى الشيعة الإثني عشريّة.

شُشْتَر (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، محلّة في خوزستان كانت عامرة ومزدهرة في القرون الوسطى، اشتُهرت بالإنشاءات المائيّة في جوارها.

كان موقع المدينة، على طريق القوافل بين الخليج العربي - الفارسي والمدن الكبرى كهمذان والرّيّ وتبريز، يتحكّم بجسر القوارب الذي يؤمّن عبور كارون/دجيل. وقد حافظت هذه المدينة الساسانيّة القديمة على أهميّتها خلال قيام الأمبراطوريّة العبّاسيّة، فكانت المدينة الثانية في خوزستان بعد الأهواز، ونافستها في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد كعاصمة إداريّة، وعرفت في ظلّ الإيلخانيّين بعض الشهرة.

شجّع النشاط الإقتصادي الذي تميّزت به في أوج عهد الخلافة إنطلاقة طبقة من التجّار، فانتقل عدد منهم إلى بغداد حيث شكلوا حيًّا حمل إسمهم. وكانت محاصيلها الزراعيّة وفيرة بفضل تطوّر نظام للريّ قائم على السدود والقنوات التي تعود إلى عهد الساسانيّين، والتي تعتمد على مياه النهر، وما تزال معالمها إلى اليوم معروفة. ويفوق هذه المحاصيل جودةً عددٌ من الحرف المتخصّصة في فنون النسج التي كانت تنتج الدبّاج الممتاز الذي كان يُنقل إلى الأسواق البعيدة والذي نال شهرة واسعة. إلى جانب هذا الغنى، عرفت المدينة حركة فكريّة جعلت منها مركزًا إسلاميًّا، وإنّ مسجدها الجامع، الذي بوشر ببنائه سنة ٢٥٣هـ/٨٦٦م وأُنجز في مطلع القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، يبقى من المساجد الإيرانيّة القليلة ذات الهندسة العبّاسيّة التي تمّ الحفاظ عليها حتّى اليوم.

◄ راجع المستند رقم ٢٤.

الشعر الإسلامي، تطلق هذه التسمية حصرًا، تقريبًا، على طريقة تعبير دينيّة موزونة وشعريّة، أدّت أحيانًا دورًا

مهمًّا في تاريخ الإسلام، ولا سيّما بعد ازدهار الصوفيّة.

واقع الأمر أنّ تجليّات الشعر في العالم الإسلامي ارتبطت، في معظم الحالات، بالأوساط الدنيويّة وبلغاتها وثقافاتها المتنوّعة، غير أنّه كان يُستخدم دائمًا لإبلاغ رسائل دينيّة. وفيما كانت القصائد الأولى تكتفي بمدح النبيّ محمّد (ﷺ)، أو بذكر بعض أركان الدين كالبعث مثلًا، أو بعض الأحكام كالجهاد، وجد الشعر نفسه في ما بعد مدعوًّا للدفاع عن عقائد الفِرَق والحركات السياسيّة - الدينيّة مثل الخوارج والشيعة وسائر تفرّعاتها. وغالبًا ما استُخدم في هذه المناسبة لتعظيم فضائل علي وأُسرته «الطاهرة» وأمجاد الأئمّة العلويّين وأنصارهم أو شهدائهم، وكذلك الفضائل الفائقة لسلالة الفاطميّين التي لم تُميّز بين نجاحها ونجاح الإسماعيليّة.

من جهة أخرى، سرعان ما شاعت العادة على أن يتناول شعرًا موضوع ديني ذو منحى تقوي، كالزهد الذي أوحى قصائد أبي العتاهية في بداية العصر العبّاسي. ثمّ ظهرت، لاحقًا، مواضيع الحب الصوفيّ التي شكّلت القسم الأكبر من الإنتاج الشعري الوجداني للكثيرين من الصوفيّين الذين أسّسوا الخوانق والطرق وأحيوا جلسات رافقها، أحيانًا، الرقص والموسيقى. وغالبًا ما أدّى نجاح هذه الأعمال، في ما بعد، إلى مُماثلة الشعر الإسلامي المستوحى من الدين بأحد الأساليب المعتمدة لبلوغ الوجد الصوفيّ، أو بوسيلة التعبير التي اعتمدها، بشكل طبيعي، الذين بلغوا حالة الاتّحاد الصوفي، من أمثال عبد القادر الجيلاني أو جلال الدين الرومي. أحرز بعض هؤلاء الشعراء شهرة أدبيّة فريدة.

الشعوبيّة، تعبير يشير إلى حركة مقاومة، إجتماعيّة وثقافيّة في آن، ظهرت في العصور الإسلاميّة الأولى ضدّ الهيمنة العربيّة. وانتشرت هذه الحركة بين الإيرانيّين في الشرق، وبين السكّان الأصليّين في الأندلس.

يلمّح التعبير إلى الفارق الذي يشير إليه القرآن الكريم بين كلمتي «قبائل» و«شعوب» (سورة الحجرات، الآية ١٣)، على أنّ لفظة «قبائل» يمكن أن تكون قد عنت العرب ولفظة «شعوب» غير العرب.

وقد كان لهذه الحركة الإجتماعيّة أهميّتها الخاصّة في الشرق. فنمت في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد بدون صعوبة، ذلك أنّ النظام الذي وضعه العبّاسيّون ترك مكانًا واسعًا للموالي الإيرانيّين. لكنّ المسائل الثقافيّة تسبّبت بمشكلات أكثر تعقيدًا، إذ حاول رجال الفكر، الأمناء على تقاليد بلادهم وعلى الحكمة الدنيويّة التي تتضمّنها، إقامة ثقافة عربيّة جديدة على ذلك الأساس الإيرانيّ. والممثّل الأبرز لذلك التيار كان الكاتب ابن المقفّع الذي وضع، في مطلع العصر العبّاسي، كتابات نُقل بعضها عن اللغة الفهلويّة أو استُقي من تلك اللغة، كما استوحى البعض الآخر من الفكر السياسي الإيراني.

إلى هذا النشاط الذي يتّسم بالطابع الثقافي يضاف، لدى عدد قليل من الكتّاب، ميل ديني مناهض للإسلام ومؤيّد للمانويّة التي بقيت قائمة في بعض الأوساط. وكان ذلك سببًا لحملة اضطهاد نُظّمت في ذلك العصر ضدّ الزنادقة الذين اعتُبروا مانويّين في الخفاء ويعملون ضدّ الإسلام. والواقع أنّ وجود هؤلاء الزنادقة لم يمكن قطّ إثباته بالأدلّة الواضحة؛ ومع ذلك فإنّ الحركة الثقافيّة المؤيّدة لإيران وفكرة الشعوبيّة كانتا تُعتبران خطرًا على الإسلام. وهذا التوتّر لم يهدأ إلّا لاحقًا، خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد. وقد نجح عدد من الكتّاب، كالجاحظ وابن قُتيبة، في التوليف بين التراث الإغريقي والتراث العربي والتراث الإيراني، وهذا التوليف قامت عليه الثقافة العربيّة الإسلاميّة في العصور التالية.

شُعيْب، نبي أُرسل، بحسب القرآن، إلى شعب مَدْين أو إلى «أصحاب الأيكة» الذين يصعب التحقّق من هويّتهم.

تبقى شخصيّة شعيب، كما ترسمها آيات قرآنيّة عدّة، ومن خلال تبشيره الداعي الى التوحيد، إضافة إلى حسن السيرة واحترام النظام القائم، ضبابيّة. وإنّ ذكراه، كونه كان يُعتَبر حما النبيّ موسى، وأنّه تاليًا هو نفسه يِثْرو المذكور في التوراة، كانت مكرّمة في منطقة طبريا في فلسطين في القرون الوسطى. ويُقال إنّه عُثر على ضريحه في حِطّين، بالقرب من أضرحة أخرى،

يُحجّ إليها في زيارات تقويّة، وهي مرتبطة بذكراه وبذكرى عدد من أفراد عائلته منذ ازدهار ظاهرة تكريم الأولياء. وهذه المقامات يذكرها الهَرَوِيّ في دليله.

الشفاعة، مفهوم ينتمي منذ زمن بعيد إلى الفكر الديني في الإسلام، لكن من دون أن يلقى إجماعاً على القبول به؛ ولا حتّى الإقرار به لدى جماعة المسلمين.

إنّ إمكان الشفاعة للمؤمنين الخاطئين يوم الدينونة لم يظهر إلّا بطريقة غامضة لدى علماء الكلام، مستندين إلى الآية القرآنية ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [سورة الزُمَر، الآية ٤٤]، التي تقدّم تفسيراً حصريًّا للشفاعة؛ ولكن يبدو أنّها تفسح في المجال لشفاعةٍ يسمح بها الله. وثمّة آية أخرى تؤكّد أنّ في إمكان الملائكة أن يلتمسوا من الله المغفرة للمؤمنين. وثمّة أحاديث تعلن أنّ النبي محمّدًا (ﷺ) يشفع للمؤمنين عند الدينونة، وأخرى ترى أن الصلاة تشفع لمغفرة خطايا الأموات. وقد روى مُسلم حديثًا يؤكّد أنّه عندما تصلّي جماعةٌ من المسلمين، عددها مئة، من أجل مُسلمٍ، ويصلّون جميعًا لمغفرة خطاياه، فإن صلاتهم تُقبل حتمًا.

ان العقيدة الإسلامية الشائعة تريد أن تجعل الشفاعة بيدِ فئات مختلفة من المتشفّعين: جماعةٍ من المؤمنين، أشخاصٍ مميّزين كالأولياء، مثلاً، والأنبياء، والملائكة، ونبيّ المسلمين الذي يحتلّ مكانةً خاصّة. إنّ الأهمية المعطاة لكلّ فئة اختلفت بحسب الأوساط: فعند المتزهّدين، وسواهم من أتباع التصوّف، كما في الذهنيّة الشعبيّة، كان المتعبّدون يلجأون تلقائيًا إلى الشفاعة التي يَعِدُون أنفسهم بها من خلال «تكريم الأولياء»؛ بينما الشيعة يلجأون إلى الأئمّة الذين كانت أضرحتهم، في كلّ زمان، موضعَ تكريم وزيارات تقويّة. وفي المقابل، نرى مفكّرين كالمعتزلة يرفضون مبدأ الشفاعة، لأنّ ما من أحد، في رأيهم، أُلقي في جهنّم يمكن إخراجه منها.

شِلْب (البرتغال)، مدينة صغيرة تقع على الساحل الجنوبي - الغربي لبلاد الأندلس، أدّى نشاطها كمرفإٍ نهري إلى ازدهارها في أواخر عهد السيطرة الإسلاميّة. إنّ التطوّر المتأخّر للملاحة البحريّة الإسلاميّة في المحيط الأطلسي أدّى إلى ازدهار مفاجئ لهذه المدينة وترسانتها وحوضها المخصّص ببناء السفن، في منطقة هي، فضلًا عن ذلك، غنيّة وخصبة. وهكذا أصبحت في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، أهمّ حاضرة في المملكة العبّادية بعد أشبيلية. ثمّ إنّ علاقاتها البحريّة بالمغرب الأقصى نمت بشكل مطّرد في عهدَي المرابطين والموحّدين، على الرغم من الهجمات المسيحيّة المتتالية على هذه المنطقة التي عُرفت باسم «الغرب». والمعروف أنّ هذه الهجمات راحت تتزايد إلى أن استعادها المسيحيّون نهائيًّا بين سنتي ٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩ و١٢٥٠م.

◄ راجع المستندات ١٥، ١٦، و١٩.

شنترين ← **سانتاريم**.

الشهادة، تحتلّ الشهادة الخطيّة أو الشفويّة منزلة بارزة في سير عمل المؤسّسات القضائيّة الإسلاميّة، وتبرز الدور المعطى للشهود، بما فيه «شهود العقد».

وتتفاوت قيمة الشهادة تبعًا لمنزلة الشخص الشاهد. لذلك لا تُقبل، ضد مسلم، شهادة مؤدّي الجزية إذ يُعتبر هؤلاء غير متمتّعين بالنزاهة الخلقيّة والدينيّة أو ما يُعرف بـ«العدالة»، وهي الصفة الأساسيّة التي يجب أن تتوافر في كل شاهد. وللسبب عينه لا تُقبل في بلد شيعي شهادة مسلم غير شيعي ضد شيعي. فضلًا عن أنّ شهادة المرأة تساوي فقط نصف شهادة الرجل. أمّا إذا تواجه في دعوى ما ذميّون من أديان مختلفة فيُعتبر القضاء الاسلامي صالحًا للفصل بينهم، وتُقبل في هذه الحالة شهادة الذميّين بعضهم ضدّ بعض، هذا ما يقرّه مبدئيًا معظم الفقهاء.

أمّا الشهود المحترفون، أو «شهود العقد» المعروفون أيضًا بالعربية بـ«الشهود العدول»، المشتقّة صفتهم كما في كلمة العدالة من جذر يعني الإنصاف، فهم يُستخدمون للشهادة على صحة وثائق رسميّة يطّلعون عليها. وهم يساعدون القضاة في ممارسة مهمّاتهم، وهذا يجعلهم يُعتبرون أحيانًا، وفاق المفهوم الفرنسي، بمثابة الكتّاب العدل. وهم، أيضًا، ينبغي أن يشتهروا بسمو المنزلة الخلقيّة، وألّا يباشروا مهمّاتهم إلاّ بعد أن يتقصّى

القاضي تصرّفاتهم ويتبيّن آراءهم. وهذا التحقيق يشمل مسائل دينيّة عقائديّة، ويتّخذ أهميّة خاصّة خلال الأزمات السياسيّة الدينيّة، إذ جرى أحيانًا، خلال العهد العبّاسي، رفض شهود جاهروا بآرائهم المعتزليّة أو العكس.

الشَّهادة، كلمة عربيّة تعني في الإسلام اعلان المؤمن إيمانه شفاهًا. وهي أحد «الأركان الخمسة» في الإسلام، كما أنّها تشكّل التدبير الأساسي المفروض على كلّ من يرغب في الانضمام إلى الأمّة الإسلاميّة.

تُتلى هذه الشهادة باللغة العربيّة، وهي مستقاة من القرآن الكريم الذي يحضّ المؤمنين تكرارًا على الجهر بإيمانهم، ولا سيّما الجهر بوحدانيّة الله. وتتكوّن هذه الشهادة من جملتين مقتضبتين: «لا إله إلّا الله ومحمّد رسول الله». ويُبرز نص الشهادة عبارتي الله والرسول، ويكتفي في بنده الأوّل باستعادة جوهر آية قرآنية يشهد فيها الله عن ذاته بذاته:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران، ١٨].

ينتج عن التأكيد المزدوج الوارد في الشهادة انّ المسلم يؤمن بوحدانيّة الله وبالرسالة الموحى بها إلى النبيّ محمّد (ﷺ)؛ كما يفترض أيضًا قبول المسلم باتّباع الإرشادات والأوامر التي يعطيها نبيّ الإسلام بصفته هذه. ويطال هذا الأمر العقيدة والفقه، في آن.

وقد جرى لاحقًا تفصيل هذا المحتوى العَقَدي الناشئ عن هذا التحديد المبسط في نصوص موسّعة اتّخذت طابع «إعلان إيمان» حقيقي، وكان لها أثرها في الجدالات العقائديّة الأولى. وقد أثار هذا المحتوى ايضًا التعليقات التي وُضعت على المؤلّفات الصادرة عن المذاهب الكلاميّة، وكذلك التأويلات المتناقضة التي دافعت عنها حركات البدع.

كما طابق المحتوى الفقهي أحكام الشرع الذي كان، من جهته، موضوع شروح وإيضاحات مستمرّة بفضل جهود رجال الفقه وعلماء الدين الذين ينتمون إلى مختلف الأوساط الدينيّة المعنيّة.

شَهْرِسَبْز (جمهوريّة أوزبكستان)، مدينة تقع جنوبي سمرقند ما تزال تحتفظ بمعالم من القصر الذي بناه فيها تيمورلنك

شهرسبز، أو «المدينة الخضراء»، هو الاسم الذي أطلقه تيمورلنك على مدينة «كِش» القديمة حيث ولد، وهي تقع في بلاد ما وراء النهر، وقد ذكرها الجغرافيّون العرب في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وأشادوا بخصب تربتها في وادٍ يقع بموازاة وادي زرافْشان، وعلى الطريق التي تربط سمرقند بمدينتي ترمذ وبلخ. هناك كان تيمورلنك يحبّ الإقامة في الفترات الفاصلة بين حملاته العسكريّة الطويلة. والوصف الذي تركه «كلاڤيخو» (Clavijo)، رسول ملك قشتالة الذي قدم الى تلك المدينة سنة ١٤٠٤م، يعطي فكرة عن المجموعة المعماريّة في «آق سراي»، أي القصر الأبيض، وكان قد بوشر ببنائه قبل ذلك بنحو عشرين سنة، ولكنّه لم يُنجز. أمّا اليوم فلم يبقَ منه إلّا خرائب إيوان واسع مكسوّ بزخارف من الخزف.

الشهرستاني، محمّد بن عبد الكريم (٤٦٩- ٥٤٨هـ/ ١٠٧٦-١١٥٣م)، مفكّر مسلم عاش في زمن السلاجقة الكبار في المقاطعات الشرقيّة، وكان فقيهًا عمل في الفلسفة وفي تاريخ الديانات.

ولد سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م في شهرستان بخراسان، وتلقّى علومه الفقهيّة التقليديّة في نيسابور، وكانت له مواقف فكريّة أساء أبناء زمانه فهمها. ولم يكن له من الشهرة ما يكفي لإثارة فضول المؤرّخين. وجلّ ما نعرفه عن حياته أنّه كان يهتمّ بالفلسفة، وأنه قصد مكّة المكرّمة سنة ٥١٠هـ/١١١٧م لأداء فريضة الحجّ. كما أنّه أمضى ثلاث سنوات في بغداد، واجه خلالها صعوبات مختلفة، عاد بعدها ليستقرّ في مدينته ومسقط رأسه حيث عاش حتّى وفاته.

عُرف الشهرستاني كصاحب مصنّفات كلاميّة تشهد على تذوّقه علم الكلام. كما أنّ له مصنّفه المشهور «كتاب الملل والنحل» الذي يتفرّد عن غيره في كونه لا يكتفي بعرض عقائد الفرق الإسلاميّة والأديان الأخرى المعروفة، بل إنّه يعرض أيضًا عقائد العلماء الأقدمين. وقد بقي الغموض يكتنف شخصيّة الشهرستاني: إنّه يبدو وفيًّا للأشعريّة، كما أنّ التقارب ما بين آرائه ومواقف الإسماعيليّة تترك القارئ المطّلع في حيرة وأمام غموض. فبعض المقاطع من أبحاثه تحمل على الظنّ

بأنّ لديه ميولًا سريّة نحو هذه العقيدة، والمعطيات التي يلجأ إليها تُصنّف ضمن نطاق الأبحاث الباطنيّة للحكمة، وهي معطيات يستقيها من نصوص ما قبل الإسلام وفيها نقع على إشارات معبّرة من الفكر الإسماعيلي.

الشهيد، جمعها الشهداء، لفظة تطلق بنوع خاص على الذي يكون شاهدًا للايمان، ويجب أن نميّزها عن لفظة شاهد بالمعنى القانونيّ للكلمة.

لم ترد في القرآن الكريم لفظة شهيد بمعنى «الذي يقدّم حياته من أجل إيمانه»، وهوَ المعنى الذي أصبح الأكثر شيوعًا. يستعمل القرآن الكريم الكلمة بشكل أكثر شموليّة، حتى إنّه يجعل منها واحدًا من أسماء الله الحسنى. في التفسيرات القرآنيّة وفي الأحاديث النبويّة الشريفة وحدها طغى استعمال لفظة شهيد بمعنى الشاهد على الإيمان، وبمعنى الذي يقدّم حياته في سبيل الدين، فينال مقابل ذلك في الآخرة أكبر مكافأة. بينما يكتفي القرآن الكريم بصيغ عامة كالآتية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران، ١٦٩).

والمكان الذي يرتبط بذكرى شهيد، غالبًا ما يكون مدفنه، يُطلق عليه اسم مَشْهد ويعني مكان الشهادة. وقد أصبح المشهد مكانًا مكرّمًا عند انتشار عادة تكريم الأولياء، وتحوّل خلال العصور إلى مكان زيارات تقويّة. والشهداء، بحسب الاعتقاد العام، يخلصون باستشهادهم من كلّ خطيئة، ولا يحتاجون تاليًا إلى شفاعة النبيّ محمد (ﷺ). ولبعض الفقهاء مواقف حذرة تجاه البحث عن التضحية بالذات بأيّ ثمن، وتجاه الذين يرمون بأنفسهم في حومة الموت على أساس أنّ الجهاد يبقى أفضل وسيلة لبلوغ الشهادة، فيكرّسون من أجل ذلك كلّ جهودهم، في حين أنّ الفروض التي يتمّمها المؤمن في السلم لها قيمتها أيضًا.

وفي العصور الوسطى كانت لفظة شهيد تُطلق أحيانًا على قادة حاربوا أعداء الإسلام، من دون أن يكونوا قد قدّموا حياتهم ثمنًا في هذا الجهاد. وهذا ما كان من أمر نور الدين الذي حارب الفرنج. أمّا الشيعة فإنّها، بالمقابل، تعطي مكانة خاصة للشهيد الذي يُقتل في سبيل الدين، واعتُبر الأئمّة العلويّون شهداء مكرّمين لأنّهم جميعًا ماتوا قتلًا.

الشُورى، تدبير قديم مألوف في العالم الإسلامي، أوصى القرآن الحكّام به، يلجأ إليه بعض المفكّرين المسلمين المعاصرين لتبرير النظام البرلماني.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، هذا هو الأمر الذي تلقّاه النبي محمد (ﷺ) بحسب الآية ١٥٩ من سورة آل عمران؛ بينما تدعو الآية ٣٨ من «سورة الشُورى» المؤمنين إلى التشاور في ما بينهم في كل أمر. وقد استند السنّة إلى «مبدأ الشورى» ليقولوا بفكرة تعيين رئيس الجماعة على قاعدة «الاختيار». وقد طُبّق هذا «الاختيار» في تعيين الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، وفي ما بعد طُبّق على كل الملوك الذين كان الشعب يوافق على تعيينهم من خلال «البيعة» التي تعتبر في آن معًا نتيجة الشورى وقسم الولاء.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تمّ الارتكاز على توصية القرآن في ممارسة «الشورى» لتبرير اعتماد دساتير وأنظمة برلمانيّة غربيّة الطابع. وهي فكرة دافع عنها بشكل خاص المصلح السوري الكواكبي.

شيت، شخصيّة توراتيّة معروفة لدى عدد كثير من الكتّاب المسلمين، وهو مكرّم كنبيّ لدى الطبقة الشعبيّة التقيّة.

إنّه الابن الثالث لآدم، وإليه تنتسب البشريّة كلّها، ويُقال إنّه كان الوريث الشرعيّ لوالده. وكان شيث، بحسب التقاليد، يسكن مدينة مكّة المكرّمة، وقد دُفن مع أهله في كهف في جبل «أبي قُبيس». وترافق ازدهار تكريم الأولياء في العصور الوسطى الإسلاميّة مع انتشار مزارات في أماكن مختلفة له، منها مزار النبي شيث في البقاع اللبناني الذي يذكره الهروي بين المزارات المكرّمة في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد.

ثمّ إنّ أوساطًا إسلامية في القرون الوسطى، ولا سيّما الشيعيّة منها المتأثّرة بالغنوصيّة، نسبت إلى شيث صفات فوق الطبيعة، كانت كفيلة بأن تؤمّن له شهرة واسعة. وثورة «المقنّع» في إيران تبنّت عقيدة تقول بأنّ

روح الله انتقلت من آدم إلى شيت ، ومن شيت الى قائد الثورة. ودخلت الإسماعيليّة أفكار مماثلة ربطت شيت بآدم ، أوّل نبيّ «ناطق» . وهناك روايات أخرى تقدّم النبيّ شيت كصاحب كتابات تساعد على التوغّل في أسرار الكون.

الشيخ، تعبير عربي يعني «العجوز». في الأساس، استعمل هذا التعبير للإشارة إلى رجل متقدّم في السنّ يفرض احترامه على الآخرين بخبرته ومعارفه. وكانت هذه الكلمة مألوفة في بلاد الإسلام على أنها تعبير لياقة أو لقب وظيفي، بخاصة في أوساط رجال الدين. وفي القبيلة العربيّة، الشيخ هو الشخص الجليل المحترم، لكنّه لم يكن بالضرورة زعيم القبيلة إذ إنّ هذا الأخير كان يحمل لقب «سيّد» في العصور الأولى للإسلام. ومع ذلك كان يحدث أن يُجلّ هذا السيد كشيخ، كما كان يُجَلّ كلُّ مَن مارس سلطةً عليا، إذ تفترض تلك الممارسة إبداء الاحترام والتقدير له.

أُطلق لقب «شيخ» في ما بعد على المرجعيّات الدينيّة في الإسلام، وبشكل أشمل على شخصيات برزت في دفاعها عن الدين الإسلامي ونشره. وهذه كانت حال الخليفتين الراشدين الأوّل والثاني مثلاً، وكذلك الأمر بالنسبة للجامعَيْن الأساسيَّيْن للأحاديث النبويّة.

فضلًا عن ذلك، فالشيخ هو المعلّم الذي يدرّس، أو الصوفي المجرّب الذي يعدّ مريديه لطريقة عيش ولمختلف المراحل الموصلة إلى النشوة الروحيّة. وقد كان لهذا التعبير آنذاك أهميّة خاصة في الأوساط الصوفيّة حيث كان المرشد الروحيّ الذي يقود خطى المبتدئ يسمّى، في أكثر الأحيان، شيخًا في العربيّة و«پير» في العالم الإيراني - التركي. ووصل الأمر إلى حدّ أنّ تعبير «الشيخ» صار يدلّ على رئيس كل طريقة صوفيّة. وكان «شيخ الجبل» الشهير المعلّم الأكبر للنّزاريّة أو الحشّاشين في سوريا، يقيم في «مصياف» خلال الحقبة الصليبيّة. وفي مرحلة متأخّرة صار تعبير «شيخ الإسلام»، مثلاً، يدل على الشخصية الإسلاميّة الدينيّة العليا في الدولة العثمانيّة.

شيخ الإسلام، تعبير له طابع تشريفي تدخل في تركيبه لفظة «شيخ»، وهو لقب أُعطي في أوائل القرون الوسطى لعدد من الفقهاء المشهورين ولرؤساء بعض الفرق الصوفيّة، وذلك قبل أن يمنحه العثمانيّون لاحقًا لمن يقوم رسميًا بمهمة المفتي الكبير في اسطنبول.

بعد احتلال القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣م، منح السلطان محمّد الثاني، بموجب التقليد المتّبع، لقب شيخ الإسلام لمفتي العاصمة الجديدة. وبعد ذلك أصبح له وحده الحقّ في اصدار الفتاوى الرسميّة. وكانت مرتبته أعلى من مرتبة القاضيين الأساسيَّين اللّذين كان كلّ منهما يحمل لقب «قاضي عسكر». ولم يكن شيخ الإسلام المعيَّن من قِبَل السلطان يتقاضى أيّ أجر، لكنّ قراراته كانت تُحفظ في سجلّ رسميّ. ويبدو أنّ النفوذ المتزايد لشيخ الإسلام جعل منه الشخصيّة الثانية في السلطنة، وقد أُسند اليه باكرًا أمرُ مراقبة تعيينات القضاة والمفتين، وأمرُ تفحص الاجراءات التنظيميّة التي يتّخذها السلطان. وفي عهد السلطان سليمان القانوني، في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، كان شيخ الإسلام يمارس سلطته على قضاة السلطنة كافة، وما يُصدره من فتاوى كان يساعد السلطان على اتّباع السياسة التي يختارها، وإن لم تكن الاجراءات التي يتّخذها تتوافق دائمًا مع الشرع. وأكثر شيوخ الإسلام شهرة كان أبو السعود الذي بقي في منصبه من سنة ١٥٤٥م الى سنة ١٥٧٤م، وكان له دوره في الأعمال التشريعيّة لسلاطين زمانه.

في القرن السابع عشر، بدأ شيوخ الإسلام يتعرّضون للعزل، كما بدأ نفوذهم يتناقص. لكنّهم، مع ذلك، ظلّوا مقدّمين على سائر كبار الموظّفين في الدولة، ما عدا الصدر الأعظم، واحتفظوا باحترام خاص بحكم انتمائهم إلى أسر إسلاميّة، بعكس موظفي الادارة والعسكريّين الذين كان يتمّ اختيارهم من بين المسيحيّين الخاضعين للجزية، بحسب نظام «الدوشرما» (ضريبة الغُلمان). وقد حفظ لهم دستور سنة ١٨٧٦ موقعهم، واستمرّوا في القرن التاسع عشر من أصحاب المشورة، على الرغم من العلمنة التدريجيّة للقضاء العثماني. وكان قد شُكِّل، سنة ١٨٣٩، مجلس شورى انتزع من شيخ الاسلام بعض صلاحياته، كما أنشئت وزارة العدل سنة ١٨٧٩. ومع قيام الجمهوريّة التركيّة سنة ١٩٢٢، أُلغي

هذا المنصب على غرار مناصب أخرى كانت قائمة إبّان السلطنة العثمانيّة.

الشيخيّة، أوّل حركة كبيرة حديثة متفرّعة من الشيعة الإيرانيّة، يعود طابعها التوفيقي الباطني إلى الشيخ أحمد الأحسائي الذي ولد سنة ١٧٥٣م في الأحساء، في الجزيرة العربيّة، وتوفّي في المدينة سنة ١٨٢٦م.

أمضى الشيخ أحمد معظم حياته في إيران، في يزد حيث انصرف إلى التدريس، وفي طهران حيث لقي التكريم من قبل الشاه القاجاري. وفي قزوين اتّهمه في ما بعد علماء المدينة بأنّه من أتباع الفرق المتطرّفة، خصوصًا لاعتباره الإمام علي تجسيدًا للألوهية. وفي المنتاج الضخم الذي تركه والذي ما يزال غير معروف بما فيه الكفاية، تبدو عقيدته مستقاة من عقيدة المُلّا صدرا، ومن نظريّة السهروردي الحلبي التيوصوفيّة، وكذلك من تصرّف ابن العربي. ويبدو أنّ تأثيره كان كبيرًا على أبناء عصره، فكان له عدد وفير من الأتباع الذين استطاعوا أن يتصدّوا لخصومهم وأن يحافظوا على مدرسته الفكريّة التي بقيت حيّة حتّى عصرنا الحاضر.

شيراز (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة رئيسة في مقاطعة فارس في الحقبة الإسلاميّة، ما تزال تحافظ حتّى اليوم على موقعها مركزًا لمقاطعة، مع استمرار ذكريات ماضيها المجيد حيّة.

تقع شيراز جنوبيّ أصفهان في مقاطعة جبليّة من الهضبة الإيرانيّة، كانت تشغل، على علو مرتفع، منخفضًا خصبًا يتحكّم بتقاطع إستراتيجي لطرق القوافل، يصل العراق وأذربيجان بالخليج العربي-الفارسي وصولًا إلى سِجِسْتان. وما من شك في أنّ موقعها هذا هو في أساس ازدهارها المستمرّ منذ تأسيسها الفعلي خلال الحكم الأموي في ٦٥هـ/ ٦٨٤م، بجهود أحد أبناء عمّ الحَجّاج، وهو الموقع نفسه الذي ما تزال تحتلّه حتّى اليوم. وقد جاءت إعادة تعمير هذه المحلة، التي لم يكن لها حتّى ذلك الحين أهميّة تُذكر، عقب المحاولات الأولى التي قام بها الإسلام لاحتلال المنطقة في مرحلة الفتوحات الكبرى، مع نهاية خلافة عمر بن الخطاب. وقد نجحت هذه المحاولات في السيطرة على مدينة إصْطَخْر الساسانيّة المجاورة لبقايا مدينة برسيبوليس.

أصبحت شيراز، في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، عاصمة الدولة الصفّاريّة الخاضعة جزئيًّا للعبّاسيّين، وحافظت، تحت حكم البويهيّين الذين جعلوا منها أحد أهم مراكز سلطتهم، على مكانتها مركزًا إقتصاديًا وثقافيًا في فارس. وضُمَّت في ما بعد إلى أمبراطوريّة السلاجقة قبل أن تحتضن، في منتصف القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، سلطة محلّية جديدة لأتابكة سلالة السَّلْغوريّين.

وهكذا، ما تزال مدينة شيراز الحاليّة تحتفظ بمسجد جامع، يسمّى اليوم المسجد العتيق، بُني أو أُعيد بناؤه في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي على يدي عمرو بن الليث من السلالة الصفّاريّة، وهو يتميّز بخاصيّة وجود نصب مكعّب على شكل الكعبة في وسط فنائه. وبحكم اعتمادها مقرًّا إقامة للأمير البويهي الشهير عضد الدولة الذي أسّس فيها مكتبة ومباني أخرى درست آثارها، أُحيطت شيراز بسور محصّن حافظت ترميماته المتتابعة على تخطيطه الأساسي الذي ما يزال يتراءى في تنظيم المدينة القديمة حتّى اليوم. ويعود الفضل إلى السلغوريّين في إقامة المسجد المعروف بـ«الجديد» والمشهور بفنائه الضخم المستطيل في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، والذي بناه الأتابك عز الدين سعد بن زنكي الذي حكم بين ٥٩٩ و٦٢٨هـ/ ١٢٠٣ و١٢٣١م. وقد أُعيد ترميم هذا المسجد وتجميله إبّان حكم الصفويّين.

وخلال حكم هذه السلالة الأخيرة، احتلّت شيراز من جديد مكانة مرموقة. وكانت قبل ذلك انتقلت على التوالي من حكم السلغوريّين إلى سلطة الإيلْخانيّين، فآل مظفّر فالتيموريّين، من دون أن ننسى سلالة آل إنجو الصغيرة التي جهدت، بين ٧٠٣ و٧٥٨هـ/ ١٣٠٣ و١٣٥٧م، للحصول على استقلال نسبي وصعب المنال في هذه المدينة. ومع بسط الشاه الصفوي إسماعيل الأوّل سلطته سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م، أصبحت شيراز واحدة من أكبر مدن المملكة وأغناها، وتمرّ عبرها تجارة قويّة وناشطة مع مرافئ المحيط الهندي.

وقد نفّذ فيها إمام قُلي خان، حاكم فارس الباذخ في فترة حكم الشاه عبّاس الأوّل، أشغالاً، كما استقبل فيها الموفد الإنكليزي السير دوذمور كوتُن Dodmore Cotton إستقبالاً مشهودًا.

وبعد الخراب المتراكم الذي أصاب المدينة مجدّدًا على عهد نادر شاه، بخاصة بين ١١٤٣ و١١٦٠هـ/ ١٧٣٠ و١٧٤٧م، عرفت شيراز نهضتها الأخيرة الأكثر فخامةً، بوصفها عاصمةً لسلالة آل زَنْد ومقرًّا ملكيًا صمّمه كريم خان زند، المعروف بـ«الوكيل»، الذي حكم ما بين ١٧٥٠ و١٧٧٩. وحتّى اليوم، ما يزال حيّ بكامله، مشيَّد حول مسجد «الوكيل»، يشهد على هذه الجهود الأميريّة العمرانيّة. غير أنّ إنشاءات المدينة عانت الهزات الأرضيّة والكوارث الطبيعيّة الأخرى التي حصلت في القرن التاسع عشر والتي رافقت الانحطاط البطيء لهذه المدينة التي تحوّلت، مذّاك، مدينة ريفيّة أهملها القاجار قبل أن تتحوّل عنها خطوط التجارة الدوليّة شيئًا فشيئًا في الحقبة المعاصرة.

غير أن شيراز التي ذاع صيتها كموطن للشعراء ولتكريم الأولياء، والتي اشتهرت بنسيجها الفاخر ومدرستها المختصّة بفنّ المنمنمات، استمرّت في ذاكرة الأجيال مركزًا فنيًّا وأدبيًّا شهيرًا. ففيها تقوم أضرحة أشهر شاعرين فارسيَّين: سعدي الذي عاش في المدينة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وحافظ الذي عاش في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. لكنّ مظاهر الإجلال الشعبي تتّجه خاصة الى ضريح إمام علويّ متوفّى سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م، هو شقيق علي الرضا الإمام الثامن عند الشيعة الاثني عشريّة، وقد تحوّل ضريحه، الذي حُدّد مكانه في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، الى مزار مهيب.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣ و٢٤.

شيرْوان، مقاطعة في بلاد ما وراء القوقاز خلال القرون الوسطى، اعتنقت الإسلام في فترة متأخّرة. تقع على خاصرة سلسلة قمم متوسطة الارتفاع تُشرف على الشاطئ المغربي لبحر قزوين، شكّلت حدودًا شبه أسطوريّة لعالم الإسلام.

هذا الإقليم المجاور لمقاطعة أرّان والذي كان لفترة جزءًا منها، يمتدّ شمالاً إلى نقطة «باب الأبواب»/ دَرْبَنْد الحدوديّة. وقد تمتّع في القرون الوسطى باستقلاليّة نسبيّة تحت سلطة حكّام تابعين للعبّاسيّين خلعوا على أنفسهم ألقابًا ملكيّة: شيروانشاه أو شَرْوانشاه. كانت عاصمة هذه الناحية، الشمّاخية وهي شمّاخة الحاليّة؛ وقد فاقتها، اليوم، أهميّةً مدينة باكو وأنشطتها البترولية.

إنّ التتريك المتزايد للمنطقة، وأسلمتها منذ الغزوات السلجوقيّة والمغوليّة، لم يحولا أبدًا دون الاضطرابات والصعوبات في هذه المنطقة الحدوديّة التي كانت عرضة لهجمات وأطماع عدّة. وهكذا منذ القرن السادس عشر، في العهد الصفوي، كانت المنطقة ساحة تنازع بين الفرس - وكان أهلها السنّة لا يتقبّلون معتقدهم الشيعي - والعثمانيّين والروس. وقد تغيّر الوضع عام ١٨٢٠ مع احتلال روسيا للمنطقة الذي تسبّب بحركات عصيان مختلفة. لكنّ الروس حافظوا لفترة على وجود «حكومة باكو» قبل أن يلغوا الحدود التي كانت قائمة في القرون الوسطى ويدمجوا المنطقة في مقاطعة أوسع هي أذربيجان، أو بالتحديد في الجزء الروسي من أذربيجان الذي عُرف في ما بعد باسم جمهوريّة أذربيجان، الاشتراكيّة السوفياتيّة التي استقلّت عام ١٩٩١.

شَيْزَر (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، محلّة وقلعة قروسطيّة ما تزال خرائبها تتوّج نتوءات صخريّة فوق نهر العاصي، على الطريق التي تصل حماة بمدينة أفاميا الأثريّة.

لقد بُنيت القلعة فوق بقايا حصن قديم، في محلّة أخذت بالتقهقر منذ أن احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة صلحًا سنة ١٧هـ/٦٣٨م في بداية الفتوحات الكبرى. وفي وقت لاحق، تنازعها المسلمون والبيزنطيّون الذين احتلّوها من سنة ٣٩٠ إلى ٤٧٤هـ/ ٩٩٩ إلى ١٠٨١م. ثمّ سقطت القلعة في أيدي أمراء عرب من قبيلة منقذ، كانوا أسياد المنطقة المجاورة، فحصّنوا دفاعاتها واحتفظوا بها إلى أن وقع زلزال حماة سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٧م، فدمّر القلعة تدميرًا كاملاً.

ومع هذا الحدث، انتهت الوضعيّة التي كانت لشيزر

على مدى عقود، كإمارة إسلاميّة بجوار ممتلكات الفرنج. وتشهد على ذلك أخبار سيرة الأمير والأديب أسامة بن منقذ. وقدر شَيْزَر لم يُترجَم فقط بمقاومتها المستمرّة للهجمات المعادية – ومنها حصارا ٥٠٢ و٥٣٣هـ/١١٠٨ و١١٣٨م – ولكن أيضًا بالهجمات المتكرّرة على الممتلكات الصليبيّة، وبفترات هدنة سمحت بقيام علاقات صداقة بين أمراء تلك المنطقة وأسياد الفرنج.

بعد ذلك عمد نور الدين إلى إعادة بناء القلعة التي تعرّضت مجدّدًا للخراب بسبب الزلازل والغزوات، ومنها غزوة المغول. ومرّة جديدة رُمِّمت لتساهم في الدفاع عن الساحل السوري والمناطق الداخليّة، وذلك في أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، على أيدي السلاطين المماليك، وخصوصًا السلطان بيبرس.

الشيشان (جمهوريّة فدراليّة)، مساحتها ١٩٣٠٠ كلم² وعاصمتها غروزني. جمهوريّة إشتراكيّة سوڤياتيّة ذات حكم ذاتي سابقًا، ما تزال تشكّل جزءًا من الإتّحاد الفدرالي الروسي. وهي تضمّ أكثريّة من المسلمين تصل نسبتها إلى ٧٠٪ من مجموع السكّان البالغ عددهم حوالى مليون ونصف المليون نسمة، وهم يتكوّنون أساسًا من عنصري الشيشان والإنغوش.

وُلدت هذه الجمهوريّة الاشتراكيّة السوڤياتيّة سابقًا، عام ١٩٣٦، من اتّحاد بين إقليمين مستقلّين ذاتيًّا، هما: الشيشان والإنغوش. وكان الأوّل منهما قد أُنشئ في العام ١٩٢٢ والثاني في العام ١٩٢٤. إنّ نظامها، الذي لم يمنع الترحيل الجماعي، في العام ١٩٤٤، لقسم كبير من سكّانها الإنغوش إلى كازاخستان، أُلغي آنذاك موقّتًا وأُعيد العمل به في العام ١٩٥٧ بعد عودة المبعدين. تشغل الجمهوريّة التي تكوّنت بهذه الطريقة والتي انفصل عنها الإنغوش، منطقةً جبليّة غنيّة بالنفط، تفصلها قمم القوقاز عن جمهوريّة جورجيا المستقلّة، ولها حدود مشتركة مع جمهوريّات أخرى مستقلة ذاتيًّا ضمن الإتّحاد الفدرالي الروسي: أوسيتيا الشماليّة في الغرب، وداغستان في الشرق وكلموكيا في الشمال.

لشعوب الشيشان والإنغوش الذين ينتمون إلى مجموعة الشعوب الإيبيريّة – القوقازيّة لغتان متقاربتان، وقد أسلم هؤلاء في وقت متأخّر وببطء إعتبارًا من القرن السابع عشر، بتأثير مزدوج مارسه عليهم حكّام داغستان وحكّام القرم المجاورة، بعد أن كانوا قاسوا قبل ذلك سيطرة الكابَرْد أي الجراكسة الشرقيّين. ولمّا كانوا من السُّنّة ويتبعون المذهب الفقهي الحنفي الذي كان سائدًا في الدولة العثمانيّة، متأثّرين أيضًا بدعوة الطريقة النقشبنديّة، فإنّهم قاوموا بشدّة سيطرة الروس واستعمارهم لبلادهم في القرن التاسع عشر. كما شاركوا بخاصّة، حتّى العام ١٨٥٩م، في ثورة شامل وجهاده، إذ تحصّن في مواقعهم المنيعة. وتجلّت المقاومة المحليّة عينها منذ تطبيق النظام السوڤياتي في البلاد، وقد تكون في أساس من السمة المحافظة التي صبغت هذه الطائفة الإسلاميّة، على الرغم من أنّها منقسمة على نفسها بسبب التنافس بين شعبين. وقد بلغ التوتر درجةً عالية، ما دفع بالأنغوش، سنة ١٩٢٢، إلى إعلان استقلالهم الخاص في جمهوريّة إنغوشيا الفدرالية داخل الاتّحاد الروسي، وإلى جانبها جمهوريّة الشيشان التي صغرت مساحتها وقلّ عدد سكانها.

الشيطان، يرد ذكره في القرآن الكريم، ويحمل كذلك اسم إبليس، وهي صيغة مشتقّة من ديابُلُس (diabolos) اليونانيّة. وبحسب الرواية القرآنية، فإنّ اللّه، بعد خلقه آدم، أمر الملائكة بأن تسجد له. رفض إبليس السجود، فصرخ به تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (سورة الحجر، ٣٤، ٣٥). وقد أُعطي الشيطان القدرة على غواية الناس الذين يبتعدون عن الله: هكذا استطاع أن يحثّ آدم وحواء على عصيان أوامر اللّه بعد الخلق. وبعض الآيات القرآنيّة تعتبر الشيطان ملاكًا (سورة الحجر، ٣٠-٣٣) وبعضها الآخر تجعله من الجنّ، وهي مخلوقات يصعب تحديد طبيعتها، ويمكن أن تكون صالحة كما يمكن أن تكون شرّيرة، وفي هذه الحالة، يتصف الجنّ أيضًا بصفة الشيطان.

وإلى الشيطان، بحسب بعض المصادر العربيّة، تعود محاولة تضليل النبيّ محمد (ﷺ) وحثّه على تلاوة آيات تناقض وحدانيّة اللّه، وهي غير مدوّنة في

القرآن الكريم، وإنّما مذكورة في تفسير الطبري. وبحسب هذا المؤرّخ والمفسّر فإنّ الآيات التي ألغاها النبيّ محمّد نفسه (ﷺ)، بعدما وجد ما فيها من ضلال كاد يكون ضحيّته، صُنّفت كآياتٍ شيطانيّة. انها تُضاف إلى الآيات التي تذكر اللّات والعُزّى ومناة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ (سورة النجم، الآيات ١٩-٢٣).

الشيعة، هم شيعة علي أو حزب عليّ، حركة سياسيّة - دينيّة واسعة الانتشار ظهرت بعد فترة قصيرة من وفاة النبي محمد (ﷺ)، وما يزال لها حتى اليوم شأن تاريخي مهمّ في عالم الإسلام.

حصر أتباع الشيعة الذين تميّزوا خاصة برفضهم القبول بشرعيّة خلافة السلالتين الأمويّة والعبّاسيّة - حقّ قيادة الجماعة الإسلاميّة بعلي وأعقابه العلويّين. لكنّ تضارب آرائهم، وبخاصة في ما يتعلّق باختيار الإمام؛ وكذلك تنوّع العقائد الفلسفيّة - الكلاميّة التي ظهرت تباعًا في مجتمعاتهم أدّت بالشيعة، مع الزمن، إلى الانقسام إلى فروع عدّة اعتنق كلّ منها آراء سياسيّة وعقائديّة مختلفة، لكنّها بقيت جميعها معارضة للمذهب السنّي.

من الصعب أن نحدّد بدقّة بدء ظهور «حزب» علي الذي صار شخصه نقطة التقاء للشيعة. فبعض كتّاب الوقائع يعتبرون أنّ بعض الصحابة انضمّوا إلى علي تعبيرًا عن رفضهم أداء يمين الولاء لأبي بكر، لكنّهم تخلّوا عن موقفهم هذا بعد وفاة فاطمة. وكان ينبغي انتظار اغتيال عثمان وما تبعه من نزاع بين علي ومعاوية لكي نشهد تكوّن مجموعة محازبين متحمّسين لدعم حقوق ابن عم النبيّ محمّد (ﷺ) وصهره. ولم يلبث «الخوارج» أن انفصلوا عن هؤلاء المحازبين؛ من جهة أخرى، أدّت وفاة علي، كما هو معروف، إلى قبول ابنه الحسن بالخلافة الأمويّة. والروايات المتعلّقة بالمدعو عبدالله بن سَبأ، أحد صحابة علي[٥٨]، ناسبةً إليه تأليهه لسيّده وإدّعاءه أنّ صوت الرعد هو صوته، تبدو مشبوهة إلى حد كبير. فمؤرّخو البدع القدماء لم يتردّدوا في أن ينسبوا إلى ابن سبأ وإلى بدعة «السبائيّة» التي أسّسها أفكارًا قال بها في ذلك الوقت «غلاة» الشيعة.

وبعد الموت العنيف للحسين، ثاني أبناء علي، والحركة التي قام بها في الكوفة أفراد سُمّوا «التوّابون» ندمًا على تلكّؤهم في الدفاع عنه، يمكن الحديث عن حركة شيعيّة دافعت عن فكرة تقول إنّ السلطة يجب أن تؤول حُكمًا إلى علي وأحفاده المعيّنين إسميًّا من قبل السلف. مع ذلك، لم يحل وجود هذا التوجّه القائل بشرعيّة انتقال الوراثة عبر فاطمة من دون قيام حركات عصيان، في نهاية الحقبة الأمويّة، تدافع، بوجه السلالة الحاكمة، عن «حقوق أفراد آل النبي» غير المتحدّرين من سلالة علي وفاطمة. وهكذا انفجرت ثورة المختار[٥٩] لمصلحة محمّد بن الحنفيّة، وهو أحد أبناء علي من امرأة غير فاطمة؛ وثورة عبدالله بن معاوية المتحدّر من شقيق لعلي؛ وأخيرًا ثورات الهاشميّين المتحدّرين من أعمام النبي محمّد (ﷺ)، ومنهم المتحدّرون من العبّاس [ابن عبد المطلب] أي العبّاسيّين.

واقع الأمر، أنّ أحفاد الحسين، الذين اعتُبروا في ما بعد أئمّة تعود إليهم وحدهم شرعيّة المطالبة بالسلطة؛ لم يتدخّلوا بشكل فاعل عندما تمكّنت «الثورة العبّاسيّة» المنتصرة عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م من تنصيب غير علوي على عرش الخلافة. فجعفر الصادق، مثلًا - وهو الإمام السادس الذي توفي في العام ١٤٨هـ/٧٦٥م في عهد الخليفة العبّاسي المنصور - عاش ببساطة في المدينة رجلَ تقوى متضلّعًا في علوم الحديث والفقه، ولم يطالب بالسلطة. وكان يعتبر، على ما يبدو، أنّ ساعته لم تحن بعد، ولم يدعم أيّة من ثورات المحازبين الشيعة التي انفجرت آنذاك. لكنّ ذلك لم يقلّل من اعتباره منظّرًا بارزًا للمذهب الشيعي ومؤسّسًا للمدرسة الفقهيّة الجعفريّة الخاصة بالإماميّة الاثني عشريّة.

وكان قد ظهر داخل الشيعة، في نهاية القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، اتّجاهات عدّة. فثورة زيد بن علي، أحد أحفاد الحسين، قامت في العراق سنة ١٢٣هـ/ ٧٤٠م، بينما ثار ابنه يحيى في خراسان سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م، ومن دون أن تحقق إحدى الثورتين أيّ

نجاح. وبعد تغيير النظام، انطلق الأخوان محمّد النفس الزكيّة وإبراهيم، الحفيدان الثاليان البعيدان للحسن وجدّا أشراف المغرب، في حركات جديدة، إحداها في الجزيرة العربيّة، والأخرى في البصرة، فاصطدمت الحركتان بالجيش العبّاسي القوي. وفي ما بعد تبنّت الحركة الزيدية كل هذه الثورات. والزيديّة حركة شيعيّة ذات طابع خاص تدّعي الانتماء، كما يدلّ اسمها، إلى زيد [حفيد الحسين]، ولم تتبلور عقيدتها إلّا بعد مرور قرن على هذه الثورات.

من جهة ثانية، في الفترة نفسها، تبنّى أنصار محمّد ابن الحَنَفيّة، بحسب كتّاب الحوليّات، بعضًا من الأفكار المبتدعة التي طبعت في ما بعد حركات شيعيّة مختلفة. أحد هذه الأفكار يقول بالعودة المنتظرة للإمام، أي بعودة المهدي من غيبته، على غرار ما تردّد في بعض الأوساط بعد وفاة النبي محمّد (ﷺ). وتشدّد أفكار اخرى على الصفات ما فوق الطبيعيّة للإمام أو تحدّد دور هذا الإمام الذي لا يظهر بذاته، بل ينتقل تعليمه إلى تلميذ، الأقرب إليه الذي يدعى «الباب»، أو يكلّف في بعض الأحيان «مفوضًا بالسلطة» ليفتح أمامه سبيل الخلافة. وهكذا يكون من الصعب تتبّع نمو الشيعة، بمختلف مظاهرها، حتّى نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. ففي سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م مثلًا، عند وفاة جعفر الصادق، حصل انشقاق كان في أساس نشأة الإسماعيليّة. وسبب هذا الانشقاق عائد على الأرجح إلى اختيار بعض المناصرين لاسماعيل - الابن الأكبر لجعفر الذي كان قد توفي قبل والده - إمامًا سابعًا واعتبارهم أن خلفاءه كانوا سلالة من الأئمّة المحتجبين. وبالعكس، تبع شيعة آخرون سابع الأئمّة، موسى الكاظم بن جعفر الذي كان والده قد عيّنه قبل وفاته؛ وتبعوا أحفاده من بعده حتى غيبة الإمام الثاني عشر في سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م. هذه الفئة من الشيعة شكّلت حركة عُرفت بـ«الإمامية الاثني عشرية»، وتبلورت عقيدتها بعد «غيبة» الإمام. وتعود هذه التسمية لاعتراف هذه الفئة بسلالة من اثني عشر إمامًا توالوا إبنًا بعد أب، منذ الحسين، بموجب تعيين بالنّص.

كذلك كانت تحدّدت، في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، الفروع الكبرى للشيعة، ألا وهي الإسماعيليّة التي أدّت الى قيام الخلافة الفاطميّة في سنة ٢٩٧/ ٩٠٩ والتي كانت أيضًا في أساس نشأة حركة القرامطة المستقلّة؛ والإماميّة الاثنا عشريّة التي كانت محدودة الفاعليّة في البدء، والتي عرفت في ما بعد انطلاقة جعلت منها المذهب الرسمي لبلاد فارس، أيام الصفويّين؛ وأخيرًا الزيديّة التي سمحت نجاحاتها السياسيّة بأن يتسلّم أتباعُها السلطة في بعض المناطق حيث استقرّت دون زيديّة لفترة طويلة. وفي الحقبة نفسها يحدّث كتّاب الوقائع ومؤرّخو البدع أيضًا عن شيعة متطرّفين عُرفوا بـ«غلاة الشيعة»، يعتنقون أفكارًا مبتدعة، وبخاصة بتأليههم الأئمّة. وينطبق تعبير «الغلاة» على الإسماعيليّين، وبشكل خاص على بعضهم كالنّزاريّين والدروز، كما ينطبق أيضًا على فئات شيعيّة نشطت في مناطق عدّة لكن بشكل غير منظم، كالنُّصَيْريّة، مثلًا.

مع ذلك، لا ينحصر تطوّر الشيعة بهذه التشكيلات المنبثقة من الشيعة الأولى وتشعباتها المتتالية خلال الحقبة الوسيطة. إنّ النزوع الطبيعي للإسلام، وبخاصة الإسلام الشيعي، إلى التّنوع عبر النشوء المستمرّ لبدع جديدة، ظلّ ظاهرًا حتّى الحقبة الحاليّة، مستفيدًا تحديدًا من الانطلاقة القويّة للإماميّة في إيران بدءًا من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ما شكّل عاملًا مساعدًا في هذه البلاد لتنامي حركات تكتفي هنا بتعداد أكثرها أهمية، كالشيخيّة والبابيّة والبهائيّة.

ص

الصابئ والصابئة، صفة تطلق على مجموعة من العلماء والمتأدّبين والمتبحّرين في فنون المعرفة الذين اعتنقوا الإسلام في أكثر الأحيان. كانوا من المقرّبين الى العبّاسيين في العراق في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، وقد نُسبوا الى أحفاد «الصابئة» الذين ذكرهم القرآن.

ينحدر هؤلاء من وسط فلاسفة وثنيّين أخذوا [التعاليم] الأفلاطونيّة الجديدة؛ وهؤلاء الفلاسفة هم بدورهم ورثة تقليد محلّي عريق لسكّان حرّان في أعالي بلاد ما بين النهرين. وقد وصفهم الشهرستاني، مؤرّخ المِلَل، بعَبَدة النجوم، وكان هذا الأخير قد جمع، في القرون الوسطى، بعض المعطيات عن عقيدتهم. تسامح معهم الخلفاء الذين قبلوا اعتبارهم من «أهل الكتاب»، وكانوا كثيري العدد نسبيًّا. تركوا مؤلّفات بالسريانيّة أو العربيّة، وغالبًا ما اختارت عائلاتهم اللجوء إلى بغداد، قرب الأوساط الفكريّة التي كانت تحظى بحماية الخلفاء، مع محافظتهم على علاقات بأبناء دينهم القدماء. وقد خدم بعضهم كتّابًا مدرّبين على القيام بمهمّات الديوان أو الماليّة. وساهموا، خلال حكم الخلفاء وتحت إشراف البويهيّين، بخبرتهم في حسن سير الإدارة في الأمبراطوريّة، واهتمّوا كذلك بعلم المستندات القديمة وبعلم التاريخ.

كانت هذه، على سبيل المثال، حال هلال الصابئي الذي كان جدّه الأسبق الشهير أبو إسحاق إبراهيم بن هلال قد خدم الدولة من دون أن يعتنق الاسلام. شكّل الطب وعلم الفلك والرياضيّات العلوم التي يدّعيها مسلمون آخرون ينتمون الى أصل صابئي، أمثال عالم الفلك البتّاني الصابئي، الشهير في الغرب باسم البانيوس (Albategnus)، أو سنان بن ثابت، طبيب الخليفة المقتدر الذي اضطر إلى اعتناق الاسلام في خلافة القاهر، في حين أنّ أباه ثابت بن قرّه - المولود عام ٢٢١هـ/٨٣٦م في حرّان والمتوفّى عام ٢٨٨هـ/٩٠١م في بغداد التي وفد إليها متأخرًا، وعيّنه فيها الخليفة المعتضد عالم فلك - قد حافظ على شهرته كرياضيّ وفيلسوف من دون أن يُسلم.

الصابريّة ← الجشتيّة.

الصاحب (جمعها أصحاب وصحابة)، كلمة عربيّة تعني «الرفيق، السيّد، التابع، المالك، والممسك بشيء». أدّى تنوّع معانيها الأصليّة عبر العصور إلى استعمالات ذات دلالات تاريخيّة مختلفة.

كان أنبل استعمال لها ذلك الذي خصّ معناها، منذ بداية الاسلام، بـ «صحابة» النبي محمّد (ﷺ). لكنّ هذه التسمية التي أصبحت تقليديّة، لم تحل أبدًا دون الاستمرار في استعمال المصطلح، في مجال أوسع، وإطلاقه على مجموعات أخرى من الأصحاب، كتلك التي تحيط بعاهل ما، على سبيل المثال. وهكذا حملت رسالة ابن المقفّع الشهيرة، الموجّهة إلى الخليفة العبّاسي الثاني المنصور لنصحه في اختيار معاونيه، عنوان «رسالة في الصحابة».

وبُعيد ذلك، في القرنين الرابع والخامس للهجرة/العاشر والحادي عشر للميلاد، غدت كلمة صاحب، في صيغة المفرد، لقب شرف أُطلق على وزراء البويهيّين خلال حكمهم في العراق أو في إيران وأشهرهم الصاحب بن عبّاد. وقد استمرّ هذا التعبير حيًّا، وهذا يفسّر اختياره في الهند في القرن التاسع عشر حيث أُطلقت هذه التسمية على الأوروبيّين، بما فيها صيغة

المؤنث المستعملة في اللهجة المحليّة في قولهم «بمصاحب».

هناك تعابير عديدة تستعمل فيها كلمة صاحب، إمّا كصفة عامّة كقولهم «صاحب مؤلّف» أو «صاحب فلان»؛ وإمّا كصفة خاصّة يُنعت بها هذا البطل أو ذاك بدءًا بـ «صاحب الحوت» للدلالة على النبيّ يونان، وحتّى «صاحب الحمار» الذي أطلق على الثائر أبي يزيد الذي دمّر إفريقية الفاطميّة وأدماها، مرورًا بـ«صاحب الروم» اي الأمبراطور البيزنطي. وفي موازاة ذلك، استُعملت تعابير من الطراز نفسه إنطلاقًا من كلمة أصحاب في صيغة الجمع، وكان لها طابع عمومي، كقولهم «أصحاب الحديث»، للدلالة على أنصار «الحديث» أو «أصحاب الكهف» الذين أتى على ذكرهم القرآن الكريم.

صاحب الحمار ← أبو يزيد.

صاحب الحوت ← يونس أو يونان.

صاحب السوق ← الحسبة.

صاحب الشرطة، مأمور قضائي مكلّف، في مجتمعات القرون الوسطى الإسلاميّة، بتنفيذ العقوبات التي يفرضها القاضي وفاق أحكام الشريعة وبالحفاظ، بوجه عام، على النظام الذي تفرضه السلطة.

بموجب هذه المهمّة، كان صاحب الشرطة الذي كان موقعه يشكّل جهازًا أساسيًّا في دولة الخليفة أو دولة السلطان، يتمتّع بإمكانات عمل واسعة جدًّا، منها القيام بالتحقيقات. كان في إمكانه، إضافةً إلى فرض عقوبات إعتباطيّة بالسجن، أن يحارب الثائرين في حال نشوب اضطرابات، بل أن يأمر بقتلهم. ففي بغداد، مثلًا، بين القرنين الثاني والرابع للهجرة/الثامن والعاشر للميلاد، كان صاحب الشرطة يتصرّف بصفته قائدًا للعاصمة، وكان له مكانة شبيهة بمكانة قائد الجيش الذي كان يشغل المقام الأوّل في التراتبيّة والمؤسّسات العسكريّة. وفي عهد الخليفة المأمون، كان لصاحب الشرطة صلاحيّة الحلول محلّ الخليفة في حال غيابه. وكان له أيضًا مهمّة فخريّة وهي المشاركة في احتفالات الخليفة الرسميّة وتقدُّم الموكب عندما يخرج الخليفة من قصره في موكب رسمي. خلال هذه المناسبة، كان عليه تقلّد الرمح، وهو امتياز تقليدي خُصّ به خلفاء النبيّ (ﷺ).

صاحب عطا، فخر الدين علي بن الحسين، ؟-٦٨٨هـ/-؟ - ١٢٨٩م، وزير لدى سلاجقة الروم، نهض بدور راعي فنون العمران التي خلّدت ذكراه بآثار مشهود لها ومعروفة التاريخ. إنّ مؤسّسات صاحب عطا الخيريّة، التي استحقّ بها لقب «أبو الخيرات»، ضمّ كلّ منها عددًا من المباني ما زال بعض أقسامها قائمًا حتّى اليوم، وهي تتمثّل بجوامع ومدارس وخوانق ضُمّت أحيانًا في مجمّعات، وتشكّل شواهد مميّزة على فنّ تلك المرحلة. وقد توزعت مآثره عبر الأناضول الأوسط من آق شهر إلى قيصرية وسيواس، حتّى قونية العاصمة حيث دُفن وحيث أقام أفخم آثاره العمرانيّة.

جعل صاحب عطا من «أفيون قره حِصار»، وهي موقع سهل التحصين، مركز إمارة صغيرة شبه مستقلّة حيث جهد أولاده، في القرن التالي، للإبقاء على سلطتهم وسط طموحات القرامانيّين والكرميانيّين، وكان قد شاد فيها مسجدًا جامعًا محمولًا على أعمدة من خشب، أُدخلت عليه بعض التعديلات سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م. وغير بعيد من هذا المكان، بنى صاحب عطا نُزُلًا للقوافل، منها خان عشّاقلي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، بين چاي وآق شهر، على الطريق المؤدّي من أفيون الى هذه الأخيرة. إنّ كثرة هذه الاستراحات - المستودعات المخصّصة للمسافرين، تشهد على اهتمام ذلك الوزير بطرق القوافل التي سهّلت النشاط التجاري وأمّنت بذلك ازدهار أملاكه. من بين الأبنية الأخرى الظاهرة المعالم، على الأقل ببوّابات واجهاتها، مدرسة تاش في آق شهر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وجامع قونية وخانقاه صاحب عطا، من ٦٥٧ الى ٦٨٢هـ/١٢٥٨ الى ١٢٨٣م، ومدرسة إينجه منارلي ٦٥٨-٦٦٣هـ/١٢٦٠-١٢٦٥م، وأخيرًا مدرسة قيصرية المعروفة باسم مدرسة الصاحبيّة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، ومدرسة غوق في سيواس سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. انّ بقايا تلك المباني تُظهر بهيكليّتها ونقوشها المنحوتة وعناصر زينتها من القيشاني المزخرف، تيارًا معيّنًا من التطوّر، واضح المعالم، لا سيّما أنّها تحمل تواقيع مهندسين تربطهم صلة القُربى.

صاحب فخ ← الحسين بن علي.

الصاروخانيّون أو بنو صاروخان، ٧١٣-٨١٣هـ/ ١٣١٣-١٤١٠م، سلالة تركمانيّة استطاعت، في عهد الإمارات في الأناضول، أن تبسط سلطتها على مقاطعة ليديا القديمة، على ساحل بحر إيجه، وهي منطقة ضيّقة وغنيّة.

إنّ القائد الذي أعطى اسمه للأسرة ثبّت استقلاله بشكل خاص عن بني كرميان بعد احتلاله مدينة مانيسا سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، التي جعل منها عاصمته وسط ممتلكاته في وادي جديز. وقد فرض سلطته هناك برًّا وبحرًا على التجّار الإيطاليّين الذين أمّنت تجارتهم غنى مملكته وازدهارها، كما أقام علاقات مفيدة مع بيزنطية وجيرانه الأقربين، بني منتشا والآيدينيّين. ثم إنّ ما بذله خلفاؤه من نشاط سياسيّ وديني وثقافي، فضلًا عن جهودهم في نشر الإسلام، أدّى الى انتشار الطريقة المولوية، وإلى ازدهار الفنّ المعماري الذي تجلّى في مدينة مانيسا.

وقد غُلب الصاروخانيّون على أمرهم للمرّة الأولى من قبل السلطان العثماني بايزيد الأوّل الذي نجح في السيطرة على بلادهم سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م، قبل أن يهزمه تيمورلنك في موقعة أنقرة سنة ٨٠٤هـ/١٤٠٢م. ثمّ تأكّد الاحتلال العثماني في سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٠م، مع السلطان محمّد الأوّل، وأدّى إلى إلحاق المنطقة نهائيًّا بالسلطنة العثمانيّة حيث استمرّت تلعب دورًا مهمًّا.

صاروخان	٧١٣-٧٤٦هـ/ ١٣١٣-١٣٤٥م
فخر الدين الياس	٧٤٦-٧٧٦هـ/ ١٣٤٥-١٣٧٤م
مظفّر الدين إسحق	٧٧٦-٧٩٠هـ/ ١٣٧٤-١٣٨٨م
خضر شاه بك	٧٩٠-٧٩٣هـ و٨٠٥-٨١٣هـ/ ١٣٨٨-١٣٩١م، ١٤٠٢-١٤١٠م

◄ راجع المستند رقم ٢٢.

صالح، شخصيّة يرد ذكرها في القرآن الكريم، وهو أحد الأنبياء الذين أرسلوا إلى العرب قبل ظهور الاسلام.

كثيرة هي الآيات المكيّة التي تأتي على ذكر النبي صالح، كسورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، وسورة القصص. وهي تعتبره نبيًّا منذرًا بعقاب اللّه، ممهّدًا لظهور النبيّ محمد (ﷺ). وقد توجّه بكلامه إلى قبيلة ثمود العربيّة القديمة التي نبذته، فدعا شعبه إلى عبادة إله واحد، ولم يلق من ثمود أذنًا صاغية. وشهادة على صدق كلامه، وهبه اللّه ناقة، كان رجاء النبي صالح أن تُترك حرّة في المراعي، لكنّ الثموديّين عمدوا إلى قتلها غير آبهين بإنذار صالح. عندئذ هبّت عاصفة هوجاء تبعها زلزال عظيم. وفي اليوم التالي وُجد الثموديّون أمواتًا.

ويحدّد معظم مفسّري القرآن الكريم موقع هذه الحادثة داخل الجزيرة العربيّة، في وادي القرى حيث نجد، حتى اليوم، تحت اسم مدائن صالح، مجموعة من الخرائب الحجريّة القديمة، بالقرب من البلدة الحاليّة. وقد كُرّمت شخصيّة صالح في غير مكان، مع انتشار عادة تكريم الأولياء في المجتمع الاسلامي، فأقيمت له مزارات غدت محجّة الأتقياء ومقصد زياراتهم، وإليها يشير الهروي في دليله الذي وضعه في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. فمنها ما كان في مكّة المكرّمة، ومنها ما كان في اليمن حيث يُعتقد أن قبر النبي صالح هو في شبوة. إلّا أنّ عددًا كثيرًا من المزارات التي أقيمت تكريمًا للنبي صالح انتشر في أرض أخرى دمغتها [حضارات] قديمة هي: سوريا حيث له مزاره بقنسرين شماليها، وكذلك في بعلبك بمنطقة البقاع من لبنان، وفي عكا على الساحل القديم من فينيقيا.

الصبر، كلمة عربيّة تعني المثابرة والثبات، وتشير إلى فضيلة لطالما حازت ثناء الإسلام في مرحلته الأولى.

هذه الكلمة الواردة في آية قرآنية معبّرة، هي الآية ١٥٣ من سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ذُكرت كذلك في مناسبات عدة أخرى، ما يتيح لنا النفاذ إلى عمق معناها. إنّ الثبات المبني على التحمّل، المشوب أحيانًا بمعنى التسليم، كان من منظومة الفضائل الأساسيّة المطلوب من المسلمين أن يتحلّوا بها، فكانوا يطبّقونها، على سبيل المثال، خلال حروب الجهاد. كما وردت مرارًا في أدب الحديث أو في التفسير القرآني، متّخذة أحيانًا معنى «الصبر وامتلاك النفس»، وهذا ما يجعلنا نفكّر بصفة «صبور» الواردة بين أسماء اللّه الحسنى. كما أنّ الصبر

هو إحدى الفضائل الأساسيّة المعتمدة لدى الصوفيّة حيث ارتدت معاني صوفيّة مختلفة الدلالة، كقولهم «الصبر في تحمّل ضربات القدر»؛ يضاف إلى ذلك أنّ الصبر عندهم هو شكل من أشكال الزهد ذو طابع أخلاقي - تقشّفي. وبعض المؤلّفين أمثال الغزالي الذي كرّس للصبر فصلًا من كتابه «إحياء علوم الدين»، ربطوا بشكل وثيق ما بين الصبر وشكران نعمة الله، معتبرين أنّ الصبر والشكر يشكّل كل منهما نصف الإيمان.

صبرا - المنصورية، محلّة قروسطيّة خَرِبةٌ، أسّسها الخليفة الفاطمي المنصور عام ٣٣٦هـ/٩٤٨م قرب القيروان في إفريقية حيث تونس الحاليّة، لتكون مقرًّا سلطانيًّا له.

كان الموقع المختار مخيّمًا عسكريًّا انطلق منه الخليفة الفتى لمحاربة فِرَق الخارجيّ المتمرّد أبي يزيد. وبعد انتصاره عليه وإخماد ثورته بصورة حاسمة، قرّر إقامة قصر ومدينة ملكيّة تخليدًا لهذه الذكرى. ولم يبق من الأبنية المشيّدة سوى آثار غير واضحة المعالم حيث تمّ الشروع بحفريّات جديدة.

وصف الجغرافيّون العرب في القرون الوسطى هذا البناء على أنّه مدينة دائريّة شبيهة، من دون ريب، ببغداد الأولى. وقد يسّرت الحفريّات التعرُّف إلى بقايا أحواض وقاعات استقبال.

الصَّحابة، إسم عام يلقّب به كل مسلمي الرعيل الأوّل الذين اعتنقوا الإسلام خلال حياة النبيّ محمّد (ﷺ) وعاشوا معه واعتُبروا في ما بعد مرجعيّةً في موضوع الحديث النبويّ.

يشمل الصحابة الذين كانوا جميعهم تقريبًا من أصل عربي - وبعضهم أيضًا كانوا من الرقيق المعتقين - أهالي مكّة الذين تبعوا النبي في هجرته وعُرفوا بـ«المهاجرين»، وأهالي المدينة الذين استقبلوه عند وصوله إلى يثرب وعُرفوا بـ«الأنصار». والخلفاء الراشدون الأربعة الأول كانوا من الصحابة، وقد دخلوا بعد موت النبيّ محمّد (ﷺ) في منازعات ذات طابع سياسيّ وكذلك دينيّ.

والصراعات على السلطة التي نشأت في ما بينهم، ثمّ في ما بين أعقابهم المباشرين، أي التابعين، لم تَنَل مطلقًا من الإجلال الذي تمتّع به هؤلاء جميعًا في ما بعد، بصفتهم أعضاء في الجماعة الإسلاميّة الأكثر قِدَمًا، وعناصر لا غنى عنها في المرحلة الأولى لتأسيس الأمبراطورية الإسلاميّة - العربيّة وتركيز شرعها. فعلى عاتقهم كانت تقع مهمّة المحافظة على العناصر الأساسيّة للسنّة النبويّة ونقلها، ما أفرد لهم مكانة خاصة في سلسلة الإسناد الضرورية لإثبات أصالة التقاليد النبويّة. إلى ذلك تعود المكانة التي احتلّوها في نظر رواة الحديث وسائر علماء الدين، وهذا ما يفسّر اهتمام المؤلّفات والمعاجم المختلفة القديمة - كمعجم ابن سعد في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد - في إثبات أسمائهم وتراجمهم. وما يشهد حتى الآن على الاحترام الذي يتمتّعون به، تلك الشهرة التي تحيط بمواقع أضرحتهم التي غدت مقصد زيارات تقويّة بدأت مع انطلاقة تكريم الأولياء في القرون الوسطى.

وبحسب تقليد قديم، فإنّ عشرة من هؤلاء الصحابة، يسمّون «العشرة المختارين»، كانوا مبشّرين بالجنّة، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبدالرحمن [ابن عوف] وسعد بن أبي وَقّاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة. لكنّ التراتب في ما بينهم بشكل عام، كان يتغيّر عبر العصور بحسب المدارس الفكريّة القائمة داخل الاسلام. فالسنّة الذين كرّموا دائمًا ذكراهم يضعون في الطليعة الخلفاء الراشدين الأربعة، بينما قال الشيعة بصورة عامّة، وكل أنصار الفرق التي ترتبط بعقيدتهم بشكل أو بآخر، بأحقيّة علي بن ابي طالب، رابع الخلفاء الراشدين، ورأوا أنّ الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين، مغتصبون للسلطة بكل ما لهذه الكلمة من معنى؛ كما مالوا أيضًا، بشكل خاص، إلى توقير بعض الصحابة من بطانة علي، كمالك بن الأشتر.

صُحار (سلطنة عُمان)، مدينة مرفئيّة على خليج عُمان، جنوب شبه الجزيرة العربيّة، كان لها في القرون الوسطى أهميّة تاريخيّة واقتصاديّة تشهد عليها بعض المعالم الأثريّة.

كانت صُحار مركزًا ناشطًا وسط شريط ساحليّ يفصله الربع الخالي عن سائر أقسام شبه الجزيرة. وكان

أمراؤها قد اعتنقوا الإسلام منذ السنة التاسعة للهجرة/ ٦٣٠م، لكنّها عرفت بعض الاضطرابات بعد وفاة النبيّ محمّد (ﷺ)، خلال الردّة الكبرى، فاحتُلّت المدينة من جديد سنة ١١هـ/ ٦٣٢م. وقد تمتّعت بعد ذلك باستقلال نسبي داخل العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى.

وبعدما كانت قد أُلحقت بالعراق في زمن الخلافة الأمويّة، عادت واستقلّت عنه سنة ١٣٣هـ/ ٧٥١م، في العهد العبّاسي. وكانت في القرنين الثاني والثالث للهجرة/ الثامن والتاسع للميلاد مدينة مزدهرة، على صلة دائمة باليمن من جهة، وبالشرق الأقصى من جهة ثانية. وقد استفادت من النشاط التجاريّ الموجّه نحو الخليج العربي - الفارسي بفضل ازدهار سيراف. لكنّها تأثّرت بالاضطرابات التي سبّبتها ثورة الزّنج في أواخر القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، وتلك التي سبّبها القرامطة في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. ثمّ أصبحت هدفًا لهجماتٍ متكرّرة يرتبط بعضها بالتطوّر الإقتصادي، إلى أن دُمّرت في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد وانتقل دورها إلى مدينة عدن كمستودع للسلع التجاريّة الآتية من المحيط الهندي التي أخذت تتّجه نحو البحر الأحمر بدلًا من الخليج العربيّ - الفارسيّ.

هذا الانحطاط الأوّل لمدينة صُحار تمّ تعويضه محليًّا بنموّ مرفإ قلحات الذي قام إلى الجهة الجنوبيّة، وحلّ محلّها كمحطة رسوّ وموقع محصّن على الساحل العُماني. وقد احتفظ مرفأ قلحات بمركزه الأوّل حتى منتصف القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، وانتقل هذا المركز بعد ذلك إلى مرفإ مسقط الجديد. ثمّ تبدّل الوضع مع قدوم البرتغاليّين الذين استولوا على هذه المواقع، فدمّروا مرفأ قلحات كليًّا واستولوا على صُحار حيث استمرّ وجودهم حتى سنة ١٦٥٠. وبعد تحرّرها من النير البرتغالي عرفت صحار نهضة جديدة، إنطلاقًا من القرن الثامن عشر، عندما برزت منطقة عُمان قوّةً مستقلّة لها مستعمراتها الخاصّة في أفريقيا السوداء. لكنّها كمركز تجاري ومرفإ بحري تراجعت أمام مسقط التي تحوّلت إلى عاصمة وجُعلت مركز إقامة السلالة الحاكمة المعروفة باسم «سلاطين مسقط». أمّا اليوم فما تزال للمدينة أهميّتها المحليّة، والفائدة الأثريّة التي تثيرها والتي سوّغت ترميم قلعتها لم تَحُل دون بقائها في المرتبة الثانية في التطوّر الإقتصادي للبلاد.

◄ راجع المستند رقم ١٢.

الصحافة الإسلامية، مفهوم يصعب تحديده في العالم الإسلامي الحالي حيث تتوافر صحف عدّة صادرة بلغات مختلفة وفقًا للمناطق، لا يظهر دائمًا طابعها الديني أو الطائفي، على الرغم من أنّ بعضها يجاهر بتمسّكه بهذا الطابع، لكنّها تعكس باستمرار الوضع الإجتماعي والسياسي للبلد الذي يتماز بحضور قويّ للإسلام فيه.

ظهرت الصحف اليوميّة الأولى في الشرق الأدنى إثر إدخال التقنيّات الأوروبيّة واعتمادها في جوّ من الصراعات الداخليّة المتعدّدة، الناتجة عن التحوّلات الكبيرة التي شهدها العالم الإسلامي. وقد صدرت أولى الصحف باللغة الفرنسية في الأمبراطورية العثمانيّة وفي مصر، منذ نهاية القرن الثامن عشر. وسرعان ما نشأت صحافة باللغات المحليّة، العربية، التركية أو الفارسية، دخلت في خدمة الدولة لنشر أخبار الحكومات، ثمّ أخبار أجهزة الإعلام الخاضعة لبعض التيارات ذات الميول السياسية أو الدينيّة.

في العام ١٨٢٨، صدر في القاهرة العدد الأوّل من الدوريّة المسماة «الوقائع المصرية» التي تحوّلت نشرةً يوميةً في عهد الخديوي إسماعيل، وشارك فيها محمّد عبده. وفي نهاية القرن أسّس سوريّون ولبنانيّون صحفًا أخرى وتولّوا إدارتها قبل أن تنتقل، بعد بضع سنوات، إلى أيدي المصريّين. «الأهرام»، إحدى هذه الصحف، أُسّست في الإسكندريّة سنة ١٨٧٦، وما تزال حتّى اليوم الصحيفة الأولى في البلاد. أُسّست في الحقبة نفسها صحف أخرى، بعضها مؤيّد للسلطان العثماني وبعضها الآخر يدعم الحركة الإصلاحيّة. في ما بعد أصبح للقوميّة العربيّة أيضًا أجهزتها الإعلاميّة الخاصّة، وكذلك سائر الأحزاب التي أُسست في مصر. ولم تفقد هذه الأحزاب تلك الحرية إلّا بعد حصول مصر على استقلالها بمدّة طويلة، عندما غُلّق صدور الصحف السياسيّة في العام ١٩٥٢، وأعيد تنظيم الصحافة سنة ١٩٦٠. وحدها بعض الصحف استمرّت في الظهور مثل

«الأهرام»، لكن تحت مراقبة الحكومة.

في المقاطعات التركيّة من الأمبراطوريّة العثمانيّة صدرت أيضًا أوّل صحيفة تركيّة سنة ١٨٣٢ لنقل الأخبار الحكوميّة، واستمرّت في الصدور حتى ١٩٢٢، تاريخ تغيير اسمها. في العام ١٨٤٠ صدرت صحيفة أسبوعيّة تركيّة غير رسميّة، في حين أُسّست في اسطنبول صحيفة عربيّة يديرها أحد اللبنانيّين، وقد عرفت انتشارًا واسعًا في نهاية القرن التاسع عشر، إذ كانت تحظى بدعم النظام الحاكم. كانت الصحافة ناشطة في الأمبراطوريّة العثمانيّة منذ ذلك الوقت. لكنّها أُخضعت لمراقبة قاسية في عهد عبد الحميد، على الرغم من دستور ١٨٧٦ الذي كان يضمن لها الحريّة. بعد تقلّبات عديدة، ألغى أتاتورك الرقابة سنة ١٩٢٣، غير أنّ المطبوعات الصادرة بالتركية واجهت صعوبات في العام ١٩٢٨، عندما فُرضت الأبجدية اللاتينيّة، فأصبحت عندئذ أدوات للأحزاب السياسيّة الموجودة في الجمهوريّة التركيّة الجديدة.

وكما ازدهرت الصحافة في قلب الأمبراطوريّة، ازدهرت أيضًا في الولايات العثمانيّة في الشرق الأوسط العربي، ولا سيّما في لبنان حيث كان العدد الأوفر من الصحف. وعلى مثال ما كان يحصل في الشرق، نشأت شيئًا فشيئًا في المغرب صحافة عربيّة اختلف تطوّرها باختلاف المناطق. فالدوريّات العربيّة التي كانت أدوات للحركات القوميّة أو السياسيّة الدينيّة تضاعفت، بخاصة بعد حصول مختلف الدول القوميّة على الإستقلال.

حدث تطوّر مماثل في إيران حيث صدرت، في العام ١٨٤٨، الصحف الفارسيّة الأولى التي كانت، في البدء، أدبيّة، ثمّ أصبحت سياسيّة اعتبارًا من إعلان دستور ١٩٠٦. كذلك في شبه القارة الهنديّة حيث صدرت، اعتبارًا من نهاية القرن التاسع عشر، صحف ومجلات بالأُردو عن مختلف التيّارات المتصارعة ذات الميول الإصلاحيّة التحديثيّة أو التقليديّة أدّت، في نهاية الأمر، إلى قيام دولة باكستان سنة ١٩٤٧، ودولة بنغلادش سنة ١٩٧١، وأحدثت، في المقابل، نهضة صحافيّة محليّة غنيّة تلبيةً لحاجات السكّان المتزايدة.

صدر، تعبير عربي بمعنى صدر الانسان، وهو يعني، توسّعًا في الدلالة، مكان الشرف في استقبال ما. استُعمل لقبًا يُطلق على «رجل رفيع المستوى» وبخاصة في الوسط التركي - الايراني.

في مناطق هذا الوسط، بدءًا بالقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، استعمل الصوفيّون هذا التعبير صفةً لشيخ طريقة ما، كما أنّه ورد في ألقاب أصحاب المناصب المهمّة في بلاط سلطانيّ. ولاحقًا، وبدءًا من القرن السادس عشر أيضًا، خُلع على الوزير الأكبر لدى العثمانيين لقب الصدر الأعظم، وهو لقب دالّ على وظيفته. ولم يغب هذا اللقب إلّا عام ١٩٢٢، وقد أُلغيت، في الوقت نفسه، مهمّات السلطان وشيخ الاسلام.

الصدر، تعبير عربي بمعنى صدر الانسان، وهو يعني، توسّعًا في الدلالة، مكان الشرف في استقبال ما. استُعمل لقبًا يُطلق على «رجل رفيع المستوى» وخاصة في الوسط التركي - الايراني.

في مناطق هذا الوسط، بدءًا بالقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، استعمل الصوفيّون هذا التعبير صفةً لشيخ طريقة ما، كما أنّه ورد في ألقاب أصحاب المناصب المهمّة في بلاط سلطانيّ. ولاحقًا، وبدءًا من القرن السادس عشر أيضًا، خُلع على الوزير الأكبر لدى العثمانيّين لقب الصدر الأعظم وهو لقب دالّ على وظيفته. ولم يُلغَ هذا اللقب إلّا عام ١٩٢٢، وقد أُلغيت، في الوقت نفسه، مهمّات السلطان وشيخ الاسلام.

صدرا (الملّا)، أو صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي، ١٥٧١-١٦٤٠م: عالم كلام وفيلسوف شيعي فارسي من عهد الصفويّين. كان أبرز ممثّل لما عُرف بمدرسة أصفهان.

ولد في شيراز وتتلمذ على علماء كثيرين، أبرزهم ميرداماد الشهير، وذلك خلال رحلاته في إيران. عُيّن الملّا صدرا أستاذًا في مدرسة شيراز التي أسّسها الحاكم الله وردي خان. مارس فيها تعليمًا مبتكرًا في التصوّف، وانتشرت أفكاره حتّى الهند المغوليّة. وقد أخذ في المؤلّفات العديدة التي خلّفها - على غرار ميرداماد -

بعناصر قبسها عن ابن سينا والسُّهروردي، وابن العربي. يعود إليه الفضل، بصورة خاصة، في بلورة مذهب «الرحلات الأربع» للروح، حيث الرحلة الأولى تقود الروح إلى عالم الكائن في حدّ ذاته، والثانية تبلغ بها مسائل الجوهر، والثالثة عبارة عن نزول إلى عالم الكائنات المخلوقة، والرابعة تضع الروح التي تحرّرت من كل العلائق المادية أمام مسألة العودة إلى الله. جهد في فكره، بوجه عام، في التوفيق ما بين الواقع الروحي ومعطيات الوحي، مع الالتزام بتعاليم الإمامية الاثني عشرية.

الصدقة، ممارسة أدّت دورًا كبيرًا، بأوجه متنوّعة، في الحياة اليومية ضمن المجتمع الإسلامي، منذ بدايته وحتّى اليوم، وذلك تمشّيًا مع عادات وتقاليد نظّمها الشرع الإسلامي بصورة تقريبية.

وإلى الصدقة الشرعيّة أو الزكاة، تضاف صدقة لا تخضع لقاعدة محدّدة بل ترتبط بالمبادرة الفرديّة، ولكنّ الإسلام يوصي بها. وعلى هذه الصدقات كان يعيش في القرون الوسطى العديد من أفراد الجماعة الإسلاميّة، وبخاصة الفقراء من كل نوع، سواء المرتبطين منهم بالصوفيّة، أو غير المرتبطين بها. وكان هؤلاء الفقراء يمارسون التسوّل؛ وكانت المؤسّسات التي تموّلها الأوقاف تتكفّل مثلًا بتوزيع حصص غذائية عليهم وتقدّم لهم الهدايا لمناسبة بعض الأعياد. ومن الصدقات التي لها طابع الإحسان كانت تلك المفروضة في نهاية صوم رمضان، ولم تكن قيمتها محدّدة بل تُركت لتقدير صاحب العلاقة.

الصَّدوق (الشيخ)، **محمّد بن بابَوَيْه القمّي**، ٣٠٦-٣٨١هـ/٩١٨-٩٩١م. مفكّر شيعي، اشتهر منظرًا للعقيدة الإمامية الاثني عشرية.

لا نعرف الكثير عن حياته. لكنّ الشيخ الصّدوق كان شهيرًا في بغداد حيث درّس في عهد البويهيّين وشارك في مناظرات باسم الأمير ركن الدولة. وضع عددًا وفيرًا من المصنّفات، يشكّل أحدها ركنًا من أركان علم الكلام عند الشيعة، وآخر في وحدانيّة الله، وثالث هو مجموعة من الروايات المتعلّقة بالإمام علي الرضا. كان أستاذ الشيخ المفيد؛ وكان مع الكُلَيْني والطوسي أحد علماء الشيعة القدامى الأساسيّين، وأحد الذين ندين لهم بـ «الكتب الأربعة» الأساسيّة في علم الحديث عند الشيعة.

الصرّاف، الصرّافون، إلى جانب فئة خاصّة من رجال المصارف يعرفون بالجهابذة، كان الصرّافون يمثّلون مهنة لها موقع مهمّ في الحضارة الإسلاميّة في القرون الوسطى، تشهد عليه، حتّى يومنا هذا، الدراسة اللغويّة والتاريخيّة لأصل أسماء الأسواق في المدن العربيّة.

وكان الصرّافون أشخاصًا لا يستغنى عنهم في الحياة الإقتصاديّة للعالم الإسلامي الذي نشأ في القرن السابع الميلادي، نتيجةً الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى. وكان هذا الوضع مرتبطًا باتّساع البلدان التي أُلحقت بهذا المجمّع الاجتماعي - السياسي وتنوّعه؛ كما كان مرتبطًا، بنوع خاص، بطبيعة النظام النقدي المتّبع مذّاك، وهو نظام معدني مزدوج يتداول عملة ذهبيّة هي «الدينار» وعملة فضيّة هي «الدرهم»، لم يكن لهما القيمة النقديّة نفسها. وكانت العملتان تستعملان معًا وفقًا للظروف التاريخيّة والجغرافيّة. وكانت المبادلات تتمّ بهذه العملة أو تلك بحسب المنطقة ونظرًا الى أهميّة عمليّة المبادلة، ممّا حتّم وجود صرّاف في كل ناحية له معرفة بالنسب المتحرّكة لقيمة هاتين العملتين. يضاف إلى ذلك أنّه في العمليّات المهمّة، لم يكن يتمّ تقدير القطع بحسب قيمتها الإئتمانيّة بل بحسب وزنها، ممّا كان يتطلّب زنتها وليس عدّها. أخيرًا كان في إمكان الصرّافين القيام بأعمال تعود إلى رجال المصارف، كالإقراض بالفائدة الذي يحرّمه الإسلام، وهذا يُفسِّر سبب امتهان اليهود والنصارى دون سواهم أعمال الصَّرف.

صربيا، منطقة تقع شمالي البلقان، استطاع أبناؤها، بفضل وطنيّتهم المميَّزة، أن يقيموا لأنفسهم، باكرًا في القرون الوسطى، دولة سلافيّة مستقلّة وأن يقاوموا بقوّة نتائج ضمّ دولتهم الموقّت إلى الأمبراطوريّة العثمانيّة، منذ منتصف القرن الخامس عشر.

فتحت هزيمة الصربيّين أمام الجيوش التركيّة، في معركة كوسوفو سنة ١٣٨٩م، الطريق أمام المسلمين لاحتلال تدريجي لأراضي مقدونيا وألبانيا والبوسنة

والجبل الأسود. وأدّى سقوط بلغراد وقلعتها، سنة ١٥٢١م، إلى انتصارات عسكريّة متتالية حقّقها السلطان سليمان القانوني، على طول نهر الدانوب باتّجاه الشمال. كما فتح الانتصار العثماني على الهنغاريّين في موهاكس سنة ١٥٢٦م الباب أمام العثمانيّين لكي يضمّوا مساحات شاسعة من الأراضي إلى دولتهم. إنّ التنظيم العسكري والضريبي الذي فُرض على تلك المقاطعات لم يقف حائلًا دون يقظة عاطفة شعبيّة أدّت إلى قيام ثورات متلاحقة، وإلى الإفادة، منذ أواخر القرن السابع عشر، من تراجع الجيوش العثمانيّة تدريجيًّا أمام قوّات الأمبراطوريّة النمساويّة.

نتيجة ظروف متنوّعة وتاريخ سياسيّ مضطرب، استطاعت صربيا الشماليّة وصربيا الجنوبيّة اللتان تحرّرتا تدريجيًّا من النير التركي خلال القرن التاسع عشر، الحصول، في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، على الاعتراف بهما دولة مستقلّة. وهذه الدولة الجديدة التي شاركت في حرب البلقان خلال سنتي ١٩١٢ و١٩١٣، أُلحقت بعد ذلك بمملكة يوغوسلافيا التي أصبحت دولة فدراليّة في نهاية الحرب العالميّة الثانية. وخلافًا لما حدث في ثلاث على الأقلّ من جمهوريّات يوغوسلافيا الأخرى، وهي البوسنة-الهرسك ومقدونيا والجبل الأسود، فإن الإسلام، الممثّل في صربيا بنسبة ضئيلة من السكّان غير فاعلة، لم يكن له أيّ دور عمليّ. ويُستثنى من ذلك دوره في مقاطعة كوسوفو التي كانت تتمتّع باستقلال داخليّ والتي كان معظم سكّانها من أصل ألبانيّ، وأيضًا دوره، ولكن بصورة موقّتة، في مدينة بلغراد التي انفتحت أمام المهاجرين القادمين من المناطق الأخرى.

◄ راجع المستندات ٢٠، ٢٦ و٢٧.

صعدة، (الجمهوريّة العربيّة اليمنية)، محلّة في جنوب شبه الجزيرة العربيّة، على الطريق من صنعاء الى مكّة، حافظت إلى عصرنا الحاضر على دورها كمركز قضاء، وبخاصة كمركز ناشط للزيديّة.

ازدهرت في القرون الوسطى بفضل موارد منطقتها الطبيعيّة وموقعها على مسار تسلكه القوافل، وبذلك احتضنت جهود الدعوة المذهبيّة الزيديّة. وهكذا أتاح الزيديّون لسلالة أئمّة من الشيعة معروفين باسم «الراسيّون» أو «ابنو الراسي»، وبوجه عام باسم زيديّي اليمن، أن يتسلّموا السلطة في البلاد. ولم تنفكّ صعدة توفّر لهم ملجأ آمنًا طوال تاريخهم، وبخاصة عندما أُجبروا على ترك عاصمتهم الأخرى صنعاء. فاختار كثيرون منهم صعدة مقرّ إقامة مفضّلًا أو مكانًا يُتوّجون فيه. فدُفن فيها إثنان من ملوكهم، يحيى الهادي إلى الحقّ المتوفى عام ١٩١١ وابنه يوسف المنصور.

◄ راجع المسند رقم ٢٥.

صعيد مصر، كيان جغرافي كان يوافق في العصور الوسطى المنطقة الممتدّة من الفسطاط/القاهرة إلى شلالات أسوان، وكان يضمّ حصرًا المنطقة الزراعيّة المتاخمة للنيل، ولا يشمل الفيّوم ولا واحات الصحراء الليبيّة.

إن هذه الأرض المستطيلة والضيّقة، الى حدّ أنّ عرضها في بعض المواقع لا يتجاوز بعض الكيلومترات، كانت مقسّمة بحسب علماء الجغرافيا العرب منطقتين أو ثلاث تتطابق تقريبًا مع المناطق الإداريّة المعتمدة في العهد البيزنطي. في عهد الفاطميّين قسّمت تسعة أو عشرة أقاليم دامت حتّى العصر الحديث، رغم التغيّرات التي طرأت على مراكزها بسبب تغيّر وضع المدن، ما أدّى إلى حلول المنيا محلّ بهنسا، وأسيوط مكان الأشمونَيْن، وجرجا مكان أخميم وقِنا محل قوص. حافظت منطقة صعيد مصر، في العصر الإسلامي، على عدد كثير من سكّانها الأصليّين، إلّا أنّها شهدت على أرضها نزول بعض القبائل العربيّة، شأن الهلاليّين أو بني هلال، الذين هاجروا إلى إفريقية في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. إنّ معظم الثورات التي تكرّرت عبر العصور في وجه السلطة المركزية قامت بها هذه القبائل المتمرّدة العاصية، يضاف إليها من حين إلى آخر طموح بعض الحكّام. إلّا أنّ هذه الأعمال ذات الطابع المحلّي لم تؤدّ إلى نتائج سياسيّة مهمّة في مجرى تاريخ مصر التي كانت محكومة بصلابة، منذ الاحتلال العربي - الإسلامي في القرن السابع للميلاد، إنطلاقًا من مركز عاصمتها الوحيدة ومدينتها الكبرى التي كانت تتحكّم بأراضي الصعيد وأراضي الدلتا على حدّ سواء.

ارتكزت أهميّة الصعيد المصري طيلة القرون

الوسطى على الناحية الإقتصاديّة. قام ازدهاره على الثروة الزراعيّة لأراضي وادي النيل، كما على الأنشطة الحرفيّة وأهمّها النسيج القطني. ولم تكن العلاقات مع النوبة ذات شأن تجاري مهمّ، إلّا أنّ طريقًا للقوافل بين المتوسط والبحر الأحمر تُستخدم للأنشطة التجاريّة وللحجّ، كانت تحت سيطرة البدو البجّة المقيمين في الصحراء المصريّة النوبيّة، وتوسعت أهميّتها بصورة خاصة منذ العصر الأيوبي. من مدينة قوص التي عرفت ازدهارًا كبيرًا ايام المماليك، كان في الإمكان الاتّجاه الى مرفأ عيذاب، ومنه الإبحار إلى الحجاز أو اليمن.

◄ راجع المستند رقم ٢٥.

الصُغد، منطقة في آسيا الوسطى في بلاد ما وراء النهر، كانت تضمّ في العصور الإسلاميّة منطقة ذات حدود غير واضحة، تحيط بمدينتي بخارى وسمرقند.

والإسم نفسه مأخوذ من إسم شعب قديم من أصل إيراني، عاش بين النهرين المعروفين باسم أوكسُس (آمودَرْيا) وإياكسارت (سيردريا). وكان هذا الشعب يتكلّم لغة أُهملت في ما بعد - كما جرى بالنسبة الى لغة سكّان خوارزم - لتحلّ مكانها اللغة الفارسيّة الأدبيّة. وكانت منطقة الصُغْد المكوَّنة من واحات يرويها نهر زرَافْشان، قد خضعت للإسلام مع الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل للهجرة/ أواخر القرن السابع للميلاد. ثمّ عرفت المنطقة ازدهارًا مميّزًا على الصعيدين الاقتصادي والثقافي تحت حكم السامانيّين. فإلى محاصيلها الزراعية أضيفت موارد النشاط التجاري، بفعل وجود طريق القوافل الكبرى، التي كانت تصل خراسان والشرق الأدنى بالصين، وهي التي عُرفت باسم «طريق الحرير».

وكان القدوم التدريجي للأتراك ولقبائل بدويّة أخرى من السهوب الأسيويّة الداخليّة - وهي قبائل كانت على استعداد دائم لغزو أهل الحضر - سببًا لاضطرابات كثيرة لاحقة، أدّت في بادئ الأمر إلى اضمحلال سلطة السامانيّين وإلى قيام دولة القراخانيّين الغربيّين الذين دام حكمهم حتى القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، ولكنّهم، خلال تلك الفترة، اضطروا إلى الخضوع للسلاجقة الكبار ولسلالة القره ختاي. وجاء الخراب بعد ذلك مع الغزو المغولي، وتلاه تجديد المنطقة وإعمارها في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد في ظلّ تيمورلنك وخلفائه التيموريّين. وفي النهاية، جاءت سيطرة الأوزبك الشيبانيّين لتفسح في المجال أمام حكم السلاطين حاملي لقب «خان» الذين سيطروا على المنطقة حتّى الاحتلال الروسي في القرن التاسع عشر. وهذا ما يفسّر اليوم ضمّ المنطقة إلى جمهوريّة أوزبكستان السوفياتيّة السابقة.

◄ راجع المستند رقم ٨.

الصفات الإلهيّة، هي صفات يطلقها الفكر الإسلامي الديني، منذ بداياته، على الله، معتمدًا في ذلك على الأسماء الحسنى الواردة في القرآن الكريم.

وطبيعة العلاقة التي تجمع بين هذه الصفات والجوهر الإلهي شكّلت واحدة من المسائل الكبرى، التي ما تزال تُطرح حتّى اليوم في مدارس علم الكلام. وكانت في الواقع مرتبطة بالمفهوم الذي يتوجّب على كلّ مؤمنٍ أن يكوّنه عن وحدانيّة الخالق، وبما يفرضه ذلك عليه، مع الحرص على المفهوم الأساسي للتوحيد.

وقد أجمعت الآراء في الإسلام، في وقت مبكّر، على أنّ الله تعالى، كما ورد في القرآن الكريم، على سبيل المثال، هو «قدير» و«عالم» و«رحيم». وهذا يعني أنّه يملك «القدرة الكلّية» و«العلم» و«الرحمة»، وهي أفكار تجريديّة تُعتبر حقائق جوهريّة منفصلة عن الله، لكنّها مثله خالدة. هذا المفهوم - الذي لم يكن قد شكّل موضوع تبصُّرٍ جدّي عند رجال الدين في بدايات الإسلام - يمكن أن يُعتبر في الواقع مسامًا بوحدانيّة الله. ولم يطل الأمر بعد ذلك حتّى بدأ التساؤل، داخل الأوساط الفكريّة في العصر الأموي، مذ بدأت المعتزلة تشقّ طريقها، عمّا إذا كانت وحدانيّة الله تبقى مصونة في ما لو تكلّمنا عن «علم» الله أو عن «كلام» الله واعتبرناهما جوهرَيْن أزليَّيْن منفصلين عنه. وقد يكون النقاش مع المسيحيّين الذين كانوا ما يزالون كثيري العدد في سوريا وفي بلاد ما بين النهرين، في القرنين الأوّل والثاني للهجرة/ السابع والثامن للميلاد، هو الذي حمل عددًا من المفكّرين، ومنهم المعتزلة، على إنكار

وجود هذه الصفات، وتاليًا على رفض القول إنّ القرآن الكريم هوَ غير مخلوق. والغاية من ذلك كان رفض ما جاء في القرآن الكريم عن عيسى (المسيح) من أنّه «كلمة الله»، بينما هو، في نظر المسلمين، نبيّ عاديّ، وعدم اعتباره، كما هو في نظر المسيحيّين، أزليًّا ومشاركًا في جوهر الألوهيّة.

وهكذا شكّلت مسألة الصفات الإلهيّة التي كانت أساسيّة في علم الكلام الإسلامي موضوع جدالات كثيرة، واحتلّت في أبحاث القدماء حجمًا يمكن اعتباره، من منظار معاصر، مضخّمًا. ومقابل رأي المعتزلة الذي بدا جذريًّا، بُذلت جهود من قِبَل بعض المفكّرين لوضع حلول وسطيّة عن طريق التمييز مثلًا ما بين صفات الأحوال وصفات الأعمال. بعد ذلك تلاشت الجدالات حول هذا الموضوع. ومع مطلع العصر الحالي، وعلى الأخصّ مع المصلح المصري محمّد عبده، لم تعد المسألة تحتلّ إلّا مركزًا ثانويًّا.

الصفّاريون، ٢٥٣-٣٠٠هـ/٨٦٧-٩١٣م، سلالة تأسّست في سجستان مع بداية تفكّك الخلافة العبّاسيّة، ثمّ بسطت سلطتها على قسم كبير من إيران، وانبثقت منها في ما بعد سلسلة طويلة من الأمراء المحلّيّين.

مؤسّسها يعقوب بن ليث الملقب بالصفّار أو «النحاس». كان حِرفيًّا سجستانيّ الأصل، نظّم جيشًا صغيرًا ذا طابع شعبيّ في تلك المنطقة البعيدة عن بغداد والعراق، حيث كان قد لجأ معارضون دينيّون أمثال الخوارج، وحيث كان كثيرون من الناقمين على استعداد لانتفاضة مسلّحة. نجح يعقوب أوّلًا في تنصيب نفسه سيّدًا على المنطقة سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م، ثمّ قام بحملات عدّة ضد طاهريّي خراسان، فاستولى على هراة وبلخ، ونيسابور عاصمتهم. لكنّه لم يستطع كسب اعتراف الخليفة به حاكمًا، فهاجم عندئذ حاكم فارس العبّاسي وانتصر عليه، قبل أن يضطرّ الى التراجع إلى خوزستان حيث توفي سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م.

خلفه أخوه عمرو، فعقد صلحًا مع الخليفة، وأصبح بذلك حاكمًا على المقاطعات الطاهرية السابقة، إلّا أنّه عُزل وأعيد إليه اعتباره مرّتين. ثمّ تمّ الاعتراف به مجدّدًا حاكمًا على خراسان وسجستان سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م. نازع السامانيّين على ملكهم في ما وراء النهر، ولكنّه هُزم على يد إسماعيل بن أحمد وأُرسل سجينًا الى بغداد حيث تمّ إعدامه كثائر على السلطة، سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م.

انتهى حكم الصفاريّين شبه المستقلّين بعد ذلك بسنوات، مع احتلال السامانيّين لمقاطعاتهم. ومع ذلك استمرّ بعض أعضاء العائلة في القيام بدور شبه رسمي في سجستان وبالدفاع عن مصالح اقليميّة، من خلال العمل لمصلحة السامانيّين ثمّ الغزنويّين والسلاجقة والغوريّين، حتّى إنّهم نجحوا في الاحتفاظ بمكانتهم بعد الغزو المغولي الذي قَبلوا به. في الواقع لم يغيبوا عن الساحة إلّا في نهاية القرن الخامس عشر، بعد أن تركوا، في مواقع هي اليوم صحراوية، آثار مقرّات فخمة غنيّة الزينة، بُنيت بالآجرّ غير المطبوخ، شبيهة في طرازها بقصور لشكري بازار، تستأهل التنقيب عنها بصورة منهجيّة.

يعقوب بن ليث الصفّار	٢٥٣-٢٦٥م/ ٨٦٧ - ٨٧٩م
عمرو بن ليث	٢٦٥-٢٨٨هـ/ ٨٧٩ - ٩٠١م
طاهر بن محمّد بن عمرو	٢٨٨-٢٩٥هـ/ ٩٠١ - ٩٠٨م
ليث بن علي	٢٩٥ ٢٩٨هـ/ ٩٠٨-٩١٠م
محمّد بن علي	٢٩٨-٢٩٩هـ/ ٩١٠-٩١١م
عمرو بن يعقوب بن محمّد بن عمر	٢٩٩-٣٠٠هـ/ ٩١٢- ٩١م

حكّام الصفّاريين وامرائهم في سجستان

أحمد بن محمّد بن خلف بن ليث بن علي	٣١٠-٣٥٢هـ/ ٩٢٢-٩٦٣م
وليّ الدولة خلف بن أحمد	٣٥٢-٣٩٣هـ/ ٩٦٣ - ١٠٠٣م

الاحتلال الغزنوي

طاهر بن خلف	٣٩٣ هـ/ ١٠٠٣م
نصر بن أحمد	٤٢٠ - ٤٦٥ هـ/ ١٠٢٩ - ١٠٧٣م
بهاء الدولة طاهر بن نصر	٤٦٥-٤٨٣هـ/ ١٠٧٣ - ١٠٩٠م
بهاء الدولة خلف بن نصر	٤٨٣-٤٩٦هـ/ ١٠٩٠ ١١٠٣م
تاج الدين نصر	٤٩٦-٥٩٥هـ/ ١١٠٣ - ١١٦٤م
شمس الدين أحمد	٥٩٥-٥٦٢هـ/ ١١٦٤ - ١١٦٧م
تاج الدين حرب	٥٦٢-٦١٢هـ/ ١١٦٧ - ١٢١٥م
شمس الدين بهرام شاه	٦١٢-٦١٨هـ/ ١٢١٥ - ١٢٢١م
تاج الدين نصر	٦١٨هـ/ ١٢٢١م
ركن الدين أبو منصور	٦١٨-٦١٩هـ/ ١٢٢١ - ١٢٢٢م

شهاب الدين محمود	٦١٩ ٦٢٢هـ/١٢٢٢ - ١٢٢٥م
علي	٦٢٢-٦٢٦هـ/١٢٢٥ - ١٢٢٩م
شمس الدين علي	٦٢٦-٦٥٢هـ/١٢٢٩ - ١٢٥٤م
نصر الدين	٦٥٢-٧٢٨هـ/١٢٥٤ - ١٣٢٨م
نصرة الدين	٧٢٨-٧٣١هـ/١٣٢٨ - ١٣٣١م
قطب الدين محمد	٧٣١ ٧٤٧هـ/١٣٣١ - ١٣٤٦م
تاج الدين الأوّل	٧٤٧-٧٥١هـ/١٣٤٦ - ١٣٥٠م
محمود	٧٥١-٧٦٣هـ/١٣٥٠ - ١٣٦٢م
عزّ الدين	٧٦٣-٧٨٣هـ/١٣٦٢ - ١٣٨٢م
قطب الدين الأوّل	٧٨٤-٧٨٨هـ/١٣٨٢ - ١٣٨٦م
تاج الدين الثاني	٧٨٨-٨٠٦هـ/١٣٨٦ - ١٤٠٣م
قطب الدين الثاني	٨٠٦-٨٢٢هـ/١٤٠٣ - ١٤١٩م
شمس الدين	٨٢٢-٨٤٢هـ/١٤١٩ - ١٤٣٨م
نظام الدين يحيى	٨٤٢-٨٨٥هـ/١٤٣٨ - ١٤٨٠م
شمس الدين محمد	٨٨٥-٩٠٠هـ/١٤٨٠ - ١٤٩٥م

◄ راجع المستند رقم ١٢.

صَفاقس (الجمهوريّة التونسيّة)، مدينة مرفئيّة تقع بين سُوس وقابس، وتحتفظ بمعالم معماريّة تشهد على الازدهار الذي عرفته إفريقية في عهد الأغالبة.

قامت صفاقس على أنقاض مدينة رومانيّة وحافظت في القرون الوسطى على التصميم الذي كان لها. وأفادت في ظلّ الخلافة العبّاسيّة، كما في ظلّ السلالات المستقلّة التي تعاقبت على الحكم فيها منذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، من ازدهار مناطقها الداخليّة، وهيَ من أكثر المناطق غنًى بأشجار الزيتون وبزراعات أخرى تمّ تطويرها من جديد في تونس المعاصرة.

وقد ساعدها نشاطها التجاري على أن تكون، في مطلع القرون الوسطى، مركزًا تجاريًّا محاطًا بسور منيع مع «قصبة» أي قلعة بُنيت في عهد الأغالبة. وإلى هذا العهد يعود بناء المسجد الجامع الذي شُيِّد في حدود سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م، وأُدخلت عليه تعديلات في غير مرّة، ولا سيّما أيّام الفاطميّين. ثمّ وقعت المدينة ضحيّة غزو الهلاليّين في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، كما شاركت المدينةُ المنطقةَ الساحليّة المعرّضة للغزوات البحريّة مصيرَها. وقد احتلّها النورمان مدّة قصيرة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، ثمّ دخلها الموحّدون سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م. ونتيجةً لذلك أفلت تجارتها، ولم تُفلح مبادرات قراصنتها - الذين كانوا يجوبون الحوض الغربي للمتوسط لحساب العثمانيّين والحسينيّين - في إيقاف هذا الأفول. ووجب تاليًا انتظار الحقبة المعاصرة لتستعيد صفاقس ألقها.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

صفَد، بلدة فروسطيّة خربة في فلسطين، شمال شرقي بحيرة طبريّة، لم تثبت أهميّتها إلّا ما بين القرنين السابع والعاشر للهجرة/الثالث عشر والسادس عشر للميلاد. وهي حصن أقامه الصليبيّون للدفاع عن مملكة القدس، وبخاصة عن منطقة عكّا، ضد أمراء سوريا الداخليّة المسلمين. حافظَت صفد على دورها الإستراتيجي بعدما حاصرها صلاح الدين واستولى عليها عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، بعد انتصاره في معركة حطّين. تنازل عنها أحد ملوك الأيوبيّين، الصالح إسماعيل الذي كان مقرّه في دمشق، إلى فرسان الهيكل سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، فاضطرّ السلطان المملوكي بيبرس إلى استرجاعها عنوة في العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م. بقيت صفد، في ما بعد، مركز قضاء في دولة المماليك السوريّة - المصريّة، وبدأ انحطاطها في عهد العثمانيّين الذين ضمّوا المنطقة، إبتداء من العام ١٥١٦، ونقلوا إلى دمشق المراقبة الإداريّة عليها برمّتها. ودمّرها زلزال في العام ١٧٥٩ بشكل كامل، وكانت قد أصبحت قرية عندما رأى بونابرت من الحكمة الاستيلاء عليها، لأسباب إستراتيجيّة، قبل حصاره الخاسر لعكّا في العام ١٧٩٩.

◄ راجع المستند رقم ١٨.

الصفويّون ٩٠٧-١١٣٥هـ/١٥٠١ - ١٧٣٢م، سلالة حكمت إيران وفرضت عقيدة الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة التي استمدّت منها البلاد عامل وحدتها وشعورها القومي.

مؤسّس السلالة الصفويّة هو إسماعيل بن حيدر، أو إسماعيل الأوّل الذي اتّخذ لنفسه لقب شاه في تبريز سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، بعد انتصاره على سلالة الآق قيونلو. هذا القائد المقدام يعود بنسبه إلى الشيخ صفيّ الدين إسحق الذي أسّس في أردبيل، في القرن السابع

للهجرة/الثالث عشر للميلاد، الطريقة الصوفيّة الصَّفَويّة، التي أعطت اسمها للسلالة والتي تحوّل رؤساؤها، السنّة أصلًا، إلى المذهب الشيعي خلال القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد. وبعدما ثبّت الصفويّون حكمهم في أذربيجان، بسطوا سلطتهم على كلّ إيران بواسطة قبائل تركمانيّة انضمّت إلى الفرقة الصفويّة، أُطلق على أفرادها بالتركيّة لقب «قيزلباش» "Kîzîlbaş"، أي أصحاب «القبّعات الحمر»، ذلك أنّهم كانوا يعتمرون قبعات حمراء، وكلّ قبعة كانت باثنتي عشرة شرّابة، ترمز إلى الأئمّة الإثني عشر. وأبناء هذه القبائل هم الذين سعوا للهيمنة على سياسة الملوك الصفويّين المتعاقبين، على الرغم من المحاولات المتكرّرة لإبعادهم. وفي الوقت عينه، دُعي عدد من الفقهاء الإماميّين من البلدان العربيّة المجاورة، من أجل نشر العقيدة الشيعيّة التي أصبحت العقيدة الرسميّة.

خاض إسماعيل الأوّل صراعات متواصلة على الحدود مع الأوزبك من جهة، والعثمانيّين من جهة أخرى، واستمرّت هذه الصراعات طيلة عهد ولده البكر «طهماسب». وكان هذا الأخير في العاشرة من عمره عندما خلف والده، فأعانه القادة العسكريّون، وكان عليه أن يواجه عداء السلاطين العثمانيّين الأقوياء الذين لم يكتفوا باحتلال العراق وأذربيجان بعد انتصارهم في چالداران سنة ١٥١٤م، بل تابعوا اندفاعهم نحو أصفهان. وفي سنة ١٥٥٤ عُقد صلح اماسيا بين العثمانيين والصفويّين. وفي هذا الوقت نُقلت عاصمة بلاد فارس من تبريز إلى قزوين، واستمرّت حملات الأوزبك المتعاقبة على خراسان.

وجاء عهد عبّاس الأوّل، وهو يُعرف في الغرب الأوروبي باسم شاه عبّاس، ليصل بالدولة الصفويّة إلى أوج ازدهارها، وذلك بين القرنين السادس عشر والسابع عشر. فقد تمّ تنظيم المملكة بعناية سيّدها الذي وسّع حدودها بانتصاراته العسكريّة. وغدت الدولة قوّة إقتصاديّة كبيرة، وتجسّد غناها في بريق العاصمة الجديدة أصفهان، وفي الأبنية الفخمة التي غيّرت معالم المدينة. إلّا أنّ الانحطاط بدأ يظهر مع خلفاء الشاه عبّاس الذين لم يتردّدوا في تصفية بعض أعضاء أسرتهم وعناصر من محيطهم، وأثقلوا كواهل الناس بالضرائب للحفاظ على الجيش.

مع بداية القرن الثامن عشر، ثارت قبائل أفغانيّة في الشرق، وفي الوقت عينه تحرّك الروس والعثمانيّون في الطرف الآخر من المملكة. في النهاية ظهر الفاتح نادر شاه الذي استطاع أن يردّ الغزاة وأن يعلن نفسه ملكًا سنة ١٧٣٦م، وأن يؤسّس لسلالة لم تحكم طويلًا هي سلالة «الأفشاريّين»، فيما استمرّ أمراء من الأسرة الصفويّة صامدين في مدن مختلفة من البلاد، كما نُصّب على العرش سنة ١٧٣٠ أحد الصفويّين الضعفاء، فشكّل واجهةً لسلطة مارسها في منطقة شيراز، طوال ثلاثين عامًا، الوكيل محمّد كريم خان، من السلالة الزنديّة.

مهما يكن من أمر، فإنّ العهد الصفويّ استطاع، خلال قرنين من الزمن، أن يرسم ملامح وجه إيران الحديث وأن يساعد على تثبيت هويّة باتت ترتبط بالانتصار المحلّي للشيعة الاثني عشرية. وخلال هذا العهد، عرفت إيران حضارة مميّزة على الصعيدين الفكري والفنّي. وعمل العصر الصفوي على تطوير العلاقات مع الغرب بعد ظهور البرتغاليّين في الخليج العربيّ - الفارسي في القرن السادس عشر، وبعد تأسيس وكالات لتجّار انكليز وهولنديّين في القرن السابع عشر في مناطق مختلفة، وكذلك إدخال إرساليّات فرنسيّة مسيحيّة الى البلاد في عهد الشاه عبّاس.

إسماعيل الأوّل	١٥٠١ - ١٥٢٤
طهماسب الأوّل	١٥٢٤ - ١٥٧٦
إسماعيل الثاني	١٥٧٦ - ١٥٧٨
محمّد خدابنده	١٥٧٨ - ١٥٨٨
عبّاس الأوّل	١٥٨٨ - ١٦٢٩
صفيّ الأوّل	١٦٢٩ - ١٦٤٢
عبّاس الثاني	١٦٤٢ - ١٦٦٦
سليمان الأوّل	١٦٦٦ - ١٦٩٤
حسين الأوّل	١٦٩٤ - ١٧٢٢
طهماسب الثاني	١٧٢٢ - ١٧٣٢
عبّاس الثالث	١٧٣٢ - ١٧٤٩
سليمان الثاني	١٧٤٩ - ١٧٥٠
إسماعيل الثالث	١٧٥٠ - ١٧٥٣

حسين الثاني	١٧٥٣ - ١٧٨٦
محمّد	١٧٨٦

◄ راجع المستند رقم ٢٦.

صفيّ الدين إسحق، ٦٥٠-٧٤٥هـ/١٢٥٢-١٣٤٤م، شيخ صوفيّ مؤسّس الطريقة الصوفيّة الصفويّة وسلَف الملوك الذين عُرفوا بالصفويّين.

ولد صفيّ الدين في أردبيل بإيران ودرس في شيراز، ثمّ لازم شيخًا من جيلان، يُدعى الشيخ زاهد، مدّة خمسة وعشرين عامًا. خلف هذا الأخير على رأس مجموعة تلامذته، فأُطلقت عليهم عندها تسمية الصفويّة نسبة الى صفيّ الدين. انضمّ أفراد هذه الطريقة، في ما بعد، إلى المذهب الشيعي، ممّا يفسّر اعتبار صفي الدين من سلالة الأئمّة العلويّين، متحدّرًا من موسى الكاظم. كان أعضاء هذه الطريقة يعتمرون قلانس من الصوف الأحمر مع اثنتي عشر شرّابة تكريمًا للأئمّة الاثني عشر، وكانوا يسمّون أصحاب «القلانس الحمر»، وفي التركية «قزلْباش».

صفّين (معركة)، ٣٧هـ/٦٥٧م، معركة مشهورة في العهود الأولى للإسلام، وقعت على الضفّة اليمنى لنهر الفرات، في أعالي بلاد ما بين النهرين وفي مكان غير بعيد عن مدينة الرقّة.

فقد قرّر عدد من الصحابة والتابعين أن يشاركوا في الصراع على السلطة الذي قام بين معاوية، المدافع عن حق الأمويّين، والخليفة علي بن أبي طالب. وكانت المعركة نتيجة نزاع قام قبل بضع سنوات وقسّم الأمّة الإسلاميّة فريقين، وقد أثار ردّات فعل سلبيّة ورفضًا لدى عدد من المسلمين الذين أعلنوا اتّخاذ موقف محايد، فسُمّوا باسم المعتزلة. وبعد مرور قرن أُطلقت هذه التسمية، في سياق سياسي مختلف، على ممثّلي حركة فكريّة كلاميّة إسلاميّة هي المعتزلة.

في صفّين التقى الجيشان ودارت معركة وانتهت بقبول التحكيم الذي تعتبره بعض المصادر حيلة دبّرها معاوية، إلّا أنّ معظم المشاركين قبلوا بهذا المبدأ. وقد جرى التحكيم لاحقًا إمّا في دومة الجندل وإمّا في أذرُح، وإمّا بالتتالي في المكانين. والقرار الذي اتُّخذ من قِبل الفريقين المتصارعين رفَضه بعض أتباع الإمام علي، فانفصلوا عنه. وأدّى ذلك إلى نشوء واحدة من الشيع الأولى في الاسلام هي الخوارج.

الصقالبة (Esclavons)، استُعمل هذا التعبير في إسبانيا في القرون الوسطى، وكان يعني «السلاف» ذوي الأصول العائدة لأوروبا الوسطى. وقد استُخدم هؤلاء، من باب الرقّ، للخدمة في جيوش بعض الدول الإسلاميّة أو لتأليف الحرس الخاص بالملوك. وهؤلاء الإسكلافون/(الصقالبة) المشتقّة تسميتهم من الكلمة الفرنسية (Esclaves)، أي عبيد، كانوا كثيري العدد بشكل خاص في شبه الجزيرة الإيبيريّة، في دول الأندلس الأساسيّة. وكان لهم، إبتداءً من القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، دورٌ مهمّ سجّلته المراجع العربيّة القديمة. كما توافرت أعدادهم في إفريقية أيام الفاطميّين وفي صقلّية المسلمة، بخاصةٍ في بالرمو حيث كان حيٌّ سكنيّ يحمل اسمهم. يُشار إلى أنّه، في الحقبة نفسها، وُجدت في أمكنة أخرى فرق عسكرية من العبيد من أصل أجنبي، مثل الأتراك الذين استخدمهم العبّاسيّون في الشرق أو الأفريقيّين السود الذين استُقدموا إلى مصر والى بعض مقاطعات أفريقيا الشماليّة حيث نهضوا بمهمات شبيهة بمهمات الصقالبة، وقد عُرفوا بأسماء كانت نادرة الاستعمال في الغرب، مثل غلام وجمعها غلمان، وفي ما بعد مملوك وجمعها مماليك.

صقلّية، جزيرة مجاورة لإيطاليا، تقع في قلب المتوسّط، احتلّها المسلمون خلال القرون الوسطى على مدى قرنين ونصف القرن، تطوّرت فيها، خلال تلك الحقبة، حضارة إسلاميّة محلّية، استمرّت قائمة بعض الوقت بعد استعادة الجزيرة من قبل النورمان في أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد.

في أواخر القرن الأوّل للهجرة وبداية القرن الثاني/ القرن الثامن للميلاد، شرع العرب المقيمون في إفريقية بغزو صقلّية. وفي سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م، أصبح الأغالبة أسياد إفريقية، فاستغلّوا التفكّك داخل الأمبراطوريّة البيزنطيّة ليحتلّوا الجزيرة سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م. فنزلوا مدينة مزاره (Mazara)، غربي الجزيرة، وبلغوا بالرمو سنة ٢١٦هـ/٨٣١م، على الساحل الشمالي. وفي سنة ٢٢٤هـ/٨٣١م، استولوا على مدينة كستروجيوفاني

(Castrogiovanni) في الجبال الوسطى، وبدأوا يهاجمون المدن على الساحل الشرقي، ووجدوا صعوبة في احتلالها لأنها كانت تتلقى الدعم من الأسطول البيزنطي. وقد سقطت مسّينا بأيديهم سنة ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م، ولم تسقط سرقوسة إلّا في سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م، وتاورمينا (Taormina) في سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠٢م. وفي ظلّ الحكم العربي نُقلت العاصمة من سرقوسة إلى بالرمو، وهي مدينة مرفئيّة تحوّلت قاعدة ناشطة كان العرب ينطلقون منها في حملاتهم على جنوب إيطاليا، وقد توسّعت ونمت فيها أحياء جديدة خارج المدينة القديمة. وفي سنة ٣٠٤هـ/ ٩١٦م أسّس الفاطميّون، أسياد الجزيرة الجدد، حيًّا جديدًا عُرف باسم «خالصة» وجُعل مقرًّا محصّنًا للسلطة الحاكمة، وذلك بعد القضاء على فتنة محلّية. وكان الفاطميّون قد أدخلوا إلى الجزيرة محاربين من العبيد، فاحتلّوا ضاحية أخرى جعلوها حيًّا لهم.

وكان الحكّام المقيمون في بالرمو يمثّلون الأمراء الأغالبة أوّل الأمر. وأصبحوا، بعد سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م، يمثّلون الفاطميّين الذين كانوا قد استولوا على إفريقية في هذا التاريخ. وفي سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٨م تسلّم السلطة حاكم من قبيلة كلب وأسّس سلالة محليّة لم تكن مرتبطة إلّا إسميًّا بالفاطميّين. واستمرّ حكم الكلبيّين في الجزيرة حتى سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م، إذ حلّ حينها مكانهم مجلس محلّي عُرف باسم «الجماعة»، وأدار شؤون الجزيرة نحوًا من عشرين سنة. وفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م احتلّ النورمان مدينة بالرمو، وكانوا قد أصبحوا أسياد صقلّية على أثر استعادة تدريجيّة للجزيرة بدأً من مسّينا سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، لتبلغ مدينتي جرجنتي (Girgenti) وسرقوسة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م.

مع عودة صقلّية إلى المسيحيّة، تحوّل قسم من المساجد إلى كاتدرائيّات، كما حصل في مدينة بالرمو. وقد بقي المسلمون في الجزيرة وتمتّعوا بحريّة دينيّة تامّة وتبنّى الملوك النورمان أساليب الحياة الشرقيّة، وشجّعوا الأدباء العرب، ولا سيّما الإدريسي الذي وضع مؤلّفه المشهور «كتاب روجار» وقدّمه إلى الملك الذي يحمل هذا الاسم. وفي حقل البناء، استعان النورمان بمهندسين وفنّيّين مسلمين، وهذا ما جعل صقلّية النورمانيّة تتميّز ببروز فنّ عربيّ - نورماني حقّق إنجازات شهيرة، وهي تُعتبر، في بعض نواحيها، من النماذج الفريدة للفنّ الاسلامي. فالقصور الملكيّة مثلًا في كوبا (Cuba) وزيزا (Ziza) في ضواحي پاليرمو، المحاطة بالحدائق، ما زالت تُعتبر حتّى اليوم، بزخارفها وتقسيماتها الهندسيّة، شواهد مميّزة على العادات التي كانت سائدة في تنظيم صالات الإستقبال والإجتماع في القصور الإسلاميّة. كما أنّ سقف الكنيسة الملكيّة المزيّن بالتجاويف والنخاريب، في قصر كاسارو، يحتفظ بمجموعة من الصور تحيط بها كتابات عربيّة. إنّها تشكل نموذجًا لتطوّر فنّ المنمنمات الشرقية وفنّ الرسم بصورة عامة في تلك الحقبة.

عندما قام الرحّالة العربي إبن جُبير بزيارة صقلّية، في أواخر القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، كانت الثقافة العربيّة الإسلاميّة ما تزال حيّة ناشطة، وكانت المدن تحوي أحياء إسلاميّة كبيرة. إلّا أنّ الوضع تبدّل في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد على عهد الأمبراطور فردريك الثاني. فهذا الأمبراطور الذي كان معجبًا بالعلوم الإسلاميّة، جمع في لوسيرا (Lucera)، جنوبي إيطاليا، علماء مسلمين من مختلف الإختصاصات، كان لوجودهم دور مهمّ في نقل معارفهم إلى أوروبا الغربيّة. إلّا أنّه، على الرغم من ذلك، أمر بإجلاء السكّان المسلمين عن الجزيرة لأنّه كان يعتبر أنّ وجودهم يشكّل خطرًا على النظام العام.

◄ راجع المستند رقم ١١.

الصلاة، عمل ديني لا يحول دون الدعاء الحرّ عند المؤمن وهو يعني حصرًا في الإسلام الصلاة الطقسيّة التي هي من فرائض الشريعة الأساسيّة التي تسمّى أيضًا «أركان الدين».

١ - استمرّت الصلاة التي تتضمّن سلسلة من الحركات الخاضعة لقواعد محدّدة، عبر القرون، من دون تغييرات تُذكر. على المسلمين أن يؤدّوها فرديًّا أو مع الجماعة، خمس مرّات في اليوم، وهي تدعو إلى الالتئام العلنيّ للجماعة، مرّة في الأسبوع، أي يوم الجمعة ظهرًا. وأداؤها واجب يمليه القرآن حيث نقرأ مثلًا:

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (سورة الطُور، الآيات ٤٧ و٤٨

و٤٩)، ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (سورة الإنسان، الآيتان ٢٥-٢٦).

إذا كان عدد الصلوات اليوميّة الإلزاميّة غير موضّح بدقّة في الآيات التي تذكر، غالبًا، صلاتين أو ثلاثًا، وتنصّ مرّة واحدة، على ما يبدو، على أربع على الأقل (سورة البقرة، الآية ٢٣٨)، فالظاهر أنّ العدد خمسة هو الذي حُدِّد للنبيّ محمّد ﷺ خلال صعوده المعروف بالمعراج، بواسطة النبيّ موسى. وقد جرى تحديد مواقيت هذه الصلوات الخمس بحيث لا تختلط مواقيت الطقس الإسلامي بمواقيت صلوات طقس شمسيّ: - صلاة الصبح، عند الفجر قبل طلوع قرص الشمس؛ صلاة الظهر؛ - صلاة العصر، بعد الظهر في وسط النصف الثاني من النهار؛ - صلاة المغرب عند غروب الشمس، أي بعد غياب قرص الشمس في الأفق؛ - صلاة العشاء، خلال الثلث الأوّل من الليل.

يقوم المسلم بكلّ واحدة من هذه الصلوات ملبّيًا نداء الأذان، وهي عادة ترقى، على الأرجح، إلى أيام نبيّ الإسلام (ﷺ). وعلى المؤمن، كي يؤدّي صلاته على الوجه المطلوب، أن يكون في حال طهارة طقسيّة، أي أن يكون قد قام بالوضوء المطلوب العادي أو الكامل، بحسب الوضع. كما يمكنه أن يتوجّه إلى مسجد أو مسجد جامع، ويمكنه أيضًا أن يحدّد حيثما يكون المساحة اللازمة للركعات، وهي مساحة تنبسط أمامه، لا يمكن أحدًا أن يجتازها، تحدّدها، مثلًا، سجّادة الصلاة. من جهة ثانية، عليه أن يتّجه ناحية مكّة وهو اتّجاه يحدّده بنفسه أو يكون محدّدًا في المساجد بوجهة حائط القبلة الذي يجب أن يكون أمامه حيث يقوم المحراب. عندما يكثر عدد الحاضرين للقيام بالصلاة معًا، ينتظمون في صفّ واحد أو في صفوف متوازية.

خلال القرون الأولى للإسلام، اختلفت المذاهب الفقهيّة حول بعض التفاصيل المتعلّقة بالحركات الواجب القيام بها أو حول العبارات الواجب تلاوتها. وكذلك بالنسبة الى المسائل التي يطرحها إهمال أحد تلك العناصر، أو بالنسبة الى قيمة بعض الأفعال التي يمكن تقسيمها، كسائر الأعمال البشرية، أنواعًا متعدّدة، بدءًا بالفعل الإلزامي وصولًا إلى الفعل الموصى به وحسب. إلا أنّه يمكن توزيع الأقسام الرئيسة للصلاة على ثلاثة أبواب لا تتبدّل:

- المقدمة: يقف المصلّي متّجهًا إلى الله برفع يديه إلى مستوى الكتفين، مردّدًا التكبير «الله أكبر» ومعلنًا في الوقت عينه نيّته في إقامة الصلاة.

- المرحلة الوسطى: تتمّ فيها الركعات (من اثنتين إلى أربع بحسب وقت الصلاة)، وتتضمّن كل واحدة: - تلاوة الفاتحة وقوفًا واليدان متدلّيتان؛ - ركوع مع إسناد اليدين إلى الركبة؛ - وقوف؛ - سجود مع ملامسة الأرض بالجبهة والأنف؛ - سجود ثانٍ.

- المرحلة الأخيرة، وفيها المجاهرة بالإيمان عن طريق الشهادة يتلوها المصلّي وهو في وضع السجود بقدم فوق قدم، يليه التسليم على النبي (ﷺ).

٢ - تعتبر صلاة الظهر يوم الجمعة إلزاميّة للرجال عندما يبلغ عددهم في مكان معيّن أربعين أو إثني عشر بحسب المذاهب، وتقام بالضرورة في المسجد الجامع أو في المبنى الذي يقوم مقامه. وهي تتضمّن ركعتين، ويديرها إمام يتمّ اختياره من بين المؤمنين؛ لكنّه يُعتبر عندئذٍ رئيسًا للجماعة أو ممثّلًا لها، سواء كان مسؤولًا رفيع الشأن في الجهاز الحكوميّ أو شخصًا يجري اختياره من بين «رجال الدين» المحليّين.

أمّا الصلاة التي تُقام لمناسبة العيدين الشرعيّين الواقعين في العاشر من ذي الحجّة وفي الأوّل من شوّال، يمكن أن تقام بحسب التقليد، في المسجد الجامع، أو في ساحة كبيرة في الهواء الطلق تدعى المصلّى. وهذه الصلاة الخاصّة فُرضت على جميع المؤمنين الذين يتوجّب عليهم تأدية صلاة الجمعة وهي تقام عند الصباح، وتتضمّن ركعتين. وهناك أيضًا صلوات طقسيّة خاصة، وأحيانًا نافلة، مثل صلاة الخوف التي تُتلى في مواجهة العدو، وصلاة الخسوف [والكسوف] التي تتضمّن مقاطع طويلة من القرآن، وصلاة الميت وهي إلزامية، لكنّها توجب اعتماد طقس مختلف، إذ تقضي جوهريًا بترداد التكبير، وأخيرًا صلاة الاستسقاء التي تتضمّن ركعتين وتقام في المصلّى.

في مناسبة الصلاة الاحتفاليّة الأسبوعيّة، تُلقى على

الجماعة الخطبة التي يجب أن تسبقها، وهي سياسيّة ودينيّة في آن. كان حقّ إلقاء الخطبة من على المنبر امتيازًا لنبيّ الإسلام (ﷺ) والخلفاء. وكان يمكن لهؤلاء أن يفوّضوا لذلك خطيبًا يتكلّم باسمهم ويتوجّب عليه، تاليًا، ذكر اسمهم وألقابهم وتكريمهم بالتمنيّات لهم. وكان الإغفال عن الدعاء للخليفة يُعتبر تمرّدًا فاضحًا يجب معاقبته. في الوقت نفسه، كانت الصلاة الطقسيّة تشكّل دائمًا، بالنسبة الى المسلم، العمل الأساس، لدرجة أنّ إهمالها إراديًا كان يُعتبر في الشرع سببًا للتهمة بالارتداد، وهذه التهمة تؤدّي إلى الإعدام. حتى إنّ بعض المتصوّفين كالغزالي أعلنوا، جهارًا، قيمتها معتبرين أنّها تساعد المؤمن على الدخول في حضرة الله، شرط أن يؤدّيها انطلاقًا من استعدادات داخليّة متعدّدة: جهوزيّة القلب، الوعي، الاحترام، الرجاء والتواضع.

٣ - في مجال آخر، هناك الدّعاء الذي يختلف عن الذكر عند الصوفيّين ويبقى دونه استحقاقًا. وهو يمتاز بأنّه يمكن تأديته بشكل حرّ وفردي في أي وقت. إنّه غير إلزامي وغير محدّد، لكنّه مذكور في القرآن الكريم: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصّلت، ٤٩] ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصّلت، ٥١]

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

هذه المناجاة الشخصيّة الباطنيّة تبرّرها أيضًا أحاديث عدّة تلائم المناسبات كافة، ولا تذوب في الصلاة الطقسيّة، مع إمكان جمعهما معًا. وقد شعر بعض الباحثين بالحاجة إلى توضيح الشروط المثلى لنجاحها، فجعلوها خلال السجود أو خلال الأذان، وربطوها هكذا بالصلاة الطقسيّة التي تتضمّن، على الأقل، صلاة دعاء واحدة في تلاوة الفاتحة. هناك، من ناحية أُخرى، صلوات مناجاة تُنسب إلى مشهورين كالخلفاء الأوّلين، وقد أُوصي بتلاوتها. يُشدد الصوفيّون، من جهتهم في كتاباتهم بشكل خاص، على ممارسة الدعاء، ويميّزون بوضوح بينه وبين الصلوات النافلة مثل الذّكر والوِرْد.

طرح الدعاء تساؤلات على المذاهب الكلاميّة التي حاولت التوفيق بين فعاليّته وعقيدة «الحكم الالهي» واقترحت حلولًا مختلفة. فالمعتزلة الذين يعتبرون أنّ صلاة العبادة هي وحدها الشرعيّة، كانوا ينكرون فائدة الدعاء ويرون أنّه لا يتلاءم والتعالي الإلهي الذي يعبّر عنه بالتوحيد أو وحدة الله. أمّا الأشعريّة فأعادوا لاحقًا إلى الدعاء قيمته التقليديّة، وميّزوا بين الحكم الإلهي «الثابت» و«المعلّق» أو المشروط الذي يأخذ في الاعتبار التعبير بالصلاة. وحاول الفلاسفة من جهتهم أن يعطوا الدُّعاء الباطنيّ تبريرًا عقلانيًا إلى جانب دفاعهم عن الدور الأساسي للصلاة الطقسيّة التي تتماهى، بحسب رأيهم، والاعتراف بوجود الله. وهكذا شدّدوا على تبيان تأثير الدعاء على الأفلاك السماوية التي تتحكّم بالكون.

صلاح الدين، الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ٥٣٢-٥٨٩هـ/ ١١٣٨ - ١١٩٣م. ملك من أصل كردي، ومؤسّس السلالة الأيّوبيّة، حكم من سنة ٥٦٧ الى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٧١ إلى ١١٩٣م، على مملكة واسعة الأطراف تضمّ مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين، قبل أن ينتصر في معركة حطين، سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، على فرنج الأراضي المقدّسة حيث استعاد منهم القدس.

كان صلاح الدين في أوّل أمره جنديًا بسيطًا، إبن ضابط يدعى أيّوب كان قد ناصر أتابك الموصل زنكي في غاراته على العراق. وكان كذلك ابن أخ لقائد حربي من أصل كردي يدعى شيركوه، وهو من أكثر أعوان نور الدين فعاليّة. شارك في صباه، إلى جانب عمّه، في حملة سوريّة على مصر الفاطميّة، سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م، غايتها إعادة الوزير شاور إلى مهمّاته. تبعت ذلك حملات أخرى بأمر من نور الدين، إستجابة لدعوات محليّة، وكذلك لمحاربة الفرنج الذين دخلوا تلك المنطقة. في المرّة الثالثة لم يغادر الجيش السوري القاهرة، وعُيّن شيركوه وزيرًا للخليفة الذي ضعفت سلطته. وعند وفاة عمّه، خلفه صلاح الدين في دولة فاطميّة تعاني تفكّكًا رهيبًا. وحيث أنّ هدفه كان يتطابق مع أهداف أمراء سوريا الأتراك، أي القضاء على الشيعة الإسماعيليّة المساندة للنظام، فقد نجح في التخلّص من الحرس السود الذين كانوا يشكّلون الدفاع الأكثر فعاليّة عن الخليفة، وكذلك في ذكر اسم الخليفة العبّاسي في خطبة الجمعة، فيما كان الخليفة الفاطمي المريض يلفظ

أنفاسه سنة ٥٧٦هـ/ ١١٧٦م.

بات صلاح الدين يدير مصر حيث أعاد المذهب السنيّ وراح يبني المدارس، لكنّه، إسميًّا، كان موفد نور الدين الذي أخذ الشك يساوره بشأن نجاحه، لكنّه لم يلبث أن توفي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م. أتاح غياب نور الدين الفرصة لمنافسه الشاب لاحتلال ممتلكات الزنكيّين، مع متابعته الحرب ضد الفرنج والتذرّع بأنّه يدافع عن ابن سيده القديم. دخل دمشق دخول الفاتحين في ربيع الأوّل ٥٧٠هـ/ تشرين الثاني ١١٧٤م، حيث كان الترحيب به عارمًا لِما قام به في مصر، ما وفّر له فرصة لتثبيت طموحاته: تحقيق الوحدة الإسلاميّة ضد الفرنج، ثمّ الانطلاق نحو سوريا الشماليّة وإمارة حلب حيث اصطدم بمقاومة الأمراء المحيطين باسماعيل الشاب ابن نور الدين. وحصل بعدها على تولية الخليفة له، ما سمح له بسكّ العملة. وقد حاز لقب «الملك الناصر»، وهو لقب ملكي أدنى رتبة من لقب سلطان. لكنّه لم يتمكّن، بعد وفاة إسماعيل عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، من منع أمير الموصل الزنكي من الاستيلاء على حلب. فكان عليه احتلال مدن عدّة في الجوار، وبخاصة سنجار، كي يحصل على استسلام المدينة الرئيسة في سوريا الشماليّة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م، ويكمل عمله السياسي باحتلال الموصل سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٦م.

في موازاة ذلك، توجّب على صلاح الدين تعزيز دفاعات الاسكندريّة والقاهرة، وإعادة تسليح البحريّة، وتنظيم الفرق المصريّة التي وفّرت له حوالى ثمانية آلاف رجل، مضافًا إليهم البدو غير النظاميّين، وتعديل سياسة مصر التجاريّة. وفي هذا المجال الأخير سعى إلى الابقاء على العلاقات الجيّدة التي قامت سابقًا مع التجّار الغربيّين، ولا سيّما اولئك الذين كانوا يفدون من المدن الإيطاليّة مثل «بيزا». إلّا أنّه منع أولئك الغرباء من بلوغ الفسطاط، كما منع التجّار المسيحيّين المحلّيين من التجارة عبر البحر الأحمر. وغدت تجارة التوابل محصورة في أيدي تجّار متخصّصين يدفعون بالمقابل ضرائب باهظة.

ولم تغب عن بال صلاح الدين مسألة وجود الفرنج في سوريا وفلسطين. فمع بداية سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، قام بعدد من العمليّات المحدودة وفّرت له عددًا من الأسرى لم يطلق سراحهم إلّا بفدية عالية. وفي سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، قام الفرنج بحملة جريئة باتّجاه البحر الأحمر، فأعلن صلاح الدين الجهاد مجدّدًا، وكان تحت تصرّفه جيش قوامه تسعة آلاف فارس وأسطول قويّ. مع ذلك، فقد امتنع عليه حصن الكرك الذي كان بيد «رينو دي شاتيّون» (Renaud de Châtillon)، فاضطرّ إلى عقد هدنة قطعها «رينو» بعد ذلك سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م عندما راح يهاجم القوافل التجاريّة بين مصر ودمشق.

على أثر توجيه صلاح الدين جيشه نحو طبريّة لمحاصرتها، ردّ الفرنج بتجميع قواهم لمنعه من الاستيلاء على هذه المدينة. وقد أسفر الالتحام الذي تلا ذلك عن انتصار المسلمين في حطّين، في عزّ شهر تموز/ يوليو. وقد دقّت تلك المعركة ناقوس نهاية انتصارات الملوك الصليبيّين في الشرق الأدنى، رغم خطإ التقدير الذي وقع فيه صلاح الدين في ما بعد. ولم يمضِ شهران حتى استسلمت مدينة القدس بعد مفاوضات صعبة. فأُعطي المسيحيّون غير المشرقيّين حقّ مغادرة المدينة في مقابل دفع فدية عالية، وأعيدت الصروح الإسلامية إلى أصحابها، كما سُلّم القبر المقدّس إلى المسيحيّين المحلّيّين، ولكنّ إحدى الكنائس حُوّلت الى مدرسة وأخرى الى مستشفى.

كان لاستعادة القدس صداه المدوّي في العالمين الإسلاميّ والغربي. لكنّ انتصارات صلاح الدين لم تكن كاملةً، إذ امتنعت عليه مدينة صور، آخر معقل باقٍ لمملكة القدس بأيدي الفرنج. فقد كان الدفاع فيها منظّمًا، وبلغ طول الحصار حدًّا جعل القادة المسلمين يملّون ويفضّلون العودة إلى ديارهم بعد مضيّ أشهر على الابتعاد عنها. فاضطرّ صلاح الدين أخيرًا إلى رفع الحصار، والاكتفاء بالإستيلاء على حصن الكرك. وكان من نتيجة هذا الفشل التكتيكي الإفساح في المجال أمام الحملة الصليبيّة الثالثة كي تنزل في صور وأن تستعيد مدينة عكا وتقيم مجدّدًا دولة لاتينية ذات طابع هجومي على ساحل المتوسّط. وقد اضطرّ سيّد سوريا، في أواخر حكمه، أن يقبل بهدنة مذلّة سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، قبل وفاته بسنتين. وكان قد طلب العون من أُسرته ومن

الأمراء المقيمين في مصر، فلم يلقَ آذانًا صاغية.

اعتُبر صلاح الدين، في نظر المؤرّخين المسلمين في عصره، بطل الجهاد المقدّس ضدّ الفرنج. إلّا أنّ شخصيّته بدت أكثر تعقيدًا في نظر عدد كثير من المؤرّخين الحديثين. والواقع أنّ هذا المدافع عن الاسلام الذي انتصر في النهاية، لم يَرَ مناسبًا الإنطلاق في الجهاد قبل تأمين سيطرته على سوريا الشماليّة وبلاد ما بين النهرين العليا، أي قبل تقوية سلطته الشخصيّة عن طريق القيام بحروب حقيقيّة ضدّ أمراء مسلمين آخرين، وهذه الحروب كانت من المآخذ التي وُجّهت اليه، حتّى من المقرَّبين منه. وكان في مقدوره، من جهة أخرى، أن يقضي نهائيًّا على أعدائه بعد معركة حطّين، لكنّه فوّت الفرصة عندما قرّر محاصرة القدس بدلًا من صور. فإرادته إعطاء الأوليّة لمحاربة الكفّار يمكن إذًا أن تكون، بمعنى ما، موضوع شكّ، وكذلك قدراته الإستراتيجيّة. مع ذلك، يبقى من الصعب أن نميّز، عند السلطان المسلم، بين طموحه السياسيّ الشخصي وهمّ الدفاع عن الإسلام. وعلى صعيد آخر، لاشيء يثبت أنّ صلاح الدين كان في استطاعته القيام بعمل حربيّ واسع النطاق ضدّ الفرنج من دون مساندة إمارتَي حلب والموصل أو، على الأقل، وقوفهما على الحياد. والحرص الذي بذله خلفاؤه من أجل تحاشي صدام جديد مع الفرنج يشير إلى أنّ ما قام به من إنجاز سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م كان عملًا يصعب تكراره.

أمّا على الصعيد الديني فقد أكمل صلاح الدين ما كان قد بدأه نور الدين زنكي، إذ أنشأ المدارس في المدن السوريّة وفي المدن التي احتُلّت حديثًا أو أُلحقت بعالم السُنّة. وقد أسّس بنفسه بعضًا منها وخصّصها لتدريس المذهب الشافعي، ولا سيّما في القاهرة والقدس. كما أنّه أحاط نفسه بعدد من الفقهاء والعلماء بصفة مستشارين. وجهد لتجنّب الانحرافات العقائديّة التي كان يعتبرها خطيرة. وقد وصل به الأمر الى اتخاذ القرار بإعدام السُّهْرَوَردي، الصوفيّ الحلبي، بسبب الاشتباه بميله إلى الشيعة. وقد عَرَف، كرجل حرب ورجل دولة، كيف يبني مملكة قويّة ويستعيد القدس، وبدا كذلك مسلمًا سنيًّا متفانيًا، وكان همّه أن يستمرّ الإسلام في الطريق الذي اختاره له بنفسه.

صنعاء (الجمهوريّة العربية اليمنيّة)، مدينة تقع جنوبي شبه الجزيرة العربيّة، كانت المقرّ المفضَّل للزيديّين في اليمن خلال القرون الوسطى ومقرّ سلطتهم، قبل أن تصبح عاصمة الدولة اليمنيّة الحديثة.

تقع صنعاء على ارتفاع ألفي متر داخل مدرّج من الجبال العالية، وهذه المدينة الموغلة في القدم أدّت دورًا مهمًّا في تاريخ البلاد. وانضمّت إلى الإسلام سنة ١٠هـ/ ٦٣١م وذلك قبل وقت قليل من وفاة النبيّ محمّد (ﷺ). وقد عرفت بعد ذلك على مرّ العصور تاريخًا مضطربًا، لأنّ المنطقة التي كانت صنعاء مركزها الإقتصادي، والتي كانت مزدهرة منذ زمنٍ طويل، كانت بعيدة عن العراق مركز الخلافة. لذا كانت المدينة تتحوّل أحيانًا إلى مأوى للثائرين وقادة الفرق الدينيّة الذين حاولوا الاستقلال فيها عن الدولة.

في المراحل الأولى من العهد العبّاسي، تنازع النفوذ في صنعاء عدد من المتنافسين. وفي سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠هـ، جرت تسوية بين أحد زعماء بني يَعْفر والخليفة المعتمد، نظّمت موقّتًا وضعًا هشًّا، سرعان ما عكّرته طموحات جماعات صغيرة من الشيعة مرتبطة بالزيديّة أو بالإسماعيليّة، نخصّ بالذكر منها القرامطة. وقد استمرّ التنافس على السلطة والنفوذ في صنعاء في القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، إلى أن استولى على المدينة سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م أحد إخوة صلاح الدين الأيّوبي، وهو المدعو طورانشاه. لكنّ سيطرة الأيّوبيّين لم تدم إلّا بضعة عقود. وفي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، بسط الرسوليّون سلطتهم على صنعاء، وجاء بعدهم ممثّلو المماليك السوريّين - المصريّين، ثمّ ممثّلو العثمانيّين.

أمّا الأئمّة الزيديّون فكانوا يعودون إلى حكم صنعاء كلّما سنحت لهم الفرص. وعند تفاقم الوضع العسكري كانوا يتركون الساحة لمنافسيهم ويلجأون إلى صعدة، وهي محلّة ظلّت وفيّة لقضيّتهم.

في العصر الحديث عادت صنعاء، أكثر من أيّ وقت مضى، مركزًا للنشاط الزيدي. وفي سنة ١٩٢٠ اعترف الغرب بالإمام يحيى محمود سيّدًا على اليمن،

وهو من السلالة الثانية للأئمّة الزيديّين، وهي سلالة بني قاسم، وقد توفّي سنة ١٩٤٨. وفي عهد خلفائه الذين استمرّوا في الحكم حتّى الاحتلال المصري سنة ١٩٦٢، وفي المرحلة التالية التي شهدت مواجهة بين جمهوريّتي اليمن الشماليّة والجنوبيّة، عرفت صنعاء مرحلة تحديث سريع أتت إستجابةً لنهضتها التجاريّة الجديدة. وحافظت مع ذلك على بعض الخصائص الهندسيّة التي ميّزت، منذ القرون الوسطى، هندستها المعماريّة، وهيَ تظهر في أسوارها القديمة، ومساجدها، وخصوصًا في أبنيتها السكنيّة المكوّنة من طبقات عدّة تزيّنها النوافذ الزجاجيّة والزخارف الدقيقة للواجهات.

◄ راجع المستندات ٨، ١٣ و٢٥.

صُنغاي، أمبراطوريّة إسلاميّة سوداء قامت في المنطقة التي كانت تُعرف بالسودان الغربيّ الساحليّ في العصور الوسطى المتأخّرة، كان مركزها الأساسي مدينة غاو الواقعة على طريق القوافل. وبعد أن اعترفت بسيادة مملكة مالي الإسلاميّة المجاورة، في القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، عرفت في ما بعد ذروة الازدهار.

قامت قوّة صنغاي في الأساس على الرقابة التي كانت تمارسها، عند أبواب الصحراء، على النشاط التجاري، لا سيّما تجارة الذهب والعبيد باتّجاه المغرب. وتبع ذلك اعتناق الإسلام من قبل الحكّام المحلّيّين الذين تُذكّر بهم المسلّات الملكيّة التي رُفعت فوق قبورهم في بداية القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. وهذه المعالم الأثريّة المثيرة للاهتمام تُظهر أنّ أسياد غاو الأثرياء كانوا، بحسب التقاليد الإسلاميّة، يتلقّون من المرابطين في الأندلس، وبخاصة في المريّة، لوحات من الرخام نُقشت عليها باللغة العربيّة ألقابهم مع كتابات تزيينيّة، ولكنّهم احتفظوا في الوقت نفسه، وتحت هذا الغطاء الإسلامي، ببعض تقاليدهم السابقة، منها الاستمرار في حمل اسماء تاريخيّة ذات طابع وثني تختزن، في نظرهم، قيمًا مقدّسة.

مع قدوم القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، استطاع أسياد صنغاي أن يوسّعوا سلطتهم إلى أقصى مداها، بعدما فرضوا نفوذهم على مملكة مالي الماندينجيّة، وخصوصًا على المدينتين التجاريّتين تومبوكتو وجنّي. وفي سنة ١٤٩٣م قامت ردّات فعل معادية للإسلام قضى عليها أبناء سلالة جديدة، هي سلالة أسْكِياس. وقد اعتمد هؤلاء على الدعم الدبلوماسي الذي أمّنه لهم مماليك مصر وعلى نشاط مصلح ديني بربري يُعرف بإسم المَغيلي. أخيرًا برزت أطماع الملوك السعديّين أسياد المغرب الذين رغبوا، هم أيضًا، في السيطرة على طرق القوافل في المناطق الجنوبيّة، فراحوا ينافسون أسياد صنغاي على أرباح مناجم الملح الصحراويّة واحتكار تجارة الذهب. وكانت المبادرة القوية على يد السعدي أحمد المنصور الذي أراد أن يفرض سلطته على المناطق المجاورة باعتباره قائدًا مسلمًا غير مُنازع، بحكم انتسابه إلى أشراف المغرب: فقام سنة ١٥٩١ بحملة ناجحة أدّت إلى احتلال صنغاي، ووضعت حدًّا للازدهار السياسي والاقتصادي لهذه الأمبراطوريّة السوداء، بعدما كانت مشرقة خلال القرن السادس عشر. وعلى أثر تلك الأحداث عُزل آخر ممثّل لسلالة أسْكِياس سنة ١٥٩٩.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٢٩.

صنهاجة، اسم أحد أهمّ التجمّعات البربريّة التي دخلت الإسلام في القرون الوسطى، وناضلت مع قبائل زناتة للسيطرة على إفريقية الشماليّة، وتنبثق منها فروع حضريّة وأخرى بدويّة.

والاتّحاد القبلي الصنهاجي الواسع، الذي ترتبط به قبائل كتامة في إفريقية ومصمودة في المغرب الأقصى، لم يُظهر مقاومة تُذكر للمدّ الإسلامي الذي تبع الحملات العربيّة للفتوحات الكبرى. بل إنّ صنهاجة شجّعت باكرًا نموّ النواحي والمدن ومنها «أشير»، وخرجت منها سلالات قويّة كالزيريّين، والحمّاديّين الذين ورثوا جزئيًّا سلطة الفاطميّين. وكانت كتامة قد ساهمت في انطلاقة هؤلاء. وفي وقت لاحق أسّس المرابطون أمبراطوريّة واسعة في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، إنطلاقًا من مناطق لمتونة الصحراويّة، وتلبية لاندفاع هذه القبيلة في سبيل الجهاد. ثمّ إنّ مرحلة تفوّق صنهاجة بلغت نهايتها

في المغرب كلّه على أثر انتصار الموحّدين.

ومن لفظة صنهاجة قد يكون قد اشتقّ اسم نهر السنغال الذي يحدّ المناطق الجنوبيّة التي كان يجوبها أولئك البدو. إنّنا نجد أعقابهم «الملثّمين»، من دون شك، بين «الطوارق» (Touaregs) المجاورين لأفريقيا الساحليّة السوداء. واستقرّت قبائل صنهاجيّة أقلّ شهرةً، كقبائل لمتة وغزولة، في الأطلس وسوس المغربيّين، كما استقرّت أخرى في منطقة الريف. والاستيطان البربريّ لبلاد القبائل يعود في جزءٍ منه إلى كتامة.

◄ راجع المستند رقم ١٤.

صور (الجمهوريّة اللبنانية)، مرفأ محصّن وناشط في العصور الوسطى، كان يشغل موقع جزيرة على الشاطئ الفينيقي القديم، وما تزال آثاره تحافظ على ذكراه في موقع قريب من المدينة الحاليّة التي تحمل الإسم نفسه.

بدايةً، أكملت صور في العصور الوسطى الدور الذي كان للمدينة الفينيقيّة القديمة، وكانت هذه قد أنشئت على جزيرة صغيرة، يصلها بالبرّ برزخ ضيّق. احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة منذ العام ١٤هـ/ ٦٣٥م، بعيد احتلالها دمشق إبّان الفتوحات الكبرى. وأصبحت صور موضع اهتمام حكام سوريا المسلمين، فأسكن فيها معاوية، أوّل الخلفاء الأمويّين، جاليات فارسيّة، كما في مدن الساحل الأخرى، تدعيمًا لحاميتها. ورمّم أحد خلفائه، عبد الملك بن مروان، حصونها، وأنشأ فيها الخليفة هشام بن عبد الملك ترسانات كي يتمكّن هذا الثغر البحري من الدفاع عن نفسه ضد الهجمات البيزنطيّة. وأخيرًا، انحطت المدينة في ظلّ الدولة العبّاسيّة، إلى أن وقعت تحت سيطرة فاطميّي مصر خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد. ونعمت باستقلال ذاتي إلى أن أعاد اليها الوزير بدر الجمالي النفوذ الفاطمي إسميًّا في العام ٤٨١هـ/ ١٠٨٩م.

دافعت صور عن نفسها، في ما بعد، بشراسة ضد الهجمات الفرنجيّة، وطلبت مساعدة الأمير البوري طغتكين حاكم دمشق. حاصرها الفرنج بدءًا من العام ٥٠٤هـ/ ١١١١م، ولم تسقط في أيديهم الا في العام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، وسُمح لمعظم سكّانها بمغادرتها والاستقرار في المدن التي كانت ما تزال تحت السيطرة الإسلاميّة. ومن ثمّ استمرّت طيلة قرنين تقريبًا مركزًا حصينًا خاضعًا لمملكة القدس اللاتينيّة. حاول صلاح الدين الأيوبي، بعد انتصاره في حطين واستيلائه على القدس في العام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، احتلالها مرتين، ولكنّه فشل كما فشل خلفاؤه من بعده، واستمرّت تشكّل رأس جسر للفرنج لردّ الهجمات العسكريّة. وجاء جلاء الصليبيّين عنها، بعد سقوط عكا سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م على أيدي المماليك، إيذانًا بنهاية الوجود الفرنجي في سوريا، وأدّى إلى تدمير هذا الموقع المحصّن، في حين اجتاحت الرمال منشآته المرفئيّة. كما أنّ إعادة فتحه من قبل المسلمين وضعت حدًّا نهائيًّا لدوره العسكري والإستراتيجي.

◄ راجع المستندين ٩ و١٨.

الصوفيّة، تعبير يشير إلى حركة التصوّف التي ظهرت باكرًا في العالم الإسلامي والتي عرفت مظاهر متنوّعة يأتي بعضها خارج نطاق العقيدة كما يحدّدها علماء الكلام والفقه من أهل السنّة. رغم محاربتها من قبل بعضهم في العصر الحديث، فإنّها لقيت إقبالًا متزايدًا في عدد من المناطق الواقعة على أطراف العالم الإسلامي وفي تلك التي دخلت الاسلام مؤخّرًا.

١ - قد تكون لفظة «صوفيّ» ولفظة «صوفيّة» مشتقّتين من لفظة «صوف»، وفي ذلك إشارة إلى اللّباس الصوفيّ الذي كان يرتديه عمومًا الممثّلون الأوائل لهذه الحركة، وقد ثبت ارتداؤه في العراق إبتداء من القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد. هؤلاء الممثّلون الأوائل الذين عُرفوا بتصرّفاتهم الموسومة بالزهد، ظهروا منذ عهد الخلافة الأمويّة، ومنهم الحسن البصري وهو الواعظ العراقيّ التّقيّ الشهير بين أبناء عصره، الذي اشتهر بأقواله المأثورة. وكان هؤلاء زاهدين بخيرات الدنيا، ولا همّ لهم سوى إقامة تواصل شخصي بالعزّة الإلهيّة والعمل على بلوغ مرتبة المختارين الذين سيكونون في الجنّة «المقرّبين إلى الله» والفائزين بمكافأة رفيعة (القرآن الكريم، سورة الواقعة، الآية ١١). والوسيلة المعتمدة كانت تقضي، قبل كلّ شيء، بالتعمّق بالايمان بغية التوصّل إلى

«خضوع» كامل لله، يتجاوز التقيّد بالطقوس التي تفرضها الشريعة وباللجوء، في سبيل ذلك، إلى الآيات القرآنية التي تتحدّث عن يوم الدين أو إلى تلك التي تقبّح الأخذ بوسائل الغنى. كما كان يتمّ التمثّل بالانبياء، كالنبي محمّد (ﷺ)، وقبله موسى وعيسى الذين نادوا باللجوء إلى حرمان الذات الإرادي.

خلال القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، قويت نزعة الزهد تدريجيًا، وأصبحت محاربة الشهوات أفضل سبيل يقود إلى الوَجْد، كما تبدّى ذلك بخاصّة عند المتزهّدين في خراسان. هذا المفهوم الجديد للحياة الدينيّة ربما كان يعكس ارادةً للتشبّه بالنسّاك المسيحيّين في الشرق أو بالحياة الرهبانيّة البوذيّة التي كانت ما تزال حيّة في آسيا الوسطى في العهود الأولى للإسلام. لكنّ هذا التأثير المحتمل يمكن أن يكون قد شكّل عنصرًا أضيف إلى ما سُمّي «البذور القرآنية» للزهد الإسلامي. إنّ التأمّل الدائم في مضمون النصّ الموحى به الذي يثبّته ويكمّله التمعّن بمختلف الاحاديث المنسوبة إلى نبيّ الاسلام (ﷺ)، هو في أساس نشأة تيارات دينيّة استمدّت جوهرها من معطيات الرسالة المحمّدية نفسها.

بالفعل، ولُبعد من هذه الدعوات إلى الزهد، استُند، منذ تلك الفترة، إلى مقاطع عدّة من القرآن الكريم لتبرير الفكرة التي تدّعي بإمكان الإتّحاد بالله. وهذه الفكرة لا تنسجم، في الأساس، مع التعاليم الإسلامية التي تقول بوحدانيّة الله، أي بتعاليه المطلق. وقد أُخذ بهذه النصوص كدليل على إمكان الإتصال المباشر بين الله ومخلوقاته، وهو إمكان تأكّد في مناسبات عدّة بحسب الذين يدّعونها. يقول هؤلاء إنّ الله أملى رسالته، فهو إذا تكلّم مع البشر عبر الوحي، وبثّ فيهم نَفْثَه ونوره وكلمته. فآدم هو الانسان الأوّل الذي يتلقّى النفث الإلهي؛ أمّا عيسى فكان كلمة الله، لكنّه مع ذلك بقي إنسانًا فانيًا. وإنّه تعالى، بحسب التقليد، قد تجلّى بشكل خاص للنبيّ محمد ﷺ مع المعراج. وتُظهر الآية ٣٥ من سورة النور أنّ الله تعالى يهب نعمه الخاصّة إلى الذين يتبعون نوره ويستذكرون إسمه. ومن هنا يوصى باللجوء إلى الذكر تقرّبًا من الله. إضافة إلى ذلك، فإنّ القوم الذين سيهديهم الله إلى الصراط المستقيم هم قوم «يحبّهم ويحبّونه» (سورة المائدة، الآية ٥٤). إنّ هذه الصيغة القرآنية تبرز فكرة المحبة المتبادلة بين الله والخليقة، وهي تاليًا في أساس كل انطلاقة صوفيّة.

إنّ الصوفيّة في العالم الإسلامي، التي عُرفت في بدايتها عبر التأمل الأخلاقي، مرّت في مراحل تاريخيّة عدّة:

- من القرن الثاني الى القرن الخامس للهجرة/القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر للميلاد، إرتسمت أُطُر الحركة عبر مبادرات شخصيّات منفردة، كان البعض منها من المفكّرين البارزين، تتقاسمها نزعة زهديّة وأُخرى تيوصوفيّة، ما تسبّب لبعضها بمضايقات من قبل السلطة.
- إبتداءً من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، بدأت الطرائق الصوفيّة بجتمع كلّ منها حول شيخ معلّم، يمارس أعضاؤها مختلف الشعائر الجماعيّة التي تنص عليها قاعدة مشتركة، كما يلتزمون أيضًا بمبدأ التقوى وبنمط حياة خاص.

وفي المرحلة الأخيرة، انتشرت الطرق الصوفيّة في مجمل المجتمعات الإسلاميّة، مع اعتماد قواعد الحياة الصوفيّة، على نطاق واسع، من قِبل الفقهاء وعلماء الدين.

٢ - خلال المرحلة الأولى للصوفيّة، وفي مستهلّ الخلافة العبّاسيّة، برز أوّلًا المحاسبي، المتوفّى سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م في بغداد، الذي يعتبره الجميع أوّل صوفيّ كبير. وقد التزم، في تعليمه وكتاباته حول الحبّ الإلهي، الحدود العقائديّة للرسالة القرآنيّة. وفي الفترة نفسها عُرف أيضًا إبرهيم بن أدهم، وهو شخص تقي اشتهر كثيرًا بين الناس بالتضحية والكرم، فحظي منهم بالمديح والتقدير.

وكذلك اشتهرت في البصرة متصوّفة تدعى رابعة العَدَويّة، إنقطعت إلى نمط حياة يقوم على إخفاء الذات بهدف الفوز بالثبات الأبدي في الله. وهذا النمط عبّرت عنه في الكلام الإنتشائي الذي كانت تطلقه، مؤكّدةً مثلًا أنّ تعرية الذات تسمح للإنسان بأن يحوز الحضور الإلهي فيه، لأنّ الله يميت ذات الإنسان ليحيا فيه. هذه الأقوال نجدها أيضًا في النصف الثاني من القرن الثالث

الهجري/التاسع ميلادي، في تصاريح البسطامي، وبنوع خاص في تصاريح الجُنَيْد الذي دافع عن النبوصوفيّة الإسلاميّة. ومثل هذه الأقوال تسبّبت للحلاج - الذي كان موقفه أكثر دقّةً، إلّا أنّه بقي إلى حدّ ما ملتبسًا - بملاحقة السلطات السياسيّة والقضائيّة، في بغداد وبالحكم عليه بالإعدام، بعد محاكمة مشهودة، وبتنفيذ الحكم فيه سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢٢م. وممّا لا شكّ فيه، أنّ الحكم عليه، في الحالة هذه، يعود الى أسباب سياسيّة بقدر ما هي دينيّة؛ فقد ارتكز على اتّهامات ذات طابع عقائدي، منها إجازته للصوفيّين إهمال فريضة الحجّ إلى مكّة المكرّمة، لأنّ في إمكانهم أن يجدوا الكعبة في قلوبهم.

لقد شكّلت هذه الإدانة تحوّلًا في مسار حركة التصوّف القديمة. فمنذ ذلك التاريخ عمل الصوفيّون على تحاشي الصدام مع علماء الدين بسبب المفاهيم الأخذيّة التي كانوا يقولون بها، كما عملوا على عدم إغضاب الفقهاء بسبب نزوعهم إلى اعتبار بعض الشعائر الدينيّة كفرائض غير ضروريّة. لا بل بالعكس، فقد ثابروا على إثبات أنّ تعاليمهم يمكن أن تساعد، عبر نشاط باطني خيِّر، على إحياء الفروض الطقسيّة، وأنّ التصوّف، بمتطلّباته الأخلاقيّة وطرقه التأمليّة، بمكنه أن يكمّل الأخلاقيّات التقليديّة وان يوصل إلى معرفة حَدْسيّة لله. وهذا ما هدف إليه القُشَيْري في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. وهذا ما هدف إليه بخاصّةٍ الغزالي الذي اشتُهر، وبحق، بفلسفته التوفيقيّة بين السنيّة والتصوّف، أي التوفيق بين التصوّف والحياة السياسيّة - الدينيّة التي كانت سائدة في الأمّة الإسلامية، منذ التجارب الأولى التي بدأت في المدينة باشراف النبيّ محمّد (ﷺ). والإغناء الذي وفّره التعليم الصوفي الذي بدأ، منذ ذلك التاريخ، يلقى رواجًا عند العديد من المؤمنين، يقوم بخاصّةٍ على تعظيم الفضائل، منها التوكّل على الله، وعلى ممارسات تقويّة وتكرار اسماء الله الحسنى في «الذكر». وفي الوقت عينه، بدأت تتكوّن تجمّعات دينيّة يلتقي أعضاؤها في زوايا لمتابعة عظات وارشادات أحد الشيوخ المعلّمين، وأيضًا لممارسة بعض التمارين الروحيّة والبدنيّة، أو للمشاركة في حلقات موسيقى ورقص تهدف إلى مساعدة المبتدئين للوصول إلى النشوة الصوفيّة.

وقد ظهر آنذاك إتجاهان في حقل التصوّف، وذلك بحسب الخيارات التي تبنّاها كل فريق: فبعض الشيوخ كانوا يفرضون على أتباعهم الإنسحاب من الحياة النشطة للعيش من الحسنات وحدها؛ والبعض الآخر اعتبر أنّ الإنصراف إلى الحياة الروحيّة يتلاءم مع ممارسة نشاط مهني، فجذبوا إليهم الحرفيّين والتجّار، وكانوا يشجّعونهم على متابعة مِهَنهم.

إلّا أنّ انشقاقًا أكثر عمقًا ظهر على الصعيد المعتقدي، وكان يفصل بين اتجاهين: فمن جهة كانت هناك طرائق - تعدّ هامشيّة قياسًا إلى متطلّبات المسلمين المتشدّدين - تدافع عن نظريّة «الحلول الإلهي»؛ ومن جهة ثانية، ركّزت طرائق أخرى على التأمّل كوسيلة «تقريب» بين الله والخليقة، ولكنّها لم تتخلَّ عن الفرائض التي يمليها الشرع. وهذا الموقف الحذر كان وراء الرواج الذي لاقته تعاليم العديد من الفرق، ليس لدى الطبقات الشعبيّة وحدها التي كان من السهل جذبها، بل أيضًا لدى بعض رجال الدين الذين، إلى جانب دروسهم الفقهيّة، عمدوا إلى التعمّق في أساليب التصوّف ومفاهيمه.

٣ - ومن هنا يمكن فهم التعامل المختلف للسلطات مع الصوفيّة في المرحلة الثانية من تاريخها. ففي بعض الأحيان اعتُبرت بعض الطرق منحرفةً، فأمست بالتالي هدفًا لمحاولات قمع اتّخذت طابع العنف أحيانًا. وهذا ما حصل مثلًا لأحد شهداء الصوفيّة شهاب الدين السُّهْرَوردي، الذي أُعدم في حلب بأمر من صلاح الدين، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، في الفترة التي عرف فيها الشرق «سياسة رذة الفعل السنيّة»، بعد وصول السلاجقة إلى السلطة. وفي ذلك نموذج عن الصعوبات العائدة إلى الوضع السياسي - الديني وإلى نقاط التلاقي والتواطؤ بين الفرق الصوفيّة وفرق شيعيّة متنوّعة. هذا التواطؤ الذي أثار ريبة السلطات السنيّة القائمة آنذاك، قوّى عوامل الإنقسام بين الطرائق الصوفيّة، وساعد على ازدهار تلك التي كانت تعمل من أجل انتشار السنيّة وتقويتها. وهكذا مثلًا رأينا،

في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، الحكّام في سوريا والهند والأناضول، يشجعون الطرائق الصوفيّة التي في إمكانهم الاعتماد عليها، ويشجّعون أيضًا بناء الخوانق التي كانت تؤدّي، في سبيل خدمتهم - وإن على مستوى آخر - دورًا شبيهًا بالذي كانت تؤدّيه المدارس. إنّ هذه الخوانق كانت، في الواقع، تنمّي أنماط تفكير وسلوك غريبة عن عالم الفقه.

وعلى هذا المستوى من تطوّرها، فإنّ الطرائق الصوفيّة التي ذاع صيتها والتي كان نفوذها يتنامى بشكل مطّرد، تحوّلت إلى تجمعات ذات تنظيم تراتبي، يتمّ الإنتماء إليها وفق طقس خاص؛ كما كان لكلٍّ منها قواعدها التنظيميّة التي هي إمّا من وضع مؤسّسها، وإمّا تعود أحيانًا إلى معلم سابق. وكان هذا التنظيم يستند إلى مبدإ إدامة تعاليم تنتقل من المعلّم إلى تلميذه وفق سلسلة متكاملة، وهذه التعاليم تحدّد الطابع المميّز للطريقة التي تسمح، بحسب المنهج المتّبع في كلّ فرقة من الفرق الصوفيّة، بالإتصال بالله. وهكذا انتشرت تعاليم هذه الطرائق وتقاليدها في كل العالم الإسلامي. وقد عرفت الطرائق الأساسيّة منها، حوالى القرن السادس للهجرة/الثاني عشر ميلادي، إنطلاقة حيّة جعلتها تنتشر من بلاد ما بين النهرين، وحتّى إيران الشرقيّة وآسيا الوسطى والهند والأناضول والمغرب.

وبعد هذا التوسّع انقسم التقليد الصوفي في بلاد ما بين النهرين - وهو الذي كان يعتزّ بانتمائه إلى تعاليم الجُنَيْد والغزالي - إلى فرعين: الأول، وهو السُّهْرورديّة، وينتمي إلى شخصيّتين تحملان إسم السُّهْرَوَرْدي، ولكنّهما تتميّزان عن شهاب الدين السُّهْروردي، الشهيد المتّهم بالانحراف الذي أشرنا إليه. وأشهر الإثنين توفي سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، وكان له تأثير كبير على الخليفة العبّاسي الناصر.

أمّا الفرع الثاني، وهو الرفاعيّة، فقد تأثّر بمواقف الرفاعي الذي عاش في منطقة المستنقعات في العراق الأسفل، والذي أدخل ممارسات دينيّة ذات طابع خاص، اعتُبرت أحيانًا شاذة، وتوفّي سنة ٥٧٨ للهجرة/١١٨٢ للميلاد. وقد انتشرت الرفاعيّة بعد ذلك في إيران، والأناضول وسوريا ومصر، وأحيانًا تحت تسميات فروع أخرى منبثقة عنها، لدرجة أنّ الرفاعيّة كانت، حتّى القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، الفرع الذي يضمّ العدد الأوفر من المنتسبين.

إلى تقليد بلاد ما بين النهرين هذا، تنتمي أيضًا القادريّة التي اعتمدت الإرث الصوفي لعبد القادر الجيلاني، وهو رجل دين عُرف كمتكلّم وكداعية حنبلي؛ وقد توفّي في بغداد سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م. بعد وفاته، تمّ تحديد الطريقة التي حملت إسمه والتي أذاعت شهرته، لدرجة أنّه أصبح الوليّ الاكثر شعبيّة في العالم الإسلامي كلّه.

حتّى القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، لم تعرف الصوفيّة في مصر والمغرب إلّا نجاحًا نسبيًّا عائدًا إلى الشهرة التي تمتّع بها أبو مَدْين المتوفّى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م قرب تلمسان، وأبو الحسن علي الشاذلي المتوفّى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م، الذي أسس تلاميذه، بعد فترة قصيرة، طريقة الشاذليّة. وبالمقابل، انتشرت الصوفيّة بشكل واسع في إيران، والأناضول، والهند، حيث برز إتجاهان أساسيّان: أخذ الأوّل بتعاليم الجُنَيد الذي كان في أساس الإنطلاقة الصوفيّة في العراق، والثاني، الذي كان أكثر ابتعادًا عن الممارسات التقليديّة، اعتمد تعاليم البسطامي، وهو إيراني توفّي سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م. وبدفع من هذا الإتّجاه الاخير، ظهرت وانتشرت في العالم التركي - الإيراني طرائق عدة، أهمّها، آنذاك: - الكُبْرَويّة، نسبة إلى نجم الدين كُبْرى المتوفّى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م والذي عاش في خوارزم؛ - الياسويّة المرتبطة بأحمد بن إبرهيم، الذي عاش في يامي (تركستان)، وتوفّي سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م. والذي كان، من خلال تعاليمه حول «الخلوة»، في أساس انطلاقة فرقة الخلواتيّة في أذربيجان والأناضول؛ - المولويّة التي انتشرت في المقاطعات العثمانيّة، وهي تنتمي إلى جلال الدين الرومي الشهير الذي قدم إلى الأناضول من بَلْخ، وكان يتبع التقليد الصوفيّ الإيرانيّ؛ - النقشبنديّة التي تعود في تسميتها إلى بهاء الدين النقشبندي المتوفّى سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م، وقد انتشر أتباعه انطلاقًا من بلاد ما

وراء النهر باتّجاه الاناضول والمناطق العربيّة؛ الجشتيّة التي نامت في الهند على عهد سلاطين دلهي؛ - السهروردية التي انتشرت في السند والهند في الفترة نفسها، ولكن مع دعم واضح من السلطة، بفضل جهود نور الدين مبارك الغزنوي الذي تُوفي سنة ٦٦١هـ/ ١٢٣٤م، ودُفن في دلهي، وخاصّةً بفضل جهود بهاء الدين زكريا المكرّم في مُلتان.

٤ - إبتداءً من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد تقريبًا، إتّسع نطاق تأثير الطرائق الصوفيّة. وبدأت تمثّل في بلدانٍ كثيرة شكلًا خاصًّا من الحياة الدينيّة يتمايز، قصدًا، عن الشرعيّة السنيّة. وكان أتباع هذه الطرائق يساندون الأنظمة القائمة حينًا، ويبتعدون عنها أو يحاربونها أحيانًا أخرى. ففي الأناضول مثلًا، شكّلت الطرائق الصوفيّة ملجأً للشيعة الذين لم يكن مذهبهم مقبولًا في البلاد. وغالبًا ما كانت علاقات هذه الطرائق بالأوساط الرسميّة هامشيّة، لأنّ هذه الأخيرة كانت تفضّل الإعتماد على علماء الدين ومدارسهم. ومقابل ذلك فإنّ إحدى الطرائق الناشطة في الهضبة الايرانيّة أفسحت في المجال أمام ظهور السّلالة الصفويّة. وقد شجّع انتشار هذه الطرائق عادةَ تكريم الأولياء، على حساب تراجع الحميّة الصوفيّة مع الندرة المتزايدة في الإنتاج الأصيل في هذا الحقل.

من بين الطرائق الصوفيّة التي لعبت دورًا مميّزًا، تجدر الإشارة إلى الخلواتيّة والبكتاشيّة اللتين نمتا داخل الأمبراطوريّة العثمانية إلى جانب المولويّة والنقشبنديّة اللتين أتينا على ذكرهما. وقد وصلت الخلواتيّة - المرتبطة بالشيعية والآتية من أذربيجان - إلى مصر والمغرب والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد. أمّا البكتاشيّة التي كان لها طابع أكثر أرستقراطيّة والتي تميّزت بتنظيمها المركزي وأظهرت هي أيضًا ميولًا شيعيّة، فقد حصرت عملها في الأناضول حيث لم تلاقِ توجّهاتها العقائديّة أيّة معارضة، وذلك حتّى الاضطهاد الذي عانت منه في العام ١٨٢٦، على أثر زوال منظّمة الإنكشاريّة.

ظهرت في المغرب حركة لها طابع خاص، مرتبطة بمفهوم «البركة» التي تُستمَدّ من الأولياء ومن قبورهم، ومنها انبثقت المرابطيّة. وقد قام شيخان بدور مهمّ في نموّها، هما أبو مدْيَن من تلمسان، وقد أتينا على ذكره، وقد كرّمه المرينيُّون بعد وفاته، والجزولي المتوفّى سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، الذي كان قد تمرّس على الطريقة الشاذليّة، واعتُبر وليًّا وانتشر تكريمه. والمعروف أنّ أحد تلاميذه كان في أساس قيام الطريقة العيسويّة التي اتّصفت بالممارسات المؤدّية إلى الوَجْد.

وعلى العكس من ذلك كان الوضع في الشرق الأدنى، وبشكل أخص في العالم التركي - الإيراني. فقد تخلّت الصوفيّة عن التأمّلات النظريّة التي تميّزت بها في مراحل معيّنة، ولكنّها تابعت التبصّر في قضايا الدين التي كانت في أساس نشأتها. وبهذه الصفة، حافظت عل المركز الأوّل الذي كانت قد احتلّته في إيران وآسيا الوسطى بعد الغزو المغولي. وبهذه الصفة أيضًا نمت في تركيا العثمانيّة، حيث كان النقشبنديّون هم الأكثر عددًا في المدن في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة/السابع عشر والثامن عشر للميلاد، إذ كانوا لا يزالون يملكون في اسطنبول، حوالى العام ١٨٨٠، إثنين وخمسين «خانقاهًا»، كما كانوا قد بسطوا نفوذهم باتّجاه الولايات، فكان لهم ممثّلون في سوريا منذ القرن السابع عشر.

وفي الهند، أخيرًا، شكّلت الصوفيّة رأس حربة للإسلام وأدّت دورًا بالغ الأهميّة لدى الطبقات الشعبيّة، كما لدى ممثّلي السلطة الذين دعمتهم في تشدّدهم العقائدي، متسبّبةً في ذلك بفشل كل محاولات التقارب مع الرعايا غير المسلمين، وهذا ما جرى مثلًا مع المحاولات التوفيقيّة التي قام بها السلطان أكبر والتي فشلت بسبب ردّات الفعل السلبيّة التي أثارتها.

وفي آخر القرن الثامن عشر، وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي، وصلت الصوفيّة إذًا إلى أنماط من التنظيم الجامد. لقد داخلتها بدعٌ مختلفة، لكنّ الأفكار التجديديّة توقفت.

بشكلٍ عام، وعلى الرغم من بعض التباينات التفصيليّة الخاصّة بكل فريق، تُعتبر الخطوط الآتية من الثوابت الدائمة لدى كل الفرق: ضرورة تكريم شيخ الطريقة الذي هو بمثابة المعلّم الروحي؛ - ضرورة

وجود تنظيم تراتبي يميّز بين فئتين من المنتسبين الى الطريقة: الأتباع والأعضاء العاديّين؛ - الحفاظ على مبدإ التلقين والتدريب لمختلف المنتسبين، كلّ بحسب مستواه، إنطلاقًا من عقيدة تحافظ على سريّتها وباطنيّتها، - تكرار عدد من الحلقات الجماعيّة تقام خلالها التمارين المؤدّية إلى الوجد - التقيّد الدائم بما كان يسمّى «تكريم الأولياء».

وبعد هذه المرحلة المؤسساتيّة المتنامية وشبه المتجمّدة، شهد القرن التاسع عشر تجدّدًا في الحركة الصوفيّة، استمدّ حيويّته من المقاومة التي أبداها بوجه التوسّع الغربي. هذا التجدّد الذي ظهر في كلّ مكان اتّخذ في غالب الاحيان شكلين مختلفين: شكل تقليدي وشكل جديد. تمّ تكييف هذين الشكلين على أيدي ثلاثة رجال من أصل مغربي: الدرقاوي، وهو شخص مُلهم إلى حدّ ما، ينتسب إلى الخط الشاذلي، ويمثّل الشكل التقليدي المعروف بالدرقاويّة؛ أمّا أحمد التيجاني - الذي كان له أتباع بشكل خاص في المغرب كما في أفريقيا السوداء - وأحمد بن إدريس - الذي إتّخذ من مكّة مركزًا لنشاطه - فقد أحييا التيّار التجديدي. وقد تميّزت التيجانيّة والإدريسيّة بالسعي إلى الإتّحاد بروح النبيّ محمّد ﷺ، وليس بالله، كما تميّزتا برفض الحياة الزهديّة والميل إلى القيام بأعمال ملموسة. وهذا ما يشير إلى التوجّه نحو الحياة النشطة الذي اتّخذته الصوفيّة.

لقد هيمنت التيجانيّة على مجمل المغرب العربي، وانتشرت أيضًا في جنوب الصحراء حيث حظيت بدعم الحاج عمر، وهو من فُلبة فوتاتورو؛ وقد تصدّى هذا الأخير لممثّلي القادريّة في ما كان يُعرف بالسودان النيجيري. وفي المغرب أيضًا، لاقت الدرقاويّة نجاحًا؛ وبعد وفاة مؤسّسها، اتّخذت شكل طريقة مميّزة وتشعّبت إلى فروع عدّة. وفي المغرب أخيرًا نمت الإدريسيّة، وقد انفصل في داخلها أتباع محمد بن علي السنوسي عن أتباع محمّد عثمان الميرغنيّ. لقد تميّز السنوسيّون برفضهم الموسيقى والرقص، وكل التمارين البدنيّة. إنّهم ركّزوا على التأمّل في الحقيقة المحمّدية؛ بينما كان الميرغنيّون أوفياء للتقليد الإيراني ولمختلف الممارسات المؤدّية إلى الوجد.

أمّا في شبه الجزيرة العربيّة فقد حارب مؤيّدو الوهابيّة الطرق الصوفيّة، وكانوا يدينون بشكل خاص عادة تكريم قبور الأولياء؛ كما كانوا يعملون على نشر تعاليمهم في مناسبات الحجّ؛ وكذلك أبدت السلطة العثمانيّة والسلطات المحليّة التابعة لها تحفّظًا تجاه تنامي الصوفيّة، وعملت على فرض سلطتها عليها. ففي مصر، مثلًا، عيّن محمّد علي - الوالي العثماني الذي استقلّ في ما بعد - «شيخ الطرق» في كل مدن المناطق التابعة له، ولا سيّما في شبه الجزيرة العربيّة، إبتداءً من سنة ١٨١٣.

وفي نهاية القرن التاسع عشر، بدأت الفرق الصوفيّة - التي كثر أتباعها في المناطق الواقعة على أطراف بلاد المسلمين، واستمرّ تناميها في الهند وأفريقيا - تعاني من حملات الحركات الإصلاحيّة التي كانت تزدهر آنئذٍ في المناطق العربيّة في الشرق الأدنى وفي الهند والتي لم تحصر نشاطها في هذه المناطق.

لكنّ هذه الحملات لم تُضعف دور الفرق الصوفيّة في أفريقيا، حيث استمرّ نموّها طوال القرن العشرين، وحيث ما زالت، حتّى اليوم، تحيي المناخ الديني السائد في عدد لا بأس به من الدول الإسلاميّة المستقلّة. وفي أماكن أخرى بدأت حركات التصوّف تفقد الكثير من معالم هويّتها، فاسحة المجال أمام صوفيّة متستّرة أحيانًا، ترتدي بين دولة وأخرى مظاهر متغيّرة، ولكنّها، مع ذلك، تبقى في أساس بعض ردّات الفعل العميقة التي يشهدها العالم الإسلامي المعاصر.

الصُّولي، أبو بكر محمّد بن يحيى، (؟-٣٣٥هـ/ ؟-٩٤٦م)، مؤرّخ وأديب من العصر العبّاسي الذهبي، كانت لشخصيّته مكانتها الخاصّة في بلاط بغداد.

يعود الصّولي في أصله إلى أمير تركيّ، وينتمي إلى أسرة من الكتّاب عملوا في خدمة الخلفاء. وقد اشتُهر بإتقانه لعبة الشطرنج، ونادم خلفاء عدّة، وارتبط بصداقة خاصّة مع الراضي إذ كان وصيًّا عليه، وحكم هذا الخليفة من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٩هـ/ ٩٣٥ إلى ٩٤٠م. توفّي الصّولي في البصرة سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م بعد أن وضع مؤلّفات عدّة، ما يزال قسم منها محفوظًا ولو جزئيًّا. وإليه يعود الفضل في جمع مختارات شعريّة قيّمة،

وحوليّات عن خلافة كلّ من الراضي والمتقي اللذين كان يعرفهما شخصيًّا.

الصوم، الشرعي أو الشعائري، هو ممارسة إلزاميّة تفرضها الشريعة، وهو من «أركان الإسلام» الخمسة، ويقع في شهر رمضان من التقويم القمري النظامي. يعلّم التقليد الاسلامي أنّ النبيّ (ﷺ) قد أمر، بداية، في المدينة، بالصيام يوماً واحداً في عاشوراء (أي اليوم العاشر من محرّم)، لذلك احتفظ هذا اليوم بمدلول دينيّ لدى أهل السنّة. وهذا الصوم الذي فرضه النبي (ﷺ)، والذي كان، على ما يبدو، مستوحى من تقاليد الصوم اليهوديّ، تمّ اعتماده في فترة كان النبيّ (ﷺ) يسعى الى استمالة اليهود. ثمّ حلّت محلّه الترتيبات التي لا تزال قائمة حتّى اليوم، وذلك في حياة النبي (ﷺ)، بدءاً من السنة الثانية للهجرة. وقد عرّفت بعض الآيات القرآنية صوم رمضان الشعائري هذا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة البقرة، الآيات ١٨٣-١٨٥).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية ١٨٧).

يتّضح بشكل دقيق من النص الأخير أنّ فريضة الصوم تقتضي الامتناع عن الشراب والأكل والتدخين والعلاقات الجنسيّة طيلة شهر رمضان، وخلال النهار منذ طلوع الفجر حتى المغيب. وإذا كان الصيام تامًّا خلال هذه الفترة الزمنيّة، فمن الواجب التوقّف عنه وتناول وجبة فوراً وكذلك تناول وجبة ثانية في الثلث الأخير من الليل. أمّا بداية شهر رمضان ونهايته فإنّهما يحدّدان - في التقليد السنيّ على الأقل، لأن الفاطميّين الشيعة كانوا يقبلون بالحساب الفلكي - بمراقبة القمر المباشرة، علماً أنّ نتيجة هذه الرؤية قد تختلف من منطقة إلى أخرى، أو حتّى من محلّة الى أخرى. والصوم إلزامي للمؤمنين الراشدين والأصحّاء عقليًّا من الجنسين - ما عدا النساء في فترة الحيض - والمسافرين، والمرضى والمسنّين. وهناك كفّارات متنوّعة تُفرض على المؤمنين الذين امتنعوا اراديًّا عن الصيام.

من جهة أخرى، من المستحسن تلاوة القرآن في ليالي رمضان وأداء صلاة شعائريّة خاصة، مدّتها أطول من مدّة الصلاة العاديّة، لاشتمالها على ٣٩ ركعة. وتُعتبر ليلة القدر ليلة احتفال مباركة، لأنّها استذكار للّيلة التي أنزلت فيها الآية الأولى على النبيّ محمّد (ﷺ). وفي المعتقد الشعبي، يتمّ في هذه الليلة سنويًّا تحديد قدر كل إنسان. وفي نهاية صوم رمضان، يُحتفل بالعيد الصغير، أي عيد الفطر، وفي هذه المناسبة، في بداية شهر شوّال، تقام احتفالات ترفيهيّة متنوّعة، ويتوجّب الإحتفال بالصلاة في المصلّى، وعلى ربّ الأسرة أن يوزّع، في المناسبة، صدقة وهي عبارة عن أطعمة تقدّم للفقراء، ولكن في إمكان السلطات اليوم أن تحدّد قيمة هذه الصدقة بمبلغ مالي معين.

وفي حال عدم التقيّد بقواعد الصوم تعيّن كفّارات، يمكن أن تكون صوم يوم اضافي أو صوم شهرين أو إعتاق عبد. ويُنصح بأيّام صوم إضافيّة خارج شهر رمضان، وذلك في بعض المناسبات كيوم عرفات ويوم عاشوراء. كما يُنصح أيضًا بممارسة الإعتكاف في فترة الصوم، وهو كناية عن الانعزال في مسجد للصلاة، وعدم الخروج منه. ويبدو أنّ هذا الأمر لم يكن شائعًا.

الصومال، مجموعة مناطق دخلت الإسلام باكرًا، تحدّ خليج عدن والمحيط الهندي من جهتي القرن الافريقي، وهي اليوم موزّعة بين جمهوريّة الصومال الديمقراطيّة وجمهوريّة جيبوتي.

١ - شكّلت هذه المناطق في القرون الوسطى ملجأ للثائرين المسلمين الهاربين من ملاحقة الخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين، كالزيديّين الثائرين مثلًا، واللاجئين من الأحساء وعُمان الذين أسّسوا مدينة مقديشو. واستمرّت بعد ذلك تستقبل العرب القادمين للتجارة في مرافئ زيْلَع وبندر عبّاس قرب بَرْبرا الحاليّة، وأخيرًا مقديشو. ولم يتأخّر الإسلام في التوغّل داخل هذه الأراضي الجافّة والحارّة حيث كانت تعيش قبائل بدويّة أطلق عليها الجغرافيّ ياقوت، في القرون الوسطى، إسم قبائل الصومال. كانت هذه القبائل تهاجم بانتظام الحبشة المسيحيّة، وقد ساعدت على قيام مجموعة سلطنات إسلاميّة عرف بعضها الازدهار، ومنها تلك التي زارها الرحالة إبن بطوطة سنة ١٣٣١ ودخل بلاطاتها ووصف نُظمها.

إنّ أمبراطوريّة الجهاد الأولى هي تلك التي أسّسها، في هضاب الحبشة العليا، محارب محلّي ادّعى الإمامة وعُرف باسم أحمد بن إبراهيم الغازي، أو أحمد غران. أدّت هزيمته، ثمّ موته سنة ١٥٤٣، إلى تفكّك السلطنة الساحليّة. وقد تبع الهجمات المتتالية - التي قامت بها قبائل الغلّا، وقام بها البرتغاليّون والأحباش وعرب شبه الجزيرة - توغّل عثماني سمح لاسطنبول، في القرن السابع عشر، ببسط سلطتها على الساحل الشمالي بواسطة أتباع لها قدموا من اليمن. وقد كثّف هؤلاء علاقات إقتصاديّة ودينيّة متطوّرة بين حضرموت والمرافئ الصوماليّة، في حين أنّ الساحل الجنوبي وقع تحت نفوذ عُمان.

في مطلع القرن التاسع عشر، شهد الإسلام انتعاشًا مميّزًا، بفضل نشر تعاليم صوفيّ هو أحمد بن إدريس مؤسّس الطريقة الإدريسيّة الأحمديّة، وترافق ذلك النشاط مع التوغّل الأوّل للقوى الأوروبيّة في المنطقة. لكنّ محاولات التوغّل المصريّة والإنكليزيّة أوقفتها، في أواخر القرن، العمليّات الحربيّة التي قادتها أمبراطوريّة جهاد ثانية، وكانت هذه مرتبطة بتيّار المهديّة السودانيّة؛ وكان يحرّكها، باسم الطريقة الصالحيّة الصوفيّة المنبثقة من الإدريسيّة، قائدٌ صومالي هو محمد بن عبد الله (١٨٦٤-١٩٢٠) الذي طبّق مذهبًا شافعيًّا قاسيًا ومتصلّبًا، وحارب القادريّة بعنف. ومرّت البلاد بعد ذلك في مرحلة سيطرت خلالها الدول الأوروبيّة التي تقاسمت مناطق النفوذ، وذلك قبل إعلان استقلال الجمهوريّة الصوماليّة سنة ١٩٦٠.

٢ - تبلغ مساحة جمهوريّة الصومال الديمقراطيّة الحاليّة ٦٣٧ ٦٦٠ كلم²، وعاصمتها مقديشو. وهي دولة معاصرة مستقلّة في أفريقيا الشرقيّة السوداء، ويبلغ عدد سكانها سبعة ملايين نسمة كلّهم تقريبًا من المسلمين.

ولهذه الدولة حدود مشتركة مع الحبشة وكينيا وجيبوتي. وباستثناء الطوق الصغير حول مدينة جيبوتي، فإنّ أراضيها تشمل مجمل الساحل الصومالي القديم. ومنذ أن نالت الدولة استقلالها سنة ١٩٦٠، إجتمعت المنطقتان اللتان كانتا قد فُصلتا بعد الحرب العالميّة الأولى، لتشكّل الأولى، في الشمال، الصومال البريطاني وعاصمته بربرا ثمّ حرقيسا، والثانية في الجنوب، الصومال الإيطالي وعاصمته مقديشو، الذي وُضع، بعد الحرب العالميّة الثانية، تحت وصاية الأمم المتّحدة.

إنّ الوجود القديم للإسلام الذي يعود إلى القرون الوسطى قويّ عبر العصور في هذه المنطقة بفضل اتّباع سياسة الجهاد ضدّ الدول المجاورة وضدّ كلّ تدخّل غريب. وهذا ما يفسّر الوضع الحالي للسكّان - السنّة في أغلبيّتهم - الذين يأخذون بالمذهب الشافعيّ، وتتّسم وطنيّتهم بالاندفاع الديني، على الرغم من قيام نظام سياسي سيطر عليه، منذ البدء، الحزب الاشتراكيّ الثوريّ الصومالي، ولكنّه غرق في الفوضى. والدور الذي حاولت أن تؤدّيه دول عربيّة معاصرة لتطوير النظام السياسي في الصومال، ولا سيّما المملكة العربيّة السعوديّة، اصطدم بطبيعة الإسلام الصومالي الذي ينطبع بتأثير الطرائق الصوفيّة كالقادريّة والإدريسيّة الأحمديّة التي انبثقت منها الصالحيّة. وهذه الطرائق بقيت مرتبطة بالأوساط الدينيّة اليمنيّة، وعلى الأخصّ في حضرموت. وبواسطة هذه الطرائق عينها، ولا سيّما القادريّة، تقوم روابط أخرى متنوّعة بين الصومال والسكّان المسلمين السود في دول أخرى، منها تنزانيا وملاوي.

الى هذه العوامل الدينيّة التي أدّت إلى انقسامات

داخليّة، تضاف مصاعب إقتصاديّة سببها فقر المنطقة والكلفة الماليّة الثقيلة الناتجة عن العمليّات الحربيّة ضدّ الحبشة، فضلًا عن تدفّق اللاجئين المسلمين من منطقة هَرَر الواقعة داخل هضبة الحبشة. إنّ تزايد البؤس العام في البلاد، جرّاء الصراع العنيف بين الجماعات المتعادية والتابعة لزعماء الحرب، أدّى إلى قيام حالة من عدم الاستقرار العام ومن الصراعات الداخليّة التي تعانيها الصومال اليوم.

◄ راجع المستندات ١٠، ٢٥، ٢٨ و٣٠.

الصيد، هو نوع من اللهو، تأتي الشريعة الإسلاميّة على ذكره في مجرى الكلام عن المحرّمات الغذائيّة. لكنّ الصيد كان، في القرون الوسطى، الترفيه المفضّل لدى الأوساط الملكيّة والأميريّة التي كانت بذلك تستعيد عادات بدويّة قديمة.

وبالفعل، على غرار فنون الفروسيّة المرتبطة بها، كانت هواية الصيد، التي مارسها الفرسان المسلمون على مدى العصور، تستلهم عادات كانت سائدة عند شعوب الجزيرة العربيّة أو في العالم الإيراني – التركي، وتدلّ عليها خصوصًا نصوص أو رسوم تعود إلى الحقبة الساسانيّة. على أنّ الصّيد، عدا أنّه كَلَهْوٍ ومظهر يرمز إلى القوة، كان يُعتبر تمرينًا مفيدًا لمن يمارس مسؤوليّات الحكم. وكانت هذه الهواية مدعاة فخر لمن يمارسها، إذ إنّ الحوليّات تتحدّث عن نبلاء وأمراء اشتهروا بشجاعتهم في مطاردة الحيوانات المتوحّشة، وليس هذا فحسب، إنّما بحسب قول أحد الكتّاب القدماء:

«من شأن الصّيد أن يوفّر للعاهل باستمرار مجموعة من الفوائد أقلّها إتاحة الفرصة له ولحاشيته لمعاينة مناطق من أراضيه قابلة للاستصلاح، مع ما يجب إضافته لذلك أو إنقاصه (...). فلم يحدث أن خرج ملك إلى الصيد من دون أن يعود عليه ذلك بفائدة. فإذا جنحت مطاياه إلى الهيجان دَرَّبها، قابضًا على أعنّتها بيده تدريبًا لها؛ كذلك ينسى شهوته الجسديّة، ويُزيل نزوات جسده المضرّة، ويليّن مفاصل أعضاء جسده. وإذا اتّفق أن غاب عنه ظلم وقع على أحد رعاياه، يتيح الصّيد للمظلوم فرصة لقاء سيّده وعرض ظلامته له؛ وبذلك يُردُّ له حقُّه. أخيرًا، عندما ينصرف الأمير إلى ملاحقة طريدته تتوافر له، في نجاحه، فوائد كثيرة، من دون إعمال الفكر في أيّة فائدة ماديّة». (نقلًا عن سورديل، حضارة الاسلام الكلاسيكي).

ثمّة نوع من الصّيد كان مفضّلًا على سواه، وهو الذي تُستعمل فيه حيوانات مدرّبة – كالكلاب والفهود – لمطاردة الفريسة؛ وكان ذلك يتطلّب مرافقة عِلْيَة القوم للسيد واستخدام عدد كثير من الخدم. لكنّ هذا التفضيل لم يكن يضاهي الحظوة التي نصيد الباز او (البَيْزرة) (وهو تعبير من أصل إيراني). كان هذا الفن موضوع كتابات لا تُحصى تعود إلى الحقبة الإسلامية الفروسطيّة، وردت في روايات المؤرّخين أو نوادر الأدب، أو في أنواع من شعر الطَّرْديّات الغزير. على أنّ الصيد كان خصوصًا موضوعًا لكتابات أدبيّة متخصّصة وعلميّة احتوتها مؤلّفات تقنيّة حول صيد الوحوش بواسطة الكلاب، وتربية الصقور والبيزان، تعود أقدم نماذجها المعروفة إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، قبل أن تشهد ازدهارًا في فترة حكم مماليك مصر، وهي التي استعمل الغرب المسيحي ترجماتها اللاتينيّة.

وفي عهود الإسلام القروسطي، رافق الرواج الأدبي للمواضيع المتعلّقة بالصيد وتقنيّاته، الاستعمالُ الفني لها من قبل فنّانين استهوتهم فكرة صنع نماذج حيوانيّة من البرونز والخزف، مرسومة أو مطرّزة أو محفورة، ومثبتة على ركائز، وثمينة إلى حدّ ما. وكذلك، كان الرسّامون وفنّانو المنمنمات يؤثرون اختيار مشاهد الصيد على ما عداها في دائرة الحياة اليوميّة للأمير، وينفّذونها بدقّة، رغم الطابع المقولب في غالب الأحيان للوضعيات وللمشهد الطبيعيّ المخطّط في خلفيّة اللوحة.

لكنّ الصيد في العالم الإسلامي الوسيط لم يكن مجرّد مصدر متعة للحكّام ورجال الحرب، إذ إنّ ميول هؤلاء الأشخاص لهواية الصيد كانت لها انعكاسات لا يُستهان بها على الحياة السياسيّة والإقتصاديّة في مجتمعات كانت فيها تَسْلية الملك تؤثّر على سلوكه، كما كان لرعاية الآداب والفنون دور أساسي مشجّع للتجارة والحِرَف. وقد أوحى الصيد الذي يمارسه الملك، إضافةً إلى النماذج الزخرفيّة، بعضًا من الفنون المعماريّة، كمثل احتواء المباني في داخل المدن الملكيّة مأوى لحيوانات الصيد وطيوره، وكذلك مساحات مسوّرة مخصّصة للحيوانات المتوحّشة. وكذلك كان هذا الفنّ في أساس حيويّة عدد من

الحرف، منها المتخصّصون في القبض على طيور الصيد وتدريبها والاتّجار بها، ومنها الحرفيّون الذين يصنّعون مختلف أنواع التجهيزات الضروريّة للصيد. وكان الصيد أيضًا هواية تمارسها بشغف شعوب محليّة، ريفيّة أو بدويّة. وهذا الوضع، المستمرّ حتّى اليوم في سلوك تلك الشعوب، يجعل من بعض المناطق البعيدة في آسيا الوسطى، اضافة الى بلدان الجزيرة العربيّة الغنيّة، مرتعًا لفنّ صيد الباز.

صيدا (الجمهوريّة اللبنانيّة)، مرفأ على ساحل فينيقيا القديمة، مثّلت المدينة دورًا مهمًّا في عهد مملكة القدس اللاتينيّة، وكانت معروفة عند الغربيّين باسم «صاجيت» (Sagette).

احتلّت الجيوش العربيّة - الإسلاميّة مدينة صيدا القديمة الشهيرة أيّام الفتوحات الكبرى، عام ١٦هـ/ ٦٣٧م. أشار إليها جغرافيّو العرب كمرفإ عسكريّ محميّ. استولى عليها الفرنج سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م وسلّم سكّانُها مقابل دفع فدية. لم تنفكّ، حتّى سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م، تنتقل دوريًّا من الفرنج إلى المسلمين، في حين أنّ تحصيناتها، التي دمّرها صلاح الدين في العام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، أعيد بناؤها في العام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م والعام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م. مازال هناك آثار من دفاعاتها البحريّة القروسطيّة الأخيرة التي تمّ اصلاحها على أيدي المماليك، عندما اضطلعت صيدا بدور مركز لناحية عسكريّة تابعة لولاية دمشق. كان تطوّرها في لبنان في القرن العشرين عندما أصبحت مرفأً نفطيًّا في منطقة خصبة أهلة بالمسلمين بصورة خاصة.

◄ راجع المستندين ٩ و١٨.

الصين، بلاد كانت منذ حقبة قديمة على صلة بالإسلام، تضمّ أقليّة مسلمة مهمّة نسبيًّا بعددها، لكنّها تشكّل نسبة مئويّة ضئيلة قياسًا بعدد سكّان الصين. إنّها لا تزيد عن اثنين بالمئة من تعداد هؤلاء البالغ أكثر من مليار نسمة.

لا نملك معطيات دقيقة حول وجود المسلمين، بحّارة وتجّارًا، في الصين في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد. والمعلومات التي تزوّدنا بها مصنّفات الوقائع المحليّة لا يمكن الاعتماد عليها غالبًا. فمعتنقو الإسلام الذين برزوا في مراحل متأخّرة عمدوا، تأكيدًا لوجودهم، إلى تبرير أقدميّة هذا الوجود الذي كانوا يُرجعونه أحيانًا إلى السنوات الأولى لقيام الأمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة. وفي كل الأحوال، أفاد بعض المسلمين من انتظام الرياح الموسميّة لتنمية الملاحة في المحيط الهندي في العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة. فثمّة بقايا أثريّة، منها بعض قطع الخزف المنقوشة، من أصل صيني، تؤكّد وجود مبادلات تجاريّة مع الصين. وتورد وقائع هذه المبادلات روايات الأسفار العربيّة القديمة المذكورة في الكتابات العلميّة للجغرافيّين كابن خُرداذبه، وكذلك في الأخبار الشعبيّة للقصّاصين.

كانت سفن هؤلاء التجّار تنطلق من البصرة أو من سيراف على الخليج العربي - الفارسي وتتوقّف على طول شواطئ السند وغُجرات ومالابار في الهند، وكذلك في إندونيسيا، قبل أن تتوجّه للتبضّع من الخزف الثمين والحريريّات والمنتجات الكماليّة الصينيّة الأخرى المرغوبة في مدن العراق الكبرى. واستقرّ روّاد آخرون في الأنشطة التجاريّة، مهتمّون بتسهيل المبادلات، من خلال تكثيف المحطات التجاريّة التي تُيسّر استقبالهم، في مدن مرفئيّة عدّة على الساحل الجنوبي - الشرقي للصين، وبخاصة في كانتون، حتّى إنّهم تقدّموا في اتّجاه الشمال إلى مواقع قرب بكين. ومنذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، في عهد سلالة التانغ، جرت إشارة إلى «غرباء» يقصدون الصين، هم في الواقع مسلمون عرب أو إيرانيّون؛ وحوالى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؛ في عهد سلالة سونغ، شُيّدت مساجد في تلك المدن التي عرفت الحركة الإقتصاديّة فيها ازدهارًا يسترعي النظر.

وقد تقدّمت العلاقات البحريّة بين الشرقين الأدنى والأقصى في الأهميّة على الاتصالات البريّة التي ظلّت ظرفيّة منذ بدايات الإسلام، ولم تتمكّن من الصمود، في فترة القرون الوسطى الأولى، بعد التخلّي عن التجارة الأسيوية عبر «طريق الحرير» القديمة. ومن المؤكّد، تاريخيًّا، وقوع المواجهة العسكريّة في معركة تالاس،

سنة ١٣٣هـ/ ٧٥١م، على أطراف الأمبراطوريتين، حيث تمكّنت الجيوش العبّاسية من دحر القوّات الصينيّة التي كانت تقدّمت إلى أطراف أمبراطوريّة التانغ في آسيا الوسطى. ويقال إنّ المنتصرين تعلّموا من أسْراهم تقنيّة صناعة الورق التي تمّ استثمارها على الفور في سمرقند. لكن كان يجب انتظار الاضطرابات السياسيّة، التي تسبّبت بها غزوات المغول في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حتّى يعاد فتح طرق القوافل الصعبة المسالك، التي تعبر تاريم، أمام التجارة. على أنّ الطريق البحريّة بقيت الأكثر استعمالاً.

وخلال فترة حكم سلالة يوان التي أسّسها المغول، توافر لـ«الغرباء» المسلمين الذين كانوا يعيشون في المقاطعات الساحليّة موقع ممتاز، وتمتّعوا بامتيازات خاصة. ويعود تاريخ المباني المختلفة وشواهد القبور والكتابات العربيّة الأخرى المنقوشة - التي هي اليوم موضوع تحقيقات ودراسات أفرزت معطيات جديدة - إلى الفترة الواقعة بين ٦٧٠ و٧٧٩هـ/ ١٢٧١ و١٣٦٧م. لكنّ السنوات العشر الأخيرة من هذه الفترة تميّزت بالثورات والاضطرابات الخطيرة التي قُتل فيها عدد كثير من المسلمين. وبالرغم من أنّ هذه الجماعات الإسلاميّة، التي ضعفت إلى حدّ بعيد، قد تمتّعت من جديد بحماية الحكام مع بداية القرن الخامس عشر، إلّا أنّها لم تسترجع أبدًا حالة الرخاء التي توافرت لها سابقًا، ولكنّها سمحت، حتّى يومنا هذا، باستمرار وجود إسلام صيني ذي طابع خاص تبرز بعض سماته المميّزة بالآثار المحفوظة عن هندسته المعماريّة وعن فنّه.

◄ راجع المستندين ١٠ و٣٠.

ض

الضرائح، أبنية شُيِّدت لتكون قبورًا لشخصيّات شهيرة أو جليلة، وهي تُعتبر من الإنجازات الرائعة للعمارة الإسلاميّة، وغالبًا ما تمّت المحافظة عليها نظرًا إلى الإحترام الذي تحظى به.

عُرفت الضرائح، بحسب المناطق والعصور، بأسماء متنوعة من بينها خصوصًا، بالعربية، «القبّة» - ومنها الـ«Koubba» بالفرنسية - و«تورباً» و«غنباد» بالفارسيّة، وكذلك «توربه» و«كومبد» بالتركيّة. وكانت تلك الضرائح التي يقال لها أيضًا «مشهد»، «مقام»، «شهزاده» أو «إمامزاده»، تضمّ بشكل أساسي رفات ملكيّة أو رفات مكرَّمين، أو رفات وليّ أو نبيّ، بحيث تُصبح مقصدًا لزيارات تقويّة. ورغم مظهرها المختلف من مكان إلى آخر وتطوّرها عبر العصور، فإنّها تشترك جميعها في الإفادة من الزينة التي كان استعمالها شائعًا في تجميل القبور، وهذا ما كان يدينه الفقهاء؛ لكنّها كانت تحظى بتكريم مستمرّ في كل الأوساط الإسلاميّة، ميسورة أو شعبيّة، حيث يلتقي احترام السلالات الأميريّة مع عادة تكريم الموتى الذين يمنحون العون والبركات.

بعض من هذه الضرائح كان يبدو كبناء بسيط، وأحيانًا بدائيّ، في الريف كما في السهوب. أكثريتها خارج المدن وأمام أسوارها حيث تظهر حقول جرداء ملأى بالمدافن. وقد أصبحت بنية تلك الضرائح التي يمكن أن تتحلّق حولها بعض القبور، في أساس الضواحي أو التجمعات الصغيرة الجديدة التي نشأت نتيجة لتدفّق الحجّاج والمسافرين. وقد راوحت تلك الأبنية، التي تمّت المحافظة عليها في أغلب الأحيان، بين البرج الإيراني تحديدًا والصروح الصغيرة المكعّبة الشكل، والمقبّبة، والمزيّنة أحيانًا بأقواس بين ركائزها الأساسيّة تتخلّلها كُوى؛ وهذا النوع من الأبنية معروف في الشرق الأوسط السوري أو المصري، وصولًا الى المغرب حيث يطلق عليه الأوروبيّون، بشكل عام، اسم «كوبّا» (قبّة) أو «رباط». ويمكن أن تكون تلك الضرائح بسيطة البناء أو يظهر فيها مجهود للإتقان الهندسي وللغنى التزييني، حيث تستوحي من العادات المحليّة الخاصة بالعمارة أو بالزينة وقد نتج عنها، بحسب المقاطعات، نجاحات معبّرة وأحيانًا بارزة جدًّا.

إن بساطة الأبنية الحجريّة أو الآجُريّة المزيّنة بحفر، للمناسبة، بشرائط ولوحات منحوتة، أو بأنواع زخرف أُخرى، هي التي تميّز، مثلًا، قبور المرحلة الفاطميّة في مصر، أو الأيوبيّة في سوريا وفي اليمن، أو حتّى مرحلة سلاجقة الروم ومنافسيهم في الأناضول، في العصر الذي اتّخذت فيه الضرائح التُركيّة شكلها، وغالبًا ما كانت مكسورة الزّوايا.

لكنّ تميّزًا أكبر على صعيد التخطيط والتنفيذ كان قد برز في القباب ذات التجويفات القرميديّة في ضرائح العراق أو في أبراج المدافن ذات الأشكال نصف الكوكبيّة التي شُيّدت في إيران، في عهد السلاجقة الكبار، والتي كانت قد سُبقت بضريح ضخم ومدهش ذي خطوط صافية، أعطى إسمه لمحلّة غُنباد قابوس، أو بصفاء الزخارف القرميديّة التي نجدها في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، في آسيا الوسطى، في ضريح السامانيّين في بُخارى.

هذا الميل الى الجدران الفخمة التي ازداد جمالها، في ما بعد، بفضل تطعيمها بالسيراميك، استمرّ في ضرائح خراسان، مثلًا في «ميل ردكان»، أو في

أذربيجان، مثلًا في الأضرحة اللمّاعة والملوّنة التي تتالى ظهورها في مراغة بين القرنين السادس والثامن للهجرة/ الثاني عشر والرابع عشر للميلاد. أمّا النماذج العديدة للأضرحة الملكيّة التي تحفظ في الهند ذكرى السلالات التي تعاقبت عليها من القرن السابع الى العاشر للهجرة/ الثالث عشر إلى السادس عشر للميلاد، في سهل الغانج أو في الدكّن، فتقدّم أفضل المحاولات لإحياء نماذج قديمة جدًّا، ولكنّ هذه النماذج كانت، في كل مرّة، تحقق، بأسلوب مبتكر، النموذج الإيراني للضريح ببرجه المقبّب، ذلك الذي تطوّر في المقابل باتّجاه شكل مُقَوْلب في أمبراطوريّة العثمانيّين. وكان هناك ضرائح أخرى انصبّ فيها الجهد، منذ وقت مبكر، على دمج تلك الصيغة البسيطة بعناصر معمارية متنوّعة الأصول. إنّ إضافة بوابات فخمة، وإيوانات، وأروقة وغرف عدّة ملحقة، بقياسات عملاقة أحيانًا، أدّت إلى نشوء الضرائح الأميريّة التي يمكن أن تُتخذ أمثلة عليها تلك التي شُيِّدت في أيام الأيلخانيّين والتيموريّين في المقاطعات الشرقيّة، في سلطانية، وطوس، وبلْخ أو سمرقند بنوع خاص، وذلك قبل أن تزدهر في الهند، تحت تأثير المغول، ضرائح فسيحة وفخمة، كضريح ناصر الدين همايون في دلهي او تاج محلّ في أغْرا. وقد تطوّرت باتّجاه ذوق الضخامة نفسه، ولكن وفق منظور أكثر براعةً، المدافنُ المُدْمَجة في مجموعة معماريّة معيّنة، والتي تشكّل نواة تلك المجموعة، باعتبارها ضريح المؤسّس ومشيَّدة بناء على مبادئ تنظيميّة مختلفة جدًّا.

هذا النموّ التدريجي لمجموعات واسعة محيطة بالمبنى الضريح - الذي استُوعِب بشكل كامل وأُخْفِي ضمن إضافات من الأبنية الضروريّة لاستقبال المؤمنين وإسكان التلاميذ - جعل منها صروحًا مناسبة لحاجات العبادة والتعليم. هكذا كانت تبدو مجموعات الأبنية المنتظمة حول قبّة مركزيّة، تمثّل أضرحة شيعيّة لأئمّة أو لأفراد من سلالة علي في إيران وفي العراق، أو ترافق مدافن شيوخ متصوّفة مثل الشيخ بسطامي على طريق خراسان، والشيخ أبو مدْيَن في جوار تلمسان، أو غيرهما من المتصوّفة مؤسّسي الطرائق الصوفيّة الذين كان نفوذهم كبيرًا الى درجة أنّ سلطتهم الدينيّة انتقلت من بعدهم إلى أولادهم أو إلى آخرين من المتحدّرين منهم مباشرة.

إنّ معظم الأثرياء الذين حَموا العلوم والآداب في الشرق الأوسط اختاروا، منذ القرنين الخامس والسادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، أن يدمجوا قبورهم الشخصيّة بمؤسّسات دينيّة يحرصون على بنائها من ثروتهم الخاصة وعلى تأمين ازدهارها من خلال عائدات أوقافهم. هكذا قامت قبورهم وكأنّها ملحق بسيط لمدارس أو لأماكن تنسّك وعبادة، أو لمستشفيات أو لمساجد، وحتى لمساجد جامعة، ضمن مجمّعات هندسية توصف غالبًا بأنها «مجمعات مدافن». بعضها يلتزم تصميمًا متماسكًا نجسّده في الأناضول مؤسّسة سلالة بني منكوجك في ديوريكي في العام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م، أو مؤسسة هواندحاتون في قيصريّة في العام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م؛ ونجد لاحقًا في مصر مؤسسات شبيهة تمثّلها المدارس - المدافن لسلاطين المماليك في القاهرة. إنّ انتظام بعضها الآخر يقوم على تقريب الأبنية المنفصلة التي تحيط بمدفن الواهب - وهو في معظم الأحيان عاهل - كما هي الحال في مؤسّسات أوائل العثمانيين التي ميّزت عاصمتهم بورصة.

من هذه النماذج الأكثر شهرة مجمّعات بايزيد الأوّل بِلْدِرم ومحمّد الأوّل شلبي، وقد انتهى العمل في الأوّل في العام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م، وفي الثاني في العام٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م. ولكن منذ القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، قامت في المغرب، أيام سلالة المرينيّين في سلا، قرب الرباط، مقبرة ملكيّة كبيرة تضمّ أبنية لأغراض متنوّعة.

وسواء كان الأمر متعلّقًا بمؤسّسات تلبّي رغبات الملوك، أو بمراكز عبادة راحت تكتمل شيئًا فشيئًا على مدى السنوات، فإنّ ازدياد عدد هذه المجمّعات الهندسيّة يُشكّل شاهدًا على الحظوة التي تتمتّع بها الأضرحة في بلاد الإسلام. ولقد كان لها، على الصعيد الإجتماعي - الديني، وفي أماكن مختلفة من عالم الإسلام، نتائج مستمرّة: فقد وُجّهت النفقات، التي كانت تُكرّس في البدء لتمجيد الأمراء المتوفين، نحو تطوير العلوم

الإسلامية ونحو الأعمال الخيرية، وفي الوقت نفسه ساهمت في الحفاظ، قرب مدافن المتصوّفة وغيرهم من رجال الدين المحترمين، على التعليم الروحي وعلى الإشعاع السياسي الذي كان هؤلاء الأشخاص الأولياء ينعمون به في حياتهم، والذي انتقل إلى الأجيال اللاحقة بفضل انتشار عادة «تكريم الأولياء».

◄ راجع المستندات ٦٠: ٦٣، ٦٤، ٧٤، ٧٦، ٨١، ٨٢ و٨٦.

الضريبة ← النظام الضريبي الإسلامي.

ط

الطائف (المملكة العربيّة السعوديّة)، مدينة في الحجاز، في شبه الجزيرة العربيّة الوسطى، وهي واحة صحراويّة جبليّة خصبة، على بعد حوالى مئة كلم إلى الشرق من مكّة. سكنتها قديمًا، بنوع خاص، قبيلة ثقيف، وشكّلت منافسًا لمكّة. ويبدو أنّ القرآن الكريم قد أشار إليها في آية تذكر «القريتين»؛ وفيها أيضًا كان معبد «اللّات».

لم ينضمّ سكانّها إلى النبيّ محمّد ﷺ إلّا في وقت متأخّر، وقد نهضوا في ما بعد بدور في العهد الأموي. لكنّ العبّاسيّين أبعدوهم عن الحياة السياسيّة على الرغم من أنّ الطائف كانت تضمّ قبر عبدالله بن العبّاس.

ومنذ ذلك الوقت استمرّت الطائف بلدة ذات نشاط محليّ محصور. وسقطت في أيدي آل سعود سنة ١٩٢٤م، وغدت مدينة صغيرة، وقد عقدت فيها مؤخرًا مؤتمرات إسلامية وعربية، ولا سيّما مؤتمر ١٩٨٩ الذي حاول حلّ المسألة اللبنانيّة السياسيّة.

طاجكستان (جمهوريّة)، مساحتها ١٤٣ ١٠٠ كلم^2، عاصمتها دوشنْبه، وهي دولة مستقلّة معاصرة من جمهوريّات آسيا الوسطى الأربع التي استقلّت عن الاتّحاد السوفياتي المُنْحلّ. يبلغ تعداد سكّانها حوالى خمسة ملايين نسمة، بمن فيهم سكّان منطقة غورنو-بَدَخْشان، معظمهم من المسلمين الذين تصل نسبتهم إلى ٨٦٪.

تشتمل هذه الوحدة الإداريّة الحديثة - التي أصبحت، في أعقاب الحرب العالميّة الأولى، جمهوريّة سوفياتيّة قبل أن تعلن استقلالها في العام ١٩٩١م - على مناطق غير متجانسة جغرافيًّا، يصعب الوصول إليها لوقوعها عند أقدام جبال پامير العالية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ حدودًا كيفيّة تفصلها شمالًا وغربًا عن الجمهوريّتين السوفياتيّتين السابقتين قرغيزستان وأوزبكستان. في حين تُجاور شرقًا الطرف الجبلي للسينغ-كيانو الصينيّ، وجنوبًا، من الجهة الأخرى لمجرى نهر جيحون/آموداريا المتعرّج، منطقتَيْ بَدَخْشان وخَتّان التابعتين حاليًا لأفغانستان. شكّلت هذه المنطقة في القرون الوسطى، بحدودها المذكورة وبسكانها ذوي الأكثرية الطاجكيّة الذين ينتمون عرقًا ولغةً إلى إيران، قطاعًا غير خصب في منطقة بلاد ما وراء النهر، علمًا أنّه كان يتبع لها، بالقرب من جسر على نهر جيحون (أموداريا)، موقع مدينة ترمذ الإستراتيجي والتجاري. وترمذ هي مدينة ترميذ الحاليّة في جمهوريّة اوزبكستان. عبر هذه المنطقة، كانت تسير طريق القوافل الرئيسة التي تصل مدينة بلخ بمدينة سمرقند بمحاذاة مجرى النهر، لتسلك بعد ذلك طرقًا وعرة تؤدّي إلى وادي زرافشان. وقد سلك الخط الحديدي الحالي الآتي من دوشنبه خطّ السير الوعر نفسه. وهنا أيضًا ازدهرت نواح تقع على روافد نهر جيحون لضفتّه اليمنى. لكنّ الأنشطة الأهم كانت تتركّز في الجهة الشماليّة الغربيّة التي يخترقها وادي نهر سيرْدريا، على تخوم إقليمَي أُشروسانا وفرغانا القروسطيين حيث ازدهرت، في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حول مدينة خُجَنْت/خُجَندا، سلطة القراخانيّين. إنّ حاضرتهم القروسطيّة المحصّنة هذه اضطلعت بدور تاريخيّ مهمّ إبّان الحكم المغولي والتيموريّ، قبل أن يضمّها خان كوكند التركي إلى ممتلكاته في القرن الثامن عشر، ثمّ احتلّها الروس في العام ١٨٦٦م، فأُلحقت بمقاطعة سمرقند داخل التركستان، ومن ثمّ أُلحقت بجمهوريّة طاجكستان

السوفياتية وعُرفت لفترة باسم لينين آباد.

إنّ آثار هذه التطوّرات التاريخية المتقلّبة، فضلًا عن التضاريس الفاصلة ما بين أقسامها في الداخل، والناتجة عن الواقع الجغرافي الطبيعي، تفسّر الوضع الحالي الصعب لجمهورية تتجاذبها، في آن معًا، تيارات دينيّة إسلاميّة متشدّدة تسيطر على جنوبها، وخطر حركة إنفصاليّة في الشمال الأكثر غنى والأفضل صناعيًا، والذي يختلف عن الجنوب في اتّجاهاته السياسيّة.

◄راجع المستند رقم ٣٥.

طارق بن زياد، قائد بربري قامت جيوشه بأولى الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة في شبه الجزيرة الايبريّة في أواخر القرن الأوّل الهجري/ مطلع القرن الثامن الميلادي. قاد طارق جيشًا قوامه سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر الذين أسلموا. وقد أرسلهم والي إفريقية موسى بن نصير، تلبية لطلب الأمويّين، إلى إسبانيا سنة ٩٢هـ/ ٧١١م، بعد إنزال للاستكشاف كان قد قام به طريف في العام السابق في مكان عرف في ما بعد بجزيرة طريف.

كان طارق، كما طريف، مولى لموسى بن نصير، اجتاز المضيق واختار، كرأس جسر، الصخرة[٦٠] التي عرفت، لاحقًا، باسمه: جبل طارق، وهو يعرف الآن بالاجنبية باسم جيبرلتار (Gibraltar). وبعد حصوله على تعزيزات، انتصر على القوط في معركة «وادي لَكّة» وتقدّم إلى طليطلة. لكنّ موسى، حسدًا من انتصارات طارق، اجتاز المضيق بدوره بعد سنة على رأس فرقة من المحاربين العرب واحتلّ البلاد مارًّا بإشبيلية. وقد أنهى القائدان عمليًّا، خلال هذه الحملة، فتح واحتلال المقاطعة التي ستعرف بالاندلس الإسلاميّة، قبل أن يعودا إلى المغرب، [فالشام]، مع غنائم ضخمة وعدد وفير من الأسرى.

طاشكُبْري زاده، إسم يرتبط بمحلّة طشكبرو في الأناضول، حمله أعضاء عائلة من العلماء والقضاة، في العهد العثماني خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، وقد كانوا أيضًا مؤرّخين.

وكان أحدهم، مصطفى (١٤٥٣-١٥٢٨م)، معلّم سليم الأوّل الذي سيصبح سلطانًا. وقد درّس، في ما بعد، في بورصة حيث توفي، بعد أن كان وضع شروحات لمصنّفات فقهيّة قضائية.

وكان ابنه أحمد (١٤٩٥-١٥٦١م) استاذًا في اسطنبول ثمّ في أدرنة، قبل أن يتولّى القضاء في اسطنبول. وقد ترك لنا موسوعة رائعة في الفنون والعلوم كتبها بالعربيّة، ومن ثمّ تُرجمت إلى التركيّة. كما ألّف كتابًا في سِيَر أو تراجم العلماء وشيوخ الطرائق الصوفيّة.

وكان حفيده محمّد (١٥٥٢م - ؟) قد شغل منصب أستاذ ثمّ قاضٍ في مدن عدّة، وتوفي في أثناء حملة عسكريّة أرسلت إلى ڤلاشيا، كان قد شغل فيها منصب قاضي العسكر. وقد كتب تاريخ الدولة العثمانيّة منذ قيامها حتّى عهد السلطان أحمد الأوّل، وأهداه إلى هذا السلطان.

الطالبيّون ← العلويّون.

الطّاهريون، ٢٠٦-٢٥٩هـ/ ٨٢١-٨٧٣م. هم سلالة من حكام خراسان الذين تمتّعوا بشبه استقلال في مناطقهم، مع بقائهم أوفياء للخلافة العبّاسيّة. أسّس طاهر بن الحسين، الذي كان في الأصل مولى فارسيًّا، هذه السلالة. وقد مُنح، لقاء خدماته، لقبًا مشرّفًا وهو «ذو اليمينين». أصبح طاهر بن الحسين قائد جيش الخليفة المأمون، وقد شارك في حرب الأخوين الأمين والمأمون، وفي حصار بغداد في سنتي ١٩٦-١٩٧هـ/ ٨١٢ و٨١٣م.

غدا واليًا على العاصمة بغداد بعد انتصاره على الوريث الأول للخلافة[٦١]. ومن ثمّ، بعد عودة المأمون إلى العراق وتركه نهائيًا مرو حيث كان يُقيم، عيّن طاهر واليًا على خراسان. وبعد مرور سنة على ولايته، وفق ما أوردته مرويّات الإخباريّين، يبدو أنّه أظهر ميولًا للإستقلال عن الخليفة إبّان صلاة الجمعة في مسجد مرو، لكنّه توفي في اليوم التالي بطريقة غامضة. غير أنّ المأمون الذي اتّهم بقتله عيّن، رغم ذلك، طلحة بن طاهر خلفًا لوالده واليًا على خراسان؛ واستمرّت سلالته تحكمها حتّى سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م. وفي الوقت عينه كان بعض أفراد السلالة الطاهريّة يشغلون منصب صاحب

الشرطة في بغداد.

وقد تميّز الطاهريّون، الذين اتّخذوا من نيسابور عام ٢١٣هـ/٨٢٨م عاصمة لهم، باهتمامهم بتأمين راحة رعاياهم وبالدفاع عن الثقافة العربيّة. كما استمرّوا أيضًا أوفياء لقضية السنّة، وحاربوا دعاة الشيعة الذين كانوا يمارسون نشاطًا ملحوظًا في المناطق القريبة من بحر قزوين. كما جهدوا في التصدّي للثورات التي قادها الصفّاريون في اقليم سجستان، لكنّهم أخفقوا، وأدّى الانتصار الموقّت ليعقوب بن الليث الصفّار إلى زوال السلالة الطاهريّة.

طاهر بن الحسين	٢٠٥-٢٠٧هـ/ ٨٢٠ ٨٢٢م
طلحة	٢٠٧-٢١٣هـ/ ٨٢٢-٨٢٨م
عبدالله	٢١٣-٢٣٠هـ/ ٨٢٨-٨٤٤م
طاهر الثاني	٢٣٠-٢٤٨هـ/ ٨٤٥-٨٦٢م
محمّد	٢٤٨-٢٥٩هـ/ ٨٦٢-٨٧٣م

طاهريّو اليمن ← الرسوليّون، اليمن.

الطبّ، علم موروث من العصور القديمة وتمّت المحافظة عليه في قلب عالم الإسلام، حيث تحوّل مادة لعدد من المؤلّفات وُضِعَتْ بالعربيّة وانتقلت لاحقًا الى أوروبا القروسطيّة.

مارس هذا الاختصاص، على وجه الخصوص، علماء غير مسلمين، أو من الذين أسلموا حديثًا، وظلّوا غالبًا خارج المجتمع الإسلامي التقليدي. في القرون الأولى، برز أطباء مسيحيّون تدرّبوا في جنديسابور في خوزستان، كان الأكثر شهرة من بينهم جبريل بن بختيشوع الذي استدعاه إلى بغداد الخليفة العبّاسي المنصور، قبل أن يصبح صديقًا حميمًا للخليفة هارون الرشيد وطبيبه في آن، حيث تولّى، في العاصمة، إدارة مستشفى كان في استطاعة الأطبّاء العاملين فيه ان يعتنوا بالمرضى ويتولّوا التعليم. وإلى جانب هذه الشخصيّة كان يعمل أطبّاء مسيحيّون آخرون لاكتساب معرفة أفضل بالمصنّفات الطبيّة اليونانيّة، ويطلبون ترجمتها، أو يترجمونها بأنفسهم إلى العربيّة، إنطلاقًا من نصوص سريانيّة في الغالب. هكذا كان يوحنا بن مَسَوَيْه (١٦٠ ٢٤٣هـ/ ٧٧٧-٨٥٧م)، وهو طبيب في بلاط الخليفة، وتلميذه حنين بن اسحق العبادي (١٩٢-٢٥٩هـ/ ٨٠٨-٨٧٣م) الذي تولّى هذا المنصب في عهد الخليفة المتوكّل، وقد كان ضحيّة حملات حسد من زملائه المسيحيّين، أدّت إلى سجنه أشهر عدّة، لكنّه استعاد منصبه الذي احتفظ به حتّى وفاته. ترجم عددًا وافرًا من الكتب اليونانيّة الشهيرة التي كان بعضها قد فُقِد في الغرب، ولا سيّما مصنّفات «غاليان». كما أنّ حُنيْن وضع مؤلّفات علميّة شخصيّة، من بينها بحث بعنوان «المدخل في الطبّ». لكنّه اهتمّ أيضًا بالفلسفة وله مجموعة «نوادر الفلسفة»، التي تُرجمت الى العبريّة وعُرِفت في إسبانيا حيث شكّلت أحد مصادر مؤلّفات الفونس لوساج (le Sage).

في الواقع، تندرج أبحاث الأطبّاء الذين حظوا، في بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بالدعم المعطى لمترجمي النصوص القديمة والذين كان يجمعهم بيت الحكمة الذي أسّسه الخليفة المأمون، في سياق العلوم الدنيويّة التي كان يغذّيها اليونانيّون ضمن علاقة وثيقة بالفلسفة. كانوا يجمعون المعطيات العائدة إلى هذا الميراث، ولا سيّما كتابات غاليان، مستندين إليها وكأنّهم يستندون إلى سلطة علميّة لا جدال حولها. في هذا الإطار أيضًا، وحوالى نهاية القرن، تندرج أسماء شخصيّات مثل قسطا بن لوقا (٢٠٥-٣٠٠هـ/ ٨٢٠-٩١٢م)، وهو مسيحي منحدّر من بعلبك، جاء يمارس الطب في بغداد، قبل أن ينهي حياته في أرمينيا، وقد ترك، إضافة الى الترجمات، عددًا من الأبحاث الأصيلة. وكذلك يبرز اسم علي بن سهل بن رَبَن الطَبري، المتحدّر من مرو، الذي أقام في بغداد حوالى سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م، وكتب «فردوس الحكمة»، حيث يأخذ في عين الاعتبار التعاليم الهنديّة التي نقلتها الترجمات الإيرانيّة. ولن ننسى، بعد ذلك بقليل، الفيلسوف والراهب المسيحي ابن بطلان (توفي سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) الذي ترك مصنّفًا مشهورًا عن النظافة.

بعدها مارس الطب علماء مسلمون، كانوا في الغالب فلاسفة بمقدار ما كانوا أطباء، ولكن كانت تحوم الشبهات حول استقامة معتقداتهم الدينيّة. منهم أبو بكر الرازي، المعروف في الغرب تحت اسم «رازيس» (Rhazès)، الذي غادر لبعض الوقت مدينته «الرّي»

إلى بغداد، والذي كان من دون شك أشهر أطبّاء القرون الوسطى الإسلاميّة. وظلّت كتاباته مؤثّرة حتى القرن السابع عشر، وبدا، في فكره الفلسفي، ناقدًا متفحّصًا تجاه الأديان بشكل عام، إلى حدّ أنّه غالبًا ما اعتُبر واحدًا من «المفكّرين الأحرار» النادرين في العالم الإسلامي في عصره. بعده جاء علي بن العبّاس المجوسي (توفي بين ٣٧٢ و٣٨٥هـ/ ٩٨٢ و٩٩٥م) الذي كان، كما يدلّ إسمه، زرادشتي الأصل، وقد سُمّي في أوروبا في القرون الوسطى هالي عبّاس (Haly Abbas)، وقد وضع موسوعة طبيّة تُرجمت إلى اللاتينيّة تحت عنوان «الكتاب الملكي» (Liber Regius)، وقد جاءت في موقع وسط بين المؤلّفيْن الكبيرين من النوع نفسه اللذين تركهما الرازي. لكنّ شهرته احتجبت في القرن التالي بسبب شهرة ابن سينا، مؤلّف موسوعة طبية معروفة بـ«القانون»، الذي لم يترك فيها للملاحظات الشخصيّة سوى مكان ضيّق.

لقد برز أيضًا في الغرب المسلم أطبّاء مشهورون، لا سيّما في إفريقية التي كان أسيادها بنو الأغلب (١٨٤-٢٩٢هـ/ ٨٠٠-٩٠٩م)، متحدّرين من المناطق الشرقيّة. ففي محيطهم نشط، مثلا، طبيبان معروفان، كان أحدهما يهوديًا عاش لاحقًا في بلاط الفاطميّين، في حين أنّ الآخر، وهو شخصيّة غامضة، عُرف باسم قسطنطين الأفريقي، تابع دراسته من دون شك في القيروان، ثمّ انتقل إلى ايطاليا حيث درّس الطب العربي؛ وكان قد اعتنق المسيحيّة أو أنّه كان في الأصل مسيحيًا، ذلك أنّه أصبح راهبًا في دير جبل «كاسّينو»، حيث كرّس نفسه لترجمة مصنّفات عربيّة عدّة كان قد حمل مخطوطاتها معه.

في الأندلس، اشتُهر أطبّاء انتقلوا إلى شبه الجزيرة الإيبيريّة بعد أن كانوا تلقّوا دروسهم في الشرق. وكان عددهم كثيرًا تحت حكم الخليفة عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني، اللذين شجّعا دراسة العلوم. أشهر هؤلاء الأطباء الزهراوي أو أبو القاسم خلف بن العبّاس الزهراوي، المعروف بمصنّفه في الجراحة، وهو بحث ترجمه إلى اللاتينيّة جيرار دوكريمون (Gérard de Crémone). وقد استمرّت هذه الدراسات التي انطلقت على هذا الشكل في الازدهار، في الأندلس وفي المغرب بعد سقوط الخلافة [الأمويّة]، لا سيّما في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، حيث عاش ابن زُهر الذي أصبح الطبيب الشخصي للملك الموحّدي عبد المؤمن، وخصوصا إبن رشد الذي أتقن، في شكل موازٍ، الفقه والفلسفة والطب. وفي تلك الحقبة أيضًا برز إسم الفيلسوف اليهودي الشهير المعروف باسم ميمونيد (ابن ميمون) (٥٢٩-٦٠١هـ/ ١١٣٥-١٢٠٤م) الذي غادر قُرطبة في عهد الموحّدين، واستقرّ في مصر في ظلّ الأيوبيّين حيث دخل بصفته طبيبًا في خدمة أحد أبناء صلاح الدين الأيّوبي.

وقد مارس أطبّاء وأصحاب نظريّات طبيّة آخرون نشاطهم أيضًا في مصر وسوريا والعراق، في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، ومنهم إبن النفيس مثلا. لكن ابتداء من هذه الفترة، تجمّد الطب الذي مورس في هذا الوسط الإسلامي القروسطي. إنّه يُوصف غالبًا بأنّه طبّ «عربيّ» لأنّه أدّى إلى وضع مصنّفات مكتوبة بالعربيّة، حتى لو كان مؤلّفوها في الغالب من غير العرب. في القرن الثامن عشر، بحسب أقوال الرحّالة الغربيّين، ظلّ الطبّ في الشرق على الحالة التي كان عليها في قلب القرون الوسطى، وظلّ أطبّاء تلك الحقبة يكتفون بالمعلومات النظريّة حول التركيب الداخلي لجسم الإنسان، من دون أن يكون في إمكانهم القيام بعمليّات التشريح. في أيّ حال، كان الملوك المسلمون في المغرب قد بدأوا، منذ وقت طويل، الإستعانة بأطبّاء أجانب، في حين أنّ السلاطين العثمانيّين قرّروا، من جهتهم، العمل على تطبيق مبادئ الطب الأوروبيّ بواسطة علماء جهدوا من أجل التوفيق بين هذه المبادئ والمفاهيم المحليّة القديمة. وشهدت المرحلة التالية، في القرن التاسع عشر، بداية تعليم الطب الغربي في الشرق، لا سيّما في القاهرة وطهران، من دون أن تُمنع ممارسة الطب التقليدي، ولو بشكل موقّت.

طبرستان ← **مازَنْدران**.

الطبري، هو محمّد بن جرير، ٢٢٥-٣١٠هـ/ ٨٣٩-٩٢٣م، عالم شهير، مؤرّخ ومفسّر، يتحدّر من إقليم

طَبَرِستان (مازَنْدران اليوم) فنُسب إليه. كان من مشاهير العصر الذهبي للدولة العبّاسيّة، وما يزال حتّى اليوم مصدرًا لا غنى عنه لأيّة معلومات عن الأحداث التي وقعت خلال القرون الإسلاميّة الثلاثة الأولى.

وُلد في آمُل، وطلب العلم متنقلًا إلى الريّ ثمّ إلى بغداد. وللغاية عينها قصد سوريا ومصر، ليعود من ثمّ إلى بغداد حيث توفّي. كرّس الطبري حياته للتعليم ووضع مؤلّفات موثّقة أعدّها للأجيال اللاّحقة، وفي الوقت نفسه لم يقف دون الدفاع عن مواقفه الدينيّة الشخصيّة. وهكذا، بعد أن كان من أتباع المذهب الفقهي الشافعيّ، أسّس مذهبًا خاصًّا به لم يعمّر طويلًا. أمّا في علم الكلام، فقد جادل المشبّهة الحنابلة (حول الصفات الإنسانية المعطاة للّه والتجسيم) ولا سيّما الآية التي تؤكد أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (القرآن، سورة طه، الآية ٥)، ممّا أثار عليه حقد الفئات الشعبيّة إلى درجة أوجبت، عند وفاته، دفنه سرًّا في منزله.

بيد أنّ شهرته ما تزال ترتكز على مؤلّفاته الضخمة، على الرغم من ضياع بعض أقسام منها، وهيَ تتناول موضوعات عدّة: - تفسير القرآن الكريم الذي جمع فيه آراء مختلفة كانت متداولة في عصره، كما طرح أحيانًا تفاسير جديدة؛ - التاريخ: في مؤلّفه «تاريخ الرسل والملوك» الذي يُعتبر تاريخًا عامًّا، تبدأ حوادثه منذ بداية الخلق ويتتبّع الحوادث حتّى سنة ٣٠٢هـ/٩١٥م، معتمدًا، في الفترة الإسلاميّة، الطريقة الحوليّة. إن هذا المصنّف الهائل تناول روايات مختلفة للحدث الواحد، استمدّها الطبري حينًا من مصادر شفويّة، وحينًا آخر من مؤلفات سابقة أو وثائق مكتوبة من دون أن يحكم على صحّتها، وقد توخّى فيه المؤلّف، في الظاهر، الموضوعيّة قدر المستطاع. لكنّه ميّز في تأريخه بعض الأحداث، ما جعله منحازًا أحيانًا، على الأقل بإغفاله التأريخ لبعض الحوادث، بحيث يمكن القول مثلًا إنّ تاريخه يجري في سياق نسق تأريخي عبّاسي لا ينصف الأمويّين. ومهما يكن من أمر، لقد قام مؤرّخون آخرون بمتابعة التأريخ للحقبات اللاّحقة، ولكن بنجاحات متفاوتة، كما اعتُبر الطبري مصدرًا للمؤرّخين الذين أتوا بعده وتناولوا التاريخ العام مثل مِسكَوَيْه وابن الأثير.

طبريّة (فلسطين المحتلّة - إسرائيل)، منطقة من فلسطين، كانت تقع على الضفة الغربيّة لبحيرة طبريّة، ولا تحوي مدينة طبرية الحديثة أي أثر منها. واستمرّت شهرة طبريّة القديمة بعد أن دخلتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة صُلحًا سنة ١٤هـ/٦٣٥م، إبّان الفتوحات الكبرى. واستمرّ دورها الإقليمي مهمًّا في الدولة الإسلاميّة خلال القرون الأولى لوقوعها، من جهة، على الطريق الذي يصل مباشرة دمشق بالقدس، ومن جهة ثانية لأنّه شُيّد، في العهد الأموي، بالقرب منها، على بعد كيلومترات عدّة شمالًا، قصر أميري تحمل أنقاضه إسم خربة المِنْيا. وما تزال بعض آثاره صامدة إلى يومنا هذا.

ثمّة بقايا أثريّة لهذا الصرح المبني بحجارة جميلة لم يتمّ التنقيب عنها بشكلٍ وافٍ حتّى اليوم، لكنّها مشهورة بمحافظتها على أرضيّة من الفسيفساء ما تزال بوضع جيّد. وتدل هذه الآثار على أنّ الصرح نُظّم تبعًا لمخطّط نموذجي لذلك العصر: تألّف من شقق تبعًا للنموذج المعروف بالسوري، موزّعة بطريقة متماثلة حول ساحة مركزيّة مزوّدة بأروقة، تحيط بها جدران عالية تستقرّ عليها أبراج، ولها مدخل ضخم. يتّصل هذا الصرح بأرض زراعيّة تنتشر عليها أبنية عدّة تجاور بيوتًا سكنيّة، وقد تمّ بناؤها في عهد الخليفة وليد الأوّل (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م)، وأُدخلت عليه تعديلات في عهد الخليفه هشام. وتحولّ في ما بعد إلى مركزٍ مهمٍّ للمماليك على الطريق الذي يصل القاهرة بدمشق.

استولى الفرنج على طبريّة سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، خلال الحملة الصليبيّة الأولى، وجعلوا منها مركزًا لمقاطعة الجليل. وعندما كانت خاضعة لريمون حاكم كونتية طرابلس، حاصرها صلاح الدين الأيوبي واحتلّها عنوة في العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وأعادها إلى ديار الاسلام، باستثناء فترة قصيرة امتدّت من ٦٣٨-٦٤٥هـ/١٢٤٠-١٢٤٧م. ومن ثمّ أخذت بالانحطاط، وأكملت الزلازل في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تدميرها. واستقرّ بالقرب منها، في مطلع القرن العشرين، سكّان جدد أسّسوا التجمّع السكّاني الحالي.

◄ راجع المسند رقم ٩.

طُخارستان، إسم أُطلق، قبل القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، على منطقة جبلية تقع شرقي مدينة بلْخ، على الحوض الأعلى لنهر جيحون / أموداريا.

يشوب حدود هذه المنطقة بعض الغموض، فهي، تبعًا لمرويّات الجغرافيّين العرب، كانت تشكّل جزءًا من مقاطعة خراسان الغنيّة، المحاذية لبلاد ما وراء النهر، حيث يفصل بينهما نهر جيحون، وتتداخل نسبيًّا مع بَدَخْشان في قسمها الشرقيّ، وتضمّ جنوبًا منطقة باميان القريبة من بلاد الغور، وتجاور أيضًا بلاد زابُلِسْتان.

◀ راجع المستندين ٨ و١٢.

طرابزون (الجمهوريّة التركيّة)، ثغر بحري شهير في العهد البيزنطي، يقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر الأسود؛ فقدت المدينة دورها السياسي بعد أن أُلحقت في فترة متأخّرة ببلاد الإسلام، من دون أن يُفقدها ذلك حيويّتها التجاريّة.

هذه المدينة التي يشتقّ اسمها من كلمة **Trapezos** اليونانيّة، والتي تقع على الطرف الشمالي للأناضول الشرقي، وتحميها سلاسل جبليّة، نجت من السيطرة الإسلاميّة إبّان الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، كما نجت أيضًا من الهجمات التركيّة التي أدّت إلى انتصار السلاجقة في معركة مانتزيكرت/ ملازكرت. وقد استمرّت حتّى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي مركزًا تجاريًّا مهمًّا تعبر منه السلع المتّجهة نحو العالم المسيحي التي كانت تستوردها الدول الإسلاميّة المجاورة. واعتبارًا من ٦٠٢هـ/ ١٢٠٤م، غدت عاصمة آل كُومنينُس (Comnènes) البيزنطيّين. ولم تتعرّض بعد ذلك إلاّ لسيطرة موقّتة مارسها الخوارزميّون في العام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م. أمّا سيطرة المغول عليها، إعتبارًا من ١٢٤٠م، فاقتصرت على دفع الضريبة، واستمرّ الوضع نفسه في عهد تيمورلنك، أي منذ العام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م. واستمرّ ازدهارها الاقتصادي، بالمقابل، بالتصاعد نتيجة نشاطها التجاري، كونها محطة تنتهي إليها كما تنطلق منها طريق القوافل الكبرى التي افتتحها المغول والتي كانت تصل المتوسّط بالشرق الأقصى. سيطرت على تجارة هذه الطريق الجالية الجنويّة التي استقرّت في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، في أحد أحياء المدينة.

إنّ الجهود التي بذلها حكّام طرابزون الروم البيزنطيّون الأخيرون للتحالف الوثيق مع حكّام المقاطعات والأُسر التركمانيّة، ممن كانوا يتقاسمون معهم مكاسب السياسة الاقتصاديّة، دفعتهم للإلتجاء، بشكل خاص، الى أُوزون حسن أمير الآق قيونلو الجبّار، المسيطر على تبريز، الذي كان قد بسط سلطته على العراق وإيران. كما اختاروا أيضًا التفاهم مع بني فرمان المسيطرين على مسالك طوروس في جنوب الأناضول. لكنّهم لم يتمكّنوا من وقف التقدّم المحتوم للقوّة العثمانيّة، وتاليًا أخضع السلطان محمّد الثاني العثماني المدينة نهائيًّا في عام ١٤٦١م، وكان سبق له أن استولى على القسطنطينية في العام ١٤٥٣م.

إنّ الابتزازات التي نجمت عن ذلك، فضلًا عن الزوال التدريجي للسكّان المسيحيين، حوّل طرابزون منذئذٍ إلى مجرد مركز قضاء لمنطقة. ومع ذلك ظلّت مزدهرة لفترة من الزمن لأنّها استمرّت تقوم بمبادلات تجاريّة مع تبريز ومع مدن الهضبة الإيرانيّة الوسطى. إزداد نشاطها ما بين ١٨٣٠ و١٩٠٠ بفضل ازدهار التجارة الأوروبيّة في البحر الأسود. وبعد ذلك انحطت طرابزون إذ إنّها اضطرّت للإكتفاء بممارسة نشاط تجاري إقليمي من دون أن تلعب في التاريخ المعاصر أي دور عالمي، إستراتيجي أو تجاري.

◀ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ٢٠ إلى ٢٢ و٢٦.

طرابلس، اسم لمدينتين مرفئيّتين: إحداهما أسيويّة والأخرى أفريقيّة، وهما تنفتحان على حوض المتوسط الشرقي. وقد شهدتا ازدهارًا بحريًا دام طويلًا، بعد أن نمت كلتاهما خلال العصور الإسلاميّة الوسطى.

طرابلس الشرق (الشام)، تقع حاليًّا على الساحل اللبناني، وقد خلفت مدينة فينيقيّة قديمة كانت تشغل موقع المرفأ الحالي وتتألّف من ثلاثة أحياء (مدن). من هنا جاء اسمها باللغة (اليونانية) Tripoli. وقد ضُمت إلى الدولة العربيّة - الإسلاميّة في بداية الفتوحات الكبرى، في عهد الخليفة عثمان بن عفّان. وبعد أن هجرها سكّانها أقام فيها والي دمشق، معاوية بن أبي سفيان، الذي سيؤسّس السلالة الأمويّة، جماعة من

اليهود. وهذا المرفأ، الذي كان محميًا خلال الفترة العبّاسيّة الطويلة، انتقل في ما بعد إلى السيطرة الفاطميّة، وظلّ أبدًا هدفًا للهجمات البيزنطيّة، لكن لم يتمّ احتلاله إلا في العام ٥٠٣هـ/١١٠٩م من قبل الفرنج وقد عُرف بـ«كونتيّة» طرابلس.

وزادت من قوة دفاعه القلعة التي شُيّدت على تلّة تُحكم سيطرتها على المدينة وعلى الشاطئ الذي، إنطلاقًا منه، ضرب الفرنج على المدينة الحصار. وتبع ذلك بناء المركز الجزئي والتجاري، ما عزّز دور المدينة الإقتصادي والإستراتيجي وأدّى إلى ازدهارها وتوسّعها. استرجع المسلمون طرابلس بالقوة سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٩م، على عهد السلطان المملوكي قلاوون الذي بنى أحياء سكنيّة جديدة على قمّة التلّة التي أُقيمت عليها القلعة وعلى سفحها، وهدم جزئيًا كل المنشآت السابقة مبقيًا على المرفإ. وتعود إلى العهد المملوكي معظم الأبنية، ولا سيّما المسجد الجامع والمدارس، التي ما تزال صامدة حتى اليوم في مدينة حديثة في عزّ ازدهارها.

طرابلس الغرب، هي العاصمة الحاليّة لليبيا، ومركز إقليم طرابلس. وتُماثل مدينة قديمة كانت تقع على الشاطئ الشمالي لإفريقية. وسُمّيت كذلك لأنها تكوّنت من ثلاث مجموعات مُدُنيّة. احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة خلال القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد. واستمرّت مناطقها الداخليّة مضطربة حتى القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، نتيجة لثورات الخوارج الإباضيّة المتتالية. كانت تشكّل جزءًا من ولاية إفريقية، ما جعلها تخضع لسيادة الأغالبة ومن بعدهم للفاطميّين. وبعد استقرار الفاطميّين في مصر، أسّس فيها بنوخزرون، وهم إحدى قبائل البربر، دولة مستقلّة دامت قرنًا ونصف القرن (٣٩٠-٥٣٩هـ/١٠٠٠-١١٤٥م)، قبل أن تُسقطها غزوة الهلاليّين. وأعقب خضوعها في ما بعد لسيطرة نورمان صقلّية من عام ٥٤٠هـ/١١٤٦م إلى ٥٥٣هـ/١١٥٨م، عودتُها إلى السيادة الإسلاميّة في ظلّ الموحّدين، ومن بعدهم الحفصيّين الذين لم يستطيعوا منع فيليبو دوريا (Filippo Doria) الجنوي من نهبها في العام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م.

وكانت طرابلس الغرب آنذاك مدينة مزدهرة، شوارعها مستقيمة وواسعة، تتقاطع بزوايا قائمة تبعًا لمخطط يعود بلا شك إلى العصور القديمة. ونجحت، منذ ذلك التاريخ، في استرجاع استقلاليّتها مرّات عدّة. لكن احتلّها بعد ذلك الأسبان من ١٥١٠ إلى ١٥٣٠م، وبعدهم فرسان مالطة من ١٥٣٠ إلى ١٥٥١م، كما ظلّت مهدّدة، طيلة تلك الفترة، من قبل القراصنة البربر. واستولى عليها أحد اولئك القراصنة وحكمها باسم العثمانيّين، وظلّت خاضعة لهم طيلة قرنين. وتميّز تاريخها في القرنين السابع عشر والثامن عشر بالتنافس بين ممثّلي السلطة العثمانيّة والسطوة المتزايدة لأعقاب الإنكشاريّة، الذين كان آباؤهم قد تزوّجوا من بنات طرابلسيّات، وقد عُرف هؤلاء بـ«كول أوغلي». ومذّاك، تحوّلت إلى مركز للقراصنة، ما حدا بالإنكليز والفرنسيّين إلى التدخّل ضدّهم في نهاية القرن السابع عشر. وأخيرًا ظهر في العام ١٧١١م أحمد قرامنلي الذي تخلّص من الوصاية العثمانيّة وأسّس سلالة حكمت طرابلس الغرب حتّى العام ١٨٣٥م. وقد نجح، خلال عهده الطويل (١٧١١-١٧٤٥م)، بأن يُضفي عليها إزدهارًا جديدًا ارتكز جزئيًا، وبشكل مستمرّ، على أعمال القرصنة. كما نجح أيضًا في توسيع حدودها وفي تجهيز المدينة بأبنية عديدة ومهمّة. وإذا كان أحد خلفائه، يوسف باشا (١٧٩٥-١٨٣٢)، قد تمكّن من التصدّي للقوى العظمى مرّات عديدة، فإنّ العثمانيّين بسطوا بعد ذلك سلطانهم المباشر عليها حتى ١٩١١، وهو تاريخ استيلاء الايطاليّين عليها.

◄ راجع المستندات ٨، ١١، ١٨ إلى ٢٠.

طرابلس الغرب، أحد الاقاليم الثلاثة التي تؤلّف الجماهيريّة الشعبيّة الليبيّة، والتي كانت مدينة طرابلس الغرب دائمًا مركزه. اجتازته ثمّ احتلّته الجيوش العربيّة - الإسلاميّة إبّان الفتوحات الكبرى في القرن السابع الميلادي. كانت طرابلس الغرب جزءًا من ولاية إفريقية وقد سيطر عليها الأغالبة ثمّ الفاطميّون، لكنّها شهدت ثورات كثيرة نجمت عن نشاط البربر المنتمين إلى الخوارج الإباضيّة. وبعد انتقال الفاطميّين إلى مصر، لقيت مصير مدينتها الرئيسة، طرابلس، وأصبحت في ما بعد جزءًا من دول المغرب الكبرى، قبل أن تخضع، في

عام ١٥٥١م، لسيطرة العثمانيّين، الذين سمحوا لسلالة القرامنلي المحليّة بأن تحكمها من ١٧١١م إلى ١٨٣٥م؛ وضُمّت بعد ذلك، وتحديدًا في ١٩١١، إلى ليبيا المستعمرة الايطاليّة. ثم انتقلت في ١٩٥١ إلى سلطة محمّد إدريس السنوسي، الذي عاد إلى بلاده، بعد أن كان قد غادرها في العام ١٩٢٢، كعاهل حقيقي ليتولّى عرش المملكة المستحدثة التي قيّض لها الاستمرار حتّى العام ١٩٦٩.

طراز، كلمة فارسيّة الأصل تعني التطريز أو نسج القماش على شكل عصابة مزدانة بنقوش عربيّة. وتوسّع استعمالها، فأُطلقت على الثياب الفخمة التي كانت تُصنع، في العصور الإسلاميّة الأولى، في المحترفات الرسميّة في قصور الخلفاء والسلاطين.

وكان الأمراء والملوك يرتدون هذا النوع من الثياب، كما كانت توهب خِلَعًا لأصحاب المقامات، وفاق مقتضيات احتفالات البلاط. وقد حُفظت بعض قطع الطراز، التي تحمل كتابات، في المتاحف الأوروبيّة والشرقيّة، كما في مجموعات خاصة. من الناحية التقنيّة، كان يُصنع الطراز من الحرير أو من قماش قطنيّ أو كتّاني ويُطعّم بخيوط حريريّة متعدّدة الألوان أو خيوط ذهبيّة. وكانت النصوص المعتمدة تحمل أسماء الخلفاء، كما في هذا النموذج المنجز في العصور العبّاسيّة وقد جاء نصه كما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، بركات الله تعالى ونعمه على وليّه الإمام جعفر المقتدر بالله أمير المؤمنين أطال الله عمره. هذا في عداد ما أمر بانجازه الوزير ابو احمد العبّاس بن الحسن».

وكانت صناعة الخلع المزيّنة بالطراز إمتيازًا خليفيًّا، كما ضربُ النقود. لذلك غدا، في ما بعد وفي بعض الحالات، مضمون الكتابات يقتصر على دعاء لمصلحة متولّي السلطة من دون ذكر اسمه، مثلًا على الشكل الآتي: «عظمة مولانا السلطان». كما كان يكتفى حينًا آخر بكتابة تمنيّات عاديّة أو عبارات تستدعي البركة، أو صيغ تعبّديّة. انتشرت المحترفات المختصة التي كانت تُسمّى دور الطراز في أماكن متعدّدة من العالم الإسلامي، لكن استأثرت بها، على العموم، عواصم الحكّام. لقد أثر، في البداية عند العبّاسيّين، إستخدام ثياب إحتفاليّة مدموغة كانت مخصّصة للأمير أو للمكرّمين، كما استُخدمت أيضًا عند الخلفاء الفاطميّين المعاصرين لهم أو عند أُمويّي الأندلس. واستمرّت هذه العادة متّبعة في عهد سلاطين المماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشام. ويبدو أنّ هذا التقليد لم يعد معمولًا به بعد هذا التاريخ.

طرسوس (الجمهوريّة التركيّة)، هي طَرْسَ (Tarse) القديمة المعروفة بطرسوس في العربيّة، محلّة في جنوب الأناضول، تقع اليوم في الأراضي الداخليّة الممتدّة بين مرفإ مرسين الحديث والمركز الاقتصادي لكيليكيا المعروفة اليوم بأضنة.

إشتهرت هذه الحاضرة بنشاطها الثقافي وازدهار تجارتها المرفئيّة، وكانت قد احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة التي اجتاحت سوريا إبّان الفتوحات الكبرى. وأصبحت في ما بعد تقع على الحدود التي كانت تفصل العالم الإسلامي عن الأمبراطوريّة البيزنطيّة. حصّنها الامويّون لتصبح أحد الثغور التابعة لجند قنّسرين.

دمّرها البيزنطيّون في العهد العبّاسي، واستعادوها بعد أن كان هارون الرشيد أعاد بناءها سنة ١٧١هـ/ ٧٨٨م؛ وفي ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، أعاد فتحها الخليفة المأمون الذي توفي اثناء ذلك ودُفن فيها. ثم خضعت لسيطرة الطولونيّين، فالحمدانيّين، قبل أن يستولي عليها الأمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م. ومنذ ذلك التاريخ استمرّت تحت السيطرة المسيحيّة، فخضعت للبيزنطيّين أولًا ثم لفرنج إمارة أنطاكية، ومن ثمّ للأرمن الذين كانوا قد استقرّوا في المنطقة.

واعتبارًا من اواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، تعرّضت لهجمات مملوكيّة متكرّرة، ولا سيّما في عهد السلطان قلاوون. وفي القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، أصبحت جزءًا من الاراضي المملوكيّة في مصر وبلاد الشام، قبل أن يضمّها العثمانيّون سنة ١٥١٥م، إثر الحملات العسكريّة الناجحة للسلطان سليم الأوّل ياووز[٦٢]. إنّ الانحطاط الذي عرفته في ذلك الوقت حوّلها إلى مدينة ريفيّة صغيرة، كما هي اليوم، خالية من الآثار الجديرة

بماضيها خلال العصور الوسطى.

◄راجع المستندات ٨، ٩ و١٨.

طرطوس (الجمهورية العربية السورية)، ثغر بحري وبلدة مرفئية تقع تجاه جزيرة أرواد. شكّلت، تحت إسم طُرطوز (Tortose)، موقعًا محصّنًا وفعّالًا لمملكة القدس الصليبية.

احتلّها العرب سنة ١٧هـ/٦٣٨م، خلال الفتوحات الكبرى العربية - الاسلامية. حصّنها معاوية في أثناء ولايته على سوريا وقبل ان يؤسّس سلالة الخلفاء الأمويّين. وتعرّضت طرطوس القديمة، بسبب قيمتها الإستراتيجية، لغزوات بيزنطيّة عديدة. احتلّها الفرنج منذ مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، عندما استولى عليها كونت طرابلس، وفي ما بعد سيطر عليها فرسان الهيكل الذين تحصّنوا في قلعة منيعة. ورغم هجمات نور الدين محمود زنكي سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وصلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨، التي جوبهت بمقاومة ضارية، لم يتمكّن المسلمون من استرجاع طرطوس ومرفئها في جزيرة أرواد إلّا اعتبارًا من سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، حين خضعت للسيطرة المملوكيّة. فقدت طرطوس ومرفأها، منذ ذلك الوقت، كلّ أهميّة عسكريّة، وإن ظلّت محافظة على بعض النشاط التجاري والبحري المحلّيّين، واستمرت على هذا النحو إلى أن حصلت التغيّرات الإقتصاديّة في القرن العشرين.

طرطوشة (إسبانيا)، ناحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، تقع على مقربة من دلتا نهر الإيبرو، وكانت ثغرًا اندلسيًّا بحريًّا ناشطًا.

افتتح هذه المدينة الرومانيّة القديمة - التي عُرفت أوّلًا باسم درتوزا (Dertosa)، ثمّ باسم جوليا أوغستا (Julia Augusta) - بسهولة جيش من العرب والبربر إبّان الفتوحات الإسلاميّة الكبرى. ومن ثمّ هاجمها في ١٩٣هـ/٨٠٩م لويس لوديبونير (Louis le Débonnaire) واستولى عليها بعد عامين. لكنّها استعادت، بعد حين، مكانتها كقاعدة بحريّة إسلاميّة في شمال المناطق الحدوديّة الشرقيّة. وشُيّد فيها خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد مسجد جامع يضمّ خمسة أجنحة. وبأمر من الخليفة عبد الرحمن الثالث أُنشئت فيها، في العام ٣٣٣هـ/٩٤٥م، تَرْسانة لصناعة السفن تتزوّد بأخشاب الغابات المجاورة. وبعد سقوط الخلافة الأمويّة في الأندلس، تحولّت طرطوشة، في عهد ملوك الطوائف، عاصمة لإمارة الصقالبة العامريّين. ومن ثمّ خضعت لسيطرة بني هود حكّام سرقسطة، إلى أن استعادها المسيحيّون في العام ٥٤٢هـ/١١٤٨م. وقد كانت بالنسبة الى الإسلام مركزًا ثقافيًّا لامعًا، قياسًا بعدد العلماء والبحّاثة الذين ينتسبون إليها.

◄ راجع المستندات ١٥، ١٦ و١٩.

طريفة او **جزيرة طريف** (إسبانيا)، محلّة في مضيق جبل طارق، هي شبه جزيرة نزلت فيها أوّل قوّات عسكريّة عربيّة - إسلاميّة، عاملةً على توسيع الفتوحات الكبرى لتطال شبه الجزيرة الإيبيرية.

كان يقود تلك القوّات طريف[٦٣]، وهو مولى لموسى إبن نُصَير حاكم إفريقية الذي كان قد أوكل اليه استكشاف الجهة المقابلة من البحر. سمحت له هذه الحملة بالاستيلاء على غنيمة كبيرة من منطقة الخيبراس (Algeciras)، جلبها إلى المغرب، كما أدّت إلى نزول طارق بن زياد في السنة التالية في شبه الجزيرة الإيبريّة، ثمّ تبعه موسى بن نصير نفسه في سنة ٩٣هـ/٧١٢م.

إنّ شبه الجزيرة التي نزل فيها طريف أُطلق عليها بالعربيّة اسم «جزيرة طريف»، وانطلاقًا من هذه التسمية أطلق عليها الإسبان في ما بعد اسم طريفة. ونمت فيها مدينة صغيرة وازدهرت في عهد الخلافة الأمويّة في قرطبة، وحصّنها الخليفة عبد الرحمن الثالث سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م، واستولى عليها الإسبان نهائيًّا سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م.

◄راجع المستند رقم ١٩.

الطريقة (الصوفيّة)، جماعة تضمّ عددًا من ذوي التقوى الذين تفرّغوا للقيام بممارسات زهديّة بإدارة مرشد هو الشيخ أو بير، وفاقَ نظام يُسمى الطريقة أي السبيل، يحدّده عادة مؤسّس الجمعيّة التي تحمل اسمه.

ظهرت الطرائق الصوفيّة في زمان متأخّر نسبيًّا، وتحديدًا منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، لكنّها مثّلت منذ ذلك الحين دورًا إجتماعيًّا وسياسيًّا مهمًّا، مُساهمةً، بوجه خاص، في نشر الإسلام في مناطق الأطراف في آسيا كما في أفريقيا. وعرفت هذه الطرائق، منذ ظهورها، نموًّا ملحوظًا في أراضي الهند، كما لاقت في الوقت نفسه تربة خصبة في المغرب، ومنه انتشرت في اتّجاه أفريقيا السوداء حيث تلاقي، منذ القرن التاسع عشر، إنطلاقة حديثة العهد ومذهلة.

طشقند (جمهوريّة أوزبكستان) : مدينة في آسيا الوسطى الإسلاميّة، تقع في منطقة واحات طُوّرت إصطناعيًّا، وأصبحت اليوم أهمّ مدن تلك المنطقة، وعاصمة الدولة.

إنّ مقاطعة شاش (Shash) الفروسطيّة، حيث تقع الناحية الريفيّة التي كانت تحمل الإسم نفسه، ورد ذكرها عند الكتّاب العرب على أنّها تشكّل، إلى الغرب من مدينة فرغانة، الحدود بين بلاد الإسلام وبلاد الترك. وكانت خاضعة لنفوذ السامانيّين على الضفة اليمنى لنهر سيحون (سيرداريا)، وقد تميّزت بغنى بساتينها ومزروعاتها المرويّة الأخرى. فقط في العهد المغولي، ظهر اسم طشقند - الذي يبقى أصله غامضًا - على العملات. سقطت الحاضرة التي كانت محصّنة في أيدي التيموريّين، ومن ثمّ تنازعها الخانات الذين سيطروا في ما بعد على بلاد ما وراء النهر، وهم خانات بُخاري وخيوه وكُوكَنْد، وقد خلفوا الأوزبكيّين الشيبانيّين الذين كانوا يسيطرون على مناطق أوسع. وفي نهاية الأمر احتلّها الروس في العام ١٨٦٥م، واختاروها عاصمة للتركستان الذي تحوّل حديثًا إلى دولة، ما دفعهم إلى أن يبنوا فيها، خارج أحيائها القديمة، مجمّعًا سكنيًّا جديدًا. إنّ النمّو الإقتصاديّ والإداريّ، الذي تبع ذلك والذي لم يتوقّف حتّى اليوم، واكبه تزايد سكانيّ متسارع. وقد وحّد هذا النموّ المشهد المُدُني إذ إنّ الموقع يفتقر إلى أبنية إسلاميّة قديمة قادرة على مضاهاة صروح بخارى وسمرقند. تمركزت مذّاك في هذه المدينة الصناعات والأبحاث المتعلّقة باستغلال المياه وبإنتاج القطن وتصنيعه.

◄ راجع المستندات ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٤ و٣٥.

طغرلبك أو طغرل بك، هو ركن الدين أبو طالب محمّد بن ميكائيل (٣٨٠-٤٥٥هـ/ ٩٩٠-١٠٦٣م)، زعيم عشيرة السلاجقة المهيمنة على قبيلة الغزّ وأوّل سلطان ومؤسّس لسلالة السلاجقة الكبار، وقد حكم من ٤٢٨ إلى ٤٥٥ هـ/ ١٠٣٨ إلى ١٠٦٣م. قاد الأتراك، بمساعدة أخيه جغري بك، الذي حكم بإسمه خراسان وسجستان، إلى السيطرة التامّة على إيران والعراق. وبعد أن أعلن أخاه أميرًا على مرو في ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م، تقدّم بسرعة في إيران، فاحتلّ نيسابور في ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م واعترف به الخليفة العبّاسي القائم حاكمًا على البلاد التي احتلّها، وسمح بذكر اسمه في الخطبة. وانتصر على الغزنويّين في معركة داندانقان سنة ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م، ثمّ احتلّ خلال العامين ٤٣٢ و٤٣٣هـ/ ١٠٤١ و١٠٤٢م، جرجان، وطبرستان، والريّ، وقزوين، وهمذان، واصفهان. كما سيطر، في العام ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، على تبريز. وإبّان هذا الزحف العسكري تلقّى رسالة من الخليفة العبّاسي يُثبّته فيها حاكمًا على المناطق الشرقيّة، ولكنّه يحتجّ على أعمال السلب التي مارسها جنوده، ويدعوه إلى عدم متابعة تقدّمه باتّجاه العراق (بغداد).

وعلى رغم كل التأنيب، دخل طغرلبك بغداد بجيوشه في العام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م. عند ذلك أطلق عليه الخليفة لقب سلطان، وولّاه كل السلطات التي كان قد تولّاها، حتّى ذلك التاريخ، أمير الأُمراء. إلّا أنّ اضطرابات اندلعت، فاضطرّ طغرل بك أن يخمدها، وأن ينتظر مطلع العام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، كي يدخل بأبهة على الخليفة الذي منحه لقب «ملك المشرق والمغرب». وبموجب هذا اللقب أصبح من حقّه مراقبة ما يجري في سوريا ومصر الخاضعتين للفاطميّين. واضطرته عندئذٍ اضطرابات جديدة لترك بغداد، ما سمح للأمير التركي أرسلان البساسيري[٦٤] أن يعلن تبعيّة العراق للخليفة الفاطمي، ولكنّ طغرل بك رجع إلى بغداد وأعاد الأمور إلى نصابها لمصلحته، وقضى على البساسيري في مطلع العام ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م.

ألزم السلطان السلجوقي المنتصر - الذي كان قد أطلق بناء مدينة جديدة في بغداد، إلى الشمال من قصر الخليفة وملحقاته - الخليفةَ العبّاسي القائم تزويجه من

ابنه. لكنه حينئذٍ عاد إلى الريّ حيث توفي بعيد ذلك في سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، عن عمر بلغ السبعين عامًا. وترك الحكم لألب أرسلان، إبن أخيه جغري بك الذي كان قد توفي قبل ذلك.

الطُغرى، تعبير تركي يعني «علامة» بالعربيّة، وهي توقيع ملكي مخطوط، استخدم للدلالة على الشعار المكتوب الذي روّجت استعماله في العالم الإسلامي السلالات التركيّة الكبرى، بدءًا من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد.

استخدم هذا الشعار - الذي يعرفه جيّدًا المتخصّصون بعلم المستندات الإسلاميّة القروسطيّة - لتصديق القرارات الرسميّة كما وثائق أخرى مختلفة صادرة عن الملوك. استعمله السلاجقة، لكنّنا لم نعثر على أيّ من نماذجهم. ولدينا، في المقابل، نماذج تعود إلى سلاطين المماليك في مصر، وهي كانت تتألّف من ألقاب السلاطين المكتوبة على سطر واحد تليها تذييلات مفرطة الارتفاع. أمّا «الطغرات» التي تركها لنا العثمانيّون فهي الأشهر، وتبدو مختلفة بعض الشيء. فكان يُدرج عليها في أغلب الأحيان اسم السلطان وشهرته، بحيث تظهر تذييلات عدّة عالية متعانقة وكذلك قوسٌ أو قوسان، ويشكّل كل منها نموذجًا زخرفيًا لافتًا للنظر، وكان لكلٍّ من السلاطين المتعاقبين طغرى مميّزة، وكانت تُعرف بسهولة على الرغم من التشابه الكبير بين العناصر التزيينيّة المختلفة التي كانت تعتمد على الكتابة.

وقد اقتُرحت تأويلات متعدّدة حول أصل الطغرى العثمانيّة، وحول معناها الذي قد يكون رمزيًا، لكن أيًّا منها لم يلقَ موافقة النقّاد من دون تحفّظ.

طلاسم ← السحر (أعمال-).

طلحة بن عبيد الله بن عثمان أبو محمّد (؟-٣٦هـ/ ؟-٦٥٦م). كان من صحابة الرسول ﷺ، اشتهر بشجاعته وتقواه، دفعه طموحه لمقاومة السلطة في عهد الخلفاء الراشدين.

كان طلحة أحد أقدم معتنقي الإسلام، وشارك في الغزوات الأولى ضدّ المكيّين وتميّز في غزوة أُحُد، حيث أصيب عندما كان يحمي الرسول محمدًا ﷺ خلال الإنسحاب. كان عضوًا في المجلس المكلّف إختيار خلف للخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، وقد خاب ظنّه لأنّه لم يُختر خليفة. لكنّه أمل مجدّدًا بهذا المنصب على أثر مقتل عثمان بن عفّان في المدينة سنة ٣٦هـ/ ٦٥٦م، الذي كان قد فُضّل عليه، وخاب ظنّه مرّة ثانية عندما بويع علي بن أبي طالب بالخلافة. فأعلن العصيان على هذا الخليفة الراشدي الرابع إلى جانب الزبير وعائشة بنت أبي بكر وأرملة النبيّ محمّد ﷺ الصبيّة. لكن عليًا هزم أتباع هؤلاء الثلاثة في موقعة الجمل، وهم قادمون من شبه الجزيرة العربيّة في طريقهم إلى البصرة. وهذه الهزيمة التي حفلت بنتائج سياسيّة أدّت إلى مقتل طلحة.

طليطلة (إسبانيا)، حاضرة محصّنة في شبه جزيرة إيبريا. استعادها المسيحيّون في العام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م بعد خضوعها للأندلس طيلة ثلاثة قرون: فنزعوا عنها ماضيها الإسلامي، وحوّلوها إلى قطب إستراتيجي في قشتالة الجديدة.

تقع طليطلة على نهر التاج، ويحيط بها أحد منعطفات مجراه من ثلاث جهات، وتقع إلى الجنوب الغربي من مدريد على مسافة تقلّ عن مئة كيلومتر. وما تزال تحافظ حتّى اليوم على أبنيتها القروسطيّة السابقة لسقوطها بيد المسيحيّين والتي تُنسبُ أحيانًا إلى الفن المدجّن. وفي ما سبق، كان المسلمون قد احتلّوها بقيادة طارق بن زياد إبّان الفتوحات الكبرى، واستمرّت حتّى القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد مركزًا شديد الازدهار، وكانت تقطنها أعداد وفيرة من المستعربين واليهود. كما أنّها شكّلت بؤرة للاضطرابات ضد السلطة المركزيّة في قرطبة. أمّا أشهر الثورات التي اندلعت فيها فهي: ثورة البربر في العام ١٢٢هـ/ ٧٤٠م؛ ثورة أحد الأشخاص المعروف بـ«هشام» عام ١٤٧هـ/ ٧٦٤م؛ ثورة أحد الأمويّين، أخي هشام الأوّل، في العام ١٧١هـ/ ٧٨٨م؛ ثورة ١٨١هـ/ ٧٩٧م التي، على اثرها، نصب الحاكم المولّد كمينًا لأعيانها وقضى عليهم سنة ١٩١هـ/ ٨٠٧م؛ الحريق الذي أضرمه الأمير الحكَم الأوّل والذي أتى على القسم الأعلى من المدينة في العام ١٩٨هـ/ ٨١٤م؛ ثورة العام ٢١٤هـ/ ٨٢٩؛ وآخيرًا حصار جيوش

قرطبة للمدينة في العام ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م.

وقد اضطرّ الطليطليّون، إثر عصيان جديد قاموا به، إلى طلب مساعدة جيرانهم المسيحيّين، لكنّ القوات القرطبيّة انتصرت على القوات المتحالفة. وفي العام ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م، نالت طليطلة استقلالًا ذاتيًّا. لكنّ عبد الرحمن الثالث، الذي بلغت السلالة الأموية في عهده أوج عظمتها، لم يتركها تتمتّع به، بحيث أنّه جعلها مركز المنطقة الحدوديّة الوسطى وخصّها بحامية عسكريّة أمويّة قويّة للمساعدة في الدفاع عن الأندلس ضد هجمات المسيحيّين.

بعد سقوط الخلافة، أصبحت طليطلة - التي كانت، حتّى ذلك التاريخ، قد تخلّت عن دورها السياسي - عاصمةً لدولة بني ذي النون الصغيرة في عهد ملوك الطوائف. وقد سقطت هذه الدولة قبيل الهجوم الكبير الذي قاده ألفونسو السادس ملك قشتالة وانتصر فيه سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. لم يتمكّن المسلمون من استعادتها بعد هذا التاريخ. وقد استمرّ فيها الموريسكيّون لقرون عدّة وكانوا يشكّلون جالية مهمّة.

◀ راجع المستندات ٨، ١١، ١٥، ١٦، ١٩.

طنجة (المملكة المغربيّة)، مدينة مرفئيّة في المغرب الغربي على مضيق جبل طارق، استمرّت أهميّتها الإستراتيجيّة وأصالتها ثابتة حتّى الزمن المعاصر.

كانت عاصمة قديمة لموريتانيا الغربيّة الرومانيّة، فضمّها موسى بن نصير نهائيًّا إلى الإسلام سنة ٨٨هـ/ ٧٠٧م، إبّان الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، وأصبحت مركز ولاية. وقد استقبلت في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، الأمير إدريس الذي لم يستقرّ فيها، إلا أنّها ظلّت تابعة لمملكة الأدارسة حتى سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٩م، عندما احتلّها أمويّو قرطبة[٦٥]. خضعت لحكم المرابطين سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٧م، ثمّ الموحّدين سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، فالمرينيّين سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م، لكنها ظلّت مرفأً إسلاميًّا مزدهرًا ونقطة عبور إلى الأندلس. تبدّلت حال طنجة سنة ٨٧٦هـ/ سنة ١٤٧١م، عندما احتلّها البرتغاليّون بعد محاولات فاشلة عدّة، وجعلوها عاصمة ممتلكاتهم في الجهة الثانية لمضيق جبل طارق. ودامت سيطرتهم عليها حوالى قرنين، إلى أن سقطت في أيدي الإسبان. ومنذ سنة ١٦٦١م أصبح الإنكليز الذين ملكوها عرضة لهجمات المجاهدين المتحالفين مع الحكّام الأول للأسرة الشريفيّة العلويّة ذوي الطموح الاقليمي. وفي سنة ١٦٨٤م، نجح السلطان مولاي إسماعيل، بعد حصار دام ست سنوات، في إعادة طنجة إلى السيادة الإسلاميّة، وفي تشييد أبنية جديدة فيها. غير أنّ المدينة بدأت منذ ذلك الوقت عهد انحطاط، إلى أن فُرضت الوصاية الإسبانية - الفرنسية على المغرب في بداية القرن العشرين، ما أتاح لها التمتّع، خلال خمسين سنة، بوضعيّة ذات طابع دولي، كرّسنها مؤتمرات دوليّة عدّة، وأفادت منها أيضًا المنطقة المحيطة بها. وقد دانت لهذا الواقع - الذي وضع استقلال المغرب حدًّا له سنة ١٩٥٧ - بأن شهدت ازدهارًا جديدًا، اذ استعادت دورها كمرفإ تصدير تجاري ذي صفة عالميّة، وشهدت تنسيقًا جديدًا لمنظرها المُدنيّ بحسب سليقة رعاة الفنون من المقيمين فيها.

◀ راجع المستندات ٨، ١١، ١٤ و١٩.

طنطا (جمهوريّة مصر العربيّة)، مدينة في مصر السفلى، تقع بين فرعي دلتا النيل: دمياط والرشيد. وتعود شهرتها التاريخيّة إلى ضريح ومقام احمد البدوي، تكريمًا لهذا الصوفي الزاهد الموقّر المتوفّى سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م والذي يُعتبر الشفيع الأكثر شعبية في مصر، تقام احتفالات تحتشد لها الجموع وتكون مناسبة لإقامة أسواق كبيرة. إضافة إلى ذلك، تحوّل المسجد المشيّد قرب ضريح هذا الولي، في القرن العشرين، إلى مؤسّسة للتعليم الديني من الدرجة الأولى، وهو يشهد على استمرار طقوس تكريم الأولياء في ذلك البلد حتّى العصر الحالي.

طه حسين، ١٨٨٩ - ١٩٧٣، كاتب وروائي مصري حديث، تخطّى نتاجه الأدبي النطاق الضيّق لموضوعات الأدب العربي المعروفة، وتطرّق الى الموضوعات المتنوعة التي كانت تثير اهتمامات مواطنيه المسلمين الفكريّة والدينيّة في أواسط القرن العشرين.

ولد في احدى قرى مصر الوسطى[٦٦]، وفقد بصره

في الثالثة من عمره. لكنّ ذلك لم يمنع الفتى طه حسين من متابعة دروسه بالطريقة التقليديّة، فأوصلته إلى جامعة الأزهر، ومن ثمّ إلى جامعة القاهرة التي تأسّست سنة ١٩٠٨، وكانت تتبع الطراز الأوروبي في التعليم. وفي سنة ١٩١٤ أُرسل إلى فرنسا ليتابع دروسه على المنهج الأوروبي الحديث، وناقش في جامعة السوربون أطروحته التي أعدّها عن إبن خلدون. تزوّج من فرنسية، وعاد بعد ذلك إلى مصر حيث تبوّأ مناصب مهمّة عدّة أستاذًا في جامعة القاهرة، وعميدًا لكلية الآداب فيها، رئيسًا لجامعة الاسكندرية المنشأة حديثًا، فوزيرًا للمعارف الوطنيّة عام ١٩٥٠، ومن ثمّ رئيسًا لمجمع اللغة العربيّة.

لن نتناول من مؤلّفاته إلاّ تلك التي تتحدّث عن الأبعاد الفكريّة والدينيّة، ومنها: سيرته الذاتية «الأيّام» التي بدأ بنشرها في سنة ١٩٢٧ واستمرّ حتّى سنة ١٩٣٩؛ - دراسة حول الشعر الجاهلي المفرطة في نقدها والمنشورة في العام ١٩٣٧، وقد شكّك فيها في أصالة هذا الشعر، ما أثار استنكارًا شديدًا في الأوساط المصريّة؛ - دراسات مختلفة نُشرت بين ١٩٣٣ و١٩٤٦ تناولت نشأة الإسلام وحياة النبيّ محمّد (ﷺ)؛ وأصدر سنة ١٩٤٧ «الفتنة الكبرى»، متناولاً عهد الخليفة عثمان بن عفّان، وأصدر «عهد علي» سنة ١٩٥٩، وفي سنة ١٩٤٩ «الوعد الحق». وأصدر اعتبارًا من سنة ١٩٣٨ دراسة(٦٧) تختلف جزئيًّا في موضوعها عن مؤلّفاته الأخرى من حيث أنّها تبحث في مستقبل الثقافة في مصر.

وبما أنّ طه حسين قد تدرّب على مناهج الفكر الأوروبي، فقد أصرّ خلال فترة من حياته على الطابع التكاملي بين الحضارتين الشرقيّة والغربيّة، وعلى الدور الذي يجب أن تضطلع به مصر في هذا التقارب. ومن أجل ذلك قام، بصفته وزيرًا، بإصلاحات تهدف إلى إدخال المناهج والأنظمة التعليميّة الاوروبيّة الرائجة ضمن المناهج الرسميّة المصريّة. ومع ذلك فإنّ كتاباته تُظهر أنّه لم يُهمل أبدًا قيم تراث أمّته، ولا سيّما القيم الإسلاميّة التي بوّأها مركز الصدارة.

الطهارة الطقسيّة، حالة واجبة على كل مسلم بتهيّأ لتأدية الصلاة.

تنتج حال النجاسة الصغرى، بوجه خاص، عن القيام بالحاجات الطبيعيّة وملامسة الأشياء أو الحيوانات النجسة مثل الخمرة والخنزير والكلب وأي حيوان ميت لم يُذبح حلالاً. وتُبطل هذه الحال بالوضوء البسيط الذي يقضي بغسل اليدين والوجه والرأس والرجلين، وفق ترتيب محدّد. أدّت ضرورة تأمين هذا الوضوء إلى إنشاء أمكنة خاصة، داخل حرم المساجد أو في جوارها مباشرة، تسمّى عادة «مِضاء»، والى استحداث أحواض وسُبُل ماء متنوّعة تسمّى غالبًا «شاذَرْوان» في فناء المسجد تغذيها المياه بحسب أنظمة جرّ مختلفة.

أمّا حال النجاسة الكبرى فهي ناتجة، بوجه خاص، عن أعمال جنسيّة، وتُبطل بالوضوء الكبير أي الغُسْل الذي يقضي بغسل الجسم كلّه، الأمر الذي يبرّر بناء حمامات كثيرة، عامة أو خاصة، في البلدان الإسلاميّة. كذلك، تدخل المرأة في حال نجاسة كبرى في أثناء الحيض وبعد الولادة.

هذان النوعان من الوضوء اللذان تفرضهما الشريعة يتدرجان، بحسب المذاهب الفقهيّة، في سياق الفرائض أو ما يُنصَح به، لكنّهما يُراعَيان، بصورة عامة، في كلّ مكان. ويمكن أن نستبدل بالوضوء التيمّم اذا لم يكن الماء متوفّرًا. كما يمكن، عند الحاجة، أن نستبدل بغسل الأرجل فرك الأحذية. إلّا أنّ هذا التصرّف غير مقبول في الفقه الشيعي، وهو يشكّل إحدى نقاط الخلاف الدائمة بين الشيعة والسنّة، بالنسبة الى ممارسة طقوس الحياة اليوميّة.

طهران (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة إيرانيّة أصبحت عاصمة البلاد منذ عهد القاجار.

كانت في الأصل بُليدة تقع بالقرب من مدينة الرّي القروسطية المهمّة. وقد زارها في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد الجغرافي ياقوت. ولم تشهد تناميًا يذكر إلاّ في عهد الشاه الصفوي طهماسب الأوّل الذي زوّدها بسوق وبسور. وفي العام ١٧٨٦م تمّ اختيار طهران مركزًا لدولة الملوك القاجاريّين، فشهدت منذ ذلك الوقت نموًّا كبيرًا. وما بين ١٨٦٩م و١٨٧٤م، تحوّلت طهران إلى مدينة جديدة في شكل مثمّن غير

متساوي الاضلاع، وجُهّزت باثني عشر بابًا جديدًا، فضلًا عن شوارع عريضة وجديدة. كما أنّ السلالة الفهلويّة حقّقت فيها مشاريع تجميل وتوسيع، بينما كانت المدينة تنمو لتصبح العاصمة الضخمة الحاليّة.

الطوائف (عهد -)، والأصحّ «رؤساء الطوائف» وفق عبارة مقتبسة من الإسبانيّة، مرحلة تاريخيّة تميّزت، خلال السيطرة الإسلاميّة على شبه الجزيرة الإيبيريّة، بمنازعات فوضويّة بين إمارات متخاصمة سبقت وصول المرابطين في سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٦م.

هذه الفترة كانت غير مستقرّة سياسيًّا إلى أبعد الحدود، كما أنّها شهدت بداية استعادة المسيحيّين للأندلس؛ إلّا أنّها، رغم ذلك، تُعتبر مرحلة بروز ذوق أدبيّ وفنّي رهيف في ظلّ سلالات صغيرة حاكمة محليّة عُرفت بـ«ملوك الطوائف»، وقد انفردت كل واحدة منها بحكم منطقة معيّنة في الاندلس خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وُلدت الطموحات الخاصّة بكلّ من المدن الكبيرة - التي استقلّت ضمن نطاقها الجغرافي - نتيجةً لتفتّت السلطة المركزيّة التي كانت في السابق في عهدة الإمارة ثمّ الخلافة الأمويّة في قرطبة. وانعدمت بسرعة الإنجازات الأنيقة والفخمة التي كان يحقّقها مختلف الحكّام ممّن رعوا العلماء والأدباء. وأُلحقت البلاد بأكملها بامبراطوريّات بربر المغرب. أمّا أبرز سلالات ملوك الطوائف فهي بنو عبّاد، بنو الأفطس، بنو عامر، بنو ذي النون، بنو حمّود، بنو هود، بنو جَهْور، بنو زيري، بنو تُجيب.

◄راجع المستند رقم ١٥.

طوائف الحرفيّين، نسق تنظيمي للحرف المدنيّة معروف في أوروبا القروسطيّة، يميل المؤرّخون الغربيّون إلى تقرير وجود تنظيم مماثل له في العالم الإسلامي خلال الحقبة نفسها، من دون الأخذ في الاعتبار، بالمقدار الكافي، بعضَ الاختلافات والنتائج المرتبطة بتغيّرات جليّة حصلت عبر الزمن.

يجري الحديث غالبًا عن طوائف الحرفيّين التي كانت لا تزال قائمة في مختلف البلدان الاسلاميّة، وقد وُضعت قوائم في فترة حديثة العهد، تعود إجمالًا إلى بداية القرن العشرين، لطوائف بعض المدن كمدينة فاس في المغرب ودمشق في سوريا. وهناك ذكرٌ أيضًا لممثّلين لبعض الحِرف كانوا في الحقبة العثمانيّة يشاركون في التطوافات الدينيّة التي كانت تجري أمام السلطان في مناسبة الأعياد والاحتفالات المختلفة، وهي تطوافات تشير إليها، في آن، نصوص عدّة ورسوم المنمنمات. اذن وُجدت في مراحل متأخّرة هيئات حرفيّة مثّلت دورًا في الأوساط المدنيّة الإسلاميّة، وقد اتّخذت شكل جمعيّات تتمتّع باستقلالية نسبيّة ويجري الانتماء اليها وفاق طقوس تأهيليّة خاصة. ومن المعروف، إضافة الى ذلك، أنّ الأعضاء كانوا ينتظمون وفاق تراتبيّة محدّدة، وكانوا يخضعون لبعض القواعد التي تختلف، عند الاقتضاء، بين حرفة وأخرى، وكانوا يلتمسون غالبًا لحمايتهم شفاعة أحد الأشخاص المكرّمين في طقوس تكريم الأولياء.

لكنّ هناك اتجاهًا لإرجاع نشأة هذه التنظيمات إلى ماض بعيد، رغم أنّها لم توجد بشكلها المعروف، على ما يبدو، إلّا في القرون الوسطى المتأخّرة. وبالفعل، فالبيّنات التي تؤكّد وجودها لأوّل مرّة، بشكل دقيق، تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد. وسبب ظهورها في هذه المرحلة عائد، بحسب بعض التفسيرات، إلى تأثير تنظيمات «الفتوّة»، وبشكل أعمّ إلى الازدهار المتنامي للطرائق الصوفيّة.

أمّا ما كان قائمًا بالفعل في العصور السابقة فهو هيئات حرفيّة متنوّعة تميّزت في الواقع بتجمّع أعضائها في أماكن محدّدة، إذ إنّ الأسواق كانت تنظّمت بصورة تخصّصيّة منذ فترة مبكّرة وفاق قواعد صارمة. لكنّ هذا التنظيم لم يكن خاصيّة إسلاميّة صرفًا، كما يسود الاعتقاد عند بعض الجهات، إذ إنّ مثل هذه التنظيمات كان موجودًا منذ فترة سابقة في المدن البيزنطيّة في سوريا حيث دخلت الفرق العسكريّة العربيّة الأولى، كما أنّها ظلّت قائمة في ما بعد في القسطنطينيّة. وقد تكون هذه النماذج القديمة دفعت في اتجاه اعتماد مثل هذه التنظيمات في المدن الإسلاميّة في الشرق الأدنى، بعد مرحلة الفتوحات الكبرى، وانتشارها في ما بعد الى مدن المناطق الأخرى. وكذلك لا يمكن استبعاد احتمال

وجود مثل هذه التنظيمات في مدن الأمبراطوريّة الساسانيّة قبل الإسلام. وفي كل الأحوال، لا يمكن الاستناد إلى تخصصيّة الأنشطة التجاريّة والحرفيّة والى تفضيل افراد بعض الحرف التجمّع في صفوف حوانيت تُطلق عليها تسمية المهنة، للقول بأقدمية وجود نقابات في الوسط الإسلامي.

كذلك لا نملك حججًا في دراسة مسألة مشابهة - وهي لا تزال تُثيرُ جدلًا - تتعلّق بمعرفة ما إذا كان بعض المهن المتعارف على أنّها نبيلة تحتلّ أفضل المواقع في الأسواق بصفتها هذه، وما إذا كانت المهن التي تُعتبر وضيعة كانت تُفرد لها أماكن منزوية بسبب طبيعتها. وإذا كان صحيحًا أنّه كان ثمّة مهن وضيعة، كمهنة الدبّاغ والحجّام والحائك على سبيل المثال، فإن سبب هذه الصفة ليس واضحًا دائمًا؛ وإذا كان بعض هذه المهن معزولًا، فليس من الضروري التفتيش عن سبب ذلك في محظورات دينيّة تستهدف هذه المهن، بل يجب، بكل بساطة، تفسير هذا الانعزال في كون هذه المهن هي مصدر إضرار. في المقابل كان من مصلحة الناسخين، مثلًا - من المتعارف عليه أن مهنتهم نبيلة، بدليل أنّ انسانًا تقيًّا كان يمكنه امتهانها من دون أن يحطّ ذلك من قيمته - أن يتجمّعوا قرب المسجد الجامع لسبب بسيط، هو أن يكونوا قريبين من الزبائن. وليس من الضروري أن نفترض، إنطلاقًا من هذا الواقع - كما يذهب بعضهم - وجود تراتبيّة في مواقع الحرف حول أماكن العبادة.

من هنا يمكن فهم هزالة الرابط الذي أراده بعضهم بين الإسلام والتماسك الداخلي للمهن الحرفيّة. لقد وُضعت من دون شك، في فترة مبكرة، قواعد تنظّم انتقال الكفايات وتميّز المتمرّن من العامل وأستاذ المهنة. لكن لا نجد في أيّ مكان ما يشير، في الحقبة القديمة، إلى طقوس تأهيل احتفاليّة للمهن ذات بعد ديني. كما لا نعرف شيئًا أيضًا عن طريقة اختيار الأستاذ للمتمرّن، ولا عن العقود التي ترعى المشاغل التي لم تكن، من جهة أخرى، تعلن عن نفسها إلّا نادرًا، بوضعها دمغة على منتجاتها. إنّ المؤلّفات المتعلّقة بالحسبة لا تأتي على ذكر هذا الأمر، فعلى الأرجح أنّه كانت هناك حريّة تصرّف في هذا المجال في القرون الوسطى الإسلاميّة.

كذلك، من الصعب تفسير سلوك القيّم على الأسواق، أي المحتسب، الذي كان يلجأ عادة إلى العُرفاء الذين يمثّلون مختلف المهن الحرفيّة لمساعدته أو تنويره في ممارسة مهماته، أي عندما كان يراقب نوعيّة المنتجات الحرفيّة، أو طرائق البيع في المبادلات التجاريّة. وكان المحتسب يعيّن، منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، على ما يبدو، هؤلاء العرفاء من بين أعضاء كل مهنة، وهذا ما يؤكّد أنّ نظام دفاع عن بعض المصالح كان قائمًا منذ ذلك الوقت ولو بشكل ضعيف. على أنّ هذا الواقع لا يعني أبدًا اعترافًا لهذه التجمّعات بنوع من الاستقلاليّة تجاه الممسكين بالسلطة، ولا يسمح تاليًا باعتبارها هيئة حرفيّة أو نقابيّة. وقد يكون قد حصل تطوّر ملموس على هذا الصعيد بدءًا من القرن السادس عشر، مع الصّفويّين والعثمانيّين، حيث أنّ ممثّلين يُدعون «كَتْخُدا» كانوا يُختارون من قبل ابناء حرفة ما، ومن ثمّ يصار إلى تثبيتهم في مهمانهم من قبل السلطة. حتّى في الحقبة التي وُجد فيها هؤلاء «الكتخدا»، كان ممثّلو السلطة يراقبون بشكل حثيث ومباشر كل الأنشطة التجاريّة والحرفيّة. وكانت لهؤلاء حريّة التصرّف في فرض رسوم على تجّار الأسواق، وفي بعض الأحيان في اختيار أماكن في المدن الكبرى يفرضون على التجّار العمل فيها، لكي يتمكّنوا من مراقبتهم بشكل أفضل. وهكذا يبدو أنّ الهيئات الحرفيّة لم تتمتّع إلّا بحريّة نسبية جدًا للدفاع عن أعضائها.

هذه المعطيات، التي تغلب عليها السلبيّة، لا تصحّ على كل حال إلّا في أصحاب الحوانيت والصنّاع والبائعين. أمّا في ما يتعلّق بأعضاء مهن أخرى، فالأمر يختلف: لقد وُجدت منذ القديم، على ما يبدو، تجمّعات مؤسّسيّة كانت تتمتّع بحقّ تدخّل ممثّل منتخَب لها على الأرجح. وهذه حال الأطباء الذين كان لهم رئيس خاص، ورجال الفقه من مختلف المذاهب الفقهيّة الذين كانوا ينتظمون في تجمّعات صغيرة لها مواردها الماليّة الخاصة ويدير كلًّا منها رئيس.

الطوائف (ملوك -) ← **الطوائف (عهد-)**.

طوران، لفظة فارسيّة أُطلقت في الأصل على المناطق

الشمالية الشرقيّة من إيران ؛ ومن ثمّ على كل المناطق التي سكنتها الشعوب التركيّة في آسيا الوسطى وأبعد منها.

عمليًّا، لم يتّفق الجغرافيّون العرب في القرون الوسطى على تأكيد ما إذا كانت طوران تضمّ بلاد ما وراء النهر إلى الشمال من نهر جيحون/ آمودريا، أو أنّها تبدأ فقط من شمال نهر سيحون/ سيرداريا؛ أي من شمال بلاد الصُغد وفرغانة وبلاد خوارزم؛ وفي هذه الحال تدلّ على منطقة السهوب الأسيويّة الواقعة خارج العالم الإسلامي.

لقد نبعت الأهميّة الحاليّة لهذه اللفظة، رغم غموض استعمالها، من ظهور الحركة الطورانيّة في القرن العشرين التي كانت في أساس القوميّة التركيّة. وبينما ظلّ الشباب الأتراك (تركيا الفتاة) في ١٩٠٨ مخلصين لفكرة الأمبراطوريّة العثمانيّة، تطوّر ميل للقوميّة دافع عنه ضيا كوك ألب الذي كان يقول: «إنّ وطن الاتراك ليس تركيا او التركستان بل هو طوران، البلاد الكبرى الخالدة». غير أنّ الوحدة السياسيّة لكلّ الشعوب التركيّة لم تكن، في نظره، إلّا برنامجًا طويل الأمد، فاكتفى آنذاك بالدعوة إلى «تتريك» بلاده، وهو أمرٌ لا يلغي في نظره الأسلمة والحداثة. وهكذا فُتحت الطريق للكماليّة[٦٨] التي انضمّ اليها كوك ألب في نهاية المطاف.

طوس، مدينة في خراسان، إندثرت حاليًا، وكانت إحدى أهم حواضر إيران الإسلاميّة في بداية العصور الوسطى.

وضُمّت طوس إلى الدولة الإسلاميّة إبّان الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، على الأرجح نحو عام ٢٩هـ/ ٦٥٠م، وحافظت على ازدهارها على مدى قرون عدّة. وهي تلي نيسابور مباشرة من حيث التراتب بين حواضر المنطقة، قبل أن يتفوّق عليها، خلال القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، وفي جوارها المباشر، التجمّع الذي نشأ في مشهد، إنطلاقًا من مزار شيعيّ مشهور. وقد نوّه الجغرافيّون العرب، في القرون الوسطى، بمسجدها الجامع الذي جمّله أحد الحكّام المحليّين في العهد الساماني.

من ناحية أخرى، بقي تنظيم المدينة وتاريخها، مع قصبتيها المعروفتين «طابران» و«نوقان»، غامضًا بعض الشيء، حتّى اندثارها الناتج عن توالي الإعتداءات المغوليّة المسلحة، وعن حملة تيمورلنك التي قمعت آخر ثورات المدينة في العام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م.

وقد خرّج هذا المركز الثقافي المرموق شخصيّات شهيرة أمثال الوزير السلجوقي الذائع الصيت نظام الملك الذي شيّد فيه مدرسة، وأيضًا المفكّر الصّوفي الغزالي الذي درّس فيه في أواخر حياته. كما نعلم أنّه وُلد فيه عالمان شيعيّان كنّيا بالطوسي وهما: الفقيه المتكلّم ابو جعفر محمد في العهد البويهي، والعالم الفلكي نصير الدين الذي اشتهر في زمن الإيلخانيّين. ولم يبقَ اليوم من معالم الحاضرة القروسطيّة سوى بعض الآثار غير المحدّدة تحيط بضريح مميّز مجهول الهويّة يعود إلى زمن الإيلخانيّين.

الطوسي ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي (٣٨٥-٤٦٠هـ/ ٩٩٥-١٠٦٧م)، متكلّم شيعي شهير أعدّ مؤلّفاته في العهد البويهي.

ولد في طوس فنُسب اليها، ثمّ انتقل إلى بغداد ليتابع دروسه على العالِم الشيعي المعروف بـ«الشيخ المفيد»، ومن ثمّ على الشريف المرتضى، قبل أن يدرّس بنفسه في عاصمة الخلافة حيث أمضى معظم حياته. إلاّ أنّه اضطرّ إلى مغادرتها في العام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م، لمعاداة السكّان السنّة له، فتوجّه إلى النجف وبقي فيها حتّى مماته. يُعتبر أحد أهمّ علماء الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة، ويُعتبر إثنان من مصنّفاته من المؤلفات الأربعة التي تتضمّن، بحسب رأي الإماميّة أنفسهم، جوهر عقيدتهم.

الطوسي، نصير الدين ابو جعفر محمّد بن محمّد (٥٩٧-٦٧٢هـ/ ١٢٠١-١٢٧٤م)، فلكي وسياسي ذو عقيدة شيعيّة من أصل إيرانيّ، لكنّه توفي في بغداد.

ما نعرفه عن مسار حياة هذا العالِم المولود في طوس هو أنّه، بعد أن كان في خدمة أحد الحكّام النزاريّين في إيران، رافق هولاكو في حملته على بغداد التي أدّت إلى نهب عاصمة الخلافة. ومنذ ذلك التاريخ غدا شخصيّة نافذة عند هذا الفاتح كما عند خلفائه. وفي عمر الستين حصل على قرار بتأسيس مرصد مَراغة في منطقة أذربيجان التي كانت تشكّل آنذاك قلب الدولة الإيلخانيّة. وهكذا تمكّن في أواخر حياته من أن يُنجز في

هذا المركز العلمي جداول كوكبيّة جديدة.

كان ينتسب إلى الوسط الإسماعيلي، ومن ثمّ تحوّل إلى الإماميّة الإثني عشريّة. ولم يكتف بوضع مصنّفات في الطب والفيزياء والرياضيات وعلم الفلك، بل قام أيضًا بمهمّة الفيلسوف والمتكلّم بغية الدفاع، مثلاً، عن نظرية غياب الإمام الثاني عشر، مستخدمًا، غالبًا، في كتاباته مناهج ابن سينا الفلسفيّة.

الطولونيّون، (٢٥٤-٢٩٢هـ/ ٨٦٨-٩٠٥م)، سلالة حاكمة من أصل تركي، ولّتها السلطة العبّاسيّة، وقد حكمت مصر لفترة وجيزة لكنّها متألّقة.

مؤسّس هذه الأُسرة هو أحمد بن طولون المعروف بإبن طولون، وهو إبن بالتبنّي لأحد قادة الحرس الخليفي في سامرّاء. عُيّن في العام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م معاونًا لحميّه التركي بايكباك، حاكم مصر، فتمكّن من ممارسة السلطات العسكريّة والماليّة ومن بسط سلطانه على بلاد الشام في العام ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م. أعلن استقلاله عن الخليفة العبّاسي المعتمد، إذ لامه لأنّه عهد بسلطانه الى أخيه الوصيّ على العرش، الموفّق. ولم تقم الخلافة العبّاسيّة في بغداد بأيّة ردّة فعل على استقلاله بسبب مشكلات السلطة المركزيّة التي كانت آنذاك منهمكة بثورة الزّنج.

اغتنم ابن طولون تلك الأوضاع لتنظيم دولته، فزوّدها بإدارة ماليّة وعسكريّة جيّدة، وبخاصة بجيش قوامه أرقّاء من أتراك وزنوج. كما بنى شماليّ الفسطاط مدينة جديدة أسماها القطائع، وشيّد فيها قصره وجعل منها مركزًا لدواوينه ولحرسه، وشيّد فيها مسجدًا جامعًا ما يزال يحمل اسمه ويعرف بجامع ابن طولون ويقع اليوم داخل مدينة القاهرة.

قبل وفاته في العام ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م، أوصى بالحكم لابنه خمارويه. واعترف الخليفة العبّاسي المعتمد بحكم خمارويه وباستقلاله الذاتي في العام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، لقاء خراج سنوي. اغتيل خمارويه في العام ٢٨٣هـ/٨٩٦م وخلفه ولداه. وفي سنة ٩٠٥ أرسلت الخلافة العبّاسيّة حملة عسكريّة إلى مصر قضت على الدولة الطولونيّة.

السلالة الطولونيّة

احمد بن طولون	٢٥٤-٢٧٠هـ/ ٨٦٨-٨٨٤م
خمارويه	٢٧٠-٢٨٢هـ/ ٨٨٤-٨٩٥م
جيش	٢٨٢-٢٨٣هـ/ ٨٩٥-٨٩٦م
هارون	٢٨٣-٢٩٢هـ/ ٨٩٦-٩٠٥م
شيبان	٢٩٢هـ/ ٩٠٥م

◄ راجع المستند رقم ٤٤.

ظ

الظاهر غازي (الملك)، ٥٦٨-٦١٢هـ/ ١١٧٢-١٢١٥م، ملك من السلالة الأيوبيّة وابن صلاح الدين، حكم في سوريا الشماليّة مملكة حلب من سنة ٥٨٩ حتّى ٦١٢هـ/ ١١٩٣ حتّى ١٢١٥م.

عيّنه والده حاكمًا على هذه المدينة منذ سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م، وكان ما يزال يافعًا. نُزع الحكم منه لفترة قصيرة لمصلحة عمّه الملك العادل، ولكنّه استعاد إرثه حال استيلاء صلاح الدين على القدس سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. هكذا سيطر، تقريبًا بدون انقطاع حتّى مماته، على إمارة مهمّة، إستراتيجيًّا واقتصاديًّا، تمتدّ من ضواحي حماة جنوبًا حتّى تخوم أرمينيا شمالًا وضفّة الفرات شرقًا، وتجاور مباشرة من الغرب الإمارة المسيحيّة التي أقامها الفرنج في أنطاكية.

كانت مهمّته حماية الحدود الشماليّة من البيزنطيّين والدول الأخرى غير المسلمة في الأناضول، لكنّه شارك بشكل فعّال في عمليّات عسكريّة مختلفة قادها والده قبل وفاته، في مواجهة المملكة اللاتينيّة في الأراضي المقدّسة.

بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، احتفظ الظاهر بسلطة فعّالة ومتزايدة على إمارة حلب التي بقيت في عهدته وعهدة سلالته حتّى غزو المغول سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. حصّن عاصمتها ونظّمها وأدخل تعديلات على قلعتها وأصلح المجاري التي تغذيها بالمياه، وشيّد صروحًا مختلفة دينيّة ومدنيّة، ونمّى ازدهارها بتطوير أنشطتها التجاريّة وتشجيع المبادلات، خصوصًا مع تجّار البندقيّة والفرنج في أنطاكية، كذلك مع سلاجقة قونية وأمراء تبريز. وفي الوقت نفسه، وظّف منزلته كرجل دولة في خدمة طموحاته التي تكلّلت بالنجاح. لم يتوانَ في تأمين تفوّقه الشخصي وسط صراعات وخصومات كانت تمزّق الدولة الأيوبيّة السوريّة - المصريّة، وتضع وجهًا لوجه ملوكها المنتسبين إلى الأسرة نفسها. مات بعد أن عيّن أحد أبنائه البالغ من العمر ثلاث سنوات وريثًا له، وباسمه مارس في البدء أتابكه طغرل السلطة، متابعًا سياسة سيّده.

الظاهريّة، مذهب فقهيّ وكلاميّ صاغه في العراق الفقيه داود الأصفهاني المتوفّى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٨٤م.

قام هذا المذهب حصرًا على «المعنى الخارجي أو الحرفي» المناقض للباطن، أي إنّه يعتمد على ظاهر نصوص القرآن الكريم والحديث. إنّه يرفض أيّ تفسير شخصي، أي «الرأي» وسائر أساليب الإستدلال العقلي. في المجال الفقهي، شكّلت الظاهريّة مذهبًا خاصًّا، ولكنّه سرعان ما زال من الشرق، بعد أن تميّز بعدد من الفرائض تختلف عن تلك التي قالت بها المذاهب الفقهية الأخرى. أمّا في ميدان علم الكلام فإنّ الظاهريّة سفّهت التسويات الأشعريّة، مؤكّدةً وحدانيّة الله كما جاءت في النص المنزل من دون الأخذ بمقولات الفكر.

إلّا أنّ المذهب الظاهري، الذي لم يحصد سوى نجاح محدود من المناطق التي وُلد فيها، وجد مدافعًا فذًّا عنه في الأندلس، في شخص عالم القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي الشهير، إبن حزم، المعروف أيضًا كشاعر دُنيويّ وأديب، وأصبح مذهبًا رسميًّا مع نهاية القرن التالي، في عهد الولاية القصيرة للملك الموحّدي أبي يوسف يعقوب بن منصور. في ما بعد، في القرن السادس عشر الميلادي، تبنّى الصوفي الشعراني مقولات الظاهريّة في مصر.

ظَفار، اسم لمواقع عدّة مهدّمة من منطقة اليمن، في جنوب شبه الجزيرة العربيّة، بينها موقع «ذي بين» وهو أهمّها في ما خصّ الحقبة الإسلاميّة.

ما تزال بقايا أثريّة لقلعة ملكيّة قديمة موجودة على القمّة الصخريّة التي تحمل هذا الإسم والتي يُنفَذ إليها بصعوبة من الطريق الذي يربط اليوم صنعاء بصعدة. وكان قد بناها أئمّة من سلالة الزَّيديّين في اليمن، ينتمون إلى بني رَسي، وقد نُشرت حديثًا كتابات عربيّة قديمة تحدّد بدقّة، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، بناء المجموعة الهندسيّة المكوّنة من المسجد ومن ضريحين، وإنّ حالة هذه الآثار أفضل من حالة سواها.

ع

عائشة ؟ - ٥٩هـ/ ؟ -٦٧٨م ، إبنة أبي بكر الذي سيصبح خليفة ، والزوجة الثالثة التي اختارها النبي محمّد ﷺ ، فأصبحت المفضّلة لديه والقادرة على ممارسة تأثير فعليّ عليه .

ولدت في مكّة ولم تكن قد تجاوزت السادسة من عمرها عندما قرّر محمّد ، لأسباب سياسيّة من دون شك ، أن يتزوّجها ، في الوقت الذي تزوّج فيه بسودة ، وهي أرملة كان زوجها قد توفّي في الحبشة . وما كادت تبلغ العاشرة حتى أتمّ الزواج بها ، بعيد الهجرة ، والثامنة عشرة حين فاجأ الموت نبيّ الإسلام فحظيت بامتياز معالجته في حجرته الخاصة حيث دُفن بعدئذٍ .

ليس من دليل على أنّها استغلّت تعلّق زوجها بها لتحيك في محيطه دسائس كان يمكن أن يكون لها منحى سياسيّ . على أيّة حال ، في الأحاديث [النبويّة] تفاصيل كثيرة تتعلّق بحياة النبي محمّد (ﷺ) تُنسب إلى ذكرياتها معه . ويمكن أن تكون قد دُوّنت خلال الفترة الطويلة من ترمّلها التي قضت عائشة معظمها في المدينة حيث أنهت حياتها ، حاملة لقب «أمّ المؤمنين» ، وحيث لم تتدخّل في السياسة إلّا في مناسبة واحدة ، عندما وقفت بوضوح ، في العام ٣٦هـ/٦٥٦م ، ضدّ قتلة الخليفة الثالث عثمان بن عفّان : آنئذٍ اشتركت ضدّ علي ، من هودجها ، في المعركة المعروفة بوقعة الجمل ، وهو أمر لم تغفره لها شيعة عليّ .

عاد ، قبيلة عربيّة بائدة ، ضاربة في القِدم الأسطوريّ ، تدين بشهرتها لما ورد من ذكر لها في القرآن ، في سياق قصّة النبيّ هُود .

يُرجّح أن يكون هذا الشعب المتغطرس الذي سكن بلاد العرب قبل مجيء الإسلام قد اتّخذ منازله ، بُعيد عصر نوح ، في منطقة «الكُثبان» أو «الأحقاف» المجاورة لعُمان وحضرموت ، حيث يُذكر من مآثره أبنية عظيمة أقامها تدليلًا على بأسه . مهما يكن من أمر ، فقد استقرّ ذكره ، في الذهنيّة الإسلاميّة ، مع قوم ثمود ، على أنّه ، على مثال أهل مكّة النابذين رسالة النبي محمّد (ﷺ) ، نموذجٌ لتلك الأمم التي أنزل الله بها العقاب لإقصائها النبيّ (ﷺ) الذي حمل إليها الأوامر الإلهيّة والذي دعاها إلى الطاعة .

العادة ، مفهوم يُرجع إليه أحيانًا كثيرة في البلدان الإسلاميّة بمعناه المزدوج : التقليد المدوّن للسنّة النبوية الذي يشكّل أحد أركان الشريعة ؛ والعرف الذي ، من خلال تكييفه مع متطلّبات الإسلام ، يؤدّي إلى إثراء الفقه .

سمح مفهوم العرف مثلًا للسلاطين العثمانيين بتبرير إجراءات سلطوية عديدة كانت ترتكز أحيانًا إلى عادات قديمة ، وأحيانًا أخرى تشكل قرارات جديدة كليًّا . هكذا كان الأمر في الحقل المالي ، وكذلك في مجال تطويع الإنكشاريّة عن طريق الدِوْشِيرما . وحاول ملوك آخرون في الفترة ذاتها ، كالصفويين في إيران ، اتّخاذ قرارات مستندة إلى العرف ، لكنّ الملالي لم يوافقوا عليها .

وقد شجّع العرف أيضًا ، في بعض مناطق الأطراف ، على تشكُّل مجتمعات إسلاميّة لها طابعها الخاص ، بفضل الحفاظ على ممارسات قديمة إستنادًا إلى رأي فقهاء يعتبرون ، بشكل عام ، أنّ كل عرف لا يخالف الشرع هو مباح . وهكذا نشأ في مثل هذه المجتمعات خليط من الشرع بمعناه الحصري ومن الأعراف المحليّة ، ولا سيّما في الميدان المتعلّق بالعائلة ، حيث كان يُحتفل بالزواج مثلًا وفاق طقوس شديدة الاختلاف

بين بلد إسلامي وآخر. وقد حدث في بعض الحالات أن أقرت هذه العادات إلى جانب الشريعة، أو حتّى إنّها حلّت محلّها إلى حدّ ما. وهذا الواقع يمكن ملاحظته عند البربر في المغرب، وعند شعوب أفريقيا السوداء وشبه القارة الهنديّة الواسعة، من إندونيسيا الى الصين.

إنّ تبيُّن مختلف الروافد التي تشكّل اليوم إرث العادات التقليديّة، المعمول بها في هذه المنطقة أو تلك، أمر يصعب التحقُّق منه. فمن غير الممكن مثلًا أن نحدّد، بالنسبة الى مختلف المناطق البربريّة في المغرب والجزائر، الروافد الأولى التي استُمدت منها هذه العادات، كما لا يمكن تأكيد وجود عرف بربري قديم واحد. وقد أُبطلت بعض هذه التقاليد في المغرب بعد استقلال بلدانه، من دون الأخذ في الاعتبار الطبيعة المعقّدة لهذه التقاليد التي تداخلت فيها مع الزمن تأثيرات القانون الإسلامي. وحتّى بداية القرن العشرين، كانت لا تزال مستمرّة في الهند عادات متعارضة مع الشرع الإسلامي، بخاصة داخل الجماعات التي اعتنقت الاسلام حديثًا؛ لكنّ هذه العادات زالت بعد إصدار السلطات البريطانيّة «قانون الشريعة» في العام ١٩٣٧. أمّا في ما يتعلّق بالشرع المعروف بالعرفي في إندونيسيا الذي ما يزال، على ما يبدو، معتمدًا في ميادين عدّة، والذي تثير علاقته بالشريعة جدالات دائمة، فهو، إذا ما قورن بالشريعة، يحتوي أمورًا شاذّة بيّنة في قضايا تتعلق بالعائلة والزواج والإرث.

ألعَادل (ألملِك) أو «الملك العادل»، سيف الدين أبو بكر أحمد بن أيوُّب، ٥٣٨-٦١٥هـ/ ١١٤٣-١٢١٨م، حكم في مصر وسوريا من سنة ٥٩٦ الى سنة ٦١٥ هـ/ ١٢٠٠ إلى ١٢١٨م، وأصبح بعد أخيه، صلاح الدين، الرئيس الأعظم والسَّند الأفضل لسلالة الأيوبيّين حيث ساد مفهوم عائليّ للسلطة.

ولد في ٥٣٨ أو ٥٤٠هـ/ ١١٤٣ أو ١١٤٥م، أي بعد صلاح الدين بستّ سنوات أو ثماني، لوالد كان ضابطًا كرديًّا في خدمة آل زنكي، وقد تابع، في مستهلّ حياته السياسيّة، صعود أخيه وساعده على ارتقاء العرش، واستمرّ حليفًا وفيًّا له. عيّنه أخوه حاكمًا على مصر، في العام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، ولبث في هذا المنصب باستمرار تقريبًا، باستثناء فترة عابرة قضاها في حلب من ٥٧٩ الى ٥٨٢هـ/ ١١٨٣ إلى ١١٨٦م، ومسؤوليات في بلاد ما بين النهرين العليا تولّاها ابتداء من ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وقد شارك في الحملات الظافرة التي أدّت إلى استرجاع المقدس في العام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، كما في جبهات القتال التي عقبتها ضدّ الفرنج خلال الحملة الصليبيّة الثالثة.

وقد يسّر موتُ صلاح الدين في العام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، بعد أن وزّع ممتلكاته بين أولاده الثلاثة، الملك الظاهر، والملك الأفضل، والملك العزيز، للملك العادل بذل غاية جهده ودبلوماسيّته لفرض سطوته على الملوك الثلاثة الجدد، مستعينًا، عند الحاجة، بابنه الملك الكامل. وهكذا نجح مفيدًا من الخلاف الذي كان قائمًا بين أولاد أخيه - وكان الملك الظاهر رجل الدولة الوحيد بينهم - في الاستيلاء على ملك ذي سيادة واسعة حصل على التأييد الشرعيّ له من ديوان العباسيّين في العام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م.

بهذا استطاع بدوره أن يوزّع أقطار ملكه بين أولاده، مقرًّا سيطرة الملك الظاهر على حلب وتاركًا الحكم في حمص وحماه في أيدي أعقاب السلالات الفرعيّة.

وقد يسّرت له سلطته غير المنازعة، بعد هذه المرحلة، فرصة اتّباع سياسة هدفت إلى إقامة علاقات هادئة، بالقدر الممكن، مع فرنج الأرض المقدّسة والمدن الإيطاليّة الممسكة بزمام التجارة البحريّة في البحر المتوسّط. فتمكّن، بهذه الوسيلة، من تأمين الازدهار الاقتصادي وتقوية وسائل الدفاع في أراضي مملكته، أي الحفاظ على سلامة أراضي أمبراطوريّته التي شملت سوريا ومصر تحت سلطانه. وقد استمرّ هذا التوازن المنشود حتّى وفاته التي وافقت، في العام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، وصول الحملة الصليبيّة الخامسة، واستيلاء الفرنج على دمياط.

ألعادلشاهيُّون، ١٤٨٩ - ١٦٨٦م، سلالة إسلاميّة من الدكّن، استطاعت، خلال القرنين اللّذين احتفظت فيهما باستقلالها، متّخذةً بيجابور عاصمةً لها، أن تشجّع على ازدهار ثقافة مرموقة، سواء في الأدب أو الفنّ.

أسّس مملكة بيجابور ضابط تركيّ من [أسرة] البَهْمَنيّين، تُرجع الرواية الأسطوريّة أصله إلى الأسرة

العثمانيّة الحاكمة، إلّا أنّ ما يُعرف عنه، بوجه خاص، هو انتماؤه إلى الشيعة. وقد اصطبغت بهذا اللون الدينيّ الخاص، آنئذ، دول أخرى في الدكّن الجنوبيّ، تحت تأثير المسلمين «الأجانب» الوافدين إليه بوجه خاص من إيران. ورافق هذه الصبغة المقامُ الرفيع الذي تمتّعت به هناك، كما في أيّ مكان آخر، الحركات الصوفيّة كما تمتّع به الدعاة المتصوّفون الذين جهدوا في أسلمة البلاد، غير رافضين التكيُّف مع عاداتها الدينيّة السالفة. وقد اتّسم عهد ابراهيم الثاني بجهد حقيقيّ للتوفيق [بين الاتّجاهين]، بحيث بلغت المدينة والبلاط اللذان رحّبا كذلك بالأوروبيّين، وبينهم برتغاليّون من غواء أقصى درجات الأُبّهة الأنيقة، رغم الحروب المستمرّة مع الأمراء المجاورين. إلّا أنّ استيلاء المغول على المنطقة أنهى، بضربات جيوش أُورنغ زيب، سلطة آخر ممثّل لهذه السلالة التي عرفت كيف تخلّف إرثًا معماريًّا ذا أهميّة خاصّة، في الوقت الذي شجّعت فيه نموّ الأدب والموسيقى.

يوسف عادل (خان)	١٤٨٩-١٥١٠
إسماعيل بن يوسف	١٥١٠-١٥٣٤
مَلّو بن اسماعيل	١٥٣٤-١٥٣٥
إبراهيم الأوّل بن اسماعيل	١٥٣٥-١٥٥٧
علي الأوّل بن ابراهيم	١٥٥٧-١٥٧٩
ابراهيم الثاني بن طهماسب	١٥٧٩-١٦٥٦
عليّ الثاني بن محمد	١٦٥٦-١٦٧٢
سكندر بن علي	١٦٧٢-١٦٨٦

عاشوراء، اسمٌ لذكرى أو لمناسبة دينيّة تقع في العاشر من شهر محرّم القمريّ، لها مدلول مختلف في الأوساط السنّيّة أو الشيعية.

في الأوساط السنّيّة، يُكتفى بالتذكير بأنّ النبي محمّد (ﷺ) اختار هذا التاريخ لتعيين «صيام اليوم العاشر» المستوحى من العادات اليهوديّة. إنّ إبطال صيام هذا اليوم بنقل فريضة الصيام الشرعي إلى شهر رمضان، في السنة الثانية من الهجرة، وكذلك التخلّي عن بيت المقدس كقبلة للصلاة لم يحولا دون احتفاظ العاشر من محرّم بقيمته الدينيّة المستمرّة التي واكبها في بعض المناطق، ولا سيّما في المغرب، إستمرار لبعض الطقوس الشعبية القديمة ذات الجذور الزراعيّة.

في الأوساط الشيعيّة، يعني لفظ عاشوراء الحداد العلني المتّبع لاستذكار مقتل الإمام العلويّ الثالث، الحسين، سبط نبيّ الإسلام، الذي قُتل في كربلاء في اليوم نفسه [١٠ محرّم] من العام ٦١ للهجرة، أي ١٠ تشرين الأوّل/أكتوبر ٦٨٠م.

لسنا نعرف إلى أيّ عصر يعود هذا الاحتفال الشيعيّ الذي ينبغي ربطه، من دون شك، بتوقير قبر الحسين. إنّ الحوليّات العربيّة الفروسطيّة تذكر أنّ هذا القبر غدا بسرعة موضع زيارات نافلة: واقع الأمر أنّ خليفة من سلالة العبّاسيّين، هو المتوكّل، أمر في العام ٢٣٦هـ/٨٥٠م بمنع التجمّعات حول هذا القبر وبهدمه وبحراثة موقعه، بحيث لا يُعرف مكانه بعد ذلك. ما يبدو أكيدًا أنّه في العام ٩٦٢م، خلال سيطرة البويهيّين في العراق، احتُفل بالذكرى الشيعيّة لعاشوراء لأوّل مرّة في بغداد، ثمّ بعد مضيّ بضع سنوات، احتُفل بها في عاصمة الفاطميّين، القاهرة. كان النواح والنحيب ينسحبان على امتداد النهار بحيث أنّ متاجر بغداد كانت تُقفل. وكانت تُقام مسيرة يتقدّمها أمير الأُمراء يتبعه خلق كثير، متجلببون بالسواد، هاتفين «يا حسين! يا حسين!» وهم يضربون أنفسهم بالسياط. هذه التظاهرات الشعبيّة كانت تصطدم في العراق العبّاسيّ بالجماهير السنّيّة، وقد أحدثت، أحيانًا، اضطرابات عنيفة بحيث أُوقفت رسميًّا لمرّات عدّة، ولا سيّما في عهد الأمير عضد الدولة بين العامين ٩٧٧ و٩٨٣م. وبمجيء ملوك من السنّة، مثل السلاجقة، توقّفت نهائيًّا. إلّا أنّها عادت إلى الظهور بعد بضعة قرون، في إيران، عندما أصبح المذهب الشيعي الإماميّ الإثنا عشري المذهب السائد فيها، مطلقًا العنان لاحتفالات بلغت من العنف والقسوة مبلغًا، بحيث لفتت انتباه الرحّالة الأوروبيّين في ذلك العهد.

واقع الأمر أنّ العالم الشيعي نظر إلى موت الحسين على أنّه «درب آلام» أو قل تضحية طوعيّة لم يكن للمؤمنين خلاص إلّا بها.

بهذا يمكن تفسير ما يجري خلال ذكرى الحسين حيث أنّ المؤمنين الشيعة كانوا يُنزلون بأنفسهم ضروب العذاب مشاركةً منهم في آلام الحسين التي كان رجال الدين (الملالي) يروونها لهم. حتّى إنّ الأمر أدّى في

إيران، ابتداء من تاريخ لا يمكن تحديده بدقّة، إلى ظهور مشاهد مأسويّة (من الدراما) عرفت بالتسمية العربيّة «تعزية»، وتطوّرت إلى فنّ مسرحيّ بالمعنى المعروف للمصطلح: هذه التمثيليّات التي تجمع معًا مسائل غفذيّة ومشاهد واقعيّة كانت تنطوي على مسلسلات مؤلّفة من أربعين إلى خمسين مشهدًا، كان من شأنها أن تُثير ردّات فعل عاطفيّة من قبل الجمهور، أكّدتها لنا روايات المشاهدين الأجانب منذ مستهلّ القرن التاسع عشر.

وقد انتشرت هذه الاحتفالات ذاتها، بتأثير فارسيّ في الأساس، في المناطق الإسلاميّة من الهند حيث لاقت رواجًا خاصًّا في منطقة الدِكّن منذ القرن السادس عشر، ثمّ في شكل أخصّ في مدينتي حيدر آباد ولُكْناو اللتين تعاقبت على حكمهما، منذ القرن السابع عشر، سلالات شيعيّة. وفي لُكْناو بوجه خاص بلغ الاحتفاء بعاشوراء ألقًا عظيمًا عملت على تغذيته يد الحاكم السمحة. وقد عمدت الدولتان المتنافستان إلى التفاخر بالمباني الضخمة الباقية حتّى أيّامنا والتي أُقيمت لعرض التمثيليّات أو المشاهد المأسويّة التي كانت الذكرى مناسبةً لها.

العامري، أبو الحسن محمد بن يوسف، ؟-٣٨٢هـ/ ؟-٩٩٢م، أديب إيراني أمضى معظم حياته في المقاطعات الشرقيّة، حيث انصرف إلى الدفاع عن الفلسفة. ولد في نيسابور وقصد بغداد سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م وسنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م. ومنها انتقل الى الرّي قبل أن يرحل إلى خراسان حيث أفاد، حتّى نهاية حياته، من دعم السامانيّين. أقام علاقة قويّة بمسكويه والتوحيدي، وتتلمذ للجغرافي أبي زيد البلخي الذي كان هو نفسه تلميذًا للكندي. وضع مقالًا حول السعادة، وآخر في المسائل الماورائيّة، ووضع كتيّبًا حول سموّ الإسلام عبّر فيه عن تعلّقه بعقيدة السنّة التي نجح في التوفيق بينها وبين معطيات الفلسفة الإغريقيّة، وذلك عبر مجموعة مسائل استعارها من الأفلاطونيّة الجديدة ومن الأرسطيّة. وفي الحقل السياسي بدا أقرب إلى المفاهيم الإيرانيّة التي كان قد فصّلها من قبل ابن المقفّع، منه إلى نظريّات الفارابي.

العامريّون، لفظ يشار به إلى أسرة المنصور بن أبي عامر وأنصاره، وهو عمدة القصر الذي استأثر بالسلطة السياسيّة والحربيّة في الأندلس زمن الحكم الأموي، بين سنتي ٣٦٨ و٣٩٢هـ/ ٩٧٨ و١٠٠٢م.

١ - في العهد الأول للعامريّين، تابع عبد الملك بن المنصور الأعمال التي كان قد أنجزها والده عندما كان حاجبًا وقائدًا عسكريًّا، وذلك بين سنتي ٣٩٢ و٣٩٨هـ/ ١٠٠٢ و١٠٠٨م. ولكنّ تلك الإنجازات انهارت وهُدمت بعد ذلك على يد ابنه الثاني (عبد الرحمن) الذي حمل لقب «شنجول»، والذي أدت سياسته الشاذّة إلى مقتله. إلّا أن الذين جاءوا في أعقابه من ذرّيته أسّسوا مملكة عامريّة صغيرة في بَلَنْسِية. كما ملك عامريّون آخرون على مدينة دانية وجزر الباليار، وذلك سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م، إثر عمليّة احتلال قام بها مُعتق لعبد الرحمٰن اسمه أبو الجيش مجاهد. وقد اغتنت إمارتهم في عهد ملوك الطوائف بفضل أعمال القرصنة البحريّة. وفي مدينة طرطوشة البحرية الواقعة إلى الشمال، استقرّ أيضًا صقالبة تابعون للعامريّين.

٢ - الأسرة العامريّة المحليّة التي ملكت بلنسية عملت على أن تحافظ هذه المدينة الشرقيّة على مميّزاتها وازدهارها في مستهلّ عهد ملوك الطوائف. فالمملكة تأسّست سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م على شاطئ المتوسّط من شبه الجزيرة الإيبيريّة، على أيدي اثنين من المُعتقين العامريّين، سلّما السلطة بعد ذلك إلى عبد العزيز بن عبد الرحمٰن العامري الذي اتّخذ لنفسه لقب جدّه «المنصور».

إلّا أنّ هذه المملكة التي بدأت مزدهرة مرّت بمصاعب عمل خلالها بنو ذي النون أصحاب طليطلة، بعد أن أبعدوا وريث العرش الصغير، ابن عبد العزيز، على بسط سلطتهم في بلنسية. ثمّ جعلوا المُلك، بين سنتي ٤٦٨ و٤٧٨هـ/ ١٠٧٥ و١٠٨٥م، في يدي أحد أبناء عبد العزيز المنصور. ولكنّهم لم يستطيعوا الصمود طويلًا أمام هجمات الإسبان التي أدت إلى سقوط المدينة بيد السّيد (Le Cid).

عبد العزيز المنصور	٤١٢-٤٥٣هـ (١٠٢١-١٠٦١)
عبد الملك المظفر	٤٥٣-٤٥٧هـ (١٠٦١-١٠٦٥م)
أبو بكر بن عبد العزيز	٤٦٨-٤٧٨هـ (١٠٧٥-١٠٨٥)

◄ راجع المستند رقم ١٥.

عبّاد (بنو -) أو العبّاديون، ٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م، سلالة من الاندلس تعود إلى عصر ملوك الطوائف. عظم شأنها وازدهرت واتخذت من إشبيلية عاصمة لها.

يعود تأسيس هذه الأسرة - التي تدين جزئيًا بشهرتها إلى الشخصية الأدبية التي اتّسم بها آخر ملوكها الذي اقتاده المرابطون أسيرًا إلى المغرب بعد أن ضمّوا مملكته إلى دولتهم - إلى قاضٍ من إشبيلية ينتمي إلى أسرة من الفقهاء الاندلسيّين. قامت سلطة العبّاديين على الحملات الحربيّة التي جرّدها المعتضد[٦٩]: ابن المؤسّس، الذي شغله بشكل أساسي قتال امراء البربر من جيرانه ومنازعتهم تركة الخلافة الأمويّة في قرطبة.

بلغت هذه السلالة أوجها في عهد المعتمد. وهو اميرٌ شاعرٌ مرهف أفاد من نتائج السياسة التي انتهجها والده، فشملت مملكته القسم الجنوبي الغربي لشبه جزيرة إيبريا بكامله.

اجتمع لبلاط هذا الملك الاشبيلي الترف المقرون بازدهار الآداب والفنون والقوة التي أتاحت له الاستيلاء على «قرطبة» التي أهمل حمايتها آخر ملوك بني جهْوَر. واستمرّ الوضع على حاله حتّى زمن التقدّم الذي أحرزته حروب الاسترداد التي جرّدها المسيحيون (سقطت طليطلة بيد ألفونس الرابع ملك قشتالة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، والتي نفذت إلى صميم الصراعات الداخليّة بين الأسر المحليّة الحاكمة، وأيقظت التزمّت الدينيّ الذي عُرف به المرابطون ومطامحهم. هكذا استولى السلطان يوسف بن تاشفين، بقوة السلاح، على إشبيلية عندما وصلت سفنه، للمرّة الثانية، إلى شواطئ إسبانيا الإسلامية، وكان المعتمد قد ارتكب خطأً باستنجاده به. فعمد السلطان إلى أسر آخر ملوك العبّاديّين الذي دمغ دفاعُه البطولي عن مملكته وموته الشقيّ بعد ذلك بخمس سنوات في منطقة مراكش شهرته الشعريّة بألق مأسويّ.

محمّد الأوّل بن عبّاد	٤١٤-٤٣٤هـ/١٠٢٣-١٠٤٢م
عبّاد المعتضد	٤٣٤-٤٦١هـ/١٠٤٢-١٠٦٩م
محمد الثاني المعتمد	٤٦١-٤٨٤هـ/١٠٦٩-١٠٩١م

◄ راجع المستندين ٦١ و١٥.

عبّادان، آبادان في التسمية الإيرانيّة (الجمهوريّة الإسلاميّة الايرانيّة)، مدينة بحريّة عصريّة في خوزستان، دُمّرت أخيرًا خلال الحرب الإيرانيّة-العراقيّة بعد أن استُخدمت، خلال العقود السابقة، منفذًا للمناطق البترولية في إقليم فارس.

عَرفت «عبادان» الواقعة في دلتا بلاد ما بين النهرين، في عمق الخليج العربي الفارسي على مسافة غير بعيدة من الحدود العراقيّة، رخاءً فجائيًّا نتج من تجارة البترول وصناعاته، بعد أن بُنيت فيها، حوالى سنة ١٩٠٩م، محطة التكرير التابعة للشركة الأنكلو-إيرانية. ارتبط مصيرها بازدهار هذا المجمّع وكذلك بمرفإها النشط، «خُرّمشهر»، وهي التسمية التي أطلقها عليه العاهل رضا شاه بهلوي سنة ١٩٣٧م، إلّا أنّ الإهمال كان نصيبه بعد ثلاثين سنة تقريبًا، لمصلحة مراكز جديدة لتصدير البترول.

لم تتوقّف مدينة «عبادان» في الماضي عن التوسع في السهل الغريني لنهر «كارون» أو نهر «دُجيل» كما كان يُعرف في القرون الوسطى، على غرار مدينة «مستعمرة» وغير طبيعية النشأة، أحاطت بها أحياء أُقيمت عشوائيًا. وقد حلّت هذه المدينة محلّ قرية عاديّة كان قد أسّسها في القرن الثامن او في القرن التاسع الميلادي، على شاطئ البحر، قبالة مدينة البصرة الوسيطيّة، رجلٌ من الأولياء يُدعى «عبّاد» (من هنا كان إسم هذا الموقع). إنّ تراجع الدلتا جعلها، في ما بعد، محاطة بالمستنقعات وبأراضٍ ذات ملوحة لم تلبث أن تحوّلت إلى بساتين نخيل.

عبّاس الأوّل (شاه)، المعروف بالكبير. ٩٧٨-١٠٣٨هـ/١٥٧١-١٦٢٩م، ملك فارس. حكم من سنة ٩٩٥هـ/١٥٨٧م إلى سنة ١٠٣٨هـ/١٦٢٩م. فرض سلطته على جميع الأراضي الإيرانيّة، واصبح أشهر ملوك السلالة الصفويّة.

كان الإبن الثاني لمحمّد خدابنده. رقي سدّة العرش يافعًا بفضل جهود وصيّه. إنماز الشاه عبّاس بإرادة لا تُقهر، وقاسية احيانًا، سعيًا إلى توطيد قدرته واكتساب شهرة نادرة. بذلك طبع بطابعه مملكةً أخذت بالانفتاح على الغرب وبإقامة بعض العلاقات معه، بينما كانت

صورتها كقوة حديثة تترسّخ، متميّزةً، في الوقت نفسه، بدفاعها عن مذهب الشيعة الاثني عشريّة وبالهويّة الفارسيّة الأصيلة التي نتجت عنه. إنّ سعي الشاه عبّاس الدائم إلى الاعتماد على جيش قويّ ونظامي - وكان قد أعيد تنظيمه تبعًا لنصائح مغامر إنكليزي يُدعى روبرت شيرلي (Robert Sherley) - تدعمه فرقة مدفعيّة ذات شأن، ينسجم مع سياسة التوازن التي اتّبعها والتي هدفت إلى التوفيق، في عملية تنظيم البلاد، بين عناصر متعدّدة ذات ميول متنافرة: تمثّلت الأولى بالعناصر المعروفة بالتاجيك، وقد حافظت هذه على التقاليد القوميّة وأحكمت قبضتها على الادارة؛ وتمثّلت الثانية بقوة شيعيّة مذهبيّة، تجسّدت، منذ ولادة الدولة الصفويّة، بطبقة أرستقراطية من المحاربين الذين ينتمون إلى القبائل التركمانيّة المعروفة بالقزلباش، وقد اضطرّ الشاه عبّاس إلى كبح اطماع هذه القبائل، بدءًا بأطماع وصيّه الذي تعاظم نفوذه؛ امّا القوّة الثالثة فتمثّلت بالأرمن وبالجورجيّين وبالشركس، وكان قسمٌ من هؤلاء قد انخرط في الدولة بصفتهم جنودًا «عبيدًا للبيت الملكي»، أو بصفتهم أعضاءً في الحرس الملكي الذي ازداد عدد أفراده باطراد، حتى إنّ الجيش النظامي الذي كان قد انشئ حديثًا، شُكّل منه؛ أمّا الباقون منهم فقد نقلوا جماعات من منطقة إلى أخرى كما حدث في منطقة جلفا للعائلات الأرمنيّة التي أُجْلِيَت عن موطنها الأصلي وأُسكنت في أحد أحياء أصفهان.

بذلك، سُجّلت نتائج باهرة على المستوى العسكري بفضل الغزوات، وأحيانًا الفتوحات التي تمّت في الغرب، في اتّجاه الأمبراطوريّة العثمانيّة، كما في الشرق، في اتّجاه المناطق التي يسيطر عليها الأوزبك وحتّى المغول. إنّ استعادة مدينتي هراة ومشهد في خراسان سنة ١٥٩٩م نتيجةٌ لضعف الشيبانيّين، عقبها فشل قوات الصفويّين أمام بلخ؛ لكنّ الانتصارات الواضحة التي أحرزتها تلك القوات على العثمانيّين في أذربيجان وفي الأطراف البعيدة من أرمينيا وجيورجيا، أدّت إلى إعادة النظر في نتائج المعاهدة التي كانت قد أبرمت في أسطنبول بداية العهد، في مرحلة إخماد الفتن الداخليّة، والتي لم تكن لمصلحة الصفويّين. إنّ التوسّع الإقليمي، الذي استمرّ بعد ذلك في اتّجاه بلاد القوقاز الشرقيّة وبلاد ما بين النهرين العليا، طال ايضًا اطراف الخليج العربي-الفارسي في منطقتي البحرين وهرمز. امتدّ هذا التوسّع أخيرًا إلى العراق، إلى مدينة بغداد بالذات، حيث عانى السكّان السنّة بشكل خاص من تبدّل الحكم، كما امتدّ إلى قندهار في سجستان الثانية.

إنّ الزخم الذي أُعطي لتحسين طرق المواصلات ولتوسيع العلاقات الدبلوماسيّة، في كلّ الاتّجاهات، ولحماية التجّار والحرفيّين الذين ينتمون إلى الأقليّات المسيحيّة، ولمتابعة مشاريع البناء الكبرى وتنظيم المدن، ادّى، بالمقابل، إلى تحسّن الأوضاع الاقتصاديّة باطّراد. تجلّى أحد الانجازات البارزة اكثر من سواها، من دون شكّ، في إعادة تخطيط مدينة أصفهان جذريًّا. وقد أصبحت هذه المدينة تُعرف، منذ ذلك التاريخ حتّى يومنا هذا، بـ«مدينة الشاه عبّاس الملكيّة»، وذلك بفضل الأبنية الرائعة التي ما تزال قائمة فيها. وينبغي ألّا ننسى، كذلك، معالم التقوى الدينيّة التي أرساها الشاه في المقامات المقدّسة الشيعيّة الكبرى في مملكته، وكذلك الدعم الذي قدّمه لعلماء الشريعة الإماميّين النافذين، أمثال ميرداماد وصدر الدين [الشيرازي] المعروف باسم «مُلّا صدرا».

◄ راجع المستند رقم ٧٢.

العبّاس بن عبد المطّلب، أبو الفضل، ٥١ ق هـ - ٣٢هـ/ ٥٧٣-٦٥٣م، أخو عبدالله وأبي طالب من أبيهما، قرشي وعمّ رسول الإسلام ﷺ. يرجع نصيب كبير من الشهرة التي عرفها بعد موته إلى كونه السلف الذي تنتمي إليه سلالةُ الخلفاء العبّاسيّين.

كان من تجّار الأرستقراطيّة المكيّة الميسورين، لكنّه كان أقلّ ثراءً من أبناء عمّه من عشيرة عبد شمس، ينتمي إلى عشيرة بني هاشم أو الهاشميّين. إنّه من الذين تصدّوا بعنف[٧١] للنبيّ محمّد ﷺ في بداية دعوته في مكّة، ومن الذين هاجموه بعد ذلك خلال هجرته إلى المدينة، خصوصًا في أثناء معركة بدر، ومن الذين لم ينضمّوا إليه إلّا عندما قرّر أن يزحف إلى مكّة، مسقط رأسه، سنة ٨هـ/ ٦٣٠م، أي قبل انتصاره النهائي بقليل.

غير أنّ التقاليد، بدلًا من أن تظهر ضغينةً على

العبّاس بسبب تأخّره في اعتناق الإسلام وبسبب الأعمال التي قام بها قبل ذلك، فإنّها، على عكس ذلك، تركّز على التقدير الذي خصّ به الرسول محمّد ﷺ عمّه، جاعلًا منه بطريقة ما وريثه السياسي، وكأنّه أراد أن يشرّع مسبقًا ادّعاءات أعقابه في ما بعد. حتّى إنّ المهمّة التي كان يقوم بها العبّاس في مكّة قبل الإسلام والتي ثُبّتت بعد استسلام المدينة واعتُبرت مهمّة وراثيّة لعائلته - كانت تُعرف بالسقاية، وتقوم على تزويد حجيج الكعبة بالماء - لم يرد ذكرُها في المصادر العربيّة إلّا بهدفٍ مبطّن، حيث اعتبرتها تلك المصادر عنوانًا للمجد، إذ إنّها كانت، بنوع خاص، تربط العبّاسيّين بهاشم بن عبد مناف، جدّ عشيرة بني هاشم، الذي كان قد اشتهر، في زمن الشِّرك، بهذا المنصب بالذات. وممّا يُثيرُ الاهتمام ايضًا أن يكون ابو طالب، أخو العبّاس لأبيه، أي العمّ الآخر للنبي محمّد ﷺ، هو الذي تنازل للعبّاس عن ذلك المنصب الذي يتناسب والمكانة المحترمة التي كانت للعبّاس في مكّة، مقابل دَين تخلّى عنه هذا الأخير. إنّ أبا طالب هو الجدّ الأوّل لهؤلاء العلويّين الذين سيصبحون على مرّ العصور المنافسين الشرسين والمنكوبين للعبّاسيّين في الميدانين السياسي والديني.

يُعدّ عبدالله بن العبّاس بين صحابة الرسول ﷺ الذين اكتسبوا شهرةً كبيرة كمحدّثين.

◄ راجع المستندين ١ و٣.

عبّاس فرحات أو فرحات عبّاس، ١٨٩٩-١٩٨٥م، قومي معتدل، أدّى دورًا سياسيًّا في الإعداد لولادة الجمهوريّة الجزائريّة الديموقراطيّة الشعبيّة الحاليّة.

أصبح فرحات عبّاس، وهوَ صيدلي مسلم من سطيف، عضوًا في المجلس البلدي لهذه المدينة، ثمّ عضوًا في المجلس العام «لمدينة قسنطينة، قبل أن يؤسّس، في سنة ١٩٣٨، «الاتّحاد الشعبي الجزائري» الذي طالب، ضمن الإطار العام لوضع الجزائر آنذاك، بالمساواة في الحقوق بين الجزائريّين والفرنسيّين. لم يتردّد في المطالبة، في سنة ١٩٤٣، في «بيان الشعب الجزائري»، بدولة جزائريّة ذات استقلال إداري. جمع القوميّين المعتدلين، على أثر اضطرابات سطيف سنة ١٩٤٥، ضمن «الاتّحاد الديمقراطي للبيان الجزائري».

إنّ اندلاع ثورة ١٩٥٤م جعله ينضمّ إلى صفوف «جبهة التحرير الوطنية» (FLN). انتُخب في سنة ١٩٦٢، غداة الاستقلال، رئيسًا للجمعيّة التأسيسيّة، لكنّه استقال من هذا المنصب في سنة ١٩٦٣. طرد بعد ذلك من «جبهة التحرير» وحُرم من القيام بأي نشاط داخل الدولة الجديدة المستقلّة.

العبّاسيّة (الثورة -)، حركة سياسيّة دينيّة في القرن الثاني للهجرة[٧١]، كانت انطلاقتها النهائيّة بقيادة امراء يتحدّرون من العبّاس بن عبد المطلب، عمّ رسول الإسلام ﷺ، وقد نجحت في تنصيب أحد هؤلاء على العرش.

هكذا وُلدت دولة العبّاسيّين المشهورة، بينما انتهى في الشرق حكمُ السلالة الأولى من خلفاء المسلمين، أي سلالة الأمويّين. إنّ الامراء المتحدّرين من ذريّة العبّاس الذين كانوا قد استقرّوا، منذ الفتوحات الكبرى، في جنوب سوريا، أقاموا في البدء علاقات متقلّبة بخلفاء دمشق الأمويّين، من دون أن يظهروا طموحات خاصة، إلى أن تنازل لهم أحد المطالبين بالعرش من العلويّين، واسمه أبو هاشم، عن حقوقه في الحكم، فاختار محمّدًا ابن علي، حفيد العبّاس، وريثًا شخصيًّا له. بلغ محمّد بن علي آنذاك، عن طريق هذه الوصيّة أو هذا النصّ، رتبة تعادل رتبة أعقاب علي، ووجد نفسه على رأس منظمة سريّة مؤلّفة من بعض الرجال الأوفياء. جرى هذا في مرحلة شهدت، في أمكنة عديدة، تمجيد المزايا الخاصة بعائلة الرسول ﷺ في مفهومها الواسع، أي ليس بالأفراد المتحدّرين بصورة مباشرة من النبي محمّد ﷺ فحسب، بل بكلّ المتحدّرين من عشيرته الأصليّة، عشيرة بني هاشم. لم يكن في تمجيد الهاشميّين غرابةٌ تفوق تلك التي يُثيرها تمجيد علويّ [طالبيّ] كمحمّد بن الحنفيّة الذي لم يكن يتحدّر بصورة مباشرة من رسول الله ﷺ؛ إنّه ابن عليّ ولكنّه ولد من امرأة غير فاطمة [أمّه حنفيّة أي من بني حنيفة].

كان لمحمّد بن علي العبّاسي الفضلُ في تنظيم حركة العصيان بشكل منهجي، وقد استطاعت هذه الحركة، في النهاية، أن تنتصر على الخلفاء الذين كانوا في سدّة الحكم. وإليه يعود الفضل بخاصةً في نقل مركز

المقاومة وقدراتها إلى مكان بعيد من سوريا ومن العراق، - لأنّ هاتين المقاطعتين كانتا خاضعتين لرقابة مشدّدة من قبل جيوش الأمويّين، بحسب ما يؤكّده مؤرّخو القرون الوسطى - أي إلى خراسان حيث استطاع الإفادة من موارد هذه المقاطعة البعيدة التي يسكنها، بحسب ما تؤكّده المصادر نفسها، أناس شجعان. فكان من الأسهل عليه أن يقوم بعصيان. يظهر، مع مرور الزمن، أنّ خياره كان صائبًا، حتّى لو بدا لنا أنّه من غير المحتمل أن يكون محمّد بن علي قد أدرك، قبل الأوان، طبيعة الأحداث التي ستقع في تلك المنطقة بعد خمس عشرة سنة والتي ستسمح للثورة بالاندلاع.

إنّ محاولات التحريض التي حصلت على التخوم الشرقيّة للدولة لم تلق في البدء إلّا تجاوبًا ضعيفًا. لقد أرسل محمّد بن علي مبعوثين عديدين، كلّهم من أصل عربي، وقاعدتهم الكوفة في العراق. لكنّهم لاقوا بعض الصعوبات في اجتذاب المؤيّدين. والدليل على ذلك إعدام المدعو خِداش الذي يُعتقد أنّه قاد الحركة محليًّا من سنة ١٠١ إلى سنة ١٠٨هـ/ ٧١٩ إلى ٧٢٦م والذي اتُّهم ببثّ أفكار بدعيّة. هدفت تلك الجهود إلى إطلاق دعاوة موجّهةً أوّلًا إلى أخصام النظام عامةً وإلى مناصري الشّيعة بشكل خاص: على الرغم من أنّ الأفكار التي دافع عنها خداش غير معروفة بدقّة، لكن يبدو بشكل شبه أكيد أنّ هذا الرجل كان يعمل لمصلحة العلويّين اكثر ممّا كان يعمل لمصلحة العبّاسيّين، ولهذا السبب بالذات ضُحّي به في النهاية.

راوحت الدعوة العبّاسيّة مكانها بعد هذه الحقبة حتّى سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م، تاريخ ثورة زيد بن علي في العراق، لأنّها لم تحاول أن تميّز نفسها عن الدعوة الشيعيّة. على كل حال فإنّ نجاح الحركة التي قامت بها تلك الدعوة كان يرتكز، منذ البداية، على التباس تحاشى الأعضاء توضيحه: كانوا يدّعون أنّهم يناضلون باسم ممثّل «معترف به» من عائلة النبي محمّد ﷺ، من دون أن يعطوا عن هذا الممثّل مزيدًا من المعلومات. كان القادة المطّلعون وحدهم، إضافةً إلى المبعوثين الخاصين لهذا المطامع بالعرش، يعرفون أنّ الأمر يتعلّق بأحد العبّاسيّين. وتداركًا لإثارة الشكوك، لم يكن هؤلاء يتلاقون في دارته في الحُميمة[٧٢]، بل في مكّة لمناسبة الحجّ السنوي. هكذا أُبقيَ الطامع الأوّل، محمّد بن علي، في الظلّ، إلى أن استدل به، بعد وفاته، في سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٣م، إبنه إبراهيم. عرف الأمويّون في النهاية بنشاط هذا الأخير، فقبضوا عليه في سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م وسجنوه في حرّان، في بلاد ما بين النهرين العليا، حيث مات [أو قُتل] قبل انتصار الدعوة بقليل.

في غضون ذلك، وبعد مقتل خداش، أُعيد تنظيم الحركة، حوالى سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م، على يد شخص يُدعى بُكَيْر، وكان هذا الأخير قد عيّن في مرو النقباء الاثني عشر الرئيسيّين، وكانوا كلهم من أصل عربي باستثناء واحد منهم، كما عيّن بعض الدعاة الآخرين وكلّفهم بالمواقع المجاورة. كان الأمويّون يواجهون، خلال تلك الحقبة، صعوبات في إيران، يعود سببها الأساسي إلى السياسة التي انتهجوها تجاه الموالي، تضاف إليها الاجراءات التي اتّخذوها لتسوية الصراعات بين القبائل؛ خلق كلُّ ذلك مناخًا مؤاتيًا لانتشار الأفكار الهدّامة. لقد حُرِّض سكان خراسان غير المتجانسين والكثيري العدد على التمرّد بصورة بطيئة وماكرة، وكان بينهم مسلمون جدد غير راضين عن وضعهم، و«نازحون» عرب من أصول مختلفة. إنّ عددًا من الذين قاتلوا في الفتوحات الكبرى، وبعضهم من أُصول يمنيّة، كانوا قد اختلطوا بالسكّان المحليّين في القرى المحيطة بمرو، متبنّين اللغة والعادات الإيرانية، حتى إنّهم كانوا ينظرون إلى العرب السوريّين، داعمي الحكم الأموي، نظرتهم إلى غرباء، بكل معنى الكلمة.

على كلّ حال، أُرسل إلى خراسان، حوالى سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥-٧٤٦م، مبعوثٌ من أصل غامض، بعد أن تبنّاه الإمام إبراهيم الذي اعطاه اسمه (أبو مسلم)، وزوّده بكلّ السلطات لإشعال فتنة مسلّحة. نجح أبو مسلم بسرعة في كسب تأييد أنصار من الشيعة، لأنّ هؤلاء كانوا قد تلقّوا ضربات قاسية بسبب الثورة التي قام بها، قبل ذلك بقليل، يحيى بن زيد في خراسان. وكسب أيضًا تأييد عدد من العرب المتمركزين حول مرو، فجمع جيشًا صغيرًا مؤلّفًا من العرب ومن الموالي، بدون النظر إلى أصلهم، واستطاع ان يستولي على مرو وان يطرد،

بعد ذلك، الجيش الأموي من المنطقة الشرقيّة لإيران. كان هذا الجيش منهمكًا آنذاك في تهدئة الصراعات القائمة بين المجموعات القبليّة. أخذت قوات أبي مسلم بالازدياد بشكل مطرد، وكان يقودها مقاتل عربي خاضع لسلطته، فاستطاعت أن تتغلّب على الجيش الأموي في غرب إيران وفي أمكنة أخرى، كما استطاعت أن تنتصر في معركة الزاب الأكبر، حتّى إنّها وصلت في سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م إلى الكوفة حيث التقت بالامراء العبّاسيّين الذين كانوا قد جاءوا للإنضمام إلى الرئيس الأعلى لمنظمتهم الثوريّة، وهو مولى آخر اسمُه ابو سلَمة، وكان واحدًا من النقباء الاثني عشر[٧٣] الذين اختيروا قبل ذلك بعشرين سنة.

نودي آنذاك في الكوفة بالخليفة الجديد بينما كان مؤيّدوه المنتصرون يطاردون الجيوش الأمويّة في العراق وفي سوريا ومصر، أو يطوّقون تلك التي بقيت تقاوم في واسط في الجنوب. لكنّ إعلان خلافة رجل لم يكن أحد، باستثناء ابي سلمة، يعرف هويته، بعد موت إبراهيم لم يمرّ من دون صدامات. تقول روايات لا مجال للتشكيك فيها إنّ ابا سلمة عرض الحكم على أميرين علويّيْن، لكنّهما رفضا. اكتشف في تلك الأثناء أحد قادة الجيش المنتصر مكان وجود العبّاسيّين، فقام بإعلان احدهم وهو السفّاح (أي الكثير العطاء) خليفةً. دفع أبو سلمة بعد ذلك حياته ثمنًا لمواقفه الخائنة التي لم تكن تتوافق مع أهداف الحركة التي كان يديرها العباسيّون منذ سنوات عديدة.

إنّ هذا الانتصار العبّاسي - الذي ربما بدا للبعض مدهشًا - يُفسَّر، من الناحية التاريخيّة، بتضافر عوامل عدّة: التنظيم الجيّد لحركة سريّة تعمل في منطقة بعيدة؛ - النضج البطيء للدعاوة المعادية للأمويّين في محيط مستعدّ لتقبّلها؛ عدم توقف الغضب الشيعي؛ الصراع بين المجموعات القبليّة العربيّة التي كان بعضها يعتبر أنّ النظام جائر بحقّه؛ - الصعوبات العسكريّة والسياسيّة التي واجهها الخلفاء في دمشق؛ - وأخيرًا إستياء الموالي في خراسان من الأوضاع العامّة. يجب عدم الإستهانة بالدور الذي نهض به هؤلاء إذ إنّهم، في نهاية المطاف، هم الذين قادوا الحركة، سواء في خراسان أو في العراق. لكن يبدو أنّ نواة الجيش الثائر كانت مؤلّفة من هؤلاء السكان المختلطين، من العرب والأهالي المحلّيّين، وقد تميّزت بوجودهم تلك الحقبة من تاريخ الدولة الإسلاميّة، وقادتهم عناصر عربيّة بأكثريتها. من هنا نفهم لماذا أُطلق في ما بعد إسم «خراسانيّين» على الذين دعموا النظام، وليس في استطاعتنا أن نعرف إذا ما كان هؤلاء من العناصر العربيّة أو من السكان الأصليّين أو من الذين وُلدوا من زيجات مختلطة.

أمّنت الثورة العبّاسيّة، من ناحية ثانية، إنتقال السلطة إلى أمراء استطاعوا أن يستغلّوا بذكاء، لمصلحتهم الخاصة، كلّ ردّات الفعل المؤيّدة للمتحدّرين من سلالة علي، أو للأفراد الآخرين من عائلة النبي ﷺ الذين حاولوا، بدون نجاح، في منتصف القرن الثامن الميلادي، إطاحة السلالة الأمويّة. إنّ هؤلاء الأمراء العبّاسيّين الطموحين لم يكتفوا بالانتصار السياسي على أفراد الأسرة الحاكمة التي كانت باستمرار تهاجمهم في الماضي في دعاوتها، بل إنّهم نجحوا في تصفية هؤلاء الأفراد جسديًّا عندما أوقعوا جميع أبناء العائلة الأمويّة في فخّ في أبي فُطرُس في فلسطين، ولم ينجُ منهم إلّا واحد هوَ مؤسّس السلالة الأمويّة في الغرب المعروفة ايضًا بسلالة قرطبة. حاول العبّاسيّون أن يُنشئوا نظامًا مميّزًا، وعلى الرغم من أنّهم حافظوا، في عدد من المجالات، على التقاليد التي كانت سائدة في عهد أسلافهم، إلّا أنّهم خططوا منذ البدء كي يمكّن حكمُهُم، بروح جديدة، الطروحات المحوريّة التي استعملوها في دعاوتهم والتي سمحت لهم بإقامة نظامهم.

يبرز بشكل واضح جدًّا، في خطبة يُفترض أن يكون السفّاح قد ألقاها ساعة تنصيبه خليفةً في الكوفة، التوجّه الجديد للحكم العبّاسي. وقد عبّرت عنه لهجة المديح التي لجأ إليها السفّاح منذ البدء، حين شكر الله لأنّه وهب النصر للعائلة الجديرة وحدها بممارسة السلطة، وحين أكّد أنّ الله سمح فعلًا بتصفية الطغاة المغتصبين الذين كانوا يحتلون العرش، واستبدل بهم أنسباء النبي محمّد ﷺ الأقربين الذين يتوجب على المؤمنين أن يكونوا أوفياء لهم، كما تأمرهم بذلك إحدى الآيات

القرآنية. هكذا قدّمت العائلة العبّاسيّة نفسها إذًا كعائلة مختارة أرسلتها العناية الإلهية وكلّفتها منذئذٍ بإدارة شؤون الأمّة الإسلاميّة.

العبّاسيّون ١٣٢-٩٢٣هـ/ ٧٥٠-١٥١٧م، السلالة الثانية من خلفاء الإسلام؛ بعد أن مارست، إنطلاقًا من العراق، سيطرةً شبه فعليّة على أمبراطوريّة واسعة الأرجاء، تفتّتت تدريجيًّا. حافظت في بغداد، حتّى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، على سلطة محدودة، (بعد أن أصاب التفكّك هذه الأمبراطوريّة). استمرّت سلطتها الإسمية في مصر، في ما بعد، حتّى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

يمكننا أن نميّز ثلاث حقب في هذه الفترة الطويلة التي تربو على ثمانية قرون: تمتدّ الحقبة الأولى، وهي الأهمّ، من سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م إلى سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م؛ عرفت خلالها الخلافة العبّاسيّة أوجها، أي العصر الذهبي «للحضارة الإسلاميّة الكلاسيكيّة»[٧٤]. وقد عمل على ازدهارها، خلال المرحلة التي لمعت فيها سامرّاء، بين سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م و٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، عهدان مختلفان من السلطة في بغداد. تبدأ الحقبة الثانية في سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م، تاريخ ظهور «أمير الأمراء» الذي صادر لمصلحته قسمًا من السلطة المركزيّة. إنّ الوصاية البويهيّة والوصاية السلجوقيّة سبقتا فترةً أمسك خلالها العبّاسيّون في العراق بزمام الأمور من جديد، ولكن بصورة ضعيفة، وذلك خلال القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. وأخيرًا حقبة الخلافة المصريّة، وهيَ تمتدّ من سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م إلى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، أقام خلالها في القاهرة المنحدّرون من ذريّة أحد الأمراء العبّاسيّين، وكان هذا الأخير قد نجا من المذبحة التي تعرّضت لها أسرته على أيدي المغول. وقد أفاد السلاطين المماليك من نفوذ هؤلاء العبّاسيّين لإضفاء صبغة من الشرعيّة على حكمهم في مصر وسوريا، وذلك حتّى تدمير دولتهم على أيدي العثمانيّين.

إرتبط مصير السلالة، خلال تلك الحقب الثلاث، بمصير أسرة من الأرستقراطيّة القبليّة العربيّة القديمة. وكانت هذه الأسرة تنتمي إلى العشيرة الهاشميّة، متحدّرةً من أحد أعمام النبي محمّد ﷺ، وبالتحديد من العبّاس بن عبد المطّلب. وكان أحد أحفاد العبّاس قد بدأ يتآمر على الأمويّين منذ أواخر القرن الأوّل للهجرة / مطلع القرن الثامن الميلادي، وبالتحديد منذ سنة ٩٨هـ/ ٧١٦م. وقد اتّخذ مقرّه في الحُميمة، جنوبي المملكة الأردنيّة الحاليّة، وتزعّم حركة المعارضة المنظّمة ذات النزعة المذهبيّة الشيعيّة. وقد أطلقت هذه الحركة الثورة التي عُرفت بـ«الثورة العبّاسيّة» والتي انتصرت عسكريًّا إنطلاقًا من خراسان. حصل أحد أمراء هذه العائلة، أبو العبّاس، أخو إبراهيم، على قسم الولاء منذ سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، بعد أن أُعلن خليفةً في الكوفة، واتّخذ لنفسه في الحكم لقب السفّاح.

أوّلًا: ١٣٢ - ٣٢٥هـ/ ٧٥٠-٩٣٦م. إنّ العصر الذي بدأ آنذاك والذي عرف انطلاقة الحضارة العبّاسيّة بالمعنى الضيّق للكلمة، هوَ العصر الذي مارس فيه خلفاء هذه العائلة سلطتهم بفعاليّة، بغية المحافظة على وحدة الأمبراطوريّة والعمل على تنظيم الدولة، من دون أن يغيب عن ذهنهم موضوع تثبيت شرعيتهم في وجه ادّعاءات العلويّين الطالبيّين.

ما إن اعتلى السفّاح العرش، حتّى قرّر إلقاء خطبة في هذا الاتّجاه، يُقال إنّه اوضح فيها أنّ عائلته حازت النصر لأنّها كانت وحدها الجديرة بقيادة الأمّة الإسلاميّة، كما ذكّر فيها أيضًا بأنّ الأمويّين كانوا طغاةً ملحدين، لا تربطهم بالنبي محمّد ﷺ أيّة صلة قربى، بينما يتحدّر العبّاسيّون من افراد من عشيرته، ويملكون، من منظور ديني، سمات عائلة اختارها الله لتحكم. وأضاف السفّاح، على ما يبدو، أنّه هوَ سيبقى وفيًّا لمبدإ تعيين الخليفة عن طريق الشورى، طبقًا للعرف الذي تقيّد به الصحابة، وهذا كان يعني رفض فكرة التعيين بالوصيّة التي كان يطالب بها الشيعة؛ كما يعني، في ما خصّ انتقال السلطة، تبنّي موقف معتدل. وقد حافظ خلفاؤه على هذا الموقف.

ثبّت العبّاسيّون في ما بعد العرف السلالي بالطريقة نفسها التي كان معمولًا بها في زمن الأمويّين: كان الخليفة يعيّن وريثًا في حياته، وكان هذا الأخير يحصل، إمّا خلال حكم الخليفة أو فور مماته، على البيعة، من

الجماعة، أو على الأقل من أفرادها البارزين. هكذا توافقت الشرعيّة العبّاسيّة مع مبدإ البيعة الذي روعي في انتخاب الخلفاء الأربعة الأول المعروفين بالراشدين[٧٥].
أمّا الوريث المختار، فكان حيناً أخا الخليفة السابق - بدءاً بأخي السفّاح، أبي جعفر المنصور الذي خلفه في الحكم - وفي أغلب الأحيان أحد أبنائه. كان الخليفة، في كثير من الحالات، يعيّن وريثين محتملين كي يكون أكثر يقيناً من أنّ السلطة ستبقى في العائلة. هذا ما حصل مثلاً مع هارون الرشيد الذي عيّن تباعاً إثنين من أولاده وهما الأمين والمأمون، في وصيّتين علنيّتين حدّدتا ما سيعود إلى كلّ منهما عند موت أبيهما. كان الهدف من هاتين الوصيّتين تحاشي الصراع بين الأخوين. لكنّ هذا الصراع حصل على الرغم من كلّ الاحتياطات.

تمّ انتقال السلطة، بصورة عامّة، طبقاً للتعيينات التي كان يقوم بها الخلفاء. هناك استثناءان فقط في الحقبة التي نحن في صددها: الأوّل هو مبايعة المتوكّل سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م، الذي فُضّل على الوريث المختار، لأنّ هذا الأخير كان صغير السنّ، ممّا يحول دون تسلّمه الحكم؛ والثاني هو النصر الموقّت للمؤامرة التي جرت سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م والتي أوصلت إلى العرش ابن المعتزّ الذي لُقّب في ما بعد بـ«خليفة اليوم الواحد».

إعترض العلويّون على «الشرعيّة العبّاسيّة» التي ساهمت في تأمين بقاء السلالة في الحكم لمدّة طويلة. وقد أدان الخلفاء في مناسبات عدّة إدّعاءات هؤلاء العلويّين. ويقال إنّ الخليفة المنصور تبادل الرسائل مع أحد المطالبين بالعرش خلال ثورات اندلعت في شبه الجزيرة العربيّة، وفي منطقة البصرة، وتمّ قمعها بسرعة. قاد تلك الثورات متحدّرون من الحسن. وقد برّر الخليفة في رسائله تلك حقوقه الشخصيّة في الحكم، مؤكّداً أنّ حقّ العبّاسيين المتحدّرين من عمّ النبي محمّد ﷺ يُغلّب، بحسب قواعد الوراثة الإسلاميّة، على حقّ المتحدّرين من ابنته [فاطمة]. لقد أعيد التركيز بعد ذلك، مرّات عديدة، على هذه الحجّة، وقد لجأ إليها بنوع خاص الشعراء الذين نصّبوا أنفسهم مدافعين عن السلالة الحاكمة.

لم يتوقف العبّاسيّون، في ممارستهم السلطة، وذلك حتّى سنة ١٩٧هـ/ ٨١٣م، تاريخ تولّي المأمون، عن الدفاع عن حقوقهم، مستعملين تجاه العلويّين ومؤيّديهم الشدّة حيناً والحلم حيناً آخر. لقد أطلق المهدي، الذي حكم من سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م إلى سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، سراح العلويّين الذين كان أبوه قد زجّهم في السجن مع مناصريهم؛ لكنّه، على الرغم من ذلك، لم يحصل على ولائهم. أمّا ابنه الهادي، فاعتمد من جديد الطرق القمعيّة ضدّ الحسين بن علي، المعروف بصاحب فخ، وهي معركة وقعت قرب مكّة. وقد طارد هارون الرشيد بدوره، بين سنتي ١٧٠ و١٩٤هـ/ ٧٨٦ و٨٠٩م، أنصار علي الذين حاولوا أن يثوروا في مازندران، كما حكم بالإعدام على الإمام السابع موسى الكاظم. لكنّ هذه السياسة لم تنجح في تخفيف النزعة القتاليّة لدى العلويّين ومناصريهم؛ وقد تفرّع هؤلاء إلى ثلاثة فروع: الزيديّة والإماميّة الاثني عشريّة والإسماعيليّة.

ذُهل الخليفة المأمون (بدايةً) من هذه الحدّة العدوانيّة، فطبّق خطّةً جديدة تبلورت خلال إقامته في مرو: صمّم على تعيين أحد الأئمّة العلويّين وريثاً له في الخلافة، ووقع اختياره على علي الرضا، فاستدعاه من المدينة حيث كان يقيم، وأعلن في وصيّته أنّ السلطة ستنتقل إلى من هو أكثر استحقاقاً داخل العائلة الهاشميّة. كان هذا يعني التخلّي عن الشرعيّة العبّاسيّة وإحلال الشرعيّة الهاشميّة مكانها. وكانت هذه مفتوحةً أمام العلويّين وأمام العبّاسيّين على السواء. وحاول الخليفة جاهداً، في الوقت نفسه، أن يجمع العائلتين العدوّتين عن طريق التزاوج. وتعتبر محاولته تلك وسيلةً جريئةً لحلّ مشكلة كانت ما تزال شائكة حتى ذلك التاريخ. لكنّ هذا الاجراء لاقى معارضةً من قبل سكّان بغداد الذين نصّبوا خليفةً، اميرا عبّاسيّاً آخر هو ابن المهدي. عندما وصلت أخبار هذا الانقلاب إلى المأمون، تخلّى عن مشروعه وأمر بدس السمّ لعلي الرضا الذي أصبح يشكّل عبئاً عليه، ثمّ انتقل إلى بغداد حيث كان يرفض الإقامة من قبل.

أمّا خلفاء المأمون فعادوا إلى سياسة القمع التي اتّبعها العبّاسيّون الأوائل، وغالبًا ما تصدّوا بقساوة للثائرين على حكمهم. لم يستطيعوا، مع ذلك، أن

يمتعوا، منذ القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، نشوء إمارتين شيعيّتين مستقلّتين: إمارة زيديّة في طبرستان وأخرى في اليمن. كما أنّهم لم يستطيعوا منع القرامطة من زرع الرعب في سوريا وفي العراق الأسفل وفي شبه الجزيرة العربيّة.

ظلّ العبّاسيّون يؤكّدون أنّ الله قد اصطفاهم، وفي الوقت نفسه استمرّوا في نقض المفاهيم المتعلّقة بالحكم التي كان يُروّجها الشيعة. وتدلّ على ذلك الألقاب الفخريّة التي اختاروها لأنفسهم، في بداية عهدهم، للدلالة على أنّهم يحظون بالعون الإلهي، ومنها «المنصور» و«المهدي» و«الرشيد»، الخ.

كان الخلفاء العباسيّون اذًا يملكون بحقٍّ إلهي، وقد حكموا باستبداد وطلبوا من المؤمنين ان يطيعوهم بدون قيد أو شرط، ودعموا الحركة الدينيّة السنيّة، ذات الاتّجاه التقليدوي التي تطوّرت في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث للهجرة (مطلع القرن التاسع الميلادي). وقد شرعوا ايضًا، منذ أن وصلت عائلتهم إلى الخلافة، في تنظيم الأمبراطوريّة التي كانوا يحكمونها والمحافظة عليها. لكنّهم لم يستطيعوا، على المستوى الجغرافي، التصدّي للانشقاقات المختلفة التي حدثت في وقت مبكّر، منها انشقاق الأندلس حيث استقرّ، في سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، أحد الأمراء الامويّين، وانشقاق المغرب الأوسط الذي وقع في أيدي الرستميّين، وانشقاق المغرب الأقصى الذي حكَمه الأدارسة. اضطرّ العباسيّون، في إفريقية، إلى إعطاء إبن الأغلب إستقلالًا ماليًّا والإعتراف بحقّه في اختيار خلفه من بين أفراد عائلته. هكذا ولدت سلالة حاكمة جديدة هيَ سلالة الأغالبة.

جرت، في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، في مقاطعات عدّة، محاولات تهدف، إمّا إلى الحصول على استقلال مالي، وإمّا إلى الإنفصال عن جسم الدولة. هكذا حاول الطاهريّون في خراسان، بدون جدوى، الحصول على وضع مماثل لوضع الأغالبة. ولكنّ هذا لم يمنعهم من الاحتفاظ بالأقاليم الشرقيّة من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٢١-٨٦٨م. في هذا الوقت، كان السامانيّون، حكّام إقليم ما وراء النهر، يوسّعون ممتلكاتهم حوالى سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، لتضمّ إيران حيث اصطدموا بالصفّاريّين. وفي مصر أخيرًا حصل ابن طولون والمتحدّرون منه، اي الطولونيّون، على الحكم الذاتي في سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، واستمرّوا على هذه الحال حتى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م، حين استعادت جيوش الخليفة السيطرة على هذا الإقليم. لم ينجح اذًا العبّاسيّون، إلّا بصعوبة، في الحفاظ على وحدة الأمبراطوريّة حتّى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م. لكنّ الفاطميّين كانوا قد ظهروا في إفريقية منذ سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م حيث أطاحوا، باسم الحركة الإسماعيليّة، الأغالبة، وأسّسوا في هذه المنطقة خلافة منافسة لخلافة بغداد على المستوى الديني والسياسي معًا.

لم تمنع هذه الصعوبات الدائمة عبّاسيّي العصر الذهبي عن العمل بصبر لإعادة تنظيم الحكومة المركزيّة وتنظيم إدارة المقاطعات التابعة لها. واتّخذوا باديءَ ذي بدء من الكوفة في العراق عاصمةً لهم، سعيًا إلى إحكام قبضتهم على إيران، مركز الدعم الأساسي لهم. لكنّ الوقت لم يطل حتّى رغب الخليفة المنصور في الإبتعاد عن هذه المدينة المعارضة [الكوفة] وفي بناء مدينة ملكيّة تكون قادرة على تأمين سلامته وترمز، في الوقت نفسه، إلى قوّة السلالة الجديدة. لذا اختار موقع بغداد، إلى الشمال، ونقل إليه مقرّ إقامته في سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م. أقام فيه قصره ودوائر الإدارة وجعل منه، في الوقت نفسه، المعسكر الدائم لقوّاته الجديدة التي عُهد اليها الدفاع عن النظام وحمايته شخصيًّا.

حلّ محلّ الوحدات العربيّة الخالصة التي اعتمد عليها الحكم من قبل، جيشٌ من المحترفين الخراسانيّين، وكان هؤلاء قد ساهموا، من قبل، في انتصار الثورة العبّاسيّة. عرف هذا الجيش بعد ذلك تغييرات أخرى عندما زيد على عناصره الخراسانيّة عربٌ وغيرُ عرب والعديد من المرتزقة من أصول مختلفة. أخذت السلالة الحاكمة، منذ ذلك التاريخ، تعتمد، في تأمين استقرار وضعها، على تفاني الجنود الذين أُمّنت لهم رواتب عالية، خصوصًا أنّ القسم الأكبر منهم كان يعسكر قرب المدينة الملكيّة، بغداد أوّلًا، ثمّ سامرّاء، فبغداد من جديد. جمع الخليفة قربه في البلاط

المؤسّسات الادارية، على الرغم من أنّ عمليّة جمع الضرائب وإقرار بعض النفقات كانت تتمّ في المقاطعات، وتقوم بها الإدارات المحليّة. كانت المؤسّسات المركزيّة تعتمد على كفاية وإخلاص مجموعة من الموظّفين الإداريّين الجدد الذين حلّوا محلّ القدامى. وبدون أن يتوقّفوا عن الاستعانة بالموالي، أحاط الخلفاء العبّاسيّون أنفسهم بالفرس، بنوع خاص، وأبعدوا السوريّين. لقد دخل الفرس بقوّة إلى الدواوين وانضمّ إليهم في ما بعد، في الثلاثينات والأربعينات من القرن الثالث للهجرة (منتصف القرن التاسع الميلادي)، كتّاب عراقيّون، مسيحيّون أو من أصل مسيحي. كانوا كلّهم يتحدّرون من هذه الفئة التي كانت تدفع الجزية والتي منحها المجتمع الإسلامي، منذ البداية، وضع أهل الذمّة. كان هؤلاء يشكّلون مجموعة من الموظّفين المخلصين الذين يتميّزون بكفاءاتهم التقنيّة، لكنّهم، في حال اعتناقهم الإسلام، لم يكونوا كثيري الحماسة لدينهم الجديد، بل كان بينهم أناسٌ ملاحقون كزنادقة. ترأّس هذه الفئة، منذ أواخر القرن الثاني للهجرة/ مطلع القرن التاسع الميلادي، مستشار الخليفة الذي لم يلبث أن أصبح معاونًا للخليفة وحمل لقب وزير.

تعرّضت الإدارة الإقليمية، هي ايضًا، لتغيّرات أقرّها العبّاسيّون الذين سعوا جاهدين للحدّ من استقلاليّة حكّام الأقاليم ولفرض رقابة دقيقة على المناطق المحتلّة. ولتحقيق ذلك، احتفظ الخلفاء لأنفسهم، في البدء، بحقّ تعيين القضاة، بعد أن كانت تعيّنهم السلطات المحليّة. وبعد مدّة وجيزة، إستحدث هارون الرشيد منصب قاضي القضاة الذي كان يسمح لشاغله بإدارة قسم كبير من المؤسّسات القضائيّة، بما فيها مؤسّسات المقاطعات. أوكل، بالمقابل، جمع الضرائب إلى مسؤولين تابعين للسلطة المركزيّة يعيّنهم الخليفة. تمّ بهذه الطريقة الفصلُ التدريجي بين السلطات القضائيّة والماليّة والعسكريّة في الأقاليم حيث كانت مهمّة الحكام الأساسيّة الحفاظ على النظام والدفاع عن الحدود عند الحاجة. وقد استمرّوا في تمثيل الخليفة في الاحتفال الرسمي بصلاة الجمعة في المدن التي كانوا يقيمون فيها.

هناك نقطة أخيرة يجب ذكرها لأهميّتها، وهي أنّ الخلفاء بذلوا جهدهم للحصول على دعم الفقهاء الذين أُنيطت بهم مهمّة تفسير الشريعة الإسلاميّة بطريقة واضحة، ما يسمح بتطبيقها في كل مكان من دون أي جدل. كان الخليفة المنصور أوّل من امتنع عن التدخّل، مكان القضاة، في القضايا العاديّة التي كانت تُطرح: لقد رفض رأي الكاتب الإيراني إبن المقفّع وترك للإختصاصيّين في الفقه أن يحدّدوا بأنفسهم الأسس التي يجب اعتمادها لتكملة المعطيات الواردة في القرآن الكريم وفي السنّة. هكذا ولدت، في العصر العبّاسي الأوّل، المذاهب الفقهيّة التي أصبحت في ما بعد رسميّة، وهي المالكيّة والحنفيّة والشافعيّة والحنبليّة. اعترف، في الوقت نفسه، معظم الفقهاء بالخلافة العبّاسيّة بعد أن كانوا، في البدء، متحفّظين تجاهها. وقد قام هؤلاء، على أثر الأزمة المعروفة بأزمة المعتزلة، بدعم السلالة الحاكمة بقوّة، معترفين بالشرعيّة العبّاسيّة وداعين بالطاعة المطلقة للخلفاء المختارين، بغضّ النظر عن مزاياهم الشخصية.

هكذا عرف العالم الإسلامي الخاضع لسلطة العبّاسيّين، بين سنتي ١٣٢ و٣٢٥هـ/ ٧٥٠-٩٣٦م، حقبة من الرخاء والقوّة، تظهر انعكاساتها في غنى وعظمة المدن - العواصم التي بناها ونظّمها الخلفاء. لقد أسّس المنصور، كما رأينا، مدينة بغداد الأولى، «مدينة السلام»، الواقعة في العراق، في مكان يقترب فيه مجرى نهر دجلة من مجرى نهر الفرات، ما يسهّل الإتصالات ويساعد على حماية الموقع المختار. تطوّرت هذه المدينة الملكيّة المحصّنة ذات السور الدائري الذي أعطاها إسم «المدينة المستديرة» بحيث أنّه، في نهاية حكم المنصور، كانت الضواحي التجاريّة المهمّة المبنيّة في محيطها قد غمرتها من كلّ صوب، وكانت تتصل، من الضفّة الشرقيّة لنهر دجلة، بمدينة ثانية فيها قصر الأمير وليّ العهد.

على الرغم من أنّ عاصمة الخلفاء قد عانت نتائج الحرب الأهليّة التي وقعت بين الأمين والمأمون والتي طالت ايضًا القصور الملكيّة التي حوصرت ودُمّرت، فإنّ شهرة تلك العاصمة وأهميّتها الإقتصاديّة صمدتا في وجه

التقلّبات السياسيّة. شعر الخلفاء بعد ذلك بضرورة إبعاد حرسهم من [الغلمان] الأتراك المقلقين عن بغداد حيث كان السكّان يكرهونهم، لذا قرّروا، بين سنتي ٢٢١-٢٧٩هـ/٨٣٦-٨٩٢م تقريبًا، الإقامة في مدينة ملكيّة جديدة، تبعد مائة كيلومتر عن بغداد، هي سامرّاء. إنّ المعسكر الذي شكّل النواة الأولى للمدينة كان يمتدّ على طول نهر دجلة ويغطّي مساحة كبيرة من الأرض، ولم يكن محاطًا بجدران. شيّدت فيه، على مراحل ودائمًا بحسب تصميم معدّ سلفًا، أبنية ذات أحجام غير عاديّة، وإنّ بعض أقسامها، لا سيّما في ما خصّ المساجد الكبرى، لا تزال قائمة حتّى اليوم. إنّ آثارًا كهذه ما زالت تشهد على أهميّة هذه المدينة التي هجرها بلاط الخليفة، ثمّ عاد اليها في الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة/أواخر القرن التاسع الميلادي، ولكنّه استقرّ على الضفّة الشرقيّة للنهر حيث شيّدت مساكن وتحصينات جديدة.

اتّصف مجتمع العاصمتين، بغداد وسامرّاء، وكذلك مجتمع بقيّة المدن العبّاسيّة بخصائص مميّزة. كان هذا المجتمع مجزّأً وهرميًّا، ولكنّه كان منفتحًا على التحوّلات الداخليّة، ولا سيّما إنّ مبدأ المساواة الذي يفرضهُ الإسلام كان يرفض الطبقات المغلقة، وإنّ العديد من التيّارات داخل هذا المجتمع كان يأتمر بأوامر الخليفة وبأوامر حاشيته المؤلّفة من الخدم والمساعدين. كان الخليفة، في ممارسته لسلطته المطلقة التي لا يقيّدها سوى التزامه احترام الشريعة، يستعين بشخصيّات كالوزير وأمير الجند وقاضي القضاة وصاحب الشرطة المسؤول عن حفظ النظام. كان كتّاب الإدارة وضبّاط الفرق العسكريّة يدورون في فلك هذه الشخصيّات ويخضعون لها. كان يدير خدم البلاط، بمن فيهم الخصيان والعبيد الذين كانوا يؤدّون دورًا مهمًّا، حاجبٌ. وكان هذا الأخير، في الوقت نفسه، مديرًا للتشريفات، يمارس هذه المهمّة بنوع خاص إبّان المجالس التي كان يعقدها الخليفة. أمّا النساء فكنّ يخضعن لمدبّرة.

إنّ كلّ هؤلاء الخدم والجنود والوجهاء الذين كانوا يدورون في فلك الخليفة والذين كانوا ايضًا يمثّلونه في المقاطعات، كانوا يؤلّفون الطبقة الأرستقراطيّة المسمّاة «الخاصة»، تقابلها تسمية «العامّة» التي كانت تطلق على الشعب. إلى جانب هؤلاء، كان هناك أيضًا طبقة متوسّطة مؤلّفة من أعيان غير مرتبطين بشكل مباشر بممارسة السلطة. كانوا يدينون بمركزهم إلى جدارتهم الشخصيّة أو إلى ثروتهم، بينهم رجال دين وفقهاء لا يشغلون وظائف مأجورة، لكنّهم يحظون باحترام الجميع. نجد أيضًا في هذه الطبقة أدباء ومثقّفين، شعراء وعلماء من كل نوع، ينعمون في أغلب الأحيان بحماية الخليفة ويتمتّعون بما يجود به عليهم، كونه نصيرًا للآداب والعلوم. أمّا التجّار الكبار وأصحاب السفن الذين أثروا عن طريق نشاطاتهم التجاريّة، فكانوا يملكون، بفضل هذا الإثراء، وسائل ضغط على الخليفة.

أمّا سكّان المدن فكانوا يتكوّنون بنوع خاص من الحرفيّين ومن أصحاب الحوانيت الذين كانوا يكتفون في عيشهم بالقليل. لكنّ بعضهم كان ينضمّ، إبّان الإضطرابات، إلى جماعات قطّاع الطرق الذين كانوا يشكّلون أحيانًا مليشيات متمرّدة، مستعدّة لمهاجمة التجّار راغبةً في غناهم، ومستعدّة أيضًا لتحدّي سلطة الخليفة. لا شيء كان يجمع بين هؤلاء وبين البدو الرحّل الذين كانوا يمارسون النهب بسهولة، ولا بينهم وبين فلاحي القرى المرتبطين، في أغلب الأحيان، بالأرض التي يستثمرون بموجب أنظمة مختلفة، وذلك لحساب مالكين ينتسبون إلى الطبقة الأرستقراطيّة.

إنّ هذا المجتمع العبّاسي، المسلم في أكثريّته، الذي كان يعيش في قلب الأمبراطوريّة ويتمتّع بالنفوذ الملائم، كان غير متجانس، إذ إنّه كان يضمّ، إضافة إلى العناصر التي هي من أصل عربي، سكانًا محلّيّين، منهم عراقيّون وإيرانيّون وسوريّون وأحيانًا مصريّون. لكنّ هذا المجتمع كان يمارس مبدأ التفرقة الدينيّة تجاه غير المسلمين، بالأخصّ تجاه اليهود والنصارى، وأحيانًا تجاه الزرادشتيّين. لكنّ هؤلاء جميعًا كان لهم مكانهم في المجتمع وكانوا يمارسون مهنًا اختصّوا بها، منها مثلًا مهنة جهْبذ [صيرفي] التي انحصرت بهم لأنّهم غير مسلمين، ويمكنهم تاليًا أن يمارسوا الربا الذي كانت تحرّمه الشريعة. كان هناك تمييزٌ أيضًا بين الأحرار والعبيد الكثيري العدد، من مسلمين وغير مسلمين،

وأصولهم متعدّدة. كان هؤلاء يقومون بالأعمال الأكثر صعوبةً، أكانت منزليّة أم حرفيّة، وكانت تُختار من بينهم الخليلات، ممّا ساهم في خلق هذا المزيج من الأعراق البشريّة الذي تميّز به المجتمع بكامله.

إنّ عدم تجانس سكّان الحواضر العباسيّة الكبرى كان يعكس عدم تجانس سكّان الأمبراطوريّة، وكان نتيجةً لنموّ إقتصادي سريع عرفه العصر العبّاسي الأوّل، اذ إنّ موارد مختلف الأقاليم الخاضعة للسلالة كانت في الغالب متكاملة في ما بينها. كانت ترافق المبادلات الداخليّة الكثيفة مبادلات أكثر بعدًا، إمّا بحريّة باتّجاه الشرق الأقصى وأفريقيا الشرقيّة، أو باتّجاه بيزنطية وبلدان البحر المتوسط؛ وإمّا برّية نحو سُهُب الفولغا وضفاف البلطيق وإلى سيبيريا ومنغوليا والقوقاز وآسيا الوسطى. كانت بغداد، بفضل موقعها، مركز هذه التجارة العظيمة وملتقى خطوط سَيْرقوافلها. وكانت الملاحة النهريّة، بفضل ما لديها من وسائل خاصة، تساهم في دعم تلك المبادلات، بينما تشجّع حياة الترف السائدة في البلاط على إنتاج التحف وعلى استيراد بعض السلع بكثرة. وإذا كان من المستحيل علينا تقدير حجم هذه المبادلات، فإنّ اتّساع الأحياء التي كانت تعتاش منها، والتي كانت تمتدّ على ضفتي النهر، يعطينا فكرة عن أهميّتها.

أمّا النشاط الفكري والديني فلم يكن أقلّ زخمًا. لقد شهدت هذه الحقبة ظهور مذاهب فكريّة جديدة استمرّت خلال الحقب اللاّحقة. وقد رافق بعضها ولادة المذاهب الفقهيّة التي نجحت، استنادًا إلى المنطلقات نفسها، في أن تفرض نفسها الواحدة بالنسبة إلى الأخرى. أمّا المكانة التي تركتها هذه المذاهب لتحكيم العقل، فكانت تتفاوت في ما بينهما. إذا كانت المالكيّة والحنفيّة، وهما المذهبان الأكثر أقدميّة، تتسرّان أحيانًا بكثير من الحريّة المعطيات الأساسيّة، فإن المدرستين اللتين تلتا، أي الشافعية والحنبليّة، ردّتا بالتشدّد في التدقيق في الأحاديث النبويّة الشريفة، ما ادّى، في القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، إلى ظهور أدب جديد هوَ أدب البحث في الحديث ونقده. إنّ المتخصّصين في هذا العلم، المعروفين بعلماء الحديث، كانوا ايضًا فقهاء وشاركوا في النزاعات العقائديّة التي عرفها العصر العبّاسي الأوّل. ظهرت في هذه الأثناء، وفي ظروف غامضة، حركة المعتزلة العقلانية التي أرادت الدفاع عن الإسلام، بالاعتماد على سلاح المنطق الذي توفره الفلسفة اليونانيّة. بلغت هذه الحركة أوج مجدها عندما تبنّاها الخليفة المأمون وأراد أن يفرضها على الشعب عقيدة رسميّة. لكنّها ما لبثت أن تراجعت بعدما أدانها، في سنة ٢٤٣هـ/٨٥٨م، خليفة آخر هوَ المتوكّل؛ فواجهتها، منذ ذلك التاريخ، عداوة حركة تقليديّة متمسّكة بحرفيّة القرآن الكريم يرأسُها إبن حنبل. وُلد، بعد ذلك بقليل، في أواخر القرن الثالث الهجري/ مطلع القرن العاشر الميلادي، المذهب الأشعري الذي سيُصبح أحد فروع الفقه السنّي والذي أسّسه الأشعري، أحد المنشقّين عن المعتزلة. إنّ مذهبه، الذي أراده تقليدويًّا، يتميّز عن الحنبليّة بكونه يقبل النقاش مع الخصوم كما يقبل ان يُخضع للمنطق العقائد الدينيّة، وهذا ما يتميّز به الفقه النظري أو علم الكلام. وقد جرى تطوّر مماثل في الأوساط الخاصة بالفرق، كما أنّ الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة أطلقت، في الحقبة نفسها، مذهبًا يرتكز في الأساس على تعاليم الإمام جعفر الصادق، وكان الكُلَيْني الممثّل الرئيس لهذا المذهب.

نُقل إلى العربيّة، خلال هذه الحقبة، عددٌ من المؤلّفات اليونانيّة، كان بعضها قد نُقل من قبل إلى السريانيّة. جرى كلُّ ذلك بفضل المأمون، خصوصًا في بيت الحكمة المشهور، وفي مكتبات أخرى أسّسها هذا الخليفة. هكذا ظهرت، مع الكندي، المحاولات الأولى لفلسفة إسلاميّة مستوحاة من المؤلّفات القديمة، بينما كانت علوم الرياضيّات تتقدّم في بغداد مثلًا. وفي هذه المدينة أيضًا كان إختصاصيّون بعلم الفلك وبالجغرافيا وبالخيمياء، وخصوصًا بالطب، يعيدون إلى الحياة ثمرات العديد من التراث السابق. كان الممثّلون الأوائل للحركة الزهديّة والنسكيّة المعروفة بالصوفيّة يمارسون، من جهتهم، عبادة تقرّبهم من الإرادة الإلهيّة، أو كانوا يبحثون عن طرائق تُتيح لهم الاتّحاد حقيقةً بالله عن طريق الغيبوبة، وذلك وفاقًا مفهوم أدانه رجال الدين من أهل السنّة وكان من نتائجه، بوجه خاص، إعدام الحلاّج في

العاصمة سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢٢م.

ظلّت الحياة الأدبيّة التي تميّزت بإنجازات رائعة، في أغلب الأحيان، مرتبطة بالحركات العقائديّة. لم يكن بعض الشعراء سوى مدّاحين يكتفون بتمجيد رعاتهم من الحكّام. لكنّهم لم يتردّدوا في اغلبيّتهم في اتّخاذ موقف من القضايا الدينيّة، فدافعوا إمّا عن الشيعة وامّا عن التقليديّة السنيّة. فكان شعرهم صدى للنزاعات القائمة أيامئذٍ. تطوّر النثر الأدبي من ناحيته في الأوساط الفكريّة نفسها، وكان يحوي مجموعات من حكايات قصيرة أو روايات مسلّية ومثقّفة في آن، تنتمي إلى نوع يُدعى أدبًا. وغالبًا ما كان النثر ينفرج عن خلفيّات سياسية-دينيّة مبطّنة بعض الشيء. كانت معظم هذه الكتابات، مثل مؤلّفات الجاحظ أو إبن قتيبة، تندرج في خدمة قضيّة ما، كقضيّة المعتزلة مثلاً، أو قضيّة التقليديّة، أو إنّها كانت تدافع عن المنتمين إلى هذه الفئة الإجتماعيّة أو تلك أو كانت تنتقدهم.

لقد استحقّت حضارة العصر العبّاسي الذهبي أن تبقى حيّةً في ذاكرة الأجيال اللاّحقة، على أنّها حضارة كلاسيكيّة حقيقيّة. لكنّ التوازن الذي حقّقته ما فتئ أن اضطرب لفشل سياسي سبّبته عوامل متعدّدة: لقد قُرن ضعف الخليفة المقتدر، الذي حكم من سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م إلى سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م، وعدم استقرار الوزراء الذين كان يعتمد عليهم والذين غالبًا ما كانوا يُعْزَلون، بعدم انضباط رؤساء الجند والحكّام، وكذلك بظهور نزعات إقليميّة متعاظمة في المقاطعات. نتج عن كلّ ذلك أزمة ماليّة ذات حدّة متصاعدة، عجز القيّمون على السلطة المركزيّة عن حلّها. رأى الحكام العبّاسيّون آنذاك أنفسهم مرغمين على التخلّي عمليًّا عن مبدإ فصل السلطات في المناطق التي كانت ما تزال تحت سيطرتهم، كما اضطرّوا إلى التنازل لبعض الحكّام عن التزام الضرائب في مقاطعاتهم. اعتمد بيت المال على هذه الوسيلة للحصول على سلفات مهمّة، لكنّ هذه السياسة وضعت الخليفة تحت رحمة مرؤوسيه السابقين. ففي سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م مثلاً، أجبر أحد هؤلاء، وهو إبن رائق، الخليفة الراضي، على أن يتنازل له [في بغداد] عن سلطاته العسكريّة والماليّة، فخسر الراضي تاليًا سيطرته على الحكومة، على الرغم من أنّه احتفظ لنفسه بحق تعيين الموظّفين. في هذا السّياق برز المنصب الذي ميّز الحقبة التالية، وهو منصب أمير الأمراء. إنّ هذا اللقب الذي حمله إبن رائق خلال الفترة القصيرة التي بلغ فيها ذروة المجد، استُعمل في ما بعد بالطريقة نفسها عندما انتقلت إدارة الأمور إلى أفراد الأسرة البويهيّة.

إنّ هذا النظام الذي كان يسمح لبعض أسياد الحرب المحظوظين بممارسة وصاية حقيقيّة على الخلافة العبّاسيّة، لم يُطبّق إلّا في المناطق التي كانت لا تزال تخضع مباشرة للحكومة المركزيّة. أمّا باقي الأراضي العبّاسيّة - باستثناء المقاطعات التي كانت قد انفصلت سابقًا عن جسم الدولة - فلم تكن تخضع إلّا لحكّامها الذين عيّنهم الخليفة، وكان هؤلاء يتصرّفون باستقلاليّة تامّة. نذكر، من بين هؤلاء الحكّام، الإخشيد [محمد بن طُغُج]، مؤسّس السلالة الاخشيديّة، الذي تسلّم الحكم في مصر في سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م والذي بسط سلطته على سوريا الجنوبيّة، بينما وقع شمال العراق وشمال سوريا، وكانا قد افلتا من قبضة البويهيّين، تحت سيطرة أمراء عرب أسّسوا السلالة الحمدانيّة.

ثانيًا: ٣٢٥-٦٥٦هـ/ ٩٣٦-١٢٥٨م. حكم أمير الأمراء، في أوّل الأمر، المناطق الوسطى من الأمبراطوريّة نيابةً عن الخليفة الذي أصبحت سلطته محدودة. إستمرّ هذا الوضع بعد موت إبن رائق، ممّا كرّس مكانة البويهيّين، ولا سيّما ابتداءً من سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، حين انتقل اليهم منصب أمير الأمراء. إنّ الحضارة المتألّقة التي عرفتها الخلافة آنذاك اتّسمت بسمة البويهيّين اكثر منها بسمة العبّاسيّين، وذلك لأنّ التأثيرات الشيعيّة والإيرانيّة، الناتجة عن التوجّه والرعاية اللتين أولاهما إيّاها هؤلاء الأمراء الذين يعودون بأصلهم إلى الدّيلم، ويقيمون في مقاطعة فارس، غيّرت في العمق الثقافة العربيّة-الإسلاميّة للعصر الذهبي للخلافة.

شهدت الحقبة التالية بدورها، إبتداءً من سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، تثبيت سلطة جديدة هي سلطة السلاجقة الأتراك. كان هؤلاء يسيطرون على

أمبراطوريّة أكثر اتّساعًا من أمبراطوريّة البويهيّين، فمارسوا على الخلفاء وصاية فعليّة لكنّها أخفّ وطأة، لأنّها اندرجت في إطار السنيّة وطبقًا لتوازنٍ سياسيّ جديد يتوافق والنظام المعروف بنظام السلطنة.

بعد أن اجتاحت جماعات الغزّ المقاطعات الشرقيّة للدولة، حصل أميرها السلجوقي، طغرل بك، على سُلطات تساوي سلطات البويهيّين؛ وأعطيَ، زيادةً على ذلك، لقبًا لم تعطه الخلافة العبّاسيّة لأحدٍ من قبل، وهو لقب «سلطان» الذي شكّل فاتحةً لعصر جديد في التنظيم السياسي للعالم الإسلامي. إبتداءً من هذا التاريخ، قبلت كلّ السلالات التي كانت تحكم مختلف مقاطعات الأمبراطوريّة بالخليفة العبّاسي أميرًا للمؤمنين، وقبِل هذا الأخير، من جهته، بأن يُعطي لقب «سلطان» إلى شخصيّة نافذة، ومن ثمّ إلى شخصيّات عدّة، وذلك إثر تفكّك دولة السلاجقة ومطالبة أكثر من أمير بالحصول على هذا اللقب. أصبح الخليفة يكتفي بفرض هيبته واحترام مكانته على هيئة حاكمة متشعّبة، يقيم اعضاؤها به علاقات ضعيفة، لكنّهم يعترفون بقيم الإسلام العبّاسي ويدافعون عنه ويطبّقون الشريعة بشكل صارم. جرى هذا في فترة كان فيها العالم السنّي ينهل من تقاليده بعزم متزايد، مُتبنّيًا عن التوسّع الجديد الذي عرفه في أواخر القرن السادس للهجرة/ أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، عندما استطاع أن يفكّك دولة الفاطميّين الشيعيّة. إستعاد الخليفة، إثر ذلك، السيطرة على الأماكن المقدّسة في مكّة والمدينة حيث تولّى من جديد إدارة شؤون الحجّ. لكنّ حدود الأمبراطوريّة التي كانت قد اتّسعت مع فتح الأناضول على يد الأتراك ابتداءً من النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة / أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، لم تكن تضمّ إلّا عددًا من المناطق المتباينة حيث يتنازع عددٌ من السلالات تركة السلاجقة الكبار. وقد استطاع الخليفة بنفسه، في القرن السادس للهجرة / القرن الثاني عشر للميلاد، أن يمارس الحكمَ في العراق وكأنّه أمير محلّي، ما ساعد على تألّق سلطانه. برز آنذاك إسم المكتفي، وخصوصًا إسم الناصر الذي أعاد حكمُه الطويل، بين سنتي ٥٧٥ و٦٢٢هـ/ ١١٨٠ و١٢٢٥م، لعاصمة العراق ولبلاطها بريقًا كان من قبل في عالم النسيان.

إنّ خطر اجتياح جديد، مصدره آسيا الوسطى، كان يهدّد، منذ مطلع القرن السابع للهجرة / مطلع القرن الثالث عشر للميلاد، الحدود الشرقيّة لبلاد المسلمين. عاد هذا الخطر إلى الظهور في تلك الحقبة من جديد مكدّرًا حكم المستنصر الذي استطاع، على الرغم من ذلك، أن يشيّد أبنيةً فخمةً ما زالت تحيي ذكراه حتّى اليوم. في عهد خليفته المباشر، اي الخليفة العبّاسي السابع والثلاثين، قُضيَ على الدولة العبّاسيّة سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، حين انقضّ جيش هولاكو المغولي على بغداد، فنهبها وفتك بقسمٍ من سكّانها ومن بينهم الخليفة نفسه. نجا من الكارثة فردٌ واحدٌ من العائلة المالكة، فالتجأ إلى مصر حيث أمّن استمراريّة السلالة بشكلٍ صوري.

ثالثًا: ٦٥٩-٩٢٣هـ/ ١٢٦١-١٥١٧م. إستمرّت في القاهرة، خلال هذه الحقبة الثالثة، سلالة من الامراء العبّاسيّين الذين كانوا يحملون لقب «خليفة». كانوا ينحدرون من عقِبٍ بعيد للخليفة البغدادي التاسع عشر، أي المسترشد. نُصّب هذا العقب خليفةً سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م تحت إسم الحاكم الأوّل، بعد أن توفّي سلفه المستنصر، خلال حملة قادها ضد بغداد محاولًا إسترجاعها ووراثة خلافة المستعصم الذي قتله المغول.

أفادت هذه الأحداث المماليك الذين كانوا قد استولوا على الحكم في القاهرة، بعد معركة عين جالوت التي وضعت حدًّا للتقدّم المغولي. كان همّ السلطان الجديد، بيبرس، تدعيم شرعيّة دولته المصريّة في وجه دول إسلاميّة قويّة ومنافسة مثل دولة الحفصيّين. إنّ الصيغة التي تُبنّيَت استُغلّت لمصلحته ولمصلحة خلفائه: إنهم جميعًا مدينون لها بشهرتهم كحماة للإسلام، وقد وجدوا فيها سندًا في صراعهم ضدّ الدول المسيحيّة وكذلك في سعيهم للسيطرة على المدن المقدّسة؛ وحتى في تنافسهم غير المجدي مع العثمانيّين. أمّا الخلفاء [العباسيّون] فلم يتمتّعوا إلّا بسلطة إسميّة، ولم يُعاملوا في بلاط المماليك، إلّا كأصحاب مقامات ولم يخرجوا إلى النور إلّا في مناسبة إعتلاء السلطان الجديد العرش.

إنّ انهيار دولة المماليك على أثر معركة مرج دابق،

أدّى، في سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، إلى إلغاء الخلافة العبّاسيّة بصورة نهائيّة على يد العثمانيّين. ولم يرث السلطان العثماني، سليم الأوّل، لقب خليفة من آخر الخلفاء العبّاسيّين في القاهرة، على عكس ما تؤكّده بعض الروايات المتأخّرة التي يرفضها المؤرّخون.

الخلفاء العبّاسيّون في العراق	١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م
السفّاح	١٣٢-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٤م
المنصور	١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م
المهدي	١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م
الهادي	١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م
هارون الرشيد	١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م
الأمين	١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م
المأمون	١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م
المعتصم	٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م
الواثق	٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م
المتوكّل	٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م
المنتصر	٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م
المستعين	٢٤٨-٢٥١هـ/٨٦٢-٨٦٦م
المعتزّ	٢٥١-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٩م
المهتدي	٢٥٥-٢٥٦هـ/٨٦٩-٨٧٠م
المعتمد	٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٧٠-٨٩٢م
المعتضد	٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م
المكتفي	٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠٢-٩٠٨م
المقتدر	٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م
القاهر	٣٢٠-٣٢٢هـ/٩٣٢-٩٣٤م
الراضي	٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م
المتّقي	٣٢٩-٣٣٣هـ/٩٤٠-٩٤٤م
المستكفي	٣٣٣-٣٣٤هـ/٩٤٤-٩٤٦م
المطيع	٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٦-٩٧٤م
الطائع	٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٤-٩٩١م
القادر	٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣١م
القائم	٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م
المقتدي	٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٥-١٠٩٤م
المستظهر	٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م
المسترشد	٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م
الراشد	٥٢٩-٥٣٠هـ/١١٣٥-١١٣٦م
المقتفي	٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م
المستنجد	٥٥٥-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م
المستضيء	٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م
الناصر	٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م
الظاهر	٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م
المستنصر	٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م
المستعصم	٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م
الخلفاء العبّاسيّون في مصر	٦٥٩-٩٢٣هـ/١٢٦١-١٥١٧م
المستنصر	٦٥٩-٦٦٠هـ/١٢٦١-١٢٦١م
الحاكم الأوّل	٦٦٠-٧٠١هـ/١٢٦١-١٣٠٢م
المستكفي الأوّل	٧٠١-٧٤٠هـ/١٣٠٢-١٣٤٠م
الواثق الأوّل	٧٤٠-٧٤١هـ/١٣٤٠-١٣٤١م
الحاكم الثاني	٧٤١-٧٥٣هـ/١٣٤١-١٣٥٢م
المعتضد الأوّل	٧٥٣-٧٦٣هـ/١٣٥٢-١٣٦٢م
المتوكّل الأوّل	٧٦٣-٧٧٩هـ/١٣٦٢-١٣٧٧م
المعتصم	٧٧٩-٧٧٩هـ/١٣٧٧-١٣٧٧م
المتوكّل الأوّل، للمرّة الثانية	٧٧٩-٧٨٥هـ/١٣٧٧-١٣٨٣م
الواثق الثاني	٧٨٥-٧٨٨هـ/١٣٨٣-١٣٨٦م
المعتصم، للمرّة الثانية	٧٨٨-٧٩١هـ/١٣٨٦-١٣٨٩م
المتوكّل للمرّة الثالثة	٧٩١-٨٠٨هـ/١٣٨٩-١٤٠٦م
المستعين	٨٠٨-٨١٦هـ/١٤٠٦-١٤١٤م
المعتضد الثاني	٨١٦-٨٤٥هـ/١٤١٤-١٤٤١م
المستكفي الثاني	٨٤٥-٨٥٥هـ/١٤٤١-١٤٥١م
القائم	٨٥٥-٨٥٩هـ/١٤٥١-١٤٥٥م
المستنجد	٨٥٩-٨٨٤هـ/١٤٥٥-١٤٧٩م
المتوكّل الثاني	٨٨٤-٩٠٣هـ/١٤٧٩-١٤٩٧م
المستمسك	٩٠٣-٩١٤هـ/١٤٩٧-١٥٠٨م
المتوكّل الثالث	٩١٤-٩٢٣هـ/١٥٠٨-١٥١٧م
المستمسك، للمرّة الثانية	٩٢٣هـ/١٥١٧م

◄ راجع المستندات ٣، ١٠-١٣، ٣٠، ٤٥ و٤٦.

عبد، جمعها عباد وعبيد، كلمة عربيّة وهي تعني في اللغة العربيّة، كما في اللغات الساميّة التي ينتمي إليها جذرها، «المستعبَد» أو «الخادم».

ظهرت كلمة «عبد» في مجتمع ما قبل الإسلام بمعنى «مستعبد»، وخصوصًا «مستعبَد ذكر»، وكانت، في الوقت نفسه، تستعمل للدلالة على خادم إله معين. وهذا يفسّر وجودها عند العرب القدماء في الأسماء التي تدخل في تركيبها أسماء الآلهة، ومنها، على سبيل المثال، إسم «عبد شمس». وهذا يفسّر أيضًا وجودها في ما بعد في الأسماء الإسلاميّة، حيث تصحب كلمة «الله» أو بعض الصفات والأسماء التي تُطلق على «الله» في

العقيدة الإسلاميّة. من هنا جاءت تسميات «عبدالله» و«عبد الرحمن» و«عبد العزيز» وغيرها.

أصبحت الكلمة، في المفرد كما في الجمع، تعني، بعد ذلك، في العالم الإسلامي، «المؤمن المستسلم لله». غالبًا ما ظهرت بهذا المعنى في الألقاب: نجدها مثلًا، منذ العصر الأمويّ، تتقدّم إسم الخليفة فيقال «عبدالله...» ويتبعها الإسم. نجدها، بعد هذا التاريخ، بصورة شبه دائمة، في النقوش العربيّة، ولا سيّما في تلك التي تشير إلى التأسيس والبناء، حيث كانت تسبق إسم المؤسّس أو الواهب بحسب الصيغة المتواضعة والكلاسيكيّة التالية: «العبد الفقير إلى رحمة ربّه» فلان...

عبد الجبّار بن أحمد بن عبد الجبّار الحمداني ~٣٢٥ ٤١٥هـ/ ~٩٣٦-١٠٢٥م، فقيه عراقي من المعتزلة، عاش في العصر العبّاسيّ في عهد الأمراء البويهيّين. شغل منصب قاضٍ في مقاطعة الريّ حيث دعاه راعيه الوزير [الصاحب] إبن عبّاد.

ولد هذا الرجل، الذي امتهن الفقه، في بغداد، وكان على المذهب الشافعي. عرف بشكل خاص على أنّه واحد من كبار مفكّري المعتزلة. إنّ كتاباته الغنيّة بالمقالات العقائديّة لا تزال محفوظة بصورة جزئية حتّى اليوم. اكتشفت في اليمن، منذ أكثر من عشرين عامًا، أجزاء عدّة من مؤلّفه الضخم «المغني في أبواب التوحيد والعدل»، وقد سمحت هذه الأجزاء بتكوين فكرة أكثر وضوحًا عن آرائه. أمّا المؤلّفات التي كانت تُنسب إليه من قبل فهي كتبٌ ملفّقة أو ملخّصات جمعها تلاميذه. اعتُبر مذهبه، الذي بدأ المتخصّصون يدرسونه، مصدرًا مهمًّا للزيديّين الذين اعتمدوا عليه في كتاباتهم. وكان هؤلاء قد تبنّوا، منذ مدّة، قسمًا من طروحات المعتزلة، فوجدوا في مؤلّفات عبد الجبّار قاعدة نظريّة واضحة وصلبة، اعتمد عليها بنوع خاص الزيديّون الذين استمرّوا في اليمن حتّى اليوم.

عبد الحميد الأوّل، ١١٣٧ ١٢٠٣هـ/ ١٧٢٥-١٧٨٩م، سلطان عثماني، حكم ابتداءً من سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٤م حتّى وفاته، وكان متقدّمًا في السنّ عندما اعتلى العرش. واجهته بصورة مستمرّة صعوبات خارجيّة سببها أطماع قيصرة روسيا كاترين الثانية. رقّعت السلطنة في عهده، في العام ١٧٧٤، صلح كوجوك قَينَرْجي، ومُنيت في ما بعد بهزائم عسكريّة. نتج عن كل ذلك خسارة شبه جزيرة القِرم وخسارة مناطق أخرى على الحدود مع روسيا. وقد حصلت هذه الأخيرة، في المقابل، على حريّة الملاحة في البحر الأسود وسُمح لأسطولها التجاري بعبور المضائق بدون أيّة قيود، واعتُرف لها بحق التدخّل في شؤون الأقلّيات الأرثوذكسيّة في السلطنة. إنّ الضربات التي تلقتها السلطة العثمانيّة لم تؤثّر على الأوضاع الداخليّة ولم تدفع بالعثمانيّين إلى اعتماد برنامج إصلاحي لإخراج السلطنة من الوهن والتحجّر اللذين أصاباها، على الرغم من محاولات التجديد التي قام بها بعض الوزراء.

عبد الحميد بن يحيى ...-١٣٢هـ/ ...-٧٥٠م، أديب وكاتب مشهور [في رأس الكتّاب] في الدولة الأمويّة. ترك رسائل بالعربيّة نالها كثير من الثناء لبلاغتها.

مولى لعشيرة قُرشية ويرجّح أن يكون أصله عراقيًّا، لكنّنا نعرف القليل عن حياته وعن شخصيّته. دخل إلى الادارة في عهد الخليفة هشام، ثمّ اختصّ بمروان الثاني [آخر الخلفاء الأمويّين في الشام]. رافق هذا الخليفة في حروبه وشاطره مصيره المأسوي بعد نجاح الثورة العبّاسيّة. يقال إنّ ابن المقفّع، الذي اشتهر في ما بعد في خدمة العبّاسيّين الأوائل، كان يكتب بين يديه. يعكس أسلوبه في الكتابة مؤثّرات يونانيّة في مقالات قصيرة، استوحى مضمونها من التقاليد الإيرانيّة - الساسانية، وهي التي سمحت له بأن يفرض نفسه واحدًا من مؤسّسي علم البيان عند العرب، في المرحلة التي بدأت تتكوّن فيها، في الأوساط الإسلاميّة، الثقافة المرهفة الخاصة بالكتّاب.

عبد الحميد الثاني، سلطان عثماني ١٢٥٨-١٣٣٦هـ/ ١٨٤٢-١٩١٨م. حكم من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٩٠٩. كان من آخر الحكّام العثمانيّين المستبدّين. واجه حروبًا خارجيّة وثورات داخليّة فقمعها بعنف. إنّ سياسته الشخصية كرئيس دولة عنيد وكثير الشك - عُرف بـ«السلطان الأحمر» في الكتابات الكاريكاتوريّة

الأوروبيّة المعاصرة - جعلت منه أيضًا المحقّق لمشروع حديث وطموح ذي أهميّة دينيّة واستراتيجيّة، هو خط سكّة الحديد الحجازي الذي بلغ المدينة المنوّرة في العام ١٩٠٨م، واستُخدم لنقل جموع المسلمين الآتين من الشمال لإتمام مناسك الحجّ في مكّة المكرّمة.

إنّ الاتّجاهات التي حاول عبد الحميد الثاني أن يفرض عن طريقها آراءه في الميدان السياسي، ممارسًا سلطة مطلقة تتناقض مع التقاليد العثمانيّة السابقة التي كان فيها الحكم بيد الوزارة، وساعيًا إلى تحقيق الجامعة الإسلاميّة التي أنتجتها نظريّات جمال الدين الأفغاني، أدّت في النهاية إلى فشله وإلى عزله في سنة ١٩٠٩. اتّخذ القرار بشأن تنحيته مجلس المبعوثان الذي كان السلطان قد أقامه بنفسه، في العام ١٨٧٦، حين وصل إلى الحكم بدعم من الأتراك الجدد. لكنّه سرعان ما عاد فعمل على عرقلة سير هذا المجلس. لقد مهّدت أيضًا لعزله سلسلة متوالية من النزاعات المسلّحة غير الموفّقة، خاضتها السلطنة ضدّ روسيا واليونان بنوع خاص، وكذلك سلسلة من الصراعات من أجل الإستقلال عرفتها المقاطعات البلقانيّة. كانت تجتاح تيارات ثوريّة آنذاك الدولة العثمانيّة التي تعرّضت أيضًا لتأثيرات، وحتّى لتدخّلات خارجيّة، انعكست سلبًا على ازدهارها الاقتصادي.

شهد عهد عبد الحميد الثاني، في ميدان الهندسة المعماريّة وتنظيم المدن، تحديث مدينة اسطنبول بشكل واضح، ولا سيّما الأحياء المخصّصة لسكن الأجانب في بيرا (Péra) القديمة، حيث كانت البيوت الأنيقة تتبع الطراز الأوروبي المعاصر. نجد الأنماط الفنيّة ذاتها في الصرح الذي كان السلطان يعتبره مسكنه المفضّل، أعني به قصر يلدز (Yildiz)، حيث المقصورات وأجنحة الإستقبال والأبنية الملحقة - وكانت كلّها موزّعة، بحسب التقاليد، داخل سور يحيط برابية مشجّرة تطلّ على البوسفور - تعكس هيَ أيضًا العادات الأجنبيّة في البناء والزخرفة.

عبد الرازق (علي)، ١٣٠٥-١٣٦٦هـ/ ١٨٨٨-١٩٤٧م، كاتب ومفكّر مصري معاصر، ترك مؤلّفات ذات طابع إصلاحي. عرف بنوع خاص بكتابه «الإسلام وأصول الحكم» الذي صدر عام ١٩٢٥، بعد إلغاء الخلافة بقليل وتأسيس الجمهوريّة التركيّة على يد كمال أتاتورك. عالج في كتاباته الفكرة القائلة إنّ أيّ تنظيم للدولة في بلدٍ مسلم هو تنظيم محض زمني، لأنّ رسول الله ﷺ لم ينظّم قطّ بنفسه أيّة حكومة. إنّ موقفه هذا، المعاكس لموقف رشيد رضا، أدّى إلى إدانته من قبل السلطات القضائية-الدينيّة الممثّلة آنذاك بشيوخ الأزهر.

عبد الرحمن، إسم حمله امراء عدّة من السلالة الأمويّة أو المروانية في الغرب، ومن بينهم ثلاثة تركوا أثرهم في تاريخ الأندلس، في المرحلة الأولى من القرون الوسطى.

عبد الرحمن الأوّل أو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ١١٣-١٧٢هـ/ ٧٣١-٧٨٨م، كان، بين الثلاثة المذكورين، أوّل من حكم شبه جزيرة إيبريا. دامت إمارته من سنة ١٣٨ إلى سنة ١٧٢هـ/ ٧٥٦-٧٨٨م. لُقّب ايضًا بالداخل لأنه كان سوريًّا وحفيد الخليفة الأموي الشرقي هشام بن عبد الملك. استطاع، بعد الانتصار الدموي الذي أحرزه العبّاسيّون، ان ينجوَ من المذبحة التي قضت على والديه، ولجأ في النهاية، بعد أن تـ في امكنة عدّة بدون أيّة نتيجة، إلى مقاطعة بعيدة [الأندلس][٧٦]، حيث حلّ سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٥م. اعتمد هناك على عناصر عربيّة كانت موجودة قبل قدومه أو وصلت بعده، ففرض نفسه بقوّة السلاح أميرًا على قرطبة. كرّس فترة حكمه، على الرغم من الثورات والانقسامات، لتثبيت سلطته محافظًا بأمانة على تقاليد عائلته.

عبدالرحمن الثاني أو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن، ١٧٦-٢٣٨هـ/ ٧٩٢-٨٥٢م، حكم من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م، بعد أن خلف أباه، الحكم الأوّل، بدون أيّة صعوبة. مارس سلطته بفاعليّة.

واصل، على الحدود، القتال ضدّ المسيحيّين، وقمع، في الوقت نفسه، بعض حركات التمرّد؛ كما ردّ غزوات خارجيّة كالتي قام بها النورمان على إشبيلية. أقام علاقات دبلوماسيّة مع بيزنطية ومع الممالك الإسلاميّة

الصغيرة المستقلّة في أقصى المغرب. بذل جهدًا كبيرًا لتحسين الإدارة والحياة الداخليّة في دولته التي أخذت تنفتح على المؤثرات الإجتماعيّة-الفكريّة الآتية من العراق العبّاسي والتي نافست، إن في العادات المرهفة أو في الأبنية الفخمة، إنجازات الحضارة العربيّة الإسلاميّة الشرقيّة التي كانت قد بلغت آنذاك عصرها الذهبي.

عبد الرحمن الثالث أو عبد الرحمن بن محمّد بن عبدالله ٢٧٧-٣٥٠هـ/ ٨٩٠-٩٦١م، كان شابًّا عندما اعتلى العرش وبقي عليه زهاء خمسين سنة (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م). تميّز حكمه الطويل بالأبهة.

ثبت هذا الأمير النشيط هيبة السلالة الأمويّة في الغرب، وكان أوّل حاكم للأندلس يطالب بلقب خليفة، متصدّيًا للخليفة العبّاسي الذي كانت سلطته قد بدأت تتداعى وسط الاضطرابات المختلفة، ومتصدّيًا أيضًا للخليفة الفاطمي المتمركز في إفريقية. كانت طموحات هذا الأخير تصطدم مباشرةً بطموحاته. إتّخذ عبد الرحمن لقب أمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله، وذلك في سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، بعد أن انتهى من توطيد السلم الداخلي في مملكته. فنصّب بذلك نفسه مدافعًا عن السنّة في وجه خصمه البغدادي، كما في وجه الشيعة في بلاد إفريقية. ساعده هذا الوضع على أن يكون أكثر تصلّبًا في مواقفه السياسيّة وعلى أن يزيد بلاطه شهرةً.

إنّ الحروب التي خاضها ضدّ الملوك المسيحيّين في شبه جزيرة إيبريا والتي اعتمد فيها على المرتزقة من البربر وعلى الصقالبة الأوروبيّين سمحت له، على الرغم من الهجمات التي كان يشنّها جيرانه من الشمال، بصيانة حدود مملكته. آثر شنّ حملات ضدّ حاكم بطليوس ثمّ ضدّ حاكم طليطلة، في الوقت الذي وضع فيه حدًّا لثورة إبن حفصون الذي توفي سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م، بانتصاره على ابنائه. وأحرز، إضافة إلى ذلك، إنتصارات على الامراء النصارى، وبنوع خاص عندما استعاد منهم مدينة بنبلونه سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م، وفرض عليهم أن يدفعوا الجزية، على الرغم من الهجوم المضاد الذي شنّه ملك ليون. أمّن لنفسه، في الجهة المقابلة للمتوسط، نقاط دعم حقيقيّة، منها مليله وسبتة وطنجة.

برزت، بموازاة ذلك، ميول عبد الرحمن إلى احتضان الآداب والفنون، وظهر غنى هذا الخليفة البنّاء الذي جعل مدينة قرطبة تعادل بأبنيتها وتنظيمها المدني العواصم الإسلامية في الشرق، على الرغم من أنّها لم تبلغ قط الأحجام الهائلة التي بلغتها تلك العواصم. وقد ظهرت عظمة مشاريعه بتأسيسه، حول قصره، مدينة الزهراء، مدينته الملكيّة التي جرت فيها الاستقبالات ونقلت اليها الدواوين في سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م. بلغت في عهده الحضارة الإسبانيّة - الإسلاميّة ذروتها، وقد استطاعت تلك الحضارة أن تتجاوز سنتها الإقليميّة بالنسبة إلى العالم الإسلامي الأسيوي حيث قامت المراكز الحيّة للأمبراطوريّة، بفضل صورتها المشعّة التي لمعت في أوروبا المُنهكة، في المرحلة الأولى من القرون الوسطى. لقد ساهمت ذكرى هذه الذروة في الحفاظ على حيويّة الإمارات الإسلاميّة الصغيرة في عهد ملوك الطوائف، وذلك خلال القرون الخمسة التالية. وقد تقاسم هؤلاء ما تبقّى من الخلافة الأمويّة، ويعود الفضل، ولو جزئيًّا، في استمرارهم، إلى ما تركته تلك الخلافة من إرث إقتصادي وثقافي.

◄ راجع المستندات ١١ و٥٠ إلى ٥٢

عبد شمس (بنو): أبناء العشيرة الأكثر غنًى في قبيلة قريش زمن الدعوة الإسلاميّة في مكّة، وأبناء عمّ بعيدون للنبيّ محمّد ﷺ ولأهله الهاشميّين.

إستمدّ بنو عبد شمس، داخل الأوليغارشيّة المكيّة، قوّتهم من نصيبهم المتزايد من تجارة القوافل التي كانت تشكّل ثروة المدينة. لذا أظهر تجّارهم، أصحاب الأعمال المزدهرة، ولمدّة طويلة، معارضة شرسة للنبي محمّد ﷺ ولرسالة القرآن الكريم، إلى درجة أنّهم نظّموا حملاتٍ حربيّة في محاولةٍ للقضاء على أوّل جماعة إسلاميّة في المدينة. ناصب رئيسهم آنذاك، أبو سفيان، النبيّ محمّدًا ﷺ العداء، حتى تاريخ استسلام مكّة؛ لكنّ الدور السياسي الكبير الذي قام به بعد اعتناقه الإسلام يعتبر مقدّمةً للنجاح الباهر الذي أحرزته أسرتُه في ما بعد، إذ أعطت المسلمين أوّل سلالة من الخلفاء هي سلالة بني أمية. إستمرّت المواجهة في ما بعد، لمدّة قرنٍ تقريبًا، بين الأمويّين والهاشميّين. وتقول بعض المصادر غير الموثوق بها إنّ هذه المواجهة كانت قد

بدأت بين الأخوين عبد شمس وهاشم، ابني عبد مناف[٧٧]، وقد أعطى كلٌّ منهما اسمه إلى احدى العشيرتين المتنافستين.

◀ راجع المستندين ١ و٢

عبد العزيز، ١٢٤٦-١٢٩٣هـ/ ١٨٣٠-١٨٧٦م - السلطان الثاني والثلاثون من سلالة بني عثمان. حكم من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٧٦م، في مرحلة عرفت فيها السلطنة العثمانيّة المحتضرة تحوّلات داخليّة واضطرابات.

هو الإبن الثالث للسلطان محمود الثاني. خلف أخاه عبد المجيد الأوّل وتابع تطبيق سياسة الإصلاح المعروفة بـ«التنظيمات». واجهته صعوبات ماليّة وسياسيّة، تفاقمت بفعل تدخل الدول الكبرى، ومنها على سبيل المثال روسيا. عرفت بلاد البلقان في عهده عددًا من الثورات. وكان للسياسة التي اتّبعها في الميدان الإقتصادي نتائج غير مرضيّة، ما أدّى إلى استياء الشعب. وقد تعاظم هذا الإستياء لدرجة أنّه كان سببًا لعزله ثمّ لانتحاره. على الرغم من ذلك، أنجز عددًا من الإصلاحات تتعلّق بإعادة تنظيم الإدارة، طال بعضها نظام الولايات وبعضها الآخر وضع الأجانب وتطوير التعليم الرسمي طبقًا للنموذج الفرنسي، مع إنشاء جامعة ومدرسة ثانوية هي مدرسة غلاطه سراي حيث كان أساتذة فرنسيّون يؤمّنون التعليم.

عبد القادر، أو **عبد القادر بن محيي الدين**، ١٢٢٢-١٣٠٠هـ/ ١٨٠٨-١٨٨٣م، أمير جزائري من أصل ريفي، ذو ثقافة دينيّة تقليديّة، نودي به، بعد أن استولى الفرنسيّون على الجزائر عام ١٨٣٠، سلطانًا على العرب. تجسّدت فيه، حتى سنة ١٨٤٨، روح المقاومة الإسلاميّة ضدّ الاحتلال المسيحي.

خلف أباه الذي كان من رؤساء القادرية، فاعتمد على مكانته هذه كي يقاتل القوات الفرنسيّة في وهران، مستفيدًا بذكاء، في الوقت نفسه، من مماطلات أعدائه وتردّدهم في اتّخاذ القرارات السياسيّة. لم يبن قوّته، التي لم تدم طويلًا، على نتائج العمليّات العسكريّة التي قام بها لإرهاق العدوّ، بل على المكاسب التي حقّقها خلال مفاوضاته المتعاقبة مع الفرنسيّين. وقد اعتُرف خلالها بسلطته على مناطق كانت مساحتها تزداد بصورة مطردة. لكنّه أخيرًا تخلّى عن تنظيم دولته العربيّة الواسعة لمهاجمة منطقة متيجه سنة ١٨٣٩. قرّر آنذاك الجنرال بوجو (Bugeaud)، الذي كان قد عُيّن حاكمًا عامًا سنة ١٨٤٠ والذي كان يرغب في تحويل الاحتلال الفرنسي الجزئي للجزائر إلى احتلال شامل، وضع حدٍّ للجهود التي كان يبذلها عبد القادر، ووقف الدعم الذي كان يتلقاه من المغرب. وقد تمّ ذلك للقائد الفرنسي في معركة إسلي سنة ١٨٤٤. أُجبر الزعيم الجزائري على الاستسلام في سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، وعلى القبول بالشروط التي فرضها الفرنسيّون فطبّقها بأمانة. إستطاع الأمير، الذي كان من الدّاعين إلى الجهاد، الانتقال إلى السلطنة العثمانيّة بعد إقامة جبريّة في فرنسا دامت خمس سنوات، فسكن ابتداء من سنة ١٨٥٣ في بورصة، لكنّه ما لبث أن غادرها، في العام ١٨٥٥، إلى دمشق حيث أنهى حياته في هدوء وعزلة. كتب في دمشق مجموعة مؤلّفات ذات صبغة صوفيّة، وقد تمّ مؤخّرًا نشرُ بعضها. لكنّه لم يتخلّ قطّ عن تحفّظه ولم يَنْغمس في أيّة مؤامرة لها طابع سياسي ولم يقبل بأيّة مهمّات لها الطابع نفسه.

عبد الكريم أو محمّد بن عبد الكريم، ١٢٩٩-١٣٨٢هـ/ ١٨٨٢-١٩٦٣م، زعيم قومي مغربي، أمّنت له الثورة التي أشعلها في منطقة الريف بين سنتي ١٣٣٩ و١٣٤٤هـ/ ١٩٢٠ و١٩٢٦م، الشهرة لبعض الوقت، لكنّه لم يترك وراءه إنجازًا سياسيًّا ثابتًا.

وُلد في قبيلة محبّة للحرب، وتلقّى ثقافةً إسلاميّة تقليديّة، وأصبح موظّفًا في الإدارة الإسبانيّة وقاضيًا في ما بعد. أطلق، في سنة ١٩٢٠م، حركة عصيان في شمال المغرب ضد السيطرة الإسبانية. أحرز انتصارًا في سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، سمح له بتأسيس دولة صغيرة عمل على توسيعها لتشمل منطقة الريف بكاملها، وأرادها أن تكون، داخل الدولة الشريفيّة العلويّة، جمهوريةً مستقلّة يرأسها بنفسه. كان هذا الوضع يهدّد، في الوقت نفسه، إسبانيا وسلطات الحماية الفرنسيّة وسلطان المغرب، لأنّ عبد الكريم لم يكن يعترف بسيادة هذا الأخير على دولته الفتيّة. فكانت، نتيجة لذلك، الحملةُ الفرنسيّة -

الإسبانية المشتركة التي تَلَتْ الهجمات العنيفة التي شنّها الأمير الريفي على فاس، ما اذى إلى هزيمته واستسلامه نهائيًا في ١٤ ذي القعدة ١٣٤٤هـ/ ٢٧ أيار ١٩٢٦م.

نُفي عبد الكريم أوّلًا إلى جزيرة ريونيون (Réunion) وأُذن له، في سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، بالإنتقال إلى فرنسا. ولكنّه هرب خلال السفر والتجأ إلى القاهرة حيث أنشأ «هيئة تحرير المغرب العربي». لم يحصل قطّ إجماعٌ حول شخصه، على الرغم من أنّه ظلّ يؤكّد أنّه يعمل لاستقلال أفريقيا الشمالية بكاملها. إبتعد عنه، في الواقع، باقي الزعماء القوميّين المغاربة ولم يبقَ له سوى شهرته كبطل ناضل بالسلاح ضدّ الإستعمار. توفي في سنة ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م متقدّمًا في السنّ.

عبدالله [إبن الحسين] ١٢٩٩-١٣٧٠هـ/ ١٨٨٢-١٩٥١م، أميرٌ من سلالة أشراف مكّة الهاشميّين، مؤسّس المملكة الاردنيّة الهاشميّة. أصبح ملكًا بعد أن كان أميرًا على شرق الأردن.

شارك بنشاط، هذا الإبن الثاني للحسين، شريف مكّة، في المحادثات التي مهّدت للثورة العربيّة في العام ١٩١٦م، لكنّه بقي بعد ذلك في الظلّ كأمير على مقاطعة واقعة تحت الإنتداب البريطاني، بينما نصّبت الحكومة الإنكليزية أخاه فيصلًا ملكًا على عرش العراق في سنة ١٩٢١م. توّج ملكًا على الأردن في سنة ١٩٤٦، عندما حصل هذا البلد على استقلاله تحت إسم «المملكة الأردنيّة الهاشميّة». إتّبع سياسة ميّالة إلى الغرب. بدأ في نهاية حياته يضطلع بدور دبلوماسي هادفًا إلى تطوير علاقة بلده بالعالم الخارجي. ضمّ إلى مملكته، في سنة ١٩٥٠م، بُعيد حرب فلسطين (١٩٤٨-١٩٤٩م)، الأراضي التي استولى عليها الجيش الأردني غربيّ نهر الأردن، قبل أن يقضي اغتيالًا في القدس. خلفه على العرش حفيده الحسين سنة ١٩٥٢م[٧٨].

◄ راجع المستند رقم ٦.

عبدالله بن الزبير ← إبن الزبير.

عبدالله بن عبد المطّلب ٥٥٤-٥٧٠م، قريشيّ من بطن بني هاشم أو الهاشميّين، أخٌ غير شقيق للعبّاس ولأبي طالب. عاش في مكّة وهو والد رسول الإسلام ﷺ.

كل ما ترويه عنه الأحاديث الشريفة هو أنّه مات شابًّا خلال سفرٍ كان يقوم به، وأنّ ولادة ابنه محمّد جرت قبيل موته أو بعده بقليل.

◄ راجع المستند رقم ١.

عبد المجيد الأوّل، سلطان عثماني، ١٢٣٨-١٢٧٧هـ/ ١٨٢٣-١٨٦١م. مات شابًا بعد أن حكم من سنة ١٢٥٥ إلى سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٣٩-١٨٦١م. إهتمّ بمتابعة إصلاحات أبيه محمود الثاني. حقّق إنجازات مهمّة على الصعيد التشريعي ودشّنها بإصداره مرسوم التنظيمات المعروف أيضًا بخطّ كُلْخانة، نسبة إلى المكان المسمّى (Gulkhaneh) أي «بيت الزهور»، في قصر توب كابي (Topkapi)، حيث أعلن المرسوم المذكور بعد اعتلائه العرش بفترة قصيرة. قام أيضًا بإصلاحات عديدة طالت الإدارة والنقد والجيش والتعليم ورافقها إنشاء مؤسّسات وتشييد أبنية جديدة، منها قصر دولما باغجه (Dolmabagce) على ضفّة البوسفور الذي أُنجز في سنة ١٨٥٣. تشهد هذه المباني على ميل السلطان إلى هندسة معماريّة موسومة بالتأثيرات الأوروبيّة، لكنّ ذلك كلّه لم يُحسّن وضع الدولة المالي الذي كان آخذًا في التدهور يومًا بعد يوم.

تعاقبت، بشكل مطّرد، الصعوبات الخارجيّة والثورات الداخليّة في الحقبة التي تلت معاهدة لندن عام ١٨٤٠. لقد جنّبت هذه المعاهدة، بفضل تدخّل الدول الأوروبيّة، السلطنةَ العثمانيّة نتائجَ الإنتصارات التي أحرزها عليها ابراهيم باشا بن محمّد علي، حاكم مصر، الذي كان يُعتبر عمليًّا مستقلًّا. إندلعت بعد ذلك الحربُ المعروفة بحرب القرم بين عامي ١٨٥٣ و١٨٥٦م، في وقت كانت فيه الفتن تتسبّب بتدخّلات عسكريّة وبأعمال قمعيّة في المناطق الكرديّة، وفي البوسنة وفي المقاطعات الدانوبيّة، كما في لبنان وسوريا. صدر، في هذه الظروف، البرنامج الإصلاحي الثاني المعروف بالخط الهمايوني، وذلك قُبيل التوقيع على معاهدة باريس.

عبد المجيد الثاني، هو ابن السلطان العثماني عبد

العزيز. توفي في المنفى في سنة ١٩٤٤. لم يَحْتَلِ قط عرش السلطنة التي أُلغيت مع محمّد السادس آخر السلاطين؛ لكنّ الجمعيّة الوطنية التركيّة الكبرى انتخبته خليفةً في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢م، بعد أن غادر ابن عمّه، محمّد السادس، إسطنبول. لم يؤدِّ إلّا دورًا دينيًّا هشًّا، انتهى مع إعلان الجمهورية على يد مصطفى كمال أتاتورك في خريف ١٩٢٣، ومع إلغاء الخلافة في ربيع ١٩٢٤.

عبد الملك بن مروان ٢٦-٨٦هـ/ ٦٤٦-٧٠٥م، هو الخليفة الخامس في السلالة الأمويّة. شكّل حكمُه الذي دام عشرين سنة مفصلًا في التطوّر السياسي للأمبراطوريّة، وكرّس انتقال السلطة العليا إلى الفرع الأموي المعروف بالمرواني.

تابع المهمّة التي كان أبوه مروان الأوّل قد بدأها عندما وصل إلى الخلافة، إثر الإضطرابات التي أدّت إلى سقوط الفرع المعروف بالسفياني. إعتلى عبد الملك العرش سنة ٦٥هـ/ ٦٨٥م وكان عمره أربعين سنة تقريبًا، فبدأ بإخماد الفتن وبضبط أمور الدولة. اضطرّت جيوشه إلى القتال، خلال سنوات عدّة، لقمع حركات عصيان قديمة ذات طابع سياسي-ديني: قاتلت في الحجاز أوّلًا حيث كان ابن الزبير قد بويع بالخلافة، ثمّ في العراق حيث كان الخوارج والشيعة قد انتصروا، عقب الثورات العديدة التي قاموا بها. سمحت له انتصاراته باستعادة السيطرة على مكّة، منذ نهاية سنة ٧٢هـ/ ٦٩٢م، وبقهر سكّان الكوفة والبصرة. لم تستتبّ له الأمور إلّا بعد أن أسّس، سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م، في قلب العراق، مدينة جديدة جمع فيها قوّاته وأطلق عليها اسم «واسط»، فاستعملتها، منذ ذلك التاريخ، الجيوش العربيّة الآتية من سوريا، كقاعدة لإحكام قبضتها على مقاطعات الهلال الخصيب كافةً. وما كان لسياسة القمع وإعادة تنظيم الدولة التي اتّبعها أن تنجح لولا دعم الحجّاج وحزمه، وكان الخليفة قد عيّنه حاكمًا على الحجاز ثمّ على العراق. لم ينكث الحجّاج يومًا عهد إخلاصه. أفاد عبد الملك ايضًا من خدمات أخيه عبد العزيز، فأوكل إليه حكم مصر وعيّنه وريثًا شرعيًّا له. لكنّ عبد العزيز توفّي قبل أن يُطرح موضوع الوراثة، وإلّا لكان نافسه عليها إبنُ الخليفة نفسه، الوليد.

إنّ الجهود التي بذلها عبد الملك، بوجه عام، كي يعيد إلى الأمبراطوريّة وحدتها لم تمنعه عن متابعة الحرب ضد البيزنطيّين. وكانت هذه قد استؤنفت في الأناضول منذ سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م وأسفرت، في إفريقية، سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م، عن تقدّم جديد للمسلمين. وعلى الرغم من هذه الحروب، إهتمّ الخليفة باستمرار بتأمين الإزدهار الإقتصادي لمختلف الولايات ومركزيّة الإدارة فيها. وقد رافق تطوّرَ طرق المواصلات وتطوّرَ البريد تعريبُ الدواوين، فشكّل ذلك عمليةَ إصلاحٍ ضخمة، إذ حلّت العربيّة محلّ اليونانيّة في محرّرات الإدارة وفي نقوش المسكوكات، فأضحت الكتابة العربيّة كتابة الدولة الرسميّة وأصبحت حروفُها منتظمة وجديرة بمنافسة الحروف اليونانية. وبيان ذلك في الكتابات المنقوشة على نُصُب الأميال أو على الدراهم التي تحمل اسم عبد الملك، كما في أقدم نصٍّ عربيّ موجود داخل بناء ومحفوظ حتّى اليوم، وهو الكتابة التي يحملها الإفريز الفسيفسائي الذي يزيّن من الداخل قبّة الصخرة. إنّ الغنى الإستثنائي الذي يميّز هذا البناء وكذلك كماله الهندسي يعطيان فكرةً واضحة عن القوّة التي بلغتها الدولة الإسلاميّة آنذاك، وعن رغبة عبد الملك في التركيز على الإرث الديني الذي تمثّله القدس. وقد أراد الخليفة أن يُظهر أنّ هذا الإرث قد اندمج في الإسلام واتّحد به. كما أراد أن يزيد، عن طريق هذا البناء، شهرة الإقليم السوري-الفلسطيني الذي كان يقيم فيه والذي كان يُعتبر آنذاك القاعدة الصلبة لسلطة بني أميّة.

◄ راجع المستندات رقم ٢ و٨ و٣٧ و٣٨ و٩٠.

عبد المؤمن بن علي ٤٨٧-٥٥٨هـ/ ١٠٩٤-١١٦٣م، أوّل ملوك سلالة الموحّدين أو السلالة المؤمنيّة، حكم ابتداءً من سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م. خلف المهدي ابن تومرت في ترؤس الحركة الدينيّة-السياسيّة التي أسّسها هذا الأخير.

إلتقى هذا الشاب، الذي ينتمي إلى زناتة، إحدى قبائل البربر، حوالى سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م، في جوار بجّاية حيث كان يطلب العلم، إبن تومرت، المهدي في ما بعد، وتتلمذ له. أدّى إلى جانبه، منذ ذلك التاريخ،

دورًا نشطًا سمح له بأن يكون عضوًا في مجلس العشرة في دولة تِنْمَل الجبليّة، وأن يشارك في الحملات العسكريّة التي جُرّدت ضدّ المرابطين، وهم آنذاك حكام المغرب والأندلس الأقوياء.

لم تبدأ حياته السياسيّة الحقيقيّة إلّا في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م، اي بعد ثلاث سنوات من موت ابن تومرت، عندما بايعه أتباعه الجدد. قام على أثر ذلك بعدد من العمليّات العسكريّة داخل المغرب، فطوّق مراكز المرابطين الأساسيّة في الأطلس الأوسط وفي منطقة وهران، واستولى، في سنة ٥٣٩-٥٤٠هـ/١١٤٥-١١٤٦م، على فاس، وفي السنة التالية على مراكش فتلمسان. لُقّب عبد المؤمن عندذاك بأمير المؤمنين، فرفض الاعتراف بأيّة سلطة لممثلي العبّاسيّين في المغرب، ونظّم إدارة جديدة تقيّدت بالمبادئ التي أطلقتها أوّل حكومة للموحّدين مستفيدةً، في الوقت نفسه، من التقاليد الأندلسيّة العريقة في هذا الميدان. إنطلق عبد المؤمن بعد ذلك في سلسلة من الفتوحات، فبلغ مقاطعة إفريقية حيث أوقف حملاته في سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وكانت هذه قد أوصلته إلى المهديّة وقابس وطرابلس المغرب. في المقابل، لم تغب الأندلس أبدًا عن باله، وكانت جيوشه قد بدأت تغزوها منذ سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م، فاستولت على أراضي المرابطين السابقة وحاولت، بعد ذلك، تخفيف الضغط الذي مارسه الإسبان خلال حروب الإسترداد، فأحرزت بعض النصر كاحتلالها المريّة مثلًا سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م. وفي سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، قمع عبد المؤمن تمرّدًا محليًّا قام به ابن مردنيش.

توفي عبد المؤمن سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، فتوقّفت الجهود الجبّارة التي كان ينوي تكريسها للجهاد ولنصرة الإسلام في شبه جزيرة إيبريا. وكان قد جمع في سبيل ذلك جيشًا ضخمًا بالقرب من سلا، في المكان الذي أنشأ فيه الرباط، المدينة- المعسكر، تحت اسم «رباط الفتح».

◄ راجع المستند رقم ١٩.

عبد الناصر (جمال) ← **ناصر.**

عبد الواد (بنو -) أو **بنو زيّان، ٦٣٤-٩٩٩هـ/١٢٣٦-١٥٥٠م،** سلالة من أصل بربري حكمت، في ظروف غير مستقرّة، المغرب الأوسط حيث أقامت سلطة منظّمة حول العاصمة تلمسان التي غالبًا ما تعرّضت لهجمات مسلّحة.

كان الموحّدون قد بسطوا سلطتهم على أفريقيا الشماليّة بكاملها، فدعموا يغمورسن، وهو زعيم مجموعة كبيرة من البدو الزناتة، ما سمح لهذا الأخير بالإنطلاق في تأسيس مملكته التي حكمها بنفسه لمدّة طويلة قاربت الخمسين سنة. كان آنذاك بنو حفْص يثبّتون استقلالهم في تونس. إنّ الحصار غير الموفّق الذي فرضه المرينيّون على تلمسان والذي بنوا خلاله مدينتهم-المعسكر المنصورة، بين سنتي ٦٩٨ و٧٠٦هـ/١٢٩٨ و١٣٠٦م، ثمّ احتلالهم لتلمسان خلال فترتين زمنيّتين (من ٧٣٧ إلى ٧٤٩هـ/١٣٣٧-١٣٤٨م، ومن ٧٥٣ إلى ٧٦٠هـ/ ١٣٥٢-١٣٥٩م)، دفعا بملوك بني عبد الواد إلى التصدّي لهجمات جيرانهم الأقوياء بعناد. ولكنّ هؤلاء الملوك لم يمتلكوا قطّ موارد ذات شأن، لذا خضعوا بعد ذلك، منذ الربع الأوّل من القرن الخامس عشر، للحفْصيّين، ثمّ، في القرن السابع عشر، لإسبان وهران، فلبابات الجزائر وأخيرًا لسعديّي المغرب.

عبده (الشيخ محمّد)، ١٢٦٦-١٣٢٣هـ/١٨٤٩-١٩٠٥م، كاتب ومفكّر مصري معاصر. يعتبر من الممثّلين الرئيسيّين للإصلاح. كان لأفكاره تأثيرٌ عظيم على مختلف مظاهر هذه الحركة في القرن العشرين.

أصله من عائلة قرويّة من مصر السفلى. تلقّى في قريته، على أيدي عدد من العلماء، تعليمًا إسلاميًّا متقنًا، قبل أن يتابع دراسته في الأزهر حيث وصل في سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م. لكنّ التعليم الديني التقليدي الذي تلقاه لم يمنعه من التأثّر بالصوفيّة، وقد مرّ بأزمة نفسيّة مال خلالها إلى الزهد. إنّ الكتب التي ألّفها بين ١٢٨٩ و١٢٩٤هـ/١٨٧٢ و١٨٧٧م تعكُس توجّهاته الأولى: ففي «رسالة الواردات» حيث حصر الوجود الحقيقي بالله، تبنّى موقفًا قريبًا جدًّا من «وحدة الوجود» التي نجدها عند ابن العربي. كتب بحثًا في العقيدة

الدينيّة في سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، اعتمد فيه طريقةً شائعة في عصره وهيَ طريقة الحواشي والشروحات، وقد استعملها في شرح كتاب، في الموضوع نفسه، للإيجي، وهوَ عالم أشعري عاش بين القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. دعا، في شروحه هذه، إلى التسامح بين الفرق والمذاهب الإسلاميّة وشدّد على دور العقل كمرشدٍ إلى الإيمان الحقيقي. ظهرت في هذا الكتاب أفكارٌ فلسفيّة خجولة هي، دون شك، من تأثير جمال الدين الأفغاني الذي التقاه عبده في القاهرة في سنة ١٨٧٢م واستمع إلى محاضراته.

أغرت، في الفترة نفسها، محمّد عبده، الصحافة، فاقتحم ميدان السياسة. أراد أن يثقّف مواطنيه لكي يجابهوا الإضطرابات الإجتماعيّة التي تميّزت بها نهاية حكم الخديوي إسماعيل، فكتب في جريدة «الأهرام»، إبتداءً من أيلول/سبتمبر ١٨٧٦م، معالجًا موضوعات مختلفة وجديدة. عرفت مصر، في الأزمنة الغابرة، بحسب رأيه، حضارةً مجيدة، ولم يكن هناك من سبب يحول دون احتلالها مركزًا حضاريًّا مزدهرًا. يتوجّب، لبلوغ تلك الغاية، تطوير الثقافة والصحافة، للتأثير في الرأي العام؛ ومحاربة السيطرة الأجنبيّة وإزاحة الحكّام الذين يقبلون بهذه السيطرة، وتخطّي الاختلاف في الرأي بين المذاهب خدمةً للوحدة، وعدم التصدّي للعلوم الحديثة التي لا تضرّ بالدين والتي، بخلاف ذلك، يمكن توظيفها للدفاع عنه. يتوجّب أخيرًا تحديث اللغة العربيّة.

إقتحم محمّد عبده، من سنة ١٢٩٤ هـ/١٨٧٧م إلى سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، ميدان التعليم ودرّس في الجامعة التي أُسّست في العام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣ تحت إسم «دار العلوم»، لتزويد قضاة مصر بثقافة أكثر حداثة. غير أنّ الخديوي الجديد، توفيق، عزله من وظيفته في أيلول/سبتمبر ١٢٩٧م/١٨٧٩هـ، وعيّنه، بعد مدّة قصيرة، محرّرًا في الجريدة الحكوميّة «الوقائع المصريّة». كتب، بهذه الصفة، مقالات ركّز فيها على أهميّة التعليم وهاجم الفساد، حاثًّا، في الوقت نفسه، على الزواج الأحادي ومؤكّدًا أنّ النظام البرلماني يتوافق مع الإسلام.

لكنّه اضطُرّ، في أيّار ١٢٩٩م/١٨٨٤هـ، إثر ثورة عرابي باشا، إلى التخلّي عن انشطته، التي لم تكن لترضي السلطات الإنكليزيّة، وإلى مغادرة مصر. أمضى سنة في بيروت، ثمّ لحق بصديقه الأفغاني في باريس حيث ساهم في تحرير جريدة «العروة الوثقى»، فتعاون مع مؤسّسها على كتابة إفتتاحيات هذه النشرة التي كانت موجّهة إلى قرّاء شرقيّين والتي لم تعمّر طويلًا. عاد في سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م إلى بيروت حيث نقل إلى العربيّة كتاب الأفغاني «الردّ على الدهريّين» وألقى محاضرات في علم الكلام، شكّلت لاحقًا أساسًا لأحد مؤلّفاته المشهورة. سُمح له أخيرًا، في سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م، بالعودة إلى مصر، فشغل فيها وظائف رسميّة عدّة، ما أتاح له الفرصة ليوضح موقفه الإصلاحي.

عُيّن قاضيًا في محكمة البداية القوميّة وأصبح، بعد ذلك بقليل، عضوًا في محكمة الاستئناف. تميّز باستقلاليّته في تفسير الشريعة وبصراعه ضدّ الفساد وضدّ ممارسة شهادة الزور التي كانت شائعة في ذلك العصر. اقترح على الخديوي عبّاس الثاني، في سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م، إصلاح نظام التعليم المعتمد في الأزهر، ونجح في تغيير مناهجه مدخلًا عليها بعض المواد الحديثة، قبل أن يصطدم بمقاومة أجبرته، في سنة ١٩٠٥، على الإستقالة من الهيئة التي كانت قد أُنشئت في سنة ١٨٩٥ حيث كان يمثّل الحكومة. عُيّن في غضون ذلك مفتيًا للديار المصريّة (١٨٩٩) فسنحت له الفرصة لإصدار عدد من الفتاوى ما زالت مشهورة حتّى اليوم، سمحت إحداها لمسلمي جنوب أفريقيا بأكل لحم الحيوانات التي يذبحها اليهود والمسيحيّون والتي لم تذبح بحسب الشريعة الإسلاميّة، وذلك بسبب الظروف القاهرة. سمحت فتوى أخرى للمسلمين، على ما يبدو (لأنّ أحدًا لم يعثر على نصّها)، بإيداع أموالهم في صناديق التوفير، وهذا يعني أنّ هذه الفتوى شرّعت شكلًا معيّنًا من أشكال الاقتراض بالفائدة أو الربا.

أصبح محمّد عبده، منذ سنة ١٨٩٩، أيضًا، عضوًا في المجلس التشريعي. لم يكن لهذه الهيئة آنذاك سوى صفة إستشاريّة لدى الحكومة، لكن كان يسمح لأعضاء المجلس بالتعبير عن أفكارهم. إضافةً إلى ذلك كان

عبده ينتمي، منذ سنة ١٨٩٢، إلى جمعيّة البرّ الإسلاميّة وأصبح رئيسًا لها في سنة ١٩٠٠، وكان هدف هذه الجمعيّة مساعدة المعوزين. أسّس أيضًا في سنة ١٩٠٠ جمعيّة لتجديد العلوم العربيّة، ودافع عن أهدافها في العديد من كتبه. سنحت له الفرصة، في الفترة نفسها، للدفاع عن الإسلام ضدّ اتهامات غبريال هانوتو (Hanotaux)، وزير الخارجيّة الفرنسيّة آنذاك، في مقال نشر في باريس ونقل إلى العربيّة. وقبل أن تدركه المنون في الإسكندرية في تموز ١٩٠٥، تعاون مع مجلّة «المنار» التي كان رشيد رضا قد أسّسها في سنة ١٨٩٨.

تشكّل «رسالة التوحيد» التي نُشرت في العام ١٨٩٧ الكتاب الأساسي في علم الكلام. وعلى الرغم من أنّ محمّد عبده كان قبل كل شيء صحافيًا، فهو مدين بشهرته الواسعة إلى كتاباته في العقيدة، وتلك الرسالة هي أهمّها على الإطلاق. يعرض فيها الكاتب العقيدة الإسلاميّة بصورة مبسّطة، ساعيًا إلى التوفيق بينها وبين الذهنيّة الحديثة. والرسالة، في الواقع، كتاب في الدفاع عن الدين. وهذا النوع من المؤلّفات غير معروف في الكتابات التقليديّة في علم الكلام: يظهر عبده من جهة وكأنّه سلفيّ، لأنّه يطالب بالعودة بالإسلام إلى منابعه الأولى، وبالتأمّل في النصوص مباشرةً، لكن من دون اللجوء إلى التقليد الأعمى الذي كان يرفضه؛ ويظهر، من جهة ثانية، وكأنّه عقلانيّ، لأنّه يدعو إلى التوفيق بين الدين والعقل. إنّ الإسلام في نظره هو دين عقلاني للغاية فلا يمكن تاليًا أن يناقض العقل. كان محمّد عبده يوصي، في حال وجود تناقض ظاهري بين العقل والتقاليد، بالتعمّق في النصّ لأنّه يتوجّب أن يتوافق معناه الحقيقي مع العقل. وقد عبّر عبده عن ذلك في **رسالة التوحيد**، وفي مقاله «الإسلام والنصرانيّة في علاقتهما مع العلم والحضارة» الذي نشر في مجلّة المنار في العام ١٩٠١. تميّزت رسالة التوحيد بعرض سريع للموضوع الكلاسيكي المتعلّق بصفات الله وبتركيزها على ضرورة النبوّة. تقوم هذه الضرورة، في نظر محمّد عبده، على اعتبارات نفسيّة واجتماعيّة. إنّ النبوّة في نظره هي برهان على وجود الحياة الآخرة وهيَ تطلعنا على بعض صفات الألوهيّة التي لا يستطيع العقل أن يكتشفها بقوّته الذاتية. إنّها، إضافةً إلى ذلك، تقوم مقام ضعف الطبيعة البشريّة في تأمين النظام الإجتماعي. أخيرًا إنّ إصرار محمّد عبده على تأكيد حريّة الإختيار عند الإنسان يشكّل إدانة لعقيدة التحديد المسبق لإرادة هذا الانسان التي هي في أصل الذهنيّة المستسلمة للقدر، وهي عقيدة طالما أضرّت، في الماضي، بمصالح الشعوب الإسلاميّة.

من المؤكد أنّ «رسالة التوحيد» لم تشكّل تجديدًا بارزًا في صياغة علم الكلام، لأنّ مؤلّفها ظلّ، على العموم، وفيًّا للخط الأشعريّ. إنّ دور محمّد عبده القاضي والمفتي لم يؤدّ إلى تجديد حقيقي في الميدان القانوني. لكنّ مؤلّفاته ومداخلاته تنمّ عن رغبته الواضحة في إعمال العقل، ومن شأن ذلك، بحسب رأيه، أن يؤدّي إلى تجديد في ميدان الأخلاق والدين، بانتهاج طريق وسطيّ بين اتّجاهَي المحافظين والمُحدِثين المتعارِضَيْن. على الرغم من أنّ معالم نظريّته الإصلاحيّة لم تكن محدّدة بدقّة، فقد كان لها أثر عميق في عدد كبير من البلدان الإسلامية، في إندونيسيا كما في الجزائر حيث استوحتها حركة العلماء. إنّها وراء الحزب الذي نشأ في مصر، في مطلع القرن العشرين، باسم «حزب المنار» الذي ساهم بصورة فعّالة في محاولات التغيير التي عرفها هذا البلد.

عُبَيْد الله بن زياد، ؟ - ٦٦هـ/ ؟ - ٦٨٦م، هو ظهير وفيّ لسلالة الأمويّين في الشرق، استقطب حقد الشيعة لمسؤوليّته عن موت الحسين في كربلاء.

إنّه إبن والي العراق زياد بن أبيه الذي رفعه الخليفة معاوية بن ابي سفيان إلى رتبة أخ له بالتبنّي؛ وعُهدت الى عبيد الله، وكان ما زال يافعًا، مسؤوليّة خراسان، فانطلق منها محاربًا في آسيا الوسطى إلى أن بلغ سمرقند، قبل أن يُعيّن، نحو سنة ٥٦هـ/ ٦٧٥م، واليًا للبصرة. هناك، حارب الخوارج، ثمّ وسّع الخليفة يزيد الأوّل دائرة سلطته لتشمل مدينة الكوفة. ومنها شنّ معركة ضدّ الحسين الذي قُتل خلالها مع كثيرين من أعضاء أسرته في كربلاء، سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م.

يُفيد ذلك، خلال مرحلة الفوضى التي عقبتْ موت يزيد الأوّل وآخر ممثّل لفرع السفيانيّين، ساند عبيد الله

دعوى الخليفة المقبل مروان الأوّل وشارك في معركة مرج راهط في العام ٦٥هـ/ ٦٨٤م. وما لبث الخليفة الجديد، عبدالملك بن مروان، أن عيّنه مجدّدًا حاكمًا على الكوفة فترتّب عليه قمع تمرّدٍ نهض به المختار [الثقفي] ونجح في ذلك؛ لكنّه سقط بعدئذٍ تحت ضربات متمرّد شيعي آخر هو إبن الأشتر، في سنة ٦٦هـ/ ٦٨٦م.

العتبات المقدَّسة. اسم أعطاه الشيعة لمزارات في العراق تضمّ أضرحة ستّة من الأئمّة العلويّين الذين تكرّمهم الشيعة الإثنا عشريّة. وأسماء المزارات هي النجف حيث دُفن الإمام علي، وكربلاء حيث قُتل الحسين، والكاظميّة وهي حيّ في بغداد دُفن فيه الإمامان السابع والتاسع موسى الكاظم وحفيده، ثمّ سامرّاء حيث دُفن الإمامان العاشر والحادي عشر، قبل أن يختفي فيها لاحقًا الامام الثاني عشر الذي سيبقى في حالة احتجاب إلى أن يعود كمهديّ.

ألعَتْق، إجراء قانوني في الإسلام لتحرير عبد. وهذا العبد، وإن كان عضوًا في الجماعة الإسلاميّة في حال كونه مسلمًا، يبقى مع ذلك مرتبطًا بمالكه القديم على أنّه مولى له، والجمع موالي.

لم يكن العتق ممكنًا وحسْب، بل كان مندوبًا إليه في القرآن الذي دمغت تعاليمه بعمق، في هذا الموضوع، المجتمع الإسلاميّ في القرون الوسطى. عُمل بالعتق أحيانًا إثر قسَمٍ لم ينفّذ، كما أنّه كان يتيح الفرصة للتكفير عن أنواعٍ أخرى من الأخطاء، فكان الوسيلة الوحيدة لعدم البرّ بقسمٍ أخذه على نفسه رجل بأن يمتنع عن أيّة علاقة جنسيّة بزوجته. وكان تنفيذ القرار، في جميع هذه الحالات، يخضع لتدابير محدّدة في حضور القاضي الذي كان يوقّع الوثيقة المعزّزة بشهادة شاهدين. وكانت الأفضليّة في العتق تطال العبيد الذين اعتنقوا الإسلام.

كانت ثمّة، أيضًا، تدابير أخرى عُمل بها. كأن يعلن مثلًا سيّد عن تحرير عبدٍ له بعد موته، بحسب تعهُّد يسمّى تدبيرًا، والعبد المسمّى مدبّرًا كان يصبح حرًّا، في الواقع، بموت المعلن. كانت هذه القاعدة تُتّبع بالنسبة إلى السُّرّية التي لها ولدٌ والتي يقال لها بالعربيّة أُمّ الولد والتي كان من حقها أن تُحرَّر بموت سيّدها، فيُحظَر بذلك بيعها حتّى ذلك الحين. أخيرًا، كان يمكن أن يشتري العبد حريّته بدفع مبلغٍ مُقسَّطًا، وهذا بموجب عقد يسمّى المكاتبة.

ومع أنّنا لا نملك أيّ إحصاء يتعلّق بأعمال تحرير العبيد في العالم الإسلامي، في أيّ عصر كان، فإنّه لا يبدو أنّ هذه الحالات من التحرير كانت مرتفعة العدد، لكنّها ساهمت، كما ساهم اعتناق الإسلام، في زيادة عدد الموالي الذين كثر الحديث عنهم في القرن الإسلامي الأوّل. في الواقع، يبدو أنّ هذه الحالات من الإعتاق مورست بشكل خاص في داخل التنظيم العسكري لفرق المماليك؛ وكان، ثمّة، أيام حكم سلالة العبّاسيّين في القرن التاسع، ديوان الجيش الذي كان يُعنى خاصة «بالعبيد المعتقين».

أدّى العتق دورًا مهمًّا داخل أوساط الحكّام المسلمين، ولا سيّما في محيط الخلفاء، حيث كان أصحاب المناصب المقرّبين أو الحميمين، في أكثر الأحيان، عبيدًا معتقين يحملون باعتزاز لقب مولى ذلك المليك أو السيّد. وقد امتدّت العادة إلى أهل السلالات التي كانت تدور في فلك العبّاسيّين، وتنامت بكثرة في عهد السلطنات، في مختلف الدول التي أسّسها رجال حرب ظافرون، كانوا بدورهم عبيدًا سابقين حُرصاء على ألّا يمنحوا ثقتهم إلّا لمعتقيهم: كان هؤلاء يعرفون بزيادة تسمية على اسمهم مشتقّة من أحد العناصر الشرفيّة المكوّنة للقب سيدهم، وقد تشابه هذا النظام حيثما كان معمولًا به بصورة واضحة داخل التراتبيّة الحكوميّة لدى المماليك الذين حكموا مصر وسوريا في القرنين السابع والثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد.

عُثمان، هو اسم حمله ثلاثة سلاطين من السلالة العثمانيّة، وخصوصًا مؤسّس السلالة عثمان الأوّل الذي ترجع إليه تسمية آل عثمان التي أُطلقت على عائلته وأخلافه.

لا نعرف تقريبًا شيئًا مؤكّدًا عن عثمان الأوّل الشهير هذا، المعروف بـ«الغازي» الذي قد يكون توفي سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م، بعد حكم دام تسع عشرة سنة. ففترة

حكمه كانت عند مؤرّخي الوقائع الأتراك موضوع روايات أسطوريّة أُضيفت الى رواية الوقائع الفعليّة. ولا نعرف التاريخ الدقيق لاعتلائه العرش الذي يوافق وفاة والده أرطغرل بين ٦٦٢ و٦٨١هـ/ ١٢٦٤ و١٢٨٢م. فربّما غدا، في هذه الفترة، زعيمًا لعشيرة تركيّة نصف بدويّة أقامت مخيمها الشتوي في منطقة سوغوت الواقعة في ناحية دوريلي القديمة، وهي منطقة أقطعه إيّاها السلطان السلجوقي الحاكم في تلك الفترة.

انطلق عثمان عندئذٍ في فتوحاته إلى المواقع البيزنطيّة المحصّنة، وهي فتوحات دوّنها، بوجه خاص، المؤرّخون اليونانيّون. أوّل هذه الفتوحات كان حوالى سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م. أمّا مجموعة الفتوحات الثانية فقد سهّلها انتصار الأتراك على البيزنطيّين في بافويس (Bapheus) قرب نيقوميديا سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م. هكذا قامت الإمارة الجديدة على أرض مماثلة لتلك التي كان يسيطر عليها الأمراء المجاورون، بخاصة بني كِرْميان وبني مَنْتشا وبني آيدين. وقد اتّسعت هذه الإمارة في بداية القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد باحتلال قرى مختلفة، في الوقت الذي هدّدت قوّة عثمان مدن بورصه ونيقية ونيقوميديا، التي ستصبح في ما بعد بروسّا وإِزْنيق وإزنيت. وهكذا نجح عثمان - بمساعدة المقرّبين منه وجماعة من الموالين له، وكذلك بدعم رؤساء المنظّمات الشبابيّة وميليشيات الغزو - في تأسيس إمارة مستقلّة عرفت، في فترة لاحقة، نموًّا مذهلًا.

عثمان بنُ عفّان، ٤٦ق. هـ-٣٥هـ/ ٥٧٦-٦٥٦م، ثالث الخلفاء الراشدين، حكم من العام ٢٣ الى ٣٥هـ/ ٦٤٤-٦٥٦م. وأدّى اغتياله، بعد سنوات، الى استيلاء معاوية، مؤسّس سلالة الأمويّين، على السلطة. ينتمي عثمان إلى الأرستقراطيّة المكيّة، إلى أسرة بني أميّة. وهو من ذوي المقامات العليا القلائل الذين انخرطوا باكرًا في دعوة النبيّ محمّد ﷺ. يُذكر أنّه شارك في الهجرة إلى الحبشة، ثمّ في الهجرة إلى يثرب، وبذلك يُعتبر من أقدم صحابة نبيّ الإسلام. تزوّج إحدى بناته، وبعد وفاتها تزوّج ابنة له أخرى، ما أكسبه لقب «ذو النورين».

ولئن بقي في الظلّ طوال حياة النبي محمّد ﷺ وحُكْم خلفَيه الأوّلين، فهذا لم يَحُلْ دون اختيار الخليفة عمر بن الخطاب له واحدًا من الأعضاء الستة في المجلس الذي عُهد اليه تسوية مسألة الفراغ في السلطة بعد وفاته. جرت عندئذ مواجهة، خلال التداول الذي تبع هذه الوفاة، بينه وبين علي، وكانت الغلبة له. يقال إنّه كان الأجدر بمتابعة المهمّة الموكولة لسلفيه، ومن المرجّح أنّ كفاياته لإدارة الشؤون قد أُخذت في الاعتبار. يُقسم حكم عثمان تقليديًّا إلى مرحلتين كل منهما من ست سنوات. خلال المرحلة الأولى، تابع الخليفة الفتوحات الكبرى ونظّم الأمبراطوريّة بحسب المبادئ التي وضعها عمر بن الخطاب؛ وفي المرحلة الثانية تعرّض لانتقادات تفاقمت عنفًا وأدّت إلى اغتياله في المدينة.

تواصل توسّع الإسلام في الواقع بقوّة في ظلّ حكمه الذي شهد إكمال احتلال أراضي الأمبراطوريّة الساسانيّة القديمة، فيما استولت الجيوش العربيّة - الإسلاميّة، في الوقت نفسه، على أرمينيا، وشنّت هجمات على المغرب وكذلك في النوبة، واستدعت هذه الحملات اللجوء الى مجنّدين جدد، في حين استمرّ عثمان في السياسة السابقة القائلة إنّ الأراضي المحتلّة، بدلًا من أن توزَّع بين المحاربين، تُترك لشاغليها الذين يدفعون ضريبة لتغذية الخزينة التي تديرها الدواوين. بيد أن تباطؤ حركة الفتح، وتاليًا انخفاض حصص الغنيمة من المتاع، والاستعانة بمحاربين لا ينتمي بعضهم إلى المسلمين القدامى، أدّت كلّها إلى استياء متزايد لدى العرب من سكّان مدن العراق ومصر على الخصوص.

أضف الى ذلك تبعات قرارات عثمان الشخصيّة، إذ إنّه سعى جاهدًا للاحتفاظ بسلطته على الأقاليم المضمومة؛ ما ألجأه إلى الاستظهار بأعضاء أسرته الذين أوكل اليهم حكم مقاطعات بارزة. لكنّ هؤلاء الأشخاص لم يكونوا من المسلمين الأوّلين، كما أنّ بعضهم لم يسلك سواء السبيل، ما أثار غيرة الصحابة الأوّلين. من جهة أخرى فرض الخليفة، على ما يبدو، تعزيزًا لسلطة الدولة، نصًّا رسميًّا للقرآن الكريم، وأحلّ النصّ الموحّد محلّ النسخ غير المطابقة التي كانت لا تزال متداولة؛ وهذا ما أدّى إلى استعداء مكشوف له من قبل من سُمّوا «قُرّاء القرآن» الذين اعتبروا أنفسهم

المؤتمنين الوحيدين على النص المُنْزَل.

وهكذا، أثارت مختلف الإجراءات التي اتّخذها عثمان، سواء ما وافق منها سياسة سلفه أو تلك التي انبثقت من أفكاره الخاصة، غيظ فئات إجتماعيّة عدّة لا غنًى عنها في سبيل تماسك الأمبراطوريّة الحديثة النشأة. وكان المحاربون العرب المقيمون في مصر، على الخصوص، هم الذين عبّروا عن غيظهم. فانطلق وفدٌ منهم إلى المدينة حيث استقبلهم الخليفة، وبحسب التقليد، أخمد غضبهم فعادوا. ولكن تناهى اليهم، في طريق العودة، أنّ الخليفة أمر بأن يعاقَبوا. فعادوا أدراجهم وحاصروا منزل عثمان الذي قضى على أيديهم في ذي الحجّة ٣٥هـ/ ٦٥٦م.

أدّى اغتيال عثمان بن عفّان، ليس فقط إلى فترة من الفوضى استمرّت حتى المناداة، عام ٤٠ هـ/٦٦٠م، بمعاوية خليفة، بل أيضًا إلى انقسام بين المسلمين دام عشرات السنين، بين مؤيّدين لاغتيال عثمان وشاجبين له. وسُمّيت المرحلة التي عقبت ذاك الحدث «الفتنة الكبرى»، وقد شكّلت بهذا العنوان موضوع كتاب حديث للكاتب المصري طه حسين.

◄ راجع المسند رقم ٢.

عثمان بن فُودي ١٧٥٤ - ١٨١٧، عالم وداعٍ مسلم من أفريقيا الغربيّة، تحوّل في ما بعد قائدًا حربيًّا. كانت أنشطته في أساس نشأة أمبراطوريّة الفُلْبة في سوكوتو، في المقاطعات الشماليّة لنيجيريا الحاليّة.

تابع عثمان المولود سنة ١٧٥٤ من أُسرة فُلبيّة مسلمة في منطقة فُوتاتُورو، دروسًا تقليديّة على شيوخ عدّة، وجرى تأهيله بحسب الطريقة القادريّة. وحوالى سنة ١٧٩٠ بدأ بمقاتلة المسؤولين في دول الهاوسا بمساعدة أخيه، وحرّض الشعب على التسلّح لإقامة نظام إسلامي أكثر صرامة يوافق مبدأً كان يعتبره أساسيًّا: لا حلّ وسطًا مع الوثنيّين. وحوالى سنة ١٨٠٤، دفع بأتباعه إلى تجديد هجرة النبي محمّد (ﷺ) فغادروا إلى أراضي سوكوتو حيث تابع أعماله الحربيّة ضد ملك الهاوسا في الغوبير، وتمكّن سنة ١٨٠٨ من الاستيلاء على عاصمته. ومع متابعة الفتوحات في اتّجاهات أخرى، حدّد عثمان لنفسه هدفًا وهو تأسيس «جماعة» تكون تحت سلطة «أمير المؤمنين»، يساعده وزير وقاضٍ، تحلّ محلّ الممالك القائمة. وهكذا وجد نفسه على رأس أمبراطوريّة حقيقيّة ناشئة من الجهاد. لكنّه تخلّى عن الشؤون السياسيّة لأخيه عبدالله وابنه محمد بلّو اللذين تقاسما السلطة على المناطق الخاضعة له. عند وفاة والده سنة ١٨١٧، أصبح محمّد بلّو السيّد الوحيد فحكم حتى سنة ١٨٣٧، واحتفظ بسوكوتو عاصمةً له. واستمرّ خلفاؤه، بحسب توافر الظروف، على رأس دولة سلكت طريق الإضمحلال، وسقطت سنة ١٩٠٤ باحتلال الإنكليز لسوكوتو.

قام مذهب عثمان هذا الذي ينطوي على نقاط تشابه مع الوهّابيّة في الشرق، مع مزيد من ارتباطه بالمذهب المالكي الصارم، على الإصرار على التطبيق الكامل للشريعة، وبخاصة في ما يتعلّق بالعقوبات الشرعيّة والوراثة والشؤون الماليّة. وكان عثمان ينعت بالكفر المسلمين الذين يقيمون تحالفات مع غير المؤمنين أو الذين يرتكبون أخطاء فظيعة. وكان يحترم مبدأ «الإجماع». ولهذا السبب لم يحرّم، كما فعل الوهّابيّون، تكريم الأولياء.

العثمانيّون (عثمان أُغُزّي)، ٧٠٢-١٣٤٣هـ/ ١٣٠٢-١٩٢٤م أو **آل عثمان**، سلالة تركيّة من الغُزّ، تستمدّ اسمها من مؤسّسها عثمان الذي ظهر في إمارة في الأناضول في بداية القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، امتدّت أمبراطوريّتها في ما بعد حتّى القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، من البلقان حتّى المشرق العربي والمغرب، لتبدأ بعد ذلك بالتفكّك تدريجيًّا بدءًا من القرن الثامن عشر، مفسحة في المجال، غداة الحرب العالميّة الأولى، لقيام الجمهوريّة التركيّة.

١ - يبدو أنّ بدايات الدولة العثمانيّة تعود إلى سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م، حيث كانت في البدء مجرّد إمارة على رأسها زعيم تركي يدعى عثمان، وكان قد خلف والده أرطغرل. هاتان الشخصيّتان اللتان كانتا على علاقة بالسلطان السلجوقي في قونية، حصلتا منه على إقطاع قصبة تدعى «السوغوت»، ونجحتا في دحر المغول من هرقلية. وبعد النصر الذي أحرزه لاحقًا على البيزنطيّين سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م وتوسيع الأراضي الذي نتج عنه،

وجد عثمان نفسه في وضع يمكّنه من منافسة الإمارات التركمانيّة المجاورة. وعند وفاته سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، انتقلت السلطة الى ابنه أورخان الذي تمكّن من الاستيلاء على بورصه سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م. ويعود إلى أورخان أيضًا الفضل في توفير موطئ قدم لإمارته في أوروبا عبر الدردنيل وتراقيه، وهي مهمّة أوكلها الى أحد أولاده الذي قام بحملات عسكريّة في الأناضول ساهمت، بدءًا من سنة ١٣٦٠، في توطيد النفوذ العثماني في المنطقة.

تميّزت السنوات اللاّحقة بتبوّء أمراء جدد العرش وبتقدّم أحرزوه بفضل فتوحاتهم الحربيّة وتنظيم حكيم لحكومتهم ولممتلكاتهم. وقد ثبّتت العهود التي توالت، ما بين ٧٦٣ و٨٥٥هـ/١٣٦٢ و١٤٥١م، هذه الانطلاقة التي لم تترك سوى تأثير طفيف عليها هزيمة بايزيد الأوّل يلدرم أمام هجوم تيمورلنك سنة ١٤٠٢م. وبالفعل، فإنّ معركة كوسوڤو سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م والتي قُتل فيها السلطان مراد الأوّل - الذي كان قائدًا حربيًّا نشيطًا والذي أسّس فرق الإنكشاريّة - فتحت الباب أمام بسط السيطرة العثمانيّة على جزء كبير من البلقان. وتتابعت الانتصارات العسكريّة في أوروبا كما في الأناضول على عهد بايزيد الأوّل الذي هُزم، رغم كل ذلك، في أواخر حياته وأُسر على يدي تيمورلنك في معركة أنقرة.

ترتّبت على هذه الهزيمة الأخيرة آثار خطيرة جدًا، إذ إنها أدّت، وسط الخراب الذي لا يوصف، إلى تفكّك وحدة الأراضي العثمانيّة وانقسامها إلى ثلاث مناطق، وإلى إعادة تكوين الإمارات الأناضوليّة التي كانت أُلحقت في السابق بالسلطة العثمانيّة. لكن، مع بداية سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م، تمكّن السلطان محمّد الأوّل من إعادة توحيد الأراضي المقسّمة وفرض سلطته على أمراء الأناضول. وتشهد المؤسّسات الجبّارة التي أقامها على درجة القوّة التي بلغها هذا السلطان. وعمل ابنه مراد الثاني من بعده على تهدئة الوضع بشكل كامل، وإلى الحكم مُحاطًا ببلاط مزدهر، منصرفًا الى القتال في مواجهة اعتداءات البندقيّة وهنغاريا وأعداء آخرين في البلقان. وبذلك استعادت الأمبراطوريّة الحدود التي كانت عليها سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م. وفي أوروبا كان العثمانيّون يسيطرون على تراقية ومقدونية وتسّاليا ودوبرودجا وبلغاريا، إضافة إلى ألبانيا وڤلاشيا وجزء من صربيا. وتبعًا لذلك، انحصرت سلطة بيزنطية في منطقة القسطنطينيّة وجوارها وكذلك في الموره. وفي الأناضول، كانت سميرنا/إزمير وسينوب وطرابزون، المناطق الوحيدة الباقية خارج إطار النفوذ العثماني.

وبين سنتي ١٤٥١ و١٦٠٦ للميلاد، استمرّ صعود نجم العثمانيّين. ففتح محمّد الثاني القسطنطينيّة، العاصمة البيزنطيّة التي صارت تدعى إسطنبول وغدت العاصمة الجديدة للأمبراطوريّة العثمانيّة. وقد أعطى ذلك محمّدًا الثاني دفعًا متزايدًا للفتوحات، سواء في أوروبا أو في الأناضول، فاستولى على المستوطنات التابعة لجنوى، ونظّم أمبراطوريّته المترامية الأطراف التي عمل ابنه بايزيد الثاني ايضًا على توسيع رقعتها أكثر فأكثر، رغم مكائد جمّ أخيه غير الشقيق، والصعوبات السياسيّة الأخرى التي واجهها. وفي الواقع، مع مطلع القرن السادس عشر، وجدت الأمبراطوريّة نفسها مهدّدة من الشرق بالطموحات المتزايدة للصفويّين، بينما برزت محاولات تمرّد جديدة أثارتها الصراعات على خلافة العرش، عمل السلطان سليم الأوّل على إخمادها. وقد تميّز حكم هذا السلطان بشكل خاص بإلحاقه البلاد العربيّة بأمبراطوريّته بعد انتصاره على دولة المماليك السوريّة - المصريّة في سنة ١٥١٦ - ١٥١٧.

هذا الكمّ الكبير من الانتصارات ساهم آنذاك في جعل الأمبراطوريّة العثمانيّة القوّة الرئيسة في الشرق، بحيث امتدّ سلطانها على قارات ثلاث، ولم يبقَ أمام السلطان سليمان القانوني - المعروف في أوروبا بلقب «سليمان العظيم» - إلّا أن يكمل هذه الفتوحات باستيلائه على بلغراد ورودس، ثمّ على بودا في هنغاريا، وعلى العراق واليمن والأناضول الشرقي، وصولًا إلى أذربيجان. إنّ حكمه الذي امتدّ من سنة ١٥٢٠ إلى سنة ١٥٦٦، كان الأبرز في التاريخ العثماني، فقد عرفت خلاله الأمبراطوريّة التي بلغت آنئذٍ الحدود القصوى لتوسّعها، تنظيمًا زادت في تحسينه الإجراءات التي اتّخذها هذا السلطان، راعي الآداب ومشجّع الحياة الفكريّة والفنيّة التي شهدت نشاطًا مميّزًا. وقد ظلّ

الوضع مستقرًا بعد وفاته بفضل الوزير سوكولو محمّد باشا الذي أدار شؤون الأمبراطوريّة خلال حكم مراد الثالث حتى سنة ١٥٧٩. إلّا أنّ عدم الاستقرار طبع المرحلة اللّاحقة للسلطة العثمانيّة التي انهمكت في حرب مع إيران الصفويّة (١٥٧٧ - ١٥٩٠)، وهي حرب لم تؤدّ أبدًا إلى نتائج حاسمة ودائمة.

٢ - في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، بلغت الأمبراطوريّة العثمانيّة ذروة اتّساعها الجغرافي، وأوجها، وكانت دولةً متعدّدة الأعراق والديانات، مكوّنة من مناطق متنوّعة جدًّا، سواء في أوروبا أو في آسيا، وضامّةً شعوبًا متنوّعة هي أيضًا: أتراك، أكراد، إيرانيّون، تتر، عرب، بربر، أقباط، يونانيّون، أرمن، ألبان، رومانيّون وهنغاريّون. وكانت لغات محليّة عدّة تُستعمل في أرجاء الأمبراطوريّة؛ والمسلمون الذين كانوا مثلًا قليلي العدد في البلقان، لم يشكّلوا أكثريّة في جميع المناطق. لكنّ لغة مشتركة رسميّة، هي اللغة التركيّة أو العثمانيّة، كانت تحتضن وجود بنية حكوميّة وإداريّة فعّالة.

أمّا حاكم هذه الأمبراطوريّة فهو السلطان الذي ادّعى - كما فعل في السابق الخلفاء - سيطرة كونيّة على كلّ البلدان. وكان يقدّم نفسه على أنّه «ظلّ الله على الأرض»، كما فعل في الماضي أمبراطور إيران السلجوقي الكبير. وبعد فتح المشرق العربي، اتّخذ السلطان لقب «خادم الحرمين الشريفين». وبالفعل، فهو كان سيّد الأماكن المقدّسة الإسلاميّة، مكّة والمدينة اللتين أضيفت اليهما القدس وكذلك بغداد، والنجف وكربلاء المدينتين المقدّستين عند الشيعة. كان السلطان ينتمي إلى سلالة استولت على السلطة بالقوّة وحقّقت لنفسها شرعيّة أمر واقع. لكن، ضمن هذه الأسرة، كما هي الحال في كل الأسر الحاكمة في الاسلام، لم تكن هناك قاعدة توارث ثابتة للسلطة. فعمد عثمان إلى إلغاء حصر الوراثة بالإبن البكر، المعمول به عند قبائل البدو، وجعل حقّ ارتقاء العرش حكرًا على الأبناء الذكور. لكن أمام احتمال المنافسة بين مرشّحين عدّة، جرت العادة أن يقتل الأمير الذي يتسلّم زمام الحكم إخوته. إلّا أنّ قاعدة «قتل الأخوة» هذه، التي سُنّت كما هي عليه في عهد محمّد الثاني، صُرف النظر عن تطبيقها بدءًا من حكم محمّد الثالث في بداية القرن السابع عشر.

كان السلطان عند اعتلائه العرش يتلقّى، كما كانت الحال مع الخلفاء في السابق، يمين الولاء أو البيعة من كبار شخصيّات الدولة؛ كما كان يؤمّ صلاة الجمعة؛ وكان اسمه يُذكر في الخطب الرسميّة التي تلقى في كل المساجد الجامعة في جميع أنحاء السلطنة. كما كان يتمتّع بسلطات وصلاحيات مماثلة لتلك التي كانت قديمًا للخلفاء، وكان يدير السياسة الخارجيّة، وكان عليه احترام الشريعة وتطبيقها. على أنّ الإجراءات العمليّة التي كان في إمكان السلطان اعتمادها، إيضاحًا لوسائل تطبيق الشريعة، اتّخذت في السلطنة أهميّة خاصة بحيث أنّ هذه التدابير كانت أحيانًا تجري تعديلًا على أحكام الشريعة أو حتّى تتجاوزها. وقد اشتهر السلطان سليمان بقوانينه التي استحقّ عليها لقب «القانوني».

كان السلطان محاطًا بعدد وفير من خدم البلاط يعملون وفاق مهمّات محدّدة وتراتبيّة منظّمة؛ وكذلك بعلماء دين وأطباء وعلماء فلك. كما كان محاطًا بكتّاب ملحقين بالدواوين، وكذلك بالقادة العسكريّين. أمّا الفرادة المميّزة لهذا التنظيم فتكمن في طريقة اختيار الفئات المختلفة من الخدم والإداريّين ومعظم العسكريّين، الذين كانوا، بالمعنى الحصري للكلمة، «عبيد» السلاطين، يجري اختيارهم من بين فتيان مسيحيّين يخضعون لنظام الـ«دوِشْرِمَا»، بعد أسلمتهم. وكان هؤلاء الشبّان، بحسب مواهبهم وطاقاتهم، يخضعون لأنواع مختلفة من التدريب، وبذلك يبلغ الأكثر موهبة من بينهم أعلى المراتب. وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كان معظم الذين تبوّأوا مركز الصدارة العظمى من أصل غير تركي؛ ينتمون، في أكثر الأحيان، الى بلدان البلقان. ولم يتمّ التخلّي عن هذا التنظيم الفعال إلّا في القرن السابع عشر. أمّا القضاة الذين كان يجري اختيار «قاضي عسكر» من بينهم، وكذلك قسم من موظّفي الادارة والقادة العسكريّين، فكانت طريقة انتقائهم مختلفة. لكن، يبقى أنّ مجمل موظّفي الدولة، باستثناء القضاة، كانوا يدينون بتعيينهم وترقيتهم لإرادة السلطان، السيّد الوحيد لكل الأجهزة

الحكوميّة. إضافة إلى ذلك، كان في تصرّف السلطان جهاز تقريري يمكنه أن يراقبه شخصيًّا إذا شعر بالحاجة لذلك. وهذا الجهاز كان «الديوان» - وهو بمثابة مجلس وزراء - كان ينعقد في قاعة مخصّصة لهذا الغرض في الطبقة الثانية من قصر «توبكابي».

ومن بين الأجهزة المتنوّعة التي كانت تُيسّر للسلطان ممارسة الحكم، شكّل الجيش - الذي كان تكوينه ذا طابع خاص جدًّا - الأداة الأولى. وفي الواقع كان التنظيم العسكري يشمل: من جهة، قوّة دائمة مستقرّة في العاصمة يتمّ اختيارها بحسب نظام «الدوشيرما»؛ ومن جهة ثانية، جيوش المناطق التي تُدفع رواتبها بحسب نظام التيمار. أمّا فيلق الإنكشارية، المكوّن أساسًا من مشاة يبلغ عددهم عشرة آلاف رجل تقريبًا، فكان يشكّل نواة هذه القوّة الدائمة. وقد تمّ تدعيمه بفيلق مدفعيّة في بداية القرن السادس عشر، وكذلك بفيلق خيّالة يرابط في جوار اسطنبول وأدرنة وبورسه. لكنّ الخيّالة كانت تتكوّن أساسًا من فرق المقاطعات أو «السّباهي»، تُدفع رواتبهم من المداخيل الماليّة للتيمار. وفي عهد السلطان سليمان كانوا جميعًا مسلمين، إذ لم يعد في الإمكان، في تلك الفترة، قبول أفراد من الأرستقراطيّة المسيحيّة المحليّة، كما كانت الحال سابقًا في الروملّي. ويبدو أنّ عدد الخيّالة الدائمي الجهوزيّة قد بلغ تسعين ألفًا في منتصف القرن السادس عشر. تضاف إلى هذا الجيش بحريّة فعّالة شكّلت مصدر خوفٍ للأعداء، رغم الفشل الذي مُنيت به في معركة ليبانت في أواخر القرن السادس عشر، بحيث أنّ القوّات العسكريّة التي كانت بإمرة سلاطين كسليمان وخلفائه، كانت تُعتبر من الجيوش التي تصعب هزيمتها: فهي كانت حسنة التجهيز والتدريب، منضبطة ومزوّدة بإدارة عسكريّة فعّالة، رغم أنّ تحريك جيوش المقاطعات كان يتمّ ببطء في بعض الأحيان.

في الواقع كان السلطان، في كثير من الأحيان، يجد صعوبة في فرض إرادته في بعض الولايات الواقعة في قلب السلطنة، التي كان أهمّها في عهدة ولاة هم في الأساس قادة عسكريّون يساعدهم موظّفو ضرائب وقضاة. أمّا مناطق الأطراف، سواء في أوروبا أو في المنطقة العربيّة، فقد كان تنظيمها أكثر مرونة ومطابقة للإدارة المحليّة القديمة. لا بل إنّ هذه الادارة بقيت، جزئيًّا، في بعض الأحيان في أيدي الزعماء المحليّين كأشراف مكّة وخانات القرم. وفي كلّ مكان، وفي كلّ الأحوال، كان هناك فصل صارم بين السلطتين العسكريّة والقضائيّة، بحيث أنّ الأخيرة كانت في أيدي قضاة يتمّ اختيارهم من بين علماء الدين ومرجعهم الوحيد هو شيخ الإسلام.

هؤلاء المساعدون العديدون للسلطان كانوا يديرون أراضي شاسعة ويدافعون عنها، ارتبط ازدهارها الإقتصادي بتنوّع منتجاتها الطبيعيّة والحرفيّة، وبالنظام السائد فيها، وبالنشاطات التجاريّة المحليّة التي كانت تفضي إلى مبادلات مع البلدان الغربيّة أو الشرقيّة. وكانت الدولة تتدخّل في هذا النشاط الإقتصادي عن طريق الضرائب ومن خلال نظم متنوّعة كتحديد الأسعار وبعض الترتيبات التي تشجّع دخول المنتجات ذات الطابع الكمالي إلى العاصمة. وإذا كان المسيحيّون - من يونانيّين وأرمن - وكذلك اليهود، لعبوا دورًا من الطراز الأوّل في التجارة والحرف، إلّا أنّ المسلمين لم يكونوا غائبين عن هذا الميدان، على الأقلّ في هذه الفترة. أمّا الفلاحون، من مسيحيّين ومسلمين، فكانوا يزرعون أراضي الميري التي هي في مجملها ملك للدولة، ويؤدّون رسومًا وضرائب عدّة، إحداها ضريبة الأعناق الخاصة بمؤدّي الجزية.

كان الحرفيّون وأصحاب الحوانيت ينتظمون آنذاك في «طوائف» ينتخب أعضاؤها ممثّليهم لدى السلطات. أمّا التجّار، المنتمون إلى ديانات ومذاهب مختلفة، فكانوا ينصرّفون برساميل يزوّدهم بجزء منها كبار الشخصيّات العسكريّة والسياسيّة. وقد سهّل حركة النقل البرّي والبحري تدخّل الدولة، عبر بناء الجسور وخانات القوافل وصيانة الطرق. أمّا المسيحيّون الأجانب الذين كانوا يؤمّون البلاد العثمانيّة لبيع بضائعهم الكماليّة وشراء منتجات كالبهارات والعطور - التي كان يحقّ لهم تصديرها - فكانوا كثيري العدد، وتزايدوا أكثر فأكثر في نهاية القرن السادس عشر بعد عهد الأمان [الإمتيازات] الذي مُنح لهم في سنة ١٥٦٩. وإذا لم

يكن الخلل التجاري بين الشرق والغرب ظاهرًا في هذه المرحلة، إلّا أنّ الظروف كانت مهيّأة لكي يبرز هذا الخلل سريعًا في فترة لاحقة، متسبّبًا بصعوبات للدولة العثمانيّة؛ زاد من حدّتها توقّف الفتوحات وغياب المكاسب الناتجة عن الغنائم. وقد بدأت هذه القوّة العظمى التي كان الغربيّون يحترمونها، تعاني أزمات ماليّة، وعدم قدرة التنظيم العسكري والإداري السائد على معالجتها، وكذلك ضُعْفَ سلطة بعض السلاطين. كل هذه الأمور زادت في خطورة الوضع موقّتًا، ولم تتأخّر في التسبّب في جرّ الأمبراطوريّة لاحقًا الى إنحطاط شبه عام.

٣ - شكّل القرن السابع عشر إذًا، بالنسبة الى الدولة العثمانيّة، بداية ضعف راح يزداد خلال العصور التالية. فمن الناحية العسكريّة، رغم أنّ الهزيمة البحريّة في معركة ليبانت سنة ١٥٧١ لم تترك بالطبع ذيولًا مهمّة، إلّا أنّها كانت المؤشّر لانتهاء عهد السيطرة المتوسطيّة التي كان يتمتّع بها العثمانيّون حتّى ذلك الوقت. ووجدت الجيوش العثمانيّة نفسها، في أماكن عدّة، سواء في أوروبا أو في الشرق، في موقف الدفاع، بانتظار ان تُقرّ معاهدة كارلوڤيتش، سنة ١٦٩٩، أُولى التنازلات الإقليميّة العثمانيّة في أُوروبا.

أمّا الوضع الداخلي فكان أكثر إثارة للقلق. فالسلطة الفعليّة انتقلت من أيدي السلاطين الى السلطانات - الأمّهات أو إلى بعض كبار الموظّفين. واذا كان السلطان أحمد الأوّل أعاد الاستقرار الذي كان مفقودًا في عهد سلفه، فإنّ ابنه عثمان الثاني قام بإصلاحات كان من نتيجتها اندلاع ثورة الإنكشاريّة الذين اعتقلوه وعزلوه عن العرش وأعدموه سنة ١٦٢٢. وكان على مراد الرابع، الابن البكر لأحمد الأوّل الذي اعتلى العرش سنة ١٦٢٣ أن يعيد هيبة السلطة بمعاقبة الثوّار والمخلّين بواجبات وظيفتهم بقساوة، وبمراجعة السجلّات الماليّة تقويمًا لميزانيّة الدولة، إلّا أنّ أثر هذه الاصلاحات لم يستمرّ طويلًا.

عادت الفوضى إلى الظهور في البلاط والإدارة خلال حكم السلطان إبراهيم الأوّل الملقّب بـ«المجنون» (١٦٤٠ - ١٦٤٨)، فيما كان العجز عن وقف التجاوزات من كل نوع لا يسمح بإعادة تكييف بُنيات الدولة مع واقع انخفاض المداخيل الناتج عن وقف الفتوحات. لكنّ عمليّة إنهاض للوضع تمّت، بعد وقت قصير، خلال حكم محمّد الرابع بفضل ثلاثة وزراء: أوّلهم الوزير الأكبر محمّد كوپرولو، ومن بعده ابنه فاضل أحمد، ومن ثمّ صهره مرضي فونلو قره مصطفى. تميّزت سياسة الأوّل بحزم مالي وميل إلى الإعدام التعسفي لبعض الشخصيّات المعارضة؛ أمّا اهتمام ابنه فانصبّ على المسائل الخارجيّة وتمكّن من الاستيلاء على كريت؛ أمّا قره مصطفى فقد بادر إلى حصار فاشل لڤيينا سنة ١٦٨٣. فقد كلّفه هذا الحصار حياته بعد عودته من الحملة. بعد هذا الإخفاق، انطبعت نهاية القرن بهجمات أُوروبيّة متكرّرة وبتوقيع معاهدة كارلوڤيتش. كما شكّلت نهاية القرن هذه، بالنسبة الى القوى الأجنبيّة التي كانت حصلت على تجديد عهود الأمان، الظرف المناسب لتُنصّب، في مختلف المراكز، قناصل بدت مهمّاتهم أكثر فأكثر ممثّلين لحكوماتهم، وبدأوا بالتدخّل في السياسة الإقتصاديّة للأمبراطوريّة.

وزادت الأوضاع سوءًا خلال القرن الثامن عشر، رغم أنّ المواجهات مع روسيا انتهت بتوقيع معاهدة أدرنة سنة ١٧١٣، خلال حكم أحمد الثالث. إلّا أنّ تجدّد العمليّات العسكريّة ضدّ النمساويّين انتهى بانتصار الأخيرين وفرضهم معاهدة «پاسّاروڤيتش» سنة ١٧١٨ التي منحتهم السيطرة على ڤالاشيا الغربيّة وشمال صربيا، فيما استرجع العثمانيّون الموره. واندلعت المعارك مجدّدًا مع إيران وتقاطعت فيها الانتصارات والانكسارات، وأوصلت، سنة ١٧٤٦، إلى سلام ثبّت تدابير معاهدة قصر الشرين لسنة ١٦٣٩، وكرّس خسارة العثمانيّين لبعض الأراضي. لكنّ المواجهة الأخطر كانت في الهجوم على روسيا في عهد كاترين الثانية سنة ١٧٦٨ الذي وُوجه بردّة فعل شديدة من قِبل روسيا، إذ أرسلت هذه الأخيرة إلى بحر إيجه أسطول البلطيق. وانتهت العمليات العسكريّة في العام ١٧٧٤ بتوقيع معاهدة كوتشوك - كينارجي التي منحت الروس المناطق الواقعة شمالي البحر الأسود، بما فيها شبه جزيرة القرم، وأجازت لهم كذلك تسمية سفير دائم في

اسطنبول وبناء كنيسة فيها، كما أعطتهم حق حماية المسيحيّين الأرثوذكس في السلطنة.

هذه الصعوبات والإخفاقات العسكريّة التي كان لها انعكسات مباشرة على الوضع الداخلي، دفعت برجال الدولة العثمانيّين، خلال هذا القرن، إلى محاولة القيام بعمليّة إصلاح - بقيت خجولة - لنظام الحكم. فقد جرى إصلاح الوضع المالي باتّخاذ إجراءات متنوّعة، في الوقت الذي كان فيه شيخ الإسلام بدافع عن صلاحيّاته وصلاحيّات كبار الموظّفين. وخلال حكم السلطان أحمد الثالث أرسل الوزير الأكبر، الداماد ابراهيم باشا، سفراء إلى العواصم الأوروبيّة الرئيسة، وقام ببعض الخطوات التحديثيّة بدءًا بالجيش. لكنّ اندلاع ثورة الانكشاريّة العنيفة سنة ١٧٣٠ وضعت حدًّا لمحاولات الاصلاح التي بدأها الصدر الأعظم والسلطان. وفي الفترة نفسها، في الولايات البعيدة في طرابلس وتونس والجزائر، استولى عسكريّون من أصل تركي على السلطة وفرضوا على السلطان الاعتراف بهم حكّامًا شبه مستقلّين، وأسّسوا أحيانًا سلالات حاكمة محليّة.

نجح السلطان محمود الأوّل، في ما بعد، إن لم يكن في إصلاح فيلق الإنكشاريّة، فعلى الأقل في إصلاح فيلق المدفعيّة، وذلك بمساعدة ضابط فرنسي اعتنق الإسلام هو الكونت بونّفال (Bonneval) (١٦٧٥ - ١٧٤٧). وخلال حكم مصطفى الثالث، حسّن الصدر الأعظم راغب باشا سير عمل مختلف إدارات الدولة. ورغم أنّ السلطنة عرفت ازدهارًا للحياة الفنيّة والفكريّة، إلّا أنّها كانت تعاني من الانعكاسات الإقتصاديّة للتغلغل الأجنبي المتزايد. فقد بالغ الأوروبيّون في استغلال الإمتيازات التي تقدّمها لهم عهود الأمان، لإدخال بضائعهم إلى المرافئ. وكان التجّار الأوروبيّون يلجأون أحيانًا كثيرة الى وسطاء من اليهود أو المسيحيّين الذين ازداد اهتمامهم بالتجارة البحريّة الدوليّة. أمّا في الداخل فاستمرّت تجارة القوافل التقليديّة، لكنّها غدت لا تلبّي إلّا الحاجات العاديّة للسكّان.

بشكل عام، كانت مقاومة الدولة العثمانيّة - التي عانى فيها سير العمل صعوبات عدّة - تضعف أمام الهجمات العسكريّة للقوى الكبرى؛ كما كانت تتقبّل، رغمًا عنها، الضغط الناتج عن النفوذ الغربي، في وقت كانت حركات التمرّد تظهر في الولايات البلقانيّة والعربيّة. وقد أفضى هذا الوضع إلى أزمة القرن التاسع عشر التي تميّزت، من جهة بما عُرف بـ«المسألة الشرقيّة»، ومن جهة أُخرى بالإصلاحات التي عُرفت بـ«التنظيمات». لازمت «المسألة الشرقيّة» الوقائع التي أدّت إلى التجزئة التدريجيّة للسلطنة التي توالت فصولها كما يلي: - ثورة القوميّين اليونانيّين التي استدعت تدخّل القوى الكبرى وانتهت بمعاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ التي اعترفت باستقلال اليونان والحكم الذاتي لصربيا ومولدافيا وڤلاشيا، ومنحت روسيا أخيرًا حريّة عبور المضائق؛ - النزاع مع مصر في عهد محمّد علي الذي تمكّن أخيرًا من الحصول، سنة ١٨٤١، على الحكم الوراثي في بلاده؛ - إحتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠؛ - المشكلات في الأراضي المقدّسة المسيحيّة التي دفعت بقيصر روسيا الى مباشرة العمليّات العسكريّة ضد العثمانيّين الذين دعمتهم فرنسا وإنكلترا؛ - حرب القرم التي انتهت بمعاهدة باريس سنة ١٨٥٦ التي ضمنت، من حيث المبدأ، وحدة أراضي الأمبراطوريّة؛ - حرب البلقان وثورة كريت اللتان أدّتا إلى انعقاد مؤتمر برلين وتوقيع معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ التي أفقدت الباب العالي الجزء الأكبر من مملكاته البلقانيّة وجزيرة قبرص وثلاث مقاطعات في الأناضول الشرقي.

بعد معاهدة برلين، طغى الطابع الأسيوي والإسلامي على الأمبراطوريّة، إذ ارتفعت نسبة المسلمين من ٦٨٪ إلى ٧٦٪. فضلًا عن ذلك، لم تنجح سياسة الإصلاح المعروفة بـ«التنظيمات» - إلّا جزئيًّا في عصرنة الحكومة والإدارة، كما فشلت بشكل كامل في إرساء قواعد جديدة للحياة الاجتماعيّة. نتيجةً لذلك، تخلّى السلطان عبد الحميد عن هذه السياسة بشكل فظ، كما عمد، سنة ١٨٧٨، إلى إبطال العمل بالدستور المعلن سنة ١٨٧٦. وفي سنة ١٩٠٨، انتهى نظام الحكم المطلق الذي أرساه عبد الحميد بقيام ثورة «تركيا الفتاة» وتسلّم أعضائها السلطة. فجرّوا البلاد إلى تأسيس الجمهوريّة التركيّة التي أنشأها مصطفى كمال اتاتورك سنة ١٩٢٣، عقب التدخّلات الخارجيّة

والاضطرابات الداخلية وما تلاها من حرب التحرير التي جرّت إليها الحرب العالمية الأولى.

عثمان الأول بن أرطغرل ١٢٨١ - ١٣٢٤
أورخان ١٣٢٤ - ١٣٦٢
مراد الأول ١٣٦٢ - ١٣٨٩
بايزيد الأول يلدرم ١٣٨٩ - ١٤٠٢
سليمان الأول ١٤٠٣ - ١٤١٠
محمد الأول شلبي ١٤٠٣ - ١٤٢١
مراد الثاني ١٤٢١ - ١٤٥١
محمد الفاتح ١٤٥١ - ١٤٨١
بايزيد الثاني ١٤٨١ - ١٥١٢
سليم الأول ١٥١٢ - ١٥٢٠
سليمان الثاني القانوني ١٥٢٠ - ١٥٦٦
سليم الثاني ١٥٦٦ - ١٥٧٤
مراد الثالث ١٥٧٤ - ١٥٩٥
محمد الثالث ١٥٩٥ - ١٦٠٣
أحمد الأول ١٦٠٣ - ١٦١٧
مصطفى الأول ١٦١٧ - ١٦١٨
عثمان الثاني ١٦١٨ - ١٦٢٢
مراد الرابع ١٦٢٣ - ١٦٤٠
إبراهيم ١٦٤٠ - ١٦٤٨
محمد الرابع ١٦٤٨ - ١٦٨٧
سليمان الثالث ١٦٨٧ - ١٦٩١
أحمد الثاني ١٦٩١ - ١٦٩٥
مصطفى الثاني ١٦٩٥ - ١٧٠٣
أحمد الثالث ١٧٠٣ - ١٧٥٤
عثمان الثالث ١٧٥٤ - ١٧٥٧
مصطفى الثالث ١٧٥٧ - ١٧٧٤
عبدالحميد الأول ١٧٧٤ - ١٧٨٩
سليم الثالث ١٧٨٩ - ١٨٠٧
مصطفى الرابع ١٨٠٧ - ١٨٠٨
محمود الثاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩
عبد المجيد الأول ١٨٣٩ - ١٨٦١
عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٦
مراد الخامس ١٨٧٦
عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩
محمد الخامس ١٩٠٩ - ١٩١٨
محمد السادس ١٩١٨ - ١٩٢٢
عبد المجيد الثاني ١٩٢٢ - ١٩٢٤

◄ راجع المستندات ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٧ و٧٩ و٨٦.

عَجَم، مصطلح عربيّ استُعمل في العصور الإسلامية الأولى للدلالة على غير العرب [من الشعوب]، وهو يعني، في الأصل، «مَن لغتهم غامضة وغير مفهومة».

ولمّا كان يُنظر إليهم كالبرابرة في بلاد الإغريق، فإنّ **العجم**، في الشرق، كانوا يمثّلون بالفُرس. وقد اضطُرّ هؤلاء الورثة لحضارة قديمة، في معظمهم، إلى الأخذ بوضع **الموالي**، وظلّوا محتقرين خلال حكم الأمويّين، فأسهموا في إطاحة أسرتهم الحاكمة. وقد تغيّر وضعهم مع خلافة العبّاسيّين التي شهدت التحاقهم بكثرة بصفوف الجيش والإدارة، وبوجه خاص سعيهم إلى أن يتبنّى العالم الإسلامي ثقافتهم، فكان ذلك سبباً لانطلاق الحركة المعروفة **بالشعوبيّة**.

أمّا في مناطق أخرى، كالأندلس مثلاً، فإنّ **العجم** مثّلوا عناصر محلّية أخرى. وهذا يفسّر تسمية «**العجميّة**» التي أمكن إطلاقها على اللهجات المشتقّة من اللاتينيّة المتداولة في إسبانيا. وإنّ التسمية، في لفظها الاسباني (aljamia أي الأعجميّة) ظلّت مستعملة، في نهاية العصر الوسيط، للدلالة على اللغة الإسبانية المشتقّة من اللاتينيّة والمكتوبة بالحروف العربيّة.

عَجْمان ← **الإمارات العربيّة المتّحدة**.

العدالة، مصطلح عربيّ ينطوي على هذا المدلول العام ومدلول أكثر تقنيّة، سوّغ استعماله، خلال العصور الوسطى الإسلاميّة، في مجال عمل المؤسّسات القضائيّة.

إنّ هذا المصطلح الذي كان يُطلق، مثلاً، في أوساط أهل الفلسفة على الفضيلة الأسمى، كان يعني كذلك في الواقع النزاهة الخُلقيّة والدينيّة التي يجب أن يتحلّى بها مؤدّو الشهادة، لا سيّما الشهود المحترفين أو شهود العقْد المنصوص عنهم لمعاونة القضاة في محاكمهم.

وقد كانت تُلحق بمفهوم العدالة، أيضاً، صفة تنفريظ منها وهي «العادل» التي تجلّت، في العصور الوسطى، في ألقاب عدد كثير من الأمراء المسلمين، إبتداءً من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وهذا ما نتبيّنه في لقب الشرف المعروف لعاهل مهمّ من

أسرة الأيوبيّين، هو الملك العادل سيف الدين.

عَدَن (الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة)، مدينة مرفئيّة معاصرة لبلاد العرب الجنوبيّة على المحيط الهندي، نمت بوصفها مركزًا لإقليم ومحميّة بريطانيّة، قبل أن تغدو، بين العامين ١٩٦٧ و١٩٩٠، القاعدة السياسيّة الإقتصادية للجمهوريّة الديمقراطيّة الشعبيّة المؤقّتة في اليمن الجنوبي.

بدأ التاريخ الإسلامي لهذه الناحية الساحليّة القائمة منذ العصور الوسطى في منطقة لا تزال تتخلّلها آثار كثيرة من حضارة سبأ القديمة، بينما كان النبيّ محمّد ﷺ لا يزال على قيد الحياة. بعدئذٍ جمعها المصير بالإقليم الداخلي فنالها ما نال اليمن، حتّى العهد الحديث، من صراعات دينيّة بين مذاهبها، ومن أخذٍ بالأنشطة التجاريّة بحكم موقعها على طريق الأفاويه والشرق الأقصى. تمتّعت عدن بقرن من الإستقلال في كنف الصُّلَيْحيين الإسماعيليّين من قبيلة همذان، وذلك من سنة ٤٧٧ إلى ٥٧٩ هـ/١٠٨٤ إلى ١١٣٨م، خلال ملك السيّدة أروى[٧٩] [الحرّة] الشهيرة. وقد بلغت منتهى ثروتها خلال حكم السُّلالات السُّنّيّة الأيوبيّة ومن تعاقب بعدها. من بين هؤلاء بنو رسول[٨٠] الذين شجّعوا التجارة البحريّة، خلال القرنين السابع والثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، فأدّى ذلك إلى أن يحافظ السكّان في أغلبيتهم على المذهب السنّي الشافعيّ، في مقابل أتباع الزيديّة الذين كانوا يسيطرون على الهضاب المجاورة.

إنّ التراجع الذي أصاب المرفأ بعيد ذلك، على أثر تحويل تجارة المحيط الهندي على أيدي البرتغاليّين واتّساع سلطة العثمانيّين في المنطقة، لم ينل من أهميّتها الإستراتيجيّة على منفذ البحر الأحمر، وهي أهميّة تنامت من جديد مع حفر قناة السويس في العام ١٨٦٩، فأدّى ذلك إلى تأجيج الشهيّة البريطانيّة. تجلّت هذه الأطماع منذ إنشاء الشركة البريطانيّة للهند الشرقيّة وأدّت إلى احتلال مرفأ عدن، منذ ١٨٣٩، وتاليًا إلى تحصين هذا الموقع بحيث نشأت في العام ١٩٣٧ مستعمرة للتاج [البريطاني]، بينما كانت تتّسع حول ذلك محميّة بريطانية مزدوجة، غربيّة وشرقيّة، لتضمّ من جهة الشرق منطقة حضرموت بكاملها.

أذِنَ عَوْدُ عدن إلى حكمٍ محلّي إبتداءً من ١٩٦٧ ببدء عهد شديد الاضطراب، طبعته صراعات بين الفصائل القبليّة والطوائف الدينيّة والأحزاب السياسيّة، وكذلك تدخّلات أجنبيّة، وبخاصة سوفياتيّة، في شؤون عمل التجهيزات المرفئيّة، في حين أدّى انقسام اليمن إلى دولتين سيّدتين، مع توجّهات وأحلاف متناقضة، إلى انقطاع المدينة، لفترة ما، عن سائر البلاد.

◄ راجع الوثيقتين ٢٥ و٣٠.

عَدنان، الجدّ الأوّل الذي أعطى اسمه للذين يُقال لهم عرب الشمال، والذين ميّزتهم عداوة تقليديّة عن سائر السكّان القدماء لشبه الجزيرة العربيّة، أي عرب الجنوب المتحدّرين من قحطان.

أطلقت قبل الإسلام، على القبائل العربيّة في الشمال، تسمية مَعَدّ الشاملة، نسبةً إلى شخص كان يعتبر إبنًا لعدنان. ولعلّ هذا كانوا يعيدون نسب سائر الأبطال الذين تسمّت بهم العشائر، مثل إبنه نزار وأحفاده مُضر وإياد وربيعة، كما أنّهم أدخلوا، في سلسلة النسب هذه، النسبة التي تربط عدنان بإسماعيل النبيّ، المعروف في القرآن على أنّه ابن ابراهيم الذي كان يتّخذ من منطقة مكّة مسكنًا له.

أعطت مُضر إسمها لمنطقة في بلاد ما بين النهرين العليا، هي ديار مضر حيث كان يترحّل بعض بطونها في بدايات الإسلام، وإليها انتسبت قريش، قبيلة النبي محمّد (ﷺ)، وقيس التي استقرّت في سوريا أيّام الأمويّين وكذلك تميم التي قامت بدور مهمّ أيّام رسول الإسلام. ومن ربيعة تحدّر بنو بكر وبنو تغلب الذين استقرّوا، بعد خصومات جرت بينهم في أواسط شبه الجزيرة العربيّة، في وادي الفرات الأسفل منذ آخر القرن السادس للميلاد.

ألعَدَوِيّة (طريقة) ← **اليَزيديّة**.

عَديّ الحَقّري ← **اليَزيديّة**.

العذاب (الإلهي)، ترد هذه الفكرة في القرآن الكريم حيث تشكّل أساس التنبيهات التي أطلقها مختلف الأنبياء، بمن فيهم النبيّ محمّد (ﷺ) نفسه، وحيث

ترتبط بمفهوم الثواب وبيوم الحساب.

يتميّز العذاب الإلهي بطبيعته عن العقوبات الزمنيّة التي نصّ عليها القرآن والشريعة، وهيَ عقوبات شرعيّة يفرضها ممثلو السلطة والأجهزة القضائيّة الإسلامية وتطبّق داخل الجماعة. وينتظر هذا العذاب الكفّار الذين يتمرّدون على الله برفضهم الخضوع لأوامر رُسُله. فهوَ تاليًا يطبع الدعوة الإسلاميّة بسمات رؤيويّة يطغى عليها الاعلان عن الكارثة المحتّمة الآتية وعن إدانة الأشرار. وهكذا يلمّح القرآن مرارًا الى الشعوب الآثمة التي لم تستجب للنداءات التي وجّهها إليها الله عبر رسله. هناك شعبان عربيّان بين هذه الشعوب هما عاد وثمود، ولكن يستحيل تحديد تاريخهما في المكان والزمان. هناك روايات أخرى في القرآن يبرز فيها التأثير التوراتي؛ إنّها تتكلّم عن شعب نوح وشعب فرعون، وكذلك استذكارات أخرى عديدة يصعب تحديدها بشكل دقيق.

تلمّح الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن آخر الزمان وعن القيامة التي بشّر بها النبيّ محمّد (ﷺ) الى الخوف، يوم الحساب، من العذاب الإلهي ومن الكوارث التي ستسبقه. إلّا أنّ الحديث النبوي يستند أيضًا إلى إشارات واردة في النصّ القرآني ليتوسّع في الكلام عن تهديد آخر هو «عذاب القبر».

عُذْرة (بنو ـ)، قبيلة عربيّة كانت منازلها في شمال الحجاز عند ظهور الإسلام، وهي مدينة بشهرتها اللّاحقة لشعراء الحبّ الذين نبهوا منها. تنتمي قبيلة عذرة إلى مجموعة قُضاعة الكبيرة، ذات النسب العتيق والغامض، إلى حدّ ما، لكنّها تدّعي نسبتها الى عرب الجنوب المتحدّرين من قحطان، ولمّا كانت على علاقة بقريش في مكّة، فقد قامت منازلها في عصر النبيّ محمّد (ﷺ) في منطقة تبوك ووادي القرى؛ من هناك، انطلق أفرادها للمشاركة في الفتوحات الكبرى واحتلّوا خصوصًا المناطق السورية. عُرفت على الخصوص بشعرائها الأوّلين الذين تغنّوا بحبّ مستحيل أدّى بهم، بحسب التقليد، إلى الموت من الضنى.

كثيرًا ما تردّدت قصة «شهداء الحبّ» اولئك، في الأدب العربي الإسلامي. والهوى الذي عصف بهم أمسى موضوعًا رمزيًّا وفلسفيًّا كلاسيكيًّا. حمل تسمية الحب العُذريّ. وقد ابتدعوا تبريرًا له في كلام أو حديث نُسب إلى النبيّ محمد ﷺ: «من عشق فعَفّ وكَتم سرّه ومات به، مات شهيدًا.»[٨١] وقد انماز إبن داود الفقيه الظاهري بتناوله خُلُقيّة هذا الحبّ. وتبنّى موافقه، في ما بعد، إبن حزم في الأندلس، وما لبث أن أخذ بها التصوّف الإسلامي، عبر عدد من ممثّليه، بمن فيهم إبن العربي.

عُرابي باشا أو أحمد عُرابي، ١٨٤١هـ/ ١٩١١م، زعيم وطنيّ مصري، سعى لزعزعة سلطة الخديويّين في نهاية القرن التاسع عشر بمحاولته القيام بانقلاب سياسي.

ولد أحمد عُرابي في أسرة فلّاحين وتلقّى دروسًا تقليديّة في القاهرة، في جامعة الأزهر، ثمّ انخرط في الجيش حيث سرعان ما بلغ رتبة عقيد. كان خطيبًا مفوّهًا، فأمسى ناطقًا بلسان الحركة الوطنيّة التي أرغمت، في العام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م، الخديوي توفيق على تأليف وزارة أُسندت فيها حقيبة وزارة الحربيّة إليه. وقد أثار هذا التعيين احتجاجات الحكومتين البريطانيّة والفرنسيّة القلقتين من السياسة الجديدة، ما دفع بأحمد عرابي إلى إعلان نفسه قائدًا عامًّا والاستيلاء على السلطة. تدخّلت بريطانيا العظمى فاحتلّت مصر، فنُفي أحمد عرابي إلى سيلان التي لم يَعُد منها إلّا بعد مرور عشر سنوات. إلّا أن الإنقلاب الذي قام به، وإن اعتُبر حدثًا عابرًا، كان له دور بارز في تاريخ مصر الحديثة، إذ شكّل إنطلاقة لردود الفعل الوطنيّة التي أدّت إلى إلغاء الحماية البريطانيّة عام ١٩٢٢.

العراق، أو بلاد ما بين النهرين السفلى، منطقة جغرافيّة وتاريخيّة في آن معًا، قامت بدور مميّز داخل العالم الإسلامي بحكم اتّصالها المباشر بإيران ومواجهتها أطماع الدول التي بسطت سلطانها على سوريا، والمناطق العليا من بلاد ما بين النهرين وبلاد الأناضول، قبل أن يُطلق اسم العراق على دولة تضمّ بلاد ما بين النهرين بأسرها.

١ - هذه المنطقة المتميّزة بوجود نهرين كبيرين، دجلة والفرات، اللذين تجتمع مياههما لتشكّل، مع نهر الكارون الإيراني، شطّ العرب، تمتدّ شمالاً حتّى الأرض التي تتوقّف عندها زراعة النخيل. وإضافةً الى انفتاحها

على البحر وعلى نشاطه التجاري، كانت غنيّة خاصة بزراعاتها، بفضل خصب أرضها الغنية بالطمي، وبفضل أعمال الريّ المهمّة التي نفّذت في الحقبات السابقة لمجيء الإسلام. وعلى أيّ حال، فإنّ الفرات، الضعيف المنسوب، يُغذّي بالمياه مستنقعات واسعة قبل أن يلتقيَ دجلةَ، وإنّ الجزء من المنطقة المجاورة للخليج العربي - الفارسي التي نطلق عليها أحيانًا تسمية العراق السفلي، يتّسم بطبيعة تصعب فيها الحياة بسبب أدغاله ذات الأرض المشبعة بالمياه. في هذه الأرض القريبة من المدن المرفئيّة الغنيّة، يأوي الهاربون واللصوص الذين يتحيّنون الفرصة لتعكير الملاحة النهريّة التجاريّة، ويشكّلون بؤرًا للحركات الثوريّة. لكنّ وجود هذه المنطقة غير الخصبة، التي تتأرجح مساحتها تبعًا للظروف، لم يمنع الأجزاء الأخرى من البلاد من أن تشكّل، بمحاذاة البدو في الصحراء وعلى المناقد النادرة للمدرّجات الجبليّة المنحدرة من الهضبة الإيرانيّة، أرضًا عرفت حضارة قديمة، مكتنزة بموارد وافرة، تكيّفت على الدوام مع ازدهار الحياة الحضريّة ومراكزها المدينيّة.

في جميع أنحاء بلاد ما بين النهرين، كانت جماعات من العرب قد استقرّت قبل ظهور الإسلام: بدايةً، اللخميّون، حلفاء الساسانيّين، ثمّ عناصر متنوّعة من قبائل نزحت من شبه الجزيرة العربية، أهمّها قبيلتا تغلب وبكر. وما بين ١٢هـ و٢١هـ/٦٣٣و٦٤٢م، أي منذ بداية الفتوحات الكبرى، احتلّت العراق مجموعاتٌ عربيّة - إسلاميّة مكوّنة من فصائل قبليّة أخرى، وحوالى ١٤ و١٧هـ/ ٦٣٥ و٦٣٨م، تأسست البصرة والكوفة، المدينتان-المعسكران، وشكّلتا محطتين للتوسع الحربيّ في اتّجاه الشرق. وبعد فترة قصيرة، وقرب البصرة، خاض علي، بعد تولّيه الخلافة، معركة الجمل، ثمّ اغتيل في الكوفة ودفن بالقرب منها، حيث أنشئت، ابتداءً من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، مدينة النجف، بجوار قبره الذي أصبح بالنسبة إلى الشيعة مزارًا مقدسًا. وعلى كلّ حال، استقرّ أتباعه في تلك المنطقة، طيلة عهد الخلفاء الأمويّين، الذي كان في خلاله لسوريا الأولويّة، في حين أنّ العراق أصبح مركزًا لثورات الشيعة وسواهم. وفي كربلاء، غير بعيد من الكوفة، وفي العام ٦١هـ/٦٨٠م، قُتل الحسين بن علي وابن بنت الرسول (ﷺ) في مكان أصبح في ما بعد المركز المكرّم الذي اجتمعت فيه أقصى مظاهر التقوى الشيعيّة. وفي ٨٣هـ/٧٠٢م، شعر الأمويّون بالحاجة إلى تأسيس مدينة واسط، التي هي حامية عُهدت إليها مراقبة الشعب الثائر في المدينتين السابقتين.

كان من نتائج وصول العبّاسيّين إلى الحكم - وقد بويع أوّل خليفة منهم في الكوفة عام ١٣٢هـ/٧٤٩م، بعد نجاح الثورة العبّاسيّة - جعلُ العراق مركز الأمبراطوريّة الجديدة، سواء من وجهة النظر السياسيّة والثقافيّة، أو من وجهة النظر الاقتصاديّة؛ واتّحد مصيره، منذ ذلك الحين ولقرون عدّة، بالسلالة التي قطعت الصلة بتقاليد الأسياد السابقين في سوريا. والعاصمة الفاتنة ومدينة الإسلام كانت بغداد التي تأسّست سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م على يد المنصور، وكسفتها سامراء، فقط بين ٢٢١ و٢٧٦هـ/٨٣٦ و٨٨٩م. وقد عرف العراق فترات مضطربة خلال قرنين من حكم الخلفاء العبّاسيّين: حصار جيوش المأمون لبغداد في ١٩٦-١٩٧هـ/٨١٢م-٨١٣م؛ وتأسيس سامراء الذي أوجبته جزئيًّا الإبتزازات التي اقترفها في بغداد أفراد حرس الخليفة الجدد، الأتراك الأصل؛ وثورة الزنج من ٢٥٥هـ/٨٦٩م إلى ٢٧٥هـ/٨٩٣م، في منطقة المستنقعات. وإذا كانت الحركات الشيعيّة قد خفّت بعد اختفاء الإمام العلوي الثاني عشر في سامراء في ٢٦٠هـ/٨٧٤م، فقد شيّدت أضرحة جديدة، تكرّمها الإماميّة الاثنا عشريّة: في بغداد للإمامين السابع والتاسع في الحي الذي سُمّي منذ ذلك الحين «الكاظميّة»، وفي سامراء للإمامين العاشر والحادي عشر.

إن تعيين أمير الأمراء في ٣٢٤هـ/٩٣٥م، فتح عهدًا جديدًا مختلفًا تنازل خلاله الخلفاء عن معظم صلاحياتهم: أوّلاً لهؤلاء الأشخاص الذين ينتمون، منذ ٣٣٣هـ/٩٤٥م، إلى عائلة البويهيّين الإيرانيّين الشيعة؛ ثمّ، بدءًا من ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، إلى السلاطين السلاجقة الذين كانوا، في البداية، قادة عسكريّين أتراك اجتاحوا أرض الإسلام، ثم تأقلموا ثقافيًا في إيران قبل اعتناقهم

المذهب السني. أصبح العراق، خلال تلك الفترة، ولاية كسائر الولايات، لكنّه، على الرغم من ذلك، ظلّ محافظًا على أبهة عائدة لإقامة الخليفة فيه، ولاستمرار حياة ثقافيّة ناشطة فيه. وبينما كان الصراع محتدمًا بين المذاهب الكلاميّة والمذاهب الفقهيّة، كانت الحياة الإقتصاديّة في تقهقر نتيجة الاضطرابات الدائمة، وما نتج عنها من انتقال طرق التجارة البريّة والبحريّة. أخيرًا، إنّ محاولات الخليفة الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م) تقوية سلطته وإعادة ترميم الوحدة المعنوية والسياسيّة للخلافة العبّاسيّة، خارج حدود مملكته العراقية، هذه المحاولات ضاعت سدًى، إذ تلاشت السلطات الحقيقيّة للخلافة بعد غزو المغول في ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ومعها زالت الهيبة التي نعمت بها، حتّى ذلك التاريخ، بلاد ما بين النهرين في العصور الوسيطة.

إبتداء من النصف الثاني من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد حتى ١٥٣٤م، تاريخ الفتح العثماني، سيطرت على البلاد سلالات عدّة خارجيّة متعاقبة، كالإيلخانيّين، ثمّ الجلائريّين، وهم أيضًا من المغول، وقد فرضوا أوّلاً سيطرتهم على بلاد ما بين النهرين العليا؛ ثمّ التيموريّين بعد نهب بغداد على يد تيمورلنك في ٨٠٣هـ/١٤٠١م. وقد حكم هؤلاء جميعًا بعد المغامرة المغوليّة، وخلفهم التركمان، أي القَراقيونلو (٨١٤-٨٧٣هـ/١٤١١-١٤٦٨م)، ثمّ الآق قيونلو (١٤٦٨-١٥٠٨م)، وأخيرًا الصفويّون الذين اضمحلّوا شيئًا فشيئًا أمام العثمانيّين الذين احتلّوا العراق وبلاد ما بين النهرين العليا في العام ١٥٣٤م. كانت الحال في الواقع غير مستقرّة، وتمكّن زعماء بعض الجماعات من فرض سيطرتهم في بعض المناطق. هكذا استطاع العثمانيون احتلال بغداد من جديد بين ١٦٢٣ و١٦٣٨م، وعقد اتفاق في ١٠٤٩هـ/١٦٣٩م ثبّت حدود الأمبراطوريّتين، الفارسيّة والتركيّة، اللتين كانتا تتنافسان للسيطرة على العراق. في القرن الثامن عشر حكم ولاية بغداد العثمانية والٍ من أصل جورجي، هو حسن باشا الذي خلفه ابنه. هذا وذاك جمعا حرسًا من المماليك الجورجيّين الذين حكموا البلاد حتّى القرن التاسع عشر. وباشرت الحكومة العثمانيّة آنذاك إحكام سيطرتها على أرض كان التدخل الغربي فيها ما يزال محصورًا، ولم يصبح فعليًا إلاّ في ١٩٢٠، إثر الحرب العالميّة الأولى وانهزام السلطنة العثمانيّة. عندها عُهد بهذه البلاد إلى بريطانيا العظمى كسلطة منتدبة، وتوسّعت في المناسبة لتشمل بلاد ما بين النهرين العليا.

مهّدت تلك المرحلة لظهور كيان جغرافي وسياسي جديد يضمّ وادي دجلة الأوسط والسلاسل الجبليّة المجاورة للموصل، ممتلكًا بذلك مصادر نفطيّة مهمّة من جهة في منطقة البصرة، ومن جهة أخرى في منطقة كركوك. كان السكّان مؤلّفين منذ ذلك الوقت من ثلاثة عناصر متميّزة: الأكراد المستقرّون في المنطقة الشماليّة، والسنّة وأخيرًا الشيعة الذين تمركزوا في المنطقة الجنوبيّة حيث كانوا قد استقرّوا منذ العهد الأموي، متجمّعين حول مزارات الحسين في كربلاء وعلي في النجف، وهي العتبات المقدّسة التي أضحت بالنسبة إليهم مراكز للحياة الفكريّة والدينيّة، ولا سيّما النجف الذي كان قد لجأ إليه، في القرن الثامن عشر، علماء طردهم نظام نادر شاه من إيران. ولكن بالرغم من عدم التجانس العرقي والديني بين السكان، وهو أمر يشجّع على الانقسامات وعلى الصراعات الداخليّة، أصبح العراق الممتدّ على بلاد ما بين النهرين القديمة كلّها - والذي جرت قولبته في دولة من قبل البريطانيّين عندما نصّبوا على العرش ملكًا من السلالة الهاشميّة، فيصل الأوّل ابن الشريف حسين - بلدًا مستقلاً نمت فيه روح قوميّة جديدة.

٢- الجمهوريّة العراقيّة، مساحتها: ٤٣٤ ٩٢٤ كلم²، عاصمتها: بغداد. دولة مستقلّة تشكّلت من الولاية القروسطيّة مضافًا إليها بلاد ما بين النهرين العليا، ديانتها الرسميّة الإسلام، مع وجود نسبة ٩٥ ٪ من المسلمين، سنّة وشيعة إماميّة، يتقاسمون سكانًا يناهز عددهم تقريبًا ١٨ مليون نسمة.

نشوء هذه الدولة على أرض تابعة للدولة العثمانيّة، تمّ على أيدي الحلفاء في مؤتمر سان ريمو (نيسان ١٩٢٠)، وثبّت بموجب إتفاقيّة سيفر (Sèvres) في تشرين الأوّل ١٩٢٠. ورسمت الحدود بينها وبين الدول

التي تجاورها حاليًا - أي إمارة الكويت، والمملكة العربيّة السعوديّة، والمملكة الأردنيّة الهاشميّة، والجمهوريّة السوريّة، وأيضًا تركيا وإيران - بعد أن ضُمت ولايتا البصرة وبغداد مع كركوك، وأُلحقت بها، عام ١٩٢٥، ولاية الموصل. كان النظام السياسي ملكيًّا دستوريًّا اعترف، في آب ١٩٢١، بالأمير فيصل ابن الشريف حسين ملكًا، تحت الانتداب البريطاني.

عندما انتهى الانتداب البريطاني في عام ١٩٣٢، أعلن الاستقلال، ثمّ قُلب النظام الملكي في ١٩٥٨ على أيدي مجموعة من «الضباط الأحرار»، مستوحين أفكارًا مشابهة لتلك التي عرفتها حركة عبد الناصر في مصر والتي ولّدت في العراق سياسة اشتراكيّة وقوميّة. أُعلنت الجمهوريّة، التي رئسها على التوالي: اللواء قاسم (١٩٥٨-١٩٦٣)، المشير عبد السلام عارف (١٩٦٣-١٩٦٦)، اللواء أحمد حسن البكر (١٩٦٨-١٩٧٨) يساعده صدّام حسين، وكلاهما من حزب البعث. وكان العراق، في غضون ذلك، قد أصبح، في ١٩٧٠، ديمقراطيّة شعبيّة لها سلطة عليا، هي مجلس قيادة الثورة، المؤلّف من ستة أعضاء ينتخبون من بينهم الرئيس الذي كان، في الوقت نفسه، رئيس الجمهوريّة ورئيس الحكومة، وقد اضطلع صدّام حسين بهذه المسؤوليّة منذ ١٩٧٩.

العراق بلد واسع، مأهول بالسكّان، معتزّ بماضيه القروسطي وغني جدًّا بالموارد الطبيعيّة، ومن بينها الموارد النفطيّة. لكنّه، مع ذلك، مرّ بمراحل تحديث صعبة، طُبعت بالتشنّج السياسي، سواء في تطوّره الداخلي أو في علاقاته المتزعزعة بالبلدان المجاورة، خاصة بسبب ضيق منفذه البحري. لقد طُرحت مشكلة الحدود مع إيران سنة ١٩٢٩، ثمّ مجددًا في ١٩٧٥، وكانت في أساس الحرب التي أعلنها العراق عليها في ١٩٨٠ وانتهت في ١٩٨٨. وثمّة مشكلات أخرى مع الكويت الذي رفض العراق في البدء الاعتراف باستقلاله سنة ١٩٦١، والذي اجتاحه في ١٩٩٠ إلى أن أجبرته القوى الغربيّة على الانسحاب منه بعد بضعة أشهر. أما المناطق الشماليّة المأهولة بالأكراد فقد عانت الاضطرابات، واستمرّت فيها صراعات يبدو حلّها بعيد المنال.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٩، ٤٥ و٤٦.

العرب، اسم شامل كان له عبر العصور مفاهيم متنوّعة وسط العالم الإسلامي، لكنّه يشمل السكان الذين يستعملون العربيّة لغة التواصل بينهم. وهذه اللغة هي واحدة، برغم تنوّع لهجاتها بتنوّع المناطق.

في عصر ما قبل الإسلام، كانت لفظة «عرب» تشير تحديدًا إلى سكان شبه الجزيرة العربيّة، الذين كانوا، في غالبيتهم، من البدو الرحّل، يتوزّعون إلى قبائل توغّل بعضها في سهب سوريا ومناطق ما بين النهرين واستقرّ فيها. وكان العرب قسمين: العرب العاربة الذين يرجعون بنسبهم إلى قحطان، أو عرب الجنوب، وهم ورثة حضارات سبأ ومعين وحميَر وقتبان وحضرموت، وإنّ البقايا الأثريّة لهذه الحضارات لا تزال بارزة في الجمهوريّة اليمنيّة الحاليّة؛ والعرب المستعربة الذين يرجعون إلى عدنان أو عرب الشمال. وهؤلاء وأولئك عرفوا التنقّل والتغييرات السكنيّة، وكان لهم احتكاك بالشعوب المجاورة، فتأثّر بعضهم، منذ زمن بعيد، بالآراميّة وثقافتها. وفي زمن لاحق برزت، عند العرب، دولة الأنباط في البتراء، وكانت ذات طابع تجاري؛ كما قامت، بدعم من الساسانيّين والبيزنطيّين، دولة اللَّخْميّين ودولة الغساسنة، بهدف الدفاع عن حدود كلّ من الامبراطوريّتين، فكان اللخميّون تابعين للساسانيّين، والغساسنة للبيزنطيّين.

وكان التنظيم في عصر ما قبل الإسلام قائمًا على أساس قبلي، واستمرّت هذه الخاصة قائمة في مجموعات حافظت على قبليّتها حتى العصور الحديثة، وعلى إقامتها في مناطق مجدبة من شبه الجزيرة العربيّة وما يتاخمها. وفي المقابل، فإنّ العرب الذين ترحّلوا عن مناطقهم ليستقرّوا في مناطق أخرى ويعيشوا حياة الحضر، لم يتخلّوا عن الشعور بفخر انتمائهم القبلي، وهذا ما يظهر في تعلّقهم بالنسب وبالأسماء المركّبة التي يتّخذونها وتكون عائدة إلى أصل قبلي. وهذا الميل بقي قائمًا متجدّدًا في المناطق المختلفة، بعد التوغّل الأوّل للفتوحات الكبرى نحو الشمال، وحتّى بعد بلوغ بلاد الأندلس وآسيا الوسطى وسائر المناطق التي دخلت ضمن الأمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة.

والتوسّع العربيّ الكبير تبعه انتشار الإسلام وازدهاره، ذلك أنّ النبيّ محمدًا (ﷺ) حمل رسالته إلى العرب أوّلًا، كما نزل الوحي باللغة العربيّة. فاعتبر العرب أنفسهم شعبًا مختارًا قُدّر له أن يحمل رسالة النبي (ﷺ) وينشرها في العالم، ذلك أنّ الإسلام، على كونه دين العرب، له طابع عالمي، يستوعب كل الشعوب. واللغة العربيّة التي ارتدت طابع القداسة، لأنّها وسيلة الصلاة ولأنّ القرآن الكريم أُنزل بها، فرضت نفسها على كلّ مسلم مع الفتوحات الكبرى، وحملت كلّ من يتقبّل الدين الجديد على أن يستعملها. والمعروف أنّها لغة ساميّة تميل إلى الصوامت، وتعود مفرداتها بعامة إلى جذور ثلاثية، وهذه الجذور قابلة لكل أنواع التركيب. فاللغويّون الذين عملوا في المعاجم والقواعد احترفوا دراسة هذه اللغة وتثبيت أسسها وكتابتها على أثر المشكلات التي نتجت من خصوصيّاتها وخصوصيّات كتابتها، بعد نقل الوحي بواسطتها. وغدت الكتابة العربيّة الكتابة الإسلاميّة المميَّزة.

في مرحلة تاريخيّة أولى، انتشرت اللغة العربية عمليًا مع انتشار الإسلام في المناطق التي أصبحت تتّصف بأنّها البلاد العربيّة الإسلاميّة، على أساس أنّ العربيّة لم تكن لغة الصلاة فحسب، بل كانت أيضًا لغة التواصل الثقافي. وفي حدود القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، بدأت اللغة الفارسيّة في إيران تستعيد استعمالها لغةً للآداب والملاحم والشعر، في حين أنّ العربيّة لم تعد إلّا لغة العلوم الدينيّة والدنيويّة. وفي وقت متأخّر، فرضت التركيّة نفسها تدريجيًّا في البلدان التي خضعت للأتراك، وتحديدًا في آسيا الوسطى وأذربيجان والأناضول. خارج ذلك، في المناطق البعيدة التي دخلها الإسلام متأخرًا، كالهند وإندونيسيا وأفريقيا السوداء، بقيت العربيّة محصورة ضمن نطاق الأمور الدينيّة، ولم يُتح لها أن تحلّ مكان اللغات المحلّيّة، لا في الحياة اليوميّة ولا في الأمور الرسميّة.

حصل الانتشار الأوّل للغة بسرعة، في المرحلة الأولى، لأنّ العرب، بعد تقبّلهم الإسلام، قرّروا الإستيطان في مختلف المناطق التي احتلّت. ولم يشكلوا في البداية إلّا أقلّيات محاربة متمركزة في أماكن إستراتيجيّة، تأمّنت لها الغنائم الوفيرة والأراضي الخصبة. فلم يكن هؤلاء العرب، تاليًا، يرغبون في الاختلاط بأبناء البلاد الأصليّين. ومن هنا كان اهتمام العرب المسلمين بتأسيس مدن خاصّة بهم، هي المدن المعسكرات، لتأكيد تفوّقهم السياسي والعسكري بشكل أفضل. وكان من نتائج ذلك أن استهوت الثقافة العربيّة المغلوبين. وهذه الجاذبيّة أدّت إلى اعتناق السكّان الأصليّين الإسلام، ما سمح لهم بالتخلّص من وضعيتهم كأبناء ذمّة، كما سمح لهم بأن ينتموا إلى الغزاة ويصبحوا من مواليهم، حتّى إنّ هؤلاء الموالي حاولوا عن طريق تبديل أسمائهم بأسماء أخرى وهميّة، أن يربطوا نَسَبهم بأعرق القبائل العربيّة من عصر ما قبل الإسلام. وهكذا فإنّ الشعوب غير العربيّة في الأمبراطوريّة تعرّبت وأسلمت. ثمّ إنّ عمليّة ارتباط العرب بنساء غير عربيّات، عن طريق الزواج أو التسرّي، أدّت إلى إنجاب أبناء اعتُبروا شرعيّين. وهذا ما ساعد، في مناطق مختلفة، على قيام مجتمع يستطيع كل واحد فيه أن يدّعي أنّه عربي، وأصبح من الصعب تمييز الأصيل من الدخيل. إلّا أنّ هذا التفاعل الإتني لم يمنع السكان الأصليّين من أن يدافعوا أحيانًا عن تراثهم وماضيهم، في خضمّ صراعات خفيّة كانت تؤدّي، من وقت الى آخر، الى ثورات.

حتّى القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، كان العالم الإسلامي عالمًا التقت فيه عناصر بشريّة متنوّعة غير عربيّة، بربريّة في المغرب، إيبريّة في الأندلس، قبطيّة في مصر، آراميّة في سوريا والعراق، إيرانيّة أو تركيّة في إيران وفي بلاد ما وراء النهر. وقد تبنّت هذه العناصر اللغة العربيّة بصورة كاملة، ما يجعلك تظنّ أنّها كلّها من أصل عربي. فميادين الثقافة العربيّة الدينيّة والدنيويّة، في الآداب والعلوم المتنوّعة، في الرياضيات والطب والتاريخ والجغرافيا، كانت من صنع علماء ومفكّرين استعانوا باللغة العربيّة للتعبير عن أفكارهم بعدما تقبّلوا الإسلام.

إلاّ أنّ هذا الواقع تبدّل ابتداءً من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، عندما أوجدت الغزوات

التركيّة والمغوليّة ميدانين ثقافيّين، ميدان تركيّ وآخر إيراني، استطاعا أن يتكوّنا ويتّسعا بفضل يقظة لغتيهما. ومقابل ذلك، بدأت تضعف أهميّة الشعوب الآخذة بالعربيّة، وبدأت هذه الشعوب تنحصر إلى الشرق الأوسط والمغرب. في هذا المجال، وإلى جانب العرب الأصائل في الجزيرة العربيّة وما جاورها مباشرة من مناطق، عاش بعد ذلك التاريخ عدد من الشعوب التي تُعتبر عربيّة، لكنّها في الواقع تنطق بالعربيّة وحدها، في حين يصعب تحديد الأصول التي تنتمي اليها. هؤلاء العرب هم في غالبيّتهم من المسلمين، مع العلم أن العروبة لا تعني الإسلام حتمًا. وفي الشرق الأوسط عرب مسيحيّون كانوا في القرن التاسع عشر من أهمّ المدافعين عن اللغة العربيّة وثقافتها.

عَرْبسة (أرابسك)، عنصر تزييني معتمد في الكسوة، يشكّل زخرف الأبنية والتحف الفنيّة في البلدان الإسلامية. وهو ليس بعارٍ، في تسميته، عن المفهوم الإثني. لكن ينبغي البحث عن فرادته الإبداعيّة في تحريم التجسيم في الإسلام. تُستعمل لفظة «أرابسك» أحيانًا للإشارة إلى مجموعة زخرفيّة مغطّية تجمع، إلى الأشكال النباتيّة، التشبيكات الهندسيّة والكتابات المنقوشة. ولكن، بالمعنى الضيّق للكلمة، يجب أن يقتصر فنّ الأرابسك على أشكال ذات أصل نباتيّ، فتنطلق من خطّ متواصل يخضع للإيقاع اللولبي الحلزوني غير المتناسق أو للتعصيبات. فالأشكال الزخرفيّة الحلزونيّة التي تتخلّلها الأغصان والأوراق والأزهار والتي لا رابط بينها وبين ما نجده في الطبيعة، هي في الواقع أنواع خاصة من التركيبات التي لها طابع التجريد التي تطوّرت عبر العصور تبعًا للأمكنة ولظروف العصر.

نستطيع إذًا أن نتكلّم عن تطوّر الأرابسك التاريخي المرتبط بمختلف مراحل الحضارة الإسلاميّة. ويمكن القول إنّ ولادة هذا الفن كانت مع الأشكال الزخرفيّة الواعدة التي ميّزت فنّ السلالة الخلافيّة الأولى، نعني بها سلالة الأمويّين، التي استوحت فنّ الأرابسك من إرث الشعوب المغلوبة، ولا سيّما البيزنطيّة والساسانيّة، أكثر ممّا استوحته من التقاليد العربيّة. والتعبير الكلاسيكي عن هذا الفنّ يتمثّل بما وصل إليه في ما بعد، على عهد الخلافة العبّاسيّة، في أوج المرحلة البغداديّة - السامرّائيّة. واستمرّ على ازدهاره حتّى القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وذلك في الشرق الإسلامي وغربه. إلّا أنّ رياحًا جديدة حملتها الغزوات الأسيويّة المتتابعة استطاعت أن تطوّر جزئيًّا فن الأرابسك وأن تعطيه أشكالًا جديدة مع العثمانيّين والصّفويّين والمغول، في حين أنّه في مناطق أخرى، كالمغرب والشرق الأدنى العربي، حافظ على صيغه السابقة التي أخذت تتكرّر إلى ما لا نهاية، فكانت أحيانًا تزدهر وأحيانًا تتحجّر لتتحوّل إلى نوع من الرسوم المقولبة التي تُستنسخ بصورة دائمة والتي لا تزال تُستعمل حتّى اليوم.

العرش، كرسيّ الملك ورمز السلطة، وقد عُبّر عن هذا المفهوم، في جوانبه المتعدّدة، في الأوساط الإسلاميّة القروسطية، باللجوء الى مفردات مختلفة.

في المعنى الحقيقي، استُخدمت كلمة «سرير» التي تعني تخت الأبهة حيث كان يجلس العاهل على الطنافس، وفقًا للطريقة الشرقيّة، والتي تُعبّر عن العادات الإحتفاليّة في البلاط. أصبح «السرير»، في فترة متأخّرة، قطعة أثاث، خصوصًا عند الصفويّين والمغول والعثمانيّين الذين تركوا لنا نماذج ثمينة منه.

فضلًا عن ذلك، ورد في القرآن الكريم تعبيرا «الكرسي» و«العرش». ففي الآية ٢٥٥ من سورة البقرة، وهي المعروفة بآية الكرسيّ، ورد: «وسِعَ كرسيُّه السماوات والارض». وكان هذا التعبير موضوع تفسيرات عديدة عند العلماء والفقهاء. فبالنسبة الى بعضهم كالحنابلة، مثلًا، الذين يُطلقون على الله الصفات البشريّة، فإنّ الله يجلس فعلًا «على كرسيه» ويشمل هذا الكرسي السماوات والأرض. بينما يرى فريق آخر أنّ هذا الكرسي يتماثل مع السماء الداخليّة، وهي إحدى السماوات السبع التي تحيط بالأرض. ويحمل هذا الكرسي، عند فريق ثالث، معنى مجازيًا: المعرفة الإلهيّة. نُشير أيضًا إلى أنّ كلمة «عرش» تُستعمل في بعض الآيات القرآنية (الآية ١٥ من سورة غافر) للدلالة على كرسيّ الله، بينما يستعمل المفسّرون

كلمة كرسيّ بمعنى مدرجة.

عرفة أو عرفات، إسم مكان في الحجاز غدا مشهورًا بفضل احتفالات الحجّ؛ والتسمية تشمل في آن، خارج الحرم المكّي، السهل الواقع على بعد نحو عشرين كيلومترًا شرقي مكّة، والجبال المشرفة عليه.

من بين المرتفعات، تلّة صغيرة معزولة تُعرف باسم «جبل الرحمة»، تتميّز بترتيبات قديمة العهد: درج حجريّ واسع فيه مصطبة عند الدرجة الستين، ومئذنة تعلو القمّة وتتوّجها، وهما ما زالا يُستعملان، كما كانت الحال في القرون الأولى للإسلام، لإلقاء العظات على الحجّاج. وقد درجت العادة في موسم الحجّ على رفع أعلام حامي الأماكن المقدّسة عليها، وغالبًا ما كان هذا الحامي هو الخليفة العبّاسي. وعادة رفع تلك الأعلام في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد نتأكّد من وجود نقوش يعود تاريخها إلى ذلك العصر.

في موسم الحجّ من كلّ سنة، في التاسع من ذي الحجّة، أو «يوم عرفة»، يمتلئ السهل، المقفر عادةً، بجموع الحجّاج الذين ينصبون الخيام بانتظار «الوقوف» الذي يمتدّ من العصر إلى الغروب. وخلال ذلك تُتلى الصلوات و«الطلبات»، وتُلقى «الخطب»، ويقوم بذلك في أيّامنا هذه قاضي مكّة المكرّمة، وهذه الخطب كانت قديمًا تُلقى باسم سيّد الأماكن المقدّسة.

عزرائيل ← **ملائكة**.

عسقلان، مرفأ قديم على الساحل الفلسطيني، احتلّه المسلمون سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م إبان الفتوحات الكبرى، وكان له دور مهمّ خلال الحروب الصليبيّة.

١- كانت عسقلان مدينة يونانيّة رومانيّة، ثمّ بيزنطيّة، ذات أهميّة استراتيجيّة على طريق مصر، احتلّها معاوية مؤسّس الخلافة الأمويّة بموجب صلح، ثمّ حصّنها عبد الملك بن مروان. وقد دخلها الفاطميّون لاحقًا وبقيت في قبضتهم حتى منتصف القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، على الرغم من هزيمتهم أمام الفرنج سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م.

كانت عسقلان آخر معقل فلسطيني ضمّه الفرنج إلى مملكة القدس سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، بعد حصار طويل. ثمّ استرجعها صلاح الدين بعد معركة حطّين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وهدمها خوفًا من هجوم مضادّ يشنّه ريكاردس قلب الأسد ملك انكلترا، كما هدم قلعتها. وما أن استعادت المدينة بعض عافيتها حتّى وقعت في يدي السلطان المملوكي بَيْبَرْس سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م، فدمّرها كليًّا.

في سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، شُيّد فيها مشهد تكريمًا لرأس الحسين، وبعد سقوط عسقلان تمّ نقل الرأس إلى القاهرة حيث حفظ في مشهد جديد.

٢- جرت معركة عسقلان سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م خارج المدينة، وتركت أثرها في تاريخ الحملة الصليبيّة الأولى إذ كرّست سيطرة الفرنج على السواحل السوريّة.

هذه الهزيمة التي مُني بها المسلمون والتي تلت مباشرة سقوط القدس في أيدي الصليبيّين منعت قيام الفاطميّين بأيّ ردّ فعل لمدّة من الزمن، ولكنّها لم تؤدّ إلى سقوط قلعة عسقلان التي صمدت حتى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، لذا لم تشكّل لمحتلّي فلسطين المسيحيّين ذلك الانتصار الإقليمي المهمّ الذي كان في إمكانهم تحقيقه.

◄ راجع المستند رقم ١٨.

العسكري (التنظيم)، أحد العناصر الذي ساهم، خلال القرون الوسطى، في تعزيز الديناميّة التوسّعيّة في العالم الإسلامي. نشأ نتيجةً للغزوات الكبرى خلال القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي، من ثمّ تكيّف مع نشوء الأمبراطوريّات الكبرى، وبعدها مع الإنقسامات الداخليّة الناتجة عن طموحات مختلف أسياد الحرب.

ولم ينفكّ هذا التنظيم العسكري، نظريًّا، عن تأدية دوره في تلبية متطلبات الجهاد وتأمين الدفاع عن «دار الإسلام»، والعمل على توسيعها باتّجاه أراضي الأعداء المجاورة. ومن أجل حماية حدود هذه الدار البريّة والبحريّة الطويلة، أقيمت تحصينات وأبنية أخرى، معتمدةً على هندسة معماريّة عسكريّة حقيقيّة، كما نُفّذت، ضدّ العدو، غارات موسمية فرضتها ضرورات «تكتيكيّة»، أدّت أحيانًا إلى ضمّ مقاطعات جديدة إلى الأراضي الإسلاميّة. من ناحية أخرى، أضعفت النزاعات المحليّة داخل العالم الإسلامي قدرات القوّات على

التحرّك. وقد تعدّدت أنواع هذه القوّات وفقًا للمكان والزمان، وتكيّفت باستمرار مع المعطيات المتغيّرة، منها التطويع وتقنيّات القتال والتسليح، وأخيرًا طبيعة الفيالق المختلفة، أي أعراق المقاتلين من عبيد أو محرّرين، وتراتبيّة قيادتها.

١) تشكّلت **أوّل الجيوش** التي قامت بالفتوحات الكبرى في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة الأوّلين، حصرًا من عرب متطوّعين من قبائل شبه الجزيرة العربيّة، مارسوا القتال على الطريقة البدويّة السائدة في هذه المناطق، وضمّت صفوف الجيش عددًا من صحابة نبيّ الإسلام ﷺ. وكان أفرادها المسجّلون على الجداول وفقًا لأقدميّة إسلامهم ينالون، بعد كل حملة، حصة من الغنيمة تشكّل راتبًا حقيقيًّا. وتميّزت الفرق المختلفة التي تألّف منها الجيش بقلّة انضباطها وبعدم قدرتها على إحلال فكرة الحياة الجماعيّة محل الروابط العائليّة والقبليّة، فتمّ تمركزها إمّا في مدن - معسكرات مثل البصرة والكوفة والفسطاط، وإمّا في أجناد الأراضي المحتلّة، ولا سيّما في سوريا، حيث تمّ تجميعها وفقًا للقبائل التي تتشكّل منها، على أن تبقى متأهبة لمواصلة القتال في الأماكن البعيدة، على الرغم من وجودها في أحياء المدن أو في مناطق خصّصت لها.

وبقي النظام نفسه سائدًا خلال عهد الأمويّين، حيث انضمّ إلى الجيش العربي أفراد محليّون اعتنقوا الإسلام، أُطلق عليهم إسم الموالي، لكنّهم كانوا يتقاضون أجورًا متدنيّة. كما انضمّ بعض البربر إلى القوّات التي اجتاحت شبه الجزيرة الإيبريّة في العام ٩١هـ/ ٧١٠م، بينما تميّزت المقاطعات الأسيويّة بأهميّة مطالب المتطوّعين المحليّين وبالثورات التي قاموا بها. تزامن وصول العبّاسيّين إلى السلطة مع تحوّل جذري في جيش الخلفاء الذي أصبح جيش محترفين، هيمن عليه أوّلًا مقاتلون من خراسان من أصل عربي أو غير عربي، دعموا حركة العصيان المسلّح أو «الثورة العبّاسيّة» وأُطلق عليهم اسم «أبناء السلالة العبّاسيّة» لأنهم أمنوا نجاحها. وكانوا يتقاضون كلّهم أجرًا مماثلًا، من دون التمييز بين العرب والموالي، وحلّوا مكان أحفاد البدو الذين استقرّوا في سوريا وفي مصر. أمّا المرحلة الأخرى في تحوّل الجيش العبّاسي فقد حصلت خلال القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، على أثر الحرب الأهليّة الأخويّة التي انتهت بحصار بغداد في العام ١٩٦-١٩٧هـ/ ٨١٢-٨١٣م، هذا الحصار الذي تميّز بمعارك عنيفة ودامية.

لذلك، تفاديًا لعودة مواجهات شبيهة بين الجنود الذين كانوا منقسمين إلى أحزاب سياسيّة - دينيّة متناحرة، قرّر الخليفة المعتصم، في العام ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، شراء عدد كثير من العبيد الأتراك من آسيا الوسطى، ليحلّوا تدريجيًّا محلّ المجنّدين الخراسانيّين السابقين، وليشكّلوا في آن حرسه الخاص. أدّى تمركزهم في بغداد إلى صعوبات دفعت بالخليفة إلى اتّخاذ سامرّاء مقرًّا جديدًا له، حيث تمّ تجهيز أحياء بأكملها لاستقبالهم. لكنّ حرس الخليفة هذا لم يتكوّن من الأتراك وحدهم، بل ضمّ في صفوفه يونانيّين، أسرى حرب سابقين، وفُرسًا إضافةً الى البربر، لكنّ هؤلاء كانوا من الأحرار. كان يتمّ تحرير بعض الذين كانوا عبيدًا - ولم تكن قد أُطلقت عليهم بعد تسمية «مماليك» - وذلك في حال تمتّعهم ببعض الصفات، وكان في إمكانهم آنذاك أن يترقّعوا إلى رتبة ضابط مع الحصول على لقب «أمير» أو لقب «قائد». فكانوا يشكّلون آنذاك، في البلاط، فئة الأرستقراطيّة العسكريّة القويّة التي غالبًا ما كانت توضع في مواجهة الكتّاب والفقهاء وغيرهم من رجال الدين.

هكذا أصبحت سلامة السلطة في الخلافة ترتكز على وفاء جيش جديد وعديد؛ لكنّ هذا الجيش لم يشكّل قطّ عنصر الاستقرار المتوخّى، إذ لم يكفّ قوّاده عن التدخّل في الخلافات الداخليّة وفي إثارة النزاعات في البلاط. وحتّى عندما نجح الخليفة العبّاسي في تعزيز سلطته بفرضه رقابة قائد عام عليهم - وهذا ما حصل في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، بعد قمع ثورة الزنج - واصل التنظيم العسكري ممارسة ضغطه على السلطة التي أصبحت خاضعة لوصاية قائد القوّات العسكريّة. في أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ضُمّت إلى الجيش العبّاسي فرق مؤلّفة من الديالمة الأحرار القادمين من المناطق الجبليّة في جيلان ومازندران. كانت هذه الفرق تدعم، بشكل خاص،

أمراء أسرة البويهيّين الأقوياء. وتألّفت منذ ذلك التاريخ الجيوش الإسلاميّة في الشرق من المرتزقة الأجانب، وغالبًا من العبيد الأرقاء، وذلك ليس في بغداد وحدها، إنّما في كافّة الدول التي نشأت نتيجة تفكّك الأمبراطوريّة، سواء أقرّت أو لم تقرّ بالسلطة المركزيّة للخلافة. هذا كان مثلًا وضع جيش السامانيّين أو جيش الغزنويّين.

وفي الغرب الإسلامي، سرعان ما أقدم الفاطميّون في إفريقية ومصر على زيادة عديد قوّاتهم المؤلّفة أساسًا من عناصر متمرّسة من السلافيّين والزنوج العبيد المستوردين. وكان حكّام الأندلس، من جهتهم، قد طوّعوا فرقًا من الصقالبة، إضافةً إلى العرب والبربر المستقرّين في شبه الجزيرة الايبيريّة منذ الفتح، فضلًا عن بعض المرتزقة من المسيحيّين. ظلّت مثل هذه الأساليب متّبعة في ما بعد طيلة القرون الوسطى، في أمبراطوريّات المغرب التي كان قد أسّسها زعماء روحيّون اعتمدوا، على غرار المرابطين والموحّدين، على قوّات جُمعت باسم الجهاد. لم يكتف هؤلاء باستخدام قوّات مؤلّفة من أتباعهم ومن أفراد القبائل التي دعمت قضيّتهم والتي ينتمون اليها، ولكن قاموا أيضًا بتطويع مقاتلين مسيحيّين فضلًا عن الأتراك والعرب، بحيث أصبحت جيوشهم بدورها مؤلّفة من عناصر مختلطة، واستمرّ هذا التقليد في عهد خلفائهم. وخلال القرن السابع عشر مثلًا، كانت القوّات المغربيّة السعديّة، ومن ثمّ العلويّة، تضمّ بربرًا وعربًا وزنوجًا، لم يتردّد البعض منها، في بعض المناسبات، من إثارة اضطرابات خطيرة.

٢) في **المشرق السلجوقي**، برز أيضًا بوضوح الدور الذي أدّاه التنظيم العسكري. ارتكز على هذا التنظيم توازن مجتمع إسلامي جرت العادة فيه، منذ القرن السابع الهجري/القرن الثالث عشر الميلادي، على التمييز بين «المعمّمين» أو رجال الدين الذين اقتصر دورهم على المسؤوليّات الفقهيّة، وبين «رجال السيف»، الذين يُمسكون بالسلطة الفعليّة، بفضل سلاحهم وبفضل الشرعيّة التي اكتسبوها بصفتهم مدافعين عن الإسلام. وبلغ هذا التمييز بين الفئتين ذروته عندما تواجهت ثقافة العلماء العربيّة - الإسلاميّة مع خصوصيّة الضباط والجنود المسلمين غير العرب، ولا سيّما الأتراك والشركس، الذين غالبًا ما حافظوا على لغتهم الأم وكانوا، فور إمساكهم بالسلطة، ينوّهون - على غرار «الملوك العبيد» الذين شكّلوا أحد فروع سلاطين دلهي خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي - بانتمائهم السابق إلى طبقة العبيد.

وهكذا تصرّف أيضًا مماليك مصر وسوريا عندما استولوا على السلطة في العام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ووضعوا نظامًا للحكم خُصّصت أعلى المناصب فيه للأجانب الذين جنّدهم السلطان بهدف تدريبهم على التقنيّات العسكريّة التي كانت تُخصّص مكانًا كبيرًا لفنون الفروسيّة. وكان هؤلاء المماليك، الذين تمّ شراؤهم عبيدًا في البداية، يتابعون مسارًا في تدريبهم يمكّنهم من ارتقاء درجات في تراتبيّة صارمة، على الرغم من أنّها كانت باستمرار عرضة للتبدّل نتيجة للصراعات وللمنافسات الدامية. أما السلطنة العثمانيّة فكانت في هذه الحقبة تلجأ إلى جيش مؤلّف، بشكل أساسي، من أصحاب التيمارات، يُضاف إليه خيّالة أتراك وفرقة النخبة، وهي فرقة الإنكشاريّة المكوّنة من شبّان تحوّلوا إلى الإسلام بعد أن تمّ تجنيدهم منذ طفولتهم، على أيدي حكّام مختلف المناطق، بموجب نظام «الدوْشِرما». هكذا هيمنت عناصر أصلها من الرقيق على التنظيم بكامله، في حين انضمّت إلى الحملات الموجّهة ضد اعداء الإسلام عناصر من الميليشيات المُدُنيّة السابقة التي كانت قد تحوّلت إلى شبه جمعيّات يترأسّها «إخوان»، كما انضمّ إليها، بشكل خاص، مقاتلون مستقلّون شاركوا في الجهاد تحت إسم «الغزاة». ومن جهة أخرى، أُوليت المدفعيّة عناية خاصّة، وكانت قد بلغت درجة عالية من التقنيّة في عهد محمّد الثاني إبّان فتح القسطنطينيّة.

ونتيجة لسعيهم الدائم لفعاليّة أكبر، أدرك العثمانيّون، في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر، قبل سواهم من المسلمين، أهميّة تجهيز جيوشهم وتدريبها على الطريقة الأوروبيّة. وأفضت أخيرًا إصلاحات متعاقبة، في حزيران ١٨٢٦، إلى إلغاء تنظيم

الإنكشاريّين الذين كانوا قد وقفوا في وجه كل محاولات الإصلاح ورفضوا كافّة التدابير الهادفة إلى إنشاء جيش جديد. وتمّ تدريجيًا إعتماد التجنيد الإلزامي وفرض خدمة عسكريّة في عام ١٨٤٣، كانت مدتها في البدء خمس سنوات، ثمّ خُفّضت إلى ثلاث في العام ١٨٨٦. وكان القانون ينصّ عندئذ على إلزاميّة الخدمة العسكرية للرعايا المسلمين فقط، وفقًا للعرف الإسلامي. ولكن، في عهد التنظيمات، نصّ الخط الهمايوني، في العام ١٨٥٦، على إلزاميّة هذه الخدمة للرعايا كافةً، من مسلمين وغير مسلمين. وفي الواقع لم يتمّ تطبيق هذا التدبير، إذ استمرّ إعفاء غير المسلمين حتّى العام ١٩٠٩، وذلك مقابل تسديد ضريبة خاصة.

وكان محمّد علي وورثته وخلفاؤه الخديويّون قد باشروا في مصر، منذ العام ١٨١٥، إصلاحًا عسكريًّا مشابهًا، أدّى، في العام ١٨٢١، إلى إعادة تنظيم قوّات كبيرة وحشدها لمواجهة العثمانيّين في المشرق. وقد واصلت هذه القوّات حملاتها في الجزيرة العربيّة وفي السودان، وكان لا بدّ من تخفيض عديد هذا الجيش في ما بعد. وفي العام ١٨٨٠ صدر قانون نصّ على إلزاميّة الخدمة العسكريّة لمدّة أربع سنوات بالنسبة الى الرعايا المصريّين كافةً، مهما كان دينهم، ولكنّ الذين يُفرض عليهم فعلاً الإلتحاق بالجيش يُختارون عن طريق القرعة. وتمّ هكذا، في العام ١٨٨٢، انشاء جيش جديد مؤلّف من عشرة آلاف عنصر. كما أُخذت في ما بعد مبادرات مماثلة في دول أخرى. ففي إيران مثلًا لم تر محاولات إصلاح الجيش النور إلّا في العام ١٩٢١، بعد وصول رضا شاه بهلوي الى السلطة. إنّ مختلف دول الشرق الأدنى العربيّة التي نشأت بعد الحرب العالميّة الأولى، قررت، منذ ذلك الوقت، اعتماد التجنيد الإلزامي، إنّما من دون تطبيقه دائمًا بشكل فعّال. فكان هذا النوع الجديد من التنظيم العسكري، في جميع الحالات، مرتبطًا في معظم مناطق العالم الإسلامي بالدول القوميّة التي أفرزتها الحركات الوطنيّة.

٣) من جهة أخرى، نشأت هندسة عسكريّة لا علاقة لأيٍّ من سماتها المميّزة بالإسلام، استمدّت خصائصها من مصادر محليّة مختلفة، ورافقت تطوّر تنظيم عسكري لعب دورًا أساسيًا في تاريخ الدول الإسلاميّة وحضارتها خلال القرون الوسطى.

بسبب الصعوبات ذات الأصول المزدوجة الناتجة، من جهة، عن محاولات الأمبراطوريّة العربيّة التي نشأت بعد فتوحات القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي توطيد سلطتها وتوسيعها أحيانًا، ومن جهة ثانية عن الإنقسامات الداخليّة التي نتجت عن نزاعات مختلفة والتي تسبّبت بصراعات مسلّحة وبظهور مناطق دائمة الاضطراب، شهدت البلدان الإسلاميّة في القرون الوسطى تكاثرًا للمنشآت الدفاعيّة المتعدّدة المظاهر. كانت هذه المنشآت، التي بدأت بالظهور على حدود دولة الخلافة خلال عهدي الأمويّين والعباسيّين، مرتبطة بشكل أساسي، في ما خصّ الأناضول وبلاد ما بين النهرين العليا، بإنشاء مناطق لحماية الأجناد، سمّيت بالعربية ثغورًا وعواصم، وانطلقت منها الغزوات ضدّ الأعداء وحاولت، في أوقات معيّنة، وقف الهجمات البيزنطيّة.

ولذلك استُخدمت قلاع قائمة وتحصينات قديمة لمدن اعتُبرت حدوديّة، مثل مدينة ديار بكر التي حافظت إلى يومنا هذا على أسوارها البارزة العائدة جزئيًا إلى العهد البيزنطي. كما شهدت هذه الفترة قيام بعض الأبنية الجديدة مثل الرباطات التي كانت تشكّل مراكز دفاعيّة وتضمّ حاميات من المقاتلين المتطوّعين، «المرابطين»، وغيرهم من المجاهدين المجنّدين، وكان بعضهم من أتباع الصوفية. وسادت العادات نفسها في المغرب الإسلامي حيث أُقيمت، على مر العصور، شبكة من التحصينات في شبه الجزيرة الإيبيريّة، هدفها حماية مقاطعة الأندلس، بينما جُهّزت الشواطئ الجنوبيّة، على البحر الأبيض المتوسط، بقلاع صغيرة وبأبراج تطلق عند الحاجة إشارات لصدّ الهجمات والإنزالات الأجنبيّة.

وفي الوقت نفسه حافظت أبنية عسكريّة أخرى، خارج المناطق الحدوديّة، على تقاليد رومانيّة - بيزنطيّة، تجسّدت، إمّا ببعض الحصون أو الأسوار القديمة التي حوفظ عليها في مدن الداخل مثل دمشق، وإمّا بأسوار شاهقة تدعمها أبراج أُقيمت حول القصور. وحظيت هذه النماذج، خلال القرون الوسطى الإسلاميّة، برواج

متفاوت، إذ أدّت دورها خلال حقبات الفوضى، في حين ضعف هذا الدور خلال المراحل التي استطاعت فيها السلطة المركزيّة أن تفرض السلم. إستفادت هذه النماذج من تحسينات فنيّة مهّمة كتلك التي أدخلتها الحملات الصليبيّة في سوريا، ولكنّها، بصورة عامّة، حافظت على طابعها القديم إلى أن طرأت عليها التحوّلات المعاصرة.

وبالفعل لم يطرأ أيّ جديد، لزمن طويل، على وسائل الدفاع المعتمدة في القصور الملكيّة، وظلّت قريبة ممّا تمّ خلال عهد العباسيّين في بغداد وسامراء. ما زالت بقايا أبنية عديدة من عصور مختلفة، مثل أبنية لشكري بزار في سجستان من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأبنية فتحپور سكري في الهند من عهد المغول، أو أبنية مكناس في المغرب من القرن الثامن عشر، تشهد على ذلك.

كما أنّ الحصون التي كان يُطلق عليها إسم قلعة، في المشرق، وقَصَبة في المغرب، والتي دخلت في أسماء العديد من المواقع الجغرافيّة، ظلّت تعتني المدن لتلعب دور الموقع الدفاعي أو المقرّ الملكي، وفي الوقت نفسه لمراقبة السكّان والدفاع عنهم في حال تعرّضوا لهجوم خارجي مفاجئ، كما حصل في حلب خلال عهد الأيّوبيّين والمماليك. واستمرّت هكذا حصونًا ضخمة عرفت تاريخًا طويلًا واستُخدمت ضدّ أعداء من كلّ نوع، أحيانًا ضدّ قوات زعماء محليّين أو ضد البدو الساعين للغنائم. ما زالت هذه الحصون تتوّج بعض المنحدرات راسمةً عليها ظلالها بابراجها الضخمة. وفي المواقع الجبليّة والنقاط الإستراتيجيّة حيث ما زالت ننتصب، تبدو وكأنّها تهيمن على مفترقات الطرق أو على الجسور الممتدّة على طول طرق القوافل القديمة. حافظت أحيانًا على شهرتها كاملة، على غرار حصن ألموت الذي جعله الإسماعيليّون مقرًا لحكمهم في إيران، وعلى غرار القصور التي لا تقلّ شهرة والمعروفة بحصون الحشّاشين في سوريا. كم من مرّة تمّ الاستيلاء عليها واستعادتها خلال حروب مواقع حقيقيّة، ولا سيّما مع الفرنج. واستفادت من التحوّلات التكتيكيّة الجديدة الخاصة بكلّ غزو، وما زالت تؤكّد، كما في قشتالة وسوريا مثلًا، من خلال المواقع التي يحتلّها عدد من الحصون، على أهميّة بعض الخطوط الدفاعيّة. إنّ هذه الإنجازات العديدة والمتطوّرة حيثما وُجدت، ومهما اختلفت المواد والأنماط الهندسيّة التي اعتُمدت في بنائها، أُنشئت لأغراض متشابهة. وقد استطاعت، في كلّ الأحوال، أن تطبع بسماتها، وبصورة دائمة، مناطق ساهمت من قبل في صياغة تاريخها.

◄ راجع المستندين ٥٤ و٥٦.

عَسِير، منطقة في شبه الجزيرة العربيّة، تقع على السلسلة الساحليّة الغربيّة، بين الحجاز في الشمال واليمن في الجنوب. وهي اليوم تشكّل جزءًا من المملكة العربيّة السعوديّة.

تشرف منطقة عسير الجبليّة على البحر الأحمر، وهي أقلّ انحدارًا من جهة هضبة نجد، وتتكوّن من تضاريس مجزّأة أسهمت في تقسيم مواطن السكن. كما تضمّ المنطقة مجموعة من القبائل المتنوّعة، على غرار اليمن، تستثمر بعض الأراضي الزراعيّة الجبليّة حيث أُقيمت المصاطب أو الجلال. ومع غياب الحدود الطبيعيّة، أدّى التطوّر التاريخي للمنطقة، في القرنين الأخيرين، إلى تجمّع سكّاني حول العاصمة أبْها التي تقع على ارتفاع ٢٢٠٠م.

وقد بدأت هذه المدينة تأخذ أهميّتها كمركز قضاء عثماني بين سنتي ١٨٧٢ و١٩١٨، على أثر الحملات التركيّة – المصريّة المتتابعة التي قام بها محمّد علي باشا والتي استمرّت حتى سنة ١٨٤٠، وتلاها تدخل تركي مباشر سنة ١٨٧٢. شكّلت هذه الحملات ردّة فعل السلطنة العثمانيّة على انتشار الحركة الوهّابيّة وعلى امتداد سلطة آل سعود في وسط شبه الجزيرة العربيّة. فإلى جانب التنافس الداخلي الذي كانت تغذّيه الطموحات المحليّة والأطماع الخارجيّة والجوار مع اليمن، والصراعات القبليّة القديمة على هذه المنطقة الوعرة، أضيف، طوال القرن التاسع عشر، صراع سياسيّ ودينيّ. حتّى إنّ الأمر أدّى إلى قيام دويلة في صَبْيا تديرها الطريقة الإدريسيّة. وهذا الوضع ثبّته آل سعود إذ أوجدوا سلطة خاصة لمنطقة صَبْيا بعد إخضاعها، على أثر حملتهم التوسّعية خلال سنتي ١٩٢١ و١٩٢٢. وقد استتبّ الأمر

بعد المفاوضات التي جرت سنة ١٩٢٣ مع صاحب صَبْيا الإدريسي ، وبعد توقيع اتفاقية ١٩٣٤ التي وضعت حدًّا للحرب مع اليمن.

عُشْر (ضريبة العُشر). كانت هذه الضريبة تُدفع في القرون الوسطى ، في الجزيرة العربيّة ، من قِبَل أصحاب الأملاك الواسعة ، وأيضًا من قبل أصحاب الاقطاعات.

هذه الضريبة ، أو الزكاة ، كانت تُجبى على المحاصيل ، وتحديدًا على المنتوجات الزراعيّة التي يمكن حفظها ، فتُستثنى من ذلك ، بحسب بعض المدارس الفقهيّة ، الفاكهة والخضر.

عَشير ، موقع أثريّ قروسطي في مرتفعات تيتري ، على حوالى مائة كيلومتر بعد جنوب غربيّ الجزائر ، يطابق المواقع المتتالية لمكان محصّن بائد ، كان نقطة ارتكاز لقبائل بربريّة من فصيلة صنهاجة عندما كانت سلطتها تتصاعد.

لا تسمح التنقيبات التي أُجريت حتّى الآن بإعادة تشكيل تاريخ الأبنية التي تعاقبت في تلك البقعة والتي يمكن نسبة الأهمّ منها ، بحسب المصادر المدوّنة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، إلى الزَّيريّين ، إذ إنَّ الفاطميّين الذين ملكوا في إفريقية أيامئذٍ ، أقطعوا هؤلاء قسمًا من أراضيهم وسمحوا لهم بإقامة عاصمة لهم على الحدود الغربيّة لممتلكاتهم. وبعد استقرار الفاطميّين في القاهرة وتولّي الزيريّين حكم إفريقية في العام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م ، انتقلت حاضرة عشير إلى سلطة أُسرة من أنسبائهم ، هي أُسرة بني حمّاد التي فضّلت لعاصمتها موقعًا إستراتيجيًّا أكثر تحصينًا ، سُمّي منذ ذلك الحين قلعة بني حمّاد. وقد أدّت الحالة المضطربة في المغرب الأوسط ، في تلك الحقبة ، إلى أن تتعرّض عشير لهجمات متعدّدة ، بينها هجمة للمرابطين حدثت في العام ٤٩٤هـ/ ١١٠١م.

◄ راجع المستند رقم ١١.

عصبيّة ، تعبير يعني رابطة النسب بين الأفراد والقبائل. والعصبيّة أنواع : عصبيّة الأرحام ، والعصبيّة القبليّة ، وعصبيّة الجماعة ؛ وقد أدّت دورًا مهمًّا في المجتمع الإسلامي خلال القرون الوسطى.

ومع أنّ أحد الأحاديث النبويّة الشريفة قد نبذ العصبيّة القبليّة لمخالفتها روح الإسلام ، فإنّ مفهومها اكتسب شهرة بفضل التفسير الذي صاغه ابن خلدون لمضمون دلالاتها. إذ لم يرَ فيها هذا المؤرّخ من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد روح تضامن بين القبائل ، بقدر ما رأى فيها «حسّ التضامن بين البشر». وبهذا المعنى فهي الرابط الذي يفسّر نشأة المجتمعات والممالك والدول عبر التاريخ الإسلامي. كما رأى أنّ هذه النزعة ، وهي عامل غير ديني ، قد تزاوجت مع العامل الديني ؛ من دون أن يبيّن كيف تمّ هذا التزاوج الذي تحكّم في صيرورة الجماعة الإسلاميّة.

عصمة ، مصطلح تقني عربي يشير إلى صفات المنعة والترفّع عن الخطأ التي ينسبها الشيعة ، خاصة الإماميّة الاثنا عشرية ، إلى أئمّتهم العلويّين ، وقد توسّعت في هذا الوسط ، منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، فشملت الأنبياء.

هذا المبدأ هو عقيدة أساسيّة عند الإماميّة ، يشاركهم فيها الإسماعيليّة ، لكن ليس الزيديّة. ومن جهتهم ، يؤكّد المعتزلة عمومًا عصمة الأنبياء ، بينما يبدو الأشعريّون أكثر تحفّظًا حول هذه المسألة ، ولا يقبلون التنزيه عن الخطإ والغلط عند الأنبياء ، إلاّ في إطار دعوتهم. أمّا بالنسبة إلى السنّة التقليديّين ، فهم لا يقبلون مفهومًا يبدو لهم مناقضًا للقرآن والحديث. ومن الصوفيّة من ينسبون العصمة إلى النبيّ محمّد (ﷺ) ، حتّى لو لم يتورّع نقلة الحديث ، في الزمن الأوّل ، عن الإشارة إلى الأخطاء التي ارتكبها نبيّ الإسلام (ﷺ) الذي لم يدَّعِ إطلاقًا النجاة من الضعف البشري.

عَضُد الدَّولة ، أبو شجاع فنّا خُسْرو ، ٣٢٥-٣٧٢هـ/ ٩٣٦-٩٨٣م ، أمير شهير من البويهيّين ، وافق حكمُه ، إبتداءً من ٣٣٨هـ/٩٤٩م ، بلوغ الفرع الأساسيّ لهذه الأسرة أوج عزّه ، وهي الأسرة التي نجحت ، في الواقع ، في أن تُخضع لوصايتها خلافة العبّاسيّين.

وُفّق هذا الأمير الطموح المولود في أصفهان وهو ابن أخي معزّ الدولة ، سحابة سنين عدّة ، في إرساء أُسس مملكة بويهيّة موحّدة خاضعة لسلطانه. إنطلق من موقعه كسيّد للقسم الأكبر من إيران ، مختارًا شيراز مركزًا

لإقامته، محاولًا بسط سيطرته على العراق بانتصاره على ابن عمّه بختيار عام ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م؛ كما هزم حلفاء هذا الأخير وتابع تقوية سلطته، حتّى موته في بغداد بعد ذلك ببضع سنين.

حرص عضد الدولة، الذي زوّج ابنته للخليفة الطائع، على تثبيت أُبّهته ومجده، مفتخرًا بنسبه الإيرانيّ. حصل على امتيازات كثيرة لم تتوافر لسابقيه من الأمراء البويهيّين، منها لقب إضافي هو تاج الملّة، وخصوصًا ذكرُ اسمه بعد اسم الخليفة في خطبة صلاة الجمعة في بغداد. إلّا أنّ ما ميّزه، أيضًا، هو همّه في أن يؤمّن للشعب الهناء، فحسّن أداء الإدارة في المقاطعات الإيرانيّة حيث رفع أبنية ذات منفعة عامة مثل بيمارستاني شيراز وبغداد.

ولمّا كان متشيّعًا كسائر أفراد أُسرته، ومؤيّدًا للإماميّة الإثني عشريّة، فإنّه أمر ببناء ضريح جديد على قبر عليّ في النجف. ومع ذلك فقد عمد إلى تهدئة النفوس في بغداد حيث حال دون إقامة الاحتفالات بالأعياد الشيعيّة. كما حاول أن يُعيد إلى العاصمة العظمة التي كانت فقدتها في أعقاب الإضطرابات التي سبقت حكمه والتي وقعت، بوجه أساسي، بسبب عنف الاختلافات الدينيّة بين فئات الشعب. وقد اتّفقت توجّهاته السياسيّة مع نشاطه كراعٍ للعلماء والأدباء والشعراء، فأقام في شيراز مكتبة ذاع صيتُها لزمان مديد.

العطّار، فريد الدين محمّد بن ابراهيم، ٥١٣-٦١٧هـ/ ١١١٩-١٢٢٠م، صوفي من أصل إيراني عاش في خراسان، وكان أيضًا شاعرًا مشهورًا.

كان العطار متزهّدًا يقول بوحدة الوجود ويسعى إلى الفناء التام في الله، معتبرًا أنّ لا وجود شيء خارج الله. وقد نُسبت إليه أعمال نثريّة وشعريّة كثيرة، علمًا بأنّ قسمًا كبيرًا منها مزيّف. وغالبًا ما يستند فيها إلى الحلّاج عند الحديث، بشكل مجازيّ، عن طريقته الروحيّة. كما أظهر اهتمامه بعدد وافر من الصوفيّين الذين جمع ترجمة حياتهم في كتابه «تذكرة الأولياء». أمّا عن حياته فلا نعرف سوى أنه أُعدم خلال الغزوات الأولى للمغول عند احتلال نيسابور، وهي المدينة التي عاش فيها.

العقائد [الإيمانيّة]، جمع عقيدة، هي الشهادات المدوّنة التي تفصّل أهمّ بنود الإيمان الإسلامي، موضحةً الجَهْر الموجز بالإيمان أو الشهادة المطلوبة من كل مسلم، والتي تعكس، من خلال تنوّع أشكالها، نتائج المجادلات والاختلافات حول العقيدة التي توالت في ديار الإسلام عبر القرون.

وقد ظهرت المؤلَّفات القديمة من هذا القبيل على شكل رسائل، موجزةٍ جدًّا أحيانًا، غالبًا ما دوّنها رجال دين لهم في محيطهم سلطة متّسعة، شكّل الدفاع فيها عن العقيدة القاعدة الأُولى، وقامت ميزتها الأساسيّة على عدم تقديم أيّ برهان أو دليل على مقولاتهم. إلّا أنّ شواهد من القرآن أو السنّة كانت ترد فيها من دون أيّة محاولة لاستدلال العقل، إذ حُصر الاستدلال هذا في كتب الفقه والكلام.

إنّ أشهر رسائل تُقرّ عقيدة الإيمان هي التي خلّفها حنابلة تقليديّون دفاعًا عن الإيمان، لكنّ هناك رسائل تعود إلى مؤلّفين ذوي نزعات أُخرى نجهل أسماءهم. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد واحدة من أكمل هذه الرسائل عنوانها «العقيدة» للحنبليّ ابن بَطّة، ما تزال شاهدة على هذا النوع من المؤلَّفات، في زمن كان خلاله أهل البحث في العقيدة يفضّلون اللجوء إلى الاحتجاج بالبراهين العقليّة في كتاباتهم.

كما ينبغي اعتبار البيانات الرسميّة التي صدرت عن بعض خلفاء السلالة العبّاسيّة من قبيل رسائل تقرّ عقيدة الإيمان، إذ إنّهم كانوا يقدّمون أنفسهم على أنّهم حماة مذهب التسنّن، فكانوا يتدخّلون بصفتهم هذه في الخلافات الدينيّة السائدة في تلك الأيّام. من باب ذلك رسالة الخليفة الراضي الذي دان، عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، بقساوة عقيدة الحنابلة وأعمالهم، وممّا جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. فمن نافق بإظهار الدين وتوثّب على المسلمين وأكل به أموال المعاهدين كان قريبًا من سخط رب العالمين وغضب الله وهو من الضالين. وقد تأمّل أمير المؤمنين أمر جماعتكم وكشفت له الخبرة عن مذهب صاحبكم (بياض في الأصل مساحة كلمات عدة) زُيّن لحزبه المحظور ويُدلّي لهم حبل الغرور. فمن ذلك: تشاغلكم بالكلام في ربّ العزّة، تباركت أسماؤه، وفي نبيّه والعرش والكرسي، وطعنكم على خيار الأمّة، ونسبكم شيعة أهل بيت رسول الله - ﷺ - إلى الكفر والضلال، وارصادهم بالمكاره في

الطرقات والمحالّ. ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الذين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، ولا يقتضيها فرائض الرحمن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة - صلوات الله عليهم - وتشنيعكم على زوّارها بالإبتداع. وإنكم مع إنكاركم ذلك تتلفقون وتجتمعون لقصد رجل من العوام، ليس بذي شرف ولا نسب وسبب برسول الله ﷺ - وتأمرون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته والتضرع عند حضرته. فلعن الله ربًّا حملكم على هذه المنكرات ما أرداه وشيطانًا زيّنها لكم ما أغواه. وأمير المؤمنين يقسم الله قسمًا جهد الله يلزمه الوفاء به لئن لم تنصرفوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنّكم ضربًا وتشريدًا وقتلًا وتبديدًا، ويستعملنّ السيف في رقابكم والنار في محالّكم ومنازلكم. فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فقد أُعذر من أنذر. وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله، عليه متوكّل وإليه منيب».

◄ (مسكويه، تجارب الأمم، طبعة مطبعة التمدّن الصناعيّة بمصر، ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م، ج١، حوادث سنة ٣٢٣هـ)، ص ٣٢٢-٣٢٣.

من جهة أخرى، تُذكر الرسالة القادريّة أو «رسالة القادر» التي قرئت في الناس علنًا عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، والتي أدانت العقائد الحاملة رواسب المعتزلة. وقد ورد عنها عند ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٠٨هـ ما يأتي:

وفي هذه السنة استتاب القادر المبتدعة. أخبرنا سعدالله بن علي البزاز، أخبرنا أبو بكر الطريثيثي، أخبرنا هبة الله بن الحسن الطبري قال: «وفي سنة ثمان وأربعمائة: استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية فأظهروا الرجوع وتبرأوا من الاعتزال ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذ خطوطهم بذلك. وأنهم متى خالفوه حلّ بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم. وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود أمير المؤمنين، واستنّ بسننه في أعماله التي استخلفه عليها من خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين وإبعاد كل طائفة من أهل البدع وطردهم عن ديارهم وصار ذلك سنّة في الإسلام».

◄ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الطبعة الأولى، حيدر آباد، سنة ١٣٥٨هـ، ج٧، ص٢٨٧)

العِقاب ← لاس ناڤاس دي تولوزا

العقبة[٨٢] (بيعة -)، قسم أدّاه أمام النبيّ محمّد (ﷺ)، سنة ٦٢٢م، مجموعة ضمّت سبعين رجلًا من سكان يثرب (المدينة المنوّرة في ما بعد)، اعترفوا برسالته وقيادته وأقسموا على حمايته.

وقسم البيعة هذا الذي عُرف باسم «بيعة الحرب» سبقه قسم آخر عرف باسم «بيعة النساء»، كان قد أدّاه حوالى عشرة رجال قبل سنة، وكانوا من يثرب أيضًا[٨٣]. وقد قال لهم النبي (ﷺ) ما معناه: أدعوكم إلى مساعدتي على حماية نفسي ضدّ الذين تحمون نساءكم وبناتكم منهم. وهذان القسمان أدّاهما الرجال خلال اجتماعات سرّيّة عقدها النبيّ (ﷺ) في مكان بين منى ومكّة في موسم الحجّ بين سنتي ٦٢١ و٦٢٢م. وفي أثناء ذلك تمّ الاتفاق على الإعداد للهجرة التي ستؤدّي إلى ولادة أوّل دولة إسلاميّة، وإلى انتصار النبيّ (ﷺ) النهائي على أعدائه المكيّين.

عُقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري القُرشي، ؟ - ٦٤هـ/ ؟ - ٦٨٣م، قائد عسكري عربي قام بدور بارز في احتلال المغرب العربي في مرحلة الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى.

وُلد هذا الأمير في السنوات الأخيرة من حياة النبيّ محمّد (ﷺ)، كان ينتمي إلى قبيلة قريش، وهو ابن شقيق عمرو بن العاص، وحاز في العام ٤٣هـ/ ٦٦٣م، في بدء العهد الأموي، على حكم إفريقية حيث قام بعدد من الأعمال العسكريّة: في سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م، أرسى أساسًا متينًا لجيوش الفتوحات بتأسيسه المدينة - المعسكر المسمّاة القيروان. استُدعي بعدئذٍ إلى المشرق في العام ٥٥هـ/ ٦٧٥م، واستعاد قيادته في العام ٦٢هـ/ ٦٨٢م.

قام، بمؤازرة بربر انضمّوا إليه، بحملة في اتّجاه طنجة ثمّ الأطلس الأوسط ومقاطعة السوس والأطلس الأعلى، ما سمح له بالاتصال بالقبائل الرئيسة كغُمارة ولمتونة ومصمودة. إلّا أنّ شعوب الأراضي التي اجتازها لم تخضع لسلطانه البتّة، فاضطرّ عقبة إلى أن يعود أدراجه، حيث اصطدم بمقاومات غير منتظَرة. وقع في النهاية ضحيّة عصابة من البربر هاجمته على تخوم الصحراء، وما يزال ضريحه، وسط المركز السكني المعروف باسم سيدي عقبة، في جنوب شرقي بسكره، موقع إجلال على غرار مزارات الأولياء حماة المغرب العربي. كما أنّ المسجد الجامع في القيروان الذي يقال أنّ عقبة اختار موقعه، يحمل اسمه أيضًا.

العقل، لفظ قد يعني الإدراك والتفكير والتأمّل والتبصّر والذكاء والفكر، مع تطوّر مفهوم الكلمة عبر العصور.

ومعنى الكلمة العادي، التنكير، يتردّد بكثرة في القرآن الكريم، فنقع على فعل «عقل» كما في القول: «ألا تعقلون؟»، وبه ينتهي عدد كثير من الآيات، كالآية ٤٤ من سورة البقرة. أمّا عند العلماء المسلمين فإنّ الإسم «عقل» بمعنى «وسيلة للمعرفة» يناقض «النقل» الذي يعني معرفة الحقيقة عن طريق تلقيها منقولةً.

فعند ممثّلي الفلسفة، استُعين بالعقل في مختلف مفاهيمه، بعد التأثّر بالفكر القديم. وهكذا فقد أُشير إلى «العقل الفعّال» الذي يسمح بالانتقال إلى مرحلة «العقل المكتسب» القادر على فهم الأنواع. لكنّ المفاهيم حول العقول تختلف من مفكّر إلى آخر: فابن رشد يعطي لتفرُّد العقول البشريّة تفسيرًا يختلف عن ذلك الذي تبنّاه نَقَلةُ الفلسفة الإغريقيّة الأوائل، كالفارابي وابن سينا.

العقوبات الشرعيّة ← الحدود.

العقود مفردها **العقد**، أنواع من التعهّدات المكتوبة في أكثر الأحيان، أقرّ الفقه الاسلامي دائمًا وجودها وأخضعها لقواعد دقيقة. وتوفّر النماذج القديمة العديدة لهذه العقود مادة بحث جزئيّة لعلم المستندات القديمة والمخطوطات الإسلاميّة.

ولا قيمة لأيّ عقد في المجتمع الإسلامي ما لم يقم على الأقل بين فريقين متعاقدين، ويستند إلى قبولهما الحر ويكون موضوعه شرعيًا. وبما أنّه يفترض أن تكون للمتعاقدين حرية التصرف بأملاكهما، فإن هذه الضرورة تؤدّي إلى استبعاد القاصرين من التعاقد وتمثيلهم بوصيّ حتّى سن الرشد. كذلك يستثنى من التعاقد المعتوهون والمُسْرِفون الذين يتمثّلون هم أيضًا بوصيّ في حال قرّر القاضي ذلك، والمُفلِسون والعبيد والمرضى، وفي بعض الحالات غير المسلمين. وفي حال وجود غش أو خطأ في مادة العقد أو في حال استعمال العنف، يصير رضا المتعاقدين لاغيًا.

ويمكن أن يُرهن العقد ذاته بشرط معطّل أو بأجل محدّد. وعلى المتعاقدين تنفيذ التزاماتهم التي لا تزول إلّا في حال فسخ العقد حبيًّا أو لظروف خارجيّة. أمّا موضوع العقد فيجب أن يكون محدّدًا وأكيدًا؛ أمّا العقود غير الأكيدة كالدخل مدى العمر أو التأمين، فهي غير مقبولة من حيث المبدأ.

والعقود الأكثر شيوعًا هي عقود البيع التي تشمل في الواقع، بحسب الفقهاء، كل العقود التي تشترط المعاملة بالمثل، وعقود الزواج. وبمعزل عن أعمال الوقف التي لا يصنّفها الفقه في فئة العقود، تجدر الإشارة إلى عقود واتفاقات يقرّها الشرع: الرهن الذي يعني تسليم شيء ما ضمانةً لإيفاء الدين؛ الحوالة أي التنازل لمدين عن دين يكون لشخص ما على شخص آخر (وهو أسلوب اتّبعه التجّار منذ القرون الوسطى، إذ كانوا يستعملون بشكل دائم كتاب الاعتماد، وكذلك اتّبعته الأجهزة الماليّة في مختلف الدول الإسلامية)؛ الضمان الذي بموجبه يضمن شخص معين تنفيذ التزام متوجّب على شخص ثالث؛ الشركة التي بموجبها يوظّف فريقان أموالهما بالمشاركة للقيام بعملية تجاريّة ويتحمّلان معًا الأرباح والخسائر؛ شركة المضاربة وتقوم على إعطاء تاجر ما رأسمالًا محدّدًا لممارسة تجارة ما في مقابل حصول صاحب الرأسمال على جزء من الأرباح (وهي ممارسة كانت رائجة جدًا في العالم الإسلامي القروسطي حيث شجعت نموّ المبادلات، لكن شرعيتها استندت إلى السنّة وحدهم)؛ الوكالة التي بموجبها يقوم شخص مفوَّض بإنجاز عمل معيّن نيابة عن المفوِّض (ولا تشمل الوكالة معظم الفرائض الشعائرية، ما عدا الحجّ الطقسي في بعض الحالات)؛ الأمانة وهي وضع شيء ما أو مُلك ما في عهدة شخص معيّن يلتزم إعادته عند الطلب.

هذه العقود التي يشهد على صحّتها شهود، كانت موضوع وثائق مكتوبة عديدة مثّلت منذ البدء دورًا كبيرًا في العلاقات بين المسلمين. واحترام العقود مرتبط بتقوى المتعاقدين، وهو جزء من الالتزامات التي تنص عليها بعض الآيات القرآنية:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون، ٨-١١].

العقيدة الإسلاميّة، هي مجمل المفاهيم التي تشكّل أساس الإيمان وتحظى بموافقة واسعة، حتّى لو أنّه لم يتمّ تحديدها إلّا بعد مناقشات وقرارات متوالية تثبّت

على أثرها تعددية الفكر الإسلامي في مدارسه الكلامية، وكثرة التيارات، وحتى البدع والملل التي لم تكف عن الظهور.

هذه العقيدة، على الرغم ممّا اعتراها من مناقشات، تبقى واضحة وبسيطة. فالاسلام في جوهره دين توحيدي، وهو يستند الى إرث إبراهيم، ويقوم أساسًا على الإيمان بإله واحد هو الله. وتُختصر العقيدة بإقرار إيمانيّ هو الشهادة التي تثبت، في شطرها الأول، وحدانيّة الله، وفي الثاني رسالة النبيّ محمد (ﷺ)، الذي هو نبيّ نزلت عليه الرسالة وحيًا وتضمّنها القرآن الكريم. واستُكملت الرسالة بتعاليم أُخذت من سيرة النبي (ﷺ) أو السنّة التي يعكسها الحديث، وهي تقدّم للمسلمين قواعد حياتهم، كما تؤمّن الركيزة لتفكيرهم الديني.

إنّ طبيعة الله التي تبيّنها الصفات المعروفة بأسماء الله تبرز واضحة في القرآن الكريم، وهي تؤكّد سموّ العليّ القدير بالنسبة الى العالم الذي خلقه. والله تعالى المحاط بالملائكة، وكذلك بالجنّ، أرسل الى الناس أنبياء كان النبيّ محمد (ﷺ) خاتمهم، وقد كُلّفوا بالدعوة إلى الإنقياد لمشيئة الله، أي الى الإسلام، وبوضع فرائض يشكّل مجموعها ما يُعرف باسم الشريعة. والناس بعد الموت يخضعون للحساب، فيكون مصيرهم النعيم أو الجحيم. وهم في الواقع مسؤولون عن أعمالهم، على الرغم من أنّ مسألة حريّة الاختيار تشكّل موضوع جدل، وعلى الرغم من أن العقليّة الإسلاميّة تنطبع بفكرة القضاء والقدر.

انطلاقًا من هذه العناصر، وضع علماء الدين صيغًا لاعلان العقيدة الدينيّة، بشكل مفصّل أحيانًا. كما أعدّوا في مصنّفاتهم، خصوصًا بعد ازدهار علم الكلام، خلاصات عقديّة دوغماتيّة واضحة ومحدّدة تهدف الى حلّ المسائل العالقة، ولا سيّما مسألة الإمامة وانتقال السلطة، وقيمة الأعمال الإنسانيّة، وصفات الله، وطبيعة الايمان ودرجاته.

هذه التفسيرات العقائديّة التدريجيّة، التي غالبًا ما أدّت في مدارس متعدّدة سنيّة وشيعيّة إلى آراء متباعدة، لامست من قريب قضايا سياسيّة هيمنت خلال العصور على تطوّر العالم الإسلامي، وغذّت عددًا كثيرًا من النزاعات الدمويّة، ولا سيّما الثورات المسلّحة التي استقت من تلك التفسيرات دوافع قيامها. والعصر الحديث نفسه يبقى منطبعًا، في البلدان الإسلاميّة، بالانقسامات الداخليّة، وبالصراع بين الدول بسبب خلافات ذات طبيعة عقائديّة.

العُقيليّون، أو بنو عُقَيْل، ٣٨٠-٥٦٤هـ/ ٩٩٠-١٠٦٩م، هم أسرة أمراء عرب شيعة المذهب، عرفت أن تسيطر بفروعها المختلفة، خلال بضع عقود، على بلاد ما بين النهرين العليا والعراق وسوريا الشمالية، وقد جهد أبناؤها في الاحتفاظ بها في وجه قوّة السلاجقة الكبار المتنامية.

نحو العام ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، حصل المدعو محمّد، وهو جدّ السلالة، من آخر الحَمْدانيّين على مدن جزيرة ابن عمر ونصيبين والبلاط، قبل أن ينجح في الاستقرار في الموصل في ظلّ سيادة البويهيّين المطلقة. ولم تَحُلْ النزاعات الأخويّة بين المتحدّرين من سلالته دون استمرار سيطرتهم على هذه المنطقة حيث ناهضوا، شأن حلفائهم آل مَزْيَد في الحِلّة، زحف الأتراك السلاجقة الذين حاربوهم أيضًا في سوريا لمصلحة الفاطميّين، ولكنّهم دعموهم في بعض الأحيان للحصول منهم على امتيازات سياسيّة. كما أنّ سلالتهم، التي احتلّت سواقع إستراتيجيّة بين الأناضول وتكريت، بلغت أوجها في ظلّ حكم شرف الدولة مُسلم الذي وسّع سلطته، في العام ٤٩٠هـ/ ١٠٧٩م، حتى حلب وأراضيها وقد انتزعها من بني مِرداس. لكنّ هذه السلالة أُبعدت في النهاية عن حلب على يدي الأمير السلجوقي تُتُش، في العام ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م. إلّا أنّ بعض أبنائها استمرّوا بعدئذٍ حكّامًا وأسيادًا لمناطق كالرقّة أو قلعة جعْبر.

١- عُقَيليّو جزيرة ابن عمر

جناح الدولة علي	٣٧٦-٣٩٠هـ/ ٩٩٦-١٠٠٠م
سنان الدولة الحسن	٣٩٠-٣٩٣هـ/ ١٠٠٠-١٠٠٣م
نور الدولة مُصْعب	٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م

٢- عقيليّو الموصل

حسام الدولة المقلّد	٣٨٦-٣٩١هـ/ ٩٩٦-١٠٠١م

معتمد الدولة قرواش	٣٩١-٤٤٢هـ/١٠٠١-١٠٥٠م
زعيم الدولة بركة	٤٤٣-٤٤٤هـ/١٠٥٠-١٠٥٢م
علم الدين قريش	٤٤٤-٤٥٣هـ/١٠٥٢-١٠٦١م
شرف الدولة مسلم	٤٥٣-٤٧٨هـ/١٠٦١-١٠٨٥م
إبرهيم	٤٧٨-٤٨٦هـ/١٠٨٥-١٠٩٣م
علي	٤٨٦-٤٨٩هـ/١٠٩٣-١٠٩٦م

٣- عقيليّو تكريت

خميس	٤٢٧-٤٣٥هـ/١٠٣٦-١٠٤٤م
أبو غنّام	٤٣٥-٤٤٤هـ/١٠٤٤-١٠٥٢م
عيسى	٤٤٤-٤٤٨هـ/١٠٥٢-١٠٥٦م
نصر	٤٤٨-٤٤٩هـ/١٠٥٦-١٠٥٧م

عكّا أو سان جان داكْر بحسب تسمية راجت منذ القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، مدينة - ميناء قُرُوسطيّة مهدّمةٌ، أدرك أهميّتها الإستراتيجيّة والتجاريّة، على ساحل فلسطين، المسلمون ومن بعدهم فرنج المملكة اللاتينيّة.

لم يبقَ من العناصر [الأثريّة] التي تعود إلى المدينة الإسلاميّة القديمة سوى القليل. فقد طمست فيها بقايا أبنية العهد الصليبي منجزات الأمويّين والعبّاسيّين في أوائل العصر الوسيط، ولا سيّما أعمالهم لتقوية الحصن الذي ذكره المؤرّخون العرب. وهذه الآثار المتبقّية من العهد المسيحي تعود إلى الحقبة التي تلت سيطرة العهد الإسلاميّ الثاني الموقّتة، على يدي صلاح الدين بين ١١٨٧ و١١٩١م، أي من العهد الذي شكّلت فيه هذه القلعة البحريّة، في القرن الثالث عشر، قاعدة قويّة لحماية ممتلكات الصليبيّين الأخيرة، وكانت، في الوقت نفسه، عاصمة مملكة القدس الثانية. ولم تتبدّل حالها إلّا بعدما استطاع السلطان الملك الأشرف خليل، من فرع أُسرة المماليك البحريّة السوريّة - المصريّة، أن يبسط سلطانه عليها كاملًا، رغم مقاومتها البطوليّة، فأدّى استرجاعه لها إلى تخريبها الكامل. إنّ التهديم المتوالي الذي أصابها في ما بعد خلال سيطرة سواه من المماليك، ثمّ خلال حكم العثمانيّين، بما في ذلك ما حلّ بها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، رغم مساعٍ محلّيّة لجعلها آهلة بالسكّان ولاستخدامها قاعدة عسكريّة، كلّ ذلك أدّى إلى أفول نجمها نهائيًا، بينما كان يرتفع طالع مرفأ حيفا، المدينة الكبيرة الحديثة. إلّا أنّ اسمها عاد إلى الظهور خلال حصار بونابرت الفاشل لها عام ١٧٩٩م والحملات الشرقيّة التي جرّدها إبراهيم باشا في العام ١٨٣٢ ضد السيطرة العثمانيّة.

◄ راجع المستند رقم ١٨

علايّا ← **علانيا**.

علّال الفاسي، هو محمّد علّال الفاسي، ١٩٠٦-١٩٧٤م، مناضل وطني مغربيّ ومفكّر إسلامي ذو ثقافة تقليديّة، أدّى دورًا سياسيًّا ناشطًا قبل الاستقلال وبعده. ينتسب إلى أسرة كبيرة في فاس، وهو مرتبط بالمجتمع الفكري لهذه المدينة حيث أتمّ دروسه في جامعة القرويّين المشهورة وأصبح استاذًا فيها.

برز علّال الفاسي، أوّل الأمر، رجلًا صاحب مواقف سياسيّة رافضة، فشارك في النشاط المؤيّد لعبد الكريم، وتقبّل فكرة الوحدة العربيّة التي دعا إليها شكيب أرسلان، وكان قد التقاه سنة ١٩٣٣ في باريس. ثمّ أصبح عضوًا بارزًا في الحزب الوطني، ثمّ في حزب الإستقلال، ونفي غير مرّة من المغرب. فتنقّل في بلدان مختلفة، إلى أن اقام في القاهرة سنة ١٩٤٧ قريبًا من مقرّ الجامعة العربيّة. وكان له بعد ذلك نشاط فكريّ بارز، إذ انصرف إلى التأليف وإلقاء المحاضرات. ومن المؤلّفات التي وضعها «الحركات الإستقلاليّة في المغرب» الذي صدر سنة ١٩٤٨، و«من الغرب إلى الشرق»، و«النقد الذاتي»، وأخيرًا «نداء القاهرة» الذي نُشر سنة ١٩٥٧.

حرص الفاسي على استمرار روابط الصداقة مع الملك محمّد الخامس من الأسرة العلويّة، خصوصًا عندما استعاد هذا الأخير عرشه سنة ١٩٥٦، فتولّى الفاسي مسؤوليّات وزاريّة متنوّعة. لكنّ هذه الصداقة لم تحل دون انتقاله إلى صف المعارضة، فحاول بعدها من دون جدوى، بالتعاون مع الاتّحاد الوطني للقوى الشعبيّة، إحياء جبهة وطنيّة جديدة. وقد عجز عن ضبط ما كانت تشهده الجبهة من تطوّرات، إلى أن استفحل الخلاف بين أعضائها وكان الشقاق في سنة ١٩٧٢ الذي وضع حدًا لنفوذ الفاسي السياسي.

علانيا أو علائيا (الجمهوريّة التركيّة)، المعروفة قديمًا باسم ألايا أو علائيّة بالعربيّة - كَنْدلورو أو

شكندلورو في المصادر الغربيّة الوسيطة، مستعيدة الإسم الإغريقي غالونوروس الذي كانت تحمله قلعتها البيزنطيّة - هي ناحية مرفئيّة محصّنة في منطقة الأناضول الجنوبيّة، تعود أهميّتها الإستراتيجيّة الى موقعها الذي تشهد عليه أبنيتها الباقية.

رغم سهولة الدفاع عنها بحكم موقعها إلى الجنوب من جبال طوروس، فقد ضُمّت الى الإسلام، في مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بعد احتلالها من قبل علاء الدين كيقباد، من سلاجقة الروم، الذي وسمها باسمه - وهو الاسم المعروفة به حاليًا، والمأخوذ من لقبه الملكيّ وجعل منها مقرّه الشتوي. إنّ خرائب قلعتها ومواقع دفاعاتها البحريّة والبرّيّة المهيبة التي تعلوها كتابات تاريخيّة بالعربيّة والتي تجاورها بقايا معماريّة كثيرة من العهد نفسه، سواء منها الدنيويّة والدفاعيّة والدينيّة، تبيّن، حتّى يومنا هذا، الخصائص المميّزة لمرفإ علانيا الوسيط: فإنّ استخدام ملوك قونية له، إبتداء من ٦١٧هـ/١٢٢٠م، أمّن لأمبراطوريّة سلاجقة الروم الانفتاح المباشر على البحر المتوسّط، في الوقت الذي كانت هذه الأمبراطوريّة قد بلغت فيه ذروة قدرتها. لقد شكّلت الحركة التجاريّة لعلانيا مع الخارج والتي تشهد عليها الامتيازات الممنوحة أيّامئذٍ لتجار البندقيّة، أحد أسباب ازدهار المدينة التي كانت تربطها بأنطاليا طريق ساحليّة كثيرة الارتياد. لكنّ مميّزاتها كمرسًى محميّ بحاجز جبليّ تحوّل مع الزمن إلى قلعة لا تُقهر، جعلت منها موضعًا مثاليًّا شكّل عرينًا للقراصنة، معزولًا عن داخل البلاد بحاجز جبليّ مرتفع. إنّ الدور الذي مثّله، في العهد الهلّينستي، كوراسيزيوم العتيقة التي قامت مقامها الناحية البيزنطيّة-الأرمنية التي استولى عليها علاء الدين كيقباد، يُنبئ بالقدر الذي كان علانيا في آخر العهد الوسيط، في مواجهة دولة قبرص اللاتينيّة ودولة المماليك السوريّة-المصريّة. ثمّ استمرّت هذه الأنشطة الحربيّة عندما وقعت هذه الناحية تحت سيطرة إمارات القرامانيّين والحميديّين؛ وتُوبعت لفترة بعد إلحاق المدينة الصغيرة بالعثمانيّين سنة ١٤٧١م. فأغرقها آنذاك السلام العثماني في سبات حتّى بعثها الحديث كمدينة تجاريّة وسياحيّة.

◄ راجع المستندين ٢١ و٢٧.

علم، مصطلح عربي يدلّ أصلاً على المعرفة الدينيّة؛ لكنّ مفهومه تطوّر بالاستعمال تبعاً لتطور الحضارة الإسلامية. كانت هذه اللفظة في البداية مختصّة بالمعرفة المستندة إما إلى الوحي أي القرآن الكريم، وإمّا إلى الحديث؛ وكلمة «علم»، اذا ما استُعملت مجرّدة من أيّ نعت، تعني، بنوع خاص، «العلم الحديث»، ومنها تسمية عالم (جمعها علماء) التي أطلقت في العصور الوسطى على جهابذة الإسلام، وأعطت، إنطلاقاً من صيغة الجمع لفظة (Ouléma) بالفرنسية. إنّ اللفظة، بهذا المدلول، تتميّز عن لفظة «معرفة»، أي «المعرفة المحصّلة بالحدس»، وتتميّز كذلك عن لفظة «فقه» أو «العلم الذي يقصُر اعتماد التفكير على البحث عن الحلول القانونيّة».

إنّ طابع المعرفة المكتسبة، القائم على الدراسة والحفظ أكثر منه على ممارسة التفكير الشخصي المرتبط بلفظة علم، وجد في ما بعد، خارج النطاق الديني، مجالاً لتطبيقه، سواء في ذلك علم الكلام الذي اعتمد نماذج مستوحاة من المنطق اليوناني، أو العلوم الزمنيّة الموروثة عن الحضارة القديمة التي ازدهرت في البيئة الإسلاميّة في القرون الوسطى، كالرياضيات وعلم الفلك والطبّ. واعتُمد المصطلح نفسه، في فترة لاحقة، للدلالة على العلوم التي أدخلها التعليم الغربيّ إلى البلاد الإسلاميّة، في العصر الحديث.

علم الأثريّات الإسلاميّة، علم أبصر النور في القرن العشرين بدفع من الغرب، وتميّز باكتشافات تدريجية لمعالم أثريّة ساعدت على إحياء جوانب كاملة من ماضي الإسلام ومن فنونه.

وترافقت التقنيّات المتّبعة التي تعتمد علم الأثريات التقليدي، مستعينةً بالعلوم الأخرى المساعدة للتاريخ، في عمليّات تنقيب ناجحة داخل مناطق يصعب بلوغها. والنتائج التي تمّ تحقيقها جدّدت المعلومات التي كانت متوافرة، حتّى ذلك التاريخ، عن الهندسة الإسلاميّة في المناطق القريبة من حوض المتوسّط، كالمغرب

والاندلس ، أكثر ممّا كانت متوافرة عن المناطق الآسيوية – وهي قلب العالم الإسلامي في العصور الأولى – كالعراق وإيران وخراسان وبلاد ما وراء النهر . يُضاف إلى ذلك أن مسائل تاريخيّة كبيرة ، كتلك التي تتعلّق بتنظيم المدن القروسطيّة أو تلك التي تتّصل بتطوّر المجتمع الاسلامي ، من بداياته حتّى أواخر القرون الوسطى ، أمكن دراستها انطلاقًا من معطيات ثابتة وجديدة كليًّا .

ثمّ إنّ التحف الفنيّة الصغيرة ، كالقطع الزخرفيّة والمعدنيّة شبه الثمينة التي كانت تُحفظ سابقًا لجمالها وحسب ، خضعت مجدّدًا لجهود ساعدت على تأريخها وتصنيفها ، بتسهيل من مقاربات علم الطبقات ومن المعالم الثابتة التي تحتويها والتي تدلّ على تاريخها . كما أدّت أبحاث كثيرة إلى إعادة تقويم لأساليب المدارس الفنيّة ، ما سمح بدراسة التطوّر الحرفيّ الإسلامي بطريقة أعمق ، كما ساعدت الأبحاث على معرفة مدى تأثير الصناعات الصغيرة القائمة في المدن في التطوّر الإقتصادي .

لا شك في أنّ المعطيات الأثريّة تتباين بين منطقة وأخرى أو بين عصر وآخر . وهي تستحضر بعض وجوه النجاح لدى أسرة محلّية حاكمة ، أو تبيّن الازدهار الفنّي الخاص ببعض الأعراق ، كالازدهار الذي عرفه الفن التركيّ أو الفن الايرانيّ – الهنديّ مثلاً ، أكثر ممّا تبرز مختلف مراحل التطوّر الخاص بالمجتمع الإسلامي . لذلك ، فلا يمكن الاعتماد عليها إلّا في عدد قليل من المواقع الأثريّة المختلفة الانتشار التي اشتهرت بفضل الحفريّات التي أجْرِيَت فيها ، كحفريات عنجر في لبنان ، وواسط وسامرّاء في العراق ، وسوس في إيران ، وصبرا – المنصوريّة في تونس ، ولشكري بازار في أفغانستان ، وقلعة بني حمّاد في الجزائر ، وكوباداباد في تركيا ، وبِلّيونش في المغرب . وهذه النماذج تزوّدنا بمعطيات صالحة للاستعمال ، وهي تعود إلى أمكنة وتواريخ مختلفة . والصعوبات التي لا تزال قائمة ، والتي تحول دون ربط هذه المعلومات النادرة ببعضها الآخر ، لا تُنسينا قيمة الجهود الأولى التي بُذلت في هذا الميدان والتي ساعدت على وضع عدد من الدراسات التقويميّة .

علم الأخلاق الإسلامي ، هو مجال كان لتعاليم القرآن والحديث فيه أثر أساسيّ ، كما أثّر فيه ، عبر العصور ، تنوّع الإسلام الواسع ومجتمعاته المهيّأة ، سعياً لصياغة مثلها الأعلى ، لاستيعاب عناصر كانت ، أحياناً ، غريبة عن الشريعة الإسلاميّة .

خاطب الإسلام ، في أوّل الأمر ، العرب المعتزّين بنظام قيمهم والحُرَصاء على المحافظة عليه ، ولو جزئيًّا ، بتوجيهات أخلاقيّة جديدة . لم يتناس الفضيلة الأساسيّة التي كانت سائدة في بلاد العرب ، قبل الإسلام ، أي المروءة ، التي جمعت بين الشجاعة والكرم مقرونتين بالصّبر . فكان أهمّ رافد قدّمه القرآن في هذا السّياق تحديد نوع من التقوى لا يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد وبيوم الدين فحسب ، بل أيضًا على أداء أعمال طقسيّة إلزاميّة ، مثل إقامة الصلاة وأداء الزكاة – وهي ، في الوقت نفسه ، عمل تضامني وفريضة دينيّة – وعلى الكرم وحُسن الضيافة وعلى احترام الوالدين والاعتصام بالصبر . وفيما شدّدت الآيات القرآنية على فضائل الصبر والكرم وروح التضامن ، بدون أن تقبّح الانتماء العائلي والقبليّ ، ولا أن تنسخ الفضائل التي كانت موضوع فخر قبل الإسلام ، فإنّها أثّرت مفهوم المروءة بمضامين جديدة ، مستبدلةً مفهوم الكرامة الإنسانيّة بالشجاعة المعهودة .

على هذه القاعدة الخلقيّة المقبولة لدى الجميع ، أقام مؤلّفون كثيرون نُظُماً استعانوا في بنائها بتقاليد ثقافيّة سابقة ، أو مجّدوا أنماطًا من التصرّفات الاجتماعيّة-الوطنيّة التي أثّرت ، أحيانًا ، بعمق في الجماعة الإسلاميّة الجديدة . فمنذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد ، بادر كاتب ، هو ابن المقفّع ، من خلال مؤلّفات نقلها من اللغة الفهلويّة أو عبّر ما استوحاه من أدبها ، إلى إبراز مفهوم للمروءة معدّل لمفهومها السائد ، يقوم على مواجهة المواقف العدائيّة والشرور المنتشرة في العالم ، كما أنّه امتدح اليقظة التي تساند هذه المواجهة والصداقة التي شدّد على ترسيخها بين البشر . وهكذا ، نشأت حكمة إنسانيّة إلى جانب توصيات القرآن والسنّة النبويّة بشكل عام . وقد تجلّت هذه الحكمة في المصنّفات التوجيهيّة التي اندرجت

تحت عنوان الأدب وقام بتأليفها كتّاب الدواوين الذين كانوا، في أكثريتهم، ذوي أصول فارسيّة، والتحقوا بخدمة الخلافة، منذ القرون الأولى.

بُعَيد ذلك، قام مفكّرون أخلاقيون متأثّرون بالفلسفة القديمة من أمثال مِسْكَوَيْه، مستندين إلى الآراء الأرسطويّة الذائعة، بتحديد نظام للفضائل والرذائل. فذكروا الفضائل الرئيسيّة مثل الاعتدال والشجاعة والكرم التي من شأنها أن تفضي إلى إقامة العدالة، وهي فضائل تناقض الرذائل المتطرّفة. وقد كان لهذا المفهوم الأخلاقيّ أثره في الكتّاب المؤلّفين الذين أنسوا إلى المباحث الفلسفيّة، كما احتفظ بطابعه «العقلانيّ»، إذ من شأن العقل أن يحارب الأهواء، ما دامت الميول الرديئة والغرائز القبيحة توسوس للناس، وذلك في توجّه قرآنيّ، فلطالما دعا القرآن إلى التفكّر: «أفلا تفكّرون»؟

في موازاة ذلك، كان المتصوّفون يوصون بتصرُّف قائم على الثقة بالله سمَّوها «التَوكُّل»، وعلى الصَّبر والاعتدال وروح الفقر والتحرُّر من العلائق الدنيويّة، وهي كلّها فضائل، وصولًا إلى زهدٍ معتدل، كانوا يرون أنّها ضروريّة لبلوغ الوجد الانخطافي، كما أنّها، في الوقت نفسه، استُند في صياغتها إلى بعض التوجيهات الواردة في القرآن. وقد تأثّرت الأوساط الشعبيّة بهذه التعاليم الصوفيّة، عبْر دعوة أهل الطرائق الصوفيّة وأعمالهم، فغدت هذه التصرّفات نماذج يحتذونها على أنّها مثل أعلى في الحياة، فأدّى ذلك بهم، في أحيان كثيرة، إلى عدم الرغبة في الرّبح وفي العمل.

في ضوء هذه المعطيات، يصعب الكلام على فلسفة خلقيّة إسلاميّة تقليديّة. مع ذلك، عمد بعض الفقهاء، كالماوردي، إلى وضع مؤلّفات رصينة في الموضوع، فوقع الاختيار على المصطلح التقني المشهور بـ«الإحسان» للدلالة على حسن التصرُّف، سبيلاً إلى إكمال إيمان المسلم وممارسة الشعائر، في حين انصرف فقهاء آخرون إلى تعداد «الذنوب الكبيرة». أمّا في أوساط المثقّفين فقد ساد، من جهة أخرى، تبنّي نظم الحياة التي أفرزتها الفلسفة من دون تعارضها مع التعاليم القرآنيّة، فيما كانت الأوساط الشعبيّة قد اختارت الاستسلام لإرادة الله والزهد في الدنيا، فدفعها ذلك إلى الجبريّة. وهكذا لم يتوافر النجاح الصريح إلاّ لعلم أخلاق اقتصادي، في مجاله المحدّد، اقتبس واضعوه مبادئه من تعاليم القرآن الكريم، فدمغ بطابعه، في وضوح كامل، حياة المسلمين العامّة والخاصّة، طوال القرون الوسطى.

علماء الدين، هم علماء الدين الذين يشار إليهم أيضًا في الفرنسية بـ«فقهاء الشريعة» (docteurs de la Loi)، ويحملون في الوسط الشيعي لقب الملاّ[٨٤].

ما كان استعمال هذا التعبير، الذي يشمل العلماء المتبحّرين في العلوم الأساسيّة للإسلام، أن يشيع تدريجيًّا إلاّ بالمقدار الذي كان العلماء المعترف بكفايتهم ينجحون في اقتطاع موقع مميّز في المجتمع، وحتّى في الحكم في مختلف بلاد الاسلام. عند السنّة، لم يشكّل العلماء هيئة تراتبيّة إلاّ في الأمبراطوريّة العثمانيّة، موازيًا لهيئة المَلالي في إيران الشيعيّة خلال القرن التاسع عشر.

في فترات غابرة، كان هناك مفسّرون للقرآن وفقهاء وعلماء كلام ومفكّرون ينتمون الى مختلف المدارس الكلاميّة، إضافةً إلى مطبّقي أحكام الفقه، كالقضاة مثلًا. لكنّ هؤلاء العلماء في الفقه والعقيدة لم يندرجوا في إطار تنظيمي إلّا في ما يتعلّق بالقضاة الذين كانوا موظّفين لدى السلطة من جهة، والأشخاص المسؤولين عن إنشاء المدارس الفقهية السنيّة وتطويرها من جهة ثانية. هؤلاء الأخيرون الذين كانوا يصدرون إستشارات فقهيّة من دون أن يشغلوا، مع ذلك، وظائف رسمية، اضطلعوا بدور أساسي، لأنّ القضاة كانوا يستعينون بفتاويهم لحلّ المسائل الحسّاسة التي كانوا يواجهونها. وهكذا كانوا مفسّري الشريعة التي تنظّم جميع شؤون الحياة الإجتماعيّة في الإسلام. مع ذلك، لم يكن لفتاويهم – التي كان من الممكن أن تتعارض في ما بينها – أيّة صفة إلزاميّة، ما كان يترك للقضاة والملوك حريّة الاختيار بين الآراء المتعارضة.

حصل التبديل الأوّل في هذا الوضع في نهاية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، عندما أدرك العلماء – ولا سيّما الفقهاء منهم – مكانتهم وعملوا على

أن يتمّ الاعتراف بها. في هذه الفترة، كان خلفاء السلالة العبّاسيّة قد فقدوا الجزء الأهمّ من سلطتهم لمصلحة سلاطين السلاجقة الأتراك. أفاد العلماء من الأمر ليشغلوا موقع المؤتمنين على الشريعة. ووصل بهم الأمر إلى حدّ الإعلان عن أنّهم يتولّون «ميراث النبوّة» التي كان خلفاء النبيّ محمّد (ﷺ) يدّعونها لأنفسهم حتّى ذلك الحين. وهكذا استطاعوا التمتّع باحترام متزايد؛ ووصل بهم الأمر الى أن يطرحوا أنفسهم مرشدين للملوك التابعين للسلاجقة - وكان هؤلاء قد برزوا إلى ساحة الحكم في جميع بلدان المشرق بقوّة السلاح ونتيجة تفكّك النظام - فتوسّلوا رجال الدين دعم سياستهم وتأييدها.

بلغ هذا التطوّر ذروته مع العثمانيّين الذين نظّموا مجمل السلطات الدينيّة في الإسلام تحت اسم «علميّة»، ووضعوا نظامًا تراتبيًّا للمفتين، أي للفقهاء الذين يُطلب منهم فتاوى يحصلون في مقابلها على أجر وعلى موقع أعلى من مركز القضاة. قام على رأس الهرم التنظيمي هذا المفتي الأكبر لاسطنبول الذي كان يُسمّى أيضًا شيخ الإسلام. وبصفته زعيمًا روحيًّا ورأس المفتين، كان يقوم إلى جانب السلطان بدور المستشار القانوني الذي يؤخذ بآرائه بشكل عام. لذا، كان المفتون والقضاة يُختارون بالضرورة من بين أساتذة المدارس الدينيّة الذين اختصّوا في دراسة الفقه. وقد أُلغيت هيئة «العلميّة» مع قيام الجمهوريّة التركيّة سنة ١٩٢٤.

أمّا العلماء الذين ظلّوا يقومون بدور فاعل في بلدان إسلاميّة أخرى، وبخاصة في المغرب، فانتموا في القرن العشرين إلى حركات ذات توجّه إصلاحي. هذه كانت الحال في تونس، وبخاصة في الجزائر حيث دافعت جمعيّة العلماء، ما بين ١٩٢٥ و١٩٤٠، عن نظريّات مستوحاة من المفكّر المصري محمّد عبده، في الوقت نفسه الذي عملت فيه على تفتّح تيار قومي غدا مهيمنًا بعد الحرب العالميّة الثانية. وهكذا استمرّ هؤلاء الأشخاص في شغل مراكز تنامت أهميّتها في المناطق ذات الطابع الشيعي، وهي كثيرة العدد في العالم الهنديّ - الإيراني، ومنها الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة حيث جعلت الثورة الإسلاميّة من جماعة الملالي الدعامة الأساسيّة للنظام السياسي الجديد.

عَلَوي (أَلِوي Alevis)، اسمُ أُعطي في الجمهوريّة التركيّة - وهو يعود إلى الكلمة العربيّة عَلَوي، وجمعها العَلَويّة - لفئتين من الأقلّيات الدينيّة لهما صلة متفاوتة بذكرى علي.

يتحدّر العدد الأكثر من هؤلاء العلويّين من تركمان الأناضول الذين انضمّوا، منذ قرون، إلى الشيعة، وهم يشكّلون حاليًّا، إلى حدٍّ ما، عامل عدم استقرار ومعادٍ للسلطة.

من جهة أُخرى، نجد في مقاطعة هَتاي، أو سنجق إسكندرون القديم، أتباعًا للطائفة النصيريّة وهم علويّون، لم يغادروا المنطقة إبّان ضمّها إلى تركيا في العام ١٩٣٩. انّهم لا يشكّلون، اليوم، سوى قسم صغير من سكّانها. هذه الطائفة التي تقلّص عددها تبدّى باستمرار كعنصر اضطراب سياسيّ يشجّعها على المطالبة بحقوقها، على غرار ما فعله العلويّون الذين يعيشون في الجمهوريّة العربيّة السوريّة والذين وصلوا إلى السلطة منذ العام ١٩٧٠.

العلويّة (السلالة-)، سلالة الأشراف الحسنيّين، ومهدهم تافيلالت - ومن هنا تسميتهم بالفيلاليّين - التي تحكم المغرب منذ ١٦٣٥م، وقد عرفت الانتقال من نظام حكم قروسطيّ، استمرّ لمدّة طويلة، إلى دولة حديثة مسلمة، قوميّة ومزدهرة إقتصاديًّا.

إنَّ الضعف الذي أصاب السلالة الأولى من الأشراف المراكشيّين، أي سلالة السعديّين - وهي أيضًا سلالة علويّة تنتمي إلى الحسن بن علي - يسّر لمؤسّسي السلطة الجديدة، مولاي الشريف وولديه، مولاي محمّد ومولاي الرشيد، توسيع إمارتهم الأولى في المغرب الشرقيّ حول تازة، وضمّ القسم الأكبر من المغرب الأقصى، باستيلائهم المتعاقب على فاس في العام ١٦٦٦، ومرّاكش في ١٦٦٩. وقد رمت جهودهم إلى محاربة الفوضى المنتشرة الناتجة، بوجه خاص، عن النزاعات الدينيّة الداخليّة التي آثارها في المنطقة ازدهار الطرائق الصوفيّة ورباطات العبادة التي بلغت من القوّة قدرًا عرفت معه كيف تستغلّ لمصلحتها ردّات فعل الجهاد المروَّج لها في البلاد منذ القرن الخامس عشر للميلاد، بسبب غزوات الإسبان والبرتغاليّين على

الشاطئ الأطلسي للمنطقة.

وقد وجب انتظار الجهود التي بُذلت خلال العهد الطويل والشهير لمولاي إسماعيل، الذي اعتمد على أمن مدينته الملكيّة الجديدة مكناس، كي يُرسّخ قدرة هذه السلالة التي عرفت، في ما بعد، لفترات متناوبة من الاضطرابات الداخلية ومن حِقب التجدّد. وكانت محاولات التجدّد تجري كلّما أدّت الأعمال العسكريّة والسياسيّة للسلاطين، أمثال محمد بن عبدالله، إلى إعادة تنظيم موقّتة للبلاد. مهما يكن من أمر، فإنّ المصاعب الماليّة للسلطة المركزيّة، أي للمخزن، التي كانت تواجه الفوضى المتزايدة في المقاطعات التي لم تظفّها محاولات بسط الأمن، والتي كانت تُنعت لذلك بـ«بلاد السيبة» أو «بلاد الانشقاق»، لم تقف عند حدّ حتى نهاية القرن التاسع عشر الذي شهد كذلك ازدياد التدخّل الأوروبي. في ذلك الوقت انماز عهد مولاي الحسن بتوقيع اتفاق مدريد في العام ١٨٨٠، قبل أن تساهم تدخّلات خارجيّة أخرى، في عهود خلفائه، بالمزيد من التفكّك الداخليّ للمغرب.

في المقابل، كانت إقامة الحماية الفرنسيّة التي كرّستها معاهدة وقّعت في العام ١٩١٢ عاملًا مساعدًا لاستمرار سلالة احتفظت بمكانة غير منقوصة، رغم مخاطر الأوضاع. وقد تيسّرت، بفضل ذلك، حركة توحيد أراضي البلاد التي استغرقت زهاء عشرين عامًا من الحملات العسكريّة. وقد غدا سيدي محمّد أو محمّد الخامس إبن يوسف، بعدئذ، إبتداءً من العام ١٩٥٦، أوّل ملك يستعيد استقلال البلاد الناجز، وقد أفاد منه إبنه الحسن الثاني، أو الحسن بن محمّد، منذ اعتلائه العرش عام ١٩٦١، ما يسّر له القيام بتحديث منهجيّ للبلاد.

محمّد الأول الشريف	١٦٣١-١٦٣٥
محمّد الثاني بن محمد	١٦٣٥-١٦٦٤
الرشيد	١٦٦٤-١٦٧٢
إسماعيل السمين	١٦٧٢-١٧٢٧
أحمد الذهبي	١٧٢٧-١٧٢٩
عبدالله	١٧٢٩-١٧٣٥
عبدالله	١٧٤٥
محمّد الثالث بن عبدالله	١٧٥٧-١٧٩٠
يزيد	١٧٩٠-١٧٩٢
هشام	١٧٩٢-١٧٩٣
سليمان	١٧٩٣-١٨٢٢
عبد الرحمن	١٨٢٢-١٨٥٩
محمّد الرابع بن عبد الرحمٰن	١٨٥٩-١٨٧٣
الحسن الاول بن محمد	١٨٧٣-١٨٩٥
عبد العزيز	١٨٩٥-١٩٠٧
الحافظ	١٩٠٧-١٩١٢
يوسف	١٩١٢-١٩٢٧
محمّد الخامس بن يوسف	١٩٢٧-١٩٥٣
	و١٩٥٥-١٩٦٢
محمّد بن عرفة	١٩٥٣-١٩٥٥
الحسن الثاني بن محمد	١٩٦١-١٩٩٩
محمّد السادس	١٩٩٩-

العلويُّون /العَلَوِيّة أي «أشياع عليّ»، وهي تسمية تشير، منذ عهد قريب، إلى المشايعين السوريّين لفرقة النُّصيريّة الشيعيّة.

١- أُطلقت هذه التسمية ذات السِّمة الإداريّة، في أعقاب الحرب العالميّة الأولى، إبّان الانتداب الفرنسي، على الأراضي التي أُنشئت عليها الجمهوريّة العربيّة السوريّة الحاليّة. وقد خلت بذلك من المفهوم المنتقص الذي كانت تنطوي عليه التسمية العربيّة السابقة، أي النُّصَيريّة، التي كان يستخدمها السُّنّيّون الذين يشكّلون الأكثريّة في المناطق الأخرى من سوريا، وظهرت، بصورة رسميّة، في تعبير هو «دولة العلويّين»، للإشارة إلى المنطقة التي يُطلق عليها حتى اليوم، في الغرب، اسم «بلاد العلويّين». وتطلق أيضًا تسمية «علويّين» على بعض المجموعات التي اختارت البقاء في تركيا بعد إلحاق سنجق إسكندرون القديم بهذه الدولة، ويشاطرهم إيّاها شيعة آخرون.

٢- **بلاد العلويّين**، منطقة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة الحاليّة، سمّيت بهذا الاسم في القرن العشرين، إقرارًا بالمكانة التي يحتلّها، بين سكّانها، أشياع الفرقة النصيريّة المميّزة المسمّاة أيضًا «العلويّين».

تشكّلت هذه المنطقة الجبليّة المعروفة كذلك بجبل النصيريّة، من الناحية الإداريّة، إبتداءً من العام ١٩٢٠، خلال الانتداب الفرنسي، وأُطلق عليها اسم الإقليم المستقلّ، ثمّ دولة العلويّين، ثمّ حكومة اللاذقيّة. إنّ

حدودًا طبيعية شديدة الوضوح، بين الساحل المتوسّطي غربًا ومنخفض العاصي شرقًا، بين مقاطعة أنطاكية شمالًا، ومقاطعة طرابلس جنوبًا، تجعل منها منطقة مميّزة حتّى اليوم، في إطار بلد مستقلّ يجد من خلالها انفتاحه الاقتصاديّ على البحر، عبْر مرفإ اللاذقيّة. ويحتلّ البحر المنطقة الحدوديّة بين الجمهورية التركيّة، من جهة، ولبنان، من جهة أخرى. وقد جعل الموقع الجغرافيّ من هذه البلاد، عبر القرون، ملجأً تنازعته فرق شيعيّة مختلفة، قبل أن يغدو في أكثرية سكّانه نُصيريًّا.

إنّ الإسماعيليّين الموجودين حاليًّا في بعض نقاط هذه المقاطعة كانوا سابقًا، بين القرنين الخامس والسابع للهجرة/ الحادي عشر والثالث عشر للميلاد، يُشكّلون مجموعة من الإسماعيليّين الجدُد أو النزاريّين، يدير شؤونها من قلعة مصياف «شيخ الجبل» الشهير رشيد الدين سنان. كانت هذه الدولة قائمة بقوّة، بين مواقع الفرنج في إمارة أنطاكية و«كونتيّة» طرابلس من جهة، والممالك المسلمة التابعة لنور الدين ثمّ لصلاح الدين، من جهة أخرى. كانت تعتمد على سلسلة من القلاع، وتتعرّض، منذ ذلك التاريخ، لهجمات النصيريّين المستقرّين في شمال المنطقة والذين لم يلبثوا أن وسّعوا ممتلكاتهم، ثمّ سكنوا «الجبل» بأكمله ومنحوه اسمهم. وقد غدا المدى الذي شغلوه، في ظلّ السيادة غير المكتملة التي مارسها المماليك ثمّ العثمانيّون، المنطقة المخصّصة بالطائفة النصيريّة التي حافظت، في إطارها، على أساليب حياة قديمة ودافعت عن نفسها بقوة السلاح. وحدها التحوّلات التي أحدثتها، في القرن العشرين، الإدارة الفرنسيّة للانتداب، ولا سيّما الهجرة الحاليّة لكثير من العلويّين نحو المناطق السوريّة الداخليّة حيث شكّلوا دعمًا لسياسة الرئيس حافظ الأسد، أدّت إلى تطوير الوضع، بحيث يصعب الآن توقّع النتائج المترتّبة على ذلك: إمّا تقوية المنطقة التي كانت تشكّل بالنسبة إلى العلويّين معقلاً طائفيًّا حقيقيًّا، أو التخلّي عنها تدريجيًّا.

العلويّون، هم ذرّيّة الإمام علي بن أبي طالب وأعقابه الذين يحفظ لهم أتباع الشيعة حقّ قيادة المسلمين.

والعلويّون في الأساس فرعان، كانت لهما أدوار مختلفة في تاريخ الإسلام، وهما فرع الحَسَنيّين وفرع الحُسينيّين، المنحدران على التوالي من الحَسن والحُسين، إبني علي من زوجته فاطمة ابنة النبيّ محمّد (ﷺ). وفي البدايات الأولى للإسلام، لم تكن علاقة البنوّة المباشرة بالنبي (ﷺ) عبر فاطمة ذات أهمّيّة كبرى، والدليل على ذلك أنّ إحدى الثورات التي اندلعت ضدّ الأمويّين، قامت باسم محمّد بن الحنفيّة[٨٥]، ابن الإمام علي من امرأة غير فاطمة. إلّا أنّ إجلال أسرة النبي محمد (ﷺ) التي غدا اسمها عاملاً توحيديًّا استعان به دعاة الثورة الذين أوصلوا العبّاسيّين إلى الحكم، أدّى إلى حصر المطالبة بالشرعيّة العلويّة في أبناء آل البيت، أي في أسرة النبي (ﷺ) المباشرة، بالمعنى الضيّق للكلمة.

إنطلاقًا من هذا المفهوم انتمت سلالة الأئمّة الاثني عشريّة إلى الحسين بن علي، وهي التي تعترف بها الإماميّة الاثنا عشرية. وتتّفق الإسماعيليّة مع الاثني عشرية على الأئمّة الستة الأُوَل[٨٦]؛ ذلك أن ذرّيّة هؤلاء تمثّلت بعد ذلك بالأسرة الفاطميّة. كما أنّ زيدًا بن علي وابنه يحيى ينتميان إلى الحسين بن علي، وقد حاولا إثبات حقّهما بالقوّة في أواخر العصر الأموي، وفتحا بذلك الباب أمام ظهور الحركة الزيديّة.

إنّ العلويّين الذين حملوا السلاح في العصر العبّاسي دفاعًا عن شرعيّة دعواتهم كانوا في غالبيّتهم ينتمون إلى الفرع الحسني، بدءًا بمحمّد النفس الزكيّة، إبن عبدالله، وأخيه إبراهيم، وقد ثارا في زمن المنصور سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م. كما ثار الحسين بن علي بن الحسن وقُتل سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م في موقعة فخ؛ وكذلك ادريس ابن عبدالله، أحد أخوة محمّد وإبراهيم، الذي نجا من مذبحة فخّ وأسّس في المغرب سلالة الأدارسة. وتذكر كذلك الأئمّة الذين حكموا باسم الزيديّة في طبرستان واليمن. وإلى الفرع الحسني ينتمي الأشراف الهاشميّون الذين فرضوا أنفسهم حكّامًا على مكّة المكرّمة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وإليهم تعود السلالة الملكيّة الحاكمة اليوم في الأردن. وكذلك أشراف المغرب وسوس الذين استقرّوا في المغرب الأقصى في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وإليهم يعود

نسب ملوك المغرب اليوم، ونسب من كان قبلهم من السلالة السعدية.

في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، عندما كان البويهيّون يدعمون الميول الشيعية في العراق، كان العلويون قد أصبحوا منفصلين عن العبّاسيّين، وسط الكتلة الهاشمية الكبيرة، وغدا لهم نقيب خاص اتّخذ لقب الشريف. وهذا اللقب حمل الجميع على تقديم الاحترام والإجلال لمن هم من سلالة نبيّ المسلمين، وإن لم يمارسوا أيّ نشاط سياسي، وإن قطعوا كلّ صلة بالشيعة.

◄ راجع السنندس ٤ و٥.

علي بن أبي طالب، (؟-٤٠هـ/ ٦٦١م)، هو الإمام أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب، بن هاشم القرشي، وهو ابن عمّ النبيّ محمّد (ﷺ) وصهره وصديقه المخلص. أظهر وفاءه للنبي (ﷺ) في الأوقات الصعبة وتزوّج من ابنته فاطمة. برز وجهًا مهمًّا في تاريخ الإسلام، وكان الخليفة الرابع بين الخلفاء الراشدين، وهو الإمام الأوّل الذي يكرّمه أتباع الشيعة.

هذا الإمام الذي تختلف، بشأن حياته وصفاته، نظرة الشيعة ونظرة السنة، هو ابن أبي طالب، أحد أعمام نبيّ المسلمين وممّن اهتمّوا بحمايته. وكان الإمام علي أصغر سنًّا من ابن عمّه النبي (ﷺ)، إذ لم يكن قد تجاوز العاشرة عندما تقبّل الإسلام، وهو أوّل الداخلين إلى الدين الجديد بحسب عدد وافر من المؤرّخين. كما أنّه ينتمي إلى مجموعة المهاجرين، وتزوّج في المدينة المنوّرة. وخلال حياة النبي (ﷺ)، شارك الإمام علي في معارك عديدة، مظهرًا شجاعة ورباطة جأش إلى حدّ أنّ المؤرّخين الشيعة أفاضوا، في ما بعد، في ذكر شجاعة «أسد الله» وقوّة سيفه.

بعد وفاة النبي (ﷺ)، كان علي في حدود الثلاثين من عمره، فلم يشترك في اجتماع «السقيفة» الذي تمّ فيه اختيار الخليفة أبي بكر الصديق، وقيل إنّه كان خلال ذلك منهمكًا بدفن ابن عمّه النبيّ (ﷺ). يبدو أنّه لم يطالب آنذاك بالخلافة، ورفض في المقابل مبايعة أبي بكر، فلم يبايعه إلّا بعد ستة أشهر، وبعد وفاة فاطمة.

وكان للإمام علي علاقة صعبة بالخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، إذ لم يوافقه على المبدأ الذي على أساسه تمّ تنظيم الديوان، فكان يفضّل أن توزّع مغانم الفتوح على المحاربين. ثم عُيّن عضوًا في اللجنة التي كلّفها الخليفة عمر اختيار خلف له. لكنّه أُبعد مجدّدًا عن الخلافة لأنّه لم يتعهّد بالسير على نهج الخليفتين السابقين. وسريعًا ما وجد نفسه في الصف المعارض للخليفة عثمان بن عفّان، وقد لامه لعدم تطبيق حدود القرآن بدقّة، كما كان لسان حال المعارضين الآتين من مصر، من دون أن يشجّعهم على العنف.

بعد موت عثمان بن عفّان أُعلن الامام علي خليفة في المدينة، في ذي الحجّة سنة ٣٥هـ/ حزيران ٦٥٦م. لكنّه لم يضع، على ما يبدو، برنامجًا سياسيًّا يرضي الجميع. فأسرع إلى عزل بعض الولاة المعيّنين من قبل الخليفة السابق، وقسّم الأموال التي كانت مجمّعة في بيوت مال المدينة والبصرة والكوفة. وعمد، من جهة ثانية، إلى رفع شأن القدماء المهتدين الأوائل إلى الدين، وقدّمهم على أبناء قبيلة قريش، ما نفّر عددًا من هؤلاء. ولكنّه لقي دعمًا من الأنصار ومن المقاتلين في الولايات. إلّا أنّه اصطدم بمعارضة والي الشام، معاوية، الذي كان من أنسباء عثمان، والذي رفض مبايعته واتّهمه بالتآمر مع قتلة عثمان. كما وقف في وجهه اثنان من صحابة النبي (ﷺ)، هما طلحة والزّبير اللذان انضمّا إلى عائشة، إحدى زوجات النبي (ﷺ) وكانت مفضّلة بينهنّ. وطالب المعارضون بتطبيق حدود القرآن، وبالثأر لدم عثمان، ثمّ جمعوا عددًا من المناصرين والأتباع واتّجهوا نحو العراق. فترك علي المدينة واتّجه نحو مثيري الفتنة وقاتلهم في مكان غير بعيد من البصرة، في جمادى الثانية سنة ٣٦هـ/ كانون الأول سنة ٦٥٦م، في معركة سمّيت معركة «الجمل»، إشارةً إلى الهودج الذي كان يحمل عائشة. وقد قُتل الزبير في المعركة وجُرح طلحة جرحًا مات على أثره، وأُرجعت عائشة إلى المدينة في موكب يليق بها.

بعد هذا الانتصار خلت الساحة أمام علي لمعالجة أمر معاوية. ولم يقبل هذا الأخير أي نوع من التسوية، وألحّ بأن يُسلّم إليه قتلة عثمان بموجب الآية القرآنية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ

جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٣٣)؛ كما رأى أن هذه الآية تسمح بأن يثأر المقرّبون لدم المؤمن إذا قُتل مظلومًا. ومقابل ذلك، رأى علي أنّ عثمان قُتل بسبب أعماله التعسّفية ويجب ألّا يُثأر لدمه. وعندما أصبحت الأمور غير قابلة للتسوية، قاد علي جيشه لمقابلة معاوية، فالتقى الخصمان في صفّين. وعندما بدأ الوهن يدبّ في صفوف جيش معاوية، رُفعت صحائف القرآن على رؤوس رماح بعض محاربيه، بناء على نصيحة عمرو بن العاص، إشارةً إلى المطالبة باللجوء إلى أحكام القرآن. على الرغم من حذره تجاه هذا العرض الذي قد يكون حيلة، اضطرّ الخليفة علي إلى القبول به وأوقف القتال. هذا القرار الذي اتّخذه علي أوقع الشقاق داخل جيشه، فانفصل الخوارج عنه مؤكّدين في هذه المناسبة أن «لا حكم إلّا لله»، ومعتبرين، بموجب القرآن، أنّ مقاتلة الثائرين واجب حتّى يعودوا إلى الطاعة.

بعد أن تقرّر التحكيم في صفّين، سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م، اجتمع ممثّلا الفريقين في واحة دومة الجندل على ما يبدو، وذلك في شهر رمضان سنة ٣٧هـ/ شباط ٦٥٨م. فمثّل عمرو بن العاص معاوية، ومثّل أبو موسى الأشعري عليّ بن أبي طالب. وبحسب الروايات المتنوّعة المحفوظة، فإنّ مناقشات الحكمين تركّزت على مسألة واحدة، وهي معرفة ما إذا كان عثمان قد قُتل ظلمًا. ويبدو أن الطرفين أقرّا بذلك، وهذا يعني إدانة علي. وقد بايع الشاميّون معاوية في السنة نفسها، في حين كان الإمام علي متهمكًا بمحاربة الخوارج وقد انتصر عليهم في معركة النهروان في صفر ٣٨ هـ/ تموز ٦٥٨م، ثمّ رجع إلى الكوفة من دون أن يتّخذ أيّ تدبير ضدّ معاوية. ثمّ عُقد اجتماع آخر في أذرح، في شعبان سنة ٣٨/ كانون الثاني ٦٥٩م، من دون أن يسفر عنه أيّ قرار. وقد بقي أتباع علي أوفياء له واستمرّ هو في حالة انتظار، بينما نجح معاوية في السيطرة على مناطق جديدة. أخيرًا عمد أحد الخوارج، وهو عبد الرحمن بن ملجم، إلى طعن علي على مدخل المسجد الجامع في الكوفة فقتله، ودُفنت جثّة الخليفة الرابع في مكان سرّي. وفي عصر العبّاسيّين حُدّد مكان قبره في النجف حيث أقيم بعد ذلك ضريح جعل المكان مزارًا والمدينة مقدّسة عند الشيعة، وكما هي حال كربلاء ومدينتي مشهد وقُم الإيرانيّتين.

نظرًا إلى مجمل هذه الأحداث، التي فتحت الباب أمام تفسيرات متضاربة، يبقى فهمُ طبع الإمام علي أمرًا صعبًا. ولا نستطيع، من جهة ثانية، الارتياح كلّيًا إلى صحّة نسبة الكثير من الخطب إليه، إذ إنّ ما تركه قد جمعه الشريف الرضي، في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، تحت عنوان «نهج البلاغة». وعلى الرغم من أن عليًا كان حريصًا على احترام مبادئ الإسلام، فإنّه لم يتوصّل قطّ إلى اتّباع خطّ واضح ومتماسك، وقد اتُّهم بأنّه كان متردّدًا وغير واقعي، وهذا ما يفسّر بعض أسباب فشل أعماله. وعلى الرغم من الانطباع الذي يمكن استخلاصه من الروايات والأخبار التقليديّة، فإنّ صورة عليّ بقيت دائمًا، في نظر مجمل المسلمين، محطّ احترام وتكريم، وهي صورة الأقرب إلى النبي محمّد (ﷺ) والأكثر وفاء له والمؤمن الأوّل برسالته. ولم تكفّ شخصيّته عن إثارة حماسة الجماعة المتفانية في سبيل قضيّته والغيورة على مبادئه، منذ البداية وعلى مرّ العصور، وهيّ جماعة الشيعة. ولا شكّ في أنّه يستحيل أن نعرف ما إذا كان علي نفسه يعتقد أنّ له الحقّ بالخلافة أكثر من سائر صحابة نبيّ المسلمين (ﷺ)، لأنّه لم يُظهر يومًا بقوّة هذا الطموح، إلّا أنّ أتباعه كانوا مقتنعين بحقّه ووضعوا لاحقًا، في مرحلة زمنيّة يكتنفها الغموض، مبدأ يرتكز على كلام للنبي محمّد (ﷺ) قاله في غدير الخُمّ، قبل وفاته بقليل: «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه». فيرى الشيعة أن النبيّ محمّدًا (ﷺ) أراد بذلك جعل عليّ خليفته. أمّا السنّة فتعطي كلمة «مولى» معنى «صديق» ممّا يسمح باحتمالات وتفسيرات مختلفة. كما ترتكز الشيعة على بعض الآيات القرآنية التي تعطي مكانة مميّزة لآل البيت، أي لأسرة النبي محمد (ﷺ)، المحصورة بعلي وفاطمة وولديهما الحسن والحسين.

بعد موت علي، جعل منه بعض الغلاة قبسًا من الألوهيّة المتجسّدة، وذلك اذا ما أردنا تصديق التأكيدات التي أطلقها، في وقت متأخّر، بعض أصحاب النظريّات،

كما يُنتظر أن يعود بصفة مهدي. إلّا أنّه يصعب التأكّد من أنّ عقيدة كهذه أبصرت النور فعلًا في ذلك الوقت، لكن ظهر باكرًا في قلب الشيعة، وأكثر من مرّة، تيّار يرى تجسيدًا للروح الإلهيّة في عليّ نفسه، أو في أحد الأئمّة الذين أتوا بعده. وعدد الملل التي تأخذ بهذا الاعتقاد هو من الأهميّة بحيث يحملنا على القول إنّه ليس مجرّد اختراع من قبل مؤرّخي البدع المسلمين في العصور اللّاحقة.

◄ راجع المستندات ١ و٤ و٥.

علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح (٢٤٥-٣٣٤هـ/ ٨٥٩-٩٤٦م)، وزير عبّاسي، تسلّم الادارة غير مرّة خلال عهد خلافة المقتدر، وعبثًا حاول إصلاح الوضع الإقتصادي المتدهور، وإبعاد خطر أمير الأمراء الذي كان على وشك السيطرة على الحكم المركزي للخلافة الإسلاميّة.

ينتمي علي إلى أسرة إيرانيّة الأصل استقرّت في العراق، ونشأ في كنف جماعة من الكتّاب المسيحيّين. واستطاع بسرعة أن يتبوّأ المراكز العالية، لما كان يتمتّع به من صفات شخصيّة ومن قدرات عمليّة. إلّا أنّ جهوده الإقتصاديّة لم تجد الارتياح لدى الخليفة الشاب والمتقلّب، وكان علي قد وقف ضدّه في ثورة القصر التي قادها إبن المعتزّ. وهذا الموقف حال دون السماح له، كلّما وصل الى السلطة، بالقيام بإصلاحات واسعة. وقد عمل جاهدًا من أجل إبعاد الخلافة العبّاسيّة عن الأخطار المتنوّعة التي كانت تهدّدها. ورغم عدم نجاحه نال الصيت الحسن، ما جعل المؤرّخين يشيرون إلى ذلك، وما حمل أحد المستشرقين الحديثين على إعطائه لقب "الوزير الطيّب".

فضلًا عن وظيفته ككاتب محترف، توافرت له ثقافة إسلاميّة متينة استقاها من معلّمين ينتسبان إلى المذهب الشافعي ويميلان إلى المعتزلة. ومن أجل مواجهة موظّفين اداريّين ينتمون إلى الشيعة ويسيطرون على مراكز عالية قرب الخليفة من دون أن يعترفوا بشرعيّة سلطته، ويحاولون كسب الثروات على حساب الدولة، راح يدافع عن نظريّة الخليفة المسؤول، ويستعين بخبرة وخدمات أتباع عُرفوا بالاستقامة والتضحية. ويبدو أن صلابة مبادئه كانت تنسجم مع قناعاته الدينيّة. وكانت له علاقاته بممثّلي الصوفيّة المشهورين، وهذا ما يفسّر محاولاته اليائسة لإيقاف محاكمة الحلّاج. كما حمى عددًا من رجال الأدب والدين، علمًا أنّه تخلّى بعد ذلك عن نشاطه كراعٍ للآداب. عند تسلّمه الوزارة، حرص علي بن عيسى على أن يحافظ على ازدهار الخلافة، وأن يكون الاعتدال طابع الضرائب، فألغى عددًا من الضرائب الجائرة، وحاول وضع حدّ لبعض الممارسات التي تسيء إلى المصلحة العامة، كما عمد الى وضع حدٍّ لعادة تلزيم الضرائب. ومن أجل أن تحافظ الموازنة على توازنها، اضطرّ إلى تقليص نفقات البلاط، وإلى استدانة الأموال من اليهود العاملين في حقل الصيرفة. والواقع أن هذا النوع من التدابير يجد صعوبة في النجاح ضمن أوضاع غير مستقرّة. فالظروف [الصعبة]، وعدم تماسك النظام، وإرادة الخليفة نفسه، كلّها عوامل حالت دون السماح له بتحقيق عمل يكون فعلًا مفيدًا لدولة سائرة إلى الإنهيار والضعف على الصعد كافةً.

علي بن يوسف بن تاشفين (٤٧٧ - ٥٣٨هـ/ ١٠٨٤-١١٤٣م)، هو ثاني ملوك المرابطين، تسلّم سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م مقدّرات أمبراطوريّة مغربيّة أندلسيّة واسعة كانت في ذروة عظمتها، ولكنها كانت في الوقت عينه مهدّدة بأخطار خارجيّة وداخليّة.

ولد علي في سبتة، وهو ابن يوسف بن تاشفين وأمّه أسيرة مسيحيّة. كان عليه، فور تسلّمه الملك، أن يبذل كلّ جهده لتثبيت التنظيم الاداري لأمبراطوريّته، فكان يعمد إلى تغيير الأمراء والولاة من منصب إلى آخر من أجل أن يبقى سيّد الموقف. وبالمقابل تصرّف بصفته أميرًا مثقّفًا وبانيًا، حريصًا على استمرار وهج بلاطه ومحيطه. ومع ذلك فإنّه لم يتردّد في ترك عاصمته مرّاكش - وقد جمّلها بأبنية لا يزال بعضها محفوظًا - من أجل الإنتقال إلى الأندلس مجاهدًا حيث قاد أربع حملات تكلّلت في بداياتها بالنجاح.

إلّا أنّ الحظّ الذي بسم له زمنًا في المعارك، بدأ ينقلب على أثر خسارة مدينة سرقسطة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، بعدما كانت جيوشه قد انتزعتها من أسيادها

المحليّين بني هود. وانتصار أحد قادته سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م على ألفونسو الأوّل ملك أراغون في معركة «فراغا» لم يحل دون استمرار الحملات المسيحيّة في شبه الجزيرة الإيبريّة الممزَّقة. والحرص الخاص الذي أبداه أمير المرابطين في الدفاع عن الأندلس، فإنّه ضعف السلطة المرابطيّة في وجه الثورات والهجمات التي تكاثرت عليها في المغرب كلّه، وذلك بتحريض من ابن تومرت المصلح الدينيّ الجديد. وكان من نتيجة النجاح الشعبي الذي لقيته دعوة الموحّدين، والانتصارات الحربيّة المتلاحقة التي حقّقوها، أن أمسى سيّد مراكش معزولًا داخل قصره. وهذا ما مهّد لقيام سلطة جديدة مكان المرابطين بعد خمس سنوات من موت عليّ بن يوسف.

علي الرضا (١٤٨-٢٠٥هـ/ ٧٦٥-٨٢٠م)، هو ثامن إمام علويّ من أئمّة الإماميّة الاثني عشريّة. استطاع، بمبادرة من الخليفة المأمون، أن يضيف إلى الاعتبار الذي كان يتمتّع به، إمكان أداء دور مهمّ في حياة الخلافة زمن العبّاسيّين.

كان علي الرضا ابن الإمام السابع موسى الكاظم، وقد أثار تسلّمه الإمامة معارضة قويّة على أثر وفاة والده سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م، وانبثقت عن تلك المعارضة بدع شيعيّة جمعت خصومه. بقي في المدينة زمنًا يعيش في شبه وحدة، منصرفًا إلى العلوم والتعليم، إلى أن استدعاه المأمون إلى مرو، بعد انتصار هذا الأخير على أخيه الأمين؛ وجعله وليّ العهد ووريثه في الخلافة وغمره بالتكريم. إلّا أنّ ردّات الفعل العنيفة من قبل العرب، ومظاهر العداء الشعبي التي اصطدم بها في العراق غيّرت الأوضاع بسرعة، إذ مات علي الرضا في طوس سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م، وهو في طريقه إلى بغداد مرافقًا المأمون؛ ويُرجّح أن يكون قد قُتل مسمومًا. دُفن علي الرضا إلى جانب الخليفة هارون الرشيد، وكان ضريحه أو المشهد الذي أُقيم له أساسًا لقيام مدينة تحمل اسم مشهد، نمت حول ضريحه بعيدًا من مدينة طوس القديمة، وغدت عاصمة خراسان الحاليّة وحاضرة كلّ إيران الشرقيّة.

علي زين العابدين، ٣٨-٩٤هـ/ ٦٥٨-٧١٢م، ويُعرف أيضًا باسم السجّاد أي الكثير السجود. هو رابع الأئمّة العلويّين المعترف بهم من قبل الإثني عشريّة والإسماعيليّة. عُرف بعلمه وتقواه، وعاش في شبه عزلة ولم يضايق قط الأمويين. وهو ثاني أولاد الحُسين، شهيد الشيعة، ويُطلق عليه اسم علي الأوسط بين أخويه علي الأكبر وعلي الأصغر. كان صغيرًا يوم مأساة كربلاء فنجا من المذبحة. أحاطه عدد من أتباعه وأيّدوه لأنّه، بحسب القاعدة المتّبعة عند الإماميّة الاثني عشريّة، قد عُيّن شرعًا، بموجب وصيّة، وريثًا لسلفه. وكذلك كان حال خلفه الإمامين الخامس والسادس، محمّد الباقر وجعفر الصادق. تميّز خلال حياته بثقافته الدينيّة وبأعمال التقوى، ما ترك الباب مفتوحًا أمام محمّد ابن الحنفيّة [ابن الإمام علي بن أبي طالب من زوجه خَوْلة]، ممثّلًا بالمختار الثقفي، للقيام بمبادرات عنيفة وبحركات ثوريّة. وتشير معطيات سير الأولياء عند الشيعة إلى أنّ زين العابدين أثار حسد وليّ العهد هشام بن عبد الملك فدسّ له السمّ. فدُفن في «البقيع» في المدينة، قريبًا من مدفن عمّه الحسن، بعد أن تسلّم الإمامة مدّة خمس وثلاثين سنة.

علي الهادي والنقي، هو أبو الحسن علي بن محمّد (٢١٢-٢٥٤هـ/ ٨٢٧-٨٦٨م) والمعروف أيضًا بالعسكري[٨٧]، عاشر إمام من الأئمّة الاثني عشر، اشتُهر بخصامه مع الخليفة العبّاسي المتوكّل الذي وضعه في الإقامة الجبريّة في سامرّاء[٨٨].

وهو ابن الإمام التاسع محمّد الجواد ووريثه المعترف به، على الرغم من أنّ أحد أخوته، موسى، كان له أتباعه ومؤيّدوه. أمضى مرحلة خلافة المعتصم والواثق في المدينة حيث لم يعكّر صفو حياته شيء. إلّا أنّ التبدّل الجذري في السياسة الدينيّة التي اعتمدها المتوكّل والتعصّب الذي أظهره ضدّ الشيعة أدّيا، في حدود سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م، إلى إقامته الجبريّة قرب الخليفة، من دون أن يمسّ بأذى، بل إنّه لقي التقدير والاحترام من الخليفة نفسه. وقد انتشرت بين أخبار الأئمّة وفي مؤلّفات الكتّاب ذوي الميول الشيعيّة، أمثال المسعودي، أخبار كثيرة تشير إلى تقوى الإمام الهادي

وإلى علمه العميق. وقد مات في سامَرّاء بعد نحو عشرين سنة، في زمن خلافة المعتزّ الذي قيل إنّه دسّ له السمّ. فوقع الخلاف بين أتباع ثلاثة من أولاده، واختير (ابنه) الحسن «العسكري» إمامًا للشيعة الاثني عشريّة، برغم ظهور آراء معارضة نتج عنها بعض الارتباك. لا يزال مدفن علي الهادي مكرّمًا في سامرّاء، يعلوه ضريح فخم مع قبّة مذهّبة، هي قبّة العسكريّيْن التي تحتضن مدفنه ومدفن ولده الإمام الحادي عشر الحسن العسكري.

◄ راجع المستند رقم ٤.

علي الهمذاني، أو السيّد علي بن شهاب الدين بن محمد الهمذاني (٧١٤-٧٨٧هـ/ ١٣١٤-١٣٨٥م)، ويُعرف أيضًا باسم الأمير الكبير. صوفي تقيّ وإليه يُنسب الفضل في تقبّل كشمير النهائي للإسلام، وهو لا يزال عندها الوليّ المكرّم.

ولد في مدينة همذان الإيرانيّة، في قلب أسرة علويّة تعود بنسبها إلى الحسين، ويرجع بأصله إلى نجم الدين كبرى مؤسّس الفرقة الكبراوية. وكان علي الهمذاني رحّالة جاب مختلف أقطار العالم الإسلامي في زمانه، كما كان كاتبًا غزير الإنتاج، وكتاباته التي لم تُدرس كلّيًا تهتمّ بالأخلاق السياسيّة، وبطرق الصلاة الشخصيّة التي تقود إلى الوجد الصوفي. والفضل الأوّل الذي استحقّه هو أنّه، بعد زيارات طويلة ومتكرّرة، استطاع نشر الإسلام في كشمير، وخصوصًا لدى السلطان شهاب الدين (٧٥٥-٧٧٧هـ/ ١٣٥٤-١٣٧٤م) وخليفته قطب الدين (٧٧٧-٧٩١هـ/ ١٣٧٤-١٣٨٩م) اللذين عملا بتوجيهاته. وبعد وفاة علي اهتمّ ولده بنشر تعاليمه فبُنيت له، في عاصمة سريناغار، في عهد سكندر (٧٩١-٨١٦هـ/ ١٣٨٩-١٤١٣م)، خانقاه تحوّلت إلى مزار. وهذه الخانقاه التي بنيت تكريمًا للسيّد علي الهمذاني لا تزال اليوم مقصد عدد كثير من المؤمنين.

عَلِيغَرْه (الاتّحاد الهندي)، مدينة في مقاطعة «أوتّار براديش» الحاليّة، جنوب شرقيّ الهند، نسبة كبيرة من سكّانها من المسلمين. وتعود شهرتها الحديثة إلى الحركة الإصلاحيّة التي تطوّرت فيها.

واسم «عَليغَرْه» الذي يعني القلعة العالية أُعطي في أواخر القرن الثامن عشر لمدينة «كُويل» القديمة، وكان الإسلام قد دخلها سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م في زمن الغوريّين. ويحكم وقوعها على الطريق التي تربط دلهي بأغرا، استمرّت مدّة تتمتع بأهميّة إستراتيجيّة، كما عرفت تاريخًا مضطربًا، وقد زارها الرحّالة العربي ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. في سنة ١٨٠٣ وقعت المدينة تحت الإحتلال البريطاني بعد حصار طويل ومقاومة عنيفة، كما عانت في ما بعد بسبب مشاركتها في عصيان سنة ١٨٥٧.

والحدث المهمّ الذي ترك تأثيره اللّاحق على مصير المدينة، كان تأسيس «المعهد المحمّدي الإنكليزي الشرقي»، في حدود سنة ١٨٧٥، بفضل جهود رجل الاصلاح سيّد أحمد خان. وقد أراد من خلال عمله هذا أن يضع موضع التنفيذ بعض المبادئ التربويّة الغربيّة من أجل خلق نخبة محلّيّة، بخاصّة - ولكن ليس حصرًا - من المسلمين. والنجاح الذي حقّقه هذا المعهد، بعدما استمرّ مؤسّسه في إدارته حتّى وفاته سنة ١٨٩٨، والتطوّر الذي بقي عليه، كانا في أساس قيام الجامعة التي حلّت مكان المعهد سنة ١٩٢٠. وقد شملت برامجها الآداب والعلوم والتكنولوجيا وعلوم الدين، وغدت نموذجًا لمؤسّسات أنشئت في مدن أخرى. واستمرّت هذه المؤسّسة قائمة حتّى في مرحلة الاضطرابات التي نتجت عنها ولادة باكستان سنة ١٩٤٧.

وبفضل الحداثة التي تميّز بها هذا التعليم، منذ نهاية القرن التاسع عشر، برزت فعاليّة الحركة التي عُرفت باسم حركة عَليغَره. وقد عملت بإشراف أحمد خان على إحياء الفكر الإسلامي وتنشيطه إنطلاقًا من المعطيات العلميّة الغربيّة. وقد واجهت هذه الحركة صلابة التقليديّين الذين حملت لواءهم، في ذلك العصر، مدرسة «ديوبوند». وبقي لهذا النشاط تأثيره في الفكر الديني الساعي إلى مواقف وفاقيّة.

عماد الدين الكاتب الأصفهاني، محمّد بن محمّد، ٥١٩-٥٩٧هـ/ ١١٢٥-١٢٠١م، أديب ومؤرّخ من العهد الصليبي، انتمى إلى حاشية صلاح الدين.

ولد في أصفهان حيث أمضى شبابه، وانتقل بعدها

إلى بغداد حيث تابع دراسته، ولقي حظوةً لدى الوزير ابن هُبيرة ولدى حاشية الخليفة. ثمّ انتقل إلى سوريا حيث عهد إليه نور الدين بالتعليم في مدرسة، وكلّفه مهماتٍ دبلوماسيّة وأعمالاً إداريّة. وبعد وفاة سيّده عاد إلى الموصل سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، ولقي حظوة في ما بعد لدى صلاح الدين، وذلك منذ سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، فرافقه في حملاته حتّى وفاة هذا الأخير سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، فاعتزل منصرفاً إلى الأعمال الأدبيّة.

عماد الدين كاتب عُرف بصنعته الأسلوبيّة. جمع مختارات أدبيّة ووضع مؤلّفات تاريخيّة، أبرزها مخصّص للاستيلاء على القدس وعنوانه «الفتح القسيّ في الفتح القدسي» الذي يتضمّن قيمة تقميشيّة، لكن يُخفيها تصنّع الأسلوب.

عمّار (بنو -)، إسم أسرة حكمت مدينة طرابلس الواقعة على ساحل ولاية سوريا الفروسطيّة، وجعلتها إمارة شبه مستقلّة قبل قليل من قدوم الفرنج الذين جعلوها مركز كونتيّة.

والحاكم الأوّل من أسرة القضاة هذه التي استطاعت، بفضل حسن سياستها، أن تحتفظ بالسلطة مدّة أربعين سنة، ثبّت سيطرته سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م، بعد موت حاكم المقاطعة المعيّن من قبل الفاطميّين. وحتّى سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م، تاريخ سقوط المدينة بأيدي الصليبيّين، تبنّى المؤسّس ومَن خلفه سياسةً قامت على الاعتماد على التجّار الذين جعلوا همّهم الدفاع عن مصلحة مدينتهم البحريّة. وكان ذلك وسط بلاد مقسّمة أضعفتها أعمال العصابات التركيّة، إلى جانب صراع الخلافتين الكبيرتين اللتين كانتا تتنازعان الشرق الأوسط. والانتماء الشيعي لأكثريّة السكان لم يقف عائقًا أمام بني عمّار كي يؤيّدوا العباسيّين والسلاجقة الذين كانوا من حماة السنّة.

العمارة (فن -) ← الهندسة المعماريّة الإسلامية.

عُمان، مقاطعة قروسطيّة تقع جنوب شرقيّ الجزيرة العربية، يحيط بها الخليج العربي - الفارسي والمحيط الهندي، وتفصلها عن باقي شبه الجزيرة العربية صحارٍ واسعة. وهي تشكّل، اليوم، سلطنة مستقلّة.

١ - تضمّ هذه المنطقة الجبليّة، في جزئها الشرقي، سهلًا ساحليًّا ضيقًا مزروعًا، يسمّى الباطنة، تعلوه سلسلة قمم وعرة تنحدر مباشرة في اتّجاه مضيق هُرمُز، قبالة المدينة الإيرانيّة المرفئية هُرمُز/ بندر عباس. وفي الداخل تقوم هضبة تنتشر عليها واحات عدّة تفضي إلى كثبان رمليّة غير مأهولة. ومن جهة الجنوب تقوم منطقة ظُفار وهي ذات مناخ رطب يجعل منها، جزئيًّا، أرضًا خصبة. وفي مجموعة هذه المناطق، كانت صُحار المدينة الأهمّ في القرون الوسطى. لكن، بدءًا من القرن الرابع عشر، حلّت محلّها في مرحلة أولى مدينة قلهات، وفي ما بعد مدينة مسقط.

لقد عرفت عُمان، منذ بدايات الإسلام، استقلالية نسبيّة تعزى إلى موقعها المنعزل في منطقة كانت تسكنها آنذاك قبيلة الأزْد، وقد شكّلت ملجأً للخوارج من فرقة الإباضيّة. وكانت الأنشطة التجاريّة لشريطها الساحلي، المنفصل عن باقي البلاد، تتوجّه، بشكل خاص، نحو البحر حيث كان البحّارة يفيدون من الرياح الموسميّة ليبلغوا القرن الأفريقي والبلاد الموغلة جنوبًا من جهة، وليتقدموا في اتّجاه آخر نحو أراضي الهند وإندونيسيا والشرق الأقصى، ولا سيّما الصين. هذا الازدهار التجاري الذي كان يتنامى من خلال الاتّصال أو المنافسة مع المدن الساحليّة الإيرانيّة المحاذية للخليج العربي - الفارسي، أعاقته أنشطة البرتغاليّين الذين فرضوا سيطرتهم على المواقع المرفئيّة لسلطنة عمان في القرن السادس عشر. استمرّت هذه السيطرة حتّى الفترة التي تمكّنت فيها سلالة اليعاربة من زعزعة نيرهم، واستولت بدورها على مناطق جديدة زادت في غناها، وذلك بعد أن استعادت السيطرة على مسقط سنة ١٦٥٠.

وبالفعل، منذ القرن الثامن عشر، استولى سلاطين مسقط المنتمون إلى عائلة بو سعيد أو آل بو سعيد على السلطة بدءًا من سنة ١٧١٤. وقد اتّبع هؤلاء سياسة توسّع سمحت لهم بمدّ سلطتهم على زنجبار، وكذلك على بلادهم الأصليّة. وقد أفاد هؤلاء السلاطين من الدعم الإنكليزي، بعد تمكّنهم من بسط نفوذهم على عُمان سنة ١٧٩٨، ليقفوا بوجه طموحات الفرنسيّين والهولنديّين

بشكل فعّال. غير أنّ مستقبل زنجبار انفصل في ما بعد عن مصير عُمان التي شهدت تراجعًا في اقتصادها، والتي تمّ رسم حدودها نهائيًا سنة ١٩٠٥ من قبل محكمة العدل الدولية في لاهاي. وقد وجب انتظار التوجّه الجديد الذي نهض به السلطان قابوس بن سعيد سنة ١٩٧٠ لكي تستعيد البلاد ازدهارها السابق.

٢ - أما سلطنة عُمان الحالية فتبلغ مساحتها ٢١٢ ٤٥٧ كلم[٢]، عاصمتها مسقط، وعدد سكّانها يزيد عن مليون ونصف مليون نسمة هم، في مجموعهم تقريبًا، مسلمون، ينتمون بنسبة تزيد عن ٧٥٪ الى الفرقة الإباضية. وهي اليوم متاخمة للجمهورية اليمنية التي تمّ ترسيم الحدود معها نهائيًا من فترة وجيزة؛ كما أنّها تجاور المملكة العربيّة السعودية التي تفصلها عنها المناطق الرملية في الربع الخالي؛ كما تجاور الإمارات العربيّة المتّحدة التابعة لها إمارة الفجيرة التي تعزل، عن سهل باطنة، منطقة شمالية تقع قبالة إيران وتتألّف من جزيرة مُسندان التي تشرف على مضيق هرمز. هذه المجموعة المتنوّعة من الأراضي، التي تطابق التقسيم الطبيعي الذي دمغ دائمًا جغرافية هذه المقاطعة القديمة، كيّفها - بخاصة في ظلّ حكم سلاطين مسقط - تاريخ زاد في حدّة التناقضات بين فئات السكّان المتنوّعة: سكّان المدن الذين تتّجه أنظارهم نحو البحر والأنشطة التجاريّة؛ مزارعو السهل الساحلي الضيّق؛ جبليّو السهول العالية وبدو الداخل الصحراوي.

إنّ النزاعات الداخليّة التي فرّقت طويلًا بين السكّان والمبنيّة من تناقضات ذات طابع إجتماعي - ديني، بدأت تضمحلّ قليلًا، في أيامنا هذه، تحت وطأة حركة التحديث التي لم تبدأ قبل سنة ١٩٧٠. وتعود أسبابها إلى الإمكانات الجديدة لهذه المنطقة منذ البدء باستثمار الثروات النفطية. وتشمل هذه العصرنة ميادين عدّة، منها التربية، إذ تمّ إنشاء جامعة، سنة ١٩٨٦، قرب مسقط. وهي تنسجم مع مبادرات نظام ملكي إسلامي مطلق تسيطر عليه شخصيّة السلطان الحالي قابوس بن سعيد، وتتبع إيقاع التطوّر في الدول الإسلاميّة الغنيّة الأخرى في الجزيرة العربيّة.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣ و٣٠.

عَمّان (المملكة الأردنيّة الهاشميّة)، مدينة جعلها التطوّر الديمغرافي والتنظيم قادرة على أن تؤدّي دور العاصمة، وهي تعلو موقعًا لا تزال فيه بقايا أثرية من العصر الأموي.

كانت فيلادلفيا القديمة تنتمي إلى مجموعة المدن العشر، واستمرّت مزدهرة في العصرين الروماني والبيزنطي، بعد أن قامت على انقاض موضع سكنه الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ. وتابعت المدينة ازدهارها في العصور الأولى للإسلام، بعد أن احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلامية سنة ١٥هـ/٦٣٦م خلال الفتوحات الكبرى. وإلى العصور الإسلامية الأولى يعود تاريخ خرائب قصر كبير، يخضع اليوم للدرس والتنقيب، وقد يقدّم لنا جوانب ما تزال مجهولة عن الفن الأموي.

مرّت المدينة بعد ذلك في مرحلة انحطاط طويلة، وأمست قرية بسيطة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. لكنّ إهمال المدينة لم يكن ليصبح واقعًا قبل نهاية القرون الوسطى، إذ إنّ عمّان استمرّت، كما تؤكّد المصادر العربيّة القديمة، تؤدّي دور عاصمة مقاطعة البلقاء، وتتحكّم بملتقى طرق القوافل التي كانت تعبر هضبة مؤاب. أمّا الازدهار الحالي المتمثّل في اتّساع مساحتها المبنيّة والذي بدأت معالمه تظهر بعد الحرب العالميّة الثانية، فإنّه بدأ في الواقع سنة ١٩٢١، وهو التاريخ الذي اختيرت فيه عمّان عاصمةً لمملكة الأمير عبدالله المستقبليّة. كما عرفت المدينة نموًّا متزايدًا بعد ولادة دولة إسرائيل وتدفّق عدد كثير من اللاجئين الفلسطينيّين إليها.

عُمَرُ بنُ الخَطّاب، ٣١ ق هـ - ٢٣هـ/ ٥٩١ - ٦٤٤م، هو الخليفة الثاني في سلسلة خلفاء الإسلام الراشدين. حكم بين العامين ١٣ و٢٣هـ/ ٦٣٤ و٦٤٤م، خلال فترة الفتوحات الكبرى التي جرى في أثنائها إرساء أُسس تنظيم الأمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة.

كان عمر من صحابة النبيّ محمّد ﷺ، ومثله من سكّان مكّة القدامى، وأحد أعضاء أسرة قليلة البُشر من قبيلة قريش؛ لكنّه ينتمي، من جهة أمّه، إلى عشيرة مخزوم النافذة. ناهض في البدء رسالة نبيّ الإسلام

عندما أطلق دعوانه الأولى، ثمّ انضمّ إلى الديانة الجديدة خاضعًا لتأثيرات بصعب تحديدها، وأصبح من أفضل أنصار النبيّ محمّد ﷺ؛ تبعه إلى المدينة في فترة الهجرة وزوّجه ابنته حفْصة. بعد وفاة النبيّ محمّد ﷺ، اضطلع بدور حاسم في اختيار خلفه، فأخذ المبادرة بجمعه في المدينة أكثر الصحابة نفوذًا من بين المهاجرين - في ما سمّي باجتماع السَّقيفة - لحملهم على مبايعة أبي بكر، وفاقَ التقليد المتَّبع، وقد بايع الخليفة الجديد، في ما بعد، الأنصار من أهل المدينة.

وقد أوصى أبو بكر، الذي لم يستمرّ حكمه إلّا سنتين، قبل وفاته عام ١٣هـ/٦٣٤م، بأن يختار المسلمون عمر خليفة لهم، فأفاد هذا من حركة التهدئة في شبه الجزيرة العربيّة التي أعقبت أحداث الرِّدّة الكبرى وتيسّر له أن يعاود، من جديد، محاولات التوسّع نحو الشمال التي كان النبيّ محمّد (ﷺ) شجّع عليها خلال حياته. وقد اتّسعت دائرة هذه الجهود بحيث أدّت الى فتوحات حقيقيّة شملت جميع الأراضي المجاورة للسّهب السوريّة - العراقيّة. في سوريا حيث تحقّق نصر أجنادين في نهاية خلافة ابي بكر، وجَّه عمر وحدات من المحاربين أتاحت للجيوش المسلمة محاصَرة دمشق (محرّم سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م)، ثمّ سائر المدن السوريّة، وثانيًا التغلّب نهائيًا على الجيوش البيزنطيّة في معركة اليرموك عام ١٥هـ/ ٦٣٦م. وقد اضطلع الحكّام المعيَّنون في ذلك الإقليم، ابو عبيدة ثمّ معاوية بإنجاز الاحتلال، وتوجّه الخليفة نفسه الى فلسطين، فصلّى في القدس حيث شيّد مسجد لا يشبه في شيء قبة الصخرة الحاليّة، المسمّاة خطأ جامعَ عمر[٨٩].

في بلاد ما بين النهرين، تسلّلت عشائر عربيّة في عهد الخليفة أبي بكر من دون قيام عمليّات عسكريّة تُذكر. فأرسل عمر فصائل جديدة بإمرة سعد بن أبي وقّاص، لمحاربة الجيوش الساسانيّة؛ وكانت المعركة الحاسمة سنة ١٦هـ/٦٣٧م في القادسيّة، التي فتحت أمام الجيوش المقتحمة طريق طَيْسفون، عاصمة ملك الملوك، فاحتلّوها ونهبوها. عندئذ، أُنشئت في العراق، بمقتضى أوامر أصدرها عمر من المدينة، على الأرجح، المدينتان - المعسكران البصرة والكوفة اللتان ستُصبحان قاعدتي المنطقة في العهود الأولى للإسلام. من هناك، صعد المسلمون وادي دجلة والفرات في اتّجاه بلاد ما بين النهرين العليا، في حين زحفت تعزيزات آتية من شبه الجزيرة العربيّة لمهاجمة الأراضي الإيرانيّة.

بعد معركة نهاوند، سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م، احتُلّت ميديا شيئًا فشيئًا وأذربيجان أيضًا. وهكذا ضُمَّت إيران الغربية إلى الأمبراطوريّة في نهاية حكم عمر. كذلك، من المرجَّح أنّ فتح مصر حدث بمقتضى أوامر الخليفة الذي أرسل إليها وحدة بقيادة عمرو بن العاص، سرعان ما عزّزتها وحدة أخرى بقيادة الزبير. نجح القائدان العسكريان في التغلّب، في معركة هيليوبوليس (رجب ١٩هـ/ تموز/يوليو ٦٤٠م)، على الجيش البيزنطي، ثمّ السيطرة على حصن بابليون في صفر ٢١هـ/ شباط/ ٦٤١م، والإسكندريّة في شوّال ٢٢هـ/ أيلول ٦٤٢م. وهكذا أمسى المعسكر القديم الذي استُخدِم في أثناء محاصرة بابليون، معسكرًا دائمًا ومدينة مسلمة أُطلق عليها اسم الفُسطاط، في جوار موقع أُنشئت فيه، في ما بعد، مدينة القاهرة.

هكذا يتبيّن حجم الإنجاز الكبير الذي تمّ خلال خلافة عمر، بحسب توجيهاته في قسم منه. فعند وفاته أمست سوريا وبلاد ما بين النهرين وإيران الغربيّة ومصر أراضي إسلاميّة. وجُلّ ما عُرف عن الخليفة نفسه أنّه كان رجلًا ناشطًا وفعّالًا، ذا طبع قاسٍ، يراقب بدقّة نشاط قوّاده وحكّامه. وقد يسّرت له واقعيّته الانصراف إلى تنظيم الدولة الجديدة آخذًا في الاعتبار، في اختيار مساعديه، الكفاية أكثر من صفة المسلم الصالح. ويعزى إليه فضل تنظيم مكاتب، نحو سنة ٢٠هـ/٦٤١م، تُحفظ فيها السجلات، وهي الدواوين حيث كانت توزّع الإيرادات وتقيَّد المصاريف العامة. ويقال إنّه أمر ايضًا بأن يُسجَّل كلّ محارب على جدول لكي يتمكّن من الحصول على نفقة تضاف إلى حصصه في الغنيمة، وإنّه أعطى تعليماته لكي تقسّم الأراضي السوريّة دوائر تُسمّى أجنادًا، يُوزَّع عليها المحاربون الجاهزون للتعبئة. ولئن كانت مختلف المصالح الإداريّة تلك لا تزال على جانب

من البداية، فإنّ عمر قد وضع، بذلك، أسسَ نظام عربي - إسلامي شهد في ما بعد تطوّرًا هائلًا. ويقال إنّه اتّخذ لأوّل مرة لقب أمير المؤمنين الذي غدا اللقب المميّز في ما بعد للخلفاء وجميع الطامحين إلى الخلافة. وعندما اغتيل، بعد عشر سنوات من الحكم وهو قريب من الستّين، على يد أحد الموالي، تسنّى له، قُبيل وفاته، أن يعيّن مجموعة من ستة من الصحابة أوكل اليهم أمر اختيار الخليفة من بينهم.

عُمر بنُ عبد العزيز: ٦١ - ١٠١هـ/ ٦٨٠-٧٢٠م خليفة من سلالة الأمويّين، حكم من العام ٩٩هـ/ ٧١٧م إلى العام ١٠١هـ/ ٧٢٠م، واستحقّ سمعة عاهلٍ تقي ومُجِلّ للشريعة، ممّا أحلّه، في نتاج المؤرّخين المسلمين، مكانةً مميّزة بين أمراء أسرته.

عيّنه سرًّا وليًّا للعهد ابنُ عمّه سليمان الذي أبعد ذرّيته عن السلطة، فنهج عمر بن عبد العزيز، خلال حكمه الذي كان وجيزًا، سياسة مختلفة شيئًا ما عن سياسة أسلافه. بطّأ الفتوحات، لا سيّما عندما كانت تحفّها المخاطر كالحملة ضد القسطنطينيّة، وصبّ اهتمامه على المسائل الداخليّة في الأمبراطوريّة، فكثّف على الخصوص الجهود المبذولة لأسلمة الشعوب في الأراضي المفتوحة. في هذا السياق، طوّر سياسةً مغايرة لتلك المعتمدة سابقًا، آخذًا في الاعتبار مطالب المسلمين الجدد، الخارجين من صفوف مؤدّي الجزية او أهل الذمّة الذين لم يُعاملوا بالتساوي مع المسلمين القدامى، في ما يتعلّق بأداء الضرائب والخدمة في الجيش. فأصدر براءةً نالت حظًّا من الشهرة، رغم غموض بعض فقراتها، لأنّها وضعت المبادئ التي أخذت بها الإدارات الإسلاميّة اللاّحقة، ولا سيّما في ما يتعلق بمسألة شائكة ومختلف فيها تتعلّق بالوضع القانوني للأراضي.

ان هذا العاهل المتبحّر في العلوم الدينيّة والفقه، وكذلك في الحديث - إذ يُنسَب اليه مصنّف في الأحاديث النبويّة، قد يكون من أقدم المجموعات المحفوظة من هذا النوع - خاض كذلك مناقشات علم الكلام بإدانته، في رسالة له، الحركة القدَريّة. وسعى كذلك، جاهدًا، بنجاح متفاوت، الى التخفيف من معارضة الشيعة والخوارج. ولئن بقيت مراسلته مع الأمبراطور البيزنطي، ليون الأيزوري، والرسالة التي انتقد فيها العقيدة المسيحيّة موضوع جدل من حيث نسبتهما إليه، فينبغي، من دون شك، أن نعزو اليه التوجيهات المتعلّقة بوضع «مؤدّي الجزية» في بلاد الإسلام.

إنّ الصورة التي انطبعت في الأذهان خلال القرون اللاّحقة عن ذلك الخليفة قد تلامس، إلى حدّ ما، الأسطورة. لكنّ شخصيّته تميّزت، من دون شك، عن سائر الخلفاء الأمويّين. كما أنّ القرارات التي اتّخذها كان لها دور لا يستهان به في مرحلة من الاضطرابات وعدم التوازن، فتركت بصماتها في تاريخ أمبراطوريّة عربيّة - إسلاميّة كانت تمرّ بمرحلة من التكيّف.

عمر الخيّام، غياث الدين أبو الفتح بن إبراهيم، ؟- ٥١٧هـ/ ؟ ١١٢٣م، عالم فلك ورياضيات عاش في ايران، أيام حُكم السلاجقة. كان كذلك مفكّرًا وشاعرًا اشتهر في أوروبا بالقيمة الأدبية العالية لرباعيّاته.

عرف عمر الخيّام، بدءًا من القرن التاسع عشر، بوجه خاص، في البلدان الأنكلوسكسونيّة، شهرة مدهشة قامت على الاقتباس الأدبي لانتاجه الذي نشره، سنة ١٨٥٩، الشاعر الإنكليزي ادوارد فيتزجرالد (Fitzgerald). هذا العالم المبرّز في العلوم الدنيويّة التي نمت في العالم الإسلامي في القرون الوسطى يتمتّع في الغرب بمكانة سامية اليوم، بسمته الشاعرية المتجلّية في الرباعيّات. يُنظر الى هذه النصوص الفارسيّة الموجزة على أنّها من أكمل ما أنتجته الغنائيّة الشعريّة الايرانيّة، وتُعتبر وصيّة فيلسوف مُنوّر فتنته نظريّات القياس. من جهة أخرى، ما يزال غموض لا شك فيه يحيط بحياة عمر الخيام وآثاره. فقد وُلد في مقاطعة خراسان في مدينة نيسابور الغنيّة، وأولع بالأبحاث العلميّة والميتافيزيقيّة التي أثارت الشكوك حول خروجها عن السنّة الموروثة، وواظب على التعبير عن قناعاته من خلال تغليفها باستعارات مجازيّة أنيقة. ولسنا متأكّدين من أنّ هذه القصائد الفارسية يجب أن تُنسَب اليه، كما أنّنا لسنا متأكّدين من تأويلها، إذ إنّها تترجّح بين طلب اللذة والأخذ بالتشاؤم واعتماد المفاهيم

الصوفيّة، وقد انتقلت هذه القصائد، في أكثر الأحيان، عبر ترجمات ساهم كلٌ منها، على طريقته، في صياغتها من جديد وفي رواجها الذي لا مثيل له.

مساهمة عمر الخيام في العلوم لم تكن بأقلّ أهمية. فقد عمد الخيام الذي كان منكبًا على علم الفلك رئيسًا لمرصد مرو -، مثلاً، على إصلاح التقويم الفارسيّ بناء على طلب السلطان ملكشاه، واهتم ايضًا عن قرب بـ«الجيومتريا» وعلم الجبر، والمعلوم أنّ أحد مؤلّفاته كان على المعادلات من الدرجتين الثانية والثالثة.

العُمرة ← الحج.

عمرو بن العاص السهمي (ت٤٣هـ/٦٦٣م)، هو أحد الصحابة وسياسيّ ماهر برز في مرحلة الفتوحات الكبرى. قاد الحملة إلى مصر وافتتحها وبنى شهرته على انتصاراته فيها.

ولد في مكّة في قبيلة قريش، ولم يتقبّل الإسلام إلّا قبل سنتين من وفاة النبي (ﷺ)[89]. قاد الجيوش العربيّة الإسلاميّة التي انتزعت، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، بين سنتي ١٩ و٢١ هـ/٦٤٠ و٦٤٢م، وادي النيل من السلطة البيزنطيّة. وامتاز عمرو بن العاص على الأخصّ بموهبته التنظيميّة والإداريّة، إذ نظّم جباية الضرائب فوضع لها قواعد جديدة، وبنى معسكرًا تحوّل إلى مدينة الفُسطاط، قرب مدينة القاهرة اليوم، مقسّمًا مساحتها حصصًا بين مختلف القبائل؛ وشيّد المسجد الجامع الذي ما يزال يحمل اسمه. فمسجد عمرو بن العاص، أو الجامع العتيق، كان أوّل مسجد للمسلمين في أرض مصر، وهو ما يزال حتّى اليوم يحمل ذكرى ذلك القائد الذي اختار لتشييده مكانًا قريبًا من مقرّ إقامته ومن الأبنية المخصّصة للجيش، وأعطاه وقتئذ قياساته الأولى المتواضعة. والترميمات والتعديلات المتلاحقة التي أُدخلت على المسجد، والتوسيع الذي عرفه، خصوصًا في سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م، كلّ ذلك لا يُنسي الاعتبار المرتبط بظروف تأسيسه.

عزل الخليفة عثمان بن عفّان عمرًا بن العاص، لكنّ هذا الأخير استمرّ في أداء دور سياسي ناشط وحذر، وصل معه إلى تأييد معاوية في الصراع على السلطة. وقد ساعده بحزم على بلوغ الخلافة، إن في معركة صفّين أو في تحكيم أذرح، قبل أن يرجع مجدّدًا حاكمًا على مصر التي أخذ على عاتقه مهمّة إرجاعها إلى حظيرة الأمويّين. وقد توفي فيها بعد وقت قليل، بعدما تقدّمت به السن.

عنّابة (الجمهوريّة الجزائريّة)، عرفت أيضًا بـ«بونة» عند العرب، وبعد ذلك عرفت بـ«عنّابة»، والاسم مأخوذ من ثمر العُنّاب. مدينة بحريّة جزائريّة في المغرب الأوسط، تقع قريبًا من الحدود الحاليّة للجمهوريّة التونسيّة. خضعت مدينة «هيبون» أو «هيبو ريجس» القديمة للإسلام خلال الفتوحات الكبرى في مطلع القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد. وبتميّز تاريخها في كونها مكانًا تجاريًّا ناشطًا، وفي أنّها كانت في العصور الإسلاميّة الأولى مسرحًا لأعمال القرصنة المتنوّعة. وبدافع الانتقام، تحوّلت هدفًا لهجمات الأساطيل المسيحيّة من «بيزا» و«جنوى» في مطلع القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، قبل أن يحتلّها، بعد ذلك بقـ[ـليل] (١١٥٣م)، ملك صقلّية النورماني، روجه الثاني، الذي نصّب عليها أميرًا من الأسرة الحمّاديّة. ثمّ أصبحت المدينة جزءًا من الأمبراطوريّة الموحّديّة إبتداء من سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، ثمّ جزءًا من المملكة الحفصيّة في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، مع احتفاظها ببعض الاستقلال، ولكنّها تأثّرت بالسطوة التي تمتّعت بها مدينتا بجاية وقسنطينة. ثمّ خضعت طوعًا سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٣م، في زمن خيرالدين، لسلطة أتراك الجزائر العثمانيّين، وبقيت على هذا الوضع حتى الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠، فطالتها، منذ ذلك التاريخ، تحوّلات الحقبة الحديثة.

عنترة، بطل أسطوريّ لرواية عربيّة قديمة هي «سيرة عنترة»؛ تجري أحداثها في عصر ما قبل الإسلام، إلّا أنّ روح الإسلام ترافقها في مختلف مراحلها.

ويبدو بطل الرواية، مع استمراره نموذجًا لصاحب الفضائل في الحبّ والحرب التي تحلّى بها البدوي في ذلك العصر، مندفعًا في مغامرات خرافيّة، متصرّفًا على طريقته كبطل للإسلام، مع خلفيّة تبقي على ذكريات

متنوّعة مختلطة من عصر الفتوحات الكبرى في القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد، ومن عصر الحروب ضد الفرنج إبتداءً من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. وهو بذلك يعكس، في المجتمع الإسلامي في هذه الحقبة، تحوّل وتبنّي مفهومي المروءة والفتوّة اللتين أدّيتا دورًا مميّزًا في تفكيره القتالي، وفي مشاعر معظم الحركات الإجتماعيّة والدينيّة.

عنجر (قديمًا: **عين الجرّ**)، موقع أثري لمدينة ملكيّة شُيّدت في العصر الأموي وخضعت حديثًا للتنقيب والترميم.

هذا البناء يرتبط باستثمار هضبة البقاع الخصبة [حاليًا في لبنان]، ما كان يعود بالفائدة على الجيوش العربية - الإسلامية المرابطة في سوريا بعد الفتوحات الكبرى، ويبيّن مدى تكيّف العادات المحلّية مع حاجات الأسياد الجدد.

فقد أنشئت قنوات لتصريف المياه وجرّها من أجل الري، إضافةً الى قصر ملكي أمر بتشييده الخليفة الوليد بن عبد الملك بين سنتي ٨٦ و٩٥هـ/ ٧٠٥ و٧١٤م. وهذا ما ساعد على قيام تجمّع سكني صغير ذي طابع رسمي. كما توزّعت الأبنية السكنيّة على شارعين عريضين، تحيط بهما الحوانيت القائمة وراء صف من الأعمدة، وهما يلتقيان عند زاوية قائمة حول بناء رباعي الشكل يشير إلى أنه القسم المركزي.

برز هذا التصميم المنتظم للمنقّبين، وكان يحيط به سورٌ مستطيل الشكل، واضح المعالم، داخله مجموعة آثار لأبنية متنوّعة، كالمسجد الجامع، والحمّامات، والقيسارية، فضلًا عن القصر الملكي الذي يتميّز بمجالسه الكبيرة القائمة على شكل بازيليكي. ويُلاحَظ بوضوح، في عمليّة البناء وفي الشكل والزخرفة، أثر الفن المعماري القديم وأثر الفن البيزنطي.

◄ راجع المستندين ٩ و٣٦.

العيّارون ← **ميليشيات المدن.**

عياض (القاضي)، **عياض بن موسى بن عياض ابن عَمْرون اليحصوبي السبتي**، ٤٧٦ ‑ ٥٤٤هـ/ ١٠٨٣‑ ١١٤٩، قاضٍ شهير في المغرب، وممثّل المذهب المالكي في المنطقة التي تولّى القضاء فيها من قِبَل سلالة المرابطين.

ينتسب عياض إلى أسرة عربيّة يمنيّة الأصل، كانت قد استقرّت في المغرب، في سبتة (ولذا عُرف بالسبتي)، بعد أن أقامت في الأندلس ثمّ في فاس فالقيروان. أنهى علومه في مسقط رأسه، ثمّ انتقل إلى شبه الجزيرة الإيبريّة حيث تتلمذ على عدد من المعلّمين، ثم عاد إلى سبتة سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م حيث تولّى القضاء. عيّن سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، في غرناطة، لكنّه لم يلبث أن عُزل بسبب طبعه المتحرّز. ثم عاد قاضياً على سبتة سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م، وقام بدور سياسي حاسم في قيادة الحركة التي تصدّت للموحّدين ولعقيدتهم التي رآها مخالفة للسنّة. وبعد انتصار الحركة السياسيّة-الدينيّة الجديدة وتسلّم قادتها زمام الأمور نُفي إلى مراكش حيث توفي سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، تاركًا ذكرى محدِّثٍ وفقيه متعدّد المؤلّفات، ومدافع شديد الغيرة عن المذهب المالكي.

عيد (أعياد)، مجموعة من الأفراح والتعابير الشعبيّة الأخرى التي يحتفى بها في رموز مختلفة، منذ ماضٍ غير معلوم، في المجتمعات الإسلاميّة حيث تعبّر عن تقاليد دينيّة إسلاميّة، كما أنّها ثمرة عادات محلّية أو تأثيرات أجنبيّة.

١ - إنّ العيدين الشرعيّين والمحتفى بهما رسميًا حتّى أيامنا، لصفتهما الشرعيّة الإلزاميّة المسلّم بها يطبعان السنة الإسلاميّة في تاريخ محدّد بحسب التقويم القمري المعمول به منذ دعوة النبيّ محمّد ﷺ، أي من تعديل لبضعة أيام من سنة شمسيّة إلى أخرى. ويحتفى بكلٍ منهما بموجب طقوس تتكرّر منذ قرون في المناطق الكثيرة التنوّع من العالم الإسلامي. ويتضمّنان كلاهما اشتراك المؤمنين في صلاة عامّة. وتمتاز هذه بممارسات طقسيّة خاصة، ولا سيّما عدد الركعات والتكبيرات وينبغي، عادة، إقامتها في الهواء الطلق، على مصطبة المصلّى، رغم انتشار العادة بالتجمّع بكل بساطة في أيّ مسجد جامع. يُرافق هذه الصلاة الموصى بها بإلحاح مظاهر تقويّة لا تعمّم أن تتحوّل، كسائر زيارة القبور، إلى مناسبات فرح باجتماعات عائليّة يتخلّلها تبادل هدايا.

إنّ عيد الأضحى المعروف أيضًا بعيد النّحرْ هو أهم
لعيدين الشرعيّين من الناحية الدينيّة، ويُطلق عليه عادة
سم العيد الكبير، وبالتركيّة بويوك بيرم. في هذا اليوم،
لذي يقع في العاشر من ذي الحجّة الموافق يوم الحجّ
لكبير، يبادر الحجّاج المتجمّعون بالقرب من مكّة، في
ادي منى، إلى تقدمة أضحية تذكارًا لأضحية إبراهيم.
هكذا يقوم كل مسلم، بحسب استطاعته، بالتضحية
حيوان يكون في أكثر الأحيان حملًا يبتاعه لهذه الغاية،
لا يخصّ نفسه منه إلّا بنصيب قليل موزّعًا الباقي على
سواه من الناس.

خلال العيد الآخر، الذي يصادف الأوّل من شوّال،
ثر ظهور الهلال المنتظر، يحتفي المسلمون بختم فترة
لصيام الشرعيّ لشهر رمضان، وذلك بمظاهر حبور
تبادل التهاني وتقديم السكاكر والحلويات للمهنّئين
توزيعها على الأولاد بوجه خاص، ومن هنا أُطلق عليه
ي تركيا اسم «شكر بيرمي» أي عيد السكّر. إنّ الإقبال
لذي امتازت به احتفالات عيد الفطر، رغم نعته بالعيد
لصغير، بالتركية «كوچوك بيرم»، دفع بالناس إلى
لإهتمام به أكثر من احتفائهم بعيد الأضحى.

٢ – ثمّة احتفالات وتذكارات إسلاميّة من شأنها أن
تيح للناس التعبير عن فرحهم أو عن حزنهم، أحيانًا،
صورة علنيّة، تنامت شيئًا فشيئًا مع المعتقدات المختلفة
لتي استدعتها، مقتبسةً أحيانًا من تقاليد سابقة [بعض
لطقوس]. بعض هذه الأعياد عبارة عن اجتماعات عائليّة
حيانًا ترافق مناسبات مهمّة في حياة كل مؤمن،
كالولادة والموت أو الختان، كذلك الزواج؛ وبعضها
لآخر يندرج في إطار حياة منطقةٍ ما وينمّ عن بروز جديد
مظاهر تقويّة لا شعوريّة قديمة، واحتفالات خاصة
رتبطة بتقاليد «تكريم الأولياء». وهي، في واقع الأمر،
عودة إلى تقاليد يهوديّة أو مسيحيّة وحتّى فولكلوريّة أو
طنيّة، ترتبط بأصول إيرانيّة أو هنديّة أو تركيّة أو بربريّة
و أفريقيّة. وقد استمرّت حيويّتها بوجود جماعات من
هل الذمّة حافظت على تقاليدها في أوساط أيّة جماعة
سلاميّة، مهما تكن صرامة معتقدها، فكانت تحتفي
أعيادها الخاصّة، بأبّهة وجلال في بعض الأحيان.

وهكذا أُضيفت احتفالات كثيرة، مرتبطة بالمواقع
المكرّمة، إلى العيدين الشرعيّين، مع تفاوت في نجاحها
بحسب المناطق. وكانت بعض هذه الاحتفالات
المعروفة بـ«المواسم» تجري في ذكرى مولد أشخاص
أتقياء أو في ذكرى وفاتهم، وحتّى الأنبياء. فكانت
حشود الناس تتجمّع، في كل عام، حول مقام غدا موضع
زيارة أو حول أيّ مكان موقّر، ويكون في أكثر الأحيان
ضريح وليّ، أيًّا كان موقعه. وكانت بعض هذه
الاحتفالات، التي احتفظت بطابع محليّ بارز، تقضي
بحضور أتباع الطرائق الصوفيّة في المنطقة. وهكذا
كانت تشهد على تنامي نفوذ أهل التصوّف الذين ساهمت
تقواهم، منذ القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر
للميلاد، في استيعاب الإسلام بدعًا غريبةً عن تقاليده
الأصليّة.

كذلك كان لأعياد أخرى صفة غير إلزاميّة عامّة،
وذلك منذ البداية، مثل عاشوراء لدى السنّة التي طبعتها
طقوس مختلفة في غرّة شهر محرّم، وهو الشهر الأوّل
من السنة القمريّة الإسلاميّة، تذكارًا للصيام الشرعي
الذي قرّره نبيّ الإسلام (ﷺ) بشكل موقّت في ذلك
التاريخ. كما أنّ العادة جرت بالاحتفاء، في الخامس
عشر من شعبان، بـ«ليلة البراءة»، وهي تسمية ما تزال
غامضة، وفي السابع والعشرين من رمضان بـ«ليلة القدْر»
الموافقة ذكرى نزول الوحي على النبي محمّد ﷺ لأوّل
مرّة. أخيرًا، كان السابع والعشرون من رجب يصادف
ذكرى الإسراء، في حين أنّ ذكرى مولده المحدّد،
اصطلاحًا، في الثاني عشر من ربيع الأوّل غدا في أيامنا
عيد مولد النبي ﷺ، وهو أحد الاحتفالات الإسلاميّة
الذي يتزايد رواجه باستمرار، رغم معارضة بعض
العلماء.

يتبيّن المرء، في كثير من الأحيان، في هذه الأعياد
المتنوّعة، حرصًا على تكريم شخص النبي محمّد ﷺ.
كما أنّ الأوساط الشيعيّة تكرّم عليًا وأُسرته، مع الأعياد
التي تحيي المراحل البارزة بامتياز لحياته أو حياة ذريّته
وورثته في القداسة، أي الأئمّة العلويّين، عند الشيعة.
من ذلك عيدان جرت الاحتفالات بهما، بوجه خاص،
وبحسب طبيعة كل منهما، أحدهما عيد الغدير أو غدير
خُمّ، وعيد الحداد على الحسين الذي يعرف كذلك باسم

عاشوراء.

العيد الأوّل تذكار، خلال شهر ذي الحجّة، للخيار الذي اتّخذه النبيّ محمّد ﷺ، في ذاك المكان، بحسب التقاليد الشيعيّة، في ما يتعلّق بوصايته إلى عليّ بحقّه في السلطة إذ أعلن «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»، وقد احتُفي بهذا العيد علنًا في بغداد إبتداءً من العام ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، خلال سيطرة البويهيّين من الشيعة، وأدّى ذلك إلى بعض الأحداث بسبب معارضة أهل السنّة. العيد الثاني الذي أثار ردود فعل مشابهة في الفترة نفسها، والذي كان جعل من العاشر من محرّم الذي كان النبيّ محمد ﷺ اتّخذ منه يوم صيام، فقدّسه أهل السنّة لهذا العنوان، يوم حداد علنيّ تذكارًا لمأساة الإمام العلويّ الثالث وحفيد رسول الإسلام الذي قتل في ذلك اليوم، في كربلاء، خلال التحام مع فرق مقاتلة موالية للحاكم الأمويّ سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م. وقد انطوت هذه الذكرى، التي أصابت في بعض المناطق وخلال بعض العهود أهمّية عظيمة جدًّا، على مشاهد من النحيب والمراثي، تحوّلت أحيانًا إلى عروض مسرحية حقيقيّة سمّيت (مجالس العزاء).

أخيرًا يُشار، خلال أواسط القرون الوسطى، إلى أعياد غير إسلاميّة، غير مرتبطة بالدين أو أعياد مسيحيّة، اشتركت في احتفالاتها جموع من أهل المدن وذكرتها مدوّنات تلك الأيام. والمعروف منها كان يُقام في بغداد خلال العهد العبّاسي حيث كانت الأعياد المسيحيّة الكبرى، مختلطة بطقوس موسميّة، تُتيح مناسبات للّهو يشترك فيها الجميع، وحيث عرفت أيضًا الإحتفالات، في المدينة وفي البلاط معًا، بالسنة الجديدة الإيرانيّة الشمسيّة المعروفة بالنيروز والمشابهة لاحتفالات الربيع [العنيفة]. وكذلك الأمر كان بالنسبة إلى القاهرة، عاصمة الفاطميّين، حيث استمرّت، على سبيل المثال، الطقوس القديمة للسنة الجديدة القبطيّة، وحيث كان عيد المغطاس عند المسيحيّين يجمع معظم سكّان العاصمة على ضفّتي النيل فينصرفون إلى المأكل والمشرب والرقص على أنغام الموسيقى. وثمّة حالات مشابهة أخرى يمكن الإشارة إليها كانت سائدة في الهند وجزر الهند وأفريقيا السوداء وأمكنة كثيرة أخرى.

العيد الصغير ← عيد (أعياد).

العيد الكبير ← عيد (أعياد).

عيذاب، محلّة مرفئيّة إسلاميّة قديمة على الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر، لا يُعرف مكانها اليوم إلّا من خرائبها الموجودة في مكان منعزل.

يعود الفضل في ازدهار هذه المدينة الموقّت إلى موقعها على محور نشاط تجاري بحري وبرّي معًا، كان يربطها باليمن. ومنها كانت تعبر آنئذٍ السلع الثمينة القادمة من الهند وسائر مناطق الشرق الأقصى، عبر المحيط الهندي، في اتّجاه المراكز التجاريّة شمالي مصر. وكان يقصد هذه المراكز، في القرون الوسطى تجار مسيحيّون يشاركون في الملاحة المتوسطيّة بين الشرق وبلدان أوروبا. والحركة التجاريّة التي انطلقت في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، والتي كانت تؤمّنها، بالتعاقب، السفن والقوافل بين النيل والبحر، عبر «قوص» و«أسوان»، أسهمت في غنى دولة المماليك في مصر، إلى أن غيّر البرتغاليّون مسار التجارة واختطّوا طرقًا خارج نطاق عالم الإسلام. ولم يكن خراب المرفأ - الذي يُعزى إلى السلطان المملوكي بارسباي، في النصف الأوّل من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد - إلّا تأكيدًا لانحطاط هذه المحلّة. من جهة ثانية كانت عيذاب، في زمن ازدهارها البحري، تؤمّن نقل الحجّاج إلى الجزيرة العربيّة ومكّة المكرّمة، بعد أن يجتمعوا فيها قادمين من مصر والمغرب وأفريقيا السوداء.

◄ راجع المستندين ١٣ و٢٥.

عيسى أو يسوع، يُطلق عليه غالبًا في اللغة العربيّة اسم عيسى بن مريم، وهذا التعبير نجده في حوالي خمس عشرة آية قرآنيّة حيث يُعتبر غالبًا نبيًّا مرسلًا وممهّدًا للنبيّ محمّد (ﷺ). تستعيد الرواية القرآنيّة المتعلّقة بالحمل العجائبي لمريم وبولادة عيسى ونشأته ورسالته وموته ما ورد في رواية الإنجيل، ولكنّها تختلف عنها في نقاط عدّة. ان المقطع الأكثر أهمية المتعلّق بولادة عيسى نجده في سورة مريم:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا

شَرْقِيًّا﴾ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (سورة مريم، ١٦ ٣٤).

من بين التفاصيل التي تأتي آيات قرآنية أخرى على ذكرها «الهرب إلى مصر» أو بالأحرى اللجوء إلى منطقة غير محدّدة، إلى «ربوة ذات قرار ومعين» (سورة المؤمنون، الآية ٥٠). تؤكّد بعض التقاليد أنّ هذه «الربوة» توجد في جوار دمشق في مكان يحمل هذا الإسم. وقد شُيّد فيه معبد تحوّل الى مزار. وقد أتى الهروي على ذكره في دليله في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد.

قام يسوع / عيسى، كشخصية قرآنيّة، بمعجزات أدّت إلى إثبات رسالته كنبيّ. من بين هذه المعجزات، التي أتت أناجيل غير معترف بها مسيحيًّا على ذكر بعضها، معجزة «المائدة» (القرآن، سورة المائدة، الآيات ١١١-١١٥) التي أنزلها من السماء، ويرى بعضهم فيها ذكرى غامضة للعشاء السرّي. وقد عُرف عيسى منذ ولادته بالمسيح وهو ليس ابن الله، كما توضح الآية القرآنية (التوبة، ٣٠): ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. إنّه مخلوق بسيط كسائر المخلوقات وعبد لله. هكذا يعتبره الاسلام نبيًّا من سلسلة أنبياء خاتمتهم النبيّ محمّد (ﷺ). أمّا لفظة المسيح فتُفهم بشكل مختلف بحسب المفسّرين. من جهة أخرى، فإنّ عيسى هو كلمة الله تساعده روح إلهية وتشهد على ذلك الآية ١٧١ من سورة النساء: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾. أثار القول إنّ عيسى هو «كلمة الله» جدلاً بين المسيحيين والمسلمين: فالمسيحيّون يرتكزون إلى هذه الآية لتأكيد طبيعة المسيح الإلهية، بينما يؤكد المسلمون أنّه بقي وحيًا، لكنّه يبقى فانيًا، كما تثبته الآية ١٧ من سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، كذلك لا يكفّ القرآن الكريم عن انتقاد عقيدة الثالوث الأقدس التي يفهم أنّها تتألف من الله ومريم وابنها عيسى. ويجعل الاسلام من القبول بهذه العقيدة خطأ المشركين الأساسي الذين ينفون الوحدة الإلهية. أمّا في ما يتعلّق بصلب المسيح، فإنّ القرآن لا يقبل به وهو في ذلك يتوافق مع تعاليم بعض البدع المسيحيّة التي تشكّك في حقيقة صلب المسيح. يقول اليهود: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ (...) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (سورة النساء، ١٥٧ و١٥٨). وبالمقابل فإنّ هناك تقليدًا في العالم الإسلامي يؤكد أنّ يسوع/ عيسى سيعود من جديد في نهاية الأزمنة لأنّه، وبحسب القرآن (سورة الزخرف، الآية ٦١) «لَعِلْمٌ للساعة» أي ليوم الدين. وسيظهر إمّا في دمشق أو على هضبة في فلسطين ويقتل المسيح المزيّف المعروف بالدجّال. حينئذ سيعترف الجميع بالكتاب المقدس [القرآن] ولن يبقى سوى جماعة واحدة هي جماعة الإسلام. وتضيف بعض الأحاديث النبوية أنّ المسيح/ عيسى لن يؤزر الله يوم القيامة بل سيشهد ضد المسيحيّين كونهم متّهمين باعتباره ووالدته مساويَيْن لله.

شغلت صورة المسيح/ عيسى المفسّرين الذين سعوا لتوضيح ما غمض من الصيغ القرآنيّة، وكانت أيضاً موضوعاً لتأملات الصوفيين. فقد شدّد هؤلاء على روح الفقر والزهد التي تميّزت بها شخصية المسيح ونسبوا إليه أقوالاً وطرائف وعبرًا ومواعظ تعزّز هذا الأمر. من

ذلك موقف ابن العربي الذي يجعل من عيسى «الخاتم القدسيّة العالميّة».

وفي الواقع، وخلال ازدهار تكريم الأولياء في الوسط الإسلامي في القرون الوسطى، كانت صورة المسيح/عيسى الإسلامية تُكرّم في العديد من المزارات القائمة في أماكن كانت عادةً موضع إجلالٍ في التقاليد المسيحيّة. فتبنّاها المسلمون، لا سيّما عندما كانت الذكرى التي تخلّدها تتّفق مع تعاليم الإسلام. في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي مثلاً، يشير دليل الهروي إلى أنّ بعض هذه المزارات تتطابق مع مراحل من طفولة المسيح ويحدّدها، إمّا في فلسطين بالنسبة إلى ولادته في بيت لحم أو إلى طفولته في الحرم القدسي، وإمّا في مصر حيث يبجّل الأقباط، منذ زمن بعيد، آثار مرور المسيح وأمّه في البهنسا والمطريّة. قليلة هي الأماكن المرتبطة بذكرى المسيح/عيسى الشاب، كـ«أعجوبة المائدة» التي حُدّد مكانها في كنيسة صهيون، أو كموضوع الصعود نفسه.

جرى جدلٌ عنيف ما بين المسيحيّين والمسلمين حول شخصيّة يسوع/عيسى في تلك الفترة وما قبلها، وهو مستمرّ حتّى أيامنا هذه، وإن غلبت لدى المفكّرين المسلمين عادةً جعلتهم يقصرون تفسيراتهم على الملامح القرآنية لهذه الشخصيّة. بيد أن هذه العادة المحترمة على الدوام، لم تمنع حصول محاولتين فريدتين في القاهرة، احداهما عام ١٩٥٢ والأخرى عام ١٩٥٦، حينما أثار كل من محمود العقّاد، في «عبقرية المسيح»، وكامل حسين في «المدينة الباغية»، مسائل ميتافيزيقيّة وأخلاقيّة جديدة مُعتمديْن على الانجيل والقرآن.

عيساويّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة دعيت باسم مؤسّسها في المغرب، محمّد بن عيسى الذي عاش من ٨٧٠هـ إلى ٩٣١هـ/١٤٦٥ إلى ١٥٢٣م، وتعاليمه مرتبطة بتعاليم الجُزولي.

تبنّى مريدوه طرائق خاصة في النشوة تجعل الصوفي فاقدًا الشعور بالنار والسّيف. كان مركز هذه الجمعيّة في الجزائر قرب ميديا (Médéa).

عينتاب (الجمهوريّة التركيّة)، هي غازي أنتيب الحالية، مدينة في جنوب شرق الأناضول، كانت في القرون الوسطى مسرح معارك مستمرّة على الحدود السوريّة، قبل أن تصبح اليوم مركزًا ناشطًا في الجمهوريّة التركيّة.

تقع في حوض الفرات الأوسط على مفترق طُرُق قوافل تتّجه من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ما وفّر لها أهميّة إقتصاديّة وإستراتيجيّة. وقد نمت مدينة عينتاب في نهاية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، في جوار الأمبراطوريّة البيزنطيّة. لكونها من مدن الثغور على الحدود الشمالية لمملكة حلب الحمدانيّة؛ وقد خلفت، في هذا الدور، مدينة دوليشي القديمة التي أصبحت قلعة دولوك بعد احتلال الجيوش العربيّة - الإسلاميّة لها خلال الفتوحات الكبرى، وقد دمّرتها الهجمات البيزنطيّة.

ضمّها فرنج الحملة الصليبيّة الأولى إلى كونتية الرُّها/أُورفا، لكنّ المسلمين استعادوها في العام ٥٤٦هـ/١١٥١م. انتزعها نور الدين الزنكي من سلاجقة الروم عام ٥٥٠هـ/١١٥٥م، وجعل منها موقع دفاع عن مقاطعة حلب؛ وبقيت طوال قرنين ونصف القرن بين أيدي أسياد تعاقبوا على حكم سوريا من أيوبيّين ومماليك. ونتج عن حملات تيمورلنك في العام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م أن انتقلت إلى حكم السلالات التركمانيّة الصغرى في عصر الامارات في الأناضول، وخلفهم عليها العثمانيّون في القرن السادس عشر من دون أن تشهد أيّ تقدّم.

أصبحت عينتاب تدعى «أنتيب»، وأضاف إليها الأتراك نعت «غازي» خلال الحروب التي رافقت، في عامي ١٩٢٠-١٩٢١، ولادة تركيا الجديدة، وقد عرفت إزدهارًا إقتصاديًا وإداريًا، بعد قطع علاقاتها بحلب وسوريا.

عين جالوت (معركة)، ١١ شوّال ٦٥٨هـ/٣ أيلول ١٢٦٠م، معركة واجه فيها المماليك الغزاة المغول قرب قرية عين جالوت في فلسطين شرقي مدينة نابلس. وكان الجيش المملوكي قد قدم من مصر بقيادة السلطان قُطز الذي اغتيل لاحقًا، وقوامه مئة وعشرون ألف محارب. فانتصر على الفرسان الأسيويّين الذين كانوا

بقيادة كتبغا الذي أُسر وأُعدم. هذه الهزيمة وضعت حدًّا للزحف الظافر الذي قاده هولاكو إنطلاقًا من خراسان. والذي تميّز بنهب بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وقد جعلت المغول يمتنعون عن القيام بأيّة حملة انتقاميّة على سوريا، وذلك لأنّ هولاكو، الذي أسّس لاحقًا دولة الإيلخانيّين، استُدعي إلى منغوليا بسبب الأحداث السياسيّة التي تلت موت الخان الأكبر مونكو.

اعتُبر آنذاك انتصار المماليك في عين جالوت، في نظر المؤرّخين العرب، إنتصارًا حاسمًا للإسلام على أعدائه. والواقع أنّه لم يمنع ذلك قيام مملكة جديدة شرقيّة شملت إيران والعراق والأناضول حيث ظلّ المغول يشكّلون خطرًا داهمًا على جيرانهم لسنوات عديدة. ومقابل ذلك، سمح الإنتصار للسلاطين المماليك بتقوية دولتهم الفتيّة في مصر، كما سمح لاحقًا للسلطان بيبرس بأن يتسلّم الحكم بعد أن تفوّق في ساحات القتال.

العيونيّون ← البحرين، الأحساء.

غ

غازي، كلمة عربيّة دخلت اللّغة التركيّة، كانت تعني، في الأصل، من يشارك في غزوة. وبعد ظهور الاسلام غدت تعني من يشارك في حملة ضد الكفّار، أي في عمليّة جهاد.

والغازي أو المحارب هو لقب شرف أُسند، عبر التاريخ، لكثير من الملوك والأمراء الذين تميّزوا في عمليّات الغزو أو الجهاد وقد جعلوه في جملة ألقابهم. وكان آخر من أطلق عليه لقب «الغازي»، في التاريخ المعاصر، مصطفى كمال أتاتورك الذي دافع عن تركيا ضد أطماع جيرانها. وفي القرون الوسطى استُعملت اللفظة كإسم علم حمله، على سبيل المثال، في نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ابن صلاح الدين الأيوبي وأمير حلب الملك الظاهر غازي.

وأطلق لقب الغازي على الجنود غير النظاميّين الذين كانوا يحاربون على الثغور في العصور الأولى للاسلام، إمّا على تخوم بيزنطية وإما في مناطق أبعد مثل ما وراء النهر وخُراسان وآسيا الوسطى، وذلك دفاعًا عن «دار الإسلام». وقد استعمل بعض هؤلاء الغزاة، محمود الغزنوي، الذي أدخلهم في جيشه الذي قاده إلى الأقاليم الشماليّة من الهند.

بُعيد ذلك، أدّى الزحف الكثيف للغزاة الأتراك وقيام الأمبراطوريّة الإيرانيّة السلجوقيّة إلى منح مكانة خاصة، في الدفاع عن الاسلام، لهذه العصابات من التركمان غير المنظّمة التي كانت تحرّكها روح الجهاد، والتي سرعان ما احتلّت الأناضول وأقامت فيها من دون أن تتخلّى عن حياة الترحّل ولا عن شراستها في القتال، في حين نشبت أيضًا معارك جهاديّة أخرى في سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا لمحاربة فرنج الأرض المقدّسة. وأدّت استعادة القدس من قبل صلاح الدين في العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، إلى عودة سيطرة المسلمين على البلاد المصريّة والسوريّة من القرن السابع الى العاشر للهجرة/الثالث عشر إلى السادس عشر للميلاد، تحت حكم الأيوبيّين والمماليك، في حين بقي الأناضول الذي توحّد لفترة تحت حكم سلاجقة الروم في أيدي المسلمين، على الرغم من الانقسامات السياسيّة في ذلك العصر، في الحقبة المعروفة بحكم الإمارات. وهكذا انتقلت جهود الغزاة شمالًا في اتّجاه البلقان. وأدّت هذه الجهود إلى ازدهار الدول التي استمرّ الجهاد فيها فاعلًا، ما أتاح للعثمانيّين وضع أسس أمبراطوريّتهم المستقبليّة.

في تلك المرحلة، كان الغزاة ينتسبون في آسيا الصغرى الى مجموعات «أخي» والى جمعيّات الفتوة الدينيّة، كما انضمّوا أحيانًا إلى الطرائق الصوفيّة. وقد غدوا أعضاء في جمعيات الدراويش المحاربين واضطلعوا بدور سياسي يتلاءم والاحترام الذي كان الناس يبدونه تجاههم بسبب شجاعتهم. نستطيع أن نكوّن فكرة عن هذا الاحترام من خلال نصّ لمؤرخ تركي من القرن الرابع عشر الميلادي يقول فيه:

«الغازي هو يد دين الله، هو خادم الله الذي يطهّر الأرض من دنس الشرك. والغازي هو سيف الله، فهو حامي المؤمنين وملجأهم. فإن استشهد في سبيل الله فلا تحسبنّه ميتًا، بل هو حيّ سعيد بالقرب من الله، يتمتّع بحياة أبديّة».

غازي ← **الظاهر غازي** (الملك).

غازي عينتاب ← **عينتاب**.

غامبيا (جمهوريّة غامبيا)، مساحتها ١١ ٣٠٠ كلم². عاصمتها بَنْجول، دولة معاصرة مستقلّة، عدد سكانها دون المليون نسمة، غالبيتهم من المسلمين بنسبة ٨٦ إلى ٨٩٪.

تنفتح من الغرب على الساحل الأطلسي لأفريقيا، لكنّها محاطة، من بقيّة الجهات، بجمهوريّة السنغال وهي محميّة بريطانيّة قديمة، استقلّت في العام ١٩٦٢.

عُرف أوّل ظهور للاسلام في البلاد ما بين القرنين الخامس والثامن للهجرة/الحادي عشر والرابع عشر للميلاد. لكنّ انتشار هذا الدين قد تمّ فعليًّا في القرن التاسع عشر مع تأثير روح الجهاد التي حرّكت في تلك المرحلة امبراطوريات البول (الفلبة) في ما كان يُعرف بالسودان الساحلي.

هذه الإنطلاقة تطوّرت في إطار المذهب المالكي ونشاط الطرائق الصوفيّة، وبخاصة القادريّة والتيجانيّة اللتين حافظتا على نفوذهما إلى يومنا.

غانا، إسم حملته في أفريقيا الغربية السوداء، على التوالي، مملكة في القرون الوسطى ذات ماضٍ أسطوري، وجمهوريّة حاليّة تحتلّ مساحة من الأرض تختلف كليًّا عن مساحة المملكة السابقة.

١ - كانت هذه المملكة تحمل اسم مدينة زالت اليوم، تتماهى مع الموقع المسمى كومبي صالح، على التخوم الجنوبيّة الشرقيّة لجمهورية موريتانيا الإسلاميّة الحاليّة. أمّا أحداث تاريخها فغامضة غموض التحوّلات التي عرفتها جرّاء ما أصاب طرق القوافل، التي كانت في أصل غناها الإقتصادي، من تغيّرات. تطوّرت هذه الطرق مع تطوّر الدول الإسلاميّة في المغرب ومع تقدّم الفتوحات التي قامت بها القبائل البربريّة أمثال لَمْتونة، فيما كانت تتعاظم مراكز تجاريّة أخرى مثل أوداغوست وغاو (كاوكاو). إنّ المراحل الدقيقة التي مرّت بها غانا غير واضحة المعالم، في حين يكتفي المؤرّخون العرب بذكر الانحطاط الذي شهدته إثر الاستيلاء العنيف على عاصمتها في العام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م من قبل أحد قوّاد المرابطين المغامرين.

والشهرة المتّصلة إلى يومنا بذكرى هذه المملكة القروسطيّة كانت في أصل تسمية «جمهوريّة غانا» التي اعتمدها الاستعمار البريطاني للشاطئ الذهبي عند استقلالها في العام ١٩٥٧، على الرغم من أنها لا تنتمي البتة الى المناطق الساحلية التي ازدهرت فيها دولة غانا القديمة.

٢ - جمهورية غانا: مساحتها ٥٣٧ ٢٣٨ كلم[٢]، عاصمتها أكرا، وهي دولة معاصرة مستقلّة فيها أقليّة مسلمة تقدر بعشرين بالمائة من أصل خمسة عشر مليون نسمة.

ولدت غانا من مستعمرة الشاطئ الذهبي البريطانيّة، وهي منفتحة جنوبًا على خليج غينيا، ومن الجهات الثلاث الأخرى محاصرة بشاطئ العاج غربًا، وبجمهوريّة بوركينا فاسو شمالا، وبجمهوريّة التوغو شرقًا. وهكذا فهي تضمّ مناطق مختلفة مأهولة، إبتداءً من الغابة الاستوائيّة المجاورة للمنطقة الساحليّة، وصولًا إلى سهوب الساحل السوداني. وقد تلا الظهور الأوّل للإسلام، في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، الأنشطة التجاريّة لقبائل ديولا والهوسا الوافدة من الشمال ومن الشمال الشرقي. وقد تكاثرت هذه القبائل على طرق القوافل التي تربط تلك المنطقة بملتقى الطرق في وادي النيجر، ما أدّى إلى الازدهار الموقّت الذي عرفته دولة غونجا الاسلامية شمالي البلاد.

سلكت مجموعات صوفيّة مختلفة بعدئذٍ طرقات هذا التوسّع، فأدّى ذلك، في مطلع القرن الثامن عشر، إلى أسْلَمَة سلطانين لمملكتين صغيرتين في الجزء الشمالي من البلاد حيث نمت هندسة إسلاميّة ما تزال آثارها باقية. وقد ساهمت أنشطة أخرى متّصلة بحركة عثمان دان فوديو في شمال نيجيريا، وبنشوء الأمبراطوريات البوليّة في انطلاقة الإسلام. وقد شهدت المنطقة أيضًا حيويّة متزايدة للطرق الصوفيّة مثل التيجانيّة والقادريّة، كما لفرقة الأحمديّة إثر الحرب العالميّة الأولى. تبع ذلك في القرن العشرين تضاعف عدد الجمعيّات والهيئات المختلفة التي تُعنى بالتعليم وبنشر الإسلام، ما أسهم في تزايد اعتناق الإسلام الذي نلاحظه في تلك المنطقة منذ بضعة عقود.

◄ راجع المستندين ٣٨ و٢٩

غاو (جمهوريّة مالي)، ويقال لها في العربية كاوكاو: مدينة في ما كان يُعرف قديمًا بالسودان الساحلي، تقع على مجرى نهر النيجر غير بعيدٍ من تُمْبُكْتو. وكانت في القرون الوسطى المتأخّرة مركز أمبراطوريّة ثريّة

للمُتغتائي قبل أن يجري تدميرها.

مفترق طرق القوافل هذا سلكه، في القرون الأولى للاسلام، التجار المسلمون. وتسمح لنا الأوصاف التي تركها الرحالة العرب، مثل ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر الميلادي، والجغرافي البكري في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أن نكوّن فكرة عن غنى هذه المدينة وهندستها قبل انحطاطها إثر الهزيمة التي منيت بها غاو عام ١٥٩١. وهذه المدينة التي تطوّرت عند مفترق الطرق العابرة للصحراء التي كانت تربط نيجيريا بما كان يُعرف بإفريقية في القرون الوسطى، وصولًا إلى الحوض الشرقي للمتوسط، فقدت تمامًا دورها كعاصمة تجاريّة وإداريّة. فقد عاشت كمحميّة مغربيّة أوّلًا وسيطر عليها الطوارق إبتداء من العام ١٧٧٠، من دون أن تشهد ازدهارًا حقيقيًّا في المرحلة الاستعماريّة أو المعاصرة.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٢٩.

غُجَرات، منطقة في الهند، تقع في الشمال الغربي لشبه القارة، وهي جزء من الاتحاد الهندي اليوم. إنّها تحتفظ بأقليّات إسلامية تعود إلى الحقبة الطويلة، بين ١٢٩٨ و١٨١٧م، التي كانت فيها سلطنة مستقلّة، ثمّ إقليمًا من أمبراطوريّة المغول.

هذه المنطقة الساحليّة التي نمّت ازدهارها الملاحة العربيّة - الإسلاميّة والتجارة البحريّة عبر العصور، وطّدت، بفضلهما، علاقات متقادمة مع البلدان الإسلاميّة. ثمّ كانت مسرحًا لغزوات فاتحين مسلمين كالغزنويين الذين هاجموا منطقة الكاتياور في عهد محمود، في العام ٤١٧هـ/١٠٢٦م، أو كالغوريّين الذين وجّهوا اليها، في العام ٥٩٦هـ/١١٩٧م، حملة ظافرة بإمرة قائدهم قطب الدين إيبك. إلّا أنّها استمرّت حتّى في العام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، حين ضمّها سلاطين دلهي، من سلالة خَلجي، إلى أمبراطوريتهم. وعندما بدأ أُفول حكم التُغْلُقيين، الفرع الآخر لسلاطين دلهي، وابتداء من نهاية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، اتّخذ الحاكم مظفّر لقب شاه، ما يسّر لخلفائه حكمَ سلطنة مستقلّة وتوفير الإشعاع لعاصمتيهم الجديدتين، أحمد آباد وتشامپانِر/محمود آباد، مرسّخين مذهب التسنّن، لكن باعتدال. وهكذا، فُتحت المنطقة لانطلاقات المتصوّفين، وبخاصة الطريقة الچشتيّة، وأمام تعاليم الفقهاء. كما استقبلت دعاة الإسماعيلية الذين استقرّ أكثرهم في شبه جزيرة كاتش التي كان احتلّها الملك محمود شاه الأوّل. إنّ أُمراء غُجرات، الذين قاتلوا ضدّ جيرانهم في ملوى، وخانديش والدكّن، والذين استندوا على تحالفهم مع المماليك والأسطول المصري، اضطرّوا، كذلك، إبتداء من العام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، لقتال البرتغاليّين الذين أخذوا يهدّدون النشاط التجاريّ لمرفأَيْ كامباي ثمّ سورات. وقد اضطرّوا أيضًا إلى الإتّفاق مع البرتغاليّين الذين لم يتردّدوا في اغتيال السلطان بهادُور في العام ٩٣٨هـ/١٥٣١م، ولم تعرف غجرات، بعد هذا الاغتيال، سوى انقسامات داخلية. ففي العام ١٥٧٣ اجتاح الأمبراطور أكبر المنطقة فغدت إقليمًا في أمبراطوريّة المغول، على الرغم من محاولات عدّة للمقاومة، ولكنّها عرفت، بعد ذلك، عهدًا من الرّخاء.

وقد استخدمت مرافئها التي عادت التجارة إليها، من قبل السكّان المتوجّهين إلى مكّة للحجّ. وبعد انتهاء السيطرة المغوليّة في العام ١٧٥٨، خضعت غجرات لنبلاء محليّين إلى أن سقطت في أيدي البريطانيّين في العام ١٨١٧.

سلاطين غُجرات (١٣٩١/١٥٧٣م)،

مظفّر الأوّل	١٣٩٦-١٤١١م
أحمد الأوّل	١٤١١-١٤٤٣م
محمّد كريم	١٤٤٣-١٤٥١م
قطب الدين أحمد الثاني	١٤٥١-١٤٥٨م
داود شاه	١٤٥٨م
محمود الأوّل بايقرا	١٤٥٨-١٥١١م
مظفّر الثاني	١٥١١-١٥٢٦م
سكندر شاه	١٥٢٥م
ناصر خان محمود الثاني	١٥٢٥م
بهادُر	١٥٢٦-١٥٣٦م
محمود الثالث	١٥٣٧-١٥٥٣م
أحمد الثاني	١٥٥٣-١٥٦١م
مظفّر الثالث	١٥٦١-١٥٧٣م

◄ راجع المستندات ٣١ إلى ٣٤.

غدامس (الجماهيريّة العربيّة الليبيّة)، واحة مسكونة، مُدينة بوجودها لنبع ارتوازي، ومُدينة بازدهارها القديم لموقع احتلّته على مفترق طرق القوافل الوافدة من طرابلس وقابس وأورغلا.

ضمّها إلى دار الاسلام في العام ٤٧هـ/ ٦٦٧م، زمن الفتوحات الكبرى، عقبة بن نافع. وأصبحت غدامس الواقعة على حدود إفريقية مركزًا للإباضية، بادئ الأمر. وبقيت تتمتّع باستقلال نسبي عبر القرون لكنّها اضطرّت، في العام ١٨٦٠، إلى الاعتراف بسلطة العثمانيّين عليها. احتلّها الايطاليّون في العام ١٩١٣، ثمّ الفرنسيّون في العام ١٩٤٣، وضُمّت بعدئذ إلى مقاطعة طرابلس وأصبحت جزءًا من دولة ليبيا المستقلّة.

غذاء ← الأغذية (المحرّمة).

الغراماطيق العربي، أو قواعد اللغة العربيّة، هو علم يمكن، في بعض جوانبه، نعته بالإسلاميّ، لأنّه نشأ وتنامى، في أوّل الأمر، على أنّه أحد العلوم الدينيّة التي تساهم في دراسة القرآن. وقد ظهرت، أوّلًا في مدينة البصرة، الدراسات النحويّة التي سادها الاهتمام بإيضاح الغموض الظاهر في النصّ القرآنيّ، عن طريق توفير المزيد من المعرفة بلغة الشعراء القدامى من العرب. وتجلّت حصرًا، في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، في دراسات الخليل المتوفّى في العام ١٧٥هـ/ ٧٩١م، الذي اعتبر مبتدعًا لعلم العروض، ودراسات سيبويه المتوفّى في العام ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، الذي غدا حجّة متخصّصًا في علم الأصوات. وقد أثبت المؤلّفون الذين خلّفوا لنا المعاجم والمصنّفات الأولى، أخذهم بروح المنطق. ويمكن عزوُ ذلك إلى الأثر الذي تركه النهج الأرسطيّ الذي كان شائعًا في الأمبراطوريّة الساسانيّة.

وفي القرن التالي توسّعت دراسة قواعد اللغة في البصرة والكوفة حيث قامت مدرستان مختلفتان. في المدرسة الأولى، تركّز العمل على تحديد ضوابط للقواعد منطقيّة، والتدقيق في استخراج قوانين اللغة، واستبعاد أيّ استعمال لغويّ لا يتوافق مع هذه الضوابط. أمّا في المدرسة الثانية فقد كان التوجّه منصبًّا على علم مختلف تمامًا يأخذ في الاعتبار الشاذّ من الحالات والخاصيّات الخارجة على القواعد المعروفة. إلّا أنّ التوجه البصريّ في صياغة هذه القواعد هو الذي ساد في نهاية الأمر. لكنّ مفهومًا لعلم اللغة تنامى في الأوساط الغنوصيّة الباطنيّة، القريبة من المذهب الإسماعيليّ. من هذا المنطلق اعتبر جابر بن حيّان أنّ أحرف الألفباء كانت في أساس الخَلْق، تجسيدًا لكلام الله، وأنّ الكلام نشأ عن النفس الكلّية. إلّا أنّ هذه المقولات اقتصرت على أوساط محدودة.

غْراي (خانات)، سلالة أمراء من المغول المسلمين؛ من أحفاد جنكيزخان، حكموا بلاد القرم طوال ثلاثة قرون.

استقرّوا، في بادئ الامر، في القرن الرابع عشر للميلاد، في أراضٍ أقطعهم إياها غياث الدين تُقتمش، وهي تعود لخانات القبيلة الذهبيّة. وقد عمل هؤلاء الأسياد الجدد لشبه جزيرة القرم وأوكرانيا الجنوبيّة، وصولًا إلى مرتفعات القوقاز، على تثبيت استقلالهم تجاه الدولة المغوليّة السيبيريّة التي كانت تواجه صعوبات داخليّة. وقد نصبوا أنفسهم، في ما بعد، في القرن السادس عشر، ورثة لها، وجعلوا من مكان إقامتهم في باغجه سراي، بالقرب من سمفروبوليس، مركز قوة عسكرية وثقافيّة مرموقة أثرتها أنشطة تجارية برّية وبحريّة في آن. إلّا أنّ وضعهم الذي جعلهم على اتّصال مباشر ببلاد الروس الذين كانوا قد قضوا على خانيات قازان واستراخان في العامين ١٥٥٢ و١٥٥٤م، أجبرهم على وضع أنفسهم تحت حماية الأمبراطوريّة العثمانيّة. وكان من نتائج ضعف الباب العالي، في القرن السابع عشر، أن قُضي على هذه السلالة، بعد أن احتلّت جيوش كاترين الثانية بلاد القرم وضمنها الى الأمبراطوريّة الروسيّة في العام ١٧٨٣.

غرب ← ألغرب.

غرناطة، مدينة في الأندلس، كانت آخر مدينة استردّها الأسبان من المسلمين في نهاية القرن الخامس عشر للميلاد، ما تزال تحتفظ من ماضيها الإسلاميّ بآثار ذات شهرة مميّزة.

كانت غرناطة، الواقعة في منطقة جبليّة، جنوبيّ شبه الجزيرة الإيبريّة، تمتدّ على الضفّة اليمنى لنهر

الدَزاوَ، في مقابل قلعة قديمة يُطلق عليها إسم الحمراء، وهي التي منحت اسمها لقصر الحمراء الشهير. ولم تكن في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، عندما دخلت في تاريخ شبه الجزيرة، سوى قرية كبيرة محاطة بالتحصينات ومعظم سكّانها من المسيحيّين واليهود. وقد بادر أُمراء من البربر من فرع آل زيري، تسلّموا السلطة، في قطاع ألبيرة حيث تقع غرناطة، من الخليفة الأمويّ سليمان المستعين، إثر الحصار الذي فرضه عليهم الخليفة المرتضى، إلى تحويل قلعة غرناطة إلى موقع حصين، فنفّذوا فيها أعمال تحصين اتّسمت بالجدّية البالغة، ما أدّى إلى أفول نجم المركز السابق للولاية. في الوقت نفسه، قرّر آخر أمير زيريّ، وهو عبدالله، أن يسلّم المدينة إلى المرابطين. وهكذا عرفت غرناطة ما بين ٤٨٣ و٥٥١هـ/ ١٠٩٠ و١١٥٦م، حكّامًا من المرابطين، ثمّ خضعت لحكم الموحّدين قبل أن يحتلّها ابن الأحمر مؤسّس سلالة آل نصر. أصبحت بعد ذلك عاصمةً لهذه السلالة، إلى أن سقطت في أيدي الملوك الكاثوليك في العام ١٤٩٢م.

تعود الصروح الأساسيّة التي تقوم عليها شهرة غرناطة إلى عهد آل نصر، ومن بينها أقسام القصر الذي رفعه النصريّون فوق قلعة الحمراء، ليحلّ محلّ الدار الملكيّة التي كان آل زيري اتّخذوها في المدينة. وقد انتهى العمل من بناء الأسوار والمباني الأولى في عهد الأمير الثاني، في أواخر القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، لينالها الدمار في القرن التالي، وتحلّ مكانها المباني التي ما تزال قائمة وهي موزّعةٌ على مجموعتين: إحداها، وهي تضمّ قاعة السفراء أو قاعة العرش، تحيط بالفناء المعروف بفناء الريحان الشاميّ أو الآس، ويعود تاريخ بنائها إلى عهد يوسف الأوّل (٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م)؛ أمّا الأخرى التي تحيط بالفناء المعروف بفناء الأسود فتعود إلى عهد الأمير محمّد الخامس. إنّ هذه الصروح، الممثّلة للفنّ العربي - الإسباني في أواخر عهده بقيت قائمة. ثمّ كان استسلام غرناطة، في كانون الثاني/ يناير من العام ١٤٩٢م، إلى الملوك الكاثوليك الذين كانوا قد ضربوا حولها الحصار.

◄ راجع المستندات ١١، ١٥، ١٦ و١٩.

غُرْنو بَدَخْشان (منطقة)، ناحية في جمهوريّة طاجكستان الفدراليّة. يبلغ عدد سكّانها الحاليّين ١٣٠ ٠٠٠ نسمة، جميعهم تقريبًا من المسلمين.

تُشكّل هذه الناحية قسمًا صغيرًا من إقليم بدخشان القديم الذي لم يُمنح لأفغانستان، بموجب التقسيم الذي جرى في العام ١٨٩٥ تحت اشراف بريطاني، كما حصل للأقسام الباقية من هذه المنطقة، وتاليًا ارتبط قدرها بمجمل المستعمرات الروسيّة في آسيا الوسطى.

الغُزّ، إسم مشترك يُطلق على مجموعة الشعوب التركيّة البدويّة المعروفة بشعوب الغرب، بعد أن تأثّرت بالإسلام في مرحلة أولى في آسيا الوسطى في أواخر القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. اقتحمت هذه الشعوب، في القرن اللاّحق، بقوة السلاح، وبقيادة السلاجقة الذين كانوا دخلوا في الإسلام، الأراضي الإيرانيّة الخاضعة آنذاك للأمبراطوريّة العبّاسيّة.

وقد أدّى تدخّل هذه العناصر الى تغيير طويل الأمد في التوازن الإثني اللغوي، كما في بعض سمات الذهنيّة الدينيّة في الشرق المسلم. وقد بلغت هذه العناصر التي كانت تتشكّل في جماعات خيّالة قليلة الإنضباط لكنّها ذات فاعليّة قتاليّة، بفتوحاتها في الأناضول. ولم تكتف بخدمة السلطة الجديدة التي انبثقت من صفوفها، بل استعمرت أيضًا لحسابها مناطق مناسبة لتربية قطعانها، ما تسبّب في تراجع الزراعة فيها. مذّاك، شكّلت هذه الشعوب سكّان هذه المناطق وعُرفت باسم «التركمان». إضافة إلى ذلك، فإنّ بعضهم، من الذين رفضوا الدخول في فلك الدولة السلجوقيّة، أو الإندفاع في اتّجاه أهداف الجهاد، استقرّوا في حالة عدم تنظيم فوضويّة، في الجزء الشرقي من خراسان، ولا سيّما حول بلخ، لكنّهم، قبل أن تطغى عليهم موجات الفتوحات الآتية من آسيا الوسطى، نجحوا في مواجهة سنْجر، آخر سلاطين السلاجقة الكبار الذي حاول إخضاعهم، وسحقوا جيشه في سنة ١٥١٣، كما سُحق قبل قرن من ذلك جيش الغزنويّين في معركة دندانكان.

الغزالي، **أبو حامد بن محمّد الطوسي** ٤٥٠-٥٠٥هـ/ ١٠٥٨-١١١١م، صوفيّ، عالم كلام وفقيه، كان من أبرز مفكّري الاسلام القروسطيّين، ندين له بالتوفيق ما

بين الصوفيّة ومذهب التسنّن، بعد الانتفاضات التي تلت إعدام الحلاّج في العام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.

لا ننكر على الغزالي فرادة مسيرته، لكنّ الإصرار اليوم على الاكتفاء بالاحاطة بشخصيّته الحميمة، عبر أزمة الشكّ التي تظهرها الاعترافات الواردة في أحد أشهر مؤلّفاته، قد تخفي من جهة أخرى الصلات التي تجمع الخطوط الرئيسة لعقيدته الدينيّة والسياسيّة إلى خلفيّة محدّدة تاريخيًا، ألا وهي خلفيّة عصره وثقافته التقليديّة كمتخصّص في الفقه.

وُلد في طوس من أعمال خراسان، غير بعيد من مدينة مشهد الحاليّة، فدرس الفقه فيها. كان تلميذ الجُوَيْني الملقّب إمام الحرمين، ودرس كذلك في جرجان ونيسابور قبل أن يتوجّه إلى بغداد في العام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، حيث عمل مدرّسًا. فجأة قرّر التوجّه إلى سوريا وفلسطين حيث أقام في دمشق وحجّ إلى مكّة وزار أيضًا المدينة، قبل أن يجمع حوله حلقة تدريس في نيسابور ويتوجّه نهايةً إلى مدينته طوس حيث توفي في زاوية أو «خانقاه» كان يتولّى شؤونها. تميّزت بداية مسيرته العلميّة بالموقع الرفيع الذي شغله في محيط كبار السلاجقة حيث علّم الفقه في المدرسة النظاميّة في بغداد، بناءً على استدعاء الوزير نظام الملك له. ويبدو أنّ أزمة فكريّة وروحيّة كانت وراء دفعه إلى مغادرة العاصمة العراقيّة في العام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، ليعيش في عزلة ويأخذ نفسه بالزهد خلال تنقّلاته المتعدّدة في الشرق الأوسط، قبل أن يعود ليضطلع بمهمّاته أستاذًا في مسقط رأسه في خراسان. إنّ الوقت الذي كرّسه للاعتزال والذي سمح بتطوير فكره كان سببه اعتناقه الطريقة الصوفيّة، هذا ما يبوح لنا به في كتاب سيرته الذاتيّة «المنقذ من الضلال». لكن ينبغي ألاّ نأخذ بحرفيّة كلامه حين يذهب إلى أنّه هجر العيش الرغيد ومراسم التكريم البغداديّة إثر مرحلة من الشكّ جعلته يرتاب بالحواس وحتّى بالعقل، إلى أن شفي من هذا «المرض» بـ«نور» من الله. ليس هناك ما يؤكّد أنّ هذه التجربة قادته إلى اعادة النظر في الآراء السائدة آنذاك، بدءًا بعلم الكلام النظري الذي سرعان ما اعترف بحدوده، ليتنقل بعدئذٍ إلى الفلسفة التي لم تُرضه بدورها، ثمّ إلى العقيدة الإسماعيليّة التي رفضها أيضًا، إذ لم يعثر على طريق الخلاص إلاّ في الصوفيّة. وينبغي تأويل هذه المسيرة الفكريّة التي عُرضت علينا على أنّها تطوّر مثالي كان القصد منه إبراز الأهمية التي أولاها الغزالي في نهاية حياته للصوفيّة وطرق الوصول إليها، من دون أن يتخلّى عن نُظم الإسلام التقليديّة.

في الواقع إنّ الأسباب الحقيقيّة التي جعلت الغزالي يترك المدرسة النظاميّة ما زالت مجهولة، وقد ذهب بعضهم الى أنّها كانت سياسيّة، اذ إنّ السلطان السلجوقي الجديد الذي تسلّم السلطة لم يكن على علاقة طيّبة بالغزالي؛ أو أنّها كانت ظرفيّة، لأنّ الغزالي ربّما كان يخشى عنف الاسماعيليّين الجدد أو النزاريّين. التفسيرات المتنوّعة حول اعتزال الغزالي تساعدنا على كشف دور الفكر السياسي الذي قال عنه المستشرق هنري لاوست إنّه، مع تشعّباته المتعدّدة، يُمكن أن يُفسَّر جزئيًا بالأجواء التي كانت سائدة آنذاك، وإنّه يشكّل مرحلة أو محطة في تاريخ الأفكار السياسيّة والدينيّة لعلماء الكلام المسلمين من الماوردي إلى ابن تيمية. كتب لاوست (Laoust):

«ما بين الأول، منظّر الوحدانيّة السياسيّة، والثاني القائل بالتعدّدية السياسيّة، ما بين الفقيه الرسمي الذي بنى كل نظريته في وحدانية الخلافة على الخضوع للدولة، والمشرّع المستقلّ الذي رأى هدف الحياة السياسيّة هو المشاركة في الدولة، يحتلّ الغزالي موقفًا وسطًا أو موقع انتقال، إذا ما شئنا».

من هذه الوجهة، يبقى العمل الرئيسي للغزالي كتابه «إحياء علوم الدين» الذي تكلّم فيه، بعد أن حدّد أركان العقيدة، على القواعد التي ينبغي على المؤمن اتّباعها تمهيدًا لبلوغ معرفة الله بالحدس. و«تذوق الله» و«كشف» الحقائق العميقة. ويبيّن الغزالي في مؤلّفه هذا أن هناك - وفق نظرية تقليديّة - درجات عدّة في الإيمان، أسماها بلوغ الاتّحاد بالله من خلال الحب. ومن دون أن يصف الانخطاف الروحي، فإنّه يوضح أنّ الأمر يتعلّق بـ«التقرّب» من الله، لا بـ«حلول» الله في النفس، تجنّبًا لتهمة الكفر. إنطلاقًا من هنا فإنّ العقيدة الصوفيّة، كما حدّدتها السنّة من خلال علماء قدامى وغير مشهورين كالقشيري على سبيل المثال، بدأت تلقى قبولًا لدى الجميع وتكوّن قاعدة للحركات الصوفيّة

الموصوفة بالاعتدال.

تناولت مؤلّفات أُخرى للغزالي الموضوع نفسه، لكنّ هذه ليست الأهمّ في إنتاج غزير. من الأحقّ التنويه برسالة في الأخلاق بعنوان «ميزان العمل»، وبرسالة في المنطق عنوانها «معيار العلم»، وبمؤلفات في الفقه كان آخرها كتاب «المستصفى» الذي ألّفه في أواخر عمره، وهو يُثبت عدم عزوفه عن الاهتمامات الفقهيّة. بعض مؤلّفاته دحضت أقوال الفلاسفة، كـ«تهافت الفلاسفة»، وكتاب آخر دحض مزاعم الإسماعيليين، وله مؤلّف صغير حول علم الكلام وهو «المقصد في الاعتقاد» حيث استعمل القياس من دون التركيز على علم المنطق الذي يعترف له الغزالي فقط بقيمة دفاعيّة. ونُسبت إليه كتابات أخرى من دون وجه حقّ، ككتاب في دحض العقيدة المسيحيّة، مع أنّ النقاد اليوم يرفضون صحة نسبة هذا المؤلف للغزالي.

لم تُحُلْ تنشئة الغزالي التقليديّة ولا بروزه في تدريس الفقه دون تبوّئه، بالنسبة إلى معاصريه ومن تلاهم، مقام المرشد الخبير في الحياة الصوفيّة التي عرف كيف يحدّدها. ومع أنّه دمغ عصره بانتقاده الآخذين بمذهب الفلاسفة، وقد ردّ مزاعمه لاحقًا كتاب «تهافت التهافت» لابن رشد، فإنّه لم يتردّد في الاقتباس عن الفلسفة بعض أساليب التفكير المنطقي، وكان له الفضل في اعتماد هذه الأساليب في علم الكلام كما في أُسس الفقه.

غَزّة، (الأراضي الفلسطينيّة المستقلّة ذاتيًا)، مدينة مجاورة للبحر المتوسط، كان لموقعها في منطقة صحراويّة على تخوم سوريا ومصر أثره في تاريخها المضطرب في القرون الوسطى.

يبدو أنّ غزّة كانت، منذ العصور القديمة، مركزًا زراعيًّا ومعبرًا للقوافل الوافدة من شبه الجزيرة العربيّة، ومن مكّة قبل الإسلام. من هنا نشأ التقليد القائل إنّ أحد أجداد النبي محمّد ﷺ، وهو هاشم، توفي فيها وأصبح قبره مزارًا يُعرف باسم النبي هاشم. احتلّت الجيوش العربيّة – الإسلاميّة المدينة زمن الفتوحات الكبرى فأصبحت جزءًا من أمبراطوريّة الخلافة، ومن ثم من املاك الفاطميّين، إلى أن سقطت في أيدي الفرنج في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. استعادها صلاح الدين في العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ثمّ استولى عليها ريكاردوس قلب الاسد، واستعادها الأيوبيّون في العام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، بموجب معاهدة يافا.

ازدهرت أيام حكم المماليك، وقامت فيها مبانٍ كبرى؛ بينها مسجد جامع بُني على أنقاض كنيسة صليبيّة باسم القديس يوحنا، إلّا أنّها عانت خلال حكم العثمانيّين، إثر الحملة الظافرة لسليم الأوّل في العام ١٥١٦. مع ذلك، في نهاية القرن السابع عشر، كان من نصيبها أن أفادت من تعيين حاكم عليها، هو حسين باشا، الذي أوقف غارات البدو عليها وأقام علاقات طيّبة بالأوروبيّين. وعادت الاضطرابات إليها في القرن الثامن عشر قبل أن يستولي عليها بونابرت في العام ١٧٩٩؛ ثمّ كانت منطقتها مسرحًا لمعارك في الحرب العالميّة الأولى، وأصبحت جزءًا من فلسطين تحت الانتداب البريطاني بعد تفكّك الأمبراطوريّة العثمانيّة. أُلحقت بمصر في العام ١٩٤٩، لكنّ موقعها القائم مباشرة في جوار إسرائيل هيّأ لاحتلالها في العام ١٩٦٧، وأصبح قطاع غزة ذي الكثافة السكّانية الفلسطينيّة الكبيرة مستقلًّا، بعدئذ، في العام ١٩٩٣.

◄ راجع المستند ١٨.

غزنة (جمهوريّة افغانستان الإسلاميّة)، مركز الإقليم الحالي المعروف بهذا الاسم، تقع على طريق قديم ما بين كابُل وقندهار، مجاورةً الأطلال المديدة لغزنة القروسطيّة، إحدى حواضر الغزنويّين والغوريّين ما بين القرنين الرابع والسادس للهجرة/العاشر والثاني عشر للميلاد.

إنّ الموقع الإستراتيجي والتجاري الذي احتلّته غزنة قديمًا؛ في نقطة عبور طرق القوافل التي تربط ما بين إيران وآسيا الوسطى وشبه القارة الهنديّة، يُفسّر سبب اختيارها من قِبَل المرتزق التركي سُبُكتكين، مؤسّس السلالة الغزنويّة، قاعدةً لحكمه، بعد مرور قرن على الفتح الإسلامي لزابلستان حيث بقي الحكم طويلًا في يد حاكم محلي مستقلّ. إنطلاقًا من هنا، استطاع محمود بن سبكتكين احتلال سهول البنجاب والسند، ثمّ حكم دولة واسعة الأطراف جهد خلفاؤه عبثًا في الحفاظ على كامل

أراضيها. كما أنّ معزّ الدين، الذي أخضع بدوره شمالي الهند، اتّخذ من غزنة عاصمة له في نهاية القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. وعلى امتداد تلك الحقبة، استمرّت ثروة غزنة في الازدياد بفضل غنائم الحملات العسكرية الظافرة وبفضل أنشطتها التجاريّة. وقد كانت مسرح صراعات وأطماع، فاحتلّها السلاجقة مرّتين وأحرقها الغوريّون في العام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، بقيادة علاء الدين الذي لُقّب بـ«جهان سوز» (حارق العالم) بسبب ذلك، وسقطت لفترة قصيرة بين أيدي الخوارزمشاهيّين، ونهبها المغول بقيادة جنكيزخان في العام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، ما شكّل بداية انحطاطها. أمّا أسياد المنطقة اللاّحقون، فقد أعجبوا بموقع كابُل، فأهملوا غزنة التي تحوّلت الى بلدة قليلة الأهميّة، وقد خرّبتها في ما بعد الحملات العسكريّة الفارسيّة في القرن الثامن عشر، والانكليزيّة في القرن التاسع عشر.

مثّلت غزنة، خلال ازدهارها، مخطّطًا تقليديًّا للمدن الإيرانيّة الإسلاميّة في القرون الوسطى، وكان يقوم على تجاور مدينتين، إحداهما عُليا قوامها قلعة وقصر، والأخرى سفلى تجاريّة، إضافة إلى ضاحية تجاريّة أيضًا. ولم تغب عنها ذكرى الأبنية الأميريّة من قصور ومساجد، كان الغزنويّون قد أكثروا منها. استمرّت تشهد على هذه الأبنية لمدّة طويلة مئذنتان - برجان ظلّتا قائمتين غير بعيد عن ضريحي سبكتكين ومحمود، فوق تلّتين من التركام. إنّهما تشكّلان إثباتًا لنوعيّة الزينة المعماريّة الرفيعة التي تعتمد الآجر المطبوخ والتي سادت أيّام محمود الثالث وبهرام شاه. وقد تعمّد هذان السلطانان أن يزيّنا أبنيتهما بمنقوشات كتابيّة تثبت من دون لبس نسبتها إليهما، مع أنّ النقش العائد لبهرام شاه نُسب لفترة إلى محمود الأوّل، وأدّى إلى خطإ في التأريخ استمرّ قرنًا بكامله. وقد أضيفت إلى هذه الأبنية في ما بعد بقايا قصر مسعود الثالث التي عُثر عليها بفضل حفريّات أركيولوجيّة، وهي شبيهة ببقايا القصور الأميريّة المعاصرة لها، التي أنشئت إلى الجنوب منها فوق موقع لشكري بازار.

◄ راجع المستندات ١٣، ١٧ و٣٠.

الغزْنويّون، ٣٦٧-٥٨٢هـ/ ٩٧٧-١١٨٦م، سلالة من أصل تركي، نال أعضاؤها الأكثر نفوذًا، من قادة عسكريّين وملوك على الأقاليم الشرقيّة، شهرة إنشائهم أمبراطوريّة امتدّت حتّى الهند وخدمتهم لقضية مذهب التسنّن.

استخدمت الخلافة العبّاسيّة قوّة الغزنويّين لدرء الخطر الناتج عن وصاية البويهيّين المنتسبين الى الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة. وهذه القوّة التي بلغ تأثيرها العراق كانت وليدة مشيئة ضابط تركي في جيش السامانيّين يدعى سُبُكْتكين الذي عهد إليه حُكم غزنة (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) المعروفة اليوم باسم غزني، والواقعة على أطراف الأراضي الجبليّة لأسياده في آسيا الوسطى، وكان أبدى احترامه لحكمهم في بادئ الأمر. إنّ الموقع الاستثنائي لعاصمته على حدود شبه القارة الهنديّة أتاح لهذا القائد، الذي أسّس السلالة ودمغها بمذهب أهل السنّة، أن يباشر أوّل تحرّك له في اتّجاه البنجاب. ولكنّ الفضل في اخضاع «الكفّار» يعود الى ابنه محمود الذي لمع اسمه في التاريخ بطلًا إسلاميًّا والذي أسّس، خلال ثلاثين سنة من الحكم، دولة واسعة الأرجاء تركها لورثته في العام ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م. ولم يمتدّ حكمه على الهند الشماليّة وحسب، بل إلى خراسان غربًا وخوارزم وصولًا إلى أطراف المناطق الغربيّة من إيران.

هؤلاء الغزنويّون الذين أمّن لهم تفاهم محمود مع جيرانه القراخانيّين في الشمال ازدهارًا ملحوظًا، واجهوا في ما بعد، في بلاد ما وراء النهر، صعوباتهم الأولى الخطيرة: فقد تسلّلت شعوب تركيّة من الغُزّ الذين شكّلوا أساس الأمبراطوريّة السلجوقيّة إلى خراسان؛ وبعد عقد من الزمن - إثر وفاة محمود سيّد السلالة الشهير - انتصر السلاجقة على جيش مسعود الأوّل الغزنوي في معركة دندنقان. بعد هذا التاريخ، لم تتخلّص الأراضي الإيرانيّة برمّتها من حكم الغزنويّين فحسب، بل إن السلاطين الضعفاء الذين تعاقبوا على العرش الغزنوي، أُجبروا على الدفاع عن سلطتهم ضد السلاجقة الذين حلّوا مكانهم في الدفاع عن الخلافة السنيّة. وقد حاربوهم في سجستان إلى أن عقدوا معهم صلحًا يقضي بقبول ابراهيم بن مسعود وابنه مسعود الثالث بسلطة السلاجقة.

أمّا خلفاؤهم فواجهوا طموح الغوريّين القادمين من جبال الغور، لذلك وجّهوا آمالهم واهتمامهم نحو ممتلكاتهم الهنديّة، وكانت محصّنة وواسعة تمتدّ حتّى أغرا. وقد لجأ إلى البنجاب الممثّلون الأخيرون للسلالة الغزنويّة بعد أن شهد بهرام شاه الّذي حكم خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وكان على خلاف مع السلجوقي سنجر، تدمير عاصمته غزنة في العام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م بصورة نهائيّة على يدي الغوري علاء الدين. واستمرّت قوّة الغزنويّين في الهند كما يشهد عليها مادحوهم المشهورون وكما تشهد عليها أبهة المباني التي شادوها، فغدوا في لاهور السلاطين الأوّلين للهند إلى أن أدّى التقدّم المطّرد لحملات الغوريين ضدهم إلى تدمير أسرتهم بصورة نهائيّة في العام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م.

بيد أن ذكر الغزنويّين استمرّ بوصفهم رعاة مشجّعين للعلوم والآداب والفنون. فقد استقطبوا إلى بلاطهم، منذ بداية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، بخاصّة من طراز الرياضي والمؤرّخ والجغرافي البيروني، أو الشاعر الفارسي الكبير الفردوسي. وقد شجّعوا، بوجه خاص، الإنتاج الحرفيّ المترف، وأكثروا من تشييد المباني الفخمة ذات الأبّهة المعماريّة. إنّ البقيّة النادرة من هذه المباني، كمثل المآذن البرجيّة من عهدي مسعود الثالث وبهرام شاه – عُرفت إحداها طويلا باسم برج مسعود – التي ما تزال قواعدها قائمة حتّى اليوم في غزنة، وكذلك بعض أجزاء القصور التي كُشف عنها أخيرًا في غزنة ولشكري بزار، تشهد للثروة التي كانت متوافرة أيامئذٍ. كما أنّها تثير الإعجاب ببعض ميزات الطراز المعماري والتزييني الذي امتازت به والذي استخدم في الشرق الإيراني خلال ذلك العهد.

ناصر الدولة ابو منصور سُبُكتكين ٣٦٧-٣٨٧هـ/ ٩٧٧م-٩٩٧م
اسماعيل ٣٨٧ ٣٨٨هـ/ ٩٩٧م-٩٩٨م
يمين الدولة محمود ٣٨٨-٤٢١هـ/ ٩٩٨-١٠٣٠م
جلال الدولة محمّد ٤٢١ ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠ ١٠٣١م
و٤٣٢-٤٣٣هـ/ ١٠٤٠-١٠٤١م
شهاب الدولة مسعود الأوّل ٤٢٢ ٤٣٣هـ/ ١٠٣١-١٠٤٠م
شهاب الدولة مودود ٤٣٣ ٤٤٠هـ/ ١٠٤١ ١٠٤٨م
مسعود الثاني ٤٤٠-٤٤١هـ/ ١٠٤٨-١٠٤٩م
عز الدولة عبد الرشيد ٤٤١ ٤٤٤هـ/ ١٠٤٩-١٠٥٢م
طغرل ٤٤٤-٤٤٥هـ/ ١٠٥٢-١٠٥٣م
جمال الدولة فرخزاد ٤٤٥-٤٥١هـ/ ١٠٥٣-١٠٥٩م
ظهير الدولة ابراهيم بن مسعود الأوّل ٤٥١ ٤٩٣هـ/ ١٠٥٩ ١٠٩٩م
علاء الدين مسعود الثالث بن ابراهيم ٤٩٣-٥٠٨هـ/ ١٠٩٩ ١١١٤م
كمال الدولة شيرزاد بن مسعود الثالث ٥٠٨-٥٠٩هـ/ ١١١٤-١١١٥م
سلطان الدولة ارسلان شاه بن مسعود الثالث ٥٠٩-٥١٢هـ/ ١١١٥-١١١٨م
يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود الثالث ٥١٢-٥٤٧هـ/ ١١١٨-١١٥٢م
معزّ الدولة خسرو شاه ٥٤٧ ٥٥٥هـ/ ١١٥٢-١١٦٠م
تاج الدولة خسرو ملك ٥٥٥-٥٨٢هـ/ ١١٦٠-١١٨٦م

غطفان (بنو)، قبيلة منازلها في الناحية الوسطى لشبه الجزيرة العربيّة، كانت معروفة عند بداية الإسلام، وهي فرع من قيس أي من عرب شمالي شبه الجزيرة.

كانت غطفان معادية للنبيّ محمّد ﷺ في بداية دعوته، فتحالفت مع اليهود والمكيّين ثمّ عقدت، بحسب التقليد، سلمًا مع نبيّ الاسلام ﷺ. لكن بعد وفاته شاركت في الردّة. بعدئذٍ شاركت في الفتوحات الكبرى وناضلت في سوريا زمن الأمويّين، وبخاصة ضد قبيلة كلب في معركة مرج راهط عام ٦٥هـ/ ٦٨٤م. وبعدئذٍ خفت ذكرها، سواء خلال الخلافة العبّاسيّة أو بعدها.

الغلاة ← **الشيعة**.

غُلبايغان (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، كان اسمها في القرون الوسطى جُرباذَقان، هي بلدة تشتهر اليوم، بوجه خاص، بالقيمة المعماريّة لمسجدها الجامع الذي يعود، في قسم من بنائه، إلى العهد السلجوقي.

ولمّا كانت جرباذقان تشكّل محطّة على طريق القوافل ما بين أصفهان وهمذان، على ارتفاع ألفي متر، عن سطح البحر، فإنّ الجغرافيّين اكتفوا بذكرها. برزت أهميّتها لفترة من الزمن على أثر الاجتياح الذي قام به الأتراك في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. يشهد على هذه الأهميّة حجم الجناح

المقبّب واتقان بنائه، وقد شُيّد بين ٤٩٨ و٥١٢هـ/ ١١٠٥ و١١١٨م، وهو يشكّل الجناح الأساسي لمسجدها الجامع. وقد حُفظت هذه الهيكليّة وزينتها القائمة على تداخل قطع الآجر، بحال جيدة حتّى أيّامنا، رغم إعادة بناء بعض أقسام المبنى خلال عهد القاجاريّين.

غُلشَني، إبراهيم بن محمّد، ٨٣٧-٩٤١هـ/١٤٣٣ - ١٥٣٤م، صوفيّ وشاعر تركيّ من الأناضول الشرقيّ حيث عاش في أواخر عهد الإمارات، ثمّ خلال الحكم العثماني.

ينتمي غلشني إلى أسرة استقرّت في ديار بكر، حيث درس العلوم الدينيّة، ودخل، وهو حدث، في خدمة قاضي تبريز خلال حكم أوزون حسن، عاهل أسرة الآق قيونلو؛ ثمّ كرّس نفسه للتصوّف والزهد في الدنيا. وبعد الحجّ إلى مكّة في العام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م، اضطر إلى مغادرة تبريز التي احتلّها الصفويّون، ففرّ إلى ديار بكر، ثمّ إلى مصر حيث لحق به عدد من مريديه. وقد نتاب السلطان سليمان القانوني قلق من نشاطه، فاستدعاه إلى اسطنبول وساءله حول بعض الأمور، وأعاده إلى مصر حيث توفّي في العام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م. وهو صاحب قصائد كثيرة صوفيّة بالفارسيّة والتركيّة والعربيّة، كما أسّس طريقة صوفيّة تنتسب إلى الطريقة الخلوتيّة.

غلطه ← **اسطنبول**.

غُمارة، قبيلة من البربر في المغرب الأقصى، تابعة لمجموعة مصمودة المنتسبة بدورها إلى قبائل صنهاجة التي ما يزال ذكرها واسمها قائمين في منطقة الريف المغربي. اعتنقت غُمارة الإسلام خلال الفتوحات الكبرى في مطلع القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، عندما احتلّ الأراضي التي كانت تقيم فيها موسى بن نُصَير. وقد تميّزت غمارة لاحقًا بتبنّيها مذهب الخوارج وبقيامها بثورات ذات طابع ديني أحيانًا. لكنّها خضعت لسلطة الأدارسة، ثمّ لأمويّ قرطبة قبل أن تساند دولة الموحّدين الإصلاحيّة وتقوم باضطرابات متنامية زمن المرينيّين، إلى أنّ خمد ذكرها.

◀ راجع المستند رقم ١٤.

غُنْبَد قابوس (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، بلدة تقع في إقليم جرجان القديم، تدين باسمها الحالي لضريح الأمير الزياريّ قابوس بن وُشْمغير.

هذا الضريح، أو، بالفارسية، غنبد، مؤلّف من برج رائع معشّر الأضلاع من الآجرّ، في ارتفاع ستّين مترًا، يعود تاريخ بنائه المثبت عليه إلى مطلع القرن الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر الميلادي، ويشكّل مركزًا للبلدة التي تحيط به. وقد بنيت هذه على مقربة من آثار الحاضرة القروسطيّة المدمّرة التي كانت تحمل قديمًا اسم جرجان، وهو اسم إقليم كانت هذه المدينة مركزًا له، وقد هجرها سكّانها بعد الغزو المغولي. وقد انتقلت تسمية جرجان إلى مدينة أخرى في تلك المنطقة كانت تُعرف سابقًا باسم أستراباد.

الغنيمة ← **ألفيء**.

غواليور أو **غواليار** (الاتّحاد الهندي)، مدينة تقع في إقليم ماديا پرادش الحالي، وموقع قديم محصّن وسط السهل الشماليّ الكبير، على الطريق الذي يربط ما بين أغرا والدكن، وهي تحتفظ بآثار معماريّة جليلة القدر من ماضيها الاسلاميّ.

إنّ الأهميّة الإستراتيجيّة لهذا الموقع في بلاد الراجپوت الذي ضُمّ إلى الإسلام خلال النصف الثاني من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، يُفسّر الإهتمام الذي أولاه إيّاه ملوك عدّة ساعين إلى ترسيخ السيطرة الإسلاميّة في الهند والاحتفاظ بها.

هاجم هذه القلعة محمود الغزنويّ في العام ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م وغدت، في العام ١٥٤٢م، مركزًا خاضعًا للأفغان، يؤمّن الدعم لآل سوري سلاطين دلهي. وقد أعجب المغول بموقعها، فضاعفوا دفاعاتها بعد استيلاء أكبر شاه عليها في العام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م. واستمرّ اهتمام أسياد هذه الأمبراطوريّة الشاسعة بالمدينة حتّى القرن الثامن عشر، إذ أصبحت مركز دولة سنديا، وما لبثت أن وهنت بعد تقلّب أحوالها. وإلى العهد المغوليّ تعود المباني الإسلاميّة التي لا تزال قائمةً في المدينة القديمة: مساجد متعدّدة، وضريح وليّ المحلّة وهو صوفيّ ينتمي إلى الطريقة الشطّاريّة، يعرف باسم محمّد غوث

غواليوري المتوفّى في العام ٩٧٠هـ/١٥٦٢م، وقد كان له موقع خاص في نفس همايون، العاهل الثاني للسلالة.

غواندو، أو غاندو (جمهوريّة نيجيريا الفدراليّة). بلدة في إقليم سوكونو، شماليّ البلاد، بدأت تزدهر إبتداءً من العام ١٨٠٦، خلال المنازعات التي عقبت إعلان الجهاد وتكوين أمبراطوريّة عثمان دان فوديو.

غدت إحدى الحواضر الدينيّة والإداريّة للدولة الحديدة ومركزًا لإمارة إسلاميّة مستقلّة في ظلّ الأديب عبدالله، شقيق عثمان دان فوديو، وفي الوقت نفسه مركزًا للممتلكات الغربيّة للأمبراطوريّة. وقد أدّى اضطلاعها بهذا الدور إلى إقامة مجموعة من الأبنية فيها، رغم أنّها لم تحتلّ إلّا المركز الثاني، بعد مدينة سوكوتو التي كان يسيطر عليها محمّد بلّو، ابن عثمان، والتي استمرّت، في الناحية الشرقيّة، مركزًا لإقامة سلالة هذا الأخير حتّى العام ١٩٠٤.

الغوري ← قانصوه الغوري.

الغوريّون، ٥٤٠-٦٤٩هـ/١١٤٦ - ١٢٥١م، سلالة توزّعت سلطتها العائليّة على فروع مختلفة، وتعاظمت في المقاطعات الشرقيّة النائية من الأمبراطوريّة العبّاسيّة، بالغةً الذروة مع سلطانين ملكا في أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي - ما بين الهند الشماليّة وخوارزم - على أمبراطوريّة شبيهة بأمبراطوريّة الغزنويّين الأوائل. إنّهم أمراء محليّون من أصل إيراني، لم يكونوا حتّى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي قد اعتنقوا الإسلام. هؤلاء الأسياد الصغار المحاربون هم من أقليم الغور الجبليّ الذي يصعب الوصول اليه، في قلب أفغانستان الحاليّة. جهدوا أوّل الأمر في الحفاظ على استقلالهم ضدّ القوّة التركيّة الغزنويّة بعدما صمدوا في وجه محمود بن سبكتكين نفسه. عزموا على الدفاع عن أوديتهم المرتفعة التي كانوا يتنازعونها في ما بينهم، وقد تحصّنوا في قلاعهم وقصورهم، لكنّهم اضطرّوا إلى الاعتراف بسيادة جيرانهم وأدّوا لهم الجزية. ثمّ خضعوا لسلطة السلجوقيّين، إلى أن حانت الفرصة لهم لأخذ ثأرهم بقوّة السلاح. وإلى عهد علاء الدين جهان سوز وإخوته الذين ثأر لهم بتدمير غزنة القديمة في العام ٥٤٥هـ/١١٥٠م، مكتسبًا لقب «جهان سوز» أي محرق العالم، تعود بداية السيطرة الغوريّة التي بلغت أوجها مع حكم غياث الدين محمود بن سام. هذا السياسي الماهر الذي احتفظ، في عمق الجبال، بقلعة فيروز كوه/جَمّ، كمدينة ملكيّة، تزيّنها مبانٍ من بينها برج مئذنة اكتُشف مؤخّرًا، شاطر أخاه معزّ الدين محمود الحكم. كان هذا الأخير يقيم في غزنة ليراقب عن كثب الهند الشماليّة التي كانت تتعرّض لغزواته، فنجح في النهاية، مع احتلاله لاهور في العام ٥٨١هـ/١١٨٥م، في القضاء نهائيًا على السلالة الغزنويّة في العام ١١٩٠م. من جهته شنّ غياث الدين حملات على إيران، فاستولى على هراة وخراسان بكاملها وتمكّن من الانتصار على الخوارزمشاهيّين، كما تصدّى لتسلّل الاسماعيليّين إلى أراضيه ونصّب نفسه مدافعًا عن مذهب السنّة، ضامنًا مساندة الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله.

إلّا أنّ بناء هذه الأمبراطوريّة الواسعة غدا هشًّا. فقد زعزعته خسارة خراسان التي استولى عليها الخوارزمشاهيون، أيّام معزّ الدين محمّد الذي خلف أخاه على العرش، لكنّه اغتيل بدوره في العام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م. وفي العام ٦١٢هـ/١٢١٥م دخلت هذه الأمبراطوريّة تحت حكم الخوارزمشاهيّين، قبيل الغزو المغولي الذي غيّب معالم هذه الحضارة التي رفعها سلاطين الغوريين الذين أثرتهم غنائمهم الهنديّة، فأمّنوا انطلاقتها إلى حين.

عز الدين حسين	٤٩٣-٥٤١هـ/١١٠٠-١١٤٦
سيف الدين سوري بن حسين	٥٤١-٥٤٤هـ/١١٤٦-١١٤٩
بهاء الدين سام الأوّل	٥٤٤هـ/١١٤٩
علاء الدين حسين جهان سوز	٥٤٤-٥٥٦هـ/١١٤٩-١١٦١
سيف الدين محمّد	٥٥٦-٥٥٨هـ/١١٦١-١١٦٣
غياث الدين محمّد بن سام	٥٥٨-٥٩٩هـ/١١٦٣-١٢٠٣
معزّ الدين محمود بن سام	٥٩٩-٦٠٣هـ/١٢٠٣-١٢٠٦
غياث الدين محمود	٦٠٣-٦٠٩هـ/١٢٠٦-١٢١٢
بهاء الدين سام الثاني	٦٠٩-٦١٠هـ/١٢١٢-١٢١٣
علاء الدين أتزر	٦١٠-٦١١هـ/١٢١٣-١٢١٤
علاء الدين محمّد	٦١١-٦١٢هـ/١٢١٤-١٢١٥

◄ راجع المستند رقم ١٧.

ُويانا، (جمهوريّة)، مساحتها: ٢١٤ ٩٧٠ كلم٢، ،اصمتها: جورجتاون؛ وهي دولة صغيرة مستقلّة في ميركا الجنوبيّة، تضمّ، كما جارتها سورينام، أقليّة من لمسلمين تبلغ العشرة بالمئة من مجموع السكّان الذين بلغ عددهم ثمانمائة ألف نسمة.

لغيبة، وصف للحال التي دخل فيها، بحسب الشيعة لإماميّة الإثني عشريّة، الإمام الثاني عشر العلوي الذي ،اب وهو حدث، في سامرّاء، حوالى ٢٦١هـ/ ٨٧٤م.

بحسب بعض الروايات، حدثت هذه الغيبة الغامضة ي سرداب المنزل الأبوي للإمام، وهو مكان صار في ما عد مزارًا تقويًّا ويعرف بإسم «غيبة المهدي». وفي القرن لسادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، وبجهود الخليفة لعبّاسي الناصر لدين الله، تحوّل هذا المكان مزارًا. ,منذ ذلك الحين اعتُبر الامام الثاني عشر، المسمّى حمّدًا المهدي أو المنتظر، في حالة غيبة، ينتظر لمؤمنون ظهوره مجدّدًا في المستقبل ليملأ الأرض ىدلًا. هذا التوجّه الخلاصي الملازم للتشيّع منذ بداياته، ان في أساس نشأة مفهوم للإماميّة الاثني عشريّة تغذّى منه، في ما بعد، الفكر الفلسفي - الديني. وعُبّر عن هذا لتوجّه خلال مرحلتين متتابعتين، في ظاهرتين تاريخيّتين متميّزتين عُرفتا بالغيبة «الصغرى» والغيبة «الكبرى».

ففي المرحلة الأولى، أي الغيبة الصغرى (٢٦٠-٣٢٩هـ/ ٨٧٤-٩٤١م)، كان للإمام الثاني عشر أربعة ممثّلين ظاهرين عُرفوا بـ«السفراء»، ورابع هؤلاء، لمتوفّى سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م، اعتبر «السفير» الأخير لذي كانت له علاقات مراسلة بالإمام الغائب. وبدءًا من سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م، بدأت المرحلة الثانية، أي الغيبة لكبرى التي لم يعد ممكنًا خلالها لأي كائن بشري أن تصل بالإمام الغائب. هذا الوضع، على ما هو عليه مذّاك ي المذهب الإمامي الاثني عشري، يَكِلُ لرجال الدين، لذين بلغوا مرتبة الاجتهاد، مهمّة تفسير الشريعة باسم لإمام الغائب.

غيسودَراز بَنْدَن أواز، السيّد محمّد حسيني، ؟ - ٨٢٥هـ/ ؟ - ١٤٢٢م، صوفي شهير من الهند من أتباع لطريقة الجشتيّة، وضريحه مكرّم في غولبَرْغا. يرتبط اسم هذا الصوفيّ من الدكّن بسلالة البهمنيّين. وقد عاد إلى دلهي أيام حكم الفرع التغلقي من سلاطين دلهي، ليصبح، بعد طفولة قضاها في دولت آباد، تلميذًا لِشيراغي دلهي، لكنه اضطرّ إلى مغادرة عاصمة الشمال إثر غزو تيمورلنك لها. في تلك الفترة، بعدما هامَ على وجهه في منطقة غُجَرات، أقام محمّد غيسودراز، الذي اشتهر شاعرًا وشارحًا لمؤلّفات دينيّة، في عاصمة آل بهمن في مدرسة بناها له شهاب الدين أحمد، السلطان في ما بعد، في غولبَرْغا. جمع حوله حتّى وفاته تلامذة عديدين، وأقام له ضريحًا أحمد الأوّل نفسه الذي ترك غولبرغا في ما بعد ليستقر في بيدار، المركز الاستراتيجي والاداري الجديد لمملكته.

غينيا (جمهوريّة غينيا)، مساحتها ٢٤٥ ٨٦٠ كلم٢ عاصمتها: كوناكري. دولة معاصرة تقع على الساحل الأفريقي الغربي، على المحيط الأطلسي، يبلغ عدد سكّانها ستة ملايين تقريبًا، بأكثريّة إسلاميّة تصل نسبتها الى ٨٠٪ تقريبًا.

انّ هذه الدولة التي نشأت من غينيا القديمة التي كانت جزءًا من أفريقيا الفرنسيّة الغربيّة، تُجاور، في الشمال والشرق، دولًا أخرى ذات أكثريّة مسلمة مثل جمهوريّة السنغال أو جمهوريّة مالي، وفي أمكنة أخرى، دولًا أخرى، حيث يشكّل المسلمون أقليّة، مثل جمهوريّة غينيا - بيساو وسييرًا ليون وليبيريا وشاطئ العاج. ويُفسّر موقعها الجغرافيّ، في طرف السودان الساحليّ الغربي القديم، التقدّم المتواصل للتسرّب الإسلامي إليها، وقد بدأ في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، ورسّخته في ما بعد عناصر عرقيّة قدمت من الشمال.

واقع الأمر أنّ الدخول الأوّل للإسلام إلى هذه المنطقة تلا اعتناق عاهل مملكة مالي القديمة هذا الدين في العام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م. وقد قوي هذا المدّ مع وصول البول المسلمين إليها، في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، قادمين من مسّينا من وادي النيجر الأعلى، حيث أسّسوا، في منطقة فوتاجالون، مملكة تحرّكها باستمرار روح الجهاد. هذه الدولة الإسلاميّة الفاتحة، رغم صراعها المستمرّ مع السكّان المحلّيّين الذين سعت إلى إبعادهم نحو الساحل، استطاعت الاحتفاظ بسيطرتها

على البلاد حتّى ظهور الأمبراطوريّتين الإسلاميّتين اللتين أنشأهما الحاج عمر وساموري توريه في القرن التاسع عشر. ثمّ كان عهد الإحتلال الإستعماري وإنشاء غينيا الفرنسية عام ١٨٩٩؛ التي رُسمت حدودها آنذاك بدقّة مع ساحل العاج ومع ما كان يُعرف آنذاك بالسودان، أي دولة مالي الحاليّة. واستمرّ الإسلام في التقدّم بصورة سلميّة بين سكّان تلك المنطقة، باستثناء سكّان الغابات، إلى أن أُقرّ الاستقلال لهذا البلد الذي أصبح رئيسه مسلمًا.

غينيا - بيسّاو (جمهوريّة -)، مساحتها: ١٢٠ ٣٦ كلم² عاصمتها: بيساو؛ وهي دولة أُنشئت حديثًا، تق على الشاطئ الغربيّ لأفريقيا السوداء، يشمل عد سكّانها البالغ مليون نسمة أقليّة إسلاميّة مهمة تبلغ نسبتا خمسة وثلاثين بالمئة، تقريبًا.

إنّ هذه البلاد الصغيرة التي وُلدت من مستعمر برتغاليّة قديمة والمحاذية للمحيط الأطلسي، تجد نفسه محاصرة بين دولتين مجاورتين لها؛ أكثرية سكانهما م المسلمين، لم تتردّدا في ممارسة بعض النفوذ عل وضعها الدينيّ، وهما في الشمال جمهوريّة السنغال وفي الجنوب جمهوريّة غينيا.



الفائدة ← **القرض بالفائدة.**

الفاتحة. إسم السورة الأولى من القرآن، وهي تشكّل عنصرًا أساسيًّا للصلاة الطقسيّة.

لذلك، ينبغي تلاوة نص هذه السورة في بداية كل ركعة: أي سبع عشرة مرّة في كلّ يوم، كما أنّه يُتلى في مناسبات متعدّدة، كما يُتلى، عن نفس الميت عند زيارة قبر ما. يحتوي هذا النص الآيات الآتية:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾
﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

الفارابي، أبو نصر محمّد بن طرخان، ٢٥٨-٣٣٩هـ/ ٨٧٢-٩٥٠م: عُرف في الغرب اللاتيني خلال القرون الوسطى بإسمي **الفارابيوس أو أفنّاصر (Avennasar)**، وهو من روّاد ممثّلي الفلسفة الذين طارت شهرتهم بها، وقد صرف جلّ همّه لتبيان مقولة الوفاق الضروريّ بين الإسلام وميراث الأوائل الفلسفيّ.

وُلد في بلاد ما وراء النهر لأسرة نبيلة تركيّة الأصل، على ما يظهر. وقد بقيت معرفتنا بحياته وشخصيّته محدودة. أقام في بغداد ثمّ في حلب، حيث التحق ببلاط الحمدانيّين في العام ٣٢٩هـ/ ٩٤١م، وتوفّي في دمشق في العام ٩٣٩هـ/ ٩٥٠م. أُطلق عليه، لاحقًا، في أوروبا لقب المعلم الثاني - كما أطلق على أرسطو، قبله، لقب المعلّم الأوّل. حصّل معرفة معمّقة لعلوم الأوائل التي شاعت في الشرق الإسلامي في أواخر القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد. وقد أفاد، بوجه خاص، من التعليم الذي كان قائمًا في بعض الأوساط المسيحيّة في خُراسان، ولا سيّما في مَرو حيث لجأ علماء من المدرسة اليونانيّة بالأسكندريّة. تناولت مؤلّفاته الأساسيّة التي كتبها بنفسه شروحًا لآثار أرسطو ورسالة «الجمع بين آراء الحكيمين، أفلاطون وأرسطو»، وكتاب «إحصاء العلوم»، و«رسالة في العقل» وكتابه الشهير «آراء أهل المدينة الفاضلة».

قال الفارابي، كما جميع الفلاسفة من بعده، بالوفاق بين العقل والوحي، وقد وضع لذلك مجموعة من المبادئ التي أخذ بها أخلافه، مع بعض الفروق في معالجة هذه المسألة. وهذه المبادئ هي كما يلي: من ناحية، نظريّة ماورائيّة للوجود تفرّق بين الجوهر والوجود، على أنّ الوجود أمر عارض عن الجوهر، وذلك تمييزًا للكائن الضروري من الكائن الممكن؛ من ناحية أخرى، نظرية انبثاق العالم من عقول عشرة منبثقة بدورها من الوجود وعاشرها هو العقل الفعّال «واهب الأشكال».

تضاف إلى هذه المبادئ نظريّة المدينة الفاضلة التي يتولّى أمرها حكيم نبيّ متّصل بالعقل الفعّال، وهو تصوّر يرى فيه بعض الباحثين فلسفة ذات منحى صوفيّ، بينما يعتقد آخرون في معرض وصف الفارابي المدن غير الفاضلة، أنّها إشارات دقيقة لأوضاع حقيقيّة كانت قائمة في أيامه.

فارس. كلمة مشتقة من اليونانيّة - الرومانيّة «پرساي» (Persac) أي الفُرس، ومستخدمة في الغرب منذ القرون الوسطى للدلالة على مجموعة مناطق شرقيّة تمّت

أسلمتها، وهي تُعرف، اليوم، باسم إيران الذي ظهر من جديد في القرن التاسع عشر.

اعتُمدت كلمة «فارس» طويلًا تسميةً للممالك الإسلاميّة القروسطيّة والحديثة التي تعاقبت في الهضبة الإيرانيّة. واستُبدلت بها، في الأيام المعاصرة، كلمة إيران التي اعتُمدت رسميًّا سنة ١٩٣٤، لتدلّ على الدولة التي تشكّل حاليًّا الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. ينبغي التمييز بين كلمة «فارس» وكلمة «فارِس» (Fars) المعتمدة قديمًا في العالم الإسلامي للدلالة على منطقة برسيس القديمة الواقعة في الجنوب الشرقي من إيران.

فارِس، أو **فارِس** بالعربيّة، ولاية في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة الراهنة، عُرفت بهذا الإسم خلال القرون الوسطى الإسلاميّة محتفظةً آنئذٍ ببعض شهرتها المرتبطة بفارس القديمة التي عرفها اليونان.

هي منطقة جبليّة تتاخم الهضبة الإيرانيّة المركزيّة على امتداد الخليج العربيّ-الفارسيّ. وقد ضُمّت إلى الأمبراطوريّة العربيّة-الإسلاميّة في زمن الفتوحات الكبرى، خلال حكم الخليفة الثالث عثمان بن عفّان. ومنذئذٍ مثّلت دورًا مهمًّا في تاريخ إيران التي كانت منها بمثابة القلب خلال العهد القديم وضمّت أهمّ الآثار المعماريّة حول برسبوليس. وقد استمرّت معبرًا لأهمّ مسالك القوافل، تربط داخل البلاد بالطرق البحريّة في المحيط الهندي، من حيث موقعها بين خوزستان ومنطقة الجبال وكرمان، فضلًا عن مسالك القوافل المتوجّهة من العراق إلى الهند.

منذ ذلك الحين، تعاقب عليها حكّام محليّون ناشطون مثل الصّفاريّين، والبويهيّين خلال خلافة بني العبّاس، والأتابكة السّلغوريّين في فترة تفكّك الأمبراطوريّة السلجوقيّة، أو آل مظفّر بعد حكم الإيلخانيّين. إنّ هذه الولاية التي فقدت منطقة يَزْد، احتفظت بمدن أساسيّة مثل إصْطخر، الحاضرة الساسانيّة القديمة، ولا سيّما شيراز التي بناها العرب، ففاقت أرجّان بالثروة والسكّان، وكذلك دارابْجِرْد وسيراف. وقد تمركز ازدهار ولاية فارس حول شيراز خلال حكم سلالتي الصّفويّين والزّنديّين، قبل الركود الذي أصابها في عهد القاجاريّين. إنّ الصعوبات التي واجهها مرفأ بوشهر الذي ورث في القرن الثامن عشر، بدفع من نادر شاه، الحركة التجاريّة التي انتقلت إليه من سيراف، والذي غدا، مع جزيرة خارْك المجاورة، محطّ أطماع البريطانيّين في القرن التاسع عشر، قبل تخلّفه بسبب نقص في التجهيز، أفقدت ساحل فارس أهميته الإقتصاديّة، على الأقل حتى بناء مصبّ للنفط قرب خارك في العام ١٩٦٠، فاستطاعت ارتياده آنذاك البواخر ذات الاحمال الثقيلة.

◄ راجع المستندات، ٨، ١٣، ١٧، ٢٣ و٢٤.

ڤارنا (بلغاريا)، مدينة مرفئيّة على شواطئ البحر الأسود، غدت جزءًا من السلطنة العثمانيّة، وخضعت لسلطة الإسلام على مدى أكثر من أربعة قرون.

إنّ العلاقات التجاريّة القديمة لڤارنا مع الغرب المسيحي التي كانت محكومة بأنشطة التجّار الإيطاليّين منذ القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، لم تُجنّبها الوقوع في أيدي الجيوش التركيّة كما حلّ بأراضي البلقان الأخرى، حتى قبل سقوط القسطنطينيّة. وقرب ڤارنا، وقعت معركة انتصر فيها السلطان مراد الثاني على البولونيّين والمجريّين سنة ١٤٤٤م. وفي ما بعد وقعت فيها معارك خلال فترة السيطرة العثمانيّة، كما عاد إليها الروس موقّتًا سنة ١٨٢٨. مع نهاية الحرب الروسيّة - التركيّة سنة ١٨٧٨، تخلّى عنها العثمانيّون، قبل أن يضمّها مؤتمر برلين نهائيًّا إلى بلغاريا.

فارو (البرتغال) **وسانتا ماريّا الغرب**، بالعربيّة أُخصونُوبا، شانتا ماريّا الغرب وشانتا ماريّا آل هارون، بلدة مرفئيّة على ساحل الأطلسي، في جنوب الأندلس، ببرزُ تاريخها تميّزَ هذه المقاطعة التي عُرفت في ما بعد باسم الغرفه (الغرب).

بين الاحتلال الإسلامي الأوّل، حوالى ٩٤هـ/٧١٣م، للمقاطعة التي كانت تحمل، مثل البلدة، اسم أخصونوبا (Ocsonoba)، واستعادتها المتأخّرة على يد المسيحيّين في العام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، مرّ عليها عهد طويل ترسّخ خلاله التنامي المستمرّ لازدهارها، سواء الزراعي أو البحري، واستمرار الاضطرابات السياسيّة

التي سبّبها عدم تجانس السكّان الموزّعين بين المولّدين والمستعربين.

◄ راجع المستند رقم ١٥.

فاروق، ١٩٢٠-١٩٦٥؛ ملك مصر من سلالة الخديويّين المتحدّرين من محمّد علي. ملك من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٢، فكان آخر عاهل في تلك السلالة.

هو ابن الملك فؤاد وحفيد الخديوي الشهير إسماعيل. خلف والده في الحكم في السادسة عشرة من عمره. وكان حزب الوفد أنئذٍ الذي حقّق نصرًا في الانتخابات النيابيّة، قد ألّف حكومة ائتلافيّة قبيل عقد المعاهدة مع بريطانيا العظمى التي أُلغيَ بموجبها نظام الحماية، مع استمرار الاحتلال العسكري البريطاني لمنطقة قناة السويس.

عاصر حكمُ الملك فاروق لمصر مرحلةَ تغيّرات سياسيّة واجتماعيّة أدّت إلى سقوط النظام، بينما كانت الحركات الوطنيّة تتنامى مطالبة برحيل الجيوش الأجنبيّة. ولم يكن الموقف المُحتاط الذي اتّخذه الملك خلال الحرب العالميّة الثانية، والذي أغضب البريطانيّين، كافيًا لإرضاء الرأي العام في بلده. فاشتدّت معارضة حزب الوفد، ما حمل الملك على إقالة حكومته فجأة في أكتوبر من العام ١٩٤٤. وفي هذه الأثناء قوي نفوذ حركة الإخوان المسلمين التي أُسّست في العام ١٩٢٩. ثم إنّ مصر التي كانت ترعى جامعة الدول العربيّة وتتّخذ موقفًا حياديًّا من الحلف الأطلسي، دخلت في الحرب ضدّ إسرائيل في العام ١٩٤٨، في الوقت الذي استُدعي فيه إلى الحكم من جديد، في العام ١٩٥٠، زعيم الوفد نحّاس باشا الذي نقض، في العام ١٩٥١، المعاهدة البريطانيّة - المصريّة. وهكذا فإنّ نقمة الرأي العام والوضع الاقتصاديّ الذي أفضى إلى بؤسٍ متنامٍ في الطبقات الشعبيّة أدّيا إلى الاضطرابات التي وقعت في القاهرة، في كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٥٢، واستمرّت حتّى قيام مجموعة الضبّاط الأحرار بالاستيلاء على الحكم في تموز/ يوليو من العام نفسه. ومنذ العام ١٩٥٣ أُلغيت الملكيّة في مصر، واضطرّ فاروق الذي كان قدّم استقالته لمصلحة ابنه الطفل، إلى قضاء المرحلة الأخيرة من حياته في روما حيث اختار منفاه.

الفاروقيّون أو خانات خَنْدِش، ١٣٧٠-١٦٠١م. سلالة حكّام من المسلمين في شمال الدكّن، إدّعت الانتساب إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب الفاروق، ومن ذلك اتّخذت اسمها.

استغلّ مؤسّسها، وهو ضابط كان، بدايةً، في خدمة آل بهمن، تفكُّك سلطان آل تُغلُق، سلاطين دلهي، ليؤسّس استقلاله، إلى جانب أسياد مَلوى وغُجرات. لكنّ جيرانه الأقوياء لم يسمحوا لحكّام الدولة الجديدة بأن يتّخذوا لأنفسهم سوى لقب خان. إلّا أنّ ذلك لم يقف حجر عثرة دون ازدهار الدولة الجديدة، ولا سيّما في القرن الخامس عشر، وتحصينها بقلعة مركزيّة عرفت باسم أسير غَرْه، وقيام عاصمة لها هي بُرهانپور. ثمّ ما لبثت أن تراجعت أمام توسّع أمبراطوريّة المغول خلال حكم أكبر الكبير.

مَلك راجا الفاروقي	١٣٧٠-١٣٩٩م
ناصر خان	١٣٩٩-١٤٣٧م
عادل خان الأوّل	١٤٣٧-١٤٤١
ميران مبارك خان الأوّل	١٤٤١-١٤٥٧
عادل خان الثاني	١٤٥٧-١٥٠٣
داؤد خان	١٥٠٣-١٥١٠
عادل خان الثالث	١٥١٠-١٥٢٠
ميران محمد الأوّل	١٥٢٠-١٥٣٧
مبارك شاه الثاني	١٥٣٧-١٥٦٦
ميران محمّد الثاني	١٥٦٦ - ١٥٧٦
حسن شاه	١٥٧٦-١٥٧٧
راجا علي خان	١٥٧٧-١٥٩٧
بهادُرشاه	١٥٩٧-١٦٠١.

◄ راجع المستند رقم ٣١

فاس (السملكة المغربيّة)، عاصمة تقليديّة للشمال، يعود تأسيسها إلى سلالة الأدارسة ويتجلّى دورها، كمركز ثقافي وكمدينة دينيّة مميّزة بميراثها المعماريّ، في ازدهارها اليوم كمركز حديث للناحية التي تقوم فيها.

تقع فاس في وادٍ لنهر يحمل الأسم نفسه، على مفترق طريقين عظيمين للمواصلات كانا، في ما سبق، طريقين للقوافل تربطان، من الغرب نحو الشرق، الساحل الأطلسي بالمغرب الأوسط، ومن الشمال نحو

الجنوب، الساحل المتوسّطي بتافيلالت وأفريقيا السوداء. ويبدو أنّ موقعها المميّز بغزارة مائه وبمحيطه الريفي الخصب، لم يعرف العمران المدني قبل بدايات العهد الإسلامي.

جاء في الأخبار أنّ العلويّ إدريس الأوّل، من أعقاب الحسن، أقام في تلك المنطقة بُعيد وصوله إليها، في العام ١٧٢هـ/٧٨٩م، بلدة على الضفّة اليمنى للنهر، وقد أُطلق عليها اسم مدينة فاس. بعد مرور عشرين سنة، في العام ١٩٢هـ/٨٠٨م، أسّس ابنه إدريس الثاني مركزًا جديدًا على الضفّة اليسرى سُمّيَ العليّة، نزلت فيه جماعات من أهل القيروان. إلّا أنّ خطّة هاتين المُنشأتين البدائيّتين لم تأخذ بالنموذج المعروف للمدن المشرقيّة، رغم احتواء كل منهما مسجدًا جامعًا. وقد قدمت عناصر بشريّة جديدة الى البلدة المنشأة على الضفة اليمنى، في العام ٢٠٣هـ/٨١٨م، وصلتها من الأندلس، إثر الثورة التي قامت في ضاحية قرطبة. بعيد ذلك، خلال العامين ٢٤٣ و٢٤٥ للهجرة/٨٥٧ و٨٥٩ للميلاد، قام في المدينتين المتنافستين المبنيان الجديدان، مسجد القرويّين ومسجد الأندلسيّين اللذان أصبحا، بحسب التقليد، في العام ٣٢١هـ/٩٣٣م، المسجدَيْن الجامعين المعروفين، اليوم، بهذين الإسمين.

بقيت مدينة فاس، حتّى منتصف القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، في شقّيها، مسرح صراعات بين أسياد البلاد المتعاقبين، الإدريسيّين والفاطميّين وأمويّي الغرب والبربر من قبيلة زناتة. وفي العام ٤٦١هـ/١٠٦٩م، أو بعده ببضع سنوات، قام المرابطون، الذين كانوا قد بسطوا سلطتهم على المدينتين بتوحيدهما، وأنشأوا، إلى الناحية الغربيّة، حصنًا أو قصبة بغية حمايتهما. كما أعادوا، بين العامين ٥٢٩ و٥٣٧ للهجرة/١١٣٥ و١١٤٢ للميلاد، بناء جامع القرويّين المدين لهم بأجمل زخارفه. ورغم الدمار الذي أحدثه الموحّدون عندما استولوا على فاس في العام ٥٤٠هـ/١١٤٥م، احتفظت المدينة خلال سيطرتهم بازدهارها. كذلك أُقيمت عليها حصون جديدة ما تزال ماثلةً حتّى اليوم. ثمّ غدت، بعد ذلك بقليل، خلال حكم المرينيّين، عاصمة المملكة التي أنشأوها في القسم الغربي من أمبراطوريّة الموحّدين؛ وبذلك غدا هذا المجمّع السكنيّ المهمّ ذا اتّساع كبير، إذ إنّهم أقاموا فوق الهضبة مجمّعًا مستقلًّا سمّي فاس الجديدة. هذه المدينة الملكيّة ضمّت قصورًا ومباني إداريّة ومساكن لكبار الموظّفين يحيط بها جميعًا سور مزدوج. كما ضمّت حيًّا دُعي اليهود إلى النزول فيه وعُرف باسم الملّاح (نسبةً إلى نبع مالح بالقرب منه). أمّا المدينة «القديمة» التي احتفظت باسم فاس البالي، فقد بقيت مركزًا للصناعات اليدويّة والتجارة وشهدت إنشاء مدارس سُعي من خلال التدريس فيها إلى إزالة عقيدة الموحّدين. وقد شكّل مجموع المجمّعات طوال تلك الفترة عاصمة ثريّة وناشطة تناولها بالوصف ليون الإفريقي.

فقدت فاس مكانتها في العام ١٥٤٩م لمصلحة مرّاكش، خلال عهد السّعديّين، متأثّرة بالفوضى التي سادت جميع أنحاء المغرب في القرن السابع عشر، إلى أن استولى عليها أوّل ممثّل للسلالة العلويّة في العام ١٦٦٦. إنّ منافسة مكناس لها، وهي مدينة حكوميّة جديدة أنشأها مولاي إسماعيل المقتدر في مطلع القرن الثامن عشر، أدّت إلى إضعافها؛ كما تأثّرت، في القرن التالي، بنتائج اضطرابات طارئة. إلّا أنّ ذلك لم يمنعها من استعادة مكانتها السابقة، من وقت إلى آخر، ومن استعادة دورها كعاصمة، وتتقاسم هذا الدور مع مراكش. فعلى سبيل المثال، أجرى فيها السلطان مولاي الحسن (١٨٧٣-١٨٩٤)، أعمالًا معيدة، منشئًا فيها، بوجه خاص، سورًا ضمّ، في الوقت نفسه المدينة القديمة، المعروفة بالمدينة، والمدينة المرينيّة؛ كما أنشأ قصرًا في حيّ بوجلود، في الموقع القديم للقصبة. ثمّ حدثت فيها تحوّلات مصيريّة بعد بسط الحماية الفرنسيّة عليها في العام ١٩١٢، إذ قامت، إلى جانب المجمّعات السكنيّة السابقة، حيث كان يسود مناخ من المعارضة السياسيّة، مدينة أوروبية جديدة. وقد أُضيف عليها، منذ ١٩٥٠، تجمّع سكنيّ إسلاميّ جديد ذو سمة أكثر حداثة، نزل فيه عدد من الأسر الآتية من المدينة القديمة. في مقابل ذلك، شهدت هذه نزوحًا سكنيًّا إليها، من الريف المجاور، من الطبقات الفقيرة، في أكثر

الأحيان، وتوزّعت فيها بشكل فوضويّ، معرّضةً للخطر تراثها المعماري المميّز الذي لا ينقذه سوى تدابير قاسية.

لا تشغل فاس سوى المرتبة الثالثة، اليوم، بين مدن المغرب، فقد تجاوزتها الرباط، العاصمة، وكذلك الدار البيضاء. وقد احتفظت بجامعتها التقليدية، أي جامعة القرويّين، حيث تقدّم للناشئة تعليمًا حديثًا؛ كما احتفظت بمكانتها كمركز فكريّ دأبه الدفاع عن الإسلام وتطويره، وبمدينة متحفيّة حيث التقاليد الحرفيّة تشكّل شهادات حيّة لماضيها القروسطيّ. أمّا أكثر مبانيها تمثيلًا لها فهي، إضافةً إلى المسجدين الجامعين، المساجد التي تستخدم كمصلّيات، ولا سيّما المدارس التي، منذ أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد حتّى العهد العلوي، لم تتوقّف عن الأخذ بتقاليد البناء والزخرف الخاصّة بالفن الإسباني العربي الموريسكي المتّسم بالذوق الرفيع.

◄ راجع المستندات ١٠، ١١، ١٤، ١٦، ١٩، ٢٨، ٦٦ و٦٧.

فاسي ← عَلّال الفاسي.

فاطمة، ؟ - ١٢هـ/ ؟-٦٣٣م، إبنة النبيّ محمّد (ﷺ) من زوجته الأولى، خديجة، عاشت بضعة أشهر بعد وفاة والدها، وكانت زوجة عليّ بن أبي طالب، مخلّفة ابنين. نعمت ذرّيتهما الكثيرة العدد باحترام الشيعة، وكذلك السنّة.

ولدت في مكّة قبل الدعوة الإسلامية، وتزوّجت حوالى العام الثاني للهجرة، في محيط المجتمع الأوّل الذي تكوّن في المدينة. وقد شدّد التقليد التاريخيّ مرّات على ذكر حال الفقر التي عرفتها أسرتها. ولد أبناها الحسن والحسين حوالى سنة ٤ و٥ هـ/ ٦٢٥ و٦٢٦م، وذُكر أنّها ولدت طفلًا ميتًا وبنتين.

قاومت بشدّة الخليفتين الأوّلين الراشدين أبا بكر وعمر[٩٠]، عندما دعوا عليًا إلى الإقرار بسلطتيهما. كما أنّها طالبت بميراث أبيها، أي بواحة فدك وبحصّة من فيء خيبر، إلّا أنّها اصطدمت بمعارضة أبي بكر الذي قال: «الأنبياء لا يورّثون». وما لبثت فاطمة أن مرضت بعد هذه المرحلة وتوفّيت بعد والدها محمّد ﷺ بستّة أشهر.

من الصعب إصدار حكم على شخصيّة امرأة بدت، حينًا، معزولة وخجولة، وحينًا ذات قرار عندما اضطرّت للدفاع عن حقوق زوجها أو أهلها الأقربين. وفي كلّ الأحوال بقيت غير مبرّزة خلال معظم مراحل حياتها التي تناولتها الأحاديث النبويّة أو الحوليّات، بينما غدا شخصها، من خلال المعتقدات ومظاهر التقوى في عهود متأخّرة، ذا طابع أسطوريّ. وفي رواية رائجة بوجه خاص لدى الشيعة، ومقبولة في الوقت عينه في الأوساط السّنية، أنّ محمّدًا ﷺ ضمّ برداءه، خلال مناسبة عامّة، ابنته فاطمة وعليًّا وولديهما، فانطلقت على خمستهم تسمية أهل الكساء، وهي تعني بحسب الشيعة أهل البيت، وهي تسمية خاصّة بأسرة محمّد.

كما أنّ فاطمة اتّسمت لدى الشيعة، ولا سيّما لدى الإسماعيليّين بوجه خاص حيث ظهرت منهم سلالة تنتسب إليها، بصفات مميّزة خُصّت بها. فوُصفت بالزهراء أو المشعّة التي قبست من الله نورًا يضيء السماوات. وقد نُسبت إليها عجائب متعدّدة. وستكون أوّل الداخلين إلى الجنّة بعد القيامة. فإذا بلغت عرش الله أدخلت بين الأخيار عترتها وأنصارها. ثمّة تفاصيل أُخرى تزيّن سيرتها الشيعيّة المنبت وتعظّم ذكرها في أعياد متعدّدة، في حين غدت تذكارات حياتها في المدينة موضوع زيارات تقويّة.

◄ راجع المستندات ١، ٤ و٥.

الفاطميّون، ٢٩٧ - ٥٦٧هـ/ ٩٠٩-١١٧١م، سلالةُ خلافةٍ شيعيّة ذات مطامع توسُّعية، ملكت، أوّلًا، في المغرب، ثمّ في مصر إبتداء من ٣٥٨هـ/٩٦٩م. أفلحت، على مواجهتها صعوبات في بداية انطلاقتها، في فرض قدرتها في مواجهة حُماة التسنّن الذين كانوا ممثّلين أيامئذٍ بسلالة العبّاسيّين.

١ - أخذت اسمها من فاطمة بنت النبي محمّد ﷺ وزوجة عليّ التي أعلن الخلفاء الفاطميّون انتسابهم إليها. انبثقت هذه السلطة الجديدة من حركة فرقة شيعيّة هي الإسماعيليّة، رغم أنّ نسبة مؤسّسها المهدي عبيدالله كانت موضوع خلاف، تكرارًا. سجّلت نجاحاتها الأولى في إفريقية حيث كان الداعي أبو عبدالله قد أعلن قيام الإمامة الثوريّة في رجب ٢٩٦هـ/ آذار/ مارس ٩٠٩م،

وبعد نصر أحرزته ضد الرُّستُميّين، اعتلى العرش الخليفة عبيدالله المهديّ. ثم تيسّر لها احتلال المغرب ونشر الأمن فيه بفضل مساعدة البربر من قبيلة كُتامة. إلّا أنّ الأيديولوجيا التي شكّلت حيويّة النظام [الجديد] كانت غريبة تمامًا عن العقائد التي سبق أن انتشرت في أفريقيا الشماليّة باسم العبّاسيّين وتنامت في إفريقية مع الأغالبة. وهكذا اضطرّ الخلفاء الشيعيّون، خلال فترة إقامتهم في الأرض التي تتشكّل منها تونس اليوم، إلى مواجهة شديدة مع علماء أهل السنّة في القيروان التي شدّت أزرها، لسنوات مديدة، معارضة الخوارج المتمرّدين بقيادة المدعوّ أبو يزيد الملقّب «صاحب الحمار». وقد نجح هذا، ما بين ٣٣٢ و٣٣٦هـ/٩٤٣ و٩٤٧م، في تعريض الخلافة القائمة هناك للخطر، وقد توسّلت هذه الصمود بلجوئها إلى المدينة المحصّنة التي بُنِيَت كمقرّ ملكيّ منذ ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م على مرتفع ساحليّ لا يُقهر، والتي حملت منذ ذلك الوقت اسم المهديّة. وإذ عادت الأمور إلى نصابها، نهضت بدورها مدينة ملكيّة ثانية فاستقبلت أهل البلاط وبطانته، وهي مدينة صبرا/ المنصوريّة التي كانت بُنِيَت بقرب القيروان.

انتهج الخلفاء الفاطميّون طوال فترة إقامتهم الإفريقيّة سياسة خارجيّة ناشطة. ثبّتوا أقدامهم في صقلّية، رغم عداء سكّانها، وعيّنوا عليها حكّامًا من الكلبيّين. استمرّوا فيها حتّى الغزو النورماني لاستعادتها، وكان هؤلاء الحكّام يسعَوْن للحصول على قدرٍ من الاستقلال الذاتي. كذلك، قاوموا البيزنطيّين بنجاح، وكان هؤلاء يهدّدون ممتلكاتهم المتوسّطية، فاضطرّوا إلى توقيع معاهدة صلح معهم، في العام ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م. إلّا أنّ الفاطميّين كانوا يهدفون، بوجه خاص، إلى توسيع سيطرتهم على سائر البلدان الإسلاميّة، بدءًا بمصر التي وجّهوا ضدّها حملات عدّة باءت، في أوّل الأمر، بالفشل. مع ذلك، في العام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، دخل جيشهم بقيادة جوهر تلك البلاد التي كانت ضحيّة الفوضى والجوع في تلك الفترة. وفي العام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، دخل الخليفة المعزّ، بدوره، مدينة القاهرة، وهي مدينة حكوميّة أسّسها جوهر منذ العام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، قليلًا إلى الشمال من مركز سكنيّ أقدم منها يُعرف بالفسطاط، وقد ثبّت هذا التاريخ بداية العهد المصريّ للخلافة الفاطميّة.

٢ - منذ ذلك الحين، وُضّح أمر المؤسّسات المرتبطة بالنظام. كان على كل خليفة أو إمام، مثلًا، أن يُعيّن من قِبَل سلفه، ويبقى تعيينه سريًّا حتّى اللحظة الأخيرة، لا يُباح به إلّا لكاتم سرّ الخليفة الذي بولج وحده بكشفه. وهكذا غابت الشورى السائدة في البيئة السنّيّة، أو ما يوصف بالشورى التي تأخذ برأي جماعة المؤمنين ظاهرًا، فتبادر إلى مبايعة الخليفة فور الإعلان عن ذلك. ومن الممكن أن يختار ولد للخلافة؛ وفي هذه الحال، كان يحكم بمؤازرة وصيّ. رغم هذه الاحتياطات، نشأت خلافات حول الخلافة، في بعض المناسبات، ولا سيّما بعد موت المستنصر الذي استُبعد ابنه البكر نزار، فشكّل ذلك سببًا للعصيان الذي أدّى إلى الحركة النزاريّة أو الإسماعيليّة الجديدة.

كان الخلفاء الفاطميّون يعيشون في قصورهم الفخمة في القاهرة محاطين ببلاط شبيه ببلاط العبّاسيّين، وإلى جانبهم قاضي القضاة وداعي الدُّعاة المولجان نشر العقيدة بين الشعوب، وقائد عسكريّ ووزير. خلال النصف الأوّل من تاريخ حكمهم حتّى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، لم يكن منصب الوزير أمرًا ضروريًّا. وعلى أيّة حال لم يكن الوزير سوى منفّذ لأوامر الخليفة الذي كان الحاكم الفعليّ. لكنّ الوضع تغيّر في ما بعد، عندما اضطرّ المستنصر إلى استدعاء قائد الفرق في سوريا، بدر الجمالي، الذي تسلّم معًا رئاسة الإدارة وقيادة الجيوش، ومنصب قاضي القضاة؛ أي إنّه تولّى، بحسب مصطلح الفقهاء، سلطات وزير «بالتفويض». ومنذ ذلك الوقت غدا جميع الوزراء، تقريبًا، «وزراء سيف»، ولم يحل ذلك دون وصول بعض المسيحيّين إلى هذا المنصب. استظهر نظام الحكم الفاطمي، منذ البداية، بفرقٍ عسكريّة غير متجانسة تجمع مرتزقة من أصول متعدّدة، ومن الرقيق أحيانًا، ولم يكن هذا الواقع إلّا ليؤدّي إلى اضطرابات داخليّة. تشكّلت النواة الأوّليّة منه من قبيلة كتامة البربريّة التي كانت أوّل من استقبل دعاة المهديّ الأوّلين. ثمّ انضمّ إلى هؤلاء، عبر

العصور، جماعات من الأتراك والديالمة جُنّدوا في مصر منذ أواخر القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد. وعوضًا عن أن تكون هذه الجيوش غير المتجانسة وفيّة للسلالة الحاكمة، فإنها تسبّبت بصعوبات لها. فوقعت معارك بين مجموعات من الفرق المتخاصمة، فأدّت هذه النزاعات إلى إضعاف الخلافة تدريجيًّا.

لكنّ المشكلات اندلعت، بوجه خاص، في المجال الإجتماعي - الديني. فقد اصطدم الخلفاء الفاطميّون الذين عمدوا إلى فرض الإيديولوجية الإسماعيليّة على مصر، كما في إفريقية، بمقاومة جادّة، في الوقت الذي كان يسود الأوساط الإسماعيليّة نفسها تململ ما. صحيح أنّ تعليمًا موجّهًا نحو أهداف الحركة جرى نشره في مسجد القاهرة، في الجامع الأزهر، ثمّ في مسجد الحكيم، كما في دار الحكمة الشهيرة التي أُنشئت لهذه الغاية. إلّا أنّ فقهاء من مذهب أهل السنّة عبروا على اعتراضهم، مع تبديل من وقت إلى آخر في موقف السلطة منهم، وقد تأرجح هذا الموقف بين الليونة والتشدّد. في حين أنّه، على مستوى ممارسة الشعائر، كان يُغضّ النظر أحيانًا عن الممارسات السنيّة، ويُعمد، أحيانًا أخرى، إلى منعها. ثم إنّ سياسة الفاطميّين تجاه أهل الذمّة من المسيحيين واليهود اتسمت بالتسامح، بشكل عام، ويسّرت للخلفاء إحباط مقاومة المسلمين من السنّة بالإعتماد على غير المسلمين الذين أُسندت إليهم مواقع مهمّة في الإدارة، وبالأحرى في الحكومة، بينهم بعض الوزراء، كما هو معلوم. ومع ذلك وقعت أزمة خطيرة خلال حكم الخليفة الحاكم تسبّبت في اضطهاد حقيقيّ للمسيحيّين. لكنّ هذه الأزمة التي خلّفت أضرارًا كبيرة، والتي ما يزال المؤرّخون المحدثون يتساءلون عن أسبابها، لم تستمرّ سوى سنين قليلة، إذ بدّل الخليفة رأيه وسمح للذين أُجبروا على اعتناق الاسلام أن يعودوا إلى دينهم، من دون أن توجّه إليهم تهمة الارتداد.

والأخطر من ذلك كان تصاعد القلق الذي ساد أوساط الموالين للفاطميّين، حين تبيّنوا أنّ ظهور المهدي لم يؤدّ إلى أيّ من التغييرات العميقة التي كان يتوقّعها أتباعه الإسماعيليّون: فالشريعة الإسلامية استمرّت قائمة، مع بعض تعديلات، بينما كانت الشريعة الموعودة التي كان من المفروض أن تطابق المعنى الواقعيّ للنصوص الدينيّة ناسخةً الفرائض التقليديّة، بقيت معلّقة تنتظر الإعلان عن صدورها. وقد دعا ذلك بعض الأتباع إلى عقد آمالهم على ظهور مهديّ حقيقيّ وتصوّروا تجلّيه في شخصيّة الحاكم، حتى إنّهم قالوا بتأليهه، ما أدّى إلى نشوء الفرقة الدرزيّة.

رغم هذه الاضطرابات المختلفة، شهدت مصر ازدهارًا إقتصاديًّا حقيقيًّا يعود، في الوقت نفسه، إلى استخدام أفضل للموارد الطبيعيّة والمنتجات الصناعيّة وتنمية الأنشطة التجاريّة، بينما كان التبادل التجاري الدوليّ يهجر الخليج العربيّ - الفارسيّ والعراق إلى البحر الأحمر ووادي النيل. ويبدو أنّ اليهود مثّلوا دورًا مهمًّا في هذه التجارة، كذلك الحواضر التجاريّة الإيطاليّة، بدءًا بأمالفي، التي كانت توفد ممثّلين لها إلى مدن مصر السفلى التي كان نموّها شاهدًا على كثافة ذلك التبادل.

لم تكن الحياة الثقافيّة أقلّ ازدهارًا. لكن، إذا استثنينا الكتابات الإسماعيليّة، فإننا نتبيّن أنّ علوم الأوائل سادت مصر الفاطميّة في فروعها المختلفة: من الرياضيّات إلى علم الفلك والطبّ على سبيل المثال. كما تفوّقت فنون العمارة والفنون التزيينيّة محتفظة لنفسها بتميُّز محقّق في إطار الإنجازات الأخرى للقرون الوسطى الإسلاميّة.

٣- كان للفاطميّين، كما مرّ بنا، مطامع توسعيّة بانت منذ تولّيهم السلطة. إلّا أنّ توسّعهم توقّف سريعًا. فبعد احتلالهم مصر، دخلت جيوشهم سوريا، ونجحت في احتلال المنطقة كلّها في مطلع القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. لكنّ النتيجة كانت موقّتة؛ فقد أفلتت سوريا الشماليّة بسرعة من السيطرة المصريّة مع وصول السلاجقة، ولم تتوقّف الاضطرابات في سائر أنحاء البلاد. كما أنّ الحال، في المغرب، لم تلبث أن تدهورت، ونقض الحاكم الزيريّ الذي أوكل إليه الفاطميّون أمرهم، وصايتهم، منذ العام ٤٤٣هـ/١٠٥١م، ليعلن اعترافه بالخليفة العبّاسيّ في بغداد. وقد شجّع هذا الحدث، كما يقال، الهلاليّين من البدو على مهاجمة إفريقية فعاثوا فيها فسادًا. وفي الوقت نفسه استعادت صقلّية استقلالها، عمليًّا، فلم يهتمّ الفاطميّون للأمر.

في مقابل ذلك، ثابر الفاطميّون على شنّ الحملات ضدّ البيزنطيّين الذين كانوا يصطدمون معهم في شمال سوريا، في الوقت الذي كانوا يعقدون معهم المفاوضات. وقد عقد الطرفان اتّفاق هدنة بينهما. في العام ٣٩١هـ/١٠٠١م، لم يلبث أن اهتزّ إثر تدمير كنيسة القبر المقدّس في القدس. وقضى اتفاق بينهما بإعادة بناء هذا الأثر، ثم ثُبّت بمعاهدة سلام وقّعت لمدة ثلاثين سنة في العام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م. وعند بلوغ الفرنج الشرق الأدنى، يبدو أنّ الفاطميّين الذين كانوا استعادوا القدس في العام ٤٩١هـ/١٠٩٨م من السلاجقة، كانوا على وشك أن يقيموا حلفًا مع البيزنطيّين ضدّ الأتراك، إلّا أنّ هذا المشروع لم ينتهِ إلى نتيجة. أمّا الامر الثابت فهو أنّ الفاطميّين، فيما اشتركوا في القتال ضدّ الحملة الأولى للفرنج، لم يستطيعوا الحؤول دون احتلال هؤلاء مدنًا فلسطينيّة عديدة، كان آخرها عسقلان. بعدئذٍ طلب الوزراء المتخاصمون الذين خدموا الفاطميّين، واحدًا بعد الآخر، مساعدة الفرنج حينًا، وحينًا آخر مساعدة ملك مسلم مثل نور الدين الذي لبّت جيوشه النداء مرّتين، ثمّ غادرت عائدة. وفي المرة الثالثة لم تغادر الجيوش السوريّة مكانها وكان قائدها شيركوه عيّن وزيرًا، فأدّت هذه الأحداث إلى زوال الحكم الفاطمي في تلك البلاد لصالح ابن أخي شيركوه الذي أسّس دولة الأيوبيّين السوريّة - المصريّة، وهو صلاح الدين.

عبيدالله المهدي	٢٩٧-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٤م
القائم	٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٦م
المنصور	٣٣٤-٣٤١هـ/٩٤٦-٩٥٣م
المُعِزّ	٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٣-٩٧٥م
العزيز	٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م
الحاكم	٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م
الظاهر	٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢١-١٠٣٦م
المستنصر	٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م
المستعلي	٤٨٧-٤٩٥هـ/١٠٩٤-١١٠١م
الآمر	٤٩٥-٥٢٥هـ/١١٠١-١١٣٠م
الحافظ	٥٢٥-٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م
الظافر	٥٤٤-٥٤٩هـ/١١٤٩-١١٥٤م
الفائز	٥٤٩-٥٥٥هـ/١١٥٤-١١٦٠م
العاضد	٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م

◄ راجع المستندات ١١، ١٨ و٢٥

الفال، جزر (Laquevides)، أرخبيل مرجاني في المحيط الهندي قبالة شاطئ المالابار، في جنوبي غرب الهند، يشكّل اليوم إقليم لاكشادويب داخل الاتّحاد الهندي، وغالبيّة سكّانه من المسلمين.

تُجاوِر جزر الفال، لا سيّما جزيرة ماليكو، جزر المالديف وهي، مثلها، كانت معروفة لدى البحّارة العرب منذ القرون الوسطى الأولى، يطلقون عليها معًا في كتاباتهم اسم **الذّيبجات**. إنّنا نجهل الظروف الحقيقيّة لدخول الإسلام إلى هذه الجزر، إذ تعزوه روايات محليّة إلى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، على الرغم من أنّ موقع هذه الجزر، على الخط البحري الذي يربط الجزيرة العربيّة بالشرق الأقصى، قد يرجّح تاريخًا أقدم، متزامنًا مع نشأة الطائفة الإسلاميّة في المالابار. تأثّر التاريخ الحديث لجزر الفال بالعلاقات التي سادت بين هذه الجزر والمابيلاس، وهم زعماء قدموا من المالابار ومارسوا الحكم على بعض الجزر، إبتداءً من منتصف القرن السادس عشر حتّى العام ١٧٧٩؛ ومن العام ١٨٧٥ حتّى العام ١٩٠٨ على بعضها الآخر: حتّى قامت عليها الوصاية البريطانيّة التي عقبها الاستقلال في العام ١٩٤٧. يتشكّل السكّان الحاليّون من المسلمين السنّة التابعين للمذهب الشافعي، ولكنّهم ينقسمون إلى ثلاث فئات تشبه الطبقات، ونجد بينهم بعض أتباع الطرائق الصوفيّة ينتسبون إلى الطريقتين الرّفاعية والقادريّة في أكثرهم، وكذلك بعض العناصر من ذوي النزعة الأصوليّة.

الفتى، جمعه **الفِتيان**. عبارة عربيّة تعني «الحدث»، صادفت استعمالات مختلفة في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى. راجت كلمة فتى، مثلًا، في الأندلس، لتعني الشخص المنتمي إلى الرقيق، إلّا أنّه دخل في خدمة الحاكم أو وزيره وحاز مقامًا رفيعًا بين حاشية البلاط، بمعنى آخر كان «ضابطًا» يفوق مقامًا العبيد العاديّين.

في الشرق، من جهة أخرى، حيث سادت كلمة «غُلام» للدلالة على أفراد بطانة الخليفة، وأعضاء حرسه، الذين كانوا ينتمون إلى الرقيق، أيًّا كانت رتبتهم: كانت كلمة «فتيان» تُطلق على الرجال الأحرار

من سكّان المدن. وقد عُني بها، بشكل خاص، أعضاء الجمعيّات المنتمية إلى الفتوّة الذين كانوا يأخذون أنفسهم بالشجاعة والكرم، وهما صفتان يتحلّى بهما جيل الشباب.

فتحپور سيكري، مدينة ملكيّة مهجورة، تقع على بعد نحوٍ من أربعين كيلومترًا من أغرا. رفع بناءها الملك الشهير أكبر الأوّل من سلالة المغول، لتضمّ قصره وبلاطه وأفراد حكومته.

وكان أكبر، قبل أن يقوم بزيارة المتصوّف سليم الچشتي في موقع سكري، عام ١٥٦٩، وينبئه هذا بولادة ابن له قريبًا، قرّر أن يبني في هذا الموقع عاصمة جديدة، يحيط بها سور ممتدٌّ على ستة كيلومترات، وقد فرغ من العمل فيها العام ١٥٧٤، وسمّاها فتحپور أي مدينة النّصر. ومع ذلك اكتفى بأن جعل منها مقرًّا موقّتًا، ثمّ ما لبث أن هجرها في العام ١٥٨٦، ولم يعد إليها بعد ذلك. فاحتفظت بسبب ذلك بمبانيها الشامخة مصونةً من عوادي الأيّام، مبنيّة بالصفائح الحمراء، محيطة بضريح من المرمر الأبيض بني إكرامًا لسليم الچشتي. وهي مبانٍ تُعتبر، بكلّ تأكيد، من أكثر الشواهد دلالةً على غنى الفنّ المعماريّ للهند المغوليّة.

◄ راجع المستند رقم ٧٨.

الفِتنة، كلمة كثر استعمالها، في العربيّة، خلال تاريخ الإسلام الطويل، للدلالة على فترات الاضطرابات والإنشقاقات والصراعات الداخليّة، وأحيانًا على الحروب الأهليّة والفوضى، التي دمغت تطوّر الجماعة الإسلاميّة.

كثيرًا ما وردت كلمة فتنة، بمعنى «محنة، إغواء»، في القرآن. وهي تعني، بصورة عامة، إغواء موجّهًا أو متغاضيًا من قبل الله امتحانًا لإيمان المؤمن.

استُعملت هذه الكلمة، منذ العهود الأولى للإسلام، للدلالة على حالات الثورة أو الحرب الأهليّة التي تعرّض للخطر نقاء إيمان المسلمين ووحدة الجماعة. إنّ اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفّان في العام ٣٥هـ/ ٦٥٦م والأحداث التي تلته، بما فيها الحربان الأخويّتان بين الصحابة، وهما وقعتا الجمل وصفّين، تعتبران «الفتنة الكبرى» التي امتُحنت بها جماعة [المسلمين] المنبثقة من المدينة.

بعد ذلك، اعتُبر كلّ انقسام فتنة، فدان الفقهاء والمفكّرون التقليديّون بقوّة مميّزة كلّ فتنة كانت تؤدّي إلى فصم وحدة الجماعة. إلّا أنّ هذا المفهوم انسحب على مراحل تفتّت بعض الأمبراطوريّات وتقسيمها. ففي الأندلس، على سبيل المثال، استعملت كلمة فتنة للدلالة، بوجه خاص، على المرحلة التي عقبت سقوط الخلافة الأمويّة وتفسّخها وهي المرحلة التي يسمّيها المؤرّخون الغربيّون، في أكثر الأحيان، عهد الطوائف.

الفتوّة، كلمة استعملت في المحيط الإسلامي القروسطي للدلالة على فضائل الفتى، جمعه الفتيان، حيث برز مثل أعلى جديد تجاوز مفهوم «شرف الرجل الناضج» أو المروءة.

شكّل هذا المثل الأعلى عنصرًا محرّكًا، في نهاية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، لنشوء جمعيّات مرتبطة في ما بينها، ذات نهج تراتبيّ، في إطار تنظيم شامل ما يزال يكتنفه الغموض، حمل بدوره إسم الفتوّة.

نامى تنظيم الفتوّة الذي اختصّ به الشرق الإسلامي إمتدادًا لحرسٍ شعبيّ مُدُنيّ أقدم منه عهدًا، يمكن اعتباره مظهرًا ممهّدًا له، واقتبس بعض سماته من المحيط الدينيّ لتلك الحقبة المدموغة بازدهار التصوّف. وهكذا غدا شبيهًا، في تنظيمه، بالجمعيّات الباطنيّة، وبلغ أوجه في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد ليختفي من بعد، لكنّه استمرّ في أشكال مختلفة من التجمّعات المهنية، وربّما في جمعيّات حرفيّة ذات توجّه اجتماعيّ وصوفيّ معًا. كما أنّ بعض هذه المجموعات استعادت، في ما بعد، في بعض المناطق، دور العصابات المسلّحة، مؤدّيةً دور الحرس المدُني ومتصدّية لأعمال سياسيّة لا تخلو من فعّاليّة.

جرى الإعتراف بتنظيم الفتوّة، في صورة رسميّة، بقرار اتّخذه أحد الخلفاء العبّاسيّين الأخيرين في بغداد، هو الناصر لدين الله، الذي بادر إلى استخدام المضمون الخُلُقي، ولا سيّما الروحيّ، للعقيدة المضمرة في جمعيّات قديمة، ليزيد من رفعة مكانته الشخصيّة. إنّ هذا الخليفة، الذي لم تكن سلطته الحقيقيّة لتتجاوز في

ذلك العهد حدود العراق، جذب إليه، بهذه الوسيلة، الحكّام المسلمين الأساسيّين من الشرقيّين الذين لم يكن يربطهم به، حتّى ذلك الوقت، سوى رباط الموالاة.

جَهَدَ الناصر، بعد أن انضمّ إلى الفتوّة البغدادية وغدا مرشدها الأكبر، في فرض نظام حقيقي على جميع الأعضاء، مشجّعًا عُلْيَة القوم وكبارهم، في الوقت نفسه، على الإنضمام إلى الحركة والمساهمة، بإدارته، في العودة إلى التسلّح بالأخلاق بمقصد مزدوج: أحدهما إنعاش الإسلام بتوحيد نزعاته المتعدّدة، والآخر استعادة الاحترام الشامل لدور الخلافة. مهما يكن من أمر، إلى هذا العهد تعود الرسائل المتعدّدة المؤلّفة حول الفتوّة في ما وصلنا منها، وهي في غالبها مطبوعة بتأثير صوفيّ، يُبرز النقاط المشتركة التي جمعت ما بين سلوك المتصوّفين والأفكار التي عُمل بها في نطاق الطرائق التي نشأت آنئذٍ، والمعطيات التي تحقّقت من خلال تنظيم الفتوّة. وقد جاءت في هذه الرسائل بعض التفاصيل التي تطلعنا على رسوم الإحتفال المخصّص للإنضمام إلى التنظيم، ومنها اتّخاذ بزّة مميّزة لذلك وسروال عرف بسروال مكارم الأخلاق. كما ذكرت مختلف المراتب التي يرقاها العضو بحسب نظام الجماعة الداخليّ.

الفتوحات (الكبرى)، تعبير يُستعمل كتعبير «الفتوح» الذي نجده في عنوان مؤلّف البلاذري «فتوح البلدان» للدلالة على التوسّع المذهل الذي عرفه الإسلام في القرن الأوّل للهجرة.

خلال السنوات العشرين التي تلت وفاة النبيّ محمّد (ﷺ) في العام ٦٣٢م، سمحت هذه الإنطلاقة - ذات الطابع العسكري في الأساس - بقيام أمبراطوريّة عربيّة - إسلاميّة شكّلت الجزيرة العربيّة النقطة المركزيّة فيها، وامتدّت من الأطراف الشرقيّة لإيران إلى أبواب أفريقيا. وبعد فترة قصيرة، في ظلّ الحكم الأموي، توسّعت نحو الهند وآسيا الوسطى والمغرب والأندلس.

ومنذ حقبة حكم الخلفاء الراشدين الأربعة، شكّلت السياسة الهجوميّة المتّبعة إستمرارًا مباشرًا لواجب الجهاد - أي الحرب المقدّسة الشرعيّة - التي قادها النبيّ محمّد نفسه (ﷺ) عندما صمّم على ضمان استقلال الدولة الجديدة وتوسيع سلطتها: فوضع تصوّره للأسس الجماعيّة لهذه الدولة خلال فترة هجرته إلى المدينة. وكان يأمل من ذلك تأمين نجاح الدعوة التي أطلقها والتي وُوجهت بالصد من قبل. فكما أنّ التناوب الحتمي ما بين الانتصارات العسكريّة والعمل السياسي سمح وحده للنبيّ محمّد (ﷺ) بالعودة المظفّرة إلى مسقط رأسه مكّة ليجعل منها المركز الديني للإسلام، كذلك فإنّ المراحل اللاّحقة للرسالة الموحاة إليه ارتبطت بالضرورة بالتوسيع الدائم لأفق الأهداف الموضوعة للحملات العسكريّة وللتقدّم المظفّر للصحابة. ولم يخطئ التقليد الإسلامي المرتبط بالحديث الشريف في هذا الشأن، إذ إنّه اعتبر دائمًا أنّ غزوة تبوك - وقد تمّت حملةً عسكريّة قام بها النبيّ ﷺ نفسه شمالي شبه الجزيرة قبل وفاته بعام واحد - كانت المؤشّر للانقلاب التاريخي الذي كان له الفضل في انتصار الإسلام، كما أنّه رأى فيها أيضًا حالة خاصة لانهيار العالم القديم في القسم القريب من آسيا.

والظاهرة التي أدّت، في القرن الأوّل للهجرة/ السابع للميلاد، إلى قيام عالم إسلامي حقيقي شاسع الأرجاء ومنتصر، تندرج في بداياتها بشكل ما في امتداد الاختراق التدريجي لجماعات بدويّة للأراضي الخصبة المزروعة الواقعة شمالي الجزيرة العربيّة، ويعود هذا الاختراق إلى فترة سابقة، وقد أدّى مذّاك إلى نشأة دويلات عربيّة شبه مستقلّة. وهكذا، فإنّ الحملات العسكريّة الإسلاميّة الأولى تبعت خطوط مسارات قديمة. ولم يكن الأنباط - ذوو الأصول العربيّة - هم وحدهم الذين أسّسوا، حوالى بداية العصر المسيحي، مملكة حول البتراء وتبنّوا الثقافة المحليّة اليونانيّة - الآراميّة. فبعد فترة قصيرة، صار اللّخميّون الذين استقرّوا في بلاد ما بين النهرين حلفاء لساسانيّي إيران، بينما صار الغساسنة - الذين اعتنقوا المسيحيّة هم أيضًا - حلفاء البيزنطيّين في سوريا. والحركة التي أحدثها ظهور الإسلام في هذه المناطق تميّزت عن سابقاتها باتّساعها وبالروحيّة التي تحرّك الوافدين الجدد. فكانوا يقاتلون، في آن معًا، من أجل قضيّة واضحة ومن أجل تأمين المكاسب لأنفسهم. وتصرّفوا كفاتحين منظّمين

وأخضعوا بشكل وثيق - بالقوة أو بالمعاهدات - أراضي استسلمت لهم، ولم يكن أمام سكّانها سوى خيار القبول بالشريعة باعتناقهم الإسلام، أو العيش وفاق نظام أهل الذمة، فيما إذا كانوا منتمين إلى ديانات ترتكز على كتاب موحى به (أي في حال كانوا من أهل الكتاب).

أمّا المراحل الأساسيّة للفتوحات الأولى هذه وفقًا لترتيب يغلب فيه الطابع الجغرافي على الزماني، فهي كما يلي:

- فتح سوريا بدءًا من العام ١٣هـ/ ٦٣٤م. إنطلق هذا الفتح مع الانتصار في معركة أجنادين، واستمرّ بعد معركة اليرموك في العام ١٥هـ/ ٦٣٦م، وتُوّج بالاحتلال الكامل والمنظّم للبلاد، وتكرّس بالإستسلام النهائي سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م للقدس، ومن قبلها لدمشق التي أصبحت في ما بعد العاصمة الإداريّة. انكفأت جيوش الأمبراطور البيزنطي هيراقليوس بعد اندحارها إلى ما وراء انطاكية، حتّى إلى ما وراء مضائق كيليكيا، واضعة نصب أعينها هدفًا واحدًا هو الدفاع عن أراضي الأناضول.

- فتح بلاد ما بين النهرين، الذي اتّخذ طابعًا أكثر حدّة بعد أن تمّ عبور الفرات بالقوّة والانتصار في معركة القادسيّة في ١٥هـ/ ٦٣٦م و١٦هـ/ ٦٣٧م. تلا ذلك احتلال عنيف ونهب لسلوقية - طيْسفون عاصمة الساسانيّين، التي ستصبح «المدائن» في ما بعد. وبينما كانت خوزستان عرضة للاجتياح ما بين سنتي ١٧ و٢١هـ/ ٦٣٨ و٦٤١م، كانت المدن - المعسكرات التي أنشأها أسياد البلاد الجدد في البصرة، بالقرب من ضفاف الخليج العربي الفارسي، وفي الكوفة، على مسافة أبعد إلى الشمال، تُستخدم أيضًا قواعد إستراتيجيّة لاجتياح الهضبة وسلسلة الجبال المجاورة، عبر سلوك خطين مختلفين.

- فتح بلاد ما بين النهرين العليا الذي تمّ بعد صعود القوّات العربيّة - الإسلاميّة أودية دجلة والفرات مجتاحين في طريقهم مدينة نينوى القديمة سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م (التي تقع قرب الموقع الذي ستقوم عليه الموصل مستقبلًا). وقد وصل هذا الفتح في حدوده القصوى الى أراضي أرمينيا القديمة التي تمّ إخضاعها حوالى سنة ٢٤هـ/ ٦٤٥م.

- فتح إيران وتفكّك سلطة الساسانيّين بالكامل بعد انهيار جيشهم. وقد توسّع هذا الفتح خاصة بعد الانتصار الذي تحقّق في معركة نهاوند ٢١هـ/ ٦٤٢م، وهي نقطة إستراتيجيّة، في ما سيصبح مستقبلًا مقاطعة الجبال، ومهّد هذا الفتح، بعد مرور عشر سنوات، لاحتلال خراسان بعد ضمّ أذربيجان سنة ٢٢هـ/ ٦٤٣م وفارس وكرمان ما بين ٢٤ و٢٧هـ/ ٦٤٥ و٦٤٨م. وهذا الانتصار المستمرّ للجيوش الإسلاميّة صار أكثر ثباتًا مع غياب آخر ملوك الساسانيّين يزْدَجرْد الثالث الذي قُتل في ما وراء النهر، حوالى سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م، بعد فرار طويل وغير مجدٍ نحو الشرق من وجه الغزوات والتقدّم التدريجي للقوات التي كانت تلاحقه.

- فتح مصر ما بين ١٩ و٢٣هـ/ ٦٤٠ و٦٤٢م، وهو إنجاز للقائد العربي عمرو بن العاص الذي ربط اسمه بهذا الفتح وشيّد أوّل مسجد جامع في البلاد في الفُسطاط - المدينة المعسكر ذات المستقبل الزاهر - التي كان أسّسها بعد استسلام المدن الرئيسة في البلاد، والإسكندريّة إحداها. وقد تمكّن عمرو بن العاص أخيرًا، حوالى سنة ٢٤هـ/ ٦٤٥م، من دحر الهجمات البيزنطيّة المضادة الآتية من البحر.

- فتح برْقة وطرابلس في ليبيا، وتخطّيهما في هجمات واسعة النطاق باتّجاه إفريقية؛ إلى أن تمكّنت القوات الفاتحة من الاستيلاء عمليًا عليها بعد الانتصار على البيزنطيّين في معركة سُبيْطلة سنة ٦٤٧م.

وقد تميّزت أوّل موجة من الهجمات خارج الجزيرة العربيّة إذًا بسلسلة عمليّات - كانت تتّسع أكثر فأكثر، وطغى عليها في بعض الأحيان طابع المغامرة - في مناطق كان يتمّ عبورها سريعًا، ودائمًا بعد معارك مخطّط لها، لكن من دون الاهتمام بإعادة السلام إليها فعلًا. وحدها هذه المعارك المنظّمة أتاحت ملاحظة الخلل المتنامي بين القوّات الإسلاميّة والاحتياط العسكري للأمبراطوريّتين البيزنطيّة والساسانيّة اللتين تقاسمتا في السابق كل هذه الأراضي. فالوهن النسبي الذي أصاب الأمبراطوريّة البيزنطيّة حال دون دفاعها عن مقاطعاتها المتوسطيّة الأكثر غنى والتي تسكنها، في حاصل الأمر،

أقوام لا يخيفها تغيّر السيادة، وهو تغيّر كان يحصل، في أكثر الأحيان، بموجب «صلح». والانهيار الحاد للأمبراطوريّة الساسانيّة أوقعها بالكامل تحت سيطرة وحدات بدويّة تحضّرت شيئًا فشيئًا على أراضي هذه الأمبراطوريّة الأكثر غنى. وعن ذلك نتج، بشكل مباشر، إطار الدولة الإسلاميّة الجديدة التي تكوّنت من مجموعتين بشريّتين متباينتين فرضت عليهما، مذّاك، قراراتُ خليفة واحد يعيش في المدينة شريعة وإدارة مشتركتين.

إنّ المشكلات التي نجمت، في داخل أمبراطوريّة من هذا النوع، عن دمج شعوب مغلوبة متعدّدة وغير متجانسة جعل منها وضعُها، بما هي من أهل الذمّة، في مستوًى دونيّ من حيث التشريع والتبعيّة الماليّة، تحكّمت بمسار تطوّر العالم الإسلامي، تحت سيادة الأمويّين، السلالة الخليفيّة الأولى. كما أنّ الصعوبات الملازمة لشوائب نظام مالي كان وقعه قاسيًا على المغلوبين، لأنّه يرتكز على فكرة الغنيمة، ويفترض، تاليًا، إعادة النظر به في حال اعتناق السكان المحليّين القدماء الإسلام، كانت في أساس العديد من الاضطرابات اللّاحقة. إلّا أنّ هذا الوضع القلق لم يدفع في اتّجاه وضع حدّ لموجة الفتوحات، لا بل إنّه أبقى على ديناميتها حيّة طوال القرن الأوّل للإسلام.

لقد استقرّت حركة الفتوحات مع الخليفة الراشدي الثالث، عثمان. ولكن في مطلع العهد الأموي، جرى تقدّم ملحوظ، في هذا الميدان، في اتّجاهات مختلفة. من جهة أولى، إنّ احتلال خراسان الذي ترسّخ نهائيًّا لم يعد يتمحور حول المراكز الإداريّة في هَراة وبلخ وحدهما، بل إنّه اعتمد، منذ عبور جيحون/آموداريا سنة ٥١هـ/٦٧١م. ضمًّا منهجيًّا لآسيا الوسطى: هكذا أُخضعت واحات بخارى وسمرقند وخوارزم نفسها، بين ٨٦ و٩٥هـ/٧٠٥ و٧١٣م، بفضل جهود القائد الناشط قُتيبة بن مسلم والقوات الإسلاميّة التي تجاوزت حدود فَرْغانة ودخلت في علاقات مع شعوب غير إيرانيّة (تركيّة وحتّى صينيّة)، وسوف تضطرّ لاحقًا وفي مناسبات عدّة لمواجهتها.

في الوقت نفسه، كانت فرق تسلك طريق الجنوب عبر أراضي سجستان (سيستان) المنعزلة، وتطأ سهول الهندوس: فمدينة ذبيل المرفئيّة احتُلّت في العام ٩٢هـ/ ٧١١م، وأصبحت مُلتان عاصمة مقاطعة السِّنْد الإسلاميّة الغنيّة، رغم استمرار بعض الجيوب تقاوم الإسلام في العمق الجبلي لأفغانستان، وهي جيوب ستتم محاصرتها في فترة لاحقة.

من ناحية ثانية، في اتّجاه الغرب، أحرز المسلمون تقدّمًا منهجيًّا في تمركزهم في إفريقية، ولا سيّما مع تأسيس القَيْروان، وهي رابع مدينة - معسكر كانت في أساس شهرة القائد العربي عقبة بن نافع الذي انشأ فيها مسجدًا جامعًا يحمل اسمه. إنطلاقًا من هذه القاعدة العسكريّة الجديدة ضُمّ الجزء الأكبر من المغرب بين سنتي ٥٠ و٨١هـ/٦٧٠ و٧٠٠م. وقد بقيت بالطبع شعوب بربريّة عدّة عاصية على الإسلام تسكن المناطق الجبليّة للمغرب. ومع ذلك، كان للوجود الإسلامي ما يكفي من القوة لينظّم لاحقًا، إنطلاقًا من المغرب، حملة في اتّجاه الغرب، ادّت إلى فتح شبه شامل لشبه جزيرة إيبريا التي صارت تعرف مذّاك عند العرب باسم الأندلس. ويُعتبر طارق بن زياد، وهو رجل عسكري من أصل بربري، المنفّذ الأكبر لهذا الفتح. ومع أنّه كان نائبًا لموسى بن نُصَيْر، حاكم إفريقية في هذه الفترة وحسْب، فإنّه اتّخذ مبادرة الإنزال وتمكّن، بالتعاون مع قائد قوّاته، من إخضاع مملكة طليطلة القوطيّة. هذا التقدّم الصاعق الذي أتاح له الوصول إلى جبال البيرينيه، منذ السنة الأولى للعمليات العسكريّة، والاستيلاء على الجزء الأكبر من الأراضي الإسبانيّة - البرتغاليّة الحاليّة، استُتبع بغارات، وحتّى بفتوحات مثمرة في جنوب فرنسا، شكّلت معركة بواتييه (Poitiers)، وتعرف عند المؤرخين العرب بـ«بلاط الشهداء» سنة ١١٤هـ/٧٣٢م، امتدادها الأقصى.

أخيرًا، تميّزت سنوات الذروة التي عرفتها الأمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة تحت حكم الأمويّين، بمحاولتين بارزتين قام بهما الجيش والبحريّة الإسلاميّان اللذان حاصرا القسطنطينيّة على مرحلتين: ما بين ٥٣ و٥٨هـ/٦٧٣ و٦٧٨م، ثمّ ما بين ٩٨ و٩٩هـ/٧١٦-٧١٧م. وتمكّنت الأمبراطوريّة البيزنطيّة - التي كانت

قوتها البحريّة بدأت بالتراجع منذ الاحتلال الإسلامي الأوّل لقبرص سنة ٢٨هـ/٦٤٩م - مع ذلك من الإفلات من قبضة المحاصرين، بينما استقرّ الأناضول على حالة حرب دائمة في خطّ مواجهة ثابت، رغم بعض التقلّبات الظرفية، إلى أن أطاح استفرازه الاجتياح التركي لأوّل مرّة في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. منذ ذلك الحين، مع التحوّلات الاجتماعية - الدينيّة التي عايشها العالم الاسلامي في أواخر القرون الوسطى، بدأت مرحلة توسّع جديد تحكّمت مباشرة بتطوّرات الأزمنة الحديثة في العالم الإسلامي. وهذه المرحلة، رغم تخطّيها، الى حد بعيد، المدى الذي بلغته الفتوحات في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، إلّا أنها لم تضاهِ الشهرة الأسطوريّة التي لازمت، منذ زمن بعيد، ذكريات الفتوحات العربيّة الأولى.

◄ راجع المستند رقم ٨.

فتوى، جمعها فتاوى وفتاوي، تفيد جوابًا عن سؤال يتعلّق بحكم شرعيّ يصوغه فقيه موكَّلٌ بتخريج حلٍّ لمسألة محدّدةٍ يسهّل تطبيق الشريعة.

فقد دعت الحاجة، في ديار الإسلام، للرجوع إلى اختصاصيّين في الفقه حول مسائل عولجت بقدر يسير من الدقّة باللجوء إلى الإجتهاد الذي مارسه مؤسّسو المدارس الفقهيّة أو المجتهدون. وكان الاختصاصيّ الذي يُدلي برأيه في هذه المسائل - وهو رأي استشاريّ غير ملزم - يعرف بالمفتي. ومنذ القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، تقريبًا، جرت العادة بتصنيف مجموعات من الفتاوى للرجوع إليها. وهذه التصانيف تشكّل في أيامنا وثائق ثمينة، تيسّر الإطلاع على الحياة الإجتماعيّة في العصور الوسيطة الإسلاميّة.

وقد اختلف الأمر في الأوساط الشيعيّة الإماميّة الإثني عشريّة حيث اتّسمت الفتاوى بقيمة سلطويّة، إذ كان يُصدرها ممثّلون للإمام الغائب مؤهّلون شرعيًّا للقيام بتأويل نصوص الشريعة.

فَخ (صاحب) ← **الحسين بن عليّ بن الحسن.**

فخر الدّين، ١٥٧٢-١٦٣٥، أمير درزيّ من آل معْن جعلت منه خلافاته مع العثمانيّين وعلاقاته السياسيّة بالموارنة أبًا للبنان الحديث، في نظر كثيرين.

هو حفيد فخر الدين الأوّل الذي كافأه السلطان العثمانيّ سليم الأوّل بمنحه لقب أمير مقاطعجي، في مقابل خضوعه لسلطته في العام ١٥١٦. إلّا أنَّ السلطة التي ورثها لم تكن موطّدة الأركان. فكان على القائد الفتي، أن ينتظر حتّى في العام ١٥٩٣ كي يستعيد، بعيد حروب شنّها على خصوم بني قومه، الوضع الذي نعم به والده قُرقماز المتوفّى في العام ١٥٨٥ خلال هجوم على الشوف شنّته القوّات التركيّة. وقد أخذ على عاتقه، في توجّهاته المستقبليّة، مهمّة توحيد الدروز والموارنة في لبنان. وما ان حاز دعم الباشا والي دمشق حتّى بادر إلى توسيع رقعة حكمه التي شملت، خلال القرن السابع عشر، صيدا وبيروت، إضافةً إلى البقاع وكسروان.

إلّا أنّه اضطُرّ، مع تعيين وزير عثمانيّ جديد، إلى أن يغادر لبنان موقّتًا في العام ١٦١٣، متوجّهًا إلى توسكانا التي كان قد أقام معها علاقات دبلوماسيّة. ولمّا تمكّن من العودة إلى مقاطعاته في العام ١٦١٩، استطاع كذلك أن يوسّع رقعتها من جديد في اتّجاه فلسطين والشمال حيث عقد صلحًا مع عدوّه القديم من آل سيفا بزواجه من ابنته. وهكذا بلغ في العام ١٦٣١ أوج قدرته باسطًا سلطته حتّى تدمر وجوار الأناضول. غير أنَّ ردّة فعل العثمانيّين، مدعومين بغير ظهير، جعلت باشا دمشق يجرّد على الأمير الدرزيّ، في العام ١٦٣٣، حملة هزمته وأسرته، ثمّ أُعدم على اثرها في اسطنبول، في العام ١٦٣٥.

فخر الدّين الرّازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين، ٥٤٣-٦٠٦هـ/١١٤٩-١٢٠٩م، عالم كلام ومفسّر للقرآن، وُلد في الرّيّ، كما يدلّ على ذلك اسمه، وقد غدا مدافعًا شهيرًا عن مذهب التسنُّن في الولايات الشرقيّة حيث استقرَّ به المُقام حتّى وفاته.

كان والده واعظًا في الرّي حيث درس الفتى العلوم الدينيّة والدنيويّة، وكذلك الفلسفة. ثمّ حمل عصا التسيار إلى ما وراء النهر وآسيا الوسطى، كما إلى الهند. اتّصل بالخوارزْمشاه محمّد بن تكّش، لكنّه استقرّ في هراة تحت رعاية غياث الدين الغُوري، وأُتيح له، خلال

نشاطه الثقافيّ ، أن يعقد مناظرات مع المعتزلة في ما وراء النهر ، وكذلك مع الكرّاميّة في خراسان ، ما دفع بهم ، في العام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م ، إلى تأليب الناس عليه في عاصمة الغوريّين ، فيروزكوه أو جمّ . وما يزال ضريحه في خوارزم ، فوق موقع كونيا أورگنج/ أورغنج المطابق أحد مواقع غورنج/ أورغنتش القديمة ، قائمًا منذ بنائه في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد .

تنطوي مؤلّفات الرازي الكثيرة على ما يلي :

- رسائل في علم الكلام تجري في خطّ الأشعريّة ؛
- شروح ومختصرات لبعض مؤلّفات ابن سينا ؛ - تفسير للقرآن بعنوان «مفاتيح الغيب» ، أفرغ فيه ما وسعته معرفته بالعلوم الفلسفيّة والدينيّة ، وقد تناوله بالنقد عالم متشدّد هو ابن تيميّة ، رغم تأثّره بأفكار الرازيّ ؛
- مؤلّف في مسائل الخلاف ذو توجّه نحو السّيرة الذاتيّة ؛
- وأخيرًا ، رسالة في فلسفة ما وراء الطبيعة صادفت رواجًا كبيرًا باسم «المحصّل» . إنّ هذا الأثر الذي يمتاز بتفرّده في عدم الأخذ إلّا بما يُمليه العقل ، واستبعاد كتب الوحي ، والذي يذكّرك ، في غير موضع ، بكتاب الشفاء لابن سينا ، يضع الرازي بين المتكلّمين الأشاعرة الذين لم يتنكّبوا عن الأخذ بعلوم الأوائل المتوارثة ، ولو باحتياط وحذر .

فدائي ، الجمع فدائيّون ؛ تسمية عربيّة تعني «من يفدي شخصًا آخر بحياته» ، وُصف بها أتباع بعض الحركات أو الأحزاب من الذين أعلنوا استعدادهم للتضحية بحياتهم في سبيل القضيّة التي كانوا يدافعون عنها .

التصقت هذه التسمية ، في القرون الوسطى ، بأتباع الحركة الإسماعيليّة الجديدة المعروفة بالنّزاريّة ، التي كانت تعتمد القتل السياسيّ بتعريض الأنفس للخطر ، والتي ، عبْر تسمياتها الأخرى ، أدّت إلى التسمية الفرنسيّة «أساسان» (Assassin) .

في ما بعد ، استخدمت تسمية فدائي للدلالة على أعضاء مجموعات إرهابيّة نفّذت أعمالًا في الشرق الأدنى في ظروف متعدّدة ، وبخاصة الإرهابيين الذين كوّنوا في إيران ، ما بين ١٩٤٣ و١٩٥٥ ، منظّمة سرّية هدفت إلى التطبيق الكامل للشريعة الإسلاميّة والتصدّي للإلحاد . كان هؤلاء الفدائيّون ، بحسب التسمية الفارسيّة ، يهاجمون ، بشكل خاص ، الأجانب أو رجالات السياسة الذين كانوا على اتصال بالبلدان الأجنبيّة . وارتكبوا مجموعة من الاغتيالات السياسيّة . وقد نفي بعضهم ، في العام ١٩٥٢ ، إلى بندر عبّاس الوزيرُ مصدّق ، كما أُوقف زعماؤهم الثلاثة الأساسيّون وأُعدموا في العام ١٩٥٥ .

وخلال الفترة نفسها ، ما بين ١٩٥٠ ١٩٥١ ، ظهر فدائيّون في مصر شنّوا هجمات ضد الفرق العسكريّة البريطانيّة المتمركزة في منطقة قناة السويس . بعد ثورة ١٩٥٢ ، ضمّوا إلى منظّمة سمّيت «الحرس الوطني» ووجدوا لهم مجالًا للعمل في مهاجمة الأراضي الإسرائيليّة حيث كانوا يتسلّلون لمهاجمة المستوطنات اليهوديّة . وقد أُطلقت التسمية نفسها على عرب فلسطين الذين يقومون ، منذ ١٩٦٧ ، بهجمات ضدّ الإسرائيليين

الفرائض ← **الإرث في الإسلام** .

فرائضيّة (بدعة) ← **البنغال** .

فرغانة ، ناحية من آسيا الوسطى دخلها الإسلام . كانت في القرون الوسطى عبارة عن وادٍ في مجرى نهر سيردريا أو سيحون الأعلى ، وهي ، اليوم ، بمعظم أراضيها ، تدخل في نطاق جمهوريّة أوزبكستان .

هذا السهل الداخليّ الخصب الذي استُصلح للزراعة باستخدام وسيلة الصّرْف والذي تشرف عليه سلسلة من الجبال المرتفعة ، كانت تخترقه ، في اتّجاه كاشغر/ كاشي ، طريق القوافل العتيقة المعروفة بـ«طريق الحرير» التي كانت تربط إيران بالصين ، والتي كانت أوزكند/ أوزغن آخر محطاتها الشرقيّة المهمّة . إبّان الفتوحات الكبرى العربيّة الإسلاميّة ، كانت تحكم هذه الناحية سُلالة إيرانيّة . فضُمّت إلى أمبراطوريّة الخلفاء ، ثمّ عادت إلى حكم أُمراء محلّيّين في سنة ١٠٣هـ/ ٧٢٢-٧٢٣م وعرفت عهدًا من عدم الاستقرار ، إلى أن قامت الخلافة العبّاسيّة . وقد استطاع السّامانيّون الذين حكموها خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد أن يخمدوا أيّة مقاومة ضدّ الإسلام والسيطرة العربيّة ، فكانت فرغانة ، منذئذٍ ، تمدّ جيش العراق بالمرتزقة ، وتنتج الذهب والفضّة والحديد والنحاس ، بحيث ازدهرت فيها الفنون

المعدنيّة والحالة الاقتصاديّة.

ثمّ تنازعت هذه المنطقة سلالات متعدّدة، مع احتفاظها بأمرائها المحلّيين. فسقطت، منذ الغزوات التركيّة الأولى، بين أيدي القراخانيّين الغربيّين الذين جعلوا من أوزكند قاعدة لحكمهم. بعدئذٍ دخلت في سيطرة التيموريّين، ولا سيّما في عهد ابن حفيد تيمورلنك عمر شيخ، وابنه بابُر الذي أنشأ فيها مدينة هي خوكَند/ كوكند جعلها عاصمة له، إلّا أنّه اضطرّ إلى التخلّي عنها في العام ١٥٠٤م هاربًا إلى الهند. في القرن الثامن عشر، غدت هذه الناحية مركزًا لخانات كوكند؛ وفي ١٨٧٦ ضمّ الروس هذه المملكة المستقلّة إلى أراضيهم وأدخلوها في نطاق حاكميّة تركستان، وأسّسوا فيها مدينة جديدة تدعى فرغانة منذ العام ١٩٢٤. إنّ المراكز الصناعيّة والمناجم المعدنيّة، بما في ذلك النفط، والغاز الطبيعيّ، أدّت إلى ازدهار هذه المنطقة ونموّها السكّاني الذي تجلّى في حيويّة بلدانها القديمة والحديثة التي يقع بعضها في جمهوريّتي طاجكستان وقرغيزستان اللتين تشغلان، إلى جانب جمهوريّة أوزبكستان، قسمًا صغيرًا من هذه المنطقة التي كانت تتشكّل منها الولاية القروسطية.

◄ راجع المستندين ٨ و٣٥

الفَرْغاني، هو أبو العبّاس أحمد بن محمّد، (القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد)، عالم فلكي أصلُه من فرغانة في آسيا الوسطى، وكلّ ما نعرفه عنه أنّه كان في خدمة الخليفة العبّاسي المتوكّل.

أمّا مؤلّفه الأساسي الذي يحمل في العربيّة عناوين متعدّدة فقد عرف، بفضل وضوحه، انتشارًا واسعًا في أوروبا خلال القرون الوسطى، بعد نقله إلى اللاتينيّة، كما نُشر في القرن السابع عشر تحت عنوان «مبادئ علم الفلك» (Elementa Astronomica). كما نعرف أنّ الفرغاني وضع دراسات أخرى يتناول بعضها كيفيّة صنع الاسطرلاب. وبأمر من الخليفة المتوكّل أشرف على بناء جهاز قياس مياه النيل في الجيزة، قرب مدينة القاهرة الحاليّة.

الفِرَق، اسم أُطلق على الحركات السياسيّة الدينيّة أو على الإنشقاقات التي نشأت داخل الاسلام. تميّزت الفرق بعقائد مخالفة للعقيدة [الرسميّة] التي كان يدعمها الخليفة العبّاسيّ السنّي، وهي عقائد وُضعت حولها، في القرنين الرابع والسادس للهجرة/ العاشر والثاني عشر للميلاد، مصنّفات توصف، اليوم، بأنّها تتناول مسائل الملل. ومن هذه المصنّفات، تلك التي وضعها الأشعري والبغدادي وابن حزم والشهرستاني.

والواقع أنّه من غير الدقّة أن نُطلق على هذه الفرق تسميتا «هراطقة» و«هرطقة» المستعملتان في الغرب، لأنّ هذا المفهوم لا ينطبق على واقع العالم الإسلامي. فالفرق ذات الآراء المتباعدة، والتي نشأت بسبب خصومات داخليّة وانشقاقات، لم تصدر بحقّها أحكام الإدانة من أي سلطة عليا تدّعي استقامة عقيدتها. والعلماء المسلمون الذين اهتمّوا بمسألة الفرق في القرون الوسطى اكتفوا بعرضها على تنوّع آرائها، مذكّرين بالحديث النبوي الشريف القائل: «... أمّا أمّتي فستفترق الى ثلاث وسبعين فرقة والناجية منها واحدة».

إنّ تعيين الفرقة التي ستنجو، عن طريق مقارنتها بغيرها، كان الهدف الذي سعى اليه أحد هؤلاء الكتّاب، وهو أبو منصور البغدادي المتوفّى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م، في حين اكتفى الآخرون بعرض آراء كلّ من الفرق. والموقف المتبنّى لم يكن خاليًا من الصعوبات إذ إنّه، في مقابل الحديث الذي يذكر ثلاثًا وسبعين فرقة، يمكن اعتماد تأكيد كان منتشرًا بشكل واسع بين ممثّلي مختلف المذاهب الكلاميّة، وهو أنّ كلّ مؤمن في الاسلام، مهما كانت أعماله وخياراته العقائديّة، سيخلص في النهاية من عذاب الجحيم. ولكن تبقى المسألة في تحديد صفة المؤمن، إذ يطلقها البعض على كلّ من أعلن الشهادة وأقام، اذا استطاع، الصلوات الخمس.

أمّا البغدادي فيعطي تحديدًا أكثر دقّة، فيعتبر أنّ المؤمن هو من يقول بخلق العالم وكذلك بوحدانيّة الخالق وأزليّته. والمؤمن هو الذي يعترف بأنّ اللّه هو عنوان الحكمة والعدالة، وبأنّه منزّه عن كلّ تجسيم وتشبيه، ولا ينكر صفاته، ويُقرّ بكلّ الانبياء وبأنّ محمّدًا نبيّ أرسله اللّه لكلّ الشعوب، وأنّ الشريعة المنزلة كلّها

حقيقة، وأنّ القرآن منبع أحكامها. والمؤمن أخيرًا هو الذي يقبل راضيًا بالصلوات الخمس ويقرّ بالزاميتها، كما يقرّ بالزامية الزكاة، والصوم، والحجّ. ومن وجهة نظر فقهيّة، فإنّ البغدادي يعتبر أنّ المؤمن الحقيقي هو الذي يتبنّى، في صفات الله، موقفًا وسطًا بين المعتزلة والقائلين بالتجسيم.

ويصنّف البغدادي في الإسلام عددًا من الفرق على حدة، واصفًا إيّاها بالانشقاقيّة. وهي في رأيه تنتمي إلى الاسلام ولكنّها تدافع عن آراء منحرفة. أهمّها: الشيعة الزيديّة والإماميّة الإثنا عشريّة، الخوارج، المعتزلة، المرجئة، الجهميّة، والمشبّهة. وهو يستبعد بشكل عنيف بعض الفرق التي، بحسب رأيه، يجب إقصاؤها عن الجماعة واعتبارها كافرة. وهذه الفرق هي: غلاة الشيعة، الإسماعيليّون وكلّ القائلين بوحدة الإنسان مع الروح الإلهيّة، وأتباع مذهب التقمّص، وبعض غلاة المعتزلة والخوارج. ويُعتبر موقف البغدادي معتدلًا نسبيًا، إذ يختلف عن موقف الحنابلة الذين يدينون المعتزلة والشيعة بقسوة، ويتّخذون الموقف نفسه من الأشعريّة.

الفرنج ← الفرنكيّون.

الفرنكيّون، تسمية استعملت لترجمة الكلمة العربيّة الفِرنج أو الإفْرنْج التي، بدورها، عنت، في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، غير المسلمين من البلدان المسيحيّة المجاورة، وبخاصة بلدان أوروبا الغربيّة والمحيط المتوسّطي، باستثناء البيزنطيّين المعروفين بالرُّوم.

كان المسلمون ينظرون إلى هؤلاء على أنّهم جماعات عليها أن تواجه الغزو أو تعتنق الإسلام، حتّى إذا ما توالت وقائع حروب الإسترداد في شبه الجزيرة الإيبرية وتحقّق نجاح الحملات المعروفة بالحملات الصليبيّة في الشرق، غدوا أخصامًا للمسلمين، فأقرّ هؤلاء بكفايتهم أو، في بعض الظروف، تحالفوا معهم. إلّا أنّ التسميات المطلقة عليهم بقيت مبهمة الدلالة ومفتقرة إلى الوضوح، وشمل ذلك كتّاب العرب في الأندلس. كما أنّ العلاقات الحربيّة، وكذلك التجاريّة والدبلوماسية، التي ربطت يومئذ بعلاقة وثيقة بين المسلمين في سوريا والفرنج في الدول المسيحيّة التي أقاموها في المنطقة، لم تؤدِّ إلى تقدّم حقيقي في إثارة الفضول بالنسبة إلى جنسياتهم أو إلى البلدان التي جاؤوا منها. كذلك العثمانيّون الذين كانوا أكثر اهتمامًا بأوروبا المسيحيّة إبتداء من القرن السادس عشر، احتفظوا بعادة تسميتهم بالفرنج بالمعنى العام للكلمة.

من هنا لم تكن «بلدان الفرنج» التي نُعتت بالـ«بربريّة» - لأنّ الإسلام، في نظر معتنقيه، هو المصدر الوحيد لأية حضارة - محطّ اهتمام الجغرافيّين المسلمين في القرون الوسطى إلّا في ما ندر ومن دون تدقيق، فاكتفوا بإيراد حكايات كثيرة عنهم تعود إلى نسج الخيال.

الفروسيّة (نظام -)، مفهوم يرافق أحيانًا ذكر الإسلام في القرون الوسطى، لكن يجب استعمال هذا التعبير بتحفّظ، حتى لو أنّ وجود قصة فروسيّة عربيّة حقيقيّة كقصة عنترة يدفع إلى افتراض توافر نقاط تلاقٍ على هذا الصعيد مع الغرب المسيحي.

من المؤكّد قيام جمعيّات في الشرق، منذ القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، ينتمي إليها أفراد من الأرستقراطيّة وتحرّكها مُثل التضامن والتضحية المتبادلة، إنطلاقًا من روحيّة «الفتوة»، وهي روحيّة شجّعها بشكل خاص الخليفة الناصر في أواخر الحقبة العبّاسيّة. لكن لم يكن لهذه الجمعيّات إلّا رابط بعيد بجمعيّات الفروسيّة الأوروبيّة. أضف الى ذلك أنه، في الفترة السابقة، لم يظهر في بلاد الإسلام إلّا تجمّعات ذات طابع جماهيري أساسًا. أمّا جماعات «الفتيان» التي كانت تشكّل ميليشيات محليّة في المدن خلال الاضطرابات، فقد استغلّت هذه الأوضاع أحيانًا للاستيلاء على السلطة، وكانت متباينة في إيران وفي سوريا ومصر. بعد ذلك انبعثت من جديد في الأناضول مع تكاثر جمعيات الـ«أخي» التي كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تختار أعضاءها بخاصة من أوساط الحرفيّين.

من جهة أخرى، عرف المجتمع الإسلامي الوسيط ممارسة وتنظيرًا للفنون الفروسيّة التي كانت بالتأكيد تعطي الأفضليّة للطابع التقني لهذه الفنون ولمختلف

مراحل التدريب العسكري. وكان يمكن أن تتضمّن أيضًا، بحسب بعض التفسيرات، تدريبات على الشجاعة التي هي ضرورية للخيّالة؛ وليس من المستبعد أن تكون ذهنيّة الشرف الخُلقي والشجاعة، القريبة بشكل أو بآخر من مفهوم الفروسيّة في الغرب، قد لامست بعض التعابير الرائجة لهذا المفهوم [في الدول الإسلاميّة].

الفروسيّة (الفنون والألعاب)، هي مجموعة من التمارين الحربيّة والتقنيّة يُنشأ الفرسان بموجبها ونؤهّلهم للسيطرة على مطاياهم وقيادتها. وقد شكّل الفرسان في القرون الوسطى الإسلاميّة، وحتّى تعميم استعمال الأسلحة النارية، القاعدة الصلبة لكل مؤسّسة عسكريّة. إنّ شروط التدريب التي تضمن وحدها تفوّق الفارس، تفسّر المكانة المهمّة التي احتلّتها المعرفة المتوارثة في هذا الفن، وذلك بفضل تناقلها بالممارسة وعن طريق إرشادات المعلّم. وُضعت باللغة العربيّة دراسات نظريّة عديدة حول الموضوع، تجسّدت في مؤلّفات موجزة تتناول فنّ الفروسيّة، جاءت لتكمّل إنتاجًا أدبيًّا وشعريًّا ونثريًّا، مخصّصًا للثناء على الحصان ولوصفه؛ وتتطرّق لأساليب تربيته وترويضه. وقد جُمعت في أعمال خاصّة بعلم الخيل وبطب الخيل، ظهرت في كتابات ابن المنذر في عهد المماليك. وقد عكست هذه الكتابات المتنوّعة الأهميّة التي خصّت بها الحضارة الإسلاميّة، من القرن الأوّل حتّى القرن التاسع للهجرة/السابع حتى القرن الخامس عشر للميلاد، هذا الحيوان الذي بقي المطيّة المفضّلة لعرب ما قبل الأسلام ولكل الرُّحّل الغزاة، من بدو البلاد العربيّة إلى بربر شمال أفريقيا، إلى الغزاة الأسيويّين من أصل تركي أو مغولي الذين تدفّقوا على بلاد المشرق إبتداءً من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وقد اعتمد محاربو السهوب الشماليّة الخطط نفسها التي اعتمدها محاربو إيران القدامى والتي اعتمدتها جيوش الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة الأولى.

كانت تمارين الفروسيّة تنفّذ في ميدان الخيل (كلمة ميدان بقيت في صيغتها الفارسية) مع السلاح التقليدي. فمنها ما كان يشمل القتال بالسلاح الأبيض (الرمح، الحربة، والسيف)، ومنها ما يشمل استعمال المِقْمَعة، كما تتضمّن تمارين أخرى كالرمي بالقوس أو بالقذّافة (أقواس قديمة لقذف السهام والحجارة...). ولتنفيذ هذه التمارين كانت تُعتمد تقنيّات خاصة للالتحام العسكري الذي يطلق عليه بالعربيّة اسم «الكرّ والفرّ». إضافةً إلى ذلك، عرفت تلك العصور السباقات، والإستعراضات، وممارسة الصيد، من دون أن ننسى لعبة البولو أو الجوكان التي انطلقت من إيران القديمة وعرفت رواجاً لقرون طويلة. وهكذا ظهرت عصا الجوكان في عصر المماليك كشعار للجوكاندار، وهو الضابط الذي يراقب مسار اللعبة، بينما تطابقت نصوص لرحّالة أوروبيّين وصفوا فيها حفلات مماثلة كانت تدور في قصور الصفويّين بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، مع ما نراه في منمنمات فارسيّة تعود الى الحقبة الزمنية نفسها. من جهة أخرى، حوت نصوص عائدة لعهد المماليك، ككتابات المؤرّخ اللامع ابن تغري بردي، تعداداً لكل صفات المروءة في الفروسيّة والمسايفة التي ترتكز عليها تربية المملوك الناشئ: كان على الشاب المملوك أن يستحقّ لقب الفارس الممتاز، كما يذكر الكاتب في مصنّفه «النجوم»، ويجب أن يلمّ بكل ما يتعلّق بالحصان وبالأسلحة وبطريقة استعمالها وفق القواعد المعروفة والمحدّدة لدى أساتذة هذا الفن، كما ارتبطت هذه التربية بشهامة ونبل أخلاقيّ، عُبّر عنهما، وإن نادراً، بكلمة «فروسيّة».

فريد الدين مسعود المعروف بگنج شَكَّر، ٥٧١-٦٦٤م/١١٧٥-١٢٦٥، صوفيّ من أهل التقوى ولد في البنجاب، وانضوى إلى الجشتيّة. ما يزال ضريحه في پاكپتن، أي أجودهام القديمة في الباكستان، مركز توفير وزيارات تقويّة.

بلغ من الزهد غايته، وأخذ نفسه بالفقر، وقسى على حكّام زمانه، فطارت بذلك شهرة هذا الشيخ الصوفيّ، فاستقطب الكثيرين إلى اعتناق الإسلام، وتيسّر له بذلك إشاعة نفوذ طريقته التي تولّى فيها دورًا بارزًا، فاختاره قطب الدين بختيار خلفًا له، وكان، بدوره، معاصرًا وخلفًا لمعين الدين الجشتي. واستمرّ تقليد ولايته في ذريّته الكثيرة العدد، وكان أحدهم سليم الجشتي علمًا نموذجيًّا خلال الحكم المغوليّ.

فزّان، إقليم في جنوب الجماهيرية العربيّة الليبيّة الشعبيّة الإشتراكيّة، أي ليبيا الحاليّة.

هذه المنطقة الصحراويّة، الواقعة جنوبيّ طرابلس - والمكوّنة من منخفضات تحيط بها هضبات صخريّة تتخلّلها واحات، تخترقها طرق القوافل - كانت في ما مضى الطريق الأقرب التي تصل ما بين البحر المتوسّط إلى منطقة الساحل من السودان القديم، التي تتقاسمها اليوم جمهوريّتا النيجر ومالي. سكّانها الموزّعون هنا وهناك، يتكلّمون العربيّة والبربريّة، وهم جميعًا مسلمون على المذهب المالكي.

اجتاحت فزّان جيوش عقبة بن نافع العربيّة - الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى، في العام ٤٦هـ/ ٦٦٦م. وقد غدت مدينة زويله التي أسّست في هذا الاقليم في ما بعد، في العام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، مركزًا مهمًّا للأنشطة التجاريّة. إلّا أنّ هذه المنطقة بقيت نائية عن الصراعات ولم يعمد العثمانيّون إلى بسط سيطرتهم عليها إلّا في العام ١٥٧٧، وفي ما بعد اختاروها لينفوا إليها، في أوائل القرن العشرين، جماعة تركيا الفتاة الذين لم يكن مرغوبًا بإقامتهم في اسطنبول. إنّ طريق التجارة عبر الصحراء التي كانت ازدهرت في فترة القرون الوسطى والحديثة، أصيبت بالانحطاط وكادت تختفي لأسباب مختلفة، من بينها إلغاء العبوديّة. احتلّ الإيطاليّون إقليم فزان في العام ١٩١٢، ثم أخلي خلال الحرب العالميّة الأولى وأعيد احتلاله في العام ١٩٣٠. وبموجب الإتفاق الفرنسي - البريطاني لعام ١٩٤٣، ألحق بالأراضي الجنوبيّة للجزائر، ثم غدا في العام ١٩٥١ واحدًا من ثلاثة أقاليم تابعة للمملكة الليبيّة التي تحوّلت في ما بعد إلى جمهوريّة.

الفضة ← المعدن (صناعة-)، المسكوكات الإسلاميّة.

فضل الله الأسترابادي ← الحُرُوفيّة.

الفَضْلُ بن سَهْل، ؟ - ٢٠٢هـ/ ؟ - ٨١٨م، شخصيّة ذات نسب إيرانيّ وميلٍ إلى الزرادشتيّة. وزر للمأمون الخليفة العبّاسيّ من ١٩٦ الى ٢٠٢هـ/ ٨١٢ إلى ٨١٨م. عُرِّف إلى جعفر البرمكيّ فخلفه مربّيًا للمأمون، واعتنق الإسلام عام ١٩٠هـ/ ٨٠٦م. وقد شجّع وليّ العهد الثاني على مرافقة والده إلى إيران، خلال الرحلة التي قضى فيها هارون الرشيد نحبه في طوس في العام ٨٠٩م؛ فيسّرت هذه النصيحة للمأمون حضوره آنذاك في الولايات الشرقيّة مهيّئةً له فرصة الإفلات من سيطرة أخيه الأمين. وما لبث أن غدا المستشار الحميم للمأمون الذي استقرّ في مرو وقد قلّده الوزارة والإمارة، أي مسؤوليّة الإدارة المدنيّة والعسكريّة للأراضي المفتوحة. كما أنّه، على ما يظهر، شجّع الخليفة الجديد على أن يحيط نفسه بعلماء من ذوي التوجُّه المعتزليّ، منضويًا إلى سياسته الشخصيّة التي كانت تقضي باختيار علويّ لولاية عهده. إلّا أنّ فشل هذه السياسة أدّى إلى اغتياله في سَرَخْس بإيران في شعبان ٢٠٢هـ/ شباط/ فبراير ٨١٨م، بينما كان الخليفة [المأمون] في طريق نقل مقرّه من مرو إلى بغداد. وأغلب الظنّ أنّ القتلة، المنتمين إلى حرس الخلافة، قاموا بالاغتيال بناء على أوامر الخليفة.

كان الفضل شديد التعلّق بالتقاليد الإيرانيّة، فسعى إلى ترجيح كفّة الموالي؛ لكنّه اصطدم بممثّلي الأرستقراطيّة العربيّة الذين كانوا ما يزالون نافذين في بلاط الخلافة.

الفِقه، أو الحقوق الإسلاميّة، تعبير عربيّ تقنيّ معناه العام «العلم، الفهم». إلّا أنّه، بعد أن أريد به، في المبدأ، أيّ نوع من المعرفة، اتّخذ في الإسلام قيمة دينيّة ليعنى به المعرفة بالشريعة ودراستها.

في هذه الحال، يختلف الفقه عن العلم. ففي ما يعني العلم معرفة الينابيع الأساسيّة للشريعة، أي القرآن والسنّة، يقوم الفقه على البحث في الحلول القانونيّة المبنيّ على إعمال الفكر، أي أنّه مرادف للرأي بمعنى «التفكير الشخصيّ» حول مسألة قانونيّة. إلّا أنّ مصطلح الفقه ما لبث أن غدا يعني، بشكل عام، معرفة الشريعة والعناصر التي تقوم عليها، سواء منها النصوص أو إعمال الفكر. فالمختصّون في الفقه، وهم الفقهاء بالعربيّة، هم إذن أهل القانون من ذوي الدراية بالشريعة وأُسُسها أو الأُصول وتطبيقاتها، أو الفروع التي تحدّد الحلول المناسبة للمسائل التي لم تعالَج بشكل كافٍ في النصوص أو أنّها لم يرد فيها نصوص. وصولًا إلى ذلك، يعتمد هؤلاء الاختصاصيّون المناهج التي توصّلت

إليها المدارس الفقهيّة المتعدّدة ، أو المذاهب الفقهيّة .

يشمل الفقه ، تقليديًّا ، مجالين يُدرسان منفصلين في المؤلّفات الفقهيّة ، أحدهما يُعرف بالعبادات وذلك يعني الأوامر الدينيّة ، والآخر يُسمّى المعاملات وهو يشمل الأصول المتعدّدة للعلاقات الإجتماعيّة . وبذلك يقوم الفقه على نظام كامل يحدّد حقوق المسلم وواجباته ، وينظّم مختلف وجوه حياته اليوميّة وعلاقاته الإجتماعيّة ، وصولاً إلى النظام السياسيّ الذي عليه أن يطبعه .

فقهاء مفردها فقيه ، هم المتخصّصون في علم الشريعة الإسلاميّ أو الفقه ، كان لهم على الدوام دور بارز في الحياة الإجتماعيّة والسياسيّة في الإسلام . وبعد أن ساهموا في إعداد الشريعة في المراحل الأولى ، تحوّلوا إلى مفسّرين لها ، وأخذوا في الاعتبار الخلافات القائمة بين المدارس الفقهيّة ، والتي أدّت أحيانًا إلى تطبيقات حسّاسة وصعبة . ينتمي الفقهاء إلى فئة العلماء في الدين . فالعلماء ، ومفردها عالم ، كانوا متخصّصين في علم الشريعة والتفسير ، وعلم الحديث ؛ وكان دورهم الأساسي المحافظة على الشريعة ، وتأمين تدريس الفقه ، بطريقة مستقلّة ، أو في المدارس عندما تمّ إنشاء هذه المؤسّسات . وكان في إمكان الفقهاء أن يكونوا أيضًا مستشارين للحكّام .

أما على الصعيد العملي فكان الفقيه معنيًّا بإرشاد القاضي ، وإبداء رأيه في المسائل المعروضة عليه ، بيد أنّ رأيه لم يكن ملزماً في القرون الوسطى ، ولم يتقاضَ أجراً في مقابل إصداره الفتاوى . وفي العصر العثماني ، ظهر المفتون كموظّفين في الدولة ، وتابعين لمفتي اسطنبول الذي كان بدوره مستشاراً للسلطان في الأمور الشرعيّة .

فقير ، جمعها فقراء ، مصطلح عربيّ كُنيَ به المتصوّفة أو الزهّاد الذين نذروا الفقر لينصرفوا إلى ممارسات التقوى ، على أن توفر لهم ولأسرهم سُبُلَ العيش هبات المحسنين .

غالبًا ما تُستعمل كلمة فقير مرادفةً لكلمة صوفيّ ، لكنّها تنطوي على معنى إضافيّ يفيد أنّ الفقير هو مَن سلّم أمره لله كُلّيًّا ، ومَن أغناه الله عن كل شيء . كما أنّ هذا المصطلح اقترن بمعاني التجرّد والتأمّل والنسك المعتدل ، وهي صفات لازمت أهل التقوى الذين غدوا موضوع تكريم وزيارات تقويّة . وفي الهند راج استعماله بحيث صار يعني كلّ زاهد متسوّل تُرجى بركته وتُنسب إليه موهبة الشّفاء ، سواء عند الهندوسيّين أو لدى المسلمين . من هنا راج استعمال كلمة فقير (fakir) ، في الفرنسيّة ، للدلالة ، بصورة غامضة وعامّة ، على شخص خُصَّ بقدرات سحريّة وسرّيّة .

فلاشيا ، وباللغة التركية «إفلاك» . مقاطعة رومانيّة تقع شمالي الدانوب ، عرفت منذ نهاية القرون الوسطى غزوات الدولة العثمانيّة ووصايتها .

منطقة حدوديّة اجتاحتها جيوش بايزيد الأوّل يِلْدِرِم ، مع مطلع عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩١م ، ثمّ وقعت تحت نفوذ السلاطين الذين كانوا يتلقّون جزية يدفعها أمراء البلاد ، الذين قاوموا ، في الوقت نفسه ، التأثير الإسلامي وقاموا بثورات عديدة .

غير أنّ الجهود المستمرّة التي بذلها نبلاء من مختلف التوجّهات للتخلّص من قيود التبعية هذه ، تضاعفت شدّتها مع نهاية القرن السادس عشر ، وفي الوقت نفسه تفاقمت التدخّلات النمساويّة والروسيّة .

إلّا أنّ ارتباط فلاشيا بالنظام الإقتصادي العثماني ظلّ قائمًا ، كما بقيت خاضعة لسلطة الباب العالي حتى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ التي بشّرت لها ، في ما بعد ، أن تتّحد بمولدافيا ، ما مهّد السبيل للإعتراف باستقلال رومانيا سنة ١٨٧٩ .

◄ راجع الوثيقتين ٢٠ و٢٧ .

الفلّاغة ، من العربيّة الدارجة فلّاق ، وهو تعبير كثير الإستعمال في الفرنسيّة للدلالة على مجموعات العصاة الذين ظهروا في المغرب منذ أوّل القرن العشرين .

استُعمل ، لأوّل مرّة ، على ما يبدو ، في مطلع الحرب العالميّة الأولى للدلالة على العصاة الذين قادهم خليفة بن عسكر في الجنوب التونسيّ ، ثم أُطلق على الذين كانوا وراء الأحداث التي وقعت في بلاد تونس بين ١٩٥٢ و١٩٥٤ ، ثمّ على المتمرّدين في الجزائر بين ١٩٥٤ و١٩٦٢ .

الفُلبَة ← البول.

الفَلْس ← المسكوكات الإسلاميّة.

فلسطين، منطقة مطابقة لمقاطعة قديمة رومانيّة ثم بيزنطيّة ما كان يُعرف بـ«فلسطين الأولى»، تشمل تقريبًا السامرة واليهوديّة والشريط الساحلّي. منذ العام ١٣هـ/ ٦٣٤م، احتلّت الجيوش العربيّة الإسلاميّة المنطقة بكاملها إبّان الفتوحات الكبرى، إلّا أنّ بعض المدن المرافئ المحصّنة، مثل قيسارية وعسقلان، قاومت بعض الوقت ولم يتمّ احتلالها إلا في العام ٢٠هـ/ ٦٤١م. أمّا القدس فقد رفض سكّانها الاستسلام إلّا للخليفة عمر بن الخطاب الذي أتى إليها لهذه الغاية. منذ ذلك الوقت أصبحت فلسطين محافظة إداريّة وعسكريّة، أي جندًا، كانت اللّد مركزًا له، في العصر الأموي، ثم انتقل إلى المدينة الحكوميّة الجديدة التي أُنشئت في الرّملة. خضعت حدود هذا الجند - الذي كان جزءًا من مقاطعة الشام أو سوريا، محاذيًا لجند الأردن المتاخم لجهة الشمال - لمتغيّرات مع الوقت، وامتدّت نحو الشمال ونحو الجنوب، إلى أن أدخل المماليك تقسيمات إداريّة جديدة. في غضون ذلك، كان القسم الأكبر من فلسطين تحت احتلال الفرنج الذين غادروا القدس سنة٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، بعد أن كانوا قد استولوا عليها في العام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، لكنّهم لم يُخلوا قواعدهم الساحليّة بصورة نهائيّة إلا في العام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

في العصر العثماني، لم يعد اسم فلسطين مطابقًا لمنطقة محدّدة ولم يعد مستخدمًا؛ وقد عاشت المنطقة فترة اضطرابات بسبب ثورات القادة المحليّين وحملات بونابرت سنة ١٧٩٩، وإبرهيم باشا بن محمّد علي بين ١٨٣٢ و١٨٤٠. من جهة أخرى تدخّلت الدول الأوروبيّة مرارًا لدى الحكومة العثمانيّة بشأن الأماكن المقدّسة المسيحيّة. وكان قد تمّ إسناد حراستها إلى بطريرك القدس الأرثوذكسي منذ القرن السادس عشر وتكرّس هذا الوضع بفرمان سنة ١٨٣٥، في حين كان الاكليروس اللاتيني المقيم في القدس ينعم منذ القرن السادس عشر بحماية فرنسيّة.

ولمّا كانت فلسطين قد احتفظت بسكان من اليهود طيلة القرون الوسطى، فقد شهدت، في نهاية القرن التاسع عشر، ازدياذا لهؤلاء السكان بسبب موجة هجرة حاولت السلطات العثمانيّة عبثًا أن تخفّف منها. في أعقاب ذلك، قامت في فلسطين، سنة ١٨٩٧، مستوطنات يهوديّة وانعقد مؤتمر في بازل بإدارة تيودور هرتزل الذي حدّد الصهيونيّة بأنّها حركة «تهدف إلى إقامة وطن قوميّ يهودي في فلسطين يضمنه القانون العام». بعد الحرب العالميّة الأولى، وُضعت المنطقة - التي كانت القوّات البريطانية قد احتلّتها بكاملها - تحت الانتداب البريطاني، اعتبارًا من أيلول/ سبتمبر ١٩٢٣، وأصبحت كلمة فلسطين تدل على مقاطعة محدّدة تقع بين مجرى نهر الأردن وساحل المتوسط. في غضون ذلك، كانت الحركة الصهيونيّة قد لاقت تشجيعًا في وعد بلفور، في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧، الذي كان يؤيّد إقامة «وطن قومي» للشعب اليهودي في فلسطين. فازدادت بسبب ذلك الهجرة حتّى بلغ عدد السكان اليهود في ١٩٣٩ أربعمائة ألف، فيما كانت ردّة الفعل العربيّة عنيفة.

بعد الحرب العالميّة الثانية ووصول مهاجرين جدد، ازدادت جهود المصالحة تعقيدًا، فقرّرت منظمة الأمم المتحدة، في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، تقسيم فلسطين وإنشاء دولتين، واحدة يهوديّة وأخرى عربيّة. أدّى رفض العرب إلى أعمال حربيّة انتهت بهدنة شباط/ فبراير (١٩٤٩) بينهم وبين اسرائيل وإلى تقسيم جديد لمصلحة اليهود. احتفظ العرب بالضفة الغربيّة التي ضمّتها إمارة شرقيّ الأردن التي تحوّلت إلى المملكة الأردنيّة. ولكن، على اثر حرب ١٩٦٧، احتلّت إسرائيل أراضي الضفة وكذلك القدس القديمة التي كانت الجيوش العربيّة قد ضمّتها في العام ١٩٤٩. حصلت أراضي الضفة وقطاع غزّة على الحكم الذاتي بموجب اتفاق واشنطن سنة ١٩٩٣. وانتُخب مجلس السلطة الفلسطينية في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٦ برئاسة ياسر عرفات؛ لكن وضع القدس لم يلقَ حلًا.

◄ راجع المستندات ٨، ٩، ١٨، ٢٠ و٨٩.

الفلسفة، مصطلح عربيّ أخذ به، في العالم العربي - الإسلامي، خلال القرون الوسطى، أشخاص مارسو إعمال الفكر، فكان يُنظر إليهم بحذر في الأوساط

الدينيّة. وقد عُرف واحدهم بالفيلسوف؛ جمعه فلاسفة، وهو منقول عن الكلمة اليونانية فيلوسوفوس.

تنامت الفلسفة في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، إثر نقل المؤلّفات الفلسفيّة والعلميّة من اليونانيّة إلى العربيّة، ولا سيّما في العراق، إبّان العصر الذهبيّ للخلافة العبّاسيّة، وبدفع، إلى حدّ ما، مارسه بعض الخلفاء، مثل المأمون الذي جعل الفلسفة في مقدّمة أولويّات مؤسّسته، أي المكتبة التي أطلق عليها اسم بيت الحكمة. من الصعب تحديد المؤلّفات التي كان لها الأثر البالغ على مفكّري ذلك العصر. يبدو أنّ تصوُّر فلاسفة الإغريق للعالم، كما فهمه الفلاسفة (الإسلاميّون)، كان يطابق، في معظمه، ما كان سائدًا من تصوّر في أوساط الأفلاطونيّة الحديثة، وفاق الأفكار التي راجت خلال الحقبة الهلّينستيّة. وقد تجلّى هذا التصوّر، بوجه خاص، في مؤلّف بعنوان «لاهوت أرسطو»، وهو لا يمتّ إلى الفيلسوف الشهير، بل كان ثمرة المدارس الأفلاطونيّة الجديدة المتأخّرة التي نجحت في التوفيق بين فكري أرسطو وأفلاطون. إلّا أنّ هذا الخلط الناتج عن هذا الخطأ لم يَحُل دون التعرُّف إلى بعض مؤلّفات أرسطو الحقيقيّة، ولا سيّما رسائله في المنطق، واستخدامها منذ عهد متقدّم، إذ أخذ بها أولئك الذين حوّروا، عن غير قصد منهم، مواقفه الماورائيّة.

إنّ الفلسفة، التي تمثّلت في المشرق، بين القرنين الثالث والخامس للهجرة/التاسع والحادي عشر للميلاد، بعلماء من أمثال الكندي والفارابي ومسكويه وابن سينا، سعت إلى تكييف النظرة الإغريقيّة المتوارثة إلى العالم مع معطيات العقيدة الإسلاميّة، وإلى تبيان أنّ العقل والوحي اللّذين ينبغي أن يُفضيا إلى توافق بينهما، في وسع كل منهما أن يبلغ محجّة الحقيقة. هكذا تبنّت الفلسفة التمييز بين الجوهر والوجود، قائلة بخلق العالم من لدن إله هو، في الوقت نفسه، جوهر ووجود، على أنّه عبور الجوهر إلى الوجود. إلّا أنّها لم تفلح في تقديم عمل الخلق من العدم، كما علّم الإسلام. كذلك، لم تبرّر بعث الأجساد الذي قالت به العقيدة بما يشفي الغليل، آخذةً بنظريّة العقل التي أغفلت خلود النفس.

هذه المباني الفلسفيّة المتكاملة، على تنوّع توجّهاتها بطبيعة الحال، والتي كانت تصطدم باستمرار بالعقبات نفسها، لم تكن لتقبل بها القيّمون على مذهب التسنُّن. وحدهم شيعة أهل البيت وأتباع الشيع المختلفة، من موقع حرصهم على تبرير الكفايات غير الاعتياديّة لأئمّتهم، انفتحوا، خلال هذه الحقبة الأولى، على الفلاسفة الذين خضعوا، في الوقت نفسه، للتأثّر بتوجّهات العلوم السّريّة ذات الصلة بحركات سياسيّة دينيّة نبذها معظم العلماء والفقهاء.

بعد النقد الذي تعرّض له هؤلاء الفلاسفة من قبل الغزالي حوالى أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، تناولت الفلسفة التي عالجها، في الشرق والغرب على حدّ سواء، مفكّرون أمثال فخر الدين الرازي وابن باجّة وابن طفيل وابن رشد، مسائل واهتمامات أكثر تنوّعًا. فإذا بابن رشد، بنوع خاص، يستلهم التعاليم الأرسطيّة الأصيلة مباشرة، في الوقت الذي تجلّت فيه التنظيرات الفلسفيّة في علم الكلام، أي بحسب المذهب الكلامي المعتمد في الأشعريّة. بذلك حصل تقارب بين الفكر السّنّي وأفكار كانت تُعتبر حتّى ذلك الحين هامشيّة ومرفوضة، بينما كان كاتب مثل ابن خلدون يستمرّ في انتقاد الفلسفة، وفي الوقت نفسه يبذل جهدًا عقلانيًّا لدراسة المجتمعات.

الفلك (علم -)، أو علم الهيئة أو علم النجوم، علم دنيوي أخذه المسلمون عن الإغريق، اغتنى بعد ذلك بإضافات من الحضارتين الساسانيّة والهنديّة. وقد لقي هذا العلم اهتمامًا هامشيًّا في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى، لكنّه اعتُبر مهمًّا بما توصّل إليه من إنجازات تركت أثرها البارز في الغرب المسيحي.

في بداية الأمر، نشط هذا العلم في أوساط أهل الذمّة، ثمّ بين الذين تقبّلوا الإسلام في عصر الفتوحات الكبرى. وقد أفاد هؤلاء من المناخ الفكري الملائم الذي أوجدته الخلافة العبّاسيّة. ارتبط هذا العلم، مع ذلك، بعلم التنجيم - الذي أمّنت له شهرته نموّه الذاتي - وحقّق تقدّمًا ملموسًا، وكان الحقل المثالي لتطبيق المعلومات الرياضيّة التي بدونها لا وجود له. ومن أهمّ الانجازات التي حقّقها: تطوّر عمليّات الرصد الجوّي وتحسين الوسائل التقنيّة كالإسطرلاب الذي كانت

قواعد صنعه موضوع أبحاث متعددة. وتطوير طرق الحساب، ولا سيّما حساب المثلّثات، ما أدّى إلى حلّ مسائل متنوّعة. وقد أثّر تطوّر علم الفلك في البلدان الإسلاميّة على الأبحاث التي كانت تجري في بيزنطية، وأفاد هذا العلم من رعاية الكثير من الحكّام في مناطق مختلفة، ساهموا في نموّه بمعزل عن الخصوصيّات المحليّة. فتمكّن، من جهة، من التمركز بصورة ثابتة في إيران والهند حيث بقي مزدهرًا حتّى العصور الحديثة، كما لقي، من جهة ثانية، في الأندلس والمغرب بين القرنين الرابع والسابع للهجرة/العاشر والثالث عشر للميلاد، شهرةً أتاحت للعاملين فيه بنقل نتائج أعمالهم إلى أوروبا عبر الترجمات العبريّة واللاتينيّة.

إنّ النظام الذي عرضه بطليموس في كتابه «المجسطي» والذي اعتمد عليه المسلمون منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، بعد دراسة الأصل اليوناني أو الترجمة السريانيّة، كان الأساس الذي انطلقت منه الأبحاث الأولى بتشجيع من الخلفاء، ولا سيّما المأمون. ففي بيت الحكمة الذي أسّسه هذا الأخير في بغداد، بُذلت جهود مثمرة للتوفيق بين النظام الصارم الذي وضعه بطليموس - والذي انتشر عن طريق ترجمات وضعها إسحق بن حُنين المسيحي، وثابت بن قُرّة الصابئيّ - والتقنيات الأخرى التي تعود إلى أصل فهلوي أو سنسكريتي. وهذا ما ساعد على تحسين الثوابت المستعملة في وضع الجداول الفلكيّة أو الزِّيج. والمعطيات الهندسية التي شكّلت أساسًا لوضع نظريّة فلكيّة وصورة عن الكون تعتبر الأرض ثابتة وتحيطها سلسلة من الأفلاك، والتي كان قد اعتُمد عليها في العصور القديمة في البحث والتحليل. اغتنت بتطبيق الطرائق الكمّية المعتمدة في الجداول الفلكيّة الإيرانية أو «زيج الشاه»، وفي الجداول الهندية أو «زيج السندهند». وأشهر المنجزات الجديدة كانت تلك التي حقّقها أبو جعفر الخوارزمي - الذي فُقد قسم من نصّه الأصلي - وكانت موضوع تعليق من قِبل الفرغاني في حدود سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م، ومن قِبَل علماء آخرين كانوا يعملون في بيت الحكمة. وبتشجيع من المأمون جرى، في الوقت نفسه، تحضير لوضع برنامج واسع يرتبط بقياس خط الهاجرة، وذلك في أماكن اختيرت للمراقبة في بغداد ودمشق.

هذا النشاط العلمي الذي ازدهر في العراق، واشتُهرت خلاله أسماء مثل حَبَش الحسيب المَرْوَزي (النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة/النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد) ومعاصره أبو معشر البَلْخي، تابع انطلاقته في عهد البويهيّين الذين شجّعوا بناء مرصد حقيقيّ في بغداد. وبرعايتهم عمل أبو الوفاء البُوزْجاني (٣٢٨-٣٨٨هـ/٩٤٠-٩٩٨م) الرياضي الشهير، وابن الأعلم وعبد الرحمن الصوفي، وقد قضوا معظم حياتهم في إيران. وظهرت مراكز أخرى اهتمّت بعلم الفلك، نجدها في أعالي بلاد ما بين النهرين، عند صابئة حرّان حيث اشتُهر البتّاني صاحب «زيج الصابيء»؛ كما نجدها في القاهرة، عاصمة الفاطميّين الجديدة، حيث وضع ابن يونس لاحقًا «الزيج الحاكمي». شكّلت هذه الإنجازات، في هذه المناطق، نقطة بداية لنجاحات ضاهت تلك التي عرفتها الولايات الشرقيّة الإيرانيّة التي أنجبت، في عهد السامانيّين، علماء كالبيروني.

وقد كثرت التداخلات بين مراكز الأبحاث الفلكيّة هذه، وإليها أضيفت بعد ذلك، في الطرف الغربي من العالم الإسلامي، المدرسة الأندلسيّة التي تطوّرت بتشجيع من الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث. وهذه المدرسة فتحت الأبواب أمام مختلف التيّارات، مع ميلها إلى المدرسة التقليديّة الهنديّة الإيرانيّة وتبنّيها زيج السندهند. والأعمال التي تركها مَسْلمة المَجْريطي تابعها، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، العديد من تلاميذه كابن السمْح وابن الصفّار، وكالزرْقالي المشهور (توفّي سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م)، صاحب «الزيج الطليطلي». ولا ننسى إبن رشد الذي كان، كعدد كثير من علماء الفلك، طبيبًا وفيلسوفًا أيضًا. وعن طريق المدرسة الأندلسيّة والمغربيّة، انتقل إلى أوروبا المسيحيّة القسم الأكبر من الأبحاث الفلكيّة التي عرفتها المرحلة الأولى.

وفي أواخر القرون الوسطى، أحرزت الحسابات الفلكيّة تقدّمًا ملحوظًا، وذلك على أيدي علماء كانوا يجرون أبحاثهم في مراصد حقيقيّة منظّمة، على نسق

المرصد الكبير الذي أنشأه السلطان السلجوقي الكبير ملكشاه في أصفهان والذي عمل بين سنتي ٤٣٩ و٤٨٥هـ/١٠٤٧ و١٠٩٢م. ومن أهمّ تلك المؤسّسات تلك التي أنشأها هولاكو في مراغة بأذربيجان، وقد استمرّ نشاطها على زمن الإيلخانيّين حتّى سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م. وعلى الرغم من الأزدهار القصير لمرصد أُنشئ في ضاحية تبريز حوالى سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م بهمّة غازان، وأُهمل بعد ذلك بخمس عشرة سنة، فإنّ مرصد مراغة الذي لا تزال خرائبه موجودة قد أفاد، مدّة خمسين سنة، من استمراريّة أعمال المراقبة التي بدأت بإشراف نصير الدين الطوسي، صاحب فكرة إنشاء هذا المرصد. وعلى ما يبدو، فإنّ أعمال هذا المرصد شكّلت أساسًا لمراجعات أُخضع لها النظام الذي وضعه بطليموس، واستُخرجت نتائج متنوّعة نعلم أنّها وصلت إلى «كوبرنيك»، ولكنّنا لا نستطيع أن نحدّد بدقّة طريقة انتقالها الى أوروبا.

بعد مرصد مراغة الذي اعتُبر نموذجًا، تأسّست مراصد أخرى في البلاد الإسلاميّة. ففي مطلع القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، أُنشئ مرصد سمرقند من قبل الملك التيموري أولوغ بك الذي كان هو أيضًا عالمًا فلكيًّا، وذلك في سنة ٨٢٣/١٤٢٠م، وعمل مدّة خمسين سنة تقريبًا. وقد أُقيم المرصد في أبنية مميّزة يجري اليوم فيها التنقيب. وفي القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، بنى السلطان العثماني مراد الثالث مرصدًا أكمله سنة ٩٨٥هـ/١٥٧٧م، إلّا أنّه تهدّم بعد ذلك بثلاث سنوات. جرت الأمور على عكس ذلك في الهند المغوليّة إذ بقيت مراصدها الخمسة، التي تعود إلى القرن الثامن عشر، تعمل لمدّة طويلة، وكانت قائمة في جايبور ودلهي وبنارس وماتورا وأُجّين، وكان قد بناها «جاي سنغ»، أمير أمبير الكبير من سنة ١٦٩٩ إلى سنة ١٧٣٤م.

الفنّ الإسلامي، تعبير يحمل قيمة رمزيّة واختزاليّة للإشارة إلى مجمل الأعمال التي تحققت على مرّ العصور في البلدان الإسلاميّة التي كثرت فيها المدارس الفنّية، مع محافظة هذه المدارس، في عالمها الجمالي، على خطوط ثابتة ومرتبطة بالطابع الأصلي لمجتمعها.

فالحضارة الإسلاميّة، وعلى الأخصّ تلك التي استمرّ وجودها حتى عصرنا الحالي، قد عمل التوسّع الجغرافيّ المتسارع على تزايد التقطع فيها بفعل الأحداث التاريخيّة، إلّا أنّها لا تزال في حقل الفنون تتميّز بالحفاظ على وحدتها واستمرارها. وبالطبع، فإنّ الوحدة التي ذكرناها لا يجب أن تُنسينا التنوّع العميق في الإلهامات والتأثيرات المتبادلة التي كانت وراء ازدهار أساليب فنيّة محليّة، مناطقيّة أو حتّى وطنيّة، حفّزتها في العالم الإسلامي موروثات سابقة ومساهمات خارجيّة. ويسهل تصنيف مظاهر الازدهار وفق السلالات الإسلاميّة المتعاقبة، إذ إنّ تصنيفًا كهذا يسمح لنا بأن نقيّم مظاهر النموّ والانبعاث والتأثيرات الخارجيّة، أخذين في الاعتبار الشروط المتعلّقة بالزمان والمكان. ولكن لا مانع من إدراج هذه المظاهر في إطار أوسع، هو إطار دولة الخلافة وإطار عالم إسلاميّ يخضع لشريعة واحدة وتتقاطع فيه مبادلات داخليّة، فكريّة بمقدار ما هي إقتصاديّة. والعالم الإسلامي الذي شهد تقدّمًا وتراجعًا في مسيرته، لم يفتقد أبدًا العناصر الأساسيّة التي أمّنت في القرون الوسطى تلاحمه وتماسكه.

في الصناعات الحرفيّة، برزت في الوسط الإسلامي سماتٌ مشتركة رافقت نموّ الأعمال الفنيّة. لكنّ التحف الفنّية تتمايز في ما بينها، برغم خروجها من مشاغل ومؤسّسات متشابهة، مبرزةً تفوّق هذه المقاطعة أو هذه المدينة في فنون متنوّعة، كالخزف مثلًا، أو في صناعة الكتب أو في المعادن أو في النسيج. وفي فنّ البناء هناك اتّجاه إسلامي مشترك يعطي الأفضليّة لنوع من الأبنية أو لطرائق بناء معيّنة، وفي الوقت عينه طغت في تزيين العمارات مواضيع زخرفيّة متشابهة، نجدها أيضًا في فنون الزينة المعبّرة عن مظاهر العظمة. ونشير أخيرًا إلى أنّه كانت حاضرة على الدوام، في أذهان المبدعين ورعاة الفنون المسلمين وفي أعمالهم، ضرورة التقيّد بالأعراف القائمة. لكنهم سوّغوا لأنفسهم سرًّا بعض الحريّة، مستعملين في هذا السبيل وسائل شبيهة بتلك التي تتيحها الباطنيّة لمفكّرين حريصين على إخفاء أفكارهم المدمّرة.

فالفنّ الإسلامي، في مختلف مراحله التاريخيّة،

اتّخذ إذًا طابعًا موحّدًا. وقد شكّل البناء أفضل ميدان لبروزه، إذ كان عليه أن يستجيب، عن طريق برامج لأبنية فخمة ومدروسة، لما يتطلّبه الملوك والحكام من مساجد وقصور وأضرحة، تمجيدًا للإسلام. وقد تعاطى هذا الفنّ أيضًا المزيّنون والمزخرفون المتخصّصون بأعمال التغطية الذين كانوا يستعملون، على جدران الأبنية أو على أجسام أخرى، أفاريز وصفائح متجاورة أو متداخلة أو متراكبة تغطّي كلّ فراغ.

ويتميّز الفن الاسلامي أخيرًا بكونه فن العلماء والرياضيّين المتمكّنين من التجريد، والحرصاء على احترام الضرورات الشكليّة الخارجيّة كالامتناع عن الرسم التجسيمي، وعلى اتّباع الحسابات الهندسيّة وعلى زيادة، تداخل التشبيكات والأشكال العربسيّة والكتابات الى ما لا نهاية. وقد تتداخل الكتابات مع التزيينات فتخسر وضوحها، وتتعذّر قراءتها وتتحوّل إلى مزيج من الخطوط الملتفّة. وإلى ذلك تُضاف الألوان المتعدّدة الزاهية مع غنى في المواد يلبّي متطلّبات الأمراء الشغوفين بالأبّهة والجمال. وحدهم هؤلاء الأمراء استطاعوا تأمين الحماية لأشكال متنوّعة نادرة من الانتاج الفنّي، كالمنمنمات التي تمثّل أجسامًا بشريّة، وذلك داخل مساكنهم الخاصة أو في مكتبات أماكن إقامتهم.

هكذا نجد أنفسنا أمام فنّ نفعي وفخم معًا، ملوّن ومُزهف، يحصر إبداعه التزييني في دقّة التنظيم والتنسيق والخطوط: وهو يبدو خاليًا من كل انفعال، وراء زخارف، غموضها متعمّد، لا تخبّئ إلّا مغازي المتعة الجماليّة الفوريّة. ويبقى هذا الفن، بابتعاده عمّا هو قصصيّ وإنساني، أفضل ما يمثّل المناخ الفكري المزدوج الذي عاش فيه، على مرّ العصور، مجتمع إسلامي متصلّب في الظاهر، إنما حريص على أن يُبقي، بعيدًا عن أنظار العامّة، ميولًا غنائيّة أو صوفيّة، وأن يخصر، في الصفوة من الخاصة، المواضيع التي تُثير الاهتمام أو التي تبدو جديرة بالبحث والتأمّل.

الفناء، تعبير عربيّ يفيد «الغياب والامّحاء»، ويعني، في المفهوم الصّوفيّ، نوعًا من النشوة أو استغراق الصوفيّ في الحقيقة الإلٰهيّة التي لا وجود حقيقيًّا إلّا لها.

والفناء هو غياب وجدان كلّ الأشياء تيسيرًا لتنامي الأنا، الأكثر شمولًا، بفضل صفات جديدة يهبُها الله عبده، وحال وجود في الله تُسمّى البقاء.

إنّ النظريّة التي قامت عليها هذه العبارة نشأت، منذ بزوغ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، وبلور مضمونها الجُنيد. وقد هدفت إلى احتضان التسنُّن للصوفيّة، تجنّبًا لنشوء أيّ مفهوم يقول بفناء الإنسان في الله.

فؤاد، ١٨٦٨-١٩٣٦، ملك مصر من السلالة الخديويّة المنتمية إلى محمّد علي. ملك من ١٩١٧ حتى ١٩٣٦.

كان فؤاد ابنًا للخديوي إسماعيل الذي عزلته الحكومة العثمانيّة في العام ١٨٧٩، فاضطرّ إلى التوجّه للمنفى. درس في أوروبا وقفل عائدًا إلى مصر في العام ١٨٩٢. خلف أخاه حسين في العام ١٩١٧ مع لقب سلطان، فبدّله إلى ملك في العام ١٩٢٢. في هذا العام اعترفت بريطانيا العظمى بمصر دولة سيّدة ومستقلّة، وأعلن الدستور في العام ١٩٢٣، وهكذا تمكّنت البلاد من تعلّم ممارسة الحياة النيابيّة. وقد دمغ الفترة التي تلت، والتي تزامنت مع التحوّلات التي سبّبتها الحرب العالميّة الأولى، الصراع الخفيّ الذي نشب بين الملك وحزب الوفد الوطنيّ. كما تزامنت مع النموّ الاقتصاديّ النسبيّ الذي أصابته مصر ودعمه تأسيس بنك مصر. في حين انصرف الملك فؤاد للاهتمام بتأسيس معاهد التعليم أو الجمعيّات العلميّة.

فوتا تورو، مقاطعة غنيّة بالإمكانات الزراعيّة، لكنها مفتوحة على الهجمات الخارجيّة، مثّلت دورًا تاريخيًّا على امتداد الوادي الأوسط لنهر السنغال.

غدت هذه المنطقة، منذ القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، منطلقًا لشعب البول الذي تقبّل الإسلام والذي أفاد من ضعف مملكة غانا للتقدّم في اتّجاهات عدّة: نحو الشرق منذ القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد في اتّجاه مُسِّينا، ثمّ في اتّجاه نيجيريا الشماليّة خلال القرن الثامن عشر، ونحو الجنوب وفوتا جالون منذ القرن السابع عشر.

خلفت السلطة المحلّية لسلالة البول الهجناه واحدةٌ من الدول الإسلاميّة الدينيّة التي انبثقت من الجهاد والتي

ازدهرت في فوتا تورو خلال القرن الثامن عشر، لتفقد بسرعة إستقلالها إثر حملات حربيّة شُنّت عليها من موريتانيا. إلّا أنّ التجذّر الثقافيّ والدينيّ، الذي وفّره لها الإسلام الفاعل على أيدي «التكورور»، يسرّ لها استمرار بقائها مركزًا سياسيًّا حيث نشأ، خلال القرن التاسع عشر، الحاج عمر تل، القائد العسكريّ المستقبليّ الذي سينتصر على أمبراطوريّة مسّينا.

فوتا جالون، مقاطعة جبليّة في غينيا الوسطى غدت، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مركزًا لدولة إسلاميّة حكمها الفُلبة أو البول (Peuls)، نشأت من إحدى سياسات الجهاد التي أدّت إلى قيام مجموعة من الأمبراطوريّات المحليّة خلال تلك الحقبة.

تهيًّا لهذه المنطقة، المرويّة بصورة جيّدة في معظمها والمستغلّة زراعيًّا بفضل ارتفاعها، دور تاريخيّ جديد بسبب الهجرة إليها من قبل أقوام البول المسلمين الآتين من مسّينا، حوالى أواخر القرن السابع عشر. وقد أرسى هؤلاء لمصلحتهم نظامًا شبه إقطاعيّ لاحتلال البلاد واستغلال سكّانها الأصليّين، استلهموه جزئيًّا من الوضع الذي طُبق في الاسلام على أهل الذمّة. قام نشر التعليم الإسلامي التقليدي، في تلك البلاد، على توافر طبقة من العلماء أُمّن لها استقرار العيش، وكان هؤلاء قد اتقنوا العربيّة خلال تحصيلهم العلوم الدينيّة، لكنّهم ساهموا كذلك في نقل ميراث أدبي لشعب البول بواسطة الكتابة العربيّة، غدا أصيلًا، في شكل شعريّ إجمالًا، قام على الاقتباس المتعدّد الوجوه من مؤلّفات لباحثين أجانب نقلت إلى لغة البلاد المحكيّة. رافق ذلك نموّ ثروة تجاريّة قامت على توافر نظام للقوافل امتدّ إلى الساحل، وشمل زبائنه التجّار البحريّين من الأجانب، كما شمل سكّان المنطقة الشماليّة. وقد قامت هذه التجارة على السلع الإستهلاكيّة والرقيق الذين أسروا خلال حملات حربيّة مستمرّة، وخُرّجت شرعيّة استرقاقهم بكونهم من غير المسلمين.

في سياق كهذا، كان من البدهيّ أن تحصر السلطة في قوّاد عسكريّين ينتمون إلى الطبقة الدينيّة ويفيدون من مكانتهم الشخصيّة كمرابطين حاملين لقب «ألمامي» المحرّف عن إمام في العربيّة. وقد خلف الرئيسين الشهيرين كاراموكو ألفا وإبراهيم صوري، اللذين ظهرا في القرن الثامن عشر، سليلو الفرعين الملكيّين الذين تحدّروا منهما، أي سلالة ألفايا وسلالة صوريا. تقاسم هؤلاء الحكّام، بطريقة معقّدة، سلطةً كان مركزها بلدة تِمْبو، محاولين بسطها كلّما سنحت الفرصة على القبائل غير المسلمة في جوارهم. بعد ذلك أخذت قدرتهم تضعف باستمرار، رغم بقاء المنطقة، بالنسبة إلى الإسلام، مركز تعليم دينيّ واشعاع. وآخر المتحدّرين من سلالة رؤساء البول الذين أُصيبوا خلال القرن التاسع عشر بهزائم متعدّدة قبل أن يفقدوا استقلالهم تحت سيطرة الإدارة الفرنسيّة، غابوا عن الساحة نهائيًّا في العام ١٩٥٧، في إطار الحياة السياسيّة والإقتصاديّة لجمهوريّة غينيا.

الفُونج أو **الفونك**، إسم لقبيلة وسلالة سلطانيّة عاصر ظهورها في السودان النيلي، خلال القرن السادس عشر، موجة أسلمة أكثر اكتمالًا للبلاد.

استندت هذه الدولة الإسلاميّة التي أُسّست حول العاصمة الجديدة، سِنّار، على ضفّة النيل الأزرق، على العرب الذين كانوا يسيطرون على المناطق النوبيّة الشماليّة بعد تسرُّبهم إليها خلال سلطان الأُسرة العبدالليهيّة. إنّ السيطرة المشتركة لهذه المجموعات على إقليم الجزيرة الغنيّ، بين النيل الأبيض والنيل الأزرق، يسّرت امتداد السلطة المركزيّة نحو هضبتي كوردوفان ودارفور؛ ورافق ذلك ازدياد التأثيرات العربيّة - الإسلاميّة. وإذا كانت هذه التأثيرات قد انتقلت بفضل العلاقات والأنشطة التجاريّة، فإنّها، في الوقت نفسه، جاءت نتيجة للجهود التبشيريّة التي بذلها أعضاء في الفرق [الصوفيّة] مثل القادريّة، أو، بصورة أعمّ، لتعليم متصوّفين متجوّلين يقال لهم في التسمية المحلّية فاكي. أمّا الفوضى التي تنامت بعدئذٍ في تلك المنطقة، حوالى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فقد استمرّت حتّى العام ١٨٢١، وهو تاريخ احتلال البلاد على أيدي الجيوش التركيّة - المصريّة بقيادة محمّد علي.

ألفَيْءُ أو **الغنيمة**، أحد مصادر الدخل للجماعة الإسلاميّة الأولى في المدينة أدّى، بصفته هذه، في

القرون الوسطى، دورًا في تطوير النظام الضريبي الإسلامي المعقّد الذي لا يخضع إلّا جزئيًّا للشريعة.

نظّم القرآن بدون تأخير توزيع الغنيمة المأخوذة من العدوّ، يظهر ذلك بوضوح في الآيات الآتية: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الحشر، الآية ٧].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٤١].

استنادًا الى الآية الثانية، اعتُمدت القاعدة التي تعطي خمس الغنائم للنبي محمّد (ﷺ) الذي يوزّعها كما يشاء على الأشخاص الذين ينتمون إلى الفئات المصنّفة أعلاه. أمّا الأخماس الأربعة الباقية فكانت تعود إلى الفاتحين أنفسهم. جرى، في المرحلة الأولى، تمييزٌ بين الغنائم التي يحصل عليها المسلمون نتيجةً للقتال، أي بالقوّة، وتُسمّى «فيئًا» وتلك التي يحصلون عليها بمُوجب معاهدة وتعرف بـ«الغنائم». لكنّ هذا التمييز لم يُعمل به طويلًا.

ثم يُطبّق مبدأ الخمس على الأراضي: لقد قرّر الخليفة الثاني، عمر بن الخطّاب، إعتبار مجمل الأراضي التي سيطر عليها المسلمون عن طريق الفتوحات الكبرى ملكًا جماعيًّا لهم، غير قابل للتجزئة. أمّا الذين كانوا يستثمرون تلك الأراضي ففُرضت عليهم، مقابل ذلك، ضريبةٌ عُرفت بالخراج، مخصّصة لتمويل خزينة الدولة. وحدها الأشياء المنقولة كانت توزّع على المقاتلين. وقد سُمح لهؤلاء بالإقامة في الأراضي المستولى عليها، شرط أن تكون أملاكًا غير مستعملة، وهذا ما جرى مثلًا بالنسبة الى أملاك الدولة البيزنطيّة في سوريا. لقد اختلف الوضع بعض الشيء في شبه جزيرة إيبريا حيث حصل الفاتحون، من عرب وبربر، على أراضٍ استقرّوا فيها، ما أعطى الأندلس طابعًا مميّزًا بالنسبة الى الإعمار والإدارة.

ضَعُفت، مع الوقت، في ماليّة مختلف الدول الإسلاميّة، قيمة المداخيل التي كانت تؤمّنها الغنائم. ولكن استمرّت الإفادة من الأسرى الذين غالبًا ما اعتُبروا عبيدًا. وقد استُغلّوا كأيدٍ عاملة رخيصة أو شكّلوا فرقًا مقاتلة خاصة في اطار التنظيم العسكري المعقّد للدول الإسلاميّة.

عند الشيعة الإسماعيليّين، أُجيز اقتطاع الخمس المخصّص لرئيس الجماعة ليس من الغنائم وحدها، بل أيضًا من مداخيل الأتباع. هذا ما يُفسّر الثروة التي يملكها آغاخان، الرئيس الحالي للطائفة الإسماعيليّة.

فيصل، اسم لعاهلين عربيّين من السلالة الهاشميّة، ملكا على العراق قبل قيام جمهوريّة العراق الحاليّة.

فيصل الأوّل، ١٨٨٣-١٩٣٣، أمير ينتسب مباشرة لأسرة الأشراف الهاشميّين في مكّة. وهو أوّل من حكم مملكة العراق التي أُنشئت في العام ١٩٢١، على أساس معاهدة فرساي[٩١]، بسعي من الدولة البريطانيّة المنتدبة.

كوفئ هذا الإبن الثالث للشريف حسين، لكونه المحرّك الأساسيّ للثورة العربيّة التي اندلعت في العام ١٩١٦، ولاشتراكه في مختلف الأعمال الحربيّة الموجّهة ضدّ العثمانيّين، بتسنّم عرش بغداد، تعويضًا عن الإخفاق الذي أصابه في العام ١٩٢٠ في دمشق، حيث سعى إلى القيام بدور الوسيط بين مواقف الحلفاء وأعيان سوريا لإنشاء مملكة عربيّة. لكنّه نجح، بفضل صفاته الشخصيّة المتّسمة بالدبلوماسيّة والهيبة السلطويّة، في تأمين التجانس والإنطلاق الى دولة قادها بسرعة إلى الإستقلال. وقد اعتُرف بها عضوًا في عصبة الأمم في العام ١٩٣٢، قبيل وفاة فيصل المفاجئة، في سويسرا. كان يخطّط، بعد انتهاء هذه المهمّة، لإقامة اتّحاد وثيق بين العراق والجمهوريّة السوريّة.

وقد أدّى غياب فيصل إلى دخول بلاده مرحلة صعبة وحافلة بالضياع تجلّت في قصر عهد ابنه غازي الذي ما لبث أن توفّي عام ١٩٣٩ بسبب حادث، ثمّ في اندلاع الحرب العالميّة الثانية وتولّي فيصل الثاني القاصر سنًّا مسؤوليّة العرش التي انتهت بفاجعة.

فيصل الثاني، ١٩٣٥-١٩٥٨، حفيد فيصل الأوّل وملك العراق. فقد الحياة والعرش شابًّا، بعد خمس

سنوات من مرحلة وصاية اتّسمت بالكثير من الاضطرابات.

قُتل خلال الإنقلاب الثوريّ الذي أطاح المُلك الشريفيّ في بلاد هي، في بنيتها، غير مستقرّة، تفاعلت فيها متصارعةً تيّارات مختلفة منذ وفاة فيصل الأول، ومعه غيّبت الإغتيالات الوصيَّ عليه خاله، ووزيره الأوّل المسنّ نوري السعيد اللذين حكما باسمه من ١٩٣٩ حتّى ١٩٥٣.

◄ راجع المستند رقم ٦.

الفيليبين (جمهوريّة)، مساحتها ٣٠٠ ٠٠٠ كلم² وعاصمتها مانيلا. دولة معاصرة مستقلّة في جنوبي شرق آسيا، يقدّر عدد سكانها بأكثر من ستين مليون نسمة بينهم نسبة قليلة من المسلمين (حوالى الخمسة بالمائة)، ولكنّ هؤلاء على خلاف مع السلطة المركزيّة.

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، عندما عرف الإسلام انتشارًا واسعًا في مجموعة الجزر الهنديّة الشرقيّة، أتى بحّارة وقراصنة مسلمون من جزر السوند الأخرى واستقرّوا في القسم الجنوبي للأرخبيل الذي عانى كثيرًا التجزئة. وقد بقي من تحدّر منهم في البلاد التي تتمتّع بحضارة فريدة وبنظام ديموقراطي برلماني، تتعايش فيه إثنيّات وديانات متعدّدة. وتجاورها، من الجهة الجنوبيّة والجنوبية الغربية، من الجهة المقابلة لبحر سيلاب، بلدان يعرف فيها الإسلام انتشارًا واسعًا مثل أندونيسيا وماليزيا.

◄ راجع المستند رقم ٣٠.

الفيوداليّة (في الإسلام) تسمية غير دقيقة أطلقها مؤرّخون غربيّون لوصف بعض مظاهر المجتمع الإسلامي القروسطي، وبخاصة أيّام حملات الفرنج، حين واجه أسياد بعض المناطق من الطرفين الخصمين بعضهم بعضًا.

ليس في عالم الإسلام طبقة نبلاء بالمعنى الدقيق للمصطلح. وليس ما وُصف بـ«العرين» (fief) في المدوّنات الأوروبيّة سوى إقطاعات أرضيّة لا يربطها شيء بمستلزمات نظام النبلاء وامتيازاته الذي عرفته أوروبا. حين ظهرت الإقطاعات ومنحتها الخلافة العبّاسيّة صفة المؤسّسات في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، إثر معاناتها الماليّة، لم يكن للمستفيدين منها سوى بعض الامتيازات الماليّة، من دون أن يكون لهم على إقطاعاتهم أيّة سلطة شرعيّة أو ضرائبيّة، إذ إنّ السلطة المركزيّة وحدها كانت تضطلع بمسؤولية الضرائب التي تفرضها على المشتغلين بالأراضي.

وقد اتّفق، في ما بعد خلال بعض العهود، وبخاصة في سوريا، في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، أن حصل قوّاد عسكريّون أو أُمراء من أنسباء الحاكم، وهم في أغلب الأحيان من أصل تركيّ، على إقطاعات، بحسب أعراف تقاسم السلطة في الأُسرة السائدة لدى السلاجقة، شملت أراضي ذات أهميّة نسبيًّا، مثل مدينة، على أن يتعهّد أصحاب الإقطاعات، في المقابل، بتقديم فرقٍ عسكريّة حين تدعو الحاجة. كان أصحاب هذا النوع من الإقطاع يضطلعون بمهمّات تتداخل والسلطات الممنوحة للحاكم، وكان في مقدورهم أن يتحدّوا سلطته، إن سمحت لهم الظروف، لحاجته الماسّة إلى مساندتهم: من هنا كانوا يتمظهرون بمظهر «الأسياد النبلاء». إلّا أنّ ممارستهم السلطة كانت محدودة بأحكام الشريعة، إذ لم تكن إقطاعاتهم، مبدئيًّا، وراثيّة، ولم يقم أيّ نظام تراتبيّ لعهود وفاء شخصية – كما كان يجري في النظام الفيودالي (الإقطاعي) الغربي – بانشاء سلطات محلّية تهدف، بوجه خاص، للتحرّر من سيطرة أهل السلطنة أو الخلافة. فإذا ما عادت تلك السيطرة إلى سيرتها الأولى، غاب نفوذ أسياد الحرب كما غشي النسيانُ ذكر إماراتهم العابرة.

فيودوسيا (أُوكرانيا)، وهي، قديمًا، كافا، كافا أو كِفِه، مدينة مرفئيّة على البحر الأسود ومركز تجاريّ مهمّ في القرون الوسطى المتأخّرة، خضعت للسلطة الإسلاميّة منذ القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد حتى ١٧٨٣.

هذه البلدة التي كانت تقع على الساحل الجنوبيّ الشرقيّ من شبه جزيرة القرم، ذات تاريخ عتيق يعود بها إلى تسميتها تيودوسيا، كانت خلاله مشهورة كمركز

نقل بحريّ. ثمّ ازدهرت باسم كافا بسبب ربطها بين سهوب الكيبشاك والأناضول وأحيانا القسطنطينيّة، أي اسطنبول في ما بعد. كانت في أوّل أمرها مُلكًا لبيزنطية، تستقبل تجّارًا من التّرك، ثمّ حوالى ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، تجّارًا من جَنوى سُمح لهم بالإقامة فيها بصفتهم التجاريّة، بإذن من خان القبيلة الذهبيّة الذي كانت سلطته على المدينة إسميّة أكثر منها واقعيّة. في القرن الخامس عشر، بلغ ازدهارها الإقتصادي مبلغًا عظيمًا، حيث كان يتردّد عليها تجّار رقيق يمدّون مصر بالمماليك.

إلّا أنَّ العثمانيّين، الذين تضايقوا من نشاط تجّار جنوى، سعوا إلى موطئ قدم فيها، وبعد محاولات غير مجدية استطاعوا أخيرًا، في العام ١٤٥٧م، الإستيلاء على كافا. وقد تركوا أمر داخل البلاد في أيدي سلالة جيراي خان، حكّام شبه جزيرة القرم، الذين انتزعوا السلطة من خانات القبيلة الذهبية في القرن السابع عشر. غدا معظم سكّان المدينة من المسلمين، واتّسمت بطابع المباني ذات الطراز العثماني المميّز، كما أُقيمت فيها قلعة، ذات قيمة إستراتيجيّة تثير الطمع فيها. وخلال الحروب الروسيّة - العثمانيّة في مطلع القرن الثامن عشر، أصبحت هدفًا لحملات عسكريّة، فيما أخذ قسم من سكّانها الأتراك يجلون عنها. في العام ١٧٨٣ استولت عليها جيوش كاترين الثانية، وغدت مدينة روسية باسم فيودوسيا، بعد أن غادرها ما تبقّى من سكانها المسلمين.

◄ راجع المستند رقم ٢٣.

الفَيّوم، محافظة في غرب وادي النّيل كانت، قديمًا، واحة نخيل خصبة، مجاورة لبحيرة تفوقها مساحةً، احتفظت بدورٍ تاريخيّ في مطلع القرون الوسطى لتفقده بعد ذلك.

تراجع ازدهار هذه المنطقة الخصبة من مصر والأهلة بالسكّان خلال الحكم الإسلامي في زمن الفتوحات الكبرى، وذلك، بوجه خاص، بسبب الغارات المستمرّة التي كانت تشنّها عليها القبائل العربيّة والبربريّة. كانت مركزًا للمسيحيّة القبطيّة التي درست أديارها عبر العصور، وشكّلت في الوقت نفسه، في بداية الأمر، مصدر دخْلٍ لمكوس الأمبراطوريّات الأولى للخلافة. وقد عُثر فيها على وثائق متعدّدة مخطوطة على ورق البردي، يعكف على دراستها المؤرّخون في العصر الحديث منذ الكشف عنها في القرن التاسع عشر لأوّل مرّة، وهي تتضمّن نصوصًا مكتوبة بالعربيّة، ذات أهميّة بالغة للدراسة العصر الأمويّ.

ق

القائد، وجمعه القُوّاد، لفظة عربيّة ذات معنى قديم وغير دقيق، أُطلقت بخاصة على الزعماء العسكريّين.

كانت اللفظة متداولة في جزيرة العرب قبل الإسلام، وتُطلق في المحيط البدويّ على الشخص الذي كان، إلى جانب سيّد القبيلة ولاحقًا شيخها، يرأس الحملات العسكريّة ويتولّى قيادتها. وفي التنظيم العسكري الإسلامي طال استعمال اللفظة كل من يتولّى قيادة جيش أو فصيلة، أيًّا كانت رتبته. وهكذا، غدت هذه التسمية في الشرق تُطلق، بصورة عامة، على قياديّي الطبقة العسكريّة الذين كانوا يشغلون مركزًا مهمًّا في عهد الخلافة العبّاسية؛ وفي الحقبة نفسها، في الأندلس، اقتصرت التسمية على القائد الأعلى للجيش.

أُطلقت التسميّة لاحقًا في المغرب العلوي على حاكم محلّي تعيّنه السلطة المركزيّة وتختاره من بين أعيان قبيلة ما، ومنها استمدّت لفظة «قائد» (caïd) الفرنسيّة التي استُعملت للدلالة على الزعماء المحليّين الذين يمارسون سلطة معيّنة.

القائم، لفظة عربيّة تعني «الذي يقوم»، تشير بصورة عامة، في المصطلح الشيعي، إلى المهديّ الذي يُنتظر ظهوره ليقيم العدل. من هنا نفهم استخدام اللفظة في لقب بعض الخلفاء والحكّام في صيغة «القائم بأمر الله»، أي الذي يقوم بأمر من الله أو لينفّذ أمر الله. يعتبر بعض الإسماعيليّين أن القائم هو قائم القيامة، بمعنى أن القائم هذا سيدين البشر، وأنّه يحتلّ مرتبة أعلى من مرتبة الأنبياء والأئمّة.

القائم بأمر الله، لقب شرف مستمدّ من لفظة «القائم» المتداولة في القرون الوسطى بين عدد من الأمراء، وقد اعتمده خليفتان ينتميان إلى سلالتين عدوّتين، الأولى سنيّة: وهي سلالة العبّاسيّين، والثانية شيعيّة إسماعيليّة هي سلالة الفاطميّين.

إن أقدم الاثنين هو الخليفة الفاطمي «القائم» الذي حكم إفريقية من ٣٢٢ إلى ٣٤٤هـ/ ٩٣٤ إلى ٩٤٦م. استطاع هذا الخليفة أن يبسط سلطته، غداة نجاح الدعوة الإسماعيليّة في استقطاب بعض الأوساط البربريّة في المغرب وتسمية عبيدالله المهدي إمامًا. كان القائم - وهو ابن عبيدالله بحسب التقليد الإسماعيلي الذي يشكّك فيه البعض - قد عُيّن وليًّا للعهد منذ سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، وهو في العشرين من عمره، فقاد، بعد هذا التاريخ، حملات عسكريّة مهمّة. ولما أصبح خليفة، واصل حملاته تارة باتّجاه مصر، ولكن بدون جدوى، وطورًا باتّجاه ايطاليا، وقد حالفه الحظ في إحدى حملاته البحرية اذ تمكّن من احتلال مدينة جنوى في العام ٣١٢هـ/ ٩٢٤م. أرسل إلى صقلّية حاكمًا جديدًا هو خليل بن اسحق الذي أساء استعمال السلطة ضد الشعب.

وفي سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٤م انفجرت في إفريقية الثورة التي عرّضت حياته للخطر وأجبرته على اللجوء الى المهديّة، المدينة المحصّنة التي كان قد أمر ببنائها، وتوفي فيها في شوّال ٣٣٤هـ/ أيار ٩٤٦م.

بعد مرور قرن، وصل الى السلطة في العراق القائم بأمر الله أبو جعفر، الخليفة العبّاسي السادس والعشرون، الذي حكم من ٤٢٢ الى ٤٦٨هـ/ ١٠٣١ الى ١٠٧٥م، وسعى جاهدًا الى استعادة جزء من السلطة التي فقدها العبّاسيّون في زمن وصاية أمير الأمراء.

يُعتبر دخول طُغْرل بك السلجوقي بغداد بداية انطلاقة سنيّة تختلف عن تلك التي اجتازتها الخلافة خلال سيطرة البويهيّين، أتباع الإماميّة الاثني

عشرية[٦٢]. لقد أصبح في إمكان الخليفة أن يفيد من الخصومات التي كانت قائمة بين إقطاعيّين ذوي نفوذ وغزاة ينتمون الى مذاهب متعدّدة وأعراق مختلفة، إلى الترك من جهة والإيرانيّين من جهة ثانية.

إنّ القائم الذي خلف والده القادر بدون صعوبة تذكر واجه بالفعل، حتّى العام ٤٤٧ هـ/١٠٥٥م، نزاعات عديدة مع السلالة البويهيّة، ونجح إلى حدّ بعيد في أن يفرض آراءه في بعض المسائل، فجدّد، بخاصّة، في العام ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م، الإعلان المتعلّق بالعقيدة كما ورد في «الرسالة القادرية». تمكّن في العام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م القائد التركي من أن يدخل بغداد، رغم الجهود التي بذلها الخليفة لصدّه، وأقام في قصر الأمراء، وحصل، في ما حصل عليه من ألقاب، على لقب «سلطان» الذي يتناسب مع دوره كحام للخلافة. هذا الحامي الجديد الذي تمتّع بالسلطات التي كان العبّاسيّون قد منحوها من قبل لأمير الأمراء، حرص مع ذلك على التميّز عن أسلافه الشيعة بسلوك سياسيّ خاص.

نُفي القائم في أثناء حركة التمرّد التي قام بها القائد العسكري الشيعي البساسيري التابع للإسماعيلية، لكنّه ما لبث أن عاد إلى بغداد بعد أن تسنّى له التخلّص من هذا الخصم ذي الطموحات الخطرة. ولم يكن القائم ليثق كليًّا بالسلاجقة، وظلّت علاقته مع أوّل سلطان من هذه السلالة متوتّرة، وبخاصة لمّا اقترن طغرل بك بابنة الخليفة نفسه. تحسّنت الحالة بعض الشيء عندما خلف ألب أرسلان طغرل بك في العام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، ولم يُقم في بغداد، وكذلك عندما وُلّي ابنه ملكشاه سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م. إلّا أنّ سياسة الخليفة الدينيّة المناصرة للحنبليّة كانت تصطدم بمبادرات وزير السلاطين السلاجقة، نظام المُلك، الذي ناصر الشافعية وأسّس المدرسة النظاميّة في بغداد سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م. توفيّ القائم سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م، بُعيد وفاة ألب ارسلان، وكان قد تمكّن، خلال هذه الفترة المضطربة، من الدفاع، ما أمكن، عن مؤسّسة الخلافة. خلفه حفيده الذي عيّنه بنفسه والذي اتّخذ اسم المقتدي.

◄ راجع المستند رقم ٣.

قائممقام، تعبير يُستعمل في اللغة التركيّة وهو من أصل عربي، يحمل معنى وكيل الحاكم، ويطلَق اليوم في الجمهوريّة التركيّة على مدير المقاطعة أو القضاء.

وكان هذا اللقب يُستعمل في السلطنة العثمانيّة للإشارة الى الموظّفين الكبار، ومنهم حكّام الولايات وبعد إصلاحات القرن التاسع عشر، أصبح يُعطى لحاكم السنجق ثمّ لحاكم القضاء. وهذا التعبير يُستعمل، في المعنى نفسه، في عدد من بلدان الشرق الأوسط التي كانت جزءًا من السلطنة العثمانيّة، ولا سيّما في مصر زمن محمّد علي وخلفائه.

قابس (الجمهوريّة التونسيّة)، مدينة مرفئيّة تقع على الشاطئ الجنوبي للبلاد، على مقربة من الحدود الحاليّة مع ليبيا.

يعود تاريخ قابس إلى العصور القديمة الأولى، وقد وصلتها الجيوش العربيّة الإسلاميّة حوالى العام ٣٤هـ/ ٦٥٤م، وتمّ احتلالها حوالى نهاية القرن السابع الميلادي. إنّها باب إفريقية الحقيقي للقادمين من الشرق ومنفذ على البحر لتجارة القوافل العابرة للصحراء. وقد خضعت، على التوالي، لحكم الأغالبة والفاطميّين، قبل المعركة التي وقعت في العام ٤٤٣هـ/ ١٠٥٢م، ووفّرت السيطرة على البلاد لبني هلال عرفت بعدئذ، خلال قرنين، مرحلة مضطربة، فهاجمها نورمان صقلّية وانتهى بها الأمر إلى التحالف معهم وتوقّف هذا التحالف عندما دخلت قابس في أمبراطوريّة الموحّدين، لكنّ الحفصيّين الذين خلفوهم في إفريقية لم ينجحوا في فرض سلطتهم على المدينة بصورة مستديمة. في العام ١٥٧٤ سيطر عليها العثمانيّون وتبعهم الحسينيّون.

تقع داخل البلاد منطقة الجريد التي يفسّر ازدهارها تاريخها المضطرب. قديمًا، وفي الطرف الشرقي لخليج قابس، كانت تقع جزيرة جربة المشهورة بزراعتها والتي تشهد اليوم ازدهارًا سكانيًّا واقتصاديًّا، وكان يسكنها لفترة مديدة البربر المسلمون حيث كان الخوارج الإباضيّون أكثرية، إلى جانب أتباع المذهب المالكي الذين حلّوا محلّهم في سائر أنحاء البلاد. وقد دمغ قدرها - منذ دخولها في الاسلام خلال الفتوحات

الكبرى في العام ٥٤ هـ/ ٦٦٥م - عزلتها وروح الاستقلال المهيمنة على سكانها. وهي لم تنجح بالصمود في وجه الهجمات المسيحيّة المتكرّرة الآتية من البحر والتي تبعتها فترات قصيرة من الاحتلال وحسب، بل أفلتت من سيطرة سلالات إسلاميّة عدّة، ولم تخضع سوى للقوى البحريّة العثمانيّة، ثمّ للسلطات المحلّية التي تعاقبت عليها، كسلطة الحسينيّين على سبيل المثال.

◄ راجع المستندات ٨، ١١ و١٩.

قابوس بن وشمغير بن زيار، شمس المعالي، ؟ - ٤٠٣هـ/ ؟ - ١٠١٣م، عاهل من السلالة الزياريّة التي حكمت في مطلع القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد في مازندران.

حكم هذا الأمير، الذائع الصيت شاعرًا وعالمًا، على شواطئ بحر الخزر أو بحر قزوين بدءًا من العام ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م، منطقةً كان يطالب بها السامانيّون والبويهيّون. أفاد، في بادئ الأمر، من دعم الأمير البويهي الكبير، عضد الدولة، لكنّه اضطرّ، في ما بعد، الى التخلّي عن العرش لمدّة سبعة عشر عامًا واللجوء الى السامانيّين. خلال الفترة التي نعم خلالها بالسلطة في إمارته بلا انقطاع، ما بين ٣٨٨ و٤٠٣هـ/ ٩٩٨ و١٠١٣م، شيّد لنفسه ضريحًا رائعًا في العام ٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م، ما يزال قائمًا حتّى اليوم. أعطى هذا الضريح اسمه، كُنْبد قابوس (أي قُبّة قابوس)، الى البلدة الحديثة التي حلّت محلّ العاصمة القروسطيّة المدمّرة أي جُرجان، في حين أنّ جُرجان الحديثة توافق اليوم بلدة مختلفة من الإقليم نفسه هي أستراباد القديمة.

قاجار (١٧٩٤ - ١٩٢٥)، سلالة من أصل تركماني سيطرت على إيران في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وواجهت مشكلة تحديث البلاد وتدخّلات الغرب الأوروبي.

في عام ١١٧٢هـ/ ١٧٥٧م، استغلّ آغا محمّد بن محمّد حسن قاجار، رئيس قبيلة المازندران المنتمي إلى أسرة من الأعيان وضعت نفسها في خدمة الصفويّين، الاضطرابات التي تسبّبت بها وفاة نادر شاه عام ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م، فأصبح حاكمًا لأذربيجان وفرض سلطته على جزء من الأراضي التي وحّدها نادر شاه. وضع آغا محمّد حدًّا لسلطة الزنديّين في شيراز سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م، ثمّ تُوّج شاهًا في طهران التي كان قد اختارها عاصمةً له. اغتيل في العام ١٧٩٧، فخلفه ابن أخيه فتح علي شاه، ثمّ مجموعة من الحكّام. وعرفت مملكة القاجار مشكلات شبيهة بتلك التي عرفتها إيران في ظلّ السلالات السابقة. كان على الحكام القاجاريّين الذين مارسوا حكمًا مطلقًا أن يدافعوا عن أراضيهم ضدّ طموحات جيرانهم، بخاصّة العثمانيّين. أمّا في الداخل فإنّهم عملوا على دمج العنصر القبلي في دولتهم الجديدة. كما عانوا من العداوة بين الإمبرياليّتين الروسيّة والبريطانيّة حيث كانت كلّ منهما تسعى لتعزيز وضعها في إيران، مستفيدة من المشكلات التي نشأت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، في بلد كان في حاجة إلى إحداث تغييرات على مستوى التنظيم والتجهيز والحكم.

قبل ذلك اعتمد الحكّام القاجار، في تنظيم الادارة، النسق الصفوي، وأنفقوا أموالًا طائلة على المراسم والاحتفالات، ما أدّى إلى إنهاك ماليّتهم. ومع ذلك فانّهم شعروا بضرورة العمل على تحديث جيشهم، فلجأوا، مرارًا، إلى مدرّبين أوروبيّين. ولكنّ جهود هؤلاء بقيت من دون جدوى، على الرغم من تأسيس مدرسة إعداد عسكريّة في العام ١٨١٥، عُرفت بإسم دار الفنون، وكانت نواة لجامعة مستقبليّة على الطراز الأوروبي.

بعد ذلك سعى بعض الحكام، وبخاصة ناصر الدين شاه الذي زار المعرض العالمي في باريس في العام ١٨٨٩، إلى تحسين ظروف الحياة الإقتصاديّة في البلاد، محاولين معالجة وضعهم المالي السّيئ، وفكّروا بالاستعانة بالأوروبيّين.

ففي العام ١٨٧٢ أعطت إيران إلى أحد الإنكليز، ويدعى البارون رويتر (Reuter)، إمتيازًا لبناء بعض الطرقات والسكك الحديديّة، ومدّ شبكة للريّ وتأسيس مصرف وطني. لكنّ هذا الإجراء لم يلبث أن أُلغي، في العام التالي، بسبب الاستياء الشعبي. ولم يُبصر المصرف الأمبراطوري الفارسي النور إلا في العام

١٨٨٩ . وفي العام ١٨٩٠ أثار التنازل عن امتياز بيع التبغ وتصديره لأحد البريطانيّين رفضًا شعبيًّا بتحريض من العلماء، ما أدّى إلى إلغائه. بيد أنّه، في العام ١٩٠٩، تمّ التنازل عن استثمار الغاز الطبيعي والبترول لمصلحة الانكليز، وإنشاء شركة النفط الإنكليزيّة-الفارسيّة.

لكنّ استمرار حالة الإستياء لدى الرأي العام في سياسة لم تؤتِ ثمارها، أسفر عن حصول اضطرابات جدّيّة في البلاد، فيما كانت حركة الأفكار الغربيّة تتابع نفاذها إلى الأوساط الثقافيّة. طالبت حركة المعارضة، التي كانت قد نمت خلال حكم مظفّر الدين شاه، بإقامة نظام دستوري، وتوصّلت إلى إعلان دستور في العام ١٩١١، ولكنّ هذا الدستور عُلّق العمل به فورًا. ثمّ ما لبث أن تجدّد القتال بين القوى الخارجيّة والحركات الثوريّة المحلّيّة - وهذا ما تميّزت به إيران خلال الحرب العالميّة الاولى - ما سمح للقائد العسكري رضا خان بإقالة آخر عاهل قاجاري في العام ١٩٢٥، وتسلّم الحكم تحت اسم رضا شاه بهلوي.

آغا محمّد	١٧٧٩ - ١٧٩٧
فتح علي شاه	١٧٩٧ - ١٨٣٤
محمّد شاه	١٨٣٤ - ١٨٤٨
ناصر الدين شاه	١٨٤٨ ١٨٩٦
مظفّر الدين شاه	١٨٩٦ - ١٩٠٧
محمّد علي شاه	١٩٠٧ - ١٩٠٩
أحمد شاه	١٩٠٩ - ١٩٢٥

القادر بالله، ابو العبّاس أحمد، ٣٣٦-٤٢٢هـ/٩٤٧-١٠٣١م، الخليفة العبّاسي الخامس والعشرون، حكم من سنة ٣٨٢ الى ٤٢٢هـ/ ٩٩٢ الى ١٠٣١م وامتاز، خلال الفترة الثانية من حكمه، بالعزم الذي واجه به سياسة البويهيّين ووصايتهم اللتين قبل بهما أسلافه المباشرون على مضض.

هو حفيد المقتدر وابن عمّ الخليفة الطائع الذي خلعه البويهيّون في العام ٣٨١هـ/ ٩٩١م، واختاروه ليحلّ محلّه، آملين أن يكون خليفةً سهل الإنقياد. تظاهر، في بداية حكمه، بدعم توجّه أمير الأمراء الشيعي، فلم يحظَ إلّا حوالى العام ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م باعتراف السلالات السنيّة الحاكمة في المقاطعات الشرقيّة، ولا سيّما السامانيّين والغزنويّين. إنطلاقًا من هذا التاريخ، ترك له حاميه الشيعي، الذي كان مستقرًّا في شيراز، حرّيّة التصرّف، في حين أنّ الغزنويّين تصرّفوا تجاهه كحلفاء مخلصين. في سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م، لم يتردّد القادر في رفض تعيين الشريف أبي أحمد الموسوي - الذي رشحه أمير الأمراء - قاضيًا للقضاة ونقيبًا للعلويّين ورئيسًا لديوان المظالم، كما نجح، في العام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م، في حمل لجنة من علماء السنّة على إدانة تنقيح ابن مسعود للقرآن.

أخيرًا في سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م، بعد أن أدان عقيدة الفاطميّين الإسماعيليّين ونظام حكمهم، تلا علنًا في بلاطه بيانًا ضمّنه أُسس العقيدة وعُرف بـ «الرسالة القادريّة»، حدّد فيها العقيدة الرسميّة ألا وهي العقيدة الحنبليّة التقليديّة الموافقة لآراء السلف. والمعارضة، في الوقت نفسه، ليس للشيعة فحسب، بل للمعتزلة والأشعريّة، معتبرةً هذه الأخيرة خطرة لأنّها مذهب تسوية. كذلك، في العام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، أنفذ إلى الناس رسائل تتلى عليهم، من بينها واحدة تدين مجدّدًا القول بـ «خلق القرآن»، وثانية تعلن تفوّق الخلفاء الثلاثة الأوائل أو الراشدين، ساعيًا، في الوقت نفسه، وبهذه الروح، إلى تأمين خلف له. وفي الواقع تمكّن القادر، قبل وفاته في العام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، من أن يؤمّن البيعة لوريثه وابنه القائم، من دون أن يرجع في ذلك إلى أمير الأمراء. إنّ أبرز المكاسب التي حقّقها خلال خلافته كانت إعادة الاعتبار الى منصب الخلافة، وفي الوقت نفسه دعم السُنّيَّة، التي تعرّضت للخطر بسبب مبادرات الأمراء البويهيّين (الشيعة).

◄ راجع المستند رقم ٣.

القادريّة، طريقة صوفيّة اسلاميّة ما تزال تنعم حتّى أيامنا بتأثير كبير، تدين باسمها لفقيه حنبلي واعظ، ذاع صيته في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد في بغداد، هو عبد القادر الجيلاني.

بعد وفاة عبد القادر، استخلص تلاميذه عقيدته، الصعبة التحديد، من كتاباته الروحيّة والخطب التي تركها، ونشروها مع سيرته في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي، بدءًا من اليمن، وسوريا ومصر. وكان قد تمّ إنشاء رُبط قادريّة حوالى العام ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م، بخاصة

«الرباط» البغدادي حيث كان المعلّم ينصرف إلى التعليم، وقد واصل أبناؤه إدارته بعد وفاته، إلّا أنّ الطريقة لم تنتشر قبل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وكذلك الضريح الذي يحمل اسم المعلم لم يتحوّل إلى مزار «تقويّ» إلّا في تلك الفترة.

من المعروف أنّه، خلال تلك الحقبة، كان عدد غير يسير من ممثّلي الطريقة القادريّة قد بلغوا في تجوالهم شبه القارة الهنديّة وأقاموا في بيجابور في الدكّن، كما في سائر أرجاء البنجاب، وبخاصة في أوك التي ما زالت حتّى اليوم مركز الأنشطة القادريّة في باكستان. ومن هذه المنطقة وصل بعضهم إلى السِّند والبعض الآخر إلى لاهور حيث ما يزال ضريح ميان مير (١٥٥٠-١٦٣٥م) مكرّمًا حتّى اليوم. انّ تعاليم هذا الصوفيّ الشهير وقعت من قلوب العائلة الملكيّة المغوليّة خير موقع، فأثّرت في الأمير دارا شُكوه وشقيقته جهانارا.

شهد القرن السابع عشر ظهور الطريقة القادريّة في اسطنبول حيث أسّس الشيخ اسماعيل تومي، المعروف بلقب «پير ثاني»، أي «السيِّد الثاني»، خانقاهًا شهيرًا في طوفان. في موازاة ذلك، ازدهرت فروع في المغرب، منها الجلاليّة المتطرّفة، وقد قام ممثّلوها بدور سياسي خلال احتلال فرنسا للجزائر في القرن التاسع عشر وشاركوا في المقاومة التي قادها [الأمير] عبد القادر، وكان هذا الأخير واحدًا من زعمائهم. وفي القرن التاسع عشر كانت هذه الطريقة إحدى الطرائق التي دخلت ماليزيا، وحقّقت تقدّمًا مطّردًا في أفريقيا السوداء حيث تمكّنت، رغم منافسة الطريقة التيجانيّة لها، من أن تُنشّط العمل السياسي والحربي لدى عدد من الزعماء الذين أسّسوا أمبراطوريّات الفُلْبة المعروفة بأمبراطوريّات الجهاد. وما تزال هذه الطريقة تقوم بدور كبير في القرن العشرين، ولا سيّما في ما يتعلّق بالدعوة إلى الإسلام.

القادسيّة (معركة)، آذار ١٥ أو ١٦هـ/ ٦٣٦ أو ٦٣٧م. انتصار في زمن الفتوحات الكبرى، فتح أمام الجيوش العربيّة - الإسلاميّة أبواب الأمبراطوريّة الساسانيّة، وأيضًا طريق بلاد ما بين النهرين، حيث اختلّ نظام الدفاع لجيوش يزدجرد الثالث.

إنّ اختلافات المصادر العربيّة القديمة لا تسمح لنا إلّا بتأريخ تقريبي - مع فارق سنة أو سنتين - لهذه الموقعة التي أنست المسلمين هزيمتهم في معركة الجسر، قرب الحيرة، سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، حيث حاولوا عبور نهر الفرات ولكنّهم لم يفلحوا. أمّا الهجوم الجديد فحصل هو أيضًا في جنوب غربي العراق، لكن في موقع أكثر ملاءمة للفاتحين، وهو السهل المجاور لبلدة القادسيّة، خارج المنطقة المزروعة على ضفاف النهر. وعلى مقربة من البلدة التي اندثرت اليوم، أُسِّست، في ما بعد، المدينة - المعسكر المعروفة بالكوفة.

عقب هزيمة الجيش الساساني الكاملة، اندفع الفاتحون في اتّجاه العاصمة، طَيْسَفون، المعروفة بالعربيّة باسم المدائن، فاستولوا عليها، وذلك بعد اجتيازهم الفرات ودجلة. حقّقت هذه الانتصارات شهرة القائد العربي وأحد صحابة النبي (ﷺ)، سعد ابن أبي وَقّاص، الذي كان الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب، أوكل إليه قيادة الحملة.

قازان (جمهوريّة تتارستان الفدراليّة)، مدينة تقع في حوض الفولغا الأوسط، وأكثر سكّانها اليوم من الروس؛ كانت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عاصمة خانية قازان التركيّة المسلمة.

تأسّست إمارة قازان المستقلّة سنة ١٤٤٦م، وازدهرت داخل البلاد القديمة للأتراك الذين عُرفوا باسم البلغاريّين. وبعد غزو المغول في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، أصبحت جزءًا من الأمبراطوريّة التي أقامها خلفاء جنكيزخان والتي عُرفت باسم أمبراطوريّة القبيلة الذهبيّة، وكانت آنذاك في حالة تفتّت. وقد شاركت دولة قازان الجديدة في معارك حربيّة متنوّعة، وبرز فيها تأثير السياسة الروسيّة؛ كما كان لها دور تجاري ساعد على ازدهار عاصمتها. وقد استطاعت أن تجمع ميراثًا ثقافيًا محليًّا تركيًّا وإسلاميًّا. وبقي هذا الميراث حيًّا بعد الاجتياح الموسكوفي سنة ١٥٥٢، على الرغم من استعمار روسي فاعل رافقته جهود لحمل السكان على اعتناق المسيحيّة. وهذا الإرث ساعد على تنشيط الحركات القوميّة التركيّة في القرن التاسع عشر، وقد برز النشاط القومي على الأخصّ في

صفوف طبقة التجار الأشراف من ذوي الأرومة القديمة. ومدينة قازان نفسها كانت، في ذلك العصر، تضمّ جامعة فيها فروع متخصّصة لدراسة اللغات الشرقية. وقد أصبحت عاصمة جمهورية تتارستان الاشتراكية السوفياتية المستقلّة ذاتيًّا والتي أصبحت، بعد ١٩٩١، جمهورية تتارستان المستقلة داخل الاتحاد الروسي.

◀ راجع المستند رقم ٢٣

القاضي، موظّف تابع للسلطة، ينتمي إلى الجهاز القضائي، مهمّته القضاء في الشؤون المدنية والجزائية، بحيث تتوافر له إقامة نظام مطابق للشريعة بين جماعة المؤمنين.

كانت مهمّة القاضي في القرون الوسطى تقضي، من جهة، ببتّ النزاعات بين الأفراد، إستنادًا الى قواعد العدالة والإنصاف، ومن جهة ثانية، تطبيق القواعد الفقهية المقرّرة المتعلّقة بقضايا الأحوال الشخصية في ما يختصّ بالزواج والميراث مثلًا، وإنزال العقوبات الشرعية التي ينصّ عليها القرآن والسنّة بالمذنبين. غير أنّ مهمّة القاضي، في قضايا العقوبات، كانت تقتصر على إصدار الحكم المناسب، تاركًا لمفوّض الشرطة أمر التنفيذ، كما كان يترك له وللمسؤول عن الحسبة أمر معاقبة كلّ أنواع المخالفات الأُخرى.

وفي حالات النزاع كانت الأصول المتبعة تخضع لقواعد ثابتة طيلة قرون، تقوم على أسلوب خاص في البحث عن الأدلّة، وهو أسلوب لا يتلاءم والذهنية القانونية المعاصرة. يقوم هذا الأسلوب على مجموعة خطوات، إذ يتعيّن في البدء على المدّعي تقديم دعواه أمام القاضي، في حضور المدّعى عليه الواجب استدعاؤه مسبقًا، فإذا اعترف هذا الأخير بصحة الشكوى (وهذا هو الإقرار)، يصار إلى الحكم في القضية. أمّا اذا اعترض على ما ورد فيها، فيتوجّب عندئذٍ على المدّعي تقديم شهادات تدعم حجّته. وإذا لم يمثُل الشهود أمام القاضي، يُعطى المدّعي مهلة ثلاثة أيام لاستقدامهم، ويُفرض على المدّعى عليه تقديم كفالة لضمان مثوله أمام القاضي في اليوم المعيّن، وإذا لم يتمكّن المدّعي من تقديم شهود، فله أن يطلب إلى المدّعى عليه أن يُقسم اليمين على براءته؛ فإذا قام بذلك، تُرفض الدعوى عندئذٍ، وإن لم يفعل فإنّها تُقبل. وإلى جانب ذلك، تتطلّب أحكام المذهب الشافعي مثلًا أن يُقسم المدّعي ذاته اليمين، بديلًا من غياب الدليل لديه. وعند الضرورة يمكن أن يتمثّل المدّعي والمدّعى عليه بوكيل مفوّض.

وفي العالم الإسلامي القروسطي، كان القاضي يكلّف أيضًا بتحرير أنواع عدّة من الوثائق الإدارية كالعقود المتنوّعة، وشهادات البيع، والإيجار، وإعتاق الرقيق، وكذلك الإفادات وأعمال الوقفية. وكان في إمكانه مراقبة كيفيّة إدارة أموال الوقف وأموال اليتامى ومؤسّسات خيرية شتّى. وكان يساعده في مهمّاته هذه شهود محترفون مشهود لهم بعدالتهم. وكان القاضي، رغم حيازته إفرازًا بكفايته واسع النطاق في جميع هذه الميادين، وذلك بفضل الطابع الديني لمهمّته، يدخل في نظام مؤسّسات قضائية تراتبيّة، يحتلّ فيها وظيفة في الدولة التي تعيّنه وتجري عليه راتبًا.

خلال الخلافة الأموية، كان يتمّ اختيار القاضي من قبل حاكم الولاية؛ وفي الفترة العبّاسية وفي ظلّ حكم أكثريّة السلالات السنّية، كان الخليفة أو ولاته من السلاطين والأمراء يقومون بالمهمّة. ومنذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، كان عليه أيضًا إلتزام توجيهات قاضي القضاة، وهو منصب أنشأه في بغداد الخليفة هارون الرشيد، واستمرّ دوره في ما بعد في مختلف الدويلات التي انبثقت من الخلافة العبّاسية. وفي الوقت نفسه، كان قاضي القضاة يقوم بوظيفة قاضٍ في أحد أحياء العاصمة. في الأندلس، اعتمد ما عرف بقاضي الجماعة، كما في قرطبة. لكن يبدو أنّه لم يكن له مهمّات قاضي القضاة في بغداد.

في القرون الوسطى، كان القاضي يُصدر أحكامًا نافذة، لكنّها كانت قابلة للاستئناف من خلال التماس يُرفع للعاهل الذي كان يرأس الهيئة القضائية المسمّاة ردّ المظالم، وكان يتمتّع باستقلالية إزاء رجال الفقه الذين كان يسوّغ له استشارتهم في ما إذا ساورته الشكوك، لكن من دون أن يكون رأيهم بالضرورة ملزمًا له. فإذا اختلفت آراؤهم عمد، في هذه الحالة، إلى اختيار الرأي الأفضل في نظره. وكان القاضي، رغم توافر مساعدين لديه، منفردًا في دائرته يُصدر أحكامه استنادًا الى قواعد

المدرسة الفقهية التي ينتمي إليها. إلّا أنّ الدولة المملوكيّة السوريّة - المصريّة عملت على تعيين أربعة قضاة كبار ينتمي كل واحد منهم إلى إحدى المدارس الفقهيّة الأربع المعترف بها.

أمّا خلال حكم العثمانيّين فقد باتت تفاصيل الأجور التي كان يتقاضاها هؤلاء الأشخاص الذين يحصلون على مخصّص يومي معلومة لدينا، كما كان يُسمح لهم بتقاضي بدل مباشر عن أنشطتهم بصفة الكاتب العدل. وكانت وظائفهم التي خضعت للتراتبيّة بحسب اتّساع دوائرهم، والتي تمنحهم سلطة على الشؤون العامة، مرتبطة جزئيًا بسلطة شيخ الإسلام أو المفتي الأكبر في اسطنبول. وقد حلّ نفوذ هذا الأخير، في القرن السادس عشر، محلّ قضاة العسكر، الأعضاء في ديوان السلطنة، الذين توارثوا صلاحياتهم من صلاحيات القاضي الأكبر العبّاسي أو الأيّوبي، وهي صلاحيات ازدادت منذ عهد سلاجقة الرّوم. وحدث بعدئذٍ أن عمد السلطان العثماني مراد الأول، سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م، إلى تسمية قاضي العسكر في القضاء العسكري وفي مراقبة مجموع القضاة في آن؛ كما أنّ محمّدًا الثاني أنشأ، في سنة ٨٩٦هـ/١٤٨١م، مركزًا ثانيا لهذا المنصب وكلّف أحدهما بمنطقة الأناضول والآخر بمنطقة الرّوملّي.

على أنّ أهميّة الدور السياسي الذي آل إلى بعض الأشخاص لم يبدّل أبدًا، على مرّ العصور، صورة القضاة في المجتمع، التي جنحت إلى المزيد من التردّي. فمنذ البداية كانت المهمّات التي أوكلت إلى القضاة، والتي منحتهم السلطة في المدن، تقتصر على عمليّات تحكيم تفترض تمتّع الشخص الذي يقوم بها بإنسانية وحرص على العدالة، أكثر مما كانت تتطلّب كفايةً فقهيّة بالمعنى الحصري للكلمة، على أنّ رجال الفقه المحترفين كانوا يقلّلون من شأن هذه المهمّات. وبحسب المصادر القديمة، فإنهم كانوا يرفضون أحيانًا كثيرة مسؤولية القيام بها. في هذا السياق، يندرج موقف أبي حنيفة الذي أدّى به رفضه هذا المنصب إلى دخول السجن. كذلك، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، اعتبر رجالات فقه من المذهب الشافعي في العراق القبول بهذا المنصب غير جدير بهم وبموقعهم كعلماء دين، لأنّه لا يتطلّب أبدًا، بشكل واضح، معارف تقنية. ولا سيّما أنّ رجالًا ضحلي المعرفة شغلوه من قبل.

ويروي كتّاب الحوليّات في هذا المجال قصة تاجر أقمشة عيّنه الوزير ابن الفرات قاضيًا مكافأةً له على مساعدته على الهرب بعد زوال حظوته لدى الخليفة في احدى الفترات، ويبدو أنّ هذا التعيين شكّل خطوة حاسمة نحو انحطاط مستوى هذا المنصب، رغم تعيين رجال علم مشهود لهم، كان بعضهم من رجالات الفقه الشهيرين، اختيروا أحيانًا من بين صفوف الوعّاظ أو من الشهود المحترفين السابقين. وفي كلّ الأحوال، يُمكن تحديد فترة الانحطاط النهائي لوظيفة القاضي خلال القرن التاسع عشر، وقبل وقت قصير من الإصلاحات التي طالت، في الحقبة المعاصرة، المؤسّسات القضائيّة في معظم الدول الإسلاميّة، وهي إصلاحات ساهمت في تحجيم إضافي لمكانة هؤلاء القضاة من النمط التقليدي، إذ انحصرت مهمّاتهم مذّاك، في ما يتعلّق بتطبيق الشريعة، في النظر في قضايا الأحوال الشخصيّة.

قانصوه الغُوري، أو **الغَوْري**، ١٤٤٠-١٥١٦م، السلطان ما قبل الأخير للمماليك البرجيّة في مصر، حكم ابتداءً من ١٥٠١م، وقُتل في معركة مرج دابق الفاشلة ضد العثمانيّين. شركسيّ الأصل، من مماليك السلطان قايتباي، رقي قانصوه سلّم الوظائف الحكوميّة بشكل طبيعي.

كان متقدّمًا في السن عندما نودي به سلطانًا في ظرف أجبره على مواجهة خيانة الأمراء المحيطين به، والأزمة الإقتصادية، وتهديدات البرتغاليّين في البحر الأحمر، وطموحات العثمانيّين والصفويّين التوسّعيّة.

لكنّ ذلك لم يثْنِ قانصوه، الذي نهج سياسة عمرانيّة باذخة، عن الاهتمام بالتحصينات الدفاعيّة وبتنظيم جيوشه وتحسين سلاحها، وبخاصة لجهة تجهيز مدفعيّة احتياطيّة ووحدة مسلّحة بالبنادق؛ إضافةً إلى سعيه للمحافظة على اسطول حربي قادر على مواجهة ضغوطات أبرز أعدائه. وهكذا تمكّن قانصوه من ارسال حملات بعيدة لمساندة سلطان غجرات أو للحفاظ على وصاية المماليك على مكّة وعلى جنوب شبه الجزيرة العربيّة. وعمل أيضًا على ردّ الهجمات المنطلقة من إيران

في اتّجاه شمال سوريا . إلّا أنّه لم يستطع أن يقاوم ضغط الجيوش التي قادها السلطان العثماني، سليم الأول، الذي كان قد تسلّم زمام الحكم سنة ١٥١٢، في أمبراطوريّة كانت قد غدت سيّدة البلقان واسطنبول، والذي كان قد أحرز انتصارًا على الصفويّين في جالْدِران في العام ١٥١٤، أدّى إلى اطلاق يديه للتصرّف بالشرق الأدنى. ثمّ توجّه سليم الأوّل إلى البلدان العربيّة؛ فأنزل بجيوش المماليك، في آب ١٥١٦، هزيمة قاسية وحاسمة في شمال حلب فتحت له أبواب سوريا ومصر وسمحت له، في الوقت نفسه، بوضع حدّ لحكم المماليك.

قانون، جمعها قوانين، لفظة مشتقّة من اليونانيّة، ومستخدمة في البلاد الإسلاميّة للدلالة على الأنظمة الموضوعة خارج إطار الشريعة والمتعلّقة بالشؤون الإداريّة والماليّة والجزائيّة.

في ما مضى كان القانون إجراءً يهدف إلى تطبيق الشريعة، بمبادرة من الحكّام، ازدادت أهميّته في عهد العثمانيّين، فبات يدلّ على قرار يمكن أن يعدّل في الشريعة، لا سيّما في ما يتعلّق بالشؤون الماليّة ونظام الأراضي. إنّ السلاطين العثمانيّين، بخاصّة ابتداء من القرن السادس عشر، أصدروا هذه الأحكام الاشتراعيّة وجمعوها في «قانون نامه»، من هنا لقب «القانوني»، أي المشرّع الذي أُعطي للسلطان سليمان المعروف باسم سليمان القانوني، وفي الفرنسيّة بلقب سليمان العظيم. في أيّامنا الحاضرة، تعني لفظة قانون مجموعة القوانين المطبّقة في دول الشرق الأدنى، سواء كانت هذه القوانين مستوحاة من التشريع الغربي، كما هي الحال في موضوع التجارة، أو من الشريعة نفسها.

للفظة «قانون» أيضًا معنى تقني محدود: إنّه يعني القاعدة المتّبعة في تحديد قيمة ملكيّة عقاريّة خاضعة للضريبة، وهذا ما جعل منها مرادفًا للفظة «السجل العقاري». أمّا في بلاد البربر فإنها تعني العادات المتّبعة في موضوع العقوبات.

القاهرة (جمهوريّة مصر العربيّة)، تقع بجوار الفُسطاط، عاصمة مصر منذ القرون الوسطى ومركز رمزي للإسلام، نظرًا إلى حيويّتها الفكريّة. وقد حافظت على تسميتها من حيث أنّها مدينة ملكيّة منذ أن أسّسها الفاطميّون في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م؛ بالقرب من مجمّعات سكنيّة سابقة لها، فاستحوذت على أمجادها وازدهارها.

ارتبط مصير القاهرة، من جهة، بمصير مؤسّسيها والسلالات التي خلفتهم، ومن جهة ثانية بموقعها، في وادي النيل الخصب وعند ملتقى مصر العليا والدلتا، أي عند التقاطع المركزي والإستراتيجي لكلّ طرق مواصلات البلاد الداخليّة والخارجيّة. من هنا كان النموّ المستمرّ لهذه العاصمة التي توسّعت على مرّ العصور حول محورها المركزي، والتي شهدت مراحل ازدهار معماري متعاقبة أثرت سماتها الخاصة. إلّا أنّ هذه المدينة كانت تنامت في تفاعل وثيق مع بلدة إسلاميّة أقدم منها، هي الفسطاط، التي لم ينفصل تاريخ القاهرة عن تاريخها، إلى أن استوعبتها القاهرة في مجالها العمراني.

وقد أُنشئت القاهرة الفاطميّة بُعَيْد انتصار القائد جوهر على الإخشيديّين؛ وتزامن إنشاؤها مع استقرار عواهل الشيعة الإسماعيليّة في مصر؛ وقد اضطرّ هؤلاء، في بادئ الأمر، للهجرة إلى إفريقية البعيدة للحصول على سلطة كانوا دائمًا يأملون استعادتها في الشرق. هكذا كان إنشاء القاهرة تجسيدًا لمكانة هؤلاء العواهل وعظمتهم. وقد أُنشئت، لأسباب عسكرية، على مسافة قريبة من الفسطاط حيث القوات العربيّة - الإسلاميّة التي اجتاحت مصر في فترة الفتوحات الكبرى بقيادة عمرو بن العاص، في سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م، نصبت خيامها على ضفّة النهر أمام الحصن المسمّى «بابيلون» باليونانيّة، وهو تحريف للإسم القبطي الأصل. وبلدة الفسطاط - التي يبدو أنّ اسمها مشتق من التسمية البيزنطية «فوسّاتون» - امتدّت على حوالى أربعة كيلومترات على طول ضفة النيل وضمّت، حول مسجدها الكبير ومركز الحكومة، مجموعة أحياء خُصّصت لمختلف الجماعات القبليّة، كما كانت العادة في المدن - المعسكرات التي كانت قائمة في العراق آنفًا. وقد نمت هذه البلدة، بجميع أجزائها، بسرعة: فأُعيد بناء الجامع الكبير - المعروف بجامع عمرو حتّى يومنا هذا - في أواخر القرن الأوّل الهجري/السابع

الميلادي؛ كما بُنيت أسواق مسقوفة؛ وتزايد عدد السكّان مع إقبال الأقباط - سواء منهم الذين اعتنقوا الإسلام أو الذين لم يُسلموا - على الاختلاط شيئًا فشيئًا بالعناصر العربيّة؛ وأخيرًا عرفت الفسطاط إضافات عمرانيّة عديدة نتيجة ازدهار الخلافة العبّاسيّة التي أقام حكّامها الأوائل في منطقة «العسكر» شمالي الفسطاط، حيث شُيّد مسجد كبير وقصر أميري وأسواق ومساكن حضريّة.

بعد فترة قصيرة، أنشأ ابن طولون - الذي كان انتزع، في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، استقلاله عاصمته الخاصة شمالي منطقة «العسكر» باسم «القطائع»، وهو تعبير مشتق من الاقطاعات أي قطع الأرض التي كانت تُمنح لبعض أصحاب المقامات لبناء مكان أقامتهم. وقد عمل ابن طولون، حوالى سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م، على بناء مسجد كبير مميّز - ما يزال قائمًا حتى اليوم - وكذلك على بناء قصر اضمحلّت آثاره كما أنّه استحدث، أيضًا، ميدان سباق للخيل وأسواقًا. وقد دُمّرت هذه الإنشاءات الفخمة - التي تشهد على شبه الاستقلال الذي تمتّع به الطولونيّون، ما عدا المسجد الكبير - بعد فترة قصيرة على يد الجيش العبّاسي الذي استعاد السيطرة على مصر سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م. لكنّ أعمال التدمير الناتجة عن مثل هذه الصراعات لم تحُل دون حفاظ الفسطاط - هذه المدينة المكتظّة بالسكّان والتي قامت فيها أبنية من طبقات عدة وتمتّعت بحركة اقتصادية كثيفة - على موقعها إلى جانب المدن الملكيّة التي تأسّست تباعًا، كما استمرّت على هذا الوضع حتّى إلى ما بعد تأسيس القاهرة في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م. لكن كان من المستحيل أن تنافس الفسطاط لفترة طويلة القاهرة، آخر المدن الأميريّة التي كانت محميّة بدورها بسور بُني شمالي موقع مدينة ابن طولون، والتي كان من شأن تألّقها بسرعة أُفول نجم عواصم الخلفاء العبّاسيّين.

في وسط القاهرة، قام قصر الخليفة الفاطمي الفخم رمزًا معماريًّا مميّزًا للمدينة، وقابله في الجهة الأخرى لأحد الأفنية قصر ولي العهد، بحيث كانت شعبتا جادّة أنشئت في اتّجاه شمالي جنوبي تُفضيان إلى هذه النواة الرئيسة؛ وكانت تسلكهما التطوافات والمواكب الرسميّة التي كانت تتشكّل عند خروج الملك من قصره. وكان الجامع الكبير المسمّى «الأزهر» قريبًا من القصر، لكن غير ملاصق له. أمّا الأحياء المختلفة فكانت تحدّد تخومها شوارع مخطّطة بشكل هندسي، بعضها مخصّص لسكن أصحاب الرُتب العسكريّة العالية أو المدنيّة، وبعضها الآخر لسكن مختلف الفرق العسكريّة، من البربر، وكذلك من الأتراك ومن إيرانيّي الدَّيْلم. وكانت هذه الفرق تتولّى حماية السلالة الحاكمة. وفضلًا عن ذلك، تركّزت الأسواق على طول الجادة المتفرّعة، لكنّ هذه الأسواق لم تكن تضمّ إلّا عددًا قليلًا من الأنشطة التجاريّة. وإلى جانب أجهزة الإدارة والقوّات المسلّحة توافرت، بخاصةٍ في الفترة الأولى للخلافة الفاطمية، العناصر الضروريّة لحركة فكريّة نشطة، تعود حيويّتها إلى حرص الخلفاء الفاطميّين الشديد على تشجيع الدعوة الإسماعيليّة التي كانت في أساس نشأة دولتهم الخاصة وعلى دعم نموّها. لهذا السبب كان المسجد الجامع مركزًا نشيطًا للتعليم؛ وبموازاة ذلك كان أساتذة، تدفع الدولة أجورهم، يعطون دروسًا في أحد القصور حيث أقيمت في ما بعد، وفي العام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م، «دار الحكمة» التي جُهّزت بمكتبة مهمّة جدًا.

منذ ذلك الوقت، وطوال حقبة فاطميّة امتدّت حوالى قرنين، عرفت القاهرة ازدهارًا أشاد به مدوّنو الوقائع، كما عرفت تحوّلات عمرانيّة متلاحقة تجسّدت، بشكل خاص، في بناء الخليفة الحاكم «مسجد الحاكم» في ١٠٠٣م، خارج السور الشمالي للمدينة مباشرةً، وكذلك بناء مساجد أخرى خارج المدينة وفي الضاحية الممتدّة حتّى المرفإ النهري العسكري المعروف بالمَقْس، وأخيرًا تشييد الأضرحة الفخمة جنوبي المدينة المقامة على اسم أفراد آل البيت، وبخاصة على اسم حفيد النبي محمّد (ﷺ)، الحسين بن عليّ. أخيرًا، حوالى نهاية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، حصل توسيع بسيط في المساحة العمرانيّة للمدينة. ويعود هذا التوسيع إلى تعديل جزئي في أسوارها ترافق مع قيام بدر الجمالي بتنظيم مداخل

ضخمة محصّنة - كباب النصر وباب الفتوح وباب زُوَيْلة - اشتهرت بهندستها المعماريّة المميّزة. وقد ضُمّ جامع الحاكم إلى داخل السور الذي قام ببنائه معلّمو بناء متخصّصون من الأرمن. وقد ظلّت الفسطاط مركزًا تجاريًّا نشطًا ومتنوّعًا للأعمال الحرفيّة، يؤمّه تجّار غربيّون، وإيطاليّون بشكل خاص - قدموا من بيزا وأمالْفي - حصلوا، كما في الإسكندريّة، على امتياز إقامة فندق؛ وكان هؤلاء يشترون البهارات المستوردة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي. لكنّ الفسطاط شهدت، في آخر هذه الحقبة، تراجعًا مفاجئًا في ازدهارها. وبالفعل، في العام ٥٦٣هـ/١١٦٨م، عمد الوزير الفاطمي آنذاك الى إفراغ المدينة من سكّانها ومن ثمّ إلى إحراقها، وذلك تخوّفًا من هجوم يقوم به الفرنج الذين كانوا يهدّدون القاهرة، ولم تتمكّن المدينة بعد ذلك من النهوض من كبوتها. ومع ذلك، بعد فترة قصيرة، دُمج موقع المدينة بداخل السور الذي قرّر صلاح الدين إقامته لحماية الأبنية القائمة.

وقد أدّت الصعوبات الداخليّة التي سبقت سقوط النظام الفاطمي في يدي صلاح الدين إلى تغييرات مهمّة في موقع القاهرة، لاحقًا. فصلاح الدين لم يُقم في قصر الخلافة، بل تركه لسكن العائلة المخلوعة؛ كما عزم على بناء حصن على سفح جبل المقطّم لضمان أمن حكمه، لكنّ بناء هذا الحصن لم يكتمل إلّا في عهد خليفته الملك العادل حوالى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م. وبحكم هذا الواقع، انتهى دور المدينة القديمة عاصمةً للسلطة: فالقصر والمؤسّسات الإداريّة والثُّكنات العسكريّة نُقلت إلى القلعة. وهذا ما أتاح للتجّار إشغال المساحات التي أُفرغت بشكل سريع، ولا سيّما أنّ مدينة الفسطاط، من جهتها، كانت قد تضرّرت بشكل كبير. وشهدت المرحلة اللاحقة إعادة ترميم جزئيّ لمحلة الفسطاط واستصلاح بعض الأراضي الواقعة في محيطها لجهة القاهرة، وبناء سور في قسمها الجنوبي، لم يكتمل العمل فيه على الأرجح. كل ذلك أعطى العاصمة الايوبيّة سيماء شبيهة بالمدن السوريّة المحصّنة التي كانت قائمة في الفترة ذاتها. وفي تلك الفترة أيضًا، تكاثرت المدارس الدينيّة والزوايا التي انتشرت في مدن الشرق الإسلامي آنئذٍ؛ كما عمد آخر السلاطين الأيوبيّين، في سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، الى بناء قلعة في جزيرة الروضة مخصّصة لسكن مماليكه. وكانت إحدى المدارس الدينيّة التي بُنيت آنذاك تقع بجوار ضريح الإمام الشافعي، وهو بناء ضخم أُعيد تجديده في سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م، وأُلحقت به بعد فترة قصيرة أضرحة بعض الملوك، منها ضريح الملك الصالح.

وفي القرن التالي تميّزت سيطرة المماليك بتوسّع جديد للمدينة، ثمّ بتشييد أبنية فخمة عديدة - كان لبعضها طابع الضخامة - تشهد على عظمة ثروة الأمراء الذين شيّدوا أكثرها. وكانت هذه الأبنية الدينيّة — من قاعات صلاة إلى زوايا ومدارس بوجه خاص - تجمّل أحياء المدينة المختلفة. وقد نهضت المدارس الدينيّة أيضًا بدور المسجد الجامع، كما هي الحال مثلًا بالنسبة الى مدرسة السلطان حسن حوالى سنة ٧١٦هـ/١٣٦٠م. أخيرًا، بلغت الأضرحة التي بُنيت نماذجها الأولى في الفترة الأيوبيّة مستوى معماريًّا وزخرفيًّا مميّزًا، فيما شكّلت جزءًا من مجمّعات أوسع هي المجمّعات المخصّصة للمدافن. وقد أُقيمت بعض هذه المجمّعات في المدافن الواقعة خارج سور الحاضرة، كتلك المعروفة بمدافن الخلفاء والأخرى الموسومة مدافن المماليك. واكتمل هذا المشهد الحضري الغني والمتنوّع بالخانات المهيبة والمستشفيات والقصور والمقاصير الخاصة التي تقيم فيها الشخصيّات البارزة من الارستقراطية الحاكمة. وترافقت هذه الحيويّة العمرانيّة مع التنامي المستمرّ للسكّان الناشطين وتكاثر الأحياء التي يقيمون فيها.

وعندما أُلحقت مصر بالأمبراطوريّة العثمانيّة، لم يتوقّف هذا النمو، بل اتّخذ طابعًا مختلفًا بعض الشيء. فالولاة الذين أرسلهم السلاطين العثمانيون إليها ومن خلفهم لاحقًا من أمراء محلّيّين شبه مستقلّين، لم يقيموا أضرحة ولا مدارس دينيّة، بل انصبّ جلّ اهتمامهم على بناء المساجد، وأحد اهم هذه المساجد ذلك الذي بناه محمّد علي في القلعة قرب قصره سنة ١٨٤٨. إضافةً إلى ذلك، انتشر في الوقت نفسه ما عُرف بـ«سبيل الكُتّاب»، وهي سُبل ماء عامة ملحقة بمدرسة إعداديّة

كانت تقام إجمالًا على تقاطع طرق كثيرة العبور.

وفي الوقت نفسه بدأت القاهرة، في القرن التاسع عشر، تتخذ طابع المدينة العصرية، فجُهّزت بأولى الخدمات البلدية، ونشأت فيها قطاعات صناعية من نوع جديد في أحياء مخصّصة بالمشاغل، كحي بولاق الذي اشتهر بمطابعه بنوع خاص. وهذا الحي قائم منذ القرن الخامس عشر على مساحة أرض نتجت عن التحوّل البطيء لمجرى نهر النيل نحو الغرب. وقد تمّ العمل بطرائق أخرى لتوسيع مساحة المدينة، إذ إنّ محمّد علي، رجل الإعمار الكبير، لم يكتف بتجديد داخل القلعة، بل عمد إلى تجفيف حوض النهر في المنطقة المعروفة بالأزبكيّة، وشقّ شوارع جديدة ولا سيّما في حي الأزهر. من بعده، أنشأ الخديوي عبّاس مدينة العبّاسيّة العسكريّة الصغيرة التي حملت اسمه، والتي أصبحت في ما بعد ضاحية سكنيّة مهمّة. وابتداء من سنة ١٨٥٠، في عهد الخديوي إسماعيل باشا، تفرّعت المدينة واتّخذت بعض المظاهر التي ما تزال تطبعها حتّى اليوم. ويعود لإسماعيل باشا مثلًا فضل بناء حي الإسماعيلية الحديث، بجادّاته الواسعة المستوحاة من التنظيم المدني الأوروبي بأسلوب هوسْمان (Haussmann)؛ كما تمّ أيضًا بناء جسر حديث على النيل. ومع بداية القرن العشرين، أُنشئت الزمالك على جزيرة، وحيّ عين شمس إلى شمال المدينة؛ وفي الوقت نفسه كانت تُشاد في كل مكان أبنية تستوحي الفن المعماري الأوروبي. كما عمدت السلطات مثلًا إلى إقامة جامعات مستقلّة تمامًا عن جامعة الأزهر القديمة التي ظلّت مختصّة بالتعليم الديني ومغلقة على العلوم الدنيويّة حتّى سنة ١٩٦١. واستمرّ نموّ القاهرة بشكل مطّرد خلال القرن العشرين، بينما كانت أحياء جديدة تظهر حتّى بعد قيام الحكم الناصري في سنة ١٩٥٢؛ كما ثبّتت القاهرة - العاصمة السياسيّة والإداريّة لمصر - مكانتها كأكبر مركز ثقفي في الشرق الأدنى العربي، إذ أضافت إلى جامعاتها ومتاحفها الواسعة مجمع اللغة العربية الذي أُسّس سنة ١٩٣٢، وكذلك ضمّت عددًا وافرًا من المؤسّسات الأجنبيّة.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ٢٠، ٢٥؛ ٤٤، ٦٣، ٦٤.

قايتباي، الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين المحمودي الظاهري. ؟-١٤٩٦م، أحد سلاطين الحقبة البرجيّة لمماليك مصر وسوريا، حكم من ٨٧٣ الى ٩٠٢هـ/١٤٦٨ الى ١٤٩٦م.

عبد قِنّ، أصلًا، كان ابتاعه برسباي وأعتقه جقْمق. إرتقى قايتباي درجات السلك العسكري، وبلغ رتبة أتابك في سنة ٨٨٢هـ/١٤٦٧م، في مطلع عهد تمُرْبُغا، ومن ثمّ، إثر اضطرابات متعدّدة، قُدّمت له السلطنة فقبلها. وخلال عهده الذي استمرّ مدّة استثنائيّة قياسًا على ذلك الزمان، وضع قايتباي هدفين لحكمه: أوّلًا مقاومة تهديدات العثمانيّين والآق قيونلو. وثانيًا السّعي إلى تنمية الحياة الإقتصاديّة. نجح في أن يزجّ في السجن، سنة ١٤٧١م، أمير ألْبستان في الأناضول، التابع للعثمانيين. لكنّه اضطرّ إلى مقاتلة أمير الآق قيونلو أُوزون حسن، وإلى التصدي لاجتياح العثمانيّين لكيليكيا سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م. ومع أنّ معاهدة صلح عُقدت في العام ١٤٩١م، وكانت لمصلحة المماليك، إلّا أنّ تكاليف الحرب كانت باهظة. ما دفع بقايتباي، لتحسين وضعه المالي، إلى أن يمنح التجّار الإيطاليّين امتيازات. لم تسمح نتائج النموّ الاقتصادي الجديد أن تزيد موارد الدولة، وانتهى الأمر بالسلطان، في آخر عهده، إلى مضاعفة نظام الضرائب والإكثار من الرسوم الإستثنائية، في وقت أصبحت فيه مملكته ضعيفة في مواجهة تهديدات الأمبراطوريّة العثمانيّة.

القبائل أو «**بلاد القبائل**»، منطقة جبليّة من جمهوريّة الجزائر الحاليّة، تسكنها جماعات إسلاميّة ناطقة، في غالبيتها، بالبربريّة. هذه التسمية الجغرافيّة الحديثة، التي ظهرت عند الرحّالة الأوروبيّين، إنطلاقًا من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي تقريبًا، تعبّر عن حقيقة سياسيّة - إجتماعيّة قديمة جعلت من هذه الأرض الوعرة ملجأ لجماعات بربريّة اعتنقت الإسلام تدريجيًّا، وهي تحرص على المحافظة على لغتها وتقاليدها.

في القرن السادس عشر، وفي بداية السيطرة العثمانيّة، كان تحالف الزواويّة الكبير لا يزال قائمًا؛ وكان العديد من أعضائه منخرطين في القوّات العسكريّة الجزائريّة، وهم في أصل الكلمة الفرنسية "Zouave".

ولم تكفّ الصراعات المتنوّعة عن إضعاف السيطرة التي مارستها كل من كُتامة وصنهاجة على الناحية الشرقيّة والغربيّة لمنطقة نفوذ الزواويّة. وقد أدّى زوال السلطة التركيّة وحكم الدايات إلى المساس باستقلاليّة «القبائل» التي لم تشأ الإدارة الفرنسيّة المحافظة على بنيتها؛ ومع ذلك فإنّها حافظت على وجود منطقة القبائل التي استمرّت بطريقة ما بعد الاستقلال، ولا تزال حيّة إلى أيامنا هذه.

قُباداباد، موقع أثري في القسم الأوسط من الأناضول، فيه بقايا القصر الذي بناه كيقباد الأوّل، أهمّ سلاطين سلاجقة الروم، على شاطئ بحيرة بَيْشهر.

في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، وعلى بعد مئة كيلومتر جنوبي غرب قونية، بنى كيقُباد «مدينة ملكيّة» بقيت منها اليوم آثار مهمّة. وقد أقام فيها أيضًا كلٌّ من كيخسرو الثاني وكَيْكاوس الثاني. ثم تناقصت أهميّتها بسرعة مع هيمنة الإيلخانيّين المغول. وقد كشفت الحفريّات الأثريّة عن خمسة عشر بناء، بينها مسجد يعود تاريخه إلى سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م، بحسب ما تشير إحدى الكتابات المنقوشة. وبين الأبنية المكتشفة بناءان ينتميان إلى القصور الملكيّة: ظلّة ذات حجم كبير ومجمّع حول إيوان كان بمنزلة قاعة للإستقبالات. وكانت جدران تلك الأبنية مُزيّنة داخليًّا، بمقدار طول الإنسان، ومغطّاة بمربّعات خزفيّة اعتُبرت من أهمّ ما اكتُشف في هذا الموقع، وذلك لتنوّع أشكالها ولخصائصها ورسومها الفنيّة.

قُبّة: تعبير يُستعمل به للإشارة إلى الضريح الذي تعلوه قبّة، ويكون مدفنًا يُكرَّم فيه أحد الأولياء، وموضع زيارات تقويّة، ويُقصد أحيانًا في عمليّات حجّ غير منسكيّة. هذا المفهوم الخاص الذي يختلط فيه مفهوما القبّة والمزار: يعلّله انتشار الأضرحة التي تعلوها القباب في العالم الإسلامي والتي تُعدّ من الأمكنة المكرّمة. ويجب ألّا ننسى أنّ القبّة تُعتبر، بشكل عام، عنصرًا بنيويًّا مهمًّا في الهندسة الإسلاميّة. ويكون بناء القبة بموادّ مختلفة، لكن غالبًا ما تُبنى بموادّ خفيفة كالخشب، وكالقرميد على الأخصّ. وقد استُعملت القبّة في سقف المقاصير الخاصّة المنعزلة، كما في سقف القاعات المميّزة داخل المجمّعات.

والأشكال المتنوّعة التي استُعملت لجعل القبّة تترابط مع البناء، ككوى الزوايا والمشاكي والأشكال الإسطوانيّة المنضّدة – وهي تُفضّل على المثلثات الكرويّة – تراعي الميل إلى التنوّع في تطوير الهيئة الخارجيّة للقبّة لتكون منسجمة مع كل طراز من طُرُز البناء بحسب المناطق. إلّا أنّ الإهتمام بالقضايا التقنيّة أو التزيينيّة بقي خاضعًا لقاعدة واحدة ثابتة، وهي اللجوء إلى القبّة التي انتشر استعمالها في الوسط الإسلامي بعد نجاح بناء قبّة الصخرة، بهدف إعطاء طابع العظمة، أو بهدف تجميل فسحة داخليّة، فيوحي وجودها بالجلال في دور العبادة وبأبّهة المُلك في القصور. فأصبحت القبّة ضروريّة ورمزًا لمكان الشرف داخل المسجد الجامع، أو لقاعة خاصة داخل القصر، هي قاعة العرش. كذلك غدت القبّة ضرورة لتتويج عدد وافر من الصروح التذكاريّة التي تبنى فوق الأماكن الموقّرة، لا سيّما الأضرحة والقبور.

قُبّة الصخرة، هي أهم صرح إسلامي في القدس، يقع في موضع المسجد الأقصى المذكور في القرآن، وفي جوار البناء الحالي الذي يحمل الاسم نفسه. وهو الذي يعطي، في نظر المسلمين، للمدينة القديمة هالتها الدينيّة الفريدة.

يقع هذا البناء النفيس، تقريبًا، في قلب فناء الحرم الشريف، وتعلوه قبّة مذهّبة ما تزال تشهد حتّى اليوم على قدرة سلالة الأمويّين وغناها، وهي التي شيّدته في آخر القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد. وقد حالف الحظ هذه القبّة في أن تبقى، حتّى يومنا هذا، في حالة جيّدة. وقد أثارت في القرون الوسطى إعجاب الغرب المسيحي الذي صنّفها في مؤلّفاته على أنها «هيكل داود»، وذلك زمنًا طويلًا قبل أن تُطلَق عليها في اوروبا تسمية «مسجد عمر»، نسبة إلى عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين الذي جاء، بحسب بعض الأحاديث الشريفة، وصلّى على أنقاض الموقع المدمّر للهيكل اليهودي القديم.

وبالفعل، يحمل النصب تاريخًا محدّدًا هو سنة ٧٢هـ/٦٩١م، أي عهد الخليفة عبد الملك الذي هو

مشيّده الحقيقي، رغم التحريف في النص المنقوش الذي أحلّ اسم الخليفة العباسي المأمون محل اسمه. فالدقة الهندسية في بنيته هي من خصائص المعماريّين الأمويّين: رُواق مزدوج مثمّن الأضلع، يضمّ فسحة دائريّة مخصّصة لموقع الصخرة ومخططة هندسيًّا من خلال استعمال مناهج الرياضيات التطبيقيّة المعروفة في العالم البيزنطي. كذلك الزخرفة الداخليّة الفخمة التي أفادت من البرونز والخشب المذهّب، والرخام الملوّن على الأعمدة والتصافيح، وكسوة الفسيفساء هي أيضًا من السمات المميّزة للفنّ الزخرفي الأموي. هذه الفسيفساء، التي تستوحي الأسلوب البيزنطي، على خلفيّة ذهبيّة متلألئة، ترسم تشكّلات نباتيّة شجريّة في أساسها أو سعفًا من النخيل وعناصر زهريّة مكرّرة مزخرفة بتيجان وجواهر. وتستقي كلّ هذه النماذج روعتها من الفنّ الزخرفي الهلّيني المتأخّر ومن الشرق الساساني. لذلك لم يزل هذا النموذج الفريد لأوّل فنّ أمبراطوري إسلامي يثير اهتمام دراسات الاختصاصيّين، إذ إنّه يعكس في أبعاده المتوازنة كمال التخطيط المنظّم؛ كما يعكس في بريقه الداخلي (إذ إنّ كسوة الخزف الفخّاري الخارجيّة تعود الى القرن السادس عشر، إلى العهد العثماني) صلابة صمدت في وجه كلّ جهود الترميم الضروريّة المتلاحقة.

بناء على ذلك فإن قبّة الصخرة ليست تحفة معماريّة تاريخيّة وحسب، بل هي أيضًا حزم فريد من نوعه في العالم الإسلامي لا مثيل له، لم تكرّر هيكليّته في ضرح آخر، حتّى لو أنّ تصميمه المركّز أوحى في ما بعد تصاميم أضرحة متنوّعة. وواقع الأمر أنّ محاولةً ما لم تُقُمْ أبدًا لاستعمال تصميمه الأساسيّ بالطريقة نفسها، وهو يقوم على تقليد إغريقيّ يقضي بتعاقب المربّعات في داخل دائرةٍ ما، فيسهّل بذلك التكامل المركزيّ للأحجام ويسمح بإقامة مُذْخَر تقويّ ذي أقطارٍ خارجة عن المألوف: قبّة يبلغ قطرها حوالى عشرين مترًا، ترتقي إلى ثلاثين مترًا في أعلاها فوق الأرض؛ جدران خارجيّة يبلغ ارتفاعها اثني عشر مترًا، إذا أضفنا إليها الدرابزون الذي تنتهي به، وهي، جميعًا تعمل على الإحاطة، حول الصخرة المقدّسة، بالمسار الذي يسلكه الزوّار.

ومن المؤكّد أنّ صمت المصادر العربيّة المدوّنة الأكثر قدمًا أو غموضها، وكذلك الاقتضاب في الصيغة المستعملة في الكتابة الأمويّة في سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م للدلالة على الضرح بتعبير «القبة» - التي أُضيفت إليها أدعية وآيات قرآنية ذات طابع دفاعي عن الدين - كل ذلك لا يسمح بتحديد دقيق للأسباب الدينيّة والسياسيّة في آن التي دفعت عبد الملك إلى تشييد مثل هذا الضرح. فلا أحد يعرف ما إذا كان موقعه يطابق معراج النبيّ محمّد (ﷺ)، أي إذا كانت الصخرة تعتبر المكان الذي وطئه النبيّ ﷺ خلال الإسراء والذي منه، أو خلال سفر آخر، (الأحاديث الشريفة في هذا الصدد كثيرة ومتناقضة) ارتفع الى السماء السابعة، يقوده الملاك جبرائيل، على ظهر دابة خارقة تسمّى «البُراق». كما أنّ التفاصيل المتنوّعة المتعلّقة بالمعراج وبالوقائع المرتبطة به لم تدوّن إلّا في مؤلّفات تاريخيّة متخصّصة خلال القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. وكان ينبغي انتظار الولوج في صميم القرون الوسطى لتبلور وعي واضح حول القيمة الدينيّة لقبّة الصخرة: فالحديث عنها لا يظهر إلّا، بدءًا من القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، في كتب تمجّد «فضائل» القدس، وفي شهادات واردة في كتب تستعمل دليلًا للزيارات التقويّة، وأقدمها كتاب الهروي الذي يعود إلى النصف الثاني من القرن السادس للهجرة/ القرن الثاني عشر للميلاد. يلي ذلك، في بداية القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، شهادات مكتوبة تدلّ عليها نماذج إفادات زيارات تعود إلى هذه الحقبة، نُقشت في ما بعد في صفائح خزفيّة من الحقبة العثمانيّة. تدفع هذه المعطيات إلى الظنّ أنّ الانقطاع التاريخي الذي تسبّب به احتلال الفرنج الموقّت للقدس بين سنتي ٤٩٢ و٥٨٣هـ/ ١٠٩٩ و١١٨٧م، تلاه مباشرة، حول قبّة الصخرة التي عادت إلى المسلمين، تجمّع قطع فنيّة غدت موضوع تكريم ومواقع للزيارات التقويّة، أفادت آنذاك من تنامي طقوس تكريم الأولياء، وهي ما تزال محفوظة حتّى اليوم.

ارتبط بمظاهر التقوى هذه رواج متزايد لموضوع المعراج، مضافًا اليه استذكار لأسماء مختلف أنبياء التوراة الذين يتحدّث عنهم القرآن، بمن فيهم عيسى ووالدته.

هذه الأدلّة المختلفة تدفع أحيانًا إلى التساؤل عمّا إذا كان تقديس المسلمين لقبّة الصخرة قد بدأ في فترة متأخّرة؛ كما تدفع الى التساؤل عن المغزى الحقيقي لمبادرة عبد الملك. لكنّها ليست على درجة من الإقناع كما تبدو في الظاهر، أو الى الحدّ الذي يريد بعضهم إضفاءه عليها في المناخ الانفعالي نسبيًّا للجدالات المتّصلة بالتاريخ الديني للقدس في الإسلام. فالاهتمام الذي أبداه عبد الملك ليجعل من قبة الصخرة صرحًا لا مثيل له - وهو يضاهي بتقنيّته وحماله الجناح الدائريّ المقبّب في كنيسة القيامة - هو في ذاته معبّر عن التكريم المرتبط بموقعها، وذلك في فترة كان الإسلام يرغب خلالها في استيعاب الإرث السابق للديانات الأخرى، مع تأكيده، في الوقت نفسه، تفوّقه عليها. إضافة إلى ذلك، صار من المسلّم به عامة أنّ الجدالات الأولى حول الطبيعة الحقيقيّة للإسراء والمعراج قد بدأت في مرحلة مبكّرة كانت، في نظر فئات، إختبارات حقيقيّة عايشها النبيّ ﷺ، وفي نظر سواها مجرّد رؤى. ومن المعروف أيضًا أنّ إحياء ذكرى الإسراء، المحدّد في ٢٧ من شهر رجب، قد يكون بدأ الاحتفال به منذ عهد عبد الملك. أخيرًا، بحسب بعض كتّاب الوقائع، حدت عبد الملك نفسه الرغبة في تأكيد سلطته في فترة كانت مكّة في قبضة المتمرّد ابن الزبير، ما شجع القيام باحتفالات سنويّة عند قبة الصخرة تتزامن مع فترة الحجّ. هكذا ساعدت المعطيات والظروف على تأمين الشهرة لهذا المركز الديني الجديد للإسلام، الذي يتكيّف وطقوس الطواف كما هي الحال في الكعبة، والذي هو مثلها مرتبط بذكرى قيم تاريخيّة، لكنّه يتخطّى في فخامته الأبنية الدينيّة القديمة.

إنّ الأسلمة الرمزيّة للمجال الفارغ والمدمّر الذي قام عليه في السابق هيكل أورشليم الهيرودي، من خلال إقامة قبة الصخرة، يطابق من دون شك مخططًا مرسومًا يهدف إلى إبراز النتوء الصخري المركزي الذي تمّ تأكيد ارتباطه مباشرة بفترة عظيمة من حياة النبيّ محمّد (ﷺ)، وتاليًا إضفاء صبغة إسلامية لا جدال فيها على مكان يتمتّع برصيد من الورع الديني تعود جذوره إلى ماضٍ أقدم بكثير من الإسلام.

◄ راجع المستندات ٣٧، ٣٨ و٩٠.

قبر، قبور، هي مدافن تُوارى فيها جثث الأموات تبعًا للعادات الإسلاميّة المدفنيّة، وتلازمها أبنية تذكارية تطوّرت تدريجيًّا من شاهد إلى ضريح.

ومن الثابت أنّ حديثًا نبويًّا شريفًا أوصى بجعل سطح القبر في مستوى الأرض. وكان العلماء المسلمون الاقدمون يُجمعون على ذمّ من يزيّن القبور، وبدا هذا الأمر جليًّا بقول ابن بطّة، أحد حنابلة القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد: «من البدع أن يشاد بناء على قبر، أو أن يطيّن جدار عليه، أو أن تُسرج دابّة إليه».

ولم تلبث هذه القاعدة التي لم تتّخذ صفة التحريم الإلزامي أن اهملت، منذ عهد قديم. كذلك درجت عادة تجميع القبور في جبانات خارج المدن، ويمكن أن تزار. وقد درجت العادة أيضًا أن يُشار إلى موضع كل قبر بنُصب تذكاري يحمل كتابات، أو بعلامات فارقة، بدءًا بالسور البسيط أو بالبناء الحجري المخروطي، وصولاً إلى التابوت الحجري وإلى الضريح. وقد تفاوت الحجم والفخامة بين ضريح وآخر.

وهكذا سهُلت عمليّة الإبتهال أمام الأضرحة، وقد سمح بها الإسلام، كما سمح بكلّ تصرّف ينمّ عن ورع لمصلحة المتوفّى. وقد شجّع على ذلك أتباع بعض المذاهب الفقهيّة. إلاّ أنّ الحنابلة منعوا، بشكل خاص، زيارة الأضرحة، وممارسة شعائر وثنيّة، كالتبرّك منها مثلاً، فضلاً عن أي سلوك آخر يشبه طقوس المسيحيّين.

وبمرور الزمن، تطوّرت الزيارات التقويّة للقبور وغدت مشروعة بإجماع الأمّة، بعد أن توسّلها ممثّلو الشيعة لتكريم ذكر الأئمّة العلويّين. وقد توسعت في ما بعد مع انطلاق عادة تكريم الأولياء، وطالت مدافن الصوفيّين، ومدافن أشخاص آخرين استدرارًا لبركاتهم. كما أنّ القبور العاديّة التي ما كان يجدر أن تحدّد بأيّة إشارة أو بناء، تبعًا لما كان معمولاً به في عهد النبيّ محمد (ﷺ)، عُمد إلى تحديد معالمها باكرًا جدًّا، بحجارة مكدّسة، أو بجدران من اللِبن، أو بشواهد منتصبة مربّعة الزوايا، أو بجذوع أعمدة حُفر عليها اسم المتوفى وتاريخ وفاته. كما كانت تُنقش عليها أيضًا صيغ ونصوص دينيّة مستلّة بمعظمها من القرآن الكريم.

فإلى جانب «الشهادة» وبيّنات أخرى هي بمثابة

إعلان واضح لعقيدة الإيمان. نجد الآية ٣٣ من سورة التوبة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ أو في بداية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران، ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ ولا سيّما سورة الإخلاص: «قل هو الله أحد» التي تؤكّد وحدانيّة الله. إلى جانب ذلك كانت تتكرّر على شواهد القبور نماذج كثيرة تُكتب بخطوط مرهفة محفورة أو نائئة، إظهارًا لقيمة الحروف المزخرفة نسبيًّا التي كانت تتناسب أشكالها مع مثيلاتها المستخدمة في استعمالات أخرى، وتعتمد على نماذج متنوّعة من الكتابة، كان الخط الكوفي المزخرف أقدمها.

ومن الواضح أنّ دراسة فن الخط بلغت أوجها ما بين القرنين الخامس والسابع للهجرة/ الحادي عشر والثالث عشر للميلاد، عندما عمّ استخدام النُصب التذكاريّة، أو القبور التذكارية الضخمة المتوازية الجوانب والمصنوعة من خشب، أو حجارة، أو خزف، والتي كانت تقام أحيانًا داخل الأضرحة وتُترك فيها مساحات واسعة للكتّاب والمزخرفين المُولَّجين زخرفتها. وفي ما بعد، استؤنف استخدام النُصب التذكاريّة في بعض الأماكن، فجاءت عند العثمانيين غير تقليديّة مبنيّة على عناصر أصليّة نابعة من عاداتهم الإجتماعيّة السائدة آنذاك، مثل العمّة وعمرة الرأس اللتين كانتا تتوّجان أحيانًا القسم الأعلى من النصب. وكانت تلك العمرات تُبرز من جديد، وبدقّة متناهية، العلامات الفارقة التي كانت تميّز المتوفّى في حياته، بغية تحديد منزلته أو مستواه الوظيفي في التراتب الهرمي في الوظائف الرسميّة العثمانيّة. وفي الوقت نفسه تجذّرت عادة إقامة ممارسات تقويّة أو إحتفالات شعبيّة حول أضرحة الشخصيات المكرّمة، أو في حرم القبور التي أضحت عناصر ضروريّة في المشهد المدني للضواحي.

قبرص، بالتركيّة كِبْرِس، جزيرة تقع في المتوسط الشرقي، تعاني اليوم مشكلة تقسيمها على أسس قوميّة ودينيّة في آن، وكانت أُلحقت لفترة وجيزة بالأمبراطوريّة الإسلاميّة في مرحلة الفتوحات الكبرى، ومن ثَمّ خضعت للحكم العثماني ما بين ١٥٧١ و١٨٧٨م.

اجتاحت قبرص حملة بحريّة عربيّة-إسلاميّة سنة ٢٦هـ/ ٦٤٧م، فرضت عليها في البداية دفع جزية؛ وفي سنة ٣٣هـ/ ٦٥٣م استقرّت فيها حامية عسكريّة سحبها الخليفة الأموي يزيد الأوّل في سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م. وفي سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م، كرّست المعاهدة المعقودة بين الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع والخليفة عبد الملك تقسيمها بين الأمبراطوريّتين المسيحيّة والإسلاميّة اللتين كانت تتنازع بَحْرِيّتاهما السيطرة في المتوسط. لكنّ التفوّق كان لبيزنطية التي نجحت في إعادة بسط سيطرتها الكاملة على قبرص بعد أن استعادت جزيرة كريت في سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م.

خضعت قبرص بعد ذلك لسيطرة الفرنج بين ١١٩٢م و١٤٨٩م. وعانت خلال هذه الفترة الاجتياح الموقّت لجيوش السلطان المملوكي بَرْسباي في ١٤٢٦م، ثم سيطرة البندقيّة ما بين ١٤٨٩م و١٥٧١م، وهي فترة شهدت فيها الجزيرة حصارًا عثمانيًّا لمدنها الرئيسة بدءًا من ١٥٢٠م. وفي سنة ١٥٧٣م تخلّت البندقيّة رسميًا عن قبرص للعثمانيّين الذين أخضعوا إدارتها للشرع الإسلامي وقسّموها سناجق. في القرن السابع عشر، كان الأتراك ما يزالون أقلية في الجزيرة حيث كان يطغى العنصر المسيحي المحلّي، فعمدت السلطة العثمانيّة إلى إلغاء الهيكليّة الكنسيّة الكاثوليكيّة لتعترف بالطائفة الارثوذكسيّة وحدها، التي تمكّنت بذلك من الحفاظ على تقاليدها ودورها الاجتماعي. وأدّت حرب استقلال اليونان سنة ١٨٢١ إلى إدانة الشخصيّات البارزة في الجزيرة وإعدامها، رغم أنّ مشاركة القبارصة في هذه الحرب كانت ضعيفة. إلّا أنّ تحسّنًا طرأ على الوضع في مرحلة «التنظيمات»، إذ أُعطي المسيحيّون حصة أكبر في إدارة الشؤون العامّة.

في عام ١٨٧٨، قبيل انعقاد مؤتمر برلين، حصلت بريطانيا أخيرًا على تنازل السلطان عبد الحميد عن الجزيرة، لكنّه احتفظ مع ذلك بالسيادة عليها، حيث كان يعيّن المفتي والقضاة. وفي معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ تخلّت تركيا عن كل حق تدّعيه في قبرص التي تحوّلت، سنة ١٩٢٥، إلى مستعمرة خاضعة للتاج البريطاني. لكنّ سكّان الجزيرة ذوي الأصل اليوناني طالبوا بشدّة، بعد سنة ١٩٤٥، بالوحدة مع اليونان، في

الوقت الذي ظهر فيه حزب قوميّ تركيّ في الجزيرة. لكن الأمم المتّحدة لم تستجب لمطلب القبارصة اليونانيّين، ودفعت النزاعات والاضطرابات المتعدّدة ببريطانيا إلى إعلان استقلال الجزيرة سنة ١٩٥٩، وإلى إصدار دستورها في آب ١٩٦٠، مراعيةً فيه حقوق الطائفتين. ومن المسلّم به إجمالًا أنّ القبارصة اليونانيّين كانوا يشكلون في هذه الفترة ٧٨٪ من السكان، بينما كانت نسبة القبارصة الأتراك ١٨٪. في الواقع لم يمكن تطبيق أحكام الدستور؛ وأدّت محاولة إنقلابيّة، قام بها القبارصة اليونانيّون سنة ١٩٧٤، إلى تدخّل عسكري تركي، وإلى إعلان دولة قبرصيّة تركيّة منفصلة في الجزيرة عام ١٩٧٥. وترتّب على هذه التطوّرات حركة تنقّلات سكانيّة واسعة النطاق، لكنّها لم تؤدّ أبدًا إلى حلّ لهذه المشكلة السياسيّة التي ما تزال قائمة حتّى اليوم.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٨، ٢٠ إلى ٢٢ و٢٦.

قِبْلة، لفظة عربيّة تدلّ على عنصر أساسيّ في الطقوس الدينيّة عند المسلمين، وهو الوُجهة التي يتّخذها المؤمن ليؤدّي صلاته؛ من هنا عبارة «أهل القبلة» التي استُعملت للدلالة على أتباع الدين الإسلامي.

إنّ التوجّه بالصلاة وُجهة مكّة، أو بالأحرى في اتّجاه نقطة محدّدة هي الكعبة، مسألة حدّدها النبيّ محمّد (ﷺ) في المدينة، بعد هجرته إليها بسَنتين تقريبًا، أي حوالى سنة ٦٢٤م. وهذا التقليد يشكّل تخلّيًا عن الاتّجاه في الصلاة نحو القدس الذي اعتُمد سابقًا تقليدًا للعادة اليهوديّة، والذي دام زهاء ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا.

إنّ القبلة التي يتّخذ وجهتها المقبل على أداء الصلاة منفردًا، بما في وسعه من دقّة، يُشار إليها في المساجد عن طريق اتّجاه الحائط في مؤخّرة المسجد الذي تقابله صفوف المؤمنين ويدلّ عليه المحراب. هذا الاتّجاه يتغيّر من بلد إلى آخر بحسب الجهات الأصليّة الأربع: الشرق في المغرب، الجنوب في الأناضول وسوريا، الجنوب الغربي في إيران مثلًا. إنّ تحديد الاتّجاه الصحيح ينتج عن حسابات دقيقة تتعلّق بعلم الفلك الكروي وتأخذ في الاعتبار، لموضع معيّن، الدّالة المثلّثاتيّة لخط عرض المكان ولخط عرض مكّة، وللفرق في خطوط الطول بين المكانين. إنّ العلماء الذين سعوا إلى تحديد وجهة القبلة غالبًا ما توصلوا، عبر العصور، إلى أن يحدّدوا اتّجاهًا غير دقيق، لأنّ حساباتهم استندت إلى معلومات جغرافيّة يكتنفها الغموض. هكذا ارتكبت أخطاء في تحديد الاتّجاه وصُحِّحت في زمن إنشاء المساجد القروسطيّة: إذا ما دقّقنا في بقايا بعض المساجد - ومنها، على سبيل المثال، مسجد الكُتُبيّة في مراكش - نجد أحيانًا دليلًا على ذلك.

قبيلة، قبائل، هي تجمّعات بشريّة مبنيّة على روابط عائليّة وموزّعة أحيانًا على عشائر متّحدة، وأحيانًا أُخرى مرتبطة بأحلاف واسعة. قامت عليها بنية المجتمع العربي قبل الإسلام، كما بنية المجتمعات القبليّة الأخرى التي لم يتوقّف الإسلام عن مجابهتها على مدى تاريخه.

من الواضح أنّ الإسلام نشأ أوّلًا ونما في الجزيرة العربيّة، في بيئة تستند إلى نظام قبلي معقّد. وعلى الرغم من أنّه أعرض عن تخليد عادات ذلك النظام عندما أنشأ الجماعة الإسلاميّة الأولى في المدينة، إلّا أنّه نقل معه بعض مظاهره عندما بلغ انتشاره مستوى الأمبراطوريّة، بفضل الدينامية الفتاليّة لمجاهدي مختلف القبائل التي كانت قد اعتنقت الدين الجديد. ندرك، والحالة هذه، أنّ تكون أسماء معظم هذه القبائل - التي استمرّت تحالفاتها وعداواتها تؤثّر على التطور التاريخي للإسلام في عصوره الأولى، بعد أن كانت قد طبعت مرحلة ما قبل الإسلام - ظلّت حيّة في ذاكرة الفاتحين.

وكانت القبائل التي يُعتدُّ بها، في بداية العهد الإسلامي، تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين هما: عرب الشمال وعرب الجنوب. وكان بعض أفراد هاتين المجموعتين قد بدّل مكان سكنه في عهد النبيّ محمّد (ﷺ). وقد لعبت هذه القبائل دورًا مهمًّا في القيادات العسكريّة خلال الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، التي تجمّع خلالها محاربوها للقيام بحملات عسكريّة كُلّلت في معظمها بالنجاح. وقد شغلوا الأحياء التي خُصِّصت لهم في المدن - المعسكرات الأولى. وفي الوقت نفسه لم تكفّ خصوماتهم التقليديّة عن تسميم

الحياة السياسيّة في العهد الأموي، الذي كان يستند تارة إلى فريق وطورًا إلى فريق آخر. هذا ما فعله الأمويون خلال الصراع بين بني قيس وبني كلب.

تفاقمت هذه الصراعات، بخاصة عندما أُلزم معتنقو الإسلام من غير العرب - وفي فترة لاحقة من أهل الذمّة - أن يُصبحوا موالي لسيّد كان يضمّهم إلى القبيلة التي ينتمي هو إليها. كانت إذًا الحياة الإجتماعيّة، في القرن الأوّل للهجرة، ما تزال محكومة بنظام تراتبيّ قديم يظهر تأثيره، حتّى في الأسماء التي يتخذها المنتمون الجدد إلى المجتمع العربي - الإسلامي. وخلال العهد العبّاسي، ومع استبعاد المقاتلين العرب عن التنظيم العسكري وتكاثر عدد معتنقي الإسلام من غير العرب، بدأ هذا النظام بالإضمحلال. لم يتسبّب بعد ذلك الإنتساب إلى القبائل العربيّة في الشرق إلّا بنزاعات بين بعض الزعماء الذين أسّسوا محليًّا إمارات شبه مستقلّة كان وجودها ظرفيًّا، كإمارة الحمدانيّين في بلاد ما بين النهرين العليا.

أمّا في المغرب فكان الوضع مختلفًا، لأنّ معظم السكّان كانوا من قبائل البربر الذين، بعد انتهاء الفتوحات الإسلامية، حافظوا على تماسكهم إبّان الصراعات السياسيّة - الدينيّة التي طبعت في ما بعد تاريخ المغرب. وقد دخلت بعض قبائلهم، مثل كتامة، في خدمة الفاطميّين، وبعضها الآخر تحوّل إلى مذهب الخوارج. وما إن زال الحكم الفاطمي، كما حكمُ الأدارسة في المغرب الأقصى، حتّى أسّس بعض رؤساء قبائل البربر السلالات المتتالية التي حكمت الأمبراطوريّات الكبرى، إلى أن وصل من جديد أشراف إلى الحكم: السعديّون والعلويّون. أمّا بالنسبة الى الاندلس، فقد استقرّت فيه عناصر من قبائل عربيّة، وأخرى من قبائل البربر لم تنسجم في ما بينها، ما أدّى إلى تجزئة السلطة بين مراكز إقليميّة طبعت عهد ملوك الطوائف، وقاومت محاولات لاحقة لضمّها قام بها على التوالي المرابطون والموحّدون.

واعتبارًا من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، شهد الشرق غزوات متلاحقة لقبائل رحّل قدمت من وسط آسيا ومن مناطق أكثر بعدًا. وهنا أيضًا شكّل التراتب القبلي بُنية الجيوش الغازية وسطوة قادتها، سواء عند الاتراك كالسلاجقة وورثتهم، أو في ما بعد عند المغول، كأفراد عائلة جنكيزخان وأعقابه. وعلى هذا، وأكثر من أيّة فترة مضت، فقد اعتُمدت في انتقال السلطة في الأمبراطوريّات والممالك - التي قُسِّمت وكأنّها أملاك عاديّة - نُظم انتقال السلطة عند هذه القبائل وأنماطها.

لكن، وفي الوقت نفسه، كانت بدأت تطغى تدريجيًّا مظاهر متعدّدة للتثاقف، ما يمنعنا من القيام بعمليّة تقييم دقيقة للدور الذي لعبته الروابط بين العشائر. وإنّنا نجهل إلى أيّ مدى تمازجت بعض القبائل مع السكّان، أو إنّها، كما عند التركمان، حافظت على بنى قديمة أثّرت على حياة أبنائها الإجتماعيّة. وكانت كل غزوة تأتي من آسيا تجلب معها تأثيرات لا تلبث أن تفقد أهميّتها في دولة بيروقراطية كبيرة كالدولة العثمانيّة، لكنّ هذه التأثيرات استمرّت فاعلة في إيران، وعادت لتظهر بعد زوال الدول المركزيّة التي مثّلتها لفترة دولة الإيلخانيّين، ثمّ دولة تيمورلنك، فدولتا التيموريّين والصفويّين.

إنّ تأثيرات مماثلة استمرّت، في آسيا الوسطى، تتحكّم بتطوّر خانيات القراخانيّين والاوزبكيّين، فضلًا عن التحكّم بالعلاقات النزاعيّة العابثة بضراوة داخل البلاد التي احتلّتها قبائل جديدة، والتي أصبحت في ما بعد دولة أفغانستان. وفي الوقت نفسه تمثّل ضعف البنى الحضريّة الذي شهده الشرق الأوسط منذ نهاية القرن الثامن عشر، بسبب إفقاره قياسًا بأوروبا، بتجدّد نشاط البدو الذين نهبوا أطراف شبه الجزيرة العربيّة وسوريا والعراق وبسطوا سطوتهم عليها.

لقد تأكّد، مرّة جديدة، انتصار البدو على الحضر، واستمرّ هذا الوضع حتّى تحوّلات القرن العشرين التي خصّت العالم الإسلامي بأنماط جديدة من العيش، وبتوازنات سياسيّة جديدة. والمرحلة التي أعقبت تلك التحوّلات قطعت كل الصلات بالتقاليد السابقة، واحتقرت البداوة التي أخذت تزول تدريجيًّا، لكنّها لم تمحُ كليًّا ذكرى النظام القبلي وتراتبه. وتستمرّ السلطة، غالبًا، حكرًا على أُسر كبرى تتمتّع هنا وهناك

بامتياز إجتماعي حقيقي بفضل سلسلة نَسَبها. ونستشف دور هذه الأُسر، ليس في الدول التي ما زالت تحكمها مباشرةً كإمارات وممالك شبه الجزيرة العربيّة وحسب، بل أيضًا في الدول التي نشأت نتيجةً ليقظة القوميّات ولانتفاضاتها الشعبيّة حيث غالبًا ما نجح أبناء هذه الأُسر في أداء دور سياسي بانخراطهم في الأحزاب الجديدة.

القبيلة الذهبيّة (خانات)، ١٢٢٦-١٥٠٢م، ملوك مغول، ورثة سلالة الباتويّين الذين أقاموا في السهوب الروسيّة السيبيريّة الجنوبيّة، وأدخلوا أمبراطوريتهم في الإسلام إبتداء من مطلع القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد.

هؤلاء المتحدّرون من ابن جنكيز خان البكر (جُوجي) وحفيده باتو الذي تكنّت باسمه سلالتهم الأولى، بسطوا نفوذهم على أمبراطوريّة بدويّة غريبة مركزها سَراي على مجرى نهر الفولجا الأسفل. بدأ التأثير الإسلامي خلال عهد برْكه خان (٦٥٥- ٦٦٥هـ/ ١٢٥٧-١٢٦٧م) الذي اعتنق الإسلام بحسب المذهب السنيّ مخالفًا الإيلخانيّين في إيران الذين حافظوا على انتمائهم الشَمَني أو البوذي، وقد عقد برْكه خان معاهدة مع مماليك مصر.

لم تعطِ هذه التجربة الأولى أيّة نتيجة، ولكنّها تجدّدت بعد بضعة عقود عندما اعتنق أوزبك خان أو غياث الدين محمد أوزبك الإسلام، وقد دام حكمه من ٧١٣ الى ٧٤٢هـ/ ١٣١٣ إلى ١٣٤١م.

استغلّ هذا العاهل انهيار النفوذ الإيلخاني عام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م، ليجعل من القبيلة الذهبيّة دولة إسلاميّة قويّة ترتبط ثقافيًا بالأناضول، وتعتمد على شعب تتري كان قد تحوّل إلى الإسلام.

استطاعت أمبراطوريّة المغول الروسيّة أن تغتني، جرّاء موقعها الجغرافي الذي كان يمكنّها من بسط نفوذها على طرق قوافل آسيا الإسلاميّة باتّجاه الشمال، ومن ممارسة سيادتها على أوروبا الشرقيّة، إلى حدّ جعل دوقيّة موسكو الكبرى تدفع لها جزية.

غير أنّ السلطة والثروة لم تحولا دون تفكّك الأمبراطوريّة الداخلي، وقد سرّع هذا التفكّك الدّمار الذي أحدثه تيمورلنك خلال العامين ٧٩٣ و٧٩٧ للهجرة/ ١٣٩١ و١٣٩٥ للميلاد. انتهى الأمر إلى نشوء خانات إسلاميّة مستقلّة في قازان واستراخان والقرم. ويعود إلى أمراء القرم المعروفين بـ«خانات غِراي»، الذين دعمهم العثمانيّون، القضاء نهائيًا على آخر ممثلي القبيلة الذهبيّة.

قُتيبة بن مُسلم الباهلي، أبو حَفْص، ٤٩-٩٦هـ/ ٦٦٩-٧١٥م، قائد عربي يتحدّر من أُسرة ذات نفوذ في البصرة؛ والٍ شهير على خراسان، في عهد الخلفاء الأمويّين. استطاع الاستيلاء على آسيا الوسطى في أقلّ من عشر سنوات.

حظي قُتيبة - وكان أبوه مقرّبًا من الخليفة يزيد الأوّل - بفضل والي العراق، الحجّاج بن يوسف، ثقة الخليفتين الأوّلين من الفرع المرواني، عبد الملك والوليد الأوّل، فخدمهما بإخلاص. بعد وفاة حاميه وإثر تحوّل في توجّه النظام، تمرّد قتيبة على سلطة الخليفة ولاقى حتفه في هذه المغامرة.

سنحت له الفرصة، قبل ذلك، كي يُظهر جدارته، فأعاد تنظيم المقاطعات الشرقيّة التي كان قد تولّى حكمها تحت سلطة الحجّاج، واستمال إليه بعض فئات الشعب الإيراني، وعمل على توسيع رقعة دار الاسلام. استطاع، بفضل حملاته العسكريّة وحنكته السياسيّة، أن ينتزع من أهل السُّغد مناطق ذات أهميّة كواحات بُخارى التي استولى عليها بين العامين ٨٦ و٩٠هـ/ ٧٠٥ و٧٠٩م. كما استولى على سمرقند سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م. أخضع خوارزم وقادته طموحاته بعيدًا، فجعل من وادي جيحون أو آموداريا حول بلخ مركزًا ناشطًا للنفوذ الإسلامي، كما وجّه صوب فرغانة وحدود الصين غزوات، ربّما استهدفت مراقبة الخطّ التجاري للقوافل ،الذي كان يشكّل قديمًا «طريق الحرير» باتّجاه الشرق الأقصى.

قَحْطان، جَدٌّ تسمّى به عرب الجنوب أو اليمنيّون من الذين وضعتهم في مواجهة عرب الشمال، العدنانيّين أو بني معدّ، عداوة قديمة، وكان القحطانيّون يزعمون أنّهم من ذريّة النبي هُود ويتفاخرون بأنّهم يمثّلون العرب الأقحاح.

يُذكر منهم الحِمْيَريون من أهل الحضَر، وكهلان، وتُنسب اليهم جماعات بدويّة بينها الأزْد، وطيء

وهمْدان، وكذلك اللَّخميّون، والغساسنة [من الأزد] وكِنْدة. وقد عُرف هؤلاء بتأسيسهم ممالك في المناطق السوريّة-العراقيّة قبل الاسلام. إلى الحميريّين ينتسب بنو كلب الذين استوطنوا سوريا وناصروا الأمويّين، وكذلك بنو تنوخ. كما ينتسب الأوسُ والخَزْرَج إلى الأزد، وكان قسم منهم قد استقرّ في واحة يثرب - المدينة المنوّرة في ما بعد - وذلك قبل هجرة النبيّ محمّد (ﷺ) إليها.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج الكاتب البغدادي ٢٦٠-٣٢٨هـ/ ٨٧٣-٩٤٠م)، عالم لغة، ناقد ومؤرّخ، ينتمي الى العصر الذهبي للعبّاسيّين، حملت كتاباته ثقافة طبقة الكتّاب الذين كانوا يعملون في دواوين الخلفاء.

كان قدامة الذي نجهل الكثير عن حياته، من دون شك، مسيحيًّا اعتنق الإسلام في عهد الخليفة المكتفي، وتقلّد وظائف إداريّة عدّة في بغداد قبل أن يعيّن، سنة ٩١٠، رئيسًا للكتّاب في ديوان الشرق. خلّف مؤلّفات ذات دلالات، ما تزال ثلاثة منها محفوظة، أبرزها، لقيمته الوثائقيّة، «كتاب الخراج» الذي تناول فيه تنظيم الإدارة المركزيّة في الأمبراطوريّة. وفي مجال آخر، «كتاب نقد الشعر» الذي يقدّم تحديدًا فريدًا لفنّ الشعر، إضافةً إلى الاهتمام بفنون البلاغة. وأخيرًا «كتاب الألفاظ» الذي يعنى بالنثر الفنيّ، بشكل خاص.

القَدَرِيَّة، تيّار فكري يرتبط بموقف ديني وسياسي في آن معًا. أُتُّخذ هذا المذهب، بدءًا من القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، حريّة الاختيار عند الانسان ومسؤوليته عن أفعاله، مقلّلًا من تدخّل الله في تسيير هذه الأفعال وفقًا لعقيدة «القضاء والقدر».

يبدو أنّ نعت «قدري» اعتُبر في ذلك الوقت محقّرًا وأُلصق بالمعارضين للحكم الأموي، لأنّهم كانوا يقولون أنّ الخليفة، شأنه شأن كلّ مؤمن، مسؤول عن أعماله. دافع عن هذه المقولة الزاهد الحسن البصري في رسالة وجّهها إلى الخليفة عبد الملك، كما دافع عنها معبد الجُهني، صديق الحسن البصري، الذي شارك في ثورة ضد الأمويّين، فأمر بقتله الخليفة الأموي نفسه. كما تبنّاها غَيلان الدمشقي، القبطي الأصل، الذي، بعد أن خدم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، قال إنّ كل صاحب سلطة شرعيّة يمكن أن يخلع إن لم يحكم وفاقَ مبادئ القرآن الكريم والسنّة. فكان هذا سببًا لإعدامه في دمشق، في حين أنّ معارضين آخرين نفتهم السلطة إلى جزيرة في البحر الأحمر.

وقد أخذ بهذا المذهب الخليفة يزيد الثالث عندما تسلّم زمام الحكم لفترة وجيزة عام ١٢٦هـ/ ٧٤٤م.

وبعد انقضاء هذه الفترة من الحيويّة المثيرة للجدل، استمرّت القدريّة في مطلع العصر العبّاسي، في صيغ «كلاميّة» وذابت في مذهب المعتزلة الناشئ.

هكذا تلاشت نهائيًّا هذه الحركة الفريدة التي رافقت ظرفًا تاريخيًّا محدّدًا، ربّما يمكننا إيضاح رواجها بتأثير المناظرات الجدليّة القائمة وقتئذ، في الوسط الإسلامي، مع مسيحيّين كانوا بدورهم يدافعون عن طروحات قريبة من طروحات القدريّة وملخّصها: بما أنّ الخطيئة لا يمكن نسبتها إلى الله، ينبغي اعتبار الإنسان مسؤولًا عن جميع أعماله، حسنة كانت أو سيئة.

القَدَريّة أو حرية الاختيار، من أكثر المواضيع التي أُثيرت في أثناء النقاشات التي جرت بين المدارس الكلاميّة المختلفة والتي أدّت إلى التعمّق في العقيدة الإسلاميّة.

الموقف السائد في هذه المسألة كان يقول إنّ الأعمال البشريّة مسيَّرة، أي ناتجة عن قرار إلهي سابق، فليس للإنسان حريّة الاختيار، رغم تحمّله تبعة أعماله. تمسّك المحافظون بهذا المفهوم القائم على معطيات قرآنية مفادها أنّ الله كلّي القدرة، يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، والمشدّد، في الوقت نفسه، على مسؤوليّة الإنسان الذي سوف يعاقب أو يكافأ على أعماله، في يوم الدين.

ثمّة علماء كلام أخذوا بتفسيراتٍ مختلفة: فأنصار القَدَرية، وكذلك المعتزلة الذين خلفوهم، حصروا تدخّل الإرادة الإلهيّة واعترفوا بقدرة الإنسان على التحكّم بأعماله؛ أما الاشعريّة فكان لهم موقف وسطيّ إذ أقرّوا بأن أعمال الإنسان يحدّدها الله بشكل مسبَق، لكنّ الإنسان يستطيع أن يكيّفها.

القدس، أورشليم قديمًا (فلسطين المحتلّة - إسرائيل)، حاضرة حديثة حافظت على بقايا المدينة المقدّسة عند اليهود والمسيحيّين. بعد استيلاء المسلمين عليها في القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي، أصبحت بالنسبة إليهم، بالرغم من تاريخها المضطرب، مدينة ذات اعتبار ديني دائم. إنّ الاسم العربي «بيت المقدس» الذي أطلق عليها إبّان الفتوحات الكبرى، والذي يدلّ على لفظة مستعارة من الآرامية بمعنى «بيت الهيكل»، يفترض مفهوماً من القدسية بسبب الجذر السامي «قدس» الموجود في تسمية «البيت المقدّس»، وبصورة خاصة القدس. كرّست هذه التسميات مصير القدس الإسلامي إذ إنّه، بدءاً من العام ١٧هـ/٦٣٨م، عقب انتصار أجنادين في العام ١٣هـ/٦٣٤م والبرموك في العام ١٥هـ/٦٣٦م، عمدت القوّات العربيّة الأولى إلى ضمّ المدينة البيزنطيّة الصغيرة إلى الأمبراطوريّة الإسلاميّة بموجب معاهدة صلح. فالتاريخ اللاّحق لهذه المدينة المقدّسة التي بقيت آهلة بغير المسلمين من مؤدّي الجزية، يُختزل بشعور الاحترام الذي شعر به الفاتحون الأوائل حيال هذا الموقع والآثار المرتبطة به. في الواقع، اهتمّ المسلمون بصورة خاصة بالساحة المدمّرة حيث توجد بقايا هيكل هيرودس، فقرّروا أن يجعلوا منها مكاناً إسلاميّاً، فأطلقوا عليها اسم المسجد الأقصى، وهو اسم أخذوه من آية قرآنية (سورة الاسراء، الآية الاولى) تتعلّق بالمعراج، وقد تملّكوا إراديّاً إرث الديانتين الموحّدتين اللّتين أكّد الدين الجديد أنّه يخلفهما. حصل هذا الأمر برعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي يشير مؤرّخو القرون الوسطى العرب، بدءًا من الطبري، الى الزيارة الأسطوريّة التي قام بها الى المدينة والتي أرشده خلالها كعب الأحبار [اليهوديّ اليمنيّ]. وامتنادًا بخاصةٍ الى هذا الحدث، ساهمت روايات عدّة، عُرفت بالـ«إسرائيليّات»، في تبرير احترام المسلمين لهذا الحرم المهيب، من خلال ربطه بذكرى أنبياء التّوراة الذين ورد إسمهم في القرآن الكريم، ومن بينهم عيسى [يسوع] ووالدته، وكذلك من خلال البحث عن أثرٍ للمعراج، أي انتقال النبيّ (ﷺ) ليلًا إلى أعلى الصخرة التي يقوم عليها اليوم مسجد قبّة الصخرة الذي شيّده الأمويّون تخليدًا لهذه الذكرى. ساهم تموضع هذه الأحداث المثبّتة منذ القديم في تدعيم سياسة تهدف إلى أسلمة مدينة القدس، عبر تشييد معابد جديدة على أيدي الأمويّين المروانيّين. وقد ارتكزت هذه السياسة على دوافع دينيّة وسياسيّة لها أبعادٌ عميقة. إذا كان المؤرّخون، في العصر الحديث، يناقشون إلى الآن مرامي هؤلاء الحكّام والأهميّة الحقيقيّة لإنجازاتهم، فيبقى من الواضح، نظراً إلى أهميّة وضخامة مشروعهم المعماريّ الذي جمع، في المكان نفسه، مسجدًا جامعًا وأثرًا تذكاريًا في الأهميّة نفسها، أنّ هذا المشروع هو بحجم طموحات هذه السلالة في امتلاك أرض قديمة مقدّسة. وهنا تكمن، بالنسبة الى الإسلام، مرحلة أوّليّة في تطور «مفهوم قدسيّة القدس» الذي طغى طيلة القرون الوسطى، متوافقًا مع اهتمام متنامٍ يسعى للدفاع عن الصفة العالميّة أو الشموليّة للإسلام.

يتفق هذا التطور، الذي تشجّعه بعض المواقف الدينيّة، ومنها تأمّلات المتصوّفة ونقواهم وتأثير بعض المذاهب الدينيّة والممارسات الشعبيّة المتعلّقة بتكريم الأولياء، مع ازدهار أدب متخصّص في مديح القدس وفضائلها. وقد اهتمّت أعمال علميّة حديثة بتحليل هذا الأدب، لكن لا يمكن في أي حال دراسته بمعزل عن الأحداث التاريخيّة. بالطبع، حافظت القدس على أهميّتها الدينيّة الموروثة من الأمويّين، وقد عُرفت في سوريا، في القرون الوسطى، كثالث المدن المقدّسة في الإسلام - رغمَ كونها أقلّ شهرةً من الأماكن المقدّسة الأخرى كمكّة والمدينة - إلى أن احتلّها الفرنج في العام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. هذه الأهميّة حوفظ عليها بطريقة ما، كجواب عن حيويّة ونشاط زيارات الحجّ التي كان يقوم بها، باستمرار، الحجّاج المسيحيّون القادمون من الغرب الأوروبي. فالمدينة المتنازع عليها اعتُبرت، بالرغم من هذه الصفة، وربّما بسببها ايضاً، موضعاً من فلسطين لم يكُن، على عكس المدن المجاورة، كاللُّد والرملة، مقرًّا لحاكم أو مقرًّا إداريًّا ريفيًّا ولم يستقطب الأنشطة التجاريّة والحرفيّة.

إنّ تطوّر القدس الديموغرافي المتواضع، مقارنة بالنموّ الواسع الذي عرفته معظم المدن السوريّة في عهد

الاموييّن - سواء كانت مدناً قديمة ما تزال ناشطة، مثل أنطاكية وحلب ودمشق، أو مدنًا أُنشئت حديثاً في أماكن احتُلّت من أجل استغلالها زراعيًا، كعنجر أو قصر الحير الشرقيّ - لم يكن سوى ثمرة استمراريّة فريدة من نوعها، لمدينة مقدّسة حافظت على شهرتها في الخارج إلى ما بعد انتقالها إلى الإسلام. هكذا تبدو الحظوة التي تمتّعت بها على تناقض مع الازدهار المتواضع الذي عرفته مواردها الأخرى.

بالطبع، يشهد اكتشاف بقايا أثريّة، منذ فترة قريبة، لحيّ سكني أمويّ، عن رغبة أسياد المدينة الجدد في تشييد مبانٍ جميلة خارج المدينة الضيّقة حيث كان يقطن اليهود والمسيحيّون، وحيث فضّل هؤلاء الأسياد ألّا يسكنوا بأنفسهم. لكنّ Aclia الرومانيّة القديمة، التي أصبحت في ذلك العصر Ilya إيلياء الوارد ذكرها في بعض الكتابات الموجودة على النُّصب الدالّة على المسافات التي تعود الى عهد عبد الملك، لم تتمتّع بأي من خصائص الحواضر الإسلاميّة الفكريّة أو الاقتصاديّة الناشطة. تضاءلت في ما بعد أهميّة القدس تحت وطأة الفقر العام والاجتياحات الحربيّة التي طبعت تاريخ سوريا، اثر خضوعها للدولة العبّاسيّة، إبتداء من العام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، إنطلاقاً من العراق، وللدولة الفاطميّة، إبتداء من العام ٣٥٨هـ/٩٦٩م إنطلاقاً من مصر. لم يكلّف أيّ خليفة نفسه عناء زيارة القدس بعد زيارة المنصور في العام ٧٥٨م، وابنه المهدي بعد ذلك بقليل. شاع الخراب والثورات والمجاعة في القدس، لكنّ التدفّق المستمرّ للحجّاج والمسافرين الغربيّين من مسيحيّين ويهود حافظ على مستوى معيّن من النشاط فيها. وبصورة إجماليّة احتُرمت المباني غير الإسلاميّة في القدس، على الرغم من الأثر السلبيّ الظرفيّ الذي تركته، في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، سياسة الخليفة الفاطميّ الحاكم الذي أمر بهدم كنيسة القيامة في العام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، ليعود ويسمح ببنائها من جديد بمساعدة البيزنطيّين.

وبشكل عام، طيلة هذه الفترة من الانكفاء التاريخي ومن تفتُّت المقاطعات السوريّة - الفلسطينيّة، تأثّرت المدينة بحالة الدمار الذي ضرب بشدّة المناطق المجاورة بسبب الانقسام داخل الصف الإسلامي، والنزاعات بين الامارات المتخاصمة، وابتزاز البدو، والخراب الذي بلغ ذروته مع الغزوات التي قامت بها جماعات تركيّة أتت بها من آسيا الوسطى اجتياحات السلاجقة.

وفي نهاية هذه الحقبة سقطت القدس، بعد أن تجاذبها السلاجقة والفاطميّون في الأعوام ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م، و٤٧٠هـ/١٠٧٧، و٤٧١هـ/١٠٧٨م، و٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، في أيدي فرنج الحملة الصليبيّة الأولى في ١٥ تموز ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وعرفت نظاماً مختلفاً نتجت عنه تحوّلات إقتصاديّة وعمرانيّة عديدة. أصبحت القدس عاصمة المملكة اللاتينيّة، فاستقبلت مجموعات جديدة من السكّان وتأمّنت لها شروط أعطتها الأولويّة، إذ أصبحت مركزًا للحكم ومركزًا دينيًا وتجاريًا في آن. تلاشت آثار هذا التحوّل بسرعة بعودة القدس إلى الإسلام التي تمّت على مرحلتين: في البداية دخول صلاح الدين إليها سلميًّا وبموجب صلح في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، بعد انتصاره في معركة حطّين؛ ومن ثمّ إعمالُ السَّلب والمجازر فيها، على يد الجحافل الخوارزميّة التي اجتاحتها في سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، جاعلةً منها من جديد أرضًا إسلاميّة، بعد أن كان قد تنازل عنها الملك الكامل الأيّوبي، في العام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، للأمبراطور فريدريك الثاني. بعد ذلك تغيّرت الظروف بشكل تام. فالسلطة التي مارسها على القدس المماليك، حكام مصر، حتّى ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ومنذ ذلك التاريخ العثمانيّون الذين أصبحوا أسياد أمبراطوريّة تركيّة استمرّت طويلاً، لم تُبقِ لهذه الحاضرة إلّا أمجادها السابقة. فالمدينة التي عمل المسلمون على استعادتها بالقوة، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، أصابها الخمول بعد أن أصبحت مركزًا لقضاء عاديّ، تكاد لا تحييه تجمّعات المدارس والخوانق التي تحيط بالحرم الشريف أو هي على مقربة منه. ومع ذلك استمرّ الحجّاج الأجانب من جميع الطوائف في المجيء اليها. وقد ساهمت الرسوم التي كانت تُجبى من زيارة قبر السيّد المسيح في تأمين متطلّبات الشعائر الدينيّة التي تجري في الحرم الأقصى. وقد أفادت المدينة، في

القرن السادس عشر، من سخاء كبار سلاطين اسطنبول.

أخيراً، أدّت تحوّلات أخرى برزت في بداية الفترة المعاصرة، بسبب الاهتمام الدولي المتزايد بالقدس، إلى زعزعة ظروف انتمائها السياسي للعالم الإسلامي. بدأ هذا الأمر بعد الفوضى والقمع اللذين عرفتهما المدينة في بداية القرن التاسع عشر (العام ١٨٣١)، خلال الرقابة التي أرادت مصر فرضها على القدس ابّان حكم محمّد علي وابراهيم باشا. تلت هذه المحاولة الفاشلة جهود بعض القوى الأوروبيّة التي سعت لتحسين وضع مسيحيّي القدس في ظل الإدارة العثمانيّة، فأُنشئت من جديد بطريركيّة لاتينيّة في العام ١٨٤٧، وازداد عدد الممثّلين الدبلوماسيّين وعدد الأجانب المقيمين فيها. ثمّ حصلت هجرات يهوديّة إلى فلسطين، كما حصل الانتداب البريطاني الذي جاء متمّماً، منذ العام ١٩٢٠، إحتلالاً عسكريًّا بدأ في العام ١٩١٧، في أثناء الحرب العالميّة الأولى. منذ ذلك الحين، تطوّر وضع القدس، وتأثّرت، عاماً بعد عام وبشكل مأسوي، بارتدادات التطوّر الأمني والإجتماعي والإقتصادي لبلد دخل في الحداثة وهو منقسم على نفسه. ازدادت حالة الفوضى بعد الحرب العالميّة الثانية وأدّت، بعد رفض تدويل القدس الذي دعت إليه الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة في العام ١٩٤٧، إلى تغيّرات مفاجئة نتجت عن أعمال عسكريّة متتالية. فقُسّمت القدس في العام ١٩٤٩ ما بين إسرائيل والأردن بعد وقف اطلاق نار كرّس سيطرة الجيش الأردني على القدس القديمة. وبعد نحو عشرين عاماً، وإثر حرب ١٩٦٧، ضمّت إسرائيل الجزء العربيّ من المدينة وسيطرت على الضفّة الغربيّة لنهر الأردن. إنّ التطوّر الحديث للجزء الغربي للقدس يتناقض مع التنظيم المدني القديم المحافَظ عليه جزئيًّا في القسم الشرقي، حيث ظلّت مجمّعة، داخل آثار اسوار القرون الوسطى، الأحياء الإسلاميّة القريبة من قبّة الصخرة والحرم والتي لا تزال تتميّز بأبنية دينيّة مملوكيّة وعثمانيّة.

◄ راجع المستندات ٨-١٠، ١٢، ١٣، ١٨، ٢٠، ٢٣، ٣٧، ٣٨، ٨٩ و٩٠.

القرآن، مجموعة الوحي الذي نقله النبي محمّد (ﷺ) باسم الله خلال رسالته؛ وقد دُوّن القسم الأكبر منها بعد وفاته وشكّلت أحد الأسس الرئيسة للعقيدة والشريعة، وكذلك المادة الأساسيّة للعلوم الدينيّة الإسلامية.

١ - يرى العلماء الغربيّون قربى بين هذه التسمية وتعبير «قِرْيانا» السرياني ومعناه «قراءة الكتب المقدسة»؛ بينما يكتفي المسلمون باعتبارها المصدر المشتق من فعل «قرأ» الوارد مرّات عدة في النص القرآني، وبخاصة في آية - هي من بين الآيات الأقدم - تلقّى عبرها النبيّ محمّد (ﷺ) الأمر التالي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [القرآن، سورة العلق، الآية ١]. في الواقع، يمكن أن تعني كلمة قرآن إمّا فعل تلاوة الآيات، وإمّا، في غالب الأحيان، مجموعة النصوص التي أعلنها النبيّ محمّد (ﷺ) والتي جمعها الصحابة في كتاب هو «الكتاب» بامتياز، يعظّم المفسّرون المسلمون مثاله السماوي لدرجة أنّ هذا الأمر أثار جدالاً على صعيد علم الكلام في القرون الوسطى، نتيجة جهود العقلنة التي قام بها مفكّرو المعتزلة. وظلّ هذا الجدال محتدمًا لفترة طويلة ما بين القائلين بعقيدة «القرآن الأزلي» أو «القرآن غير المخلوق»، والقائلين بعقيدة «خلق القرآن».

يشتمل القرآن على عدد من السور تحتوي كلّ منها آيات تطابق النداءات والأوامر والقصص التي أعلنها النبيّ محمّد (ﷺ) منذ بدايات الدعوة في مكّة، حوالى السنة ٦١٠م، حتّى وفاته سنة ٦٣٢م. وكان الملاك جبرائيل ينقل الآيات الموحاة للنبي؛ ومن الملاحظ أنّ طريقة إيرادها تتغيّر، وانّ المتكلّم في بعضها غير مذكور. وفي الواقع لا ترد الإشارة إلى الملاك جبرائيل إلّا مرّة واحدة، في الآية ٩٧ من سورة البقرة، التي تُعزى إلى المرحلة المدنيّة.

شكّل التسلسل الزمني باستمرار المشكلة الأساسيّة لنزول السور والآيات التي دُوّنت في ما بعد من دون ترتيب محدّد وفي ظروف لم تتّضح، رغم الأبحاث التي جرت حول هذا الأمر. فبحسب العقيدة التقليديّة، رأت النسخة الأولى المكتوبة للقرآن النور في نهاية عهد الخليفة أبي بكر، أي في سنة ١٣هـ/٦٣٤م: فقد أبدى عمر بن الخطاب - أحد المقرّبين من أبي بكر والذي

صار خليفة بعده - قلقه من غياب عدد من المسلمين الذين يحفظون القرآن ممن قُتلوا في حروب الردّة، فأقنع الخليفة أبا بكر بأن يطلب من زيد بن ثابت، كاتب النبيّ، جمع كل المقاطع المكتوبة أو «المحفوظة في صدور الرجال». غير أن روايات أخرى، تحتوي تفاصيل مختلفة، تنقض الرواية السالفة، لا بل إنّها تؤكّد أنّ أيّ نص مكتوب لم يتوافر قبل التجميع الذي تمّ في عهد عثمان بن عفّان، ثالث الخلفاء الراشدين. من هنا نجم الموقف النقدي اللاذع لبعض العلماء الذين يؤكّدون أنّ القرآن الذي دُوّن خلال عهد عثمان لا يعكس بالضرورة دقّة الرسالة النبويّة؛ ويكتفي علماء آخرون بالاشارة إلى أنّ الأحاديث النبويّة مالت إلى التقليل من دور هذا الخليفة.

مهما يكن من أمر، فُرض الجمع الذي قام به عثمان نصًّا رسميًّا منذ بدايات الإسلام. رغم ذلك ظلّت الأسئلة تُثار حوله. فبحسب الرواية التقليديّة، طُلب إلى عثمان وضع صيغة رسميّة للقرآن على أثر خلاف نشب بين مجموعتين كانتا تتلوانه بشكل مختلف خلال الصلوات الجماعيّة، فعمد الخليفة إلى تعيين لجنة ضمّت زيدًا وثلاثة مكيّين أوكل إليها وضع نسخ عدّة للنص المكتوب بلهجة قريش، وقد حفظ عثمان نسخة في المدينة حيث مقرّ إقامته، وأرسل النسخ الباقية إلى المدن الكبرى في الأمبراطوريّة، البصرة والكوفة ودمشق؛ كما أنّه أمر أيضًا بإتلاف النسخ التي كانت موجودة سابقًا، وهذا ما حصل في كل الأمكنة ما عدا الكوفة حيث حُفظت النسخة التي نفّذها ابن مسعود. لكنّ هذه الرواية، كما وردت، تثير صعوبات عدّة، فقد أصبح من المؤكّد اليوم أنّ النص القرآني الذي حُوفظ عليه لا ينطبق على لهجة قريش، ما يفتح باب التساؤل عن ماهيّة دور اللجنة التي شكّلها عثمان. ما من شك في أنّ النص القرآني المعمول به يعود - لناحية ترتيب السور - إلى فترة الخليفة عثمان. لكنّ الإبهام ظلّ محيطًا بالمحتوى، إذ إنّ الكلمة ذاتها تتّخذ في الكتابة العربيّة معاني مختلفة بحسب طريقة ضبطها بالشّكل، كما أنّ ثمّة، حتّى اليوم، قراءات متعدّدة لتلاوة القرآن تُعتبر منذ زمن بعيد شرعيّة. ويشير المفسّرون القدماء للقرآن ليس إلى وجود فوارق مهمّة في النص وحسب، بل أيضًا إلى آيات وسور لم ترد في التجميع الذي قام به عثمان.

كذلك، بحسب التقاليد القديمة، لم يبدأ استعمال النقاط فوق الحروف أو تحتها، في النص القرآني، للتمييز، داخل الكلمة الواحدة، بين حرفين يُكتبان بالطريقة نفسها إلّا في نهاية العصر الأموي، ثم أُضيف اليه لاحقًا نظام الحركات لضبط اللفظ. ووجب انتظار بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي حيث قام ابن مجاهد (المتوفى سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦ ميلادية) بتحديد سبع قراءات للقرآن، منسوبة إلى سبعة علماء من القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، تُعتبر وحدها مرجعًا. وفي بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، تمت إدانة نسخة ابن مسعود بشكل نهائي. وأصبحت القراءات الرسميّة المعتمدة في المدن الكبرى في الخلافة، كالمدينة ومكّة والفسطاط والبصرة والكوفة ودمشق، هي تلك العائدة الى نافع المتوفى في المدينة سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، وابن كثير المتوفى في مكّة سنة ١١٩هـ/ ٧٣٧م، وأبي عمرو المتوفى في الكوفة حوالى سنة ١٥٣هـ/ ٧٧٠م، وابن عامر المتوفى في دمشق سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، وعاصم المتوفى في الكوفة سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م، وحمزة المتوفى في العراق سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م، والكسائي المتوفى قرب الريّ سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م. كما قُبلت قراءات أخرى أيضًا. ولكن، في الفترة المعاصرة، عرفت قراءتان فقط رواجًا كبيرًا هما: قراءة عاصم في مصر التي استُند إليها في الطبعة المصرية للقرآن سنة ١٩٢٣؛ وقراءة نافع المعتمدة في أفريقيا. وفي مطلق الأحوال، لا يمكن النظر الى موضوع قراءات القرآن بمعزل عن الظروف التي تمّ ويتمّ فيها نسخه في كتابة عربيّة تعوزها الدقّة.

٢ - والقرآن، كما تبرزه النسخة المصرية التي هي الأكثر رواجًا، يحتوي ١١٤ سورة متفاوتة الحجم، تشتمل كل منها على آيات يراوح عددها، بحسب السور، ما بين ٣ و٢٨٧. وبالإجمال، ترد السور الأطول في بداية الكتاب والأقصر في نهايته. إلّا أنّه يجب تمييز السورة الأولى «الفاتحة» التي هي صلاة، وكذلك السورتين الأخيرتين اللتين تشكّلان الخاتمة واللتين تدعوان لشد العزائم.

لا يطابق تصنيف السور هذا الترتيب الزمني المفترض للدعوة، بل إنّه معاكس له: فالسور الأطول، بالإجمال، تحتوي أوامر أطلقها النبيّ ﷺ في المدينة في المرحلة الأخيرة من الدعوة؛ بينما السور التي تحتوي النداءات الأولى التي أطلقها النبي ﷺ في مكّة، هي بالإجمال قصيرة. وقد شغل العلماء المسلمون، في فترة مبكرة، بمسألة الترتيب الزمني للوحي، وعملوا على وضع ترتيب تقريبي وألحقوا كل سورة من السور بإحدى المجموعتين المكية أو المدنيّة. ولم يشكّ أحد لاحقًا بصحة هذا التصنيف. وفي الحقبة الحديثة لم يتوصّل المستشرقون الذين عكفوا بدورهم على دراسة هذه المسألة إلى حلّ يقبل به الجميع. إنّ الدراسات التي وضعوها، إبتداءً من سنة ١٨٤٤، والتي أعادوا النظر فيها، حتّى في فترة قريبة، ترتكز على مجموعات من الإثباتات: الإشارات التاريخية الجليّة إلى أحداث سابقة، وبخاصة إلى وقائع في حياة النبيّ محمّد (ﷺ) أو الأمّة الإسلاميّة؛ الملاحظات المتعلّقة بالوحي وبموضوعاته الأساسيّة؛ الملاحظات العائدة إلى الأسلوب الإنشائي وإلى لغة أجزاء النص المدروسة. ويسلّم بعض المستشرقين - مثل ج. وايل (Weil)، ثمّ نولدكه وشويللي (Nöldeke et Schwally) في ١٩٠٩، وأخيرًا بلاشير (Blachère) في ١٩٤٧ - بضرورة التمييز ما بين ثلاث مراحل مكّية، ومن ثمّ مرحلة مدنيّة. وقد أضاف مفكرون آخرون ملاحظات مكمّلة. ومنذ ١٩٣٧ انتقد ر. بل (R. Bell) المبدأ الذي يقوم عليه هذا المنهج في تعيين التواريخ، مُظهرًا أنّ سورًا عديدة لها تركيبة معقّدة بسبب إدماج مقاطع مكيّة داخل أجزاء لاحقة لها. وحتّى لو كان مخطط التصنيف، المعتمد بشكل عام، يسمح بإعادة ترتيب المراحل الرئيسة للدعوة، فما تزال هناك أمور غير واضحة حول هذا الموضوع لا يمكن تجاهلها.

وبحسب هذا المخطط، فإنّ سور المرحلة المكيّة الأولى - وهي سور قصيرة - تتميز بآيات مقتضبة يغلب فيها التلميح، وغالبًا ما تبدأ بصيغة قسم. وهذه السور تعلن اقتراب يوم الحساب الذي تصفه بعبارات فيها بعض الغموض، وتدين الأثرياء وتؤكّد وحدانية الله.

وسورة الاخلاص، أي السورة ١١٢، هي خير تعبير عن كل ذلك. وتعطي بعض الأمثلة فكرة عن قوّة التأثير لدى هذه السور:

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ [١] خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ [٢] ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ [٣] ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ [٤] عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [٥] كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ [٦] أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ [٧] إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ [٨] أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ [٩] عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ [١٠] أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ [١١] أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ [١٢] أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ [١٣] أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ [١٤] كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ [١٥] نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ [١٦] فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ [١٧] سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ [١٨] كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [١٩].

[القرآن، سورة العلق، آياتها ١٩].

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ [١] قُمْ فَأَنذِرْ [٢] وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ [٣] وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ [٤] وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ [٥] وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ [٦] وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ [٧] فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ [٨] فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ [٩] عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ [١٠] ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا [١١] وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا [١٢] وَبَنِينَ شُهُودًا [١٣] وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا [١٤] ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ [١٥] كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا [١٦] سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا [١٧] إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ [١٨] فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ [١٩] ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ [٢٠] ثُمَّ نَظَرَ [٢١] ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ [٢٢] ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ [٢٣] فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ [٢٤] إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ [٢٥] سَأُصْلِيهِ سَقَرَ [٢٦] وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ [٢٧] لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ [٢٨] لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ [٢٩] عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ [٣٠] وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ [٣١] كَلَّا وَٱلْقَمَرِ [٣٢] وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ [٣٣] وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ [٣٤] إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ [٣٥] نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ [٣٦] لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ [٣٧] كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ [٣٨] إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ [٣٩] فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ [٤٠] عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ [٤١] مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ [٤٢] قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ [٤٣] وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ [٤٤] وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ [٤٥] وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ [٤٦] حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ [٤٧] فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ [٤٨] فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ [٤٩]

﴿كأنهم حمر مستنفرة [٥٠] فرت من قسورة [٥١] بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة [٥٢] كلا بل لا يخافون الآخرة [٥٣] كلا إنه تذكرة [٥٤] فمن شاء ذكره [٥٥] وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ [٥٦]

[القرآن، سورة المدثّر، آياتها ٥٦].

بسم الله الرحمن الرحيم

والضحى [١] والليل إذا سجى [٢] ما ودعك ربك وما قلى [٣] وللآخرة خير لك من الأولى [٤] ولسوف يعطيك ربك فترضى [٥] ألم يجدك يتيما فآوى [٦] ووجدك ضالا فهدى [٧] ووجدك عائلا فأغنى [٨] فأما اليتيم فلا تقهر [٩] وأما السائل فلا تنهر [١٠] وأما بنعمة ربك فحدث﴾ [١١]

[القرآن، سورة الضحى، آياتها ١١].

«بسم الله الرحمن الرحيم

لا أقسم بيوم القيامة [١] ولا أقسم بالنفس اللوامة [٢] أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه [٣] بلى قادرين على أن نسوي بنانه [٤] بل يريد الإنسان ليفجر أمامه [٥] يسأل أيان يوم القيامة [٦] فإذا برق البصر [٧] وخسف القمر [٨] وجمع الشمس والقمر [٩] يقول الإنسان يومئذ أين المفر [١٠] كلا لا وزر [١١] إلى ربك يومئذ المستقر [١٢] ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر [١٣] بل الإنسان على نفسه بصيرة [١٤] ولو ألقى معاذيره [١٥] لا تحرك به لسانك لتعجل به [١٦] إن علينا جمعه وقرآنه [١٧] فإذا قرأناه فاتبع قرآنه [١٨] ثم إن علينا بيانه [١٩] كلا بل تحبون العاجلة [٢٠] وتذرون الآخرة [٢١] وجوه يومئذ ناضرة [٢٢] إلى ربها ناظرة [٢٣] ووجوه يومئذ باسرة [٢٤] تظن أن يفعل بها فاقرة [٢٥] كلا إذا بلغت التراقي [٢٦] وقيل من راق [٢٧] وظن أنه الفراق [٢٨] والتفت الساق بالساق [٢٩] إلى ربك يومئذ المساق [٣٠] فلا صدق ولا صلى [٣١] ولكن كذب وتولى [٣٢] ثم ذهب إلى أهله يتمطى [٣٣] أولى لك فأولى [٣٤] ثم أولى لك فأولى [٣٥] أيحسب الإنسان أن يترك سدى [٣٦] ألم يك نطفة من مني يمنى [٣٧] ثم كان علقة فخلق فسوى [٣٨] فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى [٣٩] أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى [٤٠]

[القرآن، سورة القيامة، آياتها ٤٠].

أما سور المرحلة المكية الثانية فيغلب عليها الطابع الشعري. لكنها في الإجمال أطول وذات أسلوب أقل تقطعًا، وهي تشدد على «الإشارات» التي أطلقها الله في الخلق، وعلى رحمته؛ لكنها تشدد أيضًا على العقاب الذي سيلحق بالشعوب التي لم تصغ إلى الأنبياء الذين أرسلهم الله، وتفرد مكانًا مميزًا لوصف كلّ من الجنة وجهنم. وتظهر خصائصها في الفاتحة، التي تصنّف عادةً في المرحلة المكية الثانية، وكذلك في سور أخرى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم [١] قال يا قوم إني لكم نذير مبين [٢] أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون [٣] يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون [٤] قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا [٥] فلم يزدهم دعائي إلا فرارا [٦] وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا [٧] ثم إني دعوتهم جهارا [٨] ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا [٩] فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا [١٠] يرسل السماء عليكم مدرارا [١١] ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا [١٢] ما لكم لا ترجون لله وقارا [١٣] وقد خلقكم أطوارا [١٤] ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا [١٥] وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا [١٦] والله أنبتكم من الأرض نباتا [١٧] ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا [١٨] والله جعل لكم الأرض بساطا [١٩] لتسلكوا منها سبلا فجاجا [٢٠] قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا [٢١] ومكروا مكرا كبارا [٢٢] وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا [٢٣] وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا [٢٤] مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا [٢٥] وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا [٢٦] إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا [٢٧] رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾ [٢٨]

[القرآن، سورة نوح وآياتها ٢٨].

﴿إن هؤلاء ليقولون [٣٤] إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين [٣٥] فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين [٣٦] أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين [٣٧] وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين [٣٨] ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون [٣٩] إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين [٤٠] يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون [٤١] إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم [٤٢] إن شجرت الزقوم [٤٣] طعام الأثيم [٤٤] كالمهل يغلي

فِي ٱلْبُطُونِ [٤٥] كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ [٤٦] خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ [٤٧] ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ [٤٨] ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ [٤٩] إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ [٥٠] إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ [٥١] فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ [٥٢] يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ [٥٣] كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ [٥٤] يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ [٥٥] لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ [٥٦] فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ [٥٧] فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [٥٨] فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ [٥٩]

[القرآن، سورة الدخان، الآيات ٣٤ إلى ٥٩].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ [٤٨] ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ [٤٩] وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ [٥٠] وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ [٥١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ [٥٢] قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ [٥٣] قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ [٥٤] قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ [٥٥] قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ [٥٦] وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ [٥٧] فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [٥٨]

[القرآن، سورة الأنبياء، الآيات ٤٨ إلى ٥٨].

أمّا سور المرحلة المكيّة الثالثة فهي أطول وأقلّ شاعريّة، تحتوي قصصًا جديدةً، أكثر دقّة وتفصيلًا تتناول شعوبًا قديمة تعرّضت للعقاب لأنّها لم تستجب للأنبياء الذين أرسلهم إليها الله. نقرأ فيها مثلًا:

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ [١] تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ [٢] أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [٣] ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ [٤] يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ [٥] ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ [٦] ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ [٧] ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ [٨] ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ [٩] وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ [١٠] قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ [١١] وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [١٢] وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ [١٣] فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [١٤] إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩﴾ [١٥]

[القرآن، سورة السجدة، الآيات ١ إلى ١٥].

أمّا سور المرحلة الأخيرة التي أُعلنت على جماعة المدينة بعد الهجرة، فهي أقرب إلى النثر على الرغم من الأسلوب المسجّع الذي يضفي عليها نوعًا من الإيقاع. هذه السور لا تحتوي على فروض دقيقة تتعلّق بالشعائر وبآداب اللياقة والحياة التي نصّ عليها الإسلام وحسْبُ، بل فيها أيضًا إشارات مباشرة إلى أحداثٍ وقعت خلال تلك المرحلة المدنيّة من حياة الرسول. فهي تذكر بنوع خاص معركتي بدر وأُحُد، وكذلك قتل اليهود وطردهم، وكانوا قد عاشوا من قبل لفترة طويلة على أرض يثرب القديمة.

إنّ السورة الثانية المسمّاة «سورة البقرة»، وهي أطول سور القرآن (٢٨٦ آية)، تعتبر النموذج الأمثل لما أُنزل خلال تلك الحقبة. هذا بعض ما ورد فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ [١] ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ [٢] ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ [٣] وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [٤]

[القرآن، سورة البقرة، الآيات ١-٤].

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]

[القرآن، سورة البقرة، الآية ١٤٤].

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [١٧٧] يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١٧٨] وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [١٧٩] كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ [١٨٠] فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [١٨١] فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١٨٢]

[القرآن، سورة البقرة، الآيات ١٧٧ - ١٨٢].

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ [٢٧٦] إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٢٧٧] يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٢٧٨]

[القرآن، سورة البقرة، الآيات ٢٧٦ - ٢٧٨].

نشير أيضاً الى السورة الرابعة، «سورة النساء»، حيث نجد آيات معبّرة في أسلوبها الانشائي وفي مضمونها:

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [١] وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا [٢] وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [٣]

[القرآن، سورة النساء، الآيات ١-٣].

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [١٧١] لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [١٧٢]

[القرآن، سورة النساء، الآيتان ١٧١ - ١٧٢].

٣ - يعتقد المسلمون أنّ القرآن «أُملي» على النبيّ (ﷺ) ولم يوح له. وينتج عن هذا الاعتقاد أنه من غير المسموح لهم مثلاً تفسيره في ضوء النوع الأدبي المعتمد لكلّ من أجزائه. فالتفسير الوحيد المقبول لا يمكن أن يتناول إلّا معنى التعابير. وهكذا التزم بعض المفسّرين المهتمّين بتفسير القران معناه الحرفي؛ بينما أخذ آخرون بالمعنى المجازي، كمثل قول المعتزلة إن «يد الله» تعني نعمة الله على الناس؛ وشدّد آخرون على المعنى الرمزي، وهو اتّجاه تعبّر عنه مثلاً بعض التفاسير المعتمدة لدى الشيعة أو الصوفيين.

من جهة أخرى، كان موضوع طبيعة القرآن مثار جدالات كلاميّة. فالمعتزلة قالوا بخلق القرآن، ما أتاح لهم ذلك النظر فيه على أنه نص موحى. بينما لم يكفّ السلفيّون عن التشديد الحازم، منذ منتصف القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، على أن القرآن «غير مخلوق»، حتّى إنّهم وصلوا في بعض الأحيان إلى القول إنّه «أزلي» إذ إنّه يجسّد كلمة الله، أي إنّه يمثّل أحدى صفات الله. والقرآن، كنص «أُملي» بعدّ غير قابل للتقليد. وهذا الإعجاز هو «المعجزة» بامتياز للنبيّ محمّد (ﷺ)، وتأكيد لأصالة رسالته النبويّة.

والقرآن الذي أُملي باللغة العربيّة، كما تؤكّد ذلك الآية الثانية من سورة يوسف، يستعمله العرب المسلمون، وكذلك المسلمون غير العرب الذين استعربوا، نصّاً طقسيّاً، وقد ساعد هذا الأمر على ازدهار اللغة العربيّة، كما زاد في الاعتزاز الطبيعي لمتكلّمين بها. ومع انتشار الدعوة إلى مناطق بعيدة اعتنق سكّانها الديانة الجديدة، لكن من دون أن يعتمدوا اللغة العربيّة، طُرح السؤال حول إمكان أن يتلو المسلم القرآن بلغة غير العربيّة خلال الصلاة. ويبدو أنّ اتباع

المذهب الحنفي هم الوحيدون الذين سمحوا، في القرون الوسطى، باستعمال الترجمات في مثل هذه الحالة. وطُرحت المسألة مجددًا حوالى العام ١٩٢٠، عندما قررت السلطات التركيّة الكماليّة أنّ تلاوة الأذان والصلاة الطقسيّة يجب أن تتم باللغة التركيّة. وفي ١٩٣٢ أكد أحد أساتذة الأزهر، من المذهب الحنفي، أنّه من المسموح للمسلمين الذين لا يعرفون العربيّة تلاوة النصوص الطقسيّة بلغتهم الأم مستعينين في ذلك بترجمات للقرآن. وقد وضعت ترجمات فارسيّة وتركيّة للقرآن منذ فترة قديمة، تعود إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد؛ وفي الحقبة الحديثة، تُرجم القرآن باللغات الأُرديّة والصينيّة واليابانيّة ولغات إندونسيا ولغات أفريقيّة مختلفة.

منذ القرون الوسطى، تُرجم القرآن باللغات الأوروبيّة، لكن بروح مختلفة تمامًا، وأقدم هذه الترجمات الشرح اللاتيني الذي قام به روبير دوكِتُّون (Robert de Ketton) وأتمّه سنة ١١٤٣م، بناء على أمر بيار لوفينيرابْل (le Vénérable) لمحاولات ترجمة أخرى عديدة. وفي عام ١٥٤٧م، رأت ترجمة إيطاليّة النور، وكذلك ترجمة فرنسيّة عام ١٦٤٧م وضعها اندريه دي ريير (André du Ryer). وتجدر الإشارة في القرن الثامن عشر إلى ترجمات: إنكليزيّة وضعها سِيْل (Sale)، وفرنسيّة لِسَفاري (Savary)، وألمانيّة لِبايْسِن (Baysen). ويعود الفضل في هذه الترجمات إلى هؤلاء العلماء الذين آثروا الدقّة على أناقة التعبير. كما تضاف إليها ترجمات أخرى فرنسيّة وإنكليزيّة وضعها مسلمون.

وفي الحقبة المعاصرة نشر بلاشير (Blachère) في العام ١٩٥١ القرآن بالفرنسية وفاق الترتيب الزمني للآيات المنزلة، كما ارتأى، لكنّ محاولته لم تلقَ سوى نجاح محدود؛ وفي ١٩٥٧ حقّق بلاشير ترجمة أخرى للقرآن احترم فيها الترتيب الزمني التقليدي المعمول به. وتُعتبر هذه الترجمة مرجعًا من الناحية العلميّة، رغم أنّ ترجمة د. ماسّون (Masson) التي نُشرت في العام ١٩٦٧ هي أيضًا دقيقة وتتمتّع، إضافة إلى ذلك، بأناقة التعبير. وعمل جاك بيرك (Berque) بدوره، في ترجمته التي نُشرت عام ١٩٩٠، على التوفيق بين الدقّة والتعبير الأدبي. كذلك كان للمسلمين: حميد الله في ١٩٥٩، وسي حمزة بوباكر في ١٩٧٢، ترجمة فرنسيّة خاصة بكلٍ منهما. من جهة أخرى، تبقى الترجمة الإنكليزيّة الأكثر تداولًا تلك التي نشرها أ.ج. أربري (Arberry) في ١٩٥٥؛ كما أنّ الترجمة الألمانيّة الأكثر تداولًا أيضًا تبقى تلك التي نشرها بارِت (Paret) في العام ١٩٦٦ وأرفقها بتفسير.

القراخانيّون أو القره خانيّون أو الإيلك خانات

٣٨٢-٦٠٨هـ/ ٩٩٢-١٢١١م: سلالة مالكة تركيّة مسلمة حكمت، حتّى الغزو المغولي، أراضي شاسعة في آسيا الوسطى.

اعتمد علماء المسكوكات الأوروبيّون، في القرن التاسع عشر، تسمية «القراخانيّين» انطلاقًا من بعض الملامح التي تثبت انتماء هؤلاء إلى سلالة الخانات الكبار، لكنّ مؤرّخي الوقائع المسلمين لم يأخذوا بهذه التسمية، واكتفوا بالحديث عن الخانات. أمّا تسمية «إيلك - خانات» التي اعتمدها بعض علماء المسكوكات أيضًا، فليست أكثر تسويغًا. وما يزال الغموض، في الواقع، يكتنف تاريخ ونسب الفروع المختلفة لهذه السلالة؛ لكنّنا نستطيع القول، بصورة عامة، إنّ القراخانيّين هم أتراك ينتمون إلى مجموعة قرلوقس القبليّة التي قاتل زعماؤها الأوائل السامانيّين. تنتظم هذه السلالة، وفق تسلسل هرمي للخانات، تحت سلطة الخان الأكبر حاكم الشرق، إنطلاقًا من مقرّ إقامته في قره أوردو، فضلا عن خان مساعد يحكم الجزء الغربي، ويقيم في كاشْغر/ كاشي.

إعتنق القراخانيّون الإسلام خلال القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد بعد احتكاكهم بالسامانيّين، واتّخذوا لأنفسهم أسماء إسلاميّة. احتلّ أحدهم بخارى في سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، لكنّه اصطدم بمحمود الغزنوي. وابتداء من نهاية القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، وبعد زوال دولة السامانيّين، شكّل نهر آموداريا الحدّ الفاصل بين دولة الغزنويّين في الجنوب ودولة القراخانيّين في الشمال. بعد ذلك، إبتداءً من العام ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، انقسم القرخانيّون إلى دولتين: قراخانيّو الشرق الذين حكموا فرغانة الشرقيّة، ومنطقة شاش/ طشقند، وكاشغاريا؛ وبعد أن ضعفت سلطتهم، حلّ مكانهم

القره خِتاي غير المسلمين ، فيما امتلك قراخانيّو الغرب ما وراء النهر وبلاد الصغد ، ومدن بخارى وسمرقند ، إلى أن قضى عليهم الخوارزمشاهيّون.

لم يكن لممالك القراخانيّين تنظيم مركزي مشابه لنظم الممالك التركيّة التي نشأت في إيران . لقد بقيت بنية نظامهم قريبة من بنية نظام الاتّحادات القبليّة . ومع أنّهم اعتمدوا التنظيمات الإداريّة القائمة في البلاد الإسلاميّة ، فإنّهم شجّعوا الثقافة التركيّة . وفي أيامهم ، في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، صنّف المعجمي محمود الكاشغري ، بعد مغادرته بلادهم واقامته في بغداد ، مؤلّفه الشهير «معجم اللغة التركيّة».

علي بن موسى (؟-٣٨٨هـ/ ؟-٩٩٨م)
أحمد الأوّل ارسلان قره خان أو طوغان خان (٣٨٨-٤٠٦هـ/ ٩٩٨-١٠١٥م)
منصور ارسلان خان (٤٠٦-٤١٥هـ/ ١٠١٥-١٠٢٤م)
أحمد الثاني طوغان خان (٤١٥-٤١٧هـ/ ١٠٢٤-١٠٢٦)
يوسف الأوّل قدير خان (٤١٧-٤٢٣هـ/ ١٠٢٦-١٠٣٢م)

قراخانيّو الشرق

سليمان (٤٢٣-٤٤٨هـ/ ١٠٣٧-١٠٥٦م)
محمّد الأوّل (٤٤٨-٤٤٩هـ/ ١٠٥٦-١٠٥٧م)
ابراهيم الأوّل (٤٤٩-٤٥١هـ/ ١٠٥٧-١٠٥٩م)
محمود (٤٥١-٤٦٧هـ/ ١٠٥٩-١٠٧٤م)
عمر (٤٦٧-٤٦٨هـ/ ١٠٧٤-١٠٧٥م)
حسن/ هارون (٤٦٨-٤٩٦هـ/ ١٠٧٥-١١٠٣م)
أحمد/ هارون (٤٩٦-٥٢٢هـ/ ١١٠٣-١١٢٨م)
ابراهيم الثاني (٥٢٢-٥٥٣هـ/ ١١٢٨-١١٥٨م)
محمّد الثاني (٥٥٣م- ؟/ ١١٥٨م- ؟)
يوسف الثاني (؟-٦٠٨هـ/ ؟-١٢١١م)
محمّد الثالث (٦٠٨هـ/ ١٢١١م)

قراخانيّو الغرب

محمّد عين الدولة (٤٣٣-٤٤٤هـ/ ١٠٤١-١٠٥٢م)
ابراهيم الأوّل بوريتيجين طمغاش خان (٤٤٤-٤٦٠هـ/ ١٠٥٢-١٠٦٨م)
ناصر الأوّل (٤٦٠-٤٧٣هـ/ ١٠٦٨-١٠٨٠م)
خضر (٤٧٣-٤٧٤هـ/ ١٠٨٠-١٠٨١م)
أحمد الأوّل (٤٧٤-٤٨٢هـ/ ١٠٨١-١٠٨٩م)
يعقوب (٤٨٢-٤٨٨هـ/ ١٠٨٩-١٠٩٥م)
مسعود الأوّل (٤٨٨-٤٩٠هـ/ ١٠٩٥-١٠٩٧م)
سليمان (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م)
محمود الأوّل (٤٩٠-٤٩٢هـ/ ١٠٩٧-١٠٩٩م)
جبرائيل (٤٩٢-٤٩٥هـ/ ١٠٩٩-١١٠٢م)
محمّد الثاني (٤٩٥-٥٢٣هـ/ ١١٠٢-١١٢٩م)
نصر الثاني (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م)
أحمد الثاني (٥٢٣-٥٢٤هـ/ ١١٢٩-١١٣٠م)
حسن (٥٢٤-٥٢٦هـ/ ١١٣٠-١١٣٢م)
ابراهيم الثاني (٥٢٦هـ/ ١١٣٢م)
محمود الثاني (٥٢٦-٥٣٦هـ/ ١١٣٢-١١٤١م)
ابراهيم الثالث (٥٣٦-٥٥١هـ/ ١١٤١-١١٥٦م)
علي (٥٥١-٥٥٥هـ/ ١١٥٦-١١٦٠م)
مسعود الثاني (٥٥٥-٥٧٤هـ/ ١١٦١-١١٧٨م)
ابراهيم الرابع (٥٧٤-٦٠١هـ/ ١١٧٨-١٢٠٤م)
عثمان (٦٠١-٦٠٨هـ/ ١٢٠٤-١٢١١م)

القراقينلو أو القراقيونلو (٧٨٢-٨٧٣هـ/ ١٣٨٠-١٤٦٨م) «ذوو الخروف الأسود» ، سلالة سيطرت ، في محيط بحيرة وان وأذربيجان ، على مجموعة قبائل تركمانية تحمل الاسم نفسه ، وقد نجحت ، خلال فترة ازدهار قصيرة ، في بسط سلطانها ونشاطها الحربي والتجاري على منطقة تمتدّ من الأناضول إلى العراق ، وصولاً إلى خراسان .

أدّى ضعف الدولة الجلائرية في العراق ، وهي دولة قامت على أنقاض أمبراطوريّة الايلخانيّين ، إلى نجاح جماعات تركيّة بدويّة متحدّرة من قبائل الغزّ ، في تحقيق انتصارات جعلتها قادرة على مواجهة اجتياحات تيمورلنك الأولى ، فاستولت على تبريز ، المحطّة التجاريّة المهمّة لقوافل التجارة العالميّة وقتذاك . وقد أمّن ذلك لدولة القراقيونلو موارد رئيسة ، فاستطاع قره يوسف ، بعد أن كان تيمورلنك قد طرده لفترة من أراضيه ، أن يؤمّن لدولته الازدهار على أثر المعارك المتواصلة والناجحة التي خاضها ضد جيرانه المباشرين ، الجلائريّين في العراق والآق قيونلو في بلاد ما بين النهرين العليا ، إضافة إلى أمراء مناطق القوقاز ، مثل جورجيا وشروان بصورة خاصة . كما نجح قره يوسف في صدّ هجمات التيموريّين المتكرّرة وهجمات المماليك . هكذا ترك لخلفائه مملكةً شاسعة تمتدّ من أرزيكان إلى ماردين فقزوين فالبصرة .

بعد ذلك تابع جهان شاه الشهير سياسة قره يوسف ،

وانتهز فرصة وفاة شاه رُخ للتخلّص من كلّ تبعيّة تجاه التيموريّين، ولتوسيع أمبراطوريّة تميّزت بفاعليّة تنظيمها العسكري والإداري، وأيضًا بغناها. تظهر الرفاهية الفنيّة التي كان يحلو للحاكم أن يزيّن بها حاضرته في آثار تبريز المتمثّلة بجامع جهان الأزرق، الذي صمد الى حد ما مع زخرفته المكوّنة من موزاييك وخزف، في وجه الكوارث الحربيّة والهزّات الأرضيّة. وتشهد بقاياه على مدى الإتقان الفنّي والطرازي الذي تلفه هذا الإنجاز الطموح، في الوقت الذي لقي فيه جهان شاه حتفه، خلال حملة أخيرة شنّها ضد الآق قيونلو، ما أنهى حكم سلالته. هكذا ضعفت، لبعض الوقت، الميول المؤيّدة للشيعة التي كانت تُظهرها كل قبائل القراقيونلو والتي انتعشت في ظلّ هيمنة هذه القبائل. وقد تسبّبت هذه الميول بكثير من مظاهر الإضطراب في منطقة أذربيجان خلال القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، واستمرّت متأجّجة بفعل الصراعات السياسيّة-الدينيّة اللّاحقة التي نشبت في المنطقة بين الصفويّين، من جهة، والآق قيونلو والعثمانيّين من جهة ثانية.

قرء محمّد ترموش	(٧٨٢-٧٩١هـ/١٣٨٠-١٣٨٩م)
قرء يوسف	(٨٩١-٨٠٣هـ/١٣٨٩-١٤٠٠م)
	(٨٠٩-٨٢٣هـ/١٤٠٦-١٤٢٠م)
اسكندر	(٨٢٣-٨٤٢هـ/١٤٢٠-١٤٣٨م)
جهان شاه	(٨٤٢-٨٧٢هـ/١٤٣٨-١٤٦٧م)
حسن علي	(٨٧٢-٨٧٣هـ/١٤٦٧-١٤٦٨م)

◄ راجع المستند رقم ٢٤

قَرامان (الجمهوريّة التركيّة)، كانت تُعرف باسم لارنده (Larende)، وهي ناحية في الأناضول الأوسط، يعود اسمها إلى إمارة قرامان أوغلاري التركمانيّة، أو القرامانيّين، وكانت عاصمتهم في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد. تشرف هذه المدينة، الواقعة جنوبي قونية، على منفذ إحدى الطرق التي تخترق جبال طوروس باتّجاه شواطئ المتوسط، وما تزال تظهر في المدينة الحاليّة بعض الآثار الفنيّة العائدة إلى عصر القرامانيّين والتي تشهد على أهميّتها الإقتصاديّة والإستراتيجيّة في العصور الوسطى.

انتزعت القوّات التركيّة السلجوقيّة هذه المدينة من البيزنطيّين بعد معركة ملازكرت/مانتزيكرت في العام ٤٦٤هـ/١٠٧١م بوقت قليل، ولكنّها انتقلت، عام ٥٦٠هـ/١١٦٥م، من سيطرة الدانشمنديّين إلى سيطرة سلاجقة الروم، وأصبحت منطقة حدوديّة مهدّدة. ورغم ذلك، فقد نجحت في حماية الأراضي الإسلاميّة من الهجمات التي كانت تنطلق من مملكة أرمينيا الصغرى. ولكنّها لم تعرف الازدهار إلّا بعد قيام دولة قويّة في المنطقة، أسّسها، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، أحد الزعماء الأتراك واسمه قرمان بن نورا.

أصبحت لارنده القديمة مركزًا اشتهر بنشاطه الفنّي والثقافي برعاية أمرائها. وتطوّرت المدينة، رغم الخسائر التي لحقت بها على أيدي القراخانيّين مرارًا، وبخاصة في عامي ٦٨٧هـ/١٢٨٨م و٦٩١هـ/١٢٩٢م، ورغم انتقال مركز الحكم موقّتًا إلى قونية في العام ٧١٢هـ/١٣١٢م. إنّها لا تزال تحتفظ، من زمن القرامانيّين، ببعض المنشآت التي رُمّمت جزئيًّا، مثل الضريح المعروف بضريح علاء الدين، والمدرسة الخاتونية. بيد أنّ منشآت أخرى، بما فيها المسجد الجامع وجزء كبير من تحصينات المدينة، دُمّرت خلال سقوطها في العام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م في يدَيْ السلطان العثماني بايزيد الأوّل يلدريم.

عرفت مدينة قرامان الإزدهار بعد أن جعل منها تيمورلنك مجدّدًا مركزًا لإمارة إبتداءً من العام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، ولقد مجّدها الرحّالة الأوروبيّون كثيرًا، لكنّ ذلك لم يمنع تعرّضها لهجمات المماليك وللحروب داخليّة قبل أن تسقط في أيدي العثمانيّين وتتعرّض للنهب في الفترة الممتدّة من العام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م الى العام ٨٨١هـ/١٤٧٦م. تحوّلت بعد ذلك إلى مركز لمقاطعة محليّة وفقدت، بعد ١٥١٧، دورها العسكري في مواجهة دولة المماليك. أصبحت مذّاك منعزلة عن خطّ سير القوافل والأنشطة التجاريّة، ولم يبق لها من الموارد سوى بعض المحاصيل الزراعية المنتجة في ضواحيها.

◄ راجع المستندين ٢١ و٢٧.

القرامانيّون أو **قرامان أوغلاري** (٦٥٤-٨٨٨هـ/١٢٥٦-١٤٨٣م)، سلالة تركمانية بكويّة من عصر الإمارات،

أقامت سلطتها في جنوب الأناضول الأوسط بعد انهيار سلاجقة الروم، وكانت آخر من قاوم قوّة العثمانيّين الصاعدة.

ففي العام ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، في المنطقة الجبليّة الواقعة جنوبي قونية، والتي تفصل هذه المدينة عن ساحل المتوسط، وحول مناطق أرمناك، وموت، وآنامور، ولارنده/ قرامان، استقرّت قبائل تركيّة عديدة كانت تقيم سابقًا في آرّان وفي منطقة سيواس الأناضولية. من هنا وُلدت سلطة قرامان، مؤسّس هذه السلالة وابن شيخ متصوّف شهير. وتقديرًا للدور الإداري والحربي النشط الذي قام به هذا الرجل، منحه السلطان السلجوقي قلج أرسلان الرابع إقطاعًا انتقل إلى أبنائه، بعد أن قُتل قرامان في مواجهة مع مملكة الأرمن المسيحيّة، فدافع أبناؤه عن أراضيهم، ووسّعوا رقعتها، على امتداد تاريخ سياسي غامض: فقد انتصروا، بعد أن تعرّضوا لهجمات الإيلخانيّين والمماليك، على سائر الإمارات المعادية التي ظهرت عقب تفتّت السلطة السلجوقيّة.

اكتسب هؤلاء الأمراء الذين لا نعرف أسماءهم جيّدًا، كما لا نعرف الممتلكات الخاصة بكل منهم خلال انطلاقتهم في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أهميّة خاصّة، بعد أن نجحوا في بسط سيادتهم على قونية، واستبدلوا، في الادارة والبلاط، باللغة الفارسيّة السائدة آنذاك، اللغة التركيّة. في مواجهة السلطة المتنامية للعثمانيّين الذين مارسوا الجهاد في أوروبا واستولوا على البلقان، أصبح القرامانيّون المدافعين عن الإرث السلجوقي التقليدي، إقتصاديًّا وثقافيًّا. وقد ساعدهم في ذلك توسّعهم في قلب الأناضول. وقد عبّروا عن ازدهار هذا الإرث بفنّهم الذي ما زالت تذكّر به الآثار القليلة الموجودة في أرمناك وموت، وخاصة في العاصمة المتألّقة لارنده التي عُرفت في ما بعد باسم قرامان.

لم تحُل الثروة والفعاليّة الإستراتيجيّة لـ«حاكم جبال الروم» في نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي - التي سمحت له بمضاعفة النشاط الدبلوماسي، أو على العكس بإظهار العدائيّة تجاه حكّام القاهرة المماليك وتجاه الرمضانيّين، حكام امارة أضنة الصغيرة - دون انتصار السلطان العثماني بايزيد الأوّل على شقيق زوجته علاء الدين خليل بك وقتله في العام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م. لكن ثمّة حقبة مزدهرة كانت تنتظر، في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، دولة «قرامان الكبير» الذي كان الغربيّون المسيحيّون يسعون للتحالف معه. كان تيمورلنك قد أطلق هذه الدولة من جديد، بعد انتصاره على العثمانيّين في أنقرة سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، فأضحت، في ظلّ حكم تاج الدين إبراهيم، مركزًا لكلّ المقاومات العسكرية وعقدة لكلّ التحالفات الهادفة للحدّ من توسّع الأمبراطوريّة العثمانيّة. وعندما حاول القرامانيّون التوسّع على حساب الإمارتين الحميديّة وذي القادريّة، حصلوا على دعم الآق قيونلو وأميرهم أوزون حسن، وكانوا آنذاك قد أثروا بفضل الاتفاقات التي كانوا قد عقدوها مع البنادقة.

وفي العام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، تحوّلت إمارة القرامانيّين إلى مقاطعة عثمانيّة، بعد الضربات التي وجّهها إليها فاتح القسطنطنية محمد الثاني. وأصبح الممثّلون الأخيرون لهذه الأسرة أتباعًا للسلطان العثماني، ولجأ بعضهم إلى حلب وبعضهم الآخر إلى القاهرة، بعد أن حرّضوا على فتن وثورات استمرّت حتى عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م.

قرامان بن نورا صوفي	٦٥٤-٦٥٩هـ/١٢٥٦-١٢٦١م
محمّد الأوّل	٦٥٩-٦٧٧هـ/١٢٦١-١٢٧٨م
غنيري بك	٦٧٧-٦٩٩هـ/١٢٧٨-١٣٠٠م
بدر الدين محمود	٦٩٩-٧٠٧هـ/١٣٠٠-١٣٠٧م
بدر الدين ابراهيم	٧٠٧-٧٤١هـ/١٣٠٧-١٣٤٠م
برهان الدين موسى	٧٤١-٧٤٦هـ/١٣٤٠-١٣٤٥م
فخر الدين أحمد	٧٤٦-٧٥٠هـ/١٣٤٥-١٣٤٩م
شمس الدين	٧٥٠-٧٥٣هـ/١٣٤٩-١٣٥٢م
سليمان بك	٧٥٣-٧٦٤هـ/١٣٥٢-١٣٦١م
علاء الدين خليل بك	٧٦٤-٧٩٩هـ/١٣٦١-١٣٩٧م
محمّد الثاني	٨٠٦-٨٢٦هـ/١٤٠٣-١٤٢٣م
علاء الدين علي	٨٢٧هـ/١٤٢٤م
تاج الدين ابراهيم	٨٢٧-٨٦٧هـ/١٤٢٤-١٤٦٣م
سحق	٨٦٧-٨٦٨هـ/١٤٦٣-١٤٦٤م
بير أحمد	٨٦٨-٨٨٤هـ/١٤٦٤-١٤٧٩م
قاسم	٨٨٤-٨٨٨هـ/١٤٧٩-١٤٨٣م

◄ راجع المستند رقم ٢٢.

القرامطة، أتباع أحد فروع الإسماعيليّة، قاموا بأعمال تمرُّد ضدّ سلطة الخلفاء العبّاسيّين في سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربيّة، إبتداء من أواخر القرن الثالث وخلال القرن الرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد.

إنّ تسمية القرامطة، بحسب رأي مدوّني الوقائع، أُطلقت على أتباع حمْدان قرْمط الذي كان رئيسًا إسماعيليًّا من منطقة الكوفة. يظهر أنَّ مجموعة أتباعه ظلّت مؤيّدة لمحمّد بن إسماعيل على أنّه المهدي المنتظر، ويبدو أنّها، لهذا السبب، تمرّدت في العام ٢٨٦هـ/٨٩٩م على السلطات الإسماعيليّة في السَّلمية ورفضت الإعتراف بمهدي الفاطميّين في ما بعد، عبيدالله المهدي.

بُعيد ذلك، في مطلع القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، عمل رجل يدعى زِكْرَويه مع إبنه على استقطاب بدو بني كلب، ثم تحرّك أحد المشاغبين الملقب بـ«رجل الناقة» وقاد سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م حركة القرامطة: إدّعى أنّه من ذريّة محمّد بن إسماعيل المذكور سابقًا وحاصر دمشق، ولاقى حتفه خلال ذلك. ثمّ خلفه آخر، زعم أنّه المهدي، وزرع الرعب في عدد من مدن سوريا، وسكّ نقودًا باسم المهدي، غير أنّه ما لبث أن وقع في أيدي الجيوش العبّاسيّة، فأُعدم في بغداد سنة ٢٩١هـ/٩٠٤م. وتكاثر عدد مثيري الفتن الذين كان زِكْرَويه يرسلهم إلى مختلف المناطق؛ فنهب القرامطة مدن سوريا الجنوبيّة، وهاجموا الكوفة في العراق، وجرّدوا حملات ضد حركة القوافل. غير أنّ زكرويه جُرح في العام ٢٩٤هـ/٩٠٧م، وتوفي بعد قليل من إصابته، وهكذا انتهت الإضطرابات في سوريا والعراق.

وثمّة جماعات أخرى تنتمي إلى القرامطة قامت من جهتها، من دون نجاح يُذكر، بأعمال في إيران واليمن، إلى أن تمكّن أحدهم، ويدعى أبو سعيد الجنّابي، موفدًا من قِبَل حمدان، من التزوّن في البحرين، على الشاطئ المشرقي لجزيرة العرب، في العام ٢٧٣هـ/٨٨٦م، وخلفه، بعد اغتياله سنة ٣٠٠هـ/٩١٣م، ابنه ويدعى أبو طاهر. قاد هذا الأخير سلسلة من الغزوات المسلّحة على العراق الجنوبي، فنهب مدينتي البصرة والكوفة، وانقضّ على قوافل الحجّ، وهدّد بغداد حيث اعتُبر أنصاره أعداء للإسلام، ووُضع في موضع الاتّهام الوزير علي بن عيسى لأنّه عقد معهم هدنة.

وقد بلغت الجرأة بالقرامطة أن هاجموا الحرم المكيّ، وانتزعوا سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، الحجر الأسود من الكعبة. وقد ادّعى أبو طاهر أنّه يعمل بحسب تعاليم الإمام المختفي، ولكنّه عقد، في النهاية، إتفاقًا مع السلطات العبّاسيّة في العام ٣٢٧هـ/٩٣٩م، وبعد موته في العام ٣٣٢هـ/٩٤٤م، أظهر خلفاؤه ليونةً، ووصل بهم الأمر إلى إعادة الحجر الأسود سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م.

لم يمضِ زمن حتّى دخل القرامطة في صراع مع الفاطميّين الذين استقرّوا في مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، ولم يشاطروهم العقيدة. تبع ذلك عدد من العمليّات العسكريّة في فلسطين، ثمّ اتّفاق اعترف القرامطة بموجبه بسيادة الخليفة الفاطمي العزيز. وفي أواخر القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، بدأ تفكّك الجماعة القرمطيّة في البحرين، قبل زوالها في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد.

أظهرت دولة القرامطة، قبل ذلك، فرادةً أكيدة وفّرت لها الشهرة التي نعمت بها لفترة طويلة. غير أنّها لم تفِ بالوعود التي قطعتها على نفسها في الحدّ من الظلم الإجتماعي: فهي لم تضع تصوُّرًا لأي برنامج في هذا المجال، ولم تتجاوز إنجازاتها محاولات، ظلّت يتيمة، لتحويل الأراضي الى ملكيّاتٍ جماعيّة.

يبدو أن القرامطة الذين كانوا ينتظرون عودة محمّد ابن اسماعيل والذين تبنّوا الرؤية الكونيّة للداعية الإيراني النَّسَفي، تمكّنوا من تطبيق نظام سياسي خاص. لقد انشأ أبو سعيد مجلسًا يضمّ أبرز موظّفي الدولة لاتّخاذ القرارات المهمّة، وكان أعضاء هذا المجلس ينتمون عمومًا الى عائلة المؤسّس؛ ورغم الأحداث العديدة، كان المجلس ما يزال قائمًا في مطلع القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، بعد أن مارس أبو طاهر وأشقاؤه السلطة داخل المجلس بشكل جماعي، ولكن خلال حكم أحفاد أبي سعيد الذين خلفوهم، تزايدت الانشقاقات الداخليّة.

قام ازدهار دولة القرامطة على الأنشطة التجاريّة المتوافرة في المنطقة، وبالتحديد على الضرائب

والرسوم الجمركيّة التي كانت تدفعها السفن التي تستخدم الطرق البحريّة في الخليج العربي - الفارسي. كانت هذه الرسوم، شأنها شأن سائر الإيرادات - مثل رسوم الحماية التي تسدّدها قوافل الحجّ - توزّع على ذريّة أبي سعيد. كان هذا النظام ناجحًا لدرجة أنّه أثار إعجاب عدد وفير من الزائرين من غير القرامطة، على الرغم من أنّ الرحّالة الفارسيّ ناصر خسرو أكّد أن الفرائض الإسلاميّة الأساسيّة التي توجبها الشريعة كانت قد أُلغيت في دولة القرامطة.

أبو سعيد الحسن الجنّابي	٢٨١-٣٠٠هـ/ ٨٩٤-٩١٣م
أبو القاسم سعيد	٣٠٠-٣١١هـ/ ٩١٣-٩٢٣م
أبو طاهر سليمان	٣١١-٣٣٣هـ/ ٩٢٣-٩٤٤م
أبو منصور أحمد	٣٣٣-٣٦١هـ/ ٩٤٤-٩٧٢م
أبو يعقوب يوسف	٣٦١-٣٦٦هـ/ ٩٧٢-٩٧٧م

◄ راجع المستند رقم ١٢.

قرّة بن شَريك، ؟ - ٩٠هـ/ ؟ - ٧١٤م، والي مصر من ٩٠ الى ٩٦هـ/ ٧٠٩ إلى ٧١٤م، في زمن الأمويّين، خلال خلافة الوليد بن عبد الملك. أكثر ما اشتهر به قرّة هو حفظه لمجموعة من المخطوطات البرديّة التي عثر عليها في الأرض المصريّة. وقد أدّت دراستها من قِبل المؤرّخين الغربيّين إلى رسم صورة لهذا الرّجل أنصع من تلك التي تظهر في مؤلّفات الوقائع التي تعود إلى عهد العباسيّين. عُني قرّة بتطوير الزراعة بعد المجاعة التي سادت في عامي ٨٦-٨٧هـ/ ٧٠٥-٧٠٦م، وحسّن وضع الأراضي المهملة وأنعشها. كما جهد للحؤول دون نزوح الفلّاحين إلى المدن، وفرض على الأقباط الذين اعتنقوا الإسلام أن يواصلوا دفع الجزية. كذلك أعاد تنظيم الدواوين، وأفسح في المجال لتوظيف العرب فيها، في زمن غدت فيه اللّغة العربيّة اللّغة الرسميّة للإدارة الجديدة.

قَرْص (الجمهورية التركيّة)، مدينة تقع شرقي الأناضول أدّت دورًا إستراتيجيًا بقي مميّزًا حتى العصور الحديثة، وهي اليوم غير بعيدة عن الحدود المشتركة بين تركيا وجمهوريّتي أرمينيا وجيورجيا.

بعد الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، كانت مدينة قَرْص تنتمي إلى أرمينيا القديمة التي اعترفت بسلطة المسلمين. وفي سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، دخلت تحت سيطرة السلطان السلجوقي ألب أرسلان، ثمّ تنازعتها الأبدي إلى أن تغلّب عليها الجورجيّون سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م. وقد ضمّها المغول إلى أمبراطوريّتهم باعتبارها جزءًا من جورجيا، وخرّبها بعد ذلك تيمورلنك. أُعيد بناء المدينة على أيدي أسرة محلّيّة سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، ووقعت سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م في أيدي العثمانيّين الذين جعلوا منها محطّة متقدّمة خلال صراعهم مع الصفويّين.

وبحكم موقعها الدفاعي على سفح جبل بركاني - وهذا الموقع لا يزال يسترعي الانتباه حتّى في العصر الحاضر - أصبحت قرص، في القرنين التاسع عشر والعشرين، مجال صراع بين الروس والعثمانيّين، ثمّ بين القوميّين الأرمن والجيوش التركيّة في أواخر الحرب العالميّة الأولى. وكان الروس قد ضمّوها إلى دولتهم سنة ١٨٧٨، ثم أُعيدت الى الأمبراطوريّة العثمانيّة سنة ١٩١٨، واسترجعها الأرمن سنة ١٩١٩، وأخيرًا دخلتها الجيوش التركيّة سنة ١٩٢٠. إنّها اليوم مدينة في حالة تطوّر وازدهار، كونها مركز مقاطعة تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة أرضروم.

القرض بالفائدة، ممارسة ماليّة محرّمة في الإسلام، منذ بدايته، عُرفت باسم الرِّبا، طبعت الحياة الاجتماعيّة والإقتصاديّة في البلدان الإسلاميّة حتّى يومنا هذا، رغم المحاولات المختلفة للتكيّف معها.

إنّ القرض بالفائدة محرّم صراحةً في الآيات القرآنية ٢٧٦ إلى ٢٨١ من سورة البقرة المعروفة بـ«آيات الرِّبا»، تضاف إليها الآية ١٣٠ من سورة آل عمران وهذا نصّها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

في ما بعد حرّم الرِّبا، بصورة مطلقة، جميع الفقهاء. إلّا أنّ ذلك لم يمنع قيام ممارسات «ربويّة» استنكر بعض المؤلّفين تكرارها. فقد اعتُمدت وسائل تهرّب من التحريم، أكثرها تداولًا كان البيع الوهمي المزدوج: يشتري المستدين من الدائن شيئًا يعود ليبيعه إياه بعد فترة بسعر أرخص، ويمثّل الفرق فائدة المبلغ المستدان. من ناحية أخرى، كانت لغير المسلمين،

اليهود والمسيحيّين، حريّة التعاطي بالأعمال الماليّة. في بداية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، كان في العاصمة العبّاسية بغداد صيارفة يهود، تحصّل لهم من الثروة ما كان يكفي لإقراض الخليفة نفسه مبالغ ضخمة بفائدة غير مرتفعة، على ما يبدو. وهناك نتائج أخرى لتحريم الرِّبا جرى تخفيف وقعها بممارسة «المضاربة» وهي عقد مسموح به من شأنه السماح بالمشاركة في أرباح شركة تجاريّة معيّنة.

في الزمن الحاضر، انتشر القرض بالفائدة غير الربويّة تلبيةً لحاجات الواقع اليومي، وأُسِّست مصارف ناشطة حاليًّا في العالم الإسلامي، وقد سُمِح بذلك بناء على فتوى أصدرها الإصلاحي محمّد عبده في مصر عندما شرّع، في سنة ١٩٠٣، للأفراد إيداع أموالهم في صناديق توفير في مقابل مكافأة. منذ القرن التاسع عشر لجأت الدولة العثمانيّة في أواخر أيّامها إلى الاستدانة، وقد حدّد قانون صادر في العام ١٨٨٧ نسبة الفائدة المسموح بها بـ٩ بالمئة.

إنّ الممارسات المصرفيّة آخذة اليوم في التطوّر في أنحاء العالم الإسلامي كافة، رغم استمرار بعض الدول، مثل الباكستان - بموجب دستورها الصادر في ١٩٥٦ - والمملكة العربيّة السعوديّة، في النظر إلى تحريم الرِّبا على أنّه هدف جوهريّ للأنظمة الإسلاميّة. في معظم البلدان، يحاول النظام المصرفي المُستوحى من النظام الغربيّ فرض الاعتراف بمشروعيّته بمختلف الوسائل. بصورة عامّة، تعتبر المصارف المسماة إسلاميّة الفائدة التي تُؤدّى: إمّا مكافأةً لخدمة وإمّا مشاركة في الأرباح المحقّقة. في هذه الحال، يكون المصرف شبيهًا بشركة توصية، وفقًا لطبيعة عقد وافق عليه رجال الفقه في القرون الوسطى، ويُعتبر زبائن المصرف «شركاء». من ناحية أخرى، أفتى مفتي مصر سنة ١٩٨٩، لمصلحة إصدار سندات استثمار، وهذا يُعتبر وجهًا من وجوه الاستدانة بالفائدة. أخيرًا تجتهد جمعيّة للمصارف الإسلاميّة، منذ بضع سنوات، في تنسيق الفتاوى المتعلّقة بالمعاملات المصرفيّة وفي توحيد طرائق إجرائها في البلدان الإسلاميّة.

قُرطُبة (إسبانيا)، مدينة في جنوب شبه جزيرة إيبريا، خضعت للسيطرة الإسلاميّة من سنة ٩٣هـ/٧١١م حتّى سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م؛ وفيها بقايا أثريّة تعود إلى هذه الحقبة وتشكّل شاهدًا على موقعها عاصمة شهيرة للأندلس، خلال فترة حكم سلالة أُمويّي الغرب المعروفين أيضًا بأُمويّي قُرطُبة.

تقع قرطبة على ضفاف نهر «غوادَلكَفير» (وهو نهر يشتقّ اسمه الإسباني من التعبير العربي «الوادي الكبير»)، وفي قلب مقاطعة الأندلس الحاليّة. كانت قُرطبة، في ما مضى، مركز مقاطعة البتيك الرومانيّة؛ لكنّها كانت قد فقدت أهميّتها عندما احتلّها طارق في سنة ٩٣هـ/٧١١م، في مرحلة الفتوحات الكبرى العربيّة - الإسلاميّة. وبعد فترة وجيزة، جعل منها الحاكم الجديد عاصمة للمقاطعة بدلًا من إشبيلية، وأُعيد ترميم أسوارها، وكذلك جسرها الروماني الذي كان يمرّ فوق النهر ويؤمّن العبور المباشر للتجارة الآتية من الشمال. وفي سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م، مع وصول الأمير الأمويّ عبد الرحمن الأوّل، دخلت قُرطبة في مرحلة ازدهار لا مثيل لها، استمرّت حتّى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م، وسمحت للمدينة بالإفادة من ميزاتها ملتقى طرق تجاريّة واستراتيجيّة تتركّز فيها كل القوى الحيّة للمملكة الجديدة.

وبحسب المؤرّخين، تمّ في العام ١٧١هـ/٧٨٧م تحويل كاتدرائيّة قُرطبة إلى مسجد جامع وشُيّد في مقابله قصر الأمير. يتميّز هذا المسجد - الذي أُنجز إعداده في عهد هشام الأوّل - حتّى اليوم، بنسقه الهندسي القائم على صفوف أعمدة تحمل تيجانًا من رخام وعلى أنظمة عقود متراكبة. وقد فرضت الحاجة تكبيره سريعًا نظرًا إلى تزايد عدد السكّان المسلمين. وأخيرًا، جهّز الحكَم الثاني أمام محرابه قببًا مكسوّة بفسيفساء، جعلت منه أجمل نموذج للمقصورات الضخمة التي عرفتها نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. من جهة ثانية، كانت الأسواق تتزاحم في جوار المسجد في اتّجاه الباب الغربي للأسوار، كما هي الحال في مدن عديدة أخرى.

هكذا عرفت قُرطبة، منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، نموًّا مشهودًا. وفي سنة ٢٠٣هـ/

٨١٨م، إثر اندلاع ثورة في المدينة، دمّر الحَكَم الأوّل الضاحية الواقعة على الضفة الأخرى لنهر الوادي الكبير ومنع إعادة بنائها. لكنّ ضواحي أُخرى أُنشئت وانبسطت حول المدينة القديمة، وبخاصة من جهتها الشرقيّة. وكان اتّساع المنطقة كبيرًا بحيث بلغت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي - بحسب بعض الجغرافيّين العرب الذين بالغوا من دون شك في تقديرهم - مساحة قرطبة نصف مساحة بغداد تقريبًا. ومهما يكن هذا التقدير مبالغًا فيه، فإنّ فيه دلالة على الأهميّة التي كانت للمدينة آنذاك في العالم الإسلامي كمركز سياسي وفكري واقتصادي.

إلّا انّ قُرطبة فقدت، خلال حكم عبد الرحمٰن الثالث الكبير، بعض هالتها، إذ غادرها الخليفة الجديد للإقامة في مدينة مَلَكية جديدة أسّسها في الشمال الغربي وأطلق عليها اسم الزهراء. وبعد فترة بني الوصيّ على العرش، المنصور، بدوره، مدينة تقع في الشرق وأطلق عليها اسم المدينة الزاهرة، جاعلًا منها المركز الإداري حيث استقرّت دواوين العاصمة. أخيرًا، إنّ الاضطرابات التي طبعت بداية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد ونهاية الخلافة الأمويّة ارتدّت دمارًا بارزًا على قُرطبة التي باتت، منذ سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م، وخلال حقبة ملوك الطوائف، عاصمة إمارة وحسْب. ووقعت المدينة في ما بعد تحت حكم بني عبّاد أصحاب إشبيلية، ثمّ على التوالي تحت حكم المرابطين والموحّدين، قبل أن يعيد ملك قشتالة الاستيلاء عليها في العام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م. منذ ذلك الحين طبعت بعض التغييرات المسجد الجامع الذي عاد من جديد كنيسة/كاتدرائية. لكن البنية العامة للبناء، كما أصبحت بعد التوسيع الأخير الذي قام به المنصور، وكذلك عظمة زخرفته، ما يزالان حتّى يومنا الدليل الساطع على نوعيّته الفنيّة الاستثنائيّة.

◀ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٤-١٦، ١٩ و٥٢.

القُرطبي، أبو عبدالله محمّد بن أحمد الأنصاري الخزْرَجي الأندلسي ؟ - ٦٧١هـ/ ؟ - ١٢٧٢م، فقيه، مفسّر وعالم كلام، ولد في الأندلس، اشتهر بوجه خاص بشرحه النص القرآني.

ينتسب، كما يدلّ على ذلك إسمه، إلى أسرة عربيّة من قُرطبة، زعمت أنّها من ذريّة الأنصار بالمدينة. سافر القرطبي الى الشرق وأقام في مصر العليا حيث بقي حتّى وافته المنيّة. كان ينتمي إلى المذهب المالكي، وقد انكبّ على دراسة الأحاديث. إنّ شرحه للقرآن الكريم المميّز بغناه ووفرة معانيه، يشدّد على القيم العليا للكتاب، ويفسّره بالاعتماد خصوصًا على الشروح التقليديّة من دون أن يُهمل ما له علاقة باللّغة والأسلوب.

قرغيزستان (جمهورية)، دولة حديثة استقلّت سنة ١٩٩١، مساحتها ٥٠٠ ١٩٨ كلم٢، وعاصمتها بِشْكاك، وهي واحدة من جمهوريّات آسيا الوسطى الإسلاميّة الخمس. يشكّل المسلمون فيها حوالى ست وستين بالمئة، ويبلغ عدد سكانها أكثر من أربعة ملايين.

تكوّنت قرغيزستان إثر سيطرة الايديولوجيّة السوفياتيّة بعد الحرب العالميّة الأولى. وقد نشأت إنطلاقًا من تسمية «قرغيز» التي كانت تُطلق على مجموعة قبائل تركية مسلمة تتكلّم اللغة الكيبتشاكيّة، هاجرت إلى المنطقة في حدود القرن الثامن عشر، وشكّلت بعد ذلك أكثريّة السكّان الذين نجد أيضًا بينهم الروس والأوزبك. وقرغيزستان عبارة عن سهوب وجبال تضمّ مناطق جليديّة، وتجاور حوض «كارم» المجفَّف. وتفصلها حدود مصطنعة عن جمهوريّات كانت سابقًا ضمن الإتحاد السوفياتي، ومنها كازاخستان في الشمال، وأوزبكستان وتاجيكستان في الجنوب الغربي؛ كما تتّصل شرقًا بالتركستان الصيني أو سين كيانغ. وحتّى دخول الروس إليها في القرن التاسع عشر وقيام الحكومة العسكريّة في ساميراتشي، لم تعرف تلك البلاد سوى صراعات بين اتّحاد القبائل التركيّة التي جمعها الاسلام لمواجهة المغول، وبنوع خاص الكلموك. مع ذلك فإنّ القسم الصغير من أراضيها الحاليّة الذي كان في القرون الوسطى جزءًا من مقاطعة فرغانة الغنيّة ما يزال يحافظ اليوم، خصوصًا في مدينة أُوزغن، على معالم مهمّة من هذا الماضي.

القِرْم، بالتركية **كيريم**، شبه جزيرة تقع شمالي البحر الأسود، ظلّت تحت الحكم الإسلامي من القرن الخامس

عشر إلى القرن الثامن عشر.

الحملة العسكرية الأولى التي وصلت إلى القرم أرسلها السلطان علاء الدين كيقُباد من سلالة سلاجقة الروم التي كانت تحكم الأناضول. ثمّ وقعت منطقة القرم بأيدي خانات القبيلة الذهبية بين سنتي ٦٢٠ و٦٣٦هـ/ ١٢٢٣ و١٢٣٩م، وكانت حينئذ على اتّصال بمماليك مصر الذين أتموا معها علاقات تجارية، وكانوا يستوردون منها الرقيق. وفي بداية القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، خلال حكم الخان أُوزبك، تجذّر الإسلام السنيّ بقوة في القرم. وفي هذا الوقت كانت النزاعات والصراعات الداخلية حول السلطة تُفسد ازدهار المنطقة القائم أساسًا على المبادلات التي كان فيها للتجّار المسيحيّين، ولا سيّما تجار جَنَوى، الدور الفاعل.

بعدئذٍ بسط أمراء مغول آخرون، هم أُسرة جيراي خان، سلطتهم على شبه الجزيرة في القرن الخامس عشر وأحيوا فيها، حول عاصمتهم باغجه سَراي قرب سِيمْفِروبول (Simferopol)، مركزًا ثقافيًا كان له نشاط بارز في بعض المراحل. وكانت الدولة التي نظّموها تخضع لسيادة العثمانيّين الذين وجّهوا إهتمامهم إلى هذا الجزء من ساحل البحر الأسود منذ احتلالهم لِفيودوسيا في ١٤٧٥م. وهكذا خضعت هذه الدولة لنفوذ اسطنبول، لكنّها لم تتوقّف مع ذلك عن توسيع علاقاتها بجيرانها في الشمال.

وبدءًا من القرن السادس عشر، طرح خانات القرم – الذين تصرفوا في البداية كحلفاء لدوقات موسكو الكبار – أنفسهم ورثةً لأمبراطوريّة مغول القبيلة الذهبيّة المتقرضة، ودخلوا في مواجهات عسكرية مع الروس دعمًا لِتَتَر المناطق المجاورة. لكنّ محاولاتهم فشلت مع زوال خانات قازان، في العام ١٥٥٢م، وخانات أستراخان في ١٥٥٤م. ويعود الفضل في استمرار خانات القرم الى ١٧٨٣ – تاريخ ضمها إلى روسيا – إلى حماية العثمانيّين الذين كانوا يستخدمون خانات جيراي وسطاء مع دول الشمال. وقد غادرت عناصر تتريّة مختلفة المنطقة حينئذٍ للإقامة في الأمبراطوريّة العثمانيّة واستمرّت حركة النزوح هذه طيلة القرن التاسع عشر.

أمّا التتر الذين بقوا في القرم فقد نقلوا إلى آسيا الوسطى في العام ١٩٤٥.

◄ راجع المستندين ٢٣ و٢٥.

قَرَمَنْلي (القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي)، سلالة من حكام شبه مستقلين حكموا ليبيا، وسيطروا على طرابلس الغرب محاولين سلخها عن السيادة العثمانيّة.

ففي العام ١١٢٢هـ/ ١٧١٠م، حصل الحاكم أحمد القرمنلي من الباب العالي على حقّ ممارسة سلطته على المناطق الثلاث التي تتشكّل منها ليبيا، وهي: فزّان وطرابلس الغرب وبنغازي. شرع في تحديثها وحَكَمَها بطريقة أكثر حزمًا من ذي قبل، موجّهًا البلاد نحو الإستقلال الذاتي، وجاعلًا الحكم فيها وراثيًّا. لكنّ العثمانيّين، بتأثير من القوى الغربيّة، حسموا الوضع لمصلحتهم في العام ١٨٣٥، وأخضعوا هذه المناطق لرقابتهم المباشرة.

قَرَه چلبيزاد، أسرة من العلماء والمثقفين شغلت مكانة مرموقة في الأوساط القياديّة في الأمبراطورية العثمانيّة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. كان مؤسّسها مربّيًا لابن السلطان سليمان القانوني وقاضيًا على أدرنة ثمّ على اسطنبول، وقد لُقّب بـ «قره چلبيزاد» تيمُّنًا بجدّه. شغل ابنه وأحد أحفاده منصب القضاء في الأناضول والروملّي في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر. برز في العائلة أحد أحفاده الآخرين واسمه عبد العزيز الذي ولد في العام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م، وتوفي في العام ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م، بعد أن عاش حياة مضطربة. فقد كان استاذًا في مدرسة ثمّ قاضيًا، قبل أن يُعزل ويُنفى الى قبرص في سنة ١٦٣٤م. وعند عودته إلى اسطنبول، أصبح «قاضي عسكر» في الأناضول ومن ثمّ في الروملّي، فسهّل أمر اعتلاء محمّد الرابع سدّة العرش، ما سمح له بأن يحصل على منصب شيخ الإسلام في سنة ١٦٥١م. نُفي بعد ذلك إلى جزيرة كيو، ومن ثمّ إلى بورصة حيث توفّي. صنّف عبد العزيز مجموعة من كتب التاريخ، أفردها، بصورة خاصة، لحكم سليمان القانوني وحملات مراد الرابع العسكريّة.

قره كلبكستان، جمهورية مستقلّة عاصمتها نوكوس، كانت سابقًا جمهوريّة إشتراكيّة سوفياتيّة تتمتّع بالحكم الذاتي، تقع جنوبي بحر آرال في منطقة عُرفت، في القرون الوسطى، بخوارزم. وهي اليوم جزء من جمهوريّة أوزبكستان، وسكّانها البالغ عددهم المليون نسمة هم بغالبيّة ٩٥/١٠٠ مسلمون.

في عام ١٩٣٦ اعتُرف لقبيلة قره كليك التركيّة المسلمة باستقلالها الذاتي في الوسط الأوزبكي، بعد أن تكوّنت، منذ العام ١٩٢٦، نواة منطقة، ومن ثمّ جمهوريّة ذات حكم ذاتي تنتمي إلى جمهوريّة كازاخستان الإشتراكيّة السوفياتيّة. يعود ظهور هؤلاء القوم في آسيا الوسطى إلى نهاية القرن السابع عشر، حيث أقاموا في أودية سيرْدَرْيا وآموداريا. وكان عليهم، من أجل الحفاظ على استقلالهم، أن يقاتلوا خانات خيْوَه. لم تشهد هذه البلاد أي تنظيم إداري مميّز إلّا بعد الاحتلال الروسي للمنطقة في العام ١٨٧٣. داخل حدود الجمهوريّة المستقلّة التي تحمل اليوم الاسم نفسه، والتي هي بعيدة عن التمتّع بالمستوى الاقتصادي الذي يتمتّع به الجزء الشرقي من أوزبكستان، ثمّة آثار عديدة تشير إلى المواقع الأثريّة العائدة لخوارزم في العصور القديمة والوسيطة.

قُريش قبيلة عربيّة تنعم بمكانة مميّزة في الوسط الإسلامي، شغلت أراضي مكّة وضمّت بين أبنائها نبيّ الإسلام (ﷺ) وعائلته.

اعتُبرت من عرب الشمال المتحدّرين من عدنان، وأعلنت انتماءها، إلى جد يقال له فهر أو قريش، وهو جدّها الأعلى الذي اتخذتْ إسمها منه. ويُروى أنّ قائدًا يدعى قصيّ جمع شمل أبنائها لانتزاع الكعبة من قبضة خزاعة.

يصعب، إستنادًا إلى روايات علم الأنساب، تحديد الزمان الذي غدا فيه القريشيّون أسياد مكّة، وسيطروا، بعدئذٍ، على طرق القوافل في نجد ومنطقة الطائف. إلّا أنّهم، في نهاية القرن السادس للميلاد، احتكروا التجارة التي كانت تعبر الحجاز وتصل المحيط الهندي، من جهة، بالبحر الأبيض المتوسط، من جهة ثانية، ضامنين ازدهار المدينة التي أضحت مركز أقامتهم الدائم وتجارتهم. إنّ تنظيم مكّة الداخلي ومسؤوليّات التجارة البعيدة كانا في أيدي زعماء العشائر الأساسيّة المتفرّعة من القبيلة، وكانت علاقات هذه العشائر في ما بينها قبل الإسلام متغيّرة، تحكمها أنظمة تحالف سياسيّة واقتصاديّة في آن، وقد عرفت كلّ منها، عبر العصور، تغيّرًا في قدرها. وفي بدايات الدعوة الإسلاميّة، كانت السلطة [الفعليّة] في أيدي عشيرة عبد شمس التي كانت أكثر قوّةً من عشيرة هاشم (ومنها اسم الهاشميّين) واليها ينتسب مباشرة النبيّ محمّد (ﷺ).

وقد استمرّت، خلال القرون الأولى للإسلام، العلاقات الداخليّة والخصومات التي كانت قائمة من قَبل بين العشائر المتعدّدة لقبيلة قريش: فالأمويّون المتحدّرون من عبد شمس استولوا على الخلافة [بعد الحكم الراشدي]، ولكنّهم أُجبروا على التخلّي عنها سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م للهاشميّين، من ذريّة العبّاس، أي العبّاسيّين، إذ إنّ الخلافة كانت، بحسب المفهوم السائد يومئذٍ، حقًّا لقريش. إنّ ضرورة الانتماء إلى قريش شرّعتها النظريّة السنيّة في الإمامة، ولم يطرحها الفقهاء مجدّدًا للبحث إلّا في مرحلة متأخّرة، عندما أراد حكّام من غير العرب، يسيطرون على أمبراطوريّات، كالمغول والعثمانيّين، أن يحملوا بدورهم لقب خليفة.

◄ راجع المستندات ١ إلى ٥.

قزوين (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، محلّة قليلة النشاط اليوم، كانت في ما مضى مدينة ذات أهميّة في إقليم الجبال القروسطيّ المجاور لأذربيجان وجيلان وطبرستان.

تقع قزوين إلى الشمال الغربيّ من العاصمة الحاليّة طهران، وقد شغلت زمنًا طويلًا موقعًا إستراتيجيًّا وتجاريًّا لا مثيل له. من هذا الموقع كانت تُراقب، من جهة، الممرّات التي تقود إلى إقليم الدَّيلَم الجبلي وشواطئ قزوين، ومن جهة أخرى طرق القوافل التي تربط تبريز بالرّيّ وبهمذان. حال شحّ الماء في الهضبة التي تقع فيها دون توسّعها، لكنّها شكّلت دائمًا نواة لمركز مدينيّ محصّن ومتنازَع عليه، وملتقى لطرق المواصلات.

احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة منذ سنة ٢٥هـ/ ٦٤٦م، في زمن الفتوحات الكبرى، وتحوّلت إلى موقع

محصّن. في ما بعد استخدمها الامويون قاعدة لانطلاق حملاتهم الجهادية في اتّجاه الشمال. ازداد نموّها في مطلع عهد العباسيّين، فأُضيفت الى القلعة مدينة أنشأها الخليفة موسى الهادي وحملت اسم مدينة موسى؛ وبعد فترة وجيزة، وبالتحديد في سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م، أنشأ مدينة أخرى أحد معتقي الهادي، مبارك التركي، وحملت اسمه. أمّا هارون الرشيد الذي مرّ بقزوين في أواخر عهده وأُعجب بموقعها كمحطة، فأصدر الأوامر ببناء سور حول ضيعها الثلاث لم ينتهِ العمل فيه إلّا سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م؛ كما أمر ببناء المسجد الجامع وسط المدينة، على ممرّ القناة الرئيسة التي كانت تغذّي المدينة بالماء... لم يبقَ من هذه الأماكن إلّا آثار محفوظة اليوم في المدينة العتيقة تشهد على قدمها.

لمّا كانت قزوين تشكّل منطقة حدوديّة فإنّها تعرّضت لهجمات عديدة إبّان سيطرة البويهيّين عليها، وبخاصة إبّان حكم السلاجقة، بسبب قربها من «ألَموت» ومن سائر القلاع الإسماعيليّة النزاريّة. غير أنّ قزوين تجمّلت بالأبنية التي شيّدها الحاكم خُمارتاش، أحد أتباع الأتابكة الإيلدكزيّين: فقد بنى فيها القائد العسكري، تحت اسم مقصورات، أجنحة ذات قباب ضخمة تزيّنها النقوش والكتابات الفخمة، تضفي جمالًا على المسجد الجامع القديم كما على المسجد الجامع الجديد الحنفي، وقد بقي من هذا الأخير، اليوم، آثار تُعرف باسم مسجدِ الحيدريّة. إنّ نوعيّة هذه الأبنية، التي تشهد للتطوّر الهندسي السلجوقي في إيران، كافية للدلالة على غنى قزوين في تلك الحقبة من التاريخ.

بعدئذٍ شهدت قزوين احتلال المغول لها وتدميرها على أيديهم في العام ٦١٧هـ/١٢٢٠م، واستقبلت، إثر ذلك، قبائل تركيّة نزحت إليها وساهمت في تغيير هوية سكّانها. بعد إعادة بنائها، أصبحت قزوين سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٥م عاصمة مملكة الصفويّين الجديدة. ثمّ حلّت محلّها، على عهد الشاه عبّاس الأوّل، مدينة أصفهان، إلّا أنّها ظلّت تواصل نموّها وتطوّرها بفضل العلاقات التجاريّة بأوروبا وروسيا الجنوبيّة، الى أن صارت في القرن التاسع عشر، في ظلّ حكم القاجار، مركزًا اقتصاديًا ذا حيويّة مطّردة النمو. فقد أنشئت فيها أحياء تجاريّة جديدة حول مسجد جامع ثالث، مسجد الشاه، الذي شُيّد لينافس المسجد الذي بناه هارون الرشيد وجمّله خمارتاش. ما زالت هذه الأحياء تسترعي الانتباه، حتّى فترة غير بعيدة، بثروتها العمرانيّة، وخاناتها المدينيّة وأسواقها المسقوفة، على مقربة من منازل رائعة الجمال وذات طراز تقليدي. إنّها تشهد على تغيير موضع المدينة بالنسبة الى ما كان يشكل مركزها الأكثر قدمًا، إلّا أنّ هذه الأحياء عرفت بدورها أفولًا سريعًا. أمّا في عصرنا الحاضر فقد تراجعت قزوين الى مجرّد مركز إداريّ إقليمي.

◄ راجع المستندين ١٣ و٢٤.

القزويني، ابو يحيى زكريا بن محمد، ٦٠٠-٦٨٢هـ/١٢٠٣-١٢٨٣م، جغرافيّ وكوزموغرافيّ، اشتهر في مطلع عهد الإيلخانيّين موسوعيًّا ومبسّطًا للمعارف.

ولد في قزوين، في إيران، من أُسرة عربيّة، قصد بغداد حيث تلقّى تعليمًا فقهيًا تقليديًا. عمل قاضيًا في العراق في عهد المستعصم، آخر الخلفاء العبّاسيّين. بعد سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨، كرّس وقته لكتاباته العلميّة بفضل مساعدة المؤرّخ علاء الدين الجويني الذي أهداه القزويني مؤلّفه في وصف الكون. تناول هذا المؤلف المُعَنْوَن «عجائب المخلوقات»، في قسمه الأوّل، الظواهر السماويّة ومسائل تسلسل الأحداث التاريخيّة، وتناول في قسمه الثاني، بعد وصفه الأرضَ واقاليمها السبعة، المراحل الثلاث التي مرّت بها: المعدنيّة والنباتيّة والحيوانيّة.

ثمّة مصنّف آخر للقزويني وصل إلينا وهو بعنوان «آثار البلاد» يصف، بالترتيب الأبجدي، المدن والبلدان والجبال والبحار والأنهار، وهو أقرب ما يكون إلى معجم ياقوت.

القسطنطينية ← إسطنبول.

القَسَم، هو تأكيد علنيّ، له في الإسلام قيمة دينيّة وشرعيّة، ما دفع إلى تنظيم استعماله وإلى تحديد قانونيّ لبعض مظاهره.

واللجوء الى القسَم أشار إليه القرآن الكريم: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ

تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة النحل، ٩١).

والواقع أنّ القسم الذي يؤدّى مع استلهام إسم الله أو إحدى صفاته له طابع مقدّس، والنكث به خطيئة. ويتمّ اللجوء إلى القَسَم أمام القضاء ويُسمّى يمينًا، لكن لا يكون ذلك إلّا في حال غياب أيّة وسيلة إثبات أخرى ولتأكيد قرينة ما. وهو يؤدّى أمام القاضي، وبناء على أوامره، خلال جلسة محاكمة. فبينما يُقسم المسلمون بالله، يتوجّب على اليهود أن يقسموا بالإله الذي أوحى بالتوراة إلى موسى، وعلى المسيحيّين بالإله الذي أوحى بالإنجيل إلى عيسى. أمّا اليمين الكاذبة فعقابها كعقاب شهادة الزور.

ويتمّ اللجوء الى القَسَم كذلك في مناسبات متنوّعة، تأكيدًا لعهد أو ارتباط. وعدم الإلتزام به يُعتبر، في كلّ الحالات، خطأً جسيمًا يمكن أن يحصل صاحبه على التكفير عنه، إمّا بتقديم غذاء إلى الفقراء، وإمّا بإعتاق عبد، وإمّا بالصوم ثلاثة أيّام. وقد يصل التكفير حدًّا يضطرّ صاحبه إلى تنفيذ ما أقسم من أجله، أن يطلّق امرأته مثلًا. ويمكن أن يتّخذ القَسَم شكلًا أكثر علانية إذا ما أدّاه الانسان في مسجد، وخصوصًا داخل الكعبة.

في الحياة السياسيّة، في القرون الوسطى، كان يتمّ اللجوء إلى القَسم في بعض المناسبات المهمّة. فعند تسلّم الخليفة مقاليد الحكم، كان الناس يؤدّون له يمين الولاء أي البيعة، كما أنّ الحاكم بدوره كان يؤدّي القَسَم عند منحه الأمان لأحدهم. لكنّ التاريخ الإسلامي يشير الى مناسبات متعدّدة لم يكن فيها القَسَم العلنيّ محترمًا دائمًا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أنواع أخرى من القَسَم، كتلك التي بموجبها يتعهّد الأمير باحترام بنود وصيّة.

قُسَنْطينة (الجمهوريّة الجزائريّة)، مدينة تقع في المغرب الشرقي تحيط بهضبتها الصخريّة وهادٍ، حافظت على العظمة التي عرفتها في القرون الوسطى، وأصبحت ثالث أكبر مدن الجزائر.

اشتهرت قسنطينة، وما تزال، بموقعها الذي يعطيها أهميّة إستراتيجيّة توازي أهميّة قلعة حصينة. يميّزها الجسر القائم فوق «خانق رومل» (أمّا الجسر الحديدي الحالي فقد أُقيم مكان الجسر الحجري الذي كان أُعيد بناؤه في القرن الثامن عشر مكان الجسر الروماني المنهار). وقد احتُلّت المدينة في فترة الفتوحات الكبرى العربية - الإسلامية في القرن الأوّل الهجري/ السابع الميلادي. وأُلحقت بولاية «إفريقية» وشاركتها مصيرها، خلال فترة اجتياح بني هلال، إذ انتقلت من سلطة الزّيريّين إلى سلطة الحمّاديّين. واستسلمت لاحقًا للموحّدين، وخضعت لقبضة الحفصيّين ومن بعد للمرينيّين؛ لكنّها غالبًا ما عرفت، طوال هذه الحقبة، تمرّدات أثارتها القبائل العربيّة في المنطقة. ومع ظهور العثمانيّين في المغرب العربي، برز في قسنطينة حزبان، أحدهما مؤيّد للأتراك والآخر معادٍ لهم. وفي آخر الأمر، حوالي عام ١٥٧٠، فرض العثمانيّون سلطتهم، وأصبحت المدينة عاصمة بيلك الشرق وتابعةً لِدَاي الجزائر. وفي القرن الثامن عشر، جهد حكام هذا البيلك لتجميل المدينة التي احتلّتها القوّات الفرنسيّة بصعوبة في العام ١٨٣٧. لكنّها حافظت، لاحقًا، حتّى الاستقلال، على موقعها الإداري مركزًا لمنطقة واسعة صارت مقاطعة في ما بعد. منذ ذلك الوقت، عانت قسنطينة تقلّص رقعة نفوذها. لكنّها عوّضت الآثار الاقتصادية السلبيّة الناتجة عن هذا التنظيم اللامركزي، بالجهود المبذولة، على الصعيدين الصناعي والتجاري، للإفادة من ميزات موقعها في قلب الشرق الجزائري. لكنّ موقعها، الذي كان في السابق أساسيًّا في مستقبلها وشهرتها، شكّل عائقًا في وجه نموّها الديمغرافي ونهضتها العمرانيّة.

قشتالة، مقاطعة تقع في وسط الأرخبيل الإيبري وتضمّ، بخاصة في منطقة قشتالة الجديدة، أراضي من الأندلس خضعت لسيطرة إسلاميّة امتدّت أربعة أو خمسة قرون، ووضعت حدًّا لها مواجهات عسكريّة قاسية.

وقد مثّل ملوك مملكة ليون المسيحيّون الناشطون، ومن بعدهم ملوك قشتالة، دورًا مهيمنًا في هذه الصراعات دفع بالمرابطين إلى التدخّل ضدّهم بعد استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة في العام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. ونتج عن هذه التقلّبات مناخ متصلّب طبع المنطقة في مرحلة الاسترداد، يشهد عليه غنى المنطقة

الأثري بالقصور المحصّنة التي تميّز قشتالة بالنسبة إلى منطقة أراغون.

◄ راجع المستند رقم ١٦.

القُشَيْري، أبو القاسم عبد الكريم بن هَوازن، ٣٧٦-٤٦٥هـ/٩٨٦ - ١٠٧٢م، عالم كلام وصوفي من خراسان في إيران الشرقيّة، صاحب رسالة شهيرة في التصوّف.

من أصل عربي، ولد في عائلة غنيّة من الملّاكين، وتلقّى القشيري تربية رفيعة الشأن، جمعت بين علوم الدنيا وعلوم الدين، قبل أن يتتلمذ في نيسابور على شيخ صوفي؛ درس الفقه الشافعي وعلم الكلام الأشعريّ، وعلّم لاحقًا الحديث، وعقد في الوقت نفسه جلسات صوفيّة. ولمّا بسط السلاجقة الكبار سلطتهم على المنطقة، ما بين ٤٢٩ و٤٤٦هـ/١٠٣٨ و١٠٥٤م، دافع القشيري عن الأشعريّة بقوّة وعن العلماء الشافعيّين، فأدّى به دفاعه هذا إلى دخول السجن.

انتقل سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م إلى بغداد حيث كلّفه الخليفة التعليم في القصر، ثمّ عاد إلى خراسان، إلى طوس، فأقام فيها حتّى سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وتوجّه أخيرًا إلى نيسابور حيث قضى آخر سنيّ حياته. ترك رسالة في الصوفيّة هي بمثابة ثمرة تجاربه وتشكّل مختصرًا في المصطلحات التي استعملها الصوفيّون. لقد سعى فيها للتوفيق، قبل محاولة الغزالي، بين ممارسة التصوّف واحترام أحكام الشريعة.

القَصَبة، لفظة عربيّة عنت، بشكل عام في العصور الوسطى، وبخاصة لدى الجغرافيّين العرب في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، المركز الإداري لناحية أو لمنطقة ما.

في الغرب الإسلامي، حيث التسمية في الإسبانيّة «ألكازابا» (alcazaba) وفي البرتغاليّة ألكاسوفا (alcaçova)، استخدمت لفظة القصبة، بشكل أدقّ، للدلالة على دار محصّنة تعود إلى أحد الملوك داخل مدينة ما، أو على حصن مرتبط بسور ناحية، وبشكل الموقع الدفاعي لها ويُعرف عامة في الشرق باسم قلعة. واتّخذت المدينة المحصّنة بكاملها في ما بعد اسم قصبة، وكذلك بعض القصور والمدن الملكيّة الشهيرة؛ ومن ثمّ استُعملت اللفظة بالفرنسيّة بصيغة «kasbah» أو «casbah» للدلالة على مجموعة الأحياء القديمة المحميّة في مدينة ما.

توسّع استعمال اللفظة لتعني، في المغرب، القلاع التي تحفّ ببعض الحدود أو ببعض المسالك، وقد بنيت على عهد السعديّين والعلويّين؛ أمّا الرحّالة الأوروبيّون فاعتادوا لاحقًا أن يُطلقوا تسمية «قصبة» على المنازل ذات الوظيفة المدنيّة والعسكريّة التي يسكنها الزعماء المحليّون في الأطلس المغربي، وأيضًا على مختلف الأبنية الريفيّة القائمة في المنطقة نفسها والتي تجتذب النظر بمقوّماتها الهندسيّة الدفاعيّة والتزيينيّة.

القصر. لفظة عربيّة دلّت في العهود الإسلاميّة الأولى على بناء محصّن، يقع غالبًا في واحة ويُستخدم مركز إقامة لممثّلي السلطة.

في الفترة الأمويّة أُطلقت التسمية على دُور الأمراء الواقعة عامةً في السهوب، وسط أراضٍ مزروعة ومُسَوّرة، كما أُطلقت على أبنية كانت تستخدم نزلًا وخانات.

في ما بعد استعمل الإسم عادةً للدلالة على القصور التي كانت تقوم بدور مدن ملكيّة، شأن قصور الخلفاء في بغداد والقاهرة، إذ إنّ الاسم لم يقتصر وحده للدلالة على المسكن الملكي الذي كان يُعرف أيضًا بالدار.

أمّا في الأندلس فلفظة قصر دلّت، بشكلٍ عام، على قصر الخليفة أو الأمير واستمرّت في الاستعمال مع «أل» التعريف في شكل «ألكازار» (alcazar) وهي تُطلق، اليوم، على دور السكن القروسطيّة المحصّنة المشرفة على المدن الكبرى في شبه الجزيرة الإيبريّة. وفي صقليّة ما تزال مستعملة في لفظة كاسّارو (Cassaro) في بالرمو.

قصر أبي دانس ← **ألقصر دو سال**.

قصر الحَيْر، إسم عربي حديث تحمله مجموعتان من آثار الصحراء، في الجمهوريّة العربيّة السوريّة وهما شاهدان على أبنية ملكيّة تعود الى العصر الأموي، وتقع إلى الجنوب الغربي والشمال الشرقي من تدمر.

قصر الحَيْر الغربي، دار أميريّة، حفرت على العتبة التي تتوّج باب مدخل أحد الأبنية الملحقة بها كتابة عربيّة تحمل اسم الخليفة هشام، وتاريخ ١٠٩هـ/٧٢٧م. كان هذا القصر موضع تنقيب أثري بين الحربين العالميّتين وكشف عن معلومات مفيدة على ثلاثة صعد:

من جهة، جرى تقييم للطريقة التي تمّ بموجبها تنظيم الموقع: بُني القصر في محلة كانت في الماضي مزروعة ومسكونة، وتتطابق مع تقاطع مسارين كبيرين لقوافل سوريا القروسطيّة، وهما محورا مرور، أحدهما يربط دمشق بتدمر، والثاني يربط فجوة حمص بمنخفض دومة الجندل شمالي جزيرة العرب.

تميّز هذا الموقع بنوعيّة الإنشاءات الآخذة بأساليب تقنيّة لحبْس المياه في وادٍ يكثر فيه السَّيْح (سدّ، قناة، قناة مكشوفة، خزّان) واستعمالها في ريّ حدائق وبساتين مسوَّرة.

من جهة ثانية، تيسّرت بذلك دراسة مختلف الأبنية السكنيّة التي شيّدها الأمير الأموي الى جانب مبنى كان قائمًا من قبل، وهو دير بيزنطيّ قديم.

إنّ هذه العناصر العمرانيّة التي رافقتها منازل متواضعة وأبنية ذات منفعة زراعيّة اندثرت كلّها اليوم، كانت تتألّف، بشكل أساسي، من حمّام ضخم منفرد، ومن خان وقصر، قد أظهرت الحفريّات أنّ القصر كان يحتوي شققًا مستقلّة في الطبقة الأرضيّة، مستندة إلى سور خارجيّ تعلوه أبراج، وهي تنفتح على رواق يحيط بفناء مربّع مركزي، في حين أنّ قاعات الإستقبال كانت تقع في الطبقة العليا.

أخيرًا، كان القصر يحتوي رسومًا مثيرة للاهتمام تُغطّي أرضه، وهي بمثابة تبليط من الفسيفساء، تمثّل مشهد صيد ووجهًا رمزيًّا، في حين أنّ زينة الكسوة تتضمّن تشبيكات هندسيّة وعربسات منحوتة في الجصّ، وكانت تغطّي واجهة المدخل والواجهات المطلّة على الفناء: كل هذه البقايا من الجصّ والرسوم الجداريّة اعتُمدت أُسسًا في إعداد مخطط القصر الذي يعرضه المتحف الوطني السوري في دمشق. من المفيد مقارنة أسلوبها الهلّينستي باسلوب الزينة المستوحاة من الفنّ الساساني، الغنيّة بالزخارف، التي عُثر على قسم منها في قصر خربة المفجر، قرب أريحا.

قصر الحَيْر الشرقي، حافظ هذا القصر على أطلال أكثر ضخامة من تلك الموجودة في قصر الحير الغربي، إضافة إلى سورٍ أكثر اتّساعًا، على امتداد مجرى ماء موسميّ حُوّل، بدوره، إلى نظام ريّ لواحة إصطناعيّة.

لم تحظَ آثار قصر الحير الشرقي بالاهتمام إلّا مؤخّرًا، فشكّلت موضوع تنقيبات يسّرت التعرّف إلى تاريخه. هناك أبنية من النوع الممتاز كانت تشكّل مجمَّعين متجاورين ضخمين، يحيط بهما سوران، أحدهما كبير والآخر صغير، أُرّخ قسمٌ منها من بداية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، إذ ظهرت، داخل السور الكبير، أساسات بناءٍ تحمل كتابةً تنسبه، هي أيضًا، إلى الخليفة الأموي هشام، وتحمل تاريخ سنة ١١١هـ/٧٢٩م. صحيح أنّ الموقع يُؤمّن الشروط الضروريّة للاستثمار الزراعي، إلّا أنّ أعمال التنقيب داخل السور الكبير وحول ساحة مركزيّة مربّعة الشكل، كشفت عن سلسلة من المنازل المتلاصقة سكنتها، من دون شك، مجموعات قبليّة عدّة، وهذا يفسّر معنى لفظة «المدينة» المستعملة في النصّ المذكور أعلاه.

أمّا داخل السور الصغير فلا يوجد سوى خان استُخدم في الفترة اللّاحقة التي شهدت خلالها سوريا إزدهارًا تجاريًّا مع نشأة النفوذ الأيّوبي الذي أنعش، في أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وضعًا عانى، حتّى ذلك التاريخ، الإضطرابات الداخليّة والهجمات الخارجيّة.

إنّ الموقع المُنشأ في زمن الأمويّين والذي ما لبث أن أُهمل في عصر العبّاسيّين، استعاد حيويّته في أواخر العصور الوسطى. غير أنّ الأنشطة التجاريّة، التي استفادت من الإزدهار الجديد الناتج عن اتّساع امبراطوريّة السلاجقة في إيران والأناضول وعن طموحات من خلفهم، لم تدم أكثر ممّا دامت فترة الفتوحات العربيّة المظفّرة في بدايات الإسلام، إذ ما لبثت الغزوات المغوليّة وتجزئة الشرق الأدنى التي نتجت عنها، في أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، بين سلطة الإيلخانيّين وسلطة المماليك السوريّين - المصريّين، أن قضت بدورها، وبشكل

نهائي، على الطريق التجارية التي كانت تربط ساحل البحر الأبيض المتوسط بالموصل عبر واحات قصر الحير الشرقي.

◄ راجع المستند رقم ٩.

القصر الصغير، موقع مدمّر في شمال المغرب، على مضيق جبل طارق. كان في ما مضى مدينة مينائية قروسطية عرفت نشاطًا واسعًا في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد.

اختار «الموحّدون» هذه المحلّة لوقوعها مقابل جزيرة طريف، على أقرب نقطة من الساحل الإيبيري، لتكون نقطة إبحار في اتّجاه الأندلس، وكذلك مركزًا محصّنًا للترسانة البحريّة. أقيمت بعض التحصينات فيها، بخاصة في العام ٥٨٨هـ/١١٩٢م على يدي أبي يوسف يعقوب يوم كانت سلالته في ذروة مجدها. وقعت المحلّة في ما بعد في أيدي البرتغاليّين الذين استولوا عليها في العام ١٤٥٨م، إثر حملة بحريّة مهمّة بقيادة ألفونسو الخامس، فأقيمت فيها تحصينات جديدة، وظلّت تحت سلطة المسيحيّين حتى سنة ١٥٤٠م، حيث دُمّرت وأُهملت نهائيًا ولم يبق منها اليوم سوى آثار أسوارها المجاورة لمرفإ طَمَسَتْه الرمال.

القصر الكبير ← كْسار الكبير.

قصر هشام ← خربة المفجر.

القصور (الملكيّة)، مبانٍ ضخمة استُخدمت في القرون الوسطى الإسلاميّة على أنّها «مدن ملَكيّة»، ضمّت سُكنى الملوك وإداراتهم الحكوميّة وحاشياتهم العسكريّة والمدنيّة، فتميّزت بذلك عن القلاع العاديّة، إذ مثّلت دورًا في تطوّر الحضارة الإسلاميّة، ولا سيّما في مجالات الفن والهندسة والثقافة الدنيويّة.

١ - كان القصر الذي استخدمه الخليفة أو السلطان، ذو السلطة الاستبداديّة في أكثر الأحيان، مقرًّا لتصريف الشؤون العامّة ومسكنًا خاصًا في آن، وحصنًا ورمزًا لسلطته؛ كما كان مجالًا لتبيان أُبّهة سيّده وتلبية حاجات الحياة اليوميّة والرسميّة. كانت مقوّماته المعماريّة تختلف باختلاف الموقع الذي يقام فوقه والأمير الذي يسكنه، أكان سيّدًا ذا مملكة شاسعة، أو حاكمًا عاديًا أو أمير حرب شبه مستقلّ. تتفاوت القصور إتقانًا إلى حد كبير، بالنسبة إلى مساحتها وتنظيمها الداخلي وفخامتها وطراز مبانيها، كما يتفاوت ذوق الذين يؤمّونها. إنّ القصر كان دائمًا المركز الأساسي للأنشطة السياسيّة والفكريّة وحتّى الدينية التي كانت تتنامى داخل مملكة أو إمارة، ومركز استقطاب لأيّ ازدهار إقتصادي، والمكان الذي تتّجه إليه شبكات الأعمال الحرفيّة والتجاريّة. كان الحاكم يسكن في القصر وسط أعيانه وحرسه وأركان حربه، فيما كانت دواوينه الرسميّة تعمل على مقربة منه. وكان القصر يضمّ الأجنحة الخاصة والحدائق الترفيهيّة الضروريّة للحاكم وأقاربه، كما يؤمّن له الحماية التي قامت، تارة على وفرة الفرق المسلّحة، وتارة على فعاليّة هيكليّته المعماريّة. بذلك غدا القصر مركزًا لمحاولات التطوّر كافةً، حربيّةً وسياسيّة ونفعيّة وجماليّة، التي عرفتها جميع المناطق والحقب التاريخيّة، على مرّ العصور، وذلك تلبيةً لحاجات الدفاع والنفوذ والرفاهية الحسيّة والفكريّة.

كذلك شكّل القصر مجالًا لعقد الحلقات الشعريّة والمناظرات الشفويّة والمآدب، تواكبها الموسيقى مع الرقص، ومجالس الشرب واللقاءات الأدبيّة، وصولًا إلى الجدالات الدينيّة بين العلماء وغيرهم ممّن يتعاطون الفلسفة والطب وعلم الفلك والرياضيّات من الذين يستقدمهم صاحب السلطان. في أجنحة القصر وفي الحدائق، ولا سيّما على مقربة من المياه الجارية أو الأحواض التي تشكّل الثروة الأولى في مناطق يغلب عليها الجفاف، كانت مناسبات اللهو تتوالى وكذلك الحفلات الرسميّة والجلسات الاحتفاليّة والعروض العسكريّة والتدرّب على الفروسيّة.

في الوقت نفسه، كان القصر يشكّل أهراءً لمواد من كلّ نوع: الحبوب والأغذية والسلع الاستهلاكيّة الأخرى التي تودع بصورة موقّتة في مستودعات واسعة، إضافةً إلى المعدات والآلات الهجوميّة التي تكدّس بكميات تتناسب وحجم الفرق التابعة للأمير، كذلك الأشياء الثمينة التي تشكّل احتياطي الخزينة الملَكيّة والتي كانت تؤلّف العناصر المميّزة للتبادل أو للهدايا،

كالمخطوطات المحفوظة لقيمتها الفنيّة أو العلميّة في مكتبات متقنة، وأخيرًا محفوظات مختلف الدواوين العاملة في القصر والمساهمة في إبراز مجد الأمير، بفضل روائع الخط أو الزخارف التي تلبّي متطلبات علم المستندات القديمة.

إن المهمّات المتعدّدة التي يضطلع بها القصر أدّت به إلى استقبال عدد من كتّاب الدواوين والخدم وإيوانهم، لا يقلّ هذا العدد كثيرًا عن عدد المماليك والمرتزقة الملحقين بفرق الجيش. يفسّر ذلك استخدام عبارة «مدينة ملكيّة» للدلالة على مقرّ الأمير وعلى أهميّة سكّانه وعلى المسافة الرمزيّة أو الحقيقيّة التي تفصله عن المدينة. ما من عبارة أنسب منها للدلالة على المباني الضخمة التي ما تزال تشهد لها آثار من العصر العبّاسي، مثل سامرّاء في العراق والرقّة في سوريا ولشكر بازار في أفغانستان، ولا ننسى في ما بعد القصور - القلاع العائدة الى القرون الوسطى والتي يبقى أشهرها قصر الحمراء في غرناطة.

من المؤسف أن تكون هناك، إلى جانب تلك القصور المذكورة، قصور أخرى لا تقل عنها ضخامة لم يبق منها أيّ أثر. لكنّنا نعلم أنّها حافظت على معالم تدلّ على نسقها الأساسي، على أقلّ تقدير حتى العصر الحديث، الأمر الذي تجسّده الأبنية الملكيّة التابعة لتركيا في عهد العثمانيّين، ولإيران في عهد الصفويّين، وللهند في عهد المغول، وللمغرب في عهد العلويّين وغيرها. إنّ ما يمكن تسميته «حضارة القصر»، التي استمرّت عبر العصور في البلدان الإسلاميّة من غير أن تتجدّد في روحها ومبادئها، يسمح لنا بتركيز ملاحظاتنا على الحقبة التي تكوّنت خلالها، للمرّة الأولى، العادات التي أصبحت عادات كلاسيكيّة. من هنا تبرز أهميّة العصر الذي كانت فيه شهرة المدن الملكيّة تبعث على تقليدها في المناطق كافة وتتردّد أصداؤها حتّى في الأدب الأوروبي في القرون الوسطى.

٢ - إنّ الآثار المتبقّية من تلك القصور الشهيرة لا توفّر المعلومات التي دُوّنت في المصادر المكتوبة، فهذه تيسّر لنا معرفة الكثير من التفاصيل عن مراسم الحفلات الرسميّة. وتكاد أجزاء الجدران المتبقيّة لا تسمح لنا اليوم بأن نتبيّن، من خلال الأفنية والأجنحة التي يصعب تلمّس تصميمها، اكتشاف مواقع المسارات التراتبيّة الخاصة بهذه الأماكن: من المكان العادي إلى المكان الأسمى، شروعًا من المدخل الأوّل الضخم المفتوح أمام بعض الناس وصولًا إلى القطاع المخصّص لحفلات الخليفة واستقبالاته والذي يقوم بمحاذاة غرف الاجتماعات الأكثر خصوصيّة حيث كان يتوافر المزيد من منظر المياه والمساحات الخضراء.

لقد زالت قصور بغداد اليوم من الوجود، سواء القصر الأوّل للمنصور الذي بناه في «المدينة الدائرية» سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، أو قصور آخر خلفاء السلالة على الضفّة اليمنى لدجلة. وامّحت أيضًا مبانٍ خليفيّة أخرى كالتي ارتفعت لجهة الشمال، وكذلك المدن الحكوميّة المتعاقبة التي شُيّدت على ضفاف النيل بأبنيتها الضخمة من الآجرّ غير المطبوخ أو من التراب المدكوك ذات الجدران الداخليّة المكسوّة بمواد ملوّنة والمقوّاة بالآجرّ المطبوخ على مستوى الدعائم والقناطر والقباب في الأقسام الأكثر فخامة. لكنّها لم تكن لتصمد أمام عوادي الزمن في سهول من الطمي ذات الأرضيّة غير المستقرّة. لم يبق منها، في أفضل الحالات، سوى أكمات وأجزاء أنقاض إلى جانب أقسام تمّ التنقيب عنها، أظهرت بنوع خاص زخارف الأجزاء السفلى. يمكن ملاحظة ذلك في سامرّاء حيث الأنقاض كانت ما تزال تمتدّ حتى عهد قريب على أكثر من عشرين كيلومترًا، في حين أنّ أماكن القصور القديمة في بغداد أو في القاهرة طُمِسَتْ بفعل تنامي المساكن المدينيّة. لكن، إذا صرفنا النظر عن تلك المدن القديمة التي سيطرت اليوم عليها الحداثة بعد أن كانت قد تعرّضت للدمار مرّات عدّة، يمكننا أن نكتشف الصورة الحقيقيّة للمباني القديمة العائدة للخلفاء من خلال تلك التي لم يتيسّر الوصول اليها من قبل بسبب عزلتها في منطقة سجستان الأفغانيّة.

في لشكر بازار أبنية أصغر من التي قامت في سامرّاء، وهي تبرز المعيار الذي بموجبه جرى إعداد صرح كل قصر ملكي من خلال عمق المنظور المحوري لصالة العرش الضخمة حيث كانت تجري مراسم الاستقبالات. كان منظر الصالة يخضع لتصاميم لم

نعرفها، بالنسبة الى العصر الكلاسيكي، من خلال مؤلّفات الوقائع، إلّا ابتداء من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، لكنّها ساهمت من قبل بتعديل التصميم الداخلي لمساكن الأمراء القديمة المحفوظة في سوريا من القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، مثل المشتّى. بالنسبة الى العصور اللّاحقة، نتبيّن من النصوص كيف كانت الستارة تخبّىء، خلال الاستقبال، خليفةً عباسيًّا لا يخرج إلّا نادرًا من قصره وكيف كان أهل السلطة ينظّمون الوافدين المختارين الذين يُسمح لهم وحدهم بالدخول على الأمير.

إضافة إلى ذلك، نكتشف في لَشكَر بازار تنظيم صالة العرش بتفحّص الصالة المربّعة الكائنة في أقصى بهو المدخل والتي كانت ما تزال تحتفظ، بعد رفع ركام القبة المتهدّمة، بالمنصة المتّسعة المبنيّة خصّيصًا لتحمل عرش السلطان. لم تكن تلك الصالة تفضي إلّا الى واجهة إيوانين موجّهين الواحد بعكس الآخر ومسندَين إلى جانبيها: أحدهما لاستقبال الزوّار، يمكن بلوغه مباشرة من الفناء الرئيسي، والآخر مخصّص من دون شك للملك وصحبه، وهو يقترن بصالة استقبال ثانية بقيت زخارفها تحمل إلى اليوم مجموعة رسوم كاملة لأفراد حرس الغزنويّين من الأتراك، مصطفّين في أبّهة بملابسهم وأسلحتهم.

لم تكن القصور معدّة تحديدًا لتشكّل موقعًا للاستقبالات المقتصرة على من يحالفهم الحظّ عبر ممرّات تثير فيهم الرهبة والإعجاب. فقد كانت تيسّر في ساحاتها، كما في لشكر بازار مثلًا، إمكان تحرّك فرق المشاة والخيّالة الملكيّة، وأمكنة لحشد الجنود المرابطين خارج القصر. كما كانت تقوم في القصور مصطبات وأروقة تعلو الباب الرئيس، اعتاد الحاكم أن يستعرض منها دوريًّا الجيوش وأن يطلّ أحيانًا علانيةً على أفراد رعيّته، كما كان يفعل الخليفة المعتضد، ومن بعده عدد وافر من السلاطين الذين كانوا يظلّون من أعلى مقصورة في قصرهم. وكانت في القصور أخيرًا مساحات مسوّرة ومزروعة مخصّصة لتنزّه الأمير مع المقرّبين إليه وحيث كان يستقبل زائريه، إن شاء، بالقرب من عيون ماءٍ وأكشاكٍ، كما في حديقة لشكر بازار الكبرى التي تضمّ في وسطها جناحًا ضخمًا ما تزال قاعدته قائمة، يقابله مبنى ظريف آخر برواقه وواجهاته.

لذلك قامت داخل مجموعة المباني أقسام تضمّ شققًا خاصة، وبينها خدور الحريم السريّة المغلقة على النساء، الزوجات منهنّ وجواري التسرّي، غير مغفلين والدة العاهل التي كانت، في أغلب الأحيان، تضطلع بدور سياسيّ. كانت هذه تضمّ ساحات محاطة بمساحات مزروعة تنعشها الأحواض. وكما في داخل قصر لشكر بازار الرئيس، كانت تلك الأقسام متلاصقة يتّصل بعضها ببعض بواسطة باب واحد، وكانت كلّها ذات تصميم واحد يتألّف من أربعة إيوانات وبعض الغرف الأخرى، تنفتح بشكل متناسق على ساحة وسطى غير مسقوفة. وكانت أحيانًا في شكل نُزُل ينفصل بعضها عن بعض وتتميّز بموقعها في وسط تشابك أبنية القصر، مثل مجموعة «قصور الشمال» شبه المستقلّة في لشكر بازار. وكانت لا تختلف بهيكليّتها عن سائر «المساكن الخاصة»، المسمّاة أحيانًا «مساكن الأسياد»، التي كانت تشيّد خارج المدينة الملكيّة، وهي متوافرة بكثرة في موقع لشكر بازار المهجور.

كان بعض تلك الأبنية مخصّصًا للأعيان ولأفراد الأسرة الحاكمة، ومنهم أولياء العهد الذين كانوا يتمتّعون بامتيازات خاصة ويقيمون في مساكن فخمة خلال حياة والدهم، كما يصل بهم الأمر، أحيانًا، إلى إقامة صروح خاصة بهم في مقاطعة نائية. من تلاصق تلك المؤسّسات الملكيّة المتعاصرة أو المتعاقبة، التي كانت تُنشأ وتُهجر بالسرعة نفسها، ظهرت تراكمات بلاطيّة ضخمة تجمّعت أحيانًا بصورة فوضويّة حول مراكز عدّة. كانت تلك الأبنية، باستمرار، عرضةً لتعديلاتٍ كليّة أو جزئيّة، تتخلّلها أقسام غير مبنيّة تحميها بشكل أو بآخر أسوار متعدّدة. وكانت تشيّد تبعًا للظروف على مواقع متجاورة، أو على العكس تُنقل من موقع موقّت في العاصمة إلى آخر.

غير أنّ اتّساع تلك المدن الملكيّة المختلفة وأهميّتها الإقتصاديّة كان مردّهما أيضًا إلى المساحة المذهلة التي كانت تحتلّها الأبنية المشتركة: مساكن ومستودعات ومشاغل عادية وغيرها من الأماكن الثانوية التي درست

اليوم، في الغالب، في حين نجد تفاصيل حولها في بعض ما كتبه الإخباريون القدامى. إلى جانب اصطبلات الخيل والجمال، وإلى جانب أبراج الحمام ومخابئ الكواسر التي تُستخدم للصيد، ومعارض الوحوش والحيوانات النادرة، تكثر مثلًا مختلف الأبنية المخصّصة لملابس الخليفة العامّة والخاصّة، ومخازن المؤن والخمور، والمطابخ ومصانع الحلْوى، ومستودعات التموين والبهارات والمواد العطرة، والمفروشات وحانوت الحلي والمواد الثمينة والسروج ومستودع الخيم ومصنع الأسلحة ومستودع الرّايات حيث كانت تحفظ الشارات والأسلحة الفخمة المستخدمة في الإحتفالات العامة، وأخيرًا بيت «التدبير» المكلّف تزيين القصر بالأزهار.

٣ - إن مختلف الأمكنة المجمّعة على أطراف المدينة الملكيّة كانت مجاورة لمساكن الخدم الذين كانوا ينشطون في خدمة سيّدهم أو يعملون ممثّلين عن هيئات المهن المختلفة. فلمصلحة الخزينة الملكيّة ومحلّاتها كان يعمل بلا هوادة الصاغة والخيّاطون والسكّافون والنجّارون وصبّابو البرونز وغيرهم من صنّاع الطرائف، بينما كان النسّاجون والمطرّزون يقومون، إضافةً إلى أعمالهم العاديّة، بإعداد الطراز وهو رداء المراسم، والناسخون والمزخرفون بتأمين الألق المعهود لفنون الكتاب. في معرض آخر، كان هناك مزارعون وبساتنة لِريّ الحدائق وصيانتها. أمّا بالنسبة إلى شؤون الصيد، فقد كان لدى الخليفة مدجّنون ومروّضون لإطعام الصقور والوحوش. وكان هناك سوّاس يهتمون بالخيول المخصّصة لرحلات الخليفة ولاستعراضات خيّالته، وكذلك قسم للمراكب يهتم بنزهات الخليفة على نهر دجلة. في ما يتعلّق بالولائم، يضاف إلى الطبّاخين وخبراء الحلوى والجزّارين والسقّائين وسائر «مموّني» المطابخ الذين لا بدّ منهم، كافةُ فئات الموسيقيّين والراقصين والروائيين والمهرّجين وغيرهم من محترفي اللّهو الضروريّين في مناسبات مشابهة. إنّ الجداول التي تورد كل هذه الأسماء، تضيف إليها الأطباء والفلكيّين الملحقين مباشرة بسيّد القصر لإسداء النصح، وهم تابعون كذلك القيّمَ المكلّف حسنَ سير الأعمال.

إلى جانب «الاختصاصيّين» الذين يمكن اختيارهم من بين الأحرار، كانت هيئة خدم الخليفة وعائلته، الكثيري العدد، من الرقيق بوجه خاص. وكان بينهم عدد وافر من الخصيان الذين لم يكونوا، كما يُعتقد أحيانًا، مكلّفين مجرّد الخدمة داخل «الحريم» بل، بحسب المبدإ السائد آنذاك والمتّبع أيضًا في الأمبراطورية البيزنطية، كان هؤلاء، أكثر من سواهم، مهيّئين ليصبحوا خدمًا أمناء للخليفة، صادقين ومتفانين في سبيله، جديرين بمراكز الثقة. وكان هؤلاء يُحرّزون ومحرّزين عند تبوّئهم بعض المراتب. يُذكر من بينهم، في خدمة الخليفة الفاطمي، الخصيّ المقدّم الذي كان يلفّ عمامة الخليفة على شكل تاج، والقيّم على قاعة الاستقبالات، وناقل الرسائل، ومدير المراسم، وأمين بيت المال، ومنظّم سجل الاجتماعات، وحامل لوح الكتابة، والقيّم على شؤون أقارب الخليفة ومدير المائدة. إضافة إلى كبار المسؤولين هؤلاء الذين يضطلعون بمسؤوليات فخريّة ومحدّدة بدقّة، كان العدد الأكبر من الخدام المسترقّين يقطنون حول المساكن الملكيّة ويكلّفون بمهمّات محدّدة. فيما كان بعضهم يهتمّ بصيانة الأماكن المختلفة وأثاثها، بينما يتولّى آخرون شؤون المائدة أو يختصّون بخدمة الخليفة الفاطميّ فيساعدونه على ارتداء ملابسه - كتلك المرأة الملقّبة «زينة الخزائن» التي كان في أمرتها ثلاثون امرأة - ويسهّلون له الوضوء أو يعاونونه في ركوب الخيل. هذه المهمّات المختلفة - التي كانت عديمة الفائدة بقدر ما كانت عادةً ذات أهميّة لأنّها تمنح الألقاب لأصحابها - دامت حتّى عصور متأخّرة إلى جانب مهمّات حكوميّة حقيقيّة.

كان ضباط عديدون يتولّون، بنوع خاص، إدارة خزنة الخليفة وواردات أملاكه الخاصة، ومراقبة مستودعاته التي تختزن الطرائف. والنظام إيّاه كان معتمدًا بالنسبة الى أملاك الأعيان وأموالهم، مثل أفراد عائلة الخليفة (الملكة الأم والأعمام والإخوة أو الأبناء ومن بينهم أولياء العهد)، أو ذوي المقامات الرفيعة الذين بلغوا أعلى درجات التشريف. كان هؤلاء القيّمون

على الأموال ينتسون إلى مجموعة الكتّاب الذين كانوا يحتلّون داخل القصر الملكي، أو في نُزُلٍ مجاورة له، مكاتب الإدارة ويعملون بإمرة الوزير، محافظين على روح التضامن في ما بينهم، وعلى كفايتهم التقنية وعلى تفرّدهم بثقافة مغايرة لثقافة المسلمين. من جهة أخرى، كان عناصر المنظّمة العسكريّة الأكثر إثارة للقلاقل في المدينة الملكيّة. نجد بينهم، بخاصة منذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، قدامى الرقيق من أصل أجنبي بعيد، اشتراهم الخليفة ودرّبهم خصيصًا ليكونوا حرسًا له، وكانوا يعيشون في أقسام مجهّزة داخل السور أو إلى جانبه مباشرة، وكان عددهم يفوق عدد الخدّام المدنيّين. كان رؤساؤهم وقادتهم، من مختلف الرتب، يعيشون بالقرب منهم، وكان هؤلاء أيضًا من قدامى الرقيق يتولّون مسؤوليّة فرقهم ويؤمّنون الدفاع عن الخليفة. كان قادة القوّات هؤلاء يتمتعون بولاء جنودهم لمشاركتهم إنتماءهم الإتني، وكانوا باستمرار على استعداد إمّا للمشاركة في ثورات محتملة وإمّا لإخماد مثل هذه الثورات، شاغلين المركز الأوّل لدى سيّدهم.

في مقابل هؤلاء الأفراد المأجورين في بيت الخليفة – وهو بيت على قدر كبير من الأهميّة إذ إنّه، عندما عانت السلالة العبّاسيّة الصعوبات، أصبح أحد أسباب العجز المالي ومن ثمّ انحطاط السلطة – كان هناك الفقهاء والعلماء الذين كانوا يتردّدون إلى القصر من دون الاختلاط بالقاطنين فيه. من بينهم كان يتمّ، بصورة طبيعيّة، اختيار أعضاء الجهاز القضائي المرتبط بدوره بالخليفة. كان بعض القضاة الذين أُنيطت بهم، ضمن مهمّتهم، مسؤوليّات واسعة، يشاركون في اجتماعات الخليفة والتي يحتلّ فيها ممثّلهم، قاضي القضاة، المركز الثالث في الدولة. بطبيعة الحال، كان في استطاعة الفقهاء وعلماء الكلام تأدية دور لدى العاهل. هو دور المستشارين الخاصّين، والمشاركة في اجتماعاته الخاصة حيث يختلط الأدباء بالندماء المقرّبين، لكنّ هذه الامتيازات لم تكن لتشمل حكمًا الاشتراك الدائم في حياة البلاط التي لا تخلو في سياقها – رغم أنّها لا تتضمّن أيّ شيء يستحقّ الإدانة، إذ إنّ العاهل الممجّد كان عاهلًا مسلمًا، يعمل ويحكم بحسب الشريعة لكي يؤكّد شرعيّة سلطته – من بعض الشبهات التي تتعارض نوعًا ما مع السلطة الشخصيّة لمفسّري هذه الشريعة وللمدافعين عن السنّة.

من هنا برزت تحفّظات العالم الإسلامي في القرون الوسطى تجاه «حضارة القصر»، مع أنّها كانت حاضرة دائمًا في تاريخه، وقد تميّزت، في آن، برخائها الباذخ وبعدد المشاركين فيها الذين كانوا يؤثّرون، بحسب مزاجهم، في الازدهار الفنّي والأدبي الذي كانت تنعشه «طلبات» الأمير. إستنادًا إلى الشواهد الماديّة المتبقّية، يمكننا أحيانًا منح أهميّة أساسيّة لتلك الحضارة المتجلّية حتّى في نموّ فنّ الرسم التجسيمي الذي كان محرّمًا خارج أسوار القصور، على الرغم من أنّ ذلك لم يكن إلّا وجهًا من وجوه الحضارة الإسلاميّة المعقّدة حيث كانت وقائع أخرى كثيرة، إجتماعيّة ودينيّة بنوع خاص، تتسبّب بردّات الفعل الشعبيّة وتتحكّم بمصير مختلف السلالات الحاكمة.

◄ راجع المستندات ٤٥ إلى ٥١، ٦٦ إلى ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٧ و٧٨.

قُصَيْر عَمْرَة، إسم عربي حديث أُطلق على أطلال حمّام ضخم أموي، تنتصب وحيدة في منخفض من هضبة البلقاء في الأردن، أثارت باستمرار، منذ اكتشافها في القرن التاسع عشر، اهتمام علماء الآثار. لم يقتصر الأمر على التمتّع بجودة مبنى ذي حجم صغير لم تعبث به يد الأيام نسبيًّا، تجلّت فيه، كما في حمّام السراح – وهو موقع أُموي مجاور له – العناصر المعماريّة المختلفة المتوارثة عن الحمّامات القديمة المزوّدة بقاعة استقبال، هي بمثابة قاعة تُستخدم لخلع الثياب والراحة، لكن ما يسترعي النظر هنا أيضًا هو توافر مجموعة من الرسوم التي تغطّي الجدران الداخليّة ومختلف القناطر والقبب. وقد حثّت هذه الرسوم التي رُمّمت أخيرًا على وضع دراسات وشروح فنيّة حولها: إنّ البناء الذي رأى فيه البعض، طبقًا لنظرية سقطت حاليًّا، قصرًا صغيرًا استعمل مصيفًا صحراويًا للبدو العرب من الذين استقرّوا في المنطقة بعد الفتوحات الكبرى، يحتلّ مكانه الطبيعيّ بين الأبنية التي تشهد على استيطان العناصر العربيّة في سوريا في العصر الأموي. ورغم اندراس آثار الأبنية ذات

المنفعة العامة وكذلك مساكن الفلاحين، وحتى قصر الحاكم، ومن المفترض أن تكون كلّها قريبة من موقع الحمّام - ولكن ليس بالضرورة في المكان نفسه حيث تغزر المياه الجوفيّة التي كان من السهل استخراجها بواسطة ناعورة فلا يمكننا أن نشكّ في المنفعة العامّة التي كانت لحمّام قُصَيْر عَمْرة في ذلك الوقت. يشهد استخدامه على العادات التي كانت متّبعة في القرن الأوّل للإسلام حيث تبنّى الأسياد الجدد للبلاد بعض العادات المرهفة لشعوب العالم القديم، إذ أصبح الحمّام ضرورة، كما اتّبعوا نموذج اقتصادها الزراعي القائم على استصلاح الأراضي المتّسعة التي استمرّت في تأمين ازدهار البلاد.

◄ راجع المستند رقم ٩.

القضاء والقدَر، مفهوم أُخذ به، بوجه عام، في العقيدة الإسلاميّة وفي الذهنيّة الشعبيّة الإسلاميّة، رغم تحفّظات مذاهب كلاميّة متعدّدة. فقد ساد تأويلٌ لعمل الخلق الإلهي للعالم جعل منه عملاً مستمرًّا، بفعل قرار إلهي يشار إليه بعبارة «القضاء والقدر». وشملت هذه المشيئة، بحسب التفسير، الأحداث كافةً التي اعتُبرت مرتبطةً بإرادة الله، من دون غيرها. ينتج عن ذلك أنّ كلّ ما يدعوه الناس «سببًا» ليس إلا تسلسل أحداث أراده الله، وأنّ قدرته الكليّة تُسيّر كذلك الأعمال البشريّة التي تُقرّر من دون أي تدخّل لحريّة الاختيار.

أصبح هذا المفهوم، الواسع الانتشار في أوساط التقليديّين، أساسًا لعقيدة الإستسلام للقدر التي انتشرت في الأوساط الإسلاميّة خلال القرون الوسطى، رغم تباين الآراء حولها وتناولها بالنقد، من قبل مفكّرين عديدين. فالمعتزلة، بخاصّة، إلى جانب إقرارهم بنوع من الجبر، دافعوا عن المسؤوليّة البشريّة وحريّة الاختيار. وقد طوّروا فلسفتهم واستقبلوا في صفوفهم المدافعين عن القدَريّة المرتبطة بمنحى سياسيّ، والمعتمدة على الطرح نفسه. جاءت الأشعريّة لتؤكّد إمكان تحمّل الإنسان مسؤوليّة أعماله، رغم القضاء بها من قبل الله. في ما بعد، أصبح نقد عقيدة القضاء والقدر في العصر الحديث أحد الموضوعات المفضّلة عند الإصلاحيين.

القضائية (المؤسسات)، وسائل يمتلكها القادة المسلمون لفرض النظام المتلائم مع متطلّبات الشريعة وممارسة السلطة في المجتمع الإسلامي. في بداية الإسلام، كانت العدالة تؤمَّن عادة في البيئة السنيّة بواسطة قاضٍ له صفات عديدة، يعيّنه الخليفة أو من ينوب عنه، لأنّ رئيس الجماعة الذي بيده سائر السلطات - ما عدا السلطة التشريعيّة - هو مصدر كل قضاء. وإلى جانب القاضي الذي كان يناط به، عادة، تطبيق العقوبات الشرعيّة المنصوص عنها بشأن عددٍ من الجنح، ثمّة من جهة، قائد الشرطة المكلّف تنفيذ الأحكام الصادرة عن المحاكم، إضافة إلى الحفاظ على النظام، وثمّة من جهة أخرى، المحتسب أو المسؤول عن تطبيق الحسبة، وكان يفرض عقوبات كيفيّة خفيفة في مقابل مخالفات صغيرة. كانت سلطة الخلافة تحدّد بدقّة إختصاص كل من هؤلاء المسؤولين، كما كانت تحدّد صلاحيّات القاضي في ما خصّ المكان والزمان والمادة. واستُحدثت وظيفة القاضي الكبير، أو قاضي القضاة، لمراقبة مجمل التنظيم القضائي بواسطة أحد الأعيان المقرّبين من السلطان. وقد ظهرت هذه الوظيفة لأوّل مرّة في بغداد في عهد هارون الرشيد، وعرفت في ما بعد، بحسب العصور والمناطق، صيغاً مختلفة قليلاً، كان آخرها في زمن الدولة العثمانيّة. عرف الوسط الشيعي جوًّا مماثلاً لما عرفته المجتمعات السنيّة، على الأقل في المراحل التي كان يمارس خلالها الإمام العلوي السلطة بنفسه. في هذه الحالة، عند الفاطميّين مثلاً، كان الإمام هو مصدر السلطة القضائيّة، والفرق الوحيد الجدير بالذكر، مقارنةً بالنّظام السنّي، يعود إلى اعتبار هذا الإمام المفسّر الأعلى للشريعة. وفي المقابل، في الدول الشيعيّة التي انتظمت في غياب كل إمام، كما حصل في الشرق عند الإماميّة الإثني عشريّة، بعد غياب الإمام الثاني عشر من السلالة الحسينيّة المباشرة، كانت المسألة أكثر تعقيداً لأنّ السلطة الحاكمة اعتُبرت، مبدئيًّا، غير شرعيّة، أيًّا كان مصدرها. وفي حال كهذه، كان يُقبل، بصعوبة، شكلٌ من التعاون بين قاضٍ شيعي يحكم وفق الفقه الإمامي وحكومة أمر واقع. أمّا القوانين فكانت تخضع لتأويلات كثيرة التقلّب، وارتكزت

السلطة الحقيقيّة، إلى حدّ بعيد، على القرارات الملزمة التي كان يتّخذها الفقهاء المعروفون في إيران باسم «الملالي». وبعد أن استولى الصفويّون على السلطة، عيّنوا قضاة إماميّين لم يتردّدوا في قبول مهمّات كهذه. في الحقبات القديمة، ومهما كان النظام، كان القضاة، وهم العنصر الأساسي في نظام القضاء الإسلامي، يستمدّون سلطتهم من حاكم يمارس وحده القيادة المباشرة للتنظيم العسكري والأمني. وكان هذا الحاكم يحتفظ لنفسه بمسؤوليّة القضاء المتعلّق بالتجاوزات أو بـ«ردّ المظالم»، ما كان يسمح له بالتدخّل في الأحكام عندما يتظلّم رعاياه، وكذلك بمراقبة كل ما يتعلّق بالأعمال الإداريّة. من هنا نشأ، في بعض الأحيان، قضاء حكومي في أساسه، مستقلّ عن قضاء القضاة ومواز له، كان يسنّ أنظمة عشوائيّة لا صلة لها في أغلب الأحيان بالشريعة. بدأت أهميّة هذا القضاء الموازي بالظهور إبتداء من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، في دولة السلاجقة وورثتهم. وفي عهد العثمانيّين أضيف قضاء آخر هو القضاء العرفيّ، فأضحت الحيل القضائية العديدة تسمح للسلطان أن يمارس سلطته التعسّفيّة، في حين عرف فيه النشاط التنظيميّ امتداداً جديداً. وبدءاً من العام ١٨٠٠ تقريباً، سمح هذا النشاط التنظيميّ للسلطات العثمانيّة أن تقوم بإصلاحات أدت في النهاية إلى إقامة نظام قضائي جديد. في الواقع، في هذه الفترة بالذات، وفي معظم البلاد الإسلاميّة، بدأ ظهور تحوّلات في القانون وتطبيقه، استمرّت في القرنين التاسع عشر والعشرين، واعتمدت قوانين من طراز أوروبي وضعت حدًّا لصلاحيّة المحاكم الشرعيّة، في الوقت الذي طُرح فيه موضوع توحيد قانون الأحوال الشخصيّة للمسلمين من مختلف المذاهب الفقهيّة، أو لمجمل شعب، مكوّن من المسلمين وغير المسلمين.

وخلال القرن التاسع عشر، أسفرت إجراءات أخرى اتّخذتها الدولة العثمانيّة عن وضع المحاكم الشرعيّة، في العام ١٩١٧، تحت رقابة وزارة العدل. وفي موازاة ذلك، كان الحدث الأهمّ التطوّر التدريجي لـ«المحاكم النظامية». ففي العام ١٨٤٠ تمّ تأسيس مجلس أعلى للقضاء مركزه اسطنبول، ومجالس محليّة ذات طابع جماعيّ، لها صلاحيات إداريّة. ثمّ صدر قانون في العام ١٨٦٤ وأنشئت بموجبه محاكم بدائيّة واستئنافيّة في مختلف الدوائر؛ كما صدر قانون في العام ١٨٧٩، وقد حدّد مهمّة المحاكم النظاميّة التي أنيطت بها، مذّاك، صلاحيّة الحكم بقضايا مدنيّة من كل الأنواع، وقضايا جنائيّة صغيرة، والشروع بتحقيقات حول جنح خطيرة، والحكم في قضايا تجاريّة عند الاقتضاء. غير أنّ هذا النظام لم يُعمل به بصورة جديّة، في ظلّ حكم السلطان عبد الحميد، قبل أن تصادق عليه وتحدّده جمعيّة «تركيا الفتاة» في العام ١٩١٠. وفي العام ١٩٢٠ كان النظام القضائي يسير نحو النظام العلماني القومي الموحّد الذي ستقيمه، في ما بعد، جمهوريّة تركيا الجديدة.

وعلى النحو نفسه، في إيران، جرت محاولات إصلاح النظام القضائي خلال القرن التاسع عشر، لكنّها لم تؤدِّ إلى إقامة نظام قابل للحياة بسبب معارضة رجال الدين. إنما في القرن العشرين، وفي عهد رضا شاه بهلوي، صدر ما بين ١٩٢٥ و١٩٣٥ قانون مدني بحصر صلاحيات المحاكم الشرعيّة في قضايا الزواج والطلاق والإرث والوصاية. لكنّ هذه الانجازات أُعيد النظر فيها بعد الثورة الدينيّة التي أسفرت عن إقامة الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة في العام ١٩٧٩. في القرن التاسع عشر أيضًا، وبصورة خاصة في العام ١٨٧٣، جرى التضييق على سلطات المحاكم الشرعيّة في مصر، وذلك بمبادرة من الخديويّين خلفاء محمّد علي، فأنشئت محاكم وطنيّة أو أهليّة في العام ١٨٨٣، كان من صلاحياتها قضايا عديدة انتُزعت من المحاكم القديمة. وفي العام ١٩٥٥ أُلغيت المحاكم الشرعيّة وكذلك محاكم الطوائف الدينيّة غير الإسلاميّة، وانتقل دورها إلى المحاكم الوطنيّة. ومنذ ذلك الحين تطالب حركة الاخوان المسلمين بإلغاء كل الأحكام التشريعيّة المخالفة للشريعة، لكنّ محاولاتها باءت جميعها بالفشل.

في الفترة عينها، ظهرت بعض المشكلات الخاصة في البلاد التي تشتمل على مذهبين إسلاميّين مختلفين. ففي العراق مثلاً تأسّس، في العام ١٩٢٣، نظام محاكم مزدوج، سنّي وشيعيّ، ولكن تمّ التوصل إلى توحيد قانون الأحوال الشخصيّة للمسلمين في العام ١٩٥٩.

في المقابل، لم يتغيّر، حتّى اليوم، النظام القضائي التقليدي في المملكة العربيّة السعوديّة إلّا في ما خصّ صلاحيّات المحاكم المختصّة. فالإجراءات التي أدخلها العثمانيّون على النظام القضائي تمّ إلغاؤها بقرار ملكي في العام ١٩٢٧، وقد أنشأ هذا القرار ثلاثة أنواع من المحاكم: - محاكم العجلة الناظرة في الجنح الصغيرة، وفي الجرائم التي تستدعي تطبيق احكام القرآن، باستثناء حكم بَتْر أحد الأعضاء وحكم الإعدام (وهي عقوبات يقتضي التصديق عليها من قبل لجنة المراقبة)؛ - المحاكم العليا الناظرة في القضايا الجزائيّة الخطيرة، وتعالج الدعاوى المدنية؛ - وأخيراً لجنة المراقبة. في العام ١٩٧٤ استُبدل بهذا النظام نظامٌ آخر اشتمل على محاكم بداية ومحاكم مناطق ومحكمة تمييز. لكن ذلك لم يمنع تطبيق القانون الإسلامي بشكل شامل في هذه المحاكم، وفق أحكام الفقه الحنبلي الذي يفرضه الوهّابيّون.

تشكّل المملكة المغربيّة حالة خاصة، لأنّها تشتمل، منذ القرن التاسع عشر، على أراضٍ مأهولة بالبربر أو الناطقين بالبربريّة، يحكمها قانون عرفي مختلف عن القانون الإسلامي. سعت الحكومة، بعد الإستقلال، إلى إقامة محاكم شرعيّة في مناطق البربر؛ وفضلاً عن ذلك، إنشاء محاكم «عاديّة» لتحلّ محل قضاء الباشاوات القديم. وفي الوقت نفسه ثُبّتت طريقة المحاكمة المعتمدة في المحاكم الشرعيّة. وهدفَ قانون صدر في العام ١٩٦٥ إلى توحيد النظام القضائي بشكل تام، وهذا ما لم يحصل إلى الآن.

في الجزائر، حيث للقانون الفرنسي تأثير كبير وانتشار واسع، فإنّ التعديلات الطفيفة التي أُدخلت على القانون في العام ١٩٥٩ لم تتناول سوى الزواج والطلاق. وقد أُعدّ قانون جديد ما بين ١٩٠٦ و١٩١٦: مشروع أوّلي للقانون الإسلامي الجزائري المعروف باسم قانون «موران» (Morand). لكنّ هذا النص الذي كان له دور مهمّ في الحياة العمليّة لم يعتبر أبداً قانوناً. وفي تونس، أخيراً، ثمّة قانون مدني وتجاري يرتكز إلى الشريعة، لكنّه مخصّص للتطبيق في المحاكم المدنيّة، وقد أبصر النور منذ العام ١٨٩٩. بعد ذلك بوقت طويل، وبخاصة إثر الاستقلال، دخلت البلاد طور الحداثة: فشهدنا، مثلاً، في العام ١٩٥٦، إلغاء الأوقاف، وإلغاء السلطة القضائية التي كان يتمتّع بها القضاة وإصدار قانون تونسي للأحوال الشخصيّة أدخل تعديلات مهمّة، منها منع تعدّد الزوجات.

هناك أنماط أخرى من التطوّر نلحظها أيضاً، منذ القرن التاسع عشر، في البلاد المسلمة جزئيًّا، كشبه القارة الهنديّة، حيث أعدّت السلطات البريطانيّة قانوناً خاصاً أحدث تعديلاً في ملامح الشريعة الإسلاميّة، ويُعرف باسم «القانون المحمّدي الانكليزي»، وكانت المحاكم تصدر أحكامها وفقاً لهذا القانون. كان الأمر على عكس ذلك في إندونيسيا حيث استمرّت المحاكم الإسلاميّة في جاوه. وقد تمّ إدخال إصلاحات على هذه المحاكم في العام ١٨٨١، ومن ثُمّ في العام ١٩٣٧، ولكنّها فقدت بعض صلاحيّاتها، المتعلّقة بالإرث مثلاً، التي انتقلت إلى محاكم علمانيّة. بقيت هذه المحاكم، إذن، في جاوه بعد الإستقلال، بينما عملت محاكم أخرى مختلفة في بقيّة المناطق. وهكذا نرى كيف أن تنوّع الحلول المعتمدة في الدول الإسلاميّة اليوم، وعدم ثباتها تجاه تطوّرات سياسيّة مستمرّة وتصدّرها البرامج المطلبيّة للحركات السياسيّة-الدينيّة، تجعل من التوازن القضائي هدفًا صعب المنال.

إنّ ضرورة مواءمة الشريعة الإسلاميّة والنظم الحديثة للقانون الخاص، المعتمدة هنا وهناك، تبقى حجر عثرة أساسي يواجه الاسلام في كل محاولة لتكييف مبادئه مع متطلّبات العالم الحديث، كما في كل جهد إنطوائي سلفي على نفسه.

قُطب، لفظة تقنيّة عربيّة تعني عامة «القطب» أو «المحور» وتدلّ، في الإصطلاح الصوفي، على رئيس هرم الأولياء في التراتبيّة الصوفيّة.

في المفهوم الصوفي، كان القطب يقوم بدور «المحور الروحي» الضروري والخفيّ. وقد أدّى القطب دورًا خاصًّا في نظام إبن العربي حيث اعتُبر المبدأ العقلي الكوني وروح النبيّ محمّد (ﷺ) الذي به انتقلت المعرفة الإلهيّة إلى الأنبياء والأولياء. إنّ مفهوم القطب عند الصوفيّين ومفهوم الإمام عند الشيعة متشابهان إلى

حدّ بعيد، بحيث أنّ بعض علماء الشيعة اعتبروا القطب والإمام يمثّلان شخصًا واحدًا؛ غير أنّ قسمًا من العلماء ميّز بشكل دقيق بين سلسلتي التراتب العائدتين لكلٍ من الأولياء الصوفيّين والأئمة العلويّين.

قُطب (سيّد)، ١٩٠٦ – ١٩٦٦، مفكّر مصري ذهب ضحية نضاله لمصلحة الإخوان المسلمين، آخذت بنظريّاته حركات إسلاميّة ظهرت في بلدان أُخرى.

أبدى سيّد قطب، في البدء بتأثير من العقّاد، إهتمامًا بالفكر الغربيّ والمسائل الأدبيّة. وابتداءً من سنة ١٩٤٩، خصّ جهده بدراسة المسائل الإسلاميّة الصرف، كما يفيد كتابه «العدالة الإجتماعية في الإسلام» الذي نشر في ذلك الوقت، وتبعته مؤلّفات أخرى مشابهة. بعد سجنه، للمرّة الأولى، في العام ١٩٥٤، بسبب الخلاف بين حكومة عبد الناصر والإخوان المسلمين، انتسب إلى هؤلاء وتبنّى عقيدتهم وأصبح أحد زعمائهم، ما أدّى إلى سجنه ثانية، وإلى إعدامه بعد محاكمته.

نشر سيّد قطب بين ١٩٥٢ و١٩٦٧، بشكل كرّاسات، تفسيره المعنون «في ظلال القرآن»، وهو يقع في ثلاثين مجلّدًا تقريبًا، يضاف إليه مؤلّف في التاريخ نشر بعد وفاته، سنة ١٩٦٧، في المملكة العربيّة السعوديّة.

يسعى سيد قطب، من خلال فكره، إلى أن يثبت، من جهة، أنّ وجود الإسلام هو، بذاته، برهان قاطع على أصالته؛ ومن جهة ثانية، أن يؤكّد أنّ نظامًا دينيًّا وإجتماعيًّا ولد من الإسلام وأنّ هذا النظام ينطبق على البشر كافةً، في كل مكان وزمان. هذا الإثبات يشبه إلى حدٍّ بعيد المبادئ الإيمانيّة الأصوليّة القديمة: لا حكومة ان لم يقمها الله، لا شرع إلّا من الله، لا سيادة لأحد على أحد، لأنّ السيادة كلّها هي من الله. إنّ حُكم الله هو العلاج في وجه الانظمة المعاصرة، الرأسماليّة منها والإشتراكيّة والشيوعيّة، لأنّ كل هذه الأنظمة تعتمد على القيم الإنسانيّة، لا على القيم التي أوحى بها الله في قرآنه. يجب اذًا تنظيم المجتمع طبقًا للشريعة التي لا تتبدّل، حتّى إن أفسح الفقه في المجال أمام التأقلم مع الحياة الحديثة.

قُطب الدين بختيار كاكي الأوشي، ؟ – ٦٣٣هـ/ ؟ – ١٢٣٥م، صوفي شارك في الإنطلاقة الأولى للطريقة الجشتيّة في الهند الشماليّة. وما يزال ضريحه في مهرولي مقصد زيارات تقويّة حتّى اليوم.

أصله من أُوش في منطقة فرغانة الشرقيّة، عاصر معين الدين الجشتي الكبير، واعتُبر خليفته. كان التقاه خلال بحثهما المشترك عن العلم الديني لدى علماء إيران والعراق، ثمّ تقرّب منه في الوسط الهندي، حوالى مطلع القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، يوم استقرّ في دلهي، عاصمة أبرز الحكّام المسلمين في البلاد. ما تزال ذكراه مكرّمة في هذا المكان حيث عاش، على مقربة من قطب منار الشهير، وتوفي في إحدى الجلسات الصوفيّة الموسيقيّة التي كان يحرص كل الحرص على أن يشارك فيها.

القُطْبشاهيّون، ٩٠٢-١٠٩٩هـ/١٤٩٦-١٦٨٧م، سلالة من الدكّن أطلقت، خلال القرنين اللذين حافظت فيهما على استقلالها واعتمدت خلالهما غُلكُنده وحيدر آباد عاصمتين لها، نهضةً لثقافة إسلاميّة هنديّة رائعة.

مؤسّس السلالة من أصل إيراني ومن عشيرة القراقيونلو التركمانيّة. أصبح حاكم الأراضي الهنديّة من قِبَل آل بَهْمن، فاستقرّ قرب محلّة كوكلندة المحصّنة، بعد ان مُنح لقب قطب الدين (وإليه ينسب اسم السلالة) مضافًا إلى إسمه سلطان قُلي. دأبَ قطب الدين وخلفاؤه، شأن العادلشاهيّين المقيمين في بيجابور، على ترويج التشيّع، وأقاموا علاقات سياسيّة بالصفويّين في إيران وطلبوا منهم أن يدعموهم ضدّ طموحات المغول. كما شجّعوا على استيعاب الهندوسيّة والتقاليد الهنديّة في تنظيم دولتهم التي اضطلع فيها غير المسلمين بمسؤوليّات عديدة، وقد ساهم هؤلاء في ازدهار نهضة أدبيّة وفنيّة بلغت أوجها في عهد محمّد قُلي.

بعد حروب طويلة مع أمراء مسلمين آخرين في الدكّن، كان القطبشاهيّون آخر السلالات التي فقدت مملكتها تحت ضربات جيوش السلطان المغولي أورنغ زيب، وضُمّت أراضيهم إلى أمبراطوريّة هذا الأخير وانهارت تاليًا سلالتهم نهائيًا.

قُلي قطب الملك	١٤٩٦ ١٥٤٣م
جمشيد بن قلي	١٥٤٣ - ١٥٥٠م
سبحان بن جمشيد	١٥٥٠م
ابراهيم بن قلي	١٥٥٠ - ١٥٨٠م
محمد قلي بن ابراهيم	١٥٨٠ - ١٦١٢م
محمد بن محمد قلي	١٦١٢ - ١٦٢٦م
عبدالله بن محمد	١٦٢٦ - ١٦٧٢م
ابو الحسن	١٦٧٢ - ١٦٨٧م

قطر، منطقة تشكّل شبه جزيرة في بلاد العرب، تقع على ساحل الخليج العربي - الفارسي، عرضها مئة كيلومتر تقريبًا وطولها لا يقل عن مائتي كيلومتر. وهي، اليوم، قاعدة دولة مستقلّة تعرف باسم إمارة قطر.

١ - كانت شبه جزيرة قطر مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ، وكانت تشكّل، بحسب جغرافيّي العصور الوسطى المسلمين، محطّة على الطريق التي تؤدّي من البصرة إلى إقليم عُمان. وكانت المياه المحيطة بقطر تحتوي على لآلئ، وكان لها مرفأ يستخدمه القراصنة.

في نهاية العصور الوسطى، اتّخذت هذه المقاطعة التي سكنها عدد من العشائر العربيّة التي تصارعت للسيطرة عليها، قيمة إستراتيجيّة لأنّها كانت تشكّل، إلى الجنوب الشرقيّ، سدًّا لخليج البحرين وتحمي شاطئ الأحساء. في العام ١٧٦٦ نزلت عشيرة آل خليفة القادمة من منطقة الكويت في قطر، وسمّي أحمد بن خليفة شيخًا عليها في العام ١٧٨٣، قبل أن ينقل مركز حكمه الى جزيرة البحرين. يذكر أنّه حوالي ١٨٠٣، احتلّ الوهّابيون لفترة موقّتة منطقة قطر.

ثمّ ظهر آل ثاني الذين عقدوا، في العام ١٨٦٨، أوّل اتفاق مع بريطانيا العظمى. لكنّ هذا الاتفاق لم يحل دون تمركز العثمانيّين في المنطقة لبضع سنوات، بدءًا من العام ١٨٧١. عقب ذلك اتفاقات أخرى ونزاعات أخرى، الى أن وقّع ابن الشيخ جاسم، في العام ١٩١٦، إتفاقًا مع بريطانيا العظمى يضمن لقطر استقلالها، شريطة الّا تمنح أيّ امتياز لدولة أخرى بدون موافقة البريطانيّين. ظلّت الأوضاع في قطر على حالها لعشرات السنين، الى أن اكتُشفت فيها، إبتداء من سنة ١٩٤٠، حقول غنيّة بالنفط، وبدأ استغلالها منذ سنة ١٩٤٩.

٢ - دولة قطر الحاليّة، مساحتها ١١٠٠٠ كلم٢، عاصمتها الدوحة، وهي دولة معاصرة مستقلّة في شبه الجزيرة العربيّة. يبلغ عدد سكّانها حوالى النصف مليون نسمة، جلّهم من المسلمين.

يمتدّ البلد على شبه جزيرة قطر المجاورة للبحرين وللمملكة العربيّة السعوديّة. لدولة قطر التي حصلت على استقلالها في العام ١٩٧١ حدود بريّة مشتركة مع الإمارات العربيّة المتحّدة. وهي جزء من إمارات الخليج التي يقوم غناها على الموارد النفطيّة الموظّفة في عمليّة التحديث. يقوم نظام قطر على الملكيّة الإسلاميّة المطلقة وهي تؤمّن، منذ ١٩٧١، استمرار السلطة التي مارستها عائلة آل ثاني في المنطقة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إبّان صراعات وتوتّرات كانت تضعها في مواجهة عائلات أخرى حاكمة في الأقطار المجاورة.

قَطَرِيُّ بْنُ الفُجاءَة، ؟ - ٨٠هـ/ ؟ - ٦٩٩م، زعيم عربي للخوارج الأزارقة، ثار في خوزستان في أواخر القرن السابع للميلاد بعد أن بايعه أنصاره بالخلافة. شارك قطريّ في فتح سجستان سنة ٤٢هـ/ ٦٦٢م، وصار لاحقًا، في وقت غير معروف، زعيم الأزارقة الذين نشطوا في غرب إيران. بويع خليفة من قبل فرقته سنة ٦٩هـ/ ٦٨٩م، فهاجم العراق واحتلّ الأهواز، ثمّ أُرغم على التراجع إلى كِرْمان حيث صمد لبعض الوقت وقتل سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م. حُمل رأسه إلى الكوفة، ثمّ إلى دمشق حيث قُدّم للخليفة الأموي عبد الملك.

كان قطري خارجيًا متشدّدًا قام، بحكم عقيدته، بتصفية «الكفّار» جسديًّا، واضعًا في مصافهم المؤمنين من أصحاب الكبائر. كما اشتهر، من جهة أخرى، خطيبًا مفوّهًا وشاعرًا مُجيدًا.

قطيعة، جمعها قطائع، لفظة عربيّة استعملت وراجت، بصورة خاصة في عصور الإسلام الأولى، للدلالة على قطعة أرض ريفيّة أو مدينيّة تنازلت عنها السلطة لهذا أو ذاك.

خضعت إجراءات منح الامتيازات العقاريّة للمسائل المعقّدة المرتبطة بتطوّر نظام الأراضي في العالم الإسلامي القروسطي. مُنحت هذه الامتيازات في الأصل

من قِبل الخليفة أو باسمه، وشملت أراضي تخلّى عنها أصحابها القدامى في زمن الفتوحات؛ وكان على المستفيد الجديد أن يدفع ضريبة العشر على المحاصيل الزراعيّة.

ومع تبدّل الأحوال والظروف، اتّخذت الامتيازات اسم «إقطاع» الذي ينطبق على واقع تاريخي مختلف قليلًا. في ما يتعلّق بالامتيازات المدينيّة، كانت القطيعة، في العصور الأولى للسلام، قطعة أرض تقع في مدينة جديدة أسّسها صاحب سلطة. كانت قطعة الأرض تعطى لأحد الوجهاء كي يشغلها، ويقيم فيها داره على نفقته، ويشارك في تنظيم المدينة الجديدة. وفي داخل القاهرة الحاليّة وضواحيها فإنّ المدينة الحكوميّة أو «الملكيّة»، التي انشأها ابن طولون قرب الفسطاط في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، شُيّدت على الشكل المذكور وحملت اسم «القطائع». وتذكر المصادر المكتوبة أيضًا الدور الذي قامت به هذه القطائع قُبيل ذلك، يوم تأسيس سامرّاء في العام ٢٢١هـ/٨٣٦م، مع أحيائها السكنيّة الشاسعة الواقعة على طول نهر دجلة، في جوار قصور الخليفة المعتصم.

قَفْصة (الجمهوريّة التونسيّة)، مدينة في واحة تقع على طريق عبور كانت تصل، منذ القرون الوسطى، ما بين الصحراء وسهوب إفريقية.

وهي مدينة قديمة أشبه ما تكون بمفترق طرق قوافل، وقد دخلت في الاسلام زمن الفتوحات الكبرى. بلغ قفصة، أولًا، عُقْبة بن نافع حوالى العام ٥٠هـ/٦٧٠م، وتمّ احتلالها نهائيًا في العام ٧٨هـ/٦٩٧م. والخوارج الإباضيّون، الذين سكنوها بداية وشاركوا في ثورات الجريد، هجروها بعد عمليّات القمع التي مارسها الأغالبة الذين خلفهم الفاطميّون وآل زيري.

احتلّها بنو هلال وجعلوا منها عاصمة مملكة صغيرة ضمّت الجريد. قضى عليها الموحّدون في العام ٥٥٤هـ/١١٥٩م. ثمّ وقعت بين أيدي الحفصيّين، فعرفت حياة مضطربة إثر محاولات استقلال إلى أن احتلّها، في العام ١٥٥٦، قرصان يعمل لحساب العثمانيّين، فخضعت لسلطة هؤلاء ثمّ لسلطة الحسينيّين، قبل أن تشهد داخل تونس الحاليّة أهميّة اقتصاديّة حلّت مكان أهميّتها الإستراتيجية السابقة.

◄ راجع المسند رقم ١٩.

قلاوون، الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي العلائي ؟ - ٦٨٩هـ/ ؟ - ١٢٩٠م، خامس سلاطين المماليك البحريّة، حكم من سنة ٦٧٨ الى ٦٨٩هـ/١٢٧٩ الى ١٢٩٠م، وكان أكبر أسياد تلك الحقبة من التاريخ.

أصله من بلاد القبجاق شمالي البحر الأسود، استحصل عليه أمير في خدمة الأيوبيّين مقابل ألف دينار (من هنا لقبه الألفي)، وإسم هذا الأمير علاء الدين (من هنا نسبة العلائي). دخل هذا المملوك في حرس السلطان الأيّوبي الملك الصالح نجم الدين أيّوب (من هنا اللقبان الإضافيان). عندما صار أميرًا اضطرّ للجوء إلى سوريا لسنين عدّة، بعد أن شارك بمؤامرة فاشلة ضدّ أوّل سلطان مملوكي (إيبك). عندما عاد إلى مصر سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، ساعد بَيْبَرْس على الاستيلاء على السلطة وأصبح «أمير ألف».

شارك في حملة عين جالوت التي أوقفت في سوريا هجوم مغول هولاكو، وارتقى مراتب الشرف الى حدّ تزويج ابنته من ابن بيبرس. بعد وفاة هذا الأخير، حكم ولداه لفترة قصيرة، ثمّ اختير قلاوون سلطانًا.

شأنه شأن بيبرس، عمل قلاوون على مقاتلة جيوش الإيلخانيّين التي عاد خطرها إلى الظهور، ومقاتلة الأرمن والفرنج. أوقف زحف الجيش الإيلخانيّ الذي تمكّن من اجتياز الفرات محرزًا عليه انتصار حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م. وفرض على الأرمن سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م هدنة وأرغمهم على دفع جزية سنويّة. وطارد الفرنج بشكل متواصل، فاستعاد منهم حصن المرْقَب سنة ٦٨٨هـ/١٢٦٥م، وطرابلس سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، وحاصر أيضًا عكّا التي سقطت بين يدي ابنه خليل سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م. إلّا أنّه عمل على تعزيز التجارة مع الغرب من جهة، ومع الشرق الأقصى، من جهة أخرى. وهو الذي أنشأ فرقة المماليك المعروفين بالبرجيّة وأسّس المستشفى المنصوري العظيم في القاهرة، إلى جانب إنجازات معماريّة ذات طابع عسكري، في أكثر الأحيان، وهو الذي أمر بترميم قلاع حلب وبعلبك ودمشق. كان

تأثيره كبيرًا لدرجة أنّه، خلال قرن بعد وفاته، تناوب على السلطة إمّا أحفاده وإمّا مماليك من أتباعه.

قِلِج أرسلان، إسم حمله سلاطين عدّة من سلالة سلاجقة الروم الذين حملوا إجمالًا اللقب التشريفي العربي: «عزّ الدين».

من أولئك السلاطين **عز الدين أرسلان الأوّل** الذي تسلّم الملك بين سنتي ٤٨٥ و٥٠٠هـ/١٠٩٢ و١١٠٧م. وهو ابن سليمان بن قُتُلمش الذي ينتمي إلى فرع جانبي من الأسرة السلجوقيّة الحاكمة في إيران، وكان قد استقرّ في نيقْية (إزْنيك) بعد الإجتياح الأوّل للأناضول من قِبَل الجحافل التركيّة. وقلج أرسلان الأوّل هو ثاني الملوك السلاجقة في المنطقة، لكنّه لم يستطع أن يرث عرش والده الذي قُتل في سوريا سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م إلّا بعد موت سلطان إيران ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. فعاد عندئذ إلى نيقية وأقام علاقات طيّبة بالأمبراطور البيزنطي، لكنّ الفرنج أخرجوه من نيقية بعد معركة «دُوريليا»، فانتقل إلى قونية التي قُدّر لها أن تصبح لاحقًا عاصمة السلالة، وثبّت دعائم ملكه إلى جانب الدّانِشْمَنديّين الذين كان ملكُهم يمتدّ نحو الشمال. وهذا ما سمح له، بعد موت دَانِشْمَنْد سنة ٤٩٩هـ/١١٠٦م، بأن يحتلّ ملطية. لكنّه قُتل سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م خلال معركة وقعت في أعالي بلاد ما بين النهرين.

عزّ الدين قِلِج أرسلان الثاني، تسلّم الملك في ما بعد وحكم من سنة ٥٥٠ الى سنة ٥٨٨هـ/١١٥٥-١١٩٢م في قونية، فأعاد إلى السلالة قوّتها ومهّد للذروة التي بلغتها مع خلفائه المباشرين في النصف الأوّل من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. وكان قد خلف والده مسعود الأوّل سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م، فحافظ على العلاقة الطيّبة التي أقامها والده بالبيزنطيّين، قبل أن يحتلّ قسمًا كبيرًا من أراضي الدّانشمَنْديّين. واصطدم بعد ذلك بطموحات نور الدين [محمود] زنكي، سيّد سوريا، وقد كان هذا الأخير حليفه أحيانًا وخصمه أحيانًا أخرى. وقد ساعده موت نور الدين سنة ٥٧٢هـ/١١٧٧م، على أن يضمّ ملطية وممتلكات دانشمنديّة أخرى إلى ملكه. وكان قد أنزل بالبيزنطيّين، في سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م، هزيمة كبرى في معركة «ميريو كيفالون»، وكان هؤلاء قد بدأوا يقلقون من تعاظم قوّته.

أمّا نهاية ملك قلج أرسلان الثاني فجاءت مضطربة: من جهة أدّى مرور الصليبيّين، بقيادة فريدريك بربروسا، إلى نهب قونية سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م؛ ومن جهة ثانية وقع الخلاف بين الورثة المباشرين للملك، فاضطرّ قلج أرسلان إلى أن يلجأ إلى ابنه كيخُسْرو، وهو من أمّ يونانيّة، وكان يحكم المقاطعات الغربيّة، وذلك هربًا من سائر الطامحين إلى الملك.

القُلْزُم، ناحية قروسطيّة مدمّرة، قامت في مصر، في العصور الأولى للإسلام، بدور تاريخي كمرفإ على البحر الأحمر قبل أن تختفي نهائيًّا لمصلحة مدينة السويس الحاليّة.

القُلْزُم قلعة تستمدّ اسمها من اليونانيّة وهو يعني «السدّ». تقع على مصب قناة تصل نهر النيل بالبحر الأحمر، وكان قد أمر بحفرها الأمبراطور الروماني تراجان (Trajan)، وأعاد ترميمها، سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، الخليفة الراشدي الثاني، عمر بن الخطاب، تسهيلًا لنقل القمح من مصر إلى شبه الجزيرة العربيّة. وقد طمر قسمًا منها، في ما بعد، الخليفة العبّاسي المنصور، سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م، للحؤول دون وصول المؤن الى المتمرّدين في شبه الجزيرة. أُعيدت القناة، بعد ذلك، إلى حالتها السابقة، ثمّ حُوّل مجراها، قبل أن تُزال نهائيًّا في العام ١٨٩٩. استُخدم المرفأ الذي كان يتّصل بالقناة في القلزم، في العصور الوسطى الأولى، لنقل البضائع والجيوش. ومنه انطلق الأسطول المكلّف القضاء على مشروع رينو دي شاتيّون (Renaud de Châtillon) الذي كان ينوي، سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، القيام بغارة على الأماكن المقدّسة في الحجاز. وبعد هذه الفترة فقد المرفأ دوره العسكري والتجاري وأهمل موقعه لمصلحة السويس.

قلعة بني حَمَّاد، موقع أثري لمدينة ملكيّة بناها في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، وفي مكان إستراتيجي من إفريقية القروسطيّة، حكّام محلّيون، هم الحمّاديّون، الذين جعلوا منها قلعتهم وحاضرتهم

وزوّدوها بأبنية عديدة.

إنَّ هذه القاعدة الأميريّة القائمة على ممرّ وهضبة صخريّة لا تقلّ ارتفاعًا عن ألف متر، والمُسندة إلى جبل أجرد يطلّ على سهل «هدنا» في الجمهوريّة الجزائريّة، خلفت مدينة أشير كمركز نفوذ لبني حمّاد.

تمّ اختيار الموقع لإمكانات الدفاع المتوافرة له والتي سمحت، في ما بعد، بمقاومة حصارات كثيرة، أبرزها حصار الزيريّين الذين لم يرق لهم كثيرًا قيام الدولة الجديدة. إلّا أنّ تقدّم قبائل الهلاليّين (أو بني هلال) باتّجاه الغرب - وكان هؤلاء يعرّضون المنطقة للخطر - أجبر بني حمّاد على الإجلاء عن القلعة، في أواسط القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، واللجوء الى مدينة بجّاية المرفئيّة. بعد ذلك بقليل، جرى فتح القلعة وتدميرها على أيدي «الموحّدين» خلال هجومات عدّة كان آخرها سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، ما أزال معالمها من التاريخ.

إنّ مجمّع الأبنية الذي تألفت منه القلعة، رغم الإطراء الذي خصّه به عددٌ من المؤلّفين القدامى، كان أقرب إلى معقل جبلي منه الى مدينة فخمة معدّة للحكم. على أنّ بعض الآثار الباقية حتّى اليوم تشهد للحركة والنشاط اللذين عرفهما في تلك الحقبة. استطاع المعنيّون بالآثار إعادة تشكيل تصميم تقريبي للسور وحدّدوا، في داخله، مكان المسجد الجامع ذي المئذنة الحجريّة المربّعة الزوايا ذات الكُوى الصمّاء مع عدد من القصور التي تحمل أسماء مثيرة للذكريات، منها قصر السلام، وقصر الكوكب، وقصر المُلْك وقصر البحر وقصر المنار المُسند الى البرج الذي حمل الإسم نفسه.

أظهرت مراحل التنقيب المتعدّدة تزيينات وزخارف وأدوات رفيعة الذوق أحيانًا. ولكنّها لم تسمح بإجراء دراسة وافية تحدّد، بالتسلسل الزمني، قيام الأبنية التي امتدّ تشييدها على مدى قرن ونيف. هكذا لا نعرف إلّا القليل عن سير الحياة وعن غنى هذه المدينة الملكيّة التي استلزمت جرّ المياه إليها بقنوات مهمّة، ما يعني أنّ تعاطيها مع التقنيّات في عصرها كان على مستوى عالٍ من الجودة.

قلعة جَعْبَر، قلعة قروسطيّة مدمّرة في بلاد ما بين النهرين العليا، في منطقة الجزيرة السوريّة، ما تزال قائمة على الضفة اليساريّة للفرات في مقابل موقع صِفّين.

رفع بناء هذه القلعة شخصٌ يدعى جعبر، ارتبط اسمه بها، للدفاع عن المنطقة القروسطيّة الواقعة بين الرّقة وبالس، وكان قد استولى على تلك المنطقة في عهد السلاجقة. اضطرّ جعبر إلى تسليم القلعة في ما بعد إلى مَلِكْشاه، ثمّ امتلكها أميرٌ من بني عُقيل يدعى سليم، وانتقلت الى ذريته لمدّة قرن. حاصرها زنكي سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م واغتيل خلال الحصار، غير أنّ ابنه نور الدين تمكّن من الاستيلاء عليها سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م. منذ ذلك الحين وقعت القلعة في أيدي الأيوبيّين والمماليك. أُعيد ترميمها سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٣٥م نظرًا إلى موقعها الإستراتيجي، ثمّ أُهملت. لم تشكّل آثارها بعد مادة لدراسة أثريّة جدّيّة.

قلعة رَباح، مدينة إسلاميّة محصّنة في الأندلس، أسهمت بفاعليّة في الدفاع عن أراضي البلاد خلال حروب الاسترداد المسيحيّة للاندلس. تحمل أطلالها اليوم اسم كالاترافا لا فييخا (Calatrava la Vieja).

تأسّست بين قرطبة وطليطلة في عهد أمويّي الغرب، على الضفة اليسرى لنهر غاديانا، وكانت المركز الاداري لهذه المنطقة. أصبحت هذه المدينة الإستراتيجيّة هدفًا لصراعات عديدة إبتداءً من القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. تمّ الاستيلاء عليها، للمرّة الأولى، بعد سقوط طليطلة في العام ١٠٨٥م، واستعادها «المرابطون» إثر انتصارهم في معركة الزلّاقة، ثمّ فقدها المسلمون مجدّدًا بين ٥٤١ و٥٩٢هـ/ ١١٤٧ و١١٩٦م. احتلّها «الموحّدون» بعد انتصارهم في معركة الأرك التي جرت في جوارها سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م، قبل أن تستسلم لألفونسو الثامن سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، في أثناء معركة لاس نافاس دو تولوزا (Las Navas de Tolosa). أُهمل موقعها لمصلحة المركز الإداري الجديد، ڤيلا ريال، الذي برز في العام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م والذي سُمّي سيوداد ريال (Ciudad Real)، إبتداءً من ٨٣٢هـ/ ١٤٢٠م.

◄ راجع المستند رقم ١٦.

قلعة نجم، قلعة قروسطيّة مدمّرة في بلاد ما بين النهرين العليا في منطقة الجزيرة السوريّة، قائمة على الضفة اليمنى للفرات، على مقربة من محلّة مَنْبج الحدوديّة القديمة.

بناها سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م شخص يدعى نجم، وحملت اسمه. كانت القلعة تتحكّم بجسر من مراكب تجتاز النهر عبره القوافل المتّجهة من حلب الى حرّان. أُطلقت تسمية «جسر منبج» على الناحية التي كانت قائمة في ذلك المكان على عهد الأمويّين، في منطقة دخلها الإسلام منذ سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، مع أوّل موجة من الفتوحات العربيّة الإسلاميّة الكبرى.

استمرّت قلعة نجم في القيام بدورٍ إستراتيجي خلال الصراعات التي زعزعت، في أجواء الجهاد ضد البيزنطيّين أو بسبب الخصومات الداخليّة، منطقة انتقلت من أيدي الحمْدانيّين إلى المِرْداسيّين، ثمّ إلى النمَيْريّين، فالزنكيّين فالأيوبيّين.

بادر نور الدين، وبعده الملك الظاهر الغازي الذي عزز القلعة لتأمين الدفاع عن إمارته في حلب، في مطلع القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، إلى إنجاز أعمال ذات أهميّة كبرى فيها، قبل أن يقضي تحويل الطرق التجاريّة عنها على دورها الدفاعي.

القَلْقَشَنْدي، شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن علي الشافعي، ٧٥٦-٨٢١هـ/ ١٣٥٥-١٤١٨م، كاتب وموسوعيّ، عاش في مصر في عهد المماليك؛ أكسبته تحقيقاته ومصنّفاته الموسوعيّة شهرة كبيرة في زمانه.

ولد لأسرة عربيّة النسب استقرّت في مصر السُّفلى، ودرس في الإسكندريّة العلوم التقليديّة التي منحته الإجازة في إصدار الفتاوى والتدريس وفاق تعاليم المذهب الشافعي. التحق في العام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م بإدارة ديوان القاهرة الحكومي، حيث عمل نابغًا لكاتب يتحدّر من عائلة «بني فضل الله» الشهيرة.

كتب شروحًا لمؤلّفات في الفقه، ومصنّفات في الأدب، وهو بخاصة صاحب موسوعة ضخمة في «فنّ الكتابة» عنوانها: «صُبح الأعشى في صناعة الإنشا». هذا المؤلّف من سبعة أجزاء يحتوي تأمّلات مفيدة حول مهنة الكاتب، وحول مجموعة من المعارف النظريّة والتطبيقيّة الضروريّة لكلّ من ينهد إلى ممارسة هذه المهنة؛ إلّا أنّ فضل هذا المصنّف هو في جمعه وثائق ومستندات تعود إلى مختلف العهود، وهي تشكّل مصدرًا غنيًا يتعلّق بالتنظيم الإداري والسياسي والعسكري لكل من سوريا ومصر في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، مع إلقاء الضوء على المؤسّسات العائدة لفترات سابقة.

للقلقشندي، كذلك، مؤلّفات في علم الأنساب، أفرد، في واحدٍ منها، معجمًا للقبائل العربيّة، كما خلّف رسالةً حول الخلافة أهداها لأحد الخلفاء العبّاسيّين الصُّوريّين الذين كانت إقامتهم في القاهرة تساعد على تثبيت شرعيّة نظام المماليك فحسب.

قُلُمرية، مدينة في البرتغال، تُعرف باسم كُويِمْبرا (Coimbra)، تقع في وادي مونديغو الخصيب وكانت فترة احتلال المسلمين لها قصيرة نسبيًا ومتوتّرة.

هذه المدينة القروسطيّة التي كانت قائمة في موقع مدينة (Aeminium) القديمة والتي استمدّت اسمها من كونِمْبريغا (Conimbriga) - وهي مدينة رومانية مدمّرة تقع على مسافة قريبة منها - مثّلت في البدء، وفي أقصى الحدود الغربيّة للأندلس، دورًا غير معروف. فقد احتلّها المسلمون في فترة مبكّرة في ٩٥-٩٧هـ/ ٧١٤-٧١٦م، لكنّها حافظت على تركيبة سكانيّة مكوّنة أساسًا من المحلّيين ذوي الغالبيّة المستعربة. وازدهرت هذه المدينة، من دون شك، بصفتها مركزًا حدوديًّا أُعيد إعماره واستيطانه سريعًا، بعد أن احتلّها المسيحيّون من جديد بين ٨٧٨ و٩٨٧م، لكن تمّ تدميرها بصورة شبه كاملة خلال هجمات المنصور العنيفة. والى هذه الحقبة تعود السمات الخاصة التي ظلّت تميّز عمرانها بعد أن احتلّها المسيحيّون مجدّدًا في العام ١٠٦٤م.

قَلَنْدَرِيَّة، طريقة صوفيّة، لأعضائها عادات وآراء غريبة، كانوا يمارسون في الإسلام أشكالًا من التزهّد غير المألوفة. وهم، كأتباع الطريقة الملامتيّة التي ظهرت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، والتي اعتمدوا تعاليمها، اقتصر اهتمامهم على توفير «راحة قلوبهم»، رافضين في الوقت عينه الفرائض الشعائريّة

للشريعة الإسلاميّة والأعراف العاديّة للحياة الإجتماعيّة. وفي حين كان الملامتيّة يمارسون معتقداتهم سرًّا، فإنّ هؤلاء المتصوّفة الجوّالين، المتأثّرين بالبوذيّة والعادات الهنديّة، قد لفتوا الأنظار بغرابتهم وأثاروا، بقوّة، إهتمام الناس. لقد ظهرت القلندريّة، للمرّة الأولى، في خراسان وفي آسيا الوسطى، لتنتشر حركتها، من ثمّ، باتّجاه الغرب، في سوريا ومصر، وبصورة خاصة في الأناضول بتأثير من جمال الدين الساوي (المتوفى حوالى ٦٢٩هـ/١٢٣٢م) الذي حدّد، بطريقة منهجيّة، الملامح المميّزة لحركته. كما انتشرت القلندريّة في الهند، وانخرطت فيها شخصيّات اشتهرت بتقواها، مثل: لال شاهباز القلندري (المتوفى حوالي العام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، مؤسّس معبد سهوان في بلاد السند، والشاعر الصوفي أبو علي القلندري (المتوفى في العام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م) الذي ما يزال ضريحه موضع تكريم في پانيپات. في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي تعاظم نشاط القلندريّين ومهابتهم في الوسط الهندي المسلم، لتستوعبهم، بعد ذلك، طرق صوفيّة أخرى. أمّا مؤسّساتهم في بلاد الأناضول العثمانيّة فكانت لا تزال قائمة في نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وكذلك الأمر في شمال إيران، في زمن الصفويّين.

قُمّ (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة مقدّسة للشيعة الإماميّة الاثني عشريّة، تقع على تخوم الصحراء الكبرى الوسطى، على طريق القوافل الجنوبيّ، في إقليم الجبال الفروسطيّ.

يبدو أنّ مجموعة من سبع قرى، يحيط بها سور، اتّخذت، في مطلع العصر الإسلامي، اسم قُمّ. نزل في هذه القرى، على الأرجح، عرب من الشيعة قادمون من الكوفة، قضوا على الزرادشتيّين المستقرّين أيامئذٍ في المنطقة، وفيها أيضًا توفيت ودُفنت، سنة ٢٠١هـ/٨١٧م، فاطمة، شقيقة الإمام العلوي الثامن علي الرضا. اعتُبرت المحلّة مركزًا للفكر الشيعي منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، وأصبحت مقصدًا لزيارات تقويّة للشيعة الإماميّة الاثني عشريّة الذين كانوا يكرّمون ضريح هذه العلويّة. إلّا أنّ الضريح دُمّر إبّان الغزو المغولي الأوّل الذي قضى على السكّان في العام ٦١٢هـ/١٢٢٤م.

منذ القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، نعمت قمّ بعطف أسياد أذربيجان وإيران التركمان، أي القراقيونلو والآق قيونلو، ونمت، بصورة خاصة، على عهد الصفويّين الذين جمّلوها بأبنية دينيّة فخمة، قاصدين جعلها حرمًا قوميًّا إيرانيًّا. تابع القاجار السياسة نفسها، فأصبحت المدينة من جديد مركزًا مهمًّا للتعليم الشيعي، ويقيم فيها أشهر العلماء الكبار والملالي والمجتهدون وآيات الله. وقد قاوم بعضهم محاولات التحديث الذي مال إليه بعض الحكّام، وتحوّلوا أحيانًا إلى معارضين سياسيّين، لا سيّما في عهد البهلويّين. منذ ثورة ١٩٧٩ الإسلاميّة، تحوّلت قُمّ إلى مركز لإعداد اركان النظام الجديد وما تزال تحتفظ، إلى جانب مسجدها المركزي، الصفويّ البناء، بمسجد جامع وبعدد وافر من الأضرحة، يعود بعضها الى العهدين السلجوقي والإيلخاني.

القُمر (جزر -)، مجموعة من أربع جزر اعتنقت الإسلام في المحيط الهندي، تشكّل ثلاث منها اليوم جمهوريّة القُمر الفدراليّة الإسلاميّة.

يعود تركّز الديانة الإسلاميّة في هذا الأرخبيل الواقع شمالي مدغشقر إلى وصول عائلة شيرازي في القرن الخامس عشر؛ وإلى هذه الفترة أيضًا يعود تشييد المساجد الأولى. والمذهب الفقهي الشافعي هو المسيطر منذ ذلك الوقت؛ كما أنّ طرائق عدّة منبثقة من الصوفيّة انتشرت بين السكّان، منها الشاذليّة والقادريّة والنقشبنديّة.

في العام ١٨٨٦، تمكّنت فرنسا - التي كانت تحتّل جزيرة مايوت منذ ١٨٤١ - من بسط حمايتها على مجمل جزر القمر التي حصلت، في العام ١٩٤٦، على وضعيّة «مقاطعات ما وراء البحار» منفصلة عن مدغشقر. وفي العام ١٩٧٥ أعلنت القمر استقلالها، بينما بقيت جزيرة مايوت مرتبطة بفرنسا بناء على رغبة سكانها. وتبلغ مساحة الجزر الثلاث المستقلّة ٢١٧٠ كلم٢، وعدد سكّانها مليون نسمة أكثريّتهم الساحقة من المسلمين.

قندهار (جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة) مركز للمنطقة

المعروفة بالإسم نفسه، وهي تقع في قلب المناطق الأفغانيّة الآهلة بالسكان، كانت قبل الفتوحات الإسلاميّة في القرن السابع الميلادي حاضرة لـ«أراكوزي» القديمة، وقد استعادت في القرنين التاسع عشر والعشرين بعضًا من تألّقها الغابر.

يفسّر الإزدهار الزراعي الذي عرفه حوض هلمند وأرغنداب، أو منطقة زمينْداوِر، في القرون الوسطى، إستمرار السكن في موقع يتمتّع بمناخ حار نسبيًّا، على ارتفاع ألف متر فقط، ويتحكّم بخط المواصلات التجاريّة بين الهند وإيران. لقد أدّت أهميّة قندهار الإستراتيجية - والتي يشهد عليها جهد الحكّام المسلمين المجاورين الدؤوب لضمّها الى أراضيهم منذ أن فتحت الجيوش الأمويّة (العربيّة - الإسلاميّة) المنطقة إلى جعل مصيرها مضطربًا، ما أدّى الى إعادة بنائها مرّات متتالية. وبعد أن عرفت المنطقة الإزدهار في أيام الغزنويّين والغوريّين، بالرغم من أنّها كانت أقلّ أهميّة من القطاع المُدني الآخر المتمثّل بِبُسْت وبمقرّ لَشْكَري - بازار الملكي، فقد عانت قندهار، بعد ذلك، الأمرّين في ظلّ حكم التيموريّين والإيلخانيّين، قبل أن يتنازعها المغول والصفويّون.

خضعت قندهار، في ما بعد، لسيطرة القبائل الأفغانيّة الناطقة بالبَشْتُو، التي استقرّت في المنطقة خلال القرون الوسطى والتي دفعها أحمد شاه عبدلي، في نهاية القرن الثامن عشر، إلى إنشاء أمبراطوريّة مترامية الأطراف. أصبحت قندهار، منذ العام ١٧٤٧، قاعدة لحكم الدرّانيّين. وبقيت، من ثمّ، المركز الرئيسي للقوميّة الأفغانيّة. وكان لها، خلال الاعتداءات الخارجيّة والحروب الداخليّة التي تعرّضت لها البلاد في القرن التاسع عشر، مكانة جعلتها تنافس كابُل، كما مثّلت دورًا نشطًا في ازدهار لغة البشتو، وهي ما تزال إلى اليوم تتمتّع بوضع سياسي واقتصادي من الطراز الأوّل.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢ و٣٥.

قِنّسرين، محلّة قديمة على مقربة من حلب، أصابها الدمار. كانت عاصمة لدائرة إداريّة وعسكريّة في سوريا في القرون الأولى للميلاد.

احتلّتها الجيوش العربيّة سنة ١٧هـ/٦٣٨م في زمن الفتوحات الكبرى، تحوّلت مدينة قنّسرين القديمة الى مركز الجند الذي يحمل اسمها، وظلّت في أوّل الأمر زاهرة ومأهولة بالسكان.

غير أنّ الصراع بين البيزنطيّين والمسلمين، في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، أفرغ قنّسرين من سكّانها، ولم يبقَ منها في العام ٤٣٩هـ/١٠٤٧م إلّا قرية صغيرة، وفي القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، تحوّلت إلى محطة بسيطة لتجّار القوافل، ومن ثمّ درست.

قُهستان، مقاطعة قاحلة جبليّة تقع شرقي الهضبة الإيرانيّة، جاورت مقاطعة خراسان القروسطيّة، وغالبًا ما كانت تشكّل قسمًا منها، وأمسى مصيرها كمصير خراسان.

وبحكم ارتباط قهستان الإسلاميّة بمناطق مجاورة مهمّة، كنيسابور في الشمال، وهراة وسجستان في الشرق، وكرمان في الجنوب الغربي كانت تجتازها طرق للقوافل تتّصل، شرقي الصحراء الكبرى المالحة، بالطريقين الإستراتيجيّين والتجاريّين اللذين كانا ينطلقان من العراق ومن إيران الغربيّة، واحد باتّجاه آسيا الوسطى، والآخر باتّجاه بلاد الهند. وقد ساعدت تلك الوضعية، في القرون الوسطى، على تأمين بعض الغنى لعدد من بلدانها الواحات، حول «طَبَس»، وحول «خاف» (خَواف) في الشمال حيث ازدهرت مراكز صغيرة مثل «كارجرد» و«زُوزن».

وصعوبة الوصول إلى مقاطعة قُهسْتان قديمًا جعلتها في عزلة نسبيّة داخل العالم الإسلامي الشرقي، كما حوّلتها ملجأً لمجموعات قديمة من الحضر تتكلّم اللغة الإيرانيّة. ثمّ امتزجت مع هذه الشعوب، في مناطق الأطراف، قبائل من أصل عربي، وتركي، وأفغاني أو بلوتشي. كما تجمّع فيها أعضاء الحركات الدينيّة المنشقّة، كالإسماعيليّين - وخصوصًا النزاريّين منهم - وقد تحصّنوا فيها، كما في ألَمُوت. لكنّ المغول دمّروا معاقلهم في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. وأدّت هذه الكارثة إلى خراب المقاطعة التي عانت بعد ذلك، في القرن التاسع عشر، من تقسيمها بين دولة القاجار في بلاد فارس ودولة أفغانستان الناشئة.

القوّة، كلمة عربيّة شكّلت معانيها التقنيّة لفظةً مهمّة في المفردات الدينيّة الإسلاميّة.

تدلّ لفظة «قوّة» في القرآن على إحدى صفات الله الحسنى: القدرة، أو بالأحرى القدرة الكليّة. وخارج إطار الصفات الإلهيّة اشتُقّت منها عبارات بمعنى التقريظ والمديح والتبريك، منها «قوّة الإسلام»؛ وقد استُعملت هذه العبارة لتسمية مسجد كبير وشهير بناه في دلهي قطب الدين أيبَك مؤسّس السلالة الأولى لسلاطين دلهي.

استخدمت اللّفظة بوجه خاص وبكثافة في المصطلحات الفلسفيّة، ليس للدلالة على «الاحتمال» فحسب، أي على ما يمكن حدوثه، في مقابل «الفعل»، بل أيضًا للدلالة على مختلف ملكات النفس التي في إمكانها أن تتحوّل إلى فضائل أو إلى رذائل، بحسب التربية التي يتلقّاها الإنسان.

قُوص (جمهوريّة مصر العربيّة)، ناحية في مصر العليا نالت أهميّة في القرون الوسطى وتقلّص دورها في ما بعد لمصلحة مدينتين مجاورتين هما الأقصُر وقنا. لم تكن قوص، القبطيّة الإسم، نامية في عصور الإسلام الأولى، وبدأت بالاتّساع، في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، في الوادي الأعلى للنيل، حيث يغدو موقع النهر الأكثر قربًا من البحر الأحمر. وكان أحد أسباب ازدهارها الاتّجار مع النوبة؛ إذ أدّت الاضطرابات العاصفة بأسوان يومذاك إلى ترسيخ التجارة فيها ابتداءً من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. كما غدت المدينة سوقًا مهمّة للتجارة البحريّة مع المشرق الأقصى، ومحطّة للحجّ إلى مكّة، في عهد الصليبيّين، بحيث وصفها الجغرافيّون العرب، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، على أنها المدينة الثالثة في مصر. عرفت قوص أوج ازدهارها في زمن المماليك البحريّة حيث كانت ما تزال مشهورة كمركز تعليم لأهل السنّة.

في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، أدّى غياب الأمن الذي عاث فسادًا بالطريق المؤدّية إلى عيذاب – وهو المرفأ الذي كان منفذًا لقُوص على البحر الأحمر إلى أن يتجنّب التجّار مسار القوافل هذا. فتراجعت حينئذٍ هذه الناحية بعد أن هجرتها النشاطات التجاريّة، وأخذت في الانحطاط حتّى القرن العشرين حيث أُنشئ فيها مصنع حديث للسكر أعاد إليها بعض حيويّتها الاقتصاديّة.

◄ راجع المستند رقم ٢٥.

قومِس، إسم قروسطي غيّبه النسيان، كان يُطلَق على إقليم قديم في إيران الإسلاميّة.

إنّ أراضي هذا الإقليم الموزّعة، اليوم، بين المناطق الإداريّة لطهران وساري ومشهد، كانت تتطابق، في ما مضى، مع كوميزان (Comisène) القديمة، وكانت قليلة الاتّساع بالنسبة إلى التقسيمات الإداريّة الأخرى في إيران العصور الوسطى.

كانت تشمل، إلى الجنوب من مازندران وجرجان، المنطقة شبه القاحلة الواقعة بين سفوح سلسلة جبال ألبُرز والصحراء الوُسطى الكبرى حيث كانت تمرّ، في القرون الوسطى، طريق القوافل الرئيسة التي تربط الرّي بنيسابور، وكانت تشكّل جزءًا من «طريق الحرير» القديمة.

يُقسَم إقليم قومِس انطلاقًا من الجنوب إلى ثلاث مقاطعات: الأولى حول سِمنان، تليها مقاطعة دمغان فمقاطعة بِستام. كانت قومِس تتحكّم بمدخل إقليم خراسان الواسع والغنيّ. كانت لها إذًا، بفضل هذا الموقع، أهميّة إقتصاديّة واستراتيجيّة في آن: لقد شكّلت طريقًا تسلكها النشاطات التجاريّة، وفي الوقت عينه ممرًّا للاجتياحات القادمة من آسيا الوسطى، وقد خرّبتها هذه الاجتياحات في أكثر من مرّة.

القوميّة (النزاعات –)، ظاهرة بدأ تطورها، في العالم الإسلامي، في أواخر القرن التاسع عشر، وانتهت إلى قيام عدد من الدول-الأمم المعروفة اليوم، وقد اصطدمت ولادة هذه الدول بمعارضة إسلاميّة أحيانًا، وترافقت مع تشجيعها أحيانًا أخرى، متداخلةً مع التطوّر المعاصر للإسلام.

طبع الانتماء الى الإسلام بالعمق، وبدرجات متفاوتة، تاريخ المصائر القوميّة في كلٍ من المنطقة ذات الثقافة العربيّة والمناطق الإسلاميّة المجاورة، مثل التركيّة والإيرانيّة، كما المناطق الأبعد. كان في أساس

الحركات الإستقلاليّة التي اتّخذت في هذه البلدان أشكالًا مختلفة في أغلب الأحيان، ظاهرة عامّة نسمّي صحوة القوميّات، وهي في المبدإ تتعارض مع الإسلام وتصوّره للأمّة. من هنا كانت نشأة الأفكار الإسلاميّة الجامعة المتعارضة مع تعدّد الدول المستقلّة عند نهاية القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من دمغة التأثير الأجنبي الأوّلي، وبالتحديد الأوروبي الغربي، تلازمت التجسيدات الوطنيّة في مختلف المناطق، باستثناء تركيا، مع أنماط دفاعيّة عن الهويّة الإسلاميّة المهدّدة، بحيث ظهرت، بعامّةٍ، إمكانات تحالف بين القوميّات والإسلام وإمكانات دعم متبادل.

١- ظهرت القوميّة العربيّة في مصر، في القرن التاسع عشر، ردّة فعلٍ على هيمنة العثمانيّين، واضعة هدفًا لها محاربة المشاريع الاقتصاديّة والسياسيّة التابعة للأوروبيّين غير المؤمنين. أمّا همّ الدفاع عن الإسلام الذي طبع محاولات محمّد علي الاستقلاليّة فقد برز أوّلًا إبّان مقاومة الفرنسيّين في أعقاب الإنزال الفرنسي في العام ١٧٩٨، ليصبح أكثر وضوحًا في أثناء ثورة عُرابي باشا في العام ١٨٨٢. في أنحاء أخرى من الشرق الأدنى، ساهم رفض مماثل للتدخّلات الأجنبيّة في المجتمع العربي والإسلامي في صياغة الشعور القومي المعارض للعثمانيّين الذي تمظهر، خلال الحرب العالميّة الأولى، في صورة سلالة: استند فيصل (ابن الحسين، شريف مكّة) الى هذا الشعور في مطالبته بإنشاء مملكة عربيّة في سوريا تكون عاصمتها دمشق. لكنّ عمر هذه المملكة كان قصيرًا جدًّا.

في ما بعد، تطوّر الوضع قليلًا. في فترة ما بين الحربين العالميّتين، وفي مختلف الدول الشرقيّة الناشئة عن تفكّك السلطنة العثمانيّة، لم يكن للقوميّة من هدف سوى حصول هذه الدول على استقلالها السياسي. وقد تحقّق ذلك على التّوالي كالآتي: في مصر سنة ١٩٢٢، في العراق سنة ١٩٣٠، لم ينجح في سوريا ولبنان في سنة ١٩٣٦ لأنّ البرلمان الفرنسي لم يصادق على المعاهدة المتعلّقة بالاستقلال الذي لم يتحقّق إلّا في العام ١٩٤٥. كذلك، بعد الحرب العالميّة الثانية، تنظّمت القوميّة العربيّة بخاصة لتؤمّن، من جهة الاستقلال الإقتصادي للدول التي تتمتّع بالسيادة، ولتحاول، من جهة ثانية، توحيد الدول الإسلاميّة الناطقة بالعربيّة. فعبد الناصر الذي قرّر، في العام ١٩٥٦، تأميم قناة السويس، في الوقت الذي كان يضع خلاله برنامجه الإشتراكي الجماعي، حاول، بموازاة ذلك، دمج مصر وسوريا في جمهوريّة عربيّة متّحدة، ولكنّ هذه دامت فقط من ١٩٥٨ حتّى ١٩٦١. كذلك، حاولت الحركة القوميّة مع حزب البعث الذي كان ينمو في سوريا والعراق، العمل على توحيد البلدان العربيّة مع اعتماد الاشتراكيّة وسيلةً ضروريّة لتحقيق هذه الغاية. لكنّ فشل الاندماج في مصر واستمرار الخصومة القديمة بين سوريا والعراق، حالا دون حصول تقدّم حقيقي في هذا السبيل. لقد اكتفت القوميّة العربيّة ببعض إنجازات التفاهم التي تحقّقت عن طريق إنشاء جامعة الدول العربيّة، ولكنّها استمرّت في تغذية شعور العداء تجاه إسرائيل وتأكيد التضامن مع الفلسطينيّين. لكن، في هذا المجال أيضًا، ظلّ موقف مختلف الدول المستقلّة ملتبسًا، إذ إنّها وضعت حدًّا لنشاطات المجموعات الفلسطينيّة المسلّحة على أراضيها وواصلت هي النضال ضدّ إسرائيل، من دون أن تحقّق أيّ نجاح عسكري أو سياسي.

في الفترة نفسها، ظهرت أو استمرّت في المغرب أشكال أخرى للقوميّة العربيّة مستندة إلى الإسلام. كان المغرب العربي آنذاك، أي بعيد الحرب العالميّة الثانية، ما يزال يناضل من أجل الإستقلال. حصلت تونس على استقلالها في العام ١٩٥٤، والمغرب في العام ١٩٥٦، وليبيا في العام ١٩٥٣، والجزائر في العام ١٩٦٢، وأدّى ذلك إلى قيام أنظمة ووضع دساتير مختلفة.

٢- في الجزء التركي من السلطنة العثمانيّة ظهرت، منذ مطلع القرن العشرين، فكرة «الوطن التركي» وكان ذلك على أساس لغوي ثقافي. هكذا بلور ضيا كوك ألب النظريّة الطورانيّة الهادفة إلى توحيد الشعوب الناطقة بالتركيّة كافةً في تجمّع سياسي اسمه طوران. ظهرت القوميّة التركيّة بوضوح، بخاصّةٍ عند نهاية الحرب العالميّة الأولى التي قلّصت حدود السلطنة العثمانيّة إلى الأراضي التي يقطنها أتراك، وكاد أن يكون ثمن الهزيمة

العسكرية أكثر ثقلًا. فبعد مقاومة مصطفى كمال (أتاتورك لاحقًا) العسكريّة لأطماع الغرب، أردف ذلك بسياسة العلمنة - وهي الأولى في بلد مسلم - فأفضت من جهة إلى إنشاء الجمهوريّة التركيّة، ومن جهة ثانية إلى إبعاد الأقليّات، وخاصة اليونانيّة منها، إلى خارج الأناضول.

وفي مناطق غير بعيدة، ظهرت أيضًا قوميّات أخرى، مثل الكرديّة والفارسيّة، وقد قامت على أسس محليّة وإثنيّة، كما في إيران حيث الشعور بالخصوصيّة كان حيًّا حتّى في عهد الخلفاء العبّاسيّين. لكن، في الحالة الإيرانيّة، أثّرت عوامل دينيّة قويّة إذ، منذ القرن السادس عشر، في عهد الصفويّين، كانت ميزة هذه الدولة الإقليميّة ذات الحدود الواضحة مدعّمة باعتمادها رسميًّا الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة. في القرن العشرين ظهرت ردود فعل أحيانًا عنيفة ضدّ الهيمنة الأوروبيّة، بخاصةٍ في المجال الإقتصادي، واتّخذت طابعًا قوميًّا مستفيدةً من دعم رجال دين. كانت ردود الفعل نفسها ما تزال مستمرّة، حوالى الخمسينات، إذ تطورت حملة لمصلحة تأميم الصناعة النفطيّة. لكنّها زالت بعد إقالة نظام مصدّق في العام ١٩٥٣، لتحلّ مكانها قوميّة سلالتيّة شهدت عليها احتفالات بيرسيبوليس في العام ١٩٧١. ثمّ أتت الثورة الإسلاميّة مصحوبة بالعنف لتؤكّد، في العام ١٩٧٩، عودة القوميّة الشعبيّة والدينيّة التي قامت عليها حيويّة الجمهوريّة الإسلاميّة.

إنّ حالات أخرى من المدّ القومي الحديث، مطبوعة بمعتقدات محرّكيها الإسلامية، تستأهل أن تضاف إلى النموذج الإيراني، وذلك في حال توسّعنا في رصد هذه الحالات، من جهة، باتّجاه أفريقيا السوداء، ومن جهة ثانية، باتّجاه شبه القارة الهنديّة وآسيا الموسميّة. إن الدور الذي تلعبه ذكرى المهديّة في بلد كالسودان لا يمكن التغاضي عنه، وكذلك الحال بالنسبة الى الانقسامات الدينيّة بين المسلمين وغير المسلمين التي ميّزت نشأة دولة مثل باكستان في العام ١٩٤٧.

قُونية (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في القسم الأوسط من الأناضول، تحافظ اليوم على أهميّتها كمركز مقاطعة، بعد أن كانت في القرون الوسطى عاصمة سلاجقة الروم ومقرّ إقامتهم.

إلى جانب موقعها الجغرافي المناسب في واحة عالية على سفح هضبة سهبيّة، فإنّ وجود «إيكونيوم» (Iconium) القديمة على مفترق إستراتيجي من الطرق التجاريّة الناشطة، أمّن لها البقاء ووفّر لها الغنى، فعمرت بسكّانها واشتُهرت بأنواع الحرف وبحركتها التجاريّة. وفي هذه المدينة تلتقي اليوم الطريقان الرئيسيّتان اللتان تربطان الشمال بالجنوب، والشرق بالغرب، فتصلان، من جهة، أنقرة واسطنبول بالساحل الجنوبي، وأعالي بلاد ما بين النهرين أو المقاطعات الشرقيّة بمناطق الأناضول الواقعة على بحر إيجه، من جهة ثانية. ولا نعرف الكثير عن تاريخ المدينة البيزنطيّة التي كانت قائمة هناك، لكنّ موادًا كثيرة من ذلك العهد أعيد استعمالها في أبنية العصور الإسلاميّة، تشير إلى أنّها كانت حاضرة مزدهرة. ولم تصبها الأضرار إلّا عندما احتلّها المسلمون بعد انتصار جيوش ألب أرسلان التركيّة في موقعة ملازكرت/مانتزيكرت سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م.

في مطلع القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، اهتمّ مسعود الأوّل، سلطان سلاجقة الروم، بتطوير المدينة التي اتّخذها عاصمةً له. ثمّ تابع خلفاؤه الإقامة فيها، كما تابعوا عمليّة الإعمار والتجميل، إلى حدّ أنّ فريدريك بربروسّا شبّهها بمدينة كولونيا بعدما احتلّها واجتازها سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م. وكانت قونية محاطة بالأسوار، وفيها أبنية دينيّة متنوّعة، وقصر بقي منه اليوم ظلّة تعود إلى السلطان قِلج أرسلان الثاني. وبلغت المدينة ذروة ازدهارها في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وهو القرن الذي وصلت فيه السلالة الحاكمة إلى قمّة عظمتها. وقد تمّ خلاله الإنتهاء من بناء مسجد جامع يُعرف اليوم باسم مسجد علاء الدين، وهو يحمل إسم السلطان الكبير علاء الدين كيقباد الأوّل الذي أولى بناءه اهتمامًا خاصًا. وقد أُقيم في فناء هذا المسجد ضريح كبير دُفن فيه أعضاء الأسرة الحاكمة إبتداء من سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. وعلى مسافة غير بعيدة، توزّعت مساجد أخرى ومدارس وخوانق، ومنها الخانقاه التي أنشأها كيقباد الأوّل سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م للصوفيّ

المشهور جلال الدين الرومي وللطريقة المولوية. ويُعرف البناء شعبيًّا باسم «تكيّة مولانا»، وقد خضع لتعديلات دخلت فيها المفاهيم الهندسيّة المتأخّرة. والواقع أنّ العثمانيّين عمدوا إلى تكبيره وترميمه باستمرار منذ القرن السادس عشر حتّى القرن العشرين. ومقابل ذلك، حافظت أبنية أخرى على عناصر متنوّعة من طبيعتها القديمة، وهي تشهد على الخصائص الهندسيّة والتزيينيّة التي تميّز بها المهندسون والفنّانون في ذلك العصر، إذ كانت لهم مهارتهم في نحت الحجر وفي صنع التلبيسات الخزفيّة. من تلك الأبنية نذكر مدرسة سيرچالي (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، ومدرسة قره تاي (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، وجامع صاحب عطا (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، ومدرسة إنجي منارلي (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م).

في أواخر القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، بدأت قوّة سلاطين قونية تضعف أمام ضربات المغول، ما أرغمهم على التخلّي عن سيادتهم لمصلحة الإيلخانيّين الذين أصبحوا، في سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م، أسياد القسم الأكبر من الأناضول.

هذا التطوّر الأخير الذي رافقه تمزّق جغرافيّ جديد أفقد قونية تفوّقها. وقد أُلحقت، سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م، بإمارة القَرامانيّين، ثمّ ضُمَّت، سنة ١٤٧٥م، إلى الأمبراطوريّة العثمانيّة المتنامية. ولم يعد في استطاعة قونية أن تؤدّي دورًا أوّليًّا كالذي كانت تؤدّيه وسط شبكة طرق القوافل وما يتطلّبه ذلك من خانات. لكنّ تلك الخسارة لم تكن تعني الإهمال، ذلك أنّ العثمانيّين اهتمّوا بتشييد العمائر فيها من كلّ نوع. وهذه العمائر ساهمت في تأمين التوازن الداخلي لهذه الحاضرة القديمة التي بقيت بعيدة عن التقلّبات التاريخيّة، وسمحت لها بأن تفيد، حتّى الحقبة الحاليّة، من بريق ماضيها ومن المميّزات المتعلّقة بموقعها الجغرافي.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١ و٢٧.

القياس (البرهان بالقياس)، نوع من البرهان لجأ إليه الفقهاء منذ عهد قديم، لكن بشكل مختصر، بغية حلّ مسألة فقهيّة لا تشير إليها النصوص. والفقيه الشافعي، مؤسّس المدرسة الشافعيّة، كان أوّل من أوضح طبيعة القياس بإسناده إلى البحث عن «سبب» حكم ما، يمكن أن يؤدّي إلى أحكام أخرى لم تكن من قبل مقدّرة أو متوقّعة. فإذا كان مثلًا شرب الخمر محرّمًا لأنّه سبب السكر، فإنّ السبب عينه يسمح كذلك بتحريم تناول كلّ مشروب كحوليّ. إلّا أنّ البراهين بالقياس، من الناحية العمليّة، لا تكون دائمًا بهذا الوضوح. وقد بقي البرهان بالقياس متّبعًا، خلال قرون، في المدارس الفقهيّة الحنفيّة التي تترك للاجتهاد مكانًا.

القيروان (الجمهوريّة التونسيّة)، حاضرة إسلاميّة تقليديّة في إفريقية، يعود تأسيسها إلى عصر الفتوحات الكبرى، تحيي أمجادها السالفة آثار المدينة الصغيرة الحاليّة.

في العام ٥٠هـ/ ٦٧٠م وجّه الخليفة الأموي الأول، معاوية، القائد العسكري عقبة بن نافع نحو المغرب، لتحويله إلى قاعدة انطلاق للمقاتلين العرب المسلمين القادمين على دفعات لاجتياح المناطق الخاضعة للبيزنطيّين في المغرب. فاختار عقبة موقعًا، في منتصف الطريق بين الساحل والجبل، يختلف عن مكان تجمّع الجيوش الذي اعتمده أسلافه. فالقيروان، التي يعني اسمها «المخيَّم»، كانت – كالبصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر – مكانًا مخصّصًا لإيواء العسكريّين المتقدّمين في بلاد العدو. لكن القيروان، خلافًا لتجمّعات الخيم وأكواخ القش المستخدمة لهذه الغاية في بداية الاسلام، نُظّمت مباشرة مدينةً شيّد في وسطها مسجد جامع ومقرٌّ للحكم، واشتملت على العديد من الأحياء المخصّصة للجماعات الإتنيّة أو الدينيّة. أمّا تغذية منطقة السهوب هذه بالمياه، حيث قامت في الماضي مدينة رومانيّة مندثرة، فكانت تجري بواسطة منشآت مائيّة تعود إلى العصور القديمة وقد تمّ تحديثها.

أقيمت الأسواق على امتداد جادة في عرض المدينة، أطلق عليها الجغرافيّون العرب اسم «سماط» (Simât)، ومن المرجّح أن تكون اللفظة من أصل لاتيني؛ ولكن لم يتمّ تشييد سور للمدينة قبل العام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، أي بعد مرور نحو قرن على إنشائها، وذلك إثر اضطرابات مختلفة عصفت بالبلاد.

في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أصبحت القيروان، في ظلّ حكم الأغالبة، مدينة مهمّة

ومركزًا سياسيًّا وإداريًّا واقتصاديًّا ودينيًّا، وحاضرة لدولة مستقلّة، ومقرًّا للبلاط الأميري. وقد نُقل مقر الحكم بسرعة، خارج محيط المدينة، إلى قصور أصبحت مدنًا ملكيّة حقيقيّة: في العبّاسيّة بداية، في العام ١٨٤هـ/٨٠٠م، ثمّ في الرقّادة في العام ٢٦٥هـ/٨٧٧م، فيما تذكر المصادر أنّ المكان نفسه قد اتّخذ، بعد أن فقد أسواره، شكلًا مربّعًا واتسعت مساحته. أمّا المسجد الجامع، الذي كان قد أعيد بناؤه في العام ١٥٨هـ/٧٧٤م، فقد دُمّر ثمّ جدّد بناءه الأمير زيادة الله الأوّل، في العام ٢٢٢هـ/٨٣٦م، محافظًا على تخطيط عقبة الذي بقي اسمه مرتبطًا بهذا البناء. وللجامع مئذنة مربّعة تعود إلى ذلك العصر، وقد أُدخلت تعديلاتٌ عليها وجُمّلت في العام ٢٤٨هـ/٨٦٢م. وفي الوقت عينه تمّ تحسين تغذية المدينة بالمياه، بإنشاء مجموعة من الخزانات المعروفة باسم أحواض الأغالبة. ولا جدال في أنّ شهرة القيروان في هذه الفترة تعود بخاصة إلى فقهائها من المالكيّة، وقد دافع عن هذا المذهب، بشكل خاص، سحنون وأتباعه العديدون، وكان بعضهم قد جاء من الأندلس. وثمّة أيضًا عدد وافر من النحويّين والأطباء الذين ساهموا في عظمة المدينة الثقافيّة.

لكنّ المدينة ما لبثت أن عرفت تقهقرًا في بداية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، باستيلاء الفاطميّين عليها واصطدامهم بالسكّان المحليّين المناوئين للشيعة، ولم يفعل الفاطميّون شيئًا لتطوير المدينة. وكل ما قاموا به هو أنّهم، بعد أن غادروا مقرّهم الأوّل في المهديّة، شيّدوا مقرّهم الجديد، صبرا - منصوريّة، بجوار القيروان، وذلك خلال العامين ٣٣٥-٣٣٦ للهجرة/٩٤٧-٩٤٨ للميلاد، فجذب اليه النشاط التجاري وكلّ النشاطات المتعلّقة بالكماليّات. وكان هذا المقرّ، في نهاية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، لا يزال يحافظ على أهميّته، وفق ما ذكره الجغرافي المقدسي، لكنّ هذه الأهميّة تلاشت تدريجيًّا، بعد انتقال الفاطميّين إلى مصر في العام ٣٦١هـ/٩٧٢م.

أمّا بنو زيري، الذين حلّوا مكان أسيادهم الفاطميّين، فقد هجروا موقع القيروان، حيث كانت لا تزال تعيش جماعات كدودة ونشطة، يحميها سور شُيّد خلال العامين ٤٤٤ و٤٤٥هـ/١٠٥٢-١٠٥٣م، ويحيط، في الوقت عينه، بالمدينة القديمة وبمدينة صبرا - منصوريّة. ورغم تحوّلها إلى مركز ريفيّ يقع بجانب مدينة تونس المزدهرة، فقد استمرّت المدينة القديمة، في ذلك الوقت، مركزًا فكريًّا للمالكيّة، وموئلًا لتعاليم ابن أبي زيد القيرواني ولتعاليم القابسي وغيرهما من العلماء والأدباء. وأدّى نهب القيروان، على أيدي بني هلال في العام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، إلى تحويلها إلى سوق يرتادها البدو، بالرغم من انتعاشها الجزئي في ظلّ الموحّدين، واستمرّت كذلك حتّى القرن التاسع عشر، حين استعادت مكانتها في المرتبة الثانية بين المدن التونسيّة.

اشتهرت القيروان بصناعة الفرو والجلود، وكانت تُعتبر الحاضرة الروحيّة للبلاد بفضل وجود عدد وافر من المساجد والزوايا فيها. وفي الوقت الذي حاولت فيه المحافظة على سمعتها هذه، والانفتاح على الحياة الجامعيّة، وجدت القيروان نفسها متأخّرة عن ركب المدن التونسية المعاصرة. وهي ما تزال الى اليوم تتمتّع بشهرتها التاريخيّة المتمثّلة بمسجدها الجامع الأثري والعظيم الحجم. كما تتمتّع بالتقدير المرتبط بذكرى «سيدي عُقبة»، في انتظار أن تتمكّن أعمال الحفريّات والدراسات والترميم من إظهار قيمة إرثها التاريخي.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١١، ١٩ و٢٨.

قيس (بنو -)، مجموعة قبائل من عرب الشمال المتحدّرين من عدنان، قامت بدور فاعل في عهد الأمويّين.

هذا التجمّع الذي كان يضمّ قبل الإسلام عددًا كثيرًا من القبائل المعروفة، كسَعْد وسُلَيم وغَطَفان وثقيف وعامِر وعَبْس والذي كان مقرّبًا من بني تميم، وأيضًا من بني تَغْلب الذين كانوا قد استقرّوا في بلاد ما بين النهرين، كان ينتسب بصورة خاصة الى مُضَر، وكان يُقال إنّ جدّه الأوّل، قيس عيلان الذي اعطاه اسمه، كان من مُضَر. يبدو أنّ التماسك السياسي النسبي بين ممثّلي هذه القبائل التي ضمّت في ما بعد مجموعات مهمّة، كعَبْد القَيْس أو كَبَكْر بن وائِل التي عُرفت في ما بعد باسم ربيعة، لم يظهر إلّا بعد الفتوحات الكبرى، وبشكل خاص خلال الخلافة الأمويّة.

في هذا الوقت، أثار اعتماد مؤسّس السلالة الأمويّة، معاوية، وابنه يزيد الأوّل على بني كلب من عرب الجنوب عدائيّة القيسيّين تجاههما، فساند هؤلاء خصم الخليفة إبن الزبير، ولمّا اشتدّت الفوضى بعد غياب الخلفاء الأوائل، لم ينضمّ القيسيّون إلى السلالة الأمويّة إلّا بعد أن أحرز مروان الأوّل انتصارًا عليهم في معركة مرج راهط في العام ٦٥هـ/ ٦٨٤م. إلّا أنّ دخولهم في طاعة الأمويّين لم ينه خصومتهم لبني كلب. إنّهم دافعوا في ما بعد عن السياسة التوسعيّة التي انتهجها الخلفاء الأمويّون من الفرع المروانيّ، باستثناء سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد الثالث، ونجحوا في إبعاد أعدائهم عن بطانة الخلفاء حتّى الانقلاب السياسي الذي أدّى إلى انتصار العبّاسيّين.

تراجع العداء القائم بين قيس وكلب في العصور اللاحقة، لكنّه لم يَزُل نهائيًّا. فقد برز بخاصةٍ في الأندلس، وفي زمان متأخّر في فلسطين، خلال عهد المماليك والعثمانيّين، عندما تردّى الإنقسام القيسي - اليمني الى صراع فعليّ بين أحزاب تشكّلت بصورة إصطناعيّة.

قيساريّة، مدينة مرفئيّة مدمّرة في فلسطين القروسطيّة، كانت تقع على بعد أربعين كيلومترًا تقريبًا إلى جنوب مدينة حيفا الحاليّة.

هذه المدينة المسمّاة قيساريّة - لا يجب الخلط بينها وبين قيصريّة التي أصبحت «قَيْصري» في الأناضول - دخلها الجيش العربي الإسلامي في زمن الفتوحات الكبرى، في ذي العقدة سنة ١٩هـ/ تشرين الأول ٦٤٠م، بعد حصار دام سبعة أشهر.

دافع عنها في ما بعد الأمويّون وصدّوا غزوات الأسطول البيزنطي، ثم أُهملت في زمن العبّاسيّين وأخذ الرمل يطمس مرفأها. في سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م، حاصر الفرنج، بعد استيلائهم على القدس، قيساريّة، بمساعدة الأسطول الجنوي، واستولوا عليها.

وبعد أقل من قرن، استعاد صلاح الدين المدينة، سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. ولكنّ تحصيناتها هُدّمت سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م، ثمّ استولى عليها ريكاردوس قلب الأسد من جديد، في العام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م.

لم تحل التحصينات الجديدة التي أقيمت عليها دون أن يستعيدها الملك المعظّم الأيوبي في العام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م.

ولكن قيساريّة أُعيدت الى فريدريك الثاني سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م بحكم معاهدة يافا، واهتمّ لويس التاسع بإعادة بناء المدينة ومرفإها. سقط أخيرًا هذا الموقع المحصّن في ايدي المماليك في العام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وأُهملَ لمصلحة سلسلة من القلاع واقعة في الداخل، ما أدّى الى تراجع المدينة؛ وتواصل التراجع في عهد العثمانيّين. استقرّ فيها بعض المسلمين اللاجئين من البوسنة في العام ١٨٨٤ ثمّ أُخليت خلال الحرب العربيّة الإسرائيليّة في العام ١٩٤٨، ولا يبقى منها اليوم إلّا موقع أثري هو مسرح تنقيب وترميم جزئي.

◄ راجع المستند رقم ١٨.

قَيْصِري (الجمهوريّة التركيّة)، في العربيّة **قيصريّة**: مدينة مهمّة في كبادوقية وسط الأناضول، بقيت مدّة مركزًا إداريًّا للمنطقة، وفيها معالم أثريّة تعود إلى ماضيها القروسطي.

وتقع قيصريّة، كما في الماضي، على ملتقى طرق كانت من قبل تجوبها القوافل المتنقّلة من قونية إلى سيواس، ومن أنقرة إلى مَلْطية أو أضنة. كان اسمها في الماضي قيصريّة مزكا (Césarée Mazaka)، وقد هاجمتها الجيوش العربيّة-الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى زمن الأمويّين، ولكنها لم تخضع لسيطرة الإسلام إلّا سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م على أيدي أتراك قدموا من أمبراطوريّة السلاجقة الكبار. نُهبت وسقطت في قبضة دانِشمند غازي، مؤسّس السلالة الدانشمنديّة، ثمّ في يدي ابنه الذي عمد إلى ترميمها. وفي سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م، استولى عليها قِلْج أرسلان الثاني، أحد سلاجقة الروم، وغدت واحدة من المدن المهمّة التابعة للسلطنة، وتحوّلت مركزًا للنشاط التجاري والحرفي في منطقة زراعية مزدهرة من الهضبة الوسطى، على ارتفاع ألف متر تقريبًا.

إلى هذه المرحلة تعود قلعة المدينة وعدد من الأبنية الجميلة المشيّدة بالحجارة السوداء والتي تشهد على الغنى الذي حافظت عليه، إلى أن خرّبها المغول سنة

٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، كما احتلّها المماليك بصورة موقّتة سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م، قبل أن تصبح عاصمة الأرتنيّين بين سنتي ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م و٧٨٣هـ/ ١٣٨١م. استولى عليها السلطان العثماني بايزيد الأوّل يلْبريم سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م، وعادت، مع مرور بعض الوقت وبعد غزوة تيمورلنك، عاصمة إمارة مستقلّة. ثم أُلحقت نهائيًا، سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م، بالسلطنة العثمانيّة، ولم يعد لها بعد ذلك إلّا دور محدود. إلى جانب السوق أو بدستان والأحياء القديمة حولها، تمتلك المدينة مساجد وأبنية تعود إلى العصر العثماني الأوّل، ومنها «كورسُنلو كامي» الذي يُنسب إلى المهندس سنان، أو تعود إلى عصر سلاجقة الروم كمجمّع «هواند خاطوم» وعدد كثير من الأضرحة، أشهرها يُعرف باسم «دُونِر كومْبت».

◄ راجع المستندات ٨، ٢١ و٢٧.

قيصريّة، نوع من الأسواق المسقوفة، راجت في القرون الوسطى، كانت تُستخدم لتخزين السلع الثمينة وبيعها.

وقيصريّة إسم قديم العهد، مستمَدّ من اليونانيّة، ويدلّ، من دون شك، على بناء تجاري «أمبراطوري»، على غرار سائر الأبنية العامّة في المدن البيزنطيّة.

إنّ تنظيم بناء القيصريّة المعماري، المغلق والمحمي، والمزوّد بأروقة مغطّاة تحيط بباحة داخليّة مستطيلة، والتي كانت تحمل الاسم نفسه في أقدم المدن الإسلاميّة، يذكّر أيضًا بتنظيم الأغورا (Agora)[٩٣]؛ من دون أن نستطيع القول اذا كان علينا البحث عن النموذج المستخدم في العصر الإسلامي، في الإسكندريّة أو في أنطاكية.

في البداية، نمت القيصريّات في البلاد العربيّة زمن الأمويّين والعبّاسيّين، معتمدة تخطيطًا وفق طراز البازيليك[٩٤]، حيث كانت تحصل فيها تجارة الحرير والمَصوغات. وقد انتقلت من سوريا إلى مصر، وظهرت أيضًا في المغرب والأندلس. لكن في الشرق أُهمل اسم قيصرية، منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وحلّ مكانه إسم خان ووكالة، بينما استُخدمت في البلاد التركيّة لفظة «بدِسْتان» المشتقّة من «بزّازستان» للدلالة على سوق الأقمشة.

قيصريّة ← قَيْصري.

ك

كابَرْدينو - بلكاري، جمهوريّة فيدراليّة، تبلغ مساحتها ١٢٠ ٤٠٠ كلم٢، وعاصمتها نالتشيك، كانت في السابق جمهوريّة إشتراكيّة سوڤياتيّة تتمتّع بالحكم الذاتي، وهي تنتمي اليوم إلى الإتّحاد الروسي، وأكثر من نصف سكّانها المتعدّدي الاتنيّات واللّغات، والبالغ عددهم حوالى ٧٥٠ ألف نسمة، هم من المسلمين.

هذه الجمهوريّة الواقعة شمالي القوقاز، والمجاورة من الشرق لـ«أوسيتيا الشماليّة»، ومن الغرب لـ«كراتشيفو - شركاسيا»، عرفت منذ نشأتها تاريخًا متقلّبًا. اعتُرف أوّلًا باستقلال منطقة الكابرد في العام ١٩٢١، بعد إقامة النظام السوڤياتي، ثمّ أضيف اليها، في العام ١٩٢٢، منطقة بلكاري، ما سمح، في العام ١٩٣٦، بإنشاء جمهورية ثنائيّة الإسم. في العام ١٩٤٤، اقتُطع جزء من أراضيها، وأبعد البلكار الى آسيا الوسطى في العام ١٩٤٦، ثمّ ما لبثت أن استعادت، في العام ١٩٥٧، اسمها ومكانتها السابقة داخل جمهوريّة روسيا الاشتراكيّة الفدراليّة السوڤياتيّة. واستمرّت قائمة، بعد تفكّك الاتّحاد السوڤياتي في العام ١٩٩١، بدون أن تتمكّن من التغلّب على الاضطرابات الداخليّة التي ورثتها من ماضيها.

وفي الواقع تقدّم الإسلام في هذا الجزء من القوقاز الأوسط، محدثًا تحوّلًا في مناخ المنطقة الثقافي، منذ القرن الثامن عشر، وقد جرى بشكل متوازٍ بين الشركس الشرقيّين المعروفين بالكابرد، الناطقين باللّغة القوقازية، وبين البلكار الناطقين باللغة التركيّة والمنتسبين إلى إثنيّة غير معروفة تمامًا. وقد قبل البلكار سيادة الكابَرْد المطلقة منذ القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. وبالرغم من المقاومة المشتركة للإستعمار الروسي في القرن التاسع عشر، استمرّت الانشقاقات بين القبائل الجبليّة المسلمة التي تتجاوز عدديًا الروس والأوكرانيّين الذين قصدوا المنطقة لاستغلال أراضي السهل الصالحة للزراعة.

كابُل، (دولة أفغانستان الإسلاميّة)، عاصمة حديثة للبلاد، اختيرت لتضطلع بهذا الدور في عهد الحاكم الثاني للدّرّانيّين في نهاية القرن الثامن عشر، لكنّها عرفت سابقًا شأنًا عظيمًا، حتّى قبل أن يجعل منها بابر، مؤسس دولة المغول في الهند، في بداية القرن السادس عشر، مقرّه المفضّل.

إنّ موقع كابُل، في وادٍ خصيب من أودية الهندوكوش - وقد أثار اهتمام بابر بمناخه المعتدل وجماله - وفّر في الماضي للمدينة أهميّة تجاريّة واستراتيجيّة من الدرجة الأولى، إذ كانت هذه المدينة تشغل موقعًا مهمًّا بالقرب من سهول البنجاب، وعلى مفترق طرق القوافل التي تربط آسيا الوسطى ببلوشستان، من جهة، وايران بشبه القارّة الهنديّة من جهة أخرى. ولكنّ الازدهار الذي عرفته مملكة الكابُل شاه القديمة (يُطلق إسم كابُل أيضًا على المنطقة وعلى نهرها) لم يلبث أن ضعف منذ اعتناقها الاسلام خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، وقد اتّخذ الغزنويّون المسلمون مدينة غزنة، التي تبعد عنها قليلًا باتّجاه الجنوب، مركزًا لهم.

لقد أدّى نهب غزنة الشهير في العام ٥٤٥ للهجرة/ ١١٥٠ للميلاد، على يد أحد الغوريّين، والكارثة التي أحدثها اجتياح المغول لهذه المدينة في العام ٦١٨ للهجرة/ ١٢٢١ للميلاد، إلى استعادة كابُل تدريجيًّا

صفتها المزدوجة كمستودع تجاري نشيط وقلعة حصينة للتيموريّين في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر ميلادي.

قام بابر بالعديد من التحسينات في المدينة إبتداء من العام ٩١٠هـ/١٥٠٤م، وانطلق منها في حملته على الهند، وأوصى أن يُدفن فيها. استمرّ خلفاء بابر المغول في اعتماد كابُل مركزًا لمقاطعة كبيرة شملت أيضًا كشمير، إلى أن سقطت المدينة في يد نادر شاه في العام ١١٥٠هـ/١٧٣٨م، ومن ثمّ في أيدي الأفغان منذ العام ١١٦٠هـ/١٧٤٧م. أصبحت كابُل، بعد ذلك بقليل، عاصمة لدولة الدرّانيّين الجديدة، وحافظت على هذا الوضع في عهد أسرة «الباركزاي»، وهذا لم يمنع تعرّضها، خلال القرن التاسع عشر، لتدمير ومآس عديدة لم تسمح لها بتشييد أيّ بناء مهمّ، إلى أن حصلت تحوّلات الزمن المعاصر. تُرجمت جهود التحديث فيها، في القرن العشرين، بإنجازات مدنيّة قام بها آخر ملوك الدولة، وما لبثت أن زالت بفعل الاضطرابات التي تلت ثورة ١٩٧٣، واحتلال السوفيات للبلاد حتّى العام ١٩٩٢، وبلغت أوجها في المعارك الحاليّة التي اتّخذت كابُل هدفًا لها وحوّلتها الى حقل من الدمار.

◄ راجع المستندات ٨، ١٣ و٣٥.

الكاتب، جمعها كتّاب، أشخاص كانوا يقومون، في الإدارة الإسلاميّة في القرون الوسطى، بمهمّات متنوّعة على مستويات مختلفة، تساعدهم أحيانًا على أن يصبحوا رؤساء دواوين، وأن يمارسوا، إلى جانب الخليفة أو وزيره، مهمّات توازي تلك التي يقوم بها الوزير.

والكتّاب الذين كانت في أيديهم إدارة الدولة العبّاسيّة بكاملها، كانوا في غالبيّتهم من كبار الأدباء المميّزين ومن واضعي المصنّفات وجلساء الملوك، وأحيانًا من رعاة الآداب والعلوم، كما اختير بعضهم من الموالي غير العرب الذين ينتمون إلى ماضٍ عريق. وهكذا فإنّ الأمويّين اتّخذوا كتّابًا من السكّان المحلّيين، وخصوصًا من المسيحيّين الذين اعتنقوا الاسلام، وكانوا يعملون في الإدارات السوريّة أو المصرية زمن البيزنطيّين. وفي العصر العبّاسي حلّ مكان الموالي السوريّين والمصريّين موالٍ إيرانيّون ذوو ثقافة زرادشتيّة وأحيانًا بوذيّة، وبينهم عدد من المسيحيّين من بلاد ما بين النهرين. والكتّاب بمجملهم شكّلوا في ذلك العصر طبقة، بل طائفة، تتوارث المعارف والعلوم القديمة مكمَّلةً بثقافة تقنيّة دقيقة.

سواء كان الكتّاب متخصّصين في كتابة وثائق ديوان الرسائل أو في المهمّات المرتبطة بالشؤون الماليّة، فكان من الضروريّ أن يمتلكوا ثقافة موسوعيّة، إلى جانب إتقانهم اللّغة العربيّة كتابةً وقواعد، وكذلك علم الحساب، وأن يُلمّوا بالفقه الإسلامي وبالجغرافيا. فمهمّاتهم كانت تقضي كتابة الرسائل بأسلوب أنيق، وتدوين الوثائق والقرارات الرسميّة واحتساب الضرائب، وتنظيم سجلّات بذلك ومراقبة نفقات الدولة. وقد وُضعت لمساعدتهم بعض المؤلّفات المتخصّصة، مثل الكتب الجغرافيّة الأولى التي تتحدّث عن المدن والطرق في الأمبراطوريّة العبّاسيّة، قبل أن تصدر الموسوعات الجديرة بهذا الإسم المتعلّقة بمهمّاتهم، والتي ازدهرت لاحقًا في العصر المملوكي بمصر.

في مطلع القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، اتُّهم عدد من الكتّاب بالميل إلى التقاليد الأدبيّة الإيرانيّة على حساب الدين الإسلامي، وبممالأة الحركة الثقافيّة والإجتماعيّة التي عُرفت باسم الشعوبيّة. لكنّ هذه الظاهرة راحت تخفّ تدريجيًا لتختفي في أواخر القرن. وأصبح الكتّاب يتميّزون بكفايتهم الماليّة قبل تسلّم مهمّات الوزارة التي نجح فيها بعضهم ونالوا شهرة كبيرة.

بعد تفكّك الدولة العبّاسيّة، استمرّ الكتّاب في أداء دور لا يستغنى عنه، على الرغم من انحسار مجال نفوذهم. ومع ظهور المدارس في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، اقتربت أوساطهم من أوساط العلماء المسلمين ذوي التنشئة التقليديّة، فشاطروهم علومهم ومعارفهم على حساب ثقافتهم الدنيويّة السالفة. وبات هؤلاء وأولئك يُعرفون آنذاك باسم «المعمّمين»، اشارةً إلى صفتهم كمسلمين ورعين، في مقابل رجال الحرب من الغرباء الذين كان معظمهم من الأرقّاء الذين غدوا أصحاب السلطة في

الشرق الأدنى، إثر التطوّرات التي عرفها العصر السلجوقي. والحالة نفسها عرفتها مصر في العصر الفاطمي، إذ إنّ الادارة فيها كانت قد وقعت في أيدي عدد من أبناء البلاد الأصليّين، ومنهم من لم يكن مسلمًا. هنا، خلافًا لما كان يجري في مناطق أخرى، فإن كتّابًا غير مسلمين استطاعوا بلوغ أعلى المراتب والمناصب، كمنصب الوزير. أمّا بلاد الأندلس فقد عرفت هي أيضًا كتّابًا بارعين، لكنّ أدوارهم كانت محدودة في منطقة لم تكن لديها طموحات أمبراطوريّة واسعة.

بصورة عامة، فإنّ أوضاع الكتّاب والادارة تغيّرت في أواخر القرون الوسطى وفقًا للأنظمة السياسيّة وللمناطق. ففي إيران، خلال حكم الإيلخانيّين، برز أشخاص يتقنون اللغتين التركيّة والمغوليّة أوكلت إليهم القضايا الحربيّة، في حين أنّ الخدمات الأخرى كانت في أيدي إداريّين يعتمدون في اللغة الفارسيّة وحدها. واستمرّ الوضع على حاله في ظلّ خلفاء تيمورلنك الذين أبقوا على ديوان تركي مستقلّ عن الديوان الفارسي. ولم يتبدّل الوضع إلّا مع الصفويّين الذين أغنوا إدارتهم بعدد وفير من الكتّاب المتخصّصين.

أمّا السلطنة العثمانيّة فإنّها، لشدّة أخذها بالبيروقراطيّة، استخدمت عددًا كثيرًا من الموظّفين الذين عُرفوا بالكتّاب، وأصبحت لهم أهميّة خاصّة إنطلاقًا من القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، في عهد السلطان سليمان القانوني. وقد توزّع الكتّاب، كما في سائر الدول، على ديوانَيّ الرسائل والمال، وكانوا ينتمون إلى جسم خاص من الموظّفين في الخزينة السلطانيّة التي كانت تتمتّع بنوع من الإستقلاليّة. فالكتّاب في ديوان الرسائل كانوا يخضعون لأوامر «النيشانجي»، والكتّاب في ديوان المال كانوا يخضعون لأوامر «الدفتردار».

كاتب چَلَبي، مصطفى بن عبدالله المعروف باسم **حاجي خليفة** (١٠١٧-١٠٦٧هـ/١٦٠٩-١٦٥٧م)، صاحب مصنّفات في موادّ مختلفة وعالم من العصر العثماني، اشتُهر على الاخصّ بأعماله الجغرافيّة والتاريخيّة، كما اشتُهر بالكتب التي تهتمّ بالفهرسة.

وُلد وتوفي في اسطنبول، وتخلّلت حياته أسفار كرّس معظمها لتحصيل العلوم. وإلى جانب منصب كاتب الماليّة، شارك في حملات عسكريّة مختلفة. إنّه يشكّل، في القرن السابع عشر، نموذجًا للذين كانوا يتذوّقون الثقافة الدنيويّة ويسعون وراء المعرفة الموسوعيّة التي انتشرت، منذ مطلع العصور العبّاسيّة، لدى أفراد الإدارات المركزيّة وفي الأوساط الخلافيّة والسلطانيّة. ومع انفتاحه على ما تحويه المؤلّفات الغربيّة من غنى واطلاعه عليها بوساطة معتنق للإسلام من أصل فرنسي، فإنّه مارس فنّ «التوليف» التقليدي المعروف في الأوساط الإسلاميّة، وجمع أعمال كبار المفكّرين، ووضع عنها خلاصات وشروحات متنوّعة. ومن المصنّفات الكثيرة التي تعالج مواضيع مختلفة، ترك حاجي خليفة في العربيّة معجمًا فهرسيًّا مرتّبًا ترتيبًا ألفبائيًّا يحوي ما يقارب ١٤ ٥٠٠ عنوان، هو كتابه المشهور «كشف الظنون»؛ كما ترك مؤلّفًا في التاريخ العام. وفي اللغة التركيّة ترك مؤلّفات حول التاريخ العثماني، وحول مسائل بحريّة نجد فيها ملاحظات دقيقة. والجدير بالذكر بصورة خاصة أنه جهد، في كتاباته الكوزموغرافيّة، في أن يُنجز، ضمن مؤلّفين مختلفين لم يكملهما، وصفًا للعالم. فبدأ الأوّل سنة ١٦٤٨ والثاني سنة ١٦٥٤، مستوحيًا ترجمته الشخصيّة للأطلس الصغير الذي كان قد وضعه [في القرن السادس عشر] العالم الكبير ميرْكاتور (Mercator)، واعتُمد مؤلّفه الثاني، في القرن الثامن عشر، أساسًا لدراسة ظهرت مطبوعة سنة ١٧٣٢، وأُكملت عن طريق ترجمة مؤلّفات أخرى غربيّة؛ وهي تقدّم وصفًا كاملًا لقارة آسيا.

كاث، مدينة كانت عاصمة خوارزم في العصور الوسطى، لم تعد اليوم موجودة، وخرائبها تقع قريبة من مدينتي خيوَه وكُركانج أو الجرجانيّة.

كانت، في عهد الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة، الحاضرة الرئيسة في تلك المنطقة، وقد دخلها قُتيبة ابن مسلم سنة ٩٣هـ/٧١٢م. لقد حافظت عاصمة سلالة الأفريغيّين هذه - وهي السلالة الأولى من السلالات المنتمية إلى الخوارزمشاهيّين التي اعترفت بسيادة الخلفاء الأمويين، حتى بعد دخولها الإسلام - على بعض خصائص حضارتها التقليديّة. وقد نوّه الجغرافيّون

العرب، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بغنى المدينة التي كانت مركز نشاط زراعي وتجاري قريب من البلاد التركيّة، على الرغم ممّا كانت تعانيه من تبدّل مجرى نهر آموديا الذي كانت تحتلّ الضفّة اليمنى منه. ثمّ بدأ انحطاطها مع وصول سلالة جديدة من الخوارزمشاهيّين إلى السلطة سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، كما أنّ غزوات المغول والتيموريّين قضت على ما تبقّى من هذه المدينة التي كانت قد أمست مهملة من القوافل، كما أنّ سكّانها اضطرّوا إلى تركها قبل القرن السابع عشر.

كارلوفيتش، معاهدة تمّ توقيعها، في ٢٩ رجب ١١١٠هـ/ ٢٦ كانون الثاني ١٦٩٩م، في هذه البلدة من مقاطعة ڤويڤودين (Vojvodine) المعروفة اليوم باسم سرمسكي كارلوفتشي (Sremski Karlovci)، بعد محادثات صعبة جرت بين العثمانيّين وبعض القوى الأوروبيّة، مثل النمسا وبولونيا والبندقيّة وروسيا.

بموجب هذه المعاهدة، انكفأ العثمانيّون عن هنغاريا وكرواتيا وسلوڤانيا وترانسلڤانيا ودلماسيا، واحتفظوا ببعض الأراضي الإستراتيجيّة، مثل منطقة تيميشوارا والمناطق الداخليّة من بلغراد، واسترجعوا من البندقيّة ما كانت قد استولت عليه في المورة. هذه هي النتيجة التي آلت إليها الحرب التي بدأت في العام ١٦٨٥م، وتميّزت بانتصارات متواصلة أحرزها الهابسبورغ وحلفاؤهم. إنّها تشكّل مؤشّرًا واضحًا لتقهقر قوّة الأتراك في أوروبا الوسطى، بعد أن كانوا قد أحرزوا سلسلة من الانتصارات في القرون السابقة. بَيْدَ أنّ خسارة العثمانيّين بموجب معاهدة كارلوفيتش كانت أقلّ ممّا كان يُخشى، وذلك بفضل مهارة مفاوضيهم في مؤتمر امتدّ طوال شهرين من الزمن. وقد حقّق هذا المؤتمر شهرة للمدينة الصغيرة التي عُقد فيها، فاستعيدت من العثمانيّين في العام ١٦٨٧، بعد أن استمرّت، لأكثر من مئة عام، تحت إسم كارلوفشا، ومركزًا لمقاطعة تركيّة تابعة لباشا يقيم في المنطقة التي أُنشئت فيها مدينة بودابست الحاليّة.

كازاخستان (جمهوريّة)، مساحتها ٣٠٠ ٧١٧ ٢ كلم^2 وعاصمتها ألما أتا. هي دولة مستقلّة منذ سنة ١٩٩١؛ كانت واحدة من جمهوريّات آسيا الوسطى الخمس داخل الاتّحاد السوفياتي. عدد سكانها حوالى ١٨ مليون نسمة، ونسبة المسلمين فيها تبلغ نحو ٤٢ بالمئة.

هذه البلاد التي برزت قيمتها الزراعيّة والصناعيّة مؤخّرًا بفضل تأثير الاستعمار الروسي وهجرة الروس إليها، تمتدّ في منطقة دخلها الإسلام في عصر متأخّر، وتشمل شمالي شرق بحر قزوين وبحر أرال، وصولًا إلى التركستان الصينيّ أو سين كيانغ. ولجمهوريّة كازاخستان حدود مشتركة طويلة مع الاتّحاد الروسي، وهي تجاور في الجنوب عددًا من الجمهوريّات التي كانت سابقًا داخل الإتّحاد السوفياتي، وهي تركمانستان وأوزبكستان وقرغيزستان، من غير أن ننسى حدودها الشرقيّة المشتركة مع جمهورية الصين الشعبيّة.

في أواخر القرون الوسطى، شهدت سهوبها تناميًا سكّانيًّا نواته قبائل تركيّة مترحّلة عُرفت منذ القرن السابع عشر باسم «كازاخ»، وكان بعضها ينتمي إلى الإتّحاد القبلي المعروف باسم الـ«أوزبك»، وكانت هذه القبائل قد هاجرت الى المناطق الواقعة إلى الشمال الشرقيّ من مناطقها السابقة. وفي منطقة الكازاخ تأسّست، في القرن التاسع عشر، مدينة ألما أتا، وجُعلت سنة ١٨٦٧ مركزًا إداريًّا لحاكميّة «سَمِرِتْشيه» العسكريّة الروسيّة، وذلك قبل اختيارها، سنة ١٩٢٩، عاصمةً لكازاخستان. إلّا أنّ تدفّق المهاجرين الروس والأوكرانيّين إلى ألما أتا وسائر أنحاء البلاد قلّل من أهميّة دور الإسلام في بلد يحاول فيه الكازاخ اليوم إثبات أوّليّتهم السياسيّة والاجتماعيّة واللغويّة.

◄ راجع المستند رقم ٣٥.

كاشان (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة تقع على تخوم الصحراء، وعلى الطريق التي تصل يزد بقُم وطهران، ويعود الفضل في شهرتها إلى إنتاجها الحرفي من البلاط والقطع الخزفيّة الأخرى.

كاشان مدينة ساسانيّة قديمة دخلت الإسلام في بداية الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة، وكانت في العصور الوسطى تابعة لمقاطعة الجبال، وقد ازدهرت بنوع خاص في العصر السلجوقي، فأنشئت فيها المدارس التي قصدها طالبو العلم ورجال الفكر، كما نشطت فيها صناعة الخزف البرّاق. أصبحت عاصمة ثقافية في عهد

الصفويّين، وقد شيّد فيها الشاه عبّاس الأوّل وخلفاؤه القصور والأسواق المسقوفة، وبنوا في محيطها سدودًا لتحسين عملية تزويدها بالمياه. واستمرّت شهرة منتوجاتها الحرفيّة في القرن السابع عشر، ولا سيّما منها النسيج (المقصّب بخيوط ذهبية والحرائر على أنواعها)، والسجّاد، والخزف. إلّا أنّ زلزال سنة ١٧٧٩ دمّر قسمًا من المدينة، ولم تستطع بعد ذلك استعادة نشاطها التجاري ولا بلوغ غناها السابق، برغم تحديث المنطقة. لقد حافظت على كثير من الأبنية القديمة، منها ضريح الشاه عبّاس الأوّل، وبقايا مساجد ومنائر من العهد السلجوقي.

◄ راجع المستندين ٢٣ و٢٤.

كاشي (جمهورية الصين الشعبية)، هي كاشْغَر القديمة، مدينة في تركستان الصينيّة أو سينكيانغ، حافظ سكّانها الأتراك على الإسلام بعد تقبّلهم إياه في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

وبحكم موقعها ضمن واحة في حوض تَريم المجفّف، على الطريق الأسيويّة الكبيرة والمعروفة باسم «طريق الحرير»، أصبحت كاشغر واحدة من أهمّ المدن في مملكة القراخانيّين الشرقيّة. وفيها وُضع، في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، مصنّف أدبيّ تركيّ بعنوان «كُوتَدْغو بيليغ». وفي المرحلة الزمنيّة عينها عاش فيها محمود الكاشغري، وهو عالم لغويّ وضع بعد ذلك في بغداد «معجم اللغة التركيّة».

انتقلت المدينة بعد ذلك إلى سلطة القره خِتاي، وهم سلالة تركيّة غير مسلمة، ثمّ احتلّها المغول، وتعاقبت من ثمّ على حكمها سلالات إسلاميّة متنوّعة. وبعدما رُمّمت في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، استولى عليها الصينيّون سنة ١٨٧٧ وجعلوها مقرّ حاكم المنطقة. أمّا اليوم فإنّ غالبيّة سكانها من السُنّة.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ٢٣، ٣٠ و٣٥.

الكاشي أو الكاشاني (؟-٨٣٢هـ/ ؟-١٤٢٩)، هو غياث الدين جمشيد بن مسعود بن محمود؛ رياضي وفلكي إيراني، لقي حظوة عند التيموريّين، ولا سيّما عند أولوغ بك.

ما نعرفه عن حياته أنّه، بعد أن عمل في كاشان حيث راقب خسوف القمر سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، قَبِلَ الإلتحاق ببلاط «أولغ بك» في سمرقند في سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، والمساهمة في إنشاء المرصد الكبير في تلك المدينة. ومن نتائج نشاطه العلمي أنّه صحّح وأكمل حساب الجداول الفلكيّة. إنّ مؤلّفه «زيج الخاقاني» الذي وضعه سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م، صحّح جداول نصير الدين الطوسي وحسّنها. كما ترك مجموعة من المصنّفات حول الآلات، وحول نظام العدّ الليغورتمي المستعمل في علم الفلك؛ وله إلى ذلك كتاب في النظريّات الحسابيّة بعنوان «مفتاح الحساب».

الكاظميّة (الجمهوريّة العراقيّة)، حيّ في بغداد نما حول ضريح شيعي بُني ليؤوي قبرَي الإمامين السابع والتاسع من الأئمّة المكرّمين لدى الإماميّة الأثني عشرية، موسى الكاظم ومحمد الجواد.

فالزيارات المتكرّرة ورحلات «الحجّ» الخارجة عن الفرائض الشرعيّة، إلى هذين القبرين أبرزت باكرًا، في نظر الشيعة، ما كان يتمتّع به الإمامان من امتيازات فريدة. ونال القبران تكريسًا رسميًّا في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وذلك أيام نفوذ البويهيّين في عصر الخلافة العباسية السُنّية. فتكاثرت على أثر ذلك الهبات للمقام وأقيمت حوله الاحتفالات الكبيرة. إلّا أنّ تعاقب الأحداث على بغداد في العصور اللّاحقة، ودخول المغول إليها سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ثمّ تيمورلنك سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م، أدّيا إلى خراب المزار المقدّس الذي لم يعرف ازدهاره ثانية إلّا بعد احتلال الصفويّين سنة ١٥٠٨م الذين أعادوا بناءه. ثمّ إنّ التعديلات التي أدخلها الشاه إسماعيل الأوّل أعطت المقام طابع عظمته الحاليّة، خصوصًا بقبّتيه ومآذنه الأربعة المذهّبة. كما عمد ممثّلو سلالة القاجار الفارسيّة إلى ترميمه في أواخر القرن التاسع عشر، وإضافة مزيد من البريق والعظمة عليه.

كاكويه (بنو-)، (٣٩٨-٤٤٣هـ/١٠٠٨-١٠٥١م)، سلالة حكمت إيران الغربيّة بعد زوال حكم البويهيّين،

وخضعت للسلاجقة الذين نشأت سلطتهم نتيجةً للغزوات التركيّة.

مؤسّس هذه السلالة هو علاء الدولة محمّد بن دشمنزيار الديلمي المعروف بابن كاكويه، أي «ابن الخال» (من هنا تسمية دولتهم)، لأنّ أباه كان خال الأمير البويهي حاكم الرّي ومنطقة الجبال. في العام ٣٩٨هـ/١٠٠٨م، أصبح ابن كاكويه حاكمًا على أصفهان، فأنشأ إمارة شبه مستقلّة اشتملت على همذان ومدن أخرى في المنطقة، فأفاد من موارد غنيّة، واستقطب في بلاطه فلاسفة وشعراء، من بينهم ابن سينا الشهير الذي تقلّد الوزارة في عهد ابن كاكويه واستمرّ بها إلى حين وفاته. وبعد خضوع حاكم البلاد لمحمود الغزنوي بدايةً في العام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، أسفر وصول الغزّ وامتداد سلطة طغرل بك السلجوقي إلى أصفهان، في العام ٤٤٣هـ/١٠٥١م، عن طرد أفراد أسرة كاكويه من المدينة باتّجاه همذان، ونهاوند، ويزد، وانضوائهم في النهاية في خدمة كبار سلاطين إيران.

علاء الدين محمّد بن دشمنزيار	(٤٣٣-٣٩٨هـ/١٠٠٨-١٠٤١م)
ذأبو منصور فرامُرز	(٤٣٣-٤٤٣هـ/١٠٤١-١٠٥١م)
أبو كاليجار كرشاب الأوّل	(٤٣٣-٤٤٠هـ/١٠٤١-١٠٤٨م)
أبو منصور علي	(؟-٤٨٨هـ/ ؟-١٠٩٥م)
أبو كاليجار كرشاسب الثاني	(٤٨٨-٥١٣هـ/١٠٩٥-١١١٩م)

كامباي (الاتّحاد الهندي)، وبالعربيّة كَنْبايا أو خَمْبايَت، ناحية ساحليّة في مقاطعة غُجرات، كانت في القرون الوسطى احدى المدن المرفئيّة الناشطة على الساحل الغربي للهند، عَبَرَ من خلالها الإسلام - الذي كان وصل إلى السند بطريق البر - إلى عمق البلاد.

عُرفت كامباي منذ بداية الحقبة العبّاسيّة بمؤسّساتها الإسلاميّة التي زارها المسعودي، وهو جغرافي عربي من القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد؛ كما كانت محطة لدعاة الدعوة الإسماعيليّة الذين يعود إليهم الفضل في ازدهار جماعة البُهْرَة في ما بعد في المنطقة.

وصارت كامباي، في فترة مبكّرة، مركزًا ناشطًا للحياة الإقتصاديّة. وذلك عائد إلى الأعمال الحِرَفيّة والأنشطة التجاريّة التي ساعدت على ازدهار التجارة البحريّة، إلى جانب الغنى الزراعي للمناطق الداخليّة في البلاد. وهذه البحبوحة القديمة، التي أشار إليها الرحّالة ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، استمرّت بعد غزو سلاطين دلهي للمدينة في ١٢٩٨م، وكذلك خلال الفترة التي أعقبت إيفاد سلاطين دلهي حكّامًا ما لبثوا أن تحوّلوا، في القرن الخامس عشر، إلى سلالة سلاطين غُجرات المستقلّين الذين واجهوا اضطرابات متفرّقة وطموحات الدول الإسلاميّة المجاورة. لكن، منذ بداية القرن السادس عشر، أضعفت غزوات البرتغاليّين - الراغبين في تجيير الملاحة والتجارة في المحيط الهندي لمصلحتهم - ازدهار المدينة التي أُلحقت بأمبراطوريّة المغول في العام ١٥٧٣م، إثر الحملات العسكريّة التي قام بها جلال الدين محمّد أكبر، وقد سبّب توحُّل الخليج منذ القرن السابع عشر تراجع أهمّيّة مرفإ المدينة في ما بعد.

◄ راجع المستندين ٣٠ و٣١.

كامل باشا (مصطفى)، (١٨٧٤-١٩٠٨)، محام وسياسي من أوائل المدافعين عن القوميّة المصريّة. بعد دراسته الحقوق في تولوز (فرنسا)، ركّز مصطفى كامل على معارضة السيطرة البريطانيّة على بلاده، وقد سعى لتأمين التطوّر الثقافي لمصر بمعزل عن الغرب. كان ذا توجّه ليبرالي، معتبرًا نفسه وريثًا لفكر عرابي باشا. أسّس جريدة «اللواء» وحزبًا سياسيًّا عُرف باسم «الحزب الوطني». وقد استمرّ تأثير هذا الحزب إلى ما بعد وفاة مؤسّسه.

الكامل (الملك)، ناصر الدين أبو المعالي محمد بن أحمد بن أيوب (٥٧٦-٦٣٦هـ/١١٨٠-١٢٣٨م)، هو ابن أخي صلاح الدين، تولّى عرش المملكة الأيّوبيّة المصريّة - السوريّة في العام ٦١٥هـ/١٢١٨م إلى حين وفاته، وأقام علاقات حسنة مع فريدريك الثاني هوهنشتاوفن.

ولد الكامل في العام ٥٧٦هـ/١١٨٠م، في أعالي بلاد ما بين النهرين، حيث كانت تقيم أسرته، وانتقل الى القاهرة، في العام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، برفقة والده الملك العادل؛ ثمّ ما لبث أن خلفه في الحكم في العام ٦١٥هـ/١٢١٨م، وحمل طموحاته نفسها كسلطان على

مصر وسوريا، رغم أنّه وجد صعوبة كبيرة، خلال فترة حكمه، في الحصول على اعتراف أمراء أسرته الأيوبيّة الآخرين الذين كانوا يتقاسمون السلطة في سوريا؛ في بسط سلطته على بلاد ما بين النهرين، وفي توطيد علاقاته بالفرنج.

وعندما اعتلى الكامل سدّة العرش، كان الفرنج قد استولوا على قلعة مدينة دمياط، ولم يتمكّن السلطان الجديد من منعهم من احتلال المدينة؛ غير أنّه نجح في تطويق قواتهم المتقدّمة على غير هدى والتي فوجئت بفيضان النيل، فانتهى الأمر باستسلامها، في العام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م. أُنقذت دمياط، رغم استمرار الخطر الداهم على مصر، فأعدّ الملك الكامل مشروع اتفاق مع الفرنج مقترحًا فيه التنازل لهم عن الأراضي التي استعادها صلاح الدين في فلسطين، في مقابل مغادرتهم دمياط. وإذا كان هذا الاقتراح قد لقي لدى نبلاء الفرنج ميلًا للقبول به، فإنّه ما عتّم أن رُفض بإصرار من قِبَل بيلاج (Pélage)، المبعوث البابوي، على الرغم من المرونة التي أبداها الملك الكامل. لكنّ هذا الأخير لم يتخلّ عن مشروع الاتفاق بعد تراجع الفرنج عن دمياط، لأنّه كان يخشى قدوم فريدريك الثاني، أمبراطور ألمانيا وملك صقلّية، إلى فلسطين؛ كما كان يسعى إلى التخلّص من ضغط الفرنج لكي يتفرّغ لمقاتلة أخيه الملك المعظّم صاحب دمشق، ومن ثمّ ابن أخيه الملك الناصر داود الذي ورث دمشق في العام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م. لذا سارع الملك الكامل إلى إرسال موفد إلى فريدريك الثاني، حينما علم بوصوله بحرًا الى عكّا، في أيلول ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م، ليعرض عليه اقتراحه مجدّدًا تجنّبًا للمواجهة المسلّحة.

وبعد إتمام المفاوضات، عُقدت إتّفاقيّة حيفا في شباط ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، فاستعاد الفرنج بموجبها جانبًا من المنطقة الساحليّة، كذلك الناصرة والقدس. وهكذا، استعاد المسيحيّون كنيسة القيامة، إلّا أنّه كان عليهم إحترام المقامات الإسلاميّة المقدّسة، وضمان حريّة الأهالي لزيارتها.

نتج عن هذه الإتفاقيّة الجريئة استياءٌ عام. إستاء الفرنج لأنّ الأراضي التابعة لبطريرك القدس لم تُسترجع بكاملها؛ واستاء المسلمون بسبب التنازل عن القدس. وألقى العديد من العلماء المسلمين بدمشق خطبًا ملتهبة أدانت سياسة الكامل. ومع ذلك، فقد تمكّن هذا الأخير، رغم المعارضة الداخليّة الشرسة، من بسط نفوذه على مملكة دمشق، وعزّز سلطته في بلاد ما بين النهرين العليا: فبعد انتصاراته الأولى، كان عليه أن يجرّد حملة ضد علاء الدين كيقباد الأوّل، سلطان سلاجقة الروم في الأناضول، الذي استولى على أخلاط، في العام ٦٣١هـ/ ١٢٣١م. ولم يمنعه شبه الاخفاق الذي مُني به في حملته على الشمال من تعزيز رقابته على حلب اذ أصبح، قبل وفاته في دمشق في سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، السيّد الفعليّ لمملكة الأيوبيّين المصريّة - السوريّة.

لم يترك الملك الكامل وراءه سوى ملوك ضعفاء عاجزين عن إطلاق مشاريع مماثلة لمشاريعه ومتابعة تحقيقها.

الكاميرون (جمهوريّة)، تبلغ مساحتها ٤٧٥٠٠٠ كلم[٢]، عاصمتها ياونده. وهي دولة حديثة مستقلّة تقع على الساحل الغربي لأفريقيا السوداء الإستوائيّة، تضمّ أقليّة مسلمة تقارب الـ١٥٪ من مجموع سكّان البلاد البالغ أحد عشر مليونًا.

ويتركّز المسلمون في هذه الجمهوريّة - التي كانت في الأصل، مستعمرة ألمانيّة ثمّ انتقلت الى الوصاية الفرنسيّة بعد ١٩١٦ في الشمال، في لسان أرض يلامس بحيرة تشاد، ويتجاور مع المناطق الإسلاميّة في جمهوريّة نيجيريا الفدراليّة وجمهوريّة التشاد، بحيث يتقاسم معهما حدودًا مشتركة.

كانم، مملكة إسلاميّة في أفريقيا السوداء الساحليّة في القرون الوسطى. امتدّت شهرتها الأسطوريّة حتّى أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حين نقل حكّامها سلالتهم إلى بورنو.

منذ زمن بعيد، عرفت هذه المملكة شهرة قامت على مراقبة حركة التجارة عبر الصحراء، وكانت حدودها تتجاوز كثيرًا حدود المنطقة شبه الصحراوية التي تشكّل حاليًّا مقاطعة في جمهوريّة تشاد والتي تحمل

الاسم عينه. كما تُجاور، من جهة الغرب، جمهوريّة النيجر.

ويقال إنّ البدو الرعاة في كانم اعتنقوا الإسلام منذ العصر الأموي، وإنّ شهرتها وصلت، في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، إلى الشرق الأدنى حيث توفّي أحد حكامها خلال رحلة حجّ إلى الديار المقدّسة. كما لفت إلى ثرائها، في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، توجيهها بعثة مهمّة إلى بلاط الحفصيّين في تونس وانشاؤها مدرسة مالكيّة في القاهرة.

إثر سقوط الدولة المملوكيّة في الشام ومصر، توقّفت العلاقات الدبلوماسيّة والتجاريّة التي كانت تربط كانم بالفلك المملوكي. ومن ثمّ أدّت الصراعات المحليّة إلى انهيار بلاد كانم، بسبب تعرّضها على الدوام، حتّى تثبيت الاحتلال الفرنسي بين العامين ١٩٠١ و١٩٠٥، إلى هجمات حكّام بورنو، وباجرمي ووَدّاي.

كانو (جمهوريّة نيجيريا)، مدينة في شمال البلاد، ما تزال الحياة الفكريّة والدينيّة الإسلاميّة ناشطة فيها، بعد أن عرفت انطلاقتها الأولى في القرن الخامس عشر للميلاد.

في ذلك الزمن، اعتنق حكام دولة كانو - التي كانت قائمة في بلاد الهوسا - الإسلام عقب صلات قديمة وغير معروفة تمامًا مع ممالك مالي وبورنو والصُنغاي بصورة خاصّة. وقد عرف هؤلاء الحكّام الإسلام بفعل الحركة التجاريّة النشطة عبر الصحراء وعلى امتداد خط سير القوافل، حيث كانت بلادهم تشكّل إحدى نقاط الوصول.

في خضمّ الصراعات العديدة التي عرفتها كانو، بدأت تظهر في العادات الإجتماعيّة، وبصورة خاصّة في مراسم الاحتفالات التي كان يعتمدها الحكام، بعض نتائج التأثّر التدريجي بالاسلام. تأثّرت البلاد في القرن السادس عشر بتعاليم الداعية البربري المغيلي. ثمّ ازداد هذا التأثّر في القرن التاسع عشر، مع اقامة امارة قُلبيّة أتت نتيجةً للجهاد في ظلّ دولة سوكوتو الجديدة والقويّة. ازداد في الوقت نفسه تأثير الطرائق الصوفيّة، وبصورة خاصة القادريّة والتيجانيّة، التي أثارت في العصر الحديث صراعات سياسيّة مختلفة، كما ساعدت الناس على تأكيد هويّتهم الإسلاميّة وقوميّتهم المحليّة في آن.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٢٩.

الكُبْرَويّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة تستمدّ إسمها من الصوفي نجم الدين كُبرى، وقد انتشرت في فروع عدّة، في الاوساط التركيّة-الإيرانيّة، إنطلاقًا من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد.

ولد الشيخ المؤسّس لهذه الحركة سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م في خوارزم، وتوفّي فيها سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م. وكان قد اتّبع نظامًا زهديًّا درّسه، في مصر، إيراني يُعرف باسم روزبهان المصري، المتوَفّى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، وكان من أتباع السُهْرَوَرْديّة. أسّس نجم الدين، في ما بعد، في بلده، خانقاه جمع فيها عددًا وفيرًا من التلاميذ، بينهم مجد الدين البغدادي الذي كان معلّم الشاعر الصّوفيّ الفارسي فريد الدين العطار. وقد مات المؤسّس حاملًا سلاحه في مواجهة الغزو المغولي، ثمّ نشر تلامذه مؤسّساتهم التي ازدهرت في العهد الإيلخاني، وقد زارها الرحّالة إبن بطّوطة سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م. والمعروف أنّ المغولي «بركة»، الذي أصبح زعيم «القبيلة الذهبيّة»، أعلن اعتناقه الإسلام في خانقاه سيف الدين الباخرزي في بُخارى. وقد دُفن كبرى في المقرّ الذي أسّسه، وأصبح قبره مزارًا لا يزال معروفًا في أطلال أورغِنْتش (الجرجانيّة)، بفضل الضريح الذي شُيّد فوقه.

إنتشرت فروع الكُبْرويّة في خراسان وفي شبه القارة الهنديّة، لا سيّما في كشمير، وأيضًا في العراق وخصوصًا في بغداد. وفي القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، اشتُهر السِمْنانيّ الذي أسّس مقرًّا في سمنان بإيران حيث توفّي سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م. وقد حارب أنواع التجديد واتّبع خطًّا تقليديًّا صارمًا في تفسير القرآن الكريم. وقد تحدّد هذا الخط لاحقًا باسم «وحدة الشهود»، وهو يعارض في الأساس آراء إبن العربي. لكنّ السمناني تبنّى، من جهة أخرى، ممارسة الذِكْر الذي يقود إلى الوَجْد، وهي ممارسة تأثّر فيها بتقنيات اليوغا التي كان قد اطلع عليها في شبابه، وهي تقنيات

يرفضها أهل السنّة. وفي مرحلة لاحقة تراجعت الكبراوية، في آسيا الوسطى، أمام النقشبندية، إبتداءً من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، ولم تعد تعرف، في الغرب والأناضول والدول العربيّة، سوى تقدّم بطيء.

الكتاب (أهل -) (gens du Livre)، مصطلح متداول للدلالة على غير المسلمين الذين لهم كتب دينيّة سابقة للقرآن الكريم.

استُخدمت تسمية «أهل الكتاب»، منذ الأيام الأولى للإسلام، للدلالة، بنوع خاص، على اليهود والمسيحيّين الذين كانوا يسكنون البلدان المفتوحة. ألحقت بهم مجموعات أخرى، بخاصة الزرادشتيّين، وكان على المجاهدين المسلمين ألّا يتعرّضوا لهم في حال تمّ عقد الصلح معهم. وقد استمرّت هذه الفئات جميعًا في البلدان الإسلاميّة في منزلة دنيا هي منزلة أهل الذمّة أو مؤدّي الجزية، يُقبل بهم، لكنّهم، في المبدأ، يُبعدون عن القيام بأي دور فاعل ضمن الجماعة الإسلاميّة التي كانت تؤمّن لهم الحماية، وكانوا يخضعون لأداء ضرائب مرهقة، وأحيانًا لابتزازات قاسية تبعًا للزمان والمكان.

الكِتاب (فنون-)، أعمال متعلّقة بصناعة وتزيين المجلّدات المخطوطة المتعدّدة، والفاخرة في أغلب الأحيان، وقد احتلّت مكانة مهمّة، عبر القرون، في البلدان الإسلاميّة وحقّقت إنجازات ذات نوعيّة عالية في التقنيّة والأسلوب.

نشأت هذه الأعمال، منذ عهد الخلفاء الأوّلين، نتيجة عامل ديني خاص بالمجتمع الإسلامي، هو ضرورة المحافظة على نصّ القرآن الكريم في حين كانت هناك محاولات لتنقيح النص الرسمي، مع أخذ بعض «القراءات» المختلفة المسموح بها في الإعتبار. وفيما كانت الأبحاث المعجميّة والنحويّة تسعى إلى كشف خصائص اللغة العربيّة، لغة الرسالة المحمديّة، كان الخطّ العربي المستخدم في تدوين هذه الرسالة موضوع تحسين وتجميل من الناحية الشكليّة، كما أنّ الاحترام الذي حظيت به، منذ البداية، صحائف الكتاب المقدّس، رافقه تحسين مستمرّ في طريقة عرضها.

استُخدمت لذلك لفائف، بل كرّاسات، سرعان ما تمّ جمعها وتجليدها من قبل الذين نسخوها وأعادوا نسخها مرّات عديدة. وقد تمّ اختيار الرَقّ في هذه المحاولات، إذ إنّ الأملس منه أمتن من البردي الذي كان يفضَّل استخدامه في المستندات الرسميّة. وقد سهّل الرقّ المحاولات الأولى لتحسين الخط. وقد أُضيفت زخارف في فواتح الصفحات وفي مواضع العناوين أو ضمن أشكال بيضويّة، كثيرًا ما كانت تشير الى علامة وقف، إن بالنسبة إلى المعنى أو بالنسبة الى التلاوة. كانت هذه زخارف تستقي تفاصيلها من الموروثات التزيينيّة في فن الزخرفة العربي والتشبيك الهندسي، ونجدها أيضًا في التوليفات المزيّنة للغلف. كانت أعمال الخطّاطين والمزخرفين الذين استهواهم الحبر الملوّن مع بعض الرسم والتذهيب تنبئ بظهور تقاليد مميّزة لفنّانين وضعوا، في ما بعد، معرفتهم ومهارتهم في خدمة إنتاج من نوع آخر، بعد أن غدت أذواق محبّي الكتب وطلبيّاتهم تتحكّم في الأنماط السائدة في مختلف المراكز الثقافيّة العائدة للعالم الإسلامي. وقد شهدت الحضارة الإسلاميّة بذلك، تلبيةً لطلبات رعاة الثقافة، وتجاوبًا مع حاجات تجارة مزدهرة، تنامي عدد الكتب وغناها الزخرفيّ. وغالبًا ما كانت أعمالها تُنفَّذ في مشاغل حرفيّة مزدهرة، لتباع في حوانيت الورّاقين أو تحفظ في المكتبات الخاصّة والعامّة. كان منظرها المُتقن يميّزها عن الكتب الموضوعة بخط مؤلّفيها أو التي نسخها البحّاثة الساعون الى العلوم، في حين كانت تزداد، على مر العصور، استقلاليّة الجمعيّات الحرفيّة المعنيّة بتنفيذ هذه التحف الفنيّة، سواء أكانت خاضعة لرقابة البلاطات الملكيّة - التي كانت، في هذه الحالة، تحتضن المشاغل وتحتفظ بنتاجها - أو قائمة قرب المساجد الكبرى والأسواق العامّة حيث تشكّلت، خلال القرون الوسطى، مجموعات من النسّاخ والرسّامين والمذهّبين والمجلّدين وغيرهم، الذين كانوا يتبادلون أسرار مهنتهم، إمّا عن طريق العلاقات التجاريّة، وإمّا عن طريق انتقال السكان من مكان إلى آخر بسبب الاضطرابات السياسيّة..

إن تاريخ فنون الكتاب ومظاهرها المتعدّدة التي تطوّرت عبر طرق وتقنيّات جرت محاولة تصنيفها، بشكل خاص، وفق مدارس أُسلوبيّة اتّسمت بسمات السلالات الحاكمة، أثار القليل من الملاحظات التي تأخذ في الاعتبار الطابع الفنّي للكتب، وفي الوقت نفسه، تأثير الضرورات الإقتصاديّة والتقنيّة الكامنة وراءها. ما تزال الدراسة العلميّة للنصوص القديمة تسعى لإيجاد الوسائل التي تسمح لها بتقويم التقنيّات المعتمدة في وضع هذه النصوص، في حين لم تنتهِ بعد الأعمال الأساسيّة لتصنيف المخطوطات القديمة المحفوظة في المكتبات الحاليّة. ناهيك من أنّ أنواع الخط المستخدمة لم تخضع قط لتحاليل أو لأوصاف منهجيّة تشمل مجموعات كافية من النماذج. أمّا دراسة الرسوم والمنمنمات التي تجمّل الكتب المغرقة في الفخامة فهي، أيضًا، لم تبلغ بعد الدقة المطلوبة، رغم قِدم الأبحاث الأولى التي تناولتها، مركّزةً على بعض الصور الرائعة التي فُصلت عن النص المكتوب، أو على بعض الشخصيّات العريقة الشهرة لدى رعاة الفنون من الأمراء، مثل بهزاد.

اهتم العلماء الأُوروبيّون بمجال هامشي ومحدود في ما يتعلّق بفنون الكتاب الإسلامي، وهو مجال الرسوم المجسّدة الخارجة على التقليد العام الذي كان يحظّرها، والمرافقة لبعض النصوص، وذلك في ما يختص حصرًا ببعض العصور وببعض المناطق. على الرغم من كون هذا المجال ينطوي على تحفٍ حقيقيّة؛ وعلى الرغم من أنّ دراسته أدّت إلى ظهور قوائم مفصّلة للمجموعات العامة أو الخاصة المحفوظة في الغرب، وفقًا لاهتمامات هواة الفنّ وتقويماتهم للأساليب، فإنّه مع ذلك لا يطال إلّا مجموعة محدودة من المنتجات المحليّة تتوزّع بصورة عامة على ثلاثة أبواب هي: «منمنات فارسيّة»، «منمنمات مغوليّة» و«منمنات عثمانيّة». من جهة أخرى، لم يُنظر إلى تلك الرسوم، من حيث مدلولها الواقعيّ، كونها جزءًا من مجموع الإنتاج الإسلامي للمخطوطات المزيّنة. إن اكتشاف الأساليب وتياراتها، وأحيانًا التعرف إلى أساتذة هذا الفن ومشاغلهم كانا كافيين لتوجيه الأبحاث، في وقت جرى التركيز فيه على الموضوعات الحاضرة أبدًا في رسوم البلاطات ومستلزماتها من اللباس، وعلى الدور الذي اضطلعت به ما نسمّيه «حضارة البلاط» في توجيه الفنون ورعايتها. بسبب ذلك فإنّ المعطيات المتنوّعة المتعلّقة بفنّ المنمنمات المُغرق في الخصوصيّة لا توضح، إلّا من بعيد، المشكلات التي يطرحها الكتاب الإسلامي نفسه، سواء كان قروسطيًا أو حديثًا، بصفته نموذجًا مزخرفًا اختاره المجتمع الذي انتجه وقَبِلَ به ففرض عليه؛ تحقيقًا لهذا الهدف، بعض العادات في الخط والزخرفة سرعان ما غدت مقنّنة.

الكُتَّاب، تعبير يشير إلى المدرسة الإبتدائيّة التي كان لها دورها الدائم في التعليم في بلاد الإسلام.

وكان الكُتّاب - الذي يُعرف في المغرب باسم «مُسِيد» (ربّما نسبةً إلى مسجد) - يؤمّن الثقافة الإسلاميّة الأساسيّة للمسلم، إذ كان الأولاد يتعلّمون، عبر النصوص القرآنيّة، الأصول الأولى للقراءة والكتابة، وقواعد اللغة، والحساب. وعلى الرغم من هذا الدور الأساسي، فإنّ معلوماتنا عن تاريخه هي أضعف من معلوماتنا عن تاريخ المدرسة التي كان لها، منذ البداية، مهمّات محدّدة. ومن المؤكّد أنّ الكُتّاب كان، في العصور الأولى، مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بالمسجد الجامع، ثمّ انفصل لاحقًا عنه ليستقرّ، كالمدرسة، في أماكن أخرى، على الأقلّ في الشرق حيث بدأت هذه العادة في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. وتنقصنا التفاصيل المتعلّقة بطبيعة الأبنية حيث كان الأولاد يجتمعون تحت أنظار من يسمّونه المدرّس، أو المعلّم، أو المؤدّب في البلدان العربيّة، و«خوجا» في تركيا، و«مكتب دار» في إيران، و«ملّم» أو «فْقيه» في بعض اللهجات العربيّة. كما كان الأولاد يكتبون عن طريق الإملاء، ليقرأوا بعد ذلك ما كتبوه بصوت عالٍ، أو ليحفظوا غيبًا ما كتبوه، ذلك أنّ الهمّ الأوّل كان تطوير الذاكرة. كما كانوا في الكتابة يستعملون ألواحًا صغيرة.

أمّا شكل بناء الكُتّاب وأقسامه وتنظيمه فقد كان يتغيّر بتغيّر العصور وتبدّل البلدان. ففي الأمبراطوريّة العثمانيّة كان الكُتّاب، في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، عبارة عن قاعة كبيرة ذات قبّة،

قريبة من المسجد وتابعة له، كما كان له أوقاف. أمّا الكتاتيب، في أماكن أخرى، فكانت بدائيّة جدًا. وابتداءً من القرن التاسع عشر عرف الكتّاب أوضاعًا جديدة، إذ واجه في بلدان مختلفة المدرسة الابتدائيّة التي اتّبعت النمط الغربي في التعليم؛ كما اضطرّ، في مناطق أخرى، إلى القبول بمراقبة الدولة. وهكذا عُيّن في مصر، سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٤٦، مفتّش للمدارس؛ وفي الدولة العثمانيّة أصبحت المؤسّسات من هذا النوع تابعة لوزارة التربية.

أمّا في عصرنا الحالي فقد تبدّل وضع الكتّاب: إذ أقفلت هذه المدارس في البلدان التي يشكّل فيها المسلمون أقليّة (الإتحاد السوفياتي سنة ١٩٢٨، يوغوسلافيا سنة ١٩٤٦)، كما أُقفلت في البلدان التي تبنّت نظامًا علمانيًا (تركيا سنة ١٩٢٦). وقد استمرّت قائمة في القسم الأكبر من البلدان الأخرى، لكنّها أُدخلت في إطار التنظيم المدرسي الوطني من دون أن تُمسّ الأهداف من وجودها. فأساس التعليم فيها يبقى، في غالبيّة الأحيان، دراسة القرآن الكريم ومبادئ الإسلام.

كُتامة، قبائل بربريّة من صنهاجة، كان لها دور فاعل خلال القرون الوسطى في المغرب الشرقي والأوسط حيث دافعت، بنوع خاصّ، عن القضيّة الفاطميّة.

بعد الموجة الأولى من اعتناق الإسلام التي تبعت الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة في أواخر القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، في أفريقيا، انتمى عدد من أبناء هذه القبيلة إلى العقيدة الإسماعيليّة، إبّان قدومهم إلى الجزيرة العربيّة لأداء فريضة الحجّ، ما جعلهم يقفون إلى جانب المهدي الفاطمي عُبيدالله. وقد اعتمد المهدي عليهم لنجاح دعوته: فساعدوه في حروبه ضد الأغالبة، كما شكّل أبناء هذه القبيلة قسمًا كبيرًا من قوّة الدولة الفاطميّة ومن جيشها، في المغرب كما في المشرق حيث انتقل بعضهم بعد استقرار الخلافة الجديدة في مصر. والذين ظلّوا في المغرب من الكتاميّين كانوا في أساس قيام الدولة الزيريّة والدولة الحمّاديّة وقد استمرّوا في صراعهم مع منافسيهم من القبائل البربريّة التابعة لزناتة. وفي مرحلة لاحقة تركوا الإنتماء إلى الشيعة ليعودوا إلى السنّة التقليديّة التي تسيطر حاليًا في تلك المناطق. وهم اليوم يقطنون شمال الجمهوريّة الجزائريّة حيث يستقرّ أحفادهم في أماكن جبليّة، بعدما ضعفت قوّتهم في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، تحت ضربات الهلاليّين وبفعل حملات الموحّدين. وهم يُصنّفون اليوم، مع قبائل الزُواوا، من العناصر البربريّة التي ما تزال تحافظ على أصالتها وفرادتها في منطقة القبائل.

كراتشي (جمهوريّة باكستان الإسلاميّة)، مدينة كبيرة حديثة ذات مرفأ، تقع على ضفاف نهر السند غربي دلتا الهندوس، وما تزال تُعتبر، إلى اليوم، أكبر مركز تجاري وصناعي في باكستان بعد أن أضحت عاصمة للبلاد منذ العام ١٩٤٧ وحتّى العام ١٩٦٠.

ازدهرت مدينة كراتشي، منذ القرن التاسع عشر، وحلّت مكان المدن القديمة، كديبل في القرون الوسطى، وثاتا إبتداءً من القرن السادس عشر، وهما مدينتان مطلّتان على بحر عُمان، شُهرتا بالبحيوحة بسبب حركة التجارة الناشطة آنذاك في هذا البحر. لكنّ التجمّع الجديد (كراتشي) استفاد، على وجه الخصوص، لانطلاقته، من قدوم الإنكليز الى البلاد في العام ١٨٣٤، حين اعتمد شارل نابييه (Napier) كراتشي مركزًا للإدارة العسكريّة والمدنيّة للمنطقة كلّها. لقد أدّى تجهيز مرفأ المدينة وإنجاز سكك الحديد التي تربطها بالبنجاب، في العام ١٨٧٨، إلى تزايد نمو كراتشي، حتّى وصل إلى حد الانفجار الديمغرافي الذي عرفته عاصمة الدولة الجديدة، بعد انقسام العام ١٩٤٧ وقيام صناعات مختلفة، بما فيها الصناعات النفطيّة. وقد استمرّ التضخّم السكّاني في كراتشي مترافقًا مع تنامي نشاطها إلى ما بعد انتقال العاصمة الى إسلام آباد.

◄ راجع المستند رقم ٣٥.

كراتشيفو - تشيركسّي، جمهوريّة فدراليّة، مساحتها ١٤٢٠٠ كلم² وعاصمتها تُشيركس. منطقة تتمتّع بالحكم الذاتي، أصبحت جمهوريّة في العام ١٩٩١، وهي ما تزال واحدةً من جمهوريّات روسيا الفدراليّة، يبلغ عدد سكّانها نصف مليون نسمة، نصفهم من المسلمين.

تُجاور هذه المقاطعة الجبليّة من القوقاز الشمالي - التي أصبحت جمهوريّة منذ فترة قريبة - منطقة كاباردينو - بلقاري ذات الأكثريّة الإسلاميّة، من جهة الغرب، ومنطقة أبخازيا من الجنوب الغربي، وهذه الأخيرة هي جزءٌ من جمهوريّة جورجيا الواقعة في ما وراء القوقاز. يتقدّم الإسلام في المنطقة بفعل اثنيّتين مختلفتين: الأتراك القراتشاي من جهة، والشركس من جهة أخرى. وقد اتّحدت هاتان الاثنيّتان، في العام ١٩٢٢، في اطار وحدة إداريّة، ثمّ انفصلتا في العام ١٩٢٦، ثمّ عادتا واتّحدتا من جديد في العام ١٩٥٧ بعد عودة القراتشاي من المنفى القسري الذي تعرّضوا له في العام ١٩٤٤.

الكرّاميّة، أتباع طائفة، نعرف عنها القليل، نشأت في العصور الإسلامية الأولى، ينتمي مؤسّسها، ابن كرّام من سجستان (المتوفى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، إلى المذهب الحنفي.

نشر ابن كرّام عقيدته الخاصة في منطقة خراسان الشرقيّة حيث واجه مشكلات عديدة مع الطاهريّين أمراء نيسابور، ثمّ انتقل إلى القدس وتابع نشر تعاليمه، محاطًا بأتباعه الذين كانوا يجتمعون في الخانقاه الخاصة به. كان لتعاليمه طابع صوفيّ وتقشّفي، حتّى قيل إنّه اسّس طريقة صوفيّة، وذلك قبل أن تُعرف مثل هذه الفكرة. لكن لابن كرّام مواقف دينيّة مميّزة حاول من خلالها، باعتماده صيغًا جديدة، أن يضعَ حدًّا للصراع القائم بين المعتزلة والنزعة التقليديّة في الإسلام من جهة، وبين الشيعة والسنّة من جهة أخرى.

لعبت الكرّاميّة دورًا مهمًّا في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد عندما رعاها الغزنويّون الأوائل. كما حصلت، في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، على دعم الغوريّين. ومن الصعب الحكم على أفكار إبن كرّام التي عُرفت، في الواقع، من خلال الإنتقادات التي وجّهها إليه خصومه، فضلًا عن صعوبة تقييم مدى تأثير الكرّاميّين على الناس، ولكن يبدو أنّه كان كبيرًا بسبب مثاليّة تقشّف أتباعه.

كربلاء (الجمهوريّة العراقيّة)، مدينة شيعيّة مقدّسة تقع على بعد مائة كيلومتر إلى الجنوب الغربي من بغداد، وهي تستمدّ شهرتها من وجود ضريح الحسين بن علي فيها، وقد شُيّد الضريح في الموقع الذي استشهد فيه هذا الإمام العلوي. ففي هذا المكان، القريب من نهر الفرات، لقي الحسين مصرعه في العام ٦١هـ/ ٦٨٠م، خلال معركة مع جيوش أمير المنطقة الأموي، الذي أرسل رأس الحسين إلى الخليفة، ودفن جسده في المكان الذي سقط فيه. تحوّل ضريح الحسين مزارًا للتقوى منذ القرنين الأوّل والثاني الهجريين. أزال الخليفة العبّاسي المتوكّل الضريح ليضع حدًّا للزيارات التقويّة. ولكن في ما بعد، شُيِّد مكانه بناءٌ ذو قبّة عُرف باسم مشهد الحسين، وقد ورد ذكره في نصوص مكتوبة في العام ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، ثمّ ما لبث أن اهتمّ به الأمير البويهي عضد الدولة، كما اهتمّ بمقامات شيعيّة أخرى.

زار كربلاء والنجف العديد من الحكّام، وبصورة خاصة السلطان السلجوقي ملكشاه في العام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، وكذلك قازان الايلخاني في العام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، واسماعيل الأوّل الصفويّ في العام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م، والسلطان العثماني سليمان القانوني في العام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م. ازدادت مظاهر التقوى في هذا المكان إلى أن أضحى إحدى العتبات الأكثر قدسيّة في تاريخ الاسلام الشيعي، وأحد المراكز الدينيّة حيث ازدهرت عقيدة الإماميّة الإثني عشريّة.

◄ راجع المستند رقم ٨.

الكُرج، كرجستان ← جورجيا.

كرك، كارك أو كراك، كلمة سريانيّة تعني «الحصن»، تظهر بالفرنسية بصيغة «Crac» أحيانًا، كانت تشير، في القرون الوسطى، إلى حصون شيّدها الفرنج في سوريا. سقطت هذه الحصون في أيدي المسلمين، الذين أدخلوها في نظامهم الدفاعي الخاص.

١ - **حصن الأكراد**، يقع في الجمهوريّة العربيّة السوريّة الحاليّة، ويُعرف باسم قلعة الحصن، وهو أهم نموذج لهذه الحصون. يقع حصن الأكراد في موقع إستراتيجي على قمّة جبليّة مشرفًا على خط المواصلات الذي يصل سهل طرابلس بالداخل، إلى ما بعد منخفض حمص. وقد حصّنه المسلمون في البداية وتنازعوا عليه

مع صليبيي الحملة الأولى بين العامين ٤٩٢-٤٩٤هـ/ ١٠٩٨-١١٠٠م، ليتحوّل، من ثمّ، إلى قلعة مهمّة تمثّل الفن الحربي الغربي.

تعزّزت إستحكامات الحصن عقب أعمال ترميم تلت الزلازل العديدة والعمليّات العسكرية والمتتالية التي استهدفته. ساهم هذا الحصن - الذي استُعيد في العام ١٢٧١، خلال حملة ظافرة قادها إلى المنطقة السلطان بيبرس الأوّل، الحاكم الجديد لدولة المماليك السوريّة - المصريّة - منذ ذلك الحين، في حماية سوريا المملوكيّة، ثمّ ما لبث أن فقد أهميّته، لكنّه احتفظ بقيمته الأثريّة القائمة إلى الآن.

٢ - إلى الجنوب، وإلى ما بعد منخفض البحر الميت، في أراضي المملكة الأردنيّة الهاشميّة الحاليّة، شيّد بودوان الأوّل في أدوم، سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م، كرك مونتريال. قد عُرف، بعد استيلاء صلاح الدين عليه في العام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، إثر انتصاره في حطّين، باسم حصن الشوبك الإسلامي، ولم يبقَ منه سوى بعض الآثار في المنطقة الجبليّة الجنوبيّة من الهضبة.

إنّ موقع هذا الحصن، الذي اختير منذ زمن طويل للتحكّم بحركة التجارة الإسلاميّة عبر «طريق الصحراء» التي تربط سوريا بمصر من جهة، وبالجزيرة العربيّة من جهة أخرى، أو لإعاقتها - وهذا ما يجعل مسار القوافل هذا طريقًا للحجّ إلى المناطق المقدّسة في الحجاز انطلاقًا من سوريا - سمح لهذه القلعة الفرنجيّة أن تؤدّي دورها خلال القرن الأوّل من الحروب الصليبية. بيد أنّ أهميّة الحصن ضعفت بعد وقوعه في قبضة المسلمين، بالرغم من أنّ الأيوبيّين والمماليك جعلوا منه لبعض الوقت إحدى قواعد سلطتهم.

٣ - حوالى العام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م، شيّد سيّد حصن الشوبك الفرنجي، ودائمًا داخل الأراضي الأردنيّة، في مكان مدينة الكرك الصغيرة الحاليّة، حصنا جعله مقرًّا له، عُرف باسم «كراك دي مؤاب» (Krac de Moab) أو الكرك، حملت المنطقة التي أقيم فيها اسمه، وكان يدعى أيضا «بيترا ديزرتي» (Petra Deserti)، وهو في موقع طبيعي يسهل الدفاع عنه، على نتوء صخري منفصل عن القمم المجاورة وفّر الحلول لقرية صغيرة تعود إلى العصور القديمة، أصبحت في ما بعد بيزنطيّة. وهو يطلّ على البحر الميت من جهة وعلى «طريق الصحراء» من جهة ثانية.

سخّر الفنّ الحربي الأوروبي لبناء الحصن كل ما لديه من براعة، حتى برز بمظهر أكثر تطوّرًا عمّا هي الحال في حصن الجنوب. استطاع هذا الحصن الجديد، الذي سمح لفرنج الأراضي المقدّسة بمراقبة طريق الحجّ والذي مثّل منطلقًا لمبادرات رينو دي شاتيون (Renaud de Châtillon) الحربيّة، أن يصمد إبّان حصار نور الدين وصلاح الدين له، واستمرّ كذلك حتّى استسلام حاميته أخيرا بسبب المجاعة في العام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، بعد عام واحد على معركة حطّين.

أصبح حصن الكرك من أهم القلاع الإسلاميّة، واستُخدم في ما بعد في الحروب الداخليّة التي نشبت بين الأمراء الأيوبيّين والقادة المماليك المتنافسين على السلطة. بقيت أسوار الحصن، حتّى بعد احتلال العثمانيّين لسوريا ومصر، تؤمّن الحماية للمركز الرئيسي للمنطقة، ولم تُدمَّر إلّا جزئيًّا، في العام ١٨٤٠، على يد ابراهيم باشا المصري. وفي الوقت عينه فإنّ الإضافات المتتالية، التي نتجت عن أعمال الترميم التي أصابت الحصن، ساهمت في محو الآثار الإسلاميّة والفرنجيّة الأكثر قدمًا والعائدة الى القرون الوسطى.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

كركان ← جرجان.

كركوك (الجمهوريّة العراقيّة)، مدينة في بلاد ما بين النهرين العليا، عُرف اسمها في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، وهي في منطقة غالبيّة سكّانها من الأكراد.

كانت المحلّة موجودة في العصور القديمة، لكنّ الجغرافيّين العرب قلّما أشاروا إليها. وكانت قد فقدت أهميّتها في القرون الوسطى، وارتبط مصيرها بمصير الموصل، إذ احتلّتها جيوش الآق قيونلو بعد غزوة المغول، ثم دخلها الصفويّون. ولما تبيّنت أهميّتها الإستراتيجيّة، تحوّلت إلى ساحة صراع بين الصفويّين والعثمانيّين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وفي سنة ١٧٤٦م ضمّ العثمانيّون كركوك إلى أمبراطوريّتهم، فبقيت خاضعة لهم حتّى الحرب العالميّة الأولى. وعلى الرغم من مطالبة الجمهوريّة التركيّة بها، أُلحقت كركوك بالعراق بناءً على قرار أصدره مجلس عصبة الأمم سنة ١٩٢٤.

وكركوك التي يسكنها خليط من الأكراد والأتراك والعرب تحوّلت، بعد سنة ١٩٢٥، إلى مركز تجاريّ ناشط، أغناه وجودها داخل حقل بترولي مرّ استثمارُه، في القرن العشرين، في أوضاع صعبة. فالأحداث السياسيّة المتتالية التي رافقت تطوّر الدولة العراقيّة أدّت إلى ردّات فعل عنيفة، وصولاً إلى المرحلة الحاليّة المضطربة.

كِرمان، مقاطعة في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، كانت في القرون الوسطى معروفة بهذا الاسم الذي تحمله أيضًا عاصمتها. وبفضل موقعها على الأطراف، تمتّعت داخل إيران بشبه استقلال ذاتي.

إنّ منطقة كِرمان – التي تجتازها سلسلة جبال عالية – تقع بين فارس ومُكران والمحيط الهندي والصحراء الكبرى، وفي داخلها فسحات قليلة مسكونة وصالحة للزراعة، وسط مساحات صحراوية واسعة، جعلتها هذه الأحوال الطبيعيّة الصعبة في عزلة نسبيّة وحوّلتها إلى ملجأ للمتمرّدين والمنشقّين. مع ذلك فإنّ طريق المواصلات التي تربط فارس والعراق بسجستان والهند كانت تمرّ بها، وكذلك طريق القوافل التجاريّة التي تصل خراسان بالخليج العربي الفارسي. وقد عرفت تلك الطرق تبدّلاً وتغيّرًا في مسارها عبر العصور، ومع التبدّل كانت مصائر حواضرها الرئيسة تتبدّل ايضًا، ومنها زَرَنْد، وسيرجان التي كانت من قبل العاصمة، وبَرْدَشير التي أصبحت في ما بعد كرمان، وبَمْ، وجيرُفت ومرفأ هُرمز أو بندر عبّاس.

أمّا احتلال البلاد من قبل الجيوش العربيّة – الإسلاميّة، خلال الفتوحات الكبرى، فقد تمّ بشكل بطيء، وكان التدخّل الأوّل سنة ١٧هـ/٦٣٨م. وفي العصر الأموي كانت كرمان ملجأ الخوارج بين سنتي ٦٨ و٨٠هـ/٦٨٧ و٦٩٩م، ثمّ لجأ إليها إبن الأشعث بين سنتي ٨٣ و٨٥هـ/٧٠١ و٧٠٣م، بعد ثورته على الحجّاج[٩٥] والأمويّين. في العهد العبّاسي استقرّ فيها الصفّاري يعقوب بن الليث في حدود سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م. ثمّ تنازع مقاطعة كرمان كلّ من السامانيّين والبويهيّين، وحتّى الغزنويّين. وبعد الغزوات التركيّة الأولى في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، استولى عليها سلاجقة كرمان وازدهرت معهم مدّة مئة وخمسين سنة، ثمّ حلّ بها الخراب على أيدي عصابات جديدة تنتمي، هي أيضًا، إلى الغُزّ. وبرغم جهود الحكّام المحلّيين، فإنّ الاضطرابات المتنوّعة تلاحقت في منطقة ضعيفة كان أسياد فارس يبسطون عليها سلطتهم من بعيد، ويغضّون النظر عن النزاع بين قادتهم العسكريّين وولاتهم للسيطرة الفعليّة عليها. فالايلخانيّون، والمظفّريّون، والتيموريّون، والصفويّون، والزنديّون، والقاجار، قلّما حاولوا إرساء الأمن الذي كان وحده كفيلاً بأن يوفّر لكرمان، قبل العصر الحالي، الأسباب الضروريّة لازدهارها.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣ و٢٤.

كرمانشاه ← الجبال.

الكِرماني، حميد الدين أحمد بن عبدالله (؟-٤١١هـ/؟-١٠٢١م)، أحد مروّجي الدعوة الفاطميّة، وصاحب مصنّفات حول الشيعة الإسماعيليّة.

ولد في مقاطعة كِرمان في إيران، ومكث سنوات عدّة في هذا البلد أو في العراق، يعمل على نشر الدعوة الفاطميّة. وفي مطلع القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، انتقل إلى القاهرة حيث الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. فتسنّى له أن يعلن موقفه من ادّعاءات هذا الخليفة بالألوهيّة، وكتب رسالةً سنة ٤٠٤هـ/١٠١٥م أظهر فيها تعارض هذا الإدّعاء مع عقيدة سموّ الله وَوِحْدانيّته. ولدى عودته إلى العراق وضع كتابًا بعنوان «راحة العقل»، وفيه يعرض مجمل العقيدة الإسماعيليّة ويُظهر تأثير الفلسفة فيها، ذلك أنّه يجعل خلق العالم فيضًا من العقل الكلّي.

الكِرْميانيّون أو بنو كِرْميان أغلّلري، ٦٣٦-٨٣١هـ/١٢٣٩-١٤٢٨م، سلالة من البكوات التركمان من عهد الإمارات، حكمت مقاطعات واسعة من الأناضول الغربي حول كوتاهية.

في هذه المدينة التي أصبحت عاصمة البلاد، أقامت أسرة كِرْميان، حوالي نهاية القرن الثالث عشر للميلاد، حكمًا شبه مستقلّ انعتق لاحقًا من وصاية الإيلخانيّين ومن وصاية آخر سلاطين سلاجقة الروم، وشمل الجزء الأكبر من فريجيا (Phrygie) القديمة. هذه الدولة الواسعة الأرجاء والمزدهرة، المتصلة بأنشطة تجاريّة بمرافئ بحر إيجه، فقدت في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي موقعها المميّز، ووجدت نفسها منفصلة عن الشاطئ بوجود إمارات يحكمها من كانوا سابقًا تابعين لها من الصاروخانيّين والأيدينيّين. واصطدم الكرميانيّون، في الفترة عينها، شمالًا وجنوبًا، بجيرانهم الأقوياء من عثمانيّين وقرامانيّين، إلى أن استولى على أراضيهم السلطان العثماني بايزيد الأوّل يِلْدِرِم.

واغتنم أحد أمرائهم فرصة ثانية، وهو يعقوب الثاني، عندما أعاد إليه تيمورلنك، بعد معركة أنقرة، في العام ١٤٠٢م، بعض الأراضي، وقد استطاع يعقوب، بفضل تحالفه مع العثمانيين، أن يدافع عنها ضد أطماع القرامانيّين وأن يحتفظ بها تحت حكم محمّد الأوّل ومراد الثاني. وبوفاة يعقوب الثاني في العام ١٤٢٨م، استعاد العثمانيّون الإمارة التي تركها لهم آخر الكِرْميانيين إرثًا، وقد خلّد يعقوب الثاني ذكراه، راعيًا للآداب والفنون وعلّامة ومحبًّا للجاه، فبنى في كوتاهية، على طراز المباني العثمانيّة في بورصة، مجمّعًا من الأضرحة يحيط بمقام ضريحه، مضافًا إلى مساجد ومدارس كان الكِرْميانيّون قد شيّدوها من قبل في المدينة؛ وهي تأخذ في بعض أسلوبها التقليد السلجوقيّ.

◀ راجع المستند رقم ٢٢.

كريت (إقْريطِش بالعربيّة)، جزيرة تقع في حوض البحر المتوسط الشرقي، تشكّل اليوم جزءًا من اليونان. خضعت هذه الجزيرة للحكم الإسلامي على فترتين، بين سنتي ٢١٢ و٣٥٠هـ/ ٨٢٧ و٩٦١م، وبين ١٦٦٩ و١٨٩٨م، إذ كانت ملحقة بالأمبراطوريّة العثمانيّة.

كانت مسرحًا لهجمات عربيّة - إسلاميّة متعدّدة منذ الحقبة الأمويّة وبدايات الحكم العبّاسي. أُلحقت بالعالم الإسلامي في بداية القرن التاسع الميلادي على أيدي مجموعة قراصنة أتوا من الأندلس؛ بعد أن اضطرّوا للهرب من قُرطبة إثر ثورة الرَّبَض في سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٨م. وقد استقرّ هؤلاء المنفيّون في البدء في الإسكندريّة حيث أسّسوا جمهوريّة صغيرة مستقلة ذاتيًا بين ٢٠٠ و٢١٢هـ/ ٨١٦ و٨٢٧م. وبعد أن طردهم الحاكم العبّاسي الجديد، استقرّوا في إقريطش التي كانوا عرفوها سابقًا، فسيطروا على مدن عدّة، وأسّسوا مدينة في المكان الذي نزلوا فيه إلى البرّ أطلقوا عليها اسم شندق، التي صارت في ما بعد كندي، تيمّنًا بالخندق الذي حفره هؤلاء المنفيون للدفاع عن أنفسهم. ونشأت آنذ إمارة مستقلّة اعترفت مع ذلك بسيادة الخليفة العبّاسي عليها، وقامت بهجمات متكرّرة على الأراضي البيزنطيّة، بخاصة في بحر إيجه، إلى أن تمكّن نيقفورس فوكاس من دحرها سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١ بفضل أُسطول وجيش كبيرين.

وبعد سبعة قرون على ذلك، تمكّن السلاطين العثمانيّون، بعد هجمات عدّة فاشلة، من استعادة كريت في عام ١٦٩٩م من أيدي البنادقة الذين كانوا أسيادها آنذاك، فجعلوا منها ولاية تحت إدارتهم المباشرة ووطّنوا فيها أتراكًا من الأناضول، ما عدّل في تركيبتها السكّانيّة نتيجة إدخال هذه الأقليّة الإسلاميّة الكبيرة. لكنّ ذلك لم يَحُل دون استمرار الإضطرابات في الجزيرة. وفي القرن التاسع عشر، إثر الثورات التي انفجرت تباعًا بعد حرب استقلال اليونان في ١٨٢١، حصلت كريت، في مرحلة أولى، على استقلال ذاتي في العام ١٨٩٧، وأُلحقت في ما بعد باليونان في العام ١٩١٢. وفي الفترة الممتدّة ما بين ١٩١٢ ومعاهدة لوزان في العام ١٩٢٣، غادر الجزيرة معظم سكّانها الأتراك.

◀ راجع المستندات ٨، ٢٠ و٢٥.

الكِسائي، أبو الحسن علي بن حمزة (١١٩-١٨٩هـ/ ٧٣٧-٨٠٥م)، لغوي عربي عاش في العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة.

ينتسب الكسائي إلى أسرة من الموالي الإيرانيّين، كانت تسكن إحدى ضواحي بغداد. وقد درس في الكوفة ثمّ في البصرة، قبل أن يصبح أحد مؤسّسي مدرسة الكوفة اللغويّة التي اهتمّت، على الأخصّ،

بالصيَغ اللغوية الشاذّة. كما أكبّ الكسائي على دراسة القرآن الكريم، واعتُبر صاحب «قراءة» اعتُرف بصحّتها وغدت واحدة من القراءات السبع. وكانت له علاقات طيّبة بخلفاء بغداد ومن يحيط بهم، وعمل مربّيًا لهارون الرشيد ثمّ لولديه الأمين والمأمون، وقد جعله الرشيد بين المقرّبين واصطحبه إلى الحجّ. مات الكسائي في الريّ في إيران، تاركًا مؤلّفات عدّة ضاعت؛ كما يُنسب إليه، عن غير حقّ، كتاب «قصص الأنبياء».

كُسَار الكبير (المملكة المغربيّة)، في العربيّة الفصحى القصر الكبير: مدينة تقع في القسم الشمالي من المغرب، بلغت أهميّتها القصوى في عهد الموحّدين.

في أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، عند وصول الموحّدين إلى قمّة عظمتهم، إهتمّ أبو يوسف يعقوب المنصور - الذي اشتهر بإنجازاته العمرانيّة، كما بحملاته العسكريّة ضدّ الأندلس - ببناء سور حول هذا الموقع الإستراتيجي الذي يقع على الطريق المؤدّي إلى المضيق، وإلى مرفإ إبحار الجيوش نحو الأندلس، وكان هذا المرفأ يُعرف باسم «القصر الصغير». إنّ الشهرة التي أعطاها السور الجديد للقلعة وللمحلّة تظهر في الإسم الذي أُطلق عليها، أي «القصر الكبير». كان لهذه المدينة أهميّتها أيضًا عند المرينيّين الذين بنوا فيها مدرسة. وقد أثبتت قيمتها كمركز حربي منيع في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، بمقاومتها هجمات البرتغاليّين. كما أثبتت دورها كمركز متقدّم للجهاد ضدّ المراكز الأجنبيّة المتواجدة على الساحل المغربي. تحوّلت «كسار الكبير» لاحقًا إلى عاصمة بسيطة لمقاطعة، ولكنّها تحتفظ بمعالم أثريّة تشير إلى دورها في القرون الوسطى.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

كَسْتامونو (الجمهوريّة التركيّة)، عُرفت قديمًا باسم كَسْتاموني؛ مدينة تقع شمال الأناضول قريبًا من البحر الأسود، كانت عاصمة المناطق البنطيّة التي شملها بعد ذلك الإسلام.

إنّ قلعتها هي التي أعطتها قيمتها الإستراتيجيّة. وعلى الرغم من ذلك، فقد دخلتها القوّات التركيّة السلجوقيّة مباشرة بعد معركة مانتزيكرت (٤٦٤هـ/١٠٧١م). وقد عرفت مدينة كستاموني البيزنطيّة، خلال المرحلة التي تمتدّ من هذا التاريخ حتّى إلحاقها نهائيًّا بالدولة العثمانيّة سنة ٨٦٥هـ/١٤٦١م، تاريخًا يكتنفه بعض الغموض. والواقع أنّها تحوّلت مركزًا لعدد من السلالات الصغيرة المحليّة، ثمّ تنازعها الأتراك والبيزنطيّون، وانتقلت بعد ذلك من سلطة الدانشمنديّين إلى سلطة سلاجقة الروم، فإلى الإيلخانيّين، قبل أن تصبح، في القرنين الثامن والتاسع الهجريّين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديّين، عاصمة إمارة التركمان الاسفنديارّيين. وإلى هذه المرحلة المضطربة يرقى قيام أهم الأبنية التي ارتفعت في مدينة مزدهرة، وصفها لنا الرحّالة العربي ابن بطوطة. وقد فقدت كستامونو بعد ذلك الكثير من نشاطها التجاري ولم يكن لها دور مهمّ في العصر العثماني، بحكم بُعدها عن طرق القوافل وعن الطريق التي كانت تنطلق من سكوتاري (أسْكودار) باتّجاه المقاطعات الشرقيّة. والتراجع الذي جاء قويًّا في القرن التاسع عشر، لم يتوقّف إلّا مع الإصلاح السياسي والاقتصادي الذي شهدته تركيا عقب الحرب العالميّة الأولى.

كشمير، مقاطعة جبليّة في شمال الهند، أُدخلت في دار الإسلام. وعلى الرغم من أنّ الأكثريّة الساحقة من سكّانها هم مسلمون، فهي ما تزال حتّى اليوم مقسّمة بشكل غير متساوٍ بين باكستان والاتّحاد الهندي اللذين يسيطران، كلّ بدوره، على قطاع من كشمير.

ظلّت سريناغار (Srinagar) لفترة طويلة عاصمة لهذه المقاطعة الواقعة في الجزء الغربي من جبال هملايا، التي تتميّز بخصوصيّات جغرافيّة وإتنيّة تُفسّر، الى حدّ ما، فرادتها الثقافيّة. إنّ الأثر الذي خلّفته الفتوحات الكبرى والاحتلال العربي-الإسلامي الأوّل للسند والبنجاب لاحقًا، كان ضعيفًا في هذه المقاطعة. ورغم عدم استهدافها، في القرن الحادي عشر الميلادي، بحملات محمود الغزنوي العسكريّة، فإنّها، في مقابل ذلك، خضعت للتأثير المتنامي الذي مارسه على أمرائها، في أواخر القرن الثامن للهجرة/الرابع

عشر للميلاد، صوفيّون ينتمون إلى طرائق صوفيّة مثل السُّهروردية، ولا سيّما الكبروية.

شكّل وصول صوفي ذائع الصيت هو السيد علي همذاني المنتمي الى الطريقة الكبروية في سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، بداية الأسلمة الفعلية للبلاد على عهد السلطان شهاب الدين وخلفائه. حتّى إنّ تذبذب السياسة الطائفيّة لبعض الملوك المسلمين في القرن الخامس عشر مثل سِكَنْدَر الذي اتّبع سياسة الشدّة تجاه غير المسلمين، وزين العابدين الذي اتّبع تجاههم سياسة اللين والتسامح، شجّع النمو المستمر للإيمان الإسلامي في كشمير. لكن هذا التذبذب احتوى، من جهة أخرى، بذور الشقاق الذي تفاقم منذ ذلك الحين بين مؤيّدي التيار السني ومؤيّدي التيار الشيعي المرتبط بالطرائق الصوفيّة.

مهما يكن من أمر، اتّسم المناخ الديني في ممارساته الشعائريّة بالحفاظ على طقوس هندوسيّة عدّة ذات أُصول محليّة، ولم يلحق بهذا الوضع أيّ تغيّر ملموس مطلقًا خلال حقبة سيطرة المغول. فهؤلاء أيضًا ظلّوا يترجّحون ما بين التوفيق الديني-المذهبيّ والتطبيق المتشدّد للشريعة، تبعًا لخيارات هذا أو ذاك من السلاطين. وقد أدّى ضمّ كشمير نهائيًّا إلى ممتلكاتهم، في فترة حكم جلال الدين أكبر سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م، إلى نتائج إقتصاديّة بشكل خاص، تعود الى السلام النسبي الذي عرفته هذه الأراضي التي ارتبطت، رغم حرمانها استقلالها القديم، بأمبراطوريّة واسعة الأرجاء. وهكذا، رغم زوال سلطة السلاطين المحلّيّين الذين يعود إليهم الفضل في ازدهار نهضة حِرَفية معماريّة - تشهد عليها مساجد استُعملت فيها بنوع خاص الإمكانات التقنيّة والفنية التي يؤمنها الخشب -، فإن إنجازات جديدة أدّت إلى ازدهار حقيقي للزراعة والصناعة والتجارة. إذّ نمو صناعة الورق والنسيج أوصل شهرة المنطقة إلى الغرب حيث عُرفت بجودة شالاتها مثلًا؛ وفي الوقت نفسه، تكاثرت القصور والمنازل الصيفيّة المعدّة لإقامة مختلف أفراد العائلة المغولية كأكبر وجهانغير اللذين كانا يقصدان المنطقة للتمتع بالبرودة والطراوة في أعاليها.

بعد وقوعها، في سنة ١١٦٥هـ/ ١٧٥٢م، في قبضة الملوك الأفغان من سلالة دُرّاني، عانت كشمير فترة من الاضطهاد الديني والضغط الضريبي، حصلت خلالها تحوّلات سياسيّة لم تُفد منها إلّا قليلًا: غزاها، في سنة ١٨١٩م، رنجيت سِنغ عاهل البنجاب، وهو من طائفة السيخ، وقد هزمه البريطانيّون سنة ١٨٤٦م، وولّوا مكانه سلالة دوغراس الهنديّة من جامو، وكانت ضعيفة الميل لمراعاة جانب رعاياها المسلمين. تبلورت بنجاح حينئذٍ في البلاد، حركات سياسيّة راح نشاطها يتزايد؛ بما يستجيب لمطالب المنظّرين المسلمين الجدد وأحلامهم بالاستقلال. وقد استند هؤلاء إلى الحركات القوميّة الشعبيّة للدعوة إلى قيام دولة پاكستان، وكانوا قد أسّسوا في كشمير، في العام ١٩٣٢، المؤتمر الإسلامي الذي تحوّل سريعًا الى مؤتمر وطني. ومع تقسيم البلاد سنة ١٩٤٧م، لم تستطع جهود هؤلاء الحؤول دون إلحاق هذه المنطقة ذات الأكثريّة الإسلاميّة بالاتّحاد الهندي في تشرين الأوّل من تلك السنة، نتيجة مخاوف الأمير هري سِنغ ومماطلاته. وانتهت الحرب التي اندلعت بين الهند وپاكستان في العام ١٩٤٩ إلى تقسيم كشمير منطقتين، لكلّ منهما حكومة محليّة. إحدى هاتين المنطقتين بقيت تحت السلطة الهنديّة وأُلحقت في ما بعد بالاتّحاد الهندي بموجب دستور ١٩٥٦، بينما بقيت المنطقة الأخرى تحت رقابة پاكستانيّة. وهذا التقسيم، الذي هو اليوم جزء من الواقع الاجتماعي - الديني - رغم أنّه اعتُبر في البدء إجراءً موقتًا يشكّل أحد عناصر الصراعات الكامنة التي ما تزال ترمي بثقلها على العلاقات بين الهند وپاكستان.

سلاطين كشمير ١٣٤٦ - ١٥٨٩

شمس الدين شاه ميرزا سواتي	١٣٤٦ - ١٣٤٩م
جمْشيد	١٣٤٩ - ١٣٥٠م
علاء الدين علي شير	١٣٥٠ - ١٣٥٩م
شهاب الدين شيراشامك	١٣٥٩ - ١٣٧٨م
قطب الدين هنْدال	١٣٧٨ - ١٣٩٤م
سِكنْدر بُت شكَن	١٣٩٤ - ١٤١٦م
علي ميرزا خان	١٤١٦ - ١٤٢٠م
زين العابدين شاهي خان	١٤٢٠ - ١٤٧٠
حيدر شاه حاجي خان	١٤٧٠ - ١٤٧١
حسن	١٤٧١ - ١٤٨٩

محمّد	١٤٩٩ ١٤٩٠ - ١٩٨٩
	١٥٣٣-١٥٢٩ و١٥٢٦-١٥٠٠
فتح شاه	١٥٠٠-١٤٩٩ و١٤٩٨-١٤٩٠
إبراهيم الأول	١٥٢٧-١٥٢٦
نازك	١٥٥٢ ١٥٥١ و١٥٤٠ و١٥٢٩-١٥٢٧
شمس الدين	١٥٤٠ ١٥٣٣
إبراهيم الثاني	١٥٥٥-١٥٥٢
اسماعيل	١٥٥٧-١٥٥٥
حبيب	١٥٦١-١٥٥٧
غازي خان بن چك	١٥٦٣-١٥٦١
نصر الدين حسين	١٥٦٩-١٥٦٣
ظهير الدين علي	١٥٧٩ ١٥٦٩
نصر الدين يوسف	١٥٨٦ - ١٥٧٩
يعقوب	١٥٨٩-١٥٨٦

◄ راجع المستندات، ١٢، ٣٢، ٣٤ و٣٥.

كعب الأحبار (؟ - ٣٢هـ/ ؟ - ٦٥٢م)، يهوديّ من اليمن اعتنق الاسلام، يُنسب إليه مجمل التراث اليهوديّ - المسيحيّ الذي نقله المؤلّفون المسلمون والمعروف بالإسرائيليّات.

وصل إلى المدينة إبّان حكم الخليفة عمر بن الخطّاب، وربّما رافق هذا الأخير الى القدس في العام ١٧هـ/ ٦٣٨م، واعتنق الاسلام بعيد ذلك. دافع عن الخليفة الثالث عثمان بن عفّان الذي مات مقتولاً. دعاه معاوية إلى دمشق، فرفض دعوته، وذهب إلى حمص حيث تُوفّي في العام ٣٢هـ/ ٦٥٢م. عُرف باطّلاعه الواسع على التوراة، وبأنّه مصدر العديد من الروايات التي ظهرت في التراث الإسلامي لتوضيح قصص بعض شخصيّات العهد القديم الذين اعتبرهم القرآن أنبياء.

كعب بن زهير، شاعر عربي معاصر للنبيّ ﷺ، وربّما كان له شرف الحصول على عباءته.

بعد أن رفض اعتناق الإسلام ونظّم قصائد هجائيّة في النبيّ ﷺ، قرّر الإستجابة لدعوته. نظّم عندها قصيدة عنوانها «بانت سعاد» طلب فيها العفو من النبيّ محمّد ﷺ وخصّه بقصيدة مديح شمل فيها قبيلة قريش.

أثارت هذه القصيدة إعجاب النبيّ ﷺ، وقيل إنّه وهب كعبًا عباءته المعروفة بـ«البُردة»، والتي حملت القصيدة اسمها. وأُطلق اسم البردة لاحقًا على عمل أكثر شهرة من تأليف شاعر آخر، ويدعى البُوصيري.

الكعبة، بناء شُيّد في مكّة قبل الإسلام، يشكّل القطب الديني الذي يتّجه نحوه جميع المسلمين في أثناء الصلاة، ويتوجّهون إليه خلال فريضة الحجّ بشكليها الحجّ والعمرة. ويقع هذا البناء - الذي يشار إليه بالعربيّة باسم «بيت الله» - وسط الأماكن المقدّسة في الإسلام والمتمثّلة، في مكّة، بأرض مقدّسة أو الحرم، وبسهل عرفة.

تشير آيات قرآنيّة عدّة إلى ما تتمتّع به الكعبة من احترام. فقد تحوّلت من مزار كان المشركون يقصدونه، ومصدر ثروة لأهاليها، إلى مكان دعا النبيّ محمّد (ﷺ) لقيام شعائر الدين الجديد فيه، ما أدّى الى تغيير العادات السابقة:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآيتان ٩٦ - ٩٧].

ونجد الروحيّة نفسها في موضعين آخرين أيضًا: في السورة الثانية (سورة البقرة، الآية ١٢٥)، في ما عنى مقام إبراهيم وبناء الكعبة؛ وفي السورة الثانية والعشرين (سورة الحج، الآيتان ٢٥-٢٦)، في ما يختص بإدانة الذين لم يدركوا أهميّة الدين الجديد. يضاف إلى هذه المعطيات المكتوبة العديدُ من المعتقدات الشعبيّة التي تجعل من الكعبة مركزًا للكون، ومقرًّا لأضرحة الأنبياء، عاكسةً بشأنها معتقدات متّصلة بعلم الكون مستمدّة، بدون شك، من البيئة اليهوديّة - المسيحيّة.

وتبرز، في الوقت نفسه، مهمّة خدمة الكعبة الموكولة الى بني شيبة، وهم بطن من قريش. هم اذًا سدانة الكعبة، وعليهم أن يسهروا على تمكين الحجّاج من زيارتها. بيد أنّنا لا نعرف شيئًا محدّدًا عن منشإ هذه المهّمة، فكلّ ما نعرفه عنها يعود إلى قصص الرحّالة في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني والثالث عشر الميلاديين.

يبلغ طول الكعبة ١٢ مترًا وعرضها عشرة أمتار تقريبًا، وهي مغطاة بسطح منحنٍ قليلاً باتجاه الشمال - الغربي، حيث يوجد الميزاب المطلي بالذهب،

والمعروف بـ«ميزاب الرحمة»، ويبلغ ارتفاعه ١٥م. شُيّدت حيطان الكعبة من حجارة ضخمة مأخوذة من الجبال المجاورة، وهي ترتكز على قاعدة صلبة من الرخام بارزة قليلًا، وزوايا تراعي اتّجاه الجهات الأصليّة. في هذا البناء باب واحد، يوصل إلى حجرة خالية تحتوي على مصابيح لإنارتها، كانت في الماضي، على ما يبدو، مليئة بالأصنام الوثنيّة وبصور مسيحيّة أزالها النبيّ محمّد (ﷺ).

وفي خارج الكعبة، في الجهة الشماليّة الغربيّة، ثمّة حائط منخفض نصف دائري، (الحطيم) يحدّد مساحة الحِجْر الذي لا يمكن الدخول اليه، ويُعتقد أنّ فيه ضريحي إسماعيل وأمّه هاجر. بيد أنّ المكان الأكثر قدسيّة، من دون شك، يقع في الجهة الشرقية، حيث يوجد الحجر الأسود الذي على كل مؤمن أن يلمسه ويقبّله أثناء أدائه مناسك الحجّ، وهو مجاور لمكان يدعى «الملتزم»، حيث يتجمّع الحجّاج مقابل حائط لتلقي البركات. تعود هذه الممارسات إلى زمن الرسول ﷺ، كما يؤكده الحديث، بالنسبة الى الحجر الأسود الذي يُقال عنه إنّ ثاني الخلفاء الراشدين، عمر بن الخطاب، خاطبه قائلًا: «أعلم بأنّك لست سوى حجر، ولا يمكنك أن تتسبّب لا بالخير ولا بالشر. ولو أنيّ لم أرَ رسول الله يقبّلك، لما فعلت ذلك أبدًا».

يُنسَب بناء الكعبة الأساسي، كما رأينا، إلى ابراهيم وذلك بطلب من الله، فصعد من أجل تشييده على حجر يقال له «مقام ابراهيم»، ما يزال، إلى الآن، موضع تكريم، وهو قائم في الجهة الشماليّة الشرقيّة للكعبة.

رُمّمت الكعبة مرّات عدّة قبل الإسلام، كانت إحداها خلال فترة شباب محمّد. حرصت أعمال الترميم هذه، التي حيكت حولها أساطير كثيرة، أن تحافظ على النسق القديم للكعبة، وهكذا الأمر بالنسبة إلى أعمال الترميم اللّاحقة. وثمّة محاولة واحدة جرت في العام ٦٤هـ/٦٨٣م، قام بها عبدالله بن الزبير المعارض للخليفة، أحدثت تغييرًا في نسق البناء وشوّهته إلى حين، وذلك بضم الحِجْر إليه، لكن الحَجّاج أعاد البناء إلى سابق عهده إثر انتصاره على ابن الزبير في العام ٧٣هـ/٦٩٢م. لحق بالكعبة ضرر كبير طاول الحجر الأسود، نتج عن حريق تعرّضت له مكّة إبّان سيطرة ابن الزبير عليها. انقسم الحجر الأسود، على أثر ذلك، إلى ثلاثة أجزاء، ما استدعى إحاطته، في وقت لاحق، بدائرة من الفضّة لتدعيمه. تمكّن القرامطة من دخول الكعبة في العام ٣١٧هـ/٩٢٩م، واستولوا على الحجر الأسود، ثمّ استعيد منهم بعد عشرين عامًا. وأخيرًا، حصل أحد أهمّ أعمال ترميم الكعبة، في العام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، إثر الكوارث التي تسبّبت بها الأمطار خلال العواصف العنيفة التي ضربت المنطقة.

تُشكل الكسوة إحدى أهم مزايا الكعبة، فهي تغطيها كليًّا، وتزدان في وسطها بكتابات، منها نص الشهادة. قديمًا، كانت الكسوة تجدّد سنويًا برعاية الخليفة، وبخاصة عندما كان ينجح في فرض سيادته الفعليّة على الديار المقدّسة في شبه الجزيرة العربيّة. في زمن العبّاسيين، كانت الكسوة، في الغالب، سوداء اللون، وهو لون شعار دولتهم، على الرغم ممّا جاء في بعض الأوصاف التي تتحدّث عن تتالي اللّونين الأبيض والأسود على الكسوة. ويشكّل التبرّع بالكسوة، وهو يكرّس عادة ترجع إلى ما قبل الإسلام، تعبيرًا عن عظيم تقدير زعيم المسلمين للكعبة، ويُرفق بالكسوة هدايا أخرى قيّمة، مثل مفاتيح باب الكعبة المصنوعة من البرونز المتقن الصنع والتي كانت صناعتها وتقديمها للكعبة حكرًا على الحاكم المسلم، بوصفه الحامي الرسمي لمكّة وأماكنها المقدّسة.

وحول الكعبة مساحة دائرية مبلّطة تُعرف بـ«المطاف»، تسمح بالقيام بجولات طقسيّة، أو الطواف (الدوران) حول الكعبة التي تبقى على يسار الزائر. وعلى هذا الأخير التوقّف عند كل جولة لتقبيل الحجر الأسود أو للمسه على الأقل. يتمّ الطواف، وهو أحد الطقوس الأساسيّة في الحجّ الأكبر والحجّ الأصغر، مترافقًا مع مظاهر تقوى يُعبّر عنها تجاه الكعبة، وهي تمارس حاليًا بسهولة أكثر في أثناء احتشادات المؤمنين الكبيرة، بسبب الترتيبات العديدة التي سهّلت، منذ العام ١٩٥٦، إمكان الوصول الى الكعبة، وذلك بإزالة الأبنية الصغيرة الملحقة بها، كتلك التي كان يقف فيها أئمّة المذاهب الفقهيّة الأربعة خلال أداء فريضة الصلاة.

كما تمّ، في الوقت نفسه، تقليص المساحة المخصّصة لمقام إبراهيم، وتغيير الطريق المؤدّية إلى بئر زمزم بجعلها في مكان واسع تحت الأرض، حلّ محلّ القبّة القديمة. إنّ هذا الفناء الذي يحيط بالكعبة، وكذلك الأروقة ذات الأبواب العديدة، تشكّل «المسجد الحرام»، ويجب تمييزه عمّا يُعرَف بـ«الحرم»، وهي منطقة أكثر اتساعًا تتجاوز حدود مكّة، تحدّد، بحسب الأعراف السامية، بالمحرّمات المتعلّقة بها.

تقام الصلاة في المسجد الحرام حيث توجد الكعبة، كما في كل المساجد، ويحدّد اتّجاه القبلة فيه بنقطة معينة من الكعبة تقع بين الزاوية الغربيّة و«ميزاب» الواجهة الشماليّة - الغربيّة. أمّا شكل أروقة المسجد فيعود إلى أعمال البناء التي قام بها السلطان سليم الثاني، بين العامين ١٥٧٢ - ١٥٧٧م. وللجامع سبع مآذن تحدّ محيطه. وفي الخارج، من الجهة الشماليّة - الشرقيّة، شُيّد، منذ العام ١٩٢٠، البناء الواسع الذي يحتضن «السعي» بين الصفا والمروة، إحدى فرائض العُمرة. وهذا البناء هو اليوم جزء من أبنية شيّدها الملوك السعوديّون حول المسجد ما بين ١٩٥٥-١٩٧٨، لتمكينه من استقبال حوالى ثلاثمائة ألف مصلّ في وقت الصلاة.

وفي العقود الأخيرة أُجريت تحسينات وتوسّعات كثيرة على الكعبة لاستيعاب تدفّق الحجّاج إليها، وبخاصة منذ أن ربطت وسائل النقل الحديثة الحجاز وشبه الجزيرة العربيّة بسائر مناطق العالم. وقد ضمنت هذه التحسينات صحّة الحجّاج ورفاهيتهم، وبرهنت على مدى اهتمام «خدّام الأماكن المقدسة الإسلاميّة الجدد» وكرمهم وتفانيهم في النهوض بالمهام الموكلة إليهم.

الكفّار، والكافرون، مفردها كافر. تسمية يوصم بها، في المجتمع الإسلامي، «الذين لا يعتنقون الإسلام» (القرآن، سورة الكافرون)، كما يمكن أن تُطلق على مسلمين يُعتبرون ملحدين.

هذا المصطلح العربي الذي معناه «الكنود» يعني في القرآن «الذين لا يُقرّون بإنعام الله عليهم»، أي الكفّار المحكوم عليهم بالعذاب الأبديّ. كافرون بالتأكيد هم أيضاً الوثنيّون الذين يرفضون رسالة النبيّ محمّد (ﷺ)، أما المسيحيّون واليهود، بصفتهم حَمَلة الكتاب أو من أهل الكتاب، فلهم الحقّ بمعاملة خاصة. وإذا كان الكفّار يجب أن يُحاربوا حتّى إسلامهم أو استرقاقهم، فإنّ أهل الكتاب يشكّلون استثناء، إذ يستطيعون الحصول على نوع من الحماية، وعلى وضعية أدنى من المسلمين، بصفتهم أهل ذمّة يؤدّون الجزية!

وبحسب المؤلّفات الفقهية التي تستند، بوجه خاص، إلى النص القرآني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (سورة التوبة، الآية ٢٨)، يُعتبر الكفّار نجسين، وتاليًا، يحرّم عليهم دخول المدينتين المقدّستين: مكّة والمدينة. ومحاربة هؤلاء الذين منهم يعيشون في مناطق غير خاضعة للإسلام، واجبٌ جماعي يُدعى «الجهاد». أمّا مسألة التكفير داخل الإسلام فقد أثارها فقهاء المذاهب المختلفة. بعضُهم اتّهم بالكفر المؤمنين الذين ارتكبوا الكبائر، وهذا ما أدّى في القرون الأولى إلى مناقشات طويلة بين الخوارج والمعتزلة والمرجئة في جدالهم حول هذا المفهوم؛ وآخرون خصّوا بهذه التهمة الذين يعتنقون مبادئ اعتُبرت منحرفة، ولا سيّما في ما يخصّ عقيدة وحدانيّة الله، وهذا ما يؤدّي إلى الاتّهام بالشِّرْك. إنّ المفكّرين السنّة المهتمّين بموضوع الهرطقة، لم يُحجموا، مثلاً، في أن يتّهموا بالكفر أتباع بعض البدع، والمدافعين عن العقائد الشيعيّة، حتّى إنّهم تساءلوا عمّا إذا كان المعتزلة لا يستحقّون أن يُعَدّوا كافرين هم أيضًا. إنّ المسلمين الذين يُصنَّفون كُفّاراً، يطبق عليهم عقاب المرتدّين، مع العلم أن التاريخ لم يشهد إلّا حالات نادرة نسبيًّا فُرض فيها الحكم بالموت على أصحاب البدع.

إن لفظة «كافر» العربيّة دخلت إلى التركيّة (giauvur)، وإلى الفرنسية (giaour)، وأصبحت لاحقاً شتيمة. وانتقلت اللفظة التركيّة إلى اللغات السلافيّة، بينما لفظة «كافر» وُجدت في الإسبانيّة (cafre) ولفظة كفّار في الفرنسية (cafard).

كلام، لفظة عربية تعني «الخطاب»، وتشير بشكل خاص إلى «الحديث» عن الإيمان في الإسلام، ويعني علم الدين النظري الذي لا يستند إلى المعطيات المدوّنة

فحسب، بل أيضًا الى الحجج المنطقيّة.

في نهاية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، كان المعتزلة أوّل من مارس الكلام، ثمّ اعتمدته الأشعريّة من بعدهم، فيما رفضه الحنابلة، ورأوا فيه خطرًا على الدين باستخدامه المنطق البشري لتحديد بنود الإيمان، وهم يعتبرون أنّه عندما نجادل خصمًا ما، فإنّنا نخشى أن نقبل بعضًا من طروحاته، ونتوصل إلى تسوية معه. لقد أُدخلت مكتسبات الكلام في النتائج التي توصّلت اليها المجادلات الدائرة في مختلف المذاهب الاسلاميّة.

كلب (بنو –)، قبيلة عربيّة من أصل يمني. وهي تنتمي إلى سلالة قحطان التي اضطلعت بدور مهمّ في زمن الأمويّين.

غادر بنو كلب، قبل ظهور الاسلام، وسط شبه الجزيرة العربيّة، واستقرّوا في السهوب الواقعة بين سوريا وبلاد ما بين النهرين حيث اعتنق قسم منهم المسيحيّة وساعدوا الغساسنة. وقد استهدفتهم الحملة التي أرسلها النبيّ محمد ﷺ، في العام ٦هـ/٦٢٧م، إلى دومة الجندل في شمال شبه الجزيرة العربيّة. لكنّهم، في العام ٩هـ/٦٢٩م، أبلغوا النبيّ ﷺ بأنّهم اعتنقوا الإسلام.

استقرّ بنو كلب، منذ زمن بعيد، في سوريا؛ ويبدو أنّهم لم يشاركوا في الفتوحات الكبرى في هذه البلاد، ولكنّهم دعموا الأمويّين، أو على الأقل الخلفاء الأوائل منهم، إلى جانب عناصر قبليّة أخرى كقبيلة جُذام. وكان بنو كلب على علاقة جيّدة بعثمان بن عفّان الذي تزوّج بامرأة من قبيلتهم. واستمرّت علاقتهم الجيّدة مع معاوية ومع خلفائه، حيث تابع هؤلاء سياسة تعزيز الروابط الزوجيّة مع القبيلة. إنطلاقًا من هذا الواقع، فإنّ القيسيّين، خصوم بني كلب، الذين رافقوا الجيوش العربيّة – الاسلاميّة من شبه الجزيرة الى سوريا، وقفوا إلى جانب ابن الزبير، فانتصر عليهم مروان الأوّل في مرج راهط في العام ٦٥هـ/٦٨٤م. بقيت هاتان القبيلتان في صراع دائم. وعلى الرغم من نجاح الخليفة عبد الملك في تلطيف مناخ العداء بينهما، فإنّ حالة العداء عادت للظهور خلال «الثورة العبّاسية». فقد دعم بنو كلب هذه الحركة، من جهة لأنّ مروان الثاني اختار أن يعتمد على القيسيّين، ومن جهة ثانية لأسباب أكثر عمقًا، تعود إلى رفض بني كلب السياسة الحربيّة والتوسعيّة لآخر الخلفاء الأمويّين.

لم نسمع كثيرًا عن بني كلب في عصر العبّاسيّين، ما يدلّ على أنّ صراعهم مع القيسيّين كانت له أسباب ظرفيّة. لكنّ العداوة بين القبيلتين ظهرت أيضًا في شبه الجزيرة الايبريّة حيث ساعد بنو كلب الأمير الأموي عبد الرحمن على تركيز دعائم حكمه. وبعد ذلك بقليل قام بعض أبناء هذه القبيلة، في المغرب، بدور مهمّ في الأنظمة التي أقامها الأغالبة والفاطميّون وأصبحوا، بصورة خاصة، حكام صقلّية عند فتحها على يد الفاطميّين.

كَلْكُتّا (الاتحاد الهندي)، عاصمة حديثة لولاية البنغال الغربي، تزامنت انطلاقتها مع استقرار البريطانيّين في البلاد، وترافقت مع تنامي أقليّة إسلاميّة ما تزال ناشطة حتّى يومنا، رغم تقسيم البلاد في العام ١٩٤٧، وقيام باكستان الشرقيّة التي أصبحت في ما بعد بنغلادش.

جرى تأسيس كَلْكُتّا في نهاية القرن السابع عشر مركزًا محصّنًا أجنبيًا، ضمانًا لأمن التجّار الغربيّين. وقد مثّلت دورًا إداريًا من الطراز الأوّل في الهند الإنكليزيّة، ما يفسّر تحوّلها آنذاك مركزًا مهمًا للثقافة الإسلاميّة. كما أفادت من سمعة جامعتها واستقبلت الكثير من الملوك المسلمين المخلوعين. وإبّان أحداث ١٩٤٦، ضعفت الجماعة الإسلاميّة فيها، لكنّها عادت الى النمو في ما بعد، بدون توقّف، حتّى بات مسلمو كَلْكُتّا يشكّلون اليوم أكثر من ١٥ بالمئة من عدد سكان المدينة الكبيرة.

◄ راجع المستندين ٣٤ و٣٥.

كِلْوى (جمهوريّة تنزانيا المتّحدة)، مدينة مرفئيّة على المحيط الهندي، تقع في جزيرة صغيرة قرب الساحل الشرقي لأفريقيا السوداء، كانت في القرون الوسطى محطّة للملاحة البحريّة الإسلاميّة، ومركز أهمّ سلطنة على ذلك الساحل.

تشير مصادر غير أكيدة إلى أنّ مؤسّس السلطنة قدم من شيراز في إيران، فاشترى، سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م، ذلك المكان غربي المرفأ الحالي لمدينة دار السلام، وجعله

مركزًا للنشاط التجاري. ومنه امتدّت سلطة ورثته إلى پنبا وزنجبار ومافيا، وصولًا إلى سوفالا في إقليم موزامبيق. ازدهر هذا المركز التجاري بين القرنين الخامس والثامن للهجرة/ الحادي عشر والرابع عشر للميلاد، وكان يتسلّم من داخل البلاد الذهب والعاج، كما كان يتسلم الأرقّاء ويستبدل بهم بضائع آتية من الشرق الأقصى. وقد زاره الرحّالة ابن بطوطة سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م في عهد عاهلٍ كان أوّل من أدّى فريضة الحجّ من هذه السلالة.

في أواخر القرن الثامن للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، دبّ الضعف في سلطنة كِلْوى بسبب الحروب الداخليّة، ما أفسح في المجال أمام مرافئ الشمال التي نشطت في أرخبيل «لامو» أو في مومباسا. ثمّ كان قدوم البرتغاليّين الذين أفقروا المدينة بعدما راقبوا بأنفسهم العلاقات مع سوفالا. وعندما خضعت لسلطنة عُمان سنة ١٦٩٨م، كانت كلوى قد فقدت نهائيًّا إزدهارها؛ وأُلحقت من ثمّ بزنجبار التي أصبحت المركز الجديد لتجارة الرقيق. ونتعرّف اليوم إلى حيويّة ماضيها من خلال غنى معالمها الأثريّة، حيث تتجاور خرائب المدينة القديمة القروسطيّة وبقايا مساجدها مع أبنية القرن الثامن عشر. وهناك معالم أثريّة كثيرة، يعود بعضها إلى عهود قديمة، تتناثر كذلك فوق جزر أخرى كجزيرة «سونْغو منارة».

◄ راجع المستند رقم ٢٨.

كلّيّة، تعبير عربي استعمله الأتراك للإشارة إلى مجمّعات الأبنية التي كانت، طوال التاريخ العثماني، تحيط بالمساجد السلطانيّة الجامعة، والتي كانت تشهد نشاطًا دينيًّا متنوّعًا، لا سيّما منه التدريس.

في القرن التاسع للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، وفي عواصم الأناضول ومدنه المفضّلة لدى السلاطين الأوائل للسلالة الحاكمة، كمدن بورصة وأماسيا أو أدرنة، ظهر عدد من الكلّيّات التي تميّزت بهندستها وتنظيمها. ثم شُيِّدت كلّيّات أخرى في اسطنبول ما يزال بعضها محفوظًا، وهي تشمل أبنية متنوّعة حول المسجد الجامع، وحول ضريح مؤسّسها وعائلته، ولهذه الأبنية في الأساس طابع المنفعة العامّة. وأهمّ تلك الكلّيّات التي تعود إلى العصور المجيدة للسلطنة، كانت تلك التي أمر بإنشائها محمّد الثاني الفاتح وسليمان القانوني. فالتي شُيِّدت في عهد سليمان، مثلًا، كانت تضمّ سبع مدارس، ومعهدًا إعداديًّا، وآخر لتدريس الحديث، وكلّيّة لتدريس الطبّ، ومركزًا لتعليم الصِبْية، وآخر للصناعة الفندقيّة، وحمّامًا، وضريحًا للسلطان وزوجته، ومساكن لخدّام المسجد. كلّ هذه الأبنية كانت تحيط بالمسجد الجامع الذي ما يُزال يُطلق عليه اليوم إسم سليمانيّة.

والتعبير العربيّ «كلّيّة»، وبفضل هذا المعنى الخاص الذي أعطاه إيّاه الأتراك، استُعمل لاحقًا في البلدان العربيّة للدلالة على فروع التدريس داخل الجامعات الحديثة التي بدأت بالظهور في أواخر القرن التاسع عشر.

◄ راجع المستندات ٨١، ٨٢ و٨٦.

كليم الله الجهانابادي (پير)، إبن نورالله بن أحمد المعمار الصدّيقي (١٠٦٠-١١٤١هـ/ ١٦٥٠-١٧٢٩م)، صوفيّ من الهند في عهد المغول، أقام في هذه البلاد فرعًا للطريقة الجشتيّة.

وُلد كليم الله بالقرب من دلهي قبل وصول أَوْرَنكزيب إلى الحكم بثمان سنوات. تعرَّف إلى الجشتيّة خلال إقامته في الحجاز. وعند عودته إلى الهند نشر تعاليمه الصوفيّة في الخانقاه التي شيّدها له حاكم البلاد في العاصمة.

أمضى كليم الله حياة قاسية، لا تتلاءم كثيرًا مع جلسات «السماع» المعروفة عند الصوفيّين، فأدان الممارسات الغريبة وناضل بحماسة من أجل انتشار الإسلام. تُوفي عن عمر مديد، تاركًا وراءه العديد من المصنّفات باللغتين العربيّة والفارسيّة، ودُفن في خانقاهه، وما يزال ضريحه بالقرب من القلعة الحمراء في دلهي يُعتبر مزارًا.

الكُلَيني، أبو جعفر محمّد بن يعقوب الرازي (؟ - ٣٢٩هـ/ ؟-٩٤٠م)، محدّث وفقيه شيعي عاش في أواخر العصر الذهبي العبّاسي، يشكّل عمله أحد أسس عقيدة الإماميّة الاثني عشريّة.

ولد الكليني في إحدى القرى القريبة من الرَّيّ في إيران، وتلقّى علومه في قُمّ، في مطلع القرن الرابع

للهجرة/ العاشر للميلاد، قبل أن ينتقل إلى بغداد حيث انصرف إلى التدريس. وفي بغداد وضع مؤلّفه «الكافي»، وهو مصنّف ضخم جمع فيه الأحاديث النبويّة كما رواها الأئمّة الشيعة. وقد عالج في القسم الأوّل منه «الأصول»، أي أصول الفقه؛ وفي القسم الثاني «الفروع»، أي أحكام الفقه وتطبيقاته. مات في بغداد ودفن فيها، وأصبح قبره مكرّمًا منذ عهد الصفويّين. ولم يبقَ من مؤلّفاته سوى كتاب «الكافي» الذي ما يزال يتمتّع بشهرة خاصة، وهو يُعدّ واحدًا من مصنّفات الحديث الأربعة التي يعتمد عليها الفقه عند الإثني عشريّة.

كمال باشازاده، هو شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا (٨٧٣-٩٤١هـ/ ١٤٦٨-١٥٣٤م)، أديب من العهد العثمانيّ تسلّم منصب شيخ الاسلام.

درّس مدّة في مدرسة أدرنة، ثمّ في اسطنبول، ودخل بعد ذلك الجيش كسباهي، ليعود من ثمّ إلى مهنة القلم ويكتب بحثًا يبيّن فيه أنّ الحرب ضدّ الصفوي الشاه إسماعيل الاوّل لها طابع الفريضة وأنّها واجب كل فرد. في سنة ١٥١٥ عُين قاضيًا في أدرنة، ثمّ «قاضي عسكر» الأناضول؛ وفي أثناء حملة سليم الأوّل على مصر أصدر فتوى لمصلحة الصوفيّ ابن العربي. وترك بعد ذلك وظيفته سنة ١٥١٩ ليعود إلى التدريس في أدرنة، وأصبح سنة ١٥٢٦ شيخ الاسلام، فبقي في منصبه حتّى وفاته سنة ١٥٣٤. كان كاتبًا غزير الإنتاج: إليه يُنسب نحو مئتي مؤلّف، بعضها وُضع في اللغة التركيّة، ككتابه «تاريخ العثمانيّين»، وديوان شعر؛ وبعضها في الفارسيّة، ومنها مجموعة قصائد؛ وبعضها الآخر في العربيّة، ومنها «شرح القرآن الكريم» ومجموعة من الفتاوى وتفاسير متنوّعة. أمّا التأثير الذي كان له على شيخ الاسلام «أبو السعود» وعلى السلطان سليمان القانوني، والذي طالما ذُكر، فلم يظهر ما يؤكّده.

الكماليّة، عقيدة سياسيّة انتشرت في القرن العشرين، وعلى أساسها قامت جمهوريّة تركيا العلمانيّة.

تشير الكماليّة، كما يبيّن ذلك إسمها، إلى الأعمال المتلاحقة التي أُنجزت بين الحربين العالميّتين على يد الجنرال ورئيس الدولة مصطفى كمال الذي عُرف بعد ذلك باسم أتاتورك. فقد سيّر بيد من حديد الجمهوريّة التي وُلدت بفضل عمله العسكري والسياسي، ووضع كلّ الأنظمة والقوانين الضروريّة لانطلاقها على أساس الفصل الكلّي بين التشريع المدني والحياة الدينيّة. هذه الوسيلة التي اعتُمدت لحلّ المشكلات الصعبة التي كانت تواجهها هذه الدولة الحديثة بسبب وجود الشريعة التي كانت تسيّر الحياة العامّة والخاصّة للمؤمنين بتفاصيلها، واجهتها عقبات وتسبّبت بأزمات لم يتمّ التوصّل إلى حلّها، ما دعا في ما بعد إلى اتّخاذ عدد من التدابير المعتدلة.

الكُمَيت بن زيد الأسدي (٦٠-١٢٦هـ/ ٦٨٠-٧٤٣م)، شاعر عربي، عاش في العصر الأموي وكان من المدافعين عن الشيعة.

ولد الكميت في الكوفة، وأظهر باكرًا ميله نحو العلويّين الذين كان أنصارهم منتشرين في تلك المدينة، فامتهن الشعر ووضع قصائد يمدح فيها أبناء أسرة النبيّ محمّد (ﷺ)، وهذا ما سبّب له عداء الوالي وغضب الخليفة هشام الذي سجنه. إلّا أنه نجح في استرضائه فعفا عنه، لكنّه تابع نشر آرائه وإظهار تشيّعه، إلى أن قتله الجنود اليمنيّون من حرس الوالي. واشتُهر الكميت بديوانه في مدح علي وذريّته، ويُعرف هذا الديوان باسم «الهاشميّات»، وضعه بأسلوب بعيد عن التكلّف، خلافًا لما كان سائدًا بين شعراء عصره.

كِندة (بنو -)، إسم قبيلة عربيّة قديمة من عرب الجنوب، انتشرت في شبه الجزيرة بين القرنين الخامس والسادس للميلاد، وكان لها دورها السياسي البارز قبل ظهور الاسلام، واستطاعت بعد ذلك أن تحافظ على تأثيرها.

في القرن الخامس للميلاد، استطاع بنو كندة إخضاع عدد من القبائل المجاورة لسلطتهم، كما استقرّوا مدّة في الحيرة داخل بلاد ما بين النهرين. وعشيّة الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة كانوا يبسطون سلطتهم على مناطق مختلفة، منها مدينة يثرب حيث

كان يقيم عددٌ منهم قبل دخولهم الإسلام[٩٦]. وكان لبني كندة دور سياسي في مرحلة لاحقة، إذ شاركوا في الإنتفاضة ضدّ الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفّان. كما برز من كندة إبن الأشعث الذي ثار في العراق ضدّ الحجّاج زمن الخليفة الأموي عبد الملك. وأظهر مَن رحل منهم إلى الأندلس خروجهم على الطاعة والنظام، كما كانت حالهم في المشرق، وتوصّلوا هناك إلى إنشاء إمارات لهم في عهد ملوك الطوائف، ولا سيّما امارة التُجيبيّين في سرقسطة.

الكِندي، أبو يوسف يعقوب بن إسحق (١٨٤-٢٥٦هـ/ ٨٠٠-٨٧٠م)، هو أقدم ممثّل للفلسفة العربيّة، عاش في العصر الذهبي للخلافة العبّاسيّة، وكان أوّل من حاول التوفيق بين الفلسفة اليونانيّة والعقيدة الإسلاميّة.

ولد الكندي في الكوفة من أسرة عربيّة، ولقي الحماية والرعاية من الخليفتين المأمون والمعتصم، ومن أحد أبناء المعتصم الذي كان تلميذًا له. شارك في حركة ترجمة الأعمال الفلسفيّة والعلميّة في بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون، واهتمّ بالمؤلّفات المشهورة المتعلّقة بالماورائيّات عند أرسطو، وبالجغرافيا عند بطليموس. وكان عالمًا متعدّد النشاط حمله فضوله إلى الإلتفات نحو علم الهيئة (علم النجوم) ونحو الخيمياء، وكذلك نحو تطوّر التقنيّات.

وكان له في الحقل الفلسفي نشاط ملحوظ، فترك أبحاثًا صغيرة عدّة نُقلت إلى الغرب المسيحي، في القرون الوسطى، باللغة اللاتينيّة، وما تزال أصولها العربيّة محفوظة، منها «رسالة في العقل». وفي كتاباته كلّها بدا مقتنعًا بالتوافق القائم بين الوحي والبحث العقلي، وحاول إيجاد الفرق بين العلوم الانسانية التي يمكن بلوغها بالنظر العقلي، والعلوم الالهيّة التي تُنقل بواسطة الأنبياء، مع اعتباره أنّ هاتين الوسيلتين في كسب المعرفة تبقيان في تناغم وانسجام. وقد نجح على الأخصّ في التوفيق بين العقيدة الإسلاميّة المتعلّقة بخلق الكون من العدم ونظريّة الفيض التي نادت بها الافلاطونيّة الجديدة. وهو، في اعتماده على الفكر اليوناني، كان يختار ما يبدو منسجمًا مع العقيدة الإسلاميّة، وقابلًا للمعالجة والمواجهة. وضمن هذا المقياس اعتُبر الكندي مؤسّس الفلسفة.

الكهف (أهل أو، بعبارة أصحّ، أصحاب الكهف)، تسمية تدل على النائمين السبعة في أفَسُس الذين ذاع صيتهم في الإسلام الوسيط بدليل تردّد المسلمين، في زيارات تقويّة، على أماكن لها علاقة بذكرى هؤلاء.

بحسب التقليد المسيحي، يُقصد بهؤلاء سبعة شبان لجأوا، في فترة الاضطهاد على عهد الأمبراطور داقيوس (Dèce)، في القرن الثالث الميلادي، إلى مغارة قرب أفسس في آسيا الصغرى حيث رقدوا طيلة قرنين، ليستيقظوا بعدئذ على عهد الأمبراطور تيودوسيوس، ويموتوا بعد ذلك بوقت قصير. وأصبح المكان الذي لجأوا إليه والمقابر التي دُفنوا فيها محلّ تكريم منذ القرن السادس الميلادي. وقِصّتهم التي تأتي على ذكرها كتابات أدبية عدّة، شرقيّة وغربيّة، وردت أيضًا في القرآن الكريم في الآيات ٨ إلى ٢٦ من سورة الكهف المخصصة لهم:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [٩] ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [١٠] ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [١١] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [١٢] ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [١٣] ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [١٤] ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [١٥] ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [١٦].

من خلال هذا الاستذكار المقتضب لمغامرة هؤلاء الشبّان، غدا إخلاصهم لربّهم مثالًا للمؤمنين. وفي الوقت الذي تَرِدُ في هذه الأيات تفاصيل شتّى يثير تفسيرها جدلًا، فإن التفسيرات القرآنية التي جهدت لتوضيح هذه التفاصيل لم تحُلْ دون استغلال بعض التعابير التي نسب إليها البعض قوة وفاعليّة في الأعمال السحريّة. من جهة أخرى، أدّى الرواج الذي أصابته هذه الرواية إلى أن تتجسّد في مواقع متعدّدة، من الأندلس

حتى آسيا الوسطى، مرورًا بهضاب الأناضول أو الأردن. وكان التكريم الشعبي المحلّي في كل من هذه الأمكنة في أساس شهرة مزار جديد يتحوّل مقصدًا لزيارات تقويّة. وقد ذكر الهرويّ في دليله في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد بعض هذه المزارات التي أفادت من تنامي ظاهرة تكريم الأولياء.

الكواكبي، عبد الرحمن بن أحمد (١٨٤٩-١٩٠٢)، مفكّر ورجل إصلاح، عاش في الشرق الأوسط، وكان من دعاة الوحدة العربيّة.

ولد في مدينة حلب، وتلقّى فيها ثقافة واسعة وعميقة، من دون أن يتعلّم أيّة لغة أوروبيّة. ثم عمل في حقل الصحافة، فأسّس سنة ١٨٧٨ أوّل جريدة أسبوعيّة في حلب لم تلبث أن مُنعت من الصدور بأمر من السلطة العثمانيّة. عمل بعد ذلك في البلديّة، لكنّه حُمِل على الرحيل الى القاهرة سنة ١٨٩٨ ومات فيها إثر عودته من سفر أوصله إلى كراتشي.

لا نعرف إلّا القليل عن نشاطه السياسي، وجلّ ما يبدو واضحًا عنه أنّه كان يدعم خديوي مصر عبّاس حلمي في مطالبته بالخلافة. وتعود شهرته الى مؤلّفين كتبهما عندما كان لا يزال في سوريا ونشرهما أولًا تحت اسم مستعار. فالأوّل بعنوان «أمّ القرى»، إشارةً إلى مكّة المكرّمة، يدافع فيه عن الطروحات العربيّة ويطالب بنقل السلطة العليا من العثمانيّين إلى أبناء السلالة القرشيّة ويجعل مقرّها مكّة المكرّمة لتمارس منها هذه السلطة على منطقة الحجاز وحدها. هذا البحث الذي نشره الشيخ رشيد رضا في القاهرة في جريدته «المنار» بين سنتي ١٩٠٢ و١٩٠٣، يركّز إذًا على دور العرب البارز في قلب العالم الإسلامي. أمّا الثاني فهو بعنوان «طبائع الاستبداد»، وقد ظهر سنة ١٩٠٠ على شكل مقالات تنال من الحكم العثماني، وكانت في الواقع ترجمة لكتاب إيطالي نُشر سنة ١٨٨٠. وفي كلا الكتابين، يقف الكواكبي بقوّة في وجه حركة الجامعة الإسلاميّة التي كان يرغب السلاطين العثمانيّون في الاعتماد عليها، ويتمسّك، مقابل ذلك، بضرورة وضع نظام جديد للخلافة.

كوپرولو، اسم لعدد من الوزراء اختارهم السلاطين العثمانيّون، وكان لهم دورٌ سياسيّ في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد. ويعود اسمهم في الأصل إلى مدينة كوپرو الواقعة في منطقة أماسيا من الأناضول حيث استقرّ مؤسّس الأسرة.

كوپرولو محمد باشا (١٥٧٨-١٦٦١)، صدر أعظم بين سنتي ١٦٥٦ و١٦٦١، من أصل ألباني. دخل في خدمة السلطان بموجب نظام ضريبة الغلمان (دِوْشِرْما) وتسلّم مناصب عدّة في القصر السلطاني، لكنّ طبعه المتمرّد تسبّب في إرساله إلى المقاطعات كسُپاهي، فاستقرّ في كوپرو. ثمّ عاد إلى اسطنبول ليعمل في خدمة قائد الفرقة الانكشاريّة، خسرو آغا. واضطرّ بعد ذلك إلى مغادرتها ليشغل مناصب مختلفة، منها حاكميّة مدينة طرابزون، وذلك قبل أن يُعيَّن رئيسًا للوزراء سنة ١٦٥٦ ويُظهر كفاءته كرجل دولة. فبعد نجاحه في بسط الأمن والنظام داخل مدينة اسطنبول، جهّز الحملات ضدّ البنادقة الذين كانوا يهدّدون المضائق، فأبعد خطرهم واستعاد، سنة ١٦٣٧، جزيرتين كانوا قد احتلّوهما. استُدعي بعدها إلى أدرنة، ثمّ الى بلغراد ليقود حملةً إلى ترانسلڤانيا، ثمّ عاد إلى اسطنبول ليقمع تمرّد عدد من الضبّاط، فقضى على انتفاضتهم وأخذ في حقّهم تدابير صارمة. وقبل وفاته كان قد توصّل إلى القضاء على روح التمرّد التي جعلت البلاد تُصاب بالشلل منذ عهد السلطان مراد الرابع. وقد طلب بنفسه من السلطان محمّد الرابع أن يتّخذ إبنه وزيرًا له.

كوپرولو فاضل أحمد باشا، ويُعرف كذلك باسم كوپرولوزاده (١٦٣٥-١٦٧٦م)، هو الإبن الأكبر للسابق. كان يعلّم في إحدى المدارس، ثمّ ترك التدريس ليعمل في الإدارة، فعُيّن سنة ١٦٥٩ حاكمًا على أرضروم ثمّ على دمشق، فقضى على حركات التمرّد التي أثارها الدروز في سوريا. ولمّا خلف، بعد ذلك، والده في الصدارة العظمى سنة ١٦٦١، جعل همّه الأوّل تأمين حماية السلطنة وتوسيعها في اتّجاه أوروبا. فوجّه حملات ضدّ النمساويّين، أدّت إلى اتفاق «ڤاروار» سنة ١٦٦٤؛ ثمّ حاصر كانديا في جزيرة كريت، ما اضطرّ البنادقة إلى الاستسلام سنة ١٦٦٩؛

كما جهّز حملات أخرى ضد بولندا. إنّ الجهود التي بذلها في سبيل الدفاع عن الأمبراطوريّة وتوسيع مداها لم تمنعه من أن يكون رجلًا مثقّفًا ومتديّنًا. فأقام مؤسّسات خيريّة عدّة، منها مكتبة قريبة من مسجد آيا صوفيا، أي الكنيسة البيزنطيّة القديمة التي كانت على اسم القديسة صوفيا.

كوپرولو فاضل مصطفى باشا (١٦٣٧-١٦٩١م)، هو أخو السابق الأصغر، عُيّن صدرًا أعظم من سنة ١٦٨٩ الى ١٦٩١، بعد أن ارتقى بدوره، بعد وفاة كوپرولو زاده، درجات العمل الإداري. ثمّ شارك في خلع محمّد الرابع، واصطدم بعد ذلك بموقف الجيش العدائي، فنُفي بعد صدور حكم بإعدامه لم يُنفّذ. وتسلّم أخيرًا الصدارة العظمى سنة ١٦٨٩، بناءً على توصية العلماء. كان عليه على الأخصّ أن يقود حملات جديدة ضدّ النمساويّين، فأظهر كفاءة عسكريّة وقدرة حربيّة. وفي الوقت عينه اتّخذ الإجراءات المناسبة لتحسين أوضاع الرعايا، ووضع الإصلاحات الضرورية لذلك. لكنّه قُتل في معركة سولَنكامِن (Solankamen)، ما أدّى إلى هزيمة الجيش العثماني، وإلى إهمال السياسة الداخليّة التي كان بدأ تطبيقها بنجاح. وقد تميّز عدد من أبناء تلك الأسرة وأحفادها بالأعمال الإداريّة الناجحة؛ لكنّهم لم يبلغوا الشهرة التي بلغها الممثّلون الأوائل لتلك السلالة الوزاريّة.

كوتاهية (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في الأناضول تقع غربي الهضبة الوسطى، بقيت حتى أيّامنا مشهورة بصناعة الخزف المطليّ بالميناء.

هذه المدينة من مقاطعة «فريجيا» (Phrygie) التي كانت تُعرف سابقًا باسم «كوتياوُم» (Cotyacum)، وقعت بأيدي أتراك سليمان بن قُتلمُش على أثر معركة مانتزيكرت سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، واستعادها البيزنطيّون بعد معركة دوريليه (Dorylée)، ثمّ وقعت مجدّدًا في أيدي سلاجقة الروم سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م. وعرفت المدينة بعد ذلك تقلّبات من النوع نفسه قبل أن تصبح، في عهد الإمارات، عاصمة الكِرْميانيّين، وتتنازعها من ثمّ القوى التركمانيّة المتنافسة، ويحتلّها بعد ذلك العثمانيّون نهائيًا سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م. هذا الدور التاريخي الذي أدّته خلال العصور الوسطى، رافقه ازدهار ثقافي بتشجيع خاص من الكِرْميانيّين. فقد عرف هؤلاء كيف يجذبون رجال الفكر إلى بلاطهم، ويرفعون في مدينتهم أبنية مميّزة تبرزُ فيها المعالم الأولى للهندسة العثمانيّة. وفي الوقت عينه بدأت كوتاهية تشهد تطوّر مشاغل النسيج، وانتشار حرفة الفخار والخزف التي لقيت نجاحًا فائقًا في عهود الازدهار العثماني. وقد استمرّ هذا النشاط قائمًا حتّى العصر الحديث.

◄ راجع المستند رقم ٢٧.

كوسوڤو (معركتا-) (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م و٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، اسم لمعركتين كبيرتين وقعتا في إحدى هضبات البلقان التي تشكّل اليوم جزءًا من أراضي كُوسوڤو-ميتوهيجا في صربيا، وأدّتا إلى تقدّم الجيوش العثمانيّة المنتصرة في اتّجاه أوروبا.

في المعركة الأولى، قُتل السلطان مراد الأوّل، ولكنّ الأتراك انتصروا، بقيادة بايزيد الأوّل يلّدِرم - الذي سيصبح سلطانًا - على الجيش السلافي بقيادة الأمير لازار. أصبحت صربيا بعدئذ دولة خاضعة لأسياد «بروسّا» (بورصة) في الأناضول.

وجرت المعركة الثانية في منتصف القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، بين جيوش السلطان مراد الثاني وجيش ملك هنغاريا تساعده قوّات من فلاشيا وبوهيميا، وقد أحرز العثمانيّون تقدّمًا أكمله محمّد الثاني الفاتح بعد ذلك، مظهرًا تفوّقه وقدرته العسكريّة، ما سيؤدّي إلى سقوط القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣.

◄ راجع المستند رقم ٢٧.

كوسوڤو - ميتوهيجا، مقاطعة من صربيا تتمتّع بالحكم الذاتي، يشكّل المسلمون نسبة عالية من سكّانها تصل إلى تسعين بالمئة.

هذه المقاطعة التي يسكنها مهاجرون من أصل ألباني تضمّ المنطقة التي وقعت فيها معركتا كوسوڤو في عامي ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م و٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، وكانت النتيجة تثبيت الاحتلال العثماني للبلاد. أمّا عاصمة المقاطعة فهي مدينة پريشتينا التي تحافظ على معالم هندسيّة تعود إلى العهد العثماني. ضمّت هذه المدينة - على غرار

مدن سارايفو في البوسنة، وسكوبجي في مقدونيا، وتيتوغراد في مونتينغرو - المقرّ المركزي لواحدة من المناطق الأربع المستقلّة للإتّحاد الإسلامي الذي كان قائمًا داخل جمهوريّة يوغوسلافيا الفدراليّة. وقد تمتّعت كوسوفو باستقلال داخلي واسع ضمن يوغوسلافيا الفدراليّة منذ سنة ١٩٧٤. لكنّها خسرت هذا الامتياز سنة ١٩٨٩ مع التطوّرات التي نتج عنها تفكّك الفدراليّة. ووُجد سكّانها الألبان والمسلمون في حالة صدام مع صربيا التي تشكّل كوسوفو - ميتوهيجا جزءًا منها.

كُوسيداغ (معركة)، محرّم ٦٤١هـ/حزيران ١٢٤٣م، معركة بسط المغول بعدها حماية أولى على دولة سلاجقة الروم.

هذه المعركة التي تنقصنا المعلومات الدقيقة عنها جرت شمال غربي مدينة سيواس في وسط الأناضول. فقد أرسل الأمير المغولي «بايجو»، الذي كان يحكم المناطق القوقازيّة، جيشًا دحر قوّات السلطان كيخُسْرو الثاني، ما اضطرّ هذا الأخير إلى الخضوع، قبل أن تنجح سلطة مغوليّة أخرى، متمثّلة بالإيلخانيّين، في أن تضمّ إلى ملكها قسمًا كبيرًا من الأناضول.

◄ راجع المستند رقم ٢١

كُوشيار بن لَبان، أبو الحسن الجيلي، (القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد)، رياضي وفلكي إيراني، عمل في مدينة بغداد. وُلد في منطقة جيلان وانتقل إلى عاصمة الخلافة العبّاسيّة بغداد حيث وضع بحثًا مهمًّا في الرياضيات بعنوان «أصول حساب الهند»، وفيه يصف نظام العدّ اللاّكمّي، مع تطبيقه في العمليّات الأساسيّة الأربع، وفي استخراج الجذور التربيعيّة، وكسور النظام الستّيني. كما وضع جداول فلكيّة، وهي الزِيج، أتت أكثر دقّةً من تلك التي وضعها أبو الوفاء، وكذلك من تلك التي وضعها البتّاني.

الكوفة (الجمهوريّة العراقيّة)، من أهمّ المدن الإسلاميّة في القرون الوسطى في العراق، إشتهرت بتشيّع سكّانها، عرفت الضعف والخراب باكرًا، وأمست اليوم في عداد الأماكن السكانيّة الصغيرة.

أسّس الكوفة، سنة ١٧هـ/٦٣٨م على الفرات الأوسط، سعد بن أبي وَقّاص، في بداية الفتوحات الكبرى. وكانت في بداياتها، كمدينة البصرة، مركز تجمّع الجيوش العربيّة-الإسلاميّة المنطلقة نحو إيران. وقد تحوّلت سريعًا إلى مركز سكني دائم، يتطابق مع سياسة الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، ويخضع للقواعد التي وضعها: بقاء المسلم المنتصر بعيدًا عن السكّان الأصليّين؛ عدم استثمار المسلمين بأنفسهم الأراضي المحتلّة، عدم تشتّت المحاربين في الأراضي العراقيّة، والإتصال الدائم والمباشر بالجزيرة العربيّة التي كانت في ذلك الوقت قلب العالم الإسلامي.

والتجمّع السكّاني الذي وُجد بهذه الطريقة بُنيت مساكنه في البداية من موادّ خفيفة، وانتظمت المدينة بحسب مخطّط دقيق نسبيًّا. فالمسجد الجامع شُيّد في وسط المدينة، كما في البصرة، وبقربه مقرّ الحاكم. بعد ذلك توزّعت الأحياء على مختلف القبائل العربيّة، وكانت تفصل بينها خمس عشرة جادّة بعرض عشرين مترًا. ويبدو أنّ تلك القبائل كانت كثيرة العدد، وبينها نسبة كبيرة من عرب الجنوب، معظمهم من أتباع الإمام علي وقد انتموا في ما بعد إلى الشيعة. والخليفة الرابع نفسه جعل الكوفة مقرّه وسط جوّ سياسيّ كان يلائمه، وفيها مات قتلًا على يد أحد الخوارج.

تحوّلت الخيم والأكواخ التي انتشرت في البداية إلى مدينة حقيقيّة بين سنتي ٥٠ و٥٣هـ/٦٧٠ و٦٧٣م، في ظلّ الخلافة الأمويّة؛ واستعمل الوالي زياد بن أبيه الحجارة القرميديّة لتوسيع المسجد الجامع ومقرّ حكمه؛ كما نظّمت الأسواق لاحقًا على يد الوالي خالد بن عبدالله القَسْري، ١٠٥-١١٩هـ/٧٢٣-٧٣٧م، وارتفعت دور أبناء الخاصّة في قلب المدينة فوق أرض مُنحت لعددٍ من الأشخاص. وتشير المصادر إلى وجود مقابر قبليّة داخل المدينة لا خارجها كما قضت القاعدة لاحقًا، ويبدو أنّها استُخدمت أماكن للتجمّع. كما خُصّصت إحدى الساحات في ضاحية المدينة لهذه التجمّعات وأُطلق عليها اسم «كناسة»، وكانت تُستعمل أيضًا سوقًا لتجارة المواشي. أمّا سكّان المدينة في ذلك العصر، فلم تقتصر أجناسُهم على العرب، فمن المرجّح أن تكون قد وفدت إليها شعوب إعتنقت الإسلام

ومجموعات من أهل الذمّة ، وعاشت على مقربة من الفاتحين ، داخل مجموعة الأبنية التي لم تكن تحدّها الأسوار.

وفي مدينة الكوفة ، على أثر الثورة العبّاسيّة ، أُعلن السفّاح أوّل خليفة عبّاسي ، وجعل فيها جهازه الاداري. لكنّه هو نفسه وخليفته المباشر لم يستقرّا في هذه المدينة المتمرّدة والمضطربة ، إذ كان يحذر أتباع الشيعة فيها. ولمّا تسلّم المنصور الخلافة ، ترك تلك المنطقة نهائيًا إلى مدينته الجديدة بغداد. ولمّا لم تكن الكوفة قطّ مركزًا تجاريًا ناشطًا ، ولم يكن لها مستقبل سياسي واعد ، ضعفت وتراجعت بسرعة. وقد نهبها القرامطة في مطلع القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد. وفي العهد البويهي برز ، في القرب منها ، تجمّع سكاني فاقها بأهميّته ، وعُرف باسم النجف حيث ضريح الإمام علي. مع ذلك كانت المدينة ما تزال قائمة ، على الأقلّ حتّى القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد ، حين زارها الرحّالة ابن جبير وأشار إلى مسجدها الجامع وإلى قاعة الصلاة فيه المكوّنة من خمسة أروقة. وما تزال حتّى اليوم معالم أثرية لهذا المسجد ولمقرّ الحاكم ، وقد ساعد التنقيب على إبرازها. وعلى الرغم من تقهقرها الباكر ، ما تزال الكوفة تزهو بأمجاد الماضي ، بفضل الدور المهمّ الذي أدّته في بداية التاريخ الإسلامي ، إذ إنّها كانت نقطة انطلاق للحركات الشيعيّة في العصور الأولى. ففي العهد الأموي كانت ، في سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م ، ساحة الإعداد لمعركة كربلاء ؛ وفي سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م شهدت قيام ثورة المختار الذي كان قبره ما يزال موجودًا في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد ؛ وفي سنة ١٢١هـ/ ٧٣٩م إنطلقت منها ثورة زيد بن علي ؛ وتحوّلت بعد ذلك إلى مركز سرّي لِبثّ الدعوة العبّاسيّة. وهذه المدينة - التي كان يهيمن عليها رؤساء القبائل الذين كان بعضهم يعمل للثورة ضد بني أميّة ، وبعضهم الآخر يدافع عن الخلافة الأموية - عرفت كلّ أنواع الاضطرابات ، وكانت من الأماكن التي تقرّر فيها مصير الإسلام وأمبراطوريته. على الرغم من ذلك ، فقد استمرّ النشاط الفكري في الكوفة التي اشتهرت بحيويّة مدرستها اللغويّة التي واجهت مدرسة البصرة ، ما أفسح في المجال ، في ما بعد ، أمام تطوّر الأبحاث اللغويّة في بغداد ، خلال العصر الذهبي للثقافة العبّاسيّة.

◄ راجع المستندات ٨ ، ١٣ و٣٩.

كوك ألب ، ضيا ، ١٨٧٥-١٩٢٤ (**GÖKALP** (Zia) ، كاتب تركيّ ومفكّر مجدّد ، عايش أيام اليقظات الأخيرة لأمبراطوريّة العثمانيّين ، قبل أن يساند سياسة كمال أتاتورك ، محاولًا التوفيق بين مواقفه الإسلاميّة وقوميّة تركيّة غدا المنظّر لها.

ولد في ديار بكر واضطرّ ، بسبب آرائه السياسيّة ، بعد فترة دراسة في اسطنبول ، للرجوع إلى مسقط رأسه ، ثمّ انخرط في جماعة تركيا الفتاة في العام ١٩٠٨ ، وغدا عضوًا في «جمعيّة الاتّحاد والترقّي» ، ثم استاذًا لعلم الاجتماع في جامعة اسطنبول ، إبتداء من ١٩١٢.

انضمّ ، في أوّل أمره ، إلى الحركة الطورانية التي كانت تدعو إلى أمبراطوريّة تركيّة لا تقتصر على المناطق المأهولة بالأتراك ، بل تتعدّاها إلى الأراضي التي كانت تتكوّن منها الأمبراطوريّة العثمانيّة في العام ١٩١٤ ، لكنّه أخذ ، بعدئذ ، بالحركة القوميّة التركيّة التي قادها مصطفى كمال ، مساندًا بحيويّة حزب الشعب ، فانتخب نائبًا في الجمعيّة الوطنيّة الكبرى في أنقرة ، لكنّه توفّي قبل أوانه في اسطنبول ، مخلّفًا مجموعة من المؤلّفات الأدبيّة المهمّة ، بينها عدد وافر من المقطوعات الشعريّة.

كوكبان (الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة) ، محلّة قديمة محصّنة شمال غربيّ صنعاء ، كانت من قبل مركز مقاطعة.

إنّ الدور الذي أدّته كوكبان في التاريخ الإسلامي لليمن خلال القرون الوسطى يعود الفضل فيه إلى مركزها الإستراتيجي ، إذ تقع في منطقة جبليّة على ارتفاع ٢٦٠٠م. وفي العصر الحديث تحوّلت ملجأ لسلالة من الأئمّة الذين قاوموا العثمانيّين ، كما كان يلجأ إليها أئمّة صنعاء. وعبثًا حاصرها الأتراك سنة ١٥٦٩م ، ولم تستسلم إلّا صلحًا سنة ١٨٧٢ ، بعد حملة جديدة وقويّة قادها العثمانيّون إلى هذه المنطقة.

كُوكَنْد (جمهوريّة أوزبكستان) ، مدينة في فرغانة ،

كانت في القرن الثامن عشر عاصمة مملكة مستقلّة عُرفت باسم خانية كُوكند، تأسّست بعد ضعف الأوزبك الشيبانيّين.

تقاسمت هذه الإمارة النفوذ في آسيا الوسطى مع خانيَتي بُخارى وخيوه، وبلغت أقصى مدى من الإتساع في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، ما سمح لهذه المدينة التي أسّسها بابر أن تزدهر وتمتلك أبنية ما تزال تطغى، حتّى اليوم، على وجهها المعماري، ومنها المساجد والمدارس والأضرحة، فضلاً عن القصر الذي اكتمل بناؤه سنة ١٨٧١، وما يزال جديرًا بالاهتمام.

في سنة ١٨٧٦ خلع الروس خان كُوكند بعدما كانوا قد دخلوا طشقند سنة ١٨٦٥، وأسّسوا سنة ١٨٦٧ حاكميّة تركستان وضمّوا إليها فرغانة التي عُيّن لها مركز إداريّ جديد. ومع أنّ كوكند حُرمت من علاقاتها التجارية والسياسيّة مع كاشغر (كاشي)، فإنّها حافظت على أهميّتها التجارية، بالرغم من الإضطرابات التي عرفتها سنة ١٩١٨، وبقيت حتى عصرنا الحالي في تطوّر ونموّ.

◄ راجع المستند رقم ٣٥.

كُولْكُنْدَه (الاتّحاد الهندي)، وتعرف أيضًا باسم محمّد نِقار، قلعة في إقليم الدكّن الإسلامي، حازت شهرة لا مثيل لها، قبل تأسيس حيدر آباد في العام ٩٩٨هـ/١٥٩٠م، كعاصمة للقُطْبشاهيّين، ومنحت اسمها للمنطقة كلّها.

إنّ إقامة حصن، محاط بأسوار وباستحكامات، فوق هذا الموقع الطبيعيّ الذي يسهل الدفاع عنه، أتى بقرار من أحد ضبّاط البهمنيّين الطموحين الذي قرّر أن يُنشئ لنفسه مملكة مستقلّة في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. ولقد دمغت التوجّهات الدينيّة الشيعيّة لهذا العاهل وخلفائه، كما ميلهم إلى الثقافة الهنديّة، المدينة في مبانيها واختلاط الأساليب المعماريّة فيها. إلّا أنّ ما طبع في الأذهان الصورة التي عمّت، منذ ذلك الوقت، خارج العالم الإسلامي، عن كولكُنده وكنوزها، كان وفرة الرخاء الذي أصاب مجتمعًا مدينيًّا أثرى بفضل أنشطته التجاريّة وازدهار أشغاله الحرفيّة اليدويّة، ولا سيّما تجارة الماس الذي كان يُستخرج من مناجم كانت امتيازًا حصريًّا للدولة.

سقطت المدينة وضُمّت الى أمبراطوريّة المغول في العام ١٦٨٧، خلال حكم أورنكزيب، بعد انقضاء سنة على سقوط عاصمة العادلشاهيّين، بينجابور، التي كانت تنافسها.

◄ راجع المستند رقم ٣٣.

كولوغْلي، أو بشكل أصح كول أوغلي (إبن رقيق)، تعبير تركي أُطلق في الولايات العربية على الذين وُلدوا من أب تركي وأم عربيّة. وكان هؤلاء إجمالًا في مرتبة دنيا، لا يستطيعون الإرتقاء إلى مراتب عالية في الجيش. إلّا أنّ أفرادًا من ذوي الطموح السياسي استطاعوا، على الرغم من ذلك، أن يؤدّوا أدوارًا مهمّة في المغرب خلال القرن التاسع عشر، لا سيّما في تونس والجزائر وطرابلس الغرب. فالباي أحمد، مثلًا، الذي كان حاكمًا على مدينة قسنطينة منذ ١٨٢٦، والذي اصبح مستقلًا بعد عزل داي الجزائر، كان من أب تركي وأم جزائريّة.

الكويت، مدينة مرفئيّة على الخليج العربي، جعلتها أهميّتها الإقتصاديّة في العصر الحديث مركز إمارة آل الصباح، وأصبحت، سنة ١٩٦١، دولة مستقلّة.

١ - يعود تاريخ تأسيس الإمارة إلى القرن السابع عشر، حين طرد العثمانيّون بعض القبائل العربيّة من العراق: فاستقرّت في هذه المنطقة التي كان يسكنها الصيّادون والبدو. وقد عملت تلك القبائل على تأمين النهضة لمحلّة صغيرة ساحليّة منفتحة على التجارة البحريّة مع العراق وإيران الجنوبيّة. وحصل التطوّر بفضل أسرة آل الصباح التي تسلّمت مركز القيادة، ما جعل وجودها مهدّدًا من قبل العثمانيّين أسياد العراق، ومن قِبل وهّابيّي وسط الجزيرة العربيّة، في حين كان الأوروبيّون يسعون إلى التمركز في هذه المدينة التي تتمتّع بأهميّة إقتصاديّة واستراتيجيّة. وفي أواخر القرن الثامن عشر، فضّلت الشركة الإنكليزيّة للهند الشرقيّة الكويت على البصرة، لمدّة وجيزة، كنقطة وصول القوافل القادمة من حلب ووادي الفرات.

لم تفرض الحكومة البريطانيّة على الكويت، في سنة ١٨٢٠، الإمتناع عن تجارة الرقيق، كما فرضت

ذلك على إمارات الخليج الأخرى. وقد عقدت سنة ١٨٩٩ إتفاقًا مع الأمير يستفيد هذا الأخير بموجبه من الدعم البريطاني، شرط ألّا يتخلّى عن أيّ جزء من أراضيه لدولة أخرى. وهذا الإتفاق وضع المدينة في بداية مرحلة ازدهار سياسي ساعد الإمارة على التوصّل إلى الحكم الذاتي في قلب الأمبراطوريّة العثمانيّة، ثمّ إلى شبه استقلال بحماية بريطانيا العظمى، إلى أن كان اكتشاف البترول خلال الحرب العالميّة الأولى، ما وفّر للإمارة الغنى، وسمح لها بنيْل استقلالها الكامل.

٢ - إمارة الكويت الحالية: مساحتها ١٧٨١١ كلم²، عاصمتها الكويت، وهي دولة حديثة ومستقلّة، يبلغ عدد سكانها حوالى المليون نسمة جلُّهم من المسلمين.

هذه البلاد التي تحمل اسم عاصمتها وتشمل عددًا من الجزر، منها جزيرة فَيْلكا، لها حدود مشتركة مع الجمهوريّة العراقيّة من جهة، ومع المملكة العربيّة السعوديّة من جهة ثانية. وكانت حدودها الشماليّة قد تثبّتت، سنة ١٩١٣، بموجب اتفاق عُقد مع السلطات العثمانيّة، لكنّه لم يدخل قطّ حيّز التنفيذ. ولم تُثبّت حدودها بشكل دقيق إلّا في سنة ١٩٢٣، بدعم من بريطانيا العظمى التي كانت تحتلّ العراق بصفة دولة منتدبة. وكانت بريطانيا قد أعلنت سابقًا، منذ العام ١٩١٤، أنّها تعترف بالكويت دولة مستقلّة تحت حمايتها.

بعد الحرب العالميّة الثانية أصبحت الكويت بين الدول الأولى المنتجة للبترول، وهذا ما أثار طمع الجمهوريّة العراقيّة التي رفضت، في البدء، الاعتراف بها، عندما حصلت على استقلالها التام في العام ١٩٦١. وقد رُفع الخلاف إلى مجلس الأمن التابع لمنظّمة الأمم المتّحدة، فوُجدت له التسوية، لكنّه عاد إلى الواجهة مجدّدًا سنة ١٩٩٠. ولم يتردّد العراق في اجتياح الكويت، فأجبرته الولايات المتّحدة الأميركيّة، بمساعدة حلفائها، على الانسحاب منها. واستعادت البلاد بعد ذلك نظامها الأميري الذي فرضه آل الصباح ورمّمت إقتصادها البترولي، وخفّضت، بشكل جذري، عدد الأجانب الذين يُسمح لهم بالإقامة داخل الدولة.

كيخسرف، كيخُسْرو باللغة الفارسيّة، اسم أُخذ من تاريخ الميتولوجيا الإيرانيّة وحمله ثلاثة سلاطين من أسرة سلاجقة الروم. وقد تبنّى ثلاثتهم لقب غياث الدين، وهي تسمية عربيّة تشريفيّة.

١ - غياث الدين **كيخسرف الأوّل**: هو ابن عزّ الدين قلج أرسلان الثاني، ملك ما بين سنتي ٥٨٨ و٦٠٨هـ/ ١١٩٢ و١٢١١م، مع انقطاع عن الحكم بين سنتي ٥٩١ و٦٠٠هـ/ ١١٩٥ و١٢٠٤م. كان واحدًا من كبار سلاطين أسرة استطاعت أخيرًا أن تثبّت أركانها وتسلك طريق الإزدهار. وقد لقي صعوبة في إخضاع إخوته عند موت والده سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، فلجأ إلى مقاطعة أولوبورلو القريبة من الحدود البيزنطيّة حيث كانت له تحالفات متينة. ثمّ أعاد توحيد مملكته سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، بعد وفاة ركن الدين الذي كان قد أخلى له المكان لفترة. ومن أجل توسيع حدوده وتثبيت سلطته، اغتنم ضعف البيزنطيّين بعد سيطرة الفرنج على القسطنطينيّة مع الحملة الصليبيّة الرابعة، واعتنى بسلسلة خانات القوافل على الطرق التجاريّة الداخليّة، ونجح في السيطرة على مدينة أنطاليا المرفئيّة الواقعة على الساحل الجنوبي للأناضول. بذلك فتح أوّل منفذ متوسّطي أمام النشاط التجاري للسلطنة السلجوقيّة وحسّن علاقة دولته مع تجّار البندقيّة الذين منحهم إمتيازات خاصّة، كما تدخّل في شؤون مملكة نيقية (إزنيك) اليونانيّة، لكنّه قُتل خلال إحدى المعارك مع البيزنطيّين سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م، تاركًا السلطنة لولده عزّالدين كَيْكاووس الأوّل.

٢ - غياث الدين **كيخسرف الثاني**، خلف والده علاء الدين كيقُباد الكبير سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م، وتُوفي سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م، وعايش بداية ضعف سلالته التي كانت قد وصلت قبله إلى ذروة قوّتها. فقد اتّسم ملكه، في بدايته، بسلسلة أعمال وإعدامات عنيفة، وأصرّ على بسط سلطته على منطقه أميدا (ديار بكر) الإستراتيجيّة، كما برز حاميًا وراعيًا لرجال الفكر. لكنّه اصطدم بسلسلة من الفتن الداخليّة، إلى أن هُزم في معركة كوسيداغ سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م ضدّ المغول الذين فرضوا عليه سلطتهم.

٣ - غياث الدين **كيخسرف الثالث**، اعتلى العرش وهو لا يزال صبيًّا، وملك ضعيفًا بين سنتي ٦٦٤-٦٨٣هـ/ ١٢٦٥-١٢٨٥م، تحت حماية الإيلخانيّين الذين أوعزوا أخيرًا بقتله.

الكيسانيّة، فرقة إسلامية برزت عند بدايات الشيعة ودعمت الثورة التي أعلنها المختار في الكوفة، حوالي سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م، لمصلحة محمّد بن الحنفيّة، وانبثق منها عدد من الفرق المتطرّفة.

لقد تبنّى أنصار المختار، الذين ضمّوا عددًا من ممثّلي الأسر العربيّة الكبيرة وكثيرين من الموالي الإيرانيين، أفكارًا تحمل طابع البدع، وهذه الأفكار انتقل بعضها إلى فرق شيعيّة لاحقة. فقد كانوا يعتقدون أنّ محمّدًا بن الحنفية لم يمت، وإنّما انزوى في أحد الجبال، وسيرجع يومًا بصفة مهديّ. إنّ ظاهرة عودة المهدي المنتظر هذه، الأولى في الإسلام، حرّكت قرائح عدد من شعراء ذلك العصر، ومنهم كُثيِّر عَزَّة والسيّد الحِمْيَري. كما يرى أتباع الكيسانيّة أنّ الله يمكن أن يغيّر رأيه، وقد طلعوا بهذه الفكرة لتبرير فشل الثورة. وتبنّى بعضهم أفكارًا ومواقف أدّت الى ولادة فرق جديدة، كالهاشميّة التي تبع أصحابها أبا هاشم، ابن محمد بن الحنفية، ونادوا به إمامًا. وبعد موت أبي هاشم انقسم أتباع الهاشميّة بين مؤيّد لأخيه علي ومؤيّد لأحد المطالبين بالخلافة من بني العبّاس، زعم أنّ أبا هاشم جعله وريثه. وانضمّ عدد من الكيسانيّين إلى المدعو إبن حرب الذي كان في أساس الفرقة الحربيّة التي اعتقدت بتجسيد روح الله، كما اعتقدت بالتقمّص. كذلك أيّد آخرون المدعو بيان، فكانت البيانيّة التي رأت في مؤسّسها نبيًّا مكلّفًا إبطال الشريعة. فالمعتقدات التي تبنّاها لاحقًا غلاة الشيعة كانت قد نبتت باكرًا في أوساط أتباع الكيسانيّة الذين كانوا سبّاقين في نشر أفكارهم وتنظيم دعوتهم.

كيقُباد، اسم أخذ من التقاليد الإيرانيّة وحمله ثلاثة من سلاطين سلاجقة الروم وتبنّى ثلاثتهم لقب علاء الدين.

١ - علاء الدين **كيقُباد الأوّل**، حكم من سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م إلى سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م وكان ملكًا قديرًا قويًا ذا هيبة وسطوة، بلغت معه السلالة أوْجها. خلف أخاه كيكاووس الأوّل واستطاع، في السنوات الأولى من الحكم، أن يوسّع رقعة دولته باتّجاه الجنوب والشمال والشرق. ومن مملكةِ أرمينيا الصغرى انتزع موقعًا مرفئيًا على أقدام جبال طوروس، عُرف في ما بعد باسم علانيا على شاطئ المتوسّط. أعطى المدينة اسمه، فسميت علائيّة وجعلها مقرًّا شتويًا له. وبعدما استولى على إمارة بني منكوجك في أرزنجان، وعلى أراضي بني أرْتُق في خربوت، نجح في التصدّي للخوارزميّين بمساعدة حلفائه الأيوبيّين في سوريا، وفي بسط سيطرته على منطقتي أرضروم وأخلاط. أمام هذا النجاح، جهّز الملك الأيوبي الكامل حملة لمحاربته ولكنّها هُزمت سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م، ما سمح لعلاء الدين بالتوغّل حتّى المناطق العليا من نهر دجلة. وقد توفّي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م، فلم يدرك تاليًا أنّ نجاحه العسكري واتّساع ملكه سيُقوَّضان مع وصول المغول الذين انتصروا على ولده سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م في معركة كوسيداغ.

تميّز علاء الدين كيقباد باتّباع سياسة توسّعيّة، وكان آخر سلطان مستقلّ في دولة عرفت الغنى بفضل نشاطها التجاري وبفضل المبادلات التجاريّة بين أوروبا وآسيا بواسطة البنادقة الذين أقامت معهم علاقات وثيقة. وقد ساعدته الظروف على أن يرعى الفنون والآداب، وأن يبني المساجد والمدارس وخانات القوافل، فضلًا عن القصور كالتي في قونية، وفي الكيقبادية قرب قيصرية، وفي كوداذباد قرب بَيْشهر.

٢ - علاء الدين **كيقباد الثاني** وعلاء الدين **كيقباد الثالث**: لم يدم حكم هذين السلطانين إلّا وقتًا قصيرًا، في مملكة كانت قد أصبحت عمليًا تحت سلطة الإيلخانيّين المباشرة.

كَيْكاووس، اسم أُخذ من الميتولوجيا الإيرانيّة وحمله اثنان من سلاطين سلاجقة الروم، وكلاهما تلقّب باسم عزّ الدين.

١ - عزّالدين **كيكاووس الأوّل**، ملَكَ من سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م الى سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، بعدما خلف والده غياث الدين كيخسرف الأوّل. أفاد من المكتسبات السياسيّة السابقة وعمل على دفعها في الإتّجاه عينه، فوسّع ملكه وطوّر الحركة التجاريّة. كما عمل على أن يستقر السلام مع بيزنطيّي نيقية (إزنيك) من أجل أن ينصرف إلى الجبهات الأخرى، وهذا ما جعله ينجح في الاستيلاء على مرفإ سينوب على البحر الأسود وإقامة علاقات بحريّة بشبه جزيرة القرم. وإذا كان قد عجز عن

الاستيلاء على مدينة حلب بعد موت الملك الظاهر الأيوبي سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م، فإنّه في المقابل وسّع نفوذه في المنطقة وأقام علاقات طيّبة مع الخليفة العبّاسي الناصر. إلى جانب ذلك، أظهر اهتمامًا بالنشاط التجاري وبالأعمال الحرفيّة، فبنى خانات إضافيّة للقوافل، ووقّع اتّفاقات جديدة مع البنادقة. وقد عرف كيف يرعى الفنون والآداب، فبنى المساجد وشجّع الحركة الأدبيّة باللغة الفارسيّة، وأبدى اهتمامًا بحركة التصوّف التي كان يمثّلها إبن العربي.

٢ - عزّ الدين **كيكاووس الثاني**، هو ابن كيخسرف الثاني وقد ورث منه المُلك. لم يكن يتمتّع، في ظلّ حكم الإيلخانيّين، إلّا بسلطة ضعيفة، كما جاء ملكُه المضطرب متقطّعًا بين سنتي ٦٤٤-٦٥٥هـ/١٢٤٦-١٢٥٧م. وقد تقاسم المملكة مع أخويه، وكانا قاصرين مثله، في حين أنّ كبار الدولة كانوا يحكمون باسم الثلاثة. ثمّ لزم عزّ الدين المنطقة الغربيّة من الأناضول مرتاحًا إلى أبنائها كون أمّه من أصل يوناني، في حين أنّ أخاه الذي بقي على قيد الحياة اعتمد على المغول في المنطقة الشرقيّة. أخيرًا لجأ نهائيًّا إلى القسطنطينيّة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وتوفّي في شبه جزيرة القرم سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، من دون أن يستطيع استعادة عرش قونية.

كينيا (جمهوريّة)، مساحتها ٦٤٠ ٥٨٢ كلم² وعاصمتها نيروبي. دولة مستقلّة حديثة، ولدت من مستعمرة بريطانيّة سابقة في أفريقيا الشرقيّة السوداء، وفيها أقلّية مسلمة تبلغ حوالى ثمانية بالمئة من السكّان البالغ عددهم خمسة وعشرون مليون نسمة تقريبًا.

هذه الأقليّة المسلمة هي ما تبقّى من الماضي في دولة تُجاور شرقًا دولةً ساحليّة إسلاميّة كجمهوريّة الصومال الديمقراطيّة، وتضمّ، في الداخل، مناطق غير إسلاميّة لها حدود مشتركة مع جمهوريّات الحبشة والسودان وأوغندا وتنزانيا. إنّ المناطق القريبة من المحيط الهندي تسكنها غالبيّة مسلمة، وفيها نمت ثقافة إسلاميّة قديمة. ومنذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، أقيمت فيها وكالات تجاريّة أمّنت لها الغنى من التجارة البحريّة، وكانت في أساس تكوين أُسر محليّة حاكمة في مدن مستقلة بعضها عن بعض، في لامو ومالندي وموماسا وغيرها. وقد أدّى التطوّر الإقتصادي لاحقًا، قبيل التوسّع الإستعماري في القرن التاسع عشر، إلى خراب هذه المدن التي ضُمّت، تحت رقابة سلاطين عُمان، إلى منطقة أكثر اتّساعًا مرتبطة بجزيرة زنجبار. وهذا ما ساعد على استمرار مجموعات سُنّية مهمّة على الساحل تنتمي إلى المذهب الشافعي، وهي تحافظ اليوم على كيانها ويُطلق على أصحابها إسم العرب السواحليّين.

إلى هؤلاء أضيف، في أواخر القرن التاسع عشر، عدد من المسلمين المهاجرين، جلُّهم من أصل هندي، ينتمي بعضهم إلى الشيعة الإمامية، بينما تنتمي أغلبيّتهم إلى الإسماعيلية وتفرّعاتها، منهم نزاريّون سابقون كـ«الخوجا» اتباع الآغا خان، ومنهم مجموعات تعود بأصلها البعيد الى الفاطميّين، أمثال البَهرة.

وقد نتج عن هذه المعطيات وضع ديني تعقّد مع التدخّلات الأوروبيّة، وخصوصًا مع سيطرة بريطانيّة لمدّة طويلة، من سنة ١٨٩٠ الى ١٩٦٣. ولم يشهد الإسلام أيّ توسّع جديد، وبقيت جهود انتشاره عاجزة عن تجاوز المناطق الساحليّة. وقد قامت حركة على أيدي مسلمين من التجّار والجنود العاملين في الإدارات المحلّية ضمن المدن، كمدينة نيروبي، ولكنّ تأثيرها لم يدم طويلًا. ويبدو أنّ سكان السواحل لم يُظهروا ميلًا إلى الدعوة إلى دينهم، كما أنّهم لم يؤيدّوا التيّارات الحديثة أو الإصلاحيّة، سواء كانت محاولات محلّية كالتي قام بها الشيخ الأمين المزروعي، أم كانت خارجيّة كالتي عُرفت باسم الأحمديّة. حتّى إنّ الأنشطة الفكريّة التي شجّعها الآغا خان بقيت محصورة في مدينة مومباسا المرفئيّة، ولم يستطع تأثيرها الوصول الى المناطق البعيدة.

◄ راجع المستند رقم ٢٨.

ل

اللاذقيّة (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، مدينة ساحليّة شمال سوريا. بعد أن عرفت قدرًا متقلّبًا في القرون الوسطى، أصبحت اليوم المرفأ السوري الوحيد المهيّأ لحركة التجارة العالميّة.

بعد ان كانت تابعة لأمبراطوريّة الخلفاء خلال الفتوحات العربيّة – الإسلاميّة الكبرى في القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي، أصبحت، لفترة، بيزنطيّة في سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠م. ثمّ احتلّها الفرنج مرّة أولى سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، ومرّة ثانية سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م. سمّيت لانيش (La Liche) وتبعت إمارة أنطاكية، إلى أن استعادها صلاح الدين في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. احتفظت بدورها الإقتصادي تحت حكمه وحكم خلفائه الأيوبيّين في سوريا ومصر. استحصل فيها تجّار البندقية، في سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، من أمير حلب الملك الظاهر، على خان وحمّام وكنيسة. ثم استقرّ فيها تجّار جنوى عندما عادت، في سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، بعد غزو المغول، إلى أيدي الفرنج الذين تمكنّوا من البقاء فيها بموجب اتفاق مع السلطان بيبرس، بشرط أداء إتاوة. وفي سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، بعد ان كان قد دمّرها الزلزال، استعادها المماليك، وجعلوا منها مركز قضاء لولاية طرابلس حيث كان النصيريّون الذين سمّوا في ما بعد بالعلويّين قد أخذوا في الانتشار. في القرن السادس عشر، دخلت اللاذقيّة تحت سيطرة العثمانيّين، وكانوا قد ضمّوا سوريا إلى امبراطوريتهم. في القرن العشرين، كانت تابعة أوّلًا لولاية بيروت العثمانية وحصلت، في العام ١٩٢٢، في ظلّ الانتداب الفرنسي على سوريا، على وضع إداري جديد جعل منها إحدى المدن الأساسيّة لدولة العلويّين التي كان قد تمّ إنشاؤها. إلّا أنّ أهميّتها ازدادت بعد العام ١٩٣٩، عندما جرى التخلّي لتركيا عن سنجق إسكندرون، إذ أصبحت المنفس السوري الوحيد على البحر. اعتبارًا من العام ١٩٤٨، نُفذّت فيها أشغال أدّت الى إنشاء المرفإ الكبير الحديث الحالي.

◄ راجع المستندين ٩ و١٨.

لاس ناڤاس دي تولوزا (معركة، وتُعرف بالعربيّة بهزيمة العِقاب)، ١٥ صفر ٦٠٩هـ/١٨ تموز ١٢١٢م، هزيمة حاسمة في الأندلس لجيش محمّد الناصر، الخليفة الرابع من سلالة الموحّدين، تحت ضربات تحالف مسيحي مهمّ.

وقف ملكا ناڤار وأراغون إلى جانب الملك ألفونس الثامن الذي كان يسعى لمحو ذكر النصر الإسلامي السابق في معركة الأرك. حصل الإلتحام في مقاطعة ثيوداد ريل الحاليّة، في مكان يدعى بالعربية العقاب، بعد فترة من تحضير وتجميع لقوّات المتطوّعين المسيحيّين والمسلمين الآتين غالبًا من أمكنة بعيدة. وكان الإلتحام في مستوى الوسائل المعتمَدة، فشكّل بدء نهاية السيطرة الإسلاميّة على الأندلس، هذا الجزء من شبه الجزيرة الإيبرية المحتلّة منذ خمسة قرون الذي أخذت مساحته تتقلّص نتيجة الهجمات المتعاقبة خلال حروب الإسترداد.

◄ راجع المستندين ١٦ و١٩.

لامو (جمهوريّة كينيا)، مدينة ومرفأ على المحيط الهندي على الساحل الشرقي لأفريقيا السوداء. كانت، في قلب الجزيرة والأرخبيل اللذين يحملان اسمها، محطة تجاريّة للملاحة الإسلاميّة منذ القرون الوسطى.

وإذ تقاسمت هذا الدور مع الجزيرتين المجاورتين

ماندا، وخاصة بات التي يُعتقد أنّها خضعت للسلالة الحاكمة نفسها، ربّما أوت لامو، في شمال موقع ماليندي، سلطنة محليّة قد ترقى بحسب النصوص السواحليّة إلى الأمويّين؛ لكنّها لم تترك أي نقوش عربيّة أو أيّة آثار تعود إلى ما قبل القرن الرابع عشر للميلاد. بدأ انحطاطها حوالى العام ٩١٢هـ/١٥٠٦م، متزامنًا مع انشاء البرتغاليّين مقاطعة تابعة لهم، تقاسموا السيادة عليها، في نهاية القرن السادس عشر، مع العثمانيّين، مجرّدين غزوات تخطّت إريتريا والساحل الصومالي. ابتدأت مرحلة إقتصادية جديدة في العام ١٦٥٨ عندما ألحق المرفأ، بطريقة غير منضبطة، بمنطقة بحريّة تابعة لعُمان، الى أن مارس الحكم، في العام ١٨١٢، أحد أكبر حكام عائلة آل بو سعيد الذين كانوا آنذاك سلاطين مسقط وزنجبار. كان ذلك بداية مرحلة ازدهار كبير لمدينة لامو، رافقه ازدهار ثقافي. إلّا أنّها فقدت في القرن العشرين حيويّتها التجارية لمصلحة مومباسا، ولم تحتفظ إلا بأهميّتها مركزًا دينيًّا للتعليم الإسلامي.

◄ راجع المسند رقم ٢٨.

لاهور (جمهوريّة باكستان الإسلاميّة)، ثاني المدن الباكستانيّة أهميةً بعد كراتشي. احتفظت بدورها الإستراتيجي عاصمةً للبنجاب المسلم.

إنّ موقعها في منطقة الهندوس الأعلى، عند الممرّات الجبليّة التي تفذ منها إلى شمال الهند الغزاة المسلمون الآتون من المرتفعات الإيرانيّة، يفسّر جزءًا من تاريخها. فبعد احتلال المنطقة، إنطلاقًا من السند، في أيام الغزوات الكبرى التي حظيت خلالها مدينة ملتان بدور بارز، استعادت لاهور أهميّتها بعد الهجمات التي شنّها الغزنويُّون، وأصبحت العاصمة الثانية للأمبراطوريّة التركيّة - الإيرانيّة - الهنديّة التي انبثقت من غزوات محمود، في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، والتي حكمها خلفاؤه. لجأ إليها هؤلاء بعد سقوط غزنة في سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، إلى أن نجح الغوريّون المنتصرون عليهم، بدورهم، في السيطرة على المدينة في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وفي جعلها مركز سلطة ما لبثت أن امتدّت إلى سهل الغانج، بفضل مبادرات الضباط المماليك التابعين للغوريّين.

وبعد أن اختيرت لاهور مقرًّا للسكن، غادرها الحكّام الجدد المنتمون الى سلالة سلاطين دلهي ليتّخذوا من هذه المدينة عاصمةً لهم، بعد إعلان استقلالهم في سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م، وليحكموا شمال الهند باسم «المعزّيّين» أو «الملوك - العبيد». ثم غدت مقرًّا لحكّام آخرين، واستمرّت عرضةً لهجمات من الجبال العالية الشماليّة الغربيّة سواء من قبل المغول، في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، أو من قبل عصابات تركيّة مختلفة، حتّى احتلال تيمورلنك لها في العام ١٣٩٨م. لكن ظلّت تثير مطامع أسياد كثيرين تعاقبوا على حكمها، بمن فيهم الأفغان. وبرزت خلال تلك الفترة المدينة الكبرى في البنجاب والمركز الناشط للدعوة الإسلامية. فإليها كان يقصد ومنها كان ينتشر، كما من مدينة ملتان، عدد كثير من المتصوّفين الآتين من إيران وآسيا الوسطى ليعملوا على نشر عقيدة إسلاميّة مدموغة بتعاليم الصوفيّة. وما يزال أقدم هؤلاء، وهو الهُجويري المُسمّى أيضًا داتاگنج بخْش، يكرّم في ضريحه القائم فيها على أنه وليُّ المدينة.

ثم تعاقبت على لاهور احتلالات، بينها احتلال بابُر في سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م الذي لم يدم طويلًا، تلاه احتلال ابنه هُمايون الذي استردّها في سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٥م، ممهّدًا لمرحلة مجيدة تحت حكم السلالة المغوليّة. شهدت لاهور الازدهار خلال حكم أكبر الذي جعل منها قاعدة حملاته إلى كشمير والسند أو قندهار. وعندما أصبحت عاصمة الأمبراطوريّة ومقرًّا لبعض الحكام من أمثال جهانگير، إبتداء من سنة ١٠٣١هـ/١٦٢٣م، ولاحقًا شاه جهان. وغدت «مقرّ السلطنة» في عهد أورنگزيب»، وإن يكن سكنه فيها لم يطل مثل سَكن أسلافه. نعمت مدينة لاهور خلال تلك الحقبة بازدهار إقتصادي عزّزه دورها الإداري المهمّ. كما أنّها استمرّت مقصدًا لمتصوّفين معروفين ما تزال أضرحتهم معروفة ومكرَّمة، مثل ضريح ميان مير من الطريقة القادريّة، وهو الذي أُعجب به الأمير دارا شكوه، أحد أبناء شاه جهان الذي لم يوفّق في الوصول إلى العرش.

وتشهد على غنى لاهور المميّز، في تلك الحقبة - وهو عائد، في جزء منه، إلى فضل الأباطرة عليها -

مبانٍ ما تزال تشكّل حتّى اليوم مجموعة من الإنجازات المغوليّة الرائعة. واقع الأمر أنّ القلعة أو القصر الملكي المحصّن الذي بدأ بناءه «أكبر» في موقع جرى اختياره في عهد الغزنويّين والغوريّين، ما تزال تشرف على وسط المدينة بأسوارها وأبوابها الضخمة المحيطة بمساحة متّسعة مستطيلة. إنّ التصميم الداخلي الفاخر للأجنحة الملكيّة، من قاعات استقبال واسعة ومقصورات تفضي إلى حدائق، يتضمّن، على الرغم من ترميمات متأخّرة، عناصر معماريّة تعود إلى عهد جهانكير وبخاصة إلى شاه جهان الذي أمر، مثلاً، حوالى سنة ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م، بإقامة بناء من الرخام الأبيض هو أوّل «مساجد الجوهرة» أو «موتي مسجد» التي سيقام مثلُها لاحقًا في «قلعتي» دلهي وأغرا. وفي المدينة نفسها التي كانت قديمًا محاطة بالأسوار، بنيتْ مساجد عدّة بينها مسجد وزير خان، وخاصة مسجد پادشاهي الذي أمر ببنائه أورنگزيب في سنة ١٠٨٤هـ/١٦٧٣م، وهو يفوق بنوعيّته المسجد المغولي الكبير في دلهي. ومن الأضرحة التي ما يزال معظمها قائمًا في وسط حدائق أُعيد ترميمها، تجدر الإشارة إلى ضريح جهانكير الذي انتهى العمل فيه في سنة ١٠٧٤هـ/١٦٣٧م، وضريح زوجته نور جهان.

إلّا أنّ أوّل أُفول لقدرة المغول، كان من شأنه أن عرّض عاصمة البنجاب لهجمات السيخ والمُهْرة ولاجتياحات قام بها الفارسي نادر شاه والأفغاني أحمد شاه من سلالة الدُّرّانيّين، وذلك من دون أن يستطيع حكّام دلهي التدخّل بفاعليّة. إنّ الانتصار النهائي للسيخ مكّن رئيسهم رانجيت سِنغ الذي أُعلِن ماهاراجا البنجاب في العام ١٨٠٢، من الاستقرار، بدوره، في لاهور والسعي إلى النهوض بها. لكنّ خلفاءه خسروها بشكل نهائي في العام ١٨٤٩ لمصلحة البريطانيّين الذين قدّروا قيمتها الإستراتيجيّة. حينذاك عرفت لاهور مصيرًا جديدًا إذ إنّها شهدت نموًّا ديموغرافيًا واقتصاديًا قويًّا وأصبحت في موازاة ذلك أحد مراكز النشاط السياسي الإسلامي، خلال الفترة المضطربة التي سبقت تقسيم العام ١٩٤٧. وكانت في الوقت نفسه مقرًّا لتعليم محمّد إقبال وفكره، وقد دُفن فيها بعد موته في العام ١٩٣٨. على الرغم من مطامع السيخ الذين حلموا بدولة خاصة في المنطقة، أصبحت لاهور، بعد أن تمّ ضمّها إلى باكستان الغربيّة، مدينة ناشطة ومركزًا لمقاطعة البنجاب الجديدة منذ العام ١٩٧٠.

◄ راجع المستندات ٢٣، ٣٠ إلى ٣٣ و٣٥.

لاوُن الأفريقي، عُرِف بهذا الإسم في الغرب المسيحي **الحسن بن محمّد الوزّان**، ٨٩٤-٩٥٧هـ/١٤٨٩-١٥٥٠م، صاحب كتاب «وصف إفريقية» الشهير.

ولد في غرناطة قبيل استعادة هذه المملكة من قبل المسيحيّين، وهاجر الى المغرب حيث نشأ في فاس، ثمّ قدّر له أن يسافر إلى أفريقيا السوداء وصولاً الى تومبوكتو، كما إلى الشرق. قُبِض عليه في جربة قراصنة من صقلّية واقتادوه إلى روما حيثُ قُدّم للبابا لاون العاشر الذي أقنعه باعتناق الدين المسيحي وعمّده في العام ١٥٢٠م، مانحًا إيّاه اسمه الخاص وهو يوهانس لاون دو ميديتشي. يبدو ان المعتنق الجديد للمسيحيّة عاد في ما بعد الى تونس قبل العام ١٥٥٠م حيث قضى سنواته الأخيرة على دين الإسلام.

من أشهر مؤلّفاته «وصف أفريقيا» الذي أنهى كتابته في العام ١٥٢٦م بلغة إيطالية رديئة، فقوّم بيانه راموزيو في العام ١٥٥٠م، ونسبه إلى المدعو جيوفاني ليو الأفريقي الذي أصبح لاوُن الأفريقي. تُرجم الكتاب إلى الفرنسيّة ولغات أخرى، وهو مصدر معلومات ثمينة حول الحياة الإجتماعيّة في المغرب في القرن السادس عشر، كما في الجزائر وتونس ومصر و«بلاد الزنوج» أو السودان الساحلي.

اللباس (طُرُز - الإسلامي)، عادات تجذّرت شيئًا فشيئًا على مدى القرون الوسطى، من دون أن تلحق الضيم بتنوّع الطرز المعروفة لدينا بحسب العصور والمناطق والتي لم تغب فرادتها إلّا مع تحوّلات العصر الحديث.

وعلى الرغم من أنّ الإسلام لم يفرض، في بداياته، لباسًا خاصًا على أتباعه، وأنّ التقاليد العربيّة المتكيّفة مع المناخ الصحراوي ومتطلّبات حياة البداوة انتقلت بيسر إلى الأوساط الإسلاميّة بعد الفتوحات الكبرى، فقد انتشرت، على نطاق واسع، بعض العادات في

أمبراطورية الأمويين ، وأثرت على التطوّر اللّاحق لألبسة المسلمين القروسطيّة .

ثمّة سُنّة رُوعيت على نطاق واسع وهي أنه فُرض على غير المسلمين احترام بعض القواعد التي تسمح بتمييزهم من خلال مظهرهم . وهناك أخرى لم تكن أقل انتشارًا كانت تفرض على المسلمين اعتمار غطاء الرأس الذي يلائم الحركات الطقسيّة للصلاة .

أخيرًا هناك خاصّة ثالثة تجلّت في اتخاذ ملابس رسميّة مطرّزة ومقصّبة بالذهب تدعى «الطّراز» ، وقد تزيّن بها الحكّام منذ ذلك الوقت ، وكل الذين يحيطون بهم ، لأنّ الخلفاء وممثّليهم اعتادوا ، ليس تقليد البلاطات الملكيّة الشرقيّة بفخامة لباسهم البهيّة الرسميّة فحسب ، بل أيضًا تقديم أثواب الشرف المصنوعة في مشاغل الدولة لكلّ الذين يريدون مكافأتهم ، بحيث يتسنّمون منها سلّم مكانتهم الإجتماعيّة في الدولة .

وبعد انقضاء فترة وجيزة ، خلال العصر العبّاسي الذي شهد تطوّرات في رسوم البلاط ورسميّاته ، أُدخلت الألبسة الخاصة على بعض الوظائف الرسميّة ، فكان يرتدي أعضاء الحرس والتنظيم العسكري معطفًا قصيرًا يدعى القباء ، وانماز الإداريّون والكتّاب الآخرون بثوب طويل مُقفَل من الأمام يدعى الدُّراعة ؛ أمّا القضاة والفقهاء ورجال الدين فاعتمروا الطيلسان دلالة على منزلتهم . ثمّ أُدخلت تعديلات على الأزياء البغداديّة في المراكز الثقافيّة الجديدة في الدول التي نشأت آنذاك . بعض هذه التعديلات نتج عن تأثيرات محليّة ، كالحفاظ على ارتداء البرنس في المغرب ، وبعضها الآخر عن تسرّب عادات جديدة أدخلها الفاتحون ، منها تبنّي لباس الخيّالة الخاص بالبدو الآسيويّين من الأتراك والمغول . لكن في المناطق الحارّة التي شكّلت قلب العالم الإسلامي ، بقيت ، حتّى وقت قريب ، عادة ارتداء الثياب الواسعة الفضفاضة التي تختلف كثيرًا عن الثياب الغربيّة ، والتي اعتبرها الأوروبيّون من مميّزات المجتمعات الإسلاميّة . إلّا أنّ اللباس التقليدي الذي حافظت عليه الطبقات الشعبيّة في ذلك العصر ، أُهمل شيئًا فشيئًا من قِبَل الطبقات الحاكمة التي حافظت على بعض نماذج أغطية الرأس الخاصة ، كالطربوش عند العثمانيّين أو الكوفيّة عند البدو .

لكن ، ممّا لا شكّ فيه ، أنّ بعض خصائص اللباس في البلدان الإسلاميّة اتّخذ دلالات دينيّة بارزة . فبعضها كان يتعلّق ، في القرون الوسطى ، بطبقة المتصوّفين والزهّاد الذين كانوا يتميّزون غالبًا بثوب من الصوف ، استحقّوا من خلاله لقب الصوفيّين . نستطيع ، بالتحديد ، أن ننسب إلى احترام العادات والمتطلّبات الخاصّة بالإسلام ، تبنّي النساء خمارًا يغطي تقريبًا الوجه وهو يخفي أسفله أحيانًا ، وأحيانًا أخرى الجسم بكامله ، ويحمل بحسب المناطق اللغويّة أسماء متنوّعة وهي ، بالعربيّة : الحجاب ، والخمار ، واللثام ؛ كما يحمل ، في اللغة الفرنسيّة أسماء كـ«النشادر» (tchador) و«الشرشف» (tcharchaf) ، مع العلم أن الأول هو من أصل فارسي والثاني من أصل تركي .

تتعلّق أخيرًا بنموذج العمرة الذكوري قيمة رمزيّة خاصّة ، وقد غدا هذا النموذج ، مع مرور الوقت ، النموذج الإسلامي المميّز ، أي العمامة المؤلّفة من قبّعة مجوّفة تلفّها قطعة قماش تطول أو تقصر بحسب الظروف . وتبدو الكلمة ذاتها المستعملة حصرًا في اللغات الأوروبية (turban) متحدّرة من اللغة الفارسيّة «دولبند» ، وتعادل في اللغة العربيّة لفظة العمامة ولفظة الـ «صارك» التركيّة . لكنّ العمرة التي نحن بصددها يعود أصلها ، من دون شك ، إلى الشرق القديم ، وغالبًا ما اكتسبت معاني مختلفة مبرّرة ، إستنادًا إلى الأحاديث الشريفة منذ القرون الوسطى ، إذ تبدو أوّلًا وكأنّها عمرة عربيّة في مقابل تيجان الملوك الساسانيّين قبل الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى . ويبدو أنّ هذه العمامة ارتبطت بتبنّي الإسلام لها ، مع أنّ اعتمادها لم يُحرّم على غير المسلمين ، فشكّلت بذلك عنصرًا في اللباس الأبّهي المذكور في النصوص المتعلّقة بخلفاء سلالة الفاطميّين ، بوجه خاص .

بعد فترة وجيزة ، انتشر استعمال العمامة في المجتمع الإسلامي بأسره بحيث أصبحت ، بدءًا من القرن السادس للهجرة/الثالث عشر للميلاد تقريبًا ، العلامة المميّزة للمهن غير العسكريّة . ففي مصر المماليك ،

مثلًا ، كان المعمّمون من الفقهاء والأساتذة والقضاة والإداريّين يمتازون عن حَمَلة السّيوف. أمّا في أمبراطوريّة العثمانيّين فكانوا ينتمون إلى فئة أصحاب المراتب الرسميّة الخاضعة لتنظيم دقيق في تفاصيل الثياب أمر به السلاطين، بخاصة السلطان سليمان القانوني. كان ثمّة إذًا أشكال عدّة من العمامات، تُظْهِر كلٌّ منها مكانة هذا الشخص أو ذاك بين موظّفي الدولة. من جهة أخرى، اعتُبر اللون الأخضر شارةً خاصة بالشرفاء من سلالة النبيّ محمّد (ﷺ)، وهذا ما أصبح شائعًا منذ بداية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، حين فرضه، بأمر ملكي، سلطان من المماليك على عمامات العلويّين.

لكن، من الصعب تحديد الفترة الزمنيّة التي ربطت فيها عمامة الأسياد وأعضاء بطانتهم بمظهر من الجلال. لم يكن خلفاء السلالة العبّاسيّة في بغداد يعتمرونها بل كانوا يتباهون بقبعة طويلة تدعى «القَلَنْسُوة»، مختلفة في حدّ ذاتها عن العصابة أو تاج الأمويّين. في حين تميّز الفاطميّون في القاهرة وسلاطين المماليك بالعمامات التي تبنّاها أيضًا سلاطين العثمانيّين أو صفويّو إيران، كما سلالات الهند وأباطرتها. إلّا أنّ العمامة بقيت غائبة عن لباس الأمراء وشرفاء الأندلس مثلا، ولم يأخذ بها أبدًا أسياد الأتراك والمغول الذين احتفظوا، على عهد السلاجقة والإيلخانيّين، بعمرة خيّالي السهوب. وفي عهد متأخر أيضًا، اختار ملوك إيران من القاجار، على سبيل المثال، تاجًا مصنوعًا على شاكلة تيجان الساسانيّين القدماء، في حين اعتمر العثمانيّون وبطانتهم اعتمار الطربوش.

لبنان، منطقة، جبليّة بنوع خاص، تحاذي البحر المتوسّط، إلى الشمال من فلسطين (إسرائيل)، أصبحت دولة مستقلة في القرن العشرين، بعد أن كانت في القرون الوسطى ملحقة بولاية سوريا.

١ - تميّزت هذه المنطقة منذ القديم بسلسلة جبال لبنان العالية التي شكّلت ملجأ في بعض الأحيان. ساهم هذا الوضع [الجغرافي] في تكوين طابع تعدّدي لسكّانها حيث تجاور السكّان الأصليّون من المسيحيّين الموارنة أو من أتباع الطقس البيزنطي مع المسلمين، من السنّة والشيعة، وكذلك مع جماعات من الدروز استقرّت فيها في بداية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. وشكّلت هذه المنطقة جزءًا من الأمبراطوريّة الإسلاميّة الناشئة في بداية الفتوحات الكبرى، في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، وخضعت لسلطة الخلفاء الأمويّين الذين كانوا متمركزين في سوريا، ثمّ لسلطة العبّاسيّين في العراق، إلى أن بسط عليها الفاطميّون، أسياد مصر، سلطتهم إعتبارًا من سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م. في عهد الصليبيّين، سيطر الفرنج على لبنان سيطرة جزئيّة لمدّة قرنين تقريبًا، ولم يتمكّن المماليك السوريّون - المصريّون من طردهم بشكل كامل من الساحل إلّا في سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، فضمّوا لبنان إلى مملكتهم بدون أن يجعلوا منه منطقة مميّزة، فتمّ تقسيمه بين ولايتين: ولاية دمشق وولاية طرابلس، وفق نموذج تنظيمي عُمل به في العام ١٥١٧م، تاريخ احتلال العثمانيّين للبلاد. لم يحصل تغيير في الوضع إلّا في العام ١٦٦٠م، إذ أنشئت ولاية جديدة كان حاكمها يقيم في صيدا، وكانت مهمّته مراقبة الدروز والموارنة. غير أنّ باشا دمشق كانت له اليد على حاكمي طرابلس وصيدا.

بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، طمحت بعض الأُسر البارزة إلى حكم الجبل اللبناني فاستحصلت على مهمة جباية الضرائب المتوجّبة للسلطات العثمانيّة. برزت منها شخصيّتان في أزمنة مختلفة هما الامير فخر الدين المعني، والامير بشير الشهابي. لكنّ الاثنين اصطدما بردّات فعل السلطات العثمانيّة، فأُعدم الأوّل في اسطنبول سنة ١٦٣٥، بينما اضطُرّ الثاني للتخلّي عن مهمّاته سنة ١٨٤٠ ومات هو أيضًا في اسطنبول في العام ١٨٥٠. في هذه الأثناء، دفعت التوتّرات الإجتماعيّة التي سببتها المتغيّرات الإقتصاديّة، في بداية القرن التاسع عشر، بالعثمانيّين إلى القيام بتقسيم إداري جديد في العامين ١٨٤٢ و١٨٤٥. فقسّموا الجبل اللبناني إلى قائمقاميّتين: أوكلوا الأولى منها إلى قائمقام مسيحي في الشمال، والثانية إلى قائمقام درزي في الجنوب، تابعَيْن كليهما لوالٍ مقيم، ليس في صيدا، بل في بيروت. غير أنّ هذه المتغيّرات لم تمنع وقوع أحداث بين الدروز والموارنة سنة ١٨٦٠، ما حمل فرنسا على إرسال قوات إلى لبنان

لفرض الهدوء. وكانت النتيجة أن أوجدت السلطات العثمانيّة، في العام ١٨٦١، مقاطعة جبل لبنان وأوكلتها إلى حاكم مسيحي. لم تلبث هذه المقاطعة أن تميّزت، ليس بأنشطتها الإقتصادية وحسب، بل الفكريّة أيضًا. فاللبنانيون كانوا في أساس النهضة الأدبيّة العربيّة التي انطلقت آنذاك، في حين قدِمت لبنان عناصر من الغرب، ولا سيّما المرسلون الكاثوليك والبروتستانت، سعيًا إلى تحديث التعليم فيه. وهكذا أُقيمت فيه مؤسّسات ستتحوّل فيما بعد إلى جامعات حقيقيّة، كجامعة القدّيس يوسف والجامعة الأميركيّة.

بعد الحرب العالميّة الأُولى، أدّى التدخّل الفرنسي ضدّ مملكة الأمير فيصل العربيّة إلى إنشاء دولة لبنان الكبير المميّزة عن سوريا، وقد وُضعت تحت الانتداب الفرنسي في العام ١٩٢٣، بعد ان كان قد تمّ إعلانها كدولة سنة ١٩٢٠. فاق لبنان الجديد هذا مقاطعة جبل لبنان السابقة اتّساعًا، وكانت غالبية السكّان في البدء من المسيحيّين ولا سيّما من الموارنة، وكان هناك أيضًا مسلمون من السنّة والشيعة، وكذلك دروز. وقد انبثقت من لبنان هذا جمهوريّة لبنانيّة مستقلّة.

٢- **الجمهوريّة اللبنانيّة الحاليّة**: مساحتها ١٠٤٥٠ كلم[٢]، عاصمتها بيروت. دولة معاصرة تعدّ حوالي اربعة ملايين نسمة، يتوزّعون على طوائف دينيّة مختلفة، إلّا أنّ عدد المسلمين اليوم يزيد عن الخمسين في المائة.

إنّ الوضع السياسيّ لهذه الدولة الجبليّة ذات الشاطئ البحريّ الطويل والتي لها حدود مشتركة مع الجمهوريّة العربيّة السوريّة شمالًا وشرقًا، ومع فلسطين المحتلّة (دولة اسرائيل) جنوبًا، يتّسم بالغموض، رغم كونها، من الناحية النظريّة، ديمقراطيّة برلمانيّة. تضمّ أراضيها، إضافةً الى جبل لبنان كما كان محدّدًا في العهد العثماني، سهل البقاع، ومدنًا عرفت نشاطًا كبيرًا في السابق، مثل بيروت وطرابلس وصور وبعلبك وصيدا. لكنّها لا تشهد إلا توازنًا هشًا يعكس تحوّلات خمسين سنة من الصعوبات المختلفة.

بعد أن كانت سلطات فرنسا الحرّة قد أعلنت استقلال لبنان، أصبح هذا الاستقلال ناجزًا عام ١٩٤٣ بتشكيل حكومة جديدة وتبنّي ميثاق وطني أكمل دستور سنة ١٩٢٦. بموجب هذا الميثاق وُزّعت المهمّات الحكوميّة على ممثّلي الطوائف الدينيّة الرئيسة وفق ما يلي: ماروني لرئاسة الجمهوريّة، سني لرئاسة الحكومة وشيعي لرئاسة مجلس النواب. لكنّ نظام ١٩٤٣، المبني على توزيع سكاني انماز ببعض التفوق العَدَدي للمسيحيّين، سرعان ما تزعزع نتيجة الازدياد السريع لعدد المسلمين. فضلًا عن أنّ استقرار عدد وفير من اللاجئين الفلسطينيّين في لبنان ضاعف، اعتبارًا من العام ١٩٧٠، حدّة النزاعات التي كانت قبلُ كامنة بين الطوائف المتعدّدة. اندلعت حرب أهليّة سنة ١٩٧٥ تبعها انتشار جزئي للقوّات السوريّة في البلاد. ولئن حاول اتّفاق الطائف، في العام ١٩٨٩، وضع حدّ لهذا الانحراف المأسوي بإحلال السلام والمحافظة على وحدة لبنان الظاهريّة، فإنّه لا يعدو كونه مجرد اعتراف بالوصاية السوريّة الإسلاميّة. ولا شيء يمكّن بعد من التكهّن بما تخبّئه التطوّرات اللّاحقة.

اللُدّ، محلّة تأمّن استمرار الحياة فيها، خلال القرون الوسطى الإسلاميّة، بفضل موقعها على تقاطع طرق القوافل (في فلسطين)، على الرغم من وجود «الرَّملة» الجديدة التي بنيت لتحلّ مكانها.

إن مدينة ليدا القديمة التي سمّيت ديوسبوليس لفترة من الزمن أصبحت، في أيام البيزنطيّين، مدينة مسيحيّة مزدهرة، سبق لها أن كانت بعد استسلامها، سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، في بداية الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، العاصمة الأولى لجند فلسطين تحت الحكم الأمويّ.

شُيِّدت فيها كنيسة شهيرة على اسم القدّيس جاورجيوس الذي قد يكون دفن فيها، إلّا أنّها شهدت تراجعًا عندما قرّر حاكم المقاطعة وخليفة المستقبل، سليمان بن عبد الملك، أن ينشئ، على مقربة منها، مدينة الرَّملة، وأن يجعل منها مكانًا لإقامته، وأن ينقل إلى هذا المركز الإداري والإقتصادي والثقافي الجديد سكّان مدينة اللُدّ التي يُقال إنّه دمّر جزءًا منها، ولكنّها بقيت مأهولة رغم ذلك.

إن الكنيسة الشهيرة كانت ما تزال قائمة في سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م، عندما دمّرها الخليفة الفاطمي الحاكم.

في ما بعد أُعيد بناؤها، وتمّ تدميرها من جديد على يدي صلاح الدين الذي احتلّ اللُدّ في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ثمّ على يدي السلطان المملوكي بيبرس الذي احتلّها في سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧. استمرّت المدينة في المنطقة الداخليّة الخصبة والمزروعة بإتقان، وازداد ازدهارها عندما باشر صلاح الدين بتطبيق سياسة التخلّي عن الساحل. وقد شهد على أهميّتها الاقتصاديّة والإستراتيجيّة حرصُ الفرنج على الإشراف عليها في أثناء محادثاتهم المتتالية مع الأيوبيّين في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ترسّخت تلك الأهميّة في عهد المماليك الذين جعلوا طريقهم البريّة من دمشق إلى القاهرة تمرّ فيها. كانت هذه الطريق تستخدم، في الوقت نفسه، للقوافل وللبريد. من هنا برز الدور المميّز للمدينة في ذلك الوقت وثبّته بناء جسر في جهتها الشماليّة في سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م، وكذلك مسجد جامع أشرف على بنائهما المهندس نفسه، وذلك قبل الفتح العثماني في القرن السادس عشر، الذي أفقر السكّان من جديد.

لسان الدّين ← إبن الخطيب.

لِشبونة (البرتغال)، مدينة مرفئيّة تقع غربي الأندلس عُرفت أيضًا بالعربيّة بالأشبونة، اشتهرت في العهد الإسلامي بفضل ثروة منطقتها الداخليّة، وقد قاسمتها الشهرة مدينة صغيرة مجاورة هي شينتارا وتدعى اليوم سينترا.

بين احتلال إسلامي أدّت اليه الفتوحات الكبرى حوالى سنة ٩٧هـ/ ٧١٦م، واستعادة المسيحيّين لها نهائيًا سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، لم يعرف تاريخ المدينة من الأحداث المهمّة سوى الصراعات العاديّة في تلك المنطقة الحدوديّة، مع أنّها كانت تنعم بحماية قلعة شانتارين/ سانتارم الإستراتيجيّة المجاورة. في ما بعد، عرفت لشبونة أنشطة بحريّة وتجاريّة مع انطلاق الملاحة في المحيط الأطلسي. أخذ مرفأها في الازدهار في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وقد استفاض الكتّاب العرب في التنويه بها، رغم إحساسهم بأنّها غريبة بعض الشيء عن عالمهم.

◄ راجع المستندين ١٦ و١٩.

لَشْكَرِبازار أو لشكَرْگاه (جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة)، مجموعة قصور إسلاميّة من القرون الوسطى، مهجورة وخربة منذ عهد بعيد. شهد موقعها حديثًا ولادة مدينة ناشطة تحمل الاسم نفسه.

تقوم المدينة الحديثة المزدهرة، الواقعة جنوبي البلاد، في الحوض الحارّ والخصب لنهر هِلْمَنْد، في أقاصي الإقليمين القديمين سِيجِسْتان وزَمِينداوَر، في نقطة طالما كانت موضوع نزاع، تلتقي عندها طرقات القوافل ذات الأنشطة التجارية والإستراتيجية التي شكّلت شهرة المدن القروسطيّة التي توالت في هذا المكان. من جهة، كانت تقوم فيها مدينة بُسْت المهجورة اليوم، التي عُرفت في ما بعد **بقلعة بست**؛ ومن الجهة الأخرى يقوم المقرّ الملكي للغزنويّين والغوريّين، على بعد عشرة كيلومترات تقريبًا من المكان السابق المسمّى العسكر، بالعربيّة، وهو ما يزال حتى اليوم يحمل معالم المباني الأميريّة المعروفة باسم لشكرگاه أو لشكربازار.

لقد كشف التنقيب الجزئي الذي قامت به بعثة فرنسيّة بين العامين ١٩٤٨ و١٩٥١ لهذا الموقع المعبّر [عن طراز] الفن المعماري الإسلامي، أهميّته القديمة: قصور ومساكن أميريّة ارتفعت جدرانها وسطَ الساحات والحدائق والأسوار الخضراء غدت مقفرة، بعد أن أوت، ما بين القرنين الثالث والسابع للهجرة/ التاسع والثالث عشر للميلاد، البلاط وجيوش السلالات القوية التي كانت تملك على إيران الشرقيّة. من بين هذه القصور ذلك الذي سُمّي خلال الحفريات «القصر الجنوبي» وقد احتفظ، تحت أنقاض أجزائه العليا، ببقايا من جدرانه المبنيّة بالطين، وأحيانًا بالقرميد المطبوخ، والمزيّنة، وهي تكفي لاظهار ملامح زينته وتصميمه الغزنويّ الذي عدّله الغوريّون بعد الحريق الذي تسبّب به احتلال المنطقة، في سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، على يدي الغوري علاء الدين حسين الملقّب «جهان سوز» أو «مُحْرِق العالم». من أهمّ مميّزات القصر الجنوبي: - تصميمه المصلّب الشكل وإيوانات الشقق الداخليّة المستقلّة التي تتّصل كلّ منها بباحة وتُجاور زوايا باحة مركزيّة كبرى؛ - دقّة الممرّ الكبير الذي يقود الزائر من البوابة الكبرى إلى قاعة الاستقبالات الرسميّة الواقعة

في طرف البناء والتي تشرف على النهر من فوق جُرُفٍ؛ – تنوّع الزينة التي تكسوه من الداخل والخارج، والتي تنسجم مع الأشكال المعماريّة، المرسومة والمحفورة في آن، في الطين أو الجصّ، جامعة أحيانًا بين الرسوم المجسّمة وتواليف الأشكال الهندسيّة والتشبيك الزهري والعَرْبَسة والكتابات التزيينيّة المختلفة. وقد تمّ أيضًا أكتشاف انسجام هذا البناء المقفل والمحاط بالأبراج، مع قصور أخرى أو مقاصير يضمّها السور نفسه، مع أنّه الوحيد الذي يشرف على الباحة التي تؤدّي إلى الطريق العريض المستقيم الذي تحيط به حوانيت أحدى الأسواق. هذه العناصر، مجتمعة، شكّلت مجموعة من الدلائل المعبّرة عن فنّ هندسة القصور في الحضارة الإسلاميّة القروسطيّة، في زمن كان نموذج قصور الخلفاء العراقيّة الفخمة في بغداد أو سامرّاء يراود أحلام حكّام السلالات في الأطراف.

كما أخذ يترسّخ، في الوقت نفسه، طابع إقليمي لهندسة خاصة بسجستان، قوامها رسوم لقناطر وكُوى وهيكليّات مميّزة للأبنية السكنيّة. من المؤسف ألّا يكون المنقّبون قد تمكّنوا من دراسة هذه الحالة، وسبب ذلك غياب الاستقصاءات المنهجيّة في تلك المنطقة التي كانت قديمًا مزروعة ومرويّة على ضفتي النهر، والتي تنتشر فيها آثار «مساكن الأعيان» المعاصرة للقصور الكبرى، وبقايا خانات أو مبانٍ دينية كلّها مهجورة.

لم تحظَ مدينة بُست نفسها بنصيب أكبر من التنقيبات الأثريّة، وهي المخزن التجاري لنقطة عبور الزامية لنهر هلْمَنْد خلال القرون الوسطى، بواسطة جسر من السفن قريب من ملتقى هذا النهر مع نهر أرغنداب. لقد اجتازت بُست الحملاتُ العربيّة – الإسلاميّة في عهد الفتوحات الكبرى، خلال القرن الأوّل للهجرة/السابع الميلادي، وكذلك جيوش الصّفّاريّين في نهاية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، ومثلها جيوش السلاجقة التي تمّ إيقافها في المدينة في العام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م. إنّ الأرباح المزدوجة الناتجة عن الزراعة وعن تجارة القوافل، على الطريق المؤدّي من فارس إلى السّند، تفسّر بدون شك ازدهار المدينة التي كانت تحميها أسوار متعاقبة، وكان لها في عصر الغوريّين مسجد كبير منقطع النظير، بقي منه ما يدعى «قوس بُست»، وهو قوس الرأس من الإيوان الكبير الذي كان يشير إلى القبلة. وكان لا بدّ، بعد كوارث الاجتياح المغولي وثمّ عبور تيمورلنك، من أن يُسدل الستار على عهد عظيم لم يأفل نجمه إلّا بعد ازدهار قتدهار. عندها انحصرت مساحة المدينة بجوار القلعة التي هوجمت وتمّ ترميمها مرّات عدّة خلال الحروب بين مغول الهند والصّفويّين الإيرانيّين، قبل أن يهدمها نادر شاه نهائيًّا عندما احتلّها في العام ١٧٣٨.

◄ راجع المستندات ٤٧ إلى ٤٩.

لطفي السيّد، أحمد، مفكّر ورجل سياسة من الحقبة المعاصرة، أحد منظّري القوميّة المصريّة.

غداة تتلمُذ هذا الصحافي على محمّد عبده أنشأ، في العام ١٩٠٧، صحيفة سمّاها «الجريدة»، دافع من خلالها عن الأفكار الإصلاحيّة التي تبنّاها. كان يُعتبر، في الوقت نفسه، من المعتدلين الذين يقبلون بالتعاون مع البريطانيّين.

على الرغم من ذلك، ظلّ لطفي السيّد يدافع عن المبدإ القائل «إنّ مصر للمصريّين»، كما فعل من قبله عرابي باشا، وهو الذي عرّف بالمفهوم القومي المصري.

بعد أن شارك في الوفد الذي قصد أوروبا في العام ١٩١٩ للدفاع عن مطالب بلاده، اعتزل الحياة السياسيّة وأصبح رئيسًا للجامعة التي أنشأها، في العام ١٩٢٦ الملك فؤاد، الممثّل قبل الأخير لسلالة الخديويّين المتحدّرين من محمّد علي. ترأّس بعد ذلك مجمع اللغة العربيّة في القاهرة وكان قد انضمّ إليه في العام ١٩٤٠.

لقب، ألقاب، هي مجموعة العناصر التشريفيّة والنعوت ذات الصفة التبجيليّة التي كان يتباهى بها، في العالم الإسلامي، في القرون الوسطى، وحتى في الحقبة المعاصرة، أشخاص مهمّون في مختلف الأنظمة التراتبيّة، ولا سيّما متولّي السلطة وأصحاب الرتب العالية المحيطين بهم.

إنّ تعقيدات الصيغ التي أُعدّت، على مدى عصور، ألقابًا للشخصيّات البارزة ومنحتهم الاحترام الذي يتوافق مع انتمائهم إلى الإسلام، كانت تنافسها الصيغ التي

نجدها في أسماء العلم المتداولة. وقد امتازت، هي أيضًا، بتنوّع جذورها اللغويّة بحيث كان يطيب اقتباس، من لغات أخرى، ألقاب جديدة تعبّر عن الهيبة والنفوذ. كما كان ينمّق باستمرار، بعبارات فارسيّة أو تركيّة أو هنديّة، هذا النسق في التسمية الذي أخذه الإسلام، عند ظهوره، مباشرةً من عادات القبائل البدويّة. وكانت تعقيدات الألقاب تزداد مع التطوّر التاريخي، وتمتدّ على مناطق أكثر فأكثر اتّساعًا وتجزئة؛ وقد انعكست فيها الإختلافات المحليّة أو الإقليميّة، وزادت من حدّتها، بالنسبة إلى بعض المناطق، إمّا الأصول الخارجيّة لسلالاتها المحليّة وإمّا موقعها الجغرافي على أطراف العالم الإسلامي الذي كان في عزّ توسّعه.

١ - إنّ التسميات الأولى التي أُطلقت عليها لفظة «لقب» واعتُبرت بمثابة كنية - كما كان يحصل في بعض الكُنى المرتبطة بخصائص جسديّة، والتي تحوّلت إلى نعوت تحقيريّة أو «تيذيّة» - كانت تعبّر، في بادئ الأمر، عن الوظيفة التي يشغلها صاحبها. إنّ تسمية «خليفة» تُعتبر النموذج الأقدم الذي اعتُمد لقبًا لتبيان أهميّة الوظيفة السياسيّة - الدينيّة، وقد أُطلق على من خلف النبيّ محمّد (ﷺ) ليدير شؤون الجماعة الإسلاميّة إنطلاقًا من عبارة خليفة رسول اللّه.

وقد أظهرت النقوش الأمويّة العائدة إلى بداية القرن الثامن الميلادي اعتماد الصيغتين التاليتين، إلى جانب أسماء الخلفاء، وهما: «عبداللّه» و«أمير المؤمنين»، كانت الأولى ترافق التسميات التي تُذكر بنسب الخليفة، أمّا الثانية فتطلق على سيّد الأمبراطوريّة وحده وتشكّل اللقب الخليفي بامتياز. وفي الوقت نفسه، اعتُمد دعاء ديني، كان يلي اللقب المطلق على صاحب الوظيفة، أكان خليفة أو غيره، يتناسب مع منزلته. ومع الوقت أصبح هذا الدعاء مُقَوْلبًا. من دون شك كان هذا الأمر تقليدًا إراديًّا في المحيط الإسلامي لهذا التراتب التشريفي والتقديري الذي ميّز التنظيمات الإداريّة في الأمبراطوريّتين الشرقيّتين الكبيرتين اللتين أخضعهما المسلمون، سواء البيزنطيّة منهما أو الساسانيّة. وقد استمرّ استخدام هذه الألقاب في ما بعد بانتظام على مدى عصور، وقد أُدخلت عليها إضافات منذ العصور المسماة «كلاسيكيّة» التي برزت فيها عظمة السلالة العبّاسيّة. ومنذ تولّي العباسيّين الحكم، جمّل هؤلاء نظام الألقاب الأموي وعملوا على طبع حكمهم بشرعيّة دينيّة، فعمّموا استخدام لقب إمام الذي أُلحق بالأسماء التي اختارها الخليفة لخلافته، ما شكّل ابتكارًا مثيرًا للاهتمام.

وترتبط هذه الأسماء، بدون شك وبطريقة ما، بالألقاب المميّزة التي أُطلقت، على ما يُذكر، على ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة: الصدّيق لأبي بكر، والفاروق (العادل) لعُمر، وذو النورين لعثمان. أمّا الخلفاء العبّاسيّون فقد ادّعوا أنّ اللّه قد أسبغ عليهم نعمه فاتّخذوا منها أساسًا لألقابهم الرسميّة، وأضافوا اليها، في الوقت نفسه، إستدعاءات تتعلّق بدورهم الخلاصي، وذلك لمواجهة إدّعاءات العلويّين خصومهم العنيدين، كما أضافوا توكيدات متكرّرة تعبّر عن الثقة باللّه. نذكر من ألقابهم «المهديّ باللّه» و«الواثق باللّه» و«المتوكّل على اللّه» و«المقتدر باللّه». وقد استخدمت كل السلالات الحاكمة اللّاحقة هذه الألقاب نفسها، ولا سيّما السلالات التي ادّعت حقّها بالخلافة، إعتبارًا من القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، سواء أكانت شيعيّة كالفاطميّين، أو سنيّة كأمويّي الأندلس، ما أدّى إلى تشابه بين أسماء الخلفاء نتج عنه غموضٌ في كتابات مدوّني الأحداث.

وبموازاة ذلك تطور عُرفٌ منح كبار موظّفي الدولة والبلاط العباسيّين، المدنيّين والعسكريّين - ولا سيّما المساعد المباشر للخليفة الذي مُنح لقب وزير، كما أيضًا للقادة العسكريّين وحكّام الولايات الذين لم يعودوا يرتضون بلقب أمير - صفات مختلفة تقوننت في دواوين الخلافة، لأنّها مُنحت لهم رسميًّا، كالبراءات والاقرارات الأخرى التي تُثبت شرعيّة تنصيبهم في مراكزهم، وأيضًا كأثواب التشريف (الطراز)، والهدايا العديدة التي كان يقدّمها لهم الخليفة، تبعًا لمراسم الاحتفال البلاطي، ما كان يُظهر سخاء الخليفة واقعيًّا ورمزيًّا. وإنّنا نعرف من النعوت الأكثر قِدمًا، والتي استُمدّ شكلها من اللغة العربيّة، ألقابًا مركّبة من كلمتين: «ذو» وكلمة أخرى، مثل «ذو الرئاستين» التي أُطلقت

على الوزير الفضل بن سهل، و«ذو اليمينين» التي أُطلقت على مؤسّس الدولة الطاهريّة(٩٧). كما استعين بصيغ أخرى مثل «أمير الأمراء».

ثمّ، في ما بعد، إقتباس نعوت غريبة تزيد من قيمتها هيبة الدولة الساسانيّة، بحيث ظهرت مفردات فارسيّة مثل «الإسفهسلّار»(٩٨) أو قائد، و«شاهنشاه» أو ملك الملوك؛ وقد استعمل البويهيّون هذا اللقب الأخير في بلدٍ كانت فيه لفظة «شاه» ما تزال حيّة، لأنّها حافظت على مدلولها، ما جعلها تظهر مجدّدًا على أعلى مستوى، إعتبارًا من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد. هذا إضافةً إلى ظهور صيغ أخرى ذات إيحاء سياسي - ديني حيث أضيف إلى عنصرها الأوّل التفخيمي المميّز مفاهيم إسلاميّة أساسيّة باللغة العربيّة مثل: «دين» و«دولة» و«مُلك» و«مَلِك» و«أمّة» و«مِلّة». إنّ الاستعمال المنتظم لسلاسل من هذه الألقاب المزدوجة - التي ظهر كلّ منها في حقبات تاريخيّة مختلفة والتي فقد بعضها قيمته لمصلحة البعض الآخر - أمّن لها الرواج والتكاثر لوقت طويل، وغالبًا ما ساعد على ذلك السّجع الذي تميّزت به ألفاظها. لكنّ إضافةَ هذه الكلمات الواحدة للأخرى، تبعًا لانتظام مقوْلَب، لم يعطها جميعها القيمة عينها، لأنّ بعضها كان يدلّ بدقّة على شخصيّة محدّدة مثل تسمية «نور الدين»، و«عضد الدولة» أو «نظام الملك»، في حين أنّ بعضها الآخر، كما في الثلاث التالية: «معتمد الدولة» و«شرف الملّة» و«فخر الأمّة»، لم يكن إلاّ تكملة لتسمية أخرى تُعتبر وحدها معبّرة، كما في اللقب الذي أُطلق على أتابك دمشق ظهير الدين طغتكين في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد.

إنّ ميلًا للإطناب والمبالغة طبع تطوّر الألقاب، على الرغم من أنّ تقديرها ومنحها كانا يخضعان في العصور العبّاسيّة لقواعد صارمة، سهرت دواوين الخلافة على حسن تطبيقها، ونمّت السيطرة عليها ومراقبتها؛ كما هي الحال بالنسبة إلى امتيازات أخرى، كضرب السكّة وذكر اسم الخليفة الحاكم في الخطبة. لأنّ هذه السمات التشريفيّة الممنوحة شكّلت أيضًا رمزًا للتبعيّة، وكانت لها مهمّة سياسيّة أيضًا، وكانت تساهم في تعظيم صاحبها لقاء مبلغ من المال يدفع لبيت المال، كما كانت تربط بشخص الخليفة القادة العسكريّين الذين أسّسوا سلالات محليّة كانت تساهم بزيادة دخل بيت المال في بغداد.

إنّ اللقب الذي كان يشتهيه الكثيرون والذي كان يخضع لمراقبة صارمة هو الذي كانت تدخل في تركيبه عبارة «أمير المؤمنين»، لأنّه كان يجعل من حامله «الساعد الأيمن» أو «السند» للخليفة أمير المؤمنين. كما أنّ لقب «سلطان»، الذي أطلق على السلاجقة الكبار عند تأسيس أمبراطوريّتهم، استمرّ على مدى عصور لقبًا إستثنائيًا.

وفي الوقت عينه شهدت الألقاب التي اعتمدها مختلف الامراء أو، بتعبير أكثر شمولًا، أبناء الطبقة العليا للتباهي بعظمتهم، تحوّلًا ملحوظًا تبعًا للمنطقة. إنّ الألقاب التي استُخدمت، مثلًا، في أواخر العصور الوسطى في الغرب (المغرب واسبانيا)، في المقاطعات التي خلعت عنها باكرًا نير الوصاية العبّاسيّة، حافظت على رصانة نسبية، وفي مطلق الأحوال على أصالة مقصودة، على خلاف ما كان يجري في الشرق. كما أنّ سمات أخرى، يمكن وصفها بالمحليّة، تأثّرت بتحوّلات لغويّة كالتي حملتها الغزوات التركيّة ثمّ المغوليّة، التي أدخلت تعابير غريبة، في موجات متتالية، مثل «خان»، «بك»، «اتابك»، «خاتون» و«لالا». كما راجت تعابير اخرى مثل «خواجا»، «صدر»، «شيخ»، «سيّد» و«صاحب». بصورة عامّة، يمكننا القول إنّ التحوّل الكبير في هذا الميدان جرى خلال القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد.

٢ - ففي هذه المرحلة، أتاحت المغالاة في بعض الألقاب الإكثار من العودة إلى ذكريات متنوّعة من الماضي، بهدف إضفاء صورة القائد المسلم النموذجي على حامليها: يتمتّع هذا القائد بصفاتٍ جسديّة وأخلاقيّة عديدة ولكنّه يُعتبر، قبل كلّ شيء، حامي الإسلام ومُهلك الكفّار وسط الحروب المتلاحقة التي عرفها العالم الإسلامي. إنّ مثل هذا القائد يتميّز عن جدارة بالانتصارات التي وُعد بها المؤمن المقدام. وقد استُعملت في هذا السبيل صفاتٌ لها طابع تشريفي،

منها «الشهير» و«المعظّم» و«السيّد» و«المظفّر» و«العادل»؛ كما استُعملت تعابير مركّبة تفرط في المديح مثل «المجاهد» و«الغازي» و«حامي الإيمان» و«شرف الاسلام» و«قطب الملوك والسلاطين» و«قاهر الكفار والمشركين».

إنّ أناقة القوافي وغنى المخيّلة تنافسا مع تنميق البيان من أجل تفخيم ملوك القرنين السادس والسابع الهجريّين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديّين، حتّى الأصغرهم شأنًا، إن في البلاد العربيّة أو بلاد العالم التركيّ-الإيرانيّ الممتدّ إلى قلب القارة الهنديّة. وتلقّب، في المرحلة المذكورة عينها، بألقاب أو نعوت مشابهة، كل من ادّعوا انتماءهم إلى النخبة الإجتماعيّة، إمّا لعلمهم وتقواهم أو لغناهم؛ كما تلقّب بها رجال الدين، قضاة وعلماء ومدرّسين، من الذين اشتهروا بمعرفتهم العقيدة والشريعة؛ وكذلك الصوفيّون، خصوصًا من صار منهم صاحب فرقة. إنّ كلّ هؤلاء اعتادوا اتّخاذ ألقاب مكوّنة من مجموعة من الصفات أو النعوت التبجيليّة التي تُعبّر عن أهليّتهم الذاتيّة وتصطحب لقبًا تدخُل في تركيبه كلمة «دين»، ومن خلاله كانوا عادة يُعرَفون.

ومع هذه الغزارة التكراريّة، وهذا التذوّق للعبارات الأكثر تملّقًا التي يشدّ بعضها للبعض الآخر غنائيّة بلغت أحيانًا حدّ الشاعرية، لا يجب علينا أن نستنتج أنّ تلك الألقاب كانت مبتذلة؛ بل إنّها، على عكس ذلك، احتوت عناصر موحية تساعد حاليًّا علماء النقوش والمؤرّخين، كما كانت في الماضي تشكّل للمعاصرين دليلًا على أهميّة الأشخاص الذين يحملونها ودورهم. إنّ ترتيب مختلف أجزائها يسمح عمليًّا بأن نضعها في إطارها الزماني والمكاني، تبعًا لاستعمالاتها الخاصة في كلّ دولة أو كلّ سلالة، كما يسمح باكتشاف بعض السمات المتعلّقة بوظيفة صاحبها أو بشخصيّته. ازداد هذا الاهتمام بمفاضلة الألقاب المتجاوبة مع بعض الخيارات، الدينيّة كما السياسيّة، في العصور المتأخّرة، عندما زالت الضوابط التي فرضها العبّاسيّون لمدّة طويلة، وانتشر الإسلام أيضًا في الأطراف البعيدة.

تنمّ الأعراف التي اتّبعها المماليك في سوريا ومصر مثلًا عن اهتمامهم بالدفاع عن السنّة، وترتبط بفرادة نظام حكمهم القائم على أساس عسكري. وتختلف هذه الأعراف عن تلك التي سادت، في الحقبة عينها، عند السلالتين الحفصيّة والمرينيّة اللتين نشأتا في المغرب نتيجةً لتفكّك سلطة الموحّدين. أمّا التقاليد التركيّة الإيرانيّة، التي نقلها سلاطين دلهي إلى الهند، فشهدت شكلًا خاصًا من التطوّر، زادت حدّته في ما بعد نتيجة فرادة السلالة المغوليّة الكبرى الهندو-إسلاميّة، وشهدت أيضًا تحوّلات جديدة في اندونيسيا. وقد عرف الصفويّون ألقابًا خاصة بهم طبعها التوجّه الشيعي لسلالتهم وورثها القاجار عنهم جزئيًّا، في حين أنّ التوسّع العثماني ساعد على ان تنتشر، حول البحر المتوسط، تقاليدهم النابعة من نظامهم البيروقراطي بامتياز.

وقد يكون تتابُع الصفات التفخيميّة في ترويسة الفرَمانات لتبجيل مختلف السلاطين العثمانيّين خير تعبير عمّا آلت اليه الأعراف التي بدأ اعتمادها في الماضي في الدواوين العبّاسيّة، في حين أنّ القابًا أخرى شفويّة كانت تتراكم لتشير بدقّة إلى تراتبيّة المسؤولين العسكريّين وأصحاب المقامات، من مدنيّين ودينيّين، الذين كانوا هم أيضًا موظّفين في الدولة ويعهد اليهم تأمين وحدة قواعد الحكم ومركزيّته في اسطنبول كما في الولايات. هذه الألقاب التشريفيّة التي خُصّ بها القضاة والبكوات والباشوات، كما «الريّاس» والأغوات والشاويشية وحتى الانكشارية العاديين، استمرّت في الشرق حتّى في بعض التعابير المعاصرة، رغم أنّ الأمبراطوريّة العثمانيّة بدأت تدريجيًّا، في عهد التنظيمات، باختزال الألقاب، إلى أن ألغتها تركيا الحديثة نهائيًّا في عهد مصطفى كمال أتاتورك.

لُقمان، شخصيّة ذكرها القرآن الكريم لحكمتها، وخصّ السورة الحادية والثلاثين بها، وقد ورد ذكر لقمان في الشعر العربي القديم لطول عمره.

إنّ نصائحه لابنه التي تنسبها إليه آيات القرآن تتّسم بنوع خاص، بطابع حكمة الشرق الأدنى القديمة. كذلك نُسبت إليه أمثال عربيّة نقلها إلينا أدب الحكمة العربيّ، إضافةً إلى مجموعة من الحكايات متأخّرة يظهر بوضوح

أنّها مستوحاة من حكايات إيزوب. ومع أنّ القرآن الكريم يعتبر لقمان «حكيمًا» وحسب، فقد عمدت مجموعة من الكتّاب المتأخّرين إلى ذكره بين الأنبياء. وفي عصر ازدهار «تكريم الأولياء» في الإسلام، تحوّل لقمان شفيع مقامات غدت مقصدًا للزيارات التّقويّة. وقد تسنّى لنا معرفة بعضها من خلال «دليل» الهروي، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، الذي ذكر، من جملة المواضع المختلفة لقبره، واحدًا بالقرب من بحيرة طبريّة، وآخر في اليمن.

لكنو ← لوكنو.

لَمتونَة وأحيانًا لمُتونا. قبيلة أو اتّحاد قبائل بربريّة بدويّة تابعة لمجموعة صنهاجة التي مثّلت دورًا بارزًا في الصحراء الغربيّة بين القرنين الثاني والثامن للهجرة/الثامن والرابع عشر للميلاد والتي إنبثقت منها سلالة المرابطين.

إنّ أفراد لمتونة، وهم من جماعة «المتحجّبين» او «الملثّمين»، بسطوا سلطانهم، بنجاح متفاوت، من جنوب المغرب المؤسلم إلى تُخوم البلدان السوداء، على مناطق صحراويّة كانت تعبرها القوافل بين سجِلْماسة وغانا. وتتوزّع أراضيهم اليوم بين المملكة المغربيّة وجمهوريّتي موريتانيا ومالي. يُعتقد أنّهم اعتنقوا الإسلام في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد وبدأوا باسم الجهاد غزواتهم لبلدان السود الساحليّة الغربيّة. وقد أنشأوا في البدء دولة سمّاها الجغرافيّون العرب في القرون الوسطى «أنبيا». في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، شهدت لمتونة تطوّر حركة التجديد الإسلامي التي أدّت الى ازدهار جماعة دينية قويّة والى الانتصار العسكري لرؤسائها الروحيّين الأمراء المرابطين. غير أنّ هؤلاء ما لبثوا أن خسروا السيطرة على الأمبراطوريّة الشاسعة التي احتلّوها من المغرب إلى شبه الجزيرة الإيبريّة، واضطرّوا، منذ سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، إلى التراجع أمام مصلحين جدد هم الموحّدون الذين استظهروا بمجموعة بربريّة أخرى هي مصمودة.

أمّا أفراد لمتونة الذين بقوا في الصحراء يشاركون في مغامرة المرابطين فقد نجحوا في الاستيلاء على مملكة غانا. إلا أنّهم ضعفوا في ما بعد حتى إنّهم خضعوا، اعتبارًا من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، لسيطرة الدول السوداء المسلمة الجديدة التي نمت شيئًا فشيئًا في المناطق النيجيريّة.

◄ راجع المستند رقم ١١٤.

لؤلؤ، بدر الدين الملك الرحيم (؟ - ٦٥٧هـ/ ؟ - ١٢٥٩م)، أمير حكم الموصل في نهاية العصر العبّاسي، وخلف سلالة الزنكيّين في بلاد ما بين النهرين العليا.

كان في الأصل عبدًا - ربّما من الزنوج - مما يفسّر، من باب التهكّم، لقبه «لؤلؤ». حرّره آل زنكي وأصبح سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م وصيًّا على ابن أرسلان شاه الأوّل، ثمّ على ابن أرسلان شاه الثاني. في سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م، تمّ الإعتراف به أميرًا على الموصل بموجب براءة من ديوان الخليفة في بغداد. أمضى سنوات عدّة في نزاع أو في تفاوض مع أمراء سلالة الأيوبيّين المصريّين والسوريّين، ومع الخوارزمشاهيّين، ومع المغول الذين قاموا بالهجوم تلوَ الآخر على إيران. وقد استسلم لؤلؤ لهولاكو، مُجنّبًا مدينة الموصل النهب. توفي في سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م عن عمر يناهز الثمانين عامًا، قبل سيطرة الإيلخانيّين على المنطقة.

أصبحت مدينة الموصل خلال حكمه مركزًا حرفيًّا وثقافيًّا ناشطًا تزيّنه مبانٍ متنوّعة. كان لؤلؤ نفسه حريصًا على أن يكون رجل عمران، فبنى له قصرًا بقيت منه بعض الزخارف شبه الخَرِبة، على مرتفع يُشرف على مجرى دجلة. وكان أيضًا راعيًا فن تزيين الكتب، وقد جرى التعرّف إلى رسمه على الغُلف المزخرفة لأجزاء عدّة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني التي تمّ نسخها وزخرفتها من أجله.

لوط، من شخصيّات الكتاب المقدّس، ورد ذكره مرّات عدّة في القرآن الكريم على أنّه أحد الأنبياء المكلّفين نقل رسالة إلى شعوبهم شبيهة برسالة النبيّ محمّد ﷺ.

أغنى الفكرُ الإسلامي، في ما بعد، قصّة لوط بمعطيات مختلفة من أصل عبري استقاها من «الإسرائيليّات». ارتبطت صورته، بغضّ النظر عن صورة نسيبه إبراهيم، بالعقاب الذي دمّر شعبه المجرم. في تلك النصوص، تماهت «المدينة الفاسدة» التي حلّ

عليها غضب الله بمدينة سَدوم التي غرقت في مكان البحر الميت.

لوكنو، أو لكنو (الاتّحاد الهنديّ)، مدينة في ولاية أوتّر براديش الحاليّة، كانت عاصمة ولاية أود في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تحافظ أقلّيتها المسلمة، منذ ذلك الحين، على صبغتها الشيعيّة.

تمّ احتلالها وأسلمتها إبتداء من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، في أيام سلاطين دلهي أو سلاطين جونبور، ونمت بخاصةٍ كمركز ولاية بعد ضمّها إلى أمبراطوريّة المغول إثر الحملات العسكريّة التي قام بها الملك أكبر في العام ١٥٧٦. فأفادت، منذئذ، من موقعها الطبيعي في وسط سهل الغانج الغني لتطوّر نموّها التجاري والحرفي. لم يمض وقت طويل حتّى طبعها بعمق بنو نوّاب في توجّهها الديني وفي تنظيمها المدني. فما أن اتّخذوا منها مقرًّا لهم في العام ١٧٢٣، حتّى أكثروا من المباني الفخمة، بينها بناء ضخم يُعرف بإمام بارا، وهو بناء مخصّص لمراسم التعزية للاحتفالات الشيعيّة بعاشوراء. بعد توسّع السلطة البريطانيّة في الهند، قدّر لمدينة لوكنو، مدينة التمرّد الكبير الذي اندلع في العام ١٨٥٧، أن تعاني مباشرةً القمع، وان تتأثّر بالانتفاضات السياسيّة التي رافقت مختلف مراحل الوصاية والاحتلال، وقد تطلّب هذا الاحتلال حوالى القرن لكي يتحقّق كليًّا.

ليبانْت (معركة)، ٧ تشرين الأول/اكتوبر ١٥٧١م، معركة بحريّة تواجهت فيها البحريّة التركيّة وأساطيل البندقيّة والأسبان، وأدّت إلى خسارة العثمانيّين وإلى التدمير شبه الكامل لسفنهم.

كانت النتائج المباشرة لتلك الخسارة مدوّية في الغرب، لكنّها لم تقترن بأيّة نتيجة على صعيد التوسّع العثماني، إذ إنّها لم تحُلْ دون الاعتراف باحتلال العثمانيّين لقبرص في العام ١٥٧٣م وبعقدهم اتفاقًا مع البندقيّة بهذا الخصوص، ولا دون احتلالهم تونس في العام ١٥٧٤م. غير أنّه، منذ ذلك التاريخ، وُضع حدٌّ للسيطرة التامة للبحريّة العثمانيّة على المتوسط، بعد ان حازت مكانة كبيرة خلال حكم سليم الأوّل وسليمان القانوني. اشتبك الأسطولان في عرض البحر، قبالة المدينة المعروفة باسم ليبانتو بالإيطاليّة، ونوپاكتوس باليونانيّة، وعَيْن بختي بالتركيّة، التي كانت تتحكّم في القرون الوسطى بمدخل خليج كورنتُس. كان هذا المرفأ المحصّن قد وقع في أيدي البنادقة في العام ١٤٠٧م، ثمّ احتلّه العثمانيّون في العام ١٤٩٩، بعد حصارٍ أوّل غير مجدٍ في العام ١٤٨٤م. وباستثناء فترة قصيرة امتدّت من ١٦٨٧ إلى ١٦٩٩، ظلّ مركزًا لمقاطعة تابعة للروملّي، ولم يخرج عن الحكم الإسلامي إلّا في العام ١٨٢٩.

ليبيا (جمهوريّة)؛ أو الجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الإشتراكيّة، مساحتها ٥٤٠ ٧٥٩ ١ كلم²، عاصمتها طرابلس (الغرب)؛ دولة مستقلّة معاصرة قليلة السكّان، تدين بالإسلام بصورة شبه كاملة. يعود المصطلح الجغرافي في كلمة ليبيا إلى أصل يوناني هو «ليبوي» (Libüé). استخدمه الأوروبيّون في القرن التاسع عشر للدلالة على مقاطعتين عثمانيّتين هما السيرينايك (Cyrénaïque) الواقعة حول برقة، وطرابلس الواقعة حول طرابلس الغرب، وكلاهما على البحر الأبيض المتوسط، وقد ضمّت إليهما لاحقًا مقاطعة فزّان الداخليّة. على أثر الاحتلال الإيطالي لتلك المقاطعات في العام ١٩١١، أُنشئت، بموجب مرسوم مؤرّخ من سنة ١٩٣٤، دولة جديدة اسمها ليبيا. واجه الإيطاليّون صعوبة في تهدئة البلاد إذ اصطدموا بمقاومة أتباع الطريقة الصوفيّة المعروفة بالسنّوسيّة. لكنّ هؤلاء، رغم هزيمتهم، نجحوا في إسناد السلطة السياسيّة في منطقة السيرينايك إلى أحدهم، وهو محمّد إدريس السنوسي الذي أصبح كذلك أمير طرابلس، قبل أن يلوذ بالفرار إلى مصر سنة ١٩٢٢، ويعود في العام ١٩٥١ ملكًا على ليبيا التي أُعلن استقلالها، وأصبح لها دستور أسّس لملكيّة دستوريّة.

سرعان ما أصبحت ليبيا منتجة للنفط والغاز وصاحبة عائدات طائلة. فشهدت حياة سياسيّة مضطربة، خاصة بسبب موقعها الإستراتيجي بين أراضي الشرق الإسلامية والمغرب وأفريقيا السوداء الساحليّة الغربيّة التي كانت تربطها بها طرقات القوافل السريعة. وقد زاد

من أهمّية هذا الموقع الترسيم الجديد لحدود ليبيا الذي أصبح يفصلها لجهة الشرق عن جمهوريّة مصر العربيّة وجمهوريّة السودان، ولجهة الغرب عن الجمهوريّتين الجزائريّة والتونسيّة، ولجهة الجنوب عن جمهوريّتي النيجر والتشاد. في العام ١٩٦٩ خُلع الملك إدريس بثورة عسكريّة بقيادة هيئة ضبّاط أحرار يستوحون المبادئ الناصريّة، على رأسهم العقيد معمّر القذافي. وفي سنة ١٩٧٣ تمّ اعلان «الثورة الشعبيّة» التي كان القذافي، بطل العروبة والإسلام التحديثي، قد حدّدها في «الكتاب الأخضر» للتخلّص من الديمقراطيّة البرلمانيّة وهيمنة طبقة معيّنة. وبموجب هذه المبادئ انتقلت السلطة إلى الشعب في العام ١٩٧٧، وسُمّيت الجمهوريّة الليبيّة «الجماهيريّة» أو «جمهوريّة الجماهير».

ليبريا (جمهوريّة)، مساحتها ٤٠٠ ٩٥ كلم²، عاصمتها مونروفيا. دولة مستقلّة معاصرة، تقع على الساحل الغربي للقارة الأفريقيّة. يقارب عدد سكّانها المليونين؛ بينهم أقلّيّة إسلاميّة تبلغ حوالى العشرين في المائة؛ اعترف الدستور بحقوقها منذ العام ١٩٥٣.

في هذا البلد الذي ولد سنة ١٨٢٠ بفضل إرادة بعض الأميركيّين الخيّرين الذين نقلوا إليه عبيدًا محرّرين؛ والذي حصل على استقلالٍ مراقَب في العام ١٨٤٧، نما الإسلام حديثًا بشكلٍ هادئ؛ إبتداء من القرن التاسع عشر، بفضل مهاجرين قصدوه من المناطق الداخليّة لأهداف تجاريّة. إنّ المسلمين المنتمين في مجملهم إلى أهل السنّة والمذهب المالكيّ والذين تنتشر بينهم، منذ ١٩٥٧، الطريقة [الصوفيّة] الأحمديّة، يتزايد عددهم، على ما يبدو، بانتظام، بسبب تحوّل آخرين إلى دينهم. إلّا أنّ المعلومات حول وضعهم غير كافية لأنّ صفو هذا البلد تعكّره، منذ بضع سنوات، نزاعات داخليّة وحروب أهليّة.

م

المأمون، عبدالله، ١٧٠-٢١٨هـ/٧٨٦-٨٣٣م، سابع خليفة في سلالة العبّاسيّين، حكم من سنة ١٩٧ الى ٢١٨هـ/٨١٣ الى ٨٣٣م، وتميّز بأفكار وبسلطة طبعت بشدّة تاريخ المسلمين خلال الفترة التي أُطلق عليها، بحقّ، إسم العصر الذهبي للخلافة..

إنّه ابن الخليفة الشهير هارون الرشيد من محظيّة إيرانيّة، ولد قبل ستة شهور من أخيه غير الشقيق محمّد، ابن زوجة الخليفة الشرعيّة المتحدّرة من أصل عربي. ويقال إنّ الخليفة، عندما اضطرّ إلى تسوية مسألة الخلافة مسبقًا، تردّد بين ولديه. واتّخذ قراره أخيرًا لمصلحة محمّد فأعلنه وريثًا أوّلًا في العام ١٧٦هـ/٧٩٢م تحت اسم الأمين، ولم يتمّ إعلان عبدالله وريثًا ثانيًا تحت اسم المأمون إلّا في العام ١٨٣هـ/٧٩٩م. وفي ما بعد، في العام ١٨٦هـ/٨٠٢م، حدّد الخليفة من خلال وصيّته حقوق كلّ من الشقيقين: إقرار المأمون بخلافة الأمين مقابل إقرار الأمين بسيادة أخيه شبه المطلقة على مقاطعات الدولة الشرقيّة وإعلانه وريثًا له.

وبالرغم من الاحتياطات التي اتّخذها هارون، أدّت وفاته، في جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ/آذار ٨٠٩م، الى أزمة حادّة. وبينما تمّ الاقرار بأحد الأخوين في بغداد، استولى الآخر على مقاطعة خراسان واتّخذ من مدينة مرو مقرًّا له، وقام كلاهما بتبادل التهم بعدم التقيّد بوصية والدهما قبل أن يحتكما إلى السلاح، في جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ/آذار ٨١١م. وفي الواقع كان المأمون - الذي نزع عنه الأمين حقّه بخلافته - يتمتّع بدعم إيرانيّ بارز، هو الفضل بن سهل، الذي أصبح في ما بعد وزيره، كما بدعم قائد عسكري ايرانيّ أيضًا، طاهر، الذي استطاع التغلّب على جيش الأمين الضخم.

وتمكّنت قوات المأمون، من خلال هذا النصر الذي أحرزته بالقرب من الريّ، من احتلال غربي إيران، بينما أصبح الأمين - الذي طالب بإمدادات عربيّة من سوريا ولكنّها لم تُرسل - محاصرًا في بغداد حيث قابل الشعب المهاجمين بمقاومة شرسة. هوجمت العاصمة في شعبان ١٩٦هـ/ نيسان ٨١٢م، وسقطت في محرّم سنة ١٩٨هـ/ أيلول ٨١٣م، ودُمّرت «المدينة المستديرة» كليًّا.

أمّا الخليفة الأمين الذي كان في ذلك الوقت قد أُعلن خلعُه في العراق وفي الجزيرة العربيّة، فتمّ قتله بعد حرب أهليّة كشفت ضخامة الانقسامات القائمة آنئذٍ ضمن الدولة العبّاسيّة. غير أنّ النزاع الشخصي الذي تجلّى بين الشقيقين وكان المأمون يتمتّع من دون أيّ شك بذكاء خارق - كان يعكس صراعًا أكثر عمقًا بين التيّارات السياسيّة والدينيّة التي بدأت تتواجه خلال عهد هارون الرشيد، والتي اتّخذ كلّ من الشقيقين موقفًا منها. وبينما كان الأمين يرتكز على التيّارات التقليديّة وعلى الثقافة العربيّة، كان المأمون يؤيّد التيارات الفكريّة المتجدّدة، المتأثّرة بالأفكار والتقاليد الاجنبيّة التي كانت تحظى بتأييد خاص بين سكان المقاطعات الشرقيّة. أمّا الصراع العربي - الإيراني، الذي لم يشكّل سببًا مباشرًا للنزاع، فقد لعب دورًا أكيدًا في تطوّره.

إلى ذلك قرّر المأمون، بعد أن أصبح الخليفة غير المنازع وبعد أن انتصر جيشه، مواصلة إقامته في مرو، يعاونه وزيره الوفيّ، الفضل بن سهل، الذي وضع فيه كل ثقته. وبمحاولة منه لمعالجة إنقسام العالم الإسلامي بين السنّة والشيعة، أخذ قرارًا، مذهلًا في نظر معاصريه، باختيار وريثه من خارج السلالة العبّاسيّة، وتحديدًا من

الأسرة الهاشمية العلوية المتحدرة من نسل الحسين. فوقع اختياره على علي الرضا، ابن موسى الكاظم والإمام الثامن بالنسبة الى الإمامية الإثني عشرية، وقد أتي به خصيصًا من المدينة المنوّرة إلى مرو، وأعلنه الأكثر جدارة لتولّي الخلافة من بعده، بفضل صفاته الشخصيّة البارزة، وزوّجه من ابنته بهدف مصالحة الأسرتين المتنافستين المتحدرتين من عشيرة هاشم، أسرة ورثة العبّاس، عمّ النبيّ محمّد ﷺ، وأسرة ورثة علي، ابن عمّ نبي الإسلام وصهره. وتكريسًا لهذه المصالحة استبدل باللون الأسود، شعار العبّاسيّين التقليديّ، اللون الأخضر شعار العلويّين.

غير أنّ هذا التدبير المدهش أثار في العراق انفعالًا شديدًا بدون أن يحدّ من عداء الشيعة المتطرّفين، إلى درجة أنّ مناصري الشرعيّة العبّاسيّة نادوا في بغداد بخلع المأمون لمصلحة أمير عباسي آخر، إبراهيم ابن الخليفة الثالث المهدي، بينما شهدت المدينة اضطرابات شعبيّة كبيرة. وأخذ المأمون عندئذ قرارًا جديدًا بمغادرة مرو والانتقال إلى بغداد، وخلال الرحلة توفي على التوالي الوزير الفضل الذي اغتيل في سرخس في شهر شعبان ٢٠٢هـ/ شباط ٨١٨م، وعلي الرضا الذي قضى في شهر صفر ٢٠٣هـ/ أيلول ٨١٨م في مدينة طوس، ربّما جراء السمّ. وفي الوقت نفسه ظهر توجّه دينيّ مختلف طبع السنوات الخمس عشرة التالية، تولّى خلالها المأمون مباشرة سير العمليّات وحدّ من نفوذ معاونيه المباشرين ومن سلطة حكّام المقاطعات. وحده قائده السابق، طاهر، بقي يتمتّع باستقلاليّة نسبيّة في مقاطعة خراسان التي أوكلت إليه، وقد أسّس فيها سلالة شبه مستقلة هي السلالة الطاهريّة.

في الوقت نفسه، تخلّى المأمون عن سياسته الهادفة إلى التقرّب من العلويّين، وقد تجسّد هذا التخلّي بالعودة إلى اللون الأسود التقليدي وبالعمل لمصلحة ممثّلي حركة المعتزلة، وكان قد أظهر ميلًا تجاههم في مرو. ودعمًا لجهودهم، أخذ يشجّع ترجمة مؤلّفات يونانيّة، فلسفيّة وعلميّة، وأنشأ لهذه الغاية نوعًا من الأكاديمية ومكتبة أطلق عليها اسم «دار الحكمة»، وألحق بها مترجمين مسيحيّين في غالبيتهم. كما عمل على استحضار مخطوطات مهمّة غير موجودة في الدول الإسلاميّة من بيزنطية، وأنشأ مراصد خاصة بعلم الفلك استطاع بواسطتها العلماء المسلمون تدقيق المعلومات المتوارثة منذ العصور القديمة. وأخيرًا أخذ يدعم بصورة مباشرة المعتزلة، فقام بفرض عقيدتهم البعيدة عن المفاهيم التقليديّة التي كانت، حتّى ذلك التاريخ، ترتكز عليها سلطة الخلفاء العبّاسيّين والتي كانت تحبّذ، إلى حدّ ما، بعض التقارب مع الشيعة. وكان المأمون يرى في هذه العقيدة التي استهوته بسبب الصرامة الفكريّة لبعض مواقفها، وسيلة للحدّ من نفوذ العلماء القيّمين على تفسير القرآن والرافضين لمفهوم خلق القرآن، ولحثّ الرأي العام على الاقرار بتصوّر أكثر ليونة للخلافة. وفي الواقع أقدم بنفسه، في العام ٢١٢هـ/ ٨٢٧م، على تأكيد تفوّق علي على بقيّة أهل الصحابة، وهذا دليلٌ على البعد السياسي لخياراته العقائديّة.

ودخل قراره باعتماد عقائد المعتزلة طور التنفيذ في أوائل العام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م، بينما كان يقود بنفسه حملة عسكريّة ضد البيزنطيّين في منطقة طرسوس، وأُوكلت التحقيقات إلى قائد الشرطة الذي استدعى على التوالي القضاة وعلماء الحديث للحصول على موافقتهم الرسميّة. وتعالت الاعتراضات بين هؤلاء، فحاول المأمون إسكاتها باللجوء إلى التهديد، إنّما أحيانًا بدون أيّ نجاح، كما حصل مع ابن حنبل، مؤسّس المذهب الحنبلي، الذي أُرسل تحت حراسة مشدّدة إلى طرسوس، ولكنّه نجا بسبب وفاة الخليفة المفاجئة في شهر رجب سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م. في ما بعد، أطلق القيّمون على التقاليد اسم «المحنة» على استخدام الإكراه بهذا الشكل، وهذا يدلّ على أنّ قسمًا من الرأي العام كان يناهض الأفكار التي دافع عنها المأمون بشدّة والتي سرعان ما اضطرّ خلفاؤه إلى الابتعاد عنها.

وهكذا تبنّى المأمون طيلة حياته، في المجال السياسي والديني، أفكارًا شخصيّة أدّت في الواقع إلى الفشل. ولم يتمكّن أبدًا من وضع حد للانقسامات التي مزّقت الأمّة الإسلاميّة خلال عهده. أما العنف الذي لم يتردّد في اللجوء إليه في نهاية عهده لفرض العقيدة

الملائمة بحسب رأيه، والتي رفضها معظم المؤمنين في ذلك الوقت، فقد ساهم في تلطيخ صورة هذا الخليفة الذي تميّز بعقل مستنير، والذي لم يكفّ أبدًا عن ابداء اهتمامه المباشر والشخصي بعلم الكلام وبالفلسفة وبالعلوم على أنواعها.

الماء، عنصر كان استعماله التقني أساساً لازدهار الحضارة الإسلاميّة في القرون الوسطى، ولا سيّما في المناطق الجافّة التي شهدت ظهور الإسلام.

وقد كان للمياه، منذ البدء، مكانتها الخاصّة في المدن التي سكنها المسلمون، ليس من باب الحاجة إليها للطهارة الطقسيّة أو الوضوء فحسب، بل لأنّ القرآن كان قد رفع قدرها بتعابير شاعريّة أحياناً، عندما تكلّم على نداوة الحدائق وأشار الى ضرورة ري المزروعات، فالمياه كانت تجري للوضوء في ساحات المساجد وتغذّي مباني معدّة خصّيصاً للتطهّر الشامل كاستخدامها في الحمامات، بينما اعتُبرت المناهل العامّة أو السُبُل من أعمال البرّ، وغالباً ما كان يتعهّدها الوقف.

وقد قامت كل هذه التجهيزات المدينيّة على أنظمة شبكات مُدَّت بصورة علميّة واستخدمت فيها الأقنية والخزّانات والينابيع التي أُقيمت في العهود القديمة وتمّ توسيعها بواسطة مجموعات جديدة من خزّانات المياه والموزّعات الثانويّة، حتّى تستطيع هذه الشبكات تأمين الاستفادة من المياه الجارية لكلّ المدينة. وقد استمرّت هذه التدابير التي بدأت في عهد الإسلام الأوّل، عبر العصور. إن أعمال المهندس المعماري سنان في عصر العثمانيّين للافادة من مياه الغابة المسماة بغابة بلغراد وجرّها إلى مدينة اسطنبول، تشكل أحد أهم الأدلة على الأعمال الهيدروليكيّة التي أُنجزت في العالم الإسلامي. فكانت المنازل الخاصة تستفيد، على غرار الأبنية العامّة، من منافع شبكات التوزيع التي أشاد بها مدوّنو الوقائع في القرون الوسطى كشبكات دمشق وحلب على سبيل المثال. كما كانت هناك شبكات مشابهة لتأمين صرف المياه المبتذلة واستعمالها في ري أرض الواحات كالغوطة الدمشقيّة.

كذلك أُقيمت شبكات أخرى لجرّ المياه اللازمة للزراعة وتوزيعها في «مساحات ريفيّة»، سرعان ما كانت تعود إلى وضع السهوب أو الصحارى فور التوقّف عن ريّها اصطناعيًّا بفضل عمل شاق. فكان من الضروري أوّلًا تأمين المياه اللازمة: باعتماد أسلوب بسيط، يقضي بتأمين المياه من مجارٍ قليلة دائمة التدفق، وجرّها، بالاعتماد على انحدار الأرض، في تحويلات تنطلق من سدود بُنيت على الأنهر أو السواقي. كما تتفرّع من هذه التحويلات بدورها أقنية ومجار مجهّزة بعدد من السكور، هدفها تأمين الانتفاع من «ساعات تدفّق» المياه للمساحات المختلفة. فكان نمو الواحات إبتداءً من الواحات الجبليّة الغنيّة بالمزروعات في المناطق المعتدلة، كما في سوريا أو في إيران، وصولاً إلى واحات النخيل والتمر في العراق الأسفل ومصر أو في الصحراء. أحد أهمّ الأمثلة الواضحة لهذا الاستعمال تمثّل، منذ العصور القديمة، بالحائط أو المجال المسوّر للملكيّات القديمة التي تحتوي مزروعات نادرة، أو الحدائق الترفيهيّة المغلقة التي تحيط بها سدود ترابيّة لتخزين المياه، والتي غالباً ما نجدها حول مساكن الأمراء أو الأرستقراطيّين، كالأسوار العائدة الى عصر الأمويين مثلاً والمحيطة بقصر الحَيْر وقصر خربة المفجر في سوريا، أو القصور الغزنوية والغوريّة التي ما تزال آثارها المهدمة موزّعة في جوار لشكرِ بازار في سجستان.

كما كان هناك طرق أخرى لتجميع المياه أو تخزينها بواسطة خزانات ضخمة أحياناً، في شكل أحواض كبيرة كأحواض الأغالبة في القيروان، أو في شكل أحواض كبيرة مليئة بالمياه كالغرف التابعة لقصر أغودال في مراكش، وأحياناً في شكل خزانات مسقوفة، قائمة في منازل الاستراحات على طول طرق الحجّ التي تقطع شبه الجزيرة العربيّة، أو في كل الخانات المقامة على طرق القوافل في إيران. كما كانت هناك أشكال مختلفة من الآلات التي تعمل لرفع المياه من الآبار أو الأنهر المنخفضة، مثل النواعير على نهر العاصي في حماه. لكن تبقى «القنوات» الأسلوبَ الأكثر ابتكاراً وتميّزاً في العالم الإسلامي. فمن إيران حتّى الأندلس نجد قنوات أو «سراديب» تصريف المياه، حيث بقيت منافذ التهوية التي كانت تطابق فوهات رفع الركام في أثناء الحفر، لتُشير، على وجه الأرض، إلى خط القناة

وهي تطبع حتّى أيامنا، كما في القرون الوسطى، المشهد الطبيعي لبعض المناطق التي حافظت على طرائق الحياة التقليديّة. كما تستعمل عبارة «قناة»، إلى جانب عبارات «كاريز» في أفغانستان وتركستان «وخطّارة» في المغرب و«فجرة» في الصحراء، للتعبير عن طرائق استغلال مخزون المياه الجوفيّة، وكانت هذه الطرائق تقضي بتوفير مجموعة من التقنيّات للتمكّن من جرّ المياه بواسطة الجاذبيّة، في شروط طوبوغرافيّة دقيقة. ومع انتشار هذا النظام، تطورت خلال القرون الأولى للإسلام طرائق تنظيم وتعمير أقاليم كانت صحراويّة سابقاً حيث كانت سراديب عميقة جداً تؤمّن، من أقدام الجبال أحيانًا، المياه الضروريّة لحياة سكّان مدن هذه الأقاليم ولزراعة حقولها. كما تحكّمت صيانة القنوات، حتّى عصرنا الحاضر، بازدهار بعض المناطق، بالتحديد في إيران، حيث يعمل حتّى الآن عمّال متخصّصون وورثة خبرة عريقة في هذه المهنة.

مهما يكن مصدر هذه المياه المخزّنة والموزّعة، فقد حدّدت الشريعة والتقاليد استعمالها في البلدان الإسلاميّة. كما مُيّز شرعاً بين حقّ الشرب وحقّ الاستعمال المخصّص للريّ الزراعي. فكان استعمال المياه مسموحاً به مبدئيًا للجميع، سواء كانت مياه الجداول أو الآبار أو الينابيع أو القنوات، لأنّ هذه المياه تتجدّد. لكن حُصر هذا الحقّ بالشرب ولم يتعداه إلى حق ريّ الأراضي. أمّا في ما يتعلّق بالريّ فقد حُصر حقّ استعمال المياه بالمصلحة العامة، إذ كان من غير المسموح به تحويل مجرى نهر بواسطة قناة أو سد إذا أضرّ بالمقيمين على ضفاف النهر. وهكذا نشأ شيئاً فشيئاً تنظيم مبني على تقاليد قديمة أقرّها الفقهاء. فاعتُبرت مياه الأنهر الكبيرة ملكيّة تخصّ جماعة المسلمين، فنتج عن ذلك أن وجب على وليّ أمر هذه الجماعة، الخليفة أو من يمثله، الحفاظ على ضفاف الأنهر والسدود، في حال وجودها. وفي المقابل كانت تقع على عاتق سكّان الضفاف صيانة الأقنية الثانويّة، على أن يتمّ توزيع المياه وفق نظام مقبول لدى جميع الشركاء في الملكيّة. أخيراً حصر حقّ استعمال مياه الآبار والينابيع للريّ، بالأشخاص الذين حفروا الآبار أو الذين يملكون الأرض التي تنبع منها الينابيع بشكل عام. اعتبر الفقهاء حقوق المياه ملكيّة يمكن إيراثها أو بيعها أو وضعها في تصرّف وقف، كما أنّ ملكيّة القنوات المحفورة في أرض كانت سابقاً بوراً، كانت تعود لمالكي الأرض الجدد.

◄ راجع المستندين ٥٥ و٦٢.

الماتُريديّ، أبو منصور محمّد بن محمّد السمرقندي، ٢٥٧ - ٣٣٣هـ/ ٨٧٠ - ٩٤٤م، مفكّر أسّس، في ما وراء النهر، مدرسة فقهيّة شهيرة، نافست المدرسة الأشعريّة، واشتهرت عامةً باسم «الماتريديّة».

وُلد في ضواحي سمرقند حيث نعرف أنّه مات ودُفن. والتحق الماتريدي بالمدرسة الحنفيّة الفقهيّة التي طوّر أفكارها على مستوى العقيدة. من المؤلّفات الكثيرة المنسوبة إليه، وصل إلينا بعضها، وأبرزها «كتاب التوحيد» في علم الكلام. موقفه العَقَديّ الذي عبّر عنه تلاميذه كان أقرب إلى المعتزلة منه إلى السَلَفيّين. فالإنسان يمكنه، في نظره، معرفة الله من دون مساعدة الوحي، ويجب تفسير تعابير النص القرآني التي تخلع على الله صفات بشريّة على أساس أنّها استعارة؛ ولكنّه قبل بوجود بعض الصفات الإلهيّة مثل المعرفة والقدرة والكلام. وأخيرًا، في ما يتعلّق بمسألة التسيير والتخيير، أكّد الماتريدي، بطريقة مبتكرة، على أنّ الأفعال البشريّة هي، في الوقت نفسه، مخلوقة من الله ومختارة من الإنسان.

انتشرت «الماتريديّة» في الأوساط التركيّة واستفادت من توسّع السلطة السلجوقيّة؛ لكنّها اصطدمت باستمرار بالأشعريّة.

ماردة (إسبانيا)، مدينة تقع غرب الأندلس، عرفت خلال الحقبة الإسلاميّة إنحطاطًا بطيئًا.

كانت من أهمّ المدن القديمة في شبه الجزيرة، وكانت تُعرف في ذلك الوقت باسم إيميريتا (Emerita) العظمى، واحتفظت بهذا اللقب خلال الحقبات اللاّحقة. احتلّها المسلمون في العام ٩٤هـ/ ٧١٣م، خلال الفتوحات الكبرى. وبالرغم من إعجابهم بأبنيتها

القديمة، فرضوا عليها حكمًا متشدّدًا لم يَخْلُ، خلال حكم الأمويّين، دون بقائها بؤرة ثورات محليّة، لأنّ سكّانها كانوا بأكثريتهم من المولّدين ومن المستعربين. وفي الوقت نفسه، تضاءل دورها كموقع محصّن إستراتيجي. إنّ بقايا قلعتها (Alcazaba) التي تعود الى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ما تزال ظاهرة للعيان. وانتقل الدور الذي كانت تؤديه في المنطقة إلى المدينة الجديدة التي تمّ تأسيسها في بطليوس والتي كانت أكثر تأثرًا بالطابع الإسلامي. ولذلك عندما استرجع المسيحيون مدينة ماردة في العام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م، وجدوها قد تحوّلت إلى بلدة أُخليت من سكّانها منذ اعوام طويلة.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

ماردين (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في شمال بلاد ما بين النهرين تمتّعت، بفضل موقعها الطبيعي المحصّن والمنيع، بحيويّة جعلت منها، منذ القرون الوسطى، مركزًا إداريًّا متميّزًا بنمطه المعماري التقليدي.

شُيِّدت ماردين على ارتفاع ألف متر على خاصرة جبلٍ يُشرف على حوض الفرات الأوسط، وهيمنت هذه القلعة المنيعة على مسار القوافل الذي كان يربط في ما مضى نصّيبين والموصل بالرها وعينتاب، كما كانت تربطها طريق بمدينة ديار بكر في أعالي وادي دجلة. لذلك لعبت دورًا إستراتيجيًّا وتجاريًّا طوال القرون الوسطى المضطربة، غير أنّها لم تشهد أيّ تجدّد في الحقبة المعاصرة نتيجة لموقعها البعيد عن طرق المواصلات.

احتلّت القوّات العربيّة - الإسلاميّة، في العام ١٩هـ/٦٤٠م، المدينة البيزنطية خلال الفتوحات الكبرى وضمّتها إلى مقاطعة شمالي بلاد ما بين النهرين المسماة آنذاك ديار ربيعة. دخلت العالم الإسلامي، لكنّها بقيت أحد مراكز المسيحيّة النسطوريّة، وعانت من انعكاسات تجزئة الدولة العبّاسيّة منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. ومارس على التوالي الحمدانيّون والمروانيّون والسلاجقة الكبار سلطتهم عليها، إلى أن أصبحت هذه المدينة المتوسطة الحجم والمزدهرة عاصمةً لأحد فروع الأرتقيّين. وقد تمكّن أسيادها من البقاء في الحكم تحت هيمنة المغول، إنّما من دون أن ينجحوا في صدّ هجمات تيمورلنك الذي تمكّن من اقتحام المدينة في العام ٨٠٤هـ/١٤٠١م، من دون أن يستولي على القلعة. وانتهى حكم الارتقيّين نهائيًا في العام ٨١١هـ/١٤٠٨م. إبتداءً من هذا التاريخ، أصبحت المنطقة موضع نزاع بين دولتي القراقيونلو والآق قيونلو، قبل أن يجتاحها الصفويّون في العام ١٥٠٧، والعثمانيّون في العام ١٥١٦.

ما زالت ماردين - التي تعُدّ أقليّة مسيحيّة - تتميّز بنوعيّة أبنيتها المصنوعة من الحجر الكلسي الأنيق وبعمل بنّائيها المبتكر. حافظت المدينة على تقاليد البناء هذه، ولا سيّما من خلال مصاطب المنازل وقناطرها، خصوصًا في المدينة العليا التي ما زالت تحتضن أبنية قديمة من الحقبة الارتقيّة، منها المسجد الجامع الذي يعود إلى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي والذي أُدخلت عليه تعديلات مهمّة، ومنها أيضًا أماكن الصلاة العائدة الى القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، والمدارس كمدرسة السلطان عيسى الشهيرة المشيّدة في العام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م.

قامت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في موقع مجاور، هو دُنَيْصير أو هوش حصار، الذي يضمّ حاليًّا محلّة كِزِل تيبي، مدينةٌ تجاريّة مزدهرة تابعة لماردين ولسلطة الارتقيّين. وقد تبقّى منها مسجدٌ مهدّم، يشكّل نموذجًا مميّزًا لفنّ هذه السلالة، أُنجز في العام ٦٠١هـ/١٢٠٤م، وكان العمل فيه قد بدأ قبل عقد أو عقدين. وتميّز هذا المسجد بتصميم فريد ونادر، سواء في ما خصّ بنيته أو ما خصّ زخرفته. إنّه يعبّر عن التوازن الذي بلغه الفنّ المعماري في تلك المنطقة حيث استطاعت التأثيرات الخارجيّة، من سلجوقيّة وإيرانيّة وزنكيّة، الآتية من الموصل أو من سوريا، أن تندمج بالخصائص التي تميّز هذا الإقليم.

◄ راجع المستند رقم ٢١.

المارستان ← المستشفى.

مارند (الجمهوريّة الإسلاميّة الايرانيّة)، مدينة في أذربيجان لعبت دور محطّة إستراتيجيّة، تبعد حوالي ستين كيلومترًا عن تبريز في جهة الشمال.

تقع هذه المدينة المحصّنة في المرتفعات. شكّلت

في العصر العبّاسي محطّة لمسارات القوافل، عندما احتلّها مغامر اسمه ابن باعث شارك في الصراع ضد بابَك. وتحرّرت عندئذ من سلطة العبّاسيّين إلى درجة أنّ الخليفة المتوكّل اضطرّ إلى ارسال حملة لمحاصرتها في العام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩ ـ ٨٥٠م للقبض على إبن باعث الذي تمّ تسليمه. ثمّ استعادت مارند، في عهد السلاجقة، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أهميتها. يشهد على ذلك المسجد الجامع الذي شُيّد فيها والذي أُدخلت عليه تعديلات في ما بعد، في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، في عهد سلالتي «القراقيونلو والآق قيونلو. وفي وقت لاحق بدأ وضع المدينة يتحسّن من جديد عندما أقدم الروس، في العام ١٩٠٦، على شقّ طريق تربط تبريز بمدينة جولفا، مجتازةً مارند. وقد استُبدل بهذه الطريق خطّ حديدي في العام ١٩١٥.

مازَنْدران، ولاية في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، تمتدّ شمال جبال ألْبُرز وعلى طول شاطئ بحر قزوين وكانت تحمل في القرون الوسطى إسم طبرستان.

تتقاسم هذه الولاية، مع جيلان الواقعة أكثر إلى الغرب، سهلًا ساحليًا غنيًا ورطبًا تعلوه منحدرات متعرّجة. وكانت هذه الأرض المجاورة من جهة الشرق لِجُرْجان القديمة التي عُرفت لاحقًا باسم أستراباذ، مشهورة بزراعات شبه استوائيّة، لا سيّما الأرُزّ، وبغابات كثيفة تغطي جوانب قمّة «الدَماوَنْد». وكانت تجتازها طرق قوافل آتية من الرَيّ باتّجاه مرفإ عبّاسكون في جرجان؛ وكذلك باتّجاه خوارزم وخراسان. هذا الطريق الثاني كان أقلّ استخدامًا من ذلك الذي يمرّ بالهضبة الداخليّة الجرداء، من الجهة الأخرى لِلْبُرْز وعبر قومِس.

لكنّ النشاطات التجاريّة كانت تُضاف إلى الموارد المحليّة، بما فيها موارد تربية دود القز، لتغذّي ازدهار آمل، عاصمة المنطقة في بدايات القرون الوسطى، وازدهار مقاطعة ساري، وهي اليوم مدينة مهمّة كمركز إقتصادي وإداري.

لم يتمّ الاستيلاء على مازندران إلّا في نهاية الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، وكان من الصعب فرض السلام عليها. وفي العام ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م، اعتنق أميرها أو «الإصْبَهْبَذ» الإسلام. إبتداءً من هذا التاريخ، أصبحت المنطقة مركزًا لحركات التمرّد الشيعي لدعم طامعين من العلويّين الذي ينتمون إلى الحركة الزيديّة والذين أسّسوا سلالة من الأئمّة معروفة باسم زيديّي طبرستان. وتنتشر في هذه المنطقة أضرحة تضمّ مدافن لشخصيّات مختلفة تنتسب إلى الأسرة العلويّة، وهذه الشخصيّات ما تزال تُكرّم تحت اسم «إمامزاده». وكذلك كانت تسود فيها عادة إقامة المدافن - الأبراج التي أصبحت أضرحة الأمراء، ومنها برج لاجيم وربسغيت على سبيل المثال. واستمرّ زعماء محليّون، حتّى القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، في المحافظة على استقلالهم في ولاية أصبحت لاحقًا خاضعة بانتظام لسلطة الحكّام المتعاقبين في إيران. وكانوا ينتمون خصوصًا إلى الأسرة البَوَنْديّة التي عرفت ثلاث سلالات رئيسة قبل زوالها النهائي في سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م.

◄ راجع المستندات ١٢، ١٣، ١٧ و٢٤.

مالابار، الاسم الذي عُرفت به، في القرون الوسطى المنطقة الساحليّة في الهند، الواقعة جنوب غرب الدَكّن، والتي تضمّها اليوم ولاية كِرالا في الاتّحاد الهنديّ.

تشكّلت فيها طائفة إسلاميّة قد تكون الأقدم في شبه القارّة كلّها، حتّى قبل فتح السِّند، حيث كانت هذه المنطقة، قبل الاسلام، على اتّصال بحريّ وتجاريّ بالعرب. ويبدو أنّ التجّار الذين جازوها مرارًا في السنوات الأولى للهجرة قد عقدوا زيجاتٍ «موقّتة» بحيث أنّ أولاد ذرّيّتهم المتكاثرين والنّشطين ذُكروا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في الكتابات الأدبيّة للجغرافيّين العربَ. وقد يكونون في أساس طائفة المابيلا (Mapillas) السنيّة حاليًا، في ولاية كِرالا، التي تضمّ حوالى خمسين في المئة من مجموع السكّان. وقد تجمّعت هذه الطائفة في روابط إسلاميّة عدّة، تؤدّي دورًا مهمًّا على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، ولا سيّما في مقاطعة مالابورام التي أُنشئت حديثًا وحيث تشكّل هذه الطائفة الأغلبيّة.

◄ راجع المستندات ٣١ - ٣٤.

مالطة، جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، تقع جنوب صقلّية على مقربة من إفريقية، احتلّتها القوّات الإسلاميّة من حوالى ٢٥٦ الى ٤٨٣هـ/ ٨٧٠ الى ١٠٩٠م.

في العام ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م، استطاع أسطول إسلامي آتٍ من صقلّية تحرير مالطة من احتلال أسطول بيزنطي، ما يعزّز الاعتقاد أنّ الجزيرة كانت قد خضعت للفتح الإسلامي بتاريخ سابق يصعب تحديده، ربّما في أوائل عهد هيمنة الأغالبة على إفريقية. استعاد الملوك النورمان مالطا في العام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، إلّا أنّهم سمحوا للمسلمين بالإقامة فيها حتّى العام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، عندما أقدم خلفهم فريديريك الثاني على طردهم، كما كان قد فعل مع مسلمي صقلّية. حاول العثمانيّون بعد ذلك، من دون جدوى، في العام ١٥٦٥م وفي العام ١٦١٤م، الاستيلاء على الجزيرة التي تولّى تحصينها والدفاع عنها فرسان القديس يوحنا، بعد أن طردهم الأتراك من جزيرة رودس.

ما زالت اللغة المستعملة حاليًّا في مالطا تحمل آثار إلحاق الجزيرة الموقّت بالإسلام، وتستخدم أبجديّة لاتينية معدّلة تتألف، في الوقت نفسه، من عناصر عربيّة وعناصر لاتينيّة.

مالَقَة (إسبانيا)، مدينة ومرفأ على البحر المتوسط، تقع جنوب شبه الجزيرة الإيبيريّة بين الجزيرة الخضراء (الخسيراس) وألمَريّة في الأندلس. وقد ظلّت طوال ما يزيد على السبعة قرونٍ تحت سيطرة الإسلام. احتُلّت مالَقَة في العام ٩٢هـ/ ٧١١م إبّان الفتوحات الكبرى على يدي طارق بن زياد، أو على يدي ابن موسى بن نُصير. وقد شكّل موقعها الساحليّ، وسط واحاتٍ مزروعة، مركزًا لمنطقة لها طابعها المميّز. هذه المنطقة التي استقرّ فيها جند الأردنّ السوريّ، استقبلت بترحاب الأمويّ عبد الرحمن الأوّل. ثمّ أضحت مركزًا لحركات ثوريّة عدّة، لم تهدأ إلّا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وبعد تفكّك خلافة قُرطبة في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وقعت مالَقَة في أيدي بني حمّود فجعلوها احدى دويلات الطوائف، ولكنّها كانت مضطربة. ثم استولى عليها، على التوالي، المرابطون فالموحّدون الذين فرضوا حكّامهم عليها. وبعد تطوّرات مختلفة، ضُمّت في العام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، إلى مملكة بني الأحمر في غرناطة، وقد نازعهم عليها المرينيّون واعتُبرت من بين معاقلهم الأخيرة في الأندلس، إلى أن حاصرتها جيوش الملوك الكاثوليك في العام ١٤٨٧م وافتتحتها عنوةً.

حاضرة ناشطة وصناعيّة، اشتهرت بمنتجاتها الزراعيّة والصيد البحريّ، إضافة إلى المنتجات الحرفيّة. كانت تضمّ دارًا للصناعة وحوضًا للاعتناء بأسطولها؛ كانت، في الوقت عينه، تستقبل التجّار الأجانب ونشاطهم التجاريّ. وقد مدح الجغرافيّون العرب في القرون الوسطى مالقة، وهي ما زالت حتّى اليوم تحتفظ ببعض الآثار الهندسيّة من ماضيها المجيد. كانت تضمّ داخل أسوارها منطقة عالية وأخرى منخفضة، في كلٍّ منهما مسجد جامع. والمنطقة العليا شكّلت قلعةً أعيد بناؤها مرات عدّة، ولا سيّما في أيام بني الأحمر الذين عرفوا أنّه من الضروري الاحتفاظ بها.

◄ راجع المستندات ١١، ١٥ و١٩.

مالك بن أنَس، أبو عبدالله الأصبحي، ٩٢-١٨٠هـ/ ٧١١-٧٩٦م. فقيه عاش في المرحلة الأولى من تاريخ الإسلام، وهو معروف بكونه إمام المدينة المنوّرة حيث قضى حياته وحيث عمل على تصنيف مبادئ الشريعة المعمول بها آنذاك، وهو مؤسّس المذهب المالكي. إنّنا نعرف القليل عن حياته، ولكن من المؤكّد أنّه، في بداية العصر العبّاسي، كان يتمتّع في المدينة، حيث عاش، باحترام كبير، لذا أوكل إليه الخليفة المنصور مهمّة وساطة مع الأخوين العلويّين محمّد وابراهيم، ابني عبدالله، اللذين كانا متّهمين بالتآمر على الخلافة العبّاسيّة. فشلت مهمّتُه وأعلن الأخوان المذكوران الثورة في العام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، فانحاز مالك إليهما، ما حمل حاكم المدينة العبّاسي على إساءة معاملته. يبدو أنّ الخليفتين العبّاسيّين، المهدي وهارون الرشيد، صفحا عنه في ما بعد، ويقال إنّ الرشيد زاره في منزله.

أهم آثاره التي جمعها تلامذته، «الموطّأ»، وهو أقدم مؤلّف في الفقه الإسلامي، وقد وصلت إلينا منه نسخٌ تختلف في مضمونها. عرف هذا المصنّف نجاحًا كبيرًا، لا سيّما في أوساط المذهب الذي تكوّن حول

تلامذة مالك. لم تتأتَّ شهرتُه من أصالة فكره الفقهي، بل من كونه اعتمد في صياغته على الممارسة التي كانت سائدة في المدينة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، ومن كونه أوّل من عمل على جمع قواعد هذه الممارسة وتنظيمها.

المالكيّة، مدرسة فقهيّة مرجعها مالك بن أنس، ترتكز، بشكل أساسي، على التقاليد المدنيّة التي كانت تتمتّع في ذلك الوقت بنفوذ أكبر من نصوص الحديث.

كانت هذه الممارسة تُعتبر تمثيلًا حيًّا لسنّة النبيّ محمّد ﷺ وصحابته. لكنّ مالكًا كان يلجأ أيضًا، في حالات إستثنائيّة، إلى نوع من الأفكار الشخصيّة التي تعتمد المصلحة العامة والتي أطلق عليها اسم «استصلاح». أمّا كتابه «الموطأ» الذي عمل اتباعه على جمع مضمونه فقد أضيفت إليه، في ما بعد، أبحاث عديدة وضعها فقهاء من أتباع مدرسته. وهكذا خصّص القيرواني «سحنون»، في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، في كتابه «المدوّنة»، مكانًا مميّزًا للممارسات التجاريّة، بينما وضع قيرواني آخر (إبن أبي زيد)، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بحثًا أطلق عليه اسم «الرسالة». وفي ما بعد كتب «خليل بن إسحق» (توفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) «المختصر» وقد خصّصت له تفسيرات عديدة.

لكنّ المالكيّة لم تقتصر على مجرّد مدرسة فقهيّة، إنما شكلّت أيضًا تيّارًا فكريًّا معاديًا بنوع خاص للقدريّين وللخوارج الذين اعتُبروا مخلّين بالنظام العام. وكانت، من جهة أخرى، شديدة التحفّظ تجاه الصوفيّة، وليس من المصادفة أن يكون حكم الإعدام بحقّ الحلاّج، في العام ٣٠٩هـ/٩٢٢م، قد صدر عن قاضٍ مالكيّ. كما أدان المالكيّون في المغرب أعمال الغزالي، لكنّهم لم يتمكّنوا من الحدّ من انتشار المذهب الصوفي في تلك المناطق. وابتداء من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ظهر العديد من المتصوّفين المنتمين إلى هذا المذهب، بينما واصل العلماء المالكيّون ممارسة تشدّدهم تجاه الآراء التي كانت في نظرهم معادية لعقيدة الإسلام.

انتشرت المالكيّة، إنطلاقًا من المدينة، في البصرة، ومن ثمّ في العراق وفي مصر، ومنها انتقلت إلى المغرب. واستمرّت في المشرق حتّى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، عندما توارت في العراق وفي خراسان. وبقيت قائمة بصعوبة في الحجاز، وتراجعت في مصر أمام المذهب الشافعي لتنحصر في مصر العليا. وفي الواقع لم تتمكّن المالكية من الهيمنة إلّا في المغرب وفي الأندلس خلال السيطرة الإسلاميّة على شبه الجزيرة الايبريّة. وانتشرت مراكزها الفكريّة أولًا في قرطبة وفي القيروان، عاصمة الأغالبة. غير أنّ ممثليها عانوا من قيام النظام الشيعي الإسماعيلي على يد الفاطميّين. ثمّ، وفي أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، خلال حكم المرابطين، حظيت المالكيّة برعاية متواصلة، وتاليًا تكاثرت الدراسات الخاصة بالفقه المالكي التطبيقي. لكنّ التراجع الذي تلا، خلال عهد الموحّدين، منعها من استعادة ازدهارها إلى ما بعد قيام المرينيّين والحفصيّين. عندئذٍ بدأت بسط هيمنتها إلى ما وراء المغرب، على أفريقيا السوداء بكاملها، مع انتشار الإسلام في أفريقيا الشرقيّة والوسطى والغربيّة.

مالي، مملكة إسلاميّة قديمة في السودان النيجيريّ، حكمها المالنكة أو الماندنج وعرفت ذروة عزّها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وما تزال جمهورية مالي الحاليّة تحمل إسمها.

١- إنّ أراضي هذه المملكة الواقعة في الساحل، على تخوم القفار الصحراويّة، تطابق أراضي مالي الحاليّة، مضافًا إليها جزء من بعض الدول المجاورة، وتحديدًا السنغال وغامبيا والنيجر. وقد نشأت هذه المملكة، ولا شكّ، في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، عندما دخل الإسلام كنغابا (Kangaba). هنا، في مهد مملكة مالي المستقبليّة وفي جوار ياماكو، اغتنم الزعماء المحلّيون سريعًا انحطاط مملكة غانا ليوسّعوا نطاق سلطتهم وليتّصلوا، في الوقت عينه، بالعالم الإسلاميّ في الشمال، ويصبحوا ملوكًا مسلمين يحجّون إلى مكّة بدءًا من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وقد قام مَنْسى موسى، أحد أعظم ملوكهم، ببناء المساجد وإرسال

طلاب إلى فاس وإقامة علاقات طيبة مع المرينيين ؛ كما وسّع ، بشكل ملحوظ ، أراضي المملكة بحيث ضمّت تُمْبُكتو التي أصبحت مدينة تجارية مهمّة ، وفي الوقت عينه مركزًا ثقافيًّا . وتخبرنا رحلة ابن بطوطة إلى مالي ، في العام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م ، عن الحالة الإجتماعية ، حيث كانت ما تزال بعض التقاليد الوثنيّة شائعة في حياة المسلمين الذين كثر عددهم في المدن . وقد أدّت سيطرة شعب الصُنغاي في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد إلى تقليص مملكة مالي حتّى حجمها الأساسيّ كدولة صغيرة في السهوب عاشت لاحقًا ، في القرن التاسع عشر ، النزاعات التي قامت بين أمبراطوريّات الجهاد ، أي أمبراطوريّات الفُلبة (Peuls) .

٢ - **جمهوريّة مالي الحاليّة** ، مساحتها ١ ٢٤٠ ٠٠٠ كلم[٢] ؛ عاصمتها باماكو . هي دولة مستقلّة معاصرة في أفريقيا الغربيّة السوداء . يبلغ عدد سكّانها حوالى ثمانية ملايين نسمة ، منهم ٦٨ في المئة من المسلمين .

هذه الدولة التي هي جزء من منطقة الساحل الأفريقيّة والتي توافق حدودها السودان الفرنسيّ القديم ، تقع بين جمهوريّتي الجزائر والنيجر في الشرق ، وموريتانيا والسنغال في الغرب ، وتجاور جنوبًا جمهوريّتي غينيا وبوركينا فاسو . وهي ، إذ تضمّ جزءًا من القفار الصحراوية ، إلّا أنّها تنتمي إلى منطقة السهوب التي عُرفت في القرون الوسطى باسم السودان ، وحيث يعبر ، في هذا المكان بالذات ، المجرى الأعلى لنهر النيجر . كما أنّها تدّعي لنفسها الإرث التاريخيّ لهذه المنطقة ذات التاريخ المضطرب ، كما تنسُبُ لنفسها التقاليد الثقافيّة لمملكة مالي القديمة ولمدينة القوافل فيها أي تُمْبُكتو .

إنّ الأحداث التي جرت في الفترات التاريخيّة الأقرب إلينا هي التي تركت آثارها على الوضع الدينيّ في البلاد ، بسبب الدور الذي أدّته ، وما زالت ، الطرائق الصوفيّة - بنوع خاص القادريّة والتيجانيّة - في أثناء المواجهة التي جرت بينها في القرن التاسع عشر ، خلال الصراعات التي نشبت بين أمبراطوريّات الفُلبة الجهاديّة التي أنشأها تباعًا شيخو أحمدو والحاج عمر . كذلك لعبت الحركة الحماليّة دورها في المنطقة في القرن العشرين . إنّ سيطرة رؤساء الطرائق هذه أدّت إلى ردّة فعل أصوليّة ، وُصفت أحيانًا بالوهّابيّة الجديدة ، وكانت في أساس حزب راديكاليّ مقاوم للاستعمار ، سيطر على المدن وما زال ناشطًا حتّى اليوم . ولكنّ هذه التيّارات الإسلاميّة المختلفة لم تحُلْ دون استمرار بعض الميول الوثنيّة التقليديّة التي تسيطر على حوالى أربعين في المئة من السكّان الذين تُشغلهم الاختلافات العقائديّة والصراعات العرقيّة ، كالصراع بين السود والطّوارق .

◄ راجع المستندين ٢٨ و٢٩ .

ماليزيا ، شبه جزيرة ، تقع جنوب شرق آسيا . لعبت سواحلها الجنوبية دورًا أساسيًّا في العلاقات التجاريّة بين الصين والهند من جهة ، والعراق الإسلاميّ من جهة أخرى ، ما جعل المسلمين يستقرّون فيها ، منذ القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد حتّى يومنا هذا .

١- إنّ نشوء مملكة مَلَقّا في القرن الخامس عشر للميلاد يؤكّد وجود طائفة إسلاميّة كبيرة فيها . واستمرّ الإسلام بالانتشار تحت تأثير الصوفيّة ، على ما يبدو ، التي لم تكن شعائرها تختلف كثيرًا عن العادات الدينيّة المحلّيّة . ومذّاك ، استخدم الكتّاب المسلمون الصوفيّون اللغة الماليزيّة . ثمّ احتلّ البرتغاليّون البلاد ، فالهولنديّون ، وأخيرًا الإنكليز الذين استقرّوا فيها بدءًا من العام ١٨٧٤ ، مُبْقين فيها على إدارة إسلاميّة وعلى سلطنات محلّيّة إسلاميّة . ولم تستقلّ شبه الجزيرة إلا في العام ١٩٥٧ وانخرطت في الاتّحاد الفدرالي الماليزيّ - وهي لا تزال تشكّل اليوم الجزء الغربيّ منه - إلى جانب الجزء الجزيريّ الإندونيسيّ الذي يضمّ ، بشكل رئيسيّ ، القطاع الشمالي الغربي من كاليمانتان أو بورنيو .

٢- تبلغ مساحة دولة ماليزيا الفدراليّة الحاليّة ٣٢ ٩٧٥٠ كلم[٢] ، وعاصمتها كوالا لومبور . وهي تضمّ ثلاث عشرة ولاية موزّعة بين شبه جزيرة ماليزيا وإندونيسيا . أمّا سكّانها فيقدّرون بنحو عشرين مليونًا ، نصفهم من المسلمين .

وإلى الولايات التسع في شبه الجزيرة الماليزيّة - وكلّها سلطنات إسلاميّة ذات حكم وراثي ضُمّت ، سنة ١٩٥٧ ، إلى الكومنولث - أضيفت سنة ١٩٦٣ بعض

الجزر، ولا سيّما دولتا ساباح وَسَرَواك الواقعتان في الجزء الشمالي من جزيرة بورنيو والمجاورتان لسلطنة بروناي التي فضّلت البقاء خارج المجموعة. وقد قامت الدولة الاتّحادية الجديدة، التي لها حدود مشتركة مع مملكة تايلندا وأراضي سنغافورة، بتوسيع مجالها البحريّ جنوبًا حتّى جمهورية إندونيسيا ذات الغالبية الإسلاميّة. اعتمدت ماليزيا النظام الملكي الدستوري حيث الحاكم، «الملك الأعلى»، مسلمٌ، يعيّن لخمس سنوات، مداورةً بين السلاطين التسعة.

مالِيندي (جمهوريّة كينيا)، مدينة مرفئيّة على المحيط الهندي، على الساحل الشرقيّ لأفريقيا السوداء، شكّلت، في أواخر القرون الوسطى، محطّة للملاحة الإسلاميّة وللنشاطات التجاريّة المثمرة.

تقع هذه المدينة بين أرخبيل لامو وممباسا. أتى على ذكرها الجغرافي الإدريسي، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وعُرفت بشكل خاص من خلال سلطتها المحليّة التي هيمنت على ملاحتها خلال القرن الخامس عشر للميلاد. وقد استقبلت، في العام ١٤٩٨، فاسكو دي غاما قبل رحيله الى الهند. انتقلت سلالة ماليندي في ما بعد، في العام ١٦٣٢، إلى مومباسا. ومنذ ذلك التاريخ بدأ تراجع هذه المدينة التجاريّة التي لا تحتفظ من ماضيها سوى ببعض البقايا، والتي تجاورها منطقة شاسعة مهدّمة تضمّ موقع جدي (Gedi) الأثري حيث كان يقوم، في الماضي، قصر ملكي تحوّل، مع الزمن، إلى مركز سكني جديد.

◄ راجع المستند رقم ٢٨

مانتزيكَرْت/ ملازكَرت (معركة)، ذو القعدة ٤٦٣هـ/ آب ١٠٧١م، معركة انزلت خلالها الجحافل التركيّة الزاحفة إلى الأناضول، بقيادة السلجوقي ألب ارسلان، في البيزنطيّين، بقيادة الامبراطور رومانوس ديوجين، هزيمة قاسية تلتها فتوحات واسعة.

إنّ مانتزيكرت/ملازكرت مدينة صغيرة في الأناضول الشرقيّ، تقع شرق بحيرة وان في المنطقة الجبليّة التي كانت تمرّ فيها طريق القوافل الآتية من إيران. وكانت هذه المنطقة قد أفلتت لفترة من أيدي أسياد القسطنطينيّة، بعد ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي وبعد الإحتلال الطويل الذي شهدته أرضروم من قبل القوات العربيّة - الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى. غير أنّ تغيير الحكم في القسطنطينيّة، في العام ٤٦٢هـ/١٠٦٨م، دفع بالبيزنطيّين الى صدّ كافة الغزوات الأجنبيّة وإلى القيام بسلسلة من الغارات الانتقاميّة. ولكنّ الغارة التي أدّت الى معركة مانتزيكرت/ ملازكرت كانت كارثة بالنسبة إلى الأمبراطور رومانوس ديوجين الذي أُسر على يد السلطان السلجوقي والذي لم يستطع استعادة عرشه بعد اطلاق سراحه.

لا ندري إذا كانت الاتفاقية التي وقّعها العاهلان والتي نصّت، بدون شكّ، على دفع فدية للمنتصرين قد طبّقت أم لا، لأنّ السلطة في بيزنطية انتقلت، خلال هذا الوقت، الى أمبراطور آخر. لكنّ هزيمة مانتزيكرت/ ملازكرت سمحت للمجموعات التركمانية التي اعتنقت الإسلام بالدخول بحريّة إلى الأناضول حيث تكاثرت، وأصبحت الطريق، بفضل ذلك، مفتوحة لتغيير سريع في البلاد التي باتت مقسّمة بين أسياد الحرب، وقد أخذ هؤلاء يتملّكون أقسامًا شاسعة منها في جو من الاضطرابات والفوضى.

◄ راجع المستند رقم ١٧.

مانيسا (الجمهوريّة التركيّة)، مغنيسا سابقًا، مدينة في الاناضول الإيجي، وتقع في الأراضي الداخليّة لمدينة إزمير، على مفترق طُرق مهمّة لمسارات القوافل.

لم تخضع هذه المدينة المزدهرة للحكم الإسلامي إلّا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، في عهد سلاجقة الروم الذين افتتحوها لتصبح، في العام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م، مدينة محصّنة وعاصمة إمارة التركمان الصاروخانيّين التي سقطت نهائيًّا تحت هجمات العثمانيين في القرن الخامس عشر للميلاد. إلى هذه الحقبة تعود النهضة الفنية التي ما زالت تشهد عليها أبنية عدّة، ولا سيّما المسجد الجامع الذي شيّده اسحق بك في العام ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، والذي اعتُبر من أهمّ الانجازات المعماريّة المُنبئة بالتطوّر اللّاحق لهذا النوع من البناء.

حافظت المدينة على ازدهارها في العصر العثماني بفضل أنشطتها التجاريّة وبفضل موارد المنطقة الزراعيّة، وأدّت دورًا بارزًا على الصعيد الإداري، إذ عُيّن أبناء السلاطين الأبكار حكّامًا عليها. ونشأ في ما بعد، في أسفل المدينة القديمة حيث كانت قائمة سابقًا المؤسّسات الصاروخانيّة، تجمّع سكني شُيّدت فيه أبنية عديدة من نوعية عالية، ومنها مجمّع معماري للمهندس سنان. غير أنّ مرفأ ازمير المجاور حجب هذا النجاح في القرن السابع عشر للميلاد، واحتكر، منذ ذلك الوقت، كل قدرات المنطقة الاقتصاديّة، فاقتصرت أهميّة مانيسا على كونها مركزًا إقليميًّا.

◄ راجع المستندين ٢٢ و٢٧.

ما وراء النهر ← **بلاد ما وراء النهر.**

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمّد، ٣٦٤-٤٥٠هـ/ ٩٧٤-١٠٥٨م، فقيه شافعي حظي بتقدير الخلفاء العبّاسيّين الذين قرّبوه إلى محيطهم، ولا يزال معروفًا حتّى يومنا هذا بفضل مؤلّف له عن الحق العام.

ولد في البصرة حيث تابع دراسته وأصبح معلّمًا في بغداد، ثمّ قاضيًا في مدن مختلفة. نعم الماوردي بحظوة لدى اثنين من السلالة العبّاسيّة، القادر والقائم، اللذين مارسا سياسة متعاطفة مع السنّة، في وجه البويهيّين ذوي العقيدة الشيعيّة، وقد أسندا إليه أحيانًا مهمّات دبلوماسيّة. تُوفّي في بغداد حيث دفن وترك مؤلّفات متنوّعة حول تفسير القرآن واللغة والقواعد، وخصوصًا مصنّفًا بعنوان «الأحكام السلطانيّة». يسعى هذا المصنّف للدفاع عن حقوق الخليفة، في عصر كانت مؤسّسة الخلافة تعيش صعوبات، ويقترح برنامجًا لإنهاضها. وقد كتب الماوردي كذلك مصنّفًا في الأخلاق عنوانه: «أدب الدين والدنيا».

المتعة ← **النكاح.**

المتنبي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين، ٣٠٣ - ٣٥٤هـ/ ٩١٥ - ٩٦٥م، شاعر عربي اشتهر بشكل خاص بتمرّده وبقصائده التي مدح فيها سيف الدولة الحمْداني الذي جاهد ضد البيزنطيّين.

ولد في الكوفة من عائلة متواضعة عربيّة الأصل، ونشأ أبو الطيّب في محيط بدوي مشبّع بالأفكار الشيعيّة حيث اكتسب ثقافته الدينية وتلقّن، في الوقت نفسه، أصول اللغة التقليديّة. بعد أن بدأ حياته المهنيّة بممارسة المديح في العراق وفي سوريا، قاد في السهوب الممتدّة بين الكوفة وتدمر تمرّدًا - ذا طابع سياسي باء بالفشل - ما يزال توجّهه مجهولًا. وبسبب تلك الحركة التي أدّت إلى سجنه في مدينة حمص في سوريا، أُعطي لقب «المتنبّي». بعد إطلاق سراحه، واصل تجواله إلى أن أصبح، في العام ٣٣٧هـ/٩٤٨م، شاعر بلاط سيف الدولة الذي جسّد في نظره بطل الجهاد والعروبة.

تسنّت للمتنبّي عندئذ فرصة لصياغة أشهر قصائده المدحيّة، في حين اصطدم بعداء إبن عمّ راعيه، الشاعر أبي فراس، ما دفعه، في العام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م، إلى مغادرة حلب متوجّهًا إلى مصر الأخشيديّة حيث أصبح مادح الوصي على هذه الدولة، كافور، العبد الزنجي السابق، الذي لم يكنّ له سوى الإحتقار، فتركه في العام ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م ساعيًا وراء حماية أمير أو وزير بويهيّ، قبل أن يغتاله قطّاع طرق. ما يزال شعره - الذي غالبًا ما خرج عن الإطار المتشدّد للمنظومات المماثلة ليتناول موضوعات سياسيّة أو دينيّة - محطّ إعجاب بسبب بعض مقاطعه العاطفية والفلسفية، ولا سيّما تلك التي عبّر فيها المتنبي عن تشاؤمه وعن مرارته تجاه صعوبات الحياة.

المتوكّل على الله، أبو الفضل جعفر بن محمّد، ٢٠٦-٢٤٧هـ/ ٨٢٢ - ٨٦١م، الخليفة العبّاسي العاشر، إبن المعتصم، حكم من ٢٣٢ إلى ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ إلى ٨٦١م، خلال ما عُرف بحقبة سامرّاء.

وضعه عظماء الأمبراطوريّة على العرش بعد وفاة أخيه الخليفة السابق الواثق. ابتعد الخليفة الجديد عن السياسة الدينيّة التي اتّبعها أسلافه المباشرون، فاعتمد من جديد المبادئ السلفيّة وأدان المعتزلة وكلّ محاولة لاستدلال العقل في مسائل الإيمان. وطلب لهذه الغاية من المتخصّصين في الحديث نشر الأحاديث النبويّة المخالفة لعقائد المعتزلة. هكذا استعاد ابن حنبل حريّة التعليم التي كان فقدها في عهد المعتصم، لكنّه رفض تولّي أيّ منصب رسمي مقرّب من الخليفة. وفي سياق

هذا التوجّه نفسه، اتّخذ المتوكل تدابير قاسية ضدّ الشيعة، فأمر بتدمير الضريح المقام على قبر الحسين في كربلاء. كما اعتمد تدابير قمعيّة ضدّ غير المسلمين وأرغمهم على التقيّد كليًّا بالأنظمة التي ترعى وضعهم بصفتهم ذميّين، وعلى إبراز سمات هذا الوضع الدونيّ بشكل جليّ، ولا سيّما من خلال لباسهم ومظهرهم الخارجي. وأدّى هذا التحوّل السياسي المفاجئ إلى بعض الاضطرابات والصعوبات.

قرّر المتوكّل، الذي كان ما يزال يقيم في الأبنية الملكيّة الفخمة المجاورة للمعسكر الذي أنشأه والده في سامراء، منح ثقته لقادة حرسه الأتراك فقرّبهم منه. وإثر الاستياء العام الناتج عن العودة إلى السّلفية، أقدم أحد هؤلاء الأمراء الطامعين دومًا في مؤامرات القصر على اغتيال الخليفة في المقرّ الملكي الجديد الذي كان قد أقامه في مدينته الملكيّة المسمّاة الجعفريّة. وما زالت هذه المدينة تحتفظ ببقايا مسجد جامع يُعرف بمسجد أبو دلف.

المجريطي، أبو القاسم مسلمة بن احمد الفَرَضي، منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي حتّى حوالى سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٧م، فلكيّ ورياضيّ أندلسيّ، استعمل بانتقائيّة موادّ علميّةً إيرانيّة وهنديّة، ونقلها لاحقًا إلى أوروبا المسيحيّة في القرون الوسطى.

وُلِد في مدريد - عرفها العربُ باسم مجريط، ومنها اسمه - وعاش في قُرطُبة. أمّا سيرة هذا العالِم فإنّها غامضة، على الرغم من أنّه خلّف لنا أعمالًا تقنيّة بامتياز، بعضُها لم يصلنا إلّا بنسخته اللاتينيّة أو العبريّة. فقد عمل على مطابقة تقويمات الخوارزمي، الموضوعة بحسب زيج قديم «السندهند الكبير»، مع خطّ زوال قُرطُبة؛ لكنه لم يهمل كذلك المعطيات الهلينستيّة الأصل التي عرفها وتآلف معها في بطانة أشهر خلفاء السلالة الأمويّة في الغرب، الخليفة عبد الرحمن الثالث. كما اشتهر المجريطي بمعارفه التطبيقية التي كتب فيها رسالة في الأسطرلاب، وبخبرته في الأرصاد. وقد يكون أسهم، في الأوساط الايبريّة، في نشر الأفكار الفلسفيّة الدينيّة التي تضمّنتها موسوعة إخوان الصفا الذين كان يشاطرهم ولا شكّ، بشكلٍ غير علنيّ، الميل إلى التشيُّع.

المحاسبي، أبو عبدالله الحارث بن أسد، ١٦٥-٢٤٣هـ/ ؟ ٧٨١-٨٥٧م، متصوّف عراقي من العصر العبّاسي الأوّل، يُكرّم قبره في بغداد، ترك كتابات عدّة أمّنت له دورًا رائدًا في نشأة الصوفيّة.

ولد في البصرة، واكتسب هذا الرجل التقي لقبه نتيجة للأهميّة التي كان يوليها «الحساب الضمير» أو المحاسبة. جاء في وقت مبكر إلى العاصمة العراقيّة وأمضى فيها القسم الأكبر من حياته التي لم يُعرف عنها شيء. وقد أثارت تعاليمه بعض المعارضة من قبل علماء الكلام ورجال الدين السنّة من أمثال ابن حنبل. لكن يبدو أنّ عظاته تميّزت بعبارات شديدة اللهجة، كما أنّ نداءاته المتعدّدة في سبيل الكمال أو الاهتداء الروحي لم تمنعه من التمسّك باحترام دائم للسنّة.

تمّ تصنيف المحاسبي في عداد الصوفيّين «المعتدلين». وكانت، بالنسبة إليه، تتمثّل المرحلة الأولى من الحياة الدينيّة بالصراع ضد الشهوات والرذائل، كاللّذة والنفاق والعجرفة والإهمال؛ وهذا الصراع يقوده العقل. أمّا المرحلة الثانية فتقتصر على اكتساب الفضائل واستعداد النفس للبعث، من خلال التأمّل وممارسة الصلاة والذكر. والمرحلة الثالثة الأخيرة تتمثّل بحبّ الله الذي يسمح للخليقة بأن تصبح «خليلة» الله على غرار إبراهيم الخليل.

محراب، عنصر هندسي وزخرفي أُضيف، منذ العهود القديمة، إلى حائط القبلة الداخلي في قاعات الصلاة في المساجد، ليحتلّ مكانًا أساسيًّا على الصعيد الهندسي كما على الصعيد الرمزي.

ساهم المحراب في الدلالة على القِبْلة في مكّة التي يتوجّب على المؤمنين الإتّجاه نحوها للصلاة، وأصبح، بسبب ذلك، مرافقًا لا غنى عنه في كل مصلّى عام او خاص. كما استُخدم في الأضرحة وفي إيوانات المدارس مثلًا، للإشارة إلى مكان الصلاة واتّجاه المصلّين. وجرت العادة، في بعض الأحيان على حفر صورة المحراب على لوحات بسيطة من الحجر او الجص أو الخشب لاستخدامها كمحراب ثانوي على جدران أنواع متعدّدة من الأمكنة، منها أروقة المساجد الجامعة وبعض الغرف في المنازل الخاصة، والمحاريب المتقنة التي

تزيّن سجّادة الصلاة الفرديّة.

تُعمّم استعمال المحراب تدريجيًّا بدون أن تفرضه سنّة النبي محمد ﷺ. اعتُمد أوّلًا، وفقًا للمصادر المكتوبة، في العقود الأولى للإسلام، في المسجد الجامع الذي تميّز بأهميّته السياسيّة والدينيّة في آن، والذي احتضن النماذج الأولى لما سمّي في ذلك الوقت «محرابًا»، وكان لهذه التسمية معانٍ عديدة سابقة للإسلام، منها «الحجرة» و«القصر». ويبدو أنّ أوّل المحاريب ظهرت بشكل كوّات مجوّفة بأمر من الخليفة الأموي الوليد الأول في أواخر القرن الأوّل الهجري/أوائل القرن الثامن الميلادي، في المساجد الجامعة في المدينة المنوّرة ودمشق، والفسطاط في مصر، بالقرب من المدينة التي عُرفت في ما بعد باسم القاهرة. يميل البعض إلى اعتبار الكوّات التي بقيت من هذه الحقبة والتي صُنعت على قياس الإنسان، بغضّ النظر عن حجم المبنى الذي وُجدت فيه، نُسخًا مصغّرة لِصَدْر المجلس في البلاط الذي أدّى دورًا مهمًّا في المراسم الملكيّة خلال العهد الأموي. ترتبط المحاريب، وفقًا لفرضيّات أخرى، بصدور الكنائس المسيحيّة وبكوّات المعابد اليهوديّة؛ ساهمت في إجلال دور الإمام الذي يترأس الجماعة خلال صلاة الجمعة. تُجاور المحراب مع المنبر الذي يُعتبر وجوده ضروريًا لإلقاء الخطبة وللتعريف بالمسجد الجامع، وكلاهما يزيّن الفسحة المخصّصة للمقصورة، في وجه الصحن المحوري المتروك شاغرًا بين صفوف الحرس المنوط بهم حماية رأس السلطة أو ممثّله. وبذلك شكّلت المحاريب جزءًا من الجهاز الذي يُضفي على المبنى طابعه الملكي، أمّا شكلها فهو مستوحى من عادات شرقيّة قديمة، وكذلك عناصر زخرفتها، لا سيّما تجويفها المحاط بأعمدة صغيرة والمتوّج بقبّة نصفيّة.

فَقَدَ المحراب، في ما بعد، مغزاه السياسي ليحافظ وحده على طابعه الديني، فاعتُمد في المساجد الجامعة وفي المصلّيات الخاصّة والعامّة، حيث المحراب يدلّ على المكان الذي يقف فيه الإمام. أما بالنسبة الى المقامات العاديّة والأضرحة، فكان المحراب يُنقش بصورة رمزيّة، على الحجر أو «الخشب، أو يُصنع أحيانًا من الخزف. وفي المساجد الجامعة التي كانت ترمز إلى عظمة السلالة، غالبًا ما كان المحراب يجسّد فخامة المكان ويلفت الأنظار بضخامته وبزخرفته الساطعة.

تفاوت حجمه وشكله وفقًا للتقنيّات والأنماط المتّبعة في مختلف مراكز الحضارة، حيث التقلّبات التاريخيّة الخاصة بالعالم الإسلامي حكمت تشييد أو تجهيز أو تزيين أو ترميم الأبنية الدينيّة المزوّدة بالمحاريب. لذلك فإنّ التجويف في الحائط يتّخذ تارةً شكل كوّة مقعّرة، وطورًا مستطيلة أو مكسورة الزوايا أو متفاوتة العمق والارتفاع ومقسّمة إلى كوّات مُنضّدة عدّة. وكانت الكوّة، بشكل عام، تقع داخل إطار مستطيل متفاوت العرض، تتوسّطها عصائب متتالية أو سلسلة من القناطر الصمّاء ومن الصفائح. وتميّزت كلّ مقاطعة وكل حقبة بنوع من المحاريب، حيث تحكّمت طبيعة المواد المستخدمة ببعض عناصر الزخرفة المستعمَلة، من هندسيّة ونباتيّة وبخاصّةٍ تخطيطيّة، إذ إنّ الكتابات المنقوشة كانت تحتلّ مكانًا خاصًا إلى جانب الأشكال المتشابكة والعَرْبَسة، ضمن تناسق يُشبه إلى حدّ بعيد تناسق مداخل الأبنية الفخمة لكنّه ينمّ، من خلال النصوص المختارة، عن إرادة خاصة بإضفاء صبغة التقديس على المكان.

شكّلت المحاريب المصنوعة من الجصّ، على غرار تلك التي عرفتها إيران في العهد السلجوقي، أهمّ النماذج وأغناها بتقاسيمها المنحوتة على مستويات عدّة، بينما تميّزت اللوحات المنفّذة بالآجر، في الحقبة نفسها والمنطقة نفسها، بفساحة بنيتها ودقّة ترصيفها. واستُعملت أيضًا مواد من الحجر المنحوت في بناء المحاريب، وذلك في أنحاء العالم الإسلامي كافةً، في المغرب والهند ولدى العثمانيّين، من دون إغفال محاريب العهد المملوكي في القاهرة التي تميّزت بترصيعاتها الرخاميّة المتعدّدة اللون، وأيضًا من دون اغفال محراب المسجد الجامع في قُرطبة المستوحى من الفن البيزنطي والذي شيّده الخليفة الأموي الحكم الثاني في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. وتألّقت في ما بعد في المشرق، خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، محاريب مصنوعة كليًّا

من الخزف المزخرف، بقيت منها نماذج رائعة في الأناضول وفي إيران، بينما، في بعض الحالات النادرة، تمّ استعمال الخشب الملائم لتنفيذ زخارف هندسيّة ونباتيّة شبيهة بزخارف المنابر والمقاصير العائدة إلى الحقبة نفسها. لم تخضع بعد كل هذه الأعمال ذات الأنماط الناجحة لأيّ احصاء أو دراسة بشكل منهجي، في حين أنّ دراسات مفصّلة ومعمّقة للنماذج، لو وُجدت، لألقت الضوء على أجزاء كاملة من تاريخ الفنون في الإسلام وعلى الدور الاستثنائي الذي لعبه المحراب في كافة المناطق.

مِحْمِت، الصيغة التركيّة لإسم محمّد بالعربيّة، حمله سلاطين عدّة من سلالة العثمانيّين، ولا سيّما عاهلان هما محمت الأوّل، ومحمت الثاني اللذان مثّلا دورًا مهمًّا في ازدهار الأمبراطوريّة.

محمت الأوّل شلبي، الملقّب بالأمير، ٧٨٨-٨٢٤هـ/١٣٨٦-١٤٢١م، السلطان الثالث في السلالة، حكم إبتداء من ١٤١٣م، وتمكّن من استعادة الهيمنة العثمانيّة الموّحدة في البلقان والأناضول بعد الصدمة التي أحدثها اجتياح تيمورلنك. إنّه الابن الرابع لبايزيد الأوّل يلديريم. أصبح محمت، في العام ١٣٩٩م، حاكم الأناضول بعد هزيمة والده في معركة أنقرة ووفاته في العام ١٤٠٢م. حافظ على هذا المنصب بعد انسحاب تيمورلنك الذي أراد تفكيك الدولة العثمانيّة، واضطرّ إلى إعادة بسط سلطته على الولايات التركمانيّة التي استعادت استقلالها بالرغم من ضمّها خلال القرن السابق. كما اضطرّ أيضًا إلى وضع حدّ للمرحلة الانتقالية التي تلت تقسيم السلطة بين أبناء بايزيد الثلاثة، وإلى إبعاد إخوته الذين كانت قد آلت إليهم حكومة الروملّي. وفي العام ١٤١٣م، تمّت أخيرًا مبايعته سلطانًا في مدينة أدرنة بعد أن أعاد الوحدة إلى الأراضي العثمانيّة.

واجهته في ما بعد صعوبات أخرى، سواء في البلقان أو في الأناضول حيث قام التيموري شاهرُخ بغزوة في العام ١٤١٦م. لكنّه استطاع التغلّب عليه بكثير من الدبلوماسيّة، وتوفي في العام ٨٢٤هـ/١٤٢١م، بعد أن توصّل إلى تأمين السلطة لابنه البكر مراد الثاني. لكنّ إنجازه الأكبر تجسّد في توصّله إلى اعطاء شرعيّة، من جديد، للحُكم الأمبراطوري المرتكز في آن على مجموعات عسكريّة منظّمة، وعلى نظام إقطاعي للأراضي يضمنه انتظام عمل الحكومة المركزيّة. وفي الوقت نفسه، تجلّت القوّة التي استعادتها السلطنة العثمانيّة خلال عهده في الأعمال الهندسيّة التي خلّفها. فقام بتشييد المجمّع المسمّى المسجد الأخضر في مدينة بورصة حيث استُخدم خزف ملوّن لا مثيل له لتزيين أبنيته التي ضاهت بضخامتها الأبنية التي شيّدها والده حول مسجد يلدريم في المدينة نفسها، كما أشرف على إنجاز المسجد القديم الذي كان العمل فيه قد بدأ في العام ٨٠٥هـ/١٤٠٣م، في مدينة أدرنة. وفي الوقت نفسه، ظهرت عناصر بنيويّة مثيرة للاهتمام في تنظيم صالة الصلاة في المسجد الذي أشرف على تشييده في مدينة ديميتُوكا في منطقة أدرنة.

محمت الثاني، الملقّب بـ«الفاتح»، ٨٣٦-٨٨٦هـ/١٤٣٢-١٤٨١م، السلطان السادس في السلالة، تولّى الحكم في ١٤٤٤ إلى ١٤٤٦م، ومن ثمّ من ١٤٥١ إلى ١٤٨١م، واكتسب شهرة واسعة لنجاحه في فتح القسطنطينيّة.

هو الابن الرابع للسلطان مراد الثاني، اعتلى العرش في الثانية عشرة من عمره بإرادة والده الذي تنحّى عن الحكم لمصلحته في العام ١٤٤٤م، وقد عمل على توجيهه في الحكم مستشارون ذوو آراء متباينة، فطالبوا بعودة مراد الثاني خوفًا من حرب صليبيّة جديدة تشنّها أوروبا، وتفاديًا للأزمات الداخليّة المتعدّدة. وقام مراد، بعد عودته إلى الحكم في العام ١٤٤٦م، باشراك محمت بتنصيبه حاكمًا لمدينة مانيسا Manisa وباصطحابه معه في حملاته البلقانيّة.

بعد وفاة والده، تركّزت أولى اهتمامات محمت على سحق الأمبراطوريّة البيزنطيّة التي كانت تشكّل تهديدًا دائمًا لدولة العثمانيّين، وعلى غزو القسطنطينيّة، مستفيدًا من تفوّق مدفعيّته الثقيلة. إنّ الحاضرة الرائعة التي نجت مرارًا في السابق من هجمات العثمانيّين بفضل وصول الأمدادات اليها، اقتُحمت بعد حصار دام شهرين فقط، في ٢٩ ايار ١٤٥٣م، وقد تعرّضت للنهب، بينما

كان المنتصر يمنح حمايته لغير المسلمين من سكّان حيّ غلاطا ويوزّع الامتيازات على الجالية الجنَوِيّة، محاولاً إعادة إعمار هذه المدينة العريقة التي جعل منها فورًا عاصمة الدولة العثمانيّة باسم اسطنبول [إسلام بول]. وهكذا أصبح محمت يتمتّع في بلاد الإسلام بشرعيّة جديدة من خلال انتصاراته التي جاءت تعزّز طموحاته الأمبراطوريّة. وتركّزت اهتماماته التالية على توسيع حدود دولته للهيمنة على جميع المناطق الممتدّة من الدانوب إلى الفرات.

بعد أن منح الجنويّين حريّة الوصول إلى المدينة وعقد، في العام ١٤٥٤، معاهدة مع البندقيّة اعطت تجّارها حقّ الدخول إلى المرافئ العثمانيّة والمتاجرة فيها، سعى محمت إلى السيطرة على المضائق واستولى على المراكز التجاريّة الجنويّة في البحر الأسود وفي بحر إيجه، ومن ثمّ حوّل نظره نحو البلقان. مُني بهزيمة أمام بلغراد، لكن في العام ١٤٥٩م أصبحت صربيا مقاطعة عثمانية؛ وفي العام ١٤٦٠ تمّ ضمّ مقاطعة المورة اليونانيّة؛ وفي عام ١٤٦١ أطلق محمت حملة في الأناضول مكّنته من القضاء على إمارة الجانداريّين ومن الاستيلاء على سينوب، على كُمْنامونو وعلى مدينة طرابزون، آخر الممتلكات البيزنطيّة في المنطقة، لكي يصبح البحر الأسود تاليًا بحيرة عثمانيّة. استؤنفت من ثمّ العمليّات في البلقان، بالاستيلاء على ڤالاشيا - التي أُسندت إلى أمير موالٍ للعثمانيّين وعلى البوسنة، وبمواصلة الحرب ضد البندقيّة (١٤٦٢ - ١٤٧٩م) التي انتهت باحتلال جزيرة أُوبة ومناطق مختلفة أخرى. واستطاع محمت، في الوقت نفسه، في الأناضول، القضاء على ولاية القرامانيّين والتصدّي بنجاح لملك الآق قيونلو، أُوزون حسن. توفّي محمت في العام ١٤٨١، تاركًا أمبراطوريّة شاسعة وأصبح هو نفسه، كما ورد في سلسلة ألقابه، سلطان القارّتين و«خاقان» البحرين، أي البحر الأسود وبحر إيجه، وباتت مطالبته بالسيادة على العالم الإسلامي تبشّر بإنجازات سليم الأوّل ياوز خلال القرن التالي.

لم يكن محمت محاربًا كبيرًا فحسب، بل سعى إلى تنظيم أمبراطوريّته. واهتمّ بشكل خاص بتحرير «مجموعة القوانين» (قانون نامه) التي ضمّت بشكل متماسك جميع القوانين، المرتكزة منها على الشرع الإسلامي وغير المرتكزة عليه، التي كانت معتمدة والتي كانت تحكم في المسائل كافة، ولا سيّما نظام العقوبات والنظام الضريبي وموجبات أصحاب التيمارات. وتميّزت هذه القوانين بأحكام تجيز للسلطان الحاكم القضاء على جميع الطامحين إلى العرش. وظلّ هذا القانون - الذي يحلّل للأخ قتل أخيه - معمولاً به حتّى عهد محمت الثالث. إلى ذلك، قام محمت الثاني بتعزيز نفوذ السلطان الشخصي بإسناد المناصب الحكوميّة الأساسيّة إلى «عبيده» بدلًا من إسنادها إلى افراد الأسر الكبيرة.

وهكذا ورث خلفاءه أمبراطوريّة بيروقراطيّة مركزيّة تميّزت بحكمها المتسلّط؛ كما تميّزت بالأبنية العديدة التي شيّدها، ولا سيّما الروائع العسكريّة مثل حصن «الروملّي حصار» على البوسفور، وحصن «يدي كوله» ضمن أسوار اسطنبول. كما شيّد أوّل الأكشاك في قصر «طوب كابي ساراي» في الموقع الذي اختاره لإنشاء قصر يليق بسلطانه، وأشرف في مدن عديدة، بما فيها اسطنبول، على تشييد المساجد تبعًا للأسلوب المعتمد في مدينتي بورصة وأدرنة، وقام بخاصةٍ، بين ١٤٦٣ و١٤٧٠م، بإنشاء أولى المؤسّسات الأمبراطوريّة في اسطنبول، المسجد الجامع الذي عُرف باسم «الفاتح»، والذي، بالرغم من الترميمات التي أُجريت عليه، ما يزال يحتضن ضمن أسواره أهمّ أبنية مجمّع «الكليّة»، إضافة إلى ملامح العناصر الهندسيّة المبتكرة، ومنها قبّة مركزيّة واسعة.

محمت الثالث، ٩٧٤-١٠١٢هـ/١٥٦٦-١٦٠٣م، السلطان الثاني عشر في سلالة العثمانيّين، تولّى الحكم إبتداءً من العام ١٥٩٥م، خلال فترة اضطرابات وعدم استقرار.

إبن مراد الثالث، أَقْدَمَ، فور تولّيه الحكم، على إعدام إخوته غير الأشقّاء التسعة عشر، وفقًا للعرف الذي اعتمده محمت الثاني. ولم يكفّ في ما بعد عن ممارسة سلطة متردّدة وعنيفة تحت سيطرة والدته، بينما كانت الحروب الخارجيّة قائمة في أوروبا الوسطى، كما في

أذربيجان، حيث أقدم الصفوي عبّاس الأوّل على استعادة تبريز في العام ١٦٠٠م، كما كانت الثورات المسلّحة الداخليّة تتسبّب بحالة قريبة من الفوضى. لكنّ عهده شهد بداية تشييد مسجد «يني وليده» في اسطنبول، وكانت الملكة الأم قد قررت بناءه، ولكنّه لم يُنجز إلّا بعد ستين سنة، خلال عهد محمت الرابع.

محمت الرابع، ١٠٥٢-١١٠٤هـ/١٦٤٢-١٦٩٣م، السلطان التاسع عشر، حكم بين العامين ١٠٥٨ و١٠٩٨هـ/١٦٤٨ و١٦٨٧م، من دون أن يعير اهتمامًا حقيقيًّا لشؤون الدولة.

هو إبن السلطان إبراهيم، أصبح سلطانًا في السابعة من عمره بعد أن خُلع والده. وخلال سنيّ حداثته، كانت السلطة بيد الملكة الأم والانكشاريّة. تمكّن محمت كوبرولو، الذي أصبح صدرًا أعظم في العام ١٦٥٦، من إبعاد نفوذ الحريم، ودافع بنجاح عن حدود الأمبراطوريّة ضدّ تهديدات البنادقة، وترك لابنه أحمت الذي خلفه في العام ١٦٦١ مهمّة إنجاز ما بدأه بغزو جزيرة كريت وبإبرام معاهدة صلح مع البندقيّة.

بعد وفاة أحمت كوبرولو في العام ١٦٧٦، فشل ورثته عسكريًّا بينما تجدّدت الحرب مع النمساويّين وأدّت إلى فشل الحصار الذي ضربه العثمانيّون على فيينا، في العام ١٦٨٣، وإلى هزيمة موهاكس في العام ١٦٨٧ التي كرّست نهائيًا فقدان المجر. أدّت هذه النتائج المفجعة إلى ثورة وحدات الجيش وإلى خلع محمت الرابع الذي أبدى ارتياحه حين تمّ عزله وإبعاده إلى مدينة أدرنه. تمّ في عهده، بين العامين ١٦٦١ و١٦٦٣، وبمبادرة من الملكة الأم النشيطة، إنجاز المجمّع الهندسي لمسجد «يني وليده»، وهو آخر مجمّع أمبراطوري ضخم بُني في اسطنبول، وكان العمل فيه قد توقّف خلال عهد محمت الثالث.

◄ راجع المستندين ٨٢ و٨٦.

محمّد (النبيّ ﷺ)، أبو ابراهيم محمّد بن عبدالله بن عبد المطّلب بن هاشم، ٥٧٠م - ١١هـ/٦٣٢م، المؤسّس التاريخي للإسلام، ولد في الجزيرة العربية في مكّة، في قبيلة قريش، وأفلح في نشر دعوته، وفي الوقت نفسه، في ترسيخ سلطته بين معاصريه، وتمكّن ثانيًا من تأمين المستقبل لديانة أسّست، من خلال شريعتها، مجتمعًا من نوع جديد.

نشر النبيّ محمّد ﷺ حوله، منذ عظاته الدينيّة الأولى في الوسط العربي المشرك، نصّ القرآن الكريم الذي «تلاه» بنفسه على أنّه رسالة وضعها الله في عهدة رسوله المسمّى أيضًا في الكتاب نبيًّا، وتحديدًا النبيّ الأميّ. وتحوّل من ثمّ النبيّ محمّد ﷺ إلى مقاتل ومشرّع، وإلى قائد لمجموعة المؤمنين الصغيرة التي نجح في توطينها في واحة يثرب التي عُرفت باسم المدينة، وأحرز النجاحات السياسيّة والعسكريّة التي أدّت، في ما بعد، إلى توسّع سريع لأوّل أمبراطوريّة إسلاميّة.

إنّ هذا الدور الأساسي الذي اعتُرف به للنبيّ محمّد (ﷺ) دفع بالصحابة إلى جمع أقواله وأفعاله، في ما عُرف بـ«الحديث». وقد نُقلت إلى التابعين والمحدّثين الذين تولّوا عندئذ حفظها ودرسها وإضافة تفاصيل اليها عن سلوكه، دُوّنت، هي أيضًا، بكثير من التقوى، لتشكّل مجموعة أُطلق عليها اسم «السنّة»، وقد اعتُبرت هذه أحد المصادر القانونيّة للشريعة. وما لبثت العقيدة الإسلاميّة والفكر الإسلامي أن تطوّرا إنطلاقًا من هذه المجموعة الأساسيّة التي أضيفت إليها معطيات قدّمتها «السيرة النبويّة» وروايات أولى المعارك أو «المغازي». وفي هذا الإطار أيضًا، لم تكفّ الأجيال اللّاحقة عن البحث عن موضوعات للتأمّل في حياة النبيّ (ﷺ) والإقتداء بها، وفقًا لرغبة العودة إلى الجذور واحترام السلف اللذين يُميّزان الحضارة الإسلاميّة بمجملها.

بدأت دعوة النبيّ محمّد ﷺ في أوائل القرن السابع للميلاد، حوالى العام ٦١٠م بلا شكّ. إنّنا نعرف مضمونها من خلال نص القرآن، إذا ما اعتبرنا أنّ هذا النصّ، بشكله النهائي المتداوَل، يتطابق مع النصّ الأصلي المستظهر في مرحلة أولى، أو المدوّن بشكل موجز. لكنّنا لا نعرف الكثير عن مختلف الأحداث المتعلّقة بحياة النبيّ محمّد ﷺ التي تناقلتها تقاليد متباينة في أغلب الأحيان، ومكوّنة من جملة عناصر، ومن بينها روايات عن معجزات. وتتضمّن هذه المصادر، القريبة بطبيعة الحال من سير الأولياء، آراءً متباينة وأحيانًا

معقّدة تعكس المجادلات التي نشأت بعد وفاة القائد والمرشد الأوّل للجماعة.

كان النبيّ محمّد ﷺ عربيًّا من أصل قبلي نبيل، متحدّرًا من أسرة شهيرة في مسقط رأسه، لكنّه كان ينتمي إلى عشيرة فقيرة نسبيًّا، عشيرة هاشم بن عبد مناف. يتيمًا، استقبله جدّه ومن ثمّ عمّه أبو طالب الذي كان قائد قوافل، وتنقّل محمّد من أجل هذه التجارة حتّى منطقة غزّة في سوريا. في سنّ الخامسة والعشرين تقريبًا، تزوّج أرملة ثريّة تُدعى خديجة، وأدار أعمالها فحصل على مزيد من الاستقلاليّة، من دون أن يتمكّن من الانتماء إلى الطبقة المهيمنة. وحوالى العام ٦١٠م، يُذكر أنّ الوحي نزل عليه للمرّة الأولى بواسطة صوت تسبته آيات قرآنية إلى الملاك جبريل الذي طلب منه قراءة ما سمعه. كما يُذكر أنّه انتظر اربع سنوات قبل أن يتكلّم علنًا. ومنذ ذلك الوقت، وحتّى العام ٦٢٢م، لم يكفّ عن توجيه نداءاته المتعدّدة التي أثارت ضدّه وضدّ المحيطين به سخريّة المكيّين واضطهادهم له بشكل متزايد.

ولم يتمكّن من أن يجمع حوله إلّا بعض الاوفياء، ومن بينهم ابن عمّه علي بن أبي طالب ومجموعة صغيرة من الرجال المنتمين إلى أوساط مختلفة، بعضهم من أصل محترم، وبعضهم الآخر، كما يبدو، من المحرومين أو الغرباء. وكان يبشّرهم باقتراب يوم الدين بعد البعث، ويطلب منهم الرجوع إلى الله، ويوصيهم بمساعدة الضعفاء، مُدينًا الشّرك السائد في مكّة حينئذ، وكان في الوقت نفسه يدافع عن الإيمان بإله واحد، هو الله. وكان نصيبه، خلال هذه الأعوام القليلة من الدعوة، عدم التجاوب معه ورفض دعوته وتعرّضه للشتائم. ويبدو أنّ هذا العداء الواضح الذي تعرّض له من قبل أثرياء مكّة ناتج، على الأرجح، من خشيتهم من وصوله إلى الزعامة السياسيّة. وتعرّض جميع الذين تبعوه ودعموه، ومن بينهم مختلف أفراد عشيرة بني هاشم، إلى ضغوطات إقتصاديّة من قبل عشائر قريش الأخرى وحُرموا من كل مساعدة. وجرّاء ذلك هاجر بعضهم، في العام ٦١٦م، إلى الحبشة. أمّا محمّد ﷺ فاختار، في بادئ الأمر، البقاء في مكّة، لكنّه فقد زوجته خديجة وعمّه في العام ٦١٩م، فوجد نفسه وحيدًا. فاتّصل عندئذ ببعض المؤيّدين له من خارج مكّة وتقبّل ولاء ممثّلين عن أهل يثرب الذين عقدوا معه ما سُمّي «بيعة العَقَبة».

غادرت مجموعة المؤمنين الأولى مكّة في العام ٦٢٢م، وفي ٢٤ أيلول بلغ النبيّ محمّد ﷺ، آخر الراحلين، الأرض التي أراد أن يجعل منها أكثر من ملاذ، فتحوّل دخوله إليها حدثًا مميّزًا. واعتُبرت سنة الهجرة بداية التقويم الإسلامي الذي اعتُمد بعد بضع سنوات. واستُقبل نبيّ الإسلام في يثرب إستقبال الحَكَم القادم لإحلال النظام بين مختلف القبائل المقيمة في الواحة من جهة، وبين هذه القبائل والمكيّين المبعَدين الذين حلّوا ضيوفًا عليها من جهة أُخرى. كما تمّ عقد معاهدة أُخوّة بين القادمين الجدد الذين عُرفوا بالمهاجرين، وسكّان الواحة السابقين من العرب المشركين الذين اعتنقوا بدورهم الإسلام، فأُطلق عليهم اسم الأنصار، بينما قررت قبائل عربيّة متحوّلة إلى اليهوديّة وموجودة في يثرب البقاء فيها، من دون التخلّي عن دينها.

إنطلاقًا من هذه اللحظة، أضاف النبيّ محمد ﷺ إلى دوره كناقل للوحي الإلهي، دور الرجل السياسي والقائد الحربي الساعي إلى تنظيم الدولة الإسلاميّة الجديدة والدفاع عنها، لكنّ هدفه الأساسيّ ظلّ استعادة مدينة مكّة التي اضطرّ إلى مغادرتها. وقد تمّ تحرير وثيقة عُرفت باسم «الصحيفة» ، وقد وصل نصّها الينا، ولكن يبدو أنّ بعض الإضافات أُدخلت عليه لاحقًا - هدف النبيّ (ﷺ) من خلالها إلى تحديد واجبات مختلف الأفراد الذين يحيطون به في المدينة. رَسَم هذا المستند ملامح الجماعة التي أُطلق عليها اسم «الأُمّة» والتي تميّزت بطابعها الدينيّ الذي طغى على التقسيم العشائري السابق، وأسّس لقاعدة رئيسة من التضامن الداخلي المادي والمعنوي، أقرّ بموجبها أعضاء هذه الأُمّة بسلطة محمّد رسول الله ﷺ، وكفايته في تسوية نزاعاتهم. أمّا بالنسبة الى العشائر اليهوديّة، فقد تمّ قبولها داخل هذه الأمّة، من دون أن تكون في الواقع جزءًا منها.

خلال هذه المرحلة من حياة النبيّ محمّد ﷺ المعروفة بالمَدَنيّة لتمييزها عن المرحلة الأولى المسمّاة

المكيّة، نزل الوحي عليه مرّات عديدة، ما أتاح له أن يحدّد القواعد العامّة والخاصّة التي يترتّب على الصحابة التقيّد بها في حياتهم. وأوردت الآيات القرآنية العائدة لهذه الحقبة التعاليم الأساسيّة المتعلّقة بالعبادة، ولا سيّما تلك التي فرضت الصلاة والحجّ وصوم رمضان والزكاة، والتي عالجت شؤون الحياة الاجتماعيّة والعائليّة المتعلّقة بالإرث والزواج، بما في ذلك الطلاق وتعدّد الزوجات والعمليّات التجاريّة والجرائم الخطيرة والحدود، أي العقوبات وغيرها من الموضوعات. وكان النبيّ محمّد ﷺ من جهته يتصرّف ويُصدر قراراته بنفسه ويُطلق أحكامًا شكّلت أُسسًا لقواعد تقيّد بها الإسلام لاحقًا. وبعد أن تزوّج بعائشة، ابنة أبي بكر، أحد أوائل الصحابة، أقدم النبيّ محمّد ﷺ على الزواج من نساء أخريات، لعقد تحالفات، على ما يبدو، مع عدد من الأُسر القادرة على أن تقدّم له المساعدة، إذ إنّه كان قد قام بتطويع المهاجرين والأنصار في حملات هجوميّة ضد المكيّين في ظل نشوء فكرة الجهاد أو الحرب الشرعيّة.

لم يكن المهاجرون، بسبب عدم إلمامهم بالزراعة، يتمتّعون في المدينة بأية موارد خاصة، ولذلك كان لا بُدّ لهم - لأنّه كان يتعذّر عليهم تحقيق أيّ ربح من خلال تجارة القوافل التي بقيت بين أيدي المكيّين، وبعد أن قُطعت كل روابط التضامن مع هؤلاء - أن يشنّوا الهجمات على المكيّين وأن يُعيقوا رحلاتهم التجاريّة لتحويل المكاسب لمصلحتهم والإستيلاء على حيوانات النقل وعلى البضائع المنقولة. وهكذا أقدمت، في شهر آذار ٦٢٤م، مجموعة مؤلّفة من ثلاثمائة مسلم على نصب كمين لقافلة مكيّة مارّة بالقرب من المدينة وتشتيت قوة أكبر منها بثلاثة أضعاف: هذه هيَ معركة بَدْر التي نجد صدًى لها في بعض الآيات القرآنيّة. وفي السنة التالية، جرت معركة أُخرى لم تحسم نتائجها بالقرب من جبل أُحُد؛ وفي آذار ٦٢٧م أخذ المكيّون المبادرة بفرض الحصار على المدينة، ولم تنجُ هذه إلّا بفضل أحد سكّانها، سلمان الفارسيّ، الذي قام بحفر خندق للدفاع عن الواحة، ولذلك أُطلق على هذا الاشتباك اسم «معركة الخندق». وبعد مرور ثلاثة أشهر انسحب المكيّون.

قرّر النبيّ محمّد ﷺ عندئذٍ الإفادة من تفوّقه وتحويل أنظاره باتّجاه مكّة بعد أن تمكّن من فرض سلطته على واحة يثرب في الداخل كما في الخارج. وإثر خلافات مع العشائر اليهوديّة التي بقيت محايدة خلال الإشتباكات الأولى أو التي انضمّت إلى صفوف أعداء المسلمين، اتّخذ بحقّها تدابير أكثر تشدّدًا: فبعد طرد عشيرة قَيْنُقاع إثر معركة بدر، وعشيرة بني النّضير إثر معركة أُحد، أقدم على إعدام جميع رجال عشيرة قُرَيْظة إثر معركة الخندق. وتزامن هذا الموقف العدائي تجاه اليهود بتوّجه ديني جديد: تمّ اعتماد الكعبة في مكّة قبلةً للصلاة بدلًا من القدس، واستُبدل بالصوم اليهودي المعتمد سابقًا صوم شهر رمضان، وبشكل عام اعتبرَت الديانة الجديدة نفسها الديانة الحقيقيّة، ديانة النبيّ التوراتيّ إبراهيم الذي بات مكرّمًا بصفته أوّل بانٍ للكعبة وأوّل الموحِّدين، كما اعتُبر أنّ مضمون رسالته قد حُوِّر على أيدي اليهود والمسيحيّين.

تواصلت جهود النبيّ محمّد ﷺ عندئذ لتكريس انتصاره على مكّة، المدينة المقدّسة التي باتت مرتبطة بمراسم العبادة الإسلاميّة. فحاول أوّلًا تأدية شعائر العمرة بطريقة سلميّة، ولهذه الغاية توجّه، في آذار ٦٢٨م، إلى حدود الحرم. وإذ تعذّر عليه الدخول، توصّل إلى إبرام اتفاق الحديبيّة الذي حصل النبيّ ﷺ بموجبه، لنفسه ولأنصاره، على إمكان العودة في السنة التالية لتأدية هذه الشعائر، وهذا ما جرى فعلًا. إثر هذا النجاح، أقدم المسلمون، وكان عددهم عشرة آلاف، على احتلال مكّة في رمضان سنة ٨هـ/ كانون الثاني ٦٣٠م. عندها قرّر أبو سفيان زعيم القُرَيشيين، بعد مداولات سريّة، الإنضمام إلى النبيّ محمّد ﷺ الذي دخل الكعبة منتصرًا وحطّم الأصنام التي كانت تملأ جوفها. وبعد عامين، أي في ١٠هـ/ ٦٣٢م، قام النبيّ محمّد ﷺ بتأدية شعائر الحجّ كاملة وفقًا للطقوس القديمة التي أعطاها مفهومًا جديدًا. وتوفي بعد ذلك بقليل في ربيع الأوّل/ ١١هـ/حزيران ٦٣٢م، بعد أن كرّس، من خلال هذا الحجّ الذي أُطلق عليه اسم حِجَّة الوداع والذي تلته خطبة شهيرة، انتصاره النهائي ونهاية

رسالته في آن معًا.

وكان النبيّ محمّد ﷺ قد عمل، في وقت سابق، على تعزيز سلطته من خلال قدرته السياسيّة على جَمْع البدو العرب الراغبين في الحصول على حمايته، في مقابل اعتناقهم الإسلام. وفي الوقت نفسه قاد حملات عسكريّة عدّة تُوِّجت بالنجاح. وهكذا غزا واحة خَيْبَر اليهودية (٧هـ/٦٢٨م) التي واصل سكّانها زرع أرضها في مقابل نصف محصولها، وقام بقمع تمرّد أهل الطائف في معركة حُنَيْن في عام ٩هـ/٦٣٠م، كما احتلّ بلدة نَجْران المسيحيّة التي حافظ سكّانها على حقّ صناعة البُرْد في مقابل تسليم جزء من إنتاجها السنوي. كما قرّر أخيرًا شنّ هجمات بعيدة في اتّجاه الشمال ولا سيّما في اتّجاه سهوب تَبوك ومُؤتة.

وهكذا نجح النبيّ محمّد ﷺ، وفقًا للروايات التقليديّة، في فرض سلطته على الجزيرة العربيّة بأكملها من خلال حصوله على طاعة أهمّ القبائل، ومن خلال النظام الذي فرضه على غير المسلمين من يهود ومسيحيّين والقائم على دفع الجزية. كما أنّه وضع أسس فتوحات الإسلام الكبرى التي أدّت، في أقلّ من عشر سنوات، إلى نشوء أمبراطورية حقيقيّة. لكنّه استطاع بشكل خاص، من خلال تصرّفه، أن يبيّن أنّ الديانة الجديدة التي أُنزلت على العرب باللغة العربيّة، موجّهة أيضًا إلى غير العرب، فتوجّب تاليًا فرض هيمنتها عليهم، انطلاقًا من موقع قوّة، طبقًا للسياسة التي اتّبعها النبيّ (ﷺ) والتي اعتمدت القتال والحكمة في آن. هذا هو المثل الذي تقدّمه لنا نجاحاته الخاصة.

محمّد الباقر، ٦٩-١١٤هـ/ ٦٨٨ - ٧٣٢م، ابن علي زين العابدين وخامس إمام علويّ بالنسبة الى أتباع الإماميّة الاثني عشريّة (الرابع بالنسبة الى الإسماعيليّة). قامت مكانته على طول باعه في علم الحديث وعلى شهرته بغزارة العلم التي تجاوزت الدوائر الشيعيّة. كان يقيم في المدينة خلال عهد الخليفة الأموي هشام. كان حفيد الحسين، «الشهيد» كربلاء، وأخًا غير شقيق للعلويّ زيد ابن علي الذي قاد، إلى جانب ابنه يحيى، حركات ثوريّة عنيفة قمعتها السلطة، لكنّه شخصيًّا وقف على الحياد ولم يشاركهما مبادراتهما. كان رجلًا مترفّعًا عن المسائل الدنيويّة، كرّس حياته للعبادة ولجمع «الأحاديث» بعناية. غير أنّ بعض أتباعه المعروفين بالباقريّة اعتبروه المهدي ورفضوا الإقرار بوفاته، كما رفضوا الاعتراف بابنه جعفر الصادق إمامًا. كما ادّعت تبعيّته نحلةٌ شيعيّة أخرى اعتبرها مؤرّخو البدع غير شرعيّة وإرهابيّة. وقد قُضيَ على أتباع هذه الطائفة المعروفة بـ«المنصوريّة» - نسبة إلى مؤسّسها أبي منصور العِجْلي الذي ادّعى أنّه وريث محمّد الباقر - في منطقة الكوفة حوالى العام ١٢٢هـ/ ٧٤٠م، على أيدي الجيوش الأمويّة.

محمّد بن الحَنَفيّة، ١٦-٨١هـ/ ٦٣٧ - ٧٠٠م، ابن علي (الإمام الأوّل) وامرأة من قبيلة حنيفة، وهو أوّل علويّ أدّت مطامعه في الإمامة إلى قيام تمرّد مسلّح، وقد تميّز أنصاره المعروفون بالكَيْسانيّين، منذ ذلك الوقت، بتطرّفهم الشيعي.

سعى عربي من عائلة شريفة موالية للعلويّين، هو المختار بن أبي عُبَيْد الثَّقفيّ، إلى الثأر لمقتل الحسين وشهداء كربلاء بمشاركته في ما سُمّي بـ «ثورة التوّابين» التي قمعها الأمويّون بعنف في العام ٦٦هـ/ ٦٨٥م. فقرّر، من ثمّ، قيادة ثورة واسعة النطاق في الكوفة والاستيلاء على السلطة فيها باسم محمّد بن الحنفية. وكان نجاحه الأوّلي ناتجًا عن انضمام بعض الزعماء العرب وعدد وفير من الموالي الإيرانيّين الراغبين في تحسين أوضاعهم من خلال تغيير النظام. لكن سرعان ما بدأت حركته في سبيل «المقهورين» وغيرهم من الضحايا - وعلى رأسهم أفراد من بيت النبيّ محمّد (ﷺ) ممّن أُبعدوا ظلمًا عن السلطة - بالتراجع تحت تأثيرات ابتداعيّة أبعدت عنه سريعًا معظم مؤيّديه. وأعقبت ذلك هزيمة عسكرية أدّت إلى مقتل المختار لتضع حدًّا لهذه الثورة في العام ٦٧هـ/ ٦٨٧م.

تابع محمّد بن الحنفيّة، خلال فترة العنف هذه، حياته في المدينة من دون أن تضايقه السلطات الأمويّة. وفي العام ٦٨هـ/ ٦٨٨م، بعد قمع الإنتفاضة العراقيّة، شارك في الحجّ، وتوجه بعد ذلك إلى دمشق لأداء قسم الطاعة للخليفة عبد الملك، وعاد من ثمّ للإقامة في المدينة حيث توفي في العام ٨١هـ/ ٧٠٠م. ظلّ بعد ذلك

أنصاره المعروفون بالكيسانيّين يعتبرونه إمامًا ، وحافظ على دور تجاوز بأهميّته الدور الذي أسنده إليه ، لفترة ، المختار . وكان في الواقع يحتلّ ، كما فعل إبنه أبو هاشم من بعده ، مكانة أساسيّة في الأوساط الشيعيّة ، في وقت لم يكن فيه المذهب الإمامي يعتبر بعد أنّ السلطة يجب أن تنتقل عن طريق النساء ، وبالتحديد عن طريق فاطمة ابنة النبيّ محمّد (ﷺ) ، إذ إنّ هذه كانت تنتقل آنذاك عن طريق الوصيّة أو «النص» . ولم يكن ذكر اسمه يقتصر فقط على بلورة المطالب لمصلحة آل البيت ، لكنّ الحركة المؤيّدة له استمرّت من خلال تنظيم سري ناشط بالرغم من فشل محاولات التمرّد .

هذا وقد صرح في ذلك الوقت بعض الكيسانيّين الذين ظلّوا موالين لمحمّد بن الحنفية حتى نهاية حياته أنّ الإمام قد اعتزل في الجبل ، على أن يعود يومًا ما للتغلّب على أعدائه . ويبدو أنّ هناك فكرة جديدة تقول بمجيء المخلّص المنتظر ، ظهرت آنذاك ، بحسب المؤرّخين ، وأصبحت ، في ما بعد ، إحدى ركائز العقيدة الشيعيّة . ومفادها أنّ الإمام الذي لا يشارك في النزاع الزمني ، كان يتميّز بصفات تفوق الصفات البشريّة ، وكان مؤتمنًا على النور الإلهي ووسيطًا بين الله وخليقته . أمّا أتباع محمّد بن الحنفية الذين لم يتبنوا هذه الفكرة ، فانضمّوا إلى ابنه أبي هاشم ونفّذوا إرادته التي أعلنها قبل وفاته في العام ٩٨هـ/٧١٦م والتي قضت بنقل حقوقه إلى أمير عبّاسي باسم محمّد بن علي كان مرتبطًا به من خلال عائلة زوجته ، وكان هذا الأمير يقيم عندئذ في بلدة الحُميمة في الأردن الحالي بالقرب من البتراء القديمة .

وهكذا استطاع ممثّلو أحد الفروع العلويّة الذي غاب عن الساحة سريعًا ، أن يُجسّدوا الأمل في مخلّص منتظر ، وهو المهدي ، ومن ثمّ أن ينشروا حولهم أفكارًا عديدة ، أدّت إلى تشعّب طائفتهم إلى حركات عدّة ، فكانوا مثلًا وراء انطلاق «الثورة العبّاسية» التي شارك فيها بشكل ناشط بعض أنصارهم السابقين .

محمّد الجواد ، أو **التقي** ، ١٩٢-٢٢٠هـ/٨٠٨ - ٨٣٥م ، هو إبن علي الرضا وتاسع إمام علويّ لدى الشيعة الإمامية الإثني عشريّة .

ما يزال ذكر محمّد الجواد مكرّمًا حاليًّا في بغداد حيث يجاور قبره قبر جده موسى الكاظم ، في الضريح المسمى «ضريح الكاظمَيْن» . وكان وصوله إلى الإمامة مثار صعوبات وجدالات فقهيّة ، بسبب صغر سنه عند وفاة والده ، ذلك لأنّ عمّه أحمد بن موسى ، كان في وسعه المطالبة بالإمامة بموجب نظام انتقال كهذا السلطة من أخ إلى أخيه ، وقد تعدّدت أمثلة هكذا انتقال في تاريخ الإسلام . انكبّ محمّد على التقوى وعلى تدريس العلوم الدينيّة ، عاش في المدينة ، ثمّ في بغداد ، حياة تميّزت بزواجه من إبنة الخليفة العبّاسي المأمون الذي كان يكنّ له أعلى التقدير . لكنّ الوضع تغيّر مع وصول المعتصم إلى السلطة ، فتعرّض عندئذ الإمام ، وفقًا لبعض المصادر التاريخيّة ، إلى القتل بالسمّ ، بإيعاز من الخليفة الذي عمل مع ذلك على تشييعه بمراسم الشرف اللائقة بمقامه .

محمّد علي ، أو **محمّد علي باشا** ، ١٧٦٩ - ١٨٤٩م ، حاكم مصر من ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨ ومؤسّس سلالة الخديويّين فيها ، ومن ثمّ «الملوك» المنحدّرين من أعقابه .

ولد في مقدونيا وأصبح ضابطًا في الفرق العسكريّة الألبانيّة المنخرطة في خدمة العثمانيّين التي بقيت في مصر ، في العام ١٨٠١ ، بعد حملة بونابرت ، فنهض بمهمّة الحَكَم بين الباشوات المعيَّنين من قبل الباب العالي والبكوات المماليك . وما لبث أن نجح في كسب مودّة سكّان القاهرة واعتراف السلطات العثمانيّة به حاكمًا للبلاد . فاستطاع عندئذٍ ، خلال فترة حكمه التي دامت حوالى نصف قرن ، إعادة بناء قدرة مصر العسكريّة والاقتصاديّة . كما نجح ، في نيسان ١٨٠٧ ، في صدّ هجوم عسكري إنكليزيّ ، في مدينة رشيد ، وأمر في العام ١٨١١ ، بقتل ثلاثمائة من المماليك في قلعة القاهرة . وإرضاءً لحكومة اسطنبول ، شنّ حملة على نجد ضدّ الوهابيّين في الجزيرة العربيّة ، تلتها سلسلة من الأعمال العسكريّة في السودان النيلي ، وذلك بقيادة إبنه إبراهيم باشا الذي ساهم أيضًا في قمع الثورة اليونانيّة ، إلّا أنّ مبادرته عُطّلت - ما خلا سيطرته على جزيرة كريت - بعد الهزيمة البحريّة في نافارين ، في العام ١٨٢٧ .

في هذه الأثناء، طالب محمّد علي العثمانيّين بالمقاطعات السوريّة تعويضًا له لمشاركته في الحرب ضدّ اليونان، فاضطرّ، للحصول عليها، في العام ١٨٣٣، إلى إرسال إبنه مجدّدًا في حملة أوصلته إلى داخل الأناضول. لكنّ طموحاته الهادفة إلى الهيمنة على مجمل الولايات العربيّة أدّت إلى بروز موقف عدائي صريح تجاهه من قبل الباب العالي بدعم من الدول الأوروبيّة ما اضطرّه، في العام ١٨٤١، الى التخلّي عن سوريا وعن جزيرة كريت، لكنّه استطاع، في المقابل، الحصول على الإقرار بحكمه الوراثي على مصر. إلى ذلك، تمكّن، منذ العام ١٨١٩، بمعاونة ضابط فرنسي اعتنق الإسلام، من تأسيس جيش حديث استطاعت مصر بواسطته فرض هيمنتها. ولم يكن ذلك إلّا مظهرًا من مظاهر سياسة التحديث التي اعتمدها في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة والتي جعلت من مصر دولة مزدهرة تتمتّع بموارد اقتصاديّة أساسيّة.

محمّد المهدي، الملقب أيضًا **بالحُجّة والمُنتظَر وصاحب الزمان**، ٢٥٤-٢٦٠/٨٦٨-٨٧٤، هو إبن الحسن العسكري، والإمام العلويّ الثاني عشر بالنسبة الى الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة، وقد حصلت غيبته في سامراء بُعيد وفاة والده.

يبدو أنّ هذا الطفل البالغ خمس سنوات، أو تسعًا وفاق مصادر أخرى، قد دخل هذه الحالة الخفيّة المؤذنة بعودته المجيدة مهديًّا في المنزل نفسه الذي كان يقيم فيه، في سرداب تحت الأرض حيث كان يختلي للصلاة والذي ما يزال موضع تكريم بصفته مكانًا ذا قدسيّة خاصّة، تشير إلى وجود قبّة مجاورة للقبّة التي تتوّج الضريح الذي يضم قبْرَي الإمامين العاشر والحادي عشر، علي الهادي والحسن العسكري، وهما على التوالي الجدّ والوالد لمحمّد، الأخير في سلسلة الأئمّة. ويشكّل حرم الغيبة الذي يحتفظ ببقايا تعديلات هندسيّة عائدة إلى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي مقصد زيارات تقويّة ترافقها مجموعة من الصلوات موجّهة إلى الإمام المنتظر، على أن يعود هذا الإمام ويظهر مجدّدًا بالقرب من هذا المكان في مدينة الحلّة، وإنّ وجوده القصير على هذه الأرض قد شكّل تحقيقًا للنبوءات الأخرويّة التي حدّدت مسبقًا الميزات الأساسيّة لشخصيّته.

محمّد النفس الزكيّة، محمّد بن عبدالله، ؟ - ١٤٥هـ/ ؟ - ٧٦٢م، علويّ من سلالة الحسن، تمرّد على سلطة العبّاسيّين خلال خلافة المنصور في العام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م.

اشترك إبن حفيد الحسن بن علي هذا، في وقت مبكر، في مساعي العلويّين، والهاشميّين بشكل أوسع، الهادفة إلى المطالبة بالسلطة لأحد أفراد عائلتهم. وكان والده، قبل سقوط الأمويّين، قد حاول الحصول على إقرار بأفضليّة تمثيله لسلالة نبيّ الإسلام، وتؤكّد بعض الروايات أنّ المنصور الذي أصبح في ما بعد خليفةً قدّم له الولاء.

كان محمّد وشقيقه إبراهيم موجودين في المدينة، في العام ١٣٧هـ/ ٧٥٤م، عند وصول الخليفة العبّاسي الثاني إلى السلطة، ولمّا رفضا أداء قسم الولاء له اضطرّا إلى الاختباء. لكنّ الاضطهاد الذي وقع ضحيّته والدهما وحسنيّون آخرون زُجوا في السجن في الكوفة، حثّ محمّد على التمرّد في المدينة في جمادى الآخرة ١٤٥هـ/ أيلول ٧٦٢م. وتمكّنت قوات الخليفة من القضاء على الثوّار في شهر رمضان/ كانون الأوّل، بينما كان إبراهيم شقيق محمّد يثور بدوره في منطقة البصرة قبل أن يلاقي حتفه حاملًا سلاحه، خلال اشتباك مع القوّات العبّاسيّة في ذي القعدة ١٤٥هـ/ شباط ٧٦٣م. وأُطلق على محمّد الذي سقط شهيدًا لقبٌ مستخرجٌ من عبارة واردة في إحدى آيات القرآن (سورة الكهف، الآية ٧٤) حيث يقول فيها موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

المحمّديّة ← الريّ.

محموت، الصيغة التركيّة لكلمة محمود العربيّة، وقد حمل هذا الاسم سلطانان من السلالة العثمانيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

محموت الأوّل غازي، ١٦٩٦ - ١٧٥٤م، هو السلطان العثماني الثامن والعشرون، حكم من سنة ١٧٣٠ إلى ١٧٥٤، وقام بالدفاع عن الحدود الأسيويّة والأوروبية للأمبراطوريّة في ظروف صعبة للغاية، كما

قام بالمحافظة على الأمن في الأقاليم الأخرى.

أمضى محموت طفولته في أدرنة، ثمّ عاش طوال سبع وعشرين سنة حياةً منزوية. ذلك أنّه، بعد خلع والده مصطفى الثاني وتسلُّم عمّه أحمد الثالث مقاليد الحكم عام ١٧٠٣، تمّ احتجازه مع والدته في اسطنبول، داخل جناح خاصّ في القصر. تسلّم الحكم إثر تنحّي أحمد الثالث بسبب تمرُّد الإنكشاريّة، فاضطرّ إلى إخماد هذا التمرّد وقمع آخر سبّبه إعدام قادة المتمرّدين. وإن كان محموت قد اهتمّ بالأوضاع الداخليّة للسلطنة، إلّا أنّه استحقّ لقبه «غازي» بفضل حملاته العسكريّة البعيدة. فقد قاتل أولًا نادر شاه، وقاد عمليّات حربيّة عدّة في المقاطعات المتنازع عليها بين العثمانيّين والصفويّين، من تخوم ما وراء القوقاز حتّى تبريز والموصل وبغداد. وبعد أن تمّ التوقيع على صلحين مع الصفويّين، ثانيهما سنة ١٧٣٦، اندلعت أعمال عسكريّة ضدّ الروس في الوقت الذي كان فيه النمساويّون يشنّون هجمات جديدة. وقد سمحت معاهدة بلغراد سنة ١٧٣٧ بإعادة احتلال هذه المدينة، وكذلك بإلغاء بعض مفاعيل معاهدة پاساروفيتش. لكنّ خلافات محموت مع الصفويّين تجدّدت بعد أن غزا هؤلاء شمال العراق، ولم يحلّ السلام قبل ١٧٤٦، عندما تخلّى نادر شاه عن أطماعه في مدينة قرص ذات الموقع الإستراتيجي. في الداخل، اضطرّ محموت تكرارًا إلى قمع اضطرابات محلّيّة متنوّعة؛ لكنّه توفّي مخلّفًا وراءه أمبراطوريّةً ذات حدودٍ منيعة. كما أنّ العاصمة اسطنبول جرى تجميلها وتحسينها، أكانت تحسيناتٍ هامّة على ضفاف البوسفور بما في ذلك الإنشاءات المائيّة، أم أعمال بناءٍ، بالأسلوب الباروكيّ المعروف آنذاك بـ«الخُزامى»، لصروحٍ ضخمة كمجمّع مسجد نورو عثمانيّة الذي أنهى بناءه في ما بعد أخوه وخلفه عثمان الثالث.

محموت الثاني عدلي، ١٧٨٥ - ١٨٣٩م، هو السلطان الثلاثون في السلالة العثمانيّة، حكم من ١٨٠٨ حتّى ١٨٣٩ وحاول، بعد أن أمر بالفتك بالإنكشاريّة، إصلاح دولةٍ مفكّكة تمامًا.

وإذ خلف محموت الثاني، مصطفى الرابع الذي خُلع عن عرشه، وجد نفسه، بعد أن عاش منزويًا، على رأس دولة تعصف بها الفوضى، فكان عليه أن يُظهر كثيرًا من الحزم ليُخمد حركة التمرّد في العاصمة. وفي الوقت عينه، أعاد الأمن إلى المناطق الحدوديّة والمقاطعات مُوقّتًا، في بداية عهده، تسوياتٍ مع الروس مثل معاهدة بوخارست عام ١٨١٢، ومُوقفًا تقدُّم الوهّابيّين في شبه الجزيرة العربيّة بفضل مساعدة محمّد علي له؛ وبمساعدة محمّد علي مرّةً جديدةً، أحبط ثورة اليونانيّين بين ١٨٢٠ و١٨٢٦ التي استتبعت ثورات قام بها الصرب.

عندئذٍ، عزم محموت المباشرة بإصلاحات أساسيّة؛ فتصدّى بجرأة وإقدام للإنكشاريّة الذين ثاروا، فأبادهم سنة ١٨٢٦، وشكّل جيشًا جديدًا. لكنّ القوى العظمى الغربيّة هبّت لنجدة اليونانيّين، فاضطرّ العثمانيّون، بعد الانكسار في معركة نافارين سنة ١٨٢٧ وهجمات الروس في البلقان، إلى التخلّي عن دلتا الدانوب بموجب معاهدة أدرنة عام ١٨٢٩، كذلك عن بلاد اليونان في ١٨٣٢. وواجه السلطانُ هزائم عسكريّة أخرى عندما اضطرّ إلى ردّ هجمات الجيش المصري التابع لمحمّد علي، والذي كان، كما في شبه الجزيرة العربيّة أو في اليونان، بإمرة إبراهيم باشا. وكان هذا الأخير، بعد احتلاله سوريا، قد غزا الأناضول، وسبق انتصاره الأخير في نزب موتَ السلطان بفترة وجيزة.

لم تكن نتائج الحملات والأعمال العسكريّة التي قام بها مُجلّية في أيّ شكلٍ من الأشكال. فهو لم يستطع، في العام ١٨٣٠، منع الفرنسيّين من احتلال الجزائر، كما كانت السلطنة العثمانيّة، إبّان حكمه، تبدو في انحطاط مستمرّ بالمقارنة مع أوروبا التي كانت في أوج التبدُّل والتغيُّر. لكنّ السلطان لم يتوانَ في إطلاق إصلاحات داخليّة عدّة، شكّلت بداية عصر جديد: إصلاح الجيش، وبشكل أخصّ إصلاح الإدارة لتصبح أكثر فعّاليّةً. فجعلَ النظام الإداريّ كلّه تحت سلطة الصدر الأعظم في ما يخصّ الشؤون المدنيّة، وتحت سلطة شيخ الإسلام في الشؤون الدينيّة أو القضائيّة، وسلطة السِرْعَسْكَر للشؤون العسكريّة؛ وهؤلاء الثلاثة كانوا متساوين ومسؤولين أمام الحُكْم. والموظّفون، من ناحيتهم، تحوّلوا من «خُدّام» إلى «مأمورين». كما

حصلت تغيّرات كثيرة أخرى فعلَتْ فِعلَها في حُكْم الذين خلفوا محمود الثاني.

محمود، يمين الدولة محمود بن سُبُكتكين المعروف أيضًا بمحمود الغزنوي ٣٥٩-٤٢١هـ/ ٩٧٠-١٠٣٠م، فاتح الهند وأوّل ملوك الأسرة الغزنوية الكبار. حكم ابتداءً من العام ٣٨٧هـ/٩٩٧م، وحاز على شهرة أسطوريّة، مردُّها سعةُ الأراضي التي افتتحها بحدّ السيف وفرض فيها الإسلام السنّي معتمدًا على الجهاد.

إنّه ابن ضابط تركي أرسله السامانيّون حاكمًا على هذه المنطقة. يُعرف هذا الغازي باسم السلطان محمود، على الرغم من أنّه لم يحمل رسميًا هذا اللقب. لا تزال صورته حيةً في أفغانستان حيث يُنظر إليه كبطل قومي، كما لا يزال ضريحه مكرّمًا في غزنة. كان عمره سبع سنوات عندما استطاع والده أن يفرض سلطته على هذه المدينة. وعندما خلفه في الحكم، بعد أن أبعَدَ أخاه، كانت الحملات ضدّ البنجاب قد انطلقت بنجاح. هدفت محاولاتُه السياسيّة الأولى إلى الاتفاق مع جيرانه الجدد في الشمال، القراخانيّين (Karakhanides)، لاقتسام بقايا ممتلكات الدولة السامانيّة المحتضرة ولدفع الحدود الشماليّة لدولته إلى مجرى نهر آموداريا. إنّه أفاد من التغيّرات التي أصابت منطقة ما وراء النهر ليعلن ولاءه للخليفة العبّاسي القادر بالله الذي كان هاجسه الدفاع عن السنّة. وقد اعترف القادر رسميًا بسلطة محمود، ما أضفى على غزواته في الأراضي غير الإسلاميّة صبغةً جهاديّة.

إنّ حملاته المتتالية بين ٣٨٩ و٤١٨هـ/ ٩٩٩ و١٠٢٧م، سمحت له بالقيام بغزوات ناجحة على مدنٍ هنديّة أحيانًا بعيدة: أوّلًا باتّجاه مدن ماتورا وجواليور وكانَوْج حيث بلغ نهر الغانج؛ وثانيًا باتّجاه غُجرات حيث نهب، في العام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، هيكل سومنات الشهير. إلّا أنّ هذه الغزوات لم تشكّل احتلالًا نهائيًا للمنطقة. إضافةً إلى البنجاب والسند اللذين كانا داخل حدود الدولة الغزنويّة، هناك عددٌ من المقاطعات الهندية التي ضُمّت وأُجبرت على دفع الجزية. علاوة على ذلك، استطاع محمود أن يبسط سلطته تدريجيًا باتّجاه الغرب، إلى أبعد من زابلستان والمناطق المجاورة التي كان والده قد حكمها، وهذا ما شكّل في نظر الخلافة العبّاسيّة، ليس نجاحًا مذهلًا وحسب، بل أيضًا نجاحًا ذا فائدة كبرى. لقد انتصر محمود على منافسيه وأعدائه بفضل جيش أشرف بنفسه على تنظيمه وفق قواعد اختُبرت في الهند، معتمدًا بنوع خاص على الفيلة. أمّا في الجنوب فلم يكتفِ بمقاطعتي بَلُوشِستان وسجستان، بل أضاف إليهما خراسان بكاملها، فامتدّ نفوذه حتّى خوارزم حيث عيّن حكامًا من قِبَله. توفي في سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، بعد أن غزا منطقة «الجبال» لينتزع من البويهيّين مدينتي الريّ وهمذان.

استطاع الأمراء الشيعة البويهيّون، الذين يعودون بأصلهم إلى الدَّيلم، أن يفرضوا نفوذهم في العراق وقد أعطى الخليفة أحدَهم لقب أمير الأمراء، لكنّ هذا النفوذ ضعف بعد أن سطع نجم محمود في الشرق، وهو تركيّ الأصل، إيرانيّ الثقافة. نذكّر هنا بأنّه حمى الشاعر الإيراني الفردوسي واعتمد مبادئ الإدارة الفارسيّة. وقد عمل على إحياء مراكز الحضارة الإسلاميّة التي كانت قد بزغت من قبل في آسيا الوسطى في العهد السامانيّ.

المحنة، إجراء لم يكن مبدئيًا قائماً في الإسلام، ومع ذلك بدأ بالظهور خلال العصور، من دون أن تُحدّد الهرطقة بشكل واضح في الوسط السنّي.

وإذا كان الإسلام لا يُقِرّ بوجود طبقة من رجال الدين مكلّفة بالسلطة العقائديّة، فإنّه يعود للخليفة أو لممثلٍ عنه، يعاونه الفقهاء، أن يمارس هذه السلطة بقدر ما تقتضيه محاربة البدع المذمومة (المستنكرة). واستناداً إلى هذا الإمكان، أراد الخليفة المأمون، مثلًا، أن يفرض عقيدة المعتزلة التي ارتأى أنّها مطابقة لعقيدة السَّلَف. فكانت المرحلة التي صحّت تسميتها «المحنة»، وفيها أجبر أو حاول إجبار كبار الفقهاء والمحدّثين على اعتناق هذه العقيدة، ولا سيّما في مسألة خلق القرآن.

في مرحلة لاحقة، لا نشهد إلّا بين وقت وآخر دعاوى تؤدي إلى أحكام بسبب آراء إنحرافيّة. كما حصل بالنسبة إلى «قارئ» القرآن ابن شنّابوذ، المتّهم بإحداث قراءات في الصلاة العامة تختلف عن تلك التي تمّ إقرارُها رسميًا. فقد حكمت عليه، سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، محكمة برأسها الوزير ابن مُقلة، وأرغمته على التراجع

عن موقفه. وفي بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حُكم أيضاً في بغداد على المتصوّف الحلاّج، ونُفّذ به حكم الإعدام، سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢٢م، بعد محاكمة طويلة تابعها الوزير باسم الخليفة، يساعده قضاةٌ وفقهاء. والحلاّج الذي لوحق بسبب أفكاره المضادّة للعقيدة التقليديّة، حُكم عليه أخيراً لارتداده عن الإسلام، استناداً إلى كتاباته في مسألة الحجّ. وثمّة متصوّفون آخرون تعرّضوا للملاحقة، وأحياناً نفّذت فيهم أحكام بالموت، كالسهروردي المقتول، من دون أن تُعرف بالضبط الإجراءات التي اعتمدها الأمراء الذين حكموا عليهم، ولا الأخطاء الدينيّة أو السياسيّة-الدينيّة التي اتُّهموا بارتكابها.

وفي الأندلس، حيث سيطر المذهب المالكي، ضُويق بعض المتصوّفين إلى حدّ أنّهم اضطرّوا إلى مغادرة البلاد، كما حصل لابن سبعين الذي اتُّهم بنشر عقائد وحدة الوجود، فلجأ إلى سبة، ثم اضطرّ إلى مغادرتها نحو المشرق، قاصداً مكّة حيث توفي سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م.

وأخيراً، لا سيّما في عهد المماليك، في مصر وسوريا، نشهد دعاوى موجّهة إلى رجال دين بسبب أفكارهم المنحرفة. إنّ سبب هذا التشدّد عائد، في تلك الفترة، إلى مواقف بعض الفقهاء الذين أعلنوا وجوب الجهاد، لا ضدّ الكفّار فحسب، بل أيضًا ضدّ «الهراطقة»، ملتقين بذلك مع موقف قديم اتّخذه الشيعة. والحنبلي ابن تيميّة نفسه، على الرغم من تشدُّده، تعرّض مرّات عدّة لمضايقات حاكم دمشق، تنكز، الذي جمع مجالس علماء للبحث في آرائه الفقهيّة. وفي سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، حُكم على ابن تيميّة بالسجن بسبب أفكاره في مسألة الطلاق؛ ثمّ في سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م، حُكم عليه مجدّداً بالعقوبة نفسها لتعاليمه في موضوع الزيارات التقويّة، والحجّ الخارج عن الفروض الدينيّة. وكانت الأحكام تصدر عن الحاكم الذي يتصرّف باسم السلطان، ويساعده في ذلك قاضي القضاة.

مثل هذه الدعاوى بتهمة «الهرطقة» يجب تمييزها عن الدعاوى المقامة في مراحل مختلفة، ضد ثُوّار اتّهموا، لا بالثورة فحسب، بل، عند الاقتضاء، بمعتقدات معادية للإسلام، ولكن من دون أن يكون ممكنًا الفصل دائمًا ما بين الآراء المنحرفة للمتّهمين وجريمة الخيانة بحقّ السلطة أو الاسلام. وفي الواقع كان يُحكم على هؤلاء بالموت بسبب ارتدادهم عن الإسلام، الظاهر في أعمالهم الثوريّة، وليس بسبب انحرافٍ بسيط في آرائهم.

مُخا (الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة)، مرفأ في جنوب الجزيرة العربيّة، في حالة دمار حاليًّا، يقع على شاطئ البحر الأحمر، وكان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر يؤمّن تجارة البن.

تطوّرت هذه المدينة، المهمّة في ذلك الوقت، وإنّ بقاياها الأثرية ما تزال قائمة حول ما كان في ما مضى مرسى متواضعًا في منطقة تهامة، تكاد تنساه المصادر العربيّة القديمة. أقام معها البرتغاليّون والهولنديّون والإنكليز علاقات تجاريّة، ساهمت في ازدهارها الذي نتج أيضًا عن علاقاتها التجاريّة بإثيوبيا وعن دورها الإستراتيجي المؤكّد خلال الفترة الأولى لهيمنة العثمانيّين على المنطقة. وأدّت التحوّلات الاقتصاديّة والسياسية في القرن التاسع عشر إلى أفولها السريع، في حين شهدت الفترة نفسها تطوّر مرفأي عدن والحُدَيْدة؛ ولم يعد الموقع يستهوي حاليًّا سوى علماء الآثار.

المَخْزَن، مصطلح كان يعني في القرون الوسطى بيت مال الدولة أو، توسُّعًا، المال المحفوظ والإدارة المسؤولة عنه.

في المغرب، في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، عنى المصطلح الحكومة المكلّفة إدارة أموال المسلمين المتأتّية من الضرائب. فكانت كلمة مَخزن تعني آنذاك الدولة، بمقتضى الوضع الذي كان سائدًا إبّان حكم السلاطين السعديّين. وفي مواجهة القبائل العربيّة الخاضعة للسلطة والمتمركزة في المنطقة المعروفة باسم «بلاد المخزن»، كانت تقف جماعات البربر المتمركزة في «بلاد السيبه» أو «البلد المُنشَق». فبحُكم هذا الوضع، كان المخزن هو المنطقة التي تخضع لسلطة السلطان وتطبّق عليها أحكام الشريعة الإسلاميّة؛ بينما سادت العادات والتقاليد البربريّة في

البلد المنشق. ومنذاك حاول مختلف حكّام المغرب جاهدين، وبنجاح متفاوت، تقليص رقعة المنطقة المنشقّة وإدخال نفوذهم إليها.

المدارس الكلاميَّة، هي مناهج نشأت في القرون الأولى للإسلام في موازاة المدارس الفقهيّة، بغية إيضاح مقوّمات العقيدة، لكنّها لم تحظ بالمكانة التي حظي بها علم الفقه الذي اعتبره المجتمع الإسلامي وحده علماً أساسيًّا.

في بداية الأمر، اقتصرت الكتابات في هذا الموضوع على «شهادات إيمانية» ينبغي أن نميّز بينها وبين الشهادة الأساسية أي الإقرار بالإسلام. تلك الشهادات كانت شبيهة بكتب التعليم الديني، وكانت تكتفي بتعداد الأصول العقائديّة، من دون السّعي إلى رفدها بالحجج أو إلى شرحها. ولكن انطلاق النقاشات الدينيّة-السياسيّة المتعلّقة بفكرة الله، ووضع المؤمن أو الاختيار الحرّ تحديداً، أدّى إلى ظهور دراسات عقائديّة غير رسميّة تجاوز أصحابها تبرير بنود الإيمان بالعودة إلى القرآن والحديث، إلى الأخذ ببعض وجوه استعمال التفكير الشخصي. هذا «اللاهوت» النظري الذي سُمي «بالكلام» أو «الكلام عن العقيدة»، أدّى لاحقاً إلى نشوء مدارس كلاميّة بكل معنى الكلمة، عُرفت منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، أهمّها المعتزلة والأشعريّة والماتريديّة والمذاهب الشيعيّة التي تشابه أحياناً المدارس السابقة؛ وفي زمان متأخّر، نذكر المحاولات المختلفة التي قام بها المصلحون.

كان تيّار المعتزلة الفكري التيار الأوّل الذي تمظهر عقائديًّا في منتصف القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد باعتماده مجموعة من المواقف جُمعت في ما بعد تحت عنوان المبادئ الخمسة. فقد سادت إشكاليّته - الناشئة من النزاعات العمليّة والنظريّة التي نشبت منذ العهود الأولى للإسلام - لاحقًا، جميع الأطاريح التي طوّرها علماء الكلام من مختلف التوجُّهات. وإذا كانت أطاريح الاعتزال قد تبوّأت الصدارة في عهد الخليفة العبّاسي المأمون، وخلفَيه الاثنين، فإنّ النزعة السلفيّة، الممثّلة بشكل خاص بابن حنبل وأتباعه، نعمت بحماية الخلفاء، وغدا علم الكلام الذي تعهّده المعتزلة محظوراً، على

الأقلّ، علانيّة.

وهكذا وجب انتظار بداية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد لنشهد قرار الاشعري، وهو المنشق عن المعتزلة، بالانضمام إلى الأطاريح السلفيّة مع الاستمرار في اللجوء إلى علم الكلام الذي اعتبره الحنبليّون خطيراً. فكان أن طوّر اتباع الأشعريّة أو الاشعريّون أبحاثاً كلاميّة قدّمت حلولاً جديدة تقوم على مرتكز فلسفي، ونشأت نزعة جمعت قطاعاً عريضاً من الرأي العام حتّى عصرنا الحاضر.

أمّا الماتريديّون، أو أتباع الماتريدي المرتبطين بالمذهب الفقهي الحنفي، فقد قدّموا من جهتهم حلولاً قريبة من المعتزلة الذين حافظوا على بعض المخلصين لتعاليمهم.

أخيراً انصرف الحنبليّون الذين كانوا مبدئيًّا معارضين لعلم الكلام، منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، إلى وضع رسائل كلاميّة انطوت على قسط من التفكير العقلاني. إلّا أنّ المذهب الحنبليّ، الآخذ بحرفيّة النصّ، لم يلبث أن ألهم في وقت متأخّر، في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، علّامة شهيراً مثل ابن تيميّة، في صياغة مدرسته التي تبنّتها الحركة الوهابيّة، نسبة إلى محمّد بن عبد الوهاب، هو الذي صاغ المواقف السياسيّة - الدينيّة التي أقيمت عليها المملكة العربيّة السعوديّة.

أما الفقهاء من الشيعة فقد اعتمدت أغلبيّتهم نظماً كلاميّة تحفظ مكانة خاصّة لمفهوم الإمامة الذي اعتمدوه: هذا ما فعله الآخذون بالمذهب الاثني عشري والاسماعيليّون. ولكنّ الزيديّين اكتفوا بالانضمام إلى مذهب المعتزلة. وكان بين الاثني عشريّة من استمالتْهُ النزعة السلفيّة، وآخرون النزعة المعتزليّة، ولكنّهم كيّفوها مع ما يخدم قناعاتهم. وقد أخذ الاسماعيليّون بتيارات الفلسفة التي كانت تُيسّر لهم تبرير المكانة البارزة لشخص الإمام في نظامهم الفكري.

وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى المتصوّفة أنفسهم، فإنّهم، رغم انصرافهم إلى الزهد والتصوّف، إمتازوا أحياناً بمفاهيم كلاميّة خاصة بهم. وإذا كانت فئات منهم

لم تتجاوز المواقف التقليديّة ، فإنّ الفئات الأُخرى التي كانت تمارس الاتّحاد الشخصيّ استهونها وحدة الوجود التي كان من الصعب التوفيق بينها وبين التنزيه الإلٰهي ، والتي أدّت إلى إدانتهم بالمروق في الدين ، من قِبل المدافعين عن الشريعة .

بشكل عام ، هدأت تدريجيًّا المجادلات حول المسائل التي طرحت نفسها في العصور الأولى والتي حُلَّت في معظمها في إطار أفكار متناقضة ، بعد أن تبلور ، في الوسط السني ، موقف وسطيّ . بالطبع لم ينفِ ذلك بقاء اختلافات في التفكير كانت لها أصداء في الخلافات اللّاحقة بين المذاهب والمبادئ الفكريّة التي غذّتها التيّارات السياسيّة-الدينيّة .

لكنّ أيّ جديد مهمّ لم يطرأ على ملف الخلاف بين المعتزلة والسلفيّين الذي استمرّ بالانتقال من عصر إلى آخر ، حتّى زمن المناقشات الأخيرة التي ظهرت داخل تيار الإصلاح .

المدجَّن ، مصطلح استُعمل في إسبانيا للإشارة ، في أراضي الأندلس القديم التي استردّتها الممالك المسيحيّة ، إلى المجموعات الإسلاميّة التي حافظت على نفوذها ، مستفيدة من نظام شبه عُرفي غير مدوَّن .

كان هذا النظام في الواقع شبيهًا بالنظام المطبّق على مؤدّي الجزية في بلاد الإسلام وناتجًا عن مبادرة قام بها ملوك قشتالة والأراغون . ظهر الواقع المدجّن ، إبتداء من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد ، وبلغ ذروته خلال حروب الاسترداد في القرن السادس للهجرة/الثالث عشر للميلاد ، تاركًا آثاره بشكل خاص في المقاطعات الشرقيّة لشبه الجزيرة الإيبريّة حيث نشأت عنه مراكز حضاريّة ناشطة في حواضر مثل سرقسطة وطُليطلة ، وبلنسية وقرطبة وإشبيلية . وتتمثّل أهميّته من خلال الشواهد الفنيّة العديدة ، المعماريّة منها والزخرفيّة ، الناتجة عن طلبات ملكيّة أو مخلّفات شعبيّة دفعت مرارًا إلى البحث في تحديد الفنّ المدجّن وامتداده وتطور أسلوبه . هذا الأسلوب الذي ينطبق على روائع مختلفة ، أوصل بعض أشكاله وتقنيّاته المستعارة من الفن الإسلامي إلى الفن الإسباني بعد عصر النهضة .

مدرسة ، بالتركية «مدرسة» ، وفي المغرب مدرسة .

مؤسّسة إسلامية للتعليم ، مخصّصة لطلّاب العلوم الدينيّة والقانونيّة ، أي الفقه الذي وسم التعليم التقليدي الذي تطوّر ، إبتداء من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، وأثّر في الحياة الإجتماعيّة الإسلاميّة وفي تطوّر فنّ الهندسة .

١ - إنّ اللفظة العربيّة «مدرسة» تعني مكان الدرس ، وقد أُطلقت ، بلا ريب ، على نوع من المؤسّسات ما تزال معلوماتنا ناقصة حولها ، وقد تكون تأسّست في خراسان أو في بلاد ما وراء النهر منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين . وفي نيسابور ، بنوع خاص ، قد تكون ازدهرت ، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، مدارس تولّى التعليم فيها فقهاء حنفيّون وشافعيّون وعلماء ومحدّثون . ولكنّ المنشآت في هذه المرحلة ، التي كانت هزيلة ولم يبقَ منها أيّ أثر ، كانت تشكّل مساكن للطلبة العابرين الراغبين ، لبعض الوقت ، في متابعة دروس أحد فقهاء المدينة .

في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م ، تأسّست ، للمرّة الأولى ، في بغداد ، مدارس تلتزم المبادئ والأعراف التي اتُّبعت لاحقًا ... فمن جهة ، كانت هذه المؤسّسات مخصّصة فقط لتثقيف الطلّاب وفق إحدى المدارس الفقهيّة المعترف بها حينذاك ؛ ومن جهة أخرى ، وللمرّة الأولى ، كانت لهذه المؤسّسات مداخيلها الخاصة بفضل مردود وقف معيّن تتيح عائداته دفع الأجور للهيئة التعليميّة التي يعيّنها مؤسّس المدرسة أو ورثته ، وتوفّر للطلّاب إمكان الإقامة فيها . أقدمُ نموذج لهذه المدارس تأسّس في بغداد على عهد الوزير نظام الملك ، ولذا عُرف بالمدرسة النظاميّة ، وقد أُطلقت التسمية على مؤسّسات مشابهة على عهد الوزير نفسه في مدن أخرى من العراق ، في البصرة والموصل ، وكذلك في إيران وما وراء النهر ، في نيسابور وبلخ وهراة ومرو وأصفهان . وفي السنة نفسها (٤٥٩هـ/١٠٧٦م) ، أُنشئت في بغداد ، على يد أحد أعيان الدولة السلجوقيّة ، لتعليم الفقه الحنفي ، مدرسة ضمّت مسجدًا مجاورًا لضريح أبي حنيفة ، وخانًا مخصّصًا للسكن ، وكل ذلك كان يستفيد من مردود الوقف . في مرحلة لاحقة ، نشأت مدارس متعدّدة أخرى

في المناطق الشرقيّة بفضل أعيان من أصول مختلفة: إمّا هُم من الإداريّين أو من العسكريّين، وإمّا من السلاطين أو الخلفاء والحكّام الآخرين، وإمّا من الأفراد الذين ينتمون إلى الأسر الحاكمة. وكانت الاتّجاهات التعليميّة تعكس التنافس القائم بقوّة حينذاك بين المذاهب الفقهيّة، كالمذهب الحنبلي الذي كان يدعمه العبّاسيّون، والحنفي الذي يدعمه السلاجقة، والشافعي الذي يدعمه بعض الوزراء. وبعد مرور قرن، توقّفت هذه النزاعات، فقام الخليفة العباسيّ المستنصر، سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، بإنشاء مدرسة في بغداد عُرفت باسمه هي المستنصريّة التي ما يزال بناؤها الضخم المشيّد بالخزف، ماثلًا إلى اليوم على الضفة الشرقيّة لنهر دجلة. وكانت هذه المدرسة مقصد طلاب يؤمّونها لتلقّي العلم وفق المذاهب الفقهيّة الأربعة الأكثر انتشارًا يومذاك.

وبحسب المصادر المكتوبة، كان يوجد، في هذه المرحلة، حوالى أربعين مدرسة في عاصمة الخلافة، حيث يلتقي المعلّمون الأوفر شهرة. إنّ تعدّد المعاهد لم يُلغِ التعليم في مواضع أخرى، كالمسجد المنصوريّ الجامع الذي كان يُشغِلُ قسمًا ممّا كان يعرف «بالمدينة المستديرة» القديمة، أو كالمصلّيات المنتشرة في المدينة، إذ كان يُسمح لكلّ مدرّس أن يجمع طلابه في «حلقة»، سواء في مكان عامٍ أو داخل منزله، من دون أن يحتاج إلى موافقة مسبقة. فموافقة الخليفة لم تكن ضروريّة إلّا للتدريس في المسجد المنصوري الجامع. ولم يظهر إلّا في مرحلة لاحقة شكل من المراقبة مردّها تصلّب النظام، ذلك أنّ المعلّمين الذين كان يعيّنهم المؤسّسون - وهؤلاء هم إجمالًا من الذين يحتلّون المراتب العليا - كانوا يصبحون فعليًّا المؤهّلين الوحيدين للتعليم، في حين أنّ المساعدات الممنوحة للطلاب تتيح، من هذا الجانب أيضًا، نوعًا من الإختيار. إنّ الإنطلاق الأوّل للمدارس في مرحلة ما بعد السلاجقة - لم تكن هذه المدارس تسعى للاستئثار بالتعليم العالي وضبطه - لم يكن يهدف، رغمَ ما كتبه بعض المؤرّخين المحدثين، إلى تطبيق سياسة سنيّة مدروسة لمواجهة الخطر الشيعي الذي كان لا يزال قائمًا. إن المشجّعين المؤسّسين غالبًا ما كانوا ينتمون إلى بيئات تختلف عن التي ينتمي إليها قادة البلاد، ولم يؤسّسوا مراكز دعوة شبيهة بـ«بيوت الحكمة» التي أسّسها الفاطميّون. وفضلًا عن ذلك، فإن وجود منافسة بين هذه المدارس، كما حصل في العراق، كان يعبّر عن الانقسامات القائمة بين السنّة حول تفسير المعطيات الفقهيّة والعقائديّة. وبطريقة غير مباشرة، استطاعت هذه المعاهد، التي كانت تحتفظ ببعض الحريّة تجاه السلطة، أن تساهم في الدفاع عن التسنّن وفي إحيائه في منطقة الشرق الأدنى.

في هذه المراحل المتقدّمة، لم تنتظم المدارس في أبنية ذات أنماط هندسيّة محدّدة. إنّ الأشكال التي اعتُمدت حينذاك، والتي لا نملك أي دليل أثري عليها، لا يجوز إعادة تصوّرها اعتمادًا على نماذج من مرحلة لاحقة، كما حاول الكثيرون أن يفعلوا؛ فليس ما يسمح بأن نلقي على الماضي سماتٍ تميّزت بها الأعمال الهندسيّة الناجحة التي تحقّقت في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، سواء لجهة الضخامة أو للناحية العمليّة، إنطلاقًا من النماذج التي تقدّمها العاصمة العراقيّة، والمتمثّلة بالمدرسة المستنصريّة وببقايا مدرسة أخرى محفوظة داخل القلعة. إنّ مثل هذه الأبنية المميّزة بقياساتها الكبيرة وبتنظيمها الداخلي الذي يتناغم فيه شكل الإيوان وشكل الساحة المحاطة بالغرف، لا يسمح بالإستنتاج، كما وَهِم كثيرون، بأنّه اعتُمِد، في بناء المدارس السلجوقيّة، مخطط مصلّب يتضمن أربعة إيوانات. كذلك لا نستطيع أن نحصل على أيّ برهان في هذا الاتّجاه من النماذج الهندسيّة الرائعة التي شُيّدت في مرحلة لاحقة، في إيران أو في آسيا الوسطى، أي المدارس التي شيّدها تيمورلنك والصفويّون في خرجرد أو سمرقند، على سبيل المثال، أو في أصفهان.

في الأقاليم الواقعة غربي العراق وشماليه، كبلاد ما بين النهرين العليا وسوريا ومصر أو حتّى الاناضول، انتشرت المدارس تدريجيًّا، ولكن ليس لدينا معطيات أثريّة قديمة كافية عنها. من المؤكّد أنّ معاهد نشأت في دمشق منذ ٤٩١هـ/١٠٩٨م، وتبعها واحد في حلب سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م. وفي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، عند وفاة

السلطان نور الدين زنكي، كانت المدارس قد بلغت ثمان في حلب واثنتين وعشرين في دمشق، ذلك بدون أن نغفل تلك التي أُسّست في مناطق أقلّ أهميّة، كما في الموصل وسنجار مثلًا، حيث وُجدت ست مدارس، وفي بعلبك وبُصرى وحماة وحمص ومعرّة النعمان وحرّان ومنبج والرقّة وآثرها وديار بكر حيث يذكر المؤرّخون العرب وجود عدد من المدارس. وهذا العدد أخذ في التزايد إبتداء من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، على عهد صلاح الدين وسائر ممثلي السلالة الأيوبية، سواء في مصر التي تغيّرت أجواؤها الفكريّة بعد سقوط الخلافة الفاطميّة سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، أو في القدس، بعد أن خسرها الفرنج سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، أو حتّى في بلاد الأناضول حيث شهدت العلوم الدينيّة تقدّمًا مطّردًا بالتوازي مع حركة الأسلمة التي رافقت نموّ الدولة السلجوقيّة في قونية. لكنّ الأبنية التي ما تزال قائمة، لا تعود إلى ما قبل نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وفي هذه المرحلة كانت المدارس قد تحوّلت إلى مؤسّسات رسميّة، تستند في كل منطقة إلى إرادة الحكام المهتمّين بنشر أفكارهم السياسيّة-الدينيّة، وبإعطاء البراهين التي تثبت أنّهم من نَصيري الأدباء والعلماء.

٢ - عندذاك حصل في الإمارات الشرقيّة، بعد عهد السلاجقة، ازدهار حقيقي للمدرسة على الصعيدين المؤسّسي والهندسي. فقد أصبحت عنصرًا ثابتًا ومتنوّعًا في المشهد المُدني، وفي الوقت نفسه وسيلة لتطوير العلوم الإسلاميّة الأساسيّة ونشرها، متقبّلة الأبحاث والتجارب المتّصلة بالتصوّف وبما أحدثه من ممارسات تقويّة. ونشأت الخوانق التي كثيرًا ما يصعب التفريق بينها وبين المدارس، وفي الوقت نفسه كثرت المدارس «الضريحيّة»، أي الملحقة بأضرحة أراد مؤسّسوها أن يُدفنوا بالقرب منها ليستفيدوا، بعد موتهم، من الفضل الذي لهم في تأمين دراسة النصوص الدينيّة وتلاوة القرآن بصورة مستمرّة. هذه المدارس كانت تتبدّد أحيانًا من نموذجين، أحدهما داخل المدينة والآخر خارجها، حتّى إذا ما توفّي المؤسّس دُفن مباشرة في أحد النموذجين، أيًّا يكن موضع الوفاة، من دون مرور الجثمان من باب المدينة، إذ كان يتشاءم الناس من ذلك.

هذه المؤسّسات المتعدّدة لا تتيح لنا أن نحدّد بشكل جازم مخطّطها الهندسي. إنّ مظهرها الخارجي ظلّ متواضعًا في بلاد كسوريا حيث لم تنشأ إلّا مدارس متوسّطة الحجم، تكاد لا تظهر في شوارع المحلّة ببوّابتها الحجريّة الضيّقة، وواجهاتها المنخفضة وقبابها ذات القاعدة المزدوجة، وأضرحتها التي لا ترتبط بها أيّة مساكن فسيحة أو أيّة ملحقات فخمة. حتّى إنّ الأكثر شهرة بينها - كمدرسة الفردوس في حلب، ومدرستي العادليّة والظاهريّة في دمشق، مثلًا - تبرز قيمتها في الملاءمة بين تصميمها وحجمها من جهة، ودورها كمراكز للعلم وللعزلة تؤمّنها لمجموعات صغيرة من الأتباع من جهة أخرى، وقد بُنيت بشكل بسيط يجمع بين الايوان والضريح الذي تعلوه قبّة، وقاعة للاجتماع وغرف. إنّ هذا النوع من البناء يصلح لأن يكون زاوية. كما أنّ استعمال الزخارف الجميلة التي تُغنيها أشكال مقولبة أو محفورة بنعومة استطاعت أن تحفظ، حتّى اليوم، هذه الانجازات التي استمرّت تقليدًا على عهد المماليك في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

هذا الاعتدال في بناء المدارس في سوريا وفي بلاد ما بين النهرين العليا لم ينساق على مدارس مصر التي شهدت تطوّرًا عمرانيًّا مختلفًا بعض الشيء، ولا مدارس هضبة الأناضول التي بلغت، في زخرفتها على عهد سلالة سلاجقة الروم وفي المرحلة اللّاحقة المعروفة بعهد الإمارات، ضخامةً وروعة مميّزتين. ثمّة نماذج لافتة، ذات إيوانات تنفتح على فناء مركزي تحيط به غرف عديدة، تمتدّ تحت أروقتها، وكانت مزيّنة عند المدخل بأشكال هندسيّة مركّبة، يحتلّ شكل المآذن المزدوجة مكانةً واضحة فيها، وهذه المآذن تضفي جمالها على المداخل ذات الأُطر المستطيلة التي تعلوها التجاويف. نذكر أمثلة على ذلك مدرستا جِفْتِه مينارلي (Çifte Minareli) وياقوتيّة في أرضروم، ومدرسة السلطان عيسى في ماردين، والبوروسيرديّة ومدرسة غوك في سيواس، ومدرستي شيرشلي وصاحب عطا في قونية. ولكن ثمّة مبانٍ أكثر طرافة تنتظم حول كتلة

مركزيّة فسيحة تعلوها قبّة وتحيط بها إيوانات داخليّة. وقد لاقى هذا الطراز اهتمامًا حقيقيًا تؤكّده مدرستا كراتاي وإنْشِ مينارلي في قونية، وقد استفادت في زخرفتها من ازدهار فنّ الخزف في تلك المناطق. وفي الوقت نفسه، كانت تتشكّل مجمّعات هندسيّة تشهد على المحاولات الأولى لإدخال المدرسة في مشاريع واسعة أُطلقت، قبل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كمجموعة ديفريجي المؤلّفة من مسجد جامع تلازمه مدرسة ومستشفى، أو مجمّع هواند خاتوم في قيصرية. هذه المجمّعات التي يمكن اعتبارها مدارس أو مساجد جامعة، كانت تحيط بها مبانٍ متنوّعة؛ إنّها مهّدت للمنشآت السلطانية التي شُيّدت في بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، على تلال بورصة، على عهد بعض السلاطين كبايزيد الأوّل ومحمّد الأوّل. تبعتها منشآت فاخرة على عهد سلاطين متأخّرين من السلالة العثمانيّة، شُيّدت في اسطنبول في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلاد، حول مسجدي سليمان القانوني وأحمد الثالث، على سبيل المثال.

في هذه المنشآت التي سُمّيت كلّيات، كانت المدارس المختصّة بدراسة المذاهب الفقهيّة والطب والحديث، مثلًا، تُضمّ إلى مبانٍ أخرى نفعيّة في مجمّعات هندسيّة يظهر فيها، بشكل لافت، التكامل في الهندسة والأسلوب. إن الشكل العام المكوّن من طبقات تجمع الضخامة والأناقة وتنصهر في مجموعة من الأبنية، بفضل التجاور المتناسق والتراتب لعناصرها المختلفة، هو خير شاهد، ماديًا وفنيًا، على الذروة التي بلغها التنظيم الرسمي للتعليم يومذاك. لكنّ هذا التنظيم الذي نتج عن تحسين النظام القديم، كان في مرحلته النهائيّة، في حين أنّ المواجهات الحتميّة العسكريّة والتجاريّة مع أوروبا، التي لم تصبّ في مصلحة السلطنة العثمانية إبتداءً من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، مهّدت لانحطاط المدارس التقليديّة وزوالها لمصلحة المدارس التقنيّة والجامعات على الطريقة الغربيّة.

لم تنحصر هذه التحوّلات في الأقاليم التركيّة والبلقانيّة من السلطنة، بل ظهرت كذلك في مصر أغنى مناطق المشرق الأدنى العربي وأهمّها، ثقافيًا وماديًا. في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بخاصّة، أي في أواخر عهد المماليك، شُيّدت أشهر المدارس المصريّة، وغالبًا ما كانت تحمل اسم شخصيّة متوفاة، وانتشرت خصوصًا في القاهرة، وهي تندرج في إطار التقاليد الإجتماعيّة الدينيّة والهندسيّة التي ظهرت في العصر الأيوبي. في هذا الوقت، وقبله بقليل، في بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حين ظهر نموذج مدرسة الناصر محمّد، اعتُمد الشكل المصلّب الذي يسمح باعطاء كُلٍّ من المدارس الفقهية الأربع إيوانًا يخصّص للفقيه المدرّس ولتلامذته. ومن أبرز أمثلة هذا الطراز مدرسة السلطان حسن التي بُنيت بين ٧٥٧ و٧٦٤هـ/ ١٣٥٦ و١٣٦٣م، قبل أن يتوطّد، كما حصل في الوسط العثماني المعاصر، طراز المجمّعات الهندسيّة التي برزت في عهدي قايتباي وقانصوه الغوري. إذا كان الفتح العثماني، في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، لم يُفسد عمل المدارس، مع أن تأخّرًا حصل في تشييد مبانٍ جديدة، فإن التحوّلات الناتجة عن الاتّصال بين مصر وأوروبا منذ مطلع القرن التاسع عشر، لم تلبث أن أعقبتها، كما في اسطنبول، أزمة في التعليم التقليديّ نتج عنها فتح مدارس تقنيّة لم تلبث أن حلّت محلّها جامعات على النموذج الغربي.

كانت هذه الحركة ممهّدة لكلّ التحوّلات التي أصابت لاحقًا مجمل البلاد العربيّة في المشرق كما في المغرب، لأنّ المدرسة اعتُمدت أيضًا في شمال أفريقيا، إبتداءً من أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، من قبل السلالات الحاكمة المهتمّة بإعداد أتباعها وأعضاء إدارتها وفق معتقداتها الخاصة. إنّ النماذج الأولى المبنيّة في إفريقية، منذ العام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، بمبادرة من الحفصيّين، تبعتها الأبنية التي شيّدها المرينيّون الذين حكموا المغرب، وحاولوا بكلّ الوسائل، محاربة عقيدة الموحّدين ليُحِلّوا محلّها المذهب المالكي. في فاس ومكناس وتلمسان وسلا، تعدّدت المؤسّسات التي اتّبعت الطراز المعتمد في

المناطق الشرقيّة. فالأبنية اتّبعت التقنيّات وطرائق البناء المختصّة بتلك المنطقة، بحيث أنّ تلك «المدارس» تُعدّ اليوم بين النماذج الأوفى تعبيرًا عن الفنون المرينيّة أو العلويّة، في حين أنّنا لا نعرف في الأندلس إلّا مدرسة واحدة، هي التي أسّسها بنو نصر في غرناطة سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م.

إنّ انطلاق مثل هذه الأنماط في مغرب العالم العربي كان نتيجةً للنجاح الذي حقّقته في الشرق تقاليد كانت قد أصبحت متجذّرة وكانت قد ولّدت أنماطًا معماريّة تميل أكثر فأكثر نحو الأناقة؛ كان الهدف، في المغرب، تقليدها من دون السعي إلى التقيّد بملامحها الخاصّة، لأنّ الفنون الإسلاميّة كانت قد اتّسمت، في تلك الحقبة، بالطابع القومي، فتأثّرت المدارس بهذا التوجّه في إيران كما في آسيا الوسطى. وعند المغول اعتمدت المدارس الأسلوب الفارسي وميلَه إلى التركيز على الأنوان، في تركيباتٍ بلغت فيها بوّابة الدخول، المغطاة بالقيشاني، حدّ الفخامة المدهشة، قبل أن توصلك إلى ساحة تحيط بها أقواس مفتوحة، بالأسلوب الزخرفي نفسه، تحيط بها إيوانات موزّعة بشكلٍ مصلّب. يسيطر على كل ذلك، في بلاد الهند، الرخام الأبيض أو الأحجار الصلصالية ذات الألوان الحيّة، التي تكسوها في الداخل والخارج. أمّا في المناطق الأخرى، ففسيفساء أو مربّعات من القاشاني المتعدّد اللون، تلتصق على بناء من الخزف، وتبلغ أوجها في القباب والمآذن. هذه المدارس كانت ملحقة بمساجد أو بأضرحة، وقد تكون أحيانًا جزءًا من التخطيط المُدُني، كما نشاهد في القرنين التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، والحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي في تخطيط ساحة رجستان في سمرقند. إنّ النماذج الأولى التي وُضعت على عهد الإيلخانيّين تجاوزتها لاحقًا، من حيث الغنى الزخرفي وضخامة البناء، الأعمال التي تركها في هراة كما في بخارى أو سمرقند، التيموريّون ومنافسوهم، وكذلك منشآت الصفويّين أو الأوزبكيّين الذين كانوا لا يزالون يحكمون خانيات فرغانة وما وراء النهر ابّان الفتوحات الروسيّة في القرن التاسع عشر.

٣ - أيًّا تكن المنطقة موضوع الدراسة، فإنّ المدارس استمرّت طويلًا تقوم بدور بالغ الأهميّة في المشهد العمراني في المدن الإسلامية حتّى عصرنا الحاضر. واستمرّت تعكُس تنظيم التعليم العالي الإسلامي الذي سهرت هي على تطويره بطريقة منظّمة، إبتداء من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، إلى جانب ما كانت تقدّمه المساجد الجامعة، في بعض البلدان، من إعداد لرجال الدين وللموظّفين الإداريّين. كانت هذه المدارس تعتمد الطرائق القديمة لنقل المعرفة، ولكنّنا لا نعرف، مع الأسف، بدقة سياق التدريس ومضمونه طوال مدّة وجودها. ويبدو، بحسب بعض المعلومات، أنّ الطلبة المتقدّمين الذين يُعدّون أنفسهم لتعاطي الفقه أو القضاء كانوا يساعدون أساتذتهم بصفة «صاحب» إلى وقت الحصول على عمل؛ وفي المقابل، كان الذين يستعدّون للانخراط في الإدارة يكتفون بنوع من التدرّب لمدّة قصيرة.

والمتّفق عليه أنّ طرائق الدراسة، التي كانت قائمة على القراءة والشرح والإملاء، تستدعي الحفظ من دون التخلي كليًّا عن بعض جلسات المناقشة. وكان المعلّمون يسمحون لبعض طلابهم بتدريس المؤلّفات التي سمعوا منهم شرحها، وكانت هذه «الإجازة» تختصّ بكتب محدّدة، ولم تكن تتجاوز مجمل أعمال مؤلّف ما. وأهمّ ما وصل الينا من معلومات هو أنّ التكوين المعرفي لم يتجاوز نطاق العلوم «الإسلاميّة» التي تشمل عادةً، إلى جانب الفقه والشريعة المستمدّين من القرآن والحديث، معارف أخرى كأصول اللغة والمعاجم. وفي مرحلة لاحقة، أي في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، أضيف إليها الرياضيّات والجغرافيا. لكنّ اهتمام الأساتذة والطلبة استمرّ منصبًّا بنوع خاص على المعارف الدينيّة، كما هي الحال، حتّى اليوم، في بعض الجامعات، مع كونها حديثة، تلك التي تسمّى الكليّات أو الجامعات المتخصّصة بالعلوم الدينية، والتي ما تزال قائمة في مناطق مختلفة، من دون أن تختلط بالجامعات المخصّصة لتدريس العلوم ذات الطابع غير الديني.

◄ راجع المستندات رقم ٥٧، ٦٠، ٦٥، ٧١، ٨١ و٨٦.

المدرسة الابتدائيّة ← الكتّاب.

مدغشقر (جمهورية مدغشقر الديمقراطية)، دولة معاصرة، تأثّر سكّانها بالإسلام في أواخر القرون الوسطى، ولكنّ هذا التأثير لم يدُم حتّى عصرنا الحاضر، إذ لا يشكّل المسلمون اليوم إلّا حوالي واحد في المئة من السكّان.

إنّ الاحداث التي أدّت إلى أسلمة المنطقة الساحلية من هذه الجزيرة الأفريقيّة ما تزال غير واضحة؛ لكن يبدو أنّ الملّاحين اتّخذوها محطّة لهم، قبل العام ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، وأنّ تجّارًا مسلمين امتلكوا بعض المنشآت في المنطقة الجنوبية منها. وقد تعدّدت تلك المؤسّسات بين القرنين السادس والثامن للهجرة/الثاني عشر والرابع عشر للميلاد، حين ظهرت المساجد الأولى المبنيّة بالحجر، والتي استمرّت مزدهرة على عهد البرتغاليّين الذين لم يستطيعوا إخضاعهم. ووفد من الهند مسلمون أقاموا في تلك المنطقة في القرن التاسع عشر.

إنّ الإسلام المَدَغَشقري الذي استطاع بصعوبة المحافظة على هويّته إلى جانب الديانة التقليديّة في البلاد، لم يحقّق انتشارًا واسعًا، وهو يقتصر حاليًا على نسبة ضئيلة من السكّان، في المناطق الواقعة في الشمال - الغربي والجنوب - الشرقي من الجزيرة. حتّى الأبجديّة العربيّة المختصة بمدغشقر التي اعتُمدت في أواخر القرون الوسطى لتدوين لغة البلاد، وهي ذات أصل أندونيسي، لم تعد مستعملة اليوم إلا على الساحل الجنوبي - الشرقي.

المدينة أو «مكان القضاء»، مصطلح عربي كان يتضمّن في ما مضى مفاهيم كثيرة التعقيد.

إنّ معاني الجذر العربي الأصيل التي نجدها في لفظة «دين» تسمح لنا بأن نحدّد بدقّة الدور الاجتماعي- الديني الذي يُقرُّ به، بشكل أساسي، لكلّ مدينة إسلامية اتّخذت من مدينة الرسول مثالًا لها. ففي الأصل اللغوي، وتقليديًّا، كان المصطلح يدلّ على المكان الذي تُعلَن فيه وتُنجز، على مشهد من الجماعة الإسلاميّة، القرارات التي هي من صلاحيّة الحاكم المسلم. فهو يفوّض، كما كانت الحال بالنسبة إلى النبيّ ﷺ، مهمّة محدّدة في مجالي القضاء والإدارة إلى الذين يخضعون لسلطته، والذين يؤمّن لهم محليًّا كل الإمكانات للالتزام بالنواحي القانونيّة، ذات الطابع الثقافي والإجتماعي، التي تفرضها الشريعة. عن هذا التعريف تنتج الافتراضات العقائديّة التي يُغني بها الفكر الإسلامي الحديث فكرة «المدينة الإسلامية». إنّ هذه المعطيات لا تلتقي مع نتائج الدراسات التاريخيّة والأثريّة والجغرافيّة التي جرت لفهم ما كان عليه، عبر العصور، تطوّر المدن الحقيقيّة، ذات الأشكال المختلفة والمصائر المتنوّعة، التي تعاقبت أو تكاثرت في العالم الإسلامي لأسباب سياسيّة واقتصاديّة.

المدينة (المملكة العربيّة السعوديّة)، مدينة أقام فيها النبيّ محمّد (ﷺ) بعد الهجرة، وهي تضمّ قبره، وأصبحت في ما بعد عاصمة الأمبراطوريّة في عهد الخلفاء الراشدين. وهي أكثر المدن الإسلاميّة قداسة بعد مكّة.

في موقع المدينة المهمّة الحاليّة، كانت هناك واحة في مرحلة ما قبل الإسلام، باسم يثرب، تقع في قلب سلسلة الحجاز الجبليّة، على بعد حوالى ٣٥٠ كيلومترًا من مكة و١٦٠ كيلومترًا من البحر الأحمر، وكانت مؤلّفة من قرى محاطة بأشجار النخيل. سكّانها كانوا من العرب، ومنهم قبيلتا الأوس والخزرج، اللتان يقال إنّهما انتقلتا للإقامة فيها بعد انهيار سد مأرب في اليمن؛ وكذلك بين سكّانها ثلاث عشائر يهوديّة من المزارعين والحرفيّين. استقبل هؤلاء العرب الوثنيّون النبيّ محمدًا (ﷺ) في سنة ٦٢٢م، وحين أصبحوا مسلمين باتوا يشكّلون الأنصار أو مناصري النبيّ، في حين أنّ تاريخ يثرب أصبح تاريخ أوّل جماعة إسلاميّة تمّ تحديدها في «دستور المدينة»، وكانت العشائر اليهوديّة - التي سيتمّ القضاء عليها في ما بعد - ملحقة بهذه المجموعة. في يثرب توفي النبيّ محمد (ﷺ) في حزيران ٦٣٢ ودُفِن في منزله الذي يطلّ على الباحة التي تُعتبر أوّل مسجد جامع في تاريخ الإسلام. في يثرب أيضًا انعقدت الجماعة التي بايعت أبا بكر بالخلافة، وفي هذه المحلّة التي أصبحت المدينة، أو «مدينة النبي»، أقام خلفاؤه الثلاثة الذين قادوا من هناك انطلاقة الفتوحات الكبرى. في حين أنّ عليًّا، بعد أن أصبح خليفة، غادر المدينة سنة

٣٥هـ/٦٥٦م ولم يعد إليها. بعد ذلك، وبالتحديد في العام ٤١هـ/٦٦١م، لم تعد المدينة عاصمة الخلافة لأنّ السلطة انتقلت إلى الأمويّين.

في ظلّ هذه السلالة التي ركّزت سلطتها في سوريا، ثمّ في عهد العبّاسيّين الأوائل الذين أقاموا في العراق، أصبحت المدينة ملجأً، سواء لأعداء النظام، أو للأشخاص الذين كانوا يريدون أن يقفوا في منأى عن الحياة السياسيّة. وإلى المدينة انكفأ حفيد نبيّ المسلمين، الحسن بن علي، بعد أن تخلّى عن حقوقه في الخلافة؛ وإلى هناك نُقل ابن أخيه (علي بن الحسين) ونساؤه بعد مجزرة كربلاء؛ وهناك عاش محمّد بن الحنفيّة، وهو ابن آخر لعلي؛ وهناك أيضًا ثار الحسنيّان: محمد بن عبدالله في ١٤٥هـ/٧٦٢م، والحسين بن علي في ١٦٩هـ/٧٨٦م؛ وهناك أقام الأئمّة المتحدّرون من الحسين مع عائلاتهم، لا سيّما الأوائل، من علي زين العابدين إلى جعفر الصادق وولده موسى الكاظم قبل اعتقاله، إلى أن طُلب من المتأخّرين منهم، أحيانًا بالضغط عليهم، أن يُقيموا على مقربة من الخلفاء العباسيّين، لا سيّما في سامرّاء.

في العصر الأموي أيضًا، أعيد بناء مسجد النبي محمّد ﷺ الذي كان ملاصقًا لبيته والذي كان شهد توسّعات عدّة، وذلك على يدي الخليفة الوليد الأوّل من الفرع المرواني، في بداية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، بحيث بات يضمّ قبر النبيّ محمّد (ﷺ)، وكذلك قبرَيْ الخليفتين الأوّليْن، أبي بكر وعمر بن الخطّاب. كان المبنى يضمّ في الوسط جناحًا مزخرفًا حيث يبرز المكان المسمّى مقصورة، وفيها كان يقف رئيس الجماعة أو ممثله. وصار هذا المسجد مقصدًا لزيارات تقويّة، واعتُبر ثاني الأمكنة المقدّسة في الاسلام، غالبًا ما يتوجّه اليه المؤمنون العائدون من الحجّ، للحصول على البركات المرتبطة بذكرى النبيّ محمّد ﷺ. والمدينة نفسها، التي لم تعد تلعب أي دور سياسي مباشر، أصبحت مركزًا ثقافيًّا مهمًّا يلتقي فيه خصوصًا الفقهاء الذين كانوا يطلقون أحكامًا، تنديديّة في بعض الأحيان، ضدّ ممارسات الخلفاء العبّاسيّين. أشهر هؤلاء الفقهاء في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، مالك بن أنس، مؤسّس المذهب الفقهي المالكي. وفي الحقبة نفسها كان يعيش أيضًا في المدينة نافع، أحد العلماء السبعة الذين كانوا في أساس القراءات القرآنية المعترف بها رسميًّا في الإسلام.

إبتداء من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، اختلط تاريخ المدينة بتاريخ الحجاز وبتاريخ القسم الغربي من الجزيرة العربيّة. لاحقًا، مثلها مثل مكّة، عرفت المدينة الاحتلال العثماني الذي قطعته، سنة ١٨٠٤، ثورة الوهّابيّين الذين استولوا على كنوز المسجد ومنعوا الزيارات لقبر النبي. لكنّ السيادة العثمانيّة استعيدتْ في العام ١٨١٥، ولم تنتهِ إلا بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى. في ظلّهم أُقيم، في سنة ١٩٠٨، خطّ سكة الحديد الذي يربط دمشق بالمدينة. وفي سنة ١٩٢٦ تمّ ضمّ المدينة إلى المملكة العربيّة السعوديّة الجديدة.

وبموجب فتوى أطلقها الشيخ محمد الطيّب، عمد الوهابيّون إلى تدمير القبور في مقبرة «البقيع» حيث دُفن عدد من الشخصيّات الشهيرة في القرون الأولى للإسلام، وذلك للحؤول دون حركة الزيارات التقويّة التي كانوا يدينونها. ونصحوا أيضًا بعدم إجلال مسجد النبيّ محمّد ﷺ وقبره، لكنّ الملك عبد العزيز سمح للحجّاج بزيارة المسجد للصلاة. هذا الصرح الذي يشكّل الحرم النبوي وسط تجمّع سكنيّ يحظّر دخوله على غير المسلمين، شهد، بين ١٩٣٤ و١٩٥٥، أعمال توسيع ضاعفت مساحته وسهّلت عبور المشاركين في الحجّ الأكبر الذين يقصدون المدينة قبل أو بعد مكّة. وهم يُقدّرون بحوالي ثلاثة أرباع الحجاج. ويوجد في المدينة، منذ سنة ١٩٦٠، جامعة إسلاميّة، أُنشئت بمبادرة من الإخوان المسلمين المطرودين من مصر.

المدينة الإسلاميّة، عبارة شائعة الاستعمال، اليوم، في الغرب كما في البلدان الإسلامية، وهي تنطوي على مجموعة مفاهيم غير موطّدة كفاية لطرح مبدإ استمراريّة نموذج حضري، عبر العصور، يُجسّد، بشكل أو بآخر، «مدينة إسلامية مثاليّة».

في الواقع، لم يظهر مطلقًا نموذج فريد ووحيد لمدينة في عالم متعدّد الوجه كالعالم الإسلامي. فقد

خضعت المدن الإسلاميّة المتتالية، كما يُظهر سبر واقع الأحداث التاريخيّة والمعطيات الأثريّة: عبر العصور، لنماذج مختلفة، ولم يتميّز دورها مطلقًا عن الدور الذي كانت تنهض به، في ذلك العصر، مدن غير إسلاميّة تمتّعت بالأهميّة نفسها.

كان، ثمّة، قدر مشترك ربط بين ضِيَع ومدن العالم الإسلامي الوسيط الكثيرة وعواصمه، وأدّى إلى تطوّرها بحسب وتيرة موازية لتنامي الحضارة التي كانت تحضنها والتي كانت، في الوقت نفسه، لا تني تؤثّر في تكوينها. وقد أدّى ذلك إلى نشوء معطيات معماريّة تبعًا للمراحل التاريخيّة الكبرى، لبّت حاجات ثابتة استمرّت حتى الزمان المعاصر. إلّا أنّ هذه التماثلات الناتجة عن بقاء هذه العوامل المختلفة لم تكن قطّ مرتبطة مباشرةً بالعقيدة أو بالشريعة، ولا حتّى بالمؤسّسات العامة للإسلام. ولم تكن هذه المؤسّسات تخطّط لإنشاء أيّة هيئة تعنى بتنظيم المحلّات والنواحي التي لم تعرف أبدًا حياة مستقلّة، بل كانت تخضع لسلطة الأمير القيّم عليها والراعي لها، الذي كان يقيم فيها أو يعيّن حاكمًا عليها يمثّله، ويعاون هذا الحاكم، في أغلب الأحيان، صاحب الشرطة. حتّى عمليّة المحاسبة (الحِسْبة) الموكلة إلى محتسب مهمّته مراقبة انتظام المعاملات التجاريّة التي كانت تجري في الأسواق، ظلّت تُمارس وفقًا للتقاليد المحليّة ولتعاليم الدين، من دون أن تخضع لإدارة بلديّة في مدن يُحكم سيطرته عليها الأمير الحاكم.

١- كان الأمير يولي المدينة الإسلاميّة الوظيفة الأكثر أهميّة التي يمكن أن تطمح إليها، نعني بها الوظيفة السياسيّة، والتي كانت تضطلع بها، بألق نسبيّ، إمّا عواصم الأمبراطوريّات الكبرى المتتالية التي اختارها الخلفاء والسلاطين، وإمّا مراكز الأقاليم وحاضرات الإمارات المستقلّة.

وقد تماهت الوظيفة المدنيّة السياسيّة تقريبًا والوظيفة العسكريّة والدفاعيّة التي طبعت تنظيم المدن - المعسكرات الأولى المشيّدة على الأراضي الإسلاميّة في الكوفة والبصرة أو الفسطاط مثلًا، ثمّ تنظيم المدن الملكيّة المحميّة التي تضمّ قصرًا، وأخيرًا تنظيم النواحي الصغيرة المحصّنة والمشادة هنا وهناك، والتي استطاعت، حتّى الفترة الحديثة، أن تحافظ على أسوارها الصامدة في أغلب الأحيان. وكانت هذه المدن تضمّ، بصورة عامة، مقرّ إقامة للأمير أو الملك، وكان هذا المقرّ يشكّل، على الأغلب، مركزها كما يمكن أن يُشغل قلعةً مجاورة، كما هي الحال في المدن القديمة الملحقة بالإسلام من خلال الفتوحات كالمدن الإيرانيّة، مثل نيسابور، والمدن السوريّة، كحلب ودمشق.

باتت هذه الحالة الأخيرة قاعدة في عصور ضعف السلطة المركزيّة: حفاظًا على أمنها، لم يكن في استطاعة المدينة أن تستغني عن سور تتجاوزه ضواحيها ذات الأنشطة والمهارات المتعدّدة، في حين كانت القلعة تستمرّ في تأمين الاستقلاليّة والسلطة الفعليّة للأمير أو لممثّله. ترتبط أهميّة قصر السلطة، سواء كان داخل القلعة أو لا، بعدد المساكن ذات الجودة المخصّصة داخل المدينة، وأحيانًا على أرض مُنحت لهذا الغرض، للأعضاء البارزين من الأرستقراطيّة العسكريّة، تحيط بهم وبعيالهم حاشيتهم العسكريّة الخاصة. إنّ الرخاء الذي انمازت به هذه المساكن، في عصر المماليك في مصر وسوريا، مثلًا، التي كان يشغلها أصحاب المقامات الذين تفصلهم وظائفهم أو أصلهم الأجنبي عن عامة الشعب، ساهم في تكييف صورة المدينة العمرانيّة؛ وقد خُصّصت لهم، كذلك، مساحات شاسعة للتمرين، ورحاب وميادين خيل تُعرض فيها فرقهم أو تقام فيها ألعاب الفروسيّة، وأسواق خاصة تُعرف بأسواق «الخيول» حيث يستطيع الفرسان الحصول على كل التجهيزات التي يحتاجون إليها.

من جهة أخرى، ترسّخت الوظيفة الدينيّة مع بداية الإسلام في كل بلدة تمتلك عددًا من السكان من خلال وجود مسجد جامع يشكّل مركزًا سياسيًّا وعباديًّا تُقام فيه، كل نهار جمعة عند الظهيرة، صلاة طقسيّة جماعيّة مصحوبة بالخطبة، وهي فرض على كل مؤمن. وواكبت هذه الوظيفة الدينيّة وظيفة تثقيفيّة انطلقت من المسجد نفسه حيث كانت تُلقّن العلوم والتي انتقلت، في ما بعد، إلى أمكنة أخرى فرضها إنشاء مؤسّسات جديدة. هكذا كثرت المؤسّسات التي كانت تدرّس الفقه والحديث،

أي المدارس بمختلف اختصاصاتها، كما أخذت بتصيب من العلوم الدنيويّة لتعليم الطب في المارستان أو المستشفى، وتعليم أصول التصوّف في خلوات ظهرت منذ القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد وحملت أسماء الرّباط أو الخانقاه أو الزاوية أو التكّة وسواها، وكلّها مبان مجمّعة أحيانًا بقرب مكان العبادة الرئيس في المدينة، وأحيانًا أخرى منتشرة في مختلف الأحياء (داخل السور أو خارجه) مصحوبةً بمصلّى يقوم مقام مسجد خاصّ بها.

ورغم كثرة مراكز الصلاة هذه التي كثّفت المشهد المُدني، خصوصًا مع نهاية القرون الوسطى، فإنّها لم تستطع منافسةَ المسجد الجامع الذي كان مهيّأً أوّلًا للتوسّع لاستيعاب التزايد السكاني المُدني بكامله، وقد توزّعت هذه المراكز، في ما بعد، على صروح شُيّدت في الأحياء. إنطلاقًا من هذا الواقع، فانّ نوعيّة الروائع الفنيّة الهندسيّة المتفذّة في المدن، نعني بها المساجد، أظهرت اهتمام كل سليل حاكم بأن ينفرد ببناء يفوق بروعته أبنية سابقيه أو منافسيه. بفضل غنى الأمير، كانت تتجسّد تكرارًا حيويّة الشعوب المسلمة الساكنة في موضع ما، في البناء المحكم الذي يشكّل بامتياز مكانًا لاجتماع الجماعة والذي كان يضمّ، في بداية الإسلام، خزينة الدولة، وكذلك محكمة القاضي وحلقة أستاذ العلوم الدينيّة على سبيل المثال. كما كانت هذه الحيويّة تتجلّى في عدد من الأبنية الأخرى الدينيّة والأميريّة، وأهمّها الأضرحة بضخامتها المتفاوتة التي أدّت إلى إنشاء مجموعات معماريّة جديرة بالتقدير، نجمت عن مُنشآت خاصة أو ملكيّة مع نهاية القرون الوسطى. كانت هذه المباني تقام عادةً خارج المدينة ويُنفق عليها من مبالغ محجوزة لهذا الغرض بحسب النظام الخاص القاضي بتجميد الممتلكات، أو ما يُعرف بالوقف الذي يُستعمل أيضًا لتأسيس المدارس والمستشفيات. وكانت هيكليّة هذه المنشآت المشيّدة أحيانًا في الأحياء الحديثة العهد تتوسّع، فتضيق بها المساحة المكرّسة للبناء، فتمتدّ إلى خارج هذه المساحة إلى أن تتّصل عادة بالمقابر.

من جهة ثالثة، كان الدور الإقتصادي، في أغلب الأحيان، يحدّد مدى تراجع المدن أو ازدهارها، سواء المدن الصغيرة أو الوسطى أو الكبرى التي كان سكّانها يتفرّغون بشكل رئيس للأعمال الحرفيّة وللأنشطة التجاريّة. ولمّا كانت هذه المدن تشكّل منازل ومستودعات ومحاور لتجارة عبور، كان لها آنذاك إنشعابات بعيدة المدى، فقد ضمّت أنزالًا وخانات أدّت دورًا مهمًّا في عمليّة التجارة الكبرى التي كانت تسلك مسارات القوافل والطرق النهريّة أو البحريّة أيضًا.

وإلى جانب هذه الأنزال والخانات، كانت متاجر البيع بالمفرّق حيث يبيع الحرفيّون نتاجهم الذي يصنعونه بأنفسهم، ويعرض التجّار الصغار السلع المستوردة من الخارج. وكانت هذه المتاجر تتجمّع أحيانًا في أمكنة مغلقة لتكوّن أسواقًا أو بازارات، بحيث أنّ موقعها الطوبوغرافي وأشكالها المعماريّة أثّرت كثيرًا في الشكل العُمْراني للمدن. تعود فرادة هذه الأسواق إلى بعض متطلّبات الإقتصاد ذي النموذج القروسطي، وبحدّ أدنى إلى الأحكام الشرعيّة الخاصة بالإسلام. إنّ شوارع هذه الأحياء التجاريّة كانت في الواقع معدّة لتنظيم التبادل التجاري، بحسب «قانون السوق» المزهو بالأخلاق الإقتصاديّة الإسلاميّة، بين المدينة ومحيطها المباشر أو البعيد الذي يُؤمّن لها المواد الضروريّة لاستهلاكها ونموّها.

وتجاوبًا مع مختلف هذه الوظائف، فإنّ المدن التي نستطيع تتبّع تاريخها على المدى الطويل، في عالم إسلامي متغيّر الأبعاد، قد عرفت تباينًا، أو على العكس تشابهًا، في التنظيم والشكل، يعود إلى عوامل كثيرة. إنّ العوامل الجغرافيّة المشتركة بين البلدان الواقعة في منطقة قاحلة حيث تتباعد المساكن، فرضت على بعض التجمّعات تكيّفًا قاهرًا، من السهل أن تتبيّنه هنا أو هنالك بشكل أو بآخر: هكذا كانت مشكلة التغذية بالمياه في طليعة هذا التكيّف في كل مكان، وقد أُمّنت بواسطة روافد وأقنية كما في دمشق، وبجرّ مياه الينابيع كما في حلب، وباستخدام النواعير كما في حماة، وببناء أقنية ضخمة كما في اسطنبول، وبحفر سراديب على شاكلة «قناة» كما في المدن الإيرانيّة، وبواسطة الأحواض والبرك كما في القيروان، أو من خلال القرب المباشر من الأنهر الكبيرة كما في بغداد والقاهرة. وقد رافق همّ

المياه هذا عند السكان رغبة تهدف إلى الإكثار من سبُل المياه ونقاط توزيعها، في المنازل وعلى طول الشوارع، كما في الحمّامات العامة والخاصة.

أخيرًا تبقى مسألة تأمين المنافذ إلى المدن، وهي من المسائل الأساسيّة، وذلك لأسباب سياسية واستراتيجيّة وتجاريّة أيضًا. من هذا المنطلق، أُقيمت أكبر المجمّعات الإسلاميّة على المفارق الطبيعيّة وعلى مفاصل الطرق. وخير شاهد على ذلك «المدن المؤسَّسة» حديثًا، كبغداد والفسطاط/القاهرة، فهي نموذجيّة في هذا الصدد. لكن بالمقدار ذاته، ينطبق ذلك على المدن التي حافظت، في ظلّ الإسلام، على ازدهارها السابق كدمشق واسطنبول على سبيل المثال؛ أمّا عدم محافظة بعض المجمّعات الأخرى على مكانتها، فيعود سببه إلى موت بعض شبكات المواصلات التي كانت تعتاش منها وإلى هشاشة بعض نماذج التبادل التجاري.

٢- هناك مدن مرفئيّة على البحر الأبيض المتوسط أو على المحيط الهندي ومدن الواحات الرابضة في السهول والجبال، والمدن التجاريّة حيث يتركّز إنتاج مقاطعة غنيّة، والمدن الملاجئ التي تستفيد من عزلتها؛ وثمّة عواصمُ السُّلالات الحاكمة التي كان قدرها في ما بعد نسيانًا لا مفرّ منه، ومدن مقدَّسة ظلّت تتمتّع بشهرتها السالفة. ولدت إذًا المدن في بلاد الإسلام ونمت كما كلّ المدن الأخرى في العالم متأثّرة بميزات تختلف باختلاف طبيعة تأسيسها، إذ إنّها إمّا نشأت طبقًا لمشروع واحد متكامل، وإمّا، على العكس، نمت بفضل تجاور المجمّعات السكنيّة المتعاقبة وضمّها إلى بعضها بعضًا.

بين هذه المدن كلّها، تتفرّد بعض النماذج بحيث لبّى أقدمها ضرورات فتوحات القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد. نجمت هذه الضرورات عن توافد الغزاة الآتين من الجزيرة العربيّة على أثر التوسّع السياسي الكبير. إنّ حاجات هذه الفرق المسلّحة التي ظلّت متراصّة في بادئ الأمر وحاولت التقدّم إلى مناطق معادية لها، توضح لنا ظاهرة ناتجة عن تخضُّر مجموعات لم تتصرف إلّا نادرًا إلى استغلال الأراضي الزراعيّة. إنّ المجمّعات التي بُنيت تلبيةً لحاجة الفاتحين كانت، في بادئ الأمر، مدنًا في هيئة مخيّمات بدائيّة جدًا، لا بل موقّتة. إنّ الأحياء المبنيّة عقبت في ما بعد المآوي الخفيفة والخيم القبليّة المجمّعة لكل عشيرة على حدة. وقد أدّت إلى نشوء مجمّعات ثابتة ونهائيّة، كما في العراق مدينتا البصرة والكوفة، وفي مصر مدينة الفُسطاط، وفي سوريّا مدينة الجابية التي تركها الفاتحون ليستقرّوا في ما بعد في دمشق المدينة الدائمة الازدهار.

بُعيد ذلك، أُنشئت في إيران والمغرب مخيّمات أخرى كمخيّم القيروان في سهل إفريقية الداخلي الذي استمرّ في الازدهار حتّى عصر الزيريّين. لكنّ بعض هذه المخيّمات، بخاصة في المقاطعات الإيرانيّة، لم يتوافر له إلّا وجود عابر وسط الثورات المتكرّرة للشعوب الأصليّة التي لم تُسلِم.

في القرن التالي ظهر، بفعل التعايش الذي لم يستلزم أكثر من نصف قرن ليترسّخ، نموذج المدينة الأمويّة الذي سيشكّل، جزئيًّا، نموذجًا للمدينة العبّاسيّة. وتعود خصائصه العمرانيّة الأكثر تميّزًا إلى ارتباطها بالمدن القديمة التي سبقته وأحيانًا في الموقع نفسه. هكذا حافظت حلب ودمشق واللاذقيّة على بعض آثار المخططات الهلّينستيّة. لكنّ استمرار هذه التقاليد السوريّة السالفة يتجلّى بقوّة في شكل المدن المنشأة آنذاك بأمر من الأسياد الجدد. ومثال ذلك حاضرة عنجر التي هي مدينة أمويّة استعادت طراز مدينة قديمة، تخترقها شوارع معمّدة ومحاطة بمحالٍ تجاريّة. وهذا النموذج من المدن كان قد أهمله العمران الإسلامي في مرحلة سابقة.

بعدئذٍ استُحدثت «مدينة الحكم» لتُصيب رواجًا مديدًا، وقد انمازت بأقطارها عن المدينة الملكيّة، أو المؤسّسة البلاطيّة حصرًا، وقامت ضخامة تصميمها على مخطّط مستوٍ، بشوارعها العريضة المستقيمة التي تحيط بمبانيها الرئيسة، أي قصر وليّ الأمر والمسجد الجامع الملاصق، تحفّ بها أحياء ناشطة ومسكونة. والمثال الأبرز هو بلا شك «المدينة الدائريّة» للخليفة العبّاسي الثاني المنصور. تمّ تأسيس هذه المدينة سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، لتكون مفتوحة على كل الأنشطة التجاريّة

والجزفية المعدّة للانتشار في كلّ المناطق المجاورة، ولأن تجعل من بغداد العاصمة الضخمة للأمبراطورية والمركز السياسي والثقافي والديني والإقتصادي الذي لم يتوقّف، خلال قرون عدّة، عن التوسّع على ضفتيْ نهر دجلة.

ومثلها كانت العاصمة الموقّتة سامرّاء، مدينة الحُكم في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد. وقد ضمّت، إضافة إلى قصور شكّل كل واحد منها مدينة ملكيّة، مجمّعاتٍ امتدّت على طول نهر دجلة، تتابع مسار حياتها الخاصّة بجوار أبنية منظومة الحكّام. إذا غادرنا عراق العبّاسيّين، نجد أن خلفاء السلالة الفاطميّة أسّسوا أيضًا مدينة للحكم في مصر، حملت اسم القاهرة، خلفًا للفسطاط وللمدن الملكيّة التي عقبت المدينة المعسكر هذه. أخيرًا، لم تتوقّف قرطبة الأمراء والخلفاء عن أن تكون مدينة الحكم التي عرفت في عهد الأمويّين في الأندلس ذروة قوّتها، ولا سيّما في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد. كذلك، إثر انحطاط هذه العواصم الضخمة للأمبراطوريّة، وتمزّق العالم الإسلامي نفسه، وُلد نموذج آخر من المدن مختلف على نحو ظاهر عن الحواضر العباسيّة وقريب من المدن المعاصرة التابعة للغرب المسيحي. لم تقتصر نماذجها المتعدّدة على المناطق السوريّة، بل إنّها تكاثرت في سوريّا بنوع خاص خلال القرون الوسطى. هناك قامت مدن مُنغلقة على نفسها داخل أسوارها وبجانب قلاعها العظيمة. ونموذجها الأجمل، إلى جانب قلاع دمشق وحمص وبعلبك وبُصرى، يبقى قلعة حلب المنتصبة حتّى اليوم فوق منحدرها الدائري.

إنّ العناية الشديدة بالدفاعات العسكريّة بسبب الحروب المستمرّة بين الأمراء المتنافسين آنذاك، لم يمنع هذه المدن المحميّة من أن تفرض نفسها مراكز نشاط على صعيدي الثقافة والإقتصاد. ودلالة على ذلك، تضرب مثال التوسّع المتواصل للمساكن والأسواق في ضواحي المدن وتزايد عدد الخانات والفنادق المعدّة للتجّار المسلمين أو الغرباء، وعدد الصروح الدينيّة الثانويّة أيضًا التي تزيّن الأحياء المنظّمة بدورها والمزوّدة بدفاعاتها الخاصة.

وقد فرض واقع الأمر تعديل مخطّط الطرق في اتّجاه تشابك الدروب وفتح شوارع لا منفذ لها مغلقة بأبواب، كما نشاهد ذلك في دمشق حيث تم تحلّ الطريق الضيّقة والمعرّجة مكان الشارع الرئيس المعمّد الذي كان يعبر المدينة سابقًا، بل إنّ مجموعة المنازل القديمة المنتظمة تركت شيئًا فشيئًا المجال لبعض الأبنية الطارئة والعابرة كي تمحو آثار هذا التوزيع القديم. وقد آذن ذلك بظهور عوارض الشيخوخة التي شلّت شيئًا فشيئًا المدن المتألّقة سابقًا، والمتحوّلة إلى «مدن قديمة» (Médinas)، بحسب التسمية التي استُعملت مؤخرًا في المغرب، ولم تتخلّ هذه المدن عن موقعها إلّا تحت تأثير العصرنة اللّاحق.

في الوقت نفسه، وبطريقة معاكسة، عادت فظهرت في بعض الأمكنة من الشرق، كما في المغرب، بمبادرة من الأمير الحاكم، مخطّطات جديدة لمدينة الحُكم العظيمة والبهيّة، المنظّمة حول مدينة أو مدن ملكيّة عدّة بحسب إرادة المؤسّسين، وكان هذا النوع من المدن قد طبع القرون الأولى للإسلام. هكذا نشأت مثلا سلطانية التي أقامها الإيلخانيّ أولجيتو أو مدينة فاس الجديدة التي بناها المرينيّون. بدون أن ننسى المخطّطات الكبرى للمدينة التي حقّقها السعديّون في مرّاكش، والتيموريّون في سمرقند أو هراة، والصفويّون في أصفهان، والمغول في دلهي أو أغرا والعثمانيّون في اسطنبول. هكذا، وفي كل مكان، ظلّت المخطّطات المُدنيّة ذات الشكل الهندسي المنظّم والمزاد عليه في كل مرّة أبنية باذخة، أمينة للمخطّطات التي نُفّذت سابقًا في بغداد أو سامرّاء، والتي كوّنت النماذج الأخيرة للمدينة الأميريّة المعدّلة بحسب رغبات رعانها، وقد بقي العالم الإسلامي يشهد ازدهار هذه النماذج إلى أن جاءت تحوّلات المرحلة المعاصرة.

◄ راجع المستندات ٣٦، ٣٩، ٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥٣. ٥٥ الى ٥٩، ٦٦، ٦٨، ٧١ الى ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٨٨ و٩٠.

مدينة الزهراء ← **الزهراء**.

مدينة السلام ← **بغداد**.

المذاهب الفقهيّة، أنظمة تعني أحياناً مجموعة أعراف

تبلورت مع العصور الأولى للإسلام، كان هدفها تحديد الأصول أو أُسس الشريعة، وكذلك تفصيل شروط تطبيقها.

لقد تطوّرت هذه الأنظمة حتّى تحوّلت أحياناً إلى مدارس فكريّة، استمرّت في التأثير بوضوح على الحياة الاجتماعيّة في البلدان الإسلاميّة، منذ القرون الوسطى حتّى يومنا هذا، وحيث اختار كل بلد إسلامي بشكل تفضيلي ما يناسبه منها. وكان السبب الأساسيّ لنشوئها أنّ القرآن والسُّنّة النبويّة لا يعطيان حلولاً مباشرة للمسائل الواقعيّة التي واجهت الجماعة الإسلاميّة الناشئة، سواء في حياتها اليوميّة أو في تنظيمها السياسي. وهكذا، تلافياً لهذا النقص وتركيزاً لعلم القانون الذي أُطلق عليه اسم الفقه، كان من المفترض إيجاد طرائق تسمح بالتوصّل إلى قرارات تبرّرها مضامين النصوص المتوافرة.

هكذا تكوّنت، حول العلماء، عادات تشريعيّة أخذها عنهم تلاميذهم وأتباعهم. فكان مثلاً في المدينة مالك ابن أُنس المشهور، وأبو حنيفة في الكوفة في العراق، والأوزاعي في سوريا. وقد بدأ هؤلاء العلماء بتطبيق «جهد التفكير» أو الاجتهاد في نهاية الخلافة الأمويّة وبداية العصر العبّاسيّ، ما جعلهم يستحقون لقب المجتهدين. وقد ظهرت في الوقت نفسه فروق شاسعة في النهج الذي سلكه القضاة في تطبيق القانون في المناطق المختلفة، غير أنّ الخليفة العبّاسي المنصور، خلافًا لنصيحة ابن المقفّع، أبى التدخّل في هذا المجال.

كما أنّه في القرن التالي، نتيجةً لهذه الحرية التي تُركت للمشترعين أو الفقهاء في إيضاح خلاصة نتائج أبحاثهم باسم بالاجتهاد، ظهرت مدرستا الشافعي وابن حنبل، إضافة إلى المدارس الثلاث السابقة، وأعداد من المدارس الثانوية التي اختفت مع الزمن. فمنذ القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، كان السنّة يأخذون بأحكام التقاليد المرعيّة للمدارس الشافعيّة والحنبليّة والحنفيّة والمالكيّة وحدها. ففي مصر المماليك، اعتُرف بالمدارس الأربع بشكلٍ متساوٍ، وكان على مشايعي كلٍ منها أن يحتكموا إلى قاضٍ تابع للمدرسة المعنيّة ووفق أحكامها. وقد تعارضت هذه الطريقة في اصدار الأحكام والاعتراف بشرعيّة القرارات المتّخذة من كل من القضاة الأربعة، مع التقليد السابق الذي كان يقضي على منطقة ما باختيار قضاتها جميعهم من مدرسة واحدة. فكانت الأفضليّة في محاكم بغداد، في ظلّ العبّاسيّين، للمدرسة الحنفيّة، وفي مملكة الأيوبيّين للمدرسة الشافعيّة. وهكذا كانت الأحكام تُتخذ وفق المدرسة المنتمي إليها صاحب العلاقة بواسطة قاضٍ تابع لمدرسة أخرى. كما توافرت، منذ زمان بعيد، مصنّفات فقهيّة أظهرت الاختلافات ودرست تفاصيلها في المبدإ والتطبيق، وفاقًا لتقاليد كل مدرسة.

وفي ما بعد، أدّى التطوّر إلى تجانس نشأ بين هذه المدارس - التي كانت في الأصل مقتصرة على حقل الفقه - وبين المدارس الكلاميّة المختلفة التي أخذت في الظهور شيئًا فشيئاً. وهكذا مثّل الحنابلة تيّاراً فكريًا فقهيًّا وكلاميًا في الوقت نفسه، بينما كان الشافعيّون غالبًا على علاقة بالأشعريّة وكان الحنفيّون يميلون إلى مذهب الماتريديّة، أو إلى مذهب المعتزلة. كما ساد في الوسط الشيعي مذهب سمّي جعفريًا، نسبةً الى الإمام جعفر الصادق الذي حدّد أُصوله، والذي كان يتميّز ببعض الخصائص: وجوب الطاعة غير المشروطة للإمام، انتقال الإرث كاملاً إلى الابنة الوحيدة وغير ذلك من تفاصيل.

مَذْحِج (بنو -)، قبيلة في الجزيرة العربيّة قديمًا، سكنت في منطقة اليمن، وقامت بدور مهمّ في الفتوح العربيّة - الإسلاميّة، لا سيّما في مصر.

كان زعماء هذه القبيلة، الذين أقاموا في مدينة الفسطاط أو القاهرة القديمة، قد عبّروا عن استيائهم من الخليفة عثمان بن عفّان، وحاصروه ثمّ قتلوه في المدينة المنوّرة[٩٩]. واتّخذ بنو مذحج، لاحقًا، موقفًا إلى جانب الحركات المعادية للأمويّين، كما أيّدوا ثورة ابن الأشعث، ثمّ ساندوا في اليمن الحركات الزيديّة.

مذهب، مذاهب ← المذاهب الفقهيّة.

المرأة (وضع -)، مسألة طُرحت، منذ القدم، في دار الإسلام، وظلّت مطروحة عبر العصور، وهي، في

أيامنا، تُثير اختلافات في الآراء، ما يوجب تناولها في إطار توجّه تعاقبي من وجهات نظر ثلاث: دينيّة وفقهيّة واجتماعيّة، من دون إغفال النواحي السياسيّة.

١- إنّ المرأة التي تشكّل قسمًا من البشر، في المفهوم الإسلاميّ، تبدو، من الناحية الدينيّة، مخلوقًا ابتدعه الله كالرجل. والمؤمنة شأنها، مبدئيًّا، شأن المؤمن، مدعوّة، كذلك، إلى طاعة الله بحسب أحكام الشريعة، أي إنّ عليها أن تؤدّي الفرائض الطقسيّة والخلقيّة، وفاقًا ما جاء في آيات من القرآن تحدّد الواجبات المفروضة على المسلمين (القرآن، سورة النساء، الآية ١، ثمّ سورة الممتحنة، الآية ١٢): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء، الآية ١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المُمتحنة، الآية ١٢).

إلّا أنّ حال طبيعة المرأة، المميّزة ببعض السّمات الفيزيولوجيّة، والمحظورات التي استتبعتها تلك السمات في البيئة السّاميّة، روعيت للتمييز بين الرجل والمرأة في أداء الفرائض الطقسيّة. فالحضور إلى صلاة يوم الجمعة المفروض على الرجل ليس كذلك بالنسبة إلى النساء اللّواتي، إن حضرن، ينبغي لهنّ أن ينتحين جانبًا. كما أنّ الإحرام بالرداء الخاص لأداء فريضة الحجّ إلى مكّة مقصور على الرجال. أخيرًا، يُحظر على المرأة المعتبرة غير طاهرة خلال فترة الحيض والأيام الأربعين التي تلي الولادة، إقامة الصلاة أو الصّيام، وحتّى تلاوة القرآن.

إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر شرعيّة وحسْب، من دون الدخول في الفوارق التي يفرضها العُرف، على النطاق المحلّي، فإنّ وضع المرأة، حتّى الحرّة، يبقى أقرب ما يكون إلى وضع قاصرة باستمرار: فهي تنتقل من وصاية عائلتها إلى وصاية زوجها، وإن حازت بعض الاستقلال، بخاصة من الناحية الماليّة، عندما تحصل على وضع الزوجة بالزواج المعقود شرعًا، إن هي كانت إمرأةً حرّة. إلّا أنّ هذا الوضع الشرعي لا يخوّلها أن تعارض اتّخاذ زوجها له زوجات أُخريات، لكن يحصر الأمر بثلاث، إذ إنّ الشرع يحدّد ذلك بأربع نساء، كما أنّه لا يُسمح لها بمعارضته إذا اتّخذ لنفسه جواري يتسرّى بهنّ، أو هو قرّر، من طرف واحد، طلاقها، على الفور، حتّى إن كانت الشروط المفروضة للطلاق هي، أحيانًا، صعبة، بحيث تصْرف الرجل عن هذا الأمر، إذ تؤدّي إلى خسارته المهرَ الذي عيّنه للزوجة عند إبرام عقد الزواج. واقع الأمر أنّ الإستقلال الماليّ الذي تتمتّع به المرأة، شرعًا، سواء كانت زوجةً أو مطلّقةً، يخوّلها أن ترث وأن تدبر أملاكها كما تشاء، حتّى إن كان ينطبق عليها، عند الميراث، بحسب الشريعة أو ما جاء في الآية القرآنية ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ (سورة النساء، الآية ١١) حيث لا يشكّل نصيبها منه سوى نصف نصيب الذكر الذي يكون في منزلتها من القربى.

كذلك، ليست المرأة مساويةً للرجل في المجال الشرعي، إذ إنّ شهادة المرأة لا تساوي شهادة الرجل أمام القاضي، بل نصفها. في مقابل ذلك، تخضع المرأة المتزوّجة، في حال الزّنى، للعقوبة التي تنزل بالرجل المتزوّج.

أخيرًا، من الناحية الإجتماعيّة حيث يتجلّى تفوّق الرجل الذي في موقع الحامي، يحدّد وضع المرأة بالعودة إلى التعاليم أو التوصيات القرآنيّة والحديث النبويّ. يُنصح بالزواج، بهذه العبارات ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ (القرآن، سورة النساء، الآية ٣) تؤيدها أحاديث مثل هذا: «من تزوّج حفظ نصف دينه». وهكذا، تغدو النساء اللواتي يتمتّعن بحقوق أزواجهنّ نفسها خاضعات لسلطتهم، فهم أسياد حياتهنّ اليوميّة ولهم الحقّ في أن يؤدّين لهم حقّ الطاعة في سلوك الطريق الذي يرونه قويمًا. وهذا ما تفصح عنه آيتان قرآنيّتان جديرتان بالذكر كاملتين: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (القرآن، سورة البقرة، الآية ٢٢٨).

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾. (القرآن، سورة النساء، الآية ٣٤).

كما يصرّح القرآن بأنّ الزوجة ينبغي أن تظلّ باستمرار في تصرّف زوجها: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القرآن، سورة البقرة، الآية ٢٢٣). كذلك يجب أن يتبادل الزوجان الإخلاص: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (القرآن، سورة الروم، الآية ٢١).

ثمّة آيات قرآنية توصي النساء بلباس الحشمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ (القرآن، سورة الأحزاب، الآية ٥٩).

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ...﴾ (القرآن، سورة النور، الآية ٣١).

استنادًا إلى هذه الآيات، وبحسب مقتضيات الحياة المدنيّة، فرض المسلمون على النساء الحجاب الذي ينبغي أن يغطّي الوجه منهنّ وبذلك فرضوا عليهنّ حياة عزلة. فخُصّص جناح في كل منزل يضمّ شققًا عدّة للزوجة (أو الزوجات) ولحياة الزوج العائلية، وهو جناح لا يُسمح بالدخول إليه إلّا لأقارب النساء. هذا هو الحريم المشتقّ من جذر يعني «دافع، منع»، يُعرف، في التركية، باسم حَرَمْلِك وباسم پُرْده في الهند. وقد شكّل هذا الحريم، الذي قضى باعتماد نظام معماريّ خاص بالمنازل في دار الإسلام، عنصرًا مهمًّا في هندسة القصور التي أُعدّت لسُكنى الخلفاء.

إنّ ارتياد النساء للأماكن العامّة أثار، طوال القرون الوسطى، نقاشات عزّزتها روايات كثيرة. فإذا أخذنا قصص ألف ليلة وليلة في الإعتبار، بان لنا أنّ مغامرات «عاطفيّة» كانت تحدث في حوانيت تجّار الأقمشة، فأدّى ذلك إلى اعتراض العلماء المتشدّدين على هذه العادات، فوصل بهم الأمر إلى القول بضرورة أن تشتري المرأة ثيابها وحلاها بواسطة زوجها، من دون أن تخرج بنفسها للقيام بذلك. وقد اتّخذ أحد الخلفاء الفاطميّين من الشيعة، وهو الحاكم، قرارًا بمنع صناعة أحذية النساء، من منطلق الحرص على الأخلاق، فحرم، بذلك، بعض صانعي الأحذية من زبائنهم. كما منع النساء من زيارة المقابر حيث كانت تجري لقاءات بين الجنسين، بحسب تقليد كان معمولًا به منذ قرون. من الناحية العمليّة، يبدو أنّ النساء من الطبقة العليا لم يكنّ ليخرجن مطلقًا في العصور الوسطى، في حين كانت نساء الطبقات الشعبيّة، والجواري بطبيعة الحال، يرتدن الأسواق.

٢- مثّلت حالات الارتباط عن طريق الزواج، في الحياة السياسيّة القروسطيّة، دورًا دائمًا طوال تاريخ الإسلام، رغم عدم اعتبار القربى عن طريق النساء، أي بالمصاهرة، في مستوى القربى عن طريق الرجال، كما تشهد على ذلك قواعد الوراثة ونقاشات الفقهاء المتعلّقة بالأملاك وشغار التركات. إنّ الأخذ بهذا النوع من المصاهرة يعود إلى عهد نبيّ الإسلام الذي لجأ، على ما يبدو، إلى مدّ وشائج القربى مع بعض الأسر النافذة، بزواجه من نساء عدّة بعد وفاة خديجة. وقد ظهرت نتائج خياراته كذلك في ما بعد، إذ كان أبو بكر أوّل الخلفاء الراشدين والد عائشة زوجة النبيّ محمّد ﷺ المفضّلة. كذلك، كان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني، بدوره، والد إحدى أزواج النبيّ محمّد ﷺ، في حين أنّ عثمان بن عفّان، الخليفة الثالث، عرف بلقبه ذي النورين لأنّه صاهر النبيّ محمّدًا ﷺ مرتين، إذ كان زوج إبنتيه رقيّة ثمّ أمّ كُلثوم. أخيرًا، فإنّ عليًّا، الخليفة الرابع، تزوّج بابنته البكر فاطمة التي طالب أفراد ذرّيتها من العلويّين بسلطة الخلافة على أنّها ميراث تحدّر إليها من أبيها.

مع اعتماد السلطة الوراثيّة في السلالة الواحدة، فقدت وشائج القربى بالمصاهرة بعض أهميّتها، لكنّها لم تفقد دورها نهائيًّا. ففي العهد العبّاسي قام الخليفة المأمون، سعيًا منه إلى إضفاء الشرعيّة على حقوق وليّ العهد العلويّ الذي اختاره، بتزويج ابنته له، وتزويج ابنة أخرى له إلى ابنه؛ إلّا أنّ هذه الأواصر المعقودة لم تعُد بالنفع لأنّ المأمون تخلّى، بعدئذٍ، عن سياسته المؤيدة للعلويين. وفي ما بعد، جرت محاولات مشابهة لإقامة مثل هذه العلاقات بالمصاهرة بين بعض الأمراء والسلاطين من جهة، والخليفة من جهة أخرى، سواء بناء على طلبه، أو ضدّ إرادته. وهكذا عمد الخليفة الطائع إلى اتّخاذ ابنة أمير بويهيّ زوجةً له، تقويةً لموقعه، لكنّ اغتيال هذا الأخير حال دون بلوغ هدفه؛ في حين اضطرّ الخليفة القائم إلى مصاهرة السلطان الجديد الذي جاءت به الحملات التركيّة، طغرل بك السلجوقي، رغم أنّ هذا الطلب بدا له في منتهى الجرأة.

بصورة عامّة، كثيرات كانت النساء، زوجات الحكّام المسلمين، اللواتي استطعن، رغم الحَجْر عليهنّ في سرايات الحريم، ممارسة نفوذ سياسيّ فعْليّ، ولا سيّما خلال فترات انتقال السلطة من عاهل إلى آخر. مثال ذلك الخيزُران الشهيرة، مَحظيّة الخليفة العبّاسيّ المَهْديّ التي غدت زوجة له. فقد توسّلت المؤامرة لإيصال ابنها البكر، الهادي، إلى سُدّة الخلافة، ومن المحتمل أن تكون لجأت، لصعوبة مراسها، لوسائل جُرميّة كي يتيسّر للابن الثاني هارون الرشيد تسنُّم عرش الخلافة، فاضطرّه ذلك إلى اتّخاذ وزير له كان للملكة الأمّ عليه سطوة فعليّة. ووفاقَ هذا النهج عمدت، في ما بعد، الزوجة العربيّة لهارون الرشيد نفسه، وهي زُبيدة التي ضاهتها شهرةً، إلى تسمية ابنها الأمين وريثًا أوّل لأبيه، مع أنّ المأمون كان يفوقه موهبة، وهو ابن محظيّة إيرانيّة، ما أدّى إلى نشوب حرب أهليّة بين الأخوين. وفي مستهلّ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، كان لمحظيّة من أصل يوناني، هي أمّ المقتدر الفتى الذي أُعلن خليفة في العام ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م، دور حاسم خلال سنوات في إطار مجلس الوصاية الذي جرى تأليفه لتوجيه ابنها، إذ لم يكن عمره إلّا ثلاث عشرة سنة لدى تسلّمه السلطة.

أمّا في ظروف أُخرى ميّزت عالم السلاجقة التركيّ الذي اعتنق الإسلام، فكان الزواج بأرملة مليك وسيلة لإضفاء الشرعيّة على سلطة قائد عسكريّ بادر إلى تأسيس حكم سُلاليّ. هذا ما لجأ إليه رأس سلالة البُوريّين الأتابك طُغْتُكين الذي انتزع السلطة في دمشق، إذ تزوّج الأميرة صفوة المُلْك أرملة السلجوقي تُتُش.

ثمّة حالة مشابهة أدّت إلى تأسيس دولة المماليك المصريّة بمبادرة من شجر الدُرّ. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض هؤلاء الأميرات سبق أن تسنّى لهنّ، من دون تدخّل ذكور إلى جانبهنّ، تحمّل مسؤولية الوصاية أو الحكم بجدارة جلبت لهنّ إطراء مدوّني الأحداث المعاصرين لهنّ.

إنّ هذه الكفايات الشخصيّة التي يسّرت السبيل لنساء من عالم الإسلام القروسطيّ، حُزْنَ بعدَ أن كان بعضهنّ من السَّراري في أوّل الأمر، أن ينفذْنَ إلى الأوساط الحاكمة، كما ساعدتهنّ على البروز في المجال الثقافيّ حيث استطاع بعضهنّ استقطاب الاعتراف بكفايتهنّ وحيازة لقب شيخة في مقابل مشيخة الرّجال، بسبب تبحُّرهن في علوم الدين. إلّا أنّ مظاهر النجاح هذه شكّلت استثناء، إذ إن العقليّة السائدة، كما تجلّت في الأمثال العاميّة والشعر، لم تكن دائمًا لمصلحة المرأة. وإذا كانت لم تعمد إلى تقديمهنّ على أنّهنّ أدوات للمتعة والشهوة، فقد نظرت إليهنّ كصورةٍ ونَجلٍ لجمال يؤدّيان إلى ضرر بسبب الأهواء التي يمكن أن تنزعن إليها. هذا هو الموقف الذي تبدّى من مغنّيات العهود الأولى للإسلام اللواتي تجسّدت في شخصيّاتهنّ مظاهر الترف ومغامرات الثقافة المتحوّلة من البداوة إلى مراكز الحضارة، خلال تلك المرحلة.

٣- في العصر الحاضر، أخيرًا، تنامى وعيٌ عميق بالمسائل المطروحة حول دور المرأة ومكانتها في المجتمع، في نطاق المجتمع الإسلامي وبسبب الاحتكاك بالغرب الأوروبي. فمنذ القرن التاسع عشر، كان موضوع المرأة مثار مناقشات كثيرة. في العام ١٨٩٧ صدر لرجل الإصلاح المصريّ قاسم أمين كتاب

بعنوان «تحرير المرأة» دفاعًا عن أُطروحة مفادها أنّ الوضع المتدنّي الذي عرفته المرأة المسلمة عبر العصور لم يكن للدين فيه يدُ، بل كان عائدًا إلى تأويل فقهيّ خاطئ لمعطياتٍ تؤكّد، عكس ما حدث، المساواة بين الجنسين. بناءً على ذلك، أوصى الكاتب بتعليم المرأة وبالسُّفور.

صادفت هذه الدعوة تحوّلًا نحو تعليم المرأة انتشر في بعض النواحي بنجاح. ففي أوائل القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، فتحت مدارس خاصة بالفتيات أبوابها في بعض الأوساط التركيّة العثمانيّة. في المحيط العربي، كان ثمّة مؤسّسة مماثلة أوجدها المرسلون الأميركيّون في بيروت، عام ١٨٣٩، ظلّت يتيمةً لمدّة طويلة. أمّا في مصر فلم تفتح مدرسة ابتدائيّة للبنات أبوابها إلّا في العام ١٨٧٦. ثمّ تبع العراق المسيرة. كذلك فعلت إيران في مطلع القرن العشرين، بينما كان تعليم البنات ينتشر بازدياد في ظلّ الحكم الاستعماريّ. كذلك في الهند، أدّت جهود المجدّدين، أمثال سيّد أحمد خان، إلى فتح مؤسّسات للتعليم العالي تعنى بتدريس النساء المسلمات، منذ بداية القرن العشرين، في عليگره، ودلهي، ثمّ في بومباي، وسواها.

وإذا كان تعليم النساء لاقى رواجًا كبيرًا، فإنّ سائر الأمور المتعلّقة بالمرأة كانت تتطوّر ببطء شديد، إذ ظلّت الجمهوريّة التركيّة هي البلد الوحيد الذي تخلّى، قبل الحرب العالميّة الثانية، عن تطبيق الشريعة فاستبدل بها تشريع علمانيّ، بعد العام ١٩٢٥، يمنع تعدّد الزوجات وارتداء الحجاب ويمنح النساء حقّ الانتخاب بعد وضع دستور العام ١٩٢٤ موضع التنفيذ. في البلدان الأخرى، إذا استثنينا شبه القارّة الهنديّة حيث استطاعت النساء الهنديّات والمسلمات ممارسة الإنتخاب منذ العام ١٩٣٥ والإنخراط في أنشطة أخرى، لم يُعطَ الإذن للنساء إلّا بعد العام ١٩٤٥ للخروج من محابسهنّ ويمارسنَ، منذئذٍ، مهنًا مختلفة، سواء في مجال المشاريع أو في المكاتب، أدّت بهنّ في أحيان كثيرة إلى نمط حياة شبيه بحياة النساء الغربيّات، وإلى التكتّل في جمعيّات حديثة التأسيس وفعّالة في بعض الأحيان. وقد شهدت إيران، بشكل خاص، تطوّرًا سريعًا وبيّنًا، إذ فتحت أبواب الجامعات للنساء في العام ١٩٣٦، ومُنع، بُعيد ذلك، ارتداء الحجاب وتبعه حقّ الاقتراع الممنوح، في العام ١٩٦٣، في حين حدّت قوانين ١٩٦٧ و١٩٧٥ من تعدّد الزوجات وممارسة الطلاق. إلّا أنّ هذه التدابير أُلغيت بعد ثورة ١٩٧٩ وأُقيمت الشريعة، من جديد، كاملةً في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانية الحاليّة حيث صار ارتداء الحجاب إلزاميًّا ومطبّقًا بصرامة.

وإذ يستمرّ هذا النموذج المتطرّف وحيدًا في سائر انحاء العالم الإسلامي، حيث نشهد أنّ وضع المرأة الذي كان لفترة طويلة متغيّرًا وغير مستقرّ ومحكومًا بالمناقضات من منطقة إلى أخرى، وبتناقضات مماثلة داخل المنطقة نفسها، بحسب الأوساط المعنيّة ومتغيّرات السياسية، يستمرّ في التطوّر، حاليًّا، في اتّجاهات متناقضة أحيانًا. وممّا لا شكّ فيه أنّ المكتسبات الكماليّة في تركيا ما تزال ثابتة، رغم بعض ردّات الفعل الشعبيّة، إلّا أنّ هذه الدولة القوميّة والمعلمنة تبقى نموذجًا فريدًا حتّى الآن.

فإذا توغّلنا إلى أبعد من ذلك، نحو المشرق، ألفينا ظروف حياة النساء متناسقة مع الدور الفعّال الذي جَهدْنَ للاضطلاع به في الهند وجنوب شرق آسيا طوال القرن العشرين. وقد بان ذلك في الإتّحاد الهندي بعد التقسيم الذي أصابه في العام ١٩٤٧، وفي الباكستان التي بدورها لم تعمد إلى إيقاف مدّ التقدّم المستمرّ في ما يتعلّق بالإصلاحات الإجتماعية التي طالبت بها الجمعيّة النسائية لكل باكستان، المؤسّسة عام ١٩٥٠. وهكذا، أُضيفت إلى وجوه النجاح النسائيّة في الميدان الأدبي ما أحرزته كثيرات منهنّ، إثر ذلك، في الحياة السياسيّة حيث ناضلْنَ بفعاليّة داخل الأحزاب وتجاوزن ذلك إلى تسلّم مهمّات حكوميّة، بما في ذلك مهمّة رئاسة الوزارة. وممّا لا شك فيه أنّ عادات محليّةً قديمة وقفت وراء ذلك، كما في ما ليزيا وأندونيسيا، إلّا أنّ وضع حال المرأة لم يتعرّض لتعديلات قانونيّة حسّاسة، والظاهر أنّ الأخذ بالحجاب، بحسب التقليد الإسلامي، يسلك سبيل التراجع.

في ما يتعلّق بالبلدان العربيّة، تبقى المملكة العربيّة السعوديّة الدولة الوحيدة التي حافظت على أحكام

الشريعة والأعراف الملازمة لها حيث يجري الفصل بين الجنسين، في مجال الحياة العامّة، (جامعات خاصة بالفتيات، حظر قيادة السيارات على النساء)، رغم حصول إصلاحات طفيفة، كمثل إلغاء «حق الإلزام» الذي يُجيز للأب تزويج إبنته بمن يشاء، وقد بُرّر هذا الإلغاء بأن الحقّ المشار إليه مرتبط بعادة محليّة. في البلدان الأخرى، ليس ثمّة إشارة رسميّة إلى الشريعة. إلّا أنّ ارتداء الحجاب الذي جرى التخلّي عنه تدريجًا، بشكل عام، وبخاصة في الأوساط المتطوّرة منذ الخمسينات للقرن العشرين، عاد إلى الظهور بتأثير من الحركات المعروفة بالإسلاميّة. من جهة أخرى لم تُسفر الجهود المبذولة لإلغاء تعدّد الزوجات عن نجاح إلّا في تونس، واستمرّت القواعد الفقهيّة القديمة على حالها في كل البلدان، إلّا في ما ندر، حتّى إن لم تطبَّق بعض العادات، وبخاصة ما يتعلّق منها بجزاء الزنا. واقع الأمر أنّ الدور المتاح أحيانًا للنساء في الحياة السياسيّة يتجانس مع أهميّتهن الجديدة في الحياة الإقتصادية - في إطار ما يتوافر لبعضهنّ من كسب معاشهنّ بأنفسهنّ - ويمكن أن يساعدهنّ على تحقيق تقدّم في مجال وضعهنّ الذي يبدو حتّى الآن متقدّمًا صوريًا، أكثر من تقدّمه واقعيًّا.

مرابط، إسم يطلَق حاليًّا في المغرب وأفريقيا الغربيّة على رؤساء الطرائق الذين كانوا، في ما مضى، يجمعون أتباعهم في أمكنة أُطلق عليها اسم «رباط» و«زاوية» في ما بعد.

استُخدم مصطلح «مرابط» في القرون الوسطى الإسلاميّة للإشارة إلى المقاتلين المقيمين على التخوم في حصون الجهاد، والمتفرّغين، في الوقت نفسه، للممارسات التقويّة. من هنا أتت التسمية التي حملتها سلالة المرابطين. وأطلق هذا المصطلح في ما بعد حصرًا على كل زعيم ديني يلعب دورًا سياسيًّا وعسكريًّا ضمن نطاق الجهاد. وغالبًا ما كان المرابط شخصيّة تقيّة تُلتمس بركتُها في حياتها وبعد موتها. وهكذا عُمّم استعمال المصطلح للإشارة، بخاصّةٍ في المغرب، الى المقامات الصغيرة المحليّة التي كانت موضع زيارات تقويّة والتي حملت أيضًا اسم «قبب» بسبب هندستها المعمارية، أو أسماء أولياء أو أنبياء في حال تضمّنت أضرحة هؤلاء، كما يمكن أن تتضمّن قبورًا لمقاتلين ولصوفيّين.

المرابطون (٤٤٨-٥٤٢هـ/١٠٥٦-١١٤٧م)، إسم أسرة مالكة بربريّة من قبيلة لمتونة، بسطت سلطتها على المغرب الأقصى والأندلس، وأقامت حضارة متقدّمة قبل أن تترك المكان للموحّدين.

ينتمي المؤسّسون الأوائل لهذه الدولة القويّة إلى مجموعة بدويّة - لم تتقبل الاسلام في البداية بشكل صحيح - كانت تجوب المناطق على الحدود الصحراويّة بين الجنوب الغربي المراكشي وبلدان نهر النيجر. وقد أسّست، في مطلع القرن الخامس للهجرة/مطلع القرن الحادي عشر للميلاد، تجمّعًا دينيًا ناشطًا بعد تقبّل التعاليم من فقيه يُعرف باسم عبدالله بن ياسين. وكان هذا الأخير قد جمع أهمّ أتباعه في رباط صحراوي، ودعاهم باسم الجهاد وصلابة موقفهم الديني إلى محاربة السود. وحاول الكثيرون تحديد مكان هذا الرباط، فجعله بعض المؤرّخين الحديثين في إحدى جزر السنغال. ويبدو أنّ اسم المرابطين لا يشير في الأرجح إلى بناء معيّن، بل إلى نشاط المحاربين الذين كان على رأسهم المدعو يحيى، فكان هذا الأخير صاحب النفوذ الحربي إلى جانب الرئيس الديني عبدالله.

كان المرابطون يسيطرون على طرق القوافل غربي الصحراء، فحرّكتهم روح الجهاد واحتلّوا سلجماسة سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م، ثمّ ضمّوا إليهم منطقة السوس. وعلى الرغم من الصعوبات المتنوّعة، أكملوا توسّعهم نحو الشمال، بدءًا من سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م، بقيادة أبي بكر اللمتوني أوّلًا، ثمّ بقيادة إبن أخيه يوسف بن تاشفين الذي اتّخذ من مراكش عاصمة له، وكانت قد بُنيت حديثًا، وفيها جمع الثروات التي حصل عليها من الفتوحات والغزوات المتنوّعة.

والواقع أنّ الإنتصارات السياسيّة والحربيّة التي حقّقها هذا القائد المرابط الكبير جعلت المغرب الأقصى يسرع إلى تقديم الخضوع له، ثمّ المغرب الأوسط. وقد نزل بلاد الأندلس وأوقف زحف الجيوش الإسبانيّة وسحقها في معركة الزلّاقة سنة ٤٩٩هـ/١١٠٦هـ. وبعد

ذلك بوقت قصير، بسط نفوذه على بلاد الأندلس بعدما قضى بقوّة السلاح على ملوك الطوائف. وفي أواخر القرن السادس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، كانت تسيطر على بلاد الأندلس وأفريقيا الشمالية الغربيّة أمبراطوريّة مرابطيّة سنّيّة ينظّم حياتها السياسيّة والدينيّة أسيادها البربر، ولكنّها ظلّت وفيّة لما اكتسبوه سابقًا من المجتمع الاسلامي المالكي، وانطبعت بإرث حضاريّ إسباني مغربي متطوّر. وقد قبلت الدولة الجديدة الاعتراف بسلطة خليفة بغداد الدينيّة والمعنويّة، من دون أن يكون له نفوذ فعلي في الداخل حيث ظلّت بعض المناطق تشكو من اضطرابات أمنيّة. مقابل ذلك أهمل المرابطون مراقبة المناطق الصحراويّة التي منها انطلقت قوّتهم، فانتقل النفوذ هناك إلى فرع آخر من الأسرة نفسها التي أسّسها أبو بكر اللمتوني.

إن الثروة التي بلغتها الأمبراطوريّة المرابطيّة، والإزدهار الاقتصادي الذي عرفته، والعظمة التي تمتّعت بها، كل ذلك ترافق مع علامات واضحة للتفكّك شهدته الأمبراطوريّة في النصف الأوّل للقرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، في أثناء حكم علي بن يوسف. ونهضة الحضارة الأندلسيّة التي برزت معالمها من على جهتي المضيق، والتي تركت آثارها الباقية في الحقول الفكريّة والفنيّة، في مراكش وقرطبة معًا، بدأت في الواقع تشهد انحسارًا بسبب التصادم بين العادات المرهفة المتّبعة في الأوساط القريبة من البلاط، والتشدّد في تطبيق تعاليم الدين الذي فرضه المذهب المالكي المسيطر على المجتمع.

على أثر ذلك بدأ الاضطراب الداخلي ينتشر، وساعد على قيامه ظهور المصلح المهدي ابن تومرت. كما بدأت الجيوش المرابطيّة في الأندلس تضعف مع حلول سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، وبات الأمراء الأندلسيّون يجدون صعوبة في تحمّل وصاية البربر الذين قدموا للدفاع عنهم ولإخضاعهم معًا. وجاء موت علي بن يوسف سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م فوضع حدًّا للتوازن القائم. وقد سقطت مدينة مراكش سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م في أيدي الموحّدين وانتهى بذلك عهد المرابطين.

ولا تزال في المغرب آثار تذكّر بحضارة مزدهرة تأثّرت بالآداب والفنون الأندلسيّة وبأعمال الفقهاء والعلماء الذين عبروا المضيق ووفدوا إلى المغرب. الى هذه الحضارة تنتسب الأعمال الهندسيّة والزخارف التي ازدانت بها المساجد الجامعة في الجزائر وتلمسان والتي نجدها في بقايا تزيينات قبّة مسجد مراكش، كما في الزيادات التي أضفت سعةً وجمالًا على مسجد القرويّين في فاس. هذه الأعمال التي حوفظ عليها جزئيًّا كانت بتأثير أندلسي مباشر، وهي تشهد على ما بلغه الفنّ من ذوق رفيع، وعلى الانتشار الذي عرفه، إذ إنّه عمّ المناطق المغربيّة حتّى البعيدة منها. وهذا ما سوف يتبدّل على أيدي الموحّدين الذين حلّوا مكان المرابطين.

يحيى بن ابراهيم الجُدالي	
يحيى بن عمر اللمتوني	
ابو بكر بن عمر اللمتوني	٤٤٨-٤٥٣هـ/١٠٥٦-١٠٦١م
يوسف بن تاشفين	٤٥٣-٥٠٠هـ/١٠٦١-١١٠٦م
علي بن يوسف	٥٠٠-٥٣٧هـ/١١٠٦-١١٤٢م
تاشفين	٥٣٧-٥٤١هـ/١١٤٢-١١٤٦م
ابراهيم	٥٤١هـ/١١٤٦م
إسحق	٥٤١-٥٤٢هـ/١١٤٦-١١٤٧م

◄ راجع المستندين ١٤ و٦٧.

مُرات أو مراد، اسم غامض الأصل، ربما استعملته بعض الأوساط المتصوّفة في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، حمله خمسة من سلاطين العثمانيّين ولا سيّما مؤسّس الأمبراطوريّة الحقيقي.

مُرات (مراد) الأوّل هدافنديغار أو «السيد»، ٧٢٦-٧٩١هـ/١٣٢٦-١٣٨٩م، ثالث ملك في دولة العثمانيّين وفي الوقت عينه أوّل سلطان لها، حكم من ٧٦٣ إلى ٧٩١هـ/١٣٦٢ الى ١٣٨٩م. وكان فاتحًا عظيمًا استطاع أن يعطي الإمارة التي أسّسها عثمان حجم دولة بفضل الأراضي التي تمكّن من احتلالها في أوروبا.

إبن أورخان والأميرة البيزنطيّة نيلوفر (Nilüfer)، كان مُرات حاكم بورصة عندما توفّي والده. وعندما أصبح «بيكًا» على إمارته الصغيرة تميّز بأهميّة عمليّاته العسكريّة في البلقان، لا يزال الغموض يُحيط بتسلسلها الزمني. استولى في مرحلة أولى على تراقيا الغربيّة وعلى جزء من بلغاريا؛ وفي العام ٧٦٧هـ/١٣٦٦م، نقل

عاصمته من بورسه إلى أدْرنة. أمّا المرحلة الثانية فتتزامن مع احتلال مقدونيا. وفي مرحلة ثالثة، اهتمّ بتوسيع فتوحاته، ولكنّه قُتل في معركة كوسوفو. وبموازاة ذلك كان مُرات قد أطلق حملة في الأناضول ضدّ مدينة توقات مكّنته من تثبيت احتلاله لأنقرة، وحصل على جزء من أراضي الكرمياتيّين عن طريق زواج ابنه، وحقّق انتصارًا في العام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م على القرامانيّين الأقوياء.

تمثّلت نجاحاته في مجموعة ألقابه الجديدة عندما تخلّى عن لقب «بيك» الذي ورثه عن أبيه واستعاض عنه بلقب «ملك» و«خاقان» و«سلطان». كما استعان بمستشار لا ندري اذا كان قد حمل لقب الصدر الأعظم، لكنّه مارس صلاحياته، ونُسب إليه إنشاء فيلق الإنكشاريّة المؤلّف من سجناء حرب (وفقًا للتقليد القاضي باقتطاع خمس الغنيمة لمصلحة الملك). وعمل أيضًا على تنظيم فتوحاته الأوروبيّة بإنشاء ولاية الروملّي التي وضعها تحت سلطة «بيلرباي» والتي خُصّصت فيها إقطاعات لضبّاط مسلمين، وأيضًا لإقطاعيّين مسيحيّين. وكانت أخيرًا أنشطته العمرانيّة بمستوى إنجازاته السياسيّة، فترك الكثير من المؤسّسات الدينيّة، ولا سيّما تلك التي ما تزال تتمتّع، في الوقت الحاضر، بشهرة كبيرة، ومنها بناء «نيلوفر خاتون» في إزنيق ومسجد «هدافنديغار» في بلوفديف في بلغاريا، وبخاصة مسجد شيكرجي بالقرب من بورسة.

مُرات (مراد) الثاني، ٨٠٦-٨٥٥هـ/١٤٠٣-١٤٥١م، السلطان الخامس الذي حكم من ١٤٢١ إلى ١٤٤٤م ومن ١٤٤٦ إلى ١٤٥١م، أعاد إلى الأمبراطوريّة مظهرها السابق لغزوات تيمورلنك وأعطى بلاطه دفعًا حاسمًا باتّجاه انطلاق الحياة الصوفيّة والأدبيّة.

بعد أن تمّت مبايعته في أدرنة، بعد بضعة أيام من وفاة والده محمت (محمّد) الأوّل شلبي، اضطرّ هذا السلطان إلى قيادة حملات متعدّدة في أوروبا. وفرض الحصار من ثمّ على القسطنطينيّة في العام ١٤٢٢م، لكنّه تخلّى عن محاولته وعقد صلحًا في العام ١٤٢٤م مع الأمبراطور الجديد يوحنا باليولُوغ (Paléologue). وبعد أن احتلّ سالونيك، عقد الصلح أيضًا مع البندقيّة. لكن بالمقابل، لم يتمّ التقيّد بالمعاهدة التي كان قد وقّعها مع المجر في العام ١٤٤٤م، واضطرّ مُرات، بعد أن كان قد تنحّى لمصلحة إبنه الصغير السنّ، للعودة إلى إدارة العمليّات في العام ١٤٤٦م، وليحكم بنفسه حتّى وفاته بعد خمس سنوات. وكان قد نجح، من جهة أُخرى، في الإبقاء على علاقات سلميّة مع الأمراء الخاضعين له، ولا سيّما أمير صربيا في أوروبا وأمير سينوب في الأناضول.

حكم مُرات بمساعدة وزراء من الأُسر القديمة المنتمية إلى المحيط العثماني، وتأثّر بشيوخ متصوّفين من أصل شرقيّ، وطوّر بلاطه ليجعل منه مركزًا للأنشطة الفكريّة والدينيّة ومنطلقًا للعلوم الإسلاميّة التي شكّلت أساسًا لتطوّر الأدب العثماني الكلاسيكي. كما ساهمت رعايته الناشطة في مجال الهندسة المعماريّة والفنون في تغيير التنظيم المُدني لعاصمته أدرنة حيث برزت مؤسّسات سلطانيّة رائعة، مثل مسجد «المراديّة» وخصوصًا مسجد «أوش شرفَلي» اللذين يُعتبران ابتكارًا رائعًا بالنسبة الى الإنجازات العثمانيّة السابقة، وقد لمعا بين المساجد الصغيرة الأخرى العديدة التي شيّدها أعيان من المحيط الملكي. لكنّ هذه الحركة العمرانيّة الاستثنائيّة، التي تميّز بها المقرّ الملكي الرئيسي، لم تمنع مدينة بُورْصَه بدورها من تشييد مسجد المراديّة، وهو آخر عمل سلطاني شهدته المدينة.

مُرات (مراد) الثالث، ١٥٤٦-١٥٩٥م، السلطان الحادي عشر الذي حكم من ١٥٧٤ الى ١٥٩٥م، من دون أن يتمكّن من التصدّي لبداية انحطاط السلطنة العثمانيّة التي كانت قد بلغت ذروتها، قبل بضع سنوات، في عهد سليمان القانونيّ.

إبن سليم الثاني من محظيّة من أصل بندقي، حكم مُرات الثالث، في أوائل عهده، بمساعدة رئيس وزراء والده سوكوللو محمّد باشا الذي كان قد سهّل وصوله إلى الحكم، لكنّه خضع أيضًا لتأثير والدته، وفي ما بعد لتأثير زوجته المفضّلة. أبعد مناصري سوكوللو الذي اغتيل في العام ١٥٧٩، وكلّف في ما بعد، على التوالي، حوالى عشر شخصيّات بالصدارة العظمى. وهكذا طبعت مؤامرات عديدة عهده الذي شهد، من ١٥٧٧ الى ١٥٩٠م، نزاعًا مع إيران الصفويّة انتهى

بمعاهدة مُنح بموجبها العثمانيون أراض مهمّة في جورجيا وفي منطقة تبريز ؛ كما شهد في العام ١٥٩٣م نشوب حرب طويلة بين السلطان وسلالة الهابسبورغ. لكن من جهة أخرى كان مُرات الثالث مثقفًا، تميّز بحبّه للشعر والتصوّف وعلم الكلام والعلوم الباطنية، وأكرم العديد من الكتّاب والعلماء واهتمّ بالأعمال العمرانيّة، فشيّد مسجد المراديّة في مانيسا وأشرف على تزيين قصر توب كابي سراي في اسطنبول.

مُرات (مراد) الرابع، ١٦١٢ - ١٦٤٠م، السلطان السابع عشر والإبن الخامس للسلطان أحمت (أحمد) الأوّل، حكم من ١٦٢٣ الى ١٦٤٠م، وكان آخر السلاطين المحاربين في السلالة العثمانيّة.

بعد أن تمكّن بصعوبة، ما بين ١٦٢٣ و١٦٣٢م، من فرض سلطته على عرش اعتلاه شابًا بعد خلع عثمان الثاني وإعدامه، مارس مُرات الرابع قمعًا عنيفًا ضدّ المعارضين كافّة وجابه أعداء الأمبراطوريّة بحزم. قادته حملاته ضد الصفويّين في إيران إلى يريڤان في أرمينيا، وإلى بغداد التي استعادها في العام ١٦٣٨م وعمل على قتل الشيعة فيها كافة. ولكن علاقاته مع النمسا ومع البندقيّة ظلّت سلميّة بالرغم من بعض الصعوبات، وأقدم، في العام ١٦٢٤م، على تجديد عهد الأمان المعروف بـ«الامتيازات». ونجح هكذا في المحافظة على وحدة الأمبراطوريّة. اتّسمت سمعتُه بالوحشيّة، لكنّه كان أيضًا رجلًا مثقّفًا، شجّع أعمال أوليا شلبي وأقام في قصر توب كابي سراي في اسطنبول أكشاكًا في غاية الأناقة، أُطلق عليها اسم أكشاك يريڤان وبغداد.

مراد ← مرات.

مَراغة (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة كانت عاصمة لمقاطعة أذربيجان ضمن الخلافة العباسيّة وأصبحت، في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إحدى عواصم السلالة الإيلخانيّة.

تقع هذه المدينة على ارتفاع ١٤٠٠ متر، على منحدر سلسلة جبلية تفصلها عن تبريز، بالقرب من بحيرة أُرميا حيث يصبّ مجرى النهر الذي يروي واديها. احتلّت القوّات العربيّة - الإسلاميّة هذه المدينة خلال الفتوحات الكبرى وتمّ اختيارها مقرًا للحكّام. وزُوّدت بأسوار في عهد هارون الرشيد والمأمون، غير أنّها دُمّرت مرّات عدّة. وعانت بعد ذلك، إبتداء من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، جرّاء الاضطرابات العنيفة التي هزّت أذربيجان بعد احتلالها من قبل الأتراك، وضمّها إلى أمبراطوريّة السلاجقة الكبار، ثمّ سقطت بدورها في أيدي سلالة من الأتابك (لا نعرف إلّا القليل عن تاريخهم)، هي سلالة «أولاد إيلدكز». ولم تستعد أهميتها إلا بعد اجتياح المغول الذين استولوا عليها في العام ٥٢٥هـ/ ١٢٣١م، وأعجبوا بالمراعي المجاورة لها. كما استقرّ فيها، في العام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، هولاكو، مؤسّس السلالة الإيلخانيّة، وشيّد المرصد الشهير الذي عمل فيه العالم الفلكي نصير الدين الطوسي والذي ما زالت بقاياه ظاهرة حتّى اليوم.

من الحقبة التي سبقت الحكم المغولي مباشرةً، بقيت آثار الأضرحة الضخمة المبنيّة بالآجر والمزخرفة بالخزف وحدها، وكانت شُيّدت في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وإنّ أهمّها يحمل اسم «جنبادي سورخ» أو القبر الأحمر، و«جنبادي كابود» أو القبر الأزرق. وتشهد نوعيّة هذه الأعمال الهندسيّة النادرة المتبقّية، على التألّق الثقافي الذي تميّزت به مراغة آنذاك. كما أنّها تميّزت بالتألّق نفسه في ما بعد، في عهد الايلخانيّين، حيث شكّلت مركزًا فكريًا بارزًا بالنسبة الى المسيحيّين، إذ كتب فيها ابن العبري مثلًا تاريخه العالمي. غير أنّ الاضطهادات التي تعرّضت لها في عهد غازان في العام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م ساهمت في تغيير طبيعة سكّان المدينة التي يسكنها حاليًا أكراد أقاموا في المنطقة منذ زمن طويل، إضافةً إلى مسلمين من السنّة والشيعة الناطقين بالتركيّة. وفي الوقت نفسه، لم تكُفّ المدينة عن التراجع بالرغم من احتفاظها بصناعة فنيّة من الآجر الملبّس بالخزف الملوّن، وذلك حتّى بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، عندما شُيّد فيها الضريح الجميل الذي أُطلق عليه اسم «جنبادي غفاريّة». غير أنّ الصراعات بين السلالات التركمانيّة، والاحتلال العثماني، والحملات الايرانيّة، كحملة نادر شاه، والحروب الروسيّة - التركيّة، سرّعت في القضاء

على هذه المدينة التي أصبحت خربة، بالرغم من استعادة حيويّتها في القرن العشرين، إلّا أنّها تخلّت بعد ذلك عن مركزها الأوّل وعن لقب عاصمة المقاطعة لمصلحة أورميا.

◄ راجع المستندين ١٧ و٢٣.

المرافئ والمدن المرفئيّة الإسلاميّة، مواقع ازدهرت في العالم الإسلامي القروسطي بازدهار الملاحة والنمو المحلّي للأساطيل البحريّة المتنوّعة.

هذه المرافئ التي كان لها دور ناشط في العلاقات التجاريّة أو الحربيّة آنذاك وتشابهت في إيوائها مسلمين أكثر تنوّعًا وتنقّلًا من سواهم ساعدت في كثير من الأحيان، في انتشار الإسلام. لكن لم يكن لها طابع إسلامي شبه نموذجي أكثر من الذي توافر للمدن الأخرى التي تسمّى مدنًا إسلاميّة، رغم أنّ طرازها المعماري عكس بعض الخصائص الإجتماعيّة الدّالة على ذلك والمتجلّية في منح الأولويّة للمساجد أو المباني الإسلاميّة النموذجيّة.

كانت الظروف المتبدّلة وفقًا للتحوّلات التي شهدها الساحل والمتطلّبات التقنيّة التي فرضتها السفن المستخدمة، وراء ظهور هذه التجمّعات المميّزة الطابع أو زوالها، كما وراء نموّها أو انحطاطها. وكانت هذه المرافئ تشكّل تارة نقاط توقّف وتارة أخرى قواعد دائمة مزوّدةً أحيانًا بالترسانات وخاضعة، مثل سائر المدن، للتقلّبات الإقتصاديّة والسياسيّة. كان عددها لفترة طويلة مرتبطًا بازدهار المبادلات التي تؤدّي إلى أنشطة حِرفيّة، على الرغم من صغر تلك المنشآت وسمتها الموقّتة البيّنة من الآثار المتبقّية، سواء كانت المرافئ تجاريّة تتطلّب نظام حماية، أو كانت مواقع عسكريّة تحوّلها تحصيناتها إلى حروز إستراتيجيّة وملاجئ للأساطيل الحربيّة، وكذلك إلى مراكز قرصنة ومستودعات تُغنيها الغنائم.

في بداية الإسلام، عرفت هذه المرافئ الموروثة عن الحضارات السابقة مصيرًا جديدًا وتمكّنت من الإستمرار، رغم الأهميّة التي حظيت بها طرقات القوافل البرّيّة، جرّاء الامتداد الأسيوي والأفريقي للأمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى. في الواقع، إنّ أمبراطوريّة القرون الأولى التي امتدّت سريعًا إلى ثلاث قارات، تربط في ما بينها طرقات معتمدة منذ العصور القديمة، كانت محاطة بالبحار والمحيطات التي تدخل أحيانًا إلى عمقها، وبالأنهر الكبيرة التي كانت، أحيانًا، تشكّل امتدادًا لمداخلها المُشرعة. وكان لها بحّارة مجرّبون سبق لأسلافهم أن جابوا البحر المتوسط أو المحيط الهندي، فيما جرى احتلال مواقع ملائمة على الشواطئ أو على ضفاف الأنهر مثل النيل ودجلة والفرات والهندوس، ما ساعد أنظمة النقل البحري والنهري على إكمال التواصل مع الأراضي النائية. شكّلت هذه المسارات الكبرى لتنقّل الناس والبضاعة بالسفن والقوافل شبكةً مهمّة في أوائل العصرين الأموي والعبّاسي، وتطوّرت في ما بعد وفق المتطلّبات الخاصة بكل عصر.

من بين المسالك البحرية التي كانت تصل سواحل أفريقيا الشرقيّة وجزرها بالهند أو بالشرق الأقصى، استمرّت طرقات المحيط الهندي - لفترة طويلة امتدّت إلى القرن السادس عشر وحتّى القرن التاسع عشر بعد السيطرة الأوروبية على بعض أرباحها - في تغذية ثروة مدن مرفئية متعدّدة. إنّ حركتها لم تؤدِّ إلى نشوء المدن المتتالية التي نمت في عصور مختلفة على شواطئ الخليج العربي - الفارسي والبحر الأحمر، مثل البصرة ثمّ الكويت وسيراف والبحرين وجلفار وهرمز/بندر عبّاس ومسقط وعدن ومُخا وجدّة أو عيذاب وحسْب، بل أدّت أيضًا إلى إنشاء مراكز تجاريّة نائية استُخدمت مراسي مرحليّة، بخاصة في مناطق غير اسلاميّة، وانتظم سكّانها، وقد تمّ تنظيمها على شكل جماعات إسلاميّة تحوّلت، في كثير من الأحيان، إلى دول. تلك كانت حال المراسي الواقعة على شواطئ كينيا والسند والدكّن أو على شواطئ ماليزيا وإندونيسيا والصين الجنوبيّة. وقد شكّلت رؤوس جسور حيّة للإسلام، وفي الوقت عينه مستودعات تستقبل حمولات السفن وتتكفّل بأمن البحّارة وأصحاب السفن.

في مقابل هذه الموانئ النائية والشهيرة التي تعاقبت أو انتقلت غالبًا إلى أمكنة أخرى بسبب كوارث طبيعيّة وفيضانات أو غرق بالوحول، وكذلك بسبب

تبدّلات سياسيّة داخل بلدانها أو تقلّبات اقتصاديّة نتيجة مزاحمة النقل البري، كان هناك في الجهة الثانية لبرزخ السويس، عدد من المرافئ الإسلاميّة على البحر المتوسط شهدت هي أيضًا تاريخًا مضطربًا. هذه الأماكن التي كانت تنتشر منذ العصور القديمة على شواطئ صعبة المقاربة أحيانًا، عرفت مصيرًا سيّئًا، أو على العكس زاهرًا، بفعل المواجهات الحربيّة التي كان لها تأثير مباشر على حركتها العمرانيّة. في بداية القرون الوسطى، رغم الانتصارات الإسلاميّة التي تحقّقت في قبرص منذ العام ٢٦هـ/٦٤٧م والتي استمرّت حتّى الإحتلال الإسلامي لصقلّية وكريت في بداية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، عرفت مرافئ الحوض الشرقي نوعًا من الجمود، إذ إنّ هذا القطاع البحري بقي، لمدّة طويلة، بالنسبة الى الإسلام، نقطة صراعات وخصومات مع البيزنطيّين. فهؤلاء لم ينفكّوا لفترة طويلة عن تهديد الساحلين السوري والمصري مخرّبين جزئيًّا، بسبب حالة اللاّأمن، المنشآت البحريّة التي ساهمت من قبل في إثراء مدن شهيرة كالإسكندريّة أو أنطاكية التي كانت تعتمد على مرفإها المعروف بمرفإ سَلوقية. وحدها تعزّزت الأسوار الدفاعيّة وترسانات المواقع المحصّنة عسكريًّا، مثل عكّا، وبخاصة صور. فقد اختار الخلفاء الأمويّون الأوائل هاتين المدينتين لكي يدعموا، في بداية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، سياستهم البحريّة الهجوميّة، وقد أصبحتا قاعدتين للأساطيل الحربيّة في عهد الخليفة العبّاسي المتوكّل في منتصف القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، وفي عهد ابن طولون حاكم مصر شبه المستقلّ بعد بضع سنوات.

في هذا الوقت كانت مرافئ إسلاميّة أخرى، واقعة غربي البحر المتوسط وأقلّ تعرّضًا للهجمات البيزنطيّة منذ أن احتلّ الأغالبة صقلّية، تصيب نصيبًا من التطوّر يسّر لها اعتماد سياسة بحريّة هجوميّة كان لها انعكاساتها خارج العالم الإسلامي وداخله. ونشبت معارك بحريّة وبريّة في آن بين دولة الأغالبة، وفي ما بعد بين الدولتين الفاطميّة والزيريّة في إفريقية وبين الدولة الأمويّة في الأندلس التي نشأت على أرض أصبحت هي بدورها مقرّ خلافة مستقلّة، قبل أن تُستبدَل بالخلافة إمارات الطوائف. إنّ حالة العداء التي نشأت بين مجموعتين متخاصمتين من القوى الإسلاميّة كانت تتنافس أيضًا فوق أرض المغرب بواسطة القبائل البربريّة، ساعدت لفترة في التطوّر العسكري لعدد من المدن المرفئيّة مثل بجاية وسوس والمهديّة التي نشأت على الشاطئ الحالي لتونس، تؤمّن لها الحماية سلسلة من الرباطات، في حين كانت تتعزّز على الواجهة المتوسطيّة لشبه الجزيرة الإيبريّة بلنسيا ومالقة والجزيرة [الخضراء] وفي ما بعد ترسانة المريّة أو دانية ومراسي جزر الباليار. وهكذا نشأت، على امتداد الشاطئ الذي لم تغب عنه الأنشطة المحليّة وصيد الأسماك، سلسلة من الأحواض المتقنة البناء والمحميّة، لتحلّ محلّ المرافئ العاديّة حيث كان البحّارة من قَبْل يكتفون بسحب السفن الخفيفة الحمولة إلى رمال الشاطئ.

أخذت هذه المرافئ تستقبل شيئًا فشيئًا سفنًا أجنبية يفوق عددها السفن الإسلاميّة، تمتلكها، بوجه خاص، مدن تجاريّة إيطاليّة، وقد أصبحت هذه السفن تؤمّن، منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، القسم الأكبر من الحركة التجاريّة في البحر المتوسط، من الأندلس والمغرب في اتّجاه سوريا ومصر، ومنذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، في اتّجاه الأناضول، لنقل البضاعة الموزّعة بين أنطاليا أو علانيا في الجنوب وسينوب أو سمسون في الشمال، وفي ما بعد شواطئ البلقان والموره. بذلك كان يتمّ نقل مواد استهلاكيّة متنوّعة إلى البلدان الإسلاميّة، ومواد دخيلة آتية من المحيط الهندي يتمّ إنزالها إلى البرّ، ثمّ يعاد شحنها بحرًا إلى أوروبا القرون الوسطى.

وهكذا أصبح الشاطئ الإسلامي الشرقي غنيًّا بالمدن التي سُمّيت «أساكل» (Echelles) أي مدارج المشرق، عندما استقرّ فيها، لمقتضيات التجارة، سكّان مسيحيّون من أصل أوروبي، يحميهم تطبيق مبدأ الأمان، واعترفت الدولة العثمانيّة رسميًّا بشرعيّة وجودهم بموجب عهود الأمان التي عُرفت لاحقًا باسم «الإمتيازات». أشهر هذه المرافئ، بدءًا بكافا/ فيودوسيا وصولاً إلى تريبيزوند/ طرابزون، واسطنبول وبيرا، وازمير وبيروت وعكا، أو

الإسكندرية، عرفت ازدهارًا كبيرًا قبل أن تُهْجَر أرصفتها نتيجة المزاحمة الأوروبيّة أو الاضطرابات الاقتصاديّة والسياسيّة في القرن التاسع عشر. في غضون ذلك، حدثت صراعات حول السيطرة البحريّة على أثر التبدّلات السياسيّة في الحوض الغربي للمتوسط، مع استعادة المسيحيّين أراضيهم في أوروبا أو مع تمركزهم الموقّت في بعض نقاط الشاطئ الأفريقي.

لم تكن التجارة بين الشرق والغرب الهدف الوحيد الذي طبع مصير الأماكن الحديثة المنشأ والمثراء، مثل تونس والجزائر ووهران وحُنين وسَبتة. فالقوّات البحريّة ذات الأحجام الكبيرة، سواء منها الأساطيل العثمانيّة أو أساطيل الدول الاوروبيّة المتعدّدة التي تواجهت في معارك بحريّة مذهلة كما في ليبانت (Lépante) سنة ١٥٧١م، لم تكن وحدها في حاجة إلى مرافئ حربيّة ومخازن أسلحة. إن الصراع كان أيضًا صراعًا مع القراصنة الذين يجوبون المتوسط إنطلاقًا من المعاقل البربريّة في تونس والجزائر، أو الذين يجولون في المحيط الأطلسي على مقربة من المغرب. منذ أن أدخل الإسلام العمليّات البحريّة في إطار أعمال الجهاد، استمرّت أكثر من أي وقت مضى ممارسة أشكال القرصنة كافةً في تلك المناطق. إنّ الترحاب الذي لقيته أعمال القرصنة كان يتناسب وإحدى الضرورات المستحبّة، ألا وهي ضرورة تأمين ازدهار بعض المدن مثل الجزائر وتونس، أو على الأطلسي، مثل الرباط وسَلا التي وجدت في تحويل الأسرى إلى رقيق، وفي مغانم الحرب فائدة أكبر من تلك التي يدرّها التبادل التجاري المنتظم. أخذت القيمة الإستراتيجيّة لهذه المدن في الازدياد، وفي مقابل قوّتها الهجوميّة التي كانت تشكّل المصدر الرئيس لوارداتها، كانت أسوارها ووسائل حمايتها في مستوى النوعيّة التقنيّة لقوّاتها البحريّة، وهي ما تزال حتّى اليوم تحافظ على جمال تراثها الأثري.

غير أنّ ذلك البريق لم يكن ليدوم. فقد شهدت التجارة في العالم الإسلامي الشرقي تحوّلًا جذريًّا في القرنين التاسع عشر والعشرين، على جانبي برزخ السويس. والأنشطة التي دامت أكثر من غيرها كانت، من دون شك، تلك التي رعاها، في القرن التاسع عشر في المحيط الهندي، سلاطين مسقط الذين انتقلوا إلى زنجبار. أمّا البحر المتوسط فقد شهد، في المقابل، بشكل مفاجئ هبوطًا في ازدهار مدن مرفئيّة عرفت الثراء إمّا في القرون الوسطى، وإمّا في بداية العصور الحديثة. ولم ينجُ من الضعف النهائي إلّا القليل من هذه المدن، إذ تحوّلت إلى حواضر بحريّة معاصرة داخل الدول القوميّة التي تقاسمت الأمبراطوريّة الإسلاميّة.

◄ راجع المستندات ١٠، ١١، ١٣ إلى ١٦، ٢٠ إلى ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٥٣، ٥٤، و٨٧.

مراكش (المملكة المغربيّة)، ثانية المدن الكبرى حاليًّا في المملكة المغربيّة، تمّ تأسيسها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، على سفح جبال الأطلس العليا، وهي لا تزال «عاصمة الجنوب» الساحرة، وقد أعطى الأوروبيّون إسمها، مع شيء من التحريف أي «Maroc»، لأراضي المغرب الغربي.

أسّس مراكش، حوالى العام ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م، أوّل ملك من سلالة المرابطين، يوسف بن تاشفين، إذ كان في حاجة إلى محطة بين المناطق الصحراويّة ومملكة فاس. كانت في البداية، مع مسجدها الجامع، معسكرًا ضمّ بلاطًا ملكيًّا فخمًا تتبعه أبنيّة من الطراز الإسباني - العربي. أمّا اليوم، فلم يعد يشهد عليها سوى قبة وحيدة ذات زخارف منمّقة، لا تزال قائمة وهي تعود إلى عهد المرابطين. في العام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، شُيِّد سور حول هذه المجموعة الهندسيّة الفنية لحمايتها من تهديدات حركة ابن تومرت السياسيّة - الدينيّة التي قامت في أغمات ثمّ في تِنْمل.

في العام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، تمكّن خليفة ابن تومرت والمؤسّس الحقيقي لسلالة الموحّدين، عبد المؤمن، من توسيع أراضيه ومحاصرة مراكش التي استولى عليها بعد أحد عشر شهرًا ليجعل منها، بدوره، عاصمةً له. من ثمّ قام خلفاؤه، وهم من مشجّعي البناء والفن، بإعادة البهاء إلى المدينة، فشيّدوا فيها قَصَبة جديدة ومسجدًا جامعًا جديدًا وعدة مبانٍ أخرى منها مارستان (مستشفى). في تلك الحقبة، أُعطيت مراكش الشكل الذي لا تزال تحتفظ به مع تصميم شعاعيّ ومسجد جامع في الوسط،

في حين أُقيم القصر الملكي المحصّن، إلى جانب السور الجنوبي، وسط مجمّع سكاني ملتصق بالمدينة.

بعد فترة من الاضطرابات، دخل أبو يوسف يعقوب المريني عاصمة الموحّدين القديمة في العام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، بدون أن يعيرها أيّ اهتمام خاص، وأوكل المنطقة إلى حكّام حصلوا على استقلال فعليّ في منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. استمرّ الوضع على هذه الحال إلى أن استولى شريف من السعديّين، في العام ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م، على المدينة التي أصبحت من جديد، ولأكثر من قرنين، مقرًّا للسلطة. وقد جمّلها بنوع خاص السعدي أبو العبّاس أحمد المنصور بتشييده قصر البديع الذي لم يبقَ منه أثر اليوم. إلّا أنّ السلطان العلويّ مولاي اسماعيل أنزل مراكش إلى مصاف عاصمة ثانويّة مثل فاس ومكناس، واستمرّت حتّى اليوم في تأدية دورها كمركز لمنطقة غنيّة ونشيطة.

تحتفظ مراكش – التي لم يعرف ازدهارها الإقتصادي أيّ تباطؤ – بالعديد من الأبنية القديمة والمهمّة: - السور الذي أعيد بناؤه وتمّت تقويته لمرّات عدّة منذ إنشائه في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد؛ – مسجد علي بن يوسف، من عهد المرابطين، الذي أدخلت عليه تعديلات أكثر من مرّة؛ – المسجد الجامع من عهد الموحّدين الذي يدعى «الكُتبيّة» لقُربه من حوانيت باعة الكتب. وقد أُعيد بناؤه مرّتين متتاليتين، لأن توجيهه في المرّة الأولى لم يكن سليمًا؛ – مسجد القصبة الذي شيّده الموحّد أبو يوسف يعقوب المنصور في العام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م؛ - مدافن السعديّين الشهيرة حيث يرقد، إلى جانب المتصوّف الجزولي، أوّل ملكين من هذه السلالة. لم يبقَ شيء من القَصَبة نفسها التي شيّدها سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، الموحّد المذكور والتي لا نجد وصفًا لها إلا في بعض المراجع المكتوبة. غير أنّ العديد من الآثار يشهد على نوعيّة الأشغال التي تمّت لتأمين جمع المياه وجرّها. فقد أغنت هذه المياه المدينة باستمرار بحدائق جديدة، غالبًا ما تزال قائمة حتّى اليوم حول أحواضها الواسعة التي تضمّ في هذا الإطار مساكن حديثة للحكام، وقد بُني بعضها في نهاية القرن التاسع عشر.

◄ راجع المستندات ١١، ١٤، ١٩ و٦٨.

مَرْتُلة (البرتغال)، حصن إسلامي منيع يسدّ وادي غاديانا، ساهم، حتّى سقوطه في أيدي المسيحيّين في العام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، بتأمين الدفاع عن غرب الأندلس.

ما زال موقع مرتلة حاليًا – وقد نشأت بالقرب منه مدينة في أسفل القصر – يحتضن بقايا أثريّة من الحقبة الإسلاميّة، منها تحصينات مهدّمة وبقايا مسجد. وتُنسب هذه البقايا إلى حقبة سيطرة الموحّدين التي تمتّعت خلالها البلدة بأهميّة عسكريّة كبيرة.

مرج دابق ← ذابق.

مرج راهِط (٦٥هـ/ ٦٨٤م و٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م)، معارك عسكريّة دارت في سوريا الوسطى في مكان استراتيجي يصلح للإشتباكات المسلّحة، وهو المرج المحيط بالصحراء من الجهة الشماليّة الشرقيّة لواحة الشام.

في هذا السهل الذي يسمّى اليوم مرج عذراء، والذي كان مسرحًا للمعارك أيام الفتوحات الكبرى، دارت معركة مهمّة في العام ٦٥هـ/ ٦٨٤م، بعد وفاة آخر خليفة سفياني من السلالة الأمويّة. اضطرّ الخليفة الجديد، مروان الأوّل، الذي تدعمه قبيلة كلب، إلى تفريق بني قيس الذين كانوا يساندون الثائر ابن الزبير. هكذا وضع مروان حدًّا لحركة المعارضة التي نشطت منذ انتهاء ولاية يزيد الأوّل بن معاوية. غير أنّ انتصاره أجّج العداء الذي كان قائمًا بين كلب وقيس، منذ أن نقلت القبائل العربيّة إلى الأراضي السوريّة الانقسامات التي ورثتها من جذورها البعيدة والتي أثارتها في ما بعد الصراعات من أجل تعزيز مواقعها في السلطة.

أمّا المعركة الثانية التي دارت في مرج راهط سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م، فقد كانت حلقةً من مقاومة المماليك لهجمات المغول الذين كانوا قد عدلوا عن محاولة اجتياح المنطقة بعد معركة عين جالوت في العام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، ولكنّهم لم يتخلّوا عن رغبتهم في التوسّع. في تلك المناسبة قدمت جيوش من إيران يقودها غازان، ملك من سلالة الايلخانيّين، ولم تنسحب إلّا بعد سلسلة معارك ضارية رافقها احتلال مفجع إنمّا قصير للشام ولضواحيها.

مرج الصُفّر معارك، (١٤هـ/ ٦٣٥م و٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)، معارك دارت في سوريا الوسطى في مكان إستراتيجي يصلح للاشتباكات المسلّحة وهو المرج المحيط بالصحراء جنوبي واحة دمشق.

خاضت قوات الفتوحات الكبرى العربيّة - الإسلاميّة في العام ١٤هـ/ ٦٣٥م، في مرج الصُفّر، معركة ضد البيزنطيّين بعد انتصارها في معركة أجنادين، الأمر الذي سمح لها بمحاصرة دمشق، لا سيّما أنّ انتصارًا مماثلًا كان قد تحقّق، في الوقت نفسه، في مرج راهط، إلى الجهة الشمالية الشرقيّة.

في العام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، وإلى الجنوب من دمشق حيث توقّفت في السابق وخيّمت جيوش عدوّة متعدّدة، بخاصّة في أيام الصليبيّين، دارت معركة حاسمة بين المماليك وجيوش المغول التابعين للإيلخانيّين الذين سبق لهم أن دُحروا في العام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م، خلال هجماتهم انطلاقًا من مرج راهط. وقد جرت هناك ايضًا معارك ضارية بين مماليك متخاصمين في نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

المُرْجِئة، تيّار فكري ظهر في عهد الأمويّين وتميّز برفض إصدار الأحكام على الأفعال البشريّة في هذا العالم، أي بالامتناع عن إدانة المسلمين المخلّين بأحكام الشريعة وإقصائهم عن الجماعة.

تحدّد موقف هذا التيار بالضبط، إستنادًا إلى عبارة «إرجاء» مصدر التسمية، بإرجاء كلّ حُكم من هذا النوع، والإمتناع تاليًا عن تحميل الإنسان أيّة مسؤوليّة، وتعزيز وضع الخلفاء آنذاك بإبعاد كلّ الاتّهامات عنهم. وتميّزت هذه الآراء «الكلاميّة» المخالفة لآراء الخوارج والقدريّة بأبعادها السياسيّة. وتضاءلت مظاهر المُرجئة في ما بعد، عندما امتصّها أهل السنّة الذين تبنّوا لاحقًا أفكارًا مماثلة.

المِرداسيُّون أو بنو مِرداس، ٤١٤-٤٧٢هـ/ ١٠٢٣ - ١٠٧٩م، سلالة من الأمراء العرب من أهل التشيّع، حكموا سوريا الشماليّة على مراحل مختلفة قبل وصول السّلاجقة.

كانت عشائر البدو التي انتمى إليها هؤلاء الأُمراء والمعروفة بالعشائر الكلابيّة، المتحدّرة بدورها من بني قيس، تحتلّ، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، القسم الشمالي من السُهب السوري - العراقي. وفي هذا الوسط، في العام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، برز صالح بن مرداس سيّدًا لبلدة الرَّحْبة المدمَّرة الآن. وكان حُكم الحَمْدانيّين في تلك الفترة قد أخذ بالتفكّك، بينما كان الفاطميّون يهدّدون البلاد بأطماعهم.

نجح صالح في الاستيلاء على حلب وعلى قلعتها في العام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م، وفي السيطرة بعد ذلك على الأراضي المجاورة لها جنوبًا حتّى حمص وبعلبكّ وطبريّة حيث قُتل خلال معركة في العام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م. وتخبّط ورثته خلال سنوات عدّة بين البيزنطيّين الذين كانوا يغيرون على حدودهم، والفاطميّين الذين احتلّوا إمارتهم مرّتين، الأولى بين ٤٢٩ و٤٣٤هـ/ ١٠٣٧ و١٠٤٢م، والثانية من ٤٤٩ إلى ٤٥٢هـ/ ١٠٥٧ إلى ١٠٦٠م. ثمّ عرفوا حالة أشدّ اضطرابًا عندما برزت لهم زُمَر الغُزّ التركيّة التي كانت اجتاحت المشرق الإسلامي فاضطُرّوا، في العام ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، إلى التخلّي عن حلب لمصلحة العُقَيليّين قبل أن تسقط المدينة في يدي تُتُش، مؤسّس سلالة السلاجقة التي حكمت سوريا لفترة وجيزة:

أسد الدولة صالح بن مرداس	٤١٤-٤٢٠هـ/ ١٠٢٣-١٠٢٩م
شبل الدولة نصر الأوّل	٤٢٠-٤٢٩هـ/ ١٠٢٩-١٠٣٧م
(استيلاء الفاطميّين)	٤٢٩-٤٣٤هـ/ ١٠٣٧-١٠٤٢م
معزّ الدولة ثمال	٤٣٤-٤٤٩هـ/ ١٠٤٢-١٠٥٧م
(استيلاء الفاطميّين)	٤٤٩-٤٥٢هـ/ ١٠٥٧-١٠٦٠م
رشيد الدولة محمود	٤٥٢-٤٥٣هـ/ ١٠٦٠-١٠٦١م
معزّ الدولة (مرّة ثانية)	٤٥٣-٤٥٤هـ/ ١٠٦١-١٠٦٢م
رشيد الدولة (مرّة ثانية)	٤٥٤-٤٦٨هـ/ ١٠٦٢-١٠٧٥م
جلال الدولة	٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م
أبو الفضائل سابق	٤٦٨-٤٧٢هـ/ ١٠٧٦-١٠٧٩م

مُرْسية (إسبانيا)، مدينة في جنوب شرقي شبه الجزيرة الإيبيريّة، أسّسها عرب الأندلس وكانت جزءًا من بلاد الإسلام لأكثر من أربعة قرون.

تقع مرسيه بين الحدائق، على بضعة كيلومترات من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت قرطاجنة مرفأً لها، ويقال إنّ الأمير الأُموي عبد الرحمٰن الثاني هو الذي أنشأها حوالى العام ٢١٠هـ/ ٨٢٥م. لكنّ المنطقة

التي أصبحت مركزًا لها بعد تفوّقها على أُوريهويلا انتفضت في وجه سلطات قُرطبة في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجريّين/أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلاديّين، ولم يتمّ إحلال السلام فيها إلّا في ظلّ خلافة عبد الرحمن الثالث. أصبحت، في عهد ملوك الطوائف، عاصمة إمارة صغيرة ما لبثت أن أُلحقت بمملكة بلنسية، ومن ثمّ ضمّنها، إسميًّا على الأقل، مملكة بني عَبّاد في إشبيلية قبل أن تسقط في أيدي المرابطين في العام ٤٨٤هـ/١٠٩١م. استعادت استقلالها نسبيًّا بين ٥٤٠ و٥٤٣هـ/١١٤٥ و١١٤٧م، والتحقت بعد ذلك من جديد بمملكة بلنسية، ثمّ احتلّها الموحّدون في العام ٥٦٧هـ/١١٧٢م، قبل أن يسترجعها المسيحيّون في العام ٦٤١هـ/١٢٤٣م. لم يتبقَ حاليًّا في مرسية من ماضيها الإسلامي - اذا ما استثنيْنا بعض المعالم التي تتميّز بها مساكن أحيائها القديمة - إلّا العادات المتعلّقة بتقنيّات الرّيّ والتحكّم بالماء التي ما تزال تساهم في ثروة سهلها.

◄ راجع المستندات رقم ١٥، ١٦ و١٩.

مَرْعَش (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في جنوب شرقي الأناضول، لم يتبقَ منها حاليًّا سوى ذكرى دورها كمدينة حدوديّة وكحصن متنازع عليه طوال القرون الوسطى الإسلاميّة.

تقع هذه المدينة في شمال سهل كيليكيا، على خاصرة جبال الأنتي-طوروس حيث كان حُصنها يُهيمن على طريق مَلَطية. عُرفت في العهد البيزنطي باسم جرمانيكيا، واستولت عليها القوّات العربيّة - الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى. أصبحت في العصر الأموي إحدى القواعد التي انطلقت منها الحملات العسكريّة ضدّ الأراضي التي ما زالت في أيدي البيزنطيّين. وحافظت على هذا الدور البارز خلال القرون الأولى من الخلافة العبّاسيّة. شنّ البيزنطيّون عليها هجمات عديدة وتمكّنوا من الاستيلاء عليها بصورة موقّتة. في المقابل، بذل حكام بغداد، ولا سيّما هارون الرشيد، جهودًا كبيرة لتعزيز الخطوط الدفاعيّة الحدوديّة في تلك المنطقة، بينما استُخدم محيط المدينة كنقطة انطلاق لحملات عسكريّة كالتي شنّها الحمدانيّون.

شكّلت المدينة المحصّنة مركزًا متقدّمًا في الصراع بين الأمبراطوريّتين البيزنطيّة والإسلاميّة وصارت، إبتداء من نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، موضع نزاع محلي بين المسيحيّين والمسلمين: من جهة، الفرنج الذين نشطوا في المنطقة حتّى سقوط مقاطعة الرها في حوالى العام ٥٤٥هـ/١١٥٠م، وكذلك الأرمن المستقرّون هناك؛ ومن جهة أخرى سلاجقة الروم وحكّام سوريا، بدءًا بنور الدين محمود (إبن زنكي)، وصولًا إلى الأيوبيّين والمماليك. سقطت في ما بعد، في نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، في أيدي سلالة ذي القادريّين، واكتفت، منذ مطلع القرن التالي، بدور عاصمة مقاطعة حافظت عليه في العهد العثماني وفي الجمهوريّة التركيّة الحاليّة.

مرو أو ماري (جمهوريّة تركمنستان)، مرو الشاهجان قديمًا، بلدة حديثة في آسيا الوسطى متاخمة، على المجرى الأسفل للمُرغاب، بقايا إحدى أكبر مدن خراسان القروسطيّة، وهي تُعتبر أيضًا إحدى حواضر العالم الإسلامي القروسطي.

مطلّة على منطقة واحات على طريق القوافل التي تربط الشرق الأدنى بالصين، تعرّضت مارجيانا القديمة، أي مرو، في العام ٣١هـ/٦٥١م، لاحتلال القوّات العربيّة - الإسلاميّة خلال الفتوحات الكبرى. حُدّد مكانها حاليًّا في موقع «جافور قلعة» شرقي «اسكندر قلعة» القديمة، وكانت تتألّف آنذاك من حصن، من مدينة عليا ومن ضاحية. شُيّد في المدينة العليا أول مسجد جامع، بينما امتدّت الأسواق في الضواحي. لكنّ الوسط الإداري والديني انتقل تدريجيًّا نحو الضاحية الغربيّة حيث شُيّد مسجد جامع في أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. هذه المدينة الجديدة المعروفة اليوم باسم سلطان قلعة، والتي كانت عاصمة السلجوقي سنجر قبل تدميرها على يد المغول في العام ٦١٨هـ/١٢٢١م، حلّت في العام ٨١٢هـ/١٤٠٩م، مكان المدينة التي شيّدها التيموري شاه روخ والتي تمتدّ إلى الغرب.

كانت المدينة الأولى القروسطيّة ناشطة وميسورة

بشكل خاص. إلى اقتصادها التقليدي الريفي المرتكز على إنتاج الحرير والقطن لصناعة النسيج، أُضيفت موارد صناعاتها الحرفيّة ومداخيل نشاطاتها التجاريّة القائمة على التخزين وعلى العبور. وكانت أيضًا، في ذلك الوقت، عاصمة إداريّة ومقرّ الحكّام التابعين للخلافة، وكان لها الأولويّة على نيسابور أو بلخ. استقرّ فيها أبو مسلم لتحضير «الثورة العباسيّة»، وفي ضواحيها التي كانت تضمّ العديد من العرب الذين اختلطوا بالسكان المحلّيين، قام بتطويع الأنصار الذين أعدّوا لمجيء السلالة الجديدة. وفيها أيضًا مكث بعد تنصيبه حاكمًا على خراسان بعد النصر، وفيها شيّد دارًا للحكومة. وفيها أيضًا استقرّ المأمون قبل أن يصبح خليفة، عندما انسحب إلى الأقاليم الشرقيّة بعد وفاة والده، ومنها أطلق جيوشه لغزو بغداد. وقد واصل العيش فيها بعد اعتلائه العرش حتّى العام ٢٠٢هـ/ ٨١٧م. واستمرّ تفوّق مدينة مرو في ظلّ الحكام الطاهريّين شبه المستقلّين، بالرغم من اختيارهم نيسابور عاصمة لهم، كما تمّ اختيارها بعد خضوعها للهيمنة التركيّة في العام ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م، من قبل السلجوقي تشغري بك (Tchaghribeg) مقرًا لحكمه، ومن ثمّ، إبتداء من العام ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، من قِبل السلطان سنجر بن ملكشاه الذي أقام سورًا ضخمًا حول المدينة، كما شيّد، قرب المسجد الجامع، ضريحًا ضخمًا تعلوه قبّة، ما زال يحمل إسمه وما زال قائمًا وحده بين التلال داخل الأسوار.

لم تتمكنّ المدينة الجديدة التي بُنيت في ما بعد، على أثر الغزو المغولي، أكثر جنوبًا، من استعادة اهميّتها السابقة، بالرغم من بقائها مأهولة حتّى أواخر القرن الثامن عشر، عندما أدّى تدمير السد على نهر المرغاب إلى هجرها الموقّت من جديد. أُعيد تأهيل المنطقة بعد الغزو الروسي في العام ١٨٨٤، وفي ظلّ الإدارة القيصريّة أوّلًا، والسوفياتيّة من بعدها. وفي العام ١٩٣٥ تمّ إنشاء مجمّع سكني جديد أُطلق عليه اسم «بيرم علي»، استطاع بفضل تطوّره الصناعي استعادة مكانة مدينة مرو القديمة المعروفة اليوم باسم ماري.

◄ راجع المستندات رقم ٨، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣ و٢٤.

المروءة أو المُرُوَّة، مصطلح عربي يشير إلى «الرجولة، والسيطرة على النفس، والكرامة»، استمدّه الإسلام من نظام القِيَم السائدة عند قدامى العرب لكي يشكّل، إلى جانب مفهوم «الفتوّة» اللاّحق، أحد المفاهيم الأساسيّة في علم الأخلاق الإسلامي.

وكان هذا المثال الأعلى، كما تمّ تحديده أعلاه، الذي يستند أيضًا إلى مزايا بسيطة كالكرم والشهامة والشجاعة، إضافة إلى اللجوء إلى العقل ومزاولة الصداقة والاعتدال في الرغبة، مرتبطًا بدايةً بالحكمة البشريّة التي تطوّرت على مر العصور في الجزيرة العربيّة في الفترة السابقة للإسلام. وقد اعتمدها المجتمع الإسلامي الناشئ، مضيفًا إليها صفات مثل «الثبات في المحنة» أو «الصبر»، و«الثقة في العناية الإلهية» أو «التوكّل»، وترتّب على المؤمن الحقيقي التمثّل بها. وهكذا كان هذا الأخير يوفّق في أفعاله بين المقتضيات التي فرضتها عليه خشية الله أو «التقوى»، والإمتثال لشريعة منبثقة مباشرة من الوحي.

مروان، إسم حمله خليفتان ينتميان إلى الفرع المرواني من السلالة الأولى لخلفاء المسلمين، أي سلالة الأمويّين الذين اختاروا سوريا مقرًّا لحكمهم.

أوّل الخليفتين هو مروان الأوّل أو مروان بن الحكم ابن ابي العاص (٢ - ٦٥هـ/ ٦٢٣-٦٨٥م) الذي يُعتبر صانع قدر عائلته. تمّ اختياره خليفة - وهو الرابع في السلالة - بعد الاضطرابات التي طبعت نهاية الفرع السفياني، وكان طاعنًا في السنّ ولم يحكم سوى بضعة أشهر في ٦٤-٦٥هـ/ ٦٨٤-٦٨٥م.

إنّه أحد صحابة النبيّ محمّد ﷺ القدامى[١٠٠] وابن عمّ الخليفة الثالث المنتخب عثمان بن عفّان. كان كاتبًا لهذا الأخير، وربّما حاول أن يحميه في أثناء اغتياله، وقد شارك في معركة الجمل إلى جانب عائشة وحلفائها وبايع في ما بعد، على ما يبدو، عليًا. عيّنه قريبه معاوية، الذي أصبح خليفة على رأس الدولة، حاكمًا على البحرين، ثمّ على المدينة. لكنّه اضطرّ إلى مغادرة شبه الجزيرة العربيّة في أثناء ثورة ابن الزبير، تاركًا ما يملك ومتوجّهًا بدوره إلى سوريا. هناك، وبعد وفاة معاوية

الثاني، آخر ممثلي الفرع السفياني، قدّم ترشيحه إلى رؤساء القبائل العربيّة [اليمنيّة] المجتمعين في الجابية، فبايعوه.

واجه صعوبات جرّاء الفوضى التي كانت سائدة عندما أراد أن يفرض سلطته، فتصدّى أولًا لأنصار ابن الزبير وخاض معهم معركة انتصر فيها في مرج راهط قرب دمشق، في شهر رجب ٦٤هـ/ يوليو ٦٨٤م. ثمّ تمكّن لبضعة أشهر من تعزيز سلطته في سوريا وفي مصر معًا، ولكنّه توفي[١٠١]، في ربيع العام ٦٥هـ/ ٦٨٥م، بعد أن عيّن ولديه عبد الملك وعبد العزيز وريثين له. لقد أظهر، خلال ولايته القصيرة، قدرة على القرار ومهارة استفاد منهما أولاده.

أمّا الخليفة الأخير من الفرع المرواني ومن سلالة الأمويّين التي انهارت في عهده في الشرق، فهو مروان الثاني أو مروان بن محمّد بن مروان الملقّب بمروان الحمار. حكم لاحقًا من ١٢٧ الى ١٣٢هـ/ ٧٤٤ إلى ٧٥٠م، ولكنّ نفوذه تراجع أمام الصراعات داخل الأسرة الأمويّة، في حين كانت تتنامى «الثورة العبّاسيّة» التي ستقضي على الدولة التي كان يحكمها السوريّون.

يقال إنّه ولد من أم غير عربيّة وكان حفيدًا لمروان الأوّل، قاد مع عمّه[١٠٢] مسلمة بن عبد الملك حملات عديدة في أرمينيا وفي القوقاز، قبل أن يصبح حاكمًا لهاتين المنطقتين في عهد الخليفة هشام، ثمّ حاكمًا لبلاد ما بين النّهرين العليا في عهد يزيد الثالث ١٢٦هـ/ ٧٤٤م. بعد موت هذا الأخير، رفض الاعتراف بشرعيّة ابراهيم بن الوليد، شقيق الخليفة المتوفى، وتمكّن بمساعدة مجموعة من القبائل القيسيّة، من بسط سلطته على شمال سوريا. بويع بعد ذلك بالخلافة في دمشق في شهر ربيع الأوّل ١٢٧هـ/ كانون الأوّل ٧٤٤م، ولكنّه أبقى مقرّه في بلاد ما بين النهرين العليا واختار حرّان عاصمة له. على الرغم من انتصاراته الاولى، كان في حاجة للمزيد من الوقت لكي يفرض سلطته نهائيًّا على سوريا والعراق حيث ظلّ الاستقرار مزعزعًا حتّى العام ١٢٩هـ/ ٧٤٦م. ولكن، في هذا التاريخ، كانت قد ظهرت في خراسان جيوش أبي مسلم التي وصلت لاحقًا إلى المنطقة، وبالتحديد إبتداءً من العام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م. هُزِم مروان في معركة الزاب الكبير في شهر جمادى الآخرة ١٣٢هـ/ كانون الثاني - يناير ٧٥٠م، ففرّ إلى سوريا ثمّ إلى مصر حيث أُسِر وقُتل في شهر حزيران/ يونيو من السنة نفسها.

◄ راجع المستند رقم ٢.

المروانيّون أو بنو مروان، تسمية أُعطيت، داخل سلالة الأمويّين، للفرع المتحدّر من مروان الأوّل الخليفة الرابع في المشرق الذي وصل إلى الحكم في العام ٦٤هـ/ ٦٨٤م، منهيًا بذلك الثورات التي هزّت الخلافة بعنف خلال العهود السابقة[١٠٣].

قام أفراد هذا الفرع الجانبيّ الذين حكموا بعد الخلفاء المتحدّرين مباشرة من معاوية الأوّل، بالإمساك بزمام الأمور في الدولة العربيّة - الإسلاميّة بصورة مذهلة، ما دفعهم إلى تمييز عملهم عن عمل السفيانيّين، وقد عُرف هؤلاء بهذا الإسم نسبة إلى جدّهم أبي سفيان، والد معاوية، وابن عمّ الحكم جد المروانيّين. وهكذا نزع الأسياد الجدد إلى الافتخار بنسبهم الخاص داخل ذريّة أُميّة، الجدّ المشترك الذي وهبهم اسمه. استمرّ الشعور إياه يلعب دوره، ربّما بصورة متزايدة، عندما نقل إلى الأندلس أمير مرواني - هرب بعد انتصار العبّاسيّين واغتيال معظم أفراد عائلته في الشرق - الآمال التي وُلدت منها السلالة الأمويّة الثانية، أي سلالة أمويّي الغرب أو أمويّ قرطبة.

مروانيّو بلاد ما بين النهرين العليا، ٣٧٣-٤٧٨هـ/ ٩٨٣-١٠٨٥م، سلالة كرديّة عرفت في أوجها القصير كيف تحافظ على استقلال إمارتها ذات الموقع الإستراتيجي على حدود الأناضول.

أميدا (Amida) التي تُعرف اليوم باسم ديار بكر، ميّافارقين التي أصبحت سيلفان، حُصن كيفا، أخلاط ومانتزيكرت/ ملازكرت، كانت جميعها الحواضر المحبوبة للمقاطعات التي جمعها المروانيون تحت سلطتهم. ظهرت قوّتهم عندما أراد أحد قوّادهم العسكريّين الاستفادة من موت البويهي عضد الدولة ليجرّب حظّه في السيطرة على الموصل، لكنّ المدينة صمدت. حاول أيضًا أن يفرض نفسه دعامةً لسلالة

الخلفاء العبّاسيّين، وهنا أيضًا لم يوفَّق، ما جعله يعتمد على منطقته ويستند بشكل أكبر إلى قلاعه. في مرحلة لاحقة، تمكّن خليفته الأكثر أهميّة، نصر الدولة، المعروف عادة بابن مروان، بعد أن حكم ديار بكر لفترة طويلة، من احتلال مركز مرموق، مستفيدًا من تنافس القوى المحيطة به: خلفاء بغداد، الفاطميّون الذين أصبحوا أسياد مصر وسوريا، البيزنطيّون الذين كانوا ما يزالون موجودين في شمال الأناضول، العقيليّون في الموصل، وحتى الغزاة الجدد الذين كان مقدّرًا لهم حكمٌ طويل الأمد، نعني بهم السلاجقة المُمثّلين آنذاك بطغرل بك.

غير أنّ التفوّق الذي كسبه ابن مروان بمهارته خلال النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي لم يصمد، في ما بعد، أمام انقسام ممتلكاته بين ولديه ولا أمام الضعف الدبلوماسي الذي نتج عن ذلك. زال حكمُ المروانيّين سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، بعد انتصار الغزاة الأتراك الذين ضمّوا عندئذٍ بلاد ما بين النهرين العليا إلى أمبراطوريّة السلاجقة. وحدها النقوش الضخمة المحفوظة في ديار بكر لا تزال تشهد على الإشعاع الفني الذي عرفته تلك المنطقة والذي رافق أوج السلالة وميّز تألق حياتها الثقافية.

الحسن بن مروان	٣٨٠-٣٨٧هـ/ ٩٩٠-٩٩٧م
ممهّد الدولة سعيد	٣٨٧-٤٠١هـ/ ٩٩٧-١٠١١م
نصر الدولة أحمد بن مروان	٤٠١-٤٥٣هـ/ ١٠١١-١٠٦١م
نظام الدولة نصر	٤٥٣-٤٧٢هـ/ ١٠٦١-١٠٧٩م
منصور	٤٧٢-٤٧٨هـ/ ١٠٧٩-١٠٨٥م

مريّة ← ألمريّة.

المُريديّة، طريقة صوفيّة أسّسها في السنغال، في العام ١٨٨٦، رجل كان ينتمي إلى الطريقة القادريّة عرف باسم أحمدو بامبا.

حمل أعضاء التنظيم الجديد لقب «مريد»، (الجمع مريدون)، وهو مصطلح عربي يعني حرفيًّا "المبتدئ"، لكنّه استُعمل في الأندلس، في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، للدلالة، بشكل عام، على الصوفيّين. وكان مؤسّس المريديّة قد اعتبر نفسه مكلّفًا من قبل الملاك جبريل بإصلاح الإسلام في السنغال ولا سيّما - خلافًا لكثير من التنظيمات الصوفيّة الأخرى - من خلال الإشادة بالعمل اليدويّ. وقد غدا قبره في طوبى محجّة سنويّة إلزاميّة للمريدين كافّة الذين يقدّر عددهم بحوالى ربع سكان جمهوريّة السنغال الحاليّة.

مريم، تُدعى غالبًا مريم بنت عمران والدة عيسى. خُصِّصت لها السورة التاسعة عشرة من القرآن الكريم، وذُكرت تكرارًا في مقاطع أخرى تعود للمرحلتين المَدنيّة والمكيّة من الدعوة.

تجد، في بداية السورة التاسعة عشرة (سورة مريم)، قصّة البشارة وقصّة حَبَل مريم وهي عذراء، وولادة عيسى، كما نجدها في بعض آيات سورة آل عمران، فيما تظهر في أمكنة أخرى تلميحات إلى هذه الأحداث. وتتطرّق بعض هذه المقاطع بدقّة متناهية للحبل بعيسى ولطهارة مريم، إنّما من غير تمييز بين الملاك والروح الإلهي: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (القرآن، سورة التحريم، ١٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ (القرآن، سورة آل عمران، ٤٢-٤٣). ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (سورة مريم، ١٧).

تتطابق المواضيع المذكورة مع روايات الأناجيل، وأحيانًا مع روايات الأناجيل المنحولة. في الوقت عينه، تحتلّ مريم مكانةً خاصّة في التقليد الإسلامي الذي يعتبرها إحدى النساء الأربع الأفضل في العالم، إلى جانب آسيا، زوجة الفرعون، التي خلّصت موسى، وخديجة زوجة النبيّ محمّد ﷺ وفاطمة ابنته. ولكنّ مريم لا تظهر في القرآن كأحد أقانيم الثالوث بحسب اعتقاد قديم كان منتشرًا، على ما يبدو، في بعض أوساط الجزيرة العربيّة. وترد في هذا الخصوص توضيحات في بعض الآيات: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (القرآن،

سورة المائدة، ١١٦).

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة المائدة، ٧٥).

في المقابل، لا يوضح القرآن الكثير حول أصل مريم، جاعلًا إيّاها بنت عمران وليس بنت يواكيم كما في التقليد المسيحي، وشقيقة هارون شقيق موسى، إلّا إذا كان هناك هارون آخر. أخيرًا، كان ذكر مريم موضوع تكريم في القرون الوسطى الإسلاميّة في بعض مزارات فلسطين التي كانت تُقصد بهدف الزيارة، والتي غالبًا ما كانت، من قبل، موضوع احترام في التقليد المسيحي. وهكذا يُكرّم بيتُها في الناصرة وقبرها في القدس؛ وقد ورد ذكرُ هذين المكانين، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، في دليل الهروي.

المرينيّون أو بنو مرين، ٦٥٦-٨٦٩هـ/١٢٥٨-١٤٦٥م، سلالة بربريّة تنتمي إلى مجموعة الزّناتة، حكمت، بكثير من العظمة خلال قرنين، مختلف المناطق المغربيّة وفرضت سلطتها لفترة على المغرب العربي بأكمله.

في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ظهرت طموحات المرينيّين الأولى، بعد مشاركتهم في مقاومة حروب الاسترداد التي خاضها المسيحيّون في الأندلس، خصوصًا بعد مشاركتهم في معركة الأرَك في العام ٥٩١هـ/١١٩٥م، في وقتٍ كان فيه حكم الموحّدين قد بدأ بالتفكّك. حاولوا اقتحام المدن وفرض الضرائب على المناطق التي كانوا يجتازونها خلال ترحالهم حول تازة او سجلماسة. وقد تمكّنوا من السيطرة على مكناس في العام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، وعلى فاس في العام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، واخيرًا على مراكش في العام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م. وكان على رأسهم خلال هذا الفتح الأخير أبو يوسف يعقوب الذي خلف أخوته في العام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، والذي يُعتبر، بشكل عام، أوّل الملوك المرينيّين.

خلال قرن تقريبًا، من ٦٦٨ إلى ٧٥٩هـ/ ١٢٦٩ إلى ١٣٥٨م، كانت روح الجهاد والحملات العسكريّة تحتّ ورنة هذا القائد العسكري الذي استولى على سَبْتة في العام ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م، واجتاز المضيق في العام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م و٦٨٤هـ/١٢٨٥م، لكي يهبّ إلى نجدة النصريّين في الأندلس. كان للمرينيّين جيش قوي مؤلّف من خيّالة من أصل بربري، ومن نبّالة من أصل أندلسي، إضافةً إلى فرقة مسيحيّة. وكانوا يبسطون سيطرتهم على أسبانيا وعلى المغرب: - حملات متتالية للبقاء في الأندلس في العام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، ٧٢٩هـ/١٣٢٩م و٧٣٣هـ/١٣٣٣م حتّى هزيمة ريو سلادو في العام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م؛ - حصار طويل لمدينة تلمسان من ٦٩٨ إلى ٧٠٧هـ/ ١٢٩٩ الى ١٣٠٧م؛ - الإستيلاء على المدينة في العام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م؛ - إحتلال موقّت لتونس في العام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧. وشكّلت هذه الانتصارات الأخيرة التي حقّقها أبو الحسن علي ذروة قوّة هذه السلالة، تلتها جهود عقيمة بُذلت خلال حكم ابنه أبي عنان فارس.

في الوقت نفسه، أدّت جهود المرينيّين إلى تطوّر مُدُني كبير، فكانوا يسعون إلى تجميل المدن القديمة وتحصينها، وقد شيّدوا فيها، لهم ولحكامهم، مساكن عظيمة. في فاس حيث أقاموا مركز حكمهم، انشأوا مدينة فاس الجديدة حيث بنوا القصور الملكيّة. وبالقرب من الجزيرة الخضراء في إسبانيا أسّسوا قصر البنْيَة، وبالقرب من تلمسان المجمّع المعروف بالمنصورة. وأقاموا زاوية ومدافن في شالة بالقرب من الرباط. كما أسّسوا ترسانات في مرفأي سبتة وسَلا لتعزيز سلاح البحريّة. وأقاموا مؤسّسات عديدة ضمّت، بشكل خاص، أبنية دينيّة ومساجد ومدارس، مشجّعين المذهب المالكي الذي أصبح في عهدهم المذهب الرسمي، وكان ذلك ردّة فعل على عقيدة الموحّدين. وانكبّ المرينيّون على إنشاء هيئات فقهيّة مؤيّدة لقضيتهم، فاستوردوا، في سبيل ذلك، مؤسّسة المدرسة وشيّدوا خمسة مبانٍ من هذا النوع، أربعة منها في فاس ومبنى في سلا، وزيّنوها بعناية فائقة. إنّها تشكّل مثالًا بارزًا لهندستهم المعماريّة ولما يسمّى عادةً الفن الإسباني - المغربي. إلى ذلك تطوّرت رعايتهم للفنّ بفضل الثروات الطائلة الناتجة عن تقدّم الحياة الإقتصاديّة في غرب المغرب. وازدهرت

التجارة مع الدول المسيحيّة من خلال مرفإ سبتة ومن خلال مرافئ الساحل الأطلسي، كما ازدهرت أيضًا مع الصحراء ومع أفريقيا السوداء. وساهم هذا النجاح في اعطاء سمات ثابتة للمدن المغربيّة ما تزال تحتفظ بها حتّى اليوم.

خلال الحقبة الثانية من تاريخ المرينيّين، من ٧٦٠ إلى ٨٧٠هـ/١٣٥٩ الى ١٤٦٥م، تراجع نظامهم تدريجيًّا تحت وطأة المنافسات العائليّة، وأزمات تعاقب السلطة، والثورات والنزاعات بين الأحزاب أو بين القبائل. ووقعت السلطة في أيدي الوزراء، وانطفأت السلالة أخيرًا نتيجة ثورة شعبيّة قادها الشرفاء، بينما قام فرع جانبي عُرف أبناؤه بالوطّاسيّين - كان افراده قد شغلوا مراكز مهمّة تحت حكم آخر السلاطين المرينيّين - بتولّي الحكم خلال بضعة عقود، ومارس سلطة أضعفتها الفوضى الداخليّة والهجمات الخارجيّة.

ابو يوسف يعقوب	٦٥٦ ٦٨٥هـ/١٢٥٨ ١٢٨٦م
ابو يعقوب يوسف	٦٨٥ ٧٠٦هـ/١٢٨٦-١٣٠٧م
ابو ثابت عامر	٧٠٦-٧٠٨هـ/١٣٠٧-١٣٠٨م
ابو الربيع سليمان	٧٠٨ ٧١٠هـ/١٣٠٨-١٣١٠م
ابو سعيد عثمان الثاني	٧١٠ ٧٣١هـ/١٣١٠-١٣٣١م
ابو الحسن علي الأول	٧٣١-٧٤٩هـ/١٣٣١-١٣٤٨م
ابو عنان فارس	٧٤٩-٧٥٩هـ/١٣٤٨-١٣٥٩م
محمّد الثاني السعيد	٧٥٩هـ/١٣٥٩م
ابو سالم علي الثاني	٧٥٩-٧٦٢هـ/١٣٥٩-١٣٦١م
ابو عمر تاشفين	٧٦٢هـ/١٣٦١م
عبدالحليم	٧٦٢ ٧٦٣هـ/١٣٦١-١٣٦٢م
ابو زيّان محمد الثالث	٧٦٣-٧٦٧هـ/١٣٦٢ ١٣٦٦م
عبد العزيز الأول	٧٦٧ ٧٧٤هـ/١٣٦٦ ١٣٧٢م
ابو زيان محمّد الرابع	٧٧٤-٧٧٦هـ/١٣٧٢ ١٣٧٤م
ابو العباس احمد	٧٧٦ ٧٨٦هـ/١٣٧٤-١٣٨٤م
	٧٨٩-٧٩٥هـ/١٣٨٧-١٣٩٣م
موسى	٧٨٦ ٧٨٨هـ/١٣٨٤-١٣٨٦م
ابو زيان محمّد الخامس	٧٨٨هـ/١٣٨٦م
محمّد السادس	٧٨٨-٧٨٩هـ/١٣٨٦-١٣٨٧م
ابو الفارس	٧٩٥ ٧٩٩هـ/١٣٩٣-١٣٩٧م
عبد العزيز الثاني	٧٩٩ ٨٠٠هـ/١٣٩٧-١٣٩٧م
عبد الله	٨٠٠ ٨٠١هـ/١٣٩٨-١٣٩٩
ابو سعيد عثمان الثالث	٨٠١ ٨٢٣هـ/١٣٩٩-١٤٢٠
ابو محمّد عبد الحق الثاني	٨٣١-٨٦٩هـ/١٤٢٨-١٤٦٥م

مزاب، منطقة صحراويّة تضمّ واحات تقع بالقرب من ورْقلة في الجزائر، سكّانها الأصليّون من البربر الإباضيّين الذين طُردوا أوّلًا من تاهرت ثمّ من سدراتة، وهم يُعرفون اليوم باسم المزابيّين.

دخل الإسلام إلى عمق هذه المنطقة في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وقد أُنشئت انذاك تجمّعات سكنيّة تمتدّ على تسعة كيلومترات على طول وادي المزاب، أهمّها الأطوف، ٤٠٢هـ/١٠١١م، بونورا، ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، مالكة، بني أصغر وغرداية ٤٤٥هـ/١٠٥٣م. وقد أضيف اليها تجمّعان ظهرا في القرن السابع عشر الميلادي.

إنّ سكّان هذه المنطقة، الذين يتكلّمون اللغة البربريّة، والذين يتميّزون بانتمائهم إلى الإباضيّة وبتنظيمهم الإجتماعي المحكم، يحافظون أكثر من سواهم على عاداتهم القديمة. إنّهم محصّنون منذ قرون في ملجاهم المحاط بالصحراء، وقد عاشوا في عزلة ومارسوا الزواج اللّحميّ، ما خلق عندهم طابعًا خاصًا من حيث التكوين الجسدي والمظهر. يعتقد هؤلاء المسلمون الذين يتقيّدون بالشريعة كما يعلّمها مذهبهم المنتمي إلى الخوارج، أنّ الإيمان وحده لا قيمة له بدون الأعمال. نجد بينهم، إلى جانب العامة، علماء دين يُعرفون بالـ«طُلْبة» يشكّلون مجلسًا من إثني عشر عضوًا يدير شؤون الجماعة.

مزار ← **زيارة**.

المزارعة، نوع من العقود لجأت اليه الزراعة الإسلاميّة في القرون الوسطى، يقوم بموجبه صاحب أرض بتلزيم استغلالها إلى مزارع مقابل جزء من المحصول.

اعتُمد هذا النوع من العقود بالنسبة إلى الأراضي المزروعة بالحبوب، على أن يقوم المزارع بتأمين الأدوات والبذور إضافة إلى عمله، ويسدّد للمالك كميّة من الحبوب تختلف باختلاف الحالات، ولكنّ نسبتها كانت تراوح بين الثلث والخمس، وكانت تأخذ في الاعتبار المخاطر المتعلّقة بتقلّبات المحاصيل. وكان عقد المزارعة يختلف عن عقد الإيجار الذي يفرض

إيجازًا ثابتًا، وكان الفقهاء أحيانًا يرفضونه بسبب المخاطر الناتجة عنه. لكنّ استعماله ظلّ ساريًا في العالم الإسلامي منذ العهود الأولى للإسلام إلى أيامنا هذه.

مُسْتار (البوسنه والهرْسَك)، من أهمّ مدن الهرسك، حافظت طويلًا على بقايا من الفترة التي كانت خلالها جزءًا من الأمبراطورية العثمانية، والتي تمتد على أربعة قرون تقريبًا.

بعد احتلالها على أيدي الجيوش التركية في العام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، تطوّرت مُستار التي لم تكن انذاك سوى قرية متواضعة - وأصبحت نقطة إستراتيجية ومركز أنشطة تجارية، مشهورة بجسرها الخشبي الممتد فوق نهر نيرِتْفا الخطِر العبور.

استُبدل بهذا البناء الهشّ، في العام ١٥٦٦م، جسر حجري يُعتبر من أهمّ إنجازات الهندسة المعمارية العثمانية. كما اختيرت المدينة مقرًّا لحاكم السنجق؛ وتمّ تجهيزها بأبنية أخرى متعدّدة هيمنت على أحيائها القديمة الرائعة التنسيق. وفي الوقت نفسه شهدت نشاطًا فكريًّا تمثّل في أعمال الشعراء والعلماء الذين كتبوا باللغة العثمانية. أُلحقت بالأمبراطورية النمساوية - المجرية في العام ١٨٧٨ وأصبحت، منذ ذلك التاريخ وحتّى العام ١٩١٨، مركز المعارضة الإسلامية للنظام الجديد، قبل أن تدخل مرحلة من التحديث، وضعت حدًّا لها اضطرابات الحقبة الحديثة.

المستشفى (قديمًا، بيمارستان أو مارستان مأخوذة من الفارسيّة) ودار الشفاء.

هذه المؤسّسة عرفت ازدهارًا مميّزًا في الحضارة الإسلاميّة خلال القرون الوسطى، ويشهد على هذا التقدّم ما ورد في النصوص عن دور الشفاء وأيضًا عن مخلفات الأبنية الاستشفائيّة العديدة. قد يرتبط أصل هذه المؤسّسة بالتأثير الذي مارسه علماء مدرسة جنديسابور في خوزستان، في مطلع العصر العبّاسي.

إنّ التقاليد التي تنسب الى بعض الخلفاء الأمويين تأسيس مستشفى ما تزال موضوع شك، وأكثر ما يمكن أن ينسب الى هؤلاء الخلفاء هو محاولة اتّخاذ اجراءات وتدابير لعزل المصابين بالبرص عن سواهم من الناس. وما عدا ذلك، فقد تكاثرت في ما بعد المؤسّسات الملكيّة التي لم يرافق انتشارها إلزامًا تطوّر الطبّ كعلم قائم بذاته.

إن أولى المستشفيات التي يذكرها المؤرّخون قامت في عاصمة العبّاسيّين بغداد؛ أقدمها هي المستشفى التي بناها هارون الرشيد في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، في الضاحية الجنوبيّة الغربيّة من المدينة المستديرة. لقد كُلّف الطبيب المسيحي جبريل بن بختيشوع، من جنديسابور، بتنظيم المستشفى. واذا فاتنا الكثير عن سير العمل فيها، إلا أنّه يمكن القول إنّه في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، رأى النور عدد كبير من دور الشفاء: مستشفى بدر، قائد جيوش المعتضد، والمستشفيات المنسوبة إلى المقتدر نفسه والى أصحاب الرُّتب العالية المحيطين به، منهم الوزير علي بن عيسى، ووالدة الخليفة، والوزير ابن الفرات. في هذه الحقبة من الزمن، كان الخلفاء وذووهم وكبار القادة يتشرّفون ببناء المستشفيات في مختلف أحياء العاصمة. وقد حظيت هذه المستشفيات بعائدات عن طريق الأوقاف لتؤمّن تكاليف سير أعمالها.

أمّا مؤسسة الأمير البويهي الكبير عضد الدولة التي أُنشئت سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م، فكانت تنعم، إضافة إلى تجهيزها الممتاز، بأربعة وعشرين طبيبًا من مختلف الإختصاصات.

كان في تلك الحقبة الزمنيّة بعض المستشفيات في المدن الإيرانيّة؛ ولكنّنا لا نعرف الكثير عنها، إلّا أنّ مستشفى مدينة الريّ، التي كان يديرها الرازي في مطلع القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، وَرد ذكرها في أكثر من نص.

وفي القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، أسّس ابن طولون، الطامح الى تقليد أسياد بغداد، مستشفى في مصر. بعد ذلك، وبالتحديد في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، ظهر في القاهرة مستشفى صلاح الدين، كما برز سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م مستشفى السلطان المملوكي قلاوون الذي اعتبر، استنادًا الى أوصافه، أكبر وأبرز مؤسّسة إستشفائيّة في الشرق الإسلامي.

اتّبعت السياسة نفسها في سوريا، في حلب كما في دمشق. قام في هذه الحاضرة الأخيرة داران للشفاء، إحداهما تُنسب الى نور الدين، وتعود الى أواسط القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وكانت هناك أيضًا مدرسة للطب تميّزت بفتح أبوابها أمام المسلمين الفقراء والمعوزين، كما يستدل من الكتابة المنقوشة على باب مدخلها.

وظهرت دار شفاء ثالثة في إحدى ضواحي دمشق وسط القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. في هذا الزمن كانت المستشفيات جزءًا من الأعمال الخيريّة التي تؤمّن للمسلمين، من جهة، المعرفة الدينيّة بفضل المدارس، ومن جهة ثانية، صون صحتهم بفضل العناية التي كانت تقدّم لهم في أبنية صمّمت على شكل أبنية المدارس، أو على شكل خوانق المتصوّفين المتكاثرة في المدن. غير أنّ سير الوظيفة الخاصّة بالمستشفيات كانت تتطلّب هندسة متقدّمة. وظهرت النتائج في مبان حجريّة رأت النور في القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد شأن مستشفى أرغون الكاملي، القائمة في حلب، المدينة الناشطة في سوريا الشماليّة، أو شأن مستشفيات مدن الأناضول مثل سيواس وأماسيا وديفريجي. في مدن الأناضول شيّد الأبنية زعماء الحرب الأتراك الذين أقاموا إماراتهم الخاصة على أراضٍ بيزنطيّة استولوا عليها، لكنّ الانقسامات السياسيّة لم تمنع استمرار عادات حضاريّة قديمة.

تابع العثمانيّون الجهود التي كان قد بذلها سلاجقة الروم لفرض المركزيّة الإداريّة، فواصلوا بدورهم الأنشطة نفسها، معتمدين وسائل تنسجم مع غنى أمبراطوريّتهم. من هنا بناء المجمّعات المسماة «كليّات» التي تتسع لمستشفيات في غاية التنسيق والجمال، الى جانب المدارس والفنادق، والمطاعم والحمامات، وسواها من الأبنية، منها مثلًا المؤسّسة العظيمة التي بناها بايزيد الثاني بين ١٤٨٤ و١٤٨٨م في أدرنة.

لقد بنى السلاطين في اسطنبول وفي مدنٍ أخرى عددًا من المستشفيات على النمط الهندسي نفسه، قبل ان تقام في القرن التاسع عشر مدارس حديثة للطب والجراحة.

أمّا في ما يتعلّق بالغرب الإسلامي، فإنّ بناء المستشفيات فيه كان بطيئًا ومتأخّرًا. ففي الأندلس، ورد ذكر أوّل مستشفى في العام ٧٦٦هـ/١٣٦٥م في مدينة غرناطة، علمًا أنّ البلد أعطى عددًا من مشاهير الأطباء. وقد مارس بعض هؤلاء الأطبّاء مهنتهم في مراكش في المستشفى التي بناها «الموحّدون»، في أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، ولكنها زالت في ما ولكنّه زال فيما بعد، بانتظار أن تتكاثر لاحقًا المؤسّسات في المغرب، بفضل المرينيّين والحفصيّين في إفريقية، وبفضل العلويّين في المغرب في القرن التاسع عشر.

المستعرب، مصطلح استُخدم في تاريخ الأندلس للدلالة على المسيحيّين المحلّيين الذين حافظوا على ديانتهم بعد الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة الكبرى، في أوائل القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد.

كان هؤلاء المسيحيّون، على غرار ما كان يحصل في أماكن أُخرى من الأمبراطوريّة بالنسبة الى الفئة من الشعب التي كان يُطلق عليها تسمية أهل الذمّة أو مؤدّي الجزية، يشكّلون جماعات أدنى منزلةً، إلّا أنّهم كانوا يتمتّعون باستقلاليّة نسبيّة. غير أنّهم أبدوا تماسكًا في ما بينهم في شبه الجزيرة الإيبيريّة أكثر من أيّ مكانٍ آخر. وبالرغم من التمازج الذي حصل بين العناصر المختلفة، من عرقيّة ودينيّة، والذي طبع حياة هذا المجتمع غير المتجانس، فإنهم أظهروا أيضًا نوعًا من روح المقاومة: وهكذا تمّ، في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، ملاحقة عدد من أبناء هذه الجماعة المسيحيّة في قُرطبة وإعدامهم لإقدامهم على شتم نبيّ الاسلام. وتلت هذه الأحداث موجة من الاستشهاد عملت السلطات الدينيّة على وضع حدّ لها.

ثمّة مستعربون آخرون هاجروا تدريجيًّا من الأراضي الإسلاميّة للاستيطان في البلدان المسيحيّة، ولا سيّما في تلك التي استعادتها الممالك الجديدة. وبفضل تأثيرهم نشأت خصائص فنّ يحمل اسمهم ويتميّز في هندسة الكنائس الصغيرة، كما في الأعمال الفنيّة الصغرى، بظهور أشكال إسلاميّة يسهل التعرّف إليها ضمن تقاليد مسيحيّة محليّة.

المُسْتَعْليون، إسم يُطلق، أحيانًا، على الإسماعيليّين التقليديّين الذين، خلافًا للنزاريّين أو الإسماعيليّين الجدد أنصار نزار، أيّدوا وصول شقيقه الأصغر ابن المستنصر إلى الخلافة الفاطميّة. وقد حكم هذا الأخير مصر من ٤٨٧ الى ٤٩٤هـ/ ١٠٩٤ إلى ١١٠١م، متخذًا اسم «المستعلي».

أقرّ المستعليون بعد ذلك، في العام ٥٨٨هـ/ ١١٤٢م، بغيبة إمامهم أبي القاسم الطيّب، حفيد المستعلي. وكما فعل الإماميّون الإثنا عشريّون عند اختفاء إمامهم الثاني عشر، تقيّد المستعليون منذ ذلك الوقت بتوجيهات ممثّل هذا الإمام الذي أُطلق عليه لقب «الداعي المطلق» والذي أقام في اليمن حيث استقرّ المستعليون ولاقوا نجاحًا كبيرًا، كما ازدهرت دعوتهم في الهند حيثُ عُرفوا باسم البَهْرَة، ومنها انتقلوا إلى أفريقيا الشرقيّة السوداء.

المستندات القديمة الإسلاميّة (علم -)، هي دراسة الوثائق الكتابيّة القديمة، من جهة نوعها وقيمتها وجماليّتها، لمعرفة الأهميّة التي كانت لها في المجتمع الإسلاميّ خلال القرون الوسطى.

فالأرشيف الذي يحفظ الأوراق الرسميّة والخاصة والذي تمّ تنظيمه باكرًا في العالم الإسلامي، بفضل انتشار الكتابة العربيّة بين الناس، كان له مكانة مهمة في حضارة سيطرت عليها، حتّى الحقبة المعاصرة، البيروقراطيّة التي كان نفوذها يقوى أو يضعف طبقًا للظروف. كان هذا النفوذ مرتبطًا بكثرة التنظيمات المنبثقة من الشريعة، وكان يتوافق مع النمط الذي تعتمده السلطة في ادارة البلاد. نلاحظ أنّ كل سلطان، إلى أي سلالة انتمى وفي أيّ بلد كان، يجد نفسه، من أجل أن يستطيع أن يحكم، في حاجة إلى دعم من إدارة يُعهد بها الى كتّاب وأمناء سرّ، وتُوزّع على دواوين متنوّعة. من جهة ثانية، فإن العقود الموقّعة طبقًا للشرع، مهما كان نوعها، كانت تعتبر مستندات تنظم العلاقات بين الأفراد بمراقبة السلطة القضائيّة، ويُعتمد عليها في الشكاوى والدعاوى التي تكون في أيدي ممثّلين عن السلطة الحاكمة الذين كانوا في حاجة الى بيّناتٍ خطيّة للفصل في بعض القضايا.

والوثائق التي وصلتنا كانت تُكتب باللغة العربيّة، وهي لغة الوحي التي اعتُمدت في العصور الأولى للإسلام. ومع العودة الى اللغات المحلّية في بعض الدول، في أواخر القرون الوسطى، كان الاعتماد على اللغة الفارسيّة أو التركيّة. لكن دأبت العادة على سيطرة اللغة العربيّة والتقيّد بالتقاليد السابقة، ما يسمح لنا باطلاق صفة «إسلاميّة» على كل هذه المستندات القديمة.

تلك الوثائق التي تتشابه نماذجها يمكن أن تُصنّف إلى أنواع. فهناك نصوص البيْعة، أي تلك التي جرى فيها أداء يمين الولاء للخليفة عند تنصيبه؛ ونصوص «العهد» وهي التي يعيّن بموجبها الخليفة وليّ عهده ويقسّم إرثه، وأشهرها النصّ الذي بموجبه عيّن الخليفة العبّاسي هارون الرشيد أحد أبنائه وليًّا للعهد وهو الأمين، وابنه الآخر واليًا على خراسان وهو المأمون، وفيه يتعهّد الإبنان باحترام القرار المتّخذ؛ وهناك نصوص تتعلّق بتعيين الموظّفين الكبار والقضاة والقادة العسكريّين، ونصوص تمنح امتيازات عقارية تُعرف باسم الإقطاعات؛ وتلك التي تتعهّد بتوفير الأمان للأعداء الذين يُظهرون الخضوع وتعرف بـ«الأمان» أو بـ«عهود الأمان»؛ وتلك التي تتضمّن التوجيهات للولاة وكبار المسؤولين، والقرارات المتعلّقة بإلغاء أنواع من الضرائب غير الشرعيّة، والعرائض الموجّهة إلى المسؤولين، وقد دُوّن عليها الردّ من قبل المراجع المختصّة.

هناك من جهة أخرى وثائق ذات طابع اقتصاديّ، أو خاصّ، تتعلّق بمختلف أنواع العقود، والإفادات، ووثائق إثباتيّة قضت الحياة اليوميّة باستعمالها وهي تتضمّن تواقيع تشهد على صحّتها القانونيّة. وخلافًا للشهادات والوثائق الرسميّة الصادرة عن الدوائر الحكوميّة، والتي تتميّز غالبًا بالزخرفة والتنميق، فإنّ الوثائق الاخرى كُتبت على عجلة بخطّ رديء تصعب قراءتها، وهوَ الخط العادي الذي تستعمله العامّة. نذكر منها، عدا العقود المختلفة، قرارات الإعفاء من الضرائب، تصاريح تجوّل الأجانب في الأرض الإسلاميّة، استشارات قضائيّة أو فتاوى، إجازات

للتعليم، وثائق إقرار بمنزلة إثبات رسمي، إفادات عقاريّة، رصْد أموال للأوقاف، وصايا تتعلق بالإرث، إفادات حجّ بالتوكيل كانت، بين القرنين الخامس والسابع للهجرة/الحادي عشر والثالث عشر للميلاد، تُزيَّن بزخارف دقيقة نظرًا إلى أهميّتها الدينيّة...

وقد دُوِّنت الوثائق كلّها على الورق، ما عدا تلك التي تعود الى ما قبل القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، إذ كانت تُكتب على ورق البردي، ولا سيّما في مصر، أو على ورق الرقّ. وعندما كان الامر يتعلّق بعمل حكوميّ رسميّ أو بتبرّع نهائيّ للوقف من بناء أو غيره، فإنّ الكتابة كانت تُنقش على الجدار. وكانت الكتابات الرسميّة كلّها تحمل عبارات إلزاميّة خاصّة بكلّ نوع من التحرير، كما انّ الرسائل الرسميّة تبدأ بإحالة الى المرسل إليه تُذكر فيها الالقاب التي يحملها، اضافةً إلى نعوت فخريّة طبقًا للتقليد المتبع آنذاك في الدواوين. ثم إنّ الوثائق الرسميّة الصادرة عن الحاكم كانت تُمهر بختمه وتوقيعه. وفي العصر العبّاسي كان التوقيع يُستنسخ بخط جميل ويُنقش ويُعرف باسم «العلامة». ومع السلاجقة ظهرت الطُّغرة التي استمرّت لدى العثمانيّين وتطوّر شكلها لتؤدّي دورًا رمزيًّا وجماليًّا يتعدّى الإفادة العمليّة.

وعندما بدأت الوثائق تُدوَّن في إيران باللغة الفارسيّة زمن الغزنويّين، أُطلق على القرارات الرسميّة اسم فَرْمان. وفي الأمبراطوريّة العثمانيّة التي بلغت معها الوثائق المحفوظة في الأرشيف كمّيات كبيرة، كانت المكتوبة منها باللغة التركيّة تعتمد صيغًا وأساليب تذكّر في الوقت نفسه بالكتابات العربيّة والكتابات البيزنطيّة. وكانت النصوص المختلفة الصادرة عن دواوين الباب العالي تحمل تسميات مختلفة يشير كلٌّ منها الى مرتبة الشخصيّة التي أصدرتها.

المستنصر بالله، إسم حمله عواهل كثيرون، ولا سيّما خليفتان انتمى أوّلهما إلى سلالة الفاطميّين والثاني إلى سلالة العبّاسيّين، إضافة إلى حفصيّ إفريقية. إنّ أوّل من اتّخذ لقب خليفة منهم هو أبو عبدالله محمّد الأوّل.

حكم ثامن خليفة من سلالة الفاطميّين، المسمّى **المستنصر**، في القاهرة من سنة ٤٢٧ الى ٤٨٧هـ/١٠٣٦ الى ١٠٩٤م، وهكذا يكون قد مارس الحكم خلال فترة طويلة للغاية.

تزامنت نجاحاته السياسيّة الناتجة خصوصًا عن تأثير الدعوة الإسماعيليّة في المشرق، مع ازدهار إقتصادي عززته العلاقات والأنشطة التجاريّة بين بيزنطية من جهة ودول المحيط الهندي من جهة أخرى، مرورًا بمصر. عرف عهده أيضًا اضطرابات عديدة، كالنزاعات المسلحة التي وضعت القوّات العربيّة والبربريّة في مواجهة فرق العبيد الزنوج الذين طوّعتهم والدة الخليفة السودانيّة الأصل، وكالمجاعة التي ضربت مصر من سنة ٤٥٩ الى ٤٦٤هـ/١٠٦٧م إلى ١٠٧٢م. وعادت البلاد أخيرًا إلى وضعها الطبيعي بفضل جهود بدْر الجمالي، العبد السابق الأرمني الأصل.

عند وفاة الخليفة، تمرّد إبنه نزار بعد أن أُبعد عن الخلافة لمصلحة أحد أشقّائه، الخليفة التاسع المستعلي، ولجأ مؤيّدوه إلى سوريا وإلى إيران حيث شكّلوا حركة الإسماعيليّين الجدد الناشطة أو النزاريّين، بينما بقي مناصرو المستعلي أو المستعليون في مصر.

بعد مرور قرن، حكم في بغداد، من سنة ٦٢٣ إلى ٦٤٠هـ/١٢٢٦ إلى ١٢٤٢م، خليفة آخر هو الخليفة السادس والثلاثون من سلالة العبّاسيّين، باسم **المستنصر**.

اعتلى العرش إثر حركة قادها جدّه الناصر الذي عمل لترسيخ سلطة الخلافة أوّلًا في الأراضي العراقيّة، ومن ثمّ، وبشيء من الحنكة، في المشرق الإسلامي بمجمله. ولا يزال إسمه يُذكر اليوم بفضل المدرسة التي أسّسها في بغداد باسم «المستنصريّة» والتي ما تزال قائمة على ضفاف دجلة بجدرانها الآجريّة المزخرفة بدقّة. تتميّز هذه المدرسة عن النماذج القائمة في مناطق أخرى بمساحاتها الكبيرة، وبتصميمها الذي أُطلقت عليه خطأً تسمية «التصميم القائم على أربعة إيوانات»، وبتخصّصها في تعليم الفقه على مذاهب المدارس الفقهيّة السنيّة الأربع.

المسجد، «موسكيه» (Mosquée) في صيغته الفرنسية، وهي مشاكلة لكلمة مسجد العربيّة، دخلت الفرنسية عن طريق لفظة «مزكيتا» الإسبانية، ونعني

المبنى الطقسي الأكثر تميّزًا في الإسلام والحضارة الإسلامية، بأشكاله الهندسية والوظيفية المتعددة. من المصلّى البسيط إلى المسجد الجامع.

١) تشير كلمة **مسجد** (من حيث الإشتقاق اللغوي) إلى «مكان السجود»، أي المكان الذي تُقام فيه شعائر الصلاة بالتوجّه نحو الكعبة. وكان أوّل نموذج له ذلك الذي أعدّه النبيّ محمّد ﷺ في منزله في المدينة وهو يتألف، بحسب التقليد، من قاعة صلاة يقوم سقفها على جذوع من أشجار النخيل، ومن باحة أكثر اتساعًا. كان مسكن نبيّ الإسلام ﷺ الخاص يُفضي إلى المسجد الذي كان أشبه بقاعة اجتماعات محميّة، لكن غير مقدّسة. ولم تكن تُستخدم للصلاة فحسب، بل أيضًا للخطب التي كان يلقيها المكلّف بإمامة الصلاة يوم الجمعة. حلّ في ما بعد مكان هذا المسجد الأوّلي الذي ضمّ قبور النبي محمّد ﷺ والخليفتين الراشدين الأوّلين، أبي بكر وعمر بن الخطّاب، بناء جرى تعديله مرّات عدّة مكتسبًا، في عهد الأمويين، أوّل مظاهر المسجد الجامع الذي يُعتبر نموذجًا لفنّ العمارة في تلك الحقبة.

كانت كلمة «مسجد» معروفة لورودها في القرآن الكريم حيث تشير، في الآية الأولى من سورة الإسراء، الى موضع الحرم بمكّة المعروف بالمسجد الحرام، ومن جهة أخرى، إلى المسجد الأقصى الذي حُدّد موقعه في وقت مبكر في فناء هيكل أورشليم القديم، وعُرف، في ما بعد، بالحرم الشريف. بهذا المعنى القديم السابق لتنظيم الجماعة المقيمة في المدينة، يعني المسجد مكانًا للعبادة من دون أيّ تحديد آخر. إلّا أنّ مكانًا مخصّصًا للصلاة حُدّدت معالمه، في ما بعد، في مكّة حول الكعبة: كما جرى تشييد مسجد في القدس في المكان المذكور سابقًا أُطلق عليه اسم المسجد الأقصى. ثمّ تكاثرت المساجد خلال فتوحات القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي وتميّزت من بينها المساجد الكبرى أو الجامعة، المسماة أيضًا مساجد الخطبة أو المنبر التي كانت من الإتّساع بحيث تستوعب جميع المؤمنين من سكّان بلدة قدموا لأداء فريضة صلاة الجمعة الإلزاميّة.

إلى جانب هذه المساجد الجامعة، قامت أيضًا في المدن - المعسكرات التي شُيّدت خلال حركة التوسّع الأولى للإسلام، مساجد كان يجتمع فيها بشكل خاص أفراد القبائل المختلفة التي كانت تزوّد الخلافة بالوحدات المقاتلة. وسرعان ما زالت هذه المساجد لتحلّ مكانها قاعات الصلاة المنتشرة في مختلف الأحياء. كما شُيّدت، منذ وقت مبكر، مساجد ذات قيمة تذكاريّة: إحياءً لذكريات من حياة النبيّ محمّد ﷺ في الأماكن المذكورة مثلًا في روايات «السّيرة»، كذلك ذكريات آله وصحبه، وذكريات العلويّين الذين يكرّمهم الشيعة، وذكريات الأنبياء السالفين ومختلف الشخصيّات التقيّة التي أصبحت، منذ القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، مع ازدهار التصوّف، موضوعًا لتكريم الأولياء.

إنّ هذه المباني المتنوّعة الوظائف - حيث تكاثرت الزيارات التقويّة والتي حملت أسماء متعدّدة، منها مقام ومشهد وقُبّة - كانت في الوقت نفسه مساجد مفتوحة للصلاة الفرديّة حملت بحقّ هذه التسمية المشتركة. وفي الوقت نفسه لم يُميَّز بوضوح بينها وبين المساجد المرتبطة بأضرحة، رغم الإدانات الدينيّة الدائمة التي رافقت مفهوم المسجد الضريحي هذا، وقد استُحضرت باستمرار، لهذه الغاية، أحاديث متعدّدة تحثّ الأئمّة على عدم ممارسة أيّ من الشعائر بالقرب من المدافن.

هكذا أصبح تشييد المساجد الصغيرة العديدة المستخدمة قاعات للصلاة والمتزايدة باطّراد - إذ إنّها شغلت مكانًا مهمًّا في بعض المناطق حيث كانت تنتشر حول الطرق الرئيسة في المدن - مظهرًا مميّزًا للمجتمع الإسلامي في القرون الوسطى، وموضوع فخر للحكّام المعروفين بتقواهم الذين ساعدوا على تكاثرها. وقد شُيّد بعضها ضمن مُلكيّات سكنيّة خاصّة أو قرب قاعات الاستقبال في الصروح والقصور، في حين اعتُبر بعضها الآخر أمكنةً عامة أُعدّت داخل الخانات والأسواق المسقوفة والمدارس والخوانق والرباطات والحصون الصغيرة حيث يقيم المقاتلون المولَجون حماية الثغور. وكانت كلّها منظّمة بحسب قواعد الأساليب الهندسيّة المتّبعة في المناطق المعنيّة: بالنسبة الى قاعات الصلاة الملكيّة، كما في مصلّيات قصري الجعفريّة في سَرَقُسْطة ولشكري بازار في سجستان من القرنين

الخامس والسادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، وكما بالنسبة ال المصلّيات المدنيّة المتمثّلة بمسجد بو فتاتة في سوسة من القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، أو مسجد بيت مردوم في طليطلة من القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، والمتمثّلة أيضًا بالمساجد المتأخّرة المكوّنة من قاعة واحدة تعلوها قبّة والتي انتشرت في المدن التي أصبحت في ما بعد عثمانيّة.

تُعتبر هذه المساجد دليلًا واضحًا على الحميّة الدينيّة، وقد أدّى بعضها، بفضل ضخامته، دور المساجد الجامعة كلّما تأمّن تجهيز قاعات الصلاة فيها بالمنابر التي كانت تُلقى الخطب من أعلاها. وعوضًا من أن تكون بناءً تابعًا لمجمّع أكثر أهميّة، غدت قطبًا مركزيًا للأبنية التي كانت تحيط بها، أي الخوانق والمدارس والمستشفيات والمطاعم، وسواها من الأبنية المتداخلة في مجمّعات هندسيّة حقيقيّة، أُطلق عليها في الأوساط العثمانية اسم «كليّات»، وكانت قد بدأت بالظهور في عهد المماليك السوريّين - المصريّين أو في الأناضول في عهد الإمارات. من جهة أُخرى، ظلّت المصلّيات تشكّل جزءًا من التجمّعات المدنيّة والمقرّات الملكيّة، فبلغت مثلًا في القصور المغوليّة قدرًا من الفخامة تشهد عليه مساجد اللؤلؤ في قلعتي أغرا ودلهي.

٢) يتميّز **المسجد الكبير** عن المصلّى بدوره وهندسته، ويُعرف بالعربيّة باسم المسجد الجامع أو الجامع، وباسم مسجد الجُمعة بالفارسية، وباسم «جامي» (Cami) بالتركيّة. ويمكن تحديده بأنّه المسجد الذي يحقّ فيه للمسلمين، يوم الجمعة ظهرًا، إقامة الصلاة بصورة رسميّة، وللإمام إلقاء الخطبة. وهو يجمع، في هذه المناسبة، في مدينة ما، أفراد الجماعة الذكور ويشكّل المظهر الأساسي لحياة هذه الجماعة.

خلال القرون الأولى للإسلام، كان المسجد الجامع يمتاز عن المسجد العاديّ بحجمه وتوافر المنبر فيه، وهذا ضروريّ لإلقاء الخطبة في مستهلّ صلاة الجمعة. ثمّ ظهرت تباعًا خصائص هندسيّة أخرى تلبّي المتطلّبات الطقسيّة أو الوظائف المتعدّدة التي كانت تؤدّى، منذ البدء، من خلال هذا المبنى الذي يُعتبر ضروريًا في كلّ دولة إسلاميّة منظّمة. من هذه الخصائص المحراب والمقصورة والمئذنة وحوض الوضوء الثانوي والمراحيض والمواضع المخصّصة للوضوء الأساسي، والأبنية الملحقة حيث تتمّ أنشطة التعليم وأعمال المؤسّسات السياسيّة والقضائيّة. لكنّ ميزته الأساسيّة، منذ ظهوره في الأمبراطوريّة الناشئة عن الفتوحات الكبرى، تكمن في كونه يشكّل وحده البناء الذي يمثّل قوّة الإسلام السياسيّة - الدينيّة، في ظروف كان من شأنها أن تؤدّي إلى تطوره اللّاحق نحو الضخامة. ومنذ ذلك الوقت فعلًا، جعلت العلاقات التي تربط، في الإسلام، بين السلطة والمسجد الجامع، من هذا المبنى الرسمي أكبر تعبير عن الفنّ الخاص بكلّ أُسرة حاكمة، وفي الوقت نفسه صورة عن مستوى التقدّم التقني والخبرة الفنيّة التي بلغتها كل مدينة إسلاميّة كانت تطمح إلى أن تكون عاصمة أو مركزًا إقليميًّا أو حاضرة بشكل عام.

إنّ نموذج المسجد الذي أقيم في منزل النبيّ محمّد ﷺ في المدينة ليشمل جميع مظاهر الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في هذه الحقبة، وجّه تنظيم الأشكال الهندسيّة الأُولى للمسجد الجامع. أمّا الميزات الخاصّة بالمصلّى المعدّ لاستقبال المؤمنين للصلاة، فلم تُمنح إلّا الاهتمام اليسير في مخططات البناء التي كانت تهدف إلى إبراز شخصيّة الحاكم أو سلطته، وهو في الأصل الخليفة أو من ينوب عنه. وفي الوقت نفسه، كان من شأن هذه المخططات أن تجمع في مكان مركزيّ أدوات الحكم، أي الدوائر الإداريّة وحتّى الماليّة العامة، وأيضًا المحكمة. وكانت تشكّل، في الوقت نفسه، مركزًا للأبحاث المتعلّقة بالفقه وبنشر العلوم الدينيّة والقانونيّة والعقديّة. وبموجب دوره السياسي، جاور مسجد الخطبة في عهد الأمويّين قصر الخلافة الذي التصقت جدرانه بحائط قبلة المسجد، أما في عهد العبّاسيّين والفاطميّين، فكان المسجد الجامع يقع في جوار قصر الخلافة تجمعهما ساحة واحدة، أو أنّه كان يتّصل به بجادة عريضة. وشكّل المسجد خلال فترة طويلة المكان الذي مارس فيه كل أمير حاكم حقّه بإمامة الصلاة، أو بتوجيه رسائله إلى رعاياه مباشرة أو، على الأقلّ،

بواسطة ممثّليه أو الموالين له. وظلّ الدعاء للخليفة الحاكم، حتّى نهاية عهد العبّاسيّين، إشارة إلى إقرار رسمي بسيادته.

كانت النتيجة المباشرة لهذا الوضع أن بُذل اهتمام كبير بالفسحة الوسطى التي تضمّ المنبر والمحراب، في مقابل صحن محوري عريض، مرتفع وكثير الزخرف. كانت هذه الفسحة مخصّصة، في أغلب الأحيان، لظهور الخليفة أو الممسك بزمام السلطة، بشكل علنيّ، ومنها كان يقوم بتصريحاته السياسيّة، كما كان يتقبّل عهد البيعة، بين صفوف من الحرس تحيط بالفسحة الوسطى. وتفسّر العادات نفسها تعيين حدود المقصورة التي تمّ ذكرها لأوّل مرّة في عهد الأمويّين والتي كانت معدّة، بحسب المؤرّخين، لتدارك الاعتداءات المحتملة. وقد اقتُبس، في سوريا الأمويّة، من التصميم «البازيليكي» القديم - الذي اعتُمد أيضًا في قاعات الاستقبال الملكيّة المجهّزة بمحراب - تنظيم القاعة الواسعة والمسقوفة حيث يجتمع المؤمنون. وقد نشأ أيضًا تنوّع هندسيّ، من مظاهره المقصورة التي تعلوها قبّة، والإيوان الضخم، ومجموعة من الأقواس والقباب التي تتلاقى في وسط حائط القبلة وفقًا لتنسيق متنوّع، والقبّة الشاسعة التي تعلو قاعة الصلاة بكاملها، وهي أشكال أفضت من خلال تنوّعها إلى نشوء نماذج إقليميّة من المساجد الجامعة سعت إلى التميّز والمحافظة على وضعها، وفقًا للأسلوب الفني السائد، بصفتها أبنية ملكيّة تساهم في تمجيد عظمة الأمير، بقدر ما تساهم في تمجيد عظمة الإسلام. لذلك نشأت علاقات معماريّة دائمة بين المسجد الجامع القائم في المدينة والقصر: فكلاهما كان يُستخدم لإحياء مظاهر إحتفاليّة علنيّة تأكيدًا لعظمة الحكّام. لكنّ هذه المظاهر كانت تجري، في الحالة الأولى، علنًا أمام الشعب، بينما كانت، في الحالة الثانية، مخفيّة وراء الستائر والإجراءات الخاصة بمراسم البلاط.

لم يؤدِّ وجود بعض الدوائر - الدواوين الماليّة بشكل خاص - التابعة للحكومات الإسلاميّة الأولى في المساجد الجامعة، إلى تأثيرات مهمّة على الصعيد البنيوي، لأنّه لم يستمرّ طويلًا. ولم يبقَ منها أيّ أثر من العهد الأموي سوى بعض الأبنية الصغيرة المشيّدة في أفنية بعض المساجد، والمحاطة بأعمدة والمتوّجة بقبّة، كانت تُستعمل لحفظ الغنائم والموارد الضريبيّة العائدة للدولة. كما أنّ متطلّبات القضاة الذين كانوا يُصدرون أحكامهم في المسجد الجامع حيث كانوا يستدعون المتقاضين، كانت تقتصر على الجلوس في مكان ثابت، في قاعة الصلاة أو في ظلّ رواق، على غرار قرّاء القرآن ومفسّريه ورواة الحديث وأساتذة الفقه، وسواهم من المدرّسين من جميع المستويات، الأساسيّة والعالية.

لم تؤثّر هذه العادات بدايةً على تصميم البناء أو على حجمه، لكنّها ساهمت في محافظته على هيبته على مرّ القرون ومكّنته من التوفيق، في قلب كل مدينة، بين دوره كبناء جماعي، ودوره الآخر كمؤسسة ملكيّة. إلّا أنّها أدّت بشكل خاص، على المدى الطويل، إلى اعتماد صيغ معماريّة جديدة وفقًا لتشتّت أو لتجمّع الوظائف التي كان يؤدّيها المسجد، وقد اختلفت هذه مع الحقب التاريخيّة المتتالية. كما أدّت ضرورات المهمّات التدريسيّة في بادئ الأمر، بعد ثلاثة قرون أو أربعة، إلى إنشاء مؤسّسات مميّزة كالكتاتيب والمدارس، استقرّت تارة في بعض أقسام المسجد - ونرى ذلك مثلًا في أصفهان - وتارة في أبنية منفصلة لكن متجاورة، كما في آمد/ديار بكر، أو إنّها شيّدت مستقلّةً داخل أسوار المدينة أو خارجها. لكنّ هذه الأبنية المتعدّدة النّوع، المخصّصة لاستقبال الطلّاب وأساتذتهم والتي شهدت، على غرار الخوانق، رواجًا متزايدًا بصفتها مؤسّسات خيريّة قائمة على سخاء المانحين، لم تكتفِ بأن تشغلَ موقعًا متزايد الأهميّة في تطوّر الهندسة المعماريّة الإسلاميّة الدينيّة في القرون الوسطى، بل إنّها، بعد أن اكتسبت صفاتها المميّزة خارج المساجد الجامعة الأولى، عادت، خلال القرون الوسطى المتأخّرة، للانضمام إليها ضمن مجمّع هندسي ضخم حمل في الأوساط العثمانيّة اسم كُلّيّة.

٣) تُعتبر أكثريّة **المساجد الجامعة الأمبراطوريّة**، أو السلطانيّة تحديدًا - التي تتوّج تلال إسطنبول والتي تضمّ، حول هياكلها الضخمة المزوّدة بالقباب، أبنية ثانويّة عديدة، يتطابق كلّ منها مع أحد أنشطة المسجد

الجامع السابقة - من أبرز روائع الحقبة الثالثة التي خلّفت نجاحات المماليك في القاهرة خلال القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر الميلاد، كما نجاحات العثمانيّين الأوائل في بورصه وأدرنة. لكنّ هذا لم يمنع مساجد كبيرة أخرى، لا ملحقات لها ولا أبنية ضخمة، من استقبال رجال الدين والعلماء في سبيل نشر العلم وإلقاء العظات؛ وهذا ما يفسّر استمراريّة الشهرة التي تمتّعت بها المساجد الجامعة القديمة، مثل المسجد الأزهر في القاهرة ومسجد القرويّين في فاس أو مسجد الزيتونة في تونس، بصفتها مراكز تعليميّة.

وفي أماكن أخرى تزامنت التغييرات اللّاحقة التي ربطت المسجد الجامع بالمدرسة أو بالكُلّية، مع تزايد عدد هذه الأبنية. وكانت هذه الأبنية قد شيّدت أو جُهّزت في أوائل أيّام الإسلام، بمعدّل مبنى واحد لكلّ مدينة، في جميع المدن التي تمّ فتحها أو تأسيسها، والتي كانت صلاة الجمعة فيها إلزاميّة - وفقًا للأصول السائدة - لدى توافر أربعين مسلمًا على الأقلّ. وكانت المدرسة الشافعيّة، بشكل خاص، ترفض الإقرار بأكثر من مسجد جامع في المدينة الواحدة. بقيت هذه الإجراءات سارية المفعول في المدن المتوسطة؛ ولكن سرعان ما تمّ التخلّي عنها في الحالات الأخرى. فكانت حاضرة كبغداد مثلًا، المكوّنة من تجمّعات سكنيّة عدة، مزوّدة منذ البدء بمسجدين جامعين، واحد على كل من ضفّتي دجلة، وبلغ عددها أربعة مساجد في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، قبل أن يتزايد في ما بعد. كما كانت الحال نفسها في القاهرة التي تكوّنت أيضًا من تجمّعات سكنيّة عدّة متتالية والتي شهدت انطلاقتها الأساسيّة خلال حُكم الفاطميّين الإسماعيليّين الذين لم يتقيّدوا مطلقًا بالأنظمة الشافعيّة.

وفي الوقت نفسه كان الأسلوب المعماري الخاص بالمسجد الجامع «الكلاسيكي» الأموي والعبّاسي - الذي غالبًا ما يوصف بالعربي بالرغم من انتشاره في أصفهان أو القيروان أو قرطبة، كما في بغداد - يتطوّر على الصعيد البنيوي، ما عدا في الأندلس والمغرب؛ مع بعض المتغيّرات المحليّة. واعتُمدت أشكال جديدة في العالم التركي - الإيراني وفي المناطق الأكثر بعدًا، ما يسمح لنا بالكلام عن المسجد التركي والهندي والإندونيسي والصيني، أو السلجوقي والعثماني والمغولي، الخ. إنّ دراسة هذه الصيغ، إذا ما تمّ تحديد العناصر المشتركة الناتجة عن استمراريّة وظيفيّة، غير مرتبطة بمسألة المسجد بقدر ما هي مرتبطة بالأبحاث المتعلّقة بتطوّر الفنّ والعمارة الإسلاميّة في مختلف مراكز الحضارة المعنيّة. وكانت هذه المراكز تلجأ في كلّ مرّة إلى مجموعة أُسس خاصّة بها وإلى التأثيرات التي خضعت لها، بما يناسب مميّزاتها العرقيّة والجغرافيّة، فظهرت الحصيلة في إنجازاتها المعماريّة التي أتت تعبيرًا عن تاريخها السياسي وعن الاهتمام بالفنون الذي أبداه حكّامها.

◄ راجع المستندات رقم ٣٩، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٥٢، ٦٧، ٦٩، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٧ الى ٨٢، ٨٥ و٨٦.

المسجد الأقصى، تعبير مستعار من نص القرآن ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء، ١).

بالمعنى الواسع، كانت هذه العبارة أقدم اسم عربي أعطاه المسلمون للمساحة التي كان يقوم عليها، في القدس، منذ القرن الأوّل للهجرة، هيكل هيرودوس القديم، والتي أشير اليها في ما بعد بعبارة «الحرم الشريف» التي لا تزال قيد الاستعمال. يضمّ الحرم في وسطه مسطّحًا مرتفعًا يقوم عليه الرمز العظيم الذي تشكّله قبّة الصخرة. والحرم هو مساحة مربّعة الشكل، أضلاعها قليلة الانحراف، يبلغ طولها ٥٠٠م وعرضها ٣٠٠م تقريبًا. تعود الأبنية الرئيسة القائمة عليها إلى عهد الأمويّين، وقد أُجريت عليها، عبر العصور، تعديلات عدّة، لا سيّما في عهد المملكة اللاتينيّة في القدس، وبعد أن استعاد صلاح الدين المدينة في العام ٥٨٣هـ/١١٨٧. وجرت أيضًا إضافات أخرى في عهدي المماليك والعثمانيّين شوّهت الواجهتين الشماليّة والغربيّة للحرم، في المكان الذي يتّصل فيه مباشرةً بالمدينة. إنّ الأبحاث الأثريّة الحديثة التي أُجريت حتّى الآن هي غير كافية، ومن الصعب إجراء المزيد منها داخل حرمٍ كهذا، وهي ثانيًا لا تسمح ببلورة التاريخ

الهندسي للمباني؛ بينما الحفريات الخارجيّة، التي انطلقت منذ خمس عشرة سنة تقريبًا، تسمح بإلقاء الضوء على هذا التاريخ خارج الواجهة الجنوبيّة، وقد مكّنت هذه من الكشف عن الأساسات التي كانت مطمورة.

أما بالمعنى الضيّق الذي درجت عليه العادة، فلا تنطبق عبارة المسجد الأقصى اليوم إلّا على المسجد الجامع المشيّد على القسم الجنوبي من الموقع المذكور، فوق النفق الذي كان يصل المدينة الأمويّة الموجودة في الأسفل بالمكان المقدس. هذا المسجد الجامع، ذو الشكل الرائع، الذي شُيّد في عهد الخليفة الأموي وليد الأوّل، بين العامين ٨٦ و٩٦هـ/ ٧٠٥ و٧١٥م، قبالة قبّة الصخرة التي تشكّل معه مجموعة هندسيّة، كان يضمّ عددًا وفيرًا من الأجنحة المتعامدة مع حائط القبلة، على جانبي جناح محوريّ وسطيّ. ولكنّ المسجد صمد بصعوبة أمام الدمار المخرّب الذي عاناه لاحقًا: زلزالان في ١٣٠ و٤٢٤هـ/ ٧٤٨ و١٠٣٣م؛ ترميمات في العهدين العبّاسي والفاطمي، تغييرات في العهد الصليبي، وإصلاحات أخرى في العهد الأيّوبي وبعده. هكذا اختلّ التوازن الهندسي لبناء خسر من مساحته، ولكنّه احتفظ، على الرغم من ذلك، بنقوش خشبيّة من العصر الأموي واستفاد، في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر، من زخرفات رائعة في تزيينه الداخلي، إذ أُضيفت إليه بنوع خاص فسيفساء جدرانيّة على أرضيّة ذهبيّة.

◄ راجع المستند رقم ٩٠.

المسجد الحرام ← الكعبة، مكّة.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، ٢٨٠ - ٣٤٥هـ/ ٨٩٣-٩٥٦م. ناثر عربي معروف كواحد من أبرز ممثّلي الأدب، وقد ترك أيضًا أعمالًا مهمّة، كمؤرّخ وجغرافي.

وُلد في عائلة عربيّة من العراق تقول إنّها متحدّرة من ابن مسعود، أحد أفراد صحابة النبيّ محمّد (ﷺ). تلقّى المسعودي دراسته في بغداد على أيدي أساتذة معروفين، ثمّ قام برحلاتٍ عدّة، من دون أن تُعرف مصادر أمواله. والظاهر أنّه، في العام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، وضع في مصر مؤلّفه الأشهر، «مروج الذهب»، الذي أعاد النظر فيه في العام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م. ومع أنّه ترك مؤلّفات أخرى استوحى بعضها من قناعاته الشيعيّة الإماميّة، وتُعتبر اليوم مفقودة، فإنّ المسعودي يدين باسمه وبشهرته كعالِم ذي عقل راجح لذلك المؤلّف الواسع الذي يتضمّن قسمين: الأوّل، بعد أن يأتي على ذكر تاريخ الأنبياء، يعطي خصوصًا معلومات تتعلّق بالكون وبالجغرافيا، في حين أنّ الثاني يبدو كتاريخ لعالم الإسلام منذ النبي محمّد ﷺ حتى الخليفة المطيع من سلالة العبّاسيّين. ويبدو أنّ الكتاب هو ملخّص لعمل أكثر تفصيلًا لم يصل إلينا. والمسعودي هو أيضًا مؤلّف كتاب صغير يقدّم معلومات جغرافيّة وتاريخيّة، هو «كتاب التنبيه والإشراف» الذي يبدو أنه وضعه قبل موته بقليل.

مسقط (سلطنة عُمان)، مدينة ومرفأ في الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربيّة، تقع على خليج عُمان. شكّلت، منذ القرن الثامن عشر، مركزًا لأنشطة سلاطين مسقط، وهي العاصمة الرسميّة للدولة العُمانيّة المعاصرة.

١ - لم يكن لمسقط أيّ تفوّق تجاري في القرون الوسطى، في حين كانت المنطقة تشهد ازدهار مدن بحريّة أخرى مثل صُحار وقلحات. احتلّ البرتغاليّون مسقط في العام ١٥٠٧، وقد أُعجبوا بموقعها الإستراتيجيّ، لا سيّما بعد أن استعاد الصفويّون منهم موقع هرمز/بندر عبّاس. في العام ١٦٤٩ استولى الإمام اليَعْرُبي على هذا الموقع المحصّن، وطوّرت سلالة الحكّام الجدد لحسابها أنشطة تجاريّة مع الهند وأفريقيا الشرقيّة السوداء. ثمّ اضطرّ هؤلاء الحكّام، خلال مرحلة عمّت فيها الفوضى، إلى ترك السلطة لآل بو سعيد أو «سلاطين مسقط» الذين جعلوا من المدينة، منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر: مركزًا للرحلات البحرية البعيدة ومحطّة غنيّة لتوقّف السفن يصعب الوصول إليها من جهة البرّ.

لأسباب عديدة، ضعفت سيطرة العرب على حركة الملاحة في المحيط الهندي. وكانت مسقط قد حافظت لفترة على هذه السيطرة، بفضل الدعم البريطاني لها.

انتقلت السيطرة بعد ذلك إلى زنجبار حيث تولّى الحكم، بعد العام ١٨٥٦، فرع من سلالة «بو سعيد». عرفت مسقط إثر ذلك انحطاطًا بطيئًا، قبل أن تصبح تقريبًا خارج دائرة التبادل التجاري. وظلّت مقرًّا لسلاطين يتمتّعون بسلطة محدودة داخل بلد منقسم، ولم يصلها التحديث إلّا بعد أن تولّى العرش، في العام ١٩٧٠، السلطان الحالي المصلح قابوس بن سعيد. ولكنّ وضعها كعاصمة، وقد احتفظت به، يبقى نظريًّا نوعًا ما أمام الازدهار الحديث الذي تشهده مدينة صلالة، مقرّ الحكومة التابع لمقاطعة ظفار.

٢ تدلّ تسمية «سلاطين مسقط» أو «أسرة بو سعيد» منذ ١٧٤١ على السلالة التي اتّخذت من مسقط عاصمةً لها، والتي أشرفت على الشواطئ الأفريقيّة للمحيط الهندي إلى أن تحوّل أفرادها إلى حكّام منطقة عُمان دون سواها.

إنّ آل بو سعيد الذين يذكرون لغاية اليوم أصلهم القبلي والذين أحبّوا أن يحملوا لقب «السيّد»، عرفوا، منذ القرن الثامن عشر، تاريخًا حافلًا بالتغيّرات. في المرحلة الأولى، استولى أحمد بن سعيد على السلطة خلفًا لليعْربيّين إبّان فترة من الفوضى المحليّة، وورث عن هؤلاء الأئمّة أنشطتهم التجاريّة في المحيط الهندي. بلغت تلك المرحلة أوجها في بداية القرن التاسع عشر، في عهدَي سلطان بن أحمد وابنه سعيد. لقد اهتمّ الأوّل باستثمار طريق الهند البحريّة بالتنافس مع إيران؛ أمّا الثاني فوظّف تحالفه مع البريطانيّين لتوسيع أمبراطوريّته الإستعماريّة في أفريقيا السوداء الشرقيّة.

بعد وفاة سعيد سنة ١٨٥٦ واقتسام ممتلكاته بين ولديه، بدأت مرحلة ثانية ضعُف خلالها نفوذ أسياد مسقط الذين كانوا قد تخلّوا، لفرع سلاطين جزيرة زنجبار، عن الإشراف على الموارد التجاريّة الأكثر غنًى وامتلاك الجزيرة المذكورة، الغنيّة بالمنتجات الطبيعيّة. في عُمان، حيث تفشّت الصراعات الداخليّة على شكل حركات انفصال وتمرّد، لم يتعاقب على السلطة إلّا حكّام ضعفاء. يضاف إلى ذلك أنّ إمكانيّاتهم الماديّة كانت محدودة بسبب تراجع مدينة مسقط. منذ العام ١٩٧٠، بدأت مرحلة ثالثة من تاريخ آل بو سعيد، مع ارتقاء السلطان الحالي، قابوس بن سعيد، العرش، ومع نجاح جهوده لتحديث بلاده بفضل الإمكانيّات التي توفّرها الموارد النفطية الجديدة.

أحمد بن سعيد	١٧٤١ - ١٧٨٣
سعيد بن أحمد	١٧٨٣ - ١٧٨٦
حميد بن سعيد	١٧٨٦ - ١٧٩٢
سلطان بن أحمد	١٧٩٢ - ١٨٠٦
سليم بن سلطان	١٨٠٦
سعيد بن سلطان	١٨٠٦ - ١٨٥٦
ثُوَيْني بن سعيد	١٨٥٦ - ١٨٦٦
سالم بن ثويني	١٨٦٦ - ١٨٦٨
عزيز بن قيس	١٨٦٨ - ١٨٧٤
تركي بن سعيد	١٨٧٤ - ١٨٨٨
فيصل بن تركي	١٨٨٨ - ١٩١٣
تيمور بن فيصل	١٩١٣ - ١٩٣٢
سعيد بن فيصل	١٩٣٢ - ١٩٧٠
قابوس بن سعيد	١٩٧٠ -

المسكوكات الإسلاميّة، قطع معدنيّة ذهبيّة، فضيّة وبرونزيّة استُخدمت في الدول الإسلاميّة حتّى فترة التحوّلات المعاصرة، ارتبط ضربها بمفهوم انتقال السلطة الشرعيّة في الإسلام، وظهرت أُولى نماذجها في الأمبراطوريّة الناشئة عن الفتوحات الكبرى.

إلى الحقبة الأساسيّة التي نتج عنها النظام المالي الذي اعتُمد في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، تعود مميّزات القطع المضروبة منذ ذلك الوقت، وقد استمرّت هذه المميّزات، بالرغم من التغيّرات الناتجة عن تبدّل الملوك والسلالات. وتكمن الميزة الأساسيّة، في كون ضرب العملة أو السكّة امتيازًا ملكيًّا، ما فرض إلزاميًّا ومنذ أوائل عهود الإسلام، ووفقًا للتقاليد المحدّدة في عهد العبّاسيّين، وجود إسم الخليفة على كافة العملات المضروبة في مختلف مشاغل المنطقة الخاضعة لسلطة الخلافة. وكان يجوز إتباع اسم الخليفة باسم الوزير، بينما كان اسم الحاكم يُدرج على الظهر. وكان التقيّد بهذا الإلتزام يشكّل إقرارًا بالولاء الذي فرضته الإدارة الخلافيّة على أسياد الحرب وغيرهم من الأُمراء شبه المستقلّين الذين كانوا يطلبون من الخليفة تكريس سلطتهم على الصعيد الشرعي الإسلامي.

أمّا في ما يتعلّق بأنواع القطع النقديّة المضروبة، فالدولة العربيّة-الإسلاميّة اعتمدت، في وقت مبكّر، المسكوكات التي كانت متداولة في المناطق التي تمّ فتحها، أي في مقاطعات الأمبراطوريّتين البيزنطيّة والسّاسانيّة. ويبدو، فضلًا عن ذلك، أنّ المسكوكات البيزنطية كانت متداولة في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، إذ إنّ القرآن الكريم يُشير إلى ذلك. سُكّت قطع نقديّة جديدة بأمر من الخلفاء الأمويّين الأوّلين، وكانت تُقلّد المسكوكات البيزنطيّة أو الساسانيّة، مع بعض التعديلات: حمل بعضها المصنوع من الذهب مثلًا رسم هرقل، بعد إزالة كلّ رمز مسيحي عنها وإضافة شعائر إسلاميّة بالعربيّة، بينما قلّد آخرون في المغرب المسكوكات البيزنطيّة المزوّدة بكتابات باللغة اللاتينيّة. لكنّ الخليفة المرواني عبد الملك أقدم، إبتداء من العام ٧٧هـ/ ٦٩٦م، على إجراء إصلاح للمسكوكات، حدّد من خلاله وزن الوحدات الجديدة، وأمر بضرب قطع نقديّة خالية من الرسوم، ومزينة حصريًّا بكتابات عربيّة مرمّزة، تميّز تخطيطها بأشكال مركّبة هي غاية في التناغم، كلّ ذلك تقيّدًا بمبادئ الاسلام التي تحرّم التجسيم.

حُدّد عندئذ الدينار الذهبي (dênarion باليونانيّة وdenarius باللاتينيّة) بوزن ٤٫٢٥ غرامات بدلًا من ٤٫٥٥ غرامات للقطعة البيزنطيّة السابقة المسمّاة «سوليدوس» أو الدينار الذهبيّ، وكان هذا الوزن يعادل ٢٠ قيراطًا، علمًا أنّ القيراط كان يشكّل وحدة الوزن المعتمدة في العالم السوري - العربي. من جهة أخرى، تمّ تحديد وزن القطعة الفضيّة أو الدرهم (دْرَخما باليونانيّة) بـ ٢٫٩٧ غرام، بدلًا من ٤ غرامات بالنسبة الى القطعة الساسانيّة السابقة. وكان هذا الوزن يمثّل سبعة أعشار المثقال الذي يعادل وزنه وزن الدينار، وفقًا للقيمة النسبيّة المشار إليها في المصنّفات النظريّة. وهكذا أبقى الخليفة على نظام يعتمد على معدنين، ناتج عن إرث الحضارات السابقة: الحضارة البيزنطيّة التي اعتمدت المسكوكات الذهبيّة، والأمبراطوريّة الساسانيّة التي استخدمت قطعًا نقديّة فضيّة. وكانت نسبة الدرهم إلى الدينار محدّدة بـ ١ إلى ٢٠، لكنّها تغيّرت لاحقًا وفقًا لظروف متعدّدة. وكان عيار الدينار خاضعًا في الواقع للتغيير، إذ عمد بعض الملوك، ولا سيّما البويهيّين والأيوبيّين، إلى ضرب عملة ذات عيار ضعيف، ما أدّى إلى نوع من التخفيض في قيمة الدينار المتداول.

عندما أقدم عبد الملك على سكّ قطعه النقديّة الجديدة، إستبدل بالرسوم المقتبسة من صورة الامبراطور البيزنطي على القطع الذهبيّة ومن صورة الملك الساساني على القطع الفضيّة، صيغًا منقوشة اعتمدت حروف كتابة عربيّة نظاميّة، فرضها أيضًا على كتّاب الإدارة وأعطاها مكانتها الرفيعة باستعمالها على الأنصاب والأبنية. وكانت أقدم النصوص الواردة على المسكوكات تتألف من آيات قرآنية ومن نص الشهادة، إضافة إلى تاريخ الضرب ومكانه. ولم يظهر إسم الخليفة على وجه القطع النقديّة إلّا في أواخر القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، قبل أن تنتشر عادة ذكر أسماء أُخرى، من حكّام وأُمراء محلّيّين وسلاطين في ما بعد - وفقًا للقواعد السياسيّة المتعلّقة بحق السكّة المذكورة أعلاه - إضافة إلى مكان الضرب وزمانه.

هذه النصوص المنقوشة التي اعتمدت صيغًا وألقابًا مختلفة، وفقًا للتحوّلات التاريخيّة التي طبعت العالم الإسلامي، لم يكن الهدف منها في البدء سوى الحلول مكان النصوص الفهلويّة على القطع الساسانيّة، والنصوص اليونانيّة أو اللاتينيّة على القطع البيزنطيّة. وشهدت في ما بعد تحوّلات وتطوّرات فنيّة رافقت مختلف مراحل تطوّر الكتابة العربيّة، كما عكست العادات الزخرفيّة الخاصة بالمراكز الثقافيّة حيث كانت تُضرب العملة. أمّا في ما يتعلّق بالصور المنقوشة، فقد أُزيلت عن المسكوكات ولم تُستعمل سوى على بعض نماذج من الميداليّات حملت صور الخلفاء العبّاسيّين، وعلى النقود المعدنيّة التي ضربتها سلالة الأرتقيّين في بلاد ما بين النهرين العليا. إنّ ملوك هذه السلالة، لأسباب لا تزال مجهولة، استوحوا في سكّ قطعهم المعدنيّة، في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ممّا رأوه على القطع النقديّة المسيحيّة المتداولة في منطقتهم.

مِسْكَوَيْه، أبو علي أحمد بن محمّد، ؟ - ٤٢١/هـ؟ -

١٠٣٠م، مفكّر وأديب إيراني الأصل، من أشهر ممثّلي التطوّر الثقافي في الأمبراطوريّة العبّاسية خلال سيطرة البُوَيهيّين.

ولد في الرّي، في عائلة حديثة العهد بالإسلام، واسمه بالفارسيّة مِسْكُويَه وتوفيّ في أصفهان بعد أن تولّى مكتبة الوزير ابن العميد، وكان مقرّبًا من الأمير البويهي علاء الدولة. وفي حين خلّف وراءه بعض الآثار ذات المنحى الفلسفي، المتأثّر بتراث الأوائل، وبخاصة بالتراث الهلّيني، فإنّه اشتهر، بشكل خاص، كمؤرّخ.

إنطلاقًا من تأمّلات شخصيّة في معظم الأحيان، وضع بحثًا في علم الأخلاق هو «كتاب الأخلاق» المستوحى في آن واحد من كتاب أرسطو «علم الأخلاق المُوجّه إلى نيقوماخوس» ومن كتابات الأفلاطونيّة الجديدة. ومن خلال فلسفته الأخلاقيّة البعيدة الأثر حدّد الفضيلة بقوله إنّها الوسط بين غيّيين وتكلّم عن ثلاث فضائل أساسيّة هي الحكمة والشجاعة والاعتدال، يؤدي اتحادها إلى العدالة. كان أثره التاريخي المسمّى «تجارب الأمم»، الذي تضمّنت أجزاؤه الأخيرة وصفًا حيًّا للحياة السياسيّة في بغداد في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بمثابة تاريخ عام للبشريّة ذي منحًى أخلاقي، وقد شدّد على النتائج المشؤومة الناتجة عن التدابير المخالفة لتحكيم العقل، وعلى صفات رجل الدولة المثالي. استكمل هذين الكتابين بمصنّف أسماه «الحكمة الخالدة» ضمّنه الأمثال والحِكم المتوارثة عن شعوب مختلفة، ولا سيّما اليونانيّة والإيرانيّة والهنديّة، إضافةً إلى الشعوب العربيّة في المرحلة السابقة للإسلام وخلال الحقبة الإسلاميّة.

وكان مسكويه - الذي التزم المعتقدات الشيعيّة الطاغية في ذلك الوقت في الأوساط الحاكمة التي كان يرتادها - يسعى إلى تقديم الدليل على أنّ الإسلام، بحسب المفهوم الشيعيّ، يستوعب مضمون تجارب الأوائل في مجال الحكمة ويصهرها في بوتقته على أحسن وجه. وقد تلتقي، حول مفهوم الحكمة هذا، المدارس المختلفة، ذات الطابع شبه الرسمي، المشبّعة بالعلوم الباطنيّة.

مُسلم بن الحَجّاج، أبو الحسين القُشَيْري النيسابوري، ٢٠٢-٢٦١هـ/ ٨١٧ - ٨٧٥م، محدّث ومؤلّف أحد المصنّفات الستّة الصحيحة للحديث النبويّ.

ولد مسلم في نيسابور وتجوّل في مختلف البلدان لجمع الأحاديث التي كانت تبدو له صحيحة. إنّ العمل الضخم الذي وضعه والمعروف، على غرار عمل البخاري، باسم «الصحيح»، يتضمّن عددًا كثيرًا من الأحاديث موزّعة على اثنين وخمسين كتابًا، خُصّص كل منها لإحدى مسائل الفقه أو علم الكلام المهمّة. وتميّز عمله عن الأعمال الأخرى المماثلة بمقدّمته التي تتطرّق إلى علم الحديث وبفصل تمهيدي يعالج مسألة الإيمان، وهو يشكّل إحدى أقدم الدراسات في علم الكلام الإسلامي.

مسلمة بن عبد الملك، ؟ - ١٢١هـ/ ؟ - ٧٣٨م، أمير أموي وقائد عسكري، قاد أهمّ حصار قامت به، في ذلك العصر، الجيوش العربيّة - الإسلاميّة للقسطنطينيّة.

والده الخليفة عبد الملك وأمّه جارية، الأمر الذي استبعده عن خلافة العرش. إلّا أنّه تميّز بحملاته العسكرية؛ وقد كُلّف بحملات الجهاد الموسميّة ضدّ البيزنطيّين في الأناضول إبتداءً من سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م. بصفته حاكمًا لأرمينيا وآذربيجان، احتلّ مدينة باب الأبواب على ساحل بحر قزوين ودمّرها، ثمّ أعاد بناءها وحصّنها لاحقًا، في العام ١١٢هـ/ ٧٣٠م. في ٩٩-١٠٠هـ/ ٧١٧ - ٧١٨م، قاد الهجوم البري والبحري ضدّ القسطنطينيّة، ولكنّه فشل بسبب استخدام النار الإغريقيّة من قِبل المدافعين عن المدينة. استُبعد مسلمة في نهاية عهد يزيد الثاني، ثمّ استدعاه الخليفة هشام وأوكل إليه ثانيةً حكم أرمينيا وأذربيجان. في العام ١١٤هـ/ ٧٣٢م، انسحب إلى شمال سوريا حيث توفي بعد بضع سنوات.

المسلمون السود، إسم أُطلق على طائفة أميركيّة سوداء تدين بالإسلام، ظهرت في الولايات المتّحدة الأميركيّة في بداية القرن العشرين.

أسّسها أليجاه محمّد في الثلاثينات من القرن المذكور. أكّدت هذه الطائفة، التي تأثّرت بحركتَيْن حديثتَين منبثقتين من الأحمديّة، تفوّق العنصر الأسود على الأبيض. في الوقت نفسه، تبنّت نظرية الأحمديّة

التي تقول إنّ المسيحيّة مُوحى بها من المسيح الدجّال الوارد ذكره في الأخرويّات الإسلاميّة.

منذ ١٩٧٥، تاريخ وفاة مؤسّسها، تخلّت هذه الطائفة عن آرائها المتطرّفة، واتّخذت اسم «رسالة المسلمين الأميركيّين»، وأرسلت طلّابًا إلى المراكز الثقافية الإسلاميّة في القاهرة والمدينة المنوّرة. ومن الصعب اليوم تقدير عدد المنتسبين إليها ومدى تأثيرها.

مَسّينا، منطقة في وادي النيجر الأعلى، تقع إلى الشمال الشرقيّ من سيغو (Ségou) كانت، في بداية القرن التاسع عشر، مركزًا لإحدى أمبراطوريات الفُلبة (Peuls) الجهاديّة.

في تلك الأراضي بدأ الفلبة الآتون من فوتا تورو بالتسلّل، إبتداء من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، إلى داخل مملكتي مالي والصُنغاي. هنا أقام القائد العسكري الصوفي، من الطريقة القادريّة، شيخُو أحمدو المولود سنة ١٧٧٥، حكمه الخاص، إبتداء من العام ١٨١٥، بعد ان ركّز عاصمته في حمدالله سنة ١٨٢١، ووسّع ممتلكاته من جني إلى تومبوكتو. ضَعُفت دولته التيوقراطيّة في أيام خلفائه، ثمّ دُمّرت عندما فتحها قائد عسكري جديد من أصل تكروري ومن اتباع التيجانيّة، هو الحاج عمر تل، الذي انتصر على مَسّينا في العام ١٨٦٢.

◄ راجع المسند رقم ٢٩.

المُشَتّى، قصر من عصر الأمويّين اعتُبرت أنقاضه، المحفوظة في المملكة الأردنيّة الهاشميّة، ومنذ اكتشافها في نهاية القرن التاسع عشر، واحدًا من أشهر المواقع الأثريّة في هضبة مؤاب القديمة.

وتتميّز أطلال هذا البناء الكبير بمقاييسها وبانتظامها الهندسي لجهة التصميم الأساسي ولحالة عدم الاكتمال التي بقيت عليها حين توقّف العمل فيه: مربّع ضلعه ١٤٤ مترًا، حدوده سور مزروع بأبراج مثل بقية القصور الملكيّة الأمويّة، تمّ تقطيعه إلى أقسام ثلاثة منتظمة، ورُسم مخطّطه الذي اعتُمد لإنجاز قسم من عمليّات البناء، تلك التي، في آخر الباحة الكبرى الرئيسة، تنتظم حول قاعة اجتماعات ضخمة مصمّمة على شكل بازيليك. وكانت تلك القاعة المخصّصة لاستقبال الاحتفالات البلاطية تحظى بعظمة مهيبة، وهي مزوّدة في آخرها بثلاثة محاريب موزّعة على شكل ورقة النفل (المثلثة)، وتقوم من جهة وأخرى في تلك القاعة، وبشكل متوازٍ، أربعة أجنحة متماثلة مخصّصة للإستقبال والسكن، إنسجامًا مع المعايير التي كانت سائدة يومها والتي كانت تنظّم حول هذه المساحة الوسطيّة أربع صالات مستطيلة.

مقابل هذا القسم الرئيسي المخصّص لاستخدام سيّد المكان، والذي تمّ بناؤه وفق تقنيّات الأجرّ، وكان مزوّدًا بقناطر ومسقوفًا على طريقة الأبنية الساسانيّة، كان هناك قسمٌ آخر شُيّد بحسب المفهوم الكلاسيكي، مع القناطر المثلّثة القائمة على قواعد حجريّة تتوّجها زهرة الأقنْثية، وهو يُشير إلى مدخل القصر المهيب. وإلى التقاليد الآتية من العصور الكلاسيكيّة القديمة تنتمي مجموعة النقوش البارزة المنحوتة في الحجر والتي تزيّن قواعد أبراج واجهة المدخل. هذه النقوش البارزة كانت تحيط في الماضي بالبوابة الكبرى التي تنفتح في السور وتسمح بالدخول إلى أولى مجموعات البناء حيث نستطيع أن نُميّز حصرًا الموقع المدمّر للمسجد الجامع داخل القصر. ولقد تمّ نقل هذه النقوش، بعد اكتشافها بقليل في القرن التاسع عشر، إلى متحف برلين، ما سمح بأن تحظى بدراسات خاصّة قام بها مؤرّخو الفنّ. أمّا أسلوبها المشبّع بالتأثيرات الأغريقيّة التي تظهر من خلال غصون الدالية التي تكسو عمق اللوحات المثلّثة، كما من خلال الديكورات الطبيعيّة المذهلة حيث الحيوانات والعصافير التي تختبئ في أوراق الشجر، فقد جعل البعض ينسبون هذا الصرح إلى مرحلة ما قبل الإسلام. في الواقع إنّ الفائدة الكبرى من هذا المبنى الملكي الذي كان يُفترض أن تضاف إليه، في الأجنحة غير المبنية، أقسام مشتركة ومبانٍ أخرى ملحقة، تكمن في أنّه يمثل، في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، في عهد الأمويّين، نموذجًا أوّل للقصور الملكيّة الإسلامية التي ستزدهر في زمن الخلافة العبّاسيّة لتقوم آنذاك بوظائف «المدن الملكية» الباذخة.

◄ راجع المستندين ٩ و٤٢.

مشهد، نصب أو مكان تذكاري يدلّ اسمه على «مكان شهد فيه شخص على إيمانه» الإسلامي.

بصورة عامّة، تُستخدم لفظة مشهد عند الجغرافيّين العرب في القرون الوسطى وعند الذين يدرسون أصول الأسماء الجغرافيّة للدلالة، على حدّ سواء، على قبر شهيد، أو على مزار يُحفظ فيه تذكار، وأحيانًا على قبر نبي أو وليّ، على قبر شيخ أو أيّ رجل تقيّ أو عالم وفاضل، وأخيرًا على قبر إمام علويّ قضى عنفًا. ونشاد أحيانًا الاضرحة فوق هذه القبور.

إنّ تكريم المشاهد كأماكن زيارات تقويّة لم يمارَس في الواقع في بداية الإسلام، بل ازدهر مثلما ازدهرت الزيارات غير المفروضة شرعًا، نتيجة انتشار عادة «تكريم الاولياء». منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بدأ بعض الكتّاب، مثل المقدسي، يُشيرون إلى وجود المشاهد في مدن العالم الإسلامي المختلفة. ولكنّنا لا نجد لائحة بعدد كثير من المشاهد إلّا في دليل الهروي، في مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. أشهر المشاهد التي ميّزتها، منذ القدم، التقوى الشعبيّة، هي مشاهد الأئمّة العلويّين، وقد أصبح أهمّها مقامات كبيرة لها أوقافها وأبنيتها، يتهافت عليها «الزوّار» الشيعة وتعطى فيها العظات والتعاليم الدينيّة، كما يجري في النجف وكربلاء والكاظميّة وسامرّاء في العراق، أو قم ومشهد في إيران.

مشهد (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، هي العاصمة الإداريّة والإقتصاديّة الحاليّة لخراسان الإيرانيّة، وقد جمعت، إلى ازدهارها الحديث، إنطلاقتها كمدينة مقدّسة بالنسبة إلى الشيعة.

إنّ نموّها المتزايد، إبتداءً من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، في هضبة عالية ذات مناخ قاسٍ، قائمة على حدود العالم الإسلامي القروسطي، يعود إلى شهرة ضريح أعطاها اسمه - انطلاقًا من لفظة «مشهد» التي تعني مدفن شهيد - وهو يسيطر على منظر المدينة ويجذب اليها حشود «الزوّار». في الواقع، إنّ موت علي الرضا ودفنه في هذا المكان، في ٢٠٢هـ/ ٨١٧م، وهو الوريث المفترض للخليفة المأمون وثامن أئمّة العلويّين من الإماميّة الإثني عشريّة، جعل من قرية سناباد، حيث دُفن، من قبْل، أحد أفراد سلالة العباسيّين الحاكمة، هارون الرشيد الشهير، في ١٩٣هـ/٨٠٩م، مكانًا مكرّمًا ومركز زيارات تقويّة. في السابق، وفي مكان غير بعيد، كانت محلّة طوس في المقاطعة التي تحمل الإسم نفسه، الوحيدة المعروفة، وما يزال موقعها ظاهرًا حتّى اليوم.

إنّ الإزدهار القديم لهذه المنطقة، الذي استمرّ إلى ما بعد الفتوحات العربيّة - الإسلاميّة، يعود في قسم منه إلى العائدات الزراعيّة والمنجميّة لواحاتها الجبليّة، التي يرويها أحد روافد هاري رود، غير بعيد من المكان الذي تغور فيه مياه هذين النَّهْرَين، باتّجاه الشمال في رمال كاراكوم في قلب تركمنستان الحاليّة. وفي القرون الوسطى أيضًا، استمرّت هذه النشاطات التجاريّة المشهودُ عنها، منذ وقت طويل، في هذا التقاطع من طرق القوافل التي كان أكثرها نشاطًا تلك التي تربط إيران الغربيّة بالعراق وآسيا الوسطى، مرورًا بطوس لتصل إلى مرو وبُخارى وسمرقند. لكنّ حيويّة الموقع تعاظمت بنسبة تعاظم الأهميّة المعطاة لقبر الإمام وبنسبة تدفّق الزائرين الذين، من خلال مضاعفة الحسنات والعطاءات التقويّة، راحوا يرسمون، في الوقت نفسه، المصير الإستثنائي للمدينة الجديدة. ومنذ أن أُعيد بناء الضريح للمرّة الأولى في عهد محمود الغزنوي، في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أصبح محيط المقام قلب تجمّع سكانيّ ناشط. بعد الدمار الذي تسبّبت به لاحقًا غزوات المغول، ظهر اهتمام بالضريح من جانب الإيلخانيّين، وخصوصًا من جانب أُلجايتو خدابند، في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، متزامنًا مع انطلاقة جديدة للشيعة الإماميّة الإثني عشريّة في إيران. إنّ الترميمات التي قام بها الايلخانيّون هي التي أعطت الضريح الشكل الذي وصفه الرحّالة ابن بطوطة، قبل أن يضيف سخاءُ شاهرُخ التيموري وزوجته جوهر مبانٍ جديدة إلى المكان. إنّ المسجد الذي يحافظ اليوم على إيواناته الأربعة وزخرفه من الخزف الأزرق يُعدّ من بين الإنجازات الهندسيّة الأكثر أناقةً لتلك الحقبة. بعد ذلك بقليل، لم تؤدّ هجمات الأوزبك، التي هدّدت لفترة نفوذ الصفويّين في

المنطقة، إلى إعاقة التنمية التي عرفتها المدينة والتي أفادت أيضًا، في القرن الثامن عشر، من جهود نادر شاه لتأمين الإنطلاقة لمشهد التي ستصبح لاحقًا عاصمته الخاصة، بين ١٧٢٧ و١٧٣٥، والتي ظلّت في ما بعد في أيدي سلالته حتّى ١٧٩٦. في القرن العشرين، تمّت أعمال تنظيم في المدينة بمبادرة من عاهلين من السلالة البَهْلَوية، ربّما غيّرت بعض ملامح الأحياء القديمة، ولكنّها أكّدت تفوّق مشهد على بقية مدن خراسان. ولم تتوافر لِبَلْخ وهراة ونيسابور التي نافست في الماضي مشهد، ظروف مؤاتية شبيهة بالتي توافرت لمشهد لكي تحافظ، حتّى العصر الحالي، على مكانتها القديمة.

مصدّق، ١٨٨١ - ١٩٦٧، سياسيّ إيرانيّ، رأسَ الحكومة من ١٩٥١ الى ١٩٥٣، وانتهج سياسةً قوميّة على غرار ما كان يجري أيامئذٍ في دول إسلاميّة أخرى.

تولّى هذا الموظّف الأسبق للماليّة، في العام ١٩٢١ في مملكة إيران، منصب وزير الماليّة بعيد تسلّم الملك رضا بهلوي الحكم. وكان عندئذ مؤيّدًا لتأميم شركات النفط وللقيام بإصلاحات تؤدّي إلى العلمانية. تمّ سجنه في العام ١٩٢٥ بسبب آرائه وتوقّف عن كل نشاط سياسي حتّى العام ١٩٤١. انتُخب من ثمّ نائبًا بعد الحرب العالميّة الثانية، فأسّس الجبهة الوطنيّة أو حزب «توده» الذي ساهم في إثارة البلاد. انتهز فرصة تعيينه رئيسًا للحكومة في نيسان ١٩٥١ لتمرير قانون زراعيّ وتأميم النفط. لكن، إثر انخفاض إنتاج النفط بسبب عدم توافر التقنيّين، توجّه مصدّق إلى الاتّحاد السوفياتي طلبًا للمساعدة، بينما كان الشاه محمّد رضا بهلوي، ابن الملك السابق، يغادر البلاد إلى منفاه في روما، لكنّه ما لبث ان عاد إثر مظاهرات لمصلحته. تمّت، إثر ذلك إقالة مصدّق في نيسان ١٩٥٣ وسُجن مجدّدًا. بعد الإفراج عنه في العام ١٩٥٦، بقي بعيدًا عن الحياة السياسيّة حتّى وفاته في العام ١٩٦٧.

مصر، بلد غني أهل بالسكّان طوال القرون الوسطى. كانت مصر مركزاً لسلطة شبه مستقلّة أيام الأمبراطوريّة العبّاسيّة ومركزاً لخليفة منافس للعبّاسيّين في عهد الفاطميّين، قبل أن تحتلّ، في عهد المماليك، مركز الصدارة. عمل العثمانيّون على الحطّ من هذا المركز، ولكنّ مصر عادت فاسترجعته بعد ١٩٥٣، على أثر قيام جمهوريّة مصر العربيّة.

١) شملت مصر في القرون الوسطى الدلتا ووادي النيل مع قسمه العالي، أي الصعيد أو مصر العليا. واستطاعت الاحتفاظ بمزايا خاصّة بها. كما ضمّت مساحات صحراويّة تقطعها طرقات للقوافل يصل سالكوها غربًا إلى المغرب، وشرقًا إلى بعض موانئ البحر الأحمر مثل عيذاب التي كانت تؤمّن التجارة مع شبه الجزيرة العربيّة. وفي سبيل إحكام السيطرة على مصر، اضطرّت جيوش الفتوحات الإسلاميّة الكبرى، بقيادة عمرو بن العاص، إلى بناء مدينة - معسكر دعيت الفسطاط، وفي جوارها مدن أخرى، حيث استقرّت الإدارات الحكوميّة، وآخرها كانت مدينة القاهرة التي تأسّست سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م. تطوّرت هذه المدن الداخليّة لتحلّ تدريجيًّا مكان العاصمة القديمة، أي الإسكندريّة، وذلك بسبب الغزوات البحريّة التي تعرّض لها مسلمو القرون الأولى من قبل الأسطول البيزنطي الذي كان يسيطر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، قبل أن تحلّ محلّه السفن الغربيّة أيام الحملات الصليبيّة وتباشر اعتداءاتها المتتالية على الدلتا. قامت مصر بدور لم يتعدّ دور الإقليم في الأمبراطوريّتين الأمويّة والعبّاسيّة، مع العلم أنّها تمتّعت دائماً بتألّق خاص في العالم الإسلامي ورثته عن ماضيها المجيد، حتّى قوي حكّامها فأنشأوا دولةً مستقلّة أيام الطولونيّين (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) والإخشيديّين (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م). ثمّ انتقلت إليها الدولة الشيعيّة الإسماعيليّة في أفريقيا أيام المُعِزّ الفاطمي، وكان قدرها أن تتألّق طوال قرنين.

ارتبطت مصر، بعد ذلك، بسوريا ومارست تجاهها نوعًا من الوصاية، وحكمها أقوى ملوك الأسرة الأيوبيّة التي سيطرت على الشرق الأوسط من سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م حتّى ظهور المماليك في سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

وقد نجح هؤلاء السلاطين، على الرغم من أصلهم الغريب، في أن يحوّلوا مصر إلى محور للعالم العربي، في مواجهة العالم التركيّ - الإيرانيّ الذي تحكّم بشرقه

الإيلخانيّون المتحدّرون من الغزاة المغول. واستمرّت مدينة القاهرة، هذه المدينة النشيطة والتجاريّة، عاصمة ثقافيّة للإسلام والعرب، وحلّت مكان بغداد المهدّمة، وهي ما تزال تحافظ على هذا الدور حتّى عصرنا الحاضر.

لقد أنهت حملة بونابرت المرحلة القروسطيّة من تاريخ مصر. إنّ سيطرة العثمانيّين - التي بدأت مع انتصار السلطان سليم على المماليك في العام ١٥١٧ - لم تغيّر شيئًا بالنسبة إلى هذه المرحلة. أراد محمّد علي الذي حكم مصر من سنة ١٨٠٥ الى سنة ١٨٤٨ أن يطوّر بلاده وأن يُدخل اليها الحداثة. وقد تابع النهج عينه، خلفاؤه الخديويّون الذين استمرّوا حتّى ١٨٧٩، وكانوا قد تحرّروا من سلطة الباب العالي. لكنّ سلالتهم الطموحة التي لقّبت، خلال الحرب العالميّة الأولى، بالسلاطين ثمّ بالملوك، لم تستطع تخطّي المصاعب الاقتصاديّة والأزمات الداخليّة التي غالباً ما أضرمها الوطنيّون والمجدّدون والمصلحون أو أخصامهم السياسيّون، إضافةً إلى الخلافات بين الأحزاب. فرض البريطانيّون حمايتهم على مصر سنة ١٨٨٢ وثبّتوها سنة ١٩١٤. لكنّ البلاد تحوّلت، سنة ١٩٢٣، الى مملكة مستقلّة على رأسها الملك فؤاد أوّلًا، ثمّ الملك فاروق الذي فقد عرشه مع ثورة الضبّاط الأحرار سنة ١٩٥٢. وُضع حدّ للحماية البريطانيّة وتأسّست، سنة ١٩٥٣، جمهوريّة مصر العربيّة، وكان رئيساها الأولان نجيب وعبد الناصر.

٢) جمهوريّة مصر العربيّة، دولة معاصرة مستقلّة مساحتها: ١ ٠٠١ ٤٤٩ كلم[٢] عاصمتها القاهرة، وهي تغطّي تقريباً أرض مصر القروسطيّة، سكّانها أكثر من ٧٠ مليون نسمة، ٩٠٪ منهم مسلمون، مع المحافظة على أقليّة مسيحيّة قبطيّة قديمة جداً. يتابع هذا البلد المحكوم بجغرافيّته - الذي يُعتبر مركز الحياة الثقافيّة الإسلاميّة في البلدان العربيّة - الدفاع عن قدم مركزه على مفترق طرق تجاريّة واستراتيجيّة في الشرق الأوسط الحديث. فهو في الواقع يتحكّم بنقطة التقاء بحريّة بين المتوسط والمحيط الهندي بواسطة قناة السويس، وله حدود مشتركة مع إسرائيل (فلسطين المحتلّة) في الشمال الشرقي، بينما تصله حدوده الأخرى بالجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة في الغرب وبجمهوريّة السودان في الجنوب، بدون إغفال قربه من المملكة العربيّة السعودية التي تقع على الضفة الأخرى للبحر الأحمر. لكنّ هذه المكانة المميّزة لم تمنع وجود مصاعب عدّة خلفها التزايد السكاني السريع، وعمّقها، على الصعيد السياسي-الديني، سلوك الحركة الإسلاميّة المعارضة، فانعكست على حياة الأقليّة القبطيّة التي حافظت على وجودها في المنطقة منذ الفتوحات العربيّة الإسلاميّة في القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد. إنّ عوامل عدم التوازن هذه كانت موجودة عند تأسيس الجمهوريّة في العام ١٩٥٣، وقد استُبدل بالرئيس نجيب، وهو الرئيس الأوّل، في سنة ١٩٥٤، جمال عبد الناصر المخطّط الأساسي للانقلاب بعد الإعلان عن إصدار دستور جديد.

طُبع العهد الناصري (١٩٥٤-١٩٧٠) بتأميم قناة السويس وبحروب الأيام الستة ضدّ إسرائيل في العام ١٩٦٧، وبسياسة تأميم داخليّة دُفعت الى حدّها الأقصى، وبسياسة عدم انحياز خارجيّة تُرجمت عمليًّا باللجوء إلى مساعدة الاتّحاد السوفياتي. حاول عبدالناصر، من جهة أخرى، توحيد مصر وسوريا تحت إسم الجمهوريّة العربيّة المتحدة (١٩٥٨ - ١٩٦١). خلف أنور السادات جمال عبد الناصر سنة ١٩٧٠ وركّز على المفاوضات التي وضعت حدًّا للعداء مع إسرائيل، كما سمحت له باستعادة سيناء. لكنّه اصطدم، كسلفه عبدالناصر، بعداء المجموعات الإسلاميّة، ما كلّفه حياته سنة ١٩٨١، لكن خلفه الرئيس مبارك استطاع أن يضبط تحرّكات هذه المجموعات.

◄ راجع المستندات: ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ٢٠، ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٤٤، ٦٣ و٦٤.

مصر السفلى ← **مصر**.

مصطفى كمال ← **أتاتورك**.

المُصَلّى، مصطلح عربي يشير الى «مكان الصلاة» الذي كان يتألّف، في القرون الوسطى، من باحة

مكشوفة خارج المدن. اعتاد الخليفة أو ممثّله إمامة الصلاة فيها لمناسبة العيدين الكبيرين.

نشأت أمكنة للصلاة كهذه في بغداد وفي القاهرة، لكنّ مواقعها تغيرت على مرّ القرون. وعُرفت أيضًا في كلّ مكان، من الأندلس إلى الهند، لا سيّما في التجمّعات السكنيّة ذات الأهمية. وكانت هذه الباحات خالية من أي بناء باستثناء محراب حجري منفرد. واقتصرت أهميّتها على قدرتها على استيعاب عدد وفير من المؤمنين في مناسبة الأعياد المهمّة، خلافًا للمساجد الجامعة. وشكّلت هذه الاحتفالات مناسبة لقيام الملك بتطواف خارج المدينة وفقًا لمراسم تعود ممارستها إلى سُنّة وضعها النبيّ محمّد ﷺ بنفسه.

تشكّل المصلّى في ما بعد، في بلاد خراسان وآسيا الوسطى - وهو يُعرف بالفارسيّة باسم «نَمازْغاه» - بأشكال معماريّة مؤلّفة من إيوانات وقاعات مقبّبة، شهدت تطوّرًا متفاوتًا في هراة ومشهد، وبخارىٰ مثلًا. أمّا النموذج الأكثر انتشارًا في المشرق، كما في المغرب، فكان يقتصر على مربّع بسيط مسوّر، ومزوّد أحيانًا، كما في أغرا، بأبواب ضخمة. وبعد أن كانت أماكن الصلاة هذه تندمج، خلال القرون الوسطى، في النسيج المدينيّ، فقد اختيرت لها، في عصرنا الحاضر، مواقع جديدة.

مصمودة، مجموعة من البربر الحضر، ينتمون الى الأصل نفسه الذي تنتمي إليه صنهاجة، وهم يُنسبون اليها. احتلّوا في القرون الوسطى القسم الأكبر من المغرب الأقصى، من المتوسط حتّى جبال الأطلس الداخليّة، ولكنّهم طُردوا، اعتبارًا من القرن السادس عشر، الى المناطق الجبليّة.

الى جانب مصمودة التي كانت تحتلّ بخاصّة منطقة سوس، كانت مجموعتهم تضمّ قبائل غُمارة وبُرغواطه، الموزّعة في شمال المنطقة الغربيّة الشاسعة وَوَسطها.

لقد خضعت هذه القبائل جزئيًا لحكّام الأندلس الأمويّين ثمّ لإدريسيّي فاس، ولكنّها حصلت على استقلال نسبيّ في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلّا أنّها، في العام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، خضعت لحكم المرابطين. يختلط تاريخها في ما بعد بتاريخ الموحّدين وقد ساندت حركة هؤلاء الناشئة وكانت أبرز معاونيهم، وساهمت في ما بعد بإنجاح حكم الحفصيّين.

عندما حلّت سلطة المرينيّين محلّ سلطة الموحّدين في المغرب، استعادت بعض قبائل مصمودة، في جنوب البلاد، استقلالها، وذلك منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، بقيادة زعماء محليّين تمّ اختيارهم من العائلات الكبرى. لم ينجح السعديّون أكثر من أسلافهم، اعتبارًا من القرن السادس عشر، في السيطرة على الفوضى التي كانت تعيش فيها هذه القبائل في جبال الأطلس. في المقابل، توصّل العلويّون تدريجيًّا الى فرض سلطتهم على تلك المنطقة حيث بقي السكان الذين يتكلّمون اللغة البربريّة على مستوى عالٍ من النشاط. غير أنّ اسم مصمودة اختفى ليحلّ مكانه الاسم المعروف اليوم وهو «الشلّوح» (بالفرنسية Chleuhs).

مصياف (الجمهوريّة العربيّة السوريّة) او مصياد، موقع وقلعة مدمَّرة من القرون الوسطى، تقع في شمال غرب البلاد، في سلسلة جبال النصيريّة.

يظهر اسم هذه القلعة في الأخبار المتعلّقة بتاريخ الحملات الصليبيّة. تحديدًا في العام ٥٣٥هـ/١١٤١م، استولت على مصياف مجموعة من الإسماعيليّين النزاريّين الذين كانوا قد استقرّوا في قصر قدموس بعد أن كانوا قد تركوا مواقعهم في بانياس، إلى الجنوب. وهذا ما سمح لهم بأن يتمركزوا بقوّة في جوار إمارات الفرنج، في منطقة يسهل الدفاع عنها وهي مهمّة إستراتيجيًا، وهي التي ستُسمّى غالبًا، في المرحلة اللّاحقة، بلاد الحشّاشين.

وبسرعة امتلكوا فيها سلسلة من المواقع القويّة غير البعيدة من مصياف، ومن بينها، إضافة إلى قدموس، الرصافة، قلعة الكهف - التي كانت آخر المواقع التي انتُزعت منهم على يد بيبرس في العام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م - قلعة الخوابي، أو الكوبيل (Coible)، بحسب تسمية المؤرّخين الغربيّين، قلعة أبو قُبيس، أو بكوكبايس، قلعة مَلْيْقَه أو مليكا، قلعة عُلَيْقه، قلعة بني إسرائيل أو بيكسرايل وأخيرًا القُلَيعة. في العام ٥٥٨هـ/١١٦٣م، أصبحت مصياف مقرّ إقامة ومركز حكم رشيد الدين

سنان الذي تولّى قيادة الحركة الإسماعيليّة في سوريا وأرعب الفرنج، كما المسلمين، تحت اسم «الشيخ الجبل». هنا حاصره صلاح الدين في العام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، لكنّه تراجع وانسحب بعد أن عقد معه اتّفاقا لا نعرف شيئًا عن مضمونه.

في العام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، أُلحقت مصياف بدولة المماليك السوريّة - المصريّة. وفي القرن السادس عشر الميلادي دخلت في الأمبراطوريّة العثمانيّة. لكن، على الرغم من هذه الأحداث، بقي فيها إسماعيليون ما يزالون يعيشون فيها حتّى اليوم، بعد أن قاوموا الحملات التي قامت عليهم، في القرن التاسع عشر، من قبل النصيريّة أو العلويّين الذين نجحوا في الاستيلاء على مجمل المنطقة التي أصبحت، في مطلع القرن العشرين، دولة العلويّين. وقد احتفظت قلعة مصياف بقسم كبير من سورها الخارجي وببقايا أثريّة جديرة بالإهتمام.

المطبعة، تقنيّة انتشرت في البلاد الإسلاميّة في عهد متأخّر، في حين كانت النقوش على الخشب مزدهرة في الشرق منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، لطباعة تعاويذ ووثائق دينيّة واسعة الانتشار.

هذا التأخّر في استعمال المطبعة في العالم الإسلامي يُعزى، في الوقت نفسه، إلى أسباب إقتصاديّة واجتماعيّة - كالمكانة التي يحتلّها النسّاخ والخطّاطون - وإلى كون العثمانيّين، في أواخر القرن الثامن الهجري/الخامس عشر الميلادي، منعوا المسلمين من طباعة النصوص بالحرف العربي. واستمرّ هذا الواقع حتّى سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م، حين أنشأت حكومة الباب العالي مطبعة رسميّة في اسطنبول عملت، حتّى سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣، ثم عُلّق العمل فيها، إلى أن استعادت نشاطها سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م لطباعة المؤلّفات التقنيّة أو العمليّة. وفي سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م، أضيفت إليها دار للطباعة في مدرسة المهندسين، وسنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م افتُتحت دار ثالثة لطباعة نصوص لاستعمالات متنوّعة.

في المرحلة الزمنيّة نفسها، ظهر تيّار ذو مصدر مختلف، داخل المناطق العربيّة من السلطنة العثمانيّة في الشرق الأدنى. فالتقنيات الضروريّة أدخلها المسيحيّون الذين أسّسوا في لبنان، سنة ١٧٣٤م، مطبعة لنشر النصوص العربيّة المسيحيّة. ثمّ ظهرت في بيروت، سنة ١٨٣٤م، مطبعة الإرساليّة البروتستنتيّة، ثم تبعتها، سنة ١٨٤٨م، المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيّين، وفق طريقة اتُّبعت كذلك في مناطق أخرى. وفي مصر كانت حملة بونابرت صاحبة الفضل في إنشاء دار للطباعة في الاسكندريّة ثمّ في القاهرة، لكنّها ما لبثت أن توقّفت سنة ١٨٠١م. وفي سنة ١٨٢٢م، افتتحت الحكومة المصرية مطبعة بولاق، على اسم إحدى ضواحي القاهرة، وقد مدّت العالم العربيّ، خلال عقود عدّة، بطبعات حجريّة، وأتاحت نشر الجريدة الرسميّة المصرية المعروفة باسم «الوقائع المصرية».

وإلى إيران أدخلت تقنية الطباعة سنة ١٦٢٩م على أيدي الآباء الكرمليّين وكذلك على أيدي الأرمن في جُلفا، بضواحي أصفهان. لكنّ المؤلّفات باللغة الفارسيّة لم تطبع إلّا ابتداءً من سنة ١٨١٧م، في حين كانت الطباعة الحجريّة تلقى نجاحاً واسعاً، خلال القرن التاسع عشر.

أمّا الهند الإسلاميّة فقد شهدت، منذ ١٧٨٠م، مؤلّفات مطبوعة بالعربيّة والفارسيّة والأُرديّة، وذلك بدفع من الشركة الانكليزيّة للهند الشرقيّة التي كانت تحتاج إلى طباعة بعض النصوص لأغراض عمليّة.

مظفّر (آل -)، ٧١٣-٧٩٥هـ/ ١٣١٤-١٣٩٣م، سلالة نشأت عن تفكّك أمبراطوريّة الإيلخانيّين. بسطت سلطتها لفترة على إقليمي فارس وكِرْمان، وعلى جنوب غربي إيران بأكمله.

استمدّت السلالة إسمها من إسم مؤسّسها، أحد حكام يزد في عهد المغول، المعروف بشرف الدين المظفّر، وتميّزت، بشكل خاص، بالإنجازات العسكريّة والدبلوماسيّة التي حقّقها خلفه، محمّد بن المظفّر، الذي حكم لأكثر من أربعين عامًا وبلغ ذروة سلطته في العام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م. ولم تلبث الأمبراطوريّة الضعيفة أن انهارت تحت وطأة خلافاتها الداخليّة وتقاسمها بين إمارات متنافسة، ما سهّل مساعي الجلائريّين تجاهها وعرّضها لخراب نهائي، نتيجةً للضربات التي وجّهها اليها تيمورلنك في أواخر القرن الثامن للهجرة/الرابع

عشر للميلاد. وكانت بعض بلاطاتها قد لمعت سابقًا في شيراز وأصفهان بفضل مواهب بعض الشعراء، مثل حافظ، وبشكل خاص بفضل رسّامين استفادوا من عطاءات سخيّة وأطلقوا مدرسة في الرسم تميّزت بأسلوب خاص في منمنماتها.

مبارز الدين محمّد بن مظفّر	٧١٣-٧٥٩هـ/ ١٣١٤-١٣٥٨م
قطب الدين شاه محمود	٧٥٩-٧٦٥هـ/ ١٣٥٨-١٣٦٤م
جلال الدين شاه شجاع	٧٦٥هـ/ ٧٨٦هـ/ ١٣٦٤-١٣٨٤م
مجاهد الدين زين العابدين علي	٧٨٦-٧٨٩هـ/ ١٣٨٤-١٣٨٧م
شاه يحيى (في يزد)	٧٨٩-٧٩٥هـ/ ١٣٨٧-١٣٩٣م
سلطان أحمد (في كرمان)	٧٨٦-٧٩٥هـ/ ١٣٨٤-١٣٩٣م
شاه منصور (في أصفهان)	٧٨٩-٧٩٥هـ/ ١٣٨٧-١٣٩٣م

◄ راجع المستند رقم ٢٣.

المعاجم العربيّة (علم -)، هو علم ازدهر، بفضل العلوم الدينيّة في الإسلام، يُبرّر ازدهاره القصد إلى سبْر غور المعاني الواردة في آيات القرآن. ابتدأت، سعيًا إلى هذا الهدف، دراسة لغة العرب بصفتها لغة الوحي، في زمان مبكّر، في الوسط الإسلامي، إستنادًا إلى التراث الذي وفّره لها الأدب القديم، ومعظمه من الشعر، وحفظته ذاكرة الرواة من البدو. إلى جانب ذلك، كانت هناك بالطبع جهود لإحصاء العبارات أو التعابير القرآنية الخاصة، وقد انتهت إلينا نماذج منها قديمة، في شكل جداول مدوّنة على الرقّ، تشبه الجداول الحديثة للتطابقات القرآنية. أمّا العمل الأهم فقام على جمع النصوص غير الدينيّة وتحليلها سعيًا إلى تبيان غنى اللغة العربيّة وخصائصها. وقد أدّى إلى وضع معاجم ظلّت صعبة الإستعمال لأنّها لا تعتمد تراتب المفردات بحسب اشتقاقها ووفاق ترتيب أبجديّ. أجلُّ هذه المعاجم يعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، وبه ذاعت شهرة النحوي الخليل. تبعته محاولات أخرى حسّنت بعض الشيء في تنظيم المداخل، إلى أن تمّ إنجاز «لسان العرب» لابن منظور في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد.

معاوية بنُ أبي سُفيان، ٦٠٥م - ٦٨٠م (٦٠هـ)، شخصيّة مهمّة من مطلع عصور الإسلام الأولى؛ منحدر من إحدى الأسر الأكثر ثراءً في مكّة، عاصر النبيّ (ﷺ) وأسّس أولى السلالات الخليفيّة، سلالة الأمويّين في سوريا.

كان معاوية إبن رجل ثريّ هو أبو سفيان، زعيم قبيلة قريش حينذاك في مكّة. اعتنق الإسلام بعد استسلام المدينة، وخدم النبيّ محمّدًا ﷺ كاتبًا، وكلّفه الخليفة أبو بكر مساعدة شقيقه يزيد بن أبي سفيان في الحملات التي قادها هذا الأخير ضدّ سوريا خلال الفتوحات الكبرى. برز مرّات عدّة خلال هذه الحملات، ولا سيّما لدى احتلال قيسارية، وعُيّن في العام ١٧هـ/ ٦٣٨م حاكمًا على دمشق، ومن ثمّ حاكمًا على سوريا بأكملها، وقد أُوكلت إليه مهمّة تنظيم هذا الإقليم الذي تمركز فيه العديد من المقاتلين القادمين من شبه الجزيرة العربيّة، قبل أن يستقروا فيه بشكل دائم. وبعد مقتل ثالث الخلفاء الراشدين، عثمان بن عفّان، في العام ٣٥هـ/ ٦٥٥م، توجّب على معاوية، بصفته أقرب أنسبائه، المطالبة بالثأر له، فدخل من جرّاء ذلك في نزاع مع الخليفة الرابع، عليّ، ومع أنصاره، وقد تمكّن من إضعافهم معنويًّا في معركة صِفّين في العام ٣٧هـ/ ٦٥٧م. وعلى أثر تحكيم أَذْرُح الذي انعكس سلبًا على عليّ، تمكّن معاوية من حمل مناصريه على إعلانه خليفةً في القدس، في أوائل العام ٤٠هـ/ ٦٦٠م، بعد أن بايعه جمع من قياديّي العرب.

تقبّل العالم الإسلامي بمجمله هذا التولّي للسلطة العليا، بعد مقتل عليّ في العام ٤٠هـ/ ٦٦١م على يدي أحد الخوارج، وبعد تخلّي إبنه الحسن عن مطالبته بالسلطة (٤١هـ/ ٦٦١م). وبقي معاوية على العرش حتّى العام ٦٠هـ/ ٦٨٠م، بدون مواجهة أيّة معارضة جدّية، واعتبره الكتّاب القدامى نموذجًا للحاكم العربي بصفاته القائمة على الاقناع بدلًا من الإكراه للحصول على الطاعة، وعلى التصرّف، في الظروف كافّة، بحِلْم وسيطرة على النفس. وفي الواقع، كان الخليفة الجديد - الذي جعل من دمشق عاصمة له والذي تميّز عن أسلافه بهذا الخيار وبأسلوب حكمه - ملمًّا بالشؤون التنظيميّة قبل أن يكون قائدًا حربيًّا ومقاتلًا. صحيحٌ أنّه أطلق حملات ضدّ جزيرتي قبرص ورودس لإخراج

البيزنطيين منهما، وأطلق حملات أخرى باتّجاه المغرب، لكنّه لم يقُد بنفسه أيًا من هذه الحملات، كما كلّف إبنه يزيد بمهمّة مهاجمة القسطنطينيّة. أمّا بالنسبة الى المقاطعات الشرقيّة في العراق وإيران، فقد سلّم إدارتها إلى شخص غامض الأصل عُرف باسم زياد بن أبيه، تفانى في خدمة معاوية فجعله هذا الأخير أخًا له بالتبنّي، فأُطلق عليه اسم زياد بن أبي سفيان.

وفي سوريا، قام نجاح هذه السياسة بشكل خاص على قدرة معاوية على تأمين تعاون الإداريّين المحلّيّين، ولا سيّما المسيحي ابن سرجون، وعلى اعتماده على قبيلة كلب العربيّة التي كانت زوجته تنتمي إليها. وهكذا أُخضعت الأمبراطوريّة الإسلامية الناشئة بمجملها لهيمنة سوريا حيث كان الخليفة يعتمد على جيش من أشراف العرب الذين أقاموا، منذ ذلك الوقت، في البلاد وكانوا على استعداد دائم، وفقًا لنظام الأجناد، للانطلاق إلى الحرب فور صدور الأوامر. وفي الوقت نفسه، كان أوّل الخلفاء الأمويّين يعمل على التخلّص من المعارضة الشيعيّة بتوزيع مساعدات كبيرة على أفراد أسرة العلويّين وعلى مناصريهم. كما لم يتردّد في إعدام أحد أنصار هذه الأسرة، حجْر بن عَديّ، الذي كان قد رفض الإنضمام إليه والذي حوكم أمام مجلس من الزعماء العرب.

أما أهمّ أعمال معاوية فكانت بلا شك تعيين إبنه يزيد وليًّا للعهد. وقد استلزمه هذا الأمر مفاوضات طويلة مع الأُسر العربيّة الكبرى الموزّعة على مختلف المقاطعات، وصولًا إلى تسوية مسبقة لمسألة خلافته وإلى استبدال بمبدإ الشورى المعتمد حتّى ذلك التاريخ لانتقال السلطة الخليفيّة، مبدأ استمراريّة السلالة المبتكر حديثًا. ولجأ في العام ٥٩هـ/٦٧٨م، إلى دعوة وفود من مختلف المناطق إلى دمشق لأداء قسم ولاء مسبق لمصلحة يزيد بصفته الخليفة المقبل. حصل ذلك بالرغم من بعض المعارضات، وتمّت من ثمّ مبايعة يزيد بسهولة بعد وفاة أبيه. هكذا أنشأ معاوية عُرفًا ما يزال قائمًا في بلاد الإسلام إلى أيامنا هذه، وأسّس لورثته سلالة حكمت قرابة القرن في المشرق من خلال فرعين متتاليين، فرع الورثة المباشرين أو السفيانيّين، وفرع أبناء عمهم المروانيّين الذين قُدّر لهم، بعد العام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، إنماء برعم متين في المغرب الإسلامي أُطلق عليه اسم أمويّي قُرطبة.

المعتزلة، تيار فكري عقلانيّ تعود جذوره، وفقًا للتقاليد، إلى نهاية العهد الأموي في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي. ورغم بقائه على هامش الإسلام، فإنّه استرعى، بشكل خاص، إنتباه العلماء الغربيّين المعاصرين الذين انكبّوا على دراسته وتفسيره.

ما تزال أصول هذا التيار الفكري الكلامي ذي التوجّه السياسي - الذي تبلورت خصائصه العقائديّة المختلفة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد - مجهولة بسبب فقدان النصوص الأساسيّة. ويبدو أنّ مؤسّسي هذا التيّار المفترضين، ولا سيّما واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد (توفي في العام ١٤٤هـ/ ٧٦١م)، قد تبنّوا آراءً وأفكارًا كانت قد بدأت بالظهور سابقًا. من القدريّة مثلًا، يبدو أنّهم استمدّوا مفهوم إرادة الإنسان الحرّة - ما يؤدّي إلى الحدّ من القدرة الإلهيّة - مع التشديد على مسؤوليّة كلّ مؤمن. وكانوا، من جهة أخرى، ينادون برفض الصفات الإلهيّة ويقولون بالإيمان بإله قريب من الكائن الأوحد الذي تكلّم عنه الفلاسفة اليونانيّون، غير محدّدٍ في زمان ومكان، والذي تقتصر صفاته على المظاهر. وكانوا أخيرًا يقولون بالمنزلة بين المنزلتين بالنسبة الى المُذنب الذي لا يجوز إخراجه من الجماعة كما أراد الخوارج، كما لا يجوز له التمتّع بالحقوق المخصّصة للمسلمين بكاملها. إضافة إلى هذه الآراء الكلاميّة، اتخذ المعتزلة موقفًا معتدلًا من النزاع الذي نشأ سابقًا بين علي وأعدائه؛ ورفض واصل وعمرو الإنحياز في هذا الموضوع، مؤكّدَين أنّ أحد الطرفين المتنازعين كان حتمًا على خطأ، لكن بدون التمكّن من تحديد أيّهما.

تستنتج من مختلف هذه الأفكار المنسوبة إلى مؤسّسي المعتزلة أنّهم كانوا ينادون، في ما يتعلّق بوضع المؤمنين، بعقيدة متوسّطة بين الآراء المتباعدة السائدة آنذاك. ونجحوا تاليًا في إعطاء حركتهم مكانًا مميّزًا بين الفِرق الاسلاميّة الأولى التي اختلفت على تحديد الجماعة وعلى تكوينها. لكنّهم أيّدوا طروحات في علم الكلام متعلّقة بإرادة الإنسان الحرّة والتوحيد، كانت قد

ظهرت في ظروف ما تزال غامضة، متأثرة بأفكار فلاسفة اليونان الذين ينتمون إلى العصور المتأخرة، وبالأجواء السياسيّة التي كانت سائدة في أوساط معارضي النظام الأموي. ويمكن وصف تيارهم بالديني، إذ إنّه كان يشدّد على الخشية التي يجب أن يشعر بها المؤمن، المسؤول الوحيد عن أفعاله، كما كان يعتبر أنّ السلطة الإلهيّة هي مقيّدة بقواعد العدالة، ما يحدّ تاليًا من مفاعيل رحمتها وحلمها. لكنّ تيّارهم كان أيضًا سياسيًّا، لأنّه أصرّ على التقيّد بالحياديّة في النزاعات بين المسلمين - وتفادى، حيال هذه المسألة، كل إدانة قاطعة - بينما كان ينادي بتشدّد أخلاقي قريب من تشدّد الخوارج، وكان قد تبنّى بعض مواقف هؤلاء. فضلًا عن ذلك، ذكرت الرواية المتداولة التي اوردت أسباب تسمية مؤسّس هذا التيار بـ«المعتزل»، حادثة إبتعاد واصل عن اجتماع مناظرة عُقد في البصرة وجمع الخوارج والمرجئة. وبالرغم من الشكوك التي ما تزال سائدة حول صحة هذه المناظرة، فإنّها تعبّر، بشكل مجازي، عن الموقف الفكري الخاص بأهل الإعتزال الأوائل. لكن يبدو أنّ الجانب الفلسفي الذي أولاه المؤرّخون المعاصرون أهميّة كبيرة لم يظهر في الفكر المعتزلي إلّا في وقت لاحق.

تاريخيًا، بلغ المعتزلة ذروتهم في أوائل القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، خلال خلافة المأمون الذي أُعجب بعقيدتهم، بعد أن كانوا قد تطوّروا على هامش الأوساط الرسميّة في أواخر الثاني للهجرة/الثامن للميلاد. في هذه الفترة، دافع مفكّرون فُقدت أعمالهم، مثل أبي الهُذيل والنظّام وبِشْر، عن أفكار المعتزلة بحجج جديدة نقلها كتّاب لاحقون. فأضافوا، بالنسبة لا الكون، تفاسير متفاوتة جدًا من شخص إلى آخر، إذ إنّ فئة منهم كانت ترى في هذا الكون مجموعة من الذرّات، وتميّز بين الجوهر والعَرَض، بينما كانت فئة ثانية تعتقد بتداخل العناصر داخل الأجسام. من جهة أخرى، نزع هؤلاء المفكّرون إلى شنّ هجمات ضد غير المسلمين، من يهود ومسيحيّين ومانويّين، أثارت ردّة فعل كتّاب مسيحيّين، عُرف منهم أيوب الرُّهاوي وعمّار البصري. لم يتصرّف المعتزلة آنذاك كمفكّرين منفصلين عن الواقع اليومي، بل كعلماء كلام يناضلون في سبيل إسلام لم يكن يشكّل بعد أغلبيّة السكّان في منطقة مثل العراق.

ارتكزت عقيدة المعتزلة آنذاك على خمسة مبادئ واضحة واقتصرت في الواقع على اثنين: الإيمان بوحدانيّة الله أو «التوحيد»، والإيمان بالعدالة الإلهيّة أو «العدل». تضمّن المبدأ الأوّل مفهومًا لله قائمًا على الوحي، لكن تمّ عرضه بشكل فلسفي نوعًا ما: إنّ الله الذي لا مثيل له وفقًا للقرآن الكريم، متميّز كليًّا عن العالم المخلوق، لا يمتّ إليه بصلة، وهو خارج الزمان والمكان. أدّى هذا المفهوم إلى «نفي» الصفات المعهودة وإلى الإيمان بخلق الكتاب المقدّس، إذ اعتبروا أنّه مؤلّف من كلمات ومقاطع لفظيّة وحروف، لا يمكن تاليًا أن يكون غير مخلوق، بحيث لا يجوز مماثلته بأحد مظاهر الجوهر الإلهي على غرار الصفات الإلهيّة - كالقدرة والعلم المتماهية، بحسب المعتزلة، مع الله نفسه، إذ إنّ هؤلاء كانوا يؤكدّون أنّ الكلام على علم الله يوازي الكلام على واقع الله نفسه لا عن وجود قائم بذاته.

أصبح في ما بعد هذا النفي للصفات الإلهيّة إحدى ركائز العقيدة المعتزليّة، لكنّه تسبّب ببعض المشكلات للمفكّرين اللّاحقين عندما تساءلوا مثلًا عن إمكانيّة وضع الصفات كافةً على المستوى نفسه أو عن كيفية إدراك الإرادة الإلهيّة، وأعطيت عندئذ تفاسير عدّة لهذا الأمر. لكنّ المعتزلة لم يكتفوا بنفي الصفات الإلهية المتميّزة والأبديّة، بل رفضوا، باسم التعالي الإلهي، كل تمثيل مجسّم للألوهيّة. فكان يتوجّب، بحسب رأيهم، فهم العبارات القرآنية التي أوردت ذكر «يد» أو «وجه» الله، بمعناها المجازي، وقد ذهبوا إلى عرض تفاسير مبهمة لبعض الآيات القرآنية. وكان سعيهم إلى التماسك العقائدي يرغمهم على اعتماد موقف يؤخذ عليه عدم تقيّده بالمعنى المباشر للنصّ المنزل.

أمّا المبدأ الثاني المتعلّق بالعدالة الإلهيّة فأدى إلى تأكيد إرادة الإنسان الحرّة ومسؤوليّته التّامة وخضوعه تاليًا للعذاب أو للمكافأة. إنّ الله الأوحد والمتعالي هو، بالنسبة الى المعتزلة، بمنتهى العدالة. وبما أنّ الشرّ بعيد عن صفاته، فإن الإنسان وحده، وفقًا لهم، يقرّر أفعاله

الجيّدة أو السيّئة. كما أنّ الشرّ الموجود في العالم ليس صنيعة الله، بل هو مجرد ظاهرة. وأدى بهم هذه المفهوم إلى اعتماد رؤيا فلسفيّة للعالم. أمّا الإنسان فيعاقَب أو يكافأ وفقًا لتصرّفه الخاص، إذ إنّ الله ينفّذ تهديداته ويفي بوعوده ولا يتصرّف لا بحقد ولا برأفة، وتاليًا لا يتأثّر بأي من العواطف القريبة من العواطف البشريّة. أدّى هذا الإقرار بتنفيذ التهديد أو الوعيد، والذي شكّل إحدى النقاط المشتركة بين الخوارج والمعتزلة، إلى استبعاد كلّ أنواع الوساطة في يوم الدين لمصلحة المؤمنين المذنبين الذين سيُحكم عليهم حتمًا بالعذاب اذا لم يتوبوا. لكن في الممارسة، كان المعتزلة أقلّ تشدّدًا، وكانوا يرفضون إقصاء هؤلاء المؤمنين المذنبين عن الجماعة، بعد أن خصّوهم بوضع متوسّط ربّما يجنّبهم المصير المخصّص للكفّار.

كما يؤدّي مبدأ العدل إلى وجوب «إحقاق الخير» أي فرض العقيدة الحقيقية بالقوّة، إذا ما اقتضى الأمر، فيتوجّب على زعيم الجماعة، وفقًا للمعتزلة، التقيّد بهذا الالتزام، ما يبرّر إمكان اللجوء إلى السلطة القمعيّة التي كان الخليفة يتمتّع بها. وتميّزت هذه الفترة - التي عُرفت بفترة «المحنة» والتي تزامنت مع اعتماد السلطة العبّاسيّة مواقف المعتزلة - بالذكرى الأليمة المتّسمة بالتشدّد التي تركتها في روايات المؤرّخين العرب. وبالفعل لم يكتفِ المأمون في أواخر عهده بفرض الإيمان بقرآن مخلوق، بل عمد إلى التأكّد من تقيّد الجميع بهذا القرار. ولهذه الغاية وجّه الخليفة الموجود آنذاك بعيدًا من العاصمة، إلى قائد الشرطة سلسلة من الرسائل برّر فيها العقيدة الرسميّة الجديدة، لا بواسطة الحجج المنطقيّة، بل استنادًا إلى آيات قرآنيّة عدّة. ويتبيّن بوضوح، من خلال هذا القرار، أنّ المعتزلة، عندما كانوا يتوجّهون إلى الفقهاء، ولا سيّما القضاة والعُدول، كانوا يستعملون لغة تختلف عن منطقهم الذي يبرز من خلال الكتابات التي وصلت إلينا والتي اعتمد عليها بعض المفسّرين المعاصرين بشكل أحادي المعنى.

توفّي المأمون بُعيد اعتماد هذه التدابير التي حاول القضاة والمحدّثون التصدّي لها من دون جدوى. لكنّ المحنة استمرّت خلال العهدين التاليين، عهد المعتصم وعهد الواثق، على التوالي شقيق وابن أخي المأمون. لكنّ سياسة القمع المعتمدة لم تكن تحظى بإجماع الأهالي الذين تميّزوا بوفائهم للتعاليم التقليديّة وبتمسكهم بالشرعيّة العبّاسيّة التي حاول المعتزلة زعزعتها عندما أصرّوا على أن يتحلّى الخليفة بصفات إستثنائيّة. نتيجة لهذا الثبات في المعتقد، قرّر الخليفة التالي، المتوكّل، القيام بتغيير مفاجئ، فسارع بعد وصوله إلى الحكم، في العام ٢٣٢هـ/٨٤٧م، إلى إعادة ترسيخ العقيدة التقليديّة. ولم تعد المعتزلة منذ ذلك الوقت تُدرّس جهرًا، لكنّها حافظت على بعض المؤيّدين الذين عمل بعضهم على تحديد نظريّاتها.

في القرنين الرابع والخامس للهجرة/العاشر والحادي عشر للميلاد، خلال فترة وصاية الأمراء البُوَيهيّين الشيعة على الخلفاء العبّاسيّين، شهدت حركة المعتزلة فترة نشاط جديدة. وخلال هذه الفترة، كتب القاضي عبد الجبّار أبحاثه، في ظلّ حماية السلطات آنذاك، فوضع مصنّفًا كلاميًّا في أجزاء عدّة يدل فيه مجهودًا فكريًّا منظّمًا بدأت أهمّيته بالظهور حاليًّا، لكن لم يُكتب لمحاولته النجاح. وبعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ووصول السلاجقة المؤيّدين للمذهب السني إلى الحكم، توارى المعتزلة عن الأنظار بالرغم من العطف المتحفّظ الذي أبداه تجاههم بعض العلماء المشهورين أحيانًا مثل الزمخشري الذي أخذ ببعض أفكارهم في تفسيره للقرآن.

لكنّ الأغرب من ذلك ربّما التعاطف القوي الذي ظهر تجاه الفكر المعتزلي في كتابات بعض الباحثين الأوروبيّين الذين رأوا في مناصري هذا المذهب مدافعين جريئين عن الفكر النقدي وعن حريّة الرأي. في الواقع لم يكن تصرّف المعتزلة المدافعين عن أفكار قروسطيّة لاقت رواجًا أكيدًا - ولكن من دون أن تستطيع أن تفرض نفسها - إلّا تمشّيًا مع واقع عصرهم وسعيًا إلى انتصار عقيدتهم. لكنّ الحقيقة أنّهم كانوا تاريخيًّا، بسبب اقتناعهم بتفوّق أفكارهم، روّاد «الكلام» عن عناصر الإيمان الإسلامي وممارسة ما يُسمّى علم الكلام النظري، وأنّ حركتهم أثّرت، من دون أيّ شكّ، في تطوّر المدارس الكلاميّة كافة، السنيّة منها والشيعيّة.

المعتصم بالله، أبو إسحق محمّد بن هارون الرشيد، ؟ - ٢٢٧هـ/ ؟ - ٨٤٢م، الخليفة العبّاسي الثامن، شقيق المأمون وخلفه، حكم من ٢١٨ الى ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ إلى ٨٤٢م، مستهلًّا ما عُرف بحقبة خلفاء سامرّاء.

كان المعتصم حاكم الأقاليم الغربيّة في عهد الخليفة السابق، وبدأ بتطويع عبيد أتراك من آسيا الوسطى في صفوف قوّاته الخاصة. وعندما تبوّأ الخلافة قرّر تعميم هذا النظام على الجيش بكامله، وعمل تدريجيًّا على إبعاد العناصر الخراسانيّة الأصل التي كانت، حتّى ذلك التاريخ، تشكّل دعامة السلالة بعد أن أمّنت نجاح «الثورة العبّاسيّة».

تسبّب اللجوء إلى آلاف الخيّالة من الأتراك العبيد لتغيير التنظيم العسكري بصعوبات جديدة، ولا سيّما بالنسبة الى علاقة هؤلاء بسكان بغداد الذين سارعوا إلى إظهار معارضتهم للأوساط الحاكمة، بعد أن عانوا تصرّفات القادمين الجدد. دفع هذا الوضع بالخليفة إلى إنشاء مقرّ خليفي منعزل شمالي العاصمة، وجهّزه بثكنات واسعة أدى تطوّرها في ما بعد إلى قيام مدينة سامرّاء. وواصل المعتصم، من جهة أخرى، ممارسة السياسة الدينيّة المؤيّدة للمعتزلة التي بدأها شقيقه المأمون. ولجأ إلى التحقيق الجنائيّ أو «المحنة» في محاكمة المتّهمين، فأمر باستجواب ابن حنبل، ممثّل السّلفيّة، قبل أن يُطلق سراحه ويُمنع من التدريس.

المعتضد بالله، ؟ - ٢٨٩هـ/ ؟ - ٩٠٢م، الخليفة العبّاسي السادس عشر وابن أخي المعتمد، حكم من ٢٧٩ الى ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ إلى ٩٠٢م.

إنّه ابن الأمير الموفّق، الوصيّ على العرش، الذي أعاد الإستقرار إلى البلاد خلال خلافة شقيقه، تميّز حكمه أيضًا بالعزم والنشاط. نجح في عقد السلام مع خُمارويه الطولوني، وتمكّن، بمساعدة وزيره عبيدالله بن سليمان وقائد قوّاته العسكريّة بدر، من إعادة فرض سلطته على الأمبراطوريّة الخليفيّة المعرّضة آنذاك لعوامل تفكّك عديدة.

المعتمد على الله، ؟ - ٢٧٩هـ/ ؟ - ٨٩٢م، الخليفة العبّاسي الخامس عشر وابن المتوكّل، حكم من سنة ٢٥٦ إلى ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ الى ٨٩٢م.

بعد الحقبة الصعبة التي تميّزت بمقتل والده في سامرّاء، وبسبب التشدّد السنيّ الذي فرضه على سياسة الخلافة الدينيّة، شهد المعتمد عهدًا مضطربًا. واضطرّ إلى مواجهة ثورة الزّنج التي لم تُقمع إلّا في العام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م، على يدي شقيقه الوصي الموفّق، وإلى مواجهة إنتفاضة الصفّاريّين في الأقاليم الشرقيّة المجزّأة نتيجة لأطماع السلالات الحاكمة المختلفة، ومحاولة استقلال ابن طولون، حاكم مصر. كما اضطرّ، في نهاية عهده، إلى تعيين ابن أخيه خلفًا له، وقد اعتلى هذا الأخير العرش في ما بعد باسم المعتضد. وغادر سامرّاء متوجّهًا إلى بغداد حيث توفّي بعد أن نقل، في تلك السنة، مقرّه الملكي إليها.

المُعجزات، وقائع اعتبرها الإسلام بشكل عام «خروقًا للعادات» في السياق الطبيعي للأمور، سلّم بها علماء الكلام على أنّها شهادة على صحّة النبوءة.

فبحسب ما جاء في القرآن الكريم، قام الأنبياء الذين سبقوا النبيّ محمّدًا ﷺ بأعمال مختلفة من هذا النوع. أمّا في ما يخص النبيّ محمّدًا ﷺ، فإنّ المعجزة الرئيسة التي يركّز عليها الكثير من علماء الدين هي إعجاز القرآن الكريم. غير أنّ التقوى الشعبيّة نسبت إليه، في وقت مبكر، معجزات أخرى عدّة مردُّها سواء إلى عبارات قرآنية من مثل «انشقّ القمر» الواردة في سورة القمر، الآية ١، أو إلى ما ورد في كتب السِّير مثل سيرة ابن هشام التي تورد واقعة الصعود أو المعراج. وتعزّز هذا التوجّه التُقويّ على مرّ القرون، ولا سيّما بتأثير الحركة الصّوفيّة وأهل طرائقها.

ينبغي تمييز المعجزات عن الأعاجيب - المعروفة في العربيّة بالكرامات - التي تشكّل مظاهر يُؤتاها أهل التقوى منذ قيام حركة تكريم الأولياء في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. كانت هذه المظاهر تارة تحاط بالكتمان، وطورًا تتناقلها الروايات الشعبيّة. على أنّ الكرامات بشكل عام، مثل المعجزات، هي «خروق للعادات» يجيز الله حصولها. لكنّ المعجزات تشكّل إشارات إلى رسالة أصحابها، فيما تقتصر أهداف الكرامات على تعزيز مسار الأولياء وغيرهم من شيوخ

المتصوّفة، مشكّلةً مادّة الروايات الرمزيّة والأقاصيص العجيبة التي اكتسب بفضلها الأكثر وقارًا منهم شهرتهم كصانعي معجزات، من شأنها أن تُيسّر لهم السبيل لبلوغ الحقائق الروحيّة السامية.

إلّا أنّ مواقف جماعة المدارس الكلاميّة اختلفت في مسألة المعجزات والكرامات على مرّ العصور. وفي حين مال المعتزلة إلى نفي هذه الظواهر، أدى تأثير الفلسفة، على عكس ذلك، إلى الإقرار بها من قبل الجميع على أنّها نتيجة لبلوغ بعض الأنفس البشريّة مرتبة الكمال. ويعود مفهوم «خرق العادات» إلى الأشاعرة، وقد تبعهم في ذلك الحنابلة، في حين قال منظّرو الصوفيّة بعدم سعي الوليّ إلى امتلاك موهبة القيام بالكرامات، غير أنّ هذه الموهبة تدفعه قدُما للسعي إلى المزيد من الخضوع للإرادة الإلهيّة.

المعدن (صناعة)، إنجازات تميّزت، بين كافة الفنون الحرفيّة الإسلاميّة في القرون الوسطى، بوفرتها وتنوّعها وبجودتها التقنيّة والزخرفيّة.

نطوّر هذا الانتاج المتعدّد الاشكال في العالم الإسلامي في القرون الوسطى بفضل نوعيّة المعادن الخام المعروضة محليًا أو المنقولة من مناطق أخرى أو المستوردة أحيانًا من الخارج، والتي استطاعت تزويد مختلف مشاغل التعدين بالمعدن الخام بكميات كافية لسدّ حاجات المجتمع في ذلك الوقت: من أسلحة ومعدّات عسكريّة أخرى، إلى أدوات للإستعمال اليومي وإلى قطع كماليّة، إضافةً إلى المسكوكات والمجوهرات. إنّ أهمّ المناطق التي كانت، على مرّ العصور، تنتج هذه الموارد المعدنيّة، من حديد ونحاس وفضّة، هي، من جهة، المقاطعات الإيرانيّة - ومنها خراسان - وآسيا الوسطى من خوارزم إلى فرغانة؛ ومن جهة ثانية الأناضول وتخوم القوقاز، وفي ما بعد البلقان الذي ضُمّ إلى الروملّي العثمانيّة؛ وأخيرًا الأندلس وبعض مقاطعات المغرب الغربي. وفضلًا عن ذلك، كانت التجارة في الصحراء تؤمّن نقل الذهب من غانا أو من تكرور في أفريقيا الساحليّة، بينما كانت المعادن الثمينة تُستورد من الهند بكميات كبيرة.

وكانت هذه المقاطعات، التي ارتكز ازدهارها إلى حدّ بعيد على ثروة مناجمها، تملك مشاغل تصنيع مجهّزة بأدوات بدائيّة، لكنّ اليد العاملة كانت عالية الخبرة ومتخصّصة في تقنيّات عديدة، من صناعة النحاس إلى انتاج وتصنيع مختلف أنواع الحديد والفولاذ، واهمّها المستعمل في صناعة نصال السيوف الخفيفة والمتينة. وقد انتشرت مصانع أخرى في معظم المدن والحواضر الاقليميّة لتزويد الأسواق ولتلبية حاجات السكّان المباشرة في ما يتعلّق بالأدوات المنزليّة والآلات، إضافةً إلى تأمين متطلّبات القصور الملكيّة الأساسيّة، ومنها الأسلحة، والحلي والأوعية والكؤوس والمزهريات ومجامر العطور والشماعد والصناديق والمحابر. وكانت دقّة تقسيم العمل، التي تميّزت بها العادات المتّبعة في الأحياء الصناعيّة والتجاريّة، تتناسب مع تنوّع التقنيّات المستعملة للقولبة والخراطة وصنع الصفائح والأسلاك المعدنية وإنتاج المجوهرات وزخرفتها بالحبيبات والتخريم، وكذلك بالمينا واللؤلؤ والأحجار الكريمة، ونقش المعادن وضربها وحفرها، وأخيرًا تلبيسها بالفضة أو بالذهب أو بالمينا أو باللون الحُمّري.

وكانت هذه السلع النادرة والثمينة تُقلّد وتُصنع من الخزف بكلفة أقل، لكن المعدنيّة منها كانت تمرّ عبر الشبكات التجاريّة إلى داخل العالم الإسلامي وخارجه، وكانت تلاقي رواجًا في الغرب المسيحي حيث تمّ الاحتفاظ ببعض أجمل النماذج منها، مثل الحوض الكبير الذي أُطلق عليه اسم «جرن عماد القديس لويس». وغالبًا ما كانت تمثّل نموذجًا دقيقًا وطريفًا للزخرفة المبتكرة التي وُصفت بـ«الإسلاميّة» تأكيدًا لأصالتها، وهي تميّز أعمالًا تعود بأصلها إلى مقاطعات مختلفة، من هراة ومرو ونيسابور في خراسان العبّاسيّة والسلجوقيّة، إلى اذربيجان وبلاد ما بين النهرين العليا الزنكيّة، حول الموصل، من دون إغفال إنجازات دمشق الأيوبيّة والقاهرة المملوكيّة. وجمعت هذه الأعمال بين التشابك الهندسي، النجمي الشكل، الذي تتخلّله إطارات مزخرفة ورسوم ناقرة، وبين الغرْبسة النباتيّة المنمّطة التي كانت أيضًا مستخدمة في الزخرفة الهندسيّة في ذلك العصر، إضافةً إلى ميل إلى اعطاء الأولويّة

للكتابات الأنيقة المنقوشة، القائمة أحيانًا على أشكالٍ فريدة من نوعها، تجسّدت بكتابات ذات شكل حيواني أو بشري. كما تميّزت أيضًا باللوحات المشكّلة المقولبة التي استخدمت خلال الحقبات السلجوقيّة والأيوبيّة والمملوكيّة سلسلة من المواضيع السائدة المتعلّقة بحياة البلاط وبالحياة اليوميّة، قبل أن يُقدم العثمانيّون والصفويّون والمغول على إغفال هذه المجموعة من اللوحات النابضة بالحياة لمصلحة أعمال تقليديّة اعتمدت رسومًا تخطيطيّة وأشكالًا نباتية.

المعراج، صعود النبيّ ﷺ على مرقاة سماويّة، خلال إسرائه ليلًا إنطلاقًا من الصخرة في بيت المقدس التي ما تزال قائمة وسط قبة الصخرة.

وردت وقائع رحلة الصعود في روايات عدّة، يُنْسَبُ بعضُها إلى ابن عبّاس، إبن عمّ نبيّ الإسلام ﷺ، في حين أورد بعضها الآخر إبن هشام في ترجمته للنبيّ محمّد ﷺ المعروفة بـ«السيرة النبويّة»؛ كما وردت في «تفسير» الطبري للقرآن، في ما خصّ الآية ١ من سورة الإسراء التي ورد فيها ذكر «المسجد الأقصى». وتناقلتها أيضًا بعض الروايات عبر كتابات صوفيّة مثل «رسالة» القشيري، ومنقولات شعبيّة شفويّة جرى تدوينها في وقت لاحق. ويبدو أنّ الرواية الأكثر تفصيلًا وردت في نصّ عربي فُقدت نسخته الأصليّة، لكنّ مضمونه جاء في ترجمة لاتينيّة له وُضعت في إسبانيا، خلال القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. وتصف معظم هذه الروايات بإسهاب متفاوت الوقائع التالية: إيقاظ الملاك جبريل النبيّ محمدًا ﷺ من النوم ليرافقه في هذه الرحلة؛ السفر ليلًا إلى القدس على ظهر حيوان خيالي أُطلق عليه اسم البُراق؛ لقاؤه الأنبياء وإمامة صلاتهم؛ صعوده إلى السماوات، زيارة السماوات السبع؛ مثوله في حضرة الله وحواره، بمشاركة موسى، حول عدد الصلوات اليوميّة؛ وأخيرًا عودته إلى مكّة حيث قوبلت روايته بكثير من الشك في محيطه، إلّا من بعض المقرّبين منه، ولا سيّما أبي بكر.

إنّ هذا التقليد الذي يساهم، منذ القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، في تكريم قبّة الصخرة وتثبيت مفهوم قداسة بيت المقدس، يحتلّ مكانة مهمّة لدى المتصوّفة، الذين يرون فيه دليلًا على إمكان الاتّصال بالله، بينما تعتبره الأوساط الشعبيّة معجزة تؤكّد صحّة رسالة النبيّ محمّد ﷺ. لكنّ بعض العلماء المتشدّدين تحفّظوا بشأنه، بينما سلّم به آخرون. ورأى بعض المحدّثين في «المعراج» وسيلة تصعد بها النفوس إلى السماء وتبلّغ، من خلالها، أعمال البشر إلى الملائكة الذين يعمدون إلى تسجيلها.

◄ راجع المستندات رقم ٣٧، ٣٨ و٩٠.

المعرّي، أبو العلاء أحمد بن عبدالله، ٣٦٣ - ٤٤٩هـ/ ٩٧٣ - ١٠٥٨م، مفكّر ضرير، وشاعر وأديب شُهر في سوريا على عهد الحمدانيّين والفاطميّين بصفته شخصيّة تجمع بين الحياة المهمّشة التي عاشها والاحترام الشديد الذي لقيه، وهو قدّم في دواوينه طروحات فلسفيّة ودينيّة متّسمة بمؤثرات شيعيّة متطرّفة.

وُلد في بلدة معرّة النعمان السوريّة في أسرة عربيّة الأصل، فقد بصره منذ الطفولة، إلّا أنّه أظهر مواهب فكريّة مبكرة، وتلقّى في مجتمعه القروي عناية تربويّة أتاحت له الانصراف، منذ حداثته، إلى الشعر. تابع دراسته اللغويّة على فقهاء اللّغة في المعرّة وحلب حيث كانت ما تزال ماثلةً في الأذهان ذكرى المتنبي؛ ثمّ انتقل إلى طرابلس (الشام) وربما إلى أنطاكية حيث تعرّف، بحسب بعض الأخبار المأثورة، إلى الفلسفة الهلينستيّة عبر اتّصاله بأحد الرهبان المسيحيّين. وفي حوالى سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م، قصد بغداد حيث تردّد إلى المكتبة الشيعيّة المعروفة بدار العلم، لكنّه لم يستطع الإقامة فيها لأكثر من ثمانية عشر شهرًا، ربّما لقلّة موارده المادية أو بسبب كراهية المجتمع السنّي له، فعاد سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م إلى المعرّة التي لم يبرحها قط في ما بعد، ولذا لُقّب بـ«رهين المحبسين»، العمى والمنزل. وكان على صلة بشخصيّات سياسيّة وأدبيّة، وكذلك بعلماء ذوي نزعة إسماعيليّة. ومن خلال نظرته التشاؤميّة، رأى أنّ الحياة مصيبة، ولم يتزوج قط، وتوفي حين كان السلاطين الأتراك السلاجقة يسيطرون على بغداد قبل أن يبسطوا سيطرتهم على مجمل المشرقَيْن الأدنى الأوسط. من مؤلّفات المعري الكثيرة، نتوقّف عند المجموعة الشعريّة التي كتبها في المرحلة الأولى

من حياته ، والتي عنونها «سقط الزَّند» ، وهي تتضمّن مراثي ومدائح ، رمزيّة أحيانًا ، موجهة إلى أعضاء البلاط الحمداني ، أو إلى أعيان كانوا في خدمة الفاطميّين ، وهي تتّسم بالصنعة وبالبحث عن الصور البيانيّة ؛ والمجموعة الشعرية التي كتبها بعد إقامته في بغداد ، وعنوانها «لزوم ما لا يلزم» ، يدلّ عنوانها على ما تضمّنته من غنى مفرط في القوافي ؛ في حين أنّ محتواها المموّه بتعظيم الله ، يدلّ على تشاؤم يلامس الإلحاد ، وقد تبيّن فيها بعض الدارسين أفكارًا إسماعيليّة ؛ أمّا مجموعة «الفصول والغايات» الموضوعة بالنثر المسجّع ، فقد رأى بها النقّاد القدامى محاولة لتقليد القرآن الكريم الذي شكّك أبو العلاء في إعجازه ؛ وأخيرًا القصة التي كتبها سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م وعنوانها «رسالة الغفران» حيث تخيّل المؤلّف مُخاطبه وقد دخل الفردوس للبحث عن الشعراء والعلماء الذين حصلوا على الغفران ، وقد تناولهم غالبًا بأحكام نقديّة قاسية .

يبدو المعرّي ، عبر كل هذه المؤلّفات ، مفكرًا دينيًّا مضطربًا إزاء مشهد العذابات البشريّة ، مملوءًا بالمرارة ، جاهزًا للثورة ولرفض المبادئ الموروثة ، كما يبدو وكأنّه من أتباع المذهب التأليهي (déiste) وليس مسلمًا بالمفهوم الدقيق . تعكس شخصيّته المميّزة صورة المجتمع السوري في عصره ، وكانت تسيطر عليه الصراعات الداخليّة ، والخلافات المذهبيّة التي زادتها حدّة الاضطرابات السياسيّة والمنافسات بين العبّاسيّين والفاطميّين ، وقد قاسى هو نفسه بعض نتائجها .

مُعزُّ الدولة ، أبو الحسين أحمد بن أبي شجاع ، ٣٠٣-٣٥٦هـ/ ٩١٥-٩٦٧م ، أوّل أمير أمراء في عائلة البويهيّين ، استولى على السلطة في بغداد في العام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م ، حيث حصل على لقبه الفخري ، أي أمير الأمراء ، من الخليفة العبّاسي المستكفي .

قام ، قبل ذلك ، بحملات متتالية في كرمان والأهواز ، وفي العراق ضدّ أمير الأمراء التركي في السلطة آنذاك . تمكّن أبو الحسين - الذي عُرف لاحقًا بإسم معزّ الدولة - من الدخول منتصرًا إلى عاصمة الأمبراطوريّة ، ما أجبر ديوان الخلافة على منحه امتيازات لائقة بمقامه . وبقي منذ ذلك الوقت في مقدّمة المسرح السياسي ، مشاركًا في حملات غير مضمونة ضدّ الحمدانيّين في بلاد ما بين النهرين العليا ، ومجاهدًا ضدّ قرامطة البحرين حتّى وفاته في العام ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م . وإلى عضُد الدولة إبن أخيه الحسن (ركن الدولة) يعود الفضل في ترسيخ قدرة الأُسرة البويهيّة التي بلغت أوجها في زمانه .

المُعِزُّ لدين الله ، أبو تميم مَعَدُّ بن اسماعيل المنصور ، ٣١٩-٣٦٥هـ/ ٩٣١-٩٧٥م ، خليفة من سلالة الفاطميّين ، وأوّلهم في بسط سلطنه على بلاد المشرق .

ولد المعزّ في المهديّة على شاطئ إفريقية (في تونس حاليًّا) واعتلى العرش في العام ٣٤١هـ/ ٩٥٣م . أعاد بسط سيطرته على الجزء الأكبر من المغرب الأوسط وقاد حملات جهاديّة ضد بيزنطية في جزيرتي كريت وصقلّية تُوّجت بالنجاح . أقدم على اجتياح مصر بواسطة قائده جوهر وجيشه القادم برًّا في العام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م . وتوجّه بنفسه إلى وادي النيل بحرًا في العام ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م ، واستقرّ في مدينة القاهرة الحديثة العهد حيث توفي بعد سنتين ، بعد ان تمكّن من فرض سلطته على المنطقة بأكملها ونشر سيادته على الأراضي المقدّسة في مكّة والمدينة .

نجح خلال وقت قصير في إعادة تنظيم الأمبراطوريّة الشاسعة التي اكتسبها ، إداريًّا وعسكريًّا ، مواصلًا في الوقت نفسه جهودًا حربيّة جديدة برًّا وبحرًا ضدّ بيزنطية في سوريا . وتوصّل إلى هذه النتائج السياسيّة البالغة الأهميّة بالرغم من الصعوبات المتمثّلة بمعارضة جماعة أخرى تنتمي إلى الحركة الإسماعيليّة ، هم القرامطة الذين ناضلوا ضد جوهر ، بعد أن تحالفوا مع الإخشيديّين والحَمْدانيّين والبُويهيّين .

المغرب ، إسم مشتقّ من اسم مدينة مراكش ، وقد اعتاد الأوروبيّون ، منذ نهاية القرون الوسطى ، أن يطلقوه على القسم الغربي للمغرب ، أي المغرب الأقصى الذي يشكّل اليوم المملكة المغربيّة .

١ - هذه الأرض الواسعة التي يسكنها البربر والتي اهتدت إلى الإسلام بصعوبة في نهاية مرحلة الفتوحات الكبرى ، والتي كانت قاعدة للحملات التي أمّنت الإنطلاقة الأولى في الأندلس ، كانت قد لعبت دورًا

أساسيًّا في تاريخ أفريقيا الشماليّة في القرون الوسطى. كانت مقرًّا للمملكة العلويّة المنحدرة من الأدارسة التي تعرّضت لهجمات فاطميي إفريقية، ثمّ خضعت لحماية أمويّي قرطبة، ومن ثمّ احتضنت عواصم الأمبراطوريّات الأندلسيّة-المغربيّة الكبرى التابعة للمرابطين وللموحّدين. أصبحت تلك الأرض، في ما بعد، منطقة نفوذ السلالات المحليّة مثل المرينيّين والوطّاسيّين، وبخاصة منطقة نفوذ العائلات الشريفيّة ذات الأصل الحسني، أي السعديّين الذي أمسكوا بزمام الأمور في بداية القرن السادس عشر، والعلويّين الذين خلفوهم خلال القرن السابع عشر.

حدود المغرب الحالي هي حدود الدولة السعديّة التي نشأت بفعل الجهاد وبفعل شعور مقاومة التدّخلات الأجنبيّة. عرفت هذه الدولة كيف تتجنّب الاحتلال العثماني، وقد اتّخذت مراكش عاصمة لها. اعتمد العلويّون بدورهم على انتصاراتهم العسكريّة الخاصة للاستيلاء على السلطة، ونجحوا في استعادة بعض المرافئ التي كان البرتغاليّون قد استقرّوا فيها، وفي توسيع سلطتهم انطلاقًا من شمال البلاد، وقد بلغت تلك السلطة أوجها في عهد مولاي إسماعيل؛ ولكنّهم لم يستطيعوا في ما بعد التصدّي للمطامع الأوروبيّة ذات الطابع الإقتصادي والتي اتّخذت، في النهاية، طابعًا سياسيًّا. صحيح أنّ الأمير مولاي الحسن استطاع، في العام ١٨٩٢، الإفلات من الاتفاقيّة التجاريّة التي كانت بريطانيا العظمى تريد أن تفرضها عليه، كما تمكّن، في العام ١٨٩٣، من تجنّب الحرب مع إسبانيا، ولكنّ الصعوبات الماليّة أرغمته على إبرام قروض مع الدول الغربيّة. وكان الاتفاق المعقود في هذا الخصوص، سنة ١٩٠٤، والذي سمح بتمركز مراقبين فرنسيّين في المرافئ المغربيّة، في أساس تدخّل الدول الأوروبيّة الهادفة إلى إرساء سيطرتها على البلاد.

إذا كان مؤتمر الجزيرة الخضراء قد اعترف، في العام ١٩٠٦، بحقوق خاصة لفرنسا وإسبانيا، فقد كان لألمانيا أيضًا مطامع في المغرب. وقد حصلت حوادث متفرّقة أدّت إلى احتلال فاس من قبل القوات الفرنسيّة وإلى تمركز القوّات الإسبانية في العرائش والقصر الكبير. ثم كرّس اتفاق فاس، في شهر آذار/ مارس ١٩١٢، الحماية الفرنسيّة التي أصبحت، في الواقع، إحتلالًا للبلاد، وقد رفضت مناطق عدّة أن تخضع لها. استمرّت السيطرة خلال الحرب العالميّة الأولى بفعل الجهود التي بذلها الجنرال ليوتيه، قبل أن يصطدم، في ١٩٢٥-١٩٢٦، بثورة عبد الكريم في الريف. ولم يعترف المغرب بكامله بسلطة السلطان وبالإدارة الفرنسية إلّا سنة ١٩٣٤، بعد أن استتبّ فيه الأمن تمامًا، طبعًا تستثنى من ذلك المنطقة الإسبانيّة.

في غضون ذلك تشكّلت، منذ سنة ١٩٣٠، حركة وطنيّة بقيادة علّال الفاسي بدأت بالإعتراض على قانون اعترف بالعادات البربريّة في القانون المدني. اتّسعت هذه الحركة في السنوات التي تلت، وفي ١٩٤٣ تأسّس حزب الاستقلال. في العام ١٩٥٢ بدأت مفاوضات مع الحكومة الفرنسيّة، ولكنّها لم تفلح وتمّ خلع السلطان محمّد الخامس بواسطة «مجلس باشاوات وقادة»، وحلّ محلّه قريبه ابن عرفة؛ ولكن، في العام ١٩٥٦، استُدعي السلطان من المنفى، وأعيد إلى الحكم وأعلن الاستقلال، بينما حصلت المنطقة الإسبانيّة هي أيضًا على الاستقلال في شهر ابريل وانضمّت إلى الدولة الجديدة.

٢- تبلغ المساحة الحاليّة للمملكة المغربيّة ٥٠٠ ٠٠٠ كيلومتر مربع؛ وهي دولة مستقلّة عاصمتها الرباط، وسكانها في غالبيتهم من المسلمين. وهي تغطي تمامًا القسم الغربي من المغرب.

هذه الدولة - التي اعترفت بها فرنسا في العام ١٩٥٦ - تضمّ أيضًا الممتلكات الإسبانيّة القديمة الواقعة إلى شمال المحميّة الفرنسيّة السابقة وإلى جنوبها. تشتمل على مجموعة واسعة من الهضاب والسلاسل الجبليّة والسهول الساحليّة التي لا تزال جرداء في أقسامها الصحراوية، في حين أنّها تتلقّى كميّة كافية من الأمطار في الأجزاء الشماليّة. يحدّ المغرب، على طول الجهة الغربيّة، المحيط الأطلسي، في حين أنّ له حدودًا مشتركة شرقًا وجنوبًا مع الجمهوريّة الجزائريّة، وفي أقصى الجنوب مع جمهوريّة موريتانيا، في منطقة الصحراء الغربيّة، ريو دو أورو القديمة.

نظام الحكم في المغرب ملكي، يقوم على نظرية الحقّ الإلهي، مع بعض عناصر الملكيّة الدستورية، وهو نتيجة مبادرات قام بها عاهلان من السلالة العلويّة هما محمّد الخامس، وبعد ١٩٦١ ولده الحسن الثاني.

عمل هذان العاهلان على تطعيم السلطة المطلقة التي ورثاها بالديموقراطيّة وعلى تحديثها، مع التصدّي لمعارضة الأحزاب التقدميّة التي تدافع عن برامج لا تتوافق مع أهدافهما الخاصة. ظلّ همّهما الأساسي تأمين النموّ الإقتصادي لكامل البلاد، من دون التنكّر لإرث الماضي. في العام ١٩٦٣، أُقِرّ دستور يُدخل مبدأ الملكيّة البرلمانيّة؛ ثمّ في ١٩٧٠ و١٩٧٢، وُضعت دسا ير أخرى أعطت كلّها صلاحيات واسعة للملك الذي كان قد تخلّى، سنة ١٩٥٧، عن لقب سلطان ليتّخذ لقب ملك، ولكنّه ظلّ أميرًا للمؤمنين.

في موازاة ذلك، وعلى الرغم من بعض الأحداث المتفرّقة، لم يتأثّر مبدأ التعاون مع فرنسا بشكل جدّي. أمّا إسبانيا التي كانت تحتفظ بمراقبة حُصنَي سَبْتة ومليلة، بعد أن غادرت، في العام ١٩٥٦، ما كان يسمّى المغرب الإسباني في منطقة الرّيف، فقد أعادت إلى المملكة الشريفيّة، في العام ١٩٦٩، منطقة أخرى هي إفْني. طالبت المملكة في ما بعد، في العام ١٩٧٥، باستعادة مستعمرتها القديمة، ريو دو أورو، الواقعة على الساحل الأطلسي للصحراء الكبرى.

إنّ التوازن الإقتصادي في بلد يتمتّع بموارد طبيعيّة مهمّة، سواء زراعيّة أو منجميّة، لم يتأثّر في العمق بالنموّ الديموغرافي الذي رفع عدد سكّانه إلى ٢٥ مليون نسمة، موزّعين بين البربر والعرب. إنّ تفوّق الاسلام السنّي التابع للمدرسة المالكيّة ينسجم مع تطبيق معتدل للشريعة الإسلاميّة، ومع الإعتراف الشرعي بحقوق الرعايا الأوروبيّين وبحقوق الأقليّة اليهوديّة. لا يؤثّر ذلك على الحياة الدينيّة النشيطة التي لا تزال مطبوعة بالحيويّة الصوفيّة ذات التشعّبات الشعبيّة المتعدّدة والتي تحييها طرائق عديدة، منها القادريّة والتيجانيّة، وخصوصًا الشاذليّة ذات الفروع المتعدّدة كالدّرقاويّة والعيسويّة.

◄ راجع المستندات ١٤، ١٩ و٦٦ إلى ٦٨.

المغرب، تسمية أطلقها الجغرافيّون العرب على بلدان أفريقيا الشماليّة، لكنّ القسم الشرقي من هذه البلدان الذي يتجاوز حدود الجمهوريّة التونسيّة الحاليّة، كان يُعرف باسم إفريقية، في حين أنّ القسم الغربي منها أي المغرب الأقصى، كان يشمل ما يُعرف اليوم بالمملكة المغربيّة، وكذلك القسم الأوسط من الجمهوريّة الجزائريّة.

يحدّ المغرب، شمالًا، البحر المتوسط، ويمتد غربًا حتّى المحيط الأطلسي، أمّا جنوبًا فتحدّه الصحراء لجهة «بلاد السود» أو سودان أفريقيا الساحليّة، كما يشمل المغرب ليبيا إبتداء من منطقة برقة، أو على الأقلّ من منطقة طرابلس. هذه الحدود هي التي ما تزال معتمدة في تعريف المغرب، فتُذكر في إطارها الدول المعاصرة التي تضمّها المناطق المذكورة آنفًا، وتضاف إليها جمهوريّة موريتانيا الإسلاميّة.

تشكّل مجموعة هذه الأراضي وحدة جغرافيّة واضحة يميّزها مناخ قاسٍ، وتضاريس جبلية، وأجزاء متقطعة اعتُبرت غالبًا بأنّها في أساس التفسُّخ والفوضى في حياة الجماعات والإمارات التي نشأت فيها. فخلال القرون الوسطى، تميّزت الحياة الاجتماعيّة بسيطرة خليط من الشعوب، يتجاور فيه البربر الأصليّون الذين احتفظوا بلغتهم الأم، والفاتحون العرب المسلمون والمستعربون المحيطون بهم من أتباعهم، كل ذلك بعد أن فتحت المغرب الجيوش العربيّة - الإسلاميّة بصعوبة، إبّان الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي.

كان أوّل الاحداث المهمّة استيلاء عمرو بن العاص على منطقة برقة سنة ٢٢هـ/٦٤٢-٦٤٣م، ثمّ معركة سُبيطلة سنة ٢٦هـ/٦٤٧م. وتعدّدت الحملات على إفريقية بين ٣٤ و٤٥هـ/ ٦٥٤ و٦٦٥م. ولم تنشأ مدينة القيروان إلّا سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م. وفي سنة ٦٥هـ/٦٨٥م، قام القائد عُقبة بن نافع، بحسب المرويّات، بحملة أوصلته إلى شواطئ المحيط الأطلسي. لكنّ إقرار السلام في تلك البلاد كان بطيئًا. وإذا كان بعض البربر الذين اعتنقوا الإسلام شاركوا، في أواخر القرن الأوّل الهجري/أوائل الثامن الميلادي، في الاستيلاء على شبه الجزيرة الإيبيريّة، فإن آخرين اعتنقوا عقيدة الخوارج

وثاروا على أسيادهم الجدد. وفي المغرب الأوسط، ولا سيّما في المغرب الأقصى، سيطرت حالة من الفوضى، ما أتاح الفرصة، بعد سقوط الخلافة الأمويّة في الشرق، لبعض الممالك الصغيرة الإنفصاليّة أن تبسط سيطرتها، بعيدًا من سلطة العبّاسيّين المركزيّة.

هذه، مثلًا، كانت حال الأدارسة مؤسّسي فاس، والرستميّين مؤسّسي تاهرت. وبعد مدّة وجيزة حصل ابن الأغلب، حاكم إفريقية، سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، من الخليفة العبّاسي على شبه استقلال استغلّته سلالته في سبيل ازدهار الدولة الأغلبيّة. أزال الفاطميّون هذه السلالات الحاكمة وسلطات محليّة أخرى، عند وصولهم سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، فقمعوا الثورات المعارضة لهم وسيطروا على معظم بلاد المغرب، ولم يصمد أمامهم، لجهة الغرب، إلّا الدولة الأمويّة التي كانت تحكم الأندلس، انطلاقًا من عاصمتها قرطبة. استمرّ المغرب عرضة للنزاعات بين القبائل البربريّة الكبرى ككتامة وصنهاجة، فتفسّم بعد انتقال الفاطميّين إلى مصر، وكان هؤلاء قد تركوا المغرب لأتباعهم القدامى بني زيري وأبناء عمّهم بني حمّاد الذين عانوا غزوات مجتاحين عرب وافدين من الشرق، هم بنو هلال. لكنّ المرابطين، في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، استطاعوا أن يوحّدوا في أمبراطوريّة واسعة أراضي المغرب الأقصى والأوسط، مضافًا إليها الأندلس، إلى أن اسقطهم الموحّدون في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، مؤسّسين دولة أوسع من سابقتها إذ بلغت إفريقية. وقد اضطرّ خلفاؤهم المرينيّون في فاس إلى الحدّ من طموحهم، بينما بقيت إفريقية في أيدي الحفصيّين.

وقد شهد القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي المغرب مجزأً: ففي القسم الغربي منه، حلّت محلّ المرينيّين سلالات الأشراف السعديّين، ثمّ العلويّين، في حين أنّ البرتغاليّين استولوا على بعض المراكز التجاريّة؛ أمّا لجهة الشرق فقد حاول الإسبان الإستقرار في تونس، ولكنّ القراصنة التابعين مبدئيًّا للعثمانيّين طردوهم منها. وقد استطاع العثمانيّون، سنة ١٥٧٤م، فرض سيطرتهم على المناطق التي تكوّنت منها لاحقًا تونس، وقد استعادت هذه المناطق استقلالها الذاتي في ظلّ السلالة الحسينيّة. بسط العثمانيّون أيضًا سيطرتهم على المغرب الأوسط المرتبط مباشرة بالسلطة الجديدة في الجزائر. وحدها المملكة المغربيّة لم تقع تحت قبضتهم. بعد ذلك، سنة ١٨٣٠م، وفي السنوات اللّاحقة، احتلّ الفرنسيّون الجزائر، وطردوا منها الداي؛ وفي سنة ١٨٨١ فرضوا حمايتهم على تونس؛ وسنة ١٩١٢ جعلوا الدولة المغربيّة محميّة، مع بقائها تحت نفوذ السلطان. وأخيرًا فإنّ المرحلة الحاليّة تميّزت في بلاد المغرب بحصول دوله على استقلالها، هذا ما حصل لليبيا في سنتي ١٩٥١ و١٩٥٥، ولتونس سنة ١٩٥٦، وللمغرب سنة ١٩٥٧، ولموريتانيا سنة ١٩٦٠، وللجزائر سنة ١٩٦٢.

◄ راجع المستندات ٨، ١١، ١٤، ١٩، ٢٨، ٥٠ إلى ٥٤، ٦٦ الى ٦٨، ٨٧ و٨٨.

المَغول، بدو من السهوب الأسيويّة، عُرفوا بهذا الإسم في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، واجتاحوا إيران والأناضول والعراق، إثر غزوات امتدّت من الصين إلى شمال القوقاز وأدّت إلى تغييرات جذريّة في تاريخ المشرق الإسلامي.

من الغزوات المغوليّة انبثقت مباشرة، بعد عقود عدّة، أمبراطوريّة الإيلخانيّين التي سرعان ما اعتنقت الإسلام، بينما استمرّت أو تطوّرت جماعات إسلاميّة في مناطق أخرى تحت هيمنة الجغتائيّين، خصوصًا سلالة الباتو التي خلفتها، في ما بعد، خانات القبيلة الذهبيّة. وكان قد تمّ سابقًا، في العام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، تأسيس أوّل دولة مغوليّة في صحراء غوبي ضمن مجموعة من القبائل غير المستقرّة، على يدي قائد عشيرة لُقّب بـ«الخان الأكبر»، وهو جنكيزخان. وبعد أن أعلن أنّه مؤتمن على رسالة كلّفته بها آلهة المغول والأتراك أبناء عمّهم، انطلق هذا القائد الجديد على رأس جماعات مسلّحة هائجة في سلسلة من الحملات البعيدة، نحو الشرق الأقصى منذ العام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، وفي اتّجاه الغرب في العام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، تمكّن إثرها من توريث أمبرطوريّة هائلة لأعقابه، امتدّت من شواطئ المحيط الهادئ إلى بحر قزوين. تمّ بعد ذلك تقسيم هذه

الأمبراطوريّة بين أبنائه الأربعة، بينما وُضعت المناطق المخصّصة لكل من الأسر، وفقًا للتقاليد البدوية، تحت امرة خانات حافظوا في بادئ الأمر على ديانتهم الشامانيّة المطعّمة بالمسيحيّة.

وبينما حصل الإبن الثاني جَغْتاي، مؤسّس سلالة الجَغتائيّين، على منطقة ما وراء النّهر، وفي حين استقرّت سلالة الباتويّين، المنبثقة من الإبن المتوفّى، في سيبيريا الغربيّة بالقرب من روسيا، خلفَ جنكيزخان بلقب الخان الأكبر ولدُه الثالث اوغوداي أو أُوكتاي. انتقل اللقب بعد ذلك إلى ورثة الإبن الرابع الذي كان قد حصل على منغوليا. وبعد نزاعات دامية طبعت الصراع على السلطة المطلقة، خرج مُنكُو منتصرًا في العام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م، وكلّف أحد إخوته، هولاكو، مواصلةَ عمليّات الفتح في الشرق الأدنى، ما أدّى إلى ولادة دولة الإيلخانيّين.

تميّزت هذه الدولة الإيلخانيّة ضمن العالم الإسلامي في العام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، عندما أقدم قُبْلاي، الخان الأكبر الجديد وأحد إخوة هولاكو ومنكو المتوفّى بدوره في العام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م، على هجر كراكوروم العاصمة الأمبراطوريّة في مُنغوليا للإستقرار في الصين، وتحديدًا في خان بلِق/بكين. وكان قسم من المغول، المشتّتين في تلك الفترة في أنحاء آسيا كافة، قد تحوّل إلى المسيحيّة النسطوريّة وقسم آخر إلى الإسلام، بينما بقي بعضهم وفيًّا لديانة أجداده. وأدّى هذا الوضع إلى مناخ عام من التسامح الديني النسبي، تميّز به المجتمع الإيلخاني لفترة، قبل أن يعتنق ملوكه الإسلام، ونجمت عنه محاولات عديدة من قبل دوَل أوروبا المسيحيّة لإقامة علاقات مع أسياد آسيا الداخليّة الذين اسقطوا الخلافة العبّاسيّة وشكّلوا تهديدًا للمماليك.

◄ راجع المستند رقم ٢٣.

المغول (الهند)، ٩٣٢-١٢٥٧هـ/ ١٥٢٦-١٨٥٨م، سلالة تركيّة تيموريّة الأصل، احتفظت بسلطتها على الهند الإسلاميّة خلال أكثر من ثلاثة قرون، وتجسّدت هذه السلطة بشكل خاص في قيام أمبراطوريّة ضخمة غنيّة بمواردها الطبيعيّة وبأنشطتها الحرفيّة، لكنّها كانت منقسمة داخليًّا بسبب عدم تجانس سكّانها المتعدّدي الإنتماء الديني.

بلغت عظمة ملوكها الشهيرين الذين أُطلقت عليهم أوروبا اسم «المغول الكبار» أوْجَها، بخاصة خلال السنوات الأولى من القرن السابع عشر. استطاع هؤلاء، من خلال الإنتاج الأدبي والأعمال الفنيّة الفخمة، أن يتفوّقوا شهرةً على الصفويّين، أسياد إيران، وعلى العثمانيّين، أسياد الأناضول والبلقان والمشرق العربي وحوضيْ البحر الأبيض المتوسط.

نشأت سلالة المغول في الهند نتيجةً لطموحات أحد أعقاب تيمورلنك المتحدّر كذلك من جنكيزخان من جهة والدته، المدعو بابُر والذي استقرّ في الهند منذ انتصاره في پانيپات في العام ١٥٢٦م، بعد أن غادر منطقة فرغانة في آسيا الوسطى حيث كان قد اصطدم بالأوزبكيّين. ولم يخلّف هذا الأخير سوى سلطة مترجرجة لإبنه همايون الذي اعتلى العرش واضطرّ بعد ذلك إلى التخلّي عن الحكم لمدّة خمس عشرة سنة قضاها منفيًّا في إيران. وحده إبن همايون، الأمبراطور الشهير أكبر - الذي يعود إليه الفضل في إنشاء الأمبراطوريّة المغوليّة الجديدة وتنظيمها خلال عهده الظافر، ونتيجة نجاحاته العسكرية - تمتّع بسلطة لم ينازعه إيّاها أحد. لكنّه فشل في آخر المطاف في محاولاته للتوفيق بين المعتقدات الدينيّة المتضاربة. وخلَفَه بعد ذلك مباشرة أربعة من ذريّته استطاعوا، بالرغم من فترات الإضطرابات والحروب الأهليّة المتعاقبة، الإرتقاء بدولتهم إلى درجة غير مسبوقة من المجد، من خلال سعيهم الدائم إلى تعزيز دفاع حدودهم على الهضبة الإيرانيّة وفي منطقة الدكّن، كما فعل الملكان جهانگير وشاه جهان، أو من خلال نجاحات لم يُكتب لها الدوام، على غرار ما فعله مجاهد الإسلام العنيد الملك أورنگزيب بين ١٦٥٨ و١٧٠٧م.

وتعود ذروة النفوذ والازدهار هذه، المحقّقة بالرغم من حروب داخليّة، إلى صفات الملوك الحاكمين وإلى فعاليّة التنظيم الحكومي التراتبي المغلق. كما تجسّدت هذه الذروة في فخامة تجهيزات قصور السلاطين ومدنهم الملكيّة، كما في هندستها. لكن، في الوقت

نفسه، بدأ يتطوّر إسلام هنديّ ساهمت خلافاته المتجذّرة في زوال السلالة. كان هذا الإسلام بالتأكيد يتميّز بتقدّمه المتواصل في شبه القارة وبيقظة دينيّة دائمة ساهمت في إحيائها حركات صوفيّة عديدة. وكان التطوّر في هذا السياق يتمّ بدفع من الأولياء المكرّمين، في إطار طرائق صوفيّة حديثة العهد اتُّهمت أحيانًا بالخروج عن الإسلام لأنّها شجّعت التداخل - وفي بعض الأحيان، قبلت السلطات الرسميّة بذلك - بين المعتقدات أو الممارسات الإسلاميّة والهندوسيّة. وفي هذا الإطار ظلّت الأخطار تهدّد البناء السياسي على المدى الطويل، نتيجة لوضع الإسلام القائم على أقليّة حاكمة، فيما لم يتمكّن أبدًا من الانتشار بين أكثريّة السكّان الأصليّين.

هكذا شهدت السنوات التالية ضعف أمبراطوريّة قوّضتها الخلافات الدينيّة من الداخل، وأصبحت على حافة تفكّك سريع تحت وطأة هجمات عشائر مختلفة من الأفغان والهنود. تلا هذه الحقبة إستيلاء نادر شاه على دلهي في العام ١٧٣٨ - ١٧٣٩م، ونشوء سلطات متنافسة أفغانيّة من الملوك الدُّرانيّين والباركزائيّين، ثمّ توسّع الاحتلال الإستعماري الإنكليزي الذي انتهى، بعد ثورة «الفرسان»، بخلع آخر حكّام المغول ونفيه في العام ١٨٥٨. إنّ تفكّك الدولة المغوليّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم يمنعها من أن تُورث الحقبة المعاصرة مجتمعًا هنديًّا إسلاميًّا تكيّف، عبر العصور، مع المواقف المتقلّبة بين الليونة والتصلّب التي اعتمدها الحكّام باستمرار. وفي الوقت نفسه حافظت أعمال هؤلاء الحكّام الفنيّة الفخمة على نضارتها وعلى صفائها المرهفة، حتّى حلول الحقبة التي هيمن فيها الاقتصاد الأوروبي عليها.

ظهير الدين بابُر	١٥٢٦ - ١٥٣٠م
ناصر الدين هُمايون	١٥٣٠ - ١٥٤٠م
	١٥٥٥ ١٥٥٦م
جلال الدين أكبر الأوّل	١٥٥٦ - ١٦٠٥م
نور الدين جهانكير	١٦٠٥ - ١٦٢٧م
داور بخش	١٦٢٧ - ١٦٢٨م
شهاب الدين شاه جهان الأوّل	١٦٢٨ - ١٦٥٧م
محيي الدين أورنگزيب عالم كير الأوّل	١٦٥٨ - ١٧١٢م
شاه عالم الأوّل بهادُر شاه الأوّل	١٧٠٧ - ١٧١٢م
معزّ الدين جهاندار	١٧١٢ - ١٧١٣م
فرُّخ سيار	١٧١٣ - ١٧١٩م
رفيع الدولة شاه جهان الثاني	١٧١٩م
نيكو سيار	١٧١٩م
نصير الدين محمّد	١٧١٩ - ١٧٤٨م
أحمد شاه بهادُر	١٧٤٨ - ١٧٥٤م
عزيز الدين عالَم كير الثاني	١٧٥٤ - ١٧٦٠م
شاه جهان الثالث	١٧٦٠م
جلال الدين علي جوهر شاه عَلم الثاني	١٧٦٠ - ١٧٨٨م
	١٧٨٨ - ١٨٠٦م
بيدار بخت	١٧٨٨م
معين الدين أكبر الثاني	١٨٠٦ - ١٨٣٧م
سراج الدين بهادُر شاه الثاني	١٨٣٧ - ١٨٥٨م

◄ راجع المستندات رقم ٣٣ و٧٥ الى ٧٨.

المفتي، ضليع في الفقه، يُصدر آراء فقهيّة أو فتاوى تميّزت، خلال الحقبة الكلاسيكيّة، بطابعها الإستشاري، لكنّها كانت مجرّدة من أيّ طابع تنفيذي.

إعتاد القضاة في الحالات الصعبة إستشارة مفتين، وهُم شخصيّات لا تحتلّ أيّ منصب رسمي ولا تتقاضى أي أجر. وكان القضاة من ثمّ يُصدرون أحكامهم وفقًا للفتوى التي كانوا يرونها الأنسب. لكنّهم غالبًا ما كانوا، في بعض المناطق، يستعينون بخدمات مفتين ملحقين رسميًّا بهم.

أصبح هذا اللجوء إلى المفتي ممارسة مألوفة في المذهب السنّي وأدّى، ضمن الأمبراطوريّة العثمانيّة، إلى تنظيم مهنة حقيقيّة هيمنت عليها شخصيّة «شيخ الإسلام» أو مفتي اسطنبول الكبير الذي أصبح، في القرن السادس عشر، ثاني شخصيّة في الأمبراطوريّة بعد السلطان، بينما كان المفتون المعيّنون في الأقاليم من قبل شيخ الإسلام لمعاونة القضاة يتمتّعون بدور ثانوي. وكان الوضع معقّدًا في الولايات العربيّة بشكل خاص، حيث كان جزء من السكان لا ينتمي إلى المدرسة الفقهيّة الحنفيّة التي أخذ بها العثمانيّون. وإلى جانب مفتٍ حنفي معيّن من قبل اسطنبول، كان ثمّة مفتون يمثّلون المدارس الأخرى يجري تعيينهم من قبل أتباع مذاهبهم.

بعد ذلك جرى إلغاء منصب شيخ الإسلام في الجمهوريّة التركيّة. وظهرت عندئذ الحاجة، في الدول

العربيّة، إلى تكييف وظيفة المفتي مع الحياة العصريّة، وفي العام ١٩٣٥ أقدمت جامعة الأزهر في القاهرة على إنشاء مجلس دائم مؤلّف من اثني عشر فقيهًا، ينتمون إلى المدارس الفقهيّة الأربع، يُصدر سنويًا عددًا وفيرًا من الاستشارات.

المفيد، الشيخ أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان الحارثي العكبري، الملقّب أيضًا **بابن المعلّم**، ٣٣٦ - ٤١٣هـ/ ٩٤٨ - ١٠٣٢م، متكلّم شيعيّ، من أتباع الإماميّة الإثني عشريّة، قام بدور ناشط في عهد البويهيّين.

ولد الشيخ المفيد بالقرب من عُكْبَرة في العراق من والدٍ معلّم (مصدر لقبه)، وقدم شابًا إلى بغداد حيث درس على المحدّثين الشيعة في هذه الفترة من أمثال الشيخ الصّدوق، والمعتزليّ البلخي. وأصبح سريعًا الناطق باسم الإماميّين في المدينة وأُطلقَ عليه اسم الشيخ المفيد إشادةً بفعاليّة عمله. وكتب هذا المتكلّم الجديد أبحاثًا عديدة لم يبقَ سوى بعضها، وقد ناقش من خلالها علنًا وبحدّة اخصامه من أهل السنّة. وتمّ بين ٣٩٨ و٤٠٩هـ/ ١٠٠٨ و١٠١٨م إبعاده مرّات عدّة عن المدينة، بسبب الفتنة التي أثارتها مجادلاته.

كان علم الكلام الذي دافع عنه قريبًا من علم معتزلة بغداد، لكنّه كان متمسّكًا بموقف الإماميّة الأساسي في ما خصّ الإمامة. تتلمذ عليه كثيرون، من بينهم الأخوان الشهيران الشريف الرّضيّ والشريف المرتضى. من جهة أخرى، أدى نهجه في الأخذ بأسلوب علم الكلام المعتزليّ القائم على تدبُّر علوم المنقول بتحكيم العقل، إلى وضع النظريّة الإماميّة على صراط عقلاني أبعدها عن مواقف الشيخ الصدوق وبات يشكّل مدخلًا للنظريّات اللاّحقة.

مقام، مصطلح عربي يشير إلى نصب أو مكان تذكاري يرتبط بشكل عام بذكرى أحد الأنبياء، ويشكّل مقصدًا لزيارات تقويّة تحصل خارج الفرائض الشرعيّة.

خُصص لابراهيم، من بين الأنبياء، أوفر عدد من المقامات في بلاد ما بين النهرين العليا وفي سوريا الشماليّة وفي مكّة. وتنتشر هذه المقامات في الأماكن التي يقال إنّه عبرها عندما غادر بلاد ما بين النهرين متجهًا نحو فلسطين، منها مقامان في حلب مثلًا، إضافةً إلى المكان الذي وقف فيه عندما باشر ببناء الكعبة، كما ورد في إحدى الآيات القرآنية (سورة البقرة، الآية ١٢٥). إنّ هذا المقام الواقع في مكّة مؤلّف من صخرة تُعتبر مقدّسة تحمل آثار قدميه، وتذكر بعض الأحاديث أن نبيّ الإسلام ﷺ كان يصلّي قبه لدى أدائه شعائر الطواف. لذلك يوصي القرآن في الآية المذكورة بتحويل مقام ابراهيم إلى مكان صلاة، غير أنّ هذه الوصيّة لم تحُل دون نقل هذا المقام المكرّم إلى مكان آخر، وهذا ما حصل مؤخّرًا عندما قرّرت حكومة المملكة العربيّة السعوديّة توسيع مسار الطواف. وقد شُيّدت أبنية صغيرة على شكل قبب أو أضرحة على مواقع مقامات أخرى.

ويحمل مصطلح المقام في اللغة العربيّة معنى آخر خاص بالصوفيّين يشير إلى مختلف مراحل الحياة الروحيّة.

المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر، ؟-٣٢٠هـ/ ؟ - ٩٣٢م، الخليفة الثامن عشر من سلالة العبّاسيّين. حكم من ٢٩٥ إلى ٣٢٠هـ/ ٩٠٨م إلى ٩٣٢م، واتّصف عهده بالضعف، في مرحلة سياسيّة صعبة شهدت تدهور السلطة المركزيّة.

خلف المقتدر شقيقه الخليفة السابق المكتفي بصعوبة، بسبب صغر سنّه، وشكّل تعيينه فرصة لقضاة بغداد، لتحديد السنّ القانونية لتبوُّء منصب الخلافة بالثالثة عشرة من العمر. لكنّ المناداة به خليفةً لم تحصل على الإجماع. فبعد مرور ستة عشر شهرًا أرغمته مؤامرة بقيادة مجموعة من الأمراء والكتّاب على الاعتزال لمصلحة إبن عمّه إبن المعتزّ، إلى أن انقلب الوضع فجأة وأُجهضت ثورة القصر هذه التي لم تُعمّر أكثر من أربع وعشرين ساعة. وحصلت فضلًا عن ذلك، بعد حوالى عشرين سنة، حادثة مماثلة لم يُكتب لها النجاح أيضًا.

تميّز عهد المقتدر الطويل الذي حكم، في البداية، بمساعدة والدته وخاله اليونانيّي الأصل، بتصاعد الاضطرابات التي كانت تعصف بمقاطعات الأمبراطوريّة الشرقيّة، وبحدّة التهديدات التي مارستها على الخلافة جماعات سياسيّة دينيّة منشقّة كالإسماعيليّين المعروفين باسم القرامطة، وأخيرًا بأزمة

ماليّة دائمة وبعدم استقرار الحكومة المركزيّة الناتج عنها. أحاط بالخليفة عدد من الكتّاب المتميّزين ومن المتخصّصين بالمسائل الماليّة، وقد كلّفهم على التوالي بإدارة شؤون الدولة. لكنّه لم يتبع قطّ السياسة ذاتها طويلًا، حتّى تلك التي اعتمدها بإيعاز من كتّابه، كما ضاق ذرعًا بكلٍ من وزرائه، فاستدعى مثلًا عليًّا بن عيسى المعروف بنزاهته للقيام بإصلاحات إقتصاديّة، ولكنّه أقاله واستبدل به ابن الفرات المرتبط بالأوساط الشيعيّة والسخيّ حيال البلاط.

في الواقع، أدّت الاضطرابات الداخليّة واللجوء الدائم إلى العمليّات العسكريّة لقمع حركات التمرّد، إضافة إلى طبع الخليفة المتقلّب، إلى تعزيز دور القائد الأعلى للقوّات المسلّحة في ادارة شؤون الدولة، لكنّ ذلك لم يُؤدّ إلى تحسين الدفاع عن الأمبراطوريّة. وعندما قُتل المقتدر على رأس جيشه في مواجهة أحد القوّاد المتمرّدين، كان الوزير مجرّدًا من السلطة والأمبراطوريّة في حالة تفكّك تام والخزينة فارغة. وبعد بضع سنوات أذعنت الخلافة لسلطة أمير الأمراء الصاعدة الذي فرض وصايته عليها.

المَقْدِسي أو المُقدَّسي، ابو عبدالله محمد بن أحمد، ٣٣٥ - ٣٩٢هـ/ ٩٤٦ - ١٠٠٠م، عالم ورحّالة عربي من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وضع وصفًا كاملًا للعالم الإسلامي في زمنه.

يُعتبر المقدسي، إلى جانب إبن حوقل، في القرون الوسطى الإسلاميّة، ممثّلًا لكتّاب الجغرافيا البشريّة التي نشأت خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إذ إنّ وصفه يتجاوز تعقّب مسارات القوافل والتعليق عليها كما فعل أسلافه من قبله. ويتألّف كتابه [أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم] الذي أُنجز حوالي العام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، من وصف لمختلف المناطق التي زارها بنفسه، باستثناء الأندلس، وفقًا لمخطّط ثابت: معلومات عموميّة عن المنطقة وعن فضائلها، لائحة بالمقاطعات والمدن الرئيسة، وصفٌ لكلّ مدينة ومعلومات عن العقائد السائدة، وعن العادات والموارد الزراعيّة والمنجميّة، وعن المقاييس المعتمدة، وأخيرًا عن الطرقات.

ويتألّف الكتاب من أقسام عدّة، إضافةً الى مقدّمة تشمل معلومات ثمينة حول الوضع الديني السائد في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. غير أنّ المعلومات المتوافرة ضئيلة في ما يتعلّق بميول المقدسي السياسيّة والدينيّة، علمًا أنّ جدّه كان يعمل مهندسًا معماريًّا في خدمة ابن طولون في فلسطين. ومن سيرة حياته نعلم أنّه أدّى شعائر الحجّ في مكّة في العام ٣٥٥هـ/٩٦٦م، عندما كان في سنّ العشرين تقريبًا. تذكر النسخة الأولى لكتابه، المهداة إلى شخصيّة مجهولة، سلالة السامانيّين وتعتبرهم أهمّ سلالة في ذلك الزمن، بينما حُذف هذا الأهداء من النسخة الثانية التي تبدو أكثر تأييدًا للفاطميّين، ما يشير إلى تغيُّر في مجرى حياة المقدسي، وربّما في معتقداته.

مَقْدونيّة، منطقة في البلقان، احتلّها العثمانيّون طوال ما يزيد عن خمسة قرون. وقد استمرّت منذ القرون الوسطى، بفضل موقعها وطبيعة أرضها، ممرًّا ومفترق طرق، قبل أن تتقاسمها يوغوسلافيا السابقة، وبلغاريا واليونان.

اكتمل استيلاء العثمانيّين عليها، باستثناء منطقة سالونيكا، بين ٧٨٤ و٧٩٣هـ/ ١٣٨٣ و١٣٩١م، إثر معركة كوسوفو. أدّى ذلك إلى احتلال إداريّ حازم، فرض واقعًا جديدًا للأراضي قضى بتجزئتها إلى تيمارات، وبتطبيق ضريبة الغلمان، بينما كان معظم المقاطعات خاضعًا لنظام ضرائبي قاسٍ. وفي ذلك الوقت كانت القبائل التركيّة الأناضوليّة تستقرّ حول سالونيكا وإشطيب وأسكوب. لقد شجّعت بعض الفرق، كالبكتاشيّة، الناس على اعتناق الإسلام، فدخل فيه كثيرون، وهذا ما يفسّر استمرار وجود الأقليّات الإسلامية في المنطقة واستمرار نشاطها حتّى اليوم.

عرفت مقدونية، منذ أواخر القرن التاسع عشر، المراحل التي مرّ بها نضال شعوب البلقان ضدّ السلطنة العثمانيّة، وقد واكب ذلك صراع بين الصّرب واليونان والبلغار، بلغ أوجَهُ في حرب البلقان ١٩١٢ - ١٩١٣. وفي نهاية الحرب العالميّة الأولى، تقاسمت أراضي مقدونيا ثلاث دول قوميّة حديثة النشأة: بلغاريا واليونان وما عُرف في ما بعد بجمهورية يوغوسلافيا الاتّحاديّة. وحصلت تغيّرات لاحقة بفعل انتقال السكان، ما عدّل

جذريًّا نسبة المسلمين في كلّ دولة. لقد تمّ ذلك إمّا بالتبادل السكّاني بين اليونان وبلغاريا وتركيا، وإمّا بالإنتقال الطوعي، كما فعل المقدونيّون الأتراك.

إنّ جمهوريّة مقدونية الحاليّة التي نشأت من تفكّك يوغوسلافيا السابقة، وأصبحت مستقلّة، هيَ مقدونيا الفاردار (Vardar)، وهي تتميّز عن مقاطعتين مقدونيّتين أخريَيْن، تتبع إحداهما لبلغاريا والثانية لليونان. في جمهوريّة مقدونية هذه، المنتظمة حول مركزين مدنيّين يحتفظان بماضيهما العثماني، وهما مونستير وأسكوب، استمرّ المسلمون، منذ عهد جمهورية يوغوسلافيا الفدراليّة، مجتمعين ضمن اتّحاد ديني مقرّه في أسكوب، وهو يؤلّف واحدًا من الفروع الأربعة التي تتمتّع بالإستقلال الذاتي ضمن الاتحاد الاسلامي الذي يشمل سارايفو في البوسنة، وتيتوغراد في الجبل الأسود، بريشتينا في منطقة كوسوفو - متوشيا. ما يزال المسلمون في هذه المناطق وافري العدد، وقد تزايدوا بانضمام عناصر من ألبانيا المجاورة اليهم.

◄ راجع المستند رقم ٢٧.

المقريزي، تقي الدين أبو العبّاس أحمد بن علي، ٧٦٦-٨٤٦هـ/ ١٣٦٤-١٤٤٢م، عالم ومؤرّخ من أواخر عصر المماليك في مصر.

ولد المقريزي في القاهرة في العام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م ضمن عائلة ميسورة، وتابع دراسة تقليديّة في العلوم الدينية والفقهيّة على يد علماء بارزين قبل أن يمارس، في مدينته، وظائف رسميّة كمحتسب ومدرّس وخطيب وموظّف إداري. ثمّ انتقل الى دمشق حيث درّس في مدارس عدّة بين ٨١٠ و٨٢١هـ/ ١٤٠٨ و١٤١٨م. وعاد الى وطنه حيث تخلّى عن حياته العامّة ودأب، حتّى تاريخ وفاته في القاهرة، على وضع مؤلّفات غزيرة مكرّسة بشكل أساسي للتاريخ.

اشتهر بكتابه الضخم المعروف باسم «الخطط» والمخصّص للطوبوغرافيا التاريخيّة لمدينتي فسطاط والقاهرة، وأيضًا لتاريخ مصر. ترك لنا أيضًا مؤلّفات تتعلّق بالسلالات الفاطميّة والأيوبيّة والمملوكيّة، ودراسات حول مواضيع متعدّدة كالجغرافيا والمسائل الإقتصاديّة، إضافةً إلى بحوث دينيّة وسِيَر شخصية.

مقصورة، في البدء كانت تعني كلّ «مكانٍ مفصول، مخصّص» في مجمّعٍ ما، مكرّس للاستعمال الخاصّ، وأصبحت في القرون الوسطى تعني، بشكل محدّد، المكان المخصّص للخليفة أو للحاكم داخل قاعة الصلاة في المساجد الجامعة.

والمقصورة الملكيّة أو الأميريّة التي عرفنا منها أشكالًا مختلفةً، مزوّدةً بلوحاتٍ منحوتة أو مُطعَّمة أو مخرّمة، مرتّبةٍ على شكل شبكاتٍ، أوحت كذلك ببعض الأشكال الهندسيّة التي لعبت دورها في تطوّر عمارة المساجد. إلّا أنّنا نفتقر إلى الشواهد الأثريّة، في ما خصّ عصر الخلفاء الراشدين، حيث أشار المؤلّفون العرب إلى استخدام المقصورة لحماية الخليفة، وليّ أمر الأمّة، من اعتداءاتٍ مُحتملة. وإن تطوّر التقاليد الرسميّة في البلاط إبّان العصر الأمويّ عزّز الحاجة إلى إيجاد حاجزٍ بين الأمير والجمهور المحتشد خلفه للصّلاة، أكان ذلك لحماية أمير المؤمنين نفسه في المسجد الجامع في العاصمة، أم الولاة الذين يمثّلونه في مراكز الأقاليم. وهنا أيضًا تنقص الشواهد الدقيقة لتحديد مدى التحسين والتجهيز اللذين اعتُبرا تجديدًا وتطويرًا آنذاك، وقد اقتصرا ربّما على حماية المجال المركزيّ الذي يشغله الإمام، والمتوّج بقبّة صغيرة في طرف الصحن المحوريّ الذي يضمّ المحراب والمنبر. لم يتجسّد هذا الأمر، وكثير غيره، بشكل واضح، إلّا في الفترة العبّاسيّة الكلاسيكيّة. فانطلاقًا من هذه الفترة، يمكننا التحدّث - إن لم يكن يوجد آثار عراقيّة واضحة بهذا الخصوص - عن اجراءات هدفت، في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، إلى تعظيم شكل وزخرفة الفُسحات أو مقاطع الفسحات المجاورة لحائط القبلة في مسجد الأغالبة في القيروان، أو التي تشغل التوسيع الفخم الذي قام به الحَكَم الثاني في الجامع الكبير في قُرطبة؛ كذلك يجب الأخذ في الاعتبار نماذج أُخرى تقدّمها بعض الجوامع الفاطميّة في القاهرة مثل جامع الحاكم. ولكنّ المعطيات القروسطيّة الأهمّ تتناول، من دون شكّ، التنظيم الداخليّ للمساجد الجامعة التي بناها السلاجقة ومَن خلفهم، منذ نهاية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، حيث

جرى، أمام المحراب، إدخال جناح منفصل ذي قبّة على الطريقة الإيرانيّة، يُستخدم كمقصورة. وقد ظهر أوّل الأمر في التحسينات التي أدخلها ملكشاه على المسجد الجامع في أصفهان، عاصمته، والتي سَرَتْ لاحقًا على كلّ الجوامع الإيرانيّة المعاصرة له، قبل أن تعرف قدرًا هندسيًّا جديدًا مع إنجازات سلاجقة الروم والايلخانيّين والمماليك.

من ناحية ثانية، استُخدمت مقاصيرُ أخرى، أقلّ فخامةً، في بعض المساجد للتعليم أو كمكتباتٍ فعليّة. نجد نماذج عنها في الجناحين الشرقيّ والغربيّ المحيطين بصحن المسجد الجامع في آمد/ ديار بكر، وقد أُشير اليها بكلمة «مقصورة» في الكتابات الزخرفيّة التي تعود إلى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، والتي ما تزال تُزيّن هذين الجناحين حتّى اليوم. هذه المقصورات، التي جرى استخدامها لوظائف جانبيّة لا علاقة لها بأيّ شكلٍ بقاعة الصلاة أو الاحتفالات الرسميّة، قد مهّدت للإنشاءات التي تطوّرت في المساجد الأناضوليّة لاحقًا، لاستقبال اجتماعات العلماء والصوفيّين المنصرفين إلى الدراسات الفقهيّة. وقد عُرفت هذه الإنشاءات آنذاك باسم «طبهان».

مكارستان ← هنغاريا.

مكّة (المملكة العربيّة السعوديّة)، مدينة الإسلام المقدّسة حيث ولد وعاش النبيّ محمّد (ﷺ) وحيث أطلق دعوته، من دون نجاح، قبل أن يُخضعها بالقوّة، وحيث تنتصبُ الكعبة بين الأماكن المقدّسة التي تستقبل الحجّ سنويًا.

تقع مكّة في الحجاز ضمن مشهد طبيعي تكثر فيه الجبال القاحلة، غير بعيدة من ساحل البحر الأحمر ومرفإ جدّة، وبتوسّط المدينة الحاليّة وادٍ ضيّق تحيط به مرتفعات وتقوم فيه الكعبة حيث تتلاقى ممّرات عدّة ضيّقة. ويشكل أحد هذه الممرّات مسار الحجّ الذي يؤدي عبر مِنى والمزدلفة إلى السهل الذي يطلّ عليه جبل عرفة. وتندرج كل هذه المجموعة ضمن المنطقة المقدّسة التي تحمل اسم «الحرم» الذي تحدده بعض المحطات أو المواقيت التي يسلكها الحجّاج. وتحافظ المدينة الحديثة، المؤهّلة لاستيعاب الملايين من المسلمين، بدقّة متناهية على كافة المواقع والآثار التذكاريّة التي طبعتها قدوة النبي العربيّ، المكيّ الأصل، والذي أصبح نبيّ الإسلام. تأتي قيمة هذه المدينة الحرم، المحظورة على غير المسلمين، التي تحتضن القطب الديني المؤلف من الكعبة ومن المسجد الجامع المحيط بها، من كونها مركزًا مميّزًا لإقامة الشعائر الدينيّة في الإسلام، ورمزًا يتجمّع حوله أبناء الأمّة الذين ينتمون إلى هذا الدين.

تميّزت في ما مضى بلدة مكّة التجاريّة في الجزيرة العربيّة بموقعها على طريق القوافل المؤدّية، من جهة إلى الساحل الفلسطيني وغزة، ومن جهة أخرى إلى اليمن، والمستخدمة لتجارة البخور الثمينة. كما تميّزت مكّة، في ذلك الوقت، بوجود معبد «الكعبة» حيث كانت تتام مراسم حجّ وثني خلال شهر رجب، شهر الهدنة الذي كانت تُمنع خلاله الأعمال الحربيّة كافّةً. ويبدو أنّ وجود مثل هذا الحجّ، والنشاط التجاري الذي كان يرافقه، قد ساهما في النموّ الاقتصادي الذي عرفته هذه البلدة التي هيمنت عليها قبيلة قُريش، والتي توصّل سكّانها، في مستهل القرن السابع الميلادي، إلى السيطرة على تجارة المنطقة الممتدّة، بمحاذاة البحر الأحمر، على طول الجزيرة العربيّة. وقد تمّ وصف هذه المدينة القديمة «بالجمهوريّة التجاريّة» بسبب توجّه نشاطها كليًّا نحو التجارة. غير أنّ هذه التسمية مبالغ فيها، إذ إنّ تجمّع العشائر هذا كان يفتقر الى جهاز حكم حقيقي وبقرّ بسيطرة بعض الأُسر الكبرى وحسب.

في مكّة عاش النبيّ محمّد ﷺ وتزوّج وأطلق دعوته كنبيّ؛ وهنا انضمّ إليه أوّل أنصاره وتكبّد أولى خسائره وواجه التهكّمات والتهديدات، ما أدّى إلى هجرته. بعد فترة النفي الطوعي هذه التي أمضاها في واحة يثرب التي أُطلق عليها لاحقًا اسم المدينة، قاد حرب استنزاف ضدّ مكّة مسقط رأسه، وعاد إليها منتصرًا في العام ٨هـ/ ٦٢٩م، وأدخل بعض أعراف الحجّ القديم إلى الإسلام. لكنّه لم يسكن مكّة بعد هذا التاريخ، إنّما اكتفى بإجراء آخر حجّ له، حجّ الوداع، قبل موته بقليل، في العام

١١هـ/٦٣٢م. احتفظت مكّة بمكانتها القديمة، أمّا الكعبة التي اختارها النبيّ محمّد ﷺ نقطة التقاء يتوجّه نحوها المسلمون كافةً للصلاة، والتي تمّ تجريدها من أصنامها عندما تمّ فتحها، فقد أصبحت موضع تكريم من قِبَل المؤمنين الذين يمارسون حولها شعيرة الطواف.

نجهل الكثير عن تاريخ مكّة خلال عهد الخلفاء الراشدين الأربعة وخلال خلافة معاوية الذي كان هو أيضًا من أصل مكي. كانت المدينة، خلال الفتوحات الكبرى، قد فرغت جزئيًا من سكّانها التجّار والمقاتلين الذين غادروها في سبيل الجهاد أو بسبب طموحاتهم، ليحتلّوا مراكز قيادية بارزة في مختلف أنحاء الأمبراطورية، اذ إنّهم، بالرغم من اعتناقهم المتأخر للإسلام، وبالرغم من الحملات التي قادوها ضد النبيّ محمّد ﷺ، نجد بينهم العديد من أهل الصحابة الذين برزوا في الأرستقراطيّة العربيّة التي هيمنت على الأمبراطورية.

في فترة لاحقة، وبعد وفاة معاوية الذي اختار الإقامة في سوريا وأنشأ سلالة الأمويّين، أصبحت مكّة مركز المقاومة التي قادها إبن الزبير الذي جمع حوله بعض القريشيّين المناهضين للخليفة الجديد يزيد الأوّل. وفي العام ٧٣ هـ/٦٩٢م، استطاع أمويّ آخر، هو عبد الملك بن مروان الأوّل، بعد اعتلائه العرش، أن يعيد السيطرة السوريّة على مكّة. وكانت الكعبة قد تعرّضت للحريق، وأعاد إبن الزبير تشييدها بعد أن أدخل عليها بعض التجديد، لكنّها أعيدت إلى حالتها الأصليّة مع عودة الأمويّين. ويُنسب إلى الخليفة الوليد الأوّل، ابن عبد الملك، بناء الرواق الذي يحيط بالكعبة وكذلك باحتها الخارجيّة. يشكّل كل ذلك المسجد الحرام الوارد ذكره في الآية الأولى من سورة الإسراء.

خلال الخلافة العبّاسيّة، أصبحت مكّة التي حكمها أمير من العائلة المالكة مقرًّا لمجموعات من العلويّين، نجد بينهم محرّضين وقادة لثورات عدّة. وقد تمّ مثلًا في بلدة فخ، بالقرب من مكّة، قتل الحسني الحُسين بن علي الذي سيطر على المدينة المنوّرة في العام ١٧٠هـ/٧٨٦م. وكانت الحقبة التالية مضطربة أيضًا، ولكنّها كانت أقلّ اضطرابًا خلال خلافة هارون الرشيد، منها خلال خلافة المأمون التي شهدت تفاقمًا لثورة العلويّين.

شهد مستهل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي غزوات القرامطة الذين استولوا على الحجر الأسود في العام ٣١٨هـ/٩٣٠م، ولم يعيدوه إلّا في العام ٣٣٩هـ/٩٥٠م. ويلي حقبة الغزوات هذه، حوالى العام ٣٥٦هـ/٩٦٧م، ظهور سلالة صغيرة من الحكّام هم الشرفاء الهاشميّون الحسنيّون من الفرع الموسوي والمذهب الشيعي. وقد خلفتهم، في العام ٤٢١هـ/١٠٣٠م، سلالة الهواشم من الحَسَنيّين أيضًا. حاول هؤلاء مقاومة السلاطين الأتراك السلاجقة، لكنّ الأيوبيّين تمكّنوا في النهاية من اخضاعهم ومن ترسيخ السنّة من جديد. وبقيت مكّة، خلال بضعة قرون، مركز إمارة تتمتّع بإدارة ذاتيّة يحكمها شرفاء حَسَنيّون من خارج سلالتي الموسويّين والهواشم. وقد استطاع ورثة الشريف قتادة الذي استولى على المدينة في العام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، حكم مكّة حتّى قدوم الوهابيّين، إنّما بدون أن يتمكّنوا من إبعاد نفوذ بعض الحكّام، من السلاطين والخلفاء، الراغبين في فرض مراقبتهم على الأراضي المقدّسة بهدف زيادة هيبتهم. هؤلاء الحكّام هم الفاطميّون والعباسيّون ومماليك مصر، وأخيرًا العثمانيّون. وكان الباب العالي، في القرن السادس عشر، قد ضمّ إلى ممتلكاته قسمًا كبيرًا من شبه الجزيرة العربيّة.

بدأت، في العام ١٠١٠هـ/١٦٠١م، حقبة اضطرابات جديدة تميّزت بسلسلة نزاعات بين الأشراف وبين الموظّفين والضبّاط العثمانيّين. ومن بين هؤلاء، تميّز، في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، حاكم مصر محمّد علي الذي أرسل قوّاته إلى الحجاز من وادي النيل والبحر الأحمر بهدف تحقيق طموحاته، فتمكّن، في العام ١٨١٣م، من الاستيلاء على المدينة ومن تنصيب شريف جديد عليها. هكذا دخل الحجاز من جديد في منطقة النفوذ المصري. ودام الوضع على ما هو عليه حتّى العام ١٨٤٠، تاريخ عودة السيطرة العثمانيّة. وفي الوقت نفسه، بقي الحكم محليًّا في أيدي الشرفاء حتّى وصول الشريف حسين الذي عيّنه الأتراك الجدد في عام ١٩٠٨ والذي أعلن استقلاله في

العام ١٩١٦ . لكنّ أمير نجد، عبد العزيز، مؤسّس دولة آل سعود الثالثة، طرده من مكّة في العام ١٩٢٥ . إبتداءً من هذا التاريخ تغيّرت أيضًا معالم مكّة الطوبوغرافية، وكذلك تنظيمها المديني بشكل ملحوظ، وتحسّنت أيضًا ظروف الحجّ باستمرار، خلال العقود التي تلت ترسيخ النظام السعودي.

إنّ التغيير الأكثر ظهورًا طرأ على المسجد الجامع بين العامين ١٩٥٥ و١٩٧٨، بإضافة أبنية جديدة حول المبنى القديم وبتوسيع هذا المجمّع لكي يضمّ الطريق المستخدمة للسعي بين تلّتي الصّفا والمروة. ألغيت ضريبة الحجّ في العام ١٩٥٢، ولا يتوجّب على الحجّاج، منذ العام ١٩٧٢، سوى تسديد الرسوم الضرورية لتغطية نفقات الخدمات التي تؤدّى لهم. لكن يتوجّب عليهم دفع أجر «المطوّفين» الذين يتولّون أمر «الطواف» ويرافقون المجموعات على اختلاف أجناسها خلال مراسم الحجّ. يسيطر هؤلاء «المطوّفون» اليوم، إلى جانب التجّار والعلماء، على المجتمع المكي.

إنّ عدد المقيمين في مكّة ضئيل مقارنة بأعداد المسلمين الآتين إليها خلال فترة الحجّ، لكنّه يشمل عددًا من الوافدين الذين يواصلون، منذ القرون الوسطى، تقليد الذين يُعرفون بـ«المجاورين» الذين يقصدون الإقامة قرب الحرم الشريف سعيًا وراء العلوم الدينيّة أو بهدف إقامة الشعائر الدينيّة في جوّ تسوده التقوى.

يبقى نشاط مدينة مكّة طوال السنة مركّزًا على استقبال الحجّاج المشاركين بالعمرة، وخاصة بالحجّ. وهذا النشاط يتطلّب تنظيمًا بالغ الدقّة بسبب وجود أكثر من مليوني شخص في الوقت نفسه في المدينة، وبسبب إمكان حدوث اضطرابات نتيجة للتوتّرات التي يعرفها العالم الإسلامي، والتي تؤكّد دوام الدور الاستثنائي الذي تؤدّيه مكّة بالنسبة الى الإسلام.

◄ راجع المستندات رقم ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ٢٥، ٢٨ و٣٠.

المكتبات، المكتبة أو خزانة الكتب بالعربيّة، وكتابخانه بالفارسيّة، وكُتُب هانه بالتركيّة: مؤسّسات ظهرت منذ بداية القرون الوسطى في الشرق الإسلامي، وقد ازدهرت تبعًا للتطوّر الذي شهدته المخطوطات بفضل نموّ صناعة الورق، بدءًا من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وارتبطت كذلك بازدهار الحركات الاجتماعيّة-الدينيّة التي وفّرت لها الكتابةُ إمكانَ التفكير العقائدي ونشر دعوتها.

هذه المؤسّسات لم تشكّل قطّ مكتبات عامة بالمعنى المعروف، ذلك أنّ أقدمها كان تابعًا لمعاهد التعليم التي أنشأها الحكّام، وأصبح في ما بعد، إبتداء من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، مُلحقًا بالمعاهد العلميّة التي عُرفت باسم المدارس.

أولى المكتبات الكبرى كانت، من دون ريب، تلك التي اشتمل عليها بيت الحكمة الذي أسّسه الخليفة المأمون في بغداد، في أوائل العصر العباسي: كان هدفها أن تضمّ ترجماتٍ فلسفيّة وعلميّة تُنقل من اليونانيّة إلى العربيّة. وعلى الرغم من شهرة هذه المؤسّسة، نكاد لا نعرف شيئًا عن تنظيمها أو موقعها بشكل دقيق، لكننا نعرف أن نشاط الترجمة الذي كان في أساس نشوئها، والذي نمّته حركة المعتزلة، توقّف منذ أواسط القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي.

وفي مرحلة قديمة أيضًا وجدت مكتبات صغيرة في المساجد الجامعة في المدن الكبرى، تلك المساجد التي شكّلت مراكز للدراسات مرتبطة بالعلوم الدينيّة. إنّ الشواهد الوحيدة الباقية من تلك المرحلة هي نسخ من القرآن الكريم تناهت إلينا، وهي تحمل كتابات تثبت أنّها كانت وقفًا على المساجد، حفظت فيها ليستفيد منها طلاّب العلم.

بعد ذلك بقليل، في سنة ٣٨١هـ/٩٩١م، أنشأ الوزير الشيعي سابور، تحت سلطة البويهيّين في العراق، مكتبة كانت تهدف إلى نشر عقيدة التشيّع، عرفت بدار العلم. وثمّة مكتبات أخرى تعود إلى الحقبة نفسها، أُسّست في المدن الإيرانيّة كشيراز حيث وضع عضُد الدولة البويهي كل وسائل البحث في تصرف المثقّفين ورجال الفكر. كذلك وجدت في قصور أمويّي الأندلس بقرطبة مجموعة قيّمة من المخطوطات عمد الحَكَمُ الثاني إلى إغنائها، فاستقدم من القسطنطينيّة مؤلفات علميّة يونانيّة لتُنقل إلى العربيّة.

بعد زمن يسير، سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م، أُسّست في مصر، زمنَ الفاطميّين، مكتبة هي الأبرز في تلك

الحفية. أُنشئت في القاهرة على عهد الخليفة الحاكم وعرفت باسم دار الحكمة، وكانت في الوقت نفسه معهدًا للتعليم ومؤسّسة معدّة لنشر العقيدة الإسماعيلية، ولإعداد الدُّعاة. كانت مجموعتها تضمّ مجلّدات قيّمة محفوظة في جناح من القصر، وتشتمل، في أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، على نسخ متعدّدة لمؤلّفات أساسيّة تتناول العلوم الرئيسة للثقافة الإسلاميّة. وقد أُغلقت هذه المكتبة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بسقوط الدولة الفاطميّة.

في هذا الوقت الذي شهد عودة السنّيّة، أُسّست مكتبات ملحقة بالمدارس وبالمساجد الجامعة. وقد اهتمّ القيّمون بتطوير العلوم الإسلاميّة التقليديّة الأساسيّة، ولا سيّما الفقه، من دون الرجوع إلى المكتبات القيّمة التي أنشئت في مرحلة سابقة. هذا ما حصل، في عهد المماليك، في عاصمتهم القاهرة، حيث نشأت مدارس عدّة، إلى جانب الجامع الأزهر. وكذلك حصل في القيروان وفاس، كما في دمشق وبعد ذلك في اسطنبول حين اتّخذها العثمانيّون عاصمة لهم.

فضلًا عن مكتبات «المدارس» التي تشتمل على كتب متخصّصة أساسيّة، لا سيّما في الفقه، باللغات العربيّة والفارسيّة والتركيّة، استمرّت تلك الثروات الكتبيّة التي تحفظها قصور الحكّام في العالم الإسلامي. إنّ قصور السلاطين العثمانيّين، وقصور حكّام المغول في الهند، وقصور حكّام المغرب، على سبيل المثال، استمرّت في حفظ مجموعات خاصّة تتناول فنّ الكتاب، بحيث نجد أعمالًا فذّة تهمّ على حدّ سواء العلماء ورجال الدين، وتقدّم أروع النماذج التي خلّفتها القرون السابقة في فنون التجليد والتذهيب والمنمنمات. إنّ الأختام التي تحمل أسماء العواهل مالكي الكتاب والتي يزدان بها غلاف الكتاب وصفحة العنوان، فضلًا عن عبارات الإهداء، ما تزال تشهد على أسماء الذين ملكوا هذه المخطوطات القديمة، كما تؤكّد اهتمام الأمراء في البلاد الإسلامية بأن يتألّق نجمهم من خلال الكنوز التي يجمعونها في مبانٍ عُرفت بالخزانة (خزانة الكتب). وفي بعض الأحيان كانت المباني المشيّدة خصّيصًا لذلك تُظهر العناية التي أولاها القيّمون للنواحي الهندسيّة والزخرفيّة، كما هي الحال في قصري روان وباغدات كوشك، أو في مكتبة أحمد الثالث في قصر طوب كابي سراي في اسطنبول.

إن التحوّلات الإجتماعيّة-السياسيّة في القرن التاسع عشر لم تجنّب دائمًا هذه المجموعات الرائعة الأضرار، فقد تشتّتت فَملكها بعضُ الأفراد، أو أُتلفت جزئيًّا كما حصل لمكتبة المغول في الهند سنة ١٨٥٧. قلّةٌ من هذه المجموعات انتقلت إلى المكتبات أو المتاحف في البلاد الإسلاميّة في العصر الحاضر، فاندمجت بما كانت تحتويه «المدارس»، وجُمعت في مؤسّسات حديثة. قسم آخر من هذه المخطوطات حُفظ في الأقسام المختصّة بالتراث الشرقيّ في مكتبات أوروبا أو الولايات المتّحدة، وقد حصلت عليها هذه المكتبات بالشراء أو بطرق أخرى.

إن تنظيمًا منهجيًّا بجمع شتات هذه الثروات المتراكمة خلال عصور من الحضارة القروسطيّة كفيلٌ وحده بوضعها في متناول الباحثين.

المكتفي بالله، ؟-٢٩٥هـ/ ؟ - ٩٠٨م، الخليفة السابع عشر في السلالة العبّاسيّة، إبن المعتضد، حكم من العام ٢٨٩ الى ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ إلى العام ٩٠٨م.

كان عهد المكتفي قصيرًا، لكنّه شهد، في العام ٢٩٣هـ/ ٩٠٥م، القضاء على الإمارة المستقلّة التي انشأها الطولونيّون في مصر، وطبعته حملات عديدة ضدّ القرامطة والبيزنطيّين. فتحت وفاة الخليفة الباكرة أزمة صراع على السلطة تمّ حلّها بشكل موقّت بمبايعة شقيق المتوفّى، والبالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا فقط.

مُكْران، مقاطعة جنوبيّة في الهضبة الإيرانيّة في العصور الوسطى، تقع بين كرمان والسّند جنوب الصحراء الوسطى الكبرى وواحات سجستان.

وكانت مقاطعة مكران التي احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلامية إبّان الفتوحات الكبرى في فترة غير محدّدة، قد شكّلت قاعدة انطلاق لمحمّد بن القاسم عند فتحه السند. وظلّت هذه المنطقة فقيرة بسبب مناخها الجافّ على طول الساحل القاحل. إلّا أنّ قبائل البَلوش استوطنتها منذ فترة غير بعيدة وشاعت لغتها فيها، فعُرفت هذه المنطقة باسم بلوجستان أو بلوشستان. وهي

تحاذي اليوم، بحدودها الشماليّة، دولة أفغانستان الإسلاميّة، وتنقسم بشكل غير متساوٍ بين الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة ودولة باكستان التي تضمّ القسم الأكبر منها.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢ و١٣.

مكناس (المملكة المغربيّة)، مدينة في أقصى المغرب، تقع في الهضبة الوسطى على بعد ستين كيلومترًا إلى الجنوب الغربي من مدينة فاس، تطوّرت فأصبحت مقرًا وعاصمة للسلطان العلوي مولاي إسماعيل.

استمدّت مكناس إسمها من قبيلة «مكناسة» الزناتيّة التي قاومت سلطة الأدارسة. ويبدو أنّه في الموقع الذي توجد فيه المدينة، تجمّعت خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بضعة قرى وشكّلت بلدة أُحيطت بسور في عهد المرابطين، فقاومت الموحّدين الذين لم يتمكّنوا من احتلالها إلّا في العام ٥٤٥هـ/١١٥٠م، بعد حصار طويل. وفي عهد المرينيّين، أصبحت البلدة مدينة مهمّة جهّزها الحكّام الجدد بعدد من المدارس، لكنّها أُصيبت بالفوضى التي شهدتها الفترة الأخيرة من حكم هذه السلالة، في القرنين التاسع والعاشر للهجرة/الخامس عشر والسادس عشر للميلاد.

دخل السعديّون مكناس في العام ١٥٤٨م، لكنّهم لم يعيروها أيّ اهتمام، فمرّت المدينة في أوائل القرن السابع عشر بمرحلة صعبة استمرّت حتّى وصول العلويّين، فشهدت عندئذ انتعاشًا مفاجئًا عندما أولاها اهتمامه أحد أهم ملوك السلالة، مَوْلاي إسماعيل، بسبب موقعها الإستراتيجي المركزي على مفترق الطريقين الممتدّتين من شمال البلاد إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها. اتّخذ مولاي إسماعيل - الذي كان قد عاش في مكناس في عهد أخيه - من المدينة مقرًّا لحكمه وعمل، خلال ولايته التي دامت خمسين سنة، على تشييد الأبنية الرائعة. باشر بتشييد قصره والأبنية الملحقة به والمخصّصة لزوجاته ولعائلته في العام ١٦٧٢، وانتهى العمل بالقصر في العام ١٦٧٩. ولم ينتهِ بناء المجموعة بكاملها إلّا في العام ١٧٣١ - ١٧٣٢، بعد وفاة مولاي إسماعيل الذي لجأ، من أجل إنجاز مشروعه، إلى فرض السخرة على القبائل، والأشغال الشاقة على حوالى ألف أسير مسيحي. دُفن مولاي إسماعيل في مكناس في الضريح الذي احتضن شقيقه.

لدى وفاة هذا السلطان النشيط في العام ١٧٢٧، اندلع صراع على الحكم لم يتمكّن محمّد بن عبد العزيز من السيطرة عليه. وتوالت الاضطرابات بدون انقطاع حتّى بداية القرن العشرين، بسبب عدم انضباط الحرس وقوات المرتزقة والعبيد، بينما كان السلاطين يقيمون تارة في فاس وطورًا في مراكش. أمّا مكناس، التي ما زالت تحتضن وراء أسوارها بقايا قصورها، فأصبحت مركزًا إقليميًا في غاية النشاط.

◄ راجع المستندين ١٤ و١٩.

المُلّا، لقب فخريّ مشتقّ من الكلمة العربية «مولى» أو «سيّد» ومستخدم عادة في العالم الهندي - الإيراني للإشارة إلى العالِم الشيعي المعروف في الأوساط السُنّيّة بعالِم الدين.

كان الملالي يتمتّعون في بلاد الإسلام بمقام مميّز خاص برجال الدين، بينما أدّوا، وما زالوا يؤدّون في إيران، دورًا يفوق أهميّة دور العلماء في البلدان السنّيّة، لأنهم يمثّلون، بالنسبة الى أتباع الشيعة، السلطة الشرعيّة الوحيدة الفاعلة في غياب الإمام، ولأنّهم يتمتّعون بحقّ الإجتهاد وبحقّ تفسير الشريعة، ومن بينهم يُختار الذين يترقّعون إلى مقام آية الله. يشكّل الملالي طبقة من رجال الدين ذات تنظيم تراتبيّ، ولا يتردّدون، إذا لزم الأمر، في مواجهة السلطة الزمنيّة.

ساهمت هذه المجموعة من رجال الدين، في أواخر القرن التاسع عشر، بفعاليّة كبيرة في التصدّي لنفوذ أوروبا. إنّها شاركت مثلًا بنجاح في حملة مقاطعة التبغ الذي كانت تستثمره شركة إنكليزية حائزة امتيازًا من الشاه في العام ١٨٩٠. وتابعت في القرن العشرين عملها الاجتماعي السياسي بنشاط وفعاليّة متفاوتين بحسب الحقبات. وبالرغم من فشلها في التصدّي للحداثة التي دعمتها سلالة البهلويّين، كانت في طليعة المحرّضين على ثورة ١٩٧٩ التي منحتها السيطرة على الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة الجديدة وعلى إدارتها.

الملائكة، كائنات روحيّة يذكرها القرآن الكريم في مناسبات متعدّدة، وحولها عرفت العقيدة الإسلاميّة، بتفسيرات سنّية وشيعيّة، مناقشات متنوّعة، كما أعطيت توضيحات تطوّرت عبر العصور وغذّت المعتقدات الشعبيّة. وأشهر الملائكة، ممن ورد ذكرهم سابقًا في التوراة، الملاك جبريل الذي منه تلقّى النبيّ محمّد (ﷺ) رسالته، والملاك ميخائيل أحد الذين يحملون عرش الله، وعزرائيل الذي هو ملاك الموت، وإسرافيل الذي يعلن يوم القيامة فينفخ ببوقه لبعث الأموات.

وهناك اهتمام بأسماء أخرى، منها مليك حارس الجحيم، وهاروت وماروت اللذان علّما السحر للناس، ومنكر ونكير المسؤولان عن عقاب القبر. كما تذكر الملائكة الذين يمكثون قرب الله لتمجيده باستمرار وهم المقرّبون، والملائكة الذين يقيمون حول عرشه وهم الكروبيّون أو (الكاروبيم).

هذه «الجمهرة السماوية»، بحسب ما يذكر القرآن الكريم، تقابلها جمهرة الجن والشياطين. وقد فتحت هذه المخلوقات باب القصص والأخبار التي أدّت إلى كثير من الجدل.

ويتعلّق الأمر، على الأخصّ، بطبيعة مخلوقات تخضع كليًّا لله، كما يتعلّق بصفاتها المعنويّة. فالملائكة خدّام الله، خلقهم من نوره الصافي، وهم المرسلون الذين يكلّفهم عند الاقتضاء إيصال نوره الإلهي إلى الأنبياء. كما يُعتبر تفوّق الملائكة على البشر موضوع نقاش. والله تعالى أمرهم بالخضوع والسجود لآدم، وهذا الأمر الذي يتكرّر ذكره في القرآن الكريم كان سبب تمرّد إبليس أو الشيطان. أمّا عصمة الملائكة فلم تتأكد بدون تردّد إلّا من قبل الشيعة الإماميّة الاثني عشرية الذين يربطون الملائكة بالأئمة، ويعتبرون أنّهم يُشاطرونهم الحماية الإلهيّة من كلّ خطإ أو زلل. أمّا علماء الإسماعيليّة فيولون الملائكة مكانة مختلفة، لكنّها مهمّة في عالمهم الكوني.

ملّاح، اسم أُطلق، منذ أواخر القرون الوسطى، في مدن المغرب، على الأحياء التي كان يقيم فيها اليهود والتي غالبًا ما كانت موجودة بالقرب من «القصبة» مقر الحاكم.

يبدو أنّ هذه التسمية المستعملة حصرًا في القسم الغربي من المغرب تعود بأصلها الى الحي الذي سكنه يهود فاس، في أوائل القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، في موقع كان يسمى «الملّاح» أو «النبع المالح»، وأطلق هذا الاسم في ما بعد على الأحياء اليهوديّة في المدن الأخرى. تجده متداولًا بنوع خاص في مدينتي فاس ومراكش.

الملاحة، فنّ مورس بكثرة في العالم الإسلامي، في القرون الوسطى حيث ملكت المناطق الساحليّة المحيطة بالمتوسط أو بالمحيط الهندي أساطيل حربيّة – ساهمت في قوّتها العسكرية – أو سفنًا تجاريّة تابعت أنشطتها على طول الطرق البحريّة والطرق النهريّة الكبيرة.

ما تزال مراحل تطوّر الملاحة هذه غير معروفة تمامًا، لأنّها لم تدرس بالقدر الكافي؛ على الرغم من التفاصيل التي تقدّمها الكتب العربيّة القروسطيّة ومصنّفات الوقائع أو كتب الرحّالة. وما تزال المصطلحات التقنيّة الواردة في هذه النصوص في حاجة إلى تفسير طبقًا لأنواع المعدّات والأدوات المختلفة، المستعملة في الملاحة الشاطئيّة أو في الرحلات البعيدة التي كانت تسمح بها الرياح الموسميّة. من المعروف حصرًا أن السفن التي كانت تبحر في المتوسط، القوادس أو المُرقئات؛ كانت تختلف عن القوارب الرقيقة التي كانت تواجه البحار الشرقية، إلى الجنوب من القرن الأفريقي أو باتّجاه الهند والصين. وكانت أكثر اختلافًا كذلك الزوارق التي كانت تؤمّن نقل البضائع في الأنهار مثل الفرات، أو الفُلْكات الأنيقة التي اقتصرت مهمّتها على صعود مجرى النيل ونزوله. يضاف أنّ مراكب هذه الأساطيل التجارية كانت تتميّز عن السفن الحربيّة ذات المجاذيف أو الأشرعة، المسلّحة أو المحمّلة بالجنود والتي كانت تشارك في المعارك البحريّة والإنزالات التي تتبعها أعمال النهب أو الاحتلالات الطويلة الأمد، كما في المكاسب الكبيرة الناتجة عن القرصنة الموجّهة ضدّ الأجانب.

تطوّر فنّ الملاحة نفسه خلال القرون الوسطى، مستفيدًا من التجذّر السابق، في البيئة العربيّة – الإسلاميّة،

للمعارف الرياضيّة القديمة التي سمحت، منذ بداية العهد العبّاسي، للملّاحين الذين ورثوها باختيار اتّجاهاتهم، بالاعتماد على النجوم والشمس، وبتحديد مواقعهم باستعمال الإسطرلاب والخرائط الموضوعة لتمثيل الكون. تعود هذه المعارف في علم الفلك والجغرافيا مباشرة إلى الجهود الأولى التي بُذلت، حول الخليفة المأمون، في بيت الحكمة حيث التقى علماء ومترجمون للبحث خاصة في علم الكون، وهي تُعتبر ثمرة التأثيرات الهنديّة والإيرانيّة المنقولة كتابة والمضافة إلى المعلومات اليونانيّة الموروثة عن بطليموس.

من جهة أخرى، انتقلت شفويًّا دروس عمليّة مستقاة غالبًا من خبرة البحارة الإيرانيّين المترسّخة عند «المعلّمين» العرب البارزين الذين دوّنوا بدورهم، انطلاقًا من هذه التقاليد واختباراتهم الخاصة، معلومات توجيهيّة للبحّارة وخرائط ملاحيّة متخصّصة. هكذا، في النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، خلّف ملّاح مثل ابن ماجد وراءه كتابات في علم الفلك التطبيقي وتطويرات تقنيّة للمعدّات، إضافة إلى دليلٍ لطرق المحيط الهندي التي ضمنت له شهرة أسطوريّة. كان ذلك في الوقت الذي وصل فيه الأدب الإسلامي في الجغرافيا البحريّة والملاحة العلميّة إلى الأوج فأفاد منه البرتغاليّون.

بعدئذٍ قام ملّاحو فترة العظمة العثمانيّة بوضع المصنّفات التي أضافت إلى مضمون المؤلّفات التقليديّة نتائج المعاينات الجديدة التي أمّنت لهم شهرة متفوّقة. كان أشهر هذه الأعمال، من دون شكّ، **الموجز الملاحي** لبيري رئيس حول المتوسط وخريطة العالم التي قدمها للسلطان سليم الأوّل، في العام ١٥١٧، وكانت من آخر النجاحات في علم الخرائط في القرون الوسطى، قبل أن تحلّ التقنيّات الحديثة مكان تقنيّات تلك الحقبة.

ملازكرت ← مانتزيكرت.

مَلامَتِيَّة، متصوّفة مسلمون، لا يشكّلون طريقة بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكن يميّزهم موقف مشترك يدلّ عليه اسمهم بالعربيّة «الملامتي» وهو يعني «الذي يبحث عن الملامة».

وقد أُطلق الاسم على مختلف الصوفيّين الذين يرفضون طاعة معلّم ويضعون أنفسهم فوق الشريعة ولا يسعون إلّا إلى تطوير حياتهم الروحيّة، متحدّين إراديًّا الرأي العام الإسلاميّ الذي احتقرهم، فاتّخذوا من هذا الاحتقار دليلًا على قداستهم. ويبدو أنّ نزعتهم الدينيّة القائمة على فكرة عدميّة الإنسان المطلقة أمام الله، قد ظهرت في إيران الشرقيّة، وتحديدًا في نيسابور. والملامتيّ يصبو إلى أن يتحرّر من العالم وشهواته، وإن عاش فيه، ولا ينتمي إلى أيّ طريقة روحانيّة معيّنة، مع أنّه وُجدت جمعيّات ملامتيّة التفت حول بعض الشيوخ من دون أن تدين لهم بالطاعة.

مَلاوي (جمهوريّة)، مساحتها: ١١٨ ٤٨٠ كلم². عاصمتها: ليلونغوي.

دولة معاصرة مستقلّة، تقع في جنوب أفريقيا الشرقيّة السوداء، نسبة الأقليّة المسلمة فيها حوالى أحد عشر في المئة من مجموع السكّان البالغين حوالى ٨ ملايين نسمة.

هذه المقاطعة التي كانت تابعة لمستعمرة نياسالند البريطانيّة القديمة، والتي نالت استقلالها في العام ١٩٦٤، تحيط بها جمهوريّتا زامبيا والموزامبيق، ومن الجهة الشماليّة جمهوريّة تنزانيا الاتّحاديّة.

وقد نشطت فيها التجارة - وأهمّها تجارة الرقيق - على أيدي العرب المسلمين، تلك التجارة التي ربطت، لفترة طويلة، هذه المنطقة بالمدن المرفئيّة في المحيط الهندي حيث ازدهرت الحركة الملاحيّة بدءًا من القرن السابع عشر، تحت سيطرة سلاطين مسقط وزنجبار. هنا نشأت أقليّة مسلمة ذات سمات شبيهة، في مجملها، بتلك التي عرفتها الأقليّات المسلمة في تنزانيا المجاورة والتي شهدت ظروفًا مشابهة في تطوّرها.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠ و١٨.

مِلَّت، مصطلح تركي مأخوذ من الكلمة العربيّة **مِلَّة** وجمعها **مِلَل**، بمعنى «الدين»، استُخدم في العهد العثماني بهذا المعنى، وكذلك بمعنى «طائفة دينيّة».

يُستعمل المعنى الأوّل الذي يوافق مفهوم كلمة عربيّة مختلفة تمامًا عن كلمة «دين»، للدلالة، على حدّ

سواء، على الدين الإسلامي أو الدين الحقيقي الوحيد بحسب أتباعه، أو على أيّ دين آخر، مثلًا المسيحيّ أو اليهوديّ. لذلك تمّ حصر دلالة المعنى الثاني، العثماني تحديدًا وذي الطابع التاريخي، بالطوائف الدينيّة غير المسلمة التي كان يرعاها، داخل الدولة العثمانيّة، العهد الخاص بأهل الذمّة الذي كانت أحكامه سارية، منذ أوائل العهد الإسلاميّ، على مؤدّي الجزية.

ممّا لا شكّ فيه أنّ استعمال المصطلح الثاني كان متداولًا قبل القرن السادس عشر. وفي القرن الثامن عشر أقرّت السلطات العثمانيّة بوجود ثلاث مِلَل هي الأُرثوذكسيّة والأرمنيّة واليهوديّة. وكان لكلّ منها رئيسها المعترف به من قبل السلطان وتنظيمها الخاص، ولا سيّما في ما يتعلّق بأحوال أفرادها الشخصيّة وتسوية الخلافات التي قد تنشأ في ما بينهم. وقد توسّع مفهوم هذا المصطلح للدلالة على شعوب أو دول ملحقة بالأمبراطوريّة العثمانيّة أو على شعوب، مثل الشعب الصربيّ، التي كانت ترغب في استعادة كينونتها القوميّة.

مُلتان (جمهوريّة باكستان الإسلامية)، مدينة في البنجاب احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة إبّان الفتوحات الكبرى في أواخر القرن الأوّل الهجري/أوائل القرن الثامن الميلادي، وأصبحت آنئذٍ عاصمة المقاطعة، قبل ان تفقد هذا الدور لمصلحة لاهور.

استولى عليها، في عهد الخليفة الأموي الوليد الأوّل، قائده محمّد بن القاسم، وأصبحت مركزًا متقدّمًا لبدايات الأسلمة في الهند، إلّا أنّها احتفظت بمعبدها الهندوسي القديم حتّى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حين سقطت المدينة في أيدي دُعاة الإسماعيليّة. امتدّ نفوذ هؤلاء إلى شمال السند حتى المنصورة، قبل أن يقضي عليه اجتياح الغزنويّين السنّة ثمّ الغوريّين الذين تمكّنوا، بالتوالي، من بسط سيطرتهم على البنجاب.

بدأت أهميّة مُلتان بالإنحسار إثر تطوّر لاهور وعرفت، منذ ذلك الوقت، تاريخًا مضطربًا. وعانت نتائج الغزوات المغوليّة لتصبح مقرّ سلالات محليّة وسريعة الزوال في أغلب الأحيان. أصبحت مركزًا إقليميًّا في أمبراطوريّة المغول، واحتلّها السيخ في أوائل القرن التاسع عشر، والبريطانيّون من بعدهم في العام ١٨٤٨، لكنّها حافظت على حيويّتها حتّى أيامنا هذه. تحتضن ملتان بقايا أثريّة، بينها أَضرحة لأمراء مسلمين وأولياء، تتميّز بهندسة معماريّة جديرة بالاهتمام.

مَلديف (جمهوريّة)، مساحتها: ٢٩٨ كلم². عاصمتها ماله. دولة صغيرة مستقلّة. تشكّل أرخبيلًا مرجانيًّا في المحيط الهنديّ، جنوب غرب الهند وسيلان، ويبلغ عدد سكّانها حوالى مئتي ألف نسمة، كلّهم مسلمون.

وكما بالنسبة إلى جزر لكّاديڤ المجاورة، لا تزال غامضةً الظروف التي جعلت الملديف تدخل الإسلام، بعد أن زارها روّاد الملاحة العرب المسلمون، في بداية القرون الوسطى، وهم في طريقهم إلى الشرق الأقصى حيث كان الإسلام قد ترسّخ على شواطئ مالابار عن طريق التجارة ومراكزها. وتنقل إحدى الروايات المتأخّرة أنّ آخر الحكّام البوذيّين قد يكون أعلن إسلامه في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، وأصبح سلطانًا على الأرخبيل، ما يجعلنا نعتقد أنّ البلد، في نهاية القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، كان قد تحوّل إلى الإسلام. وهذا ما أكّدته كتابات إبن بطوطة الذي توقّف فيه بين العامين ٧٤٤ و٧٤٥ للهجرة/ ١٣٤٣ و١٣٤٤ للميلاد. إنّ غارات البرتغاليّين في بحار الهند التي أدّت في بداية الأمر إلى تحويل تجارة المسلمين من مالابار نحو مَلديف، نجم عنها احتلال موقّت لماله من ١٥٥٨ إلى ١٥٧٣م، ما أدّى بطريقة غير مباشرة إلى انتقال المسلمين المحليّين من المالكيّة إلى الشافعية. حكم الجزر مذّاك سلطان جديد، ثمّ وقعت تحت الحماية البريطانية سنة ١٨٨٧، لكنّها عادت فاستقلّت سنة ١٩٦٥ وأُعلنت الجمهوريّة في ١٩٦٨. حاليًا، كل السُّكان يتبعون المذهب الشافعيّ، ولا يستطيع أيّ شخص الحصول على الجنسية الملديفيّة إذا لم يكن مسلمًا وعلى المذهب الشافعيّ.

◄ راجع المستند رقم ٣٠.

مَلَطية (الجمهوريّة التركيّة)، مدينة في الأناضول تقع على تخوم بلاد ما بين النهرين العليا، تشكّل اليوم موقعًا

صناعيًا نشطًا على بعد حوالى عشرة كيلومترات من آثار المدينة القروسطية التي تحمل الاسم نفسه «إسكي ملطية» أو ملطية القديمة.

وقد شُيِّدت على مسافة غير بعيدة من المجرى العلوي للفرات، على إحدى الطرق الجنوبيّة التي تخترق الهضبة الأناضوليّة الوسطى، وعلى الطريق التي توصل من كيليكيا وعينتاب (غازي عينتاب) إلى ارضروم وشرق تركيا. وكانت تُعرف قديمًا باسم ميليتين (Mélitène)، وقد احتلّتها الجيوش العربيّة - الإسلاميّة منذ ٣٧هـ/٦٥٧م، إبّان الفتوحات الكبرى. وأضحت آنذاك مركزًا من المراكز على تخوم العالم الإسلاميّ، يهاجمه البيزنطيّون باستمرار ويحتلّونه موقّتًا؛ ثمّ عزّزه الخلفاء الأمويّون وبعدهم العباسيّون، حتّى مجيء الأتراك السلاجقة الذين اجتاحوا الأناضول في العام ٤٦٣هـ/١٠٧١م. ومذّاك توقّف التجاذب حولها بين الإمبراطوريّتين العربيّة والبيزنطيّة، وضُمّت نهائيًا إلى الإسلام في العام ٥٠٥هـ/١١٠١م، عندما وقعت في أيدي الأسرة الدنشمنديّة التي اعتبرتها إحدى حواضرها. ولكن تنازعتها لاحقًا مختلف القوى الإسلاميّة المتنافسة على المنطقة، ولا سيّما سلاجقة الروم والأيوبيّون في سوريا، إلّا أنّ سكّانها ظلّوا من المسيحيّين والمسلمين على السواء.

حاصر المغول ملطية سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م، قبل أن يبسط الإيلخانيّون سيطرتهم عليها. وقد تمّ في تلك الفترة تشييد مسجد جامع يتميّز ببعض الملامح الهندسيّة، وهو مبنيّ بالآجرّ ومزخرف بالخزف. ثمّ انتقلت، بدءًا من ٧١٥هـ/١٣١٥م، إلى أيدي المماليك الذين جعلوها مركزًا متقدّمًا لدفاعاتهم الشماليّة. أخيرًا ضُمّت إلى الأمبراطوريّة العثمانيّة في العام ١٥١٦، إثر الحملة المظفّرة التي قام بها السلطان سليم الأوّل. وتحوّلت إلى مجرّد مركز لمقاطعة، وراحت تتراجع شيئًا فشيئًا بشكل ملحوظ، ولا سيّما بدءًا من القرن السابع عشر. وبعد أن كانت لفترة طويلة مدينةً تجاريّة فيها سوق مسقوفة (بدستان) وخانات عدّة للقوافل، أضحت مهجورة في منتصف القرن التاسع عشر، في أثناء مرور الجيوش العثمانيّة فيها إبّان الحملة ضدّ محمد علي وابنه إبراهيم باشا. إنّ أحياءها القديمة التي كانت مكرّسة للسكن في فصل الصيف والتي تقع قليلًا إلى الجنوب وعلى بعض الارتفاع، أضحت مركز التجمّعات السكنيّة الحديثة.

مَلَقّا (دولة ماليزيا الاتّحاديّة)، مدينة تقع على الساحل الغربيّ لشبه الجزيرة الماليزيّة، كانت، في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، عاصمة السلطنة التي حملت اسمها.

لم تتأسّس ملقا إلّا حوالى سنة ١٤٠٠م، على مسافة غير بعيدة من سنغافورة، وفي ظروف تتداخل فيها الأساطير مع التاريخ، بحيث تبقى الحقيقة غير واضحة. إلّا أنّها سريعًا ما أضحت مركزًا تجاريًا على الخطّ البحريّ الذي يربط الصين بالشرق الإسلاميّ وبأوروبا. وقد ظلّت هذه الدولة الصغيرة، التي حكمها أمراء مسلمون، تحت سلطة جزيرة جاوه لقرنٍ من الزمن. ثمّ استولى عليها البرتغاليّون سنة ١٥١١م، وهربت عائلة ملقا المالكة إلى جوهور في المنطقة الجنوبيّة لشبه الجزيرة، حيث فقدت دورها في نشر الإسلام في الجزر الإندونيسيّة. وقد احتفظ البرتغاليّون بمَلَقا حتّى مجيء الهولنديّين، سنة ١٦٤١م، الذين اضطرّوا إلى التخلّي عنها بدورهم للإنكليز الذين احتلّوها سنة ١٧٩٥. ولم تستطع الإمارة أن تنهض من جديد، فضُمّت إلى الاتّحاد الماليزيّ سنة ١٩٥٧.

◄ راجع المستند رقم ٣٠.

مَلك، لفظة تعني صاحب المُلك، وصاحب الأمر والسلطة، وهي مرادف لكلمة «شاه» في الفارسيّة وكلمة «خان» في التركيّة، وقد استعملت لقبًا في البلدان الإسلاميّة في القرون الوسطى بمعانٍ اختلفت بين حقبة وأخرى.

في الأساس، وبحسب النصّ القرآني (سورة العمران، ٢٦)، يختصّ هذا اللقب بالله وحده «مالك الملك»؛ أمّا زعماء الأمّة، فلا يجوز أن يُعتبروا ملوكًا إلّا إذا حصلوا على هذه الصفة بإرادة الله. لكن عبر العصور، دخلت على لفظة «ملك» معانٍ جديدة.

المعنى الأوّل هو الذي استعمله اعداء الأسرة

الأمويّة، وهو الذي يجعل من «المُلك» سلطةً زمنيّة ظالمة وغير متقيّدة بقواعد الشريعة، وقد لام أعداء السلالة الحاكمة الخلفاء لممارستهم مثل هذه السلطة.

ظهر في العصر العبّاسي، تحت تأثير التقاليد الايرانيّة، معنى آخر للقب «ملك» سمح له أن يستعيد مكانته. وقد عمل كتّاب هذه الحقبة على تحديد واجبات «الملوك»، أي أصحاب السلطة بوجه العموم، كما استطاع بعض الأمراء الخاضعين للخليفة أن يستأثروا بلقب «ملك». هذا ما فعله بعض أفراد أسرة البويهيّين، مثل عضد الدولة، وبعض السامانيّين وخصوصًا، في ما بعد، سلاطين السلالة السلجوقيّة الذين لُقّبوا رسميًّا بلقب «شاهنشاه»، وهو يعني في الفارسيّة «ملك الملوك». حملت لاحقًا بعض الأُسر التي حكمت سوريا لقب «ملك»، منها الأيوبيّون الذين لم يكن يحق لهم أن يحملوا لقب «سلطان» لأنّه كان محصورًا بعددٍ قليل من السلالات. من جهتهم، حافظ المماليك الذين حكموا سوريا ومصر بعد الأيّوبيّين والذين دُعوا «سلاطين»، على لفظة «ملك» بين ألقابهم، ولكنّهم كانوا يُتبعونه بصفة ويعتبرونه من المرتبة الثانية. أمّا المؤنّث «ملكة»، فقد حملته عاهلتان، شجر الدرّ، «ملكة المسلمين» في العام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، في دولة المماليك الناشئة، ورضيّة ملكة دلهي (٦٣٤-٦٣٨هـ/١٢٣٦-١٢٤٠م). ولم يكن يحقّ لا للأولى ولا للثانية أن تُلقّب بـ«سلطانة».

إنّ لقب «ملك» الذي كانت قد تراجعت قيمته في أواخر القرون الوسطى، عاد فاستُعمل من جديد في مطلع القرن العشرين. ففي العام ١٩١٦، أعلن الشريف حسين نفسه ملكًا على العرب، ثمّ في العام ١٩٣٢ ظهرت المملكة العربيّة السعوديّة. وكان فيصل الأوّل بن الشريف حسين قد أصبح، في العام ١٩٢١، ملكًا على العراق، كما أصبح أخوه، في العام ١٩٤٦، ملكًا على الأردن، وحمل اللقب نفسه أبناؤه من بعده. وفي وادي النيل، أصبح الخديوي فؤاد، المتحدّر من سلالة محمّد علي، ملكًا على مصر في العام ١٩٢٢. من جهته، أعلن أمير أفغانستان، الذي يُنسب إلى سلالة الباركزايس، نفسه ملكًا من العام ١٩٢٦، وكذلك فعل «سلطان» المغرب محمّد الخامس في العام ١٩٥٧. إنّ هذا الميل الجديد في الدول الاسلاميّة نحو المَلكيّات الطامحة الى الاقتداء بالغرب، كانت نتيجته أن سقط عددٌ من هذه الأنظمة الملكيّة الجديدة، كالنظام المصري عام ١٩٥٢، والنظام العراقي عام ١٩٥٨، والنظام الأفغاني عام ١٩٧٣.

الملك العادل ← العادل.

ملكشاه بن ألب ارسلان، جلال الدولة معز الدين أبو الفتح، ٤٤٧-٤٨٥هـ/١٠٥٥-١٠٩٢م، سلطان من سلالة السلاجقة الكبار، حكم من ٤٦٥ الى ٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م، خلال الفترة التي شهدت فيها الأمبراطوريّة الناشئة عن الغزوات التركيّة ذروة قوّتها وانتشارها الاقليمي.

إنّ ملكشاه الذي عيّنه والده ألب أرسلان، منذ العام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م، وريثًا له، تميّز كأسلافه بمهارته القتاليّة، إلّا أنّه استطاع أيضًا ممارسة سياسة رجل دولة والإفادة من المؤازرة الفعّالة التي قدّمها له الوزير نظام الملك الذي أبقاه إلى جانبه طيلة فترة حكمه. بإسم تعزيز سلطته، في العام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م، بالقضاء على عمّه ومنافسه «قاورد»، وبوضع حدّ، في الأقاليم الشرقيّة، لطموحات السلالات التركيّة الأخرى، ولا سيّما سلالة القراخانيّين في آسيا الوسطى، وكانوا قد اجتاحوا منطقة بلخ، وسلالة الغزنويّين في غزنة وقد عملوا على توسيع ممتلكاتهم في الاتّجاهات كافة وسعيًا لحماية حدوده الشماليّة، سمح للسلجوقي قتلمش ولعائلته بالاستقرار في الأناضول الذي كان عرضة للنهب وللفوضى منذ انتصار مانتزيكرت/ ملازكرت في العام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، لكنّه فرض عليهم رقابته المباشرة. كما اضطرّ أيضًا إلى التدخّل في سوريا حيث كانت تتسلّل عصابات تركمانيّة، وإلى ردع القبائل العربيّة ومحاربة القوّات الفاطميّة التي كانت لا تزال موجودة في فلسطين، بينما بسط شقيقه تتش سيطرة سلالته على أنطاكية وحلب والرها. واصل قادة عسكريّون آخرون طريقهم جنوبًا واقتحموا الجزيرة العربيّة حيث أرغموا شريف مكّة على رفض النفوذ الفاطمي.

بهدف تثبيت سلطته من خلال رعايته للفنون، قرّر

ملكشاه إظهار عظمته في عاصمته أصفهان حيث أدخل تعديلات رائعة على المسجد الجامع الذي تمّت زخرفته في عهد البويهيّين، والذي كان مزوّدًا بصالتين تعلو كل منهما قبة - احداهما كانت بلا شك خارج المبنى - وتُعتبَران من أهم إنجازات الفن السلجوقي المصنوع من الآجر، إن من حيث البنية وإن من حيث الزخرفة. أمّا أكبرهما التي كانت تستخدم كمقصورة ضخمة فقد ضمّت المحراب؛ إنها صُمّمت أولًا كبناء منفرد محاط بممرّ مكشوف، مُدرج في طرف الجناح المحوري الذي يُشير إلى قاعة الصلاة. تشكل هذه الصالة نمطًا جديدًا في الفن المعماري وفي توازن الأحجام، إن في الداخل أو في الخارج. وقد اعتُبرت نموذجًا في ما بعد في كافة الأبنية المماثلة التي ساهمت في نشوء نوع جديد من المساجد المشيّدة في إيران، في عهد السلاجقة الكبار، قبل أن يمتدّ تأثيرها إلى مناطق الأمبراطوريّة الأخرى، من دمشق إلى ميّافارقين، ومنها إلى الأناضول. هكذا شكّلت مقصورة أصفهان الضخمة مصدرًا لتقليدين نمطّيين، خلال القرون اللاّحقة، من جهة في المساجد الإيرانيّة خلال عهدي الايلخانيّين والصفويّين، ومن جهة أخرى في المساجد التركيّة خلال عهدي سلاجقة الروم والعثمانيّين. كما شكّلت أيضًا شهادة فريدة تمجّد ذكرى ملكشاه من خلال مجموعة الألقاب الملكيّة المنقوشة على قاعدة القبّة والتي تحدّد تاريخ تشييدها بأواخر عهد السلطان. وشهدت أصفهان ايضًا ولادة نموذج هندسي آخر، هو نموذج المدرسة الذي انطلق بفضل الدفع الذي أعطاه الوزير نظام الملك، ولكن لم يبقَ أيّ شواهد أثريّة عن هذه المؤسّسة.

من ناحية أخرى كان العاهل التركي يهدف إلى بسط سلطته على العراق الذي كان ما يزال متأثرًا بهيبة الخليفة العبّاسي. وفي العام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م تمكّن من الدخول إلى بغداد حيث منحه الخليفة المقتدي لقب «سلطان»، قبل أن يتمّ الاحتفال بزواجه من إبنة الخليفة. ومن ثمّ باشر ملكشاه، في عاصمة العبّاسيّين، بتشييد قصر لائق بمبانيه الأخرى لكي يُستخدم مقرًا شتويًا له. لكن لم يبقَ أيّ أثر لهذا المبنى، كما لم يتبقَ شيء من المسجد الجامع الذي شيّده في بغداد والذي أُطلق عليه اسم «مسجد السلطان الكبير». وتوفي ملكشاه تحت وطأة المرض في العام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، بعد فترة وجيزة على اغتيال وزيره على يد النزاريّين، تاركًا سلطة شبه مركزيّة ما لبثت أن تفكّكت بسبب الانقسامات الداخليّة.

خُلّدت ذكرى ملكشاه في أصفهان من خلال إحدى أبنيته الرائعة التي كانت أيضًا إنجازًا دينيًا، ومن خلال نصوص عديدة لكتّاب مسلمين ومسيحيّين أشادوا بنبله وبكرمه وبرعايته للآداب والعلوم، في زمن شهدت فيه الرياضيّات وعلوم الفلك إنتشارًا كبيرًا، وفي زمن تمّ في أصفهان تشييد مرصد فلكي لعمر الخيّام.

◄ راجع المستند رقم ٦٩.

المُلْكيّة (حق -) في الإسلام، حق يُقرّه الفقه، تختلف أنواعه باختلاف الحالات المقرّرة.

يجري التمييز بين المُلك الكامل، أي حق تملّك الشيء حصرًا والاستفادة من كل ما ينتج، وحق التصرّف الذي يُمكن أن يكون محصورًا في وجوه عدّة. هناك أيضًا ملكيّة بالشيوع، وهي حالة لطالما تكرّرت بسبب القواعد الخاصة بالإرث في الإسلام. وفي ما يتعلّق بالأراضي، هناك حقّ اقتطاع الضريبة على حكرة عقارية، لا يملكها من يستفيد منها بحكم الإقطاع أو التيمار. تعترف الشريعة الإسلاميّة بالملكيّة الخاصّة، لكنّها تضع لها حدودًا تُيسّر لصاحبها خدمة الله على وجه أفضل وتُبعِدُه عن الظلم، لذا فهي تحرّم الاحتكار والأرباح المفرطة وتضع أسس الأخلاقيّات الاقتصاديّة الحقيقيّة.

مَلْوى أو مالوى، منطقة في وسط الهند، خضعت للإسلام بعد فتحها في العام ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م، على يد سلاطين دلهي، وتشكّل حاليًّا جزءًا من الاتّحاد الهندي.

تعرّضت هذه المقاطعة، الواقعة عند مفترق الطرق المؤدّية إلى شمالي منطقة الدكّن والمشرفة على مواصلات غجرات مع الساحل الشرقي، منذ العام ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م، إلى غزوات سلاطين دلهي الذين سيطروا عليها في أوائل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وأوكلوها إلى حكّام من قِبَلهم جعلوا منها، في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، إمارة مستقلّة عاصمتها ماندو التي سرعان ما

تحوّلت، داخل أسوارها، إلى مركز فنيّ وثقافيّ بارز. وهنا ازدهرت سلطة سلالتين من السلاطين، الغوريّين والخلجيّين الذين وسّعوا أنشطتهم العسكريّة في الاتّجاهات كافةً، ضدّ أسياد غجرات وضدّ بني بُهمُن في بيدار، أو ضدّ بني شرقي في جَونبور، والذين تميّزوا أيضًا برعايتهم للفنون وبإدارتهم الحكيمة. وما زالت في مندو بعض البقايا التي لم تخضع إلا جزئيًا للدراسة والترميم، والتي تنتمي إلى مدرسة معماريّة مهمّة تميّزت بقصورها ومبانيها المدنيّة الأخرى وبأبنيتها الدينيّة، ولا سيّما المساجد والاضرحة، إضافةً إلى مدرسة للمنمنمات.

سقطت مقاطعة ملوى بين ١٥٣١ و١٥٣٥م في أيدي سلاطين غجرات وضُمّت، في العام ١٥٧٠، إلى أمبراطوريّة المغول، في عهد «أكبر»، حيث شهدت فترة ازدهار جديدة. غير أنّ مقاتلين من قبائل المهراته استولوا في العام ١٧٤١ على المنطقة التي أصبحت أحد أهم ميادين النزاع بين المسلمين والمهراته والبريطانيّين.

السلاطين الغوريّون والخلجيّون:

ديلاغار خان حسين غوري	٨٠٤-٨٠٨هـ/ ١٤٠١-١٤٠٥م
الب خان هوشانغ	٨٠٨-٨٣٩هـ/ ١٤٠٥-١٤٣٥م
غزني خان محمد	٨٣٩-٨٤٠هـ/ ١٤٣٥-١٤٣٦م
مسعود خان	٨٤٠هـ/ ١٤٣٦
محمود شاه الأول خلجي	٨٤٠-٨٧٤هـ/ ١٤٣٦-١٤٦٩م
غياث شاه	٨٧٤-٩٠٦هـ/ ١٤٦٩-١٥٠٠م
ناصر شاه	٩٠٦-٩١٧هـ/ ١٥٠٠-١٥١١م
محمود شاه الثاني	٩١٧-٩٣٨هـ/ ١٥١١-١٥٣١م

◄ راجع المستندين ٣٢ و٣٣.

مليلة (إسبانيا)، مدينة ومرفأ على البحر الأبيض المتوسط، تقع على ساحل المغرب، كانت خلال القرون الوسطى جزءًا من المغرب الإسلامي وعرفت تاريخًا مضطربًا.

تُذكر مليلة لأوّل مرّة في الحوليّات التاريخيّة خلال عهد عبد الرحمن الثالث، خليفة قُرطبة الأموي، الذي استولى عليها وأحاطها بأسوار وأوكلها، في العام ٣١٥هـ/ ٩٢٧م، إلى أحد حلفائه المعادين للفاطميّين. كان دورها الاقتصادي في ذلك الوقت كبيرًا بسبب وجودها عند منفذ طريق القوافل الآتية من سجلماسة، وحافظت على هذا الدور بعد سقوطها على التوالي في أيدي المرابطين في العام ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، والموحّدين في العام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، ثمّ المرينيّين في العام ٦٢٤هـ/ ١٢٧٢م. وعرفت، بفضل الحركة التجاريّة التي ربطت اوروبا بمدينة فاس مرورًا بمدينة تازة، ازدهارًا كبيرًا مال إلى الزوال في اواخر القرن الخامس عشر للميلاد. شهدت بعد ذلك، إبتداء من العام ١٥٠٦، الاحتلال الإسباني، وآوت مرارًا عديدة مسلمين متمرّدين على سلطة الشرفاء المغاربة المركزيّة، ولكنّها كانت تتعرّض للحصار ولسلسلة من الهجمات العنيفة. ولم تنتهِ هذه الحقبة الصعبة - التي تأكّدت خلالها أهميّة موقعها الإستراتيجي بالنسبة الى الإسبان - إلّا في أوائل القرن العشرين. ومنذ هذا التاريخ، تطوّرت انشاءات مرفإها الحديثة وتمكّنت المدينة من خلالها أن تزدهر بفضل ارتباطها بمناطق الريف الداخليّة.

◄ راجع المستندين ١٤ و١٩.

مماليك سوريا ومصر، سلاطين أصلهم من الرقيق. حكموا مصر من ٦٤٨ إلى ٩٢٢هـ/ ١٢٥٠ الى ١٥١٧م. وسوريا من ٦٥٨ الى ٩٢٢هـ/ ١٢٦٠ الى ١٥١٦م، وفقًا لسلالتين متتاليتين من الملوك الذين أُطلق عليهم اسم البحريّين والبرجيّين، والذين شهدت سلطتهم خلال حوالى ثلاثة قرون نجاحًا إقتصاديًا وثقافيًا بارزًا.

١- انطلقت سلطنة المماليك خلال سلسلة التعديات على السلطة التي طبعت نهاية الدولة الأيوبيّة والتي نتجت، من جهة، عن هجمات الفرنج بقيادة لويس التاسع على مصر، ومن جهة أخرى عن اجتياح المغول لسوريا. بعد أن أبدى مماليك الملك الصالح، آخر الملوك الأيوبيّين، تذمّرهم من تصرفات السلطان الشاب توران شاه الذي تولى الحكم بعد وفاة والده في معركة المنصورة، أقدموا، في ربيع الأوّل ٦٤٨هـ/ أيار ١٢٥٠م، على اغتياله وعلى المناداة بشجر الدرّ، أرملة الصالح، ملكة. وقاموا بعد ذلك، في جُمادى الأولى ٦٤٨هـ/ تموز ١٢٥٠م، بتنصيب واحد منهم، أيبك، سلطانًا، فأقدم هذا الاخير، في العام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، على الزواج من شجر الدرّ بهدف إضفاء الشرعيّة على سلطته. وخلال النزاعات والخلافات الداخليّة التي

استمرّت، اغتيل إيبك بأمر من شجرة الدرّ التي قُتلت بدورها على يد مماليك زوجها. ومن ثمّ، بعد هزيمة المغول في معركة عين جالوت، تنازع على السلطة قائدان ساهما في تنظيم المقاومة وردّ الغزاة، هما قُطُز، أحد مماليك أيبك السابقين، وبيبرس، مملوك آخر مستقرّ في سوريا. وأدّى هذا النزاع إلى استيلاء بيبرس وحده على السلطة بعد ان اغتال قُطُز.

وهكذا نشأت في جو من التقاتل الأخوي، ومن خلال إنجازات بيبرس على الصعيد الحربي والتنظيمي، دولة ذات طابع خاص وَضعت السلطة المطلقة والمراكز المهمّة في أيدي أرستقراطيّة عسكريّة مؤلّفة من المماليك، أي من العبيد السابقين المحرّرين المتحدّرين من عناصر مختلفة، ولا سيّما في ذلك الوقت من العنصر التركي. أمّا أعقاب هؤلاء المماليك، في حال وجودهم، فكانوا مستبعَدين عن كل مسؤوليّة عسكريّة أو حكوميّة، وكانت السلطة تنتقل لمصلحة المماليك الجدد الذين كان يجتذبهم كل زعيم ليشكّل منهم «بيته» الذي يبرز من بين أفراده خلفه، من خلال المؤامرات والنزاعات المسلحة، ليثبت قدراته الحربيّة والسياسيّة.

أراد بيبرس، المؤسّس الحقيقي للسلطنة، أن يضفي عليها هيبة مميّزة، ولهذه الغاية استقبل في القاهرة أحد الأمراء العبّاسيّين الذي نجا من مجزرة بغداد والذي بويع بالخلافة، فنصّبه هذا الخليفة الجديد، في العام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، سلطانًا. ومنذ ذلك الوقت تمّ تنصيب سلاطين المماليك اللّاحقين كافةً على يد خلفاء لا يتمتّعون بأيّ سلطة. لكنّ السلالة التي حاول بيبرس تأسيسها لم تصمد طويلًا بعد وفاته، إذ أقدم قلاوون، في العام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، على نفي أبناء بيبرس والاستيلاء على الحكم. وبعد ذلك، في العام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، أبعدَ برقوق سلالة قلاوون عن الحكم واستهلّ عهد المماليك البرجيّين المتميّز بأصل عرقي مختلف.

تميّزت الفترة الخاصة بحكم السلاطين البحريّين الأوائل، بيبرس وقلاوون وورثتهم، حتّى العام ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م، بحملات عسكريّة هدفها توسيع المملكة الناشئة عن ضمّ الأراضي السوريّة الواقعة سابقًا تحت سيطرة الأيوبيّين والإسماعيليّين وحمايتها ضدّ المغول والفرنج. وكان بيبرس أوّل من قرّر حماية هذه الأراضي بمهاجمة الفرنج، مبتعدًا هكذا عن سياسة التعايش السلمي التي مارسها الأيوبيّون تجاههم. وتمّ الاستيلاء على مدن وحصون عدّة، بين ٦٦٣ و٦٦٩هـ/ ١٢٦٥ و١٢٧١م، حيث تمّ احتلال قلعة حصن الأكراد. ثمّ واصل قلاوون المهمّة نفسها وفتح طرابلس في العام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، بينما استولى ابنه على عكا في العام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، واضعًا حدًا لآخر معقل من مملكة أورشليم اللاتينية في سوريا. من جهة أخرى، لم يعد المغول يشكلّون أيّ خطر، بعد أن استقرّوا في المملكة الايرانيّة - الإسلاميّة التي حكمها الإيلخانيّون المتحدّرون من هولاكو. وقد فشل هؤلاء في آخر محاولة قاموا بها سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م للتوسّع.

منذ ذلك الوقت، وحتّى العام ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م، استطاع ابن قلاوون، الناصر محمّد، الذي كان حينئذٍ يحكم للمرّة الثالثة والذي لم يعد يخشى المطامع الأجنبيّة على سوريا، التفرّغ لإصلاح الدولة السوريّة - المصريّة على الصعيد الداخلي، وعلى صعيد النظام الضريبي. فأوكل المناصب المهمّة إلى مماليكه وحدّ من نفوذ المحاربين القدامى وأعاد توزيع «الإمتيازات العقارية» أو الاقطاعات في منطقة دمشق؛ كما أقدم على إلغاء الضرائب غير الشرعيّة لتحسين شعبيّته بين الناس. لكنّ هذه التدابير لم تضع حدًّا للنزاعات بين جماعات المماليك، بل زادتها حدّة بعد وفاة السلطان. وتزايد عدد ونفوذ العبيد المتحدّرين من أصل شركسي الذين باشر قلاوون بتطويعهم، إلى أن أقدم أحدهم على قلب نظام المماليك الأتراك الذين أُطلق عليهم اسم «البحريّين»، لأن سيّدهم الأوّل الأيّوبي كان قد أنشأ ثكناتهم في جزيرة في وسط النيل، أي «البحر» عند المصريّين.

وهكذا بدأت في العام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م - لكي تنتهي مع الفتح العثماني (١٥١٧) - المرحلة الثانية من سلطنة المماليك المستقلّين، مرحلة المتحدّرين من منطقة القوقاز الذين أُطلق عليهم اسم البرجيّين، نسبة الى البرج الذي اتّخذوه مقرًا لهم. وعلى غرار أسلافهم،

فشل السلاطين البرجيّون في تأسيس سلالة ثابتة. غير أنّ الذين تعاقبوا على الحكم خلال الحقبة بكاملها، والذين غالبًا ما اغتصبوا السلطة، كانت تربطهم ببعضهم علاقات التبعيّة. اضطرّت سلطنتهم أوّلًا إلى مواجهة إجتياح تيمورلنك الذي احتلّ سوريا موقّتًا وعاث فيها دمارًا في العام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م. ثمّ في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بين ١٤٨٥ و١٤٩١م، اضطرّت، في ظلّ حكم قايتباي، إلى مواجهة التهديدات التي بدأ العثمانيّون بتوجيهها ضدّ الأقاليم الشماليّة لتلك السلطنة.

كان وضع المماليك شديد الحرج بسبب وجود دولتين كبيرتين على حدودهم، دولة العثمانيّين الحاكمة في الأناضول من جهة، ودولة الصفويّين القائمة في إيران من جهة ثانية. وفي الوقت نفسه كانت هيمنتهم التجاريّة تواجه صعوبات كبيرة بسبب سيطرة البرتغاليّين على المحيط الهندي وعلى البحر الأحمر. وفي العام ١٥١٦م أراد السلطان العثماني، سليم الأوّل، خلال صراعه مع الصفويّين، أن يحمي خاصرته، فأقدم على اجتياح سوريا حيث أنزل بالمماليك، وبسلطانهم قانصوه الغوري، هزيمة قاسية في مرج دابق. ثمّ أطاح آخر سلاطين المماليك واحتلّ مصر التي أصبحت، على غرار سوريا، مجرّد مقاطعة عثمانيّة. وأتت هذه الانتصارات نتيجة فعاليّة جيشٍ مجهزٍ بمدفعيّة، واجه قوّات متعجرفة ومتغطرسة ومتمسّكة بأسلحة تقليديّة مرّ عليها الزمن، وكانت أفضل عناصرها قد تدرّبت على فنون الفروسيّة بنوع خاص. غير أنّ مرحلة المماليك الشركس لم تتميّز بالصعوبات السياسيّة والهجمات الأجنبيّة فحسب، بل عانت من مفاعيل انحطاط إقتصادي عميق، ربّما نتج عن تعسّف الاقطاعيّين المماليك، ثمّ تفاقم تحت وطأة الأوبئة المتعدّدة، وبشكل خاص الطاعون الأسود. لذلك اضطرّ السلاطين، بسبب انخفاض العائدات الضريبيّة، إلى اتّخاذ تدابير قاسية وإلى السماح باحتكارات، لحساب الدولة. وقد أساءت هذه الاحتكارات إلى النشاط التجاري وزادت من حدّة التراجع. وهكذا دخل العثمانيّون مصر فوجدوها ضعيفة على الصُعد كافةً، بينما كان السلاطين المماليك الذين تعاقبوا على الحكم قبل هذه الفترة يعتمدون على نظام قوي ومركزي قوامه طبقة عسكريّة عديدة وفعّالة في آن.

٢- كان هذا النظام المبتكر قد صُمّم، منذ نشأته، نظامًا مختلفًا عن نظام الأيوبيّين، فقد استُبدل بالأمراء على رأس المقاطعات حكامٌ مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بالسلطان، وحيث تمّ اصلاح نظام الامتيازات العقاريّة بشكل يضمن، أفضل من السابق، ممتلكات الدولة ضدّ أيّ محاولة سيطرة طويلة الأمد أو وراثيّة. وكان السلطان يمارس سلطة حازمة على الحكّام وعلى القادة العسكريّين الخاضعين بدورهم لتراتبيّة عسكريّة إقطاعيّة محكمة، أُطلق على أفرادها الأسماء الآتية: أمير مئة، أمير أربعين، وأمير عشرة. وقد تمّ إخضاع هؤلاء جميعًا لتدريب متخصّص حوّلهم من عبيد إلى مقاتلين متمرّسين في الدفاع عن الإسلام وعن السلطنة.

نمّت، من جهة أخرى، عسكرة العديد من مناصب البلاط، ما أدّى إلى تزايد نفوذ الأرستقراطيّة المقاتلة. فاحتلّ المماليك في قصر السلطان مراكز متعدّدة سمّيت مراكز «السيف»، مقابل المراكز الإداريّة المسماة مراكز «القلم». وأعطي لكلّ من هذه المناصب المتفاوتة الأهميّة أو الفخريّة لقب تمّت صياغتُه وفقًا للتسمية القديمة التي غالبًا ما كانت مرتبطة بالمنصب: («دوادار» أي حامل المحبرة، «جندار» أي الحارس الشخصي، «جوكاندار» أي القيّم على لعبة البولو)... وكان هذا اللقب يشكّل جزءًا من سلسلة الألقاب وينتج عنه شعار يمنحه السلطان للمملوك يوم تعيينه ويحتفظ به هذا الأخير في ما بعد. وكانت هذه الشعارات تظهر على الأشياء المصنوعة باسمه او ترافق النقوش الواردة على بعض الأبنية والمؤسّسات بما فيها الأضرحة. ومع الوقت أصبحت هذه الشعارات أكثر تعقيدًا وتركيبًا لكي تشمل المناصب المتعاقبة التي شغلها كل مسؤول عسكري تدرّج في المسؤوليات والمراكز الرفيعة.

ومع ذلك، تمّ الاحتفاظ بمدنيّين في بعض المراكز، إنّما بعد ان حُدّدت صلاحياتهم، على غرار ما حصل للوزير الذي أصبح، في أواخر الحقبة، مجرّد رئيس للخزينة. وحدهم العلماء حافظوا على بعض الاستقلاليّة واحتلّوا مراكز مخصّصة لهم بطبيعة الحال. غير أنّ

السلاطين لم يترددوا في التدخّل في السلطة القضائية، فعيّن بيبرس أربعة «قضاة كبار»، قاض لكل مذهب فقهيّ، للحدّ بدون شك من نفوذ المدرسة الشافعية الأكثر شيوعًا في مصر. أما الخليفة العبّاسي المقيم في القاهرة فكان دوره ثانويًا ولم يكن يتمتّع، في هذا المجال أو في أية مجالات أخرى، بأيّة قدرة على التحرّك، واقتصر دوره على تنصيب السلطان المستولي على الحكم. غير أنّ الشعب بقي بعيدًا عن نظام الحكم السياسي - العسكري، إذ حُظّر على المماليك الزواج بفتيات من الأسر العربيّة واضطرّوا إلى الزواج بفتيات من الرقيق يتحدّرن من أعراقهم. وأدّى هذا الوضع إلى تجاذبات إجتماعية بلغت أحيانًا درجة العنف، لكنّها لم تؤثّر على النظام نفسه.

بعد العام ١٥١٧ والنصر العثماني النهائي، لم تؤدّ نهاية السلطنة إلى نهاية المجتمع المملوكي. وبينما وضع السلطان العثماني حكّامًا مرتبطين بالباب العالي في سوريا وفي مصر، بقي جيش المماليك إلى جانب فيالق القوات العثمانية وأُعيد في ما بعد تجديده. وكان هذا الجيش المنقسم إلى فئات متناحرة ما يزال موجودًا في مصر لدى دخول بونابرت إليها في العام ١٧٩٨، وهُزم على أيدي القوات الفرنسية في معركة الأهرام. وبعد رحيل بونابرت، مُني بهزيمة أخرى في هليوبوليس في العام ١٨٠٠.

المماليك البحريّون

شجر الدرّ	٦٤٨هـ/١٢٥٠م
المعزّ عز الدين ايبك	٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م
المنصور نور الدين علي	٦٥٥-٦٥٧هـ/١٢٥٧-١٢٥٩م
المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م
الظاهر ركن الدين بيبرس، الأول	٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م
السعيد ناصر الدين بركة خان	٦٧٦-٦٧٨هـ/١٢٧٧-١٢٧٩م
العادل بدر الدين سلامش	٦٧٨هـ/١٢٧٩م
المنصور سيف الدين قلاوون الألفي	٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م
الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م
الناصر ناصر الدين محمد	٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٤-١٢٩٥م
	و٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٩-١٣٠٩م
	و٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م
العادل زين الدين كِتْبغا	٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٥-١٢٩٧م
المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٩م
المظفّر ركن الدين بيبرس الثاني	٦٠٨-٦٠٩هـ/١٣٠٩-١٣١٠م
المنصور سيف الدين ابو بكر	٧٤١-٧٤٢هـ/١٣٤٠-١٣٤١م
الأشرف علاء الدين كجك	٧٤٢هـ/١٣٤١-١٣٤٢م
الناصر شهاب الدين أحمد	٧٤٢-٧٤٣هـ/١٣٤٢م
الصالح عماد الدين إسماعيل	٧٤٣-٧٤٥هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م
الكامل سيف الدين شعبان الأوّل	٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م
المظفّر سيف الدين حاجي الأوّل	٧٤٧-٧٤٨هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م
الناصر ناصر الدين حسن	٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م
	و٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦١م
الصالح صلاح الدين صالح	٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م
المنصور صلاح الدين محمّد	٧٦٢-٧٦٤هـ/١٣٦١-١٣٦٣م
الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني	٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٦م
المنصور علاء الدين علي	٧٧٨-٧٨٣هـ/١٣٧٦-١٣٨١م
الصالح صلاح الدين حاجي الثاني	٧٨٣-٧٨٤هـ/١٣٨١-١٣٨٢م
	و٧٩١-٧٩٢هـ/١٣٨٩-١٣٩٠م

المماليك البرجيّون

الظاهر سيف الدين برقوق	٧٨٤-٧٩١هـ/١٣٨٢-١٣٨٩م
	و٧٩٢-٨٠١هـ/١٣٩٠-١٣٩٩م
الناصر ناصر الدين فرج،	٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٩-١٤٠٥م
	و٨٠٨-٨١٥هـ/١٤٠٥-١٤١٢م
المنصور عز الدين عبد العزيز	٨٠٨هـ/١٤٠٥م
العادل المستعين بالله	٨١٥هـ/١٤١٢م
المؤيّد سيف الدين شيخ	٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م
المظفّر أحمد	٨٢٤هـ/١٤٢١م
الظاهر سيف الدين ططار	٨٢٤هـ/١٤٢١م
الصالح ناصر الدين محمّد	٨٢٤-٨٢٥هـ/١٤٢١-١٤٢٢م
الأشرف سيف الدين برسباي	٨٢٥-٨٤٢هـ/١٤٢٢-١٤٣٧م
العزيز جمال الدين يوسف	٨٢٥-٨٤٢هـ/١٤٢٢-١٤٣٧م
الظاهر سيف الدين جقمق	٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م
المنصور فخر الدين عثمان	٨٥٧هـ/١٤٥٣م
الأشرف سيف الدين إينال	٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م
المؤيّد شهاب الدين أحمد	٨٦٥هـ/١٤٦٠-١٤٦١م
الظاهر سيف الدين خوش قدم	٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م
الظاهر سيف الدين بلباي	٨٧٢هـ/١٤٦٧-١٤٦٨م
الظاهر تمربوغا	٨٧٢-٨٧٣هـ/١٤٦٨م
الأشرف سيف الدين قايتباي	٨٧٣-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م
الناصر محمّد	٩٠١-٩٠٤هـ/١٤٩٦-١٤٩٨م
الظاهر قانصوه	٩٠٤-٩٠٥هـ/١٤٩٨-١٥٠٠م
الأشرف جانبلاط	٩٠٥-٩٠٦هـ/١٥٠٠-١٥٠١م
العادل سيف الدين طومان باي	٩٠٦هـ/١٥٠١م
الأشرف قانصوه الغوْري	٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م
الأشرف طومان باي	٩٢٢هـ/١٥١٦-١٥١٧م

◄ راجع المستندات ٢٣ الى ٢٥ و٦٥.

مملوك، جمعها مماليك، مصطلح عربي يشير إلى «الشيء المملوك»، إلى «العبد»، وبشكل خاص «العبد العسكري»، سواء تمّ تحريره بشكل شرعي أم لا.

إنّ أوّل ظهور لمثل هؤلاء العبيد العسكريّين في الإسلام يعود إلى أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، خلال العصر الذهبي لسلالة الخلفاء العبّاسيين، عندما بدأ أحد أفراد هذه الأسرة الذي عُرف في ما بعد بالخليفة المعتصم، والذي كان عندئذ شقيقَ الخليفة الحاكم، بتطويع جيش من الرقيق الأتراك لكي يشكّل حرسه الخاص، وقد جمّعهم، في ما بعد، في مقرّ إقامته في سامرّاء. لم يطلَق على هؤلاء الأتراك اسم «مماليك» في النصوص، على غرار السلاقيّين المستخدمين في الأندلس والذين أُطلق عليهم اسم «صقالبة»، غير أنّ وضعهم كان مشابهًا للوضع الذي عرفه في ما بعد، في مصر وسوريا، المجنّدون الذين عُرفوا باسم المماليك والذين شكّلوا أساسًا لنظام سياسي جديد. كما أنّ الظاهرة نفسها طبعت الامارات الأخرى الناشئة داخل الأمبراطوريّة العبّاسية المفكّكة أو على حدودها والتي لجأت إلى تجنيد فرق من العبيد من أصول مختلفة. ومن أشهرهم ضبّاطُ الغوريّين الذين أصبحوا في ما بعد «الملوك-العبيد»، أو «المعزّين»، والذين حكموا الهند كسلاطين من سنة ٦٠٢ إلى ٦٨٩هـ/ ١٢٠٦ الى ١٢٩٠م واتّخذوا دلهي عاصمة لهم، فشكّلوا هكذا أولى سلالات سلاطين دلهي.

من بين كل العبيد الجنود، فالذين أُطلقت عليهم أوّلًا تسمية «مماليك»، هم الذين جنّدهم ملك من سلالة الأيوبيّين، الملك الصالح، وكانوا متحدّرين من آسيا الوسطى. وخلال المرحلة الأولى من حكم سلطنة القاهرة، شكّلوا الفرق المعروفة بـ«البحريّة». ثم استُبدل بهؤلاء الأتراك شركسيّ من القوقاز، هيمنوا خلال مرحلة حكم المماليك البرجيّين وضمّوا أيضًا عبيدًا من أعراق متعددة.

كان يتمّ شراء العبيد المخصّصين للخدمة العسكريّة من تجّار مسلمين من خارج الدولة، ثم يتمّ تدريبهم في مدرسة حربيّة في قلعة القاهرة. وكانوا يتابعون، في الوقت نفسه، دروسًا دينيّة وتدريبًا خاصًا تحتلّ فيه الفروسيّة مكانة كبيرة. كان يُخصّص سيدٌ لكلّ عبد يدين له هذا الأخير بولاء تام ويعتبره أبًا له. وفي نهاية مرحلة التدريب، كان يتمّ تحرير المملوك لكي يصبح جنديًا عاديًا. وكان من ثمّ باستطاعته الوصول إلى رتبة أمير وارتقاء درجات السلك العسكري. وكان مجتمع المماليك مؤلّفًا من هؤلاء المحرّرين الذين كانوا يشكّلون الأرستقراطيّة العسكريّة. أمّا ورثتهم - في حال وجودهم، إذ إنّ عددًا منهم كانوا من الخصيان - فكانوا مبعدين عن هذه الاستقراطيّة التي لا سبيل للوصول إليها إلّا من خلال العبوديّة التي تؤدي مباشرة إلى مناصب القيادة والحكم.

المنار (حزب)، مصطلح عام استُخدم للإشارة إلى شخصيّات متعدّدة كانت تعيش في مصر في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت تُعتبر، لأسباب عديدة، رفاق درب لمحمّد عبده.

وكانت هذه الشخصيّات التي ساهمت في مجلة «المنار» التي أسّسها رشيد رضا في القاهرة، في العام ١٨٩٩، للمساعدة على إطلاق حركة إصلاحيّة إسلاميّة مبتكرة، تنتمي إلى مجموعات عدّة، ومن بينها:

- مجموعة «الأزهريّين» التي ضمت كبار علماء الأزهر ومفتين استطاعوا أحيانًا، من خلال مناصبهم، المساهمة في الجهود التي بذلها محمّد عبده في سبيل تغيير بعض الأساليب في تطبيق الشريعة في مصر.

- مجموعة «المثقّفين»، وقد برز فيها كتّاب مثل المويلحي (١٨٤٦-١٩٠٦) الذي عمل على تجديد اللغة العربيّة، وزغلول باشا (١٨٦٣-١٩١٤) القاضي الذي ترجم مؤلّفات عدّة من اللغات الاوروبيّة الى العربيّة، والمنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤) الكاتب الذي تميّز باتّجاهاته المحافظة، وحافظ ابراهيم (١٨٧٣-١٩٣٢) المسمّى بشاعر النيل، الضابط السابق الذي ابتكر شعرًا أكثر تجديدًا.

- أخيرًا مجموعة رجال السياسة التي ضمّت الصحفي عبدالله النديم (١٨٤٥-١٨٩٦)، «خطيب الثورة» التي قام بها عرابي باشا، وقوميين آخرين أكثر اعتدالًا مثل زغلول باشا الذي سبق ذكره والذي احتلّ منصب وزير التربية العامّة في سنة ١٩٠٦، وأخيرًا قاسم

أمين (١٨٦٥-١٩٠٨)، المجدّد الناشط في الدفاع عن حقوق المرأة والمنادي بتعليم النساء والتخلّي عن الحجاب ورفض تعدّد الزوجات.

منارة أو منار، صومعة ومأذنة أو مِئذنة، بُرج يشكّل حاليًّا جزءًا من النظام الهندسي للمسجد الجامع، ورمزًا حقيقيًّا للإسلام.

إنّ تنوّع المصطلحات المستخدمة في اللغة العربيّة مع دلالاتها الخاصة، من «برج مراقبة مُضاء أو غير مُضاء» لكلمة منارة، و«المكان الذي تنطلق منه الدعوة إلى الصلاة أو الأذان» لكلمة مئذنة، كافٍ لإظهار تعدّد المفاهيم المتّصلة بعنصر بنائي ارتبط في بلاد الإسلام، وفقًا للمكان والزمان، بوظائف ومواصفات مختلفة. أمّا المصطلح الفرنسي (Minaret) فيعود أصله إلى مصطلح تركي حديث، مشتق من كلمة منارة، استُخدم من دون أيّ التباس في الأمبراطوريّة العثمانيّة للدلالة على مكان معدّ لرفع الأذان، وعلى عنصر هندسي عالٍ وضامر الجسم، يُقام منفردًا أو بمجموعات من عنصرين أو أربعة أو حتّى ستة عناصر متمّمة للقباب التي كانت تعلو المساجد الجامعة، تأكيدًا لدور المنارة المزدوج على الصعيدين الديني والجمالي.

كان الوضع السابق مختلفًا، إذ إنّ الدعوة إلى الصلاة في أوائل أيام الإسلام، وفقًا للعرف الذي وضعه النبيّ محمد ﷺ، لم تكن تستدعي سوى منصّة متفاوتة الإرتفاع. أُطلقت في سوريا في عهد الأمويّين تسمية مئذنة على المكان المخصّص على السقف لهذه الدعوة، وكان يُبلغ إليه بسلّم خارجي مثل الذي ما يزال قائمًا في مسجد البصرة الجامع والذي ربّما له علاقة بكتابة عائدة إلى العام ١٢٨هـ/٧٤٥م. وما تزال هذه العادة متّبعة في الوقت الحاضر في بعض الدول الإسلاميّة، ولا سيّما في المناطق الريفيّة.

وفي الوقت نفسه ظهرت، في أنحاء العالم الإسلامي كافّة، أبراج بأشكال ومواد مختلفة استُعملت أيضًا لغايات متعدّدة، وأطلق عليها اسم منارة أو صومعة. أجمل النماذج وأضخمها هي تلك التي خلّفتها المؤسّسات الخليفيّة والأميريّة، مثل أبراج الآجرّ ذات السلّم اللولبي الخارجي التي رافقت، في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، مسجدين كبيرين شيّدهما في سامرّاء الخلفاء العبّاسيون، وكذلك مسجد إبن طولون الذي ما يزال قائمًا في القاهرة. وفي القيروان تمّ، في عهد الأغالبة، تشييد برج ضخم مربّع الزوايا لغايات دفاعيّة بوجه خاص، وذلك لمناسبة إعادة إعمار المسجد الذي شيّده في ما مضى عقبة بن نافع. وتجدر الإشارة في جميع هذه الحالات إلى سعي جميع الحكّام المسلمين إلى العظمة، ما يعكس العلاقات التفضيليّة التي كانت تربطهم بالمركز الرمزي والسياسي في آن واحد، المتمثّل بالمسجد الجامع.

تجسّدت هذه الإرادة في ما بعد في أبراج الآجرّ المشيّدة، خلال القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، في غزنة، على أيدي الغزنويّيْن مسعود الثالث وبهرام شاه، كما في تلك التي أقامها حكّام خراسان في دامغان مثلاً، وأيضًا في المئذنة الحجريّة المربّعة الزوايا التي خلّفها السلجوقي تُتُش في المسجد الجامع في حلب. كما شُيّدت، في أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، نماذج أخرى لا مثيل لها مزوّدة بطبقات عدّة أسطوانيّة الشكل جزئيًّا أو مخروطيّة الجذع، مثل مئذنة جام/ فيروزكوه ومئذنة زيار بالقرب من أصفهان، أو قطب منار في دلهي. كما ساد في الغرب طابع ملكي مماثل، في المغرب الأقصى وفي الأندلس، تمثّل في الأبراج الشهيرة المربّعة التصميم والشاهقة التي شيّدها الموحّدون تأكيدًا لفخامة المساجد الجامعة التي أقاموها في مراكش وإشبيلية أو في الرباط.

ساهمت هذه الإرادة الملكيّة الساعية إلى العظمة، والتي قابلتها المواصفات البنيويّة والزخرفيّة الخاصّة بهذه المآذن المختلفة المبتكرة كأعمال فريدة واستثنائيّة، في تعظيم النماذج الهندسيّة المقتبسة من تقاليد متعدّدة من دون التمييز بينها. وكان بعضها مستوحى من البرج الأسطواني الشكل، المصنوع في معظم الأحيان من الآجر والذي امتدّ على طول مسارات القوافل في إيران، أو الذي استُخدم لتعزيز دفاع الحصون ورباطات الحدود، مثل رباط سوسة في إفريقية على سبيل المثال. بينما كان بعضها الآخر مؤلّفًا من برج مربّع الزوايا، دفاعيّ أو سكنيّ، مصنوع من مداميك

حجريّة كان معروفًا في الشرق القديم وفي العهد البيزنطي، وقد اعتُمد في ما بعد في الأقاليم الإسلاميّة في هذه المناطق وفي المغرب.

إثر محاولات هندسيّة جديدة أُجريت في ما بعد في بعض مراكز الحضارة الإسلاميّة، تغيّر مظهر المآذن التي اكتسبت نهائيًّا، خلال القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، مكانتها وتبريرها الوظيفي. وأصبحت المئذنة رمزًا من رموز الإسلام وأداة للدّعوة الدينيّة التي يتضمّنها نصّ الأذان، كما أضحت عنصرًا لا غنى عنه في أي مسجد جامع، أو أي مُجمّع هندسي جُهّز فيه المصلّى بمنبر، أو في أيّة كليّة ضمنها مدارس وخوانق وأضرحة مجمّعة ضمن مؤسّسات ملكيّة. ومنذ ذلك الحين تكاثرت في المغرب المآذن الصغيرة من النوع القروسطي المتأثّرة أحيانًا بالفن العثماني والتي باتت ترافق أمكنة الصلاة، حتّى الصغيرة منها. وتكدّست في مصر العناصر الأسطوانيّة الشكل، المرتفعة والمزخرفة، التي تشكّل تعبيرًا عن أجمل أبنية المماليك الدينيّة. كما تطوّرت، آنذاك، في العالم التركي - الإيراني، وصولًا إلى الهند، عناصر الواجهات والمداخل التيموريّة أو الصفويّة أو المغوليّة المحاطة بمئذنتين أو أكثر، وسلسلة المآذن المرتفعة المحيطة بقباب العثمانيّين الأمبراطوريّة. وأصبح المسلمون في الدول كافّة يربطون هذه العناصر الزخرفيّة التي باتت ضروريّة، بإنجازات ذات طابع شعائري ديني، وأصبحت علامة مميّزة لكلّ مسجد، وحتّى لكلّ مبنى دينيّ ذي أهميّة.

◄ راجع المستندات رقم ٤٤، ٥٤، ٦٣، ٧٤، ٧٦ و٨٥.

المناظرة ← **الجدل**.

المنافقون، مصطلح عربي يشير في القرآن إلى بعض سكّان المدينة الذين لم يتمكّن النبيّ محمّد (ﷺ) من الاعتماد عليهم والذين غالبًا ما وجّه إليهم التوبيخ واللوم.

كان المنافقون في الحقيقة جماعة أسلموا «متردّدين»، فلم يشاركوا دومًا في الحملات التي جرّدها قائد الجماعة الإسلاميّة. إضافةً الى ذلك فإنّه كان مضطرًّا إلى مراعاة جانبهم. لم يكن هؤلاء المنافقون، كما يبدو، يشكّلون مجموعة متجانسة، ومن المعلوم أنّ كبيرهم عبدالله بن أُبَيّ، انتقد الطريقة التي أدار بها النبيّ محمّد ﷺ معركة أُحد. واستُخدمت هذه العبارة في ما بعد، خارج النطاق التاريخي الخاص بالدولة الإسلاميّة الأولى، خلال النزاعات الدينيّة التي سادت في القرون الأولى، بمفهوم مشين ما زال مرتبطًا بها.

منبج (الجمهوريّة العربيّة السوريّة)، مدينة قروسطية غنية ونافذة في شمال سوريا، انحدرت في ما بعد إلى مستوى قرية بسيطة.

تقع مدينة منبج، هيرابوليس قديمًا، شمال شرقيّ حلب، على مقربة من نهر الفرات الذي كانت مياهه تروي منطقتها. عقدت في العام ١٦هـ/٦٣٧م، صلحًا مع القوّات العربيّة - الإسلاميّة وفتحت لها أبوابها، فاستولت عليها هذه القوّات في بداية الفتوحات الكبرى مقدّرةً أهميّتها العسكريّة. هكذا أصبحت أحد المواقع المحصّنة الأكثر ثباتًا أمام الأمبراطوريّة البيزنطيّة، فرفعها الخليفة العبّاسي هارون الرشيد، في العام ١٧٠هـ/٧٨٦م، إلى مرتبة عاصمة المنطقة الحدوديّة المفصولة عن جند قنّسرين.

باتت منبج، خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، أحد أهداف الهجمات البيزنطية، فقام نيقفور فوكاس، في العام ٣٥١هـ/٩٦٢م، بانتزاعها من إبن عمّ سيف الدولة الحمداني، الشاعر أبي فراس، الذي اقتيد أسيرًا إلى القسطنطينيّة. وانتقلت بعد ذلك مرارًا من معسكر إلى آخر إلى أن ضمّها نهائيًّا إلى الأراضي الإسلاميّة السلجوقي ألب أرسلان في العام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، على أثر معركة مانتزيكرت/ملازكرت، فكان لها، بفضل قلعة نجم وموقعها المتقدّم على الفرات، دور كبير في حماية مملكة حلب خلال عهد الأيّوبي الملك الظاهر غازي. ثمّ تجهيزها، في العام ٥٦٢هـ/١١٦٧م، بمدرستين، الأولى شافعيّة والأخرى حنفيّة، وهذا دليل على الأهميّة النسبيّة لعدد سكّانها. وتعرّضت مرّتين، خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، لنهب المغول، ووقعت أخيرًا تحت سيطرة المماليك، لكنّها فقدت خلال القرن الثامن الهجري/

الرابع عشر الميلادي، وضعها المميّز كعاصمة للمواقع الحدودية لمصلحة مدينة أنطاكية. انتقلت من ثمّ، في العام ١٥١٦، الى سلطة العثمانيّين وانعكس عليها سلبًا تحوّل طرق القوافل عنها، ما قضى على تجارتها وعلى مركزها الإستراتيجي اللذين شكّلا قاعدة ازدهارها، وأدّى إلى حالة من الانحطاط لم تتمكّن الحقبة الحاليّة من معالجتها.

◄ راجع المستند رقم ٩.

المنبر، هو أحد العناصر التي قام عليها تجهيز المسجد الجامع منذ أيام النبيّ ﷺ والتي استمرّت إلى أيامنا هذه في شكل منبر متدرّج، وفي أغلب الأحيان في شكل سلّم متعدّد الدرجات. مثّل هذا العنصر دورًا غاية في الأهمية في شعائر صلاة الجمعة، بحيث أصبحت عبارة «مسجد بمنبر» تعني المسجد الجامع، أي المسجد الوحيد الذي كان يمكن ان تُلقى فيه الخطبة ذات الطابع السياسيّ والدينيّ في آن، والتي طالما شكّلت إحدى أهمّ مميّزات الصلاة الأسبوعيّة الرسميّة. اقتصر المنبر أوّلًا على استخدام مَرْقًى مخصّص لنبي الإسلام ﷺ، ولخلفائه رؤساء الجماعة من بعده، كما ثبت أنّ النبيّ محمّدًا ﷺ كان يجلس على مقعد خشبي مرتفع لإصدار أحكامه القضائيّة وخطبه المهمّة والتوجّه إلى المؤمنين. بقي هذا العرف مرتبطًا بالمكانة الخاصة التي احتلّها المسجد الجامع في حياة المسلمين العامّة. وخلال العصر العبّاسي كان على الخليفة أن يقف على المنبر لتقبّل قَسَم الولاء أو البيعة. لكن، مع مرور الزمن، اقترنت وظيفة هذا العنصر الضخم بأهداف طقسيّة بشكل خاص، وتضاءلت تدريجيًّا رمزيّته الملكيّة واقتصر استعماله على منبر للخطيب الديني. وأصبح إمام الصلاة أو الخطيب يتكلّم وحده، واقفًا على إحدى درجات المنبر، من دون اعتلاء المنصّة العليا.

لم يبقَ شيء من منابر قرون الإسلام الأولى المشار إليها في المصادر المكتوبة وحدها. ويبدو أنّها كانت متحرّكة ومصنوعة من الخشب على غرار المقعد الذي شغله النبيّ محمّد ﷺ. كما كانت مصنوعة من الخشب أيضًا أقدم النماذج المتبقّية والتي تعود إمّا إلى القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، مثل المنبر الأغلبي في القيروان بإفريقية، وإمّا إلى القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، مثل بعض منابر إيران. وبعيد ذلك، تمّ انجاز أجمل الأعمال الفنيّة من هذا النوع، إذ أصبحت المنابر مزوّدة بأبواب متوّجة ذات مصراعين وَبِدَرْبزين، وَبِظلَّة تعلوها قبة صغيرة. واستلزم تنفيذ هذه الأعمال اللجوء إلى زخرفة مقرنصة وإلى تقنيّات متطوّرة في استعمال الخشب، مرتكزة على تجميع القضبان والألواح. وفي الوقت نفسه ظهرت منابر مصنوعة من مواد أخرى، مبنيّة ومكسوّة بالخزف الملوّن أو مصنوعة من أجمل الحجارة أو من الرخام، مثل بعض منابر المماليك في القاهرة، ومثل الكثير من النماذج العثمانيّة المشيّدة في الأناضول، ومن ثمّ في اسطنبول وفي أماكن أخرى من الأمبراطوريّة.

منتشا (بنو -)، ٧٠٠ تقريبًا-٨٢٨هـ/ ١٣٠٠ تقريبًا-١٤٢٥م، سلالة تركمانيّة من عهد الامارات، حكمت جنوب غربي الأناضول الإيجي حول عاصمتها ميلاس.

إنّ المقاطعة التي حكمها بنو منتشا تقع في منطقة ساحليّة وجبليّة يصعب الوصول إليها، كانت تضمّ مقاطعتي كاريا (Carie) وليسيا (Lycie) القديمتين، وقد انتقلت إلى المسلمين في العام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، على أيدي أتراك خاضعين لسلاجقة الروم. وحكم حوالي ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م منتشا بك بنفسه. لا نعرف الكثير عن تاريخ خلفائه الذين حاولوا، بدون جدوى، الاستيلاء على جزيرة رودس، والذين اصطدموا بالبنادقة وبالعثمانيّين. أعاد تيمورلنك، بعد معركة انقرة، بناء الإمارة التي كان السلطان العثماني بايزيد الأوّل قد احتلّها في العام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ولم تصبح السيادة العثمانيّة فعليّة عليها إلا في العام ١٤١٤م، خلال عهد السلطان محمّد الأوّل چلبي، قبل ان يقضي مراد الثاني على هذه السلالة في العام ١٤٢٤م.

كان بنو منتشا من محبّي العلماء والمثقّفين، كما كانوا أيضًا من البنّائين. ففي مدينة ميلاس، كما في موقع بيجين المحصّن الذي كان يحميها من الجهة الجنوبيّة والذي ما تزال بقاياه قائمة على هضبة صخرية، وأخيرًا في مرفإ بلات القروسطي، ما تزال أبنية عدّة قائمة تبعث ذكراهم ومن بينها عدد من المساجد.

◄ راجع المستند رقم ٢٢

مُنَسْتِير (الجمهوريّة التونسيّة)، «قصور المنستير» سابقًا، مرفأ من مرافئ منطقة الساحل، يقع جنوبي سوسة. اكتسب شهرته خلال القرون الوسطى من خلال موقعه الإستراتيجي.

في العام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، بأمر من الخليفة العبّاسي هارون الرشيد الحريص على الدفاع عن إفريقية ضدّ هجمات البيزنطيّين والمدن الإيطاليّة الساحليّة، قام حاكم المقاطعة بتجهيز منستير برباط ما يزال قائمًا بعد أن طرأت عليه تعديلات عدّة، عند زاوية المدينة المحميّة. ولم تتوافر المعلومات المتعلّقة بالتصميم الإجمالي إلّا من خلال وصف قليل الدقّة لكاتب من القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، هو أبو عُبَيْد البَكْري. أمّا بقايا الحصن المعماريّة، المجهّز مثل حصن سوسة ببرج مضاء، أسطوانيّ الشكل، ساهم في ما بعد في تطوير هندسة المآذن، فقد خضعت لدراسات وترميمات عديدة.

كانت مدينة منستير تعتبر أرضًا «مقدّسة» بفضل رباطها الذي كان يُنظر اليه كقلعةٍ وزاوية في آن، وقد لجأ اليه مناضلو الجهاد المنتمون أيضًا إلى الصوفيّة. كما حرص عدد وافر من الشخصيات على أن يُدفنوا في المدينة، ولا سيّما أُمراء أُسرة الزيريّين خلال الفترة التي تلت غزو الهلاليّين في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. وامتدّ عبر القرون نشاط المرابطين الذين كانوا يقيمون فيها، وقد أتى على ذكرها في عهد العثمانيّين بيري رئيس محيي الدين الذي استخدم عندئذٍ مصطلح «الزاوية» للإشارة إلى المبنى المخصّص لحماية المرفأ.

ازدادت شهرة منستير بشكل خاص خلال الفترة المعاصرة، لأنّها مسقط رأس الحبيب بورقيبة، الرئيس المؤسّس للجمهوريّة التونسيّة. وتمّ تجهيزها مؤخّرًا بمسجد جامع يحمل إسمه، وبضريح لعائلته.

المنصور، أو المنصور بن أبي عامر، أبو عامر محمّد بن عبدالله، (٣٢٦-٣٩٢هـ/ ٩٣٨-١٠٠٢م)، هو عمدة القصر الذي، في أواخر عهد الدولة الأمويّة في الأندلس، تسلّم السلطة الفعليّة في البلاد، بين سنتي ٣٦٨ و٣٩٢هـ/ ٩٧٨ و١٠٠٢م، وحاول من دون جدوى أن يمنع، بانتصاراته العسكريّة، نجم خلافة قرطبة من الأفول.

هذا القائد العسكري والسياسي الطموح، الذي تلقّى العلوم التقليديّة في الفقه والحديث، تسلّم مناصب متنوّعة في القضاء والإدارة، قبل أن يصبح وزيرًا ثمّ حاجبًا، سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م، للخليفة هشام الثاني الذي كان للمنصور الفضل في إيصاله إلى سدّة الخلافة. وقد توصّل بعد ذلك إلى الاستئثار الكامل بالسلطة، ما سمح له بأن يتّخذ لنفسه، سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م، لقب المنصور بالله. وقد حرص على أن يبقى على وفاق مع العلماء، وعلى أن يظهر للرأي العام بمظهر المدافع الجديد عن الإسلام، القادر على القيام بسلسلة حملات عسكريّة ضدّ المناطق المسيحيّة، وعلى القضاء على ما حقّقته حروب الاسترداد خلال السنوات السابقة من إنجازات. واستطاع في الوقت نفسه ضبط سير عجلة الدولة، عن طريق جعل السلطة المركزيّة محصورة في «المدينة الزاهرة» التي بناها قريبًا من قرطبة، وقد أراد أن ينافس بها مدينة «الزهراء» التي بناها الخليفة عبد الرحمن الثالث.

والانتصارات العسكريّة التي انتقدها المؤرّخون المسيحيّون في ذلك العصر، كانت ثمرة تنظيم جديد للجيش، عمد فيه إلى إقصاء الأندلسيّين وتطويع المحترفين من المرتزقة. هذه الوسيلة التي نجحت عسكريًّا كانت لها سلبيّاتها، إذ استلزمت إنفاق الأموال الكثيرة، وأدّت إلى إفقار أبناء البلاد الذين أثقلتهم الضرائب، فضلًا عن حرمانهم من كلّ أنواع التدريب العسكري. بذلك تغيّرت هيكليّة الدولة وضعفت، على الرغم من الانتصارات السريعة، وفقدت إمكان استعادة قوّتها في مجتمع بات يعيش أزمات معيشيّة حادّة. أمّا أبناء المنصور فلم ينجحوا في الحفاظ على إنجازاته في قرطبة، ولم تستطع الأسرة العامريّة أن تستمرّ إلّا زمنًا قصيرًا، على رأس إمارة بلنسية، في مطلع القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد.

المنصور، أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي، ٩٠-١٥٨هـ/ ٧٠٩-٧٧٥م، الخليفة الثاني في سلالة العبّاسيّين، وُلد من امرأة بربريّة، وهو الأخ غير الشقيق لابراهيم وللسفّاح، حكم ابتداء من العام

١٣٦هـ/ ٧٥٤م واعتُبر المؤسّس الحقيقي لسلطة أسرته.

عندما تولّى المنصور الحكم بعد أن عيّنه شقيقه خلفًا له، رفض عمّه عبدالله بن علي هذا التعيين، فأرسل الخليفة الجديد ضدّه جيشًا بإمرة أبي مسلم. ومنذ ذلك الوقت أبدى المنصور تخوّفه تجاه أبي مسلم الذي ساهم في وصوله الى الحكم وفي إنجاز «الثورة العبّاسيّة» والذي احتفظ بمركزه كحاكم لخراسان، فاستدرجه إلى البلاط وامر باغتياله. وتوصل بهذه الطريقة الى توطيد عرشه والى المحافظة عليه طيلة عشرين عامًا، نظّم خلالها أوّل دولة عبّاسيّة ونجح في حمايتها من أعدائها، بدءًا بالعلويّين الذين سلبهم انتصارهم السياسي.

بمساعدة الجيش الخراساني الذي أحكم سيطرته عليه بعد وفاة أبي مسلم، بدأ في نهاية العام ١٤٥هـ/ ٧٦٢-٧٦٣م، بقمع الثورات التي أطلقها في المدينة وفي جوار البصرة حسنيّان هما محمّد النفس الزكيّة وشقيقه ابراهيم. ومن جهة أخرى، أعاد ترسيخ الأمن في خراسان حيث ظهرت، إثر اغتيال أبي مسلم، حركات تمرّدية عدّة متأثّرة بالعقائد الإيرانيّة. وقام، بشكل خاص، بتعزيز سلطته من خلال المقرّ العراقي الذي اختاره، في موقع إستراتيجي ومحمي، نعني به مدينة بغداد. وقد شهدت العاصمة الجديدة للخلافة التي تمّ تأسيسها في العام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، في مكان يكاد يكون خاليًا من السكّان ويتميّز بقساوته، في غضون بضع سنوات، توسّعًا هائلًا وتطورًا سريعًا جعل منها إحدى أكبر حواضر القرون الوسطى.

قام المنصور أيضًا بتنظيم إدارة الدولة الجديدة ودواوينها المركزيّة بمساعدة حاجبه الفضل بن يونس، وهو عبد سابق مُعْتَق، وبمساعدة المولى أبي أيوب، كاتب الماليّة الذي استبعد في نهاية العهد. أخيرًا، وبعد ان أمر بسجن مناصري الشيعة المتمرّدين، واصل الخليفة سياسته القمعيّة التي كانت في اعتقاده وسيلة لضمان أمن السلالة ومستقبلها. لذلك عمل على تأمين الخلافة لذريّته فأعلن، خلال حياته، ابنه المهدي وريثًا له، غير أنّ خلفه تخلّى عن هذه السياسة. وقد شهد تاريخ الخلفاء العبّاسيّين تقلّبات عديدة من هذا النوع، إن في الأساليب وإن في الوسائل، وذلك تمشّيًا مع ظروف الحكم وبغية خنق المعارضة العلويّة المتشدّدة أو استرضائها.

المنصورة، اسم حملته مدن عدة أنشئت خلال القرون الأولى الإسلاميّة كقواعد أو كمخيّمات عسكريّة أراد مؤسّسوها، من خلال هذه التسمية، جلب الحظ أو الإنباء عن أحداث سعيدة.

بين هذه المدن التي تعود الى حقبات مختلفة والتي أنشئت لأهداف مماثلة، كانت أقدمها مدينة في السند، تأسّست سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٨م، في أسفل وادي الهندوس، بالقرب ممّا عُرف في ما بعد بمدينة حيدر آباد في باكستان، لكي تكون عاصمة اقليميّة. وقد ضمّت قوّات عربيّة إسلاميّة قامت، على أثر الفتوحات الكبرى، بالمحافظة على استمرار السلطة الإسلاميّة في المنطقة. كانت المنصورة مقرًا لحاكم منتدب من قبل الخليفة الأموي، ومن ثمّ مدينة تجاريّة مزدهرة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد، بحسب ما ورد عند الجغرافي القديم ابن خرداذبه، قبل ان تقع في أيدي أمراء محليّين أقرّوا بسلطة العبّاسيّين في بغداد، إنّما احتفظوا باستقلاليّة واسعة. تراجعت المدينة في ما بعد ولم يتبقَّ منها سوى بعض الاطلال في منطقة شديدة التأثّر بتقلّبات مجرى النهر حيث حلّت محلّها تجمّعات سكنيّة جديدة مثل تاتا، وفي ما بعد حيدر آباد.

بين المدن الأخرى التي تحمل الاسم نفسه ظهرت، في العام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م في مصر، بهدف حماية البلاد من الفرنج، مدينة المنصورة المحصَّنة. ثمّ في أواخر القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، تمّ تشييد مدينة-معسكر في جوار مدينة تلمسان، أُطلق عليها الاسم نفسه، خصّصها المريني أبو يعقوب يوسف لمحاصرة عاصمة بني عبد الواد (أو بني زيّان)، بين عامي ٧٠٠ و٧٠٧هـ/ ١٢٩٩ و١٣٠٧م. وبعد العام ٧٢٧هـ/ ١٣٣٥م، على أثر حصار ناجح هذه المرّة، أصبحت تجمّعًا سكنيًا ضمّ مقرّ السلطة وبلاط المرينيّين حتّى العام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م. وما زالت أطلالها ظاهرة في جوار تلمسان، من جهة وَجْدة والحدود المغربيّة.

المنصورة (جمهوريّة مصر العربيّة)، مدينة في دلتا النيل، أصبحت مدينة حديثة ناشطة بعد ان تمّ تأسيسها

خلال الحملات الصليبيّة، وبعد أن لعبت حينها دورًا إستراتيجيًّا بارزًا.

أقدم الملك الأيّوبي، الملك الكامل، في العام ٦٠٩هـ/ ١٢٦٩م، بهدف مواجهة الفرنج في دمياط، على إنشاء معسكر محصّن، عند ملتقى ذراعي النيل الشرقيّين، للدفاع عن الطريق المؤدّية إلى القاهرة، وأطلق عليه اسم المنصورة تيمّنًا بدعم الله وبالنصر المتوخّى.

أوقف تقدّمُ الفرنج في العام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م أمام المدينة الجديدة، بفضل فتح السدود والفيضان الذي نتج عنه. وفي ما بعد، في شتاء ٦٤٧ ٦٤٨هـ/ ١٢٤٩-١٢٥٠م، هاجم جيش الصليبيّين بقيادة الملك لويس التاسع المنصورة ودخلها. لكنّه طُرد منها بعد معركة قاسية عُرفت بمعركة المنصورة شنّتها قوات المماليك التي سرعان ما تسلّمت الحكم بعد الأيّوبيّين، والتي كان يترأسها بيبرس الذي سيصبح في ما بعد سلطانًا. أصبحت المدينة في القرن السادس عشر للميلاد مركزًا إقليميًّا تحت هيمنة العثمانيّين بعد أن انتصروا بدورهم على مماليك سوريا ومصر، وتطوّرت لتصبح مخزنًا للقطن الذي تنتجه المنطقة.

المنصوريّة (بدعة) ← **محمّد الباقر**.

المنطق، أحد علوم الأوائل الموروثة، شكّل جزءًا من العلوم التي أخذ بها المشتغلون بالفلسفة وكان له، بصورة عامة، تأثير كبير على بعض المفكّرين المسلمين في القرون الوسطى. عُرفت رسائل أرسطو في المنطق في الأوساط المسيحيّة، وسرعان ما تُرجمت إلى اللغة العربيّة في أزمنة مبكّرة. وإذ نظر الفلاسفة إلى المنطق على أنّه «وسيلة تحصيل العلوم»، فقد خالط عددًا من العلوم على نطاق واسع في كثير من الأحيان. كما خالط المنطق دراسات قواعد اللغة ثمّ بحوث المدارس الكلاميّة والمدارس الفقهيّة. وقد ميّزت الاهتمامات المنطقيّة بوجه خاص كلام المعتزلة والأشاعرة. أمّا الحنابلة فأبدوا تجاهه تحفّظًا حرصًا منهم على حريّة تدخّل الإرادة الإلهيّة. وقد كتب أحد كلاميّ هذا المذهب من المتأخّرين، في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهو ابن تيميّة، «نقض المنطق». في مجال الفقه، ثمّة جهد للشافعي في استعمال المنطق، به طوّر مفهومه للقياس. لكنّ الفضل الأكبر يعود إلى المفكّر الشهير الغزالي في إدخال المنطق والقياس الى هذا الحقل كما الى الكلام. أمّا الفلاسفة فقد خصّصوا بطبيعة الحال مكانًا فسيحًا للمنطق، ولا سيّما ابن سينا الذي خصّه في مؤلّفاته بكتابات كثيرة.

منكوجك (بنو -)، ٥١٢ - ٦٥٠هـ/ ١١١٨-١٢٥٢م، سلالة تركمانيّة من شرق الأناضول، حكمت في منطقة أرزنجان قبل أن تخضع لسلطة سلاجقة الروم التي فرضها عليها كيْقُباد الأوّل.

لم يصلنا إلّا القليل عن تاريخ هذه الامارة التي نشأت في شرق المقاطعة التي حكمها الدانشمنديّون، بعد أن فتحت معركة مانتزيكرت/ملازكرت حدود الأمبراطوريّة البيزنطيّة الشرقيّة أمام الغزاة الأتراك.

تميّزت عاصمتها أرزنجان، الخالية حاليًّا من الآثار القديمة، باحتضانها مركزًا ثقافيًّا، إرتاده شعراء وعلماء من أصل ايراني أو عربي. احتفظت بلدة ديوريكي، حيث تمكّن فرع من العائلة البقاء حتّى الفتح المغولي، ببضعة أبنية تعود إلى هذه الحقبة، منها مجمّع هندسي يشمل مسجدًا جامعًا ومستشفى، وهما خير شاهد على رعاية أفراد هذه السلالة للفنّ والثقافة.

مِنى، وادٍ يقع شرقيّ مَكّة على الطريق المؤدّية إلى سهل عرَفة ويُقصد إليه خلال تأدية مراسم الحجّ.

في هذا الوادي جعل التقليد الإسلامي موضع أضحية إبراهيم الذي ضحّى بكبش مكان إبنه إسماعيل. وفي هذا المكان يخيّم الحجّاج ويقضون الليل قبل التوجُّه إلى جبل عرَفة. وإلى هذا المكان أيضًا يعودون يوم العاشر من ذي الحجّة لاستيفاء آخر الشعائر - وبينها التضحية بحيوان، غالبًا ما يكون كبْشًا - قبل العودة إلى الكعبة، ومن ثمّ الرجوع مجدّدًا إلى مِنى لقضاء ثلاثة أيام تستمرّ من ١١ إلى ١٣ من ذي الحجة يقال لها «أيّام التّشْريق». ذكريات أخرى تلازم وادي منى إذ إنّه، على مقربة منه، أُبرم ميثاق العقبة بين النبيّ محمّد ﷺ وأهالي يثْرب.

المهاجرون، تسمية أُطلقت على قسم من صحابة النبيّ

محمد (ﷺ)، رافقوه خلال هجرته إلى واحة يثرب، وانصهروا في ما بعد في مجتمع المدينة.

تعرّض أتباع الإسلام الأوائل من أهل مكّة، سواء أكانوا من قبيلة قريش المنيعة أو من أصل متواضع، إلى الاضطهاد والتهجمات في مسقط رأسهم قبل أن يتبعوا مرشدهم ونبيّهم إلى منفاه. وكانوا يضمّون في عدادهم أفرادًا مقرّبين من عائلته مثل إبن عمّه عليّ، إضافة إلى أصدقاء أوفياء من أمثال أبي عكر وعمر بن الخطاب، ما يفسّر الدور السياسي الأساسي الذي لعبه هذان الأخيران بعد النصر النهائي على أهل مكّة، ولا سيّما بعد وفاة النبيّ محمّد ﷺ إذ اعتبرا أنّهما مؤهّلان لخلافته.

كان النبيّ محمّد ﷺ قد أقدم أوّلًا على ضمّ المهاجرين إلى الجماعة التي أراد إنشاءها على قاعدة من التضامن الجوهري بين المسلمين، كما أدخل فيها، بالطريقة نفسها، القادمين الجدد وسكّان واحة يثرب الذين استقبلوهم، وقد أطلقت على هؤلاء تسمية «الأنصار». إلّا أنّ مبدأ المساواة بين المؤمنين كافةً لم يَحُل دون مراعاة ما كان قائمًا من قبل من تراتبيّات وروابط تستند إلى تقاليد العرب القديمة، وتظهر بشكل خاص في الخلافات والنزاعات الداخليّة التي لم تكفَّ عن زعزعة الأمبراطوريّة العربيّة – الإسلاميّة في بداياتها.

المهديّ، تسمية أُطلقت في البلاد الإسلاميّة على الذي يأتي ليحيي الدين والعدالة قبل نهاية العالم، وفق اعتقاد واسع الانتشار، لكنّه لا يتضمّن المفاهيم نفسها ولا القيمة نفسها لدى الأوساط والفِرق المختلفة.

بحسب غالبيّة المؤلّفين السنّةّ، فإنّ مجيء المهدي يحصل في نهاية العالم، وإنّه يأتي ليساعد عيسى للانتصار على الدجّال الذي يشيع الفساد والظلم خلال أربعين يومًا أو أربعين سنة، قبل الدينونة الأخيرة. إنّ مفهوم المهدي، اختلف نوعًا ما عمّا كان في الأصل؛ إنّه ينطبق على مخلّص مصلح يُنتظر ظهوره، وقد نتج عن ذلك انعكاسات في مناسبات تاريخيّة متعدّدة. في عهد الأمويّين، مثلًا، ثمّة خلفاء أو أشخاص آخرون أطلقت عليهم صفة «المهدي» لأنّ الناس كانوا يأملون منهم إقامة العدالة. ومنذ ذلك الحين، في بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ظهرت تقاليد تؤكّد أن المهدي يجب أن يكون واحدًا من أسرة الرسول ﷺ (من أهل البيت). أدّى ذلك إلى الاعتبار حينًا أنّه أحد العلويّين، من سلالة عليّ أو من أبناء الحسين، وحينًا آخر أنّه من سلالة العبّاسيّين. في هذا السياق ندرك أن يكون الخليفة العبّاسي الثاني قد أطلق على ابنه ووريثه في الخلافة لقب المهدي، قاصدًا بذلك أن هذا العاهل سيقيم عالمًا من النزاهة، ما ينزع من الأئمّة العلويّين أفضل حجّة يعتمدونها في دعوتهم.

وبالفعل، فإنّ تسمية المهديّ اعتمدها الشيعة منذ عهد مبكّر، ثم أُطلقت للدلالة على الإمام الغائب الذي تُنتظر عودته. وقد عُرف به كثيرون من أئمّتهم، وبنوع خاص الامام الثاني عشر المدعو محمّد عند الاماميّة الاثني عشرية. وفي إطار الإسماعيليّة، أطلق الفاطميّون تسمية المهدي على الإمام الغائب الذي، بحسب عقيدتهم، قد ظهر مجدّدًا في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، بشخص عُبيدالله المهديّ مؤسّس سلالتهم.

إن مفهوم «المهدي»، بكل ما يتضمن من آمال متعلّقة بالشخص الذي يُطلق عليه أتباعه هذا اللّقب، لم يقتصر على زعماء الحركات الشيعيّة. إنّنا نجد هذا اللقب يبرز، عبر التاريخ، ويُعطى لأشخاص من السنّة لدبهم برنامج إصلاحي، ولزعماء سياسيّين – دينيّين يتحمّس لهم أتباعهم، كابن تومرت، مؤسّس الحركة التي أدّت إلى نشوء دولة الموّحدين في المغرب. وفي نهاية القرن التاسع عشر، تطوّرت في إطار المهديّة، في منطقة النيل الأعلى، حركة ثوريّة أشعلت السودان المصري الذي أصبح اليوم الجمهوريّة السودانيّة، والتي استندت في عقيدتها إلى العنف لفرض سلطة إسلاميّة ثوريّة واعتداديّة.

المهديّ، أبو عبدالله محمّد، ؟ – ١٦٩هـ/ ؟ – ٧٨٥م. الخليفة العبّاسي الثالث وابن أبي جعفر المنصور، تولّى الخلافة سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م، ولقبه يتضمّن معنى الرسالة المرتبطة، في الوسط الإسلامي، باسم المهديّ.

كان المهدي قائدًا للجيش الشرقي ومقيمًا في الريّ ويتولى من هناك حكم خراسان، وكان له مقرّه الخاص في محلّة الرصافة من بغداد، كان موجودًا في إيران حين

وفاة والده. وعندما بويع بالخلافة، اتّبع سياسة مخالفة للّتي كان يتبعها المنصور، فأصدر عفوًا عامًا عن مؤيّدي الشيعة المسجونين، محاولًا كسب مودّتهم. واتّخذ مساعدًا أساسيًّا له رجلًا حازمًا ومؤيّدًا هذا الاتّجاه السياسي - الديني، هو يعقوب بن داود، الذي لقّب رسميًّا بالوزير، ولا ندري إذا كان أحد حجّاب الخلفاء قد حمل سابقًا هذا اللقب. وقد حقّق يعقوب هذا نتائج لا تُنكر، ولكنّه لم يستطع أن يهدّئ كليًّا المعارضة العلويّة، ما أدّى لاحقًا إلى سقوطه وسجنه.

ومن جهة أخرى، فإنّ المهدي الذي أبدى تسامحًا تجاه الشيعة، حارب المانويّين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام رسميًّا ولكنّهم اتُّهموا بالحفاظ على عقائدهم القديمة وبالدعوة إليها، ما كان يعرّضهم لتهمة الارتداد عن الدين ولتهمة الزندقة. وهذا ما أدّى إلى مضايقة أشخاص كثيرين في العراق وسوريا، من دون أن يُعرف شيء عن نشاطهم الحقيقي. إضافةً الى ذلك، فإنّ الخليفة الذي استطاع أن يفرض الأمن في المناطق الشرقيّة حيث واجه تمرّد المقنّع الخُراساني بين ١٥٩هـ/ ٧٧٥م و١٦٣هـ/ ٧٨٠م، نجح في الحصول على البيعة لولديه اللذين أنجبتهما زوجته المفضّلة الخيزران، مبعدًا بذلك ولاية العهد عن ابن عم له كان أبوه قد اختاره وليًّا للعهد في الدرجة الثانية، أي بعد المهدي مباشرة. إنّ سلالة المنصور المباشرة، الممثّلة على التوالي بالمهديّ والهادي وهارون الرشيد، ظلّت ممسكة بالسلطة العليا، بينما كان الإزدهار يتنامى، ممهّدًا للقمّة التي بلغتها الدولة العباسيّة وحضارتها في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، المسمّى غالبًا «العصر الذهبي».

المهديّ أو عُبيدالله المهديّ، ؟ - ٣٢٣هـ/ ؟- ٩٣٤م، أوّل خلفاء السلالة الفاطميّة، حكم ابتداء من سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، نتيجةً لادّعائه بأنّه المهديّ، وللدعوة الناجحة التي أطلقها في إفريقية حيث أسّس دولة جديدة انبثقت من حركة التشيّع، ولا سيّما من الإسماعيليّة. لقد أعلن نفسه من سلالة الإمام العلوي السابع عند الإسماعيليّين، محمّد بن إسماعيل بن جعفر، أي من سلالة ابنة الرسول فاطمة، وأقام الحاكم الجديد في رقّادة قرب القيروان في ربيع الآخر ٢٩٧هـ/ كانون الثاني ٩١٠م، بفضل داعيته أبي عبدالله الذي، بعد إعلانه الخلافة الفاطميّة سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، تتبّعه في المغرب الأقصى حيث كان عبيدالله سجينًا. وقد كُرّم هذا الأخير بصفته إمامًا معصومًا أي كاملًا ولا يُخطئ، وتجب له الطاعة الكاملة، ومارس السلطة بحزم، ولا سيّما بعد أن قضى على أبي عبدالله بسبب شكوكه في ولائه، وقمع الثورة التي نجمت عن قراره هذا. إنّ التأييد الذي لقيه لدى قبيلة كتامة البربريّة التي استقبلت موفده خلال السنوات الأخيرة من حكم الأغالبة، ساعده على بسط نفوذه باتّجاه غرب بلاد المغرب. وقد أضاف أبو عبدالله إلى الانتصارات الأولى التي حقّقها ابتداء من سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م باستيلائه على تاهرت عاصمة الرستميّين، إنتصارات جديدة باستيلائه على فاس، سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م، حيث كان الأدارسة قد أُرغموا سابقًا على الإقرار بسيادته.

إنّ الانتصارات التي حقّقها عبيدالله بقوة جيوشه لم تَحُل دون اعتراض أعدائه على ادّعاء نسبه العلويّ، وهو على قيد الحياة، لا سيّما في محيط العبّاسيّين السنّة الحاكمين في بغداد. وقد وجّه إليه مؤرّخون عرب قدامى الاتّهام بأنّه دجّال، ونحا نحوهم مؤرّخون غربيّون حديثون اعتمدوا براهين خصومه. وبعض هؤلاء تساءلوا عمّا إذا لم يكن عبيدالله من سلالة رجل يدعى «ميمون القدّاح» (الذي يبري الأقداح أي السهام)، والذي ربّما تلقّى من جعفر الصادق - الإمام الخامس بحسب الإسماعيليّين، السادس بحسب الإماميّين - دعوةً للاهتمام بحفيده محمّد بن اسماعيل. هذا مع الملاحظة أنّ عبيدالله منح ابنه المزعوم، الملقّب بالقائم، تشريفًا غير مألوف، ما دعا إلى الاعتقاد بأنّ القائم وحده هو من السلالة العلويّة، وبأنّ عبيدالله لم يكن إلّا ممثّله. وثمّة علماء حديثون آخرون ألقوا الشك على النسب العلوي لعبيدالله، وافترضوا، مثلًا، أنّه يتحدّر من فرع جانبي، حلّ محلّ النسب الصحيح، بفعل تشابه الأسماء. ومهما تكن الحال، فإنّه استطاع أن يضع في المغرب أُسُس دولة قيّض لها أن تقوى، وأن تستقرّ في مصر، وأن تحتلّ المكانة السياسيّة الأولى، في العالم الإسلامي المتوسطيّ، على امتداد ثلاثة قرون.

المهديّة، مصطلح يراد به، بنوع خاص، الدلالة على حركة دينيّة وسياسيّة أطلقها في السودان، سنة ١٨٨١، محمّد أحمد بن عبدالله المعروف بمحمّد المهديّ.

تُعلّل نشأة هذه الحركة بالضغوط الإجتماعيّة التي نتجت في أواخر القرن التاسع عشر - عندما خضعت هذه البلاد للسيطرة المصريّة - عن السياسة المركزيّة التي اتّبعها الخديوي إسماعيل، بمساعدة مستشاره البريطاني غوردون الذي أصبح سنة ١٨٧٧ حاكمًا عامًا على السودان، وحاول أن يضع حدًّا لتجارة الرقيق.

إنّ خلع إسماعيل سنة ١٨٧٩ ضاعف جوّ الرفض الإجتماعي والسياسي الكامن في تلك المنطقة، لأنّ انتظار مهدي كان يهيمن على عقول كثيرين من عامّة الناس.

ولد محمّد أحمد سنة ١٨٤٤م، وهو أحد مريدي شيخ صوفي من منطقته، وأعلن أنّه المهديّ المنتظر، وكان على رأس دعوة إصلاحيّة اتّخذت هدفًا لها إعادة تكوين الجماعة الإسلاميّة الأولى (كما على عهد الرسول). لقد قدّم نفسه على أنّه خليفة رسول الله ﷺ؛ ومُريده عبدالله بن محمد دُعي خليفة أبي بكر أو خليفة الصدّيق؛ ودعي أتباعه الأنصار، كصحابة الرسول ﷺ في المدينة. وفضلًا عن ذلك، فقد اختار المهدي، في نيسان ١٨٨١، لمواجهة الحملات التي شنّتها عليه السلطات المصريّة، أن ينسحب مع أتباعه نحو جبل قدير محقّقًا بذلك هجرته، على مثال نبيّ الإسلام (ﷺ). وهكذا استطاع، بين ١٨٨١ و١٨٨٥، أن يصدّ الهجمات الخارجيّة، ويؤسّس في الوقت نفسه، في كردفان، دولة صغيرة توسعت شيئًا فشيئًا حتّى إنّها، قبيل وفاته، استطاعت الهيمنة على معظم السودان المصري، واختارت أم درمان عاصمة لها، وهي تقع في مقابل الخرطوم.

بعد وفاة المهدي سنة ١٨٨٥، تولّى أحدُ مريديه، عبدالله، ترؤس الحركة، فواجهَ بعض الصعاب، لا سيّما من قِبَل أسرة المهديّ. وأراد متابعة سياسة التوسّع، لكنّ النشاط العسكري توقّف فعليًّا ابتداء من سنة ١٨٨٩؛ ووقعت البلاد فريسة المجاعة، وتزايدت الانشقاقات داخل الحركة، وشدّدت القوات البريطانيّة - المصريّة ضغوطها. وفي أيلول ١٨٩٨ سقطت الدولة المهديّة، التي كان المهدي قد أعلن أنّه سيؤسّسها على غرار الجماعة الأولى؛ لكنّه نظّمها على نموذج الدول الإسلاميّة القائمة آنذاك.

على الرغم من اعتقال الزعماء الأحياء، فإنّ المهديّة استمرّت في السرّ، وإنّ أحد أبناء المهدي، الذي وُلد بعد وفاته، ترأس سنة ١٩٤٥ الحزب القومي الجديد، أي حزب الأمّة الذي يلعب في الوقت الحاضر دورًا داخل جمهوريّة السودان.

المهديّة (الجمهوريّة التونسيّة)، ناحية تحتلّ شبه جزيرة صخريّة ضيّقة، جنوبي مدينتي سوسة ومنستير، كانت مدينة مرفئيّة مهمّة محصّنة، في إفريقية القروسطيّة.

هذه المدينة التي تعود تسميتها إلى المهدي عُبيد الله مؤسّس سلالة الفاطميّين بُنيت سنة ٣٠١هـ/ ٩١٢م، في موضع مركز تجاري قديم، وأُنجزت سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م. كانت، في الوقت نفسه، رمز السلطة الجديدة ومدينة ملكيّة يسهل الدفاع عنها بوجه الثورات المحتملة، في منطقة لم يكن سكّانها بعد قد اعتنقوا العقيدة الإسماعيليّة. كانت قائمة على رأس من الأرض يبلغ طوله ١٤٠٠م، ومتّصلة باليابسة عن طريق برزخ ضيّق جدًّا، كانت المدينة تضمّ قصرين، أحدهما للخليفة والآخر لابنه، ومسجدًا جامعًا ما يزال قائمًا حتّى اليوم، ومتاجر ومنشآت بحريّة. وكان يحيط بها سور عريض، تتخلّله بوّابة يحميها لجهة البرّ حصن حقيقي. وكان النشاط الاقتصادي يجري خارج المدينة، في ضاحيتها المدعوّة زَويلة، على اسم الجيوش البربريّة التي أقامت فيها، وهذه الضاحية أحيطت بدورها بجدار حوالى سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م، على عهد الخليفة القائم.

اختار الفاطميّون المهديّة عاصمة لهم، ما أتاح للقائم الصمود، سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، بوجه ثورة الخارجي أبي يزيد الملقّب «بصاحب الحمار». ولكنّ الخليفة المنصور تخلّى عنها، إذ بنى قرب القيروان مقرًّا جديدًا يدعى صبرا - منصوريّة. إنّ موقع المهديّة المميّز، بصفتها مدينة ساحلية، هو الذي قرّر مصيرها. أمّا مرفأها فشكّل قاعدة انطلاق لحملات بحريّة كثيرة سبّبت لها

ردودًا عنيفة ، كالهجمات البحريّة التي شنّها المسيحيّون ، ومنها الحملة التي قامت بها بيزا وجنوى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ، وحملة النورمان ، سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م ، الذين نجحوا سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م في الاستيلاء عليها ، ولكنّهم اضطروا للجلاء عنها سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م. أصبحت المهديّة ، بعد ذلك ، قاعدة للقراصنة ، لا سيّما بعدما استقرّ فيها القرصان العثماني دراغوت ، فصارت مسرحًا للصراع بين الأتراك والإسبان ، إلى أن احتلّها شارلكان (شارل الخامس) سنة ١٥٥٠م ، بعد استيلائه على تونس ، ثمّ هدّم أسوارها وحصونها سنة ١٥٥٤م وتخلّى عنها . منذ ذلك التاريخ ، استقبلت المهديّة عددًا كثيرًا من المولو.ين من آباء أتراك وأمّهات غير تركيّات (Kulughlis) ، بعد أن تداخل سكّانها الأصليّون مع العناصر التركيّة ومع المسلمين الإسبان الوافدين إليها. وأخيرًا، فانّ البقايا الأثريّة الموزّعة في الأجزاء القديمة من المدينة الصغيرة تُفسّر الاهتمام الذي ما زالت تُثيره، حتّى في وقتنا الحاضر.

◄ راجع المستندين ١١ و١٩ .

مؤاب ، لفظة انتهت إلينا باللغة العربيّة في صيغة مآب للإشارة ، في القرون الوسطى الإسلامية ، إلى البلاد التوراتيّة التي كانت تضمّ مجمل الهضبة المطلّة شرقًا على البحر الميت ، حتّى حدود الصحراء السوريّة - العربيّة ، والتي تنطبق مع القسم الجنوبي للمملكة الأردنية الهاشميّة الحاليّة .

لعبت المنطقة دورًا إستراتيجيًّا خلال الفتوحات الكبرى العربيّة - الإسلاميّة في القرن السابع الميلادي ، منذ أوّل اشتباك في مُؤتة وتحكيم أذْرُح ، قبل أن تتحوّل ، في العصر الأموي ، إلى مكان استيطان مُفضّل للأُسر العربيّة الكبرى ، لأملاكها ولقصورها . وكانت طريق القوافل التجاريّة التي تمرّ بها لربط شبه الجزيرة العربيّة بساحل البحر الأبيض المتوسط والتي اجتازها النبي محمّد ﷺ نفسه عندما كان تاجرًا مكيًّا ، هي نفسها التي اتّبعتها الفِرق المكوّنة من القبائل البدويّة التي اقتحمت سوريا البيزنطيّة . وأصبح المسار نفسه ، في ما بعد ، طريقًا يسلكه الحجّاج المتوجّهون إلى مكّة لأداء شعائر الحجّ والعُمرة . وساهم هذا الأمر في تأمين استمراريّة الحركة التجاريّة حتّى نهاية هيمنة العثمانيّين على الشرق الأدنى ، وصولًا إلى التحوّلات السياسيّة والاقتصاديّة في الزمن المعاصر . وشكّلت ضرورة حماية هذا المحور ، الذي مثّل دورًا أساسيًا لفترة طويلة ، أحد العوامل التي أدّت ، خلال القرون الوسطى ، إلى تطوير بعض مواقع المنطقة والتي جعلت من بلدة الكرك ، المسماة أيضًا كرك مؤاب ، موقعًا حصينًا وأهمّ مدينة في هذه المنطقة .

◄ راجع المستندين رقم ٩ و١٨ .

المواكب ، هي من المظاهر التي كانت تميّز ، في القرون الوسطى الإسلاميّة ، تقاليد الاحتفالات الملكيّة ، كما تشمل المسيرات الشعبيّة ذات المغزى الديني .

كان العاهل المسلم يسير في المناسبات محاطًا بمجموعة من أركان الدولة والحرّاس والخدم ، فتزداد هيبته لكثرة عددهم وعدّتهم . كانت هذه المسيرات تنظّم لدواع دينيّة عندما كان ينبغي التوجُّه من القصر إلى المسجد الجامع أو إلى المصلّى بقصد إمامة الصلاة ؛ وكذلك لدواعٍ دنيويّة بحتة في أثناء الاحتفالات المختلفة ، أو للتوجّه في حملة عسكريّة أو العودة بعد انتصار . وقد طرأ بعض التغيير على هذه المواكب ، من حيث عددها وسماتها الخاصة ، بحسب العصور وأنظمة الحكم ، وحازت أهميّة خاصة خلال عهد الفاطميّين في مصر ، وعهد العثمانيّين .

وقد تناهى إلينا ذكر مواكب دينيّة خلال الأعياد الشيعيّة في شهر محرّم إحياءً لذكرى الإمام الحسين وموته المأسويّ في كربلاء ، وهي مواكب اتّسمت بطابع محلّي وشعبي خاص بكل منطقة . وكانت تجري أحيانًا ، بقيادة الخليفة أو ممثّله ، كما في مصر أيام الفاطميّين ، وفي العراق أيام البُويهيّين .

كان يحدث أن تنظّم رعيّة الخليفة مسيرة أمام مقرّه ، كما في القاهرة أيام الفاطميّين . تنامت هذه العادة في عهد العثمانيّين . وفي بعض الأعياد في العاصمة اسطنبول وأمام مقصورة أمبراطوريّة تقام خصيصًا للمناسبة ، كان ممثّلو المجموعات الحرفيّة ينتظمون في عرض أمام السلطان تحيّةً له ، وقد مثّلهم بزّاتهم وشاراتهم الرسّامون في مجموعات خاصة من المنمنمات . كما جرت عروض للحرفيّين وطوائفهم في إيران أيام

الصفويّين، وفي المغرب أيام المَرينيّين.

الموالي، جمع اللفظة العربيّة «المولى» التي استُخدمت في بدايات تاريخ الإسلام، للدلالة على المسلمين غير العرب ممّن تمّ إلحاقهم بقبيلة عربيّة يدينون لها بالولاء، والذين قاموا بتحرّك في الشرق في القرن الهجري الأوّل.

يُعتبر غير العربي الذي اعتنق الإسلام والذي انضوى إلى مجموعة عربيّة، كما المولى المتحدّر من الرقّ بعد إعتاقه، عضوين في الجماعة الإسلاميّة: فلهما، من حيث المبدأ، الحقوق نفسها التي للمسلمين القدامى. لكنّ وضع الموالي الحقيقي كان في البداية مختلفًا، ما ولّد مشكلات في عهد الأمويّين حيث كانوا يُعتبرون رعايا من الدرجة الثانية، غير جديرين بتبوّء وظائف السلطة، من دينيّة ومدنيّة وعسكريّة، لكنّ عدد هؤلاء ازداد بسرعة، وقد سمح لهم بالاشتراك في الحملات العسكريّة: فالجيوش التي اجتاحت شبه الجزيرة الإيبريّة كانت، مثلا، مؤلّفة جزئيًا من البربر المهتدين حديثا الى الإسلام، لكنّ هؤلاء كانوا يتقاضون رواتب أدنى من رواتب العرب.

من جهة أخرى، فإن المزارعين المتحوّلين إلى الإسلام لم يُعفَوا، كما كان من المفروض أن يحصل، من الضرائب الباهظة على العقارات، التي كانت تُجبى على الأراضي المفتوحة، وكان الإستياء الناجم عن هذا الوضع كبيرًا في الولايات، خصوصًا الإيرانيّة منها. وإذا لم يكن في استطاعتنا التأكيد أنّ الإنتفاضة التي تزامنت في خراسان مع بداية «الثورة» العبّاسيّة، كانت أسبابها مطالب الموالي، فإنّ هذه الظاهرة أُضيفت الى عوامل أخرى وكانت تطال، في تلك الفترة، المسلمين الجدد المنتمين الى أوساط مختلفة، وتاليًا الى فئات مختلفة، وساهمت في مضاعفة الاضطرابات السياسيّة والإجتماعيّة.

بعدها، ورغم صعوبات المرحلة الأولى، فإنّ الموالي ذابوا تدريجيًا داخل المجتمع الإسلامي. فقد كان هناك قضاة غير عرب وحكّام غير عرب منذ عهد الخليفة الأموي عبد الملك، وهذه الحركة التي انطلقت على هذا الشكل نَمَتْ في عهد العبّاسيّين. فقد تكاثر عدد الموالي الى درجة أنّهم شكّلوا، منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، الجزء الأهمّ من شعب أمبراطوريّة لم يعد العرب ينعمون فيها بأيّ امتياز أو موقع خاص. ولم تستمرّ المشكلات السياسيّة الناجمة عن ردود فعل المنضمّين إلى الإسلام إلّا في الأندلس، حيث كان أبناء هذه الطبقة الإجتماعيّة يُعرفون باسم آخر هو المولّد، وجمعه المولّدون.

المَوْت، مفهوم مطروح في الإسلام على أساس عَقَديّ أثار القليل من الجدل عبر التاريخ.

لم يتمّ تحديد هذا المفهوم الناتج عن مشيئة الله بشكل واضح في القرآن الكريم الذي يعتبره امتدادًا للخلق. استُعمل مصطلحا النفس والروح مترادفين، بينما تقضي العقيدة السائدة بأن يترك الله للإنسان نفسه لدى وفاته وينزع عنه روحه، على أن تُعاد إليه في يوم القيامة. على هذا الأساس، جرى التقيّد، منذ قرون عديدة، بمختلف العادات المأتميّة الخاصة بالمجتمعات الإسلامية، مع استيعاب بعض التقاليد المحلّية السائدة هنا أو هناك. تخضع هذه العادات أحيانًا لتعليمات الفقهاء الدقيقة القاضية بغسل الجثمان ولفّه بالكفن، ومن ثمّ الصلاة عليه في المسجد وفقًا لطقوس محدّدة ودفنه في التراب، وجهه في اتّجاه مكّة، في قبر موجّه نحو القِبلة، على أن يستثنى الشهيد الساقط في المعركة من مرحلة الغسل. يتعارض التقيّد الشامل تقريبًا بهذه القواعد القليلة، مع التنوّع الكبير الذي شهدته العادات السائدة في ما يتعلق بإحياء ذكرى الميت: منها مظهر المقابر الخارجي ومضمون نقوش الشواهد، وبشكل خاص الهندسة المعماريّة المعتمدة في بناء الأضرحة.

من بين المعطيات العقائديّة المتعلّقة بالموت، أُفرد مكان خاص في نقاشات المدارس الفقهيّة لـ«عذاب القبر» الذي يذكره التقليد مستندًا إلى الآية ٢١ من سورة السّجدة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السّجدة، الآية ٢١]. ويُقال إنّ الملاكين مُنكَر ونكير يتولّيان إجراء هذا الاستجواب المصحوب بالتعذيب، فيجد على أثره الصالح في قبره مكان غبطة، أي نوعًا من الجنّة التمهيدية، بينما يستمرّ الهالك في عذابه إلى يوم القيامة. ولا يستثنى من هذه

المحنة سوى المجاهدين الشهداء بحسب ما تشير الآية القرآنية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران، الآية ١٦٩]. وواقع الأمر أنّ «عذاب القبر» الذي يحتلّ مكانًا مهمًّا في المعتقدات الشعبيّة شكّل موضوع تفاسير متنوّعة، بينما رفضه، بشكل قاطع، أتباع الخوارج والمعتزلة، إضافةً إلى بعض أتباع الشيعة المنشقّين المتطرّفين.

أمّا على الصعيد الفقهيّ فإنّ الموت العنيف، الناتج عن جريمة قتل، يُعاقب مُسبّبه بموجب أحكام محدّدة بدقّة، بينما خضعت عقوبة الإعدام في المجتمع الإسلامي لإجراءات تجيز لصاحب السلطة الشرعيّة اللجوء إليها بشكل واسع. يذكر الحديث النبوي الشريف أنّ دم المسلم لا يمكن إراقته إلّا في حال الردّة والزنى والقتل المتعمّد، ما يفسح في المجال لبعض التأويل. لكنّ الشريعة حدّدت الحالات التي يجوز فيها إصدار حكم الإعدام بحق مسلم وهي: - القتل المتعمّد، في حال عدم الموافقة على التعويض المالي المقدّم من قبل مقترف الجريمة؛ - الزنى المعاقب عليه بالموت بواسطة الرجم بالحجارة أو بواسطة السيف في بعض الحالات؛ - قطع الطرق والتمرّد؛ الارتداد من دون توبة؛ - وأحيانًا، التخلّي عن الصلاة الذي يُعتبر بمثابة ارتداد. واستُعمل اتّهام الارتداد في كافّة الحقبات لإدانة كل مسلم يقاوم رئيس الجماعة، مفسحًا هكذا المجال للحكّام في اللجوء، من دون أي إجراء آخر، إلى تنفيذ أحكام بالإعدام تبرّرها «مصلحة الدولة» التي كانت تتماهى في الأوساط الإسلاميّة وقضيّة الإسلام.

مُؤْتَة (المملكة الأردنيّة الهاشميّة)، بلدة قائمة على هضبة مؤاب، جنوبي الكرَك، استمدّت شهرتها من الحملة غير الموفّقة التي قادتها الفرق العربيّة - الإسلاميّة في أيام النبيّ محمد ﷺ في العام ٨هـ/ ٦٢٩م.

تذكر المصادر التاريخيّة العربيّة والبيزنطيّة أنّ نبيّ الإسلام (ﷺ) أرسل حوالى ثلاثة آلاف رجل لإخضاع العرب، من وثنيّين ومسيحيّين، المقيمين في المنطقة الواقعة جنوبي البحر الميت، ولكنّهم هُزموا على يد جيش قوي جمعه البيزنطيّون الموجودون في الحاميات المجاورة. قُتل ثلاثة من قادة القوات الإسلامية، بينما تمكّن رابعهم، خالد بن الوليد، من تنظيم انسحاب مَن بقي من رجال الحملة على قيد الحياة. وبالرغم من ذلك، لم تتوقّف الحركة التوسعيّة في هذا الإتّجاه، وتواصلت من خلال حملة تبوك، قبل أن تبلغ مرحلة الفتوحات الكبرى التي تلت وفاة النبيّ محمّد (ﷺ).

المؤتمر الإسلامي (منظمة -)، منظمة معاصرة للتعاون السياسي والتقني، أُسست في العام ١٩٧٢، وهي تضم حاليًّا ستًّا وأربعين دولة ذات أكثريّة سكانيّة إسلامية.

يندرج هذا التجمّع في سياق المحاولات المجهَضة التي هدفت إلى إعادة الخلافة بعد زوالها في العام ١٩٢٤، بعد أن ألغى مصطفى كمال الخلافة العثمانيّة في تركيا. وهو يضمّ دولًا أعضاء من قارات ثلاث.

الهيئة العليا في المنظمة هي مؤتمر رؤساء الدول الذي نادرًا ما ينعقد (عقد ثلاث اجتماعات بين ١٩٧٤ و١٩٨٧)؛ أمّا الهيئة التقريرية فهي مؤتمر وزراء الخارجيّة الذي يجتمع سنويًّا لدراسة الشؤون ذات المصلحة المشتركة التي تتّصل بـ«الأهداف المحدّدة في ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي». أما مركز الأمانة العامة فهو في جُدّة في المملكة العربيّة السعوديّة. ويضطلع الأمين العام الذي يختاره مؤتمر وزراء الخارجيّة بدور ديبلوماسي مهمّ.

الموحِّدون (٥٢٤-٦٦٨هـ/ ١١٣٠-١٢٦٩م): إسم سلالة مالكة أسّسها عبد المؤمن، بسطت سلطتها على المغرب والأندلس؛ وسعت إلى إصلاح ديني كما وضعه مؤسّس الحركة الذي هو من أصل بربري ويُعرف باسم ابن تومَرْت.

والهدف الذي نادت به الحركة هو الاحترام المطلق للتوحيد، وهذا ما جعل الأتباع يُعرفون باسم الموحّدين. أمّا الدولة التي نهضوا بها فقد وضع قواعدها المؤسّس الذي يكتنف حياته الغموض، والذي اتّخذ عبد المؤمن مساعدًا ووريثًا بعدما التقاه في بجاية. وقد أعدّ معه أسس العقيدة التي راح ينشرها بين البربر في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مراكش.

وتتمثّل العقيدة في التشدّد الأخلاقي، ونبذ التسامح في كثير من العادات التي يبدو أنّها انتشرت في

المغرب؛ وعلى الصعيد الديني، دانت العقيدة كلّ ما يتعلّق بالتجسيم والتشبيه، فرفضت خلع الصفات البشريّة على الله وتشبيهه بالإنسان، وشدّدت بقوّة على وحدانيّة الله؛ كما اشتملت الدعوة على إعلان قدوم مخلّص يملأ الأرض عدلًا، هو المهدي المجسَّد في ابن تومرت. وهذا الأخير كان يقيم منذ العام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، في أعالي جبال الأطلس، في تِنْمَل، وأدّى له يمين الولاء أتباع جمعهم من قبائل مصمودة. وقد شكّل الأتباع مجموعة العشرة تليها مجموعة الخمسين، وعلى الأتباع جميعًا كان المهديّ يمارس سلطة لا تُنازَع، باعتباره كاملًا ومعصومًا.

بعد أن تركّزت دولة الموحّدين على الأسس الدينيّة والسياسيّة، باشر المهدي جهاده ضدّ المرابطين الذين كانوا أسياد المناطق التي يطمع فيها، فبدأ، سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، بحصار مراكش الذي أدّى إلى مقتله. عندئذ تسلّم السلطة وريثه عبد المؤمن، واعترف العشرة ثمّ الخمسون بسلطته، وكان ذلك في حدود سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٣م. فاستطاع أن يجتاح المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، كما احتلّ الأجزاء من الأندلس التي كانت لا تزال في أيدي المسلمين. وفي الأندلس قضى على ثورة ابن مردنيش سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م. ثمّ جمع قوّاته قرب سلا، في مكان عُرف باسم «رباط الفتح»، وهو الذي بنيت فيه مدينة الرباط، لكنّه توفّي في السنة نفسها قبل أن يستطيع القيام بحملته. في عهد خليفتيه، أبي يعقوب يوسف وأبي يوسف يعقوب، استُكملت الفتوحات وثُبّتت، على الرغم من الوضع غير المستقرّ. وقد قام أبو يوسف يعقوب بالجهاد الكبير، فتصدّى للممالك المسيحيّة الإيبريّة وانتزع النصر في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م. لكنّ الملوك اللّاحقين لم يستطيعوا الحؤول دون تمزّق الأمبراطوريّة الأفريقيّة، ولم يتمكّنوا من مواجهة تقدّم الإسبان في حروب الاسترداد. والهزيمة التي مني بها الموحّدون في معركة العقاب، سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، أدّت إلى انكفائهم نحو المغرب. وقد سقطت دولة الموحّدين تحت ضربات أعدائهم الجدد، وهم المَرينيّون الذين استولوا على مراكش سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م.

يعود الفضل في تنظيم دولة الموحّدين التي استمرّت نحوًا من قرن إلى عبد المؤمن الذي شرع في التأسيس لسلالة حاكمة، إذ عيّن ولده وريثًا له بدعم من القادة العرب الذين كان قد استقدمهم لمساندة جيشه العامل في الأندلس، مخالفًا بذلك إرادة ابن تومرت.

إنّ عوامل الضعف وأسباب النزاعات التي لازمت الاجراءات التي اتّخذت في السنوات الأولى استمرّت في ما بعد. فكان كلٌّ من حكام المقاطعات مثلًا يخضع لرقابة مبعوث خاص. كانت هذه العوامل وراء انهيار الدولة السريع، على الرغم من الحرص الذي أبداه الملوك في تنظيم الضرائب وتطبيق العدالة وتسلّم مظالم الناس. وقد شادوا مجموعة أبنية دينيّة ومدنيّة تدل هندستها على مفهوم جديد لفن البناء الإسلامي في المغرب.

والإنجازات التي حقّقها الموحّدون أكسبتهم شهرة واسعة، وكان ذلك بفضل الغنى الذي تأمّن عن طريق النشاط التجاري لأمبراطوريّة كانت تؤدّي دورَ الوسيط بين أوروبا المتوسطيّة والقارة السوداء. وازدهار الأوضاع الاقتصاديّة ساهم في تنشيط الحركة الفكريّة، وقد أتاح الموحّدون البحث في القضايا الكلاميّة وشجّعوا البحث الفلسفي، وكرّموا المفكّرين من أمثال إبن طفيل وابن رشد، وهما من الأطباء البارزين، وغيرهم ممّن كانوا يجالسون أسيادهم في بلاط مرهف. أمّا المجتمعات المدنيّة فقد عمّها تدريجيًا مناخ آخر طابعُه صوفيةٌ شعبيّة كانت تضاف إلى المذهب المالكي الشرعي.

عبد المؤمن	٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٣٠-١١٦٣م
أبو يعقوب يوسف الأول	٥٥٨-٥٨٠هـ/ ١١٦٣-١١٨٤م
أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م
محمّد الناصر	٥٩٥-٦١١هـ/ ١١٩٩-١٢١٤م
أبو يعقوب يوسف الثاني المستنصر	٦١١-٦٢١هـ/ ١٢١٤-١٢٢٤م
عبد الواحد الأوّل المخلوع	٦٢١هـ/ ١٢٢٤م
أبو محمّد عبدالله العادل	٦٢١-٦٢٤هـ/ ١٢٢٤-١٢٢٧م
يحيى المعتصم	٦٢٤-٦٢٦هـ/ ١٢٢٧-١٢٢٩م
أبو العلاء إدريس المأمون	٦٢٦-٦٣٠هـ/ ١٢٢٩-١٢٣٢م
أبو محمّد عبد الواحد الثاني الرشيد	٦٣٠-٦٤٠هـ/ ١٢٣٢-١٢٤٢م
أبو الحسن علي السعيد المعتضد	٦٤٠-٦٤٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٤٨م
أبو حفص عمر المرتضى	٦٤٦-٦٦٥هـ/ ١٢٤٨-١٢٦٦م

أبو العلاء الواثق ٦٦٥-٦٦٨هـ/١٢٦٦-١٢٦٩م

◄ راجع المستندين ١٦ و١٩.

المَوْدودي (سيّد)، أو مولانا أبو الأعلى المودودي، ١٩٠٣ - ١٩٧٩، إصلاحي وفقيه أصولي لعب دورًا أساسيًا في سياسة باكستان. ولد في أورنك آباد في الدكّن من عائلة تقول إنّها تتحدّر من قطب الدين جشتي. كما تلقّى المودودي تربية تقليديّة ضمن المدرسة الفكريّة التي يقال لها «مدرسة ديوبند» (Deobend)، مبقيًا نفسه في منأى عن التأثيرات الغربيّة. لكن كان عليه أن يكسب عيشه، فعمل كصحافي بعد أن فقد والده وهو في السادسة عشرة من عمره. في العام ١٩٣٢ أصبح رئيس تحرير مجلّة «ترجمان القرآن» التي أتاحت له، طوال حياته، عرض أفكاره، وكان هدفه أن يُثبت للمثقّفين المسلمين أنّه ليس لهم أن يحوّلوا شيئًا في ثقافتهم، وإنّما عليهم تطبيق الشريعة بصرامة ضمن دولة تيوقراطيّة، ذلك أنّ الإسلام هو نظام ديني، سياسي، إجتماعي وأخلاقي كامل، ومتفوّق على كل ما يمكن أن يحمله الغرب.

قاده اقتراب استقلال الهند، في أربعينات القرن العشرين، إلى النضال من أجل إنشاء جماعة إسلامية، وليس دولة قوميّة تضمّ مسلمين. ومع ذلك فإنّه عمل، إبتداءً من العام ١٩٤٧، على تنظيم دولة باكستان الجديدة التي هاجر إليها، وهناك نادى بتبنّي دستور إسلامي ومبادئ اعتُرِف بها بالواقع في العام ١٩٥١، وأصبحت جزئيًّا في أساس الدستور الذي أُقرّ في العام ١٩٥٦. بعدها، لم يتوقّف المودودي عن معارضة الأنظمة التي حكمت باكستان، باستثناء حكم الجنرال ضياء الحقّ الذي بدا له أنّه الوحيد الذي يتلاءم مع نظام إجتماعي إسلامي حقيقي. توفي في العام ١٩٧٩، بعد أن دافع طوال حياته عن نظريّة سياسيّة تقوم على مواقف دينيّة متصلّبة.

مؤذّن ← أذان

الموره، جزء قاريّ من اليونان، عُرف بهذه التسمية منذ القرون الوسطى، وهو يشكّل شبه جزيرة البيلوبونيز التي خضعت، لأكثر من ثلاثة قرون، للسيادة الإسلاميّة بين ١٤٦٠ و١٨٢٨، في إطار أمبراطوريّة العثمانيّين التركيّة.

باستثناء بعض غارات القراصنة الآتين من إمارة كريت خلال الحروب البحريّة العربيّة - البيزنطيّة في مطلع عصور الإسلام، لم تبدأ هجمات المسلمين الجديّة على الموره إلّا خلال القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. وشاركت بعض الدول التركمانيّة في الأناضول الغربيّ في عهد الإمارات بهذه المعارك. وتوالت بعد ذلك الاجتياحات التي أدّت إلى فرض الجزية والتي قادها عثمانيّو بورصه وأدرنة باسم الجهاد، في عهود السلاطين مراد الأوّل، بايزيد الأول يلْدِرِم، محمد الأول ومراد الثاني. لكن لم يتحقّق نجاح دائم على البيزنطيّين والبنادقة الذين كانوا يحتلّون البلاد، إلّا بعد الإجتياح النهائي الذي قادته قوّات محمّد الثاني الفاتح في العام ١٤٦٠م، بعد فتح القسطنطينيّة.

تمّ عندئذ ضمّ الموره إلى باقي الأمبراطوريّة، فشكّلت سَنجقًا منفصلًا أداره مباشرةً الأتراك الذين استولوا على أهم الأراضي الزراعيّة. وتميّز السكّان الأصليّون - وأكثريّتهم من المسيحيّين الذين كانوا يتمتّعون ببعض الإمتيازات، منها عدم خضوعهم لضريبة الغلمان «الدوْشِرْمة» - بروح المعارضة، بينما أصبحت البلاد، في القرن السادس عشر، مسرحًا لصراعات جديدة بين البنادقة والعثمانيّين الذين انتصروا في النهاية. وبعد وقت وجيز، إثر تدخّلات أجنبيّة، أرغمت معاهدة كارلوفيتش العثمانيّين، في العام ١٦٨٩، على التخلّي عن الموره لمصلحة البندقيّة التي لم يدم احتلالها لها إلّا فترة قصيرة. وأدّت معاهدة باساروفيتش إلى عودة الموره، مرة أخرى، إلى أسيادها الأتراك الذين احتفظوا بها من جديد لقرنٍ تقريبًا. وفي العام ١٨٢٦ اندلعت حرب الاستقلال التي شهدت تدخّلًا غير مثمر لإبراهيم باشا الذي قدم من مصر، بأمر من الباب العالي، لقمع الثورة؛ لكنّ الحرب انتهت بإخلاء المورة كليًّا من قِبَل العثمانيّين إثر الهزيمة البحريّة التي حلّت بالقوّات التركيّة - المصريّة في نافارين في العام ١٨٢٧.

◄ راجع المستندين رقم ٢٦ و٢٧

المُورُوي، تسمية مشتقّة، في اللغة الفرنسيّة القديمة، من لفظة كانت تعني في العصر الروماني شعب البربر

في أفريقيا الشمالية («مُوري» (Mauroi) في اليونانية، (Mauri) «موري» في اللاتينية) والتي أصبحت في الإسبانية «مورو» للدلالة على المسلمين العرب والمستعربين.

ومن «مورو» جاءت لاحقًا تسمية «موريسكوس» أو «الموريسكيّون» التي اقتصرت على المسلمين الذين ظلّوا في إسبانيا بعد أن استعادها المسيحيّون. من جهته، كان اللفظ الفرنسي «مور» (Maures) يُستخدم عادةً للدلالة على المسلمين بشكل عام؛ لكنّه كان يدلّ أيضًا، بشكل أخصّ، على الذين استقرّوا منهم موقتًا، في القرون الوسطى، في جنوب فرنسا - وظلّ إسمهم يُطلق على السلسلة الجبليّة «المور» (les Maures) - وعلى الذين كانوا يسكنون مدن المغرب في مراحل لاحقة حيث تكثّفت الإتّصالات من جهتيّ البحر الأبيض المتوسط. من هذا المعنى تتحدّر تسميات مثل «حمّام مور» أو «مقهى مور». وفي السياق نفسه اشتقّت صفة «موريسك» الدالّة تحديدًا على الفن والعمارة في المغرب الإسلامي مع دلالات أدبيّة في الغالب.

في المرحلة المعاصرة، ينتمي إلى تسمية «الموروي»، بمعنى مختلف، البدو الرحّل القدامى في الصحراء الغربيّة الذين أسّسوا دولة مستقلّة هي «موريتانيا» الحاليّة. هناك أصبح هؤلاء البربر، الممتزجون مع عرب والناطقون بلهجة عربيّة، أكثريّة، وهم يشملون الفئة الخاصة من السود القدامى والخلاسيين الذين يعتبرون أنفسهم أيضًا من الموروي.

موريتانيا (جمهوريّة موريتانيا الإسلاميّة)، المساحة: مليون كلم[2]؛ العاصمة: نواكشوط. دولة مستقلّة معاصرة يتشكّل شعبها البالغ عدده حوالى المليوني نسمة بكامله تقريبا من المسلمين.

تقع المساحة الصحراويّة الواسعة لهذه البلاد، على خط تماس المغرب العربي - الذي تنتمي إليه - وأفريقيا الساحليّة حيث تقع مباشرة على تخوم جمهوريات مالي والسنغال، ولها، في الوقت نفسه، شواطئ طويلة على المحيط الأطلسي. وهي تمتدّ نحوَ الشمال حتّى حدودها المشتركة مع المناطق الصحراويّة في المملكة المغربيّة والجمهورية الجزائريّة الديمقراطيّة الشعبيّة. هذه البلاد، ضمن الحدود المذكورة، أخذت اسمها من أكثريّة سكّانها الذين أرادوا، باعتمادهم تسمية «المور»، أن يتميّزوا عن البدو الرحّل، من الأصول نفسها، الذين يعيشون في الأجزاء الصحراويّة من الجزائر والمغرب. هؤلاء «المور» المتحدّرون من قبائل بربريّة اختلطت بها مجموعات صغيرة من العرب، أفسحوا في المجال لسوق من الحضر، أصبحوا مسلمين بعمق، للإندماج في مجتمعهم، وكان هؤلاء يزرعون الواحات ولهم وضعيّة العبيد، وهي وضعيّة أُلغيت رسميًّا رغم أنّها ما تزال موجودة حاليًّا في بعض مظاهر التنظيم الإجتماعي. يعود اعتناق سكّان موريتانيا الإسلام إلى عهد المرابطين وإلى انطلاقتهم، في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وقد عرفت البلاد لاحقًا، وخصوصًا إبتداء من القرن الثامن عشر، نشوء طرائق صوفيّة متنوّعة مارست نفوذًا كبيرًا على الحياة الدينيّة. وينتمي حاليًّا كلّ الموريتانيين تقريبًا إلى طريقة صوفيّة.

حصلت جمهوريّة موريتانيا، التي تغطي أرضًا كانت جزءًا من أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة إبتداء من العالم ١٩٠٣، على استقلالها في العام ١٩٦٠، وأقرّت في العام ١٩٦١ دستورًا ونظامًا رئاسيًّا. وقد احتفظ أوّل رئيس منتخب لها، مختار ولد دادا، بمنصبه حتّى العام ١٩٧٨، حين استُبدلت بحكومته اللجنة العسكريّة للإنقاذ الوطني. ثمّ تولى السلطة، إبتداءً من العام ١٩٨٤، رئيس جديد أقرّ في العام ١٩٨٥ ميثاقًا دستوريًا يؤكد أنّ الإسلام هو دين الدولة والشعب، وأنّ الشريعة هي المصدر الوحيد للتشريع. بعد فترة وجيزة، وإثر صدامات دامية أدّت إلى تبادل سكّاني مع السنغال، تمّ، في العام ١٩٩١، اعتُمد دستور جديد ديمقراطي ونظام حكم مدني، تميّز بقيام انتخابات رئاسية.

موريس (جمهورية)، مساحتها: ٢٠٠٠ كلم[2]؛ عاصمتها بور لويس، دولة مستقلّة تقوم على جزيرة، جنوبي المحيط الهندي، حيث يضمّ سكّانها البالغ عددهم حوالى المليون نسمة، أقلية مسلمة من حوالى ١٥٪.

هذه الأرض الواقعة شرق مدغشقر، وليست بعيدة عن جزيرة «الريونيون»، كانت تحتلّها في الماضي فرنسا. وبعد أن أصبحت محميّة بريطانيّة في العام

١٨١٤، شهدت في القرن التاسع عشر هجرة قويّة من الهند أثّرت في تطوّرها الإجتماعي والسياسي؛ ثمّ حصلت على استقلالها في العام ١٩٦٨، مع البقاء ضمن منظومة الكومنولث البريطانيّة. وينتمي المسلمون القليلو العدد، ولكنّهم ناشطون، إلى مجموعات متنوّعة يتمثّل فيها خصوصًا السنّة والإسماعيليّون.

الموريسكيّون (Morisques)، في الإسبانيّة (Moriscos)، إسم أُطلق في شبه الجزيرة الإيبريّة على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد استرجاعها على أيدي المسيحيّين.

تجمّع هؤلاء المسلمون أوّلًا في الأراغون، وفي منطقة بَلَنْسية، كما تواجدوا في أراضي مملكة آل نصر القديمة في غرناطة، بعد أن استعادها الملوك الكاثوليك في كانون الثاني ١٤٩٢. وكانوا يتمتّعون مبدئيًا بوضع مشابه لوضع المسيحيّين في الأراضي الإسلاميّة وتعرّضوا لضغوط هادفة لتحويلهم إلى الدين المسيحي، ما أدّى إلى اندلاع عدد من حركات التمرّد. ولمّا دُعوا، منذ العام ١٥٠١، للتحوّل إلى المسيحيّة أو مغادرة البلاد، لجأ كثيرون منهم إلى الجبال المجاورة لغرناطة، لكن من دون اعتناق الدين المسيحي. تعرّضوا لإجراءات كيديّة عديدة بين العامين ١٥٢٦ و١٥٦٦ أدّت إلى قيام انتفاضة جديدة في الأندلس استغرق قمعها وقتًا طويلًا.

أخيرًا أصدر فيليب الثالث، في العام ١٦٠٩، مرسومًا قضى بطرد الموريسكيّين من إسبانيا، فتوجّهوا إلى مناطق متعدّدة من المغرب: - إلى المغرب الأقصى، ولا سيّما إلى سلا والرّباط وكذلك إلى فاس وتطوان؛ - إلى المغرب الأوسط أو ما عُرف في ما بعد بالجزائر، الى تلمسان، ووَهْران ومدينة الجزائر؛ - وحتّى إلى إفريقية القديمة أو تونس. وكان بعضهم بحّارة يمارسون الغزوات والقرصنة، بينما تمّ تطويع البعض الآخر في جيوش مختلف الملوك، لا سيّما في جيش السعديّين في مراكش. كما ضمّت صفوفهم أيضًا علماء وحرفيّين نقلوا إلى أماكن إقامتهم الجديدة بعض المعلومات الدقيقة الفكريّة أو الفنّيّة التي تميّزت بها حضارة الأندلس منذ قرون.

الموزمبيق (جمهوريّة)، مساحتها: ٧٨٣ ٠٠٠ كلم²، عاصمتها: مابوتو، دولة مستقلّة معاصرة، تقع على الساحل الشرقي لأفريقيا السوداء، إلى الجنوب من خط الإستواء. يقدّر عدد المسلمين فيها بنسبة تفوق أربعة عشر بالمائة من مجموع سكّانها البالغ عددهم حوالى خمسة عشر مليونًا.

تمتدّ أراضي هذه الدولة التي خلفت مستعمرة برتغاليّة سابقة كانت تحمل الإسم نفسه، على طول ساحل المحيط الهندي، لها شمالًا حدود مشتركة مع جمهوريّة تنزانيا المتّحدة الأكثر تأثّرًا بالحضارة الإسلاميّة؛ كما تحدّها، من الشمال الغربيّ، جمهوريّة مالاوي التي تضمّ نسبة مماثلة من المسلمين. ويعكس وجود المسلمين فيها حاليًّا نتائج الأنشطة التجاريّة القديمة التي تطوّرت منذ القرون الوسطى في أفريقيا الشرقيّة والتي بلغت، بلا شك، ذروتها خلال القرن التاسع عشر، بالرغم من وجود مراكز تجاريّة عربيّة على هذه الواجهة البحريّة منذ زمن بعيد جدًا. وفي هذه المواقع ما تزال تقيم أكثريّة من المسلمين المنتشرين كذلك في المناطق الداخليّة، على طرق القوافل التي كانت تسلكها في ما مضى تجارة الرقيق.

موسى، بعبارة أدقّ، **موسى بن عمران**، الملقّب بـ«كليم الله». شخصية توراتية ذُكر مرارًا في القرآن الكريم على أنّه نبيّ لله ورسوله الممهّد للنبيّ محمد ﷺ.

تاريخ موسى، كما ورد في القرآن في آيات عديدة، يتوافق جزئيًّا مع الرواية التوراتيّة، لكن مع إضافة عناصر مقتبسة من السيرة اليهوديّة. ويصرّ القرآن على الوحي المنزل على موسى، كما يصرّ على حادثة عصا موسى التي ابتلعت عصيّ سحرة فرعون، وعلى معجزاته التسع، وعلى الدغل المتّقد، وعلى لوحَي الوصايا اللذين أحضرهما، وأخيرًا على رواية العجل الذهبيّ. وتتضمّن الروايات التي تلت القرآن عناصر غير توراتيّة، كما تُدخل بعض التعديل على أجزاء من الروايات السابقة، ولا سيّما تلك المتعلّقة بعصا موسى ذات المفاعيل العجائبيّة الخارقة.

تتوافق، على كلّ حال، العناصر القرآنية والتقاليد اللاحقة لتثبيت المقامات العديدة المخصّصة لموسى التي هي مواضع زيارات تقويّة؛ وقد تزامن رواجها مع

انتشار عادة «تكريم الأولياء» في أوساط الطبقات الشعبيّة الإسلاميّة. وهيَ كناية، وفقًا لمعلومات من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، أتى على ذكرها «دليل» الهَرَوي، عن زيارات نافلة شاعت بعد تحديد مواقع أهمّ الأحداث التذكاريّة العائدة إلى اليهوديّة المسيحيّة، كتحديد موقع الدغل المتقد في سيناء مثلاً، أو بلاد شعيب في مَدْيَن، أو ضريح موسى في المكان المسمّى وادي موسى على الطريق المؤدّية من أريحا إلى القدس والذي ما يزال يتمتّع في أيامنا هذه بالشهرة نفسها. أمّا المواقع التذكاريّة الأخرى الواقعة في مصر وفي سوريا، وصولاً إلى جوار طبريّة بالقرب من «أرض الميعاد» التي قصدها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر بقيادة النبي موسى، فيبدو أنّها تنتمي إلى إطار أدبي إسلامي مرتبط، إمّا بمراحل طفولة موسى وبنزاعه مع «الفرعون»، وإمّا بالمرحلة التي شهدته قائدًا ومشرّعًا تاركًا آثار قدميه أو عصاه على الصخور. كما تمسَّك الصوفيّون أيضًا بصورة موسى المؤتمَن على الشريعة الإلهيّة المنزلة في زمانه رغبة منهم بإثبات إمكان اتّصال الانسان بالله.

موسى بن نُصَير، ١٩-٩٨هـ/ ٦٤٠ - ٧١٧م. قائد الجيوش الإسلاميّة التي نجحت في فتح شبه الجزيرة الإيبيريّة في عهد الأمويّين، وفي إنشاء إقليم الأندلس الإسلامي الجديد.

ولد في العام ١٩هـ/ ٦٤٠م، من أب مسيحي اعتنق الإسلام وخدم معاوية، ودخل موسى بدوره في خدمة الخليفة عبد الملك الذي كلّفه جباية الخراج في منطقة البصرة. وُجّهت إليه تهمة الاختلاس، فالتجأ إلى مصر حيث حصل من حاكم هذه الولاية وشقيق الخليفة على منصب حاكم إفريقية. ومن موقعه هذا، إنطلق موسى لاجتياح القسم الغربي من المغرب حيث أخضع البربر الذين اعتنقوا الإسلام، ثمّ عاد إلى إفريقية بعد أن كلّف مساعده طارق بالسهر على الوضع.

أقدم عندئذٍ طارق على إنزال جيوشه في إسبانيا، فأثار غيرة موسى الذي اجتاز بدوره المضيق على رأس جيش مؤلّف من عشرة آلاف رجل معظمهم من العرب. اجتاح أراضي القوط إنطلاقًا من الجزيرة الخضراء، سالكًا طريقًا مختلفة عن طريق طارق أوصلته إلى إشبيلية وماردة. تلاقى القائدان بالقرب من طُليطلة وتابعا معًا إخضاع البلاد إلى أن بلغا سرقسطة ونافار. ترك موسى في العام ٩٥هـ/ ٧١٤م الأندلس في عهدة إبنه عبد العزيز وعاد أوّلًا إلى القيروان حيث أحضر غنيمة هائلة وعددًا كبيرًا من الأسرى. أبدى حذره تجاه الخليفة الوليد الأوّل بن عبد الملك الذي كان يحثّه على العودة إلى دمشق، فماطل ولم يعد إلى سوريا إلّا قُبَيل وفاة الخليفة الذي خلفه سليمان. استُقبل استقبالًا سيّئًا وتوفي في العام ٩٨هـ/ ٧١٧م، بعد أن فقد الحظوة بسبب نجاحاته، وفقًا لمصادر تاريخيّة غير موثوق بها.

موسى الكاظم، الملقّب أيضًا بالعبد الصالح، ١٢٨-١٨٣هـ/ ٧٤٥-٧٩٩م. هو إبن جعفر الصادق وسابع إمام علويّ في سلسلة الإماميّة الاثنتي عشريّة، ورث إمامةً كانت موضوع خلاف، وتمتّع بسمعة متميّزة بالقداسة طيلة فترة إمامته التي دامت ثلاثة وثلاثين عامًا.

في العام ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، لدى وفاة والده الإمام جعفر، رفض أنصار شقيقه إسماعيل وعائلته، المتشعّبون بدورهم إلى نزعات عدّة ساهمت في نشوء الإسماعيليّة، مَنْحَه لقب إمام. وكان آخرون من أتباع الشيعة ينصرون إثنين من أشقّاء موسى الآخرين، إلّا أنّ كليهما لم يكن لديهما إلمام بالشأن الفقهي بقدر إلمامه به. وفي الواقع، كان موسى المقيم في المدينة يكرّس نفسه للعلوم الدينيّة وللتقوى. ولذلك أراد اثنان من الخلفاء العبّاسيّين التأكّد من ولائه، فأحضراه الى بغداد: المهدي أوّلًا، ثمّ هارون الرشيد الذي لم يتردّد في سجنه وقتله.

أثارت وفاة الإمام في السجن إنقسامات جديدة، ولا سيّما بين أولئك الذين كانوا يعتقدونه حيًّا وأولئك الذين كانوا ينتظرون عودته مهديًّا، وأدّت إلى نشوء طوائف واجهها أنصاره الذين انضمّوا بمعظمهم إلى ابنه الحديث السن، عليّ الرضا. وأصبح قبره في بغداد في مدفن قريش، حيث دُفن في ما بعد إلى جانبه حفيده محمّد الجواد، موضع زيارات تقويّة منذ وقت مبكر، وأُقيم في موقعه ضريح عُرف «بضريح الكاظمَيْن» الذي أعطى إسمه إلى إحدى ضواحي العاصمة وهي الكاظميّة.

الموسيقى، شكل من أشكال الفنّ المحظور مبدئيًّا في المجتمع الإسلامي الذي لم يتقيّد قطّ كليًّا بهذا الحظر، بل عرف، بالعكس، قيام مدارس موسيقيّة عدّة.

أدان بعض العلماء مزاولة الموسيقى وشجبوها بقدر ما شجبوا تعاطي الخمرة وغيرها من المشروبات الروحيّة، إذ إنّ جلسات تعاطي الخمرة غالبًا ما كانت تُردف بحفلات موسيقيّة تعتمد على آلات مختلفة ويتخلّلها أداء المطربين، ولا سيّما المطربات اللواتي يَرْغَبْن في غناء الشعر غير التقويّ، بقدر براعتهنّ في مزاولة فنّ الرقص. لكنّ هذا لم يمنع رواج الموسيقى الترفيهيّة في القصور الملكيّة وفي الحفلات الأرستقراطيّة طيلة القرون الوسطى. وقد وردت، منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، معلومات عديدة متعلّقة بممارسة الموسيقى وأدائها في كتاب وضعه أبو الفرج الأصفهاني باسم «كتاب الأغاني» المتميّز بتوجيهاته الاجتماعيّة والأدبيّة. كما ذكرت مصنّفات الوقائع التاريخيّة أسماء موسيقيّين ومطربين اشتهروا في عهد العبّاسيّين، ومن بينهم إبراهيم المَوْصلي وابنه اسحق، وزِرْياب الشهير الذي كان يُشرف على اللياقة والأناقة في بلاط الأمويّين في قرطبة. وعرفت الجاريات المغنيات رواجًا استثنائيًّا. لكنّ الدور الديني الذي أدّته الموسيقى، على الأقلّ منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، بمرافقة الجلسات التي كان يسعى خلالها المتصوّفون إلى الوجد، اكتسب أهمية أكبر في ما بعد.

شهدت إذًا الموسيقى في العالم الإسلامي تقديرًا متفاوتًا طيلة القرون الوسطى، ولاقت علومها النظريّة المقتبسة عن الإغريق، خارج الأوساط المتشدّدة، رواجًا متقلّبًا، وقد اهتمّ بها، بنوع خاص، بعض الكتّاب الملمّين بالفلسفة مثل الكِندي والفارابي اللذين خلّفا بحوثًا موسيقيّة متقنة للغاية. وبشكل عام، بلغت الموسيقى الشرقيّة القروسطيّة، المتحدّرة من الموسيقى القديمة، بفضل بعض الفنّانين المتمتّعين برعاية الطبقات الحاكمة والأثرياء، درجات عالية في إتقان التقنيّات الصوتيّة والآلات الموسيقيّة. وما زالت طرقها متّبعة، حتّى يومنا هذا، في مختلف الدول الإسلاميّة حيث اختلطت بالتقاليد المحليّة.

الموصل (الجمهوريّة العراقيّة)، مدينة في بلاد ما بين النهرين العليا، ما تزال تشكّل مع إربيل واحدة من أهمّ المدن في المنطقة، لكنّها عرفت في القرون الوسطى، أهميّة إقتصاديّة واستراتيجيّة أكثر اتّساعًا.

تقع الموصل على ضفة دجلة الغربيّة، مقابل نينوى القديمة، وهي حاضرة ديار ربيعة، وكانت قد خلفت مدينة محصّنة سابقة بعد احتلالها في العام ٢٠هـ/٦٤١م من قبل جيوش الفتوحات الكبرى العربيّة - الإسلاميّة. جُهّزت بجسر قائم على سفن، في عهد الأمويّين، تسهيلًا للنشاط التجاري وأصبحت، في عهد آخر الخلفاء الأمويّين مروان الثاني، مركز إقليم الجزيرة أو بلاد ما بين النهرين العليا. وشهدت، في عهد العباسيّين، اضطرابات ناتجة عن تغلغل الخوارج بين سكّانها؛ وفي العام ٢٩٣هـ/٩٠٦م، تولّى الحمْداني أبو الهيجاء حكمها الذي بقي بين أيدي أُسرته حتى العام ٣٥٩هـ/٩٦٩م.

بعد أحداث متعدّدة، أصبحت هذه المدينة - التي عرفت، منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، استيطانًا كُرديًّا - في العام ٥٢١هـ/١١٢٧م، عاصمة الزنكيّين، وهم سلالة من الأتابكة التي اشتهرت، بعد عهد عماد الدين زنكي، من خلال خلفائه من سلالة ولده سيف الدين. وشُيّد فيها عندئذٍ مسجد جامع، وهو غير مسجد مروان الثاني. لكنّ المدينة اضطرّت، في العام ٥٨١هـ/١١٨٥م، الى الخضوع لصلاح الدين. إبتداءً من العام ٦٠٧هـ/١٢١١م، استولى عليها بدر الدين لؤلؤ، وهو عبد سابق وضابط في جيش الزنكيّين، وأمّن استقلالها في العام ٦٣١هـ/١٢٣٤م حتّى وفاته في العام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، بعد ان تمكّن في غضون ذلك من إقناع الغزاة المغول بالمحافظة على المدينة. غير أنّها نُهبت في العام ٦٥٧هـ/١٢٦١م، بسبب سياسة ابن لؤلؤ، بعد أن كانت عرفت، حتّى ذلك التاريخ، ازدهارًا تجلّى في إنجازاتها الحرفيّة، ولا سيّما المعدنيّة والنسيجية منها، وفي تألّق هندستها المعماريّة القائمة على الآجر. وقد أشاد الجغرافيّون والرحّالة العرب في القرون الوسطى بأسواقها المسقوفة وأبنيتها المتنوّعة القائمة داخل سور نصف دائريّ، وقلعتها الضخمة التي تحوّلت

إلى قصر مُعَدّ للسكن. كما أُعجبوا بضواحيها الخصبة وبحدائقها المرويّة بواسطة نواعير، ما يؤكّد أنّها كانت تتحكّم بتقنيات المياه.

لم تلبث السلالات والأمبراطوريّات المختلفة التي عرفها المشرق الإسلامي ولا سيّما الجلائريّين والآق قيونلو والصفويّين والعثمانيّين - أن تنازعت الموصل. واستمرّت المدينة منذ ذلك الوقت في التقهقر إثر الغزوات الأجنبيّة المتعاقبة والنزاعات الداخليّة الناشئة عن تباين سكّانها عرقيًّا ودينيًّا، بينما كانت تفقد أنشطتها التجاريّة. أخيرًا، وبعد الحرب العالميّة الأولى، أُلحقت مقاطعتها - التي كانت ما تزال تضمّ أقلّيات مسيحيّة - بالمملكة العراقيّة تحت الانتداب البريطاني، وفقدت مذّاك إمتيازات موقعها الذي كان يشكّل نقطة انطلاق لرحلات القوافل المتوجّهة إلى الأناضول. وباتت مركزًا إداريًّا لا يحتضن سوى بقايا بعض الأضرحة وبقايا المسجد الجامع ومزارات شيعيّة، إضافة إلى بقايا قصرها الذي حوّله فيضان نهر دجلة إلى خراب. كما عُرف فيها قبر النبيّ جرجس، وعلى ضفة النهر الأخرى شواهد تذكاريّة للنبيّ يونس، ولا سيّما مشهده، وكانت خلال القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، مقصد زيارات تقويّة أتى على ذكرها الهروي في دليله.

◄ راجع المستندات رقم ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ٢٠ و٢٤.

مولاي إدريس (المملكة المغربيّة)، مدينة جبليّة صغيرة تحتلّ موقعًا مرتفعًا على منحدر جبل زَرْهُون، تعود شهرتها إلى المزار الذي يضمّ قبر إدريس الأوّل مؤسّس سلالة الأدارسة.

كانت البلدة القروسطيّة التي نشأت حول هذا الضريح تقع بالقرب من مدينة فولوبيليس الرومانيّة المعروفة بالعربيّة باسم وَليلَى التي بقيت قائمة بعد الفتح العربي - الإسلامي لفترة أطول ممّا يُذكر عادة. لم ينشأ تجمّع سكني حقيقي في مولاي إدريس إلّا في وقت متأخّر، كما لم يأتِ الكتّاب على ذكرها إلّا بحلول القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. وقد استُبدل، في القرن الثامن عشر، بالضريح المعروف آنذاك، بناءٌ أمر به الملك مولاي إسماعيل وما يزال قائمًا حاليًّا. وأصبحت عندئذ زاوية مولاي إدريس الجديدة مقصد زيارات تقويّة مستمرّة، بينما تكوّنت حول المكان بقعة مقدّسة ازدادت أهميتها تدريجيًّا، فباتت تشكّل ملاذًا وحرمًا.

مولاي إسماعيل بن الشريف، ١٦٤٦ - ١٧٢٧، ثاني ملك في سلالة العلويّين، حكم كل المغرب من ١٦٧٢ الى ١٧٢٧، وتميّز بصلابة سياسية وبنشاطه في البناء.

هو شقيق السلطان مولاي الرشيد. غادر تافيلالت ليستعيد سُلطة شريفيّة تخلّى عنها آخر السعديّين، وكان حاكمًا على مكناس عند وفاة الرشيد. وبعد أن أُعلِنَ سلطانًا في هذه المدينة، صادف في البداية بعض المتاعب للقضاء على منافسيه، ومن بينهم شقيقه وابن شقيقه، فاضطُرَّ للاعتراف بهما حاكمَيْن على الأطلس وتافيلالت، وكان عليه أن يقمع تمردًا في منطقة مراكش. لكنّه اتّخذ لاحقًا كل الوسائل التي فرضت احترام سلطته في كل مكان. أوّل همومه كان الدفاع عن المغرب ضدّ العثمانيّين المتمركزين في الجزائر، وكذلك ضدّ الأوروبيّين الذي يهدّدون الساحل الأطلسي. ولكي يتمكّن من ذلك، عمد إلى تنظيم جيش جديد، وجنّد عددًا من العبيد السود الذين انشأ منهم الحرس المعروف باسم «عبيد البخاري» - وسبب هذه التسمية أنّه كان عليهم أن يُقسموا اليمين على نسخة من كتاب البخاري - واختار بعضًا منهم لينظّموا مجموعة «المتطوّعين» الذين كانوا يجاهدون ضد البرتغاليّين والإسبان. هكذا أُرغم هؤلاء على الجلاء عن طنجة، والعرائش وأصيلا، في حين أنّه كان يقيم علاقات جيدة بالفرنسيين الذين طلب منهم تزويده ببعض المنتجات التجاريّة أو الإشراف على مختلف أشغال البناء، من طرقات ومبانٍ من كل نوع.

ودائمًا، تحت هاجس التنظيم العسكري، شيّد مولاي اسماعيل في مختلف النقاط الحسّاسة من البلاد، قلاعًا، عُرف كلٌّ منها باسم «قَصَبَة»، أقام فيها حاميات من «العبيد» بهدف احتواء، ليس مطامع الأعداء الخارجيّين وحسب، مثل باي الجزائر، ولكن ايضًا حركات التمرّد التي قد تقوم بها بعض القبائل. وكان أيضًا رجل علم وبناء، أقام المدينة الملكيّة الخاصة في مكناس، ولجأ، لتمويل هذه الأعمال المختلفة، إلى

وسائل غير مشروعة أحيانًا. هذه الأنشطة التي قام بها ملك داهية وقاسٍ، ولكنّه ماهر أيضًا، سمحت له بأن يحافظ على السلام في القسم الأكبر من مملكته، حيث قوّى «المخزن» وفرض نظام رعب لم تُعرف نهايته إلّا بعد أن توفي عن ثمانين سنة، بعد حكم طويل استمرّ خمسًا وخمسين سنة.

المولى، لفظة عربيّة يمكن أن تعني «معلّم، سيد» - ومنها اشتُقت تسميات «مولانا» أو «مولاي»، وكذلك الاشتقاق الفارسي «مُلّا» أو الفرنسي «مولّا» (molla)؛ في حين أنّ معناها الآخر «العبد، الخادم، النصير» جعلها تدل، في صيغة الجمع، على طبقة اجتماعية هي «الموالي».

«مولى»، بمعنى «المعلّم» أو «السيّد» تنطبق على الله في القرآن الكريم حيث نجد، مثلا، صيغة «أنت مولانا» في سورة البقرة، الآية ٢٨٦؛ وتظهر أيضا في سور أخرى، بمعنى «حليف»، «صديق» أو «محميّ». أمّا الاستخدام الغالب للفظة فهو بمعنى «السيّد»، كما تُستخدم خصوصًا في «الحديث»، وهذا يُفسّر أنّها كانت تُطلَق على الملوك أو على شخصيات مبجّلين، وذلك تحت أشكال اختلفت بعض الشيء، كما اختلف الرواج الذي لقيته، تبعًا للمناطق ولعصور الإسلام. هكذا انتشرت كلمتان مُرَكّبتان بالحاق «الضمير» بهما، في مناطق جغرافية مختلفة، وهما «مولاي» أي «سيّدي» و«مولانا»، أي «سيّدنا».

الأولى، «مولاي»، أصبحت في المغرب والأندلس لقبًا مشرّفًا استُخدم، إبتداءً من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، للدلالة على أولياء أصبحت ذكراهم أسطورة، مثل إدريس الأوّل الذي كان ضريحه في أساس ولادة محلّة «مولاي إدريس» قرب فاس؛ أُطلقت أيضًا لفظة مولاي، بشكل عام، صفةً لأفراد مختلف السلالات، للنصريّين في غرناطة، للحفصيّين في تونس، ولا سيّما للسلاطين الأشراف في المغرب، وللسعديّين والعلويّين الذين جعلوا من كلمة «مولاي» صفة ظلّت لفترة طويلة ملازمة لاسمائهم.

الثانية، «مولانا»، ربّما لعبت في وقت مبكر، أكثر من الأولى، الدور التشريفي نفسه بالنسبة إلى أسماء رجال الدين والأتقياء في العالم التركي - الإيراني وفي شبه القارّة الهنديّة، وبشكل أخص بالنسبة إلى المتصوّفين الذين أصبحوا مشهورين بفضل مزاياهم الشخصيّة أو بفضل الدور الذي أدّوه في تأسيس المدارس أو الطرائق الصوفيّة؛ ووصلت الأمور الى أن صارت كلمة «مولانا» جزءًا من الأسماء التي يُعرف بها بعضهم اليوم.

المُوَلَّد، جمعه مُوَلَّدون، مصطلح عربي استُخدم في القرون الوسطى في شبه الجزيرة الإيبريّة، واستعمله أيضًا المؤرّخون الغربيّون في العصر الحديث للإشارة إلى السكّان الأصليّين في المناطق المتحوّلة إلى الإسلام إثر الفتوحات الكبرى.

غالبًا ما توصّل أفراد هذه الفئة المهمّة من السكان - الذين شكّلوا، منذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، جماعات متماسكة - إلى المطالبة بنوع من الاستقلاليّة، أو حتّى إلى التمرّد صراحةً على السلطة الإسلاميّة. ومن أشهر هذه الحركات كانت ثورة إبن حفصون الذي لم يتردّد، بعد أن حقّق بعض الإنتصارات على السلطة المركزيّة، في العودة إلى الدين المسيحي. وكانت هذه الاضطرابات التي هزّت المجتمع الإسلامي القروسطي في الأندلس شبيهة بتلك التي شهدتها الأقاليم الشرقيّة، لكن بشكل مختلف نوعًا ما، خلال محاولات تحرّر معتنقي الإسلام الجدد الذين أُطلق عليهم في هذه المناطق تسمية «الموالي». وفي الواقع، تكرّرت مشكلات هؤلاء الموالي - التي طالما أثّرت على تاريخ الخلافة في العصرين الأموي والعبّاسي - لكن بشكل مختلف، في أقاليم المغرب الإسلامي.

مولدافيا، بُغدان إلي أو بُغدان بالتركيّة، مقاطعة شرقيّ جبال الكاربات، تُشرف على البحر الأسود، شهدت، إبتداء من نهاية القرون الوسطى، ما يقارب خمسة قرون من الهيمنة الإسلامية في اطار الأمبراطوريّة العثمانيّة.

فرض العثمانيّون سيطرتهم غير المحكمة في بادئ الأمر، وذلك في العام ١٤٥٥، بعد هجمات عدّة سابقة على مقاطعة كانت في الوقت نفسه عرضة لمطامع خانات القبيلة الذهبيّة الإسلاميّة وخانات كراي في بلاد

القرم، لكنّها كانت، نظرًا إلى علاقاتها الاقتصادية، مهيّأة للالتحاق باسطنبول. وكان من شأن السيطرة التي مارسها السلاطين العثمانيّون بشكل غير مباشر على أمير تابع لهم، ولكنّه يتمتّع باستقلال ذاتي، يسدّد ضريبته في مقابل الحماية الممنوحة له، أن أُعطي تجّار المنطقة حرية المتاجرة في المقاطعات العثمانيّة كافّة. وحلّت محلّ هذه الاتفاقية تدريجيًّا، بخاصة إبتداء من المنعطف الذي شكّلته حملة سليمان القانوني العسكريّة في العام ١٥٣٨، تبعيّة متزايدة أدّت إلى فرض «الخراج» على كثير من الأراضي التي بات وضعها أشبه بالممتلكات العثمانيّة. ازدادت التدخّلات النمساويّة والروسيّة في القرن الثامن عشر وانتهت في العام ١٨٢٦، من خلال معاهدة أكيرمان، بالاعتراف بوصاية روسيا على مولدافيا التي تمّ في ما بعد، في عام ١٨٥٩، ضمّها إلى فلاشيا لإنشاء دولة رومانيا في عام ١٨٧٨.

◄راجع المستندين رقم ٢٦ و٢٧.

المولويّة، طريقة صوفيّة إسلاميّة، أُطلقت عليها أيضًا تسمية طريقة «الدراويش الدّوارين» في الأناضول، واستُمدّ إسمها من لقب «مولانا» الذي أعطي لمؤسّسها جلال الدين الرومي.

اشتهرت الطريقة المولويّة التي اتّخذت في مدينة قونية مقرًّا لها من خلال التمارين الجسديّة، ولا سيّما جلسات الموسيقى والرقص، التي كان أعضاؤها يمارسونها للوصول إلى النشوة، وكذلك من خلال الشهرة التي اكتسبتها قصائد مؤسّسها الصوفيّة. تعزز نفوذها أوّلًا في الأوساط التركيّة من خلال الخوانق العديدة التي تكاثرت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، في مقاطعات سلاجقة الروم، وفي ما بعد في مناطق السلطنة العثمانيّة كافّةً. وبفضل اتّساع هذه الشبكة، امتدّت الروابط التي طالما شدّت المولويّين إلى العناصر الأرستقراطيّة في المجتمع التركي، في قونية كما في اسطنبول، إلى المقاطعات العثمانيّة في الشرق الأدنى وإلى المجتمعات المدينيّة في دمشق والقدس والقاهرة.

مومباسا (جمهوريّة كينيا)، مرفأ حديث على المحيط الهندي، على الساحل الشرقي لأفريقيا السوداء، يتميّز حاليًّا بأهميّته الاقتصاديّة، وقد أدّى في الماضي دور محطة تجاريّة للملاحة الإسلاميّة.

تحتلّ البلدة موقعًا متواريًا ومحميًّا في جزيرة، جنوب مدينتي لامو وماليندي التجاريّتين. ويبدو أنّها شاركت هاتين المدينتين المصير نفسه، وشهدت مثلهما نشوء سلطنة محليّة، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، ذكرها الجغرافي الإدريسي، وزارها في ما بعد الرحّالة ابن بطّوطة. لكن لم تُكتشف فيها أيّة معطيات أثريّة تؤكّد قدم ارتباطها ببلاد الإسلام، رُغم أنّ بعض المصادر الكتابيّة السواحليّة تعزو هذا الارتباط إلى الخلفاء الأمويّين.

مارس البرتغاليّون سيادتهم عليها منذ أواخر القرن الخامس عشر، فباشروا بنقل السلطة إلى سلالة من ماليندي، وأخضعوها من ثمّ لحكم مباشر حتّى العام ١٦٩٨، بالرغم من التدخّلات العثمانيّة العديدة حوالى العام ١٥٨٥، والثورات المحلّية المتعدّدة، وبخاصة حوالى العام ١٦٣٠. وكانت النجاحات الأجنبيّة قد أدّت إلى تشييد حصن ضخم تزامن سقوطه، في العام ١٦٩٨، بعد حصار دام حوالى العامين، مع بدء احتلال المنطقة الساحليّة بأكملها على أيدي فِرَق عسكريّة وحكّام أتوا من عُمان. وترسّخ في مومباسا، منذ ذلك الوقت، نفوذ سلاطين مسقط وزنجبار الذين سيطروا على النشاط البحري والتجاري في المحيط الهندي حتّى وقوعها، في العام ١٨٨٧، تحت الوصاية البريطانية التي انتهت في العام ١٩٦٤.

◄ راجع المستند رقم ٢٨.

مونتينغرو، او قرا داغ بالتركيّة، مقاطعة في البلقان بقيت تحت الهيمنة الإسلاميّة ضمن الأمبراطوريّة العثمانيّة، من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين، وما تزال تضمّ أقلّية مهمّة من المسلمين.

كانت هذه المنطقة الجبليّة الصغيرة، البالغة مساحتها حوالى أربعة عشر ألف كيلومتر مربع والمحصورة بين ألبانيا ومقاطعتي البوسنة - الهرسك وصربيا وهذه الأخيرة تضمّ حاليًا مقاطعة كوسوفو[١٠٤] - قد تشكّلت، في القرن الخامس

عشر، مملكة مستقلّة ضمن الدولة الصربيّة القروسطيّة. أصبحت في العام ١٤٨١م تابعة للدولة العثمانيّة، ومن ثمّ خضعت لها مباشرة إبتداء من العام ١٤٩٦م، وشهدت عندئذٍ، كمقاطعة تارةً مستقلّة وطورًا مرتبطة بمقاطعة شقودر/سكوتاري الألبانيّة، نظامًا ضريبيًّا مميّزًا لم يحل دون الثورات المحليّة العديدة الناتجة عن الروح القتاليّة السائدة لدى سكّانها وعن علاقاتها بالبنادقة في المنطقة الساحليّة.

استطاعت مونتينغرو التحرّر تدريجيًّا من السيطرة العثمانيّة منذ أواخر القرن الثامن عشر، وقد اعترف باستقلالها مؤتمر برلين في العام ١٨٧٨. وقد شاركت، بصفتها دولةً مستقلة، في حرب البلقان في العام ١٩١٢، وفي الحرب العالميّة الأولى، قبل أن يُربط مصيرها مجدّدًا بمصير الدولة الصربيّة وبمصير جمهوريّة يوغوسلافيا الإشتراكيّة الفدراليّة السابقة. ويُقدّر حاليًّا المسلمون الناطقون خاصة باللغة الصربيّة - الكرواتية مع نسبة صغيرة من الألبان، بحوالي خمسة عشر بالمئة من مجموع السكّان. وقد تميّزوا، خلال العقود الأخيرة، بنشاطهم الكبير، وكانت تجمعهم منظّمة دينيّة إسلاميّة شكّلت جزءًا مستقلًّا داخل الاتّحاد الإسلامي الذي له ثلاثة مراكز أُخرى هيَ: سراييڤو في البوسنة، سكوپيا في مقدونيا وبريشتينا عاصمة إقليم كوسوفو.

موهاكْس (معركة)، آب أغسطس ١٥٢٦، معركة فتحت للجيوش العثمانيّة طريق أُوروبا الوسطى ومكّنتها من بسط هيمنة الإسلام لفترة قرن ونصف على الأراضي المجَريّة.

أحرز السلطان سليمان القانوني هذا النجاح المهمّ في سياسته الهادفة إلى غزو الغرب بعد الاستيلاء، في العام ١٥١٢، على موقع بلغراد المنيع. وجرت المعركة في وادي الدانوب، في نقطة إستراتيجيّة مجاورة لمدينة موهاكس الصغيرة في المجر الحاليّة، وقد بذلت الأبحاث الأثريّة جهودًا كبيرة لتحديد موقعها بدقّة. لكن لم يتمّ غزو الدولة المجريّة بأكملها عسكريًّا وضمّها إلّا بعد عشرين سنة، بعد سقوط حصن بودا الذي سُمّي بودابست لاحقًا، إثر حصارات عدّة لم تثمر إلّا في العام ١٥٤١.

غالبًا ما يُطلق اسم «معركة موهاكس الثانية» على الاشتباك الذي حصل في آب ١٦٨٧، على بعد عشرين كيلومترًا من هذه المدينة الصغيرة والذي انتهى بهزيمة الجيوش العثمانيّة وبخسارة منطقة سلافونيا. وتمّ التصديق على نتائج الحرب التي شنّها أباطرة النمسا الهابسبورغ وحلفاؤهم على الباب العالي، بين ١٦٨٥ و١٦٩٩، في معاهدة كارلوفيتش.

الميثاق، عهد بين الله والإنسان، يُشير إليه القرآن الكريم تكرارًا؛ ورد النص الأساسي لهذا الميثاق في الآية ١٧٢ من سورة الأعراف:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾

مثّل هذا الميثاق دورًا خاصًّا في الفكر الصوفيّ الذي جعل منه حدثًا سابقًا للأزل، إذ يؤكّد أنّ الإنسان، قبل خلقه، تعهّد بالإقرار بـ«عدميّته» أمام الله الكائن الوحيد وفقًا لمفهوم «الفناء» الصوفي. كما يؤكّد هذا الفكر أنّ الله خلق محمّدًا ﷺ في الفترة السابقة للخلق من النور الإلهي، قبل أن يخلق الإنسان انطلاقًا من النور المحمّدي الذي من شأنه أن يعيد الخلق إلى الله.

شمل هذا الميثاق، بحسب القرآن، بني إسرائيل في سيناء، قبل أن يُقدم هؤلاء على نقضه، كما شمل بعد ذلك المسيحيّين والمؤمنين. وهناك تفسير آخر يعود إلى بعض الكتّاب من الشيعة حول الميثاق يؤكّد أنّ الله قد عقده عند الخلق مع النبيّ محمّد ﷺ ومع «آل البيت»، أي مع ذريّة نبيّ الإسلام. ومن المعلوم أنّ المعتزلة ينكرون وجود أي ميثاق معقود خلال الفترة السابقة للأزليّة ويعتبرونه تمثيلًا رمزيًّا.

ميريوكيفالون (معركة)، ٥٧٢هـ/١١٧٦م، إشتباك أنزل خلاله السلطان قلج أرسلان الثاني، من سلالة سلاجقة الروم، هزيمة قاسية بقوّات الأمبراطور البيزنطي مانويل كومين (Commène).

اضطرّ عندئذٍ الأمبراطور البيزنطي الى دفع غرامة وإلى تدمير قلعتي دوريلي وسيلايون. وشكّلت هزيمته فشلًا لمحاولاته استعادة الأناضول من الأتراك الذين بات وجودهم في البلاد نهائيًّا، وكرّست في الوقت نفسه

تفوّق السلطة الإسلاميّة المركزيّة والموحّدة التي كانت، حتّى ذلك الحين، تشكّل هدف سلاجقة قونية، وقد واصل هؤلاء سعيهم لبلوغ هذه الغاية، فبسطوا سلطتهم لاحقًا، في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى شواطئ البحر الأسود.

الميسر (المقامرة)، ألعاب نُهي عنها وتقيّدت بهذا النهي الجماعة الإسلاميّة الأولى، جماعة المدينة، والتزمت بذلك في ما بعد كل المجتمعات الإسلاميّة.

إن القرآن الكريم ينهى عن الميسر نهيًا قاطعًا ويلحقه بخانة الخمر والأنصاب والأزلام (سورة المائدة، الآية ٩١). يُقال إنّ هذا النوع من اللعب كان يمارسه البدو قبل الاسلام، وكان يقتضي تقاسم أجزاء دابة مذبوحة باستخدام طائفة من الأسهم منها ما هو رابح ومنها ما هو خاسر. إن النهي عن أنواع ألعاب الحظ كافةً ورد في الأحاديث التي استند إليها الفقهاء. ولهذا السبب، إن كل عقد يقوم على مخاطرة كان مشجوبًا.

في الحقيقة إنّ بعض ألعاب الحظّ، بشكل خاص ألعاب الطاولة، مارسها المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى.

ميلاس (الجمهوريّة التركيّة)، ميلاسو او ميلاكسو في المصادر الغربيّة، مدينة في جنوب غربيّ الأناضول، عاصمة إمارة أصبحت، إبتداء من القرن الثامن عشر، أحد مراكز صناعة السجاد.

احتلّها الأتراك موقّتًا بعد معركة مانتزيكرت/ملازكرت في العام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، وعادت بعد ذلك إلى سلطة البيزنطيّين الذين تنازعوها مع امراء مسلمين متنافسين. وانتقلت مرّات عدّة، خلال تاريخها، من معسكر إلى آخر. عُرفت قديمًا باسم ميلاسا (Mylasa)، وكانت عاصمة مقاطعة كاريا (Carie). وأصبحت في ما بعد، خلال القرون الوسطى، أهمّ مدينة في دولة التركمان المانتشي - أغولاري أو بني مَنْتشا الذين أحبّوا الإقامة في جوارها، بالقرب من موقع يجن المحصّن. تحوّلت أخيرًا، خلال العصر العثماني، إلى مدينة مزدهرة، مشهورة بتبغها وبسجّادها المصنوع في مناطقها الداخليّة. إنّها لا تزال تحتفظ ببعض الأبنية المميّزة للفن التركماني، وأبرز نماذجه مسجد فيروز بك الذي شيّده أحد حكّام المدينة بعد أوّل احتلال عثماني لها. إنّه متأثّر بالفنّ الذي تألّق في عهد الإمارات والذي ازدهر أيضًا في الأبنية العثمانيّة الأولى، منها أبنية بورصة أو بروسّا.

ميليشيات المدن، تجمّعات مسلحة محليّة، انتشرت خلال القرون الوسطى في مدن الشرق الإسلاميّة حيث مارست أحيانًا نوعًا من السلطة المحليّة العفويّة، وقد سبقت ظهور الجمعيّات ذات التنظيم التراتبي المعروفة باسم «الفتوّة»، خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

كانت هذه المجموعات تهاجم تارةً بعض الفئات الإجتماعيّة، ناشرةً الذعر ومتحدّيةً السلطات النظاميّة، وتحلّ طورًا محلّ الشرطة المحليّة لفرض النظام. وكانت في معظم الأحيان مؤلّفة من شبان أُطلق عليهم إسم «الأحداث» في سوريا، وإسم «الفتيان» في العراق وإيران، كما كان يُطلَق عليهم اسم «العيّارين» عندما كانوا يقومون بأعمال الشغب. ويبدو أنّ دوافع بعض هؤلاء الشبّان قامت على مُثُل عليا مثل الشجاعة والشهامة التي شكّلت إحدى ركائز جمعيّاتهم. وكانت هذه الجمعيّات، بالرغم من بقائها هامشيّة، تعيّن ممثّلين لها في كل مدينة كبيرة، وكان في استطاعتها، تاليًا، الانخراط في منظّمات أوسع ذات أهداف أكثر طموحًا.

نجهل الكثير عن المراحل التي مرّ بها تطور هذه الميليشيات الشعبيّة المُدُنيّة التي قيل عنها أحيانًا إنّها ظاهرة مميّزة للحياة في المدن الإسلاميّة، ولكن ينبغي تحديد صلاتها بالحركات الإجتماعيّة - الدينيّة المنشقّة نوعًا ما التي نشأت في الأوساط نفسها، والتي أُطلقت عليها تسمية عامّة هي «الفِرَق». إنّ الظروف التي سمحت ببروز هذه الظاهرة في بعض المناطق تبدو كثيرة التنوّع. ففي بغداد مثلاً، ظهر عيّارون خلال الحروب الأهليّة، في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، عندما أقدم محرومون مزوّدون بأسلحة بدائيّة على المشاركة بالدفاع عن الخليفة الأمين، خلال الحصار الذي فرضته قوّات المأمون على «المدينة المستديرة». كما قامت في ما بعد قوّات غير نظاميّة

بالمشاركة في النزاعات التي نشأت بين خلفاء آخرين.

خلال عهد البويهيّين، عندما ضعفت السلطة في عاصمة الخلافة، يبدو أنّ مجموعات أخرى صبّت غضبها على التجّار الأثرياء في أحياء مختلفة، ما أرغم هؤلاء على الاعتصام في منازلهم، وأحيانًا على نقل بضائعهم إلى أماكن أكثر أمانًا. وفي أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فرض زعيم العيّارين سلطته على معظم السكّان، ولم يتمكّن صاحب الشرطة إلّا بصعوبة أن يفرض هيبته. هل يمكننا أن نستنتج أنّ هذا النوع من الفتن التي أثارها شبّان لا يمارسون عملًا ثابتًا أو يمارسون مهنًا صغيرة، هو ناتج عن الأزمة الاقتصاديّة المسيطرة والمرتبطة بمفاعيل النظام البويهي؟ إنّه مرتبط أيضًا بحدّة النزاعات الإجتماعيّة - الإقتصاديّة، ولا سيّما بين الشيعة والسنّة، التي اندلعت آنذاك بين مسلمي العراق.

يبدو أنّ جمعيّات مماثلة استمرّ وجودها في العهد السلجوقي بالرغم من عدم تمكنّها، خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، من البروز بقوّة. وغالبًا ما كانت تُطلَق عندئذٍ على العيّارين تسمية «فتيان»، بينما كانت تُنسب اليهم المثل العليا للفتوّة المتجسّدة بقيم الشباب والشجاعة، والعمل من أجل المساواة عن طريق التصدّي للأثرياء، والتقيّد ببعض القواعد، لا سيّما عدم إلحاق الأذى بالنساء. تعرّضت، خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، هذه المجموعات التي لم تردنا عنها سوى معلومات وجيزة وجزئيّة، إلى انتقادات بعض الكتّاب الذين حثّوا أعضاءها على ممارسة نشاطات أخرى. وبدأ عندئذٍ الوجهاء بالتسلّل إلى صفوفها وبإزالة الطابع الشعبي عنها بهدف إنشاء حركة فتوّة رسميّة يلفت أوجها بدفع من الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله.

ويبدو أنّ الميليشيات التي كانت تُعرف في سوريا، خلال الحقبة نفسها، باسم «الأحداث» كانت من نوع مختلف. فعلى الرغم من حداثة سنّهم، لم يكن أفراد هذه الميلشيات ينتمون إلى الطبقات الفقيرة. وقد اتّخذ قادتهم، الذين اعتُبروا منذ البداية شخصيّات مرموقة، لقب «رئيس». وساد، في ظل رعايتهم، في المدن المعنيّة، أمنٌ يوافق مصالح صغار التجّار. واستمرّ تنظيم الأحداث إلى أن قرّر الأمير نور الدين حلّه، في حلب أوّلًا، وفي دمشق في ما بعد، واستبدل به قواته الخاصّة. يبدو اذًا أنّ مثل هذه الميليشيات لم تُشكّل إلّا لفترات وجيزة، أُجبر خلالها السكّان على التدخّل بأنفسهم لحفظ الأمن. كما أنّه لا يمكن المقارنة بين تصرفاتهم المعتدلة وبين أعمال العنف التي نفّذتها، في أماكن أخرى، عصابات مشكوك في أمرها. لم يتمّ، إلّا في فترات لاحقة، الكلام على وجود جماعات غير منضبطة في سوريا تُعت أفرادها بـ«الجساس»، وقورنت تصرّفاتها بتصرّفات العيّارين في بغداد، إنّما من دون أن تتمتّع بنفوذ سياسي مماثل.

إنّ ظاهرة تطوّر الميليشيات المُدُنيّة الشعبيّة التي توقّفت خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، لتحلّ محلّها جمعيات الفتوّة برعاية أصحاب السلطة، والتي انخرطت في نوع من أنظمة الفروسيّة القتاليّة ذات مضمون ديني واضح، عاودت نشاطها تلقائيًّا خلال القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد. وفي بعض الدول نشأت مجددًا أنواع متعدّدة من الجمعيّات المحليّة التي عُرفت أحيانًا باسم «الفتوّة الشعبيّة» أو «الأخوّة» بمعنى تجمّع أشخاص أُطلق عليهم إسم إخوان. وهذا ما جعل البعض يميّزون في الشرق الإسلامي، إبتداء من الفتح المغولي، بين نوعين مختلفين من الفتوّة: من جهة فتوّة البلاط أو ما تبقّى من الفتوّة التي أعاد تنظيمها الخليفة الناصر والتي انتشرت عند الإيلخانيّين والمماليك؛ ومن جهة أخرى الفتوّة الشعبيّة التي انتشرت بشكل خاص في الأناضول وفي إيران والتي أُطلق على قادتها، وأحيانًا على أعضائها، إسم «الإخوان». إنطلاقًا من هذه الجمعيّات، التي كانت تتألّف بخاصّةٍ من الحرفيّين، والتي كانت تمارس نوعًا من الضيافة الانتقائيّة المخصّصة لأفراد شبكتها الواسعة، تطوّرت، إبتداء من القرن الخامس عشر للميلاد، أوّل نماذج لطوائف الحرفيّين، لكنّ أعضاءها ظلّوا متمسّكين بالفتوّة. فإضافةً إلى تقيّد الأعضاء بطقوس الإنتساب، ما كان يسمح لهم بالتدرّج داخل المنظّمة، أضيف - على غرار

ما كان يجري في الجمعيات الصوفية التي تأثّر بها الإخوان، ولكنهم ظلّوا متميّزين عنها - واجب تكريم الشفيع الذي كان يؤمّن لهم الحماية.

خلال القرنين الثامن والتاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد؛ كان للإخوان ممثّلون في مدن الأناضول المهمّة كافةً، ولم يتردّدوا أبدًا في اللجوء إلى السلاح للدفاع عن قضيّتهم وعن مصالح المنتسبين إليهم، وكان لهم نشاط سياسي مميّز. وهذا النشاط، الذي لم تأتِ الأبحاث المخصّصة للفترة على ذكره، مورس بوضوح في المناطق التي تضاءل فيها نفوذ السلطان. في أذربيجان مثلًا، تمكنّ أحد قادة الإخوان، في تبريز، من إدارة المدينة لمدّة ثلاث سنوات في أواسط القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. ومن جهتهم استعان الصفويّون الأوائل برفاق من الإخوان. كذلك في الأناضول، خلال الحقبة نفسها، مارس قادة الإخوان السلطة في المدن التي لم يكن يقيم فيها أيّ أمير، وتمتّعوا هم بهذه الصفة، أي برتبة أمير، وهذا مؤكّد، لا سيّما في أنقرة خلال الفترة التي سبقت تسليم المدينة على أيديهم إلى السلطان العثماني مراد الأوّل في العام ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م. تُعتبر مثل هذه الأنشطة المسلّحة امتدادًا لنشاطات الميليشيات الإسلاميّة المُدنيّة السابقة، وهي مرتبطة أيضًا، في هذه الحقبة، بمسألة مواصلة الجهاد. وكان الإخوان، من دون أن يتماثلوا بالغزاة المجاهدين الذين اقتصر نشاطهم على الجهاد، لا يفوّتون فرصة للمشاركة مع هؤلاء في بعض العمليّات المسلّحة. وهذا ما حصل فعلًا خلال غزو بورصة حيث أشير إلى وجودهم. إنّ المساعدة التي قدّموها للسلاطين دفعت بهؤلاء إلى اقامة علاقات مميّزة بهم.

ن

نائب (ج. نوّاب)، مصطلح عربي معناه «وكيل، مفوّض» اتّخذ، عبر العصور، معاني عدّة، للدلالة، بصورة عامة، على «المفوّض» أو «القائم مقام» لأي سلطة مدنيّة أو عسكريّة، أو على وكيل قاضٍ، أو أيضًا «ممثّل» شيخ طريقة صوفيّة. عرفت التسمية رواجًا خاصًا في دول العصور الوسطى التي حكمها، كما في مصر والهند، العبيد العسكريّون المعروفون بالمماليك. ففي الأراضي السوريّة-المصريّة الخاضعة لسلطة المماليك البحريّين والبرجيّين، ما بين القرنين السابع والعاشر للهجرة/الثالث عشر والسادس عشر للميلاد، كان يحكم المقاطعات الأساسيّة التي تحمل اسم **نيابة** حاكم مفوّض أو **نائب السلطنة**، بينما كان في السلطة المركزيّة السلطان، يعاونه في أداء مهمّاته مَن يُمكن اعتباره نائب سلطان، ويُسمّى أيضًا **نائبًا** ويُغْدق عليه لقب يليق بالمقام. في الحقبة نفسها، كان **النائب** لدى سلاطين دلهي مندوبًا يمثّل الملك، لكنّه يحتل وظيفة تختلف عن وظيفة الوزير.

في ما بعد، اعتُمد مصطلح **نوّاب**، وهو من الجذر نفسه، في الهند في عهد المغول، للدلالة على نائب الملك أو على حاكم إحدى مقاطعات الأمبراطوريّة. ودلّ، لاحقًا، على مؤسّسي سلالات شبه مستقلّة مثل نوّاب أُوذه ولُكناو وبْهوبال. كذلك كان يستعمل على أنّه لقب فخري. وعن طريق التسمية الإنكليزية «نابُب» (nabob) المأخوذة عن نوّاب، أتى المصطلح الفرنسي «ناباب» (nabab) الذي شاع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر للتعريف بالمتهنّدين من الإنكليز العائدين أثرياء من الشرق.

نادر (بنو -) ← **محمّد**.

نادر شاه، طَهْمَاسْب قُلي خان، ١٦٨٨-١٧٤٧، مؤسّس سلالة الأفشاريّين القصيرة الأمد، التي حكمت إيران ما بين ١٧٣٦ و١٧٤٧، بعد حصولها على السلطة والشهرة بفتوحاتها.

زعيم قبيلة أفشار التركمانيّة من خراسان، وَرجل حرب منتصر، استقرّ في مشهد عند أفول الصفويّين. خدم الملك طهماسب الثاني (من هنا كان اسمه «عبد طهماسب») جاهدًا في الدفاع عن الأرض الإيرانيّة ضدّ الأعداء الذين كانوا يهدّدونها من الشرق كما من الغرب. كانت انتصاراته الأولى على الأفغان الذين تعدّوا على وحدة أرض إيران، هي التي سمحت له، منذ سنة ١٧٢٧، بالترقّي من مجرّد حاكم للمقاطعات الشرقيّة إلى مقام أمير مستقلّ. قادته حملاته في اتّجاه أذربيجان حيث طرد العثمانيّين، وإلى ما وراء القوقاز حتّى قلب داغستان. ثمّ توصّل، في سنة ١٧٣٦، إلى احتلال عرش طهماسب الثاني وولده عباس الثالث بعد أن عزلهما.

عندما استقرّ على رأس المملكة، تابع حروبه ضد العثمانيّين وأتراك آسيا الوسطى، مجرّدًا في الوقت نفسه حملة ظافرة على الهند، في سنتي ١٧٣٨ و١٧٣٩ مكّنته من انتزاع الولايات الشماليّة الغربيّة من السّند من يَدَي أمبراطور المغول ناصر الدين محمّد، إضافةً إلى غنيمة ضخمة. بعد ذلك تعاقبت حركات عصيان وقمع في مملكته الواسعة حتّى اغتياله في سنة ١٧٤٧. كانت بلاد فارس مملكة منهكة بسبب توسّعها في اتّجاهات متعدّدة، غير أنّها استعادت وحدتها بفضل حملات العسكريّة المكلّلة بالنصر. وحدها فشلت محاولة استئصال الإماميّة الإثني عشريّة من إيران وإحلال نوع من التشيّع المعتدل مذهبًا للدولة، مستندًا إلى أفكار الإما

العلوي السادس جعفر الصادق، وإقراره مذهبًا فقهيًّا خامسًا في إطار التسنّن. رفض الفرس، في الواقع، تبنّي هذا التوفيق الذي لم يوفّر له حتّى فرصة تحسين علاقاته الدبلوماسيّة بالعثمانيّين.

الناسخ، صفة تطلق على آية من القرآن الكريم (أو على حديث) إذا ما أدخلت هذه الآية، في إطار التطوّر التاريخي والقانوني الذي عرفه الإسلام، تعديلًا لقاعدة نصّت عليها آية أخرى (أو حديث آخر). يطلق على الثانية آنذاك صفة «المنسوخ».

إنّ وجود آيات قرآنية أو أحاديث متباينة حمل المفسّرين والمعلّقين على الإعتبار أنّ الحقائق الأساسيّة التي تشكّل مادّة الوحي يمكن أن يكون قد عُبّر عنها في حقب تاريخيّة مختلفة بصيَغ فيها بعض التباين، ذلك أنّ نزول الرسالة الإلهيّة امتدّ على عشرين سنة. فقال هؤلاء المفسّرون والمعلّقون إنّ هناك تطوّرًا طال تفاصيل النظم التي نصّ عليها القرآن الكريم والسنّة. يقبل الجميع بإمكان أن تُبطل آيةٌ قرآنية آيةً أخرى (مثلًا إن الآية ١٨٠ من سورة البقرة التي تفرض على المسلم أن يترك ميراثه لوالديه قد أبطلتها الآيتان ١٠ و١١ من سورة النساء اللتان حدّدتا بدقّة توزيع حصص الميراث، وكذلك أن يبطل حديث حديثًا آخر. لكنّهم أحيانًا يختلفون حول إمكان أن يُبطل حديثٌ آيةً قرآنية.

شكّلت هذه المسائل عبر العصور مادةً لعلم خاص عرف بـ«علم الناسخ والمنسوخ».

ناصر (جمال عبد الـ -)، ١٩١٨-١٩٧٠، ضابط ثوري، أصبح رئيسًا لجمهوريّة مصر العربيّة، حقّق أهمّ نجاحاته بطرح نفسه بطل القضيّة العربيّة في وجه الغرب.

وُلد عبد الناصر في الإسكندريّة في عائلة من الطبقة الوسطى وانتقل إلى القاهرة لمتابعة دروسه، وبرز في التظاهرات ضد البريطانيّين، ثمّ دخل، في العام ١٩٣٧، المدرسة الحربيّة. في الفترة التي تلت الحرب العالميّة الثانية، تولّد الشعور لديه بالرغبة في تغيير مصر وتحريرها من النفوذ البريطاني. فما لبث أن انضمّ إلى مجموعة الضباط الأحرار حيث مثّل دورًا مهيمنًا. وبعد حرب فلسطين، بدأ الضباط الأحرار بالتعرّض للنظام ثمّ قاموا، في ٢٣ تموز ١٩٥٢، بانقلاب قضى على الملَكيّة. على الرغم من أنّ عبد الناصر هو الذي قاد العمليّات، ترك في الواجهة الجنرال نجيب الأكبر سنًّا، فأصبح هذا الأخير رئيسًا للجمهوريّة ورئيسًا لمجلس الثورة. لكن، في آذار ١٩٥٤، إثر استقالة نجيب مرغمًا، أصبح عبد الناصر الرئيس الفعلي للحكومة؛ وتولّى رئاسة الجمهوريّة واستمرّ فيها حتّى وفاته في العام ١٩٧٠. وبقي «الزعيم» الأوحد أو «الريّس» للشعب المصري طيلة هذه المرحلة، على الرغم من المصاعب التي واجهها، بخاصة في نهاية حياته.

أصبحت السياسة القوميّة الإشتراكيّة المطبّقة في مصر التي عرفت بـ«الناصرية» مثالًا، إذ استوحى منها، في ما بعد، زعماء آخرون في العالم العربي. عرض عبد الناصر مبادئ هذه السياسة في خطب مختلفة كما في مؤلّفه **فلسفة الثورة**. إبتداءً من العام ١٩٥٢، قام بمفاوضات للحصول على جلاء الإنكليز عن قناة السويس، مُصدرًا في الوقت نفسه أوّل قانون إصلاح زراعي، وعاملًا على التخلّص من الحركتين المعارضتين لسلطته، أي: حزب الوفد وحزب الإخوان المسلمين. في العام ١٩٥٦، بعد أن رفض الأميركيّون تقديم قرض لتمويل بناء سدّ في أسوان، قرّر تأميم قناة السويس، الأمر الذي أدّى إلى حملة عسكرية على مصر قامت بها كل من فرنسا وبريطانيا وإسرائيل، لكنّها لم تحُل دون نجاح سياسته في مصر، بفضل دعم الإتّحاد السوفياتي له. ظهر عبد الناصر عندئذٍ مدافعًا عن الدول العربيّة المستقلّة والفتيّة. ثمّ أراد توحيد بلاده مع سوريا بإنشاء الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، في العام ١٩٥٨، لكنّ هذه الجمهوريّة لم تدم إلّا ثلاث سنوات، أي حتّى العام ١٩٦١.

أمّا داخل مصر فطوّر عبد الناصر، بدءًا من العام ١٩٦٠، «الاشتراكيّة العربيّة» المبنيّة على النهج التعاوني وليس على صراع الطبقات. أمّم المصارف والمؤسّسات الرئيسة، وفرض قانونًا زراعيًّا جديدًا يمنع تملّك أكثر من مئة فدّان، وأنشأ حزبًا وحيدًا اسمه الاتحاد الاشتراكي العربي، محاولًا إشراك الشعب في

السياسة. لكنّ أحداثًا خارجيّة جديدة هزّت قوته عندما هُزم العرب في الحرب الإسرائيليّة العربيّة التي اندلعت في العام ١٩٦٧. ويعود جزئيًا سبب هذه الحرب إلى مبادرات مصريّة، وقد حملت الهزيمة عبد الناصر على إعلان استقالته التي رُفضت. قضت عليه نوبة قلبية، في أيلول ١٩٧٠، قبل أن يستطيع تصحيح الوضع الناشئ عن انتصار القوات الإسرائيليّة واحتلالها لسيناء.

ناصِر خُسرُو، ٣٩٤-٤٥٢هـ/ ١٠٠٣-١٠٦٠م، مثقف إيراني شيعي إسماعيلي المعتقد، تقوم شهرته اليوم على كتاب رحلته [سفرنامه].

ولد في منطقة بَلخ، والده من ملّاكي الأرض. قام بدراسات جدّية مكّنته من أن يصبح كاتبًا في مرو، ابتداءً من العام ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م. لكن، في العام ٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م، بحسب روايته، تخلّى عن مركزه وملذّات الحياة ليؤدي فريضة الحجّ إلى مكّة. قاده سفره حتّى مصر حيث وجد وضعًا أكثر هدوءًا من إيران التي تركها خلال اجتياحها من قبل الأتراك الغُزّ بقيادة السلاجقة.

أُعجب بحكم الفاطميّين، فانضوى الى مذهبهم، وقفل عائدًا إلى بَلخ داعيةً له، لكنّ السلطات السنيّة السلجوقيّة لاحقته، فاضطرّ إلى الهرب إلى المناطق الجبليّة من بَدَخْشنان حيث توفي بعد سنوات، وضع خلالها أهمّ كتاباته. خلّف مجموعة قصائد فلسفيّة تُماثل الأفكارُ الواردة فيها أفكارَ ابن سينا، وكتاب رحلته [سفرنامه] الذي يحتوي معلومات قيّمة عن الوضع في الشرق الإسلامي في أواسط القرن الحادي عشر للميلاد.

ناصر الدولة، أبو محمّد الحسن بن عبدالله، ؟-٣٧٦هـ/ ؟-٩٦٨م، أمير من أسرة الحَمْدانيّين حصل من الخليفة الضعيف المتّقي، من سلالة العبّاسيّين، على مركز أمير الأمراء.

ورث سلطة والده أبي الهَيجاء في حكم الموصل في العام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م. وعمل على توسيع رقعة إمارته، ثمّ أفاد من ضعف سلطة الخلافة ليحصل، في العام ٣٢٩هـ/ ٩٤١م، على إمارة الأمراء مع لقب تشريفي مناسب للمقام. لكن، في السنة التالية، اضطرّ للتنازل عن المركز للتركي توزون الذي اضطرّ بدوره إلى التخلّي عن المركز إلى أوّل أمير من الأسرة البويهيّة.

وبعد مغامرات عدّة، حصل ناصر الدولة على الحكم في كلّ من سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا. في ما بعد، أي في العام ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م، وبعد أن ترك حكم حلب لأخيه سيف الدولة الذي حاز فيها مجدَ المقاتل في سبيل الإسلام ومدحَ الشعراء، حصل لابنه أبي تغلب على حكم الموصل.

ناصر الدين ← الطُّوسي.

الناصر لدين الله، أبو العبّاس أحمد، ٥٥٢-٦٢٢هـ/ ١١٥٨-١٢٢٥م، الخليفة الرابع والثلاثون من سلالة العبّاسيّين. حكم في بغداد ما بين ٥٧٦ و٦٢٢هـ/ ١١٨٠ و١٢٢٥م ونجح، خلال عهده الطويل، في إعادة السلطة المفقودة إلى الخلافة وإن جزئيًا.

حاول الناصر، في البداية، الإفادة من انحطاط سلطنة السلاجقة لمصلحته، ونجح في قهر آخر حكّام هذه السلالة في الرّيّ، وهو طُغرل الثالث الذي سقط في ساحة المعركة في ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م. لكنّ محاولاته لوضع يده على الأمبراطوريّة التركيّة واجهت طموحات خوارزمشاه تُكُش الذي لم يترك له سوى خوزستان. سعى، عندئذٍ، إلى إقامة علاقة، على ما يبدو، بالمغول للحصول على دعمهم ضدّ سلالة خوارزم. كانت هذه السياسة خطرة لأنّ المغول كانوا قد استقرّوا، بدءًا من هذه الفترة، في أذربيجان.

استطاع الناصر، على الرغم من التقلّبات المتنوّعة، استعادة ممارسته لسلطته الدنيويّة في العراق وبعض الأقاليم المجاورة، بينما كان أمراء الشرق الأدنى يعترفون بسلطته، ومن بين هؤلاء صلاح الدين، على الرغم من اهتمام هذا الأخير بالاحتفاظ بمجد انتصاراته الشخصيّة. في شبه الجزيرة العربيّة، كانت سلطته ظاهريّة أكثر منها حقيقيّة، فشملت أشراف مكّة الذين احتفظوا باستقلالهم الذاتي مع قبولهم بسلطته، رغم قناعاتهم الشيعيّة. من جهته، اعترف بسلطته، في العام ٦٠٥هـ/ ١١١٢م، زعيم الحشّاشين حسن الثالث.

كان الناصر السنّي، في الحقيقة، مهتمًا بأن يجمع حوله الأمّة الإسلاميّة كافةً، فدعا مثلًا إلى بلاطه ممثّلين عن الشيعة، وأوكل إليهم وظائف مهمّة. وقد حرص، بوجه خاص، على ترؤس حركة **الفتوّة** التي بدأت

شعبيّة، ثمّ ما لبثت أن توسّعت، في نهاية القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، إذ انضمّ إليها وجهاء. كذلك دعا الأمراء وأتباعهم للدخول في هذه الجمعيّة التي جدّدها، في محاولة لفتحها أمام كل المسلمين. اعتمد، في الوقت نفسه، مفهومًا جديدًا للخلافة كان قد حدّده أبو حفص عُمر السُهزوردي، مؤسّس السُهزوردية. جعل هذا المفهوم من الخليفة «ممثّلًا لله على الأرض» ووسيطًا بين الله والمؤمنين.

أظهر الخليفة نفسه في صورة شيخ صوفيّ يساعد أتباعه على التقرّب من الله. شكّلت هذه الإيديولوجيّة الجديدة المستوحاة في آن من **الفتوّة** والتصوّف، القاعدة لاستعادة سلطته المعنويّة. في الوقت نفسه، شجّع الناصر دراسة العلوم الدينيّة والدنيويّة، فاهتمّ بإعادة تأهيل المدرسة النظاميّة، كما اهتمّ بإنشاء مكتبات ورعى، بوجه خاص، أهل الفقه من الشافعيّين كما الصوفيّين. يعود إليه الفضل أيضًا في عدد من الإنجازات الهندسيّة في بغداد، من بينها بوابة السور الحصين المعروفة بـ«الطلسم» التي شُيّدت في العام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م ودمّرها انفجار في العام ١٩١٧. كذلك أهّل الحرم الشيعي في سامرّاء المسمّى غَيبة المهدي، في الموقع الذي جرت فيه غيبة الإمام الثاني عشر للإماميّين الإثني عشريّين، وفاق رواية أتباعه.

نافارين (معركة)، ٢٠ تشرين الأول ١٨٢٧، معركة بحريّة استطاعت خلالها الأساطيل الحليفة، أي أساطيل فرنسا وإنكلترا وروسيا، تدمير القوى البحرية الإسلاميّة التي جمعها العثمانيّون تدميرًا كاملًا. وكان بين هذه القوى السفن الآتية من تركيا ومصر وتونس.

حصل الالتحام في عرض مرسى نافارين المحصّن، وهو محلّة مرفئيّة في الموره، جنوب شبه جزيرة البلقان، التي كانت، على مدى ثلاثة قرون، تابعة للعالم الإسلامي، وقد جعلت منها قيمتها الإستراتيجيّة موضع صراعات واحتلالات متتابعة. كان قد طمع بها السلطان محمّد الثاني الفاتح منذ العام ١٤٦٠، فوقعت في أيدي الأتراك في العام ١٥٠١ ثمّ استعادها البنادقة لفترة، وبالتحديد ما بين العامين ١٦٨٦ و١٧١٥. ثمّ خسرها مجددًا العثمانيّون في العام ١٧٧٠، في أثناء الحروب التركيّة - الروسيّة، ليعود الصراع عليها أخيرًا في حرب استقلال اليونان، ما بين ١٨٢١ و١٨٢٨، بين اليونانيّين وأتراك المنطقة، تدعمهم قوات إبراهيم باشا. أفادت نافارين من الهزيمة التي لحقت بالبحريّة العثمانيّة لتتخلّص نهائيًا من الحكم العسكري الذي كان يستعمل منشآتها.

نايِنْ أو نائين (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة صغيرة في محافظة فارس، تقع في واحة مرويّة في الهضبة الوسطى على حدود الصحراء الكبرى المالحة.

تسترعي البلدة الانتباه بقيمة مسجدها الجامع وهو من أقدم مساجد إيران إلى جانب مسجد تري خانه في دامغان. يشكّل المسجد شاهدًا مميّزًا على فنّ العمارة في عهد آل بويه. بُني بالآجر وزُيّن أروقة فنائه الداخليّ أشكال هندسيّة يتّصل بعضها ببعض، أمّا هيكليّته، مع الجناح الأوسط المحوري الذي يؤدّي الى القبّة - وهي تعلو الفسحة الوسطى حيث المحراب - وجدرانه المكسوّة بالجص والمزخرفة بالعربسة التي تمتاز بها هذه الحقبة، فتبدو فريدة من نوعها، لا تتوافر مثيلاتها في مكان آخر. وإذا كان أسلوبها يهمّ مؤرّخي الفن بوجه خاص، فإنّه يشهد أيضًا على ازدهار المنطقة خلال التاريخ الوسيط. كان لها سابقًا قلعة محصّنة على طريق القوافل التي تربط يَزد بأصفهان. من المرجّح أنّ سكّانها كانوا يعتمدون في معيشتهم على العائدات الزراعيّة والحرفيّة، وهو أمرٌ لم يتناوله مؤرّخو الوقائع من القدامى.

نبيّ، جمعها نبيّون وأنبياء، صفة منحها القرآن الكريم والتقوى الإسلاميّة الشعبيّة لسلسلة طويلة من الأشخاص الذين بشّروا بالكلمة الإلهيّة والذين خُتمت قائمتهم بشكل نهائي بدعوة النبيّ محمّد (ﷺ) «خاتم الأنبياء» وفي الوقت نفسه «رسول الله».

يظهر الأنبياء الذين يعترف بهم الإسلام في معظمهم في نصّ القرآن الكريم الذي يذكر، غالبًا في بعض سطور، وأحيانًا عبر مقاطع قصصيّة، سير حياتهم وشخصيّاتهم من منظور الدعوة المحمّديّة. هناك روايات أُخرى ورد ذكرها باقتضاب في التفسير القرآني القديم، وفي ما بعد في الكتب المختصّة بذلك، أي «قصص

الأنبياء» التي جرى جمعها منذ القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد استنادًا إلى الأحاديث النبويّة، وفي قسم منها، إلى الآداب الدينيّة السابقة - ولا سيّما اليهوديّة والمسيحيّة - التي غالبًا ما تعرف بالإسرائيليّات.

إلّا أنّ بعض الأشخاص الذين ألمحَ اليهم القرآن الكريم باقتضاب احتلّوا حيّزًا في «قصص الأنبياء»، إلى جانب المذكورين صراحةً في الكتاب المنزل. كذلك درجت العادة على ربط ذكرهم بأماكن مقدّسة، شكّلت مواقع زيارات تقويّة خلال حقبة ازدهار «تكريم الأولياء». ما تزال الأحرام التي تحمل اسم «نبي» وليس اسم «وليّ» كثيرة، اليوم، بين أمكنة الزيارات التقويّة، وقد لاقت بحسب «دليل» الهروي إقبالًا في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، بعد أن كانت موضع تكريم منذ القِدَم.

والأنبياء، في نظر مذاهب علم الكلام الإسلامية، هم كباقي الناس، غير أنّ الله كلّفهم تبليغ شعوبهم غير المؤمنة دعواتٍ تهدّدهم بالعقاب الإلهي، وتحذيرات تهدف إلى تثبيتهم في الاتّجاه الصحيح. إنّهم يشكّلون سلسلة مترابطة، كما أنّ رسالاتهم جميعًا جزء لا يتجزّأ من الوحي الإلهي الذي أعلنه النبيّ محمّد (ﷺ) في النهاية في شكله الأكمل. وإذا كانت التوراة قد وُجّهت إلى بني إسرائيل عبر شخص موسى على جبل سيناء، والإنجيل عبر يسوع، فإن محتواهما، بحسب تعاليم الإسلام قد حُرِّف، وإنّ القرآن الكريم الذي قرأه من أُنزل عليه آيات متتالية، يحتوي، وحده، الشريعة الإلهيّة في شكلها النهائي.

إلّا أنّ هذا التحديد العام لا يحول دون التمييز بين فئات عدّة من الأنبياء متفاوتين في تلقّي التكريم. فمن بين أشهرهم نذكر آدم، الإنسان الأوّل، ثمّ نوحًا الذي فشل في إبلاغ رسالته وأُبيد شعبه، فيما نجا بنفسه من الطوفان، وإبراهيم محطّم الأصنام والموحّد الحقيقي الأوّل ومؤسّس الكعبة، وموسى الذي فشلت أيضًا مهمّته لدى الفرعون والذي قاد «بني إسرائيل»، وداود المنتصر على جوليات، وابنه سليمان الحكيم والعظيم. وهناك أشخاص أقلّ شهرة جاء ذكر أكثرهم في العهد القديم، غير أنّ أخبارهم اقتُبست من سيَرٍ نُقلت من مصادر أخرى، وهم: هابيل، شيث، لوط، إسحق، إسماعيل، يعقوب، يوسف وإخوته، إدريس صاحب الاسم اللغز، شُعيب، هارون شقيق موسى، يوشَع، إلياس، إليساع، حزقيال/ذو الكِفْل، أيوب ويونس. ويجب ألّا ننسى هود، لقمان الحكيم، صالح، الخضر وجرجس. وهناك أخيرًا أشخاص عدّة من التقليد المسيحي يحتلّون موقعًا خاصًّا بصفة «أنبياء» مثل زكريا وابنه يحيى، ومريم وعيسى.

يذكر القرآن الكريم في بعض آياته معظم أصفياء الله هؤلاء:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الانعام، الآيات ٨٣-٨٦).

تخصِّص الفِرَق المنتمية إلى الشيعة، ولا سيّما الإسماعيليّة منها، مكانًا مرموقًا للأنبياء. فتاريخ العالم، بحسب تعاليمها، يتضمن دورة مؤلّفة من سبع مراحل نبويّة متتالية، تتناوب فيها فترات الظهور والغيبة، وتتميّز كل مرحلة بظهور نبيّ يليه إمام: كان النبيّ الأوّل آدم تبعه الإمام شيث؛ والنبي السادس محمّدًا تبعَ الإمام عليًّا، وقد أتى بعد نوح وابراهيم وموسى وعيسى؛ والسابع نبي القيامة الذي سيكشف المعنى المستتر للوحي كاملًا.

نَجْد، منطقة واسعة في وسط شبه الجزيرة العربيّة، سيطر عليها الإسلام خلال حياة النبيّ محمّد (ﷺ) وبقيت سنّية حتى الحقبة الحاليّة، وهي جزء من المملكة العربيّة السعوديّة. هذه الهضبة نصف القاحلة التي يغطيها جزئيًّا الصلصال والرمال، تشكّل سلسلة جبل طُوَيْق عمودها الفقري، وكان فيها دومًا، حول صحراء النفود القاحلة، سهوب تتخلّلها بعض الواحات. قطنها طويلًا البدو الرحّل الذين كانت الأمطار الفصليّة في الربيع والخريف تسمح لهم بتأمين الكلأ لقطعانهم. تخترقها

طرق للقوافل، صعبة أحيانًا، تسلك النتوءات الصخرية والمنخفضات في الأودية الطويلة في بعض الحالات، مثل وادي الرُّمّة. فرضت هذه الهضبة على أهلها، خلال قرون، طريقة عيش قاسية جدًّا.

جعلت منها القبائل التي كانت تسيطر عليها - وعلى رأسها، في الحقبة الحديثة، آل سعود الذين استطاعوا فرض سلطتهم، بدءًا من القرن الثامن عشر - مركزًا لممالكهم المتعاقبة التي طبعتها الحركة الوهّابية ذات النزعة السلفية والتي انتظمت حول عاصمتين جارتين هما أولًا الدّرعيّة وبعدها الرياض. وقد رافق الدولة السعوديّة الثالثة انطلاق المملكة العربيّة السعوديّة الحاليّة التي سمحت ثرواتها النفطية بتحديثها السريع. وكان لذلك تأثير موازٍ على طبيعة نجد التي شهدت تحوّلًا في مشاهدها حيث ظهرت المجمّعات المدنيّة الطموحة المتّصلة في ما بينها بشبكة حديثة من الطرق السريعة.

نِجْده (الجمهوريّة التركيّة)، بالعربيّة: نِغْده، مدينة في الأناضول، تحتفظ بآثار معمارية تشهد على عظمتها في القرون الوسطى، أي في الحقبة التي كانت تسيطر فيها على الطريق الإستراتيجيّة المؤدّية إلى الهضبة الوسطى إنطلاقًا من مداخل كيليكيا. يظهر اسم نِجْده في آثار مؤرّخي أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، حين حلّت مكان تيانا القديمة البيزنطيّة التي هُدّمت في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد والتي تقع على بعد حوالى عشرين كيلومترًا إلى الجنوب. أسّسها علاء الدين كَيقباد الأوّل على طريق القوافل المؤدّية من أضنه إلى قيصريّة، عبر ممرّات طوروس، وقد نشطت تجاريًا في أيام سلاجقة الروم. سقطت في أيدي القرامانيّين الذين تنازعوها مع الأرتنيّين ومع القاضي برهان الدين والذين شيّدوا فيها، في الوقت نفسه، أبنية عدّة. احتلّها العثمانيّون في العام ١٤٧٠م ففقدت، إثر ذلك، موقعها مركزًا مزدهرًا بالنشاط الإقتصادي الذي تحوّل إلى مدينة غير بعيدة منها هي بور. لكنّها استمرّت مأهولة وتكوّنت من مدينة عالية فيها قلعة ومسجد جامع يحمل اسم علاء الدين الكبير، يعود تاريخه إلى العام ٦٣٠هـ/ ١٢٢٣م. وفي الطرف الجنوبي لهذا الجزء من المدينة، إلى جوار الأسواق العثمانية، بُني، في العام ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، مسجد سُنْقُربك، الحاكم المحلي من قِبَل الإيلخانيّين. وفي مكان آخر، بُنيت في العام ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، المدرسة القرامانيّة، كما بُني المسجد السلجوقي المعروف بـ«تُربة خُداوَنْد خاتون».

نَجْران، (المملكة العربيّة السعوديّة)، مقاطعة في شبه الجزيرة العربيّة، في جوار عَسير وجمهوريّة اليمن. تحتفظ الناحية الرئيسة فيها بما يذكّر بمدينة نجران القديمة.

تقع على طريق القوافل التي تربط بين حضرموت وفلسطين، ويسقيها مجرى مياه يصلها من جبال اليمن ثم يضيع في الصحراء الوسطى الكبرى. كانت نجران معروفة، عند ظهور الإسلام، بأنّها تحتضن جماعة مسيحيّة مهمّة نزلت فيها منذ العهود الأولى للمسيحيّة. وقد نُقل أنّ النبيّ محمّدًا (ﷺ) وقّع مع هذه الجماعة عهدًا، بعد فشل عرضه القيام بتحكيم إلهي أو **مُباهَلة**. وقد نصّ العهد المذكور بالسماح لأعضاء الجماعة بالاحتفاظ بحريّة معتقدهم، في مقابل تقديم جزء من إنتاجهم الحرفي من الأقْمِشة. أصبح هذا النموذج من الإتفاقات، كما العهد الذي وقّعه النبيّ محمّد (ﷺ) مع يهود خَيبر، قاعدة لمعاهدات الاستسلام التي وُقّعت بعدئذٍ في أثناء الفتوحات العربيّة-الإسلاميّة الكبرى مع الشعوب المسيحيّة في المناطق المحتلّة.

حافظ الخليفة أبو بكر، أوّل خلفاء النبيّ محمّد (ﷺ)، على الاتفاق. لكنّ الخليفة الثاني، عُمر بن الخطّاب، قرر طرد المسيحيّين[١٠٥] واليهود من شبه الجزيرة متقيّدًا بحديث يقول إنّه يجب ألّا يكون في شبه الجزيرة العربية سوى دين واحد. يبقى من غير المعروف إلى أيّ حدٍّ طبق قرار عُمر، بخاصة في نجران، لأنّه من المؤكّد استمرار وجود عدد من اليهود والمسيحيّين في هذه المنطقة حتى القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد.

النَّجَف، (الجمهوريّة العراقيّة)، مدينة نمت حول ضريح هو مقصد زيارات تقويّة لذكرى علي، ما فتئت تتزايد أهميّتها حَزمًا للشيعة.

في هذه الناحية القريبة من الكوفة القديمة، دفن صهر النبيّ محمّد (ﷺ)، الخليفة الرابع للمسلمين الذي اغتيل، بحسب التقليد، في مسجد المدينة الشهيرة، معسكر الفتوحات الكبرى. وكان ينبغي انتظار نهاية القرن الثالث للهجرة/بداية القرن العاشر للميلاد حتّى يشيّد أبو الهيجاء الحمداني فوق الضريح مقامًا أعاد بناءه في ما بعد، سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م، البويهيي عضد الدولة الذي شاء اعطاءه مظهرًا ذا جلال. وقد اتّسعت الضواحي المحيطة بهذا الصرح بحيث أدّت إلى بناء سورٍ حوله في سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م. وأسّس أوّل حاكم مسلم من السلالة الإيلخانية، هو قازان الموالي للشيعة، أوّل مركز ديني في النجف.

استمرّ تطوّر البلدة التي زارها لاحقًا السلطان العثماني سليمان القانوني. وظلّ تطورها، منذئذٍ مستمرًّا. تشكّل النجف، اليوم، إلى جانب كربلاء ومشهد وقُم، أحد أماكن «الزيارات» الشيعيّة المهمّة، وهي إحدى العَتبات أو «العتبات المقدسة» وتحتلّ، في الوقت نفسه، المركز الفكري الأكثر أهميّة عند الإماميّين الإثني عشريّين.

نجم الدين كُبرى ← كُبْرَوِيّة.

نجيب (محمّد)، ١٩٠١-١٩٨٤، أوّل رئيس للجمهوريّة في مصر، قاد انطلاقها لسنوات قليلة بعد «ثورة» ١٩٥٢.

وُلد في الخرطوم حيث شارك أبوه، وهو ضابط مصري، في استعادة السودان من المهدي، وبقي فيها. ترقّى إلى رتبة مقدّم في العام ١٩٤٠. فرض نفسه وطنيًّا باحتجاجه، في العام ١٩٤٢، على تعيين النحّاس باشا رئيسًا للوزراء. ثمّ رُقي الى رتبة عميد وشارك في حرب فلسطين، في العام ١٩٤٨، واتّصل بالجمعيّة السريّة للضباط الأحرار، بينما ساعدته شعبيّته في الجيش على ترشيحه ثلاث مرات، في العام ١٩٥٢، لوزارة الحرب. هذه الشعبيّة وشهرته رجلًا حكيمًا ومعتدلًا أهّلتاه ليتولّى، بعد انقلاب الضباط الأحرار في ٢٣ تموز ١٩٥٢، قيادة الحركة، بناء على اقتراح جمال عبد الناصر. وقّع بعد ذلك على أوّل بيان رسمي قرأه المقدّم السادات.

هكذا شكّل نجيب ضمانة شرعيّة للانقلابيّين الذين كانوا شبابًا غير معروفين لدى الرأي العام. فلم يعارض لا إلغاء دستور ١٩٢٣، ولا تأجيل الانتخابات لثلاث سنوات، ولا فرض الرقابة والمحاكم الاستثنائيّة، ولا التوقيفات الاعتباطيّة التي تلتها أحيانًا إعدامات. جعل منه سقوط المَلَكية، في ١٨ حزيران ١٩٥٣، الرئيس الجديد للجمهوريّة ورئيسًا للحكومة ورئيسًا لمجلس الثورة. لكنّ حكمه كان شكليًّا أكثر ممّا كان فعليًّا، والسياسة الموالية للإتّحاد بين مصر والسودان التي كان هو رمزها سقطت، في العام ١٩٥٤، لمصلحة العروبة، في الوقت عينه أعلن عبد الناصر حلّ جمعيّة الإخوان المسلمين من دون استشارته. أدّى ذلك إلى أزمة انتهت باضطراره إلى تقديم استقالته من رئاسة الحكومة، في نيسان ١٩٥٤، بعد أن قاوم وحاول إعادة النظام الدستوري. أما لقب رئيس الدولة الذي احتفظ به بعد هذا التاريخ فقد سُحب منه، في تشرين الثاني من العام نفسه، واضطرّ إلى البقاء في إقامة جبريّة في منزل في ضاحية القاهرة حتّى وفاة عبد الناصر.

نَخْجَوان (جمهوريّة أذربيجان)، بالعربية **نَشْوا**، ناحية قريبة من الحدود الحاليّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، تحيط بالمنطقة التي تقع فيها أراضي جمهوريّة أرمينيا المستقلّة. حازت المدينة القروسطيّة المبنيّة بالأجر أهميّة في أيّام السلاجقة والإيلخانيّين في أثناء تقدّم الترك ثمّ المغول نحو الشمال، وما لبث هؤلاء أن بدّلوا سكان هذه المنطقة وسرّعوا في أسلمتها. ذكر بعض المؤلّفين القدماء عددًا من الآثار في نَخْجوان منسوبة إلى ضياء المُلك، ابن نظام المُلك الذي كان وزير السلطان السلجوقي الكبير ملكشاه. من آثارها المعروفة حتّى اليوم ضريح، على شكل برج، من الطراز الهندسي المعتمد في إيران الإسلاميّة خلال القرون الوسطى.

النِّزاريّون أو النِّزاريّة، أتباع فرقة شيعيّة منبثقة من الإسماعيليّة الفاطميّة وُصفت، أحيانًا، بالإسماعيليّة الجديدة. كان تاريخها، منذ نهاية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، مضطربًا وقد نشأ عنها عدد من الدول. وفي القرن التاسع عشر كانت أساسًا لقيام نظام جديد، نصف علماني ونصف ديني، لمصلحة الآغاخان.

سجّلت هذه الفرقة أبرز نجاحاتها في العصور الوسطى في سوريا وإيران، بعد تميّزها بالدفاع عن قضية نِزار، الابن الأكبر للخليفة الفاطمي المستنصر. تعود هذه النجاحات بخاصة إلى اعتماد أعضائها الأساليب الإرهابية للتخلص من اعدائهم. بنى الفدائيّون الوارد ذكرهم في المؤلّفات التاريخيّة العربيّة، أو الحشّاشون كما تسمّيهم المصادر الغربيّة، قوّتهم على التعصب ومتانة مواقعهم المحصّنة، ولكنّهم لم يتمكّنوا، في نهاية القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، من الحؤول دون دمار دويلاتهم التي كانت تمتلك قلاعًا ظنّوها منيعة، كقلعتي ألَمُوت ومصياف.

بدأت الحركة، في العام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، قبل موت الخليفة المستنصر، بثورة أحد دعاة الدعوة الفاطمية الحسن بن الصبّاح، الذي دافع عن حقوق نِزار، متّخذًا قاعدة لنضاله قصر ألموت في بلاد الدَيلم، وكان قد استولى عليه في العام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م. إنّ إعلان أخي نزار الأصغر، المُستعلي، خليفة، واعتلاءه العرش في مصر بإرادة الوزير الأفضل كرّسا انقسام الإسماعيليّة الدائم إلى فرعين، أي النزاريّة وفرع أنصار المُستعلي أو المستعلية. في هذا الوقت، انصرف الحسن بن الصبّاح، بفعاليّة مخيفة، إلى تنظيم سيطرته السياسية. فقد أدّت الاغتيالات التي كلّف بها دعاته إلى نشر الهلع من هذه الدولة الفتيّة. ينسب المؤرّخون العرب إلى هؤلاء الدعاة عددًا كبيرًا من الاغتيالات في المجتمع الإسلامي. في العام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، كان مقتل نظام المُلك، وزير السلاجقة الكبار في إيران، المدافعين عن السنّة، ومقتل ابنه فخر المُلك، في العام ٤٩٩هـ/ ١١٠٦م، ومقتل قضاة أصفهان الداعين إلى الجهاد ضدّ الإسماعيليّة، في العام ٥٠١هـ/ ١١٠٨م، إضافة إلى جرح ابن نِظام المُلك الثاني الذي كان بدوره وزيرًا للسلاجقة، في العام ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م. وبعدئذٍ كان مصرع الأفضل نفسه في مصر، في العام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، ومصرع الخليفة الفاطمي الآمر، في العام ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م؛ وفي العراق مصرع الخليفتين العبّاسيّين المسترشد، في العام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م، والراشد، في العام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م؛ وفي المناطق الشرقيّة، مقتل السلطان الغوري مُعِزّ الدولة، في العام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، وذلك على الرغم من أن ردّة فعل قوية برزت، في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، في مختلف أنحاء الشرق، ضدّ جماعة ألَمُوت.

في موازاة ذلك، تنامى تعليم باطني، روحاني وفكري في آن، خاص بالنزاريّة تضمّنته كتابات الرئيس الأوّل للفرقة. ظهرت في هذا المذهب بعض التباينات مع الإسماعيليّة التقليديّة، وبخاصة مفهومه لتعليم سلطوي يضطلع به الإمام وهو يُعتبر ضرورة عقليّة. استمرّ أسياد ألَمُوت بنشر «الدعوة الجديدة»، فيما تميّز رابعهم المسمى حسن، بإعلانه، في العام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، باسم الإمام الذي يمثّل، ساعة القيامة مُلغيًا، بصفته التمثيليّة هذه، تطبيق الشريعة الإسلاميّة. بعد مقتل حسن، وقعت على كاهل ابنه محمّد صياغة أفكار والده من جديد وتحسينها. من جهة، اعتبر أباه إمامًا أصيلًا من سلالة نِزار الذي لجأ، بحسب زعمه، إلى ألَمُوت. من جهة ثانية، برّر دعوته إلى «القيامة» بأنّها استغراق في الله من خلال الحقيقة السامية للإمام التي ترفعه فوق مرتبة النبيّ محمّد (ﷺ). هكذا اقتربت النزاريّة من الصوفيّة، علمًا أنّها عرفت أزمات داخليّة أخرى لأنّ خلفاء المعلّم الكبير محمّد أعادوا جزئيًّا تطبيق الفرائض الإسلاميّة. في الواقع، بقي الفكر النزاريّ سرّيًّا لكنّه كان موضوع تعمّق فلسفي مستمرّ، وظلّ حيًّا في إيران حتّى بعد تدمير ألَمُوت، أحيانًا تحت غطاء نظريّات صوفيّة، ليعود بصورة أوضح الى الظهور ابتداءً من القرن السادس عشر.

سياسيًا، أقام الإسماعيليّون الجدد مركز سلطتهم في إيران، أي في قلعة ألَمُوت والمواقع القريبة منها، ونمت في سوريا أيضًا مجموعة نزاريّة ارتبط اسمها بقلاع قائمة في «الجبل»، في شمال غربيّ البلاد، وبخاصة في قَدموس، في العام ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م، وفي مصياف. من هنا كانوا، في العام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م، يحكمون مجموعة من القلاع، وقد شاركوا إخوانهم بالمذهب في إيران في الاغتيالات السياسيّة المذكورة أعلاه. وإذا كانوا لم يوفّقوا أبدًا في البقاء في مدن مثل دمشق أو حلب حيث كان لهم في البداية، أي في آخر القرن الخامس

للهجرة/الحادي عشر للميلاد، نفوذٌ كبيرٌ، ذلك لأنّه قُضي عليهم هناك في أثناء ردّة فعل السنّة، لكنّهم استطاعوا الإفادة، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، من تقاسم سوريا بين دول الفرنج والمسلمين ليجعلوا مواقعهم المحصّنة، على طول خط الحدود، مراكز لإمارة حقيقيّة.

أشهر الزعماء الذين حكموا هذه المواقع معترفين بسلطة أسياد ألَمُوت، من دون مشاطرتهم نظرياتهم الكلاميّة، كان رشيد الدين سنان الذي سماه الفرنج «شيخ الجبل». تراجعت قوّتهم في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد إذ خضعوا، من دون مقاومة كبيرة، للمماليك ثمّ للعثمانيين الذين فكّكوا قلاعهم بانتظار تراجعهم، في القرن التاسع عشر، أمام «النصيريّة الذين كانوا يقيمون أصلًا في الشمال. أصبحت مدينة السلميّة المركز الجديد للإسماعيليّين في سوريا.

في هذا الوقت، نتيجةً للاجتياح المغولي، سقطت الدولة النزاريّة المركزيّة في إيران التي كان «الجبل» في سوريا تابعًا لها والتي كانت ممتلكاتها المحميّة بقوّة تشمل، حول ألَمُوت، ناحية رودبار بكاملها في طَبرستان ونقاط ارتكاز مهمّة في قومِس وفارس وقهستان وحتّى في بَذَخْشان. أدّت الكارثة التي تلت الاستيلاء على ألَمُوت وتدميرها على يدي هولاكو، مؤسّس دولة الإيلخانيّين، إلى إنهاء مرحلة التوازن والتقارب القصيرة مع السنّة التي تأثّر خلالها المعلّمون الكبار بنُفوذ الخليفة العبّاسي الناصر وشاركوا في سياسته المعارضة لطموحات الخوارزمشاهيّين. لكنّ ممثّلي الفرقة لم يختفوا كليًّا: فبرز في صفوفهم، في القرن التاسع عشر، إمام جديد، أصبح يعرف باللقب الإيراني آغا خان، وقد فرض الاعتراف بسلطته المعنويّة في الهند بفضل الدعم البريطاني وأصبح رئيس جماعة الخوجيّين الغنيّة.

المعلّمون الكبار في ألَمُوت ما بين العامين ٤٨٣ و٦٥٤هـ/ ١٠٩٠ و١٢٥٦م:

حسن الصبّاح	٤٨٣-٥١٨هـ/ ١٠٩٠-١١٢٤م
كيا بُزُرك أُميد	٥١٨-٥٣٢هـ/ ١١٢٤-١١٣٨م
محمّد الأوّل	٥٣٢-٥٥٧هـ/ ١١٣٨-١١٦٢م
الحسن الثاني على ذِكره السلام	٥٥٧-٥٦١هـ/ ١١٦٢-١١٦٦م
نور الدين محمّد الثاني	٥٦١-٦٠٧هـ/ ١١٦٦-١٢١٠م
جلال الدين حسن الثالث	٦٠٧-٦١٨هـ/ ١٢١٠-١٢٢١م
علاء الدين محمّد الثالث	٦١٨-٦٥٣هـ/ ١٢٢١-١٢٥٥م
رُكن الدين خورشاه	٦٥٣-٦٥٤هـ/ ١٢٥٥-١٢٥٦م

◀ راجع المستندين ١٧ و١٨.

النّسائي أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شُعَيب، ؟ - ٣٠٣/ هـ؟- ٩١٥م، مؤلّف أحد المصنّفات السنة الأصيلة للحديث الشريف.

قام هذا العالِم، الذي يكتنف حياته الغموض، برحلات كثيرة لجمع الأحاديث. أقام في مصر ثمّ في دمشق حيث يُظنّ أنه مات إثر معاملة سيّئة. لقد أُخذ عليه بالفعل ولاؤه لعلي ومعارضته للأمويّين الذين كان ذكرهم ما يزال حيًّا عند الشعب.

النسائيّون ← **ديار بكر**.

النّسيج ← **الأنسجة الإسلاميّة**.

نَصر (آل) أو بنو الأحمر، ٦٣٥-٨٩٨هـ/ ١٢٣٧-١٤٩٢، سلالة حكمت آخر مملكة إسلاميّة في الأندلس، أي مملكة غرناطة.

كان مؤسّس هذه السلالة أميرًا عربيًّا اسمه محمّد بن يوسف المدعو ابن الأحمر والملقّب بالغالب. كان يُرجع نسبه إلى سعد بن عُبادة من أهل المدينة. نجح ابن الأحمر، إبّان انحلال سلطة الموحّدين في شبه الجزيرة الإيبريّة، في السيطرة على مدن عدّة وصولًا إلى غرناطة، في العام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، حيث شيّد دار إقامة له محصّنة عُرفت، من بعد، باسم «قصر الحمراء» الشهير الذي ما يزال قائمًا حتّى اليوم. إلّا أنّه اضطرّ، لبلوغ مراده، إلى أن يعلن نفسه تابعًا لملك قشتالة فرديناندو الثالث. وقفت مملكته عند حدود الجبال العالية في الشمال، وامتدّت جنوبًا حتّى الساحل، من جبل طارق إلى ألمريّة.

ورث الحكم ابنُه وحفيداه الذين ملكوا حتّى العام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م. خلال هذه الفترة، حاول بنو نصر التحالف مع المرينيّين في المغرب، فاستطاعوا الحصول، لقاء التنازل عن الجزيرة الخضراء، على دعمهم ضدّ أعدائهم القشتاليّين، واستفادوا من ميليشيا مغربيّة وضعت تحت سلطة قائد تابع لأسياد مراكش. أمّا

رابع ملك من السلالة، واسمه نصر، فأبعده إسماعيل، أحد أفراد الأسرة الذي حكم ما بين العامين ٧١٣ و٧٢٥هـ/ ١٣١٤ و١٣٢٥م، والذي نجح في استعادة بعض مواقع المملكة السابقة. بعد ذلك بمدّة، لم يستطع يوسف الأوّل، على الرغم من دعم المرينيّين له، مواجهة المسيحيّين الذين أنزلوا في الجيوش الإسلاميّة هزيمة كبيرة في ريو سلادو (Rio Salado) في العام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. على الرغم من ذلك، استطاع يوسف تشييد عدد من المباني الرائعة في الحمراء. تميّز تاريخ آخر ملوك بني نصر بالخلافات الداخليّة وبالنزاعات المستمرّة مع القشتاليّين. ومع حلول عهد الملكَيْن الكاثوليكيّين، فردينان ملك أراغون وإيزابيل وريثة عرش قشتالة، تضاعف ضغط الحملات المسيحيّة. وهكذا، اضطرّ آخر ملوك بني نصر، محمّد الحادي عشر المعروف باسم أبي عبدالله، إلى التخلّي تدريجيًّا عن أهم ممتلكاته، بدءًا من العام ١٤٨٢م، إلى أن غادر غرناطة في الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢م، لينهي حياته في المغرب.

على الرغم من صغر مساحة مملكة بني نصر وتبعيّتها الجزئيّة التي سمحت لها بالاستمرار، كانت بمثابة مركز حضاري لامع. ترمز إلى ازدهارها الفنيّ زخرفة قصر الحمراء الراقية. لقد رعت المملكة أيضًا حياة فكريّة نشيطة، كان ابن خلدون من الذين شاركوا لفترة فيها. وكان أبرز ممثّلي هذا النشاط الوزير لسان الدين بن الخطيب صاحب مصنّف وقائع وُضع بلغة عربيّة مميّزة.

محمّد الأوّل الغالب المعروف بابن الأحمر	٦٢٩-٦٧١هـ/ ١٢٣٢-١٢٧٣م
محمّد الثاني الفقيه	٦٧١-٧٠١هـ/ ١٢٧٣-١٣٠٢م
محمّد الثالث المخلوع	٧٠١-٧٠٨هـ/ ١٣٠٢-١٣٠٩م
نصر	٧٠٨-٧١٣هـ/ ١٣٠٩-١٣١٤م
إسماعيل الأوّل	٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م
محمّد الرابع	٧٢٥-٧٣٣هـ/ ١٣٢٥-١٣٣٣م
يوسف الأوّل	٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م
محمّد الخامس (الغانم)	٧٥٥-٧٦٠هـ/ ١٣٥٤-١٣٥٩م
إسماعيل الثاني	٧٦٠-٧٦١هـ/ ١٣٥٩-١٣٦٠م
محمّد السادس	٧٦١-٧٦٣هـ/ ١٣٦٠-١٣٦٢م
محمّد الخامس (أيضًا)	٧٦٣-٧٩٣هـ/ ١٣٦٢-١٣٩١م
يوسف الثاني	٧٩٣-٧٩٤هـ/ ١٣٩١-١٣٩٢م
محمّد السابع المستعين	٧٩٤-٨١٠هـ/ ١٣٩٢-١٤٠٧م
يوسف الثالث	٨١٠-٨٢٠هـ/ ١٤٠٧-١٤١٧م
محمّد الثامن (المتمسّك بالله)	٨٢٠-٨٣١هـ/ ١٤١٧-١٤٢٧م
محمّد التاسع (الصغير)	٨٣١-٨٣٣هـ/ ١٤٢٧-١٤٢٩م
محمّد الثامن (أيضًا)	٨٣٣-٨٣٥هـ/ ١٤٢٩-١٤٣٢م
يوسف الرابع	٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م
محمّد الثامن (للمرة الثالثة)	٨٣٥-٨٤٩هـ/ ١٤٣٢-١٤٤٤م
محمّد العاشر (الأحنف)	٨٤٨-٨٤٩هـ/ ١٤٤٤-١٤٤٥م
سعد المستعين	٨٤٩-٨٥٠هـ/ ١٤٤٥-١٤٤٦م
محمّد العاشر (أيضًا)	٨٥٠-٨٥٧هـ/ ١٤٤٦-١٤٥٣م
سعد (أيضًا)	٨٥٧-٨٦٦هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م
علي (أبو الحسن)	٨٦٦-٨٨٧هـ/ ١٤٦١-١٤٨٢م
محمّد الحادي عشر	٨٨٧-٨٨٨هـ/ ١٤٨٢-١٤٨٣م
علي (أيضًا)	٨٨٨-٨٩٠هـ/ ١٤٨٣-١٤٨٥م
محمّد الثاني عشر (الزغل)	٨٩٠-٨٩٢هـ/ ١٤٨٥-١٤٨٦م
محمّد الحادي عشر (أيضًا)	٨٩٢-٨٩٧هـ/ ١٤٨٦-١٤٩٢م

◄ راجع المسندين: ١٥ و١٦.

النُّصَيْرِيَّة، المعروفة منذ حوالى نصف قرن بالعَلَويّين أي «مشايعي علي». هم أتباع حركة شيعيّة مغالية وتوفيقيّة انفصلت، في أواخر القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، عن الإماميّة الاثني عشريّة.

كان النصيريّون، في العصور الوسطى الإسلاميّة، موضوع إدانات قاسية من قبل سلطات السنّة. لكنّهم، على الرغم من ذلك، استمرّوا في سوريا حتّى الفترة المعاصرة، في منطقة واقعة إلى الشمال الغربي في الجمهوريّة العربيّة السوريّة الحاليّة، بخاصة حول مدينتي جَبْلة واللاذقيّة، وتعرف هذه المنطقة بـ«بلاد العلويّين». هذه الجماعة المحصورة بإحكام في المكان، لعصور طويلة، أفادت من التحوّلات في الشرق الأدنى، خلال القرن العشرين، وبخاصة من نظام التسامح للانتداب الفرنسي، لتخرج من عزلتها. إليها تنتمي اليوم الأوساط الحاكمة التي تكوّنت تدريجيًّا حول الرئيس السوري حافظ الأسد، وذلك منذ وصول هذا الأخير إلى الحكم في بداية السبعينات من القرن العشرين.

يُنسب تأسيس هذه الطائفة، خلال عهد الخلفاء العباسيّين، إلى محمّد بن نُصَيْر النميري العَبْدي، المتوفّى حوالى العام ٢٧١هـ/ ٨٨٤م، الذي عاش في البصرة، وساند الإمام العاشر العلوي علي الهادي معتبرًا

إياه تجسّدًا إلهيًّا، ومقدِّمًا نفسه على أنّه الناطق باسمه ووريثه أي الباب. على أنّ تاريخ أنصاره ما يزال غامضًا. لكن، من المعروف أنّهم أفادوا، في شمال سوريا، من دعم الحمْدانيّين السياسي في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وأنّهم نجحوا في الاستقرار في المنطقة الجبليّة من جبل النصيريّة الذي يحمل حتّى اليوم اسمهم، ومنه طردوا النزاريّين من الشيعة الإسماعيليّة. انقسموا، في القرن الخامس عشر، مجموعتين: الشماليّة أو الحيدريّة والقمريّة.

تبنّى النصيريون السريّة في نشر عقيدتهم، ولذلك ظلّت غير واضحة، متوافقة، على ما يبدو، مع حركات باطنيّة على هامش الاسلام وشريعته، ومتجاوزة ذلك إلى اقتباس عناصر من المسيحيّة والزرادشتيّة. لذا صنّفهم مؤلّفو كتب البدع المسلمون في فئة الشيعة المتطرفين أي **الغُلاة**. إنّ ايمانهم بالتجسّد واعتقادهم بألوهيّة المهدي المنتظر واكبا ترقيهم المميّز لعلي. كان بالنسبة إليهم الظهور السابع والأخير لله الواحد المتجلّي عبر ثلاثي يمثله معًا كلّ من: علي، **المَعْنى** المتماهي والنور، والنبيّ محمّد (ﷺ)، وهو **الحِجاب** أو **الاسم**؛ وسلمان الفارسي، الباب. لكنّ مثل هذه المعتقدات، المحصورة بالمريدين، بحسب العادات التي تميّز تنظيم كل الفِرق الإسلاميّة، كانت تفرز مكانًا في معتقدات الديانة الشعبيّة لعقيدة خلاصيّة حيّة، مهيّأة لإثارة حركات عصيان ملتهبة، كانت إحداها مذهلة بصورة خاصة، في بداية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، فأخمدها المماليك بالقوّة إذ كانوا حُرصاء على التخلّص من الأقليّات المنشقّة العديدة في سوريا، لكنّهم لم يستطيعوا كبح جماح روح المقاومة عند النصيريّين المتعلّقين بالأرض التي اختاروها.

أدّت صلابة هذا التجذّر الإقليمي لفلاحين يشكّلون جماعة متجانسة دُمجت، بعد الحرب العالميّة الأولى، في ما أصبح دولة سوريا الحديثة تحت الانتداب الفرنسي، تدريجيًّا، إلى انطلاقة جديدة للطائفة. أوّلًا، ظهر تأثير السلطة المنتدبة التي شجّعت، سعيًا منها إلى إضعاف التيّارات القوميّة العربيّة، من جهة، والتركيّة من جهة ثانية، التوجّهات الانفصاليّة لدى أقليّة منحتها نوعًا من الاستقلاليّة الذاتيّة في ما اعتُبر إقليمًا، في العام ١٩٢٠، ثمّ دولة العلويّين في العام ١٩٢٢، التي تحولت إلى حكومة اللاذقيّة، في العام ١٩٣٠.

ساعدت هذه المبادرة التي اختفت آثارها المباشرة مع نهاية الانتداب، على نمو طبقة وسطى علويّة لم تخسر شيئًا من تحفّظاتها تجاه هيمنة السنّة الذين يشكّلون الأكثريّة في سوريا المستقلّة، بينما أُتيحت لها وسائل جديدة للضغط، بفضل اللعبة الديمقراطيّة. فقد كانت هناك أحزاب عمدت كلّها، على الرغم من الفروقات بينها، إلى استقطاب المنتمين إليها من أوساط دينيّة مختلفة. فيسّرت للعلويّين ولغيرهم من العناصر المنشقّة، مثل الدروز، حيازة أهميّة موازية للدور الناشط الذي ينهض به المنتمون الى هذه الأحزاب.

وهكذا استطاع علويٌّ مثل حافظ الأسد، وهو ضابط سابق وأحد قادة حزب البعث، أن يصلَ إلى الحكم في العام ١٩٧٠ وأن يوطّد، منذ هذا التاريخ، المكانة الأولى في المجتمع السوري لأقليّة تمثّل ثلاثة عشرة بالمئة من مجموع سكان البلاد. من هذا المنطلق، تكوّنت مجموعة سياسيّة وعائليّة ضُمِنَ ولاؤها باختيار أعضائها من المقرّبين من السلطة، وأمسكت بوتيرة نظام الحكم في سوريا، على الرغم من بروز فتن داخليّة عدّة أُخمِدت بقساوة. ليس في مقدورنا، حتّى الآن، أن نتبيّن - بالنسبة الى طائفة تماهت والسلطة المركزيّة وحازت امتيازات عظيمة - إذا كان ذلك يواكب تحوّلًا في أهدافها، خصوصًا أنّ مجال نفوذها يغطّي حاليًّا سوريا بكاملها، أو إنّه، في النهاية، سيؤدّي الى تدعيم تجذّرها المحلّي التقليدي. ثمّة مصالح علويّة أخرى ترتبط سياسيًّا بالتطورات، إمّا في لبنان حيث استقرّ نصيريّون منذ العهد العثماني في بعض القرى، وإمّا بمنطقة حتاي (Hatay) اسكندرون سابقًا التي أدى ضمّها إلى تركيا في العام ١٩٣٩ إلى هجرة علويّة من دون أن يمنع بقاء بعض العلويّين في أرضهم حيث يسميهم الأتراك «ألفي» (alevis)، وهي تسمية تشمل بعض الفئات الشيعيّة الأخرى.

النَّظّام، **إبراهيم بن سَيّار**، ؟ -٢٣١هـ/ ؟-٨٤٥م، عالم كلام معتزليّ ضاعت كتاباته، لكنّ آراءه الرئيسة معروفة

من خلال مصنّفات لاحقة.

نشأ في البصرة حيث قضى فترة من حياته قبل الانتقال إلى بغداد. تتلمذ على أبي الهُذَيل لكنّه انفصل عنه ليؤسّس مذهبًا كلاميًّا مستقلًّا. أدّت به أفكاره إلى توجيه نقد حادّ الى الدّهريّين وإلى تطوير مفهوم للعالم يُحِلّ مكان المذهب الذرّي الذي كان أبو الهُذَيل يدافع عنه، مبدأ تداخل الأجسام والنظريّة المعروفة بـ«الطفرة». وقد استوحى هذا المفهوم للعالم من الأفكار اليونانيّة، على ما يبدو، لكنّ علماء الكلام المسلمين وحتّى أهل الفلسفة رفضوا طروحاته.

النظام الضريبي الإسلامي، هو مجموعة التدابير المتفرّعة من أوامر وردت في القرآن والسنّة أُقيم عليها، في العصور الوسطى، نظام متشعّب الجوانب يشمل الضرائب والرسوم والاقتطاعات التي تلبّي حاجات مختلف الدول الإسلاميّة، وذلك بتنفيذ مقرّرات الشريعة ومبادئ «الخُلُقيّة الإقتصاديّة».

تتّسم التدابير المنصوص عليها في القرآن بالسهولة، نسبيًّا. فعلى المسلمين أداء ضريبة تُعرف بالزكاة يمكن تسميتها «الصَّدقة» أو ضريبة التضامن، وهي أحد «أركان» الإسلام الخمسة. أمّا غير المسلمين الخاضعين لسيطرة الإسلام، فعليهم أن يؤدّوا ضريبة تعرف بالجِزْية وتوصف أحيانًا بضريبة الرؤوس. يُضاف إلى ذلك غنيمة الحرب التي ينبغي أن توزّع بين المقاتلين بحسب قواعد دقيقة حالت قرارات الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب دون تطبيقها على الأملاك العقاريّة [=الخراج] التي استولى عليها المسلمون.

واقع الأمر أنّ النظام الضريبيّ الذي اعتُمد بعد الفتوحات الكبرى العربيّة - الإسلاميّة، بموجب التشريع المتعلّق بالأراضي المقرّر آنذاك، ترك الباب مفتوحًا لتنوّع كبير في المعايير والطبائع المتعلّقة بالضريبة. وما لبث أن ازداد تعقيدًا بسبب التطوّر الذي روعي، بعيد ذلك، خلال حكم الأمويّين. وهكذا جاءت الحال التي نشأت منه مغايرةً، إلى حدّ، لما نصّت عليه النصوص القرآنيّة.

كانت جباية الضريبة العقاريّة على نوعين: العشر الموافق الزكاة، والخراج الذي كان أثقل على كاهل المكلّف، مع الإشارة إلى أنّ الاختيار بين هذين الأسلوبين في الاقتطاع ظلّ مرتبطًا بوضع كل أرض على حدة. كانت جباية المبالغ المستحقّة تجري بحسب ثلاث طرائق: - تسديد مبلغ محدّد يراعي مساحة الأرض ونوعيّة التربة، ويتنوّع تبعًا لريّ الأرض بشكل طبيعي أو بوسائل اصطناعية؛ - دفع مبلغ يتلاءم ومحصول الأرض؛ - أداء مبلغ مقطوع يُسدَّد سلفًا. في الحالة الأولى، كانت ضريبة الخراج تجبى على يدي مزارع بتسديده، مسبقًا، دفعة على الحساب لبيت المال. وكان ذلك يجري خلال فترة تطابق، على وجه التقريب، موسم غلّة الأرض، وقد استدعى ذلك تعديلات مستمرّة تأخذ في الاعتبار التقويم الشمسي الذي كان ينظّم الأعمال الزراعيّة، وفي الوقت نفسه التقويم القمريّ الذي كانت تنتظم بموجبه الحياة الدينيّة والإجتماعيّة والسياسيّة في ديار الإسلام.

من جهة أخرى، كانت الضريبة المعهودة على المسلمين المعروفة بالزكاة أو أحيانًا بالصدقة - رغم أنّ التسمية الثانية تُطلَق عادةً على صدقة اختياريّة - تجبى على الأموال المنقولة. ويبدو أنّ النظام الضريبي كان يخضع لأُسس محليّة، ولم يكن مردوده خاضعًا لرقابة السلطة المركزيّة. أخيرًا، استمرّ العمل بضريبة الجزية المفروضة على غير المسلمين، إلّا أنّ طرق جباية هذه المجموعة من الضرائب استمرّت غير معروفة تمامًا. فالمعلومات الأكثر دقّةً الواردة في مدوّنات أهل النظر في هذه الأُمور ومؤرّخي الأحداث، وقفت عند جباية الخراج التي كان يُعهد بها في الأقاليم إلى شخص عرف بالعامل، وكان يتمتّع باستقلال في مسؤوليّته عن الحاكم والقاضي، ولم يكن مسؤولًا إلّا تجاه سلطة الخلافة.

خارج هذا الإطار، الذي كان يشكّل قاعدة غير ثابتة للنظام الضريبي المعمول به حتّى عهد قريب في جميع الدول الإسلاميّة، كان أهل السلطة يجبون ضرائب مختلفة يجدّدونها بحسب رغبتهم، ينظر إليها على أنّها غير شرعيّة في معظم الأحيان، إذ إنّها لم تكن قائمة على نصوص الوحي وسنّة النبيّ محمّد ﷺ. كان ذلك، على سبيل المثال، ينطبق على الرسوم المُجباة على مداخل المدن والتي عُمل بها خلال القرن الرابع الهجري/

العاشر الميلادي في أمبراطورية العبّاسيّين، أو على الرسوم المفروضة على بعض المعاملات التجاريّة أو تلك المتعلّقة ببعض السلع الثمينة، بصورة أساسيّة في المحيط المُدني، وهي جميعًا ضرائب كان العمل بها مدار انتقاد يؤدّي أحيانًا إلى رفعها بصورة موقّتة. على سبيل المثال، هذه الضرائب المتعدّدة التي كانت تفرض على أسواق المدن ومختلف النقابات الحرفيّة في عهد سلطة المماليك المبسوطة على الديار السوريّة - المصريّة، إبّان حكم بعض أمراء القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي على المنطقة، بلغنا ذكرها من خلال قرارات إلغائها. وهذه القرارات كانت تُنشر دوريًّا - عند تسلّم أحد السلاطين الحكم أو خلال زيارته لمدينةٍ ما - وتنقش، كي يراها الجميع، على مبانٍ حيث حُفظت لنا مضمونة الدقّة والبقاء، أكثر من ورودها في نصوص المصادر التاريخيّة. إلّا أنّ هذه تذكر لنا، إضافةً إلى ذلك، قرارات تفوقها في القِدَم تتعلّق برفع الضريبة، مثل تلك التي اتّخذها، خلال خلافة العبّاسيّين، وزير لهم في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي مثل عليّ بن عيسى، وهي كذلك تقدّم لنا تفاصيل أُخرى حول هذا الموضوع، مثل اللوائح الدقيقة للرسوم المُجباة في مدن الولاية السوريّة، عشيّة الغزو المغولي في العام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.

يُضاف إلى هذه المقتطفات، المعهودة أو الاستثنائيّة، التي كانت تُفرض على سكّان منطقة معيّنة، ضرائب ماليّة على الأنشطة التجاريّة. وكانت هذه تجبى عند دخول الحدود، وذلك على منتجات مستوردة أو حتّى سِلَع عابرة إلى منطقة أخرى. هذه الضريبة المفروضة على التجّار من الأجانب كانت تبلغ عشرة بالمائة، ويبدو أنّها نسخت عن الضريبة البيزنطيّة. إلّا أنّ هؤلاء التجّار، في حال إقامتهم في البلد نفسه، كانوا يؤدّون ضريبة مخفّضة مقدارها، لغير المسلمين، خمسة بالمائة وللمسلمين إثنان ونصف بالمائة، ولو أنّ هذه الفروق لم تكن لتراعى باستمرار، من الناحية العمليّة. من جهة أخرى، كان يضاف إلى رسوم الدخول المحدّدة، في مرفإ مثل الإسكندريّة، ضرائب أخرى على مُسافنة البضائع أي نقلها من سفينة إلى أخرى، أو، على سبيل المثال، على وزنها، بحيث أنّ مجموع المبالغ المسدَّدة من قِبل التجّار عند ورودهم كانت تجاوز من بعيد مبلغ رسوم الجمرك، وهذه بدورها كانت تحدَّد بشكل كيفيّ.

ولدينا، على هذه الممارسة الكيفيّة خلال القرون الوسطى الإسلاميّة، تجاه المسلمين كما تجاه الأجانب، في ما يتعلّق بفرض الرسوم عليهم والضرائب، رواية وصلتنا من آخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، خلّفها لنا الرحّالة ابن جُبير. فقد ورد فيها، بكلام مباشر وحيّ، ذكر أنواع الإبتزاز الذي كان ضحيّته أشخاص آتون من المغرب أو الأندلس بالسفينة، لدى وصولهم إلى مصر الأيوبيّة وخلال عهد صلاح الدين، ليسلكوا، بعدئذٍ، طريق الحجاز إبتغاء الحجّ. كانت ممارسات القسوة عليهم من قبل مأموري الضريبة لمصلحة الحاكم، تقترن بسعيهم إلى تبرير شرعيّ التخريج للضرائب التي يفرضونها تعسّفًا على أنّها زكاة. يقول ابن جبير:

«شهر ذي الحجّة من السنة المذكورة [٥٧٨هـ]

«أوله يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالإسكندرية. فمن أول ما شاهدنا فيها، يوم نزولنا، أن طلع أمناء إلى المركب، من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جُلب فيه.

«فاستُحضر جميع من كان فيه من المسلمين، واحدًا واحدًا، وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كلّ واحد عمّا لديه من سلع أو ناضّ[٥٠٦]، ليؤدّي زكاة ذلك كلّه، دون أن يبحث عمّا حال عليه الحول من ذلك أو لم يحُل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة، لم يستصحبوا سوى زادٍ لطريقهم. فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل هل حال عليه حول أم لا.

«واستنزل أحمد بن حسّان منّا، ليُسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب، فطيف به مرقَّبًا على السلطان أولًا، ثم على القاضي، ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يُستفهم ويقيَّد قوله، فخُلّي سبيله.

«وأُمر المسلمون بتنزيل أسبابهم، وما فضل من أزودتهم، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكّلون بهم، وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان. فاستدعوا واحدًا واحدًا، وأُحضر ما لكل واحد من الأسباب، والديوان قد غصّ بالزحام. فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دقّ منها وما جلّ، واختلط بعضها ببعض، وأُدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثًا عمّا عسى أن يكون فيها، ثم استُحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا. وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس، لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام، ثم أُطلقوا بعد موقف من الذلّ والخزي عظيم».

(رحلة ابن جُبير، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ١٢-١٣).

نظام الدين أولياء البَدايوني، ٦٤٠-٧٢٥هـ/ ١٢٤٣-١٣٢٥م، صوفي وَرِع ينتمي إلى الطريقة الجشتيّة، اشتهر في حياته، في دلهي، واعظًا، ما يزال قبره القائم في هذه المدينة موضع توقير.

وُلد في بدايون، من عائلة قدِمت من بخارى، في إقليم هندي سيطر عليه الإسلام منذ كان فتح الغوريّين له في نهاية القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. كان هذا الصوفي الجشتيّ في عداد «الأشخاص» الذين انتقاهم فريد الدين مسعود، المعروف بـ غَنْج شَكَر، ليَخْلفوه. نشر الدعوة في عاصمة سلاطين دلهي حيث أفلح مع النبلاء والفقراء معًا. ما يزال ضريحه الشهير الذي بُنِيَ بأمر من السلطان التُغلُقي في هذه المدينة، مقصد زيارات تقويّة، محاطًا بقبور أتباعه وأصدقائه، ومن بينها قبر الشاعر الموسيقي أمير خُسرَو الدَّهْلَويّ.

نِظام المُلك الحسَن بن علي، ٤٠٨-٤٨٥هـ/ ١٠١٨-١٠٩٢م، وزير إيراني عمل لإثنين من السلاطين المشهورين في أوج عهد السلالة السلجوقيّة، وبرز رجل دولة مميَّز.

أصله من طُوس في خُراسان حيث أصبح حاكمًا بعد دخول الأتراك الغزّ إليها منتصرين. كان الحاكم الشاب قد تلقّى ثقافةً دينيّة وحصل في ما بعد على لقب شرف هو نِظام المُلك. ثمّ أصبح وزيرًا لألب أرسلان، في العام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م، عندما اعتلى هذا الأخير العرش وأعدَمَ الوزير الكندري. احتفظ بهذا المنصب في عهد ابن ألب أرسلان ووريثه مَلِكشاه، إلى أن اغتيل بدوره قُبيل وفاة السلطان نفسه الذي كان قد أوكل إليه سلطاته. طوال هذه الحقبة، نهض نِظام المُلك بأعباء إدارة الدولة السلجوقيّة التي كان سلاطينها أتراكًا وأهل حرب بخاصة، فكان بذلك هو الحاكم الفعلي والمعنوي. يُنسَبُ اليه بحثٌ سياسيّ باللغة الفارسيّة يشدّد فيه على فكرة محوريّة حاول تطبيقها في الممارسة، ألا وهي التداخل بين الدين والدولة. وإذا كان طالب بطاعة غير مشروطة لإرادة السلاطين الجدد الذين تضمّن لقبهم عبارة «ظلّ الله على الأرض»، فإنّه يعيد هذا المجد إلى التولية التي كان يمنحهم إيّاها الخلفاء السُّنة العبّاسيّون الذين لم يتنكّر قطّ لأولويّتهم. لقد سهر على ازدهار السلطنة إقتصاديًا، وبحسب بعض المؤرّخين، عمل على توطين التركمان غير المنضبطين الآتين من آسيا الوسطى في الأراضي الإيرانيّة، مطبِّقًا في هذه الأراضي نظام الإقطاع الذي اعتمده البويهيّون في العراق، والذي يعني إعطاء الزعماء العسكريّين حقّ جباية الضرائب عن الأراضي الخَراجيّة، وكان ذلك بمثابة أجرٍ لهم.

لكنّ الإنجاز الرئيس لنظام الملك يبقى، من دون شك، زيادة عدد المدارس المعتمدة على الأوقاف لتدريس الفقه، مع تأمين سكن الأساتذة ورواتبهم وحاجات الطلّاب. أنشأ الوزير، في العام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م، مدرسة في بغداد بقيت مشهورة باسم النظاميّة؛ كما يسَّرت عطاياه، في ما بعد، تأسيس العديد من المدارس التي أُطلقت عليها التسمية نفسها، في مدن إيرانيّة وفي بلاد ما بين النهرين العليا. كانت هذه المدارس كافةً على المذهب الشافعي الذي أراد نظام المُلك المساعدة على نشره في العراق، إنطلاقًا من مركز حكمه في أصفهان، في حين كان يشجّع، في الوقت نفسه، ازدهار المذهب الأشعري.

في هذا الموضوع، واجه معارضة شرسة من قِبل الحنبليّين الذين أرغموه على تنحية بعض الأساتذة والقبول بأن يستمرّ عدد من المدارس السنيّة يتقاسم إمكانيّات الدراسة والتعليم. لكن قامت في وجهه معارضة أشدّ عنفًا لمحاولته التنظيميّة هذه من قِبل الإسماعيليّين النِزاريّين أو الحشّاشين الذين كان يحارب مواقفهم الدينيّة وطموحاتهم السياسيّة. تحت ضربات هؤلاء هلكت بوحشيّة هذه الشخصيّة التي كانت أفضل دعامة لقوة السلاجقة الكبار والضامنة، لأمدٍ قصير، لمتانة أمبراطوريّتهم.

النِظامشاهيّون ← **دولت آباد، الدكَّن.**

النِظاميّة ← **الجشتيّة.**

النُّعمان (القاضي) اسمه الكامل القاضي أبو حنيفة **النُعمان بن أبي عبدالله محمّد... التميمي الإسماعيلي** المَغربي، ؟-٣٦٤هـ/ ؟-٩٧٤م، فقيه وعالم كلام، نال حظوةً لدى الخلفاء الأوائل من سلالة الفاطميّين. خلّف مؤلّفات أساسيّة للوسط الإسماعيلي.

ينتمي النُّعمان إلى أُسرة مالكيّة من القيروان، اعتنق في حداثته المذهب الإسماعيلي الذي كان مذهب أسياد إفريقية الجدد. ودخل آنئذٍ، أي ما بين العامين ٣١٣ و٣٢٢ للهجرة/ ٩٢٥ و٩٣٤ للميلاد، في خدمة الفاطميّين في المنطقة: أوّلًا مع المهدي، ثمّ مع القائم والمنصور، وأخيرًا مع المعزّ. تبع هذا الأخير إلى مصر عندما انتقل مركز هذه السلالة إليها، وتوفي في الفُسطاط قرب القاهرة. عيّنه القائم قبيل موته، في العام ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م، قاضيًا ونعم بحظوة نادرة في عهد خلفائه. أُوكلت اليه، في عهد المُعزّ، مهمّة مراقبة مجمل التنظيم القضائي ولكنّه لم يحصل رسميًّا على لقب قاضي القضاة.

كان القاضي النُّعمان متخصّصًا في الفقه الإسماعيلي الذي عرضه في كتابه **دعائم الإسلام**. كتب أيضًا رسائل في العقيدة ومؤلّفات في تفسير القرآن وفي التاريخ. احتلّ كذلك مرتبة رفيعة في تراتبيّة **الدعوة الإسماعيليّة**، وعرض، في مجلّد قيّم بالنسبة إلى المؤرّخين، مراحل هذه الدعوة التي أدّت إلى قيام الخلافة الفاطميّة.

النَّفْس، مصطلح عربي، يترجم غالبًا بـ«الروح». حمّله تطوّر الفكر الإسلامي عبر الزمن، تباينات في الدلالة واعتبارات متنوّعة.

ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم، بمعنى «كائن بشري» و«نفس» في الوقت عينه. وبهذا المعنى الأخير يتخذ دلالات متعدّدة. فباستطاعة النفس أن تكون مُحرّضةً على السوء، وفي هذه الحال ينبغي السعي الى كبح جماحها. وهذا ما يفسّر، في الأدب الصوفي اللاحق، أنّ مصطلح «**نفس**» يعني «الأهواء». وللنفس أيضًا ملكة التأنيب أو هي الباعثة على الاطمئنان. هذا التمييز بين اتّجاهات مختلفة يعبّر عنها دومًا بمصطلح نفس هو في أساس علم النفس عند بعض المؤلّفين المسلمين. أمّا بالنسبة الى نفخة الحياة والروح، وحتّى الروح الإلهيّة، فيُطلق عليها في السياق نفسه لفظ **الروح**.

التحديدات المتعلّقة بكلّ من كلمتي **نفس** و**روح** تبقى، رغم ذلك، غامضة في الإسلام. يستوي في ذلك الفقهاء والمفكّرون الذين يستعملون هذين التعبيرين الواحد مكان الآخر، والذين نادرًا ما يذكرون مفهوم الروح ذات الماهيّة غير المادّية. فالفقهاء يعترضون، مثلًا، على مفهوم إخوان الصفا الذي يقول إنّ الإنسان مكوّن، من جسد ومن ماهية غير مادّيّة اسمها نفس. من جهة ثانية، اعتمد أتباع **الفلسفة** المفهوم الأرسطوطاليسي، الذي يميّز بين الأرواح الإنسانيّة والحيوانيّة والنباتيّة، من دون أن يتوصّلوا إلى فرض نظرتهم على رجال الدين. وحده الغزالي حاول اعتماد نوع من الحلّ الوسط بين المفاهيم التقليديّة والمفاهيم الفلسفيّة، معتبرًا وجود ماهيّة روحيّة في الإنسان. لكنّ هذه الفكرة لم تُعتمد بحيث أنّ فقيهًا حنبليًّا مثل ابن القيّم اعتبر **النفس** مماثلة **للروح** على غرار جسم خفيف يلازم الجسم المادّي في القبر بعد الموت في انتظار القيامة.

النفْس الزكيّة ← محمّد النفس الزكيّة.

نَفوسة، قبائل بربريّة من المغرب الشرقي، تحتلّ حاليًّا هضبة في ليبيا تقع في جنوب غرب طرابلس. تميّز أبناؤها عبر التاريخ بانضوائهم، منذ القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، الى مذهب الخوارج الإباضيّة المعتدل، ودعمهم، بسبب ذلك، الرُستميّين. وفي ما بعد، نتيجة عدائهم الشديد للفاطميّين الذين استقرّوا في إفريقية، هُزموا على أيدي هؤلاء في سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م. لكنّهم ظلّوا لحقبات تالية أوفياء لمعتقداتهم الإباضيّة، محاولين الإبقاء عليها بِلُجوئهم إلى الجبال حيث حافظوا على استقلالهم. وقد استطاع العثمانيّون، في القرن التاسع عشر، وإن بصعوبة، احتلال هضبة النفوسة، فاختار هؤلاء، في ما بعد، أي في سنة ١٩١٣، الخضوع للإيطاليّين.

◄ راجع المستند رقم ١٩.

نفيسة (السيّدة) أو الست نفيسة، ؟-٢٠٩هـ/ ؟-٨٢٤م، تقيّة وعالمة علويّة من نسل الحسن. مدفنها في القاهرة مكرّم كأنّه لولي، وهو مقصد زيارات تقويّة.

هي زوجة أحد أبناء الإمام العلوي السادس جعفر الصادق. ويُروى أنّها قدمت إلى مصر بصحبة زوجها، وماتت فيها بعد حياة مميّزة بالمعجزات أو الكرامات. أتاحت سمعتها للضريح الذي شيّد على قبرها في عهد الفاطميّين والذي كان واقعًا إلى جنوب مسجد إبن

طولون، تقاسُم الشهرة مع المقامات الأخرى الخاصّة بآل النبيّ محمّد (ﷺ)، مثل مقامات السيّدة زينب والسيّدة سُكَينة والسيّدة رُقَيّة، وهي ليست بعيدة عن ضريح الشافعي.

النَّقشبَنديّة، طريقة صوفيّة يعود اسمها إلى بهاء الدين النقشبندي (توفي في العام ٧٩١هـ/١٣٨٩م) الذي نظّمها، لكنّ القواعد الخاصّة بها وضعها يوسف الهمذاني (توفي في العام ٥٣٥هـ/١١٤٠م) الذي شدّد، بوجه خاص، على حصر الذكر بالفكر.

انتشرت هذه الطريقة في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، بين أتراك آسيا الوسطى الذين ارتبطوا عبرها بالسُنّة. أمّا امتدادها اللاّحق في جوار بلاد ما وراء النهر، من جهة باتّجاه الأناضول، ومن جهة ثانية باتّجاه شبه القارة الهنديّة، فلم يحُل، في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، دون احتفاظها بمراكز مهمّة في سمرقند وبخارى ومرو وهراة، بدفع خاص من قِبَل خُواجه أحْرار (توفي في العام ١٤٩٠م).

دخلت إلى الهند، في القرن السادس عشر، على يدي الفاتح بابُر المعجب بخواجه أحرار، واستمرّت ناشطة خلال حكم المغول، موجّهة سياسة بعضهم وملهمةً جزئيًا عقيدة أحمد سيرهندي الذي عارض التوجهات التوفيقيّة للملك أكبر. واقع الأمر أنّ التقليد النقشبندي المهتمّ بالإصلاح شدّد على التزام دقيق بسُنّة النبيّ محمّد (ﷺ). وفي القرن الثامن عشر، حرّك هذا التوجّه السنّي نفسه جهود متصوّفي منطقة دلهي الذين لهم بعض الارتباط بهذه الطريقة، مثل شاه وليّ الله وصديقه مظهر جانجانان (١٦٩٩-١٧٨١) وخواجه مير درد (١٧٢١-١٧٨٥)، قبل أن يتداخل ومحاولات أحدث منه طرحها بعض مفكّري القرنين التاسع عشر والعشرين.

لقد نشط النقشبنديّون أيضًا في السلطنة العثمانيّة وانتشروا في سوريا وفي الأناضول، وخاصة في العاصمة اسطنبول. لكنّهم كانوا أقلّ نجاحًا في مصر حيث استطاعوا التوغّل بصعوبة.

نكاح ← زواج.

النكّاريّة ← الإباضيّة.

نَهاوَند (معركة)، ١٨ أو ١٩هـ/ ٦٣٩ أو ٦٤٠م، اشتباك مهمّ، في بداية الفتوحات الكبرى، أتاح للقوات العربية - الإسلاميّة إلحاق الهزيمة بالجيوش الساسانيّة واجتياح الهضبة الإيرانيّة. ونهاوند محلّة تقع في إيران، على ارتفاع حوالى ألف وسبعمئة متر، ليست بعيدة عن همذان. كانت، في القرون الوسطى، تتحكّم بإحدى طرق القوافل والطرقات الإستراتيجيّة المتّجهة من العراق إلى إيران. وأصبحت، في الفترة الحديثة، موضوع تنافس ومواجهات عسكريّة بين العثمانيّين وملوك الفرس أخصامهم، سواء منهم الصفويّون أو القاجار، في ما بعد.

◄ راجع المستند رقم ٨.

نَهْرَوان (معركة)، رجب ٣٨هـ تموز/يوليو ٦٥٨م، معركة وقعت بين مناصري خليفة المسلمين الرابع علي وعصاة خوارج قُضي عليهم جزئيًّا.

لا يمكن تحديد بدقّة مكان المعركة التي وقعت جنوب بغداد. لكنّه، يُحدَّد عادة على أنّه يقع قرب محلّة تعرف بجسر النهروان، وهو اسم جسر يقطع أحد الأقنية التي أُنشِئت في هذه المنطقة في عهد الساسانيّين. عانى نظام الأقنية هذا الذي استمرّ حتى القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، كثيرًا جرّاء الأعمال العسكريّة التي حصلت في هذا القطاع خلال تلك الحقبة وبعدها. هكذا غدت المنطقة عمليًّا مهملة، منذ القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد.

نوائي، نظام الدين علي شير المعروف أيضًا بـ مير علي شير، ٨٤٥-٩٠٧هـ/ ١٤٤١-١٥٠١م، شخصية أدّت دورًا سياسيًّا مهمًّا في بلاط السلطان حُسين بايْقرا من سلالة التيموريّين، وفي الوقت نفسه شعّت في آسيا الوسطى أنشطته أديبًا وراعيًا للآداب.

وُلد في هراة من عائلة تركيّة تولّت الكتابة الديوانيّة للتيموريّين. لذلك ساقته الظروف إلى الدخول في خدمة بابُر قبيل وفاة هذا الأخير في العام ١٤٥٧م. ثم دخل، في العام ١٤٦٩، في خدمة حسين بايقرا الذي تسلّم الحكم في هراة. أصبح صديقًا حميمًا للملك الذي تربّى معه، فأُسندت إليه مهمّات كبيرة لها علاقة بشؤون

الدولة. اهتمّ أيضًا بالانتاج الفنّي والأدبيّ ومراقبته. يعود إليه الفضل في تألّق فنّ المنمنمات الملوّنة، في نهاية القرن الخامس عشر للميلاد، وفي تزيين الكتب وذلك في المدينة كما في البلاط. يعود إليه الفضل أيضًا في تشييد الصّروح المختلفة في المدينة وجوارها كما في إعادة بناء المسجد الجامع. وقد خلّف شخصيًّا إنتاجًا وفيرًا من الشعر والنثر جعله محطّ إعجاب معاصريه، خاصة بالنسبة الى إنتاجه الشعريّ المميّز، وبذلك أسهم في الدفاع عن قضية اللغة التركيّة الشرقيّة أو الجَغَتاي.

النُّوبَة، اسم قديم استمرّ في العصور الوسطى الإسلاميّة، يدلّ على منطقة من أفريقيا السوداء تمتدّ جنوبيّ مصر، بدءًا من أوّل شلال على النيل حتّى منطقة محدّدة بصورة غير دقيقة في جمهوريّة السودان الحاليّة.

شهدت النوبة المسيحيّة في عهد الفتوحات الكبرى اجتياحين عربيّين إسلاميّين متتاليين، في حوالى العامين ١٩ و٢٩هـ/ ٦٤٠ و٦٥٠م. انتهى الأمر إلى معاهدة نصّت على أن يدفع النوبيّون لدولة الخلافة جزية سنوية عالية من الأرقّاء. بدأ المسلمون باكرًا الدخول إلى النوبة لمتابعة أنشطة تجاريّة، بينما كان سيّد البلاد يقيم علاقات سلميّة بالعباسيّين حكّام بغداد. في العامين ٥٦٨ و٥٦٩هـ/ ١١٧٢ و١١٧٣م، اضطرّ صلاح الدين إلى التدخّل ضدّ عرب بني كُنْز الذين كانوا قد استقرّوا، منذ القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، على حدود مصر والنوبة، مساندين أحد المطالبين بعرش الفاطميّين. أثار نشاط بني كنز ردود فعل مختلفة من قبل المماليك الذين تدخّلوا في مناسبات عديدة في شؤون المنطقة حيث كانت الأسلمة تنمو. وانتهت المملكة النوبيّة القديمة بالتفتّت كما تراجعت المسيحيّة في البلاد، إذ ظهر في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، حكّام مسلمون واعتنقت نسبة كبيرة من السكان الإسلام. بقي فقط بعض المجموعات المسيحيّة المعزولة في وسط السكّان المسلمين. وفي القرن السادس عشر، احتلّ العثمانيّون القسم الشمالي، بدءًا من الشلال الثالث، وضمّوه إلى مصر.

◄ راجع المستندين ٨ و٢٨

نُوح، شخصية توراتيّة كثيرة الذكر في القرآن الكريم الذي يخصّها بالسورة الواحدة والسبعين ويقدّمها على أنّها «نبيّ» مرسل ومُنذر، عقد الله معه ميثاقًا لكنّ شعب استخفّ به.

الرواية القرآنيّة تستعيد ما ورد في العهد القديم مع بعض الفروق. يكلّف فيها الله نوحًا بتوجيه رسالته إلى أبناء آدم الذين لا يتقبّلونها، ثمّ يأمره ببناء فلك. وكان الشعب الضّال ضحيّة طوفان ناتج عن فيضان الماء من تنّور أخذ «يغلي» (القرآن، سورة المؤمنون، الآية ٢٧ وسورة هود، الآيات ٣٧-٤٢). توقفت السفينة التي لجأ إليها نوح وعائلته فوق قمّة تدعى جُودي (القرآن، سورة هود، الآية ٤٦) يجعلها التقليد في بلاد ما بين النهرين العليا، بينما يشير التقليد المسيحي الأرمني إلى قمة أرارات. هكذا نجا من كان في السفينة وحدهم.

اعتمد كتّاب السِيَر في ما بعد هذه العناصر المختلطة بمعطيات مصدرها التقليد العبراني، وجمّلوها أو ضخّموها معتمدين أيضًا على المصادر نفسها. وفي الوقت عينه أدّت العناصر الرئيسة للرواية، التي رُبطت بعددٍ من الأماكن، الى تشييد مزارات يؤمّها الورعون وذلك خلال فترة ازدهار تكريم الأولياء. واستنادًا إلى ما ذُكر في دليل الهَرَويّ في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد حول هذه الزيارات، نعلم مثلًا أن الوقائع العائدة إلى بداية الطوفان كانت تُحيا ذكراها في منطقة الكوفة في العراق وفي سوريا الوسطى، كما في بلاد ما بين النهرين العليا. بينما كانت الذكريات المتعلّقة بتمركز الناجين الخارجين من الفلك مركّزة حول الموصل وجزيرة ابن عُمر. من جهة أخرى، كان قبر نوح يُكرّم، في الوقت نفسه، في الخليل وفي قرية في البقاع اللبناني اسمها كَرَك نوح، تضم حرمًا صغيرًا فيه ناووس من حجر مفرط الطول.

نُور الدين محمود بن زَنكي، ٥١٢-٥٧٠هـ/ ١١١٨-١١٧٤م، أتابك من السلالة الزَنكيّة، من أصل تركي، حكم في سوريا ما بين العامين ٥٤١ و٥٧٠ للهجرة/ ١١٤٦ و١١٧٤ للميلاد حيث اشتهر لمدّة طويلة بأنّه «مُحيي الإسلام».

عند موت أبيه زَنكي، اضطرّ نور الدين إلى التخلّي لأخيه سيف الدين عن إمارة الموصل. في المقابل

ورث في حلب ممتلكات زنكي السوريّة فأصبح، بواقع الحال، مدفوعًا لمتابعة طموحاته في اتّجاه دمشق التي حاول السيطرة على حكمها. استطاع أوّلًا الحصول على الإعتراف بسيادته من قبل أمير دمشق الذي خلف البُوريّين فيها. ثمّ عمل على احتلال المدينة ومقاطعتها، فكُتب له النجاح في العام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، بمساندة فريق من الأهالي كان حانقًا على البوريّين وبطانتهم لضعفهم تجاه الفرنج. هكذا قطف ثمار الجهود السابقة التي بذلها لتنظيم أراضيه على أساس روح الجهاد ولمحاربة إمارات الصليبيّين بنجاح. في الواقع، كان الهدف الأساسي لنور الدين مقاومة حكم الملوك المسيحيّين في الأراضي المقدّسة في فلسطين. فمنذ الشهور الأولى لحكمه، توصّل إلى وضع حدّ نهائي لموضوع كونتية إديسّا/ الرُّها، بقمع الثورة التي فجّرها الأرمن محاولين إعادة الكونت جوسلين الثاني إلى المدينة التي كان زنكي قد سيطر عليها، بعد قتال عنيف، في العام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. ثمّ، انطلاقًا من دمشق التي كان قد احتلّها جاعلًا منها عاصمة لمملكته، وجّه حملات عدّة ضدّ الفرنج وسيطر على المواقع المحصّنة في عَزاز وحارم وعلى مدينة أفامية، مرغمًا أخصامه على التراجع إلى ما وراء العاصي. ثمّ استقرّ في عكّار، في مقابل قلعة الحصن. وأخيرًا نجح، في آخر عهده، في وضع يده على موقع بانياس. استطاع اذًا، من دون أن يحرز انتصارات حاسمة، أن يفكّ الطوق الذي كان يشلّ المدن الإسلاميّة الرئيسة في سوريا الداخليّة. ولم ينسَ أبدًا أن الهدف الأقصى لأعماله كان القدس (أورشليم) التي صنع خصيصًا لها منبرًا من الخشب المنقوش ليوضع في المسجد الأقصى بعد استعادته.

من جهة أخرى، عُرف نور الدين بأنّه حاكم تقي متعلّق بالدين، ولم يكتف بالأعمال العسكريّة. لقد أعاد تنظيم ممتلكاته السوريّة التي عزّز حماياتها، وطوّر حوله الشعور الإسلامي الكفيل بمساندة الجهد المعادي للصليبيّة. كان أيضًا حريصًا على أن يحترم حكمه العدالة، لذا جعل إلى جانبه مجلس أمراء يستشيرهم بانتظام في مقرّه الملكي الواقع في قلعة دمشق. وكان يجهد في أن يقضي بنفسه بين الناس، فكان يجلس في «دار العدل»، التي بناها في حلب ودمشق في أسفل القلعة، يستمع إلى شكاوى السكان الذين يكونون قد تعرّضوا لإساءات العسكريّين. كما أحيا، بوجه خاص، سياسة دينيّة لتقوية الإسلام السنّي. لذا أسّس مدارس عدّة وشجّع على إنشاء عدد آخر منها في المدن الكبرى في مملكته، لا سيّما في حلب ودمشق. واستقدم، للتعليم في هذه المدارس، أساتذةً من بلاد ما بين النهرين العليا أو من إيران. أنشأ في دمشق مدرسة متخصّصة في دراسة الأحاديث النبويّة باسم «دار الحديث». اهتمّ أيضًا بفنّ العمارة العسكريّة وصيانة الأسوار وإقامة الأبنية ذات المنفعة العامّة مثل الحمّامات الضخمة. كذلك أمّن للمدن السوريّة المؤسّسات الضروريّة لتطوير الحياة الفكريّة والدينيّة ولرفاهية الشعب.

شُغلت الفترة الأخيرة من حكم نور الدين بالحملات التي وجّهها إلى مصر الفاطميّة ثلاث مرّات ما بين العامين ٥٥٩ و٥٦٣هـ/ ١١٦٤ و١١٦٨م. قاد هذه الحملات الكردي شيركوه يعاونه ابن أخيه صلاح الدين. أدّت هذه الحملات إلى قلب النظام في العام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، أي إلى انتصار السنّة على الشيعة الإسماعيليّة. لكنّها خلقت تأزّمًا سياسيًّا محتومًا بين حاكم سوريا وصلاح الدين الفتيّ الذي حلّ مكان نور الدين، عند وفاته في العام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، على رأس مملكة جمعت مصر وسوريا معًا.

النور الإلهي، مفهوم في العقيدة الإسلاميّة يعود إلى عبارة قرآنية صادفت رواجًا كبيرًا في الفكر الفلسفي - الديني، كما في الفكر الصوفي الإسلامي.

النص القرآني الأشهر المتعلّق بهذا الموضوع تُعبّر عنه الآية ٣٥ في سورة النور:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

فسّر علماء الكلام النور الإلهي بمعنى أنّه يمثّل حقيقة الوحي الذي أنزله الله على نبيّه والذي إليه يهدي الناس.

عرف هذا المفهوم نجاحًا كبيرًا، بخاصة في

الأوساط الشيعيّة التي أعلنت، دونما تأخير، أنّ النور الإلهي الذي أُنزل على آدم آثار محمّدًا ﷺ، ومن بعده أفراد عائلة علي، أي الأئمّة العلويّين المتعاقبين. أمّا أتباع الفلسفة فيخصّون النور بمكانة بارزة، فيربطونه بـ«العقل» الذي اكتشفوه عند المفكّرين من الأوائل، ويدرجونه في إطار سيرورة عمل الخَلْق. فبحسب رأيهم إنّه النور الذي فاض من العلّة الاولى أو العقل الأوّل وتوزّع، في ما بعد، في سائر العقول وفي العالم. لكنّ الفلاسفة لم يستأثروا وحدهم بتطوير ميتافيزيقا تعتبر أنّ الله نور ومصدر كلّ وجود أو معرفة، إذ تتبيّن طريقة مشابهة لدى الصوفيّين الذين أخذوا بهذا المفهوم تنويرًا للعقل الفعّال وسعيًا لبلوغ الاتّحاد الوَجْدي الذي يشكّل أساسًا لنظريّة الإشراق. سواء بالنسبة الى الصوفيّين أو الى الفلاسفة، ليس النور المحمّدي سوى فيضٍ إلهيّ، وهو مفهوم يلجأون إليه لتفسير العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الله والعالم المخلوق.

النَوَوي محيي الدين أبو زكريا يحيى، ٦٣١-٦٧٦هـ/ ١٢٣٣-١٢٧٧م، سَلَفي وعالم ينتمي إلى المذهب الفقهي الشافعي، عاش في دمشق في آخر عهد الأيوبيّين وبداية عهد المماليك.

كان النَوَوي معلّمًا في مدرسة لعلوم الحديث وفقيهًا، فعارض على هذا الأساس سلطان المماليك بيبرس الذي أراد أن يفرض على الناس في سوريا ضرائب إضافيّة. وهو واضع كتب عديدة في مجالات الحديث والفقه وقواعد اللغة.

النُوَيري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب البَكري الكِندي الشافعي، ٦٧٨-٧٣٣هـ/ ١٢٧٩-١٣٣٢م، كاتب ذو طموحات موسوعيّة، عاش في مصر أيّام المماليك.

وُلد في مصر العليا، إبنًا لموظف، واحتلّ مراكز مهمّة كلّفه بها السلطان محمّد بن قلاوون في كلٍّ من القاهرة وسوريا. عُرف بخاصة بأنّه صاحب مصنّف ضخم، هو قيد الطباعة حاليًّا، سعى فيه إلى جمع مجمل المعارف المفيدة لكتّاب دواوين الدولة، لا سيّما في ميادين الجغرافيا والتاريخ والأدب.

نياسالاند ← **مَلاوي**.

النيّة، مفهوم يعتبره الفقه ضروريًّا لتحقيق تصرّف إنسانيّ سليم، مع أنّه شكّل، عبر العصور، موضوعاً للتباين.

ومع أنّ ثمّة حديثاً مأثوراً يذكر غالبًا «إنّما الأعمال بالنيّات»، فإنّه يجوز التساؤل عمّا إذا كانت النيّة يجب أن تتكوّن مباشرة قبل القيام بالعمل، أو يمكن أن تسبقه بوقت قليل. وأثير النقاش حول ما إذا كانت لازمة قبل كلّ تصرّف طقسي أو فقط قبل الصلاة.

النَيجر (جمهوريّة) مساحتها ١ ٢٦٧ ٠٠٠ كلم[٢] عاصمتها: نيامي. دولة مستقلّة معاصرة، هي جزء من أفريقيا الساحلية، يبلغ عدد سكّانها حوالى ثمانية ملايين نسمة، أكثريّتهم الساحقة (حوالي ٨٠٪) من المسلمين.

نشأت هذه الدولة في العام ١٩٥٨ من مستعمرة تحمل الاسم نفسه في أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة. تحتلّ مساحة واسعة من أفريقيا السوداء في جوار الصحراء وجمهوريّتي الجزائر وليبيا في الشمال. وفي الجهات الثلاث الأخرى تقع جمهوريّات مالي وبنين ونيجيريا وتشاد. إنّ موقعها الحالي وكثافة سكّانها الضئيلة تعكسان حتى اليوم توترات قديمة طبعت، في القرون الوسطى، مرحلة أسلمة جنوبيّ الصحراء، جاعلةً منها منطقة نزاعات ومواجهات متعاقبة. لكنّ ذكرى الحروب والسيطرة القديمة لأمبراطوريّات الفاتحين، منها أمبراطوريّات الصُنْغاي وبورنو وسوكوتو، تتّجه نحو النسيان، في حين يقوم توازنها الاقتصادي على علاقات سلميّة تتوافر لها عبر وادي نهر النيجر، وبخاصة عبر جمهوريّة نيجيريا الاتّحادية.

◄ راجع المستند رقم ٢٩.

نيجيريا (جمهوريّة نيجيريا الاتّحادية)، مساحتها ٩٢٤ ٠٠٠ كلم[٢]، عاصمتها: أبوجا. دولة مستقلّة معاصرة في أفريقيا السوداء، نشأت عن مستعمرة بريطانيّة تحمل الاسم نفسه، تقع على خليج غينيا. سكّانها يتجاوزون المائة والاثني عشر مليونًا، نصفهم مسلمون.

دولة اتّحادية تجمع عشرين إقليمًا، تقطنها جماعات إتنيّة ودينيّة مختلفة، هي غالبًا في حال عداء. يحدّها من الغرب جمهوريّة بنين، ومن الشرق جمهوريّة الكاميرون؛ وتتّصل في الشمال بدولتين ساحليّتين أغلبية سكّانهما من

المسلمين، هما نيجر وتشاد. إنطلاقًا من هذه المنطقة الشماليّة، استطاع الإسلام أن يتوغّل بالقوة في الأراضي النيجيريّة الواسعة، في سوكوتو وكانو وبورنو حيث تنامت أمبراطوريّات القُلبة الجهاديّة. حديثًا، نشطت عمليّات اعتناق الإسلام في المنطقة الساحليّة الجنوبيّة، عن طريق الدعوة التي قامت بها الأحمديّة التي بدأت عملها في لاغوس منذ الحرب العالميّة الأولى، وعن طريق منظّمات مذهبيّة إسلاميّة أخرى للتعليم والتربية.

عرف البلد، منذ استقلاله في العام ١٩٦٠، أحداث عنف مختلفة، منها الحرب الأهليّة المعروفة بحرب بيافرا، ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٠. ومنذ العام ١٩٩٠ أنشأ المجلس العسكري الحاكم حزبين ترأسَ أحدهما مسيحي بينما ترأس الآخر مسلم.

نيشابور (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، بالعربيّة نَيسابور، مدينة أثريّة في شرق إيران، كانت في القرون الوسطى أحد المراكز السكنيّة الأربعة المهمّة في خُراسان، وما تزال آثارها موجودة قرب المدينة الحديثة المعروفة بالاسم نفسه.

هي في الأصل مدينة قديمة أسّسها الساسانيّون. احتلّتها القوات العربيّة - الإسلاميّة إبّان الفتوحات الكبرى، في العام ٣١هـ/ ٦٥١م، لكنّها عرفت ثورات عدّة ولم يستتب الأمن في منطقتها إلا في العام ٧٣هـ/ ٦٩٢م. كانت مركزًا للنشاط التجاري وللقوافل بفضل وقوعها في سهل خصيب، عند نهاية الطريق الآتية من غرب البلاد لتنقسم فرعين، أحدهما يتّجه نحو هَراة والآخر نحو مَرو وبُخارى. أصبحت عاصمة إمارة الطاهريّين ثمّ موضوع صراعات بينهم وبين الصفّاريّين، قبل أن تسقط، في العام ٢٨٨هـ/ ٩٠١م، في أيدي السّامانيين. وصفها الكتّاب العرب، في هذه الحقبة، بأنّها حاضرة كثيفة السكّان واسعة المساحة تتقاسمها أحياء عدّة، بحسب التقاليد الإيرانية القروسطيّة في تنظيم المدن: في المدينة العليا قلعة ومسجد جامع وقصر؛ في المدينة المنخفضة جامع عمرو الكبير الصفّاريّ وسوق تتقاطع فيها شوارع عديدة ذات زوايا قائمة. تميّز البناء فيها بنوعيّته وبالجنائن المحيطة به التي تنامت بفضل تمكّن أهلها من تقنيّات جرّ المياه التي كانت مؤمّنة أيضًا للمدينة. أصبحت نَيسابور، لفترة قصيرة، عاصمة للسلجوقي طُغرُل بك في العام ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م، قبل أن يحتلّها خوارزم شاه تُكُش في نهاية القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. عانت هزّات أرضيّة عدّة قبل أن يدمّرها المغول، في العام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، ليعاد بناؤها ولتعاني مجدّدًا الهزّات. هي اليوم بلدة قريبة من الموقع المهجور حيث لم تجرِ بعد أعمال تنقيب منهجيّة. لكنّ أعمال التنقيب الأولى أدّت إلى اكتشاف بقايا من الخزف تشهد على ازدهار قديم للفنون الخزفيّة في الموقع. وتدلّ أضرحة حديثة على المواقع التي دفن فيها بعض الشخصيّات الشهيرة مثل فريد الدين العطّار وعُمر الخيّام.

◄ راجع المستندات ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣ و٢٤.

نيكوبوليس (معركة)، ٢٨ ذو القعدة ٧٩٨هـ/ ٢٥ أيلول ١٣٩٦م، اشتباكٌ وقع في أرض بلغاريا الحاليّة سمح للجيش العثماني بسحق قوّات صليبيّة قادمة من دول أوروبيّة مختلفة.

سهّل هذا الانتصار، بصورة مباشرة، تثبيت سلطة بايزيد الأوّل يِلْدِرِم في البلقان، كما سهّل، في ما بعد، توسّع الفتوحات التركيّة في الموزه والأفلاق (ڤلاشيا). حصلت هذه المعركة قُبيل انتصارات تيمورلنك في الأناضول وموت السلطان العثماني بعد معركة أنقرة، في العام ١٤٠٢م، وتفكّك إمارته موقّتًا، ما هدّد استمرار إنجازاته.

كانت مدينة نيكوپوليس، وهي بالتركيّة نيكبولي وحاليًا نيكوبول، موقعًا محصّنًا ذا قيمة إستراتيجيّة كبيرة على الضفة الجنوبيّة لنهر الدانوب. إنّها تقع على ملتقى طرق عسكريّة وتجاريّة، وقد سقطت في أيدي العثمانيّين، في العام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، وقد حاولت حملة صليبيّة بريّة استعادتها بمساعدة أسطولي جنوى والبندقيّة. وحدها سرعة بايزيد الأوّل في التخلّي عن حصار القسطنطينيّة والتوجّه لنجدة المحاصرين، سمحت بقلب الوضع العسكري وتدمير القوّات المعادية بصورة شبه كاملة.



هابيل وقابين، شخصيّتان من الكتاب المقدّس، ذكر القرآن الكريم إسميهما ساردًا قصّة هذين الابنين البكرين للنبيّ آدم.

إنّ رواية مقتل هابيل على يد أخيه قابين، كما تظهر في القرآن، في الآية الثلاثين وما بعد من سورة المائدة، تشكّل القاعدة الدينيّة التي اعتمدت عليها الشريعة لمنع الإنسان من قتل أخيه الإنسان. أُضيفت إليها في ما بعد تفاصيل مختلفة على أيدي مؤلّفين كانوا يعرفون رواية الكتاب المقدّس، لكنّهم استوحوا أيضًا من التقاليد اليهودية المتأخّرة.

إنّ العبادة الشعبيّة في الإسلام التي تجلُّ هابيل كرسول، شأنه شأن آدم وابنه الثالث شيت، أدّت إلى ظهور العديد من المعابد التي تحمل اسمه والتي تحوّلت في القرون الوسطى إلى مزارات، في الفترة التي تطوّر فيها تكريم الأولياء. إذا ما اعتمدنا على ما ورد في الدليل الذي وضعه الهَرَوي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي تحت عنوان «الإشارات إلى معرفة الزيارات»، نرى أنّ هذه المزارات التي كان يُحتفى فيها بذكرى هابيل، تطوّرت خارج طقوس العبادة الشرعيّة، خصوصًا في سوريا، في الأمكنة التي كان يعتقد أنّ هابيل قُتل ودُفن فيها.

هاتاي ← **إسكندرون (سنجق)**.

الهاجَرِيّون، إسم أطلقه الكتّاب البيزنطيّون في العصور الوسطى، على العرب والمسلمين بشكلٍ عام.

يقول تقليد كان منتشرًا في الأوساط المسيحيّة واليهوديّة، كما في الأوساط العربيّة في عهد النبي محمّد (ﷺ)، إنّ عرب شبه الجزيرة العربيّة هم من سلالة هاجَر، أمة إبراهيم التي طُردت إلى الصحراء مع ابنها إسماعيل. هذه الرواية التقليديّة التي ترتكز على رواية توراتيّة من سفر التكوين، نجدها مختلفةً عند المفسّرين المسلمين للقرآن، الذين قالوا إنّ إبراهيم اصطحب إلى جزيرة العرب هاجر وإسماعيل، قبل أن يعود إلى بلاده لملاقاة سارة.

أُطلق لفظ الهاجريّين، كما لفظ «ساراسين» أو السارازيّين، على عرب ما قبل الإسلام، ثمّ على العرب المسلمين، ثمّ، في وقت متأخّر، على المسلمين، أيًّا كان عرقهم، على سبيل المثال، على الأتراك الفاتحين لبلاد الأناضول البيزنطيّة، في أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد.

الهادي إلى الحقّ ← **الزيديّة**.

هارون بن عِمران، شخصيّة من الكتاب المقدّس ذُكِرَتْ في القرآن الكريم بين [أسماء] الانبياء، لا لصفات صاحبها الذاتيّة بل لكونه أخًا لموسى الذي سُمّي، بدوره، «موسى بن عمران».

إن تاريخه الذي غذّاه الفكر الإسلامي، في ما بعد، باقتباسات من معطيات أسطوريّة متنوّعة، عبرانيّة الأصل حملتها إليه، بوجه خاص، «الإسرائيليّات»، بشركه في بعض الاحداث التي رافقت ترحال «بني اسرائيل» التائهين في الصحراء بقيادة موسى، بعد خروجهم من مصر [الفرعونيّة]. وهكذا يُحتمل ان يكون «هارون» دفن في بلاد «مؤاب» حيث كان قبره موضع تكريم في العصر الوسيط. يُذكر «هارون»، بشكلٍ أساسي في كل الروايات، على أنّه مساعدٌ لموسى أو، بحسب التعبير العربي، وزيره، وفقَ تسمية كثر استعمالها في ما بعد في الحضارة الإسلاميّة للدلالة على وزير الخليفة. وقد حازت شخصيّته أهميّة دينيّة متزايدة في تقاليد الشيعة،

ولا سيّما تقاليد الإسماعيليّة. ومن هذا المنطلق شهد العصر الوسيط تنظيم عددٍ من الزيارات [إلى مقامه] تخليدًا لذكراه.

هارون الرشيد، هارون بن محمّد الرشيد، ١٤٩-١٩٣هـ/٧٦٦-٨٠٩م، الخليفة الخامس في السلالة العبّاسيّة، ترتبط شهرته الأسطوريّة بالدور الذي أُسند إليه في مجموعة قصص ألف ليلة وليلة، دون التغاضي عن شخصيّته التاريخيّة الفذّة في العصر العبّاسي الذهبي.

وُلد في الريّ، وهو الابن الثالث للمهدي، أمّه جارية يمنيّة تدعى الخيزران، تمكّنت بمساعدة وصيّه، يحيى البرمكي، أن تدافع بفعاليّة عن مصالحه. كان وليّ العهد الثاني لوالده، إلّا أنّ أخاه الهادي أساء معاملته خلال توليه الخلافة، ورغب في أن ينتزع حقّه فيها. ولكن الموت المفاجئ والغامض الأسباب الذي أصاب الهادي حمل هارون، في العام ١٧٠هـ/٧٨٦م، إلى الجلوس على عرش الخلافة. وقد طبع بداية عهده صعودُ نجم البرامكة ونكبتهم، وَهُم أسرة من الكتبة كان ينتمي إليها يحيى، الوزير الذي فوّض إليه هارون سلطات واسعة، كذلك ولداه الفضل وجعفر. بدا الخليفة الشاب شديد الميل الى جعفر، وعلى الرغم من ذلك، أصدر الأمر بقتله بشراسة في محرّم سنة ١٨٧هـ/كانون الثاني ٨٠٣م، ورمي يحيى والفضل في السجن. إنّ فقدان البرامكة الحظوة لدى الرشيد، ترك أعنف الأثر في معاصريهم، فنسبوا إليه تفاسير ساذجة لا تنمّ عن معرفة الأسباب التي تُعزى في الواقع الى اختلافات سياسيّة بليغة العمق وضعت الوزراء في مواجهة حادّة مع سيّدهم. لقد كان هارون الرشيد مناهضًا للعلويين ومعارضًا للحركات العقائديّة العقلانيّة المتمثّلة بالمعتزلة، في حين أنّ البرامكة كانوا أكثر انفتاحًا ومسالمة تجاه الميول الشيعيّة.

كان هارون متصلّبًا، وغير متساهل في مواقفه الدينيّة، ولكنه كان حاكمًا تقيًّا يوفّق بين الحجّ إلى مكّة، سنة، والنهوض بأعباء الجهاد في السنة التالية. فقد قاد حملات عدّة ضدّ البيزنطيّين، ففتح أنكير أو أنقرة في ما بعد، في العام ١٨١هـ/٧٩٧م، وأجبر الأمبراطورة إيرين على عقد معاهدة سلام؛ واستولى في العام ١٩٠هـ/٨٠٦م على هرقلة، ما أرغم الأمبراطور نُقفورس على إبرام معاهدة سلام مهينة. أعاد الرشيد تنظيم جهاز الدفاع عن أراضيه من جهة الأناضول، فأنشأ منطقة «العواصم» الحامية المنفصلة عن جند قنّسرين. وبحسب الروايات الغربيّة، يبدو أنّ هارون الرشيد تبادل مع شارلمان السفارات والهدايا، كما منحه بعض الحقوق على القدس، إلّا أنّ المصادر العربيّة لا تذكر شيئًا عن ذلك.

غير أنّ المصاعب لم تكن لتغيب عن مسرح أمبراطوريته، فاضطرّ هارون، في إفريقية، أن يقبل، في العام ١٨٤هـ/٨٠٠م، بسيادة الحكام الشرقيّين واستقلاليتهم، وكانوا مكلّفين حفظ النظام في هذه الأجزاء من الأمبراطوريّة، ما أدّى إلى ولادة سلالة الأغالبة. كما أرغم سابقًا، وعلى أثر خلافات خطيرة وقعت بين القبائل العربيّة في سوريا، أن يرسل في العام ١٨٠هـ/٧٩٦م جعفر (البرمكي) الوفي لتهدئة الوضع. أضف إلى ذلك الثورة التي تأجّجت في اليمن من ١٧٩ إلى ١٨٨هـ/٧٩٠ الى ٨٠٤م. وعرفت إيران بدورها حركات شيعيّة، منها بروز ذريّة الحسن [بن علي] في طبرستان/مازندران، وثورات الخوارج المتمرّدين، ما اضطرّه إلى قمعها.

وتجدر الإشارة الى التمرّد الذي اندلع في العام ١٩٠هـ/٨٠٦م في خراسان، على أثر إرسال حاكم عاملَ الرعيّة بتعسّف واستبداد، وتباطأت الدولة بعزله، ما دفع بهارون الرشيد إلى أن يتوجّه بنفسه إلى المنطقة ليتفقد الأوضاع. وقد وافته المنية في أثناء رحلته هذه، فمات في طوس في جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ/آذار ٨٠٩م.

إلّا أنّ المسألة التي شغلت الرشيد أكثر من سواها كانت الحركة الشيعيّة التي اختلفت نظرته اليها عن نظرة وزرائه البرامكة. فلقد استطاع الفضل أن يحظى بتراجع أحد الحسنيّين في طبرستان عن ثورته وتمرّده، فعاد به إلى بغداد بعد أن قطع له وعدًا بالأمان. إلّا أنّ هارون الرشيد ارتاب في الأمر، فعقد مجلس قضاة ألغى فيه الأمان ورمى بالشخص المذكور في السجن كما أمر لاحقًا بإعدام سابع إمام علوي، موسى الكاظم، من دون

برهان على قيامه بأعمال تخريبيّة.

استبق هارون الرشيد الأمور بتعيين ابنه الأمين خلفًا أوّلًا له وابنه المأمون خلفًا ثانيًا، وأودع عقد الوصية رسميًّا في الكعبة في مكّة في العام ١٨٠هـ/٨٠٢م، قاطعًا دابر الجدل حول مصير الخلافة عند موته. إلّا أنّ ذلك لم يُجْدِ نفعًا، إذ إنّ حربًا أهليّة اندلعت ووضعت الأخوين غير الشقيقين في المواجهة، أحدهما تدعمه العراق والثاني خراسان. إنتهت الحرب بمحاصرة بغداد في العام ١٩٦هـ/٨١٢م، وبنهب مدينة المنصور المستديرة نهبًا لا مثيل له.

إنّ شخصيّة هارون الرشيد بطل الروايات الأدبيّة المجهولة العهود، يصعب تحديدها وتقديرها، حتّى لو استندنا الى المعطيات التاريخيّة الأكثر صحّة وإثباتًا. وصل هارون الى الخلافة وهو في العشرين من عمره، فقضى فترته الأولى في الحكم يطيع أوصياءه وحماته، وكوّن تدريجيًّا فكره السياسي الخاص. وإن بدا مهتمًّا بالقيام بواجباته كحاكم مسلم يدافع عن سلامة الأمبراطوريّة وسيادة السلطة ويحافظ على الحكم في سلالته، إلا أنّ الإجراءات التي اتّخذها لم تكن دائمًا ناجحة. لا شك في أنّ عهده تميّز بحياة فكريّة ونشاط اقتصادي لم يكن بلاطه غريبًا عنهما، وقد امتدّ هذا الازدهار عشرات السنين بعد انقضاء عهد الرشيد. غير أنّ العلاقة بين السبب والنتيجة ليست واضحة، فلا يبدو أن هناك علاقة مباشرة بين تألّق هذا العصر العبّاسي الذهبي ومبادرات الخليفة المنهمك في قمع حركات التمرّد وفي مقاتلة أعدائه، في الداخل كما في الخارج، في ظلّ أمبراطوريّة كانت في طريقها الى التفكّك.

هاشم (بنو -) ← **الهاشميّون**.

هاشم بن عبد مناف، الجدّ الأعلى للنبيّ محمّد (ﷺ)، ينتسب الى قبيلة قريش، كان يُشغل في مكّة ما قبل الاسلام وظيفة السقاية التي من شأنها أن تزوّد الحجّاج بالماء.

هذا التاجر كان يقود القوافل حتّى المناطق المتوسطيّة في سوريا القديمة. مات في إحدى رحلاته في غزّة، وما يزال ضريحه موضع تكريم. لقد ترك إبن عبد مناف في المدينة ابنًا يدعى عبد المطّلب. انطلاقًا من اسم هاشم، يُكنّى احفاد النبيّ (ﷺ) من ابنته فاطمة وحفيديه الحسن والحسين بالهاشميّين وكذلك اعقاب أعمامه.

الهاشميّون أو بنو هاشم، هم سلالة هاشم بن عبد مناف الجدّ الأعلى للنبي محمّد (ﷺ)، المسمّى بسيّد العشيرة التي ما زال اسمُها قائمًا حتّى اليوم بسبب انتماء العائلة المالكة في الأردن إلى هذا الاسم.

عند بدء الدعوة الإسلاميّة كان بنو هاشم يشكّلون، في مكّة، أحد البطون التي تميّزت داخل قبيلة قريش. وكانوا يتوزّعون على ثلاثة فروع رئيسة في موازاة الأحفاد الثلاثة لهاشم وهم العبّاس، الجدّ الأوّل للعبّاسيين، وعبدالله والد النبيّ محمّد (ﷺ)، وأبو طالب، وقد عرفت سلالة هذا الأخير باسم العلويّين نسبة الى ابنه علي، صهر النبيّ (ﷺ)، واتّحدت، لاحقًا، بالسلالة المتحدّرة مباشرة من نبيّ الإسلام ﷺ، عبر ابنته فاطمة.

هذه العائلات كانت تنتمي الى الأرستقراطيّة المكيّة، إلّا أنّ أعضاءها عانوا الفقر بسبب اختلال التوازن الاقتصادي الناتج، في المجتمع المكي، عن الازدهار التجاري المتزايد الذي أفاد العناصر الأكثر نشاطًا، ومنها ممثّلو عشيرة عبد شمس.

غير أنّ الهاشميّين كانوا يعتزّون بنسبهم الخاص الذي يصلهم بشخص هاشم بن عبد مناف، أحد أبطال ما قبل الاسلام، صاحب السيرة الشهيرة، القائم بأعباء السِّقاية والرِّفادة عند الحرَم المكّي، أي تأمين الماء والطعام للحجّاج، وهي مهمات انتقلت في ما بعد الى العبّاس وورثته.

إنّ المصير الخاص بكلّ من الأسرتين الهاشميّتين، العلويّة من جهة، والعبّاسيّة من جهة ثانية، يفسّر المصير المتفاوت النجاح الذي لاقته، بحسب العهود التاريخيّة، هذه النسبة الهاشميّة التي لم تغبْ قطّ عن بال أيّ من الذين اعتبروها حقًّا من حقوقهم.

كان توجّه العبّاسيّين، منذ انتزعوا الخلافة في العام ١٣٢هـ/٧٥٠م، الى التشديد على نسبهم الذي يرفعهم إلى مستوى منافسيهم العلويّين، ويجعلهم من أهل البيت، المنتسبين الى عشيرة نبي الإسلام، فاطلقوا على

عاصمتهم الادارية اسم «الهاشمية»، وذلك قبل بناء بغداد. والجدير بالذكر أنّ «الهاشمية» هذه كانت مركزًا موقتًا يحمل اسم المواقع التي أقام فيها السفّاح، والمنصور بعده، في بداية العهد العبّاسي.

كما أنّهم خصّوا الهاشميّين بامتيازات عديدة، مثل إعفائهم من الزكاة، وإفادتهم من نفقة رمزيّة، هذا عدا التكريمات ومراتب الشرف، وحقّ الصدارة في المناسبات الرسميّة.

كان هؤلاء الهاشميّون - الذين بلغ عددهم ما يناهز الأربعة آلاف شخص في أواخر القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، بحسب إحدى الروايات - يحتشدون في مركز الخلافة، ويعتبر نقيبهم الذي كانت ترافقه الى الاستقبالات هيئة منهم، احدى الشخصيّات المقدّمة.

كما أطلق العباسيّون على أنفسهم وعلى أنصارهم ومحازبيهم لفظة «هاشميّين» أو «هاشميّة» التي اتّخذت، في مطلع انتشار الدعوة التي ادّت الى الثورة العبّاسيّة، معنى مغايرًا، إلى حدّ دفع مؤرّخي العصر الحديث إلى انتزاعه من النسيان، ألا وهو تسمية العبّاسيّين بهذه الصفة لفئة سياسيّة دينيّة شيعيّة انضوت إلى البيت العبّاسي معترفة له بحقّ الإمامة الموروثة عن علوي يدعى «أبو هاشم». وتطوّر الوضع تدريجيًّا طيلة حُكم السلالة العبّاسيّة، وقد جدّ أعضاء هذه السلالة باستمرار في البحث والكشف عن الحجج الداعمة شرعيّة توليهم السلطة. غير أنّ المدافعين عن القضية العبّاسيّة لم يتوانوا عن استغلال أيّ لبس في التعبير ليحولوا دون تميُّز العلويّين وسط المجموعة الهاشميّة الكبيرة.

إن الانتصار الموقّت الذي سجّله الشيعة في بغداد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وذلك خلافًا لتوقّعات العبّاسيّين، أحلّ محلّ النقيب الوحيد المدافع عن الهاشميّين، نقيبين: يمثّل الأوّل العائلة العلويّة، والثاني العائلة العبّاسيّة، ما يعني أنّ الانفصال قد تمّ بين الأسرتين.

انطلاقًا من هذا الواقع، لم يعد في إمكان العبّاسيّين الإفادة لحسابهم من النسبة الشريفة الهاشميّة إزاء النجاح الذي لاقته مطالب بعض العلويّين. وظهرت نتائج هذا الوضع في الموقف الذي اعتمدته إحدى السلالات العلويّة الهاشميّة المتحدّرة من الحسن، عندما تمكّنت من تثبيت استقلاليتها فوق رقعة من الأرض خاصّة بها. هذه السلالة المعروفة بسلالة أشراف مكّة، نسبةً الى هذه المدينة التي حكمتها بشكل متواصل، من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي حتّى العام ١٩٢٤، إختارت لنفسها تسمية «السلالة الهاشميّة». وتجدر الاشارة الى ضرورة عدم خلطها بتسمية «هاشميّين» التي حملها في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أحد فروع السلالة، بالانتماء إلى أحد كبارها المدعو أبو هاشم.

ومن سلالة الهاشميّين في الحجاز تفرّعت، في العصر الحديث، العائلة الهاشميّة التي استطاعت أن تملك على الحجاز (١٩٠٨ - ١٩٢٥) ممثّلةً بالشريف حسين، قبل أن يجعل منها ابنه فيصل العائلة المالكة في العراق (١٩٢١ - ١٩٥٨)، وابنه عبدالله العائلة المالكة في الأردن منذ توليه في العام ١٩٢١ عرش الإمارة ثمّ المملكة الهاشميّة في الأردن.

◀ راجع المستندين ١ و٦.

الهاشميّون ← أشراف مكّة.

الهجرة، تعني هجرة النبيّ محمّد (ﷺ) الذي خرج من مسقط رأسه مكّة في أيلول ٦٢٢م إلى واحة يثرب التي وصل إليها في ٢٤ من الشهر نفسه.

اختيرت سنة الهجرة نقطة انطلاق للتقويم الإسلامي، وقد نتج عن هجرة نبيّ الإسلام إقامة أوّل دولة إسلاميّة هي دولة المدينة، وشكّلت نقطة انطلاق للتأريخ الإسلامي أو التأريخ الهجري. كان لهذا الحدث دويّ كبير وبُعد خاص في ضمائر المسلمين الذين ما انفكّوا يرون فيه المثال الأعلى الذي يجب أن يتمثّل به كلّ مسلم يصبو إلى مركز سياسي وكلّ مصلح ديني يرغب في تأسيس دولة وجعلها قاعدة لحروب وفتوحات مستقبليّة تسجّل للتاريخ انتصاره الشخصي وانتصار حركته.

في ما يتعلّق بالأحداث التي أغنتها تفاصيل وردت في «سيرة النبي» (ﷺ)، يُذكر أنّه سبق الهجرة ميثاق أو

ما يعرف بـ«بيعة العقبة»، عقد بين نبيّ الاسلام (ﷺ) ووفد يمثّل إحدى قبائل يثرب. وان النبيّ (ﷺ) الذي لم يعد له أيّ نصير في مكّة توجه، برفقة أبي بكر، إلى مركز اقامته الجديدة حيث التحق به عدد من صحابته.

شكّلت هذه الحفنة من المسلمين جماعة المهاجرين الذين كان لهم شأن خاص، والذين مُنحوا في ما بعد معاشًا مرتفعًا ميّزهم عن سواهم من المقاتلين. كان في عداد هؤلاء المهاجرين الأقليّة التي شكّلت معتنقي الإسلام الأوائل الذين آثروا مغادرة مكة والتوجّه إلى الحبشة حوالى ٦١٥م، ثمّ عادوا إلى مكّة (في حين أنّ القسم الأكبر بقي منفيًا في أفريقيا حتّى العام ٦٢٨). اعتُبر هؤلاء أهل الهجرتين وتميّزوا بحظوة خاصة.

شكّلت الاقامة المُوقّتة بالنسبة إلى النبيّ محمّد (ﷺ) خارج وطنه الأم أساسًا لنجاحه في المستقبل، إذ أطلّ على الساحة كرجل سياسي وزعيم حربي. وهذا النوع من الهجرة الذي اعتُبر نوعًا من النزوح إلى بلدٍ مضياف، أصبح نموذجًا اقتدى به عدد من مؤسّسي الفرق في الإسلام. ففي القرن الأوّل للهجرة/السابع للميلاد، جمع نافع بن الأزرق، رئيس فرقة من الخوارج، في منطقة من جزيرة العرب، انصارًا له دعاهم المهاجرين لأنّهم انتقلوا معه ورافقوه في هجرته. يليه في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد المهدي ابن تومرت، مؤسّس دولة «الموحّدون» الذي انسحب إلى تنمل وأعلن هجرته إليها. وهذا ما فعله أيضًا المهدي في السودان، الذي قصد في العام ١٨٨٠ جبال النوبة فرارًا من المطاردات التي لاحقته وتحضيرًا للجهاد ضد اعدائه، فأعلن يومها هجرته.

إنّ ممارسة الهجرة والجهاد عرفها القرن التاسع عشر لدى بعض الزعماء المسلمين في أفريقيا السوداء الغربيّة، الذين نهلوا منها قوّة لتنظيم أمبراطوريّات عسكريّة حقيقيّة كأمبراطوريّة سوكوتو على سبيل المثال.

الهُجْويري، أبو الحسن علي بن عثمان بن علي الغزنوي الجلّابي ؟-٤٦٥هـ/ ؟-١٠٧٢م، شخصية تقيّة ولدت في ضواحي غزنة ودفنت في الهند حيث تُكرّم وتُجلّ في ضريح تحت اسم داتا غانج بخْش.

لا نعرف الكثير عن حياة هذا الصوفي السُّنّي الحنفي المذهب الذي عاش في حقبة تاريخيّة مهمّة بالنسبة إلى تطوّر الفكر الصوفي الإسلامي.

يدين بشهرته إلى المؤلَّف الذي وضعه بالفارسيّة تحت عنوان «كشف المحجوب»، وهو كتابه الوحيد الذي وصل إلينا. إنّ هذا البحث الموثّق، الذي هو ثمرة التجارب والآراء الشخصيّة، يشكّل طرحًا شاملًا عن الصوفيّة في عصره، ويحتوي عرضًا دقيقًا للعقائد الصوفيّة وممارساتها.

أضف أن الهُجويري قام بدور مهمّ في نشر الإسلام في الهند، وقد قرّر، بعد حياة من السفر والتجوال - وهو نمط مشترك لدى المتقين والزهاد - أن يقيم وسط الأراضي الخاضعة لنفوذ الغزنويّين. مات في لاهور حيث غدا وليًا لها وما يزال ضريحه مزارًا تقويًا.

هراة (جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة)، عاصمة أحد الأقاليم الذي يحمل الاسم ذاته، وما تزال تحتفظ بنماذج هندسيّة قليلة من ماضيها القروسطي، ماضي مدينة مزدهرة من خراسان، كانت في القرن الخامس عشر عاصمة التيموريّين وتعرّضت مرارًا للهدم والخراب.

تقع على ضفّتي نهر هري رود، وسط منطقة خصبة مجاورة، من الجهة الشماليّة، لجمهوريّة تركمنستان، ومن الجهة الغربيّة، للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. لقد فقدت هراة الدور المميّز الذي احتفظت به قرونًا طويلة، على مفترق مسالك القوافل التجاريّة التي تصل المتوسط من جهة، وآسيا الوسطى والهند من جهة ثانية. احتلّتها القوّات العربيّة-الإسلاميّة في زمن الفتوحات الكبرى منذ العام ٣١هـ/٦٥٢م، ثمّ أُعيد الاستيلاء عليها في العام ٤١هـ/ ٦٦١م إثر ثورة اندلعت فيها. ومنذ ذلك الحين حافظت هراة على ازدهارها، وقد اشتهرت بصورة خاصة بنسيجها إبّان العصور العبّاسيّة. كانت مركزًا ثقافيًا، ومسقط رأس عدد وافر من العلماء. أضف إلى ذلك أنّ تنظيمها الذي وصفه الجغرافيّون العرب في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، كان يقوم على تصميم مربّع ما يزال واضحًا حتّى اليوم، ويعود في الواقع الى عهود سابقة للإسلام.

نهبها وهدّم جزءًا منها المغول سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بعد أن عرفت عزًّا على عهد الغوريّين، ثمّ أعادت بناءها

سلالة محلية من الحكام تدعى كارتس (Karts)، حكمت هراة من سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م إلى سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، وعرفت ازدهارًا جديدًا وواسعًا على عهد التيموريّين. فبعد أن استولى عليها تيمورلنك في سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، قرّر التيموريّون أن يجعلوا منها مركز حكومتهم، فشهدت هراة أوج عظمتها السياسيّة والفنيّة، على عهد سيّدها شاه رخ. وعند زوال سلالة هذا الأخير، حكمها السلطان بَيْقرا من ١٤٦٩ إلى ١٥٠٦م بعاونه وزيره العظيم علي شيرْ نوائي، وكان هذا الأخير شاعرًا ونصيرًا للآداب. شُيّدت طيلة فترة هذا الحكم أبنية فاخرة وساحرة، تنافست في الجودة والجمال مع صناعات فنيّة تخدم الذوق الرفيع والحسّ المرهف لدى الأمراء. هذا إضافةً إلى مَشغَل المنمنمات حيث نشأ وتعلّم الفنّان المشهور بهزاد المولود في هراة.

سقطت المدينة في مطلع القرن السادس عشر في أيدي الأوزبك من الأسرة الشيبانيّة، ثمّ في أيدي الصفويّين الذين ما انفكّوا يتنازعونها مع الأوزبك. ثمّ ظهر طموح الأفغانيّين بالسيطرة عليها إبتداءً من العام ١٧١٦، فاستطاعوا أن يُثبّتوا نفوذهم، بعد وفاة نادر شاه، من خلال معاهدة ١٨٥٧، ثمّ باستيلائهم على المدينة إبتداءً من العام ١٨٦٣.

إن هذه المدينة الساحرة التي عانت الكثير من الدمار والخراب هي اليوم مدينة أفغانيّة، ولكنّها لا تزال تبرز، عبر أبنيتها الرئيسة، الأسلوب الهندسي التيموري الخاص بآسيا الوسطى. نذكر من هذه الأبنية مصلّى أو مدرسة جوهرشاد، زوجة شاه رخ التيموريّة التقيّة، وكذلك معبد غزركاه، وهوَ يحتوي على ضريح المتصوّف عبدالله أنصاري، وقد أصبح مقصد زيارات إحياءً لذكرى وليّ هراة. إنّ كساءً من الخزف المطلي يغطي الأبنية ويضفي عليها إشراقًا، ولكنّه لا ينسينا التحفة الفنيّة الأقدم عهدًا المتمثّلة بيرواز الباب الشمالي للمسجد الجامع المزيّن بكتابات، وقد شيّد في نهاية القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، على يدي الغوري غياث الدين. إنّ نقوشه الخزفيّة الزرقاء تبرز نافرة على أرضيّة من الطين.

◄ راجع المستندات ٨، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٤ و٣٥.

هربوت (الجمهورية التركيّة)، في العربيّة خربوت، ناحية تقوم في موقع حصن ومدينة من القرون الوسطى، في بلاد ما بين النهرين العليا، نزح عنها سكّانها لمصلحة مدينة حديثة ونشيطة: إلازغ.

عند مفترق مسالك القوافل التي تقود من الأناضول الأوسط إلى المناطق الشرقيّة والقوقازيّة، عبر الطرقات التي تربط اليوم ملطية أو ديار بَكْر/أميدا بأرضروم، شيّد البيزنطيّون قديمًا هذا الحصن الضخم المعروف باسم خرْتْبِرْت على قمّة صخريّة، وسط موضع جبلي غير مستوٍ. كان لهذا الحصن موقع إستراتيجي على الحدود الفاصلة بين أمبراطوريّة البيزنطيّين والعالم العربي - الإسلامي الذي أوجدته الفتوحات الكبرى في القرن الأوّل للهجرة/ السابع للميلاد.

سقط الحصن في أيدي الحمدانيّين سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م، ثمّ استولى عليه سلاجقة إيران، مرّةً بعد مرّة، بعد الغزو التركي للأناضول. كما وضعت يدها عليه فروع عديدة من سلالة الأرتُقيّين، وأبرز من استولى عليه وتملّكه أمير من هذه السلالة مشهور يدعى بلق (المتوفى في العام ٥١٦هـ/١١٢٢م) الذي شارك ببسالة في الحرب ضد الفرنج في الأرض المقدّسة.

ثمّ تنافس على الحصن الأيوبي الملك الكامل والسلجوقي الرومي كيقباد الأوّل الذي ضمّه الى ممتلكاته. ثمّ بسط حكّام محليّون نفوذهم على الحصن أمثال سلالة الأرتنيّين والآق قيونلو، قبل أن يسقط بين أيدي الصفويّين، ويُلحَق، في ما بعد، نهائيًّا بالأمبراطوريّة العثمانيّة في العام ١٥١٥م.

غادر سكان الحصن المكان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واستقرّوا في المنطقة الساحليّة، في مدينة تدعى العزيزيّة، أنشأها السلطان العثماني عبد العزيز.

إلّا أنّ الحصن في وضعه الحالي حافظ على تحصينات ضخمة وعلى مسجدين جامعين، ينسب الأوّل الى أمير من الآق قيونلو، أوزون حسن، والثاني، وهو أقدم عهدًا وذو تصميم سلجوقي إيراني، الى أحد الأرتُقيّين وهو قرّه أرسلان من حصن كيفا الذي ترك كتابةً منقوشة تعود الى فترة حكمه.

هرر (جمهوريّة أثيوبيا أو الحبشة)، أبرز مدينة إسلاميّة في الحبشة القروسطيّة والحديثة، أعطت إسمها لأقليم حفظ ذكرى الجهود التي بذلتها في دعم انتصار الإسلام وتوسعه.

هذا المركز التجاري والثقافي النشيط، الذي يستقبل التجارة الآتية من الساحل في اتّجاه الهضبة الوسطى، كان مقرّ أهم دولة إسلاميّة في المنطقة في القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، المدعوة دولة إيفث وعلى رأسها سلالة ولَشْما. في القرن السادس عشر أصبحت هرر مركز القائد العسكري أحمد غران الذي استأثر بالسلطة وانتحل لقب إمام.

إن مقتل هذا الرجل على أيدي البرتغاليين، في العام ١٥٤٣، وضع حدًّا لطموحاته، بدون أن يحدّ من أهميّة ذلك الحصن الذي تابع منه خلفاؤه شنّ الغارات على الحبشة وأباطرتها المسيحيّين، إلى أن قامت إمارة إسلاميّة جديدة مستقلّة في هرر، في القرن السابع عشر، استمرّت حتّى ١٨٨٧.

هرمز ← **بندر عبّاس**.

الهَرَويّ، تقي الدين أبو حسن علي بن أبي بكر الهروي الموصلي، ؟ - ٦١٢هـ/؟ - ١٢١٥م، شيخ متصوّف أنهى أيامه في حلب بعد أن كان مستشار العاهل الأيوبي الملك الظاهر غازي.

ولد في الموصل كما يُستدلّ من اسمه، من عائلة أصلها من هراة. صاحب فكر أصيل، تنمّ كتاباته القليلة، المترجمة والمنشورة منذ زمن قصير، عن معاناة زاهد فضولي، تابع وقائع عصره طيلة حياة صرفها في السفر وقام خلالها الى حدّ بعيد بدوْر داعية. إنّ خياراته السياسيّة - الدينيّة المصبوغة بالتشيّع غير العلني وبالولاء لجهود الخليفة العبّاسي الناصر وبالمساعي الحثيثة لإحياء الإسلام عبر تكريم الأولياء، تظهر في الدليل الجغرافي الذي وضعه، وهو دليل خاص بالمقامات والمباني التي أُقيمت للأولياء والتي غدت مراكز للزيارات [النقوية]، وقد اعتمد فيه الدقة استنادًا إلى تحقيقات قام بها شخصيًّا وضمّها في مؤلف بعنوان: «كتاب الزيارات». غير أنّ ذكرياته كواحد من رجال البلاط، وميوله كمفكّر أخلاقي، تظهر بوضوح في الوصايا الأخيرة من «الوصية الهرويّة»، ولا سيّما في كتابه الموجّه إلى الحكّام وعنوانه «التذكرة الهرويّة في الحِيَل الحربية» حيث تناول معظم نواحي أعراف السلطة. لا شك في أن سداد نصائحه كان السبب الذي جعل العاهل الذي حماه في أيّامه الأخيرة، يحيطه بالتقدير ويبني له «خانقاه» حيث جمع تلاميذه وحيث دفن عندما وافته المنيّة.

هشام، إسم حمله عدد من خلفاء بني أُميّة في الشرق والغرب، سنكتفي بذكر اثنين منهم: هشام بن عبد الملك في سوريا، وهشام الثاني المؤيّد في قرطبة، الذي انتهى معه الحكم الأموي في الأندلس.

هشام بن عبد الملك، ٧٢-١٢٥هـ/ ٦٩١-٧٤٣، الخليفة العاشر من السلالة الأمويّة التي أسّسها معاوية إبن أبي سفيان، والخليفة السابع من الأسرة المروانيّة، والابن الرابع لعبد الملك. لم يتولَّ الخلافة إلّا سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٤م، لكنّ حكمه الطويل، الذي ناهز العشرين عامًا، شكّل إحدى الحقب المهمّة من تاريخ السلالة الأمويّة، بخاصةٍ في ما يتعلّق بالمحافظة على قبضة السلطة المركزيّة على الأراضي المفتوحة كافة، في شرق الأمبراطوريّة وغربها، وبسط نفوذ هذه السلطة على مناطق جديدة.

في حين كان العراق منطقة هادئة بفضل الحكّام المتعاقبين على هذا الإقليم، فإن المدّ التركي أُوقف في ما وراء النهر، وصُدّت جيوش الخزر من أرمينيا. لقد تقدمت الجيوش العربيّة-الإسلاميّة حتّى القوقاز ومصب الفولغا، من دون تحقيق الاستيلاء النهائي على هذه المناطق. كما وُجّهت حملات الى المغرب لتسيطر على ثورة البربر ولترسي السلام والهدوء في شبه الجزيرة الإيبيريّة التي كانت فريسة الانقسامات الداخليّة. يمكن القول إنّ هشام، بمساعدة أخيه غير الشقيق مسلمة في حربه ضدّ البيزنطيّين، بقي أمينًا لسياسة الفتح التي نهض بها معظم الخلفاء الامويّين في الشرق، مع قيامه بمحاولات لتهدئة استياء الموالي عن طريق إجراء بعض الإصلاحات الماليّة. لكنّ أسبابًا عديدة للاضطرابات استمرّت تعمل عملها في هذه الأمبراطوريّة الواسعة، ما

سيساهم في ما بعد في إنجاح «الثورة العبّاسيّة».

اكتسب الخليفة لقب البنّاء، نظرًا الى أنشطته وأعماله، كما اهتمّ بعقاراته وأراضيه فشيّد عددًا من «قصور الصحراء»، بخاصة قصر الحَيْر الغربي. وبدا قصر الحير الشرقي الصغير مرادفًا للرصافة القديمة مقرّ إقامته سابقًا. أضف إلى ذلك المجمّع الذي بناه في وادي الأردن، على مقربة من أريحا، والمعروف باسم خربة المَفْجر أو قصر هشام.

هشام الثاني، ٣٥٥-٤٠٣هـ/ ٩٦٦-١٠١٣م، ابن الحَكَم الثاني المستنصر. حكم الأندلس من سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م إلى سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م، ثم من سنة ٤٠٠ الى ٤٠٣هـ/ ١٠١٠ الى ١٠١٣م. بويع خليفة بفضل تدخّل عمدة البلاط، المنصور، مؤسّس السلالة العامريّة الذي مارس عليه وصاية وحكم مكانه إبتداء من سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م. ترك المنصور المهمّة لإبنه المظفّر الذي خلفه بين ٣٩٢ و٣٩٨هـ/ ١٠٠٢ و١٠٠٨م، والى ابنه الثاني شنجول الذي تمكّن بدوره من كسب عطف الخليفة الى درجة جعلت هذا الأخير يعيّنه وريثًا له.

لقد أثار هذا التعيين سخط سكّان قرطبة الذين استغلّوا المناسبة لتأجيج ثورة قُتل فيها شنجول، فاضطرّ هشام الى التنازل عن العرش سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩، إلّا أنّه أعيد إليه سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠، قبل أن تستسلم عاصمته نهائيًا سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م الى المتمرّدين العصاة الذين حاصروها، ودخلوها ونهبوها، ما شكّل عمليًا نهاية الخلافة. وافت المنية هشام بعيد سقوط قرطبة.

◄ راجع المستند رقم ٢.

الهلال، هو الرمز الحالي للإسلام، لكنّه لم يصبح كذلك إلّا في فترة متأخّرة تعود، من دون شك، إلى القرن التاسع عشر.

لا شيء، من حيث الشكل، يجيز الربط ما بين رواج هذا الرمز والمكانة التي يحتلّها الهلال في الحضارة الإسلاميّة، بإعلانه بدء كل شهر، إذ إنّ الشهر الإسلامي هو قمري بحسب التقويم الذي اعتُمد بعد الهجرة. ومن المعروف أنّ مراقبة ظهور الهلال الذي يعلن بدء شهر رمضان وانتهاءه، وهو شهر الصوم، كانت تتمّ دائمًا باهتمام كبير، بحسب التقليد، لأنّ تحديد بدء شهر رمضان يكون عند رؤية القمر بالعين المجرّدة. هذا ما قرّره أهل السنّة في القرون الوسطى، وكذلك الإباضيّون والشيعة الزيديّون والإماميّون الإثنا عشريّون. الإسماعيليّون، وحدهم، أخذوا بحسابات علم الفلك لتحديد بزوغ القمر الجديد واستندوا في ذلك الى تفسير للآية الخامسة من سورة يونس. وعلى كل حال، أدخل الفاطميّون هذه الطريقة الحسابيّة منذ القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد في المناطق التي كانوا يحكمونها.

فضلًا عن ذلك، فالهلال رمز زخرفي كان رائجًا في إيران ما قبل الإسلام، إذ كان يُنقش بِخَفَر على العملات العربيّة - الساسانيّة العتيقة، قبل أن يُستخدَم في القرون الوسطى الإسلاميّة لزخرفة أدوات شتّى. ويبدو أنّ القيمة الجماليّة للهلال كانت وحدها وراء هذه الخيارات الزخرفيّة، إذ إنّه لا يُستشفّ منها أبدًا أي بُعد رمزي أو ديني. والعالم الغربي غير الإسلامي هو أوّل من استبان في الهلال، منذ منتصف القرن الخامس عشر، شعارًا رسميًّا تركيًّا ذا شكل محدّد. أمّا الشهادات الشرقيّة، التي لا تتيح لنا أن نحدّد بدقة فترة هذا التحوّل، فإنّها تشير إلى انّ هذا الرمز كان مرسومًا مثلًا في بداية القرن السادس عشر على بيارق السلطان سليم الأول العثماني، وكذلك على بيرق القرصان خير الدين والبيارق التي تمّ الإستيلاء عليها في معركة ليبانت في العام ١٥٧١م. والرمز نفسه، مضافًا اليه نجمة، كان مرسومًا على أعلام الأمبراطوريّة العثمانيّة، ومنها انتقل إلى الجمهوريّة التونسيّة والجمهوريّة التركيّة. من جهتها، اعتمدت مصر الهلال الأبيض، على خلفية حمراء في فترة الحكم العثماني؛ لكنّها استبدلت به، في العام ١٩٢٣، هلالًا أبيض على خلفية خضراء. ومنذ ذلك الوقت اختارت دول عديدة الهلال شعارًا لأعلامها الوطنيّة ورسمته بألوان وفي أوضاع مختلفة، بينما صار الهلال الأحمر على خلفية بيضاء في الدول الإسلاميّة معادلًا للصليب الأحمر.

هلال الصابئ، أو هلال بن المحسّن الصابئ ٣٥٩-٤٤٨هـ/ ٩٧٠-١٠٥٦م، كاتب خَدَمَ الخلافة العبّاسيّة، ومؤرخ نال، على عهد البويهيّين، الشهرة بفضل كتاباته وجذوره الصابئيّة.

جدّه الفلكي وعالم الرياضيّات، أبو إسحق إبراهيم

ابن هلال الحرّاني الصابئي، القادم من حرّان. عيّن سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م، بدون أن يعتنق الإسلام، كاتبًا في ديوان الأمير البويهي الكبير مُعز الدولة. إلّا أنّ خليفة معز الدولة، الأمير عضد الدولة، استهدف أبا اسحاق وسجنه سنين عدّة. ولمّا وافته المنية في بغداد سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨١م، كان قد ترك مصنّفًا نفيسًا من الرسائل الرسميّة. وفاقه هلال بن المحسّن شهرةً، وهو أوّل فرد من عائلته يعتنق الإسلام ويتخلّى عن عقيدته القديمة، وقد دخل أيضًا في خدمة الدولة. لقد كتب هلال عددًا من المؤلّفات التاريخيّة المبنيّة على وثائق محفوظة لدى عائلته. كما أنّ كتابه «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء»، ورسالته في المراسم أو «البرونوكول» يُعتبران حتّى اليوم مصدرين مهمّين لتاريخ زمانه.

الهلاليّون أو بنو هلال، قبيلة عربيّة، كانت منازلها الأولى في نجد، بجزيرة العرب، إلّا أنّها اشتهرت بسبب هجرتها إلى إفريقية في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد ومساهمتها في تخريبها.

دُعي الهلاليّون، الذين تميّزوا بالحركة، للانتقال، في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلادي، إلى مصر، واجتهد الفاطميّون، في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، لحصر منازلهم في الصعيد. ولكن عندما استقلّ الأمير الزيري بالمغرب بعد رحيل أسياده إلى الشرق، دعا الخليفة المستنصر هؤلاء البدو (بني هلال) الشغوفين بالغزو، لاجتياح أراضي سيد إفريقية الجديد.

انطلق بنو هلال، سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م، فخرّبوا أوّلًا برقة وهزموا الجيش الزيري قرب قابس عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م، وبلغوا القيروان سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، وأجبروا أميرها على اللجوء إلى المهديّة سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م. ثمّ نهبوا وسلبوا القيروان، وعمّت الفوضى في كلّ البلاد حتّى بلغت غربًا أراضي الحمّاديّين. ولم يعد الهدوء إلّا في عهد «الموحّدين» يوم هُزم الغزاة البدو قرب سطيف، بعد نحو قرن، أي في سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م.

لم يكن غزو الهلاليّين بدون تأثير على اقتصاد إفريقية: فقد تراجعت الزراعة واشتدّت حركة تعريب البلاد.

◄ راجع المستند رقم ١١.

هليوبوليس ← القاهرة.

هُمايون، ناصر الدين همايون بادشاه ٩١٤-٩٦٤هـ/ ١٥٠٨-١٥٥٦م، الحاكم الثاني من السلالة المغوليّة في الهند، حكم من ٩٣٧ إلى ٩٤٧هـ/ ١٥٣٠ الى ١٥٤٠م، ومن ٩٦٣ إلى ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٥ إلى ١٥٥٦م.

هو ابن بابُر، ولد في كابُل. رافق والده في حملاته على الهند إبتداء من العام ١٥٢٥، ثمّ خلفه في العام ١٥٣٠ وجلس على عرش أغرا ودلهي في زمن لم تكن فيه السلطة الجديدة قد تركّزت بعد. حارب لسنوات طويلة خصومه وأعداءه، أفراد عائلته أو أمراء محليّين وغرباء، ومن بينهم الزعيم الأفغاني الداهية شيرخان سوري الذي انتصر عليه بابر وأرغمه على الهرب إلى المقاطعات الشرقيّة حيث تمكّن من الاستيلاء على البنغال. وبعد معركة قنّوج في العام ١٥٤٠، اضطرّ همايون الذي هزمه شيرشاه إلى أن يتنازل له عن سهل الغانج الأعلى والبنجاب وأن يلجأ إلى السند. من هنا دخل إلى إيران في العام ١٥٤٣ حيث استقبله الصفوي الشاه طَهْماسْب. تمكّن همايون، بفضل الجيش الذي قدّمه له شاه ايران، من أن يسترجع أراضي عدّة كان قد استولى عليها أمراء مغول. وعاد سنة ١٥٥٥ الى دلهي حيث كان شيرشاه قد توفي في العام ١٥٤٥، وأصاب الضعف والوهن خلفاءه. وبعد فترة قصيرة وافت همايون المنية تاركًا لابنه «أكبر» مملكةً سيبلغ بها هذا الأخير إلى الذروة. إنّ الضريح الذي بني له قرب العاصمة يعتبر اليوم من أبرز الأبنيّة الموجودة في مدينة دلهي المغوليّة، وهو خير شاهد على فنّ تلك الحقبة.

هَمْدان (بنو -)، قبيلة من قبائل عرب الجنوب، شغلت، على عهد النبي محمّد (ﷺ)، منطقة اليمن حيث بقي أحفادهم. يروى أنّها دخلت الإسلام على يدي علي بن أبي طالب.

لم يكفّ بنو همْدان، طيلة العصور الوسطى، عن إظهار ميلٍ صريح الى التشيّع، الذي كان سائدًا بأشكال مختلفة في هذه المنطقة.

انبثق من بني همْدان بعض العائلات التي، رغم الفوضى المستمرّة، تمكّنت من فرض نفوذها على اليمن في القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر

والثاني عشر للميلاد، على أثر غياب سلطة الأئمة الذين أسّسوا السلالة الزيديّة، وقبل سقوط البلد بفي يدي الأيوبيّين في العام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م.

إنّ أوّل فرع همداني قام بدور سياسي ذي أهمية هو فرع «الصُليحيّين» (٤٣٩-٥٣٢هـ/ ١٠٤٧-١١٣٨م). وضعوا يدهم على الحكم بصفتهم أتباع الفاطميّين وحماة الإسماعيليّة. وينسب الى علي بن محمّد تأسيس هذه السلالة التي لم تستمرّ طويلًا. اهتمّ علي بنشر الدعوة في منطقة تنازعها مع دعاة مذهب شيعي آخر هو الزيديّة.

خلف عليًا بن محمد ابنه وزوجة هذا الأخير السيّدة عروة. حافظت عروة بفعاليّة، خلال عهدها وعهد ولدها، على سلطة تلقّت الضربات من كل الجهات. لقد اضطرّت الى مغادرة صنعاء والتوجّه الى مكان آخر أقلّ شأناً، ذي جبلة، للإقامة فيه. غير أنّها أبقت في عهدتها مراقبة مرفأ عدن قاعدة نفوذها الأساسيّة، في حين أخذ همدانيّون آخرون، من مناصري الإسماعيليّة الفاطميّة، يتنافسون على صنعاء ويثبّتون سيطرتهم عليها. إنّ الوضع المتقلّب في أوساط الهمدانيّين ازداد اهتزازًا بسبب استمرار حكّام محلّيين في زبيد، وبصورة خاصّة في صَعْدة، مركز الأمامة الزيديّة.

خارج الزعماء القبليين الذين برزوا في اليمن لفترة تقلّ عن المئة عام، تفتخر قبيلة همدان بميزة خاصة اكتسبتها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وفّرها لها العالم الهمداني (أبو محمّد الحسن ابن أحمد الباقلي المعروف بابن الحائك) المولود في صنعاء. يُعتبر هذا الأخير متخصّصًا بتقاليد جنوبي الجزيرة، إضافة الى تمتّعه بثقافة واسعة امّنتها له أسفاره العديدة، وذلك من دون أن تحدّ من ولائه لبلده الأم ومن دراسة ماضيه.

ترك لنا الهمْداني وصفًا تقليديًا لشبه الجزيرة، ويُحكى عن موسوعة ضخمة، لم تصل إلينا إلا جزئيًا، عنوانها «الإكليل» وتتضمّن وثائق عن ممالك الجنوب القديمة، وعن أنساب حِمْير وتاريخها، وعن الشعر والآثار والطوبوغرافيا، كان قد جمعها هذا العالِم الأديب الذي لا يني ولا يكلّ.

الصليحيّون الهمدانيّون:

الكامل أبو الحسن علي بن محمّد	٤٣٩-٤٥٩هـ/ ١٠٤٧-١٠٦٧م
المكرّم الأوّل أحمد بن علي	٤٥٩-٤٧٧هـ/ ١٠٦٧-١٠٨٤م
السيّدة الحرّة عروة	٤٧٧-٥٣٢هـ/ ١٠٨٤-١١٣٨م

همذان (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة من مدن أقاليم العصور الوسطى في منطقة الجبال، ما تزال قائمة حتّى أيامنا، وهيَ تقع على خطّ القوافل، ومن ثمّ الطرق التي تصل العراق بالريّ أو بطهران.

تعود همذان إلى أقدم العصور، فكانت عاصمة الميديّين، وهي إكباتان القديمة. فتحها الجيش العربي - الاسلامي في العام ٢١هـ/ ٦٤٢م، في زمن الفتوحات الكبرى، بعد فترة وجيزة من سقوط نهاوند. نعرف القليل عن وضع المدينة في العصور الوسطى، الا أنّه، استنادًا الى ما ذكره الجغرافيّون العرب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كان للمدينة أربعة أبواب، وضواحٍ واسعة المدى، كما قامت بدور المركز الاقتصادي بفضل أنشطتها التجاريّة ومحيطها الزراعي.

تنازعها الصفويّون والعثمانيّون إبتداء من القرن السادس عشر، ثم أُلحقت نهائيًا بإيران في العام ١٧٣٢، ولا نملك من آثار الماضي إلّا ضريحًا يعود الى نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي يعرف باسم قبّة الأولياء.

◄ راجع المستندات ١٧، ٢٣ و٢٤.

الهند، مجموعة جغرافيّة واضحة الحدود لم تكن الأسلمة فيها إلّا جزئيّة، على امتداد تاريخ متقلّب، وهذا ما يفسّر اليوم انقسام البلاد بين جمهوريّة فِدراليّة ذات أقليّة إسلامية، هي الاتّحاد الهندي، ودولتين يسكنهما مسلمون هما جمهوريّة باكستان الإسلاميّة، وبنغلادش، تضاف إليهما جمهوريّة مالديف الإسلاميّة والجمهوريّة الديمقراطيّة الاشتراكيّة السريلنكيّة في جزيرة سيلان.

يتأثّر الوضع الحالي بالثقل السياسي والاجتماعي الذي يشكّله جمهور إسلامي يزيد عن مئتين وخمسين مليون نسمة، متفاوت التوزُّع، بحسب البلدان، ويتّسم كذلك بالفرادة العميقة التي يمتاز بها الإسلام الهندي، في عاداته وطقوسه واحتفالاته وتفاعلاته مع الأحداث، وهي كذلك متنوّعة بحسب المناطق والاثنيات التي

طالتها جهود التوسّع في نشر الدين الجديد. وإذا لم تكن في الهند أرض لم تؤثّر فيها، مع مرور الوقت، الهجمات المتواصلة التي قامت بها الممالك الإسلاميّة الفاتحة، وكذلك المتصوّفون المتحمّسون الذين وجّهوا في كل مكان إيمان الإسلام وثقافته، فإنّ هذا الوضع لم يَحُلْ، في المقابل، دون استمرار حيوية المعتقدات والمؤسّسات المرتبطة بمختلف مظاهر الهندوسيّة. فهذه المعتقدات والمؤسّسات حالت تارة، وبشكل قوي، دون اعتناق الاسلام؛ وعملت، تارة أخرى، على تمرير طقوسها وممارساتها إلى العبادات الشعبيّة الاسلاميّة، وكذلك الى التأمّلات لفكر صوفي ذي اتّجاهات حلوليّة.

إنّ التطوّر الذي بدأ على هذه الحال، كان محتّماً عليه أن تنشأ عنه تداخلات متزايدة التعقيد في وسط مركّب أصلاً، عرقيًّا ولغويًّا، زادت في إثرائه أيضًا المساهمات الاستعماريّة الوافدة من الشرق الإسلاميّ. عناصر عربيّة وإيرانيّة وتركيّة، لكل منها طابعها الخاص، لم تتوانَ عن أن تفرض نفسها، إثر التبادل التجاري البحري، أو بوساطة القوافل، مستفيدة كذلك من جهود الدعاة المبشّرين، ومن الغزوات الحربيّة المتلاحقة، ومن تحدّد الأسر الحاكمة بفعل النزاعات الداخليّة المستمرّة.

يعود تاريخ الإسلام في الهند إلى عهد الفتوحات، عندما وصلت الحملات العربيّة-الاسلاميّة الظافرة، في بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، إلى المقاطعات التي يجتازها نهر الهندوس وروافده، وهي هضاب واسعة صحراويّة في بعض المواضع، أو سهول معرّضة للفيضانات. وكان الاحتلال المتدرّج للسند ثمّ للبنجاب في مسار التنظيم الأمبراطوري الذي اتّبعه الأمويّون، وركّزه العبّاسيّون في ما بعد. وكان تيار من التبادل يتقدّم على طول الطرق الإستراتيجيّة والتجاريّة التي تعبر جنوبي إيران، وصولاً إلى مدينتي ملتان والمنصورة الغنيّتين اللتين تشكّلان موقعين متقدّمين، ولو بعيدَين، للثقافة الإسلاميّة. وكانت الخطوط البحرية الناشطة تصل مرافئ الخليج العربي-الفارسي، ذات الحيوية المميّزة في العهد الذهبي لبغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، بمرافئ الساحل الغربي للهند، وكانت هذه المرافئ تتوزّع من دلتا الهندوس حتّى مالابار: كلّ هذه المحطات كانت تنتعش بالتجارة المزدهرة بين الشرقين الأدنى والأقصى حتّى إندونيسيا والصين. إنّ ازدهار مدينة مرفئيّة في السند مثل الديبل القديمة يشهد على الزمن الذي كانت فيه السفن التجاريّة تصل أيضاً إلى كامباي والمناطق الساحليّة الأخرى في غُجرات التي كانت تملك مؤسّسات تجاريّة وماليّة إسلاميّة، رغمَ أنّ تلك المنطقة قد لبثت هندوسيّة.

المرحلة الثانية من انتشار الإسلام بدأت، بعد ذلك، في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، باحتلال مطّرد للسهل الهندي-الغانجي، بعد ما كانت الغزوات الظافرة قد حقّقت لمحمود الغزنوي اللّقب التعظيمي «فاتح الهند»، وأدت إلى استقرار آخر أفراد السلالة التي طُردت من غزنة سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، في لاهور التي أصبحت عاصمتهم. وعلى الغوريّين المنتصرين على الغزنويّين، والذين صاروا بدورهم حكّامًا، سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م، على لاهور كما على غزنة، ستقع مهمّة تقدّم مطّرد في اتّجاه دلهي وأجمار وقِنّوج وغواليور، وتوجيه هجمات حتّى البنغال من جهة وغُجرات من جهة أخرى. من هنا نشأت مملكة إسلاميّة قويّة في شمال الهند، عائدة «لسلاطين دلهي»، سارت باتّجاه سياسة جهاد وفتوح مستمرّة، كلّ ذلك بمبادرة من قطب الدين أيبك، الضابط التركي السابق عند معزّ الدين محمود الغوري. وذهبت قوّات هذه المملكة إلى حدّ مهاجمة الدكن، رغم التقلّبات المتنوّعة، ورغم المنافسات التي وسمت من ٦٠٢هـ/١٢٠٦ إلى ٩٦٢هـ/١٥٥٥م مصير ستّ سلالات متعاقبة من السلاطين، إبتداءً من السلوك العبيد ورثة أيبك، حتّى آخر سلاطين سلالتي «لودي» و«سوري» في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد.

في غضون ذلك لم تتوقّف في المناطق التي حكمها الإسلام مجابهات متلاحقة، سياسيّة وعسكريّة (هجمات المغول، ثم تيمورلنك، وثورات العشائر الأفغانيّة وتمرّد بعض القوى المحليّة، والصراعات

الداخليّة)، ما أضعف وحدة هذا الحكم. وقد أُضيفت الى هذه الأحداث مطامع بعض الحكّام وأسياد الحرب، ما أدّى، منذ أواسط القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، بموازاة انحلال السلطة في دلهي، إلى نشوء سلالات إسلاميّة أخرى. وقد ازدهر أهمّها في مناطق خاصّة، كالسلالات التي حكمَتْ بنغال وكشمير وغجرات ومنطقة جاونبور وملْوى وخاندش، ولا سيّما في مُختلف أنحاء الدكَن حيث تقسّمت أمبراطوريّة البَهمنيّين، فنشأت عنها دول صغيرة، كانت تميّزها، في ثقافتها وإنجازاتها، خصائص محليّة تعود أحيانًا إلى انتماء حكّامها إلى التشيّع.

لذلك عرف الإسلام في جميع أرجاء الهند التطوّر الذي أضفى عليه طابعاً خاصًا. فقد تأثّر بنشاط متصوّفين التزموا تلقائيًا ببعض موجبات التصوّف والتقوى الهندوسيّة، كما تأثّر أيضًا بنشاطات أمراء عسكريّين كانت توجّههم إرشادات ونصائح هؤلاء الأشخاص الأتقياء. وفي كلّ مكان، ظهرت حيويّة الطرائق الصوفيّة الكبرى الآتية من إيران: الجشتيّة والسهروردية والقادريّة، ولا سيّما الشطّاريّة التي انحدر أعضاؤها نحو الجنوب عبر البنجاب ودلهي لإنشاء مراكز دينيّة محلّيّة، وُلدت من حلقات مريديهم، ومن تردّد أتباعهم إلى أضرحتهم التي أصبحت مزارات. من جهة أخرى، ترسّخت على ساحل المحيط الهندي، من السند حتّى الدكَن، حركات شيعيّة إسماعيليّة، إمّا من المستعلية الخاضعة للفاطميّين، وإمّا من النزاريّة. وفي كلّ مكان كان المسلمون الوافدون ذوو الأصول المختلفة يُظهرون بين وقت وآخر ردّات فعل عنيفة بوجه مناخ ديني توفيقي (بين اتّجاهات مختلفة) لم يكونوا قد اعتادوه. فكانوا يصطدمون مع حديثي العهد بالإسلام، كما مع القدماء، وكذلك مع السكّان الأصليّين الذين استمرّوا أوفياء لمعتقداتهم، فلم يستطيعوا، تاليًا، أن يعايشوهم من دون نزاعات ظاهرة حيناً، وخفيّة حيناً آخر، ما كان يؤدّي إلى إضعاف التوازن، ولكن مع الإبقاء على التنوّع الذي ميّز الأقاليم الخاضعة لحكّام مسلمين.

وفي المرحلة الثالثة التي تميّزت، منذ سنة ١٥٢٦م، بتوسّع الدولة السنيّة وازدهارها على عهد المغول الكبار، برزت ضخامة المشكلات الدينيّة المختلفة المطروحة.

إنّ التناقض ملموس بين سلسلة الانتصارات العسكريّة الخارجيّة (التي حقّقت للمشاهير من هؤلاء السلاطين أن يبسطوا سيطرتهم شيئاً فشيئاً من قندهار إلى أطراف الدكَن)، وبين الحروب الداخليّة المؤذية التي تواجَهَ فيها هؤلاء السلاطين أنفسهم في سبيل الحصول على العرش، إذ قاتل الابن أباه، والأخ أخاه. وكانت الغاية في كل مرّة، من هذه الحروب، فرض نمط مختلف من السياسة الداخليّة يضع حدًّا لعدم الاستقرار في العلاقات التي جعلت، في البلاد نفسها، فئات مختلفة في مواجهة أخرى، والتي فصلت بين أكثريّة واضحة من الهندوس، ومسلمين متعدّدي المذاهب المتباينة.

ووراء إشراق فن وهندسة يعكسان غنى الدولة المنتصرة، ووراء نجاحاتٍ حقّقها تنظيم مركزي يرمي، في الإدارة كما في التنظيم العسكري، إلى إدخال عناصر من اتنيّات ومذاهب دينيّة مختلفة، استمرّت الانشقاقات العميقة. ذلك ما يتيح لنا أن نفهم، من جهة، الاتّجاه التوفيقي لدى أكبر، وميول جهانگير الشيعيّة، والاصطفاء التصوّفي المتأثّر بالهندوسيّة لدى ابني شاه جهان، دارا شكوه وجان آرا بيگم؛ كذلك، من جهة أخرى، الردود المعاكسة التي نمَت لمصلحة إسلام متصلّب، لا سيّما على يد النقشبنديّة والتي بلغت ذروتها خلال عهد أُورنگزيب الذي أراد أن يفرض على الهندوس قوانين الضرائب القديمة المتعلّقة بدفع الجزية. هنا يكمن سبب الصراعات التي استمرّت بعد تجزئة الأمبراطوريّة، خلال زمن الانحطاط الذي عَقبَ وفاة أورنگزيب سنة ١٧٠٧م، والذي تميّز، على امتداد أكثر من قرن ونصف، بغزوات موقّتة، كتلك التي قام بها نادر شاه، متّبعاً الاتّجاه التقليدي نحو الشمال الغربي، أو بتدخّلات أوروبيّة أدّت، بعد ثورات عدّة، إلى احتلال البريطانيّين المباشر للبلاد إبتداء من سنة ١٨٥٧.

أخيراً شهدت المرحلة الرابعة، في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، تحوّلاً جديداً للنسيج الديني في الهند الإسلاميّة بتأثير اهتمامات متنوّعة، منها

الانتفاضة على السيطرة الغربية، وذلك من خلال المزج بين المصالح الإسلاميّة ومصالح قوميّة هنديّة ناشئة، ما ولّد في البلاد حركات إصلاحيّة أو تحديثيّة تتّجه بطرق مختلفة نحو هدف واحد.

إنّ الأجوبة التي قدّمها في الهند العلماء التقليديّون أو المثقفون المشبّعون بالروح العلميّة الأنكلو-سكسونيّة تكاد لا تختلف عن الاقتراحات التي صيغت في بلدان إسلاميّة أخرى، على الرغم من أنّ الشهرة العالميّة التي لقيها شاعر فيلسوف، كمحمّد إقبال، أكسبت العمل الفكري في الأوساط المثقّفة، في البنجاب، رونقاً خاصًّا.

هذه الحالة لم تمنع أن تستمرّ في الإسلام الهندي مميّزات متعدّدة، مختصّة بالثقافة الشعبيّة التي تقرّب بين المسلمين والهندوس، عبر شعر التصوّف، أو من خلال «تكريم الأولياء». وفي الوقت نفسه كانت المواقف الإسلاميّة في بعض المناطق تبدو أكثر تشدّداً، وذلك حيث شكّل المسلمون، على الرغم من كل الفتوح السابقة، أقليّة معرّضة لضغوط الغالبيّة السكانيّة. وهذا سبب التشنّجات التي تطوّرت أحياناً إلى اضطرابات عنيفة حضّرت الأهالي، على مدى عدّة عقود، لتقسيم الهند الذي بدا، بصورة مثاليّة متلازماً مع الاستقلال. هذه التجزئة ترمي إلى طمس الصعوبات السابقة التي واجهتها الدول الإسلاميّة ولم تستطع أن تجد لها حلًّا، وكانت ناشئة عن عدم الانسجام الديني (المذهبي) بين رعاياها، وذلك بالرجوع إلى صفاء الإسلام في المجال المختصّ به. إنّ الأحداث الدامية، والتبادل السكاني الذي رافق هذا التقسيم، يظهران أنّ الحلّ المعتمد لا يخلو من الأخطاء التي لم تلحظ أهميتها حتّى ذلك الوقت. وفضلاً عن ذلك، أعقب هذه الأحداث إقرار بالعجز: مشكلات ما يزال يطرحها وجود أقليّة إسلاميّة في داخل الاتّحاد الهندي، وصعوبات أدّت إلى انفصال جديد بين الأقاليم الستة التي شكّلت باكستان، سابقاً، وقد قسمت حاليًّا في دولتين متمايزتين: باكستان وبنغلادش.

◄ راجع المستندات ٣٠ إلى ٣٥ و٧٣ إلى ٧٨.

الهندسة المعماريّة الإسلاميّة، عبارة ترتبط بمفهوم الفن الإسلامي، غالبًا ما تُطلق على فن البناء الخاص بالعالم الإسلامي. وقد عرف هذا الفن عبر العصور تنوّعًا كبيرًا في الأساليب، إلّا أنّ ما يميّزه هو طغيان أنواع معيّنة من الأبنية، واستلهامه موضوعات كبيرة مشتركة على صعيدي البناء والزخرفة.

والواقع أنّ التنوّع الذي عرفته هذه الهندسة عبر مدارسها الكبرى ذات الأبعاد التاريخيّة، لا يطال، في ما خصّ القرون الوسطى، إلّا عددًا قليلًا من نماذج البناء التي تقدّم بدورها أمثلة محدودة من الأساليب. أمّا في العصر الحديث فقد أصبحت العناصر المكوّنة للبناء أكثر تعقيدًا، ولا تتقيّد كلّها بما يُمليه الشرع الإسلامي، وهذا ما جعل السمات الغالبة لهذه الإمتثاليّة تزول شيئًا فشيئًا من هذا الفن.

١ - إذا ما وضعنا جانبًا الأبنية الحربيّة، فإنّه يتعذّر علينا إحصاء الإنجازات المتنوّعة للهندسة الإسلاميّة كما حدّدناها سابقًا. وقد بدأت هذه الإنجازات تظهر في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، عندما انطلقت الحضارة الإسلاميّة الأولى في ظلّ الخلافة الأمويّة الشرقيّة. ثمّ انتشرت بعد ذلك في ثلاث قارات لتشمل تدريجيًّا مناطق تمتدّ إلى أبعد من القسم المركزي في الأمبراطوريّة، ومن الحدود المتوسطيّة والإيرانيّة، فتصل إلى الولايات في الأطراف البعيدة كالهند والصين وإندونيسيا وأفريقيا السوداء. وتعداد الإنجازات لا يساعد على تكوين فكرة واضحة عن واقع تلك الهندسة الفنيّة كما أنّ عرضها، بحسب الترتيب المكاني والزماني الذي يفرض نفسه، لا يُظهر الطابع الإسلامي المشترك ويعطي الأوّليّة للطابع المحلّي الذي أغنته تداخلات محليّة متبادلة. وما يمكن إبرازه، في هذا المجال، هو سطوة التقاليد والخيارات الوطنيّة، وتأثيرات الصراع الإتني السياسي المترافقة مع التنافس بين المراكز الإقتصاديّة النشيطة، مع الأخذ في الاعتبار الدفع الذي تؤمّنه طلبيّات الحكّام والذي يحرّكه الإزدهار الاقتصادي.

إلّا أنّ التركيز على الدور الذي أدّته ثلاثة أنماط أساسيّة من الأبنية، في عمليّة تطوّر الهندسة الإسلاميّة هو وحده الكفيل بإبراز المتطلّبات الوظيفيّة التي يفرضها

المجتمع الإسلامي نفسه على البناء الإسلامي.

فالنمط الأوّل يتوافق مع المسجد بشكليْه، أي إمّا أن يكون مصلًى عاديًا معزولًا أو ملحقًا عند الضرورة بأبنية متنوّعة تلبّي الحاجات السكنيّة والتجاريّة والدفاعيّة؛ وإمّا أن يكون مسجدًا جامعًا أُعدّ ليفرض نفسه كبناء لا غنى عنه في حياة الجماعة الإسلاميّة المدينيّة المنظّمة. أمّا في ما خصّ المسجد الجامع، فباندفاع واضح تأمّنت له موادّ البناء ووسائل الإعمار المعتمدة في هذه المقاطعة أو تلك. والمعروف أنّ وجوده يكون لغايتين مهمّتين: فهو من جهة يجمع المؤمنين لتأدية الصلاة، ومن جهة ثانية يُعتبر مكانًا عامًّا يتحلّق فيه المسلمون حول أميرهم أو من ينوب عنه لسماع خطبته الرسميّة.

وقد تُرجم هذا الاندفاع عبر بناء مساجد بأشكال هندسيّة متنوّعة. وإذا ما حدّدنا مثلًا المسجد بأنّه قاعة صلاة معمّدة، فإنّ هذا التحديد لا ينطبق على المسجد البازيليكي الأموي، ولا على المسجد الإيراني زمن السلاجقة أو الإيلخانيّين أو الصفويّين، ولا على المسجد المغولي في الهند، ولا على المسجد العثماني. إلّا أنّه لم يُنسَ قط أنّ المسجد الجامع يضفي على الحجر أو على القرميد أو على أيّة مادة أخرى تُستعمل في بنائه طابع القداسة الذي يميّزه، كما يلبس هذه المواد هيبة الأمير الحاكم، لأنّه يعتبر معبّرًا عن هذه الهيبة وناقلها. علاوةً على ذلك، حدث، بدءًا من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، توزيع تدريجي، في أماكن وأبنية متنوّعة، لأنشطة كانت مجمّعة من قبل في المسجد الجامع، عقبه لاحقًا ميلٌ إلى إعادة جمع هذه الأنشطة في مكان واحد. وفي كلتا الحالتين كان ذلك يجري وفق ما تمليه العادات الشائعة في العالم الإسلامي كلّه. ففي ذلك العصر نفسه، وفي كلّ مكان، تكاثرت تدريجيًّا، خارج المسجد، المدارس والمحاكم والمستشفيات والخوانق. وتكاثرت في كلّ مكان، بعد ذلك، مجمّعات دينيّة، وتُعتبر «الكلّيات» العثمانيّة أفضل نماذج عنها؛ إلّا أنّ هناك نماذج أخرى بأسماء مختلفة في البلدان الإسلاميّة البعيدة.

والنوع الثاني من البناء الذي عرف انتشارًا موازيًا للأوّل تقريبًا يتمثّل بالمقرّ الأميري، أكان في الريف أم في المدينة. وقد تقلّ أو تكبر أهميّته، إذ تراوح بين قصر ملكيّ مهيب أشبه بالمدينة الملكيّة، وصرح بسيط، محصّن أحيانًا. وفي كلّ الأحوال، فإنّ خصائص حياة الأسرة الإسلاميّة تحتّم توزيعًا معيّنًا للأمكنة داخل الدار. فهناك أقسام مفتوحة للاستقبال وأخرى محميّة المداخل وهي للحياة الخاصّة، وتحديدًا للحريم. والتنظيمات العائدة إلى هذا الفصل الضروري بين الأقسام أفادت، منذ البداية، من طريقة قديمة اعتمدها البنّاؤون المسلمون، وهي تكرار النماذج المتشابهة والقائمة حول فناء، مع تقسيم المساحة المبنيّة إلى مساكن مقفلة على نفسها. وهذه هي الطريقة التي اعتُمدت لتوزيع المساكن داخل القصور، وتقسيمها إلى مقاصير للزوجات والخليلات ولوالدة العاهل، وكذلك للأمراء الذين بلغوا سنًّا تسمح لهم بامتلاك الحرس والخدم والعبيد. والتفصيل الأخير المعتمد في كل القصور المترفة، والعائد إلى ضرورات الدين، يتعلّق بوجود مصلّى خاص بالأمير في داخل كلّ بناء فخم أو في جواره المباشر، وكذلك وجود مسجد جامع يقصده الجنود، مع مغاسل وحمّامات مراعاةً لقواعد الوضوء.

لا شك في أنّ هناك تقاليد خاصّة بكلّ منطقة، تختلف باختلاف طبيعة الأرض والمناخ والتاريخ، غالبًا ما تبرز في عمليّة اختيار هذه المادّة أو تلك في البناء، وفي تطبيق هذه الهندسة أو اعتماد تلك الوضعية أو ذلك الارتفاع. ففي المناطق الحارّة أو المجدبة من العالم الإسلامي، أدّى البحث عن البرودة والطراوة، والميل إلى إنشاء الحدائق والمساحات الظليلة والمياه الجارية، إلى اعتماد خصائص هندسيّة جديدة، منها البحث عن نظام تهوئة لتأمين مجرى للهواء البارد، وتكاثر عدد النوافير والأحواض، والمساحات الظليلة والخضراء، والظلال والمقاصير على الشرفات، والغرف المبرّدة بالمياه التي تحيطها تحت الأرض وتُعرف باسم السراديب. هذه التقاليد التي سادت في مدارس هندسيّة محلّية وطبعتها بطابع خاص، تزاوجت مع مؤثّرات أخرى تعود، بخاصة، إلى كون المقرّ الأميري، أو القصر الملكيّ، قبل كلّ شيء، إنجازًا حقّقته السلالة الحاكمة. لقد شيّدت أسرتا العبّاسيّين والفاطميّين قصورًا

عظيمة في بغداد وسامرّاء والقاهرة، وجعلتا منها بلاطات في غاية الروعة والشهرة، وقد قُلّدت في ما بعد في قصور غزنة ولشكاري بازار في المناطق الشرقيّة، وكذلك في المهديّة وقلعة بني حمّاد في المغرب. وبرزت في ما بعد العظمة المعماريّة مع أبنية الإيلخانيّين، والتيموريّين، والعثمانيّين والصفويّين، والسلاجقة، والمغول. وفي غضون ذلك تكاثرت المنشآت الملكيّة المتواضعة التي أقام فيها أسياد الحرب بعدما فرضوا سلطتهم بقوّة سلاحهم وأنشأوا لهم الإمارات، وعاشوا في قصورهم حياة البذخ، كما كانت حال الملوك النصريّين في الأندلس. وإلى جانب قصورهم رفعوا أبنية محصّنة من أجل اللجوء إليها عند الحاجة، وأبنية يقيم فيها الملوك والأمراء موقّتًا، على شاكلة خان رباط الشرف في سهب خراسان، والأنزال التي بناها القادة وأبناء الخاصّة داخل المدن، كما في دمشق والقاهرة في عهد المماليك، أو في اسطنبول والجزائر في عهد العثمانيّين. نذكر أخيرًا دُور الراحة التي أُقيمت خارج التجمّعات السكنيّة وسمحت لأصحابها بأن يتمتّعوا بمناظر خلّابة، كشواطئ البوسفور التي توزّع عليها ما عُرف عند العثمانيّين باسم «يَلي».

أمّا النمط الأساسي الثالث من الهندسة المعماريّة الإسلاميّة فيتمثّل بالأضرحة التي شهدت انتشارًا واسعًا في الأوساط الإسلاميّة في القرنين الرابع والخامس للهجرة/العاشر والحادي عشر للميلاد وما بعدهما، وذلك بدفع مزدوج: أوّلًا تحت ضغط مظاهر التكريم التي بدأت تبرز عند الشيعة تجاه أضرحة أئمّتهم، وثانيًا رغبة بعض الملوك - وبخاصة في إيران - في تخليد ذكراهم. فالأضرحة التي أدانتها، في البداية، بعض الأحاديث النبويّة كانت تغطّي بفخامتها القبور الحقيقيّة أو التذكاريّة لأشخاص يستحقّون التكريم، وقد تسبّبت بردّات فعل أثارها الفقهاء، إذ رأوا في تلك الظاهرة بدعة مُدانة. إنّ انتشار عادة تكريم الأولياء عبر الزيارات التقويّة سمح لهذه المنشآت بأن تصبح من الإنجازات الأكثر نجاحًا بين الأبنية الإسلاميّة. وكانت قد توسّعت في بعض الأحيان وتحوّلت إلى معابد حقيقيّة يؤمّها المصلّون لنيل بركات المكرَّم. وقد أُلحقت بها أحيانًا أبنية يعيش فيها تلامذة هذا المكرّم وينشرون تعاليمه. وقد اتّصفت كلّها ببساطة الهندسة وتكوّنت من برج أو مقصورة تعلوهما قبّة. إلّا أنّه ظهر الميل بعد ذلك إلى إغنائها، كما جُعل بعضها داخل مجمّع بنائي يدور في فلك المسجد الجامع، وتحوّل المجمّع بذلك إلى مقرّ تكريم.

٢- على صعيد آخر، فإنّ العناصر المشتركة والمستعملة في هذه الهندسة تشهد، عبر العصور ومن بلد إلى آخر، على استمراريّة بعض طرائق البناء وانتشارها. وقد اعتُمدت هذه الطرائق خلال الفتوحات الكبرى، عندما بدأ المجتمع العربيّ الإسلامي الذي لم يكن يمتلك أيّة تقاليد هندسيّة وفنيّة، يتبنّى الإرث التقنيّ والفنّي للشعوب المغلوبة التي حوّلها الفاتحون إلى أهل ذمّة، أو إلى موالي تمّ دمجهم تدريجيًّا في المجتمع الإسلامي. وفي هذا الإطار تمّ تبنّي إجراءات عمليّة شكّلت أساسًا للتغييرات اللّاحقة: فكان الحفاظ على الأشكال الهندسيّة للأبنية وأشكال الأعمدة والقباب، وعلى الصدر البازيليكي للبناء ممّا كان مألوفًا ومتّبعًا عند الرومان والبيزنطيّين. ومن جهة أخرى، كان اللجوء إلى الأقواس المزيّنة، والقباب القرميدية، وإلى الإيوان وعَقْد الزاوية، وسائر خصائص الهندسة الساسانيّة وما قبلها.

والتطبيق العملي لهذا الإرث المزدوج أفضى في ما بعد، عبر الصهر الموفّق للطرائق الهندسيّة وتحسينها المستمرّ، إلى النتائج التي ميّزت المراحل اللّاحقة حيث تكرّر، إلى ما لا نهاية، استعمال هذه المخطّطات الهندسيّة.

ومع ذلك فإنّ النهضة التي أحدثتها العناصر الدخيلة الجديدة، والتي ساهمت فيها السلالات الحاكمة المتعاقبة، أبقت على بعض التقاليد الهندسيّة التي يمكن أن تُنعت بالـ«كلاسيكيّة». فقد حوفظ مثلًا على الأعمدة الحجريّة والدعامات القرميديّة، كونها ضروريّة لحمل سقوف القاعات الكبرى التي ظلّت فيها القباب قائمة، وذلك في كلّ مرّة يُراد فيها إبراز فسحة داخليّة في القصور والمساجد والأضرحة. وصفوف الأعمدة القديمة التي أُهمل استعمالها، بعد العهد الأموي، على جانبي الجادات، بقيت تحيط بالأروقة والأجنحة

المحوريّة وأضلاع المساجد، ولا سيّما في المغرب حيث لا تزال عادة البناء هذه قائمة. وفي الشرق على الأخصّ، ظلّت القبّة عنصرًا أساسيًا في الأبنية المشيّدة بالحجارة أو القرميد، مع اللجوء إلى طرائق مختلفة لربط قاعدتها الدائريّة بالبناء المكعّب الشكل الذي تعلوه، وذلك داخل قاعة الصلاة في المسجد، أو فوق عرش أو قبر. وإذا كانت المثلّثات الكرويّة بين أقواس القبّة لم تُستعمل بكثرة إلّا في العصر العثماني، وهي بيزنطيّة الأصل، فإنّ اختبارات كثيرة أجريت، في أماكن أخرى، على كوى في الزوايا ونُفّذت بأشكال متنوّعة، كما قُسمت أحيانًا إلى نخاريب ومجوّفات متراكبة. وهذا العمل برع فيه البنّاء الإيراني. أمّا الإيوان - الذي غالبًا ما ترتفع فيه الحنيّة وسط إطار مستطيل وتعطيه طابع العظمة - فقد حافظ قرونًا على دوره في المساجد والقصور، وفي دور الأسياد، أي إنّه قاعة استقبال ويُستعمل أيضًا للاجتماعات العامة أو لاجتماع المريدين حول المعلّم. حتّى إنّ الأضرحة نفسها استعين لها بالإيوان على شكل مدخل فخم؛ وقد أصبح وجوده، وإن مصغرًا، ضروريًا لتوازن الواجهة.

أُعطيت هذه العناصر الهندسيّة - التي باتت من الثوابت - وظيفة تزيينيّة كُتب لها البقاء: فقد أعطت صفوف الأعمدة المجال أمام ولادة أنواع كثيرة من الركائز والعقود الصغيرة، أو من المحاريب التي تحوّلت كوًى صمّاء. كما أنّ الأقواس فوق الأعمدة اغتنت بالزخارف المتنوّعة، وجاءت منكسرة أو متجاوزة أو متعدّدة القويسات لتعطي أحيانًا شبكات من طبقات عدّة، وهذا ما نلاحظه في تركيبات بعض أبنية الغرب الإسلامي، أو لتتّحد بمجموعات من النخاريب والتجاويف العاديّة أو الكرويّة التي أطلق عليها اسم المُقَرْنَسات. ونعلم أنّ أسلوب المقرنسة كان في البدء تقنيّة بناء حقيقيّة، ولكنّه فقد تدريجيًّا هذا الطابع، بعد أن لاقى رواجًا كبيرًا في زخرفة الجدران والسقوف، فأصبح تاليًا وسيلة مصطنعة ومتكرّرة، لا علاقة لها بالهيكليّة الأساسيّة للأبنية، ولكنّها كانت تُنفّذ بالاعتماد على رسوم بنائيّة معقّدة للغاية.

٣ - إن اللجوء إلى المقرنس في العالم الإسلامي كلّه، حتّى عصرنا الحاضر، يُظهر غلبة التزيينات القائمة على أشكال هندسيّة كان لها دور مهمّ في وضع تصاميم الأبنية، ولكنّها كانت تشكّل في حدّ ذاتها نوعًا من الزخرف. وتقضي التزيينات تقسيم كلّ مسطّح، بشكل دقيق، إلى قطع وشرائط وأفاريز متجاورة أو متشابكة. وقد بقي التزيين هذا ملازمًا الهندسة الإسلاميّة حتّى عصرنا، مع تطوّره باتّجاه الدقّة والتهذيب، فأُهمل المزيج المتعامد وأُفسح في المجال أمام تشابك المضلّعات النجميّة الشكل. وكانت تجاور هذا التشبيك الهندسي، على المسطّح عينه، أشكال زهريّة تقليديّة تُعرف باسم الغَرْبَسة «أرابسك»، وكتابات منقوشة ذات طابع تجريدي. وهيَ تهدف كلّها الى الاستجابة لرغبة الفنّان في البلاد الإسلاميّة الذي يكره المساحات الفارغة، وهذه الكراهية تشكّل ميزةً أساسيّة ملازمة لإحساس هذا الفنّان.

ما خلا بعض الإستثناءات النادرة العائدة إلى مناطق تقع في الأطراف، لم تعرف الهندسة الإسلاميّة عناصر تزيينيّة أخرى غير الثلاثة التي ذكرناها. وقد استُعملت بنجاح متفاوت، بحسب الأمكنة والعصور، وقد تقيّدت دائمًا هذه الهندسة بقاعدة تحريم التجسيم. وقد يكون من غير الحكمة أن ننسب إلى الإسلام وحده سبب هذا التحريم. وبالفعل، ليس هناك ما يثبت أن التحفّظات تجاه الرسوم التجسيميّة، وكذلك الاحترام الخاص لكتابة عربيّة، شكّلت، كاللغة العربيّة، وسيلة لنقل نصوص الوحي، كانت كافية، بمعزل عن أيّة أسباب أخرى، لتفسير هذا التحريم الذي التزم به البنّاؤون المسلمون منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، ولم يتحوّلوا عنه منذ ذلك التاريخ.

والثابت في كلّ حال هو الاستمرار اللّافت للنظر لطريقة تزيينيّة كانت قد استعملت في أقدم الأبنية الإسلامية، وهي اللجوء إلى الألوان المتعدّدة والبرّاقة في الزخرفة. فالرخام الملوّن والمعادن الثمينة والفسيفساء الجدرانيّة مع خلفيّة مذهّبة بيزنطيّة الأصل، سمحت كلّها بخلق البريق في الإنجازات الأمويّة، كما في قبّة الصخرة في القدس، واستمرّت هذه الطريقة التزيينيّة في ما بعد. والرسوم المنفّذة على كسوة من

الجصّ الناعم أو المنقوش في العمارات العبّاسيّة ساهمت في استمرار أهميّة الألوان، وإن كانت البقايا الأثريّة الدالّة على ذلك قليلة. إنّ تطوّر فنّ الخزفيّات وبريقه الدائم سمحا لهذا المنحى الفني، بفضل ازدهار طريقة الزخرف بالخزف المطلي، بأن يزدهر، معطيًا الأولويّة للألوان التي غالبًا ما طبعت صروح المسلمين؛ مع أنّ هذا التقليد لا يعود في جذوره إلى الإسلام.

◀ راجع المستندات ٣٦-٤٥، ٤٧-٥١، ٥٦، ٥٩-٦٥، ٦٧، ٦٩-٧٢، ٧٤-٨٢، ٨٥ و٨٦.

الهندي (الاتّحاد)، مساحته ٠٩٠ ٢٨٧ ٣ كلم[٢]، وعاصمته نيو دلهي. دولة فدراليّة ولدت إثر تقسيم الهند سنة ١٩٤٧، تحتفظ اليوم، إلى جانب الباكستان وبنغلادش الإسلاميّين، بأقليّة إسلاميّة تبلغ ١٢٪ من مجموعة السكّان الذين يبلغون ثمانمائة مليون نسمة. في هذا الاتّحاد، المكوّن من خمس وعشرين مقاطعة فدراليّة وستّ مناطق، تقع أهم الآثار الهندسيّة التي خلّفها حكّام الهند المسلمون القدامى، من سلاطين دلهي إلى المغول، مروراً بالسلالات المتنوّعة في غجرات والدكّن. ما يزال المسلمون اليوم موزّعين بطريقة متفاوتة. فبعض المقاطعات الفدراليّة يضمّ نسبة عالية جدًّا، مثل كشمير، وبعضها الآخر يحتضن فرقًا تقترب جزئيًا من الإسلام، كالسّيخ. وفضلاً عن ذلك، ثمّة مدينة تمثّل للإسلام مركزاً فكريًا وجامعيًا عالميّ الإشعاع، هي مدينة حيدر آباد في الدكّن مع جامعتها المسماة «عثمانية».

هنغاريا، بالتركيّة مكارستان، منطقة تقع على الدانوب الأوسط في أوروبا الوسطى، غزتها في ما مضى، في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، قبائل أسيويّة أسلم بعضها، وعرفت في القرنين السادس عشر والسابع عشر عقودًا عديدة من السيطرة الإسلاميّة، في ظلّ الأمبراطوريّة العثمانيّة.

وردت بعض المعلومات حول هذه المنطقة في مؤلّفات علماء الجغرافيا العرب، وأبرزهم رحّالة أقام فيها في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، هو أبو حامد الأندلسي الغرناطي، المولود في غرناطة سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م، والمتوفى في دمشق سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م. إنّ طبيعة العلاقات التي ربطت شعوب هذه المنطقة بالإسلام، التي تتحدّر من جذور مختلفة ومتنوّعة، لم تتضّح بعد.

وفقًا لما ورد في المصادر القديمة، يُذكر أنّ عناصر مسلمة كانت تعيش، في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، في الدولة المجريّة الاتّحاديّة القائمة آنذاك. كان هؤلاء المسلمون قد غادروا بشكل قبائل رحّالة سهول روسيا الجنوبيّة المجاورة لبلغاريّي الفولغا. كان بينهم جماعات تعود بأصلها إلى خوارزم أو إلى أراضي الخزر الأوروبيّة الأسيويّة، وكذلك بعض التجّار، وبصورة خاصّة عناصر تركيّة تنتمي الى قبيلة البتشنيغيّين التي استمرّت، حتّى القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، في التوغل داخل هنغاريا أفواجًا متعاقبة حيث كانت تقوم بالدفاع عن الحدود.

لقد لقيت جميع العناصر التي دخلت هنغاريا حظوة لدى الحكام المجريّين في حينه. أمّا وضعها كأقليّات فلم يشكّل معضلة لأنّها كانت تطبّق الشريعة الإسلاميّة بشكل فضفاض. وفي ما يخصّ تنصّر هذه العناصر، فقد تمّ نهائيًا في أواسط القرن الرابع عشر للميلاد، عندما أعلن ملك هنغاريا، شارل - روبير دانجو، وحدة البلاد الدينيّة. أمّا العادات الإجتماعيّة التي استمرّت لبعض الوقت، فقد اعتُبرت في البدء شكلًا من الثقافة التقليديّة وما لبثت ان زالت تدريجيًّا ولم يبقَ منها شيء يذكر اليوم.

بعد مرور قرنين تمكّنت الجيوش العثمانيّة من الاستيلاء على بلغراد في العام ١٥٢١. وبتحريض من السلطان سليمان القانوني، قادت هذه الجيوش الحملات الثلاث غير الموقّتة في ١٥٢٦ و١٥٢٩ و١٥٣٢، ومن ثمّ وضعت يدها على حصن بودا واستولت على مدينة بست في العام ١٥٤١، وضمّت إلى ممتلكات المسلمين السهل الذي طالما حلم الاتراك بانتزاعه من آل هابسبورغ ليتمكنوا من الانطلاق منه لمهاجمة مدينة فيينا.

وهكذا بدأ احتلال عسكري عرف مراحل توسّع

متعاقبة من العام ١٥٦٦ إلى العام ١٦٦٣. أدّى هذا الاحتلال إلى تنظيم إداري ناجح وباهظ الكلفة، تديره اسطنبول بواسطة حكّام تعيّنهم مباشرة.

لم يواكب هذا الاحتلال أيّ ترسّخ قويّ للإسلام، لا عن طريق توطين عائلات تركيّة ولا عن طريق اعتناق السكان الأصليّين دين المحتلّين في بلد فقير إقتصاديًّا، هجره قسم كبير من سكّانه. وفي ما عدا بعض الأبنية الأثريّة العثمانيّة الواقعة في بودا أو في بِكْس (Pécs)، يمكن القول إنّ آثار السيطرة الإسلامية ما لبثت ان امّحت في النتيجة بعد قرن ونصف القرن من الثورات وزالت بسهولة. إنّ استرجاع المسيحيّين للمنطقة تمّ على أيدي جيوش آل هابسبورغ وحلفائهم، الذين نزلوا بودا وپست في العام ١٦٨٦، ودخلوا بعد ذلك ترانسلفانيا. ولم يبق للعثمانيّين إلا مقاطعة تيميشوارا التي انتُزعت منهم في العام ١٧١٨.

◄ راجع المستند رقم ٢٠.

هود، شخصيّة ذكرها القرآن على أنّها أحد الأنبياء المرسلين إلى العرب قبل الإسلام.

إنّ الرواية الواردة في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشّعراء، تجعل منه المنذر لقبيلة عاد المتحدّرة من ذريّة نوح. يبدو أنّ شعب هود لم يصغ إليه، شأنه شأن الأنبياء الآخرين المرسلين قبل النبي محمّد (ﷺ).

لقد تمكّن معظم المفسّرين في القرون الوسطى من تحديد موضع الرواية في منطقة من جزيرة العرب الجنوبيّة تقع بين عُمان وحضرموت، وقد تطابق رمال الأحقاف.

إلى هذا التموضع تعزى الشهرة التي تُنسب، في الوسط الإسلامي وفي زمن انتشار تكريم الأولياء، إلى معبد هود أو النبي هود في حضرموت، الذي كان مقصد زيارات تقويّة، وهو لا يزال قائمًا حتّى اليوم. لكنّه لم يكن المكان الوحيد الذي كُرّمت فيه ذكرى هود. ففي معجم الهَرَوي، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، ورد ذكر أماكن أخرى لقبره في دمشق، في المسجد الجامع وفي مكّة، جعل منها الهَرَوي أماكن زيارات تقويّة.

الهوديّون أو بنو هُود ٤٣١-٥٤٠هـ/١٠٣٩-١١٤٦م، واحدة من أبرز سلالات الأندلس خلال حكم ملوك الطوائف، كانت قاعدة حكمها سرقسطة.

هذه الأسرة العربيّة الأصل، التي تؤكّد أنّها تنتسب إلى النبيّ هود الذي وهبها اسمه، شغلت موقعًا إستراتيجيًّا في الدفاع عن الثغور العليا، شمالي شبه الجزيرة الإيبيريّة. كما تمكّنت من الصمود لفترة في وجه المملكة الأراغونيّة، متصديةً في الوقت نفسه للحملات المسيحيّة خلال حروب الاسترداد، ولأطماع المرابطين.

تميّز أفراد هذه الأُسرة بنجاحهم السياسي وأخذهم بالحنكة الدبلوماسيّة والحزم العسكري معًا، سواء في علاقتهم بالأمراء الغرباء أو مع خصومهم من المسلمين. وهكذا، وسط الأراضي التي ورثوها عن بني تُجيب، والتي كانت تضمّ وادي الايبرو بكامله، لمع نجم بلاط مَلَكيّ قصده الشعراء والعلماء. ولا تزال آثار قصر الجعفريّة - الذي رُمّم حديثًا في سرقسطة، ويعود إلى حكم أبي جعفر أحمد الأوّل المقتدر - تشهد على عظمة هذا البلاط.

أمّا المرابطون الذين جاؤوا لنجدة أبي جعفر أحمد الثاني المستعين، بعد هزيمته، سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م، على أيدي الجيوش المسيحيّة، فلم يقرّروا إلّا بعد موته فرض هيمنتهم على خلفائه والدخول إلى عاصمته التي ما لبث أن استولى عليها ألفونسو الأوّل الأراغوني في العام ٥١٢هـ/١١١٨م. إلّا أنّ السلالة الهوديّة استمرّت قائمةً في أمكنة أخرى، وقد شاركت منتصرةً في ثورة الأندلس ضد «المرابطين» سنة ٥٤٠هـ/١١٤٦م. وافت المنيّة آخر ممثل لها خلال إحدى المعارك.

سليمان المستعين	٤٣١-٤٣٨هـ/ ١٠٣٩-١٠٤٦م
أحمد الأوّل المقتدر	٤٣٨-٤٧٤هـ/ ١٠٤٦-١٠٨١م
يوسف المؤتمن	٤٧٤-٤٧٨هـ/ ١٠٨١-١٠٨٥م
أحمد الثاني المستعين	٤٧٨-٥٠٣هـ/ ١٠٨٥-١١١٠م
عماد الدولة عبد الملك	٥٠٣-٥٢٤هـ/ ١١١٠-١١٣٠م

سيف الدولة أحمد الثالث المستنصر ٥٢٤-٥٤٠هـ/ ١١٣٠-١١٤٦م

الهوسا، شعوب مسلمة من زنوج أفريقيا الغربيّة، انشأت ممالك ومثّلت دورًا فاعلًا في تحوّل سكّانها الى الإسلام.

من المؤكّد أنّ الهوسا اعتنقوا الدين الإسلامي منذ القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، بتأثير دعاة من المندينغ قدموا من مملكة «مالي» التي كانت تربطهم بها صلات تجاريّة، ثمّ تأثّروا في القرن الثاني بتعاليم المصلح الديني البربري المغيلي. إنّ تاريخ الهوسا اختلط، طوال تلك الفترة، بتاريخ مملكة «كانو» والإمارات المجاورة لها، وقد طُبعت مؤسّساتها الإسلاميّة بطابع وثني محلّي. بعدئذ خضع الهوسا، في مطلع القرن التاسع عشر ومنتصفه، ووسط جو مشحون بالأزمات الداخليّة، لدولة عثمان دان فوديو، وهي دولة إسلاميّة متشدّدة تحرّكها روح الجهاد وتسيطر على مقدّراتها جماعة من الأرستقراطيّين الغرباء، تدعى البول. إنّ البنى التي قامت عليها بلاد الهوسا منحتها حيويّة وفعاليّة سياسيّة رافقتهما صرامة قانونيّة عقائديّة مالكيّة المنحى، لكنّها كانت مصبوغة أيضًا بشيء من الوهّابيّة، ما أدّى إلى الازدهار الذي عرفته العاصمتان غواندو وسوكوتو. في محيط هاتين المدينتين، وذلك حتّى عهد الاستعمار وما بعده، كُتب الاستمرار لوضع اجتماعي ديني فريد ما زال يطبع حتّى اليوم تنظيم نيجيريا الشماليّة الداخلي.

◄ راجع المستندين ٢٨ و٢٩.

هولاكو، ٦١٥-٦٦٣هـ/١٢١٧-١٢٦٥م، أمير مغولي، مؤسّس سلالة الإيلخانيّين في إيران، حكم من العام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م حتّى وفاته.

حفيد الفاتح المغولي الشهير جنكيز خان وشقيق الخانين الكبيرين منكو وقوبيلاي اللذين تعاقبا على الحكم، الأوّل من ٦٤٩ إلى ٦٥٨هـ/١٢٥١ إلى ١٢٦٠م، والثاني من ٦٥٨ إلى ٦٩٣هـ/ ١٢٦٠ إلى ١٢٩٤م.

قاد هولاكو في اتّجاه الغرب، بتكليف من منكو، حملات عسكريّة، وكانت هذه قد توقفت عند وفاة جنكيز خان، في العام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، بعد تخريب بلاد ما وراء النهر وخوارزم. غادر هولاكو مُنْغُوليا في العام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، وغزا إيران حيث انتصر في العام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م على الإسماعيليّين النزاريّين المعروفين باسم الحشّاشين، واستولى على قلعتهم الحصينة ألموت. ثم دخل العراق ودمّر بغداد، في العام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وقتل الخليفة وأنهى سلطة الخلافة العباسيّة. وبعد ذلك دخل سوريا، واستولى على حلب ودمشق في العام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، لكنّه اضطر إلى العودة إلى مُنْغُوليا إثر خبر وفاة شقيقه. أمّا جيشه الذي سلّم قيادته إلى القائد كَتبغا، فعرف هزيمة شنعاء في فلسطين في عين جالوت حيث صدّه المماليك القادمون من مصر، فاضطرّ إلى الإنسحاب حتّى العراق.

شكّلت الصحراء السوريّة - العراقيّة، بعد ذلك، حدودًا غربيّة للدولة التي أدارها هولاكو تحت وصاية أخيه البعيدة، الخان الأكبر قوبيلاي الذي منحه لقب خان. اختار السيّد الجديد منذ ذلك الحين أن يقيم، خلال فترات السلام، في أذربيجان، على ضفاف بحيرة أُرمية، وبالتحديد في مَراغه حيث شيّد مباني عديدة، ومن بينها مرصد شهير أنشأه بناءً على طلب العالم الفلكي نصير الدين الطوسي.

و

الواثق بالله، أبو جعفر هارون (١٩٦-٢٣٣هـ/ ٨١١-٨٤٧م)، خليفة من السلالة العبّاسيّة، حكم من سنة ٢٢٨ حتى سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م، في حقبة سامرّاء المضطربة حيث كانت حامية الخلفاء التركيّة هي المسيطرة على السلطة.

لم يكن يتمتّع حفيد هارون الرشيد هذا، إبن المعتصم من أمة يونانيّة، بأيّة كفاية خاصة، وقد اختفى من الساحة بعد خمس سنوات من تسلّمه السلطة. كان عليه أن يواجه ثورة القبائل العربيّة في شبه الجزيرة العربيّة، فأوكل مهمّة قمعها إلى القائد التركي بُغا الكبير، وأيضًا قمع غيرها من الثورات، بينها واحدة قامت في دمشق. لم يغيّر شيئًا في السياسة الموالية للمعتزلة التي اعتمدها أسلافه المباشرون والتي تابعها هو بالحماسة عينها، إلّا أنّه اصطدم بمعارضة متزايدة من قِبَل الأوساط التقليديّة التي كانت مهيمنة في بغداد. حينئذٍ أذكى أحدهم، وهو ابو نصر الخزاعي، ثورة فعليّة سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٦م أُعدم على أثرها بعد أن استجوبه الخليفة بنفسه ولكنّه ظلّ متمسّكًا بآرائه.

واداي، منطقة تقع في أفريقيا السوداء هي، اليوم، جزء من جمهوريّة التشاد. عرفت بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر انطلاقتها مملكةً مستقلّة توالى على حكمها ملوك عديدون من سلالات شتّى.

في بداية القرن السابع عشر، كان الإسلام قد انتشر بسرعة بين سكّان هذه المنطقة الواقعة غربيّ دارفور والمُشرّعة على التأثيرات الإسلاميّة الوافدة من مناطق نهر النيل. وقد دعا شخص يدعى عبد الكريم إلى الجهاد ضد الملك، وأسّس، سنة ١٦٣٥، دولة إسلاميّة جديدة قُدّر لها أن تستمرّ حتّى الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٠٩، وسط اضطرابات ونشوب معارك متعدّدة طيلة فترة وجودها: صراعات ضدّ الجيران المباشرين، علاقات متضاربة بأمبراطوريّات الفُلْبة الناشئة، وصولًا إلى أمبراطوريّة عثمان دان فوديو، ومع السودان خلال حكم المهدي، ومع بَرْقة خلال حكم السنوسيّين. وفي هذه الفترة تمّ التخلّي عن وارا، عاصمة هذه المنطقة، التي أُنشِئَت في القرن السابع عشر، لمصلحة مدينة أبيشه الحاليّة.

واسط، مدينة مندثرة في الوقت الحالي، كانت إحدى أهمّ مدن العراق القروسطيّة بعد أن أدّت دورًا مهمًّا، بشكل خاص في بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، في عصر الأمويّين.

تقع واسط على المجرى القديم لنهر دجلة حيث أثرها ما يزال على أحد سواعد النهر، في وضع وسطي - أعطاها اسمها - بين الكوفة والبصرة. أسّسها في القرن الأوّل للإسلام الحجّاج، حاكم المقاطعات الشرقيّة باسم الخليفة عبد الملك الذي أرسله إلى العراق لإخماد الثورات. شيّد هذا القائد المنتصر، بين سنة ٨٣ و٨٦هـ/ ٧٠٢ و٧٠٥، هذا المقرّ للجيوش السوريّة المكلّفة المحافظة على النظام، وكان مخصّصًا للعرب. أمّا غير العرب، وخصوصًا التجّار الذين كانوا يرتادونه، فقد كان عليهم أن يغادروه عند هبوط الليل إلى مدينة كسكر. كان يرتفع، في القسم المركزي من المدينة المحصّنة، قصر مجهّز بقبة خضراء عالية ومسجد جامع مجاور، اقتصرت عليه الحفريات الأثريّة. تتفرّع من هذا المجمّع، الذي كان من المفروض أن يكرّر نموذج بنائه في بغداد، بعض الشوارع المحاطة بالحوانيت؛ كما كان السور يضمّ أيضا، إذا سلّمنا بالأوصاف القديمة التي

وصلت الينا، مساحات كبيرة كانت معدّة لتجمّعات الجيوش. وبسبب عدم وجود أبحاث أثريّة كافية، لا نعرف المزيد عن المخطط الذي اعتُمد عند تأسيسه.

أُنشئت واسط عاصمة إداريّة لعراق الأمويّين، وكانت آخر مدينة صمدت بوجه الجيوش التي أمّنت في ما بعد إنتصار «الثورة العبّاسية». استمرّت واسط، القابعة في منطقة خصبة غنيّة بشجر النخيل وبالمحاصيل الزراعيّة من كل نوع، في عهد الخلافة العبّاسيّة، مركزًا حرفيًّا وتجاريًّا وفكريًّا حيويًّا، وكذلك مرفأً نهريًّا كثير الارتياد حتّى الأونة التي حُوِّل فيها نهر دجلة عن مجراه، أي في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد. آنذاك، اندثرت المدينة بشكل كامل، بحيث جرى التعرّف إلى موقعها بصعوبة بالغة في القرن التاسع عشر.

◄ راجع المستند رقم ٨.

واصل بن عطاء، أبو حُذَيْفة الغزّال ٨١-١٣٢هـ/٧٠٠-٧٤٩م، عالم كلام والمؤسّس المفترض للمعتزلة. ولد في المدينة، في أسرة من الموالي، ثمّ انتقل إلى البصرة حيث استقرّ. جلُّ ما نعرفه عنه أنّه كان ينتمي إلى حلقة الحسن البصري، وقد امتاز فيها بمواقف طريفة، بحسب بعض الروايات. صاهر عمرو بن عبيد، وكان على علاقة وطيدة به، وقد دافعا معًا عن أطاريح غدت، على ما يبدو، أساسًا لأفكار حركة المعتزلة.

الواعظ، جمعها الوعّاظ، دعاة شعبيّون وأشخاص عُرفوا بالتقوى برزت أسماؤهم منذ العصور الأولى في المجتمع الاسلامي حيث أدّوا أدوارًا لم يكن لها في البداية طابعها الرسمي.

كان عمل الوعّاظ يصبّ في نشر الدعوة، وهو يختلف عن أعمال الخطباء الذين كُلّفوا أيّام الجُمع بإلقاء خطب في المساجد، غالبًا ما يكون لها طابع سياسي. وكثيرًا ما كان الوعّاظ يدافعون عن آراء فقهيّة محدّدة، أو يطلقون النداءات باسم الصوفيّة. ونشاطهم الذي كانت تحظّره السلطة أحيانًا، كان موجّهًا إمّا الى عامة الشعب في الشوارع والأسواق، وإمّا محصورًا في المدارس، في الحقبة التي ظهرت فيها هذه المؤسّسات. وفي القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، طوّر الوعّاظ في سوريا كما في العراق أساليب عملهم بشكل بارز، ونجحوا في أن يجمعوا حولهم جماهير حقيقيّة، وبذلك كان لهم تأثيرهم السياسيّ والديني، وقد وظّفوه لمصلحة التقوى. وهذا التأثير خفّت قوّته في العصور اللاّحقة.

الواقدي، أبو عبدالله محمّد بن عمر (١٣٠-٢٠٧هـ/٧٤٧-٨٢٣م)، فقيه ومؤرّخ عربيّ، عاش في عصر العبّاسيّين الذهبي، وما تزال كتاباته حول عصر النبيّ محمّد (ﷺ) تشكّل مصدرًا وحجّة عند العلماء المسلمين.

هو مولى لعائلة من المدينة المنوّرة حيث ولد، وقد أُوصي به عند الخليفة هارون الرشيد، وقصد قصره في الرقّة حيث حظي بدعم يحيى البرمكي. وفي ما بعد، أقام أيضًا علاقات جيّدة بالخليفة المأمون الذي عيّنه قاضيًا لأحد أحياء بغداد. وضع مؤلّفات كثيرة لم يسلم منها إلّا كتاب «المغازي»، أو كتاب غزوات النبيّ محمّد (ﷺ) العسكريّة. له الفضل في جمع مواد ضخمة مصنّفة بحسب تسلسلها التاريخي. يكشف هذا الكتاب عند صاحبه، فضلًا عن ذلك، ميولًا شيعيّة.

الوالي ← حاكم إقليم.

وان (الجمهوريّة التركيّة)، مركز حديث لمقاطعة مهمّة في منطقة الأناضول الشرقيّة الواقعة على الضفّة الشرقيّة لبحيرة تحمل الإسم نفسه.

كان الموقع سابقا يتميّز بقلعة عرفها عالم الجغرافيا القروسطي ياقوت، وما تزال أطلالها حتّى اليوم تعلو أجرُف هضبة صخريّة مدهشة. وفي أسفله كانت تمتدّ محلّة دُمّرت كليًّا وهُجرت في أثناء الحرب العالميّة الأولى، بحيث نُميّز بصعوبة آثار بعض المباني التاريخيّة، ولا سيّما المساجد.

بقي تاريخ القرون الوسطى لهذا الموضع غامضًا إلى حدّ ما، وقد ظهر اسمه في كتب المغازي العربيّة خلال حكم الخلفاء العبّاسيّين ضدّ بعض الإمارات المسيحيّة. كانت تسكن المنطقة شعوب أرمنيّة وكرديّة، انضمّت إليها في ما بعد جماعات عربيّة، وفي فترة لاحقة قبائل من التركمان، أشهرها على الإطلاق تلك التي تمثّل

تجمّعات القراقيونلو والآق قيونلو، وقد امتدّت سلطتها على أذربيجان كلّها قبل أن تقيم أمبراطوريّات بالمعنى الحقيقي للكلمة. ففدت وان مركزها السياسي بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر للميلاد، لمصلحة أخلاط الواقعة على الضفة الغربيّة من البحيرة، وقد باتت، بخاصة في القرن السادس عشر للميلاد، عرضةً للصراعات بين العثمانيّين والصفويّين الذين كانوا يحكمون آنذاك إيران. احتلّها سليمان القانوني نهائيًا وضمّها إلى السلطنة العثمانيّة سنة ١٥٤٨م. بالرغم من أنّ الروس استقرّوا فيها بين سنتي ١٩١٥ و١٩١٧، إلّا أنّ وضعها بقي غير واضح لفترة طويلة، إلى أن ضُمّت نهائيًا إلى أراضي الجمهوريّة التركيّة.

وَجْدة (المملكة المغربيّة)، مدينة في المغرب الغربي، تقع شمالي البلاد، قرب الحدود الحاليّة مع الجمهوريّة الجزائريّة، في موقع ذي أهميّة إستراتيجيّة.

أُسّست وجدة سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٤م على يدي بربريّ من زناتة، هو زعيم قبيلة مغراوة التي كانت تُناصر أمويّي قُرطبة، لكنّه لم يكن يشعر بالأمان في منطقة فاس فجعل من وجدة مدينة محصّنة مزوّدة بحامية مهمّة. وفي ما بعد عانت وجدة تداعيات التطوّرات السياسيّة التي عرفتها المنطقة خلال العصور اللّاحقة. فبسبب موقعها على منفذ الطريق الشرقيّة - الغربيّة التي تتبع فجوة تازة، كانت عرضة لاحتلالات متتابعة من قبل المرابطين والموحّدين، وفي ما بعد أُلحقت بدولة بني عبد الواد الذين تركّزوا في تُلمْسان سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م؛ دمّرها المرينيّون، ثمّ أعادوا بناءها سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م. منذ ذلك الحين، كانت موضوع نزاع مستمرّ بين المرينيّين وجيرانهم في تلمسان؛ ثمّ بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، بين أسياد الجزائر الأتراك وملوك المغرب. ولم تعرف وجدة انطلاقتها الإداريّة والاقتصاديّة الفعليّة إلّا في الفترة الحديثة، بعد أن خرجت من الأسوار التي تحيط بها والتي كان أعيد بناؤها مجدّدًا سنة ١٨٩٦.

◄ راجع المستندين ١٤ و١٩.

الوحي الإلهي، التنزيل بالعربيّة وغالبًا الوحي. هو مفهوم أساسي في الإسلام، أعطى النص القرآني الذي تلاه النبيّ محمّد (ﷺ) قيمته المقدّسة. وهو ينسحب على كل الرسالات السماويّة السابقة التي نقلها الأنبياء الذين كان النبيّ محمّد ﷺ خاتمهم.

لقد وجّه الله مثل هذه الرسالات إلى الناس تثبيتًا لهم في الطريق القويم لأنّهم معرّضون لوساوس الشيطان. هكذا عقد الله ميثاقًا مع أبناء آدم، وهو ميثاق ألمحت إليه آيات قرآنيّة عدّة. جُدّد الميثاق مع أبناء إسرائيل في زمان موسى، لكنّهم نقضوه، فعوقبوا؛ وبعدئذٍ شمل (الميثاق) العرب. لذا تكرّر الوحي في التوراة، ومن ثمّ في الإنجيل، وأخيرًا في القرآن الذي وُجّه إلى العرب والذي اعاد الحقيقة إلى نصابها، بعد أن شوّهها اليهود والنصارى، كما تؤكّده بعض الآيات القرآنية وكذلك التفاسير اللّاحقة:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [سورة آل عمران، الآيات: ٣ - ٤].

وَرامين (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، وبالفارسيّة ڤرامين، ناحية حاليّة تقع على بعد خمسين كيلومترًا جنوب شرقي طهران، وقد كانت خلال عهد الإيلخانيّين مدينة مهمّة في مقاطعة الجبال الفروسطيّة.

خلَفت ورامين مدينة الرّيّ بوصفها مركز محافظة محلّية بعدما دمّرت هذه الأخيرة غزواتُ المغول، ثمّ فقدت دورها بقيام العاصمة طهران، فلم يتيسّر لها الازدهار إلّا بين القرنين السابع والتاسع للهجرة/ الثالث عشر والخامس عشر للميلاد. أدّت آنذاك، في سهل خصب - حيث تعتبر حتّى اليوم مركزًا تجاريًّا - دور محطة يرتادها الكثيرون، على طريق القوافل القديمة المؤدّية من مدينة الريّ إلى أصفهان. والازدهار الذي عرفته ورامين، منذ عهد السلاجقة إلى أيام التيموريّين، يسّر لها الحفاظ، حتّى يومنا هذا، على بعض البقايا الأثريّة التي تعود إلى ذلك العصر.

إنّ تعدُّد الأضرحة الشيعيّة أو ما يعرف بـ «إمامزاده» يشهد لما كان عليه التوجّه الديني آنذاك. نذكر أيضًا البرج - المدفن القائم حتّى اليوم على شكل نجمة،

وهو يعود إلى سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، ومسجدًا جامعًا كبيرًا مميّزًا بأربعة إيوانات ومزيّنًا بالقرميد وقطع القاشاني، كان قد شيّده، ما بين سنة ٧٢٢ وسنة ٧٢٦هـ/١٣٢٢ و١٣٢٦م، الإيلخاني أبو سعيد خلف ألجايتو، وأعيد تجميله من جديد سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م في عهد التيموري شاهرُخ.

ورق، مادة أحْسَنَ العالم الإسلامي في القرون الوسطى تطويرَ استعمالها وصناعتها، ناظرًا إليها على أنها توفّر الشروط اللازمة لنهضة فكريّة واقتصاديّة رائعة.

لم تظهر دراسات تقنيّة تحدّد بدقّة التطويرات التي أدخلها الحرفيّون المسلمون على الطريقة الصينيّة التي وصلت، منذ النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، إلى الأمبراطوريّة العبّاسية بواسطة أسرى حرب وقعوا في أيدي المسلمين في معركة تالاس. وحدها المصادر الأدبيّة العربيّة العائدة إلى القرون الوسطى تفيد أنّ التطوّر الأوّل لمعامل الورق بدأ في سمرقند، ثمّ في المقاطعات الشرقيّة كلّها في ما وراء النهر وخراسان، قبل أن تتكاثر تلك المعامل في بغداد، مع مؤسّسة الفضل البرمكي في العام ١٧٨هـ/٧٩٤م، وفي الجزيرة العربيّة وسوريا ومصر والمغرب، وفق ما جاء في كتاب الزّيري المعزّ بن باديس (٤٢٢-٥٠٢هـ/١٠٣١-١١٠٨م)، وكذلك في الأندلس في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. نعلم أيضًا أنّه، منذ بداية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، أمر الخليفة هارون الرشيد بأن يُستخدم الورق - الذي أصبح شائعًا - في الإدارة العبّاسية بدلًا من الرقّ والبرديّ.

من ناحية أخرى، وَصَلَنا عدد وفير من المخطوطات تكفي وفرتها ونوعيتها لتشهد على قيمة إنتاج الورق الذي سمح بنشر مؤلّفات علميّة تمّ نسخها بأعداد كثيرة. إنّ المكانة المرموقة التي احتلّتها فنون الكتاب، الذي كان دائمًا من أهم مميّزات الحضارة الإسلاميّة - سواء من ناحية الخط أو الزخارف أو المنمنمات - تعود في مجملها إلى تطوّر صناعة الورق التي سمحت بخفض سعره.

لم تُبذَل، حتّى الآن، جهودٌ كافية لاستثمار المعلومات المتوافرة في سبيل مراحل التطوّر الحرفيّ الذي كان من نصيب أنواع متعدّدة من الورق، بحسب المشاغل الحرفيّة والعصور، والذي أطلق أنشطة تجارية مشهودًا لها، قبل أن يجري التخلّي عن الورق الشرقيّ التقليديّ خلال القرن التاسع عشر لمصلحة الورق الأوروبيّ المستورد. بعدئذٍ استُخدمت طرق صناعيّة حديثة طمست خصائص صناعة القرون الوسطى التي كانت تستمدّ المواد الأوليّة من خِرق الكتان وقِطَع حبال الليف، لتحصل على اللباب داخل الأجران وطواحين الورق، قبل أن يضاف إليه الماء ويجهّز بواسطة غراء من نشاء القمح. أمّا العجينة فكانت تُفرَش على القوالب قبل أن تجفّف وتُفرك وتُملّس لتوفّر نماذج من الورق ذي النوعيّة الرفيعة.

وَرْقَلَة (الجمهوريّة الجزائريّة)، مدينة - واحة تقع في قلب البادية الصحراويّة، على بعد ٦٠٠ كلم جنوبي الجزائر العاصمة. يُعتبر ازدهارها الحديث صدىً لماضيها التاريخي.

عُرفت وَرْقَلة في بداية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد بإيوانها الإباضيّين الذين طُردوا من تاهرْت بعد خراب مملكة الرُّسْتُميّين على أيدي فاطميّي إفريقية الأول. استقرّ هؤلاء الإباضيّون على بُعد ١٠كلم جنوبيّ ورقلة، فوق موقع محلة سدراتا. وفي نهاية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، اضطرّوا إلى مغادرة هذا الموقع متوجّهين إلى منطقة المزاب، لكنّه ظلّ بدون شك مأهولًا بعد مغادرتهم. وقد تمّ الكشف جزئيًّا عن آثار هذه المدينة، وريثة فنّ الرّستميّين، التي أثْرت عن طريق تجارة القوافل، وهي غير بعيدة عن الموقع المفترض لمسجدٍ جامع ما يزال الإباضيّون يزورونه حتّى اليوم. وقد تمّ العثور هناك، داخل مساكن واسعة مطمورة تحت الرمل، على لوحات من الجص المزخرف، لم تتمّ بعد دراسة خصائصها الأسلوبيّة كما ينبغي.

بعد أفول نجم سدراتا، عرفت ناحية ورقلة، خلال قرون عدّة، مصيرًا متقلّبًا طبعته صراعات بين السلالات المتنافسة في المغرب. لكنّ ذلك لم يحل دون حفاظها، على فترات، على نوع من الاستقلال الذاتي، ولا سيّما في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد. خلال

هذه الفترة، كانت ورقلة مركزًا تجاريًّا نشيطًا فوُصفت بـ«باب الصحراء». وكان اقتصادها يقوم على غنى نخيلها وعلى المبادلات بين البدو والحضر؛ لكنّه بدأ بالتحوّل سنة ١٨٧٢. ومنذ ذلك الحين بدأت بشائر التحديث تظهر بوضوح نتيجة تمركز السلطة الفرنسيّة فيها. وتنامى هذا التحديث بفضل الاهتمام الذي أَوْلته إيّاه الحكومات الجزائريّة بعد الاستقلال.

الوزير، لقب شرف كان يُمنح للشخص الذي يقوم لدى الحاكم بمهمّات رئيس الوزراء في مختلف الدول الإسلاميّة في القرون الوسطى وحتّى الفترة المعاصرة. وكان حامله يجمع، إلى كفايته السياسيّة، مكانة الخادم الشخصي للخليفة التي تجعله واحدًا من الأشراف الكبار في بلاطه.

١- ظهر اللقب في العصر العبّاسي واستُعمل للدلالة على المساعد الرئيسي للسلطة، بحيث يمكن أن تتنوّع مهمّته بحسب الحالات: فيكون أمين سرٍّ للديوان أو مديرًا للشؤون الماليّة أو حاجبًا، أو مستشارًا شخصيًّا غير محدَّدة مهمّاته. عُرف بالتسمية العربية «وزيرًا» التي «تفرنست» وصارت «ڤيزير» (vizir) بعد استعمالها في الإدارة العثمانيّة – لأن استعمالها انتشر بشكل واسع عبر القرون – لكنّها لم تحظَ بالشهرة نفسها في الغرب الإسلامي كما كانت الحال في الشرق. ظهرت هذه اللفظة أوّلًا في القرآن الكريم حيث استُعملت لهارون، أخي موسى ومساعده. هنا يبدو بلا شك السبب الذي من أجله استعمل العبّاسيّون هذه اللفظة، فهم الذين روّجوا لتمتّعهم بعناية إلهيّة خاصة، فحرصوا على أن يصفوا الشخص الذي يمثّلهم في مهمّاتهم على هذه الشاكلة بهذه الصفة. وتذكّر مهمّتُه أيضًا بمهمّة وزراء ملوك الساسانيّين الذين دأب الخلفاء على منافستهم، معتبرين أنفسهم مساوين لهم، لا بل ورثة لهم. يبدو أنّ ممثّلي السلالة الخليفيّة الثانية الكبرى في الإسلام لجأوا إلى الاستعانة بوزراء لسبب مزدوج: توطيد الهالة التي انصبغت بها سلطتهم وزيادة عظمتهم الدنيويّة. يُستثنى من ذلك الخلفاء الذين، في البدء، اهتمّوا بأنفسهم بشؤون أمبراطوريّتهم، ولم يعيّنوا مفوّضين أقوياء ينوبون عنهم.

إنّ لقب «وزير»، الذي أُعطي خلال الثورة العبّاسيّة للداعية أبي سلمة الذي ما لبث أن أُعدم بجرم الخيانة، آل إلى رجل يُعرف بأبي أيوب، الكاتب الخاص بالخليفة العبّاسي الثاني المنصور، بحسب مدوّني الوقائع التاريخيّة. أمّا ثالث الخلفاء العبّاسيّين، المهدي، فقد حوّل لإدارة بيت المال نائبه الخاص الذي ربّما كان وزيرا، ثمّ دعا شيعيًّا تائبًا اسمه يعقوب، وعيّنه «أخًا في الله ووزيرًا»، دلالة واضحة على الآية القرآنيّة التي تخصّ هارون. في ما بعد، خلال خلافة هارون الرشيد، برزت أسرة البرامكة التي تعود بأصلها إلى بلخ، ومنها يحيى الذي أصبح وزير هارون الرشيد بعد أن كان وصيًّا عليه في شبابه. ساعد رجل الدولة القوي هذا إبناه اللذان كانا يتصرّفان على أنّهما مباشريْن للخليفة. لكنّ أشهرهم على الاطلاق كان جعفر الذي دفع حياته ثمنًا للموقع المتميّز الذي شغله على مدى خمس عشرة سنة في خدمة الخليفة. بعد فترة وجيزة، امتنع المأمون عن اعتماد وزراء خلال القسم الثاني من ولايته، بعد أن اتّخذ مستشارًا ايرانيًّا أمينًا له، هو الفضل بن سهل. لكنّ خُلفاءه اضطرّوا تدريجيًّا، مع نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بسبب تعرّضهم لمتاعب ماليّة ضخمة، إلى إسناد إدارة الدولة إلى وزراء متخصّصين. هكذا ندب المقتدر الشاب تباعًا لهذه المسؤوليّة شخصين من اصحاب الكفاية، رغم توجّهاتهما السياسيّة والدينيّة المختلفة جدًّا، وهما إبن الفرات وعلي بن عيسى. كان الوزير يحتلُّ آنذاك المكانة الأولى في الدولة، إلى أن اضطرّ إبن الفرات إلى الإفساح في المجال لقائد الجيوش – وكان آنذاك الأمير مؤنس – فأُرغم على استدعائه إلى بغداد ومعاملته بمزيد من الشرف، بذهابه شخصيًّا لإلقاء التحيّة عليه يوم عودته.

في الواقع، خلال هذه الفترة الأولى التي تمتدّ بين العامين ١٣١ و٣٢٤هـ/٧٤٩ و٩٣٦م، بدا الوزير بشكل أساسي على أنّه رأس الإدارة وأنّه أصبح الوسيط الوحيد بين الخليفة وأصحاب الدواوين. لقد رُقّيَ إلى مستوى رئيس حقيقي للحكومة، يطبّق سياسة شاملة – شرط أن يقدّم أمام سيّده الموافق على سياسته حسابًا بأعماله

بانتظام - وفي المناسبة، سمح لنفسه بالاستئثار بصلاحيات أوسع. كان يمكن في بعض الأحيان أن تظهر إلى العلن صراعات عنيفة بين سيّد اغتُصبت سلطته وخادم فعّال قادر على أن يظهر استقلاليّة واسعة. إنّ زوال حظوة البرامكة بعد فترة صراع مُستتر بين سياسة الخليفة وسياسة أتباعه الطموحين، يبقى المثال النموذجي لهذا الوضع. إلّا أنّ هامش الحريّة هذا لم يتوافر لجميع الوزراء. إن تفاوت مواقعهم يفسّر نظريّة الفقيه الماورديّ الذي ميّز بين وزارة «التفويض» التي يتمتّع صاحبها بكل السلطات، ووزارة «التنفيذ» التي يكون صاحبها محدود الصلاحيات. لم يكن لهاتين المسؤوليّتين ما يناسب كلًّا منهما من لقب واضح، بل كان ذلك يتعلّق بالأدوار المختلفة التي كان يقوم بها هؤلاء الأشخاص، في دولة بني العبّاس، خلال العقود المشار إليها.

خلال الفترة نفسها، عرفت أيضًا مقاطعات الأمبراطوريّة والدول المعاصرة للدولة العباسيّة أشكالا أخرى لمنصب الوزير، تحت اسم مختلف كليًا. فقد استعان أمويّو قرطبة بوزراء لم يحصلوا على لقب وزير بل على لقب حاجب. أدار هؤلاء الأشخاص المهرة الذين لقوا حظوة كبيرة، شبيهة بحظوة وزراء العبّاسيّين في تلك الحقبة، مجموعة دواوين الدولة، وقاموا أحيانًا بدور رؤساء الحرب. لقد نجحوا في أواخر القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد في أن يصبحوا عمدة البلاط بحق، على غرار ابن أبي عامر الذي اشتهر في الإسبانيّة باسم المنصور. لكنّ الكثيرين من صدور الحاشية الملكيّة الذين بقيت مهمّاتهم ثانويّة، حصلوا في المقابل على لقب وزير من دون أن يتمتّعوا بأيّة سلطة أو امتياز.

٢ - في الحقبة اللّاحقة، تطوّرت ممارسة السلطة في الشرق، وخلال مرحلة ثانية ممتدّة من سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م حتّى الفترة المعاصرة، فقدَ وزراء الخلافة رفعة مقامهم، وإن بدت وظيفة الوزير ضروريّة أكثر من أيّ وقت آخر، لتنظيم الدولة الإسلاميّة. إنّ البويهيّين وكلّ الذين تولّوا منصب أمير الأُمراء قد انتزعوا من الخلفاء العبّاسيّين استقلاليّة قرارهم، واتّخذوا لأنفسهم وزراء يقومون بأعباء الإدارة والاضطلاع بعدد من المسؤوليّات. ولمّا لم تكن مملكة البويهيّين موحّدة، فقد تولّى وزراء عدّة هذه المسؤولية في مختلف العواصم. بعد فترة وجيزة، منح السلاطين المنتمون إلى سلالة السلاجقة الوزارة رونقًا مميّزًا: فقد تولّى الوزراء الذين يحملون هذا اللقب ويُختارون في الأغلب من بين الإيرانيّين إدارة أمبراطوريّة السلاجقة، وأشهرهم الوزير الكبير المعروف بـ«نظام المُلك».

تناقصت أهميّة وظيفة الوزير في ما بعد خلال تفكُّك الأمبراطوريّة السلجوقيّة الإيرانية وتجزئتها، لكنّها عادت فاستعادت بعض رونقها لدى الخلفاء العبّاسيّين الذين حاولوا آنذاك أن يتحرّروا من وصاية السلاطين، فاستخدموا مساعدين كابن هُبَيْرة مع نهاية القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. في غضون ذلك، تصرّف بعض الوزراء في مصر الفاطميّة بصفتهم رؤساء حكومة مكلّفين خصوصًا بالأعمال الإداريّة والماليّة. كان هؤلاء الوزراء يتحدّرون، في أغلب الأحيان، من أوساط يهوديّة أو مسيحيّة ولكنّهم اعتنقوا الإسلام. ويمكن أن نجد أيضًا أشخاصًا حافظوا على مسيحيّتهم وتسنّموا في بعض الحالات هذا المنصب الرفيع، وهذا ما لم يكن ليحدث في مكان آخر. إنّ انحطاط الخلافة الفاطميّة خلال الفترة الأخيرة من حكم السلالة، زاد من أهميّة الوزير الذي كان، إضافةً إلى منصبه، يتولّى في أغلب الأحيان قيادة الجيش، كما حصل مع بدر الجمالي الشهير ومع ابنه الأفضل، على سبيل المثال.

في الأناضول لعب وزراء آخرون، كصاحب عطا، دورًا مهمًّا خلال حكم سلاجقة الروم. لكنّ وظيفة الوزير عرفت، في ظلّ الحكم العثماني، تطوّرا جديدًا ظلّت بدايته غامضة. من جهة، أُطلق على وزراء أقدم السلاطين اللقب الفارسي «پروان» الذي يعني «نظام»، ومن جهة أخرى فانّ لقب الوزير، عندما بدأ استعماله، أُطلق على أشخاص عدّة. ويبدو أنّ السلطان، بعد سقوط القسطنطينيّة في سنة ١٤٥٣م، اعتمد على وزير كبير عُرف أيضًا باسم الصدر الأعظم. وقد نهض بدور مشابه لدور الوزير العبّاسي في الحقبة الكلاسيكيّة، محاطًا، في الوقت نفسه، بوزراء ثلاثة دُعُوا «وزراء القبّة»، كانت توكَل إليهم مهمّة القيادات العسكريّة.

كان متقلّدو هذه المناصب يُعتبرون خلفاء محتملين للصدر الأعظم شاغل المنصب، وكان يحلّ ثانيهم مكانه عندما يموت أو يُعزل، وقد اختيروا من صفوف الدّوشيرْما، وهذا ما يفسّر كونهم في أغلب الأحيان من قرى مسيحيّة في البلقان. إلى جانبهم كان يجلس، في الديوان السلطاني، رئيس التنظيم القضائي ويدعى «قاضي عسكر»، ورؤساء الإدارة الماليّة (بيت المال) المعروفون بلقب «دفتر دار»، وكاتم سرّ السلطان، النيشانجي. كان الصدر الأعظم في الدولة العثمانيّة يتمتّع بسلطات واسعة، لكنّه كان معرّضًا، ككلّ وزراء الفترات الماضية، لعزل عنفي، وإن يكن نجح في فرض هيبته وهيبة عائلته. وخير مثال على ذلك عائلة كوپرولو التي كانت خلال ثلاثين سنة، من ١٦٥٦ حتى ١٦٨٣، قد تمتّعت بسلطات واسعة: ففي حين أنّ محمد كوپرولو، وهو من أصل ألباني، قد تقلّد وظيفة الصدر الأعظم بعد وظائف أخرى عدّة، وعمل على إصلاح النظام باللجوء إلى إجراءات قاسية أحيانًا لتطهير الطاقم الإداري والعسكري، ومع أنّ ابنه الذي تابع سياسته وأنهى فتح كريت، نرى أنّ صهره، وهو من أصل تركي، قد أُعدم بأمر من السلطان سنة ١٦٨٣، بسبب فشله في حصار فيينا.

في الفترة ذاتها، ومباشرة بالقرب من الأمبراطوريّة العثمانيّة، وُجد في إيران الصفويّين، بطريقة مشابهة، وزيرٌ أعظم كان يمارس سلطاته المختلفة في إطار مجلس استشاري أمبراطوري أو ما يُعرف بالديوان. وهناك أيضًا كان الرجل الأقوى يتعرّض لمنافسة أصحاب المقامات الأخرى، كالوكيل أو ممثّل الملك المكلّف حمل مهره، والقائد العام. لم يحدث إلّا نادرًا، في فترات قصيرة، خصوصًا خلال القرن السادس عشر، أن اجتمعت هذه الوظائف الثلاث في وزير واحد يحتلّ مكانة مرموقة من الدرجة الأولى. وكان الأكثر شيوعًا أن توكل هذه المهمّات إلى رجال عدّة، وغالبًا من أصل مختلف، لأنّ الوكيل والقائد العام كانا عادةً من أصل تركي، بينما الوزير الأعظم الذي طالما تمتّع بسلطة رئيسة على كل إدارات الدولة كان بالأحرى من أصل إيراني، على الأقل حتّى نهاية القرن السابع عشر، بحيث أنّ الأتراك والأكراد الذين تولّوا الوزارة استطاعوا، في الوقت نفسه، توسيع سلطة هذا المنصب.

أمّا اليوم فقد اندثرت الوزارة، في مفهومها التقليدي، كما الخلافة والسلطنة، لكنّ لفظة وزير المستعملة باستمرار غدت مرادفة للمدلول المتعارف عليه في أيامنا.

الوصيّة، الوصايا، تدابير قانونيّة طُبّقت في البلاد الإسلاميّة وأُضيفت إلى ما قضى به الشرع الإسلاميّ بشأن الإرث، وقد حدّد هذا الشرع بدقّة نصيب كل فرد من المعنيّين. وطبقًا لبعض الأعراف، كان ينصح باعتماد الهبة بالوصيّة، وإن كانت لا تتجاوز ثلث الإرث كما يؤكّد الفقهاء المسلمون. إنّ أحكامًا قانونيّة أخرى غير متعلّقة بثروة المتوفى، ولا سيّما الوصيّة ذات الطابع السياسي، كان لها أهميّة كبيرة في المجتمعات الإسلاميّة خلال العصور الوسطى. كان يلجأ إليها الحكّام إمّا لتسمية وريث تأمينًا لاستمراريّة السلالة، بموجب عقد أو عهد – وقد استخدمها، بصورة خاصّة، الخلفاء العبّاسيّون الذين غالبًا ما كانوا يعيّنون وريثَيْن متعاقبين للتأكّد من استمراريّة السلطة في هذا البيت – وإمّا لاعطاء وارثي السلطة نصائح سياسيّة عن طريق الوصيّة. وقد كُتبت نصوص الوصايا التي حفظت بأسلوب متكلّف يدفعنا أحيانًا للشكّ في أصالتها، إذ يبدو أنّه لم يكن الهدف من بعضها سوى أن تُبرّر استدلاليًا السياسة التي اتّبعها الامير. إلاّ أنّ هذه النصوص لها دلالات مهمّة بالنسبة الى المؤرّخين.

من جهة ثانية، كان للوصيّة قيمة سياسيّة مميّزة لدى أهل التشيّع، لأنّ هؤلاء كانوا وما يزالون يؤكّدون شرعيّة الحقوق المعترف بها لعلي وللأئمّة، عبر تعيينات متتالية، بناءً على «النصّ». ان هذا النوع من التعيينات الذي حافظت الاوساط الشيعيّة باستمرار على أهميّته الأساسيّة، غدا مقبولًا أيضًا في الأوساط السنيّة كنهج متّبع لاختيار الخليفة الجديد، لكن كان لزامًا، في هذه الحالة، أداء يمين الولاء أو البيعة تقليدًا أساسيًّا يُؤخذ به في انتقال السلطة.

الوطّاسيّون او **بنو وطّاس** (٨٧٧-٩٥٦هـ/١٤٧٢-

١٥٤٩م)، سلالةٌ نُسبية للمرينيّين، بعد أن غاب هؤلاء عن الساحة السياسيّة، استولت على السلطة في المغرب الأقصى، وحكمت هناك خلال عقود عدّة من دون أن تنجح في حلّ المشكلات القائمة في البلاد. كان الوطّاسيّون الأوائل أوصياء على العاهل المريني عبد الحقّ الثاني الذي هلك ضحيّة ثورة شعبيّة سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م. وفي سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م، وبعد الفشل الذي مُني به شريف من الذريّة الإدريسيّة، نجح محمّد الشيخ في الاستيلاء على فاس حيث حصل على لقب سلطان.

استدعى الوطّاسيّون، مع أنّهم بربر، عناصر عربيّة لتسلّم بعض المراكز المهمّة وأبعدوا الزعماء المحلّيّين، لكنّهم لم ينجحوا أبدًا في إعادة وحدة المملكة، في مواجهة البرتغاليّين الذين استولوا على أصيلا وطنجة سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م، ما أرغم الوطّاسيّين على قبول هدنة نُقضت سنة ١٥٠١م، ولم يستطع هؤلاء، في ما خصّ الأندلس، أن يمنعوا سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. إنّ عدم قدرتهم على مقاومة البرتغاليّين الذين استولوا على الجديدة سنة ١٥٠٢ وعلى آسفي سنة ١٥٠٨، أدّى، منذ العام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م، إلى ظهور مجاهدين في هذه المنطقة، ينتمون، بشكل عام، إلى فرقة الشاذليّة. وقد اضطرّ الوطّاسيّون آنذاك إلى الانكفاء نحو الشمال، بينما استولى السعديّون على مراكش في سنتي ٩٣٩ و٩٤٠هـ ١٥٣٣ و١٥٣٤م، وعلى فاس في سنة ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م، مسجّلين بذلك نهاية السلطة الوطّاسيّة، وقد ساعدهم إندفاعهم للتصدّي للتدخّلات الأجنبيّة على الانتصار.

أبو زكريا يحيى	٨٣١-٨٥٢هـ/ ١٤٢٨-١٤٤٨م
علي	٨٥٢-٨٦٣هـ/ ١٤٤٨-١٤٥٩م
محمّد الأوّل الشيخ	٨٦٣-٨٧٧هـ/ ١٤٥٩-١٤٧٢م
محمّد الثاني البرتغالي	٨٧٧-٩٣١هـ/ ١٤٧٢-١٥٢٥م
أحمد	٩٣١-٩٥٢هـ/ ١٥٢٥ ١٥٤٥م
	و٩٥٤-٩٥٦هـ/ ١٥٤٧، ١٥٤٩م
محمّد الثالث القصري	٩٥٢-٩٥٤هـ/ ١٥٤٥-١٥٤٧م

الوفد، لفظ عربي يعني البعثة. وقد أُطلق، بشكل خاص، على حزبٍ سياسي اضطلع بدور مهمّ في مصر، خلال الفترة التي تفصل بين نهاية الحرب العالميّة الأولى وإسقاط الملكيّة سنة ١٩٥٢.

هذه التسمية تذكّر بالوفد الذي فُوّض المطالبة بإلغاء الحماية البريطانيّة سنة ١٩١٨، وقد أوقف أعضاؤه آنذاك، ومن ثمّ، أخلي سبيلهم. لم يكفّ يومًا هذا الحزب الذي أدار سياسته، حتّى سنة ١٩٢٧، سعد زغلول باشا، ومن ثمّ مصطفى النحّاس أو النّحاس باشا، عن المطالبة بالاستقلال الكامل للبلاد، وبشمول الإدارة المصريّة السودان، وبتأميم قناة السويس. منذ سنة ١٩٢٣، دخل الحزب في صراع مع الملك فؤاد الذي ينتمي إلى سلالة الخديويّين المتحدّرة من محمّد علي، لكن لم يتسنّ له حكم البلاد إلّا خلال ثلاث فترات، ولأوقات قصيرة جدًّا.

بعد وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦، فاز حزب الوفد بالانتخابات التشريعيّة، وهذا ما أهّله لحكم البلاد من جديد بين سنتي ١٩٣٦-١٩٣٧ في عهد الملك فاروق، ولعقد الاتّفاقات مع بريطانيا العظمى التي جاءت مكمّلة للإعلان البريطاني حول إنهاء نظام الحماية على مصر. إلّا أنّ المشكلات السياسيّة والإجتماعيّة، الناتجة عن الحرب العالميّة الثانية، قلّصت نفوذ الحزب وأدّت إلى إبعاده عن الحكم فعليًّا بعد الإنقلاب الذي جرى في العام ١٩٥٢ والذي مهّد إلى تسلّم عبد الناصر السلطة.

الوقف، جمعها أوقاف، أو الحَبوس في المغرب، من العربية حَبَسَ (وقف في سبيل الله)؛ أملاك مرصودة في الوسط الإسلامي، لا يحقّ لمالكها الأصلي أن يتصرّف بها، ترجع عائداتها لاستعمال معيّن، يحدّده الواهب بحيث يحوز وقفه مرضاة الله.

يجب أن يكون الوقف املاكًا لا تتضاءل قيمتها بالاستعمال، صالحة للتجارة. وكان في أغلب الأحيان، عبارة عن أراضٍ أو حوانيت، وأحيانًا أشياء ككتب مخصّصة لمكتبة. كانت عائدات الوقف تساعد عادةً على صيانة الأبنية الدينيّة كالمساجد والمدارس والزوايا، كما كانت تساهم أيضًا في المحافظة على الأبنية ذات المنفعة العامة، كالمستشفيات والجسور والأقنية. وُجد أيضًا ما يُسمى «الوقف الذرّي» الذي كانت عائداته مخصّصة لذريّة المؤسّس؛ لكن، في حال انقراض الذريّة، تعود العائدات إلى الفقراء. انتشر نظام الوقف هذا في القرون الوسطى بشكل واسع، لأنّ الأغنياء

الكبار، وبخاصة أصحاب المراكز المهمّة في الدولة، قد أخذوا به لمنع أيّة مصادرة محتملة لثروتهم. زد على ذلك ان الوقف الذرّي كان أحيانًا وسيلة لتجنّب قواعد الإرث الإسلاميّة التي تنصّ على تقسيم صارم لأملاك المتوفّى.

اعتُبرت الأملاك التي تكوّن الوقف أملاكا خاصة بالله، وتاليًا مقدّسة. إنّ القاضي هو الذي يسهر على حسن استعمال عائداتها وعلى استمرار الأوقاف الخيريّة التي يتحمّل مسؤوليّتها. وكانت جميع صكوك الوقف تذكّر باللعنة الإلهيّة التي تحلّ على كل من يحاول تغيير وجهة استعمالها أو بيعها، وقد جرت العادة أن يُركّز في الصكوك على تلك اللعنة بالإستشهاد بالآية القرآنية: ﴿فَمَن بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، الآية ١٨١).

إنّ بدايات نظام الأوقاف غير معروفة. يربطها فقهاء القرون الوسطى بأعمال الخير المنسوبة الى النبيّ محمّد (ﷺ)، ويقرّبونها من أعمال الصدقة. إلّا أنّ القوانين المطبّقة بهذا الخصوص لم تُحدّد فعلا، على ما يظهر، قبل عصر الشافعي الذي يتصدّى في مؤلّفاته لبعض المفاهيم التي يعتبرها مغلوطة. ومهما يكن من أمر، فقد أدّى نظام الوقف دورا مهمًّا في بلاد الإسلام حتّى الفترة المعاصرة. وبفضل هذا النظام، وُجدت منشآت مدنيّة عدّة، نتيجة لمبادرات خاصّة، واستمرّت مفاعيلها عبر السنين مؤمّنةً أعباء إدارة الأبنية وصيانتها. حتّى الانشاءات الناتجة عن مبادرة الملوك، كانت ترافقها أوقاف، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لتأمين الصيانة المنتظمة للأبنية الدينيّة والمدنيّة دون أيّ تدخّل للدولة. وهكذا غدت حياة المدن مرتبطة بالوقف الذي كان يحافظ على أكثر الصروح جمالا، ويحتفظ، لهذا الغرض، بجزء كبير من الأبنية ذات المداخيل أو الحوانيت التجاريّة: حتّى الأراضي الزراعيّة المجاورة، غالبًا ما كانت تُلحق بالوقف بغية تغذية المنشآت من خلال عائداتها. ساعدت هذه الطريقة على المحافظة على غنى العديد من المدن وعلى نموّها. لكن، في المقابل، كانت لها نتائج مضرّة لأنّ الأملاك الموقوفة لم يكن يُسمح ببيعها أو إدخال تعديلات عليها، في حين كانت عائداتها تُستعمل، في جزء منها، لتأمين دخلٍ منتظم لبعض الأشخاص. تُضاف إلى هذا، نتائج الأعمال المشبوهة والفساد التي غالبًا ما تورّط فيها القضاة المكلّفون مراقبة الأوقاف.

إنّ أهميّة رؤوس الأموال المجمّدة بهذه الطريقة، والتجاوزات التي أدّت إليها إدارتها، دفعت بمختلف الحكومات الإسلاميّة، منذ القرن التاسع عشر، إلى التدخّل في إدارتها. إذا كانت قد جرت المحافظة على الأوقاف بشكل كامل في إيران، فإنّه، في المقابل، تمّ تأميمها في الجمهوريات السوفياتيّة الإسلاميّة السابقة. أمّا في تركيا فإنّ ادارة الأوقاف التي انشأها نظام أتاتورك قرّرت، سنة ١٩٣٨ أن تبيع الأراضي ذات المردود الضعيف لإقامة مبانٍ ذات عائدات أكثر أهميّة. وفي بلدان أخرى، أُخضع هذا النظام للمراقبة. أمّا في مصر، فمنذ سنة ١٨٤٥ منع محمّد علي استحداث أوقاف جديدة؛ وفي سنة ١٩٤٦ اعتُمد تنظيمٌ يحدّ، بشكل خاص، من اللجوء إلى الأوقاف «الذريّة» التي أُلغيت في النهاية سنة ١٩٥٢. كذلك اتُّخذت قرارات في الاتّجاه نفسه في الهند وأفريقيا الشرقيّة.

الولاية، بالتركيّة «ڤيلايت»، لفظ عربي يشير أصلًا إلى مهمة الحاكم أو الوالي، وبالتوسّع في المعنى، إلى الأراضي التي يمارس عليها هذا الحاكم سلطته.

إنّ اللفظ الذي حافظ في شكليه، حتّى العصر الحالي، على معناه «كدائرة ومحافظة»، كانت قد استعملته الإدارة العثمانيّة للاشارة إلى حكومات هذه المقاطعات الكبرى. أمّا في المعجم العربي التقني الفقهي فكان يحمل معنى «الوصاية»، إمّا الوصاية التي يمارسها الوصيّ على يتيم، وإمّا الوصاية الزوجيّة التي فرضتها ثلاث مدارس فقهيّة من أصل أربع، في حال زواج الفتيات.

لا يجب الخلط بين وِلاية والكلمة القريبة منها وَلاية التي تشير إلى صفة الصديق، وأكثر تحديدا، إلى حبيب الله أو الولي، التي حازها، بحسب العقيدة الشيعيّة، عليّ والأئمة العلويّون؛ والتي اعتُرف بها، في ما بعد، للأشخاص الأتقياء المكرّمين، وذلك مع ازدهار حركة «تكريم الأولياء».

وَلْبَه (إسبانيا)، مدينة مرفئية صغيرة في غرب الأندلس، يعود ازدهارها المرتبط بازدهار ضاحيتها في جزيرة شلتيش إلى نموّ الملاحة الأطلسيّة في القرون الأخيرة من الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبريّة. قامت في ولبه، إلى جانب أنشطتها التجاريّة، صناعات لبناء السفن تنامت، بوجه خاص، خلال عهود ملوك الطوائف في بداية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. نهض بأعباء حكمها خلال تلك الحقبة لبضع سنوات، عاهل مستقلّ، هو والد العالم الجغرافيّ البكري، ثمّ لم تلبث أن عادت إلى حظيرة سلطة بني عبّاد وسائر الأُسر الحاكمة في اشبيلية، وارتبط مصيرها بمصيرهم، إلى أن استعادها المسيحيّون خلال حروب الاسترداد بشكل نهائي في العام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.

◄ راجع المستند رقم ١٥.

الوليّ، والجمع أولياء، لفظ عربي، يُنقل أحيانا إلى الفرنسيّة بالتعبير عينه (ouali)، وهو يصف، في الاستعمال الإسلامي المألوف، شخصًا قدّيسًا موضوع تكريم، كما يعني المزار المُقام تخليدًا لذكراه.

بصورة عامّة، يعني اللفظ «الصديق والحامي والقريب لَحًا». هذه المعاني هي التي نجدها في القرآن الكريم حيث يعني الوليّ أقرب الأقرباء الذي يُبرِّر مقتله الثأر، كما يعني أيضًا صديقًا أو قريبًا إلى الله. وقد أُطلقت اللفظة على النبيّ محمّد (ﷺ) وعلى الله نفسه الذي هو «وليّ الذين آمنوا» [القرآن، سورة البقرة، الآية ٢٥٧].

ساد الاعتقاد بأن أولياء الله يحظون في الجنة بمكانة مميّزة، تجعلهم في منزلة «المقرّبين» الذين يشير اليهم القرآن تكرارًا، وبمنزلة «الصالحين» الذين يذكرهم القرآن أيضًا (مثلًا في الآية ٣٩ من سورة آل عمران).

هكذا عنت كلمة وليّ من شملته «المحبة الإلهيّة» أو الولاية، وهي كلمة من الجذر نفسه عنت في الوقت عينه الامتيازات التي للائمّة العلويّين، والتي بموجبها كان على مشايعيهم أداء الطاعة المطلقة والتفاني في سبيلهم.

أمّا بالنسبة إلى عامّة الناس فكان هؤلاء الأولياء، الذين هم من أصول متنوّعة والذين بدأ تكريم أضرحتهم منذ إنطلاق تقليد «تكريم الأولياء» في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، حاملي بركات [الله] إليهم. غالبًا ما كانوا من الأتقياء الذين أخذوا بممارسات أهل التصوّف وحازوا احترام معاصريهم. أمّا الأضرحة التي ضمّت رفات الأئمّة فقد أطلق عليها اسم «إمام زاده»، في حين أنّ مقام الأولياء وسائر القباب، المعروفة في المغرب بإسم رباطات، تعني المباني المُشادة تكريمًا للمتصوّفين المزوّدين نعمًا خاصة، سواء انتموا إلى الطرق الصوفيّة أو لم ينتموا إليها.

وليّ الله الدَّهلَوي ← **شاه وليّ الله**.

الوليد، اسم حمله خليفتان كانا ينتميان إلى فرع المروانيّين من السلالة الاسلاميّة الأولى، وهي سلالة الأمويّين، وقد عاشا في سوريا في أواخر القرن الأوّل وبداية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد.

الأقدم هو الوليد الأوّل أو الوليد بن عبد الملك، (٥٥-٩٦هـ/٦٧٥-٧١٥م)، الذي خلف والده عبد الملك في حكم دام عشر سنوات، بين ٨٦ و٩٦هـ/٧٠٥ و٧١٥م. عُرف، بنوع خاص، بحبّه لإقامة الأبنية، فأمر بأن يُرفع في دمشق، داخل قدس هيكل قديم، مسجد الأمويّين الشهير، المسجد الجامع الذي ما يزال قائما حتّى اليوم، والمزيّن جزئيًّا بأشكال الفسيفساء التي أسهمت في شهرته، رغم أعمال الترميم المتتالية. أشرف الخليفة على أعمال بناء المسجد عن قرب، بعد أن انتزع من المسيحيّين ودمّر كنيسة القدّيس يوحنّا المعمدان، وكانت هي قد حلّت من قبل محلّ هيكل وثني. يعود إليه الفضل أيضًا في تجديد بناء المسجد الجامع في المدينة المنوّرة والمسجد الأقصى في القدس، الواقع قبالة قبة الصخرة التي رفعها والده عبد الملك وأكملها هو. تابع أيضًا تعريب الإدارة التي شرع بها عبد الملك. كما أبعد المسيحيّين، من أعقاب إبن سرجون، عن ديوان المال الذي كانوا يتولّون ادارته حتّى ذلك التاريخ. في عهد خلافته تتابعت الفتوحات الإسلاميّة الكبرى، سواء في الشرق حيث وصلت الجيوش العربيّة الإسلاميّة إلى ما وراء النهر والسِّند، أو في الغرب حيث ابتدأ احتلال شبه الجزيرة الإيبريّة التي أخضعها موسى بن نصير بين

سنتي ٩١ و٩٤هـ/ ٧١٠ و٧١٣م والتي أصبحت ، في إطار الأمبراطوريّة ، مقاطعة الأندلس .

لم يثبت **الوليد الثاني بن يزيد** (٩٠-١٢٦هـ/ ٧٠٩-٧٤٤م) على العرش إلّا لفترة قصيرة (ربيع الأوّل ١٢٥ - جُمادى الأولى ١٢٦هـ/ شباط ٧٤٣ - نيسان ٧٤٤م)، بعد أن اكتسب لنفسه ، خلال ملك عمّه هشام ، شهرة أمير فنّان ومثقف ، وشاعر طريف أيضًا ، ورجل ملذّات في الوقت عينه . كان يحبّ أن يروّح عن نفسه بمعاشرة الفاسقين ، كما كان يحبّ الموسيقى والصيد . ينسب إليه بعض المؤرّخين الحديثين بناء قصر خربة المفجر الفخم في وادي الأردن وقصور أخرى واقعة في سهوب هضبة البلقاء في الأردن ، خصوصًا قُصَير عمرة(١٠٧) والمشتّى ، لكنّ ذلك هو مجرّد فرضيّات لم يثبتها دليل . على كل حال ، لم يكفّ الاستياء يوما عن الازدياد من الوليد الثاني ، إبتداءً من الفترة التي باشر فيها ممارسة سلطته ، ومصدر هذا الاستياء كان من القبائل العربيّة اليمنيّة التي تنتسب إلى سلالة قحطان ، كما من القدريّين ، إلى أن أطاحه انقلاب ، قام به أحد أبناء الوليد الأوّل وحفيد عبد الملك ، الذي أصبح في ما بعد يزيد الثالث . وقد هلك الوليد الثاني في قلعة قرب تدمر حيث لاحقه أعداؤه .

◄ راجع المستندات ٢ ، ٣٦ و٤٠ - ٤٣ .

الوهّابيّة ، حركة سياسيّة - دينيّة ، نجنّد لها محمّد بن عبد الوهّاب وأمّن لها الازدهار في القرن الثاني عشر للهجرة/القرن الثامن عشر للميلاد وأسّس ، وفق مبادئها ، نظام المملكة العربيّة السعوديّة الأولى .

ينتمي ابن عبد الوهّاب ، المولود سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م في نجد والمتوفّى سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م ، إلى أُسرة فقهيّة حنبليّة . بعد رحلات عدّة إلى العراق وإيران ، عاد ليستقرّ في الجزيرة العربيّة سنة ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م .

عندئذ أطلق دعوته وألّف كتابه الأكثر شهرةً ، «كتاب التوحيد» . وإذ واجهته معارضة فئات ذات ميول شيعيّة ، توجّه إلى «الدّرْعيّة» ، حيث وجد حاميًا له في شخص زعيم عائلة آل سعود ، هو محمّد بن سعود ، وعقد معه ، سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م ، اتّفاقًا التزم بموجبه الأمير وعالم الدين الوفاء ، توسّلًا لنشر كلمة الله . شكّل هذا الاتّفاق أساسًا لنظام حكم السعوديّة المستقبلي . وقد شهد إبن عبد الوهّاب ، بعد أن كان مستشارًا لمحمّد بن سعود ولابنه عبد العزيز ، أولى الفتوحات السعوديّة .

هدفت الوهّابية إلى إقامة دولة سنيّة مبنيّة على إسلام متجدّد . تخالف عقيدتها عقائد فرق المعتزلة والقدريّة والخوارج والشيعة . حاربت بشكل خاص الحركة الصوفيّة و«البدع المستنكرة» التي أدخلتها هذه الأخيرة [في الإسلام] . وعملًا بتعاليم ابن تيْميّة التي استلهمها ابنُ عبد الوهّاب ، أدان الوهّابيّون تكريم الأولياء ومختلف مظاهره ، ولا سيّما زيارة الأضرحة ، وقد عمدوا إلى تدمير بعضها . إنطلاقًا من دفاعهم عن وحدانيّة الله المطلقة ، لم يكتفوا بالسعي إلى إقرار وجود الاله الواحد الذي لا شريك له ، بل أيضًا إلى فرض التقيّد المطلق بالتعاليم التي أوحى بها الله .

من هنا كانت الصرامة في تطبيق الشريعة التي وسمت لاحقًا الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في الدول السعوديّة المتعاقبة .

وهب بن مُنبه ، شخصيّة تعود إلى بداية عهد الاسلام ، من رواة الحديث النبوي ، اشتهر بمعرفته التقاليد اليهوديّة - المسيحيّة ، أو ما عرف بالاسرائيليّات . نكاد لا نعرف شيئًا عن حياته سوى أنّه من اصل يمني ، ومن التابعين للصحابة . نُسب إليه مؤلَّف بعنوان «المبتدأ» ، تناول فيه بدايات الخليقة .

وهران (الجمهوريّة الجزائريّة) ، مدينة مرفئيّة في المغرب الأوسط ، تقع غربيّ الجزائر ، أسّسها مهاجرون من الأندلس ، ولم تشهد الحيويّة الاقتصاديّة إلّا في القرن التاسع عشر ؛ وهذه الحيويّة تفسّر انطلاقتها العمرانيّة المعاصرة .

تنازع هذه المدينة الاسلاميّة الحديثة النشأة في أرض البربر ، طيلة القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد ، الخلفاء المتنافسون من أمويّي قُرطبة وفاطميّي إفريقية . إلّا أنّ ذلك لم يحُل دون أن يقوم الجغرافيّون العرب المعاصرون بوصف مرفئها الحصين وذكر احتفاظها بعلاقات تجاريّة مع إسبانيا ، ولا سيّما مع المرفإ البحري الكبير في ألمريّة . في ما بعد ، سقطت وهران في أيدي المرابطين سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م ، وفي

أيدي الموحّدين سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، قبل أن تُلحق بدولة بني عبد الواد فشكلّت، إلى جانب حُنين، منفذًا بحريًا لتلمسان.

احتلّها المرينيّون لفترة، وما لبثت أن أثارت لاحقًا أطماع الإسبان الذين استولوا عليها سنة ١٥٠٩م، وحافظوا عليها بصعوبة حتّى سنة ١٧٠٩ حين اضطروا الى الاستسلام لجيوش داي الجزائر. وعاد الإسبان الى وهران سنة ١٧٣٢ ليتخلّوا عنها نهائيًا لداي الجزائر أيضًا سنة ١٧٩١، بموجب اتفاق سمح لبعض العائلات الإسبانية بالاستمرار في العيش فيها. وفي ٤ كانون الثاني ١٨٣١، احتلّ الفرنسيون وهران التي عرفت مذّاك نموًّا مذهلًا ساهم بعد الاستقلال في جعلها مدينة كبيرة ونشطة في الدولة الجزائرية الحاليّة، محتلّة، المركز الثاني بعد مدينة قسنطينة.

ي

يابُرَة (البرتغال)، بلدة تقع غربيّ الأندلس، أدّى نموّها في أواخر العصر الإسلامي إلى ازدهارها اللّاحق كقاعدة لمنطقة ألنتيخو (Alentejo).

وقد برزت، في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، حاضرة إسلاميّة مكان المدينة الرومانيّة القديمة التي كانت تُعرَف باسم ليبرتا جوليا (Liberta Julia)، والتي أُطلق عليها في ما بعد، في عهد القيزيغوط (Wisigoths)، اسم إلبورا (Elbora). وما لبث هذه أن حلّت، كمركز اداري للمنطقة، محلّ المدينة المجاورة التي غادرها سكّانها تدريجيًّا، وهي باجة. إن أنشطتها التجارية، في موقعها على طريق يصل مرفأ قصر ابي دانس بمدينة بداخوس (بَطَلْيوس) التي تحوّلت سريعاً إلى قاعدة حكم للحفصيّين، تبيّن لنا بشكل لا يرقى إليه الشكّ تفوّق هذا المركز الذي حقّق لنفسه شهرة من ناحية الثقافة الإسلامية، واحتفظ بمكانته بعد حرب الاسترداد المسيحيّة للمنطقة، في العام ٥٦٠هـ/١١٦٥م.

ياجوج وماجوج، إسم لشعبين ذُكرا في التراث الأُخروي التوراتي والإسلامي، كان المؤرّخون العرب والمسلمون يكثرون من ذكرهما.

ذُكر هذان الشعبان في سِفْر التكوين وفي كتاب حزقيّال حيث ورد أنّهما سيأتيان من الشمال، لمهاجمة شعب إسرائيل الذي سيخفّ يهوه للدفاع عنه. كذلك أشار القرآن الكريم في موضعين إلى مجيئهما والدمار الذي سيُحدثانه (سورة الكهف، الآية ٩٤ وسورة الأنبياء، الآية ٩٦).

وفي الأحاديث النبويّة الشريفة، أيضًا، كلام كثير حول هذه الحملة المنتظرة، إضافة إلى كتابات إسلاميّة شتّى تتناول في رؤاها أوضاع آخر الزمان وانقضاء العالم. وقد اقترن اسم هذين الشعبين بالإسكندر الأسطوريّ الذي يُقال إنّه رفع سورًا لاحتوائهما. إنّ زعم بعضهم أنّ هذا السور هو سور الصين العظيم وبعضهم الآخر أنّه أطلال الأسوار القديمة التي كانت تحمي، شمالًا، موقع داغستان المعروف باسم باب الأبواب/ دَرْبَند، على ضفاف بحر قزوين، أدّى، في ما بعد، بالمؤلّفين المسلمين في القرون الوسطى، إلى تحديد موقع الأراضي التي يسكنها هؤلاء البرابرة في سهوب آسيا الشماليّة.

يافا، مدينة مرفئيّة على ساحل فلسطين، اشتهرت في مرحلة الحروب الصليبيّة التي ما تزال ذكرياتها وآثارها قائمة إلى اليوم، ضمن التكتّل الواسع الحديث الذي تشكّله تل أبيب وضواحيها.

استولى المسلمون على يافا في العام ١٥هـ/٦٣٦م، في مستهل فتوحاتهم، وألحقوها بجند فلسطين، كمنفذ بحري يوصل إلى القدس وإلى الرملة. أُتبعت لفترة بمصر في زمن الطولونيّين، ثمّ استعادها الخلفاء العباسيّون في العام ٢٩٢هـ/٩٠٥م، لتسقط في يد الفاطميّين في العام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، عندما أنشأ هؤلاء دولتهم في المشرق الإسلامي. ثمّ أصبحت المدينة جزءًا من مملكة الفرنج باستيلاء هؤلاء عليها في العام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، واحتفاظهم بها حتّى حملات صلاح الدين الظافرة في العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. ثمّ انتقلت، بعد ذلك، من سيطرة إلى أخرى، لتسقط أخيراً في العام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م، بيد السلطان بيبرس، فدمّر قلعتها وأسوارها.

ومنذ ذلك الحين استمرّت المدينة، في زمن دولة

المماليك السوريّة - المصريّة، ومن ثمّ الأمبراطوريّة العثمانيّة، تؤدّي دور مرفإ متواضع تابع للرملة. لم تتمكّن يافا من النهوض من دمارها حتّى نهاية القرن الثامن عشر. استولى عليها موقّتاً جيش بونابرت في العام ١٧٩٩. إبتداءً من العام ١٩١٧، خضعت للبريطانيّين في إطار نظام الانتداب الذي أقاموه في فلسطين. لكنّها سرعان ما فقدت أهميّتها لمصلحة المستعمرة اليهوديّة [تل أبيب] التي أنشئت مباشرةً في جوارها، وذلك بدءًا من العام ١٩٢٢، والتي حلّت مكانها كحاضرة في أوج ازدهارها.

◄ راجع المستند رقم ١٨.

ياقوت الرومي، أو شهاب الدين أبو عبدالله يعقوب بن عبدالله الحموي (٥٧٤-٦٢٦هـ/ ١١٧٨-١٢٢٩م)، جغرافي علّامة وموسوعي عربي، ما تزال أعماله حتّى اليوم مرجعًا ومصدرًا للباحثين. ولد هذا العبد أصلًا - الذي يعني إسمه حجر الياقوت - في الأرض البيزنطيّة (من هنا كان لقبه الرومي أي المنتمي إلى بلاد الروم)، وتلقّى من سيّده، وكان تاجرًا بغداديًا، تربية جيّدة ثمّ أمضى في ما بعد قسمًا من حياته في التنقّل بين مختلف بلدان العالم الإسلامي، إلى سوريا، إلى مصر فخراسان.

كان في خوارزم حوالى سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، فلاذ بالهرب لدى وصول أولى مجموعات جيوش المغول، منتهيًا به المطاف إلى حلب حيث أغاثه ابن القفطي، وبقي في هذه المدينة حتّى وفاته. لكنّه أقام مجدّدًا، خلال هذه الفترة، في الموصل ومصر. أظهر كسائر معاصريه ميلًا لإعداد المعارف في قالب المعاجم، وأنجز هو نفسه منها ما هو قيّم للغاية. أضاف إلى «معجم الأدباء»، «معجم البلدان» الشهير أو المعجم الجغرافي الذي لا يقف عند المعلومات القيّمة في شأن المدن والمواضع الموصوفة فحسب، بل يتجاوزها إلى معلومات ذات طابع تاريخي، خصوصًا في ما يتعلّق بالشخصيّات التي عاشت فيها خلال القرون الوسطى.

يحيى أو يوحنّا المعمدان، يشار اليه غالبًا باللغة العربية باسم يحيى بن زكريا. وهو من شخصيّات العهد الجديد، وغالباً ما يأتي القرآن الكريم على ذكره معتبراً إيّاه نبيّاً. يستعيد القرآن الكريم جوهر الرواية الواردة في الإنجيل والمتعلّقة بولادته، مع تغيّرات طفيفة، مضيفاً إليها البشارة لزكريا بهذه الولادة، لكنّه لا يشير إلى دوره اللّاحق بصفته «المعمدانيّ»، ويقول عن هذه البشارة: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٣٩)، ويخصّه بصفات عديدة من دون أن يذكر شيئاً عن وفاته. بيد أنّ أصحاب كتب التفسير المسلمين، وبصورة خاصة الطبري، ينقلون أنّ هيرودس حكم على يحيى بالموت، وقد فارت دماؤه بعد قطع رأسه، وهو أمر تقول به الرواية عن دماء زكريا أيضاً. وبعد فترة قصيرة أشار مؤرّخ آخر، هو المسعودي، الى موضوع عماد عيسى أو يسوع المسيح على يد يحيى. ويُنسب إلى إليصابات، والدة يحيى، قصّة واقعة الهروب إلى مصر، وهو أمر يعني عادةً مريم ويسوع وحدهما. وفي قاعة الصلاة في المسجد الجامع في دمشق، نجد الى الآن المكان الذي يُقال إنّ رأس يوحنّا المعمدان قد حُفظ فيه، وهو مقصد للتبرّك، ورد ذكره عند العديد من الكتّاب في القرون الوسطى، وذُكر بصورة خاصة، في دليل الهروي الذي يحدد موقع قبر يحيى بن زكريا في مدينة السّامرة (سبسْطية، قديماً) في فلسطين. وهناك العديد من المزارات التي يُقال إنها تضمّ رفات رأس يحيى، وكانت مقصداً للزيارات إبّان رواج تكريم الأولياء في الاسلام. وقد التبست رفات رأس يحيى مع رفات رأس الحسين التي يجلّها الشيعة بشكل خاص.

يحيى بن زيد (؟-١٢٥هـ/ ؟-٧٤٣م)، حفيد علي زين العابدين، وابن أوّل ممثّل للزيديّة الذي يعتبره أتباعها أحد أئمّتهم. مات كوالده شهيدًا مجسّدًا القناعات الشيعيّة لذرّية الحسين. بادر إلى عصيان مسلّح في خراسان بُعيد فشل ثورة أبيه، فسُحق وأتباعه في منطقة هراة في شهر حزيران من سنة ١١٦هـ/٧٤٣م. أُرسل رأسه إلى خليفة الأمويّين في دمشق وعُرض جثمانه في قاعدة المقاطعة التي جاهر فيها بطموحاته. كان لمقتل يحيى بن زيد أثرٌ عميق في أوساط خراسان الشيعيّة التي وجدت في شخص الداعية «أبو مسلم» منتقمًا له.

فانضمّ أتباعه إلى الحركة الموالية لآل بيت الرسول التي أدّت إلى «الثورة العبّاسيّة» وإلى انتصار ذريّة أحد أعمام محمّد (ﷺ)، أي العبّاسيّين.

◀ راجع المستند رقم ٤.

اليرموك، (معركة) (١٥هـ/٦٣٦م)، إنتصارٌ حاسم، بعد سنتين من معركة أجنادين، حقّقته جيوش الفتوح العربيّة - الإسلاميّة الكبرى ضد جيوش هرقل البيزنطيّة. إنّ اسم رافد الضفة اليسرى لنهر الأردن الذي ينساب واديه إلى أعلى المنخفض الذي تُشغله بحيرة طبريا، بقي مرتبطًا بهذه المعركة التي طبعت السياسة الهجوميّة التي اتّبعها الخليفة العزوم عمر بن الخطّاب. غالبًا ما تنسب المدوّنات الاخباريّة العربيّة النتائج الإيجابيّة للمعركة إلى كفاية خالد بن الوليد الحربيّة، وهو قائد عربي من صحابة النبيّ محمّد (ﷺ) وقد أدّى دورًا أساسيًا في مختلف مراحل احتلال سوريا.

يزْد أو يَزْد (الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة)، مدينة في مقاطعة فارس تقع جنوب شرقيّ أصفهان، غير بعيدة عن صحراء الملح، وهي ما تزال تحتفظ بمبانٍ مهمّة من العصر الوسيط.

هذا الموضع القديم الذي كان معروفًا بإسم كاثو والذي احتُلّ سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م خلال الفتوحات العربيّة - الإسلامية الكبرى، كان مقرًّا لأتباع زرادشت، ودليل ذلك وجود هياكل للنار في الريف المجاور، واستمرار وجود مجموعات غير مسلمة في المنطقة. في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وفاق كتابات الجغرافيّين العرب، طبعت تنظيم هذه المدينة إقامةُ تحصينات وبناء مسجد واقع في إحدى الضواحي. أُعيد بناء السور والمسجد الجامع سنة ٥١٣هـ/١١١٩م، على ما يظهر، خلال سيطرة السلاجقة الكبار في إيران، لكنّ البناء الأخير خضع لتعديلات في عهد آل مظفّر في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وهي حقبة أقيمت خلالها أبنية أخرى في المدينة، منها ضريح لأحد أبناء الأئمّة (إمام زاده). وحده الضريح المسمّى «الاثنا عشر إمامًا» حافظ على حالته التي تعود إلى القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد.

حظيت يزد، المدينة التي نشأت على طريق القوافل المؤدية من الغرب إلى الشرق نحو كِرْمان وسِجِسْتان، بزيارة ماركو بولو سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م، فوصفها بالمدينة الكريمة. ويعود الفضل في القسم الأكبر من ازدهارها إلى أنشطتها التجاريّة. وبالرغم من أنّها تعرّضت، في ما بعد، لمخاطر مختلفة بسبب تاريخ البلاد المضطرب بعد سقوط الصفويّين والانهيار الاقتصادي الذي تلاه، فقد نجحت في أن تبقى، حتّى الفترة الحاليّة، مركزا مأهولًا مهمًّا في المنطقة.

◀ راجع المستندين ١٣ و٢٣.

يزيد، إسم حمله في سوريا ثلاثة عواهل من السلالة الخليفيّة الأولى للإسلام، أي سلالة الأمويّين. الأقدم بينهم والأكثر شهرة، هو **يزيد الأوّل أو يزيد بن معاوية** (٢١-٦٤هـ/ ٦٤٢-٦٨٣م) الذي مات بعد ولاية دامت ثلاث سنوات فقط. كان الخليفة الثاني للسلالة وأيضًا لفرع السفيانيّين. وقد استقطب لنفسه باستمرار عداوة الشيعة الذين ما انفكّوا يلعنون ذكره خلال قرون. عيّنه معاوية وليًّا لعهده وأمّن له البيعة وهو على قيد الحياة، بحسب تدبير أُخذ به لاحقًا. لكنّ يزيدًا الذي شارك في حصار القسطنطينيّة قبل تولّيه الحكم اصطدم، منذ ارتقائه الخلافة، بثورة انفجرت في الجزيرة العربيّة وجرّت معها رفض أحد أبناء علي، الحسين، كما عبدالله بن الزبير الإعتراف بسلطته.

لم يلبث الحسين أن قصد الكوفة لملاقاة أتباع والده، وكانت قلّة منهم مستعدّة لمساندته، إلّا أنّه قُتل في التحام بكربلاء، في محرّم سنة ٦١هـ/ تشرين الأول سنة ٦٨٠م، عندما أراد حاكم الكوفة عبيدالله بن زياد تجريد المجموعة العسكريّة الصغيرة من السلاح، تلبيةً لأوامر الخليفة الجديد. هذه الحادثة التي رسّخت لاحقًا طابعها المأسوي الروايات التاريخيّة، أحدثت شرخًا نهائيًّا بين الأمويّين والمدافعين عن قضية العلويّين الذين لم يكفّوا عن إلقاء المسؤوليّة على يزيد. أمّا ابن الزبير فحوصر في مكّة مدّة شهرين، لكنّ موت الخليفة الأموي الطارئ في ربيع الأوّل سنة ٦٤هـ/ تشرين الثاني ٦٨٣م، أدّى إلى انسحاب الجيوش السوريّة منها.

كان يزيد، رغم أوصاف المصادر التاريخيّة له -

وهي مفرضة في أغلب الأحيان – على أنّه أمير طائش مُحبّ للّهو، شاعرًا وراعيًا للفنون. كما أنّه أبدى اهتمامًا بالتنظيم الإداري والعسكري الذي حسّنه في المقاطعات السوريّة. اهتمّ خاصة بالزراعة وحفر أقنية للريّ، من بينها واحدة محوّلة من نهر بردى وسّعت على نحو ظاهر مساحة الواحة الدمشقية، وتُسمّى اليوم نهر يزيد أو «قناة يزيد». وعند وفاته عُهد بالسلطة لإبنه الخلف، معاوية الثاني، الذي مات في السنة نفسها وسط اضطرابات فوضويّة، فكان آخر ممثّل لسلالة معاوية المباشرة.

ينتمي **يزيد الثاني أو يزيد بن عبد الملك** - الذي تولّى الخلافة لفترة قصيرة من سنة ١٠١ إلى ١٠٥هـ/ ٧٢٠ إلى ٧٢٤م – إلى الفرع الثاني من السلالة أي فرع المروانيّين، وخلف قريبه عمر بن عبد العزيز، مع أنّه لم يكن يشاركه آراءه السياسيّة. جاء حكمه عقب اثنين من أولاد الخليفة الكبير عبد الملك، هما أخواه الوليد الأوّل وسليمان، ومباشرة قبل حكم أخيه الآخر هشام، وتميّز حكمه بالعداوة التي أظهرتها تجاهه القبائل العربيّة الجنوبيّة أي اليمنيّة، وبقمع العصيان، إبتداءً من سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م، الذي أثاره آنذاك في العراق يزيد إبن المُهلّب، حاكم خراسان السابق.

يُذكر، أخيرًا، **يزيد الثالث أو يزيد بن الوليد**، وهو أحد خلفاء سلالة الأمويّين المتأخّرين في الشرق. كان ينتمي أيضًا إلى فرع المروانيّين، لكنّ حفيد عبد الملك هذا لم يحكم إلّا ستة أشهر، من رجب حتّى ذي الحجة سنة ١٢٦هـ/ من نيسان حتّى أيلول من سنة ٧٤٤م. استولى على الحكم بانقلاب عسكري أطاح قريبه الوليد الثاني. انتهج سياسة جديدة حدّدها بنفسه في خطبة شهيرة مستفيضة وصلنا نصّها، واعدًا فيها بالمساواة في المعاملة بين العسكريّين العرب والموالي الذين كانت أوضاعهم تسبّب الكثير من المصاعب الاجتماعيّة في تلك الفترة، كما وعد بعدم إرسال أيّة مجموعة عسكريّة بعيدًا من المنطقة التي كان عناصرها يقيمون فيها. التزم أن يستقيل من مهامه إذا لم يُنفّذ برنامجه المستلهم من الأفكار السلميّة ومن مبادئ الحركة القدريّة. إلّا أنّ موته السريع قضى على هذا البرنامج.

◄ راجع المستند رقم ٢.

اليزيديّة، هم أتباع بدعة ليست شيعيّة، لاقوا في العصور الوسطى حظوة كبيرة لدى الأكراد من سكّان بلاد ما بين النهرين العليا، مع أنّهم يُعتبرون على هامش الإسلام. سُمّوا اليزيديّة، نسبةً إلى الخليفة يزيد الأوّل من السلالة الأمويّة في القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي.

ما تزال جذور هذه الجماعة غامضة، كما هي عقيدتها أيضًا المقتصرة على بعض من أُودعت إليهم أسرارها. رفضها أهل السُنّة بشكل قاطع وحاولوا مرات عدّة القضاء عليها بموجب فتاوى صادرة عن العلماء، وغالبًا ما نعتوا أفرادها بعبدة الشيطان. إلّا أنّ أبحاثًا حديثة كشفت أنّ هذه الجماعة نشأت من حركة سياسية – دينيّة أخذت على عاتقها الدفاع عن الأمويّين؛ وقد ركّزت دفاعها هذا بتكريم ذكرى الشخص الذي انصبّ عليه الهجوم من هذه السلالة، أي يزيد الأوّل، وهو الخليفة الذي كان يحكم الأمبراطوريّة خلال الفترة التي قتلت فيها وحدة من الجيش السوري في كربلاء الحسين، الإبن الثاني لعليّ.

إنّ هذا التيّار الوافد من العراق الذي انتشر، في ما بعد، في جنوب كردستان شهد نموًّا جديدًا، عقب الدعوة التي نشرها صوفيّ في القرن السادس للهجرة/ القرن الثاني عشر للميلاد، هو عديّ بن مُسافر الهكاري المعروف عادة بالشيخ عديّ، المولود في بعلبك والمتوفّى حوالى السنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م. أسّس هذا المتحدّر من السلالة الأمويّة الذي كان له اتصال بمُعاصره عبد القادر الجيلاني، في جبال الهكّارية، الطريقة العَدَويّة التي لاقت نجاحًا كبيرًا في الأوساط الكرديّة.

بعد وفاة الشيخ عديّ عمد القيّمون على الطريقة، من سلالة أخيه الشيخ حسن، إلى إقامة نظام ديني فريد واكبه أسلوب خاص من النظام الإجتماعي على شاكلة طبقات ترانبيّة، واستمرّوا وراثيًّا في رئاسته. إنّ العقيدة التي قام عليها هذا النظام المقصور على من وُلدوا يزيديّين هي توليفة معقّدة توفّق بين معتقدات انتهت إليها من الزرادشتيّة التي رأى فيها فريق ميراثًا كرديًّا، وأخرى اقتُبست من المسيحيّين واليهود والصابئة والغنوصيّين

والمانويّين والمسلمين كذلك. تقول عقيدتهم في نشأة الكون بوجود إله واحد أوحد محاط بسبعة ملائكة، أهمهم طاووس الملائكة، وهو الشيطان نفسه، وقد أُعيد له اعتباره وكُرّم في شكل طاووس. أمّا طقوس العبادة، فتؤمّن بواسطة أُسر من الشيوخ والرؤساء الروحيّين الآخرين الذين يضاهون تقريبًا في نفوذهم وغناهم أمير اليزيديّين الذي يحتفظ من جهته بالسلطة الزمنيّة.

على كل حال، أمّن الأكراد، ما بين القرنين السادس والتاسع للهجرة/الثاني عشر والخامس عشر للميلاد، رسوخًا محليًّا وازدهارًا بارزًا لليزيديّة التي ما لبثت أن تعرّضت، في ما بعد، لغزوات الأمراء المسلمين المجاورين، وواجهت أشدّ مصاعبها عندما تصلّب العثمانيّون في موقفهم كمدافعين عن السُنّة، مع بداية القرن السادس عشر. هكذا تراجعت الحركة اليزيديّة لدى الأكراد بحيث لم تستمرّ إلّا في غرب وشمال غرب مدينة الموصل، في مقاطعة سنجار، وبخاصة في مقاطعة شيخان، المركز الديني للجماعة. جميع هذه المناطق تعرّضت لهجمات شرسة خلال القرن التاسع عشر.

إلى ممثلي اليزيديّة الأواخر في العراق، يجب أن يضاف تجمّع أقل أهميّة استقرّ أيضًا منذ القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد في سوريا، في شمال غرب حلب في جبل سمعان، فيما اضمحلّ وزال بالهجرة التجمّع المنتمي إلى الأناضول التركي.

استفاد اليزيديّون المقيمون في منطقة ما بين النهرين العليا وسوريا، بعد الحرب العالميّة الأولى، من دعم السلطات الأوروبيّة المنتدبة التي أعانوها خلال فترة الحروب. لكنّهم يواجهون، اليوم، تراجعًا مستمرًّا وهذا يعود، في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، إلى مفاعيل الضغط الاقتصادي والاجتماعي على الفلاحين الفقراء. أمّا في مملكة العراق، ومن ثمّ في جمهورية العراق، فيعود سبب هذا التراجع إلى الضغوط العسكريّة التي وُجّهت، منذ سنة ١٩٣٥، ضدّ هذه الجماعة لإخضاعها للدولة الجديدة، من دون أن يُسمح لها بأن تدافع بالعصيان المسلح عن استقلال ذاتي محكوم عليه بالفشل.

اليساويّة، طريقة صوفيّة مسلمة، أخذت اسمها من محلّة ياسي في تركستان في آسيا الوسطى حيث ولد مؤسّسها، وتفرّعت في ما بعد إلى الطريقتين الخلواتيّة والنقشبنديّة المشهورتين.

كان أحمد بن ابراهيم، المتوفّى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م، من ياسي، وهو تلميذ ليوسف الهمذاني الذي كان يُعتبر، بين سنتي ٤٤٠ و٥٤٥هـ/١٠٤٩ و١١٥٠م، واحدًا من الأقطاب الصوفيّين الإيرانيّين في ذلك العصر. وقد نهض مريدو أحمد بدور مهمّ في أسلمة القبائل التركيّة في الأناضول. كما أنّهم قضوا حياتهم في التنقّل، واستطاعوا بذلك بسط تأثيرهم بشكل واسع. قامت طريقتهم، بصورة خاصة، على التقيّد ببعض الممارسات التقويّة، أكثر ممّا قامت على تنمية حياة صوفيّة حقيقيّة. وتُعتبر طريقتهم، التي تشعّبت إلى فروع عدّة أحد مصادر الإيحاء للشاعر التركي الصوفي يونس إمره في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد.

يعقوب، شخصيّة توراتيّة، ورد ذكرها في القرآن الكريم مراراً، حظيت بالتكريم في التراث الإسلامي.

اعتُبر يعقوب نبيًّا، كما اعتُبر، في الغالب، أخاً لإسحاق، وليس إبناً له. ورد ذكر يعقوب تكراراً في نص السورة الثانية عشرة من القرآن الكريم، سورة يوسف، ويصوَّر أيضاً في روايات شارحيه على أنّه والد يوسف وإخوته.

على هذا الأساس، خُصّصت ليعقوب مزارات عديدة في مرحلة ازدهار «تكريم الأولياء» في المحيط الإسلامي القروسطي، وحفظت هذه المزارات ذكرى يعقوب في فلسطين أو أحياناً في مصر.

في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد مثلاً، وفق ما جاء في دليل الهروي، كانت مسرحاً لزيارات تقوية تلك الأماكن التي أقام فيها يعقوب وبكى وفاة ابنه الأعز، بالقرب من الأردن، على طريق بانياس، أو بين نابلس والقدس. لكنّ ذكراه كانت موضوع توقير أيضاً في وادي النيل، وواحة الفيوم، وموقع ممفيس القديمة. وثمّة أماكن تكريم كثيرة أخرى بأسماء أبنائه بمن فيهم بناته، وذاعت بصورة خاصة شهرة قبور البطاركة الإثني عشر الذين أصبحوا، في ما بعد، جدود قبائل اسرائيل الاثنتي عشرة، أو الأسباط، ويشار اليهم

باسم «بنو اسرائيل». كانت قبورهم مماثلة لآثار قديمة في فلسطين ومصر، وحتّى أحياناً في مناطق بعيدة من البلاد التوراتيّة.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العبّاسي (؟ ٢٨٤هـ/ ؟ - ٨٩٧م)، مؤرّخ وجغرافي عربي، شيعي الهوى. يُعتبر أحد أشهر الباحثين الذين زها بهم العصر الذهبي للعبّاسيّين. كان اليعقوبي سليل رفيق أعتقه الخليفة المنصور (من هنا كان لقبه الكاتب العبّاسي). كان هذا الرقيق حاكمًا على مصر، وقد قدّم حياته ثمنًا لدفاعه عن إدريس العلوي الحسنيّ الذي هُزم في موقعه فخّ، سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م. نجح بعدها إدريس في الفرار وفي تأسيس السلالة الإدريسيّة. كان اليعقوبي مشايعًا كسلفه للمذهب الشيعي طوال حياة ملتبسة المعالم: ما نعرفه عنه أنّه كان في خدمة الطاهريّين في خراسان، وأنّه أقام في المقاطعات الشرقيّة حتّى زوال سلطتهم سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م، ثمّ قصد مصر حيث استقرّ به المقام حتّى مماته.

خلّف اليعقوبي تاريخًا عامًّا للخليقة خُصّص القسم الأوّل منه لبدايات الخليقة وتطوّرها السابق للإسلام، بينما تناول القسم الثاني معالجة الوقائع السياسيّة التي طبعت المجتمع الإسلامي حتّى سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧٢م. في ما بعد ألّف «كتاب البلدان» الذي أنجزه سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م، والذي وصلنا منقوصا، وهو يتضمّن أوصافًا ثمينة، ولا سيّما لبغداد وسامرّاء.

اليمن، أي العربيّة السعيدة القديمة، مقاطعة من العالم الإسلامي القروسطي؛ وفّرت لها صعوبة النفاذ إليها وهامشيّة موقعها من مركز الدولة وضعًا مستقلًّا عن الأمبراطوريّتين الخليفيّة والسلطانيّة في الشرق. وهي تشكّل اليوم القسم الأكبر من الجمهوريّة اليمنيّة.

١ - عرفت المنطقة، طوال فترة العصور الوسطى، إزدهارًا ناتجًا عن غناها الزراعي وأنشطتها التجاريّة البحريّة وعبر القوافل في آن. وقد شكّل ذلك فرادة اليمن بالنسبة إلى شبه الجزيرة العربيّة القاحلة، جاعلًا منها المساحة الأكثر اكتظاظًا بالسكان لفترة طويلة. ساهمت في غنى البلاد زراعة أراض في شكل جلالٍ تطوّرت بفضل المشاريع المائيّة، ولا سيّما السدود، التي طارت بها شهرة مملكة سبأ. ولا شكّ في أنّ السلاسل الجبليّة التي تنتصب حدودها الوعرة على امتداد جُرف البحر الأحمر، أوجدت هناك، كما في عسير، طبيعة ذات تضاريس متنافرة ومجزّأة، في حين تضاءلت السهول الساحليّة. بيد أنّ هذه الحواجز لم تمنع أبدًا التجارة بين الهند وغرب البحر المتوسط من أن تتبع هذا الطريق البرّيّ الوحيد السالك لنقل الأفاويه والسلع التجاريّة القيّمة الأخرى المستوردة بحرًا، بينما كان يتدفّق عليها الإنتاج المحلّيّ من البخور.

نتج عن هذه الظروف المعاكسة لتلك التي نجدها في المساحات الصحراوية المجاورة، الشهرة التي تمتعت بها، في العصور القديمة: الحضارات المحليّة التي أفادت من هذا الوضع الملائم، وما تزال أطلالها الأثريّة التي حظيت بثناء التقليد الإسلامي نفسه ماثلةً حتّى اليوم. بيد أنّ انحطاطها حدث قبل أن يطلق النبيّ محمد (ﷺ) دعوته مع بداية القرن السابع للميلاد. كانت اليمن بدون سلطة سياسيّة عندما التحفت بركب الديانة الجديدة واستقبلت في ما بعد، بطيبة خاطر، المعارضين للنظام الخليفي الأموي ومن ثمّ العبّاسي، سواء منهم الخوارج، أو بخاصة العلويّون المنتمون إلى مختلف فروع المذهب الشيعي.

إنّ الحملات القمعيّة الموجّهة من العراق، بما فيها تلك التي أدّت سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م إلى نشوء سلالة بني زياد المحليّة، لم تستطع أن تحول دون تجذّر مختلف هذه الفِرَق: وأكثرها فاعليّة، على هذا الصعيد، كانت الإسماعيليّة، الممثّلة لفترة من الزمن بسلالة الصُلَيْحيّين المنحدّرة من قبيلة هَمْدان، وفرقة الزيديّة التي بقيت مسيطرة على البلاد - رغم تنحيتها لبعض الوقت - منذ الفترة التي استقرّ فيها ائمّة علويّون في البلاد، وقد نشأت منهم السلالة الزيديّة في اليمن.

هؤلاء الأئمّة الزيديّون الذين كانت عاصمتهم، في أغلب الأحيان، صنعاء، وهي المدينة الرئيسة للبلاد وسط الهضاب العالية، حافظوا على موقع صعدة في شمال البلاد، واعتبروه ملكًا خاصًا، وكانوا يلجأون اليه كلّما تداعت سلطتهم بسبب عصيان طويل الأمد. لقد استطاعوا الصمود والاستمرار رغم المحاولات التي قام

بها السنّة لاسترجاع الحكم - والتي نجحت في بعض الفترات - وأهمّها المحاولة التي قام بها الأيوبيّون بدءًا من سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، والتي تواصلت حتّى سنة ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، بواسطة خلفائهم الرسوليّين الذين حكموا المناطق المنخفضة من اليمن حتّى حضرموت وساحلها. شجّعت سياسة هذه السلالة الأخيرة الملاحة والتجارة، ومنحت الحيويّة لمُدُن زَبيد وتعزّ ولحج والمكلّا، وخصوصًا لعدن التي كانت تُعتبر أفضل ميناء طبيعي في المنطقة كلّها. وهذه الحيويّة تتلاءم مع نشاط الجماعات السنيّة الشافعيّة التي كثر عددها في البلاد وواجهت زيديّي الهضاب العالية.

لكنّ المقاطعة الجنوبيّة من البلاد لم تعرف قطّ في ما بعد تفوّقًا مماثلًا، لا في عهد طاهريّي لَحج وعدن الذين استولوا على السلطة حوالى سنة ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، ولا ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي حيث تلاقت محاولات العثمانيين والبرتغاليّين المتنافسة لوضع اليد على تجارة العبور. كما على إنتاج جديد ومرغوب فيه، هو إنتاج البنّ الذي كان يُصدّر إلى الغرب. إنّ استمراريّة الإمامة الزيديّة المعتصمة بأراضيها المحميّة والتي حاولت أحيانًا توسيع رقعة سلطتها، من دون أن تستطيع بسطها على اليمن بكامله، وفّرت لهذه البلاد خصوصيّة محليّة مميّزة.

أمّا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد سمحت عودة التدخّلات الأجنبيّة بإقامة مراقبة بريطانيّة على كل القسم الجنوبي، بموجب تقاسم فعلي مع العثمانيّين كُرّس بالاتفاق الإنكليزي - التركي الموقّع سنة ١٩٠٤، ما سبّب انقسامات داخليّة تفاقمت شيئًا فشيئًا. لم تؤدّ هذه الانقسامات، في النصف الثاني من القرن العشرين، إلى الاعتراف الموقّت بجمهوريّتين يمنيّتين وحسب، لكلّ منهما اتّجاهات سياسيّة وايديولوجيّة مختلفة، بل استمرّت هذه الانقسامات مرتكزةً على بُنى قبليّة ما تزال ماثلة في خلفيّة المؤسّسات العصريّة، في الوقت نفسه الذي تُفعّل فيه الخصومات المذهبيّة، بين الزيديّين والسنيّين، وهي خصومات مستمرّة منذ القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، ولم تكفّ عن خلق الاضطرابات.

اليمن الحاليّة (جمهوريّة)، مساحتها ٥٢٧ ٩٦٨ كلم²، عاصمتها صنعاء، هي دولة مستقلّة معاصرة، سكّانها كلّهم تقريبًا مسلمون، تضمّ، في جنوب شبه الجزيرة العربيّة، أراضي اليمن القروسطي وأراضي حضرموت.

للجمهوريّة واجهة على البحر الأحمر وأُخرى على المحيط الهندي، ولها حدود مشتركة مع المملكة العربيّة السعوديّة من جهة، وسلطنة عُمان من جهة ثانية؛ هذه الجمهوريّة التي طالما تميّزت بنيتها بروابط النسب القَبَليّة وبالتوازنات المذهبيّة المستمرّة، هي نتيجة اندماج دولتين، عام ١٩٩٠، كانتا منفصلتين لفترة، هما الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة في الشمال التي تأسّست في العام ١٩٦٢، والجمهوريّة الديموقراطيّة الشعبيّة لليمن الجنوبي التي تأسّست في العام ١٩٦٧.

إنّ دولة الشمال، بحدّها الجنوبي الذي ينتهي إلى حدود المحميّة البريطانيّة القديمة التي كانت قائمة حول مدينة عدن المرفئيّة، تكوّنت وعُرفت بهذا الاسم منذ الثورة التي أطاحت، سنة ١٩٦٢، الإمام محمّد البدر، وهو آخر ممثّل لسلالة الزيديّين في اليمن، والمالك آنذاك على مجمل المملكة اليمنيّة بحدودها المعترف بها بعد الحرب العالميّة الأولى في معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠. نتجت ثورة ١٩٦٢ عن تألّب المصالح الإقتصاديّة والمدينيّة والقبليّة، منتقدةً السياسة الإقتصاديّة السابقة التي أرادت أن تغلق البلاد على نفسها وتعزلها، برفضها كلّ محاولة للعصرنة. ركّزت الثورة على المطالبة بنظام أكثر تحرّرًا، وما لبثت، بفضل الدعم العسكري لمصر عبد الناصر، أن حقّقت إنتصارًا، مستفيدةً من التناقضات ذات الطابع الاجتماعي والعقائدي التي تفصل في البلاد بين السّنيين الشافعيّين، وهم تجّار نشيطون يسكنون الساحل، وبين أتباع الزيديّة الذين يحتلّون المواقع المحصّنة في الهضاب العالية حيث يستقرّون منذ قرون عدّة. لم يتمكّن نجاح الثورة من القضاء على سيطرة الزيديّين على اليمن الشماليّة، هذه المنطقة التي حافظت على استقلالها في عهد حكومات عسكريّة عدّة، ولكنّها عانت وضعًا فوضويًا إبتداء من سنة ١٩٧٧.

أمّا دولة الجنوب ذات التوجّه الماركسي والسوفياتي التي خلفت محميّة عدن البريطانيّة وتوابعها سنة ١٩٦٧، فقد عرفت منذ ذلك التاريخ اضطرابات داخليّة ناتجة عن تناحر الفئات المختلفة، كما عن فقر شعبها وقلّة عدده الذي كان دون نصف عدد سكان الجمهوريّة الشماليّة. إنّ الأهميّة التجاريّة والاستراتيجيّة التي أعطتها لمرفإ عدن عمليّةُ شقّ قناة السويس سنة ١٨٦٩، ساعدت على تمييز هذه المنطقة ذات الأراضي المنخفضة والمجاورة للبحر والتي يسكنها تجّار المدينة؛ كما أنّ الخلافات واكبتها صراعات دينيّة بين السنّة الشافعيّين المقيمين في السهل وأتباع الزيديّة المقيمين في الجبل. لكنّ تخوم الدولة الجديدة الممتدّة حتّى أعماق حضرموت الصحراويّة، أمّنت استمراريّة حدود المحميّتين اللتين عن طريقهما حاول البريطانيّون تدعيم احتلالهم لعدن خلال اتفاق ١٩٠٤ الإنكليزي التركي، بضمّهم إلى محميّتهم الغربيّة التي تبلغ مساحتها ما يقارب ٦٣ ٠٠٠ كلم[٢]، محميّة شرقيّة مساحتها ١٢٠ ٠٠٠ كلم[٢] تقريبًا.

إنّ التناقضات والاختلافات ذات الطابع الديني التي استمرّت بين دولتي الجنوب والشمال خلال العقود الثلاثة لانفصالهما تظهر من جديد اليوم، بأشكال صراعاتٍ ومصاعب مرحليّة أخرى، داخل الجمهوريّة الحاليّة المتحدّة، ولِيدة اندماجهما.

◄ راجع المستندات ١٨-١٢-١٣-٢٥ و٣٠.

يوحنا المعمدان ← يحيى.

يوسف، يوسف بن يعقوب أو يوسف الصدّيق. شخصيّة توراتيّة، يُعتبر في القرآن الكريم والسنّة نبيًّا. تروي السورة الثانية عشرة من القرآن الكريم قصة يوسف، في رواية متتابعة، تتوافق جزئيًّا ما ورد في العهد القديم. لكن هذه القصّة هي في الواقع مرويّة بطريقة غير واضحة، ومضاف إليها بعض التفاصيل المؤثّرة أحيانًا. أثارت هذه الرواية إعجاب الرواة المتأخّرين، مثل الثعلبيّ، فأضيفت إليها كتابات أخرى. وفي الوقت عينه، حملت معابد عديدة ذكرى يوسف وأضحت أماكن زيارات تقويّة، وذلك في الفترة التي راج فيها تكريم الأولياء في الإسلام.

وهكذا يشير دليل الهروي، في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، إلى زيارات تقويّة لإحياء ذكرى يوسف، إمّا في فلسطين حيث يوجد قبره، وإمّا في مصر خاصةً حيث ترتبط آثار فرعونيّة عديدة بمراحل مختلفة من قصّته، منذ أن بيع كعبد وسُجن، حتّى أعماله الأسطوريّة الحكيمة كوزير. وفي المناسبة ينبع هذه الحلقة ذكر أشقّائه أولاد يعقوب الآخرين المعروفين بـ«بني اسرائيل»، وخاصة ذكرى الذين منهم، مثل «بنيامين»، يحتلّون مكانة كبيرة في قصّة يوسف.

يوسف بن تاشفين، (؟ - ٥٠٠هـ/ ؟ - ١١٠٧م)، عاهل من سلالة المرابطين، حكم ابتداء من سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م تقريبًا، وأقام سلطة جمعت، في إطار بناء أمبراطوري ضخم، القسم الأكبر من المغرب والأراضي الأندلسيّة التي كانت ما تزال خاضعة للحكم الإسلامي.

بقي زعيم الحرب الطموح هذا بدويًّا بربريًّا صحراويًّا من قبيلة لمتونة، مدفوعًا في الوقت نفسه بروح الجهاد التي ميّزت العمل الديني الإصلاحي لمعلّمه الروحي عبدالله بن ياسين. كما بدا، في المقابل، منذ بدايات عمله، فاتحًا موهوبًا بميزات تنظيم بارزة. جعل من تأسيسه لمراكش، المعدّة لأن تحلّ مكان أغمات القديمة التي تعاورها النسيان، نقطة انطلاق لنزاعه مع برغواطة ولتقدّمه نحو شمال المغرب الأقصى. هناك شهد ازدياد سلطته واطمأنّ بعد أن غادر خصمه الأشدّ بأسًا، الأمير أبو بكر اللمتوني، سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م، إلى منطقة الصحراء حيث توفي بعد خمسة عشر عامًا.

لم تتوافر بذلك ليوسف بن تاشفين، في جنوب المغرب، عاصمة محصّنة بمحاذاة أراضٍ خصبة وفي موقع استراتيجي مهمّ فحسب، بل كان قد عمد إلى احتلال مدينة فاس منذ سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م، ومن ثمّ توجّه نحو المغرب الأوسط حيث توقفت غزواته أمام جبال منطقة القبائل بعد الاستيلاء على وَجْدة وتِلمسان ووهْران وتَنَس، متبعًا ذلك بحصار الجزائر. إنّ إعادة الاستيلاء على طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، من قبل جيوش الفونسو السادس عاهل قشتالة، والدعوة إلى المساعدة التي أطلقها أمراء المسلمين المحليّين

المعروفين في التاريخ الأسباني بملوك الطوائف، دفعتا بيوسف إلى توسيع جهاده ليطال أسبانيا.

إنطلاقًا من سَبْتة، ثمّ الجزيرة التي أخضعها، أطلق يوسف بن تاشفين جنده في وجه القشتاليّين، وانتصر سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، بمساندة أمراء الأندلس، في معركة الزّلاقة قرب بَطْلَيوس حيث أجبر ألفونسو السادس على التقهقر. عندئذٍ أُطلق على يوسف لقب أمير المسلمين، وهو لقب سام، لكنه أقل رفعة من لقب أمير المؤمنين، وهو يناسب وضعه الديني كسُنّي يعترف بالسيادة البعيدة لخليفة العبّاسيّين في بغداد. في هذه الأثناء استمرّت المصاعب في الازدياد في شبه الجزيرة الإيبريّة التي تركها يوسف بن تاشفين عائدًا إلى مراكش مظفّرًا، والتي غدت تُحرّكها تحالفات سياسيّة جديدة بين المسلمين والمسيحيّين الذين اتّحدوا على طريقتهم ضدّ التدخّلات الحربيّة للجيوش المراكشيّة. وقد أسفرت عودة عاهل المرابطين المتكرّرة إلى الأندلس، خلال سنوات عدّة، عن توسيع سلطته المباشرة على المدن: كغرناطة ومالقة وإشبيلية، وهي مدن احتلّها بالقوة وقتل فيها أو سجن الأمراء المسلمين الذين اتّهمهم بالرذيلة والهرطقة.

لم يستطع بعد ذلك تحقيق أيّ انتصار نهائي على القوات المسيحيّة خلال حروب الإسترداد القائمة على قدم وساق، إلّا أنّه خلّف لابنه عليّ سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م بعد وفاته، أمبراطوريّة كانت بلغت آنذاك ذروتها، جامعةً مجمل الأراضي التي خضعت للإسلام والواقعة غربي العالم المتوسطي، في الأندلس كما في المغرب.

◀ راجع المستندين رقم ١٤ و١٦.

يوشَع أو يشوع بن نون، شخصيّة توراتيّة يشير إليها القرآن الكريم مرّتين من دون تسميتها.

يذكر مصنّفو قصص الأنبياء، في القرون الوسطى، يشوع أو يوشع بشكل واضح مشيرين إلى دوره. في الوقت الذي ازدهرت في الإسلام عادة «تكريم الأولياء»، عُرفت معابد كانت موضع زيارات تقويّة خلّدت ذكرى يشوع الذي كان يُعتبر نبيًّا. ويذكر دليل الهروي في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، العديد من أمكنة الزيارات هذه في فلسطين وفي شمال سوريا والأردن والعراق. إنّها تشير إلى «يوشع» الذي أوقف دورة الشمس خلال إحدى المعارك، أو إلى الأضرحة المنسوبة إلى النبيّ يوشع.

يوم الدّين، المسمّى أيضاً «يوم الحساب»، أو «يوم القسمة» و«يوم الحقيقة» أو «يوم الوعيد»، وهو مفهوم أساسي في نبوءة النبيّ محمّد (ﷺ)، مرافق لمفهوم البعث المرتبط بالاعلان عن نهاية الزمن، من منظور تطبيق العقاب الإلهي المفروض على الكفّار. يُذكر يوم الدّين في سور قرآنية عديدة من الفترة الأولى المكيّة، التي تشدد، إمّا على الصفة الفرديّة للديونة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ (القرآن الكريم، سورة الانفطار، الآية ١٩)، وإمّا على أنّ كلّ امرئ يُحكم عليه بحسب أعماله المدوّنة في سجلّ يشار اليه بوضوح: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ (القرآن الكريم، سورة الإنشقاق، الآيات ٧-١٢). وهناك سوَرٌ تشير إلى «وزنة الأرواح»، وبصورة خاصة هناك مقاطع كاملة تزخر بأصداء الغضب الإلهي الممزوج بعدالة متوعّدة ومصائب، كما في السور الصغيرة التالية المتميّزة بنداءات ذات أسلوب ينمّ عن قِدمها.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (القرآن الكريم، سورة الزلزلة وهي ٨ آيات).

﴿الْقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القرآن الكريم، سورة القارعة وهي ١١ آية).

وعندما تتمّ محاسبة البشر، يوزّعون وفق ما ورد في القرآن الكريم إلى مجموعتين: أصحاب اليمين، أو المختارون الذين سيدركون الجنّة، وأصحاب اليسار، المنبوذون والمحكوم عليهم بنار جهنّم. لكن القرآن الكريم لا يأتي على ذكر تقييم الأعمال التي قادت هاتين

المجموعتين إلى مصيرهما إلّا بصورة غامضة. نذكر، على سبيل المثال، ما ورد في إحدى السور حول هذا الموضوع:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (القرآن الكريم، سورة الليل، وهي ٢١ آية).

ويضاف إلى هذه المعطيات القرآنيّة ما ورد في الحديث وفي تفاسير القرآن التي تتنافس لإعطاء معلومات إضافية حول كيفيّة حصول الدينونة. وقد استُعيدت تفاصيل هذه المعلومات التي تُبرزها تفسيرات القرآن الكريم الحرفيّة، في المجاهرة بالعقيدة التي يعتمدها السلفيّون الذين يعتبرون الايمان بيوم الدين من أركان العقيدة. وهكذا فإن الدينونة تلي البعث الذي يعلن عنه نفير يُطلقه الملاك إسرافيل، فيجتمع الناس في «فناء»، فإذا هم «قيام ينظرون» أن يظهر الله، فيتمّ التعرّف إليه بإشارة خاصة، وذلك بالكشف عن ساقه، ويفسّر ذلك ما ورد في سورة القلم، الآية ٤٢، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ومن ثمّ يحاسَبون بحضور الأنبياء الذين يحقّ لهم التماس الرحمة لجماعتهم، ومن ثمّ يمرّون أمام حوض حيث يلتقون النبيّ محمّد (ﷺ) الذي يمكن أن يشفع لكل مؤمن ثُبت أنّه أخطأ، ولكنّ الحكم الأخير إنّما هو بيد الله، الذي هو، كما ورد في النصوص، عادل وصارم ومتسامح ورحيم.

وتُعلّم الأحاديث أيضًا أنّ على الناس أن يجتازوا «جسراً»، أو صراطاً، يسمح لهم بالوصول إلى الجنّة، مروراً فوق جهنّم. يتمكّن المختارون من اجتياز هذا الجسر الذي هو أكثر رفاعةً من الشعرة وأكثر حدّة من نصل السيف، بينما يتعثّر المغضوب عليهم، ويقعون في السعير. ونُذكّر هنا بأنّ الشهداء يُنقلون إلى الجنّة فور استشهادهم، وأن البشر الآخرين يخضعون، لحظة موتهم، «لعقاب القبر» المذكور في التراث القديم الثابت.

إنّ تصوّرات يوم الدين هذه التي أعطاها المتكلّمون السلفيّون أهميّة عقائديّة وتشرّبتها عقليّة العامّة مضفية عليها جمالاً ورونقاً، كانت موضوع نقد من قبل مفكّرين آخرين. فمنذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، رفض المعتزلة ما ورد في التعابير القرآنية من صفات تشبّه الله بالانسان ورأوا فيها صوراً لا تُطابق الواقع، كما رفضوا كل شفاعة، ولم يؤمنوا «بعقاب القبر». وحاول بعض المفكّرين، في ما بعد، اعتماد موقفٍ وسطٍ قريب مما ذهب اليه الأشعريون الذين يقبلون بالتعاليم السلفيّة المتعلّقة بهذا الموضوع، ولكنّهم يعتبرون أنّ طبيعة الأحداث التي تتكلّم عنها تختلف عمّا نعرفه على الأرض. وفي العصر الحديث، ما تزال مختلف هذه الاتّجاهات قائمة: فالقائلون بالتعقّليّة لا ينكرون الوصف المتعارف عليه، ولكنّهم لا يشدّدون على مظاهره المثيرة متجنّبين التأويل المجازي الذي يعتمده أنصار الفلسفة والتصوّف.

يونس أو يونان، يونس بن متّاي أو ذو النون. شخصيّة توراتيّة، يرد ذكرها في القرآن الكريم، نبيًّا ممهّدًا لمجيء النبيّ محمّد (ﷺ). فالسورة العاشرة من القرآن، أو سورة يونس، مخصّصة كليّاً لقصّته. كما ورد ذكره أربع مرّات في أماكن أخرى من القرآن الكريم، اثنتان منها باسم آخر: «صاحب الحوت» و«ذو النون». وليونس في القرآن دور مهمّ كمرسَل من قِبَل الله، وإنّ مغامرته كنبيّ ابتلعه الحوت وكمثالٍ للصبر لحظها العهد القديم، قبل أن تجمّلها الروايات اللّاحقة بملامح خارقة.

وهكذا نرى، في عصر ازدهار تكريم الأولياء في الاسلام، أنّ ذكرى النبيّ يونس مرتبطة بأماكن مقدّسة عديدة هي مقصد زيارات تقويّة. في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، كانت هناك مجموعتان من هذه المزارات نعرفهما من خلال دليل الهروي: المجموعة الأولى في فلسطين تُذكّر، بدون شك، بالنبيّ العبري يونس (أو يونان) بن إمِتّاي (سفر الملوك الثاني، الفصل ١٤، الآية ٢٥) الذي تُنسب إليه التسمية

العربية يونس بن متّاي؛ أمّا الأضرحة الأخرى الأكثر شهرة، فإنّها تشير إلى مواضع في منطقة الموصل في بلاد ما بين النهرين العليا، حيث جرت، بحسب التقليد اليهودي-المسيحي، فصول قصة «نبيّ نينوى»، وهو الشخصية الرئيسة في «سِفر يونان» (يونس): أمّا اليوم فثمّة تكريم خاص لمزار النبيّ يونس الذي حلّ محلّ المشهد الفروسطي في تلّ تَوْبة.

الهوامش

١. أو إبليس، والمقصود عصيانه أوامر الله في السجود لآدم.
٢. المقصود الاتّحاد بالله بعد المجاهدات والمرور بمختلف المقامات والأحوال.
٣. [ ] المعقوفتان تعنيان زيادة.
٤. ليس بالضرورة أن تكون لآيات الله مهمّات سياسية. أو أن يكونوا محصورين بإيران، فقد أصبحت هذه التسمية تطلق على بعض كبار المجتهدين من الشيعة الاثني عشرية.
٥. المقصود هنا كتاب «طبقات الشعراء».
٦. المقصود كتاب «البديع».
٧. كانت الغنائم ممّا أغرى بها أبو بكر المقاتلين، ولكنّ هؤلاء انخرطوا في ظلّ عقيدة وقاتلوا تحت لوائها.
٨. لم يكن التذمّر مقتصراً على الموالي فحسب، بل كان جزء من القبائل العربيّة، لا سيّما اليمنيّين، يعارض الحكم الأموي حينذاك.
٩. لم يحدث أن قام أبوه محمد بن الحنفيّة بأيّ نشاط سياسي في العهد الأموي.
١٠. الصحيح جَشْتي (بالجيم المثلثة المفتوحة)، وهي نسبة إلى قرية جَشت Cast على مقربة من مدينة هراة (بأفغانستان، اليوم)، وهي كانت منبتًا لسلسلة صوفيّة منسوبة إليها، رأسها الخواجه أبو أحمد أبدال، ثمّ الخواجه قطب الدين مودود والخواجه معين الدين (موضوع كلامنا) ونجيب الدين شيخ المشايخ الذي انتهت إليه هذه السلسلة.
١١. من المعروف في الروايات التاريخية أن خالدًا بن الوليد الذي استدعاه الخليفة من العراق، كان أميراً (قائداً) للجيوش الإسلاميّة في هذه المعركة.
١٢. هو عهد وصاية دوق أورليان، فيليب، على لويس الخامس عشر القاصر.
١٣. چامپانر هو الاسم الهندي لقلعة استولى عليها محمود الأوّل فكانت أساسًا للمدينة.
١٤. من مؤلّفاته «تفسير القرآن»، لم تذكره الدائرة.
١٥. نسبتهم إلى بَهْمَن، إبن البطل الإيراني اسفنديار.
١٦. هو الخواجة محمود گاوان (١٤٠٥-١٤٨١)، وزير محمد الثالث البهميني وأحد مؤرّخي الهند الأوائل.
١٧. تبنّى حزب البعث الذي أسّسه ميشال عفلق مع صلاح البيطار المبادئ الاشتراكيّة بعد انضمام الحزب الإشتراكي إليه بقيادة أكرم الحوراني.
١٨. أطلقت هذه التسمية أيضاً على رواة التاريخ في القرن الثاني الهجري، من أمثال أبي مخنف وعوانة بن الحكم وسيف بن عمر...
١٩. كان الموقف عكس ذلك في حروب الثغور، لا سيّما في العهد الأموي الذي شهد حملات مكثّفة إلى هذه المناطق، في إطار ما يعرف بالشواتي والصوائف.
٢٠. لقب زوجته هو «ممتاز محل»، ومعناه ذات المكانة المميّزة، أمّا تاج محل فهو اسم الضريح.
٢١. بلخ، مدينة عريقة في القدم تقع غربي مزار شريف وجنوبي نهر جيحون، كانت ملتقى طرق القوافل التجاريّة بين ايران والهند، ومركزًا لتجارة الحرير بين الصين وبلدان الغرب. كما كانت عاصمة خراسان في العهود الأولى للإسلام ومركزًا ثقافيًّا مزدهرًا في عهود السامانيّين والسلاجقة والغزنويّين، وموطن البرامكة الذين وزروا للعباسيّين. تلاقت فيها البوذيّة والزرادشتيّة والإسلام.
٢٢. هو عبدالله أبو يحيى المعروف بـ«البطّال» في الروايات التاريخيّة.
٢٣. مات في سقوطه في مكتبته.
٢٤. «دين إلهي» في الفارسيّة، كما ورد في الأصل.
٢٥. إنّه قُتل بعد عودته من غزوة في الشمال.
٢٦. يُنسب بناء مسجد قبة الصخرة لعبدالملك، فيما يُنسب بناء المسجد الأقصى الى الوليد، وهو أمر شبه متّفق عليه في المرويّات التاريخيّة.
٢٧. يلتبس الأمر على المؤلف بين حركة المختار وحركة ابن الزبير، إذ إنّ مصعب بن الزبير هو الذي قضى على حركة المختار وليس الحجّاج.

٢٨. حدث ذلك في عهد ولاية الحجّاج على يد شبيب بن يزيد زعيم الخوارج الصفريّة، أي حوالي منتصف عهد الخلافة الأموية وليس في آخر أيامها.

٢٩. كان عبد شمس أخاً توأماً لهاشم، ولم تحدث بينهما خصومة، وإنما كانت هذه بين هاشم وأمية بن عبد شمس.

٣٠. أو العرفان، وهو العلم بأسرار الحقائق الدينيّة، أي الغوص على بواطنها، تجاوزًا لظاهر دلالاتها.

٣١. قد يكون هذا التأكيد في غير محلّه لأن القِفطي في «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» وابن العِبْري في «تاريخ مختصر الدول» يجعلان ولادته في الرقّة.

٣٢. في شباط ٢٠٠٢، عُدّل دستور البحرين وتحوّلت الإمارة الى مملكة.

٣٣. سقط نظام صدام حسين في ربيع ٢٠٠٣م.

٣٤. صدر كاملاً، منذ سنوات قليلة، عن دار الفكر - بيروت، تحقيق الدكتورين سهيل زكّار ورياض الزركلي.

٣٥. في هذه التواريخ اضطراب، إذ بدأ حكم هذه السلالة في البنغال الشرقيّة سنة ١٣٣٦م مع فخرالدين مبارشكاه. أمّا في البنغال الغربيّة وفي سائر انحاء البنغال، فاستُهِلّ الحكم مع علاء الدين عليشاه عام ١٣٣٩م ومع شمس الدين الياس شاه عام ١٣٤٥م.

٣٦. الفُلبّة أو البول: شعب إفريقي من أصول بربريّة، ينتشر في أيامنا في مالي وغينيا.

٣٧. هذا القول غير دقيق. فهناك مجموعات بهائية في مصر، لبنان والكويت، وكذلك في جمهوريّة أذربيجان وبعض جمهوريّات آسيا الوسطى.

٣٨. بعض الأسماء هيَ مكرّرة لأنّ اصحابها حكموا بلدين أو أكثر.

٣٩. قبائل من جنوب روسيا اختلطت بالمغول والأكراد.

٤٠. هو سعيد بن الحسين الإمام الإسماعيلي واوّل خليفة فاطمي في المغرب، والمقصود بإفريقية المنطقة الشرقيّة من المغرب حيث قامت الخلافة الفاطميّة سنة ٩٠٩م.

٤١. المعروف برشيد الدين فضل الله.

٤٢. كان يُعرف باسم محمّد خُدابَنْده.

٤٣. في علم الكلام وفي الفقه الإسلاميّين.

٤٤. هو خير الدين الملقّب بربروسة أي ذي اللحية الحمراء.

٤٥. تُعرف، أيضًا، بالجرجانيّة.

٤٦. هو الناصر فرج بن برقوق.

٤٧. ورد في تاريخ اليعقوبي حول هذا الموضوع أنّ رسول الله (ﷺ) دعا «مَنْ كان في بيته صنمٌ فليكسرْه، فكسروا الأصنام» ج ٢، ص ٦١، طبعة صادر، بيروت، ١٩٦٠).

وورد في «مروج الذهب» للمسعودي: «في سنة تسع حجّ أبو بكر الصدّيق (رض) بالناس وقرأ علي بن أبي طالب عليهم صورة براءة وأمر أن لا يحجّ مشرك وأنه لا يطوف في البيت عربان» (ج ٢، ص ٢٩، طبعة دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٣).

٤٨. الأصح القول إنّ مؤتمر الصلح هوَ الذي خيّب آمال الشريف الحسين، وليست معاهدة فرساي.

٤٩. يُدرِج المؤلّف هنا، باللغة الفرنسيّة، نموذجًا عن قَسَم كان يؤديه أتباع الشاذليّة ولكنّه لا يذكر مصدره. لم نعثر على النص العربي الأصلي لهذا القَسَم، لذا لم نورده في صلب النص، بل فضّلنا إدراجه في باب الحواشي بعد أن أعدنا ترجمته الى العربيّة؛ وهذا نصّه الحرفي:
«يا إلهي، إني أعلن توبتي أمامك وأقبل سيّدًا عليّ الشيخ (فلان). أقبل به شيخًا في هذا العالم وفي العالم الآخر أقبل به سيّدًا ومرشدًا أمام حضرتك. أقبل به هاديًا على طريقك. لن أعصيَ أوامره لا قولًا ولا عملًا، لا جهرًا ولا سرًّا. ثبّتني يا إلهي في طاعته وفي طريقته في هذا العالم وفي العالم الآخر، وفي طريق شيخ الشيوخ وإمام الأئمّة وقطب الجماعة سيّدي ابو الحسن الشاذلي، رضي الله عنه».

٥٠. لو كان متشدّدًا في تطبيق أحكام الشرع، فلماذا ثار عليه أهل الأمصار محتجّين على محاباته أقاربه وعدم المساواة في العطاء؟

٥١. أسعد بن مهذّب ١١٤٩-١٢٠٩م، وزير وأديب وشاعر قبطي، أسلم في عهد الأسرة الأيّوبية ووُلّي دواوين الدولة. من مصنّفاته «قوانين الدواوين» وديوان شعر توفيّ في حلب.

٥٢. جمال الدين الوطواط، ١٢٣٤-١٣١٨م، كاتب مصريّ مترسّل، من مؤلّفاته «مجموعة رسائل» و«غُرَر الخصائص الواضحة».

٥٣. بعد المهديّة، بنى الفاطميّون في العام ٣٣٦-٣٣٧هـ/٩٤٧-٩٤٨م عاصمةً جديدة لهم قرب القيروان هي صبرا-منصوريّة.

٥٤. في التواتر، أنّ المقام يعود إلى زينب بنت علي، أخت الحسين، وربّما يعود بناؤه إلى زمن الفاطميّين الذين اهتمّوا بإحياء تراث أهل البيت وبناء مقامات تكريمًا لهم.

٥٥. ليس هوَ الذي اختار البصرة معسكرًا، إنّ الذي اختاره هو عُتْبة بن غزوان.

٥٦. لقد أدخلنا على هذه اللائحة، إستنادًا إلى مصادر أخرى بعض التعديلات التي بدت لنا ضروريّة.

٥٧. لا نشاطر المؤلّف هذا الرأي لأنّ القرآن الكريم يميّز بين المشركين وأهل الكتاب من نصارى ويهود. راجع على سبيل المثال سورة البقرة، والآية ١٠٥، سورة آل عمران، الآية ١٨٦، وسورة المائدة، الآية ٨٢...

٥٨. لم يكن ابن سبأ من صحابة علي الذي عنّفه ورفض مقولته بصدد الوصية، وثانيًا ليس صحيحًا أن ابن سبأ أله عليًا.

٥٩. إذا كان المقصود هنا الحركة التي قادها المختار باسم محمّد بن الحنفيّة، فقد قامت هذه في ستينات القرن الأول الهجري وليس في نهاية الحقبة الأمويّة.

٦٠. المعروفة بالعربيّة بالجبل الصخري.

٦١. كان الخليفة هارون الرشيد قد أوصى بالخلافة لأولاده الثلاثة بالتتابع: الأمين والمأمون والمعتصم.

٦٢. ياووز: هو لقب السلطان سليم الأول ويعني الرهيب أو المخيف.

٦٣. هو طريف بن مالك البربري المعافري.

٦٤. قائد الجيش العبّاسي.

٦٥. المقصود أمويّو الأندلس.

٦٦. احدى قرى مغاغة بمحافظة المنيا في صعيد مصر.

٦٧. عنوانها «مستقبل الثقافة في مصر».

٦٨. نسبةً إلى مصطفى كمال أتاتورك.

٦٩. ابو عمرو عبّاد بن محمّد المعتضد.

٧٠. خلافاً لما ورد، فإنّ العباس لم يناوئ جهرًا الرسول ﷺ على غرار أخيه أبي لهب، حتى إنّه عشية الهجرة إلى يثرب استوثق من أهلها بأن الرسول ﷺ آمنٌ في ديارهم.

٧١. بدأت الدعوة العبّاسيّة في أواخر القرن الأول وأُعلنت في القرن الثاني الهجري.

٧٢. إحدى قرى البقاع في الشام.

٧٣. لم يكن أبو سلمة من النقباء الاثني عشر، ولكنّه عُرف بوزير آل محمّد.

٧٤. ينتهي مبدئيًا العصر الذهبي مع المعتصم، في الثلث الأوّل من القرن الثالث للهجرة/منتصف القرن التاسع للميلاد.

٧٥. توافقت الشرعيّة العبّاسيّة مع مبدإ البيعة الذي اعتمده الخلفاء الأمويّون؛ أمّا الراشدون فاعتمدوا عامةً مبدأ الشورى في البيعة.

٧٦. حلّ أولاً عند أخواله من بني نفزة في المغرب، ثم انتقل إلى الأندلس.

٧٧. لم يحدث تنافس بين الأخوين التوأمين: هاشم وعبد شمس، ولكنّ أميّة، إبن الأخير، نافس عمّه على الزعامة ولكنه فشل، فرحل بعد ذلك إلى الشام.

٧٨. يشار إلى أنّ ابنه طلال بن عبد الله خَلَفه عام ١٩٥١، ثمّ تنازل لابنه الحسين ابن طلال عام ١٩٥٢.

٧٩. يشار إلى أنّ السيدة أروى بنت أحمد ملكت من ١٠٩٢ إلى ١١٣٧م.

٨٠. حكم بنو رسول بين ١٢٢٩ و١٤٥٤م وأسّس حكمهم عمر بن علي في تعز ورسّخه ابنه يوسف. قضى عليهم بنو طاهر.

٨١. ورد هذا الحديث في رواية أخرى في «مصارع العشاق» (نشر القسطنطينيّة ١٣٠١هـ، ص ٤) لجعفر بن أحمد السرّاج هكذا: «من عشق وكتم وعفّ وصبر غفر الله له وأدخله الجنّة». كما ورد مع تغيير في لفظه في مصادر عديدة منها: «محاضرات الأدباء»، «كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق»، «محاضرة الأبرار ومسايرة الأخيار»، وفي «تزيين الأسواق».

٨٢. العقبة: اسم المكان الذي التقى فيه الرسول ﷺ عددًا من أهل يثرب (من الأوس والخزرج)، حيث بايعوه في هذا المكان ودعوه إلى مدينتهم.

٨٣. كانوا اثني عشر رجلًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

٨٤. هذا المصطلح غير معمّم بصورة شاملة.

٨٥. لم يُعرف عن ابن الحنفية أنّه قاد بنفسه ثورة ضد الأمويين، إذ إنّه عاش مهادناً في الحجاز، باستثناء ما زعمه المختار الثقفي في دعوته باسمه في الكوفة، الأمر الذي استنكره ابن الحنفية.

٨٦. هؤلاء الأئمة هم: علي، الحسن، الحسين، علي (زين العابدين)، محمد (الباقر) جعفر (الصادق). وكان اسماعيل الامام السابع عند الإسماعيليّة، ولذلك عرفوا بـ«السبعية».

٨٧. عُرف بلقبه «الهادي»، أمّا «العسكري» فهو لقب ابنه الإمام الحادي عشر.

٨٨. هذه المعلومات تطابق الحسن العسكري ابن الهادي.

٨٩. وضع عمر أساس المسجد الأقصى، وهو يختلف عن مسجد قبة الصخرة الذي يعود بناؤه إلى الخليفة الأموي عبد الملك.

٩٠. ماتت بعد وقت قليل من البيعة لأبي بكر، فكيف تكون قد قاومت بشدّة الخليفتين الأولين؟ ربما يقصد المؤلف موقفها من خلافة أبي بكر التي كان لعمر دورٌ أساسي فيها.

٩١. يقصد المؤلف هنا المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم التي نصّت على انشاء نظام الانتداب الدولي، وقد وُقّع على

هذا الميثاق في فرساي مع المعاهدة المعروفة بمعاهدة فرساي.

٩٢. يرجّح عدد من المؤرّخين أنّ البويهيين كانوا على المذهب الشيعي الزيدي.

٩٣. الساحة العامّة في المدن اليونانيّة والبيزنطيّة القديمة.

٩٤. البازيليك: مبنى روماني مستطيل، في أحد طرفيه جزء نائئ نصف دائري.

٩٥. كانت ثورة إبن الأشعث بين سنتي ٨١هـ/ ٧٠٠م و٨٤هـ/ ٧٠٣م، وقد لجأ بعد فشله إلى كابلستان حيث سلّمه «ملكها» في ما بعد إلى الحجّاج.

٩٦. لم تهاجر كندة قبل الاسلام الى العراق أو إلى يثرب، وإنّما كان لها وجود حينذاك في الشام (دومة الجندل)، ثمّ اتّسع حضورها في العراق (الكوفة خاصّةً) بعد الفتوحات الكبرى.

٩٧. هو طاهر بن الحسين، من كبار قوّاد المأمون العبّاسي.

٩٨. قائد الجيش، واللفظة أُطلقت اساسًا على قائد الاسطول.

٩٩. شارك بنو مذحج في حصار عثمان ولكنّهم لم يشاركوا في قتله، ولقد نُسب ذلك إلى عرب من مصر من بني علك.

١٠٠. لم يكن مروان من صحابة الرسول ﷺ، وقد عُرف أبوه (الحكم) بـ«طريد الرسول»، كما أن سنّه - بحسب المؤلّف - لا يسمح له بأن يكون من رفاق الرسول ﷺ.

١٠١. قيل أيضًا إنّه قُتل بتدبير من زوجه أرملة سلفه يزيد بن معاوية.

١٠٢. هو ابن عمّه وليس عمّه.

١٠٣. ليس مروان الذي أنهى الثورات وحركات التمرّد، إنّ الذي أنهاها هوّ ابنه عبد الملك.

١٠٤. حصلت كوسوفو على استقلالها في ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٨.

١٠٥. لم تُشر المرويّات التاريخيّة إلى طرد المسيحيين من شبه الجزيرة، ويبدو أنّ الأمر اقتصر آنذاك على اليهود.

١٠٦. الدراهم والدنانير.

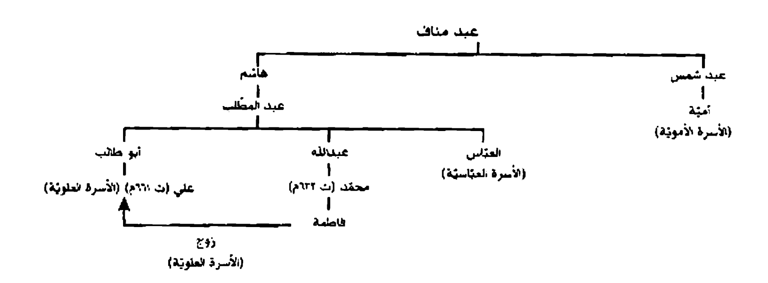
١٠٧. ينسب معظم المؤرّخين قُصير عمرة الى الوليد بن عبد الملك.

* نلفت إلى أنّ ليسًا ورد في الصفحة ٩ من هذا المعجم (مقدمة الطبعة الفرنسيّة)، يتعلّق بموضوع التشيّع. فبدا هذا الأخير وكأنّه يوقّر الإمامة أكثر من النبوّة. هذا أمرٌ مستنكر، بل مرفوض لدى الشيعة (الإثني عشريّة) الذين يتّفقون مع سائر المسلمين على توقير الرسول (ﷺ)، نبيّ الإسلام الأكرم والأفضل. مع العلم أنّ مثل هذا الرأي خلت منه مادة «الشيعة» المدرجة في متن المعجم.

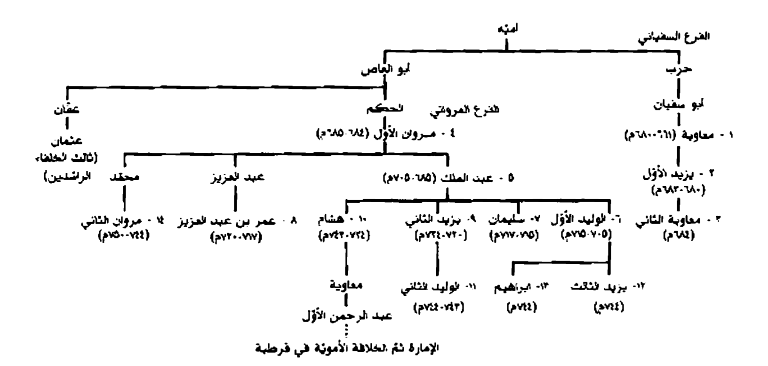
الملاحق

- سلاسل الأنساب
- الخرائط التاريخيّة
- الرسوم والمخططات الهندسيّة

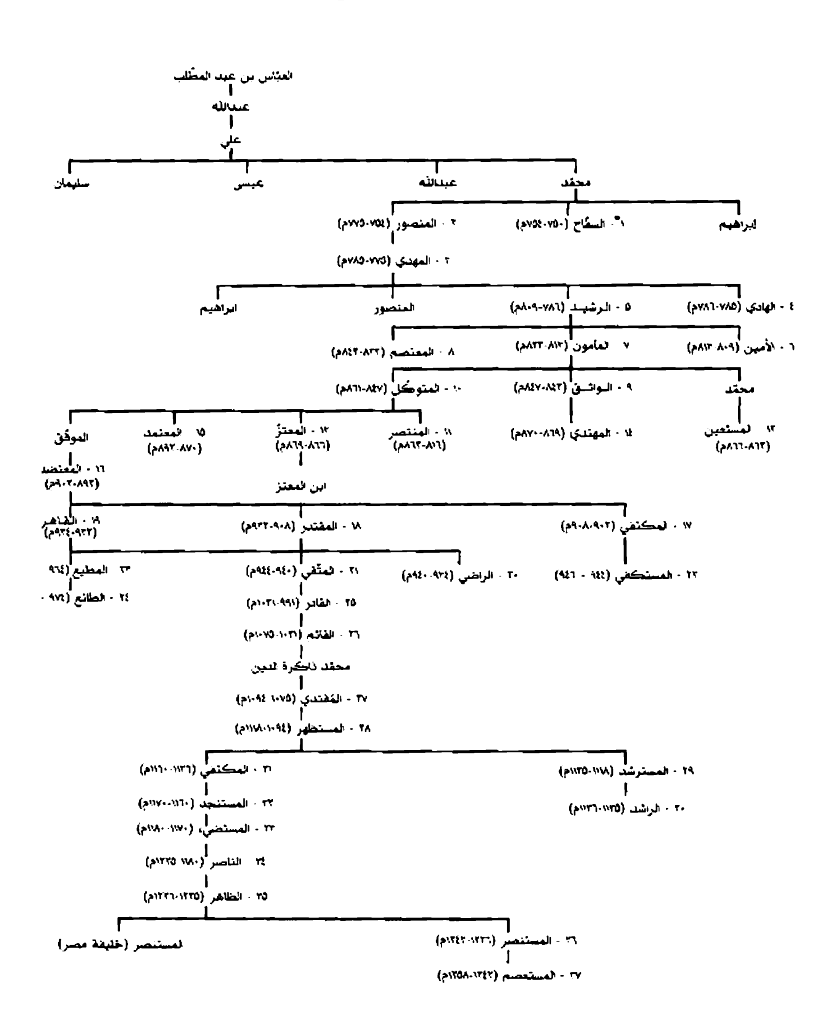
١ - الهاشميّون والأمويّون



٢ - الخلفاء الأمويّون في المشرق

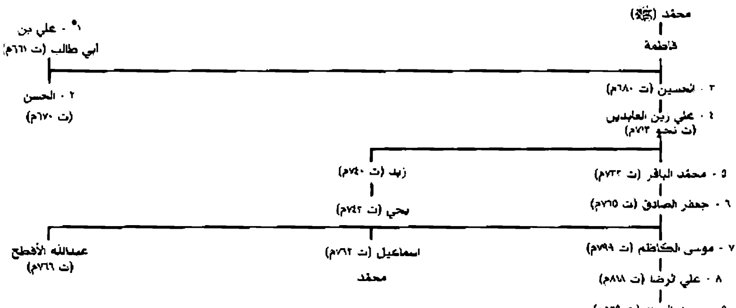


٣ - الخلفاء العبّاسيون



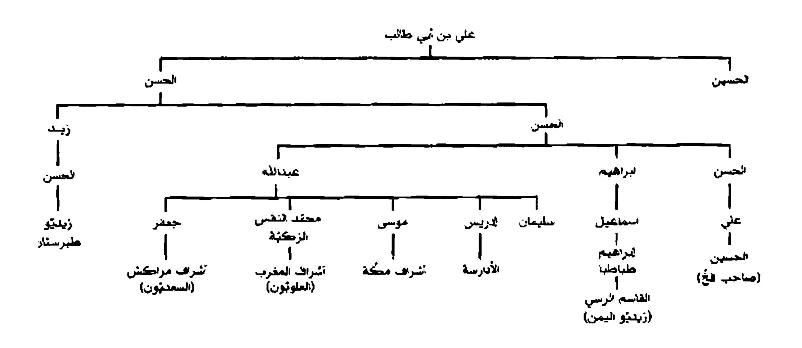
* تشير الأرقام الى الشخصيات التي تبوّأت تباعًا عرش الخلافة.

٤ - العلويّون المتحدّرون من الحسين (الأئمة)

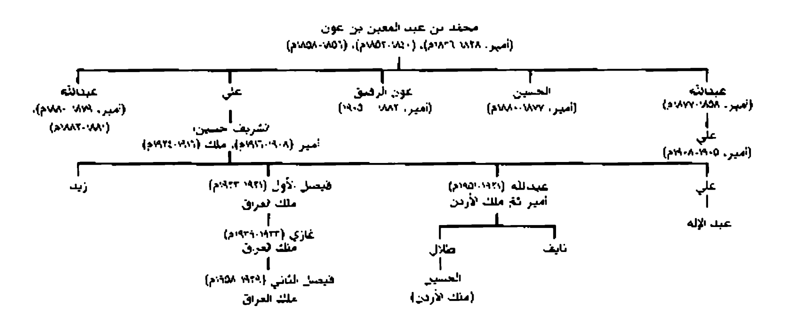


* تشير الأرقام إلى الشخصيات التي وصلت تباعًا إلى مركز الإمامة.

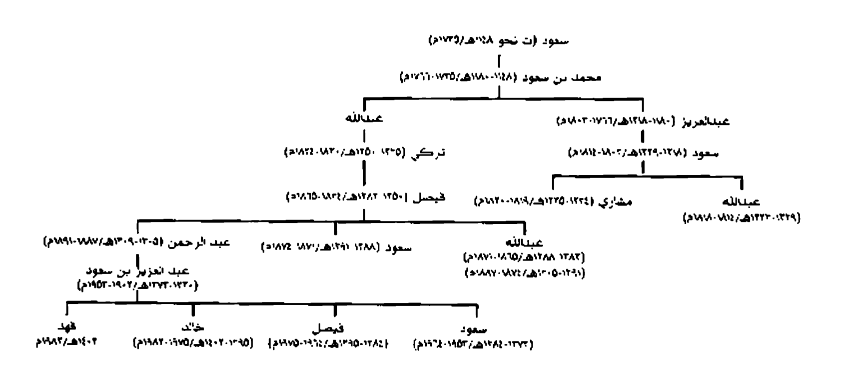
٥ - العلويّون المتحدّرون من الحسن

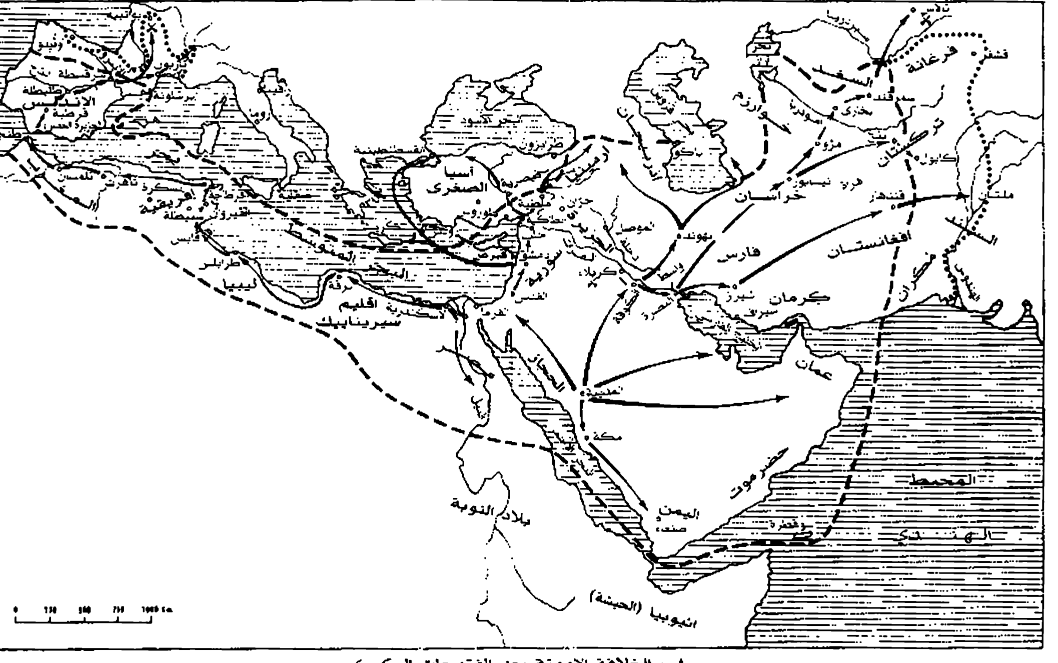


٦ - أشراف مكة الهاشميون



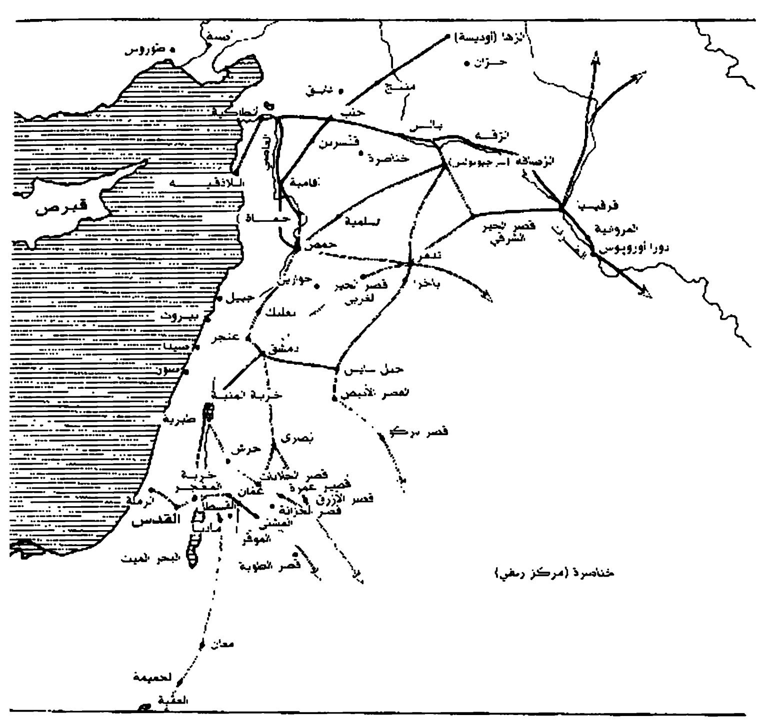
٧ - الأسرة السعودية





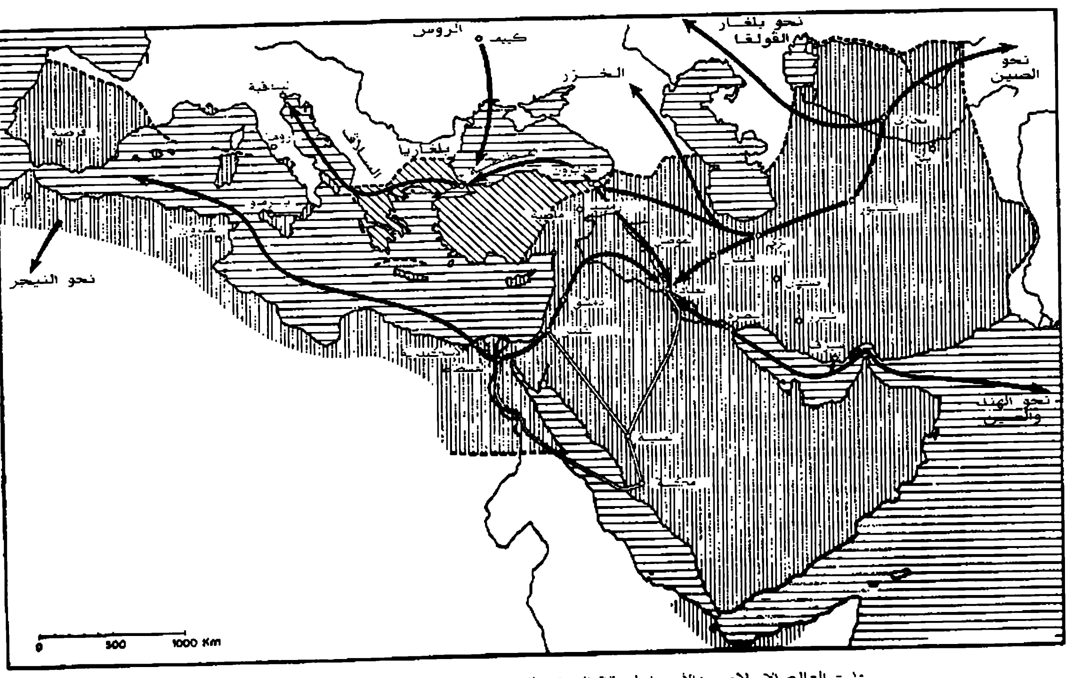
٨ - الخلافة الاموية بعد الفتوحات الكبرى

(d'après R. Mantran, L'expansion musulmane, PUF)



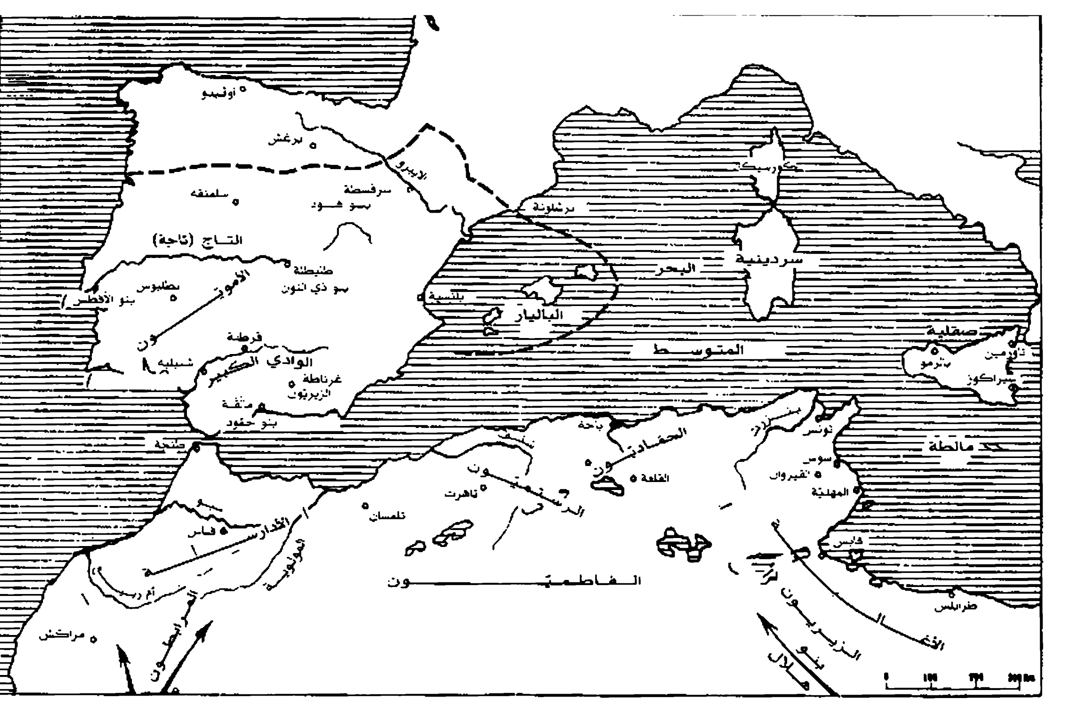
٩ - سوريا الأموية في مطلع القرن الثامن الميلادي
المدن القديمة والمدن التي أسسها المسلمون

(d'après D. et J. Sourdel, La civilisation de l'islam classique, Arthaud)



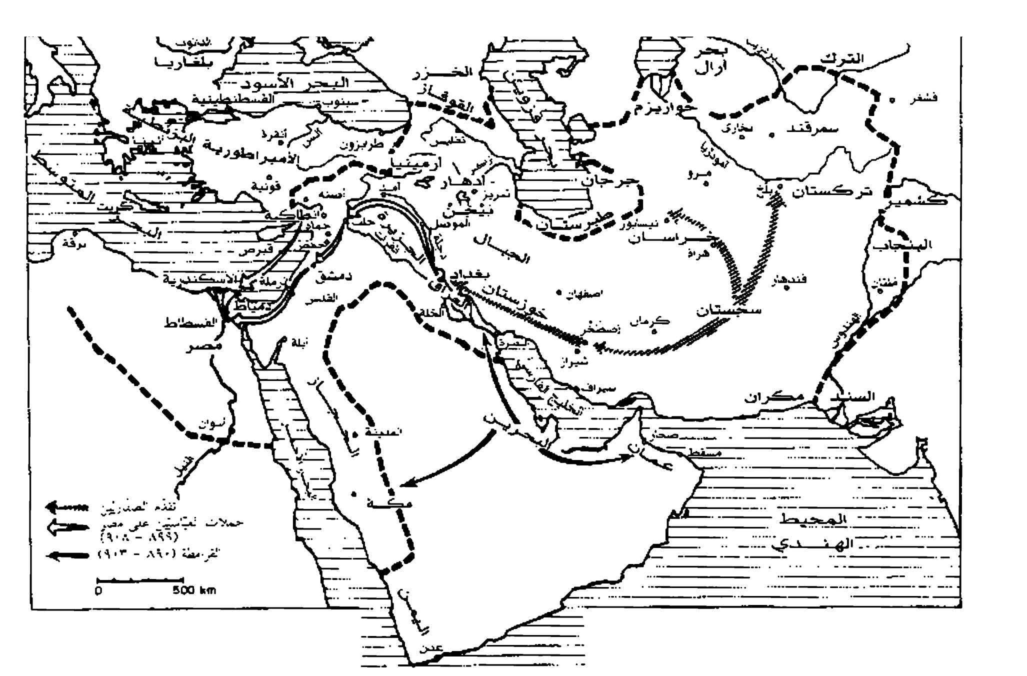
١٠ - العالم الاسلامي والأمبراطورية البيزنطية في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد

(d'après E. Perroy, Le Moyen Age, PUF)



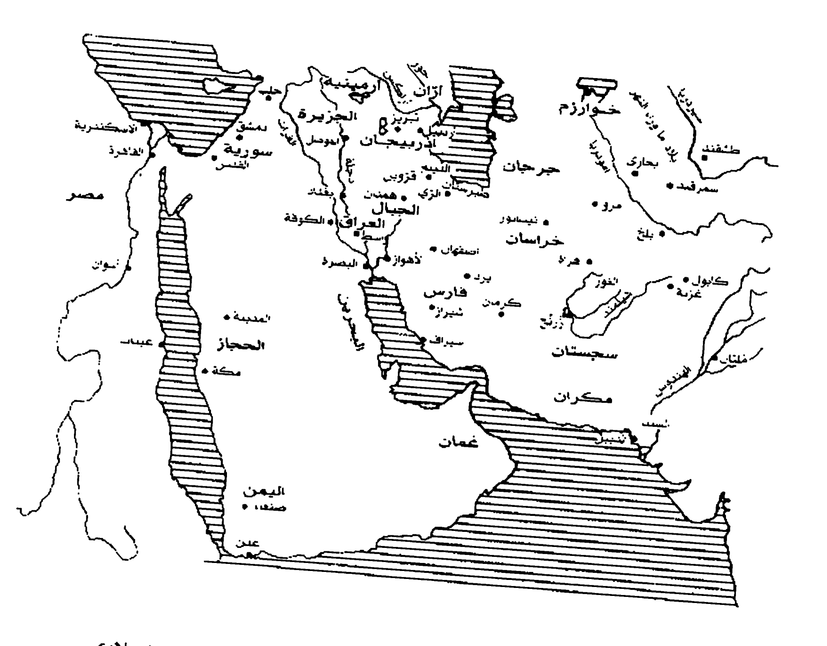
١١ - السلالات الإسلامية في المغرب والأندلس حتى القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد

(d'après R. Mantran, *L'expansion musulmane*, PUF)



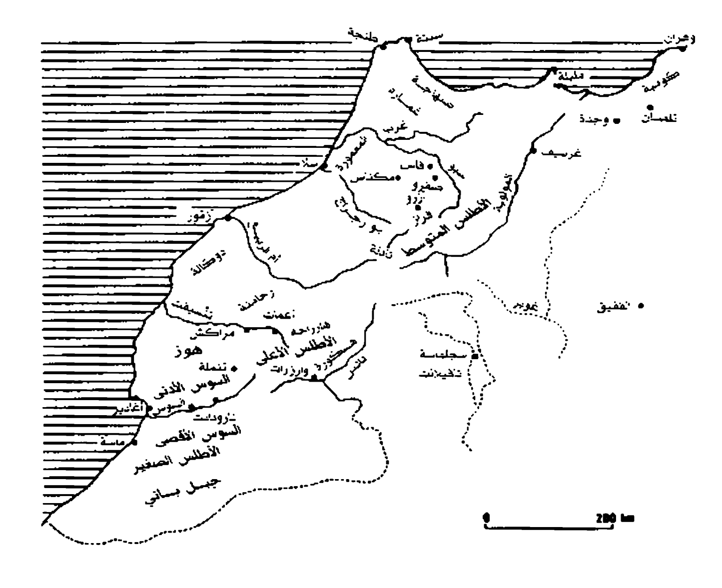
١٢ - الحركات الداخلية وتجزئة الأمبراطورية العبّاسيّة منذ نهاية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد

(d'après R. Folz et alii, De l'Antiquité au Moyen Age, PUF)

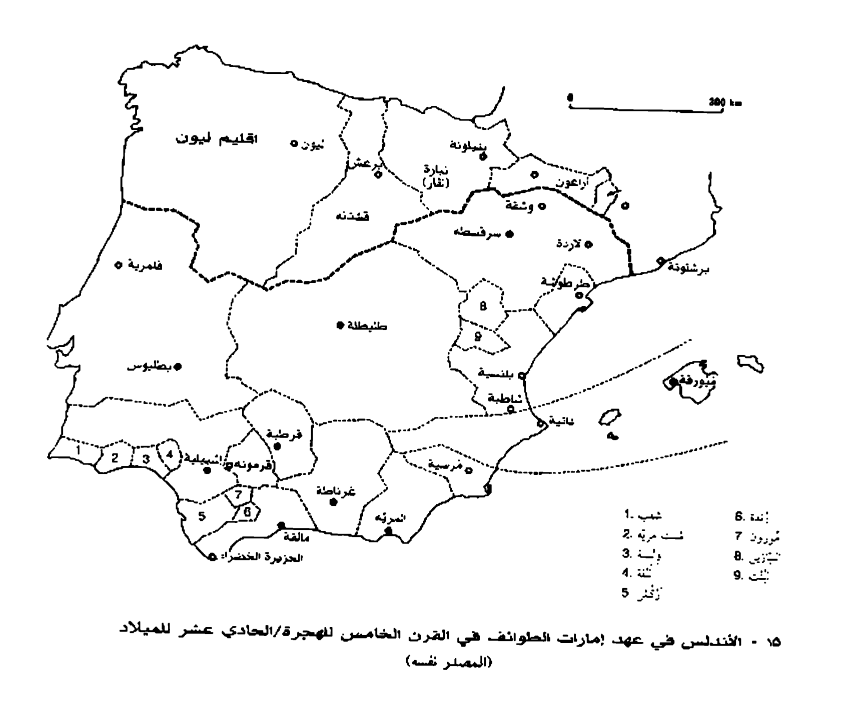


١٢ - مدن الشرق الإسلامي وأقاليمه في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي

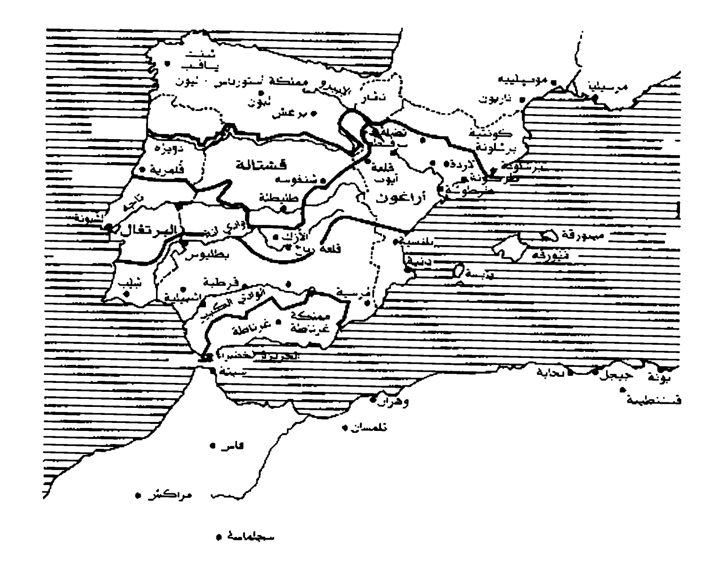
d'après J.-C. Garcin et alii, États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, PUF)



١٤ - المغرب الأقصى في عهد المرابطين (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)
(المصدر نفسه)

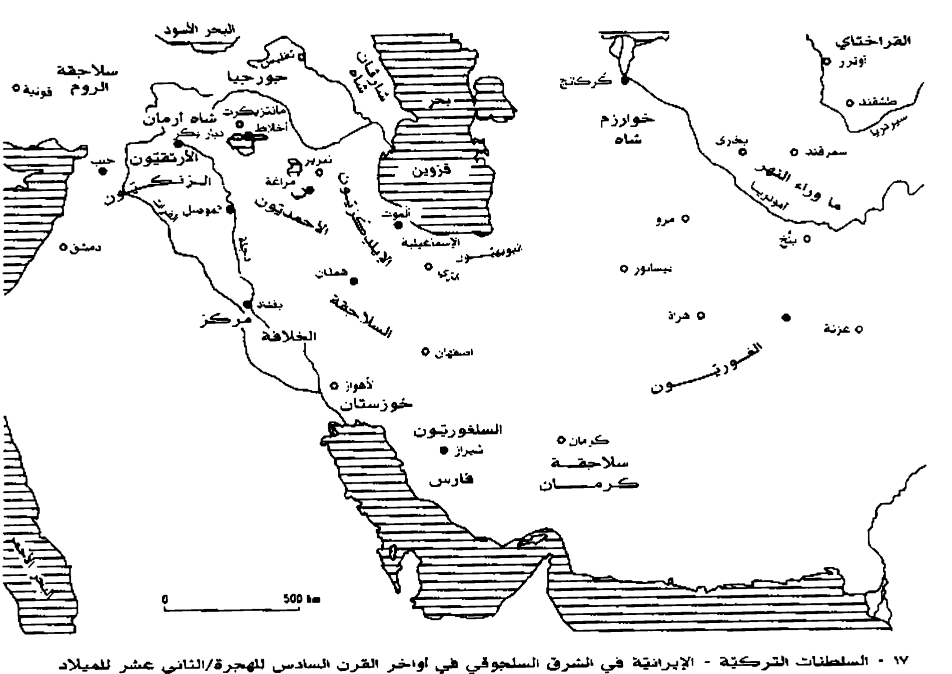


١٥ - الأندلس في عهد إمارات الطوائف في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد
(المصدر نفسه)

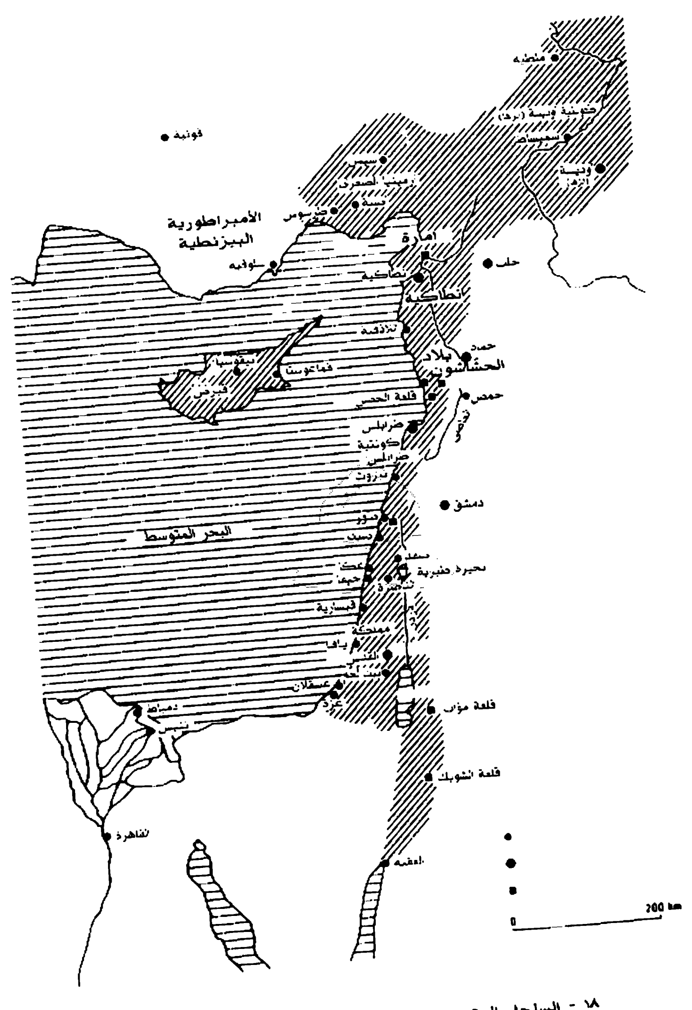


١٦ - حدود الأندلس وحركة الاسترداد المسيحي بين القرنين الثالث والسابع للهجرة/التاسع والثالث عشر للميلاد

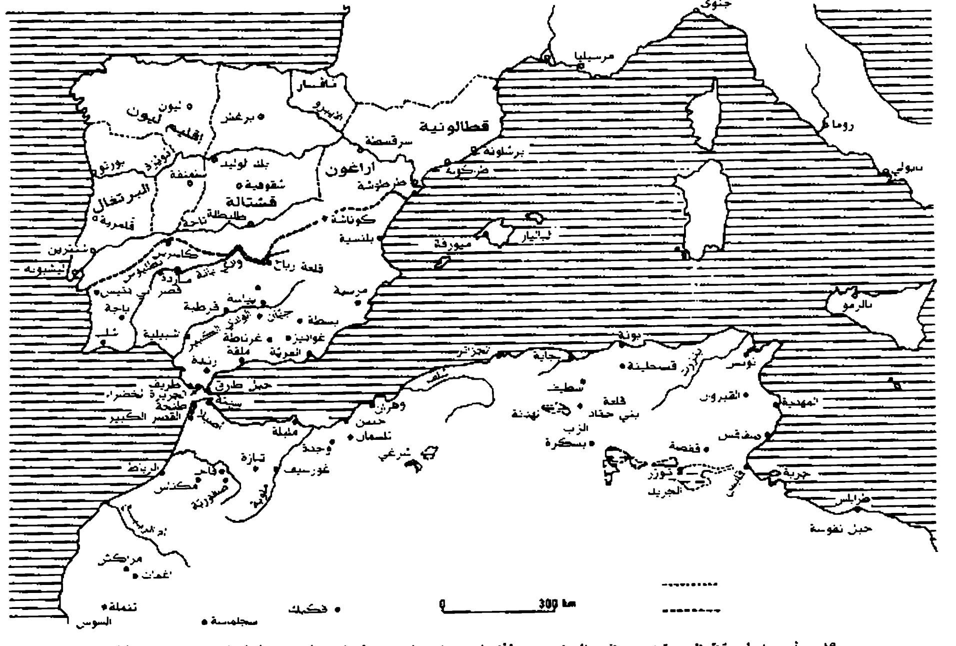
(المصدر نفسه)



١٧ - السلطنات التركيّة - الإيرانيّة في الشرق السلجوقي في أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد
(المصدر نفسه)

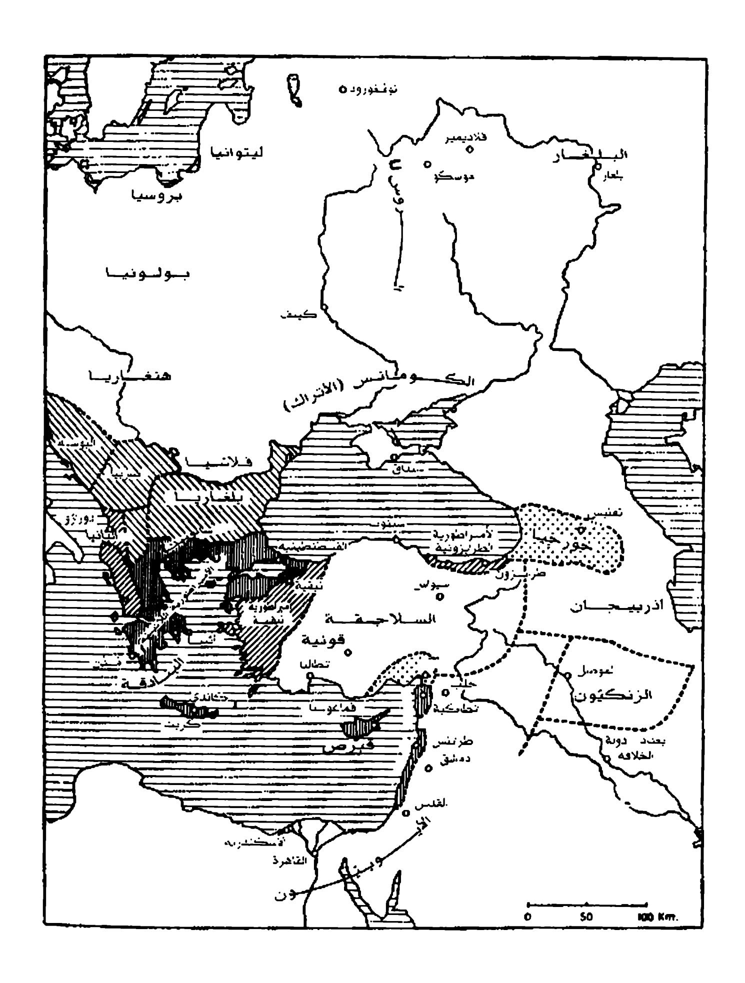


١٨ - الساحل المتوسطي للأناضول ومصر والدول اللاتينية
في اوائل القرن السادس للهجرة/الثاني عشر الميلادي
(المصدر نفسه)



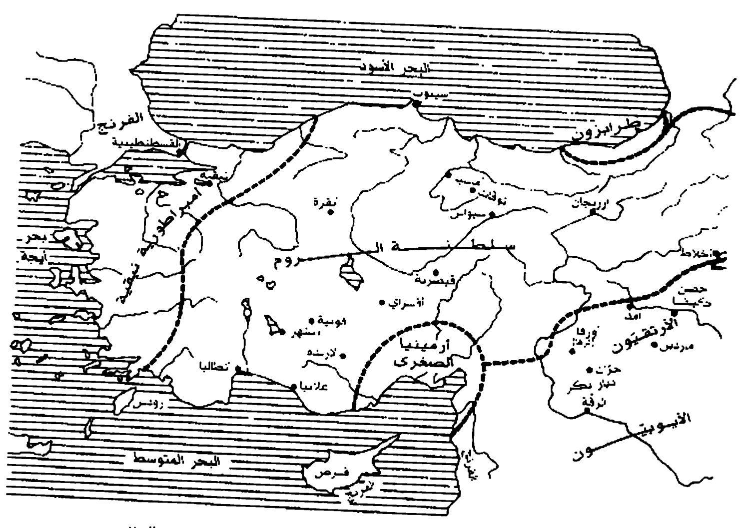
١٩ - أمبراطورية الموحدين في المغرب والأندلس في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

(المصدر نفسه)

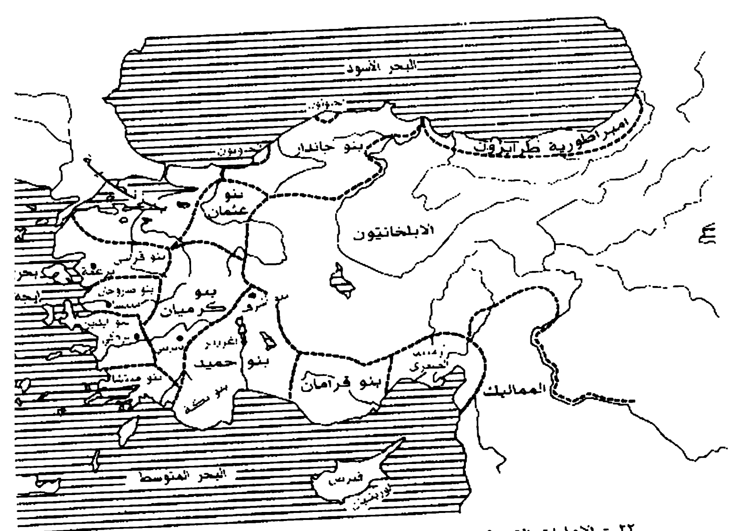


٢٠ - سلاجقة الروم والأيوبيّون في مواجهة الأمبراطوريات والدول المسيحيّة في أوروبا الشرقيّة واسيا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

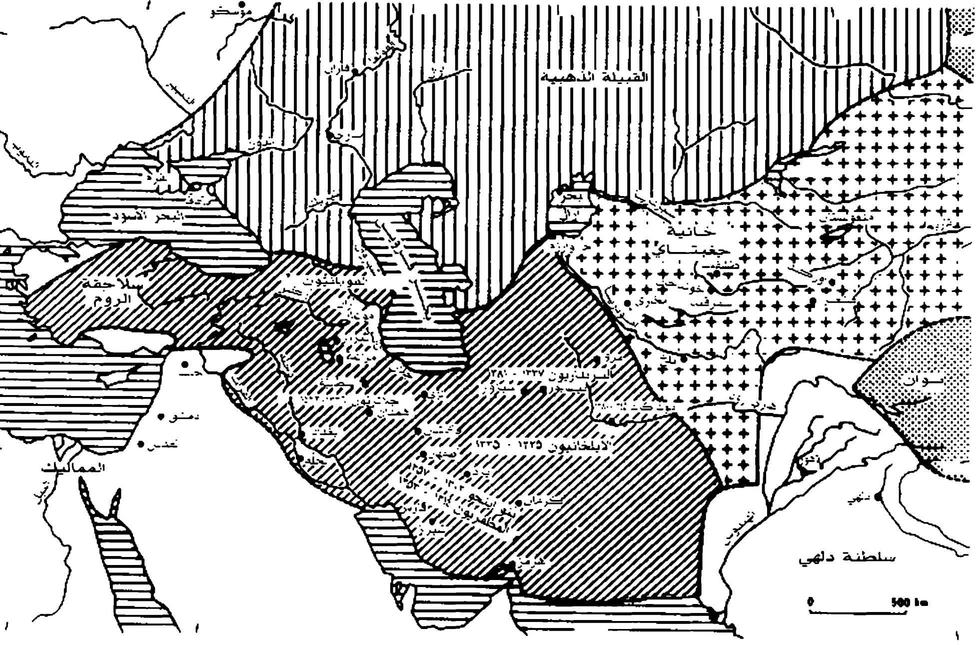
(d'après E. Perroy. Le Moyen Age. PUF)



٢٠ . سلطنة سلاجقة الروم وتوسعها في الأناضول في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد
(d'après J.-C. Garcin et alii, *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval*, PUF)

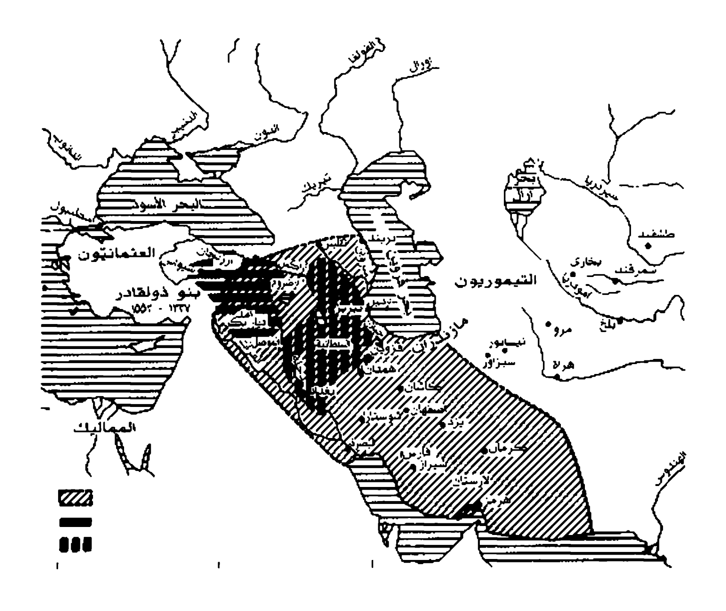


٢٢ - الإمارات التركية وامبراطورية الابلخانيين المغولية في الأناضول
في بداية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد (المصدر نفسه)

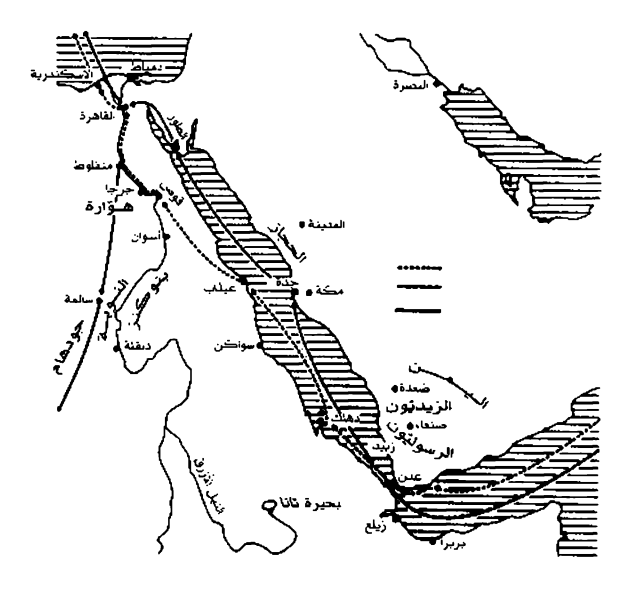


ايران والدول المنشقة عن غزو المغول في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

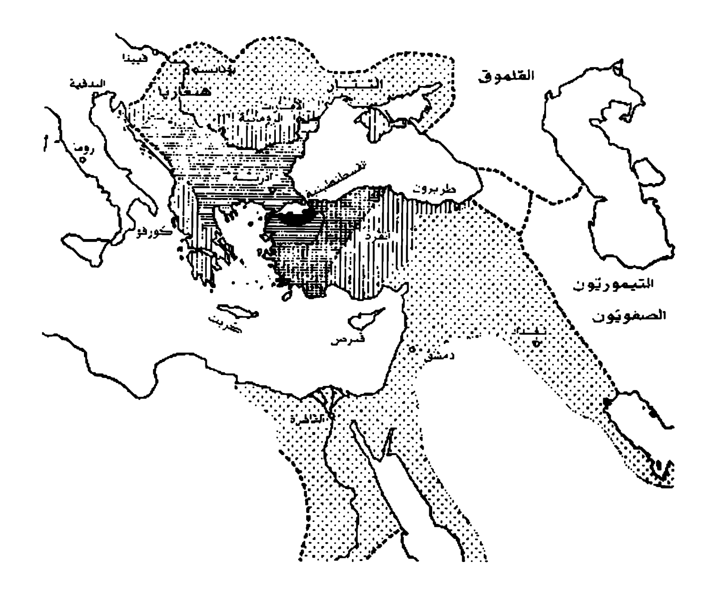
(المصدر نفسه)



٢٤ - الشرق الإسلامي، من التيموريين والإمارات التركمانية
حتّى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي
(المصدر نفسه)

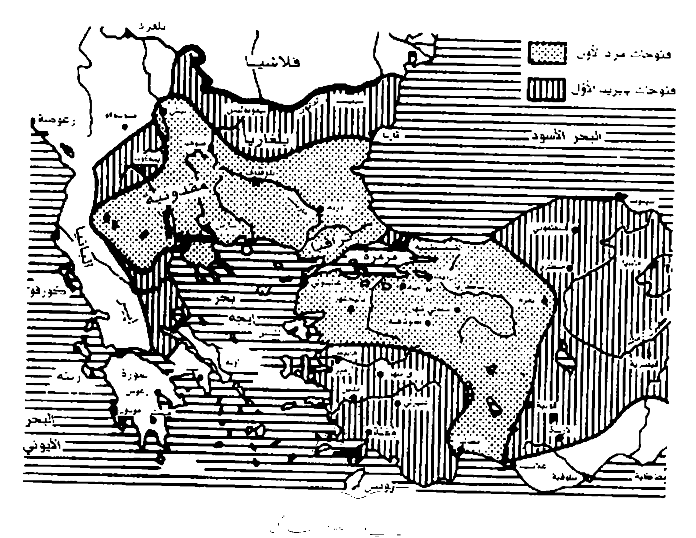


٢٥ - الطرق التجارية في البحر الأحمر في عهد مماليك سوريا ومصر
(المصدر نفسه)



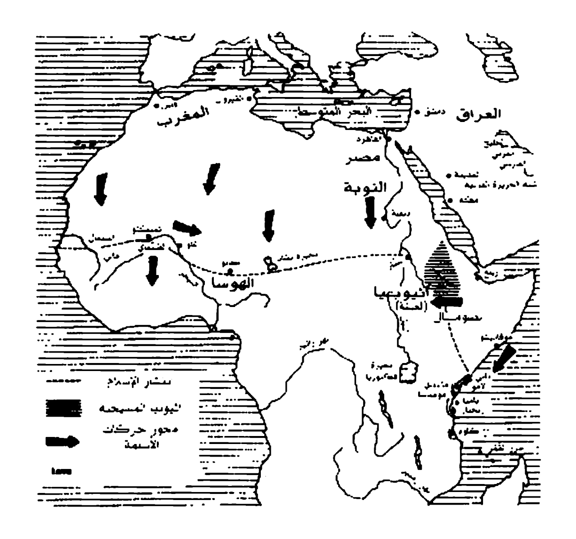
٢٦ - توسع امبراطورية العثمانيين في البلقان وشرقي المتوسط منذ القرن الثامن حتى العاشر للهجرة/الرابع عشر حتى السادس عشر للميلاد

(Jacques E. Perroy, Le Moyen Age, PUF)

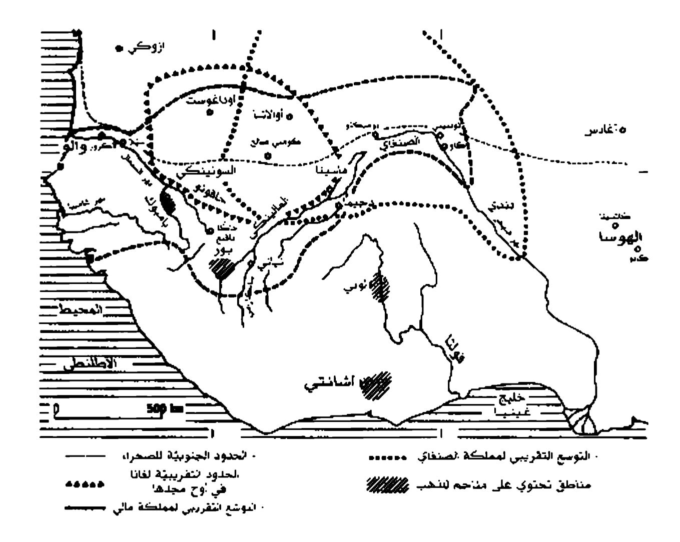


٢٧ - الفتوحات العثمانية الأولى في اسيا واوروبا إبان عهدي مراد الأول وبايزيد الأول في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد

(d'après J.C. Garcin et al., États, sociétés et culture du monde musulman médiéval, PUF)



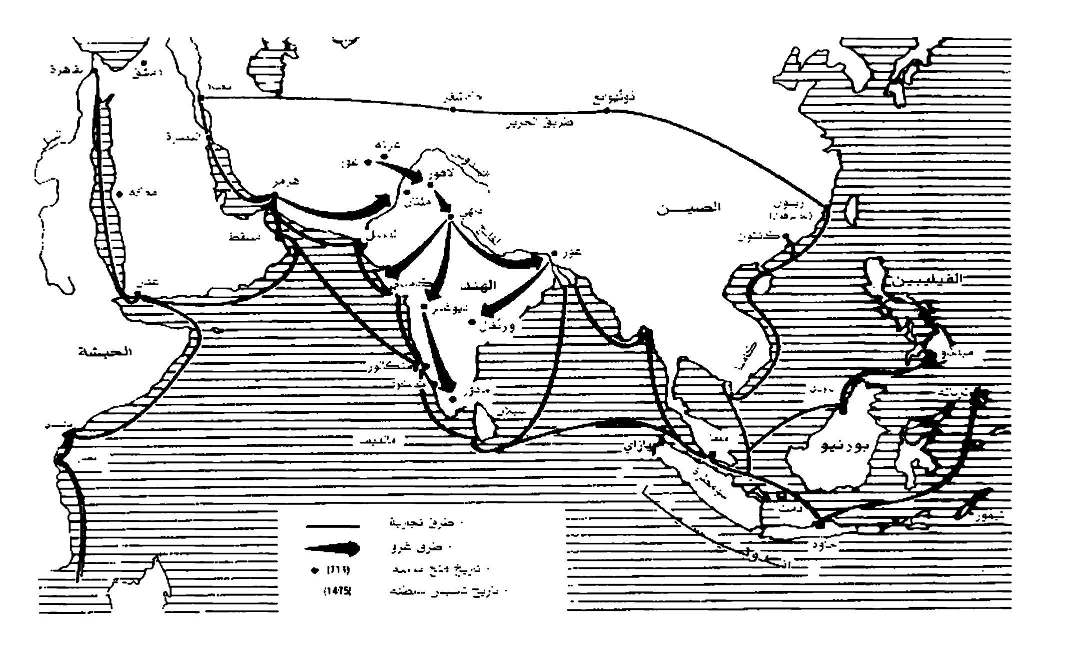
٢٨ - توسّع المقاطعات الإسلامية في افريقيا
حتّى القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد
(المصدر نفسه)



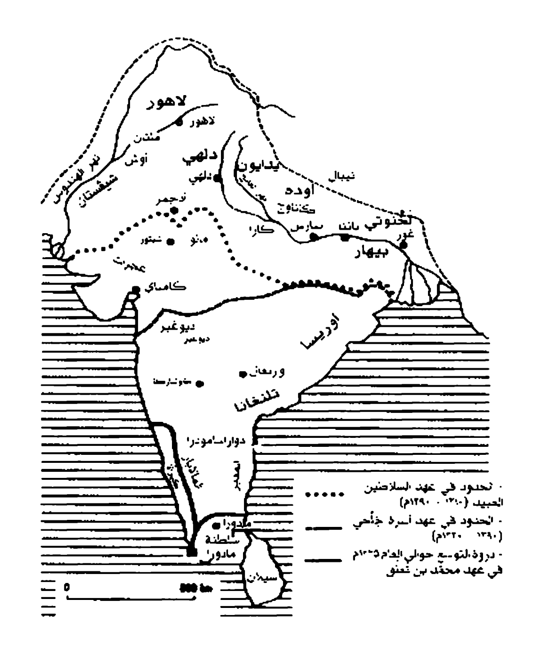
٣٩ - الأمبراطوريات المؤسلمة في السودان النيجيري

حتى القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد

(المصدر نفسه)

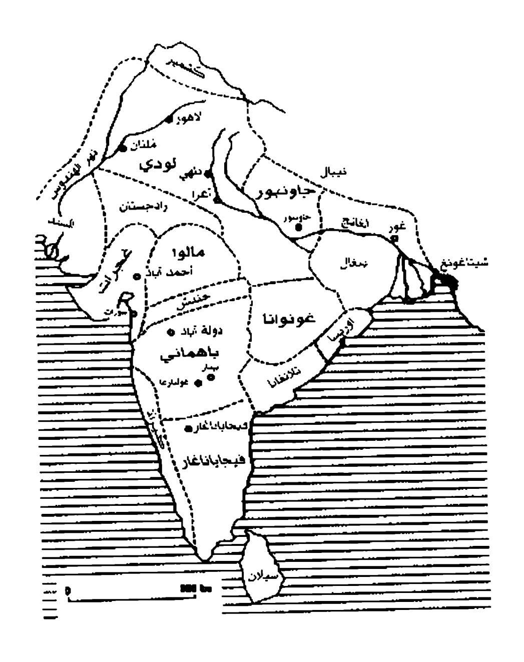


٣٠ - النشاطات التجارية والفتوحات الإسلامية في أفريقيا الشرقية، والصين وأندونيسيا حتى القرن الخامس عشر الميلادي
(المصدر نفسه)



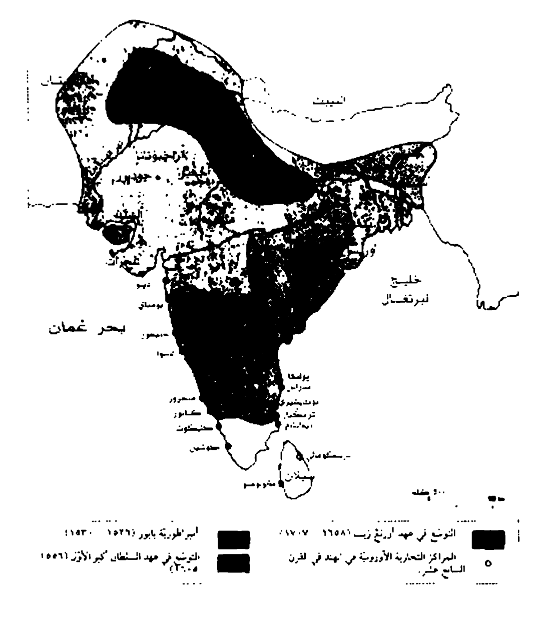
٣١ - توسع الإسلام في الهند في ظلّ سلطنة دلهي

(المصدر نفسه)



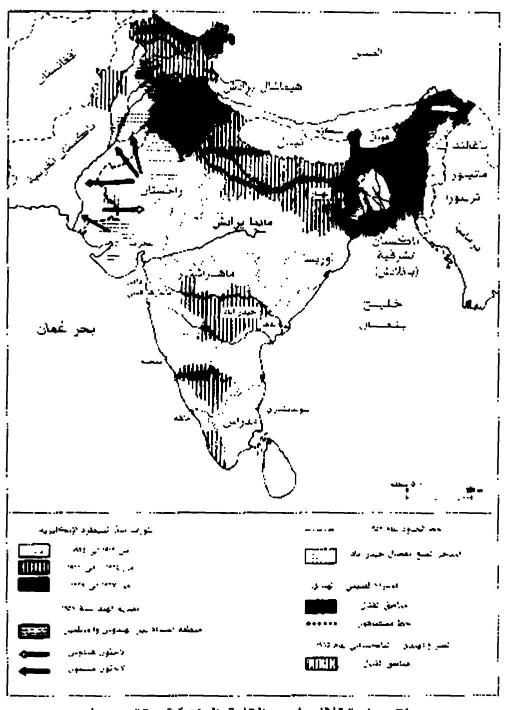
٣٢ - السلطنات الإسلامية والدول الهندوسية في الهند في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي

(المصدر نفسه)

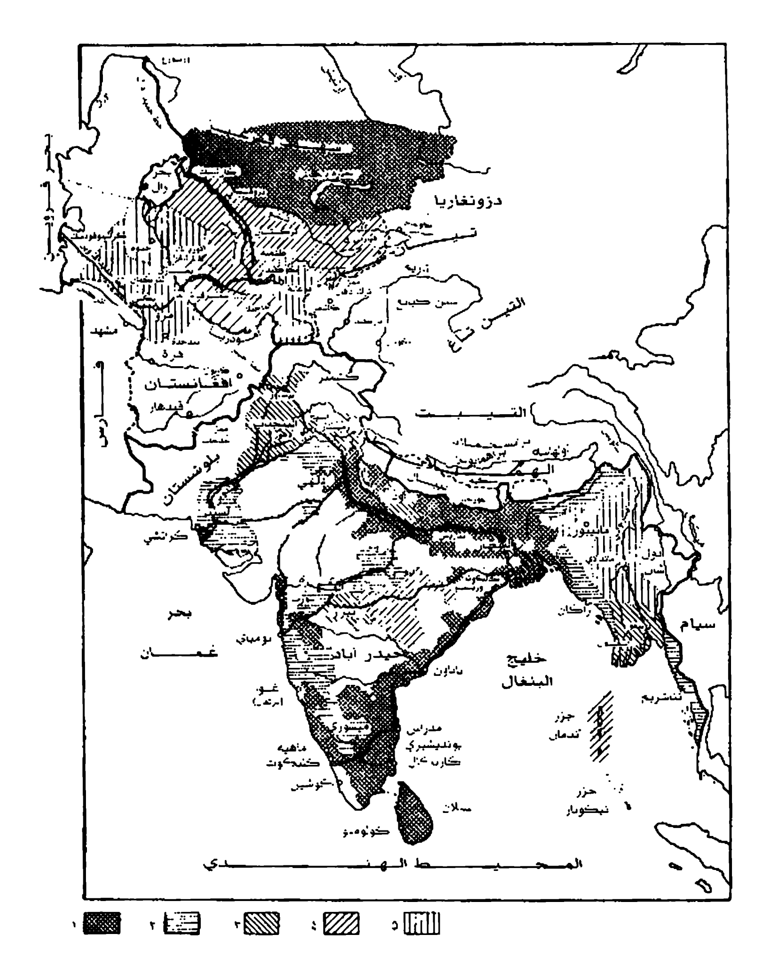


٣٣ - امبراطورية المغول وتوسعها بين القرنين السادس عشر والثامن عشر

(d'après M. Boxin, *Histoire de l'Inde*, PUF)



٣٤ إستقلال شبه القارة الهنديّة وتقسيمها
(المصدر نفسه)

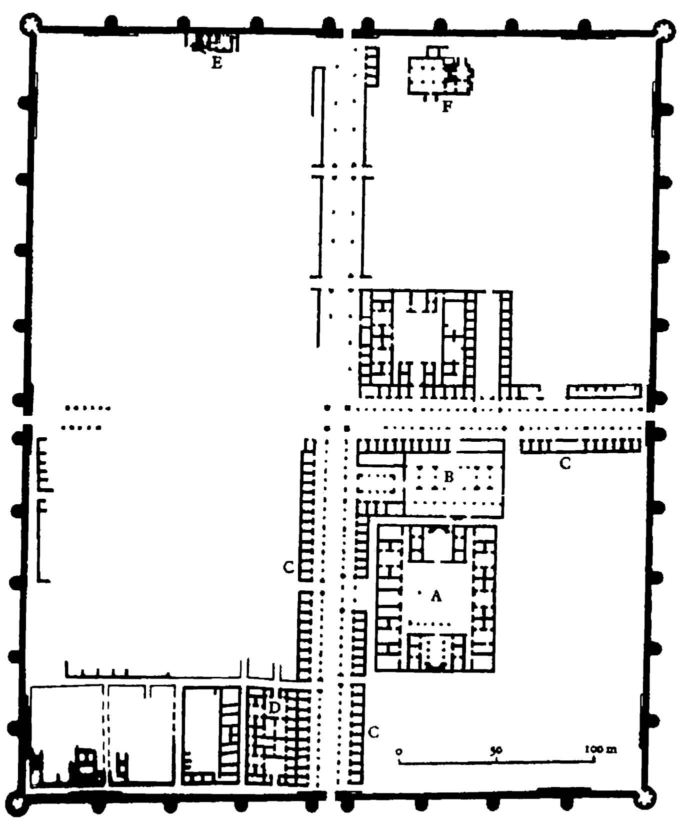


٣٥ - التقدّم البريطاني في الهند

والتقدّم الروسي في اسيا الوسطى خلال القرن التاسع عشر،

١ - في بداية القرن التاسع عشر / ٢ - بين ١٨١٥ و١٨٤٨ / ٣ - من ١٨٤٨ حتّى ١٨٥٧ /٤ - بين ١٨٥٧ و١٨٧٠ / ٥ بعد ١٨٧٠

(d'après R. Schnerb, Le XIXe siècle, P.U.F.)



٣٦ - حاضرة عنجر الأموية في لبنان المستوحاة في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي من فن تنظيم المدن القديم

A/ قصر ذو قاعة استقبال مزدوجة

B/ المسجد الجامع

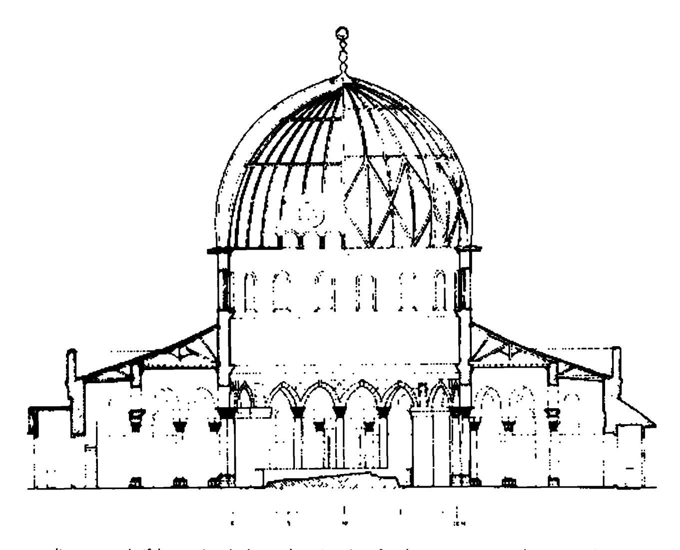
C/ ممرات معمدة تؤدي من المداخل إلى المربع العمدي المركزي

D/ نموذج لمجمع سكني

E/ حمام عام

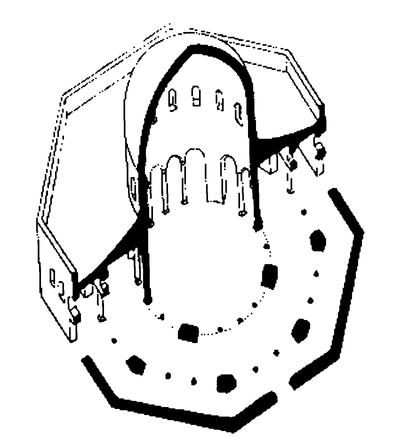
F/ حمام فخم مخصص للأمراء

(d'après D. et J. Sourdel, La civilisation de l'islam classique, Arthaud)



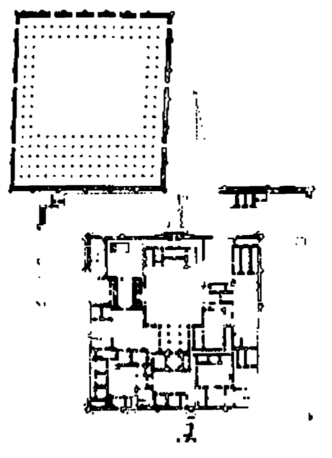
٣٧ - مقام عظيم في فلسطين مستوحى من تقاليد الفن المعماري القديم: مقطع بالعرض لقبة الصخرة في القدس

(d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, *Die Kunst des Islam*, Verlag Ullstein GmbH)



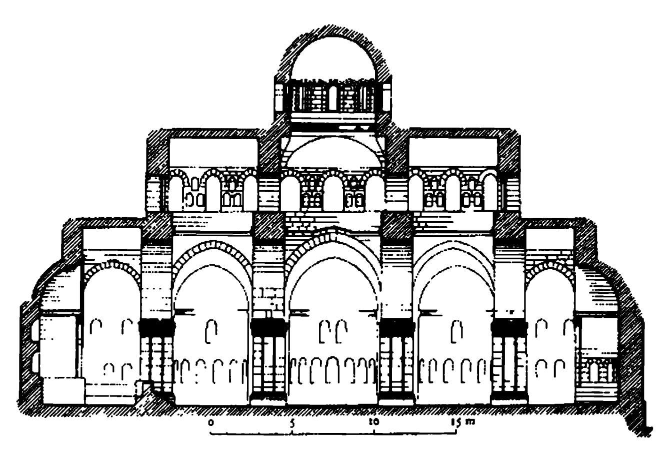
٣٨ - مقطع ثنائي لقبة الصخرة و لأسس الهندسية للهيكلية العا

(d'après G. Marçais, *L'art musulman*, PUF)



٣٩ - مسكن أميري ومسجد جامع في الكوفة بالعراق

(d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, *Die Kunst des Islam*, Verlag Ullstein GmbH)



٤٠ مقطع بالعرض لقاعة الاستقبال في قصر خربة المفجر قرب أريحا

Sourdel, D. et J. Sourdel, La civilisation de l'Islam classique, Arthaud

٤١ مجمع سكني أموي في سورية: مباني خربة المفجر في وادي الأردن

A/ فناء رواق في القصر B/ مصلّى خاص

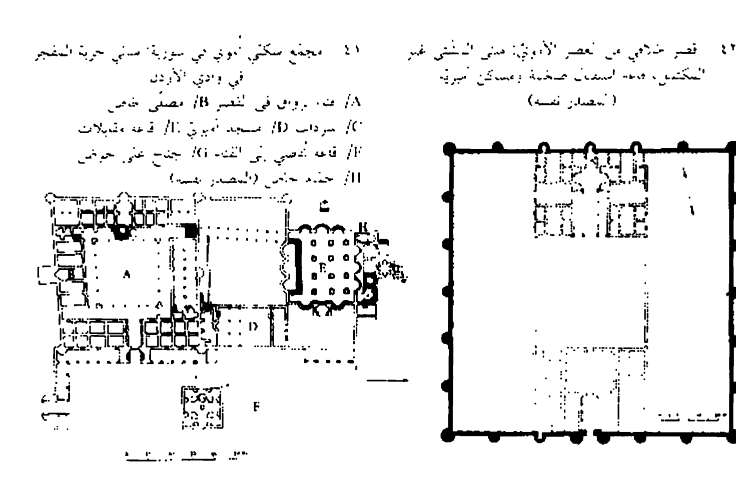
C/ سرداب D/ مسجد أموي E/ قاعة مقببات

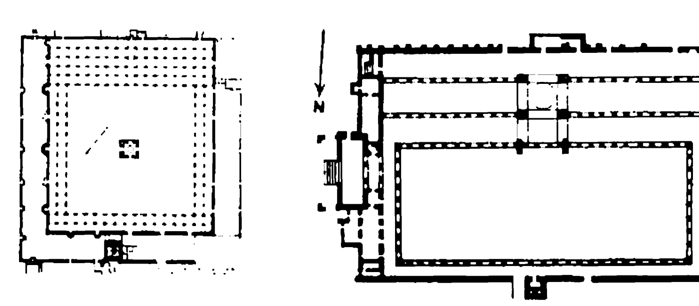
F/ قاعة أقصى بي التخت G/ جناح على حوض

H/ حمام خاص (المصدر نفسه)

٤٢ قصر خلافي من العصر الأموي: مبنى المشتى غير المكتمل، فيه ايوانات ضخمة ومساكن أميرية

(المصدر نفسه)





٤٢ - جامع ابن طولون المبني في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي في مدينة القطائع ... وهو يقع اليوم في ... القاهرة

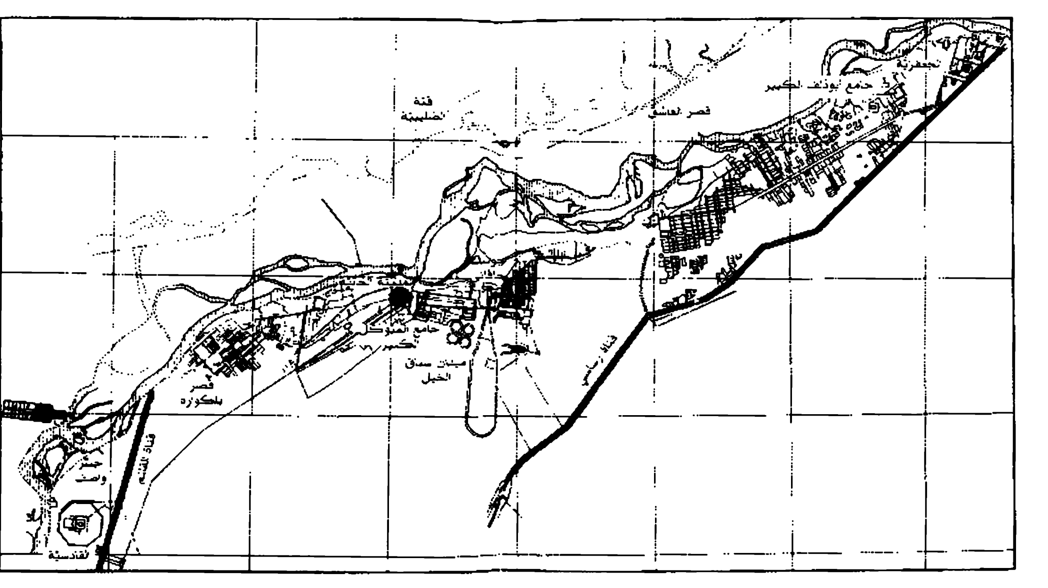
d'après D. et J. Sourdel, La civilisation de l'islam classique, Arthaud

٤٣ - المسجد الجامع الأموي في دمشق ...

d'après G. Marçais, L'art musulman, PUF

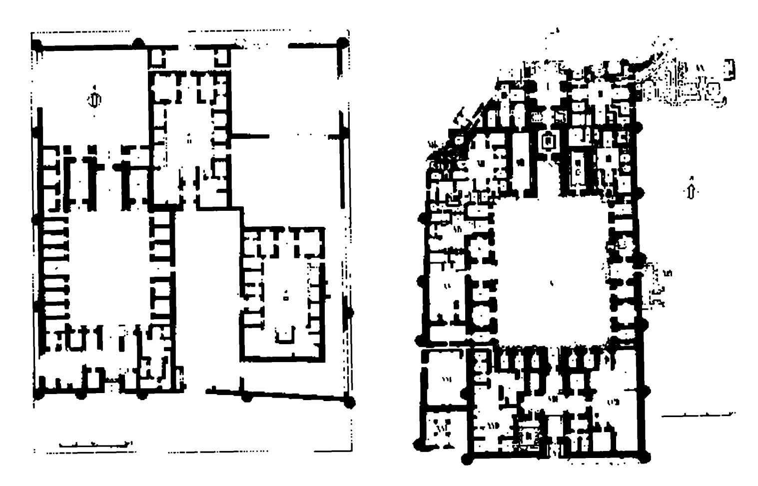
٤٤ - قصر بلكوارا للخليفة العباسي في سامراء ...

d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, Die Kunst des Islam, Propyläen Verlag, Ullstein, Berlin



٤٦ – عواصم الخلافة العباسية في سامراء بالعراق تدعمها الجدران والمساجد الجامعة والقصور على امتداد دجلة

(d'après D. et J. Sourdel, La civilisation de l'Islam classique, Arthaud)

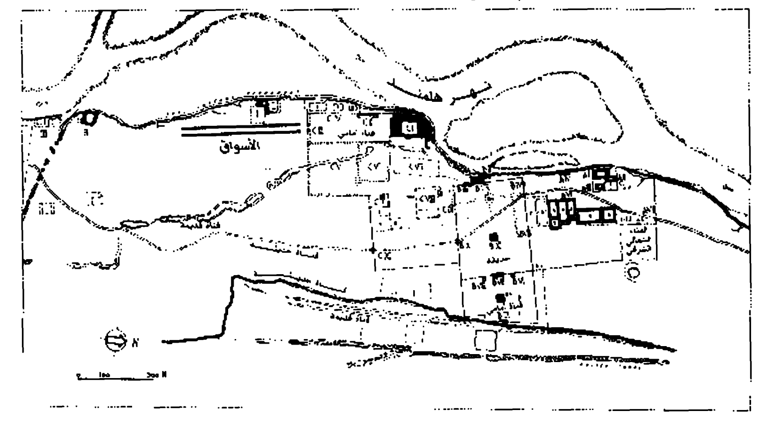


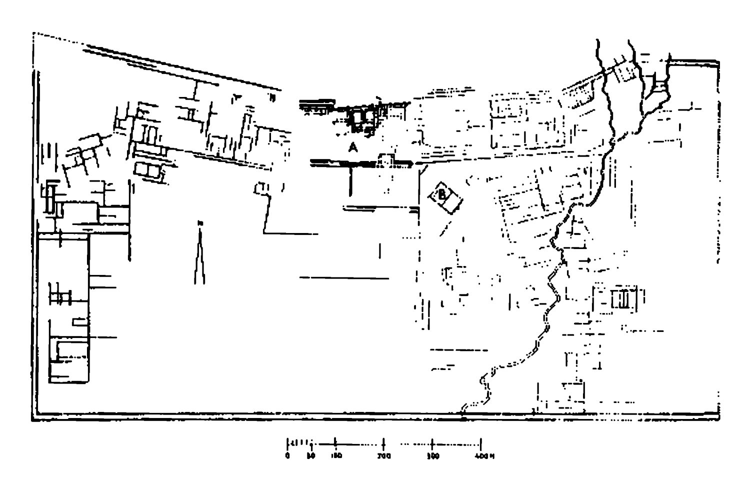
٤٧ – قصر الغزنويين والغوريين المعروف بالقصر الجنوبي في لشكري بازار بأفغانستان

٤٨ – مساكن أميرية معروفة بقصر الشمال في موقع لشكري بازار (المصدر نفسه)

(d'après D. Schlumberger et J. Sourdel-Thomine, *Lashkari Bazar*)

٤٩ – المدينة الملكية في لشكري بازار على ضفاف نهر هلمند: القصر المعروف بقصر الجنوب (C I) مع القاعة المفضية إلى أفنية (C III) وحدائقه المتفلة بعضها مردفة بشقق، وبعضها غير مردف (CV à CXI, BI à BXI) وجامعة (C II) ومساكنه الأميرية المعروفة بقصور الشمال (AI à IV) (المصدر نفسه)





٥٠ – مدينة الخلفاء الأمويين الزهراء قرب قرطبة في القرن العاشر الميلادي مع قصورها (A) والجامع (B)

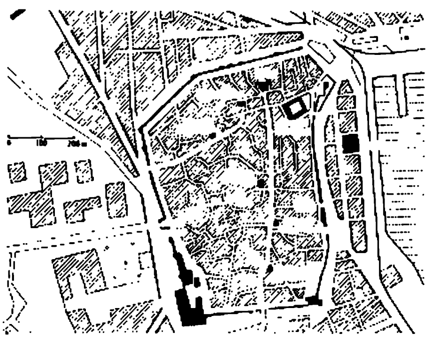
(d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, *Die Kunst des Islam*, Verlag Ullstein GmbH)

٥١ – قاعات وحجرات استقبال في قلب حاضرة الخلافة، مدينة الزهراء (من الوثيقة ٥٠ A)

(d'après D. et J. Sourdel, *La civilisation de l'Islam classique*, Arthaud)

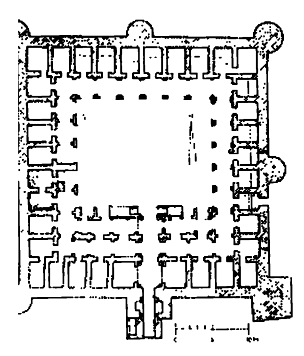
٥٢ – المسجد الجامع في قرطبة، مع توسعاته المتتابعة من القرن الثامن إلى القرن العاشر الميلادي

(d'après G. Marçais, *L'art musulman*, PUF)



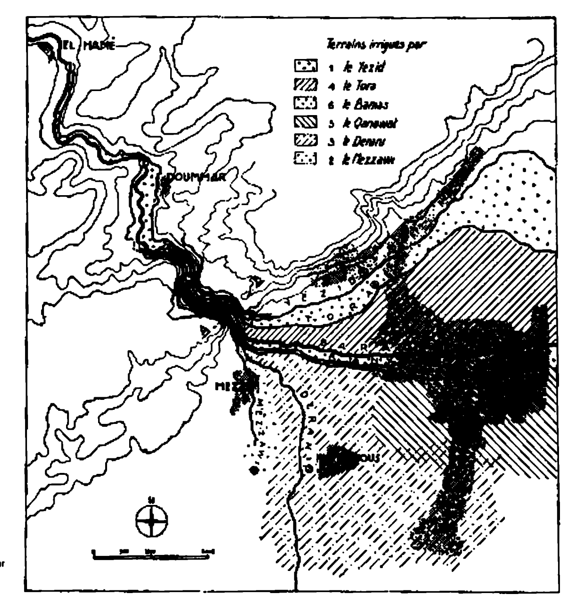
٥٣ - مدينة مرفئية محصنة في إفريقيه الأغلبية من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي: حاضرة سوسة العتيقة محاطة بخنادق سورها

(d'après H. Boularès et J. Duvignaud, La Tunisie, PUF)



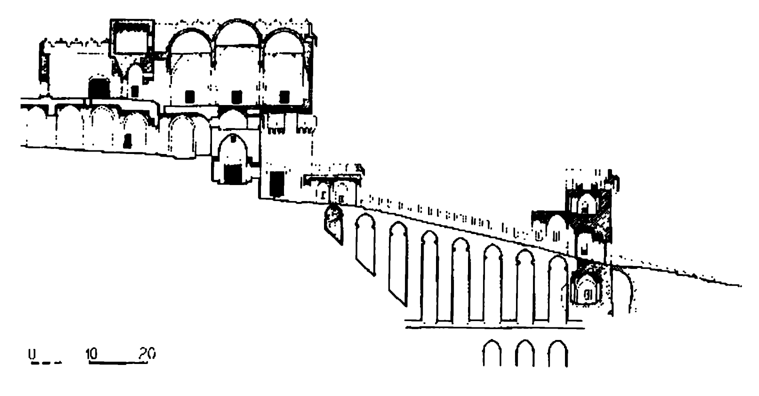
٥٤ - الرباط الأغلبي من القرن التاسع الميلادي المحافظ عليه في سوسة قرب موقع المرفأ القديم

(d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, Die Kunst des Islam, Verlag Ullstein GmbH)



٥٥ - أقنية متشعبة للري في الواحة القديمة لغوطة دمشق

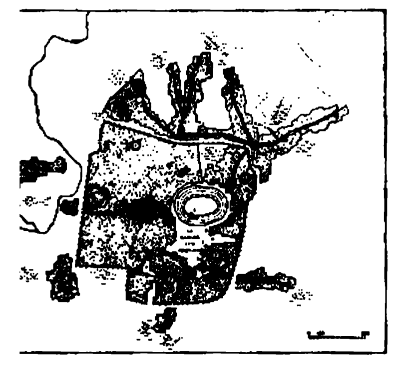
(d'après M. Ecochard et C. Le Cœur, Les bains de Damas)



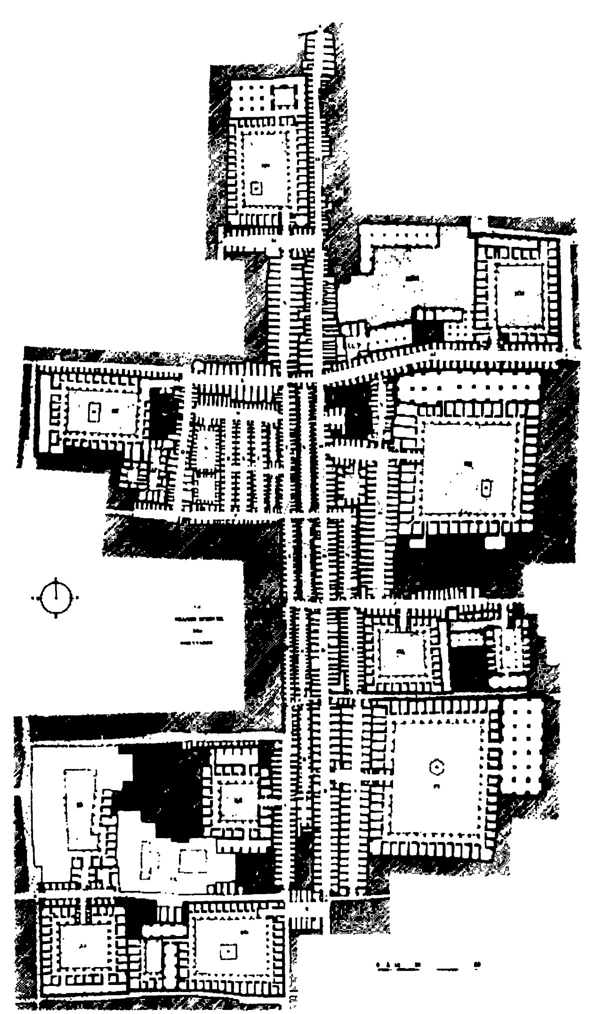
٥٦ دفاعات أيوبية وإضافات مملوكية لتحصين مدخل قلعة حلب
(d'après J. Sauvaget, Alep)



٥٧ مدينة حلب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي خلال حكم الأيوبيين لسوريا: تقوية دفاعات السور والقلعة الحاضنة للقصر الملكي، زيادة المدارس والمؤسسات الخيرية داخل الأسوار وخارجها (المصدر نفسه)



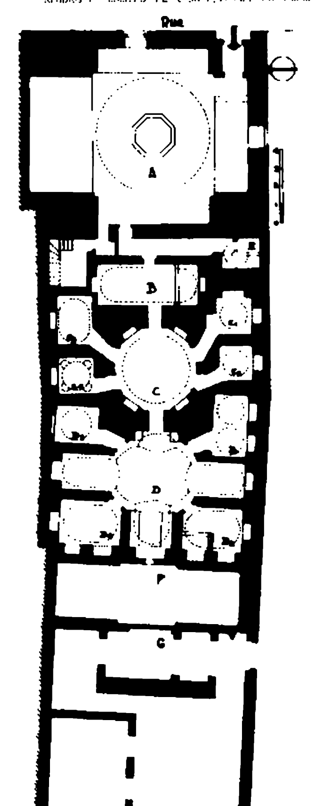
٥٨ - التجمعات السكانية في حلب خلال القرن السادس عشر الميلادي تحت الحكم العثماني: ازدياد المساجد والأسواق والخانات والضواحي في أعقاب الازدهار التجاري للمدينة (المصدر نفسه)

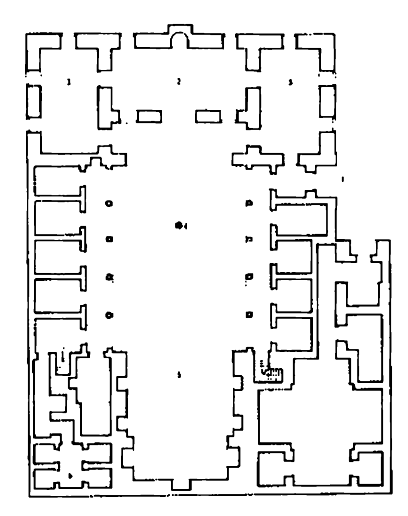


٥٩ - ازدياد الأسواق المفتوحة لتحل محل شبكة الأسواق المسقفة والمتوازية المتخصصة، وكذلك الخانات المدنية ومخازن الحرفيين في مركز حلب التجاري، من القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر.
(ا. جيد غبسا)

٦٢ - حمام سلوقي فتحه من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في سورية ... الاستعمال ... القبة في دمشق.

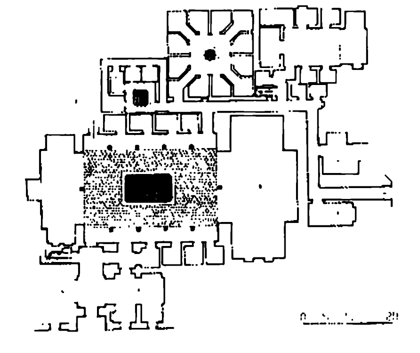
(d'après M. Écochard et C. Le Cœur, Les Bains de Damas)

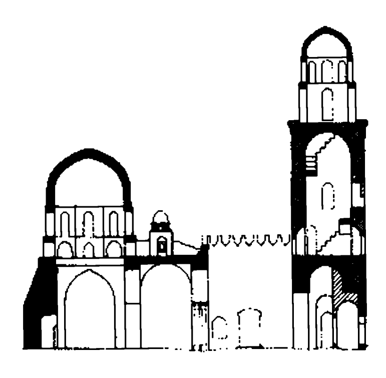


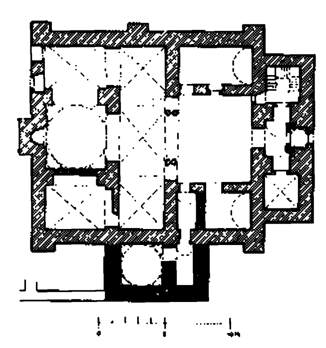


٦٣ - مدرسة أيوبية من القرن الثالث عشر الميلادي ... في دمشق، والغرف للتدريس ... مدرسة ابن العديم في حلب (المصدر نفسه)

٦٤ - المستشفى ... من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي: مستشفى أرغون الكاملي بحلب (المصدر نفسه)

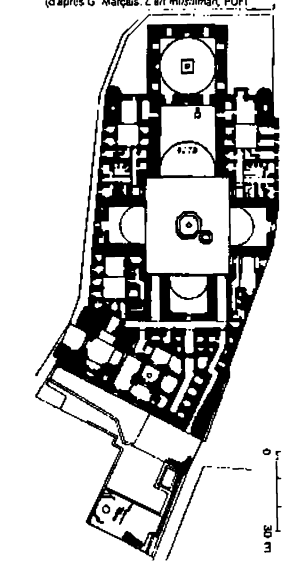




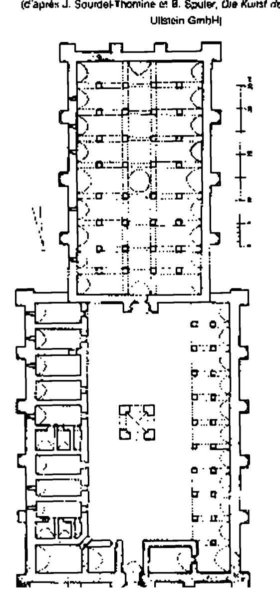


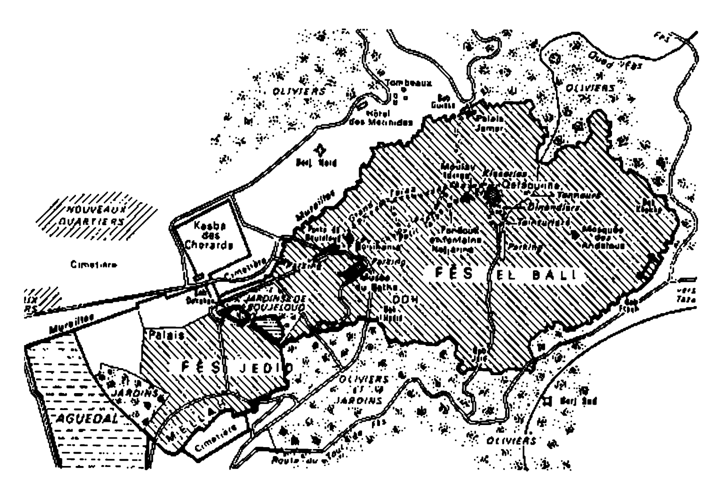
٦٣ - مبنى تذكاري فاطمي أقامه الوزير والقائد الحربيّ بدر الجمالي: مقطع وهيكلية لمشهد الجيوش في القاهرة
(d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, *Die Kunst des Islam*, Verlag Ullstein GmbH)

٦٤ - مجمّع ذو معمار مخصّص للشؤون الدينية، يضمّ مصلّى وغرفاً للتعليم وضريحاً، رُفع بناؤه في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي في عهد المماليك: مسجد السلطان حسن في القاهرة
(d'après G. Marçais, *L'art musulman*, PUF)



٦٥ - خان ضخم يشهد على اهتمام سلاجقة الروم بالمسالك التجارية في الأناضول: السلطان خان المبني في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي قرب أقسراي، على طريق قونية
(d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, *Die Kunst des Islam*, Verlag Ullstein GmbH)





٦٦ - مجمّعات ملكيّة مغربية من القرنين الثامن والتاسع ومن القرن الثالث عشر للميلاد: في فاس حيث تضمّ المدينة القديمة مباني الأدارسة (فاس البالي) ومدينة المرينيّين (فاس الجديدة)

(d'après J. Berque et J. Couban, Le Maroc, PUF)

٦٨ - مجمّعات ملكيّة مغربية من القرنين الحادي عشر والسادس عشر للميلاد: مبرّة المرابطين وقصور السعديّين في مرّاكش.

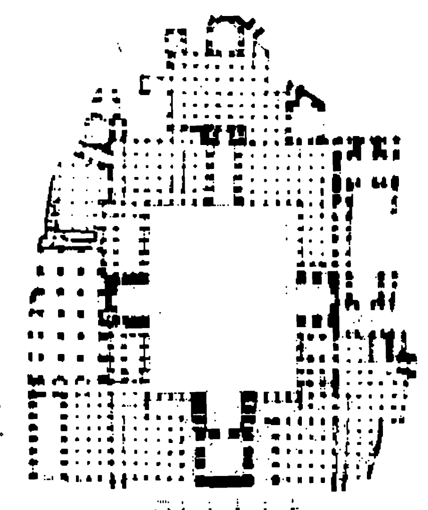
(d'après J. Berque et J. Couban, Le Maroc, PUF)

٦٧ - مسجد جامع استمرّ مركزًا شهيدًا للتعليم التقليدي من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حتى أيامنا: مسجد القرويّين في فاس

(d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, Die Kunst des Islam, Verlag Ullstein GmbH)

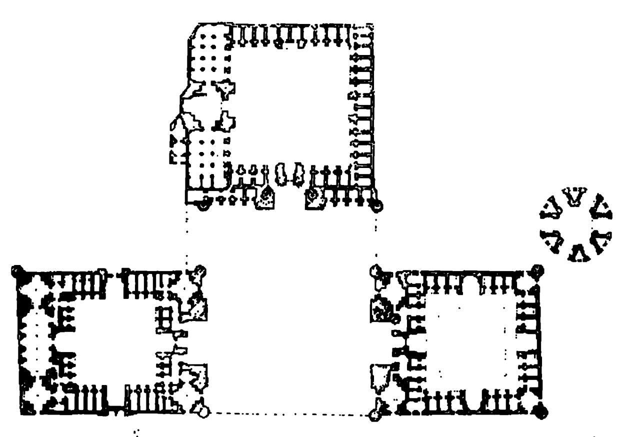
٦٩ - قاعات مقابلات وإقامة ملكية لآل نصر من القرن الرابع عشر للميلاد داخل قلعتهم بالحمراء في غرناطة

(d'après G. Marçais, L'art musulman, P.U.F.)



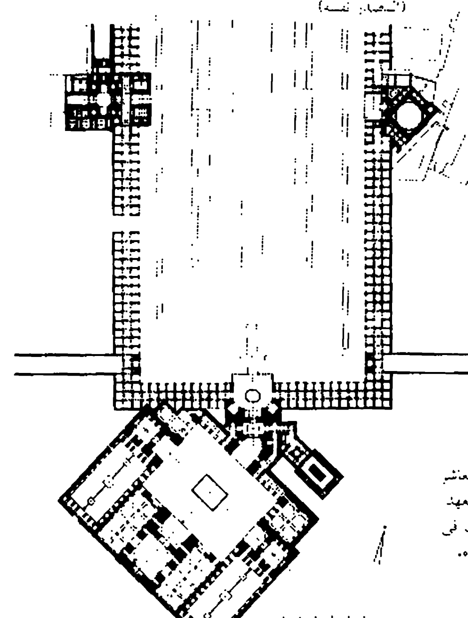
٧٠ - مسجد جامع عباسي حول مسجد سلجوقي مع جناح مقبب وأربعة إيوانات: مسجد الجمعة في أصفهان وتعديلاته المتتابعة

(d'après J. Sourdel-Thomine et B. Spuler, Die Kunst des Islam, Verlag Ullstein GmbH)



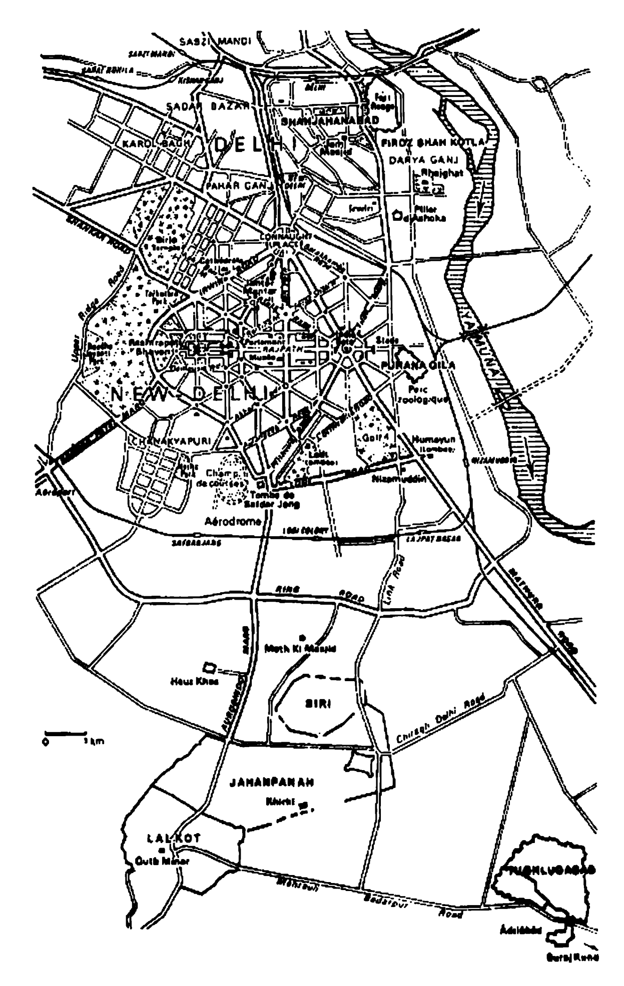
٧١ ساحة ملكية أمر بتنفيذها في مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي التيموري ألغ بك حول مدرسته: راجستان سمرقند في أوزبكستان

(المصدر نفسه)



٧٢ ساحة ملكية أقيمت في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي خلال العهد الصفوي في إيران: ميدان شاه عباس الأول في أصفهان يحيط به المسجد الجامع للشاه، ومدخل لقصر السيف وضريح فخم.

(المصدر نفسه)

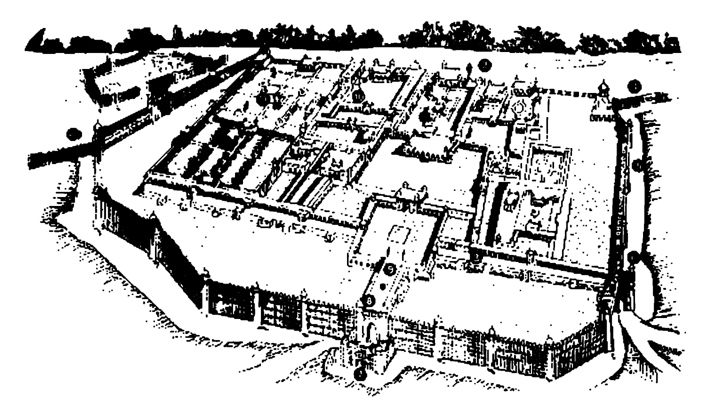


٧٣ المجتمعات الملكية القديمة في دلهي، وهي ما تزال بارزة وسط المدينة السكنية الحديثة أو في ضواحيها

(d'après F. Doré, L'Inde du Nord et le Népal, PUF)

٧٤ – بقايا المدينة لمملكة الأولى لسلاطين دلهي في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد: مسجد قوة الإسلام ومئذنة قطب منار لبانيها قطب الدين أيبك من سلالة المملوك (المصدر نفسه)

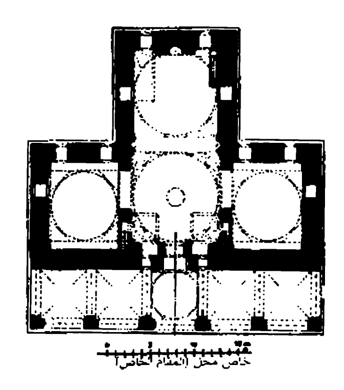
٧٥ – إحدى حواضر المغول المالكة في دلهي: الحصن الأحمر من القرن السابع عشر في عاصمة شاه جهان (المصدر نفسه)

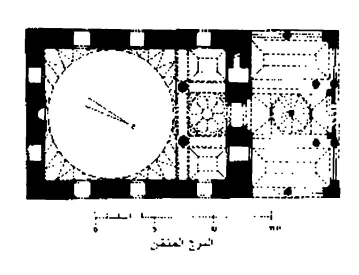


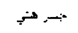
(١) حدائق

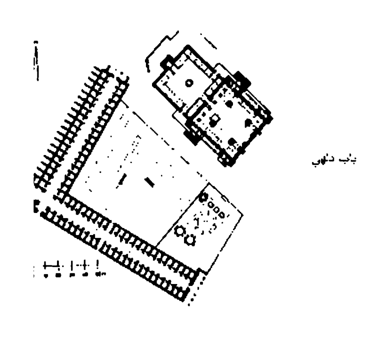
الرواحلة: تاج محل في آغرا
(المصدر نفسه)

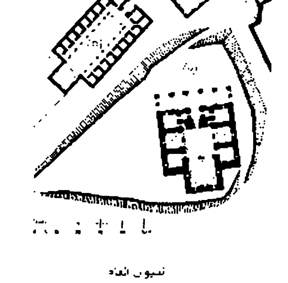
مسجد معصي





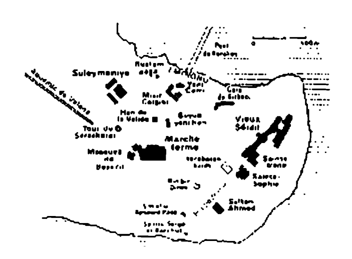


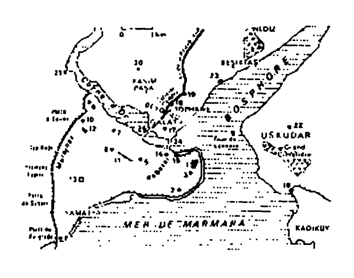


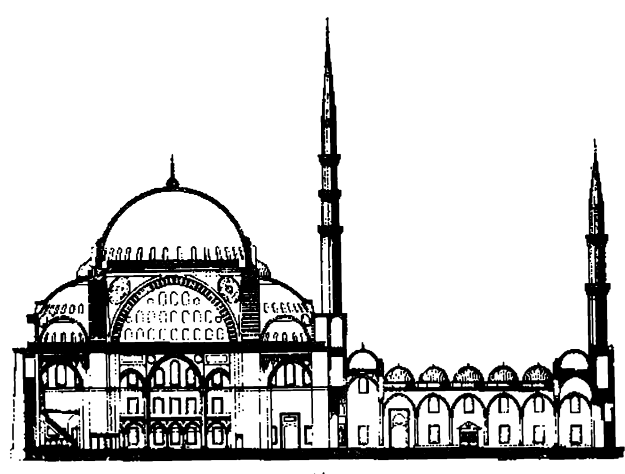


نيبون انداد

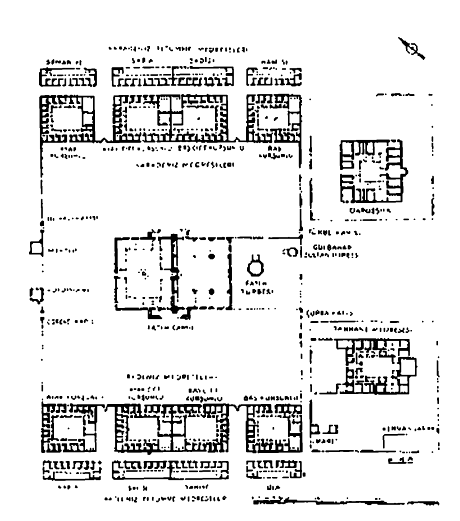
قصر جهانكير



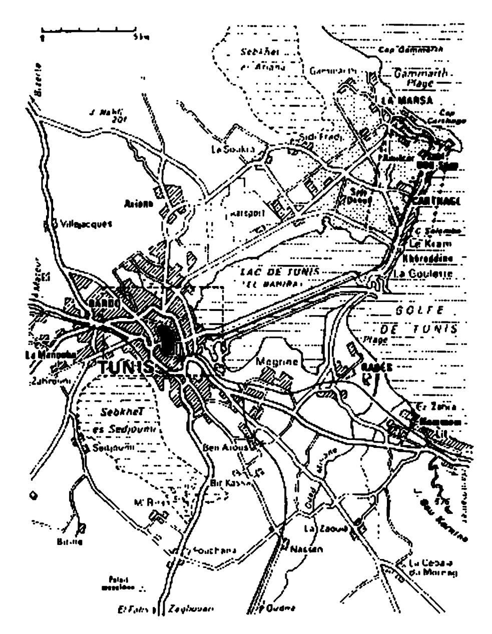




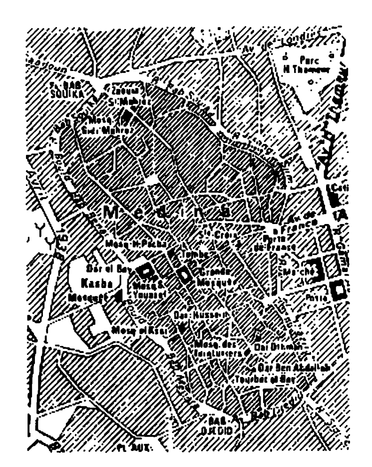
باب امارسينغ



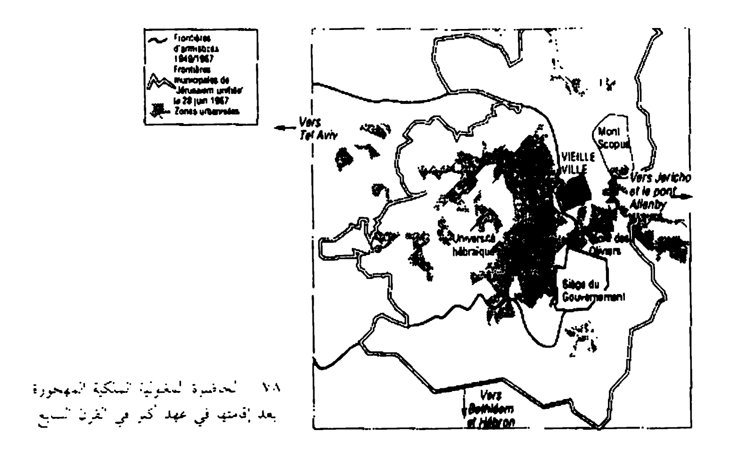
انكوي باغ (قصر العنب)



٧٧ - المدينة الملكية التي أسسها المغولي أكبر وأقام فيها جهانكير وشاه جهان في الحصن الأحمر بأغرا.



(المصدر نفسه)



١٠٨ الحاضرة العفوية السكنية المهجورة
بعد إقامتها في عهد أكبر في القرن السابع

حضر في فتح بور سيكري، غير بعيد عن
أغرا
(المصدر نفسه)

مصادر المعجم ومراجعه

PLAN

N.B. Dans chaque rubrique les ouvrages sont présentés par ordre chronologique

I — OUVRAGES GÉNÉRAUX

A. Encyclopédies

Encyclopédie de l'Islam, 1[re] édition, 4 vol. et supplément, Leyde, 1913-1942 [abréviation : *Enc. Islam* (1)].

Encyclopédie de l'Islam, 2[e] édition, Leyde, en cours depuis 1954 (8 vol. parus jusqu'à R) avec index des matières et index des noms propres pour les volumes parus [abréviation : *Enc. Islam* (2)].

B. Répertoires bibliographiques

Abstracta islamica, bibliographie sélective portant à la fois sur les périodiques et les ouvrages, publiée par la *Rev. Etudes islamiques*, Paris, Geuthner, de 1927 à 1980.

Storey C.A., *Persian Literature. A Bio-bibliographical Survey*, Londres, 1927-1984.

Brockelmann C., *Geschichte der arabischen Litteratur*, 5 vol., Leyde, 1937-1949.

Sauvaget J., *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris, 1943.

Pearson J.S., *Index islamicus 1906-1955*, Cambridge, 1958 et *Suppl.*

Creswell K A C., *A Bibliography of the Architecture, Arts and Crafts of Islam to 1st Jan. 1960*, Le Caire, 1961 et *Suppl.*

Sezgin F., *Geschichte des arabischen Schrifttums*, Leyde, 1967 et suiv.
Cahen Cl., *Introduction à l'histoire du monde musulman médiéval, VIIe-XVe siècle*, Paris, 1982.
Endress G., *An Introduction to Islam*, Edimbourg, 1988.

C. Ouvrages de référence

1. Atlas généraux

Tübinger Atlas des Vorderen Orients, Wiesbaden, 1977-1988.
Schwartzberg J.E., *A Historical Atlas of South Asia*, Chicago, 1978.
Brice W.C. (ed.), *An Historical Atlas of Islam*, Leyde, 1981.
Cornu G., *Atlas du monde arabo-islamique à l'époque classique*, Leyde, 1983-1985.
Ade Ajayi J.F. et Crowder M., *Atlas of African History*, Londres, 1985 et adaptation fr. C. Coquery-Vidrovitch et G. Laclavère, *Atlas historique de l'Afrique*, 1990.
Lemarchand P. (éd.), *Atlas géopolitique du Moyen-Orient et du monde arabe*, Paris, 1993.

2. Topographie régionale

Le Strange G., *Palestine under the Moslems*, Cambridge, 1890.
Ramsay W.M., *The Historical Geography of Asia Minor*, Londres, 1890.
Schwarz P., *Iran im Mittelalter nach den arabischen Geographen*, t. I à IX, Leipzig, 1896-1936.
Le Strange G., *The Lands of the Eastern Caliphate*, Cambridge, 1905, rééd. 1930.
Maspéro J. et Wiet G., *Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte*, Le Caire, 1914.
Dussaud R., *Topographie historique de la Syrie ancienne et médiévale*, Paris, 1927.
Mauny R., *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age*, Dakar, 1961.
Pitcher D.E., *An Historical Geography of the Ottoman Empire*, Leyde, 1972.
Krawulsky D., *Iran : Das Reich der Ilhâne, Eine topographisch-historische Studie*, Wiesbaden, 1978.
Lewis B., Palestine, On the History and Geography of a Name, *The International History Review*, 11, 1980.
Krawulsky D., *Horasan zur Timuridenzeit*, 2 vol., Wiesbaden, 1984.

3. Chronologie et dynasties

Lane-Poole St., *The Muhammadan Dynasties*, Londres, 1894.
Zambaur E. de, *Manuel de généalogie et de chronologie*, Hanovre, 1927, rééd. 1955.
Taqizadeh S.H., Various eras and calendars used in the countries of Islam, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, IX-4, 1939 ; X-1, 1940.
Cattenoz H.G., *Tables de concordance des ères chrétienne et hégirienne*, Rabat, 1954.
Bosworth C.E., *The Islamic dynasties*, Edimbourg, 1967, rééd. 1980.

4. Historiens et géographes médiévaux

Rosenthal F., *A History of Muslim Historiography*, Leyde, 1952, rééd. 1968.
Lewis B. et Holt P.M. (eds), *Historians of the Middle East*, Oxford, 1962.
Djughrâfiya, dans *Enc. Islam* (2) (par Maqbul A.).
Miquel A., *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIe siècle*, t. I, Paris, 1967.
Sourdel D., Chroniques et sources narratives dans l'Orient islamique médiéval, apud D. Poirion (éd.), *La chronique et l'histoire au Moyen Age*, Paris, 1984.
Cahen C., L'historiographie arabe : des origines au VIIe s. H., *Arabica*, XXXIII, 1986.

D. Etudes générales

1. Histoire de l'islam et civilisation islamique

Mez A., *Die Renaissance des Islams*, Heidelberg, 1922, et trad. angl. *The Renaissance of Islam*, Londres, 1937.
Gaudefroy-Demombynes M., *Les institutions musulmanes*, Paris, 1946.
Grunebaum G.E. von, *Medieval Islam*, Chicago, 1946, et trad. fr., Paris, 1962.
Sourdel D., *L'Islam*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1949, 18e éd. 1995.
Lewis B., *Les Arabes dans l'histoire*, trad. fr., Neuchâtel, 1958.
Gardet L., *La cité musulmane*, Paris, 1961.
Watt W.M., *Islam and the Integration of Society*, Londres, 1961.
Goitein S.D., *Studies in Islamic History and Institutions*, Leyde, 1966.
Gibb H.A.R., *Studies on the Civilization of Islam*, Londres, 1968.
Sourdel D. et J., *La civilisation de l'islam classique*, Paris, 1968 et nouv. éd. 1983.
Watt M.W., *Islamic Political Thought*, Edimbourg, 1968, et trad. fr. *La pensée politique de l'islam*, Paris, 1995.

Mantran R., *L'expansion musulmane, VIIe-XIe siècle*, Paris, 1969, rééd. 1995.
Cahen C., *L'Islam, des origines au début de l'Empire ottoman*, Paris, 1970, rééd. 1995.
Grunebaum G.E. von, *Classical Islam, a History 600 AD to 1258 AD*, Chicago, 1970.
Planhol X. de, *Les fondements géographiques de l'Islam*, Paris, 1970.
The Cambridge History of Islam, 2 vol., Cambridge, 1970, et trad. fr. *Encyclopédie générale de l'Islam*, Paris, 1988.
Folz P., Guillou A., Musset L., Sourdel D., *De l'Antiquité au Moyen Age*, Paris, 1973.
Canard M., *L'expansion arabo-islamique et ses répercussions*, Londres, 1974.
Hodgson M.G.S., *The Venture of Islam : Conscience and History in a world civilization*, 3 vol., Chicago, 1974.
Lewis B., *Islam, from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople* (textes traduits), 2 vol., New York-Londres, 1974.
Watt W.M., *The Majesty that was Islam. The Islamic world, 661-1100*, Londres, 1974.
Nagel T., *Rechtleitung und Kalifat : Versuch über eine Grundfrage der islamischen Geschichte*, Bonn, 1975.
Sourdel D., *Histoire des Arabes*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1976, 5e éd. 1994.
Lewis B. (ed.), *Islam and the Arab World, Faith, People, Culture*, Londres, 1976.
Cahen C., *Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damas, 1977.
Gardet L., *Les hommes de l'islam*, Paris, 1977.
Sourdel D., *L'islam médiéval*, Paris, 1979.
Rodinson M., *Les Arabes*, Paris, 1979.
Nagel T., *Staat und Glaubensgemeinschaft im Islam*, Zürich-München, 1981.
Makdisi G., Sourdel J. et D. (éds), *La notion d'autorité au Moyen Age, Islam, Byzance, Occident*, Colloques internationaux de La Napoule, Paris, 1982.
Laoust H., *Pluralismes dans l'islam*, Paris, 1983.
Makdisi G., Sourdel J. et D. (éds), *Prédication et propagande au Moyen Age, Islam, Byzance, Occident*, Paris, 1983.
— *La liberté au Moyen Age, Islam, Byzance, Occident*, Paris, 1986.
Kennedy H., *The Prophet and the Age of the Caliphates, The Islamic Near East from the Sixth to the Eleventh Century*, Londres-New York, 1986.
Haarmann U. (ed.), *Geschichte der arabischen Welt*, Munich, 1987.
Bürgel J.C., *Allmacht und Mächtigkeit. Religion und Welt des Islam*, Munich, 1991.
Humphreys R.S., *Islamic History*, Londres, 1991.
Garcin J.-C. *et al.*, *Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval*, I, Paris, 1995.

2. Relations entre l'Islam et l'Europe

Daniel N., *Islam and the West*, Edimbourg, 1960, nouv. éd. et trad. fr. *L'Islam et l'Occident*, Paris, 1993.
Waardenburg J.-J., *L'islam dans le miroir de l'Occident*, Paris-La Haye, 1962.
Southern R.W., *Western views of Islam in the Middle Ages*, Cambridge (Mass.), 1962.
Kritzeck J., *Peter the Venerable and Islam*, Princeton, 1964.
Daniel N., *Islam, Europe and Empire*, Edimbourg, 1966.
Vadet J.-C., *L'esprit courtois en Orient*, Paris, 1968.
Watt W.M., *L'influence de l'Islam sur l'Europe médiévale*, Paris, 1974.
Schacht J. et Bosworth C.E. (eds), *The Legacy of Islam*, Oxford, 1974.
Hourani A., *Europe and Middle East*, Londres, 1980.
Lewis B., *The Muslim Discovery of Europe*, New York, 1982, et trad. fr. *Comment l'Islam a découvert l'Europe*, Paris, 1984.
Bernard Y., *L'Orient du XVIe siècle à travers les récits des voyageurs français. Regards portés sur la société musulmane*, Paris, 1985.
Frémeaux J., *La France et l'Islam depuis 1789*, Paris, 1991.
Alverny M.-Th. d', *La connaissance de l'Islam dans l'Occident médiéval*, Londres, 1994.
— *La transmission des textes philosophiques et scientifiques au Moyen Age*, Londres, 1994.

II — ISLAMOLOGIE

A. Généralités

Goldziher I., *Muhammedanische Studien*, Halle, 1889-1890, rééd. 1961, et trad. angl. *Muslim Studies*, Londres, 1967-1971.
Horten M., *Die philosophische Systeme der spekulativen Theologie im Islam*, Bonn, 1912.
Goldziher I., *Le dogme et la loi de l'Islam*, trad. fr., Paris, 1920.
Wensinck A.J., *The Muslim Creed, its Genesis and its Historical Development*, Cambridge, 1932.
Watt W.M., *Free Will and Predestination in Early Islam*, Londres, 1948.

Gardet L. et Anawati M.M., *Introduction à la théologie musulmane*, Paris, 1948.
Gibb H.A.R., *Les structures de la pensée religieuse de l'Islam*, trad. fr., Paris, 1950.
Arberry A.J., *Revelation and Reason in Islam*, Londres, 1957.
Akîda, dans *Enc. Islam* (2) (par W.M. Watt).
Watt W.M., *Islamic Philosophy and Theology*, Edimbourg, 1962.
Corbin H., *Histoire de la philosophie islamique*, Paris, 1964.
Laoust H., *Les schismes dans l'Islam*, Paris, 1965.
Gardet L., *Dieu et la destinée de l'homme*, Paris, 1967.
Corbin H., *En Islam iranien. Aspects spirituels et philosophiques*, 4 vol., Paris, 1971-1972.
Brunschvig R., *Etudes d'islamologie*, Paris, 1976.
Wolfson H.A., *The Philosophy of the Kalam*, Cambridge (Mass.), Londres, 1976.
Gimaret D., *Théories de l'acte humain en théologie musulmane*, Paris, 1980.
Cook M.A., *Early Muslim Dogma : a Source-Critical Study*, Cambridge, 1981.
Ess J. van, *Theologie und Gesellschaft im 2. und 3. Jahrhundert Hidschra. Eine Geschichte des religiosen Denkens im frühen Islam*, t. I à III, Berlin-New York, 1991-1992.

B. Le Coran

1. Traductions et concordances

Bell R., *The Qur'ân*, Edimbourg, 1937-1939.
Flügel G., *Concordantiae Corani arabicae*, Leipzig, 1942.
Blachère R., *Le Coran*, Paris, 1947-1951 (avec reconstitution de l'ordre primitif des sourates).
— *Le Coran*, Paris, 1957 (traduction utilisée le plus souvent).
Hamidullah M., *Le Coran*, Paris, 1959.
Paret R., *Der Koran*, Stuttgart, 1962-1966.
Masson D., *Le Coran*, Paris, 1967.
Berque J., *Le Coran*, Paris, 1990.

2. Etudes

Nöldeke Th., *Geschichte des Qorans*, 3 vol., Leipzig, 1909, 1919, 1938.
Goldziher I., *Die Richtungen der islamischen Koranauslesung*, Leyde, 1920, rééd. 1952.
Tor Andrae, *Les origines de l'Islam et du christianisme*, trad. fr., Paris, 1955.
Masson D., *Le Coran et la révélation judéo-chrétienne*, Paris, 1958.
Blachère R., *Introduction au Coran*, Paris, 1959.
Bakker D., *Man in the Qur'ân*, Amsterdam, 1965.
Watt W.M., *Bell's Introduction to the Qur'ân*, Edimbourg, 1970.
Lüling G., *Über den Ur-Qur'ân*, Erlangen, 1974, rééd. 1993.
Graham W.A., *Divine Word and Prophetic Word in Early Islam*, La Haye, 1977.
Crone P. et Cook M., *Hagarism. The Making of the Islamic World*, Cambridge, 1977.
Wansborough J., *Qur'anic Studies. Sources and Methods of Scriptural Interpretation*, Londres, 1977.
Burton J., *The Collection of the Qur'an*, Cambridge, 1977.
Rahman Fazlur, *Major Themes of the Qur'ân*, Minneapolis-Chicago, 1980.
Goldfeld I., The Illiterate Prophet, an Inquiry into the Development of a Dogma in Islamic Tradition, *Der Islam*, 57, 1980.
Neuwirth A., *Studien zur Komposition der mekkanischen Suren*, Berlin, 1981.
Dagorn R., *La geste d'Ismaël*, Genève, 1981.
Watt W.M., *Muhammad's Mecca : Quranic Studies*, Edimbourg, 1988.
Mir Mustansir, *Verbal Idioms of the Qur'ân*, Ann Arbor, 1989.
Gilliot C., *Exégèse, langue et théologie en Islam. L'exégèse coranique de Tabari*, Paris, 1990.
Firestone R., *Journeys in Holy Lands. The Evolution of the Abraham-Ishmael Legends in Islamic Exegesis*, Albany, 1990.
Calder N., The Ummi in Early Islamic Literature, *Der Islam*, 67, 1990.
A Commentary on the Qur'ân prepared by R. Bell, ed. by C.E. Bosworth and M.E.J. Richardson, Manchester, 1991.
Nagel T., *Der Koran. Einführung, Texte, Erläuterungen*, Munich, 1991.
Mc Auliffe J.D., *Qur'anic Christians. An Analysis of Classical and Modern Exegesis*, Cambridge, 1991.

C. Le hadith

al-Bukhari, *Les traditions islamiques*, 4 vol., trad. fr. A. Houdas et W. Marcais, Paris, 1903-1914.
Guillaume A., *The Tradition of Islam*, Oxford, 1924.
Wensinck A.J., *Concordance et indices de la tradition musulmane*, Leyde, 1933 et suiv., rééd. 1992.
Goldziher I., *Etudes sur la tradition islamique*, trad. fr., Paris, 1952.

Wensinck A.J., *A Handbook of early Muhammadan Tradition*. Leyde, 1960.
Lecomte G., Le « Traité des divergences du hadit », *d'Ibn Qutayba*, Damas, 1962.
Juynboll G.H.A., *Muslim Tradition. Studies in Chronology, Provenance and Autorship of Early Hadith*, Cambridge, 1983.
Le Livre de l'Echelle de Mahomet, trad. G. Besson et M. Brossard-Dandre, coll. « Lettres gothiques », Paris, 1991.
Burton J., *An Introduction to the Hadith*, Edimbourg, 1991

D. Fiqh et institutions

1. Généralités

Van Den Berg L.W.C., *Principes du droit musulman selon les rites d'Abou Hanifa et de Châfi'i*, trad. fr., Alger, 1896
Pesle O., *Les fondements du droit musulman*, Casablanca, s.d.
Ostrorog L., *The Angora Reform*, Londres, 1927.
Schacht J., *G. Bergsträsser's Grundzuge des islamischen Rechts*, Berlin, 1935.
Santillana D., *Istituzioni di diritto musulmano malichita con riguardo anche al sistema sciafiita*, Rome, 1938.
Bousquet G.-H., *Du droit musulman et de son application effective dans le monde*, Alger, 1949.
Schacht J., *The Origins of Muhammadan Jurisprudence*, Oxford, 1950 (résumé en français : *Esquisse d'une histoire du droit musulman*, Paris, 1952).
Milliot L., *Introduction à l'étude du droit musulman*, Paris, 1953.
Anderson J.N.D., *Islamic Law in Africa*, Londres, 1954.
Linant de Bellefonds Y., *Traité de droit musulman comparé*, Paris-La Haye, 1955
Fyzee A.A.A., *Outlines of Muhammadan Law*, Londres, 1955.
Khadduri M., Liebesny H.J. (eds), *Law in the Middle East*, Washington, 1955
Laoust H., Le hanbalisme sous le califat de Bagdad, *Rev. Etudes islamiques*, 1959
— Le hanbalisme sous les Mamlouks bahrides, *Rev. Etudes islamiques*, 1960.
Bekir A., *Histoire de l'école malikite en Orient jusqu'à la fin du Moyen Age*, Tunis, 1962.
Schacht J., *An Introduction to islamic Law*, Oxford, 1964, et trad. fr. *Introduction au droit musulman*, Paris, 1983.
Coulson N.J., *A History of Islamic Law*, Edimbourg, 1964, et trad. fr. *Histoire du droit musulman*, Paris, 1995.
Ḥanafiyya, dans *Enc. Islam* (2) (par W. Heffening et J. Schacht).
Ḥanâbila, dans *Enc. Islam* (2) (par H. Laoust).
Halm H., *Die Ausbreitung der šafi'itischen Rechtsschule von den Aufängen bis zur 8/14. Jahrhundert*, Wiesbaden, 1974
Anderson J.N.D., *Law Reform in the Muslim World*, Londres, 1976
Hunwick J.O., *Shari'a in Songhaï. The Replies of al-Maghîlî to the Questions of Askia al-Hâjj Muhammad*, Oxford, 1985.
Burton J., *The Sources of Islamic Law : Islamic Theories of Abrogation*, Edimbourg, 1990.
Malikiyya, dans *Enc. Islam* (2) (par N. Cottart)
Motzki H., *Die Anfänge der islamischen Jurisprudenz. Ihre Entwicklung in Mekka bis zur Mitte des 2/8. Jahrhunderts*, Wiesbaden, 1991.
Weiss B.G., *The Search for God's Law. Islamic Jurisprudence in the Writings of Sayf al-Din al-Âmidi*, Salt Lake City, 1992

2. Traités de droit

Ibn Abi Zayd al-Qayrawani, *La Risâla*, trad. L. Bercher, Alger, 1932.
Laoust H., *Le traité de droit public d'Ibn Taimiya*, Beyrouth, 1948
— *Le précis de droit d'Ibn Qudama*, Beyrouth, 1950.
Khalil Ben Ish'aq, *Abrégé de la loi musulmane selon le rite de l'imâm Mâlek*, trad. fr. G.-H. Bousquet, 4 vol., Alger, 1956-1962
Khadduri M., *Islamic Jurisprudence. Shafi'i's Risâla*, Baltimore, 1961

3. Prescriptions rituelles

Zakât, dans *Enc. Islam* (1).
Gaudefroy-Demombynes M., *Le Pèlerinage à la Mecque*, Paris, 1923.
Bousquet G.-H., *Les grandes pratiques rituelles de l'islam*, Paris, 1949
Jomier J., *Le mahmal et la caravane égyptienne des pèlerins de la Mecque*, Le Caire, 1953.
Grunebaum G.E. von, *Muhammadan festivals*, Londres-New York, 1958.
Ḥadjdj, dans *Enc. Islam* (2) (par A.J. Wensinck et J. Jomier).
Peters R., *Islam and Colonialism. The Doctrine of Jihad in Modern History*, La Haye, 1979
Sourdel D. et J., Une collection médiévale de certificats de pèlerinage à la Mekke, *Etudes médiévales et patrimoine turc*, Paris, 1983.
Faroqhi S., *Herrscher über Mekka. Die Geschichte der Pilgerfahrt*, Munich-Zurich, 1990.
— *Pilgrims and Sultans. The Hajj under the Ottomans*, Oxford, 1992.
Morabia A., *Le gihad dans l'islam médiéval*, Paris, 1993.
Peters F.E., *The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places*, Princeton, 1994.

Ramadân, Salât, Sawm, dans *Enc. Islam* (2) (par M. Plessner, G. Monnot, C.C. Berg).

4. Statut personnel

(voir aussi VI A 1 : Histoire sociale)

Bousquet G.-H. et Bercher L., *Le statut personnel en droit musulman hanéfite*, Paris, s.d.

Art. *'Abd*, dans *Enc. Islam* (2) (par R. Brunschvig).

Tomiche N., La femme en Islam, dans *Histoire mondiale de la femme*, t. III, Paris, 1965-1966.

Borrmans M., *Statut personnel et famille au Maghreb de 1940 à nos jours*, Paris, 1977.

Marsot A.L.S. (ed.), *Society and Sexes in Medieval Islam*, Malibu, 1979.

Bouhdiba A., *La Sexualité en Islam*, Paris, 1979.

Walther W., *Die Frau im Islam*, Leipzig Stuttgart-Berlin, 1980.

Musallam B., *Sex and Society in Islam. Birth Control before the Nineteenth Century*, Cambridge, 1982.

Bo Utas (ed.), *Women in Islamic Societies. Social attitudes and historical perspectives*, coll. « Studies on Asian Topics », Londres, 1983.

Powers D.S., *Studies in Qur'an and Hadith. The Formation of Islamic Law of Inheritance*, University of California Press, 1986.

5. Droit pénal

Anderson J.N.D., Homicide in Islamic Law, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, XIII, 1951.

Heyd U., *Studies in Old Ottoman Criminal Law*, Oxford, 1973.

Kraemer J.L., Apostates, Rebels and Brigands, *Israel Oriental Studies*, X, 1980.

6. Ethique économique et fiscalité

Qureshi A.I., *The Theory of Interest*, Delhi, s.d.

Aghnides N.P., *Mohammadan Theories of Finance*, New York, 1916.

Løkkegaard F., *Islamic Taxation in the Classic Period*, Copenhague, 1950.

Dennett C., *Conversion and the Poll Tax*, Cambridge (Mass.), 1951.

Rodinson M., *Islam et capitalisme*, Paris, 1966.

Udovitch A.L., *Partnership and Profit in Medieval Islam*, Princeton, 1970.

Hasan Z., *Theory of profit*, New Delhi, 1975.

Kharâdj, dans *Enc. Islam* (2) (par Cl. Cahen et A.K.S. Lambton).

Beldiceanu N., *Le Timâr dans l'Etat ottoman (début XIVe-début XVIe siècle)*, Wiesbaden, 1980.

Johansen B., *The Islamic Law on Land Tax and Rent. The Peasant's Loss of Property Rights as Interpreted in the Hanafite Legal Litterature of the Mamluk and Ottoman Periods*, Londres-New York-Sydney, 1988.

Beaugé G., *Les capitaux de l'islam*, Paris, 1990.

Galloux M., *Finance islamique et pouvoir politique. Le cas de l'Egypte moderne*, Paris, 1996.

7. Organisation judiciaire

Lévi-Provençal E., *Séville musulmane au XIIe siècle*, Paris, 1947.

Tyan E., *Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam*, Leyde, 1960.

Chalmeta P., *El Señor del zoco en España*, Madrid, 1973.

Hisba, dans *Enc. Islam* (2) (par Cl. Cahen et M. Talbi).

Kâdi, dans *Enc. Islam* (2) (par E. Tyan).

Ibn Taymiyya, Traité sur la hisba, éd. et trad. fr. H. Laoust, *Rev. Etudes islamiques*, LII, 1984.

Buckley R.P., The Muhtasib, *Arabica*, XXXIX, 1992.

8. Organisation gouvernementale

al-Mawardi, *Les statuts gouvernementaux*, trad. E. Fagnan, Alger, 1915.

Sauvaget J., *La poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks*, Paris, 1941.

Tyan E., *Institutions du droit public musulman*. I. *Le Califat*, Paris, 1954 ; II. *Sultanat et califat*, Paris, 1957.

Hopkins J.F.P., *Medieval Muslim Government in Barbary*, Londres, 1958.

Sourdel D., *Le vizirat 'abbâside*, Damas, 1959-1960.

Barid, dans *Enc. Islam* (2) (par D. Sourdel).

Dîwân, dans *Enc. Islam* (2) (par A.A. Duri, H.L. Gottschalk, G.S. Colin, A.K.S. Lambton, A.S. Bazmee Ansari).

Day U.N., *Administrative System of the Delhi Sultanate, 1206-1413*, Allahabad, 1965.

Laoust H., *La politique de Gazâli*, Paris, 1970.

Klausner C.L., *The Seljuk Vizierate. A Study of Civil Administration, 1055-1194*, Cambridge (Mass.), 1973.

Khalifa, dans *Enc. Islam* (2) (par D. Sourdel).

Lambton A.K.S., *State and government in Medieval Islam*, Londres, 1981.

Regierung und Verwaltung des vorderen Orients in islamischer Zeit, 1 (H.R. Idris et K. Röhhorn), Leyde, 1970 ; 2 (D. Sourdel et J. Bosch Vila), Leyde, 1988.
Al-Imad L.S., *The Fatimid Vizierate, 969-1172*, Berlin, 1990.

9. Non-musulmans et étrangers

Heffening W., *Das Islamische Fremdenrecht*, Hanovre, 1923.
Fattal A., *Le Statut légal des non-musulmans en pays d'islam*, Beyrouth, 1958.
Dhimma, dans *Enc. Islam* (2) (par Cl. Cahen).
Djizya, dans *Enc. Islam* (2) (par Cl. Cahen et H. Inalcik).

E. Théologie non chiite

1. Ecole traditionaliste

Patton W.M., *Ahmad ibn Hanbal and the Mihna*, Leyde, 1897.
Laoust H., *Essai sur les doctrines... d'Ibn Taimiya*, Le Caire, 1939.
— *La profession de foi d'Ibn Batta*, Damas, 1958.
— *Aḥmad ibn Ḥanbal*, dans *Enc. Islam* (2) (par H. Laoust).
— Le hanbalisme sous le califat de Bagdad, *Rev. Etudes islamiques*, 1959.
— Le hanbalisme sous les Mamlouks bahrides, *Rev. Etudes islamiques*, 1960.
Makdisi G., *Ibn 'Aqîl et la résurgence de l'Islam traditionaliste au XIe siècle*, Damas, 1963.
Ḥanâbila, dans *Enc. Islam* (2) (par H. Laoust).
Makari V.E., *Ibn Taymiyyah's Ethics. The Social Factor*, Chico (California), 1983.
Ibn Taymiyya, *A Muslim Theologian's Response to Christianity*, éd. trad. Th.F. Michel, New York, 1984.
Laoust H., *La profession de foi d'Ibn Taymiyya, la Wâsitiyya*, Paris, 1986.
Olesen N.H., *Culte des saints et pèlerinage chez Ibn Taymiyya*, Paris, 1991.

2. Ecole acharite

Klopfer H., *Das Dogma des Imâm al-Haramain al-Djuwaini*, Wiesbaden, 1958.
Makdisi G., Ash'ari and the Ash'arism in Islamic Religious History, *Studia Islamica*, XVII, 1962.
Watt W.M., *Muslim Intellectual. A Study of al-Ghazali*, Edimbourg, 1963.
Allard M., *Le problème des attributs divins dans la doctrine d'al-Aš'ari et de ses premiers disciples*, Beyrouth, 1965.
Frank R.M., The Structure of the Created Causality according to al-As'ari, *Studia Islamica*, XXV, 1966.
Ess J. van, *Die Erkenntnislehre des Adudaddin al Ici*, Wiesbaden, 1966.
Nagel T., *Die Festung des Glaubens*, Munich, 1988.
Gimaret D., *Les noms divins en Islam : exégèse lexicographique et théologique*, Paris, 1988.
Bello I.A., *The Medieval Islamic Controversy between Philosophy and Orthodoxy : Ijmâ' and Ta'wil in the Conflict between al-Ghazâli and Ibn Rushd*, Leyde-New York-Cologne, 1989.
Gimaret D., *La doctrine d'al-Ash'ari*, Paris, 1990.

3. Zahirisme

Goldziher I., *Die Zâhiriten*, Leipzig, 1894.
Arnaldez R., *Grammaire et théologie chez Ibn Hazm de Cordoue*, Paris, 1956.

4. Mu'tazilisme

Nader A., *Le système philosophique des mu'tazila*, Beyrouth, 1956.
Hourani G.F., *Islamic Rationalism. The Ethics of Abd al-Jabbar*, Oxford, 1971.
Peters J.R.T.M., *God's Created Speech*, Leyde, 1976.
Frank R.M., *Beings and Their Attributes. The Teaching of the Basrian School of the Mu'tazila in the Classical Period*, Albany, 1978.
Ess J. van, Une lecture à rebours de l'histoire du mu'tazilisme, *Rev. Etudes islamiques*, 1978-1979.
Bernand M., *Le Problème de la connaissance d'après... Abd al-Gabbar*, Alger, 1982.
Daiber H., *Wâsil ibn 'Atâ' als Prediger und Theologe. Ein neuer Text aus dem 8. Jahrhundert n. Chr.*, Leyde, 1988.
Mu'tazila, dans *Enc. Islam* (2) (par D. Gimaret).

5. Ecoles dissidentes non chiites

Wellhausen J., *Die Religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, Gottingen, 1901, et trad. angl., Amsterdam-Oxford, 1975.
Le Livre de Mohammed ibn Toumert, éd. J.D. Luciani, Alger, 1903 (avec une introduction d'I. Goldziher).
Laoust H., *Les schismes dans l'Islam*, Paris, 1963.
— *Pluralismes dans l'Islam*, Paris, 1983.

Vadet J.-C., *Les dissidences de l'islam*, Paris, 1983.
Cuperly P., *Introduction à l'étude de l'ibadisme et de sa théologie*, Alger, 1984.
Shahrastani, *Livre des religions et des sectes*, I, trad. fr. par D. Gimaret et G. Monnot, Louvain, 1986 ; II, trad. fr. par J. Jolivet et G. Monnot, Louvain, 1993.
Friedmann Y., *Prophecy Continuous. Aspects of Ahmadi Religious Thought and its Medieval Background*, Berkeley, 1989.

F. Chiisme

1. Généralités

Querry A., *Droit musulman. Recueil de lois concernant les Musulmans schyites*, Paris, 1871-1872.
Donaldson D.M., *The Shi'ite religion*, Londres, 1933.
Hollister J.N., *The Shi'a of India*, Londres, 1953 ; rééd. 1979.
Laoust H., *Les schismes dans l'islam*, Paris, 1965.
Antes P., *Zur Theologie der Schi'a*, Fribourg, 1971.
Löschner H., *Die dogmatischen Grundlagen des ši'itischen Rechts*, Cologne, 1971.
Laoust H., *Pluralismes dans l'islam*, Paris, 1973.
Momen M., *An Introduction to Shi'i Islam*, New Haven-Londres, 1985.
Cole J.R.I. et Keddie N. (eds), *Shi'ism and Social Protest*, New Haven, 1986.
Halm M., *Die Schia*, Darmstadt, 1988 ; trad. angl. *Shiism*, Edimbourg, 1991 ; trad. fr. *Le chiisme*, Paris, 1995.
Sachedina A.A., *The Just Ruler in Shi'ite Islam. The Comprehensive Authority of the Jurist*, New York-Oxford, 1988.
Richard Y., *L'Islam chi'ite, croyances et idéologies*, Paris, 1991.

2. Imamisme duodécimain

Nöldeke A., *Das Heiligtum al-Husains zu Kerbelâ*, Berlin, 1909.
Strothmann R., *Die Zwölfer – Schi'a*, Leipzig, 1926.
Massé H., *Croyances et coutumes persanes*, Paris, 1938.
Le shi'isme imamite, Colloque de Strasbourg, Paris, 1970.
Calmard J., Le chiisme imamite en Iran à l'époque seldjoukide d'après le Kitab al-naqd, *Le monde iranien et l'Islam*, IV, 1971.
Sourdel D., L'imamisme vu par le cheikh al-Mufid, *Revue Etudes islamiques*, 1972.
Al-Haidari I., *Zur Soziologie des schiitischen Chiliasmus. Ein Beitrag zur Erforschung des irakischen Passionsspiels*, Fribourg/Br., 1975.
Laoust H., Les fondements de l'imamat dans le *Minhag* d'al-Hilli, *Revue Etudes islamiques*, XLVI, 1978.
McDermott M.J., *The Theology of al-Shaikh al Mufid (d. 413/1022)*, Beyrouth, 1978.
Sachedina A., A Treatise on the Occultation of the Twelfth Imamite Imam, *Studia Islamica*, XLVIII, 1978.
Chelkowski P.J. (ed.), *Ta'zieh Ritual und Drama in Iran*, New York, 1979.
Richard Y., *Le shi'isme en Iran, Imam et révolution*, Paris, 1980.
Algar H., *Islam and Revolution. Writings and Declarations of Imam Khomeini*, Berkeley, 1981.
Sachedina A., *Islamic Messianism. The Idea of the Mahdi in Twelfer Shi'ism*, Albany, 1981.
Hussain J.M., *The Occultation of the Twelfth Imam*, Londres, 1982.
Arjomand S.A., *The Shadow of God and the Hidden Imam. Religion, Political Order and Societal Change in Shi'ite Iran from the Beginnings to 1890*, Chicago Londres, 1984.
Taheri A., *Chomeini und die « Islamische Revolution »*, Hambourg, 1985.
Newmann A., *The Development and Political Significance of the Rationalist and Traditionalist Schools in Imami Shi'i History*, Los Angeles, 1986.
Rizvi S.A.A., *A Socio-Intellectual History of the Isna Ashari Shi'is in India*, Canberra, 1986.
Ajami F., *The Vanished Imam. Musa al Sadr and the Shia of Lebanon*, Londres, 1986.
Pensées politiques de l'Ayatollah Khomeyni, trad. fr. Y.A. Henri, Paris, 1986.
Khomeyni, *Pour un gouvernement islamique*, trad. fr. Kotobi et Simon, Paris, 1989.

3. Ismaïlisme

Lewis B., *The Origins of Isma'ilism*, Cambridge, 1940.
Ivanow W., *Brief Survey of the Evolution of Isma'ilism*, Leyde, 1952.
Madelung W., Fatimiden und Bahrainqarmaten, *Der Islam*, XXXV, 1959.
— Das Imamat in der frühen ismailitischen Lehre, *Der Islam*, XXXVII, 1961.
Corbin H., *Trilogie ismaélienne*, Paris, 1961.
Marquet Y., *La philosophie des Ihwan al-safa : de Dieu à l'homme*, Lille, 1973.
Ess J. van, *Chiliastiche Erwartungen und die Versuchung der Göttlichkeit. Der Kalif al-Hâkim*, Heidelberg, 1977.
Halm H., *Kosmologie und Heilslehre der frühen Isma'iliya*, Wiesbaden, 1978.
Stern S.M., *Studies in Early Isma'ilism*, Jérusalem/Leyde, 1983.
Halm H., Der Treuhänder Gottes. Die Edikte des Kalifen al-Hakim, *Der Islam*, LXIII, 1986.

Daftary F., *The Ismâ'ilis. Their History and Doctrines*, Cambridge, 1990.
Walker P.E., *Early Philosophical Shiism. The Ismaili Neoplatonism of Abû Ya'qûb al-Sijistâni*, Cambridge, 1993.

4. Néo-ismaïlisme

Hodgson M.G.S., *The Order of Assassins*, Leyde, 1955.
Lewis B., *The Assassins*, Londres, 1968, et trad. fr., *Les Assassins*, Paris, 1982.
Fischauer W., *The Aga Khans*, Londres, 1970.

5. Zaydisme

Strothmann R., *Das Staatsrecht der Zaiditen*, Strasbourg, 1912.
Arendonk C. von, *Les débuts de l'imamat zaydite du Yémen*, trad. fr., Leyde, 1960.
Madelung W., *Der Imâm al-Qâsim und die Glaubenslehre der Zaiditen*, Wiesbaden, 1965.
Gochenour D.T., *The Penetration of Zaidi Islam into Early Medieval Yemen*, Ann Arbor, 1985.

6. Druzes

Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes*, 2 vol., Paris, 1898.
al-Darazi, Durûz, dans *Enc. Islam* (2) (par H.G.S. Hodgson et M. Tayyib Gokbilgin).
Bryer D.R.W., The origins of the Druze religion, *Der Islam*, LII, 1975.
Abu-Izzeddin N.M., *The Druzes. A New Study of their History, Faith and Science*, Leyde, 1984.

7. Alaouites et extrémistes

Dussaud R., *Histoire et religion des Nosairis*, Paris, 1900.
Roemer H., *Die Babi-Beha'i. Eine Studie zur Religiongeschichte des Islams*, Postdam, 1911.
Halm H., *Die islamische Gnosis. Die extreme Shi'a und die 'Alawiten*, Zürich-Munich, 1982.
Smith P., *The Babi and Baha'i Religion. From Messianism Shi'ism to a Worldreligion*, Cambridge, 1987.
Kehl-Bodrogi K., *Die Kizilbas/Aleviten, Untersuchungen über eine esoterische Glaubengemeinschaft in Anatolien*, Berlin, 1988.

G. Mystique

1. Soufisme

Nicholson R.A., *Studies in Islamic Mysticism*, Cambridge, 1921.
Arberry A.J., *Sûfism*, Londres, 1950, et trad. fr., Paris, 1952.
Anawati G.C. et Gardet L., *Mystique musulmane, aspects et tendances, expériences et techniques*, Paris, 1961.
Molé M., *Les mystiques musulmans*, Paris, 1965.
Nwyia P., *Exégèse coranique et langage mystique*, Beyrouth, 1970.
Corbin H., *En Islam iranien. Aspects spirituels et philosophiques*, 4 vol., Paris, 1971-1972.
Böwering G., *The Mystical Vision of Existence in Classical Islam*, Berlin-New York, 1980.

2. Soufis

al-Hudjwiri, *Kashf al-mahdjûb*, trad. Nicholson, Londres, 1911.
Massignon L., *La passion d'al-Hallâj*, Paris, 1922 ; nouv. éd. 1975.
Smith M., *Rabi'a the Mystic and her Fellow-saints in Islam*, Cambridge, 1928.
Corbin H., *Sohrawardi d'Alep, fondateur de la doctrine illuminative*, Paris, 1939.
Ritter H., *Das Meer der Seele. Mensch, Welt und Gott in den Geschichten des Fariduddine 'Attâr*, Leyde, 1955.
Wensinck A.J., *La pensée de Ghazâlî*, Paris, 1958.
Jabre F., *La notion de ma'rifa chez Ghazâli*, Beyrouth, 1958.
— *La notion de certitude selon Ghazâli*, Paris, 1958.
Ess J. van, *Die Gedankenwelt des* Hârit al-*Muhâsibi*, Bonn, 1961.
Watt W.M., *Muslim intellectual, a study of al-Ghazâlî*, Edimbourg, 1963.
Laugier de Beaurecueil J., *Khwâdja 'Abdullah Ansâri*, Beyrouth, 1965.
Meyerovitch E., *Mystique et poésie en Islam : Djalâl-ud-din Rûmi et l'ordre des derviches tourneurs*, Paris, 1972.
Chittick W.C., *The Sufi Doctrine of Rumi. An Introduction*, Téhéran, 1974.
Ibn 'Arabi, *Les soufis d'Andalousie*, trad. fr. R.W.J. Austin et G. Leconte, Paris, 1979.
Vadet J.-C., *Le traité d'amour mystique d'al-Daylami*, Genève, 1980.
Al-Kalabadhi, *Traité de soufisme*, trad. R. Deladrière, Paris, 1982.
Chittick W.C., *The Sufi Path of Love. The Spiritual Teachings of Rumi*, Albany, 1983.
Chodkiewicz M., *Le sceau des saints. Prophétie et sainteté dans la doctrine d'Ibn 'Arabi*, Paris, 1986.
Siauve M.L., *L'amour de Dieu chez Gazali. Une philosophie de l'Amour à Bagdad au début du XII^e siècle*, Paris, 1986.
Hujwiri, *Somme spirituelle*, trad. D. Mortazavi, Paris, 1988.

Ibn 'Arabi, *Les illuminations de la Mecque*, trad. M. Chodkiewicz *et al.*, Paris, 1988.
Ansari, *Cris du cœur*, trad. fr. S. Laugier de Beaurecueil, Paris, 1988.
Demeerseman A., *Nouveau regard sur la vie spirituelle de 'Abd al-Qâdir al Jîlâni et sa tradition*, Paris, 1988.
Molla Sadra Shirazi, *Le livre des pénétrations métaphysiques*, trad. H. Corbin, Paris, 1988.
al-Qušayri, *Das Sendschreiben al-Qušayris über das Sufitum*, trad. R. Gramlich, Stuttgart, 1989.
Chittick W.C., *The Sufi Path of Knowledge : Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, Albany, 1989.
Norris H.T., *Sûfi Mystics of the Niger Desert. Sidi Mahmûd and the Hermits of Aïr*, Oxford, 1990.
Chittick W.C., *Faith and Practice of Islam : Three Thirteenth Century Sufi Texts*, Albany, 1992.

3. Confréries

Depont O. et Coppolani X., *Les confréries religieuses musulmanes*, Alger, 1897 ; réimpr. Paris, 1987.
Tarika, dans *Enc. Islam* (1) (par L. Massignon).
Drague G., *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc : confréries et zaouias*, Paris, 1951.
Gramlich R., *Die schiitischen Derwischorden Persiens*, I-III, Wiesbaden, 1965-1980.
O'Brian D.B.C., *The Mourides of Senegal. The Political and Economical Organisation of an Islamic Brotherhood*, Oxford, 1971.
Trimingham J.S., *The Sufi Orders in Islam*, Oxford, 1971.
Nwyia P., *Ibn 'Atâ' Allâh et la naissance de la confrérie šadilite*, Beyrouth, 1972.
Faroqhi S., *Der Bektaschi-Orden in Anatolien (vom späten 15. Jahrhundert bis 1826)*, Vienne, 1981.
Popovic A. et Veinstein G. (éds), *Les ordres mystiques dans l'Islam, cheminements et situation actuelle*, Paris, 1986.
Kissling H.J., *Dissertationes orientales et balcanicae collectae*. I. *Das Derwischtum*, Munich, 1986.
Fernandes L., *The Evolution of a Sufi-Institution in Mamluk Egypt : the Khanqah*, Berlin, 1988.
Paul J., *Die politische und soziale Bedeutung der Naqšabandiyya im Mittelasien im 15. Jahrhundert*, Berlin, 1991.
Gronke M., *Derwische im Vorhof der Macht. Sozial- und Wirtschaftsgeschichte Nordwestirans im 13. und 14. Jahrhundert*, Fribourg, 1992.
Ansari S.F.D., *Sufi Saints and State Power. The Pirs of Sind, 1843-1947*, Cambridge, 1992.
Triaud J.-L., *La légende noire de la Sanûsiyya*, Paris-Aix-en-Provence, 1995.

4. Culte des saints

Goldziher I., Le culte des saints chez les musulmans, *Rev. d'Histoire des religions*, II, 1880.
Heiligenverehrung im Islam, apud *Muhammedanische Studien*, Halle, 1889-1890, et trad. angl. *Muslim Studies*, Londres, 1967-1971.
Doutté E., *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Alger, 1909.
Sourdel-Thomine J., Les anciens lieux de pèlerinage damascains d'après les sources arabes, *Bull. d'Etudes orientales*, XIV, 1952-1954.
al-Harawi, *Le guide des lieux de pèlerinage*, trad. J. Sourdel-Thomine, Damas, 1957.
Gramlich R., *Die Wunder der Freunde Gottes. Theologien und Erscheinungsformen des islamischen Heiligenwunders*, Wiesbaden, 1987.
Sourdel-Thomine J., Traditions d'emprunt et dévotions secondaires dans l'islam du XIIe siècle, *Rev. Etudes islamiques*, LV-LVII, 1987-1989.
Olesen N.H., *Culte des saints et pèlerinages chez Ibn Taymiyya*, Paris, 1991.
Kaptein N.J.G., *Muhammad's Birthday Festival*, 1993.
Mayeur-Jaouen C., *Al-Sayyid al-Badawi, un grand saint de l'islam égyptien*, Le Caire, 1994.

H. Falsafa et sciences profanes

1. Falsafa

Steinschneider M., *Die Arabischen Uebersetzungen aus dem Griechischen*, Leipzig, 1893.
Madkour J., *L'« Organon » d'Aristote dans le monde arabe*, Paris, 1934.
Kraus A., *Plotin chez les Arabes*, Le Caire, 1941.
Menasce J. de, *Arabische Philosophie*, Berne, 1948.
Rescher N., *The Development of Arabic Logic*, Pittsburgh, 1964.
Corbin H., *Histoire de la philosophie islamique*, I. *Des origines à la mort d'Averroès (1198)*, Paris, 1964.
Walzer R., *Greek into Arabic*, Oxford, 1962.
Jadaane F., *L'influence du stoïcisme sur la pensée musulmane*, Beyrouth, 1968.
Walzer R., L'éveil de la philosophie islamique, *Rev. Etudes islamiques*, 1970.
Falâsifa et *Falsafa*, dans *Enc. Islam* (2) (par R. Arnaldez).
Grunebaum G.E. von (ed.), *Logic in Classical Islamic Culture*, Wiesbaden, 1970.
Stern S.M. *et al.*, *Islamic Philosophy and the Classical Tradition*, Londres, 1972.
Kraemer J.L., *Humanism in the Renaissance of Islam*, Leyde, 1986 ; — *Philosophy in the Renaissance of Islam*, Leyde, 1986.

Netton I.E., *Allah Transcendent. Studies in the Structure and Semiotics of Islamic Philosophy, Theology and Cosmology*. Londres-New York, 1989.

Rosenthal F., *Greek Philosophy in the Arab World. A Collection of Essays*. Londres, 1990.

2. Philosophes

Madkour I., *La place d'al-Fârâbi dans l'école philosophique musulmane*. Paris, 1934.
Goichon A.-M., *La philosophie d'Avicenne et son influence en Europe*, Paris, 1944.
Gauthier L., *Ibn Rochd*. Paris, 1948.
Anawati G.C., *Essai de bibliographie avicennienne*, Le Caire, 1950.
Gardet L., *La pensée religieuse d'Avicenne*. Paris, 1951.
Arnaldez R., La pensée religieuse d'Averroès, *Studia Islamica*, VII-VIII, 1957, et X, 1959.
Jolivet J., *L'intellect selon Kindi*. Leyde, 1971.
Hawi S.S., *Islamic Naturalism and Mysticism. A Philosophical Study of Ibn Tufayl's Hayy bin Yaqzân*, Leyde, 1974.
Asin Palacios M., *The Mystical Philosophy of Ibn Masarra and his Followers*, trad. Douglas et Yoder, Leyde, 1978.
Netton I.R., *Muslim Neoplatonists. An Introduction to the Thought of the Brethren of Purity*, Londres, 1982.
Marquet Y., *La philosophie des Iḫwan al-safa. De Dieu a l'homme*. Lille, 1983.
Urvoy D., *Ibn Rushd (Averroes)*, trad. O. Stewart, Londres-New York, 1991.
— *Pensers d'al Andalus. La vie intellectuelle à Cordoue et Seville au temps des empires berbères*. Paris, 1991.

3. Textes philosophiques

Hayy ben Yaqdhân, roman philosophique d'Ibn Thofail, texte et trad. fr. par L. Gauthier, Beyrouth, 1936.
al-Farabi, *Idées des habitants de la cité vertueuse*, trad. fr. Jaussen *et al.*, Le Caire, 1949.
Ibn Sina (Avicenne), *Livre des directives et remarques*, trad. fr. A.-M. Goichon, Paris, 1951.
Avicenne, *Le récit de Hayy ibn Yaqzan*, trad. H. Corbin, Téhéran, 1953.
The Theologus autodidactus of Ibn al-Nafîs, éd. trad. Meyerhof et Schacht, Oxford, 1968.
Avicenne, *La métaphysique du Shifâ'*, trad. G.C. Anawati, Paris, 1978.
Walzer R., *Al-Fârâbi on the Perfect State*, éd., trad. et commentaire, Oxford, 1983.

4. Sciences

Sarton G., *Introduction to the history of sciences*, 4 vol., Baltimore, 1937-1948.
Massignon L. et Arnaldez R., La science arabe, dans R. Taton, *Histoire générale des sciences*, t. I, Paris, 1957.
Mieli R., *La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale*, rééd. Leyde, 1966.
Ullmann M., *Die Medizin im Islam*, Leyde, 1970.
— *Die Natur- und Geheimwissenschaften im Islam*. Leyde-Cologne, 1972.
— *Islamic Medecine*, Edimbourg, 1978, et trad. fr. *La médecine islamique*. Paris, 1995.
Elgood C., *A Medical History of Persia and the Eastern Caliphate, from the Earliest Times until the Year A.D. 1932*, Amsterdam, 1979.
Dols M., *Medieval Islamic Medicine*, Berkeley, 1984.
Behrens-Abouseif D., *Fath Allah and Abu Zakariyya. Physicians under the Mamluks*, Le Caire, 1987.
Jacquart D. et Micheau Fr., *La médecine arabe et l'Occident médiéval*, Paris, 1990.

I. L'éthique

Mac-Donald D.B., *The Religious attitude and life of Islam*, Chicago, 1909.
Bousquet G.-H., *La morale de l'Islam et son éthique sexuelle*. Paris, 1953.
Akhlâk, dans *Enc. Islam* (2) (par R. Walzer).
Donaldson D.M., *Studies in Muslim ethics*, Londres, 1963.
Charles-Dominique P., Le système éthique d'Ibn al-Muqaffa' d'après ses deux épîtres, *Arabica*, XII, 1965.
Arkoun M., *Miskawayh philosophe et historien*, Paris, 1970.
Hourani G.F., *Islamic Rationalismus. The Ethics of 'Abd al-Jabbar*, Oxford, 1971.
Madelung W., Nasir ad-Din Tusi's Ethics between Philosophy, Shi'ism and Sufism, apud R.G. Hovannisian (ed.), *Ethics in Islam*, Malibu, 1985.
Vadet J.-C., *Les idées morales dans l'islam*, Paris, 1995.

J. Réformisme sunnite et mouvements contemporains

Laoust H., Le réformisme orthodoxe des Salafiya, *Rev. Etudes islamiques*, 1932.
Adams Ch.C., *Islam and Modernism in Egypt*, Londres-Oxford, 1933.
Laoust H., *Le califat dans la doctrine de Rašid Riḍā*, Beyrouth, 1938.
al-Afghani Jamâl al-dîn, *Réfutation des matérialistes*, trad. fr. A.-M. Goichon, Paris, 1942.

Smith W.C., *Modern Islam in India*.
Gibb H.A.R., *Les tendances modernes de l'islam*, trad. fr., Paris, 1949.
Sayyid Qutb, *Social Justice in Islam*, trad. angl. par J.B. Hardie, Washington, 1953.
Jomier J., *Le commentaire coranique du Manār*, Paris, 1954.
Tapiéro N., *Les idées réformistes d'al-Kawākibi*, Paris, 1956.
Schimmel A., *Gabriel's Wing. A Study into the Religious Ideas of Sir Muhammad Iqbal*, Leyde, 1963.
Abdou Mohammed, *Rissalat al-tawhid, Exposé de la religion musulmane*, trad. fr. B. Michel et Moustapha Abdel Razik, Paris, 1965.
Ahmad A., *Islamic Modernism in India and Pakistan, 1857-1964*, Londres, 1967.
Keddie N.R., *An Islamic Response to Imperialism, Political and Religious Writings of Sayyid Jamāl al-din al-Afghāni*, Berkeley, 1968.
Kerr M., *Islamic Reform. The Political and Legal Theories of Muhammad Abduh and Rashid Rida*, Berkeley, 1968.
Pakdaman H., *Djamal-ed-din Assad Abadi dit Afghani*, Paris, 1969.
Mitchell R.P., *The Society of the Muslim Brothers*, Oxford, 1969.
Keddie N.R., *Sayyid Jamāl al-Dīn « al-Afghāni »*, Berkeley, 1972.
Islāh, in *Enc. Islam* (2) (par A. Merad *et al.*).
Schimmel A., *Botschaft des Ostens. Anthologie aus Iqbals poetischen und Prosa-Schriften*, Tübingen, 1977.
Troll Ch.W., *Sayyid Ahmad Khan. A Reinterpretation of Muslim Theology*, Delhi, 1978.
Sabanegh E.S., *Muhammad « Le Prophète », portraits contemporains : Egypte 1930-1950*, Paris, 1981.
Delanoue G., *Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte du XIXe siècle*, 2 vol., Le Caire, 1982.
Rahman Fazlur, *Islam and Modernity. Transformation of an Intellectual Tradition*, Chicago, 1982.
Carré O. et Michaud G., *Les frères musulmans (1928-1982)*, Paris, 1983 ;
Mystique et politique (Lecture révolutionnaire du Coran par Sayyid Qutb, frère musulman radical), Paris, 1984.
Merad A., *L'islam contemporain*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1984 ; rééd. 1995.
Etienne B., *L'islamisme radical*, Paris, 1987.
Le défi du fondamentalisme islamique, Genève, 1988.
Ebert J., *Religion und Reform in der arabischen Provinz. Husayn al-Gisr al-Tarabulusi (1845-1909)*, Francfort-Paris, 1991.

III — HISTOIRE DES ÉTATS ISLAMIQUES JUSQU'AU XVe SIÈCLE

A. Muhammad et les débuts de l'islam

1. Muhammad

Blachère R., *Le problème de Mahomet*, Paris, 1952.
Watt W.M., *Muhammad at Mecca*, Oxford, 1953 ; trad. fr. *Mahomet à la Mekke*, Paris, 1958.
— *Muhammad at Medina*, Oxford, 1956 ; trad. fr. *Mahomet à Médine*, Paris, 1959.
Gaudefroy-Demombynes M., *Mahomet*, Paris, 1957.
Paret R., *Mohammed und der Koran. Geschichte und Verkündigung des arabischen Propheten*, Stuttgart, 1957.
Hamidullah M., *Le Prophète de l'Islam*, 2 vol., Paris, 1959.
Rodinson M., *Mahomet*, Paris, 1961, rééd. 1968.
Watt W.M., *Muhammad Prophet and Statesman*, Oxford, 1961 ; trad. fr. *Mahomet, prophète et homme d'Etat*, Paris, 1962.
Serjeant R.B., The Sunna Jami'ah Pact with the Yathrib Jews and the Tahrim of Yathrib, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 41, 1978.
Cook M., *Muhammad*, Oxford, 1983.

2. Péninsule Arabique

Lammens H., *L'Arabie occidentale à la veille de l'hégire*, Beyrouth, 1928.
Gabrieli F. (ed.), *L'antica società beduina*, Rome, 1959.
Fahd T., *Le panthéon de l'Arabie centrale à la veille de l'hégire*, Paris, 1968.
Trimingham J.S., *Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*, Londres-New York, 1979.
Crone P., *Meccan Trade and the Rise of Islam*, Oxford, 1987.

B. Les grandes conquêtes

Goeje M.J. de, *Mémoires sur la conquête de la Syrie*, Leyde, 1886.
Gibb H.A.R., *The Arab conquests in Central Asia*, Londres, 1923.

Honigmann E., *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches von 363 bis 1071*, Bruxelles, 1935.
Bousquet G.-H., Observations sur la nature et les causes de la conquête arabe, *Studia Islamica*, VI, 1956
Canard M., *Byzance et les musulmans du Proche Orient*, Londres, 1974.
Butler A.J., *The Arab conquest of Egypt*, 2e éd. par P.M. Fraser, Oxford, 1978
Donner F.M., *The Early Islamic Conquests*, Princeton, 1981
Morony M.G., *Iran after the Muslim Conquest*, Princeton, 1984.

C. Les premiers califes *Râshidûn* et les Omeyyades

Wellhausen J., *Das Arabische Reich und sein Sturz*, Berlin, 1902 ; rééd 1960 ; trad. angl. *The Arab Kingdom and its Fall*, Calcutta, 1927.
Lammens H., *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930.
Gabrieli F., *El califfato di Hisham*, Alexandrie, 1936.
Abû Bakr, dans *Enc. Islam* (2) (par W.M. Watt).
'Ali, dans *Enc. Islam* (2) (par L. Veccia Vaglieri)
Sellheim R., *Der zweite Bürgerkrieg in Islam (680-692)*, Wiesbaden, 1970.
Shaban M.A., *The Abbasid Revolution*, Cambridge, 1970.
— *Islamic History A.D. 600-750 (A.H. 132). A new interpretation*, Cambridge, 1971.
Abd Dixon, *The Umayyad Caliphate, 65-96/684-705. A Political Study*, Londres, 1971.
Nagel T., *Untersuchungen zur Entstehung des abbasidischen Kalifats*, Bonn, 1972.
Sayed R., *Die Revolte des Ibn al-Ash'ath und die Koranleser*, Fribourg-en-B., 1977.
Rotter G., *Die Umayyaden und der zweite Bürgerkrieg (680-692)*, Wiesbaden, 1983.
Sharon M., *Black Banners from the East*, I, Jérusalem, 1983.
Blichfeldt J.-O., *Early Mahdism. Politics and Religion in the Formative Period of Islam*, Leyde, 1985.
Crone P. et Hinds M., *God's Caliph. Religious Authority in the First Centuries of Islam*, Cambridge, 1986.
Hawting G.R., *The First Dynasty of Islam. The Umayyad Caliphate AD 661-750*, Londres-Sydney, 1986.
Crone P., *Roman, Provincial and Islamic Law. The Origins of the Islamic Patronate*, Cambridge, 1987.
Eisener R., *Zwischen Faktum und Fiktion. Eine Studie zum Umayyaden Kalifen Sulaimân b.'Abdalmalik und seinem Bild in den Quellen*, Wiesbaden, 1987.
Hamilton R., *Walid and his Friends. An Umayyad Tragedy*, Oxford, 1988.
Djait H., *La grande discorde. Religion et politique dans l'Islam des origines*, Paris, 1989.
Gil M., *A History of Palestine, 634-1099*, Cambridge, 1992.
Sharon M., *Black Banners from the East. II. Revolt, the Social and Military Aspects of the 'Abbasid Revolution*, Jérusalem, 1992.

D. Le califat abbasside

1. Les débuts

Gabrieli F., *al-Ma'mûn e gli Alidi*, Leipzig, 1929.
Wiet G., *L'Egypte arabe, de la conquête arabe à la conquête ottomane*, Paris, 1934.
Abbott N., *Two Queens of Bagdad*, Chicago, 1946.
Herzfeld E., *Geschichte der Stadt Samarra*, Hambourg, 1948.
Sourdel D., *Le vizirat 'abbâside*, Damas, 1959-1960
— La politique religieuse des successeurs d'al-Mutawakkil, *Studia Islamica*, XIII, 1960.
— La politique religieuse du calife al-Ma'mûn, *Revue Etudes islamiques*, 1962.
Tollner H., *Die türkischen Garden am Kalifenhof von Samarra*, Walldorf, 1971
Shaban M.A., *Islamic History, A new Interpretation, Vol. 2 : A.D. 750-1055 (A.H. 132-448)*, Cambridge, 1976.
Popovic A., *La révolte des esclaves en Iraq au IIIe/IXe siècle*, Paris, 1976.
Daniel E.L., *The Political and Social History of Khurasan under Abbasid Rule 747-820*, Minneapolis-Chicago, 1979
Lassner J., *The Shaping of Abbasid Rule*, Princeton, 1980.
Kennedy H., *The Early Abbasid Caliphate*, Londres-Totowa, 1981.
Sourdel D., Gouvernement et administration dans l'Orient islamique jusqu'au milieu du XIe siècle, apud *Regierung und Verwaltung des vorderen Orients in islamischer Zeit. Handbuch der Orientalistik*, B. Spuler (ed.), I 6-5/2, Leyde, 1988.

2. Du Xe au XIIIe siècle

Bowen H., *The Life and Times of 'Ali b.'Isâ. The Good Vizier*, Cambridge-Londres, 1928.
Canard M., *Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazîra et de Syrie*, Alger, 1951.
Makdisi G., *Ibn 'Aqil et la résurgence de l'islam traditionaliste au XIe siècle*, Damas, 1963.
Busse H., *Chalif und Grosskönig. Die Buyiden im Iraq*, Beyrouth, 1969.
Zakkar S., *The emirate of Aleppo. 1004-1094*, Beyrouth, 1971.

Richards D.S. (ed.). *Islamic Civilization, A.D. 950-1150*, Oxford, 1973.
Hartmann A., *An Nāṣir li-Dīn Allah (1180-1251)*, Berlin, 1975.
Mottahedeh R.P., *Loyalty and Leadership in an Early Islamic Society*, Princeton, 1980.
Sabari S., *Mouvements populaires à Baghdad à l'époque abbasside*, Paris, 1981.
Glassen E., *Der mittlere Weg. Studien zur Religionspolitik und Religiosität der späteren Abbasidenzeit*, Wiesbaden, 1981.
Miquel A., *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIe siècle*, t. IV : *Les travaux et les jours*, Paris, 1988.
Renault Fr., *La traite des Noirs au Proche-Orient médiéval, VIIe-XIVe siècles*, Paris, 1989.

E. Les Fatimides

(voir aussi II F 3 ; Ismaïlisme)

Wiet G., *L'Egypte arabe, de la conquête arabe à la conquête ottomane*, Paris, 1934.
Fatimides, dans *Enc. Islam* (2) (par M. Canard).
Canard M., *Miscellanea orientalia*, Londres, 1973.
Ess J. van, *Chiliastische Erwartungen und die Versuchung der Göttlichkeit, der Kalif al-Hakim*, Heidelberg, 1977.
Beshir B.J., Fatimid Military Organization, *Der Islam*, LV, 1978.
Halm H., Die Söhne Zikrawayhs und das erste fatimidische Kalifat, *Die Welt des Orients*, X, 1979.
Dachraoui F., *Le califat fatimide au Maghreb*, Tunis, 1981.
Halm H., Der Treuhänder Gottes. Die Edikte des Kalifen al-Hakim, *Der Islam*, LXIII, 1986.
Bianquis Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide (359-468/969-1076)*, 2 vol., Damas, 1986 et 1989.
al-Imad L.S., *The Fatimid Vizierate, 969-1172*, Berlin, 1990.
Halm H., *Das Reich des Mahdi. Der Aufstieg der Fatimiden (875-973)*, Munich, 1991, trad. angl., Leyde, 1996.
Lev Y., *State and Society in Fatimid Egypt*, Leyde, 1991.

F. Les dynasties d'Asie centrale, Iran et Inde

Barthold W., *Turkestan down to the Mongol Invasion*, Londres, 1926.
The Cambridge History of India, III, Cambridge, 1928.
Spuler B., *Die Mongolen in Iran. Politik, Verwaltung und Kultur der Ilchanzeit, 1220-1350*, Berlin, 1939 ; 4e éd., Leyde, 1985.
— *Iran in frühislamischer Zeit*, Wiesbaden, 1952.
Bosworth C.E., *The Ghaznavids. Their Empire in Afghanistan and Eastern Iran, 944-1040*, Edimbourg, 1963.
Spuler B., *Die Goldene Horde. Die Mongolen in Russland 1223-1502*, 2e éd., Wiesbaden, 1965.
Qureshi I.H., *The Muslim Community of the Indo-Pakistan Subcontinent, 610-1047. A Brief Historical Analysis*, 1962 ; 2e éd., Karachi, 1977.
A Comprehensive History of India, vol. V : *The Delhi Sultanat 1206-1526*, Delhi, 1970.
Smith J.M., *The History of the Sarbadâr dynasty, 1336-1381 A.D., and its Sources*, La Haye-Paris, 1970.
Hind, dans *Enc. Islam* (2) (par S. Maqbul Ahmad *et al.*).
Saunders J.J., *The History of the Mongol Conquests*, Londres, 1971.
Klausner C.L., *The Seljuk Vizierate. A Study of Civil Administration, 1055-1194*, Cambridge, 1973.
The Cambridge History of Iran, IV, Cambridge, 1975.
Bosworth C.E., *The Later Ghaznavids. Splendour and Decay*, Edimbourg, 1977.
Schimmel A., *Islam in the Indian Subcontinent*, Leyde-Cologne, 1980.
Lambton A.K.S., *Continuity and Change in Medieval Persia. Aspects of Administrative, Economic and Social History, 11th-14th century*, Londres, 1988.
Mac Lean D.N., *Religion and Society in Arab Sind*, Leyde, 1989.
Wink A., *al-Hind. The Making of the Indo-Islamic World*, vol. I, *Early Medieval India and the Expansion of Islam*, Leyde, 1990.

G. Les dynasties post-seljoukides de Syrie, d'Egypte et d'Anatolie

Wittek P., *Das Fürstentum Mentesche*, Istanbul, 1934, réimp. 1967.
Cahen C., *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades*, Paris, 1940.
Setton K.M. (ed), *A History of the Crusades*, t. I à V, Philadelphie, 1955-1962 ; Madison, 1964-1985.
Gottschalk H.L., *Al-Malik al-Kâmil von Egypten und seine Zeit*, Wiesbaden, 1958.
Ayyoubides, dans *Enc. Islam* (2) (par C. Cahen).
Gabrieli F., *Storici arabi delle Crociate*, Turin, 1963, et trad. fr. *Chroniques arabes des Croisades*, Paris, 1977.
Elisséeff N., *Nûr al-Dîn 511-569/1118-1174*, 3 vol., Beyrouth, 1967.
Sivan E., *L'Islam et la Croisade. Idéologie et propagande dans les réactions musulmanes aux croisades*, Paris, 1968.
The Cambridge History of Iran, V, Cambridge, 1968.

Cahen C., *Preottoman Turkey*, Londres, 1968 ; version fr. *La Turquie préottomane*, Istanbul, 1988.
Vryonis S., *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor*, Berkeley-Los Angeles-Londres, 1970.
Ehrenkreutz A.S., *Saladin*, Albany, 1972.
Rabie H., *The Financial System of Egypt, 564-741/1169-1341*, Oxford, 1972.
Cahen C., *Turco-Byzantina et Oriens christianus*, Londres, 1974.
Humphreys St., *From Saladin to the Mongols. The Ayyubids of Damascus, 1193-1260*, Albany, 1977.
Lyons M.C. et Jackson D.E.P., *Saladin. The Politics of the Holy War*, Cambridge, 1982.
Cahen C., *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris, 1983.
Zachariadou E.A., *Trade and Crusade. Venetian Crete and the emirates of Menteshe and Aydin (1300-1415)*, Venise, 1983.
Holt P.M., *The Age of the Crusades. The Near East from the Eleventh Century to 1517*, Londres, 1986.
Pouzet H., *Damas au VIIe/XIIIe siècle. Vie et structures religieuses d'une métropole islamique*, Beyrouth, 1988.
Mouton J.-M., *Damas et sa principauté sous les Seljoukides et les Bourides*, Le Caire, 1994.
Eddé A.-M., *La principauté ayyoubide d'Alep* (à paraître).

H. Maghreb

(voir aussi III E : Les Fatimides)

Brunschvig R., *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, 2 vol., Paris, 1940-1947.
Marçais G., *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris, 1946.
Terrasse H., *Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français*, Casablanca, 1949-1950.
Julien Ch.A., *Histoire de l'Afrique du Nord*, 1re éd., Paris, 1951-1952, et rééd.
Bosch Vila J., *Los Almoràvides*, Tétouan, 1956.
Huici Miranda A., *Historia politica del Imperio almohade*, Tétouan, 1956-1957.
Idris H.R., *La Berbérie orientale sous les Zirides, Xe-XIIe siècles*, 2 vol., Paris, 1962.
Talbi M., *L'Emirat aghlabide 184-296/800-909. Histoire politique*, Paris, 1966.
Le Tourneau R., *The Almohad Movement in North Africa in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Princeton, 1969.
Thoden R., *Abu'l-Hasan Ali. Merinidenpolitik zwischen Nordafrika und Spanien in den Jahren 710-752 h./1310-1351*, Fribourg, 1973.
Shatzmiller M., Les premiers Mérinides et le milieu religieux de Fès : l'introduction des médersas, *Studia Islamica*, XLIII, 1976.
Forstner M., *Das Wegenetz des zentralen Maghreb im islamischen Zeit*, Wiesbaden, 1979.
Kably M., *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986.
Khaneboubi A., *Les premiers sultans mérinides, 1269-1331*, Paris, 1987.
Zerouki B., *L'imamat de Tahart*, t. I, Paris, 1987.
Lagardère V., *Les Almoravides jusqu'au règne de Yūsuf b. Tašfin (1039-1106)*, Paris, 1989.
Triki H. *et al.*, *Tinmel, l'épopée almohade*, [Rabat], 1992.

I. Espagne et Sicile

(voir aussi III H : Maghreb)

Amari M., *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 2e éd. par C.A. Nallino, 3 vol., Catane, 1933-1939.
Lévi-Provençal E., *Histoire de l'Espagne musulmane*, 3 vol., Paris, 1944-1953.
Gonzalez Palencia A., *Historia de la España musulmana*, 4e éd., Madrid, 1948.
Terrasse H., *Islam d'Espagne*, Paris, 1958.
Gabrieli F. et Scerrato U., *Gli Arabi in Italia*, Milan, 1970.
Arié R., *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492)*, Paris, 1973, nouv. éd. 1990.
Ahmad A., *A History of Islamic Sicily*, Edimbourg, 1975, et trad. fr. *La Sicile islamique*, Paris, 1990.
Arié R., *España musulmana (siglos VIII-XV)*, t. III de *Historia de España*, Barcelone, 1980.
Wasserstein D.J., *The Rise and Fall of the Party-Kings : Politics and Society in Islamic Spain, 1002-1086*, Princeton, 1985.
Lagardère V., *Le vendredi de Zallaqa, 23 octobre 1086*, Paris, 1989.
Smith C.L., *Christians and Moors in Spain*, vol. I et II, Warminster, 1989.
Guichard P., *Les musulmans de Valence et la Reconquête (XIe-XIIIe siècles)*, 2 vol., Damas, 1990-1991.
— *L'Espagne et la Sicile musulmane aux XIe et XIIe siècles*, Lyon, 1990.
Melville Ch. et Ubaydli A., *Christians and Moors in Spain*, vol. III : *Arabic Sources*, Warminster, 1992.
Martinez-Gros G., *L'idéologie omeyyade. La construction de la légitimité du Califat de Cordoue (Xe-XIe siècles)*, Madrid, 1992.
Jayyusi (ed.), *The Legacy of Muslim Spain*, Leyde, 1992.
Wasserstein D.J., *The Caliphate in the West. An Islamic Political Institution in the Iberian Peninsula*, Oxford, 1993.
Picard C., *Le Portugal et l'Espagne occidentale à l'époque musulmane*, Paris, 1994.

J. Les Mamlouks

Gaudefroy-Demombynes M., *La Syrie à l'époque des Mamelouks*, Paris, 1923.
Dodwell H.H., *The Founder of Modern Egypt. A Study of Muhammad Ali*, Cambridge, 1931 ; 2e éd., 1967.
Mayer L.A., *Saracenic Heraldry*, Oxford, 1933.
Wiet G., *L'Egypte arabe*, Paris, 1934.
Poliak A.N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon*, Londres, 1939.
Ayalon D., *L'esclavage du Mamelouk*, Jérusalem, 1951.
Gunpowder and Fire arms in the Mamluk Kingdom, Londres, 1956.
Darrag A., *L'Egypte sous le règne de Barsbay*, Damas, 1961.
Rabie H., *The Financial System of Egypt, A.H. 564-741/A.D. 1169-1341*, Londres, 1972.
Dols M.W., *The Black Death in the Middle East*, Princeton, 1977.
Ayalon D., *Studies on the Mamluks of Egypt (1250-1517)*, Londres, 1977.
— *The Mamluk Military Society*, Londres, 1979.
Halm H., *Aegypten nach den mamlukischen Lehensregistern*, 2 vol., Wiesbaden, 1979-1982.
Nielsen J.S., *Secular Justice in a Islamic State. Mazalim under the Bahri Mamluks*, Leyde, 1985.
Irwin R., *The Middle East in the Middle Ages. The Early Mamluk Sultanate, 1250-1382*, Londres, 1986.
Thorau P., *Sultan Baibars I. von Ägypten. Beitrag zur Geschichte des Vorderen Orients im 13. Jahrhundert*, Wiesbaden, 1987.
Ayalon D., *Islam and the Abode of War. Military Slaves and the Adversaries of Islam*, Londres, 1994.
— *Le phenomene mamlouk au Proche-Orient*, Paris, 1996.

IV — HISTOIRE DES ÉTATS ISLAMIQUES DE 1400 À 1914

A. Empire ottoman

Koprülü M.F., *Les origines de l'Empire ottoman*, Paris, 1935.
Wittek P., *The Rise of Ottoman Empire*, Londres, 1938, rééd. 1965.
Gibb H.A.R. et Bowen H., *Islamic Society and the West*, vol. I, *Islamic Society in the Eighteenth Century*, Oxford, 1950-1957.
Babinger F., *Mahomet le conquérant et son temps*, Paris, 1954.
Lewis B., *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, Norman, 1963 ; trad. fr. *Istanbul et la civilisation ottomane*, Paris, 1990.
Ramsaur E.E., *The Young Turks. Prelude to the Revolution of 1908*, Beyrouth, 1965.
Ahmad F., *The Young Turks. The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914*, Oxford, 1969.
Inalcik H., *The Ottoman Empire. The Classical Age 1300-1600*, Londres, 1973.
Shaw S.J. et Shaw E.K., *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, 2 vol., Cambridge, 1976-1977.
Inalcik H., *The Ottoman Empire. Conquest, Organization and Economy*, Londres, 1978.
Findley C.V., *Bureaucracy Reform in the Ottoman Empire. The Sublime Porte, 1789-1822*, Princeton, 1980.
Beldiceanu N., *Le Timar dans l'Etat ottoman (début xiv-début xvi siècle)*, Wiesbaden, 1980.
Alexandra-Dersca M.-M., *La campagne de Timur en Anatolie (1402)*, Londres, 1982.
Braude B. et Lewis B. (eds), *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, 2 vol., New York-Londres, 1982.
Kunt I.M., *The Sultan's Servants. The Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550-1650*, New York, 1983.
Repp R.C., *The Mufti of Istanbul*, Londres, 1986.
Bacqué-Grammont J.-L., *Les Ottomans, les Safavides et leurs voisins. Contribution à l'étude des relations internationales dans le Moyen-Orient de 1514 a 1524*, Istanbul, 1987.
Mantran R. (éd.), *Histoire de l'Empire ottoman*, Paris, 1987.
Weinstein G. (éd.), *Soliman le Magnifique et son temps*, Paris, 1992.

B. Proche-Orient arabe à l'époque ottomane

Shaw S.J., *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*, Princeton, 1962.
Holt P.M., *Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922*, Ithaca, 1966.
Chevallier D., *La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe*, Paris, 1971.
Cohen A., *Palestine in the 18th Century. Patterns of Government and Administration*, Jérusalem, 1973.
L'Egypte au xix siècle, Paris, 1982.
Abdel Nour A., *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (xvi-xviii siècles)*, Beyrouth, 1982.
Marsot L.A.S., *Egypt in the Reign of Muhammad 'Ali*, Cambridge, 1983.
Hunter F.R., *Egypt under the Khedives, 1805-1879*, Pittsburgh, 1984.

Marcus A., *The Middle East on the Ere of Modernity. Aleppo in the Eighteenth Century*, New York, 1989.
Toledano E.R., *State and Society in Mid-Nineteenth Century Egypt*, Cambridge, 1990.

C. Maghreb

Massignon L., *Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle*, Paris, 1906.
Cour A., *La dynastie marocaine des Beni Ouattas*, Constantine, 1920.
Lévi-Provençal E., *Les historiens des Chorfa*, Paris, 1922.
Le Tourneau R., *Les débuts de la dynastie sa'dienne*, Alger, 1954.
Ricard R., *Mazagan et le Maroc sous le règne du sultan Moulay Zidan (1608-1627)*, Paris, 1956.
— *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Paris, 1956.
Miège J.L., *Le Maroc et l'Europe (1838-1894)*, 4 vol., Paris, 1961-1963.
Julien Ch.-A., *Histoire de l'Algérie contemporaine*, t. I *(1827-1871)*, Paris, 1964, 2e éd. 1979.
Valensi L., *Le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830)*, Paris, 1969.
La Véronne Ch. de, *Vie de Moulay Isma'il, roi de Fès et du Maroc d'après Joseph de Léon (1708-1728)*, Paris, 1974.
Brown L.C., *The Tunisia of Ahmad Bey 1837-1855*, Princeton, 1974.
Krieken G.S. van, *Kheyr al-Din et la Tunisie (1850-1881)*, Leyde, 1976.
Cherif M.H., *Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn Bin 'Ali (1705-1740)*, 2 vol., Tunis, 1984-1986.
Laurens H., *Le royaume impossible. La France et la genèse du monde arabe*, Paris, 1990.

D. Afrique noire

Trimingham J.S., *Islam in the Sudan*, Oxford, 1949.
— *Islam in Ethiopia*, Oxford, 1952, rééd. 1965.
Holt P.M., *The Mahdist State of the Sudan, 1881-1898*, Oxford, 1958.
Trimingham J.S., *Islam in West Africa*, Oxford, 1959.
Freeman-Grenville G.S.P., *Medieval History of the Coast of Tanganika*, Oxford, 1962.
Gray J.M., *History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856*, Oxford, 1962.
Trimingham J.S., *A History of Islam in West Africa*, Londres, 1963.
— *Islam in East Africa*, Oxford, 1964.
Fadl Hasan Y., *The Arabs and the Sudan*, Edimbourg, 1967.
Trimingham J.S., *The Influence of Islam upon Africa*, Londres, 1968.
Fisher A.C. et Fisher H.J., *Slavery and Muslim Society in Africa*, Londres, 1970.
Triaud J.-L., *Islam et sociétés soudanaises au Moyen Age*, Paris, 1973.
Cissoko S.M., *Tombouctou et l'Empire Songhay. Epanouissement du Soudan nigérien aux XVe-XVIe siècles*, Dakar, 1975.
Ly-Tall M., *L'empire du Mali*, Dakar, 1977.
Smaldone J.P., *Warfare in the Sokoto Caliphate : Historical and Sociological Perspectives*, Londres, 1977.
Zouber M.A., *Ahmad Bâbâ de Tombouctou (1556-1627). Sa vie et son œuvre*, Paris, 1977.
The Cambridge History of Africa, vol. III, Cambridge, 1977.
Holt P.M. et Daly M.W., *History of the Sudan from the Coming of Islam to the Present Day*, 3e éd., Londres, 1979.
Cuoq J., *L'islam en Ethiopie des origines au XVIe siècle*, Paris, 1981.
Jacques-Meunié Dj., *Le Maroc saharien des origines à 1670*, Paris, 1982.
Cuoq J., *Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest*, Paris, 1984.
Robinson D., *The Holy War of Umar Tall. The Western Sudan in the Mid-Nineteenth Century*, Oxford, 1985.
Cuoq J., *Islamisation de la Nubie chrétienne, VIIe-XVIe siècles*, Paris, 1986.
Norris H.T., *The Arab Conquest of the Western Sahara*, Beyrouth, 1986.
Sulaiman I., *A Revolution of History. The Jihad of Usman Dan Fodio*, Londres, 1986.
The Islamic State and the Challenge of History. Ideals, Policies and Operation of the Sokoto Caliphate, Londres, 1987.

E. Iran et Asie centrale

(voir aussi II F 2 : Imamisme duodécimain)

Browne E.G., *The Persian Revolution of 1905-1909*, Cambridge, 1910.
Hinz W., *Irans Aufstieg zum Nationalstaat im fünfzehnten Jahrhundert*, Berlin, 1936.
Lockhart L., *Nadir Shah*, Londres, 1938.
Lambton A.K.S., Quis custodiet custodes ? Some reflections on the Persian Theory of Government, *Studia Islamica*, V, 1956.
Lockhart L., *The Fall of the Safavide Dynasty and the Afghan occupation of Persia*, Cambridge, 1958.
Algar H., *Religion and State in Iran 1758-1906. The Role of the Ulama in the Qajar Period*, Berkeley-Los Angeles, 1969.
Mazzaoui M.M., *The Origins of the Safavids. Šī'ism, Ṣūfism and the Ġulāt*, Wiesbaden, 1972.
Nashat G., *The Origins of Modern Reform in Iran, 1870-1880*, Urbana-Chicago-Londres, 1973.

Woods J.E., *The Aqquyunly. Clan, Confederation, Empire. A Study in 15th/9th Century Turko-Iranian Politics*, Chicago, 1976.
Savory R.M., *Iran under the Safavids*, Cambridge, 1980.
Bosworth C.E. et Hillenbrand C. (eds), *Qajar Iran. Political, Social and Cultural Change 1800-1925*, Edimbourg, 1983.
The Cambridge History of Iran, vol. VI, *The Timurid and Safavid Periods*, Cambridge, 1986.
Haneda M., *Le Châh et les Qizilbâs. Le système militaire safavide*, Berlin, 1987.
Manz B.F., *The Rise and Rule of Tamerlane*, Cambridge, 1989.
Allworth E.A., *The Modern Uzbeks from the Fourteenth Century to the Present. A Cultural History*, Stanford Univ., 1990.
Migeod H.G., *Die persische Gesellschaft unter Nasiru'd-Din Šah (1848-1896)*, Berlin, 1990.

F. Inde et Asie orientale

Lane-Poole St., *History of India. From the Reign of Akbar the Great to the Fall of the Moghul Empire*, Londres, 1906, rééd. 1975.
The Cambridge History of India, vol. IV, Cambridge, 1937.
Lombard D., *Le sultanat d'Atjeh*, Paris, 1967.
Hind et *Indonésie*, dans *Enc. Islam* (2) (par S. Maqbal Ahmad, P. Wheatley *et al.*).
Bouchon G., Les musulmans du Kerala à l'époque de la découverte portugaise, dans *Mare Luso-Indicum*, II, Genève-Paris, 1973.
Schimmel A., *Islam in the Indian Subcontinent*, Leyde, 1980.
Barnett R.B., *North India Between Empires. Awadh, the Mughals and the British 1720-1801*, Berkeley-Los Angeles, 1980.
Metcalf B.D., *Islamic Revival in British India : Deoband 1860-1900*, Princeton, 1982.
Wink A., *Land and Sovereignty in India. Agrarian Society and Politics under the Eighteenth-century Maratha Suarajya*, Cambridge, 1983.
Leslie D.D., *Islam in Traditional China. A Short History to 1800*, Canberra, 1986.
Alam M., *The Crisis of Empire in Mughal North India : Awadh and the Pinjab*, Delhi, 1987.
Bouchon G., *L'Asie du Sud à l'époque des grandes découvertes*, Londres, 1987.
Ahmad A., *An Intellectual History of Islam in India*, Edimbourg, 1989.
Farooqi N.R., *Mughal-Ottoman Relations. A Study of Political and Diplomatic Relations between Mughal India and the Ottoman Empire, 1556-1748*, Delhi, 1989.
Streusand D.E., *The Formation of the Mughal Empire*, Delhi, 1989.
Malaise (péninsule), dans *Enc. Islam* (2) (par L.Y. Andaya).

V — HISTOIRE DES ÉTATS ISLAMIQUES À L'ÉPOQUE CONTEMPORAINE

A. Généralités

(voir aussi II J : Réformisme sunnite et mouvements contemporains)

Antonius G., *The Arab Awakening*, Londres, 1938.
Massignon L., *Annuaire du monde musulman*, 4e éd. rev. par V. Monteil, Paris, 1954.
Zeine Z.N., *Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism*, Beyrouth, 1958.
Gabrieli F., *The Arab Revival*, Londres, 1961.
Hourani A., *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*, Cambridge, 1962, rééd. 1983.
Smith W.C., *L'Islam dans le monde moderne*, trad. fr., Paris, 1962.
Hanna S.A. et Gardner G.H., *Arab Socialism*, Leyde, 1969.
Ule W., *Der arabische Sozialismus und der zeitgenössische Islam*, Opladen, 1969.
Colombe M., *Orient arabe et non-engagement*, Paris, 1977.
Yazbeck-Haddad Y., *Contemporary Islam and the Challenge of History*, Albany, 1982.
Rondot Ph., *Le Proche-Orient à la recherche de la paix, 1979-1982*, Paris, 1982.
Chabry L. et A., *Politiques et minorités au Proche-Orient*, Paris, 1984.
Delval R., *A Map of the Muslims in the World, Explanatory Summary with Statistic Tables*, Leyde, 1984.
Balta P., *L'islam dans le monde*, Paris, 1986.
Djalili M.R., *Diplomatie islamique. Stratégie internationale du Khomeynisme*, Paris, 1989.
Schulze R., *Islamischer Internationalismus im 20. Jahrhundert, Untersuchungen zur Geschichte der islamischen Weltliga*, Leyde, 1990.
Landau J.M., *The Politics of Pan-Islam. Ideology and Organization*, Oxford, 1990.
Laurens H., *Le grand jeu. Orient arabe et rivalités internationales*, Paris, 1990.
Flory M. (éd.), *Les régimes politiques arabes*, Paris, 1990.

Inde W. et Steinbach U., *Der Islam in der Gegenwart*, Munich, 1991.
Planhol X. de, *Les nations du Prophète*, Paris, 1992.
Carré O., *Le nationalisme arabe*, Paris, 1993.

B. Turquie

Mantran R., *Histoire de la Turquie*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1952.
Benoist-Méchin J., *Mustapha Kemal*, Paris, 1964.
Lewis B., *The Emergence of Modern Turkey*, Oxford, 1961, trad. fr. *Islam et laïcité. La naissance de la Turquie moderne*, Paris, 1988.
Berkes N., *The Development of Secularism in Turkey*, Montréal, 1964.
Jacob P.X., *L'enseignement religieux dans la Turquie moderne*, Berlin, 1982.
Jevakhoff A., *Kemal Atatürk*, Paris, 1989.

C. Egypte

L'Egypte indépendante 1937, Paris, 1938.
Tomiche N., *L'Egypte moderne*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1966.
Berque J., *L'Egypte : impérialisme et révolution*, Paris, 1967.
Vatikiotis P., *The Modern History of Egypt*, New York, 1969 ; rééd. 1976 et 1980 sous le titre *The History of Egypt*.
Lacouture J., *Nasser*, Paris, 1971.
Deeb M., *Party Politics in Egypt : the Wafd and its Rivals, 1919-1939*, Londres, 1979.
Smith Ch.D., *Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt. A Biography of Mohammad Husayn Haykal*, Albany, 1983.
Waterbury J., *The Egypt of Nasser and Sadate*, Princeton, 1983.
L'Egypte d'aujourd'hui, Paris, 1988.

D. Proche-Orient arabe

1. Arabie

Benoist-Méchin J., *Ibn Séoud ou la naissance d'un royaume*, Paris, 1955.
Tur J.-J., *Les émirats du Golfe arabe*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1976.
Habib J.S., *Ibn Sa'ud's Warriors of Islam. The Ikhwan of Najd and Their Role in the Creation of the Sa'udi Kingdom, 1910-1930*, Leyde, 1978.
Bouteillier G. de, *L'Arabie Saoudite : cité de Dieu, cité des affaires, puissances internationales*, Paris, 1981.
Bonnenfant P. (éd.), *La péninsule Arabique d'aujourd'hui*, Paris, 1982.
Heard-Bey F., *From Trucial States to United Arab Emirates*, Londres-New York, 1982.
Chelhod J. (éd.), *L'Arabie du Sud, histoire et civilisation*, 3 vol., Paris, 1984.
Daum W., *Yemen, 3000 Jahre Kunst und Kultur des glücklichen Arabien*, Innsbruck, 1987.
Zorgbibe Ch., *Géopolitique et histoire du Golfe*, Paris, 1991.
Slot B.J., *The Origins of Kuwait*, Leyde, 1991.

2. Jordanie

Goichon A.-M., *Jordanie réelle*, 2 vol., Paris, 1967-1972.
Rondot Ph., *La Jordanie*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1980.
Salibi K.S., *A Modern History of Jordan*, Londres, 1993.

3. Liban

Salibi K.S., *The Modern History of Lebanon*, Londres, 1965.
Picaudou N., *La déchirure libanaise*, Bruxelles, 1989.
Corm G., *Liban, les guerres de l'Europe et l'Orient, 1840-1992*, Paris, 1992.
Hourani A. et Shehadi N., *The Lebanese in the World. A Century of Emigration*, Londres, 1992.

4. Syrie

Devlin J.F., *The Ba'th Party. A History from its Origins to 1966*, Stanford, 1976.
Rondot Ph., *La Syrie*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1978.
Dam N. van, *The Struggle for Power in Syria. Sectarianism, Regionalism and Tribalism in Politics, 1961-1980*, Londres, 1980.
Raymond A. (éd.), *La Syrie d'aujourd'hui*, Paris, 1980.
Roberts D., *The Ba'th and the creation of modern Syria*, Londres, 1987.
Kienle E., *Ba'th versus Ba'th. The Conflict between Syria and Iraq*, Londres, 1990.

5. Irak

Rondot Ph., *L'Irak*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1979.
Saint-Prot Ch., *Saddam Hussein*, Paris, 1988.
Luizard P.-J., *La formation de l'Irak contemporain. Le rôle politique des ulémas chiites à la fin de la domination ottomane et au moment de la création de l'Etat*, Paris, 1991.

E. Maghreb

1. Généralités

Le Tourneau R., *Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane, 1920-1961*, Paris, 1962.
Laroui A., *L'histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 1970.
Balta P., *Le grand Maghreb. Des indépendances à l'an 2000*, Paris, 1990.
Ganiage J., *Histoire du Maghreb contemporain*, Paris, 1993.

2. Libye

Flory M. (éd.), *La Libye nouvelle, rupture et continuité*, Paris, 1975.
Martel A., *La Libye, 1835-1990. Essai de géopolitique historique*, Paris, 1991.
Burgat F. et Laronde A., *La Libye*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1996.

3. Tunisie

Raymond A. et Poncet J., *La Tunisie*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1977.
Camau M., *La Tunisie*, Paris, 1989.

4. Algérie

Charnay J.-P., *La vie musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de la première moitié du XX siècle*, Paris, 1965, rééd. 1991 (avec annexe sur la situation récente).
Ageron Ch.-R., *Histoire de l'Algérie contemporaine*, t. 2 *(1871-1954)*, Paris, 1979.
Deheuvels L.W., *Islam et pensée contemporaine en Algérie. La revue « Al-Asala », 1971-1981*, Paris, 1991.

5. Maroc

Miège J.-L., *Le Maroc*, coll. « Que sais-je ? », Paris, 1950.
Lacouture S. et J., *Le Maroc à l'épreuve*, Paris, 1958.
Laroui A., *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain*, Paris, 1977.
Eickelman D.F., *Knowledge and Power in Morocco*, Princeton, 1985.

F. Afrique noire

Monteil V., *L'Islam noir*, Paris, 1964.
Abdel-Rahim M., *Imperialism and Nationalism in the Sudan : a Study in Constitutional and Political Development, 1899-1956*, Londres, 1969.
Froelich J.-C., *Les Musulmans d'Afrique noire*, Paris, 1972.
Harrison C., *France and Islam in West Africa, 1860-1960*, Cambridge, 1988.
Lavergne M., *Le Soudan contemporain. De l'invasion turco-égyptienne à la rébellion africaine, 1821-1989*, Paris, 1989.

G. Iran

(voir aussi II F 2 : Imamisme duodécimain)

Hairi A., *Shi'ism and Constitutionalism in Iran. A Study of the Role Played by the Persian Residents of Iraq in Iranian Politics*, Leyde, 1977.
Akhavi S., *Religion and Politics in Contemporary Iran : Clergy-State Relations in the Pahlavi Period*, Albany, 1980.
Ezzati A.F., *The Revolutionary Islam and the Islamic Revolution*, Téhéran, 1981.
Keddie N.R., *Roots of Revolution*, Yale, 1981.
Keddie N.R. et Hooglund E. (eds), *The Iranian Revolution and the Islamic Republic*, Ann Arbor, 1982.
Abrahamian E., *Iran Between Two Revolutions*, Princeton, 1982.
Algar H., *The Roots of Islamic Revolution*, Londres, 1983.
Keddie N.R. (ed.), *Religion and Politics in Iran. Shi'ism from Quietism to Revolution*, New Haven-Londres, 1983.
Benard Ch. et Halilzad Z., *« The Government of God », Iran's Islamic Republic*, New York, 1984.
Bashiriyeh H., *The State and Revolution in Iran 1962-1982*, Londres, 1984.
Arjomand S.A., *From Nationalism to Revolutionary Islam*, Londres, 1984.

H. Océan Indien, Pakistan, Inde et Indonésie

Gassita R.N., L'islam à l'Ile Maurice, *Revue du monde musulman*, XXI, 1912.
Benedict B., *Mauritius . the Problems of a Plural Society*. Londres, 1965.
Hamid A., *Muslim Separatism in India. A Brief Survey 1858-1947*, Lahore. 1967.
Testa Fr. de, *Le Pakistan*, Paris. 1968.
Ahmad A. et Grunebaum G.E. von, *Muslim Self-Statement in India and Pakistan, 1857-1968*, Wiesbaden. 1970
Monteil V., *Indonésie*, Paris. 1970 et 1972.
Korson J.H. (ed.), *Contemporary Problems of Pakistan*, Leyde. 1974.
L'islam en Indonésie, *Archipel*, n[os] 29 et 30.
Riklefs M.B., *A History of Modern Indonesia*, Londres, 1981.
Boland B.J., *The Struggle of Islam in Modern Indonesia*, La Haye, 1982
Andaya B.W. et L.Y., *A History of Malaysia*, Londres, 1982
Forbes A.D.W. (ed.), *The Muslims of Thailand*, vol. 1, 1988.
Loyre-de-Hautecloque Gh., *A la recherche de l'Islam philippin. La communauté maranao*, Paris, 1989.
Lombard D., *Le carrefour javanais. Essai d'histoire globale*, 3 vol., Paris, 1990.
Bowen J.R., *Muslims through Discourse. Religion and Rituel in Gayo Society*. Princeton, 1993.
Steenbrink K., *Dutch Colonialism and Indonesian Islam. Contacts and Conflicts 1596-1950*, Amsterdam, 1993.
Schubel V.J., *Religious Performance in Contemporary Islam. Shi'i Devotional Rituels in South Asia*, Columbia, 1993.

I. Divers (Europe, Amérique)

Lincoln C.E., *Black Muslims in America*. Boston, 1973.
Popovic A., *L'Islam balkanique. Les musulmans du Sud-Est européen dans la période post-ottomane*, Berlin, 1986.
Delval R., *Les musulmans en Amérique latine et aux Caraïbes*. Paris, 1992.
Nielsen J.S., *Muslims in Western Europe*, Edimbourg, 1992.

VI — SOCIÉTÉ ET ÉCONOMIE

A. Etudes générales

1. Histoire sociale

(voir aussi II D 4 : Statut personnel)

Colebrooke V.T.E., On the Proper Names of the Mohammedans, *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1879.
Lane E.W., *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, Londres, 1895, rééd. 1986.
Levy R., *The Social Structure of Islam*, Cambridge, 1957.
Canard M., Quelques aspects de la vie sociale en Syrie et Jazira au X[e] siècle, *Arabic and Islamic Studies*, Leyde, 1965.
Guichard P., *Structures sociales « orientales » et « occidentales » dans l'Espagne musulmane*, Paris-La Haye, 1977.
Bulliet R.W., *Conversion to Islam in the medieval period*, Cambridge, 1979.
Levtzion N. (ed.), *Conversion to Islam*, New York, 1979
Gellner E., *Muslim Society. A Sociological Interpretation*, Cambridge, 1981.
Udovitch A.L. (ed.), *The Islamic Middle-East 700-1900 . Studies in Economic and Social History*, Princeton, 1981.
Baer G., *Fellah and Townsman in the Middle East*, Londres, 1982.
Lewis B., *Race et couleur en pays d'Islam*, trad. fr., Paris, 1982.
Lapidus I.M., *A History of Islamic Societies*, Cambridge, 1988.
Renault F., *La traite des Noirs au Proche-Orient médiéval, VII[e]-XIV[e] siècles*, Paris, 1989.
Schimmel A., *Islamic Names*, Edimbourg, 1990 ; trad. fr., Paris, 1996.
Sublet J., *Le voile du nom. Essai sur le nom propre arabe*, Paris, 1991.

2. Histoire économique et commerce

(voir aussi II D 6 : Ethique économique et fiscalité)

Heyd W., *Histoire du commerce du Levant au Moyen Age*, trad. fr., Leipzig, 1885, rééd. 1969.
Schaube A., *Handelsgeschichte romanischen Völker des Mittelmeergebietes bis zur Ende der Kreuzzüge*, Munich, 1906.
Lombard M., L'or musulman au Moyen Age, *Annales, E.S.C.*, 1947.
Sauvaget J., *Relation de la Chine et de l'Inde*, Paris, 1948.
Lewis A.R., *Naval power and Trade in the Mediterranean (1500-1100)*, Princeton, 1951.

Hourani G.F., *Arab Seafaring in the Indian Ocean*, Beyrouth, 1963.
Meglio R.R. Di, Il commercio arabo con la China della Gâhiliyya al X secolo, *Annali* (Napoli), XIV, 1964.
Labib Y., *Handelsgeschichte Aegyptens im Spätmittelalter*, Wiesbaden, 1965.
Dufourcq Ch.-E., *L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIVe siècles*, Paris, 1966.
Ashtor E., *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval*, Paris, 1969.
Cook M.A. (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East*, Londres, 1970.
Richards D.S. (ed.), *Islam and the Trade of Asia*, Oxford, 1970.
Ashtor E., *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, Londres, 1976.
Wirtschaftsgeschichte des vorderen Orients in islamischer Zeit, Teil I, *Handbuch der Orientalistik*, Leyde, 1977.
Cahen C., *Makhzûmiyyât. Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale*, Leyde, 1977.
Karimi, dans *Enc. Islam* (2) (par S. Labib).
Lombard M., *Les textiles dans le monde musulman*, Paris-La Haye, 1978.
Duri A., *Arabische Wirtschaftsgeschichte*, Zurich, 1979.
The Cambridge Economic History of India, vol. I, Cambridge, 1980.
Afâwîh, dans *Enc. Islam* (2) *Supplément* (par A. Dietrich).
Ashtor E., *Levant Trade in the Later Middle Ages*, Princeton, 1983.
East-West Trade in the Medieval Mediterranean, Londres, 1986.
Lubân, dans *Enc. Islam* (2) (par A. Dietrich).
Haussig H.W., *Die Geschichte Zentralasiens und der Seidenstrasse in islamischer Zeit*, Darmstadt, 1988.
Râdhâniyya, dans *Enc. Islam* (2) (par Ch. Pellat).

B. Les villes

1. Etudes générales

Planhol X. de, *Le Monde islamique*, Paris, 1957.
Cahen C., Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane au Moyen Age, *Arabica*, V, 1958 et VI, 1959.
Lapidus I.M., *Muslim Cities in the later Middle Ages*, Cambridge (Mass.), 1967.
Hourani A.H. et Stern S.M. (eds), *The Islamic City*, Oxford, 1970.
Serjeant R.B. (ed.), *The Islamic City*, Cambridge, 1976.
Bouhdiba A. et Chevallier D. (éds), *La ville arabe dans l'islam*, Tunis, 1982.
Raymond A., *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, 1985.
Wirth E., Zur Konzeption der islamischen Stadt, *Die Welt des Islams*, XXXI-1, 1991.
Esquisse d'une conception de la ville islamique, *Géographie et Culture*, 5, 1993.

2. Etudes de villes
(voir aussi VII B 1 à 9 : Art et archéologie, Etudes régionales)

a. Péninsule Ibérique et Maghreb

Mercier H., *La civilisation urbaine au Mzab*, Paris, 1922.
Le Tourneau R., *Fès avant le protectorat*, Casablanca, 1949.
Torres Balbás L., *Ciudades hispanomusulmanas*, Madrid, s.d.
— *Ciudades yermas hispanomusulmanas*, Madrid, 1957.
Bosch Vila J., *La Sevilla islamica 712-1248*, 2e éd., Séville, 1988.
Caillé J., *La ville de Rabat jusqu'au Protectorat français*, 3 vol., Paris, 1949.
Deverdun G., *Marrakech des origines à 1912*, 2 vol., Rabat, 1959.
Lézine A., *Mahdia*, Paris, 1965.
Daoulatli A., *Tunis sous les Hafsides. Evolution urbaine et activité architecturale*, Tunis, 1976.
Barrucand M., *Urbanisme princier en Islam. Meknès et les villes royales islamiques post-médiévales*, Paris, 1985.
Revault J. *et al.*, *Palais et demeures de Fès*, 3 vol., Paris, 1985, 1989, 1992.
Hassar-Benslimane J., *Le passé de la ville de Salé dans tous ses états*, Paris, 1992.
Ferhat H., *Sabta des origines au XIVe siècle*, Rabat, 1993.

b. Proche-Orient arabe

Le Strange G., *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1924.
Sauvaget J., Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, *Rev. Etudes islamiques*, VIII, 1934.
– *Alep*, 2 vol., Paris, 1941.
Herzfeld E., *Geschichte der Stadt Samarra*, Hambourg, 1948.
Baghdâd, dans *Enc. Islam* (2) (par A.A. Duri).
Bagdad, volume spécial d'*Arabica*, 1962.

Ziade N.A., *Damascus under the Mamluks*, Norman, 1964.
Dimashk, dans *Enc. Islam* (2) (par N. Elisséeff).
Lassner J., *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages*, Detroit, 1970.
Ḥalab, dans *Enc. Islam* (2) (par J. Sauvaget).
Abulughod J.L., *Cairo*, Princeton, 1971.
Garcin J.-Cl., *Un centre musulman de la Haute-Egypte médiévale, Qûs*, Le Caire, 1976.
Staffa S., *Conquest and fusion. The Social Evolution of Cairo*, Leyde, 1977.
al-Ḳâhira, dans *Enc. Islam* (2) (par J.-M. Rogers et J. Jomier).
Hanna N., *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods*, Le Caire, 1983.
Gaube H. et Wirth E., *Aleppo*, Wiesbaden, 1984.
Peters F.E., *Jerusalem, The holy city in the eyes of chroniclers, visitors, pilgrims and prophets from the days of Abraham to the beginnings of modern times*, Princeton, 1985.
Djait H., *Al-Kûfa, naissance de la ville islamique*, Paris, 1986.
Kubiak W.B., *Al-Fustat. Its foundation and early urban development*, Le Caire, 1987.
Sack D., *Damaskus. Entwicklung und Struktur einer orientalisch-islamischen Stadt*, Mayenne, 1989.
Kopp H. et Wirth E., *Beiträge zur Stadtgeographie von Sana'a*, Wiesbaden, 1990.
Denoix S., *Décrire le Caire. Fustat-Misr d'après Ibn Duqmaq et Maqrizi*, Le Caire, 1992.
Mackenzie N., *Ayyubid Cairo. Topographical study*, Le Caire, 1992.
Müller-Wiener M., *Eine Stadtgeschichte Alexandrias von 564/1169 bis in die Mitte des 9./15. Jahrhunderts*, Berlin, 1992.
Raymond A., *Le Caire*, Paris, 1993.

c. Turquie et Empire ottoman

Mantran R., *Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle*, Paris, 1962.
Todorov N. (éd.), *La ville balkanique, XVe-XIXe siècles*, Sofia, 1970.
Beldiceanu N., *Recherche sur la ville ottomane au XVe siècle. Etudes et actes*, Paris, 1973.
Kreiser K., *Edirne im 17. Jahrhundert nach Evliya Çelebi. Ein Beitrag zur Kenntnis der osmanischen Stadt*, Fribourg, 1975.
Müller-Wiener W., *Bildlexikon zur Topographie Istanbuls*, Tübingen, 1977.
Istanbul, dans *Enc. Islam* (2) (par H. Inalcik).
Faroqhi S., *Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia*, Ankara, 1981.
Çelik Z., *The Remaking of Istanbul. Portrait of an Ottoman City in the Nineteenth Century*, Seattle et Londres, 1986.
Lewis B., *Istanbul et la civilisation ottomane*, Paris, 1990.
Panzac D. (éd.), *Les villes dans l'Empire ottoman : activités et sociétés*, I, Marseille, 1991.

d. Iran et Asie centrale

Frye R.N., *Bukhara, the medieval achievement*, Norman, 1965.
Studies on Isfahan, 2 vol., *Iranian Studies*, VII, 1974.
Iṣfahân, dans *Enc. Islam* (2) (par A.K.S. Lambton et J. Sourdel-Thomine).
Gaube H., *Iranian Cities*, New York, 1979.
Allen T., *Timurid Herat*, Wiesbaden, 1983.

e. Inde

Dihlî, dans *Enc. Islam* (2) (par J. Burton-Page).
Nabi Khan A., *Al-Mansurah, a Forgotten Arab Metropolis in Pakistan*, Karachi, 1990.
Blake S.P., *Shajahanabad : The Sovereign City in Mughal India, 1639-1739*, Cambridge, 1991.
Michell G. et Eaton R., *Firuzabad. Palace City of the Deccan*, Oxford, 1992.

C. Vie palatine

Nizam al-mulk, *Traité de gouvernement*, trad. fr. Ch. Schefer, Paris, 1893, rééd. 1984.
Richter G., *Studien zur Geschichte der älteren Fürstenspiegel*, Leipzig, 1932.
Penzer N., *The Harem*, Londres, 1936, rééd. 1965.
Canard M., Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin. Essai de comparaison, *Byzantion*, XXI, 1953.
Sourdel D., Questions de cérémonial abbâside, *Rev. Etudes islamiques*, 1960.
Sourdel-Thomine J., Les conseils du shaykh al-Harawî à un prince ayyûbide, *Bull. d'Etudes orientales*, XVII, 1961-1962.
Chejne A.G., The Boon-Companion in Early Abbasid Times, *Journal of the American Oriental Society*, 1965.
Ghulâm et *Ḥâdjib*, dans *Enc. Islam* (2) (par D. Sourdel *et al.*).
Necipoğlu G., *Architecture, Ceremonial and Power. The Topkapı Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, New York-Cambridge (Mass.), 1991.

D. Vie religieuse et intellectuelle

(voir aussi II D 8 : Organisation gouvernementale et II G 3 : Confréries)

Dâr al-hikma, *Dâr al-'ilm*, dans *Enc. Islam* (2) (par D. Sourdel).

Eche Y., *Les bibliothèques arabes... au Moyen Age*, Damas, 1967.

Bulliet R.W., *The Patricians of Nishapur. A Study in Medieval Islamic History*, Cambridge (Mass.), 1972.

Keddie N.R. (ed.), *Scholars, Saints and Sufis, Muslim Religious Institutions in the Middle East since 1500*, Berkeley, 1972.

Havemann A., *Ri'âsa und qadâ'. Institutionen als Ausdruck wechselnder Kräfteverhältnisse in syrischen Städten wom 10- bis zur 12- Jahrhundert*, Fribourg-en-B., 1975.

Sourdel D., Réflexions sur la diffusion de la madrasa en Orient du XIe au XIIIe siècle, *Rev. Etudes islamiques*, XLIV, 1976.

Sourdel-Thomine J., Locaux d'enseignement et madrasas dans l'Islam médiéval, *Rev. Etudes islamiques*, XLIV, 1976.

Green A.H., *The Tunisian Ulama 1873-1915*, Leyde, 1978.

Urvoy D., *Le monde des ulémas andalous du Ve/XIe au VIIe/XIIIe siècle*, Genève, 1978.

Gilbert J.E., Institutionalization of Muslim Scholarship and Professionalization of the 'ulamâ' in Medieval Damascus, *Studia islamica*, LII, 1980.

Petry C.F., *The Civilian Elite of Cairo in the later Middle Ages*, Princeton, 1981.

Makdisi G., *The Rise of Colleges. Institutions of Learning in Islam and in the West*, Edimbourg, 1982.

Saad E.N., *A Social History of Timbuktu : the Role of Muslim Scholars and Notables, 1400-1900*, Cambridge, 1983.

Madrasa, dans *Enc. Islam* (2) (par G. Makdisi).

Masdjid, dans *Enc. Islam* (2) (par Pedersen *et al.*).

Berkey J., *The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo. A Social History of Islamic Education*, Princeton, 1992.

Martel-Thoumian B., *Les civils et l'administration dans l'Etat militaire mamluk (IXe/XVe siècle)*, Damas, 1992.

Elboudrari H. (éd.), *Modes de transmission de la culture religieuse en Islam*, Le Caire, 1993.

E. Armée et milieux militaires

(voir aussi III J : Les Mamlouks)

Fries N., *Das Heereswesen der Araber zur Zeit der Omaijaden*, Tübingen, 1921.

Huuri K., *Zur Geschichte des mittelalterlichen Geschützwesens aus orientalischen Quellen*, Leipzig, 1941.

Eickhoff E., *Seekrieg und Seepolitik zwischen Islam und Abendland (650-1040)*, Sarrebruck, 1954.

Djaysh, dans *Enc. Islam* (2) (par C. Cahen) et *Djund* (par D. Sourdel).

War, Technology and Society in the Middle East, Londres, 1975.

Crone P., *Slaves on Horses. The Evolution of the Islamic Polity*, Cambridge, 1980.

Pipes D., *Slave Soldiers and Islam, the Genesis of a Military System*, Yale, 1981.

F. Artisans et marchés

1. Artisans

Description de l'Egypte, Paris, 1821-1829.

Serjeant R.B., Material for a History of Islamic Textiles up to the Mongol Conquest, *Ars islamica*, IX, X, XI et XIII-XIV, 1941-1948.

Mayer L.A., *Islamic Architects*, Genève, 1956.

— *Islamic Astrolobists*, Genève, 1956.

— *Islamic Woodcarvers*, Genève, 1958.

— *Islamic Metalworkers*, Genève, 1959.

— *Islamic Armourers*, Genève, 1962.

Wiet G., Le monde musulman (VIIe-XIIIe siècle), *Histoire générale des techniques, I. Les Origines de la civilisation technique*, Paris, 1962.

Wulf H., *The Traditional crafts of Persia*, Cambridge (Mass.), 1966.

Raymond A., *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle*, 2 vol., Damas, 1973-1974.

Sourdel-Thomine J., Libertés et liberté de l'artiste dans le monde islamique médiéval, *La notion de liberté au Moyen Age*, Paris, 1985.

2. Corps de métiers

Baer G., *Egyptian Guilds in Modern Times*, Jérusalem, 1964.

Baer G., The Administrative, Economic and Social Fonctions of Turkish Guilds, *International Journal of Middle East Studies*, I, 1970.

Cahen C., Y a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique ?, *The Islamic City*, A.H. Hourani et S.M. Stern (eds), 1970.

Stern S.M., The Constitution of the Islamic City, *The Islamic City*, 1970.
Taeschner F., *Zünfte und Bruderschaften im Islam*, Zurich-Munich, 1979.
Keyvani M., *Artisans and Guild Life in the later Safavid Period*, Berlin, 1982.

3. Marchés

Wirth E., Zum Problem des Bazars, *Der Islam*, 1974-1975.
Al-Genabi H.K.N., *Der Suq (Bazar) von Bagdad*, Erlangen, 1976.
Gaube H. et Wirth E., *Der Bazar von Isfahan*, Wiesbaden, 1978.
Raymond A. et Wiet G., *Les Marchés du Caire*, Le Caire, 1979.
Scharabi M., *Der Bazar*, Tübingen, 1985.

G. Paysans et agriculture

1. Agriculture

Weulersse J., *Paysans de Syrie et du Proche-Orient*, Paris, 1946.
Lambton A.K.S., *Landlord and Peasant in Persia*, Oxford, 1953.
Sourdel-Thomine J., Le peuplement de la région des villes mortes à l'époque ayyoubide, *Arabica*, I, 1954.
Müller-Wodarg D., Die Landwirtschaft Aegyptens in der frühen Abbassidenzeit, *Der Islam*, XXXI-XXXIII, 1954-1958.
Besançon J., *L'homme et le Nil*, Paris, 1957.
Tchalenko G., *Villages antiques de la Syrie du Nord*, Paris, 1958.
Canard M., Le riz dans le Proche-Orient aux premiers siècles de l'islam, *Arabica*, VI, 1959.
Calendrier de Cordoue, rééd. et trad. par Ch. Pellat, Leyde, 1961.
Bolens L., *Les Méthodes culturales au Moyen Age d'après les traités d'agronomie andalous : traditions et techniques*, Genève, 1974.
Watson A.M., *Agricultural Innovation in the Early Islamic World : the Diffusion of Crops and Farming Techniques, 700-1100*, Cambridge, 1983.
Frantz-Murphy G., *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans*, Le Caire, 1986.

2. Procédés d'irrigation

Colin G.S., La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, *Hespéris*, XIV, 1932.
Torres Balbas L., Las Norias fluviales en España, *Al-Andalus*, V, 1940.
Solignac M., Installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VIIe au XIe siècle, *Ann. Inst. Et. or.*, X-XI, 1952-1953.
Mac Adams R., *Land behind Baghdad*, Chicago-Londres, 1965.
Goblot H., *Les qanats*, Paris, 1979.
Beaumont P. *et al.* (eds), *Qanat, Kariz and Khattara : Traditional Water Systems in the Middle East and North-Africa*, 1989.
Balland D. (éd.), *Les eaux cachées*, Paris, 1992.

H. Nomades

Jaussen A., *Les coutumes des Arabes au pays de Moab*, Paris, 1908.
Musil A., *Manners and Customs of the Rwala Bedouins*, New York, 1928.
Oppenheim M. von, *Die Beduinen*, 5 vol., Leipzig, 1938-1954.
Caskel W., *Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber*, Cologne-Opladen, 1953.
Badw, dans *Enc. Islam* (2) (par G.S. Coon *et al.*).
Bulliet R.W., *The Camel and the Wheel*, Cambridge (Mass.), 1975.
Thesiger W., *Le désert des déserts*, trad. fr., Paris, 1978.
Sivers P.N., Military Merchants and Nomads : the Social Evolution of the Syrian Cities and Countryside during the Classical Period, *Der Islam*, 56, 1979.

I. Non-musulmans

(voir aussi II D q : Non-musulmans et étrangers)

Hasluck F.W., *Christianity and Islam under the Sultans*, Oxford, 1929.
Fischel W.J., *Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam*, Londres, 1937.
Massignon L., La politique islamo-chrétienne des scribes nestoriens de Deir Qunna à la Cour de Bagdad au IXe siècle, *Vivre et penser*, IIe série, 1942.
Goitein S.D., *Jews and Arabs : their Contacts through the Ages*, New York, 1964.
— *A Mediterranean Society : the Jewish communities of the Arab world*, 5 vol., Berkeley, 1967-1978.

Stillman N.A., *The Jews of Arab Lands : a History and Source book*, Philadelphia, 1979.
Lewis B., *The Jews of Islam*, Londres, 1985, trad. fr., Paris, 1986.
Damascène (Jean), *Ecrits sur l'Islam*, comm. et trad. R. Le Coz, 1992.
Valognes J.-P., *Vie et mort des chrétiens d'Orient des origines à nos jours*, Paris, 1994.

VII — ART ET ARCHÉOLOGIE

A. Généralités

Creswell K.A.C., *Early Muslim Architecture*, 2 vol., Oxford, 1932-1940, nouv. éd. revue, 1969.
Terrasse H., *L'art hispano-mauresque des origines au XIIIe siècle*, Paris, 1932.
Pope A.U. et Ackerman P., *A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present*, 7 vol., Londres-New York, 1938-1939 ; rééd. Tokyo, 1977.
Marçais G., *L'art de l'islam*, Paris, 1946, rééd. 1962.
Creswell K.A.C., *Muslim Architecture of Egypt*, 2 vol., Oxford, 1952-1959.
Marçais G., *L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne*, Paris, 1955.
Creswell K.A.C., *A Short Account of Early Muslim Architecture*, Londres, 1958 ; éd. revue et augmentée par J.W. Allan, Aldershot, 1990.
Sourdel-Thomine J., *Islam*, apud *Encyclopédie de la Pléiade, Histoire de l'art, le Monde non chrétien*, Paris, 1961.
Monneret de Villard U., *Introduzione allo studio dell'archeologia islamica*, Venise-Rome, 1966.
Otto-Dorn K., *L'art de l'islam*, trad. fr., Paris, 1967.
Sourdel D. et J., *La civilisation de l'islam classique*, Paris, 1968 et nouv. éd. 1983.
Sourdel-Thomine J., Art et société dans le monde de l'islam, *Rev. Etudes islamiques*, XXXVI, 1968.
Fann, dans *Enc. Islam* (2) (par J. Sourdel-Thomine).
Aslanapa O., *Turkish Art and Architecture*, New York, 1971.
Ettinghausen R., *From Byzantium to Sasanian Iran and the Islamic World*, Leyde, 1972.
Grabar O., *The Formation of Islamic art*, Newhaven, 1973, trad. fr. *La formation de l'art islamique*, Paris, 1987.
Spuler B. et Sourdel-Thomine J., *Die Kunst des Islam*, Berlin, 1973.
Rogers M., *The Spread of Islam*, Oxford, 1976.
Ecochard M., *Filiation de monuments grecs, byzantins et islamiques*, Paris, 1977.
Sourdel-Thomine J., Art et grandeur dynastique dans l'Orient islamique du XIIe siècle, *Rev. Etudes islamiques*, XLV, 1977.
Rogers J.M., *Islamic Art and Design, 1500-1700*, Londres, 1983.
Sourdel-Thomine J., *De l'art de l'islam*, Paris, 1983.
Ettinghausen R., *Islamic Art and Archaeology, collected Papers*, Berlin, 1984.
Harle J.C., *The Art and Architecture of the Indian Subcontinent*, Harmondsworth, 1986.
Ettinghausen R. et Grabar O., *The Art and Architecture of Islam, 650-1250*, Harmondsworth, 1987.
Welch S.C., *India. Art and Culture 1300-1900*, New York, 1988.
Lentz T.W. et Lowry G.D., *Timur and the Princely Vision, Persian Art and Culture in the Fifteenth Century*, Los Angeles, 1989.
Hillenbrand R., *Islamic Architecture*, Edimbourg, 1993.
Blair S.S. et Bloom J.M., *The Art and Architecture of Islam, 1250-1800*, Yale, 1994.

B. Etudes régionales d'architecture

(voir aussi VI B 2 : Etudes de villes ; VI C : Vie palatine)

1. Péninsule Ibérique

(voir aussi VI B 2 a)

Torres Balbás L., *Arte Almohade. Arte Nazari. Arte Mudéjar*, Madrid, 1949.
Gomez-Moreno M., *El arte árabe español hasta los Almohades. Arte mozárabe*, Madrid, 1951.
Brisch K., *Die Fenstergitter und verwandte Ornamente der Hauptmoschee von Cordoba. Eine Untersuchung zur spanisch-islamischen Ornamentik*, Berlin, 1966.
Ewert Chr., *Spanisch-islamische Systeme sich kreuzenden Bögen*, I. *Cordoba*, Berlin, 1968 ; III. *Die Aljaferia in Zaragoza*, Berlin, 1978-1980.
Pavon Maldonado F., *El arte hispano musulmán en su decoración geométrica*, Madrid, 1975 ; 2e éd., Madrid, 1989.
Stern H., *Les mosaïques de la grande mosquée de Cordoue*, Berlin, 1976.
Ewert Chr., *Hallazgos islámicos en Balaguer y la Aljafería de Zaragoza*, Madrid, 1979.

Pavon Maldonado P., *El arte hispano-musulmán en su decoración floral*, Madrid, 1981.
Hernandez Gimenez F., *Madinat al-Zahra*, Grenade, 1985.
Bazzana A., Cressier P. et Guichard P., *Les châteaux ruraux d'al-Andalus. Histoire et archéologie des husûn du Sud-Est de l'Espagne*, Madrid, 1988.
Barrucand M. et Bednorz A., *L'architecture maure en Andalousie*, Cologne-Berlin, 1992.

2. Maghreb
(voir aussi VI B 2 a)

Terrasse H., *Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis*, Paris, 1938.
Meunié J. et Terrasse H., *Recherches archéologiques à Marrakech*, Paris, 1952.
Lézine A., *Le Ribât de Sousse*, Tunis, 1956.
Meunié J. et Terrasse H., *Nouvelles recherches archéologiques à Marrakech*, Paris, 1957.
Golvin L., *Recherches archéologiques à la Qal'a des Banû Hammâd*, Paris, 1965.
Lézine A., *Architecture de l'Ifriqiya. Recherches sur les monuments aghlabides*, Paris, 1966.
Revault J., *Palais et demeures de Tunis (XVIe et XVIIe siècles)*, Paris, 1967.
Terrasse H., *La mosquée al-Qaraouiyin à Fès*, Paris, 1968.
Barrucand M., *L'architecture de la qasba de Moulay Ismaïl à Meknès*, 2 vol., Casablanca, 1976.
Ewert Chr. et Wisshak J.P., *Forschungen zur almohadischen Moschee. I. Hierarchische Gliederungen westislamischer Betsäle des 8. bis 11. Jahrhunderts, II. Die Moschee von Tinmal*, Mayence, 1981 et 1984.
Ewert Chr., *Forschungen zur almohadischen Moschee. IV : Die Kapitelle der Kutubiya-Moschee in Marrakech und der Moschee von Tinmal*, Mayence, 1991.

3. Egypte
(voir aussi VI B 2 b)

Hautecoeur L. et Wiet G., *Les mosquées du Caire*, Paris, 1932.
Brandenburg D., *Islamische Baukunst in Ägypten*, Berlin, 1966.
Revault J. et Maury B., *Palais et maisons du Caire du XIVe au XVIIIe siècle*, 4 vol., Le Caire, 1975-1983.
Meineke M., *Die Restaurierung der Madrasa des Amirs Sâbiq al-Dîn Mitqâl al-Ânûkî und die Sanierung des Darb Qirmiz in Kairo*, Mayence, 1980.
Behrens-Abouseif D., *Islamic Architecture in Cairo. An Introduction*, Leyde, 1989.
Meineke M., *Die mamlukische Architektur in Ägypten und Syrien (646/1250 bis 923/1517)*, 2 vol., Glückstadt, 1990.

4. Syrie, Jordanie, Israël
(voir aussi VI B 2 b)

Sauvaget J., La citadelle de Damas, *Syria*, XI, 1931.
— L'architecture musulmane en Syrie, *Revue des arts asiatiques*, VIII, 1934.
— Remarques sur les monuments omeyyades, *Journal asiatique*, 1937-1940.
— Les ruines omeyyades du Djebel Seis, *Syria*, XX, 1938.
— *Les monuments ayyoubides de Damas*, 3 livraisons, Paris, 1938-1940.
— Caravansérails syriens du Moyen Age, *Ars islamica*, 1939 et 1940.
Ecochard M. et Le Coeur C., *Les Bains de Damas*, Beyrouth, 1942-1943.
Hamilton R.W., *Khirbat al-Mafjar. An Arabian Mansion in the Jordan Valley*, Oxford, 1959.
Brisch K., Le château omeyyade du Djebel Seis, *Annales archéologiques de Syrie*, 1963.
Sauvaget J., Châteaux umayyades de Syrie, *Rev. Etudes islamiques*, XXXV, 1967.
Gaube H., *Ein arabischer Palast in Süd-Syrien Hirbet el Baida*, Beyrouth, 1974.
Grabar O. *et al.*, *City in the Desert. Qasr al-hayr East*, Cambridge (Mass.), 1978.
Almagro Gorbea A., *El Palacio omeya de Amman*, I. *La arquitectura*, Madrid, 1983.
Schlumberger D., *Qasr el-Heir el Gharbi*, Paris, 1986.
Burgoyne M.H. et Richards D.J., *Mamluk Jerusalem : an Architectural Study*, Londres, 1987.
Rosen-Ayalon M., *The Early Islamic Monuments of al-Haram al-Sharîf*, Jérusalem, 1989.
Walls A.G., *Geometry and Architecture in Islamic Jerusalem. A Study of the Ashrafiyya*, Buckhurst Hill, 1990.
Sadek M.M., *Die mamlukische Architektur der Stadt Gaza*, Berlin, 1991.

5. Arabie
(voir aussi VI B 2 b)

Sauvaget J., *La mosquée omeyyade de Médine*, Paris, 1947.
Al-Rashid S.A., *Darb Zubaydah. The Pilgrim Road from Kufa to Mecca*, Riyad, 1980.
Serjeant R.B. et Lewcock (eds), *San'â'. An Arabian Islamic City*, Londres, 1983.

6. Irak
(voir aussi VI B 2 b)

Sarre F. et Herzfeld E., *Archäologische Reise im Euphrat und Tigrisgebiet*, 1911-1920.
Herzfeld E., *Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samarra*, Berlin, 1912.
Excavations at Samarra 1936-1939. Bagdad (Iraq Government Department of Antiquities), 1940.
Safar F., *Wasit*, Le Caire, 1945.
Schmid H., *Die Madrasa der Kalifen al Mustansir in Baghdad*, Mayence, 1980.

7. Turquie
(voir aussi VI B 2 c)

Gabriel A., *Monuments turcs d'Anatolie*, 2 vol., Paris, 1931-1934.
— *Voyages archéologiques dans la Turquie orientale*, 2 vol., Paris, 1940.
Vogt-Göknil U., *Les mosquées turques*, Zurich, 1953.
Gabriel A., *Une capitale turque. Brousse*, 2 vol., Paris, 1958.
Erdmann K., *Das Anatolische Karavansaray des 13. Jahrhunderts*, Berlin, 1961.
Ünal R.H., *Les monuments islamiques anciens d'Erzurum*, Paris, 1968.
Otto-Dorn K. et Onder M., Bericht über die Grabung in Kobadabad, 1966, *Archäologischer Anzeiger*, 1969.
Aslanapa O., *Turkish Art and Architecture*, Londres, 1970.
Davis F., *The Palace of Topkapi in Istanbul*, New York, 1970.
Goodwin G., *A History of Ottoman Architecture*, Londres, 1971.
Crane H., *Risâle-i Mi'mariyye. An Early Seventeenth Century Ottoman Treatise on Architecture*, Leyde, 1987.
Goodwin G., *Sinan. Ottoman Architecture and the Renaissance*, 1992.
— *Sinan : Ottoman Architecture and its Values Today*, Londres, 1993.

8. Iran, Afghanistan, Asie centrale
(voir aussi VI B 2 d)

Sarre F., *Denkmäler persischer Baukunst*, Berlin, 1901-1910.
Diez E., *Churasanische Baudenkmäler*, Berlin, 1918.
Siroux M., *Caravansérails d'Iran et petites constructions routières*, Le Caire, 1949.
Sourdel-Thomine J., Deux minarets d'époque seljoukide en Afghanistan, *Syria*, XXX, 1953.
Pugachenkova G.A., *Ishrat Khane*, Tachkent, 1958.
Maricq A. et Wiet G., *Minaret de Djam*, Paris, 1959.
Wilber D.N., *The Architecture of Islamic Iran : the Ilkhânid Period*, Princeton, 1955 ; rééd. 1969.
Les monuments historiques de l'islam en URSS, Tachkent (1962).
Bombaci A., *The Kûfic inscription in Persian verses in the palace of Mas'ûd III at Ghazni*, Rome, 1966.
Golombek L., *The Timurid Shrine at Gazur Gah*, Toronto, 1969.
Siroux M., *Anciennes voies et monuments routiers de la région d'Isfahan*, Le Caire, 1971.
Monuments d'architecture en Asie centrale, Moscou, 1971.
Knobloch E., *Beyond the Oxus*, Londres-Toronto, 1972.
Galdieri E., *Isfahan : Masgid-i gum'a*, 3 vol., Rome, 1972-1973.
Sourdel-Thomine J. et Wilber D.N., Monuments seljoukides de Qazwin en Iran, *Rev. Etudes islamiques*, XLI/2, 1973 et XLII/1, 1974.
Naumann R., *Die Ruinen von Tacht-e Suleiman und Zendan-e Suleiman*, Berlin, 1977.
Schlumberger D. et Sourdel-Thomine J., *Lashkari Bazar. Une résidence royale ghaznévide et ghoride*, 3 vol., Paris, 1977.
Nemtseva N.B. et Shvab Iu.Z., *Ansambl' Shakh-i Zinda*, Tachkent, 1979.
Blair Sh.S., *The Ilkhanid Shrine complex at Natanz. Iran*, Cambridge (Mass.), 1986.
O'Kane B., *Timurid Architecture in Khurasan*, Costa Mesa, 1987.
Golombek L. et Wilber D., *The Timurid Architecture of Iran and Turan*, Princeton, 1988.
Herdeg K., *Formal Structure in Islamic Architecture of Iran and Turkistan*, New York, 1990.

9. Inde, Afrique orientale
(voir aussi VI B 2 e)

Kirkman J.S., *The Arab City of Gedi. Excavations at the Great Mosque*, Oxford, 1954.
Brown P., *Indian Architecture. The Islamic Period*, Bombay, 1956 ; 5e éd., 1968.
Dani A.H., *Muslim Architecture in Bengal*, Dacca, 1961.
Garlake P.S., *The Early Islamic Architecture of the East African Coast*, Oxford, 1968.
Crowe Y., Haywood S. et Jellicoe S., *The Gardens of Mughal India*, Londres, 1972.
Chittick H.N., *Kilwa. An Islamic Trading City on the East African Coast*, 2 vol., Nairobi, 1974.
Nath R., *History of Sultanate Architecture*, New Delhi, 1978.

Merklinger E.S., *Indian Islamic Architecture. The Deccan 1347-1686*, Warminster, 1981.
Chittick H.N., *Manda. Excavations at an Island Port on the Kenya Coast*, Nairobi, 1984.
Brand M., *Akbar's India. Art from the Mughal City of Victory*, New York, 1985.
Mumtaz K.K., *Architecture in Pakistan*, Singapore, 1985
Koch E., *Mughal Architecture. An Outline of its History and Development, 1526-1858*, Munich, 1991.
Asher C.B., *Architecture of Mughal India*, Cambridge, 1992.

C. Types monumentaux

(voir aussi VI C : Vie palatine, VI D : Vie religieuse et intellectuelle,
VI E : Armée et milieux militaires et VI F 3 : Marchés)

Burdj, dans *Enc. Islam* (2) (par J. Sourdel-Thomine, H. Terrasse et J. Burton-Page).
Grabar O., The Early Islamic Commemorative Structures, *Ars orientalis*, VI, 1966.
Sourdel-Thomine J., La mosquée et la madrasa, types monumentaux caractéristiques de l'art islamique médiéval, *Cahiers Civ. méd.*, 1970.
Hammâm, dans *Enc. Islam* (2) (par J. Sourdel-Thomine et A. Louis).
Sourdel-Thomine J., Renouvellement et tradition dans l'architecture saljuqide, *Islamic Civilisation, 950-1150*, Oxford, 1973.
Bloom J., *Minaret, Symbol of Islam*, Oxford, 1989.

D. Décors et techniques

(voir aussi VI F : Artisans et marchés)

Herzfeld E., *Der Wandschmuck der Bauten von Samarra*, Berlin, 1923.
Kühnel E., *Islamische Kleinkunst*, Berlin, 1925 ; rééd. Braunschweig, 1963.
Herzfeld E., *Die Malereien von Samarra*, Berlin, 1927.
Arnold T.W., *Painting in Islam*, Oxford, 1928 ; rééd. New York, 1965.
Schlumberger D., Deux fresques omeyyades, *Syria*, XXV, 1946.
Lane A., *Early Islamic Pottery*, Londres, 1947 ; rééd. 1958.
Wiet G., *Soieries persanes*, Le Caire, 1948.
Marcais G. et Poinssot L., *Objets kairouanais, IXe au XIIIe siècle*, 2 vol., Tunis, 1948-1952.
Monneret de Villard U., *Le pitture musulmane al soffito della Capella Palatina in Palermo*, Rome, 1950.
Lane A., *Later Islamic Pottery*, Londres, 1951.
Kühnel E. et Bellinger L., *The Textile Museum. Catalogue of dated Tiraz fabrics : Umayyad, Abbassid, Fatimid*, Washington, 1952.
Rice D.S., *The Baptistere de Saint-Louis*, Paris, 1953.
Erdmann K., *Der Orientalische Knüpfteppich*, Tübingen, 1955.
Dimand M.S., *A Handbook of Muhammadan art*, New York, 1958.
Rice D.S., *The Wade Cup*, Paris, 1959.
Gray B., *Persian Painting*, Genève, 1961.
Ettinghausen R., *La peinture arabe*, trad. fr., Genève, 1962.
Fakhkhâr, dans *Enc. Islam* (2) (par G. Marçais).
Sourdel-Thomine J., L'écriture arabe et son évolution ornementale, *L'écriture et la psychologie des peuples. XXIIe semaine de synthèse*, Paris, 1963
Sauvaget J., Introduction à l'étude de la céramique musulmane, *Rev. Etudes islamiques*, XXXIII, 1965.
Grube E.J., *The World of Islam*, Londres, 1966.
Erdmann K., *Seven Hundred Years of Oriental Carpets*, Berkeley-Los Angeles, 1970.
Harîr, dans *Enc. Islam* (2) (par N. Steensgaard *et al.*).
Sourdel-Thomine J., Clefs et serrures de la Ka'ba, *Rev. Études islamiques*, XXXIX, 1971.
Rice D.S., *Islamic Painting*, Edimbourg, 1971.
Kühnel E., *Die islamischen Elfenbeinskulpturen, VIII-XIII. jh.*, Berlin, 1971.
Rosenberg M., *Geschichte der Goldschmiedekunst auf technischer Grundlage*, Osnabrück, 1972.
Rosen-Ayalon M., *La poterie islamique. Ville royale de Suse IV*, Paris, 1974.
Robinson S.W., *Islamic Painting and the Arts of the Book*, Londres, 1976.
Öney G., *Turkish Ceramic Tile Art*, Tokyo, 1976.
Welch A., *Calligraphy in the Arts of the Muslim World*, Austin (Tx), 1979.
Ipşiroglu M.S., *Chefs-d'œuvre de Topkapî, peintures et miniatures*, trad. fr., Fribourg-en-B., 1980.
Kalus L., *Catalogue des cachets, bulles et talismans islamiques*, Paris, Bibliothèque nationale, 1981.
Baer E., *Metalwork in Medieval Islamic Art*, Albany, 1983.
Grabar O., *The Illustrations of the Maqamat*, Chicago-Londres, 1984.
Schimmel A., *Calligraphy and Islamic Culture*, New York-Londres, 1984.

Ma'din, dans *Enc. Islam* (2) (par E. Ashtor, E. Baer *et al.*).
Kalus L., *Catalogue of Islamic Seals and Talismans, Ashmolean Museum*, Oxford, 1986.
Brosch N. (ed.), *Jewellery and Goldsmithing in the Islamic World*, Jérusalem, 1991.

E. Sciences auxiliaires de l'histoire

Van Berchem M. *et al.*, *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, Egypte, Syrie du Nord, Jérusalem, Asie Mineure*, Le Caire, 1894 à 1922.
Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, 18 vol., Le Caire, 1931-1991, et Index géographique des tomes 1 à 16, Le Caire, 1975.
Lévi-Provençal E., *Inscriptions arabes d'Espagne*, Leyde, 1931.
Grohmann A., *Arabic Papyri in the Egyptian Library*, 6 vol., 1934-1959.
Sourdel-Thomine J., *Epitaphes coufiques de Bāb Saghīr. Les monuments ayyoubides de Damas*, Paris, 1950.
Herzfeld E., *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, Alep*, Le Caire, 1954-1955.
Hinz W., *Islamische Masse und Gewichte*, Leyde, 1955.
Grohmann A., *Einführung und Chrestomatie zur arabischen Papyruskunde*, Prague, 1955.
Walker J., A unique medal of the Seljuk Tughrilbeg, *Centennial volume of the American Numismatic Society*, 1958.
Sourdel-Thomine J., Quelques étapes et perspectives de l'épigraphie arabe, *Studia Islamica*, XVIII, 1962.
Miles G.C., A portrait of the Buyid prince Rukn al-Dawlah, *The American Numismatic Society, Museum notes*, XI, 1964.
Sourdel D. et Sourdel-Thomine J., Nouveaux documents sur l'histoire religieuse et sociale de Damas au Moyen Age, *Rev. Etudes islamiques*, XXXII, 1964.
— A propos des documents de la Grande-Mosquée de Damas conservés à Istanbul. Résultats de la seconde enquête, *Rev. Etudes islamiques*, XXXIII, 1965.
Grohmann A., Arabische Chronologie. Arabische Papyruskunde, *Handbuch der Orientalistik*, Leyde, 1966.
— *Arabische Paläographie*, Vienne, 1967-1971 (inachevé).
Khatt, dans *Enc. Islam* (2) (par J. Sourdel-Thomine).
Sourdel D. et Sourdel-Thomine J., Dossiers pour un Corpus des inscriptions arabes de Damas, I, *Rev. Etudes islamiques*, XLVII, 1979.
Kalus L. et Gyselen R., *Deux trésors monétaires des premiers temps de l'islam*, Paris, Bibliothèque nationale, 1983.
Déroche F., Les manuscrits du Coran, apud *Catalogue des manuscrits arabes*, 2e partie, *Manuscrits musulmans*, t. I, 1 et 2, Paris, Bibliothèque nationale, 1983 et 1985.
Wiet G. *et al.*, *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, Arabie*, I/1, Le Caire, 1985.
Kitābāt, dans *Enc. Islam* (2) (par J. Sourdel-Thomine).
Chen D. et Kalus L., *Corpus d'inscriptions arabes et persanes en Chine*, I, Paris, 1991.
Blair S.S., *Monumental Inscriptions from Early Iran and Transoxiana*, Leyde, 1992.

مؤلّفات دومنيك وجانين سورديل

DOMINIQUE SOURDEL

Ouvrages

L'Islam, 1 vol., 128 p., coll. « Que Sais-je ? », n° 355, Paris, PUF, 1949, 18e éd., 1995.
Les cultes du Hauran à l'époque romaine, 1 vol., XVI + 136 p., 6 pl. ht., coll. « Bibliothèque archéologique et historique », t. LIII, Paris, Geuthner, 1952.
Inventaire des monnaies musulmanes anciennes du Musée de Caboul, 1 vol., IX + 146 p., 6 pl. ht., Damas, PIFD, 1953.
La description d'Alep d'Ibn Šaddād, édition critique précédée d'une introduction, 1 vol., XXXII + 231 p. (ar.), 4 pl. ht., Damas, PIFD, 1953.
Le vizirat 'abbāside de 749 à 936 (132 à 324 de l'Hégire), 2 vol., LXXVIII + 797 p., Damas, PIFD, 1959-1960.
Histoire des Arabes, 1 vol., 128 p., coll. « Que Sais-je ? », n° 1627, Paris, PUF, 1976, 5e éd., 1994.
L'islam médiéval, 1 vol., 224 p., coll. « Sup. L'Historien », n° 39, Paris, PUF, 1979 ; trad. anglaise par J. Montgomery Watt, *Medieval Islam*, Londres, Routledge and Kegan Paul, 1983.

Participation à des ouvrages collectifs

Littérature arabe, dans *Histoire générale des littératures*, Paris, A. Quillet, 1961, t. I, p. 415-441, 755-763 ; t. III, p. 589-596, 805-807, 811.
Le jugement des morts dans l'Islam, apud *Le jugement des morts*, coll. « Sources orientales », 4, Paris, Seuil, 1961, p. 179-205.
The 'Abbāsid Caliphate, apud *The Cambridge History of Islam*, I, 1970, p. 104-139.
Collaboration à R. Folz, A. Guillou, L. Musset, D. Sourdel, *De l'Antiquité au monde médiéval*, 1 vol., 657 p., coll. « Peuples et Civilisations », t. V, Paris, PUF, 1972, p. 187-239, 414-451, 599-622.
L'éducation dans le monde islamique médiéval, apud *Histoire mondiale de l'éducation*, I, Paris, PUF, 1981, p. 203-280.
Gouvernement et administration dans l'Orient islamique jusqu'au milieu du XIe siècle, apud *Handbuch der Orientalistik* (dir. B. Spuler), Leyde, Brill, 1988.

Articles

Les professeurs de madrasa à Alep aux XIIe-XIIIe siècles, dans *Bulletin d'Etudes orientales de l'Institut français de Damas*, XIII, 1949-1951, p. 85-115.
Esquisse topographique d'Alep intra-muros à l'époque ayyoubide, dans *Annales archéologiques de Syrie*, II, 1952, p. 109-133.
Rūhīn, lieu de pèlerinage musulman de Syrie du Nord au XIIIe siècle, dans *Syria*, XXX, 1953, p. 89-107.
Le livre des secrétaires de 'Abdallāh al-Baġdādī, dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XIV, 1952-1954, p. 115-152.
La biographie d'Ibn al-Muqaffa' d'après les sources anciennes, dans *Arabica*, I, 1954, p. 307-323.
Les cadis de Basra d'après Wakī', dans *Arabica*, II, 1955, p. 111-114.
La valeur littéraire et documentaire du *Livre des Vizirs* d'al-Ǧahšiyārī, d'après le chapitre consacré au califat de Hārūn al-Rašīd, dans *Arabica*, II, 1955, p. 193-210.
Sur quelques traditionnistes d'Alep au temps de Nūr al-Dīn, dans *Arabica*, II, 1955, p. 353-355.
Une lettre inédite de 'Alī b. 'Isā (317/929), dans *Arabica*, III, 1956, p. 80-90.
Nouvelles recherches sur la deuxième partie du *Livre des Vizirs* d'al-Ǧahšiyārī, dans *Mélanges Louis Massignon*, III, Damas, 1957, p. 271-299.
Fragments d'al-Ṣūlī sur l'histoire des vizirs 'abbāsides, dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XV, 1955-1957, p. 99-108.
Les circonstances de la mort de Ṭāhir Ier au Ḫurāsān, dans *Arabica*, V, 1958, p. 66-69.

L'originalité du *Kitāb al-Wuzarā'* de Hilāl al-Ṣābi', dans *Arabica*, V, 1958, p. 272-292.
La politique religieuse des successeurs d'al-Mutawakkil, dans *Studia Islamica*, XIII, 1960, p. 5-21.
Questions de cérémonial 'abbāside, dans *Revue des Etudes islamiques*, 1960, p. 121-148.
La politique religieuse du calife 'abbāside al-Ma'mūn, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXX, 1962, p. 27-48.
Wazīr et *ḥāǧib* en Occident, dans *Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de E. Lévi-Provençal*, Paris, 1962, p. 749-755.
Bagdad, capitale du nouvel Empire 'abbāside, dans *Arabica*, IX, 1962, p. 252-265.
Mahomet et les études mohammadiennes d'après deux publications récentes, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXI, 1963, p. 105-110.
A propos des *dix élus*, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXI, 1963, p. 111-114.
Un trésor de dinars ġaznavide et salǧūqide découvert en Afghanistan, dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XVIII, 1963-1964, p. 197-219.
Une inscription 'abbāside en Syrie du Nord (en collaboration avec S. Ory), dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XVIII, 1963-1964, p. 234-240.
Une lettre du vizir 'abbāside Ḥamid b. al-'Abbās (306/918), dans *Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A.R. Gibb*, 1965, p. 603-608.
Un pamphlet musulman anonyme d'époque 'abbāside contre les chrétiens, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIV, 1966, p. 1-31 + 1 pl. ht.
Les études arabes à la faculté des Lettres de Bordeaux, apud *Les études islamiques dans le monde*, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIV, 1966, p. 203-204.
Une profession de foi de l'historien al-Ṭabarī, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXVI, 1968, p. 177-199.
La classification des sectes islamiques dans le *Kitāb al-Milal* d'al-Šahrastānī, dans *Studia Islamica*, XXXI, 1970, p. 239-247.
L'imamisme vu par le cheikh al-Mufīd, dans *Revue des Etudes islamiques*, XL, 1972, p. 217-296.
Deux documents sur la communauté hanbalite de Damas, dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XXV, 1972, p. 141-151 + 2 pl. ht.
Les conceptions imamites au début du XI[e] siècle d'après le Shaykh al-Mufīd, dans *Islamic Civilisation 950-1150*, Oxford, 1973, p. 187-200.
Les cas de déchéance du calife, dans *Mélanges E.R. Labande*, Poitiers, 1974, p. 635-641.
Réflexions sur la diffusion de la madrasa en Orient du XI[e] au XIII[e] siècle, dans *Revue des Etudes islamiques*, XLIV, 1976, p. 165-184.
Khalīfa (Histoire de l'institution du califat), dans *Encyclopédie de l'Islam* (2), IV, p. 970-980 (1977).
Hady-Roger Idris (1912-1978), dans *Revue des Etudes islamiques*, XLVI, 1978 (1980), p. 155-161.
La fondation umayyade d'al-Ramla, dans *Studien zur Geschichte und Kultur des vorderen Orients* (Festchrift B. Spuler), Leiden, 1981, p. 387-395.
La notion d'autorité dans le califat sunnite, dans *La notion d'autorité au Moyen Age*, Paris, PUF, 1982, p. 101-116.
Appels et programmes politico-religieux durant les premiers siècles de l'Islam, dans *Prédication et propagande au Moyen Age. Islam. Byzance. Occident*, Paris, PUF, 1983, p. 111-131.
Chroniques et sources narratives dans l'Orient islamique médiéval, dans *La chronique et l'histoire au Moyen Age*, Paris, Presses de l'Université de Paris-Sorbonne, 1984, p. 85-99.
Peut-on parler de liberté dans la société islamique médiévale, dans *La notion de liberté au Moyen Age. Islam. Byzance. Occident*, Paris, Les Belles Lettres, 1985, p. 119-133.
L'organisation de l'espace dans les villes du monde islamique, dans *Fortifications, places publiques, portes de villes dans le monde méditerranéen*, Paris, PUPS, 1985, p. 1-11.
La Syrie au temps des premiers califes abbassides (132/750-264/878), dans *Revue des Etudes islamiques*, XLVIII/2, 1980 (1985), p. 155-175.
Universitaires sans université dans les villes des pays d'islam, dans *Milieux universitaires et mentalité urbaine au Moyen Age*, Paris, 1987, p. 119-128.
Les civilisations passées vues par deux historiens musulmans, dans *Revue des Etudes islamiques*, LV-LVII, 1987-1989, p. 313-318.
Articles dans *Encyclopédie de l'Islam*, 2[e] édition, 1954 et suiv.

JANINE SOURDEL-THOMINE

Ouvrages

Epitaphes coufiques de Bâb Şaghîr, 1 vol., 91 p. et 34 fig., coll. « Les monuments ayyoubides de Damas », livr. IV, Paris, de Boccard, 1950.

Le guide des lieux de pèlerinage d'al-Harawî, texte arabe, 1 vol., XXIX + 141 p. et 7 pl., Damas, PIFD, 1953.

Le guide des lieux de pèlerinage d'al-Harawî, traduction française annotée, LXIV, 232 p., et 4 cartes, Damas, PIFD, 1957.

Islam, apud *Encyclopédie de la Pléiade*. 1. *Le monde non chrétien*, Paris, Gallimard, 1961, p. 933-1087, 2 cartes et 36 fig.

Die Kunst des Islam (en collaboration avec Bertold SPULER), 1 vol., 426 p., 416 pl. ht., 68 pl. en couleur ht., 89 fig., coll. « Propyläen Kunstgechichte », Bd. 4, Berlin, 1973.

Lashkari Bazar. Une résidence royale ghaznévide et ghoride. I B : *Le décor non figuratif et les inscriptions*, 1 vol. in-fol., 78 p. et 29 pl. ht., coll. « Mémoires de la Délégation archéologique française en Afghanistan », t. XVIII, Paris, de Boccard, 1977.

De l'art de l'islam, 1 vol., 200 p., Paris, Geuthner, 1984.

Participation à des ouvrages collectifs

Art de l'islam, dans *Dictionnaire universel de l'art et des artistes*, II, Paris, Hazan, 1967, p. 231-260.

Islamische Baukunst, dans *Lexicon des Mittelalters*, Artemis Verlag, I, p. 1662-1665.

Editeur de *Etudes médiévales et patrimoine turc*, contributions réunies et présentées par Janine Sourdel-Thomine, 1 vol., 272 p., Paris, CNRS, 1983.

Articles

Inscriptions arabes de Karak Nūḥ, dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XIII, 1949-1951, p. 72-84 et 2 pl. ht.

Note sur le cénotaphe de Qūrus (Cyrrhus), dans *Annales archéologiques de Syrie*, II, 1952, p. 134-136.

Deux minarets d'époque seljoukide en Afghanistan, dans *Syria*, XXX, 1953, p. 108-136 et 2 pl. ht.

Une inscription inédite de la madrasa Sulṭāniya à Alep, dans *Annales archéologiques de Syrie*, III, 1953, p. 67-70.

Deux décrets mamelouks de Marqab, dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XIV, 1952-1954, p. 61-64.

Les anciens lieux de pèlerinage damascains d'après les sources arabes, dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XIV, 1952-1954, p. 65-85.

Le peuplement de la région des « villes mortes » (Syrie du Nord) à l'époque ayyoubide, dans *Arabica*, I, 1954, p. 187-200.

Inscriptions du mausolée d'Abū l-'Alā' à Ma'arrat an-Nu'mān, dans *Arabica*, II, 1955, p. 289-294 et 4 pl. ht.

Stèles arabes de Bust (Afghanistan), dans *Arabica*, III, 1956, p. 295-306 et 4 pl. ht.

Stèles arabes anciennes de Syrie du Nord, dans *Annales archéologiques de Syrie*, VI, 1956, p. 11-38 et 7 pl. ht.

Le coufique alépin de l'époque seljoukide, dans *Mélanges Louis Massignon*, III, Damas, 1957, p. 301-317 et 4 pl. ht. (traduction turque par Zeynep Kerman dans *Tarih Dergisi*, n° 26, p. 85-96).

Les décors de stuc dans l'est iranien à l'époque salǧūqide, dans *Akten des Vierundzwanzigsten Internationalen Orientalisten-Kongresses*, München, 1957, Wiesbaden, 1959, p. 342-344.

Survivances anciennes dans l'art musulman de Syrie, dans *Arabica*, VI, 1959, p. 312-313.

L'art ğūride d'Afghanistan à propos d'un livre récent, dans *Arabica*, VII, 1960, p. 273-280.

Les conseils du Šayḫ al-Harawī à un prince ayyūbide, dans *Bulletin d'Etudes orientales*, XVII, 1961-1962, p. 205-266.

Le style des inscriptions arabo-siciliennes à l'époque des rois normands, dans *Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, Paris, 1962, p. 307-315.

L'art de Bagdad, dans *Arabica*, IX, 1962, p. 449-465 et 2 pl. ht.

Quelques étapes et perspectives de l'épigraphie arabe, dans *Studia Islamica*, XVIII, 1962, p. 5-22.

L'écriture arabe et son évolution ornementale, dans *L'écriture et la psychologie des peuples. XXIIᵉ semaine de synthèse*, Paris, 1963, p. 249-261 et 3 pl. ht.

Deux épitaphes arabes anciennes, dans *L.A. Mayer Memorial Volume*, Jérusalem, 1963 (*Eretz-Israël*, vol. VII), p. 112-115 et 1 pl. ht.

Peinture arabe et société musulmane à propos d'un livre récent, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXI, 1963, p. 115-121.

L'architecture islamique de l'Iran, dans *Art et littérature en Iran*, ouvrage publié sous le patronage de la revue *Orient*, Paris, 1964, p. 77-94 et 8 pl. ht.
Inscriptions et graffiti d'époque umayyade, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXII, 1964, p. 115-120.
Le classement des documents de Max van Berchem à Genève, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIII, 1965, p. 195-197.
Le testament politique du Shaikh 'Alī al-Harawi, dans *Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A.R. Gibb*, 1965, p. 609-618.
Les origines de l'écriture arabe à propos d'une hypothèse récente, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIV, 1966, p. 151-157.
Art et société dans le monde de l'islam, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXVI, 1968, p. 93-114.
Perspectives nouvelles dans le domaine de l'épigraphie arabe, dans *Boletín de la Asociacion española de Orientalistas*, V, 1969, p. 183-190.
Monuments islamiques de Tunisie d'après quelques travaux récents, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXVII, 1969, p. 345-349.
Inscriptions et monnaies, apud K. Otto Dorn, Bericht Uber die Grabung in Kobadabad 1966, dans *Jahrbuch des deutschen archäologischen Instituts Archäologischer Anzeiger*, Heft 4, 1969, p. 500-505.
Les dates de construction de l'Agzlkarahan d'après ses inscriptions, dans *Forschungen zur Kunst Asiens*, Istanbul, 1970, p. 74-78.
La mosquée et la madrasa, types monumentaux caractéristiques de l'art islamique médiéval, dans *Cahiers de civilisation médiévale*, XIII, Poitiers, 1970, p. 97-115.
Clefs et serrures de la Ka'ba. Notes d'épigraphie arabe, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIX, 1971, p. 29-86 et 10 pl. ht.
Le mausolée dit de Baba Hatim en Afghanistan, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIX, 1971, p. 293-319 et 14 pl. ht.
A propos de quelques catalogues de musées et expositions, dans *Revue des Etudes islamiques*, XL, 1972, p. 393-397.
Quelques réflexions sur l'écriture des premières stèles arabes du Caire, dans *Annales islamologiques* (*Mémorial Gaston Wiet*), XI, 1972, p. 23-35.
Renouvellement et tradition dans l'architecture saljuqide, dans *Islamic Civilisation, 950-1150*, Oxford, 1973, p. 251-263.
Inscriptions seljoukides et salles à coupole de Qazwin en Iran, dans *Revue des Etudes islamiques*, XLII, 1974, p. 3-43.
Introduction à l'art de l'islam, dans *Revue des Etudes islamiques*, XLIII, 1975, p. 3-40 et 195-225.
Locaux d'enseignement et madrasas dans l'islam médiéval, dans *Actes du I^er Colloque de La Napoule : Islam et Occident au Moyen Age, Revue des Etudes islamiques*, XLIV, 1976, p. 185-197.
Art et grandeur dynastique dans l'Orient islamique du XII^e siècle, dans *Revue des Etudes islamiques*, XLV, 1977, p. 3-17.
Khaṭṭ dans *Encyclopédie de l'Islam*, IV, p. 1144-1154 [1978].
Kitābāt I, dans *Encyclopédie de l'Islam*, V, p. 208-213 [1980].
Lashkari Bazar, dans *Encyclopaedia Universalis*, 1980, p. 477-481.
Réflexions sur l'art islamique du bas Moyen Age en Orient, dans Hans R. Roemer und Albrecht Noth, *Studien zur Geschichte und Kultur des Vorderen Orients, Festschrift für Bertold Spuler zum siebzigsten Geburtstag*, Leyde, 1981, p. 396-405.
A propos du cénotaphe de Mahmud à Ghazna (Afghanistan), dans *Essays in Islamic Art and Architecture in Honor of Katharina Otto-Dorn*, Undena Pub, 1981, p. 127-135, 1 pl. ht.
L'expression symbolique de l'autorité dans l'art islamique, dans *La notion d'autorité au Moyen Age, Islam, Byzance et Occident*, Paris, PUF, 1982, p. 273-286.
Le chaykh 'Ali al-Harawi et la propagande politico-religieuse dans la Syrie du XIII^e siècle, dans *Prédication et propagande au Moyen Age, Islam, Byzance et Occident*, Paris, PUF, 1983, p. 241-255.
Etudes médiévales et patrimoine turc, dans *Etudes médiévales et patrimoine turc*, Paris, CNRS, 1983, p. 7-13.
L'Etat ayyoubide vu par un homme de religion de cette époque, dans *Israël Oriental Studies*, X, 1980 (1983), p. 124-131.
Libertés et liberté de l'artiste dans le monde islamique médiéval, dans *La notion de liberté au Moyen Age (Islam, Byzance, Occident)*, Paris, Les Belles Lettres, 1985, p. 143-154.
Une image musulmane de Jérusalem au début du XIII^e siècle, dans *Jérusalem, Rome, Constantinople*, Civilisations médiévales, n° 5, Paris, PUPS, 1986, p. 217-230.
Traditions d'emprunt et dévotions secondaires dans l'islam du XII^e siècle, dans *Revue des Etudes islamiques*, LV-LVII, fasc. 1, 1987-1989, p. 319-327.
Articles dans *Encyclopédie de l'Islam*, 2^e édition, 1954 et suiv.

DOMINIQUE ET JANINE SOURDEL

Ouvrages

Index analytique de l'œuvre de Jean Sauvaget, *Mémorial Sauvaget*, t. II, 1 vol., XXVII + 284 p., Damas, PIFD, 1961.

La civilisation de l'Islam classique, 1 vol., 676 p., 224 pl. ht. en couleur, 65 fig. et 4 cartes, coll. « Les Grandes Civilisations », Paris, Arthaud, 1968, 2ᵉ éd. 1976, 2ᵉ éd. révisée, 1983.

Participation à des ouvrages collectifs

Editeurs (en collaboration avec George Makdisi) du Iᵉʳ Colloque international de La Napoule, *L'enseignement en Islam et en Occident au Moyen Age*, 1 vol., XII + 314 p., Paris, Geuthner, 1977 ; du IIᵉ Colloque international de La Napoule, *La notion d'autorité au Moyen Age, Islam, Byzance, Occident*, 1 vol., 286 p., Paris, PUF, 1982 ; du IIIᵉ Colloque « Penn-Paris-Dumbarton Oaks », *Prédication et propagande au Moyen Age, Islam, Byzance, Occident*, 1 vol., 279 p., Paris, PUF, 1983 ; du IVᵉ Colloque « Penn-Paris-Dumbarton Oaks », *La notion de liberté au Moyen Age*, 1 vol., 287 p., Paris, Les Belles Lettres, 1985.

Co-direction du *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, t. XVII, Le Caire, IFAO, 1982, et t. XVIII, 1991.

Articles

Notes d'épigraphie et de topographie sur la Syrie du Nord, dans *Annales archéologiques de Syrie*, III, 1953, p. 81-105.

Nouveaux documents sur l'histoire religieuse et sociale de Damas au Moyen Age, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXII, 1964, p. 1-25.

A propos des documents de la Grande Mosquée de Damas conservés à Istanbul. Résultats de la seconde enquête, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIII, 1965, p. 73-85.

Publication de l'étude posthume de Jean Sauvaget, Introduction à l'étude de la céramique musulmane, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXIII, 1965, p. 1-72 (postface p. 69-72).

Trois actes de vente damascains du début du IVᵉ-Xᵉ siècle, dans *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, VIII/2, 1965, p. 164-185.

Publication de l'étude posthume de Jean Sauvaget, Châteaux umayyades de Syrie, dans *Revue des Etudes islamiques*, XXXV, 1967, p. 1-52 (postface p. 50-52).

Biens fonciers constitués waqf en Syrie fatimide pour une famille de *šarīf* damascains, dans *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, 1972, p. 269-296 + 7 pl. ht.

Un acte de vente arabe portant sur la région d'Ahlat au VIIᵉ-XIIIᵉ siècle, dans *Tarih Araştırmaları Dergisi*, VI, 1968 (1972), p. 51-60 + 7 pl. ht.

Un sanctuaire chiite de l'ancienne Balis, dans *Mélanges d'islamologie (volume dédié à la mémoire de Armand Abel)*, Bruxelles, 1974, p. 247-253 + 2 pl. ht.

Un texte d'invocations en faveur de deux princes ayyubides, dans *Near Eastern Numismatics, Iconography, Epigraphy and History (Studies in Honor of George C. Miles)*, Beyrouth, 1974, p. 347-352.

Une collection islamique ancienne de textes de prières, dans *Recherches d'islamologie (Mélanges Anawati-Gardet)*, Louvain, 1978, p. 285-294.

A propos des monuments de Sangbast, dans *Iran (Mélanges Basil Gray)*, XVII, 1979, p. 109-114 et 1 pl. ht.

L'évolution de la ville islamique, dans *Encyclopaedia Universalis, Supplément*, 1980, p. 1491-1496.

Islam, la civilisation du palais, dans *Encyclopaedia Universalis, Supplément*, 1980, p. 819-823.

Nouvelle lettre d'un docteur hanbalite de Damas à l'époque ayyoubide, dans *Journal of the Near Eastern Studies (Mélanges N. Abbott)*, 40, 1981, p. 265-276.

Dossiers pour un Corpus des inscriptions arabes de Damas, I, dans *Revue des Etudes islamiques*, XLVII, 1979 (1983), p. 119-172.

Une collection médiévale de certificats de pèlerinage à la Mekke, conservés à Istanbul, dans *Etudes médiévales et patrimoine turc*, Paris, CNRS, 1983, p. 167-273.

Les villes portuaires de l'Orient méditerranéen pendant le haut Moyen Age d'après les sources arabes, dans *Colloque sur la cité portuaire médiévale*, 1985.

Deux actes de vente damascains du bas Moyen Age, dans *Studies in Islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon*, Jérusalem-Leyde, 1986, p. 517-525.

Un acte notarié d'époque bouride : pouvoir politique et propriété immobilière dans un quartier de Damas au XIIᵉ siècle (en collaboration avec J.-M. Mouton), dans *Annales islamologiques*, XXIX, 1995, p. 59-74.

فهرس المداخل

محتويات المعجم



Hitec Book Conception Printing Press - Tel/Fax: +961 1 900875
E-mail: hitecbook@gmail.com - Beirut, Lebanon, 2009